مغني المريد

الجامع لشروح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب
« ١١١٥ - ١٢٠٦ هـ »

تأليف
عبد المنعم ابراهيم

المجلد الأول

الناشر
مكتبة نزار مصطفى الباز

الطَّبعَةُ الأُولَى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

مكتبة

نزار مُصطفى الباز

المملكة العربية السعودية
مكة المكرمة: الشامية - المكتبة ت ٥٧٤٥٠٤٤/٥٧٤٩٠٢٢
المستودع: ٥٣٧٢٣٧٤ ص.ب: ٣٠١٩
الرياض: شارع السويدي العام المتقاطع مع شارع
كعب بن زهير - خلف أسواق الراجحي ص.ب: ٦٦٩٣٠
المكتبة: ٤٢٤٠٣٥٣ المستودع: ٤٢١٩١١١ الرمز البريدي ١١٥٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذلِّ وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض لا إله إلا هو ولا خالق غيره ولا ربَّ سواه، المستحق لجميع أنواع العبادة ولذا قضى ألا يعبد إلا إياه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(1).

الحمد لله الذى رضى الإسلام للمؤمنين ديناً، ونصب الأدلة على صحته وبيَّنها تبييناً: وغرس التوحيد فى قلوبهم فأثمرت بإخلاصها فنوناً، وأعانهم على طاعته هداية منه وكفى بربك هادياً ومعيناً.

الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىٌّ من الذلِّ وكبره تكبيراً.

الحمد لله العلى العظيم، الحليم، الكريم، السميع، البصير، اللطيف، الخبير، ذى النعم السوابغ، والفضل الواسع، والحجج البوالغ، تعالى ربنا عن صفات المحدودين وتقدس عن شَبه المخلوقين، وتنزه عن مقالة المعطلين، علا ربنا فكان فوق سبع سماواته عالياً، ثم على عرشه استوى، يعلم السرّ وأخفى، ويسمع الكلام والنجوى، لا يخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، ولا فى لجج البحار ولا فى الهواء.

الحمد لله الذى أنزل القرآن بعلمه وأنشأ خلق الإنسان من تراب بيده، ثم كونه بكلمته، واصطفى رسوله إبراهيم - عليه السلام - بخلته، ونادى كليمه موسى صلوات الله عليه فقربه نجيا وكلّمه تكليما، وأمر نبيه نوحاً - صلوات الله عليه - بصنعة الفلك على عينه، وخبرنا أن أنثى لاتحمل ولا تضع إلا بعلمه كما أعلمنا أن كلَّ شىء هالك إلا وجهه، وحذَّر عباده نفسه التى لا تشبه أنفس المخلوقين.

الحمد لله الذى نصب الكائنات على ربوبيته ووحدانيته حججاً، وحجب العقول والأبصار أن تجد إلى تكييفه منهجاً.

---

(1) الحج الآيه (62).

وأشهد أن لا إله إلا الله إلهـاً واحداً فردًا صمداً قاهراً قادرًا رؤفـاً رحيماً لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، ولا شريكًا في مـلكه، ولا سميٌ له ولا كفؤ له، العدل في قضائه، الحـليم في فعاله، القائم بـين خلقه بالقسط، الممتن عـلى المؤمنين بفـضله، بـذل لهم الإحسـان، وزيَّن في قـلوبهـم الإيمان، وكرّه إليـهم الكـفر والفسوق والعصيان، وأنزل على نبيِّه الفـرقان، علم القرآن، فتمت نعماء ربنا - جل وعلا - وعظمت آلاؤه على المطيعين لـه فربنا - جلّ ثناؤه - المعبود موجودًا والمحمود ممجدًا ولا يحصى أحدٌ ثناءً عليه بـل هو كما أثني على نفسه وفوق ما أثنـى عليه خـلقه، شهـادة من أصبح قـلبه بالإيمـان بالله، وأسـمائه وصفـاته مبتهجًا، ولم يدع إلى شبه الجاحدين المعطلين معرجًا.

وأشهد أن محـمدًا عبده ورسوله ﷺ المصـطفى ونبيُّه المرتـضى، اختاره الله لرسالته، ومستودع أمانته، وجعله خـاتم النبيين، وخير خلق ربِّ العالمين، أرسله بالهدى ودين الحق لـيظهره على كلِّ دين، فهدى بـه إلى أقوم الطرق وأوضح السُبل وفرض على العباد طاعته ومحبتـه وتعزيره وتوقيره والقيام بحقوقه، وسدّ إلى جنته جميع الطرق فلم يُفتح لأحد إلا من طريقه فشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عـنه وزره، وجعل الـذلة والصغـار على من خـالف أمره، بعـثه بالكتاب المسطور في اللوح المحفوظ فبلّغ عن الله - عز وجل - حقائق الرسالة، وأنْقَذ بـه أمته من الردى والـضلالة، ففتح بـرسالته أعيـنًا عميا وآذانـا صمًا، وقلـوبًا غـلفاً، حـيث دعا إلـى الله علـى بصيـرة، وسار في الأمـة - بالـعدل والإحسان والخُلق العظيم - أحسن سـيرة، إلى أن أشرقت الأرض برسالته بعد ظلمـاتها، وتألفت الـقلوب بها بعـد شتاتها، وسـارت دعوته سير الشـمس في الأقطار، وبلغ دينه الـقيم ما بلغ الليل والنهار، فبـلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة وكشف الـغمة وجاهد في الله حق جهاده، وعبـد الله حتى قبضه إلى كرامته، ومنزلـة أهل ولايته، الذين رضى أعمالهم، حمـيدًا رضيًا سعيدًا، سبق له منه السعادة في اللوح المحفوظ، والإمام المبين قبل أن ينشىء الله نسمته فعلـيه صلوات الله وسـلامه حيًا مـحمودًا وميـتا مفقـودًا أفضل صلاة وأنمـاها وأزكاها وأطيـبها صلاة تملأ أقطـار الأرض والسماء وجزاه الله عن أمـته أفضل الجزاء وأبقى في الـعالمين محبته، وفي المـقربين مودته، وجعل في أعـلى عليين

درجته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين .

أما بعد

فإن الله سبحانه غرس شجرة محبته ومعرفته وتوحيده في قلوب من اختارهم لربوبيته واختصهم بنعمته وفضَّلهم على سائر خليقته فهي ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(١) فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في القلب وفروعها الكلم الطيب والعمل الصالح في السماء فلاتزال هذه الشجرة تخرج ثمرها كلَّ وقت بإذن ربها من طيب القول وصالح العمل، من ذلك:

هذا الكتاب، للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، أحسن الله له المآب، وأجزل له الثواب، وفتح لدعوته الأبواب. فهو قرة عيون دعاة التوحيد، الذين سلكوا النهج السديد. فهدوا إلى القول المفيد. والعمل الرشيد. حيث أرشدهم الكتاب إلى أول واجب من الله على عبيده، وهو معرفته - عز وجل - بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وتوحيده بذلك، ومعرفة ما يناقضه أو بعضه من الشرك والتعطيل والتشبيه واجتناب ذلك، والإيمان بالقدر خيره وشره وتوحيد الطريق إلى الله - عز وجل - بمتابعة كتابه وسنة خير خلقه، ومعرفة ما يناقض ذلك من البدع المضلة، والأهواء المذلة، ، فلذا خلق الله الخلق وأخذ عليهم الميثاق، وخلق الدنيا والآخرة والجنة والنار، وبه حقت الحاقة ووقعت الواقعة وفي شأنه تنصب الموازين.

لذلك ولغيره كان «كتاب التوحيد» من الكتب التي أقبل عليها العلماء مشمرين عن سواعد الجد، مجتهدين في إخراجه في صورة أجد. فكم من باسط له ومختصر، ومنافح عنه ومنتصر، حتى كثر بحمد الله شروحه، وعمت بفضل الله فتوحه. فاشتاقت الطلبة والإخوان إلى جمع لهذه الشروح على شرح واحد، يفي بجميع المقاصد. ذلك لأن أغلبهم أصبح أمام هذه الشروح مشتت وشارد، فأحببت أن أسعفهم بمرادهم على حسب طاقتي وقلة بضاعتي، وعدمٍ أهليتي، يدفعني إلى ذلك ما دفع سلفي وقدوتي، وهو قوله ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»(٢)، فسلكت في الشرح

(١) إبراهيم: ٢٤، ٢٥

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٧/ ٢١ ٢٢ النوى) وأحمد (٢/ ٢٥٢)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (٢٩٤٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٢٨٨)، وابن ماجة (٢٢٥).

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

وأنظر «جامع العلوم والحكم» (٣٦ بتخريجنا).

مسلكهم واتبعت طريقتهم في التنبيه على بعض ما تضمنه الكتاب من بعض أنواع التوحيد وهو المقصود بالأصالة هنا ولم أُخلِه أيضًا من التنبيه على بعض ما يتمضنه من غير ذلك.

إلا أن الأوْلى بنا هو بيان ما وضع لأجله، الكتاب لعموم الضرر والفساد الواقع لمخالفة ما فيه من العباد، كذا قال الشيخ سليمان، وتبعه الشيخ عبدالرحمن. وكذلك من المعاصرين، الشيخ ابن عثيمين، فتجدهم في مسائل التوحيد مُطوِّلين، وعن غيره من المسائل غير معرضين، سوآء كان من الفروع أو من أصول الدين. - فبدأت بما بدأوا به من شرح الترجمة والتبويب، وعلاقة ذلك بالتوحيد وبالباب البعيد أو القريب، مراعيًا في ذلك البدأ بالكبير منهم ثم الذي يليه على الترتيب، وقدأذكر كلامهم على طوله وأختصر وأقرِّب إذا لزم الاختصار والتقريب، ثم أختم بكلامي إن كان لي في الكلام نصيب.

وميزت بين كلامي وكلام أهل العلم بقولي: [قال الفقير] هذا إذا كان الكلام على رأس مسألة أو فائدة أما إذا كان تعليقاً أو استدراكاً فى وسط الكلام ويتعذر كتابة [قال الفقير] فأكتب [قلت] فإن كان (قلت) لغيرى ذكرتُ بعده [أي فلان] اسم العالم أو الشيخ الذى قال هذا الكلام حتى لا يخلط القارئ بين قلت المنسوب إلى العلماء والمنسوبة إليَّ. هذا إذا تسنى التمييز بـ [قلت] أو [قال الفقير] أما إذا لم يتسن فيتميز كلامى بعدم نسبته لأحد من أهل العلم.

ثم أكرُ على شرح الأدلة التي أوردها المصنف من الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة فإن كان الدليل من القرآن التزمت في تفسيري الطرق الحسان كما قررها مشايخ الإسلام بأن نبدأ التفسير بالقرآن ثم بالسنة ثم بفهم سلف الأمة حتى يتبين المطلوب خير بيان، مستعينًا في ذلك بأمهات التفسير.

من لدن «الطبري» «وابن أبي حاتم» إلى «ابن كثير»، حتى «أضواء البيان» وبين ذلك من كتب تفسيرالقرآن الكثير. ولم أنس أن أذكر ما أورده شراح كتاب التوحيد، من لدن «تيسيرالعزيزالحميد»، إلى آخر ما وقفت عليه من شروح. ككتاب «الجديد». وإن كان الدليل من السنة جمعت شروحه من الكتب التي عنت بشرح الأمهات، وكذلك ما تقدم ذكره من كتب شرّاح الكتاب الثقات، على الترتيب الذي فات، أوغيرهم ممن أفردوا لبعض مسائل الكتاب بحوثًا ومصنفات. كالشيخ ابن باز والألباني ومقبل بن هادي، وغيرهم ممن كان عليهم في هذا المجموع - بعد الله - اعتمادي. هذا وقد أكرر شرح الحديث الواحد

من كلام العلماء جميعاً وإن كان متقارباً، أو متشابهاً أحياناً أو غالباً. ضمانا للفهم الصحيح السلفي المسلسل إلى علماء اليوم من التحريف، أو التبديل أو غير ذلك وفى نهاية كل باب، نأتى بشرح مسائل الباب. من كلام الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، إلا ما كان من قولى فى شرح بعض هذه المسائل فأصدره بقولى: [قلت] وإني إن جردت ذكرهم - أي الشراح - من شريف ما لهم من الألقاب طلبًا للاختصار، ومعلوم: أنَّ الأصل إنزال كلٍّ منزلته، فلهم ما لزمهم من شريف ما لهم من الألقاب العلمية والرتب العليِّة، لكن لم ألتزم ذكرها - غالباً - للإختصار ومقامهم فى قلوبنا يُجلي عن الوصف وهذه حقيقة إنزالهم منزلتهم.

وقد التزمتُ - جهدي - ما هو أنفع لنا ولهم، وهو: الدعاء لهم رقْمًا أو نطقًا، فيما أسوقه من كلامي أمّا في حال النقل لكلام غيري فاتبع الأصل المنقول منه، فإن كان فيه ذلك كتبتُه، وإلاَّ اكتفيت بالنطق به محافظة على الأصل.

فجزاهم الله عن الأمة والدين أحسن الجزاء وأوفاه ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين.

وكذلك فعلت في تلك الفوائد والمسائل التى يستنبطها المصنِّف مما أورده من حجج ودلائل ليقرّب للطالب الثمرة، وقدمت بين يدىٍّ ذلك كله بالتعريف بمبادئ هذا العلم العشرة، وجعلت لكل مبدأ فقرة، لتتأصل عند القارئ الفكرة. ولم يفوتنى التعريف بصاحب الكتاب وبعض شراحه، وبالكتاب على الجملة. ولما كان هذا المجموع مغنياً لكلٍّ مريد، لشرح أيٍّ مسئلة فى كتاب التوحيد، سميته: -

مغنى المريد، شرح كتاب التوحيد.

وهو لهذا ولغيره روحي ومن مشاريع عمري.

وجملته (تقييدات كما تقدم) ليس لي فيها من عمل سوى: الجمع، ثم الترتيب، ثم التعبير ثم التلخيص والتذييل وهي أدنى مراتب التأليف، أمّاَ أن تكون تأليفاً على نَفَس المتقدمين، بالإبداع، فهذا لطراز شَغَرَ منهم الزّمان، وطُوِي بساطه عنَا منذ أزمان، ولاحول ولا قوة إلاّ بالله العزيز الحكيم(١) وعلى العِلاّت فآمل أن يكون محتواها مشوقاً معلمًا يجلو عوارض الظُلم،

(١) التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل ص١١ وما بين القوسين زيادة.

ويكسفُ العصبية على السُّنن، لما هنا من نُقول مستخرجة من معدنها موثقة على أصولها، عن أهل الفضل والفضيلة، والرُّتب الرفيعة، نجوم الهدى، رُجوم العدَى، أمُناء الله على حفظ دينه وسنة نبيه، الذين هم عُمَدٌ في هذا الفن، منَ مؤلفاتهمَ الجامعة في «التوحيد» وعلومه، مما أغنوا به الناظر وشرحوا به الخواطر، وعقدوا للعلم الأواصر، فجزاهم الله عن حسن صنيعهم جزاء شاكر(1).

جَمَال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم   بعد الممات جمالُ الكُتبِ والسِّيرِ

فيا أيها القارئ له والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك، وهذا فهمه وعقله معروض عليك، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه ولك ثمرته وعليه عائدته، فإن عدم منك حمداًوشكراً، فلا يعدم منك مغفرة وعذراً وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح. وقد:

استأثر الله بالثناء وبالحمد   وولى الملامة الرجلا
وإن تجد عيبًا فسُدَّ الخللا   فجلَّ من لا عيب فيه وعلا(2)

والله المسئول أن يجعله لوجهه خالصًا، وينفع به مؤلفه وقارئه، وكاتبه وينفع به في الدنيا والآخرة، إنه سميع الدعاء، وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل (*).

عبدالمنعم إبراهيم

---

(1) انظر النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح للطاهر بن عاشور :ص5 نقلاً عن كتاب التأصيل بكر أبو زيد ص20 مع حذف كلمة الحديث ووضع مكانها التوحيد.

(2) الطب للذهبي : ص37 بتخريجنا.

(*) وقد استفدنا فى مقدمتنا هذه من مقدمات الكتب الآتية [شفاء العليل / لابن القيم، وطريق الهجرتين له، وتيسير العزيز الحميد، ومعارج القبول، وكتاب التوحيد لابن خزيمة].

خطة عملنا فى / مغنى المريد
شـــرح كتـــاب التوحيـــد

أولاً: وضعنا مقدمة عامة للكتاب.

ثانياً: المبادئ العشرة لعلم التوحيد.

ثالثاً: أهمية كتاب التوحيد - لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وذكر منهجة فى تصنيف الكتاب.

رابعاً: ترجمة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

خامساً: ذكر شروح كتاب التوحيد.

سادساً: تراجم مشاهير شراح كتاب التوحيد.

سابعاً: وضع متن كتاب التوحيد كاملاً قبل الشرح ليسهل حفظه على الطلاب وليكون كالفهرس المساعد على الوصول إلى أى مسألة من مسائل الكتاب.

ثامناً نظام الشرح فى الكتاب كما يلى: -

(أ) مستوى أول، وفيه متن الكتاب.

(ب) مستوى ثانى، وفيه الشرح الجامع.

(جـ) مستوى ثالث، وفيه تخريجات المتن والشرح.

تاسعاً: الشرح، جاء بالترتيب الآتى:

(١) مناسبة الباب لما قبله، أو بالنسبة للأبواب السابقة له (خاصة).

(٢) مناسبة الباب لكتاب التوحيد (عامة). وربما قدمنا بعض هذه العناصر الثلاثة على بعض لمصلحة شرح الباب.

(٣) شرح الترجمة والتبويب وماذا أراد المصنف بهذا الباب.

(٤) إذا كان الباب مُصَدَّرا بآية قرآنية، أو جاءت بعد ذلك فإنه يأتى تفسيرها على الصفة الآتية: -

أ - علاقة الآية بالباب - وعلاقتها بكتاب التوحيد عامة.

ب - إعراب الآية.

جـ - تفسير الآية، على منهج المفسرين المعروف (بالقرآن - ثم السنة - ثم الصحابة - ثم أقوال التابعين.

د - تفسير الآية بأقوال أهل التفسير، ثم شراح كتاب التوحيد.

هـ - ترتيب أقوال أهل التفسير، حسب الأقدم، فيكون الترتيب كالآتى:
- ابن جرير - الجصاص - البغوى - الزمخشرى مع الاحتراز من بدعته ومخالفته لأهل السنة واعتزاله - ابن الجوزى مع التحذير من تفويضه وإضطرو به فى الأسماء والصفات - الفخر الرازى مع التحزير أيضاً من تأويله وأشعريته - القرطبى مع التنبيه على أشعريته - ابن كثير - الشوكانى - ناصر السعدى - الشنقيطى - ظلال القرآن(*) مع التنبيه على ما يُفهم منه التأويل أو الخطأ فى الدليل لا المدلول أحياناً - الإعراب المعاصر لمحيى الدين درويش مع ملاحظة تقديم قوله فى الإعراب على كل المفسرين معتبرين فى ذلك والتدرج فى فهم الآية فبمعرفة الإعراب نعلم ما علمه الصحابة أول وهلة من الآية ثم علموه بما معهم من قرآن وبما نزل بعد ذلك ثم علموه بقول النبى - ﷺ.

وربما أجمع أقوال المفسرين فى قولٍ، فإن زاد أحدهم أضفنا الزيادة.

عاشراً: شرح أحاديث المتن:

(١) النظر فى الأحاديث من حيث الصحة والضعف وجمع الطرق لذلك وغالباً من نضعه من كلام سليمان آل الشيخ وإلا فمن كلامنا إن لم يكن له كلام.

(٢) مناسبة الحديث للباب والكتاب.

(٣) وضعنا شرحنا للحديث من كلام أهل العلم والشرّاح كالآتى:
النووى - ابن حجر - تحفة الأحوذى - عون المعبود - ومعالم السنن - سليمان آل الشيخ/ **«تيسير العزيز»** - حامد بن محمد بن حسن/ **«فتح الله الحميد المجيد»** - عبد الرحمن آل الشيخ / **«فتح المجيد»** - **«وقرة عيون الموحدين»** - ناصر السعدى / **«القول السديد»** - ابن باز/ **«التعليق المفيد»** - ابن عثيمين / **«القول المفيد»** - عبد الله

(*) راجع مقدمة كتابنا (فتح ذى الحلال فى تخريج أحاديث الظلال) وخاصة فصل (هل فى ظلال القران كتاب تفسير؟).

ابن جار الله / «**الجامع الفريد**» - محمد القرعاوى/ «**الجديد**» - ياسر برهامى / «**فضل الله الغنى الحميد**».

(٤) فوائد الحديث إن وجد للشراح فوائد.

الحادى عشر: وضع مسائل الباب وشرحها فى نهاية كل باب، وغالباً ما تكون من القول المفيد، ثم تعليقى عليه.

الثانى عشر : قد يحدث تقديم وتأخير فى هذا الترتيب السابق؛ وذلك لما تقتضيه مصلحة الشرح، فعند ذلك أراعى تقديم الأهم فالمهم، والأنسب فالأنسب.

الثالث عشر : التخريج :

أ - قمنا بتخريج أحاديث متن كتاب التوحيد وعزوناها لمصادرها.

ب - غالباً ما نحكم على أحاديث المتن،ونظهر ما فيها من كلام أهل العلم من جرح أو تعديل.

جـ - خرجنا أحاديث الشرح تخريج مختصر، وحكمنا على بعضها بالصحة أو الضعف.

د - خرجنا آيات المتن والشرح.

هـ - خرجنا أو عزونا كلام أهل العلم من الشراح إلى مصادرها فى كتبهم.

و - وربما استفدنا من بعض حواشى شروح كتاب التوحيد.

تنبيه: وضعنا ترقيم «تفسير ابن أبى حاتم» معتمدين على النسخة المطبوعة، وما لم نرقمه وعزوناه لتفسير ابن أبى حاتم فإنه من نسختنا المحققة الجارى طبعها ـ إن شاء الله تعالى ـ.

الرابع عشر: مصادر ومراجع الكتاب.

الخامس عشر: فهارس الكتاب

فهارس موضوعات الكتاب

مقدمات لكتاب «مغني المريد شرح كتاب التوحيد» وفيها:

* مبادئ علم التوحيد
* أهمية كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه في الكتاب.
* ترجمة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.
* شروح كتاب التوحيد.
* بعض تراجم الشراح.

* مبادئ علم التوحيد

باعتبار «علم التوحيد» فناً مستقلاً ، فلابد من معرفة مبادئه العشرة التي ينبغي لقاصد كلِّ فنٍ أن يعرفها ، لتَصوُّرِ ذلك الفَنِّ قبل الشروع فيه.

وقد جمعها الصَّبان نَظْمًا بِقَوْله[1]:

إنَّ مَبَادئَ كَلِّ علم عَشَرَة ... الحَدّ والموضوع ثم الثَّمَرَةْ

ونِسْبَة وفضله والواضع ... والاسم الاستمداد حكم الشارع

مسائل والبعض بالبعض اكتفى ... ومَنْ دَرَى الجميع حاز الشرفا

زاد بعضهم: المبدأ الحادى عشروهو: شرفه وعليه فهذه مبادىء «علم التوحيد» هى:

المبدأ الأول من مبادىء علم التوحيد

حده: أى تعريفه أو معناه

علم التوحيد له معنيان.

١) معنى إضافى: فعلم مضاف والتوحيد مضاف إليه.

والعلم: هو إدراك الشىء على ما هو عليه فى الواقع إدراكاً جازماً وهو بخلاف الجهل[2].

أما التوحيد: مصدر وحد يوحد توحيدًا، ومعنى وحدت الله أى اعتقدته واحدًا وسيأتى مزيد تفصيل عند شرح قول المصنف (كتاب التوحيد).

٢) علم التوحيد اللقبى: وهو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية من الأدلة الثابتة المرضية (صريح المعقول) (وصحيح المنقول).

وسيأتى الكلام على هذه العقائد فى المبدأ الثانى.

مسئلة

هل الإيمان هو التوحيد:

قال ابن عثيمين[3]:

---

(١) نقلاً عن كتاب التأصيل للشيخ بكر أبو زيد ص٣٧.

(٢) نقلاً من كتابنا «حاشية على شرح الورقات».

(٣) «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين» ١/ ٢٦.

التوحيد: إفراد الله - عزوجل - بما يختص به ويجب له، والإيمان: هو «التصديق المتضمن للقبول والإذعان».

وبينهما عموم وخصوص فكل موحِّد مؤمن، وكل مؤمن موحد بالمعنى العام.

ولكن أحياناً يكون التوحيد أخص من الإيمان، والإيمان أخص من التوحيد، والله أعلم.

المبدأ الثانى من مبادىء علم التوحيد:

موضوعه

الكلام على ذات الله من حيث ما يتصف به وما يتنزه عنه ومن حيث ما يجب له.

والكلام على ذات الرسول ﷺ من حيث ما يتصف به وما يتنزه عنه ومن حيث ما يجب له.

والسمعيات وهى الأخبار التى لا نعرفها إلا عن طريق السمع كذكر الملائكة والجنة والنار.

المبدأ الثالث من مبادىء علم التوحيد «ثمرته».

أهمية علم التوحيد والهدف من تعلمه وشرحه

* وسنتكلم بين يدى هذا المبدأ الثالث - ثمرته - عن أهمية هذا العلم، والهدف من تعلمه؛ ذلك لأننا وجدنا أن هذا أنسب المواضع لهذا الفصل الذى هو بمثابة تجديد النية، أو تصحيح النية حتى نستمر فى هذا العمل ونثاب عليه[1] فلانستمر إلا بنية خالصة لله ولانصبر على هذا العمل إلا بنية، ولانؤجر ونثاب ولايصح منا هذا العمل إلا بنية، وهذا ما فهمه العلماء من قول النبى ﷺ الثابت فى الصحيح «**إنما الأعمال بالنيات**»[2] فوجود العمل بنية، فلا يوجد صبر على عمل ولاصبر على علم إلا بنية، ولايصح ولا يقبل إلا بنية صحيحة، ولايستمر إلا بنية طيبة، ولايأتى هذا العمل ثماره إلا بنية طيبة كما تقدم فى شجرة التوحيد: أنها تؤتى ثمارها كل حين بإذن ربها.

---

(١) كان هذا الكلام فى أوّل المحاضرات فى شرح الكتاب.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩١)، ومسلم (٣/ ٥٣ ـ الإمارة) وانظر «رياض الصالحين» (١ـ بتخريجنا).

ـ ولأن قضية التوحيد قضية دائمة فى حياة البشرية

فقضية لا إلـه إلا الله قضية دائمة فى حيـاة البشرية. . لايدعى إليـها الكفار وحدهم لكى يؤمنوا، ولاالمشركون وحدهم لـيصححوا اعتقادهم، ولكن يدعى إليها المؤمنون بها كذلك ويذكرون بها، لـكى تظل حية فى قلوبهم، راسخة فى ضمائرهم، عاملة فى واقع حياتهـم لايفترون عنها، ولايغفلون عن مقتضياتها: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا**﴾(١).

ومن ثم جاء ﷺ وأُرسل إلينا بشرع مجيد يحقق هذا التوحيد، ويجدد لنا فى كلِّ وقت وفى كلِّ حين فى قلوبنا هذا الإيمان، فمثلاً:

نجد أنَّ الواجب الأوّل علي ولى الأمر تجاه ولده الـذى قارب النطق أن يلقنه لا إله إلا الله. **قال ابن القيم**(٢): فإذا كان وقت نطقهم فـليلقنوا لا إله إلا الله وليكن أوّل مـا يقرع مسامعهـم معرفةُ الله سبحـانه وتوحيده وإنه سبـحانه فوق عرشه ينظر إليهم ويسمع كلامهم وهو معهم أينما كانوا.

ونجد أنَّ اليـوم يبدأ بآذان الفـجر والآذان كله توحـيد وأخرج الطبـرانى عن عكرمة فى قوله ـ عزّوجل ـ ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ**﴾(٣). قال المؤذن: حين يقول لا إله إلا الله(٤).

وأيضاً بعد صلاة الفـجر تُعلن كلمةُ التوحيد من قـال دبر صلاة الصبح وهو ثان رجليه قبل أن يتكلم: «**لا إله إلا الله وحده لاشريك له، لـه الملك وله الحمد يحـيِى ويميت وهـو على كل شـىء قدير، عشـر مرات كُتبَ لـه عشرُ حسـنات، ومُحى عنه عشـر سيئات، ورفع له عشر درجات، وكان يـومه ذلك فى حرز من كلِّ مكـروه وحرس من الشـيطان ولم يـنبغ لذنـب أن يدركه فى ذلـك اليومَ إلا الشرك بالله تعالى**»(٥).

---

(١) النساء: الآية (١٣٦) وانظر «مفاهيم ينبغى أن تصحح» (١٨، ١٩).

(٢) تحفة المودود (١٦٤).

(٣) فصلت: الآية (٣٣).

(٤) «الدعاء للطبرانى» (١٥٤٩).

(٥) **[ضعيف]** أخرجه الترمذى، والنسائى (٩٩٥٥) وقال الترمذى: حسن صحيح غريب قلت: وفيه شهر بن حوشب وهو ضعيف.
وانظر «الأذكار» (١٨٢ ـ بتخرينا).

وأيضاً دبر كلِّ صلاة لما أخرجه مسلم عـن بن الزبير - رضى الله عنهما - أنه كان يقول دُبَر كلِّ صـلاة حين يُسلِّم «**لا إله إلا الله وحده لاشريك لـه، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير، لاحول ولاقوّة إلا بالله، لا إله إلا الله ولانعبد إلا إياه، له النعمة ولـه الفضلُ وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخـلصين له الدين ولو كره الكافرون**»(١).

وأيضـاً فى أذكـار الصبـاح والمسـاء، ومنـها «**اللـهم أنـت ربـى لا إلـه إلا أنت..**»(٢). وهو فى الصحيـح وغيرها من الأذكار وأيضاً عند الـوضوء - يعنى بعـد الوضوء - فلـقد روى مسلـم عن عمر بـن الخطاب قال: قـال رسول الله ﷺ: «**من تـوضأ فقـال: أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لاشـريك له، وأشـهد أنَّ محمداً عبدُه ورسوله، فُتحت له أبواب الجنَّة الثمانية يدخُلُ من أيها شاء**»(٣).

وأيضاً عند استفتاح الصلاة لما ثبت فى الصحيح «... **اللهمَّ أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسى واعترفت بذنبى**» الحديث(٤).

وأيضاً فى أذكار الركـوع والسجود لما روى مسلم عن عائشـة قالت: تفقدت النـبى ﷺ ذات لـيلـة فتـجسـستُ فإذا هـو راكع أو سـاجد يـقول «**سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنتَ**»(٥).

وفى التشهد الثانى لما فى الصحيحين من حديث ابن مسعود فى التشهد وفيه «... **أشهد أن لا إله الله وأن محمداً عبده ورسوله**»(٦).

وفى الدعاء بعد الـتشهد الأخير لما رواه مسلم كـان رسول الله ﷺ يقول بين التشهد والـتسليم: «**اللـهم اغـفر لـى ما قدمـت وما أخـرت وما أسـررت وما**

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٥/ ٩١ - المساجد). وانظر «الأذكار» (١٦٧ - بتخريجنا).
(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٣٠٦) عن شداد بن أوس به.
وانظر «الأذكار للنووى» (١٨٦ - بتخريجنا).
(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (٣/ ١١٨ - الطهارة).
وانظر «الأذكار» (٧٤ - بتخريجنا).
(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (٣/ ٣٠٩ - صلاة المسافرين).
(٥) [صحيح] أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٣ - الصلاة).
وانظر «الأذكار للنووى» (١٣٨ - بتخريجنا).
(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٨٣١)، ومسلم (٤/ ١١٥ - الصلاة).
وانظر «الأذكار للنووى» (١٤٨ - بتخريجنا).

أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»(١).

وأيضاً ما يقال فى صبيحة يوم الجمعة

من قال صبيحة يوم الجمعة قبل صلاة الغداة استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»(٢) .

ما يقوله بعد صلاة المغرب فعن أنس وأيضا عن عمارة بن شبيب قال: قال رسول الله ﷺ **من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير على أثَرِ المغرب، بعث الله مسلحة يتكفلونه من الشيطان حتى يصبح وكتب الله له بها عَشر حسنات موجبات، ومحا عنه عشر سيئات موبقات، وكانت له بعدل عشر رقاب مؤمنات**(٣) رواه الترمذى **(ومسلحة) هم** الحرس.

وأيضاً فيما يقول إذا أراد النوم اضطجع على فراشه **«من قال حين يأوى إلى فراشه: استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله تعالى له ذنبه وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت عدد رمل عالج وإن كانت عدد أيام الدنيا»**(٤) رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى.

وفى الباب أيضاً **«اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب**

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٦/ ٦٠ ـ صلاة المسافرين) عن على ـ رضى الله عنه ـ.
وانظر «الأذكار للنووى (١٥٩ ـ بتخريجنا).

(٢) [ضعيف] أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص:٤٦) عن أنس ـ رضى الله عنه ـ بإسناد فيه ضعف.

وانظر «الأذكار للنووى» (١٠٩ ـ بتخريجنا).

(٣) [مرسل ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٥٣٤)، والنسائى (١٠٤٣).
قال الترمذى: حسن غريب ولانعرف لعمارة سماعاً من النبى ﷺ.
وانظر «الأذكار للنووى» (٢٣٠ ـ بتخريجنا).

(٤) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٣٩٧) عن أبى سعيد ـرضى الله عنه ـ بإسناد ضعيف قلت: فيه الوصافى عبيدالله بن الوليد، وعطية العوفى وكلاهما ضعيف (التقريب).
وانظر «الأذكار للنووى» (٢٥٠ ـ بتخريجنا).

كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفس وشر الشيطان وشركه، قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا اضطجعت»[1] أبو داود والترمذى بإسناد صحيح عن أبى هريرة.

وأيضاً ما يقول إذا استيقظ فى الليل وأراد النوم بعده

عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ **«من تعار من الليل فقال: لا إله الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ... »الحديث** البخارى[2].

وعن عائشة مرفوعًا **(إذا تعار من الليل قال: لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار)**[3] ابن السنى.

وأيضاً هناك أذكار تقال فى أوقات الشِدة وعند الأمور المهمة (من الهم) لتربينا على التوحيد لله عزّوجل.

فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب **«لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»**[4] رواه البخارى ومسلم.

وعن على قال «لَقنّى رسول الله ﷺ هؤلاء الكلمات، وأمرنى إن نزل بى كرب أو شدة أن أقولها: **لا إله إلا الله الكريم العظيم....»**[5] رواه ابن السنى.

وفيما يقول إذا خاف سلطانًا.

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذى (٣٣٩٢).
قال الترمذى: حسن صحيح.
وانظر «الأذكار» (١٩٣ ـ بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١١٥٤).
وانظر «الأذكار للنووى» (٢٦٤ ـ بتخريجنا).

(٣) أخرجه النسائى (١٠٧٠٠)، وابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (٧٦٢) وابن حبان فى «صحيحه» (٧/ ٤٢٤).
وانظر «الأذكار» (٢٦٦ ـ بتخريجنا).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣٤٥، ٦٣٤٦)، ومسلم (١٧/ ٤٧ ـ الذكر والدعاء).
وانظر «الأذكار» (٣١٥ ـ بتخريجنا).

(٥) [صحيح] أخرجه النسائى (١٠٤٦٥، ١٠٤٦٧)، وابن السنى (٣٤٣).
وانظر «الأذكار» (٣١٩ ـ بتخريجنا).

ثبت عن ابن عمر وقال رسول الله ﷺ **«إذا خفت سلطاناً أو غيره فقل: لا إله إلا الله الحليم الحكيم سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم، لا إله إلا أنت، عزّ جارك وجل ثناؤك»**[1] ابن السنى.

وهناك أذكار المرض والموت وما يتعلق بهما أيضاً فعن أبى سعيد وأبى هريرة عن الرسول ﷺ قال: **«من قال لا إله إلا الله والله أكبر صدّقه ربه فقال: لا إله إلا أنا وأنا أكبر، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده لاشريك له قال: يقول: لا إله إلا أنا وحدى لاشريك لى، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد قال: لا إله إلا أنا لى الملك ولى الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله قال لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلى بى»** وكان يقول **«من قالها فى مرضه ثم مات لم تطعمه النار»**[2].

وفى الباب من حديث معاذ مرفوعاً **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»**[3].

رواه أبوداود والحاكم وقال: صحيح الإسناد

وعن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً **«لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»**[4]مسلم والنسائى.

وهكذا نجد أنَّ الشرع الحنيف ما جاء إلا مذكراً معلناً مربياً عباده من أوّل خروجهم إلى هذه الدنيا إلى أن يخرجوا على هذه الكلمة، فكان لابد من تعلمها وما تقتضيه والعمل بها، فالكلمة وحدها لاتربى ولاتزكى ولاتدخل الجنة

---

(١) **[ضعيف]** أخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (٣٤٧) بإسناد ضعيف قلت: والحديث فيه محمد بن عبدالرحمن البيلمانى، وأبو عبدالرحمن البيلمانى كلاهما ضعيف «التقريب».

وانظر «الأذكار» (٣٢٩ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٤٣٠)، وابن ماجة (٣٧٩٤).

قال الترمذى: حسن غريب.

(٣) **[إسناده ضعيف]** أخرجه أبوداود (٣١١٦)، والحاكم (٣٥١) قلت: فيه صالح بن أبى غريب جهله ابن القطان وله شواهد بصحح متنه.

وانظر «الأذكار للنووى» (٣٨٦ ـ بتخريجنا) وانظر أيضاً كتابنا بغية الفائز الجامع لأحكام الجنائز.

(٤) **[صحيح]**أخرجه مسلم (٦/ ٢١٩ ـ الجنائز).

وانظر «الأذكار للنووى» (٣٨٧ ـ بتخريجنا) وانظر كتابتان بغية الفائز الجامع لأحكام الجنائز.

ولكنها من المعانى ما يجعل صاحبها من أهل الجنة وهذه المعانى والمقتضيات لابد من تعلمها حتى نعمل بها ونكون من أهلها بهذا وغيره يظهر أهمية علم التوحيد.

ومن أهمية هذا العلم وثمراته لتجديد الإيمان فى قلوبنا

لتجديد الإيمان فى قلوبنا ولكى لايَخْلَق ويقسو القلب ويغتر بطول الأمد. روى الطبرانى والحاكم بأسانيد صححها البعض أن النبى ﷺ قال: «**إن الإيمان ليخلَقُ فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب فجددوا إيمانكم**»(١).

وهذا الحديث يجيب على إشكال يدور فى ذهن البعض، هل ندرس التوحيد لأننا كفرة، فنتعلمه حتى ندخل فى الدين؟

هذا الإشكال أجاب عنه النبى ﷺ: «**إن الإيمان ليخلق يعنى لَيَبْلى كما يبلى الثوب**»(٢).

فربما يطول الأمد ويقسو القلب كما حدث في بنى إسرائيل يحصل فى هذه الأمة، كما أخبر النبى ﷺ فى الصحيح «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر**»(٣) والله ـ عزوجل ـ حذرنا من ذلك فقال: ﴿**وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾(٤).

فكما أن الإيمان يخلق فى جوف أحدنا والله يُحيى الأرض بعد موتها، فكذلك يُحيى الإيمان فى قلوبنا بعد أن طالت مدة الإلتزام وأصبحت أمور الإلتزام بالنسبة لنا أمور روتينية ليست عبادية.

فنحن نعتقد بأننا جميعاً مسلمون، ولكن هذا الإيمان يبلى ويخلق فلابد من تجديده فلهذا ندرس التوحيد.

وقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾(٥) الآية يدعوهم لزيادة وترسيخ وتثبيت الإيمان.

---

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (١/ ٤) وصححه

وذكره الهيثمى فى«المجمع» (١/ ٥٢) ونسبه للطبرانى فى «الكبير» وحسن إسناده.

(٢) تقدم فيما قبله.

(٣) سيأتى تخريجه فى«شرح الكتاب».

(٤) الحديد: الآية (١٦، ١٧). (٥) النساء: الآية (١٣٦).

ومن عوامل تجديدالإيمان بعد المواظبة على دروس الرحمن هو أن نسأل الرحمن سبحانه وتعالى أن يجدد لنا هذا الإيمان.

لذلك صدق من قال: «أن دروس الإيمان أو دروس التوحيد لاتنقطع»، أى ينبغى على الموّحد ألا يقطعها إن كان موحِّدًا.

لذلك لمّا قال النبى ﷺ «**فجددوا إيمانكم**»(١) سأله الصحابة قالوا «وكيف نجدد إيماننا؟» فى روايةَ أخرى فى المسند، قال: «**أكثروا من قول لا إله إلا الله**»(٢) وهو يوجه هذا الكلام لخير الناس وهم أعلم بمعناها ومقتضياتها وقاموا بها ووفوا بشروط هذه الكلمة، ومع ذلك لمّا علم الرسول ﷺ أثر هذه الكلمة على نفسوهم ونفوس كلٍّ من علم حقيقة الكلمة، ومقتضياتها،أمرهم بتجديد الإيمان بقول لا إله إلا الله علي النحو المتقدم فى المبدأ الماضى فكأن هذه الكلمة بمجرد ذكرها ممتثلين ستشعل فينا الإيمان، أو ربما تُجدد فينا ذكريات هذه الكلمة، ومعناها.

- ولأن السلف حرصوا على تعلم التوحيد

ومن عظيم ما يبين أهميته حرص السلف على تعلم التوحيد وتعليمه يحدوهم فى ذلك الأسوة الحسنة فى أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام حيث قال الله تعالى فى حقه ﴿**وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾(٣) وها هو لقمان الحكيم ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾(٤).

وحديث ابن عباس فى المسند وغيره.

«**يا غلام إنى أعلمك كلمات إحفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تُجاهك إذا سألت فأسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله**»(٥).

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة.

وذكره الهيثمى فى«المجمع» (١/ ٥٢)وجوّد إسناده.

(٣) البقرة: الآية (١٣٣).

(٤) لقمان: الآية (١٣).

(٥) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٩٣)، والترمذى (٢٥١٦). =

وعن عبادة بن الصامت كان يعلمّ ابنه فيقول فى مسائل القدر: «إنك لن تذوق حلاوة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطئك لم يكن ليصيبُك»(١).

والناظر فى كتبهم يرى ذلك جلياً.

قال البيهقى(٢): (الستون من شعب الإيمان)

وهو باب فى حقوق الأولاد والأهلين.. فإذا بلغ أحدهم حدَّ العقل عُرّف البارىء جلّ جلاله إليه بالدلائل التى توصله إلى معرفته من غير أن يسمعه من مقالات الملحدين شيئاً ويذكرهم له فى الجملة أحياناً ويحذره إياهم وينفره عنهم ويبغضهم إليه ما استطاع ويبدأ من الدلائل بالأقرب الأجلى ثم ما يليه وكذلك يفعل بالدلائل الدالة على نبوة نبينا ﷺ بهدية فيها إلى الأقرب الأوضح ثم الذى يليه وبسط الحليمى الكلام فى كلٍّ فصل من فصول هذا الباب من أراد الوقوف عليه رجع إليه إن شاء الله تعالى أ. هـ.

قال الغزالى:(٣)

فصل فى وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الإعتقاد

اعلم أن ما ذكرناه فى ترجمة العقيدة ينبغى أن يقدم إلى الصبى فى أول نشوه ليحفظه حفظاً ثم لايزال ينكشف له معناه فى كبره شيئاً فشيئاً، فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به، وذلك مما يحصل فى الصبى بغير برهان.

فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه فى أول نشوّه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المحض، نعم يكون الإعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع

= قال الترمذى: حسن صحيح.

وانظر «رياض الصالحين» (٦٣ ـ بتخريجنا) وانظر «جامع العلوم والحكم» بتخريجنا أيضاً

(١) الشريعة للآجرى ص٢١١.

(٢) «الشعب» (٦/٣٩٧).

(٣) «الإحياء» (١/١٢٣، ١٢٤).

من الضعف فى الإبتداء، على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه، فلابد من تقويته وإثباته فى نفس الصبى والعامى حتى يترسخ ولا يتزلزل، وليس الطريق فى تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام، بل يشتغل بتلاوة القرءان وتفسيره، وقراءةالحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلايزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم، وسيماهم وسماعهم وهيآتهم فى الخضوع لله عزوجل والخوف منه والإستكانة له، فيكون أول التلقين كإلقاء بذر فى الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء.

ثم قال:

ثم الصبى إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها، ولكنه يسلم فى الآخرة باعتقاد أهل الحق، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً.

وإن أراد أن يكون من سالكى طريق الآخرة، وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل، ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى، واشتغل بالرياضة والمجاهدة، انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهى يقذف فى قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده. عزوجل، إذ قال: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(١). وهو الجوهر النفيس الذى هو غاية إيمان الصدِّيقين والمقربين، وإليه الإشارة بالسر الذي وقر فى صدر أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه حيث فضَل به الخلق وانكشاف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن، في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى، وفى الاستضاءة بنور اليقين، وذلك كتفاوت الخلق فى أسرار الطب والفقه وسائر العلوم، إذ يختلف ذلك باختلاف

---

(١) العنكبوت: الآية (٦٩).

الاجتهاد واختلاف الفطرة فى الذكاء والفطنة وكما لاتنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه.

ـ ولأنه معقد النجاة فى الدنيا والآخرة

لأنه بالإقرار بالتوحيد والرسالة يثبت عقد الإسلام. وتعصم الدماء والأموال إلا بحقه. قال ﷺ «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله**»[(١)] رواه البخارى.

وقال ابن حجر[(٢)]: أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقرَّ أجريت عليه أحكام الدنيا، ولم يحكم عليه بالكفر إلا إن اقترن به فعلُ ما يدلُّ على كفره كالسجود لصنم.

فكل من أقرّ بالتوحيد والرسالة إقراراً إلتزامياً، قاصداً به الإجابة إلى الإيمان. فقد ثبت له عقد الإسلام، ووجب له بمقتضاه عصمة دمه وماله إلا بحق الإسلام، من ردة بعد الإسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قتل النفس التى حرّم الله إلا بالحق ونحوه. اهـ.

وأمَّا أنه معقد النجاة فى الآخرة، فلقوله ﷺ وقد سُئل: ما الموجبتان؟ فقال: «**من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار**»[(٣)] وقوله ﷺ «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[(٤)] رواه مسلم وقوله ﷺ لمعاذ: «**يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟** قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم قال: «**فإنَّ حق الله على العباد، أن يعبدوا الله ولايشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ـ عزوجل ـ ألا يُعذِّب من لايشرك به شيئاً**» قال: قلت: يارسول الله، أفلا أبشرُ الناس؟ قال: «**لاتبشرهم فيتكلوا**»[(٥)] رواه مسلم.

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٢٥)، ومسلم (١/ ٢١١ ـ الإيمان).
وانظر منار السبيل، «والسلبيل»، و«جامع العلوم والحكم»بتخريجاتنا.
(٢) «الفتح» (١/ ٤٦).
(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (٢/ ٩٢ ـ الإيمان).
وانظر «رياض الصالحين» (٤١٥ ـ بتخريجنا).
(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (١/ ٢٤٩ ـ الإيمان) عن عثمان ـ رضى الله عنه ـ.
(٥) سيأتى تخريجه.

قال النووي رحمه الله[1]: [إنَّ مذهب أهل السُّنَّة بأجمعهم، من السلف الصالح، وأهل الحديث والفقهاء؟ والمتكلمين علي مذهبهم من الأشعريين، أنَّ أهل الذنوب فى مشيئة الله تعالى، وأنَّ كلَّ من مات على الإيمان وتشَّهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين فإنّه يدخل الجنة، فإن كان تائباً أو سليماً من المعاصى دخل الجنة برحمة ربه، وحُرِّم على النار بالجملة، وإن كان هذا من المخلِّطين، بتضييع ما أوجب الله تعالى عليه، أو بفعل ما حُرِّم عليه، فهو في المشيئة، لايقطع فى أمره بتحريمه على النار، ولا باستحقاقه الجنَّة لأوّل وهلة، بل يقطع بأنه لابد من دخوله الجنة آخراً، وحاله قبل ذلك فى خطر المشيئة، إن شاء الله تعالى عذّبه بذنبه، وإن شاء عفا عنه بفضله] ا. هـ.

ـ ولأن التوحيد هو دعوة الرسل أجمعين

لقوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾**[2].

وقوله: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾**[3].

وقوله: **﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾**[4].

وقوله: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[5].

وقوله: ﷺ **«الأنبياء إخوة لعلاّت؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد»**[6].

---

(١) النووى شرح مسلم ١/ ١٩٦.
(٢) الأنبياء: الآية (٢٥). (٣) النحل: الآية (٣٦).
(٤) الأحقاف: الآية (٢١).
(٥) آل عمران: الآية (٦٤).
(٦) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٣٤٤٣)، ومسلم (٨/ ١٣٠ ـ الفضائل) عن أبى هريرة به.

فالدين واحد وهو التوحيد، والشرائع متفاوتة، لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(١)، وقد انعقد على هذا المعنى إجماع المسلمين.

قال ابن تيمية:(٢) وعبادة الله وحده هى أصل الدين، وهو التوحيد الذى بَعث الله به الرسل وأنزل به الكتب، فقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٥).

باقة من الثمرات والوعود الطيبات

إن الله وعد عباده المؤمنين بباقة من الوعود الطيبة فى الدنيا: كالحياة الطيبة والهداية والعزة والتمكين والنجاة، وولايته لهم ودفاعه عنهم ونصرهم على أعدائهم وعدم تسليط الكافرين عليهم، وهى وعود لاتزال مبذولة لكلٍّ من بقى على عهد الله وميثاقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وأنى لأدعوكم - إخوانى - إلى تأمل هذه المعانى من خلال هذه الآيات:-

- لقد وعد الله عباده بالحياة الطيبة فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾(٦).

- ووعدهم بالهداية فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٧).

- ووعدهم بالعزة والتمكين فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٨).

---

(١) المائدة: الآية (٤٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/٣٩٧) وذلك نقلاً من كتاب الثوابت والمتغيرات للدكتور صلاح الصاوى.

(٣) الزخرف: الآية (٤٥).

(٤) النحل: الآية (٣٦).

(٥) الأنبياء: الآية (٢٥).

(٦) النحل: الآية (٩٧).

(٧) الحج: الآية (٥٤).

(٨) المنافقون: الآية (٨).

وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(١).

ـ ووعدهم بنصرهم والدفاع عنهم وألا يجعل للكافرين سبيلا عليهم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾(٥).

هذا بعض ما وعد الله به عبادة المؤمنين فى الدنيا، أما ما وعدوا به فى الآخرة فحسبهم قول الله. جل وعلا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾(٧).

هذا بالاضافة إلى ما ذكرناه من ثمرات التوحيد فى باب: من حقق التوحيد دخل الجنه - بغير الحساب وباب فضل التوحيد.

وإذا كان واقع المسلمين فى هذه الأيام لم تتحقق فيه هذه الوعود فإنَّ مردَّ ذلك إلى ما أصاب إيمانهم من الضعف. وما شاب اعتقاد كثير منهم من الخلل، وإنّ استمرار هذا الضعف ينذر بكارثةٌ مروعةٌ وقد يخسر أصحابه ما وعد به

(١) النور: الآية (٥٥).
(٢) الحج: الآية (٣٨).
(٣) الروم: الآية (٤٧).
(٤) يونس: الآية (١٠٣).
(٥) النساء: الآية (١٤١).
(٦) يونس: (الآية) (٩).
(٧) الكهف: الآية (١٠٧، ١٠٨).

المؤمنون فى الآخرة كما خسروا ما وعدوا به فى الدنيا! ومن هنا كانت أهمية دراسة هذه المادة، والتحقق بها علماً وعملاً واستفاضة البلاغ بها بين الناس قاطبة، فإنَّ هذا هو الطريق لإستعادة الهويُة، والخروج من شعاب التيه التى منيت بها الأمة تحت خيمة التغريب والعلمانية ا.هـ[1].

المبدأ الرابع من مبادىء علم التوحيد

نسبته إلى غيره

هو من العلوم الشرعية بمثابة الرأس من الجسد فلا تنفع العلوم الشرعية صاحبها إلا إذا علم وعمل بعلم التوحيد.

المبدأ الخامس من مبادىء علم التوحيد

فضله:

وسيأتى مفصلاً فى شرح باب: «فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب» وهو على الإجمال.

١ـ أنه أكبر دعامة للرغبة فى الطاعة، قال بعض السلف: «إنى لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لايعلمها إلا هو».

٢ـ أنَّ الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون؛ كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾[2].

٣ـ كثرة ثواب التوحيد عند الله لقوله ﷺ فى حديث البطاقة «**مالت بهنَّ لا إلا إلا الله**»[3].

٤ـ تكفيره للذنوب لقوله تعالى فى الحديث القدس «**لأتيتك بقرابها مغفرة**»[4].

وسيأتى مزيدٌ من ذلك فى شرح الباب.

---

(١) «أصول الإيمان» للدكتور صلاح الصاوى.

(٢) الأنعام: الآية (٨٢).

(٣) سيأتى تخريجه فى موضعه فى شرح الكتاب.

(٤) [حسن بشواهد] أخرجه الترمذى (٣٥٤٠) عن أنس ـ رضى الله عنه ـ.
وانظر «رياض الصالحين» (٤٤٣ ـ بتخريجنا).

المبدأ السادس من مبادىء علم التوحيد

واضعه:

علماء التوحيد.

المبدأ السابع من مبادىء علم التوحيد (اسمه):

علم التوحيد وتقدم فى الحد والتعريف شرحه.

المبدأ الثامن من مبادىء علم التوحيد (استمداده):

الكتاب والسَّنة بفهم سلف الأمة وهو ما تقدم التعبير عنه بلفظ صحيح المنقول وصريح المعقول.

المبدأ التاسع من مبادىء علم التوحيد (حكمه):

فرض عين كما جاء فى حديث البراء فى المسند وغيره وفيه «**إنَّ العبد أوّل ما يسئل فى قبره من ربك وما دينك ومن الرجل الذى بعث فيكم**»(١).

ـ ولأنه أوّل ما بدأ به النبى ﷺ وأوّل ما يخاطب به الناس من أمور الدين.

قال البخارى: باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ.

وقول الله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾(٢).

وأسند عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى دُنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(٣).

قال ابن حجر(٤): ونقل ابن بطال عن أبى عبدالله بن النجار قال: التبويب يتعلَّق بالأية والحديث معاً، لأن الله تعالى أوحى إلى الأنبياء ثم إلى محمد ﷺ أنّ الأعمال بالنيات لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(٥).

---

(١) أخرجه أبوداود (٣٢١٢)، وابن ماجه (١٥٤٨).

وانظر كتابنا «بغية الفائز الجامع لأحكام الجنائز».

(٢) النساء: الآية (١٦٣) وانظر البخارى فى بدء الوحى (١/ ١٣ ـ الفتح).

(٣) تقدم تخريجه فى الحديث السابق.

(٤) الفتح (١/ ١٦، ١٧).

(٥) البينة: الآية (٥).

وقال أبوالعالية فى قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾[1]. قال وصاهم بالإخلاص فى عبادته.

وعن أبي عبدالملك اليونى قال: مناسبة الحديث للترجمة أنَّ بدء الوحى كان بالنية، لأنَّ الله تعالى فطر محمد على التوحيد وبغّض إليه الأوثان ووهب له أولّ أسباب النبوّة وهى الرؤيا الصالحة، فلما رأى ذلك أخلص إليه فى ذلك فكان يتعبد بغار حراء فقبل الله عمله وأتم له النعمة.

وقال المهلَّب ما محصله: قصد البخارى الإخبار عن حال النبى ﷺ فى حال منشئه وأنَّ الله بغّض إليه الأوثان وحبَّب إليه خلال الخير ولزوم الوحدة فراراً من قرناء السوء، فلما لزم ذلك أعطاه الله على قدر نيته ووهب له النبوّة كما يقال الفواتح عنوان الخواتم. أهـ ولخصّه بنحو من هذا القاضى أبوبكر ابن العربى.

وأما كونه أول ما يخاطب به الناس من واجبات الدين.

فلصنيع البخارى أيضا:

فى باب ما جاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى[2].

حيث أسند عن ابن عباس يقول: لما بعث النبىُّ ﷺ معاذًا إلى نحو أهل اليمن قال له: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أوّل ما تدعوهم إلى إن يوحدوا الله تعالى فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أنّ الله إفترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فتردُّ على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوّق كرائم أموال الناس**»أ. هـ[3].

وقال حافظ حكمى[4]:

أول واجب على العبيد ... معرفة الله بالتوحيد
إذ هو من كل الأوامر أعظم ... وهو نوعان أيا من تفهم

ـ ولأنه حق الله علينا

---

(1) الشورى: الآية (١٣).
(2) البخارى (١٣/ ٣٥٩ ـ الفتح).
(3) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٣٧١، ٧٣٧٢)، ومسلم (١/ ٩٦ ـ الإيمان) وسيأتى تخريجه عنه شرح الكتاب.
(4) «معارج القبول» (١/ ٥٣).

أسند البخارى عن معاذ بن جبل قال: قال النبى ﷺ: **يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد؟** قال: الله ورسوله أعلم. قال: **أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً، أتدرى ما حقّهم عليه؟** قال: الله ورسوله أعلم. قال: **أن لايعذبهم**(١).

ـ ولأننا سنسأل عنه

لما رواه الطبرانى بسنده عن أنس بن مالك وابن عمر ومجاهد فى قوله ـ عزّوجل ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢). قالوا: عن لاإله إلا الله(٣).

المبدأ العاشر من مبادىء علم التوحيد (مسائلة):

القضايا المتعلقة بحق الله ورسوله وحق العبد والسمعيات.

المبدأ الحادى عشر من مبادىء علم التوحيد:

(شرفه)

أنه إذا كان شرف العلم بشرف المعلوم فلايخفى أن علم التوحيد هو أشرف العلوم على الإطلاق بل ولا يراد بكلمة علم إذا أطلقت إلا علم التوحيد والعقيدة فهو أشرف العلوم على الإطلاق لتعلقه بمعرفة الله تعالى وإفراده بالعبادة، والكفر بكلٍّ ما يعبد من دونه مع ما يقتضيه ذلك من فعل الخيرات وترك المنكرات.

وإذا كانت أهمية العلم تتناسب مع ما يجلبه، للإنسان من خير أو يدفعه عنه من شر، فإنَّ علم توحيد هو أهم العلوم على الإطلاق لما يترتب عليه من تحقق الحياة الطيبة فى الأرض والفوز بنعيم الخلد وجنة الأبد فى الآخرة، ولما يدفعه عن الإنسان من ضنك المعيشة في الأرض وعذاب الأبد في الأخرة قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي

(١) سيأتى تخريجه أيضاً.

(٢) الحجر: الآية (٩٢).

(٣) «الدعاء للطبرانى» (١٤٩٢و١٤٩٣و١٤٩٤و١٤٩٢و١٤٩٦و١٤٩٧) بأسانيد فيها ضعف.

(٤) النحل: الآية (٩٧).

أعمى وقد كُنتُ بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى﴾[1]

ا.هـ[2].

عظيم لشرف موضوعه، النابع من النبوة ومعدن الرسالة كما تقدَّم مجملاً وكما سيأتى تفصيلاً.

أهمية كتاب التوحيد - لشيخ الإسلام - محمد بن عبد الوهاب وذكر منهجه فى الكتاب

قال الوليد عبد الرحمن بن محمد الفريان[3]

كان لكتاب التوحيد وقعاً بعيد فى نفوس العلماء الذين عاصروه؛ لما اشتمل عليه من بيان ما بعث الله به رسوله من أنواع التوحيد، بالأدلة من كلام الله وكلام رسوله وكلام سلف الأمة. مع الايجاز والسلامة من التعقيد والتكلف، الذى سيطر على مُعظم كتابات ذلك العصر. إلى جانب ما اصطبغ به من الصدق والإخلاص والجاذبية والتأثير. واستطاع بفضل الله، أنْ يضع يده على كثير مما كان فاشياً فى وقته، من الأمراض العقدية الوبيلة.

وقد أعتبر هذا الكتاب بمثابة الوثيقة أو البيان العام، الذى أعلن فيه مبادىء دعوته، ورسم فيه المنهج الذى سار عليه وطبقه.

قلتُ: وأيضاً تبرز أهمية الكتاب من كثرة الشروح عليه فلقد نقل الوليد لهذا الكتاب تسعة عشر شرحاً وستأتى ومن الشروحات التى لم يذكرها القول المفيد لفضيلة الشيخ ابن عثمين ويجمع كل هذه الشروح هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

قال الزركشى:[4] . . . أنّ كلَّ من وضع من البشر كتاباً فإنما وضعه ليفهم بذاته من غير شرح، وإنما احتيج إلى الشروح لأمور ثلاثة:

أحدها: كمال فضيلة المصنِّف، فإنه لقوته العلمية يجمع المعانى الدقيقة فى

---

(١) طه: الآية (١٢٣).

(٢) «أصول الإيمان» للدكتور صلاح الصاوى.

(٣) فتح المجيد ٣/١٢، ١٣ ط دار الصميعى

(٤) نقلاً عن كتاب «النكت المتممة لمقدمة ابن تيمية» بتأليفنا

اللفظ الوجيز، فربما عسَّر فهم مراده، فَقُصِد بالشرح ظهور تلك المعانى الخفية، ومن هنا كان شرح بعض الأئمة تصنيفه أدلَّ على المراد من شرح غيره له. اهـ.

قال: سليمان بن عبدالله فى وصف كتاب التوحيد: هو كتاب فرد فى معناه لم يسبقه إليه سابق، ولا لحقه فيه لاحق.

قال: عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ صاحب «فتح المجيد»: فإن كتاب التوحيد الذى ألفه الإمام شيخ الإسلام (محمد بن عبدالوهاب) أجزل الله له الثواب، وغفر له ولمن وأجاب دعوته إلى يوم الحساب قد جاء بديعاً فى معناه: من بيان التوحيد وبراهينه، وجمع جملاً من أدلته لإيضاحه وبينه فصار علماً للموحدين وحجة على المسلمين، فانتفع به الخلق الكثير، والجم الغفير.

قال: محمد حامد الفقى: ولقد خلف شيخ الإسلام محمد ابن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ تركة قيمة من المؤلفات العلمية النافعة، التى أضاءت للناس طريق الهداية، وأنقذ الله بها كثيراً من الضلالة، وهدى بها إلى الدين الخالص وأجمعها وأنفعها **«كتاب التوحيد»** فإنه جمع فأوعى؟ بين توحيد الإلهية والعبادة، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات أتم بيان وأجلاه، وبين نواقض كل منهما كذلك أعظم بيان.

قال د: الوليد الفريان[1]: اجتهد المؤلف فى أن يستوعب فى كتابه أهم مسائل العقيدة التى يحتاج الناس إليها مع الإستدلال لها من الكتاب والسنة وأقوال السلف باختصار وعقد لذلك ستة وستين باباً، ترجم بها ما نقل من الأيات والأحاديث والأثار بأسلوب واضح وعبارة مشرقة وربما اتخذ بعض النصوص الخالصة، عناوين لأبوابه. ولم يذكر من الأحاديث والأثار، إلا ما كان ثابتاً فى نفسه أو كان مما ثبت معناه من أدلةٍ كثيرة مع الإشارة إلى من خرَّجه، وذكر فى حدود ما يسمح به المختصر. ثم يختم كل باب بجملة من المسائل المستنبطة من هذه الأدلة. التى تؤكد فقه هذا الإمام، وعمق فهمه، وقدرته الفائقة على تلمس مقاصد النصوص. ا هـ.

---

(١) كتاب التوحيد ـ فيما نعلم ـ فى مجلدين.

وبعد تعريف العلماء للكتاب على الإجمال بقى أن نعرفه على التفصيل المختصر لأبوابه لنعطى صورة أكثر وضوحاً لهذا السفر النفيس الذى يجمع بين طياته دعوة شاملة لكل أنواع التوحيد وليس فقط كما يتوهم البعض أنه للقبوريين فنقول وبالله التوفيق: بدء الشيخ محمد بتعريف التوحيد على طريقته قال: «**كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد**» وقول الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ليوضح أن التوحيد المقصود هو توحيد العبادة وهو حق الله على العبيد كما وضحه الرسول ﷺ في حديث معاذ (١) الذى أورده المصنف فى آخر هذا الباب ثم ثنى بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ ليبين أيضا أن التوحيد المقصود هو الكفر بالطاغوت مهما كان نوعه بعد إفراد الله عزوجل بالعبادة هذا وقد بين الشيخ هذا البيان المعرف بالتوحيد حتى إذا ما بين فضله وما يكفر من الذنوب لايتطرق إلى أذهان المبتدعين من المرجئة وغيرهم ممن فرطوا في فهم التوحيد أنه يقصد بالتوحيد ما فهموا من فهم خاطىء مغاير لفهم السلف لهذا قدم بين يدى بيان **فضيلة التوحيد** بتعريفه أولاً حتى يعلم من يستحق هذه الفضيلة وهو فى ذلك قد خالف بعض السلف - من الفقهاء وغيرهم - فى تصانيفهم حيث كانوا يبدأون بفضل العمل والترغيب فيه ثم بالعمل نفسه لكنه خالف لهذه الفائدة التى أسلفناها. ثم بعد أن بين فضل التوحيد ورغب فيه بما أورده من أيات وأحاديث فى هذا الشأن. بيَّن فى الباب التالى **كمال التوحيد وفضل من حققه** وهو فى ذلك يبين تفاوت الناس فى هذا الأمر ثم بعد هذا الترغيب بدأ بالترهيب فى باب سماه « **باب الخوف من الشرك**» حتى تعتدل النظرة لقضية التوحيد ولايستهانَ بها لاسيما من قول الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾(٢) فيسير العبد إلى ربه بالرغبه والرهبه والخوف والرجاء إمتثالاً لقوله تعالى﴿**وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾ فبدأ لذلك ببيان الفضل والترغيب ثم شنى ببيان الترهيب بعد أن عرف التوحيد وفضله ودرجاته وفضل

---

(١) سيأتى تخريجه

(٢) إبراهيم: الآية (٣٥).

من كمل توحيده والترهيب من الشرك والتخويف منه انتقل إلى مرحلة حتمية بعد هذه المراحل لمن علمها وأيقنها وهى مرحلة الدعوة هذه المرحلة وفيها ما فيها من الفوائد للداعى إلى هذا الأمر فهى تجعله أكثر ثباتاً ورسوخاً على قضية التوحيد هذه المرحلة هى مرحلة «**الدعاء إلى لا إله إلا الله**» وفيه قوله تعالى ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**﴾(١) الآية ولما كان الداعى إلى الله دائما على بصيرة فكان لابد أن يفسر له التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله لذلك بوب المصنف هذا الباب «**باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**» والتفسير للتوحيد غير بيان معناه ففى هذا الأخير بيان لمجمل معنى التوحيد وفى التفسير بيان تفصيلى للتوحيد لذلك تعرض فيه لعبادة الأحبار والرهبان ولموالاة الكفار وتبروء إبراهيم منهم، وللأنداد التى تحب كحب الله ولهذا أيضاً تلا هذا الباب أبواباً كثيرة، جداً تفسر التوحيد ببيان ضده من الشرك. فجاء ذلك فى «**باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما» لرفع البلاء أو دفعه**» و«**باب ما جاء فى الرقى والتمائم**» وباب «**من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما**» و«**باب الذبح لغير الله**» و«**باب من الشرك النذر لغير الله**» وكذلك «**باب من الشرك الاستعاذة بغير الله**» وكذلك باب «**من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره**» كل هذه الأبواب بينت أنواعاً من الشرك يبين المصنف من خلالها أن التوحيد خلاف هذه الأمور الشركية، وأن مقتضاه أن لايأتى العبدُ بمثل هذه الأمور المغايرة للتوحيد. بعد ذلك وقف وقفة المتعجب من هؤلاء المشركين وقفت المنكر عليهم حيث قال «**باب قوله تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٢)**» يتعجب من هؤلاء القوم حيث عبدوا من لايخلق وهو مخلوق ولايرزق وهو مرزوق وليس له من الأمر شيء قليل أو كثير حيث قال الله تعالى لأعظم البشر ﷺ ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾(٣).

فهم من باب أولى لايملكون من قطمير فياللعجب ممن استبدل الذى هو أدنى

(١) يوسف: آلآية (١٠٨).
(٢) الأعراف: الآية (١٩١).
(٣) آل عمران: الآية (١٢٨).

بالذى هو خير. ثم ثنى هذا الباب ببابين عظيمين «**باب حتى «إذا فزع عن قلوبهم**» «**وباب الشفاعه**» يبين فيهما للمشركين الذين تعلقوا بالمخلوقين أنكم إذا كنتم تعلقتم من أجل غيب يعلمونه فهذا باطل فلايعلم الغيب إلا الله حتى الرسول عليه الصلاة والسلام قال ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾[1] أما هؤلاء الطواغيت إخوان الجان الذين يسترقون السمع فيذهبون بالكملة إليهم فيضيفون عليها مائة كذبة فهم لايعلمون الغيب بل هم كاذبون أفاكون كل ذلك يبينه المصنف فى «باب ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾»[2] وفى «**باب الشفاعة نفى عن هؤلاء** الأنداد الشفاعة وأثبتها لرب العالمين ولمن أذن له بالحق وهم يعلمون. حتى الرسول ﷺ نهى فى الدنيا عن الإستغفار لعمه الذى وقف بماله بجوار النبى ﷺ؛ لأنه مات على الشرك فلم يؤذن له بالاستغفار له فى الدنيا وكذلك لن يؤذن له بالشفاعة فيه فى الآخرة وهذا بينه المصنف فى باب ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾[3] فلو كان سبب العبادة غيب فهو منفى إلا عن الله أو طمع فى شفاعته كذلك فهى منفية إلا عن الموحدين الذين لم يتخذوا الأنداد، وإذا كانت طمعاً فى هداية، فهم مفتقدون لها كذلك؛ لأن النبى ﷺ لايهدى، فهم أولى وأولى، وقال تعالى: ﴿**أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾[4].

وأرى أن الأبواب التى تلى هذا الباب يصح أن تأتى تحت عنوان **ما جاء فى حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك**» فهذا واضح فى باب «**إن سبب كفر بنى وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين**» وفى نهى الله عن ذلك بقوله ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾[5] وقول الرسول ﷺ «**إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**»[6] وكذلك باب ما جاء «**فى التغليظ فى من عبدالله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده**» وكذلك فى باب

---

(١) الأعراف: الآية (١٨٨).
(٢) سبأ: الآية (٢٣).
(٣) القصص: الآية (٥٦).
(٤) يونس: الآية (٣٥).
(٥) المائدة: الآية (٧٧).
(٦) سيأتى تخريجه.

«أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله» فبين الرسول ﷺ كل ذلك حماية لجناب التوحيد وحذر أمته من أنه سيأتى عليهم زمانٌ يعبدون فيه الأوثان اتباعاً لسنن من كان قبلهم حذو القذة بالقذة وبهذا المعنى بوب المصنف ثم تلا ذلك بأبواب أيضاً تؤكد حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد من ذلك **«باب ما جاء فى السحر» «باب بيان شىء من أنواع السحر»، باب «ما جاء فى الكهان ونحوهم»، «باب ما جاء فى النشرة»، «باب ما جاء فى التطير»، باب «ما جاء فى التنجيم»**، والقاسم المشترك بين هذه الأبواب أن هذه الأنواع كلها فيها ما هو شرك أكبر وما هو شرك أصغر وفيها ما هو مباح على ما سيأتى تفصيله إن شاء الله وأيضاً لأن ورائها جميعا الطاغوت الاكبر رأس كل ضلاله إبليس هذا وقد بين أيضا الأمام بعد ذلك فى فصوله بعض أنواع الشرك كشرك التحليل والتحريم «الحاكمية» وذلك فى باب من **«أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم به فقد اتخذهم أرباباً»** وباب قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾**(1). الآية.

أيضاً والناظر إلى كتاب التوحيد يجد أن الشيخ لم ينس أن يذكر شيئاً من توحيد الأسماء والصفات وذلك فى **«باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات»** وإن كان قد ضمن مسأله توحيد الأسماء والصفات بعض أبوابه ولكن لم يكتف بهذا بل أفرد لها أبواباً مستقلة، وليكون الكتاب أكثر شمولاً لمسائل التوحيد فقد تعرض لمسألة القدر والإيمان به فى أبواب كثيرة منها باب **«ما جاء فى منكرى القدر»** وباب **«ما جاء فى اللو»** وغير ذلك ثم بعد ذلك بين الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى أبواب كتابه بعض الألفاظ التى تجرى على السنة العامة بسبب تخلفهم عن التوحيد وتجرعهم الشرك بطريقة أو بأخرى فمن ذلك باب قول **«ما شاء الله وشئت»** وباب **«من سب الدهر فقد أذى الله»** وباب **«التسمى بقاضى القضاة»** وبا ب**«لايقال السلام على الله»** وباب قول الله **«اللهم اغفر لى إن شئت»** وباب **«لايقول عبدى وأمتى»** وباب **«ماجاء فى اللو»** وباب **«النهى عن سب الريح»** وكل هذه الأبواب يبين فيها الشيخ كما ذكرنا ما ينبغى على الناس أن يحترزوا عنه من الكلام الذى يجرى على ألسنتهم وهو يتنافى مع مطلق التوحيد أو التوحيد المطلق ثم ختم كتابه رحمه الله بقوله باب **«ماجاء فى قول الله وما قدروا الله حق قدره»** وفيه بيان عظمة الله وعظيم قدرته وعظمة

---

(1) النساء: الآية (٦٠).

ملكه وخلقه فهو سبحانه الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحداً لانحصى ثناء عليه بل كما أثنى هو على نفسه فله الحمد فى الأولى وفى الآخرة وله الحكم وإليه المرجع والمآب.

ملامح أخرى من منهج المصنف فى الكتاب.

ومما يَجْدُر الذكرُ بـه فى هذا المقام أنَّ الإمام اقتفى أثر السلف من المصنفين مثل الإمام البخارى فى تبويبه ذلك لأنه يقطع بالحكم فى التبويب إذا كان الأمر ليس فيه خلاف كقوله «**باب من الشرك النذر لغير الله**» وتارة يترك المسئلة دون جزم بالحكم لوجود الخلاف فى المسئلة أو التفصيل كقوله «**باب ما جاء فى الرقى والتمائم**».

وتارة يبوّب بالآية كقوله: باب قول الله تعالى ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا** ﴾[1]. الآية.

ثم يأتى بأدلة التبويب من القرآن والسنة ثم يأتى بأقوال السلف وفهمهم للآية والحديث، وهو منهج قَيِّم لمن وعاه وقد أشار إلى بعضه الدكتور الوليد - فيما تقدم.

وأيضاً يظهر لكل دارس لهذا الكتاب أنّ كتاب التوحيد كتاب وعظيٍّ دعوى أكثر منه علمى ومما يدل على ذلك أنه جمع فيه بين مسائل العقيدة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومسائل التوحيد وهو ما يختص بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذا مما لم يفعله السلف فى كتب العلم، فإنَّهم أفردوا مسائل الايمان فى كتب بمفردها ككتاب الإيمان فى صحيح البخارى ومسائل التوحيد فى كتب بمفردها ككتاب التوحيد أيضاً فى صحيح البخارى والتوحيد لابن خزيمة ولعلَّ مقصد الإمام محمد بن عبدالوهاب فى ذلك جمع المسائل التى ينبغى أن يعتقدها الدعاة وأهلُ التوحيد وأن يُبيِّن لهم المسلكَ الصحيح فى طريقهم إلى الله ودعوتهم إليه.

ومن ثَمَّ فإنه يصح أن يقال: يقصد بقوله «كتاب التوحيد» أى كتاب مَسْلَك أهل التوحيد أو كتاب دعاة التوحيد. والله تعالى أعلم ومما يدل على أنَّ الكتاب وعظى ودعوى أكثر منه علمى.

---

(١) البقرة: الآية (١٦٥).

أنَّ الإمام ـ رحـمه الله ـ قد يستدل ببعـض أحاديث فـى الإسلام الحقيـقى «مناط الانتفاع» على الإسلام الحكمى «مناط الحكم» ولا يفصِّل ولايكون ذلك إلا فى مقام الوعظ والترهيب والتـرغيب، وهو محق فى ذلك لاشك لأنَّ أدلة الإسلام الحقيقى تشمل الحكمى وزيادة مثـل استدلالهم بأدلة الكفر الأكبر على الأصغر لأنها تشمله. وسيأتيك فى الشرح أدلة أخرى على ذلك والله الموفق.

ويدل على ذلـك أيضاً تفريقـه لأبواب متشابهـه، وكان الأنسب الجمع بـينها على نسق وترتيب واحد، مثل باب ماجاء فى السحر والذى بعده باب بيان شئ من أنواع السحر ثم ما جاء فى الكهان، ثم النشره ثم والتطير، وكان الأولى أن يقُدم النشره علـى ما جاء في الكهان لأنها إلى أبواب الســحر أقرب وبها الصق والتطير بالكهانه أنسب، وكذلك؛ الأبواب الـتى تكلم فيها عن الأسماء الحسنى لم يأت بها على الترتيب.

وكذلك الأبواب التى تكـلم فيها عن حماية المصطفى لجـناب التوحيد جاءت فى بابين متباعدين جداً، وكان الأنسب والأقرب أن يأتى بكل باب خلف الآخر كما فعل فى باب ماجاء فى الرياء والذى يليـه العمل للدنيا، وهذا فى كتابه غير قليل، ولكن الأمر كما قال بعض الدعاة والمشايخ، أن هذا الكتاب إلى الترتيب الدعوى والوعظى أقرب منه إلى الترتيب العلمى.

• ترجمة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهّاب[1].

- نسبه وميلاده:

هو العلاَّمة المجدِّد، الإمامِ شيخُ الإِسلام أبو الحسين، محمَّد بن عبدالوهاب بن سُليمـان بن على بن مُشرف آل معضاد الـوهيبى، من بنى حنظـلة بن مالة التميمى. ولد فـى العُيينة من بلاد عارض اليمامة، في وسـط الجزيرة العربية، سنة ١١١٥ هـ.

- أسرته ونشأته:

نشأ فى أحضان أسرة فاضلة وبيت علم وبين أبوين كريمين، فوالده الأدنى، الشيخ عـبدالوهاب بن سليمـان (ت ١١٥٣) من علماء نجد المعـروفين، وقضاة العيينت فإنّه تولى القضاء فى عدة جهات.

---

(١) بتصرف من كـتيب من مشاهير المجددين لـلدكتور صالح بن فوزان ومقـدمة الدكتور/ وليد آل فريان.

وجده الشيخ سليمان بن على (ت١٠٧٩ هـ) كان عالماً جليلاً وإماماًفى الفقه وهو المفتى فى البلاد فى وقته وقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماءوطلبة العلم. وعمه الشيخ إبراهيم بن سليمان كان من أجلة العلماء، فنشأ الشيخ محمد في هذا الجو العلمي وكان حاد الذهن متوقد الذكاء سريع الحفظ، حفظ القرآن الكريم قبل سن العاشرة ودرس على والده كتب الفقه الحنبلي وكان كثير المطالعة والقراءة للكتب إلى جانب قراءته على والده، فقرأ في كتب التفسير والحديث والأصول، وعني عناية خاصة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب العلامة ابن القيم، وكان لكتب هذين الإمامين أكبر الأثر في تكوين شخصيته العلمية المتميزة والأخذ بيده إلى مصادر العلم الصحيحة فتكوّن لديه الاتجاه السليم منذ صغره وتركزت في قلبه العقيدة الصحيحة، وتخرج على كتب هذين الإمامين المحققين.

- شيوخه:

أخذ عن كثير من العلماء فى بلده، وفى رحلاته المتعددة إلى الحجاز والبصرة والأحساء، ومنهم:

١ـ والده الشيخ، عبدالوهاب بن سليمان.

٢ـ الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف.

٣ـ الشيخ محمد حياة السندى (ت ١١٦٥هـ).

٤ـ الشيخ محمد المجموعى البصري.

٥ـ الشيخ المسند، عبدالله بن سالم البصرى [ت ١١٣٤ هـ].

٦ـ الشيخ عبداللطيف العفالقى، الأحسائى.

- رحلاته العلمية:

ولما استوعب مايدرس في بلدته من علوم الفقه والعربية والحديث والتفسير تطلع إلى الزيادة وعزم على الرحلة إلى علماء البلاد المجاورة للاستفادة من علومهم فرحل إلى البصرة وإلى الأحساء وإلى مكة والمدينة والتقى بعلماء تلك البلدان وأخذ عنهم واستحصل على الكتب والمراجع، ولنترك المجال لحفيده الشيخ عبدالرحمن بن حسن ليحدثنا عن تلك الرحلات المباركة، قال:

إنه نشأ في طلب العلم وتخرج على أهله في سن الصبا، ثم رحل لطلب العلم للبصرة مراراً وللأحساء ثم إلى المدينة. ثم قال في تفصيل ذلك: فظهر

شيخنا بين أبيه وعمه فحفظ القرآن وهو صغير، وقرأ في فنون العلم وصار له فهم قوي وهمة عالية في طلب العلم فصار يناظر أباه وعمه في بعض المسائل بالدليل على بعض الروايات عن الإمام أحمد والوجوه عن الأصحاب، فتخرج عليهما في الفقه وناظرهما في مسائل قرأها في الشرح الكبير والمغني والإنصاف لما فيهما من مخالفة ما في متن المنتهى والإقناع، وعلت همته إلى طلب التفسير والحديث فسافر إلى البصرة غير مرة، كل مرة يقيم بين من كان بها من العلماء، فأظهر الله له أصول الدين ما خفي على غيره وكذلك ما كان عليه أهل السنة في توحيد الأسماء والصفات والإيمان... إلى أن قال: فصنف في البصرة كتاب التوحيد الذي شهد له بفضله بتصنيفه القريب والبعيد، أخذه من الكتب التي في مدارس البصرة من كتب الحديث... إلى أن قال: ثم إن شيخنا رحمه الله تعالى بعد رحلته إلى البصرة وتحصيل ما حصل بنجد وهناك رحل إلى الأحساء وفيها فحول العلماء منهم عبدالله بن فيروز أبو محمد الكفيف، ووجد عنده من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ما سر به، وأثنى على عبدالله هذا بمعرفته بعقيدة الإمام أحمد، وحضر مشايخ الأحساء ومن أعظمهم عبدالله بن عبداللطيف القاضي فطلب منه أن يحضر الأول من فتح الباري على البخاري ويبين له ما غلط فيه الحافظ في مسألة الإيمان، وبين أن الأشاعرة خالفوا ما صدر به البخاري كتابه من الأحاديث والآثار، وبحث معهم في مسائل وناظر، وهذا أمر مشهور يعرفه أهل الأحساء وغيرهم من أهل نجد... إلى أن قال: ثم إن شيخنا رحمه الله رجع من الأحساء إلى البصرة وخرج منها إلى نجد قاصداً الحج فحج رحمه الله تعالى، وقد تبين له بما فتح الله تعالى عليه ضلال من ضل باتخاذ الأنداد وعبادتها من دون الله في كل قطر وقرية إلا ما شاء الله، فلما قضي الحج وقف في الملتزم وسأل الله تعالى أن يظهر هذا الدين بدعوته وأن يرزقه القبول من الناس، فخرج قاصداً المدينة مع الحاج يريد الشام فتعرض له بعض سراق الحجيج فضربوه وسلبوه وأخذوا ما معه وشجوا رأسه، وعاقه ذلك عن مسيره مع الحجاج فقدم المدينة بعد أن خرج الحاج منها فأقام بها وحضر عند العلماء إذ ذاك منهم محمد حياة السندي وأخذ عنه كتب الحديث إجازة في جميعها وقراءة لبعضها ووجد فيها بعض الحنابلة، فكتب كتاب الهدي لابن القيم بيده وكتب متن البخارى وحضر في النحو وحفظ ألفية ابن مالك ـ حدثني بذلك حماد بن حمد عنه رحمهما الله ثم رجع إلى نجد وهم على الحالة التي لايحبها الله، انتهى المقصود(١).

---

(١) «الدرر السنية» (٩/ ٢١٥ - ٢١٦) نقلاً عن المصدر السابق.

فأنت ترى أيها القارىء في هذا السياق قوة الأسباب التي بذلها الشيخ لتحصيل العلم: كثرة الحفظ وكثرة القراءة والاطلاع وكثرة الرحلات في طلب العلم للتلقي عن العلماء مع شدة الذكاء والنية الصالحة، إن هذه الأسباب مع توفيق الله تعالى كفيلة بتوفر التحصيل وهذا ما حصل.

- حال المسلمين عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب

لقد ذكر المؤرخون كابن غنام وابن بشر وغيرهما عن حالة أهل نجد خصوصا والعالم الإسلامي عموما الشيء الكثير من ظهور البدع والخرافات والشركيات والجهل بحقيقة الدين الصحيح، ففي نجد كانت القبور والأشجار والأحجار والمغارات تعبد من دون الله بأنواع من القربات، وفي الحجاز واليمن وغيرهما من البلاد من ذاك الشيء الكثير، يقول العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني في قصيدة له يصف المظاهر الشركية في البلاد الإسلامية وهو معاصر للشيخ محمد وقد وصف مايفعل ويمارس حول القبور من الشرك الأكبر فيثني على دعوة الشيخ:

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه	يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي
وينشر جهرا ما طوى كل جاهل	ومبتدع منه فوافق ما عندي
ويعمر أركان الشريعة هادما	مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله	يغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة	أهلت لغير الله جهرا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل	ومستلم الأركان منهن باليد

ويقول الإمام الشوكاني وهو من المعاصرين لدعوة الشيخ أيضا، يقول في وصف مايفعل عند القبور من الشرك: وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر، فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا، وبالجملة إنهم لم يدعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لانجد من يغضب لله ويغار

حمية للدين الحنيف لا عالماً ولا متعلماً ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكاً، وقد توارد إلينا من الأخبار مالا يشك معه أن كثيرا من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجرا، فإذا قيل له بعد ذلك: إحلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق، وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة، فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين أي درء للإسلام أشد من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجبا.

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو ناراً نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد[1]

وقد ألف كل من هذين الإمامين رسالة في التحذير من هذا الشرك الذي فشا في البلدان في عصرهما فألف الصنعاني رسالة اسمها «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد»، وألف الشوكاني رسالة اسمها «شفاء الصدور بتحريم البناء على القبور» وكلتا الرسالتين مطبوعة ومتداولة.

وإليك ما قاله فاضلان من أهل العلم معاصران للشيخ محمد ودعوته، قالا رحمهما الله:

من محمد بن غيهب ومحمد بن عيدان إلى عبدالله المويس، الباعث للكتاب إخبارك عن ديننا قبل أن يجعل هذا الشيخ لهذا القرن يدعوهم إلى الله وينصح لهم ويأمرهم وينهاهم حتى أطلع الله به شموس الوحي وأظهر به الدين وفرق به أهل الباطل من السادة والكهان والمرتشين فهو غريب في علماء هذا الزمان هو في شأن وهم في شأن آخر، رفع الله له علم الجهاد فشمر إليه فأمر ونهى ودعا إلى الله تعالى ونصح ووفى العهد لما نقضوه وشمر عن ساعد الجد لما تركوه وتمسك بالكتاب المنزل لما نبذوه فبدعوه وكفروه، فديننا قبل هذا الشيخ المجدد لم يبق منه إلا الدعوى والإسم فوقعنا في الشرك فقد ذبحنا للشياطين ودعونا الصالحين ونأتي الكهان ولانفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ولابين توحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وتوحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولانفرق بين السنة والبدعة فنجتمع لليلة النصف من شعبان

---

(١) «نيل الأوطار» (٤/ ٩٠) نقلاً عن المصدر السابق.

لصلاتهـا الباطلة التـي لم ينزل بها مـن سلطان ونضيـع الفريضة، ونقـدم قبل الصلاة الوسطى ـ صلاة العصر ـ من الهذيـان ما يفوتها عن وقت الاختيار إلى وقت الضرورة، هذا وأضـعافه من البدع لم ينهـنا عنه علماؤنا بل أقـرونا عليه وفعـلوه معنـا فلا يأمـرون بمعروف ولاينـهون عن مـنكر ولايـنصحون جـاهلاً ولايهدون ضالاً والكلام مـن جهتهم طويل عصمنا الله وإيـاك من الاقتداء بهم واتباع طريقتهم فكن منهم على حذر إلا الـقليل منهم ويكفيك عن التطويل أن الشرك بالله يخطب به على منابرهم ومن ذلك قول الكهمري: اللهم صل على سيدنا وولينـا ملجانا منجانا معـاذنا ملاذنا. وكذلك تعطيل الـصفات في خطب الطيبي فيشهد أن الله لاجسم ولاعرض ولاقوة.

فقبل هذا الشيخ لاتؤدى أركان الإسلام كالـصلاة والزكاة فلم يكن في بلدنا من يـزكي الخارج من الأرض حـتى جاء الحـق وزهق البـاطل إن الباطـل كان زهوقا.

- عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله:

قال رحمه الله جوابا لمن سأله عن عقيدته[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

أشهد الله ومن حضرني من الملائكة وأشهدكـم أني اعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره، ومن الإيمان بالله بما وصف به نفسه في كتابه على لـسان رسوله ﷺ من غيـر تحريف ولاتعطيـل، بل أعتقد أن الله سبـحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه، ولا أحرف الكلم عن مواضعه ولا ألحد في أسمائه وآياته، ولا أكيف ولا أمثل صفاته تعالى بـصفات خلقه؛ لأنه تعالى لا سمي لـه ولا كفؤ له ولا ند له ولا يقاس بخلـقه، فإنه سبحانه أعلم بـنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحـسن حديثا، فنزه نفسه عـما وصفه به المخالفون من أهل الـتكييف والتمثيل وعـما نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] والفرقة النـاجية وسط في باب أفعاله تـعالى بين القدرية والجبـرية، وهم وسط في باب وعيد الله بـين المرجئة والوعيديـة، وهم وسط في باب الإيمان والـدين بين الحرورية والمعـتزلة، وبين المرجـئة والجـهميـة، وهم وسط فـي باب أصـحاب رسول الله بـين الرافـضة

(١) «الدرر السنية» (١/٢٨ - ٣٠) نقلاً عن المصدر السابق. (٢) الصافات: الآية (١٨٠ - ١٨٢).

والخوارج، وأعتقد أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وأنه تكلم به حقيقة وأنزله على عبده ورسوله وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده نبينا محمد ﷺ، وأؤمن بأن الله فعال لما يريد ولا يكون في ملكه شيء إلا بإرادته ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس شيء في العالم يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا محيد لأحد عن القدر المحدود، ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور، وأعتقد الإيمان بكل.

بكل ما أخبر به النبى ﷺ مما يكون بعد الموت فأؤمن بفتنة القبر ونعيمه وبإعادة الأرواح إلى الأجساد، فيقوم الناس لرب العالمين حفاة عراة غرلاً، تدنو منهم الشمس وتنصب الموازين وتوزن بها أعمال العباد: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾(١) وتنشر الدواوين فآخذ كتابه شماله، وأؤمن ؟؟؟ نبينا محمد ﷺ بحرصة القيامة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، أنيته عدد نجوم السماء، من شرب منه شربه لن يظمأ بعدها أبداً وأؤمن بأن الصراط منصوب على شفير جهنم يمر به الناس على قدر أعمالهم الناس على قدر أعمالهم وأؤمن بشفاعة النبى ﷺ وأنه أول شافع وأول مشفع، ولاينكر شفاعتة النبى إلى أهل البدع والضلال ولكنها لاتكون إلا بعد الإذن والضرى كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾(٤) إلا التوحيد ولا بأذن إلا لأهله، وأما المشركون فليس لهم من الشفاعة نصيب كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾(٥) وأؤمن بأن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما اليوم موجودتان، وأنهما لايفنيان وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة كما يرون القمر ليلة

(١) المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣.

(٢) الأنبياء ٢٨.

(٣) البقرة ٢٥٥.

(٤) النجم ٢٦.

(٥) المدثر ٤٨.

البدر لايضامون فى رؤيته وأؤمن بأن نبينا محمداً ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، ولايصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته، وأن أفضل أمته أبو بكر ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين، ثم على المرتضى، ثم بقية العشرة، ثم أهل بدر، ثم أهل الشجرة أهل بيعة الرضوان،

ثم سائر الصحابة رضي الله عنهم.

وأتولى أصحاب رسول الله ﷺ وأذكر محاسنهم وأترضى عنهم وأستغفر لهم وأكف عن مساويهم وأسكت عما شجر بينهم وأعتقد فضلهم عملا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(١) وأترضى عن أمهات المؤمنين المطهرات من كل سوء، وأقر بكرامات الأولياء وما لهم من المكاشفات إلا أنهم لايستحقون من حق الله تعالى شيئا، ولا يطلب منهم مالا يقدر عليه إلا الله، ولا أشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله ﷺ، ولكني أرجو للمحسن وأخاف على المسيء، ولا أكفر أحدا من المسلمين بذنب ولا أخرجه من دائرة الإسلام، وأرى الجهاد ماضياً مع كل إمام براً كان أو فاجرا، وصلاة الجماعة خلفهم جائزة. والجهاد ماض منذ بعث الله محمدا ﷺ إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال لايبطله جور جائر ولا عدل عادل، وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم مالم يأمروا بمعصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به وغلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته وحرم الخروج عليه، وأرى هجر أهل البدع ومباينتهم حتى يتوبوا، وأحكم عليهم بالظاهر وأكل سرائرهم إلى الله، وأعتقد أن كل محدثة في الدين بدعة، وأعتقد أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو بضع وسبعون شعبة. أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجبه الشريعة المحمدية الطاهرة، فهذه عقيدة وجيزة حررتها وأنا مشتغل البال لتطلعوا على ما عندي، والله على ما نقول وكيل. انتهى.

---

(١) الحشر: الآية (١٠).

بدء دعوة الشيخ محمد رحمه الله:

في وسط هذا الجو المظلم الذي سبق وصفه سطعت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ورفع صوته منكراً هذا الشرك داعيا الناس إلى التوحيد الذي بعث الله به رسوله محمداً ﷺ فلقي من الناس ما يلقاه أمثاله من الدعاة إلى الله من الأذى وأطاعه من وفقه الله لقبول الحق، يقول حفيده الشيخ عبدالرحمن بن حسن رحمه الله: ثم رجع إلى نجد وهم على الحالة التي لايحبها الله ولا يرضاها من الشرك بعبادة الأموات والأشجار والأحجار والجن، فقام فيهم يدعوهم إلى التوحيد وأن يخلصوا العبادة بجميع أنواعها لله، وأن يتركوا ما كانوا يعبدونه من قبر أو طاغوت أو شجر أو حجر، والناس يتبعن الواحد منهم والإثنان فصاح به الأكثرون وحذروا منه الملوك وأغروهم بعدواته(١).

وهذا لايعنى أنه لا يوجد علماء في هذا العصر ، بل يوجد منهم الكثير، ولكنهم ما بين مستحسن لهذا الوضع السيء، أو غير مستحسن لكنه لايملك الشجاعة لمقاومته.

أصول دعوة الشيخ رحمه الله:

لقد أوضح أصول دعوته في إحدى رسائله حيث قال(٢):

١ـ أما ما نحن عليه من الدين فعلى دين الإسلام الذي قال الله فيه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٣).

٢ـ وأما ما دعونا الناس إليه فندعوهم إلى التوحيد الذي قال الله فيه خطاباً لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾(٥).

٣ـ وأما ما نهينا الناس عنه فنهيناهم عن الشرك الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّهُ مَن

---

(١) «الدرر السنية» (٩/٢١٦) نقلاً عن المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (١٢ ـ ٦٤).

(٣) آل عمران: الآية (٨٥).

(٤) يوسف: الآية (١٠٨).

(٥) الجن: الآية (١٨).

يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾[1] وقوله تعالى لنبيه ﷺ على سبيل التغليظ، وإلا فهو منزه هو وإخوانه عن الشرك: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[2] وغير ذلك من الآيات، ونقاتلهم عليه كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[3] أي شرك، ثم ساق الأدلة على ذلك إلى أن قال:

٤ـ وأما ما ذكرتم من حقيقة الاجتهاد فنحن مقلدون الكتاب والسنة وصالح سلف الأمة وما عليه الاعتماد من أقوال الأئمة الأربعة أبي حنيفة النعمان بن ثابت ومالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل رحمهم الله.

٥ـ وما جئنا بشيء يخالف النقل ولا ينكره العقل.. نقاتل عباد الأوثان[4] كما قاتلهم ﷺ ونقاتلهم على ترك الصلاة وعلى منع الزكاة كما قاتل مانعها صديق هذه الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، انتهى.

وقال في رسالة أخرى من رسائله[5]:

٦ـ وأما التكفير فإنما أكفر من عرف دين الرسول ثم بعدما عرفه سبه ونهى الناس عنه وعادى من فعله فهذا الذي أكفره، وأكثر الأمة ولله الحمد ليسوا كذلك.

٧ـ وأما القتال فلم نقاتل أحدا إلا دون النفس والحرمة، فإنما نقاتل على سبيل

---

(١) المائدة: الآية (٧٢).

(٢) الزمر: الآية (٦٥، ٦٦).

(٣) الأنفال: الآية (٣٩).

(٤) وقال في بعض أجوبته: نقاتلهم بعدما نقيم الحجة عليهم من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة ممتثلين قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ انتهى. الدرر السنية (١/٥٨) نقلاً عن المصدر السابق.

(٥) «الدرر السنية» (١/٥٦) نقلاً عن المصدر السابق.

المقابلة: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1] وكذلك من جاهر بسبب دين الرسول بعد ما عرفه.

وقال أيضا[2].

٨ - وأيضا ألزمت من تحت يدي بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض الله، ونهيتهم عن الربا وشرب المسكر وأنواع المنكرات.

المراحل التي مرت بها دعوة الشيخ محمد رحمه الله:

بدأ الشيخ دعوته في بلدة حريملا لوجود والده فيها، ولكن لما كانت الظروف غير مواتية ترك هذه البلدة بحثا عن غيرها فاتجه إلى العيينة واتصل بأميرها عثمان بن معمر فساعده في أول الأمر واجتمع حوله طلبة وبدأ بتنفيذ الأحكام الشرعية فهدم بعض القباب الشركية ورجم في الزنا، ثم إن ابن معمر تخلى عنه خوفا من تهديد بعض الرؤساء، فترك الشيخ العيينة وبحث عن غيرها فاتجه إلى الدرعية واتصل بأميرها محمد بن سعود وعرض عليه دعوته فقبلها وبايعه على مناصرته وصدق في ذلك، وهنا استقر الشيخ رحمه الله وانعقدت حوله حلق الدروس ووفد إليه الطلاب من مختلف الجهات وتكونت في هذه البلدة ولاية إسلامية أميرها الإمام محمد بن سعود وموجهها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وامتدت الدعوة إلى البلاد المجاورة ونشأ الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة التوحيد وقمع الشرك، وما هي إلا فترة وجيزة حتى انتشرت الدعوة وتوحدت جميع البلدان النجدية تحت رايتها، وامتدت فيما بعد ذلك إلى الحجاز وعسير وشمال الجزيرة، وكان ذلك بفضل الله وحده ثم بمؤازرة آل سعود لهذه الدعوة المباركة، وصدق الله وعده: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3] ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[4] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[5].

---

(١) الشورى: الآية (٤٠).

(٢) «الدرر السنية» (١/ ٥٤) نقلاً عن المصدر السابق.

(٣) محمد: الآية (٧).

(٤) الصافات: الآية (١٧٣).

(٥) الحج: الآية (٤٠).

- ثمرات دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله وآثارها:

إن كل دعوة من الدعوات وكل عمل من الأعمال إنما تعرف قيمته من ثمراته المترتبة عليه ومن أثره الذي يتركه، وإن دعوة الشيخ ولله الحمد لما كانت دعوة خالصة لله مترسمة منهج رسول الله ﷺ مستمدة علمها من الكتاب والسنة صار لها أطيب الأثر واستمر نفعها وبقي أثرها وأنتجت للأمة خيرات كثيرة منها:

١ـ قيام دولة إسلامية هي دولة آل سعود الذين آزروا هذه الدعوة وجاهدوا في سبيلها، ولا تزال هذه الدولة ولله الحمد تحكم بشريعة الله وتخدم الحرمين الشريفين وتشد أزر المسلمين في كل مكان من بقاع العالم بعمارة المساجد والمراكز الإسلامية والتعليمية.

٢ـ تصحيح العقيدة الإسلامية مما علق بها من الشركيات والبدع والخرافات وإرجاعها إلى منبعها الصافي من كتاب الله وسنة رسوله، وقد طهر الله كل البلاد التي صار لهذه الدعوة المباركة فيها نفوذ وسلطة من جميع مظاهر الشرك والبدع والخرافات.

٣ـ امتداد أثر هذه الدعوة المباركة خارج بلادها حتى انتفع بها من هدفه الحق في مختلف بلدان العالم الإسلامي في الشام ومصر والمغرب العربي وأفريقيا والسودان واليمن والعراق والهند والباكستان وأندونيسيا وغيرها.

٤ـ وجود حركة علمية واعية متحررة من التقليد الأعمى، فانتشر التعليم في المساجد في مختلف مناطق البلاد حتى تخرج فيه علماء أفذاذ في حياة الشيخ وبعدها قاموا بنشر هذه الدعوة ورعايتها إلى يومنا هذا، ثم أسست لهذا التعليم جامعات إسلامية تخرج الأفواج تلو الأفواج من مختلف العالم الإسلامي مسلحين بالعقيدة الصحيحة والفكر السليم ينتشرون في العالم الإسلامي وغيره للدعوة إلى الله.

٥ـ نشاط حركة التأليف والنشر، فقد قدم علماء هذه الدعوة للأمة الإسلامية رصيدا من الكتب النافعة فى الأصول والفروع ومن ذلك:

١ـ مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب إمام الدعوة ويتكون مجموعها من اثنى عشر مجلدا في الفقه والعقائد والتفسير والحديث والسيرة.

٢ـ مجموع الفتاوى والرسائل لعلماء الدعوة ويتكون من أحد عشر مجلدا.

٣ـ كتب ألفها أئمة الدعوة في مختلف العصور للرد على خصوم الدعوة تبلغ العديد من المجلدات وهي مطبوعة ومتداولة.

٤ـ نشر كتب السلف وتوزيعها على المسلمين في موسم الحج وغيره.

٥ـ نشر كل مفيد من المؤلفات العصرية وتوزيعها مجاناً.

- الشبه التي أثيرت حول دعوة الشيخ:

تعرضت دعوة الشيخ كغيرها من دعوات المصلحين للنقد من قبل خصومها وأثيرت حولها شبهات ربما تروج على من لم يعرف حقيقتها، وقد أثير كثير من هذه الشبهات في حياة الشيخ ورد عليها بنفسه، وأثير البعض الآخر أو بالأصح أعيدت إثارة نفس تلك الشبه بعد وفاته فرد عليها تلامذته وغيرهم من محققي علماء المسلمين الذين لايروج عليهم البهرج والكذب ولا تأخذهم في الله لومة لائم ومن هذه الشبه:

١ـ أنه يبطل كتب المذاهب الأربعة وأن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء.

٢ـ أنه يدعي الاجتهاد وأنه خارج عن التقليد وأنه يقول اختلاف العلماء نقمة.

٣ـ أنه يحرم زيارة قبر الرسول ﷺ وزيارة قبر الوالدين وغيرهما.

٤ـ أنه يكفر من حلف بغير الله.

وقد أجاب الشيخ عن هذه بقوله: جوابي عن هذه المسائل أني أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، وقبله من بهت النبي ﷺ أنه يسب عيسى ابن مريم ويسب الصالحين فتشابهت قلوبهم بافتراء الكذب وقول الزور قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾[1] الآية بهتوه ﷺ بأنه يقول إن الملائكة وعيسى وعزيراً في النار فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[2] الآية[3].

٥ـ قالوا إنه ينهى عن الصلاة على النبي ﷺ وأنه يقول لو أن لي أمرا هدمت

---

(١) النحل: الآية (١٠٥). (٢) الأنبياء: الآية (١٠١).

(٣) «الدرر السنية» (١/ ٣٠، ٣١).

قبة النبي ﷺ وأنه يتكلم في الصالحين وينهى عن محبتهم.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: هذا كذب وبهتان افتراه عليَّ الشياطين الذين يريدون أن يأكلوا أموال الناس بالباطل(١).

٦- قالوا: إنه يكفر جميع الناس إلا من اتبعه وأن أنكحتهم غير صحيحة.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: يا عجباً كيف يدخل هذا في عقل عاقل وهل يقول هذا مسلم، إني أبرأ إلى الله من هذا القول الذي ما يصدر إلا من مختل العقل فاقد الإدراك، فقاتل الله أهل الأغراض الباطلة(٢).

٧- قالوا إنه يكفر بالعموم ويوجب الهجرة إليه على من قدر على إظهار دينه.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: كل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله، وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر عبدالقادر والصنم الذي علي قبر أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينبههم فكيف نكفر من لم يشرك بالله ولم يهاجر إلينا أو لم يكفر ويقاتل؟ سبحانك هذا بهتان عظيم(٣).

٨ - قالوا إنه ينكر الشفاعة، فرد الشيخ على ذلك بقوله: ثم بعد هذا يذكر لنا أن أعداء الإسلام الذين ينفرون الناس عنه يزعمون أننا ننكر شفاعة الرسول ﷺ، فنقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، بل نشهد أن رسول الله ﷺ الشافع المشفع صاحب المقام المحمود نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يشفعه فينا، وأن يحشرنا تحت لوائه، هذا اعتقادنا وهذا الذي مشى عليه السلف الصالح من المهاجرين والأنصار والتابعين وتابع التابعين والأئمة الأربعة رضي الله عنهم أجمعين وهم أحب الناس لنبيهم وأعظمهم في اتباعه وشرعه، فإن كانوا يأتون عند قبره يطلبونه الشفاعة فإن اجتماعهم حجة، والقائل إنه يطلب الشفاعة بعد موته يورد علينا الدليل من كتاب الله أو من سنة رسول الله أو من إجماع الأمة والحق أحق أن يتبع(٤).

٩- وأما اتهام الشيخ أنه يكفر بالعموم ويقاتل المسلمين، فقد أجاب عنه الشيخ

---

(١) «الدرر السنية» (١/ ٥٢) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٢) «الدرر» (١/ ٥٥) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٣) «الدرر» (١/ ٦٦) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٤) «الدرر» (١/ ٤٦) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

بقوله: وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول ثم بعد ما عرفه سبه ونهى عنه وعادى من فعله فهذا هو الذي أكفر، وأكثر الأمة ولله الحمد ليسوا كذلك، وأما القتال فلم نقاتل أحداً إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة وهم الذين أتونا في ديارنا ولا أبقوا ممكنا، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1]، وكذلك من جاهر بسبب دين الرسول بعد ما عرف فإنا نبين لكم أن هذا هو الحق الذي لاريب فيه وأن الواجب إشاعته في الناس وتعليمه الرجال والنساء[2]. انتهى.

وقال أيضا: لما بين بطلان الذي يفعله القبوريون: فهذا الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم، وهو الذي ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[3] فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[4] انتهى[5].

وقال ابنه الشيخ عبدالله بن محمد مجملا هذه الشبه مع الرد عليها: وأما ما يكذب علينا ستراً للحق وتلبيساً على الخلق بأنا نفسر القرآن برأينا ونأخذ من الحديث ما وافق فهمنا من دون مراجعة شرح ولا معول على شيخ وأنا نضع من رتبة نبينا محمد ﷺ بقولنا: النبي رمة في قبره وعصا أحدنا أنفع له منه وليس له شفاعة، وأن زيارته غير مندوبة وأنه كان لايعرف معنى لا إله إلا الله

---

(١) الشورى: الآية (٤٠).

(٢) «الدرر» (١/ ٥١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٣) الأنفال: الآية (٣٩).

(٤) الحديد: الآية (٢٥).

(٥) «الدرر» (١/ ٥٨) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

حتى أنزل الله عليه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(١) مع كون الآية مدنية وأنا لانعتمد على أقوال العلماء ونتلف مؤلفات أهل المذاهب لكون فيها الحق والباطل، وأنا مجسمة، ومن فروع ذلك أننا لانقبل بيعة أحد إلا بعد التقرير عليه بأنه كان مشركا وأن أبويه ماتا على الإشراك بالله وأنا ننهى عن الصلاة على النبي ﷺ، ونحرم زيارة القبور المشروعة مطلقا، وأن من دان بما نحن عليه سقطت عنه جميع التبعات حتى الديون، وأنا لانرى حقاً لأهل البيت رضوان الله عليهم وأنا نجبرهم على تزويج غير الكفء لهم، وأنا نجبر بعض الشيوخ على فراق زوجته الشابة لتنكح شابا إذا ترافعوا إلينا، فلا وجه لذلك فجميع هذه الخرافات وأشباهها لما استفهمنا عنها من ذكر أولا (يعني علماء مكة) كان جوابنا في كل مسألة من ذلك: سبحانك هذا بهتان عظيم، فمن روى عنا شيئا من ذلك أو نسبه إلينا فقد كذب علينا ومن شاهد حالنا وحضر مجالسنا وتحقق ما عندنا علم قطعاً أن جميع ذلك وضعه وافتراه علينا أعداء الدين وإخوان الشياطين تنفيراً للناس عن الإذعان بإخلاص التوحيد لله تعالى بالعبادة وترك أنواع الشرك الذي نص الله عليه بأن الله لايغفره: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٢) فإنا نعتقد أن من فعل أنواعا من الكبائر كقتل المسلم بغير حق والزنا وشرب الخمر وتكرر منه ذلك أنه لايخرج بفعله ذلك عن دائرة الإسلام ولا يخلد به في دار الانتقام إذا مات موحدا بجميع أنواع العبادة، والذي نعتقده أن رتبة نبينا محمد ﷺ أعلى مراتب المخلوقين علي الإطلاق وأنه حي في قبره حياة برزخية أبلغ من حياة الشهداء المنصوص عليها في التنزيل، إذ هو أفضل منهم بلاريب، وأنه يسمع سلام المسلم عليه وتسن زيارته إلا أنه لا يشد الرحل إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه وإذا قصد مع ذلك الزيارة فلا بأس، ومن أنفق نفيس أوقاته بالاشتغال بالصلاة عليه الصلاة والسلام الواردة عنه فقد فاز بسعادة الدارين وكفى همه وغمه كما جاء في الحديث عنه، ولا ننكر كرامات الأولياء ونعترف لهم بالحق وأنهم على هدى من ربهم مهما ساروا على الطريقة الشرعية والقوانين المرعية، إلا أنهم لايستحقون شيئا من أنواع العبادات

---

(١) محمد: الآية (١٩).

(٢) النساء: الآية (١١٦).

لا حال الحياة ولا بعد الممات، بل يطلب من أحدهم الدعاء في حال حياته بل ومن كل مسلم فقد جاء في الحديث: «**دعاء المسلم مستجاب لأخيه**»[1] الحديث، وأمر ﷺ عمر وعليا بسؤال الاستغفارمن أويس ففعلا[2].

ونثبت الشفاعة لنبينا محمد ﷺ يوم القيامة حسب ما ورد، وكذلك نثبتها لسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسب ما ورد أيضا، ونسألها من المالك لها والآذن فيها لمن يشاء من الموحدين الذين هم أسعد الناس بها كما ورد بأن يقول أحدنا متضرعا: (اللهم شفع نبينا محمداً ﷺ فينا يوم القيامة) اللهم شفع فينا عبادك الصالحين أو ملائكتك أو نحو ذلك مما يطلب من الله لا منهم، فلايقال يا رسول الله أو ياولى الله أسألك الشفاعة أو غيرها كأدركني أو أغثني أو اشفني أو انصرني على عدوي ونحو ذلك مما ذكر في أيام البرزخ كان من أقسام الشرك، إذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا أثر من السلف الصالح في ذلك، بل ورد الكتاب والسنة وإجماع السلف أن ذلك شرك أكبر قاتل عليه رسول الله ﷺ. انتهى[3].

هذا وقد انبرى كثير من العلماء بعد وفاة الشيخ رحمه الله للإجابة عن هذه الشبهات وألفوا في ذلك مؤلفات ضخمة أشهرها:

١ـ (مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام ونسب إليه تكفير أهل الإسلام) في مجلد وهو للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن من آل الشيخ رحمهم الله.

٢ـ (معارج القبول)، للشيخ الحسين بن مهدي النعمي من علماء اليمن في مجلد.

٣ـ (غاية الأماني في الرد على النبهاني) للشيخ محمود شكري الألوسي من علماء العراق وهو في مجلدين.

٤ـ (صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان) للشيخ محمد بشير السهسواني

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٩/ ٥٨ ـ الذكر والدعاء).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم (٨/ ٣٣٤ ـ فضائل الصحابة).

(٣) «الدرر السنية» (١/ ١٢٧ ـ ١٢٩) نقلاً عن المصدرين المشار إليها فى أول الترجمة.

الهندي في مجلد، وغير ذلك من الكتب التي ألفت في الذب على دعوة الشيخ حتى من غير المسلمين.

وهكذا يقيض الله سبحانه للحق أنصارا في كل زمان تقوم بهم حجة الله على خلقه، فلله الحمد والمنة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

- طلابه ومصنفاته

أخذ عنه جموعًا كثيرة من الطلاب، تولّوا من بعده مهمة الدعوة ورعاية الدولة، ومنهم:

١ـ الإمامُ المُجاهد، عبدالعزيز بن محمَّد بن سُعود (ت ١٢١٨هـ).

٢ـ الأمير، سعود بن عبدالعزيز بن محمد (ت ١٢٢٩هـ).

٣ـ أنجالُه: الشيخ حسين (ت ١٢٢٤هـ)، والشيخ علي (ت ١٢٤٥هـ)، والشيخ عبدالله (ت ١٢٤٣هـ)، والشيخ إبراهيم.

٤ـ حفيدُه الشيخ، عبدالرحمن بن حسن، مؤلف فتح المجيد.

٥ـ الشيخ، حمد بن ناصر بن مُعمَّر (ت ١٢٢٥هـ).

٦ـ الشيخ، عبدالعزيز بن عبدالله الحُصيِّن (ت ١٢٣٧هـ).

٧ـ الشيخ، حُسين بن غنَّام (ت ١٢٢٥هـ).

أما مؤلفاته:

فكان له مشاركةٌ في فُنون كثيرة: في التفسير، والحديث، والعقيدة، والفقه، والوعظ. مع ما كان فيه من انشغال بأعباء الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشاركة في الجهاد كما هو دأب علماء الدعوة، ومن هذه المؤلفات:

١ـ كتابُ التوحيد، مطبوع.

٢ـ أصولُ الإيمان، مطبوع.

٣ـ مفيدُ المُستفيد في كفر تارك التوحيد، أو شرح حديث عمر بن عبَسَة مطبوع.

٤- كشف الشبهات، مطبوع.

٥- ثلاثة الأصول، مطبوع.

٦- مُختصر السيرة، مطبوع.

٧- مختصر فتح الباري، مخطوط.

٨- مختصر زاد المعاد، مطبوع.

٩- مسائل الجاهلية ، مطبوع.

١٠- فضائل الصلاة، مطبوع.

١١- كتاب الاستنباط، مطبوع.

١٢-آداب المشي إلى الصلاة، مطبوع.

١٣- مجموعة الحديث، مطبوع.

- **وفاته:**

مات رحمه الله تعالى في أواخر سنة ١٢٠٦ هـ عن إحدى وتسعين سنة، قضاها في ميدان العلم، والجهاد والدعوة ، ودُفن بمقبرة الدرعية شمال البلدة القديمة، وقد كُتب في رثائه قصائدُ كثيرة تنضح بالوفاء والحب.

شروح كتاب التوحيد

اهتم العلماء بهذا الكتاب، واحتفلوا به في بلاد مختلفة قديمًا وحديثًا، فدرّسوه في حِلَقهم، وكتبوا عليه الشروح والحواشي والإيضاحات المفيدة، التي أسهمت في تبيين مقاصده، وحل ألفاظه وبسط معانيه، كما تُرجم إلى لغات متعددة، ومن هذه المؤلفات، ما يلي:

١- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد.

تأليف الشيخ،سُليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٣٣هـ) ومات قبل تمامه، والموجودُ منه، ينتهي عند باب ما جاء في المصوِّرين. طُبع سنة ١٣٨٢هـ عن ثلاث نُسخ، كما يقول الناشر، وله نسخٌ خطية أخرى في بعض مكتبات الرياض، منها في مكتبة الرياض السعودية برقم ٨٣،٣٦٥ عملنا على طبعة عام ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢- حاشيةُ كتاب التوحيد.

للشيخ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب المتقدِّم.

٣- شرحُ كتاب التوحيد.

للشيخ، علي بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت١٢٣٤هـ) وهو مفقود منذ زمن طويل، يقول ابنُ بشر: ذَكر لي أنه علّق شرحًا على كتاب التوحيد، تأليف جده محمد بن عبد الوهاب.

٤- فتح الحميد في شرح كتاب التوحيد.

لعثمان بن منصور الناصري التميمي (ت١٢٨٢ هـ) في مجلَّدين، وفيه من الدواهي والمنكرات مالا يُحصيه إلاّ الله.

٥- شرحُ كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الله بن عبد الرحمن أبا بُطين العائذي (ت١٢٨٢هـ).

٦- فتحُ المجيد لشرح كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب وكان عملنا على طبعة مؤسسة قرطبة عام ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

٧- قُرَّة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمُرسلين.

للشيخ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب المتقدِّم، مطبوعة سنة ١٣٤٦ هـ، ولها نسخٌ جيدة في بعض مكتبات الرياض، منها في مكتبة الرياض السعودية برقم ٣٢٠.

٨- إبطال التنديد باختصار شرح التوحيد.

للشيخ ، حمد بن عتيق (ت١٣٠١هـ)، أخذه من شرح الشيخ سُليمان بن عبد الله، طبع سنة ١٣٨٩هـ.

٩- تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد.

تأليف الشيخ، عبد الهادي بن محمد بن عبد الهادي البكري العُجيلي.

مختصر، وربما كتبه لصغار الطلاب، ولم يُطبع بعد.

١٠- حاشية فى كتاب التوحيد.

للشيخ إسحاق بن محمد بن عتيق (ت١٣٤٣ هـ) مختصر، ولا يزال مخطوطًا.

١١- الدر النضيد شرح كتاب التوحيد.

للشيخ، أحمد بن حسن النجدي ، مطبوع سنة ١٣١١ هـ في دهلي.

١٢- فتحُ الله الحميد المجيد شرح كتاب التوحيد.

للشيخ، حامد بن محمد بن حسن، مطبوع سنة ١٣١٧ هـ في امرتسار، وقد طبع طبعة حديثه بتحقيق فضيلة الشَّيخ بكر بن عبد الله أبوزيد - عام ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

١٣- القولُ السديد في مقاصد التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦هـ)، مطبوع سنة ١٣٨٢هـ.

١٤- حاشيةُ كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن بن قاسم (ت١٣٩٢هـ)، مطبوع سنة ١٣٩٦ هـ .

١٥- الدر النضيد على أبواب التوحيد.

للشيخ، سُليمان بن عبد الرحمن الحمدان (ت١٣٩٧ هـ)، مطبوع سنة ١٣٩٦هـ.

١٦- الدر النضيد علي كتاب التوحيد

للشيخ، سعيد الجندول، مطبوع سنة ١٣٩٨ هـ.

١٧- إفادة المستفيد بشرح كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن الجطيلي (ت١٤٠٦ هـ) مطبوع سنة ١٤٠٣هـ.

١٨- الجديد في شرح كتاب التوحيد.

للشيخ، محمد القرعاوي، مطبوع سنة ١٤٠٤ هـ.

وكان عملنا على الطبعة الثانية عام ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦هـ.

١٩ - التوضيح المُفيد لمسائل كتاب التوحيد

للشيخ ، عبد الله الدويش (ت١٤٠٨) ، مطبوع سنة ١٤١١هـ.

٢٠- التعليق المفيد لفضيلة الشيخ ابن باز ت ١٤٢٠هـ .

٢١- القول المفيد علي كتاب التوحيد للشيخ بن عثيمين. مطبوع سنة (١٤١٨هـ)

٢٢ - فضل الله الغنيّ الحميد: لياسر برهاس.

٢٣ - الجامع الفريد: لعبد الله بن جار الله **مطبوع سنة (١٤٠٨هـ) ط.**

٢٤- مغنى المريد شرح كتاب التوحيد وهو الذي بين أيدينا.

بعض تراجم مشاهير الشراح

- ترجمة الشيخ سليمان آل الشيخ[1] :

نسبه ونشأته:

هو الحافظ المحدث الفقيه المجتهد الثقة أوحد الحفاظ تاج عصره وجمال زمانه: الشيخ سليمان بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولد سنة ١٢٠٠ هـ كان آية في العلم والحلم، والحفظ والذكاء ، له المعرفة التامة في الحديث، ورجاله وصحيحه، وحسنه، وضعيفه، والفقه والتفسير، والنحو ، وكان في معرفة رجال الحديث يسامي أكابر الحفاظ، وضرب به المثل في زمنه بالذكاء والزكاء، وكان حسن الخط، ليس في زمنه من يكتب بالقلم مثله.

شيوخه:

أخذ العلم عن أبيه، والشيخ حمد بن معمر، وعن عميه: الشيخ حسين، والشيخ علي، والشيخ حسين بن غنام، والشيخ عبد الله بن فاضل، والشيخ عبد الرحمن بن خميس، والشيخ عبد الله الغريب، وغيرهم، وأجازه الشيخ محمد بن علي الشوكاني.

أعماله ومصنفاته:

برع في الفنون، وكانت له اليد الطولى في الحديث ورجاله، يروى عنه أنه

---

(١) كتبها الشيخ إبراهيم بن محمد إبراهيم الشيخ نقلاً عن «تيسير العزيز الحميد».

كان يقول : أنا برجال الحديث أعرف مني برجال الدرعية، لم ير شخص في زمنه حصل له من الكمال والعلوم والصفات الحميدة سواه على صغر سنه.

صنَّف شرح «كتاب التوحيد» لجده، فمن بعده عيال عليه فيه، لكنه لم يكمله. وله حاشية على شرحه والدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك» كان طلبة العلم يحفظونها عن ظهر قلب، ورسالة في عدد الجمعة لم ينسخ على منوالها.

وله فتاوي كثيرة طبعت ضمن مجموع فتاوي أئمة الدعوة رحمهم الله، ومن وقف على كلامه شهد له بالشهامة والجودة والذكاء، والحفظ وحسن الفهم، أخذ عنه العلم عدد كثير من أهل الدرعية وغيرهم، ومنهم الشيخ محمد بن سلطان وغيره.

وفاته:

وكان رحمه الله آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، فلا يتعاظم رئيسًا في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولا يتصاغر ضعيفًا أتى إليه بطلب فائدة. وقد أكرمه الله تعالى بالشهادة سنة ١٢٣٣ هـ، وذلك عندما وشي به بعض المنافقين إلى إبراهيم باشا بن محمد علي باشا بعد دخول الدرعية واستيلائه عليها فأحضره إبراهيم باشا وأظهر بين يديه الات اللهو والمنكر إغاظة له، ثم أخرجه إلى المقبرة وأمر الجند أن يطلقوا عليه الرصاص فمزقوا جسمه، وفاضت روحه إلى ربه، رحمه الله، وأجزل مثوبته، وأسكنه فسيح جناته.

ترجمة الشيخ :عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ[(١)]

نسبه وميلاده:

هو العلاَّمة المُجدِّد الثاني، الشيخ أبو الحسن، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، ولِد في الدرعية، الواقعة إلى الشمال، من مدينة الرياض سنة ١١٩٣هـ، قبل وفاة جده الإمام محمد بن عبد الوهاب بثلاث عشرة سنة.

---

(١) من مصادر ترجمته: المؤلف، ومجموعة الرسائل والمسائل» (٢/ ٢٠-٢٤). وابن بشر «عنوان المجد في تاريخ نجد» (١/ ١٩١، ٢/ ٤١، ٤٦) ، وابن عيسى «عقد الدرر» (٥٤-٦٢) وإسماعيل باشا، «إيضاح المكنون» (٢/ ١٧٢) و«هدية العارفين» (١/ ٥٥٨) وابن قاسم، «الدرر السنية» (٦٠)، والزركلي «الأعلام» (٣/ ٣٠٤) وكحالة ، «معجم المؤلفين» (٥/ ١٣٥)، وعبد الرحمن بن عبد اللطيف، «مشاهير علماء نجد» (٧٨). نقلاً عن كتاب الدكتور الوليد الفرياني».

نشأته:

مات والده وهو صغير، فتولَّى رعايته والعناية به جدُّه الإمام محمد بن عبدالوهاب، ثم وجَّهه إلى طلب العلم فى وقت مبكر، فحفظ القرآن فى التاسعة، وأخذ عنه بعض (كتاب التوحيد) إلى أبواب السحر، وجملة من كتاب (آداب المشى إلى الصلاة) وحضر القراءة عليه فى كُتب التفسير والحديث والأحكام، ولم يزل يتقلب فى تلك الأفياء الوارفة الظليلة، حتى أدرك علمًا غزيرًا فى مدة قصيرة ، لما حباه الله من الذكاء وجودة الفهم، والصبر على المطالعة.

أخذ العلم عن طائفة من عُلماء عصره، فى نجد ومصر، ومنهم:

١- جدُّه الإمام، محمد بن عبد الوهاب (ت١٢٠٦هـ).

٢- العلاَّمة الشيخ، عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت١٢٤٣هـ).

٣- الشيخ الجليل، حمد بن ناصر بن معمر (ت١٢٢٥هـ).

٤- المؤرخ الشيخ، عبد الرحمن بن حسن الجبرتى (ت١٢٤٠هـ).

٥- النحوى المؤرخ، حسين بن غنام (ت١٢٢٥هـ)

٦- الشيخ، إبراهيم الباجورى (شيخ الأزهر) (ت١٢٧٧هـ).

أعماله:

عينه الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد (ت١٢٢٩هـ) فى قضاء الدرعية عاصمة الدولة آنذاك ، ثم نقله الأمير عبد الله بن سعود (ت١٢٣٤هـ) إلى مكة.

ولما اجتاحت جيوش محمد على (باشا) الدرعية سنة ١٢٣٣هـ انتقل إلى مصر مع أفراد أسرته، واستقروا هناك.

وفى سنة ١٢٤١هـ تمكَّن من العودة إلى نجد ، بعد استعادة الإمام تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود (ت١٢٤٩هـ) الحكم ، فأعاده إلى القضاء ، واتخذ منه مستشارًا فيما يعرض له من الأمور الخاصة والعامة، وساهم معه فى إحياء الدعوة وتطهير البلاد مما أصابها من الشرور والفتن، واشترك فى مُعظم الغزوات التى خاضها الإمام تُركى تحت راية التوحيد.

وما برح كذلك فى ولاية الإمام فيصل (ت١٢٨٢ هـ) وعهد الأمير عبدالله (ت ١٣٠٦هـ) حتى فارق الدنيا.

مصنفاته:

ألَّف رحمه الله مجموعة من الكتب، التى تشهد بطول باعه فى التفسير والحديث والفقه، مع أنه كان مشغولاً بالقضاء، والتدريس والدعوة، وغير ذلك.

وقد ذُكر له ما يلي:

١- فتحُ المجيد.

٢- قُرَّة عيون الموحدين.

٣- القول الفصل النفيس.

٤- المقامات فى تاريخ الدعوة.

٥- المحجَّة.

٦- بيانُ كلمة التوحيد.

٧- مُختصر العقل والنقل.

٨- مختصر تفسير سورة الإخلاص.

٩- حجة التحذير فى المنع من لبس الحرير.

١٠- تفسير سورة الفاتحة.

١١-الرد والردع.

١٢- المورد العذب الزُّلال.

١٣- مُلخص منهاج السنة.

١٤- إرشاد طالب الهُدي.

١٥- مجموعة كبيرة من الرسائل والفتاوي.

أبناءه وطلابه.

أنجب خمسة أولاد محمد وإسماعيل، وعبد اللطيف، وإسحاق، وعبد الله

ولهؤلاء الثلاثة عقب، وقد أخذوا عنه، وأخذ عنه أعدادٌ كبيرة من الطلاب فى الدرعية يوم أنْ كانت عاصمة الدولة، وفى الرياض لما انتقل إليها، وتوافدوا عليه من كل مكان.

يقول ابنُ بشر: أخذ عنه العلم خلقٌ كثير، لا يُحصي، فنفع الله الطالب بعلمه، بحيث لا يلبث عنده إلاَّ يسيراً حتى يكون فائقًا بفهمه، وضربت إليه آباط الإبل من جميع نواحى نجد والأحساء، وظهرت أثرالبركات فى تعليمه.

فتخرَّج فى حَلَقَاته الجامعة، الكثير من العُلماء والقُضاة وأهلِ الفضل والسابقة منهم:

١- نجله العلاَّمة الكبير، عبد اللطيف بن عبد الرحمن (ت١٢٩٣ هـ).

٢- القاضى الجليل ، حسن بن حُسين بن محمد بن عبد الوهاب (ت١٢٤٥هـ).

٣- الشيخ، حمد بن على بن عتيق (ت١٢٨٥هـ).

٤- الشيخ، عبد الرحمن بن عدوان (ت١٢٨٥هـ).

٥- الشيخ، سُليمان بن سحمان (ت١٣٤٩هـ).

٦- الشيخ، محمد بن إبراهيم بن عجلان (ت ١٢٩٣هـ).

٧- الشيخ، محمد بن إبراهيم بن محمود (ت١٣٣٣هـ).

أخلاقه وسجاياه:

كان رحمه الله معروفًا بصدقه وإخلاصه، وعزيمته التى لا تلين، شهمًا كريمًا حازمًا، حليمًا متواضعًا عطوفًا ناصحًا، متعففًا يكتسب من الزراعة، شديد الغيرة على حرمات الله ، لا تأخذه فى الله لومة لائم، متنبهًا لدسائس أهل البدع، منافحًا عن العقيدة، بلسانه وقلمه، شُجاعًا، وقف مع رجال الدرعية وقفات مشهودة، فى وجه عدوان إبراهيم (باشا) الغاشم.

يقول ابنُ عيسى: وكان رحمه الله تعالى : ورعًا تقيًا صالحًا، ملازمًا للتدريس ، مرغبًا للعلم، معينًا عليه، كثيرَ الإحسان للطلبة، لين الجانب كريمًا سخيًا ساكنًا،وقوراً كثير العبادة، ويقول أحدُ تلاميذه، فى قصيدة رثائية طويلة:

فلا يبعدنك الله من شيخ طاعةٍ | بعيد عن الأدناس عن الكبر
قوى بأمر الله شهم مهذَّبٌ | أشد على هتك الحدود من النهر
ولما طغى عِلجُ العراق بجهله | وغرره مالفّقوه من الهذر
رماه كما يرمى الرجيمَ بثاقب | فراح ابن جرجيس على الذل والصغر
لقد بان فينا النقصُ من بعد موته | وموت أهيل العلم قاصمة الظهر

وفاته:

امتد به العمر ممتعًا بكامل حواسه، إلى أنْ أدركه الأجلُ عشية يوم السبت حادى عشر ذى القعدة، من عام ١٢٨٥ هـ في مدينة الرياض، وصلى عليه بجامعها الكبير، ودفن فى مقبرة العُود.

فأصيب الناس بفقده، وبكاه العلماء والعامة، وأسفوا عليه، وكُتبت فى رثائه القصائد، رحمه الله رحمة واسعة، وجمعنا به فى مستقر رحمته.

ثناء العلماء عليه:

نال الشيخ عبد الرحمن بن حسن فى حياته الثناء والتقدير البالغ، من صفوة أهل عصره، فمدحوه، وأشادوا بمواقفه ومواهبه ، وأظهروا له التبجيل والاحترام.

يقول ابن بشر: الشيخُ العالم النحرير، والبحر الزاخر الغزير، مُفيد الطالبين ومرجع الفقهاء والمتكلمين ، المحفوف بعناية رب العالمين. جامعُ العلوم الشرعية ومحقق العلوم الدينية، والأحاديث النبوية والآثار السلفية، وارث العلم، كابرًا عن كابر، الذى قصرت عن استنباطه العلماء والأكابر، وصارت الأصاغر بإفاداته شيوخًا أكابر ، ورجع العلم به غضًا، بعد ما كان دابر، ناصر شريعة سيد المرسلين، الموفق للصواب فى الجواب، الحافظ المُتقن.

وقال فى موضع آخر: الشيخُ العالم الفاضل، وعين الأماثل، الذى أحيا مدارس العلم بعد ما عطلت المحابر، وردَّ عصره فى الشباب بعد ما كان داب، الذى تزينَّت بدروسه المساجد والمجالس، واحتاج إلى تفريغ منطوقه كل مذاكر

ومدارس، مجد الفضلاء والمدرسين، من قارنه فى أقواله وأفعاله السداد والصواب.

وقال الشيخُ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: نصب نفسه بحمد الله ومنه لحماية هذا الدين، والذب عنه ومراغمة أعدائه، وقام فى وجوه أهل البدع.

وقد منَّ عليه بنشرالعلم، وانتفع الناس به بعد ما كاد يعدم فى البلاد النجدية، بعد المحنة المصرية، فجدَّد الله به آثار سلفه الصالح.

وجمهورُ من له معرفة بالعلم وما جاءت به الرسل، من أهل هذه البلاد النجدية إنَّما تخرج عليه، وسمع منه وتربى بين يديه، وقد عرف العامةُ والخاصة مناصحته لولاة الأمور، وحثهم على تحكيم كتاب الله والجهاد لإعلاء كلمته، ونصحهم عن الإصغاء إلى أهل الريب، وهو قائم على قضاة تلك البلاد، وقد أنطق الله ألسن المسلمين بالثناء والدعاء لهذا الشيخ.

ويقول ابن عيسى: الشيخُ الإمام العالم الفاضل القُدوة، رئيس الموحدين، وقامع المُلحدين، كان إمامًا بارعًا، محدثًا فقيهًا، له اليد الطُولي، في جميع العلوم الدينية.

كما كان محلَّ حفاوة زُعماء نجد، في وقته، وهو المتصدِّر للدروس، التى كانت تُعقد فى مجالس الإمام تركى والإمام فيصل، فى الحل والترحال.

ترجمة الشيخ ابن باز[1]:

تفضل سماحة الشيخ عبد العزيز بإملاء نبذة عن حياته وقرئت عليه بعد كتابتها فأقرها.

أنا عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز. ولدت بمدينة الرياض فى ذى الحجة سنة ١٣٣٠ هـ، وكنت بصيرًا فى أول الدراسة ثم أصابنى المرض فى عينيَّ عام ١٣٤٦هـ، فضعف بصرى بسبب ذلك.. ثم ذهب بالكلية في مستهل محرم من عام ١٣٥٠ هـ والحمد لله على ذلك، وأسأل الله جل وعلا أن يعوضنى عنه بالبصيرة فى الدين والجزاء الحسن

(١) نقلاً عن كتابه: «التعليق المفيد».

فى الآخرة، كما وعد بذلك سبحانه على لسان نبيه محمد ﷺ، كما أسأله سبحانه أن يجعل العاقبة حميدة فى الدنيا والآخرة.

وقد بدأت الدراسة منذالصغر وحفظت القرآن الكريم قبل البلوغ ثم بدأت فى تلقى العلوم الشرعية، والعربية على أيدى كثير من علماء الرياض من أعلامهم:

١- الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله.

٢- الشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قاضى الرياض رحمهم الله.

٣- الشيخ سعد بن حمد بن عتيق ٠قاضى الرياض).

٤- الشيخ حمد بن فارس (وكيل بيت المال بالرياض).

٥- الشيخ سعد وقاص البخارى (من علماء مكة المكرمة) أخذت عنه علم التجويد فى عام ١٣٥٥ هـ.

٦- سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، وقد لازمت حلقاته نحواً من عشر سنوات وتلقيت عنه جميع العلوم الشرعية ابتداء من سنة ١٣٤٧ هـ إلى سنة ١٣٥٧ هـ حيث رشحت للقضاء من قبل سماحته. جزى الله الجميع أفضل الجزاء وأحسنه، وتغمدهم جميعًا برحمته ورضوانه.

وقد توليت عدة أعمال هي:

١- القضاء فى منطقة الخرج مدة طويلة استمرت أربعة عشر عامًا وأشهرُ وامتدت بين سنتى ١٣٥٧ هـ إلى عام ١٣٧١هـ، وقد كان التعيين فى جمادى الآخرة من عام ١٣٥٧ هـ، وبقيت إلى نهاية عام ١٣٧١هـ.

٢- التدريس فى المعهد العلمى بالرياض سنة ١٣٧٢ هـ. وكلية الشريعة بالرياض بعد إنشائها سنة ١٣٧٣هـ. فى علوم الفقه والتوحيد والحديث واستمر عملى على ذلك تسع سنوات انتهت فى عام ١٣٨٠هـ.

٣- عينت فى عام ١٣٨١ هـ . نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وبقيت فى هذا المنصب إلى عام ١٣٩٠ هـ.

٤- توليت رئاسة الجامعة الإسلامية في سنة ١٣٩٠ هـ بعد وفاة رئيسها شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله في رمضان عام ١٣٨٩ هـ وبقيت في هذا المنصب إلى سنة ١٣٩٥ هـ.

٥- وفي ١٤/ ١٠/ ١٣٩٥ هـ صدر الأمر الملكي بتعييني في منصب الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برتبة «وزير».

أسأل الله العون والتوفيق والسداد.

ولي إلى جانب هذا العمل في الوقت الحاضر عضوية في كثير من المجالس العلمية والإسلامية من ذلك:

١- عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة.

٢- رئاسة اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في الهيئة المذكورة.

٣- عضوية ورئاسة المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي.

٤- رئاسة المجلس الأعلى العالمي للمساجد.

٥- رئاسة المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة التابع لرابطة العالم الإسلامي.

٦- عضوية المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

٧- عضوية الهيئة العليا للدعوة الإسلامية في المملكة.

أما مؤلفاتي فمنها:

١- الفوائد الجلية في المباحث الفرضية.

٢- التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة «توضيح المناسك».

٣- التحذير من البدع، ويشتمل على أربع مقالات مفيدة «حكم الاحتفال بالمولد النبوي وليلة الإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان وتكذيب الرؤيا المزعومة من خادم الحجرة النبوية المسمى الشيخ أحمد».

٤- رسالتان موجزتان في الزكاة والصيام.

٥- العقيدة الصحيحة وما يضادها.

٦- وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها.

٧- الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة.

٨- وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه.

٩- حكم السفور والحجاب ونكاح الشغار.

١٠- نقد القومية العربية.

١١- الجواب المفيد فى حكم التصوير.

١٢- الشيخ محمد بن عبد الوهاب «دعوته وسيرته».

١٣- ثلاث رسائل فى الصلاة:

الأولى : كيفية صلاة النبى ﷺ.

الثانية: وجوب أداء الصلاة فى جماعة.

الثالثة: أين يضع المصلى يديه حين الرفع من الركوع.

١٤- حكم الإسلام فيمن طعن فى القرآن أو فى رسول الله ﷺ.

١٥- حاشية مفيدة على فتح الباري.

١٦- رسالة الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب.

١٧- إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين.

١٨- الجهاد فى سبيل الله.

١٩ - الدروس المهمة لعامة الأمة.

٢٠- فتاوى تتعلق بأحكام الحج والعمرة والزيارة.

٢١- وجوب لزوم السنة والحذر من البدعة(*).

ترجمة الشيخ محمد بن صالح العثيمين[1]:

اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله، محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقبل الوهيبى التميمي.

(*) توفى سماحة الشيخ بعد انتهائنا من جمع الكتاب وخلال مراجعته ٢٤ محرم ١٤٢٠هـ.

(١) نقلاً عن كتاب شرح العقيدة الواسطية بقلم تلميذه وليد بن أحمد الحسين أبو عبد الله الزبيرى رئيس تحرير مجلة الحكمة.

مولده ونشأته:

ولد الشيخ أبو عبد الله فى مدينة عنيزة، إحدى مدن القصيم، عام ١٣٤٧هـ، فى السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، فى عائلة معروفة بالدين والاستقامة، بل تتلمذ على بعض أفراد عائلته، أمثال جدّه من جهة أمه، الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ، رحمه الله، فقد قرأ عليه القرآن، فحفظه، ثم اتجه إلى طلب العلم، فتعلم الخط والحساب، وبعض فنون الآداب.

وكان الشيخ قد رزق ذكاء وزكاء، وهمة عالية، وحرصًا على التحصيل العلمى فى مزاحمته الركب لمجالس العلماء، وفى مقدمتهم الشيخ العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر السعدى وكان الشيخ عبد الرحمن قد أقام اثنين من طلابه لتعليم الصغار، وهما الشيخ على الصالحي، والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، فقرأ الشيخ محمد بن صالح العثيمين عليهما «مختصر العقيدة الواسطية» للشيخ عبد الرحمن السعدي، و«منهاج السالكين فى الفقه» للشيخ السعدى أيضًا، و«الآجرومية»، و«الألفية» فى النحو والصرف، وهكذا كانت نشأة الشيخ بين أحضان العلماء.

ولم يرحل الشيخ لطلب العلم إلا إلى الرياض، حيت فتحت المعاهد العلمية عام ١٣٧٢ هـ فالتحق بها.

وبعد وفاة شيخه عبد الرحمن السعدي، الذى توفى فى عنيزة عام ١٣٧٦ هـ، عن عمر يناهز التاسعة والستين، رشح بعض المشايخ لإمامة الجامع الكبير، إلا أنهم لم يستمروا على ذلك إلا مدة قصيرة جدًا، فرشح الشيخ محمد بن صالح العثيمين لإمامة الجامع الكبير، عندها تصدى للتدريس مكان شيخه، ولم يتصدَّ للتأليف إلا عام ١٣٨٢ هـ، حين ألف أول كتاب له، وهو «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» ، وهو تلخيص لكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية «الحموية فى العقيدة» .

واستغل الشيخ وجوده فى الرياض بالدراسة على الشيخ عبد العزيز بن باز، فقرأ عليه من «صحيح البخاري» وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وبعض الكتب الفقهية.

وقد عرض على الشيخ تولى القضاء من قبل مفتى المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، رحمه الله، الذى ألح على فضيلته بتولى القضاء، بل أصدر قراره بتعيينه رئيسًا للمحكمة الشرعية بالأحساء، فطلب منه الإعفاء، وبعد مراجعات واتصالات سمح بإعفائه من منصب القضاء.

مشايخه:

استفاد الشيخ أبو عبد الله فى طلبه للعلم من عدة شيوخ منهم.

١- الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المتوفى عام ١٣٧٦ هـ، المفسر المشهور، صاحب التفسير المعروف بـ «تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان» فى ثمان مجلدات.

٢- الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، المفتى العام للمملكة العربية السعودية، ورئيس هيئة كبار العلماء.

٣- الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى الشنقيطي، المتوفى عام ١٣٩٣ هـ، المفسر واللغوي، صاحب التفسير المشهور والمعروف بـ «أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن».

٤- الشيخ على بن حمد الصالحي، ولا يزال على قيد الحياة، أطال الله عمره، وأحسن عمله.

٥- الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، رحمه الله.

٦- الشيخ عبد الرحمن بن على بن عودان، رحمه الله.

٧- الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ رحمه الله. جد الشيخ من جهة أمه.

تلاميذه:

لا يمكن حصر جميع من تتلمذ على الشيخ، لأنهم ازدحموا فى مجلسه - لا سيما فى السنوات الأخيرة - بما يزيد على الخمسمائة طالب فى بعض الدروس، على اختلاف مستوياتهم، وقد ذكرت مجموعة من طلابه البارزين فى ترجمته المفصلة فى «مجلة الحكمة» العدد الثانى لا على سبيل الحصر فارجع إليها.

منهجه العلمي:

لقد أوضح الشيخ حفظه الله منهجه، وصرح به مرات عديدة، أنه يسير على الطريقة التى انتهجها شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي، يقول شيخنا أبو عبد الله: «لقد تأثرت كثيراً بشيخى عبد الرحمن السعدى فى طريقة التدريس، وعرض العلم، وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني».

والمنهج الذى سلكه الشيخ عبد الرحمن السعدى هو منهج خرج به عن المنهج الذى يسير عليه علماء الجزيرة - علماء نجد- عامتهم أو غالبتهم ، حيث اعتماد المذهب الحنبلى فى الفروع من مسائل الأحكام الفقهية، والاعتماد على كتاب «زاد المستقنع» فى فقه الإمام أحمد بن حنبل، فكان الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدى معروفًا بخروجه عن المذهب الحنبلي، وعدم التقيد به فى مسائل كثيرة.

ومنهج الشيخ السعدى هو أنه كثيراً ما يتبنى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ويرجحها على المذهب الحنبلي، فلم يكن عنده الجمود تجاه مذهب معين، بل كان متجرداً للحق ، وقد انطبعت فيه هذه الصفة وانتقلت إلى تلميذه محمد الصالح العثيمين.

ولا بأس فى أن نذكر أمثلة لبعض المسائل التى خالف شيخنا أبو عبد الله العثيمين فيها شيخ الإسلام ابن تيمية منها:

١- يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجماعة شرط لصحة الصلاة، ويرى شيخنا أنها واجبة.

٢- يرى شيخ الإسلام أن المتمتع فى الحج يكفيه سعى العمرة عن سعى الحج ، ويرى شيخنا أن سعى العمرة لا يكفى عن سعى الحج.

٣- يرى شيخ الإسلام جواز سفر المرأة بلا محرم مع الأمن، ويرى شيخنا عدم جواز سفر المرأة بلا محرم مطلقًا.

٤- يرى شيخ الإسلام جواز الجمع بين الأختين من الرضاع، ويرى شيخنا التحريم لعموم حديث :«يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

٥- يرى شيخ الإسلام جواز دفع الزكاة فى قضاء دين الميت الذى لم يخلف وفاء، ويرى شيخنا عدم الجواز.

٦- يرى شيخ الإسلام جواز تعفير الوجه بالتراب تذللاً لله تعالي- ذكرها في الاختيارات- ويرى شيخنا ضعف هذا القول ، لأن الأصل في العبادات المنع والحظر، حتى يقوم دليل على المشروعية.

٧- يرى شيخ الإسلام أن للأم الثلث مع الإخوة المحجوبين بالأب، ويرى شيخنا أن للأم السدس، أي إن الأخوة، وإن كانوا محجوبين بالأب، لكن تأثيرهم على الأم يظل باقيًا، فيحجبونها حجب نقصان من الثلث إلى السدس، وهو قول الجمهور.

٨- يرى شيخ الرسلام جواز الزيادة بين الربويين من جنس واحد في مقابل الصنعة، ويرى شيخنا عدم الجواز للعمومات الدالة على أن الذهب بالذهب لابد فيه من التساوي وزنًا بوزن، سواء بسواء، يداً بيد.

٩- يرى شيخ الإسلام أن المأموم تكفيه قراءة إمامه في الصلاة الجهرية ، وهو المذهب ويرى شيخنا وجوب قراءة الفاتحة على المأموم في الجهرية.

طبيعة الدرس عند الشيخ:

إن طبيعة الدرس التي التزمها الشيخ، وسار عليها، واتخذها منهجًا له منذ توليه التدريس في الجامع الكبير خلفًا لشيخه منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة تكمن في نمط معين، ذلك أن الشيخ يركز كثيراً على حفظ المتون، ويطالب التلميذ ويتابعه على الحفظ في كل درس. بل إن الشيخ ينكر على من يحضر درسه ولا يلتزم الحفظ، وقد حفظنا على الشيخ كثيراً من المتون المنثورة والمنظومة.

ومن آثاره العلمية:

ذكرت من آثاره العلمية خمسة وخمسين مؤلفًا، وأكثرها عبارة عن رسائل صغيرة، فارجع إلى التفصيل في ذكرها إلى مجلتنا «مجلة الحكمة» في عددها الثاني، في ترجمة الشيخ حفظه الله. فقد أطلنا في ترجمته إلى ثلاثين صفحة فارجع إليها.

هذا ما تيسر كتابته وتدوينه باختصار عن ترجمة المؤلف، والله أسأل أن يَمُدَّ في عمره، ويحسن عمله، وينفع به الأمه إنه سميع قريب مجيب والحمد لله رب العالمين.

متن

كتاب التوحيد

تأليف المصلح المجدد شيخ الإسلام

محمدُ بن عبد الوهاب رحمه الله

المتوفي سنة ١٢٠٦هـ

قال شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

كتابُ التَّوْحِيدِ

وقولُ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.الآية. [النحل:٣٦].

وقولهُ:﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية.[الإسراء:٢٣].

وقولهُ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية. [النساء: ٣٦].

وقولهُ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآيات: [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

قَالَ ابنُ مَسعود: «مَن أَرَادَ أَن يَنظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ التي عَلَيهَا خَاتَمهُ فَلْيَقرأ قَولَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ . إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾.. الآية.

عَن مُعاذ بن جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَال: «كنتُ رَدِيفَ النبيِّ ﷺ على حمار فقالَ لِي: يَا مُعَاذُ؟ أَتَدرِي مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَاد، وَمَا حَقُّ العِباد عَلَى الله؟ قلتُ الله وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قَالَ: حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ أَن يَعبُدُوه، وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شيئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى الله أَن لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شيئًا، قلتُ يا رسولَ الله: أَفَلا أُبَشِّرُ الناسَ؟ قال: لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» أَخْرَجَاهُ في الصَّحِيحَين.

فيهِ مسائلُ

الأُولى: الحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الجِنِّ والإِنْس.

الثانية: أَنَّ العِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ، لأنَّ الخُصُومَةَ فيه.

الثالثة: أنَّ مَنْ لَمْ يَأت بِهِ لَمْ يَعْبُدِ الله فَفِيهِ معنى قولِهِ: ﴿ولا أنتمْ عابدُون ما أعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣].

الرابعة: الحِكْمَةُ في إِرسَالِ الرُّسُلِ.

الخامسة: أَنَّ الرِّسَالَةَ عمَّتْ كُلَّ أُمَّة.

السادسة: أَنَّ دينَ الأنبيَاء وَاحدٌ.

السابعة: المَسْأَلَةُ الكَبِيرَةُ: أَنَّ عِبَادَةَ الله لاَ تَحْصُلُ إلاَّ بالكُفْرِ بالطَّاغُوتِ. فَفيه معنى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن يكْفُرْ بالطَّاغُوتِ﴾. الآية : [البقرة: ٢٥٦].

الثامنة: أنَّ الطَّاغُوتَ عامٌّ في كُلِّ ما عُبِدَ مِنْ دُونِ الله.

التاسعة: عظَمُ شَأْنِ الثَّلاث آيات المُحْكَمَاتِ في سورَةِ الأنْعَامِ عِنْدَ السَّلَفِ، وَفِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ. أولها: النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ.

والعاشرة: الآياتُ المُحْكَمَات في سورَةِ الإِسْرَاء.

وفيها ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مَسْأَلَةً بدَأَهَا الله بِقَوْلِهِ: ﴿ولا تجعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخرَ فَتقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً﴾ [الإسراء:٢٢]. وخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ولا تَجعَلْ مَعَ اللَّهِ إلهًا آخرَ فَتُلْقَىٰ في جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩] ونَبَّهَنَا الله سُبْحَانَهُ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ المَسَائِلِ بِقَولِهِ: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء:٣٩] .

الحادية عشرة: آيةُ سُورَةِ النِّسَاءِ الَّتِي تُسَمَّى آيةَ الحُقُوقِ العَشْرَةِ بدَأَهَا الله تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦]

الثانية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى وَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ عِنْدَ مَوْتِه.

الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ الله عَلَيْنا.

الرابعة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ العبَادِ عَلَيْهِ إِذَا أَدَّوْا حَقَّهُ.

الخامسة عشرة: أَنَّ هذه المَسْأَلَةَ لا يَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَة.

السادسة عشرة: جَوَازُ كِتْمان العِلْمِ للمَصْلَحَة.

السابعة عشرة: اسْتِحْبَابُ بِشَارَةِ المُسْلِم بما يَسُرُّهُ.

الثامنة عشرة: الخَوْفُ مِنْ الاتِّكَالِ عَلَى سعَةِ رَحْمَةِ الله.

التاسعة عشرة: قَوْلُ المَسْؤولِ عمَّا لا يَعْلَم: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ.

العشرون: جَوَازُ تَخْصِيصِ بَعْضِ النَّاسِ بالعِلْمِ دُونَ بَعْضٍ.

الحادية والعشرون: تَوَاضُعُهُ ﷺ لِرُكُوبِ الحِمَارِ مَعَ الإِرْدَافِ عَلَيْهِ.

الثانية والعشرون: جَوَازُ الإِرْدَافِ عَلَى الدَّابَّة.

الثالثة والعشرون: عِظَمُ شأنِ هَذِهِ المسألة.

الرابعة والعشرون: فَضِيلَةُ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ.

١. بَابٌ

فَضْلُ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

وقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية [الأنعام: ٨٢]

عن عُبَادَةَ بنِ الصَّامت (رَضِيَ اللهُ عَنْه)؛ قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ (مَن شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ وأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مريمَ وَرُوحٌ مِنْهُ. والجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ: أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ. أخْرجاه.

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: (فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَـلَى النَّارِ مَن قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَبتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله).

وَعَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللهُ عَـنْهُ) عَنْ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى عَلَيْه السَّلاَمُ يَارَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ به. قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى لاَ إِلَهَ إِلاَّالله. قَالَ يَـارَبِّ. كُلُّ عِـبَادِكَ يَقُـولُونَ هَـذَا؟ قَالَ: يَا مُـوسَى لَـو أَنَّ السَّمَـوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيرِي وَالأَرَضِـينَ السَّبعَ فِي كفَّة وَ(لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله) فِي كِفَّـةٍ: مَالَتْ بِهِنَّ لاَإِلَهَ إِلاَّ اللهُ» رواه ابن حِبَّان والحاكِمُ وصَحَّحَهُ.

وللتِّرْمذيِّ وَحسَّنَهُ عَنْ أَنَس سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابنَ آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرضِ خَـطَايَا ثُم لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئـاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغفِرَةً.

فيه مَسَائِلُ

الاولى: سعَةُ فَضْلِ الله.

الثانية: كَثْرَةُ ثوابِ التَّوْحِيد عِنْدَ الله.

الثالثة: تَكْفِيرُهُ مَعَ ذَلك للذُّنُوب.

الرابعة: تَفْسيرُ الآيَةِ الَّتِي في سُورَةِ الأَنْعَامِ.

الخامسة: تَأَمُّلُ الخَمْس اللَّوَاتِي فى حَدِيث عُبَادَةَ.

السادسة: أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَـهُ وَبَيْنَ حَدِيث عِتْبَانَ وَمَا بَعْدَهُ تَبَـيَّنَ لَكَ مَعْنَى قَوْلِ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله» وَتَبيَّنَ لَكَ خَطَأُ المَغْرُورِينَ.

السابعة: التَّنْبِيهُ للشَّرْط الَّذِي فِي حَدِيث عِتْبَانَ.

الثامنة: كَوْنُ الأَنبِيَاءِ يَحْتَاجُونَ للتنبيه عَلَى فَضْلِ «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله»

التاسعة: التَّنْبِيهُ لِرُجْحَانِهَا بِجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّ كَثِيراً مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخِفُّ مِيزَانُهُ.

العاشرة: النَّصُّ عَلَى أنَّ الأَرَضِينَ سَبْعٌ كالسَّموات.

الحادية عشرة: أنَّ لَهُنَّ عُمَّاراً.

الثانية عشرة: إثْباتُ الصِّفات خِلاَفاً للأَشعَرِيَّة.

الثالثة عشرة: أَنَّكَ إذَا عَرَفْتَ حَدِيثَ أَنَس، عَرَفْتَ أَن قَوْلَهُ في حَدِيث عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَن قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ» أنَ تَرْكُ الشِّرْكِ، لَيْسَ قَولَها باللِّسان.

الرابعة عشرة: تأمُّلُ الجَمْعِ بَيْنَ كَوْنِ عِيسى ومُحَمَّدٍ عَبْدَيِ اللهِ وَرَسُولَيْه.

الخامسة عشرة: مَعْرِفَةُ اخْتِصَاصِ عِيسَى بكَوْنِهِ كَلِمَةَ الله.

السادسة عشرة: مَعْرِفَةُ كَوْنِه رُوحاً مِنْهُ.

السابعة عشرة: مَعْرِفَةُ فَضْلِ الإِيْمانِ بِالجَنَّةِ والنَّارِ.

الثامنة عشرة: مَعْرِفَةُ قَوْلِه «عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»

التاسعة عشرة: مَعْرِفَةُ أَنَّ المِيزانَ لَهُ كِفَّتَانِ.

العشرون: مَعْرِفَةُ ذِكْرِ الوَجْه.

٢ـ بَابٌ

مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ: دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠].

وقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

وعَنْ حُصَيْنِ بن عَبْد الرَّحمن قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعيد بن جُبَيْر، فقال: أَيُّكم رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنا ثم قُلْتُ أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ في صَلاَة: ولَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَديثٌ حَدَّثَنَاهُ الشعبيّ، قَالَ: «لاَ رُقْيَةَ إِلاَّ مِنْ عَيْنٍ أَوحُمَةٍ» قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلى مَا سَمِعَ، ولَكِنْ حَدَّثَنَا ابنُ عبَّاس عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبيَّ ومَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلاَنِ، وَالنَّبيَّ ولَيس مَعهُ أَحَدٌ، إِذ رُفِعَ لِي سَوادٌ عَظِيمٌ فظَنَنتُ أَنَّهم أُمَّتي، فَقِيلَ لي: هَذَا مُوسَى وَقَومُهُ فَنَظَرتُ فَإِذَا سَوادٌ عَظِيمٌ، فَقيلَ لي: هَذه أُمَّتُكَ، ومَعَهُم سَبْعُونَ أَلفاً يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ولاَ عَذَاب.. ثُمَّ نَهضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولئكَ ـ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذينَ صَحِبُوا رَسولَ الله ﷺ وقالَ بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُمُ الَّذينَ وُلِدُوا في الإِسْلاَمِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بالله شَيْئًا.. وذَكَرُوا أَشْياءَ فَخَرَجَ عليهمْ رَسُولُ الله ﷺ فَأَخْبَرُوه فَقَالَ: «هُمُ الذينَ لاَ يَسترقُونَ ولاَ يَكتَوُونَ. ولاَ يَتَطَيَّرُونَ. وعَلَى ربِّهِم يَتَوكَّلُونَ» فَقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنهُم. فَقَالَ: «أَنتَ مِنْهُم» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلني مِنْهُمْ فَقَالَ: «سبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةَ».

فيهِ مسائلُ

الأولى: مَعْرِفَةُ مَراتِبَ النَّاسِ فِي التَّوْحِيد.

الثانية: مَا مَعْنَى تَحْقِيقه.

الثالثة: ثَنَاؤهُ سُبْحَانَهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِكَوْنِه لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

الرابعة: ثَنَاؤُهُ عَلَى سَادَاتِ الأَوْلِيَاءِ بِسَلامَتِهِم مِنَ الشِّرْكِ.

الخامسة: كَوْنُ تَرْكِ الرُّقْيَةِ وَالكَيِّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.

السادسة: كَوْنُ الجَامِعِ لِتِلْكَ الخِصَالِ هُوَ التَّوَكُّلَ.

السابعة: عُمْقُ عِلْمِ الصَّحَابَةِ بِمَعْرِفَتِهِمِ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُو ذَلِكَ إِلاَّ بِعَمَلٍ.

الثامنة: حِرْصُهُمْ عَلَى الخَيْرِ.

التاسعة: فَضِيلَةُ هَذِهِ الأُمَّةِ بِالكَمِّيَّةِ والكَيْفِيَّةِ.

العاشرة: فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُوسَى.

الحاديةُ عشرة: عَرْضُ الأُمَمِ عَلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

الثانية عشرة: أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُحْشَرُ وَحْدَهَا مَعَ نَبِيِّهَا.

الثالثة عشرة: قِلَّةُ مَنِ اسْتَجَابَ لِلأَنْبِيَاءِ.

الرابعة عشرة: أَنَّ مَنْ لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ يَأْتِي وَحْدَهُ.

الخامسة عشرة: ثَمَرَةُ هَذَا العِلْمِ، وَهُوَ عَدَمُ الاغْتِرَارِ بِالكَثْرَةِ، وَعَدَمُ الزُهْدِ فِي القِلَّةِ.

السادسة عشرة: الرُّخْصَةُ فِي الرُّقْيَةِ مِنَ العَيْنِ والحُمَةِ.

السابعة عشرة: عُمْقُ عِلْمِ السَّلَفِ؛ لِقَوْلِه: «قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ كَذَا كذا»؛ فَعُلِمَ أَنَّ الحَدِيثَ الأَوَّلَ لا يُخَالِفُ الثَّانِي.

الثامنة عشرة: بُعْدُ السَّلَفِ عَنْ مَدْحِ الإِنْسَانِ بِما لَيْسَ فِيه.

التاسعة عشرة: قَوْلُهُ (أَنْتَ مِنْهُم) عَلَمٌ مِنْ أَعْلامِ النُّبُوَّةِ.

العشرون: فَضِيلَةُ عُكَّاشَةَ.

الحادية والعشرون: اسْتِعْمَالُ المَعَارِيْضِ.

الثانية عشرة: حُسْنُ خُلُقِه ﷺ

٣- بَابٌ

الخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ

وَقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦)

وقَالَ الخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]

وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فقال: «الرِّيَاءُ»

وَعَنْ ابنِ مَسْعُود (رضيَ اللهُ عَنْهُ) أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِن دُونِ الله نِداً دَخَلَ النَّارَ). رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

ولِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ؛ أَن رَسُولَ اللهَ ﷺ قَالَ: (مَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً؛ دَخَلَ الجَنَّةَ. وَمَن لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيئاً؛ دَخَلَ النَّارَ).

فيهِ مَسَائِلُ

الاولى: الخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ.

الثانية: أَنَّ الرِّيَاءَ مِنَ الشِّرْكِ.

الثالثة: أَنَّهُ مِنَ الشِّرْكِ الأَصْغَرِ.

الرابعة: أَنَّهُ أَخْوَفُ مَا يُخَافُ مِنْهُ عَلَى الصَّالِحِينَ.

الخامسة: قُرْبُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.

السادسة: الجَمْعُ بيْنَ قُرْبِهِمَا فِي حَدِيث وَاحِد.

السابعة: أَنَّهُ مَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ.

الثامنة: المَسْأَلَةُ العَظِيمَةُ سُؤَالُ الخَلِيلِ لَهُ وَلِبَنِيهِ وِقَايَةَ عِبادَةِ الأَصْنَامِ.

التاسعة: اعْتِبَارُهُ بِحَالِ الأَكْثَرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥]

العاشرة: فِيهِ تَفْسِيرُ (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) كَمَا ذَكَرَهُ البُخَارِيُّ.

الحادية عشرة: فَضِيلَةُ مَنْ سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ.

٤ ـ بَابٌ

الدُّعَاءُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا)؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ؛ قَالَ لَه: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ. فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيهِ شَهَادَةَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ. (وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ)، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَوا عَلَى

رَسول الله ﷺ كُلُّهُمْ يرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا. فَقَالَ: أَينَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ؟ » فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْه، فَأَتِيَ بِه، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيه، وَدَعَا لَهُ ...

فَبَرأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِه وَجعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَـة، فَقَالَ: (انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِم، ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ حَقِّ الله تَعَالَى فِيه، فَوَالله ، لأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» (يَدُوكُونَ)، أَيْ : يَخُوضُونَ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأُولى: أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الله طَرِيقُ مَنِ اتَّبَعَ رَسُولَ الله ﷺ.

الثانية: التَّنْبِيه عَلَى الإِخْـلاصِ، لأَنَّ كَثِيراً مِنَ الـنَّاسِ لَوْ دَعَا إِلَى الحَـقِّ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِه.

الثالثة: أَنَّ البَصِيرَةَ مِنَ الفَرَائِضِ.

الرابعة: مِنْ دَلاَئِل حُسْنِ التَّوْحِيدِ كَوْنُهُ تَنْزِيهًا لله تَعَالَى عَنِ المَسَبَّةِ.

الخامسة: أَنَّ مِنْ قُبْحِ الشِّرْكِ كَوْنُهُ مَسَبَّةً لله

السادسة : وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: إِبْـعَادُ المُسْلِمِ عَنِ المُشْرِكِينَ، لِئَلاَّ يَصِـيرَ مِنْهُم وَلَوْ لَمْ يُشْرِك.

السابعة: كَوْنُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ وَاجِبٍ.

الثامنة: أَنَّهُ يُبْدَأُ بِه قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الصَّلاَة.

التاسعة: أَنَّ مَعْنَى «أَنْ يُوَحِّدُوا الله» مَعْنَى شَهَادَة أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله.

العاشرة: أَنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الكِتَـابِ وَهُوَ لاَ يَعْرِفُهَا أَو يَعْرِفُها وَلا يَعْمَلُ بِهَا.

الحادية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى التَعْلِيمِ بِالتَّدْرِيجِ.

الثانية عشرة: البَدَاءَةُ بالأهَمّ فَالأهَمِّ.

الثالثة عشرة: مَصْرِفُ الزَّكَاة.

الرابعة عشرة: كَشْفُ العَالِمِ الشُّبْهَةَ عَنِ المُتعَلِّمِ.

الخامسة عشرة: النَّهْيُ عَنْ كَرائِمِ الأمْوَالِ.

السادسة عشرة: اتِّقَاءُ دَعْوةِ المَظْلُومِ.

السابعة عشرة: الإِخْبَارُ بِأَنَّهَا لاَ تُحْجَبُ.

الثامنة عشرة: مِنْ أَدِلَّةِ التَّوحِيدِ مَا جَرَى عَلَى سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَسَادَاتِ الأَوْلِيَاءِ مِنْ المَشَقَّةِ وَ الجُوعِ وَالوبَاءِ.

التاسعة عشرة: قَوْلُهُ: «لأُعطِيَنَّ الرَّايَةَ..» إلخ: عَلَمٌ مِنْ أعْلاَمِ النُّبُوَّةِ.

العشرون: تَفْلُهُ فى عَيْنَيْهِ عَلَمٌ مِن أعْلامِهَا أيضاً.

الحادية والعشرون: فَضِيلَةُ عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ.

الثانية والعشرون: فَضْلُ الصَّحَابَةِ فِي دَوْكِهِم تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَشُغْلِهِمْ عَنْ بِشَارَةِ الفَتْحِ.

الثالثة والعشرون: الإِيمَانُ بِالقَدَرِ لِحُصولِهَا لِمَنْ لم يَسْعَ لَهَا ومَنْعِهَا عَمَّنْ سَعَى.

الرابعة والعشرون: الأدَبُ فِي قَوْلِه:«عَلَى رِسْلِكَ»

الخامسة والعشرون:الدَّعْوَةُ إِلىَ الإِسْلاَمِ قَبْلَ القِتَالِ.

السادسة والعشرون: أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِمَنْ دُعوا قَبْلَ ذَلِكَ وَقُوتِلُوا.

السابعة والعشرون: الدَّعْوَةُ بِالحِكْمَةِ لِقوله: «أَخبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ».

الثامنة والعشرون: المعرفة بِحَقِّ الله في الإِسْلَامِ.

التاسعة والعشرون: ثَوَابُ مَنِ اهْتَدَى عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ.

الثلاثون: الحَلِفُ عَلَى الفُتْيَا.

٥ـ بَابٌ

تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ

وقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ [الإسراء:٥٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الآية. [الزخرف: ٢٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ).

وَشَرْحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ مَا بَعْدَهَا مِنَ الأَبْوَابِ.

فِيهِ مَسَائِلُ

فِيهِ أَكْبَرُ المَسَائِلِ وَأَهَمُّهَا.

وَهِيَ تَفْسِيرُ التَّوحِيدِ وَتَفسِيرُ الشَّهَادَةِ.

وَبَيَّنهما بِأُمُورٍ وَاضِحَةٍ.

ومِنْهَـا آيةُ الإِسْرَاءِ: بَيَّنَ فـيها الردَّ عَلَـى المُشْرِكِينَ الـذِّينَ يَدْعُونَ الصَّـالِحِينَ؛ فَفِيهَا بَيَانُ أَنَّ هذَا هُوَ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ.

ومِنْهَا آيَةُ (بـراءَة) بَيَّنَ فِيها أَنَّ أَهْلَ الكِـتَابِ اتَّخذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهبَـانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله.

وَبَيَّنَ بِـأَنَّهُمْ لَمْ يُـؤْمَرُوا إِلاَّ بِأَنْ يَعْبُـدُوا إِلهاً واحِداً، مَـعَ أَنَّ تَفْسِيـرَهَا الذِّي لا إِشْكَالَ فِيهِ طَاعَةُ العُلَمَاءِ وَالعُبَّادِ فِي المَعْصِيَةِ، لاَدُعَاؤهم إِيَّاهُم.

وَمِنْهَـا قَوْلُ الخَلِيلِ عَلَـيْهِ السَّلاَمُ لِلْـكُفَّارِ ﴿إِنَّنِي بَـرَاءٌ مِمَّا تَعْـبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الآية. [الزخرف: ٢٦].

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هُذه البَرَاءَةَ وَهذه المُـوَالاَةَ هِيَ تَفْسِيرُ شَهَادَةِ أَن لاَ إِله إِلاَّ الله، فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

وَمِنْهَـا آيَةُ البَقَرة فِي الـكُفَّار الَّذِينَ قَالَ الله فـيهم: ﴿وَمَا هُم بِـخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]. ذَكَرَ أَنَّهم يُحِبُّونَ أَنْدَادَهُـمْ كَحُبِّ الله، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الله حُبّاً عَـظِيماً، وَلَـمْ يُدْخِلْهُـمْ فِي الإِسْلاَمِ؛ فَكَـيْفَ بِمَن أَحَـبَّ النِدَّ أَكْبَـرَ مِنْ حُبِّ الله؟! وَكَيْفَ بِمَنْ لَـمْ يُحِبَّ إِلاَّ النِدَّ وَحْدَهُ وَلَـمْ يُحِبَّ الله؟!.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ (ﷺ) «مَن قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَكَفَـرَ بِمَا يُعْبَدُ مِن دُونِ الله؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى الله».

وَهذا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبَيِّن مَعْنَى (لا إِلَهَ إِلاَّ الله)؛ فَإِنَّهُ لَـمْ يَجْعَلِ التَّلَفُّظَ بِهَا عَاصِماً لِلدَّمِ وَالمَالِ، بَلْ وَلاَ مَعْرِفَةَ مَعْنَاهَا مَـعَ لَفْظِهَا، بَلْ وَلاَ الإِقْرَارَ بِذلك، بَلْ وَلاَ كَونَهُ

لاَ يَدْعُو إلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، بَلْ لاَ يَحْرُمُ مَـالُهُ وَدَمُهُ حَتَّى يُضِيفَ إلى ذلكَ الكُفْرَ بـِمَا يُعْبَدُ من دُونِ الله. فَإن شَكَّ أَو تَـوَقَّفَ؛ لَمْ يَحْرُمْ مَالُهُ وَلاَ دَمُهُ. فَـيالَها مِنْ مَسْـأَلَةٍ مَا أَعْظَمَهَـا وَأَجَلَّهَا! وَيَا لَـهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَـحَهُ ! وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَـعَهَا لِلمُنَازِعِ!

٦. بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ البَلاَءِ أَو دَفْعِهِ

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ الآية [الزمر: ٣٨].

عَنْ عِـمْرانَ بن حُصَيْنٍ رَضِيَ الله عنـهما أَنَّ الـنَّبِيَّ (ﷺ) رَأَى رَجُلاً فـي يَدِه حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِه»؟ قَالَ: مِنَ الـواهِنَةِ. فَقَالَ انزَعها؛ فَإنَّهَا لاَ تَزِيدُكَ إلاَّ وَهناً، فَإنَّكَ لَومتَّ وَهِيَ عَلَيكَ؛مَا أَفلَحتَ أَبَداً». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لاَ بأْسَ بِهِ.

وَلَهُ عَنْ عُقبَـةَ بنِ عَامِرٍ مَرْفُوعاً: «مَنْ تَعـلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَلاَ أَتَمَّ الله لَـهُ، وَمَن تَعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فَلاَ وَدَعَ الله لَهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ».

وَلابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فـي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى، فقطعَهُ وَتَلا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فيهِ مسائلُ

الأولى: التَّغْلِيظُ فِي لِبْسِ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِمِثْلِ ذلِكَ.

الثانية: أَنَّ الصَّحَابِيَّ لَوْ مَاتَ وَهِيَ عَلَيْهِ؛ مَا أَفْلَحَ. فِيهِ شَاهِدٌ لِكَلَامِ الصَّحَابَةِ: أَنَّ الشِّرْكَ الأصْغَرَ أَكْبَرُ مِنَ الكَبَائِرِ.

الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يُعْذَرْ بِالجَهَالَةِ.

الرابعة: أَنَّهَا لاَ تَنْفَعُ فِي العَاجِلَةِ؛ بَلْ تَضُرُّ، لِقَوْلِهِ: «لاَ تَزِيدُكَ إِلاَّ وَهناً».

الخامسة: الإِنْكَارُ بِالتَّغْلِيظِ عَلَى مَنْ فَعَلَ مِثْلَ ذلكَ.

السادسة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً؛ وُكِلَ إِلَيهِ.

السابعة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ تميمةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ.

الثامنة: أَنَّ تَعْلِيقَ الخَيْطِ مِنَ الحُمَّى مِنْ ذلكَ.

التاسعة: تلاوَةُ حُذَيفَةَ الآيَةَ دَليلٌ عَلَى أَنَّ الصَّحَابَةَ يَسْتَدِلُّونَ بالآياتِ الَّتي فِي الشِّرْكِ الأكْبَرِ عَلَى الأصْغَرِ؛ كَمَا ذَكَرَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي آيَةِ البَقَرَةِ.

العاشرة: أَنَّ تَعْلِيقَ الوَدَعِ مِنَ العَيْنِ مِنْ ذلكَ.

الحادية عشرة: الدُّعَاءُ عَلَى مَنْ تَعَلَّقَ تَميمَةً أَنَّ الله لا يُتِمُّ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلاَ وَدَعَ الله لَهُ؛ أَيْ: تَرَكَ الله لَهُ.

٧ ـ بَابٌ
مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأنْصَارِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ؛ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله (ﷺ) فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: «أَنْ لاَ يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلاَدَةٌ مِن وَتَرٍ أو قِلاَدَةٌ إِلاَّ قُطِعَتْ».

وَعَن ابـنِ مَسْعُـود رَضِيَ الله عنـهُ؛ قَالَ: سَمِـعتُ رَسُولَ الله (ﷺ) يـقولُ: «إنَّ الرُّقَى وَالتَّمائمَ وَالتِّولةَ شرْكٌ». رواهُ أَحْمَدُ وَ أبو داود.

«التَّمـائمُ» شيْءٌ يُعلَّقُ عـلَى الأَوْلَاد يَتَّقُونَ به الـعْينَ. لكنْ إذَا كَانَ المُعَـلَّقُ مِن القُرآنِ؛ فَرَخَّصَ فيه بَعْضُ السَّلَف، وَبَعْضُهُم لَمْ يُرخِّصْ فيه، وَيَجعلُهُ من المَنْهِيِّ عَنْهُ، منهُم ابنُ مَسْعُود رَضِيَ الله عَنْهُ. «والرُّقى»: هِيَ الَّتي تُسَمَّى العَزائِمَ، وَخَصَّ منْـهَا الـدَّلِيلُ مَـا خَلاَ مِنَ الـشِّرْكِ؛ فَـقدْ رَخَّصَ فِـيه رَسُولُ الله (ﷺ) مِـنَ العَـيْنِ وَالحُمَة.

و«التِّوَلَةُ»: هِيَ شَيْءٌ يَـصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يحبب المَـرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَته.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفـعٍ قال؛ قَالَ لي رَسُولُ الله (ﷺ): «يَا رُوَيْفِعُ لَـعَلَّ الحَيَاةَ سَتطولُ بكَ؛ فَـأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْـيَتَهُ، أَو تَقَلَّدَ وَتَراً، أو اسْتَنْـجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أو عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّداً بَرِيءٌ مِنْهُ».

وَعَنْ سَعِيد بنِ جُبير؛ قَالَ: «مَنْ قَطعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَـانٍ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ» رَوَاهُ وَكِيعٌ وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ؛ قَالَ:

«كَانُوا يكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ القُرْآنِ وَغيرِ القُرْآنِ».

فيهِ مسائِلُ

الأولى: تَفْسيرُ الرُّقَى وَالتَّمَائِم.

الثانية: تَفْسيرُ التِّوَلَة.

الثالثة: أَنَّ هذه الثَّلاثَة كُلَّهَا مِنَ الشِّرْكِ مِنْ غَيرِ اسْتِثْنَاء.

الرابعة: أَنَّ الرُّقْيَةَ بالكَلامِ الحَقِّ مِنَ العَيْنِ وَالحُمَةِ لَيْسَ مِنْ ذلِكَ.

الخامسة: أنَّ التَّميمةَ إذا كانَتْ مِنَ القرآنِ؛ فَقَدِ اختَلَفَ العُلَماءُ؛ هَلْ هِيَ مِنْ ذلِكَ أمْ لاَ؟

السادسة: أنَّ تَعْليق الأوْتَارِ عَلَى الدَّوابِّ مِنَ العَيْنِ مِنْ ذلِكَ.

السابعة: الوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنْ تَعلَّقَ وَتَراً.

الثامنة: فَضْلُ ثَوَابِ مَنْ قَطَعَ تَميمَةً مِنْ إنْسَانٍ.

التاسعة: أنَّ كَلاَمَ إبْرَاهِيمَ لاَ يُخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الاخْتِلاَفِ؛ لأنَّ مُرَادَهُ أصْحَابُ عَبْدِ الله ابن مسعود.

٨ ـ بَابٌ
مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

وقَوْلُ الله تَعالى: ﴿أفَرَأيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾ [الآيات النجم: ١٩].

عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ونحن حُدَثاءُ عهدٍ بكفر! وللمشركين سِدرةٌ يعكفون عندها ويَنُوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط! فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبرُ! إنَّهَا السُّنَنُ! قُلتُم ـ والَّذي نَفسي بيَدِه ـ كَمَا قَالَت بَنُو إسرَائيلَ لمُوسَى: (اجعَل لَنَا إلَـهاً كَمَا لَهُم آلِهَةٌ، قَالَ إنَّكُم قَومٌ تجهَلُونَ) لَتَركَبُنَّ سُنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم). رواه الترمذي وصححه.

فيهِ مسائلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّجْمِ.

الثانية: مَعْرِفَةُ صُورَةِ الأمْرِ الذَّي طَلَبُوا.

الثالثة: كَوْنُهُمْ لَمْ يَفعَلُوا.

الرابعة: كَوْنُهُمْ قَصَدُوا التَّقَرُّبَ إِلَى اللهِ بِذَلِكَ؛ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُ يُحِبُّهُ.

الخامسة: أَنَّهُمْ إِذَا جَهِلُوا هذا؛ فَغَيْرُهُمْ أَوْلَى بِالجَهْلِ.

السادسة: أَنَّ لَهُمْ مِنَ الحَسَنَاتِ وَالوَعْدِ بِالمَغْفِرَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِم.

السابعة: أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) لَمْ، يَعْذُرْهُم بَلْ رَدَّ عَلَيْهِم بِقَوْلِهِ: «الله أَكْبَرُ! إِنَّها السُّنَنُ! لَتَتبِعُنَّ سُنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم»؛ فَغَلَّظَ الأَمْرَ بِهذِهِ الثَّلاث.

الثامنة: الأَمْرُ الكَبِيرُ ـ وَهُوَ المَقْصُودُ ـ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ طَلَبَهُمْ كَطَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيل لَمَّا قَالُوا لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلهاً.

التاسعة: أَنَّ نَفْيَ هذا مِنْ مَعْنَى (لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله) مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائه عَلَى أُولئِكَ.

العاشرة: أَنَّهُ حَلَفَ عَلَى الفُتْيا، وَهُوَ لا يَحْلِفُ إِلا لِمَصْلَحة.

الحادية عشرة: أَنَّ الشِّرْكَ فِيهِ أَكْبَرُ وأَصْغَرُ؛ لأَنَّهم لَمْ يَرْتَدُّوا بِهذا.

الثانية عشرة: قَوْلُهُم (وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ)؛ فِيهِ أَنَّ غَيْرَهُمْ لاَ يَجْهَلُ ذلِكَ.

الثالثة عشرة: التَّكْبِيرُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ؛ خِلاَفاً لِمَنْ كَرِهَهُ.

الرابعة عشرة: سَدُّ الذَّرَائِعِ.

الخامسة عشرة: النَّهْيُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الجَاهلِيَّة.

السادسة عشرة: الغَضَبُ عِنْدَ التَّعْلِيم.

السابعة عشرة: القَاعِدَةُ الكُلِّيَّةُ. لِقَوْلِهِ: «إِنَّها السُّنَنُ».

الثامنة عشرة : أَنَّ هَذا عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبوَّةِ لكَوْنِه وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ.

التاسعة عشرة : أَنَّ كُلَّ ماذَمَّ الله بِهِ اليَهُودَ وَالنَّصارَى فِي القُرآن؛ أَنَّهُ لَنَا.

العشرون : أَنَّهُ مُتقَرِّرٌ عِنْدَهُم أَنَّ العِبَادَات مَبْناها عَلَى الأَمْرِ، فَصارَ فِيه التَّنْبيهُ عَلَى مَسَائِل القَبْر: أَمَّا (مَنْ رَبُّك؟) فَوَاضِحٌ وَأَمَّا (مَنْ نَبِيُّكَ؟)؛ فَمِنْ إِخْبَارِه بِأَنْبَاءِ الغَيْبِ، وأَمَّا (ما دِينُكَ) فَمِنْ قَوْلِهِم: (اجْعَلْ لَنا إِلَهاً الخ) إِلى آخِرِهِ.

الحادية والعشرون : أَنَّ سُنَّةَ أَهْلِ الكِتَابِ مَذْمُومَةٌ كَسُنَّةِ المُشْرِكِين.

الثانية والعشرون : أَنَّ المُنْتَقِل مِنَ البَاطِلِ الَّذِي اعْتَادَهُ قَلْبُهُ لا يُؤمَنُ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِه بَقِيَّةٌ مِنْ تلك العَادَةِ؛ لقوله: «وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفْرٍ».

٩ ـ بَابٌ

مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ

وقَولُ الله تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ؛ قَالَ: «حَدَّثَنِي (رَسُولُ الله ﷺ) بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لِغَيرِ الله، لَعَنَ الله مَن لَعَنَ وَالِدَيْه، لَعَنَ الله مَنْ أَوَى مُحدِثاً، لَعَنَ الله مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ». رواهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ طَارِقِ بنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ الله (ﷺ) قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ ودخل النار رجل فـي ذباب» قَالواْ: وَكَيْفَ ذلكَ يَا رَسُول الله ؟ قَالَ: مَرَّ رَجُلَانِ

عَلَى قَوْمٍ لَهُم صَنَمٌ لاَ يَجُوزُه أَحَدٌ حتى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئاً، فَـقَالُوا لأَحَدهمَا: قَرِّبْ. قَالَ: لَيْس عِنْدِى شَيْء أُقَرِّبُه. قَالواُ لَهُ:قَرِّب ولَوْ ذُبَـاباً. فقَرَّبَ ذُبَاباً، فَخَلُّوا سبيلَه، فَدَخَلَ النَّارَ. وَقَالـواُ للآخَر: قَرِّب. فَقَالَ: مَا كُنْتُ لأُقَرِّبَ لأَحَـدٍ شيْئاً دُونَ الله عَزَّ وَجَلَّ. «فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ.

فيهِ مسائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ ﴿قلْ إِنَّ صَلاَتي وَنسكي﴾ [الأنعام: ١٦٢].

الثانية: تَفْسِيرُ ﴿فصلِّ لربِّكَ وانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

الثالثة: البَدَاءَةُ بِلَعْـنَةِ مَنْ ذَبَحَ لغَيْرِ الله.

الرابعة: لَعْنُ مَن لَعَنَ وَالدَيْه، وَمِنْهُ أَنْ تَلْعَنَ وَالدَي الرَّجُلِ فَيَلْعَنَ وَالدَيْكَ.

الخامسة: لَعْنُ مَنْ آوَى مُحْـدِثاً، وَهُوَ الرَّجُلُ يُحْدِثُ شَيْئاً يَـجِبُ فيه حَقُّ الله؛ فَيَلْتَجِئُ إِلى مَنْ يُجِيرُهُ مِنْ ذلكَ.

السادسة: لَعْنُ مَنْ غَـيَّرَ مَنَارَ الأرْض، وَهِيَ المَرَاسِـيمُ الَّتِي تُفَرِّقُ بَـيْنَ حَقِّكَ وَحَقِّ جَارِكَ مِنْ الأَرْضِ، فَتُغَيِّرُهَا بتَقْدِيمٍ أَوْ تأخِيرٍ.

السابعة: الفَرْقُ بيْنَ لَعْنِ المُعَيِّنِ وَلَعْنِ أَهْلِ المَعَاصِي عَلَى سَبِيلِ العُمُوم.

الثامنة: هذه القِصَّةُ العَظِيمَةُ، وَهِيَ قِصَّةُ الذُّبَابِ.

التاسعة: كَوْنُهُ دَخَـلَ النَّارَ بِسَبَبِ ذلك الذُّبَـابِ الَّذِي لَمْ يَقْـصِدْهُ، بَلْ فَعَـلَهُ تَخَلُّصاً مِنْ شَرِّهِمْ.

العاشرة: مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشِّرْكِ في قُلُوبِ المُؤْمنينَ؛ كَيْفَ صَبَرَ ذلكَ عَلَى القَتْلِ وَلَمْ يُوَافِقْهُمْ عَلَى طَلَبِهِمْ مَعَ كَوْنِهِم لَمْ يَطْلُبُوا إلاَّ العَمَلَ الظَّاهِرَ؟!.

الحادية عشرة: أَنَّ الذَّي دَخَلَ النَّارَ مُسْلِمٌ؛ لأنَّهُ لَوْ كَانَ كَافِراً؛ لَمْ يَقُلْ: «دَخَلَ النَّارَ فِي ذُبَابٍ».

الثانية عشرة: فِيهِ شَاهِدٌ لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِنْ شِرَاكِ نَعلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ».

الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ أَنَّ عَمَلَ القَلْبِ هُوَ المَقْصُودُ الأعْظَمُ، حَتَّى عِنْدَ عَبَدَةِ الأَصْنَامِ.

١٠ـ بَابٌ

لا يُذْبَحُ للهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فيهِ لِغَيْرِ اللهِ

وقَولُ الله تعالى ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة ١٠٨].

وَعَنْ ثَابِتِ بنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ الله عَنْهُ؛ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً ببُوانَه، فَسَأَلَ النَّبيَّ (ﷺ)؟ فَقَالَ: (هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعبَدُ؟) قَالُوا: لاَ قَالَ: (فَهَل كَانَ فِيها عِيدٌ مِنْ أَعيادِهم؟) قالوا: لا. فَقَالَ رَسُولُ الله (ﷺ) (أَوْفِ بِنَذرِكَ؛ فَإِنهُ لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعصِيَةِ الله، وَلاَ فِيمَا لاَ يَملِكُ ابنُ آدَمَ).

رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.

فيهِ مسائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

الثانية: أنَّ المَعْصِيَةَ قَدْ تُؤَثِّرُ فِي الأَرْضِ، وكَذلك الطَّاعَةُ.

الثالثة: رَدُّ المَسْأَلَةِ المُشْكِلَةِ إِلى المسْأَلَةِ البَيِّنَةِ؛ لِيَزُولَ الإِشْكَالُ.

الرابعة: استِفْصَالُ المُفْتِي إِذا احتَاجَ إِلَى ذلِكَ.

الخامسة: أَنَّ تَخْصِيصَ البُقْعَةِ بِالنَّذْرِ لاَ بأْسَ بِهِ إِذَا خَلاَ مِنَ المَوَانِعِ.

السادسة: المَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ وثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ، ولَوْ بَعْدَ زوَالِهِ.

السابعة: المَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِم، ولَوْ بَعْدَ زوَالِهِ.

الثامنة: أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ الوَفَاءُ بِمَا نَذَرَ فِي تِلْكَ البُقْعَةِ لأَنَّهُ نَذْرُ مَعْصِيَةٍ.

التاسعة: الحَذَرُ مِنْ مُشَابَهَةِ المُشْرِكِينَ فِي أَعْيَادِهِم، ولَو لَمْ يَقْصِدْهُ.

العاشرة: لا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ.

الحادية عشرة: لاَ نَذْرَ لابْنِ آدَمَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ.

١١ـ بَابٌ
مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ

وقَولُ الله تعالى ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان ٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة ٢٧٠].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ؛ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ، اللهَ فَلاَ يَعْصِهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأُولى: وَجُوبُ الوَفَاءِ بِالنَّذْرِ.

الثانية: إِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ عِبَادَةً لله، فَصَرْفُهُ إِلَى غَيْرِ اللهِ شِرْكٌ.

الثالثة: أَنَّ نَذْرَ المَعْصِيَةِ لاَيَجُوزُ الوفاء به.

١٢ ـ بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ الاِسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فِيهِ مَسَائِل

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الجنِّ.

الثانية: كَوْنُهُ مِنَ الشِّرْكِ.

الثالثة: الاستدْلاَلُ عَلَى ذَلِكَ بِالحَدِيثِ، لأَنَّ العُلَمَاءَ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، لأَنَّ الاسْتِعَاذَةَ بِالمَخْلُوقِ شِرْكٌ.

الرابعة: فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ.

الخامسة: أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ، لاَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ.

١٣ ـ بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ الآيَة [يونس:١٠٦:١٠٧]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ الآية : [العنكبوت:١٧].

وَقَوْلُهُ : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف :٥]

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]

رَوَى الطَّبَرانيُّ بإسْنَاده: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنافقٌ يُؤذي المُؤْمنينَ، فَقَالَ بَعْضُهُم: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ هَـذَا المُنَافِقِ، فَقَال: النَّبِيُّ ﷺ إِنَّهُ لايُستَغاثُ بي وإنما يستغاث بالله).

فيه مسائل

الأولى: أنَّ عَطْفَ الدُّعَاء عَلَى الاسْتِغاثَة مِنْ عَطْفِ العامِّ عَلَى الخَاصِّ.

الثانية: تَفْسِيرُ قَوْلِه (وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ الله مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ).

الثالثة: أَنَّ هذَا هُوَ الشِّرْكُ الأكْبَرُ.

الرابعة: أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ فَعَلَهُ إِرْضَاءً لِغَيْرِهِ، صَارَ مِنَ الظَّالِمينَ.

الخامسة: تَفْسيرُ الآية الَّتي بَعْدَهَا.

السادسة: كَوْنُ ذَلِكَ لاَ يَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا مَعَ كَوْنِهِ كُفْراً.

السابعة: تَفْسِيرُ الآيَة الثَّالثَة.

الثامنة: أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لاَ يَنْبَغِي إِلاَّ مِنَ الله، كَمَا أَنَّ الجَنَّة لا تُطْلَبُ إِلاَّ مِنْهُ.

التاسعة: تَفْسيرُ الآية الرَّابعة .

العاشرة: أَنَّهُ لا أَضلَّ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ الله.

الحادية عشرة: أَنَّهُ غَافِلٌ عَن دُعَاءِ الدَّاعِي لا يَدْرِي عَنْهُ.

الثانية عشرة : أنَّ تلكَ الدَّعْوَةَ سبَبٌ لِبُغْضِ المَدْعُوِّ للدَّاعِي وعَدَاوتِه لَهُ.

الثالثة عشرة: تَسْمِيَةُ تلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً للمَدْعُوِّ.

الرابعة عشرة: كُفْرُ المَدْعُوِّ بِتِلْكَ العِبَادَة.

الخامسة عشرة: هِيَ سَبَبُ كَوْنِه أَضَلَّ النَّاسِ.

السادسة عشرة: تَفْسِيرُ الآيةِ الخامسَة.

السابعة عشرة: الأمْرُ العَجِيبُ، وَهُوَ إِقْرَارُ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ أَنَّهُ لا يُجِيبُ المضْطَرَّ إلاَّ الله ، ولأجْلِ هَذَا يَدْعُونَهُ فِي الشَدَائِد مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّيْنَ.

الثامنة عشرة: حِمَايَةُ المُصْطَفى ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَالتَّأَدُّبُ مَعَ الله.

١٤ - بَابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الآيــــة [الأعراف:١٩١ , ١٩٢].

وَقَوْلُهُ : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ الآية : [فاطر:١٣].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ ، فَقَالَ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُم؟ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[آل عمران: ١٥٢].

وَفِيهِ عَنِ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ «اللَّهُمَّ العَنْ فُلانًا وَفُلانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ : سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ» فَأَنْزَلَ الله : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وَفي رواية: يَدْعو عَلَى صَفْوانَ بن أُمَيَّةَ وَسُهَيل بنِ عَمْرٍو وَالحَارِث بنِ هِشَامٍ، فَنَزلَتْ: ﴿لَيسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ .

وَفيه عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عنهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ حِينَ أُنْزِل عَلَيْه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]،فَقَال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَو كَلِمَةً نَحْوَهَا) ـ اشْتَرُوا أَنْفُسكُم، لاَ أُغْنِي عَنْكُم مِنَ الله شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بنَ عَبْدالمُطَّلب لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ الله شَيْئًا ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسول الله ﷺ لاَ أُغْنك مِنَ الله شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ! سَلِيْنِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأُولى: تَفْسيرُ الآيَتَيْنِ.

الثانية: قِصَّةُ أُحُد.

الثالثة: قُنُوتُ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الأَوْلِيَاءِ يُؤَمِّنُونَ فِي الصَّلَاةِ.

الرابعة: أَنَّ المَدْعُوَّ عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ.

الخامسة: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الكُفَّارِ، مِنْهَا: شَجُّهُمْ نَبِيَّهُمْ، وَحِرْصُهُمْ عَلَى قَتْلِه، وَمِنهَا التَّمْثِيلُ بِالقَتْلَى مَعَ أَنَّهُم بَنُو عَمِّهِم.

السادسة: أَنزَلَ الله عَلَيْه فِي ذَلِكَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

السابعة: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فَتَابَ عَلَيْهِم، فَآمَنُوا .

الثامنة: القُنُوتُ فِي النَّوَازِلِ.

التاسعة: تَسْمِيَةُ المَدْعُوِّ عَلَيهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَسمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِم.

العاشرة: لَعْنُ المُعيَّنِ فِي القُنُوتِ.

الحادية عشرة: قِصتُّهُ ﷺ لَمَّا أُنزلَ عَلَيْه ﴿وأَنذرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾..

الثانية عشرة: جِدُّهُ ﷺ فِي هَـذَا الأمرِ، بِحَيْث فَـعَـلَ مَا نُسِـبَ بِسَبَبِـهِ إِلَـى الجُنُونِ، وكَذلَك لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الآن.

الثالثة عشرة: قَوْلُهُ لـلأَبْعَدِ والأَقْربِ: «لاَ أُغْـنِي عَنْكَ مِـنَ الله شَيْئًا» حَـتَّى قَالَ: «يَا فَـاطمَةُ بِنـت مُحَمَّد! لا أُغْـنِي عَنْك مِـن الله شَيْئًا». فَـإِذَا صَرَّحَ - وَهُوَ سَيِّدُ المُرْسَلِينَ - بِإِنَّـهُ لا يُغْنِي شَيْئًا عَنْ سَيِّدَة نسَاء العَالَـمِينَ، وآمَنَ الإِنْسَانُ بِإِنَّه لاَ يَقُولُ إِلاَّ الحَـقَّ، ثُم نَظَرَ فِـيمَا وَقَعَ فِي قُـلُوبِ خَواصِّ النَّاس الـيَوْم، تَبَيَّـنَ لَهُ تَرْكُ التَّوْحِيدِ وَغُرْبَةُ الدِّين.

١٥ - بَابٌ

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

وَفِي الصَّحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: «إِذَا قَضَى الله الأَمْرَ فِي السَّـمَاءِ؛ ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْـنِحَتِهَا خُضْعَانـاً لِقَولِه، كَأَنَّهُ سِلْسِـلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلكَ. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] فَيَسْمَعُـهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ،وَمُسْتَرِقُ السَّـمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْـضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِـكَفِّهِ، فَحَرَّفَهـا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعـه، فَيَسْمَعُ الكَـلِمَةَ، فَيُلْـقِيهَا إِلَى مَـن تَحْتَهُ، ثُمَّ يُـلْقِيهَا الآخَـرُ إِلَى مَنْ تَحْـتَهُ، حَتَّى يُلْـقِيهَا عَلَـى لِسَانِ السَّاحِـرِ أَو الكَاهِنِ، فَرُبَّمَـا أَدركَهُ الشِّهَابُ قَـبْلَ أَن يُلْقِيَـهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَـا قَبْلَ أَنْ

يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيسَ قَد قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وكَذا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَت مِنَ السَّمَاءِ».

وَعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ الله تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ؛ أَخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةٌ. (أَو قَالَ: رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ) خَوْفاً مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ. فإذا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ؛ صُعِقُوا وَخَرُّوا لله سُجَّداً، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ الله مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى المَلائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ. فَيَقُولُونَ كُلُّهُم مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ الله عَزَّوَجَلَّ».

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ الآيَةِ.

الثانية: مَا فِيهَا مِنَ الحُجَّةِ عَلَى إِبْطَالِ الشِّرْكِ، خُصُوصاً مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشِّرْكِ مِنَ القَلْبِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: (قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ).

الرابعة: سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ جِبْرِيلَ يُجِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (قَالَ كَذَا وَكَذَا).

السادسة: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ.

السابعة: أَنَّهُ يَقُولُ لأَهلِ السَّمَوَاتِ كُلِّهِم لأَنَّهُم يَسْأَلُونَهُ.

الثامنة: أَنَّ الغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ السمَوَاتِ كُلَّهُمْ.

التاسعة: ارْتِجَافُ السَموَاتِ لِكَلاَمِ الله.

العاشرة: أَن جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمرَهُ الله.

الحادية عشرة: ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.

الثانية عشرة: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِم بعضاً.

الثالثة عشرة: إِرْسَالُ الشُّهُبِ.

الرابعة عشرة: أَنَّهُ تَارةً يُدْرِكُهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَن يُلْقِيهَا، وتَارَةً يُلْقِيهَا فى أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ.

الخامسة عشرة: كَوْنُ الكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الأَحْيَانِ.

السادسة عشرة: كَوْنُه يَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كِذْبَة.

السابعة عشرة: أَنَّهُ لَمْ يُصَدَّقْ كَذِبُهُ إِلاَّ بِتِلكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّماء.

الثامنة عشرة: قَبُولُ النَّفُوسِ لِلبَاطِلِ! كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَة ولاَ يَعْتَبِرُونَ بِمِئَةٍ؟!

التاسعة عشرة: كَوْنُهُمْ يَتَلَقَّى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ تِلْكَ الكَلِمَةَ ويَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا.

العشرون: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ خِلافاً للأَشْعَرِيَّةِ المُعَطِّلَة.

الحادية والعشرون: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ والغَشْيَ خَوْفاً مِنَ الله عَزَّوَجَلَ.

الثانية والعشرون: أَنَّهُمْ يَخِرُّونَ لله سُجَّداً.

١٦ - بَابُ الشَّفَاعَة

وَقَوْلُ الله عزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢ـ٢٣].

قال أَبو العبَّاس: «نَفَى الله عَمَّ سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ المُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَو يَكُونَ عَوْناً، لله، وَلَمْ يَبْقَ إِلا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لاتَنْفَعُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:٢٨].

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا المُشْرِكُونَ هِي مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا القُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ ـ لاَ يَبدأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً ـ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ».

وَقَالَ أَبُو هرَيْرَةَ لَهُ ﷺ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ

إلاَّالله، خَالِصاً مِن قَلبِهِ» فَتِلْكَ الشَّفَاعَة لأَهْلِ الإِخلاَصِ بِإِذْنِ الله، ولاَ تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِالله.

وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ الله سُبْحَانَهُ هُوَ الذى يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلاَصِ، فَيَغْفِرُ لَهُم بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ المَقَامَ المَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِى نَفَاهَا القُرْآن مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنه في مَوَاضِعَ. وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِىُّ ﷺ أَنها لاَ تَكُونُ إِلاَّ لأَهْلِ الإِخْلاَصِ والتَوْحِيدِ. انْتَهى كَلاَمُهُ.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ الآيَات.

الثانية: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ المَنْفِيَّه.

الثالثة: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ المُثْبَتَة.

الرابعة: ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الكُبْرَى، وَهيَ المَقَامُ المَحْمُودُ.

الخامسة: صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ ﷺ أَنَّهُ لاَ يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ، بَلْ يَسْجُدُ، فَإِذَا أُذِنَ لَه، شَفَعَ.

السادسة: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِهَا؟

السابعة: أَنَّهَا لاَ تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بالله.

الثامنة: بَيَانُ حَقِيقَتِها.

١٧ - بَابٌ

قَوْلُ الله تَعَالىَ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ الآية [القصص: ٥٦]

وَفي «الصَّحيحِ» عَنِ ابن المُسَيَّب، عَنْ أَبِـيه؛ قال: لَمَّا حضَرتْ أَبَا طَالب الوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَعنْدَهُ عَبْدُالله بنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبو جَهلٍ، فقال له: يا عَمِّ قُلْ: لاَإِلَهَ إِلاَّ الله كَلِمَةَ أُحاجُّ لَكَ بها عنْدَ الله فقَالا لَهُ: أَتَرغَبُ عَن ملَّة عَبْد المُطَّلب؟ فَأَعَادَ عليه النبي ﷺ فأعادا، فَكَانَ آخر ما قال: هُوَ عَلَى مِلَةِ عَبْدِ المُطَّلِب، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَه إِلاَّ الله فَقَالَ النَّبِي ﷺ: «لأَستَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ». فَأَنزَلَ الله عزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَأَنْزَلَ الله فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فيه مسائل

الأولى: تَفْسيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية.

الثانية: تَفْسيرُ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ...﴾ الآية.

الثالثة: وَهِيَ المَسْأَلَةُ الكَبِيرَةُ، تَفْسيرُ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله﴾؛ بِخِلاَفِ مَا عَلَيْهِ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ.

الرابعة: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قَال لِلرَّجُلِ: قُلْ: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله﴾؛ فَقَبَّحَ الله من أبو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ الإِسْلاَمِ.

الخامسة: جِدُّهُ ﷺ وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلاَمِ عَمِّهِ.

السادسة: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ إِسْلاَمَ عَبْدِ المُطَّلِب وَأَسْلاَفِهِ.

السابعة: كَوْنُهُ ﷺ اسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَن ذَلك.

الثامنة: مَضَرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَى الإِنْسَانِ.

التاسعة: مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ الأَسْلافِ وَالأَكَابِرِ.

العاشرة: الشُّبْهَةُ لِلْمُبْطِلِينَ فِي ذلك؛ لاسْتِدْلالِ أَبِي جَهْلٍ بِذَلِكَ.

الحادية عشرة: الشَّاهِدُ لِكَوْنِ الأعمَالِ بِالخَوَاتِيمِ؛ لأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا لَنَفَعَتْهُ.

الثانية عشرة: التَّأَمُّلُ فِي كِبَرِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ الضَّالِّينَ؛ لأَنَّ فِي القِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَادِلُوهُ إِلاَّ بِهَا، مَعَ مُبَالَغَتِهِ ﷺ وَتَكْرِيرِهِ؛ فَلأَجْلِ عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِنْدَهُم اقْتَصَرُوا عَلَيْهَا.

١٨ - بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

وَقَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِم: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِم التِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَاباً وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِم، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَد، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ العِلْمُ عُبِدَتْ».

قَالَ ابنُ القَيِّمِ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّرُوا تماثيلهم، ثُمَ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُم».

وَعَنْ عُمَرَ . أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» أخرجاه.

وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الغُلُوُّ».

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُون» قَالَهَا ثَلاَثاً.

فيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ مَنْ فَهِمَ هَذَا البَابَ وبَابَيْنِ بَعْدَهُ، تَبيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ الإِسْلاَمِ، وَرَأى مِنْ قُدْرَةِ الله وَتَقْلِيْبِه لِلْقُلُوبِ العجَبَ.

الثانية: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شِرْكٍ حَدَثَ فِي الأَرض كَانَ بِشُبْهَةِ الصَّالِحِينَ.

الثالثة: مَعْرَفَةُ أَوَّلِ شَيْءٍ غُيِّرَ بِهِ دين الأَنْبِيَاءِ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ، مَعَ مَعْرِفَةِ أَنَّ الله أَرْسَلَهُمْ.

الرابعة: قَبُولُ البِدَعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِع وَالفِطَرِ تَرُدُّهَا.

الخامسة: أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّه مَزْجُ الحَقِّ بِالبَاطِلِ.

فَالأَوَّلُ مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ.

والثَّاني فِعْلُ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالدِّينِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْراً فَظَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

السادسة: تَفْسِيرُ الآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ.

السابعة: جِبِلَّةُ الآدَمِيِّ فِي كَوْنِ الحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِه وَالبَاطِلُ يَزِيدُ.

الثامنة: فِيهِ شَاهِدٌ لما نُقِلَ عَنْ السَّلَفِ أَنَّ البِدَعَ سَبَبُ الكُفْرِ.

التاسعة: مَعْرِفَةُ الشَّيْطَانِ بِمَا تَؤولُ إِلَيْهِ البِدْعَةُ وَلَوْ حَسُنَ قَصْدُ الفَاعِلِ.

العاشرة: مَعْرِفَةُ القَاعِدَةِ الكُلِّيَّةِ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الغُلُوِّ وَمَعْرِفَةُ مَا يؤولُ إِلَيْهِ.

الحادية عشرة: مَضَرَّةُ العُكُوفِ عَلَى القَبْرِ لأجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

الثانية عشرة: مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ وَالحِكْمَةِ في إزَالَتِهَا.

الثالثة عشرة: عِظَمُ شَأنِ هَذِهِ القِصَّةِ وَشِدَّةِ الحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ الغَفْلَةِ عَنْهَا.

الرابعة عشرة: وَهِيَ أَعْجَبُ العَجَبِ: قِرَاءَتُهُم إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالحَدِيثِ، وَمَعْرِفَتُهُم بِمَعْنَى الكَلاَمِ، وَكَوْنُ اللهِ حَالَ بَيْنَهُمْ وبين قلوبهم حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّ فِعْلَ قَوْمِ نُوحٍ هُوَ أَفْضَلُ العِبَادَاتِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ مَا نَهَى اللهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ فَهُوَ الكُفْرُ المُبِيحُ للدَّمِ وَالمَالِ.

الخامسة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا إِلاَّ الشَّفَاعَةَ.

السادسة عشرة: ظَنُّهُم أَنَّ العُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّوَرَ أَرَادُوا ذَلِكَ.

السابعة عشرة: البَيَانُ العَظِيمُ فِي قَوْلِهِ: «لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَرْيَمَ» فَصَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ، بَلَّغَ البَلاَغَ المُبِينَ.

الثامنة عشرة: نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهَلاَكِ المُتَنَطِّعِينَ.

التاسعة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَهَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّى نُسِيَ العِلْمُ، فَفِيهَا بَيَانُ مَعْرِفَةِ قَدْرِ وُجُودِهِ وَمَضَرَّةِ فَقْدِهِ.

العشرون: أَنَّ سَبَبَ فَقْدِ العِلْمِ مَوْتُ العُلَمَاءِ.

١٩ـ بَابٌ

مَا جَاءَ فِي التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوَ العَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً ، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ» فَهَؤُلاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ القُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِم مَسَاجِدَ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلاَ ذَلِكَ؛ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً » أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُم خَلِيلٌ فَإِنَّ اللهَ قَد اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً. أَلاَ وَإِنَّ مَن كَانَ قَبْلَكُم كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُم عَنْ ذَلِكَ).

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ ـ وَهُوَ فِي السِّيَاقِ ـ مَن فَعَلَهُ، وَالصَّلاَةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً»فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ

الصَّلاةُ فيه، فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِداً، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِداً، كَمَا قَالَ ﷺ «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً».

وَلأحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابنِ مَسْعُود (رَضِيَ الله عَنْهُ) مَرْفُوعًا: «إنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَن تُدْرِكُهُم السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ» ورواهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ فِيمَنْ بَنَى مَسْجِداً يُعْبَدُالله فِيهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، وَلَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الفَاعِلِ.

الثانية: النَّهْيُ عَنِ التَّمَاثِيلِ وغِلَظُ الأمْرِ فِي ذَلِكَ.

الثالثة: العِبْرَةُ فِي مُبَالَغَتِه ﷺ فِي ذَلِكَ كَيْفَ بَيَّنَ لَهُمْ هَذَا أَوَّلاً، ثُمَّ قَبْلَ مَوْتِه بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي السِّيَاقِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ.

الرابعة: نَهْيُهُ عن فِعْلِه عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ القَبْرِ.

الخامسة: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِم.

السادسة: لَعْنُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

السابعة: أَنَّ مُرَادَهُ ﷺ تَحْذِيرُهُ إِيَّانا عَنْ قَبْرِه.

الثامنة: العِلَّةُ فِي عَدَمِ إبْرازِ قَبْرِه.

التاسعة: فِي مَعْنَى اتِّخَاذِهَا مَسْجِداً.

العاشرة: أنَّه قَرن بَيْنَ مَنِ اتَّخَذَهَا مَسْجِداً وبَيْنَ مَنْ تقُومُ عَلَيهِمُ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَى الشِّرْكِ قَبْلَ وُقُوعِهِ مَعَ خَاتِمَتِهِ.

الحادية عشرة: ذِكْرُهُ فِي خُطْبَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ الرَّدَّ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا أَشَرُّ أَهْلِ البِدَعِ، بَلْ أَخْرَجَهُمْ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وَهُمُ الرَّافِضَةُ والجَهْمِيَّةُ، وبِسَبَبِ الرَّافِضَةِ حَدَثَ الشِّرْكُ وعِبَادَةُ القُبُورِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهَا المَسَاجِدَ.

الثانية عشرة: مَا بُلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.

الثالثة عشرة: مَا أُكْرِمَ بِهِ مِنَ الخُلَّةِ.

الرابعة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا أَعْلَى مِنَ المَحَبَّةِ.

الخامسة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الصدِّيقَ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ.

السادسة عشرة: الإِشَارَةُ إِلَى خِلافَتِهِ.

٢٠ ـ بَابُ

مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَاناً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ

رَوَى مَالِكٌ فِي «الموطأ» أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِم مَسَاجِدَ»

ولابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ : (أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالعُزَّى) قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ».

وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاء، عَن ابن عَبَّاس: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ للحَاجِّ» وعَن ابن عَبَّاس رَضِيَ الله عنهُمَا، قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ، والمُتَخذِينَ عَلَيها المَسَاجِدَ والسُّرُج» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَن.

فيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسيرُ الأَوْثَان.

الثانية: تفْسيرُ العبَادَة.

الثالثة: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إلاَّ ممَّا يُخَافُ وُقُوعُهُ.

الرابعة: قَرْنُهُ بِهذَا اتِّخَاذَ قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ.

الخامسة: ذِكْرُ شِدَّةِ الغَضَبِ منَ الله.

السادسة: وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللاَّتِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الأَوْثَانِ.

السابعة: مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالحٍ.

الثامنة: أَنَّهُ اسْمُ صَاحِبِ القَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَى التَّسْمِيَة.

التاسعة: لَعْنُهُ زَوَّارات القُبُور.

العاشرة: لَعْنُهُ مَنْ أَسْرَجَهَا.

٢١ - بَابٌ

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ المُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ .الآية [التوبة: ٢٨].

عَنْ أَبِي هُـرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَجْـعَلُوا بُيُـوتَكُم قُبُوراً، وَلاَ تَجْعَلُوا قَبْرِي، عِيداً، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَـإِنَّ صَلاتَكُم، تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُم» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْـنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ، أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُـرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدعو، فَنَهَاهُ.

وَقَالَ: أَلا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تَتَخِذُوا قَبْرِي عِـيداً، وَلا بُيُوتَكُم قُبُوراً، وَصَلُّوا عَـلَيَّ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُم لَيَـبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُم» رَوَاهُ فِي «الْمُخْتَارَةِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأُولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (بَرَاءَةٌ).

الثانية: إِبْعَادُهُ أُمَّتَهُ عَنْ هَذَا الحِمَى غَايَةَ الْبُعْدِ.

الثالثة: ذِكْرُ حِرْصِهِ عَلَيْنَا وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

الرابعة: نَهْيُهُ عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ، مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ.

الخامسة: نَهْيُهُ عَنِ الإِكْثَارِ من الزِّيَارَةِ.

السادسة: حَثُّهُ عَلَى النَّافِلَةِ فِي الْبَيْتِ.

السابعة: أَنَّهُ مُقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لاَ يُصَلَّي فِي الْمَقْبَرَةِ.

الثامنة: تَعْلِيلُ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلاَةَ الرَّجُلِ وَسَلاَمَهُ عَلَيْهِ يَبْلُغُهُ وَإِنْ بَعُدَ، فَلاَ حَاجَةَ إِلَى مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ الْقُرْبَ.

التاسعة: كَوْنُهُ ﷺ فِي البرْزَخِ تُعْرَضُ أَعْمَالُ أُمَّته فِي الصَّلاةِ وَالسَّلامِ عَلَيْه.

٢٢ - بَابٌ

مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١]

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ (رَضِيَ الله عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم حَذوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوه» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله ! اليَهُودَ وَالنصَّارى؟ قَالَ «فَمَنْ؟» أخرجاه.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ (رَضِيَ الله عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ الله زَوَى لِي الأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَينِ: الأَحْمَرَ، وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَن لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُواً مِن سِوَى أَنْفُسِهِم، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَيُرَد وإنى أعطيتُك لأُمَّتك أن لاأهْلكهم بِسَنَةٍ بعامَّة وَأن لا أُسَلِّطَ عَلَيهِمْ عَدُواً مِنْ سِوَى أَنفُسِهِمْ فَيَستَبِيحَ بَيْضَتَهُم، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيهِم مَن بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُم يُهْلِكُ بَعْضاً ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

وَرَوَاهُ البَرْقَانِي فِي «صَحِيحِهِ»، وزَادَ: «وإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّين، وإِذَا وَقَعَ عَلَيهِم السَّيْفُ، لَمْ يُرفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، ولا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ من أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ، ثَلاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّين، لا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَة، لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُم، وَلا مَنْ خَالَفَهُم حَتَّى يَأْتِي أَمرُ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى».

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ المَائِدَةِ .

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ الكَهْفِ.

الرابعة: وَهِيَ أَهَمُّهَا: مَا معْنَى الإِيمَان بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ؟ في هَذَا المَوْضِعِ هَلْ هُوَ اعْتِقَادُ قَلْبٍ؟ أو هُوَ مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بُغْضِهَا وَمَعْرِفَةِ بُطْلانِهَا؟

الخامسة: قَوْلُهُم : إِنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ أَهْدَى سَبِيلاً مِنَ المُؤْمِنِينَ.

السادسة: وَهِيَ المَقْصُودُ بِالتَّرْجَمَةِ: أَنَّ هَذَا لابُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِي هَذِهِ الأمَّةِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيد.

السابعة: تَصْرِيحُهُ بِوُقُوعِهَا ـ أعني : عِبَادَةَ الأَوْثَان ـ فِي هَذِهِ الأُمَّة في جمُوعٍ كَثِيرة.

الثامنة: العَجَبُ العُجَابُ: خُرُوجُ مَنْ يَدَّعِي النُّبوَّة، مِثلُ المُخْتَارِ مَعَ تَكَلُّمه بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتَصْرِيْحه بِأَنَّهُ مِنْ هَـذِه الأمَّة، وَأَنَّ الرسول حق وأنَّ القرآن حق وفيه أنَّ محمداً خاتم النبيين ومع هَذَا يُصَدّق فِي هَذَا كُلِّه مَعَ التَّضَادِّ الوَاضِحِ، وَقَدْ خَرَجَ المُخْتَارُ في آخِرِ عَصْرِ الصّحَابَة، وتَبِعَهُ فِئَامٌ كَثِيرةٌ.

التاسعة: البِشَارَةُ بِأَنَّ الحَقَّ لا يَزُولُ بِالكُلِّيَّةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَى، بَلْ لا تَزَالُ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ.

العاشرة: الآيَةُ العُظْمَى: أَنَّهُمْ مَعَ قِلَّتِهِم لاَ يَضرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُم وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ.

الحادية عشرة: أنَّ ذَلِكَ الشَّرْطَ إِلَى قِيَامِ السَّاعة.

الثانية عشرة: مَا فِيه مِنَ الآيَاتِ العَظِيمَةِ: مِنْهَا إِخْبَارُهُ بِأَنَّ الله زَوَى لَهُ المَشَارِقَ وَالمغَارِبَ، وأَخْبَرَ بِمَعْنَى ذَلِكَ، فَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ بِخَلافِ الجَنُوبِ والشِّمَال، وإخباره بأنه أعطي الكنزين وإخباره بإجابة دعوته لأمته فى الإثنتين وإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مُنِعَ الثَالِثَةَ، وإِخْبَارُهُ بِوقُوعِ السَّيْفِ، وأَنَّهُ لاَ يُرْفَعُ إِذ وَقَعَ، وإخْبَارُهُ بإِهْلاَكِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَسَبْي بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَخَوْفُهُ عَلَى أُمَّته مِنْ الأَئمَّة المضِلِّين وإِخْبَارُهُ بِظُهُورِ المُتَنَبِّئِينَ فِي هَذَه الأُمَّة، وإِخْبَارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائفَة المَنْصُورَة، وَكُلُّ هَذَا وقَعَ، كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا من أَبْعَدِ مَا يَكُونُ فِي العُقُول.

الثالثة عشرة: حَصْرُ الخَوْفِ عَلَى أُمَّته مِنْ الأَئمَة المُضلِينَ.

الرابعة عشرة: التَنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى عِبَادَةِ الأَوْثَان.

٢٣ - بَابُ
مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢] وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قَالَ عُمَرُ: «الجِبْتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطانُ».

وقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِم الشَّيْطَانُ، فِي كُلِ حَيٍّ وَاحِدٌ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَات. قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبَا، وأَكلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلات المُؤمِنات».

وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ» رَوَاهُ التِّرْمِذيُّ وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ».

وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِي» عَنْ بَجَالَةَ بنِ عَبَدَةَ، قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرةٍ». قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلاثَ سَوَاحِرَ».

وَصَحَ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، «أَنَّها أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا. سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ». وكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ.

قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

فيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ البَقَرَةِ.

الثانية: تَفْسيرُ آيَةِ النِّسَاء.

الثالثة: تَفْسيرُ الجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ والفَرْقُ بيْنَهُمَا.

الرابعة: أَنَّ الطَّاغُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الجِنِّ وَقَدْ يكُونُ مِنَ الإِنْسِ.

الخامسة: مَعْرِفَةُ السَّبْعِ المُوبِقَاتِ المَخْصُوصَاتِ بِالنَّهْيِ.

السادسة: أنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ.

السابعة: أنَّه يُقْتَلُ وَلاَ يُسْتَتَاب.

الثامنة: وُجُودُ هَذَا فِي المُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟!

٢٤- بابٌ

بيَانُ شيْءٍ مِنْ أنْواعِ السحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بنِ العَلاَءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ».

قَالَ عَوْفٌ: العِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرق الخَطُّ يُخَطُّ بالأَرْضِ، والجبت: قَالَ الحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلأَبِي دَاوُدَ والنَّسَائِي، وابْنِ حِبَّانَ: فِي «صَحِيحِهِ» لَهُم المُسْنَدُ مِنْهُ.

وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا؛ قَالَ: قَال رَسُولُ الله ﷺ : «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» رواهُ أَبُو دَاوُدَ، وإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وللنَّسائي من حديث أبي هُرَيَرَة «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فيها، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْه».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُود أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَلاَ هَلْ أُنَبِّئُكُم مَا العَضْةُ؟ هِيَ النَّميمَةُ، القَالَةُ بيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسلمٌ.

وَلَهُمَا عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهما أَن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا».

فيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيرَةَ مِنَ الجِبْتِ.

الثانية: تَفْسِيرُ العِيَافَةِ وَالطَّرْقِ.

الثالثة: أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ نُوْعٌ مِنَ السِّحْرِ.

الرابعة: العَقْدُ مَعَ النَفْثِ مِنْ ذَلكَ.

الخامسة: أَنَّ النَّميمَةَ مِنْ ذَلكَ.

السادسة: أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُ الفَصَاحَة.

٢٥- بابٌ

مَا جَاءَ فِي الكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِه» عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَن شَيْءٍ، فَصَدَّقَه لَمْ تُقْبَل لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

وَعَنْ أَبي هُرَيَرَةَ (رَضِيَ الله عَنْه) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ أَتَى كَاهِنًا ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَللأَرْبَعَةِ وَالحَاكِمِ ـ وقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا» - عَنْ «أَبِي هُرَيْرَةَ : «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ

وَلأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا.

وَعَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ مَرْفُوعًا : «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَو سُحِرَ لَه، وَمَنْ أَتَى كَاهِناً، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ » رَوَاهُ البَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَوْلِه: «وَمَن أَتَى..» إِلَى آخِرِه.

قَالَ البَغَوِيّ: «العَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى المَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».

وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ، وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُسْتَقْبَلِ.

وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ ابنِ تَيْمِيَّةَ: العَرَّافُ اسمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالمنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِم، مِمَّن يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ .

وقَالَ: ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ) وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ : «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّه لا يَجْتَمِعُ تَصْدِيقُ الكَاهِنِ مَعَ الإِيمَانِ بِالقُرْآنِ.

الثانية: التَّصْرِيح بِأَنَّهُ كُفْرٌ.

الثالثة: ذِكْرُ مَنْ تُكُهِّنَ لَهُ.

الرابعة: ذِكْرُ مَنْ تُطَيِّرَ لَهُ.

الخامسة: ذِكْرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ.

السادسة: ذِكْرُ مَنْ تَعَلَّمَ أَبَا جَاد.

السابعة: ذِكْرُ الفَرْقِ بَيْنَ الكَاهِنِ وَالعَرَّاف.

٢٦ - بابٌ

مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِر، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشرَةِ؟ فَقَالَ: (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ). رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَد جَيد، وَأَبُو دَاوُدَ.

وَقَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ: ابنُ مَسْعود يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ».

وَفي «البُخَارِيِّ» عَنْ قَتَادَةَ: «قُلْتُ لابْنِ المُسَيَّب رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَن امرَأَته، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشرُ؟ قَالَ: لا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدونَ بِهِ الإِصْلاَحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ».

وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ، أَنَّهُ قَالَ: «لاَ يَحُلُّ السِّحْرَ إلا سَاحِرٌ».

قَالَ ابنُ القَيِّم: «النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحرِ عَنِ المَسْحُور، وَهِيَ نَوْعَان: أَحَدُهُمَا حَلٌّ بِسحْرٍ مثْله، وَهُوَ الَّذي منْ عَمَلِ الشَّيْطَان، وَعَلَيْه يُحْمَلُ قَوْلُ الحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنْتَشرُ إِلَى الشَّيْطَان، بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسْحُورِ، وَالثَّاني: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعوُّذَاتِ وَالأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوات المُبَاحَة، فَهَذَا جَائِزٌ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النَّهيُ عَنِ النُّشْرَةِ.

الثانية: الفَرْقُ بَيْنَ المَنْهِيِّ عَنْهُ وَالمُرَخَّصِ فِيهِ مِمَّا يُزِيلُ الإِشْكَالَ.

٢٧. بابٌ

ما جاءَ في التطيُّرِ

وَقَولُ الله تعالَى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١].

وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس:١٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «لاَ عَدْوَى، وَلاَ طِيرَةَ، ولاَ هَامَةَ، وَلاَ صَفَرَ» أَخْرَجَاهُ.

زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلا نَوءَ وَلا غُولَ».

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ». قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

وَلأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ، قَالَ: «ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الفَأْلُ، وَلا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُم مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ لا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلاَّ أَنْتَ وَلا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلاَّ أَنْتَ، وَلاَ حَولَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ».

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ ابنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعاً: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلاَّ.. وَلَكِنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، والتِّرمِذِيُّ وصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَولِ ابنِ مَسْعُودٍ.

وَلأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ» قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ اللهم لاَ خَيرَ إِلاَّ خَيرُكَ، وَلاَ طَيرَ إِلاَّ طَيرُكَ، ولاَ إِلهَ غَيْرُكَ».

وَلَهُ مِنْ حَدِيث الفَضْلِ بنِ العَبَّاسِ: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ».

فيه مسائل

الأولى: التَّنْبيهُ عَلَى قَوْلِه: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:١٣١] مَعَ قَوْلِهِ ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس:١٩].

الثانية: نَفْيُ العَدْوَى.

الثالثة: نَفْيُ الطِّيَرَةِ.

الرابعة: نَفْيُ الهَامَةِ.

الخامسة: نَفْيُ الصَّفَرِ.

السادسة: أَنَّ الفَأْلَ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مُسْتَحَبٌّ.

السابعة: تَفْسِيرُ الفَأْلِ.

الثامنة: أنَّ الوَاقِعَ فِي القُلُوبِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لاَ يَضُرُّ بَلْ يُذْهِبُه الله بالتَّوَكُّلِ.

التاسعة: ذِكْرُ مَا يَقُولُ مَنْ وَجَدَهُ.

العاشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الطِّيَرَةَ شِرْكٌ.

الحادية عشرة: تَفْسِيرُ الطِّيَرَةِ المَذْمُومَةِ.

٢٨ - بابٌ

مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيم

قَالَ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ الله هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلاثٍ: زِينَةً

للسَّمَاء، ورُجُومًا للشَّياطين، وعَلامَات، يُهتَدَى بهَا ، فَمَنْ تأَوَّلَ فيهَا غيرَ ذَلِكَ؛ أَخْطَأَ وَ أَضَاعَ نَصيبَهُ، وتَكَلَّفَ مَا لاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ». انتهى.

وكَرِهَ قَتَادَةُ تعلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ، ولَمْ يُرَخِّصِ ابنُ عُيينة فيه. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا.

ورَخَّصَ فِي تَعلُّمِ المَنَازِلِ أحْمَدُ وإسْحَاقُ.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ : مُدْمِنُ الخَمْرِ، وقَاطِعُ الرَّحِمِ، ومُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِه».

فيهِ مَسَائِلُ

الأولى: الحِكْمَةُ فِي خَلْقِ النُّجُومِ.

الثانية: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ غيرَ ذَلِكَ.

الثالثة: ذِكْرُ الخلاف فِي تعلُّمِ المَنَازِلَ.

الرابعة: الوَعِيدُ فِيمَنْ صَدَّقَ بشيءٍ مِنَ السِّحْرِ، ولَوْ عَرَفَ أَنَّه بَاطِلٌ.

٢٩- بابٌ

مَا جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بالأنْوَاءِ

وقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَتجعلون رِزقَكُمْ أَنَكُمْ تُكَذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وَعَنْ أَبِي مَالِك الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ بِالأحْسَابِ، وَ الطَّعْنُ، فِي الأنسَابِ، والاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ».

وَقَالَ: «النَّائحةُ إِذَا لم تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يومَ القِيَامَةِ وعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدرعٌ مِنْ جَرَبٍ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنْ زَيْـد بن خَالد رَضيَ الله عَنْهُ ، قَالَ: «صَلَّـى لَنَا رَسُولُ الله ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ عَلَى أَثَرِ سَمَاء كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مَـاذَا قَالَ رَبُّكُم؟ قَالُوا: الله ورسوله أعلـم. قَالَ: «قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَته، فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي كَافِرٌ بِـالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَـالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَـذَا وَكَذا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِـي مُؤمِنٌ بِالكَوْكَبِ».

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيْثِ ابنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وفيه: «قَالَ بَعْضُهُم: لَقَد صَدَقَ نَوءِ كَذَا وَكَذَا. فَأَنْزَلَ الله هَذِه الايات :

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾

فيه مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسيرُ آيَةِ الوَاقِعَة.

الثانية: ذِكْرُ الأَرْبَعِ الَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ.

الثالثة: ذِكْرُ الكُفْرِ في بَعْضِهَا.

الرابعة: أَنَّ مِنَ الكُفْرِ مَا لاَ يُخْرِجُ عَنِ المِلَّة.

الخامسة: قوله: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤمِنٌ بِي وَكَافِرٌ»، بِسَبَبِ نزول النعمة.

السادسة: التَّفَطُّنُ للإيمَانِ فِي هَذَا المَوْضِعِ.

السابعة: التَّفَطُّنُ للكُفْرِ فِي هَذَا المَوْضِعِ.

الثامنة: التَّفَطُّنُ لِقَوْلِه : «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا».

التاسعة: إِخْرَاجُ العَالِمِ للمُتَعَلِّمِ المَسْأَلَـةَ بالاسْتِفهَامِ عَنْهَ لِقَوْلِه: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟».

العاشرة: وَعِيدُ النَّائِحَةِ.

٣٠- بابٌ

قَوْلُ الله تَعَـالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ قَالَ: لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُـم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَـيه، مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُـمَا عـنه، قَالَ: قَـالَ رَسُولُ الله ﷺ ثَـلاَثٌ من كُـنَّ فيه، وَجَـدَ بِهِـنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَان: أَنْ يَـكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَـيْه ممَّا سوَاهُـمَا وَأَن يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُـحِبُّهُ إِلاَّ لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الـكُفْرِ بَعْدَ إِذ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ، كَمَـا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ).

وَفِي رِوَايَةٍ: «لاَ يَجِدُ أَحَدٌ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى ..» إِلَى آخرِهِ.

وَعَنِ ابـنِ عبَّـاسٍ، قَالَ: «مَـنْ أَحَبَّ فِـي الله، وَأَبْغَـضَ فِي الله، وَوَالَـى فِي الله، وَعَادَى فِي الله، فَـإِنَّمَا تُنَـالُ، وِلاَيَةُ الله بِذَلِكَ، وَلَن يَـجِدَ عَبْدٌ طَـعْمَ الإِيمَانِ ـ وَإِنْ كَثُرَت صَلاَتُهُ وَصَومُهُ ـ حَتَّى يَكُونَ كذلـك، وَقَد صَـارَت عَامَّةُ مُؤاخَـاةِ النَّـاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنيَا، وَذَلِكَ لاَ يُجْدِي عَلَى أَهلِه شَيْئًا» رَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦] قَالَ: (المَوَدَّةُ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (البَقَرَةِ).

الثانية: تفْسِيرُ آيَةِ (بَرَاءَةٌ).

الثالثة: وُجُوبُ مَحَبَّتِهِ ﷺ عَلَى النَّفْسِ وَالأَهْلِ وَالمَالِ.

الرابعة: أَنَّ نَفْيَ الإِيمَانِ لاَ يَدُلُّ عَلَى الخُرُوجِ مِنَ الإِسْلاَمِ.

الخامسة: أَنَّ للإِيمَانِ حَلاَوَةٌ قَدْ يَجِدُهَا الإِنْسَانُ وَقَدْ لا يَجِدُهَا.

السادسة: أَعْمَالُ القَلْبِ الأَرْبَعِ الَّتِي لاَ تُنَالُ وِلاَيَةُ الله إِلاَّ بِهَا، وَلاَ يَجِدُ أَحَدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ إِلاَّ بِهَا.

السابعة: فَهْمُ الصَّحَابِيِّ لِلْوَاقِعِ، أَنَّ عَامَّةَ المُؤَاخَاةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا.

الثامنة: تَفْسِيرُ ﴿تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ مَنْ يحبُّ الله حُبًّا شَدِيدًا.

العاشرة: الوَعِيدُ عَلَى مَنْ كَانَ الثَمَانِيَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ.

الحادية عشرة: أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ نِدًّا تُسَاوِي مَحَبَّتُهُ مَحَبَّةَ الله، فَهُوَ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ.

٣١ - بَابٌ

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت:١٠].

عَن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ الله عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ أَن تُرضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ الله، وَأَنْ تَحْمَدَهُم عَلَى رِزْقِ الله، وَأَنْ تَذُمَّهُم عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ الله، إِنَّ رِزْقَ الله لاَ يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلاَ يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنهَا: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ التَمَسَ رِضَى الله بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ الله عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنْ التَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ الله سَخِطَ الله عَلَيْهِ وأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ فِي (صَحِيحِهِ).

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (آلِ عِمْرَانَ).

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (بَرَاءةٌ).

الثالثة: تَفْسِيرِ آيَةِ (العَنْكَبُوت).

الرابعة: أَنَّ اليَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَى.

الخامسة: عَلاَمَةُ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ: هَذِهِ الثَّلاث.

السادسة: أَنَّ إِخْلاصَ الخَوْفِ لله مِنَ الفَرَائِضِ.

السابعة: ذِكْرُ ثَوَابِ مَنْ فَعَلَهُ.

الثامنة: ذِكْرُ عِقَابِ مَنْ تَرَكَهُ.

٣٢ - بَابٌ

قَولُ الله تَعَالَى: ﴿وعَلَى اللَّهِ فتوكَّلُوا إن كُنتُم مُّؤْمنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أيُّهَا النَّبيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ..﴾ [الأنفال:٢].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .. الآية [الأنفال:٦٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ .. الآية: [الطلاق:٣].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قَالَهَا إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ الآية .. [آل عمران: ١٧٣] رَوَاهُ الْبُخَارِي وَالنَّسَائِي.

فيه مسائل

الأولى: أَنَّ التَوَكُّلَ مِنَ الفَرَائِضِ.

الثانية: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الإِيمَانِ.

الثالثة: تَفْسِيْرِ آيَةِ (الأَنْفَالِ).

الرابعة: تَفْسِيْرِ الآيَةِ فِي آخِرِهَا.

الخامسة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الطَّلَاقِ).

السادسة: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيهِ الصَّلَاةَ والسَّلَامَ وَمُحَمَّدٍ ﷺ فِي الشَّدَائِدِ.

٣٣ - بَابٌ

قَـوْلُ الله تَعَـالَـى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

وَعَنْ ابـنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ الـكَبَائـرِ؟ فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، واليَأْسُ مِنْ رَوحِ الله، وَالأَمْنُ مِنْ مَكرِ الله».

وَعَنِ ابْـنِ مَسْعُـود، قَالَ: «أَكْبَـرُ الكَبَـائرِ: الإِشْرَاكُ بِـالله وَالأَمْنُ مِنْ مَـكْرِ الله، وَالقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله ، وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله » رَوَاهُ عَبْدُ الرزَّاقِ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الأَعْرَافِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الحِجْرِ.

الثالثة: شِدَّةُ الوَعِيدِ فِيمَنْ أَمِنَ مَكْرَ الله.

الرابعة: شِدَّةُ الوَعِيدِ فِي القُنُوطِ.

٣٤- بابٌ

مِنَ الإيمانِ بِالله الصبْرُ على أقدارِ الله

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١].

قَالَ عَلْـقَمَةُ: «هُوَ الـرَّجُلُ تُصِيـبُهُ المُصِيـبَةُ، فَيَعْـلَمُ أَنَّهَا مِـنْ عِنْدِ الله، فَيَـرْضَى وَيُسَلِّمُ».

وَفِي صَحِيحِ مُـسْلِمٍ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اثْنَـتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ».

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًـا: «لَيْسَ مِنَّا مَن ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَى بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ».

وعَنْ أَنَس، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرادَ الله بعَبْده الخَيْر، عَجَّلَ لَهُ بالعُقُوبَة فِي الدُّنْيَا، وإِذَا أَرادَ بعَبْده الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِه حَتَّى يُوَافِيَ بِه يَومَ القِيامَة».

وقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاء مَعَ عِظَـمِ البَلاَء، وإِنَّ الله تعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُم فَمَن رَضِيَ فَلَهَ الرِّضَاءُ، وَمنْ سَخطَ فَلَهُ السُّخْطُ» حَسَّنَهُ التِّرْمذِي.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسيرُ آيَة التغَابُنِ.

الثانية: أَنَّ هَذَا منَ الإِيمَانِ بالله.

الثالثة: الطَّعْنُ فِي النَّسَب.

الرابعة: شِدَّةُ الـوَعِيد فِيـمَنْ ضَرَبَ الخُدودَ، وَشَـقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِـدَعْوَى الجَاهليَّة.

الخامسة: علامة إِرَادَة الله بِعَبْده الخَيْرَ.

السادسة: عَلاَمَةُ إِرَادَة الله بِعَبْده الشَّرَّ.

السابعة: عَلاَمَةُ حُبِّ الله لِلْعَبْد.

الثامنة: تَحْرِيمُ السُّخْطِ.

التاسعة: ثَوَابِ الرِّضَا بِالبَلاءِ.

٣٥ - بابٌ

ما جاءَ في الرياءِ

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ الآية [الكهف:١١٠].

وَعَنْ أَبِي هُـرَيْرَةَ مرفوعًا: قَـال الله تَعَالَى: «أَنَا أَغنـى الشُّرَكَاء عَن الـشِّرْك، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشرَكَ مَعِي فِيهِ غَيرِي تَركتُهُ وشِركَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيد مَرْفُوعاً: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخوَفُ علَيكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيْحِ الدَّجَّال؟ قَالُوا: بَـلَى. قال«الشِّرْكُ الخَفِيُّ يَقُومُ الـرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّـنُ صَلاَتَه، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إليه) . رَوَاهُ أَحْمَدُ.

فيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الكَهْف.

الثانية: الأَمْرُ العَظِيمُ فِي رَدِّ العَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ الله.

الثالثة: ذِكْرُ السَّبَبِ المُوجِبِ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الغِنَى.

الرابعة: أَنَّ من الأَسْبَابِ أَنَّهُ تعالى خَيْرُ الشُّرَكَاء.

الخامسة: خَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاء.

السادسة: أَنَّه فَسَّـرَ ذَلِكَ بِأَنَّ المَرْءَ يُـصَلِّي لله، لِكَـنْ يُزَيِّنُهَـا لِمَا يرَى مِـنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ.

٣٦- بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وَقَوْلُ الله تَعَـالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ الآية [هود: ١٥].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ تَعِس عَبْدُ الدِّينَار، تَعِسَ

عَبْدُ الدِّرهَمِ، تَعِس عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِس عَبْدُ الخَمِيلَة، إن أُعطَي، رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ؛ سَخِطَ، تَعِسَ وَ انتكَس، وإذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ. طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِه فِي سَبِيلِ الله، أَشْعَثَ رَأسُهُ، مُغْبَرَّةٌ قَدَمَاهُ إنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ وَإنَ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ إن استَأذَنَ لَم يُؤذَن لَهُ. وإن شَفَعَ لَم يُشَفَّعْ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: إرَادَةُ الإنْسَانِ الدُّنيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ هُودٍ.

الثالثة: تَسْمِيَةُ الإنْسَانِ المُسْلِمِ عَبْدَ الدينَارِ وَالدِّرْهَمِ والخَمِيصَةِ.

الرابعة: تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إنْ أعْطِيَ رَضِيَ، وَإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.

الخامسة: قَوْلُهُ (تَعِسَ وَانْتَكَس).

السادسة: قَوْلُهُ «وَإذَا شِيكَ، فَلاَ انْتَقَشَ».

السابعة: الثَّنَاءُ عَلَى المُجَاهِدِ المَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.

٣٧- بَابٌ

مَنْ أطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أحَلَّ اللهُ أوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أرْبَاباً.

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «يُوشِكُ أنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!».

وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ:«عَجِبْتُ لِقَومٍ عرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ يَذْهَبُونَ إِلى رأى سُفْيَانَ، واللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]، أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ. لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكَ!!

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حاتمٍ:«أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[التوبة: ٣١] .. فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. قَالَ: أَلَيس يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟» فَقُلْتُ: بَلى، قال: «فتلك عبادتُهم». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (النُّورِ).

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (بَرَاءَةٌ).

الثالثة: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى العِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ.

الرابعة: تَمْثِيلُ ابنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمْثِيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ.

الخامسة: تَغَيُّرُ الأَحْوَالِ إِلى هَذِهِ الغَايَةِ، حتَّى صَارَ عِنْدَ الأَكْثَرِ عِبادَةُ الرُّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ، وتسَمَّى الوِلاَيَةُ، وَعِبَادَةُ الأَحْبَارِ هِيَ العِلْمُ وَالفِقْهُ، ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الأَحْوالُ إِلى أَنْ عُبِدَ مِنْ دَونِ اللهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعُبِدَ بِالمَعْنَى الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الجَاهِلِينَ.

٣٨. بَابٌ

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠)﴾ الآيات [النساء : ٦٠-٦٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:١١]

وقوله:﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾[الأعراف: ٥٦].

وقوله ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[المائدة:٥٠].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ :«لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ». قال النووى:«حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَيْنَاهُ فِى كِتَابِ «الحجة» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ».

وَقَالَ الشَّعْبِي: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ اليَهُودِىُّ : نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ عَرَفَ أَنَّهُ لاَ يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتحَاكَمُ إِلَى اليَهُودِ؛ لِعلْمِه أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيا كَاهِناً فِى جُهَيْنَةَ، فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْه، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾[النساء:٦٠].

وَقِيلَ :«نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحدهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بنِ الأَشْرَف، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَر لَهُ أَحدُهُمَا القِصَّةَ فَقَالَ لِلَّذِى لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ الله ﷺ أَكَذَلِكَ؟ قَالَ : نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفسيرُ آيَةِ النِّسَاء وَمَا فِيها من الإِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الطَّاغُوتِ .

الثانية: تَفْسيرُ آيَةِ البَقَرَةِ: ﴿وإذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾.

الثالثة: تَفْسيرُ آيَةِ الأَعْرَافِ: ﴿ولا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾.

الرابعة: تَفْسيرُ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الخامسة: مَا قَالَهُ الشَّعْبي في سَبَبِ نُزُولِ الآيَةِ الأولى.

السادسة: تَفْسيرُ الإيمَانِ الصَّادِقِ وَالكَاذِبِ.

السابعة: قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ المُنَافِقِ.

الثامنة: كَوْنُ الإِيمَانِ لاَ يَحْصُلُ لأَحدٍ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ.

٣٩- بَابٌ

مَنْ جَحَدَ شَيْئاً مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية: [الرعد: ٣٠]

وفي «صَحيحِ البُخَارِي»: قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!».

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابنِ طَاوُوسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثاً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنْكَاراً لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلاَءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!» انتهى.

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ الله ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾[الرعد :٣٠].

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: عَدَمُ الإِيمَانِ بِجَحْدِ شَيْءٍ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الرَّعْدِ.

الثالثة: تَرْكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لاَ يَفْهَمُ السَّامِعُ.

الرابعة: ذِكْرُ العِلَّةِ؛ أَنَّهُ يُفْضِ إِلَى تَكْذِيبِ الله وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُنْكِرُ.

الخامسة: كَلاَمُ ابنِ عَبَّاسٍ لِمَنِ اسْتَنْكَرَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُ.

٤٠ ـ بَابٌ

قَوْلُ الله تَعَالَى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ الآية [النحل: ٨٣].

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي».

وَقَالَ عَوْنُ بنُ عَبْدِ الله :«يَقُولُونَ: لَوْلاَ فُلاَنٌ؛ لَمْ يَكُنْ كَذَا».

وَقَالَ ابنُ قُتَيْبَةَ :«يقولون : هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بنِ خَالِدِ الَّذِي فِيهِ:«وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ». الحديثَ وَقَدْ تَقَدَّمَ:«وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ».

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِم كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلاَّحُ حَاذِقاً... وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرة».

فيه مسائل

الأولى :تَفْسيرُ مَعْرِفَةِ النِّعْمَةِ وإنكارِهَا.

الثانية :مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذا جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ.

الثالثة : تَسْمِيَةُ هَذَا الكَلاَمِ إِنْكَاراً للنِّعْمَةِ.

الرابعة : اجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ فِي القلبِ.

٤١ـ بَابٌ

﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِى الآيَةِ :«الأَنْدادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: واللهِ، وحياتكَ يَا فُلاَنُ، وَحَيَاتِى، وَتَقُولَ : لَوْلاَ كُلَيْبَةُ هَذاَ ؛ لأتانا اللُّصُوصُ، ولَوْلاَ البَطُّ فى الدَّارِ، لأتى اللُّصُوصُ، وَقولُ الرَّجُلِ لصَاحبه : مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ : لَوْلاَ اللهُ وَفُلاَنٌ، لاَ تَجْعَلْ فِيها فُلاَناً، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ» رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَنْ حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَو أَشْرَكَ» رَواهُ التِّرمِذِيُّ وَحَسَّنَه، وَصَحَّحَهُ الحَاكم..

وَقَالَ ابنُ مَسْعُود: «لأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِباً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِه صَادِقاً».

وَعَنْ حُذَيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ شَاءَ فُلاَنٌ وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلاَنٌ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ «أَنَّهُ يُكْرَهُ: أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللهِ ثُمَّ بِكَ»، قَالَ «وَيَقُولُ لَوْلاَ اللهُ ثُمَّ فُلاَنٌ، ولاَ تَقُولُوا لَوْلاَ اللهُ وَفُلاَنٌ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ البَقَرَةِ فِي الأَنْدَادِ.

الثانية: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يُفَسِّرُونَ الآيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشِّرْكِ الأكبرِ أَنَّهَا تَعُمُّ الأَصْغَرَ.

الثالثة: أَنَّ الحَلِفَ بِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ.

الرابعة: أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ صَادِقاً فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ اليَمِينِ الغَمُوسِ.

الخامسة: الفَرْقُ بَيْنَ الوَاوِ و(ثُمَّ) فِي اللَّفْظِ.

٤٢ـ بَابٌ

مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِفِ بِاللهِ

عَنِ ابنِ عُمَرَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ، فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ، فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ، فَلَيْسَ مِنَ اللهِ) رَوَاهُ ابنُ مَاجَه بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النَّهْيُ عَنِ الحَلِفِ بِالآبَاءِ.

الثانية: الأَمْرُ لِلْمَحْلُوفِ لَهُ بِاللهِ أَنْ يَرْضَى.

الثالثة: وَعِيدُ مَنْ لَمْ يَرْضَ.

٤٣ـ بابٌ

قولُ: ما شاءَ اللهُ وشئتَ

عَنْ قُتَيْلَةَ: (أَنَّ يهُودِياً أَتى النَّبِيَّ ﷺ فقَالَ: إِنَّكُم تُشرِكُونَ، تقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وتَقُولُون. وَالكَعْبَةِ: فأَمرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إذَا أَرادوا أَنْ يَحلِفُوا أن يقُولُوا: ورَبِّ الكَعْبَةِ، وأَنْ يقُولُوا: [مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ). رواهُ النِّسَائي وصححه.

ولَهُ أَيضاً عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ؛ أَنَّ رَجُلاً قَالَ للنَّبِيِّ ﷺ مَاشَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فقَالَ: «أَجَعَلْتَني للهِ نِدّاً؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

ولابْنِ مَاجَة عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا؛ قَالَ: رَأَيتُ كَأَنِّي أَتيتُ على نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ؛ قلت: إِنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُمْ تقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابنُ الله. قَالُوا: وأَنْتم لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ مررتُ بنَفرٍ مِنَ النَّصَارَى فَقُلْتُ: إِنَّكُم لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكم تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابنُ اللهُ. قَالُوا: وإِنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلاَ أَنَّكُم تَقُولُون: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ؛ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُه؛ قَالَ: «هَلْ أَخْبَرتَ بِهَا أَحداً؟» قُلْتُ: نَعَمْ. قَال: فَحمدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمْ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيلاً رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُم. وَأَنَّكُم قُلْتُم كَلِمةً يَمْنَعُنِي كذا وكَذا أَنْ أنهاكم عَنْهَا؛ فَلاَ تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلكِن قولُوا مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ».

فيهِ مسائلُ

الأولي: معْرِفَةُ اليَهُودِ بِالشِّرْكِ الأَصْغَرِ.

الثانية : فَهْمُ الإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوىً.

الثالثة: قَوْلُهُ ﷺ :«أجعلتني لله ندًا؟!» فَكَيْفُ بِمَنْ قَالَ: يَا أكـرمَ الخَلق مَا لِي مَنْ أَلوذُ بِهِ سِوَاكَ...» والبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ؟

الرابعة : أَنَّ هَذا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الأَكْبَرِ، لِقَوْلِهِ «يَمنَعُنى كَذَا وكَذا».

الخامسة: أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الوَحْي.

السادسة: أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبَباً لِشَرْعِ بَعْضِ الأَحْكَامِ.

٤٤ـ بَابٌ

مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ الآية [الجاثية :٢٤].

وَفي الصَّحِيحِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « قَالَ اللهُ تَعَالى يُـؤْذِيني ابنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وأَنَا الدهرُ، أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ».

وَفي رِوَايَةٍ «لاَ تَسبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْر».

فيه مسائل

الأولى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ.

الثانية : تَسْمِيَتُهُ أَذىً للهِ.

الثالثة : التَّأَمُّلُ في قَوْلِهِ:«فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

الرابعة : أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَاباً ، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِه.

٤٥ـ بَابٌ

التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ وَنَحْوِهِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسمٍ عِنْدَ الله رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ، لاَ مَالِكَ إِلاَّ الله».

قال سفيان: «مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ».

وفي رواية: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى الله يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَخْبَثُه». قوله: (أَخْنَع) يَعْنِي: أَوْضَعُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولي: النَّهْيُ عَنِ التَّسَمِّي بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ.

الثانية : أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ. كَمَا قَال سُفْيَانُ.

الثالثة: التَّفَطُّنُ للتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ. مَعَ القَطْعِ بِأَنَّ القَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاه.

الرابعة: التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لأَجْلِ الله سُبْحَانَهُ.

٤٦ـ بَابٌ

احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى، وَتَغْيِيرُ الاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ؛ أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الحَكَم، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: « إِنَّ الله هُوَ الحَكَمُ وَإِلَيْهِ الحُكْمُ». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ، أَتَوني، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلاَ الفَرِيقَيْنِ. فقال: مَا أَحْسَنَ هَذَا ، فَمَالَكَ مِنَ الوَلَدِ» قُلْتُ: شُرَيْحٌ،

وَمُسْلِمٌ، وعَبْدُ اللهِ. قَالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُم؟ قلت: شُرَيْحٌ. قال: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وغيره.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِه. ولَو لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الثانية: تَغْيِيرُ الأَسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ.

الثالثة: اخْتِيَارُ أَكْبَرُ الأَبْنَاءِ للكُنْيَةِ.

٤٧- بَابٌ

مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالِى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآيه [التوبة:٦٥].

وعَنِ ابنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ؛ دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: «أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلاءِ؛ أَرْغَبَ بُطُوناً، وَلاَ أَكْذَبَ أَلْسُناً، ولاَ أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ (يعْنِي: رَسُولَ الله ﷺ وأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ). فَقَالَ لهُ عَوْفُ ابنُ مَالك: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ مُنَافِقٌ؛ لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلى رَسُولِ الله ﷺ لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلى رَسُولِ الله ﷺ وَقَدْ أَرْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ».

قَالَ ابنُ عُمَرَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِقاً بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وإِنَّ الحِجَارَةَ

تَنْكُبُ رِجْلَيْه، وَهُوَ يَقُولُ : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[التوبة:٦٥] مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْه».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: وَهِيَ العَظِيمَةُ؛ أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذَا فهو كَافِرٌ.

الثانية : أَنَّ هَذَا تَفْسِيرُ الآيَةِ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَائِناً مَنْ كَانَ.

الثالثة : الفَرْقُ بَيْنَ النَّمِيمَةِ والنَّصِيحَةِ لله ولِرَسُولِه.

الرابعة : الفَرْقُ بَيْنَ العَفْوِ الَّذِي يُحِبهُ اللهُ وَبَيْنَ الغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ الله.

الخامسة: أَنَّ مِنَ الاعْتِذَارِ مَا لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ.

٤٨ـ بَابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ الآية [فصلت : ٥٠]

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ».

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ «يُرِيدُ : مِنْ عِنْدِي».

وَقَوْلُهُ : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[القصص: ٧٨]

قَالَ قَتَادَةُ :«عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِب».

وَقَالَ آخَرُونَ : عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّى لَهُ أَهْلٌ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ:«أُوتِيتُهُ عَلَى شرفٍ».

وعَنْ أَبِي هُـريرَةَ أَنَّه سَمِـعَ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ ثلاثَـةً مِنْ بَنِي إسْـرَائيل: أَبْرَصَ وأَقْرَعَ وأَعْـمَى، فأَرَادَ اللهُ أَنْ يبْتَلِـيَهُم،فَبَعثَ إلـيهمْ مَلَكاً : فـأَتى الأبْرَص فَقَالَ: أَيُّ شيْءٍ أَحَبُّ إلَيْكَ؟ قَالَ : لونٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ ويَذْهَبُ عَنِّي الَّذي قَدْ قَذَرني الـنَّاسُ به». قَالَ «فمَـسَحَهُ، فَذَهَبَ عَـنهُ قَذَرُهُ، فأَعْطِـي لَوْناً حَسَنـاً وَجلداً حَسَناً. قَالَ : فأَيُّ المَال أَحَبُّ إليكَ؟ قَالَ : الإبِـلُ أو البقَرُ (شَكَّ إسْحَاقُ). فأُعْطِي نَاقَةً عشْرَاءَ، وقَالَ : بَارَكَ اللهُ لَكَ فيهَا ». قَالَ :«فأَتَى الأَقرعَ فقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إلَيـكَ؟ قَالَ شَعرٌ حَـسَنٌ، وَيذْهَبُ عَـنِّي الذي قَـد قَذرَني النَّـاسُ به. فَمَسَـحَه فَذَهَبَ عَنْهُ، وأُعطِيَ شَعْراً حَسَناً. فـقَالَ أَيُّ المَال أَحَبُّ إليكَ ؟ قَالَ البقَرُ أو الإبلُ. فَأُعطَي بَقَرَةً حاملاً، قَالَ ؛ بَارَكَ اللهُ لَكَ فيهَا.

وأَتى الأعْـمَى، فَـقَالَ : أيُّ شَـيْءٍ أَحَبُّ إليـك؟ قَالَ : أَنْ يَـرُدَّ اللهُ إلَيَّ بَـصَرِي فَأُبْصِر به النَّـاس. فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إلَيْه بَصَرَهُ. قَالَ فَـأَيُّ المَال أَحَبُّ إليكَ؟ قَالَ : الغَـنَمُ. فأُعْطِـيَ شَاةً وَالداً. فـأُنْتِجَ هـذَانِ وَوَلَدَ هذا ، فَكَـانَ لِهذا وَادٍ مِـن الإبل ولهذا وادٍ مِنَ البقرِ، ولِهذَا وَادٍ مِنَ الغَنَم».

قَالَ : «ثُـمَّ إنَّهُ أتَى الأبرَصَ فـي صُورَته وهَـيْئتـه، فقَالَ : رَجُلٌ مِـسْكيـنٌ وَابنُ سَبِيلٍ قَد انـقَطَعَـت بي الحبَالُ فـي سَفَري؛ فَـلاَ بَلاَغَ لِيَ الـيومَ إلاَّ بالله ثُـمَّ بك، أَسأَلُـكَ بالذي أعطَـاكَ اللّونَ الحَسَـنَ وَالجلْدَ الحسَـنَ وَالمَال؛ بَعيْـراً أَتبَلَّغُ بـه في سَفَرِي. فـقَالَ : الحُقُوقُ كثيـرةٌ فقَالَ لَهُ: كأَنِّـي أعرِفُكَ! أَلَم تكُن أَبـرَص يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فقيراً، فـأَعطَاكَ اللهُ عَزَّ وجلَّ المَالَ؟ فَقَالَ: إنَّمَا وَرِثْـتُ هذَا المَال كَابراً عَنْ كَابر . فَقَالَ : إن كُنْتَ كَاذباً فصيَّـرَكَ اللهُ إلَى مَا كُنْتَ». قَال : «ثُمَّ إنَّهُ أَتى الأقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَـالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهذَا، وَرَدَّ عَـلَيه مِثْل مَا رَدَّ عليـه هذا، فَقَالَ : إنْ

كُنتَ كَـاذِباً ؛ فَصيّرَكَ اللهُ إِلَـى مَا كُنتَ قَالَ : «وأَتـى الأَعْمي في صُورتـه فقَالَ : رَجُلٌ مسكينٌ وابْـنُ سَبيلٍ قَد انقطَعْـت بيَ الحِبَالُ في سَفَري؛ فَلا بَـلاغَ لِيَ اليَومَ إلا باللهِ ثُمَّ بكَ، أَسأَلُكَ بالذي رَدَّ عَلَيكَ بَصـرَكَ؛ شَاةً أَتبَلَّغُ بهَا في سفَري. فقَالَ : كُنْتُ أَعمى فَرَدَّ اللهُ إِليَّ بَصَري، فَخُـذْ مَا شئتَ، ودَعْ مَا شئتَ . فَوَاللهِ؛ لاَ أَجْهَدُكَ اليَومَ بشَيءٍ أَخَذتَهُ لله. فَـقَالَ : أَمْسكْ مَالَكَ ؛ فَإِنَّما ابتُليـتُم؛ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيكَ». أخْرَجَاهُ.

فيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسيرُ الآيَةِ.

الثانية : مَا مَعْنَى: (لَيَقُولَنَّ . هَذَا لِي)

الثالثة : مَا مَعْنَى قَوْله: (أُو تِيتُهُ عَلَى عِلمٍ عِندِي).

الرابعة : مَا فِي هَذِهِ القَصَّةِ العَجِيبةِ مِنَ العِبَرِ العَظِيمةِ.

٤٩ ـ بابٌ

قَولُ اللهِ تَعَالَى

﴿فلمَّا آتاهُمَا صَالِحًا جعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتاهُمَا﴾ الآيه [الأعراف: ١٩٠].

قال ابن حزم: «اتَّفقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسم مُعبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الكَعْبَةِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلكَ، حَاشَا عَبْدِ المُطَّلِبِ».

وعَنِ ابنِ عَـبَّاسٍ فِي الآيَةِ؛ قَـال: «لَمَّا تَغشَّـاها آدمُ؛ حمَلَتْ، فَـأتَاهُمَا إِبْـلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذي أَخرجَكُمَـا مِنَ الجَنَّةِ، لَتُطِيعَانِّنِي أَو لأَجْعَلَـنَّ لَهُ قَرنَي

إِبِلٍ، فَيَخْرُجَ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشُقَّهُ، وَلأَفْعَلَنَّ؛ يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ فَخَرَجَ مَيتاً. ثُمَّ حَمَلَت فَأَتَاهُمَا، فَذَكَر لَهُمَا، فَأَدرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَولُهُ: ﴿جعلا له شُركَاءَ فِيما آتاهُما﴾. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِم.

ولَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ؛ قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، ولَم يَكُنْ فِي عِبَادَتِه.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لئن آتيتنا صالحاً﴾؛ قال: أَشْفَقَا أَنْ لاَ يَكُونَ إِنْسَاناً.

وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَحْرِيمُ كُلِّ اسمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ.

الثانية: تَفْسِيرُ الآيَةِ.

الثالثة : أَنَّ هَذَا الشرْكَ فِي مُجَرَدِ تَسْمِيةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُها .

الرابعة : أَنَّ هِبَةَ اللهِ لِلرَّجُلِ البِنْتَ السَّوِيَّةَ مِنْ النِعَمِ.

الخامسة: ذِكْرُ السلفِ الفَرْقَ بَيْنَ الشرْكِ فِي الطَّاعَةِ والشِّرْكِ فِي العِبَادَةِ.

٥٠- بَابُ

قَولُ اللهِ تَعَالَى

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الآيَة [الأعراف:١٨٠]

ذَكَر ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ : (يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِه): يُشْرِكُون وَعَنْهُ: سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَه، والعزَّى مِنَ العَزِيزِ».

وَعَنِ الأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْها».

فيه مسائل

الأول: إِثْبَاتُ الأَسْمَاءِ.

الثانية: كَوْنُهَا حُسْنَى.

الثالثة: الأَمْرُ بِدعَائِه بِهَا.

الرابعة : تَرْكُ مَنْ عَارَضَ مِنَ الجَاهِلِينَ المُلْحِدِينَ.

الخامسة: تَفْسِيرُ الإِلحَادِ فِيهَا.

السادسة : وَعِيدُ مَنْ أَلْحَدَ.

٥١ ـ بَابٌ

لا يُقَالُ: السَّلامُ عَلَى اللهِ

فِي «الصَّحِيح» عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ " قَالَ: كُنَّا إذا كُنَّا مَعَ [النَّبِيِّ] ﷺ فِي الصَّلَاةِ؛ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى الله مِنْ عِبَادِه، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ [وَفُلَانٍ]. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «لاَ تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : تَفْسِيرُ السَّلَامِ.

الثانية : أَنَّهُ تَحِيةٌ.

الثالثة : أَنَّها لاَ تَصْلُحُ لله.

الرابعة : العِلَّةُ فِي ذَلكَ.

الخامسة: تَعْليمهُمُ التَّحيَّةَ التَّي تَصْلُحُ لله.

٥٢ ـ بَابٌ

قَوْلُ : اللهمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شئْتَ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُم: اللَّهُمَّ اغْفِر لِي إِنْ شئتَ . اللَّهُمَّ ارْحَمني إِنْ شِئتَ. لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لاَ مُكرِهَ لَهُ».

وَلِمُسْلِمٍ« وَلِيُعَظِّم الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَتعَاظَمُهُ شَيءٌ أَعْطَاهُ».

فِيهِ مَسَائل

الأولى : النَّهْيُ عَنِ الاستثناء فِى الدُّعَاءِ.

الثانية: : بَيَانُ العِلَّةِ فِي ذَلِكَ .

الثالثة : قَوْلُهُ «لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ».

الرابعة : إِعْظَامُ الرَّغْبَةِ.

الخامسة: التَّعْلِيلُ لِهَذَا الأمْرِ.

٥٣ ـ بَابٌ

لاَ يَقُولُ : عَبْدِي وَأَمَتي

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : «لاَ يَقُل أَحَدُكُم: أَطْعِم

رَبَّكَ، وَضِّىءْ رَبَّكَ. وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَولاَيَ. وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُم: عَبْدِي وأَمَتِي. وَلْيَقُلْ فَتَايَ وفَتَاتِي وَغُلاَمِي».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى :النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ : عَبْدِي وأَمَتِي.

الثانية : لاَ يَقُولُ العَبْدُ: رَبِّي، ولاَيُقَالُ له: أَطْعِم رَبَّكَ.

الثالثة: تَعْلِيمُ الأَوَّل قَوْلَ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغلاَمِي.

الرابعة :تَعْلِيمُ الثَّانِي قَوْلَ : سَيِّدِي وَمَوْلاَيَ.

الخامسة:التَّنْبِيهُ للمُرَادِ، وَهُوَ تحقيقُ التَّوحِيدِ حَتَى في الأَلْفَاظِ.

٥٤ـ بَابٌ

لاَ يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :«مَنْ سَأَلَ باللهِ؛ فأَعْطُوهُ، وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللهِ؛ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُم؛ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيكُمْ مَعْرُوفاً؛ فَكَافِئُوهُ، فَإِن لَم تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ؛ فادْعُوا لَهُ حَتَّى تَروا أَنَّكُم قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ والنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : إعَاذَة مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ.

الثانية: إعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ.

الثالثة : إجَابَة الدَّعْوَة.

الرابعة: المُكَافأةُ علَى الصَّنيعَة.

الخامسة :أنَّ الدُّعاءَ مُكَافَأةٌ لمَنْ لَمْ يَقْدرْ إلاَ علَيه.

السادسة: قَوْلُهُ: حَتَى ترَوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافأْتُمُوه».

٥٥ـ بَابٌ

لا يُسَألُ بِوَجهِ اللهِ إلاّ الجَنّة

عن جَابرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «لاَ يُسأَلُ بِوَجْهِ الله إلاَّ الجَنَّةُ» رَوَاهُ أبُو دَاوُدَ.

فيه مَسَائِلُ

الأولى : النَّهْيُ عَنْ أَنْ يُسْأَلَ بِوَجْهِ الله إلاَّ غَايَةُ المَطَالِبِ.

الثانية : إثْبَاتُ صِفَةِ الوَجْهِ.

٥٦ـ بَابٌ

ماجاء في اللو

وَقَوْلُ الله تَعَالى ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ الآية [آل عمران١٥٤] وَقَوْلُهُ :﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الآيه [آل عمران:١٦٨].

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِن بِالله وَلاَ تَعْجِزَنَّ، وإن أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلاَ تَقُلْ: لَو أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا؛ لَكَانَ كَذَا وَكَذا، وَلَكِن قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ».

فيه مسائل

الأولى: تَفْسيرُ الآيتَينِ فِي آل عِمْرَانَ.

الثانية: النَّهيُ الصَّريحُ عَنْ قَوْلِ: «لَوْ» إذَا أَصَابكَ شيء.

الثالثة: تَعْليلُ المَسْأَلَةِ بِأَنَ ذَلِكَ يفْتَحُ عَملَ الشَّيْطَانِ.

الرابعة: الإِرْشَادُ إِلىَ الكَلام الحَسَنِ.

الخامسة: الأَمْرُ بِالْحِرصِ علىَ مَا يَنْفَعُ مَعَ الإسْتِعَانَةِ باللهِ.

السادسة: النَّهْيُ عَنْ ضِدِ ذَلِكَ. وَهُوَ العَجْزُ.

٥٧ ـ بَابٌ

النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَتَسبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيتُم مَا تَكْرَهُونَ؛ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هذهِ الرِّيح وخير مَا فيهَا. وَخيْرِ مَا أُمِرتْ به، ونَعوذُ بِكَ مِنّ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ» صَحَّحَهُ الترْمِذِيُّ.

فيه مسائل

الأولى: النَّهْيُ عَنْ سَبِ الريحِ.

الثانية: الإرْشَادُ إلىَ الكَلاَمِ النَّافِعِ إِذَا رأَى الإنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.

الثالثة: الإرْشَادُ إلىَ أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

الرابعة: أَنَّهَا قَدْ تُؤْمَرُ بخَيرٍ وَقَدْ تُؤْمَرُ بِشَرٍ.

٥٨ ـ بَابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى ﴿يظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤].

وَقَوْلُه: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآيه [الفتح:٦].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ فِي الآيَةِ الأولى:

فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَه لاَ يَنْصرُ رَسُولَهُ، وأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ الله وَحِكْمَتهُ.

فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ وإِنْكَارِ القَدَرِ وإِنْكَارِ أَنْ يَتِم أَمرَ رَسُولِهِ ﷺ . وأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدينِ كُلِّه.

وَهَذا هُو ظَنُّ السَّوْءِ. الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقونَ وَالْمُشْرِكُونَ في سَورَةِ الفَتْحِ.

وإِنَمَا كَانَ هَذاَ ظَنُّ السَّوء لأَنَّـهُ ظَنُّ غيرِ مَا يَلِيق بِهِ سُبْحَانَهُ وَمَا يَـلِيقُ بِحكْمَتِه وَحَمْدِه وَوَعْدِه الصَّادِق.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ أَو أَنْكَرَ أَنْ مَا جَرى بِقَضَـائِه وَقَدرِه، أو أَنْكَر أَنْ يَكونَ قُدَرُهُ لحِـكْمَة بَالِغَة يَسْتَحِـقُ عَلَيهَا الحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمشِيئَةٍ مُجَردَةٍ ؛ فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَرُوا، فويلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

وأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّـونَ بِاللهِ ظَـنَّ السَّـوْءِ فِيمَـا يَخْتَـصُ بِهِمْ، وفِيـمَا يَفْعَـلُهُ

بِغَيْرِهِمْ وَلاَ يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ. وَمُوجَبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.

فليعتنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ؛ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتاً عَلَى القَدَرِ وَمَلاَمَةً لَهُ. وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا؛ فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلاَّ فَإِنِّي لاَ إِخَالُكَ نَاجِياً

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ

الثانية: تَفْسِيرُ آيةِ الفَتْحِ.

الثالثة: الإِخْبَارُ بِأَنَّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ لاَ تُحْصَرُ.

الرابعة: أَنَّهُ لاَ يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَ الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ وَعَرَفَ نَفْسَهُ.

٥٩ـ بَابٌ

مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ

وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ» ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وعَنْ عُبَادَةَ بن الصامت؛ أنَّه. قَالَ لابْنه: يا بُنَيَّ إنَّكَ لَنْ تجدَ طَعْمَ الإيمَانِ حَتَّى تعْلَمَ أنَّ مَا أصَابَكَ لَمْ يكُنْ ليُخْطئَكَ، ومَا أخْطَأَكَ لَمْ يكُنْ ليُصيبَكَ، سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «إنَّ أوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فقَالَ: رَبِّ ومَاذا أكْتُبُ؟ قَالَ: أكْتُبْ مَقَادير كُلِّ شَيْءٍ حتَّى تقُومَ السَّاعَةُ يابُنَيَّ سَمعْتُ رَسُول الله ﷺ يقُولُ: من مَاتَ عَلَى غيرِ هَذا فلَيسَ منِّي».

وفي روَايَةٍ لأحْمَدَ: «إنَّ أوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تعَالى القَلَمَ، فقَالَ لَه: اكْتُبْ، فجَري في تلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائنٌ إلَى يوْمِ القيَامَةِ».

وفي روَايَةٍ لابنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «فَمَنْ لَم يُؤمنْ بالقَدرِ خَيرِه وَشَرِّه أحْرَقَهُ اللهُ بالنَّار».

وفي «المُسْنَدِ» والسُّنَنِ» عَن ابن الدَّيْلَميِّ؛ قَالَ: «أتَيْتُ أُبَيَّ بنَ كَعْب، فَقُلْتُ في نَفْسي شَيْءٌ منَ القَدَرِ؛ فَحَدِّثْني بشَيْءٍ، لَعَلَ اللهَ يُذْهبَهُ منْ قَلْبي. فقَال : لَوْ أنْفَقتَ مثْلَ أحُدٍ ذَهَباً، مَا قَبلَهُ اللهُ منْكَ حتَى تُؤمنَ بالقَدرِ، وتَعْلَمَ أنْ مَا أصَابَكَ لَمْ يكُنْ ليُخطئَكَ، ومَا أخْطَأَكَ لَمْ يكُنْ ليُصيبَكَ، ولَوْ متَّ عَلَى غيرِ هَذاَ لَكُنْتَ منْ أهْلِ النَّارِ ، قَالَ: فَأتيْت عَبْدَ الله بنَ مَسْعُود. وحُذَيْفَةَ بنِ اليَمَانِ وزَيْدَ بنَ ثَابت؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَني بمثْلِ ذَلكَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ» حَديثٌ صَحيحٌ رَوَاهُ الحَاكمِ في «صَحيحه».

فيه مَسَائِلُ

الأولى :بيَانُ فَرْضِ الإيمَانِ بالقَدرِ.

الثانية :بيَانُ كَيْفيَةِ الإيمَانِ بِهِ.

الثالثة : إحْبَاطُ عَمَلِ مَنْ لَمْ يؤْمنْ بهِ

الرابعة : الإخْبَارُ أَنَّ أَحداً لاَ يَجِدُ طَعْمَ الإيْمَانِ حتَى يُؤْمنَ بِهِ.

الخامسة :ذكْرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللهُ.

السادسة: أَنَّهُ جرَى بِالمَقَادير فِى تِلْكَ السَّاعَةِ إلى قِيَامِ السَّاعَة.

السابعة :بَرَاءتُهُ ﷺ ممَّنْ لَمْ يؤْمنْ بهِ.

الثامنة:عَادَةُ السَلَفِ في إزلَةِ الشُبْهَةِ بسُؤَال العُلَمَاء.

التاسعة: أنَّ العُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ شُبْهَتَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُم نَسَبُوا الكلاَمَ إلىَ رَسُولِ اللهِ فَقَطْ.

٦٠. بَابٌ

مَاجَاءَ فِي المُصَوِّرِينَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ اللهُ تَعَالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ ممَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلقِي؛ فَليَخلُقُوا ذَرَّةً، أَو لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَو لِيخْلُقُوا شَعِيرَةً». أخْرَجَاهُ.

ولَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: أَشَدُّ النَّاسِ عذَابًا يوم القِيامَةِ الَّذينَ يُضَاهِئونَ بِخَلَقِ اللهِ».

وَلَهُمَا عَنْ ابن عَبَّاسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِى النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّم».

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعاً: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنيا؟ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ ولَيس بِنَافِخٍ»..

ولمُسْلِم عَنْ أَبي الهيَّاجِ؛ قَالَ: قَالَ لي عَليٌّ: «ألا أبْعثُكَ على ما بَعثَني عليْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ لا تَدعَ صُورةً إلاَّ طَمَسْتَهَا، ولاَ قَبراً مُشْرِفًا؛ إلا سَوَّيْتَه».

فيهِ مَسَائِلُ

الأولى: التَّغْليظُ الشَّديدُ في المُصَوِّرِينَ.

الثانية: التَّنْبيهُ عَلَى العِلَّةِ وهي ترك الأدَبِ مَعَ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أظلم مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخلْقِي﴾

الثالثة: التَّنْبيهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وعَجْزِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أو شَعيرةً﴾.

الرابعة: التَّصْريحُ بِأنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عذَاباً.

الخامسة: أَنَّ الله يَخْلق بِعَدَدِ كُلِّ صُورةٍ نَفْساً يُعَذَّبُ بِهَا المُصوِّرَ في جَهَنَّم.

السادسة: أنَّهُ يُكَلَّفُ أنْ يَنْفُخَ فيهَا الرُّوحَ.

السابعة: الأَمْرُ بطَمْسِهَا إذَا وُجِدَتْ.

٦١ ـ بَابٌ

مَا جَاءَ في كَثْرَةِ الحَلِفِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الحَلفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلكَسْبِ» أَخْرَجَاهُ.

وَعَنْ سَلْمَانَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهم اللهُ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ؛ لاَ يَشْتَرِي إِلاَّ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَبِيعُ إِلاَّ بِيَمِينِهِ». رَوَاهُ الطَّبَرانِي بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم (قَالَ عِمْرَانُ: فَلاَ أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَينِ أَوْ ثَلاَثاً؟)، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُم قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلاَ يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِم السِّمَنُ»

وَفِيهِ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِم يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ.

فِيهِ مَسَائِل

الأولى: الوَصِيَّةُ بِحِفْظِ الأَيمانِ.

الثانية: الإِخْبَارُ بِأَنَ الحَلِفَ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلبَرَكَةِ.

الثالثة: الوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِيمنْ لاَ يَبِيعُ إِلا بِيَمِينِهِ وَلا يَشْتَرِي إِلا بِيَمِينِهِ.

الرابعة: التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ مَعَ قِلَّةِ الدَّاعِي.

الخامسة: ذَمُّ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ وَلا يُسْتَحلَفُونَ.

السادسة: ثَنَاؤُهُ ﷺ عَلَى القُرُونِ الثَّلاَثَةِ أَوِ الأَرْبَعَةِ، وَذِكْرُ مَا يَحْدُثُ بَعْدَهُمْ.

السابعة: ذَمُّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ وَلا يُسْتَشْهَدُونَ.

الثامنة: كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصِّغَارَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ.

٦٢ ـ بَابٌ

مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية . [النحل:٩١].

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوى الله وَمَنْ معه مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا.

فَقَالَ: «اغزُوا بِاسْمِ الله، فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بالله اغْزُوا، وَلاَ تغلُّوا، وَلاَ تَغدِرُوا، ولا تمثلوا، وَلا تَقتلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُم إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ (أَو: خلاَل)، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنهُم، وَكُفَّ عَنْهُم : ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَجَابُوكَ» فَاقْبَلْ مِنهُم، ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرهُم أَنَّهُم إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُم مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيهِم مَا عَلَى المهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرهُم أَنَّهُم يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيهِم حُكمُ الله تَعَالَى. وَلا يَكُونُ لَهُم فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيءِ شَيءٌ، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوا، فَاسْأَلهُم الجِزْيَةَ، فَإِنْ هُم أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنهُم، وكُفَّ عَنْهُم، فَإِنْ هُمْ أَبَوا، فَاسْتَعِن بالله وقَاتِلْهُم.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلا تَجْعَل لَهُم ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِن اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُم أَنْ

تَخفِرُوا ذِمَـمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابكُـم أَهْونُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ الله وَذِمَّـةَ نَبِيِّهِ ، وَإِذَا حَاصَرت أَهْلَ حِصْنٍ، فأرادُوكَ أَنْ تُنزِلَهُم عَلَـى حُكْمِ الله، فلا تُنْزِلهُم عَلَى حُكْمِ الله ولَكِن أَنْـزِلهُم عَلَى حُـكْمِكَ فَإِنَّكَ لا تَدْرِي أَتُـصِيبُ فِيهِـم حُكْمَ الله أَم لا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فيه مَسائل

الأولى: الفَرْقُ بَينَ ذِمَّةِ الله وذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَذِمَّةِ المُسْلمينَ.

الثانية: الإرْشَادُ إلى أَقَلِّ الأَمْرَيْنِ خَطَرًا.

الثالثة: :قَوْلُهُ: «اغزَوا بِسمِ الله فِي سَبِيلِ الله».

الرابعة: قَوْلُهُ: «قَاتلُوا مَنْ كَفَرَ بالله».

الخامسة: قَوْلُهُ: «استَعِنْ بالله وقَاتلْهُم».

السادسة: الفَرْقُ بيْنَ حُكْمِ الله وَحُكْمِ العُلَمَاءِ.

السابعة: فِي كَوْنِ الصَّحَابِيِّ يَحكُم عِنْدَ الحَاجَةِ بِحُكْمٍ لاَ يَدْرِي أيوافق حكمَ الله أَمْ لاَ.؟

٦٣- بَابٌ
مَا جَاءَ فِي الإقْسَامِ عَلَى اللهِ

عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْـدِ الله رَضِيَ الله عَنْـهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَـالَ رَجُلٌ: وَالله لاَ يَغْفِـرُ الله لِفُلاَنٍ، فَقَـال الله عَزَّ وَجَلَّ : مَنْ ذَا الذِي يَـتَأَلَّى عَلَـيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ».

فيه مسائل

الأولى: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّأَلِّي عَلَى الله.

الثانية: كَوْنُ النَّارِ أَقْرَب إِلَى أَحَدِنا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِه.

الثالثة: أَنَّ الجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ.

الرابعة: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِه : «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكلِمَةِ ...» إِلَى آخِرِهِ.

الخامسة: أَنَّ الرَجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهِ الأُمُورِ إِلَيْهِ.

٦٤ - بَابٌ

لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى خَلْقِهِ

عَنْ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ الله عَنْهُ، قَالَ: (جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ! نُهِكَتِ الأَنْفُسُ وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى الله. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :«سُبْحَانَ الله! سُبْحَانَ الله!» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ. ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا الله ؟ إِنَّ شَأْنَ الله أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لاَ يُسْتَشْفَعُ بِالله عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِه..» وَذَكَرَ الحَدِيثَ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: إِنْكَارُهُ عَلَى مَنْ قَالَ: «نَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ».

الثانية: تَغَيُّرُهُ تغيُّراً عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ.

الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: «نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ».

الرابعة: التَّنْبِيهِ عَلَى تَفْسِيرِ« سُبْحَانَ اللهِ!».

الخامسة: أَنَّ المُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ ﷺ الاسْتِسْقَاءَ.

٦٥ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: (انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا. فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَولِكُم، أَو بَعْضِ قَولِكُم، وَلاَ يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! يَا خَيْرَنَا وابن خيرنا، وسَيِّدَنَا وابنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُم، وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُم الشَّيْطَان، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَن تَرفَعُونِي فَوقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنزَلَنِي اللهُ عزَ وَجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِي بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

فِيهِ مَسَائِل

الأولى: تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الغُلُوِّ.

الثانية: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: «أَنْتَ سَيِّدُنَا».

الثالثة: قَوْلُهُ: «لا يَسْتَجْرِيَنَّكُم الشَّيطَانُ» مَعَ أَنَّهُم لَمْ يَقُولُوا إِلاَّ الحَقَّ.

الرابعة: قَوْلُهُ: «مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي».

٦٦ - بَابٌ

مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ . الآيــة : [الزمر:٦٧].

عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: (جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوات عَلَى إِصْبَعٍ، والأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، والشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاء عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصبعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقًا لِقَولِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. الآية : [الزمر:٦٧].

وفي روايةٍ لِمُسْلِمٍ: «والجِبَالُ وَالشَّجرُ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللهُ».

وَفي رِوَايَةٍ لِلبُخَارِي: (وَيَجْعَلُ السَّموات عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ) أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عن ابنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: (يَطْوِي اللهُ السَّموات يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَ يَأْخُذُهُنَ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَ يَقُولُ: أَنا المَلِكُ أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي

الأَرْضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِه، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟)

وَرُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا السَّمَوات السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمنِ إلا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ.

وَقَالَ ابنُ جَرِير : «حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابنُ زَيد : حَدَّثَنِي أَبي، قَالَ:قَالَ رَسُولَ ﷺ : «مَا السَّمواتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِي إلا كدراهمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيتْ فِي ترس» قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ سَمِعْت رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: (مَا الكُرْسيُّ فِي العَرْشِ إلا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلقِيَت بَيْنَ ظَهْرِيْ فَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ).

وَعَنِ ابنُ مَسْعُود، قَالَ: بَينَ السَّمَاء الدُّنْيَا والَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمائة عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاء وَسَماء خَمْسُمائةعَامٍ، وَبَيَن السَّمَاء السَابِعَة وَالكُرْسِي خَمْسُمَائة عَامٍ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاء خَمْسُمَائة عَامٍ،وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاء، والله فَوْقَ العَرْشِ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالكُمْ) أَخْرَجَهُ ابنُ مَهْدِيٍّ عَن حَمَّاد بنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِم عَنِ زرٍّ عَنْ عَبْدِ الله ورَوَاهُ بِنَحْوِه المَسْعُودِيُّ عَنْ عَاصِمٍ عَن أَبي وَائل عَن عَبْدِ الله ، قَالَهُ الحَافظُ الذَّهَبِي رَحِمَهُ الله تَعَالَى: قَالَ: (ولَهُ طُرقٌ).

وَعَنْ العَبَّاسِ بن عَبَدِ المُطَّلب رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ الله ﷺ: هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّماء والأَرْض؟» قُلْنَا : الله وَرَسولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسيرةُ خَمْسْمائة سَنَة، وَمِنْ كُل سَمَاء إلى سَمَاء ، مَسَيْرَة خَمْسُمَائة سَنَة، وكثفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسيْرَةُ خَمْسُمَائة سَنَةٍ، وبَيْنَ السَمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحرٌ بَيْنَ أَسْفَلِه

وَأعْلاهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، واللهُ سُبْحَانَـهُ وتَعالَى فَوْقَ ذَلكَ، ولَيْس يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ) أَخرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وغَيْرُهُ.

فيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الثانية: أنَّ هَذِهِ الـعُلُومَ وَأَمْثَـالهَا بَاقِـيَةٌ عِنْـدَ اليَهُودِ الَّـذِينَ فِي زَمَنِـهِ ﷺ ولَمْ يُنْكِرُوهَا ولَمْ يَتَأَوَّلُوها.

الثالثة: أَنَّ الحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ للنَّبِيِّ ﷺ صدَّقَهُ، ونَزَلَ القُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلكَ.

الرابعة: وُقُوعُ الضَّحِكِ مِنْهُ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ الحَبْرُ هَذَا العلمَ العَظِيمَ.

الخامسة: التَّصْرِيحُ بِذِكْـرِ اليَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَوات فِي اليَدِ الـيُمْنَى وَالأَرْضِينَ فِي اليَدِ الأُخْرَى.

السادسة: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَتِها الشِّمَال.

السابعة: ذِكْرُ الجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلكَ.

الثامنة: قَوْلُهُ «كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ».

التاسعة: عِظَمُ الكُرْسِيِّ بِالنِسْبَةِ إِلَى السَمَوات.

العاشرة: عِظَم العَرْشِ بِالنِّسْبَةِ للكُرْسِيِّ.

الحادية عشرة: أَنَّ العَرْشَ غَيرُ الكُرْسِيِّ، وَالمَاء.

الثانية عشرة: كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلى سَمَاءٍ.

الثالثة عشرة: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ والكُرْسِيِّ.

الرابعة عشرة: كَمْ بَيْنَ الكُرْسيِّ والمَاءِ.

الخامسة عشرة: أَنَّ العَرْشَ فَوْقَ المَاءِ.

السادسة عشرة: أنَّ الله فَوْقَ العَرْشِ.

السابعة عشرة: كَمْ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ.

الثامنة عشرة: كِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمَائَةِ سَنَةٍ.

التاسعة عشرة: أَنَّ البَحْرَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَعْلاهُ وأَسْفَلِهِ مَسِيرَةَ خَمْسُمَائَةِ سَنَةٍ، والله سُبْحَانَهُ وتَعالَى أَعْلَمْ.

والحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِين.

مغنى المريد

شرح كتاب التوحيد

قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

قوله - «بسم الله».

متعلقة بمحذوف قدره الكوفيون فعلا مقدماً والتقدير ابدأ بسم الله وقدرة البصريون اسماً مقدماً والتقدير ابتدائى كائناً أو مستقراً بسم الله فعلى الأول فالجار والمجرور فى موضع نصب وعلى الثانى فالجار والمجرور فى موضع رفع وذكر ابن كثير أن القولان متقاربان وكلاً قد ورد به القرآن فعلى الأول أى تقديره بسم الله ابتدائى فلقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾(١) ومن قدره بالفعل نحو أبدا بسم الله أو ابتديت بسم الله فلقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(٢) وكلاهما صحيح فإن الفعل لابد له من مصدر فلك أن تقدر الفعل ومصدره وذلك بحسب الفعل الذى سميته قبله إن كان قياماً أو أكلاً أو صلاة فالمشروع ذكر اسم الله تعالى فى ذلك كله تبركا وتيمنا واستعانة على الاتمام والتقبل. وذكر ابن القيم لحذف العامل فى بسم الله فوائد عدة منها انه موطن لا ينبغى ان يتقدم فيه سوى ذكر الله تعالى ومنها ان الفعل اذا حذف اصح الابتداء بالتسمية فى كل عمل قولاً وحركة وليس فعلاً أولى بها من فعل فكان الحذف أعم من الذكر فأى فعله ذكرته كان المحذوف أعم منه.

الحكمة من البدأ بالبسملة

والبداءة بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ ومعنى بسم الله الرحمن الرحيم أى أبدأ مستعيناً ومتبركاً بكل اسم من أسماء الله تعالى الموصوف بالرحمة الواسعة.

وقد استقر عمل الأئمة المصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة وكذا معظم كتب الرسائل تأسياً بالكتاب العزيز وسنة المصطفى ﷺ كما ثبت ذلك عنه فى حديث هرقل وهو فى البخارى (٣) وفى قصة سهيل بن عمرو فى صلح الحديبية(٤) وغير ذلك من

---

(١) هود: ٤١.

(٢) العلق: ١.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٧)، ومسلم (٦/٣٤٦ الجهاد) وانظر «فتح المجيد» (٧ - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٦٩٩)، ومسلم (٦/٣٧٧ - الجهاد).

الأحاديث وكان الصحابة رضى الله عنهم يفتتحون كتابة الإمام الكبير بالتسمية ويتبعوها بالحمد وتبعهم جميع من كتب المصحف بعدهم فى جميع الأمصار.

والحكمة من البدء بها غير ما تقدم هى مراعاة قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾(1) فلم يقدم على كلام الله ورسوله شيئاً من كلامه.

هذا وقد قال الشراح انه ابتدأ بالبسملة لبعض ما سبق وعملاً بحديث **(كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع)**(2) ولأبى داود وابن ماجه **(كل أمرِ ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو أقطع)**(3) ولأحمد **(كل أمر ذى بالِ لا يفتتح بذكر الله فهو أبتر أو أقطع)**(4) وللدارقطنى عن أبى هريرة مرفوعاً **(كل امر ذى بالِ لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع)**(5).

ولكن قد يتعقب عليهم بأن الشيخ لم يقصد إلى ذلك لضعف هذه الروايات وأن ضعفها إما بسبب الاضطراب فى الفاظها أو بسبب الارسال فى بعض أسانيدها أو بسبب مقالات قيلت فى بعض رواتها كما بين ذلك الحفاظ من السلف والخلف.

قوله: (الله).

قال ابن عثيمين: [الله] لفظ الجلالة، عَلَمٌ على الذات العالية، لا يسمى بها غيره، وهو مشتق من (إلـه)، لكن حذفت الهمزة، وعوض عنها (بأل) فصارت (الله) وقيل: بل إنه مشتق من (الإله) وأن (أل) موجودة في بنائه من الأصل وحذفت الهمزة للتخفيف كما حذفت من (الناس) وأصلها (الأُناس) وكما حذفت الهمزة من (خير وشر) وأصلها (أخير، وأشر) ومعنى الله مؤخوذة من الألوهية، وهو التعبد بحب وتعظيم، يقال: أَلِهَ إليه، أي: اشتاق إليه وأحبه، وأناب إليه وعظم، فهي مشتقة من الألوهية، وهي المحبة والتعظيم، وعليه فيكون (إله) بمعنى مألوه، أي: معبود، وهو فِعَال تأتي مفعول؟

(1) الحجرات: ١.

(2) [ضعيف] ذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣١) ونسبه للحافظ عبد القادر الرهاوى فى الاربعين. وانظر «فتح المجيد» (١ - بتخريجنا).

(3) [ضعيف] أخرجه أبو داود (٤٨٤٠)، وابن ماجه (١٨٩٤) وانظر فتح المجيد (ح٣) بتخريجنا.

(4) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٥٩) وانظر فتح المجيد (ح٤) بتخريجنا.

(5) [ضعيف] أخرجه الدار قطنى فى «سننه» (١/ ٢٢٩).

وانظر الكلام على طرقه فى «فتح المجيد» (٥ - بتخريجنا).

نقول: نعم، مثل فراش بمعنى مفروش، وبناء، بمعنى مبنوء.اهـ[1].

قوله «الله» علم علـى الرب تبارك وتعالى وذكـر سيبويه أنه اعرف المـعارف ويقال ان الاسم الأعظم لانه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2] فأجرى الاسماء الباقية كلها صفات لهذا الاسم.

قال ابن القيم والقول الصحيـح أن الله أصله: الإله كما هو قول سيبـويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، وإن اسم الله تعالى هو الجـامع لجميع معانى الاسماء الحسنى والصفات العلى. وقـال الكسائى والفراء أصله الإله حذفوا الـهمزة وادغموا اللام الأولى فى الثانية، وعـلى هذا فالصحيح انه مشـتق من أله الرجل اذا تعبد كمـا قرأ ابن عباس ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[3] أى عبادتك وأصله الإله أى المعبود.

قوله «الرحمن الرحيم»:.

قال ابن كثير: اسمان مشتقان من الرحمة على وجـه المبالغة ورحمن أشد مبالغة من رحيم.

قال ابن عباس:[4] وهما اسمان رقيقان أحـدهما أرق من الآخر، أى أوسع رحمة.

وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب.

قال ابن القيم: إن الرحمن دال على الـصفة القائمة به سبحانـه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثانى للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته والثانى، دال عـلى أنه يرحم خلـقه برحمته. وإذا أردت فهـم هذا فتأمل قولـه تعالى: ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾[5] ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[6] ولم يجيء قط رحمن بهم فعلم أن رحمن هو المـوصوف، والرحيم هو الـراحم برحمته، والرحـمن الرحيم نعـتان لله تعالى.

---

(١) شرح المنظومة البيقونية (١٢). (٢) الحشر: ٢٢/٢٣

(٣) الأعراف: ١٢٧.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/٢٩) ونسبه للبيهقي فى «الأسماء والصفات».

(٥) النساء: ٤٣. (٦) التوبة: ١١٧

قوله: «الحمد لله».

معنى الحمد هو ذكر أوصاف المحمود الكاملة وأفعاله الحميدة مع المحبة والتعظيم له.

أو هو الثناء على الله بالجميل الاختياري، أو هو وصف المحمود بصفات الكمال وتنزيهه عن كلِّ نقص مع بذل المحبة له ومع بذل التعظيم له.

● **فلماذا قيد العلماء بأنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؟**

الجواب: لكي يفرقوا بين الحمد والمدح، إذ المدح قد يصاحبه تعظيم وقد لا يصاحبه، وقد يكون في الغالب بخوف من الممدوح، لا محبة له ولا تعظيمًا، لكن الحمد لا يكون غالبًا إلا مع تعظيم ومحبة للمحمود.

وهذا المعنى متقرر فى أكثر من آية مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾(١) فذكر العالمين ذكر لأوصافه الكاملة ومالك يوم الدين لأفعاله الحميدة.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾(٢) فأفعاله الحميدة كإنزاله الكتاب ولم يجعل له عوجاً.

وأيضاً كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾(٣).

وكقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾(٤).

وكقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٥).

ومن معانى الحمد أيضاً ذكر المحمود بمحاسنه والثناء بالكامل على الإحسان والجميل.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الحمد لله على الإحسان والحمد بذكر المحاسن.

والحمد على الإحسان مثل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾(٦).

---

(١) الفاتحة٢-٤.
(٢) الكهف ١.
(٣) فاطر ١.
(٤) النمل ٥٩.
(٥) الزمر ٢٩.
(٦) إبراهيم: ٣٩.

والمحاسن: أن يرزق الله الشيخ الكبير والعقيم بالولد.

والإحسان: حيث أحسن الله على إبراهيم ووهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق.

والرزق فى حد ذاته إحسان كما ثبت فى الصحيح **أن الله تعالى ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها**» فالحمد هنا على الإحسان.

ومن هنا قال بعض أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية: رأس **الحمد شكر** الله -عز وجل - أو الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله - عز وجل- لم يشكره.

الفرق بين الحمد والشكر

والأحاديث فى الحمد والشكر تبين ان هناك شبه بين الحمد والشكر.

وذكر شيخ المفسرين الطبرى أن الحمد بمعنى الشكر والشكر بمعنى الحمد.

ولكن ذكر بعض أهل العلم فروقاً بين الحمد والشكر منها أن الحمد يكون على الإحسان وعلى غير الإحسان فيكون فى السراء والضراء.

ففى السراء تحمده على المحاسن والإحسان وفى الضراء تحمده على المحاسن فقط.

فالله يبذل له الحمد فى كل حال فى المصيبة والنعمة. ولأنه له الأسماء الحسنى التى تناهت فى الحسن ، وله الصفات العلى فى السماوات والأرض ولذلك له الحمد على أى حال، أمّا الشكر فيكون على الإحسان فقط يعنى على السراء فقط. وفرق آخر أن الحمد باللسان والقلب والشكر بالقلب واللسان والجوارح كما قال تعالى ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**﴾[1] فالشكر فى مقابل العمل الذى اختص به آل داود فالشكر يكون فى القلب واللسان والجوارح.

فينبغى أن نقدم بين يدى العمل بالحمد والثناء على الله بما هو أهله بأن وفقنا الله -عز وجل- لشرح هذا الكتاب ولقوله ﷺ «**كل خطبة لا يبدأ فيها بالحمد فهي كاليد الجذماء**»[2].

وجاءت أحاديث كثيرة فى فضل الحمد منها ما أخرجه أحمد والنسائى «**اما إنَّ ربك يحب الحمد**»[3] . . وهذا لأن الله أهلاً لذلك فنحمدك ربنا كما تقول وخيراً مما نقول ولا نحصى ثناء عليك.

وأيضاً ما رواه ابن ماجه والحديث أخرجه الترمذى وحسنه عن جابر مرفوعاً **أفضل**

---

(١) سبأ ١٣.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/٣٠٢)، وأبو داود (٤١/٤٨)، والترمذى (١١٠٦) عن أبى هريرة. وانظر كتابنا «التيسير والتأصيل والسلفية فى شرح البيقونية»، و انظر تخريجه أيضاً في كتابنا «فقه الخطابة».

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/٤٣٥) ، والنسائى (٧٧٤٥) عن الأسود بن سريع.

الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله[1] ويشهد لصحة ذلك أنه هو دعاء أهل الجنة قال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] ولذلك كان من المناسب ان يبدأ المصنفون بعد البسملة بالحمد.

وقال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[3] لذلك فنحن نحتاج إلى الحمد في بداية العمل الذى نرجو له القبول والتوفيق.



قوله: «وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم»

[قلت]: بوب البخارى باب الصلاة على النبي ﷺ وأسند عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال «لقينى كعب بن عجرة فقال: ألا أهدى لك هدية؟ إن النبى ﷺ خرج علينا فقلنا: يارسول الله ، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلى عليك؟ قال **قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم إنك حميد مجيد**[4].

وأسند عن أبى سعيد الخدرى قال: قلنا يارسو ل الله، هذا السلام عليك فكيف نصلى؟ قال: **قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم**»[5].

قال ابن حجر[6] قوله «باب الصلاة على النبى ﷺ» هذا الإطلاق يحتمل حكمها وفضلها وصفتها ومحلها والاقتصار على ما أورده في الباب يدل على إرادة الثالث، وقد يؤخذ منه الثاني. اهـ.

● **حكم الصلاة على النبى ﷺ:**

قال ابن حجر: أما حكمها فحاصل ما وقفت عليه من كلام العلماء فيه عشرة مذاهب اهـ.

[قلت]: وقد عقد الإمام ابن القيم في كتابه «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام»، بابًا في [مواطن الصلاة على النبي ﷺ التي يتأكد طلبها إما وجوبًا وإما

(١) أخرجه الترمذى (٣٣٨٣)، وابن ماجة (٣٨٠٠) - وانظر الاذكار للنووى بتخريجنا).
(٢) يونس ١٠.
(٣) إبراهيم: ٧
(٤) [صحح] أخرجه البخارى (٦٣٥٧).
(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٣٥٨).
(٦) «الفتح» (١١/ ١٥٧)

استحسانًا مؤكدًا]. فذكر أربعين موطنًا بتفصيل مفيد، يرجع إليه لأهميته - وأما الحافظ ابن حجر فإنه استفاد من كلام ابن القيم في حكم الصلاة علي النبي ، فذكر مذاهب العلماء العشر فقال:

أولها: قول ابن جرير الطبرى إنها من المستحبات وادعى الإ جماع على ذلك.

ثانيها: مقابله وهو نقل ابن القصار وغيره الإجماع على أنها تجب فى الجملة بغير حصر لكن أقل ما يحصل به الإجزاء مرة.

ثالثها: تجب فى العمر فى صلاة أو فى غيرها وهى مثل كلمة التوحيد قاله أبو بكر الرازى من الحنفية وابن حزم وغيرهما. . وقال القرطبى المفسر: لا خلاف فى وجوبها فى العمر مرة وأنها واجبة فى كل حين وجوب السنن المؤكدة، وسبقه ابن عطية.

رابعها: تجب فى القعود آخر الصلاة بين قول التشهد وسلام التحلل قاله الشافعي ومن تبعه.

خامسها: تجب فى التشهد وهو قول الشعبى وإسحق بن راهوية.

سادسها: تجب فى الصلاة من غير تعيين محل نقل ذلك عن أبى جعفر الباقر.

سابعها: يجب الإكثار منها من غير تقييد بعدد قاله أبو بكر بن بكير من المالكية.

ثامنها: كلما ذكر. قاله الطحاوي وجماعة من الحنفية والحليمى وجماعة من الشافعية، وقال ابن العربى من المالكية إنه الأحوط وكذا قال الزمخشرى.

تاسعها: فى كل مجلس مرة ولو تكرر ذكره مراراً حكاه الزمخشرى.

عاشرها: فى كل دعاء حكاه أيضاً.

وأما محلها: فيؤخذ مما أوردته من بيان الآراء فى حكمها وسأذكر ما ورد فيه عند الكلام على فضلها.

- **وأما صفتها:** فهى أصل ما يعول عليه فى حديثى الباب.

- **معنى صلاة الله وملائكته عليه ﷺ**

قال ابن حجر[(١)] عن أبى العالية أن معنى صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه عند ملائكته، ومعنى صلاة الملائكة عليه الدعاء له[(٢)].

---

(١) «الفتح» (١١/ ١٦٠)

(٢) [صحيح] علقه البخارى (٨/ ٣٩٢ - الفتح) ووصله ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٧٧٦٨) وانظر «فتح المجيد» (١٧ - بتخريجنا)

وعند ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: صلاة الله مغفرته وصلاة الملائكة الاستغفار. وعن ابن عباس ان معنى صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار. وقال الضحاك بن مزاحم: صلاة الله رحمته، وفي رواية عنه مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء أخرجهما اسماعيل القاضي عنه، وكأنه يريد الدعاء بالمغفرة ونحوها. وقال المبرد: الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة رقة تبعث على استدعاء الرحمة. وتعقب بأن الله غاير بين الصلاة والرحمة في قوله: ﴿**أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**﴾(١) وكذلك فهم الصحابة المغايرة من قوله تعالى ﴿**صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا**﴾(٢) حتى سألوا عن كيفية الصلاة مع تقدم ذكر الرحمة في تعليم السلام حيث جاء بلفظ «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**»(٣) وأقرهم النبي ﷺ، فلو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقال لهم قد علمتم ذلك في السلام، وجوز الحليمي أن تكون الصلاة معنى السلام عليه، وفيه نظر وحديث الباب يرد على ذلك؛ ، وأولى الأقوال ما تقدم عن أبي العالية(٤) أن معنى صلاة الله علي نبيه ثناؤه عليه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم عليه طلب ذلك له من الله تعالى والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة.

● **أنواع صلاة الله على خلقه.**

عقد ابن القيم في الباب الثالث من «جلاء الأفهام» بابًا في معنى الصلاة على النبي ﷺ، ولخص ابن حجر بعض ذلك.

فقال الحافظ(٥) وقيل صلاة الله على خلقه تكون خاصة وتكون عامة فصلاته على أنبيائه هي ما تقدم من الثناء والتعظيم، وصلاته على غيرهم الرحمة فهي التي وسعت كل شيء.

ونقل عياض عن بكر القشيري قال: الصلاة على النبي ﷺ من الله تشريف وزيادة تكرمه وعلى من دون النبي رحمة، وبهذا التقرير يظهر الفرق بين النبي ﷺ وبين سائر المؤمنين حيث قال الله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾(٦) وقال قبل ذلك في السورة المذكورة ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ**﴾(٧) ومن المعلوم أن القدر الذي يليق

---

(١) البقرة : ١٥٧ — (٢) الأحزاب : ٥٦

(٣) [صحيح] متفق عليه أخرجه البخاري (٦٢٢٨) ومسلم ٢٠/٣٥١- الصلاة).

(٤) تقدم قريباً.

(٥) الفتح ١١/ ١٦٠. — (٦) الأحزاب:٥٦.

(٧) الأحزاب: ٤٣.

بالنبى ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره والإجماع منعقد على أن فى هذه الآية من تعظيم النبى ﷺ والتنويه به ماليس فى غيرها.

- **معنى الصلاة على النبى ﷺ.**

قال ابن القيم: لا خلاف أن لفظة (اللهم) معناها (يا الله) ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب[1].

ثم قال: (بيان معنى الصلاة علي النبي ﷺ) وأصل هذه اللفظة يرجع إلى معنيين:

[أحدهما]: الدعاء والتبريك.

[والثاني]: العبادة[2].

ثم قال: معنى الصلاة هو الثناء على الرسول، والعناية به، وإظهار شرفه وفضله وحرمته[3] . اهـ.

قال ابن حجر:[4] وقال الحليمى فى «الشعب» معنى الصلاة على النبى ﷺ تعظيمه، فمعنى قولنا اللهم صل على محمد عظم محمداً. والمراد تعظيمه فى الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء شريعته وفى الآخرة بإجزال مثوبته وتشفيعه فى أمته وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ ادعوا ربكم بالصلاة عليه انتهى.

ولا يعكر عليه عطف آله وأزواجه وذريته عليه فإنه لا يمتنع أن يدعى لهم بالتعظيم، إذ تعظيم كل أحد بحسب ما يليق به، وما تقدم عن أبى العالية أظهر، فإنه يحصل به استعمال لفظ الصلاة بالنسبة إلى الله وإلى ملائكته وإلى المؤمنين المأمورين بذلك بمعنى واحد ويؤيده أنه لا خلاف فى جواز الترحم على غير الأنبياء.

قوله: (آل):

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»[5]: واختلف في الآل النبي ﷺ على أربعة أقوال:

[فقيل]: هم الذين حرمت عليهم الصدقة.

[القول الثانى]: هم ذريته، وأزواجه خاصة.

[القول الثالث]: آله ﷺ أتباعه إلى يوم القيامة.

---

(١) «جلاء الأفهام» (٧٢، ٨١، ٨٥).

(٢، ٣) «جلاد الأفهام» (٧٢، ٨١، ٨٥).

(٤) «الفتح»: (١١/ ١٦١).

(٥) «جلاء الأفهام» (١١٤-١٢٦).

[القول الرابع] هم الأتقياء من أمته.

ثم ذكر فصل [في ذكر حجج هذه الأقوال وبين ما فيها من الصحيح والضعيف ثم قال: والصحيح هو القول الأول، ويليه القول الثاني، وأما الثالث والرابع فضعيفان. اهـ مختصرًا.

قال ابن حجر:[(١)] واختلف فى المراد بآل محمد فى هذا الحديث، فالراجح أنهم من حرمت عليهم الصدقة منه، وهذا نص عليه الشافعي واختاره الجمهور، ويؤيده قول النبى ﷺ للحسن بن على «**إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة**»[(٢)] ولمسلم من حديث عبد المطلب ابن ربيعة فى أثناء حديث مرفوع «**إن هذه الصدقة إنما هى أوساخ الناس وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد**»[(٣)].

وقال أحمد: المراد بآل محمد فى حديث التشهد أهل بيته.

وعلى هذا فهل يجوز أن يقال أهل عوض آل؟ روايتان عندهم.

وقيل المراد بآل محمد أزواجه وذريته لأن أكثر طرق هذا الحديث جاء بلفظ «**وآل محمد**» وجاء فى حديث أبى حميد موضعه «**وأزواجه وذريته**»[(٤)] فدل على أن المراد بالآل الأزواج والذرية وتعقب بأنه ثبت الجمع بين الثلاثة كما فى حديث أبى هريرة فيحمل على أن بعض الرواة حفظ مالم يحفظ غيره فالمراد بالآل فى التشهد الأزواج ومن حرمت عليهم الصدقة ويدخل فيهم الذرية، فبذلك يجمع بين الأحاديث وقد أطلق على أزواجه ﷺ آل محمد فى حديث عائشة «**ما شبع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثاً**»[(٥)] وفيه أيضاً من حديث أبى هريرة «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**»[(٦)].

وكأن الأزواج أفردوا بالذكر تنويها بهم وكذا الذرية.

وقيل المراد بالآل ذرية فاطمة خاصة حكاه النووى فى «شرح المهذب».

وقيل هم جميع قريش حكاه ابن الرفعة فى «الكفاية».

وقيل المراد بالآل جميع الأمة أمة الإجابة وقال ابن العربى: مال إلى ذلك مالك

(١) «الفتح» (١١/ ١٦٤، ١٦٥)

(٢) **[صحيح]** متفق عليه أخرجه البخارى (١٤٩١)، ومسلم (٧/ ٧٥ - الزكاة) وانظر السلسبيل (٣٠١٠٥٣ - بتخريجنا)

(٣) **[صحيح]** أخرجه مسلم (٤/ ١٩١ - الزكاة).

(٤) **[صحيح]** متفق عليه أخرجه البخارى (٣٣٦٩)، ومسلم فى الصلاة (٢/ ٣٦٠/ ٦٩).

(٥) **[صحيح]** أخرجه البخارى (٦٤٥٤)، ومسلم (٩/ ٣٢٨ - الزهد).

(٦) **[صحيح]** أخرجه مسلم (٩/ ٣٢٧ - الزهد)

واختاره الأزهرى وحكـاه أبو الطيب الطبرى عـن بعض الشافعية، ورجـحه النووى فى شرح مسلم وقيده القاضى حسين والراغب بالاتقياء منهم، وعليه يحمل كلام من أطلق.

ويؤيده قوله تعالى ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾وقوله ﷺ «إن أوليائى منكم المتقون»(١) «وفى نوادر أبى العيناء إنه غض من بعض الهاشـميين فقال له أتغض منى وأنت تصلى على فى كل صـلاة فى قولك اللهم صل علـى محمد وعلى آل محمـد، فقال: إنى أريد الطيبين الطاهريـن ولست منهم ويمكن أن يحمل كلام من أطلـق على أن المراد بالصلاة الرحمة المطلقة فلا تحتاج إلى تقييد.

وقد استدل لهم بحديث أنس رفعه «آل محمد كل تقى»(٢) أخرجه الطبرانى ولكن سنده واه جداً، وأخرج البيهقى عن جابر نحوه(٣) من قوله بسند ضعيف اهـ.

● **مسألة: هل يصلى على غير النبى - ﷺ -.**

قال البخارى باب هل يصلى على غير النبى ﷺ ؟ وقوله تعالى: ﴿**وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم**﴾

وأسند عن ابـن أبي أوفى قال: كان إذا أتى رجـل للنبى ﷺ بصـدقته قال: **اللهم صل عليه**. فأتاه أبى بصدقته فقال: **اللهم صل على آل أبى أوفى**»(٤).

وأسند عن عمـرو بن سليم الزرقي قال: «أخبـرنى أبو حميد الساعـدى أنهم قالوا: يارسول الله ، كيف نصـلى عليك؟ قال: **قولوا اللهم صل علـى محمد وأزواجه وذريته كما صليـت على آل إبراهيم، وبار ك علـى محمد وأزواجه وذريته كمـا باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد**»(٥).

قال ابن حجر(٦): قوله (باب هل يصلى على غيـر النبى ﷺ) أى استقلالا أو تبعاً

---

(١) ذكره السـيوطى فـى «الدر (٣/ ٣٣١) ونسبـه للبخـارى فى «الأدب المفرد»، والـطبرانى، والحـاكم وصححه عن رفاعة بن رافع.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٣٣٣٢)، والبيهقى فى «الكبرى» (٢/ ١٥٢).

ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٣٢) ونسبه لابن مردويه والطبرانى والبيهقى فى «سننه».

(٣) أخرجه البيهقى فى «الكبرى» (٢/ ١٥٢) بنحوه.

(٤) [صحيح] متفـق عليه أخرجـه البخارى (٦٣٥٩)، ومـسلم فى الزكـاة (٧/ ١٨٤، ١٨٥ ـ النووى) وانظر الأذكار للنووى بتخريجنا).

(٥) تقدم قريباً جداً.

(٦) الفتح (١١/ ١٧٤ و١٧٥)

ويدخل في الغير الأنبياء والملائكة والمؤمنون فأما مسألة الأنبياء فورد فيها أحاديث: أحدها حديث علي في الدعاء بحفظ القرآن ففيه «**وصل علي وعلى سائر النبيين**» أخرجه الترمذي والحاكم[1] وحديث بريدة رفعه «**لا تتركن في التشهد الصلاة علي وعلى أنبياء الله» الحديث أخرجه إسماعيل القاضي بسند ضعيف، وحديث ابن عباس رفعه «إذا صليتم علي فصلوا على أنبياء الله، فإن الله بعثهم كما بعثني**» أخرجه الطبراني ورويناه في «فوائد العيسوي» وسنده ضعيف أيضاً وقد ثبت عن ابن عباس اختصاص ذلك بالنبي ﷺ أخرجه ابن أبي شيبة من طريق عثمان بن حكيم عن عكرمة عنه قال «ما أعلم الصلاة تنبغي على أحد من أحد إلا على النبي ﷺ» وهذا سند صحيح.

وحكى القول به عن مالك وقال: ما تعبدنا به وجاء نحوه عن عمر بن عبد العزيز، وعن مالك يكره.

وقال عياض: عامة أهل العلم على الجواز وقال سفيان يكره أن يصلى إلا على نبي، ووجدت بخط بعض شيوخي مذهب مالك لا يجوز أن يصلى إلا على محمد وهذا غير معروف عن مالك، وإنما قال أكره الصلاة على غير الأنبياء وما ينبغي لنا ان نتعدى ما أمرنا به. وخالفه يحيى بن يحيى فقال: لا بأس به، واحتج بأن الصلاة دعاء بالرحمة فلا يمنع إلا بنص أو إجماع، قال عياض: والذي أميل اليه قول مالك وسفيان وهو قول المحققين من المتكلمين والفقهاء قالوا: يذكر غير الأنبياء بالرضا والغفران والصلاة على غير الانبياء يعني استقلالاً لم تكن من الأمر المعروف وإنما أحدثت في دولة بني هاشم.

- وأما الملائكة فلا أعرف فيه حديثا نصا، وإنما يؤخذ ذلك من الذي قبله إن ثبت، لأن الله تعالى: سماهم رسلا.

قلت: كذا قال ابن حجر وعند ابن ماجه قال ﷺ: «**علمني جبرائيل الوضوء** ﷺ...»[2] **الحديث** وفية التصريح بالصلاة من النبي على جبريل.

- وأما المؤمنون فاختلف فيه فقيل: لا تجوز إلا على النبي ﷺ خاصة، وحكى عن مالك كما تقدم وسيأتي الراجح من قول ابن القيم.

- وقالت طائفة لا تجوز مطلقاً استقلالاً وتجوز تبعاً فيما ورد به النص أو الحق به لقوله

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٠) واستغربه من حديث الوليد بن مسلم.

(٢) أخرجه ابن ماجة (٤٦٢) وضعفه البوصيري في الزوائد لضعف ابن لهيعة.

تعالى ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ ولأنه لما علمهم السلام قال «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ولما علمهم الصلاة قصر ذلك عليه وعلى أهل بيتـه، وهذا القول اختاره القـرطبى فى «المفهـم» وأبو المعالى من الحنـابلة، هو اختيار ابن تيمية من المتأخرين.

- وقالت طائفة: تجوز تبعاً مطلقاً ولا تجوز استقلالا، وهذا قول أبى حنيفة وجماعة.
- وقالت طائفة تكره استقلالا لا تبعاً وهى رواية عن أحمد ، وقال النووى: هو خلاف الأولى.
- وقالت طائفة: تجوز مطـلقاً، وهو مقتضى صنيع البخارى فـإنه صدر بالآية وهى قوله ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ثم علق الحديث الـدال على الجواز مطلقاً وعقبه بـالحديث الدال على الجواز تبعاً، فأما الأول وهو حديث عبد الله بن أبى أوفى(١) ووقع مثله عن قيس بن سعد بن عبادة أن النبى ﷺ رفـع يديه وهو يقول: **«اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة»**(٢) أخرجه أبو داود والنسائى وسنده جيد.

وفى حديـث جابر «إن امرأتـه قالت للنـبى ﷺ صل علـى وعلى زوجى فـفعل»(٣) أخرجه أحمد مطولا ومختصراً وصححه ابن حبان.

وهذا القول جاء عن الحـسن ومجاهد ونص عليه أحمـد فى رواية أبى داود وبه قال إسحق وأبو ثور وداود والطـبرى. واحتجوا بقولـه تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾.

وفي صحيح مـسلم من حديث أبي هريـرة مرفوعًا **«أن الملائكة تقـول لروح المؤمن صلى الله عليك وعلى جسدك»**.

- وأجاب المانعون عن ذلك كله: بأن ذلك صـدر من الله ورسوله ولهما أن يخصا من شاء بما شاء وليس ذلك لأحد غيرهما.

وقال البيهقى: يحمل قول ابن عباس بالمنع إذا كان على وجه التعظيم لا ما إذا كان على وجه الدعاء بالرحمة والبركة. اهـ.

---

(١) تقدم فى أول المسألة.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٢١)، وأبوداود (٥١٨٥)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠١٥٧).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٣٥٧)، وابن حبان فى «صحيحه» (٢/ ١٣٥).
وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٤٩٢) ونسبه لابن أبى شيبة.

قال ابن القيم فى «جلاء الأفهام»: وفصل الخطاب فى هذه المسألة:

أن الصلاة على غير النبى ﷺ إما أن يكون [آله وأزواجه وذرتيه] أو غيرهم.

- **فإن كان الأول:** فالصلاة عليهم مشروعة مع الصلاة على النبى ﷺ، وجائز مفردة.
- **وأما الثانى:** فإن كان الملائكة وأهل الطاعة عموماً الذين يدخل فيهم الأنبياء وغيرهم جاز ذلك أيضاً، فيقال: (اللهم صلى على ملائكتك المقربين، وأهل طاعتك أجمعين).

وإن كان شخصاً معيناً أو طائفة معيناً، كُره أن يتخذ الصلاة عليهم شعاراً لايخل به.

ولو قيل بتحريمه لكان له وجه، ولاسيما إذا جعلها شعاراً له، ومنع منها نظيره، أو من هو خير منه، وهذا كما تفعل الرافضة بعلى رضى الله عنه، فإنه حيث ذكروه قالوا: (عليه الصلاة والسلام) ولايقولون ذلك فيمن هو خير منه، فهذا ممنوع، لاسيما إذا اتُخذ شعاراً لايخل به، فتركه حينئذ متعين.

وأما إن صلى عليه أحياناً بحيث لايجعل ذلك شعاراً، كما يصلى على دافع الزكاة، وكما قال ابن عمر للميت (صلى الله عليه)، وكما صلى النبى ﷺ على المرأة وزوجها، وكما روى عن علىٍّ من صلاته على عمر - رضى الله عنهما - فهذا لا بأس به.

وبهذا التفصيل تتفق الأدلة، وينكشف وجه الصواب. والله الموفق. اهـ.

(تنبيه): اختلف فى السلام على غير الأنبياء بعد الاتفاق علي مشروعيته في تحية الحي فقيل: يشرع مطلقاً، وقيل بل تبعاً، ولا يفرد لواحد لكونه صار شعاراً للرافضة، ونقله النووي عن الشيخ أبي محمد الجويني.



«كتاب التوحيد»(*)

قوله: [كتاب التوحيد]: زاد فى نسخة مجموعة التو حيد قوله «الذى هو حق الله على العبيد».

وقد استقر عمل الأئمة المصنفين من الشراح على البدء بشرح معنى كلمة كتاب لغة فقالوا كتاب. مصدر يقال كتب يكتب كتابة وكتاباً ومادة كتب دالة على الجمع والضم وأصل الكتب فى اللغة الضم ومنه كتيبة الخيل لتتبعها واجتماعها فسمى كتاباً لضم حروفه ومسائلة بعضها إلى بعض والكتاب إسم للمكتوب مجازاً وهو من باب تسمية المفعول بالمصدر وهو كثير وقد استعملوا لفظ الكتاب فيما يجمع اشياء من الأبواب والفصول الجامعة للمسائل وهذا فى اصطلاح المصنفين فالكتاب عندهم هو كالجنس المستقل الجامع لأبواب تلك الأبواب أنواع فكتاب التوحيد يشمل باب الدعوة إلى التوحيد والخوف من الشرك وفضل من حقق التوحيد وغير ذلك من الأبواب المتعلقة بالتوحيد.

وقوله كتاب التوحيد خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا كتاب التوحيد.

قوله: (.. التوحيد)

قال أبو القاسم:[1] فى كتاب «الحجة» والتوحيد مصدر وحد يوحد، ومعنى وحدت الله اعتقدته منفرداً بذاته وصفاته لانظير له ولا شبيه ، وقيل معنى وحدته علمته واحداً، وقيل سلبت عنه الكيفية والكمية فهو واحد فى ذاته لاانقسام له، وفى صفاته لاشبية له، فى إلهيته وملكه وتدبيره لاشريك له ولارب سواه ولا خالق غيره.[2].

ونقل ابن حجر قول أهل السنة فى تفسيرهم بأنه نفى التشبيه والتعطيل ومن ثم قال الجنيد التوحيد «أفراد القديم من المحدث» حكاه عنه أبو القاسم القشيرى [1].

أقسام التوحيد وسبب تقسيم العلماء له على هذا النحو

[قلت]: وقد قسم العلماء التوحيد إلى نوعين حتى لايلتبس على العامة أمرهم ويخلطون بين "توحيد الألهية" «العبادة» و«توحيد الرب» فيعتقدون أن من أتى بهذا الأخير وأقر بأن لهذا الكون خالق ومدبر فقد أتى بالتوحيد كله وإن كان مشركاً فى

---

(١) أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التميم توفى ٥٣٥ من علماء القرن السادس للهجرة. ترجمة البداية والنهاية ١٢/ ٢١٧.

(٢) الفتح ١٣/ ص ٣٥٧.

(*) تنبيه: لم نجد من شراح كتاب التوحيد أحداً رقم أبواب الكتاب من هنا إلا الشيخ عبدالله بن جار الله، وتبعاً لغالب الشراح لم نرقم من هنا إنما رقمنا الباب الأول هو (فضل التوحيد) الآتى بعد هذا. والله الهادى للصواب.

توحيد العبادة وهذا هـو عين اللبس الذى كان عليه مشركى مكـة فالله عزوجل بين أنهم أقروا بتوحيد الرب أو الربوبية وأشركوا فى توحيد الألوهية أو العبادة فقال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خلقهن العزيز العليم﴾(٢) فلهذا الخلط واللبس لجأ السلف إلى هذا التقسيم للتوحيد.

قال ابن تيمية: فى تقسيمه التوحيد الذى جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يُشهـد أن لا إله إلا الله. لايعبد إلا إياه، ولا يُتوكل إلا عـليه، ولايُوالى إلاله، ولايُعادى إلا فيه، ولايُعـمل إلا لأجله. وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات قال تعالى ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(٣) ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(٤)وقال تعالى عن المشركين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾(٥)وفى القرآن كثير من هذا وليـس المراد بالتوحيد : مجرد توحيد الربوبية وهو اعتقاد أن الله وحده خالق الـعالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصـوف ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بـالدليل فقد أثبتوا غايـة التوحيد . وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فـيه فقد فنوا فى غاية التوحيد فإن الرجل لـو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل مايـنزه عنه. وأقر بأنه وحده خالق كل شىء لم يكن موحداً حتى يـشهد أن لاإله إلا الله وحده . فيقر بأن الله وحده هـو الإله المستحق للعبادة ويـلتزم بعبادة الله وحده لاشـريك له وإن مشركى العرب كانـوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شىء وكانوا مع هـذا مشركين. قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (٦)

قالت طائفة من السلف تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيـره. فليس كل من أقر بأن الله تـعالى رب كل شىء وخالقه يـكون عابداً له دون ما سواه داعيـاً له دون ماسواه راجياً له دون ما سـواه يوالى فيه ويعادى فيـه ويطيع رسله ويأمر بما أمربه وينهى عما نهى عنه. وعامة المشركين اقروا بأن الله خالق كل شىء واثبتوا الشفعاء الذين يشركون به. وجعلوا له أنداداً قال تعالى ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ

(١) الزخرف : ٨٧.
(٢) الزخرف ١٩).
(٣) البقرة : ١٦٣.
(٤) المؤمنون : ١١٧.
(٥) الصافات : ٣٥.
(٦) يوسف : ١٠٦.

شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(1) . اهـ.

فهم آمنوا فى جانب الربوبية قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

وأيضاً ما اشتقوا العُزة إلا من اسم الله «العزيز»

وما اشتقوا مناة إلا من اسم الله «المنان»

وما اشتقوا اللآت إلا من اسم الله «الله» وهذا إلحاد فى أسماء الله.

ولكن هذا الإلحاد متضمن للإيمان فى جانب الربوبية.

ولذلك قال جد النبى ﷺ حينما غزا أبرهة الكعبة:

اللهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك

لايغلبنَّ صيلبهم ومحالهم أبداً محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فافعل ما بدا لك.

وقال: أنا ربٌّ الإبل وللبيت ربٌّ سيمنعه.

فكان عند هؤلاء المشركين إيمان وإعتقاد وتوحيد - والله - أعظم من كثير من السلاطين والأمراء حينما تنتهك حرمات المسلمين ومقدساتهم لم نسمع أن أحدهم دعى الله عزوجل أن يمنع هذه المقدسات من أولاد القردة والخنازير كما لجأ جد الرسول ﷺ إلى الله فى وقت الشدة.

وأما الرب فى اللغة : هو المدبر أو هو المربى وهو السيد.

ومن هنا سمى الوالد: رب البيت . مدبر البيت.

وسميت الوالدة : ربة البيت.

وجاء فى الأثر من علامات الساعة «أن تلد الأمة ربتها» «سيدتها».

فلذلك ذهب أهل العلم إلى التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية لاختلاط الحابل بالنابل فى رؤوس كثير من الناس.

وحتى يعرف أنه إذا أتى بتوحيد الربوبية لايدخل فى دائرة المسلمين حتى يأتى بتوحيد الإلهية وكما قالت امرأت العزيز ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾(2) وقال صواحب يوسف﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾(3).

(1) الزمر : ٤٤.

(2) يوسف : ٥٣.

(3) يوسف : ٥١.

﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ﴾(١) فكانوا يعرفون الملائكة ويعرفون الله.

ورغم معرفتهم بذلك وإقرارهم نقضوا هذا الإقرار حيث صرفوا العباده لغيره سبحانه وتعالى ولذلك جاء فى الحديث القدسى

«إنى والجن والإنس لفى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر سواى» (٢) أو كما قال الله، ومعناه صحيح.

فكما له الخلق له الأمر قال تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٣)

وقال ابن القيم: فى تقسيمه للتوحيد: وأما التوحيد الذى دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان:

توحيد فى المعرفة والأثبات أى توحيد الربوبية والأسماء والصفات وتوحيد فى الطلب والقصد أى توحيد الألوهية والعبادة. فالأول هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلمه بكتبه لمن شاء من عباده؟ وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح، كما فى أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر الحشر، وأول تنزيل السجدة وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك.

النوع الثانى: ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٥) وغالب سور القرآن بل كل سورة فى القرآن فهى متضمنة لنوعى التوحيد، شاهدة به داعية إليه. فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، فهو التوحيد العلمى الخبرى وإما دعوة إلى عبادته وحده لاشريك له وخلع مايعبد من دونه فهو التوحيد الأرادى الطلبى. وإما الأمر والنهى، والزام بطاعته وأمره ونهيه، فهو حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك ومافعل بهم فى الدنيا من النكال وما يحل بهم فى العقبى من العذاب. فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد فالقرآن كله فى التوحيد، وحقوقه وجزائه، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم ا. هـ.

(١) يوسف: ٣١

(٢) [ضعيف] ذكره الديلمى فى «الفردوس» (٤٥٠٦) وذكره السيوطى فى «الدر» (١٤٢/٦) وانظر «فتح المجيد» (٥٧ - بتخريجنا)

(٣) الأعراف: ٥٤. (٤) الكافرون: ١. (٥) آل عمران: ٦٤.

وقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١).

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى:(٢) حيث دلت الآية الكريمة على أن الحكمة من خلق الجن والإنس هى إفراد الله بالعبادة والكفر بما سواه.

الإعراب:

قال محمد بن حسن بن محسن(٣): ويجوز فى إعراب قوله الرفع على أنه عطف على كتاب، أى هذا كتاب التوحيد، وهذا قوله تعالى، ويجوز فيه الجر على أنه عطف على التوحيد، اى كتاب فى بيان التوحيد .

قال الشوكانى(٤): وجملة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ مستأنفة مقررةلما قبلها أن كون خلقهم لمجرد العبادة مما يُنشط رسول الله ﷺ للتذكير وينشطهم للإيجابة. أهـ.

قال صاحب إعراب القرآن(٥) : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وخلقت فعل وفاعل، (والجن) مفعول به، (والإنس) عطف على الجن، وإلا أداة حصر واللام للتعليل أو للعاقة، ويعبدون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون، والنون المذكورة للوقاية، والواو فاعل، وياء المتكلم المحذوفة، نصب مفعول به، ولام التعليل ومدخولها متعلقان بخلقت. وسيأتى مزيد بحث لهذه الآية التى شَجَرَ الخلاف حولها. اهـ.

● **ما جاء فى تفسير الاية من السنة:**

[أولاً]: من الأحاديث المرفوعة:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله: ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك**»(٦).

---

(١) الذاريات ٥٦.

(٢) الجديد ١٩.

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٦.

(٤) فتح القدير ٥/ ٩٢.

(٥) إعراب القرآن (٩/ ٣٢٣).

(٦) أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجه، وانظر «الدر» (٦/ ١٤٢) وهذا الحديث والذى بعده فيهما نظر.

وعن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيرى، وأرزق ويشكر غيرى»**[(١)].

[ثانيا]: من الموقوف:

عن ابن عباس قال: ليقروا بالعبودية طوعاً أو كرهاً[(٢)].

وعن ابن عباس **أيضاً** قال: على ما خلقتهم عليهم من طاعتى ومعصيتى، وشقاوتى وسعادتى[(٣)].

وعن علي بن أبى طالب قال: إلا لآمرهم أن يعبدونى، وأدعوهم إلى عبادتى.

ويؤيده قوله عزوجل: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾**[(٤)].

وقرأ ابن مسعود وأبى بن كعب: وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون[(٥)].

وكذلك قرأ ابن عباس

[ثالثاً]: من أقوال التابعين ومن بعدهم:

عن زيد أسلم فى قوله: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾** قال: ما جبلوا عليه من الشقاء والسعادة[(٦)].

وعن أبى الجوزاء قال: أنا أرزقهم وأنا أطعمهم، وما خلقتهم إلا ليعبدون[(٧)].

وعن سفيان قال: من خلق للعبادة[(٨)].

وعن السدى قال: خلقهم للعبادة، فمن العبادة ما ينفع، ومنها مالاينفع[(٩)].

وقال الكلبى والضحاك وسفيان: هذا خاص لأهل طاعته من الفريقين[(١٠)].

وقال مجاهد: إلا ليعرفونى قال البغوى: وهذا حسن - ونقل القرطبى هذا التحسين عن الثعلبى -؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده وسيأتى[(١١)].

---

(١) أخرجه الطبرانى فى مسند الشاميين والحاكم فى التاريخ رالبيهقى فى «الشعب» والديلمى فى مسند الفردوس، وانظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم، المصدر السابق.

(٣) أخرجه ابن المنذر، المصدر السابق.

(٤) معالم التنزيل (٥/ ٢٣٠).

(٥) انظر فتح القدير (٥/ ٩٢) وانظر «معالم التنزيل» (٥/ ٢٣٠).

(٦) (٨) أخرجه ابن جرير (١١/ ٢٧/ ٨) وابن المنذر، كما فى «الدر».

(٧) أخرجه ابن أبى شيبة، كما فى «الدر».

(٩) فتح البارى (٨/ ٤٤٦).

(١٠) (١١) معالم التنزيل(٥/ ٢٣٠).

وقال سعيد بن المسيب: ما خلقتُ من يعبدنى إلا ليعبدنى[1].

وقال مجاهد: إلا لآمرهم وأنهاهم[2].

وعن الكلبى: إلا ليوحدون، أما المؤمن فيوحده فى الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده فى الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء[3].

وعن عكرمة قال: إلا ليعبدون ويطيعون، فأثبت العابد، وأعاقب الجاحد[4].

وقال ابن جريج: إلا ليعرفون[5].

وقال الربيع بن أنس: إلا للعبادة[6].

وقال السدى: من العبادة ما ينفع، ومنها مالاينفع ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّه**﴾ هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك[7]. وسيأتى مناقشة هذه الآثار لما بينها من اختلاف.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين.**

قال الطبرى[8]: قال بعضهم: معنى ذلك: وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتى، والأشقياء منهم لمعصيتى. وذكر من قال بذلك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون**﴾ إلا ليذعنوا لى بالعبودة. وذكر من قال بذلك.

ثم قال: وأولى القولين فى ذلك بالصواب القول الذى ذكرنا عن ابن عباس، وهو ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا.

● **فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟**

قيل: أنهم قد تذللوا لقضائه الذى قضاه عليهم، لأن قضاءه جار عليهم لايقدرون من الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به فى العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه. اهـ.

---

(١) زاد المسير (٧/٢٥٩).

(٢ ـ ٣ ـ ٤) انظر تفسير القرطبى (٩/٦٢٢٦).

(٥ ـ ٦ ـ ٧) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٠).

(٨) تفسير الطبرى (١١/٢٧/٨).

قال البغوى[1]: قيل: إلا ليخضعوا لى ويتذللوا.

ومعنى العبادة فى اللغة: التذلل والانقياد، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله، متذلل للمشيئة، لايملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق عليه قدر ذرة من نفع ولاضر.

وقال قبل هذا ـ عن قول مجاهد المتقدم إلا ليعرفونى ـ: وهذا حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لم عُرف وجوده وتوحيده، دليله قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾. اهـ.

قال الزمخشرى[2]: أى وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها.

● فإن قلت: لو كان مريداً للعبادة منهم لكانوا عباداً؟

قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لامضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعه. يريد شأنى مع عبادى ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإن ملاك العبيد إنما يملكونهم لستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وأرزاقهم، فإما مجهز فى تجارة ليفى ربحاً، أو مرتب فى فلاحة ليغتل أرضاً، أو مسلم فى حرفة لينتفع بأجرته، أو محتطب، أو محتش، أو مشتق أو طابخ أو خابز، وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التى هى تصرف فى أسباب المعيشة وأبواب الرزق، فأما مالك العبيد وقال لهم اشتغلوا بما يسعدكم فى أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم فى تحصيل رزقى ولارزقكم، وأنا غنى عنكم وعن مرافقتكم، ومتفضل عليكم برزقكم، وبما يصلحكم ويعيشكم من عندى، فما هو إلا أنا وحدى. اهـ.

وقال ابن الجوزى[3]: اختلفوا فى الآية على أربعة أقوال:

[أحدها]: إلا لآمرهم أن يعبدونى. قاله على بن أبى طالب، واختاره الزجاج.

[الثانى]: إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً. قاله ابن عباس، وبيان هذا قوله: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾.

---

(١) معالم التنزيل (٥/ ٢٣٠).

(٢) الكشاف (٤/ ٣٢).

(٣) زاد المسير (٧/ ٢٥٨، ٢٥٩).

[الثالث]: أنه خاص فى حق المؤمنين. قال الضحاك والفراء وابن قتيبة: هذا خاص لأهل طاعته، وهذا اختيار القاضى أبى يعلى، فإنه قال: معنى هذا الخصوص لا العموم، لأن البُله والأطفال والمجانين لايدخلون تحت الخطاب وإن كانوا من الإنس، فكذلك الكفار يخرجون من هذا بدليل قوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنس﴾ فمن خُلق للشقاء ولجهنم لم يخلق للعبادة.

[الرابع]: إلا ليخضعوا إلى ويتذللوا.

ومعنى العبادة فى اللغة: الذل والانقياد، وكل الخلق خاضع ذليل لقضاء الله عزوجل، لايملك خروجاً عما قضاه عزوجل، هذا هو مذهب جماعة من أهل المعانى اهـ.

وقال الرازى[1]: ما العبادة التى خلق الجن والإنس لها؟

قلنا: التعظيم لأمر الله والشفقه على خلق الله، فإن هذين النوعين لم يخل الشرع منهما وأما خصوص العبادات، فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والأركان، ولما كان التعظيم اللائق بذى الجلال والإكرام لايعلم عقلاً لزم اتباع الشرائع فيها والأخذ بقول الرسل عليهم السلام فقد أنعم الله على عباده بإرسال الرسل، وإيضاح السبل فى نوعى العبادة، وقيل: إن معناه ليعرفونى. اهـ.

قال القرطبى[2]: وقيل: إلا لأستعبدهم. والمعنى متقارب، تقول: عبداً بين العبودة والعبودية.

وأصل العبودية: الخضوع والتذلل. والتعبيد التذليل، يقال: طريق معبد.

- قال طرفة بن العبد ـ: [وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ مُعَبَد]

والتعبد: الاستعباد، وهو أن يتخذه عبداً. وكذلك الاعتباد، والعبادة: الطاعة، والتعبد: التنسك.

فمعنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا. اهـ.

قال ابن كثير[3]: ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لاشريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب. اهـ.

(١) التفسير الكبير (١٤/٢٨/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) تفسير القرطبى (٩/٦٢٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٠).

قال الشوكانى(1): جملة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أن كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله ﷺ للتذكير وينشطهم للإجابة.

ثم عرض الشوكانى الأقوال المتقدم ذكرها وقال: وقال جماعة: إلا ليخضعوا لى ويتذللوا. اهـ.

وقال صاحب الظلال(2): إن هذا النص الصغير ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة، من أضخم الحقائق الكونية التى لاتستقيم حياة البشر فى الأرض بدون إدراكها واستيقانها، سواء كانت حياة فراد أم جماعة، أم حياة الإنسانية كلها فى جميع أدوارها وأعصارها.

ثم قال: هذه الوظيفة المعينة التى تربط الجن والإنس بناموس الوجود هى العبادة لله، أو هى العبودية لله. اهـ.

● **خلاصة الأقوال السابقة فى تفسير الآية ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.**

[قلت]: **(الأول)**: ليقروا بالعبادة طوعاً أو كرهاً.

(الثانى): إلا لآمرهم أن يعبدون وأدعوهم إلى عبادتى.

(الثالث): خاصة بالمؤمنين دون الكافرين.

(الرابع): على ما خلقتهم عليهم من طاعتى ومعصيتى، وشقوتى وسعادتى.

(الخامس): خلقهم للعبادة، فمن العبادة ما ينفع، ومنها مالاينفع.

(السادس): إلا ليوحدون.

(السابع): إلا ليعرفونى.

(الثامن): ليخضعوا لى ويتذللوا.

(التاسع): لاستعبدهم. وسيأتى تفصيل ذلك من كلام أهل العلم والراجح من هذه الأقوال. والله المستعان.

وقال البخارى فى تفسيره من «الصحيح»(3): ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾: ما خلقتُ أهل السعادة من أهل الفريقين إلا ليوحدون.

وقال بعضهم: خلقهم ليفعلوا، ففعل بعض، وترك بعض وليس فيه حجة لأهل القدر. اهـ.

---

(1) فتح القدير (5/ 92).

(2) (6/3386، 3387).

(3) فتح البارى (8/ 463، 464).

وقال ابن حجر: هو كلام الفراء. وحاصل التأويلين أن الأول محمول على أن اللفظ العام مراد بـه الخصوص، وأن المراد أهل السعـادة من الجن والإنس، والثانـى باق على عمومه، لكن بمعنى الاستعداد، أى خلقهم مـعدين لذلك، لكن منهم من أطاع، ومنهم من عصى، وهو كـقولهم: الإبل مخلوقة للـحرث، أى قابلة لذلك لأنه قد يـكون فيها مالايحرث.

وأما قوله: (وليس فـيه حجة لأهل القدر) فيريد المعـتزلة، لأن محصل **الجواب**: أن المراد بالخلق خلق التكليف لاخلق الجبلـة، فمن وفقه عمل لما خلق له،ومن خذله خالف والمعتزلة احتجوا بالآية المذكورة على أن إرادة الله لاتتعلق به.

والجواب: أنه لايلزم من كون الشىء معلـلاً بشيء أن يكون ذلك الشىء، وألا يكون غيره مراداً.

ويحتمل أن يكون مراده بقوله: (وليس فيه حجة لأهل القدر) أنهم يحتجون بها على أن أفعال الله لابد وأن تكون معـلولة فقال: لايلزم من وقوع التعلـيل فى موضع وجوب التعليل فى كل موضع.

ونحن نقول بـجواز التعليل لا بوجوبه، أو لأنـهم احتجوا بها علي أن أفـعال العباد مخلوقـة لهم لإسناد العبـادة إليهم فقال لا حـجة لهم فى ذلك، لأن الإسنـاد من جهة الكسب وفى الآية تأويلات أخرى يطول ذكرها اهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن(١):

قوله تعالى: (الجن والإنس) الألف واللام فيهما للماهـية، أى ما خلقت ماهية الجن والإنس إلا للعبادة، ويحتمل أن يكون لاستغراق صنوف الجن وصنوف الإنس، لأن كل نوع من نوعى الجـن والإنس مشتمل على أصنـاف متغايرة متعددة، وهذا ألـيق بالمقام؛ لدلالة تعداد الأجناس والأنـواع والأصناف على كمال القدرة، وكمال العـلم بالجزئيات، والكليات، واللذين هما فى الدلالة على الألـوهية كما قيل: كأنه علم فى رأسه نار. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾(٢)

واعلم أن كل مصنوع لابد فيه من تصور أربع عـلل : علة الفاعلية، وعلة الصورية،

---

(١) فتح الله الحميد المجيد ٤٨/ ٤٩.

(٢) الطلاق : ١٢.

وعلة المادية ، وعلة الغائية، فإذا عرفت ذلك أن الجن والإنس مصنوعان من مصنوعات الله، قال تعالى ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (١) فيلزم فيهما مايلزم فى غيرهما.

فالفاعل الله وحده، جل جلاله، وعمّ نواله قال تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾(٢) والآلة فى الإنس : الطين، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾(٣) و الآلة فى الجن : النار، قال تعالى :﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾(٤) والصورة، هذه الصورة الحسنة المرئية فى الإنس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٥) والصورة فى الجن: الجسم اللطيف المخفى عن الأعين، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾(٦) والغاية من خلقهما العبادة ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ . أهـ.

قال ابن عثيمين(٧): قوله: ﴿خلقت﴾ ؛ أي : أوجدت، وهذا للإجابة مسبوق بتقدير، وأصل الخلق التقدير.

قال الشاعر:

ولأنت تفرى ماخلقت وبعض الناس يخلق ثم لايفرى

● **قوله ﴿الْجِنَّ وَالإنسَ﴾.**

قال ابن عثيمين: قوله :﴿الجن﴾ : هم عالمٌ غيبيٌّ مخفىٌّ عنَّا، ولهذا جاءت المادة من الجيم والنون، وهما يدلأن على الخَفاء والاستِتار.

ومنه الجَنَّة، والجِنَّة، والجُنَّة قلت: والجنين ومنه قوله تعالى ﴿فلما جن عليه الليل﴾.

قول: ﴿الإنس﴾ سمُّوا بذلك؛ لأنَّهم لايعيشون بدون إيناس؛ فهم يأنس بعضهم ببعض، ويتحرَّك بعضهم إلى بعض. اهـ.

---

(١) النمل :٨٨.
(٢) الرحمن١٤، ١٥.
(٣) الصافات :١١.
(٤) الحجر : ٢٧.
(٥) التين : ٤.
(٦) الأعراف : ٢٧.
(٧) القول المفيد (١/ ٢٦).

● قوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

قال الفقير: ذكر العلماء من أهل السنة ومن غيرهم فى هذه الآية تسعة أقوال ذكر الطبرى منها قولين وذكر ابن الجوزى أربعة وذكر القرطبى نحو ماذكر ابن الجوزى وجمع ابن تيمية كل هذه الأقوال وتعقبها وجاء بالدليل القاطع على الراجح - وهو ما سلكه المصنِّف وعليه الجمهور كما سيأتى - وسأذكر كلامه بنصه مع شىء من الترتيب وإضافة بعض الألفاظ أو العناوين للتوضيح.

[القول الأول]: قول نفاة الحكمة والرد عليهم.

قال ابن تيمية[1]: وأما «نفاة الحكمة» كالأشعرى وأتباعه كالقاضى أبى بكر وأبى يعلى وغيرهم، فهؤلاء أصلهم أن الله لايخلق شيئاً لشىء، فلم يخلق أحداً لالعبادة ولالغيرها، و عندهم ليس فى القرآن لام كى، لكن قد يقولون: فى القرآن لام العاقبة، كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وكذلك يقولون فى قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ يعنون كان عاقبة هؤلاء جهنم، وعاقبة المؤمنين العبادة من غير أن يكون الخالق قصد أن يخلقهم لا لهذا ولا لهذا، ولكن أراد خلق كل ماخلقه. لالشىء آخر فهذا قولهم، وهو ضعيف لوجوه:

(أحدها) أن لام العاقبة التى لم يقصد فيها الفعل لأجل العاقبة إنما تكون من جاهل أو عاجز. فالجاهل كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لم يعلم فرعون بهذه العاقبة، والعاجز كقولهم: «لدوا للموت، وابنوا للخراب». فإنهم يعلمون هذه العاقبة؛ لكنهم عاجزون عن دفعها، والله تعالى عليم قدير. فلا يقال: إن فعله كفعل الجاهل العاجز.

(الثانى) أن الله أراد هذه الغاية بالاتفاق. فالعبادة التى خلق الخلق لأجلها هى مرادة له بالاتفاق، وهم يسلمون أن الله أرادها، وحيث تكون اللام للعاقبة لايكون الفاعل أراد العاقبة، وهؤلاء يقولون خلقهم وأراد افعالهم، وأراد عقابهم عليها فكلما وقع فهو مراد له؛ ولكنه عندهم لايفعل مراداً لمراد أصلا لان الفعل للعلة يستلزم الحاجة، وهذا ضعيف بين الضعف، وأهل الخصوص قالوا: مثل هذا الجواب.

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤ ، ٤٥).

[القول الثانى]: **أنَّه خاص فى حقِّ المؤمنين.**

قال ابن تيمية[1]: قالوا: وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ هو مخصوص بمن وقعت منه العبادة، وهذا قول طائفة من السلف والخلف. قالوا: والمراد . بذلك من وجدت منه العبادة، فهو مخلوق لها، ومن لم توجد منه فليس مخلوقاً لها؛ وعن سعيد بن المسيب قال: ما خلقت من يعبدنى إلا ليعبدنى؛ وكذلك قال الضحاك والفراء وابن قتيبة ـ وهذا قول خاص بأهل طاعته ـ قال الضحاك : هى للمؤمنين؛ وهذا قول الكرامية. كما ذكره محمد بن الهيصم. قال : ويدل عليه قوله قبل ذلك: **(فتول عنهم)** ثم قال: **﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾** أى هؤلاء المؤمنين الذين تنفعهم الذكرى.

قالوا : وهى غاية مقصودة واقعة، فإن العبادة وقعت من المؤمنين، وهذا القول اختيار أبى بكر بن الطيب: والقاضى أبى يعلى **وغيرهما ممن يقول : إنه لايفعل لعلة.**

قالوا: ـ واللفظ للقاضى أبى يعلى ـ: هذا بمعنى الخصوص لا العموم؛ لأن البله والأطفال والمجانين لايدخلون تحت الخطاب. وإن كانوا من الإنس. وكذلك الكفار يخرجون من هذا بدليل قوله **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾**[2] . فمن خلق للشقاء ولجهنم لم يخلق للعبادة.

[قلت] -: **أى ابن تيمية - قول هؤلاء الكرامية** ومن وافقهم. وإن كان أرجح من قول الجهمية والمعتزلة، فيما اثبتوه من **حكمة الله؛ وقولهم فى تفسير الآية**، وإن **وافقوا فيه بعض السلف فهو قول ضعيف** مخالف لقول الجمهور، ولما تدل عليه الآية.

فإن قصد العموم ظاهر فى الآية، وبين بياناً لايحتمل النقيض، إذ لو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة؛ فإن الجميع قد فعلوا ما خلقوا له ولم يذكر الإنس والجن عموماً. ولم تذكر الملائكة، مع أن الطاعة والعبادة وقعت من الملائكة دون كثير من الإنس والجن.

و(أيضاً) فإن سياق الآية يقتضى أن هذا ذم وتوبيخ لمن لم يعبد الله منهم لأن الله

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٣٩

(٢) الأعراف : ١٧٩.

خلقه لشيء فلم يفعل ماخلق له، ولهذا عقبها بقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾(١) فإثبات العبادة ونفي هذا يبين أنه خلقهم للعبادة، ولم يرد منهم مايريده السادة من عبيدهم من الإعانة لهم بالرزق والإطعام؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ (٢) أى نصيباً ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾(٢) أى المتقدمين من الكفار . أى نصيبا من العذاب وهذا وعيد لمن لم يعبده من الإنس والجن؛ فذكر هذا الوعيد عقيب هذه الآية من أولها إلى آخرها يتضمن وعيد من لم يعبده.

وذكر عقابه لهم فى الدنيا والآخرة فقال فى أولها: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾(٣) إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾(٤) ثم ذكر قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾(٥) ثم ذكر وعيد الآخرة بقوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾(٦) ثم ذكر وعده للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾(٧) ثم ذكر قصص من آمن فنفعه إيمانه، ومن كفر فعذبه بكفره. فذكر قصة إبراهيم ولوط وقومه وعذابهم. ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾(٨) أى فى قصة موسى آية أيضاً فهذا كله يتضمن أمر الإنس والجن بعبادته وطاعته وطاعة رسله واستحقاق منافع العقوبة فى الدنيا والآخرة فإذا قال بعد ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

---

(١) الذاريات : ٥٦

(٢) الذاريات :٥٩.

(٣) الذاريات :١

(٤) الذاريات : ٥.

(٥) الذاريات: ٨

(٦) الذاريات : ١٠ـ.

(٧) الذاريات : ١٥/ ٢٣

(٨) الذاريات : ٣٧، ٣٨.

﴿وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[1] كان هذا مناسباً لما تقدم مؤتلفاً معه: أى هؤلاء الذين أمرتهم، إنما خلقتهم لعبادتى ما أريد منهم غير ذلك، لارزقاً ولاطعاماً.

فإذا قيل لم يرد بذلك إلا المؤمنين، كان هذا مناقضاً لما تقدم يعنى فى السورة وصار هذا كالعذر لمن لايعبده ممن ذمه الله ووبخه، وغايته يقول : أنت لم تخلقنى لعبادتك وطاعتك، ولو خلقتنى لها لكنت عابداً، وإنما خلقت هؤلاء فقط لعبادتك، وأنا خلقتنى لأكفر بك وأشرك بك، وأكذب رسلك، وأعبد الشيطان واطيعه، وقد فعلت ماخلقتنى له كما فعل أولئك المؤمنون ماخلقتهم له، فلا ذنب لى ولا استحق العقوبة؛ فهذا وأمثاله ممايلزم أصحاب هذا القول، وكلام الله منزه عن هذا، وهم إنما قالوا هذا؛ لأن الله تعالى فعال لما يريد، قالوا فلو كان أراد منهم ان يطيعوه لجعلهم مطيعين ، كما جعل المؤمنين.

ثم يبين السبب الذى جعلهم يسلكون هذا المسلك فى تفسير الآية إلى الخصوص فقال: والقدرية يقولون : لم يرد من هؤلاء ولا هؤلاء إلا الطاعة؛ لكن هو لم يجعل لا هؤلاء ولاهؤلاء مطيعين؛ بل الإرادة بمعنى الأمر يأمر بها الطائفتين، فهؤلاء عبدوه بأن أحدثوا إرادتهم وطاعتهم، وهؤلاء عصوه بأن أحدثوا إرادتهم، ومعصيتهم وأولئك الكرامية وغيرهم علموا فساد قول القدرية من جهة أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون فى ملكه إلا ماشاءه، ولايكون فى ملكه شيء إلا بقدرته وخلقه ومشيئته. كما دل على ذلك السمع والعقل، وهذا مذهب الصحابة قاطبة، وأئمة المسلمين وجمهورهم، وهو مذهب أهل السنة؛ فلأجل هذا عدل أولئك فى تفسيره الآية إلى الخصوص، فإنهم لم يمكنهم الجمع بين الإيمان بالقدر وبين أن يكون خلقهم لعبادته، فلم تقع منهم العبادة له، وقالوا : من ذرأه لجهنم لم يخلقه لعبادته، فمن قال: خلق الخلق ليعبده المؤمنون منهم سلك هذا المسلك وسيأتى وجه الجمع

[القول الثالث]: هى على العموم واختلفوا على خمسة أقوال.

(الأول) إلا ليخضعوا إلىَّ ويتذللوا.

---

(1) الذاريات ٥٦، ٥٧.

قال ابن تيمية:(١) وطائفة أخرى قالـوا: هى على العموم لكن المراد بالعبادة تعبيده لهم. وقهـره لهم، ونفوذ قدرته ومـشيئته فيهم. وأنـه أصارهم الى ما خلقـهم له، من السعـادة والشقاوة، هـذا جواب زيد بن أسـلم وطائفة، وهـذا القول الثـانى فى تفـسير الآية. اهـ.

قلت: وهو أحد القولين الذين ذكرهما ابن جرير.

ثم قال: وروى ابن أبى حـاتم عن ابن جريج، عن زيد بن أسـلم فى قوله: ـ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ قال: جبلهم على الشقاوة والسعادة(٢) وقال وهب بن منبه: جبلهم على الطاعة، وجبلهم على المعصية، وهذا يشبه قول من قال فى تفسير قول النبى ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»(٣) أى: على ما كتب له من سعادة وشقاوة، كما قال ذلك طـائفة منهم ابن المبارك وأحمـد بن حنبل فى إحدى الروايتـين عنه، وقد قيل لمالك: أهل الـقدر يحتجون علينا بـهذا الحديث، فقال احتجوا علـيهم بآخره، وهو قوله. «**الله أعلم بما كانـوا عاملين**»(٤) وهذا الجواب يـصلح أن يجاب به عـلى من انكر العلم كما كان على ذلك طائفة من القدماء وهم المعروفون بالقدرية فى لغة مالك.

إلى أن قال: ومن فسر هذه الآية بأن المراد بـ(**يعبدون**) هو ما جبلهم عليه، وما قدره عليهم من السعادة والشقاوة وأن ذلك هو معنى الحديث، فإن هؤلاء جعلوا معنى يعبدون بمعنى يستسـلمون لمشيئتى وقدرتى، فيكونـون معبدين مذللين كى يجرى عـليهم حكمى ومشيئـتى لا يخرجون عن قضـائى وقدرى، فهذا معـنى صحيح فى نفـسه، وإن كانت القدرية تنكره فـبإنكارهم لذلك صاروا من أهل البدع، بـل الله خالق كل شىء وما شاء كان ومـا لم يشأ لـم يكن وفى اسـتعاذة النـبى ﷺ (**أعوذ بكـلمات الله التامـة التى لا يجاوزها برولا فاجر من شر ما ذرأ وبرأ وأعوذ بكـلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده**»(٥) فكلماته التامة هى التى كـون بها الأشياء كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ**

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٤٥ : ٤٨.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ١٤٢) ونسبه لابن جرير وابن المنذر.

(٣) [متفق عليه] أخرجه الـبخارى (حـ ٤٧٧٥) ومـسلم (١٦/ ٢٠٧ ، ٢٠٨ - القـدر)، وأبوداود (ح ٤٧١٤) والترمذى (ح ٢١٣٨) من حديث أبى هريرة

وانظر فتح ذى الجلال: (ح ٤٠٨) بتخريجنا.

(٤)تقدم فيما قبل.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٨٩٣) ، والترمذى (٣٥٢٨).

﴿شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1] لا يجاوزها بر ولا فاجر ولا يخرج أحد عن القدر المقدور ولا يتجاوز ما خط له فى اللوح المسطور وهذا المعنى قد دل عليه القرآن فى غير موضع كقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾[2] الآية وقوله: ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[3]. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[4] وقوله فى السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[5] ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[6] ونحو ذلك.

ولكن قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ لم يرد به هذا المعنى الذى ذهبوا اليه وحاموا حوله ـ من أن المخلوقات كلها تحت مشيئته وقهره وحكمه. فالمخلوقات كلها داخلة فى هذا لايشذ منها شىء عن هذا. وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾[7] الآية. وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[8] ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾[9] ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[10] وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ﴾[11].

فهذا ونحوه كثير فى القرآن. لم يرد بعبادة الله إلا العبادة التى أمرت بها الرسل،

= قال الترمذى: حسن غريب
وانظر الأذكار للنووى (٢٧٢ -بتخريجنا)

(١) يس الآية (٨٢)
(٢) الأعراف الآية (١٧٩)
(٣) الأنعام الآية (١١١)
(٤) الحج الآية (٧٠)
(٥) البقرة الآية (١٠٢)
(٦) الأنعام: الآية (١٢٥)
(٧) يس: الآية (٦٠ ، ٦١)
(٨) النساء: الآية (٣٦)
(٩) الزمر: الآية (١٧)
(١٠) الزمر: الآية (٣)
(١١) يونس: الآية (١٨)

وهى عبادته وحده لا شريك له، والمشركون لا يعبدون الله ، بل يعبدون الشيطان وما يدعونه من دون الله. سواء عبدوا الملائكة أو الأنبياء والصالحين، أو التماثيل والأصنام المصنوعة فهؤلاء المشركون قد عبدوا غير الله تعالى، كما أخبر الله بذلك. فكيف يقال: إن جميع الإنس والجن عبدوا الله؟ لكون قدر الله جارياً عليهم، والفرق ظاهر بين عبادتهم إياه التى تحصل بإرادتهم واختيارهم وإخلاصهم الدين له وطاعة رسوله. وبين أن يعبِّدهم هو وينفذ فيهم مشيئته، وتكون عبادتهم لغيره: للشيطان وللأصنام، من المقدور.

وهذا يشبه قول من يقول من المتأخرين: أنا كافر برب يُعصى، فيجعل كلما يقع طاعة، كما جعله هؤلاء عبادة لله تعالى، لكونهم تحت المشيئة، وكان بعض شيوخهم يقول عن إبليس: إن كان عصى الأمر، فقد أطاع المشيئة، لكن هؤلاء مباحية ، يسقطون الأمر.

وأما زيد بن أسلم، ووهب بن منبه، ونحوهم، فحاشاهم من مثل هذا: فإنهم كانوا من أعظم الناس تعظيماً للأمر والنهى، والوعد والوعيد، ولكن قصدوا الرد على المكذبين بالقدر. القائلين: بأنه يشاء ما لايكون، ويكون مالايشاء وهؤلاء حقيقة قولهم: إنه لا يقدر على تعبيدهم، وتصريفهم تحت مشيئته، فأرادوا إبطال قول هؤلاء ونعم ما أرادوا! لكن الكلام فيما أريد بالآية.

وقول أولئك؛ الإباحية يشبه قول من قال: إن العارف إذا شهد المشيئة سقط عنه الملام، وإنه إذا شهد الحكم - يعنى المشيئة - لم يستحسن ولم يستقبح سببه، ونحو هذا من أقوال هؤلاء الذين تشبه أقوالهم أقوال المشركين الذين قالوا: ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ**﴾(١) كما قد بسط الكلام عليه. وبيَّن أن إثبات القدر السابق حق، لكن ذلك هو الذى يصير العبد إليه، ليس هو الذى فطر عليه، كما قال النبى ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**»(٢). فقد بين النبى ﷺ بمثلِ ضَرَبه أن البهيمة تولد سليمة ثم تجدع، والجدع كان مقدراً عليها. كذلك العبد يولد على الفطرة سليماً، ثم يفسد بالتهود والتنصير، وذلك كان مكتوباً أن يكون. وصاحب هذا القول إنما قاله ليبين ما خلقوا له.

---

(١) الأنعام: الآية (١٤٨)

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(الثانى) **إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً ورجحه الطبرى.**

قال ابن تيمية[1]: وصاحب هذا القول إنما قاله ليبين ما خلقوا له وقد قصد هذا طائفة.

فسروا العبادة بأمر واقع عام، وليست هى العبادة المأمور بها على ألسن الرسل. ففى تفسير ابن أبى طلحة المضاف الى ابن عباس: إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً[2] وهذه العبودية كقوله: ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾[3] وقوله: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾[4] والصحيح انه انقيادهم لحكمه القدرى بغير اختيارهم. كاستسلامهم عند المصائب وانقيادهم لما يكرهون من أحكامه الشرعية، فكل أحد لابد له من انقياده لحكمه القدرى والشرعى، فهذا معنى صحيح. قد بسط فى غير هذا **الموضع، لكن ليس هو العبادة.**

ثم قال وقد ذكر أبو الفرج قول ابن عباس هذا. قال: وبيان هذا قوله ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾[5] وهذه الآية توافق من قال: إلا ليعرفون؛ كما سيأتى. وهؤلاء الذين أقروا بأن الله خالقهم لم يقروا بذلك كرهاً، بخلاف إسلامهم وخضوعهم له فانه يكون كرهاً، وأما نفس الاقرار فهو فطرى فطروا عليه وبذلوه طوعاً.

(الثالث) قال ابن تيمية:[6] روى ابن أبى حاتم عن زائدة عن السدى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ قال: خلقهم للعبادة، فمن العبادة عبادة تنفع ومن العبادة عبادة لا تنفع ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع شركهم، وهذا المعنى صحيح، لكن المشرك يعبد الشيطان، وما عدل به الله لا يعبد، ولا يسمى مجرد الاقرار بالصانع عبادة لله مع الشرك بالله، ولكن يقال كما قال: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾[7] فايمانهم بالخالق مقرون

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٨ ، ٤٩)

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٨٦٦٨) فانظره بتخريجنا

(٣) آل عمران: الآية (٨٣)

(٤) الرعد: الآية (١٥)

(٥) الزخرف: الآية (٨٧)

(٦) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٠)

(٧) يوسف: الآية (١٠٦)

بشركهم به، وأما العبادة ففى الحديث «**يقول الله: انا اغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً اشرك فيه غيرى فأنا منه برىء، وهو كله للذى اشرك**» (١) فعبادة المشركين وإن جعلوا بعضها لله لا يقبل منها شيئاً، بل كلها لمن اشركوه. فلا يكونون قد عبدوا الله سبحانه، ومثل هذا قول من قال: إلا ليوحدون فأما المؤمن فيوحده فى الشدة والرخاء، واما الكافر فيوحده فى الشدة والبلاء، دون النعمة والرخاء، بيانه فى قوله: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾(٢).

(الرابع): قال ابن تيمية:(٣) ذكر ابن ابى حاتم عن ابن جريج، قال: ليعرفون، قال: وروى عن قتادة، وذكره البغوى عن مجاهد. قال: وقال مجاهد إلا ليعرفون قال: وهذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده، ودليله قوله: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾(٤) فيقال: هذا المعنى صحيح؛ وكونه إنما عرف بخلقهم يقتضى أن خلقهم شرط فى معرفتهم، لا يقتضى أن يكون ما حصل لهم من المعرفة هو الغاية التى خلقوا لها، وهذا من جنس قول السدى، فان هذا الاقرار العام هم مشركون فيه، كما قال: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ**﴾(٥) لكن ليس هذا هو العبادة.

ثم عقّب على هذه الأقوال الأربعة بقول:

فهذه «الأقوال الأربعة»: قول من عرف أن الآية عامة فأراد أن يفسرها بعبادة تعم الإنس والجن، واعتقد أنه (إن) فسرها بالعبادة المعروفة، وهى الطاعة لله والطاعة لرسله، لزم أن تكون واقعة منهم، ولم تقع؛ فأراد أن يفسرها بعبادة واقعة، وظن أنه إذا فسرها بعبادة لم تقع لزمه قول القدرية، وأنه خلقهم لعبادته فعصوه بغير مشيئته وغير قدرته، ففروا من قول القدرية وهم معذورون فى هذا الفرار؟ لكن فسروها بما لم يرد بها، كما يصيب كثير من الناس فى الآيات التى يحتج أهل البدع بظاهرها، كاحتجاج الرافضة بقوله: ﴿**وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ**﴾(٦) على مسح ظهر القدمين، فترى المخالفين

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الزهد» (٢/ ٥٩٢ - الحلبى) وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٦١٩ - «فتح المجيد» (ح ٧٠٠) بتخريجنا).

(٢) العنكبوت: الآية (٦٥)

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٠)

(٤) الزخرف: الآية (٨٧)

(٥) الاعراف: الآية (١٧٢)

(٦) المائدة: الآية (٦)

لهم يذكرون أقوالا ضعيفة، هذا يقول مجروراً بالمجاورة كقولهم «**جحر ضب خرب**»، ونحو هذا من الأقوال الضعيفة، كذلك ما قالوه فى قوله «**فحج آدم موسى**»[1] وأمثال ذلك.

(الخامس) وهو قول الجمهور وعليه عامة أهل العلم وانتصر له ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب والشنقيطى وغيرهم كما سيأتى من أقوالهم وما استدلوا به.

قال ابن تيمية:[2] الذى عليه جمهور المسلمين، أن الله خلقهم لعبادته وهو فعل ما أمروا به، ولهذا يوجد المسلمون قديماً وحديثاً يحتجون بهذه الآية على هذا المعنى حتى فى وعظهم وتذكيرهم وحكاياتهم، كما فى حكاية إبراهيم بن أدهم؛ ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت؛ وفى حديث إسرائيلى «**ياابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبنى تجدنى؛ فان وجدتنى وجدت كل شيء؛ وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء**» وهذا هو المأثور عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب؛ وغيره من السلف فذكروا عن على بن أبى طالب أنه قال: إلا لآمرهم أن يعبدون، وأدعوهم الى عبادتى.

قالوا: ويؤيده قوله تعالى ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ**﴾ وقوله: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا**﴾[3] وهذا اختيار الزجاج وغيره. وهذا هو المعروف عن مجاهد بالاسناد الثابت.

قال ابن أبى حاتم: ثنا أبو سعيد الأشج، ثنا أبو اسامة عن شبل، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ لأمرهم وأنهاهم»[4] كذلك روى عن الربيع بن أنس قال: «**وما خلقتهما إلا للعبادة**»[5].

ويدل على هذا مثل قوله: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى**﴾[6] يعنى لا يؤمر ولا

---

(١) سيأتى تخريجه

(٢) مجموع الفتاوى ٨/ ٥ : ٥٣

(٣) البينة: الآية (٥).

(٤) التوبة: الآية (٣١)

(٥) ذكره القرطبى فى «تفسيره» (٩/ ٦٢٢٥) وانظر «فتح المجيد - بتخريجنا (٢١)

(٦) القيامة: الآية (٣٦).

ينهى. وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾(١) أى لولا عبادتكم وقوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾(٢) وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾؟ إلى قوله: ﴿وأهلها غافلون﴾(٣) وقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(٤) الآيات. وما بعدها. وقالت الجن لما سمعوا القرآن: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾(٥) الآية. وما بعدها وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾(٦) الآية. وما بعدها.

وقد قال فى القرآن فى غير موضع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾(٦) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾(٧) فقد أمرهم بما خلقهم له وأرسل الرسل إلى الانس والجن، ومحمد أرسل إلى الثقلين، وقرأ القرآن على الجن، وقد روى انه لما قرأ عليهم سورة الرحمن. وجعل يقرأ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(٨) يقولون: ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد(٩). فهذا هو المعنى الذى قصد بالآية قطعاً، وهو الذى تفهمه جماهير المسلمين، ويحتجون بالآية عليه: ويعترفون بأن الله خلقهم ليعبدوه. لا ليضيعوا حقه.

قال الشنقيطى:(١٠) التحقيق إن شاء الله فى معنى هذه الآية الكريمة﴿إلاَّ لِيَعْبُدُون﴾

(١) الأعراف: الآية ٧٧.
(٢) النساء: الآية ١٤٧.
(٣) الأنعام الآية ١٣١..
(٤) يس: الآية ٦٠.
(٥) الأحقاف: الآية ٣٠.
(٦) الجن: الآية ١٤.
(٧) البقرة: الآية ٢١.
(٨) النساء: الآية ١
(٩) [مقارب للحسن] أخرجه الترمذى (٣٢٩١)، والحاكم فى«المستدرك» (٢/ ٥١٥)، والبيهقى فى «الدلائل» (٢/ ٢٣٢) عن جابر به.
وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١٠١٣).
(١٠) أضواء البيان (٧/ ٤٤٥ و ٤٤٦).

أي إلا لآمرهم بعبادتي وابتليهم أى أختبرهم بـالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإنما قلنا إن هذا هو الـتحقيق فى معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فـقد صرح تعالى فى آيات من كتابه أنه خلقهـم ليبتليهم أيهم أحسن عملاً، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.

قال تعالى فى أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[1] ثم بين الحكمـة فى ذلك فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَملاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[2] وقال تعالى فى سورة الملك: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَملاً﴾[3] وقال تعالى فى أول سـورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[4] فتصريـحه جل وعلا فى هذه الآيـات المذكورة بأن حكمـة خلقه للخـلق، هى ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، يفسر قوله﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

ومعلـوم أن نتيجة العـمل المقصود مـنه لا تتم إلا بجـزاء المحسن بإحسانـه والمسىء بإساءته، ولـذا صرح تعالى بأن حكـمة خلقهم أولاً وبـعثهم ثانياً، هـو جزاء المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته، وذلك فى قوله تعـالى فى أول يونس: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[5] وقوله فى الـنجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[6].

وقد أنكر تعـالى على الإنسان حسبانـه وظنه أنه يترك سدى، أى مهـملاً، لم يؤمر ولم ينـه، وبين أنه ما نـقله من طور إلـى طور حتى أوجده إلا لـيبعثه بـعد الموت أى

---

(١) هود: ٧.

(٢) هود: ٧.

(٣) الملك: ٢.

(٤) الكهف: ٧

(٥) يونس: ٤.

(٦) النجم: ٣١.

ويجازيه على عمله، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ -إلى قوله - ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾(١).

والبراهين على البعث دالة على الجزاء وقد نزه تعالى نفسه عن هذا الظن الذى ظنه الكفار به تعالى، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجازيهم منكراً ذلك عليهم فى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(٢).

وأيد ابن تيمية هذا القول أيضاً بحديث معاذ الذى ذكر المصنِّف وغيره فقال(٣). وفى الصحيحين عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال له: «**يامعاذ! أتدرى ما حق الله على عباده؟ قال: الله ورسوله أعلم قال: فإن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **فإن حقهم عليه ان لا يعذبهم**»(٤).

وفى المسند عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقى تحت ظل رمحى. وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم»(٥).

(تنبيه)

قال ابن تيمية(٦) **قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾** إن كانت هذه اللام للصيرورة فى عاقبة الأمر فما صار ذلك؟ وان كانت اللام للغرض لزم ان لا يتخلف أحد من المخلوقين عن عبادته؟ وليس الأمر كذلك فما التخلص من هذا المضيق؟!.

فيقال: هذه اللام ليست هى اللام التى يسميها النحاة لام العاقبة والصيرورة ولم يقل ذلك أحد هنا. كما ذكره السائل من أن ذلك لم يصر الا على قول من يفسر (يعبدون)

---

(١) القيامة: ٣٦ : ٤٠.

(٢) المؤمنون: ١١٥/١١٦

(٣) مجموع الفتاوى ٨/٥٣

(٤) سيأتى تخريجه إن شاء الله تعالى

(٥) [إسناده صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٥٠) وصححه أحمد شاكر - رحمه الله - (٥١١٤)

(٦) مجموع الفتاوى ٨/١٨٦ : ١٩٠

بمعنى يعرفون، يعنى المعرفة التى أمر بها المؤمن والكافر؛ لكن هذا قول ضعيف، وانما زعم بعض الناس ذلك فى قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ التى فى آخر سورة هود. فان بعض القدرية زعم ان تلك اللام لام العاقبة والصيرورة: أى صارت عاقبتهم الى الرحمة، والى الاختلاف، وان لم يقصد ذلك الخالق، وجعلوا ذلك كقوله: **(فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً)**(١) وقول الشاعر.

لدوا للموت وابنوا للخراب

وهذا أيضاً ضعيف هنا لأن لام العاقبة إنما تجيء فى حق من لايكون عالماً بعواقب الأمور ومصايرها فيفعل الفعل الذى له عاقبة لايعلمها كآل فرعون، فأما من يكون عالماً بعواقب الأفعال ومصايرها فلا يتصور منه أن يفعل فعلاً له عاقبة لا يعلم عاقبته، وإذا علم أن فعله له عاقبة فلا يقصد بفعله مايعلم أنه لايكون فإن ذلك تمن وليس بإرادة.

ثم قال(٢) فى موطن آخر فى نفس الآية

ولكن اللام لبيان الجملة الشرعية، المتعلقة بالإرادة الشرعية، كما فى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(٣) وقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾(٤) الآية .

وقد تكون لبيان العاقبة الكونية كما فى قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾(٥) الآية ؛ هذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(٦) أى خلق قوماً للإختلاف، وقوما للرحمة، وقال: ﴿وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فاللام فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾(٧) وإن كانت هى اللام فى هذه الآية فإن مدلولها لام إرادة الفاعل ومقصوده، ولهذا تنقسم فى كتاب الله إلى إرادة دينية، وإرادة كونية؛ كما تنقسم فى كتاب الله تعالى الكلمات،و الأمر والحكم والتحريم والإذن، وغير ذلك.

---

(١) القصص: ٨.

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٢٣٦)

(٣) البقرة : ١٨٥ .

(٤) النساء :٢٦.

(٥) الأنعام : ١٢٥ .

(٦) هود : ١١٨، ١١٩ .

(٧) الأعراف:١٧٩ .

وفصَّل هذا الكلام فى موطن آخر موضحاً تفسير الإرادة فى القرآن فقال[1]؟

ينبغى أن يعرف أن الإرادة فى كتاب الله على نوعين:

(**أحدهما**): **الإرادة الكونية**،وهى الإرادة المستلزمة لوقوع المراد. التى يقال فيها: ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة فى مثل قوله: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ وقوله: ﴿**وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾[3] وقال تعالى: ﴿**وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾[4] وأمثال ذلك.

وهذه الإرادة هى مدلول السلام فى قوله: ﴿**وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[5] قال السلف خلق فريقاً للإختلاف، وفريقا للرحمة، ولما كانت الرحمة هنا الإرادة، وهناك ؛كونية وقع المراد بها، فقوم اختلفوا وقوم رحموا.

أما (النوع الثانى) : فهو الإرادة الدينية الشرعية،وهى محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى، ؛كما قال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[6] وقوله تعالى: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ**﴾[7] وقوله : ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾[8] فهذه الإرادة لاتستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة ولهذا كانت الأقسام أربعة:

(**أحدها**): **ما تعلقت به الإرادتان**،وهو ما وقع فى الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أراده إرادة دين وشرع؛ فأمر به واحبه ورضيه، وأرادة إرادة كون فوقع؛ ولولا ذلك لما كان.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/١٨٧ ـ ١٩٠)
(٢) هود: ٣٤
(٣) البقرة : ٢٥٣
(٤) الكهف: ٣٩
(٥) هود : ١١٨، ١١٩
(٦) البقرة: ١٨٥
(٧) المائدة: ٦
(٨) النساء: ٢٦، ٢٧.

و(الثانى): **ماتعلقت بها الإرادة الدينية فقط.** وهو ماأمر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع.

(والثالث): **ماتعلقت به الإرادة الكونية فقط**، وهوما قدره وشاءه من الحوادث التى لم يأمر بها: كالمباحات والمعاصى فإنه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها، إذ هو لايأمر بالفحشاء ولايرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

و(الرابع): **ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا مالم يكن من أنواع المباحات والمعاصى، وإذا كان كذلك فمقتضى اللام فى قوله:** ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ هذه الإرادة الدينية الشرعية، وهذه قد يقع مرادها وقد لايقع، والمعنى أن الغاية التى يحب لهم ويرضى لهم والتى أمروا بفعلها هى العبادة، فهو العمل الذى خلق العباد له: أى هو الذى يحصل كمالهم وصلاحهم الذى به يكونون مرضيين محبوبين، فمن لم تحصل منه هذه الغاية كان عادماً لما يحب ويرضى ويراد له الإرادة الدينية التى فيها سعادته ونجاته، وعادماً لكماله وصلاحه العدم المستلزم فساده وعذابه، وقول من قال: العبادة هى العزيمة (أو) الفطرية: فقولان ضعيفان فاسدان يظهر فسادهما من وجوه متعددة.

ثم قال ابن تيمية: (١) ثم الناس على هذا القول أى الذى سبق ترجيحه ـ قولان: قول أهل السنة المثبتة للقدر، وقول نفاته فصارت الأقوال فى الآية «سبعة» وفى الحكمة «خمسة».

فأما أهل السنة المثبتون للقدر فيقولون: قوله: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ لايستلزم وقوع العبادة منهم، كما قال أصحاب هذه الأقوال المتقدمة، ولايستلزم نفى المقدور أن يكون فى ملكه مالايشاء أو يشاء مالا يكون، كما قالت القدرية، فهؤلاء يقولون: لم يقع ماخلقهم له لكونه يشاء مالا يكون، ويكون مالا يشاء. أولئك قالوا: إذا كان ما يشاء كان، ومالم يشأ لم يكن فما لم يقع لم يشأه، فما

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٤ـ٥٧). وسيأتى بيان للفرق بين الإرادة الكونية والقدرية فى أبواب كثيرة من الكتاب

لم يقع من العبادة لم يشأها، وهذا معنى صحيح ، ثـم قالوا : وما خلقهم له فلابد أن يشاء أن يخلقه فلما لم يشأه أن يخلق هذا لم يخلقهم له.

فالطائفتان أصل غلطهم ظنهم إنما خلقهم له يشاء وقوعه، وأولئك يقولون يشاء أن يخلقه، وهؤلاء يقولون يشاء وقوعه منهم، بمعنى يأمرهم به، وماعندهم أن له مشيئة فى أفعال العباد غير الأمر وهم يعصون أمره؛ فلهذا قالوا: يكون مالا يشاء، ويشاء مالا يكون، كما يقولون: يفعلون مانهاهم عنه، ويتركون ماأمرهم به، وهذا المعنى صحيح إذا أريد الأمر الشرعى؛ لكن القدرية النفاة لايقولون: إنه شاء إلا بمعنى أمر، فعندهم ماليس طاعة من أفعال العباد مالا يشاءه، فإنه لايخلقه عندهم، وإذا لم يخلقه لم يشأه فإنه ما شاء أن يخلقه خلقه باتفاق المسلمين.

والقدرية لاتنازع فى هذا، لاينازعون فى أنه ماشاء أن يفعله هو فعله، وأنه قادر على أن يفعل مايشاء أن يفعله، لكن عندهم أن أفعال العباد لا تدخل فى خلقه، ولافى قدرته، ولا فى مشيئته، ولا فى مشيئته أن يفعل، لكن المشيئة المتعلقة بها بمعنى الأمر فقط. فيقولون: خلقهم لعبادته أن يفعلوهاهم، وقد امرهم بها، فإذا لم يفعلوها كان ذلك بمنزلة عصيان أمره.

وأما المثبتون للقدر فيقولون: أنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، وهو سبحانه خالق كل شيء ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ وأمثال ذلك، فإذا خلقهم للعبادة المأمور بها ولم يفعلوها لم يكن قد شاء أن تكون، إذ لو شاء أن تكون لكونها ، لكن امرهم بها، وأحب أن يفعلوها، ورضى أن يفعلوها، وأراد أن يفعلوها، إرادة شرعية تضمنها بأمره بالعبادة.

ومن هنا يتبيَّن معنى الآية، فإنه قوله: ﴿وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ يشبه قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾(١) وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾(٢) وقوله ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾(٣) وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٤) وقوله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾(٥) الآية. وكذلك

(١) البقرة: ١٨٥ (٢) الحج: ٣٧
(٣) الحشر: ٣٧ (٤) المائدة: ٩٧.
(٥) الطلاق: ١٢.

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ﴾(١) فهو لم يرسله إلا ليطاع ثم قد يطاع وقد يعصى.

وكذلك ماخلقهم إلا للعبادة، ثم قد يعبدون وقد لايعبدون. ومثل هذا كثير فى القرآن، يبين أنه فعل مافعل ليكبروه وليعدلوا، ولايظلموا، وليعلموا ماهو متصف به، وغيره مما أمر الله به العباد، واحبه لهم ورضيه منهم، وفيه سعادتهم وكما لهم وصلاحهم وفلاحهم إذا فعلوه. ثم منهم من يفعل ذلك ومنهم من لايفعله.

وهو سبحانه لم يقل أنه فعل الأول ليفعل هو الثانى، ولا ليفعل بهم الثانى فلم يذكر انه خلقهم ليجعلهم هم عابدين؛ فإن مافعله من الأسباب لما يفعله هو من الغايات يجب أن يفعله لامحالة، ويمتنع أن يفعل أمراً ليفعل امراً ثانياً ولا يفعل الأمر الثانى، ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثانى؛ فيكونون هم الفاعلين له فيحصل بفعلهم سعادتهم، ومايحبه ويرضاه لهم، فيحصل مايحبه هو وما يحبونه هم، كما تقدم أن كل ماخلقه وأمر به غايته محبوبة لله ولعباده. وفيه حكمة له، وفيه رحمة لعباده.

فهذا الذى خلقهم له لو فعلوه لكان فيه مايحبه وما يحبونه، ولكن لم يفعلوه فاستحقوا ما يستحقه العاصى المخالف لأمره، التارك فعل ماخلق لأجله من عذاب الدنيا والآخرة، وهو سبحانه قد شاء أن تكون العبادة ممن فعلها، فجعلهم عابدين مسلمين بمشيئته وهداه لهم، وتحبيبه إليهم الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾(٢) فهؤلاء (أراد) العبادة منهم خلقاً وأمراً أمرهم بها؛ وخلقاً جعلهم فاعلين.

والصنف الثانى: لم يشأ هو أن يخلقهم عابدين وإن كان قد أمرهم بالعبادة. والله سبحانه أعلم.

تعريف العبادة:

وقد تقدم كلام المفسرين فى تعريف العبادة أولاً، وتقدم تفسير على بن أبى طالب للعبادة فى الآية وأنه: إلا لأمرهم أن يعبدونى وأدعوهم إلى عبادتى(٣) وكذلك تفسير مجاهد حيث قال: إلا لآمرهم وأنهاهم(٤).

وقال ابن تيمية أيضاً:(٥) العبادة هى طاعة الله بامتثال ما أمر به على السنة الرسل

---

(١) النساء: ٦٤

(٢) الحجرات: ٧.

(٣، ٤) تقدما.

(٥) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣١/٣٢.

وقال أيضاً العبادة إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة.

قال ابن القيم: ومدارها على خمس عشر قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية، بيان ذلك أن العبادة منقسمه على القلب، واللسان، والجوارح. والأحكام التى للعبودية خمسة : واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

وقال القرطبى: أصل العبادة :التذلل والخضوع، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات، لانهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى.

وقال ابن كثير:(١) العبادة فى اللغة من الذلة. يقال: طريق معبد وغير معبد، أى مذلل. وفى الشرع : عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وهكذا ذكر غيرهم من العلماء.

ومعنى الآية :أن الله تعالى أخبر أنه ماخلق الإنس والجن إلا لعبادته، فهذه هى الحكمة فى خلقهم، ولم يرد منهم ماتريده السادة من عبيدها من الإعانة لهم بالرزق والإطعام، بل هو الرزاق ذو القوة المتين، الذى يُطعم ولايُطعَم، كما قال تعالى: **﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾**

وعبادته هى طاعته بفعل المأمور، وترك المحظور، وذلك هو حقيقة دين الإسلام لأن معنى الإسلام هو الإستسلام . المتضمِّن غاية الانقياد، فى غاية الذل والخضوع.

قال ابن حجر: المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصى(٢).

قال حامد بن محمد بن حسن:(٣) والعبادة اسم لما شرعه الله تعالى فى كتابه المنزل على لسان رسوله المرسل ﷺ، وماخالفه من النسك والأعمال والأقوال والنيات فبدعة يستوجب صاحبه النار. عن عائشة ـ رضى الله عنه ـ قالت: قال رسول الله ﷺ «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**»(٤) وقال ﷺ فى حديث العرباض : «**فإن من يعش**

(١) تفسير القرآن العظيم. (٢) الفتح ١١/٣٤٧.

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٩

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى(٢٦٩٧)، ومسلم فى الأقضية (١٢/١٦ ـ النووى).

وانظر تخرجه فى كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١٣٥)، وانظر «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٠ ـ بتخريجنا).

منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»(١).أهـ.

قال ابن عثيمين: (٢) فهذه هى الحكمة من خلق الجنِّ والإنس. ولهذا أعطى الله البشر عقولاً، وأرسل إليهم رُسلاً، و أنزلَ عليهم كُتباً، ولو كان الغرض من خلقهم كالغرض من خَلْقِ البهائم؛ لضاعت الحكمة من إرسال الرُّسل ، وإنزال الكُتب؛ لأنَّه فى النهايةَ يكون كشجرة نبتت، ونمت، وتحطَّمت.

ولهذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾؛ فلا بدَّ أن يردَّك إلى معادٍ تُجازى على عملك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وليست الحكمة من خلقهم نَفعَ الله، ولهذا قال تعالى: ﴿**مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**﴾.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ**﴾.

فهذا ليس إقراضاً لله سبحانه، بل هو غنىٌّ عنه، لكنَّه سبحانه شبَّه معاملة عبده له بالقرض؛ لأنَّه لابدَّ من وفائه، فكأنَّه التزامٌ من الله سبحانه أن يُوفِّى العامل أجر عمله كما يُوفِّى المقترض من أقرضه أهـ.

قال الفقير: ومما يؤيد إختيار ابن تيمية وغيره ممن وافقه من أهل العلم السابق ذكرهم من العبادة: هى الأمر والنهى.

قوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى**﴾

قال الشافعى: لايؤمر ولاينهى. ذكره الشوكانى فى «فتح القدير» وغيره. تقدم شىء من ذلك.

● عبادة الهوى:

قال الفقير: ويتأيد هذا الإختيار بأدلة كثيرة أخرى منها قوله تعالى ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ**

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٢٦، ١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذى (٢٦٧٨) وابن ماجه، (٤٣) قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح». وانظر كتابنا «فقه الخطابة».

(٢) القول المفيد١/ ٢٦، ٢٧.

إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا﴾(1) ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾(2)

قال ابن كثير: أى إنما يأتمر بهواه فمهما رآه حسناً فعله ومهما رآه قبيحاً تركه ونقل عن مالك رحمه الله قال: لايهوى شيئاً إلا عبده قال فى «البحر» أى هو مطوع لهوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه.

قال ابن عباس: «وذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئاً إلا ركبه(3)».

وهذه التفسيرات للآية يؤيد اختيار ابن تيمية لتفسير على ومجاهد لقوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ وإن العبادة هى الأمر والنهى والحكم والتشريع.

● **عبادة العلماء والعباد:**

ويتأيد هذا الاختيار أيضاً لقوله تعالى﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾(4)

وقد فسرها الرسول ﷺ لعدى بن حاتم فقال عدى أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب؟ فقال **ياعدى اطرح عنك هذا الوثن**: قال ابن حاتم. وسمعته يقرأ سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم..﴾ فقلت يا رسول الله، «والله لم يكونوا يعبدوهم، فقال ﷺ: **أليسوا يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ويحلون ماحرم الله تعالى فيستحلونه**؟ قلت بلى قال: **فذلك عبادتهم إياهم**»(5).

وفى لفظ «**أليس يحرمون ماأحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه**؟ فقلت بلى: قال **فتلك عبادتهم** (6) والحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله و من الشرك الأكبر الذى لايغفره الله ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ ونظير ذلك قوله تعالى ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾(7).

(1) الفرقان : الآية ٤٣. (2) الجاثية : الآية ٢٣

(3) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٨٥٣٨) فانظره بتخريجنا.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(4) التوبة :الآية ٣١ (5،6) سيأتى تخريجه .

(7) الأنعام: ١٢١

● **عبادة الشيطان:**

ويتأيد هذا الاختيار أيضاً بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع وهو تقريع الكفرة والمجرمين أى ألم أوصيكم وأمركم يابنى آ دم على ألسنة الرسل﴿**أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ أى لاتطيعوهم فيما دعاكم إليه من معصيتى» ولذلك قال الله تعالى بعد هذه الآية ﴿**وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ أى اعبدونى بتوحيدى وطاعتى وامتثال أمرى وهذا هو الدين الصحيح والطريق الحق المبين.

وهذا التفسير السلفى للآية يبين أن عبادة الشيطان لم تكن بصلاة أونسك(1) يقدم له ولكن بالطاعة له فيما شرطه للناس من أحكام تغاير وتباين أحكام الله عزوجل ولذلك قال لهم لما قضى الأمر ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِى عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى**﴾(2).

● **عبادة الحكام:**

ويتأيد اختيار ابن تيمية لتفسير الآية أيضاً بقوله الله تعالى ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ هذا فى شأن فرعون حيث قال لأهل مصر﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى**﴾ وفى مقام آخر قال: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾ فلم يراجعوه بل وافقوه وأطاعوه فيما قال، لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله فبينت الآية أن العبادة التى كانت تصرف لفرعون هى الطاعة والحكم والأمر والنهى والتشريع وليست نسك وشعائر وصلوات كما تبين أجهزة الإعلام تلبيساً منها على العامة والجهال، هذا وقد ذهب إلى هذا الاختيار لمعنى العبادة المستنبط من الآية موضوع الشرح جمع غفير من السلف الصالح منهم ابن كثير كما تقدم حيث قال«و عبادته وهى طاعته فعل المأمور وترك المحظور وذلك حقيقة دين الإسلام لان معنى الإسلام الاستسلام لله تعالى المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع.

وتقدم أن صرح ابن تيمية بها فقال: هى طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنه الرسل وتقدم ذلك فى أول تعريف العبادة .

---

(1) وإن كنا نسمع فى هذا العصر أن بعض الناس يصلى للشيطان ويعبده عبادة صريحة سواء مانسمع عنهم فى العراق أو إسرائيل ولها بعض المريدين هنا من أبناء مصر الجديدة.

(2) إبراهيم : ٢٢

● عبادة الدنيا والزوجة والدرهم والدينار وغيرهما:

ويزداد الاختيار تأييداً بعد هذا الفهم السلفي المجمع عليه المعنى العبادة بقوله الله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ففى هذه الاية جعل الله كلمة حكم مرادفة لكلمة العبادة والعبادة مرادفة لكلمة حكم مما يؤيد اختيار ابن تيمية لتفسير الآية كما جاء عن على ومجاهد.

وكذلك من السنة لحديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ **«تعس عبدالدينار، وتعس عبد الدرهم، وتعس عبد الخميصة، وتعس عبد الخميلة إن اعطى رضى؟ وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس،وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله اشعث راسه، مغبرة قدماه إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»** (١).

قال ابن تيمية: فسماه النبى ﷺ عبدالدينار والدرهم، وعبدا القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر فيه ماهو دعاء وخبر وهو قوله **تعس وانتكس وإذا شيك فلا أنتقش،** وهذه حال من أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولاخلص من المكروه، وهذه حال من عبدالمال. وقد وصف ذلك بأنه إن أعطى رضى وأن منع سخط كما قال تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾(٢). فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة، أو نحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية فى الحقيقة هو رق القلب وعبوديته أهـ(٣)..

ـ ويؤيد هذا أيضاً حديث عائشة **«من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»**(٤) فهذا هو المتعوس الذى لم ينل رضا الله ولا رضا الناس وكذلك كل من جعل ولائه لغير الله أو ركن لغير الله ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾(٥) الآية فهو يرضى الظلمة رجاء الأمن والنصرة ـ واستعبده، فهو عبده إلى أن قال: وهكذا

---

(١) سيأتى تخريجه.

(٢) التوبة: ٦٠.

(٣) نقلاً عن كتابنا «فقه الخطابة» الطبعة الثانية (ص١٨٣ ـ ١٨٧)

(٤) سيأتى تخريجه.

(٥) هود: ١١٣

أيضاً طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه. وهذه الأمور نوعان، فمنها ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشربه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه فيكون المال عنده، يستعمله فى حاجته بمنزلة حماره الذى يركبه، وبساطه الذى يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً. وفيها ما لا يحتاج إليه العبد، فهذه ينبغى أن لايعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها وربما صار مستعبداً معتمداً على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولاحقيقة التوكل عليه، بل شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ **تعس عبدالدرهم، تعس عبدالدينار، وتعس عبدالخميصة، تعس عبدالخميلة»**(١) وهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله فإن الله إذا اعطاه إياه رضى، وإن منعه إياها سخط. وإنما عبدالله من يرضيه مايرضى الله، ويسخط ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ماأبغض الله ورسوله ، ويوالى أولياء الله، ويعادى أعداء الله.

فهذا الذى استكمل الإيمان . أ. هـ ملخصاً (٢).

وسيأتى مزيد شرح للحديث أن شاء الله .

قال الفقير: والعبودية لهؤلاء لاتتصور أن تكون بتقديم شعائر لهم بل لاتتصور إلا أن تكون طاعة وإنقياد.

ومن وحى هذا الفهم للآية قسم ابن القيم فى .. «إعلام الموقعين عن رب العالمين» العبادة إلى نوعين **عبادة عامة** وهى امتثال الأوامر التى يشترك فيها كل مكلف مثل الخوف من الله والرغبة فيه والتوكل عليه وما شاكل ذلك **والعبادة الخاصة** وهى الأوامر الخاصة ببعض المكلفين دون بعض مثل العبادة الخاصة بالحكام فهى تطبيق أمر الله عزوجل وإقامة حدوده وما شاكل ذلك.

وجماع هذا الفهم فى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ فكما أن الصلاة والنسك لابد وأن تكون لله على وفق ما شرع كذلك الحياة والممات يكونا لله على ما وفق ما شرع.

فهذا هو الفهم الكامل للعبادة وكمال الدين ويزداد الأمر إيضاحاً بما قرره صاحب كتاب «المفاهيم». فقال:

كان المفهوم الصحيح من قوله تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ ومن

(١) تقدم وسيأتى تخريجه

(٢) تيسير العزيز الحميد (٥٤٠)

ثم لم ينحصر مفهوم العبادة فى حس الأجيال الأولى أن عبادة الله هى غاية الوجود الإنسانى كله كما فهموا العبادة فى حسهم في نطاق الشعائر التعبدية وحدها، كما انحصر فى حس الأجيال المتأخرة التى جاءت بفهم للإسلام غريب عن الإسلام. إن شعائر التعبد لايمكن بداهة أن تكون هى كل «العبادة» المطلوبة من الإنسان . فما دامت غاية الوجود الإنسانى كما تنص الآية الكريمة محصورة فى عبادة الله. فأنى يستطيع الإنسان أن يوفى العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب؟! كم تستغرق الشعائر من اليوم والليلة؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان، وبقية العمر؟!.

وبقية الطاقة، وبقية الوقت؟ اين تنفق وأين تذهب؟ تنفق فى العبادة أم فى غير العبادة؟ وإن كان فى غير العبادة فكيف تتحقق غاية الوجود الإنسانى التى حصرتها الآية حصراً كاملاً فى عبادة الله؟ وكيف يجوز للإنسان من عند نفسه أن يجعل لوجوده ـ أو لجزء من وجوده ـ غاية لم يأذن بها الله ؟ إن الإنسان لايستطيع ـ مهما حاول ـ أن يقضى واجب العبادة المفروض عليه نحو الله من خلال الشعائر التعبدية وحدها ـ من صلاة وصيام وزكاة وحج. . ليس الإنسان ملكاً. . . ولن يكون . والملائكة ـ وحدهم فيما نعلم ـ هم ذلك الخلق النوارنى الشفيف الذى يسبح الليل والنهار لايفتر ﴿وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾(1) وهم ـ وحدهم الذين لايعصون الله فى أمر من الأمور ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أ. هـ.ـ

وقد طبق السلف الصالح هذه الآية بهذا الفهم أيضاً لذا يؤثر عن بعضهم انه كان يقول إنى لاحتسب نومتى كما احتسب قومتى يعنى كما يصلى قيام الليل فيحتسب قيامه لله كذلك يجعل نومه لله لانه ما نام إلا امتثال لأمر الرسول «**إن لبدنك عليك حق**»(2) وكذلك طبقوه فى جماع الزوجة وإطعامه إياها حتى صرح بذلك الرسول ﷺ فقال «**إن فى بضع أحدكم صدقة** قيل يارسول يأتى الرجل منا شهوته ويأخذ على ذلك اجراً قال: «**أرايت إن وضعها فى حرام**»(3) أى أرأيته خالف الأمر ولم يمتثل أكان مأزوراً أم مأجوراً وإن كان مأزوراً بالمخالفة فلابد أن يكون مأجوراً بالامتثال والطاعة التى هى عين العباده.

(1) الأنبياء ١٩ ـ ٢٠.

(2) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩٧٦)، ومسلم فى الصيام (٨/ ٣٩ ـ النووى) عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٢ ـ بتخريجنا).

(3) [صحيح] أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (٢٢٨) ، ومسلم (٧/ ٩١ـ الزكاة)

انظر «رياض الصالحين» (١٢١ ـ بتخريجنا).

وقال صاحب الظلال:[1] ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً.

وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين

[الأول]: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس. أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً. وعبداً يَعبد، ورباً يُعبد. وأن ليس وراء ذلك شيء؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار، ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود؛ وإلا رب واحد والكل له عبيد.

[والثاني]: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر؛ ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

وبهذا وذلك يتحقق معنى العبادة؛ ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله.. كلها عبادة؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها؛ وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه.

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعراً أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى، جاء لينهض بها فترة طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها، ولا غاية له من ورائها، إلا الطاعة، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله، ومن أنس برضى الله عنه، ورعايته له. ثم يجده في الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً.

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقاً. يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفتة. ويكون قد تحرر بهذا الفرار. تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال. وخلص لله، واستقر في الوضع الكوني الأصيل: عبداً لله. خلقه الله لعبادته. وقام بما خلق له. وحقق غاية وجوده. فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض، وينهض بتكاليفها، ويحقق أقصى ثمراتها؛ وهو في الوقت ذاته نافض يديه

---

(١) (٦/٣٣٨٦ـ٣٣٨٨)

منها؛ خالص القلب من جواذبها ومغرياتها. ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها، ثم الفرار إلى الله منها. !

ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال فى النفس مستمدة من بواعثها لامن نتائجها. فلتكن النتائج ماتكون. فالإنسان غير معلق بهذه النتائج. إنما هو معلق بأداء العبادة فى القيام بهذه الأعمال؛ ولأن جزاءه ليس فى نتائجها ، إنما جزاؤه فى العبادة التى أداها. أ. هـ.

● **احتراز:**

قد يفهم مما سبق فى شرح معنى العبادة وأنها الطاعة التى تصرف إلى الله عزوجل وأنها لوصرفت لغيره كان ذلك شركاً فقد يفهم مماسبق أن أى طاعة تقدم لغير الله فهى شرك مخرج عن الملة لأنها عبادة قُدمت لغير الله، نعم هذا الذى فعل هذا لاشك أنَّ له حظ ونصيب من الآيات التى تُبَيِّن عبادة الهوى وعبادة الشيطان ذلك لأن ابن تيمية قال: إن الإيمان أصل وله شعب والكفر أصل وله شعب فكما أن الطاعات من شعب الإيمان فالمعاصى من شعب الكفر.

وقال ابن عثيمين: فالمعاصى من حيث المعنى العام أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك، وأما بالمعنى الأخصو فتنقسم إلى أنواع:

(١) شرك أكبر. (٢) شرك أصغر.

(٣) معصية كبيرة (٤) معصية صغيرة. أهـ.

لكن متى يخرج بهذا الحظ من الدين ومتى لايخرج؟

يخرج إذا كانت هذه الطاعة منبعها الإعراض والاستكبار على أوامر الله عزوجل كمعصية إبليس حيث قال تعالى عنها: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾(١) أما إذا كانت المعصية لله عزوجل التى صارت طاعة لغيره أو عبادة له إذا كانت منبعها الشهوة فهذه لاتخرج من الملة أو من الدين وذلك كمعصية آدم حينما قبل حكم الله ولم يرده وارتضى به ولكن لغلبة الشهوة وإستذلال الشيطان له وقع فى طاعته ومعصية الله لكن هذا الحظ الذى ناله من عبادة الشيطان لايزيد على كونه معصية لله ولم يخرج من الملة به لأنه لم يرد ولم يستكبرو لم يستحل فلذلك لم يسمه الله بالكفر كما وسم إبليس به، وهذا كله فى فاعل المعصية. والله تعالى أعلم.

---

(١) البقرة : ٣٤.

مسألة(١):

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الجان المؤمنين: هل هم مخاطبون «بفروع الإسلام» كالصوم. والصلاة، وغير ذلك من العبادات ؟ أو هم مخاطبون بنفس التصديق لاغير؟

فأجاب:

لاريب أنهم مأمورون بأعمال زائدة على التصديق، ومنهيون عن أعمال غير التكذيب؛ فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم، فإنهم ليسوا مماثلى الإنس فى الحد والحقيقة ؛ فلا يكون ماأمروا به ونهوا عنه مساويا لما على الإنس فى الحد؛ لكنهم مشاركون الإنس فى جنس التكليف بالأمر والنهى والتحليل والتحريم. وهذامالم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين.

وكذلك لم يتنازعوا أن أهل الكفر والفسوق والعصيان منهم يستحقون لعذاب النار، كما يدخلها من الآدميين؛ لكن تنازعوا فى أهل الإيمان منهم؛

● **مسألة**

وجه تقديم الجن على الإنس فى الآية:

قال الرازى:(٢) فإن قيل تقديم الجن على الإنس لأية حكمة؟ نقول هو أن العبادة سرية وجهرية، وللسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لايدخلها الرياء العظيم، وأما عبادة الإنس فيدخلها الرياء فإنه قد يعبد الله لأبناء جنسه، وقت يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم ولاكذلك الجن أ.هـ.

قال الفقير: ليس هناك دليل على أن عبادة الجن سرية وليس كوننا لانراهم لايعنى ذلك أنهم لايرى بعضهم بعضاً، فتحقق فيهم ما تحقق فى الأنس. وإن كان يقصد سرية بالنسبة لنا فهذا لا يكون عليه إنما التعويل على الواقع بينهم والله أعلم.

قال الشوكانى:(٣) ووجه تقديم الجن على الإنس ها هنا تقدم وجودهم.

قال الفقير: وهو مشهور عن كثير من المفسرين كابن عباس وغيره وهو أولى من قول الرازى.

(إشكال):

قال الرازى(٤): قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٢٣٣-٢٣٧.
(٢) التفسير الكبير ١٤/ ٢٨/ ٢٣٣
(٣) فتح القدير ٥/ ٩٢
(٤) التفسير الكبير١٤/ ٢٨/ ٢٣٤.

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[1] وقال (ليعبدون) فهل بينهـما اختلاف؟ نقول ليس كذلك فإن الله تعالـى علل جعلـهم شعوباً بالـتعارف، وههنا عـلل خلقهـم بالعبادة وقولـه هناك ﴿أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ دليل على ما ذكره ههنا وموافق له، لأنه إذا كان أتقى كان أعبد وأخلص عملاً، فيـكون المطلوب منه أتم فـى الوجود فيكون أكرم وأعـز، كالشىء الذى منفعته فائدة، وبعض أفراده يكون أنفع فى تلك الفائدة، مثاله الماء إذا كان مخلوقاً للتطهيـر والشرب فالصافى منه أكثر فـائدة فى تلك المنفعة فيـكون أشرف من ماء آخر، فكذلك العبد الذى وجد فيه ماهو المطلوب منه على وجه أبلغ أ هـ .

● إشكال قريب من الذى قبله

قال الشنقيطى:[2] اعلم أن الآيات الدالـة على حكمة خلق الله لـلسماوات والأرض وأهلهما وما بـينهما قد يظن غير المـتأمل أن بينهما اختلافـاً، والواقع خلاف ذلك. لأن كلام الله لايخـالف بعضه بعـضاً، وإيضاح ذلك أن الله تـبارك وتعالى ذكر فـى بعض الآيات أن حكمة خلقه للسماوات والأرض هى إعلام خلقه بأنه قادر على كل شىء، وأنه محيط بكل شـىء علماً، وذلك فى قوله تعالـى فى آخر الطلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾[3].

وذكر فى مواضع كثيرة فى كتابه أنه خلق الخلق ليبين للناس كونه هو المعبود وحده، كقوله تعالى ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[4]، ثم أقام البرهان على أنه إله واحد بقوله بعده: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[5] لما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[6] بين أن خلقهم برهان على أنه المعبود وحده بقوله بعده: ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

(١) الحجرات : ١٣.
(٢) اضواء البيان ٧/ ٤٤٦، ٤٤٧.
(٣) الطلاق : ١٢.
(٤) البقرة : ١٦٣
(٥) البقرة: ١٦٤.
(٦) البقرة : ٢١

وذكر فى بعض الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليبتلى الناس، وذلك فى قوله ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1].

وذكر فى بعض الآيات أنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم وذلك فى قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾[2] وذكر فى آية الذاريات هذه أنه ماخلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فقد يظن غير العالم أن بين هذه الآيات اختلافاً مع أنها لا اختلاف بينها، لأن الحكم المذكور فيها كلها راجع إلى شىء واحد، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعيده فقوله : ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] وقوله : ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ﴾[4] راجع إلى شىء واحد هو العلم بالله، لأن من عرف الله أطاعه ووحده.

وهذا العلم يعلمهم الله إياه ويرسل لهم الرسل بمقتضاه ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حى عن بينة، فالتكليف بعد العلم، والجزاء بعد التكليف، فظهر بهذا اتفاق الآيات لأن الجزاء لابد له من تكليف،وهو الابتلاء المذكور فى الآيات والتكليف لابد له من علم، ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخلق للمخلوقات هى العلم بالخالق، ودل بعضها على أنها الابتلاء، ودل بعضها على أنها الجزاء، وكل ذلك حق لا اختلاف فيه،وبعضه مرتب على بعض أهـ.

ثم قال فى موطن آخر[5]: وإذا تقرر أن قوله تعالى ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[6] معناه أنه خلقهم لسعادة بعض وشقاوة بعض، كما قال ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾[7] الآية وقال ﴿هُوَ

(١) هود: ٧
(٢) يونس : ٤.
(٣) الطلاق :١٢.
(٤) البقرة : ٢١
(٥) أضواء البيان : ١٠/ ١١٠و١١١.
(٦) هود : ١١٩
(٧) الأعراف : ١٧٩.

الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾(١) فلايخفى ظهور التعارض بين هذه الآيات مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: ونقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان: أن معنى الآية ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أى يعبدنى السعداء منهم ويعصينى الأشقياء، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التى هى عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم. كما أشار له قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾(٢).

وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق المجموع وأراد بعضهم، وقد بينا أمثال ذلك من الآيات التى أطلق فيها المجموع مراداً بعضه فى سورة الأنفال.

الوجه الثانى: هو ما رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره ابن جرير أن معنى قوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أى إلا ليقروا إلىَّ بالعبودية طوعاً أو كرها(٣) لأن المؤمن يطيع باختياره، والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه.

الوجه الثالث: ويظهر لى أنه هو الحق، لدلالة القرآن عليه: أن الإرادة فى قوله ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إرادة كونية قدرية والإرادة فى قوله﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ إرادة شرعية دينية، فبين فى قوله﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وقوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ أنه أراد بإرادته الكونية القدرية صيرورة قوم إلى السعادة، وآخرين إلى الشقاوة.

وبيَّن بقوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ أنه يريد العبادة بإرادته الشرعية الدينية من الجن والإنس، فيوفق من شاء بإرادته الكونية فيعبده ويخذل من شاء فيمتنع من العبادة.

ووجه دلالة القرآن على هذا أنه تعالى بينه بقوله﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ

(١) التغابن: ٢

(٢) الأنعام: ٨٩

(٣) تقدم تخريجه. فى تفسير: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

اللَّهِ﴾[1] فعمم الإرادة الشرعية بقوله ﴿ إِلاَّ لِيُطَاعَ ﴾ وبين التخصيص فى الطاعة بالإرادة الكونية بقوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فالدعوة عامة والتوفيق خاص.

وتحقيق النسبة بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية الدينية أنه بالنسبة إلى وجود المراد وعدم وجوده، فالإرادة الكونية أعم مطلقاً. لأن كل مراد شرعاً يتحقق وجوده فى الخارج إذا أريد كوناً وقدراً، كإيمان أبى بكر، وليس يوجد مالم يرد كوناً وقدراً ولو أريد شرعاً كإيمان أبى لهب، فكل مراد شرعى حصل فبالإرادة الكونية وليس كل مراد كونى حصل مراداً فى الشرع.

وأما بالنسبة إلى تعلق الإرادتين بعبادة الإنس والجن لله تعالى، فالإرادة الشرعية أعم مطلقاً والإرادة الكونية أخص مطلقاً، لأن كل فرد من أفراد الجن والإنس أراد الله منه العبادة شرعاً ولم يردها من كلهم كوناً وقدراً، فتعم الإرادة الشرعية عبادة جميع الثقلين، وتختص الإرادة الكونية بعبادة السعداء منهم كما قدمنا من أن الدعوة عامة والتوفيق خاص. كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] فصرح بأنه يدعوا الكل ويهدى من شاء منهم.

وليست النسبة بين الإرادة الشرعية والقدرية العموم، لخصوص من وجه بل هى العموم والخصوص المطلق، كما بينا إلا أن إحداهما أعم مطلقاً من الأخرى باعتبار، والثانية أعم مطلقاً باعتبار آخر، كما بينا. والعلم عند الله تعالى.

مسئلة:

والآية تدل على أن الله تعالى منفرد بخلق كل شيء.

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن:[3] فيه أعظم دليل على أنَّه المنفرد للخلق، لأنه ـ تعالى ـ ذكر. بصيغة الإفراد وهو كذلك، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[4] وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[5] ففيه ردٌّ شاف على المجوس، حيث

(1) النساء: ٦٤.   (2) يونس: ٢٥

(3) فتح الله الحميد المجيد٤٦/٤٨.

(4) الزمر: ٦٢

(5) الأعراف: ٥٤.

ذهبت إلى تقديس البارى عن تخليق الشر علـى زعمهم، كالجبابرة، والظلمة، والأشياء المفسدة، والسباع، والحيات، وأشباهها، مماهـو مضرة على الإطلاق، وصاروا كالمستعيذ من الرمضاء إلى النار، أرادوا تـقديس البارى عن تخليق الشر، ووقعـوا فى شرك الربوبية، فجعلـوا منها للبـارى تعالى، وجعلـوا منها لإبليـس عدو الله فأفضى ذلك إلـى الشرك والتعجيز، والقـول بأن من شاء منهم فتنفذ مشـيئته، والبارى لم تنفذ مشيـئته. ومعلوم عند كل عاقل بالـضرورة أن أخص صفات الربوبية القدرة ، وتبعهـم على ذلك جماعة ممن ينـتسب إلى الإسلام، وهـم المعتزلة، فقـالوا: تقديس الله عـن تخليق المـعاصى، وتكوين الـزنا، واللواط ، وإثبات الـكفر والشرك، وإرادة قتـل الأنبياء. فلزمـهم ما لزم المجوس من الشرك، وأهل الحق يقولون: هو الله وحده فـى ربوبيته، وعبادته، وأفعاله، لاشريك له فـى تخليقه، ولانـظير له فى تكويـنه، ولا راد لإرادته، ولامضاد لمشـيئته، ولايعجز عن شىء، ولا ينفذ عليه أمر حى.

وأما تخليق هذه الأشياء، فالنظر فيه من وجوه:

أحدها: إن قصـرت عقولـنا عن إدراك الحـكمة فـيها لاتـعجز عـن إدراك أن الإله لايوصف بالعجز، فعلينا أن نعمل بالقضية المدلول علماً، ولانتركها لمأخذ لانقف عليه.

الثانى: أن فيها ضرراً وفساداً إضافيًا لاذاتيًا فالحية لاضرر فى ذاتها بل فى ريقها، كما يضـرها ريقنـا وريق الصائـم يميـت الله العقرب بـه فكان ريـقنا سبـباً لضرر الحـيات والعقارب.

والثالث : فيها منافع مـن وجوه كثيرة، كالترياق المتخذ مـن لحوم الأفاعى دافع ضرر السموم، وغير ذلك من الفوائد، إن أردتها انظر إلى كتب الطب.

الرابع: إظهار القـهر تذكرة للعـذاب والنار، كما جعل الـصورة الحسنة، والبـساتين المزهرة، تذكرة من الجنة، استدعاء إلى الطاعة، وزجراً عن المعصية.

الخامس: تبغيض الدنيا وتكدير عيشها والتشويق إلى مفارقتها.

السادس :إظهار الاستغناء عن الخلق وعدم الالتفات إليهم أهـ.

وسيأتى مزيد شرح هذا الكلام فى أبواب الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

مناسبة الآية للتوحيد.

قال الشنقيطي(٢): ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه بعث في كل أمة رسولاً بعبادة الله وحده، واجتناب عبادة ماسواه. وهذاهو معنى «لاإله إلا الله» لأنهامركبة من نفي وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، وإثباتها هو إفراده جل وعلا بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه.

قال عبدالرحمن آل الشيخ:(٣) ودلت هذه الآية على الحكمة في إرسال الرسل: دعوتهم أممهم إلى عبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه، وأنَّ هذا هو دين الأنبياء والمرسلين، وإن اختلفت شريعتهم، كما قال تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(٤) وأنَّه لابد في الإيمان من عَمَل القلب والجوارح أهـ.

قال ابن عثيمين:(٥) ودلالة الآية على التوحيد: أنَّ الأصنام من الطواغيت التي تُعبد من دون الله.

وقال أيضاً ووجه الاستشهاد بهذه الآية لكتاب التوحيد: أنَّها دالَّة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أُرسلوا به؛ لقوله تعالى﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

قال القرعاوي:(٦) حيث دلّت الآية الكريمة على أن عبادة الله لاتصلح إلا إذا كفر بما سواه.

قال الفقير: وقول القرعاوي هو ماقصده المصنِّف فعلاً ويتضح ذلك من كلامه كما سيأتي في كتابه.

---

(١)النحل :٣٦.

(٢) أضواء البيان» ٣/ ٢٠٢

(٣) فتح المجيد ٢٦.

(٤) المائدة ٤٨

(٥) «القول المفيد» ١/ ٣١و ٣٢.

(٦) «الجديد» ٢٢.

الإعراب:

قال محيى الدين درويش:[1] ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾ الواو عاطفة و اللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وبعثنا فعل وفاعل وفى كل أمة متعلقان ببعثنا ورسولاً مفعول به.

﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أن يجوز أن تكون مصدرية وهى مع مدخولها نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان ببعثنا ويجوز أن تكون مفسرة لأن البعث فيه معنى القول وأعبدوا فعل أمر وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به واجتنبوا الطاغوت فعل أمر وفاعل ومفعول به أهـ.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2] معنى الآية أن الله تعالى يخبر أنه بعث فى كل أمة، أى فى كل طائفة وقرن من الناس رسولاً بهذه الكلمة ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أى اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه، فلهذا خلقت الخليقة وأرسلت الرسل، وانـزلت الكتب. كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون ﴾[3] وقال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَئَابِ﴾[4] وهذه الآية معنى قول لا إله إلا الله، فإنها تضمنت النفى والإثبات كما تضمنته لا إله إلا الله، ففى قوله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الإثبات، وفى قوله ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النفى فدلت الآية على أنه لابد فى الإسلام من النفى والإثبات، فيثبت لله وحده وينفى عبادة ماسواه وهو التوحيد الذى تضمنته ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾[5] وهذا مؤدى قول الطبرى وابن الجوزى والرازى وغيرهم من أهل التفسير كالشنقيطى.

تنبيه: سيأتى فى باب أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان، وباب: ما جاء فى السحر، وباب قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾، من هذا الكتاب، سيأتى تفسير الطاغوت من القرآن والسنة، وأقوال المفسرين، فتتبع هذه المواضع مع هذه الموضع إتماماً للفائدة.

(1) إعراب القرآن / ٢٩٧ (2) النحل ٣٦ (3) الأنبياء : ٢٥.
(4) الرعد:٣٦ (5) الكافرون : ١.

قوله: ﴿الطَّاغُوتِ﴾.

فعلوت من طغى يطغى ويطغو: اذا جاوز الحد: قال سيبويه: هو اسم يذكر مفرد: أى اسم جنس يشمل القليل والكثير وقال أبو على الفارس إنه مصدر كرهبوت وجبروت يوصف به الواحد والجمع، وقلبت لامه إلى موضع العين وعينه إلى موضع اللام كجبن وجذب، ثم تقلب الواو ألفا لتحركها وتحرك ماقبلها، فقيل طاغوت واختار هذا القول النحاس. وقيل أصل الطاغوت فى الفقه مأخوذ من الطغيان يؤدى معناه من غير اشتقاق كما قيل لآلىء من اللؤلؤ. وقال المبرِّد: هو جمع قال ابن عطية: وذلك مردود.

قال الجوهرى ، والطاغوت :الكاهن والشيطان وكل رأس فى الضلال وقد يكون واحداً قال الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾(١) وقد يكون جمعاً قال الله تعالى ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾ والجمع الطواغيت: أى فمن يكفر بالشيطان أو الاصنام أو أهل الكهانة ورءوس الضلالة أو بالجميع قوله ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ عزوجل بعد ما تبين له الرشد من الغى فقد فاز وتمسّك بالحبل الوثيق أى المحكم.

وجاء فى «جامع البيان» وأرى أن أصل الطاغوت الطغووت من قول القائل طغا فلان يطغو إذا عدا قدره فتجاوز حده كالجبروت من التجبر والحلبوت من الحلب ونحو ذلك من الإسماء التى تأتى على تقدير فعلوت بزيادة الواو والتاء ثم نقلت لامه أعنى لام الطغووت فجعلت له عيناً وحولت عينه فجعلت مكان لامه كما قيل جذب وجبذ وجابذ وجاذب وصاعقة وصاقعة ومأأشبه ذلك من الأسماء التى على هذا المثال(٢).

الطاغوت اصطلاحاً

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه :ـ الجبت السحر، والطاغوت الشيطان(٣).

وقال جابر كانت الطواغيت التى يتحاكمون إليها، فى جهينة واحد، وفى أسلم واحد، وفى كل حىٍّ واحد، كهان ينزل عليهم الشيطان(٤).

---

(١) النساء: ٦٠

(٢) جامع البيان(٣/ ١٣)

(٣) علقه البخارى فى التفسير (٨/ ١٠٠- الفتح) أخرجه ابن جرير(٥/ ٨٣)،وابن ابى حاتم (٥٤٤٩) وانظر فتح المجيد (ح٤٨١) بتخريجنا وأيضاًانظر «فتح القدير» (٣٥٠٠ بتخريجنا)

(٤) [صحيح] علقه البخارى فى التفسير (٨/ ١٠٠- الفتح) أخرجه ابن ابى حاتم (٥٤٥٢) بتخريجنا) انظر فتح المجيد (ح٢٥) بتخريجنا.

وقال ابن عباس الجبت الاصنام، والطواغيت الذين كانوا يعبرون عن الاصنام بالكذب(١).

قال : وزعم رجال أن الجبت الكاهن، والطاغوت رجل من اليهود يدعى كعب بن الأشرف ومن طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الاشرف(٢).

قال عكرمة: الجبت بلسان الحبشة شيطان، والطاغوت الكاهن(٣).

وروى الطبرى عن مجاهد مثل قول عمر وزاد والطاغوت شيطان فى صورة إنسان يتحاكمون إليه(٤).

وروى الطبرى من طريق سعيد بن جبير وأبى العالية قال: الجبت الساحر والطاغوت الكاهن(٥).

وقال مالك: كل ماعبد من دون الله تعالي(٦).

قال ابن تيمية: والجبت السحر، والطاغوت الشيطان والوثن(٧).

واختارالطبرى أن المراد بالجبت والطاغوت جنس من كان يعبد من دون الله سواء كان صنما أو شيطاناً جنياً أو إنسياً فيدخل فيه الساحر و الكاهن والله أعلم(٨).

قال ابن جرير: والصواب من القول عندى فى الطاغوت أنه كل ذى طغيان على الله فعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة ممن عَبَّده له إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كان ماكان من شيء(٩).

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤/ ٨٣) من طريق العوفى عن ابن عباس، ذكره الحافظ فى «الفتح» (٨/ ١٠١).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس، ذكره الحافظ فى الموضع السابق.

(٣)علقه البخارى فى التفسير (٨/ ١٠٠- الفتح)، اخرجه عبد بن حميد بإسناده وصححه ابن حجر فى «الفتح» (٨/ ١٠٠)

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤/ ٨٣٠) عن مجاهد به وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٥٨٤) ونسبه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤/ ٨٤).

(٦) [صحيح] أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٣/ ٩٧٦/ ٥٤٥٦) عن مالك فأنظره بتخريجنا وانظر «الدر»(١/ ٥٨٤) وانظر «فتح المجيد» (ح٢٦) بتخريجنا.

(٧) مجموع الفتاوي» (٢٧/ ١٧٩) (٨) «الفتح» (٨/ ١٠١).

(٩) جامع البيان ٣/ ١٣

قال ابن القيم رحمه الله: الطاغوت ماتجاوز به العبد حده من معبود أومتبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أويطيعونه فيما لايعلمون أنه طاعة الله.

فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله ﷺ إلى الطاغوت ومتابعته (١).

قال المصنف محمد بن عبدالوهاب: أن الطاغوت عام فى كل ماعبد من دون الله أهـ.

وقد استثنى بعض العلماء كالشيخ محمد بن عبدالوهاب من هذا العموم ما عبد وهو غير راض وهذا الاستثناء محمول على استثناءهم من دخول النار؛ لأن من عبد وهو راضى مع من عبده يوم القيامة أى الاتباع والمتبوعين كما ذكر ابن كثير عن أبى إسحاق مرفوعاً «**كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده**»[٢] لأنهم يعبدون الشياطين. فيفهم أن الاستثناء إنما ذكر من أجل نفى العذاب وليس من أجل نفى العبادة كما هو واضح من قصه ابن الزبعرى فى قوله تعالي: ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾[٣].

قال ابن عثيمين[*]: المراد من كان راضيًا بعبادتهم إياه، أو يقال: هو طاغوت باعتبار عابديه، لأنهم تجاوزوا به حده، حيث نزلوه فوق منزلته التى جعلها الله له فتكون عبادتهم لهذا المعبود طغيانًا؛ لمجاوزتهم الحد بذلك اهـ وسيأتى ذكر ذلك مرة أخرى فى الباب الثانى والعشرين.

فصل
فى كيفية الكفر بالطاغوت

قال الله تعالى مبينًا الكفر بالطاغوت﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ**

(١) ابن القيم فى إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٥٠

(٢) ذكره ابن كثيرفى «تفسيره» (٣/ ١٩٩) عن ابن إسحاق.

(٣) انظر تفسير ابن كثير فى الموضع السابق وسيأتى أيضا تفسير الطاغوت فى باب ما جاء أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان.

(*) القول المفيد (١/ ٥٨٧، ٥٨٨).

﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أى اتركو عبادتـه واجتنبوها كما قال تـعالى أيضاً ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾(١) وهذا المعنى القرآنى لكيفية الكفر بالطاغوت هو الذى أجمع عليه السلف ـ قال الـطبري. فمن يجحد ربوبية كل معبود من دون الله فيكفر به ويؤمـن بالله يقول ويصدق بالله أنه إلهه وربه ومعبـوده فقد استمسك بالعروة الوثقى.

قال ابن كثير: وقوله تعالي: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾. أى من خـلع الأنداد والأوثان وما يدعـو إليه الشيطان مـن عبادة كل ما يعـبد من دون الله ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو أهـ.

وقال عبـدالله بن عبدالـرحمن أبو بـطين: إن كان الـرجل يقـر بأن هـذه الأمور الشركـية التى تفـعل عند القـبور وغيرهـا من دعاء الأموات والغـائبين وسؤالهـم قضاء الحاجات وتفريج الكربات والتقرب إليـهم بالنذور والذبائح أن هذا شرك وضلال، ومن انكره هو المحق ومـن زينه ودعا إليه فهو شر مـن الفاعل فهذا يحكـم بإسلامه لأن هذا معنى الكفر بالطاغوت والكفر بما يعبد من دون الله(٢).

وقال سليمان بن عبدالله: بل التوحيد اسم لمعنى عظـيم. وقول له معنى جليل هو أجل من جـميع المعـاني.و حاصله هـو :البراءة من عـبادة كل ما سـوى الله، والإقبال بالقلب والعبـادة على الله، وذلك هو معنى الكفر بالطـاغوت والإيمان الله وهو معنى لا إله إلا الله»(٣).

وقال ابن عثيمين: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أى ابتعدوا عنه بأن تكونوا فى جانب وهو فى جانب(٤).

وهذه المعانى لصفة الكفر بالطاغوت هى المتفقة مع المعنى اللغوى لمادة: كفر، فمعناها يدور حول التغطية والـستر والجحود والنكران والبراءة قلت: أى بكفـر العبادة التى تقدم للطـاغوت وجحدها ونكـرانها والبراءة منـها وليس معنـاه ـ كما تقدم من كـلام الشراح والمفسرين ـ تكفير الطاغوت نفسه فهذا ليس بلازم ولايستفاد من باب الكفر بعبادته.

---

(١) الزمر :١٧

(٢) مجموعة الرسائل النجدية ٦٧٩: ٦٨٧ ج القسم الثالث عن رسالة الدر والياقوت.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ١٣٩. - وأنظر «فتح المجيد» (١/ ٢٥).

(٤) القول المفيد (١/ ٣٠).

مسألة: التابع للطاغوت ليس طاغوتاً.

قال ابن عثيمين: فهولاء طواغيت والفاعل تابع للطاغوت قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾ الآية ولم يقل إنهم طواغيت أهـ[1].

فصل

هل تكفير الطواغيت من أصل الدين أم الكفر بهم فقط؟

اعلم رحمك الله وإياى أن أصل دين الله هو التوحيد ونفى الشريك المعبر عنه فى كتاب الله تعالى فى غير ما آية وفى غير موضع كقوله تعالي: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾[1] وقوله الله تعالي: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[2] وقول الله تعالي: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[3]وقوله تعالي: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ**﴾[4] وقوله تعالي: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾[5].

فهذه الآيات قد دلت دلالة واضحة على أصل دين الإسلام وهو التوحيد ولا إله إلا الله أو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله أو عبادة الله وحده، فهذه معانى مطردة فى كل آية من الآيات ولانجد أن هذه الآيات إن تحتمل معنى آخر وهو تكفير الطواغيت أو تكفير من لم يكفرهم والذى يقول بهذا من هذه الآيات فقد حملها مالا تحتمل واتى ببهتان صريح ومثله فى ذلك كمثل الذى يستدل بقوله تعالى ﴿**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ**﴾ على قطع يد السارق أو ما شاكل ذلك ثم اعلم رحمك الله أنه لو تعددت أسماء لمسمى واحد فلا بد وحتماً أن كل اسم من هذه الأسماء يدل على مسماه دلالة واضحة مثل القمر والهلال والبدر والشهر فكلها دلت على الكوكب الذى يظهر فى السماء فى أول كل شهر وكذلك هذه الآيات برغم اختلاف ألفاظها إلا أنها عبرت تعبيراً واحداً مطرداً عن أصل الدين وهو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فكما قلنا لم نجد

(١) القول المفيد (١/ ٣٠).
(٢) الأنبياء: ٢٥.
(٣) النحل : ٣٦.
(٤) البقرة: ٢١.
(٥) البقرة: ٢٥٦.
(٦) هود : ٥٠

الآيات عبرت عن تكفير الطواغيت أو تكفير من شك فى كفرهم مما يبرهن على أن ذلك ليس من أصل الدين. ولهذا الموضوع بحث مستقل فليرجع إليه ـ لمن شاء ـ(*).

فصل

فى تقرير ما قد سبق من كلام السلف

ثم اعلم رحمك الله وإياى أنه لو كان تكفير الطواغيت أو تكفير من لم يكفرهم من أصل الدين لكفر السلف بعضهم بعضاً فى كثير من المواقف منها مثلاً اختلافهم فى أمر الحجاج فمنهم من كفره ومنهم من لم يكفره ومع ذلك لم نسمع عنهم أنهم كفر بعضهم بعضاً من أجل هذه القضية ودليل ذلك ماجاء فى كتاب الإيمان لابن أبى شيبة:

أخبرنا قبيصة عن سفيان عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال: عجباً لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجاج مؤمناً!»

ثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن ابراهيم. أنه كان إذا ذكر الحجاج قال: ﴿**أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾(1).

حدثنا أبو بكر بن عباس عن الأجلح عن الشعبى قال: اشهد أنه مؤمناً بالطاغوت كافر بالله يعنى الحجاج.

حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن إبراهيم قال: «كفى بمن يشك فى أمر الحجاج لحاه الله»(2).

[قلت]: فانظر كيف يتعجب طاوس من إخوانه أهل العراق من تسميتهم الحجاج مؤمنًا، وهو عنده كافر، كذلك يصرح بها الشعبي، ومع ذلك فإن طاوسًا رحمه الله لم يكفر أهل العراق، وقال مخاطباً إياهم على أنهم إخوانه، فلو كان تكفير الطواغيت أو تكفير من لم يكفرهم أو شك فى كفرهم من أصل الدين لم يتوان طاوس فى تكفير أهل العراق والله والمستعان.

فصل من سمي من عبد من الأصنام طواغيت

أخرج أحمد وابن ماجة عن ميمونة بنت كردم أن أباها سأل النبى ﷺ فقال يارسول الله انى نذرت أن انحر ببوانه فقال: «**أبها وثن أو طاغية قال لا قال: فأوف بنذرك**»(3).

(*) (وهو بحث رفع الالتباس فى الحكم على الناس) يسر الله نشره.

(1) هود: 18

(2) الإيمان لابن أبى شيبة ص 32 95 ـ98 - وصححها الشيخ الألبانى حفظه الله.

(3) سيأتى تخريجه

روى الحميدى فى «مسنده» عن عائشة. . إنما كان من أهل لمناة الطاغية التى بالمشلل لايطوفون بين الصفا والمروة فأنزل الله عزوجل﴿**أن الصفا والمروة من شعائر الله**﴾(١).

وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها . . ولكنها نزلت فى الإنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون بمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها عند المشلل»(٢).

وروى أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبى ﷺ أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طواغيتهم(٣).

روى البخارى عن سعيد بن المسيب قال البحيرة التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء قال وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبته فى النار كان أول من سيب السوائب» والوصيلة الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل بأُنثى ثم تثنى بعد بانثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم أن وصلت إحداهما بالآخرى ليس بينهما ذكر والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي(٤).

وقد بوب البخارى باب لايحلف باللات ولا بالطواغيت، وأورد فيه حديث«**من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله**»(٥).

قال ابن حجر: وأما الطواغيت فوقع فى حديث أخرجه مسلم والنسائى وابن ماجة عن عبدالله بن سمرة مرفوعاً «**لاتحلفوا بالطواغيت ولابآباءكم**» (٦) وفى رواية مسلم وابن ماجة **بالطواغى** وهو جمع طاغية والمراد الصنم ومنه الحديث الآخر «**طاغية دوس**»(٧) أى صنمهم سمى باسم المصدر لطغيان الكفار بعبادته لكونه السبب فى طغيانهم وكل من جاوز الحد فى تعظيم أو غيره فقد طغى ومنه قوله تعالى ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**﴾(٨).

(١) الحميدى فى . . مسنده»(٢١٩) وانظر «فتح القدير- بتخريجنا»

(٢) [صحيح] البخارى (١٦٤٣) وانظر تخريجه فى «فتح القدير» - بتخريجنا

(٣) أخرجه أبو داود (٤٥٠) وضعفه الألباني.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٨ / ٤٦٢٣)

(٥) أخرجه البخارى (٦٦٥٠)

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم (٦/ ١٢٠ـ إيمان)، والنسائى (٧/ ٧ـ الصغرى) وابن ماجه (٢٠٩٥)

(٧) سيأتى تخريجه

(٨) الحاقة : ١١

ثم قال ابن حجر: واقتصر المصنف على لفظ الطواغيت لكونه الاصل وعطفه على اللات والعزى لاشتراك الكل فى المعني(١).

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال«**لاتقوم الساعة حتى تضطرب آليات نساء دوس على ذى الخَلَصة**» (٢).

قال البخاري: طاغية دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية.

قلت: وإطلاق الطواغيت على كل ما يعبد من أصنام وغيرها لاشك يدخل فيه من عبدوهم من الاولياء والأنبياء لأنهم صرحوا بعبادتهم لهم كما صرح القرآن بذلك بل صرحت السيرة بأنهم صنعوا لبعض الانبياء صنمًا مثل إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام وكذبهم الرسول ﷺ فى فتح مكة فى هذا وهؤلاء دخلوا فى عموم الطواغيت باعتبار عابديهم وتابعيهم ومطيعيهم لأنهم تجاوزوا بهم الحد حيث أنزلوهم منزلة فوق منزلتهم التى جعلها الله لهم فتكون عبادتهم لهذا المعبود واتباعهم لمتبوعيهم طغياناً لمجاوزته الحد بذلك(*). وعلى هذا فلا يلزم من الكفر بعبادة من عبد من الانبياء تكفيرهم وكذلك الأولياء والله أعلم.

فصل

فى صور عبادة الطاغوت من القرآن

(١) التحاكم إليه.

لقوله الله تعالي﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا**﴾(٣) هذا إنكار من الله عزوجل على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية أنها فى رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما فجعل اليهودى يقول بينى وبينك محمد ـ ﷺ وذاك يقول بينى وبينك كعب بن الأشرف، وقيل فى جماعة من المنافقين ممن أظهرو الإسلام أرادوا

(١) «الفتح» (١١/ ٥٤٥)

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٧١١٦) وانظر «فتح المجيد» (ح٤٦٣) بتخريجنا.

(*) أنظر القول المفيد للشيخ ابن عثيمين (١/ ٣٠).

(٣) النساء : ٦٠

أن يتحاكموا إلى أحكام الجاهية والآية أعم من ذلك فإنها ذامة كل من عدل عن كتاب اللهوسنة رسوله. وتحاكموا إلى سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هذا ولذلك قال الله تعالى ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾(1) الآية.

وسيأتي في الباب الثامن والثلاثين منهذا الكتاب تفصيل ذلك في باب قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

(٢) القتال فى سبيله.

لقوله تعالي: ﴿**والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت**﴾أى أن الكافرون يقاتلون فى طاعة الشيطان.

وفى «صفوة التفاسير» قال أما الكافرون فيقاتلون فى سبيل الشيطان الداعى إلى الكفر والطغيان، فلذلك سئل ﷺ «الرجل يقاتل حميّة والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل رياء» أى ذلك فى سبيل الله؟ **قال: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى فهو فى سبيل الله**»(2).

(٣) العبادة من دون الله.

ومن أصرح الصور أنه عُبد لقوله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا**﴾ وأيضاً ﴿**وجعل منهم القردة والخنازير وعبدا لطاغوت**﴾ وأيضاً ﴿**أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ ففى تفسير آية الزمرنزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذر وسلمان الفارسي(3) والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم فمن اجتنب عبادة الطاغوت والأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الأخرة.

ولقد وسم الله تعالى عبدة الطاغوت بأخس وأحط وسم فهم احط من القردة والخنازير فالله - عزوجل - مسخ أقواماً قردة ومسخ أقواماً خنازير ومسخ أقواماً. **(عبدة الطاغوت)** مسخ ثالث.

وأيضاً هذا المسخ يصدق على تارك الصلاة لأنه أحط من الحمر والبهائم والنصوص دلت على ذلك(*).

---

(١) النور: ٥٠

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٢٣)، ومسلم (١٣/ ٤٩ - النووي)

وانظر رياض الصالحين» (٩ - بتخريجنا)

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٦٠٧)ونسبه لابن جرير، وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم

وانظر تمام تخريجه فى تفسير ابن أبى حاتم. بتخريجنا.

(*) وانظر كتابى «فقه الخطابة وزاد الخطيب» (خطبة المسخ الثالث وتارك الصلاة).

(٤) **الموالاة والحب والنصرة والقرب.**

أيضاً من صور عبادته أنه يحب ويتولى من دون الله ويخرج أولياءه من النور إلى الظلمات﴿**الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾أى أن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ماهم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك.

- **من فوائد الآية:**

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن(١).

فى قوله تعالى ﴿**ولقد بعثنا**﴾ الآية. فوائد لمن تدبرها:

الأولى :أنه تعالى بعث فى كل أمة رسولاً، ولاخصص أمة دون أمة، لإظهار عدله، وإتمام حجته على الناس كلهم.

الثانية: أنه ماتركهم هملاً، بل أرسل إليهم رسلاً يرشدونهم إلى التى هى أقوم وأصلح من أمر دينهم الذى به سعادة الأبدية.

الثالثة:أنه تعالى ماخلقهم عبثاً، بل لعبادته خلقهم قال تعالى ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾(٢) نزه الله نفسه عن خلقهم عبثاً وتركهم هملاً لايبعث الرسل إليهم ولاينزل معهم الكتب ولايبين لهم مراده.

الرابعة: اختلاف الناس فى الألوهية أى فى أفعالهم، ليس اختلافهم فى الربوبية، أى أفعال الله؛ لأنه لو كان الاختلاف فى الربوبية لذكره الله تعالى كما ذكر اختلافهم فى الألوهية كقوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾(٣) وقوله تعالى ﴿**الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ**﴾(٤) وقوله تعالى ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾(٥) فبين الله تعالى

---

(١) فتح الله الحميد المجيد ٦٢ ـ ٦٤.
(٢) المؤمنون : ١١٥, ١١٦.
(٣) النحل: ٣٦.
(٤) هود: ١: ٢.
(٥) الكهف: ١١٠.

أن الذى أوجب إرسال الرسل شرك الألوهية، وهوشرك فى العبادة، ليس شركاً فى الربوبية، بل إن الكفار مقرون بالربوبية، كما حكى الله تعالى عنهم قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾(٢) وقوله تعالي: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾(٣)وقوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(٤) وقوله تعالي: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾(٥).

الخامسة: أن اجتناب الطواغيت فرض وحق على العباد، وكما أن عبادة الله فرض وحق عل العباد، ولايتم التوحيد إلا باجتناب الطواغيت، كما قال الله تعالى عن إمام الحنفاء﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾(٦)وقال تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(٧) هذا بل الكفر بالطواغيت مقدم على الإيمان بالله تعالى عقلاً ونقلاً، أما النقل؛ فقد قال تعالى ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا﴾(٨) وأما العقل؛ فمعلوم بالضرورة أن الصبغ لايؤثر فى المتدنس والمتوسخ من كل نوع حتى ينظف، أما ترى الصفارين والصباغين أكثر جهدهم فى زوال الأعراض المانعة من الصبغ؟ وهى الأدناس والأوساخ، فكذلك

(١) الزخرف: ٩.
(٢) يونس: ٣١.
(٣) المؤمنون: ٨٦، ٨٧
(٤) المؤمنون : ٨٤، ٨٥
(٥)المؤمنون: ٨٨، ٨٩
(٦) الزخرف : ٢٦، ٢٧.
(٧) الممتحنة: ٤
(٨) البقرة: ٢٥٦

الدين والإيمـان ينبغـى أن يزيل عن الـقلوب الأوساخ الـتى وقعت عـليها، مـن عبادة الطواغيـت، وحبها أولاً، ثم يصبغ بـصبغة الله تعالى وهو التـوحيد والإخلاص، قال تعالى : ﴿صِبْغَـةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَـنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾(١).

قال البيضاوى فـى «تفسيره» : سماه صبغة لأنـه ظهر أثره عليهم ظهور الـصبغ على المصبوغ، وتداخل فى قـلوبهم الإيمان تداخل الصبغ الثوب انتهـي. وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

والسادسة: أن دعوتهم فى أصل الدين واحدة، ولاتغاير بين دعوتهم، ولاتخالف بين كلمتهم إلا فى الفروع، وهى الشرائع، قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(٢). وقال ﷺ : «**نحن الأنبياء أولاد علات أبونا واحد وأمهاتنا متفرقة**»(٣).

قال ابن عثيمين(٤) مبينًا فوائد آخر : -

● والحكمة من إرسال الرسل:

أـ إقامة الحُجَّة : قال تعالى ﴿**رسلاً مبشِّرين ومنذرين لئلاَّ يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرُّسل**﴾

ب ـ الرحمة: لقوله تعالي: ﴿**وما أرسلناك إلاَ رحمة للعالمين**﴾

ج ـ بيان الطريق الموصل إلى الله تعالي؛ لأنَّ الإنسان لايعرف ما يجب لله على وجه التفصيل إلاّ عن طريق الرُّسل.

---

(١) البقرة: ١٣٨.

(٢) المائدة: ٤٨.

(٣) تقدم تخريجه فى أول الكتاب.

(٤) القول المفيد ١/ ٢٩.

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(١).

● **مناسبة الآية للتوحيد** (٢).

حيث دلت الآية الكريمة على وجوب إفراد الله بالعبادة

● **وقوله «وقضى ربك»**

إعرابها(٣).

(وقضى ربك) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان منزلة الوالدين ووجوب معاملتهما من قبل الأبناء معاملة لائقة وقضى ربك فعل وفاعل ومعنى قضى أمر أمراً قاطعاً وقيل أوصى.

● **ما جاء في تفسير الآية من الآثار:**

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ قال: التزقت الواو بالصاد، وأنتم تقرؤونها ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ (٤).

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم ﷺ «ووصى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه» فالتصقت إحدى الواوين بالصاد، فقرأ الناس ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ **ولو نزلت على القضاءما أشرك به أحد**(٥).

عن الأعمش قال: كان عبدالله بن مسعود رضى الله عنه يقرأ «ووصى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه» (٦).

عن حبيب بن أبى ثابت قال: أعطانى ابن عباس رضى الله عنه مصحفا فقال: هذا على قراءة أبى بن كعب رضى الله عنه، فرأيت فيه: «**ووصى ربك**»(٧).

---

(١) الإسراء : الآية ٢٣ (٢) القرعاوى ٢٤

(٣) إعراب القرآن (٥/ ٤١١)

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٢٥٧) ونسبه للفريابى، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، و ابن الأنبارى فى «المصاحف»

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨) ونسبه لأبى عبيد، وابن منيع، وابن المنذر، وابن مردويه.

(٦) [منقطع] أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨٦٧٩) وضعفه الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ١٥٥) وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا (ط نزار الباز).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٥/ ٤٧) (ح٢٩).

وانظر «فتح المجيد» (ح٢٨) بتخريجنا (ط نزار الباز).

عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود رضى الله عنه «ووصى ربك أن لاتعبدوا إلاإياه»[1]..

عن الضحاك بن مزاحم أنه قرأها «ووصى ربك» قال: انهم ألصقوا إحدى الواوين بالصاد فصارت قافاً[2].

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ قال أمر[3].

عن مجاهد فى قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ قال: عهد ربك أن لاتعبدوا إلا إياه)[4].

- **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبري[5]: وقد اختلفت ألفاظ أهلُ التأويل فى تأويل قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وإن كان معنى جميعهم فى ذلك واحد.

قال ابن الجوزى [6]:

ونقل عن الضحاك أنه قال: إنما هى «ووصى ربك» فالتصقت إحدى الواوين بـ «الصاد» وكذلك قرأ أُبيٌّ بن كعب[7]، وأبو المتوكل، وسعيد بن جبير: «ووصى» وهذا على خلاف ما انعقد عليه الإجماع، فلا يلتفت إليه.

قال الرازى [8] معلقاً على قراءة «ووصى ربك».

وأعلم أن هذا القول بعيداً جداً لأنه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق إلى القرآن، ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولاشك أنه طعن عظيم فى الدين.

قلت: ولكن من جمع بين القراءتين أولى كما قال الطبرى وغيره من المعاصرين كالسعدي[9] **«وقضى ربك»** قضاء دينياً وأمراً شرعياً.

---

(١) تقدم فى الحديث قبل السابق.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/٢٥٨) ونسبه لأبى عبيد، واين جرير، وابن المنذر.

(٣) [منقطع] أخرجه ابن جرير (١٥/٤٦)

وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٠) بتخريجنا

(٤) ذكره السيوطى في «الدر» (٥/٢٥٨) ونسبه لابن المنذر.

(٥) «تفسير الطبري» (١٥/٤٦)

(٦) «زاد المسير» (٥/١٧)

(٧) تقدم قريباً

(٨) التفسير الكبير» (١٠/ ٢٠/ ١٨٦)

(٩) تيسير الكريم الرحمن (٣/٧٣)

● **معنى القضاء.**

قال الشنقيطي[1] : وقوله تـعالى فى هذه الآية الـكريمة ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ معناه أمر وألزم، وأوجب ووصى ألاتعبدوا إلا إياه.

وقال صاحب «ظلال الـتفسير» [2] أمر فى صـورة قضاء . فهو أمـر حتمى حتـمية القضاء.

قال ابن الجوزى[3].

قال ابن الأنبارى : هذا القضاء ليس من باب الحتم والوجوب، لكنه من باب الأمر والفرض، وأصل القضاء فى اللغة: قطع الشىء بإحكام وإتقان، قال الشاعر يرثى عمر:

قَضَيْتَ أُمُوراً ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا ... بَوائِقَ فِى أَكْمَامِهَا لَمْ تُفَتَّقِ

قال الرازي[4]:

القضاء معناه الحكم الجزم البت الذى لايقبـل النسخ. والدليل عليه أن الواحد منا إذا أمر غيره بشـىء فإنه لايقال إنه قضى علـيه، أما إذا أمره أمرا جزما وحكم عـليه بذلك الحكم على سبيل البـت والقطع، فههنا يقال: قضى عليه ولفـظ القضاء فى أصل اللغة يرجع إلى إتمام الشىء وانقطاعه أ. هـ.

● **ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:**

أقسام القضاء وأنواعه

قال ابن عثيمين [5]:

قوله ﴿وَقَضَى﴾ قضاء الله ـ عزوجل ـ ينقسم إلى قسمين:

١ـ قضاء شرعي.

٢ـ قضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه من المقضى عليه وعدمه، ولايكون إلاَّ فيما يحبه الله.

مثال ذلـك: هذه الآية ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ؛ فتكون قضـى بمعنى : شرع، أوبمعنى : وصَّى، وما أشبههما.

---

(١) أضواء البيان» (٣/ ٣٦٥)
(٢) (٤/ ٢٢٢١)
(٣) زاد المسير ٥/ ١٧
(٤) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١٨٦
(٥) القول المفيد ١/ ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦.

والقضاء الكوني: لابدَّ من وقوعه، ويكون فيما أحبَّه الله، وفيما لايحبه.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(1).

فالقضاء هنا كوني؛ لأن الله لايشرع الفساد في الأرض، ولايُحبُّه.

إشكال وجوابه

قال ابن عثيمين (2) إذا قيل: ثبت أن الله قضى كوناً ما لايحبه؛ فكيف يقضى الله مالا يحبه؟

والجواب: أن المحبوب قسمان:

1ـ محبوب لذاته.

2ـ محبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروهاً لذاته، ولكن يُحبُّ لما فيه من الحكمة والمصلحة؛ فيكون حينئذٍ محبوباً من وجه، مكروهاً من وجه آخر.

مثال ذلك: الفساد فى الأرض من بنى إسرائيل فى حدّ ذاته مكروه إلى الله؛ لأنَّ الله لايُحب الفساد، ولا المُفسدين، ولكن للحكمة التى يتضمنها يكون بها محبوباً إلى الله ـ عزّوجلّ ـ من وجه آخر.

ومن ذلك: القحط، والجدب، والمرض، والفقر؛ لأنَّ الله رحيم لايُحب أن يؤذى عباده بشيء من ذلك، بل يريد بعباده اليُسر، لكن يُقدره للحِكم المُترتِّبة عليه؛ فيكون محبوباً إلى الله من وجه، مكروهاً من وجه آخر.

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(3).

فإن قيل: كيف يتصور أن يكون الشيء محبوباً من وجه مكروهاً من وجه آخر؟

فيقال: هذا الإنسان المريض يعطى جُرعة من الدواء مُرَّة كريهة الرائحة واللون،

(1) الإسراء ٤

(2) القول المفيد ١/ ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦.

(3) الروم: ٤١

فيشربها، وهو يكرهـها لما فيها من المرارة واللون والرائحة، ويحبهـا لما فيها من الشِّفاء، وكذا الطبيب يكوى المريض بالحديدة المُحمَّاة عـلى النار، ويتألم منها؛ فهذا الألم مكروه له من وجه، محبوب له من وجه آخر.

فإن قيل: لمـاذا لم يكن قوله: [وقضـى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه] من بـاب القضاء القدرى أجيب بأنه لايمكن، إذ لو كان قضاء قدرياً لـعَبَد الناسُ كلهم ربهم، لكنه قضاء شرعى قد يقـع وقد لايقع. والخطاب فـى الآية للنبى ﷺ. لـكن قال ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾، ولم يقل: «أن لاتعبد»، ونظير ذلـك فى القرآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾(١) فالخطاب الأول للرسول ﷺ والثانى عام؛ فما الفائدة من تغيير الأسلوب ؟.

أُجيب: إن الفائدة من ذلك.

١ـ التـنبيه؛ إذ تـنبيه المخـاطب أمر مطـلوب للمـتكلِّم، وهـذا حاصل هنـا بتغيـير الأسلوب.

٢ـ أنَّ النبى ﷺ زعيم أمته، والخطاب الموجَّه إليه موجه لجميع الأمَّة.

٣ـ الإِشارة إلى أن ما خُوطـب به الرسول ﷺ فهو له ولأمته؛ إلا مادلَّ الـدليل على أنه مختص به.

٤ـ وفى هذه الآيـة خاصة الإِشارة إلى أن النـبيﷺ مربوب لاربٌ، عابد لا مـعبود؛ فهو داخل فـى قوله ﴿تعبدوا﴾،وكفى بـه شرفاً أن يكـون عبداً لله ـ عزوجـل ـ، ولهذا يصفه الله تعالى بالـعبودية فى أعلى مقاماته؛ فقال فى مقـام التحدى والدفاع عنه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾(٢)، وقال فـى مقام إثـبات نبوتـه ورسالتـه إلى الخلق﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾(٣).

وقال فى مقام الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾(٤)﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾(٥).

---

(١) الطلاق: ١.
(٢) البقرة: ٢٣
(٣) الفرقان: ١.
(٤) الإسراء: ١
(٥) النجم: ١٠

● **فائدة هامة:**

قال الشنقيطى[1]: والواقع أنَّ الخطاب الموجه للنبىِّ ﷺ على ثلاثة أقسام.

الأول: قد يتوجه الخطاب إليه ﷺ ولايكون داخلاً فيه قطعاً، وإنما يراد به الأمة بلا خلاف من ذلك قوله تعالى فى بر الوالدين: ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾[2]

فكل صيغ الخطاب هنا موجهة للنبّى ﷺ وهو قطعاً ليس مراد بذلك لعدم وجود والدين. ولا أحدهما عند نزولها كما هو معلوم.

قلت: لكن الأمة مخاطبة فى شخص رسولها.

الثاني: أن يكون خاصاً به لايدخل معه غيره قطعاً. نحو قوله تعالى: ﴿**وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[3].

والثالث: هوالشامل له ﷺ ولغيره بدليل هذه الآية يقصد بها ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**﴾ الآية: وأول السورة التى بعدها فى قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ**﴾[4]

فهذا كله خطاب موجه له ﷺ.

وجاء بعدها مباشرة ﴿**قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ بخطاب الجميع ﴿**تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ**﴾[5] فدلت أنَّ الآية داخلة فى قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ**﴾ وهذا بإتفاق أ. هـ.

قلت وهذه الآية من هذا القسم الثالث: فتنبه.

قوله ﴿**أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾

الإعراب:

قال ابن عثيمين[6] **قوله «أن لاتعبدوا»**

(١) أضواء البيان ٨/ ٢٢٠.
(٢) الإسراء: ٢٣, ٢٤.
(٣) الأحزاب: ٥٠
(٤) التحريم: ١
(٥) التحريم: ٢
(٦) القول المفيد ١/ ٣٣.

(أن) هنا مصدرية بدليل حذف النون من تعبدوا، والاستثناء هنا مُفرَّغ، لأن الفعل لم يأخذ مفعوله، فمفعوله مابعد إلا قوله ﴿إلاَّ إيَّاهُ﴾ ضمير نصب منفصل واجب الانفصال، لأنّ المتصل لايقع بعد إلا، قال ابن مالك.

وذواتصال منه مالا يبتدأ ولا يلى إلا اختياراً أبداً

قال محيى الدين درويش[1] و«أن» يحتمل أن تكون مصدرية فلا نافية وتعبدوامنصوب بها والمصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بقضى وقيل مفسرة لأن قضى فيه معنى القول دون حروفه أو مخففة من الثقيلة فلا على الحالين ناهية وتعبدوا مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وإلا أداة حصر وإياه مفعول أ. هـ

● **من أقوال المفسرين:**

قال الطبري[2] يعنى بذلك تعالى ذكره حكم ربك يامحمد بأمره إياكم ألاتعبدوا إلا الله فإنه لاينبغى أن يعبد غيره. أهـ.

قال الرازى [3] اعلم أنَّه لما ذكر فى الآية الأولى وهى - ﴿لاتجعل مع الله إلهاً آخر﴾ - ماهو الركن الأعظم فى الإيمان اتبعه بذكر ماهو من شعائر الإيمان وشرائطه وهى أنواع

قلت: وذكر نحو ذلك السعدى وسيأتي

ثم قال: [3] أى الرازى.

قد ذكرنا أن هذه الآية تدل على وجوب عبادة الله تعالى وتدل على المنع عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو الحق، وذلك لأن العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لاتليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الانعام، ونهاية الانعام عبارة عن إعطاء الوجود والحياة، والقدرة والشهوة والعقل، وقد ثبت بالدلائل أن المعطى لهذه الأشياء هو الله تعالى لاغيره، وإذا كان المنعم بجميع النعم هو الله لاغيره، لاجرم كان المستحق للعبادة هو الله تعالى لاغيره، فثبت بالدليل العقلى صحة قوله﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ﴾.

---

(١) تفسير الطبرى ٨/ ١٥/ ٤٦.

(٢) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١٨٥، ١٨٦.

(٣) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١٨٦.

قال السعدى[1]: لما نهى تعالى عن الشرك به أمر بالتوحيد، فقال: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ**﴾ قضاء دينياً، وأمراً شرعياً.

﴿**أَلاَّ تَعْبُدُوا**﴾أحداً من أهل الأرض والسموات والأحياء والأموات.

﴿**إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى له كل صفة كمال، وله من كل صفة أعظمها، على وجه لايشبهه أحد من خلقه، وهوالمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور.

فهو المنفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شىء. أهـ.

وذكره بنحوه صاحب «الظلال» فقال[2]:

﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾

فهو أمر بتوحيد المعبود بعد النهى عن الشرك أمر فى صورة قضاء . فهو أمر حتمى حتمية القضاء. ولفظة «قضى» تخلع على الأمر معنى التوكيد، إلى جانب القصر الذى يفيده النفى والاستثناء﴿**أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾ فتبدو فى جو التعبير كله ظلال التوكيد والتشديد.

فإذا وضعت القاعدة، وأقيم الأساس، وجاءت التكاليف الفردية والاجتماعية، ولها فى النفس ركيزة من العقيدة فى الله الواحد، توحد البواعث والأهداف من التكاليف والأعمال. أ هـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

أقسام العبودية[3].

قال ابن عثيمين: تنقسم العبودية إلى ثلاثة أقسام:

١ـ **عامة**، وهى عبودية الربوبية، وهى لكل الخلق، قال تعالى: ﴿**إنَّ كلُّ من فى السماوات والأرض إلاَّ آتى الرَّحمن عبدا**﴾، ويدخل فى ذلك الكفار.

٢ـ **عبودية خاصة**، وهى عبودية الطاعة العامة، قال تعالى ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً**﴾، وهذه تعمُّ كل من تعبَّد لله بشرعة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٧٣ .   (٢) ٤/ ٢٢٢١

(٣) القول المفيد ١/ ٣٦،٣٧

قال الفقير: وبهذا يتأيد قول من قال أنَّ هناك مايسمى بتوحيد الطاعة والإنقياد(١) وسيأتى مزيد من الشرح فى باب طاعة العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله.. وفى باب قوله تعالى ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا**﴾الآية.

٣ـ خاصّة الخاصّة، وهى عبودية الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى عن نوح: ﴿**إنَّه كان عبداً شكوراً**﴾، وقال عن محمد ﴿**وإن كنتم فى ريب مَّا نزَّلنا على عبدنا**﴾، وقال فى آخرين من الرُّسل: ﴿**وأذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار**﴾.

فهذه العبودية المضافة إلى الرسل خاصة الخاصة؛ لأنه لايبارى أحد هؤلاء الرسل فى العبودية.

قوله: «وبالوالدين إحساناً»

الإعراب(٢).

وبالوالدين جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره وأحسنوا، وإحساناً مفعول مطلق ناصبه الفعل المحذوف، وإنما علقناهما بالفعل المحذوف لأن المصدر لاتتقدم عليه صلته. اهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية السنة**

قال سليمان آل الشيخ (٣). ولم يخص تعالى نوعاً من أنواع الإحسان ليعم أنواع الإحسان. وقد تواترت النصوص عن النبى ﷺ بالأمر ببر الوالدين والحث على ذلك، وتحريم عقوقهما كما فى القرآن، ففى صحيح البخاري:

عن ابن مسعود قال: سألتُ النبىﷺ أىُّ العملِ أحَبُّ إلى اللهِ عزوجل؟ قال «**الصلاة على وَقْتِها**» قلتُ: ثُمَّ أىُّ؟ قال: «**ثُمَّ برُ الوَالدَيْنِ**» قلت: ثُمَّ أيُّ؟ قال «**الجهادُ فى سبيلِ الله**» حدثنى بِهِنَّ ولو استَزَدْتُهُ لَزَادَنى(٤).

---

(١) انظر كتاب أصول الإيمان للدكتور صلاح الصاوى.

(٢) إعراب القرآن: ٥/ ٤١١.

(٣) تيسير العزيز الحميد٣٥، ٣٦.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٧)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٧٣ ـ النووى) وانظر «رياض الصالحين» (٣١٤ ـ بتخريجنا).

وعن أبى بكرة قال:

قال رسول الله ﷺ : «**ألاَ أُنبئُكُم بأكْبرِ الكبَائِرِ؟**» قلنا: بلى يارسول الله. قال: «**الإشْرَاكُ بِالله،وعُقُوقُ الوَالدينِ**» .وكان مُتكئاً فجلس فقال: «**ألا وَقولُ الزورِ، وشهادةُ الزُورِ ألا وقولُ الزورِ، وشهادةُ الزورِ**»فما زالَ يُكَرِرُها حتى قلنا: ليته سكت(١).

رواه البخارى ومسلم.

وعن أبى هريرة قال: قال رَجُلٌ يارَسُولَ الله! مَن أَحقُّ الناسِ بِحُسنِ صَحَابَتِى؟ قال: «**أُمكَ**» قال : ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «**أُمُكَ**» قَالَ : ثُم مَنْ؟ قَالَ: «**أُمُكَ**»قالَ : ثُمَّ مَنْ قَالَ: «**ثُمَّ أبُوكَ**»(٢) أخرجاه.

وعن عبدالله بن عمرو، قال:

قَالَ رَسُولُ اللهَ ﷺ: «**رِضَى الرَّبُ فى رضَى الوَالِديْنِ، وَسَخَطُهُ فى سَخَطِ الوَالِديْنِ**»(٣) رواه الترمذي، وصححه ابن حبان والحاكم.

وعن أبى أسيد الساعدى قال:

بينا نحن جلوس عندالنبى ﷺ إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال يا رَسُولَ الله هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيءٌ أَبرُّهُما بِهِ بَعد مَوتهما؟ فقال :«**نعم. الصلاةُ عليهمَا وَالاستِغْفَارُ لَهُمَا وإنْفَاذُ عَهْدِهِما مِنْ بَعْدِهِما وَصِلَةُ الرَّحِمِ التى لاتُوصَلُ إلا بِهما وإكرامُ صديقِهما**»(٤).

والأحاديث فى هذا كثيرة قد افردها العلماء بالتصنيف وذكر البخارى منها شطراً صالحاً فى كتاب «الأدب المفرد».

وأخرج بن أبى حاتم عن الحسن فى قوله تعالى ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ يقول براً(٥).

(١) البخارى (٢٦٥٤) ومسلم فى الإيمان (٢/ ٨١ ـ النووى) وانظر «رياض الصالحين» (٣٣٨ ـ بتخريجنا).

(٢) [متفق عليه] البخارى (٥٩٧١)مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٠٢ ـ النووى) وانظر «رياض الصالحين» (٣١٨ ـ بتخريجنا).

(٣) الترمذى (١٨٩٩) وابن حبان (١/ ٣٢٨) والحاكم (٤/ ١٥١)

ورجح الترمذى الموقوف.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٩٨) أبو داود (٥١٤٢) ابن ماجه (٤٦٦٤) البخارى فى «الأدب المفرد» (٣٥)

وانظر «رياض الصالحين» (٣٤٤ ـ بتخريجنا).

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٣٢٣٠)بتخريجنا)

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

● حكمة اقتران بر الوالدين بعبادة الله - عزوجل - فى الآية الكريمة

قال الرازي[1] : اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه ، ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه:

الوجه الأول: أن السبب الحقيقى لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده، والسبب الظاهرى هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقى، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري.

الوجه الثاني: أن الموجود إما قديم وإما محدث، ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإله القديم بالتعظيم والعبودية، ومع المحدث بإظهار الشفقة وهو المراد من قوله عليه السلام «**التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله**» وأحق الخلق بصرف الشفقة إليه هما الأبوان لكثرة إنعامهما على الإنسان فقوله ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر اللهوقوله ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله.

الوجه الثالث: أن الاشتغال بشكر المنعم واجب، ثم المنعم الحقيقى هو الخالق سبحانه وتعالي. وقد يكون أحد من المخلوقين منعما عليك، وشكره أيضاً واجب لقوله عليه السلام «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[2] وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما للوالدين وتقريره من وجوه

أحدها: أن الولد قطعة من الوالدين قال عليه السلام «**فاطمة بضعة مني**»[3]

وثانيها: أن شفقة الأبوين على الولد عظيمة وجدهما فى إيصال الخير إلى الولد كالأمر الطبيعى واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعي، ومتى كانت الدواعى إلى إيصال الخيرمتوفرة، والصوارف عنه زائلة لاجرم كثير إيصال الخير، فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلى إنسان.

وثالثها: أن الإنسان حال ما يكون فى غاية الضعف ونهاية العجز، يكون فى إنعام الأبوين فأصناف نعمهما فى ذلك الوقت واصلة إليه، وأصناف رحمة ذلك الولد واصلة

---

(١) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١٨٧، ١٨٨.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٣٢)، والترمذى (١٩٥٥) عن أبى سعيد رضى الله عنه - بإسناد ضعيف فيه عطية العوفى.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٣٠)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ٢٣٩/ ٩٤).

إلى الوالدين فى ذلك الوقت، ومن المعلـوم أن الإنعام إذا كان واقعا على هذا الوجه كان موقعه عظيما.

ورابعها: إن إيصال الخير إلى الغير قد يكون لداعية إيصال الخير إليه وقد يمتزج بهذا الغرض سائر الأغراض، وإيصال الخير إلى الولد لـيس لهذا الغرض فقط، فكان الإنعام فيه أتم وأكمل، فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد، فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الإله الخالق نعمة الوالدين.

فإن قيل: الوالدن إنما طلـبا تحصيل اللذة لنفسيهما فلزم مـنه دخول الولد فى الوجود وحصول فى عالم الآفات والمخافات، فأى انعام للأبوين على الولد؟ حكى أن واحد من المتسمـين بالحكمة كان يضـرب أباه ويقول: هوالذى أدخـلنى فى عالم الكـون والفساد وعرضنى للموت والفـقر والعمى والزمانة، وقيل لأبى العلاء المعـري: ماذا نكتب على قبرك؟ قال اكتبوا عليه؛

هذا ماجناه ابى على وما جنيت على أحد

وقال فى ترك التزوج والولد:

وتركت أولادي وهم فى نعمة العدم التى سبقت نعيـم العاجـل
ولو أنهم ولدوا لعانوا شـــدة ترمـى بهم فى مـوبقات الآجـل

وقيل للأسكندر: أستاذك أعظم منة عـليك أم والدك؟ فقال: الاستاذ أعظم منة، لأنه تحمل أنواع الـشدائد والمحن عند تعـليمى أرتعنى فى نـور العلم، وأما الوالد فـإنه طلب تحصيـل لذة الوقاع لنفـسه، وأخرجنى إلـى آفات عالم الكـون والفساد. ومن الكـلمات المشهورة المأثورة: خير الآباء من علمك.

والجواب: هب أنهما فى أول الأمر طلبا لذة الوقاع إلاأن الاهتمام بايصال الخيرات، وفى دفع الآفات من أول دخوله فى الوجود إلى وقت بـلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات، فسقطت هذه الشبهات والله أعلم.

قال الشنقيطي[1]: وجعله بر الوالـدين مقروناً بعبادته وحده جـل وعلا المذكور هنا ذكره فى آيات أخـر؛ كقوله تعالى فى سـورة النساء﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[2].

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٦٤، ٣٦٥.
(٢) النساء: ٣٦.

وقوله في البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[1] الآية، قوله في سورة لقمان: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[2]، وبين في موضوع آخر أن برهما لازم ولو كانا مشركين داعيين إلى شركهما، كقوله في «لقمان»: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[3]، وقوله في «العنكبوت»: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾[4] الآية.

وذكره جل وعلا في هذه الايات: بر الوالدين مقرونًا بتوحيده جل وعلا في عبادته، يدل على شدة تأكيد وجوب بر الوالدين، وجاءت عن النبي ﷺ في ذلك أحاديث كثيرة[*].

وقوله جل وعلا في الآيات المذكورة: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بينه بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[5] لأن هذا من الإحسان إليهما المذكور في الآيات.

قال صاحب «الظلال»[6]:

والرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة، هي رابطة الأسرة، ومن ثم يربط السياق بر الوالدين بعبادة الله، إعلانًا لقيمة هذا البر عند الله:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

بهذه العبارات الندية، والصورة الموحية، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء ذلك أن الحياة، وهي مندفعة في طريقها بالأحياء، توجه اهتمامهم

(١) الآية: ٨٣.
(٢) الآية: ١٤.
(٣) الآية: ١٥.
(٤) الآية: ٨.
(*) تقدم بعضها وسيأتي بعض منها أيضاً.
(٥) الاسراء ٢٣، ٢٤.
(٦) ص/ ٢٢٢١.

القوى إلى الأمام، إلى الذرية، إلى الناشئة الجديدة، إلى الجيل المقبل، وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء، إلى الأبوة، إلى الحياة المولية، إلى الجيل الذاهب! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات.

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر، كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما الأجل- وهما مع ذلك سعيدان!

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام، إلى الزوجات والذرية.. وهكذا تندفع الحياة.

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء. إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذى أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف!

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله.

● ما جاء في الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين (١):

وفي قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بعد قوله: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ دليل على أنَّ حق الوالدين بعد حق الله عز وجل-.

فإن قيل: فأين حقّ الرسول ﷺ؟

أُجيب: بأن حق الله متضمِّن لحق الرسول ﷺ لأنَّ الله لا يُعبد إلاّ بما شَرَع الرسول ﷺ.

أقوال أهل التأويل فى الاية:

قال الرازى(٢):

الآية مشتملة على قيود كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة فى الإحسان إلى الوالدين:

(١) القول المفيد ١٠/ ٣٧).
(٢) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١٨٩.

(**أحدهما**): أنه تعالى قال فى الآية المتقدمة ﴿**وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً**﴾ ثم إنه تعالى أردفه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التى بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة فذكر من جملتها البر بالوالدين، وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التى تفيد سعادة الآخرة.

(**وثانيها**) أنه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثلث بالبر بالوالدين وهذه درجة عاليه ومبالغة عظيمة فى تعظيم هذه الطاعة.

(**وثالثها**): أنه تعالى لم يقل: وإحسانًا بالوالدين، بل قال : ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام.

(**ورابعها**): أنه قال ﴿**إِحْسَانًا**﴾ بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم، والمعنى وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً عظيمًا كاملاً، وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك، ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة، لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء. وفى الأمثال المشهورة أن البادئ بالبر لا يكافأ.

قال ابن عثيمين[1]:

الوالدان : يشمل الأم، والأب، ومن فوقهما، لكنه فى الأم والأب أبلغ، وكلَّما قربا منك كانا أولى بالإحسان، والإحسان بَذْلُ المعروف.

قوله: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾.

الإعراب[2]:

إن شرطية زيدت عليها ما تأكيداً لها ويبلغن فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو فى محل جزم فعل الشرط وعندك ظرف متعلق بمحذوف حال وأحدهما فاعل يبلغن والميم والألف حرفان دالان على التثنية وأو حرف عطف وكلاهما عطف على أحدهما وعلامة رفعه الألف لأنه ملحق بالمثنى ومعنى عندك أى حالة كونهما فى كفالتك يتولى منهما ما كانا يتوليان منه إبان الطفولة وفى ذلك منتهى التوصية باستعمال لين الجانب ودماثة الخلق معهما فى هذه الحال.

(١) القول المفيد ١/ ٣٧.

(٢) إعراب القرآن ٥/ ٤١٢.

● **ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين.**

قال ابن الجوزى(١):

قوله تعالى : ﴿ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ** ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿ **يَبْلُغَنَّ** ﴾ على التوحيد، وقرأ حمزة، والكسائى، وخلف: «يبلغانّ» على التثنية.

قال الفراء: جعلت ﴿**يَبْلُغَنَّ**﴾ فعلاً لأحدهما وكرَّت عليهما ﴿**كِلاهُمَا**﴾، ومن قرأ «يبلغان» فإنه ثنَّى، لأن الوالدين قد ذكرا قبل هذا، فصار الفعل على عددهما، ثم قال: ﴿**أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا**﴾ على الاستئناف، كقوله: ﴿**عَمُوا وَصَمُّوا**﴾(٢) ثم استأنف فقال: ﴿**كَثِيرٌ مِّنْهُمْ** ﴾.

قال الطبرى(٣) : وأولى القراءتين بالصواب عندى فى ذلك قراءة من قرأه إما يبلغن على التوحيد على أنه خبر عن أحدهما لأن الخبر عن الأمر بالإحسان فى الوالدين قد تناهى عند قوله وبالوالدين إحسانًا ثم ابتدأ قوله ﴿ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا**﴾.

قال الرازى(٤): قوله : ﴿ **يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا**﴾ معناه : أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أول العمر.

قال صاحب الظلال(٥): ثم يأخذ السياق فى تظليل الجو كله بأرق الظلال، وفى استجاشة الوجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان ﴿ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا**﴾ .. والكبر له جلاله، وضعف الكبر له إيحاؤه، وكلمة «عندك» تصور معنى الالتجاء، والاحتماء فى حالة الكبر والضعف..

قوله: ﴿فلا تقل لهما أف﴾.

الإعراب(٦):

الفاء رابطة للجواب ولا ناهية وتقل فعل مضارع مجزوم بلا ولهما متعلقان بتقل وأف اسم فعل مضارع بمعنى التضجر، وفاعله مستتر تقديره أنا والجملة مقول القول.

---

(١) زاد المسير ٥/ ١٧.

(٢) المائدة: ٧١.

(٣) تفسير الطبرى ٨/ ١٥/ ٤٧.

(٤) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١٩٠.

(٥) ٤/ ٢٢١.

(٦) إعراب القرآن ٥/ ٤٢٠، ٤٢١.

وذكر المفسرون للفظ : أف: أكثر من قراءة أجملها محيى الدين درويش فقال[1]:

وفيه **أربعون لغة وحاصلها**: أن الهمزة إما أن تكون مضمومة أو مكسورة أو مفتوحة فإن كانت مضمومة فاثنتان وعشرون لغة وحاصل ضبطها أنها إما مجردة عن اللواحق أو ملحقة بزائد والمجردة إما أن يكون آخرها ساكنًا أو متحركًا والمتحركة إما أن تكون مشددة أو مخففة وكل منها مثلث الآخر مع التنوين وعدمه فهذه اثنتا عشرة والساكنة إما مشددة أو مخففة فهذه أربع عشرة واللواحق لها من الزوائد إما هاء السكت أو حرف المد فإن كان هاء السكت فالفاء مثلثة مشددة فهذه سبع عشرة وإن كان حرف مد فهو إما واو أو ياء أو ألف والفاء فيهن مشددة والألف إما مفخمة أو بالإمالة المحضة أو بين بين فهذه خمس أخرى مع السبع عشرة وإن كانت مكسورة فإحدى عشرة مثلثة الفاء مخففة مع التنوين وعدمه فهذه ست، وفتح الفاء وكسرها بالتشديد فيها مع التنوين وعدمه، فهذه أربع لغات والحادية عشرة أفى بالإمالة وإن كانت مفتوحة فالفاء مشددة مع الفتح والكسر والتنوين وعدمه والخامسة أف بالسكون والسادسة أُفى بالإمالة والسابعة أفاه بهاء السكت فهذه السبع مكملة للأربعين وقد قرىء من هذه اللغات بسبع: ثلاث فى المتواتر وأربع فى الشواذ وقراءة حفص وهى قراءتنا أُف بالكسر والتنوين مع التشديد. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة:

أولاً المرفوع: عن الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ مرفوعاً، **«لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من ﴿أف﴾ لَحَرَّمَهُ»** [2].

عن عائشة رضى الله عنها ـ قالت : أتى رجل رسول الله ﷺ ـ ومعه شيخ فقال: **«من هذا معك؟»** قال : أبى. قال : **«لا تمشين أمامه، ولاتقعدن قبله، ولاتدعه باسمه، ولاتستب له»** [3].

ثانياً: من الوقوف: عن عروة فى قوله **﴿وقل لهما قولا كريماً﴾** قال : لا تمنعهما شيئاً أرادا[4].

---

(١) إعراب القرآن ٥/ ٤١٢.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٢٥٨) ونسبه للديلمى عن الحسن بن على.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٢٥٩) ونسبه لسعيد بن منصور، وابن أبى شيبة، وابن المنذر، وابن أبى حاتم .

ثالثاً: من التابعين ومن بعدهم: عن الحسن أنه سئل مابّر الوالدين؟ قال : أن تبذل لهما ما ملكت، وأن تطيعهما فيما أمراك به، إلا أن يكون معصية[1].

عن الحسن أنه قيل له: إلى ما ينتهى العقوق؟ قال: أن يحرمهما ويهجرهما ويحد النظر إلى وجههما[2].

عن الحسن فى قوله : ﴿**وقل لهما قولا كريماً**﴾ قال: يقول : يا أبت، يا أمه، ولايسميهما باسمائهما[3].

عن زهير بن محمد فى قوله ﴿**قل لهما قولا كريما**﴾قال: إذا دعواك فقل لبيكما وسعديكما [4].

عن قتادة فى قوله ﴿**وقل لهما قولا كريما**﴾قال: قولا لينا سهلا [5].

وعن مجاهد ﴿**إما يبلغان عندك الكبر فلا تقل لهما أفٍّ**﴾ حين ترى الأذى وتميط عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيراً ولاتؤذهما[6].

وعن مجاهد فى قوله ﴿**فلا تقل لهما أفٍّ ولاتنهرهما**﴾ قال إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان ويخران فلا تقل لهما أفٍ تقذرهما[7].

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى [8] وقوله ﴿**فلا تقل لهما أفٍّ**﴾

يقول فلا تؤفف من شىء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس ولكن اصبر على ذلك منهما واحتسب الأجر فى صبرك عليه منهما كما صبرا عليك فى صغرك.

قال ابن الجوزى [9] : فأما معنى ﴿**أف**﴾ ففيه خمسة أقوال

(أحدهما) : أنه وسخ الظفر، قاله الخليل.

(الثانى) وسخ الأذن قاله الأصمعى .

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٢٥٩) ونسبه لعبد الرازق.
(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن أبى شيبة.
(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» نسبه لابن أبى حاتم عن الحسن
(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن أبى حاتم.
(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن جرير، وابن أبى حاتم.
(٦) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١٥/ ٤٧)
(٧) المصدر السابق.
(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ٤٧).
(٩) زاد المسير ٥/ ١٨، ١٩.

(الثالث) قلامة الظفر، قاله ثعلب.

(الرابع) أن ﴿أف﴾ الاحتقار والاستصغار، ومن ﴿الأفف﴾، والاقف عند العرب: القله، ذكره ابن الأنبارى.

(الخامس) أن «الأفّ» مارفعته من الأرض من عود أو قصبة، حكاه ابن فارس اللغوى. وقرأت على شيخنا أبى منصور قال: معنى «الأفّ» النتن والتضجر، وأصلها: نفخك الشىء يسقط عليك من تراب ورماد، وللمكان تريد إماطه الأذى عنه، فقيلت لكل مستثقل.

قال المصنف: وما قولهم: «تُف»، فقد جعلها قوم بمعنى ﴿أف﴾ فروى عن أبى عبيد أنه قال: أصل «الآفّ» و«التُفّ» الوسخ على الأصابع إذا فتلته. وحكى ابن الأنبارى فرقاً، فقال: قال اللغويون: أصل (الأفّ) فى اللغة: وسخ الأذن، و(التُّفّ): وسخ الأظفار فاستعملتهما العرب فيما يكره ويستقذر ويضجر منه. وحكى الزجاج فرقاً آخر، فقال: قد قيل: إن «الأف»: وسخ الأظفار، «والتف» الشىء الحقير نحوو سخ الأذن، أو الشظية تؤخذ من الأرض ومعنى (أف) النتن ومعنى الآية: لاتقل لهما كلاماً تتبرّم فيه بهما إذا كبرا وأسنّا فينبغى أن تتولّىّ من خدمتهما مثل الذى توليا من القيام بشأنك وخدمتك.

قال الرازى(١): المنع من التأفيف إنما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلى الذى يكون من باب الاستدلال بالأدنى على الأعلى. والدليل عليه: أن التأفيف غير الضرب، فالمنع من التأفيف لايكون منعا من الضرب، وأيضاً المنع من التأفيف لايستلزم المنع من الضرب عقلا، لأن الملك الكبير إذا أخذ ملكا عظيماً كان عدوا له، فقد يقول للجلاد إياك أن تستخف به أو تشافهه بكلمة موحشة لكن أضرب رقبته، وإذا كان هذا معقولا فى الجملة علمنا أن المنع من التأفييف مغاير للمنع من الضرب وغير مستلزم ايضا للمنع من الضرب عقلاً فى الجملة، إلا أنا علمنا فى هذه الصورة أن المقصود من هذا الكلام المبالغة فى تعظيم الوالدين بدليل قوله ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ فكانت دلالة المنع من التأفيف على المنع من الضرب من باب القياس بالأدنى على الأعلى، والله أعلم.

---

(١) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١٩٢.

قال السعدى (١): ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نبه به على ماسواه. والمعنى، لاتؤذهما أدنى أذية.

قال صاحب «الظلال» (٢): ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ وهى أول مرتبة من مراتب الراعاية والأدب ألا يند من الولد مايدل على الضجر والضيق، ومايشى بالإهانة وسوء الأدب..

ماجاء فى الآية كلام شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين (٣): فى الآية إشارة إلى أنهما إذا بلغا الكبر صار عبئاً على وَلَدهما؛ فلا يتضجّر من الحال، ولاينهرهما فى المقال إذا أساءا فى الفعل أوالقول.

لمحة فى العقوق

قال محيى الدين درويش (٤): ومما جاء فى العقوق مايروى عن جرير فقد كان أعق الناس بأبيه وكان بلال ابنه كذلك فراجع جرير بلالاً فى الكلام فقال له الكاذب بينى وبينك... أمه، فأقبلت أمه عليه وقالت: ياعود الله تقول هذا لأبيك فقال جرير: دعيه فكأنه سمعها منى وأنا أقولها لأبى.

ومن شهر عنه العقوق بوالديه الحطيئة الشاعر المخضرم قال يهجو أباه:

فنعم الشيخ أنت لدى المخازى   وبئس الشيخ أنت لدى الفعال
جمعت اللؤم لاحيّاك ربى   وأبواب السفاهة والضلال

وقال يهجو أمه:

لحاك الله ثم لحاك أماً   ولقاك العقوق من البنينا
أغربالاً إذا استودعت سراً   وكانوناً على المتحدثينا

ومن هجا أباه على بن بسام، قال فى أبيه:

هبك عمّرتَ عُمَر عِشْرين نسراً   أترى أننى أموت وتبقى؟
فلئن عشتُ بعد موتك يوماً   لأشقّنّ جيب مالك شقّا

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٧٣.
(٢) ٤/ ٢٢٢١
(٣) القول المفيد ١/ ٣٧/ ٣٨.
(٤) إعراب القرآن ٥/ ٤٢١، ٤٢٢

فنعوذ بالله من هؤلاء وأقوالهم.

قوله ﴿ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾

الإعراب (١) : عطف على لاتقل لهما أف. . والنهر الزجر.

● ما جاء فى تفسير الآية بالمأثور:

وروى ابن جرير (٢): عن عطاء بن أبى رباح فى قوله: **﴿ولا تقل لهما اف ولاتنهرهما﴾** قال: لاتنغض يدك على والديك يقال منه نهره ينهره نهراً وانتهره ينتهره انتهارا.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.

قال الطبرى: وقوله ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ يقول جلَّ ثناؤه: ولاتزجرهما.

قال ابن الجوزى (٣): ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ اى لاتكلمهما ضجراً صائحاً فى وجوههما.

قال الرازى (٤):

﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ المنع من إظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له.

قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾

الإعراب (٥): وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولهما متعلقان بقل وقولا مفعول مطلق وكريما صفة.

● ما جاء فى تفسير الآية بالمأثور:

وروى ابن جرير

عن ابن جريج ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ قال: أحسن ماتجد من القول(٦) .

عن عمر بن الخطاب: ﴿قولا كريما﴾ قال: لاتمتنع من شىء يريدانه (٧).

عن قتادة: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ أى: قولا لينا سهلا (٨).

---

(١) إعراب القرآن ٥/ ٤١٢

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٥/ ٤٨)

(٣) زاد المسير ٥/ ١٩

(٤) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١٩٢

(٥)إعراب القرآن ٥/ ٤١٢.

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٥/ ٤٨).

(٧) أخرجه ابن جرير فى«تفسيره» (١٥/ ٤٨) وضعفه ابن جرير.

(٨) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

عن ابى الهداج التجيبى قال: قلت لسعيد بن المسيب: كل ما ذكر الله - عزوجل - فى القرآن من بر الوالد فقد عرفته إلا قول ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ ماهذا القول الكريم؟ فقال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ(1).

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين.**

قال الطبرى(2): ﴿قَوْلاً كَرِيمًا﴾ فإنه بقول جل ثناؤه وقل لهم قولا جميلاً حسناً.

قال ابن الجوزى (3): ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ أى: ليناً لطيفاً أحسن ماتجد.

قال الرازى(4): قوله تعالى ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ ﴾وأعلم أنه تعالى لما منع الإنسان بالآية المتقدمة عن ذكر القول المؤذى الموحش، والنهى عن القول المؤذى لايكون أمراً بالقول الطيب، لاجرم أردفه بأن أمره بالقول الحسن والكلام الطيب فقال ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ والمراد منه أن يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم الاحترام.

قلت: وأوضح هذا الكلام فأقول: كما قال الأصوليون الأمر بالشىء نهى عن ضده والنهى عن الشىء أمر بضده وعلى ذلك فالمنع عن القول المؤذى أمرٌ بشيئيين. بالسكوت عن القول المؤذى وبالتلفظ بالقول الطيب فكان قوله تعالى ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾من باب عطف الخاص على العام لتأكيد أنهً الكف عن إيذاءهما ليس هو المراد فقط بل المراد الكف عن الإيذاء والأمر بالقول الكريم وحتى لا يقول قائل أناأبرهما بالكف عن إيذاءهما وهذاما أمرت به.

قال السعدى (5): وقل لهما قولا كريما بلفظ يحبانه وتأدب وتلطف معهما، بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما وتطمئن به نفوسهما وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

قال صاحب الظلال (6): ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾وهى مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما يشى بالإكرام والاحترام .

---

(1) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.
(2) تفسير الطبرى ٨/ ١٥/ ٤٨
(3) زاد المسير ٣/ ١٩
(4) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١٩٢، ١٩٣.
(5) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٧٣، ٧٤
(6) ٤/ ٢٢٢١.

وقوله ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾(١)

قال سليمان آل الشيخ (٢): هكذا اثبت فى نسخة بخط شيخنا ولم يذكر الآية.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى(٣): حيث دلّت الآية الكريمة على وجوب إخلاص العبادة لله وحده والكفربما سواه قلت: وهو ما أراده المصنِّف فعلاً وسيظهر من كلامه إن شاء الله.

قال عبد الرحمن الشيخ(٤): وهذه الآية هى التى تُسمى آية الحقوق العشرة، وفى بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الانعام، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتى لآية الانعام، ليكون ذكره بعدها أنسب.

قال ابن عثيمين (٥):

قوله : ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى: ليِّناً حسناً بهدوء وطمأنينة؛ كقولك :أعظم الله أجرك، أبشرى يا أمى، أبشر يا أبى، وما أشبه ذلك؛ فالقول الكريم يكون فى صيغته، وأدائه، والخطاب به؛ فلا يكون مزعجاً كرفع الصوت مثلاً، بل يتضمّن الدعاء والإيناس لهما.

والشاهد من هذه الآية: قوله تعالى :﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ؛ فهذا هو التوحيد لتضمنه للنفى والإثبات.



قوله ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية .

الإعراب(٦): ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الواو استئنافيه والكلام مستأنف مسوق لبيان حقوق الأبوين والأقارب والجيران وما الى ذلك. واعبدوا فعل أمر والواو فاعله والله مفعوله ولاتشركوا عطف على ماتقدم وبه متعلقان بتشركوا وشيئاً مفعول به اى شيئاً من الأشياء أو مفعو مطلق أى شيئاً من الإشراك.

---

(١) النساء: ٣٦.

(٢) تفسير العزيز الحميد٤٣.

(٣) الجديد :٢٧.

(٤) فتح المجيد (١/ ٢٩) مؤسسة قرطبة.

(٥) القول المفيد ١/ ٣٨.

(٦) إعراب القرآن ٢/ ٢١٤.

قال الطبرى (١): يعنى بذلك ـ جَلَّ ثناؤه

وذلوا لله بالطاعة واخضعوا له بها وأفردوه بالربوبية واخلصوا له الخضوع والذلة بالإنتهاء إلى أمره والانزجار عن نهيه ولاتجعلوا له فى الربوبية والعبادة شريكا تعظمونه تعظيمكم إياه.

قال ابن كثير رحمه الله (٢): فى هذه الآية يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لاشريك له فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الحالات، وهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولايشركوا به شيئاً من مخلوقاته، انتهى.

قال السعدى (٣):

يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لاشريك له، وهوالدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة، وذلاً، وإخلاصاً له، فى جميع العبادات الظاهرة والباطنة.

وينهى عن الشرك به شيئاً، لاشركاً أصغر، ولا أكبر، لا ملكاً، ولانبياً، ولا ولياً ولاغيرهم، من المخلوقين، الذين لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولاموتاً ولاحياة، ولانشوراً.

بل الواجب المتعين، إخلاص العبادة، لمن له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل، الذى لايشركه، ولايعينه عليه أحد.

قال صاحب «الظلال» (٤).

هذه الفقرة تبدأ بالأمر بعبادة الله وحده، والنهى عن إشراك شيء به.. تبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر، وهذا النهى، والأوامر السابقة الخاصة بتنظيم الأسرة فى أواخر الدرس الماضى يعنى الآيات التى تقدمت فى سورة النساء ـ فيدل هذا الربط بين الموضوعين على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة فى هذا الدين. فليس هو مجرد عقيدة تستكن فى الضمير؛ ولامجرد شعائر تقام وعبادات؛ ولامجرد تنظيم دنيوى منقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية.. إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله، ويربط بين جوانبه، ويشدها جميعاً إلى الأصل الأصيل. وهو توحيد الله. والتلقى منه وحده ـ فى هذا النشاط كله ـ دون سواه. توحيده إلهاً معبوداً. وتوحيده مصدراً للتوجيه والتشريع لكل

---

(١) تفسير الطبرى ٤/ ٥/ ٥٠.

(٢) فتح المجيد / ٢٩ مؤسس قرطبة.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٣١.

(٤) ٢/ ٦٥٨، ٦٥٦، ٦٦٠.

النشاط الإنسانى أيضاً . لاينفك هذا التوحيد عن ذاك فى الإسلام وفى دين الله الصحيح على الإطلاق ويلى الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك، الأمر بالإحسان إلى تلك المجموعات من الأسرة الخاصة، والأسرة الإنسانية؛ وتقبيح البخل والخيلاء والفخر وأمر الناس بالبخل، وكتمان فضل الله من أى نوع سواء كان من المال أم من العلم و الدين ـ والتحذير من إتباع الشيطان؛ والتلويح بعذاب الآخرة، ومافيه من خزى وافتضاح. . لربط هذا كله بالتوحيد؛ وتحديد المصدر الذى يتلقى منه من يعبد الله ولايشرك به شيئاً وهو مصدر كذلك واحد لايتعدد ولايشاركه أحد فى التوجيه والتشريع؛ كما لايشاركه أحد فى الألوهية وعبادة الناس له بلا شريك.

ثم قال: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» . .

الأمر الأول بعبادة الله . . والنهى الثانى لتحريم عبادة أحد ـ معه ـ سواه نهياً باتاً، شاملاً، لل أنواع المعبودات التى عرفتها البشرية: «وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» . . شيئاً كائنا ماكان، من مادة أو حيوان أوإنسان أوملك أو شيطان. . فكلها مما يدخل فى مدلول كلمة شىء، عند إطلاق التعبير على هذا المنوال.

قال القرطبى(١) : أجمع العلماء على أن هذه الآية من المُحكَم المتفق عليه، وليس منها شىء منسوخ.

وكذلك هى فى جميع الكتب. ولو لم يكن كذلك لعُرف ذلك من جهة العقل وإن لم ينزل به الكتاب وقد مضى معنى العبودية وهى التذلل والافتقار، لمن له الحكم والاختيار؛ فأمر الله تعالى عباده بالتذلل له والإخلاص فيه. فالاية أصل فى خلوص الأعمال لله تعالى وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره؛ قال الله تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (٢) حتى لقد قال بعض علمائنا: إنه من تطهر تَبَرُّدًا أو صام مُحمًا لِمعدته ونَوَى مع ذلك التقرّب لم يُجْزِه؛ لأنه مزج فى نية التقرب نيه دنياوية وليس لله، إلا العمل الخالص؛ كما لقال تعالى ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(٣) وقال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(٤) وكذلك إذا أحسّ الرجل بداخلٍ فى الركوع وهو إمام لم ينتظره؛ لأنه يُخرج ركوعه بانتظاره من كونه خالصا لله تعالى. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك تعالى أنا أغنَى الشركاء عن الشّرك من عمِل عملاً أشْرك فيه معى غيرى تركته

---

(١) تفسير القرطبى ٣/ ١٧٥٠، ١٧٥١، ١٧٥٢.
(٢) الكهف: ١١٠
(٣) الزمر: ٣
(٤) البينة : ٥

وشِركُه»(١) وروى الدَّارَقُطْنىّ عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «**يُجاء يوم القيامة بصحف مختمة فتُنصَب بين يدى الله تعالى فيقول الله تعالى للملائكة ألقُوا هذا واقْبَلُوا هذا فتقول الملائكة وعزتك مارأينا إلاخيراً فيقول الله عزوجل وهو أعلم إن هذا كان لغيرى ولا أقبل اليومّ من العمل إلا ما ابتُغِى به وجهى**»(٢).

وروى أيضا عن الضحاك بن قيس الفِهْرِى قال قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكى يأيها الناس أخْلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله لايقبل إلاماخلص له ولاتقولوا هذا لله وللرَّحِم فإنها للَّرحِم وليس لله منها شىء ولاتقولوا هذا لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله تعالى منها شىء**». ثم قال:

مسألة: إذا ثبت هذا فاعلم أن علماءنا رضى الله عنهم قالوا: الشرك على ثلاث مراتب وكله مُحرَّم. وأصله اعتقاد شريك لله فى أُلُوهيتّه، وهو الشرك الأعظم وهو شرك الجاهلية، وهوالمراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٣). ويليه فى الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى فى الفعل، وهو قول من قال: إن موجوداً ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل إيجاده وإن لم يعتقد كونَه إلهاً كالقدرية مجوس هذه الأمة، وقد تبرأ منهم ابن عمر كما فى حديث جبريل عليه السلام(٤). ويلى هذه الرتبة الإشراك فى العبادة وهو الرياء؛ وهو أن يفعل شيئاً من العبادات التى أمر الله بفعلها له لغيره. وهذا هو الذى سيقت الآيات والأحاديث لبيان تحريمه، وهو مبطل للأعمال وهو خفِىّ لايعرفه كلُّ جاهل غبىّ.

ورضى الله عن المحاسبى فلقد أوضحه فى كتابه «الرعاية» وبين إفساده للأعمال.

وفى سنن ابن ماجه عن أبى سعيد بن أبى فضالة الإنصارى وكان من الصحابة قال قال رسول الله ﷺ و«**إذا جمع الله الأولين والاخرين يوم القيامة ليوم لاريب فيه نادى من: من كان أشرك فى عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشرّكاء عن الشرك**»(٥).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره المنذرى فى «الترغيب والترهيب» (١/ ٧٣/ ٣١) وقال: رواه البزار والطبرانى بإسنادين، رواة أحدهما رواة الصحيح، والبيهقى.

(٣) النساء: ١١٦

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ١٧٧/ ١).

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٦٦)، (٤/ ٢١٥)، والترمذى (٣١٥٤)، وابن ماجة (٤٢٠٣) قال الترمذى: حسن غريب.

وفيه عن أبـي سعيد الخدرى قال: خرج علـينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكـر المَسِيخ الدجال فقال : «**ألا اخبركم بما هـو أخوف عليكم عندى من المسيخ الدجال؟**» قال فقلنا بلى يارسول الله؛ فقال : «**الشّرْك الخفَىّ أن يقوم الرجل يصـلّى فيزيِّن صلاته لما يرى من نظر رجل**»(١) وفيه عـن شداد بن أوس قال قـال رسول الله ﷺ : «**إن أخوفَ ما أتخـوف على أمتـى الإشراك بالله أما إنـى لست أقول يـعبدون شمـساً ولا قمرا ولا وَثَـناً ولكن أعمالا لغير الله وشَهوة خفية**»(٢) خرّجه الترمِذىّ الحكيم وفيه بيان الشهوة الخفية. وروى ابن لِهيَعـة عن يزيد بن أبى حبيـب قال سئل رسول الله ﷺ عن الشهـوة الخفية فقال : «**هو الرجل يتعلم العلم يحب أن يجلس إليه**».

قال سهل بن عبدالله التّسْتَرِىّ رضى الله عنه : الرياء على ثلاثة وجوه:

أحدهما: أن يعقد فى أصل فعله لغيـر الله ويريد به أن يعرف أنه لله، فهذا صنف من النفاق وتشكك فى الإيمان .

والآخر- ويدخل فى الشىء لله فإذا اطّلع عليه غير الله نِشّط، فهذا إذا تاب يريد أن يعيد جميع ماعمِل.

والثالث: دخلِ فى العمـل بالإخلاص وخرج به لله فعُرِف بذلك ومُدح عـليه وسكن إلى مدحهم؛ فهذا الرياء نهى الله عنه.

قال سهل قال لقمان لابنه: الرياء أن تطـلب ثواب عملك فى دار الدنيا، وإنما عمل القوم لـلآخرة. قيل لـه: فما دواء الريـاء؟ قال: كتمان الـعمل، قيـل له: كيف يـكتم العمل؟ قال : ما كلفت إظهاره من العمـل فلاتدخل فيه إلا بالإخلاص، ومالم تتكلف إظهاره أحبّ إلا يـطلع عليه إلا الله. قـال: وكل عمل اطلع عـليه الخلق فلا تـعدّه من العمل. وقال ايوب السَّخْتَيانِىّ: ماهو بعاقل من أحب أن يعرف مكانه من عمله.

قلت: - أى القرطبى - قول سهل «والثالث دخل فى العمل بالإخلاص» إلى آخره، إن كان سكونه وسروره إليهم لتحصل منزلته فـى قلوبهم فيحمدوه ويجلّوه ويبروه وينال مايريده منهم من مـال أو غيره فهذا مذموم؛ لأن قلبه مغمور فرحًـا باطّلاعهم عليه، وإن كانوا قد اطلعـوا عليه بعد الفراغ. فأما مـن أطلع الله عليه خلقه وهو لايـحب أطلاعهم

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٢٠٤) قال فى الزوائد: إسناده حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٥) قال فى الزوائد: فى إسناده عامر بن عبد الله لم أرمن تكلم فيه وباقى رجال الإسناد ثقات.

عليه فيسر بصنع الله وبفضله عليه فسروره بفضل الله طاعة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١). وبسط هذا وتتميمه في كتاب «الرعاية للمحاسبي» فمن أراده فليقف عليه هناك. وقد سئل سهل عن حديث النبي ﷺ «إني أسر العمل فيطلع عليه فيعجبني» قال: يعجبه من جهة الشكر لله الذي أظهره عليه أونحو هذا. فهذه جملة كافية في الرياءوخُلوص الأعمال. والحمد لله. اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان الشيخ(٢):

هذا أول أمر في القرآن، وهو الأمر بعبادته وحده لاشريك له، والنهي عن الشرك، كما في قوله﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣) وتأمل كيف أمر تعالى بعبادته أي فعلها خالصة له، ولم يخص بذلك نوعاً من أنواع العبادة لادعاء ولا صلاة ولاغيرهما، ليعم جميع أنواع العبادة، ونهى عن الشرك به ولم يخص أيضاً نوعاً من أنواع العبادة بجواز الشرك فيه، في هذه الآية واللواتي قبلها دليل على أن العبادة هي التوحيد، لأن الخصومة فيه، وإلا فكان المشركون يعبدون الله ويعبدون غيره، فأسروا بالتوحيد،وهو عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وفيهن دليل على أن التوحيد أول واجب على المكلف، وهو الكفر بالطاغوت، والإيمان الله بالمستلزم لعبادته وحده لاشريك له، وأن من عبد غير الله بنوع من أنواع العبادة فقد أشرك، سواء كان المعبود ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنماً.

قال ابن عثيمين(٤): ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾

﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ في مقابل «لاإله» ؛ لأنها نفي.

وقوله :﴿وَاعْبُدُوا﴾ في مقابل «إلا الله» ؛ لأنها إثبات.

وقوله : ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النهي؛ فتعمّ كل شيء: لانبياً، ولا ملكاً، ولا ولياً، بل ولا أمراً من أمور الدنيا؛ فلا تجعل الدنيا شريكاً مع الله، والإنسان إذا كان همّه الدنيا كان عابداً لها؛ كما قال ﷺ:«تَعِسَ عبدالدينار، تَعِسَ عبدالدرهم، تَعِسَ عبد الخيملة، تعس عبد الخميصة» (٥).

---

(١) يونس : ٥٨.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٣
(٣) البقرة : ٢١.
(٤) القول المفيد ١/ ٣٨.
(٥) سيأتي تخريجه.

مناسبة الآية التوحيد : حذرت الآية من الشرك بجميع صوره وأشكاله (٢).

الإعراب (٣):

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ كلام مستأنف مسوق لأمره ﷺ بأن يتلو عليهم ماحرم ربهم عليهم حقيقة لاظناً، ويقيناً لاحدساً. وجملة تعالوا فى محل نصب مقول القول، وهو فعل أمر مبنى على حذف النون، والواو فاعل، وأتل فعل مضارع مجزوم لأنه جواب لطلب، وابن هشام يؤثر أن يقال: إنه جواب الشرط مقدّر، وما اسم موصول فى محل نصب مفعول به، وجملة حرم عليكم لامحلّ لها لأنها صلة الموصول،والعائد محذوف، أى الذى حرّمه. ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أى: اتل تحريم ربكم. و التحريم لايتلى، ولكنه مصدر واقع موقع المفعول به. وربكم فاعل حرم، وعليكم جار ومجرور متعلقان بحرم أو بأتل، على أن المسألة من باب التنازع. اهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث:**

عن عبادة بن الصامت قال قال : رسول الله ﷺ «**أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث؟** ثم تلا ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ثلاث آيات، ثم قال: **فمن وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله فى الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه وأن شاء عفا عنه**»(٤).

وعن على أبى طالب قال: «لماأمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج إلى منى وأنا معه وأبو بكر، وكان أبو بكر رجلا نسابة، فوقف على منازلهم ومضاربهم بمنى، فسلم عليهم وردوا السلام، وكان فى القوم مفروق بن عمرو، وهانىء بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان أقرب القوم إلى أبى بكر مفروق، وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال

---

(١) الأنعام ١٥١ ـ١٥٣

(٢) الحديد : ٣٠

(٣) إعراب القرآن ٤/ ٢٦٧،٢٦٨

(٤) ذكره السيوطى فى«الدر» (٣/ ٣٨٢) ونسبه لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه والحاكم

له: إلام تدعو ياأخا قريش ؟ فتقدم رسول الله ﷺ فجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه، فقال النبى ﷺ: «**ادعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأنى رسول الله، وأن تأوونى وتنصرونى وتمنعونى حتى أؤدى حق الله الذى أمرنى به، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هوالغنى الحميد**. قال له: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ إلى قوله ﴿**تتقون**﴾ فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش فوالله ماهذا من كلام أهل الأرض، و لو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾(١) الآية . فقال له مفروق: دعوت ـ والله يا قرشى إلى مكارم الإخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك؟ وقال هانىء بن قبيصة: قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش، ويعجبنى ماتكلمت به، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: **أن لم تلبثوا الا يسيرا حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ـ يعنى أرض فارس وأنهار كسرى ـ ويفرشكم بناتهم، أتسبحون الله وتقدسونه**؟ فقال له النعمان بن شريك: اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش ـ فتلا رسول الله ﷺ ـ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**﴾ الآية. ثم نهض رسول الله قابضاً على يد أبى بكر»(٢).

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

وعن ابن مسعود قال: من سره أن ينظر إلى وصية محمد التى عليها خاتمها فليقرأ هؤلاء الآيات﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**﴾ إلى قوله ﴿**لعلهم يتقون**﴾(٣).

عن كعب قال: أول ما نزل من التوراة عشر آيات، وهى العشر التى أنزلت من آخر الأنعام﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**﴾ إلى آخرها(٤).

عن عبيد الله بن عبدالله بن عدى بن الخيار قال: سمع كعب رجلا يقرأ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ فقال كعب : والذى نفس كعب بيده أنها لأوّل آية

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢)ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٨١) ونسبه لأبى نعيم والبيهقى فى «الدلائل».

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٨١، ٣٨٢) ونسبه للترمذى وحسنه، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والطبرانى، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والبيهقى فى «الشعب». وسيأتى تخريجه.

(٤) ذكره السيوطى فى المصدر السابق ونسبه لابن أبى شيبة، وابن الضريس، وابن المنذر.

فى التوراة، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى آخر الآيات(١).

عن منذر الثورى قال: قال الربيع بن خيثم: أيسرك أن تلقى صحيفة من محمد ﷺ بخاتم؟ قلت : نعم. فقرأ هؤلاء الآيات من آخر سورة الأنعام ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى آخر الآيات(٢).

عن مزاحم بن زفز قال : قال رجل للربيع بن خيثم: أوصنى قال: ائتنى بصحيفة فكتب فيها ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ ﴾ الآيات. قال : إنما أتيتك لتوصينى؟! قال : عليك بهؤلاء(٣).

● **ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين.**

قوله «قل» الخطاب للنبى - ﷺ - أمره الله أن يقول لهؤلاء الذين حرموا ماأحل الله.

قال الطبرى (٤):

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان الأصنام الزاعمين أن الله حرم عليهم ماهم محرّموه من حروثهم وأنعامهم على ما ذكرت لك فى تنزيلى عليك تعالوا أيها القوم أقرأ عليكم ماحرم ربكم حقا يقينالا الباطل تخرصا كخرصكم على الله الكذب والفرية ظناً ولكن وحياً من الله أوحاه إلىّ وتنزيلا أنزله على أ. هـ.

قوله: «تعالوا»

الإعراب(٥):

(تعال) من الخاصّ الذى صار عاماً، وأصله أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم كثر واتسع حتى عم. وهو فعل أمر مفتوح الآخر دائماً،ومن ثم لحنوا إبا فراس الحمدانى بقوله:

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا ... تعالى أقاسمك الهموم تعالى

● **ما جاء فى الآية من كلام المفسرين.**

وذكر نحو كلام صاحب الإعراب المتقدم الرازى نقلا عن صاحب الكشاف والقرطبى.

وقال الأخير (٦) «تعالوا»

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لأبى الشيخ.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٨١) ونسبه لعبد بن حميد، وأبى عبيد، وابن المنذر،

(٣) ذكره السيوطى فى المصدر السابق ونسبه لابن سعد.

(٤) الطبرى ٥/٨/ ٦٠ (٥) الإعراب ٣/ ٢٦٧

(٦) القرطبى ٤/ ٢٥٦٦،٢٥٦٧.

أى تقدموا وأقرءوا حقاً يقينا كما أوحى إلى ربى، لاظناً ولا كذبا كما زعمتم. ثم بين ذلك فقال: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ يقال للرجل: تعال؛ أى تقدم، وللمرأة تعالى، وللأثنين والأثنتين تعاليا، ولجماعة الرجال تعالوا، ولجماعة النساء تعالين؛ قال الله تعالى ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾(١) وجعلوا التقدم ضربا من التعالى والارتفاع، لأن المأمور بالتقدم فى أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً فقيل له تعال، أى أرفع شخصك بالقيام وتقدم، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشى؛ قاله ابن الشجرى.

قال القرطبى(٢): هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ماحرم الله. وهكذا يجب على من بعده من العلماء أن يبلغوا الناس ويبينوا لهم ماحرم عليهم مما حل. قال الله ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾(٣).

قوله «اتل ما»

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن الجوزى (٤): «ما بمعنى الذى.

قال الرازى (٥): وما فى قوله ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ منصوب وفى ناصبه وجهان الأول: أنه منصوب بقوله (اتل) والتقدير: اتل الذى حرمه عليكم، والثانى: أنه منصوب بحرّم. والتقدير: أتل الأشياء التى حرم عليكم.

وذكر نحو ذلك القرطبى ولكن بأسلوب آخر أذكره للإفادة.

قوله ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين.

قال ابن الجوزى (٦) قولان:

أحدهما: أنها إغراء، كقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾(٧) فالتقدير عليكم أن لاتشركوا، ذكره ابن الأنبارى.

والثانى أن يكون معنى: فُرض عليكم، ووجب عليكم أن لاتشركوا.

---

(١) الأحزاب: ٢٨

(٢) تفسير القرطبى ٤/٢٥٦٧، ٢٥٦٨.

(٣) آل عمران ١٨٧

(٤) زاد المسير ٣/١١٣.

(٥) التفسير الكبير ٧/ ١٣/ ٢٤٣.

(٦) زاد المسير ٣/١١٣

(٧) المائدة: ١٠٥.

قال السعدى: [1] ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾تحريماً عاماً، شاملاً لكل أحد، محتوياً على سائر المحرمات، من المآكل، والمشارب، والأقوال، والأفعال.

قوله «ربكم»

وقال «ربكم» ولم يقل ما حرّم الله، لأنَّ الرب هنا انسب حيث إنَّ الرب له مطلق التصرُّف فى المربوب، والحكم عليه بما تقتضيه حكمته. قاله ابن عثيمين فى القول المفيد.

قوله ﴿ألاَ تشركوا﴾

الإعراب [2]: فى«أن» أوجه عديدة، والمختار منها وجهان **أولهما**: أنها مفسرة، لأنه تقدمها ماهو معنى القول دون حروفه.

قلت: هو مارجحة ابن عثيمين.

ولاناهية ، وتشركوا فعل مضارع مجزوم بها، والجملة لامحل لهالأنها مفسرة.

والوجه الثانى : أنها مصدرية،وهى وما فى حيزها بدل من **«ما حرم»**،وبه جار ومجرور متعلقان بتشركوا، وشيئاً مفعول به أوبمعنى المصدر، فهى مفعول مطلق. وقد تقدمت الإشارة إلى مثيله.

● **ماجاء فى الآية من كلام المفسرين:**

قال ابن الجوزى [3] وفى «لا» قولان:

أحدهما : أنها زائدة، كقوله: ﴿ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾

والثانى : أنها ليست زائدة، وإنما هى نافية.

فعلى هذا القول، فى تقدير الكلام ثلاثة أقوال.

أحدها: أن يكون قوله ﴿**ألاَ تشركوا**﴾، محمولاً على المعنى؛ فتقديره:أتل عليكم أن لاتشركوا، أى :أتل تحريم الشرك.

والثانى :أن يكون المعنى: أوصيكم أن لاتشركوا، لأن قوله : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ محمول على معنى : أوصيكم بالوالدين إحسانا، ذكرهما الزجاج.

والثالث: أن الكلام تم عند قوله(حرَّم ربكم).

قال الفقير: وذكر نحو هذه الأقوال القرطبى وظاهر كلامه أنه مال للتقدير الأول، ولكن صرح الشنقيطى بترجيح التقدير الثانى وهو ما ذهب إليه ابن كثير أيضاً فقال الشنقيطى[4]:

(١) تيسير الكريم الرحمن٢/ ١٥.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨ .

(٣) زاد المسير ٣/ ١١٣,

(٤) أضواء البيان ٢/ ٢٠٩.

الظاهر فى قوله : ماحرم ربكم عليكم، أنه مضمن معنى ماوصاكم به فعلاً، أو تركاً؛ لأن كلا من ترك الواجب، وفعل الحرام حرام، فالمعنى وصاكم ألاتشركوا، وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً.

وقد بين تعالى أن هذا هو المراد بقوله : ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾[1] أهـ.

قال الرازى [2]: وأعلم أنه تعالى قد شرح فرق المشركين فى هذه السورة على أحسن الوجوه، وذلك لأن طائفة من المشركين يجعلون الأصنام شركاء لله تعالى، وإليهم الإشارة بقوله حكاية عن إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[3].

والطائفة الثانية: من المشركين عبدة الكواكب، وهم الذين حكى الله عنهم، أن إبراهيم عليه السلام أبطل قولهم بقوله ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[4].

والطائفة الثالثة : الذين حكى الله تعالى عنهم ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾[5]. هم القائلون بيزدان وأهرمن .

والطائفة الرابعة: الذين جعلوا لله بنين وبنات، وأقام الدلائل على فساد اقوال هؤلاء الطوائف والفرق، فلما بين بالدليل فساد قول هؤلاء الطوائف. قال ههنا ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

قال السعدى:[6] وحقيقة الشرك بالله : أن يعبد المخلوق، كما يعبدالله، أويعظم كما يعظم الله أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية.

وإذا ترك العبد الشرك كله، صار موحدا، مخلصاً لله فى جميع أحواله.

فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه، ولايشركوا به شيئاً.

قال صاحب «الظلال»:[7]﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ القاعدة التى يقوم عليها بناء العقيدة؛ وترجع إليها التكاليف والفرائض، وتستمد منها الحقوق والواجبات. . القاعدة التى يجب أن تقوم أولاً قبل الدخول فى الأوامر والنواهى؛ وقبل الدخول فى التكاليف

(١) الأنعام :١٥١.
(٢) التفسير الكبير ٧/ ١٣/ ٢٤٤
(٣) الأنعام : ٧٤.
(٤) الأنعام : ٧٦
(٥) الأنعام : ١٠٠
(٦) تيسير الكريم الرحمن ٢/٨٥
(٧) فى ظلال القرآن : ٣/ ١٢٢٩، ١٢٣٠.

والفرائض، وقبل الدخول فى النظام والأوضـاع؛ وقيل الدخول فى الشرائع و الأحكام..
يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم فى حياتهم كمايعترفون بألوهيته وحده فى عقيدتهم؛ لايشركون معه أحداً فى ألوهيته، ولايشركون معه أحداً فى ربوبيته كذلك. يعترفون له وحده بـأنه المتصرف فـى شؤون هذا الكـون فى عالم الأسـباب والأقدار؛ ويعترفون له وحده بأنه المتصرف فى حسابهم وجزائهم يوم الدين؛ ويعترفون له وحده بأنه هوالمتصرف فى شؤون العباد فى عالم الحكم والشريعة كلها سواء.

إنها تنقية الضمـير من أوشاب الشرك وتنقية العقل من أوشاب الخرافـة،و تنقيةالمجتمع من تقاليد الجاهلية، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد..

إن الشرك ـ فـى كل صوره ـ هو المحـرم الأول لأنه يجر إلى كـل محرم. وهوالمـنكر الأول الذى يجب حشد الإنكار كله له؛ حـتى يعترف الناس أن لاإله لهم إلا الله، ولارب لهم إلا الله، ولاحاكم لهم إلا الله،ولا مشرع لهم إلا الله. كما أنهم لايتوجهون بالشعائر لغير الله. أهـ.

قال ابن الجوزى: (١) وفى هذا الشرك قولان.

أحدهما : أنه ادعاء شريك مع الله عزوجل.

والثانى : أنه طاعة غيره فى معصيته.

قوله «شيئاً»

أى لا قليلا ولاكثير. **قاله السعدى** وغيره.

قال الفقير: وهى أيضاً نكره فى سياق نهى تدل على العموم.

● **قوله «وبالوالدين إحسانا».**

الإعـراب(٢): بالوالدين جار ومجرور متعلـقان بفعل المصدر المحذوف، أى أحسنوا بالوالدين وإحساناً مفعول مطلق للفعل المحذوف، .

● ماجاء فى الآية من كلام المفسرين:

قال السـعدى: (٣) ثم بدأ بآكد الحقوق بـعد حقه فقال: ﴿**بالوالدين إحساناً**﴾ مـن الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة.

(١) زاد المسير ٣/ ,١١٣ (٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٨٥.

﴿لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(*).

فكل قول وفعل، يحصل به منفعة للوالدين، أو سرور لهما، فإن ذلك، من الإحسان، وإذا وجد الإحسان، انتفى العقوق أهـ.

● **ماجاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.**

قال ابن عثيمين: (1) أى واتل عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

قال الفقير: وقد تقدم ذكر ماورد فى بر الوالدين والإحسان إليهم عند قوله **﴿وقضى ربك إلا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾** بما يغنى عن إعادته هنا.

قال الرازى (2): وإنما ثنى بهذا التكليف لأن أعظم أنواع النعم على الإنسان نعمة الله تعالى، ويتلوها نعمة الوالدين لأن المؤثر الحقيقى فى وجود الإنسان هو الله سبحانه وفى الظاهر هو الأبوان، ثم نعمهما على الإنسان عظيمة وهى نعمة التربية والشفقة والحفظ عن الضياع والهلاك فى وقت الصغر. أهـ.

●**قوله : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾**

الإعراب (3).

الواو عاطفة، ولاناهية، وتقتلوا فعل مضارع مجزوم بلا، وأولادكم مفعول به، ومن إملاق جار ومجرور متعلقان بتقتلوا، أى : لأجل الإملاق، فمن سببية، ولم ينصب المفعول لأجله لاختلال شرطه، لأن الإملاق مصدر غير قلبى، ونحن مبتدأ وجملة نرزقكم خبر، وجملة نحن نرزقكم مستأنفة لتعليل النهى قبله، وإياهم عطف على الضمير فى نرزقكم. أهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:**

قال الشنقيطى: (4) نهى الله تعالى فى هذه الآية الكريمة عن قتل الأولاد من أجل الفقر الواقع بالفعل؛ ونهى فى سورة الإسراء عن قتلهم خشية الفقر المترقب المخوف منه، مع أنه غير واقع فى الحال بقوله : **﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾**(5) وقد أوضح ﷺ

(*) الأنعام: 151.

(1) القول المفيد 1/ 41.

(2) التفسير الكبير 7/ 13/ 244، 245.

(3) إعراب القرآن 3/ 268.

(4) أضواء البيان 2/ 209.

(5) الإسراء : 31

معناه حين سأله عبدالله بن مسعود رضى الله عنه: «أى الذنب أعظم؟ فقال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**»، قال: ثم أى ؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**» ، قال: ثم أى؟ قال: «**أن تزانى حليلة جارك**»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ**﴾الآية[1][2].

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن ابن عباس: قوله ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ**﴾ الإمقلاق الفقر قتلوا أولادهم خشية الفقر.[3]

وعن قتادة: فى قوله ولاتقتلوا أولادكم من إملاق أى خشية الفاقة[4].

وعن السدى: ولاتقتلوا أولادكم من إملاق قال الإملاق الفقر[5].

قال ابن جريج قوله من إملاق قال شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خيفة العيلة[6].

عن الضحاك: فى قوله من إملاق يعنى من خشية فقر[7].

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام بالمفسرين:

قال الجصاص:[8] قوله تعالى: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ**﴾ كانت العرب تدفن أولادها أحياءَ البناتِ منهن خوف الإملاق، وهو الإفلاس؛ و منه حديث النبى ﷺ: «**أعظم الذنوب أن تجعل لله نداً وهو خلقك، وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك، وأن تزنى بحليلة جارك**»[9].

وهى الموءودة التى ذكرها الله تعالى فى قوله : ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾[10] فنهاهم الله عن ذلك مع ذكر السبب الذى كانوا من أجله يقتلونهم، وأخبر أنه رازقهم ورازق أولادهم أهـ.

(١) الفرقان: ٦٨ . (٢) تقدم تخريجه قريباً.
(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٨/ ٦١) عن ابن عباس به.
(٤) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق عن قتادة.
(٥) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق عن السدى.
(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره».
(٧) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق بإسناد منقطع. (٨) أحكام القرآن ٣/ ٣٦ .
(٩) [متفق عليه] البخارى (٧٥٢٠)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٣٥٧/ ١٤٢) عن ابن مسعود.
(١٠) التكوير : ٨، ٩ .

وبنحوه قال ابن الجوزى [(١)].

قال الرزاى: [(٢)] قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فأوجب بعد رعاية حقوق الأبوين رعاية حقوق الأولاد وقوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ أى من خوف الفقر وقد صرح بذكر الخوف فى قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم خشية إِمْلَاقٍ﴾ والمراد منه النهى عن الوأد، إذ كانوا يدفنون البنات أحياء، بعضهم للغيرة، وبعضهم خوف الفقر؛ وهو السبب الغالب، فبين تعالى فساد هذه العلة بقوله ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنه تعالى إذا كان متكفلاً برزق الوالد والولد، فكما وجب على الوالدين تبقية النفس والاتكال فى رزقها على الله، فكذلك القول فى حال الولد. قال شمر: أملق، لازم ومتعد. يقال: أملق الرجل، فهو مملق، إذا افتقر، فهذا لازم، وأملق الدهر ماعنده، إذا أفسده، والإملاق الفساد. اهـ.

وبنحو ذلك ذكر القرطبى:[(٣)] قال النقاش عن مُوَرِّج أنه قال: الإملاق الجوع بلغة لخم. وذكر منذربن سعيد أن الإملاق الإنفاق؛ يقال: أملق ماله بمعنى أنفقه. وذكر أن علياً قال لامرأته: أملقى من مالك ماشئت. ورجل ملق يعطى بلسانه ماليس فى قلبه. فالملق لفظ مشترك بيانه فى موضعه. اهـ.

قال القرطبى: [(٤)] وقد كان منهم من يفعل ذلك بالذكور والإناث كما هو ظاهر الآية. اهـ.

قلت وذكره السعدى أيضاً ثم قال [(٥)]. وإذا كانوا منهيين عن قتلهم فى هذه الحال، وهم أولادهم، فنهيهم عن قتلهم، لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم، من باب أولى، وأحرى.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أى: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولاأنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. اهـ.

---

(١) زاد المسير (٣/ ١١٣).

(٢) التفسير الكبير ٧/ ١٣/ ٢٤٥.

(٣) القرطبى ٤/ ,٢٥٦٨

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٥.

●ماجاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين: (١) وبدأ هنا برزق الوالدين، وفى سورة الإسراء بدأ برزق الأولاد، والحكمة فى ذلك أنه قال هنا: ﴿من إمْلاقٍ﴾ ؛ فالإملاق حاصل، فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا، وهناك قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ ؛ فهما غنيان، لكن يخشيان الفقر، فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين.

وتقييد النهى عن قتل الأولاد بخشية الإملاق بناءً على واقع المشركين غالباً؛ فلا مفهوم له. أ. هـ.

● **قوله: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.**

الإعراب: (٢)

﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الواو حرف عطف، ولاناهية، وتقربوا فعل مضارع مجزوم بلا، والواو فاعل ، والفواحش مفعول به، وما إسم موصول فى محل نصب بدل من الفواحش، وهوبدل اشتمال، وجملة ظهر لامحل لها لانها صلة الموصول؛ ومنها جار ومجرور متعلقان بظهر، ومابطن عطف على ماظهر. اهـ.

●ماجاء فى تفسير الآية من الأحاديث.

وفى الصحيحين : عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ **«لاأحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن»**(٣).

وقال ـ عبدالملك بن عمير عن ورّاد عن مولاه المغيرة قال: قال سعد بن عبادة لو رأيت مع امرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال:

«أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد والله أغير منى من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن»(٤) أخرجاه.

قال كامل أبو العلاء عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قيل يارسول الله إنا نغار قال:

(١) القول المفيد: ١/٤١، ٤٢.
(٢) إعراب القرآن :(٣/٢٦٨، ٢٦٩).
(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٢٠)، ومسلم فى التوبة (٩/ ٨٩/ ٣٣).
(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٨٤٦)، ومسلم فى اللعان (٥/ ٣٨٤/ ١٧).

«إنى لأغار والله أغير منى ومن غيرته نهى عن الفواحش» رواه ابن مردويه ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

● **ماجاء فى تفسير الآية من الآثار.**

عن ابن عباس قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال كانوا فى الجاهلية لايرون بالزنا بأسا فى السر ويستقبحونه فى العلانية فحرم الله الزنا فى السر والعلانية(١).

عن السدى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أماماظهر منها فزوانى الحوانيت وأماما بطن فماخفى(٢).

عن الضحاك: قوله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كان أهل الجاهلية يستسرون بالزنا ويرون ذلك حلالا ما كان سرا فحرم الله السر منه والعلانية ما ظهر منها يعنى العلانية وما بطن ويعنى السر(٣).

وعن قتادة: ﴿لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾سرها وعلانيتها (٤).

وقال آخرون ماظهر نكاح الأمهات وحلائل الآباء ومابطن الزنا.

عن مجاهد: ﴿لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال ماظهر مع بين الأختين وتزويج الرجل امرأة أبيه من بعده وما بطن الزنا(٥).

● **ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.**

● **تعريف الفواحش، والحكمة من ذكرها بعد الوالدين والأولاد.**

قال صاحب الظلال:(٦) والفواحش كل ما أفحش ـ أى تجاوز الحد ـ وإن كانت أحياناً تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا. ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد

---

(١) أخرجه ابن جرير (٨/ ٦١) من طريق على بن أبى طلحة عنه

(٢) أخرجه ابن جرير (٨/ ٦١) من طريق أسباط عن السدى. تفسير القرطبى (٥/٨/ ٦١).

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق بإسناد منقطع.

(٤) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق عن قتادة.

(٥) أخرجه ابن جرير (٨/ ٦١) عن خصيف عن مجاهد .

(٦) الظلال ـ(٣/ ١٢٣١)

في هذا الموضع. لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها، فتكون هذه واحدة منها بعينها. وإلا فقتل النفس فاحشة، وأكل مال اليتيم فاحشة، والشرك بالله فاحشة الفواحش. فتخصيص «الفواحش» هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق. وصيغة الجمع، لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها. فالتبرج، والتهتك، والاختلاط المثير، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة، والإغراء والتزيين والاستثارة. . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة. وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن. منها المستسر في الضمير ومنها البادي في الجوارح. منها المخبوء المستور ومنها المعلن المكشوف! وكلها مما يحطم قوام الأسرة، وينخر في جسم الجماعة، فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد، ويحقر من اهتماماتهم، ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد أهـ.

قال الطبري:(١) يقول تعالى ذكره ولاتقربوا الظاهر من الأشياء المحرمة عليكم التي هي علانية بينكم لاتناكرون ركبوها والباطن منها الذي تأتونه سرا في خفاء لاتجاهرون به فإن كل ذلك حرام وقد قيل إنما قيل لاتقربوا ما ظهر من الفواحش وما بطن لأنهم كانوا يستقبحون من معاني الزنا بعضا وليس ما قالوا من ذلك بمدفوع غير أن دليل الظاهر من التنزيل على النهي عن ظاهر كل فاحشة وباطنها ولاخبر يقطع العذر بأنه عنى به بعض دون جميع وغير جائز إحالة ظاهر كتاب الله إلى باطن إلا بحجة يجب التسليم لها أهـ.

وقال ابن الجوزي(٢).:

فيه خمسة أقوال:

أحدها:أن الفواحش : الزنا، وماظهر منه:الإعلان به،ومابطن :الاستسرار به، قاله ابن عباس ، والحسن، والسدي.

والثاني: أن ماظهر: الخمر ونكاح المحرمات. ومابطن:الزنا، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد.

والثالث: أن ماظهر: الخمر، ومابطن : الزنا، قاله الضحاك.

والرابع: أنه عام في الفواحش. وظاهرها: علانيتها، وباطنها: سرُّها قاله قتادة.

والخامس: أن ماظهر : أفعال الجوارح، وما بطن: اعتقاد القلوب، ذكره الماوردي في تفسير هذا الموضع، وفي تفسير قوله ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٦١).

(٢) زاد المسير ٣/ ١١٣، ١١٤.

(٣) الأنعام : ١٢٠ .

قال الرازى: [1] والأولى أن لايخصص هذا النهى بنوع معين، بل يجرى على عمومه فى جميع الفواحش ظاهرها وباطنها لأن اللفظ عام. والمعنى الموجب لهذا النهى وهو كونه فاحشة عام أيضاً ومع عموم اللفظ والمعنى يكون التخصيص على خلاف الدليل.

وفى قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقة،وهى : أن الانسان إذا احترز عن المعصية فى الظاهر ولم يحترز عنها فى الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته،ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس،وذلك باطل، لأن من كان مذمة الناس عنده اعظم وقعاً من عقاب الله ونحوه فإنه يخشى عليه من الكفر، ومن ترك المعصية ظاهرا وباطنا، دل ذلك على أنه إنما تركها تعظيما لأمر الله تعالى وخوفاً من عذابه ورغبةً فى عبوديته.

وذكر نحو ما ذكره الرازى **القرطبى فقال** [2]:

قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نظيره «وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ»[3] فقوله : «ماظهر » نهى عن جميع أنواع الفواحش وهى المعاصى. «ومابطن» ماعقد عليه القلب من المخالفة .وظهر وبطن حالتان تستوفيان أقسام ماجعلت له من الأشياء. أهـ.

وذكر نحو ذلك **السعدى فقال**[4]:

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أى: لاتقربوا الظاهر منها، والخفى، أو المتعلق منها بالظاهر، والمتعلق بالقلب والباطن.

والنهى عن قربان الفواحش، أبلغ من النهى عن مجرد فعلها، فإنه يتناول النهى عن مقدماتها، ووسائلها الموصلة إليها. أهـ.

قال صاحب «الظلال»[5]: ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية، كان التعبير: «ولاتقربوا» . . . للنهى عن مجرد الاقتراب، سداً للذرائع، واتقاء للجاذبية التى تضعف معها الإرادة. . لذلك حرمت النظرة الثانية ـ بعد الأولى غير المتعمدة ـ ولذلك كان الإختلاط ضرورة تتاح بقدر الضرورة. ولذلك كان التبرج ـ حتى بالتعطر فى الطريق ـ حراماً، وكانت الحركات المثيرة، والضحكات المثيرة، والإشارات المثيرة، ممنوعة فى

---

(1) التفسير الكبير ٧/١٣/ ٢٤٥.
(2) تفسير القرطبى ٤/ ٢٥٦٩
(3) الأنعام : ١٥١
(4) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٨٦.
(5) (٣/ ١٢٣١).

الحياة الإسلامية النظيفة.. فهذا الدين لايريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابها عنتا فى المقاومة! فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود.. ويوقع العقوبات. وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والحواس والجوارح. وربك أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

وكذلك نعلم ما الذى يريده بهذا الدين، وبحياة المجتمع كله وبحياة الأسرة، من يزينون للناس الشهوات، ومن يطلقون الغرائز من عقالها بالكلمة والصورة والقصة والفيلم وبالمعسكر المختلط وبسائر أدوات التوجيه والإعلام!أهـ.

● **قوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾.**

الإعراب(١): **﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾** عطف على ما تقدم، داخل فى حيزه، لاستيفاء المحرمات، وهى عشرة أشياء، ولاناهية وتقتلوا فعل مضارع مجزوم بلا، والنفس مفعول به، والتى اسم موصول فى محل نصب صفة، وجملة حرم الله لامحل لها لأنها صلة الموصول، وإلا أداة حصر، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، أى : لاتقتلوها فى حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق، فالباء للملابسة، وهى ومجرورها متعلقان بمحذوف حال من الواو فى «تقتلوا» ويجوز أن يكون الاستثناء المفرّغ من الفعل نفسه، فيكون الجار والمجرور مفعولامطلقاً، أى : إلا القتل الملتبس بالحق: كالقود وحدّ الرّدّة ورجم المحصن. أ .هـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من آثار:**

أخرج ابن أبى حاتم (٢) **عن سعيد بن جبير** فى قوله **﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾** يعنى نفس المؤمن التى حرم الله قتلها إلا بالحق.

وستأتى الأحاديث الخاصة بتفسير الآية خلال كلام الجصاص والقرطبى.

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال الطبرى: (٣) يقول تعالى ذكره **﴿لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾** يعنى بالنفس التى حرم الله قتلها نفس مؤمن أومعاهد ، وقوله **﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾** يعنى بما أباح قتلها به من أن تقتل نفساً قوداً بها أو تزنى وهى محصنه فترجم أو ترتد عن دينها الحق فتقتل فذلك الحق الذى أباح الله جل ثناؤه قتل النفس التى حرم على المؤمنين قتلها به. أهـ.

(١) إعراب القرآن ٣/ ٣٩٦.　　(٢) الدر ٣/ ٣٨٣

(٣) تفسير الطبرى ٥/ ٨/ ٦٢ .

قال ابن الجوزى[1]: والنفس التى حرم الله نفس مسلم أومعاهد، والمراد بالحق: إذن الشرع. أ. هـ.

قال الجصاص[2]: إلا بالحق قال أبو بكر روى عن النبى ﷺ أنه قال:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولون لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[3].

ولما أراد أبو بكر قتال مانعى الزكاة قالوا له: إن النبى ﷺ قال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها»** فقال أبو بكر: هذا من حقها، لو منعونى عقالاً مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه[4].

وقال النبى ﷺ **«لايحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: زنا بعد إحصان وكفر بعد إيمان وقتل نفس بغير نفس»**[5] وهذا عندنا ممن يستحق القتل ويتقرر عليه حكمه. وقد يجب قتل غير هؤلاء على وجه الدفع، مثل قتل الخوارج ومن قصد قتل رجل وأخذ ماله فيجوز قتله على جهة المنع من ذلك؛ لأنه لوكف عن ذلك لم يستحق القتل. أهـ.

قال الرازى: [6] وأعلم أن هذا داخل فى جملة الفواحش إلا أنه تعالى أفرده بالذكر لفائدتين:

إحدهما: أن الأفراد بالذكر يدل على التعظيم والتفخيم، كقوله **﴿وملائكته وجبريل وميكال﴾**.

والثانية: أنه تعالى أراد أن يستثنى منه، ولا يتأتى هذا الاستثناء فى جملة الفواحش.

ثم قال [7] والحاصل أنَّ الأصل فى قتل النفس هو الحرمة وجله لايثبت إلا بدليل منفصل.

قال القرطبى: [8] وهذه الآية نهى عن قتل النفس المحرمة، مؤمنة كانت أو معاهدة

---

(1) زاد المسير ٣/ ١١٤.
(2) أحكام القرآن ٢/ ٣٧
(3) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى فى الإيمان (ح٢٥) ومسلم فى الإيمان (١/ ٢١١) وانظر تخريجنا «رياض الصالحين» حديث رقم (٣٩١).
(4) ما قبله.
(5) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى فى الديات (ح ٦٧٧٨) ومسلم فى القسامة (١١/ ١٦٤) وأنظر تمام تخريجنا «جامع العلوم والحكم» الحديث الرابع عشر.
(6) التفسير الكبير ٧/ ١٣/ ٢٤٥.
(7) التفسير الكبير ٧/ ١٣/ ٢٤٩.
(8) تفسير القرطبى ٤/ ٢٥٦٩، ٢٥٧٥.

إلا بالحق الذى يوجب قتلها وهذا الحق أمور: منها منع الزكاة وترك الصلاة؛ وقد قاتل الصديق مانعى الزكاة. وفى التنزيل **﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾**(١) وهذا بين. وقال عليه السلام: **«إذا بويع لخليفتين فأقتلوا الآخر منهما»**(٢) أخرجه مسلم.

وروى أبو داود عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: **«من وجدتموه يعمل عمل قوط لوط فأقتلوا الفاعل والمفعول به»**(٣).

وفى التنزيل: **﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا﴾**(٤) وقال: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾**(٥) الآية: وكذلك من شق عصا المسلمين وخالف إمام جماعتهم وفرق كلمتهم وسعى فى الأرض فسادًا بانتهاب الأهل والمال والبغى على السلطان والامتناع من حكمه يقتل. فهذا معنى قوله «إلا بالحق».

وقال عليه السلام: **«المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم لايقتل مسلم بكافر ولاذو عهد فى عهده ولايتوارث أهل ملتين»**(٦) وروى أبو داود والنسائى عن أبى بكرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتل معاهدا فى غير كُنْهِه حرم الله عليه الجنة»(٧) وفى رواية أخرى لأبى داود قال: **«من قتل رجلا من أهل الذِّمَّة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً»** وفى البخارى فى هذا الحديث **«وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»**(٨) خرجه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

قال صاحب «الظلال» (٩) ويكثر فى السياق القرآنى مجىء النهى عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة: الشرك، الزنا، وقتل النفس.. ذلك أنها كلها جرائم قتل فى الحقيقة!

[**الجريمة الأولى**]جريمة قتل للفطرة؛

[**الثانية**] جريمة قتل للجماعة.

---

(١) التوبة : ٥

(٢) مسلم فى الإمارة (٦/ ٤٨٤/ ٦١).

(٣) أبو داود (٤٤٦٢) وأنظر تخريجه فى «منار السبيل»، و«السلسبيل» بتخريجنا.

(٤) المائدة : ٣٣ (٥) الحجرات : ٩ .

(٦) [صحيح] أخرج أحمد (١/ ١١٩، ١٢٢) والنسائى فى القسامة (٨/ ٢٠، ٢٤) من حديث على رضى الله عنه.

(٧) أخرجه أبوداود (ح٢٧٦٠)، والنسائى فى «الكبرى» (ح٦٩٤٩).

(٨)[صحيح] أخرجه البخارى (٣١١٦)و (٦٩١٤).

(٩) ٣/ ١٢٣١/ ١٢٣٢ .

[الثالثة] قتل للنفس المفردة. إن الفطرة التى لاتعيش على التوحيد فطرة ميتة والجماعة التى تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتماً إلى الدمار . والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية. شواهد من التاريخ . ومقدمات الدمار والإنهيار فى الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد والمجتمع الذى تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار.

ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هى أقسى العقوبات لأنه يرى حماية مجتمعه من عوامل الدمار أهـ.

●**قوله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾**

الإعراب (١): **﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** الإشارة مبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة للإشارة إلى ماتقدم، وجملة وصاكم خبر ذلكم، وبه جار ومجرور متعلقان بوصاكم، ولعلكم تعقلون لعل واسمها وخبرها،وجملة الرجاء حالية، أى : لعلكم تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم، وتحبسها عن اجتراح هذه المنهيات.

●**ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال الرزاى (٢) : ثم أنه تعالى لما بين أحوال هذه الأقسام الخمسة أتبعه باللفظ الذى يقرب إلى القلب القبول، فقال **﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾** لما فى هذه اللفظة من اللطف والرأفة، وكل ذلك ليكون الكلف أقرب إلى القبول ، ثم أتبعه بقوله **﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** أى لكى تعقلوا فوائد هذه التكاليف، ومنافعها فى الدين والدنيا.

قال القرطبى (٣): قوله تعالى: «**ذَلِكُمْ** » إشارة إلى هذه المحرمات «**وَصَّاكُم** » الوصية الأمر المؤكد المقدور.

روى مطر الوراق عن نافع عن ابن عمر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أشرف على أصحابه فقال: عَلاَم تقتلونى! فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لايحل دم رجل مسلم إلا بإحدى ثلاث رجل زنى بعد حصانة فعليه الرجم أو قتل عمدا فعليه القود أو ارتد بعد إسلامه فعليه القتل**» **فوالله** ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام،ولاقتلت أحداً فأقيد

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩,
(٢) التفسير الكبير ٧/١٣/ ٢٤٦.
(٣) تفسير القرطبى ٢٧٥٠/ ٤ .

نفسي به، ولا ارتددت منذ اسلمت، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ذلكم الذي ذكرت لكم وصاكم به لعلكم تعقلون(١).

قال السعدي(٢) قوله: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ عن الله وصيته، ثم تحفظونها، ثم تراعونها، وتقومون بها.

ودلت الآية، على أنه بحسب عقل العبد، يكون قيامه بما أمر الله به.

وذكر نحوه ابن عثيمين فقال(٣).

العقل هنا: حسن التصرف، وأما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فمعناه: تفهمون.

وفي هذا دليل على أن هذه الأمور إذا التزم بها الإنسان؛ فهو عاقل رشيد، وإذا خالفها؛ فهو سفيه ليس بعاقل. أهـ.

قال صاحب «الظلال»(٤). ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذا التعقيب يجيء وفق المنهج القرآني في ربط كل أمر وكل نهي بالله. تقريرا لوحدة السلطة التي تأمر وتنهى في الناس، وربطاً للأوامر والنواهي بهذه السلطة التي تجعل للأمر والنهي وزنه في ضمائر الناس!

كذلك تجيء فيه الإشارة إلى التعقل. فالعقل يقتضي أن تكون هذه السلطة وحدها هي التي تعبد الناس لشرعها. وقد سبق أنها سلطة الخالق الرازق المتصرف في حياة الناس!

وهذا وذلك فوق ما في الطائفة الأولى من التجانس. وما بين الطائفة الثانية كذلك من التجانس. فجعل هذه في آية، وتلك في آية، وبينهما هذا الإيقاع.

● **ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.**

قال ابن عثيمين:(٥) وقد تضمنت هذه الآية خمس وصايا.

الأولى: توحيد الله.

الثانية: الإحسان بالوالدين.

الثالثة: أن لانقتل أولادنا.

الرابعة: أن لانقرب الفواحش.

الخامسة: أن لانقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

---

(٤) أخرجه أبوداود (ح٢٠٤٥) والترمذي (٢١٥٨) والنسائي (٣٤٨٢) وانظر تمام تخريجه «جامع العلوم والحكم» (ح١٤) بتخريجنا.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٨٦.

(٣) القول المفيد ١/ ٤٣، ٤٤

(٤) ٣ / ١٢٣٢

(٥) القول المفيد ١/ ٤٤.

● قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾

الإعراب(١).

الواو عاطفة، ولا ناهية، وتقربوا فعل مضارع مجزوم بلا،و الواو فاعل ، ومال اليتيم مفعوله . أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث.

قال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير **عن ابن عباس** قال: لما أنزل الله﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾و﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول اللهﷺ فأنزل الله ﴿ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ قال فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم رواه أبو داود (٢) .

● ما جاء فى تفسيرها من الآثار:

أخرج ابن أبى حاتم **عن عطية** فى قوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال طلب التجارة فيه والربح فيه(٣).

عن الضحاك فى قوله﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال : يبتغى لليتيم فى ماله(٤).

عن ابن زيد فى قوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال التى هى أحسن أن يأكل بالمعروف، إن افتقر وإن استغنى فلا يأكل. قال الله ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٥). فسئل عن الكسوة؟ فقال : لم يذكر الله كسونة وإنما ذكر الأكل(٦).

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٧.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٧١) وانظر تمام تخريجه فى «فتح القدير» بتخريجنا)، وابن أبى حاتم بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٨٤) ونسبه لابن أبى حاتم عن عطية

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٨٤) ونسبه لابن أبى حاتم عن الضحاك.

(٥) النساء :٦

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم أيضاً.

عن عكرمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ قال: ليس له أن يلبس من ماله قلنسوة ولاعمامة ولكن يده مع يده(1).

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال الجصاص(2):

إنما خص اليتيم بالذكر فيما أمرنا به من ذلك لعجزه عن الانتصار لنفسه ومنع غيره عن ماله ،و لما كانت الاطماع تقوى فى أخذ ماله أكد النهى عن أخذماله بتخصيصه بالذكر. أهـ.

وذكر ذلك بنحوه ابن الجوزى.

قال الرازى: (3) أعلم أنه تعالى ذكر فى الآية الأولى خمسة أنواع من التكاليف،وهى أمور ظاهرة جلية لا حاجة فيها إلى الفكر والاجتهاد، ثم ذكر تعالى فى هذه الآية أربعة أنواع من التكاليف،وهى أمور خفية يحتاج المرء العاقل فى معرفته بمقدارها إلى التفكر، والتأمل والاجتهاد.

فالنوع الأول: من التكاليف المذكورة فى هذه الآية قوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حتى يبلغ أشده﴾.

وأعلم أنه تعالى قال فى سورة البقرة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾(4).

قال السعدى: (5) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾بأكل، أومعارضة على وجه المحاباة لأنفسكم، أو أخذ من غير سبب.

قال صاحب «الظلال»: (6)واليتيم ضعيف فى الجماعة، بفقده الوالد الحامى والمربى. ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة ـ على أساس التكافل الاجتماعى الذى يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعى ـ وكان اليتيم ضائعاً فى المجتمع العربى فى

---

(1) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لأبى الشيخ.

(2) أحكام القرآن ٢/ ٣٧.

(3) التفسير الكبير٧/ ١٣/ ٢٤٦.

(4) البقرة : ٢٢٠.

(5) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٨٦.

(6) فى ظلال القرآن ٣/ ١٢٣٢.

الجاهلية . وكثرة التوجيهات الواردة فى القرآن وتنوعها وعنفها أحياناً تشى بما كان فاشيا فى ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه؛ حتى انتدب الله يتيماً كريماً فيه فعهد إليه بأشرف مهمة فى الوجود. حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة، وجعل من آداب هذا الدين الذى بعثه به رعاية اليتيم وكفالته على النحو الذى نرى منه هذا التوجيه: **﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾**.

قوله ﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

الإعـــراب(١): إلا أداة حصر، وبالـتى إسم الموصول نعت لمصـدر محذوف، والجار والمجرور متعلقان بتقربوا . أى : إلا بالخصلـه التى هى أحسن وهى مبتدأ، وأحسن خبره. والجملة الاسمية لا محل لـها لانها صلة الموصول، وأتى بصيغه اسم التفضـيل تنبيهاً على أن يتحرى فى ذلك غايه التحرى ويفعل الأحسن. أهـ.

●ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الجصاص:(٢) وقوله تعالى **﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** يدل على أن من له ولاية على اليتيم يجوز له دفع مال اليتيم مضـاربة، وأن يعمل به هو مضاربة فيستحق ربحه إذ رأى ذلك أحسن، وأن يبضع ويستأجر من يتصـرف ويتجر فى ماله، وأن يشترى ماله من نفسه إذا كان خيراً لليتيم، وهو أن يكون ما يعـطى اليتيم أكثر قيمة مما يأخذه منه. وأجاز أبو حنيفة شراه مال اليتيم لنفسه إذا كان خيرا لليتيم بهذه الآية أهـ.

وفصل ابن الجوزى فقال (٣).

وفى قوله **﴿ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** أربع أقوال:

أحدها: أنه أكل الوصى المصلح للمال بالمعروف وقت حاجته، **قاله ابن عباس**، وابن زيد.

والثانى : التجارة فيه، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والسدى.

والثالث: أنه حفظه له إلى وقت تسلميه إليه، قاله ابن السائب.

والـرابـع : أنه حفظه عليـه، وتثميره له، قاله الزجاج. قال : و«حتـى» محمولة على المعنى؛ فالمعنى : احفظوه عليه حتى يبلغ أشده، فإذا بلغ أشده، فادفعوه إليه.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٧ .

(٢) أحكام القرآن : ٢/ ٣٧.

(٣) زاد المسير ٣/ ١١٤ .

ومال الرازى إلى القول الأول فقال :[1]. والمعنى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ إلا بأن يسعى فى تنميته وتحصيل الربح به، ورعاية وجوه الغبطة له، ثم إن كان القيم فقيراً محتاجاً أخذ بالمعروف، وإن كان غنيًا فاحترز عنه كان أولى فقوله ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ معناه كمعنى قوله ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾[2].

ومال القرطبى للثانى فقال[3]:

﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه، وهذا أحسن الأقوال فى هذا؛ فإنه جامع، قال مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالتجارة فيه، ولاتشترى منه ولا تستقرض أهـ.

ومال صاحب «الظلال» إلى الثالث فقال[4]

فعلى من يتولى اليتيم ألايقرب ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن لليتيم. فيصونه ويتميه، حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند بلوغه أشده. أهـ[5]

قال السعدى: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى : إلا بالحال التى تصلح بها أموالهم، وينتفعون بها. فدل هذا، على أنه لايجوز قربانها، والتصرف بها، على وجه يضر اليتامى، أو على وجه لامضرة فيه ولامصلحة.

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد**

قال ابن عثيمين:[6] والحسن هنا يشمل : الحسن الدنيوى، والحسن الدينى، فإذا لاحَ تصرفان أحدهما أكثر ربحاً وفيه ربا، والآخر أقل ربحاً وهو أسلم من الرِّبا؛ فنقدَّم الأخير؛ لأنَّ الحسن الشرعى مقدَّم على الحسن الدنيوى المادى.

قوله : ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

---

(١) التفسير الكبير(٧ / ١٣ / ٢٤٦) .

(٢) النساء : (٦).

(٣) تفسير القرطبى ٢٥٧٠ .

(٤) ٣/ ١٢٣٢ .

(٥) تيسير الكريم الرحمن(٢ / ٨٦).

(٦) القول المفيد ١ / ٤٤).

الإعراب[1].

(حتى) حرف غاية وجر، (ويبلغ) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، والجار والمجرور متعلقان بتقربوا، و(أشده) مفعول به. أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار.

عن الشعبى فى قوله ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال: الأشد: الحلم إذا كتبت له الحسنات وكتبت عليه السيئات[2].

وعن محمد بن قيس فى قوله ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال خمس عشرة سنة[3].

وعن ربيعة بن أبى عبدالرحمن. إنه كان يقول فى هذه الآية: الأشد الحلم لقوله ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾[4].

عن زيد بن أسلم قال: الأشد : الحلم[5].

●ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.

قال ابن جرير: وفى الكلام محذوف، ترك ذكره اكتفاء بدلالة ما ظهر عما حذف، لأن المعنى: يبلغ أشده؛ فإذا بلغ أشده فآنستم منه رشداً، فادفعوا إليه ماله.

ثم قال: إن أراد بما ظهر ماظهر فى هذه الآية، فليس بصحيح؛ وإنما استفيد إيناس الرشد والإسلام من آية أخرى؛ وإنما أطلق فى هذه الآية ما قيد فى غيرها، فحمل المطلق على المقيد.

قال الرازى[6]: وأما قوله ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ فالمعنى: احفظوا ماله حتى يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا ماله أهـ.

قال ابن الجوزى: [7] وللمفسرين فى الأشد ثمانية أقوال:

أحدها: أنه ثلاث وثلاثون سنة، رواه ابن جبير عن ابن عباس.

---

(١) إعراب القرآن (٣ / ٢٧٧) .
(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٣٨٤) نسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.
(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم عن محمد بن قيس
(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لأبى الشيخ.
(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لأبى الشيخ عن زيد بن أسلم.
(٦) «التفسير الكبير» (٧ / ١٣ / ٢٤٧)
(٧) «زاد المسير» (٣ / ١١٥).

والثاني: ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أربعون سنة، روى عن عائشة عليها السلام.

والرابع: ثمانى عشرة سنة، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل.

والخامس: خمس وعشرون سنة، قاله عكرمة.

والسادس: أربع وثلاثون سنة، قاله سفيان الثورى.

والسابع: ثلاثون سنة، قاله السدى.

وقال: ثم جاء بعد هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾(١) فكأنه يشير إلى النسخ.

والثامن: بلوغ الحلم، قاله زيد بن أسلم، والشعبى، ويحيى بن يعمر، وربيعة، ومالك بن أنس وهو الصحيح.

ولا أظن بالذين حكينا عنهم الأقوال التى قبله فسروا هذه الآية بما ذكر عنهم، وإنما أظن أن الذين جمعوا التفاسير، نقلوا هذه الأقوال من تفسير قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾(٢) إلى هذا المكان؛ وذلك نهاية الأشد، وهذا ابتداء تمامه؛ وليس هذا مثل ذاك.

قال الرازى:(٣) بلوغ الأشد: مبلغ الرجل الحكمة والمعرفة.

قال القرطبى:(٤) قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعنى قوته، وقد تكون فى البدن، وقد تكون فى المعرفة بالتجربة، ولابد من حصول الوجهين؛ فإن الأشُد وقعت هنا مطلقة. وقد جاء بيان حال اليتيم فى سورة «النساء» مقيدة، فقال: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد؛ فلو مكن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهبه فى شهواته وبقى صعلوكًا لامال له.

وخص اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وافتقاد الآباء لابنائهم فكان الاهتمام بفقيد الأب أولى.

قال الشنقيطى:(٥) والتحقيق أن المراد بالاشد فى هذه الآية البلوغ، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾(٦).

والبلوغ يكون بعلامات كثيرة، كالإنبات، واحتلام الغلام، وحيض الجارية،

---

(١) النساء: ٦.

(٢) يوسف: ٢٢، والقصص: ١٤.

(٣) التفسير الكبير (٧/ ١٣/ ٢٤٧).

(٤) تفسير القرطبى (٤/ ٢٥٧٠).

(٥) أضواء البيان (٢/ ٢١٠).

(٦) النساء: ٦.

وحملها، وأكثر أهل العلم على أن سن البلوغ خمسة عشرة سنة.

ومن العلماء من قال: إذا بلغت قامته خمسة أشبار، فقد بلغ، ويروى هذا القول عن علي، وبه أخذ الفرزدق في قوله يرثي يزيد بن المهلب.

مازال مذ عقدت يداه إزاره فسما فأدرك خمسة الأشبار

يدني خوافق من خوافق تلتقي في ظل معتبط الغبار مثار

قال الشنقيطي: قال مالك وأصحابه: إن الرشد الذي يُدْفع به المال إلى من بلغ النكاح، هو حفظ المال وحسن النظر في التصرف فيه، وإن كان فاسقاً شريباً، كما أن الصالح التقي إذا كان لا يحسن النظر في المال لايدفع إليه ماله، قال ابن عاصم المالكي في «تحفته»:

وشارب الخمر إذا ماثمرا لمايلي من ماله لن يحجرا

وصالح ليس يجيد النظرا في المال إن خيف الضياع حجرا

وقال الشافعي ومن وافقه: لايكون الفاسق العاصي رشيداً، لأنه لاسفه أعظم من تعريضه نفسه لسخط الله وعذابه بارتكاب المعاصي، والله تعالى أعلم.

● **شبهة والرد عليها**

قال الشنقيطي: (١) قد يتوهم غير العارف من مفهوم مخالفة هذه الآية الكريمة، أعني مفهوم الغاية في قوله: ﴿**حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**﴾ إنه إذا بلغ أشده، فلا مانع من قربان ماله بغير التي هي أحسن، وليس ذلك مراداً بالآية، بل الغاية ببلوغ الأشد يراد بها: أنه إن بلغ أشده يدفع إليه ماله، إن أونس منه الرشد، كما بينه تعالى بقوله: ﴿**فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾(٢). وقد سبق إلى هذا المعنى القرطبي رحمه الله.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾

الإعراب:(٣) الجملة معطوفة، ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ**﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والميزان: مفعول به معطوف على ﴿**الْكَيْلَ**﴾، و الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من المفعول به، أي مقسطين عادلين، ويجوز أن يكون حالاً من المفعول به، أي: تآمّين.

---

(١) أضواء البيان ٢/ ٢١٠. (٢) النساء: ٦.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٧

● **ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:**

قال الشنقيطى:[1] أمر تعالى فى هذه الآية الكريمة بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، وذكر أن من أخل بايفائه من غير قصد منه لذلك، لاحرج عليه لعدم قصده، ولم يذكر هنا عقاباً لمن تعمد ذلك ولكن توعده بالويل فى موضع آخر، ووبخه بأنه لايظن البعث ليوم القيامة، وذلك فى قوله ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[2]. وذكر فى موضع آخر أن إيفاء الكيل والميزان خير لفاعله، وأحسن عاقبة، وهو قوله تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾[3] أهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية بالسنة.**

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ **يا معشر التجار أنكم قد وليتم أمر هلكت فيه الأمم السالفه قبلكم (المكيال والميزان)**[4].

من أقوال التابعين: عن قتادة فى قوله ﴿**بالقسط**﴾ قال بالعدل [5].

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال الطبرى: [6] يقول تعالى ذكره ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ**﴾ لاتبخسوا الناس الكيل إذا كلتموهم، والوزن إذا وزنتموهم لكن أوفوهم حقوقهم. وإيفاؤهم ذلك إعطاؤهم حقوقهم تامه(**بالقسط**) يعنى بالعدل.

قال الجصاص: [7] فيه أمر بإيفاء الحقوق على الكمال

قال الرازى :[8] واعلم أن كل شىء بلغ تمام الكمال، فقد وفى وتم. يقال: درهم واف، وكيل واف، وأوفيته حقه، ووفيته إذا أتممته، وأوفى الكيل إذا أتمه ولم ينقص منه شيئاً.

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٢١١، ٢١٢). (٢) المطففين: ١ ـ ٦.
(٣) الإسراء: ٣٥.
(٤) ذكره السيوطى فى الدر (٣/ ١٨٥) ونسبه للترمذى وضعفه، وابن عدى، وابن مردويه، والبيهقى فى «الشعب» وأخرجه الترمذى (١٢١٧) وصححه موقوفاً الترمذى (١٢١٧).
(٥) ذكره فى الدر (٣/ ٣٨٥) ونسبه لأبى شيخ.
(٦) تفسير الطبرى (٥/ ٨/ ٦٣). (٧) أحكام القرآن (٣/ ٣٨).
(٨) التفسير الكبير (٧/ ١٣/ ٢٤٧).

وقوله ﴿وَالْمِيزَانَ﴾: أى الوزن بالميزان.

وقوله﴿بِالْقِسْطِ﴾: أى بالعدل لابخس ولانقصان.

فإن قيل: **إيفاء الكيل والميزان، هو عين القسط، فما الفائدة فى هذا التكرير؟**

قلنا: أمر الله المعطى بإيفاء ذى الحق حقه من غير نقصان، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة.

وأقر ذلك القرطبى فقال(١): قوله تعالى: **﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾** أى: بالإعتدال فى الأخذ والعطاء عند البيع والشراء. ا.هـ

وذكر نحوه ابن كثير.

قال صاحب «الظلال»:(٢) وهذه فى المبادلات التجارية بين الناس فى حدود طاقة التحرى والإنصاف. والسياق يربطها بالعقيدة لأن المعاملات فى هذه الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة. والذى يوصى بها ويأمر هو الله. ومن هنا ترتبط بقضية الألوهية والعبودية، وتذكر فى هذا المعرض الذى يبرز فيه شأن العقيدة، وعلاقتها بكل جوانب الحياة.

ولقد كانت الجاهليات ـ كما هى اليوم ـ تفصل بين العقيدة والعبادات، وبين الشرائع والمعاملات.. من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب: «**قالوا: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء**» ؟!

ومن ثم يربط السياق القرآنى بين قواعد التعامل فى المال والتجارة والبيع والشراء، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة، للدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين العقيدة والشريعة، وبين العبادة والمعاملة، فى أنها كلها من مقومات هذا الدين، المرتبطة كلها فى كيانه الأصيل. أهـ.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين: (٣) قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

أى: **﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾** إذا كلتم فيما يكال من الأطعمة والحبوب.

وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يوزن؛ كاللحوم مثلاً.

والأمر بالإيفاء شامل لجميع ما تتعامل به مع غيرك؛ فيجب عليك أن توفى بالكيل والوزن وغيرهما فى التعامل. أهـ.

---

(١) تفسير القرطبى (٤/ ٢٥٧٢). (٢) (٣/ ١٢٣٣).

(٣) القول المفيد (١/ ٤٥).

قوله: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

الإعراب: [1]﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾

الجملة معترضه بين المتعاطفين لا محل لها، للتنبيه على أن أمر الكيل والميزان ومراعاة العدل فيهما يتطلب دقه ومغالبه للهوى و(لا): نافيه، (ونكلف) فعل مضارع مرفوع، ونفساً مفعول به، (وإلا) أداة حصر، و(وسعها) مفعول به ثانى، كأنه قيل: أعملوا كل ما فى وسعكم وطاقتكم أ هـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من السنة:**

عن سعيد بين المسيِّب قال. تلا رسول الله ﷺ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾[2].

﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ فقال: **من أوفى على يديه فى الكيل والميزان الله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما لم يؤاخذ، وذلك تأويل وسعها**».

● **ما جاء فى الآية من كلام المفسرين:**

قال الطبرى: [3] وأما قوله ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ فإنه: يقول لانكلف نفسا من إيفاء الكيل والوزن إلا مايسعها، فيحل لها ولاتحرج فيه. وذلك أن الله جل ثناؤه علم من عباده أن كثيراً منهم تضيق نفسه عن أن تطيب لغيره بما لا يجب عليها له فأمر المعطى بإيفاء رب الحق حقه الذى هو له، ولم يكلفه الزيادة لما فى الزيادة عليه من ضيق نفسه بها وأمر الذى له الحق بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقل منه لما فى النقصان عنه من ضيق نفسه فلم يكلف نفساً منهما إلامالا حرج فيه ولا ضيق، فلذلك قال: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

قال الجصاص[4]: ولما كان الكيل والوزن يتعذر فيهما التحديد بأقل القليل علمنا أنه لم يكلفنا ذلك وإنما كلفنا الاجتهاد فى التحرى دون حقيقة الكيل والوزن، وهذا أصل فى جواز الاجتهاد فى الأحكام وأن كل مجتهد مصيب وإن كانت الحقيقة المطلوبة بالاجتهاد واحدة؛ لأنا قد علمنا أن للمقدار المطلوب من الكيل حقيقة معلومة عند الله تعالى قد أمرنا بتحريها والاجتهاد فيها ولم يكلفنا إصابتها، إذ لم يجعل لنا دليلاً عليها، فكان كل ما أدّانا إليها اجتهادنا من ذلك فهو الحكم الذى تعبدنا به.

---

(١) إعراب القرآن (٣/ ٢٧٧).
(٢) ذكره فى الدر» (٣/ ٣٨٤) ونسبه لابن مردويه.
(٣) تفسير الطبرى (٥/ ٨/ ٦٣).
(٤) أحكام القرآن (٣/ ٣٨).

وقد يجوز أن يكون ذلك قاصرا عن تلك الحقيقة أو زائداً عليها؛ ولكنه لما لم يجعل لنا سبيلاً إليها أسقط حكمها عنا.

ويدلك على أن تلك الحقيقة المطلوبة غير مدركة يقينا أنه قد يكال أويوزن ثم يعاد عليه الكيل أو الوزن فيزيد أو ينقص لاسيما فيما كثر مقداره؛ ولذلك قال الله تعالى ﴿**لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾(١) فى هذا الموضع، يعنى أنه ليس عليه اكثرمما يتحراه باجتهاده وقد استدل عيسى بن أبان بأمر الكيل والوزن على حكم المجتهدين فى الأحكام وشبهه به.

قال الرازى:(٢) واعلم أنه لما كان يجوز أن يتوهم الإنسان أنه يجب على التحقيق وذلك صعب شديد فى العدل أتبعه الله تعالى بما يزيل هذا التشديد فقال﴿**لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾(٣) أى الواجب فى إيفاء الكيل والوزن هذا القدر الممكن فى إيفاء الكيل والوزن. أما التحقيق فغير واجب.

قال القرطبى:(٤) وهذا يقتضى أن هذه الأوامر . إنما هى فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز، ومالا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكيلين، ولا يدخل تحت قدرة البشر فمَعفوا عنه.

ثم قال(٥) وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبدالله بن عباس أنه قال: ماظهر الغلول فى قوم قط إلا ألقى الله فى قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا فى قوم إلاكثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قُطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم،ولاحقر قوم بالعهد إلا سلط عليهم الله العدو.

وقال ابن عباس أيضاً: إنكم معشر الأعاجم قد وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم(٦).

قال السعدى(٧): وبهذه الآية استدل الأصوليون، بأن الله لايكلف أحداً، مالا يطيق، وعلى أن من اتقى الله، فيما أمر، وفعل مايمكنه من ذلك، فلاحرج عليه فيما سوى ذلك.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين:(٨) ولما كان قوله ﴿**بِالْقِسْطِ**﴾ قد يشق بعض الأحيان، لأن الإنسان

---

(١) البقرة: (٢٨٦).
(٢) التفسير الكبير (٧/ ١٣/ ٢٤٧).
(٣) الأنعام: (١٥٢).
(٤) تفسير القرطبى (٤/ ٢٥٧٣).
(٥) نفس المصدر السابق.
(٦) تقدم قريباً.
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٨٧).
(٧) القول المفيد(١/ ٤٥).

قد يفوته أن يوفى الكيل أو الوزن أحياناً، أعقب ذلك بقوله: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أى طاقتها، فإذا بذل جهده وطاقته وحصل النقص، فلايعد مخالفاً لأن ما خرج عن الطاقة معفو عنه فيه وكما أن هذه الجملة تفيد العفو من وجه، وهوماخرج عن الوسع؛ فإنها تفيد التغليظ من وجه، وهوأن على المرء أن يبذل وسعه فى الإيفاء بالقسط، ولكن متى تبين الخطأ وجب تلافيه لأنه دال فى الوسع.

قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

الإعراب:[1]

الواو عاطفه، **(وإذا)** شرطية ظرفية، وجملة **(قلتم)** فى محل جر بالإضافة، و**(الفاء)** رابطة، و**(اعدلوا)** فعل أمر مبنى على حذف النون، والواو حالية، و**(لو)** شرطيه غير جازمة، و**(كان)** فعل ماضى ناقص، واسمها ضمير مستتر، و**(ذا)** قربى خبرها.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

قال ابن كثير:[2] **وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾** كقوله **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾** الآية، وكذا التى تشبهها فى سورة النساء يأمر تعالى بالعدل فى الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد فى كل وقت وكل حال.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله **﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾** يعنى ولو كان قرابتك فقل فيه الحق [3].

وأخرج أيضاً عن ابن زيد فى قوله **﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾** قال قولوا الحق [4].

قال ابن عثيمين: [5] وقد أقسم أشرف الخلق. وسيد ولد آدم . وأعدل البشر؛ محمد ﷺ وقال **وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها**[6].

(١) إعراب القرآن (٣/ ٢٧٧).

(٢) تفسير ابن كثير(٢/ ١٨٢).

(٣) ذكره فى الدر (٣/ ٣٨٥) ونسبه لابن أبى حاتم، فانظره بتخريجنا.

(٤) ذكره فى الدر (٣/ ٣٨٥) ونسبه لابن أبى حاتم. فأنضر بتخريجنا.

(٥) القول المفيد (١/ ٤٦).

(٦) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى فى الانبياء، ومسلم فى الحدود.

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال الطبرى: [1] يعنى تعالى ذكره بقوله ﴿قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم فقولوا الحق بينهم واعدلوا وأنصفوا ولاتجوروا ولو كان الذى يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة به لكم ولا يحملنكم قرابة قريب أوصداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه.

قال الرازى: [2] واعلم أن هذا أيضاً من الأمور الخفية التى أوجب الله تعالى فيها أداء الأمانة.

والمفسرون حملوه على أداء الشهادة فقط، والأمر والنهى فقط.

قال القاضى: وليس الأمر كذلك بل يدخل فيه كل مايتصل بالقول.

فيدخل فيه مايقول المرء فى الدعوة إلى الدين وتقرير الدلائل عليه بأن يذكر الدليل ملخصاً عن الحشو والزيادة بألفاظ مفهومة معتادة، قريبة من الأفهام.

ويدخل فيه: أن يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واقعاً على وجه العدل من غير زيادة فى الإيذاء والإيحاش، ونقصان عن القدر الواجب، ويدخل فيه الحكايات التى يذكرها الرجل حتى لايزيد فيها ولاينقص عنها، ومن جملتها تبليغ الرسالات عن الناس، فإنه يجب أن يؤديها من غير زيادة ولانقصان ويدخل فيه: حكم الحاكم بالقول، ثم إنه تعالى بين أنه يجب أن يسوى فيه بين القريب والبعيد، لأنه لماكان المقصود منه طلب رضوان الله تعالى لم يختلف ذلك بالقريب والبعيد.

قال السعدى: [3] ﴿وإذاقُلْتُمْ﴾ قولاً تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلمون به على المقالات والأحوال ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فى قولكم، بمراعاة الصدق فيمن تحبون، ومن تكرهون والإنصاف وعدم كتمان مايلزم بيانه.

فإن الميل، على من تكره بالكلام فيه، أو فى مقالته، من الظلم المحرم.

بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه، أن يعطى كل ذى حق حقه، وأن يبين مافيها، من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق، وبعدها منه.

وذكر الفقهاء أن القاضى يجب عليه العدل بين الخصمين، فى لحظه، ولفظة.

قال صاحب «الظلال» [4]: وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشرى - وقد ربطه بالله ابتداء - إلى مستوى سامق رفيع، على هدى من العقيدة فى الله ومراقبته.. فهنا مزلة من مزلات الضعف البشرى. الضعف الذى يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر

(١) تفسير الطبرى (٥/٨/٦٣).
(٢) التفسير الكبير (٧/١٣/٢٤٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن(٢/٨٧).
(٤) (٣/١٢٣٣).

والتكامل والامتداد؛ بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل؛ وفى قوة القرابة سند لضعفه وفى سعة رقعتها كمال لوجوده، وفى امتدادها جيلاً بعد جيل ضمان لامتداده! ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم، أو القضاء بينهم وبين الناس.. وهنا فى هذه المنزلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشرى ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى الإعتصام بالله وحده. أهـ.

وقوله ﴿وبِعَهْدِ اللَّهِ وأَوْفُوا﴾

الإعراب: (١) و(**بعهد الله**) جار ومجرور متعلقان بـ(**أوفوا**) وأوفوا فعل أمر مبنى على حذف النون.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن.

قال الجصاص: (٢).قوله تعالى ﴿**وبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا**﴾ عهد الله يشتمل على أوامره وزواجره، كقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ**﴾(٣) وقد يتناول المنذور وما يوجبه العبد على نفسه من القرب، ألاترى إلى قوله: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾(٤)

قال الشنقيطى:(٥) أمر تعالى فى هذه الآية الكريمة بالإيفاء بعهد الله، وصرح فى موضع آخر أن عهدالله سيسأل عنه يوم القيامة بقوله﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً**﴾(٦). أى عنه.

قال ابن عثيمين: (٧)﴿**وعهد الله**﴾ ماعهد به إلى عباده، وهى عبادته سبحانه وتعالى والقيام بأمره؛ كما قال عزوجل: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾(٨).

هذا ميثاق من جانب المخلوق، وقوله تعالى: ﴿**لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾(٩) هذا من جانب الله ـ عزوجل ـ.

---

(١) إعراب القرآن (٣/ ٢٧٧، ٢٧٨).
(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩.
(٣) يس: (٦٠).
(٤) النحل: (٩١).
(٥) أضواء البيان (٢/ ٢١٢).
(٦) الإسراء: (٣٤).
(٧) القول المفيد (١/ ٤٦، ٤٧).
(٨) المائدة: (١٢).
(٩) آل عمران: (١٩٥).

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال الطبرى: [1] ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يقول بوصية الله التى أوصاكم بها فأوفوا وإيفاء ذلك أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم، وأن يعملوا بكتابه وسنه وسوله ﷺ وذلك هو الوفاء بعهد الله.

قال ابن الجوزى: [2] وعهدالله يشتمل على ماعهده إلى الخلق وأوصاهم به. وعلى ما أوجبه الإنسان على نفسه من نذر وغيره.

قال الرازى: [3] قوله تعالى ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾وهذا من خفيات الأمور لأن الرجل قد يحلف مع نفسه، فيكون ذلك الحلف خفيا، ويكون بره وحنثه أيضاً خفياً، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام قال﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال القرطبى: [4]﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾عام فى جميع ماعهد الله إلى عباده ويحتمل أن يراد جميع ماعقد بين إنسانين،وأضيف ذلك العهد إلى الله حيث أمر بحفظه والوفاء به.

قال الفقير: وهذا أظهر وأجمع للمعانى.

قال صاحب«الظلال»:[5] ومراقبة الله وحده، اكتفاء به من مناصرة ذوى القربى، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه؛ وهو - سبحانه - أقرب إلى المرء من حبل الوريد..

لذلك يعقب على هذا الأمر - وعلى الوصايا التى قبله - مذكراً بعهد الله. «**وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا**»

ومن عهد الله قوله الحق والعدل ولو كان ذا قربى . ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط. ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن. ومن عهد الله حرمة النفس إلا بالحق.. وقبل ذلك كله.. من عهد الله ألا يشركوا به شيئاً . فهذا هو العهد الأكبر، المأخوذ على فطرة البشر، بحكم خلقتها متصلة بمبدعها، شاعرة بوجوده

---

(١) تفسير الطبرى (٥/٨/٦٣)،وأخرناه ههنا لمصلحة المعنى.
(٢) زاد المسير (٣/١١٦).
(٣) التفسير الكبير (٧/١٣/٢٤٨).
(٤) القرطبى (٤/٢٥٧٣).
(٥) الظلال (٣/١٢٣٣).

فى النواميس التى تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها.

● **ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.**

قال ابن عثيمين: [1] قوله ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قدَّم المتعلق ؛ للإهتمام به.

قوله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الإعراب: تقدم إعراب نظيرها.

قال الطبرى:[2] وأما قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل للعادلين بالله الأوثان والأصنام من قومك هذه الأمور التى ذكرت لكم فى هاتين الآيتين هى الأشياء التى عهد الينا ربنا، ووصاكم بها ربكم، وأمركم بالعمل بها، لا بالبحائر، والسوائب، و الوصائل، والحام، وقتل الأولاد، ووأد البنات، واتباع خطوات الشيطان ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول أمركم بهذه الأمور التى أمركم بها فى هاتين الآيتين، وصاكم بها وعهد إليكم فيها؛ لتتذكروا عواقب أمركم وخطأ ماأنتم عليه مقميون. فتنزجروا عنها وترتدعوا وتنيبوا إلى طاعة ربكم.

قال القرطبى: [3] تذكرون تتعظون.

وقال ابن كثير: [4] وتنتهون مماكنتم فيه قبل هذا.

وقرأ بعضهم بتشديد الذال، وآخرون بتخفيفها.

● **فائدة:**

قال الرازى: [5] فإن قيل: فما السبب فى أن جعل خاتمة الآية الأولى بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وخاتمة هذه الآية الثانية ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

قلنا: لأن التكاليف الخمسة المذكورة فى الأولى - أى قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية - أمور ظاهرة جلية، فوجب تعقلها وتفهمها.

(1) القول المفيد (1/46). (2) تفسير الطبرى (5/8/63، 64).
(3) تفسير القرطبى (4/2573).
(4) تفسير ابن كثير(2 / 182).
(5) التفسير الكبير (7/13/248).

وأما التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية - أي قوله: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ الآية - فأمور خفية غامضة، لابد فيها من الاجتهاد والفكر حتى يقف على موضع الاعتدال، فلهذا السبب قال ﴿**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿**تَذَكَرُونَ**﴾ بالتخفيف، وللباقون ﴿**تَذَّكَّرُونَ**﴾ بتشديد الذال في كل القرآن وهما بمعنى واحد.

قال صاحب «الظلال»: (١) ﴿**ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾والذكر ضد الغفلة. والقلب الذاكر غير الغافل، وهو يذكر عهد الله كله ويذكر وصاياه المرتبطه بهذا العهد ولاينساها.

● **ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.**

قال ابن عثيمين: (٢) قوله ﴿**ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾

هذه الآية الكريمة فيها أربع وصايا من الخالق عزوجل:

الأولى: أن لانقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

الثانية: أن نوفي الكيل والميزان بالقسط.

الثالثة: أن نعدل إذا قلنا.

الرابعة: أن نوفي بعهد الله.

والآية الأولى فيها خمس وصايا . صار الجميع تسع وصايا أهـ.

قوله: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ**﴾

الإعراب (٣).

عطف على ماتقدم، و(**أن**) واسمها و(**صراطي**) خبرها و(**مستقيماً**) حال مؤكدة من (**صراطي**)، والعامل فيهامعنى الإشارة والفاء الفصيحة، و(**اتبعوه**) فعل أمر وفاعل ومفعوله، والجملة لامحل لها.

والمعنى: إذا أردتم الفوز والنجاة من مهاوي البدع ومساقط الضلالات و(**اتبعوه**) فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة لامحل لها. أ. هـ.

---

(١) (٣/ ١٢٣٣، ١٢٣٤). (٢) القول المفيد (١/ ٤٧).

(٣) إعراب القرآن (٣/ ٢٧٨).

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال الطبرى: (١) يقول تعالى ذكره: وهذا الذى وصاكم به ربكم أيها الناس فى هاتين الآيتين من قوله ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾. وأمركم بالوفاء به هو صراطه يعنى طريقه ودينه الذى ارتضاه لعباده ﴿مُسْتَقِيماً﴾ يعنى قويمًا لا اعوجاج به عن الحق فاتبعوه، يقول فاعملوا به واجعلوه لأنفسكم منهاجًا تسلكونه فاتبعوه.

قال الجصاص:(٢) وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية.

فإن المراد بالصراط: الشريعة التى تَعَبَّد الله بها عبادَهُ، والصراط: هو الطريق، وإنما قيل للشرع الطريق لأنه يؤدّى إلى الثواب فى الجنة فهو طريق إليها وإلى النعيم، وأما سبيل الشيطان فطريق إلى النار ـ أعاذنا الله منها ـ، وإنما جاز الأمر باتّباع الشرع بما يشتمل عليه من الوجوب والنفل والمباح كما جاز الأمر باتّباعه مع ما فيه من التحليل والتحريم، وذلك لأن اتباعه إنما هو اعتقاد صحته على ترتيبه من قُبْحِ المحظور ووجوب الفرض والرغبة فى النفل واستباحة المباح والعمل بكل شيء من ذلك على حسب مقتضى الشرع له من إيجاب أو نفل أو إباحة.

قال ابن الجوزى:(٣) وفى الصراط قولان: **أحدهما**: أنه القران، **(والثانى)**: الإسلام.

قال السعدى:(٤) ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾ أى: هذه الأحكام وما أشبهها، مما بينه الله فى كتابه، ووضحه لعباده، صراط الله الموصل إليه، وإلى دار كرامته، المعتدل السهل المختصر.

﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لتنالوا الفوز والفلاح، وتدركوا الآمال والأفراح.

● **ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين(٥): والصراط يضاف إلى الله -عز وجل- ويضاف إلى سالكه، ففى قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(٦) هنا أضيف إلى سالكه، وفى قوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ﴾(٧) هنا أضيف إلى الله -

(١) تفسير الطبرى (٥/ ٨/ ٦٤).
(٢) أحكام القرآن (٣/ ٣٩).
(٣) زاد المسير (٣/ ١١٦).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٨٧).
(٥) القول المفيد (١/ ٤٧، ٤٨).
(٦) الفاتحة: (٧).
(٧) الشورى: (٥٣).

عز وجل لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذى وضعه لعباده جلا وعلا، - فإضافته إلى الله - عزوجل-وإضافته إلى سالكه لأنهم هُم الذى سلكوه.

قوله: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾.

الإعراب(١): الواو عاطفة، و(لا) ناهية، و(تتبعوا) فعل مضارع مجزوم بلا، والواو فاعل، و(السبل) مفعول به، (فتفرق): الفاء السببية هو تفرق أصله تتفرق فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء فى جواب النهى، و(بكم): جار ومجرور متعلقان بتفرق، و(عن سبيله) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أى: متنائية عن سبيله. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة والآثار.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطًا بيده ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيمًا**»، وخط عن يمينه وشماله ثم قال «**هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾(٢).

وقال الحاكم: وشاهد هذا الحديث حديث الشعبى عن جابر من غير وجه معتمد. يشير إلى الحديث الذى قال الإمام أحمد وعبد بن حميد جميعًا، واللفظ لأحمد عن الشعبى عن جابر قال: كنا جلوسًا عند النبى ﷺ فخط خطأ هكذا أمامه فقال: «**هذا سبيل الله**» وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال: «**هذه سبل الشيطان**» ثم وضع يده فى الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ**﴾ الآية(٣).

ورواه أحمد وابن ماجة فى كتاب السنة من سننه والبزار عن أبى سعيد عبد الله بن سعيد عن أبى خالد الأحمر(٤)، قلت- يعنى ابن كثير: ورواه الحافظ ابن مردويه من طريقين عن أبى سعيد الكندى حدثنا أبو خالد عن مجاهد عن الشعبى عن جابر قال:

---

(١) إعراب القرآن (٣/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، والنسائى فى «تفسيره» (١٩٤، ١٩٥).
وانظر تخريجه فى «فتح القدير» (٤٨٦٧ - بتخريجنا) وفتح المجيد (ح٤٧) بتخريجنا.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٣٩٧)، وابن ماجة (١١) عن ابن مسعود به.
وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٠٦) وزاد نسبته لابن مردويه.
وانظر تخريجه فى «فتح القدير» (٤٨٦٨ - بتخريجنا).

(٤) تقدم فيما قبله.

خط رسول الله ﷺ خطًا وخط عن يمينه خطـاً، وخط عن يساره خطًا، ووضع يده على الخط الأوسط، وتلا هذه الاية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(١) ولكن العـمدة على حديث ابن مـسعود مع ما فيـه من الاختلاف إن كان مؤثرًا، وقد روى موقوفًا على.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بـن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثـور عن معمر عن أبان بن عثمان أن رجلاً قـال لابن مسعود ما الصراط المستقيم؟ قـال: «تركنا محمد ﷺ فى أدناه وطرفـه فى الجنة وعن يمينـه جواد وعن يساره جواد، ثم رجال يـدعون من مر بهم فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(٢) الآية.

وقال ابن مردويه: عن عبد الله بن عمر سأل عبد الله عن الصراط المستقيم فقال ابن مسعود تركنا محمـد ﷺ فى أدناه وطرفه فى الجنة(٣)... وذكر تمام الحديث كـما تقدم والله أعلم.

وقد روى من حـديث النواس بـن سمعان نـحوه قال الإمام أحـمد عن النـواس بن سمـعان عن رسـول الله ﷺ قال **«ضرب الله مثـلاً صراطًا مستقـيمًا وعن جنبـى الصراط سوران فيهمـا أبواب مفتحة وعلى الأبـواب ستور مرخاة وعلى باب الـصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط المستقيم جميعًا ولا تفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يـفتح شيئًا من تلـك الأبواب قال ويحـك لا تفتحـه فإنك إن تفـتحه تلـجه فالـصراط الإسلام والسـوران حدود الله والأبواب المفـتحة محـارم الله وذلك الداعى عـلى رأس الصراط كتاب الله والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم»**(٤). اهـ.

وعن قتادة فى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ قال:

---

(١) تقدم قبل حديث.

(٢) أخرجـه ابن جـرير فى «تـفسيـره» (٨/ ٦٥) وذكره الـسيوطـى فى «الدر» (٣/ ١٠٦) وزاد نـسبتـه لعبدالرزاق وابن مردويه.

وانظر تمام تخريجه فى «فتح القدير» (٤٨٦٩ - بتخريجنا).

(٣) تقدم فيما قبله.

(٤) أخرجه ؟؟؟ فى «مسنده» (٤/ ١٨٢)، والترمذى (٢٨٥٩).

وأنظر تمام تخريجه فى «فتح القدير» (١١٠ - بتخريجنا).

اعلموا إنما السبيل سبيل واحد جماعه الهدى ومصيره الجنة، وأن إبليس اشترع سبلاً متفرقة جماعها الضلالة ومصيرها النار(١).

قال القرطبى(٢):

قال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ قال: البدع(٣).

روى الأئمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا»**(٤) وروى ابن ماجة وغيره عن العرباض بن سارية قال: وَعَظَنا رسول الله ﷺ موعظة ذَرَفت منها العيون، ووجِلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه لموعظةُ مودّع، فما تَعْهَد إلينا؟ فقال: **«قد تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى عَضُّوا عليها بالنواجذ وإياكم والأمورَ المحدثات فإن كلّ بدعة ضلالة وعليكم بالطاعة وإنْ عبداً حبشيًّا فإنما المؤمن كالجَمَل الأنف حيثما قِيد انقاد»**(٥) أخرجه الترمذى بمعناه وصححه.

وروى أبو داود قال حدثنا ابن كثير قال أخبرنا سفيان قال: كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب: أما بعد: فإنى أوصيك بتقوى الله والاقتصاد فى أمره واتباع سنة رسول الله ﷺ، وترك ما حدث المحدثون بعد ما جرت به سُنّتُه، وكُفُوا مؤونته، فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناسُ بدعةً إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرةٌ فيها، فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما فى خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضى به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وإنهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى. فإن كان الهُدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم إنما حدث بعدهم فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورَغِب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، قد تكلّموا فيه بما يكفى ووصفوا ما يَشفِى، فما دونهم من مقصر،

(١) ذكره السيوطى (٣/ ٣٨٥) ونسبه لعبد بن حُميد، الشيخ.

(٢) القرطبى: (٤/ ٢٥٧٤/ ٢٥٧٥، ٢٥٧٦).

(٢) [صحيح] أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٠٦) وزاد نسبة لابن ، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبى الشيخ.

وأنظر «فتح المجيد» (ح ٤٨) بتخريجنا.

(٤) أخرجه البخارى (٨٢٨٨)، ومسلم فى «الفضائل» (١٥/ ١٠٩، ١١٠- النووى) وانظر «جامع العلوم والحكم (٩ - بتخريجنا).

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٢٦)، والميو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٧٦)، وابن ماجة (٤٣).

وما فوقهم من مجسر، وقد قصر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فَغَلَوْا وإنهم مع ذلك لَعَلَى هُدًى مستقيم، وذكر الحديث.

وقال سهل بن عبد الله التُسْتَرى: عليكم بالاقتداء بالأثر والسنة، فإنى أخاف أنه سيأتى عن قليل زمان إذا ذَكر إنسانٌ النبى ﷺ والاقتداء به فى جميع أحواله ذَمّوه ونفروا عنه وتبرءوا منه وأذلّوه وأهانوه.

قال سهل: إنما ظهرت البدعة على يدى أهل السنة لأنهم ظاهروهم وقاولوهم، فظهرت أقاويلهم وفَشَت فى العامة فَسمعه من لم يكن يسمعه، فلو تركوهم ولم يكلموهم لمات كل واحد منهم على ما فى صدره ولم يظهر منه شىء وحمله معه إلى قبره.

وقال سهل: لا يُحدث أحدكم بدعةً حتى يحدث له إبليس عبادة فيتعبد بها ثم يُحدث له بدعة، فإذا نطق بالبدعة ودعا الناس إليها نزع منه تلك الخدمة.

قال سهل: لا أعلم حديثًا جاء فى المبتدعة أشدّ من هذا الحديث: **«حجب الله الجنة عن صاحب البدعة»**.

قال: فاليهودى والنصرانى أرجى منهم.

قال سهل: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان، ولا يخلُونَ بالنسوان وليخاصمنَّ أهل الأهواء.

وقال أيضًا: اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم.

وفى مسند الدارمى: إن أبا موسى الأشعرى جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنى رأيت فى المسجد آنفاً شيئاً أنكرته ولم أر والحمد لله إلاخيراً قال: فما هو؟ قال: إن عشت فستراه، قال: رأيت فى المسجد قومًا حِلَقًا حِلَقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، فى كل حَلَقة رجل وفى أيديهم حَصًى فيقول لهم: كَبِّروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هَلِّلُوا مائة فيهللون مائة، ويقول: سبّحوا مائة فيسبحون مائة، قال: فماذا قلتَ لهم؟ قال: ما قلتُ لهم شيئًا، انتظارَ رأيك وانتظار أمرك. قال: أفلا أمرتَهم أن يَعُدّوا سيئاتهم وضَمِنت لهم ألا يضيع من حسناتهم، ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حَلْقة من تلك الحلَق، فوقف عليهم فقال: ما هذا الذى تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حَصَى نَعُدّ به التكبير والتهليل، قال: فعُدوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألا يضيع من حسناتكم شىء، ويحكم يا أمة محمد! ما أسرعَ هَلَكتكم، أومُفتحى باب ضلالة؟! قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير فقال: وكم من مريد للخير لن يصيبه.

وعن عمر بن عبد العزيز وسأله رجل عن شيء من أهل الأهواء والبدع، فقال: عليك بدين الأعراب والغلام فى الكُتَّاب، والْه عَما سِوَى ذلك.

وقال الأوزاعى قال إبليس لأوليائه، من أىّ شىء تأتون بنى آدم؟ فقالوا: من كل شىء. قال: فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ قالوا: هيهات! ذلك شىء قُرِنْ بالتوحيد قال: لأبثّن فيهم شيئًا لا يستغفرون الله منه. قال: فبث فيهم الأهواء.

وقال مجاهد: ولا أدرى أى النعمتين علىّ أعظم: إن هدانى للإسلام، أو عافانى من هذه الأهواء.

وقال الشعبى: إنما سُمُّوا أصحاب الأهواء: لأنهم يهوون فى النار، كله عن الدارمى.

وسئل سهل بن عبد الله عن الصلاة خلف المعتزلة والنكاح منهم وتزويجهم؟ فقال: لا، ولا كرامة! هم كفار، كيف يؤمن من يقول: القرآن مخلوق، ولا جنة مخلوقة ولانار مخلوقة ولا لله صراط ولا شفاعة ولا أحد من المؤمنين يدخل النار ولا يخرج من النار من مذنبى أمة محمد ﷺ، ولا عذاب القبر، ولا منكر ولا نكير، ولا رؤية لربنا فى الآخرة، ولا زيادة، وأن علم الله مخلوق، ولا يرون السلطان ولا جمعة، ويكفّرون من يؤمن بهذا.

وقال الفضيل بن عياض: من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه.

وقد تقدم هذا من كلامه وزيادة.

وقال سفيان الثَّورى: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها.

والبدعة لا يتاب منها، وقال ابن عباس: النظر إلى الرجل من أهل السُّنة يدعو إلى السُّنَّة وينهى عن البدعة، عبادة.

وقال أبو العالية: عليكم بالأمر الأوّل الذى كانوا عليه قبل أن يفترقوا قال عاصم الأحْوَل: فحدثت به الحسن فقال: قد نصحك والله وصدقك.

وقد مضى فى «آل عمران» معنى قوله عليه السلام: **«تفرقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملّة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين»** الحديث.

وقد قال بعض العلماء العارفين: هذه الفُرقة التى زادت فى فرق أمة محمد ﷺهم قوم يعادون العلماء ويبغضون الفقهاء، ولم يكن ذلك قَطٌّ فى الأمم السالفة.

وقد روى رافع بن خديج أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«يكون فى أمتى قوم يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى»**.قال فقلت: جُعلت فداك يا رسول الله! كيف ذاك؟ قال: **«يقرون ببعض ويكفرون ببعض»** قال قلت:

جُعلت فداك يا رسول الله! وكيف يقولون ؟ قال: «**يجعلون إبليس عدلاً لله فى خلقه وقوته ورزقه ويقولون الخير من الله والشر لإبليس**» قال: فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة؟ قال: «**فما تلقى أمتى منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه الأمة** » وذكر الحديث.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال القرطبى[١]: **قال ابن شهاب**: وهذا كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا**﴾ الآية . فالهرب الهرب، والنجاء النجاء! والتمسك بالطريق المستقيم، والسّنن القويم، الذى سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابح.

قال ابن كثير[٢]: وعن ابن عباس فى قوله: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ وفى قوله: ﴿**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ ونحو هذا فى القرآن قال أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله[٣].

ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد. اهـ.

قال الطبرى[٤]: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ**﴾ يقول: ولا تسلكوا طريقًا سواه ولا تركبوا منهجًا غيره، ولا تبغوا دينًا خلافه من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان وغير ذلك من الملل فإنها بدع وضلالات ﴿ **فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ يقول فيشتت بكم إن اتبعتم السبل المحدثة التى ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، اتباعكم إياها (**عن سبيله**) يعنى عن طريقه ودينه الذى شرعه لكم وارتضاه وهو الإسلام الذى وصى به الأنبياء وأمر به الأمم قبلكم .

قال الرازى[٥]: هذه الآية تدل على أن كل ما كان حقًا فهو واحد، ولا يلزم منه أن يقال: إن كل ما كان واحد فهو حق، فإذا كان الحق واحدًا كان كل ما سواه باطلاً ،

---

(١) تفسير القرطبى (٤/ ٢٥٧٤). (٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٢-١٨٣).

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره»، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١١٠) ونسبه لها.

(٤) تفسير الطبرى (٥/ ٨/ ٦٠).

(٥) التفسير الكبير (٧/ ١٤/ ٤).

وما سوى الحق أشياء كثيرة، فيجب الحكم بأن كل كثير باطل ، ولكن لا يلزم أن يكون باطل كثيرًا بعين ما قررناه فى القضية الأولى.

قال ابن كثير(١): وقوله تعالى: ﴿ **فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ** ﴾إنما وحّد سبيله؛ لأن الحق واحد ولهذا أجمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.

قال القرطبى(٢): ومضى فى «النساء» وهذ السورة النَّهى عن مجالسة أهل البدع، والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا**﴾(٣) ثم بيّن فى سورة «النساء» - وهى مدنية - عقوبة من فعل وخالف ما أمر الله به فقال: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ**﴾(٤) الآية، فألحق من جالسهم بهم.

وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات فى مجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم: أحمد بن حنبل والأوزاعى وابن المبارك فإنهم قالوا فى رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا: يُنْهى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا ألحق بهم، يعنون فى الحكم ، وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحدّ على مجالسة شَرَبَة الخمر، وتلا ﴿**إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ**﴾ ، قيل لهم: «فإنه يقول إنى أجالسهم لأباينهم، وأردّ عليهم، قالوا: يُنْهَى عن مجالستهم، فإن لم ينته ألحق بهم.

ماجاء فى الآية من كلام شراح التوحيد

قال ابن عثيمين(٥): وهنا قال: ﴿**السُّبُلَ**﴾: جمع سبيل، وفى الطريق التى أضافها الله إلى نفسه قال: ﴿**سَبِيلِهِ**﴾ سبيل واحد، لأن سبيل الله - عز وجل- واحد، وأما ما عداه، فسبل متعددة، ولهذا قال النبى ﷺ: «**وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلّها فى النار، إلا واحدة**»(٦) فالسبيل المُنجى واحد، والباقية متشعبة متفرقة، ولا يَرِد على هذا قوله تعالى: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ**﴾(٧) لأنَّ «سُبُل»

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٤). (٢) تفسير القرطبى (٤/ ٢٥٧٨).

(٣) الأنعام: (٦٨). (٤) النساء: (١٤). (٥) القول المفيد (١/ ٤٨, ٤٩).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢) ،أبو داود (٤٥٩٦) ، وابن ماجة (٣٩٩١). وانظر تخريجه فى «فتح القدير» - بتخريجنا -.

(٧) المائدة: (١٦).

فى الاية الكريمة، وإن كانت مجموعة، لكن أضيفت إلى السلام فكانت منجية، ويكون المراد بها شرائع الإسلام. اهـ.

قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

● **ما جاء فى الآية من كلام المفسرين.**

قال الطبرى(١): ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ يقول تعالى ذكره هـذا الذى وصاكم به ربكم من قوله لكم ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول لتتقوا الله فى أنفسكـم فلا تهلكوها وتحذروا ربكم فيها فلا تسخطوه فيحل بكم نقمته وعذابه.

قال السعدى(٢): ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم، علمًا وعملاً صرتم من المتقين، وعباد الله المفلحين.

قال صاحب «الظلال»(٣): هذه القواعد الأساسية الواضحة التى تكاد تلخص العقيدة الإسلامية وشريعتها الاجـتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعـهد الله، وما سبقها من حديث الحاكمية والتشريع.. هذه هى صراط الله المستقيم.. صراطه الذى ليس وراءه إلا السبل المتفرقـة عن السبيل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

وهكذا يخـتم القطاع الطويل مـن السورة الذى بدأ بقولـه تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾.

وانتهى هذه النهاية، بهذا الإيقاع العريض العميق..

وضم بيـن المطلع والختـام قضية الحـاكمية والتـشريع، كما تـبدو فى مسـألة الزروع والأنعام، والذبائح والنذور إلى كل القضايا العـقيدية الأساسية، ليدل على أنها من هذه القضايا، التـى أفرد لها السياق القرآنى كـل هذه المساحة وربطها بكل مـحتويات السورة السابقة التى تتحدث عـن العقيدة فى محيطها الشامل، وتتناول قضـية الألوهية والعبودية ذلك التناول الفريد.

---

(١) تفسير الطبرى ٥/٨/٦٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/٨٧.

(٣) ٣/١٢٣٤.

إنه صراط واحد - صراط الله- وسبيل واحدة تؤدى إلى الله .. أن يفرد الناس الله - سبحانه - بالربوبية ويدينوا له وحده بالعبودية، وأن يعلموا أن الحاكمية لله وحده، وأن يدينوا لهذه الحاكمية فى حياتهم الواقعية..

هذا هو صراط الله وهذا هو سبيله .. وليس وراءه إلا السبل التى تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون.

فالتقوى هى مناط الاعتقاد أوالعمل، والتقوى هى التى تفىء بالقلوب إلى السبيل أ. هـ.

ولذلك ختم بها الآية.

● **ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.**

قال ابن عثيمين[1]: وقوله: ﴿**ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ أى: ذلك: أى المذكور وصَّاكم لتنالوا به درجة التقوى، والالتزام بما أمر الله به ورسوله ﷺ.

فصل فى بيان كيفية الاستقامة على عبادة الله والكفر بالطاغوت من خلال هذه الآيات

كان لابد للمصنف بعد أن بيّن معنى العبادة وقدرها وبيَّن الطاغوت وحتمية الكفر به مراعيًا ترتيب الآية الذى ساقه الله تعالى فى قوله: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ كان لابد أن يبين كيفية الاستقامة على عبادة الله واجتناب عبادة غيره من الطواغيت فثنى بهذه الآيات لهذا الغرض والتى فيها بيان الاستقامة على عبادة الله التى هى أمره ونهيه واتباع شرعه، فكانت الآيات خير موضح لغرض المصنف ـ رحمه الله ـ .

فآيات الإسراء تبين بعد الوصية بعبادة الله وعدم الإشراك به عدة أوامر ونواهى مبدوءة بالإحسان والبر بالوالدين، وكذلك الحال فى آيات سورة الأنعام بدأت بحرمة الشرك وبالإحسان بالوالدين وبأوامر وبنواهى تحمل فى طياتها الاستقامة على منهج الله عز وجل الذى هو شرعه ومنهجه وحكمه والذى به لا نلجأ إلى عبادة الطواغيت واتباع شرائعهم وأحكامهم فنقع بذلك فى عبادتهم.



(١) القول المفيد / ٤٩.

بيان الأخلاق ومكانتها بالنسبة للعقيدة

وقد يمكن القول بأن الإمام «محمد بن عبد الوهاب» قصد إلى أشياء أخرى غير الذى ذكرت وهى بيان مقام الأخلاق ومكانتها فى هذا الدين، وأنها تلى فى المكانة والمرتبة مرتبة العقيدة، ولذلك بعد أن قضى وأمر ووصى، وحكم بعبادته أمر ببر الوالدين ذلك لأنه من أكرم الأخلاق وأرفعها، ذلك لأن صلاح الأبناء فى الغالب يرجع الفضل فيه بعد الله عز وجل إلى الوالدين لأنهما هما اللذان يوجهانه إلى هذه الاستقامة وإلى هذا الصلاح؛ فكان الجزاء لهما من جنس عملهما، فقال تعالى ـ مجازيًا إياهم لأنهما جعلا الله غاية الولد ومقصوده الأول فجزاهم من جنس عملهما بأن جعل شكرهما فى المقام الأول بعد شكره ـ فقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ وهذا الذى قررناه وضحته سورة لقمان فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١) لذا ثنى الله عز وجل بعد ذلك بالوصية بالوالدين جزاء من جنس عملهم فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

والأحاديث التى تربط بين عبادة الله وعدم الإشراك به وبر الوالدين وعدم عقوقهما كثيرة منها.

عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»؟ قلنا: بلى يا رسول الله قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**» وكان متكئًا فجلس فقال: «**ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»(٢).

● **ومن أهمية الأخلاق وعلاقتها بالعقيدة كما بينها القرآن فى غير هذا الموضع**: أن الله حين ينسب خلقًا ما قبيحًا ينسبه إلى الكفار والمنافقين، ولا ينسبه إلى المسلمين أبداً كما فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾، ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾.

---

(١) لقمان: ١٣.

(٢) تقدم تخريجه فى قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾.

وقوله تعالى فى بيان صفة اللغو: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ فى حين أنه نفى هذه الصفة عن المؤمنين قال: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾.

معالجة الأخلاق الجاهلية بالعقيدة الصحيحة.

ومن الفوائد التى ينبغى الإشارة إليها أيضًا فى العلاقة بين العقيدة والأخلاق أن القرآن كان يعالج الأخلاق الجاهلية عند العرب بالاعتقاد كخُلق قتل الأولاد فقال: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا** ﴾.

السنة تربط بين الأخلاق والعقيدة أيضًا

وكما ربط القرآن بين مسألتى الأخلاق والعقيدة وجعلهما فى مكان واحد وأهمية واحدة كذلك ربطت السنة بين العقيدة والأخلاق فى غير حديث منها.

ما رواه البخارى، وغيره.. «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه**»(1) وكذلك حديث «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»(2). وحديث أبى موسى رضى الله عنه قال: قالوا يا رسول الله: أى الإسلام أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**»(3)، وأيضًا حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أى الإسلام خير؟ قال: «**تطعم الطعام، وتفشى السلام على من عرفت ومن لم تعرف**»(4) وكذلك «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم**

---

(1) [متفق عليه] أخرجه البخارى (6475)، ومسلم فى الإيمان (2/18 ـ النووى).
وأنظر «رياض الصالحين» (310 بتخريجنا)

(2) [متفق عليه] أخرجه البخارى (10)، ومسلم فى الإيمان (2/10 ـ النووى) عن عبدالله بن عمرو بن العاص.
وأنظر «رياض الصالحين» (213 ـ بتخريجنا)

(3) [متفق عليه] أخرجه البخارى (11)، ومسلم فى الإيمان (2/12 ـ النووى)
وأنظر «رياض الصالحين» (1515 ـ بتخريجنا)

(4) [متفق عليه] أخرجه البخارى (12، 28)، ومسلم فى الإيمان (2/9 ـ النووى)
وأنظر «رياضش الصالحين» (551 ـ بتخريجنا)

خلقًا»[١] وأيضًا **«الحياء شعبة من الإيمان»**[٢] وأيضًا **«حسن العهد من الإيمان»**[٣]، وأيضًا **«الدين النصيحة»**[٤] و**«أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله»**[٥].

● هذا وقد وسم القرآن والسنة من تشبه وتخلق بالأخلاق القبيحة بالنفاق أو بالجاهلية أو بالكفر كقول الرسول ﷺ: **«آية المنافق ثلاثة، إذاحدث كذب، وإذا وعد أخلف؟ وإذا اؤتمن خان»**[٦] متفق عليه، وأيضًا، **«ثلاثة من أمر الجاهلية»** وفى رواية **«فى أمتى لايدعهن الطعن فى الأنساب، والنياحة والأنواء»**[٧] وقول الرسول ﷺ: **«ما هو بمؤمن من بات شبعان وجاره طاو إلى جانبه»**[٨] وأيضًا . **«ليس منا من شق الجيوب»**[٩].. **إلخ** وقوله ﷺ: **«ومن أتى حائضًا أو امرأة فى دبرها فقد كفر بما أنزل**

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٤٧٢)، والترمذى (١١٦٢) عن أبى هريرة
وأنظر «رياض الصالحين» (٢٨٠ ـ بتخريجنا).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩)، ومسلم فى الإيمان(٢/ ٣ ـ النووى) عن أبى هريرة.
وانظر «رياض الصالحين» (١٢٧ ـ بتخريجنا)

(٣) أخرجه البيهقى فى «الشعب» (٩/٢٢) عن عائشة رضى الله عنها.
وانظر كتابنا «فقه الخطابة» خطبة «حسن العهد من الإيمان».

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٣٦ ـ النووى) عن تميم بن أوس الدارى.
وانظر «رياض الصالحين» (١٨٣ ـ بتخريجنا).

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٢٧٦) عن البراء بن عازب
وانظر «فقه الخطابة» (١/ ٣٩٨) الطبعة الأولى.

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٣)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٤٦ ـ النووى) عن أبى هريرة.
وانظر «رياض الصالحين» (٢٠١ ـ بتخريجنا).

(٧) [صحيح] أخرجه الترمذى (١٠٠١) عن أبى هريرة بلفظ «أربع فى أمتى» وزاد : «والعدوى»
وأخرجه مسلم فى الإيمان» (٢/ ٥٧ـ النووى) بلفظ شعبتان من أمر الجاهلية» بدون ذكر الأنواء.

(٨) بنحوه أخرجه البيهقى فى «الشعب» (٩٥٣٦، ٩٥٣٧) عن ابن عباس.

(٩) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٨٠٩) عن ابن مسعود
وانظر «رياض الصالحين» (١٦٦١ ـ بتخريجنا)

على محمد ﷺ»(١).

● فهذه النصوص من السنة أيضًا توضح القاعدة التى أصلها العلماءبتلازم الظاهر بالباطن فإذا كان الظاهر طيبًا نَمَّ عن باطن طيب والعكس بالعكس لذلك.

حرص الإسلام على الاهتمام بقضية الأخلاق لما فى ذلك من حماية جناب التوحيد وترغيب العامة فى دين الإسلام كما فعل الجيل الأول من الصحابة رضى الله عنهم حيث كانوا جميعًا قرآنا يمشون على الأرض، فلم يجعلوا القرآن نظريات ومبادئ وأسساً وقوانين تدرج فى المكتبات كحال أصحاب المناهج الأخرى الساقطة بل جعلوه سلوكًا عملياً، وهذا مؤدى كلام صاحب فى «ظلال التفسير» فى معنى العقيدة.

وبهذا الذى تقرر يتضح لك معنى قول الله تعالى ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ ومعناه طاعته فى أمره والانتهاء عما نهى عنه وزجر وبهذا ابتلى كل أحد من الناس ومن هنا نعرف تفسير قوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ أى بالأوامر والنواهى.

كذلك تفسير الإمام الشافعى ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أى لا يؤمر ولا ينهى وبهذا يوفى من يوفى ويغدر من يغدر، ويخون من يخون.

ومن كلمة «أوفوا» نعرف معنى الأمانة التى حملناها ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ .

وقال أبو العالية: الأمانة: «ما أمروا به ونهوا عنه، فلابد من الوفاء بالميثاق وكذلك الوفاء بأداء الأمانة التى ابتلانا الله بحملها».

● هذا وقد يستفاد أمرٌ آخر غير ما تقدم من فوائد التثنية بآيات الإسراء والأنعام وهو تعلم الإيمان قبل القرآن كما ثبت ذلك عن عائشة وغيرها من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.



والنسائى فى «الكبرى» (٩٠١٧) عن أبى هريرة.

وأنظر «منا ر السبيل» (٢١٧٣) ـ بتخريجنا)

(١) الأنعام (١٥١).

قال ابن مسعود: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التى عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا..﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾[1] الآية[2].

مناسبة الأثر للترجمة:

قال ابن عثيمين: مناسبة الحديث للترجمة: فضيلة التوحيد، وأنه مانع من عذاب الله أهـ.

قوله: قال ابن مسعود: «من أراد... إلخ».

قال ابن عثيمين[3]: اللام فى قوله: «**فليقرأ**» للإرشاد.

وعبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلى، أبو عبد الرحمن: صحابى جليل من السابقين الأولين وأهل بدر وبيعة الرضوان وأحد والخندق، ومن أفاضل الصحابة مكانة وعلمًا، مات سنة اثنتين وثلاثين. رضى الله عنه.

قوله: «وصية محمد: الوصية بمعنى العهد، ولا يكون العهد وصية إلا إذا كان فى أمر هام.

قوله: محمد ﷺ:

أى رسول الله محمد ﷺ بن عبد الله الهاشمى القرشى ﷺ وهذا التعبير من ابن مسعود يدل على جواز مثله، مثل: قال محمد رسول الله ﷺ ووصية محمد ﷺ.. ولا ينافى قوله تعالى: ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾[4] لأن دعاء الرسول هنا أى مناداته، فلا تقولوا عند المناداة: يا محمد! ولكن قولوا: يا رسول الله أما الخبر؟ فهو أوسع من باب الطلب، ولهذا يجوز أن تقول: أنا تابع لمحمد ﷺ أو اللَّهم! صلِّ على محمد، وما أشبه ذلك.

---

(٢) [حسن] أخرجه الترمذى فى التفسير / باب: ومن سورة الأنعام (٥/ ٢٦٤/ ح٣٠٧٠) قال: حدثنا الفضل بن الصباح البغدادى، والطبرانى فى الكبير (١٠/ ١١٤/ ح١٠٠٦٠) قال: حدثنا جعفر بن أحمد بن سنان الواسطى ثنا أبو كريب ، وابن أبى حاتم فى تفسيره (٥/ ١٤١٤/ ح٨٠٥٦) والبيهقى فى «الشعب» (٧٩١٨) من طريق الحسن بن عرفة العبدى.

جميعاً عن محمد بن فضيل عن داود الأودى عن عامر عن علقمة عن عبدالله بن مسعود وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٠٣) وزاد نسبته بن المنذر وأبى الشيخ وابن مردويه وأنظر «فتح المجيد» (ح٤٩) بتخريجنا

(٣) القول المفيد ١/ ٤٩و٥٠، ٥١.

(٤) النور / (٦٣).

قوله: «التى عليها خاتمة»

الخاتم بمعنى التوقيع:

وقوله: «وصية محمد ﷺ»: ليست وصية مكتوبة مختومًا عليها لأن النبى ﷺ لم يوص بشىء ويدل لذلك أن أبا جحيفة سأل على بن أبى طالب: هل عهد إليكم النبى ﷺ بشىء؟ فقال: لا . والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة.. قيل وما فى هذه الصحيفة؟ قال: **«العقل وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»**(١).

فلا يظنّ أن النبى ﷺ أوصى بهذه الآيات وصية خاصة مكتوبة. لكن ابن مسعود- رضى الله عنه- يرى أن هذه الآيات قد شملت الدين كله، فكأنها الوصية التى ختم عليها رسول الله ﷺ وأبقاها لأمته.

وهى آيات عظيمة، إذا تدبرها الإنسان وعمل بها، حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة: العقل، والتذكر، والتقوى.

وقوله: « فليقرأ قوله تعالى...» إلخ الآيات سبق الكلام عنه.

● **قال الفقير**: وبهذا أيضًا يتضح لك سبب إيراد الأثر الذى جاء عن ابن مسعود: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التى عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: **﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُم...﴾** إلخ فشبه هذه الآيات بالوصية وهى آخر ما يؤثر عن الإنسان فلا تحتمل النسخ ولا يرد عليها التأويلات فكأن الرسول ﷺ يوصى أمته بالاستقامة على هذا المنهج منهج التحليل والتحريم وعدم اللجوء إلى غيره فهذا هو المنهج الذى لا عوج فيه.

وغيره معوج وهذا الأمر لا يدانيه أى أمر فى أهميته وهذا مفهوم من معنى الوصية من الموصى الذى يحرص على إيصال هذا الأمر لمن خلفه فيوصى به، ويفهم منه أيضًا أنه ينبغى للمُوصَى له أن يموت عليه كما مات عليه المُوصى وكان آخر ما يؤثر عنه، كما جاء عن يعقوب عليه السلام **﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى﴾** وكذلك قوله: **﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ**

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (١١١)

وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه- قال: «كنت رديف النبى ﷺ على حمار ، فقال لى : «يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت: الله ورسوله أعلم . قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقُّ العباد على الله لا أن يُعذِّبَ من لا يشرك به شيئًا. قلت: يا رسول الله ! أفلا أبشر الناس؟ قال : «لا تبشرهم فيتكلوا» أخرجاه فى «الصحيحين»(١).

اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهذه وصية الأنبياء الحنفاء وهذا هو معنى الصراط المستقيم وأنه هو الإسلام كما يستفاد من كلام العلماء لا سيما ابن القيم حيث قال: هو إفراده بالعبادة وإفراد رسله بالطاعة، أى: تجريد العبادة لله وتجريد الطاعة للرسول ﷺ وهذا مدلول شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله وهذا معنى عبادة الله والكفر بالطاغوت، هذا والله الموفق ولا رب سواه.



وقوله: «وعن معاذ.. قال : كنت رديف النبى ﷺ على حما..... الحديث»

● **مناسبة الحديث لكتاب التوحيد:**

قال الفقير: «وقد أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث لمناسبة اسم الكتاب الذى عنونه بكتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد» فناسب أن يذكر من النصوص ما يبين بيانًا صريحًا واضحًا حق الله على العبيد فذكر الحديث.

الكلام على الحديث وفى طرقه فى الصحيحين ما يؤكد ما ذهب إليه المصنف من أن التوحيد هو حق الله على العبيد فعن أنس رضى الله عنه قال: «أن النبى ﷺ ومعاذ رديفه على حمار قال: . . . الحديث، وفيه «**ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرم الله عليه النار**»(٢) وزاد البخارى «**صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار..**»(٣) فقد عبر ﷺ فى هذا الحديث المروى بالمعنى عن حق الله على العبيد بأنه

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى التوحيد / باب دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله - عز وجل - (١٣/٣٥٩/ ح٧٣٧٣) ومسلم فى الإيمان / باب : من مات على التوحيد (١/ ١/ ٢٣٢- النووى) وأحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٣٨) والنسائى فى «الكبرى» فى عمل اليوم والليلة / باب: ما يقول إذا ناداه (٦/ ٥٥/ ح١٤٠٠) وابن ماجة فى «الزهد» / باب : ما يرجى من رحمة الله تعالى (٢/ ١٤٣٥/ ح٤٢٩٦) وأبو نعيم فى «الحلية» (٨/ ١٢٢) .

من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه وانظر «رياض الصالحين» (ح٤٢٧) بتخريجنا، «وفتح المجيد» (ح١٥٤) بتخريجنا.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٢٨)، ومسلم فى الإيمان/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (١/ ٢٥٤/ ٥٣) عن أنس به.

وأنظر «فتح المجيد - بتخريجنا)

(٣) أنظر ما قبله.

كلمة التوحيد والصدق فى النطق بها.

وفى الحديث الآخر الذى يروى من غير طريق أنس عبر ﷺ عن حق الله على العبيد بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، ولعل الراوى فى حديث أنس رواه بالمعنى وفى الثانى باللفظ بمعنى أنه من شهد أن لا إله إلا الله صدقًا من قلبه فقد عبد الله ولم يشرك به شيئًا والعكس أن من عبد الله ولم يشرك به شيئًا فقد أقر بلا إله إلا الله صدقًا من قلبه وبهذا يكون قد وفى بحق الله عليه، فحقه على الله ـ كما أوجبه على نفسه ـ أن لا يعذبه ويدخله الجنة إذا مات على ذلك وهذا ههنا موافقة للحميدى وغيره، حيث جعلوا هذا الحديث بهذا اللفظ والحديث الآخر بلفظ حق الله على العبيد حديثًا واحدًا فعلى هذا فلا وهم على الحميدى حيث ذهب هذا المذهب، لا سيما وأن البخارى قد أورد الحديثين فى باب واحد باب – من خص بالعلم قومًا دون قوم، فهذه إشارة منه إلى أنهما حديثان.

● هذا وقد ذهب ابن حجر إلى أنهما حديثان لأن الأوّل وهو حديث أنس متعلق بمن لقى الله لا يشرك به شيئًا، وحديث معاذ متعلق بحق الله على العبيد وهذا الجمع الذى قررناه آنفًا يَرُد هذه الدعوى حيث لم نفرق بين حق الله على العبيد وبين من لقيه لا يشرك به شيئًا واعتبرهما الحافظ شيئآن والأول أولى والعلم عند الله.

(ذلك بأن) وجه الجمع يبين أنه لا غضاضة من أن يكون ما يلقى العبد به ربه هو هو حق الله عليه، فهو إن لقى الله لا يشرك به شيئًا فقد أتى بحق الله عليه.

فالحديثان يجوز الجمع بينهما على هذا النحو فلا داعى لتوهيم بعض الحفاظ كمَا وهّما بن حجر الحميدى لا سيما أن الحديثين لمعاذ وأحدهما عن أنس عن معاذ، وأن الاثنين على الرحل وهو رديف للنبى ﷺ فالحديثان مخرجهما واحد.

قوله: «عن معاذ بن جبل»: هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى أبو عبد الرحمن صحابى مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها، وكان إليه المنتهى فى العلم بالأحكام والقرآن رضى الله عنه، وقال النبى ﷺ **«معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة»**(١) أى بخطوة ومات معاذ سنة ثمان عشرة بالشام فى طاعون عمواس، وقد استخلفه النبى ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم وحديث الباب يبين فضيلة معاذ أيضًا.

---

(١) ابن كثير ٢/ ٥٩٠.

(٢) [حسن بغير هذا اللفظ] أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١/ ٢٩١/ ٤٠، ٤١)، وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ٢٢٩) مرسلاً

وأخرجه أبو نعيم من وجه أخر عن عمر بإسناد منقطع.

وأنظر «فتح المجيد» (ح٥٥) بتخريجنا

وذكر ابن كثير:[٢] من فضائل معاذ عن ابن مسعود قال: **«إن معاذ كان أمة قانتا لك حنيفًا»** فقال نوفل الأشجعى: فقلت فى نفسى غلط أبو عبد الرحمن وقال: إنما قال الله ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً** ﴾ فقال تدرى ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم. فقال الأمة الذى يعلم الناس الخير والقانت المطيع لله ورسوله وكذلك كان معاذ[١].

وقد رواه ابن جرير من غير وجه عن ابن مسعود.ا.هـ.

وفى رواية أخرى قال: ما نسيت أنا كنا نشبهه بإبراهيم عليه السلام»[٢]. وأيضاً فى فضائل ومناقب معاذ، قوله ﷺ: **«أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل»**[٣].وقوله: س«**يا معاذ والله إنى أحبك لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٤].

قوله: «كنت رديف النبى ﷺ»

وفى رواية «كنت ردف النبى ﷺ «والردف والرديف: الراكب خلف الراكب بإذنه، وردف كل شىء: مؤخره وردفت الرجل: إذا ركب وراءه. وأردفته: إذا ركبت وراءه.

وفى رواية - بينا أنا رديف النبى ﷺ» هذا وقد أفرد ابن منده أسماء من أردفهم النبى ﷺ خلفه فبلغوا ثلاثين نفسًا.

قال الفقير: فقد وقع بعض أسماءهم فى الصحيحين كإردافه الفضل بن العباس[٥]،

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة: أخرجه محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى تاريخه من مرسل أبى عون الشقفى وأورده ابن عساكر فى تاريخ دمشق من طرق عن محمد بن الخطاب. وسيأتى فى أول الباب الثانى.

(٢) قاله ابن التيمى فى التحرير نقلاً عن ابن حجر «فى الفتح» ١١/ ٣٤٧.

(٣) [**ضعيف موصول**] أخرجه أحمد (٣/ ٢٨١)، والترمذى (٣٧٩١)، وابن ماجة (١٥٤) عن أنس به.

قال الحافظ: وأعل بالإرسال.

وأنظر الكلام عليه فى «بلوغ المرام» بتخريجنا.

وأنظر كتابنا «قفوا الأثر فى شرح بلوغ المرام بكلام ابن حجر» (٣/ ١١٦٣).

(٤) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائى فى «الكبرى» (١٩٣٧)

وأنظر «الأذكار للنووى» (١٧٤ـبتخريجنا)

(٥) أخرجه البخارى (١٥١٣)، ومسلم فى الحج (٩/ ٩٨ ـالنووى).

نار السبيل «(١٠٧٦ـ بتخريجنا).

(٦)أخرجه مسلم فى النكاح (٥/ ٢٣٨/ ٨٨) عن أنس به.

وهو فى البخارى(٥٩٦٨) بدون أنيصرح باسم المرأة.

وهذا من روايـة ابن عباس نفسه، وإردافه صفـية وهو قادم من خـيبر[1]، وإردافه ابـن عباس، وأردف أسامة[2] وراءه وهو فى الصحيح أيضًا «باب الإرداف على الدابة» هذا وقد أردف أبا ذر الغفارى وأيضًا ما أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع قال: لقد قُدت بنبى الله ﷺوالحسن والحسيـن بغلته الشهباء حتى أدخلتهم حـجرة النبىﷺ هذا قدامه، وهذا خلفه»[3] وإردافه قثم بن عباس[4] وكان العباس ينشد لابنه قُثم :

قثم قثم شبيه بذى الأنف الأشم ‏ ‏ ‏ ‏ نبى ذى النعم برغم من زعم

وفيه جواز الإنشاد للأطفال وقد مات قُثم وهو صغير[*].

● **وفى رواية «ليس بينى وبينهم إلا آخرة الرحل»** فبين صفة الإرداف والرحل كالسرج للفرس، وآخرة الرحل، هى العود الذى يجعل خلف الراكب يستند إليه.

وفائدة ذكره المبـالغة فى شدة قربه ليـكون أوقع فى نفس سامعـه أنه ضبط ما رواه، وفى رواية مسلم بلفظ - مؤخرة الرحل -.

ويمكن الجمع بأن المراد بآخرة الرحل موضع آخرة الرحل.

وإلى ذلك أشار الـنووى، ولكن يعكر علـى هذا حديث أنس بلفـظ «أن النبى ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل[5] فكان معاذ والرسول ﷺ كلاهما على الرحل.

ولكن قد يـجمع جمعًا آخـر بأنَّ المراد بآخرة الرحل أو مـؤخرته مقدار المسـافة التى تفصل بين النبى ومعاذ وليس المراد ظاهر الخبربأن مؤخرة الرحل كانت بينهما بالفعل.

وفيـه: فضل مـعاذ وجواز الإرداف وتـواضع الـنبى ﷺ وفـيه: جواز الإرداف عـلى الدراجات العـادية والبخارية أو غـيرها فلا حرج إذا ما كان بـين الراكبين مـثل مؤخرة الرحل.

رغم أن هذه المسافة لا تمنـع من مس الفخذ بالفخذ لهذا قـال أهل العلم لا حرج فى هذه الحالة لأن بـينك وبينه حـائل وهو اللباس والـزى لذلك ذكره البخـارى فى كتاب

---

(1) أخرجه البخارى (٥٩٦٤) عن سلمة بن زيد به.

(2) أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة (٨٢٠٧/ ٦٠).

(3) ذكره ابن الأثـير فى «أسد الغـابة» (٤/ ٣٩٢)، وكذا ذكره الحـافظ فى الأصابة». (٣/ ٢١٩) ونـسبه للبخارى فى التاريخ الكبير»

(*) انظر فى ذلك كتابى «تربية البنات فى الإسلام».

(4) تقدم تخريجه فى أول شرح الحديث .

(5) (١٠/ ٤٠٩ ـ الفتح)

اللباس فى باب الإرداف على الدابة[٥] لأنه **لولا اللباس ما جاز الإرداف لهذا** قال بعض أهل العلم بجواز الإرداف على هذه الصفة.

قوله: على حمار:

جاء التصريح باسمه عند البخارى فقال: «**على حمار يقال له عفير**»[١] فى باب - اسم الفرس والحمار»[٢].

قال ابن عثيمين[٣]: (على حمار) أى أهلى، لأن الوحشى لايُركب. أهـ.

قال ابن حجر: أى مشروعية تسميتها وكذا غيرهما من الدواب بأسماء تخصها غير أسماء أجناسها بشرط ألا تسمى بأسماء أعلام الصحابة والمسلمين مثل إطلاق اسم (سعد) على الخروف وأسماء أمهات المؤمنين على (القردة) كميمونة وقد جاءت لعفير هذا تراجم بينها ابن حجر فى «الفتح» فليرجع إليها لمن شاء.

قوله: (يا معاذ): زاد البخارى: «**يا معاذ بن جبل**» وزاد أيضًا لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «**يا معاذ**» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «**يا معاذ**» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ومعناه: لبًا لك وإسعاداً لك ولكنهما تثن على معنى التأكيد والتكثير.

أى: إجابة بعد إجابة وإسعاداً بعد إسعاد.

وفيه: تكرار العلم لتأكيده وتفهيمه، وعرضه على طريقة السؤال والجواب؛ ليكون ذلك أدعى فى التثبيت والتمكين وفيه: تنويه بشرف هذه القضية؛ لأنه لم يقلها ابتداء وخص بها قوم دون قوم.

قوله: «أتدرى ما حق الله على العباد» فى رواية : «**هل تدرى ما حق الله على العباد**» وفى رواية «**هل تدرى حق الله على عباده**».

والحق كل موجوداً متحقق وجوده أو ما سيوجد لا محالة ويقال للكلام الصدق حق لأن وقوعه متحقق لا تردد فيه، وكذا الحق المستحق على الغير إذا كان لا تردد فيه.

والمراد هنا: من حق الله على عباده ما يستحقه الله على عباده مما جعله محتمًا[٤]

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٨٥٦)

(٢) (٦/ ٦٩ ـالفتح)

(٣) القول المفيد (١/ ٥١)

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤٦)وفتح المجيد (١/ ٤٠).

عليهم كما قال صاحب «المعارج» ، أول واجب على العبيد معرفة الرحمن بالتوحيد، فالجنة حق والنار حق يعنى أنها موجودة حقًا وما ليس بموجود لكن سيوجد لا محالة: كالساعة والحشر والحساب ولذلك قال النبى ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وأن الجنة حق والنار حق..**»[1].

قوله: «قلت الله ورسوله أعلم».

قال سليمان آل الشيخ: فيه حسن أدب المتعلم وأنه ينبغى لمن سُئل عما لايعلم أن يقول ذلك بخلاف أكثر المتكلفين أهـ[2].

فيها حسن أدب فى القول والعلم برد ما لم يحط بحقيقته إلى علم الله ورسوله وفيه فوائد ستأتى فى المسألة التاسعة عشر فى هذا الباب.

قوله: قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا».

قد تقدم أن المراد بالعبادة: عمل الطاعات واجتناب المعاصى وعطف عليها عدم الشرك لأنه تمام التوحيد، والحكمة فى عطفه على العبادة أن بعض الكفرة كانوا يدعون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى فاشترط نفى ذلك ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾.

وتقدم أن الجملة حالية والتقدير يعبدونه فى حال عدم الإشراك به.

قال ابن حبان: عبادة الله إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح، ولهذا قال فى الجواب **فما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك»** فعبَّر بالفعل ولم يعبِّر بالقول وفيه رد على المرجئة الذين قالوا أن الإيمان قول بلا عمل. أما أهل السنة قصدوا بالإيمان الإسلام الحقيقى المدخل الجنة والمنجى من النار ولم يقصدوا الإسلام الحكمى يعنى القدر الذى نحكم به على الشخص أنه مسلم أى الإسلام بالنظر لما عندنا.

قوله: «وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا».

قال ابن تيمية: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل ليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق على المخلوق، فمن الناس من يقول: **لا معنى للاستحقاق** زائدًا على هذا كما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ ولكن أهل السنة يقولون: هو الذى ﴿**كتب على نفسه الرحمة**﴾ وأوجب هذا الحق على نفسه لم يوجبه عليه مخلوق، والمعتزلة: يدعون أنه واجب عليه بالقياس على

(١) الفتح ١/ ٢٧٤.

(٢) سيأتى تخريجه

الخلق، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا فى ذلك، وهذا الباب غلطت فيه القدرية والجبرية أتباع جهم والقدرية النافية.

وقال ابن حجر: اقتصر على نفى الإشراك، لأنه يستدعى التوحيد بالاقتضاء، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك، وهو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته، أى مع سائر الشروط اهـ.

قوله: «قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس»: وفى رواية «قال يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا».

وفيه: استحباب بشارة المسلم بما يسره ثبت عن أبى بكر فى قصة الثلاثة الذين خُلفوا كان أول من بشر كعب هو أبو بكر.

وفيه: ما كان عليه الصحابة من قبل هذا.

وفيه: جواز كتمان العلم عن بعض الناس كراهية ألا يفهموا وتخصيص بعض الناس بالعلم دون بعضهم.

وفيها: استئذان طالب العلم فى أن يشيع ما يعلم به وحده وما اختص بعلمه.

وفيه: أدب معاذ رضى الله عنه فى هذا الاستئذان. أهـ

قال ابن عثيمين(١): والبشارة هى الإخبار بما يسر، وقد تستعمل فى الإخبار بما يضر، ومنه قوله تعالى ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لكن الأكثر الأول. أهـ

قوله: «لا تبشرهم فيتكلوا» فى رواية: **قال: «لا إنى أخاف أن يتكلوا».**

وفى رواية بلفظ: **«إذًا يتكلوا»**

قال ابن رجب فى شرحه «لأوائل البخارى»: قال العلماء، يؤخذ من منع معاذ من تبشير الناس ألا يتكلوا أن أحاديث الرخص لا تشاع فى عموم الناس لئلا يقصر فهمها عن المراد بها، وقد سمعها معاذ فلم يزدد إلا اجتهاد فى العمل وخشية لله عز وجل فأما من لم يبلغ منزلته فلا يأمن أن يقصر اتكالاً على ظاهر هذا الخبر.

ورجح ابن حجر بأن هذا النهى ليس للتحريم بل هو للمصلحة بما ثبت، عند مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ أمره أن يبشر كل ما وجده خلف هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله بالجنة فلقيه عمر فدفعه وقال **ارجع يا أبا هريرة**

(١) القول المفيد (١/ ٥٤)

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٢٥٣/ ٥٢)

ودخل على أثره فقال يا رسول الله لا تفعل فإنى أخشى أن يتكل الناس فخلهم يعملون فقال (**فخلهم**)[1] فكأن قول النبى ﷺ لمعاذ «**أخاف أن يتكلوا**» كان بعد قصة أبى هريرة.

قال الفقير: بل الراجح أن النبى ﷺ قال ذلك لمعاذ بعد أن أذن له فى التبشير لحرصه ﷺ فى إيصال الخير لأمته والمسارعة فيما يدخل السرور عليهم ثم كان ما كان من عمر فرجع النبى ﷺ لقوله.

وذلك لما رواه البزار - بإسناد حسنه ابن حجر فى الفتح[2] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى هذه القصة أن النبى ﷺ أذن لمعاذ فى التبشير، فلقيه عمر فقال: لا تعجل ثم دخل فقال: يا نبى الله أنت أفضل رأيًا؟ إن الناس إذا سمعوا ذلك اتكلوا عليها، قال فرده: وهذا معدود من موافقات عمر للوحى .

وفيه: جواز الاجتهاد بحضرته ﷺ.

قال ابن عثيمين[3]: معنى الحديث أن الله لايعذب من لايشرك به شيئاً وأن المعاصى تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى ﷺ عن إخبارهم لئلا يعتمدوا على هذه البشرى دون تحقيق مقتضاها لأن تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصى، لأن المعاصى صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشرك قال الله تعالى﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ**﴾أهـ

قوله: «**أخبر به معاذ عند موته تأثمًا**» وهذا ما يؤكد ما ذهب إليه الحافظ من أن النهى ليس للتحريم ولو كان للتحريم ما أخبر به معاذ ولكن معاذ رأى أن الأفضل هو نشر العلم، وكتمان العلم فرع وليس بأصل وإن كتم فلا يكون إلا لمصلحة وهذه المصلحة انتفت فلا يجوز له أن يكتم هذا العلم.

ومعنى قوله: «**وأخبر به معاذ عند موته تأثمًا**» أى تحرجًا من الوقوع فى إثم وإنما خشى معاذ من الإثم المترتب على كتمان العلم وهذا ما رجح به ابن حجر أن هذا النهى ليس للحرمة.

قوله: «**أخرجاه**» أى البخارى ومسلم.

فائدة

* روى البخارى هذا الحديث فى (**باب من أجاب بلبيك وسعديك**) وفى لفظه عن أنس «عن معاذ قال: بينا أنا رديف النبى ﷺ فقال: يا معاذ؟ قلت لبيك وسعديك- ثم قال مثله ثلاثًا - **هل تدرى ما حق الله على العباد**؟ قلت: لا قال: **حق الله على العباد أن**

---

(١) الفتح / ٢٧١ (٢) القول المفيد (١/ ٥٥)

(٣) تقد تخريجه فى أول شرح الحديث .

يعبدوه لا يشركوا به شيئًا، ثم سار ساعة فقال يا معاذ، قلت: لبيك وسعديك قال: **هل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم** »[٣]وهذا الحديث يبين أدباً آخر وفضيلة أخرى لمعاذ حيث أجاب بلا عما لا يُشك فى أنه يعلمه وهو حق الله على العبد حيث لا يتصور أن مثل معاذ يجهل حق الله على العبد وأجاب بهذا الجواب امتثالاً لقول الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ وقد ثبت من غير معاذ من الصحابة رضى الله عنهم عن مثل هذا الجواب فى أمور مقطوع بعلمها كما سألهم ﷺ **أى شهر هذا؟ أى بلد هذه**» [١] فكانوا يسكتون خشية أن يسميه الرسول ﷺ بغير اسمه فيكونوا قد افتاتوا عليه وقدموا بين يديه وكانوا يقولون الله ورسوله أعلم هذا وبالله التوفيق وله الحمد والمنة.

وفى الحديث من الفوائد غير ما تقدم.

١- جواز الإرداف على الدابة..

٢- جواز مس العورات مع وجود حائل (كاللباس).

٣-مشروعية لبس اللباس.

٤- تواضعه ﷺ.

٥- فضيلة معاذ رضى الله عنه.

٦- جواز تسمية الدابة.

٧- جواز قول الشخص لبيك يا فلان بعكس ما قد يفهم البعض أنها لا تقال إلا لله فى الحج « فى قول معاذ لبيك رسول الله».

٨- قوله ﷺ «حق» الله و«حق» العباد تفيد اليقين وعدم الشك فى هذا الأمر.

٩- فى كلام النبى ﷺ لمعاذ بصيغة السؤال: فهذا أوقع فى النفس وأدعى إلى الانتباه.

١٠- سؤاله ﷺ لمعاذ عن مسألة يعلمها وهى حق الله على العباد تفيد التنبيه لأهمية المسألة.

١١- مسألة حق العباد على الله لا يعرفها أكثر الصحابة.

١٢- معرفة حق الله على العباد وهو حق فرض ووجوب.

١٣- معرفة حق العباد وهو حق منّة وفضل.

١٤- تقديم السؤال (بحق الله على العباد) على (حق العباد على الله) دليل على توقف الحق الثانى على أداء الحق الأول.

---

(١) متفق عليه أخرجه البخارى (٦٧)، ومسلم فى القسامة(١١/١٦٧) عن أبى بكرة به.
وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٨٥٩)

● فى قول معاذ (الله ورسوله أعلم) فوائد ثلاثة .

١٥- تأدب معاذ وعمله بقول الله ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

١٦- طلب الاستزادة بالعلم .

١٧- جواز قول الله ورسوله أعلم لمن كان فى عهد النبى أما بعد وفاته فالقول هو الله أعلم . (وفيه تفصيل سيأتى فى المسألة التاسعة عشر).

١٨- معرفة أن حمد الله يستلزم أمران:

أ- عبادة الله.

ب- عدم الإشراك به وهذا معنى لا إله إلا الله.

١٩- أن السبيل للنجاة من النار وعذاب الله هو عبادته وعدم الإشراك به.

٢٠- استئذان معاذ النبى ﷺ تبشير الناس يفيد التأدب. مع المعلم واستئذانه قبل تبليغ شىء خاصنا بمعرفته دون غيرنا.

٢١- قول معاذ «أفلا أبشر الناس» ولم يقل: **«أفلا أخبر الناس»** أو **«أفلا أقول للناس»** دليل على أن العلم بهاتان المسألتان فيهما من البشرى للناس وهذه البشرى فى شيئين:

أ- أن عبادة الله وعدم الإشراك به فقط هما المطلوبان من الناس لتحقيق التوحيد وحق الله.

ب- أن من أتى بهما وحدهما أدخله الله الجنة ونجاه من عذاب النار.

٢٢ ـ استحباب بشارة المسلم بما يسره.

٢٣ـ جواز كتمان العلم للمصلحة.

٢٤- جواز تخصيص العلم لبعض الناس دون البعض وقد أتى هذا التخصيص فى موضعين:

أ- تخصيص النبى ﷺ لمعاذ .

ب- تخصيص معاذ لبعض الناس دون البعض قبل موته «تأثمًا».

«فقد خص بها الأكياس من الناس دون الجهال الذين قد يحملهم جهلهم على سوء الأدب بترك الخدمة فى الطاعة» من كلام الوزير بن المظفر.

٢٥- الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

٢٦- عظم شأن هذه المسألة.

٢٧- عدم عرض الرخص على عامة الناس قاله ابن رجب كما تقدم.

٢٨- الأصل عدم جواز كتمان العلم بدليل أن معاذ أخبر بالمسألة قبل موته تأثمًا.

٢٩- رواية «ليس بينه وبينه إلا مؤخرة الرحل» تفيد عدم جواز التصاق الرجل بالرجل ولا المرأة بالمرأة فى وسائل المواصلات ومن باب أولى الرجل بالمرأة .

قوله: « وفيه مسائل »

الأولى: الحِكْمَةُ فِى خَلَقِ الجنِّ والإنْس.

الثانية: أَنَّ العِبَادَةَ هِىَ التَّوْحِيدُ، لأنَّ الخُصُومَةَ فيه.

قال ابن عثيمين: ومعنى الحديث: أن الله لا يعذب من لا يُشـرِكُ به شيئًا، وأن المعاصى تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى ﷺ عن إخبارهم، لئلاَّ يعتمدوا على هذه البشرى دون تحقيق مقتضاها، لأنَّ تحقيـق التوحيد يستلزم اجتـناب المعاصى، لأنَّ المعاصى صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشرِّك، قال تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾(١).

المسائل:

● **الأولى: الحكمة من خلق الجن والإنس.**

أخذهـا رحمه الله من قـوله تعـالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾(٢) فالحكمة هى عبادة الله لا أن يتمتعوا بالمآكل والمشارب والمناكح.

● **الثانية: أنَّ العبادة هى التوحيد.**

أى: أنَّ العبادة مبنية على التوحيد، فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعبادة، لا سيما أن بعض السَّلف فسَّروا قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾: إلا ليوحدون.

وهذا مطابق تمامًا لما استنبطه المؤلف رحمه الله من أن العبادة هى التوحيد، فكل عبادة لا تبنى عـلى التوحيد فهى بـاطلة، قال ﷺ: «**قال الله تـعالى : أنا أغـنى الشركـاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيره، تركته وشركه**».(*)

وقوله: «لأن الخصومة فيه».

أى: فى الـتوحيد بـين الرسول ﷺ وقـريش، فقريـش يعبـدون الله يطوفون لـه ويصلـون، ولكـن علـى غيـر الإخـلاص والـوجـه الـشرعى، فهـى كالعـدم لـعدم الإتـيـان بالتوحيـد، قـال تعالـى: ﴿ **وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ**﴾(٣).

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) التوبة: ٥٤.

(*) سيأتى تخريجه

الثالثة: أنَّ مَنْ لَمْ يأتِ بِهِ، لَمْ يَعْبُدِ الله، فَفِيهِ معنى قوله: ﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾(١).

الرابعة: الحكْمَةُ فى إرسَالِ الرُّسُلِ.

الخامسة: أَنَّ الرِّسَالَةَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ.

السادسة: أَنَّ دِينَ الأنبيَاء وَاحِدٌ.

● وقوله فى الثالثة: ففيه معنى قوله: ﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

لستم عابدين عبادتى، لأنَّ عبادتُكم مبنية على الشرك، فليست بعبادة لله تعالى.

● الرابعة: الحكمة فى إرسال الرسل.

أخذها رحمه الله تعالى من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٢).

فالحكمة هى: الدعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت.

● الخامسة: أنَّ الرِّسالة عمَّت كل أمة.

أخذها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾(٣).

● السادسة: أنَّ دين الأنبياء واحد.

أخذها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٤).

وهذا لا ينافى قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(٥) لأن الشرعة العملية تختلف باختلاف الأمم والأماكن والأزمنة، وأما أصل الدين، فواحد، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٦).

---

(١) الكافرون: ٣. (٢) النحل: ٣٦.
(٣) النحل: ٣٦. (٤) الأنبياء: ٢٥.
(٥) المائدة: ٤٨. (٦) الشورى: ١٣.

السابعة: المَسْأَلَةُ الكَبيرةُ أنَّ عبادَةَ الله لا تَحْصُلُ إلاَّ بالكُفْرِ بالطَّاغُوت، فَفيه معْنَى قَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوت﴾[1]. الآية.

الثامنة: أَنَّ الطَّاغُوتَ عامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ الله.

● **السابعة: المسألة الكبيرة أنَّ عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت.**

ودليله قوله تعالى: ﴿**وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾، فمن عبد الله ولم يكفر بالطاغوت، فليس بموحّد، ولهذا جعل المؤلف رحمه الله هذه المسألة كبيرة، لأنَّ كثيرًا من المسلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن.

● **تنبيه:**

لا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على من فعل شيئًا من ذلك، لأنَّ الحكم بذلك في هذه وغيرها له أسباب وله موانع، فلا نقول لمن أكل الرِّبا: ملعون، لأنَّه قد يوجد مانع يمنع من حلول اللعنة عليه، كالجهل مثلاً، أو الشبهة، وما أشبه ذلك، وكذا الشرك لا نطلقه على من فعل شركًا، فقد تكون الحجة ما قامت عليه بسبب تفريط علمائهم، وكذا نقول: من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا ، غفر له ما تقدم من ذنبه، ولكن لا نحكم بهذا لشخص معين.

إذ إن الحكم المُعلَّق على الأوصاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقق شروط انطباقه وانتفاء موانعه.

فإذا رأينا شخصًا يتبرَّز في الطريق، فهل نقول له: لعنك الله؟

الجواب: لا، إلاَّ إذا أريد باللعن في قوله: «**اتقوا الملاعن**»[2] أن الناس أنفسهم يلعنون هذا الشخص ويكرهونه، ويرونه مخلاً بالأدب مؤذيًا للمسلمين، فهذا شيء آخر.

فدعاء القبر شرك، لكن لا يمكن أن نقول لشخص معين فعله: هذا مشرك، حتى نعرف قيام الحجة عليه، أو نقول: هذا مُشرك باعتبار ظاهر حاله.

● **الثامنة: أنَّ الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله.**

فكل ما عُبد من دون الله، فهو طاغوت، وقد عرَّفه ابن القيم: بأنَّه كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مُطاع.

فالمعبود كالصنم، والمتبوع كالعالم، والمُطاع كالأمير.

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) [حسن] أخرجه أبو داود (٢٦)، وابن ماجة (٣٢٨) عن معاذ بن جبل به.

وأنظر «منار السبيل» (٧٢ بتخريجنا)

التاسعـة: عظَمُ شأن الثلاث آيات المُـحكَمات فى سورةَ الأنـعَام عنْدَ السَّلَف، وفِيهَا عَشْرُ مَسَائل، أولها النَّهْىُ عَنِ الشِّرْك.

العاشـرة: الآياتُ المُحكَمَـاتُ فى سورةَ الإسْراء، وَفيـهَا ثمَانيَـةَ عَشر مَسْألَةً، بَدأَهَـا الله بقَوْله: ﴿لا تجعَلْ مَعَ اللَّه إلهًا آخَر فتَقْعُد مذْمُوما مَّخْذُولا﴾[1] وَخَتَمَهَا بقَوْله: ﴿ولا تَجعَلْ مع اللَّه إلهًا آخر فتُلْقَىٰ فى جهنَّم ملوما مَّدْحُورًا﴾[2] ونَبَّهنَا الله سبْحَانَهُ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذه المَسَائِلِ بقَوْله: ﴿ذَلكَ ممَّا أَوْحَىٰ إلَيْكَ ربُّكَ منَ الْحكْمَة﴾[3].

● التاسعة: عِظَم شأن الثلاث آيات المحكمات فى سورة الأنعام.

المحكمات، أى: التى ليس فيها نسخ، أخذ ذلك من قول ابن مسعود رضى الله عنه.

● العاشرة: الآيات المحكمات فى سورة الإسراء.

وهى قوله تـعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاه﴾[4] وفيها ثمانـى عشرة مسألة بدأها بقوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّه إلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ وختمها بقوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّه إلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وقد نبهنا الله - سبحانه- على عِظَم شأن هذه المسائل بقوله تعالى: ﴿ ذَلكَ ممَّا أَوْحَىٰ إلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحكْمَة﴾.

فبدأها الله بالنَّهى عن الشرك بقوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّه إلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ والقاعدُ ليس قائمًـا، لأنه لا خيرَ لمـن أشرك بالله (مذمومًا) عند الله وعـند أوليائه، (مخذولاً) لا ينتصر فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وختمها بقوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّه إلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ فهذه عقوبته عندما يُلقَى فى النَّار كلٌّ يلومه ويَدْحَرُه فيندَحر والعياذ بالله.

---

(١) الإسراء: ٢٢.
(٢) الإسراء: ٣٩.
(٣) الإسراء: ٣٩.
(٤) الإسراء: ٢٣.

الحادية عشرة: آيَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ الَّتِي تُسَمَّى آيَةَ الحُقُوقِ العَشْرَةِ، بَدَأَهَا اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾(١).

الثانية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ عِنْدَ مَوْتِهِ.

الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ اللهِ عَلَيْنَا.

الرابعة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ العِبَادِ عَلَيْهِ إِذَا أَدَّوا حَقَّهُ.

الخامسة عشرة: أَنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ لا يَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ.

● **الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة بدأها بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.**

فأحقّ الحقوق حق الله، ولا تنفع الحقوق إلا به، فبُدِئَتْ هذه الحقوق به، ولهذا لما سأل النبيﷺ حكيمُ بنُ حزام عمَّن كان يتصدق ويعتق ويصل رحمه في الجاهلية هل له من أجر؟ فقال النبيﷺ: «**أسلمتَ على ما أسلفت من الخير**»(٢) فدلَّ على أنَّه إذا لم يسلم لم يكن له أجر، فصارت الحقوق كلُّها لا تنفع إلا بتحقيق حق الله.

●**الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.**

وذلك من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ولكنَّ النبي ﷺ لم يوصِ بها حقيقةً، بل أشار إلى أننا إذا تمسكنا بكتاب الله ، فلنْ نضلَّ بعده، ومن أعظم ما جاء به كتابُ الله قوله تعالى: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ**﴾(٣).

● **الثالثة عشرة: معرفةُ حق الله علينا.**

وذلك بأن نعبدَه ولا نُشركَ به شيئًا.

● **الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدَّوا حقَّه .**

وذلك بأن لا يعذِّبَ من لا يشركُ به شيئًا ، أمَّا من أشرك، فإنَّه حقيقٌ أن يُعذَّب.

● **الخامسة عشرة: أنَّ هذه المسألة لا يعرفها أكثرُ الصحابة.**

---

(١) النساء: ٣٦

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٩٩٢) ومسلم في الإيمان (١/٤١٧/١٩٤)

(٣) الأنعام: ١٥١.

السادسة عشرة: جَوَازُ كِتْمان العِلْمِ للمَصْلَحَة.

السابعة عشرة: اسْتِحْبَابُ بِشَارَةِ المُسْلِم بما يَسُرُّه.

الثامنة عشرة: الخَوْفُ مِنْ الاتِّكَال عَلَى سعة رَحْمَة الله.

وذلك أن معاذًا أخبر بها تأثمًا، أى خروجًا مـن إثم الكِتْمان عند موته بعد أن مات كثيرٌ من الصحابة(١).

● **السادسة عشرة: جوازُ كِتمان العلم للمصلحة.**

هذه ليست على إطلاقها، إذ إنَّ كتمانَ العـلم على سبيل الإطلاق لا يجوزُ لأنه ليس بمصلحة، ولهذا أخبر النبىﷺ معاذًا ولم يكتم ذلك مطلقًا، وأما كِتمان العلمِ في بعض الأحوالِ، أو أن بعض الأشخاص لا علـى سبيلِ الإطلاق، فجائزٌ للمصلـحة، كما كتم النبـى ﷺ ذلك عن بقيـة الصحابة خَـشية أن يتَّكِـلوا عليه، وقـال لمعاذٍ: «**لا تُبشِّـرهم فيتكلوا**» .

ونظيـر هذا الحديث قوله ﷺ لأبـى هريرة: «**بَشِّـر النـاس أن من قـال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة**»(٢).

بل قد تقتضى المصـلحةُ تركَ العمل، وإن كان فيه مصلحة لرجـحان مصلحة الترك، كما همَّ النبى ﷺ أن يهـدَم الكعبة ويبنيها على قواعد إبراهيـم، ولكن ترك ذلك خشية افتتان الناس، لأنهم حديثوا عهدٍ بكفر(٣).

● **السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره.**

لقوله: «**أفلا أبشر الناس؟**» وهذه من أحسن الفوائد.

● **الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.**

وذلك لقوله «**لاتبشرهم فيتكلوا**»؛ لأن الاتكال على رحمة الله يسبـب مفسدة عظيمة هى الأمن من مكر الله.

وكذلك القنوط من رحمة الله يبعد الإنسان من التوبة، ويسبب اليأس من رحمة الله، ولهذا قال الإمام أحـمد: «ينبغى أن يكون سـائراً إلى الله بين الخوف والرجاء؛ فـأيهما غلب هلك صاحبه».

---

(١) لأن معاذًا رضى الله عنه علم أن النبى ﷺ كان يخشى أن يفـتتن الناس بها ويتكلوا عليها، ولم يرد كتمها مطلقًا، لأنه لو أراد ذلك ما أخبر بها معاذًا. ـ القول المفيد ـ

(٢) تقدم تخريجه قبل سرد فوائد الحديث.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٥٨٥) ،ومسلم فى الحجر (٥/٩٨/٣٩٨) .

فإذا غلب الرجاء أدى ذلك إلى الأمن من مكر الله، وإذا غلب الخوف أدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله..

وقال بعض العلماء: إن كان مريضاً غلَّب جانب الرجاء، وإن كان صحيحاً غلَّب جانب الخوف.

وقال بعض العلماء: إذا نظر إلى رحمة الله وفضله غلب جانب الرجاء، وإذا نظر إلى فعله وعمله غلب جانب الخوف لتحصل التوبة.

ويستدلون بقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾**(١) ؛ أي خائفة أن لايكون تقبل منهم لتقصير أو قصور، وهذا القول جيد.

وقيل: يغلّب الرجاء عند فعل الطاعة ليحسن الظن بالله، ويغلب جانب الخوف إذا هم بالمعصية لئلا ينتهك حرمات الله.

وفي قوله«أفلا أبشر الناس؟» دليل على أن التبشير مطلوب فيما يسر من أمر الدين والدنيا، ولذلك بشرت الملائكة إبراهيم، قال تعالى **﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾**(٢) وهو إسحاق، والحليم إسماعيل، وبشر النبي ﷺ أهله بابنه إبراهيم، فقال: «**ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم**»(٣) فيؤخذ منه أنه ينبغي للإنسان إدخال السرور على إخوانه المسلمين ما أمكن بالقول أوبالفعل ؛ ليحصل له بذلك خير كثير، وراحة وطمأنينة قلب وانشراح صدر.

وعليه ؛ فلا ينبغي أن يدخل السوء على المسلم، ولهذا يروى عن النبي ﷺ «لايحدثني أحد عن أحد بشيء؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»(٤).

وهذا الحديث فيه ضعف، لكن معناه صحيح؛ لأنه إذا ذكر عندك رجل بسوء؛ فسيكون في قلبك عليه شيء ولو أحسن معاملتك، لكن إذا كنت تعامله وأنت لاتعلم عن سيئاته، ولامحذور في أن تتعامل معه؛ كان هذا طيباً، وربما يقبل منك النصيحة أكثر، والنفوس ينفر بعضها من بعض قبل الأجسام، وهذه مسائل دقيقة تظهر للعاقل بالتأمل.

● **التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لايعلم: الله ورسوله أعلم.**

---

(١) المؤمنون: ٦٠.. (٢) الذاريات: ٢٨.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في الفضائل (٨/٢/٦٢)

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩٥) أبوداود (٤٨٦٠) والترمذي (٣٩٨٦)

قال حامد بن محمد بن حسن: [قال معاذ: قلت الله ورسوله أعلم] وهذا الجواب هو الحقيقة وهو الصواب؛ لأن الله هو عالم غيب السموات والأرض، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً، ثم رسول الله ﷺ أعلم الخلق؛ لأنه يوحى إليه من الله تعالى - هذا فى زمن حياته - لتوالى الوحى عليه شيئاً فشيئاً فى بيان كل شيء، قال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾(١) وأما بعد موته فلا، بل يحرم بأنه لاعلم لأحد دون الله بكليات الأمور ولا جزئياتها ولاتجاميلها ولاتفاصيلها على الحقيق إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾(٤). أهـ.

وقال ابن عثيمين: وذلك لإقرار النبى ﷺ معاذاً لما قالها، ولم ينكر النبى ﷺ على معاذ، حيث عطف رسول الله ﷺ على الله بالواو، وأنكر على من قال: «ماشاء الله وشئت»، وقال: «**أجعلتنى لله نداً؟! بل ماشاء الله وحده**»(٥).

فيقال: إن الرسول ﷺ عنده من العلوم الشرعية ماليس عند القائل؛ ولهذا لم ينكر الرسول ﷺ على معاذ.

بخلاف العلوم الكونية القدرية؛ فالرسول ﷺ ليس عنده علم منها.

فلو قيل: هل يحرم صوم العيدين؟

جاز أن نقول: الله ورسوله أعلم، ولهذا كان الصحابة إذا أشكلت عليهم المسائل ذهبوا إلى رسول الله ﷺ فيبينها لهم.

ولو قيل: هل يتوقع نزول مطر فى هذا الشهر؟ لم يجز أن نقول: الله ورسوله أعلم؛ لأنه من العلوم الكونية.

● **العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.**

---

(١) النحل/ ٨٩.
(٢) الجن/ ٢٦، ٢٨.
(٣) الأنعام/ ٥٩. (٤) النمل/ ٦٥.
(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٢١٤) وابن ماجه (٢١١٧). والنسائى فى «الكبرى»(١٠٨٢٥) عن ابن عباس به.

الحادية والعشرون: تَواضُعُهُ ﷺ لِرُكُوبِ الحِمَارِ مَعَ الإرْدَافِ عَلَيْهِ.

الثانية والعشرون: جَوَازُ الإرْدَافِ عَلَى الدَّابَّةِ.

الثالثة والعشرون: عظَمُ شأنِ هَذِه المسألة.

الرابعة والعشرون: فَضِيلَةُ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ.

وذلك أن النبى ﷺ خص هذا العلم بمعاذ دون أبى بكر وعمر وعثمان وعلى.

فيجوز أن نخصص بعض الناس بالعلم دون بعض، حيث إن بعض الناس لو أخبرته بشىء من العلم افتتن، قال ابن مسعود: «إنك لن تحدث قوماً بحديث لاتبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»(١) وقال على: «حدثوا الناس بما يعرفون»(٢).

● **الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.**

النبى ﷺ أشرف الخلق جاهاً، ومع ذلك هو أشد الناس تواضعًا، حيث ركب الحمار وأردف عليه، وهذا فى غاية التواضع؛ إذ إن عادة الكبراء عدم الإرداف، وركب ﷺ الحمار، ولو شاء لركب ما أراد، ولا منقصة فى ذلك؛ إذ أن من تواضع لله ـ عزوجل ـ رفعه.

● **الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة.**

وذلك أن النبى ﷺ أردف معاذا، لكن يشترط للإرداف أن لايشق على الدابة، فإن شق؛ لم يجز ذلك.

[قلت]: ويشرط آخر تقدم وهو عدم تماس العورات وذلك ببعد المسافة بينهما أو بالثياب.

● **الثالثة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة.**

حيث أخبر النبى ﷺ معاذاً، وجعلها من الأمور التى يبشر بها.

● **الرابعة والعشرون: فضيلة معاذ رضى الله عنه.**

وذلك أن النبى ﷺ خصه بهذا العلم، وأردفه معه على الحمار.

---

(١) أخرجه مسلم فى المقدمة (١/١٠٨).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى . (١٢٧)

(١) بابٌ

فَضْلُ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

● **تنبيه**[*]:

قوله: (باب) فيها التنوين وتركه والإسكان، **قال ابن حجر**: حكى عياض ومن تبعه: فيه التنوين وتركه . وقال الكرماني: يجوز فيه الإسكان على سبيل التعداد للأبواب فلا يكون له إعراب. اهـ.

● **مناسبة هذا الباب لما قبله: -**

قال سليمان آل الشيخ[١]: ولما ذكر معنى التوحيد ناسب ذكر فضله وتكفيره للذنوب ترغيبًا فيه وتحذيراً من الضد. اهـ

وقال نحوه ناصر السعدى فى «القول السديد» حيث قال[٢]: -

لـمّا ذكر فى الترجمة السابقة وجوب التوحيد، وأنه الغرض الأعظم على جميع العبيد، ذكر هنا فضله وهو: آثاره الحميدة ونتائجه الجميلة وليس شيء من الأشياء له من الآثار الحسنة والفضائل المتنوعة مثل التوحيد، فإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات هذا التوحيد وفضائله. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله[٣]: - لـمّا ذكر المؤلف رحمه الله فى الباب الأول [وجوب التوحيد] ذكر هنا فضله وأنه يكفر الذنوب. أهـ.

● **مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:**

قلت: هى واضحة من التبويب.

● **ماذا أراد المصنِّف بهذا الباب:**

قال ابن باز[٤]: أراد المؤلف بيان شيء من فضل التوحيد وأنه أعظم الأعمال فى تكفير الذنوب؛ (لأنه أساس الأعمال وأصلها، والأعمال لاتصح إلا بعد وجوده).

وذكر ذلك حتى يعرفه المؤمن ويكون أكثر إقبالاً عليه وتشوقاً إليه. أهـ.

(*) فتح البارى (١/ ١٣).

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٤٨).

(٢) «القول السديد» (١٦).

(٣) «الجامع الفريد» (١٤).

(٤) «التعليق المفيد» (٣٣).

وقــولُ الله تَعَــالَــىَ: ﴿الَّذينَ آمَنُوا ولَـمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾[1] ....

قال نحوه ابن عثيمين وزاد فقال[2]:-

وعقد هذا الباب لأمرين:

الأول: بيان فضل التوحيد.

الثاني: بيان ما يكفره من الذنوب؛ لأن من آثار فضل التوحيد تكفيرَ الذنوب.

● شرح الترجمة والتبويب:

قال حامدبن محمد بن حسن[3]: باب في بيان فضل التوحيد عند الله وما يكفر من الذنوب بالكتاب والسنة.

قوله: «**باب**» خبر مبتدأ محذوف، تقديره هذا باب بيان فضل التوحيد[4].

والباب في اللغة هو المدخل إلى الشيء[5].

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾

قوله «فضل التوحيد».

قال عبد الرحـمن آل الشيخ[6]: والمراد بالتـوحيد. توحيد العـبادة وهو إفراد الله تعالى بانواع العبادة الباطنة والظاهرة كالدعاء والذبح والنذر (وغير ذلك) كما قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[7] وقال تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[8].

قوله: «**وما يكفر من الذنوب**».

يعني: وبيان مـا يكفر من الذنوب، و(ما) يجوز أن تكون مـوصولة. أي: وبيان ما يكفره من الذنوب. ويجوز أن تكون مصدرية، أي: وبيان تكفيره الذنوب، وهذا أرجح، لأنَّ الأول يوهم أنَّ ثم ذنوبًا لايكفرها التوحيد، وليس بمراد[9] اهـ.

ومال إلى الأول ابن عثيمين.

(١) الأنعام: (٨٢).
(٢) «القول المفيد» (١/ ٧١).
(٣) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٥).
(٤) «تيسير العزيز الحميد» (٤٨).
(٥) «قرة عيون الموحدين» ٢٣.
(٦) «قرة عيون الموحدين» (٢٣).
(٧) غافر: (١٤)
(٨) غافر: (٦٥).
(٩) قاله سليمان الشيخ في« تيسير العزيز الحميد».

قال ناصر السعدي[1]: فقول المؤلف. رحمه الله (**وما يكفر من الذنوب**) من باب عطف الخاص على العام، فان مغفرة الذنوب وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره كما ذكر شواهد ذلك فى الترجمة.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾.



● **مناسبة الآية للباب:**

قال سليمان آل الشيخ[2]: -مطابقة الآية للترجمة، دلت على فضل التوحيد وتكفيره للذنوب؛ لأن من أتى به تاماً فله الأمن التام والاهتداء التام، ودخل الجنة بلا عذاب، ومن أتى به ناقصاً بالذنوب التى لم يتب منها، فإن كانت صغائر كفرت باجتناب الكبائر ـ كما جاء فى تفسير قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾** فقيل اللمم صغائر الذنوب، وقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾**، لآية (النساء) و(النجم) وإن كانت كبائر فهو فى حكم المشيئة، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، ومآله إلى الجنة، والله أعلم. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: أن الله أثبتَ الأمنَ لمن لم يشركْ، والذى لم يشركْ يكون موحِّداً؛ فدلَّ على أن مِنْ فضائل التوحيد استقرار الأمن. اهـ.

فمن أراد فى الدنيا والآخرة الأمن لنفسه أو لأهله أو لبلده فعليه بالتوحيد تعلمًا وتعليمًا وعملاً.

قال عبد الله بن جار الله[4]: ومناسبتها للباب: أن من مات على التوحيد ولم يصر على الكبائر فله الأمن من العذاب فى الآخرة وهذا من فضل التوحيد. اهـ.

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

قال القرعاوى[5]: حيث دلت الآيه على أن من مات على التوحيد وتاب من

(١) «القول السديد» ١٦.
(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠).
(٣) «القول المفيد» (١/ ٧٤).
(٤) «الجامع الفريد» (١٥).
(٥) «الجديد» (٣٥).

الكبائر سَلِم من عـذاب النار. ومن مات مصراً على الكبائر مع التـوحيد سلم من الخلود فى النار. اهـ



قوله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾.

الاعراب[١] :

(الذين) خبر لمـبتدأ محذوف، بنـاء على أن الكلام مـسوق من إبراهيم جـواباً عن السؤال فى قوله: ﴿ **وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ ؟ ويجوز أن تكون مـبتدأ بناء على أن الكلام من الله تعالى وهو مـا رجحه الطبرى، وجملة **(آمنوا)** صلة، **(ولم)** الواو عاطفة، تعطف ما نفى على ما أثبت وفيه معنى لا إله إلا الله **(ولم)** **(تجزم فعل واحد)** حرف نفى وقـلب وجزم، **(ويلبسوا)** فعل مضـارع مجزوم بلم استمرار حـدوث الفعل، معطوف على الصلة، وبظلم جار ومجرور متعلقان بيلبسوا أ.هـ.

● ماجاء فى تفسيره بالقرآن الكريم: -

قال الشنقيطى[٢]: المراد بالظلم هـنا: الشرك كما ثبت عن النـبى ﷺ فى صحيح البخـارى وغيره من حـديث عبد الله بـن مسعود - رضـى الله عنه - [٣]وقد بينه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[٤] وقوله ﴿**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[٥] وقوله: ﴿**وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ**﴾[٦].

روى ابن جرير عن ابن إسحاق قال: يقول الله تعالى ذكره ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ أى الذين أخلصوا كاخلاص إبراهيم ﷺ لعبادة الله وتوحيده[٧].

---

(١) الإعراب (٣/ ١٦٠).

(٢) «أضواء البيان».

(٣) أخرجه البـخارى (٣٢)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ١٤٣- الـنووى) وانظر كتابنا «فـتح أى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٣٦٩).

(٤) لقمان: (١٣) .

(٥) البقرة: (٢٥٤).

(٦) يونس: (١٠٦).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١٦٧)

وروى أيضاً عن ابن جريج ﴿فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أمن يعبد رباً واحداً أم من يعبد أرباباً كثيرة؟ يقول قومه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ بعبادة الأوثان وهى حجة إبراهيم ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين :**

قال الطبرى[2]: وقال آخرون هذا جواب من قوم إبراهيم ﷺ لابراهيم حين قال لهم: أى الفريقين أحق بالأمن فقالوا له: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله فوحدوه أحق بالأمن إذ لم يلبسوا إيمانهم بظلم.

قال ابن جرير: وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب: قول من قال هذا خبر من الله تعالى عن أولى الفريقين بالأمن، وفصل قضاء منه بين إبراهيم ﷺ وبين قومه.

وذلك أن ذلك لو كان من قول قوم إبراهيم الذين كانوا يعبدون الأوثان ويشركونها فى عبادة الله لكانوا أقروا بالتوحيد واتبعوا إبراهيم على ما كانوا يخالفونه فيه من التوحيد ولكنه كما ذكرت من تأويله بدأ. أهـ

وعلى تقدير أنه خبر لمبتدأ محذوف ففيه أن قوم إبراهيم كانوا كفاراً مع معرفتهم بتحقيق التوحيد فلا يكون الإنسان مؤمنًا إلا بمعرفة حقيقة ما يؤمن به، والعمل بهذه المعرفة.

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن[3]: -

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله أى صدقوا وأذعنوا بأنه الرب الملك المعبود وحده لا شريك له فى ربوبيته وملكه وعبادته ولا فى أسمائه وصفاته وأنه قيم السموات والأرضين ومن فيهن قائم بذاته فهو الغنى عمن سواه، وقيوم بالخلق والخلق فقراء إليه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[4] وأيضاً وآمنوا بملائكته على ما وصفهم رسول الله ﷺ لاسيما جبريل فإنه أمين على الوحى، وميكائيل موكل على الأقطار، وعزرائيل[5]، فإنه موكل على قبض الأرواح، وإسرافيل فإنه موكل على نفخ الصور، وآمنوا بكتبه أنها مائة صحيفة وأربع كتب: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وكلها كلام الله منزلة غير مخلوقة.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق.
(٢) تفسير الطبرى (٥/٧/١٦٧، ١٦٨).
(٣) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٥، ١٠٦).
(٤) فاطر: (١٥).
(٥) لو قال: وملك الموت، فإنه.. لكان أولى: لأن تسميته باسم: «عزرائيل» لم يثبت فيه شىء مرفوع. وانظر: حرف العين من كتاب: «معجم المناهى اللفظية». (فتح الله الحميد المجيد).

وآمنوا برسله وأنبيائه مجموعهم مائة ألف وأربع وعشرون ألفاً، والرسل ثلاث مائة وثلاثة عشر رسولاً، وأولو العزم منهم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، وقد نظمت الجميع مجملاً.

الأنبياء كلهم عجم وأولهم ... نوح وآخرهم من كان من مضر
جا عُرْبُهُم ستة نوح وصالحهم ... هود ولوط شعيب سيد البشر
أيضا أولو عزمهم موسى وآدمهم ... عيسى محمد إبراهيم فادكر
ما أنزل الله مما سُمِّيَ الصحف ... عدت لنا مائة بالنقل والخبر
وما أتى كتباً في العد أربعة ... هذا التجاميل والنقصان واختبر

وآمنُوا باليوم الآخر: أن الله يبعث الخلق كلهم؛ لفصل القضاء.

وآمنوا بالقضاء والقدر: أن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب قال: وماذا أكتب قال: اكتب مقادير كل شيء فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة(١).

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(٢)

أهـ.

قوله: «ولم يلبسوا إيمانهم بظلم».

وأخرج ابن أبي حاتم عن بكر بن سوادة قال: حمل رجل من العدّو على المسلمين فقتل رجلاً، ثم حمل فقتل آخر، ثم حمل فقتل آخر، ثم قال: أينفعني الإسلام بعد هذا؟ قالوا: ما ندري؛ فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **نعم**. فضرب فرسه فدخل فيهم، ثم حمل على أصحابه فقتل رجلاً، ثم آخر، ثم قتل قال: فيرون أن هذه الآية نزلت فيه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٣١٧) والترمذي (٣٣١٩) وانظر تخريجه في «تفسير ابن أبي حاتم - بتخريجنا و«فتح القدير» - بتخريجنا أيضًا.

(٢) الحديد: ٢٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» وذكره السيوطي في «الدر» في الموضع السابق وشبه إليه، فانظره بتخريجنا.

● **ما جاء فى تفسير الآية من السنة:**

أولاً: بالمرفوع:

عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا، فانتهى إلينا فسلم، فقال له النبى ﷺ «**من أين أقبلت؟** فقال: من أهلى وولدى وعشيرتى أريد رسول الله. قال: قد أصبته. قال: علمنى ما **الإيمان**؟ قال: **تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**. قال: قد أقررت. ثم إن بعيره دخلت يده فى شبكة جرذان فهوى ووقع الرجل على هامته فمات(1).

فقال رسول الله ﷺ: هذا من الذين عملوا قليلاً وأجروا كثيراً، هذا من الذين قال الله: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ إنى رأيت حور العين يُدخلن فى فيه من ثمار الجنة، فعلمت أن الرجل مات جائعاً».

وعن ابن عباس قال: «كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير ساره، إذ عرض له أعرابى فقال: والذى بعثك بالحق لقد خرجت من بلادى وتلادى لاهتدى بهداك وآخذ من قولك فأعرض على، فعرض عليه الإسلام فقبل، فازدحمنا حوله فدخل خف بكره فى ثقب جرذان، فتردى الأعرابى فانكسرت عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «**أسمعتم بالذى عمل قليلاً وأجر كثيراً هذا منهم؟ أسمعتم بالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم هذا منهم**»(2).

وعن إبراهيم التيمى «أن رجلا سأل عنها النبى ﷺ فسكت حتى جاء رجل فأسلم، فلم يلبث إلا قليلاً حتى قاتل فاستشهد، فقال النبى ﷺ: «**هذا منهم من الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**»(3).

وعن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا:

---

(1) أخرجه أحمد فى «مسنده ٤٠/٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٢».

ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٣٠٨) وزاد نسبته للطبرانى، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والبيهقى فى «الشعب».

(٢ ـ ٣) ذكرهما السيوطى فى الدر (٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠) ونسب الأول للحكيم الترمذى، وابن أبى حاتم، ونسب الثانى لعبد بن حميد .

يارسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟! قال: «**إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك**»[1].

● **ثانياً: التفسير بالاثار الموقوفة**

عن أبى بكر الصديق. أنه سئل عن هذه الآية **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾** قال: ما تقولون؟ قالوا: لم يظلموا. قال: حملتم الأمر على أشده، بظلم: بشرك، ألم تسمع إلى قول الله (**ان الشرك لظلم عظيم**)[2].

و عن عمر بن الخطاب **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾** قال: بشرك[3].

وعن حذيفة **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾** قال: بشرك[4].

وعن سلمان الفارسى. أنه سئل عن هذه الآية **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾** قال: إنما عنى به الشرك، ألم تسمع الله يقول (إن الشرك لظلم عظيم)[5].

عن أبى بن كعب فى قوله **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾** قال: ذاك الشرك[6].

وعن ابن عباس. أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نشر المصحف يقرأه، فدخل ذات يوم فقرأ سورة الأنعام، فأتى على هذه الآية **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾** الى آخر الآية، فانتقل وأخذ رداءه ثم أتى أبى بن كعب، فقال: يا أبا المنذر أتيت على هذه الآية **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾** وقد نرى أنا نظلم ونفعل ونفعل؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا ليس بذاك. يقول الله **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾** انما ذلك الشرك[7].

---

(١) تقدم عن شرح الآية فى أول الباب.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لـلفريابى، وابن أبى شيبة، والحكيم الترمذى، وابن جرير، وابن المنذر، وأبى الشيخ، وابن مردويه، وانظر «فتح القدير» (٤٦٠٦- بتخريجنا).

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.
وانظر فتح القدير (٤٦٠٧ - بتخريجنا).

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق، ونسبه للفريابى، وعبد بن حميد، وابن أبى شيبة، وأبى عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبى الشيخ. وانظر «فتح القدير» ٤٦٠٨- بتخريجنا).

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٠٩) ونسبه للفريابى، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبى الشيخ، وانظر «فتح القدير» (٤٦٠٩- بتخريجنا).

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأبى الشيخ.، وانظر «فتح القدير» (٤٦١٠ - بتخريجنا).

(٧) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه وانظر «فتح القدير» (٤٦١١ - بتخريجنا.).

و عن ابن عباس ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ قال: بشرك[1].

وابن مردويه عن علي بن أبى طالب في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال: نزلت هذه الآية فى إبراهيم وأصحابه خاصة، ليس فى هذه الأمة[2].

● ما جاء فى سبب النزول:

وعن مجاهد ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال: بعبادة الأوثان[3].

وعن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ يقول: لم يخلطوا إيمانهم بشرك[4].



● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى[5]: اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى عناه الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ فقال بعضهم بشرك، ثم أسند ذلك عن ابن مسعود وعلقمة، وأبى بكر، وزيد بن صوحان، وحذيفة وابن عباس، وعمر بن الخطاب، وأبى ميسرة وإبراهيم النخعى، وقتادة، ومجاهد، وابن زيد.

ثم قال[6]: وقال آخرون: بل معنى ذلك ولم يخلطوا إيمانهم بشىء من معانى الظلم وذلك فعل مانهى الله عن فعله، أو ترك ما أمر الله بفعله.

وقالوا: الآية على العموم لأن الله لم يخص به معنى من معانى الظلم.

قالوا: فان قال لنا قائل أفلا أمن فى الآخرة إلالمن لم يعص الله فى صغيرة ولا كبيرة؟ والالمن لقى الله ولا ذنب له؟

قلنا: إن الله عنى بهذه الآية خاصا من خلقه دون الجميع منهم، والذى عنى بها

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبى الشيخ وانظر «فتح القدير» (٢/٤١٢- بتخريجنا).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه للفريابى، وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد ، وأبى الشيخ.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم ، فانظره بتخريجنا.

(٥ -٦) «تفسير الطبرى» (٥/٧/ ١٦٩، ١٧٠، ١٧١).

وأراده بها خليله إبراهيم ﷺ فأما غيره فأنه إذا لقى الله لايشرك به شيئاً فهو فى مشيئته، إذا كان قد أتى بعض معاصيه التى لاتبلغ أن تكون كفراً فان شاء لم يؤمنه من عذابه. وإن شاء تفضل عليه فعفا عنه.

قالوا: وذلك قول جماعة من السلف وان كانوا مختلفين فى المعنى بالآية.

فقال بعضهم: عنى بها إبراهيم، وقال بعضهم: عنى بها المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ.

ثم قال وأولى القولين بالصحة فى ذلك ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ وهو الخبر الذى رواه ابن مسعود(١) عنه أنه قال الظلم الذى ذكره الله تعالى فى هذا الموضع هو الشرك.

قال الرازى(٢): والمعنى: أن الذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين:

أولهما: الإيمان وهو كمال القوة النظرية.

وثانيهما ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ وهو كمال القوة العملية.

ثم قال: إعلم أن أصحابنا يتمسكون بهذه الآية من وجه والمعتزلة يتمسكون بها من وجه آخر أما وجه تمسك أصحابنا فهو أن نقول إنه تعالى شرط فى الإيمان الموجب للأمن عدم الظلم، ولو كان ترك الظلم أحد أجزاء مسمى الإيمان لكان هذا التقييد عبثاً، فثبت أن الفاسق مؤمن وبطل به قول المعتزلة، وأما وجه تمسك المعتزلة بها فهو أنه تعالى شرط فى حصول الأمن حصول الأمرين، الايمان وعدم الظلم، فوجب أن لايحصل الأمن للفاسق وذلك يوجب حصول الوعيد له.

وأجاب أصحابنا عنه من وجهين:

الوجه الأول: أن قوله ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ المراد من الظلم الشرك، لقوله تعالى حكاية عن لقمان إذ قال لابنه ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فالمراد ههنا الذين آمنوا بالله ولم يثبتوا لله شريكًا فى العبودية.

والدليل على أن هذا هو المراد أن هذه القصة من أولها الى آخرها إنما وردت فى نفى الشركاء والأضداد والأنداد، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات، فوجب حمل الظلم ههنا على ذلك.

---

(١) تقدم عن شرح الآية فى أول الباب.

(٢) «التفسير الكبير» (٧/ ١٣ / ٦٤).

الوجه الثانى: فى الجواب: أن وعيد الفاسق من أهل الصلاة يحتمل أن يعذبه الله، ويحتمل أن يعفو عنه، وعلى كلا التقديرين: فالأمن زائل والخوف حاصل، فلم يلزم من عدم الأمن القطع بحصول العذاب؟ والله أعلم. أهـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(1): والذى شق عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد لنفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبى ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله، وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، فمن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**﴾(2) وهذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب، كما قال: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾(3).

وقد سأل أبو بكر رضى الله عنه النبى ﷺ عن ذلك فقال: يارسول الله، وأَيُّنا لم يَعْمَل سُوءاً؟ فقال: «**يا أبا بكر ألستَ تَنصبُ، ألستَ تحزَنُ، أليسَ تُصيبكَ اللأواءَ؟! فذلكَ مَا تُجزَوْنَ به**»(4) فبين أن المؤمن الذى إذا مات دخل الجنة، قد يجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب التى تصيبه.

قال: فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة، يعنى: **الظلم الذى هو الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك**، كان له الأمن التام، والاهتداء التام ومن لم يسلم من ظلم نفسه، كان له الأمن والاهتداء مطلقاً، **بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة**، كما وعد بذلك فى الآية الأخرى، وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء، بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه.

---

(1) «تيسير العزيز الحميد» (49 و 50).

(2) سورة فاطر آية: 32.

(3) سورة الزلزلة (7، 8).

(4) [حسن] أخرجه أحمد فى «مسنده» (1/ 11)، وابن جرير فى «تفسيره» (5/ 189)، والحاكم فى «المستدرك» (3/ 74 - 75).

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (263).

قال صاحب: «فضل الغنى الحميد»[١]: وقوله: مطلق الأمن والاهتداء أى: أصله لاكماله، فالظلم التام المطلق، وهو الشرك رافع لمطلق الأمن والاهتداء، مزيل لأصلهما، ومطلق الظلم أى (مادون الشرك). رافع للأمن المطلق والاهتداء المطلق، أى: كاملين تامين. والشرك: ظلم العبد لنفسه، بوضعها فى غير موضعها، فبدلاً من عبوديتها لله، جعلها تعبد من سواه، وليس ظلماً لله، فالله أعلى وأجل وأعز من أن يقدر العباد على ظلمة أو ضره أو نفعه، بل لايبلغون ضره فيضروه، ولايبلغون نفعه فينفعوه وعقائدهم الفاسدة لاتغير من الحق شيئاً، قال تعالى: ﴿**وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[٢] وهذا الأمن والاهتداء لأهل الإيمان الخالص من الشرك يكون فى الدنيا والآخرة ﴿**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[٣] قال تعالى حاكياً عن إبراهيم - عليه السلام - ﴿**وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا**﴾[٤] فالمؤمن لايخاف إلا الله، وهو آمن من كل ما سواه، وإذا خاف شيئاً لجأ إلى الله فدافع الله عنه، وهو مهتد فى الأقوال والأعمال، ويوم القيامة يؤمنه الله من فزع يوم القيامة، ويهديه إلى طريق الجنة، ويعرفه منازله فيها، وأما الكافر فلا أمن له فى الدنيا ولا فى الآخرة، فهو فى الدنيا كما قال تعالى: ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾[٥] فهم - والله مهما كثرت جنودهم وامتدت حراستهم - فى رعب، وخوف دائم، إذ القلب لايطمئن إلا مع التوحيد فمن لم يوحد الله أخافه الله من كل شىء، ويوم القيامة هم فى فزع عظيم، نعوذ بالله منه، ولاينتهى ولايزول إذ لايقف عذابهم عند حد، قال تعالى: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا**﴾[٦] وكذلك هم فى الدنيا لايهتدون إلى صدق ولاعدل، وهم فى الآخرة أضل عن طريق الجنة، بل لايهتدون إلا إلى صراط الجحيم - نعوذ بالله من ذلك - اهـ.

قال سليمان آل الشيخ:[٧]

ثم قال شيخ الإسلام: ليس مراد النبى ﷺ بقوله: «**إنما هو الشرك**»[٨] أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، فان أحاديثه الكثيرة مع نصوص

(١) «فضل الغنى الحميد» ١٥، ٥٢
(٢) البقرة/ ٥٧.
(٣) الرعد/ ٢٨.
(٤) الأنعام/ ٨٠.
(٥) آل عمران/ ١٥١.
(٦) النبأ/ ٣٠..
(٧) تيسير العزيز الحميد ٥ .
(٨) سبق تخريجه عند شرح الآية في أول الباب.

القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذى يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم - صراط الذين أنعم الله عليهم - من غير عذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة.

وقوله: «**إنما هو الشرك**» إن أراد به الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة، وهو مهتد إلى ذلك، وإن كان مراده جنس الشرك فيقال: ظلم العبد نفسه، كبخله - لحب المال - ببعض الواجب هو شرك أصغر، وحبه ما يبغض الله حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك، فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب فى هذا الظلم بهذا الاعتبار. انتهى ملخصاً.

قال ابن القيم[1] رحمه الله: قوله: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ قال الصحابة: وأيُّنا يارسول الله لم يلبس أيمانه بظلم؟ قال: «**ذلك الشِّرك. ألم تسمعوا قول العبد الصَّالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟**»[2] لما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه - أىّ ظلمٍ كان - لم يكن آمناً ولا مهتديًا: أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظُّلم الرَّافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشِّرك.

وهذا والله هو الجوابُ الذى يشفى العليل ويَرْوى الغليل. فإنَّ الظُّلم المطلق التَّام هو الشِّرك. الذى هو وضع العبادة فى غير موضعها.

والأمن والهدى المطلق: هما الأمن فى الدُّنيا والآخرة. والهدى إلى الصِّراط المستقيم.

فالظُّلم المطلق التَّام رافع للأمن وللاهتداء المطلق التَّام. ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظُّلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى. فتأمله. فالمطلق للمطلق، والحصة للحصة» ا.هـ ملخصاً.

قال حامد بن محمد بن حسن[3]: (**لم يلبسوا إيمانهم بظلم**) أى لم يشوبوه ولم يخلطوه بشرك بل أخلصوا لله تعالى أعمالهم وأقوالهم وإراداتهم ونياتهم ولم يقربوا حمى الشرك بل ابتعدوا منه أشد الابتعاد حذراً من وقوعهم فيه.

---

(١) فتح المجيد ٤٨ ط مؤسسة قرطبة.

(٢) سبق تخريجه.

(١) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٦).

قال ابن عثيمين[1]: قوله: ﴿**لَمْ يَلْبِسُوا**﴾.

أى: يَخلطوا.

قوله: ﴿**بِظُلْمٍ**﴾

الظلم هنا ما يقابل الإيمان، وهو الشِّرك.

●**والظلم أنواع:**

١ - أظلم الظلم، وهو الشِّرك فى حقّ الله.

٢ - ظلم الإنسان نفسه؛ فلا يعطيها حقها، مثل أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

٣ - ظلم الإنسان غيره، مثل أن يتعدَّى على شخص بالضرب، أو القتل، أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك.

وإذا انتفى الظلمُ؛ حصل الأمن، لكن هل هو أمنٌ كامل؟

الجواب: إنه إن كان الإيمان كاملاً لم يخالطه معصيةٌ؛ فالأمنُ أمنٌ مطلق، أى كامل، وإذا كان الإيمانُ مطلقَ إيمانٍ - غير كامل-؛ فله مطلق الأمن؛ أى: أمن ناقص.

مثال ذلك: مرتكبُ الكبيرة، آمنٌ من الخلود فى النار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾[2].

وهذه الآية قالها الله تعالى حكماً بين إبراهيم وقومه حين قال لهم: ﴿**وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ** ....﴾ إلى قوله: ﴿**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[3]؛ فقال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ....﴾[4] الآية، على أنه قد يقول قائل: إنها من كلام إبراهيم ليبين لقومه، ولهذا قال بعدها: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ**﴾[5].



(١) «القول المفيد» ١/ ٧١ - ٧٣.

(٢) سورة النساء آيه: ٤٨

(٣) سورة الأنعام آية: ٨١.

(٤) سورة الأنعام آية: ٨٢.

(٥) سورة الأنعام آية: ٨٣.

● قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

الإعراب: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ، و﴿لَهُمُ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، و﴿الأَمْنُ﴾ مبتدأ مؤخر ثان، والجملة الإسمية خبر اسم الإشارة، وجملة الإشارة وما فى حيزة فى محل نصب مقول قول محذوف على الوجه الأول أو مرفوعة على أنها خبر الذين على الوجه الثانى والواو حرف عطف وهم مبتدأ و﴿مُّهْتَدُونَ﴾ خبره والجملة عطف على ما تقدم اهـ.

● **ما جاء في تفسير الآية من الأحاديث:**

وعن سخبرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ابتلى فصبر، وأعطى فشكر، وظلم فغفر، وظُلم فاستغفر، ثم سكت النبى ﷺ فقيل: يارسول الله ماله؟ قال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾**»(١).

● **ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال الطبرى: أما قوله ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فإنه يعنى هؤلاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿لَهُمُ الأَمْنُ﴾ يوم القيامة من عذاب الله ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يقول وهم المصيبون سبيل الرشاد والسالكون طريق النجاة. اهـ(٢).

قال ناصر السعدى(٣): قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ أى: يخلطوا: ﴿إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف، والعذاب والشقاء والهداية إلى الصراط المستقيم. فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً لا بشرك، ولا بمعاصى حصل لهم الأمن التام والهداية التامة.

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٣١٠) ونسبه للبغوي في «معجمه»، وابن أبي حاتم، وابن قانع، والطبرني ، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب».

وانظر «تفسير ابن أبي حاتم «بتخريجنا».

(١) تفسير الطبرى (٥/٧/ ١٧١).

(٢) تفسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٩، ٤٠).

ومفهوم الآيه الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء. أهـ وتقدم كلام شيخ الإسلام وتلميذه فى ذلك.

● ما جاء في تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن(١): أولئك لهم الأمن فى الدارين:

أما فى الدنيا فيدفع عنهم بأمره الكونى وأمره الشرعى السوء، أما أمره الشرعى فيأمرهم بتوحيده وطاعته لئلا يقعوا فى غضبه وناره، وأما أمره الكونى إما عامًا يعم الأسواء والشرور كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾(٢).

وإما خاصًا بشيء كما يدفع عنهم الذل والخذلان ويؤيدهم بالعز والنصر كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾(٣). ويدفع عنهم الضلال قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٤) ويدفع عنهم كيد العدو والكرب قال تعالى: ﴿ **وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** ﴾(٥) ويدفع عنهم الضر والأذى قال تعالى: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤)**﴾(٦). ويدفع عنهم الهم والغم قال تعالى: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)**﴾(٧). ويدفع عنهم السوء والفحشاء قال تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾(٨). ويدفع عنهم عند الأجل الخوف والحزن ببشراء يرسل إليهم ملائكته يبشرونهم قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ**

---

(١) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٦ - ١١١).
(٢) الحج: ٣٨.
(٣) غافر: ٥١.
(٤) العنكبوت: ٦٩.
(٥) الأنبياء: ٧٦.
(٦) الأنبياء: ٨٣، ٨٤.
(٧) الأنبياء: ٨٧، ٨٨.
(٨) يوسف: ٢٤.

قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(1). ويدفع عنهم الضيق والكرب عند نزع الروح من الجسد كما فى مسند الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فى جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمّا يُلْحَد، فجلس رسول الله ﷺ، فجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة أنزل الله ملائكته من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: اخرجى أيتها النفس الطيبة المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ويخرج كأطيب نفحة مسك وجدت فى الأرض، فيصعدون فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء التى تليها حتى ينتهوا إلى السماء السابعة، فيقول الله ـ عز وجل ـ: اكتبوا كتاب عبدى فى عليِّين وأعيدوه فى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول رسول الله ﷺ فيقولان: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت به، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً من الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويُفسح له فى قبره مدَّ بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول له: أبشر بالذى يسرّك هذا يومك الذى كنت تُوعد، فيقول له: من أنت، فوجهك الوجه الذى يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: ربّ أقم الساعة، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى»(2).

ويدفع عنهم فى الآخرة عسر الحساب، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾(3) ويدفع عنهم

(1) فصلت: ٣٠.

(2) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٨٧) وانظر كتابنا «بغية الفائز الجامع لأحكام الجنائز».

(3) الإنشقاق: ٧ - ٩.

كـرب الموقـف ويدخلهـم الجنـة، قال تعـالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1].

فبين الله أن المؤمن آمنٌ من كل ضر وسوء ومكروه فى الدنيا إلا إذا أراد الله استخباره بما هو خير له وصلاح، إما رفـعاً لدرجته وكفارة لسيئاته أو أنه يؤول إلـى حسن العاقبة استخبره بالبلايا والمحن، قال تعالى: ﴿الم ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ③﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[3]. وفى الحديث قال النبى ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله سبحانه إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمـن رضى فله الرضى، ومن سخط فعليه السخط»[4]. رواه الترمذى.

وهذا فى الحقيقة خـيرة لهم ولكن أكثر الناس لا يعلمـون، كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[5]. وأما غير المؤمن فبعكس ما هو للمؤمن، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ⑫④ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ⑫⑤ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[6]. فبين أنه فـى سوء حال فى الدنيا والآخرة، ولـو زخرفت لهم الدنيا فهم فى ضنكها وشقائها وعنائها.

قال ابن القيم رحمه الله: «اعلم أن يقال تعذيبهم بهـا هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيهـا ومؤثريها على الآخرة بالحرص على تحصيلهـا والتعب العظيم فى جمعها، ومقاساة أنواع المشاق.

كما قال بعض السلف: من أحب الدنيا فليـوطن نفسه على تحمل المصائب، ومحبها

(١) الزمر: ٧٣.
(٢) العنكبوت: ١/ ٣.
(٣) البقرة: ٢١٤.
(٤) سيأتي تخريجه في باب «الإيمان بالله: الصبر على قدر الله».
(٥) البقرة: ٢١٦.
(٦) طه: ١٢٤/ ١٢٦.

لا ينفك من ثلاث: هَمٌّ لازم، وتَعَبٌ، وحسرة لا تنقضى، وذلك أن محبها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما هو فوقه كما فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً**»(١). فطالبها لا تستريح نفسه من التعب كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، سرورها مشوب بالحزن، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها إلى كدور، وعيشها نكد كما قيل:

فما فى الأرض أشقى من محب ... وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً فى كل حال ... مخافة فرقة أو اشتياق
فيبكى إن نأى شوقاً إليه ... ويبكى إن دنا حذر الفراق
فتسخن عينه عند التلاقى ... وتسخن عينه عند الفراق

ولهذا قال النبى ﷺ، فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره: «**الدنيا معلونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه**»(٢).

الحاصل: أن مؤثر الدنيا على الآخرة فى شقاء وعناء لا يكاد يوصف فى الدنيا وفى الآخرة فى عذاب مقيم.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وقد دل العقل، والنقل، والفِطَر السليمة، وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها، وأهلها، ونحلَها: أن التقرب إلى رب العباد، وطلب مرضاته، والبر، والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب لكل خير وأضدادها من أكبر الأسباب لكل شر، فما استجلبت نعم قط ولا استدفعت نقم بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه وقد رتب الله تعالى حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة على الطاعات ورتب حصول الشر والمكروهات فى الدنيا والآخرة على المعاصى.

وفى بعض الآثار عن الله تبارك وتعالى: «**وعزتى وجلالى لا يكون عبد من عبيدى على ما أحبه ثم ينتقل إلى ما أكره إلا انتقلت له ما يحب إلى ما يكره ولا يكون عبد من عبيدى على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب إلا انتقلت له ما يكره، إلى ما يحب**» فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه مأمن، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف وذلك قوله: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ أ. هـ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم في الزكاة (٤/ ١٥٠/ ١١٦) عن أنس به، وانظر «الإتقان في علوم القرآن» - بتخريجنا-.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٧٧)، والترمذي (٢٣٢٨) عن ابن مسعود به وانظر «رياض الصالحين» (٤٨٠- بتخريجنا).

عن عُبَادَة بنِ الصَّامت (رَضِيَ اللهُ عَنه)؛ قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ (مَن شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَحدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ

وقد تقدم شيئاً من كلام ابن تيمية وابن القيم فى تأويل ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ فى معنى الأمن والهداية. فليرجع إليه.

قال ابن عثيمين[1]: قوله: ﴿**الأَمْنُ**﴾.

أل فيها للجنس، ولهذا فسَّرْنا الأمنَ بأنه إمَّا أمنٌ مطلق، وإمّا مطلقُ أمْن حسب الظلم الذى تلبس به.

قوله: ﴿**وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾.

أى: فى الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل؛ فالاهتداء بالعلم هداية الإرشاد.

والاهتداء بالعمل: هداية توفيق، وهم مهتدون فى الآخرة إلى الجنة.

هذه هداية الآخرة، وهى للذين ظلموا إلى صراط الجحيم، فيكون مقابلها أن الذين آمنوا ولم يظلموا يهدون إلى صراط النعيم.

وقال كثير من المفسرين فى قوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ**﴾: إن الأمن فى الآخرة، والهداية فى الدنيا، والصواب أنها عامةٌ بالنسبة للأمن والهداية فى الدنيا والآخرة. أهـ

وسيأتي في الباب الثاني مسائل تتعلق بالأمن، منهم هل الأمن غاية أم وسيلة، وعلاقته بالنصر والتمكين، وغير ذلك فانظره.



هذا لفظ البخارى الذى بوّب عليه باب قوله ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُم**﴾ الآيه.

ولفظ مسلم: «**من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ عيسى عبد الله وابنُ أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنّ الجنة حق، وأنَّ النار حق، أدخله الله من أى أبواب الجنة الثمانية. شاء**».

وفى لفظ: «**أدخله الله الجنة على ما كان من عمل» ولم يذكر أى أبواب الجنة الثمانية شاءً»**.

---

(١) «القول المفيد» (١/ ٧٣).

وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ. وَالجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ: أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ). أخرجاه(١).

●مناسبة الحديث للباب: -

قال النووى(٢):- هذا حديث عظيم جليل الموقع وهو أجمع أومن أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد. فإنه - ﷺ - جمع فيه ما يخرج عن ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاقتصر - ﷺ - فى هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم. أ هـ.

قال عبد الله بن جار الله(٣) : هى ان من شهد بهذه الخمس المذكورة فى الحديث عن علم ويقين تكفر ذنوبه ويدخل الجنة وهذا من فضل التوحيد.

قوله: «عن عبادة».

قال سليمان آل الشيخ(٤) : عبادة هو ابن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى أبو الوليد، أحد النقباء، بدرى مشهور من جلة الصحابة، مات بالرملة سنة أربع وثلاثين وله اثنتان وسبعون سنة. وقيل: عاش إلى خلافة معاوية.

قوله «من شهد أن لا إله إلا الله».

قال ابن عثيمين(٥): الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق، قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾(٦)، وهذا العلم قد يكون مُكْتَسَباً وقد يكون غريزياً.

فالعلم بأنه لا إله إلا الله غريزىٌّ، قال ﷺ: «**كل مولودٍ يُولد على الفطرة**»(٧).

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «أحاديث الأنبياء «باب: ﴿يا أهل الكتاب لاتغلو فى دينكم﴾ (٦/٥٤٦/ح ٣٤٣٥)، ومسلم فى «الإيمان» /باب: من مات على التوحيد (١/ ٢٢٦ - النووى) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣١٣) والترمذى فى «الإيمان»/ باب: فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٥/ ٢٣/ ح ٢٦٣٨)، والنسائى فى «الكبرى» فى التفسير/ باب: قول الله تعالى: ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ (٦/ ٣٣٠/ ح ١١١٣٢)، وابن حبان فى صحيحة» (١/ ٢١٤/ ح ٢٠٧ - الإحسان).

من طريق جنادة بن أبى أميه عن عبادة بن الصامت.

قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وانظر «رياض الصالحين» (ح٤١٣) «فتح المجيد» (ح٦٤) بتخريجنا.

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٥١.

(٣) الجامع الفريد» ١٧.

(٤) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠).

(٥) «القول المفيد» (١/ ٧٤ - ٧٦).

(٦) الزخرف: ٨٦.

(٧) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم في القدر (١٦/ ٢٠٧- النووي) عن أبي هريرة. وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال في تخريج أحاديث الظلال» (٤٠٥).

وقد يكون مُكتَسباً، وذلك بتدبُّر آيات الله، والتَّفكُّر فيها.

ولا بدَّ أن يوجدَ العلم بلا إله إلا الله ثم الشهادة بها.

قوله: ﴿أنْ﴾.

مخففـة من الثقيلة، والـنُّطق بأن مُشَدَّدة خـطأ؛ لأنَّ المشددة لايمكن حـذف اسمها، والمخفَّفة يمكن حذفه.

قوله: ﴿لا إله﴾

أي: لا مألوه، وليس بمعنى لا آله، والمألوه: هو المعبود محبةً وتعظيماً، تحبه وتعظِّمه لما تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

قوله: ﴿إلا الله﴾.

أي: لا مألوه إلا الله، ولهذا حكى عن قريش قولَهم: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(١).

أما قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ فهذا التألّة باطل؛ لأنّه بغير حق، فهو منفيٌّ شـرعاً، وإذا انتفى شرعاً؛ فهو كالمنتفى وقوعاً؛ فلا قرار له ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾(٢).

وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالى: ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ وقوله تعالى حكايةً عن قريش: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وما من إله إلا الله﴾؛ فهذه الآلهة مجرَّد أسماء لا معانى لها ولا حقيقـة؛ إذ هى باطلة شرعاً، لا تستحق أن تُسمَّى آلهة؛ لأنَّها لاتـنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق؛ كمـا قال تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾.

ثم قال(٣): قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله».

منْ: شرطية، وجواب الشرط: **«أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»**.

والشهادة: هى الاعتراف باللسان، والاعتقاد بـالقلب، والتصديق بالجوارح، ولهذا لما

---

(١) ص : ٥.　　(٢) إبراهيم: ٢٦.

(٣) «القول المفيد» (١/ ٧٨، ٧٩).

قال المنافقون للرسول ﷺ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وهذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإن، واللام، كذبهم الله بقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾(١) فلم ينفعهم هذا الإقرار باللسان لأنَّه خالٍ من الاعتقاد بالقلب، وخالٍ من التَّصديق بالعمل، فلم ينفع؛ فلا تتحقق الشهادة إلاَّ بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان، وتصديق بالعمل.

وقوله: «لا إله إلا الله».

أي: لا معبود على وجه يستحق أن يُعبد إلاَّ الله، وهذه الأصنام التي تُعبد لا تستحق العبادة؛ لأنَّه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

قال سليمان آل الشيخ(٢): «**من شهد أن لا إله إلا الله**» أي من تكلم بهذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً، كما دل عليه قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٣). وقوله: ﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٤).

أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع، وفي الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: ﴿مَن شَهِدَ﴾ إذ كيف يشهد وهو لا يعلم، ومجرد النطق بشيء لا يسمى شهادة به.

قال بعضهم: أداة الحصر لقصر الصفة على الموصوف قصر إفراد، لأن معناه: الألوهية منحصرة في الله الواحد في مقابلة من يزعم اشتراك غيره معه، وليس قصر قلب لأن أحداً من الكفار لم ينفها عن الله، وإنما أشرك معه غيره).

قال القرطبي(٥): في «المفهم على صحيح مسلم»: **(باب لا يكفي مجرد التَّلفظ بالشَّهادتين، بل لابد من استيقان القلب)**: «هذه التَّرجمة تنبيه على فساد مذهب غُلاة المرْجِئَة، القائلين بأن التَّلفظ بالشَّهادتين كاف في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده، بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح، وهو باطل قطعاً» ا.هـ.

---

(١) سورة المنافقون آيه: (١)

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥١).

(٣) سورة محمد آيه: (١٩).

(٤) الزخرف: ٨٦.

(٥) وانظر عن «فتح المجيد» (٤٩ و ٥٠) ط مؤسسة قرطبة.

قال عبدالرحمن آل الشيخ: وفي هذا الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: ﴿من شَهِدَ﴾، فإن الشَّهادة لاتَصِحُّ إلاَّ إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(١): ومعنى لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا إله واحد، وهو الله وحده لاشريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(٢) مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾(٣) فصح أن معنى الاله هو المعبود، ولهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش «قُولوا لاَ إِلَه إلا الله» قالوا: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾(٤) وقال قوم هود: ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾(٥)

وهو إنما دعاهم إلى لا إله إلاّ الله، فهذا هو معنى لا إله إلا الله، وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت، وإيمان بالله، فتضمنت هذه الكلمة العظيمة إن ما سوى الله ليس بإله وأن ألهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه كما لاتصلح الألهية لغيره فتضمنت نفي الألهية عما سواه، وإثباتها له وحده لاشريك له وذلك يستلزم الأمر باتخاذه إلهاً وحده، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي أو يستشهد من ليس أهلاً لذلك ويدع من هو أهل له، فتقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد المفتي فلان، والشاهد فلان، فإن هذا أمر منه ونهي، وقد دخل في الألهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تأله القلب لله بالحب والخضوع والانقياد له وحده لاشريك له، فيجب إفراد الله تعالى بها، كالدعاء والخوف والمحبة، والتوكل والإنابة، والتوبة، والذبح، والنذر، والسجود، وجميع أنواع العبادة فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك له، فمن صرف شيئاً مما لايصلح إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك ولو نطق بـ لا إله إلا الله، إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص.

● **ذكر نصوص العلماء في معنى الإله:** قال ابن عباس رضي الله عنه: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٥١، ٥٢).

(٢) الأنبياء: ٢٥.

(٣) النحل: ٣٦.

(٤) ص: ٥.

(٥) الأعراف: ٧٠.

وقال الوزير أبو المظفر فى «الإفصاح» قوله: شهادة أن لا إله إلا الله، يقتضى أن يكون الشاهد عالماً بأن لا إله إلا الله.

كما قال: الله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ وينبغى أن يكون الناطق بها شاهداً فيها، فقد قال الله عزَّ وجلَّ ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالماً بما شهد به، فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه فى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: واسم الله تعالى مرتفع بعد الأمن حيث إنه الواجب له الألهية، فلا يستحقها غيره سبحانه.

قال: واقتضى الاقرار بها أن تعلم أن كل ما فيه أمارة للحدث، فإنه لا يكون إلهاً، فإذا قلت: لا إله إلا الله، فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده.

قال: وجملة الفائدة فى ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هى مشتملة على الكُفْرِ بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه، كنت ممن كَفَرَ بالطاغوت وآمن بالله.

وقال ابن القيم[1]: فى «البدائع» ردًا لقول من قال: إن المستثنى مخرج من المستثنى منه.

قال: «بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه[*]، فلا يكون داخلاً فى المستثنى؛ إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل فى الإسلام بقوله: «لا إله إلا الله» لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى. وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفْى الإلهية عما سوى الله، وإثباتها له بوصف الاختصاص. فدلالتها على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا: «الله إله» ولا يستريب أحد فى هذا البتة». انتهى بمعناه.

قال سليمان آل الشيخ[2]:- وقال أبو عبد الله القرطبى فى «التفسير»: لا إله إلا هو، أى: لا معبود إلا هو.

وقال الزمخشرى: الإله من أسماء الأجناس - كالرجل والفرس - اسم يقع على كل معبود بحق أو بباطل، ثم غلب على المعبود بحق.

(١) نقلاً عن «فتح المجيد» (٥١) ط مؤسسة قرطبة.

(*) هكذا في المطبوع.

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥٢ - ٥٧).

وقال شيخ الإسلام: الإله هو المعبود المطاع. وقال أيضًا فى لا إله إلا الله إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد. فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذى يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع.

وقال ابن القيم رحمه الله: الإله هو الذى تألهه القلوب محبةً وإجلالاً وإنابة وإكراماً وتعظيماً وذلاً وخضوعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً.

وقال ابن رجب رحمه الله: الإله هو الذى يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاءً وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقاً فى شيء من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً فى إخلاصه فى قوله: لا إله إلا الله، ونقصاً فى توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك.

وقال البقاعى: لا إله إلا الله، أى انتفى انتفاء عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف.

وقال الطيبى: الإله فعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أله إله، أى عبد عبادة، وهذا كثير جداً فى كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإله هو المعبود. خلافاً لما يعتقده عباد القبور وأشباههم فى معنى الإله أنه الخالق أو القادر على الاختراع أو نحو هذه العبارات ويظنون أنهم إذا قالوها بهذا المعنى فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله، كدعاء الأموات، والاستغاثة بهم فى الكربات، وسؤالهم قضاء الحاجات، والنذر لهم فى الملمات، وسؤالهم الشفاعة عند رب الأرض والسموات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات، وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم فى هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع، ويعبدونه بأنواع من العبادات، فليهن أبا جهل وأبا لهب ومن تبعهما الإسلام بحكم عباد القبور، وليهن أيضاً إخوانهم عباد ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، إذ جعل هؤلاء دينهم هو الإسلام المبرور، ولو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول ﷺ وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبون دعوته، إذ يقول لهم: قولوا:

لا إله إلا الله، بمعنى أنه لا قادر على الاختراع إلا الله. فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا. قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(٢) ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾(٣) الآية، إلى غير ذلك من الآيات، لكن القوم أهل اللسان العربى علموا أنـها تهدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس، وتكب بناء سؤال الشفاعة من غير الله وصرف الإلهية لغيره لأم الرأس، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(٤) ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾(٥) ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

فتباً لمن كان أبو جهل ورأس الكفر من قريش وغيرهم أعلم منه بـ: لا إله إلا الله. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾(٦) فعرفوا أنهـا تقتضى عبادة ما سوى الله، وإفـراد الله بالعبادة، وهكذا يقول عباد القبور إذا طلبت منهم إخلاص الدعوة والعبادة لله وحده: أنترك سادتنا وشعفاءنا فـى قضاء حوائجنا. فيـقال لهم: وهذا الترك والإخلاص هـو الحق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٧) فـ: لا إلـه إلا الله اشتملـت على نـفى وإثبات، فنفت الإلهـية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه مـن الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم فـليس بإله، ولا له من عبادة شىء؛ وأثبتت الإلـهية لله وحده، بمعنى أن العبد لا يـأله غيره، أى لا يقصـده بشىء من التأله وهـو تعلق القلـب الذى يوجب قصده بشىء من أنواع العبادة، كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك.

(١) الزخرف: ٨٧.

(٢) الزخرف: ٩.

(٣) يونس: ٣١.

(٤) الزمر: ٣.

(٥) يونس: ١٨.

(٦) الصافات: ٣٥، ٣٦.

(٧) الصافات: ٣٧.

وبالجملة: فلا يأله إلا الله، أى لا يعبد إلا هو، فمن قال هذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، من نفى الشرك وإثبات الوحدانية لله مع الإعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به، فهذا هو المسلم حقاً، فإن عمل به ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وان عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ولو قالها، ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهراً وهم فى الدرك الأسفل من النار، واليهود يقولونها وهم على ما هم عليه من الشرك والكفر، فلم تنفعهم، وكذلك من ارتد عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها، فإنه لا تنفعه، ولو قالها مائة ألف، فكذلك من يقولها ممن يصرف أنواع العبادة لغير الله، كعباد القبور والأصنام فلا تنفعهم ولا يدخلون فى الحديث الذى جاء فى فضلها، وما أشبهه من الأحاديث(*).

وقد بين النبى ﷺ ذلك بقوله: «**وحده لاشريك له**» تنبيهاً على أن الانسان قد يقولها وهو مشرك، كاليهود والمنافقين وعباد القبور، لما رأوا أن النبى ﷺ دعا قومه إلى قول: لا إله إلا الله، ظنوا أنه إنما دعاهم إلى النطق بها فقط، وهذا جهل عظيم، وهو عليه السلام إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها ويتركوا عبادة غير الله، ولهذا قالوا: ﴿**أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**﴾ وقالوا: ﴿ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا** ﴾ فلهذا أبو عن النطق بها، وإلا فلو قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة لم يكونوا مسلمين، ولقاتلهم عليه السلام حتى يخلعوا الأنداد ويتركوا عبادتها، ويعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذا أمر معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة والإجماع.

وأما عباد القبور فلم يعرفوا معنى هذه الكلمة، ولا عرفوا الإلهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لاشريك له، بل لم يعرفوا من معناه إلا ما أقر به المؤمن والكافر واجتمع عليه الخلق كلهم من أن معناها لا قادر على الاختراع، أو أن معناها الإله، هو الغنى عما سواه، الفقير إليه كل ما عداه، ونحو ذلك، فهذا حق، وهو من لوازم

(*) وسيأتى فى باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، والباب الذى قبله تقسيم الإسلام إلى نوعين (الأول) الإسلام الحقيقى أو المنجى من عذاب الله يوم القيامة والنافع عند الله. وهذا التقسيم سيسهل فهم كثير من الأدلة التى تشترط للشهادتين شروط، والأدلة التى تكتفى فقط بتلفظ بالشهادتين وانظر أيضاً (ص) فى الفرق بين الإسلام الحكمى والإسلام المنجى الحقيقى.

الإلهيـة، ولكن ليـس هو المراد بمعنـى لا إله إلا الله، فإن هذا القـدر قد عرفه الـكفار، وأقروا به ولم يدعوا فى آلهتهم شيئاً من ذلك، بل يقرون بفقرهم، وحاجتهم إلى الله، وإنما كانوا يعبدونهم على معنى أنهم وسائط وشفعاء عند الله فى تحصيل المطالب ونجاح المآرب، وإلا فقد سلموا الخلق والملك والرزق والإحياء والإماتة، والأمر كله لله وحده لا شريك له، وقد عرفوا مـعنى لا إله إلا الله وأبوا عن النطق والعمل بها، فـلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك فى الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(1).

وعباد القبور نطقوا بها وجهلوا معناها، وأبوا عن الإتيـان به، فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يـعرفون معناها ولا يعملون بـها، فتجد أحدهم يقولهـا وهو يؤلّه غير الله بالحب والإجـلال والتعظيم والخـوف والرجاء والتوكل والـدعاء عند الكرب، ويـقصده بأنواع العبادة الصادرة عـن تأله قلبه لغير الله مما هو أعظم مما يـفعله المشركون الأولون، ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بـالله تعالى أعطاك ما شئت من الإيمان صادقاً أو كاذباً، ولو قيل له: احلف بحياة الشيـخ فلان أو بتربته ونحو ذلك، لم يحلف إن كان كاذباً، ومـا ذاك إلا لأن المدفون فى الـتراب أعظم فى قـلبه من رب الأربـاب، وما كان الأولون هكذا، بل كانوا إذا أرادوا التشديد فى اليمين حلفوا بالله تعالى كما فى:

قصة القسامة التى وقعت فى الجـاهلية، وهى فى «صحيـح البخارى»(2) وكثير منهم وأكثرهم يرى أن الاستغاثة بإلهه الذى يعبده عند قبره أو غيره أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله فى المسجد، ويصرحون بذلك، والحكاية عـنهم بذلك فيها طول، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين، وكلهم إذا أصابتهم الشدائد أخـلصوا للمدفونين فى التراب، وهتفوا باسمائهم ودعوهم ليكشفوا ضر المصاب فى البر والبحر والسفر والإياب.

وهذا أمر ما فعله الأولون، بل هم فى هذه الحال يخلصون للكبير المتعال، فاقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(3) الآيه.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(4).

---

(1) يوسف: ١٠٦.

(2) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٨٤٥) عن ابن عباس به.

(3) العنكبوت: ٦٥. (4) النحل: ٥٣، ٥٤.

وكثير منهم قد عطلوا المساجد وعمروا القبور والمشاهد، فإذا قصد أحدهم القبر الذى يعظمه أخذ فى دعاء صاحبه باكياً خاضعاً ذليلاً خاضعاً، بحيث لايحصل له ذلك فى الجمعة والجماعات وقيام الليل وإدبار الصلوات، فيسألونهم مغفرة الذنوب وتفريج الكروب والنجاة من النار، وأن يحطوا عنهم الأوزار، فكيف يظن عاقل فضلاً عن عالم أن التلفظ بـ: لا إله إلا الله مع هذه الأمور تنفعهم؟ وهم إنما قالوها بألسنتهم وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم، ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق أيضاً بشهادة أن محمداً رسول الله ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول وصلى وصام وحج ولايدرى ما ذلك إلا أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيئاً من الشرك، فإنه لايشك أحد فى عدم إسلامه، وقد أفتى بذلك فقهاء المغرب كلهم فى أول القرن الحادى عشر أو قبله فى شخص كان كذلك كما ذكره صاحب «الدر الثمين فى شرح المرشد المعين» من المالكية، ثم قال شارحه: وهذا الذى أفتوا به جلى فى غاية الجلاء، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان. انتهى[1]. ولا ريب أن عباد القبور أشد من هذا لأنهم اعتقدوا الإلهية فى أرباب متفرقين.

فإن قيل: قد تبين معنى الإله والإلهية، فما الجواب عن قول من قال: بأن معنى الإله القادر على الإختراع ونحو هذه العبارة؟.

قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا قول مبتدع لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم فيكون هذا القول باطلاً.

الثانى: على تقدير تسليمه فهو تفسير باللازم للإله الحق فان اللازم له أن يكون خالقاً قادراً على الاختراع، ومتى لم يكن كذلك، فليس بإله حق وإن سمى إلهاً، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الإختراع، فقد دخل فى الإسلام وأتى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام، فإن هذا لايقوله أحد، لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قدر أن بعض المتأخرين أرادوا ذلك فهو مخطىء يرد عليه بالدلائل السمعية والعقلية. أ. هـ.

● **التوحيد عند المتكلمين:**

---

(١) وما قاله الشيخ رحمه الله تعالى فيه نظر، وانظر باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله وباب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله. وانظر ص٣٨٠ (فى الفرق بين الإسلام الحكمى والإسلام المنجى عند الله تعالى) فى هذا الباب.

قال ابن عثيمين(١):

يقولون: إنَّ معنى إلـه: آله، والآله: القادر علـى الإختراع؛ فيكون مـعنى لا إله إلا الله: لا قادر على الإختراع إلاَّ الله.

والتوحيد عندهم: أن توحد الله، فتقول: هو واحد فـى ذاته لا قسيم له، وواحد فى أفعاله لاشريك لـه، وواحد فى صفاته لاشبيه له، ولو كان هـذا معنى لا إله إلا الله؛ لما أنكرت قريش علـى النبى ﷺ دعوته ولآمنت به وصدَّقت؛ لأنَّ قريـشاً تقول: لا خالق إلا الله، و(لا خالق) أبلـغ من كلمة (لا قادر)؛ لأنَّ القـادر قد يفعل وقد لا يـفعل، أمَّا الخالق؛ فقد فعل وحقَّق بـقدرة منه، فصار فهم المشركين خيراً من فهـم هؤلاء المتكلَّمين والمتنسبين للإسلام؛ فالتوحيـد الذى جاءت به الرُّسل فى قوله تعالى: ﴿ **مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾(٢)؛ أى: من إله حقيقى يستحق أن يُعبد، وهو الله.

ومن المُؤسف أنَّه يوجد كـثير من الكُتَّاب الآن الذين يكتبـون فى هذه الأبواب تجدهم عندما يـتكلَّمون على التـوحيد لا يقرِّرون أكثر من تـوحيد الرُّبوبية، وهذا غـلط ونقص عظيم، ويجب أن نغرِسَ فـى قلوب المسلمين توحيد الألوهيَّة أكثر مـن توحيد الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ توحيد الربوبيَّة لـم يُنكره أحد إنكاراً حقيقياً، فكوننـا لا نقرر إلاَّ هذا الأمر الفطرى المعلوم بالعقل، ونـسكت عن الأمر الذى يغلب فيه الهوى هو نقص عـظيم؛ فعبادة غير الله هى التى يسـيطر هوى الإنسان على نفســه حتى يصرفه عن عبادة الله وحـده، فيعبد الأولياء ويعبد هواه، حتى جعل النبى ﷺ الذى همّه الدرهم والدينار ونحوهما عابداً(٣)، وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** ﴾(٤).

فالمعاصى من حيث المعنى العام أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك.

وأما بالمعنى الأخص؛ فتنقسم إلى أنواع:

١ - شرك أكبر.

٢ - شرك أصغر.

٣ - معصية كبيرة.

٤ - معصية صغيرة.

---

(١) «القول المفيد» (١/ ٧٦ - ٧٨).

(٢) سورة الأعراف آية: ٥٩.

(٣) سيأتى تخريجه.

(٤) سورة الجاثية آية: ٢٣

وهذه المعاصى منها ما يتَعلَّق بحقٍّ الله، ومنها ما يتعلَّق بحقٍّ الإِنسان نفسه، ومنها ما يتعلق بحق الخلق.

وتحقيق لا إله إلا الله أمر فى غاية الصعوبة، ولهذا قال بعض السلف: «كل معصية؛ فهى نوع من الشِّرك».

وقال بعض السَّلف: «ما جاهدت نفسى على شىء مجاهدتها على الإخلاص»، ولا يعرف هذا إلا المؤمن، أما غير المؤمن؛ فلا يُجاهد نفسه على الإخلاص. قلت: وهذا مؤدى كلام سفيان حين قال ما جاهدت شيئًا أشد على من نيتى.

ولهذا قيل لابن عباس: «إنَّ اليهود يقولون: نحن لا نوسوسُ فى الصلاة. قال: فما يصنع الشيطان بقلبٍ خَرِب؟!»؛ فالشيطان لا يأتى ليخرِّب المهدوم، ولكن يأتى ليخرِّب المعمور، ولهذا لما شُكى إلى النبى ﷺ أن الرجل يجد فى نفسه ما يستعظم أن يتكلَّم به؛ قال: «وجدتم ذلك؟» قالوا: نعم. قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[1]؛ أى: أنَّ ذاك هو العلامة البيِّنة على أنَّ إيمانكم صريح؛ لأنَّه ورد عليه، ولا يرد إلا على قلب صحيح خالص.

● **شروط لا إله إلا الله حتى تنفع صاحبها يوم القيامة**[2].

ذكر صاحب «معارج القبول» شروطاً سبعة لهذه الكلمة حتى تنفع صاحبها فى الآخرة وهى مستنبطة من الكتاب والسنة وهى:

(الأول) - العلم بمعناها نفياً، وإثباتاً: نفياً للألوهية، واستحقاق العبادة عن غير الله، وهو الكفر بالطاغوت. وإثباتاً للألوهية لله وحده وهو - الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾[3] فبدأ بالعلم قبل العمل، وقال تعالى: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ**﴾[4]، فسرها غير واحد من السلف أنها: لا إله إلا الله.

الثانى - اليقين المنافى للشك، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٢٠٩/٤٣٠) عن أبى هريرة به.

(٢) فضل الغنى الحميد ٥٤ - ٦٠.

(٣) محمد : ١٩.

(٤) البقرة: ٢٥٦.

ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾(١)، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة**»(٢).

الثالث - القبول المنافى للاستكبار، قال تعالى: **﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾**(٣).

الرابع - الانقياد لما دلت عليه، المنافى للإباء والرد، قال تعالى: **﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾**(٤)، وقال تعالى: **﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾**(٥)، وقال تعالى: **﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾**(٦).

والمقصود بالانقياد - الذى هو شرط فى أصل الإيمان: انقياد القلب، وهو شىء زائد على مجرد المعرفة والتصديق، فهو رؤية العبد أن عليه أن يطيع الله عز وجل، وإذا قصر فى الطاعة، أو عصى؛ فهو ظالم لنفسه، وأما الانقياد بالجوارح، وترك المعاصى فهو شرط فى كمال الإيمان الواجب، لا فى أصل الإيمان، وتأمل قصة آدم وإبليس لتعرف الفرق: فآدم عليه السلام عصى ربه، وأكل من الشجرة، ولكنه لم يفقد من قلبه الانقياد فقال: **﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾**(٧). وإبليس عصى، ورد الأمر على الله فقال: **﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ ﴾**(٨). مع كونه كان مصدقاً بالأمر، عارفاً بوجود الله، وربوبيته، فكفر بذلك الإباء والرد لانتفاء الانقياد الباطن، واستحلال المعصية، وترك الواجب، فمعصية آدم لم تكن كفراً، ومعصية إبليس كانت كفراً، فتنبه لهذا الفرق.

ولا خلاف بين أهل السنة فى ذلك: أن من انتفى عنه الانقياد الظاهر مع بقاء الانقياد الباطن لايكفر، إلا ما كان من اختلافهم فى تكفير تارك الصلاة تكاسلاً، وكذا الصوم، والزكاة والحج وإن كان الراجح - وهو قول جمهور أهل السنة - ألا يكفر، لما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «**يقول الله عز وجل: شفعت**

---

(١) الحجرات: ١٥.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الإيمان» (١/ ٢٤٩/ ٤٤).

(٣) الصافات: ٣٥.

(٤) لقمان: ٢٢.

(٥) النساء: ٦٥.

(٦) البقرة: ٣٤.

(٧) الأعراف: ٢٣.

(٨) الحجر: ٣٣.

الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط» - الحديث، وفى آخره قال رسول الله ﷺ: «هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه»(١).

وهو من أصرح الأدلة على ذلك، ولا يصح حمله على من يكون فى آخر الزمان ممن لم يبلغهم فرض الصلاة وغيره، فإن هؤلاء - إذ لم يبلغهم وجوب هذه الأشياء - لا يستحقون عذاباً، إذ من شروط التكليف العلم، أو التمكن منه، وهؤلاء عاجزون؛ لاندثار الشرائع كلها، والأحاديث الواردة إنما هى فى خروج عصاة الموحدين من النار.

وكذلك لايصح تقييدها بالأحاديث الواردة فى وجوب الأعمال، وكفر تارك الصلاة؛ لأن مقتضى ذلك التقييد؛ أن يكون من يحافظ على الصلوات الخمس فى مواقيتها؛ لم يعمل خيراً قط، وأى خير أكثر من الصلاة؟! وأحاديث التكفير يصح حملها على: كفر دون كفر. ويؤيد ذلك قول أبى بكر رضى الله عنه: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»(٢)، فهو دليل واضح على عدم الفرق بينهما عند الصحابة، وهى قرينتها فى القرآن، مع ما قد ورد فى مانع الزكاة أنه يعذب يوم القيامة؛ لقوله ﷺ: «ثم يرى سبيله: إما إلى الجنة، وإما إلى النار»(٣). والله تعالى أعلم.

هذا إذا مات تارك الصلاة على التوحيد، وإلا فما أقرب الفتنة إليه، وما أسهل تسلط الشيطان عليه خاصة عند الموت، وأبواب الكفر مفتوحة عليه، وسوء الخاتمة أقرب إليه، نعوذ بالله من ذلك.

واعلم أن هذا الخلاف فى تكفير تارك الصلاة، وباقى المبانى الأربعة تكاسلاً من الخلاف السائغ عند أهل السنة؛ لا يُبدّع ولا يُضلّل فيه المخالف عند أحد من أهل العلم.

الخامس - الصدق المنافى للكذب، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾(٤)، وفى الصحيحين عن معاذ ـ رضى الله عنه ـ مرفوعاً: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»(٥).

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٤٣٩)، ومسلم فى الإيمان(٢/ ٢٤/ ٣٠٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى(١٤٠٢)، ومسلم فى الزكاة (٧/ ٦٤- النووى)، وانظر «رياض الصالحين» (١٢١٧- بتخريجنا)..

(٤) البقرة: ٨

(٥) تقدم تخريجه تحت شرح حديث معاذ السابق..

السادس - الإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(١)، وقال النبى ﷺ: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله»(٢).

السابع - المحبة: محبة الله، ورسوله، والمؤمنين، وبغض الكافرين والمنافقين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾(٣)، وقال النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده، وولده، والناس أجمعين»(٤).

● **تنبيهات هامة:**

١ - اعلم: أن شروط كلمة التوحيد ليست منحصرة فى الشروط السبعة السابقة، بل كل عمل من أعمال القلب الواجبة شرط فى قبولها يوم القيامة كذلك، كما يدل عليه القرآن.

فالتوكل من شروطها: قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٥). والخوف من الله من شروطها: قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٦). والرجاء والرغبة إلى الله من شروطها، قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾(٧). ولا يتصور مؤمن ليس فى قلبه ولو مثقال ذرة من التوكل، والخوف، والرجاء، وشكر نعمة الله، والصبر، والرضا، وسائر أعمال القلوب - التى سبق بيانها فى عبادات القلب - وكذا النطق بالشهادتين باللسان مع القدرة؛ من شروط نفعها فى الآخرة فلا يكفى الاعتقاد الباطن دون نطق.

٢ - هذه الشروط يتفاوت الناس فيها: زيادةً، ونقصاناً؛ لأنها من الإيمان، والإيمان يزيد وينقص عند أهل السنة، كما دل عليه القرآن، والسنة، وإجماع السلف، فمثلاً، العلم يتفاوت: فحقيقة العلم بمعنى لا إله إلا الله على الكمال: هو العلم بالدين كله، إذ معناها: لا معبود بحق إلا الله. والعبادة تشمل الدين كله، وكلما ازداد الإنسان علماً

(١) البينة: ٥.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) المائدة: ٥٤.
(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٥)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٢٩٠/ ٧٠). عن أنس به.
(٥) المائدة: ٢٣.
(٦) آل عمران: ١٧٥.
(٧) الأنبياء: ٩٠.

بشيء من الدين؛ ازداد تحقيقاً لمعنى لا إله إلا الله، وقد يكون الإنسان جاهلاً بأن الأمر الفلانى عبادة، ثم يعلم الآية أو الحديث؛ فيصير بهما عالماً، وكان قبل ذلك جاهلاً، ولم يكن كافراً، فالذى هو شرط فى أهل الإيمان - أى: فى قبول لا إله إلا الله من العبد يوم القيامة لنجاته من الخلود فى النار - أهل كل شرط من هذه الشروط.

فأصل العلم شرط، أو على الصحيح ركن من أركان الإيمان، ونعنى به العلم الإجمالى ومعناه أن لا يُعبد إلا الله.

وأصل الانقياد شرط أو ركن من أركان الإيمان ونعنى به الانقياد القلبى والخضوع الباطن لله سبحانه.

وأصل اليقين شرط أو ركن من شروط أو أركان الإيمان ونعنى به زوال الشك والتكذيب. وهكذا، وإلا فاليقين أيضاً يتفاوت وليس كل نقص فيه يكون شكاً، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(1)، وكمال هذه الشروط؛ شرط فى كمال الإيمان وجوباً واستحباباً.

● **الفرق بين الاسلام الحكمى والإسلام المنجى عند الله تعالى:**

٣ - هذه الشروط ليست شروطاً فى قبول الإسلام الظاهر فى الدنيا بل فى نفع صاحبه فى الآخرة وتأمل جميع الأدلة التى ذكرت فى كون هذه الأعمال شروطاً تجدها إنما هى فى أمر الآخرة «**حرمه الله على النار**»، و«**دخل الجنة**»، ونحو ذلك، وليس فى ثبوت عصمة الدم، والمال، بل النطق بها مع شهادة أن محمداً رسول الله، كاف فى عصمة الدم، والمال، وثبوت حكم الإسلام ظاهراً، وجريان أحكام الإسلام على صاحبها فى الدنيا، كما سيأتى له مزيد بيان ـ إن شاء الله ـ واحذر مما وقع فيه أهل البدع من الخلط بين الأمرين(2) لكن من صرح بعد نطقه بكلامه الواضح الصريح أنه قد انتفى من قلبه شيء من هذه الشروط، كمن سمعناه يقول بلسانه أنه يشك فى صدق هذه الكلمة، أو فى صدق الرسول، والقرآن، فهو مرتد بهذا الكلام، وليس كافراً أصلياً، وبينهما من الفروق ما يذكر تفصيله فى كتب الفقه، وذلك أنه ثبت له حكم الإسلام ظاهراً بالنطق المجرد ثم لما قال ذلك صار مرتداً، وإن كان هو عند الله، وفى الآخرة - إذا كان شكه من أول نطقه بالشهادين - كافراً من البداية لأن اليقين وغيره من الشروط، شرط فى

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) يعنى: قبول الإسلام ظاهراً فى الدنيا ونفع صاحبه فى الآخرة.

صحة الإسلام، والإيمان، باطناً، وهذا الأمر لا علم لنا به؛ لأننا لم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس، وإنما صاحبه الذى يخبر به، فهو إن كان كذلك كان من المنافقين، وهم مسلمون فى الظاهر، فلو أن ذمياً - يهودياً أو نصرانياً - نطق الشهادتين، ودخل فى الإسلام، ثم قال بعد ذلك: أنه عند قوله لهما لم يكن صادقاً، أو لم يكن محباً لله، ولرسوله ﷺ، لم يقبل قوله ذلك حتى يجعل ذمياً يقر بالجزية كما كان، بل هو مرتد لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف.

٤ - لايلزم المسلم حفظ هذه الشروط وعدها، بل المقصود وجودها فى قلبه، ووجود كمالها الواجب فى قلبه، ولسانه، وجوارحه، وما أحسن ما مقاله الشيخ أحمد حكمى فى «معارج القبول» حيث قال: «ومعنى استكمالها اجتماعها فى العبد والتزامه إياها بدون مناقضة لشىء منها، وليس المراد من ذلك عد ألفاظها، وحفظها فكم من عامى اجتمعت فيه، والتزمها، ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجرى فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها، والتوفيق بيد الله والله المستعان» اهـ.

قوله: «وحده لاشريك له».

قال عبد الرحمن آل الشيخ[1]: قوله: (وحده) تأكيد للإثبات، «**لاشريك له**» تأكيد للنفى. قاله الحافظ. كما قال تعالى: ﴿**وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾[2]. وقال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾[3]. وقال: ﴿**وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾[4]. فأجابوه رداً عليه بقولهم: ﴿**أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا**﴾[5]؟ وقال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾[6].

فتضمن ذلك نفى الإلهية عما سوى الله. وهى العبادة، وإثباتها لله وحده لاشريك له، والقرآن من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه.

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدُر عن تألُّه القلب بالحب والخُضُوع والتذلل. رَغَبًا وَرَهبًا، وهذا كله لايستحقه إلا الله تعالى: كما تقدم فى أدلة هذا الباب وما قبله. فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد جعله لله نِداً، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل.

---

(١) «فتح المجيد (٥٠ و٥١).
(٢) البقرة: ١٦٣.
(٣) الإنبياء: ٢٥.
(٤) الأعراف: ٦٥.
(٥) الأعراف: ٧٠.
(٦) الحج: ٦٢.

قال ابن عثيمين(١): ولهذا كان النبى ﷺ وغيره من المؤمنين يلجؤون إلى الله تعالى عند الشدائد؛ فقد جاء إعرابى إلى النبى ﷺ وعنده أصحابه، وقد علَّق سيفه على شجرة فاخترطه الأعرابى، وقال: من يمنعك منى؟ قال: «**يمنعنى الله**»(٢)، ولم يقل أصحابى، وهذا هو تحقيق توحيد الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ الله هو الذى يملك النَّفع، والضُّرَّ، والخلق، والتدبير، والتَّصرف فى المُلك، إذ لا شريك له فيما يختصّ به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقولنا فيما يختصّ به حتى نسلم من شُبُهات كثيرة، منها شبهات النافين للصِّفات؛ لأنَّ النَّافين للصفات زعموا أنَّ إثبات الصفات إشراك بالله - عز وجل -، حيث قالوا: يلزم من ذلك التَّمثيل، لكننا نقول: للخالق صفات تختصُّ به، وللمخلوق صفات تختص به.

قوله: «وأنّ محمداً عبده ورسوله».

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٣): أى: وشهد بذلك، وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل، ومعنى «**العبد**» هنا: المملوك العابد، أى: إنه مملوك لله تعالى. والعبودية الخاصَّة وَصْفُه، كما قال تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾(٤) فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة، فالنبى ﷺ أكمل الخلق فى هاتين الصفتين الشريفتين. وأما الرُّبوبية والإلهية، فهما حق الله تعالى، لا يشركه فى شىء منهما مَلَكٌ مُقرَّب، ولا نبِّى مرسل.

قال سليمان آل الشيخ(٥): قيل: وقدم العبد هنا على الرسول ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، وجمع بينهما لدفع الإفراط والتفريط الذى وقع فى شأن عيسى عليه السلام.

وقد أكد النبى ﷺ هذا المعنى بقوله: «**لاَتُطْرُونى كما أطرَتِ النَّصارىَ ابنَ مَريمَ، فإنما أنا عَبْد فَقُولوا عَبْدُ الله ورَسُولُهُ**»(٦) وذلك يتضمن تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما

---

(١) «القول المفيد» (١/ ٧٩و٨٠).

(٢) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٤١٣٦)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٣/ ٣٨٩/ ٣١١).

(٣) «فتح المجيد» ٥٤ ط مؤسسة قرطبة. (٤) الزمر: ٣٦.

(٥) «تيسير العزيز الحميد» (٥٧).

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٤٥) عن عمر به.

وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٣٤٣) بتخريجنا).

أمر، والانتهاء عما نـهى عنه وزجر، فلا يكون كامل الشهادة له بـالرسالة من ترك أمره وأطاع غيره، وارتكب نهيه.

قال عبد الرحمن آل الشيخ(١): فإن كثيراً ممن يدَّعى أنَّه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلاً، وفرَّط بترك متـابعته، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء بـه، وتعسف فى تأويل أخباره وأحكامه، بصـرفها عن مدلولها، والصُّدوف عن الانقياد لـها مع إطراحها، فإن شهادة أن محمداً رسول الله تَقْتَضِي الإيمان به، وتصـديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه نَهَى وزجر، وأن يعظم أمره ونـهيه، ولا يُقَدِّمَ عليه قول أحد كائناً من كان. والواقع اليوم وقبـله - ممن ينتسب إلى العلم من القضـاة والمفتين - خلاف ذلك، والله المستعان.

وروى الدَّارمى فى «مسنده» عن عبد الله بـن سلام رضى الله عنه أنه كان يقول: «إنَّا لنجد صـفة رسول الله ﷺ: **إنَّا أَرْسَلْـنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّـراً وَنَذِيرًا، وَحِرْزًا للأُمِّيـينَ، أَنْتَ عَبْدِى وَرَسُولِى، سَمَّيْتُهُ المُتَوكِّلَ، لَيْـسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ صَخَّابٍ بالأَسْوَاقِ، وَلاَ يَجْزِى بالسَّيِّئَةِ مِثْلِها، وَلَكِن يَعْفُو ويَتَجاوَز، وَلَنْ أَقْـبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ المِلَّةَ المُتعوِّجَة، بأَنْ يَشهد أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ الله، يَـفْتَحُ بِهِ أَعْـيُنًا عُـمْيًا، وآذانـاً صُمًّا، وَقُلُـوباً غُلْـفاً**»(٢) قال عطاء بـن يسار: وأخبرنى أبو واقد الليثى: أنه سمع كعباً يقول مثل ما قال ابن سلام.

قال ابن عثيمين(٣): فالرسول ﷺ عبدٌ مربوب، جميع خصـائص البشريَّة تلحقه ما عدا شيئـاً واحداً، وهو ما يعود بأسافـل الأخلاق؛ فهو ممنوع منه، قـال تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا** ﴾(٥).

فهو بشرٌ مثلنا؛ إلا أنـه يُوحى إليه، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾(٦).

ومن قـال: إنَّ الرسول ﷺ لـيس له ظـل، أو أن نوره يـطفىء ظـله إذا مشـى فى الشمس؛ فكله كـذب باطل، ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها: «كـنت أمدّ رجلى بين

(١) تيسير العزيز الحميد.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٢١٢٥) وأخرجه أيضاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص. وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (٦٦) بتخريجنا).

(٣) القول المفيد ١/ ٨٠ - ٨٤. (٤) الأعراف: ١٨٨.

(٥) الجن: ٢١/ ٢٢. (٦) الكهف آيه: ١١٠.

يديه، وتعتذر بأن البيوت ليس فيها مصابيح»[1]، فلو كان النبي ﷺ له نور؛ لم تعتذر رضى الله عنها، ولكنه الغلو الذى أفسد الدين والدنيا، والعياذ بالله.

ومن الغلوّ قول البوصيرى فى «البردة» المشهورة:

يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يدى ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

قال ابن رجب وغيره: إنه لم يترك لله شيئاً ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ.

ونشهد أن من يقول هذا؛ ما شهد أنَّ محمداً عبد الله، بل شهد أن محمداً فوق الله! كيف يصل بهم الغلوّ إلى هذا الحد؟!.

وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قالوا: إنَّ المسيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة.

هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن الله يقول: «**من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وأنا مع عبدى إذا ذكرنى**»[2]، والرسول معنا إذا ذكرناه، ولهذا كان أولئك الغلاة ليلة المولد إذا تلى التالى «المُخرّف» كلمة المصطفى قاموا جميعاً قيام رجل واحد، يقولون: لأنَّ الرسول الله ﷺ حضر مجلسنا بنفسه، فقمنا إجلالاً له، والصحابة رضى الله عنهم أشدّ إجلالاً منهم ومنّاً، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول ﷺ وهو حيٌّ يُكلمهم لايقومون، وهؤلاء يقومون إذا تخيلوا أو جاءهم شيخ إن كانوا يشاهدون شيئاً؛ فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلى هذا الحد! فهؤلاء ما شهدوا أن محمداً عبد الله ورسوله، وهؤلاء المخرّفون مساكين، إن نظرنا إليهم بعين القدر؛ فنرقُّ لهم، ونسأل الله لهم السلامة والعافية، وإن نظرنا إليهم بعين الشرع؛ فإننا يجب أن ننابذهم بالحجة حتى يعودوا إلى الصراط المستقيم، والرسول ﷺ أشدُّ الناس عبودية لله، أخشاهم لله، وأتقاهم لله، قام يصلى حتى تورمت قدماه، وقيل له فى ذلك؛ فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[3]، وقد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، هذا تحقيق العبادة العظيمة.

---

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٥١٣)، ومسلم فى الصلاة (٢/ ٤٦٩/ ٢٧٢).

(٢) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٧٤٥)، ومسلم فى الذكر والدعاء (٢/ ٣١٥ ـ النووى).
وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٤١).

(٣) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٤٨٣٧)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (١٧/ ١٦٢ـ النووى) عن عائشة به.
وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٩٩).

أما الرسالة؛ فهو رسول أرسله الله - عز وجل - بأعظم شريعة إلى جميع الخلق، فبلَّغها غاية البلاغ، مع أنه أوذي وقوتل، حتى إنَّهم جاؤوا بسلا الجزور وهو ساجد عند الكعبة ووضعوه على ظهره، كل ذلك كراهيةً له ولما جاء به، ومع ذلك صبر، يلقون الأذى والأنتان والأقذار على عتبة بابه، لكن هذا للنبى الكريم امتحان من الله - عز وجل -؛ لأجل أن يتبين صبره وفضله، يخرج ويقول: «**أى جوار هذا يابنى عبد مناف من قبل قريش؟**»(١)، فصبر ﷺ؛ حتى فتح الله عليه، وأنذر أمَّ القرى ومن حولها، ثم إنه حمل هذه الشريعة من بعده أشد الناس أمانةً وأقواهم على الاتباع؛ الصحابة رضى الله عنهم، وأدَّوها إلى الأمة نقيَّة سليمة، ولله الحمد.

ونحبُّ الرسول ﷺ لله وفى الله؛ فحبُّ الرسول ﷺ من حبِّ الله، ونقدِّمه على أنفسنا وأهلنا وأولادنا والناس أجمعين، وأحببناه من أجل أنه رسول الله ﷺ.

ونحقق شهادة أنَّ محمدًا رسول الله، وذلك بأن نعتقد ذلك بقلوبنا، ونعترف به بألسنتنا، ونطبِّق ذلك فى متابعته ﷺ بجوارحنا، فنعمل بهديه، ولا نعمل له.

أما ما ينقض تحقيق هذه الشهادة؛ فهو:

١ - فعل المعاصى؛ فالمعصية نقص فى تحقيق هذه الشهادة؛ لأنَّك خرجت بمعصيتك من اتباع النبى ﷺ.

٢ - الابتداع فى الدين ما ليس منه؛ لأنَّك تقرَّبت إلى الله بما لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ، والابتداع فى الدين فى الحقيقة من الاستهزاء بالله؛ لأنَّك تقرَّبت إليه بشىء لم يشرعه.

فإن قال قائل: أنا نويت التقرُّب إلى الله بهذا العمل الذى أبتدعه.

قيل له: أنت أخطأت الطريق؛ فَتُعْذَر على نيتك، ولا تعذر على مخالفة الطريق متى علمت الحق.

فالمبتدعون قد يقال: إنَّهم يثابون على حسن نيتهم إذا كانوا لا يعلمون الحق، ولكننا نُخطِّئهم فيما ذهبوا إليه، أمَّا أئمتهم الذين علموا الحق، ولكن ردّوه لِيُبْقوا جاههم؛ ففيهم شبه بأبى جهل، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وغيرهم الذين قابلوا رسالة النبى ﷺ بالرد إبقاءً على رئاستهم وجاههم.

أمَّا بالنسبة لأتباع هؤلاء الأئمة؛ فينقسمون إلى قسمين:

---

(١) ذكره ابن هشام فى «السيرة» (٢/ ٢٥).

القسم الأول: الذين جهلوا الحق، فلم يعلموا عنه شيئاً، ولم يحصل منهم تقصير فى طلبه، حيث ظنُّوا أنَّ ما هم عليه هو الحق؛ فهؤلاء معذورون.

القسم الثانى: من علموا الحق، ولكنهم ردّوه تعصُّباً لأئمتهم؛ فهؤلاء لايعذرون، وهم كمن قال الله فيهم: ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾[1].

قوله: «وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله».

قال ابن حجر[2]: زاد ابن المدينى فى روايته **«وابن أمته»** قال القرطبى: مقصود هذا الحديث التنبيه على ما وقع للنصارى من الضلال فى عيسى وأمه، ويستفاد منه ما يلقنه النصرانى إذا أسلم.

قال النووى: هذا حديث عظيم الموقع، وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد فإنه جمع فيه ما يخرج عنه جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدهم. وقال غيره: فى ذكر عيسى تعريض بالنصارى وإيذان بأن إيمانهم مع قولهم بالتثليث شرك محض، وكذا قوله **«عبده»** وفى ذكر **«رسوله»** تعريض باليهود فى إنكارهم رسالته وقذفه بما هو منزه عنه وكذا أمه، وفى قوله **«وابن أمته»** تشريف له، وكذا تسميته بالروح ووصفه بأنه «منه» كقوله تعالى: ﴿**وسخر لكم ما فى الأرض جميعاً منه**﴾ فالمعنى أنه كائن منه كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه، أى أنه مكون كل ذلك وموجده بقدرته وحكمته. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: **قوله: «وأن عيسى عبد الله ورسوله»** أى: خلافاً لما يعتقده النصارى: أنَّه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة. تعالى الله عما يقولون علواً كبيرًا ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ**﴾[4] فلابد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله على علم ويقين بأنه مملوك لله، خلقه من أنثى بلا ذكر، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[5] فليس رباً ولا إلهاً. سبحان الله عما يشركون. قال تعالى: ﴿ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ**

---

(١) الزخرف: ٢٣. (٢) فتح البارى ٦/ ٥٤٧.
(٣) فتح المجيد ٥٥و ٥٦ ط موسسة قرطبة.
(٤) المؤمنون: ٩١. (٥) آل عمران: ٥٩

يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[1]. وقال: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[2] ويشهد المؤمن أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود: إنه ولد بغى، لعنهم الله تعالى. فلا يَصِحُّ إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعاً فى عيسى عليه السَّلام، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه: أنه عبد الله ورسوله. أهـ.

قال ابن عثيمين[3]:- **قوله: «وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله»**.

الكلام فيها كالكلام فى شهادة أن محمداً رسول الله، إلا أننا نؤمن برسالة عيسى، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

فشريعة من قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخالفة لشريعتنا؛ فالعمل على شرعنا.

الثانية: أن تكون موافقة لشريعتنا؛ فنحن متبعون لشريعتنا.

الثالثة: أن يكون مسكوتاً عنها فى شريعتنا، وفى هذه الحال اختلف علماء الأصول: هل نعمل بها، أو ندعها؟

والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾[4].

٢ - قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾[5] وقد تطرف فى عيسى طائفتان:

الأولى: اليهود كذَّبوه، فقالوا بأنَّه ولد زنى، وأنَّ أُمه من البغايا، وأنَّه ليس بنبى، وقتلوه شرعاً؛ أى: محكوم عليهم عند الله أنهم قتلوه فى حكم الله الشرعى؛ لقول تعالى عنهم: ﴿ **إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ** ﴾[6]، وأمَّا بالنسبة لحكم الله القدرى؛

(١) مريم: ٢٩:٣٦.
(٢) النساء: ١٧٢.
(٣) القول المفيد ١/ ٨٥ - ٥٩.
(٤) الأنعام: ٩٠.
(٥) يوسف: ١١١.
(٦) النساء: ١٥٧.

فقد كذبوا، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، ولكن شُبِّه لهم، فقتلوا المُشبَّه لهم وصلبوه.

الثانية: النصارى قالوا: إنَّه ابن الله، وإنه ثالث ثلاثة، وجعلوه إلهاً مع الله، وكذبوا فيما قالوا.

أما عقيدتنا نحن فيه: فنشهد أنه عبد الله ورسوله، وأن أمه صديقة؛ كما أخبر الله تعالى بذلك، وأنها أحصنت فرجها، وأنَّها عذراء، ولكن مثله عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: كن؛ فيكون.

وفي قوله: «عبد الله».

رد على النصارى.

وفي قوله: «ورسوله».

رد على اليهود.

قوله: «كلمته».

قال ابن حجر(١): إشارة إلى أنه حجة الله على عباده أبدعه من غير أب وأنطقه في غير أوانه وأحيى الموتى على يده، وقيل: سمى كلمة الله لأنه أوجده بقوله: «كن»، فلما كان بكلامه سمى به كما يقال: سيف الله وأسد الله، وقيل: لما قال في صغره: إني «عبدالله».

قال سليمان آل الشيخ(٢): إنما سمى عليه السلام كلمة الله، لصدوره بكلمة كن بلا أب قاله قتادة وغيره من السلف.

قال الإمام أحمد فيما أملاه في الرد على الجهمية: الكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: ﴿كن﴾ فكان عيسى بـ﴿كن﴾، وليس عيسى هو كن، ولكن بـ: «كن» كان، فـ: «كن» من الله قول، وليس: «كن»، مخلوقاً، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالت: عيسى روح الله وكلمته، إلا أن الكلمة مخلوقة. وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله، وكلمة الله من ذات الله، كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب. وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة انتهى. يعني به ما قال قتادة وغيره. أهـ.

قال ابن عثيمين(٣): أطلق الله عليه كلمة؛ لأنه خلق بالكلمة عليه السلام؛

---

(١) فتح الباري ٦/٥٤٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٨.

(٣) القول المفيد ١/٨٦ – ٨٧.

فالحديث ليس على ظاهره؛ إذ عيسى عليه السلام ليس كلمة؛ لأنَّه يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوَّط، وتجرى عليه جميع الأحوال البشرية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وعيسى عليه السلام ليس كلمة الله؛ إذ أنَّ كلام الله وصف قائم به، لا بائن منه، أمَّا عيسى؛ فهو ذات بائنة عن الله ـ سبحانه ـ، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام ويشرب.

قوله: «ألقاها إلى مريم».

قال سليمان آل الشيخ[2]: قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبرائيل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عزّ وجلّ، فكان عيسى بإذن الله عزّ وجلّ، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عزّ وجلّ، ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب يولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له: كن، فكان، والروح التي أرسل بها جبرائيل عليه السلام. أهـ.

قال ابن عثيمين[3]: قوله : ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾.

أي : وَجَّهَهَا إليها بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ .

ومريم ابنة عمران ليست أخت موسى وهارون عليهما السلام كما يظنه بعض الناس، ولكن كما قال الرسول ﷺ كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم[4]، فهارون أخو مريم ، ليس هارون أخا موسى ، بل هو آخر يسمى باسمه وكذلك عمران سمي باسم أبي موسى. أهـ.

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

قال ابن حجر [5]: وأما تسميته بالروح فلما كان أقدره عليه من إحياء الموتى، وقيل لكونه ذا روح وجسد من غير جزء من ذي روح. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ[6]: قال أُبي بن كعب: عيسى روح من الأرواح التي خلقها

(١) آل عمران : ٥٩

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٨.

(٣) القول المفيد ١/ ٨٧.

(٤) [صحيح] رواه مسلم (٣/ ١٦٨٥).

(٥) فتح البارى ٦/ ٥٤٧ و٥٤٨.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٥٨و٥٩

الله عزّ وجلّ واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ بعثه الله إلى مريم فدخل فيها»[1].

وقال أبو روق: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أى نفخة منه، إذ هى من جبرائيل بأمره، وسمى روحًا لأنه حدث من نفخة جبرائيل عليه السلام.

وقال الإمام أحمد: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يقول: من أمره كان الروح فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ يقول: من أمره.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أى: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التى هى من الله، أى: خلق من مخلوقاته أضيفت إليه تعالى للتشريف والتكريم.

وعيسى عليه السلام ليس روحًا، بل جسد ذو روح، قال الله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾[3].

فبالنفخ صار جسدًا، وبالروح صار جسدًا وروحًا.

قوله: ﴿مِّنْهُ﴾.

هذه هى التى أضلّت النصارى، فظنوا أنه جزء من الله فضلُّوا وأضلوا كثيرًا، ولكننا نقول: إنَّ الله قد أعمى بصائركم، فإنَّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور، فمن المعلوم أنَّ عيسى عليه السلام كان يأكل الطعام، وهذا شىء معروف، ومن المعلوم أيضًا أن اليهود يقولون: إنهم صلبوه، وهل يمكن لمن كان جزءًا من الرب أن ينفصل عن الرب ويأكل ويشرب ويُدَّعى أنه قُتِلَ وصُلِبَ؟

وعلى هذا تكون «من» للابتداء، وليست للتبعيض، فهى كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، فلا يمكن أن نقول: إنَّ الشمس والقمر والأنهار جزء من الله، وهذا لم يقل به أحد.

---

(1) [صحيح] أخرجه عبد الله بن أحمد فى «زوائد السنن» (٥/ ١٥٣).

ذكر السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٦٠) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن منده فى كتاب «الرد على الجهمية واللالكائى، وابن مردويه، والبيهقى فى «الأسماء والصفات، وابن عساكر فى «تاريخه».

وانظر «فتح القدير» (٥٣٤٩ ـ بتخريجنا) و«فتح المجيد». (ح ٦٨) بتخريجنا).

(2) القول المفيد ١/ ٨٧و٨٨

(3) المائدة :٧٥.

فقوله: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: روح صادرة من الله - عز وجل- وليست جزءً من الله كما تزعم النصارى.

قال شيخ الإسلام[1]: المضاف إلى الله تعالى: إذا كان معنى: لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات، وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمًا به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب، وإن كان المضاف عينًا قائمًا بنفسها، كعيسى وجبرائيل عليهما السلام وأرواح بنى آدم، امتنع أن تكون صفة لله تعالى، لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره، لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين:

أحدهما: أن تكون تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها، فهذا شامل لجميع المخلوقات، كقولهم: سماء الله، وأرض الله، ومن هذا الباب فجميع المخلوقين عبيدالله، وجميع المال مال الله، وجميع البيوت، والنوق لله.

الوجه الثاني: أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون فى غيره، وكما يقال عن مال الفيء والخمس: هو مال الله ورسوله، ومن هذا الوجه، فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره، فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه. انتهى ملخصًا.

والمقصود منه أن إضافة روح إلى الله هو من الوجه الثانى، والله أعلم أهـ.

وشرح ذلك ابن عثيمين فقال[2]: واعلم أنَّ ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العين القائمة بنفسها، وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾[4].

وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه، كقوله تعالى : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾[5] وكقوله تعالى : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾[6]، وهذا القسم مخلوق.

الثاني: أن يكون شيئًا مضافًا إلى عين مخلوقة يقوم بها، مثاله قوله تعالى : ﴿رُوحٌ مِّنْهُ﴾ ، فإضافة هذه الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفًا، فهى روح من الأرواح التى خلقها الله ، وليست جزءً أو روحًا من الله، إذ أنَّ هذه الروح حلّت فى عيسى عليه السلام، وهو عين منفصلة عن الله، وهذا القسم مخلوق أيضًا.

(١) نقلا عن تيسير العزيز الحميد ٥٩.
(٢) القول المفيد ١/ ٨٨و٨٩و٩٠.
(٣) الجاثية :١٣.
(٤) العنكبوت : ٥٦.
(٥) الحج : ٢٦.
(٦) الشمس: ١٣.

الثالث: أن يكون وصفًا غير مضاف إلى عين مخلوقة.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾[1].

فالرِّسالة والكلام أضيفا إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فإذا أضاف الله لنفسه صفة، فهذه الصفة غير مخلوقة، وبهذا يتبيَّن أن هذه الأقسام الثلاثة قسمان منها مخلوقان، وقسم غير مخلوق.

فالأعيان القائمة بنفسها والمتصل بهذه الأعيان مخلوقة، والوصف الذى لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق، لأنه يكوْن من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقة.

وقد اجتمع القسمان فى قوله: «كلمته، وروح منه» فكلمته هذه وصف مضاف إلى الله، وعلى هذا، فتكون كلمته صفة من صفات الله.

وروح منه: هذه أضيفت إلى عين، لأن الروح حلّت فى عيسى، فهى مخلوقة أهـ.

قلت: وعلى هذا فالرد على النصارى سهل فى الحلول والتثليث أن تسئلهم هل عيسى عليه السلام ذات أم صفة؟! فإن قالوا ذات قلنا يستحيل عقلاً ونقلاً أن يتحد ذاتان فى ذات واحدة فضلاً عن ثلاثة فى واحد فإن قالوا بل هذا مثل الشّمس لها قرص وشعاع وضياء والثلاثة واحد.

والجواب من وجهين:

(الأول) أنكم شبهتهم الخالق بالمخلوق والله ليس كمثله شىء.

(الثانى) أن الشعاع والضياء صفات للشمس وليست ذوات قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ فلو كان الضياء هو هو الشمس لكان تكرار بلا فائدة.

فإن قالوا بل عيسى صفة فالجواب: لابد للصفات من ذات تقوم فيها فلايقول عاقل أن إنساناً ما يكون فى بيته مثلا وبعض صفاته تتمشى وحدها فى الطريق وعيسى انفصل عن الذات فيبعد أن يكون صفة. والله أعلم.

قوله: «والجنة حق والنار حق».

قال سليمان آل الشيخ[2]: أى وشهد أن الجنة التى أخبر الله بها فى كتابه أنه أعدها لمن آمن به وبرسوله حق، أى ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التى أخبر الله فى كتابه أنه أعدها للكافرين به وبرسله حق كذلك، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾[3] الآية، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[4]،

(١) الأعراف: ٤٤.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٩ و٦٠.
(٣) سورة الحديد: ٢١.
(٤) البقرة: ٢٤.

وفيهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافًا لأهل البدع الذين قالوا: لا يخلقان إلا في يوم القيامة، وفيه دليل على المعاد وحشر الأجساد. أ هـ.

قوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

قال ابن حجر(١): قوله: «**أدخله الله الجنة من أى أبواب الجنة شاء**» يقتضى دخوله الجنة وتخييره فى الدخول من أبوابها، وهو بخلاف ظاهر حديث أبى هريرة فى بدء الخلق فإنه يقتضى أن لكل داخل الجنة بابًا معينًا يدخل منه، قال: ويجمع بينهما بأنه فى الأصل مخير، لكنه يرى أن الذى يختص به أفضل فى حقه فيختاره فيدخله مختاراً لا مجبوراً ولا ممنوعًا من الدخول من غيره.

قلت - أى: ابن حجر - ويحتمل أن يكون فاعل شاء هو الله، والمعنى أن الله يوفقه لعمل يدخله برحمة الله من الباب المعد لعامل ذلك العمل.

ثم قال: قال البيضاوى فى قوله: «**على ما كان عليه من العمل**» دليل على المعتزلة من وجهين: دعواهم أن العاصى يخلد فى النار، وأن من لم يتب يجب دخوله فى النار لأن قوله: «**على ما كان من العمل**» حال من قوله: «**أدخله الله الجنة**» والعمل حينئذ غير حاصل، ولا يتصور ذلك فى حق من مات قبل التوبة إلا إذا أدخل الجنة قبل العقوبة.

وأما ما ثبت من لازم أحاديث الشفاعة أن بعض العصاة يعذب ثم يخرج فيخص به هذا العموم، وإلا فالجميع تحت الرجاء، كما أنهم تحت الخوف وهذا معنى قول أهل السنة: إنهم فى خطر المشيئة. أهـ.

قال حامد بن محمد بن محسن(٢): على ما كان من العمل بعد أداء الفرائض وذلك لأنه تاركها أو بعضها إما مستحل لتركها فكافر على الإطلاق وإما مستهين بها فكافر أيضًا. وإما متكاسل عنها فقد أوعده بالويل فى فرض الصلاة قال: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾(٣).

فسر بثلاثة تفاسير: فُسِّر بتضييع الأوقات، وقد أمر الله بمحافظتها، قال تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**﴾(٤).

وفسر بتضييع الأركان لا يطمئن فى أركانها ولا يأتى بها على المشروع، قال رسول الله ﷺ: «**أسرق السرقة من يسرق من صلاته**» قالوا: كيف يسرق من صلاته؟ قال: «**لا**

(١) الفتح ٦/٥٤٨.
(٢) فتح الله الحميد المجيد ١١٢: ١١٤.
(٣) الماعون: ٤، ٥.
(٤) البقرة: ٢٣٨.

يتم ركوعها ولا سجودها»(١).

وفسر بعدم حضور القلب، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾(٢) أخرجاه أي البخاري ومسلم.

ثم استدل الشيخ رحمه الله بما يدل على أن المراد ليس من لا إله إلا الله، لقلقة اللسان، وقعقعة الحروف، بل إنها لا تنفع قائلها إلا إذا قالها وهو يبتغي بذلك وجه الله أي يقولها إيمانًا واحتسابًا وذا في كل عمل كما قال ﷺ: **«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا»**(٣) بمعنى أن يفعله عبادة لا عادة أي الباعث له حب الله وخوفه ورجاؤه وإلا مجرد لفظها بلا معرفة معناها والعمل بمقتضاها لا تنفع فإن المنافقين قالوها وشهدوا أن محمدًا رسول الله وكذبهم الله قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(٤). وقالت الأعراب: آمنا، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(٥) فبان أن القول باللسان من دون اعتراف بالجنان، وعمل بالأركان لا ينفع، كما قيل:

ما احترق لسان أحد بقول نار ... ولا استغنى أحد بقوله ألف دينار

وكل قول له حقيقة فإن جئت بحقيقته فَصَدَقْتَ وصُدِّقت، وقبل منك وإلا فلا.

ويزيدك وضوحًا ما ذكر أن وفد الأزد لما وفدوا على رسول الله ﷺ قال ﷺ: **«من الوافد ومن القوم»**؟ قالوا: إنا مؤمنون، قال ﷺ: **«لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانكم»**؟ قالوا: إنا مؤمنون بخمسة عشر خصلة، خمس أمرتنا رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا رسلك أن نفعلها، وخمس كنا عليها في الجاهلية، قال ﷺ: **«ما الخمس التي أمرتكم رسلي أن تؤمنوا بها»**؟ قالوا: أمرتنا رسلك أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، قال: **«وما الخمس التي أمرتكم رسلي أن تفعلوها»**؟ قالوا: أمرتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن نصلي ونزكي ونصوم ونحج، قال ﷺ: **«وما الخمس التي كنتم عليها في الجاهلية»**؟ قالوا: الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضاء بمر القضاء، والثبات عند اللقاء، وترك شماتة الأعداء، قال:

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٢٩) والبيهقي في «الكبرى» (٢/ ٣٨٦).

(٢) المؤمنون: ١، ٢.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم في صلاج المسافرين (٦/ ٤٠ ـ النووي).

(٤) المنافقون: (١). (٥) الحجرات: ١٤.

قال: ولهما من حديث عتبان: «فإنَّ الله حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلا الله يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله»[1].

«حكماء فقهاء كادوا يكونون من فقههم أنبياء»، قال ﷺ: «أنا أزيدكم بخمس: لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، وازهدوا فيما عنه راحلون، وارغبوا فيما عليه مقبلون، وتوبوا إلى الله الذى أنتم إليه ترجعون» فتأمل.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: «**أدخله الله الجنة**». إدخال الجنة ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب من أتمَّ العمل.

الثانى: إدخال ناقص مسبوق بعذاب من نقص العمل.

فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء الله عذَّبه بقدر عمله، وإن شاء لم يعذبه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[3]. أهـ.

قوله: «**ولهما من حديث عتبان: فإن الله حرم على النار....إلخ**»

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال عبد الله بن جار الله[4]: ومناسبته للباب أن من وحد الله قولاً واعتقاداً وعملاً حرم الله عليه دخول النار وذلك من فضل التوحيد.

قال القرعاوى[5]: حيثُ دلّ الحديث على أن من مات مخلصًا لله التوحيد سلم من النار.

قوله: «**ولهما**».

أى البخارى ومسلم فى «صحيحيهما» وهذا الحديث طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان كما قال المصنف.

قلت: ولقد ذكره البخارى فى اثنى عشر موضعًا فى صحيحه ولم أذكرها هنا على

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الصلاة:/باب: المساجد فى البيوت (١/ ٦١٨/ ح٤٢٥) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة:/ باب: الرخصة فى التخلف عن الجماعة لعذر (٥/ ١٥٩ ـ النووى) وأحمد فى «مسنده» (٤/ ٤٤)، (٥/ ٤٤٩).

من طريق ابن شهاب عن محمود بن الربيع الأنصارى، عن عتبان بن مالك.
وانظر رياض الصالحين (ح٤١٨) بتخريجنا. و«فتح المجيد» (ح ٧٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ١/ ٩٠.
(٣) النساء: ٤٨.
(٤) الجامع الفريد ١٧.
(٥) الجديد: ٤٠.

غير العادة لعدم الإطالة وأيضًا لأن معظم هذه التبويبات بحسب فوائد الحديث وهو طويل والشاهد منه ما ذكره المصنِّف فقط.

قوله: من حديث عتبان

قال ابن عثيمين[1]: هو عتبان بن مالك الأنصارى رضى الله عنه، كان يصلى بقومه، فضعف بصره، وشقَّ عليه الذهاب إليهم، فطلب من النبى ﷺ أن يخرج إليه وأن يُصلى فى مكان من بيته ليتخذه مصلىً، فخرج إليه النبى ﷺ ومعه طائفة من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، فلما دخل البيت، قال: «**أين تريد أن أصلى؟**» قال: صل ها هنا، وأشار إلى ناحية من البيت فصلَّى بهم النبى ﷺ ركعتين، ثم جلس على طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلاً يقال له: مالك بن الدُّخْشُم، فقال بعضهم: هو منافق، فقال رسول الله ﷺ : «**لا تقل هكذا، أليس قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟!**» ثم قال: «**فإن الله حرَّم على النار...**» الحديث.

فنهاهم أن يقولوا هكذا، لأنهم لا يدرون عمَّا فى قلبه، لأنَّه يشهد أن لا إله إلا الله، وهنا الرسول قال هكذا، ولم يبرئ الرجل، إنَّما أتى بعبارة عامة بأنَّ الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله، ونهى أن نطلق ألسنتنا فى عباد الله الذين ظاهرهم الصلاح، ونقول: هذا مراء، هذا فاسق، وما أشبه ذلك، لأننا لو أخذنا بما نظنّ فسدت الدنيا والآخرة، فكثير من الناس نظنُّ بهم سوءًا، ولكن لا يجوز أن نقول ذلك وظاهرهم الصلاح، ولهذا قال العلماء: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة. اهـ.

قال الفقير: وهذا الحديث يدل على ما تقدم من الفرق بين الإسلام الحكمى، والحقيقى المنجى فالأول الإسلام الذى به يحكم للناس بإسلام فى الدنيا والثانى الذى له شروط سبعة بل وأكثر تنجيهم عند الله تعالى يوم القيامة، وعلى ذلك يتبين كثير من الإشكالات التى تأتى فى ظواهر الأحاديث.

قال سليمان آل الشيخ[2]: اعلم أنه قد وردت أحاديث ظاهرها أنه من أتى بالشهادتين حرم على النار، كذا الحديث.

– وحديث أنس قال: كان النبى ﷺ ومعاذ رديفه على الرَحْلِ، فَقَالَ: «**يَا مَعَاذَ قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله**

(١) القول المفيد ١/ ٩٠و٩١.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٦٠: ٦٤.

إلاَّ حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّار» قال: يا رسول الله ألا أُخبر بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قال: «إذاً يتكلُوا» فَأَخبرَ بِهَا مَعَاذ عِنْدَ مَوْته تأثُمًا»[1] أخرجاه.

ولمسلم عن عبادة مرفوعًا: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رسُولُ الله حَرَّمَ الله عَلَيه النَّارَ»[2].

ووردت أحاديث فيها أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة، وليس فيها أنه يحرم علي النار.

منها حديث عبادة[3] الذي تقدم قبل هذا.

- وحديث أبي هريرة أنهم كانوا معَ النَّبي ﷺ في غَزْوَةِ تَبوك.. الحديث، وفيه: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لاإلَهَ إلاَّ الله وَأَني رَسُولُ الله لا يَلْقَى الله بِهِمَا [عبد] غَيْرَ شَاكٍ فَيُحْجَبَ عَنِ الجَنَّة»[4] رواه مسلم.

وحديث أبي ذر في الصحيحين مرفوعًا: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لا إلهَ إلاّ الله ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلكَ إلاَّ دَخَلَ الجَنَّةَ».. الحديث[5].

وأحسن ما قيل في معناه ما قاله شيخ الإسلام وغيره أن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة، وقالها خالصًا من قلبه مستيقنًا بها قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين، فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك.

فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيرًا ممن يقول: لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها[6]، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم[7]، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على

(١) تقدم تخريجه فى موضعه.
(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٢٥١/ ٤٧).
(٣) تقدم تخريجه فى موضعه.
(٤) تقدم تخريجه فى موضعه.
(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٨٢٧) ومسلم فى الإيمان (١/ ٣٧١/ ١٥٤).
(٦) تقدم تحت شرح شروط لا إله إلا الله.
(٧) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٤٣٧)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٢١/ ٢٩٩) عن أبى هريرة. وانظر تخريجنا أيضاً فى «فتح المجيد» (ح٧٤) بتخريجنا.

النار من قال: لا إله إلا الله ، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[1].

لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عند الموت، فيحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه وغالب من يفتن عند الموت وفى القبور أمثال هؤلاء كما فى الحديث:

«سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيئًا فَقُلْتُهُ»[1] وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم وهم أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام، لم يكن فى هذه الحال مصراً على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذاً لا يبقى فى قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهية لما أمر الله، وهذا هو الذى يحرم من النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان، وهذه التوبة، وهذا الإخلاص، وهذه المحبة، وهذا اليقين، لا يتركون له ذنبًا إلا يمحى كما يمحى الليل بالنهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر فهذا غير مصر على ذنب أصلاً، فيغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات. كما فى حديث البطاقة[2] فيحرم على النار ولكن تنقص درجته فى الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته على حسناته ومات مصراً على ذلك، فإنه يستوجب النار، وإن قال: لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر، ولكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه فى حال قولها كان مخلصًا، لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصراً على سيئة، فإن مات على ذلك دخل الجنة، وإنما يخاف على المخلص أن يأتى بسيئات راجحة يضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقى معه من الأصغر فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك، فيرجح جانب السيئات، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف بذلك قوله: لا إله إلا الله فيمتنع الإخلاص فى القلب، فيصير المتكلم بها

(١) تقدم تحت شرح حديث معاذ السابق.

(٢) تقدم تحت شرح قوله تعالى: ﴿أولئك لهم الأمن...﴾ الآية

(٣) سيأتى تخريجه.

كالهاذى أو النائم، أو من يُحسّن صوته بـآية من القرآن من غير ذوق طعم ولا حلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق واليقين، بل يقـولونها من غير يقين وصـدق، ويموتون على ذلك ولهم سيئات كـثيرة تمنعهم من دخول الجنـة، وإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولهـا. وقسى القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القـرآن، واستبشر بذكر غيره واطمأن إلى الباطل واستحـلى الرفث ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخـالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالهـا قال بلسانه مـا ليسّ فى قلبه، وبفيـه مالا يصدق عـمله، كما قـال الحسن: ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه، ومن قال شراً وعمل شراً لم يقبل منه(1).

وقال بكر بن عـبد الله المزنى: ما سـبقهم أبـو بكر بكثرة صيـام ولا صلاة، ولكن بشىء وقر فى قلبه(2)، فمن قال: لا إله إلا الله ولم يقم بموجبـها، بل اكتسب مع ذلك ذنوباً وسيئـات، وكان صادقًا فى قولها مـوقنًا بها، لكن ذنوبه أضعاف أضعـاف صدقه ويقـينه، وانضاف إلى ذلك الشـرك الأصغـر العملى، رجـحت هذه الأشيـاء على هذه الحسنة، ومات مصراً على الذنوب، بخلاف من يقولها بيقين وصدق تام، فإنه لا يموت مصراً على الذنوب، إمـا أن لا يكون مصراً على سيئة أصلاً أو يكون توحـيده المتضمن لصدقـه ويقينـه رجح حسناته، والذين يدخلون النار ممن يـقولها قـد فاتهم أحـد هذين الشرطين: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامـين المنافيين للسيئات، أو لرجحان السيئات، أو قالوها واكتسبوا بـعد تلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعـد ذلك بصدق ويقين تام، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مـثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات بل ترجح سيئاتهم على حـسناتهم، انتهى ملخصًا، وقد ذكر معناه غـيره كابن القيم، وابن رجب والمنذرى، والقاضى عياض وغيرهم.

وحاصله: أن لا إله إلا الله سبب لدخـول الجنة والنجاة من النار. ومقـتضى لذلك، ولكن المقتضى لا يعـمل عمله إلا باستجمـاع شروطه، وانتفاء موانعه، فـقد يتخلف عنه مقـتضـاه لفـوات شرط من شـروطه، أو لوجود مـانع، ولهذا قـيل للحسن: إن نـاساً يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قـال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

(1) [جيد] أخرجه الخطيب فى «اقتضاء العلم والعمل» (56) وحسنه شيخنا الفاضل «محمد عمرو بن عبداللطيف» فى تبيض الصحيفة» (1/ 101) وانظر «فتح المجيد» (ح78) بتخريجنا.

(2) [صحيح] ذكره الغزالى فى «الإحياء» (1/ 23) ونسبه العراقى فى تخريج الإحيـاء للترمذي الحكيم فى «نوادر الأصول» وانظر «تبيض الصحيفة» (1/ 110).

وانظر «فتح المجيد» (ح79) بتخريجنا.

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح لـه أسنان فتح لك وإلا لم يفتح، ويدل على ذلك أن الله رتب دخول الجنة على الإيمان والأعمال الصالحة، وكذلك النبى ﷺ كما فى «الصحيحين».

- عن أبى أَيُّوبَ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرِنِى بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِى الجَنَّةَ فَقَالَ: **«تَعْبُدُ اللهَ وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِى الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ»**(١) وفى «المسند»

- عن بشر بن الخصاصية قال: أَتَيْتُ النَّبِى ﷺ لأُبَايِعَهُ، فاشْتَرَطَ عَلَىَّ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وأَنْ أُقِيمَ الصَّلاَةَ، وأَنْ أُوتِىَ الزَّكَاةَ، وأَنْ أَحُجَّ حَجَةَ الإِسْلاَمِ، وأَنْ أَصُومَ رَمَضَانَ، وأَنْ أُجَاهِدَ فِى سَبِيلِ اللهِ، فقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَمَا اثْنَتَيْنِ؟ فوالله ما أُطيقُهما الجِهَادُ وَالصَدَقَةُ، فَقَبَضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ ثم حَرَكَها وقال: **«فَلاَ جِهَادٌ وَلا صَدَقَة، فَبِمَ تَدْخُلِ الجَنَّةَ إِذاً؟»** قلت: يا رسول الله أُبايُعك عَلَيهنَّ كُلِهنَّ»(٢) ففى الحديث أن الجهاد والصدقة شرط فى دخول الجنة مع حصول التوحيد، والصلاة، والحج، والصيام، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة.

وفى الحديث دليل على أنه لا يكفى فى الإيمان النطق من غير اعتقاد، وبالعكس، وفيه تحريم النار على أهل التوحيد الكامل، وفيه أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصًا لله تعالى: .ا.هـ.

وذكر هذا الكلام الشيخ عبد الرحمن مختصراً(٣) فزاد

«**تنبيه**» قال القرطبى فى «تذكرته»: قوله فى الحديث «**من إيمان**» أى من أعمال الإيمان التى هى من أعمال الجوارح، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من شرائع الإيمان، والدليل على أنه أراد الإيمان ما قلناه، ولم يرد مجرد الإيمان الذى هو التوحيد ونفى الشركاء والإخلاص بقول: لا إله إلا الله: ما فى الحديث نفسه من قوله «أخرجوا ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيخرج قومًا لم يعملوا خير قط» يريد بذلك: التوحيد المجرد من الأعمال». أ.هـ ملخصًا من شرح سنن ابن ماجة.

قال الفقير: وفى هذا أيضًا ما تقرر فى أكثر من موضع بالتفريق بين الإسلام الحكمى والإسلام المنجى عند الله تعالى يوم القيامة والذى له شروط سبعة وفيه قول ابن منبه السابق. فتنبه لذلك ولا تغفل عنه لعظم فائدته. وراجع المواضع السابقة.

(١) أخرجه البخارى فى (٥٩٨٣) ومسلم فى الإيمان (١/ ٤٠٢/ ١٢).
(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٢٤).
(٣) فتح المجيد ٦٣: ٦٤.

وعن أبى سعيد الخُدرى عَن رَسُول الله ﷺ قال: «قال مُوسَى يا رَبِّ عَلِّمنى شيئًا أذكُرُكَ وأَدْعُوكَ به، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لا إله إلا الله، قال: كُل عبادك يقولُونَ هَذا؟ قال: يَا مُوسَى لَوْ أنَّ السَّموات السَّبع وعامِرهُنَّ غَيرى، والأرضُونَ السَّبعِ، فى كفَّة، وَلا إله إلا الله فِى كفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لا إله إلا الله» رواه ابن حبان، والحاكم وصححه(١).

● فائدة:

قال ابن عثيمين(٢): وفى الحديث ردٌّ على المرجئة الذين يقولون: يكفى قول: لا إله إلا الله، دون ابتغاء وجه الله.

وفيه ردٌّ على الخوارج والمعتزلة، لأنَّ ظاهر الحديث أنَّ مَنْ فَعل هذه المحرَّمات لا يُخلَّد فى النار، لكنه مستحق للعقوبة، وهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلَّد فى النار. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٣): وقال المصنف: تأمل الخمس اللواتى فى حديث عبادة فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قول لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على معنى قول لا إله إلا الله، وفيه التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه، وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله فى حديث عتبان: «**إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله**»(٤) إذا ترك الشرك، ليس قولها باللسان. انتهى ملخصًا. أهـ.

قوله: (وعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: قال موسى) الحديث.

● **مناسبة الحديث للباب:**

---

(١) [ضعيف] أخرجه النسائى فى «الكبرى» فى عمل اليوم والليلة «٦/٢٠٨/ ١٠٦٧٠»، وابن حبان فى «صحيحه» (٨/ ٣٠٤ / ٦١٨٤) والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٥٢٤)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٨/ ٣٢٨)، والبغوى فى «شرح السنة» (٥/ ٥٤/ ١٢٧٣) من طريق ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن دراج أبى السمح، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد به.

قال: الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٨٢): رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا وفيهم ضعف.

[قلت]: وفى إسناده دراج بن سمعان أبو السمح قال أبو داود: أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، وانظر ترجمته فى «تهذيب الكمال» والحديث صححه الحافظ فى «الفتح» (١١/ ٢١١) على ما بيناه فيه.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٨١) بتخريجنا..

(٢) القول المفيد: ١/ ٩٣.

(٣) تيسير العزيزالحميد: ٧٠.

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

قال عبد الله بن جار الله(١): ومناسبة الحديث للباب: أن من قال لا إله إلا الله عن صدق وإخلاص رجح ميزانه وحصل له الفوز والسعادة وهذا من فضل التوحيد أهـ.

قال القرعاوى(٢): حيث دلّ الحديث على أن كلمة التوحيد لا إله إلا الله هى أفضل الأذكار وأثقلها فى الميزان. اهـ.

قوله: **(عن أبى سعيد):**

قال سليمان آل الشيخ(٣): أبو سعيد: اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصارى الخزرجى، صحابى جليل، وأبوه أيضًا كذلك، استصغر أبو سعيد بأحد، ثم شهد ما بعدها، مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين. وقيل: أربع وسبعين. اهـ.

قوله: «قال موسى يا ربِّ علمنى شيئًا أذكرك وأدعوك به».

قال سليمان آل الشيخ(٤): قوله: «أذكرك». هو بالرفع خبر مبتدأ محذوف، أى أنا أذكرك، وقيل بل هو صفة، وأدعوك معطوف عليه، أى أثنى عليك وأحمدك به، وأدعوك، أى أتوسل به إليك إذا دعوتك. اهـ.

قال ابن عثيمين(٥): **قوله: «أذكرك وأدعوك به».**

صفة لشىء، وليست جواب الطلب، فموسى عليه السلام طلب شيئًا يحصل به أمران:

١- ذكر الله.

٢- دعاؤه.

فأجابه الله بقوله: «قل لا إله إلا الله». أهـ.

قوله: «قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله».

قال سليمان آل الشيخ(٦): فيه أن الذاكر بها يقولها كلها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة كما يفعله جهال المتصوفة، ولا يقول أيضًا هو كما يقول غلاة جهالهم، فإذا أرادوا الدعاء قالوا: يا هو، فإن ذلك بدعة وضلالة، وقد صنف جهالهم فى المسألتين، وصنف ابن عربى كتابًا سماه كتاب: الهو. اهـ.

---

(١) الجامع الفريد (١٩).
(٢) الجديد ٤٢.
(٣) تيسير العزيز الحميد ٦٥.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٦٥.
(٥) القول المفيد ١/ ٩٣.
(٦) تيسير العزيز الحميد ٦٥.

قال ابن عثيمين(١): «**قل لا إله إلا الله**» وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء، لأنَّ الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلى دار كرامته، إذاً، فهو ذكر متضمِّن للدعاء، قال الشاعر:

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حباؤك إن شيمتك الحِبَاءِ(*)

يعنى: عطاؤك.

واستشهد ابن عباس على أنَّ الذكر بمعنى الدعاء بقول الشاعر:

إذا أثنى عليك العبد يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء

قلت: ويستدل له بقوله فى الحديث القدسى **من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين**(٢) وبقوله ﷺ: «**خير الدعاء دعاء عرفة**» **وأفضل ما قلت: أنا والنبيون** «**لا إله إلا الله**»(٣) أخرجه الترمذى وسيأتى قال ابن حجر: الذاكر يحصل له ما يحصل للداعى إذا شغله الذكر عن الطلب.

قوله: قال: «كل عبادك يقولون هذا».

قال سليمان آل الشيخ(٤): هكذا ثبت بخط المصنف. يقولون بالجمع مراعاة لمعنى كل، والذى فى الأصول يقول بالإفراد مراعاة للفظها دون معناها، لكن قد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو هذا الحديث بهذا اللفظ الذى ذكره المصنف أطول منه.

وفى «سنن النسائى» و«الحاكم» و«شرح السنة» بعد قوله: «**كل عبادك يقولون هذا، إنما أريد أن تَخُصَّنى به**»، أى بذلك الشىء من بين عموم عبادك فإن من طبع الإنسان أن لا يفرح فرحًا شديدًا إلا بشىء يختص به دون غيره، كما إذا كانت عنده جوهرة ليست موجودة عند غيره، مع أن من رحمة الله وسنته المطردة أن ما اشتدت إليه الحاجة والضرورة، كان أكثر وجودًا، كالبر والملح، والماء ونحو ذلك دون الياقوت واللؤلؤ، ولما كان بالناس بل بالعالم كله من الضرورة إلى لا إله إلا الله ما لا نهاية فى الضرورة فوقه كانت أكثر الأذكار وجودًا، وأيسرها حصولاً، وأعظمها معنى، والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الأسماء الغريبة والدعوات المبتدعة التى لا أصل لها فى الكتاب والسنَّة كالأحزاب والأوراد التى ابتدعها جهلة المتصوفة. أهـ.

---

(١) القول المفيد ١/ ٩٣ و٩٤.

(*) كذا فى القول المفيد، وفى فتح البارى (حياؤك) بالياء.

(٢) ذكره الحافظ فى «الفتح» (١١/ ١٣٨) ونسبه للطبرانى ولينه.

(٣) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٥٨٥) عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

وانظر «الأذكار للنووى» (٤٥٦ ـ بتخرجنا).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٦٥.

قال ابن عثيمين(١): ليس المعنى أنها كلمة هينة كلٌ يقولها، لأن موسى عليه الصلاة والسلام يعلم عظم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئاً يختصُ به، لأنَّ تخصيص الإنسان بالأمر يدل على منقبة له ورفعة، فبيَّن الله لموسى أنَّه مهما أعطى فلن يعطى أفضل من هذه الكلمة، وأنَّ لا إله إلا الله أعظم من السموات والأرض وما فيهن، لأنها تميل بهن وترجح، فدلَّ ذلك على فضل لا إله إلا الله وعظمها لكن لابد من الإتيان بشروطها، أمَّا مجرَّد أن يقولها القائل بلسانه، فكم من إنسان يقولها لكنها عنده كالريشة لا تساوى شيئاً؛ لأنَّه لم يقلها على الوجه الذى تمت به الشروط وانتفت به الموانع. اهـ.

قوله: قال: ياموسى لو أنَّ السموات السبع وعامرهن غيرى».

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «وعامرهن غيرى». هو بالنصب عطف على السموات، أى: لو أنَّ السموات السبع ومن فيهن من العمار غير الله والأرضين السبع ومن فيهن وضعوا فى كفة الميزان، ولا إله إلا الله فى الكفة الأخرى، مالت بهن لا إله إلا الله.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ: **«أَنَّ نُوحاً عَلَيْه السَّلامَ قَال لابنه عِنْدَ مَوْته: آمرُكَ بـ: لا إِلَه إِلا اللهَ، فإن السَّموات السَّبْع والأرْضينَ السّبْع لَوْ وُضعَت فى كَفَة، ولا إِله إِلا اللهَ فى كَفَة رَجحَتْ بهنَّ لا إِله إِلا الله، ولَو أَنَّ السَّموات السَّبعِ والأَرْضِينَ السَّبع كُنَّ حَلَقَةً مُبهَمَةً قَصَمْتهُنَّ لا إِلهَ إِلا اللهَ» وفيه دليل على أن الله تعالى فوق السموات»**(٣). اهـ.

قال ابن عثيمين(٤): **قوله: «والأرضين السبع».** فى بعض النسخ بالرَّفع، وهذا لا يصلح؛ لأنه إذا عطف على اسم أنَّ قبل استكمال الخبر وجب النصب.

قوله: «مالت».

أى: رجحت حتى يملن.

قوله: «عامرهن».

أى: ساكنهن؛ فالعامر للشىء هو الذى عَمَرَ به الشىء.

قوله: «غيرى».

---

(١) القول المفيد ١/ ٩٤ و ٩٥.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٦٥ و ٦٦.
(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ١٧٠) وصححه أحمد شاكر (٦٥٨٣).
وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح٨٤) بتخريجنا.
(٣) القول المفيد ١/ ٩٥.

استثنى نفسه تبارك وتعالى؛ لأنَّ قول لا إله إلا الله ثناء عليه، والمثنى عليه أعظم من الثناء، وهنا يجب أن تعرف أن كون الله تعالى فى السماء ليس ككون الملائكة فى السماء؛ فكون الملائكة فى السماء كون حاجى، فهم ساكنون فى السماء لأنهم محتاجون إلى السماء، لكن الرب تبارك وتعالى ليس محتاجاً إليها، بل إنَّ السماء وغير السماء محتاج إلى الله تعالى؛ فلا يظن ظانٌّ أنَّ السماء تقل الله أو تظلّه أو تحيط به، وعليه؛ فالسماوات باعتبار الملائكة أمكنة مقلة للملائكة، وما فوقهم منها مظلٌّ لهم، أما بالنسبة لله؛ فهى جهة لأن الله تعالى مستوٍ على عرشه، لا يُقلُّه شىء من خلقه. قلت: أى هى الإثبات صفة العلو لله تعالى.

قوله: «والأرضون السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة».

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «فى كفة» بكسر الكاف وتشديد الفاء من كفة الميزان. قال بعضهم: ويطلق لكل مستدير. اهـ.

قوله: «مالت بهن لا إله إلا الله».

قال سليمان آل الشيخ[2]: **قوله: «مالت بهن لا إله إلا الله»**، أى: رجحت عليهن، وذلك لما اشتملت عليه من توحيد الله الذى هو أفضل الأعمال، وأساس الملة، ورأس الدين، فمن قالها بإخلاص ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها، واستقام على ذلك فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ**﴾(*).

والحديث يدل على أن لا إله إلا الله أفضل الذكر، كما فى:

حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِى لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِ شَىْءٍ قَدِيرٌ**» رواه أحمد والترمذى[3]. وعنه أيضًا مرفوعاً.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٦٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٦٦ و ٦٧.

(*) فصلت: ٣٠ - ٣٢.

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

«يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِى عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلاًّ، كُلُّ سِجِلٍ منها مد البَصَرِ، ثُم يُقَالُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً؟ فيقول: لا يَارَبِّ، فَيُقَالُ: أَلَكَ عِذْرٌ أو حَسَنَةٌ، فَيُهَابُ الرَّجُلُ فَيقُولُ: لاَ، فَيُقَالُ: بَلى إن لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ، فَيُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فيها: أَشْهَدُ أَن لا إله إلا اللهَ وأَشْهَدُ أَن مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُول: يارَبِّ، مَا هذه البِطَاقَة مَعَ هَذِه السِّجِلاَّت فَيُقَال: إنك لاَ تُظْلَمْ، فَتُوضَعُ السِّجِلاتُ فى كَفَّةٍ؛ والبِطَاقَةُ فِى كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاتُ، وثَقُلَت البِطَاقَةُ»(١) رواه الترمذى وحسنه، والنسائى، وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال الذهبى فى «تلخيصه»: صحيح.

قال ابن القيم: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب، فتكون صورة العمل واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض. قال: تأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات، فلا يعذب. ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

وعن أبى هريرة مرفوعاً: **«مَا قَالَ عَبْدٌ لا إلهَ إلا الله مُخْلِصاً قَطّ إلا فُتِحَت لَهُ أَبْوابُ السماء حتى تَفْضى إِلى العَرْشِ ما أُجْتُنِبَت الكَبَائِر»**(٢) رواه الترمذى وحسنه والنسائى، والحاكم وقال على شرط مسلم. أه.

قلت: وبوب البخارى فى صحيحه باب فضل التهاليل وأورد فيه حديث أبى هررج وغيره(٣).

قوله: «رواه ابن حبان، والحاكم وصححه».

قال الشيخ سليمان آل الشيخ(٤): قوله: «رواه ابن حبان، والحاكم». ابن حبان إسمه محمد بن حبان ـ بكسر المهملة وتشديد الموحدة ـ ابن أحمد بن حبان أبو حاتم التميمى البستى الحافظ صاحب التصانيف «كالصحيح» و«التاريخ» و«الضعفاء» و«الثقات»

(١) [صحيح] أخرجه الترمذى (٢٦٣٩)، وابن ماجة (٤٣٠٠)، والحاكم فى «المستدرك» (٦/١) قال الترمذى: حسن غريب.
وانظر «فتح المجيد ح ٨٦» ـ بتخريجنا ـ.
(٢) أخرجه الترمذى (٣٥٩٠)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٦٦٩) عن أبى هريرة.
قال الترمذى: حسن غريب.
(٣) البخارى مع الفتح (١١/ ٢٠٤/ ح٦٤٠٣، ٦٤٠٤).
(٤) التيسير ٦٧ - ٦٨.

وللترمذى وحسنه عن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم! لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»(١).

وغير ذلك قال الحاكم: كان من أوعية العلم فى الفقه واللغة والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال، مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بست بالمهملة.

وأما الحاكم فاسمه محمد بن عبد الله بن محمد الضبى النيسابورى أبو عبد الله الحافظ، ويعرف بابن البيع. ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وصنف التصانيف «كالمستدرك» و«تاريخ نيسابور» وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة. أهـ.



● مناسبة الحديث للباب:

قال ابن عثيمين(٢): مناسبة الحديث للترجمة: أنَّ فى هذا الحديث فضل التوحيد، وأنه سبب لتكفير الذنوب، فهو مطابق لقوله فى الترجمة وما يكفر من الذنوب أهـ.

قال عبد الله بن جار الله(٣): ويستفاد من هذا الحديث.

(١) سعة فضل الله.

(٢) كثرة ثواب التوحيد عند الله وتكفيره للذنوب. وهذه هى مناسبه الحديث للباب.

---

(١) [صحيح] بغير هذا الإسناد أخرجه الترمذى فى الدعوات/ باب فضل التوبة والاستغفار (٥/٥٤٨/ ٣٥٤٠).

من طريق بكر بن عبد الله المزنى، عن أنس به.

قال الترمذى: حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه والحديث فيه كثير بن فائد وهو مقبول كما قال عنه الحافظ فى «التقريب» والحديث له شواهد من حديث أبى ذر عند مسلم والبيهقى وغيرهما من حديث ابن عباس عند الدارمى وغيره فالحديث حسن بشواهده. قال ابن رجب: وإسناده لا بأس به. وسعيد بن عبيد، هو الهنائى: ذكره ابن حبان فى الثقات. وقال الدارقطنى تفرد به كثير بن فائد عن سعيد بن عبيد مرفوعاً.

قال ابن رجب: وتابعه على رفعه أبو سعيد بمولى بنى هاشم، فرواه عن سعيد بن عبيد مرفوعاً، وقد رواه الإمام أحمد من حديث أبى ذر بمعناه، وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ٤٤٣) بتخريجنا.

وانظر «فتح المجيد» (٨٧ - بتخريجنا).

(٢) القول المفيد ١/ ١٠٠.   (٣) الجامع الفريد ١٩.

قال القرعاوى[1]: حيث دلّ الحديث على أن من مات خالصاً من الشرك بجميع أنواعه دخل الجنه ولو كانت ذنوبه ملء الارض. أهـ.

قوله: «وللترمذى وحسنه».

قال سليمان آل الشيخ[2]: الترمذى اسمه محمد بن عيسى بن سورة - بفتح المهملة - ابن موسى بن الضحاك السلمى أبو عيسى صاحب «الجامع» وأحد الأئمة الحفاظ، كان ضرير البصر روى عن قتيبة وهناد والبخارى وخلق، ومات سنة تسع وسبعين ومئتين. أهـ.

قوله: «عن أنس».

قال سليمان آل الشيخ[3]: وأنس هو ابن مالك بن النضر الأنصارى الخزرجى، خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين.

ودعا له النبى ﷺ. فقال: «**اللَّهُمَّ أَكْثِر مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ وَأَدْخَلْهُ الجَنَّةَ**»[4] ومات سنة اثنتين وقيل: ثلاث وتسعين. وقد جاوز المائة والحديث قطعة من حديث رواه الترمذى من طريق كثير بن فائد: حدثنا سعيد بن عبيد، سمعت بكر بن عبد الله المزنى يقول: حدثنا أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أُبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض...**» الحديث[5].

وروى مسلم من حديث أبى ذر عَنِ النَّبى ﷺ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ: مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّى شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً... الحديث**» وفيه «**وَمَنْ لَقِيَنِى بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً، لا يُشْرِكُ بى شَيْئاً لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً**»[6].

قوله: «قال الله تعالى: يا ابن آدم.... إلخ».

---

(١) الحديد ٤٤.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٦٨.
(٣) تيسير العزيز الحميد ٦٨.
(٤) أخرجه البخارى (٦٣٧٨)، ومسلم الفضائل (٨/ ٢٧٧/ ١٤١).
وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح٨٩) بتخريجنا.
(٥) تقدم تخريجه قريباً.
(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء (٩/ ١٦/ ٢٢). وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح٩٠) بتخريجنا.

قال ابن عثيمين(١): هذا من الأحاديث القدسيـة، والحديث القدسى: ما رواه النبى ﷺ عن ربه، وقـد أدخله المحدثون فى الأحـاديث النبوية، لأنه منسـوب إلى النبى ﷺ تبليغاً، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحـد منهما قد بلغه النبـى ﷺ أمتـه عـن الله ـ عز وجل ـ.

وقد اختلف العلماء رحمـهم الله فى لفظ الحديث القدسى: هل هو كلام الله تعالى، أو أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ معناه واللفظ لفظ رسول الله ﷺ؟

على قولين:

القول الأول: أن الحديث القدسى من عند الله لفظه ومعناه؛ لأن النبى ﷺ أضافه إلى الله تعـالى، ومن المعلوم أن الأصل فى القـول المضـاف أن يكون بلفظ قـائله لا ناقله، لاسيما والنبى ﷺ أقوى الناس أمانةً وأوثقهم روايةً.

القول الثانى: أن الحديث الـقدسى معناه مـن عند الله ولفظه لفظ النبى ﷺ، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: لو كان الحديث القدسى من عند الله لفظا ومعنى؛ لكان أعلى سنداً من القرآن؛ لأن النبى ﷺ يـرويه عن ربه تعالى بدون واسطة؛ كمـا هو ظاهر السيـاق، أما القرآن؛ فنزل على النبى ﷺ بواسطة جبريل؛ كـما قال تعالى: ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ** ﴾. وقال: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الـرُّوحُ الأَمِيـنُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنـذِرِيـنَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾.

الوجه الثانى: أنه لو كـان لفظ الحـديث القـدسى من عند الله؛ لم يكـن بينه وبين القرآن فرق؛ لأن كليهما على هذا التقدير كلام الله تعالى، والحكمة تقتضى تساويهما فى الحكم حين اتفقا فى الأصل.

ومن المعلوم أن بين القرآن والحديث القدسى فروق كثيرة:

منها: أن الحديث القـدسى لا يتعبـد بتلاوته، بمعنى أن الإنسـان لايتعبـد لله تعالى بمجرد قراءته؛ فلا يثـاب على كل حرف منه عشر حسنات، والقرآن يتـعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنات.

ومنها: أن الله تعالى تحدى أن يأتى الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك فى الأحاديث القدسية.

(١) القول المفيد ١/ ٩٦ - ٩٩.

ومنها: أن القرآن محفوظ من عند الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾، والأحاديث القدسية بخلاف ذلك؛ ففيها الصحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفاً أو موضوعاً، وهذا وإن لم يكن منها لكن نسب إليها وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص.

ومنها: أن القرآن لاتجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين، وأما الأحاديث القدسية؛ فعلى الخلاف فى جواز نقل الحديث النبوى بالمعنى والأكثرون على جوازه.

ومنها: أن القرآن تشرع قراءته فى الصلاة ومنه مالا تصح الصلاة بدون قراءته، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لايمسه إلا طاهر على الأصح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يقرؤه الجنب حتى يغتسل على القول الراجح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعى المفيد للعلم اليقينى، فلو أنكر منه حرفاً أجمع القراء عليه؛ لكان كافراً، بخلاف الأحاديث القدسية؛ فإنه لو أنكر شيئاً منها مدعياً أنه لم يثبت؛ لم يكفر، أما لو أنكره مع علمه أن النبى ﷺ قاله؛ لكان كافراً لتكذيبه النبى ﷺ.

وأجاب هؤلاء عن كون النبى ﷺ أضافه إلى الله، والأصل فى القول المضاف أن يكون لفظ قائله بالتسليم أن هذا هو الأصل، لكن قد يضاف إلى قائله معنىً لا لفظاً؛ كما فى القرآن الكريم؛ فإن الله تعالى يضيف أقوالاً إلى قائليها، ونحن نعلم أنها أضيفت معنىً لا لفظاً، كما فى «قصص الأنبياء» وغيرهم، وكلام الهدهد والنملة؛ فإنه بغير هذا اللفظ قطعاً.

وبهذا يتبين رجحان هذا القول، وليس الخلاف فى هذا كالخلاف بين الأشاعرة وأهل السنة فى كلام الله تعالى؛ لأن الخلاف بين هؤلاء فى أصل كلام الله تعالى؛ فأهل السنة يقولون: كلام الله تعالى كلام حقيقى مسموع يتكلم سبحانه بصوت وحرف، والأشاعرة لا يثبتون ذلك، وإنما يقولون: كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بحرف وصوت، ولكن الله تعالى يخلق صوتاً يعبر به عن المعنى القائم بنفسه، ولاشك فى بطلان قولهم، وهو فى الحقيقة قول المعتزلة؛ لأن المعتزلة يقولون: القرآن مخلوق، وهو كلام الله، وهؤلاء يقولون: القرآن مخلوق، وهو عبارة عن كلام الله؛ فقد اتفق الجميع على أن ما بين دفتى المصحف مخلوق.

ثم لو قيل فى مسألتنا - الكلام فى الحديث القدسى - إنَّ الأَوْلَى ترك الخوض فى

هذا؛ خوفاً من أن يكون من التنطع الهالك فاعله، والاقتصار على القول بأن الحديث القدسى ما رواه النبى ﷺ عن ربه وكفى؛ لكان ذلك كافياً، ولعله أسلم والله أعلم.

● **(فائدة).**

إذا انتهى سند الحديث إلى الله تعالى سمى (قدسياً)؛ لقدسيته وفضله، وإذا انتهى إلى الرسول ﷺ سمى مرفوعاً، وإذا انتهى إلى الصحابى سمى موقوفاً، وإذا انتهى إلى التابعى فمن بعده سمى مقطوعاً. أهـ.

قوله: «لو أتيتنى بقراب الأرض».

قال سليمان آل الشيخ(١): قراب الأرض. بضم القاف. وقيل بكسرها، والضم أشهر وهو ملؤها أو ما يقارب ملأها. اهـ.

وبنحوه - **قال ابن عثيمين**(٢): **قوله «خطايا»:**

قال ابن عثيمين(٣): جمع خطيئة، وهى الذنب، والخطايا الذنوب؛ ولو كانت صغيرة؛ لقوله تعالى: **﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾**(٤).

قوله: «ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئاً».

قال سليمان آل الشيخ(٥): **قوله**: «ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئاً». شرط ثقيل فى الوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك كثيره وقليله، صغيره وكبيره، ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله، وذلك هو القلب السليم. كما قال تعالى: **﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾**(٦). اهـ.

قال ابن رجب: من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله عزّ وجل، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لايخلد فى النار، بل يخرج منها ثم يدخل الجنة، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً وإجلالاً ومهابة

(١) تيسير العزيز الحميد ٦٩.
(٢) القول المفيد ١/ ٩٩.
(٣) القول المفيد ١/ ٩٩ - ١٠٠.
(٤) البقرة: ٨١.
(٥) تيسير العزيز الحميد ٦٩ و ٧٠.
(٦) الشعراء: ٨٨.

وخشـية وتوكلاً، وحيـنئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلهـا ولو كانت مثل زبد البـحر، وربما قلبتـها حسنات، فإن هـذا التوحيد هو الإكـسير الأعظم، فلو وضع منه ذرة على جـبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات. أهـ.

وقال ابن تيمـية: الشرك نوعـان: أكبـر، وأصغر، فـمن خلص منهمـا وجبت له الجنة، ومن مات على الأكـبر وجبت له النار، ومن خلص من الأكبـر وحصل له بعض الأصغر مع حسنات راجـحة على ذنوبه دخل الجنة، فإن تلك الحسنات توحيـد كثير مع يسير من الشرك الأصغر، ومن خلص من الأكبـر، ولكن كثر الأصغر حتى رجحت به سيئاته دخل النار، فالشرك يؤاخذ به العبد إذا كان أكـبر أو كان كثيراً أصغر، والأصغر القليل فى جانب الإخلاص الكثير لا يؤاخذ به. أهـ.

قال ابن عثيمين(١):- **قوله: «لاتشرك بى شيئاً»**. جملة «لاتشرك» فى موضع نصب على الحال من التاء؛ أى: لقيتنى فى حال لاتشرك بى شيئاً.

قوله: «شيئاً» نكرة فى سياق النفى تفيد العموم؛ أى: لاشركاً أصغر ولا أكبر.

وهذا قيد عظيم قد يتهاون به الإنسـان، ويقول: أنا غير مشرك وهو لا يدرى؛ فحبّ المال مثلاً بحيث يلهى عـن طاعة الله من الإشراك، قال النبى ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدهم، تعس عبد الخمصية، تعس عبدالخميلة...»** الحديث(٢).

فسمَّى النبى ﷺ من كان هذا همّه سمّاه: عبداً له.

قوله: «لأتيتك بقرابها مغفرة».

أى: أنَّ حسنة التـوحيـد عظيمة تُكفِّر الخـطايا الكبيرة إذا لقـى الله وهو لايشرك به شيئاً، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه. اهـ.

● كلمة فى خاتمة أحاديث الباب:

قال سليمان آل الشيخ(٣): وفى هذه الأحاديث كثرة ثواب التوحيد، وسعة كرم الله وجوده ورحمـته، حيث وعد عـباده أن العبد لو أتاه بملء الأرض خطايا وقـد مات على التوحيد فإنه يقابله بالمغـفرة الواسعة التى تسع ذنوبه، والرد على الخوارج الذين يكفرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة الذين يقـولون بالمنزلة بين المنزلتين وهى منزلة الفاسق،

---

(١) القول المفيد ١/ ١٠٠.

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٧٠.

فيقولون: ليس بمؤمن ولا كافر ويخلد فى النار والصواب فى ذلك قول أهل السنَّة أنه لا يسلب عنه اسم الإيمان على الإطلاق، ولا يعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاص أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته. وعلى هذا يدل الكتاب والسنَّة وإجماع سلف الأمة.

قال الفقير: * وفى القرآن من فضائل التوحيد غير ما تقدم.

(١) * تكفيره للسيئات: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(١) * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

(٢) * الهداية والثبات والأمن وعدم الخوف والزيغ والحزن: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾(٣)، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾(٤)، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٥)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾(٦)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٧)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾(٨).

(٣) * السكينة زيادة الإيمان: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾(٩).

*** التمكين فى الأرض:** ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(١٠).

(١) المائدة: ٦٥. (٢) المائدة: ٦٦.
(٣) ابراهيم: ٢٧. (٤) سبأ: ٤٦.
(٥) الأنعام: ٨٢. (٦) فصلت: ٣٠ - ٣٢.
(٧) فصلت: ٣٣. (٨) يونس: ٩.
(٩) الفتح: ٤. (١٠) النور: ٥٥.

(٤) * النصر: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

(٥) * الولاية: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٢].

(٦) * الشفاعة: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

(٧) * شرح الصدر وعدم الاضطراب وصلاح الحال والبال: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[٤]. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٥].

(٨) * الرزق: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٦].

(٩) * العزة: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٧].

(١٠) * الرفعة: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٨].



---

(١) الروم: ٤٧.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(٣) الزخرف: ٨٦.

(٤) الأنعام: ١٢٥

(٥) الزمر: ٢٩.

(٦) الاعراف: ٩٦.

(٧) المنافقون: ٨ .

(٨) المجادلة: ١١.

فيه مَسائلُ

الاولى: سعَةُ فَضْلِ الله.

الثانية: كَثْرَةُ ثواب التَّوْحِيد عِنْدَ الله.

الثالثة: تَكْفِيرُهُ مَعَ ذَلك للذّنُوب.

الرابعة: تَفْسيرُ الآيَةِ الّتي في سُورَةِ الأنْعَامِ.

الخامسة: تَأَمُّلُ الخَمْس اللّواتي في حَدِيث عُبَادَةَ.

السادسة: أنَّكَ إذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدَيث عِتْبَانَ وحديث ابن سعيد وحديث أنس تَبَيَّنَ لَكَ مَعْنَى قَوْلِ: «لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ» وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ المَغْرُورِينَ.

قوله: «فيه مسائل».

- الأولى: «سعة فضل الله» قال ابن عثيمين(1): لقوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».
- الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله. لقوله: «مالت بهن لا إله إلا الله».
- الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب. لقوله: «لأتيتك بقرابها مغفرة»؛ فالإنسان قد تغلبه نفسه أحياناً؛ فيقع في الخطايا، لكنه مخلص لله في عبادته وطاعته؛ فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي الله بها.
- الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام: وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ فالظلم هنا الشرك؛ لقوله ﷺ: «ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».
- الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عُبادة.

1 - 2 - الشهادتان.

3 - أنَّ عيسى عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه.

4 - أنَّ الجنة حق.

5 - أنَّ النار حق.

- السادسة: أنَّك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان، وحديث أبي سعيد، وحديث أنس؛ تبيَّن لك معنى قول: لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين.

---

(1) القول المفيد 1/101 - 108.　　(2) تقدم تخريجه.

السابعة: التَّنْبيهُ للشَّرْطِ الَّذي في حَدِيثِ عِتْبَانَ.

الثامنة: كَوْنُ الأنبِيَاءِ يَحْتَاجُونَ للتنبيه عَلَى فَضْلِ «لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ»

التاسعة: التَّنْبيهُ لِرُجْحَانِهَا بِجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّ كَثِيراً مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخِفُّ مِيزَانُهُ.

العاشرة: النَّصُّ عَلَى أنَّ الأَرَضِينَ سَبْعٌ كالسَّموات.

لأنَّه لابدّ أن يبتغى بها وجه الله، وإذا كان كذلك؛ فلا بدَّ أن تحمل المرء على العمل الصالح.

● **السابعة: التنبيه للشرط الذى فى حديث عتبان.**

وهو أن يبتغى بقولها وجه الله، ولا يكفى مجرَّد القول؛ لأنَّ المنافقين كانوا يقولونها ولم تنفعهم.

● **الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله.** فغيرهم من باب أولى.

قلت: ليس على أصل فضلها إنما على كمال فضلها.

● **التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أنَّ كثيراً ممن يقولها يخفّ ميزانه.**

فالبلاء من القائل لا من القول؛ لأنَّه قد يكون اختلَّ شرطٌ من الشروط أو وُجد مانع من الموانع؛ فإنَّها تخفّ بحسب ما عنده، أمَّا القول نفسه؛ فيرجح بجميع المخلوقات.

● **العاشرة: النص على أنَّ الأرضين سبع كالسماوات.**

لم يرد فى القرآن تصريح بذلك، بل ورد صريحاً أن السماوات سبع بقوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ** ﴾[(١)]، لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ﴾[(٢)]؛ فالمثلية بالكيفية غير مرادة لظهور الفرق بين السماء والأرض فى الهيئة، والكيفية، والارتفاع، والحسن؛ فبقيت المثلية فى العدد.

أمَّا السنَّة؛ فهى صريحة جداً بأنها سبع؛ مثل قوله ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض؛ طوقه يوم القيامة من سبع أرضين**»[(٣)].

وقد اختلف فى قوله ﷺ: «**من سبع أرضين**»؛ كيف تكون سبعاً؟.

---

(١) المؤمنون ٨٦ (٢) الطلاق: ١٢.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٤٥٢)، ومسلم فى المساقاة (٦/٥٣/١٣٧) عن سعيد بن زيد. وانظر «كتابنا فقه الخطابة».

الحادية عشرة: أنَّ لَهُنَّ عُمَّاراً.

الثانية عشرة: إثْباتُ الصِّفات خلافاً للأشعَرِيَّة.

الثالثة عشرة: أنَّكَ إذَا عَرَفْتَ حَدِيــثَ أنَس، عَرَفْتَ أن قَوْلَهُ في حَديــث عِتْبَانَ: «فإنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَن قَالَ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ يَبــتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ» أنَ تَرْكُ الشِّرْكِ، لَيْسَ قَولَها باللِّسان.

الرابعة عشرة: تأمَّلُ الجَمْعِ بَيْنَ كَوْنِ عيسى ومُحَمَّدٍ عَبْدَى الله ورَسُولَيْه.

فقـيل: المراد: القارات السبع، وهذا ليس بصحـيح؛ لأنَّ هذا يمتنع بالنسبـة لقوله: «**طوقه من سبع أرضين**»، وقيل: المراد المجمـوعة الشمسيـة، لكن ظاهر النصوص أنها طباق كالسماوات، وليس لنا أن نقـول إلا ما جاء في الكتاب والسنَّة عن هذه الأرضين؛ لأننا لا نعرفها.

● **الحادية عشرة: أنَّ لهن عُمَّاراً.**

أي: السماوات، وعمارهن الملائكة.

● **الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية.**

وفي بعض النُّسخ خلافاً للمعطلة، وهذه أحسن؛ لأنَّهـا أعمّ، حيث تشمل الأشعرية والمعتزلة الجهمية وغيرهم؛ ففيه إثبات الوجه لله سبحانه بقوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**»، وإثبات الكلام بقوله: «**وكلمته ألقاها**» وإثبات القول في قوله: «**قل لا إله إلا الله**».

● **الثالثة عشرة: إنَّك إذا عرفت حديث أنس؛ عـرفت أنَّ قوله في حديث عتبان: «فإنَّ الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»** أن ترك الشرك. وفي بعض النُّسخ: إذا ترك الشرك.

أي: أنَّ قـوله: «**حـرّم على النار من قـال: لا إله إلا الله يبـتغي بـذلك (يعني: ترك الشرك)**»، وليس مجرد قـولها باللسان؛ لأنَّ من ابتغى وجـه الله في هذا القول لا يمكن أن يُشرك أبداً.

● **الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون كل من عيسى ومحمد عبدى الله ورسوليه.**

عبدى: منصوب على أنه خبر كون؛ لأنَّ كون مصدر كان وتعمل عملها.

الخامسة عشرة: مَعْرِفَةُ اخْتِصَاصِ عِيسَى بكَوْنِهِ كَلِمَةَ اللهِ.

السادسة عشرة: مَعْرِفَةُ كَوْنِهِ رُوحاً مِنْهُ.

السابعة عشرة: مَعْرِفَةُ فَضْلِ الإِيْمانِ بِالجنَّة والنَّارِ.

الثامنة عشرة: مَعْرِفَةُ قَوْلِهِ «عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»

وعيسى ومحمد: اسم كون.

وتأمل الجمع من وجهين:

الأول: أنَّه جمع لكلٍ منهما بين العبودية والرسالة.

الثاني: أنه جمع بين الرجلين؛ فتبيَّن أن عيسى مثل محمد، وأنَّه عبد ورسول، وليس رباً ولا ابناً للرب - سبحانه ـ.

وقول المؤلف: «تأمل»؛ لأنَّ هذا يحتاج إلى تأمُّل.

قلت: والمراد الرد على اليهود والنصارى وغلاة المبتدعة في هذه الأمة كما تقدم.

● **الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.**

أي: أنَّ عيسى انفرد عن محمد في أصل الخِلْقة؛ فقد كان بكلمة، أمَّا محمد ﷺ؛ فقد خُلِقَ من ماء أبيه.

قلت: والكلمة كما تقدم هي «كن» وليس «هوكن».

● **السادسة عشرة: معرفة كونه روحاً منه.**

أي: أنَّ عيسى روح من الله، و«من» هنا بيانية أو للابتداء، وليست للتبعيض؛ أي: روح جاءت من قَبِل الله وليست بعضاً من الله، بل هي من جملة الأرواح المخلوقة.

● **السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنَّة والنار.**

لقوله في حديث عبادة: «**وأنَّ الجنة حق، والنار حق**»، والفضل أنه من أسباب دخول الجنة.

● **الثامنة عشرة: معرفة قوله: «على ما كان من العمل».**

أي: على ما كان من العمل الصالح ولو قلّ، أو على ما كان من العمل السيىء ولو

التاسعة عشرة: مَعْرِفَةُ أَنَّ المِيزانَ لَهُ كِفَّتَانِ.

العشرون: مَعْرِفَةُ ذِكْرِ الوَجْهِ.

كَثُرَ، بشرط أن لا يأتى بما ينافى التوحيد ويوجب الخلود فى النار، لكن لابد من العمل.

ولا يلزم استكمال العمل الصالح كما قالت المعتزلة والخوارج. ولم تُذكر أركان الإسلام هنا؛ لأنَّ منها ما يكفر الإنسان بتركه، ومنها ما لا يكفر، فإنَّ الصحيح أنَّه لا يكفر إلا بترك الشهادتين والصلاة، وإن كان روى عن الإمام أحمد أنَّ جميع أركان الإسلام يكفر بتركها؛ لكن الصحيح خلاف ذلك.

● **التاسعة عشرة: معرفة أنَّ الميزان له كفَّتان.**

أخذها المؤلف من قوله: «**لو أن السماوات.... إلخ، وضعت فى كفَّة ولا إله إلا الله فى كفَّة**».

والظاهر أن الذى فى الحديث تمثيل، يعنى أنَّ قوله: لا إله إلا الله أرجح من كل شىء، وليس فى الحديث أنَّ هذا الوزن فى الآخرة، وكأن المؤلف رحمه الله حصل عنده انتقال ذهنى؛ فانتقل ذهنه من هذا إلى ميزان الآخرة.

● **العشرون: معرفة ذكر الوجه.**

يعنى: وجه الله تعالى، وهو صفة من صفاته الخبرية الذاتية التى مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء؛ لأنَّ من صفات الله تعالى ما هو معنى محض، ومنه ما مسماه بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء، ولانقول بالنسبة لله تعالى أبعاض؛ لأننا نتحاشى كلمة التبعيض فى جانب الله تعالى.

قلت: وفى الحديث من الفوائد بخلاف ما تقدم.

(١) علو همة الأنبياء واجتهادهم فى العبادة حيث لم يكتف موسى بما أوحى إليه بل طلب المزيد فلهم فى الأخرة الحسنى وزيادة.

(٢) فضيلة من يطلب التميز فى أمور الآخرة.

(٣) إثبات العلو والفوقية لله تعالى وأنه فى السماء وذلك لقوله تعالى: ﴿**وعامرهن غيرى**﴾ ولم يقل ذلك فى الأرض.



٢ باب
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال ناصر السعدى[١]:- وهذا الباب تكميل للباب الذى قبله وتابع له ثم شرح ذلك **وبينه ابن عثيمين فقال[٢]** .

هذا الباب كالمتمم للباب الذى قبله؛ لأن الذى قبله: «باب فضل التوحيد وما يُكفّر من الذنوب»، فمِن فَضْلهِ هذا الفضل العظيم الذى يسعى إليه كل عاقل، وهو دخول الجنة بغير حساب.

قال الفقير: هذا الباب فى فضل التوحيد المطلق الكامل المحقق والذى قبله فى فضل من أتى بمطلق التوحيد فناسب أن يأتى بها على نسق واحد والله أعلم.

● **شرح الترجمة والتبويب ومناسبته للتوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ:[٣] من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب أى: ولا عذاب وتحقيق التوحيد هو معرفته، والاطلاع على حقيقته، والقيام بها علماً وعملاً، وحقيقة ذلك هو انجذاب الروح إلى الله محبة وخوفاً، وإنابة وتوكلاً، ودعاء وإخلاصاً وإجلالاً وهيبة، وتعظيماً وعبادة. وبالجملة فلا يكون فى قلبه شىء لغير الله، ولا إرادة لما حرم الله ولا كراهة لما أمر الله؟ وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله فإن الإله هو المألوه المعبود.

وما أحسن ما قال **ابن القيم:**

فلو أحد كن واحداً فى واحد ... أعنى سبيل الحق والإيمان

وذلك هو حقيقة الشهادتين، فمن قام بهما على هذا الوجه فهو من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب. أ. هـ

قال حامد بن محمد بن حسن [٤] بن محسن:- باب فى بيان أدلة من الكتاب والسنة تدل على أن من حقق التوحيد الذى أرسل الله به الرسل وألزم به العبيد وهو إقبال العبد على الله بقلبه وقالبه فى عبادته ودعائه وتوكله واستعانته ولا يساوى معه تعالى فى حبه ورجائه وخوفه لا إله إلا هو دخل الجنة بغير حساب أ. هـ

---

(١) القول السديد ٢٠.
(٢) القول المفيد/ ١٠٩.
(٣) تيسير العزيز الحميد ٧٠
(٤) فتح الله الحميد المجيد ١٥٢.

قال ناصر السعدي[1]: فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصى، وذلك بكمال الإخلاص لله فى الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافى لكماله وبالسلامة من البدع والمعاصى التى تكدر التوحيد وتمنع كماله وتعوقه عن حصول آثاره. فمن حقق التوحيد بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت إلى أوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على المعاصى؛ فهذا الذى يدخل الجنة بغير حساب، ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوؤ المنازل منها.

ومن أخص ما يدل على تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله، بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين فى شأن من شؤونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه وجميع أحواله كلها مقصوداً بها وجه الله متبعاً فيها رسول الله».

والناس فى هذا المقام العظيم درجات ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ وليس تحقيق التوحيد بالتمنى ولا بالدعاوى الخالية من الحقائق، ولا بالحلى العاطلة، وإنما ذلك بما وقر فى القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان وصدقته الأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة الجليلة.

فمن حقق التوحيد على هذا الوجه حصلت له جميع الفضائل المشار إليها فى الباب السابق بأكملها والله أعلم.

وقال نحوه ابن باز فى «التعليق»، وعبدالله بن جار الله فى «الجامع الفريد». أهـ.

قال ابن عثيمين[2]:

قوله: «من».

شرطية، وفعل الشرط: «حقق»، وجوابه: «دخل»، قوله: «بلا حساب»، أى: لا يُحاسب لا على المعاصى ولا على غيرها.

وتحقيق التوحيد: تخليصه من الشِّرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلم؛ فلا يمكن أن تحقق شيئاً قبل أن تعلمه، قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[3].

(١) القول السديد ٢٠، ٢٣.
(٢) القول المفيد (١/ ١٠٩، ١١٠).
(٣) محمد: ١٩.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

الثانى: الاعتقاد، فإذا علمت ولم تعتقد واستكبرت؛ لم تحقق التوحيد، قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٢) فما اعتقدوا انفراد الله بالألوهية.

الثالث: الانقياد، فإذا علمت واعتقدت ولم تنقد؛ لم تحقق التوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾(٣).

فإذا حصل هذا وحقق التوحيد؛ فإنَّ الجنَّة مضمونة له بغير حساب، ولا يحتاج أن نقول إن شاء الله؛ لأنَّ هذا حكاية حكم ثابت شرعاً، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله تعالى بذلك فى الترجمة دون أن يقول: إن شاء الله.

أمَّا بالنسبة للرجل المعيّن؛ فإننا نقول: إن شاء الله. أ هـ.

قال الفقير: «باب من حقق التوحيد دخل الجنةبغير حساب» أى من أتى بالتوحيد على الحقيقة بشروطه السبعة وقد خلص هذا التوحيد من شوائب الشرك والبدع والمعاصى فأنه ولابد دخل الجنة ولكن بفضيلة زائدة على أهل الديانة الذين ربما جاءوا بشرك أصغر أو بمعاصى هذه الفضيلة أنهم يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب وقد اكتفى المصنف رحمه الله بكلمة بغير حساب لأنها تقتضى أنه لايعذب أيضاً ذلك لأن النبى ﷺ قال: «من نوقش الحساب عذب» وهذا يقتضى أنه من لم يحاسب لم يعذب ولهذا استغنى باحدهما عن الآخر.

وهذ جزاؤهم فى الأخرة ولهم فضيلة أخرى فى الدنيا وهى كونهم صاروا أئمة ممكنين كما سيأتى مزيد شرح لهذا والله أعلم.



● مناسبة الآية للترجمة:

قال سليمان آل الشيخ(٤): مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالى وصف إبراهيم عليه السلام فى هذه الآية بهذه الصفات الجليلة التى هى أعلى درجات تحقيق التوحيد، ترغيباً فى اتباعه فى التوحيد، وتحقيق العبودية باتباع الأوامر، وترك النواهى،

---

(١) النحل: ١٢٠.
(٢) ص: ٥.
(٣) الصافات: ٣٦.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٧١.

فمن اتبعه فـى ذلك فإنه يدخل الجنة بغيـر حساب ولا عذاب كما يدخلها إبـراهيم عليه السلام.

وقال نحوه **عبدالله بن جار الله والقرعاوى** وقال الأخير[1] حيث دلت الآية الكريمة أن من اتصف بهذه الصفات الأربع فقد استحق الجنـة كما استحقها إبراهيم بغير حساب ولا عقاب.

قال الفقير: يبين المـصنف رحمـه الله من حقق التـوحيد، وكيف حـققه، وكيـفية تحقيقه، ومقـصود التحقيق، كل ذلك يبينـه بإراده لهذه الآية والتى تليـها والحديث كما سنوضح فى الشرح بعون الله فحينما يذكر إبـراهيم عليه السلام والآيات التى تنص على إمامته إنما يذكر المثل الأعـلى لكل مسلم والأسوة الحسنة التى تمثل فيـه تحقيق التوحيد؛ لبلوغه صفات الكـمال البشرى،وذلك بإتمامه كلمات الله لما ابتلاه الله بـها، فبذكره عليه السلام ـ تتضح الغاية، وهى تحقيق التوحيد، وكيف حققه، هذا الأسوة، وهذا الإمام كما وصفه الله تعالى ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ والأمة هو القدوة الذى يؤتم به، وقال ابن مسـعود (الأمة) : المعلم للخير،وسيأتـى تفسيره بأوسع من ذلك

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

الإعراب: [2].

﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ إن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو أى إبـراهيم وأمة خبر كان أى كان وحده أمة بذاتها لأنه اجتمعت فيه من صفات الكمال ما يجتمع فى أمة مصدق فيه قول أبى نواس:

ليـس علـــى الله بمستنكـر — أن يجمع العالم فى واحد

وقانتاً خبر ثان لكان ولله متعلقان بقانتاً وحنيفاً خبر ثالث. ولم يك: لم حرف نفى وقلـب وجزم ويك فعـل مضارع مجـزوم بلم وعلامـة جزمه السـكون وحذفت الـنون للتخفيف واسم يك مستتر تقديره هو ومن المشركين خبر يك.

● **ماجاء فى تفسيره الآية من السنة:**

---

(١) الحديد ٤٦ .

(٢) إعراب القران ٥/ ٣٨٢ و ٣٨٣.

أولاً: بالمرفوع:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يشهد له أمة إلا قبل الله شهادتهم. والأمة، الرجل فما فوقه إن الله يقول ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

ثانياً: بالموقوف:

وعن أبى العبيد أنـه جاء إلى عبدالله فقال من نسأل إذا لم نسألـك فكأن ابن مسعود رق له فقال أخبرنى عن الأمة قال الذى يعلم الناس الخير(٢)

وعن عبدالله بن مسعـود عن الأمة القانت قال الأمة معلم الخيـر، والقانت المطيع لله ورسوله(٣).

وعنه أن معاذا كان أمة قانـتا لله حنيفاً فقلت فى نفسى غلط أبـو عبدالرحمن إنما قال الله تعالى ان إبراهيم كان أمة قانتا لله، فقال تدرى ما الأمة وما القانت؟ قلت الله أعلم: قال: الأمة الذى يعـلم الخير والقانت المطـيع لله ولرسوله، وكذلك كان مـعاذ بن جبل كان يعلم الخير وكان مطيعا لله ولرسوله(٤).

وعنه عن عـبدالله بن مسعود أنه قال أن مـعاذ كان أمة قانتاً لله قال: فـقال رجل من أشجع يقال له فروة بـن نوفل: نسى إنما ذاك إبراهيم، قال: فقال عـبدالله: ما نسى إنما كنا نشـبهه بإبراهيم قال وسـئل عبد الله عن الامة فقـال معلم الخير والقانـت المطيع لله ورسوله(٥).

وعن مسروق قال: قرأت عند عبد الله هذه الآية ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ فقال كان معاذ أمة قانتـا قال هل تدرى ما الأمة؟ الأمة الذى يعلم النـاس الخير والقانت الذى يطيع الله ورسوله(٦)

وعنه أن معاذًا كان أمة قـانتا لله حنيفا ولـم يك من المشركين فـقال له رجل نسيت؟ قال: لا ولكنه شبيه إبراهيم والامة معلم الخير والقانت المطيع(٧).

عن ابن عباس فى قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ قال: كان على الإسلام ولم يكن

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر (٢/١٧٦) ونسبه لابن مردويه.

(٢، ٣) أخرجه ابن جرير فى تفسيره» (٧/١٢٨، ١٢٩).

(٤، ٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١٢٨، ١٢٩)

في زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [(١)].

عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال: إماماً في الخير ﴿قَانِتًا﴾ قال: مطيعا [(٢)].

عن ابن عمرو قال: صلى إبراهيم الظهر والعصر بعرفات ثم وقف، حتى اذا غابت الشمس دفع. ثم صلى المغرب والعشاء بجمع، ثم صلى به الفجر كأسرع ما يصلى أحد من المسلمين، ثم وقف به حتى إذا كان كأبطأ ما يصلى أحد من المسلمين، دفع ثم رمى الجمرة ثم ذبح وحلق، ثم أفاض به إلى البيت فطاف به فقال الله لنبيه ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ والله تعالى أعلم[(٣)].

ثالثاً: أقوال التابعين ومن بعدهم:

عن شهر بن حوشب قال: لم يبق في الأرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض ويخرج بركتها، إلا زمن إبراهيم فإنه كان وحده[(٤)].

عن قتادة في قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال: إمام هدى يقتدى به وتتبع سنته[(٥)].

عن مجاهد في قوله ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال: لسان صدق [(٦)].

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبري[(٧)]: يقول تعالى ذكره ان إبراهيم خليل الله كان معلم خير يأتم به أهل الهدى قانتاً يقول مطيعاً لله حنيفا يقول مستقيما على دين الإسلام ولم يك من المشركين يقول ولم يك يشرك بالله شيئاً فيكون من أولياء أهل الشرك به وهذا إعلام من الله تعالى أهل الشرك به من قريش أن إبراهيم منهم بريء وأنهم منه برآء. اهـ.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٥/ ١٧٦) ونسبه لابن أبي حاتم فانظره بتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه للبيهقي في «الشعب».

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٥/ ١٧٦، ١٧٧) ونسبه لابن جرير.

(٥) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٦) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٧) تفسير الطبري ٧/ ١٤/ ١٢٨.

قال الرازي:- اعلم إنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام بصفات:

الصفة الأولى: أنه كان أمة، وفي تفسيره وجوه:

الأول: أنه كان وحده أمة من الأمم لكماله في صفات الخير كقوله:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

الثاني: قال مجاهد: كان مؤمنا وحده، والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده أمة وكان رسول الله ﷺ يقول في زيد بن عمرو بن نفيل: «**يبعثه الله أمة وحده**»(١).

والثالث: أن يكون أمة فعلة مفعول كالرحلة والبغية، فالأمة هو الذي يؤتم به، ودليله قوله ﴿**إني جاعلك للناس إماما**﴾ وذكر هؤلاء الثلاثة ابن الجوزي.

الرابع: أنه عليه السلام هو السبب الذي لأجله جعلت أمته ممتازين عمن سواهم بالتوحيد والدين الحق، ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الأمة سماه الله تعالى بالأمة إطلاقا لاسم المسبب على السبب، وعن شهر بن حوشب لم تبق أرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض إلا زمن إبراهيم عليه السلام فإنه كان وحده. أهـ.

قال الرازي(٢):

أعلم أنه تعالى لما زيف في هذه السورة مذاهب المشركين في أشياء:

منها: قولهم باثبات الشركاء والأنداد لله تعالى، ومنها طعنهم في نبوة الأنبياء والرسل عليهم السلام، وقولهم: لو أرسل الله رسولا لكان ذلك الرسول من الملائكة.

ومنها: قولهم بتحليل أشياء حرمها الله، وتحريم أشياء أباحها الله تعالى، فلما بالغ في إبطال مذاهبم في هذه الأقوال، وكان إبراهيم عليه السلام رئيس الموحدين وقدوة الأصوليين، وهو الذي دعا الناس إلى التوحيد وإبطال الشرك وإلى الشرائع، والمشركون كانوا مفتخرين به معترفين بحسن طريقته مقرين بوجوب الاقتداء به، لا جرم ذكره الله تعالى في آخر هذه السورة، وحكى عنه طريقته في التوحيد ليصير ذلك حاملا لهؤلاء المشركين على الاقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك. أهـ.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ١٨٨)، والطبراني في «الكبير»(١/ ١٥١/ ٣٥٠) عن سعيد بن زيد به.

(٢) «التفسير الكبير» (١٠/ /١٣٧)

قال القرطبى(١): دعا عليه السلام مشركى العرب إلى ملة إبراهيم إذ كان أباهم وبانى البيت الذى به عزّهم. أهـ.

قال ابن كثير(٢): يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية. اهـ.

● **الفرق بين الأمة والإمام:**

قال ابن القيم: والفرق بين الأمة والإمام من وجهين:

أحدهما: أى الإمام كل مايؤتم بـه سواء بقصده وشعوره أولا، ومنه سمى الطريق إماما، كقوله تعالى ﴿**وإن كان أصحاب الأيكة لظلمين فانتقمنا مهم وإنهما لبإمام مبين**﴾ أى بطريق واضح لايخفى على السالك. ولايسمى الطريق أمة.

الثانى: أى الأمة فيه زيادة معنى وهو الذى جمع صفات الكمال فى العلم والعمل وهو الذى بقى فيه فرداً وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت فى غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها فى غيره ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى فيضم عند النطق بها وأتى بالتاء الدالة على الموحدة كالغرفة واللقمة، ومنه حديث «**إن زيد بن عمرو بن نقيل يبعث يوم القيامة أمة وحده**» فالضم والاجتماع لازم المعنى الأمة، و منه سميت الأمة التى هى آحاد الأمم، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو فى عصر واحد. أهـ(٣).

● **ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ(٤): أنه كان أُمَّة، أى قدوة وإماماً معلماً للخير، وإماماً يقتدى به. روى معناه عن ابن مسعود. وما كان كذلك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللذين بهما تنال الإمامة فى الدين. كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾(٥).

قال ابن عثيمين(٦):

---

(١) تفسير القرطبى (٦/٣٨١٣).

(٢) ابن كثير ٢/٥٧٢.

(٣) «مفتاح دار السعادة».

(٤) تيسير العزيز الحميد ٧١.

(٥) السجدة: ٢٤

(٦) القول المفيد ١/ ١١٠ - ١١٢.

قوله: ﴿أُمَّةً﴾.

أي: إماماً، وقد سبق أنَّ أمة تأتى فى القرآن على أربعة أوجه: إمام، ودهر، وجماعة، ودين.

وقوله: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.**

هذا ثناء من الله - سبحانه وتعالى - على إبراهيم بأنَّه إمام متبوع؛ لأنَّه أحد الرسل الكرام من أولى العزم، ثم إنَّه ﷺ قدوة فى أعماله وأفعاله وجهاده؛ فإنَّه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل، وألقى فى النار فصبر.

ثم ابتلاه الله - سبحانه وتعالى - بالأمر بذبح ابنه، وهو وحيده، وقد بلغ معه السعى (أى: شب وترعرع)؛ فليس كبيراً قد طابت النفس منه، ولا صغيراً لم تتعلق به النفس كثيراً، فصار على منتهى تعلّق النفس به.

ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله، قال الله تعالى عنه: **﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾**(١)، لم يحنث والده ويتمرد ويهرب، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه، وهذا من برّه بأبيه وطاعته لمولاه سبحانه وتعالى، وانظر إلى هذه القوة العظيمة مع الاعتماد على الله فى قوله: **﴿سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾**.

فالسين فى قوله: **﴿سَتَجِدُنِى﴾** تدل على التحقيق، وهو مع ذلك لم يعتمد على نفسه، بل استعان بالله فى قوله: **﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾**.

وامتثلا جميعاً وأسلما، وانقادا لله - عز وجل -، وتلَّه للجبين؛ أى: على الجبين، أى جبهته؛ لأجل أن يذبحه وهو لا يرى وجهه، فجاء الفرج من الله تعالى: **﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾**(٢)، ولا يصح ما ذكره بعضهم من أن السكين انقلبت، أو أن رقبته صارت حديداً، ونحو ذلك. أهـ.



(١) الصافات: ١٠٢.

(٢) الصافات: ١٠٤ - ١٠٥.

قوله: ﴿قانتاً﴾

● ماجاء فى تفسيرها من القرآن:

أتى القنوت فى القرآن على معانى:

(الأولى): الطاعة.

(والثانى): الإقرار بالعبادة.

(والثالث): الامساك عن الكلام فى الصلاة.

(الرابع) طول القيام فى الصلاة. قال تعالي: ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾[1] وقال ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[2].

(الخامس) : الخاشع.

ومدح الله القانتين مع جملة من الأخلاق الأخرة فقال: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[3]. وسيأتى من كلام ابن الجوزى وغيره.

● ماجاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن ابن مسعود: (القانت): المطيع لله ورسوله. وتقدم الأثر.

وعن ابن عباس: (القانت): مطيعاً. وتقدم الأثر أيضاً.

وروى ابن جرير عن مجاهد؛ قال: ﴿قانتاً﴾ مطيعاً لله فى الدنيا.

● ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال ابن جرير[4]: قال بعضهم: مطيعون. ثم ذكر الأثار فى ذلك عن قتادة ومجاهد وغيرهما ممن تقدم وقال بعضهم: الإقرار بالطاعة.

قال: وأولى معانى القنوت: الطاعة والاقرار لله عز وجل بالعبودية. اهـ مختصراً.

وقال البغوى[5]: (قانتاً لله) مطيعاً له. وقيل: قائماً بأوامر الله تعالى. اهـ.

---

(١) البقرة: ٢٣٨.
(٢) الزمر : ٩.
(٣) الأحزاب: ٣٥.
(٤) تفسير الطبرى (١/١/٢٠٤) (٧/٤/١٢٩).
(٥) معالم التنزيل (٣/٤٥٦)

وقال الزمخشري[1]: والقانت: القائم بما أمره الله. اهـ.

وقال ابن الجوزي[2]: المراد بالقنوت في تفسير قوله (كل له قانتون) ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه الطاعة. قاله ابن عباس، وابن جبير، وقتادة.

الثاني: أنه الإقرار بالعبادة. قاله عكرمة والسدي.

الثالث: القيام، قاله الحسن والربيع.

وقال في قوله (وقوموا لله قانتين) ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الطاعة، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد..

الثاني: أنه طول القيام في الصلاة قاله ابن عمر، والربيع بن أنس.

الثالث: أنه الإمساك عن الكلام في الصلاة، قاله زيد بن أرقم.

ثم قال ابن الجوزي في تفسير قوله (قانتاً) شرحنا «القنوت» في البقرة. اهـ.

وعنى بذلك ما قدمناه من كلامه.

قال الرازي[3]: **الصفة الثانية**: كونه قانتا لله والقانت بما أمره الله تعالى به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه كونه مطيعا لله كما تقدم أهـ.

قال ابن كثير: القانت: هوالخاشع.

قال ابن تيمية: (قانتاً) دوام الطاعة. **وقال ابن القيم**: والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

● ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[4]: أنه كان قانتاً لله، أي خاشعاً مطيعاً، دائماً على عبادته وطاعته كما قال شيخ الإسلام: القنوت في اللغة: دوام الطاعة. والمصلي إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت في ذلك كله. قال تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ**﴾ فجعله قانتاً في حال السجود والقيام. انتهى.

(١) الكشاف (٢/ ٣٤٨).

(٢) زاد المسير (١/ ١١٨، ٢٣٦) (٤/ ٣٨٤).

(٣) التفسير الكبير ١٠/ /١٣٧.

(٤) القول المفيد ١/ ١١٢.

فوصفه فى هاتين الصفتين بتحقيق العبودية فى نفسه أولاً: علماً وعملاً.

وثانياً: دعوة وتعليماً واقتداء به، وما كان يقتدى به إلا لعلمه به فى نفسه، ووصفه فى الثانية بالاستقامة على ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فتضمنت العلم والعمل والاستقامة والدعوة أهـ.

قال ابن عثيمين[1]: **قوله: ﴿قانتاً﴾** القنوت: دوام الطاعة، والاستمرار فيها على كل حال؛ فهو مطيع لله، ثابت على طاعته، مديم لها فى كل حال.

كما أنَّ ابنه محمداً ﷺ يذكر الله على كل أحيانه: إن قام ذكر الله، وإن جلس ذكره، وإن نام، وإن أكل، وإن قضى حاجته ذكر الله؛ فهو قانت آناء الليل والنهار. أهـ.



● **قوله [حنيفاً]**:

الإعراب: قال القرطبى: «فى تفسيره» قال الزجاج: هو حال من إبراهيم. اهـ.

●**ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:**

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

وقال: ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4].

وقال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[5].

وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[6].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٧١.
(٢) البقرة: ١٣٥.
(٣) آل عمران: ٦٧.
(٤) آل عمران: ٩٥.
(٥) البقرة: ١٣٠.
(٦) النساء: ١٢٥.

وقال ابن كثير: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك ياخاتم الرسل ﴿**وَاتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ كما قال ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾(١).

وكما قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾(٢).

وقال: ﴿**وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾(٣).

وقال: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾(٤).

وغير ذلك من الآيات التي تنصف على أن (الحنيف) هو المستقيم على دين الإسلام، وأن الله أمرنا بها وهى دين أبينا إبراهيم.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة:

عن ابن ابزى عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «**أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**».

وإذا أمسى قال مثل ذلك(٥).

وفى «صحيح مسلم»: «**وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم**»(٦).

وفى «صحيح البخارى»: «**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**»(٧).

وفى «المسند» «**بعثتُ بالحنيفية السمحة**»(٨).

وفى حديث التنوخى فى «المسند» «**هل لك فى الإسلام الحنيفية، ملة أبيك إبراهيم**»(٩).

والتنوخى هذا رسول هرقل إلى رسول الله. وهو صحابى.

---

(١) الأنعام: ١٦١. (٢) الروم: ٣٠.
(٣) يونس: ١٠٥. (٤) البينة: ٥.
(٥) أخرجه أحمد وأبو الشيخ وابن مردويه وكذا فى «الدر». (٣/ ١٢٣).
(٦) [صحيح] مسلم/ صفة الجنه (٦٢) وأحمد (٤/ ١٦٢).
(٧) [صحيح] البخارى فى الإيمان (٢٩) والترمذى فى المناقب (٣٢) وأحمد (١/ ٢٢٦).
(٨) أحمد (٥/ ٢٦٦) (٦/ ١١٦، ٢٢٢).
(٩) أحمد (٣/ ٤٤٢).

وفى صحيـح البخارى من حديث ابن عـمر: **أن زيد بن عمرو بن نفـيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقى عالماً من الـيهود فسألهم عن دينهم فقال: إنى لعلّى أن أدين دينكم فأخبرنى، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيـد: ما أفـر إلا من غضـب الله، ولا أحمـل من غـضب الله شيـئاً أبـداً، وأنى أستطيـعه؟ فهل تدلنى عـلى غيره؟ قال: ما أعـلمه إلا أن يكون حنيـفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانـياً، ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقى عالماً من النصارى. فذكر مثله.**

فلما رأى زيد قولهم فـى إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفـع يديه فقال: «اللهم إنى أشهد أنى على دين إبراهيم»[1].

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[2]: (حنيفاً) يقول: مستقيماً على دين الإسلام. اهـ.

قال البغوى[3]: وقيل: مخلصاً. اهـ.

وقال الزمخشرى[4]: المائل إلى ملة الإسلام، غير الزائل عنه. اهـ.

قال الرازى[5]: **الصفة الثالثة**: كونه حنيفاً والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام ميل الا يزول عنه.

قال ابن عبـاس رضى الله عنهما: إنه أول مـن اختتن وأقام مناسـك الحج وضحى، وهذه صفة الحنيفية أهـ.

قال القرطبى[6]: (حنيفا) مائلاً إلى الحق. أهـ.

وقال ابن كـثير[7]: (الحنيف) المـنحرف قصداً عن الـشرك إلى التوحيـد ولهذا قال **﴿ولم يكن من المشركين﴾**.

قال ابن القيم : الحنيف المقبل على الله المعرض عن كل ما سواه.

---

(١) [صحيح] البخارى فى مناقب الأنصارى (ح ٣٨٢٧).

(٢) تفسير الطبرى (٧/ ١٤/ ١٢٨).

(٣) معالم التنزيل (٣/ ٤٥٦).

(٤) الكشاف (٢/ ٣٤٨).

(٥) «التفسير الكبير» (١٠/ ٢٠ / ١٣٧)

(٦) تفسير القرطبى (٤/ ٢٤٦٤).

(٧) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٢).

● **ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[(١)]: انه كان حنيفاً؛ والحنف الميل، **أى مائلاً منحرفاً قصداً** عن الشرك كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿ **وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[(٢)]، قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**﴾[(٣)] الآيه أهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن[(٤)]: حنيفاً - أى مائلاً من الباطل الى الحق ومن الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الايمان ومن النفاق إلى الإخلاص ومن المعاصى إلى الطاعات، قال تعالى: ﴿**وإبراهيم الذى وفى**﴾.

قال ابن عثيمين[(٥)]:

قوله: ﴿**حَنِيفًا**﴾ أى: مائلاً عن الشرك، مجانباً لكل ما يخالف الطاعة؛ فوصف بالإِثبات والنفى؛ أى: بالوصفين الإِيجابى والسلبى أهـ.

قوله: «ولم يك من المشركين».

الإعراب: وبعض وجوه القراءة:

قال القرطبى[(٦)]: ﴿**وما أنا من المشركين**﴾ اسم (ما) وخبرها، وإذا وقفت قلت: (أنا) زدت الألف لبيان الحركة، وهى اللغة الفصيحة.

قال الأخفش: ومن العرب من يقول (أنَ). وقال الكسائى: ومن العرب من يقول (أنه) ثلاث لغات.

وفى الوصل ثلاث لغات أيضاً «أن تحذف الألف فى الإدراج، لأنها زائد لبيان الحركة فى الوقف ومن العرب من يثبت الألف فى الوصل كما قال الشاعر:

[أنا سيف العشرة فاعرفونى]

وهى لغة بعض بنى قيس وربيعة؛ عن الفراء. ومن العرب من يقول فى الوصل: (آن) فعلت مثل (عان) فعلت؛ حكاه الكسائى عن بعض قضاعة. اهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال الرازى[(٧)]: الصفة الرابعة: قوله ﴿**وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ معناه أنه كان من

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٧١)

(٢) «الأنعام»: (٧٩)

(٣) «الروم»: (٣٠)

(٤) «فتح الله الحميد المجيد» (١٥٥).

(٥) «القول المفيد» (١/ ١١٢).

(٦) تفسير القرطبى (٤/ ٢٤٦٤).

(٧) «التفسير الكبير» (١٠/ ٢٠ / ١٣٧ و ١٣٨)

الموحدين فى الصغر والكبر والذى يقرر كونه كذلك أن أكثـر همته عليه السلام كان فى تقرير علم الأصول فذكر دليل إثبات الصانع مع ملك زمـانه وهو قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ثم أبطل عبادة الأصنـام والكواكب بقوله﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ثم كسر تلك الأصنام حتى آل الأمر إلى أن القوه فى النار، ثم طلب من الله أن يريه كيفية إحياء الموتى ليـحصل له مزيد الـطمأنينة، ومـن وقف على علم الـقرآن علم أن إبراهيـم عليه السلام كان غارقا فى بحر التوحيد أهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[1]: أنه ما كان مـن المشركين. أى هو موحـد خالص من شوائب الشرك مطلقاً فنفى عنه الشرك على أبلغ وجوه النفى، بحيث لا ينسب إليه شرك وإن قل، تكـذيباً لكفار قـريش فى زعمهم أنـهم على ملة إبـراهيم عليه الـسلام. وقال المصنف فى الكلام على هذه الآية. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين ﴿حَنِيفًا﴾ لايميل يميناً ولا شمالاً كفعل العلماء المفتونين: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافاً لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين.

قلت ـ سليمان ـ: وهو من أحسن ما قيل فى تفسير هذه الآية. لكنه ينبه بالأدنى على الأعلى. وقـوله: لئلا يستـوحش تنبيه عـلى بعض معـنى الآية. وهو المنفـرد وحده فى الخير. وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عـباس فى قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾[2] كان على الإسلام ولم يكن فى زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ ولا تنافى بينه وبين كلام ابن مسعود المتقدم.

قال عبد الرحـمن آل الشيخ[3]: **يوضِّح** هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[4] أى على دينه مـن إخوانه المرسلين، قالـه ابن جرير رحمه الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[5] وذكر تعالى عن خليله عليه السلام أنه

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٧٢).
(٢) تقدم تخريجه فى تفسير الآية
(٣) «فتح المجيد» (٧٦)
(٤) و (٥) الممتحنة: ٤.

قال لأبيه آزر ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[1] فهذا هو تحقيقُ التوحيد. وهو البراءةُ من الشِّرك وأهله واعتزالُهم، والكفر بهم وعداوتهم وبُغْضُهم. فالله المستعان.

قال المصنف رحمه الله في هذه الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطَّريق من قِلَّة السَّالكين: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المُتْرَفين ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يميناً ولا شمالاً، كفعل العلماء المفتونين ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافاً لمن كثَّر سوادَهم وزعم أنه من المسلمين.

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على الإسلام. ولم يَكُ في زَمانه أحدٌ على الإسلام غيره» أهـ . كما تقدم [2]

قلت: ولا مُنَافاة بين هذا وبين ما تقدم: من أنه كان إماماً يقتدى به في الخير.

قال ابن باز[3]: أكد الكلام بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. بل فارقهم في عقيدته وأعماله وأقواله ومنزله، وهذا الذى ينبغي للمسلم أن يستقيم ويحقق توحيده، ولا يخالط المشركين ويكثر سوادهم. فلهذه الصفات حقق إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كمال التوحيد أهـ.

وفصل ذلك حامد بن محمد بن حسن بن محسن.

قال ابن عثيمين[4]: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

تأكيد، أى لم يكن مشركاً طول حياته؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام معصوماً عن الشرك، مع أن قومه كانوا مشركين، فوصفه الله بامتناعه عن الشرك استمراراً في قوله: ﴿حَنِيفًا﴾، وابتداءً في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، والدليل على ذلك: أنَّ الله جعله إماماً، ولا يجعل الله للناس إماماً من لم يحقق التوحيد أبداً.

---

(١) «مريم»: (٤٨ - ٤٩).

(٢) التعليق المفيد ٣٩.

(٣) القول المفيد ١/ ١١٣ - ١١٥.

(٤) تقدم تخريجه

ومن تأمل حال إبراهيم عليه السلام وما جرى عليه وجد أنه فى غاية ما يكون من مراتب الصبر، وفى غاية ما يكون من مراتب اليقين؛ لأنَّه لا يصبر على هذه الأمور العظيمة إلا من أيقن بالثواب، فمن عنده شك أو تردد لا يصبر على هذا؛ لأنَّ النفس لاتدع شيئاً إلا لما هو أحب إليها منه، ولا تحب شيئاً إلا ما ظنت فائدته، أو تيقنت.

ويجب أن نعلم أنَّ ثناء الله على أحد من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط، لكن يقصد منه أمران هامان:

الأول: محبة هذا الذى أثنى الله عليه خيراً، كما أنَّ من أثنى الله عليه شراً؛ فإننا نبغضه ونكرهه، فنحب إبراهيم عليه السلام؛ لأنه كان إماماً حنيفاً قانتاً لله ولم يكن من المشركين، ونكره قومه؛ لأنهم كانوا ضالين، ونحب الملائكة وإن كانوا من غير جنسنا؛ لأنهم قائمون بأمر الله، ونكره الشياطين؛ لأنَّهم عاصون لله وأعداء لنا ولله، ونكره أتباع الشياطين؛ لأنَّهم عاصون لله أيضاً وأعداء لله ولنا.

الثانى: أن نقتدى به فى هذه الصفات التى أثنى الله بها عليه؛ لأنَّها محل الثناء، ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها، قال تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾**[3].

وهذه مسألة مهمة؛ لأنَّ الإنسان أحياناً يغيب عن باله الغرض الأول، وهو محبة هذا الذى أثنى الله عليه خيراً، ولكن لاينبغى أن يغيب؛ لأنَّ الحب فى الله، والبغض فى الله من أوثق عرى الإيمان.

●**فائدة:**

قال ابن عثيمين: أبو إبراهيم مات على الكفر، والصواب الذى نعتقده أن اسمه آزر؛ كما قال الله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾**[4]، وقال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾**[5]؛ لأنَّه قال: **﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾**[6]، **﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾**[7]، وفى سورة إبراهيم قال: **﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾**[8]، ولكن فيما بعد تبرأ منه.

---

(١) يوسف: ١١١. (٢) الممتحنة: ٤. (٣) الممتحنة: ٦.
(٤) الأنعام: ٧٤. (٥) التوبة: ١١٤. (٦) مريم: ٤٧.
(٧) التوبة: ١١٤. (٨) ابراهيم: ٤٠.

أما نوح؛ فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِى مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾(١)، وهذا يدل على أن أبوى نوح كانا مُؤمنَين.

● **فائدة أخرى:**

قال ابن عثيمين: قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل: المغازى، والملاحم، والتفسير؛ فهذه الغالب فيها أنَّها تذكر بدون إسناد، ولهذا؛ فإن المفسرين يذكرون قصة آدم، ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾(٢)، وقليل منهم من ينكر القصة المكذوبة فى ذلك.

قلت: وستأتى القصة وتضعيف الحافظ ابن كثير لهافى باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾

فالقاعدة إذاً: أنه لا أحد يعلم عن الأمم السابقة شيئاً إلا من طريق الوحى، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٣).

فصل
فى جزاء الأئمة والمحسنين فى الدنيا

قال الفقير: ولما كان من طبائع الناس التى جبلت عليها حب العاجلة وتقديمها على الآخرة لاستبعادهم إياها أحياناً أولحبهم واستعجالهم الخير لما كان هذا حال الناس ناسب أن نذكر لهم جزاء الأئمة والمحسنين ممن حققوا التوحيد فى الدنيا كما بينت الآيات ثم بعد ذلك نذكر جزاءهم فى الآخرة كما بينت السنة. ذلك أن الله عزوجل لم يجعل جزاء الأئمة الجنة بغير حساب فقط بل جعل أى ـ الأمامة شرط من شروط الاستخلاف والتمكين وإقامة الدول وقد بين الله ذلك فى غير موضع فقال ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾(٤) وقد فعل الله تعالى ذلك بهم بعد ابتلائهم وصبرهم على هذا البلاء بربط الله على قلوبهم وتثبيته إياهم حتى يوقنوا بأن العاقبة لهم فبلغوا بذلك الأمامة فى الدين فأورثهم الله عرش فرعون كما

---

(١) نوح: ٢٨. (٢) الاعراف: ١٩٠. (٣) إبراهيم: ٩.
(٤) القصص: ٥، ٦

قال تعالى . ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾(١) وكما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(٢) فلما كملوا مقام الصبر ومقام اليقين نالوا كما نال إبراهيم من قبل مقام الأئمة وفى حق إبراهيم قال تعالى فى سورة البقرة ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(٣) ولقد عبر عن هذا كله صاحب«الظلال»عن كيفية إقامة المجتمع المسلم فقال: إن هذا المجتمع لايقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لاتدين بالعبودية لغير الله. لاتدين بالعبودية لغير الله فى الاعتقاد والتصور ولاتدين بالعبودية لغير الله فى العبادات والشعائر.. ولاتدين لغير الله فى النظام والشرائع.. ثم تأخذ بالفعل فى تنظيم حياتها كلها عن أساس هذه العبودية الخالصة.. تنقى ضمائرها من الاعتقاد فى ألوهية أحد غير الله - معه أومن دونه - وتنقى شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله - معه أو دونه وتنقى شرائعها من التلقى عن أحد غير الله - معه أو من دونه - عندئذ - وعندئذ فقط - تكون هذه الجماعة مسلمة، ويكون هذا المجتمع الذى أقامته مسلماً كذلك - فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله - على النحو الذى تقدم - فإنهم لايكونون مسلمين وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الاساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً .. ذلك أن القاعدة الأولى التى يقوم عليها الإسلام والتى يقوم عليها المجتمع الإسلامى هى شهادة أن لاإله إلاالله وأن محمداً رسول الله - لم تقم بشطريها - وإذن فإنه قبل التفكير فى إقامة نظام اجتماعى إسلامى وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام.. ينبغى أن يتجه الاهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله - فى أية صورة من صورها التى أسلفنا وأن يتجمع الأفراد الذين نخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله فى جماعة مسلمة . وهذه الجماعة التى خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله اعتقاداً وعبادة وشريعة هى التى ينشأ منها المجتمع المسلم وينضم إليها من يريد أن يعيش هذا المجتمع بعبادته وعقيدته

(١) الأعراف : ١٣٧

(٢) السجدة : ٢٤

(٣) البقرة : ١٢٤

وشريعته التى تتمثل فيها العبودية لله وحده ثم قال هكذا نشأت الجماعة المسلمة الأولى التى أقامت المجتمع المسلم الأول وهكذا تكون نـشأة كل جماعة مسلمة وهكذا يكون كل مجتمـع مسلم والحاصل أن الله عزوجل جـعل الإقامة فى الدين شرط فـى الاستخلاف وفى التمكين فقال «ونجعلهم أئمة» وهى المنة الأولى الـتى بها تأتى المنة الـثانية وهى الورث والتمكين وإقامة دولة المسلمين «نجعلهم الوارثين» وقد بين الله تعالى للناس كيف يكونوا أئمة بعرضه لهذا القدوة والمثل فى القرآن فقال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فبين سبحانـه وتعالى أنه لابد من الابتلاء والفتن حتى يـصل العبد إلى درجة الأئمة بصبره على ذلك والابتلاء والفتن تأتى بمعنى الأوامر والنواهى كما فى قوله تعالى ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾(١) وقوله تعالى ـ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(٢) أى لايؤمر ولايـنهى كما قال ذلك الشافـعى وفى الكلمات التى ابتـلى بها إبراهيم قـال ابن كثير كلـمات أى بشرائع وأوامر ونواهـى فهذه شروط الأمامة الابـتلاء والصبر عـليه وعدم الجزع مـن حكم الله واليقيـن بأن العاقبة للمـتقين وكذلك التمـكين لذا قال تعالى فى بـنى إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ وقال ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ ولقد بين المفسرون الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم عليه السلام فقال ابن عباس الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم فراقه قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم ومحاجته نمروذ فى الله حين وقفه على مـا وقفه علـيه من خطر الأمـر الذى فيه خـلافه، وصبره علـى قذفه إياه فـى النار ليحرقوه فى الله عـلى هول ذلك من أمرهم والهجرة بعد ذلـك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضيافة والصـبر عليها بنفسه وماله وماابتلى به من ذبح ابنه حين أمره بذبحـه فلمامضى على ذلك من الله كله واخلصه للبلاء ﴿قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣) على ماكان من خلاف الناس وفراقهم(٤)

وعنه أيضاً ابتلاه الله بالمناسك وقيل غير ذلك فأتمهن أى قام بهن ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾(٥) فنال بـذلك الإمامة فى الـدين وحقق كذلـك مقام اليقيـن المجيـد بالقيادة وإذعانه لشرع رب العالمين وخلع شرائع وقوانين المضلين فقال تعالى﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وهذه كلـمات الله لاتبدل فمـن وفى بهذا الشـرط وفى الله له

(١) العنكبوت : ٢ (٢) القيامة : ٣ (٣) البقرة: ١٣١
(٤) ابن كثير١/ ١٦٥ (٥) النجم :٣٧

بالثانى كما قال تعالــى فى حق يوسف عليه السلام ﴿ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١) فبعد الإحســان ـ وهذا تعبير آخر عن درجة الأئــمة فبعد بلوغها يأتى الحكم ويأتــى الاستخلاف ثم قال إبراهيم ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أى المشركين غير الخلص الذين لم يبلغوا درجة المحسنين وكانوا فى ريب من وعد رب العالمين وهذه مشيئته الشرعية ألا يكــون اماماً ظالماً أو مشركاً كمابين سعيد بن جبير قال المراد به المشرك لايكون أماماً ظالماً لايكون إماماً مشركاً ويؤيده قوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢) فمن رضــى بغير شرع الله شرع ورضــى بغير أمر الله أمــر فقد دخله من الظــلم والشرك بقدر هذا الرضى وتــخلف عن الإمامة بهذا الــقدر وكذلك من شك أو لم يصبر علــى بلاء الله عزوجل يكون قد نقص من أمامتــه فى الدين بقدر هذا الريب وبقدر هذا الجزع وعدم الصبر فيكون له حصة من الإمامة فى الدين بقدر ما صبر على بلاء الله الذى هــو شرعه وأمره ونهيه ويكون لــه مطلق الإمامة الدينيــة الشرعية إذا أتى بمطلق الصبر واليــقين فالمطلق للمطلق والحصة للحصــة. هذا فى أمر الدنيا وفى أمر الآخرة كذلك يحــاسب بقدر ما أتى من جزع وعــدم صبر وقلة يقين أوشــك. وامتثل الرسول ﷺ لقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فكان يقتدى به ﷺ فى الوصول إلى الإمامة بنــفسه ثم فى منهجه مع أصحابه فابــتلى هو ﷺ يمثل ما ابتلى به إبراهيم فصبر وأيقين وكان لنافيه الأسوة الحسنة وكذلك الصحابة مستهم الباساء والضراء وزلــزلوا وأذوا فى الله وتركــوا أموالهم وأولادهم وذويــهم مهاجــرين إلى الله عزوجل فــبلغوا من الــصبر على بلاء الله ومــن اليقين بــوعد الله منازل الأئمــة فمن الله عليهــم بالتمكين والاستــخلاف وجعلهم الوارثيــن ولعل هذا من حكم الإتيــان بحديث السبعيــن ألف الذين يدخلون الجنــة بغير حساب لأنهم اقــتدوا بالنبى الذى اقــتدى بأبيه إبراهيم فحقق الجميع أعلى مراتب التوحيد ودخول الجنة بغيرحساب .

فالأمة :(الغربــاء) و(السواد الأعظم)، و(الطائفــة المنصورة)،و(الفرقة النــاجية)، أهل العلم

قال الإمام أحمد: أبو حمزة السكرى جماعة.

وهذه كلمات الله لاتــبديل لها فى كل عصــر ومصر وما أرى تخلف هذه الــسنة عنا

(١) يوسف : ٢٢

(٢) لقمان :١٣

وحرماننا من هـذه المنة إلا أننا لم نفى بالشرط ولـم نحقق التوحيد فينـا بمعنى أن نرفع شعار الحكم لله عزوجل فـى كل مناحى الحياة ولا نشترى بذلك ثمـناً قليلاً من عرض زائل أو منصب تافه ونصبر على ذلك كله موقنين بأن العاقبة للمتقين.

أرى أننا فعلا لم نـبتلى بلاء الأولين وإن ابتليـنا لم نصبر صبرهم فلـهذا مازلنا فى استضعاف وهوان إلى أن نفى للرحـمن عزوجل بهذا الشرط والله الموفق لا رب سواه. وهو الحنان المنان.



سؤال: ما الفرق بين النصر والتمكين

الجـواب الفـرق الأول: النصر بـخلاف التمكيـن لأنه لايلزم أن يكون مـع النصر تمكين، ولايلـزم من النصر نفسه تمـكين قال ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾

فحبيب النجار ـ مؤمن يس ـ انتصر لأنـه مات مسلماً، ودخل الجنة، ولـم يمكن له. وكذا قصة أصحاب الأخـدود ولأن الله وعد المؤمنين بذلك كما تـقدم وجعل ذلك حق عليه لهم بـقوله تعالى ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ لكن النصر قد يـتبعه تمكين أحياناً قال تعالى ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ**﴾ الآية فهذا نصر تبعه تمكين فى المدينة.

الفرق الثانى: النصر قد يكون عـلى مستوى فردى، أما التمكين فيـكون على مستوى الأمة أو الجماعة، أو الطائفة.

سؤال: هل المطلوب النصر أم التمكين؟

الجواب: التـمكين لأنـه فى هذه الحالـة يدخل النـاس فى الإسلام فى أمـن وأمان، ونخرجهـم من عبادة غير الله إلى عـبادة الله. والدليل قولـه تعالى ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾ وفى الحديث «بعثت بالسيف بين يدى الساعة ليعبد الله وحده وجعل رزقى تحـت ظل «رمحى» (١)، (٢). فالإمامة وسيلة إلـى غاية والغاية هى الإرث والتمكين للدين.

---

(١) فى المسند

(٢) قال ربعى: ابتعثنا الله لـنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد فـالرسول بُعث بالسيف ولم يشهره إلا بعد ١٣ سنة بعد أن أذن الله له فلا بد وأن يكون دليل شرعى للقتال

الدليل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية

ذلك حتى يُقام الدين لأن الدين لايُقام فى حالة استضعاف.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ فلو أحس الناس بالأمن لدخلوا فى دين الله أفواجاً ولا لتزموا بدين الله أفواجاً فالإمامة ليست مطلوبة لدخول الجنة بغير حساب فقط، وإن كنا حولها ندندن. بل لإقامة دين الله فى الأرض الذى لايقوم إلا بالتمكين ولاتمكين إلا بالأئمة.

فائدة: أبو جهل ربط سمية من رجليها وهددها بقذفها فى حيائها وكان الصحابة يمرون عليها ومعهم سلاحهم ولايفعلون أى شىء فى أبى جهل فلو ارتبطت دعوة النبى ﷺ بالسلاح وبالقتل لكان ذلك أكبر شىء للصد عن دعوته ﷺ.

وقد كان النبى ﷺ يصلى فى الكعبة فيقول أحد الكفار من يأتى بسلا جزور فلان ويوضع على ظهره وهو يصلى . لكن الصحابة كان بلاؤهم أن يصبروا وليس أن يعملوا عمليات من شأنها أن تصد عن الدعوة وتعوق خطوات التمكين.

فهدفنا ليس نصر، ولكن تمكين وإرث.

والذى يفعل هذه العمليات هو مخطئ عندنا؛ لأن لم يراع المفاسد والمصالح التى اعتبرها رسول الله ﷺ بقوله «حتى لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» وكذلك يتحدث الناس الآن أننا نقتل مسلمين أو معاهدين فالواجب علينا السعى إلى التمكين، لا إلى النصر، وقد يأثم من قام بنصر فردى محدود يعوق خطوات التمكين.

سؤال: كيف نمكن ؟ وما السبيل إلى التمكين؟

هو تربية الأئمة: أى نتربى نحن أن نكون هكذا، وكذا نربى غيرنا لا نبعبع بها ولكن تكون معنا ونتصورها (١).

---

(١) إذن دورنا هو صناعة الأئمة فالتربية صناعةلها اصول وأسس ولها تدرج مسلم ـ متعلم ـ داعى ـ ـ معلم ـ يصل إلى ذروة سنام الإسلام يصبح مجاهد . هذه هى الشخصية الكاملة التى قاربت الكمال البشرى قال ﷺ «والعالم والمتعلم شريكان فى الأجر» وماسوى ذلك فهمج لاخير فيهم» وهذا هو الإمام الربانى الذى تعلم وعمل وعلم كما تقدم وهؤلاء هم المجاهدون فى وقت الجهاد المعلمون المربون فى وقت الاعداد : فابن قدامة المقدسى وعبدالغنى المقدسى الذين كانوا بجانب صلاح الدين فى فتح بيت المقدس كانوا مجاهدين وكانوا أئمة وكذا ابن تيمية ألب الناس على التتار ووقت الجهاد كانوا على رؤوس المجاهدين ووقت السلم كانوا على رؤوس المعلمين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

فلن تقوم قائمة للمسلمين ولايأتيهم وعد الله إلا أن يكملوا هذين المقامين - الصبر واليقين - ويلتزموا بالإيمان والعمل الصالح.

كما قال تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

فلهم الإرث والتمكين، ولهم الأمن والاهتداء بشرط عدم الشرك بالله كما قال تعالى : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي : المشركين.

● **فلماذا نريد الأمن؟**

الجواب: نطلب الأمن لوجوه:

الأول: لكى نأمن فى عبادتنا، فنعبد الله بأمن، ولانطلب الأمن لكى نتكاسل أو ننام أو لنسرف على أنفسنا، بل للعبادة فى أمن واطمئنان.

الثانى: نطلب الأمن لإقامة ماجاء به الكتاب العزيز ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

● **وهل طلب الأمن غاية أم وسيلة؟**

الجواب: أنت لاتطلب الأمن لذاته، وإنما تطلبه لتحقيق الغاية التى ما خلقت إلا لاجلها ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾وهذا الدين لايقام وأنت خائف فزع قلق، إنما يقام بأمن واطمئنان، وهذا الأمن لايحصل عليه إلا من بلغ درجة الأئمة.

وإذا أنعم الله على العبد بالأمن لايوفى شكرها إلا بالطاعة والعبادة الدائمة، كماقال الله تعالى :﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ ولما ثبت فى الصحيح عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألاتدعولنا، فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لايخاف إلا الله، والذئب على غنمه،**

وكلنكم تستعجلون»(1).

فالواجب أن نوفى شكر النعمة التى نحن فيها بالعبادة الدائمة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى البيت والطريق والعمل و....إلخ.

ولما روى عن النبى ﷺ**«من أصبح معافى فى بدنه، آمناً فى سربه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»**(2).

فالخلاصة: أن الأمن الذى وعد الله به فى الآية **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** بعد الاستخلاف سيكون ولابد من حدوث ذلك كله بشروط الآية (الإيمان - عمل الصالحات) فبعد الإرث والتمكين يأتى الأمن، وهذا الأمن يقتضى الشك، وهذا الشكر لايكون إلا بإخلاص الطاعة والعبادة لله وحده لاشريك له، بل والدوام عليها. كما قال تعالى **﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾**.

سؤال: هل نحن الآن على أعتاب هذه الإمامة، وهل حققنا منها شيء.. وهل وقفنا على أول الدرج أم نحن تحت الدرج؟ وهل نحن رؤوس أم ذيول؟.

بين النبى ﷺ أن الإمام لابد أن يكون رأساً ولا يكون إمَّعةً لما أخرج الترمذى من حديث حذيفة مرفوعاً« **لاتكونوا إمعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»**(3).

أى: إن أحسن الناس يحسن معهم، وإن أساؤوا أساء معهم، فهذا هو الإمعة، فيجب أن نعمل لله، لانعمل لأحد من لمخلوقين ، ولا اتباعاً لأحد أو تبعاً لأحد، بل نتبع ماجاء به الرسول ولانقلد ديننا الرجال.

فالإمام (الرأس) لايكون ذنباً لأحد، ولايقلد أحداً تقليداً أعمى، بل يعلم ويعمل بحق وتحركاته تكون من رأسه بالحق.

فالإمام لابد وأن يكون على علم (على الحق)، لما ثبت عنه ﷺ فى الصحيح من

---

(1) [صحيح] أخرجه البخارى، والنسائى، وأبو داود، وأحمد، والحميدى، من حديث خباب.

(2) [ضعيف] أخرجه الترمذى (2346)وابن ماجه (4141) والبخارى فى الأدب المفرد (303).

وانظر تخريجنا «للطب النبوى» للذهبى وهو ضعيف فيه سلمة بن عبيد الله بن محصن فجهول ولايتابع على حديثه.

(3) أخرجه الترمذى (2007) وقال: حسن غريب.

حديث معاوية قال قال ﷺ «**من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين والله المعطى وأنا القاسم، ولاتزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم**» وفى رواية : «**ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون**»(١).

ففى أول الحديث : «**من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين**» وفى آخره: «**لاتزال .. ظاهرون**» فالجمع بين أول الحديث وآخرون أنهم هم المصلحون إذا فسد الناس، وهم أهل العلم، وهم الغرباء.

كما فى حديث حذيفة فى الصحيح «كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى»(٢). وفى بعض روايته قال: «**ياحذيفة تعلم كتاب الله واتبع مافيه**» (٣) ثلاثاً.

وفى حديث العرباض بن سارية مرفوعاً «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة.. فعليكم بسنتى، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ**»(٤).

وفى حديث أبى هريرة مرفوعاً: «**كيف بك ياعبدالله بن عمر إذا بقيت فى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا فصاروا هكذا** وشبك بين أصابعه، قال: فما تأمرنى؟ **قال : عليك بخاصتك ودع عنك عوامهم**»(٥). أصله فى الصحيح إلى قوله «**من الناس**» (٦).

وعند أحمد «**تأخذ ما تعرف وتدع ما تنكر، وتقبل على خاصتك، وتدع عوامهم**». فقوله : «**وتدع ماتنكر**» أى : مما خالف الحق مما علمته.

وقال ابن مسعود فى ذم التقليد: **ألا لايقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة فى الشر**»(٧).

---

(١) **[صحيح]** أخرجه البخارى (ح ٣١١٦).

(٢) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى، ومسلم، وانظر كتابى «كيف الأمر إن لم تكن جماعة» يسر الله طبعه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٤٦)، وأبو نعيم (١/ ٢٧١)

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٦٧)،وابن ماجه (٤٢، ٤٣)

وأنظر رياض الصالحين بتخريجنا(١٥٩).

(٥) أخرجه الطبرى وصححه ابن حبان. كذا قال الحافظ فى الفتح (١٣/ ٤٢)

(٦) **[صحيح]** أخرجه البخارى (ح٠٨٠)

(٧) أخرجه ابن عبدالبر فى جامعه

وقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾(1).

قال الغـزالى : من عادة ضعفاء الـعقول أنهم يعرفون الحق بالـرجال، والعاقل من اقتدى بأمير المؤمنين على بن أبى طـالب:« لاتعرف الحق بالحق بالرجال، ولكن أعرف الحق تعرف أهله»(*).

قال الشوكانى عن التقليد المذموم: اتباع من ليس بحجة بغير حجة.

فهذا هو التقليد الذى أجمعت الأمة على حرمته.

وسيأتى ـ إن شا الله ـ بـحث مطول فى التقلـيد فى الباب السابع والـثلاثين من هذا الكتاب.

أكر دليل على أننا لم نخرج من الإمعيه والـتعصب للمذاهب والاحزاب ولو بالباطل هو أننا مازلنا نقلد.

فمن أسباب أننا لم نخرج من حالة الاستضعاف هـو التقليد الأعمى فالتقليد الأعمى الذى أجمعت الأمة على حرمته هو اتباع من ليس بحجة بغير حجة.

وهذا الموضوع الناس فيه طرفان ووسط:

(أ) طرف يقبح العلماء بالكلية بل فى بعض الأحيان يكفرونهم.

(ب) طرف يعظمً العلماء بالكلية ويجعل كلامهم كالدليل.

(جـ) طرف وسط: نحتـرمهم ونقدرهم ونعتد بأفهـامهم المستنبطة من الـدليل لقوله ﷺ: **«فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدون...» أى فَهْمُ الخلفاء لها وعملهم بها.**

قول: [وقال: **﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾**].

● مناسبة الآية للترجمة:

قال سليمان آل الشيخ(**):

مناسبة الآيـة للترجمة من جهة أن الله تعـالى وصف المؤمنين السابقـين إلى الجنات بصفات، أعظمها الـثناء عليهم بأنهم بربهم لايشركون، أى شـيئاً من الشرك فى وقت من الأوقات فإن الإيمان النافع مطلقاً لا يوجد إلا بترك الشرك مطلقاً. ولما كان المؤمن قد يعرض لـه ما يقدح فى إيـمانه من شرك جـلى أو خفى، نـفى عنهم ذلـك، ومن كان كذلك فقد بلغ من تحقيق التوحيد النـهاية، وفاز بأعظم التجارة، ودخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

(*) «المنقذ من الضلال والموصل إلى ذى العزة والجلال»

(1) المؤمنون 59

(**) تيسر العزيز الحميد.

قال عبد الرحمن الشيخ[1]: وصف المؤمنين السَّابقين إلى الجنة، فأثْنَى عليهم بالصِّفات التى أعظمُها: أنهم بربهم لايشركون. ولما كان المرءُ قد يَعرض له ما يَقْدحُ فى إسلامه: من شرك جَلىٍّ أو خفى نفى ذلك عنهم، وهذا هو تحقيق التَّوحيد، الذى حَسُنت به أعمالهم، وكملت ونفعتهم.

قلت ـ عبد الرحمن آل الشيخ ـ: (**قوله: «حَسُنَت وكَمُلَت»**) هذا باعتبار سلامتهم من الشِّرك الأصغر، وأمَّا الشِّرك الأكبر فلا يقال فى تركه ذلك، فتدبَّر. ولو قال الشَّارح: صَحَّت، لكان أقوم أهـ.

قال ابن باز[2]: هذا صفات أهل التوحيد والإيمان أنهم كانوا موحدين لله مخلصين له خالصين من الشرك مع عبادتهم وخوفهم لله وهذا كمال التوحيد.

وقال عبد الله بن جار الله إن هؤلاء المؤمنين دخلوا الجنة بسبب تخليصهم التوحيد والسلامة من الشرك[3]. اهـ.

وقال نحو ذلك القرعاوى فقال[4]: مناسبة الآيه للباب: حيث دلت الآية الكريمة على أن من اتصف بهذه الصفات وطهَّر نفسه من الشرك المحبط من الأعمال فقد استوجب الجنه بلا حساب ولا عذاب لأنه بذلك قد حقق التوحيد وهذا جزاء من حققه.

قال ابن عثيمين[5]: هذه الآية سبقها آية، وهى قوله: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾**[6].

لكن المؤلف ذكر الشاهد. و**﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم ﴾**؛ أى: من خوفهم منه على علم، و**﴿مُّشْفِقُونَ ﴾**؛ أى: خائفون من عذابه إن خالفوه.

فالمعاصى بالمعنى الأعمّ - كما سبق - شرك؛ لأنَّها صادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قال الله تعالى: **﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾**[7].

(١) فتح المجيد ٧٧.
(٢) التعليق المفيد ٤٠.
(٣) الجامع الفريد ٢١.
(٤) الجديد ٤٨.
(٥) القول المفيد ١/١١٦ و ١١٧.
(٦) المؤمنون: ٤.
(٧) الفرقان: ٤٣.

أما بالنسبة للمعنى الأخص؛ فيقسمها العلماء قسمين:

١ - شرك. ٢ - فسوق.

وقوله: ﴿لايشركون﴾.

يُراد به الشرك بالمعنى الأعم؛ إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلاَّ باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألاَّ تقع منهم المعاصي؛ لأنَّ كل ابن آدم خطَّاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا؛ فإنَّهم يتوبون ولا يستمرون عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١). اهـ.

● لماذا اختار المصنف هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ مع أن هناك فى القرآن آيات كثيرة تنفى الشرك عن المؤمنين الموحدين الذين كمل توحيدهم؟.

قال الفقير: الجواب: بالنظر إلى سياق هذه الآية فى الآيات قبلها وبعدها يتضح لماذا اختارها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أى مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكر ربهم.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية وايقنوا أن كل ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو إن كان امراً فمما يحبه ويرضاه وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه وإن كان خيراً فهو حق.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أى لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أن لا إله إلا هو أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا نظير له ولا كفء له.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أى يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا. قد قصروا فى القيام بشرط الإعطاء وهذا من باب الاشفاق والاحتياط.



(١) آل عمران: ١٣٥.

● ماجاء فى تفسير الآية من السنة:

عن عائشة قالت: قلت يارسول الله قوله الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله؟

قال: «لا، ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلى، وهو مع ذلك يخاف الله أن لايقبل منه»(١).

وعن الحسن قال: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة، ثم تلا ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ إلى قوله ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ قال المنافق: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾(٢).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى(٣): ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: والذين يخلصون لربهم عبادتهم، فلا يجعلون له فيها لغيره شركاً، كالوثن ولا لصنم، ولا يراؤن بها أحداً من خلقه، ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصاً، وإياه يقصدون بالطاعة والعبادة دون كل شىء سواه. اهـ.

وقال الرازى(٤): ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفى الشريك لله تعالى لأن ذلك داخل فى قوله ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ بل المراد منه نفى الشرك الخفى وهو أن يكون مخلصاً فى العبادة لايقدم عليها إلا لوجه الله تعالى وطلب رضوانه والله أعلم. اهـ.

وقال القرطبى(٥): قال الحسن: يؤتون الإخلاص، ويخافون ألا يقبل منهم. اهـ.

---

(١) أخرجه الفريابى وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجه وابن أبى الدنيا فى «نعت الخائفين» وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى «الشعب». كذا فى «الدر» (٥/ ٢١).

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم. كما فى «الدر» (٥/ ٢١).

(٣) تفسير الطبرى (٩/ ١٨/ ٢٤، ٢٥).

(٤) التفسير الكبير (١٢/ ٢٣/ ١٠٨).

(٥) تفسير القرطبى (٧/ ٤٥٢٤).

وقال ابن كثير[1]: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أي لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه، ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة، ولا ولداً، وأنه لانظير له، ولا كفء له. اهـ.

وقال الشوكاني[2]: لما نفى سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وآجلاً فوضعهم بصفات أربع:

الأول: قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾.

والصفة الثانية: قوله ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

والصفة الثالثة: قوله ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أي يتركون الشرك تركاً كلياً ظاهراً وباطناً.

والصفة الرابعة: قوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

اهـ مختصراً.

● ماجاء في الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

تقدم قول سليمان آل الشيخ فيها في مناسبتها للباب، وكذلك قول عبد الرحمن آل الشيخ وابن باز وابن عثيمين.

وقال حامد بن محمد[3]: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ فكل من لا يشرك بربه فالآية تشمله.

وقال عبد الله بن جار الله[4]: أي لا يعبدون مع الله غيره، بل يوحدونه ويفردونه بالعبادة ويعلمون أنه لا إله إلا هو. اهـ.



(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣٧).

(٢) فتح القدير (٣/ ٤٨٥).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٥٨).

(٤) الجامع الفريد (٢١).

وعَنْ حُصَيْنِ بـنِ عَبْدِ الرَّحمنِ قَالَ: كُنْتُ عـنْدَ سَعيد بنِ جُبَيْـر ، فقال: أَيُّكُم رَاى الكَـوكَبَ الَّذى انقَـضَّ البَارِحَـةَ؟ فَقُلْتُ: أنـاَ ثم قُلْـتُ أَمَا إِنِّى لَمْ أَكُـنْ فى صَلاَةٍ: وَلَكِنِّـى لُدِغْتُ. قَال فماذا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: استـرقيت. قَالَ: فَمَا حَـمَلَكَ عَلَى ذَلِـكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثُ حَـدَّثَنَاهُ الشعبىّ، قال : وما حدثـكم الشعبى؟ قلت حدثنا عن بريـده بن حصيب (الأسلمى) أنه قَالَ: «لاَ رُقْيَـةَ إِلاَّ من عَيْنٍ أوحُمَةٍ» قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَـهَى إِلى مَا سَمِعَ، وَلكنْ حَدَّثَنَا ابنُ عـبَّاسٍ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُـرِضَتْ عَلَـىَّ الأُمَمَ، فَـرَأَيْتُ النَّبِىَّ وَمَعَـهُ الرَّهْطُ، وَالـنَّبِـىَّ مَعَهُ الـرَّجُلَ والرَّجُلاَنِ ، وَالنَّبِـىَّ وَلَيس مَعَهُ أَحَدٌ، إِذ رُفِعَ لِى سَـوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنتُ أَنَّـهُم أُمَّتى، فَقِيـلَ لِى إِلى الأفق الأخـر فانا سواد عظـيم هَذَا مُوسَى وَقَـومُهُ ولكن انـظر إلى الأفقُ فَنَظَرتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيـلَ لِى أنظر إلى الأفق الأخر فإذا سواد عظيم هَذه أُمَّتُكَ، وَمَعَهُـم سَبْعُونَ أَلـفاً يَدخُلُـونَ الجَنَّةَ بِغَـيرِ حِسَابٍ وَلاَ عَـذَابٍ.. ثُمَّ نَهضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِى أُولئـكَ الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب فَقَـالَ بَعْضَهُـمْ: فَلَعَلَّهُـمُ الَّذِينَ صَحِبُـوا رَسولَ الله ﷺ قالَ بَعْـضُهُم: فَلَعَلَّهُـمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فى الإِسْلاَمِ فَلَمْ يُـشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا.. وذَكَرُوا أَشْـيَاءَ فَخَرَجَ علـيهم رَسُـولُ الله ﷺ فَأَخْبَرُوه فَقَـالَ: «هُمُ الذيـن لايرقـونَ ولاَ يَستَـرقُونَ وَلاَ يَكتَـوُونَ. وَلاَ يَتَطَيَّـرُونَ. وعَلَى رَبِّهِـم يَتوكَّلُونَ» فَـقَامَ عُكَّاشَـةُ بنُ مِحصَـنٍ فَقَال يارسول الله ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِى مِنْهُم. فَقَالَ: «أَنتَ مِنهُم» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَال: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِى مِنهُمْ فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةَ»(١).

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «الطـب»/ باب: من اكتوى أو كوى غيره (١٠/ ١٦٣ - ١٦٤/ح ٥٧٠٥ - الفتح) ومسلم فى «الإيـمان» / باب: الدليل على دخول الجنه طوائف من المسلـمين بغير حساب ولا عذاب (١/ ٣/ ٩٤) الـنووى وأحمد فـى «مسنـده» (١/ ٢٧١) وابن حبـان فى «صحيـحه» (٨/ ١١٤/ح ٦٣٩٦ - الإحسان). من طريق: سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وفى الباب عن ابن مسعود وعقبه بن عامر وعمران بن حصين.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ٧٥) وفتح المجيد (ح ٩٦)بتخريجنا.

وهذا لفظ مسلم وقد رواه البخارى عن حصين قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: حدثنى ابن عباس قال: قال النبىَّ - ﷺ -.

عُرِضَت عليَّ الأمم، فأخذ النبى يمرُّ معه الأمَّة، والنبى يمر معه النفر والنبىُّ يمرُّ معه العشرة. والنبىُّ يمرُّ معهُ الخمسةُ والنبىُّ يمرُّ وحدَه، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثير، قلتُ: ياجبريلُ هؤلاء أمتى؟ قال: لا ولكن انظر إلى الأفق، فنظرتُ فإذا سوادٌ كثير، قال: هؤلاء أمَّتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدَّامَهم لا حسابَ عليهم ولا عذاب. قلت: ولمَ؟ قال: كانوا لايَكْتَوون ولا يَسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربّهم يتوكلون. فقام إليه عُكاشة بن محصن فقال: ادعُ الله أن يَجعلنى منهم. قال: اللهمَّ اجعلهُ منهم. ثم قام إليه رجلٌ آخر فقال: ادع الله أن يَجعلنى منهم. قال: **سبَقَكَ بها عكاشة»**[1].

ثم رواه بلفظ آخر تحت نفس الباب عن سهل بن سعد قال: قال النبىُّ - ﷺ - **ليدخُلنّ الجَنَّة من أمتى سبعون ألفاً - أو سبعمائة ألف، شكٌ فى أحدهما - متماسكين، آخذ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنَّة ووجوههم على ضوء القمر ليلة البدرِ**[2].

وبوّب عليه أيضاً. . باب «ومن يتوكل على الله فهو حسبة» ولفظه **«يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب: هم الذين لايسترقون، ولايتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»**. أهـ .

قوله : «وعن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب.....الحديث».

● مناسبة الحديث للباب: -

قال عبد الله بن جار الله[3]: - مناسبته للباب: أن هؤلاء المؤمنين الموصوفين بتلك الصفات دخلوا الجنة بغير حساب لقوة توكلهم وتوحيدهم وإخلاصهم وإعتمادهم على الله وحده. اهـ.

● قال القرعاوى[4]:- حيث دلّ الحديث على أن من أحرز الخصال الاربعة المذكورة فى الحديث فقد حقق توحيده ودخل الجنة بغير حساب ولا عذاب. أهـ.

● قوله: «عن حصين بن عبد الرحمن».

قال سليمان آل الشيخ[5]: **قوله**: «عن حصين بن عبد الرحمن هو السلمى أبو

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٥٤١). (٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٥٤٣).

(٣) الجامع الفريد ٢٣. (٤) الجديد ٥٣. (٥) تيسير العزيز الحميد ٧٣.

الهذيل الكوفى ثقة، تغير حفظه فى الآخر؛ مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة. أهـ.

● قوله: «كنت عند سعيد بن جبير».

قال سليمان آل الشيخ[١]: وسعيد بن جبير هو الإمام الفقيه من جلة أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة، وأبى موسى مرسلة، وهو كوفى مولى لبنى أسد، قتل بين يدى الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الخمسين وقصته مع الحجاج مشهورة - أهـ

قوله: «فقال: أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة».

● **لطيفة: (قال الفقير):**

وهنا لطيفة تدل على علاقة السند بالمتن، وهى أن راوى هذه الحديث (سعيد بن جبير) ترجم له المزى ترجمة مطولة، ذكر فيها ما يبين إمامته فى الدين، وقوة ثباته، وسعة علمه، وتحقيقة للتوحيد. وذكر قصته مع الحجاج وثباته ورسوخ قدمه أمام الحجاج إلى أن قتله. وبهذا اللطيفة يتبين لك علاقة السند بالمتن وبالباب.

قال ابن عثيمين[٢]: **قوله: «انقضَّ البارحة».**

أى: سقط البارحة، والبارحة: أقرب ليلة مضت، وقال بعض أهل اللغة: تقول فعلنا الليلة كذا إن قلته قبل الزوال، وفعلنا البارحة كذا إن قلته بعد الزوال.

وفى عرفنا؛ فمن طلوع الشمس إلى الغروب نقول: البارحة لليلة الماضية، ومن غروب الشمس إلى طلوعها نقول: الليلة لليلة التى نحن فيها بل بعض العامة يتوسع متى قام من الليل قال البارحة؛ وإن كان فى ليلته.

● **قوله: «قلت: أنا» أى حصين**[٣]

● **قوله: «ثم قلت: أما إنى لم أكن فى صلاة»**

قال سليمان آل الشيخ[٤]: القائل هو حصين، خاف أن يظن الحاضرون أنه ما رأى النجم إلا لأنه يصلى، فأراد أن ينفى عن نفسه إيهام العبادة - فيتزين بما ليس فيه ويرائى - وأنه يصلى مع أنه لم يكن فعل ذلك، وهذا يدل على فضل السلف الصالح وحرصهم على الإخلاص، وشدة ابتعادهم عن الرياء بخلاف من يقول: فعلت وفعلت ليوهم الأغمار أنه من الأولياء، وربما علق السبحة فى عنقه أو أخذها فى يده يمشى بها بين الناس إعلاماً للناس أنه يسبح عدد ما فيها من الخرز.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) القول المفيد ١/ ١١٧.

(٣) القول المفيد ١/ ١١٨.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٧٤.

وقد قال الإمام محمد بن وضاح: حدثنا أسد عن جرير بن حازم عن الصلت بن برهام قال: مر ابن مسعود بامرأة تُسبِّحُ بِهِ فَقَطعهُ وألقاه؛ ثمَّ مَرَّ برَجُلٍ يُسبِّحُ بِحصَى فضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ جِئتُمْ بِبِدعَةٍ ظُلماً، أو: لقد غَلَبْتُم أَصْحَابَ مُحمد ﷺ علماً؟!)[1] اهـ.

● قوله: «ولكنى لدغت».

قال سليمان آل الشيخ[2]: هو بضم أوله وكسر ثانية مبنى لما يسم فاعله أى لدغته عقرب أو نحوها. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: والظاهر أنها شديدة، لأنه لم ينم منها.

● قوله: «قال: فماذا صنعت؟

القائل هو سعيد بن جبير:

قوله: «قلت: استرقيت».

قال سليمان آل الشيخ[4]:

قوله: «قلت ارتقيت» لفظ مسلم: «استرقيت» أى طلبت من يرقينى.

● قوله: «قال: فما حملك على ذلك؟».

قال سليمان آل الشيخ[5]: فيه طلب الحجة لصحة المذهب.

قال ابن عثيمين[6]: أى: قال سعيد: ما السبب أنك استرقيت.

● قوله: «قلت حديث حدثناه الشعبى».

قال سليمان آل الشيخ[7]:

أى حملنى عليه حديث حدثناه الشعبى، واسمه عامر بن شرحبيل الهمدانى - بسكون الميم - الشعبى. ولد فى خلافة عمر وهو من ثقات التابعين وحفاظهم وفقهائهم، مات سنة ثلاثة ومائة.

---

(١) تقدم تخريجه عن ابن مسعود بمعناه فى قصة أخرى.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٧٤.
(٣) القول المفيد ١/١١٨.
(٤)(٥) تيسير العزيز الحميد ٧٤.
(٦) القول المفيد ١/١١٩.
(٧) تيسير العزيز الحميد

قال ابن عثيمين(١): وهذا يدل على أن السلف رضى الله عنهم يتحاورون حتى يصلوا إلى الحقيقة.

فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد على هذا الرجل، بل قصد أن يستفهم منه ويعرف مستنده.

● **قوله: «قال: وما حدثكم الشعبىُّ؟ قلت: حدثنا عن بُريده بن حصيب الأسلمى أنه قال».**

قال سليمان آل الشيخ(٢):

● **قوله: (عن بريدة)** - بضم أوله وفتح ثانيه - تصغير بردة بن الحصيب - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن عبد الله بن الحارث الأسلمى، صحابى شهير. مات سنة ثلاث وستين. قاله ابن سعد. اهـ.

● **فائدة:**

قلت: ولم يقل (قال رسول الله ﷺ لا رقية إلا من عين أو حمة)، ويسكت بل ذكر الحديث بسنده، وهذا دليل سلفى على أنه من يذكر الدليل (الحديث) يذكره بسنده بمخرجه، وبمن أخرجه، كأن يقول: (أخرجه البخارى أو مسلم أو أحد أصحاب السنن).

فالعلاقة جمال الدين القاسمى فى كتاب «قواعد التحديث»، نقل فتوى ابن حجر الهيتمى، قال فى فتاواه الحديثيه ما نصه: «وسئل ـ رضى الله عنه ـ فى خطيب يرقى المنبر فى كل جمعة، ويروى أحاديث كثيرة، ولم يبين مخَرِّجها، ولا رواتها، فما الذى يجب عليه؟

فأجاب بقوله: ما ذكره من الأحاديث فى خطبه من غير أن يبين رواتها، أو من ذكرها فجائز بشرط أن يكون من أهل المعرفة فى الحديث، أو بنقلها من مؤلِّفه كذلك، وأما الاعتماد فى رواية الأحاديث على مجرد رؤيتها فى كتاب ليس مؤلفه من أهل الحديث أو فى خطب ليس مؤلفها كذلك، فلا يحل ذلك، وفى فعله عزر عليه التعزير الشديد، وهذا حال أكثر الخطباء فإنه بمجرد رؤيتهم خطبة فيها أحاديث حفظوها،

---

(١) القول المفيد ١/ ١١٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٧٤.

وخطوبها من غير أن يعرفوا أن لتلك الأحاديث أصلاً أم لا؟! فيجب على حكام كل بلد أن يزجروا خطباءها عن ذلك. ويجب على حكام بلد هذا الخطيب منعه من ذلك إن ارتكبه، - ثم قال - فعلى هذا الخطيب أن يبين مستنده فى روايته، فإن كان مستنداً صحيحاً فلا اعتراض عليه، وإلا ساغ الاعتراض عليه، بل وجاز لولى الأمر - أيد الله به الدين، وقمع بعدله المعاندين - أن يعزله من وظيفة الخطابة زجراً له عن أن يتجرأ على هذه المرتبة السنية بغير حق» انتهى ملخصاً(*).

● قوله: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**».

قال ابن حجر: العين نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر، وقد وقع عند أحمد من حديث أبى هريرة رفعه «**العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم**»(١). ثم قال: نقل عن بعض من كان معيناً أنه قال: إذا رأيت شيئاً يعجبنى وجدت حرارة تخرج من عين؛ وقال الخطابى: فى الحديث أن للعين تأثيراً فى النفوس ثم قال: الذى يتمشى على طريقة أهل السنة أن العين إنما تضر عند نظر العائن بعادة أجراها الله (٢).

وقال ابن الأثير: الحمة بالتخفيف: السم، وقد يشدد، وأنكره الأزهرى، ويطلق على إبرة العقرب للمجاورة، لأن السم منها يخرج، وأصلها حُمَوٌ، أو حُمَىٌ بوزن صُرَد، والهاء فيها عِوض من الواو المحذوفة أو الياء. أهـ.

قال النووى: وقال القزاز: قيل هو شوكة العقرب، وكذا قال ابن سيده: إنها الإبرة التى تضرب بها العقرب والزنبور، وقال الخطابى: الحمه كل هامة ذات سم من حية أو عقرب وقد أخرج أبو داود من حديث سهل بن حنيف مرفوعاً: «**لارقية إلا من نفس أوحمه أو لدغه**»(٣) فغاير بينهما أى بين اللدغة بعدها من العام بعد الخاص وقد تقدم أن هذه زيادة عند أحمد ومسلم من طريق هشيم.

وقال ابن حجر: والتحقيق أنه عنده - أى عند البخارى - عن عمران بن حصين، وعن بريدة أى موقوفاً عليهما. ووقع لبعض رواة البخارى قال حديث الشعبى

(*) انظر «قواعد التحديث» للقاسمى (ص١٦١)، وانظر كتابى «فقه الخطابة» الطبعة الثانية.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٤٣٩) بإسناد منقطع.

(٢) فتح البارى (١٠/ ٢١٠).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٨٦)، وأبو داود (٣٨٨٨).

مرسل . والمسند حديث ابن عباس فأشار بذلك إلى أنه أورد حديث الشعبى أستطراداً ولم يقصد إلى تصحيحه،وقد روى البخارى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :رخص الرسول ﷺ فى الرقية من الحية والعقرب[1] **قال النووى**: الحمه هى باسم العقرب وشبهها، وقيل: فوعة السم وحدته وحرارته، والمراد: أو ذى حمة كالعقرب وشبهها أى لارقية إلا من لدغ ذى حمه أهـ[2].

قال سليمان آل الشيخ[3]: هكذا روى هنا موقوفاً، وقد رواه أحمد وابن ماجه عنه مرفوعا[4]، ورواه أحمد وأبو داود والترمذى عن عمران بن حصين به مرفوعا[5] قال الهيثمى: رجال أحمد ثقات. والعين هى إصابة العائن غيره بعينه، والحمة - بضم المهملة وتخفيف الميم - سم العقرب وسبهها قاله ثعلب قال الخطابى: ومعنى الحديث: لا رقية أشفى أو أولى من رقية العين والحمة. وقد رقى النبى ﷺ ورقى.اهـ. **قلت**: وسيأتى ما يتعلق بالرقى إن شاء الله تعالى.

قال ابن عثيمين[6]:

● قوله: «**لارقية**». أى: لا قراءة أو لا استرقاء على مريض أو مصاب.

● قوله: «**إلا من عين**». ويسميها العامة الآن: «النحاتة»، وبعضهم يسميها «النفس»، وبعضهم يسميها «الحسد».

قلت: تقدم فى حديث سهل: «لا رقية إلا من نفس».

قوله: «**حُمَة**». وهى كل ذات سم، والمعنى لدغته إحدى ذوات السموم، والعقرب من ذوات السموم.

قوله: «**فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع**».

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٤١) ومسلم فى السلام (٧/ ٤٣٩/ ٥٢) بلفظ «رخص النبى ﷺ الرقية من كل ذى حمة».

أما هذا اللفظ فأخرجه ابن ماجه (٣٥١٧) عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) مسلم بشرح النووى (٣/ ٩٣)..

(٣) تيسير العزيز الحميد ٧٤ و ٧٥.

(٤) [صحيح] أخرجه ابن ماجه (٣/ ٣٥) وانظر «فتح المجيد» (ح ٩٨) بتخريجنا.

(٥) [صحيح] أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٦)، وأبو داود (٥٨٨)، والترمذى (٢٠٥٧).

وانظر «الطب النبوى للذهبى» ٥٥٢ بتحقيقنا ـ وأيضاً «فتح المجيد» (ح ٩٩) مرفوعاً.

(٦) القول المفيد ١/ ١١٩

قال سليمان آل الشيخ[1]:

قوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع»، أى من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن، لأنه أدى ما وجب، وعمل بما بلغه من العلم، بخلاف من يعمل بجهل أو لا يعمل بما يعلم فإنه مسيء آثم. وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم وهديهم وتلطفهم فى تبليغ العلم، وإرشادهم من أخذ بشيء وإن كان مشروعاً إلى ما هو أفضل منه، وإن من عمل بما بلغه عن الله وعن رسوله فقد أحسن، ولا يتوقف العمل به على معرفة كلام أهل المذاهب أو غيرهم أهـ.

قال ابن عثيمين[2]:

فقال سعيد بن جبير: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس.. إلخ.

إذن؛ فحصين استند على حديث: **«لا رقية إلا من عين أو حُمَة»**، وهذا يدل على أنَّ الرقية من العين أو الحمة مفيدة، وهذا أمر واقع؛ فإنَّ الرقى تنفع بإذن الله من العين ومن الحمة أيضاً، وكثير من الناس يقرؤون على الملدوغ فيبرأ حالاً، ويدل لهذا قصة الرجل الذى بعثه النبى ﷺ فى سرية، فاستضافوا قوماً، فلم يضيِّفوهم، فلدغ سيدهم لدغته عقرب، فقالوا: من يرقى؟ فقالوا: لعل هؤلاء الركب عندهم راقٍ، فجاؤوا إلى السرية، قالوا: هل فيكم من راقٍ؟ قالوا: نعم، ولكن لا نرقى لكم إلا بشيء من الغنم. فقالوا: نعطيكم. فاقتطعوا لهم من الغنم، ثم ذهب أحدهم يقرأ عليه الفاتحة، قرأها ثلاثاً أو سبعاً، فقام كأنما نشط من عقال، فانتفع اللديغ بقراءتها، ولهذا قال ﷺ: **«وما يدريك أنها رقية؟»** (يعنى: الفاتحة)[3]، وكذا القراءة من العين مفيدة.

ويستعمل للعين طريقة أخرى غير الرقية، وهو الاستغسال، وهى أن يؤتى بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من أعضائه، ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن الله.

وهناك طريقة أخرى، ولا مانع منها أيضاً، وهى أن يؤخذ شيء من شعاره، أى: ما

---

(١) تيسير العزيز الحميد: ٧٥.

(٢) القول المفيد ١/ ١١٩ - ١٢١.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى: (٥٧٣٦)، ومسلم فى اللباس (١٤/ ١٨٧ - النووى).
وانظر «الطب النبوى للذهبى» (٤٣١ - بتخريجنا).

يلى جسمه من الثياب؛ كالثوب، والطاقية، والسروال، وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب أو يشربه، وهو مُجرَّب.

وأما العائـن؛ فينبغى إذا رأى ما يـعجبه أن يُبرِّك علـيه؛ لقول النبى ﷺ لـعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيك «هلا برَّكت عليه»[(١)]؛ أى: قلت: بارك الله عليك أهـ.

● **قوله: «ولكن حدثنا»**

قال ابن عثيمين[(٢)]: القائل سعيد بن جبير.

قال سليمان آل الشيخ[(٣)]:

قوله: «ولكن حدثنا ابن عباس». هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمى ابن عم النبى ﷺ دَعَا لَـهُ النبى ﷺ فقال: **«اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّين وَعَلِّمهُ التَّأويلَ»**[(٤)]. فكان كذلك. قال عمر: لو أدرك ابـن عباس أسناننا ما عشره منا أحـد، أى ما بلغ عشره فى العلم، مات بالطائف سنة ثمان وستين.

قال المصنف: فيه عمق علم السلف، لقوله: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثانى أهـ.

قلت: قوله (ولكن حدثنا ابن عباس عن النبى ﷺ قال...) فيه استدراك كأنه يقول: إن ما قلته حق وصحيح ـ مرجوح ـ وإن كـان الذى معى أحق وأصح ـ أرجح منه ـ فلم ينكر عليه ـ سعيد ـ وإن كان لأول وهلة يـظهر أن الحديثين متعارضان، فالحديث الأول **«لا رقية إلا من عـين أوحمه»**، والثانى: **«لا يسترقـون ولايكتوون، ولا يتطـيرون وعلى ربهم يتوكلون»**، فلماذا إذاً لم ينكر سعيدٌ على حصـين ـ وسيأتى وجه الجمع بينهما عند قوله **«لايسترقون»** ـ وذكر المصنف ـ محمد بن عبد الـوهاب ـ أن هذا يدل على عمق علم السلف، أى: رسوخ أقدامهم فى العلم حتى عـلم أن ما مع حصين لم يخالف ما معه، حتى وإن كان ما معه هو الأرجح والأصوب، إلا أنـه أقره، وقال: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع)، بل فيـه أيضاً عمق أدب السلف لاسيما فى مـواطن الاختلاف فمن صور الاختلاف فى الواقع:

---

(١) [**صحيح** أخرجه: مالك فى «الموطأ» (٢/ ٧١٦)، ابن ماجه (٣٥٠٩).
وانظر «الطب النبوى» للذهبى (٥٤٦، ٥٤٧ بتحقيقنا).

(٢) القول المفيد ١/ ١٢١.

(٣) تيسير العزيز الحميد: ٧٥.

(٤) [**صحيـح بغير هذا الـلفظ**] أخرجه أحـمد (١/ ٢٦٦) عن ابن عـباس وأخرجه الـبخارى (١٤٣)، ومسلم فى الفضائل (١٦/ ٣٧ - النووى) بدون «وعلمه التأويل». وانظر «فتح المجيد» (ح ١٠٠) بتخريجنا.

مثال: لو أن شخصاً يرى أن حديث، «**من أدرك الركوع فقد أدرك ركعة**» ضعيف، والآخر يرى أنه صحيح - صححه الشيخ الألباني - وهذا الآخر مقلد له، فتقوم الدنيا ولا تقعد على هذه المسألة، ومن الممكن أن يعمل فرق وأحزاب مع أن المسألة فيها راجح وأرجح منه، وقد يكون كلا الأمرين معتبر، إذاً فلماذ نختلف، بل ونقول: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع).

ومثال آخر: فى حديث «**لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن**»، وحديث: «**من أدرك الركوع فقد أدرك الركعة**»، فالأول معه أدلته المعتبرة، وإن كان بالنظر إلى الأدلة الأخرى مرجوح إلا أنها معتبرة ولا ننكر على من يأخذ بذلك لأن معه أدلة يتبعها، ونقول له: أحسنت.

وفيه أدب الاختلاف الناشئ عن علم، وأما سوء الأدب فناشىء عن جهل، فالجهل العميق يؤدى إلى سوء أدب عميق، فنكون كما قال النبى ﷺ: «**حثالة من الناس مرجت عهودهم وأماناتهم**»، والحديث تقدم، فهم حثالة لعمق جهلهم، وسوء أدبهم.

ومثال ثالث: فى التشهد الأوسط، هل نقول: التشهد كله فى التشهد الأوسط، أم نقول: نصفه، فهذا ثبت وهذا ثبت، فهذا جائز.

ومثال الاختلاف فى البسملة، هل يجهر بها أم يُسر بها، وهذه سنة وهذه سنة، ففى القاعدة التى قعدها ابن تيمية - تبعاً للإمام أحمد رحمه الله -

علماء الحديث يعملون بكل ما ثبت عن النبى ﷺ وإلا لو عملنا بالبعض وتركنا البعض، لصارت السنة بدعة والبدعة سنة، فإذا جهرنا بالبسملة - مثلاً - ، فهذا وارد، وإذا لم نجهر فهذا وارد، ولكن إذا أسررنا بها دائماً ثم جاء شخص وجهر بها سنقول: هذه بدعة، وهذا بسبب الاستمرار على سنة واحدة من السنن التى ثبت فيها عن النبى ﷺ فى الباب الواحد أكثر من وجه.

ومثال آخر: بعض الناس يقول: نصلى قيام مع قراءة القرآن، ونربى الناس على ذلك، وآخرون يقولون: نربى الناس على العقيدة، وآخرون يقولون: نربى الناس على العلم والفقه، وآخرون يقولون: نربى الناس على الدعوة.

فيُظن أن هذا فُرقة وخلاف وهذا من سوء جهلنا، وسوء الأدب والهوى ولكن هذا كله صواب، ولكن إذا كان لكل منهم دليل، فلا يوجد فرقة، وكل منهم (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع).

وهذا الاختلاف يسمى اختلاف تنوع، أى: هذا كله حق.

أما اختلاف التضاد فهو خلاف بين حق وباطل.

وذلك لأن الطائفة المنصورة تشمل ذلك كله، كما قال النوى: الطائفة المنصورة ما بين عالم وزاهد وفقيه وشجاع وبصير بالحرب ومحدث.. إلخ.

فسعيد بن جبير يقول للمختلف معه: قد أحسنت إذا استمسكت بدليل ولكن معى دليل آخر: (لكن حدثنا ابن عباس قال......) الحديث.

● **قوله: «عرضت علىَّ الأمم».**

قال ابن حجر(١):

قوله: (عرضت) بضم أوله على البناء للمجهول.

قوله: (علىَّ) بالتشديد **(الأمم)** بالرفع، وقد بين عبثر بن القاسم - بموحدة ثم مثلثة وزن جعفر - فى روايته عن حصين بن عبد الرحمن عند الترمذى والنسائى أن ذلك كان ليلة الإسراء ولفظه «لما أسرى بالنبى ﷺ جعل يمر بالنبى ومعه الواحد» الحديث.

قال ابن حجر: فإن كان ذلك محفوظاً كانت فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء وأنه وقع بالمدينة أيضاً غير الذى وقع بمكة، فقد وقع عند أحمد والبزار بسند صحيح قال: «أكرينا الحديث عند رسول الله ﷺ ثم عدنا إليه فقال: عرضت على الأنبياء الليلة بأممها، فجعل النبى يمر ومعه الثلاثة والنبى يمر ومعه العصابة»(٢) فذكر الحديث.

وفى حديث جابر عند البزار «أبطأ رسول الله ﷺ عن صلاة العشاء حتى نام بعض من كان فى المسجد»(*) الحديث والذى يتحرر من هذه المسألة أن الإسراء الذى وقع بالمدينة ليس فيه ما وقع بمكة من استفتاح أبواب السماوات باباً باباً ولا من التقاء الأنبياء كل واحد فى سماء ولا المراجعة معهم ولا المراجعة مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلوات ولا فى طلب تخفيفها وسائر ما يتعلق بذلك وإنما تكررت قضايا كثيرة سوى ذلك رآها النبى ﷺ، فمنها بمكة البعض ومنها بالمدينة بعد الهجرة البعض ومعظمها فى المنام، والله أعلم» أهـ.

قال ابن عثيمين(٣):

● **قوله: «عرضت على الأمم».**

---

(١) فتح البارى ١١/ ٤١٤ و ٤١٥.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٤٠١، ٤٢٠) عن ابن مسعود به.

(*) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٤٠٧) ونسبه للبزار وقال: رجاله الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق.

(٣) القول المفيد ١/ ١٢١.

العارض لها الله - سبحانه وتعالى-، وهذا فى المنام فيما يظهر. والأمم: جمع أمة، وهى أمم الرسل. أهـ.

● **قوله: «فرأيت النبيَّ ومعه الرهط».**

قال ابن حجر: **الرهط**: عدد من الرجال من ثلاثة إلى عشرة.

قال القزاز: وربما جاوزا ذلك قليلاً ، ولا واحد له من لفظه ورهط الرجل: بنو أبيه الأدنى.

وقيل : قبيلته. والإسماعيلى من طريق ابن أبى ذئب: أنه جاءه رهط فسألوه فأعطاهم، فترك رجلاً منهم. أهـ(١).

قال سليمان آل الشيخ(٢): هو الجماعة دون العشرة قاله النووى.

قال ابن عثيمين(٣): الرهط من الثلاثة إلى التسعة.

● **قوله: «والنبيّ ومعه الرجل والرجلان والنبيّ وليس معه أحد».**

قال ابن حجر(٤): ووقع فى رواية ابن فضيل **«فجعل النبى والنبيان يمرون ومعهم الرهط»** زاد عبثر فى روايته **«والشيء»** وفى رواية حصين بن نمير نحوه لكن بتقديم وتأخير.

وفى رواية سعيد بن منصور التى أشرت إليها آنفاً «فرأيت النبى ومعه الرهط، والنبى ومعه الرجل والرجلان، والنبى ليس معه أحد والنبى معه الخمسة.

وفى حديث ابن مسعود «فجعل النبى يمر ومعه الثلاثة، والنبى يمر ومعه العصابة والنبى يمر وليس معه أحد»(٥).

قال ابن حجر: والحاصل من هذه الروايات أن الأنبياء يتفاوتون فى عدد أتباعهم. أهـ(٦).

قال سليمان آل الشيخ(٧): «وفيه الرد على من احتج بالأكثر وزعم أن الحق محصور فيهم، وليس كذلك، بل الواجب اتباع الكتاب والسنَّة مع من كان وأين كان.

---

(١) فتح البارى (١/ ١٠٠/ح٢٧). (٢) تيسير العزيز الحميد ٧٥.
(٣) القول المفيد ١/ ١٢١. (٤) الفتح / ٤١٥. (٥) تقدم قريباً.
(٦) وفيه عدم استعجال الداعى استجابة الناس والصبر عليهم وألا ينتظر فتحاً فى الدعوة فى حياته، فإن كان فبها ونعمت، وإلا فالأنبياء يجيء بعضهم يوم القيامة وليس معهم أحد من أمة الإجابة. الله أعلم.
(٧) تيسير العزيز الحميد ٧٥ و ٧٦.

قال ابن عثيمين(١): الظاهر أنَّ الـواو بمعنى أو؛ أى: ومعه الـرجل أو الرجلان؛ لأنَّه لو كـان معه الرجل والـرجلان صار يغنـى أن يقول: ومعـه ثلاثة، لكن المـعنى: والنبى ومعه الرجل، والنبى الثانى ومعه الرجلان.

● **قولـه: «والنـبى وليس معه أحد»**. أى: يبعث ولا يكون معه أحد، لكن يبعثه الله لإقامة الحجة، فإذا قامت الحجة حينئذ؛ يعذر الله من الخلق، ويقيم عليهم الحجة. أهـ.

قلت: فالنبى بجلالة قدره وارتفاع منزلته ومكانته وحسن منهجه يأتى ومعه الرجل أو الرجلان أو يأتى وليس معه أحد. !!

ماهى الفائدة من ذلك؟

(١) أن الداعى يدعـو وليس عليه إلا الـبلاغ وليس عليـه ثمرة البلاغ. قال تـعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. أى أن النبى لا يعلم النتيجة ولكن عدم علمه بها لـم يثبطه عن دعوته. ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ ﴿مَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

(٢) قلة الناجين وكثرة الهالكين فى كل عصر ومصر.

(٣) أن الكثرة ليست حـجة ولا يصح الاستدلال بها. مثلاً فى مسـألة [عدم المواظبة على الدعاء فى آخـر كل خطبة جمعة] يستـدل من يستدل على المواظبة بـأن كل الخطباء يفعلون هذا ولا حجة فى ذلك. وإن جاز الاستدلال بالكثرة فإنما يستدل بها على الباطل غالباً.

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد.....﴾ والحديث **«والنبى وليس معه أحد...»** وحديث **«قم فابعث بعـث النار من كل ألف تسع مائة وتسـعة وتسعين إلى النار، وواحد فى الجنة»**.

(٤) الصبر على الدعوة وعدم استعجال الثمرة.

(٥) أن ثمرات الأعمال لاتدل على فسادها ولا صلاحها.

الدليـل: أن نبياً يدعو ومـنهجه سليـم ونيته صالحة خـالصة ولكن لم تـأت الدعوة

---

(١) القول المفيد ١/١٢١ و ١٢٢.

بثمارها فلم يثنه هذا عن منهجه فيخالف المنهج ويعدل عنه إلى منهج غيره لكسب أفراد لدعوته.

● ولكن قد يكون العمل باطلاً وله ثمرة.

الدليل: السامرى لما صنع لهم عجلاً جسداً له خوار تبعه أكثر الناس وكان عمله باطلاً.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتاب «اقتضا الصراط المستقيم» أن الصوفى قد يجد رقة فى قلبه من الذكر الباطل لايجدها السنى من قراء القرآن. فيقول الصوفى: إن الذكر الذى أقوله أفضل من قراءة القرآن فهل هذا يصح؟ الجواب: لايصح.

لأن ثمرات العمل لاتدل على صلاح العمل ولافساده.

أو مثلاً كما يقول بعضهم: ذهبنا إلى باكستان وذهبنا إلى الهند وذهبنا إلى كنيسة كذا وكذا واستجاب لنا أناس كثيرون.

هذا شيء طيب ولكن ليس دليلاً على صلاح العمل ولا على فساده، فالصلاح والفساد مرده إلى الكتاب والسنة ولانحتج بالثمرة، كما تقدم من حديث العرباض بن سارية: «فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهدين». وكما فى الحديث: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وسنتى».

● قوله: «إذ رفع لى سواد عظيم».

قال ابن حجر[1]: فى رواية «حصين بن نمير فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق»، والسواد ضد البياض هو الشخص الذى يرى من بعيد، ووصفه بالكثير إشارة إلى أن المراد بلفظ الجنس لا الواحد، ووقع فى رواية ابن فضيل «ملأ الأفق» الأفق الناحية، والمراد به هنا ناحية السماء. أهـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: «إذ رفع لى».

هذا على تقدير محذوف؛ أى: بينما أنا كذلك؛ إذ رفع لى.

قوله: «سواد عظيم».

المراد بالسواد هنا الظاهر أنه الأشخاص، ولهذا يقال: ما رأيت سواده؛ أى: شخصه، أى أشخاصاً عظيمة كانوا من كثرتهم سواداً.

قوله: «فظننت أنهم أمتى».

وذلك لأنهم كانوا باعدين عنه، وفى رواية البخارى (قلت: يا جبريل: هؤلاء أمتى؟ قال لا» وقد تكون ظننت بمعنى رجوت، كما جاء فى البخارى بلفظ «فرجوت أن تكون أمتى)(*).

---

(١) فتح البارى ١١/ ٤١٥. (٢) القول المفيد ١/ ١٢٢.

(*) ح (٥٧٥٢) وهذا أفضل مايشرح به غريب الحديث، أن يشرح بما جاء من طريق أخرى بلفظ آخر قاله النووى.

قال ابن حجر[1]: وفى رواية ابن فضيل «**فإذا سواد قد ملأ الأفق، فقيل لى: انظر ههنا وههنا فى آفاق السماء**» وفى حديث ابن مسعود «**فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال**» وفى لفظ لأحمد «**فرأيت أمتى قد ملأوا السهل والجبل، فأعجبنى كثرتهم وهيئتهم، فقيل أرضيت يا محمد؟ قلت: نعم أى رب**». اهـ.

● إشكال وجوابه:

وقد استشكل الإسماعيلى كونه ﷺ لم يعرف أمته حتى ظن أنهم أمة موسى، وقد ثبت من حديث أبى هريرة كما تقدم فى الطهارة «كيف تعرف من لم تر من أمتك؟ فقال: **إنهم غر محجلون من أثر الوضوء**»[2] وفى لفظ «**سيماً ليست لأحد غيرهم**»[3] وأجاب بأن الأشخاص التى رآها فى الأفق لا يدرك منها إلا الكثرة من غير تمييز لأعيانهم، وأما ما فى حديث أبى هريرة فمحمول على ما إذا قربوا منه، وهذا كما يرى الشخص شخصاً على بعد فيكلمه ولا يعرف أنه أخوه، فإذا صار بحيث يتميز عن غيره عرفه. ويؤيده أن ذلك يقع عند ورودهم عليه الحوض.

وكما فى حديث الفجر«**لايعرفن من الغلس**» أى لايعرف أشخاصهن، أما إذا أزددن قرباً فقد تعرف أعيانهن وفى رواية البخارى «**فنظرت فإذا سواد كثير**».

● **قوله: «فقيل لى: هذا موسى وقومه»**.

وفى حديث ابن مسعود عند أحمد (حتى مر على موسى فى كبكة من بنى إسرائيل، فأعجبنى، فقلت : من هؤلاء فقيل: هذا أخوك موسى معه بنو إسرائيل).

قال ابن عثيمين[4]: وهذا يدل على كثرة أتباع موسى عليه السلام وقومه الذين أرسل إليهم. اهـ.

قوله: «**ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لى: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لى: هذه أمتك**».

وفى حديث ابن مسعود: «**فإذا الأفق قد سد بوجوه الرجال**» وهذا يؤيد قول من قال: إنهم فى هذه الحالة قد قربوا منه فعرف أعيانهم ويؤيده مارواه أحمد: «**فرأيت أمتى قد ملئوا السهل والجبل فأعجبنى. كثرتهم وهيئتهم فقيل أرضيت يامحمد؟!**

قلت : نعم أى رب.

قال ابن عثيمين[5]: وهذا أعظم من السواد الأول؛ لأنَّ أمة النبى ﷺ أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.

● **قوله: «ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب»**.

---

(١) الفتح ١١/ ٤١٥و ٤١٦.

(٢)، (٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الطهارة (٢/ ١٣٧/٣).

(٤) القول المفيد ١/ ١٢٢. (٥) القول المفيد ١/ ١٢٣.

قال النووي: معناه ومع هؤلاء سبعون ألفاً من أمتك فكونهم من أمته لاشك فيه، وأما تقديره فيحتمل أن يكون معناه وسبعون ألفاً من أمتك غير هؤلاء وليسوا مع هؤلاء فيحتمل أن يكون معناه في جملتهم سبعون ألفاً، ويؤيد ذلك رواية البخاري «**ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً**» والله أعلم أهـ.

قال ابن حجر[1]: والمراد بالمعية المعنوية فإن السبعين ألفا المذكورين من جملة أمته، لكن لم يكونوا في الذين عرضوا إذ ذاك فأريد الزيادة في تكثير أمته بإضافة السبعين ألفاً إليهم. أهـ.

● **قوله: «بغير حساب ولا عذاب».**

قال سليمان آل الشيخ[2]: قلت: وما قاله يعني الحافظ ليس بظاهر فإن في رواية ابن فضيل: «**ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً**».

وقد ورد في حديث أبي هريرة في «الصحيحين» وصف السبعين ألفاً بِأَنَّهُمْ تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ[3].

وفيهما عنه مرفوعاً: «**إنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ على صُورةِ القَمَرِ والذين عَلَى آثارِهِم كَأَحسنِ كَوْكَبٍ دُرِي في السَّماءِ إِضَاءَةً**»[4]. وجاء في أحاديث أخر أن مع السبعين ألفاً زيادة عليهم.

فروى أحمد والبيهقي في البعث حديث أبي هريرة في السبعين ألفاً فذكره وزاد. قال «**فاسْتَزدتُ ربِّي فَزادَني مَعَ كُل أَلفِ سَبعينَ أَلفاً**»[5]. قال الحافظ: وسنده جيد وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني[6]، وعن حذيفة عند أحمد[7]، وعن أنس عند البزار[8]، وعن ثوبان عند ابن أبي عاصم[9] قال: فهذه طرق يقوي بعضها بعضاً. قال: وجاء في أحاديث أخر أكثر من ذلك.

---

(١) فتح الباري ٤١٦/١١.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٧٦ و ٧٧.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٨١١) ومسلم في الإيمان (٢/ ٩١/ ٣٦٩) وانظر «فتح المجيد» (ح١٠٤).

(٤) تقدم قبله.

(٥) رواح أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٥٩)، وانظر «فتح المجيد» (ح١٠٥) بتخريجنا.

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤١٣)، والطبراني في «الكبير» (٤/ ١٢٧/ ٣٨٨٢) بإسناد ضعيف.

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٩٣) بإسناده فيه ابن لهيعة وهو ضعيف وحسنه الهيثمي في «المجتمع» (١٠/ ٦٨ - ٦٩).

(٨) ذكره الهيثمي في «المجتمع (١٠/ ٤٨) ونسبه البزار. وبإسناد فيه متروك.

(٩) ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٤٠٧) ونسبه لأحمد، الطبراني بدون لفظ الزيادة.

فأخرج الترمذى وحسنه والطبرانى وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى أمامة رفعة: «**وَعَدَنى ربِّى أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّـةَ مِنْ أمَّتى سبْعينَ ألفاً مَعَ كُلِ ألف سَبعينَ كذا ألفاً لا حِسَابَ عَليهِم ولاَ عَذابَ، وثَلاثَ حَثَيات مِن حَثَيات ربِّى**»(1).

وروى أحمد وأبو يعلى من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أُعْطيتُ سَبعينَ ألفاً يَدْخُلونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حسَاب، وُجوهُهُمْ كَالقَمَرِ لَيلَةَ البَدْر، قلُوبُهُمْ عَلَى قَلب رَجلٍ وَاحد، فَاستَزدتُ ربِّى عَزَّ وَجَلَّ فزادنى مَعَ كُلِ واحد سبعينَ ألفاً**»(2). قال الحافظ وفى سنده راويان، أحدهما: ضعيف الحفظ والآخر لم يسم.

قلت: وفيه أن كل أمة تحشر مع نبيها.

قال ابن حجر(3): وقد وقع فى رواية ابن فضيل «**ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب**» وفى رواية عبثر بن القاسم «**هؤلاء أمتك، ومن هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً**» والإشارة بهؤلاء إلى الأمة لا إلى خصوص من عرض، ويحتمل أن تكون مع بمعنى من فتأتلف الروايات. أ هـ.

قال ابن عثيمين(4): أى: لا يُعذَّبون ولا يُحاسبون كرامةً لهم، وظاهره أنه لا فى قبورهم ولا بعد قيام الساعة. اهـ.

قوله: «ثم نهض فدخل منزله».

قال ابن حجر: وفى رواية «**فتفرق الناس ولم يبين لهم**» أى تركهم ودخل منزله بغير بيان لسبب دخول هؤلاء الجنة بغير حساب.

قال سليمان آل الشيخ(5): **ثم نهض، أى قام.**

قوله: «فخاض الناس فى أولئك».

قال النووى(6): هو بالخاء والضاد المعجمتين، أى تكلموا وتناظروا. قال: وفى هذا إباحة المناظرة فى العلم والمباحثة فى نصوص الشرع على جهة الإستفادة وإظهار الحق أهـ.

---

(1) رواه أحمد (5/268) والترمذى (2437). وابن ماجه (4286) قال الترمذى: حسن غريب.

(2) أخرجه أحمد فى «مسنده» (1/6)، وأبو يعلى فى مسنده (107) بإسناد فيه رجل لم يسم.

(3) الفتح 11/416.

(4) القول المفيد 1/123

(5 ـ6) شرح مسلم النووى (3/95.95) وانظر تيسير العزيز الحميد 78.

قلت: فمن طلب العلم للجدل أو للتباهى أو للانتصار للأهواء؛ **فليتبوأ مقعده من** النار، لما روى أبو داود عن أبى هريرة مرفوعاً **«من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»**(*). وفى الحديث **«من تعلم العلم ليمارى به السفهاء أو يباهى العلماء»** - وفيه - **«فليتبوا مقعده من النار»**.

وفيه عمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعلم، وفيه حرصهم على الخير؛ ذكره المصنف. أهـ

قال ابن عثمين[1]: هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظرياً وعملياً حتى يكونوا منهم.

● **قوله: «فقال بعضهم: فلعلَّهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ»**.

قال ابن عثيمين[2]: «يحتمل أنَّ المراد الصحبة المطلقة، ويؤيده ظاهر اللفظ.

ويحتمل أنَّ المراد الذين صحبوه فى هجرته، ويؤيده أنَّه لو كان المراد الصحبة المطلقة؛ لقالوا: نحن؛ لأنَّ المتكلم هم الصحابة، ويدل على هذا قول الرسول ﷺ لخالد بن الوليد: **«لاتسبوا أصحابى»**[3]؛ فإنَّ المراد بهم الذين صحبوه فى هجرته، لكن يمنع منه أنَّ المهاجرين لا يبلغون سبعين ألفاً.

ويمنع الاحتمال الأول: أنَّ الصحابة أكثر من سبعين ألفاً، ويحتمل أنَّ المراد من كان مع الرسول ﷺ إلى فتح مكة؛ لأنَّه بعد فتح مكة دخل الناس فى دين الله أفواجاً.

وهذه المسألة تحتاج إلى مراجعة أكثر. أهـ

قلت: فقال بعضهم لعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقيل أنها الصحبة الخاصة الذين صحبوه قبل الهجرة وهذا هو الراجح أى منذ بعثته حتى الهجرة، فهم يعنون الصحبة الخاصة وليست المطلق، ويدل على ذلك قوله لخالد بن الوليد «لاتسبوا أصحابى» فهى الصحبة الخاصة أى من صحبوه فى هجرته أو صحبة معنية كبيعة الرضوان أو فى بدر أو صحبوه فى المواضع التى قطع لأصحابه فيها بالمغفرة ففى الحديث: **«لعل الله اطلع**

(١) القول المفيد ١/ ١٢٣ و ١٢٤.

(٢) القول المفيد ١/ ١٢٣.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣/ ٣٦٧)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ٣٣٣/ ٢٢٢) عن أبى سعيد به.

(*) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤) وانظر تمام تخريجه «رياض الصالحين» بتخريجنا (ح١٣٩٤).

إلى أهل بدر فغفر لهم». وقال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فهذه هى الصحبة الخاصة كأبى بكر وعمر.

قوله: «وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بالله».

قال ابن عثيمين(١): أى: من ولد بعد البعثة وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولو قلنا: ولدوا فى الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفاً.

قوله: «وذكروا أشياء».

قال ابن حجر(٢): وفى رواية ابن فضيل «فأفاض القوم فقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا الرسول، فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا فى الإسلام فإنا ولدنا فى الجاهلية، فبلغ النبى ﷺ فخرج فقال» وفى رواية حصين بن نمير «فقالوا: أما نحن فولدنا فى الشرك ولكنا آمنا بالله وبرسوله، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا» وفى حديث جابر «وقال بعضنا: هم الشهداء»(٣) وفى رواية له «من رق قلبه للإسلام»(٤). أهـ .

قال الفقير: وحاصل كلام الصحابة فى هؤلاء أنهم هم الذين لم يصابوا بلوثة من لوثات الشرك، وأنهم هم الذين حققوا التوحيد بقيامهم بأعمال ذروة سنام الإسلام، ولذلك قال الإمام محمد بن عبدالوهاب :وفيه عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بالعمل أى لن يحققوا مقام التوحيد إلا بالعمل .

قوله: «فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: ما الذى تخوضون فيه؟ فأخبروه».

قال ابن عثيمين(٥): أى: أخبروه بما قالوا وما جرى بينهم.

● **قوله: «فقال: هم الذين لايسترقون ».**

قال ابن حجر(٦): اتفق على ذكر هذه الأربع معظم الروايات فى حديث ابن عباس وإن كان عند البعض تقديم وتأخير، وكذا فى حديث عمران بن حصين عند مسلم(٧)،

---

(١) القول المفيد ١/ ١٢٤ .

(٢) الفتح ١١/٤١٦ .

(٣) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/٤٠٧) ونسبه للبزار وقد تقدم.

(٢) ذكره الهيثمى فى «المجتمع» (١٠/٤٠٧) ونسبه للبزار عن شيخه عمر بن إسماعيل بن مجالد وهو مجمع على ضعفه. اهـ.

(٥) القول المفيد ١/ ١٢٤ .

(٦) الفتح ١١/ ٤١٦ و٤١٧ .

(٧) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٩٢/ ٣٧٢).

وفى لفظ له سقط **«ولا يتطيرون»** هكذا فى حديث ابن مسعود(١)، وحديث جابر(٢).

ووقع فى رواية سعيد بن منصور عند مسلم **«ولا يرقون»** بدل **«ولا يكتوون»**(٣).

وقد أنكر الشيخ تقى الدين ابن تيميـة هذه الرواية وزعم أنها غلط من راويها، واعتل بأن الراقى يحسن إلى الذى يرقيه فكيف يكون ذلك مطلوب الترك؟!

وأيضاً فقد رقى جـبريل النبى ﷺ(٤) ورقى النبى أصحابه(٥) وأذن لهم فـى الرقى وقال **«من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل»**(٦) والنفع مطلوب.

قال: وأما المسترقى فإنه يسأل غيره ويرجو نفعه، وتمام التوكل ينافى ذلك.

قال: وإنما المراد وصـف السبعين بـتمام التوكل فلا يـسألون غيرهم أن يـرقيهم ولا يكويهم ولا يتطيرون من شىء.

وأجاب غيـره بأن الزيادة مـن الثقة مقـبولة وسعـيد بن منصـور حافظ وقد اعـتمده البخارى ومسلـم واعتمد مسلم على روايتـه هذه وبأن تغليط الراوى من إمكـان تصحيح الزيادة لا يصار إليه.

والمعنى الذى حمله على التغليط موجود فى المسترقى لأنه اعتل بأن الذى لايطلب من غيره أن يرقيه تام التوكل فكذا يقال له والذى يفعل غيره به ذلك ينبغى أن لا يمكنه منه لأجل تمام التوكل، وليس فى وقوع ذلك من جبريل دلالة على المدعى ولا فى فعل النبى ﷺ له أيضاً دلالة لأنه فى مقام التشريع وتبيين الأحكام. أهـ .

قال سليمان آل الشيخ(٧): وهو خطأ من وجوه:

الأول: أن هذه الزيادة لا يمكن تصحيحها إلا بحملها على وجوه لايصح حملها عليها

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٤٠٣، ٤١٧، ٤٥٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٩٢/ ٣٧٤).

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٧١٦) ونسبه لعبد بن حميد فى «مسنده» عن زيد بن أسلم مرسلاً. ثم نسبه لابن مردويه، والبيهقى فى «الدلائل» عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٤٥)، ومسلم فى السلام (١٤/ ١٨٣ - النووى) عن عائشة رضى الله عنها. وانظر «الطب النبوى للذهبى» (٥٥٩ - بتحقيقنا).

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٤/ ١٨٦ - النووى) عن جابر به.
وانظر «الطب النبوى» للذهبى (٤٣٥ - بتحقيقنا).

(٧) تيسير العزيز الحميد ٧٨ و ٧٩.

كقول بعضهم: المراد لا يرقون بما كان شركاً، أو احتمله، فإنه ليس فى الحديث ما يدل على هذا أصلاً وأيضاً فعلى هذا لايكون للسبعين مزية على غيرهم؛ فإن جملة المؤمنين لا يرقون بما كان شركاً.

ثم قال سليمان آل الشيخ: الثانى: قوله: فكذا يقال الخ لايصح هذا القياس، فإنه من أفسد القياس وكيف يقاس من سأل وطلب على من لم يسأل؟! مع أنه قياس مع وجود الفارق الشرعى، فهو فاسد الاعتبار، لأنه تسوية بين ما فرق الشارع بينهما. **بقوله: «مَنِ اكْتَوَى أَوْ اسْتَرْقَى فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ التَّوَكُّلِ»**(1) رواه أحمد والترمذى وصححه وابن ماجة، وصححه ابن حبان والحاكم أيضاً وكيف يجعل ترك الإحسان إلى الخلق سبباً للسبق إلى الجنان؟ وهذا بخلاف من رقى أو رقى من غير سؤال، فقد رقى جبريل النبى ﷺ(2). ولا يجوز أن يقال: إنه عليه السلام لم يكن متوكلاً فى تلك الحال.

الثالث: قوله: ليس فى وقوع ذلك من جبريل عليه السلام، الخ، كلام غير صحيح بل هما سيدا المتوكلين، فإذا وقع ذلك منهما دل على أنه لا ينافى التوكل فاعلم ذلك. أهـ.

قلت: هناك وجه من الوجوه يمكن حمل اللفظ عليه، وهذا الوجه صحيح ومعتبر، ويمكن أن يُحمل على أنهم لايرقون الرقى التى تقدح فى كمال توكلهم على الله مثال: كأن تجر هذه الرقية الراقى لغرور أو عجب، فالراقى يكون عالج كماً كبيراً من الحالات، فمجرد أن يضع يده ويقرأ الفاتحة يشفى المرقى ويبرء بإذن الله تعالى، فيعجب الراقى بنفسه، ويصير يعتمد على أسبابه ويده، فهذا قدح فى تمام توكله على الله، وكان أول الأمر تام التوكل على الله سبحانه وتعالى، ثم نقص توكله وأصبح فيه شئ وثقة فى نفسه لافى ربه سبحانه وتعالى، إذاً هم حينما يرقون يكونون فى حال رقيتهم لغيرهم كما ملى التوكل على ربهم.

وهناك وجه آخر يمكن أن يحمُل اللفظ عليه، وهو: الذين لايرقون، أى: لايرقون الرقى الظنية، بمعنى: أنه مردد، ويعلم أن السبب ضعيف وظنى الشفاء، فعندما يرقى، يرقى بعدم اكترث، وعدم إهتمام، فتكون الرقية قادحة فى كمال التوكل وليس فى أصل التوكل.

---

(1) رواه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٢٤٩، ٥١) والترمذى (٢٠٥٥) وابن ماجة (٣٤٨٩) وابن حبان فى «صحيحه» (٧/ ٦٢٩ - الإحسان) عن المغيرة بن شعبة.

(2) تقدم قريباً.

وهناك وجه ثالث: وهو لأنه أعان المرقى على عدم التوكل فى بعض الصور كما تقدم فجوزى بجزاء من جنس عمله، كمن حجم صائماً، وهو صائم، قال ﷺ: **«أفطر الحاجم والمحجوم»**.

والخلاصة فى هذا الموضع:

(لايرقون) (١) أن يرقى فيعتمد على نفسه ولا يفوض الأمر كله لله أو يغتر أو يعجب بأسبابه.

(٢) لايرقون الرقى الظنية، فكلما كان السبب قوى كان التوكل على الله قوى والعكس، وضربنا مثل، لشخص ترك دابته بالخارج، وآخر عقلها بعقال شديد، وثالث عقلها بعقال ضعيف، وآخر لم يعقلها، وتوكلوا جميعاً، فلاشك أن أعلاهم توكلاً الذى عقلها بعقال شديد.

والصواب فى هذه المسألة والراجح: أن هذه اللفظة صحيحة، وأنه لايصار لتخطئة الراوى إلا إذا تعذر الجمع بين ما قاله باقى الحفاظ، أو إذا تعذر حملت هذه اللفظة على المحمل الشرعى، أما إذا لم يتعذر حملها على معنى صحيح ـ كما تقدم ـ فلا يصار لتخطئة الحافظ سعيد بن منصور الذى اعتمد عليه مسلم فى هذه الرواية، والبخارى فى غيرها.

قال ابن حجر(١): ويمكن ان يقال إنما ترك المذكورون الرقى والاسترقاء حسما للمادة لأن فاعل ذلك لا يأمن أن يكل نفسه إليه وإلا فالرقية فى ذاتها ليست ممنوعة وإنما منع منها ما كان شركاً أو احتمله ومن ثم قال ﷺ **«اعرضوا علىَّ رقاكم، ولا بأس بالرقى ما لم يكن شرك»**(٢) ففيه إشارة إلى علة النهى، وقد نقل القرطبى عن غيره أن استعمال الرقى والكى قادح فى التوكل بخلاف سائر أنواع الطب، وفرق بين القسمين بأن البرء فيهما أمر موهوم وما عداهما محقق عادة كالأكل والشرب فلا يقدح، قال القرطبى وهذا فاسد من وجهين: أحدهما أن أكثر أبواب الطب موهوم.

والثانى أن الرقى بأسماء الله تعالى تقتضى التوكل عليه والالتجاء إليه والرغبة فيما عنده والتبرك بأسمائه، فلو كان ذلك قادحاً فى التوكل لقدح الدعاء إذ لا فرق بين الذكر والدعاء، وقد رُقى النبى ﷺ ورَقى وفعله السلف والخلف، فلو كان مانعاً من اللحاق

---

(١) فتح البارى ٤١٧/١١.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (١٤/ ١٨٧ - النووى) عن عوف بن مالك به.
وأنظر «الطب النبوى» للذهبى (٤٣٤ - بتحقيقنا).

بالسبعين أو قادحاً فى التوكل لم يقع من هؤلاء وفيهم من هو أعلم وأفضل ممن عداهم.

وتعقب بأنه بنى كلامه على أن السبعين المذكورين أرفع رتبة من غيرهم مطلقاً، وليس كذلك لما سأبينه.

وجوز أبو طالب بن عطية فى «موازنة الأعمال» أن السبعين المذكورين هم المراد بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فإن أراد أنهم من جملة السابقين فمسلم وإلا فلا.

وقد أخرج أحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث رفاعة الجهنى قال «أقبلنا مع رسول الله ﷺ» فذكر حديثاً وفيه **«وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً بغير حساب، وإنى لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن فى الجنة»**(١).

فهذا يدل على أن مزية السبعين بالدخول بغير حساب لا يستلزم أنهم أفضل من غيرهم، بل فيمن يحاسب فى الجملة من يكون أفضل منهم وفيمن يتأخر عن الدخول ممن تحققت نجاته وعرف مقامه من الجنة يشفع فى غيره من هو أفضل منهم، وفى حديث أم قيس بنت محصن أن السبعين ألفاً ممن يحشر من مقبرة البقيع بالمدينة(٢) وهى خصوصية أخرى. أهـ

قال شيخ الإسلام(٣): «... فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون؛ أى: لايطلبون من أحد أن يرقيهم، والرقية من جنس الدعاء؛ فلا يطلبون من أحد ذلك، وقد روى فيه: **«ولا يرقون»**، وهو غلط؛ فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة، وكان النبى ﷺ يرقى نفسه وغيره، ولم يكن يسترقى؛ فإن رقية نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره،

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/١٦)، وابن ماجه (٤٢٨٥)، وابن حبان فى «صحيحه» (١/٢١٧) ورواية ابن ماجه مختصرة.

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/٤٠٨) ونسبه للطبرانى والبزار وقال: رجال بعضهم عنه الطبرانى والبزار رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢٥/ ١٨١/ ٤٤٥) وقال الهيثمى فى «المجتمع» (٤/ ١٣): وفيه من لم أعرفه.

(٣) انظر حاشية القول المفيد ١/ ١٢٥، وانظر «مجموع الفتاوى»(١/ ١٨٢).

وهذا مأمور به؛ فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك فى قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم».

قال ابن عثيمين[1]:

قوله «لايسترقون». واستفعل بمعنى طلب الفعل، مثل: استغفر؛ أى: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقى؛ أى: طلب الرقية، أى لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم؛ لما يلى:

١ - لقوة اعتمادهم على الله.

٢ - لعزَّة نفوسهم عن التذليل لغير الله.

٣ - ولما فى ذلك من التعلُّق بغير الله. اهـ.

قال الفقير: وقد يقال أنهم لايسترقون الرقى التى تتنافى وكمال التوكل وهى الرقى ظنية الشفاء، أما قطعية الشفاء فهى سبب قوى الأخذ به مع التوكل ينم عن غاية التوكيل عليه سبحانه وتعالى.

*** كيف نجمع بين دليل حصين بن عبد الرحمن «لا رقيه إلا من عين أو حمة» وقوله النبى ﷺ: «لايسترقون»؟.**

وجه الجمع: أنهم لا يسترقون الرقى ظنية الشفاء فهى سبب للشفاء ضعيف، أما إذا كان الرقية قطعية الشفاء وتعينت سبيلاً لشفاء هذا الداء طلبوا من يرقيهم كما فعل حصين بن عبد الرحمن حينما رقى من الحمى لأنه لارقية أشفع ولا أنفع من رقية العين أو الحمى كما تقدم.

ومثال للرقية ظنية الشفاء شخص عنده روماتيزم فى ساقه، إذا رقيناه هل سيذهب الروماتيزم؟ إحتمال يذهب واحتمال ألا يذهب، فلذلك هى ظنية الشفاء بخلاف الملدوغ أو المسحور.

ومثال للرقية قطعية الشفاء:

قول النبى ﷺ: **«العين حق ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين»**. والحديث فى الصحيح. وقال فى الجارية التى رأى فى وجهها تغيراً وسواداً ـ سفعة ـ فقال: **«استرقوا لها فإن بها النظرة»** وهو فى الصحيح أيضاً وسيأتى فى الرقى فالرسول ﷺ طلب الرقية وطلب من يرقى لما كانت الرقية قطعية الشفاء، وعينت سبيلاً للشفاء من هذا الداء وهو الحسد.

---

(١) القول المفيد ١/ ١٢٥.

وأقر رقية الحمى كما فى حديث أبى عباس فى الصحيح فى الرقية بفاتحة الكتاب أن نقرًا من أصحاب النبى مروا بماء فيه لديغ فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال: هل فيكم من راق... الحديث وفيه أن النبى ﷺ قال: **«إن أحق ما أخذتم عليه كتاب الله»** فهذا مفسر لحديث: **«لا رقية إلا من عين أوحمه»** فلا رقية أنفع ولا أقطع ولا أشفى من عين أو حمه لأنها تعينت سبيلاً للشفاء كما فعل حصين ولذلك لم ينكر عليه سعيد بن جبير، فطلب حصين لها لا يتنافى مع كمال التوكل على الله - عز وجل - لأنه قال: **«لايسترقون»** إلى قوله: **«وعلى ربهم يتوكلون»** والدافع لترك الاسترقاء هنا هو كمال التوكل.

● **متى لايتنافى الاسترقاء مع كمال التوكل؟**

إذا كانت الرقية فى هذه الحالة قطعية الشفاء فهذا لا يتنافى مع كمال التوكل فهو هنا أخذ بالأسباب، والأخذ بالأسباب من التوكل.

مثال الرجل الذى سأل النبى يعقل ناقته ويتوكل أم يتركها ويتوكل؟ فقال له: **«اعقلها وتوكل»**.

وسيأتى تفصيل وتوسع فى هذا عند شرح الباب السابع: ماجاء فى الرقى والتمائم.

● **قوله: «لايكتوون»**.

قال ابن حجر: فى التعليق على تبويب البخارى لهذا الحديث باب (من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو) قال: كأنه أراد الكى الجائز للحاجه، وأن الأولى تركه إذا لم يتعين، وأنه إذا جاز كان أعم أن يباشر الشخص ذلك بنفسه أوبغيره لنفسه أو لغيره.

وعموم الجواز مأخوذ بنسبة الشفاء إليه فى حديث جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ **«إن كان فى شىء من أدويتكم شفاء ففى شرطة محجم، أو لذعة نار، وما أحب أن أكتوى»**(١).

وفضل تركه: **«وما أحب أن أكتوى»**. أهـ.

قال الفقير: [الراجح] أنه أخذ فضل من لم يكتوى من قوله ﷺ من حديث

---

(١) أخرجه البخارى (٥٦٨٣)، ومسلم فى السلام (١٤/ ١٩٢ - النووى).
وأنظر «الطب النبوى» للذهبى (٢٧١) وفتح المجيد (ح ١٩٦) بتحقيقا.

السبعين ألفاً، حيث قال : «لايكتوون». وأماحديث عمران مرفوعاً: «نهى ﷺ عن الكى، فأكتوينا فما أفلحنا، ولا أنجحنا»(١) وفى لفظ: «فلم يصلحنا ولم ينجحا».

قال ابن حجر: بعد أن جود سنده : والنهى فيه محمول على الكراهة، أو على خلاف الأولى، لما يقتضيه مجموع الأحاديث، وقيل : أنه خاص بعمران؛ لأنه كان فيه الباسور، فنهاه عن كيه، فلما اشتد كواه، فلم ينجح. اهـ.

قلت: وفيه حالة ثالثة: ترك الكى (مندوب) عندما يكون الكى ظنى الشفاء فيكون تركه مندوباً وثواب تركه هنا أن يدخل فى زمرة السبعين ألفاً وقد باشر النبى ﷺ الكى فى أسعد بن زرارة وأقر أنساً قال أنس: «اكتويت فى زمن النبى». وفى حاله الفعل أو مباشرته لم يقدح فى كمال توكله لأن هذا الكى كان متعيناً سبيلاً للشفاء، بل أقول: إذا تعين سبيلاً للشفاء فلزم أو استحب الكى على خلاف بين أهل العلم هل تعاطى الدواء واجب أم مندوب؟.

وقال ابن قتيبة الكى نوعان:

[الأول]: كى للصحيح لئلا يعتل.

فهذا الذى قيل فيه : لم يتوكل من اكتوى؛ لأنه يريد أن يدفع القدر والقدر لا يدافع.

[والثانى]: كى الجرح، إذا نغل - أى فسد - ، والعضو إذا قطع، فهو الذى يشرع التداوى به فإن كان لأمر محتمل فهو خلاف الأولى لما فيه من تعجيل التعذيب بالنار لأمر غير محقق. أهـ.

قلت: ثم ذكر ما قاله ابن قتيبة أن الكى نوعان: كى الصحيح لئلا يعتل - مثل التطعيم - فهو صحيح فيكتوى حتى لايعتل - فهذا الذى قيل فيه: «لم يتوكل من اكتوى» قلت: يغنى - توكلاً كاملاً - فهو صحيح والمرض محتمل.

قال ابن قتيبة: «لأنه يريد أن يدفع القدر، والقدر لا يدافع».

قلت: وهذه مصيبة أخرى أنه يريد دفع القدر ولكن إذا كان قصده أنه يأخذ بالأسباب معتقد أن قدر الله نافذ فهذا ليس فيه شىء لكن يقدح فى كمال توكله.

---

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٤٤٤)، وأبو داود (٣٨٦٥)، والنسائى فى «الكبير» (٧٦٠٢)، والترمذى (٣٤٩)، وابن ماجة (٣٤٩٠) من رواية الحسن عن عمران به.
وانظر «الطب النبوى» (٥٠٠ - بتحقيقنا).

ثم قال: «والثانى كى الجرح إذا فسد» يعنى إذا قُطع يده ولم يتعين شفاؤه إلا بالكى فهذا يشرع التداوى فيه، ثم قال: «إذا كان الكى لا مر يحتمل فهذا خلاف الأولى لما فيه من التعجيل بالتعذيب بالنار لأمر غير محقق» فذكر علة أخرى. وهذا الفهم من ابن قتيبة يؤيد أنهم لايكتوون الكى الظنى وهذا يؤيد ماذهبنا إليه.

قال ابن حجر: وحاصل الجمع أن الفعل يدل على الجواز، وعدم الفعل لايدل على المنع، بل يدل على أن تركه أرجح من فعله، وكذا الثناء على تاركه.

وأما النهى عنه فإما على سبيل الاختيار والتنزيه، وإما عما لايتعين طريقاً إلى الشفاء. والله أعلم. أهـ.

قال الفقير: قول ابن حجر: «وحاصل الجمع أن الفعل يدل على الجواز» إلا أن هذا الجواز مشروط بأنه ما فعل إلا فى حالتين يتعين فيهما الكى.

وقلنا ذلك جمعاً بين الروايات لأنه نهى: «وعدم الفعل لايدل على المنع بل يدل على أن تركه أرجح» وكذا الثناء على تاركه «وأما النهى عنه فاءما على سبيل الاختيار والتنزيه وإما عما لايتعين طريقاً للشفاء» فأثنى عليهم لأنهم تركوا المرجوح فليس لأن هذه الأسباب محرمة بل لأنها خلاف الأولى، وذهب الحافظ إلى أنه إذا اكتوى فى حالة لايتعين فيها الكى فكأنه فعل محرماً وليس مكروها، أما إذا تعين فهذا مندوب، وأما إذا كان محتملاً فهذا خلاف الأولى، وأما إذا لم يتعين فهو محرم، إلا أنه يعكر عليه أن عمران بن الحصين لم يفهم هذا. فعلى هذا الفهم قلنا: نورد الإيرادات التى تمسك بها بعض العلماء فى أن هذا الحديث أصل فى كراهة الرقى والكى من بين سائر الأدوية. فبعض الصوفية قالوا بكراهة التداوى نهائياً لأنه يقدح فى التوكل على الله والبعض قال: إن التداوى مشروع إلا الكى والرقى.

وأجاب العلماء على ذلك بأجوبة فإذا حملنا الأحاديث على ماذهبنا إليه لعلمنا أن الأحاديث لاتنهى عن كى أورقى، وسعيد بن جبير لم ينكر على حصين بن عبدالرحمن حينما ارتقى وقال: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع» على الرغم من أنه راوى حديث: «لا يرقون ولايسترقون ولا يكتوون» فلو كان يعلم النهى أصلاً عن الكى لأنكر عليه.

لكن تتمة للموضوع نورد الشبه والردود:

كره بعض الناس الرقى والكى من سائر الأدوية، فأجاب العلماء بأجوبة منها:

الجواب الأول:

ما قاله الطـبرى والمازرى وطائفة من أهل العـلم أنه محمول على من جـانب اعتقاد الطبائعيين فى أن الأدوية تنفع بطبعها.

فكأنه لايكتوون الكى الذى فيه اعتقادات جاهـلية ولا يرقون الرقى التى فيها اعتقادات جاهلية بأن الأدوية تنفع بنفسها وليسـت بقدر الله وهذا الكلام يرده أن السبعين ألفاً لهم ميزة عن بقيـة المسلمين، لأن معظم المسـلمين يعتقدون أن الشافـى هو الله والمقصود من كلام الطبرى أنه غيـر صحيح أن نقول بأن الرقى والكى مكـروه عن سائر الأدوية سواء هو منطقى أو لا. لكن هذه تأويلات تبين أن هذا الفهم خاطئ.

الجواب الثانى: أن المراد بترك الرقـى والكى الاعتماد على الله فـى دفع الداء والرضا بقدره.

فأنا راضٍ بـقدرك وعلامة رضاى أنـى لا أتسبب فى رفع هـذا القدر كما قـال بعض السلف وهو يُعاد فى مـرضه ويشفعون عليه فقال: «أحبه له أحـبه لى» فأرادوا أن يمعنوا فى الرضا فلم يباشروا أى سبب يدفع هذا القدر.

قالوا: «والـرضا بقدر لا القـدح فى جواز ذلك» يعنـى لم يقدحوا فـى جواز ذلك، وقلنـا: إن الترك فى حالات وليـس فى كل حالة: ولو كـان فى كل شىء إذن لعطـلنا الأسباب وكانت دعوة للتواكل. قال: «لا القدح فى جواز ذلك لثبوته فى الأحاديث وعن السلـف الصالح لكن مـقام الرضا والتسـليم أعلى مـن تعاطى الأسباب». ولـهذا ذهب الخطابى وطائفة من الـعلماء ورجحه النووى فقال: «وحاصله أن هؤلاء كـمال تفويضهم إلى الله عز وجل فلم يتـسببوا فى دفع ما أوقعه بهم ولا شكوا فى فـضيلة هذا ورجحان صاحبها، أما تطيب النبى ﷺ ففعله ليبين لنا الجواز والله أعلم.

إلا أن ابن حجـر رحمه الله قال: والحق أن مـن وثقه بالله وأيـقين أن قضاءه عـليه ماضٍ وأنه راضٍ بقضاءه خيره وشـره، لايقدح فى توكله تعاطيه الأسباب القـطعية اتباعاً لسنتـه». فسنة النبى ﷺ مـضرب المثل فى الأخذ بـالأسباب فقد حارب النـبى ﷺ بين درعين ولبس على رأسـه المغفر وأقعد الرماة على فم الشعـب وخندق حول المدينة وأذن فى الهجرة للحبـشة وهاجر للمدينة، وتعاطى أسباب الأكـل والشرب وادخر لأهله قوت سنة كمـا هو ثابت فى الصحيـح، ولم ينتظر أن تمطـر عليه السماء ذهبـاً وقد كان أحق بذلك من غيره، وقال للذى سأل أعـقل ناقتى أم أدعها وأتوكل؟ قال: **«اعقلها وتوكل»** فدل على أن الاحتراز لايدفع التوكل والله أعلم.

فكلام النووى والخطابى محمول على أنه إذا لم تتعين الأدوية سبيلاً للشفاء وإلا إذا تعينت فمستحب لهن أن يتعاطوا الأسباب وإذا قلت بالأ مر بالتداوى فى قوله النبى: **«تداووا عباد الله»** والأمر يحمل على الوجوب فيصبح تعاطى الأسباب واجباً ولا أعلم أحداً من العلماء حمل هذا الحديث على الوجوب والذى يؤكد أن الكى والرقية فى الحديث أن السبعين ألفاً لا يكتوون ولا يسترقون الرقى والكى الظنى الذى يؤكد ذلك قول النبى ﷺ فى ذات الحديث **«ولا يتطيرون» كيف ذلك؟ فربطه بالطيرة الكى والرقية** المنفية يدل على الكى الظن والرقية الظنية كالطيرة تماماً بتمام. فالطيرة أمر ظنى فكان الجاهليون إذا أرادوا أمراً قاموا للطير فإن ذهب يمنة تيمنوا، وفعلوا وإن ذهب يسرة تشائموا ورجعوا.

هذا الكلام ظنى فمن الممكن أن تطير جهة اليمن ويحصل الشر والعكس فكونها طارت جهة اليمن وحصل الخير أحياناً فهذا أمر محتمل وظنى.

الطيرة: هى التشاؤم وهى من الأمور الجاهلية وهناك أحاديث لاتخلوا من ضعف إلا أنه ربما بجمع الطرق تحسن ومنها **«ثلاثة لايسلم منهن أحد الطيرة والظن والحسد»**.

قال سليمان آل الشيخ[1]: **قوله: «ولا يكتوون»** أى لا يسألون غيرهم أن يكويهم، كما لا يسألون غيرهم أن يرقاهم استسلاماً للقضاء وتلذذاً بالبلاء. أما الكى فى نفسه فجائز كما فى «الصحيح».

عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ، بعث إلى أُبى بن كَعْبٍ طَبِيباً، فَقَطَعَ لَهُ عِرْقاً وَكَوَاهُ.[2]

وفى «صحيح البخارى» عن أنسٍ: أَنَّهُ كُوِيَ مِنْ ذَاتِ الجَنْبِ والنبى ﷺ حَىٌ[3].

وروى الترمذى وغيره عن أنسٍ: **أَنَّ النبى ﷺ كَوَى أَسْعَدَ بِنَ زرَارَةَ مِنَ الشوْكَةِ**[4].

(١) تيسير العزيز الحميد ٧٩.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧/٤٤٨/٧٣) وانظر فتح «المجيد» (ح ١١٢) بتخريجنا.

(٣) [صحيح] رواه البخارى (٥٧٢١) وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد (ح١١٣) والطب النبوى للذهبى بتخريجنا.

(٤) [المحفوظ مرسل] رواه الترمذى (٢٠٥٠) قال الترمذى: حسن غريب، وانظر «فتح المجيد» (ح١١٤) بتخريجنا).

وفى «صحيح البخارى»: عن ابنِ عبَّاسٍ مرفوعاً: «الشِفَاءُ فى ثَلاثٍ: شَربَةُ عَسَلٍ، وَشَرطَةُ مُحجَمٍ، وَكَيَّةُ نَارٍ. وأَنهَى أُمتِى عَنِ الكَىِّ»(١).

وفى لفظ: «وما أُحِبُّ أَن أَكْتَوِىَ»(٢).

قال ابن القيم: فقد تضمنت أحاديث الكى أربعة أنواع: **أحدها**: فعله، **والثانى**: عدم محبته له. **والثالث**: الثناء على من تركه. **والرابع**: النهى عنه. ولا تعارض بينهما بحمد الله، فإن فعله له يدل على جوازه؛ وعدم محبته له لا يدل على المنع منه. وأما الثناء على تاركيه فيدل على أن تركه أولى وأفضل. وأما النهى عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهية. أهـ

قال ابن عثيمين(٣):

والصحيح:

١ - أن ما علم أو غلب على الظن نفعه مع احتمال الهلاك بعدمه؛ فهو واجب.

٢ - ما غلب على الظن نفعه، لكن ليس هناك هلاك محقق بتركه؛ فهو أفضل.

٣ - ما تساوى فيه الأمران؛ فتركه أفضل.

● **مسألة**:

قال ابن عثيمين: وإذا طَلبَ منك إنسان أن يرقيك؛ فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟

الجواب: لا يفوتك؛ لأنَّ النبى ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه(٤)، وهو أكمل الخلق توكّلاً على الله وثقةً به، ولأنَّ هذا الحديث: «لايسترقون...» إلخ إنَّما كان فى طلب هذه الأشياء، ولايخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب أهـ

[قلت]: قوله: ﴿ولا يكتوون﴾: لا يطلبون الكى من غيرهم بعكس لا يكوون: لا يكوون أنفسهم لماذا؟ لأن الكى فى هذه الحالة لا يتعين سبيلاً للشفاء؟ بل كان الشفاء به محتملاً أو بعيدًا فلم يعذب نفسه ولم يحرق نفسه بدواءٍ المصلحة فيه محتملة، وحسمًا

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٦٨٠) وانظر «الطب النبوى» (٤٩٧) وفتح المجيد (ح ١١٥) بتحقيقنا.

(٢) تقدم قريباً عن جابر.

(٣) انظر القول المفيد (١/ ١٢٩).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٠١٦)، ومسلم فى السلام (١٤/ ١٨٢ - النووى) وانظر «الطب النبوى» (٥٦٣ - بتحقيقنا).

للمادة وسداً للذرائع ولكمال توكله على الله لم يأخذ بسبب ضعيف، وترك الكى فى هذه الحالة.

● **لماذا كان هذا التأويل لقوله: ﴿لا يكتوون﴾؟**

الجواب من وجوه:

النبى ﷺ باشر الكى كما قال ابن القيم فى الطب وأقره ونهى عنه وكرهه ؟فمرة أقره ومرة باشره ومرة نهى عنه ومرة كرهه.

قال النبى ﷺ: «**الشفاء فى ثلاث: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار**».

والحديث فى الصحيح. وقال النبى: «**وما أحب أن أكتوى**». وفى رواية: «**نهى عن الكى**» وفى رواية: «**أنهى أمتى عن الكى**» فالنهى هنا نهى كراهة. فلما نهى كان النهى للكراهة فقوله: «**وما أحب أن أكتوى**» أو: «إنى أنهى أمتى عن الكى» لأن النهى أول ما يحمل على التحريم، ويصرف من التحريم إلى الكراهة بقرينة، وهنا توجد قرينة وهى قوله ﷺ «**الشفاء فى ثلاث...**» الحديث.

فقوله ﷺ: «الشفاء فى ثلاث: شربة عسل أو شرطة محجم أو كية نار» يجيز النبى ﷺ الكى فى بعض الأحيان بغير كراهة إذا تعين سبيلاً للشفاء كما قال الشراح. ككى الجرح إذا فسد فلا يلتئم إلا بالكى أو شخص قُطع عضو منه، ولا سبيل لغلق الجرح إلا بالكى «فهو جائز بغير كراهة» أو مستحب والدليل: «الشفاء فى ثلاثة».

ولما باشر عندما تعين سبيلاً للشفاء فجائز بغير كراهة لأن النبى ﷺ لا يفعل الكراهة ففعله يدل على أنه جائز لذلك فإن الأصوليين يكرهون أن يسموا فعل النبى ﷺ مكروهًا وإن كان لابد فيسمى [خلاف الأولى].

فإذا لم يتعين سبيلاً للشفاء جائز لكن مع الكراهة لأنه ظنى الشفاء ولأنه عذب نفسه بغير فائدة، بل الفائدة ظنية محتملة ودليله قوله: «**وما أحب أن أكتوى**» وقوله: «**أنهى أمتى عن الكى**»، والثناء على تارك الكى وقوله فى الحديث «**لا يكتوون**».

ومن لم يتركه فى هذه الحالة هل يحرم عليه؟

الجواب: لا يحرم: لكن الأفضل له والمستحب ترك الكى فى هذه الحالة لأنه بالترك سيدخل فى السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

ويكره له الكى فى هذه الحالة لأن الشفاء به ظنى وسيحرمه من الدخول فى السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

٣ـ وإذا استوى الطرفان هل يشفى أم لا ؟ هل يكتوى أيضًا؟

الجواب: أن الأولى تركه لكمال التوكل.

● علاقة الكى والرقى بالطيرة فى الحديث:

قال الفقير: ليبين ويؤكد أن الكى والرقية فى الحديث المقصود بهما الكى الظنى والرقى الظنية ويؤكد ذلك قوله: **«لا يتطيرون»**.

كيف ذلك؟

الجواب: أنه ربط بالطيرة الكى والرقية المنفية، يدل على الكى الظنى والرقية الظنية، كالطيرة تمامًا بتمام، فالطيرة أمر ظنى فكان أهل الجاهلية إذا أرادوا أمرًا قاموا للطير فإن ذهب يمنة تيمنوا واستبشروا وفعلوا ، وإن ذهب يسرة تشاءموا ورجعوا ، هذا كله أمر ظنى، فمن الممكن أن تطير جهة اليمين ويحصل لهم الشر والعكس، فكونها طارت جهة اليمين وحصل الخير أحيانًا فهذا أمر محتمل وظنى. **وخلاصة القول:**

لماذا فصل العلماء هذا التفصيل بالنسبة للرقى والكى إلى [قطعية الشفاء وظنية الشفاء]؟

قال الفقير: الجواب من وجوه:

(١) للجمع بين الأحاديث

(٢)لاختلاف الناس فى درجات الإيمان.

(٣) لكلمة «ولا يتطيرون»

والطيرة ظنية.

إذن هؤلاء السبعين ألف لم يتعلقوا بظنون أصلاً ولكن تعلقوا بقطعيات استمدوا قطعيتها من الشرع أو من الواقع الذى لا يخالف الشرع (الطب- التجربة).

فالقاسم المشترك بين الرقى والكى والطيرة المنفى عنهم أن الجميع ظنى الدلالة على المطلوب. فالجاهلية لا تتعلق إلا بظنون ولا تتعلق إلا بأمانى .

(٤) ولقوله أيضًا: «وعلى ربهم يتوكلون»

لصدق التجائهم إليه وصدق توكلهم عليه لم يأخذوا إلا بأسباب قطعية قوية لا تقدح في كمال توكلهم لهذا لم يأخذوا بأقوال أو أسباب بدعية أو حتى ظنية «تضعف كمال توكلهم على الله عز وجل.

التوكل على الله أن نعتقد قول الله تعالى ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا**﴾ والتوكل لا يكمل إلا بأخذ سبب قوى ويضعف إذا كان السبب ضعيفًا ويفنى ويتلاشى بالكلية إذا لم يكن ثمة سبب.

ولهذا أمرنا النبي ﷺ بالتداوى كأسباب للعلاج وهذا الحديث (السبعين ألف) لا ينفى التداوى ولكن يثبت التداوى بالقطعيات لمن آمن برب السموات. أصل التداوى حتى بالظنى مباح ولكنه مكروه إذا كان يقدح فى كمال التوكل.

● **قوله: «ولا يتطيرون».**

قال ابن حجر[(١)]: والمراد أنهم لايتشاءمون كما كانوا يفعلون فى الجاهلية. أهـ

قال ابن عثيمين[(٢)]:

قوله: «ولا يتطيرون».

مأخوذ من الطير، والمصدر منه تطيّر، والطيرة اسم المصدر، وأصله: التشاؤم بالطير، ولكنه أعمُّ من ذلك؛ فهو التشاؤم بمرئى، أو مسموع، أو زمان، أو مكان.

وكانت العرب معروفة بالتَّطيُّر، حتى لو أراد الإنسان منهم خيراً ثم رأى الطير سنحت يميناً أو شمالاً حسب ما كان معروفاً عندهم، تجده يتأخَّر عن هذا الذى أراده.

ومنهم من إذا سمع صوتاً أو رأى شخصاً تشاءم.

ومنهم من يتشاءم فى شهر شوال بالنسبة للنكاح، ولذا قالت عائشة رضى الله عنها: «عقد علىَّ رسول الله ﷺ فى شوال، وبنى بى فى شوال؛ فأيكنَّ كان أحظى عنده»[(٣)].

---

(١) الفتح ١١/ ٤١٧.

(٢) القول المفيد ١/ ١٢٦.

(٣) أخرجه مسلم فى النكاح (٥/ ٢٢٥ـ ٢٢٦ / ٧٣٧).

ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، أو بشهر صفر.

وهذا كله مما أبطله الشرع؛لضرره على الإنسان عقلاً وتفكيراً وسلوكاً، وكون الإنسان لايبالى بهذه الأمـور، هذا هو التوكّل على الله، ولهذا ختم المـسألة بقوله: **«وعلى ربهم يتوكلون»**.

قال الفقير: هناك تـشاؤم شرعى (مـن الجائز أن يتشـاءم المرء به) إذا كان الـتشاؤم قطعى السبب.

● الأدلة من القرآن:

الدليل الأول: قال تعـالي: ﴿**قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ...**﴾ فهذا قول الكـفار للرسل، فقالت الرسل: ﴿**طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾.

فأثبـتوا أن هناك تطـير، لكن لـيـس بالرسل، بل تـطير بالكـفر والكفار، يـعني: ﴿**طَائِرُكُم مَّعَكُمْ**﴾ وماذا معهم؟ الكفر، فجاز التشاؤم بالكفر.

وهناك تشاؤم غير مـشروع، بل هو ممنوع، وهو ماكان سببه ظـني، وليس له أساس شرعي، فـهو ظنى الدلالـة، والثمرة أنه لـيس عليه آثـاره من علم، فهـذا هو المحرم أو الشرك.

الدليل الثاني: قال تعـالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ**﴾ فشؤمهم عند الله هـو عذابهم، فلما كان كـفرهم شؤم عـلى الأرض، فكان جـزاؤهم الشؤم يـوم القيامـة حيث أفسـدوا فى الأرض.

● الأدلة من السنة:

قوله ﷺ: «**إن من شـقاء المرء فـى الدنيا سـوء الدار والمرأة والـدابة**» والحديث عند الطبرانى من حديث أسماء(1)، وأصله فى الصحيح مـن حديث ابن عمر قال: «**ذكروا** الشؤم عـند النبـى ﷺ، فقال النبى ﷺ «**إن كان الـشؤم فـى شيء فـفى الـدار والمرأة والفرس**»(2) وكذلك أثبت اليُمن فى نفس الثلاثة، فقال ﷺ: «**من سعادة ابن ادم ثلاثة: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح**»(3).

(1، 2، 3) [صحيح] البخارى مع اللفتح (9/ 40، 41/ 5094).

والحديث في المسند وغيره وصححه ابن حبان من حديث سعد مرفوعًا.

فإذا كانت الزوجة صالحة فيسعد، وإن كانت غير ذلك فيا شؤمه وويله منها، فالمرأة نفسها وعاء لليُمن والشؤم، وسيأتي في التبرك المشروع وجود البركة في بعض النساء، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت امرأة أكثر بركة على أهلها من جويرية» لأنها أُعتق بسبب زواجها من النبي ﷺ الكثير، فكان هذا من بركتها، وسبب البركة كان سبب شرعي، وخير لمسه أهلها، وكذلك الشؤم تكون نكد على زوجها وأهلها.

أما الدار فيكون شؤم بأن تكون بعيدة عن المسجد لا يسمع الآذان، أو يكون في الطابق السادس فيكسل عن النزول للمسجد ويصلي فوق، أو ضيقة فلا يضيف الضيفان عنده، أو لا يعرف يستر عورته عن أولاده، وغير ذلك بما يحرمه من تحصيل خير كثير.

فالتشاؤم بالسيئات وأسبابها من التشاؤم المشروع، أما التشاؤم التي بأسباب ليس عليها علم شرعي فهذا ممنوع، فمثلاً شخص حدثت له مصيبة، فقال: هذا بشؤم ذنبي فهذا مشروع مشروع، وأما إذا كان خارج للسعي على رزقه، ولم يفتح عليه الله فقال: أنها أغلقت أبواب الرزق في وجهي اليوم لأني رأيت الإسعاف ، أو قطة سوداء، أو غير ذلك، فهذا ممنوع، ولكن يجوز أن يقول أنها لأني كنت ألعب طاولة أو شاهدت التلفاز، أو لأني سببت الدين في الصباح، فهذا الاعتقاد شيء طيب.

مثال: أصحاب الجنة الذين هموا بذنب ولم يفعلوه، ولكن حرمهم الله الرزق حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ وهذا مصداق ما جاء في الحديث : «إن العبد ليحرم الرزق قد كان هيء له بالذنب يصيبه» فلو رجع شؤم حرمان الرزق لذنب ارتكبه فهذا الشؤم المشروع وعن ابن مسعود «أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخشى أن يقع عليه أما المنافق يرى ذنبه كالذبابة وقفت على أنفه فقال لها هكذا».

فلكون الرجل يرى ذنبه كالجبل، ويخاف أن يعاقبه الله وينتظر ذلك في نفسه أو في أولاده، أو يسلط عليه الظلمة، وغير ذلك فهذه ظاهرة صحة الإيمان

وفي الحديث: «فإذا تشاءمت فلا ترجع» فأي أمر تتشاءم منه إذا كان شؤم ظني أما إذا كان قطعي مثلاً: تشاءمت بالمعصية، فهل يجوز التشاؤم بالمعصية أم لا؟ نعم يجوز ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ قَالُوا ...﴾.

قالت الرسل: طائركم معكم ، أي: شؤمكم معكم، وهو شركهم ومعصيتهم، فلك

أن تتطير بالمعصية والمخالفة كيف ذلك؟توقن أن الله آخذك بهذا الذنب، فتستغفر وتخشى وفى الحديث **«علم عبدى أن له رب يأخذ بالذنب»** كيف علم ذلك؟ علم ذلك بذنبه فهل هذا الشوم قطعي؟ نعم لأنه منضبط بضابط شرعي، فيرجع عن فعله لعل الله أن يغفره له.

فالرسول يقول: **«فإذا تطيرت فلا ترجع»** فإذا تطيرت تطيرًا جاهليًا، مثل قطة سوداء، أو بوليس النجدة ، أو شخص بعينه، فهذا تشاؤم ظني، فإذا كنت متوكلاً على الله حق التوكل فلا ترجعك هذه الظنون عن أمور أنت مطالب بها فأنت مطالب بالخروج لطلب الرزق، أو بالخروج للدعوة أو لطلب العلم، وأنت ممتثل فلما ترجع، ترجع لأمر جاهلي، فيكون تحاكم لأمر جاهلي.

قال النبى ﷺ: **«فإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق»** وهذا مرسل ، أو معضل، لكن له شاهد من حديث أبى هريرة عند البيهقى فى الشعب، وأخرج أيضًا ابن عدى عن أبى هريرة بسند لين مرفوعًا **«إذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا»** كما قال الله تعالى فى وصف الرسل ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا**﴾ فلم يتشاءموا بالكفرة ولم يرجعهم هذا الأذى أن يرجعوا لأنهم متوكلون ومهتدون ، يعتقدون أن ما يفعلونه أمورًا شرعية، وكيف يتنازلون عنها من أجل أمور شركية أو جاهلية وقد بين ابن القيم فى **«مدارج السالكين»** أن أساس الأمور كلها هدايتك للحق ثم توكلك على الحق سبحانه وتعالى» فهذا رأس كل خير، فتوقن أن ما أنت عليه حق ومعك أدلتك، فإذا عرض لك عارض فانظر فيه هل لك أن تتشاءم به، فإن كان جاهلى فليس لك أن تتشاءم به، وليس لك أن ترجع عن هدى وليس لك إلا أن تتوكل على الله عز وجل ، وفى الحديث **«إذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا»** وعن ابن مسعود مرفوعًا **«الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن يذهبه الله بالتوكل»** . فهى شرك، لأن فيها صرف عبادة لغير الله ، وفيها نوع تحكم وتحاكم لغير الله، وقد يكون أكبر أو أصغر على التفصيل.

وقد بين أيضًا الحافظ ابن حجر أن فى الخبر جعل ذلك شركًا لاعتقادهم أن هذه الطيرة تجلب نفعًا أو تدفع ضرًا، فهذا الاعتقاد إن كانوا يعتقدون أن هذه الطيرة تنفع كنفع الله عز وجل، أو تدفع ضرًا كدفع الله، فهذا شرك أكبر، ولابد إما أن كانوا يعتقدون أن النافع على الحقيقة هو الله، وأن بيده النفع ودفع الضر، ولكن هذه قد تكون أسباب فهذا شرك أصغر لأنهم أخذوا بأسباب غير شرعية فوقعوا فى شرك أصغر.

وسيأتى تفصيل وبيان لمسائل الطيرة، وما يتعلق بها فى الباب السابع والعشرين إن شاء الله تعالى .

● **قوله: «وعلى ربهم يتوكلون».**

قال الفقير: معنى التوكل:

قال الإمام أحمد : التوكل عمل القلب.

وقيل: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

وقيل: انطراح القلب بين يدى الرب كانطراح الميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء.

قال بشر الحافي: يقول أحدهم توكلت على الله يكذب على الله لو توكل على الله رضى بما يفعل الله.

وسئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً فقال: إذا رضى بالله وكيلاً.

ومنهم من يفسره بالثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه .

روى أبو نعيم فى «الحلية» أن بشراً سُئِل عن التوكل فقال:

اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب، فقال له السائل فسره لنا فقال:

اضطراب بلا سكون: رجل تضطرب جوارحه وقلبه ساكن إلى الله لا إلى عمله، وسكون بلا اضطراب رجل ساكن إلى الله بلا حركة وهذا عزيز(١).

وقيل التوكل أن يستوى عندك الإكثار والإقلال.

● **حقيقة التوكل: قال ابن رجب:**

حقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل فى استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، ووكلت الأمور كلها إليه وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطى ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه.

قال سعيد بن حبيب: التوكل جماع الإيمان، وقال وهب بن منبه: الغاية القصوى التوكل.

قال الحسن: أن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته ، وفى الحديث عن ابن عباس عن النبى ﷺ «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله».

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الجزء (٢) ص ٧٧٥.

فائدة:

قال ابن رجب: المتوكل على الله حق التوكل لا يأتى بالتوكل ويجعله سببًا لحصول الكفايـة له من الله بالرزق وغيـره، فإنه لو فعل ذلك لـكان كمن أتى بسـائر الأسباب لاستجلاب الرزق والكفاية بها وهذا نوع نقص فـى تحقيق التوكل. وإنما التوكل حقيقة هو أن يعـلم أن الله قد ضمن لعـبده رزق وكفايته فـيصدق الله فيما ضـمنه ويثق بقـلبه ويحقق الاعتـماد عليه فيضمنه مـن الرزق من غير أن يخرج التوكل فـخرج الأسباب فى استجـلاب الرزق والرزق مقسوم لـكل أحد بر وفاجر مـؤمن وكافر ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ ﴿**وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ**﴾.

فما دام العبـد حيًا فرزقه على الله ، وقد ييـسره الله له بكسب، وبغيـر كسب فمن توكل عـلى الله لطلب الـرزق فقد جعل الـتوكل سبب وكـسبًا ومن توكـل عليه لثـقته بضمانه، فقد توكل عليه ثقة به وتصديقًا بوعده. اهـ.

ومعنـى هذا الكلام السابـق أنه لا يصلح توكـل بدون مباشرة الأسبـاب ولا الركون للأسـباب بدون تـوكل بـل لابد من الـسعى والـتوكل هـذا معنـى حديـث «اعقلـها وتوكل»(*).

قال ابن رجب : فى جامع العلوم والحكم:

واعلم أن تحقيـق التوكل لا ينافى السعـى فى الأسباب التى قدر الله سبحـانه وتعالى المقدورات بـها، وجرت سنتـه فى خلقه بـذلك فإن الله أمر بـتعاطى الأسبـاب مع أمره بالتوكل ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ فالسعى فى الأسباب بالجـوارح طاعة له والتوكل بالـقلب عليه إيمان به . قـال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾ ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾ ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ**﴾ .

قال سهل التستري: من طعن فى الحركة (السعى والكسب) فقد طعن فى السُّنة، ومن طعن فى التوكل فقـد طعن فى الإيمان، فالتوكل حال النبى ﷺ، والكـسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته .

(*) الترمذى من ح أنس وقال غريـب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ونقل عن يحيى بـن القطان أنه منكر لكن معناه صحيح صحيح.

والأعمال التى عملها العبد ثلاثة أقسام:

الأول: الطاعات التـى أمر الله بها وجعلها سببًا للنجاة من النار ودخـلوها الجنة، فهذا لابد من فعله مع التوكل على الذين فيه والاستعانة به عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلا به، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فمن قصر فى شيء فى واجب عليه استحق العقوبة فى الدنيا والآخرة.

الثاني: ما أجـرى الله العادة به فى الدنيا وأمـر عباده بتعاطيه كـالأكل عند الجوع، والشرب عند العطش، والاستظلال من الحر، والتدفؤ من ا لبرد فهذا واجب على المرء تعاطى أسـبابه ومن قصر فـيه حتى تضرر بتـركه مع القدرة علـى استعماله فـهو مفرط يستحـق العقوبة ، ولكن الله سـبحانه قد يقوى بعـض عباده ما لا يقوى علـيه غيره كالوصال للنبى فى الصيام.

الثالث: ما أجرى الله بـه العادة فى الأعم الأغلب، وقد يخرق الـعادة فى ذلك لمن شاء من عباده فقوله ﷺ: «**لو توكلتم على الله حق توكله**» يبين أن الناس يؤتون من قلة تحقيق لتوكل، ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم ومساكنتهم لها، فلو حققوا التوكل على الله بقلـوبهم لساق إليهم أرزاقهم مـع أدنى سبب، كما يسوق إلى الـطير أرزاقها بمجرد الغـدو والرواح، وهو نوع من الطـلب، والسعى لكـنه طلب يسيـر، وربما حرم الإنسان رزقـه بالذنب يصيـبه كما تقدم فـى الحديث: «**إن العبـد ليحرم الرزق بـالذنب يصيبه**»

درجات التوكل(١):

ذكر ابن الـقيم: **الدرجة الأولى**: معرفة بالـرب وصفاته من قدرته وكفايتـه وقيومته وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته .

فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى.

الدرجة الثانية: إثبات فى الأسـباب والمسببات. نفاة الأسـباب لا يستقيم لـهم توكل البتة فالتوكل من أعظم الأسباب التى يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يـستقم منه الـتوكل ، ولكن من تمـام التوكل عدم الركـون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها.

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب فى مقام توحيد التوكل:

(١) مدارج السالكين.

فإنه لايستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده بل حقيقة التوكل توحيد القلب. وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل.

والتوكل لايتم إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه المتوكل كالطفل الرضيع فى إعتماده وسكونه وطمانيته بثدى أمه لايعرف غيره وليس فى قلبه إلتفات إلى غيره.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.

فعلى قدر حسن ظنك بربك رجائك له يكون توكلك عليه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعية كلها إليه أن يكون العبد بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل.

الدرجة السابعة: التفويض هو روح التوكيل ولبه وحقيقته وهو القاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً لاكرهاً واضطراراً.

بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه.

الدرجة الثامنة: الرضا ثمرة التوكل:

فإذا توكل العبد حق التوكل رضى بما يفعله وليكن. (وكيله) يقول ابن القيم.

وكان شيخنا أى ابن تيمية يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله والرضى بعده فمن توكل على الله قبل الفعل ورضى بالمقضى له بعد الفعل فقد قام بالعبودية.

قلت: أى ابن القيم: وهذا معنى قوله ﷺ: «اللهم انى استخيرك بعلمك واستقدرتك بقدرتك واسألك من فضلك العظيم. فهذا توكل وتفويض.

قوله: «فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وانت علام الغيوب».

فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة وتوسل إليه سبحانه بصفاته التى هى أحب ما توسل إليه بها المتوسلون.

ثم مسألة ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته وان يصرفه عنه إن كان فيه مضرته.

فلم يبق عليه إلا الرضى بما تقضيه له فقال: «واقدر لى الخير حيث كان ثم رضى به».

● **فائدة مناسبة ذكر هذه الصفة بعد الخصال المتقدم ذكرها:**

قال ابن حجر[1]:

قوله (وعلى ربهم يتوكلون) يحتمل أن تكون هذه الجملة مفسرة لما تقدم من ترك الإسترقاء والاكتواء والطيرة، ويحتمل أن تكون من العام بعد الخاص لأن صفة كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل وهو أعم من ذلك.

وقال القرطبي وغيره: قالت طائفة من الصوفية لايستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى، حتى لو هجم عليه الأسد لاينزعج، وحتى لا يسعى فى طلب الرزق لكون الله ضمنه له. وأبى هذا الجمهور .

وقالوا: يحصل التوكل بأن يثق بوعد الله ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة فى ابتغاء الرزق مما لابد له منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه بل يعتقد أنها لاتجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح فى توكله، وهم مع ذلك فيه على قسمين: واصل وسالك، فالأول صفة الواصل وهو الذى لا يلتفت إلى الأسباب ولو تعاطاها، وأما السالك فيقع له الالتفات إلى السبب أحياناً إلا أنه يدفع ذلك عن نفسه بالطرق العلمية والأذواق الحالية إلى أن يرتقى إلى مقام الواصل.

وقال أبو القاسم القشيرى: التوكل محله القلب، وأما الحركة الظاهرة فلا تنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من قبل الله، فإن تيسر شيء فبتيسيره وإن تعسر فبتقديره.

ومن الأدلة على مشروعية الإكتساب حديث أبى هريرة رفعه «**أفضل ما أكل الرجل من كسبه، وكان داود يأكل من كسبه**» فقد قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَخُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾. وأما قول القائل كيف تطلب مالا تعرف مكانه فجوابه أنه يفعل السبب المأمور به ويتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته فيشق الأرض مثلاً ويلقى الحب ويتوكل على الله فى إنباته وإنزال الغيث له، ويحصل السلعة مثلاً وينقلها ويتوكل على الله فى إلقاء الرغبة فى قلب من يطلبها منه، بل ربما كان التكسب واجباً كقادر على الكسب يحتاج عياله للنفقة فمتى ترك ذلك كان عاصياً.

(١) الفتح ١١/٤١٧ - ٤١٩.

وسلك الكرمانى فى الصفات المذكـورة مسلك التأويل فقال: **قوله «لايكتوون» معناه** إلا عند الضـرورة مع اعتقاد أن الشـفاء من الله لا من مجرد الـكى، وقوله **«ويسترقون»** معناه بـالرقى التى ليسـت فى القرآن والحديث الصحـيح كرقى الجاهليـة وما لايؤمن أن يكون فيه شرك، وقوله: **«ولا يتطيرون»** أى لا يتشاءمون بشىء فـكأن المراد أنهم الذين يتركون أعمال الجاهلية فى عقائدهم.

● **إشكال وجوابه.**

قال ـ أى الكـرمانى ـ: فإن قيل إن المـتصف بهذا أكثـر من العدد المذكور فـما وجه الحصر فيه؟.

وأجاب باحتمال أن يكون المراد به التكثير لا خصوص العدد.

قلت يعنى ابن حجر: الظاهر أن العدد المذكور على ظـاهره، فقد وقع فى حديث أبى هريرة وصفهم بأنهم **«تضىء وجوهم إضاءة القـمر ليلة البدر»**(1) وفى بدء الخلـق عند البخارى من طريق عبد الرحمن بن أبى عمرة عن أبى هريرة رفعه **«أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر، والذين على آثارهـم كأحسن كوكب درى فى السماء إضاءة»**(2).

وأخرجه مسلم من طرق عن أبى هريرة: منها رواية أبى يونس وهمام عن أبى هريرة **«على صورة القمر»**.

وله مـن حديث جـابر **«فتنـجو أول زمرة وجوهـم كالقمـر ليلة الـبدر سبعـون ألفاً لايحاسبون»**(3).

سؤال: هل هذه نذارة أم بشارة؟

الجواب: (قال الفقير): أنها نذارة، وليس بشارة، لأنه لو لم يكن إلا هذا العدد الذى يدخل الجنة بغير حـساب، فنقطع بأننا جميعاً سنحاسـب، وردا كان هذه العدد فقط هو الذى يدخل الجنة بـغير عذاب فنقطع جميعـاً أننا سنعذب، لكن اقتضت حـكمة الحكيم حيث أن شرعه أيضاً **﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾** أننا لانقـطع بجنة أو نار ولا نقـنط أحداً من رحمة الله، بل نـسير كما كان سلـفنا بين الخوف والـرجاء. فنحـن لانرجو لدرجـة التفـريط، ولا نقنـط لدرجة الإفراط والـيأس والقنوط من رحمـة الله عز وجل، بل نكون بين الخوف والرجاء، وهـذان هما الجناحان اللذان بهما ندخل الجنة إن شاء الله.

---

(1)، (2) تقدم تخريجهما.

(3) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٤٧٢/٣١٦).

وهذا الحديث ليس به رجاء بل به خوف. وفيه أننا نقطع الآن أننا داخلون جهنم جميعاً إن لم يكن من السبعين ألفاً، لكن بالاستقراء والجمع لطرق هذا الحديث ولغيره من الطرق كما فعل ابن حجر فى شرح الحديث، حيث قال: وقد وقع فى أحاديث أخرى أن مع السبعين ألفاً زيادة عليهم، ففى حديث أبى هريرة عند أحمد والبيهقى فى البعث من رواية سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال **«سألت ربى فوعدنى أن يدخل الجنة من أمتى»**[(١)].

فذكر الحديث نحو سياق حديث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ثانى أحاديث الباب وزاد **«فاستزدت ربى فزادنى مع كل ألف سبعين ألفاً»** وسنده جيد.

وفى الباب عن أبى أيوب عند الطبرانى[(٢)] وعن حذيفة عند أحمد[(٣)] وعن أنس عند البزار[(٤)] وعن ثوبان عند ابن أبى عاصم[(٥)] فهذه طرق يقوى بعضها بعضاً.

وجاء فى أحاديث أخرى أكثر من ذلك: فأخرج الترمذى وحسنه والطبرانى وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى أمامة رفعه **«وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً مع كل ألف سبعين ألفاً لاحساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربى»**[(٦)].

وفى صحيح ابن حبان أيضاً والطبرانى بسند جيد من حديث عتبة بن عبد نحوه بلفظ **«ثم يشفع كل ألف فى سبعين ألفاً، ثم يحثى ربى ثلاث حثيات بكفيه»** وفيه «فكبر عمر، فقال النبى ﷺ: **«إن السبعين ألفاً يشفعهم الله فى آبائهم وأمهاتهم وعشائرهم وإنى لأرجو أن يكون أدنى أمتى الحثيات»**[(٧)] وأخرجه الحافظ الضياء وقال: لا أعلم له علة.

قلت يعنى ابن حجر: علته الاختلاف فى سنده، فإن الطبرانى أخرجه من رواية أبى سلام حدثنى عامر بن زيد أنه سمع عتبة، ثم أخرجه من طريق أبى سلام أيضاً فقال: «حدثنى عبد الله بن عامر أن قيس بن الحارث حدثه أن أبا سعيد الأنمارى حدثه» فذكره وزاد «قال قيس فقلت لأبى سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: وقال رسول الله ﷺ: **وذلك يستوعب مهاجرى أمتى ويوفى الله بقيتهم من أعرابنا»**.

---

(١) تقدم تخريجه.　　(٢ - ٦) تقدم تخريجهم.

(٧) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه» (٩/ ١٨٤ - ١٨٩ - الإحسان) والطبرانى فى «الكبير» (/ ٣١٢ ١٧/ ١٢٦).

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٤٠٩) ونسبه للطبرانى فى «الأوسط» والكبير».

وفى رواية لابن أبى عاصم قال أبو سعيد «فحسبنا عند رسول الله ﷺ فبلغ أربعة آلاف ألف وتسعمائة ألف» يعنى من عدا الحثيات.

وقد وقع عند أحمد والطبرانى من حديث أبى أيوب نحو حديث عتبة بن عبد وزاد «والخبيئة ـ بمعجمة ثم موحدة وهمزة وزن عظيمة - عند ربى»(١).

وورد من وجه آخر ما يزيد على العدد الذى حسبه أبو سعيد الأنمارى، فعند أحمد وأبى يعلى من حديث أبى بكر الصديق نحوه بلفظ «أعطانى مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً»(٢) وفى سنده راويان أحدهما ضعيف الحفظ والآخر لم يسم. وأخرج البيهقى فى «البعث» من حديث عمرو بن حزم مثله وفيه راو ضعيف أيضاً، واختلف فى سنده وفى سياق متنه. وعند البزار من حديث أنس بسند ضعيف نحوه(٣)، وعند الكلاباذى فى «معانى الأخبار» بسند واه من حديث عائشة «فقدت رسول الله ﷺ ذات يوم فاتبعته فإذا هو فى مشربة يصلى، فرأيت على رأسه ثلاثة أنوار، فلما قضى صلاته قال: «رأيت الأنوار»؟ قلت: نعم. قال: إن آتيا أتانى من ربى فبشرنى أن الله يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، ثم أتانى فبشرنى أن الله يدخل من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، ثم أتانى فبشرنى أن الله يدخل من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفاً المضاعفة سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، فقلت يارب لا يبلغ هذا أمتى قال أكملهم لك من الأعراب ممن لايصوم ولايصلى».

قال الكلاباذى: المراد بالأمة أولا أمة الإجابة، وبقوله آخراً أمتى أمة الإتباع، فإن أمته ﷺ على ثلاثة أقسام:

أحدها: أخص من الآخر أمة الأتباع.

ثم أمة. الإجابة ثم أمة الدعوة.

فالأولى أهل العمل الصالح والثانية مطلق المسلمين والثالثة من عداهم ممن بعث إليهم، ويمكن الجمع بأن القدر الزائد على الذى قبله هو مقدار الحثيات، فقد وقع عند أحمد من رواية قتادة عن النضر بن أنس أوغيره عن أنس رفعه «إن الله وعدنى أن يدخل الجنة من أمتى أربعمائة ألف»، فقال أبو بكر: زدنا يارسول الله، فقال: هكذا وجمع

(١ - ٣) تقدم تخريجهم.

كفيه، فقال: زدنا. فقال وهكذا. فقال عمر حسبك أن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحدة، فقال النبى ﷺ: «صدق عمر»[1] وسنده جيد لكن اختلف على قتادة فى سنده اختلافاً كثيراً. ا. هـ.

سؤال: لماذا لم يذكر الرسول الله ﷺ هذه الزيادة ابتداءً وذكر هذه البشارة بعد هذا التدريج وهذه المرحلية؟

الجواب:

قال الفقير: السبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ولكن يحتمل أن يكون بينهم وبين الزمرة الأولى حوالى خمسمائة سنة، فهم لايعذبوا ووجبت لهم الجنة ورأوا مقاعدهم فيها، ونجو من النار، ولكنهم لن يدخلوا فى الأول، فأول زمرة كما ثبت فى الصحيح فى كتاب الرقاق: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر: سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب» وهم السابقون، كأبى بكر وعمر، ومن كان على شاكلتهم، ولكن هناك أناس سيدخلون الجنة حساب أيضاً، والنبى ﷺ بشرهم، ولكن عملهم لايساوى عمل أبى بكر وعمر، فهل هم سيدخلون الجنة مع أول زمرة؟!.

الجواب: لا. مثال: الرجل الذى أسلم فدعى إلى الجهاد فقال: ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن آكل هذه الثمرات فرمى التمرات، وحارب وقاتل وقتل، ودخل الجنة. فالنبى ﷺ ذكر أنه دخل الجنة، ولم يعمل خيراً قط، فبالله عليك، هذا هو النبى ﷺ بشره بالجنة، وإن قلنا لن يدخل النار ولا عذاب عليه ولا حساب، فهل هذا الرجل سيكون فى الزمرة الأولى مثل أبى بكر وعمر. صحيح أن هذا فضل الله يؤيته من يشاء، والله يضاعف حتى يصير كأبى بكر وعمر؟! هذا لايتصور. والشاهد على هذا من الحديث أن النبى ﷺ: «إنى لأرجو أن يكون أدنى أمتى الحثيات» إذن فهناك درجة دنيا من الذين سيدخلون الجنة بغير حساب إذن أهل الإيمان تتفاوت درجاتهم «السابقون» «الأبرار»... وغيرهم، فهل هؤلاء كلهم يدخلون الجنة فى أن واحد؟

الجواب: لا، ليس من الممكن أن ينعم هذا مثل ذلك أبداً، ولكن فى النهاية كلهم سيدخلون الجنة، ولكن بحسب الدرجات، وإلا لم يكن النبى ﷺ يقول: «فقراء أمتى سيدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عاماً».

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ١٦٥)، وابن أبى عاصم فى «السنة» (٥٩٠) وصححه الألبانى ـ رحمه الله ـ فى «ظلال الجنة».

فقد يقول قائل ولكنهم كلهم سيدخلون الجنة وليس هناك شيء في أن ينتظر خمسمائة سنة؟ سبحانه الله!! هذا الانتظار في حد ذاته عذاب.

ولكن هذا من كمال فضله وكمال عدله - عز وجل - تأخير هؤلاء وتقديم هؤلاء، فهذا من عدله تبارك وتعالى، ولهذا لم يذكر النبي ﷺ هذا التفضيل ابتداءً، بل ذكره بهذا التدرج لهذا التفاوت في العمل ودرجات الآخرة. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ(١):

قوله: (وعلى ربهم يتوكلون) ذكر الأصل الجامع الذى تفرعت عنه هذه الأفعال وهو التوكل على الله، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، الذى هو خلاصة التفريد، ونهاية تحقيق التوحيد الذى يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء، والرضى به رباً وإلهاً، والرضى بقضائه. بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء، وعده من النعماء فسبحانه من يتفضل على من يشاء بما يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لايباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه الجهلة، فإن مباشرة الأسباب فى الجملة أمر فطرى ضرورى لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أى كافيه إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلاً على الله، كالاسترقاء، والاكتواء فتركهم له ليس لكونه سبباً لكن لكونه سبباً مكروهاً، لاسيما المريض يتشبث بما يظنه سبباً لشفائه بخيط العنكبوت. أما نفس مباشرة الأسباب، والتداوى على وجه لا كراهية فيه، فغير قادح فى التوكل؛ فلا يكون تركه مشروعاً.

كما فى «الصحيحين»: عن أبى هريرة مرفوعاً: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إلا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»(٢).

وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبى ﷺ وجاءت الأعْرَابُ، فَقَالوا: يَارسُولَ اللهِ! أَنَتَدَاوَى؟ فَقَالَ: «نَعَمْ يَا عِبَادَ اللهِ تَدَاووا، فإِن اللهَ عزَّ وجلَّ لم يَضَعْ دَاءً إلا وَضَعَ لَهُ

(١) تيسير العزيز الحميد: ٨٠ و ٨١.
(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٦٧٨).
وانظر «الطب النبوى» للذهبى (٣٨٨) وفتح المجيد (ح١١٧) بتحقيقنا.

شِفَاءً، غَيْرَ دَاء وَاحِد» قالوا: مَا هُوَ؟ قال: «الهَرَمَ» رواه أحمد[1] قال ابن القيم: فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها والأمر بالتداوي؛ وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لاتتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً، وان تعطيلها يقدح بمباشرته فى نفس التوكل، كما يقدح فى الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى من التوكل، فإنَّ تركها عجز ينافي التوكل الذى حقيقته اعتماد القلب على الله فى حصول ما ينفع العبد فى دينه ودنياه، ودفع ما يضره فى دينه ودنياه. ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً. وقد اختلف العلماء فى التداوي؛ هل هو مباح وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب؟ فالمشهور عن أحمد الأول لهذا الحديث وما فى معناه، ولكن على ما تقدم لا يتم الاستدلال به على ذلك؛ والمشهور عند الشافعى الثاني، حتى ذكر النووى فى «شرح مسلم» أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف. واختاره الوزير أبو المظفر قال: ومذهب أبى حنيفة أنه مؤكد حتى يدانى به الوجوب قال: ومذهب مالك أنه يستوى فعله وتركه فإنه قال: لا بأس بالتداوى ولا بأس بتركه. وقال شيخ الإسلام: ليس بواجب عند جماهير الأئمة إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعى وأحمد». أهـ

قال ابن عثيمين: فانتفاء هذه الأمور عنهم يدل على قوة توكُّلهم.

وهل هذه الأشياء تدل على أنَّ من لم يتَّصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟

الجواب: أنَّ الكمال فاته إلا بالنسبة للتَّطيُّر؛ فإنَّه لا يجوز؛ لأنَّه ضرر وليس له حقيقة أصلاً.

أما بالنسبة لطلب العلاج؛ فالظاهر أنه مثله لأنَّه عام، وقد يقال: إنَّه لولا قوله: «**ولا يسترقون**»؛ قلت: إنَّه لا يدخل؛ لأنَّ الاكتواء ضرر محقق: إحراق بالنار، وألم للإنسان، ونفعه مرتجى، لكن كلمة «**يسترقون**» مشكلة؛ فالرقية ليس فيها ضرر، إن لم تنفع لم تضر، وهنا نقول: الدواء مثلها؛ لأنَّ الدواء إذا لم ينفع لم يضر، وقد يضر أيضاً؛ لأنَّ الإنسان إذا تناول دواء وليس فيه مرض لهذا الدواء فقد يضره.

---

(1) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٢٧٨)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والنسائى فى «الكبرى» (٧٥٥٣).

وانظر «الطب النبوى» للذهبى (٣٩٠) وفتح المجيد (ح١١٨) بتحقيقنا.

وهذه المسألـة تحتاج إلى بحث، وهـل نقول مثلاً، ما تُؤكِّـد منفعته إذا لـم يكن في الإنسان إذلال لنفسه؛ فـهو لا يضر، أي: لا يفوت المرء الكمال به، مثـل الكسر وقطع العضو مثلاً، أو كما يفعل الناس الآن في الزائدة وغيرها.

ولو قال قائل بالاقتصار على ما في هـذا الحديث، وهو أنَّهم لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وأنَّ ما عدا ذلك لايمنع من دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ للنصوص الواردة بالأمر بالتداوي والثناء عـلى بعض الأدوية؛ كالعسل[1] والحبة السوداء[2]؛ لكان له وجه[3].

● **شبهات تشتبه بالتوكل:**

قال الفقير: فعلى هذا قوله «**وعلى ربهم يتوكلون**» جامع لهذه الخصال، «**لايكتوون ولا يسترقون ولايـتطيرون**» فالجامـع لها «**وعلى ربهم يـتوكلون**» ، والتوكـل على الله يُتوقف على أن تفهم هذه الآية، قال تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ وبينا شيئاً مـن صور التوكل من كلام ابن القيم، وهناك في صور التوكل المرضي، وصـور التوكل الذي اشتبه على الناس أنها توكل، منها: أنه يثق بـالسبب، ولاستمرار السبب يكون ثقته بالـسبب، وهو يعتقد أنه متوكل عـلى الله، وذكر أن بعض السـلف كان قد جاور زمزم فـترة كبيرة حتـى جاء له رجل، وقال له: رذا غارت زمزم فماذا ستفعل؟ فـقال له: جزاك الله خيراً لقد كنت أعبد زمزم هذه الفترة.

فجلوسة جانب زمزم ليس ثقة فـي الله، وإنما لأنه ماء زمزم، فهو واثق أنها لن تجف أو تغور، فثقته كانـت في استمرار السبب، لكن لو كان السبب هـو، وظن أنه سينقطع فسيظهر لنا، أكان متوكلاً أم متواكلاً؟

مثال: الموظف كل يوم يقول: أنه متوكل علـى الله، ولكن هو نائم ومطمئن أنه آخر الشهر سوف يقبض الراتب، فالثقة والرضا في السبب، وعدم انقطاعه، لكن لو كان هذا الرجل أرزقي، يخرج يتوكل على الله في عمله، فـهنا سوف يظهر، هل هو نائم مطمئن راضياً على الرزق، أم ساخط على الله سبحانه وتعالى؟

---

(١) تقدم تخريجه عن جابر، وابن عباس.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم في السلام (١٤/ ٢٠١ - النووي) عن أبي هريرة. وانظر «الطب النبوي» للذهبي (١٦٩- بتخريجنا).

(٣) تقدم من كلام الشيخ سليمان.

ذكر ابن القيم فى «مدارج السالكين»: صورة، وستأتى فى باب **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**، ومن هذه الصور: العلم بحقيقة التوكل، فقد يظن أحدنا أنه نظراً لأنه علم حقيقة التوكل، فيظن أنه بذلك متوكل، مثلنا عندما عرفنا حقيقة التوحيد، وكيفية تحقيقه، فهل نحن بالعلم فقط حققنا التوحيد؟ لا، لأن العلم شيء، والتطبيق شيء آخر، فإياك أن تظن لأنك تعرف معنى التوكل أنك متوكل، لأن هذا العلم يستلزم عمل، فمن علم مثلاً أن الفاتحة ـ إذا كان يرى ـ أنها شرط فى صحة الصلاة، ولم يأت بها، فهل تصح صلاته؟ لاتصح، فالعلم ليس له قيمة بدون العمل.

كذلك ذكرنا علامة التوكل الحقيقي، وعلامة التوكل الزائف.

فعلامة التوكل هو أن تأخذ بالأسباب مع عدم ثقتك بها، وإنما بمسبب الأسباب الذى وضع الحكم فى هذه الأسباب، فغرق بين التفويض والأخذ بالأسباب. فالتفويض: هو عدم الثقة فى السبب، تفويض الحول والقوة لله، وفيه خلط الناس فناس قالوا: لكى نفوض لن نأخذ بالأسباب، وهذا هو المتواكل، الذى قال فيه الإمام أحمد ـ رحمه الله: «رجل جهل العلم» وذلك عندما قيل له عن رجل قال: اجلس فى بيتى وسيأتينى رزقي».

وقد قال الرسول ﷺ: «**وجعل رزقى تحت ظل رمحي**» فليس هناك وظيفة أصعب من ذلك حيث كان متعرضًا للموت فى كل لحظة.

وذكر فى الطير التى هى كاملة التوكل قال ﷺ« تغدو خماصًا وتروح بطانًا» فذكر أنها تغدو، وتروح، وليس فى منازلها تجلس، ويأتى الرزق، فالتفويض أن تأخذ بالسبب ولا تثق فيه، وإذا فرطت ولم تأخذ بالسبب فأنت متواكل، فى حين أنه لو كان يجوز ترك السبب لأحد لجاز لنبينا ﷺ الذى كان يأخذ بالأسباب، وترك قوت سنة لأهله، وكان يحارب مخالفًا بين درعين فكان له درع، فلو جاز ترك السبب لأحد لجاز تركه لنبينا ﷺ ، ولما أخذ به ﷺ كان ذلك كمال التفويض لله وثمرة ذلك، الرضا عن الله بعد حصول النتائج، والدليل على ذلك حديث دعاء الاستخارة، وفيه التفويض لله بالعلم والقدرة والحكمة، وفيه «**واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به**» فأيًا كانت النتائج أرضنى بها يا رب.

وأيضًا إذا استرقى أو اكتوى شخص ما، وكانت قطعية الشفاء ثم لم يشف فماذا ستكون النتيجة ؟ هل سيرضى أم سيسخط؟ إذا كان محسن سيرضى، كما فى حديث

أبي سعيد «**أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه ، فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه الثانية فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه الثالثة فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً فسقاه فبرأ**»(١).

فعندما نفعل السبب، وثقتنا في الله ولم يتم الأمر فصدق الله وكذبت أعضاءنا ، وإنما إذا ما مرض شخص، وجاء له أخ، وقال: لا تأخذ هذا الدواء لأنه ظني الشفاء وليس قطعي فتوكل على الله واتركه، فتركه وزاد الألم عليه، فيقول: سامحك الله لو كنت أخذ الدواء ، ولو . . . ، ولو. . . ، وهنا دخل لو، ودخل عمل الشيطان، وهو الجزع وعدم الرضا، وذلك لأنه في الأصل لم يتوكل على الله حق توكله وكان صورة عدم توكله أنه لم يجتهد، وأخذ بالسبب الضعيف، وقال: أخذت بالسبب وفوضت أمري لله، فهذا اشتباه ثالث، وصورة ثالثة من صور التواكل التي تعرض للمتوكلين الذين يظنون أنهم متوكلون.

مثال: الطالب الذي يفتح الكتاب نصف ساعة للمذاكرة، والأولى أن يذاكر عشر ساعات، ويقول: لقد أخذتُ بالسبب، فهذا سبب الكسالى، ويقول: لماذا لم أنجح؟ فهذا غير متوكل، ولكن التوكل كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز..**» الحديث(٢) .

فالمؤمن النشيط في الأخذ بالسبب القوي أحب لله من الضعيف الكسلان الذي يأخذ بالأسباب الضعيفة.

مثال: لو أن رجلاً يعمل (نقاشًا)(٣)، فخرج متوكلاً على الله ، وذهب للعمل، ثم وجد أن الكهرباء انقطعت من محل العمل، فقال (بركة يا جامع)(٤) ورجع.

أو أرسل مساعده في العمل إلى المحل، لشراء أدوات العمل كالغراء أو غيرها، فوجد المحل مغلق ، فقال: نعمل غدًا، فهذا غير متوكل، وفي الحقيقة إنما هو يريد أن ينام، والتوكل إنما هو أن يبحث هنا وهناك، ومجتهد حتى يأخذ بأقوى الأسباب ومثال آخر: شخص سائق سيارة، خرج للعمل وذهب يشغل السيارة فلم تتحرك، فرجع، فهذا تواكل.

---

(١) [صحيح] البخاري مع الفتح (١٠/١٤٦/ ح ٥٦٨٤).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم (٨/٤٦٦/ح ٢٦٦٤)، وانظر كتابي «قفوا الأثر في شرح بلوغ المرام من كلام ابن حجر».

(٣ - ٤) وضعنا هذه الألفاظ للتسهيل.

فهذه الأمور يشتبه على الناس، ولكن المتوكل الذى يطلب العون من الله، ولم يعجز، ويحاول بكل السبل حتى إذا فاته شيء من الخير لا يقول: لو أنى فعلت كذا وكذا، فمثلاً: السائق الذى رجع ونام، لو اتصل به رجل ثري، وقال له: إننى كنت منتظرك توصلني، ففى هذه الحالة سيندم، ويقول: لو فعلت كذا وكذا فى السيارة وذهبت، كنت سأكسب كذا وكذا من المال ، وربما يصاب بالجزع والضيق، وهو بذلك لم يكن متوكلاً، فالمتوكل لا ينظر للنتائج، فهو راض بكل شيء ، وهؤلاء المتوكلون حققوا التوحيد على أكمل وجهه، حيث تجده راضيًا، لا تجد عليه غم ولا هم، ولا بؤس، ولذلك كان ابن تيمية - برغم أنه كان أكثر الناس فى زمانه بلاءًا - حكى ابن القيم أنه كان لا يُرى إلا مبتسمًا، ويقول: كان إذا ضاقت بنا الدنيا ذهبنا ننظر فى وجهه ، فيذهب ما أصابنا فى صدورنا.

● **قوله: «فقام عكاشة بن محصن»**.

قال ابن حجر(١): بضم المهملة وتشديد الكاف ويجوز تخفيفها يقال عكش الشعر ويعكش إذا التوى حكاه القرطبى، وحكى السهيلى أنه من عكش القوم إذا حمل عليهم وقيل العكاشة بالتخفيف العنكبوت، ويقال أيضاً لبيت النمل. ومحصن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين ثم نون آخره هو ابن حرثان بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة من بنى أسد بن خزيمة ومن حلفاء بنى أمية. كان عكاشة من السابقين إلى الإسلام وكان من أجل الرجال وكنيته أبو محصن وهاجر وشهد بدراً وقاتل فيها، قال ابن إسحق بلغنى أن النبى ﷺ قال: «**خير فارس فى العرب عكاشة**» وقال أيضاً: قاتل يوم بدر قتالاً شديداً حتى انقطع سيفه فى يده فأعطاه رسول **الله** ﷺ جزلاً من حطب فقال «**قاتل بهذا**» فقاتل به فصار فى يده سيفاً طويلاً شديد المتن أبيض فقاتل به حتى فتح **الله** فكان ذلك السيف عنده حتى استشهد فى قتال الردة مع خالد ابن الوليد سنة اثنتى عشرة)(٢) أهـ.

● **قوله: «فقال ادع الله أن يجعلنى منهم»**.

قال ابن حجر(٣): وعند البيهقى من طريق محمد بن زياد عنه - وساق مسلم سنده - قال «فدعا» ووقع فى رواية حصين بن نمير ومحمد بن فضيل «قال: أمنهم أنا يا رسول **الله**؟ قال له: «**نعم**» ويجمع بأنه سأل الدعاء أولاً فدعا له ثم استفهم قيل أجبت.

(١) الفتح ١١/٤١٩.
(٢) ذكره ابن الأثير فى «أسد الغابة» (٤/٦٨).
(٣) الفتح ١١/٤١٩.

● **قوله: «فقال أنت منهم».**

قال ابن عثيمين[(1)]: وقولـه الرسول الله ﷺ هذا هـل هو بوحى مـن الله إقراري، أووحى إلهاميّ، أو وحى رسول؟

مثل هذه الأمـور يحتمل أنها وحـى إلهامي، أو بواسطة الـرسول، أو وحى إقراري بمعنى أن الرسول يقولها، فإذا أقرَّه الله عليه؛ صارت وحياً إقرارياً.

لكن رواية الـبخاري: **«اللهم اجعـله منهم»** تدل على أن الجـملة: **«أنت منـهم»** خبر بمعنى الدعاء. أهـ

قوله: «ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم».

قال ابن حجر[(2)]: **قوله: «ثم قام إليه رجل آخر».**

(وقع فيه من الاختلاف هل قال «ادع لى» أو قال «أمنهم أنا» كما وقع فى الذى قبله. ووقع فى حديـث أبى هريرة الذى بعده «رجـل من الأنصار» وجاء من طريـق واهية أنه سعد بـن عبادة أخرجه الخطـيب فى المبهـمات» من طريق أبـى حذيفة إسحق بـن بشر البخارى أحد الضعفاء من طريقـين له عن مجاهد أن رسول الله ﷺ لما انصرف من غزاة بنى المصـطلق، فساق قصة طـويلة وفيها أن الـنبى ﷺ قال: **«أهل الجنة عـشرون ومائة صف؛ ثـمانون صفـاً منهـا أمتى وأربعـون صفاً سائـر الأمم، ولى مع هـؤلاءسبعون ألـفاً يدخلـون الجنة بغيـر حساب» «قيـل من هم»** فذكر الحديـث، وفيه **«فقال: اللـهم اجعل عكاشة منهم،** قال فاستشهـد بعد ذلك. ثم قام سعد بن عبادة الأنـصارى فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم» الحديث، وهذا مع ضعـفه وإرساله يستبعد من جهة جلالة سعد بن عبادة، فإن كان مـحفوظاً فلعله آخر باسم سيد الخزرج واسـم أبيه ونسبته، فإن فى الصحـابة كذلك آخر له فى مـسند بقيّ بن مخلـد حديث، وفى الصحابـة سعد بن عمارة الأنصارى فلعل اسم أبيه تحرف). أهـ.

● **قوله: «سبقك بها عكاشة».**

قال ابن حجر[(3)]: اتفق جمـهور الرواة على ذلك إلا مـا وقع عند ابن أبى شـيبة والبزار وأبى يعلى من حديث أبى سعيـد فزاد: فقام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم وقـال فى آخره: **«سبـقك بهـا عكـاشة وصاحـبه، أما لـو قلتـم لقـلت ولو قـلت**

(1) القول المفيد 1/129 - 130

(2) الفتح 11/ 420.

(3) فتح البارى 11/ 420 و 421.

لوجبت»[1] وفى سنده عطية وهو ضعيف.

● **الحكمة فى قوله ﷺ: «سبقك بها عكاشة».**

وقد اختلفت أجوبة العلماء فى الحكمة فى قوله: **«سبقك عكاشة»** فأخرج ابن الجوزى فى «كشف المشكل» من طريق أبى عمر الزاهد أنه سأل أبا العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب عن ذلك فقال: كان منافقاً، وكذا نقله الدارقطنى عن القاضى أبى العباس البرتى بكسر الموحدة وسكون الراء بعدها مثناة فقال: كان الثانى منافقاً، وكان ﷺ لايسأل فى شيء إلا أعطاه، فأجابه بذلك. ونقل ابن عبدالبر عن بعض أهل العلم نحو قول ثعلب، وقال ابن ناصر قول ثعلب أولى من رواية مجاهد لأن سندها واه واستبعد السهيلى قول ثعلب بما وقع فى مسند البزار من وجه آخر عن أبى هريرة «فقام رجل من خيار المهاجرين» وسنده ضعيف جداً مع كونه مخالفاً لرواية الصحيح أنه من الأنصار.

وقال ابن بطال: معنى قوله: **«سبقك»** أى إلى إحراز هذه الصفات وهى التوكل وعدم التطير وما ذكر معه، وعدل عن قوله: **«لست منهم أو لست على أخلاقهم»** تلطفاً بأصحابه ﷺ وحسن أدبه معهم.

وقال ابن الجوزى: «يظهر لى أن الأول سأل عن صدق قلب فأجيب، وأما الثانى فيحتمل أن يكون أريد به حسم المادة، فلو قال للثانى نعم لأوشك أن يقوم ثالث ورابع إلى مالا نهاية وليس كل الناس يصلح لذلك.

وقال القرطبي: لم يكن عند الثانى من تلك الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يجب إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل، فسد الباب بقوله ذلك، وهذا أولى من قول من قال كان منافقاً لوجهين:

أحدهما: أن الأصل فى الصحابة عدم النفاق فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح.

والثانى: أنه قل أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصد صحيح ويقين بتصديق الرسول، وكيف يصدر ذلك من منافق؟ وإلى هذا جنح ابن تيمية. وصحح النووى أن النبى ﷺ علم بالوحى أنه يجاب فى عكاشة ولم يقع ذلك فى حق الآخر.

---

(١) ذكره الهيثمى فى «المجتمع» (١٠/٤٠٧) ونسبه للبزار وقال: وفيه عطيه وهو ضعيف وقد وثقه ومحمود بن بكر لم أعرفه.

فيه مسائلُ

الأولى: مَعْرِفَةُ مَرَاتِبَ النَّاسِ فِى التَّوْحِيدَ.

وقال السهيلى: الذى عندى فى هذا أنها كانت ساعة إجابة علمها ﷺ واتفق أن الرجل قال بعد ما انقضت، ويبينه ما وقع فى حديث أبى سعيد «ثم جلسوا ساعة يتحدثون» وفى رواية ابن إسحق بعد قوله سبقك بها عكاشة «وبردت الدعوة» أى انقضى وقتها.

قلت ـ أى ابن حجر: فتحصل لنا من كلام هؤلاء الأئمة على خمسة أجوبة والعلم عند الله تعالى. ثم وجدت لقول ثعلب ومن وافقه مستنداً وهو ما أخرجه الطبرانى ومحمد بن سنجر فى مسنده وعمر بن شبة فى «أخبار المدينة» من طريق نافع مولى حمنة عن أم قيس بنت محصن وهى أخت عكاشة أنها «خرجت مع النبى ﷺ إلى البقيع فقال: **يحشر من هذه المقبرة سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب كأن وجوهم القمر ليلة البدر**، فقام رجل فقال: يارسول الله، وأنا؟ قال وأنت. فقام آخر فقال أنا؟ قال: **سبقك بها عكاشة** قال قلت لها: لم لم يقل للآخر؟ فقالت: أراه كان منافقاً»[1] فإن كان هذا أصل ما جزم به من قال كان منافقاً فلا يدفع تأويل غيره إذ ليس فيه إلا الظن. أهـ

قال ابن عثيمين[2]:

قوله: «فيه مسائل».

أى: فى هذا الباب مسائل: قلت : أى فوائد.

● **المسألة الأولى: معرفة مراتب الناس فى التوحيد.**

وهذه مأخوذة من قوله: «**يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**» **ثم قال: «هم الذين لايسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون»**.اهـ

[قلت]: فائدة من الباب كله أن الناس منهم من حقق التوحيد فيدخل الجنة بغير حساب، ومنهم من لم يحققه كاملاً فيدخل الجنة بعد الحساب.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد ١/ ١٣١ - ١٣٨.

الثانية: مَا مَعْنَى تَحْقِيقه.

الثالثة: ثَنَاؤُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِكَوْنِهِ لَمْ يُكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

الرابعة: ثَنَاؤُهُ عَلَى سَادَاتِ الأَوْلِيَاءِ بِسَلاَمَتِهِم مِنَ الشِّرْك.

● **الثانية: ما معنى تحقيقه؟**

أى: تحقيق التوحيد، وسبق لنا فى أول الباب أنَّ تحقيقه: تخليصه من الشرك.

[قلت]: **معنى تحقيقه**: أن يأتى بالإيمان بشروطه مع انتفاء موانعه الشروط التى ذكره العلماء السبعة أو أكثر العلم ، اليقين ، الصدق، المحبة ، الانقياد ، الإخلاص ، القبول.

فالعلماء عندما وضعوا هذه الشروط قالوا العلم المنافى للجهل، واليقين المنافى للشك ، والصدق المنافى للجهل ، والانقياد المنافى للإعراض ، والقبول المنافى للرد والإخلاص المنافى للشرك.

فلماذا لم يقولوا المحبة المنافية للكره؟ وذلك لأن الله عز وجل لا يكره حتى الكافر لا يكره .

فلذلك قالوا المحبة المنافية لضدها كما قال الشاعر:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه

وفيه: أن المحب لمن أحب مطيع .

فإذا أطاع الله أتى بما يضاد هذه المحبة.

فهذه هى الشروط النافعة عند الله تعالى.

● **الثالثة: ثناؤه - سبحانه - على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين.**

وهو ظاهر فى الآية الكريمة: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**(١)؛ فإنَّ هذه الآية لاشك أنها سيقت للثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مناط الثناء انتفاء الشرك عنه؛ دل ذلك على أنَّ كل من انتفى عنه الشرك فهو محل ثناء من الله ـ سبحانه وتعالى قلت: ومن لم ينتف عنه الشرك فهو محل ذم من الله تعالى.

● **الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.**

---

(٢) النحل: ١٢٠.

الخامسة: كَوْنُ تَرْكِ الرُّقْيَةِ وَالكَيِّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.

السادسة: كَوْنُ الجَامِعِ لِتِلْكَ الخِصَالِ هُوَ التَّوَكُّلَ.

السابعة: عُمْقُ عِلْمِ الصَّحَابَةِ بِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُو ذَلِكَ إِلاَّ بِعَمَلٍ.

لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾، وهذه الآية في سياق آيات كثيرة ابتدأها الله بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾(1)؛ فهؤلاء هم سادات الأولياء، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي: الأولياء السادات، وليس يريد ـ رحمه الله ـ السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذين هم سادات الخلق.

● **الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد.**

لقوله: «**الذين لايسترقون ولا يكتوون**»؛ فالمراد بقول المؤلف: «**الرقية والكي**»: الاسترقاء والاكتواء. اهـ

[قلت]: قوله: (كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد).

الدليل (لا يسترقون ولا يكتون) لكن الرقية التي تقدح في كمال التوحيد على النحو الذي بيناه وهي الرقية والكي الظنية أو الضعيفة أو التي لم تتعين سبيلاً للشفاء- أما إذا تعينت وكانت سببًا قويًا في الشفاء وأخذ بها المتوكل على الله ذلك علامة على قوة توكله.

● **السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.**

الجامع لتلك الخصال، والخصال هي: ترك الاسترقاء، وترك الاكتواء، وترك التطيُّر، يعني أن العامل لهذه الأشياء هو قوة التوكل على الله - عز وجل -.

● **السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفة أنَّهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.**

أي: لم ينل هؤلاء السبعون ألفاً هذا الثواب إلا بعمل، ووجهه أنَّ الصحابة خاضوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء اهـ.

---

(1)

الثامنة: حِرْصُهُمْ عَلَى الخَيْرِ.

التاسعة: فَضِيلَةُ هَذِهِ الأمَّةِ بالكَمِّيَّةِ والكَيْفِيَّةِ.

العاشرة: فَضِيلَةُ أصْحَابِ مُوسَى.

الحادية عشرة: عَرْضُ الأمَمِ عَلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-.

قلت: وهذه الاشياء القاسم المشترك بينها أنها عمل وعمل غير عادى مثل الشهادة أو السبق إلى الإسلام أو فى الإسلام، أو الصُحبة، . . .

وهذا يدل على أنهم فهموا أنهم لن ينالوا ذلك إلا بعمل.

● **الثامنة: حرصهم على الخير.**

وجهه خوضهم فى هذا الشيء؛ لأنَّهم يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتى يقوموا بها. اهـ.

قلت: وأيضاً سؤالهم النبى أن يدعوا لهم بهذه الدرجة.

● **التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكميَّة والكيفيَّة.**

أما الكمية؛ فلأن النبى ﷺ رأى سواداً عظيماً أعظم من السواد الذى كان مع موسى، وأما الكيفيَّة؛ فلأن معهم هؤلاء الذين لايسترقون ولايكتوون ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكّلون. اهـ

● **العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.**

وهو مأخوذ من قوله: «**إذ رفع لى سواد عظيم**»، ولكن قد يقال: إنَّ التعبير بقول: كثرة أتباع موسى أنسب لدلالة الحديث؛ لأنَّ الحديث يقول: «**سواد عظيم فظننت أنَّهم أمتى**»، وهذا يدل على الكثرة. اهـ

قلت: أى فضيلة أصحاب موسى فى الكم دون الكيف.

● **الحادية عشرة: عرض الأمم عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.**

وهذا له فائدتان.

الفائدة الأولى: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد؛ فيتسلى بذلك عليه الصلاة والسلام، ويقول: ﴿ **مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ** ﴾.

الثانية عشرة: أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُحْشَرُ وَحْدَهَا مَعَ نَبِيِّهَا.

الثالثة عشرة: قِلَّةُ مَنِ اسْتَجَابَ لِلأَنْبِيَاءِ.

الرابعة عشرة: أَنَّ مَنْ لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ يَأْتِي وَحْدَهُ.

الخامسة عشرة: ثَمَرَةُ هَذَا العِلْمِ، وَهُوَ عَدَمُ الاغْتِرَارِ بِالكَثْرَةِ،

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام وشرفه، حيث كان أكثرهم أتباعاً وأفضلهم؛ فصار في عرض الأمم عليه هاتان الفائدتان. اهـ.

قلت: بل في ذات العرض تشريفًا له أيضا.

● **الثانية عشرة: أنَّ كل أمة تحشر وحدها مع نبيها.**

لقوله: «**رأيت النبي ومعه الرجل والرجلان**»، ولولا أنَّ كل نبي متميز عن النبي الآخر؛ لاختلط بعضهم ببعض، ولم يعرف الأتباع من غير الأتباع، ويدل على ذلك قوله سبحانه تعالى: ﴿**وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا**﴾(١)؛ فإنه يدل على أنَّ كل أمة تكون وحدها.

قلت: والأولى الاستدلال بقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾. اهـ

● **الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء.**

وهو واضح من قوله: «**والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**».

● **الرابعة عشرة: أنَّ من لم يجبه أحد يأتي وحده.**

لقوله: «**والنبي وليس معه أحد**».

● **الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة.. إلخ.**

فإنَّ الكثرة قد تكون ضلالاً، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾(٢). اهـ

---

(١) الجاثية: ٢٨.

(٢) المؤمنون: ٥٧ – ٦١.

السادسة عشرة: الرُّخْصَةُ فِي الرُّقْيَةِ منَ العَيْنِ والحُمَة.

السابعة عشرة: عُمْقُ علمِ السَّلَف؛ لِقَوْله: «قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلى مَا سَمِعَ، ولَكِنْ كَذَا»؛ فَعُلِمَ أَنَّ الحَدِيثَ الأَوَّلَ لا يُخَالِفُ الثَّانِيَ.

قلت: ولقوله تعالى ﴿**وماأكثر الناس وحرصت بمؤمنين**﴾ وقوله﴿**وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن جدنا أكثرهم لفاسقين**﴾.

ثم ابن عثيمين: وأيضاً الكثرة من جهة أخرى إذا اغتـرَّ الإنسان بكثرته وظنَّ أنه لن يغلب أو أنه منصور؛ فهذا أيضاً سبب للخذلان اهـ.

قلت: لقوله تـعالى : ﴿**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغني عنكم من الله شيئاً**﴾ ثم قال: فـالكثرة إن نظـرنا إلى أن أكثر أهـل الأرض ضلاّل لا تغتر بـهم، فلا تقل: إنَّ الناس على هذا، كيف أنفرد عنهم؟

كذلك أيضاً لا تغترّ بالكثرة إذا كان معك أتباع كثيرون على الحق؛ فكلام المؤلف له وجهان.

الوجه الأول: أن لانغترّ بكثرة الهالكين فنهلك معهم.

الوجه الثاني: أن لانغتر بكـثرة الناجين فيلحـقنا الإعجاب بالنفـس وعدم الزهد فى القلة، أى أن لا نزهد بالقلة؛ فقد تكون القلة خيراً من الكثرة.

● **السادسة عشرة: الرخصة فى الرقية من العين والحُمة.**

مأخوذة من قوله: «**لا رقية إلا من عين أو حُمة**». اهـ

قلت: **وكأن المصنف يرى أن الأصل عدم الرقـية لأن الرقص هى إباحـة فعل حرام أوترك واجب لسبب اقتضى ذلك**(١).

● **السابعة عشرة**: عمق علم السلف؛ لقوله: «**قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا**»؛ فعلم أنَّ الحديث الأول لا يخالف الثانى.

لأنَّ قوله: لارقـية إلا من عين أو حُمـة لا يخالف الثـانى؛ لأنَّ الثانى إنَّمـا هو فى الاسترقاء، والأول فى الرقية؛ فالإنسان إذا أتاه من يرقيه ولم يمنعه؛ فإنه لا ينافى قوله: «**ولا يسترقون**»؛ **لأن هناك ثلاث مراتب**:

---

(١) انظر حاشيتى على شرح الورقات ص ٥٧ ط نزار الباز.

الثامنة عشرة: بُعْدُ السَّلَفَ عَنْ مَدْحِ الإِنْسَانِ بِما لَيْسَ فيه.

التاسعة عشرة: قَوْلُهُ (أَنْتَ مِنْهُم) عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّة.

العشرون: فَضِيْلَةُ عُكَّاشَةَ.

المرتبة الأولى: أن يطلب من يرقيه، وهذا قد فاته الكمال.

المرتبة الثانية: أن لا يمنع من يرقيه، وهذا لم يفته الكمال؛ لأنَّه لم يسترق ولم يطلب.

المرتبة الثالثة: أن يمنع من يرقيه، وهذا خلاف السنة؛ فإن النبى ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه[1]، وكذلك الصحابة لم يمنعوا أحداً أن يرقيهم؛ لأنَّ هذا لا يُؤثر فى التوكّل. اهـ

قلت: لأنهم لم يختلفوا فدل ذلك على عمق علمهم لأن الخلاف أصله جهل أوهوى[2].

● **الثامنة عشرة: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه.**

يؤخذ من قوله: «**أما إنى لم أكن فى صلاة ولكنى لدغت**»؛ لأنه إذا كان رأى الكوكب الذى انقض استلزم أن يكون يقظاناً، واليقظان: إما أن يُصلى، وإمّا أن يكون له شغل آخر، وإما يكون لديه مانع من النوم.

● **التاسعة عشرة: قوله: «أنت منهم» علم من أعلام النبوة.**

يعنى: دليلاً على نبوة الرسول ﷺ، وكيف ذلك؟ لأنَّ عُكَّاشة بن محصن رضى الله عنه بقى محروساً من الكفر حتى مات على الإسلام، فيكون فى هذا علم، يعنى: دليلاً من دلائل نبوة الرسول ﷺ، هذا إذا قلنا: إنَّ الجملة خبرية وليست جملة دعائية، فإن قلنا: إنها جملة دعائية؛ فقد نقول أيضاً: فيه علم من أعلام النبوة، وهو أن الله استجاب دعوة الرسول ﷺ، لكن استجابة الدعوة ليست من خصائص الأنبياء؛ فقد تجاب دعوة من ليس بنبى، وحينئذٍ لا يمكن أن تكون علماً من أعلام النبوة إلا حيث جعلنا الجملة خبرية محضة.

● **العشرون: فضيلة عُكَّاشة.**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مؤدى قول شيخ الإسلام وانظر «النكت المتممة لمقدمة ابن تيمية» للمؤلف.

بكونه ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهل نشهد له بذلك؟ نعم؛ لأنَّ الرسول ﷺ شهد له بها.

● **الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.**

وفى المعاريض مندوحة عن الكذب، وذلك لقول الرسول ﷺ: **«سبقك بها عُكاشة»**؛ فإن هذا فى الحقيقة ليس هو المانع الحقيقى، بل المانع ما أشرنا إليه فى الشرح: إما أن يكون هذا الرجل منافقاً فلم يُرد النبى ﷺ أن يجعله مع الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب ولا عذاب، وإمّا خوفاً من انفتاح الباب؛ فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها.

● **الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ.**

وذلك لأنه ردَّ هذا الرجل وسدَّ الباب على وجه ليس فيه غضاضة على أحد ولا كراهة.



٣ باب
الخوف من الشرك

- مناسبة هذا الباب للبابين قبله: -

قال ابن عثيمين[1]: مناسبة هذا الباب للبابين قبله.

فى الباب الأول ذكر المؤلف رحمه الله تحقيق التوحيد، وفى الباب الثانى ذكر أن من حقق التوحيد دخل الجنه بغير حساب ولا عذاب، وثلَّث بهذا الباب رحمه الله تعالى، لأن الإنسان يرى أنه قد حقق التوحيد وهو لم يحققه، ولهذا قال بعض السلف: «ماجاهدت نفسى على شىء مجاهدتها على الإخلاص».

قلت: وهو نظير قول سفيان الثورى: «ما عالجت شيئاً أشد علىَّ من نيتى» ثم قال ابن عثيمين: ذلك أن النفس متعلقة بالدنيا تريد حظوظها من مال أوجاة أو رئاسه وقد تريد بعمل الآخرة الدنيا، وهذا نقص فى الإخلاص، وقل من يكون غرضه الآخرة فى كل عمله، ولهذا أعقب المؤلف رحمه الله ما سبق من البابين بهذا الباب، وهو الخوف من الشرك. اهـ.

قال الفقير: لماذا أتى المصنف بهذا الباب بعد الأبواب السابقة؟

الجواب: لعدة فوائد منها

الفائدة الأولى: بعد أن بين التوحيد ورغب فيه رهب من ضده والدليل ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ فقبل النذارة لابد من البشارة، وقبل الترهيب لابد من الترغيب؛ وذلك لقول الله تعالى؛ ولفعل الرسول، وكذلك كان هذا منهج الأمة سواء من الأمم السابقة أو من هذه الأمة حيث لم يتقدموا بعبادة لربهم إلا رغبة فيما عند الله من ثواب ورهبة من العقاب.. يقول الله تعالى فى وصف من قام بهذا المنهج من الموحدين ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾.

الفائدة الثانية: ولأنه بالضد تبين الضد، فلا يُعرف الخير إلا بالشر ولا يعرف الإسلام إلا بالجاهلية كما قال عمر. «لاينقض الإسلام عروة عروة إلا من نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية». كيف ذلك؟

أى: إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الشرك والجاهلية. لذلك كان النبى ﷺ يحمد

(١) القول المفيد ١/ ١٣٩ و ١٤٠.

ذلك فى بعض أصحابه بل يقره على ذلك أن يتعرف على الشر أو الجاهلية كما ثبت فى الصحيحين من حديث حذيفة «كان الناس يسألون الرسول ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى وفى رواية «كى ما أعرفه فأتقيه» فحينما تتعلم الشرك أو تدرسه إنما لأمرين:ـ

كى تعرفه فتتقيه، أو حتى لا تقع فيه بجهل.

الفائدة الثالثة: هو أن تنكر لأنك لو لم تعرف الشرك والجاهلية ربما ترض به ولا تنكره فأقل ما يقال عنك أنك ناقص الإيمان لأن النبى ﷺ قال **«وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان»**. فلكى تنكر بالقلب ـ وهو أقل درجات الإنكار ـ فلابد أن تعرف الشرك فتنكره أو تعرف فضائل التوحيد. والله أعلم.

– مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[1]:

لما كان الشرك أعظم ذنب عصى الله به، ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه من إباحة دماء أهله وأموالهم وسبى نسائهم وأولادهم، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه نبه المصنف بهذه الترجمة على أنه ينبغى للمؤمن أن يخاف منه ويحذره ويعرف أسبابه ومبادئه وأنواعه لئلا يقع فيه، ولهذا قال حذيفة: كان الناس يسالون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه[2]؛ رواه البخارى وذلك أن من لم يعرف إلا الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنه شر فاما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما ينكره الذى عرفه، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية.

قال شيخ الإسلام: وهو كما قال عمر فإن كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتمام ذلك بالجهاد فى سبيل الله، ومن نشأ فى المعروف فلم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عنده من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم؛ ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه والجهاد لهم ما ليس عند غيره. ولهذا كان الصحابة أعظم إيماناً وجهاداً

(١) تيسير العزيز الحميد ٨٢ و ٨٣.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٠٨٤).

ممن بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي. اهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن(١): باب في بيان ما يدل على أن الخوف من الشرك من لوازم المسلم.

وذلك لما كان الشرك أظلم الظلم كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾(٢).

وأنه أعظم الظلم قال تعالى عن لقمان في وصيته لابنه: ﴿**يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾. وفي الحديث وقد رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطيء بها فقال له عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ له المسجد وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم بهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك به كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّلي فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك الحديث**(٣).

فأي ظلم أعظم من أن يخلقك ربك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً في أحسن صورة ورزقك من كل نعمة ودفع عنك كل نقمة فتشكر غيره وتعبد غيره كما في الحديث القدسي: «**أنا والثقلين في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري، خيري إليهم نازل، وشرهم إلى صاعد**»(٤) الحديث.

فالشرك أقبح المنكرات وأعظم الذنب كما في البخاري، قال رجل: يارسول الله أي الذنب أعظم؟ وفي آخر: أكبر بدل أعظم، قال: «**أن تدعو لله نداً وهو خلقك**». قال ثم

(١) فتح الله الحميد المجيد ١٦٤ و ١٦٥.

(٢) الأحقاف: ٥، ٦.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٠، ٢٠٢) الترمذي (٢٨٦٣ و ٢٨٦٤).

(٤) تقدم تخريجه.

أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**». ثم قال: أي؟ قال: «**أن تزني**» وفي رواية: «**أن تزاني بحليلة جارك**»[2] فأنزل الله تصديقها ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ** ﴾[3].

وأنه أكبر الكبائر. في البخاري ثنا عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشهادة الزور ثلاثاً أو قول الزور**»[4]. فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. وأنه أبغض المعاصي إليه تعالى وأكرهها عنده وأشد عقوبة ومقتاً.

قال ناصر السعدي[5]: فإذا كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان أكبر ولا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه كان حقاً على العبد ان يخاف منه أعظم خوف وأن يسعى في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه ويسأل الله العافية منه كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق. وعلى العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته وذلك بكمال التعلق بالله تألهاً وإنابة وخوفاً ورجاءاً وطمعاً وقصداً لمرضاته وثوابه في كل ما يفعله العبد وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك الاكبر والأصغر وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.

وقال نحوه الشيخ: عبد الله بن جار الله[6].



- **شرح الترجمة:**

قال ناصر السعدي: وهو - يعني الشرك - نوعان: شرك أكبر جليّ، وشرك أصغر خفيّ.

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الفرقان: ٦٨ - ٧٠.

(٤) تقدم تخريجه أيضاً.

(٥) القول السديد ٢٥.

(٦) الجامع الفريد (٢٥).

وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1].

فأما الشرك الأكبر: فهو أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله أو يخافه أو يرجوه أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعاً من انواع العبادة فهذا الشرك لايبقى مع صاحبه من التوحيد شيء وهذا المشرك الذى حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

ولا فرق فى هذا بين أن يسمى تلك العبادة التي صرفها لغير الله عبادة أو يسميها توسلاً أو يسميها بغير ذلك من الأسماء فكل ذلك شرك أكبر لأن العبرة بحقائق الاشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها. وأما الشرك الأصغر: فهو جميع الأقوال والأفعال التى يتوسل بها إلى الشرك كالغلو فى المخلوق الذى لايبلغ رتبة العبادة فالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك»[1] اهـ.

قال ابن باز: أى باب وجوب الخوف من الشرك فيجب على المؤمن أن يخاف من الشرك والمعاصى ويبتعد عنها وخاصه الشرك ولا يأمن من ذلك على نفسه.

والشرك هو تشريك غير الله فى العبادة أياً كانت ولذلك سمى شركاً، والعبادة حق الله وحدة[2]. اهـ.



قوله [وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية]

● مناسبة الآية للباب:

قال عبد الله بن جار الله[3]: مناسبة الآية للباب. أنها جاءت مخوفة ومحذرة من الشرك، وأبانت أن الله لايغفر هذا النوع من المعاصى. اهـ

قال القرعاوى[4] مناسبة الآية للباب.

حيث دلت الآيه الكريمه على أن الله لا يغفر الشرك لصاحبه، فأوجب ذلك الخوف منه والحذر اهـ.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

---

(١) القول السديد ٢٤ و٢٥.

(٢) التعليق المفيد ٥٧.

(٣) الجامع الفريد ٢٦.

(٤) الجديد ٥٥.

قال صاحب الإعراب[1]: كلام مستأنف مسوق لبيان ما تستحيل المغفرة بدونه اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: لانافيه: أن يشرك به: فعل مضارع مقرون بأن المصدرية فيُحول الى مصدر تقديره إن الله لا يغفر الإشراك به، أو لا يغفر إشراكًا به فالشرك لايغفره الله أبداً، لأنه جناية على حق الله الخاص وهو التوحيد ا.هـ.

ثم قال صاحب الإعراب: وإن واسمها، وجملة لايغفر خبرها وأن وما فى حيزها مصدر مؤول فى محل نصب مفعول به ليغفر وبه متعلقان بيشرك.

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الواو عاطفة ويغفر معطوف على المنفى فهو مثبت، والأحسن أن تكون استئنافية ويغفر مستأنف مرفوع دفعاً للالتباس، وما اسم موصول مفعول به ودون ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول وذلك مضاف إليه والاشارة للاشراك المفهوم من يشرك ولمن متعلقان بيغفر وجملة يشاء لا محل لها لأنها صلة الموصول. اهـ.

● **تفسير القرآن بالقرآن:**

قال الشنقيطى[3]: ذكر فى هذه الآية الكريمة أنه تعالى لايغفر الإشراك به وأنه يغفر غير ذلك لمن يشاء وأن من أشرك به فقد افترى إثماً عظيماً.

وذكر فى مواضع أخر: أن محل كونه لايغفر الإشراك به إذا لم يتب المشرك من ذلك، فإن تاب غفر له كقوله: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾[4] الآيه فإن الاستثناء راجع لقوله: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾[5] وما عطف عليه: لأن معنى الكل جمع فى قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[6] الآيه. وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[7] وذكر فى موضع آخر: أن من أشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً عن الحق، وهو قوله فى هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ

---

(١) اعراب القرآن ٢/ ٢٣٣.
(٢) القول المفيد: (١/ ١٤٠).
(٣) أضواء البيان ١/ ٢٥٩ و ٢٦٠.
(٤) الفرقان: ٧٠.
(٥) الفرقان: ٦٨.
(٦) الفرقان: ٦٨
(٧) الأنفال: ٣٨.

﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾[1]

وصرح بأن من أشرك بالله فالجنة عليه حرام ومأواه النار بقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[2] وقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[3].

وذكر في موضع آخر: أن المشرك لا يرجى له خلاص، وهو قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[4]. وصرح في موضع آخر: بأن الإشراك ظلم عظيم بقوله عن لقمان مقرراً له: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[5].

وذكر في موضع آخر: أن الأمن التام والاهتداء، إنما هما لمن لم يلبس إيمانه بشرك، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[6] وقد صح عنه ﷺ أن معنى بظلم بشرك أ.هـ.

● **ما جاء في سبب النزول:**

وعن ابن عمر قال: «لما نزلت﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ...﴾ الآية. فقام رجل فقال: والشرك يا نبي الله؟ فكره ذلك النبي ﷺ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية[7].

عن أبي مجلز قال: «لما نزلت هذه الآية﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾[8] الآيه». قام النبي ﷺ على المنبر فتلاها على الناس، فقام اليه رجل قال: والشرك بالله؟ فسكت

(١) النساء: ١١٦

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) الأعراف: ٥٠.

(٤) الحج: ٣١.

(٥) لقمان: ١٣.

(٦) الأنعام: ٨٢.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/٥٥٨) ونسبه لابن جرير، وابن أبي حاتم. وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٢ ـ بتخريجنا).

(٨) الزمر/٥٣.

مرتين أو ثلاثاً، فنزلت هذه الآية ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ فأثبتت هذه فى الزمر وأثبتت هذه فى النساء[1].

● **سبب النزول:** –

●● **قال البغوى[2]: قال الكلبى:** نزلت فى وحشى بن حرب وأصحابه، وذلك أنه لما قتل حمزة، كان قد جعل له على قتله أن يعتق، فلم يوف له بذلك، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ إنا قد ندمنا على الذى صنعنا، وإنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ**﴾ الآيات، وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس الذى حرم الله، وزنينا، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزلت: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ الآيتين، فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم، فلما قرأوا كتبوا إليه إن هذا شرط شديد، نخاف أن ألا نعمل صالحاً، فنزلت: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ قوله تعالى: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ فبعث بها إليهم، فبعثوا إليه: إنا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة، فنزلت، ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**﴾، فبعث بها إليهم، فدخلوا فى الإسلام، ورجعوا إلى النبى ﷺ، فتقبل منهم. وذكر تمام الأثر[3]. اهـ.

وقال فى الموضع الثانى: عن الضحاك عن ابن عباس: نزلت فى شيخ من الأعراب[4]. فذكر قصته اهـ.

وكذلك ذكر ابن الجوزى[5]: أن فى سبب نزولها هذين القولين.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٣ ـ بتخريجنا).

(٢) معالم التنزيل (٢/ ٨٥) (٢/ ١٥٧، ١٥٨).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٦٢٠) وسبه للطبرانى وابن مردويه، والبيهقى فى «شعب الإيمان» بسند لين.

(٤) ذكره الحافظ فى تخريج الكشاف (٤٠٣) وقال هو منقطع ولم ينسبه لأحد.

(٥) زاد المسير (٢/ ١٢١).

وقال الرازي[1] بعد أن ذكر قصة وحشي وأصحابه في سبب النزول: -

وطعن القاضي في هذه الرواية وقال إن من يريد الإيمان لا يجوز منه المراجعة على هذا الحد؛ ولأن قوله: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ لو كان على إطلاقه لكان ذلك إغراء لهم بالثبات على ما هم عليه.

والجواب عنه: لا يبعد أن يقال: إنهم استعظموا قتل حمزة وإيذاء الرسول إلى ذلك الحد، فوقعت الشبهة في قلوبهم أن ذلك هل يغفر لهم أم لا، فلهذا المعنى حصلت المراجعة. وقوله هذا إغراء بالقبيح، فهو إنه إنما يتم على مذهبه، أما على قولنا: إنه تعالى فعال لما يريد، فالسؤال ساقط والله أعلم. اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من السنة: أولاً: بالمرفوع:

● **وعن جابر بن عبد الله قال:** قال رسول الله ﷺ **«ما من عبد يموت لايشرك بالله شيئاً إلا حلت له المغفرة، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، إن الله استثنى فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[2].**

● عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له، ومن وعده على عمل عقابا فهو بالخيار»[3].**

● عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: **«ذنب لايغفر، وذنب لا يترك، وذنب يغفر. فاما الذي لايغفر فالشرك بالله، وأما الذي يغفر فذنب بينه وبين الله عز وجل، وأما الذي لايترك فظلم العباد بعضهم بعضاً»[4].**

● عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الدواوين عند الله ثلاثة. ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لايترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله. فاما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك، قال الله ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ وقال الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من**

(١) التفسير الكبير (٥/ ٥/ ١٢٨).

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابي يعلى وابن أبي حاتم فانظر الأخير بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لأبي يعلى.

(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه للطبراني.

صوم يوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز عنه إن شاء، وأما الديوان الذى لايترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضا، القصاص لا محالة»(١).

- وعن أبى ذر: قال أتيت رسول الله ﷺ فقال: **«ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة»**. قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: **وإن زنى وإن سرق**. قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: **وإن زنى وإن سرق ثلاثا، ثم قال فى الرابعة: على رغم أنف أبى ذر»**(٢).

- وعن أبى ذر عن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يقول: ياعبدى ما عبدتنى ورجوتنى فإنى غافر لك على ما كان فيك، ويا عبدى لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ما لم تشرك بى شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة»**(٣).

وعن أبى ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يعدل بالله شيئاً ثم كانت عليه من الذنوب مثل الرمال غفر له»(٤).

- وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: **«من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»**(٥).

- وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله عز وجل: من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي، ما لم يشرك بى شيئاً»**(٦).

- وعن سلمة بن نعيم قال: قال رسول الله ﷺ **«من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق»**.

- وعن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: وإن زنى وإن سرق**: قلت: وإن زنى

---

(١) أخرجه أحمد ف« مسنده» (٦/ ٢٤٠)، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦٦٤٣)، والحاكم فى المستدرك» (٤/ ٥٧٥)، والبيهقى فى «الشعب» (٧٤٧٣).

وانظر «تفسيره ابن أبى حاتم بتخريجنا.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٤٨٧) بنحوه، ومسلم فى الإيمان (١/ ٣٧١/ ١٥٤) وتقدم تخريجه.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٠٣) ونسبه لأحمد، وابن مردويه

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الوضع السابق ونسبه لابن مردويه.

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٧٩) بإسناد ضعيف فيه عطية العوض.

(٦) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١١/ ٢٤١/ ١١٦١٥)، والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٢٦٢) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٠٣) وزاد نسبته للبيهقى فى «الأسماء والصفات».

وإن سرق؟! قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء. قال: فخرجت لأنادي بها في الناس، فلقيني عمر فقال: ارجع فإن الناس إن علموا بهذه اتكلوا عليها. فرجعت، فأخبرته ﷺ فقال: صدق عمر»(١).

وعن أبي أيوب الأنصاري قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «إن لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام قال: وما دينه؟ قال: يصلي ويوحد الله. قال: استوهب منه دينه فإن أبى فابتعه منه. فطلب الرجل ذلك منه فأبى عليه، فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: وجدته شحيحا على دينه. فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٢).

وعن ابن عمر قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ وقال: اني أدخرت دعوتي شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فامسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا، ثم نطقنا بعد ورَجَوْنا(٣).

● ثانياً: تفسير الآية بالموقوف:

وعن ابن عمر قال: كنا لا نشك فيمن أوجب الله له النار في كتاب الله حتى نزلت علينا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ فلما سمعنا هذا كففنا عن الشهادة وأرجأنا الأمور إلى الله(٤).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٤٢) بإسناد فيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤/ ١٧٧/ ٤٠٦٣).

قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥): وفيه واصل بن السائب وهو ضعيف

وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٠ ـ بتخريجنا).

(٣) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥) ونسبه لابي يعلى وقال: رجاله رجال الصحيح غير حرب بن سريج وهو ثقة.

وذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٣٠٢) وزاد نسبته لابن الضريس، وابن المنذر، وابن عدى قال: نسبه صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» وذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٣٠٢) ونسبه إليه فانظره بتخريجنا.

وعن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب النبي ﷺ لانشك في قاتل النفس، وآكل مال اليتيم، وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فامسكنا عن الشهادة[١].

وعن المعتمر بن سليمان بن عتبة البارقي قال: حدثنا إسماعيل بن ثوبان قال: شهدت في المسجد قبل الداء الأعظم، فسمعتهم يقولون ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا﴾ إلى آخر الآية فقال المهاجرون والأنصار: قد أوجب له النار. فلما نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ قالوا: ما شاء الله يصنع الله ما يشاء[٢].

وعن ابن عباس قال في هذه الآية: إن الله حرّم المغفرة على من مات وهو كافر وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم من المغفرة[٣].

وعن علي قال: أحب آية إلي في القرآن ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٤].

● ثالثاً: تفسير الآية بأقوال التابعين ومن بعدهم:

وعن أبي الجوزاء قال: اختلفت الى ابن عباس ثلاث عشرة سنة، فما من شيء من القرآن إلا سألته عنه، ورسولي يختلف إلى عائشة، فما سمعته ولا سمعت أحدا من العلماء يقول: إن الله يقول لذنب لا أغفره[٥].

عن بكر بن عبد الله المزني: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ قال: ثنيا[٦] من ربنا على جميع القرآن[٦] ا. هـ

● ذكر ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين: -

(١) ذكره السيوطي في «الدر» في الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن أبي حاتم، والبزاز فانظره في ابن أبي حاتم وتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٣٠٢) ونسبه لأبي داود في ناسخه وابن أبي حاتم.

وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٤ ـ بتخريجنا).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٣٧) وقال: حسن غريب.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٣٠٣) ونسبه لابن جرير.

(٦) كذا في «الدر» وفي تفسير ابن أبي حاتم (تبينا). فانظره بتخريجنا.

● **فائدة/ ما جاء فى حكمة تكرار الآية مرتين، وفى سورة واحدة: -**

قال الرازى[1]: اعلم أن هذه الآية مكررة فى هذه السورة، وفى تكرارها فائدتان: **الأولى**: أن عمومات الوعيد وعمومات الوعد متعارضة فى القرآن، وأنه تعالى ما أعاد آية من آيات الوعيد بلفظ واحد مرتين، وقد أعاد هذه الآية دالة على العفو والمغفرة بلفظ واحد فى سورة واحدة. وقد اتفقوا على أنه لا فائدة فى التكرير إلا التأكيد، فهذا يدل على أنه تعالى خص جانب الوعد والرحمة بمزيد التأكيد، وذلك يقتضى ترجيح الوعد على الوعيد.

والفائدة الثانية: أن الآيات المتقدمة إنما نزلت فى سارق الدرع، وقوله ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ**﴾ إلى آخر الآيات إنما نزلت فى ارتداده، فهذه الآية إنما يحسن اتصالها لما قبلها لو كان المراد أن ذلك السارق لو لم يرتد لم يصر محروماً عن رحمتي، ولكنه لما ارتد وأشرك بالله صار محروماً قطعاً عن رحمة الله، ثم إنه أكد ذلك بأن شرح أن أمر الشرك عظيم عند الله فقال ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً**﴾ يعنى ومن لم يشرك بالله لم يكن ضلاله بعيداً، فلا جرم لا يصير محروماً عن رحمتي، وهذه المناسبات دالة قطعاً على دلالة هذه الآية على أن ما سوى الشرك مغفور قطعاً سواء حصلت التوبة أو لم تحصل أهـ.

قال الشوكانى[2]: بمثل كلام الفخر الرازى.

قال الطبرى: فى الموضع الأول من سورة النساء: -

يعنى بذلك جلّ تناؤه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم**﴾ و﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ فإن الله لايغفر الشرك به والكفر ويغفر مادون ذلك الشرك لمن يشاء من أهل الذنوب والآثام وإذ كان ذلك معنى الكلام فإن قوله: ﴿**أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾ فى موضع نصب بوقوع يغفر عليها وإن شئت بفقد الخافض الذى كان يخفضها لو كان ظاهراً وذلك أن يوجه معناه إلى أن الله لايغفر بـ ﴿ **أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ على تأويل الجزاء كأنه قيل إن الله لايغفر ذنبًا مع شرك أو عن شرك وعلى هذا التأويل يتوجه أن تكون أن فى موضع خفض فى قول بعض أهل العربية.

---

(١) «التفسير الكبير» (٦/٥/٤٦).

(٢) فتح القدير (١/٦٠٨).

ثم قال: وقد أبانت هذه الآية أن كلَّ صاحب كبيرة ففى مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليها مالم تكن كبيرته شركاً بالله اهـ.

وقال في الموضع الثانى من سورة النساء: يعنى بذلك جل ثناؤه إن الله لايغفر لطعمة - بن الابيرق الذى أبى التوبة - إذا أشرك، ومات على شركه بالله، ولا لغيره من خلقه بشركهم وكفرهم به. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ من الذنوب ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ يعنى بذلك جل ثناؤه أن طعمة لولا أنه أشرك بالله ومات على شركه لكان فى مشيئة الله على ما سلف من خيانته ومعصيته. وكان إلى الله أمره فى عذابه والعفو عنه، وكذلك حكم كل من اجترم جرماً فإلى الله أمره إلا أن يكون جرمه شركاً بالله وكفراً فإنه ممن حتم عليه أنه من أهل النار. ثم ذكر أثر السدى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ يقول: من يجتنب الكبائر من المسلمين. اهـ(1).

قال ابن الجوزى(2): والمراد من الآية: لا يغفر لمشرك مات على شركه. فى قوله (لمن يشاء) نعمة عظيمة من وجهين: [أحدهما] أنها تقتضى أن كل ميت على ذنب دون الشرك لا يقطع عليه بالعذاب، وان مات مصراً.

[والثانى] أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع. اهـ.

تقدم قول الطبرى فى حكم مرتكب الكبيرة فى الآية

وقال الفخر الرازى: هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على العفو عن أصحاب الكبائر. واعلم أن الاستدلال بها من وجوه:

[الوجه الأول]: أن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ معناه لايغفر الشرك على سبيل التفضل لأنه بالاجماع لايغفر على سبيل الوجوب، وذلك عندما يتوب المشرك عن شركه، فإذا كان قول: إن الله لايغفر الشرك هو أنه لايغفره على سبيل التفضل، وجب أن يكون قوله و﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ هو أن يغفره على سبيل التفضل؛ حتى يكون النفى والإثبات متواردين على معنى واحد. ألا ترى أنه لو قال: فلان لايعطى أحداً تفضلاً، ويعطى زائداً فإنه يفهم منه أنه يعطيه تفضلاً، حتى لو صرح وقال: لايعطى أحداً شيئاً على سبيل التفضل ويعطى أزيد على سبيل الوجوب، فكل عاقل

(1) تفسير الطبرى ٤/ ٥/ ٨٠.

(2) زاد المسير (٢/ ٦٣).

يحكم بركاكة هذا الكلام، فثبت أن قوله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ على سبيل التفضل.

إذا ثبت هذا فنقول: وجب أن يكون المراد منه أصحاب الكبائر قبل التوبة، لأن عند المعتزلة غفران الصغيرة وغفران الكبيرة بعد التوبة واجب عقلاً، فلا يمكن حمل الآية عليه، فإذا تقرر ذلك لم يبق إلا حمل الآية على غفران الكبيرة قبل التوبة وهو المطلوب.

[الثانى]: أنه تعالى قسم المنهيات على قسمين: الشرك وما سوى الشرك، ثم إن ما سوى الشرك يدخل فيه الكبيرة قبل التوبة، والكبيرة بعد التوبة والصغيرة، ثم حكم على الشرك بأنه غير مغفور قطعاً، وعلى ما سواه بأنه مغفور قطعاً، لكن فى حق من يشاء، فصار تقدير الآية أنه تعالى يغفر كل ما سوى الشرك، لكن فى حق من شاء. ولما دلت الآية على أن كل ما سوى الشرك مغفور، وجب أن تكون الكبيرة قبل التوبة أيضاً مغفورة.

[الثالث]: أنه تعالى قال: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ فعلق هذا الغفران بالمشيئة، وغفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة مقطوع به، وغير معلق على المشيئة، فوجب أن يكون الغفران المذكور فى هذه الآية هو غفران الكبيرة قبل التوبة وهو المطلوب، واعترضوا على هذا الوجه الأخير بأن تعليق الأمر بالمشيئة لا ينافى وجوبه، ألا ترى أنه تعالى قال بعد هذه الآية (بل الله يزكى من يشاء) ثم إنا نعلم أنه تعالى لا يزكى إلا من كان أهلاً للتزكية، وإلا كان كذباً، والكذب على الله محال، فكذب ههنا.

واعلم أنه ليس للمعتزلة على هذه الوجوه كلام يلتفت إليه إلا المعارضة بعمومات الوعيد، ونحن نعارضها بعمومات الوعد. وروى الواحدى فى «البسيط» باسناده عن ابن عمر قال: كنا على عهد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل منا على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار، حتى نزلت هذه الآية فأمسكنا عن الشهادات(1).

ثم قال الرازى: اعلم أن الله تعالى لما هدد اليهود على الكفر، وبين أن ذلك التهديد لابد من وقوعه لا محالة بين أن مثل هذا التهديد من خواص الكفر، فأما سائر الذنوب التى هى مغايرة للكفر فليست حالها كذلك، بل هو سبحانه قد يعفو عنها، فلا جرم قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾.

(1) «التفسير الكبير» (٥/ ٥/ ١٢٨و١٢٩).

* **فائدة/ فى تسمية اليهودى النصرانى مشرك ودخولهما فى الشرك المذكور فى الآية:**

قال الرازى[1]: هذه الآية دالة على أن اليهودى يسمى مشركاً فى عرف الشرع، ويدل عليه وجهان: .

الأول: أن الآية دالة على أن ما سوى الشرك مغفور، فلو كانت اليهودية مغايرة للشرك لوجب أن تكون مغفورة بحكم هذه الآية، وبالإجماع هى غير مغفورة، فدل على أنها داخلة تحت اسم الشرك.

الثانى: أن اتصال هذه الآية بما قبلها إنما كان لأنها تتضمن تهديد اليهود، فلولا أن اليهودية داخلة تحت اسم الشرك، وإلا لم يكن الأمر كذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: **﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا﴾** إلى قوله **﴿والذين أشركوا﴾** عطف المشرك على اليهودى، وذلك يقتضى المغايرة.

قلنا: المغايرة حاصلة بسبب المفهوم اللغوي، والاتحاد حاصل بسب المفهوم الشرعي، ولابد من المصير إلى ما ذكرناه دفعاً للتناقض. إذا ثبتت هذه المقدمة فنقول: قال الشافعى رضى الله عنه المسلم لايقتل بالذمي، وقال أبو حنيفة: يقتل. حجة الشافعى أن الذمى مشرك لما ذكرناه، والمشرك مباح الدم لقوله تعالى: **﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾**. فكان الذمى مباح الدم على الوجه الذى ذكرناه ومباح الدم هو الذى لا يجب القصاص على قاتله، ولا يتوجه النهى عن قتله ترك العمل بهذا الدليل فى حق النهي، فوجب أن يبقى معمولاً به فى سقوط القصاص عن قاتله. اهـ.

قال القرطبى[2]: - قوله تعالى: **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾**. وهذا من المحكم المتفق عليه الذى لا اختلاف فيه بين الأمة. **﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾** من المتشابه الذى قد تكلم العلماء فيه. قال محمد بن جرير الطبرى: قد أبانت هذه الآية أن كلّ صاحب كبيرة ففى مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه مالم تكن كبيرته شِرْكاً بالله تعالى - تقدم ذكره.

وقال بعضهم: قد بين الله تعالى ذلك بقوله: **﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾**. فأعلم أنه يشاء أن يغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر ولا يغفرها لمن

(١) «التفسير الكبير» (٥/٥/١٢٨و١٢٩).

(٢) تفسير القرطبى (٣/ ١٨١٥).

أتى الكبـــائر. وذهب بعض أهل التـــأويل إلى أن هذه الآية ناسـخــةٌ لِلَّتى فى آخِـر «الفُرْقانِ». قال زيد ابن ثابت: نزلت سورة «النساء» بعد «الفرقان» بستة أشهر.

والصحيح أن لا نسخ؛ لأن النسخ فى الأخبار يستحيل اهـ.

[قلت]: وأيضاً ودعوى النسخ لاتثبت إلا بدليل صريح.

قال فى الموضـع الثانى[1]: قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الـــلَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾ رد على الخوارج حيث زعموا أن مرتكب الكبير كافر.

ثم قال: **قال ابن فورك**: وأجمع أصحابنا على أنه لاتخـليد إلا للكافر وأن الفاسق من أهل القبلة إذا مات غير تائب فإنه إن عُذب بالنار فلا محالة أنه يخرج منها بشفاعة الرسول، أو بإبتداء رحمة من الله تعالي. أ.هـ.

قال الشوكاني[2]: قول ﴿**إِنَّ الـــــلَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ هذا الحكم يشمل جـميع طوائف الكفار، من أهل الكتاب وغـيرهم، ولايختص بكفار أهل الحرب، لأن اليهود قـالوا عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالوا: ثالث ثلاثة. أ. هـ.

[قلت]: ثم ذكر ماذكره الطبرى فى حكم صاحب الكبيرة إذامات ولم يتب منها.

● **فائدة/ أيهما أرجى هذه الآية، أم آية (الزمر)**:

تابع ابن كثير من سبـقه من المفسرين، وذكر فى الموضع الأول للآية[3] جملة كبيرة من الأحاديث، ثم ذكرمقارنة بين الآية هذه، وبين آية تنزيل (الزمر) أيهما أرجي، فقال:

هذه الآية التى فى سورة تنزيل مشـروطة بالتوبة، فمن تاب من أى ذنب، وإن تكرر منه تاب الله عليه، ولهذا قال ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ أى بشرط التوبة ،ولولم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، ولايصح ذلك، لأنه تعالى قد حكـم ههنا بأنه لايغفر الشرك، وحكم بأنه يغفـر ماعداه

---

(١) تفسير القرطبى (٣/١٩٥٦).

(٢) فتح القدير (١/ ٥٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨١) - (١/ ٥٢٧).

لمن يشاء، أى ولم يتب صاحبه، فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه، والله أعلم أ.هـ.

فأطال ابن كثير فى الموضع الأول للآية، واختصر فى الموضع الثاني[1] فى تفسيرها.

● ذكر أقوال شراح التوحيد فى الآية

قال ابن تيمية ـ رحمه الله[2]: «وأعظم الذنوب عند الله الشرك به، وهو ـ سبحانه ـ لايغفر أن يشرك به، ويغفرمادون ذلك لمن يشاء، والشرك منه جليل ودقيق وخفى وجلي».

وقال فى «الرد على البكري»[3] «وقد يقال : الشرك لايغفر منه شيء لا أكبر ولاأصغر على مقتضى القرآن، وإن كان صاحب الشرك ـ أى :الأصغر ـ يموت مسلماً، لكن شركه لايغفر له، بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة».

وقال ابن القيم: فى «إغاثة اللهفان»[4]: «فأما نجاسة الشرك؛ فهى نوعان : نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة؛ فالمغلظة: الشرك الأكبر الذى لايغفره الله، فإن الله لايغفر أن يشرك به، والمخففة: الشرك الأصغر كيسير الرياء»[*]. ا.هـ

قال سليمان آل الشيخ[5]: فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب، لأن الله تعالى أخبر أنه لايغفره أى إلا بالتوبة منه، وماعداه فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء غفره بلاتوبة وإن شاء عذب به. وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذى هذا شأنه عند الله، وإنما كان كذلك لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[6].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨١) - (١/ ٥٢٧).

(٢) جامع الرسائل (٢/ ٢٥٤).

(٣) (ص ١٤٦).

(٤) (١/ ٩٨).

(*) انظر حاشية القول المفيد (١/ ١٤٠، ١٤١).

(٥) انظر تيسير العزيز الحميد ٨٣ و ٨٤.

(٦) الأنعام: ١.

ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر مناف له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك. فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة.

كما قال ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى لايقالُ في الأرْضِ اللهُ اللهُ»(1) رواه مسلم. ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية من ملك الضر والنفع، والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده. فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فضلاً عن غيره شبيهاً بمن له الخلق كله، وله الملك كله وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله. فأزِمَّة الأمور كلها بيديه سبحانه، ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم، فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات، ومن خصائص الآلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، ولذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة وغاية الحب مع غاية الذل كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره، فمن فعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة، هذا معنى كلام ابن القيم وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يدخلون النار ولابد، ولا يخرجون منها، وهم أصحاب المنزلة بين المنزلتين.

ووجه ذلك أن الله تعالى جعل مغفرة ما دون الشرك معلقة بالمشيئة، ولا يجوز أن يحمل هذا على التأكيد، فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾(2) فهنا عمم وأطلق، لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلق لأن المراد به ما لم يتب. قاله شيخ الإسلام. اهـ.

---

(1) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (1/ 455/ 234) أنس به.
وانظر «فتح المجيد (ح 120) بتخريجنا).
(2) الزمر (53).

وبنحو هذا القول قال عبد الرحمن آل الشيخ(١).

قال حامدً بن محمدً بن حسن(٢): واعلم أن الشرك أكبر وأصغر:

- فالأكبر: يحبط الأعمال كلها ويخرج الإنسان من إسلامه، قال الله تعالى خطاباً للنبي ﷺ وتنبيها لعبادة: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

- وأما الأصغر: فيحبط العمل الذى هو فيه؛ كالرياء والسمعة، وكثيراً ما يجرى فى الإنسان إلا من عصمه الله وحماه نسأل الله حمايته من كل ما يكره. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله(٣): تفيد الآية أن الشرك أعظم الذنوب. اهـ.

وقال ابن باز(٤): فيه - يعنى قوله الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ بيان عظم الشرك وخطورته أما الشرك فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين(٥): فالشرك لايغفره الله أبداً، لانه جناية على حق الله الخاص وهو التوحيد.

أما المعاصى، كالزنا والسرقه، فقد يكون للإنسان فيها حظ نفس بما نال من شهوة، أما الشرك؛ فهو اعتداء على حق الله تعالى وليس للإنسان فيه حظ نفسٍ، وليس شهوة يريد الإنسان أن ينال مراده، ولكنه ظلم، ولهذا قال الله تعالى ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(٦). ا.هـ.

هل المراد بالشرك هنا الأكبر أم مطلق الشرك؟

قال ابن عثيمين؟ قال بعض العلماء: إنه مطلق يشمل كلّ شرك ولو أصغر؛ كالحلف بغير الله، فإنَّ الله لايغفره، أمَّا بالنسبة لكبائر الذنوب؛ كالسرقة، والخمر؛ فإنَّها تحت المشيئة، فقد يغفرها الله، وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقِّق في هذه المسائل

(١) فتح المجيد (١/ ٩٣) وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/ ٤٧٥، ٤٧٦).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (١٦٦). (٣) الجامع الفريد (٢٥).

(٤) التعليق المفيد (٤٧).

(٥) القول المفيد ١/ ١٤٠ و ١٤١.

(٦) لقمان (١٣).

اختلف كلامه في هذه المسألة؛ فمرةً قال: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ومرة قال: الشرك الذي لايغفره الله هو الشرك الأكبر وعلى كل حال؛ فيجب الحذر من الشرك مطلقاً؛ لأنَّ العموم يحتمل أن يكون داخلاً فيه الأصغر؛ لأنَّ قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ أن وما بعدها في تأويل مصدر، تقديره: إشراكاً به؛ فهو نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم[1] .ا. هـ

قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾.

المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك.

قال القرعاوى[2]: الفوائد (يعنى من الآية):-

(١) - من مات على الشرك الأكبر وجبت له النار.

(٢) من مات على التوحيد وعنده كبائر، فمغفرة ذنوبه تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى.

(٣) فى الآية رد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، وعلى المعتزلة الذين يرون تخليد صاحب الكبائر فى النار.

(٤) إثبات صفة المشيئة.



(١) القول المفيد ١/ ١٤٠ و ١٤١.

(٢) الجديد (٥٥).

وقَالَ الخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[1].

- مناسبة الآية للباب وللتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[2]: فإذا كـان إبراهيم - عليه السلام - يسـأل الله أن يجنبه ويجنب بنيه عبادة الأصنام، فما ظنك بغيره؟. كما قال إبراهيم التيمى: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟! رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم، وهذا يوجب للقلب الحي أن يخاف من الشرك لا كما يقول الجهال: إن الشـرك لايقع فى هذه الأمة، ولهذا أمنوا الشرك فوقعوا فيه، وهذا وجه مناسبة الآية للترجمة.

وقال حامد بن محمد بن حسن[3] أيضاً: واعلم أنه كلما زادت معرفة العبد بالله وعلمه به وبأحكامه وعقابه وثوابه كان خوفه أشد.

- قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾. ولما كان إمـام الحنفاء إبراهيم ومحمد سيد المرسلين، أعلم الناس بالله، كان خوفهم أشد وأعظم وطلبهم من الله النجاة أكثر.

- قال الخليل عليه السلام ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾.

- وقال ﷺ ﴿ **رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا** ﴾.

- وقال يوسف: ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾.

- وقال سليمان: ﴿ **رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** ﴾ اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله[4]: مناسبتهـا للباب هى أنه إذا كان خليل الرحمن الذى كان يكسـر الأصنام بيده اشتد خـوفه على نفسه، وعلى بنيـه من الشرك بسبب الافـتتان بالأصنام فسأل الله له ولبنيه وقاية عبادتها فنحن أولى منه لضعف إيماننا. اهـ.

وقال ابن باز[5]: لأن سيد الأنبياء بعد نبـينا كان يخاف من الشرك فوجب التأسى بهم، وأن نكون أولى بالخوف منهم اهـ.

---

(١) ابراهيم: ٣٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٨٥.

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٦٦).

(٤) الجامع الفريد (٢٦).

(٥) التعليق المفيد (٤٧، ٤٨).

وقال ابن عثيمين[1]: فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه، وهو خليل الرحمن، وإمام الحنفاء، فما بالك بنا نحن إذن؟! اهـ.

وبنحو ذلك قال القرعاوى[2]: أن إبراهيم مع قوة إيمانه يخشى على نفسه وأبنائه من الشرك، فأوجب علينا ذلك أن نخاف منه من باب أولى اهـ.

قوله: [وقال الخليل عليه السلام ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ الآية]

الإعراب[3]: «واجنبنى وبنىَّ أن نعبد الأصنام».

واجنبني فعل دعاء والنون للوقاية والياء مفعوله وبنىَّ عطف على الياء أو مفعول معه وأن نعبد أن وما بعدها فى تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض كما قال الراغب أى عن أن نعبد والجار والمجرور متعلقان باجنبنى والأصنام مفعول به لنعبده. ا.هـ.

● ماجاء في تفسير الآية بالقران:

قال الشنقيطي[4]: لم يبين هنا هل أجاب دعاءُ نبيه إبراهيم هذا ولكنه بيَّن فى مواضع آخر أنه أجاب فى بعض ذريته دون بعض كقوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾[5] وقوله ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[6] وروى بن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله - ﷺ - تلا قول إبراهيم ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[8] وقال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[9] فرفع يديه ثم قال: **«اللهم أمتى»**، وبكى. فقال الله تعالى: **«ياجبرائيل اذهب إلى محمد وربك أعلم فاسأله ما يبكيه»** فأتاه جبرائيل فسأله، فأخبره رسول الله - ﷺ - ما قال. فقال الله: **«ياجبرائيل؛ اذهب إلى محمد وقل له إنّا سنرضيك فى أمتك ولانسوءك»**. اهـ.

(١) القول المفيد (١/ ١٤٢).
(٢) الجديد (٥٧).
(٣) إعراب القرآن ١٩٨/٥.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٨٣.
(٥) الصافات: ١١٣.
(٦) الزخرف: ٢٨.
(٧) ابراهيم: ٣٦.
(٨) المائدة: ١١٨.
(٩) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» تفسير الطبرى (١٣/ ١٥١ و ١٥٢)

● **ماجاء فى تفسير الآية بالسنة:**

أولاً : بالمرفوع

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنى دعوت للعرب، فقلت: اللهم من لقيك منهم مؤمناً موقناً بك مصدقاً بلقائك، فاغفر له أيام حياته، وهى دعوة أبينا إبراهيم، ولواء الحمد بيدى يوم القيامة، ومن أقرب الناس إلى لوائى يومئذ العرب**»(١).

● **ثانياً : بأقوال السلف:**

وعن مجاهد فى قوله: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ قال: فاستجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام دعوته في ولده، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته، وجعل هذا البلد آمنا، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماما، وجعل من ذريته من يقيم الصلاة، وتقبل دعاءه، وأراه مناسكه وتاب عليه(٢).

وعن إبراهيم التيمى قال: ما يأمن البلاء بعد قول إبراهيم ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾(٣).

وعن سفيان بن عيينة قال: لم يعبد أحد من ولد إسماعيل الأصنام لقوله ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ قيل: فكيف لم يدخل ولد اسحق وسائر ولد ابراهيم؟ قال: لأنه دعا لأهل هذا البلد أن لايعبدوا الأصنام ودعا لهم بالأمن. فقال: ﴿ **اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**﴾ ولم يدع لجميع البلدان بذلك. وقال: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ فيه وقد خص أهله وقال: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ** ﴾(٤). اهـ(٥).

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين: -**

---

(١) ذكره السيوطي فى « الدر» (٤/ ١٦٠) ونسبة للحكيم الترمذي.
(٢) ذكره السيوطي في الدر (٥/ ٤٦) ونسبه لابن جرير
(٣) إبراهيم: ٣٤. والأثر ذكره السيوطي في «الدر في الموضع السابق ونسبه لابن جرير وابن ابي حاتم
(٤) ابراهيم: ٣٧.
(٥) ذكره السيوطي في الدر (٥/ ٤٦).

● قوله (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمناً).

- قال الطبرى[1]: يقول تعالى ذكره: واذكر يامحمد إذ قال إبراهيم (رب اجعل هذا البلد آمنا) يعنى الحرم بلداً آمناً أهله، وسكانه. اهـ.

- قال البغوى[2]: (آمناً) ذا أمن يؤمن فيه. اهـ.

- وقال الزمخشرى[3]: بنحو ذلك.

- وقال ابن الجوزى[4]: البلد: صدر القرى، والبالد: المقيم بالبلد، والبلدة: الصدر، ووضعت الناقة بلدتها: إذا بركت، والمراد بالبلد هاهنا مكة.

ومعنى (آمنًا) ذا أمن، وأمن البلد مجاز، والمراد: أمن من فيه. وفى المراد بهذا الأمن ثلاثة أقوال: -

(أحدها) أنه سأله الأمن من القتل.

(الثانى) من الخسف والقذف.

(الثالث) من القحط والجدب. اهـ.

- وقال القرطبى[5]: (أمناً) يعنى مكة. اهـ كما قال الطبرى.

- وقال ابن كثير[6]: يذكر تعالى فى هذا المقام محتجاً على مشركى العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لاشريك له، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه آهله تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿ رب اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ﴾ وقد استجاب الله له، فقال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً﴾ الآية وقال: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾. اهـ.

قال الشوكانى[7]: وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخذ من أمور الدين والدنيا. أهـ

(١) تفسير الطبرى (٧/١٣/٥١).
(٢) معالم التنزيل (٣/ ٣٨٢).
(٣) الكشاف (٢/ ٣٠٤).
(٤) زاد المسير (١/ ١٢٤، ١٢٥).
(٥) تفسير القرطبى (٥/٣٥٩٧).
(٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٢).
(٧) فتح القدير (٣/ ١١٣).

[قلت] : وتقدم في البـاب الذي قبل هذا أن الأمن وسيلة لا غاية في تحـقيق العبادة والدعوة والأمـر بالمعروف والـنهى عن المـنكر، وإقامـة شعائر الله، ولايـكون أمن إلا بتمكين كما قال تعالي ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ فأنظر هذا الموضع في الباب السابق.

● **ذكر الفخر الرازى مسألة تتعلق بالأمن فقال:**

المسألة الثالثة: اختلفوا في الأمن المسئول فى هذه الآية على وجوه

(أحدها) سأله الأمن من القحط لأنه أسكن أهله بواد غير ذي زرع ولا ضرع .

(وثانيها) سأله الأمن من الخسف والمسخ .

(وثالثها) سأله الأمـن من القتل وهو قـول أبى بكر الرازى، واحتـج عليه بأنه عـليه السلام سألـه الأمن أولاً، ثم سأله الرزق ثانـياً، ولو كان الأمن المطلـوب هو الأمن من القحط لكان سؤال الرزق بعده تكراراً فقال في هذه الآية ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ وقال في آية أخرى ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ثم قال في آخر القصة ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ إلى قوله ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ واعلم أن هـذه الحجة ضعيـفة فإن لقائـل أن يقول: لعـل الأمن المسئول هـو الأمن من الخسف والمسخ، أو لعلـه الأمن من القحط، ثم الأمن من القحط قـد يكون بحصول ما يحتاج إليه من الأغذيـة وقد يكون بالتوسعة فيها فهو بالـسؤال الأول طلب إزالة القحط وبالسؤال الثاني طلب التوسعة العظيمة.

المسئلة الرابعة: اختلفوا فـي أن مكة هل كانت آمنة مـحرمة قبل دعوة إبراهيـم عليه السلام أو إنما صـارت كذلك بدعوته فقـال قائلون: إنها كـانت كذلك أبداً لقولـه عليه السلام «إن الله حرم مكـة يوم خلق السموات والأرض». وأيضـاً قال إبراهيم ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وهذا يقتضي أنها كانت محرمة قبل ذلك، ثم إن إبراهيم عليه السـلام أكده بهذا الدعاء، وقال آخرون: إنها إنما صارت حرماً آمناً بدعـاء إبراهيم عليه السلام وقبله كـانت كسائر البلاد والدليل عليـه قوله عليه السلام: «**اللهم إني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة**»

(والقول الثالث) إنها كانت حراماً قبل الدعوة بوجه غير الوجه الذي صارت به حراماً بعد الدعوة

(فالأول) يمنع الله تعالى من الاصطلام وبما جعل في النفوس من التعظيم

(والثاني) بالأمر على ألسنة الرسـل.

قوله (واجنبنى):

- **قال الطبرى**[1]: يقال منه: جنبته الشـر، فأنا أجنبه جنباً وجنبته تجنيـباً وأجنبته ذلك فأنا أجنبه اجناباً، ومن جنبت قول الشاعر:

وتنفض معهد شفقاً عليه وتجنبه فلا يصئى الصعابا

ومعنى ذلك، أبعدنى، وبنى من عبادة الأصنام. اهـ.

- **وكذا قال البغوى**[2].

- **وقال الزمخشرى**[3]: وقرئ وأجنبنى، وفـيه ثلاث لغات: جنبه الشـر، وجنبه وأجنبه فأهل الحجاز يقولون جنبـنى شره بالتشديد، وأهل نجد: جنبنى وأجنبنى والمعنى ثبتنا وأدمنا على اجتناب عبادتها. اهـ.

- **وبنحوه قـال ابن الجوزى**[4]، وأما الفـخر الرازى[5] فنقل ما قاله الزمـخشرى نصاً: وتبعهم القرطبى[6] حيث قال: اجعلنى جانباً عن عبادتها. اهـ.

● **ما جاء فيها من كلام شراح التوحيد:-**

- **قال سليمـان آل الشيخ**[7]: أى اجـعلنى وبنى فى جـانب عن عبـادة الأصنام، وباعد بينى وبينها.

- وبنحوة قال باقى الشراح متابعين للمفسرين.

---

(١) تفسير الطبرى (٧/١٣/ ١٥٠).
(٢) معالم التنزيل (٣/٣٨٣).
(٣) الكشاف (٢/ ٣٠٤).
(٤) زاد المسير (٤/٢٧٨).
(٥) التفسير الكبير، (١٠/١٣/١٣٩).
(٦) تفسير القرطبى: (٥/٣٥٩٧).
(٧) تفسير العزيز الحميد (٨٥).

قال ابن عثيمين[1]: (اجنبهى) أبلغ مما لو قال: امنعنى، وبنىَّ من عبادة الأوثان، لأنه إذا كان فى جانب عنها كان أبعد. اهـ.

قوله: (وبَنِىَّ).

- **قال الزمخشرى**[2]: أراد بنيه من صلبه، وسئل ابن عيينة كيف عبدت العرب الأصنام فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً، واحتج بقوله: (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام). اهـ.

- **قال القرطبى**[3]: بنيه من صُلبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنماً، وقيل: هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له. اهـ.

- **قال ابن كثير**[4]: ينبغى لكل داعٍ أن يدعو لنفسه ولو الديه ولذريته. اهـ.

- **وقال الشوكانى**[5]: قيل أراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية - كقول القرطبى -، وقيل: أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه، وقيل: أراد جميع ذريته ما تناسلوا، ويؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً. اهـ.

وبنحو ذلك قال السعدى[6].

● **ما جاء فيها من كلام شراح التوحيد:**

- **قال سليمان آل الشيخ**[7]: قيل أراد بذلك بنيه وبناته من صلبه، ولم يذكر البنات لدخولهم تبعاً فى البنين، وقد استجاب الله دعاءه. . . .

ثم قال: وهذا يوجب للقلب الحي أن يخاف من الشرك. اهـ كما تقدم كلامه فى مناسبة الباب.

- وباقى الشراح تابعوا المفسرين على هذا.

- **وقال ابن عثيمين**[8]: وقيل: المراد ذريته وما توالد من صلبه، وهو الأرجح؛ وذلك للآيات التى دلت على دعوته للناس من ذريته، ولكن كان من حكمة الله أن

---

(1) القول المفيد (١/ ١٤٢).
(2) الكشاف (٢/ ٣٠٤).
(3) تفسير القرطبى (٥/ ٣٥٩٧).
(4) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢٢).
(5) فتح القدير (٣/ ١١٣)
(6) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٧١).
(7) تيسير العزيز الحميد (٨٤ - ٨٥).
(8) «القول المفيد» (١/ ١٤٢).

لاتجاب دعوته في بعضهم، كما أن الرسول ﷺ: دعا أن لايجعل بأس أمته بينهم، فلم يجب الله دعاءه[1].

وأيضاً يمنع من الأول - بنوه لصلبه - أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق وإسماعيل. اهـ .

وسيأتي تفصيل المسألة في الإشكال الأول.

قوله: (الأصنام).

● **ماجاء فيها من كلام المفسرين.**

- قال ابن جرير الطبرى[2]:-

والأصنام جمع صنم والصنم هو التمثال المصور كما قال رؤبة بن العجاج في صفة امرأة.

وهنانة كالزون يجلى صنمه تضحك عن أشنب عذب ملثمه.

عن مجاهد ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ قال: فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده قال: فلم يعبد أحد من ولده صنمًا بعد دعوته[3].

والصنم التمثال المصور مالم يكن صنما فهو وثن اهـ.

قال الزمخشري[4]: إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم قالوا البيت حجر، فحيثما، نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك ويسمونه الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت ولايقال دار بالبيت. اهـ.

- وذكر القرطبي[5] أثر إبراهيم التيمي المتقدم في أول تفسير الآية حيث قال: من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ كما عبدها أبي وقومي. اهـ.

---

(1)[صحيح] أخرجه مسلم في الفتن (٩/ ٢٤٠/ ١٩) عن ثوبان.

(2) «تفسير الطبرى» (٧/ ١٣/ ١٥).

(3) تقدم تخريجه قريباً

(4) «الكشاف» (٢/ ٣٠٤) .

(5) «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٥٩٧).

● ماجاء في تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد

- **قال سليمان آل الشيخ**(*): الصنم: ما كان منحوتـاً على صورة البشر. والوثن: ما كان على غير ذلك. ذكره الطبرى. اهـ. وتقدم المعنى

ثم قال: والظاهر أن الصنم ما كان مصوراً على أى صـورة، والوثن بخلافه كالحجر والبنية، وإن كان الوثن قد يطلق على الصنم، ذكـر معناه غير واحد، ويروى عن بعض السلف ما يدل عليه. اهـ.

وبنحو من هذا قال عبد الله بن جار الله(١):

قال ابن باز(٢): والمشركون كانوا أقسامـاً: منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد غير الأصنام كالشجر والبحر والشمس والقمـر، وكلهم يجمعهم صرف العبادة لغير الله عز وجل ويطلق على الصنم وثن. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): فإبراهيم علـيه السلام يخـاف الشرك على نفـسه، وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء؛ فما بالك بنا نحن إذن؟!

فلا تأمن الشرك، ولا تأمن النِّفاق، إذ لا يأمن الـنفاق إلا منافق، ولا يخاف النفاق إلا مـؤمن، ولهذا قـال ابن أبي مُلَيْكَة: «**أدركت ثلاثين من أصحـاب النبى ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه**»(٤).

وها هو عمـر بن الخطاب رضي الله عنه خاف على نفـسه النفـاق؛ فقال لحـذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي أَسَرَّ إليه النبي ﷺ بأسمـاء أناس من المنافقين؛ فقال له عمر رضي الله عنه: «**أنشدك الله؛ هل سـماني لك رسول الله ﷺ مع من سـمى من المنافقين؟. فقال حذيفة رضي الله عنه: لا، ولا أزكي بعدك أحداً**»(٥) أراد عمر بذلك زيادة الطمأنينة، وإلا فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة.

ولا يقال: إن عمر رضي الله عنه أراد حث الناس على الخـوف من النفاق ولم يخَفه على نفسه؛ لأن ذلك خلاف ظاهـر اللفظ، والأصل حمل اللفظ على ظاهره، ومثل هذا

(*) تيسير العزيز الحميد

(١) الجامع الفريد(٢٦)

(٢) التعليق المفيد (٤٨).

(٣) القول المفيد (١/ ١٤٢ و ١٤٣)

(٤) [معلق] علقه البخاري في الإيمان (١/ ١٣٥ الفتح)

(٥)

القول يقول بعض العلماء فيما يضيفه النبي ﷺ إلى نفسه في بعض الأشياء، يقولون: هذا قصد به التعليم، وقصد به أن يبيِّن لغيره، كما قيل: إن الرسول ﷺ لم يقل: رب اغفر لي لأنّ له ذنباً، ولكن لأجل أن يعلِّم الناس الاستغفار، وهذا خلاف الأصل، وقول بعضهم: إنه جهر بالذكر عقب الفريضة ليعلم الناس الذكر، لا لأن الجهر بذلك من السنة ونحو ذلك أه.

● **إشكالات فى الآيه وأجوبتها: -**

● **اشكال أول وجوابه:**

قال البغوى[1]: فإن قيل: قد كان إبراهيم معصوماً من عبادة الأصنام، فكيف يستقيم السؤال؟! وقد عبد كثير من بنيه الأصنام؟! فأين الإجابة؟!.

الجواب: قيل: الدعاء فى حق إبراهيم لزيادة العصمة والتثبيت، وأما دعاؤه لبنيه فأراد بنيه من صلبه، ولم يعبد منهم أحد الصنم.

وقيل: إن دعاءه لمن كان مؤمناً من بنيه. اهـ.

● **وجعل الفخر الرازى هذا الاشكال من جزئين:**

الأول: أن الأنبياء عليهم السلام لا يعبدون الوثن البتة، وإذا كان كذلك فما الفائدة فى قوله ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾.

الثانى: أنه طلب من الله أن لا يجعل أبناءه من عبدة الأصنام والله تعالى لم يقبل دعاءه، ولأن كفار قريش كانوا من أولاده، مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام.

فان قالوا: إنهم ما كانوا أبناء إبراهيم وإنما كانوا أبناء أبنائه، والدعاء مخصوص بالأبناء، فنقول: فإذا كان المراد من أولئك الأبناء أبناءه من صلبه، وهم ما كانوا إلا إسماعيل وإسحاق، وهما كانا من أكابر الأنبياء، وقد علم أن الأنبياء لا يعبدون الصنم، فقد عاد السؤال في أنه ما الفائدة في ذلك الدعاء؟

● **الجواب: عن السؤال** قال الزجاج: معناه ثبتنى على اجتناب عبادتها كما قال ﴿**وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾ أي ثبتنا على الاسلام.

ولقائل أن يقول: السؤال باق لأنه لما كان من المعلوم أنه تعالى يثبت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الأصنام فما الفائدة في هذا السؤال؟

---

(١) «معالم التنزيل» (٣/ ٣٨٣).

والصحيح عندي في الجواب وجهان:

[الأول]: أنه عليه السلام وإن كان يعلم أنه تعالى يعصمه من عبادة الاصنام إلا أن ذكر ذلك هضماً للنفس وإظهارا للحاجة والفاقة إلى فضل الله في كل المطالب.

[والثانى]: أن الصوفية يقولون: إن الشرك نوعان: شرك جلي وهو الذي يقول به المشركون، وشرك خفي وهو تعليق القلب بالوسايط وبالأسباب الظاهرة. والتوحيد المحض هو أن ينقطع نظره عن الصوفيّة ولا يرى متصرفا سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله: ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ المراد منه أن يعصمه عن هذا الشرك الخفي والله أعلم بمراده.

● **والجواب عن السؤال الثاني من وجوه:**

(الأول): قال صاحب الكشاف: قوله (وبني) أراد بنيه من صلبه والفائدة في هذا الدعاء عين الفائدة التى ذكرناها في قوله (واجنبنى)

(والثانى) قال بعضهم أراد من أولاده وأولاد أولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ولا شبهة أن دعوته مجابة فيهم.

(الثالث) قال مجاهد: لم يعبد أحد من ولد ابراهيم عليه السلام صنما، والصنم هو التمثال المصور وما ليس بمصور فهو وثن. وكفار قريش ما عبدوا التمثال وانما كانوا يعبدون أحجاراً مخصوصة وأشجارا مخصوصة؛ وهذا الجواب ليس بقوي، لأنه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء إلا عبادة غير الله تعالى والحجر كالصنم في ذلك

(الرابع): أن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية ﴿ **فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي** ﴾ وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فانه ليس منه، ونظيره قوله تعالى لنوح: ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ﴾.

(والخامس): لعله وإن كان عمم في الدعاء إلا أن الله تعالى أجاب دعاءه في حق البعض دون البعض وذلك لا يوجب تحقير الأنبياء عليهم السلام، ونظيره قوله تعالى فى حق إبراهيم عليه السلام ﴿ **قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾. اهـ.

● **فائدة في الرد على المعتزلة:**

قال الفخر الرازي: احتج أصحابنا بقوله: ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ على

أن الكفر والإيمان من الله تعالى، وتقرير الدليل أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله أن يجنبه ويجنب أولاده من الكفر فدل ذلك على أن التبعيد من الكفر والتقريب من الإيمان ليس إلا من الله تعالى، وقول المعتزلة إنه محمول على الألطاف فاسد، لأنه عدول عن الظاهر.

● **إشكال آخر وجوابه:** أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة آمنا، وما قبل الله دعاءه، لأن جماعة خربوا الكعبة وأغاروا على مكة.

● **والجواب عن السؤال من وجهين:**

الأول: أنه نقل أنه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء، والمراد منه: جعل تلك البلدة آمنة من الخراب.

والثاني: أن المراد جعل أهلها آمنين، كقوله: ﴿**واسأل القرية**﴾ أى أهل القرية، وهذا الوجه عليه أكثر المفسرين: وعلى هذا التقدير فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: ما اختصت به مكة من حصول مزيد في الأمن، وهو أن الخائف كان إذا التجأ الى مكة أمن، وكان الناس مع شدة العداوة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضا، ومن ذلك أمن الوحش فإنهم يقربون من الناس إذا كانوا بمكة، ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة، فهذا النوع من الأمن حاصل في مكة فوجب حمل الدعاء عليه.

والوجه الثاني: أن يكون من قوله: ﴿**اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**﴾ أي بالأمر والحكم بجعله آمناً وذلك الأمر والحكم حاصل لا محالة.

● **اشكال آخر وجوابه:**

قال الزمخشرى[1]: فإن قلت: أى فرق بين قوله: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا**﴾ وبين قوله: ﴿**اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**﴾؟.

الإجابة: قلت: قد سأل فى الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولايخافون. وفى الثانى أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمنا. اهـ.

(١) الكشاف (٢/ ٣٠٤).

وَفِي الحَدِيثَ: «أَخْوَفُ مِا أَخَافُ عَلَيْكُم الشِّرْكَ الأَصْغَرَ» فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فقال: «الرِّيَاءُ»(١).

وكذا قال الفخر الرازى(٢): إنما قال في هذه السورة ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ على التنكير وقال في سورة إبراهيم ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ على التعريف لوجهين

(الأول) أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً، كأنه قال: اجعل هذا الوادي بلداً آمناً لأنه تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فقال: ههنا اجعل هذا الوادي بلداً آمناً، والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً، فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذي صيرته بلداً ذا أمن وسلامة، كقولك: جعلت هذا الرجل آمناً

(الثانى) أن تكون الدعوتان وقعتا بعدما صار المكان بلداً، فقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ تقديره: اجعل هذا البلد بلداً آمناً، كقولك: كان اليوم يوماً حاراً، وهذا إنما تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة، لأن التنكير يدل على المبالغة، فقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ معناه: اجعله من البلدان الكاملة في الأمن، وأما قوله ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة.



هكذا أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معرف، وقد رواه الإمام أحمد والطبراني، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في «الزهد»، وهذا لفظ أحمد قال: حدثنا يونس، ثنا ليث عن يزيد، يعني ابن الهاد، عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/٤٢٨، ٤٢٩)، والبيهقى فى «الشعب» (٥/٣٣٣/ ٦٨٣١).

من طريق عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن عمرو بن أبى عمرو، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود به.

وأخرجه أحمد أيضاً فى (٥/٤٢٨).

قال: حدثنا يونس، قال: ثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو عن محمود بن لبيد به.

قال الهيثمى فى «المجمع» (١/١٠٢): رجاله رجال الصحيح.

وزنظر «فتح المجيد» (ح١٢٣) بتخريجنا).

وأنظر كتابنا «قفو الأثر شرح بلوغ المرام بكلام ابن حجر»

(٢) التفسير الكبير (١٠/١٣/١٣٩) (٢/١/٦٠)

قال المنذري ومحمود بن لبيد رأى النبي ﷺ ولم يصح له منه سماع فيما أرى.

وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال: له صحبة. قال: وقال أبي: لا تعرف له صحبة.

ورجح ابن عبد البر والحافظ أن له صحبة وقال رجل: روايته عن الصحابة، وقد رواه الطبراني بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج. وقيل إن حديث محمود هو الصواب دون ذكر رافع.

مات محمود سنة ست وتسعين. وقيل: سنة سبع، وله تسع وتسعون سنة(١) اهـ.

قوله: [وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم...» الحديث]

● مناسبة الحديث للباب:

[قلت] مناسبته ظاهرة، ومع ذلك فقد صرح بعض الشراح بذلك.

فقال عبد الله بن جار الله(٢): علاقة الحديث بالباب أنه إذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على الصحابة مع كمال إيمانهم فينبغي لك أيها المسلم أن تخاف من الأكبر والأصغر لضعف الإيمان. اهـ.

قال القرعاوى(٣): حيث دلَّ الحديث على أنَّ النبى - ﷺ - يخاف على أصحابه مع قوة إيمانهم؛ من الشرك الأصغر فنحن مع ضعف إيماننا وقلة معرفتنا يجب أن نخاف من الشركين الأصغر والأكبر من باب أولى.

*** كلام شراح التوحيد فى الحديث:**

●قوله: (وفى الحديث):

قال ابن عثيمين(٤): **الحديث**: ما أضيف إلى الرسول.

والخبر: ما أضيف إليه وإلى غيره.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٨٥)

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٦).

(٣) الجديد (٥٦).

(٤) القول المفيد (١/ ١٤٤).

والأثر: ما أضيف إلى غير الرسول ﷺ؛ أي: إلى الصحابي فمن بعده، إلا إذا قيِّد فقيل: وفي الأثر عن رسول الله ﷺ؛ فيكون على ما قيِّد به اهـ.

●**قوله: (أخوف ما أخاف عليكم):**

قال ابن عثيمين[1]: الخطاب للمسلمين؛ إذ المسلم هو الذي يُخاف عليه الشرك الأصغر، وليس لجميع الناس. أهـ

قال القرعاوى[2]: أى أشد شيئاً أخافه عليكم. اهـ.

قوله: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر).

قال سليمان آل الشيخ[3]: هذا من رحمته ﷺ لأمته وشفقته عليهم، وتحذيره مما يخاف عليهم، فإنه ما من خير إلا دلهم عليه وأمر به، وما من شر إلا وأخبرهم به وحذرهم عنه.

كما قال ﷺ فيما صح عنه: **«إنه لم يكُنْ نبيٌّ قَبْلي إلاَّ كَانَ حقّاً عَلَيْهِ أنْ يَدلَ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلمهُ لَهُمْ، ويُنْذِرَهُمْ عَنْ شرِ مَا يَعْلمهُ لَهُمْ»**[4].

ولما كانت النفوس مجبولة على محبة الرياسة والمنزلة في قلوب الخلق إلا من سلم الله، كان هذا أخوف ما يخاف على الصالحين، لقوة الداعي إلى ذلك، والمعصوم من عصمه الله، وهذا بخلاف الداعي إلى الشرك الأكبر، فإنه إما معدوم في قلوب المؤمنين الكاملين، ولهذا يكون الإلقاء في النار أسهل عندهم من الكفر. وإما ضعيف. هذا مع العافية، وإما مع البلاء، فـ **﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾**. فلذلك صار خوفه ﷺ على أصحابه من الرياء أشد لقوة الداعي وكثرته، دون الشرك الأكبر لما تقدم، مع أنه أخبر أنه لابد من وقوع عبادة الأوثان في أمته، فدل على أنه ينبغي للإنسان أن يخاف على نفسه الشرك الأكبر إذا كان الأصغر مخوفاً الصالحين من الصحابة مع كمال إيمانهم، فينبغي للإنسان أن يخاف الأكبر لنقصان إيمانه ومعرفته بالله، فهذا وجه إيراد المصنف له هنا مع أن الترجمة تشمل النوعين. أهـ.

---

(١) القول المفيد(١/ ١٤٤) (٢) الجديد (٥٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٨٥ - ٨٦).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (١٨٤٤).

وأنظر تمام تخريجه في «فتح المجيد» (ح١٢٦) بتخريجنا

وقال حامد بن محمد[1]: وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه يقول: «**قال الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فأنا بريء منه، وهو كله للذي أشرك**»[2].

واعلم أن من حكمة الله وعدله يعامل الذي يقصد غيره في عمل أو قول بنقيض قصده، وذلك لأنه تعالى ينظر إلى العامل، فإن كان عمله لله خالصاً يجازيه به، وإن أشرك معه غيره يرجعه إذاً خائباً خاسراً، قال تعالى: ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾[3] وأيضاً يريد المرائي أن يعظم في أعين الناس بعمله أو قوله فيرائي الله به فيسقط من عين الله أولاً ثم من عيونهم.

وفي الحديث عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سمع سمع الله به، ومن راءى راءى الله به**»[4] أخرجاه في الصحيحين. اهـ.

قال السعدي[5] **في قوله: (الشرك الأصغر)** هو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك كالغلو في المخلوق الذي لايبلغ رتبة العبادة كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك. اهـ.

وسيأتي تفصيل ذلك وضوابط الشرك الأصغر وكذلك الأكبر في باب الرقى والتمائم.

● **قوله: (فسئل عنه؟ فقال الرياء):**

قال ابن حجر[6]: الرياء: بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد، وهو مشتق من الرؤية، والمراد به: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها.

والسُّمْعَة: مشتقة من سمع، والمراد بها نحو ما في الرياء، لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر.

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (١٦٧).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الزهد (٢/ ٥٩٢ ـ الحلبي)
وأنظر «رياض الصالحين» (١٦١٩ ـ بتخريجنا). وتقدم تخريجه

(٣) طه: (١١١)

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم في الزهد (١٨ / ١١٦ ـ النووي).
وأنظر «كتابنا فقه الخطابة. وانظر «رياض الصالحين» (١٦٢٢ ـبتخريجنا)

(٥) القول السديد (٢٤).

(٦) فتح الباري (١١/ ٣٤٤، ٣٤٥).

وقال الغـزالى: المعنى طلب المنزلة فى قلوب الناس؛ بأن يريهم الخـصال المحـمودة. والمرائى هو العامل

وقال ابن عبد السلام: الرياء: أن يعمل لغير الله. والسمعة: أن يخفى عمله لله، ثم يحدث به الناس.

ثم قال فى شرح قوله ﷺ: «من سمع سمع الله به ومن يراءى يراءى الله به».

قال: ولابن المبارك فى «الزهد» من حديث ابن مسعود: «من سمع سمع الله به، ومن يراءى راءى الله به، ومن تطاول تعاظماً خفضه الله، ومن تواضع تخشعاً رفعه الله»(١).

وعند الطبرانى من حديث جابر: «ومن كان ذا لسـانين فى الدنيا جـعل الله له لسانين من نار يوم القيامة» (٢)

قال الخطابى: معـناه من عمل عـملاً على غـير إخـلاص، وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه؛ جُوزى على ذلك بأن يشهر الله، ويفضحه، ويظهر ما كان يبطنه. وقيل: من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس، ولم يرد به وجـه الله، فإن الله، يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم، ولا ثواب له فى الأخيرة.

ومعنى يرائى يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه

ومنه قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيـهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقيل: المراد من قصد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليعظموه وتعلو منـزلته عندهم حصل له ما قصد، وكـان ذلك جزاء عمله، ولايثات عليه فى الآخرة.

وقيل: المعنى: من سمعّ بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عيوبه وسمّعه المكروه.

وقيل: المعنى من نسب إلى نفسه عـملاً صالحاً لم يفعله وادعى خيـراً لم يصنعه فإن الله يفضحه ويظهر كذبه.

وقيل: المعنى من يرائى الناس بعمله أراه الله ثواب ذلك العمل وحرمه إياه.

وقيل معنى سمّع الله به شهره، أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه فى الدنيا أو فى القيامة بما ينطوى عليه خبث السريرة.

---

(١) بنحوه أخرجه ابن المبارك في الزهد» (١٤٠) عن ابن عمر.

(٢) الذي في الطبراني إنما هو عن أنس أخرجه في الأوسط» (٨ / ٣٦٥ / ٨٨٨٥).

[قلت: ـ ابن حجر ـ] ورد في عدة أحاديث التصريح بوقوع ذلك في الآخر، فهو المعتمد.

ثم قال: وفى الحديث استحباب إخفاء العمل الصالح، لكن قد يستحب إظهاره ممن يقتدى به على إرادته الاقتداء به، ويقدر ذلك بقدر الحاجة.

قال ابن عبد السلام: يستثنى من استحباب إخفاء العمل من يظهر ليقتدى به أو لينتفع به ككتابة العلم، ومنه حديث سهل: **«لتأتمو بى ولتعلموا صلاتى»** قال الطبرى: كان ابن عمر وابن مسعود وجماعة من السلف يتهجدون فى مساجدهم ويتظاهرون بمحاسن أعمالهم ليقتدى بهم.

قال: فمن كان إماماً يستن بعمله عالماً بمالله عليه قاهراً لشيطانه استوى ما ظهر من عمله وما خفي لصحة قصده، ومن كان بخلاف ذلك، فالإخفاء فى حقه أفضل وعلى ذلك جرى عمل السلف اهـ.

- **قال عبد الله بن جار الله**(١): الرياء، مأخوذ من الرؤية، وهو أن يتظاهر الإنسان بالأعمال الصالحة ليحمده الناس، وخافه النبى ﷺ على أصحابه، لأنه أكثر موافقة للنفس ومحبة لها، وأسهل للنفوذ إليها. اهـ.

- **قال ابن باز**(٢): وله شواهد قوية - لهذا الحديث - تدل على وجوب الحذر من الرياء، وأنه خطير ويبتلى به الصلحاء، لأنه قد يرائى بصلاته وزكاته وأمره بالمعروف ونهية عن المنكر.

- **قال ابن عثيمين**(٣): قوله: **«الرياء»** مشتقٌ من الرؤية مصدر راءى يرائي، والمصدر رياءً؛ كقاتل يقاتل قتالاً.

والرِّياء: أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابداً، وليس يريد أن تكون العبادة للناس؛ لأنه لو أراد ذلك؛ لكان شركاً أكبر، والظاهر أنَّ هذا على سبيل التمثيل، وإلاَّ؛ فقد يكون رياءً، وقد يكون سماعاً، أى يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء فالتعبير بالراء من باب التعبير بالأغلب.

(١) الجامع الفريد (٢٧).
(٢) التعليق المفيد (٤٨).
(٣) القول المفيد (١/ ١٤٥، ١٤٦).

أمَّا إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها؛ فليس هذا رياءً، بل هذا من الدعوة إلى الله - عز وجل -، والرسول ﷺ يقول: **«فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي»**(١).

والرياء ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

الأول: أن يكون في أصل العبادة، أي ما قام يتعبد إلاَّ للرياء؛ فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في «الصحيح» مرفوعاً، قال الله تعالى: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غير تركته وشركه»**(٢).

الثاني: أن يكون الرِّياء طارئاً على العبادة، أي أصل العبادة لله، لكن طرأ عليها الرياء؛ فهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يدافعه؛ فهذا لايضرّه.

مثاله: رجل صلى ركعة، ثم جاء أناس في الركعة الثانية، فحصل في قلبه شيء بأن أطال الركوع أو السجود أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه؛ فإنه لايضره لأنه قام بالجهاد.

وإن استرسل معه؛ فكل عمل ينشأ عن الرياء، فهو باطل؛ كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى؛ فهذا كل عمله حابط، ولكن هل هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟

نقول: لا يخلو هذا من حالين:

الحال الأول: أن يكون آخر العبادة مبنياً على أولها، بحيث لا يصحّ أولها مع فساد آخرها؛ فهذه كلها فاسدة.

وذلك مثل الصلاة؛ فالصلاة مثلاً لايمكن أن يفسد آخرها ولا يفسد أولها، وحينئذ تبطل الصلاة كلها إذا طرأ الرياء في أثنائها ولم يدافعه.

الحال الثانية: أن يكون أول العبادة منفصلاً عن آخرها، بحيث يصحّ أولها دون آخرها، فما سبق الرياء؛ فهو صحيح، وما كان بعده؛ فهو باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال، فتصدق بخمسين بنية خالصة، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء؛ فالأولى مقبولة، والثانية غير مقبولة؛ لأنَّ آخرها منفك عن أولها.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه (٩١٧)، ومسلم في المساجد (٥ / ٢٣ ـ لنووي).
وأنظر «منار السبيل» (٦٠١ ـ بتخريجنا)

(٢) تقدم قريباً

فإن قيل: لو حدث الرياء في أثناء الوضوء؛ هل يلحق بالصلاة فيبطل كله، أو بالصدقة فيبطل ما حصل فيه الرياء فقط.

فالجواب: يحتمل هذا وهذا؛ فيلحق بالصلاة لأن الوضوء عبادة واحدة ينبني بعضها علي بعض، ليس تطهير كل عضو عبادة مستقلة، ويلحق بالصدقة لأنه ليس كالصلاة من كل وجه ولا الصدقة من كل وجه؛ لأننا إذا قلنا ببطلان ما حصل فيه الرياء. فأعاد تطهيره وحده لم يضر؛ لأن تكرار غسل العضو لا يبطل الوضوء ولو كان عمداً، بخلاف الصلاة؛ فإنه إذا كرر جزءً منها كركوع أو سجود لغير سبب شرعي؛ بطلت صلاته، فلو أنه بعد أن غسل يديه رجع وغسل وجهه؛ لم يبطل وضوؤه، ولو أنه بعد أن سجد رجع وركع؛ لبطلت صلاته، والترتيب موجود في هذا وهذا، لكن الزيادة في الصلاة تبطلها، والزيادة في الوضوء لاتبطله، والرجوع مثلاً إلى الأعضاء الأولى لا يبطله أيضاً، وإن كان الرجوع في الحقيقة لا يعتبر وضوءً لأنَّه غير شرعي، وربما يكون بالأولى غسل وجهه على أنه واحدة، ثم غسل يديه، ثم قال: الأحسن أن أكمل الثلاثة في الوجه أفضل، فغسل وجهه مرتين، وهو سيرتّب أي سيغسل يديه ثم وجهه؛ فوضوؤه صحيح.

ولو ترك التسبيح ثلاث مرَّات في الركوع، وبعدما سجد قال: فوتُّ على نفسي فضيلةً، سأرجع لأجل أن أسبح ثلاثة مرَّات؛ فتبطل صلاته؛ فالمهمُّ أن هناك فرقاً بين الوضوء والصلاة، ومن أجل هذا الفرق لا أبتُّ فيها الآن حتى أراجع وأتأمل إن شاء الله تعالى[1]. أهـ

[قلت] : وسيأتي في الباب الخامس والثلاثين (ماجاء في الرياء) فانظره.

---

(١) القول المفيد (١/ ١٤٥ : ١٤٨).

وَعَنْ ابـنِ مَسْعُودٍ (رضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ نِداً دَخَلَ النَّارَ) رَوَاهُ البُخَارِيُّ[1].

قوله : [وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺقال: من مـات وهويدعو من دون الله نداً دخل النار»]

هذا الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير باب: **(ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله).**

ولفظه: «عن عبـد الله: قال النبى - ﷺ -كلمةٌ وقلت أخـري: قال النبيُّ - ﷺ - **«من مات وهو يدعـو من دون الله نداً دخل النار» وقلت أنا : من مـات وهو لايدعو لله نداً دخل الجنة»**. وأخرجه أيضاً في كتاب الجنائز/ باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لاإله إلا الله، ولفظه قال رسول الله ﷺ :**«من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»** وقلت أنا من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنَّة].

وأخرجه فى كـتاب الإيمان والنذور فى باب إذا قال والله لا أتكلم اليـوم فصلى أوقرأ أو سبح أو كبر أو حمد أوهلل فهو على نيته. . . . ولفظه ما ذكره فى كتاب التفسير.

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال القرعاوى: حيث دلَّ الحديث على أن من مـات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار فأوجب ذلك أن نخاف من الشرك[2].

● **قوله: (من).**

قال ابن عثيمين: هذه شرطية تفيد العموم للذكر والأنثى[3].

● **قوله: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً»**

● **الجمع بين ألفاظ الحديث.**

فى رواية للبـخاري: (من مات يشـرك بالله) قال ابن حـجر: فى رواية أبى حـمزة عن

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى فى «الـتفسير» / باب: **﴿ومن الناس من يتـخذ من دون الله أنداداً﴾** (٨/ ٢٥/ح ٤٤٩٧) وطرفـه فى (ح ١٢٣٨) ومـسـلم فى «الإيمان» / باب: من مــات لايشـرك بالله. . . (١/ ٣٦٩/ ح ٩٢) بلفظ. «من مات يُشرك بالله شيئاً دخل النار». من حديث ابن مسعود.
وأخرجه أحمد في «مسنده» (١ / ٣٨٢، ٤٤٣، ٤٦٤)
وأنظر «فتح المجيد» (ح ١٢٨) بتخريجنا)
(٢) الجديد ٦٠.
(٣) القول المفيد ١/ ١٤٨.

الأعمش فى تفسير البقرة: «**من مات وهو يدعو من دون الله نداً**» وفى أوله: «**قال النبى ﷺ كلمة وقلت أنا أخرى**»، ولم تختلف الروايات فى الصحيحين فى أن المرفوع الوعيد والموقوف الوعد. وزعم الحميدى فى «الجمع» وتبعه مغلطاى فى شرحه ومن أخذ عنه أن فى رواية مسلم من طريق وكيع وابن نمير بالعكس بلفظ: «**من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة، وقلت أنا من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار**» وكأن سبب الوهم فى ذلك ما وقع عند أبى عوانة والإسماعيلى من طريق وكيع بالعكس، لكن بين الإسماعيلى أن المحفوظ عن وكيع كما فى البخارى، قال: وإنما المحفوظ أن الذى قلبه أبو عوانة وحده وبذلك جزم ابن خزيمة فى صحيحه، والصواب رواية الجماعة، وكذلك أخرجه أحمد من طريق عاصم وابن خزيمة من طريق يسار وابن حبان من طريق المغيرة كلهم عن شقيق، وهذا هو الذى يقتضيه النظر لأن جانب الوعيد ثابت بالقرآن وجاءت السنة على وفقه فلا يحتاج إلى استنباط، بخلاف جانب الوعد فإنه فى محل البحث إذ لايصح حمله على ظاهره. وكأن ابن مسعود لم يبلغه حديث جابر الذى أخرجه مسلم بلفظ «قيل: يارسول الله ما الموجبتان؟ قال: **من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار**»(١).

وقال النووي: الجيد أن يقال سمع ابن مسعود اللفظتين من النبي ﷺ ولكنه في وقت حفظ إحداهما وتيقنها ولم يحفظ الأخرى فرفع المحفوظة وضم الأخرى إليها، وفى وقت بالعكس، قال: فهذا جمع بين روايتي ابن مسعود وموافقته لرواية غيره فى رفع اللفظتين. انتهى.

وهذا الذى قال محتمل بلاشك، لكن فيه بعد مع اتحاد مخرج الحديث، فلو تعدد مخرجه إلى ابن مسعود لكان احتمالا قريباً مع أنه يستغرب من انفراد راو من الرواة بذلك دون رفقته وشيخهم ومن فوقه، فنسبة السهو إلى شخص ليس بمعصوم أولى من هذا التعسف.

(فائدة) حكى الخطيب فى «المدرج» أن أحمد بن عبد الجبار رواه عن أبى بكر بن عياش عن عاصم مرفوعاً كله وأنه وهم فى ذلك.

وفى حديث ابن مسعود دلالة على أنه كان يقول بدليل الخطاب، ويحتمل أن يكون أثر ابن مسعود أخذه من ضرورة انحصار الجزاء فى الجنة والنار.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (٢ / ٩٢ ـ النووي)
وأنظر «رياض الصالحين» (٤١٥ ـ بتخريجنا)

وفيه إطلاق الكلمة على الكلام الكثير[١].

قال سليمان آل الشيخ: قال ابن القيم: الند: الشبه. يقال: فلان ند فلان ونديده، أي مثله انتهى.

وهذا كما قال تعالى: ﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**﴾[٣] أي من مات وهو يدعو لله نداً، أي يجعل لله نداً فيما يختص به تعالى ويستحقه من الربوبية والإلهية دخل النار، لأنه مشرك، فإن الله تعالى هو المستحق للعبادة لذاته، لأنه المألوه المعبود الذي تألهه القلوب وترغب إليه، وتفرغ إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر إليه، مقهور بالعبودية له، تجري عليه أقداره وأحكامه طوعاً وكرهاً، فكيف يصلح أن يكون نداً؟ قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ**﴾[٤] وقال: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾[٥] الآيتان: وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[٦] فبطل أن يكون له نديد من خلقه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً: ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾[٧].

واعلم أن دعاء الند على قسمين: أكبر وأصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو الشرك الأكبر. والأصغر كيسير الرياء، وقول الرجل ما شاء الله وشئت، ونحو ذلك.

فقد ثَبَتَ أَنَّ النبي ﷺ لَمَّا قَالَ لَهُ رَجُل: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ. قَالَ: «أَجعلتني لله نِدّاً؟! بَل مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ»[٨]رواه أحمد وابن أبي شيبة، والبخاري في «الأدب المفرد» والنسائي، وابن ماجه، وقد تقدم حكمه في باب فضل التوحيد[٩].

---

(١) الفتح ٨/ ١٣٤.
(٢) البقرة: ٢٢.
(٣) الزمر: ٨.
(٤) الزخرف: ١٥.
(٥) مريم: ٩٣.
(٦) فاطر: ١٥.
(٧) المؤمنون: ٩١، ٩٢.
(٨) يتقدم تخريجه
وأنظر تمام تخريجه أيضاً في «فتح المجيد » (ح ١٢٩) بتخريجنا
(٩) تيسير العزيز الحميد (٨٦ و ٨٧).

قال ابن عثيمين: قوله: «يدعون من دون الله نداً».

أي: يتخذ لله نداً سواء دعاه دعاء عبادة أم دعاء مسألة؛ لأنَّ الدعاء ينقسم إلى قسمين:

الأول: دعاء عبادة، مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات، فإذا صلى الإنسان أو صام؛ فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة، كما أنَّها تتضمَّن الدعاء بلسان المقال.

ويدلّ لهذا القسم قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** ﴾(١)؛ فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كلّه شرك، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله؛ فقد كَفر كُفراً مُخرجاً له عن المِلَّة، فلو ركع لإنسان أو سجد لشيء يعظِّمه كتعظيم الله في هذا الركوع أو السجود؛ لكان مشركاً، ولهذا منع النبي ﷺ من الانحناء عند الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أن ينحني له؟ قال: «لا»(٢).

خلافاً لما يفعله بعض الجهَّال إذا سلَّم عليك انحنى لك؛ فيجب على كلّ مؤمن بالله أن ينكره؛ لأنَّه عظَّمك على حساب دينه.

الثاني: دعاء المسألة؛ فهذا ليس كُلّه شركاً، بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادراً على ذلك؛ فليس بشرك؛ كقولك: اسقني ماء لمن يستطيع ذلك. قال ﷺ: «**من دعاكم فأجيبوه**»(٣)، وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ** ﴾(٤).

فإذا مدَّ الفقير يده، وقال: ارزقني؛ أي: أعطني؛ فهو جائز، كما قال تعالى: ﴿ **فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ** ﴾، وأما إن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله؛ فإن دعوته شرك مخرج عن المِلّة.

مثال ذلك: أن تدعو إنساناً أن يُنزِّل الغيث معتقداً أنَّه قادر على ذلك.

---

(١) غافر آيه: ٦٠.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/١٩٨)، والترمذى [(٢٧٢٨)، وابن ماجة (٣٧٠٢). قال الترمذى: حديث حسن

وانظر «رياض الصالحين» (٨٩٠ ـ بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرج مسلم فى النكاح (٩/٢٣٦ ـ النووى) عن أبى هريرة بلفظ «إذا دعى أحدكم فليجب».

(٤) النساء: ٨.

والمراد بقول الرسول ﷺ: «من مات وهو يدعو لله نداً» المراد الندّ في العبادة، أما الندّ في المسألة، ففيه التفصيل السابق.

ومع الأسف؛ ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلاناً المقبور الذي بقي جثّة أو أكلته الأرض ينفع أو يضرّ، أو يأتي بالنَّسل لمن لا يولد لها، وهذا ـ والعياذ بالله ـ شرك أكبر مُخرج من الملّة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر والزّنا واللواط، لأنَّه إقرار على كفر، وليس إقراراً على فسوق فقط.

قوله: «دخل النار».

أي: خالداً، مع أن اللفظ لايدلّ عليه؛ لأن دخل فعل، والفعل يدلّ على الإطلاق.

وأيضاً قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(١)، وإذا حُرِّمت الجنَّة؛ لزم أن يكون خالداً في النار أبداً؛ فيجب أن نخاف من الشِّرك ما دامت هذه عقوبته؛ فالمُشرك خَسِرَ الآخرة؛ لأنَّه في النار خالدٌ، وخَسِرَ الدنيا أيضاً؛ لأنَّه لم يستفد منها شيئاً، وقامت عليه الحجة، وجاءه النذير، ولكنه خسر ـ والعياذ بالله ـ، ما استفاد شيئاً من الدنيا، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾(٢)، وقال الله ـ عز وجل ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٤).

فخسر نفسه؛ لأنَّه لم يستفد منها شيئاً، وخسر أهله؛ لأنَّهم إن كانوا من المؤمنين فهم في الجنة، فلا يتمتع بهم في الآخرة، وإن كانوا في النار فكذلك؛ لأنَّه كلما دخلت أمة لعنت أختها، والشرك خفي جداً؛ فقد يكون في الإنسان وهو لايشعر إلا بعد المحاسبة الدقيقة، ولهذا قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص».

فالشرك أمره صعب جداً ليس بالهيِّن، ولكن ييسر الله الإخلاص على العبد وذلك بأن يجعله الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله لايقصد مدح الناس أوذمَّهم أو

---

(١) المائدة آية: ٧٢.

(٢) فاطر: ٣٧.

(٣) الحج: ١١.

(٤) الزمر: ١٥.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهَ ﷺ قَالَ: (مَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً؛ دَخَلَ الجَنَّةَ. وَمَن لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً؛ دَخَلَ النَّارَ)[1].

ثناءهم عليه، فالناس لاينفعونه أبداً، حتى لو خرجوا معه لتشييع جنازته لم ينفعه إلا عمله، **قال - ﷺ - يخرج مع الميت أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله».**

وكذلك أيضاً من المهم أنَّ الإنسان لايفرحه أن يقبل الناس قوله لأنَّه قوله، لكن يفرحه أن يقبل الناس قوله إذا رأى أنه الحق لأنه الحق، لا أنه قوله: وكذا لايحزنه أن يرفض الناس قوله لأنه قوله؛ لأنه حينئذ يكون قد دعا لنفسه، لكن يحزنه أن يرفضوه لأنه الحق، وبهذا يتحقق الإخلاص.

فالإخلاص صعب جداً. إلا أنَّ الإنسان إذا كان متجهاً إلى الله اتجاهاً صادقاً سليماً على صراطٍ مستقيم؛ فإنَّ الله يعينه عليه وييسيره له[2].



قوله : [ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: ...إلخ».

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال القرعاوى[3]: حيث دلَّ الحديث الشريف على أنّ كل من مات على الشرك دخل النار فأوجب ذلك علينا أن نخاف من الشرك بجميع أنواعه.

● **قوله: [ولمسلم عن جابر]**

قال سليمان آل الشيخ[4]: جابر هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام - بمهملتين - الأنصاري ثم السلمي بفتحتين، صحابي جليل مكثر، ابن صحابي، له ولأبيه مناقب مشهورة رضي الله عنهما. مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كف بصره وله أربع وتسعون سنة.

● **قوله: (من).**

قال ابن عثيمين: شرطية تفيد العموم، وفعل الشرط: «لقي» وجوابه قوله: «**دخل**

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الإيمان» / باب: من مات لايشرك بالله (١/ ٣٧٠/ ح ٩٣) وأحمد فى «مسنده» (٣/ ٣٢٥، ٣٤٥، ٣٧٤) وابن خزيمة فى كتاب «التوحيد» (٣٦٢). من حديث جابر.

وانظر«فتح المجيد» (ح ١٣٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ١/١٤٨ : ١٥٢.

(٣) الجديد ٦١.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٨٧ و ٨٨.

الجنه» وهذا الدخول لا ينافى أن يعذَّب بقدر ذنوبه إن كانت عليه ذنوب، لدلالة نصوص الوعيد على ذلك وهذا إن لم يغفر الله له؛ لانه داخل تحت المشيئة[1].

● **قوله [من لقى الله لايشرك به شيئاً].**

قال ابن عثيمين: قوله: «**لايشرك**».

فى محل نصب على الحال من فاعل «لقي».

قوله: «**شيئا**» نكرة فى سياق الشرط؛ فيعم أي شرك حتى ولو أشرك مع الله أشرف الخلق، وهو الرسول - ﷺ - دخل النار. فكيف بمن يجعل الرسول ﷺ أعظم من الله، فيلجأ إليه عند الشدائد ولا يلجأ إلى الله بل ربما يلجأ إلي ما دون الرسول ﷺ وهناك من لا يبالى بالحلف بالله صادقاً أم كاذباً، ولكن لايحلف بقوميته إلا صادقاً، ولهذا اختلف فيمن لايبالى بالحلف بالله، ولكنه لايحلف بملته أو بما يعظمه الاصادقاً فلزمته يمين، هل يحلف بالله أو يحلف بهذا فقيل: يحلف بالله ولو كذب، ولانعان على الشرك، وهو الصحيح: وقيل: يحلّف بغير الله؛ لأن المقصود الوصول إلى بيان الحقيقة، وهو إذا كان كاذباً لايمكن أن يحلف، لكن نقول: إن كان صادقاً حلف وحصل الشرك[2]. أهـ.

● **مسألة:**

هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟

قال ابن عثيمين: هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر، فإنَّه لا يلزم من ذلك الخلود فى النار، وإن كان أكبر، فإنه يلزم منه الخلود فى النار.

لكن لو حملنا الحديث على الشرك الأكبر فى الموضعين فى قوله: «**من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة**».[3] وفى قوله: «**ومن لقى الله يشرك به شيئاً دخل النار**»[4] قلنا: من لقى الله لايشرك به شيئاً دخل الجنة، وإن عُذِّب قبل الدخول فى النار بما يستحق، فيكون مآله إلى الجنَّة، ولا حاجة إلى أن نقول، ولننظر إلى النصوص الأخرى الدالة على أنه يُعذَّب، لأنهَّ دخلها دخولاً مطلقاً مخلَّداً، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار، ولا حاجة أن نقسِّم ونقول، دخولاً مطلقاً، أو مطلق دخول.

(١) القول المفيد ١/ ١٥٢.
(٢) القول المفيد ١/ ١٥٣.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.

فيه مسائلُ

الاولى: الخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ.

الثانية: أَنَّ الرِّيَاءَ مِنَ الشِّرْكِ.

الثالثة: أَنَّهُ مِنَ الشِّرْكِ الأصْغَرِ.

أمَّا إذا قسَّمنا الشرك إلى قسمين، أصغر وأكبر، فإننا أيضاً نقسِّم الدخول إلى قسمين دخول مطلق، ومطلق الدخول[1]. اهـ.

فيه مسائل:

● **الأولى: الخوف من الشرك.**

قال ابن عثيمين[1]:

لقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾، ولقوله: ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾

أ.هـ.

[قلت]: قوله (الخوف من الشرك) أتى بها المصنف من قوله ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا ....**﴾ أي معصية تغفر إلا الشرك وكذلك عن قوله ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾.

إذا كان إمام الحنفاء والموحدين خش على نفسه ونبيه من الشرك الأكبر الظاهر فمن باب أولى نحن نخاف على أنفسنا.

وكذلك قوله «**من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار**» «**ومن مات وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار**»

● **الثانية: أن الرياء من الشرك.**

لحديث: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». **فسئل عنه فقال: «الرياء»** وقد سبق بيان أحكامه بالنسبة إلى إبطال العبادة.

● **الثالثة: أنه من الشرك الأصغر**؛ لأنَّ النبي ﷺ لما سئل عنه قال: «الرياء»، فسماه شركاً أصغر.

وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟

ظاهر الحديث لايمكن؛ لأنَّه قال: «الشرك الأصغر»، فسئل عنه؛ فقال: «الرياء».

---

(١) القول المفيد ١/ ١٥٤.

الرابعة: أَنَّهُ أَخْوَفُ مَا يُخَافُ مِنْهُ عَلَى الصَّالِحِينَ.

الخامسة: قُرْبُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.

السادسة: الجَمْعُ بَيْنَ قُرْبِهِمَا فِي حَدِيث وَاحد.

السابعة: أَنَّهُ مَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ.

الثامنة: المَسْأَلَةُ العَظِيمَةُ سُؤَالُ الخَلِيلِ لَهُ وَلِبَنِيهِ وِقَايَةَ عِبادَةَ الأَصْنَامِ.

لكن في عبارات ابن القيم -رحمه الله- أنه إذا ذكر الشرك الأصغر قال: كيسير الرياء؛ فهذا يدل على أن كثيره ليس من الأصغر، لكن إن أراد بالكميَّة؛ فنعم؛ لأنَّه لو كان يرائي في كل عمل لكان مشركاً شركاً أكبر لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية؛ فظاهر الحديث أنَّه أصغر مطلقاً أ.هـ.

[قلت]: وسيأتى فى (باب: ما جاء فى الرياء) تفصيلاً لما أُجمل هنا فى هذا الموضع

● **الرابعة: أنَّه أخوف ما يخاف منه على الصالحين.**

وتؤخذ من قوله: **«أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، ولأنَّه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شعور لخفائه وتطلُّع النفس إليه، فإنَّ كثيراً من النفوس تحبّ أن تمدح بالتعبد لله.**

● **الخامسة: قرب الجنة والنار.**

لقوله: **«من لقي الله لايُشرك به شيئاً؛ دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً؛ دخل النار»**

أ.هـ. **قلت**: ويؤيده أيضاً قوله تعالي **﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ الآية.**

● **السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.**

«من لقي الله لايُشرك به شيئاً... »الحديث.

● **السابعة: أنَّ من لقيه يُشرك به شيئاً دخل النار، ولو كان من أعبد الناس.**

تؤخذ من العموم في قوله: **«من لقي الله»**؛ لأنَّ «من» للعموم، لكن إن كان شركه أكبر؛ لم يدخل الجنة وإن كان أعبد الناس؛ لقوله تعالى: **﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾**، وإن كان أصغر؛ عُذِّب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة.

قلت: وعلي هذا فمقصد المصنف - رحمه الله - بقوله: «دخل النار» أى مخلد بغير خروج أو مؤقت ثم يخرج

● **الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام.**

التاسعة: اعْتبَارُهُ بِحَالِ الأَكْثَرِ؛ لقَوْله: ﴿رَبِّ إِنَّهنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ بنَّاس﴾ .

العاشرة: فِيهِ تَفْسِيرُ (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ.

الحادية عشرة: فَضِيلَةُ مَنْ سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾.

[قلت]: فإذا كان خليل الله وأبو الأنبياء، وهو مع ذلك يخشى على نفسه، فنحن من باب أولى أن نخاف الشرك..

● **التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾.**

وفيه إشكال؛ إذ المؤلف يقول: بحال الأكثر، والآية: ﴿ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾، وفرق بين كثير وأكثر، ولهذا قال تعالى في بني آدم: ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(١)؛ فلم يقل على أكثر الخلق، ولا على الخلق؛ فالآدميون فُضِّلوا على كثير ممن خلق الله، وليسوا أكرم الخلق على الله، ولكنه كرَّمهم.

[قلت]: وتقدم الكلام على الأكثرية ـ فى الباب الذى قبل هذا ـ أنها لا تدل على الحق، وأنها ليست فى ذاتها حجة على الناس إنما الحجة قول الله وقول رسوله بفهم السلف الصالح، ولاتدل ـ الكثرة ـ على حق أو باطل، ولا تدل على صلاح ولا فساد المنهج، وتقدم فى حديث السبعين ألف (وفيه): «والنبى وليس معه أحد» فانظره تجد فوائد جمة، والله الموفق للصواب.

● **العاشر: فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخاري.**

الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب؛ لأن لا إله إلا الله فيها نفي وإثبات أ.هـ.

[قلت]: وسيأتى تفسير الشهادتين

ما يتعلق بها من أحكام فى الباب الخامس.

● **الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.**

لقوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾، وقوله: ﴿من لقي الله لايشرك به شيئاً؛ دخل الجنه﴾. اهـ(٢).



---

(١) ابراهيم: ٣٦. (٢) الإسراء آية: ٧٠.

(٣) القول المفيد ١/ ١٥٥: ١٥٨.

٤ بابُ: الدُّعاءُ إلى شَهادةِ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ

● ويحتوي على:ـ

١ـ مناسبة الباب لما قبله من الأبواب ولكتاب التوحيد.

٢ـ شرح الترجمة

[٣] **قول الله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾** مناسبتها للباب، وتفسيرها، وكلام شراح التوحيد عليها.

٤ـ قوله: **﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾** وذكر تفسيرها.

٥ـ شروط ومواصفات الداعي ـ الذي يدعو على بصيرة.

[٦] **حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن... الحديث.**

(١) مناسبته للباب.

(٢) فائدة قوله «فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله» من كلام شيخ الإسلام.

(٣)شبهات لبعض الجماعات والرد عليها من كلام الحافظ قوله: **«فليعرفوا الله»**.

(٤) مسألة/ لماذا ذكر المصنف هذه الروايات **(شهادة أن لا إله إلا الله)** وفي رواية **«إلى أن يوحدوا الله»**.

(٥) فائدة/ حكم الدعوة إلى الله، وأدلة ذلك.

(٦) إشكال/ عدم ذكر الصوم والحج في حديث بعث معاذ، وجواب ذلك.

[٧] **حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً... الحديث»**.

(١) مناسبته للباب.

(٢) شرح ألفاظه

(٣) فائدة/ اختصاص علي ـ رضي الله عنه ـ بهذه البشارة.

(٤) فائدة دعوية/ من قوله **«انفذ على رسلك»**.

(٥) فائدة دعوية/ من قوله **«خير لك من حمر النعم»**.

٨ـ مسائل الباب



٤ بابُ: الدُّعاءُ إلى شهادةِ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ

● **مناسبة الباب لما قبله من الأبواب ولكتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ:[1] لما بين المصنف ـ رحمه الله ـ الأمر الذى خلقت له الخليقة وفضله وهو التوحيد، وذكر الخوف من ضده الذى هو الشرك، وأنه يوجب لصاحبه الخلود فى النار، نبه بهذه الترجمة على أنه لاينبغى لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجهال؛ ويقولون: اعمل بالحق واترك الناس وما يعنيك من الناس، بل يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن، كما كان ذلك شأن المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، وكما جرى للمصنف وأشباهه من أهل العلم والدين والصبر واليقين.

وإذا أراد الدعوة إلى ذلك، فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد الذى هو معنى شهادة أن: لا إله إلا الله، إذ لاتصح الأعمال إلا به فهو أصلها الذى تبنى عليه، ومتى لم يوجد لم ينفع العمل بل هو حابط، إذ لاتصح العبادة مع الشرك، كما قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ**﴾[2].

وقال عبدالرحمن آل الشيخ[3]: **بعد أن نقل قول سليمان آل الشيخ السابق**: يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم، كما قال الحسن البصرى لما تلا هذه الآية ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ فقال: هذا حبيب الله هذا ولى الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً فى إجابته، وقال إننى من المسلمين. هذا خليفة الله. أهـ[4].

قال ناصر السعدى:[5] وهذا الترتيب الذى صنعه المؤلف فى هذه الأبواب فى غاية المناسبة فإنه ذكر فى الأبواب السابقة وجوب التوحيد فضله والحث عليه وعلى تكميله والتحقق به ظاهراً وباطناً والخوف من ضده وبذلك يكمل العبد نفسه.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٨٨و٨٩).
(٢) سورة التوبة آية (١٧)
(٣) فتح المجيد (١/١٠١).
(٤) أخرجه ابن جرير (٢٤/٧٥).
(٥) القول السديد ٢٥ ـ ٢٩.

ثم ذكر فى هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلى شهادة (أن لا إله إلا الله) فإنه لايتم التوحيد حتى يكمل العبد جميع مراتبه، ثم يسعى إلى تكميل غيره - وهذا هو طريق جميع الأنبياء - فإنهم أول ما يدعون قومهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له وهى طريقة سيدهم وإمامهم ﷺ لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن - لم يفتر ولم يضعف حتى أقام الله به الدين وهدى به الخلق العظيم ووصل دينه ببركة دعوته إلى مشارق الأرض ومغاربها - وكان يدعو بنفسه ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلى الله وإلى توحيده قبل كل شىء لأن جميع الأعمال متوقفة فى صحتها وقبولها على التوحيد.

فكما أن على العبد أن يقوم بتوحيد الله فعليه أن يدعو العباد إلى الله بالتى هى أحسن - وكل من اهتدى على يديه فله مثل أجورهم من غير أن ينتقص من أجورهم شىء.

وإذا كانت الدعوة إلى الله، وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضاً على كل أحد كان من الواجب على كل أحد بحسب مقدوره.

فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم.

وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة - وإنما الهلاك فى ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين أهـ.

قال عبدالله بن جار الله:(١) لما ذكر المؤلف رحمه الله وجوب التوحيد وفضله وما يوجب الخوف من ضده نبه بهذا الباب على أنه لاينبغى لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم. أهـ.

قال ابن عثيمين(٢): هذا الترتيب الذى ذكره المؤلف من أحسن ما يكون؛ لأنه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكر دعوة غيره إلى ذلك؛ لأنه لايتم الإيمان إلا إذا دعا إلى

(١) الجامع الفريد (٢٩)

(٢) القول المفيد (١/١٥٩).

التوحيد، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1].

فلابدّ مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلاّ؛ كان ناقصاً، ولاريب أنَّ هذا الذى سلك سبيل التوحيد لم يسلكه إلاّ وهو يرى أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقاً فى اعتقاده؛ فلابدّ أن يكون داعياً إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولايتم التوحيد إلا به.

قال الفقير: فبعد أن بين المصنف فى أول الكتاب معنى التوحيد، وأنه هو توحيد العبادة، وأنه هو حق الله على العبد، وأنه ما خلق الجن والإنس إلا لذلك، ثم بين فضل التوحيد، سواء كان كاملاً أو ناقصاً وذلك فى باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، ثم بين أيضاً فى باب آخر فضل التوحيد. الكامل، وكيف أن صاحبه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم رهب من الشرك الذى هو ضد التوحيد، وبين أن الله عزوجل يغفر ما دونه لمن يشاء حتى وإن كان كبيرة فهى تحت خطر المشيئة وهى مغفورة ـ إن شاء الله ـ فتبين من ذلك أن الشرك أكبر من هذه الكبائر، لأنه لو كان يساويها أو يقاربها لغفر كما غفرت هذه الكبائر حتى وإن كانت قتلاً للنفس بغير حق، ثم بينت فصولاً وأصولاً متعلقة بهذا الباب (باب الخوف من الشرك) فإن المصنف بعد أن رغب ورهب وبين فضل التوحيد، بل وبين حقيقته وماهيته بقى للداعى أن يتحرك، أو للذى تعلم بقى له أن يتحرك بهذا الذى تعلمه، وبقى أن يدعو الناس إلى فهم وما تعلم، وما أيقن ما استيقن، فلذلك ناسب أن يبوب المصنف هذا الباب (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله) يعد هذه الابواب. والله المستعان.

● **شرح الترجمة:**

● **ماذا أراد المصنف بهذا الباب:**

ـ **قال سليمان آل الشيخ**[2]: نبه بهذه الترجمة على أنه لاينبغى لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجهال. أهـ. وتقدم نص كلامه سابقاً.

ـ **قال حامد بن محمد بن حسن**[3]: باب فى بيان ما يدل على أن الدعاء إلى

(١) سورة العصر

(٢) تيسير العزيز الحميد (٨٨).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٧٣).

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾(١).

شهادة أن لا إله إلا الله هو أحسن الأقوال، وهو الطريقة المرضية عند الله، وهو سبيل الرسول ﷺ ومن تبعه من الكتاب والسنة. أهـ.

ـ **قال ابن باز**(٢): أى باب وجوب فضيلة الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ لأنها أختها، فمراد المؤلف الدعوة إلى التوحيد، وإلى اتباع الرسول وهذا واجب على العلماء وفرض عليهم. أهـ.



وقول الله تعالى: **﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾**.

ـ مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ(٣): ويظهر ذلك إذا كان قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطفاً على الضمير فى ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله تعالى، وإن كان عطفاً على الضمير المنفصل فهو صريح فى أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله. أهـ.

قال عبدالله بن جار الله(٤): ومناسبة الآية للباب أن الدعوة إلى الله على بصيرة وعلم هى طريق الرسول ﷺ وأتباعه فعلينا أن نفعل ذلك لنكون من أتباعه. أهـ.

قال القرعاوى(٥): حيث دلت الآية أن سبيل النبىّ ﷺ ومن أتبعه هى الدعوة إلى دين الله وهذا متضمن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

الإعراب(٦):

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ هذه مبتدأ وسبيلى خبر وجملة أدعو الله تفسير للسبيل وإلى الله متعلقان بأدعو ويجوز أن تكون الجملة حالية من الياء والأول أولى وعلى بصيرة متعلقان بأدعو أو بمحذوف حال من فاعل أدعو وأنا تأكيد لفاعل أدعو المستتر ومن اتبعنى عطف على فاعل أدعو المستتر ويجوز أن يكون من مبتدأ وخبره محذوف أى ومن اتبعنى يدعو أيضاً ويجوز أن يكون أنا مبتدأ مؤخراً وعلى

---

(١) يوسف (١٠٨).
(٢) «التعليق المفيد» (٥١).
(٣) تيسير العزيز الحميد ٨٩.
(٤) الجامع الفريد (ط مكتبة الهدى ص٢٧).
(٥) الجديد ٦٣.
(٦) إعراب القرآن/ ٦٨.

بصيرة خبراً مقدماً ومن اتبعنى عطفاً على ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف أى وأسبح سبحان الله وما الواو حرف عطف وما نافية حجازية وأنا اسمها ومن المشركين خبرها.

[قلت] قول الله عزوجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. لذلك قال الله تعالى فى هذا الذى دعا على بصيرة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. دعا إلى الله على علم وعمل، بعد أن دعى إلى الله فأجاب.

كما قال الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ فدُعِىَ فأجاب. ثم دعا الناس إلى ما أجاب الله فيه. ثم هو فى حال دعوته إلى الناس عمل صالحاً وقال إننى من المسلمين.

كما قالها بلسان المقال قالها بلسان الحال.

ولذا أثنى الله عليه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ ...﴾.

استجاب ودعا وعمل صالحاً فيما أجاب الله فيه. كما تقدم ذلك فى أثر الحسن البصرى الذى أخرجه الطبرى بسند صحيح(١).

ما جاء فى تفسير قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ من المأثور.

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ قال: دعوتى(٢).

عن الربيع بن أنس رضى الله عنه مثله(٣).

عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ قال: صلاتى(٤).

عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ قال: أمرى وسنتى ومنهاجى(٥).

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٠٤٧) وذكره السيوطى فى «الدر» (٤/٧٥) ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وأبى الشيخ.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٠٤٨) وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه إليه ولابن جرير.

● **تفسير الآية من أقوال المفسرين**

قال الطبرى(١): يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يامحـمد هذه الدعوة التى أدعو إليهـا، والطريقة التى أنا عليهـا، من الدعاء إلى توحيد الله وإخـلاص العبادة له، دون الآلهة والأوثان، والإنتهاء إلى طاعته، وترك معصيته ﴿سَبِيلِي﴾ وطريقتى ودعوتى. أهـ.

قال البغوى(٢): قوله تـعالى ﴿قُلْ﴾ يا محـمد ﴿هَذِهِ﴾ الدعوة الـتى أدعو إليـها، والطريقة التى أنا عليها. أ هـ كذا قال بنحو كلام الطبرى المتقدم ذكره.

قال الزمخشرى(٣) بنحـــو من هذا وزاد: ﴿سَبِيلِي﴾ والسـبيل والطريق يذكـران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾. أ هـ.

● **وكذا قال ابن الجوزى**(٤) كقول الزمخشرى.

وقال الرازى(٥): قال المفسرون: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم هذه الدعـوة التى أدعو إليها. والطريقة التى أنا عليها سبيلى وسنتـى ومنهاجى، وسمى الدين سبيلا لأنه الطريق الذى يؤدى إلى الثواب، ومثله قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

واعلم أن السبيل فى أصل اللغـة الطريق. وشبهوا المعتقدات بـها لما أن الإنسان يمر عليها إلى الجنة. أ هـ.

وقال القرطبى(٦): قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ ابتداء وخـبر، أى قل يا محـمد هذه طريقى وسنتى ومنهاجى.

قال الربيع: دعوتى، وقال مقاتل: دينى، والمعنى واحد.

أى الذى أنا عليه وادعو إليه يؤدى إلى الجنة. أ هـ.

وقال ابن كـثير(٧): ﴿سَبِيلِي﴾ هى الدعـوة إلى شـــهـادة أن لا إله إلا الله وحـده لاشريك له، يدعوا إلى الله بها.

وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعى إليه رسول الله ﷺ على بصيرة. أهـ.

قال الشوكانى(٨): اسم الإشارة مبتدأ وخبره سبيلى، وفسر ذلك بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾. أهـ. وهذا القول بنحو ما قال الزمخشرى والقرطبى.

---

(١) تفسير الطبرى (٧/ ١٣/ ٥٢).
(٢) معالم التنزيل (٣/ ٣٣٢).
(٣) الكشاف (٢/ ٢٧٧).
(٤) زاد المسير (٤/ ٢٢٧).
(٥) التفسير الكبير (٩ / ١٨ / ٢٢٩).
(٦) تفسير القرطبى (٥/ ٣٥٠٣).
(٧) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٨).
(٨) فتح القدير (٣/ ٦١).

قال فى الظلال[1]: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ واحدة مستقيمة، لا عوج فيها ولاشك ولاشبه. أ هـ.

[قلت] إفراد ﴿سَبِيلِي﴾ يشهد له قوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾. والله أعلم.

● **تفسير الآيه من كلام شُرَّاح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[2]: بعد أن ذكر قول ابن كثير: قلت: فتبين وجه المطابقة بين الآية والترجمة.

قيل: ويظهر ذلك إذا كان قوله ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطفاً على الضمير فى ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله تعالى. وإن كان عطفاً على الضمير المنفصل فهو صريح فى أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به ودون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله. أهـ. وتقدم كلامه فى مناسبة الباب.

قال حامد بن محمد بن حسن[3]: قلت: فيها فوائد:

الأولى: قوله: ﴿قُلْ﴾ دل على أنه لا إله إلا هو لأنه إذا عرفت أن الرسول ﷺ هو أفضل الخلق وأعلاهم درجة عند الله وأحبهم إليه ومع ذلك مأمور منهى، يتبع ما يؤمر به ويتجنب ما ينهى عنه فدل ذلك على أنه العبد وأن الآمر الناهى هو المعبود لا إله إلا هو.

الثانية: قوله: ﴿هَذِهِ﴾ دل على أن الدين المرضى واحد كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[4].

الثالثة: قوله: ﴿سَبِيلِي﴾، دل على أن ما للرسول ﷺ سبيل إلا القرآن فمن عمل بغير ما جاء به الرسول ﷺ فقد ضل، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[5].

---

(١) الظلال (٤/ ٢٠٣٤).
(٢) تيسير العزيز الحميد (٨٩).
(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٧٨).
(٤) الأنعام (١٥٣).
(٥) النساء (٦٥).

الرابعة: قوله: ﴿أَدْعُو﴾ دل أن أنه مرسل إلى الخلق يدعوهم إلى الله.

الخامسة: قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ دل على أن الدعوة تتنوع إلى: الدعوة إلى النفس ليعظم ويوقر ويصرف وجوه الناس إليه ويعطي ويملك وغير ذلك والكل باطل إلا الدعوة التي لوجه الله الكريم. أ هـ.

قال ابن باز(١): الخطاب للنبي ﷺ ولأمته، أي: قل هذه طريقتي ومحجتي التي أنا عليها من توحيد الله والإخلاص له وإيتاء الزكاة وغيرها، وهذا هو سبيل الله وصراطه، وهو الإسلام والهدى والإيمان. أ هـ.

قول الله عزوجل (إلى الله):

قال ابن عثميين(٢): لأن الدعاة إلى الله ينقسمون إلى قسمين:

١ـ داعٍ إلى الله.

٢ـ داعٍ إلى غيره.

فالداعي إلى الله تعالى هو المخلص الذي يُريد أن يُوصل الناس إلى الله تعالى.

والداعي إلى غيره قد يكون داعياً إلى نفسه، يدعو إلى الحق لأجل أن يُعظَّم بين الناس ويُحترم، ولهذا تجده يغضب إذا لم يفعل الناس ما أمر به، ولا يغضب إذا ارتكبوا نهياً أعظم منه، لكن لم يدع إلى تركه.

وقد يكون داعياً إلى رئيسه كما يوجد في كثير من الدول من علماء الضلال من علماء الدول، لا علماء الملل، يدعون إلى رؤسائهم.

من ذلك لما ظهرت الاشتراكية في البلاد العربية قام بعض علماء الضلال بالاستدلال عليها بآيات وأحاديث بعيدة الدلالة، بل ليس فيها دلالة؛ فهؤلاء دعوا إلى غير الله.

ومن دعا إلى الله ثم رأى الناس فارّين منه؛ فلا ييأس، ويترك الدعوة، فإن الرسول ﷺ قال لعلي: **«انفذ على رسلك، فوالله؛ لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»**(٣)، يعني: أن اهتداء رجل واحد من قبائل اليهود خير لك من حمر النعم، فإذا دعا إلى الله ولم يُجَبْ؛ فليكن غضبه من أجل أنَّ الحق لم يُتَّبع، لا لأنَّه لم يُجَبْ، فإذا كان يغضب لهذا؛ فمعناه أنه يدعو إلى الله، فإذا استجاب واحد؛ كفى، وإذا لم يستجب أحد؛ فقد أبرأ ذمته أيضاً، وفي الحديث: **«والنبي وليس معه أحد»**(٤).

(١) التعليق المفيد (٥١).

(٢) القول المفيد (١/ ١٦٠ ـ ١٦١).

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

ثم إنه يكفي من الدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس أنّ هذا حق وهذا باطل؛ لأنّ الناس إذا سكتوا عن بيان الحق، وأُقرّ الباطل مع طول الزمن؛ ينقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً.

قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

● التفسير بالمأثور عن التابعين

* اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة رضى الله عنه فى قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أى على هدى ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[1].

● تفسير الآيه من اقوال المفسرين

● **قال الطبرى**[2]: أدعو إلى الله وحده لاشريك له، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بذلك، ويقين علم منى به، (أنا)، ويدعو إليه على بصيرة أيضاً. أهـ.

● **وزاد البغوى**[3]: البصيرة: هى المعرفة التى يميز بها بين الحق والباطل. أهـ.

● **وقال الزمخشرى**[4]: أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء. أهـ.

● **وقال ابن الجوزى**[5]: قال ابن الأنبارى، وكل مسلم لايخلو من الدعاء إلى الله عزوجل، لأنه إذا تلا القرآن، فقد دعا إلى الله بما فيه، ويجوز أن يتم الكلام عند قوله ﴿ إِلَى اللَّهِ﴾ ثم ابتدأ قال: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾. أهـ.

● **وقال الرازى**[6]: ادعو الله على بصيرة وحجة وبرهان أنا ومن اتبعنى إلى سيرتى وطريقتى وسيرة أتباعى الدعوة إلى الله، لأن كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور أهـ.

وقال القرطبى[7]: ﴿بَصِيرَةٍ﴾ يقين وحق، ومنه (فلان مستبصر بهذا). أهـ.

وبنحو هذه الأقوال قال ابن كثير[8]، والشوكانى[9] وزاد.

وفى هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدى به فى الدعاء إلى الله، أى الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده، والعمل بما شرعه لعباده. أهـ.

---

(١) الدر المنثور (٤/ ٧٦).
(٢) تفسير الطبرى (٧/ ١٣/ ٥٢).
(٣) معالم التنزيل (٣/ ٣٣٢).
(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٧).
(٥) زاد المسير (٤/ ٢٢٧).
(٦) التفسير الكبير (٩ / ١٨/ ٢٢٩).
(٧) تفسير القرطبى (٥/ ٣٥٠٣).
(٨) فتح القدير (٣/ ٦١).
(٩) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٩).

● **تفسير الآيه من كلام شراح التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ(١): وفى الآية مسائل نبه عليها المصنف.

منها: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

ومنها: أن البصيرة من الفرائض، ووجه ذلك أن اتباعه ﷺ واجب، وليس أتباعه حقاً إلا أهل البصيرة، فمن لم يكن منهم فليس من أتباعه، فتعين أن البصيرة من الفرائض.

ومنها: دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه الله عزّوجلّ عن المسبة.

ومنها: أن من أقبح الشرك كونه مسبة لله.

ومنها: إبعاد المسلم عن المشركين لايصير معهم ولو لم يشرك، وكل هذه الثلاث فى قوله: ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ**﴾ الآية. أهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن(٢): قوله: ﴿**عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾ دل على أن العلم لايستلزم البصيرة بل رب عالم ليس له بصيرة فى الدعوة على ما يريد الله من الداعى وعلى ما مشى عليه رسول الله ﷺ.

ثم قال: الحاصل أن البصيرة عليها مدار الدعوة إلى الله وقد ذكر عن الرسول ﷺ أن الداعى ينبغى له أن يكون عليماً فيما يأمر به، عليماً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، وقال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾(٣)، وقال تعالى لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾(٤). وقال الرسول ﷺ: «**ما كان الرفق فى شىء إلا زانه، ولا ذهب عن شىء إلا شأنه**»(٥) وقال ﷺ: «**يسروا ولاتعسروا، وسكّنوا ولاتنفروا**»(٦).

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٨٩). (٢) فتح الله الحميد المجيد (١/ ١٠٢،١٠٣).

(٣) آل عمران/ ١٥٩. (٤) طه/ ٤٤

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/ ٤٦ ـ النووى) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٦٣٦ ـ بتخريجنا).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٩) ومسلم فى الجهاد والسير (١٢/ ٤٢ ـ النووى) عن أنس به وانظر «رياض الصالحين» (٦٣٨ ـ بتخريجنا).

وقد وصف الله إبراهيم عليه السلام بالحلم فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾(١). هذا ومن البصيرة تقديم الأهم فالأهم فى الدعوة كالطبيب الحاذق إذا رأى فى شخص مرضاً فى الرأس ومرضاً فى الأصبع بدأ بتداوى مرض الرأس، لأن الرأس هو الأصل لحياته وفيه الحواس العشرة فلو اختل الرأس لاختلت كلية الإنسانية، وأما الأصبع لو عدم من أصله ما اختل من الإنسانية شيء.

فينبغى أن يكون الداعى كالطبيب الحاذق الذى يداوى الأضر قبل الضار، فكذلك الداعى يبدأ بالتوحيد قبل الصلاة وبالصلاة قبل الزكاة، وبالزكاة قبل الصوم والحج، وبأركان الإسلام والإيمان قبل سائر الأعمال، كما أرشد رسول الله ﷺ معاذاً. أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢): قال فى «شرح المنازل» يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهى البصيرة التى تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئى إلى البصر وهذه هى الخصيصة التى اختص بها الصحابة من سائر الأمة، وهى أعلى درجات العلماء قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾..... إلخ. أهـ(٣).

[قلت] «وكلمة المرئى فى بعض النسخ مصحفة» المائى.

هذه نسبة المعلوم فيها إلى القلب واضحة جداً ومؤثرة جداً فيه لأنه لم يتعلم فقط بل تعلم وعمل. فهذا نسبة المعلوم فيه كنسبة المرئى إلى البصر.

كذلك سائر العلوم بالنسبة لقلبه يراها كما يرى البصر الأمور المرئية له.

فهذه هى البصيرة. فهل يتصور أن يصل إلى البصيرة بعلم فقط؟!

بل لابد لكى يصل إليها من ثمرة العلم وهى العمل.

يشهد لهذا الفهم قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

قال ابن عثيمين(٤): قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

أى: علم؛ فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم؛ لأنَّ أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود بالعلم فى قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل: العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة.

---

(١) هود/٧٥.
(٢) فتح المجيد (١/ ١٠٢ ـ ١٠٣).
(٣) المدارج (٢/ ٤٨١ ـ ٤٨٢).
(٤) القول المفيد (١/ ١٦١ ـ ١٦٢).

فيكون بصيراً بحكم الشرع، وبصيراً بحـال المدعو، وبصيراً بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبى ﷺ لمعاذ: «إنَّك تأتى قوماً أهل كتاب»(١).

وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشـرعى؛ لأنَّ علمى أنَّ هذا الرجل قابل للدعوة باللِّين، وهذا قابل للدعوة بالشدَّة، وهذا عنده علم يمكن أن يقـابلنى بالشبهات أمر زائد على العلم بالحكم الشرعى، وكذلك العلم بالطرق التى تجلب المدعـوين كالترغيب بكذا والتشجيع؛ كقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً؛ فله سلبه»(٢). أو بالتأليف؛ فالنبى ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم فى غزوة حنين إلى مئة بعير.

فهـذا كله من الحكمة؛ فالجـاهل لايصلح للدعوة، وليس محـموداً، وليست طريقـته طريقة الرسول ﷺ، لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح. أهـ.

فصل فى شروط ومواصفات الداعى

ذكر ابن باز فى رسالته «الدعوة إلى الله» شروط ومواصفات الداعى من وحى هذه الآية منها:ـ

الصفة الأولى: أن يكون مخلصا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ.....﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ.......﴾.

﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فلا تدعو لنفسك أو لسمعة أو لشهرة.........

أو تبتغى وجه غير الله أو....... أو جدال أو مباهة.........

لا لنفس ولا حزب ولافرقة.......هذا هو الأمر الأول.

الصفـة الثانية: على بصـيرة: قال ابن باز: أن تكون على بيـنة دعوتك، أى على علم، لاتكن جاهلاً بما تدعو إليه ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فلابد من العلم، فالعلم فريضة، فإياك أن تدعو على جهالة، وإيـاك أن تتكلم فيما لاتعلم، فالجاهل يفسد ولا يصلح، ويهدم ولايبنى.... والبصـيرة هو ما قاله الله ورسوله، فـلابد من بصيرة وهى العلم، فعلى طالب العلم وعلى الداعـية أن يتبصر فـيما يدعو إليه وأن ينظر فـيما يدعو إليه ودليله، فإن ظهر له الحق وعـرفه ودعا إلى ذلك سواء كان ذلك فعلاً أو تركـاً فيدعو إلى الفـعل إذا كان طاعة لـله ورسوله ويدعـو إلى ترك مانهى الله عنه ورسـوله على بينة وبصيرة. ا هـ. والبصيرة ليست هى العلم فقط.

[قلت]: بل البصـيرة هى العلم والعمل لأن البصـيرة نظر القلب كما قـال ابن القيم «أن تكون نسبة العلوم إلى القلب كنسبة المرئى إلى البصر» وقد سبق.

(١) [صحيح] أخرج مسلم فى الجهاد (٦/١٠٣/٤١).

(٢) سيأتى تخريجه.

فالبصيرة ثمرة العلم أى العلم والعمل ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾.

فدعا على بصيرة وعلم وعمل. ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾.

أى على علم وعمل ـ على ثمرة العلم ـ كما قال الأمام أحمد رحمه الله:

وهل العلم إلا ما وصل إليه معروف أى: الإسكافى.

أحد عباد أهل السنة يقول ذلك لأنه يقصد أن العلم ما وصل إليه معروف من زهد وعبادة وعمل فهل العلم إلا ذلك المعروف.

كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى كتاب **«اقتضاء العلم للعمل»**:

العلم علمان علم اللسان وعلم القلب فعلم المنافق فى لسانه وعلم المؤمن فى قلبه.

وقال القرطبى فى تفسير الآية ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ ذم الله تعالى الذى ينسى نفسه فى حال اهتمامه بالناس، وهذا لايكون دافعاً لأن نترك الأمر بالمعروف ولكن دافع لإصلاح النفس والاهتمام بها كاهتمامنا بالناس وإلا نحترق نحن عياذا بالله.

وحذر الرسول ﷺ من هذا الصنف ففى الحديث «**إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم اللسان**»(1) ...علمه فى لسانه فقط. أما المؤمن فعلمه فى قلبه، الذى هو محل البصيرة أى: علم وعمل ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

لذلك نعى الله عزوجل على طوائف من الدعاة الذين كانوا على علم. ولم يعملوا بما علموا ودعوا إلى هذا العلم دون عمل.

وقال الله عن شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ونعى على طائفة أخرى قائلاً: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. ولذلك أشترط فى الداعى العلم.

وأنا أقول البصيرة «العلم والعمل» لكن فى الحقيقة هذا الشرط ليس شرط صحة وإنما هو شرط كمال. يعنى قد يصح أن يدعو الداعى إلى شىء لايعمله.

لكن الذى ذم أنه نسى نفسه، دعا الناس إلى شىء ثم هو لم يعمل به.

وكما قال القرطبى فى تفسير هذه الآية ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ اعلم وفقك الله تعالى

(1) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (17/ 295/ 815).

أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك الفعل لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذم الله تعالى فى كتابه قوماً كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها. أهـ[1]. فإنه لم ينه أو يقبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولأنه محمود على كل حال سواء عمل الداعى أو لم يعمل ولكن الذى ذم هو أنه يدعو إليه ولايعمل به.

وفى الصحيح أن النبى ﷺ قال: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان. مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمراً بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر آتيه[2].

لكن هذا ليس شرط أن تدعو بما تعمل بل يجوز أن تدعو وإن كنت مقصراً فقديماً قال الشاعر:

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب ... فمن يعظ العاصين بعد محمد

لأنه لايتصور معصوم إلا هو ﷺ فإن كان يشترط للداعى أن يكون معصوماً من الذنب ما دعا أحد بعد النبى ﷺ.

وأيضا كما قال الشاعر:

من ذا الذى ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط

وهو مؤدى كلام الحسن وعمر بن عبدالعزيز رحمهما الله أيضا قال: **«ود الشيطان وتمنى أن لو ظفر بذلك»**.

أى ود الشيطان أن يظن الناس أنه لايدعو إلا معصوم فلا يدعو أحد ويتركون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويعطلون هذه الفريضة ويعطلون هذا الواجب فود الشيطان لو ظفر بذلك.. وقال ذلك الحسن لمطرف بن عبدالله بن الشخير.

خطب عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ يوماً فقال فى موعظته: إني لاقول هذه المقالة، ولا أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندى، فأستغفر الله وأتوب إليه.

وكتب إلى بعض نوابه على بعض الأمصار كتاباً يعظه فيه، وقال فى آخره: «وإنى لأعظك بهذه، وإنى لكثير الإسراف على نفسى، غير محكم لكثير من أمرى، ولو أن

(١) تفسير القرطبى (١/ ٣١٢/ ٣١٤١).

(٢) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٣٢٦٧)، ومسلم فى الزهد (١٨/ ١١٧ ـ النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (٢٠٠ ـ بتخريجنا). وأنظر «كتابنا فقه الخطابة»

المرء لايعظ أخاه حتى يحكم نفسه إذاً تواكل الخير، وإذاً لرفع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإذاً لأُستحلت المحارم، وقل الواعظون والمسارعون لله بالنصيحة فى الأرض، والشيطان وأعوانه يودون أن لا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر، وإذا أمرهم أحد أو نهاهم عابوه، بما فيه وبما ليس فيه»(*).

قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

والناس فى هذه البصيرة طرفان ووسط. عند جانب العلم.

هناك من يدعو بجهل ويقول.

«بلغوا عنى ولو آية»[1] ويتمسك بهذا الحديث حجة على ذلك. ويقول: لا داعى لأن أتعلم لكى أدعو - فهذا النشاط فى الدعوة شىء طيب أن يرغب الناس فى الدعوة، ولكن القبيح أن يرغبهم فى الدعوة على جهل . فهذا طرف أول وهذه سيئة.

والطرف الآخر قال: لا ندعو حتى نتعلم. وعندهم العلم لايقصدون به من كان فى درجة الوعاظ أو طلبة العلم. ولعلى أظنهم يقصدون أن نكون فى درجة العلماء حتى ندعوا فهذا طرف آخر. وسيئة أخرى.

والوسطية وأهل السنة هما الحسنة بين السيئتين.

قالوا للناس ادعو وليس شرط فى الدعوة أن تكونوا علماء

بل شرط فى الدعوة أن تعلم ماتدعوا إليه وبه.

وأيضاً لم يشترطوا للدعوة العلم المطلق بل دعوا وندبوا إلى العلم مع الدعوة ولم يشترطوا للدعوة كمال العلم، وأجابوا على الطائفتين بأجوبة - أما الطائفة الأولى فقالوا: أن النبى ﷺ لم يقصد بهذا الحديث أن يرخص للجاهل فى الدعوة وإلا فهذا الحديث يصطدم مع قوله تعالى: «﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ.....﴾.

فلابد من الجمع بين الحديث والآية بوجه من وجوه الجمع وهو أن الرسول ﷺ يشجع على الدعوة ولو من القليل مما عندك من العلم. فأنت عندك علم كثير. فبلغ عنه ولو آية مما عندك من الآيات التى تحفظها.

ولا يقول ﷺ: احفظ آية فقط ثم ادعو، أو احفظ حديث فقط ثم ادعو.

(*) راجع فى هذا كله كتابى «فقه الخطابة وزاد الخطيب» فصل: «لايشترط للداعى أو الواعظ العصمة من الذنوب».

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٦١) عن عبدالله بن عمرو وانظر «رياض الصالحين» (١٣٨٣ - بتخريجنا).

كما قال ﷺ: «**اتق النار ولو بشق تمرة**»[1] يعنى معنى ذلك يتصدق بشق تمرة؟!

ويقول صاحب هذا الرأى أن النبى ﷺ قال ذلك **فالجواب**: هو أيضاً ﷺ كان يقول: «**تصدق ولاتحقرن من المعروف شيئاً**» وإن كنت فقيراً فتصدق ولو بشق تمرة.

وإن كنت غنياً وعلمت ذلك فانظر ما الذى يقيك من النار وما تنفقه.

فكأن هذا الحديث يقول «**بلغوا**» ويحثهم على الدعوة والتبليغ ولو بآية.

وأجابوا على الآخرين: بأنه من الصحابة رضى الله عنهم من دعا قومه وكان لم يتعلم بعد فروع الإسلام وفروع الدين.

الجواب: أن الصحابة رضى الله عنهم كان منهم من تعلم الأصول ثم دعا بها. وأخذ يدعو الناس إلى أصول التوحيد وقواعده، ولم يشترط له الرسول ﷺ أن يكون عالماً. ومثال هذا «أبو ذر رضى الله عنه».

ولا يعكر على هذا أنه بعث معاذا إلى اليمن وهو أعلم الصحابة؛ لأن معاذاً ذهب إلى اليمن لأهل الكتاب لعلماء بنى إسرائيل. لذلك قال له النبى ﷺ: «**إنك تأتى قوماً أهل كتاب**»[2] فناسب أن يكون الداعى فى هذا الموضع على قدر كبير من العلم.

فالحاصل: أن الناس بالنسبة للعمل على البصيرة طرفان ووسط.

أيضاً من يقول أنا طالب علم لكن مقصر فى العمل فلن أُعلِّم. فهذا نحذره لأن الرسول ﷺ قال فيهم «**من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**»[3].

فمن كان عنده علم ويكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة.

فيقول أنا مقصر. فنقول له: أصلح من نفسك ولكن لاتترك الدعوة.

فالتقصير ليس سبباً لترك هذا الأمر فليس شرط فى الدعوة أن تكون معصوماً.

وطرف آخر: يدعو دون عمل أبداً ويقول ليس مهم العمل.

مثال: خطيب مسجد يجلس على المقهى ويلعب الطاولة، ثم يذهب ليكون إماماً للمسجد.

---

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٦٠٢٣)، ومسلم فى الزكاة (١٠١/١٠ ـ النووى).
وانظر «رياض الصالحين» (١٤١ ـ بتخريجنا).

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٦٣/٢، ٣٠٥)، وأبوداود (٣٦٥٨)، والترمذى (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١).
وانظر كتابى «فقه الخطابة وزاد الخطيب».

والطرف الثانى: وهو الحسنة بين السيئتين وهو من يدعو ويقر بالتقصير فى حال دعوته مع النهوض بنفسه لإصلاحها وجبر نقصه وجبر التقصير الذى يقع منه.

الصفة الثالثة: الصبر على الدعوة.

قال ابن باز: من الأخلاق التى ينبغى لك أن تكون عليها أيها الداعية أن تكون حليماً فى دعوتك رفيقاً محتملاً صبوراً كما فعل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإياك والعجلة، إياك والعنف والشدة، عليك بالصبر، عليك بالحلم، عليك بالرفق فى دعوتك. أهـ.

الصبر على المدعوين والرفق بهم، والحلم بهم.

ولكن أحيانا يحتاج الداعى أن يشد على واحد من المدعوين وهذا بخلاف مالا يصبر عليها.

فالأول يحتاج إلى شىء من الشدة فى مرحلة أكبر لدى طلبه للعلم.

فالرسول ﷺ أغلظ العقوبة على الثلاثة الذين خلفوا وأما المنافقون قال لهم: «اذهبوا غفر الله لكم»(١) قال **ذلك لمنافق؟!**.

وآخر آلان له الكلام - والرسول ﷺ شد على عمر وقال له «**هلا تركتم لى صاحبى**». وأبو بكر يقول يارسول الله أنا الذى كنت أظلم، لأن عمر يتحمل الشدة ولكن للرفق واللين ثمرة بالمدعوين. كما ذكر ابن القيم فى زاد المعاد «سيرة رسول الله» فإنه ذكر قصة البيعة الأولى، كيف أنهم كانوا ستة أوثمانية، ثم جاءوا فى العام القادم.

إثنى عشر فقط أى بعد سنة كاملة دعوا ستة فقط».

وفى حديث السبعين يأتى النبى وليس معه أحد(٢).

الصفة الرابعة لم يذكرها الشيخ ابن باز، ولعله يراها داخلة فى البصيرة لكن لأهميتها أفردتها وهى:

(١) العلم بواقع المدعوين وأحوالهم.

حتى أنصحهم بما يليق بهم ولكل مقام مقال.

فالجهل بحال المدعوين كالجهل فى أساليب الدعوة بل كالجهل بالأدلة على الدعوة. وأيضاً لايقل خطورة عن الجهل بالحكمة أوبالكتاب والسنة.

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٨/ ٤٤)، ومسلم فى الذكر والدعاء والإستغفار (١٧/ ٨٧ - النووى) وانظر «رياض الصالحين» (٢٢ - بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه.

هذا ما ذكره الشيخ ابن باز فى «رسالة الدعوة إلى الله».

وقد ذكرت فى شرح كتاب زاد المعاد أن الناس أقسام ترتيبها من أعلى إلى أسفل: العالم ثم طالب العلم، ثم الداعى، ثم الواعظ، ثم القاص.

(١) **أما العالم** فهو من حصل أدوات العلم كلها مثل حفظ القرآن. الأحاديث، الأصول... إلخ[١].

(٢) **أما طالب العلم** فهو من حصل بعض أدوات العلم وفى طريقه إلى تحصيلها كلها.

(٣) **أما الداعى** فهو من حصل القدر الذى يجعله داعياً على بصيرة، فهو مرتبة دون طالب العلم ولا يدعو إلا للمسائل التى يفهمها فإنه يدعو إلى ما تعلمه فقط.

ولكن يجب أن يتعلم باب الطهارة وباب الصلاة ليعرف كيف يصلى، مثل من يتعلم فقه البيع ليعرف ما يحل وما يحرم فى البيع.

(٤) **أما الواعظ**: من حفظ أحاديث مثلا فى الترغيب والترهيب ثم ذكرنا بها.

(٥) **أما القاص**: أخص من الواعظ فهو من يحفظ حكايات وأيام الناس وقصصهم ثم يقصها، وإما أن يكون صادقاً أو كاذباً فإن كان صادقاً فهو المحمود وإن كان كاذباً فهو المذموم. فالقاص أخص من الواعظ، والواعظ أعم فعنده ما عند القاص وزيادة.

فالناس فى ذلك طرفان ووسط وقد تقدم شرحه.

قوله تعالى ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

● **التفسير بالقرآن.**

كما قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾.(٢)

● **التفسير بالمأثور.**

● **عن زيد** بن أسلم فى قول الله **﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾**

قال: وحق والله على من اتبعه أن يدعو إلى مثل مادعى إليه ويذكِّر بالقرآن، والحكمة، والموعظة الحسنة، وينهى عن معاصى الله[٣].

وذكر البغوى عن ابن عباس فى قوله **﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾** قال:

---

(١) انظر شروط المجتهد فى كتب الأصول وحاشيتنا على شرح الورقات.

(٢) النحل: (١٢٥)

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (٧/٢٢٠٩/ ح ١٢٠٥٠) فانظره بتخريجنا.

يعنى أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة، واقصد هداية معدن العلم وكنز الإيمان، وجند الرحمن[1].

قال عبدالله بن مسعود: من كان مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحى لاتؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[2]. أهـ.

قوله :﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾

● أقوال المفسرين

قال الطبرى[3] **(على بصيرة)** بذلك ويقين علم منى به **(أنا)**ويدعو إليه على بصيرة أيضاً **﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾** وصدقنى وآمن بى. أهـ.

قال البغوى[1]: أى ومن آمن بى وصدقنى أيضاً يدعو إلى الله، هذا قول الكلبى، وابن زيد قال: حق على من اتبعه أن يدعو إلى مادعا إليه، ويذكر بالقرآن.أهـ. وذكر قول ابن مسعود وابن عباس السابقين فى أول تفسير الآية.

قال الزمخشرى(٤) :**(أنا)** تأكيد للمستتر فى أدعو **﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾** عطف عليه، يريد أدعوا إليها أنا، ويدعو إليها من اتبعنى، ويجوز أن يكون أنا مبتدأ و**(على بصيرة)** خبر مقدماً و**(من اتبعنى)** عطفاً على **(أنا)** إخباراً مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لاعلى هوى، ويجوز أن يكون**(على بصيرة)** حالاً من **(أدعو)** عاملة فى الرفع **(أنا ومن اتبعنى)**. أهـ.

وتقدم شىء من ذلك فى مواضع من شرح الآية.

وبنحو هذا قال **ابن الجوزى**[5]**،والرازى**[6]**،والقرطبى**[7]**، وابن كثير**[8]**، والشوكانى**[9].

---

(١) معالم التنزيل (٣/ ٣٣٢).

(٢) ذكره البغوى فى «تفسيره» فى الموضع السابق.

(٣) تفسير الطبرى (٧/ ١٣/ ٥٢).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٧).

(٥) زاد المسير(٤/ ٢٢٧)

(٦) التفسير الكبير(٩/ ١٣/ ٢٢٩)

(٧) تفسير القرطبى (٥/ ٣٥٠٣)

(٨) تفسير ابن كثير(٣/ ٤٧٩)

(٩) فتح القدير (٣/ ٦١)

أقوال شراح كتاب التوحيد في تفسيرها.

تقدم قول سليمان آل الشيخ[1]: حيث قال في من هم أهل الاتباع في قوله ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ قال: فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله تعالى.. هم أهل البصيرة، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[2]: فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من اتباعه على الانتساب والدعوى. أهـ من كلام ابن القيم المتقدم.

وبنحو هذا قال عبدالله بن جار الله[3].

قال ابن باز[4]: فأتباعه هم أهل البصائر والعلماء الذين يدعون، ودعوتهم على بصيرة ومن لم يدع إلى سبيل الله من العلماء فليس من أتباعه على الحقيقة، فأتباعه لايسكتون، ولايدعون على جهالة كما قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾أي بالعلم، وهذه هي وظيفة الأنبياء كلهم والعلماء الصالحين، وهذا هو الواجب على من عنده علم ويدعو في كل مكان في المسجد وغيره ويصبر أهـ.

قال ابن عثيمين[5]: قوله: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

ذكروا فيها رأيين:

الأول: «أنا» مبتدأ، وخبرها «على بصيرة» ، «ومن اتبعني» معطوفة على «أنا»؛ أي: أنا ومن اتبعني على بصيرة؛ أي: في عبادتي ودعوتي.

الثاني: «أنا» توكيد للواو في قوله: «أدعو»؛ أي: أدعو أنا إلى الله ومن اتبعني يدعو أيضاً؛ أي: قل هذه سبيلي أدعو إلى الله ويدعو من اتَّبعني، وكلانا على بصيرة.

[قلت]: وكما قال ابن القيم رحمه الله: فليس من أتباعه على الحقيقة هذا الذي لم يدعو إلى الله وأما أولى الناس بهذه الأوصاف هم صحابته رضي الله عنهم لأنهم هم الداعون إليه على بصيرة.

فليس من اتباعه على الحقيقة هذا الذي دعا إلى غير الله أو لم يدعو إلى الله يعني أنه منتسب له بالزور وإن ادعى هذه النسبة فإن هذه الدعوة باطلة، وحتى يكون من أتباعه

(1) تيسير العزيز الحميد (89).
(2) فتح المجيد (1/102).
(3) الجامع الفريد (30).
(4) التعليق المفيد (52/53).
(5) القول المفيد (1/ 162 ـ 163).

على الحقيقة فلابد من الموافقة فى وهذه الطريقة وهى داعى على علم وعمل وإن كان العمل ليس شرطا فى صحة الدعوة ولكن هو شرط فى كمالها كما تقدم معنا فلايشترط فى الداعى العصمة من الذنوب كما لايشترط فى الداعى أن يعمل بكل ما يدعو إليه وإن كان هذا من باب الكمال الدعوى.

قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.

ـ **قال الطبرى**(١): يقول تعالى ذكره: وقل تنزيهاً لله، وتعظيماً له من أن يكون له شريك فى ملكه. أو معبود سواه فى سلطانه. أهـ.

ـ وكذا قال البغوى(٢):

ـ **وقال الزمخشرى**(٣): وأنزهه من الشركاء. أهـ.

ـ وقال بنحو ذلك **ابن الجوزى**(٤).

وقال الرازى(٥): وقوله: **﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾** عطف على قوله **﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾** أى قل هذه سبيلى. وقل سبحان الله. تنزيهاً لله عما يشركون. أهـ.

وقال القرطبى(٦): قوله **﴿وَسُبْحَانَ﴾** أى قل يا محمد **﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾**.

قال ابن كثير(٧): وقوله: **﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾** أى وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً **﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾**.

●كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين(٨): **قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.**

أى: وسبحان الله أن أكون أدعو على غير بصيرة!

---

(١) «تفسير الطبرى» (٧/١٣/٥٣).
(٢) «معالم التنزيل» (٣/٣٣٢).
(٣) الكشاف (٢/٢٧٧).
(٤) زاد المسير (٤/٢٢٧).
(٥) التفسير الكبير (٩/١٣/٢٢٩).
(٦) تفسير القرطبى (٥/٣٥٠٣).
(٧) تفسير ابن كثير (٢/٤٧٩).
(٨) القول المفيد (١/١٦٣).

وإعراب «سبحان»: مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبح أهـ.

وقال القرعاوى[1]: أنزه الله، وأعظمه من أن يكون له شريك أو نديد. أهـ.

قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ـ **قال الطبرى**[2]: يقول: وأنا برىء من أهل الشرك به لست منهم، ولاهم منى أ.هـ.

ـ **ولم يذكر البغوى**[3] فيها شيئاً، وكذلك **الزمخشرى**[4] **وابن الجوزى**[5] **وابن كثير**[6].

ـ **وقال الرازى**[7]: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين اتخذوا مع الله ضداً ونداً وكفؤاً وولداً، وهذه الآية تدل على أن حرفة الكلام وعلم الأصول حرفة الأنبياء عليهم السلام وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها.

ـ **وقال القرطبى**[8]: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذون من دون الله أنداداً. أهـ.

ـ **وقال الشوكانى**[9]: بنحو كلام القرطبى وقريب من لفظه.

● كلام شراح كتاب التوحيد:

ـ **قال حامد بن محمد**[10]: والمخالف على هذا على أنواع:ـ

(١) منهم من يجهل الشريعة لغفلته عما أنزل على رسوله ﷺ وأوامره ونواهيه. فهو كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا

(١) الجديد (٦٣).

(٢) تفسير الطبرى (٧/ ١٣/ ٥٣).

(٣) معالم التنزيل (٣/ ٣٣٢).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٧).

(٥) زاد المسير (٤/ ٢٢٧).

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٩).

(٧) التفسير الكبير (٩/ ١٣/ ٢٢٩).

(٨) تفسير القرطبى (٥/ ٣٥٠٣).

(٩) فتح القدير (٣/ ٦١).

(١٠) فتح الله الحميد المجيد (١٤٧٣ـ ١٧٤).

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

(٢) منهم من يعلم الشريعـة، ولكن تعلمها للدنيا وللجـاه والمنصب، لا لله تعالى: فهو كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيـهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾.

ـ وعن كـعب بن مـالك قـال: قال رسـول الله ﷺ: «من طلب العلم ليـجـارى به العلماء أو يمارى به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»[١].

ـ وعن أبى هريرة قـال: قال رسـول الله ﷺ: «من تعلم علمـاً مما يبتـغى به وجه الله لايتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[٢].

(٣) ومنهم من يعلم الشـريعة قـاصدا وجـه الله لكن لايعلم غـيره لأمر مـن الأمور وقصد من المقاصد التى ليست شرعية، فهو كما قال الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾.

(٤) ومنهم من يعلم ويتعلم لله ويعلم غـيره، ولكن لايصبر على ما يصـيبه فى الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾. ولايسلم من هذه المخاطرات إلا من تعلم الشريعة لله، وعمل بها وعلم غيره وصبر على ما أصابه فى نفســه وماله ويعلم أن لكل شىء عوضاً إذا فاته، ومـا من الله عوض. كما قيل:

لكل شىء إذ أفوته عوض　　　وما من الله إن فوته عوض أهـ

ـ قال عبدالله بن جار الله[٣]: يستفاد من الآية.

(١) أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع النبى ﷺ.

(٢) التنبيه على الإخلاص فى الدعوة إلى الله.

(٣) أن البصيرة، وهى العلم من الواجبات على الداعى إلى الله.

(٤) إبتعاد المسلم عن المشركين، لأن لايصير منهم ولو لم يشرك. أهـ.

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٦٥٤). وانظر «فقه الخطابة»..

(٢) رواه أحمـد (٢/ ٣٣٨) وأبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجـة (٢٥٢). وانظر كـتـابى (فقـه الخطابة» وانظر «رياض الصالحين» (١٣٩٤ ـ بتخريجنا).

(٣) الجامع الفريد ٣٠.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بعثَ مُعَاذاً إِلَى اليَمَنِ؛ قَالَ لَه: «إِنَّكَ تَأتِى قَوْماً مِنْ أَهلِ الكتَابِ. فَليكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهمْ إِلَيهِ شَهَادَةَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ.

(وَفِى رِوَايَة: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا الله)، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لَذلكَ؛ فَأَعْلِمْهُم أَنَّ الله افترَضَ عَلَيْهِمْ خَمسَ صَلَوات فِى كُلِّ يَوْمٍ ولَيلَة، فَإِن هُمْ أطاعوكَ لَذلكَ فَأَعلمْهُم أَنَّ الله أَفْتَرَضَ عَلَيهم صَدَقَةً تُؤخَذُ من أَغنيَائهمْ فَتُردُّ عَلَى فُقَرَائِهمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لذلكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَموالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ» أَخرَجَاهُ[1].

ـ قال ابن عثيمين[2]: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ محلها مما قبلها فى المعنى توكيد، لأن التوحيد معناه نفى الشرك . أهـ.

ـ قال القرعاوى[3]: الفوائد:

فذكر خمس فوائد منها:ـ

ـ يجب أن تكون الدعوة قائمة على الحجة والبرهان

ـ وجوب البراءة من الشرك وأهله.

ـ لايصح العمل إلا موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ.

ـ وجوب تنزيه الله عما لايليق بجلاله. أهـ.



قوله: [وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن].

مناسبة الحديث للباب:

ومناسبة الحديث للباب ظاهرة جلية فى قوله ﷺ: «فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله».

---

(١) القول المفيد (١/ ١٦٣). (٢) الجديد (٦٣).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الزكاة/ باب وجوب الزكاة (٣/ ٣٠٧/ ١٣٩٥، ١٤٥٨، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧، ٧٣٧٢)، ومسلم فى الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/ ١٩٦ ـ ٢٠٠ ـ النووى)، وأحمد فى «مسنده» (١/ ٣٣)، وأبوداود فى الزكاة (٢/ ١٠٧/ ١٥٨٤)، والترمذى فى الزكاة (٣/ ١٢/ ٦٢٥)، والنسائى فى الزكاة (٢/ ٥/ ٢٢١٥)، وابن ماجة فى الزكاة (١/ ٥٦٨/ ١٧٨٣). عن ابن عباس به. وانظر «منار السبيل» ـ بتخريجنا ـ وأيضاً «فتح المجيد» (ح ١٣٢) بتخريجنا.

ولذلك لم ينص أحد من شراح كتاب التوحيد على المناسبة؛ لأنها مذكورة نصاً في الحديث والله أعلم ولذا فإن **ابن عثيمين**[1] قال: والظاهر أنه يريد أن يبين أن أول مايكون هي الشهادة، وإذا كان كذلك، يكون (أول) مرفوعاً على أنه اسم يكن، أي: أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله. أهـ.

● **سبب اختيار المصنف هذه الرواية على غيرها:**

قال سليمان آل الشيخ[2]: أشار المصنف ـ رحمه الله ـ بإيراد هذه الرواية إلى التنبيه على معنى شهادة أن لا إله إلا الله، إذ معناها توحيد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه فلذلك جاء الحديث مرة بلفظ **(شهادة أن لا إله إلا الله)** ومرة **(إلى أن يوحدوا الله)** ومرة **(فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله)**. أهـ.

قلت هذا الحديث أخرجه البخاري في«صحيحه» مستشهداً به في أكثر من كتاب وباب، ويأتي به مختصراً في مواضع وكاملاً في مواضع، ولأهمية ما يحويه من فوائد جعله في:ـ

ـ **الموضع الأول**: كتاب الزكاة: باب/ وجوب الزكاة ـ وفيه **«ادعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله....»**.

ـ **الموضوع الثاني**: كتاب الزكاة: باب/ لاتؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة وفيه **«فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله»**.

ـ **الموضع الثالث**: كتاب الزكاة: باب/ الإتقاء والحذر من دعوة المظلوم **مختصراً بدون ذكر هذه اللفظة.**

ـ **الموضع الرابع**: كتاب المظالم: باب/ أخذ الصدقة من الأغنياء، وترد في الفقراء حيث كانوا وفيه **«فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»**.

ـ **الموضع الخامس**: كتاب المغازي: باب/ بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع. **وفيه «إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ»**.

ـ **الموضع السادس والسابع**: كتاب التوحيد: باب/ ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى **وفيه «إلى أن يوحدوا الله»**، والآخر مختصراً.

● **الجمع بين هذه الألفاظ:**

قال ابن حجر[3]: «ووجه الجمع بينهما أن المراد بالعبادة: التوحيد، والمراد

(١) القول المفيد (١/ ١٦٤ ـ ١٦٥).
(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٩١).
(٣) فتح الباري (١٣/ ٣٦٧).

بالتوحيد: الإقـرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التـوحيد، وقوله: **«فإذا عرفوا الله»** أي عرفـوا توحيد الله، والمراد بالمعـرفة الإقرار والطواعـية، فبـذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة في القصة الواحدة والله ولي التوفيق أهـ. الفتح وسيأتي تفصيل ذلك.

قوله: [وعن عبدالله بن عباس] ذكره البخاري في «صحيحه»[1] في فضائل الصحابة، وذكر فـيه قول ابن عـباس ضمني النبي ﷺ إلى صـدره، وقال: **«اللهم علمه الحكمة»** وبلفظ آخر: **«اللهم علمه الكتاب»**[2].

قال ابن حجر: هو عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم، ابن عم النبي ﷺ، يكنى أبا العباس ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، ومات بالطائف سنة ثمان وستين، وكان من علماء الصحابة، حتى كان عمر يقدمه مع الأشياخ وهو شاب.

فدعـا له النبي ﷺ بتعلم الحكمـة: وهي الإصابة في القول، وقـيل الفهم عن الله، وقيل: ما يشهد العقل بصحته، وقيل نور يفرق به بين الإلهام والوسواس، وقيل: سرعة الجواب، وقيل غـير ذلك ودعا له **«اللهم فقهـه في الدين وعلمه التأويل»**[3] وفي رواية **«اللهم علمه تأويل القرآن»**[4] وكان ابن عباس من أعلم الصحابة بتفسير القرآن، وروى يعقوب بن سفيان في «تاريخه» بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال: **«لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشره منا رجل»**[5] وكان يقول: **«نعم ترجمان القـرآن ابن عباس»**[6] وروى يعقـوب أيضاً بإسناد صـحيح عن أبي وائل قال: «قـرأ على ابن عبـاس سورة النور ثم جعل يفـسرها، فـقال رجل: لو سمـعت هذا الديلم لأسلمت[7] أهـ. ومناقبه كـثيرة، لايمَل من ذكرها، فانظرها في كتب التراجم فالمراد هنا إلقاء نبذة عنه رضي الله عنه.

قوله: [أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن]:

قال ابن حجر[8]: أي إلى جهة أهل اليمن، وهذه الرواية تقيد الرواية المطلقة بلفظ

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٢٦).

(٢، ٣، ٤) تقدم تخريجه

(٥) تقدم.

(٦) أخـرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٥١٩/ ٥)، وابن جرير في «تفسيره» (١/ ١٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٣٧) .

وانظر كتابنا «النكت المتممة» (٩٢).

(٧) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٢٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٣٧).

وانظر «النكت المتممة» (٩٣).

(٨) فتح الباري (١٣/ ٣٦١).

«**حين بعثه إلى اليمن**» فبينت هذه الرواية أن لفظ اليمن من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أو من إطلاق العام وإرادة الخاص، أو لكون اسم الجنس يطلق على بعضه كما يطلق على كله.

والراجح أنه من حمل المطلق على المقيد كما صرحت به هذه الرواية، وفى «المغازى» من رواية أبى بردة بن أبى موسى «وبعث كل واحد منهما على مخلاف» قال «واليمن مخلافان».

ثم قوله: «إلى أهل اليمن» من إطلاق الكل وإرادة البعض، لأنه إنما بعثه إلى بعضهم لا إلى جميعهم.

ويحتمل أن يكون الخبر على عمومه فى الدعوى إلى الأمور المذكورة وإن كانت إمرة معاذ إنما كانت على جهة من اليمن مخصوصة. أهـ.

وقال أيضاً[1] (قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن) كذا جميع الطرق إلا ما أخرجه مسلم، عن أبى بكر بن أبى شيبة وأبى كريب وإسحاق بن إبراهيم ثلاثتهم عن وكيع، فال فيه: «عن ابن عباس عن معاذ بن جبل قال: بعثنى رسول الله ﷺ» فإن ثبتت هذه الرواية فهو من مرسل ابن ابن عباس، لكن ليس حضور ابن عباس لذلك ببعيد؛ لأنه كان فى أواخر حياة النبى ﷺ وهو إذ ذاك مع أبويه بالمدينة.

● **متى بعث معاذاً إلى اليمن؟:**

قال ابن حجر: وكان بعث معاذ إلى اليمن سنة عشر قبل حج النبى ﷺ كما فى رواية البخارى فى المغازى.

وقيل: سنة تسع عند مصرفه ﷺ من تبوك. رواه الواقدى بإسناده إلى كعب بن مالك، ثم ذكر ابن سعد أنه كان فى ربيع الآخر سنة عشر، وقيل بعثه عام الفتح سنة ثمان واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم فى عهد أبى بكر، ثم توجه إلى الشام فمات بها.

● **واختلف هل كان معاذاً والياً أم قاضياً؟**

قال ابن حجر: فجزم ابن عبدالبر بالثانى، والغسانى بالأول. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: [قلت]: الظاهر أنه كان والياً قاضياً. أهـ.

[قلت]: وفيه أيضاً منقبة لمعاذ بن جبل رضى الله عنه نص عليها ابن تيمية أنه ﷺ بعثه إلى اليمن مبلغاً عنه ومفقهاً ومعلماً وحاكماً وقاضياً وبعث لمن؟

---

(١) فتح البارى (٣/٤١٩).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٠).

لعلماء بنى إسرائيل. لعلماء أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وهذا دليل على مكانة معاذ لذلك ثبت عن النبى ﷺ أنه يقدم العلماء برتوة[1] - وأنه أعلم الأمة بالحلال والحرام[2]، وأن ابن مسعود كان يقرأ هذه الآية ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. فكان يقول (إن معاذاً كان أمة) بدلاً من (إبراهيم).

فقال بعض أصحاب ابن مسعود: أخطأ أبو عبدالرحمن؟ فقال له أتدرى ما الأمة وما القانت؟ أجابه ثم قال: وهكذا كان معاذ ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[3].

لذلك الرسول ﷺ بعثه إلى اليمن.

قوله: (قال له: إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب) ورواية البخارى فى التوحيد «إنك تقدم».

قال ابن حجر[4]: هم اليهود، وكان ابتداء دخول اليهودية اليمن فى زمن أسعد ذى[*] كرب وهو تبع الأصغر كما ذكره ابن إسحاق مطولاً فى السيرة.

فقام الإسلام وبعض أهل اليمن على اليهودية، ودخل دين النصرانية إلى اليمن بعد ذلك لما غلبت الحبشة على اليمن، وكان منهم أبرهة صاحب الفيل الذى غزا مكة وأراد هدم الكعبة حتى أجلاهم عنها سيف بن ذى يزن، كما ذكره ابن إسحاق مبسوطاً أيضاً.

ولم يبق بعد ذلك باليمن أحد من النصارى أصلاً إلا بنجران وهى بين مكة واليمن، وبقى ببعض بلادها قليل من اليهود. أهـ.

وفى رواية كتاب الزكاة: **«ستأتى قوماً أهل كتاب»**.

قال ابن حجر[5]: هى كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم فى الجملة فلا تكون العناية فى مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان، وليس فيه أن جميع من يقدم عليهم من أهل الكتاب، بل يجوز أن يكون فيهم من غيرهم، وإنما خصهم بالذكر تفضيلاً لهم على غيرهم. أهـ.

قلت: والرسول يقول إنك تأتى قومًا من أهل الكتاب أى (اليهود والنصارى) هذه من التوطئة والتنبيه ليجمع همته العلمية للتصدى لهؤلاء العلماء الضلال المضلين (فهم إما

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم أيضا.
(٣) تقدم فى الباب الأول.
(٤) فتح البارى (١٣/ ٣٦١).
(*) وسيأتى من كلام ابن حجر أيضاً أنه (أسعد أبى كرب).
(٥) فتح البارى (٣/ ٤١٩، ٤٢٠).

ضلال وإما مضلين) فهم على أية حال علماء ذلك بأن الله سبحانه وتعالى وصفهم بالعلم.

ويقول الله عزوجل: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

فوصفهم بهذا ووصف بعضهم بقوله:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾.

وهو بلعام بن باعوراء وقصته معروفة فى كتب التفسير(١).

أن هذا الرجل كان من علماء بنى إسرائيل فَفُتِنَ (فتنه قومه بالنساء والهدايا)وقد كان أوتى اسم الله الأعظم الذى إذا ادعى به أجاب سبحانه وتعالى ورغم ذلك قال الله سبحانه وتعالى عنه ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، نسأل الله العفو والعافية.

قال سليمان آل الشيخ(٢): فى قوله (من أهل الكتاب): قال القرطبى: يعنى اليهود والنصارى؛ لأنهم كانوا فى اليمن أكثر من مشركى العرب أو أغلب، وإنما نبهه على هذا ليتأهب لمناظرتهم، ويعد الأدلة لإمتحانهم، لأنهم أهل علم سابق بخلاف المشركين وعبدة الأوثان. ا هـ وتقدم بمعناه للحافظ ابن حجر.

[قلت]: **سليمان آل الشيخ**: وفيه أن مخاطبة العالم ليست كمخاطبة الجاهل والتنبيه على أنه ينبغى للإنسان أن يكون على بصيرة فى دينه، لئلا يبتلى بمن يورد عليه شبهة من علماء المشركين، ففيه التنبيه على الإحتراز من الشبه، والحرص على طلب العلم. أهـ.

وقال ابن عيثمين(٣) فى قوله ﷺ: (إنك تأتى قومًا من أهل الكتاب):

قال ذلك مرشداً له، وهذا دليل على معرفته ﷺ بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم،ـ قلت: وهذا ما يسميه البعض الواقع أوفقه الواقع قال ابن عثيمين: فله طريقان:

١- الوحى ٢- العلم والتجربة.

ثم قال: وأخبره النبى ﷺ بذلك لأمرين:

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وانظر «الدر المنثور» (٤/ ٢٦٦)، وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.
(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٠ ـ ٩١). (٣) القول المفيد (١/ ١٦٤).

[الأول]: أن يكون بصيرًا بأحوال من يدعو. قلت: كما تقدم من أن ذلك يسميه البعض فقه الواقع.

[الثانى]: أن يكون مستعدًا لهم، لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم. اهـ.

قال ابن حجر[1]: تنبيهان:

أحدهما: كان أصل دخول اليهودية في اليمن فى زمن أسعد أبى كرب وهو تبع الأصغر كما حكاه ابن إسحق فى أوائل السيرة النبوية.

ثانيهما: قال ابن العربى فى شرح الترمذى: تبرأت اليهود فى هذه الأزمان من القول بأن العزير ابن الله وهذا لا يمنع كونه كان موجوداً فى زمن النبى ﷺ لأن ذلك نزل فى زمنه واليهود معه بالمدينة وغيرها فلم ينقل عن أحد منهم أنه رد ذلك ولا تعقبه.

والظاهر أن القائل بذلك طائفة منهم لا جميعهم بدليل أن القائل من النصارى إن المسيح ابن الله طائفة منهم لا جميعهم فيجوز أن تكون تلك الطائفة انقرضت فى هذه الأزمان كما انقلب اعتقاد معظم اليهود عن التشبيه إلى التعطيل وتحول معتقد النصارى فى الابن والأب إلى أنه من الأمور المعنوية لا الحسية، فسبحان مقلب القلوب. اهـ.

[**قلت**]: وتنبيه ثالث: أن الله تعالى أنزل التوراة على اليهود والإنجيل على النصارى، ومع ذلك قال ﴿**أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾ ولم يقل (كتابين) وكذا قال الرسول ﷺ هنا لمعاذ (**تأتى قومًا من أهل الكتاب**).

لأن عيسى عليه السلام لم يأت بشرع مستقل وإنما جاء ليحل لهم بعض الذى حرم عليهم أو ليضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت فى أعناقهم، فهو متمم لشريعة موسى عليه السلام ويسمونه ـ كما هو معلوم ولله الحمد والمنة لدى طلبة العلم من المسلمين ـ أسفار العهد القديم وأسفار العهد الجديد والسفران يسميان عندهما بالكتاب المقدس، والصليبى النصرانى مطالب أن يذعن وينقاد إلى الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) ولذلك فالله عز وجل يخاطب النصارى واليهود قائلاً: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ**﴾ ولم يقل يا أهل الكتابين لأن التوراة والإنجيل كتاب واحد.

قوله: [**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**]

قال سليمان آل الشيخ[2]: قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: وقد علم بالاضطرار

---

(١) فتح البارى (٣/ ٤٢٠).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٣).

من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فبذلك يصير الكافر مسلمًا، والعدو وليًا، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل فى الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو فى ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان، وفيه البداءة فى الدعوة والتعليم بالأهم فالأهم، واستدل به من قال من العلماء إنه لا يشترط فى صحة الإسلام النطق بالتبرى من كل دين يخالف دين الإسلام لأن اعتقاد الشهادتين يستلزم ذلك وفى ذلك تفصيل.

وفيه: أنه لا يحكم بإسلام الكافر إلا بالنطق بالشهادتين.

قال شيخ الإسلام: فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنًا وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها، وجماهير علمائها.

قلت أى سليمان: هذا والله أعلم فيمن لا يقر بهما أو بإحداهما أما من كفره مع الإقرار بهما ففيه بحث، والظاهر أن إسلامه هو توبته عما كفر به.

وفيه أن الإنسان قد يكون قارئًا عالمًا وهو لايعرف معنى لا إله إلا الله، أو يعرفه ولا يعمل به، نبه عليه المصنف.

وقال بعضهم: هذا الذى أمر به النبى ﷺ معاذًا ، هو الدعوة قبل القتال التى كان يوصى بها النبى ﷺ أمراءه.

قلت أى سليمان: فعلى هذا فيه استحباب الدعوة قبل القتال لمن بلغته الدعوة، أما من لم تبلغه فتجب دعوته. اهـ.

● **فائدة فى شرح بعض كلام ابن تيمية على قوله ﷺ «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله»**.

قلت: فإن ابن تيمية بيَّن أن هذه الكلمة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أول ما يؤمر بها الخلق فبذلك يسير الكافر مسلماً إلا إذا أتى بمناقض والعدو ولياً، والمباح دمه معصوم الدم والمال، ثم إذا كانت من القلب دخل فى الإيمان.

وإذا كانت من اللسان ولم تدخل القلب دخل فى الإسلام الحكمى ومن هنا قال فى كتاب «الإيمان الأوسط» أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

يعنى كلمة إيمان وكلمة إسلام إذا اجتمعا فى موضع واحد. افترقا فى المعنى.

كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

فهنا دل على أن الإيمان غير الإسلام.

فالإيمان هنا الأعمال القلبية، والإسلام أعمال الجوارح الظاهرة. ومثل حديث **«أخبرني ما الإيمان، أخبرني ما الإسلام»**.

وإذا افترقا في حديث (فالإسلام هو الإيمان،والإيمان هو الإسلام) مثل حديث جبريل في تعليم أمور الدين[1]، وحديث «كل المسلم على المسلم حرام دمه ومال...»[2]

فهنا كلمة المسلم تشمل المسلم والمؤمن.

وحديث **«من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه»**[3].

أيضا من حسن إيمانه.

فمن هنا قال شيخ الإسلام.

من هنا سار الكافر مسلماً ومباح الدم معصوم الدم.... إلخ.

كما قال تعالى: ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾.

وهذا مقصد شيخ الإسلام. والله أعلم.

وفي رواية للبخاري **«فادعوهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»**.

قال ابن حجر[4]: كذا للأكثر، وفي أول الزكاة بلفظ **«وأني رسول الله»** كذا في رواية زكريا بن إسحاق لم يختلف عليه فيها، وأما إسماعيل بن أمية ففي رواية روح بن القاسم عنه **«فأول ماتدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله»** وفي رواية الفضل بن العلاء عنه **«إلى أن يوحدوا الله، فإذا عرفوا ذلك»**.

ويجمع بينها بأن المراد بعبادة الله توحيده وبتوحيده الشهادة له بذلك والتنبيه بالرسالة، ووقعت البداءة بهما لأنهما أصل الدين الذي لايصح شيء غيرهما إلا بهما

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦/ ١٢١ ـ النووي) عن أبي هريرة.
وانظر «رياض الصالحين» (١٥٣٠ ـ بتخريجنا).

(٣) [ضعيف] أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦) وأرسله مالك في «الموطأ» (٢/ ٦٨٩/ ٣).
وانظر «السلسبيل» (١١٨٤ ـ بتخريجنا).

(٤) فتح الباري (٣/ ٤٢٠).

فمن كان منهم غير موحد فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين، ومن كان موحداً فالمطالبة بين الإقرار بالوحدانية والإقرار بالرسالة، وإن كانوا يعتقدون ما يقتضى الإشراك أو يستلزمه كمن يقول ببنوة عزير أو يعتقد التشبيه فتكون مطالبتهم بالتوحيد لنفى ما يلزم من عقائدهم.

واستدل به من قال من العلماء إنه لايشترط التبرى من كل دين يخالف دين الإسلام خلافاً لمن قال إن من كان كافراً بشىء وهو مؤمن بغيره لم يدخل فى الإسلام إلا بترك اعتقاد ما كفر به.

والجواب أن اعتقاد الشهادتين يستلزم ترك اعتقاد التشبيه ودعوى بنوة عزير وغيره فيكتفى بذلك.

واستدل به على أنه لايكفى فى الإسلام الاقتصار على شهادة أن لا إله إلا الله حتى يضيف إليها الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة وهو قول الجمهور.

وقال بعضهم: يصير بالأولى مسلماً ويطالب بالثانية. وفائدة الخلاف تظهر بالحكم بالردة. أهـ.

- **من استدل بهذا الحديث على أن أول واجب المعرفة أو النظر أو القصد إليه. والرد على ذلك كله.**

وفى رواية البخارى فى التوحيد «**فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله فإذا عرفوا ذلك**».

قال ابن حجر[1]: فى الزكاة من طريق إسماعيل بن أمية عن يحيى بن عبدالله بلفظ «**فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله**» وكذا أخرجه مسلم عن الشيخ الذى أخرجه عنه البخارى.

وقد تمسك به من قال أول واجب المعرفة كإمام الحرمين واستدل بأنه لايتأتى الإتيان بشىء من المأمورات على قصد الإمتثال، ولا الانكفاف عن شىء من المنهيات على قصد الإنزجار إلا بعد معرفة الآمر والناهى.

واعترض عليه بأن المعرفة لاتتأتى إلا بالنظر والاستدلال، وهو مقدمة الواجب فيجب فيكون أول واجب النظر.

(١) فتح البارى (١٣/ ٣٦٠).

وذهب إلى هذا طائفة كابن فورك.

وتعقب بأن النظر ذو أجزاء يترتب بعضها على بعض، فيكون أول واجب جزءاً من النظر وهو محكى عن القاضى أبى بكر بن الطيب وعن الأستاذ أبى إسحق الاسفراينى أول واجب القصد إلى النظر.

وجمع بعضهم بين هذه الأقوال بأن من قال أول واجب المعرفة أراد طلباً وتكليفاً، ومن قال النظر أو القصد أراد امتثالاً لأنه يسلم أنه وسيلة إلى تحصيل المعرفة، فيدل ذلك على سبق وجوب المعرفة.

وفى «كتاب الإيمان» من أعرض عن هذا من أصله وتمسك بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وحديث «**كل مولود يولد على الفطرة**» فإن ظاهر الآية والحديث أن المعرفة حاصلة بأصل الفطرة، وأن الخروج عن ذلك يطرأ على الشخص لقوله عليه الصلاة والسلام «**فأبواه يهودانه وينصرانه**»(١) وقد وافق أبو جعفر السمنانى وهو من رءوس الأشاعرة على هذا وقال: إن هذه المسئلة بقيت فى مقالة الأشعرى من مسائل المعتزلة؛ وتفرع عليها أن الواجب على كل أحد معرفة الله بالأدلة الدالة عليه، وأنه لايكفى التقليد فى ذلك انتهى.

● **الناس فى هذه المسألة طرفان ووسط. فطرف اكتفى بالتقليد وحرم النظر، والطرف الآخر بالغ فى النظر حتى كفَّر العوام الذين لم يؤهلوا للنظر**

قال ابن حجر(٢): قرأت فى جزء من كلام شيخ شيخنا الحافظ صلاح الدين العلائى ما ملخصه: أن هذه المسألة مما تناقضت فيها المذاهب وتباينت.

بين مفّرط ومفرط ومتوسط.

فالطرف الأول: قول من قال يكفى التقليد المحض فى إثبات وجود الله تعالى ونفى الشريك عنه، وممن نسب إليه إطلاق ذلك عبيد الله بن الحسن العنبرى وجماعة من الحنابلة والظاهرية، ومنهم من بالغ فحرم النظر فى الأدلة واستند إلى ما ثبت عن الأئمة الكبار من ذم الكلام.

والطرف الثانى: قول من وقف صحة إيمان كل أحد على معرفة الأدلة من علم الكلام، ونسب ذلك لأبى إسحق الأسفرينى.

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (١٣٨٥)، ومسلم فى القدر (١٦/ ٢٧- النووى) عن أبى هريرة به وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٠٥) وتقدم تخريجه.

(٢) فتح البارى (١٣/ ٣٦١، ٣٦٢).

وقال الغزالي: أسرفت طائفة فكفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التى حرروها فهو كافر، فضيقوا رحمة الله الواسعة وجعلوا الجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين.

وذكر نحوه أبو المظفر بن السمعاني وأطال فى الرد على قائله، ونقل عن أكثر أئمة الفتوى أنهم قالوا: لايجوز أن تكلف العوام إعتقاد الأصول بدلائلها، لأن فى ذلك من المشقة أشد من المشقة فى تعلم الفروع الفقهية.

وأما المذهب المتوسط، فذكره وسأذكره ملخصاً بعد هذا.

وقال القرطبي فى المفهم: فى شرح حديث **«أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»**(١).

وهو فى أوائل كتاب العلم من صحيح مسلم هذا الشخص الذى يبغضه الله هو الذى يقصد بخصومته مدافعة الحق ورده بالأوجه الفاسدة والشبه الموهمة، وأشد ذلك الخصومة فى أصول الدين، كما يقع لأكثر المتكلمين المعرضين عن الطرق التى أرشد إليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسلف أمته، إلى طرق مبتدعة واصطلاحات مخترعة وقوانين جدلية وأمور صناعية مدار أكثرها على آراء سوفسطائية، أو مناقضات لفظية ينشأ بسببها على الآخذ شبه ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم لا أعلمهم، فكم من عالم بفساد الشبهة لايقوى على حلها، وكم من منفصل عنها لايدرك حقيقة علمها ثم إن هؤلاء قد ارتكبوا أنواعاً من المحال لايرتضيها البله والأطفال، لما بحثوا عن تحيز الجواهر والألوان والأحوال، فأخذوا فيما أمسك عنه السلف الصالح من كيفيات تعلقات صفات الله تعالى وتعديدها واتحادها فى نفسها، وهل هى الذات أو غيرها وفى الكلام: هل هو متحد أو منقسم.

وعلى الثاني: هل ينقسم بالنوع أو الوصف، وكيف تعلق فى الأزل بالمأمور مع كونه حادثاً، ثم إذا انعدم المأمور هل يبقى التعلق، وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلاً هو نفس الأمر لعمرو بالزكاة إلى غير ذلك مما ابتدعوه مما لم يأمر به الشارع وسكت عنه الصحابة ومن سلك سبيلهم، بل نهوا عن الخوض فيها لعلمهم بأنه بحث عن كيفية ما لاتعلم كيفيته بالعقل، لكون العقول لها حد تقف عنده، ولا فرق بين البحث عن كيفية الذات وكيفية الصفات، ومن توقف فى هذا فليعلم أنه إذا كان حجب عن كيفية نفسه مع

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٤٥٧)، ومسلم فى العلم (٨/ ٤٧١/ ٥) عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ به.

(*) كذا فى الأصل ولعل الصواب : بها.

وجودها، وعن كيفية إدراك ما يدرك به فهو عن إدراك غيره أعجز، وغاية علم العالم أن يقطع بوجود قائل لهذه المصنوعات منزه عن الشبه مقدس عن النظير متصف بصفات الكمال، ثم متى ثبت النقل عنه بشيء من أوصافه وأسمائه قبلناه واعتقدناه وسكتنا عما عداه، كما هو طريق السلف، وما عداه لا يأمن صاحبه من الزلل، ويكفى فى الردع عن الخوض فى طرق المتكلمين ما ثبت عن الأئمة المتقدمين كعمر بن عبدالعزيز ومالك بن أنس والشافعى.

وقد قطع بعض الأئمة بأن الصحابة لم يخوضوا فى الجوهر والعرض وما يتعلق بذلك من مباحث المتكلمين، فمن رغب عن طريقهم فكفاه ضلالاً.

قال: وأفضى الكلام بكثير من أهله إلى الشك، وببعضهم إلى الإلحاد وببعضهم إلى التهاون بوظائف العبادات، وسبب ذلك إعراضهم عن نصوص الشارع وتطلبهم حقائق الأمور من غيره، وليس فى قوة العقل ما يدرك فى نصوص الشارع من الحكم التى استأثر بها.

وقد رجع كثير من أئمتهم عن طريقهم، حتى جاء عن إمام الحرمين أنه قال «ركبت البحر الأعظم، وغصت فى كل شىء نهى عنه أهل العلم فى طلب الحق فراراً من التقليد والآن فقد رجعت واعتقدت مذهب السلف» هذا كلامه أو معناه وعنه أنه قال عند موته «يا أصحابنا لاتشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنه يبلغ بى ما بلغت ما تشاغلت به».

إلى أن قال القرطبى: ولو لم يكن فى الكلام إلا مسئلتان هما من مبادئه لكان حقيقاً بالذم:

إحداهما: قول بعضهم إن أول واجب الشك إذ هو اللازم عن وجوب النظر أو القصد إلى النظر، وإليه أشار الإمام بقوله ركبت البحر.

ثانيتهما: قول جماعة منهم إن من لم يعرف الله بالطرق التى رتبوها والأبحاث التى حرروها لم يصح إيمانه، حتى لقد أورد على بعضهم أن هذا يلزم منه تكفير أبيك وأسلافك وجيرانك، فقال لا تشنع على بكثرة أهل النار.

قال: وقد رد بعض من لم يقل بهما على من قال بهما بطريق من الرد النظرى وهو خطأ منه، فإن القائل بالمسئلتين كافر شرعاً، لجعله الشك فى الله واجباً، ومعظم المسلمين كفاراً حتى يدخل فى عموم كلامه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وهذامعلوم الفساد من الدين بالضرورة، وإلا فلايوجد فى الشرعيات ضرورى.

وختم القرطبى كلامه بالإعتذار عن إطالة النفس فى هذا الموضع لما شاع بين الناس

من هذه البدعة حتى اغـتر بها كثير من الأغمار فوجب بذلك الـنصيحة، والله يهدى من شاء انتهى.

● **قلت: وبرغم طوله ذكرناه لحاجة طلبة العلم إليه فى هذه الأيام، ليعرفوا أصل كلام من اشتـرط لإسلام العوام تعلم التـوحيد أو تعلمـه على أيديهم، وكذلك يعـرفوا طرق الرد على هؤلاء والله المستعان**

قال ابن حجر(١): وقال الآمدى فى أبكار الأفكار: ذهب أبو هاشم من المعتزلة إلى أن من لايعرف الله بالدليل فهو كافر، لأن ضد المعرفة النكرة والنكرة كفر.

قال: وأصحابنا مجمـعون على خلافه وإنما اختلفوا فيما إذا كان الإعـتقاد موافقاً لكن عن غير دليل.

فمنهم: من قال إن صاحبه مؤمن عاص بترك النظر الواجب.

ومنهم: من اكتفى بمجرد الإعتـقاد الموافق وإن لم يكن عن دليل وسماه علماً، وعلى هذا فلا يلزم من حصول المعرفة بهذا الطريق وجوب النظر.

وقال غيره: من منع التقليد وأوجب الإستـدلال لم يرد التعمق فى طريق المتكلمين، بل اكتـفى بما لايخلو عنه من نشأ بين المسلمـين من الإستدلال بالمصـنوع على الصانع، وغايته أنه يحصل فى الذهن مقدمات ضرورية تتألق تألقاً صحيحاً وتنتج العلم، لكنه لو سئل كيف حصل له ذلك ما اهتدى للتعبير به.

وقيل الأصل فى هذا كله المنع من التـقليد فى أصول الدين وقد انفـصل بعض الأئمة عن ذلك بأن المراد بالتقليد أخـذ قول الغير بغيـر حجة، ومن قامت عليه حجـة بثبوت النبوة حتى حصل له القطع بهـا، فمهما سمعه من النبى ﷺ كان مـقطوعاً عنده بصدقه فإذا اعتقده لم يكن مقلداً لأنه لم يأخذ بقول غيـره بغير حجة، وهذا مستند السلف قاطبة فى الأخذ بما ثبت عندهم من آيات القـرآن وأحاديث النبى ﷺ فيما يتـعلق بهذا الباب، فآمنوا بالمحكم من ذلك وفوضوا أمر المتشابه منه إلى ربهم، وإنما قال من قال إن مذهب الخلف أحكم بالنسبـة إلى الرد على من لم يثبت النبوة، فـيحتاج من يريد رجـوعه إلى الحق أن يقيم عـليه الأدلة إلى أن يذعن فيـسلم أو يعاند فـيهلك، بخـلاف المؤمن فإنه لايحتـاج فى أصل إيمانه إلى ذلك، وليس سـبب الأول إلا جعل الأصل عـدم الإيمان فلزم إيجـاب النظر المؤدى إلى المعـرفـة وإلا فطريق السلف أسـهل من هذا كـما تقـدم إيضاحه من الرجوع إلى ما دلت عليه النصوص حتى يحتاج إلى ما ذكر من إقامة الحجة على من ليس بمؤمن، فاختلط الأمر على من اشترط ذلك والله المستعان اهـ.

(١) فتح البارى (١٣/ ٣٦٢، ٣٦٣).

شبهات أخرى والرد عليها:

ثم قال: واحتج بعض من أوجب الإستدلال باتفاقهم على ذم التقليد، وذكروا الآيات والأحاديث الواردة فى ذم التقليد، وبأن كل أحد قبل الإستدلال لا يدرى أى الأمرين هو الهدى، وبأن كل مالايصح إلا بالدليل فهو دعوى لايعمل بها، وبأن العلم إعتقاد الشيء على ما هو عليه من ضرورة أو استدلال وكل مالم يكن علماً فهو جهل، ومن لم يكن عالماً فهو ضال.

والجواب: عن الأول أن المذموم من التقليد أخذ قول الغير بغير حجة، وهذا ليس منه حكم رسول الله ﷺ فإن الله أوجب اتباعه فى كل ما يقول، وليس العمل فيما أمر به أو نهى عنه داخلاً تحت التقليد المذموم اتفاقاً، وأما من دونه ممن اتبعه فى قول قاله واعتقد أنه لو لم يقله لم يقل هو به فهو المقلد المذموم، بخلاف ما لو اعتقد ذلك فى خبر الله ورسوله فإنه يكون ممدوحاً.

وأما احتجاجهم بأن أحداً لايدرى قبل الإستدلال أى الأمرين هو الهدى فليس بمسلم، بل من الناس من تطمئن نفسه وينشرح صدره للإسلام من أول وهلة، ومنهم من يتوقف على الإستدلال، فالذى ذكروه هم أهل الشق الثانى، فيجب عليه النظر ليقى نفسه النار لقوله تعالى: ﴿**قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾ ويجب على كل من استرشده أن يرشده ويبرهن له الحق وعلى هذا مضى السلف الصالح من عهد النبى ﷺ وبعده.

وأما من استقرت نفسه إلى تصديق الرسول ولم تنازعه نفسه إلى طلب دليل توفيقاً من الله وتيسيراً. فهم الذين قال الله فى حقهم ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ الآية. وقال ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ**﴾ الآية وليس هؤلاء مقلدين لآبائهم ولا لرؤسائهم. لأنهم لو كفر آباؤهم أو رؤساؤهم لم يتابعوهم بل يجدون النفرة عن كل من سمعوا عنه ما يخالف الشريعة.

وأما الآيات والأحاديث فإنما وردت فى حق الكفار الذين اتبعوا من نهوا عن اتباعه وتركوا اتباع من أمروا باتباعه.

وإنما كلفهم الله الإتيان ببرهان على دعواهم بخلاف المؤمنين فلم يرد قط أنه أسقط اتباعهم حتى يأتوا بالبرهان. وكل من خالف الله ورسوله فلا برهان له أصلاً وإنما كلف الإتيان بالبرهان تبكيتاً وتعجيزاً. وأما من اتبع الرسول فيما جاء به فقد اتبع الحق الذى أمر به وقامت البراهين على صحته، سواء علم هو بتوجيه ذلك البرهان أم لا.

وقول من قال منهم إن الله ذكر الإستدلال وأمر به: مسلم لكن هو فعل حسن

مندوب لكل من أطاقه، وواجب على كل من لم تسكن نفسه إلى التصديق كما تقدم تقريره وبالله التوفيق ا هـ.

الرد على من زعم أن طريقة الخلف أحكم وطريقة السلف أسلم فى هذا الباب.

نقل ابن حجر: قول من قال طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أحكم ثم رده بقوله أنه: ليس بمستقيم، لأنه ظن أن طريقة السلف مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه فى ذلك، وأن طريقة الخلف هى إستخراج معانى النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات، فجمع هذا القائل بين الجهل بطريقة السلف والدعوى فى طريقة الخلف، وليس الأمر كما ظن، بل السلف فى غاية المعرفة بما يليق بالله تعالى، وفى غاية التعظيم له والخضوع لأمره والتسليم لمراده، وليس من سلك طريق الخلف واثقاً بأن الذى يتأوله هو المراد ولا يمكنه القطع بصحة تأويله.

وأما قولهم فى العلم فزادوا فى التعريف عن ضرورة أو استدلال وتعريف العلم، انتهى عند قوله عليه: فإن أبوا إلا الزيادة فليزدادوا عن تيسير الله له ذلك وخلقه ذلك المعتقد فى قلبه، وإلا فالذى زادوه هو محل النزاع فلا دلالة فيه وبالله التوفيق.

وقال أبو المظفر بن السمعانى: تعقب بعض أهل الكلام قول من قال إن السلف من الصحابة والتابعين. لم يعتنوا بإيراد دلائل العقل فى التوحيد بأنهم لم يشتغلوا بالتعريفات فى أحكام الحوادث وقد قبل الفقهاء ذلك واستحسنوه فدونوه فى كتبهم، فكذلك علم الكلام، ويمتاز علم الكلام بأنه يتضمن الرد على الملحدين وأهل الأهواء، وبه تزول الشبهة عن أهل الزيغ ويثبت اليقين لأهل الحق، وقد علم الكل أن الكتاب لم تعلم حقيته، والنبى لم يثبت صدقه إلا بأدلة العقل.

وأجاب: أما أولاً: فإن الشارع والسلف الصالح نهوا عن الإبتداع وأمروا بالإتباع، وصح عن السلف أنهم نهوا عن علم الكلام وعدوه ذريعة للشك والإرتياب.

وأما الفروع فلم يثبت عن أحد منهم النهى عنها إلا من ترك النص الصحيح وقدم عليه القياس.

وأما من اتبع النص وقاس عليه فلايحفظ عن أحد من أئمة السلف إنكار ذلك، لأن الحوادث فى المعاملات لاتنقضى وبالناس حاجة إلى معرفة الحكم، فمن ثم تواردوا على إستحباب الإشتغال بذلك بخلاف علم الكلام.

وأما ثانياً: فإن الدين كمل لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإذا كان أكمله وأتمه وتلقاه الصحابة عن النبى ﷺ واعتقده من تلقى عنهم واطمأنت به نفوسهم، فأى حاجة بهم إلى تحكيم العقول والرجوع إلى قضاياها وجعلها أصلا، والنصوص

الصحيحة الصريحة تعرض عليها فتارة يعمل بمضمونها، وتارة تحرف عن مواضعها لتوافق العقول.

وإذا كان الدين قد كمُل فلا تكون الزيادة فيه إلا نقصاناً فى المعنى، مثل زيادة أصبع فى اليد فإنها تنقص قيمة العبد الذى يقع به ذلك.

وقد توسط بعض المتكلمين فقال: لايكفى التقليد بل لابد من دليل ينشرح به الصدر. وتحصل به الطمأنينة العلمية، ولايشترط أن يكون بطريق الصناعة الكلامية بل يكفى فى حق كل أحد بحسب ما يقتضيه فهمه إنتهى.

والذى تقدم ذكره من تقييد النصوص كاف فى هذا القدر. أهـ.

● **الخلاصة ومذهب أهل التوسط، والحسنة بين السيئتين، وأدلتهم**

قال ابن حجر(١): وقال بعضهم المطلوب من كل واحد التصديق الجزمى الذى لاريب معه بوجود الله تعالى والإيمان برسله وبما جاءوا به كيفما حصل وبأى طريق إليه يوصل، ولو كان عن تقليد محض إذا سلم من التزلزل.

قال القرطبى: هذا الذى عليه أئمة الفتوى ومن قبلهم من أئمة السلف، واحتج بعضهم بما تقدم من القول فى أصل الفطرة وبما تواتر عن النبى ﷺ ثم الصحابة أنهم حكموا بإسلام من أسلم من جفاة العرب ممن كان يعبد الأوثان، فقبلوا منهم الإقرار فأسلم بسبب وضوحه له، فالكثير منهم قد أسلموا طوعا من غير تقدم إستدلال، بل بمجرد ما كان عندهم من أخبار أهل الكتاب بأن نبياً سيبعث وينتصر على من خالفه، فلما ظهرت لهم العلامات فى محمد ﷺ بادروا إلى الإسلام، وصدقوه فى كل شىء قاله ودعاهم إليه من الصلاة والزكاة وغيرهما، وكثير منهم كان يؤذن له فى الرجوع إلى معاشه من رعاية الغنم وغيرها، وكانت أنوار النبوة وبركاتها تشملهم فلا يزالون يزدادون إيماناً ويقيناً.

وقال أبو المظفر بن السمعانى أيضاً ما ملخصه: إن العقل لايوجب شيئاً ولا يحرم شيئاً، ولاحظ له فى شىء من ذلك، ولو لم يرد الشرع بحكم، ما وجب على أحد شىء، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ وقوله: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ وغير ذلك من الآيات.

فمن زعم أن دعوة رسل الله عليهم الصلاة والسلام إنما كانت لبيان الفروع، لزمه أن يجعل العقل هو الداعى إلى الله دون الرسول ويلزمه أن وجود الرسول وعدمه بالنسبة إلى الدعاء إلى الله سواء، وكفى بهذا ضلالاً. ونحن لاننكر أن العقل يرشد إلى

(١) فتح البارى (١٣/ ٣٦٥، ٣٦٦).

التوحيد وإنما ننكر أن يستقل بإيجاب ذلك حتى لايصح إسلام إلا بطريقه، مع قطع النظر عن السمعيات لكون ذلك خلاف ما دلت عليه آيات الكتاب والأحاديث الصحيحة التى تواترت ولو بالطريق المعنوى، ولو كان كما يقول أولئك لبطلت السمعيات التى لامجال للعقل فيها أو أكثرها ، بل يجب الإيمان بما ثبت من السمعيات، فإن عقلناه فبتوفيق الله وإلا أكتفينا بإعتقاد حقيته على وفق مراد الله سبحانه وتعالى إنتهى.

ويؤيد كلامه ما أخرجه أبوداود عن ابن عباس «أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ أنشدك الله: آلله أرسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى؟ قال: **نعم فأسلم**».

وأصله فى الصحيحين فى قصة ضمام بن ثعلبة[1].

وفى حديث عمرو بن عبسة عند مسلم أنه «أتى النبى ﷺ فقال ما (*) أنت؟ قال: **نبى الله**. قلت: آلله أرسلك؟ قال: **نعم**. قلت: بأى شىء؟ قال: **أوحد الله لاأشرك به شيئاً**» الحديث[2].

وفى حديث أسامة بن زيد فى قصة قتله الذى قال لا إله إلا الله فأنكر عليه النبى ﷺ[3] وحديث المقداد فى معناه[4]. وهما عند البخارى فى «كتاب الديات».

وفى كتب النبى ﷺ إلى هرقل وكسرى وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى التوحيد[5]؛ إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة التواتر المعنوى الدال على أنه ﷺ لم يزد فى دعائه المشركين على أن يؤمنوا بالله وحده ويصدقوه فيما جاء به عنه، فمن فعل ذلك قبل منه سواء كان إذعانه عن تقدم نظر أم لا، ومن توقف منهم نبهه حينئذ على النظر، أو أقام عليه الحجة إلى أن يذعن أو يستمر على عناده.

وقال البيهقى فى «كتاب الإعتقاد»: سلك بعض أئمتنا فى إثبات الصانع وحدوث العالم طريق الإستدلال بمعجزات الرسالة فإنها أصل فى وجوب قبول ما دعا إليه النبى ﷺ. وعلى هذا الوجه وقع إيمان الذين استجابوا للرسل.

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٦٣)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٢٠١/ ١٠) عن أنس به.

(٢) **[صحيح]** أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣/ ٣٧٦/ ٢٩٤) وانظر «منار السبيل - بتخريجنا».

(٣) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٤٢٦٩)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ١٠٠ - النووى).
وانظر «رياض الصالحين» (٣٩٤ - بتخريجنا).

(٤) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٤٠١٩)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٩٨ - النووى).
وانظر «رياض الصالحين» (٣٩٣ - بتخريجنا).

(٥) تقدم فى أول الكتاب.

(*) هكذا فى الأصل ولعل الصواب: من أنت؟

ثم ذكر قصة النجاشي وقول جعفر بن أبي طالب له «بعث الله إلينا رسولاً نعرف صدقه فدعانا إلى الله وتلا علينا تنزيلاً من الله لايشبهه شيء فصدقناه وعرفنا أن الذي جاء به الحق» الحديث بطوله(١).

وقد أخرجه ابن خزيمة في «كتاب الزكاة» من صحيحه من رواية ابن إسحق وحاله معروفة وحديثه في درجة الحسن.

قال البيهقي: فاستدلوا بإعجاز القرآن على صدق النبي، فآمنوا بما جاء به من إثبات الصانع ووحدانيته وحدوث العالم وغير ذلك مما جاء به الرسول ﷺ في القرآن وغيره، واكتفاء غالب من أسلم بمثل ذلك مشهور في الأخبار، فوجب تصديقه في كل شيء ثبت عنه بطريق السمع، ولايكون ذلك تقليداً بل هو اتباع والله أعلم.

وقد استدل من اشترط النظر بالآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ولا حجة فيها لأن من لم يشترط النظر لم ينكر أصل النظر، وإنما أنكر توقف الإيمان على وجود النظر بالطرق الكلامية، إذ لايلزم من الترغيب في النظر جعله شرطاً، واستدل بعضهم بأن التقليد لايفيد العلم إذ لو أفاده لكان العلم حاصلاً لمن قلد في قدم العالم ولمن قلد في حدوثه. وهو محال لإفضائه إلى الجمع بين النقيضين. وهذا إنما يتأتى في تقليد غير النبي ﷺ.

وأما تقليده ﷺ فيما أخبر به عن ربه فلايتناقض أصلاً واعتذر بعضهم عن اكتفاء النبي، والصحابة بإسلام من أسلم من الأعراب من غير نظر بأن ذلك كان لضرورة المبادىء.

وأما بعد تقرر الإسلام وشهرته فيجب العمل بالأدلة ولايخفى ضعف هذا الإعتذار والعجب أن من اشترط ذلك من أهل الكلام ينكرون التقليد وهم أول داع إليه حتى استقر في الأذهان أن من أنكر قاعدة من القواعد التي أصلوها فهو مبتدع ولو لم يفهمها ولم يعرف مأخذها وهذا هو محض التقليد فآل أمرهم إلى تكفير من قلد الرسول عليه الصلاة والسلام في معرفة الله تعالى والقول بإيمان من قلدهم وكفى بهذا ضلالاً وما مثلهم إلا كما قال بعض السلف: إنهم كمثل قوم كانوا سفراً فوقعوا في فلاة ليس فيها ما يقوم به البدن من المأكول والمشروب ورأوا فيها طرقاً شتى فانقسموا قسمين فقسم وجدوا من قال لهم أنا عارف بهذه الطرق وطريق النجاة منها واحدة فاتبعوني فيها تنجو فتبعوه فنجوا، وتخلفت عنه طائفة فأقاموا إلى أن وقفوا على أمارة ظهر لهم أن في العمل بها النجاة فعملوا بها فنجوا وقسم هجموا بغير مرشد ولا أمارة فهلكوا، فليست نجاة من اتبع المرشد بدون نجاة من أخذ بالأمارة إن لم تكن أولى منها.

ونقلت من جزء الحافظ صلاح الدين العلائى يمكن أن يفصل فيقال: من لا أهلية له لفهم شىء من الأدلة أصلاً وحصل له اليقين التام بالمطلوب إما بنشأته على ذلك أو لنور يقذفه الله فى قلبه، فإنه يكتفي منه بذلك، ومن فيه أهلية لفهم الأدلة لم يكتف منه إلا بالإيمان عن دليل، ومع ذلك فدليل كل أحد بحسبه وتكفى الأدلة المجملة التى تحصل بأدنى نظر، ومن حصلت عنده شبهة وجب عليه التعلم إلى أن تزول عنه.

قال فبهذا يحصل الجمع بين كلام الطائفة المتوسطة.

وأما من غلا فقال لايكفى إيمان المقلد فلا يلتفت إليه، لما يلزم منه من القول بعدم إيمان أكثر المسلمين، وكذا من غلا أيضاً فقال لايجوز النظر فى الأدلة لما يلزم منه من أن أكابر السلف لم يكونوا من أهل النظر أنتهى ملخصاً. أهـ كلام الحافظ.

●إشكال وجوابه

قال ابن حجر[1]: واستدل بقوله: «فإذا عرفوا الله» بأن معرفة الله بحقيقة كنهه ممكنة للبشر.

الجواب: فإن كان ذلك مقيداً بما عرف به نفسه من وجوده وصفاته اللائقة من العلم والقدرة والإرادة مثلاً، وتنزيهه عن كل نقيصة كالحدوث فلابأس به، فأما ما عدا ذلك فإنه غير معلوم للبشر وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ فإذا حمل قوله فإذا عرفوا الله على ذلك كان واضحاً مع أن الإحتجاج به يتوقف على الجزم بأنه ﷺ نطق بهذه اللفظة وفيه نظر؛ لأن القصة واحدة ورواة هذا الحديث اختلفوا: هل ورد الحديث بهذا اللفظ أو بغيره؟

فلم يقل ﷺ إلا بلفظ منها، ومع إحتمال أن يكون هذا اللفظ من تصرف الرواة لايتم الإستدلال، وقد بينت فى أواخر «كتاب الزكاة» أن الأكثر رووه بلفظ «**فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك**».

ومنهم من رواه بلفظ «فادعهم إلى أن يوحدوا الله فإذا عرفوا ذلك».

ومنهم من رواه بلفظ: «**فادعهم إلى عبادة الله، فإذا عرفوا الله**».

ووجه الجمع بينهما أن المراد بالعبادة: التوحيد، والمراد بالتوحيد: الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد.

وقوله: «**فإذا عرفوا الله**» أى عرفوا توحيد الله، والمراد بالمعرفة الإقرار والطواعية فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة فى القصة الواحدة وبالله التوفيق. أهـ. قلت: تقدم هذا مراراً وأعيد هنا لهذه الفائدة.

(١) فتح البارى (١٣/٣٦٦).

مسألة:

لماذا ذكر هذه الروايات فى باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

الجواب: تقدم كلام سليمان آل الشيخ فى سبب اختيار المصنف هذه الرواية على غيرها فى أول الكلام على حديث ابن عباس، وأيضاً لأن إختلاف هذه الروايات إختلاف تفسير أو تنوع فبعضهم رواه بلفظ والآخر بلفظ آخر، فهما يؤديا نفس المعنى ورغم أن المقام واحد إلا أنه ذكر الروايات جميعاً ليبين أن معنى التوحيد عند النبى ﷺ والسلف هو إفراد الله بالعبادة، فمرة يقول «**أن يوحدوا**» ومرة يقول «**إلى شهادة لا إله إلا الله**» والمعنى واحد فمعنى التوحيد هو إفراد الله بالعبادة.

وكلاهما يبين أن العبادة هى الحكم والنهى والأمر والتشريع.

مثل المسألة التى أكد عليها المصنف فى أول الكتاب وهى حق الله على العباد.

وذلك بقوله: كتاب التوحيد وحق الله على العباد وقوله الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾.

فما هو التوحيد الذى تدعو إليه؟

وتوحيد العبادة الذى هو حق الله على العبد وإفراد الله بالعبادة كما هو مبين فى حديث معاذ ولذا أورد المصنف هذه الروايات فى هذا الباب.

هذا هو التوحيد الذى أُمرنا أن ندعوا إليه فى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾، وفى قوله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ**﴾

ذلك لأن توحيد الله فى العبادة: هو جامع لكل أنواع التوحيد وأصوله. فالموحد فى هذا يقر بالربوبية ويقر بالأسماء والصفات فلولا أنه يعلم أنه مدبر رازق ماعبده. وما أخلص العبادة له فالخلق يقتضى الأمر وترك الأمر له والرزق يقتضى ترك الشكر له. فلما شكره وامتثل لأمره أقر أنه الخالق والرازق والمدبر وأتى بمقتضيات هذا الإفراد.

وما صَرف له هذا الأمر والنهى وهذا التوحيد إلا لعلمه بأن الله له صفات الكمال وله الكمال فى الصفات؛ ولذلك ظاهر صنيع البخارى فى كتاب التوحيد فى آخر الصحيح

يبين أن المشبه أو المعطل لايوحد فى الحقيقة لأنه إما أنه جعل له شبيه او نظير أو بتعدد نظائره وأشباهه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

فهذا فى الحقيقة لايوحد ولمّا كانت الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة هى دعوة إلى التوحيد بكل صوره وأنواعه التى فسرها العلماء ناسب أيضا أن تذكر هذه الروايات:

«فليكن أول ماتدعوهم إليه هو شهادة لاإله إلا الله».

«فليكن أول ما تدعوهم إليه هو توحيد الله».

«فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله، والله أعلم».

●فائدة: فى حكم الدعوة إلى الله تعالى

ذكرنا فى مقدمة الباب أن ناصر السعدى(١) قال: إذا كانت الدعوة إلى الله، وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضاً على كل أحد كان من الواجب على كل أحد بحسب مقدوره.

فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم.

وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليس له تلك القدرة. قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك فى ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين. أهـ.

وقال ابن باز(٢) فى أول الباب: أى باب وجوب فضيلة الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، لأنها أختها، فمراد المؤلف الدعوة إلى التوحيد، وإلى اتباع الرسول وهذا واجب على العلماء وفرض عليهم. أهـ.

ذكر ابن باز أن الأصل أنها واجب على الكفاية، إن قام بها البعض سقطت عن الباقين شريطة أن تكون الأمة أو الطائفة التى تدعو تكفى فإذا لم تكن تكفى تعين على الجميع أن يسدوا هذا الواجب.

الجهاد واجب على الكفاية الدليل ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ الآية.

فإذا الذين نفروا لم يكفى لسد ثغر المسلمين.. تعين على الباقى أن يقوم حتى تقوم طائفة تكفى لسد هذه الأمر.

واجب الكفاية لايسقط إلا بقيام القدر الكافى بهذا الواجب لكن إذا لم يقم القدر الكافى به تعين على الباقى أن يقوموا لأداء هذا الواجب.

(١) القول السديد (٢٩).
(٢) التعليق المفيد (٥١).

ومن هذا المنطلق قال ابن باز فإن الدعـوة إلى الله عزوجل اليوم أصبحت فـرضاً عاماً وواجباً على جميع العلمـاء وعلى جميع الحكام الذين يدينون بالإسلام . أهـ. أن الدعوة إلى الله الآن واجب عـينى لأن الطائفة الأولى التـى قامت تدعـو لم تكف بعد؛ لكثـرة الإباحية والتبشـير والملل الأخرى والفساد والإفساد ولأن من قام يدعـو لم يسد هذا الثغر ولم يقم بعد بهذا الواجب على الوجه الواجب.

فلذا كانت الدعوة واجب على كل مسلم واجب عينى كل بحسب قدرته وطاقته.

● **الأدلة على وجوب الدعوة وعلى الوجوب على الكفاية:**

والآيات فى ذلك:

(١)﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ أمر يحمل على الوجوب.

(٢) ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...**﴾.

أمر الطائفـة من الأمة تقـوم للدعوة لتسـد حاجـة المسلمين فإذا لم تكف تـعين على المسلمين أن يقوموا لمعاونتهم.

(٣) ﴿**وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.

وحديث معاذ: فى الباب «**وليكن أول ما تدعوهم إليه لا إله إلا الله**».

الخلاصة: أن الدعوة واجب عينى والذى لايدعو بعد سماع هذا الحكم يأثم.

يدعو فى متجره، ومصنعه ـ مدرسته ـ جامعته ـ أهله ـ قومه ـ حسب قدرته واستطاعته فإذا لم يقم بالدعوة فهو آثم.

وهذا ما ذهب إليـه الشيخ عبدالعزيز بن بـاز حيث قال: فعند قلة الدعـاة وعند كثرة المنكرات وعند غلبة الجهل كـحالنا اليوم تكون الدعوة فرض عـين على كل واحد بحسب طاقته. أهـ. ثم ذكر أننا الآن مع قلة الدعاة وإنتشـار الفساد والأفكار الشركية يجب على كل مسلم وجوباً عينياً أن يدعو على قدر استطاعته.

قوله: «فإن هم أطاعوك لذلك».

وفى رواية البخارى[1] فى الزكاة «**فإن هم أطاعوك لذلك**».

---

(١) فتح البارى (٣/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

قال ابن حجر: أى شهدوا وانقادوا، وفى رواية ابن خزيمة «**فإن هم أجابوا لذلك**» وفى رواية الفضل بن العلاء كما تقدم «**فإذا عرفوا ذلك**» وعدَّى أطاع باللام وإن كان يتعدى بنفسه لتضمنه معنى إنقاد، واستدل به على أن أهل الكتاب ليسوا بعارفين وإن كانوا يعبدون الله ويظهرون معرفته لكن قال حذاق المتكلمين: ما عرف الله من شبهه بخلقه أو أضاف إليه اليد أو أضاف إليه الولد(١) فمعبودهم الذى عبدوه ليس هوالله وإن سموه به.

واستدل به على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع حيث دعوا أولا إلى الإيمان فقط، ثم دعوا إلى العمل، ورتب ذلك عليها بالفاء.

وأيضاً فإن قوله «**فإن هم أطاعوا فأخبرهم**» يفهم منه أنهم لو لم يطيعوا لايجب عليهم شىء.

وفيه نظر لأن مفهوم الشرط مختلف فى الإحتجاج به.

وأجاب بعضهم عن الأول بأنه استدلال ضعيف، لأن الترتيب فى الدعوة لايستلزم الترتيب فى الوجوب، كما أن الصلاة والزكاة لاترتيب بينهما فى الوجوب، وقد قدمت إحداهما على الأخرى فى هذا الحديث ورتبت الأخرى عليها بالفاء، ولايلزم من عدم الإتيان بالصلاة إسقاط الزكاة. وقيل: الحكمة فى ترتيب الزكاة على الصلاة أن الذى يقر بالتوحيد ويجحد الصلاة يكفر بذلك فيصير ماله فيئاً فلا تنفعه الزكاة، وأما قول الخطابى إن ذكر الصدقة أخر عن ذكر الصلاة لأنها إنما تجب على قوم دون قوم وأنها لاتكرر تكرار الصلاة فهو حسن، وتمامه أن يقال بدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف فى الخطاب لأنه لو طالبهم بالجميع فى أول مرة لم يأمن النفرة.

وقوله فى المرة الثانية «فإن هم أطاعوك لذلك».

قال ابن حجر(٢) «فإن هم أطاعوا لك لذلك» قال ابن دقيق العيد: يحتمل وجهين.

---

(١) قال ابن باز فى الحاشية: لاشك من شبه الله بخلقه أو أضاف إليه الولد جاهل به سبحانه ولم يقدره حق قدره، لأنه سبحانه لاشبيه له ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا. وأما إضافة اليد إليه سبحانه فمحل تفصيل، فمن أضافها إليه سبحانه على أنها من جنس أيدى المخلوقين فهو مشبه ضال، وأما من أضافها إليه على الوجه الذى يليق بجلاله من غير أن يشابه خلقه فى ذلك فهذا حق، وإثباتها لله على هذا الوجه واجب كما نطق به القرآن وصحت به السنة، وهو مذهب أهل السنة، فتنبه. والله الموفق.

(٢) فتح البارى (٣/ ٤٢١).

أحدهما: أن يكـون المراد إقـرارهم بوجـوبها عليهم والتـزامهم لهـا.

والثـاني: أن يكـون المراد الطاعة بالفعل.

وقد يرجح الأول بأن المذكور هو الإخبار بالفـريضة فتعـود الإشـارة بذلك إليها.

ويترجـح الثـاني بأنـهم لو أخبـروا بالفـريضـة فبادروا إلـى الإمتـثـال بالفعـل لكفى ولم يشتـرط التلفظ بخلاف الـشهادتين، فـالشرط عـدم الإنكـار والإذعـان للـوجـوب. أنتهى.

والذى يظهر أن المراد القدر المشترك بين الأمرين، فمن امتثل بالإقرار أو بالفعل كفاه أو بهما فأولى، وقد وقع فى رواية الفـضل بن العلاء بعد ذكر الصلاة «**فإذا صلوا**» وبعد ذكر الزكاة «**فإذا أقروا بذلك فخذ منهم**».

قوله: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة».

قال ابن حجر[1]: **قوله**: «**خـمس صلوات**» اسـتدل به على أن الوتر ليس بفـرض أهـ.

وقال سليمان آل الشيخ[2]: لاسيما وهذا فى آخر الأمر.

وقال أيضاً: فيه أن الصلاة بعـد التوحيد والإقرار بالرسالة أعظم الواجبـات وأحبها. واستدل به على أن الكفار غـير مخاطبين بالفروع حيث دعاهم أولاً إلى التـوحيد فقط، ثم دعوا إلى العمل ورتب ذلك عليها بالفاء. أهـ.

[**قلت**]: وقد تقدم كلام الحافظ على ذلك فى قوله «فإن هم أطاعوك لذلك».

وفيه أن الصلاة أوجب الواجـبات بعد التوحيد، وليس الجهـاد بل الجهاد من وسائل نشر التوحيد.

وفيه مؤدى كلام النووى أن المطالبة بالفرائض لاتكون إلا بعد الإسلام.

وفيـه بيان لأخطاء القائـمين على تربية بعض الشـباب لبعـدهم عن مرحليـة الدعوة وتدريجهم وسيأتى فى نهاية هذا الباب مزيد تفسير لحكمة الداعى فى دعوته.

قوله: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم».

وعليه بوب البخارى «**لاتؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة**».

(١) فتح البارى (٣/ ٤٢١).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٣).

قال ابن حجر[1]: هذه الترجمة مقيدة لمطلق الحديث لأن فيه «وتوقّ كرائم أموال الناس» بغير تقييد بالصدقة، وأموال الناس يستوى التوقى لها بين الكرائم وغيرها فقيدها فى الترجمة بالصدقة وهو بين من سياق الحديث لأنه ورد فى شأن الصدقة.

والكرائم جمع كريمة يقال ناقة كريمة أى غزيرة اللبن، والمراد نفائس الأموال من أى صنف كان.

وقيل له نفيس لأن نفس صاحبه تتعلق به وأصل الكريمة كثيرة الخير.

وقيل للمال النفيس كريم لكثرة منفعته. أهـ.

قال ابن حجر[2]: قوله «صدقة» وفى رواية الفضل بن العلاء «افترض عليهم زكاة فى أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم».

ثم قال قوله: «تؤخذ من أغنيائهم» استدل به على أن الإمام هو الذى يتولى قبض الزكاة وصرفها إما بنفسه وإما بنائبه، فمن امتنع منها أخذت منه قهراً.

قوله: «على فقرائهم» استدل به لقول مالك وغيره إنه يكفى إخراج الزكاة فى صنف واحد، وفيه بحث كما قال ابن دقيق العيد لإحتمال أن يكون ذكر الفقراء لكونهم الغالب فى ذلك وللمطابقة بينهم وبين الأغنياء.

وقال الخطابى: وقد يستدل به من لايرى على المديون زكاة ما فى يده إذا لم يفضل من الدين الذى عليه قدر نصاب؛ لأنه ليس بغنى إذا كان إخراج ماله مستحقاً لغرمائه.

وبوب البخارى[3] عليه فى موضع آخر: «باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد فى الفقراء حيث كانوا»

قال ابن حجر: ظاهر حديث الباب أن الصدقة ترد على فقراء من أخذت من أغنيائهم.

وقال ابن المنير: اختار البخارى جواز نقل الزكاة من بلد المال لعموم قوله: «فترد فى فقرائهم» لأن الضمير يعود على المسلمين، فأى فقير منهم ردت فيه الصدقة فى أى جهة كان فقد وافق عموم الحديث انتهى.

---

(١) فتح البارى (٣/ ٣٧٨).

(٢) فتح البارى (٣/ ٤٢١).

(٣) فتح البارى (٣/ ٤١٨ ـ ٤١٩).

والذى يتبادر إلى الذهن من هذا الحديث عدم النقل، وأن الضمير يعود على المخاطبين فيختص بذلك فقراؤهم.

لكن رجح ابن دقيق العيد الأول وقال: إنه وإن لم يكن الأظهر إلا أنه يقويه أن أعيان الأشخاص المخاطبين فى قواعد الشرع الكلية لاتعتبر، فلاتعتبر فى الزكاة كما لاتعتبر فى الصلاة فلايختص بهم الحكم وإن اختص بهم خطاب المواجهة. إنتهى.

وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة فأجاز النقل الليث وأبو حنيفة وأصحابهما، ونقله ابن المنذر عن الشافعى واختاره، والأصح عند الشافعية والمالكية والجمهور ترك النقل فلو خالف ونقل أجزأ عند المالكية على الأصح، ولم يجزىء عند الشافعية على الأصح إلا إذا فقد المستحقون لها، ولايبعد أنه اختيار البخارى لأن قوله: حيث كانوا يشعر بأنه لاينقلها عن بلد وفيه من هو متصف بصفة الإستحقاق.

قال ابن حجر(١): **قوله: «فإياك وكرائم أموالهم»** كرائم منصوب بفعل مضمر لايجوز إظهاره.

قال ابن قتيبة: ولايجوز حذف الواو، والكرائم جمع كريمة أى نفيسة وتقدم بأعلاه ففيه ترك أخذ خيار المال، والنكتة فيه أن الزكاة لمواساة الفقراء فلايناسب ذلك الإجحاف بمال الأغنياء إلا إن رضوا بذلك أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): فيه أنه يحرم على العامل أخذ كرائم المال فى الزكاة، بل يأخذ الوسط، ويحرم على صاحب المال إخراج شر المال بل يخرج الوسط، فإن طابت نفسه بإخراج الكريمة جاز أهـ.

قال ابن حجر(٣): **قوله «واتق دعوة المظلوم»** أى تجنب الظلم لئلا يدعو عليك المظلوم. وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم، والنكتة فى ذكره عقب المنع من أخذ الكرائم الإشارة إلى أن أخذها ظلم.

وقال بعضهم: عطف واتق على عامل إياك المحذوف وجوباً، فالتقدير اتق نفسك أن تتعرض للكرائم، وأشار بالعطف إلى أن أخذ الكرائم ظلم، ولكنه عمم إشارة إلى التحرز عن الظلم مطلقاً. أهـ.

---

(١) فتح البارى (٣/ ٤٢٠).
(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٣).
(٣) فتح البارى (٣/ ٤٢١ ـ ٤٢٢).

قال سليمان آل الشيخ[1]: **قوله: «فإنه»** أى الشأن: «إذ ليس بينها وبين الله حجاب» أى لاتحجب عن الله تعالى، بل ترفع إليه فيقبلها وإن كان عاصياً.

كما فى حديث أبى هريرة عند أحمد مرفوعاً: «**دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه**»[2] إسناده حسن.

قاله ابن حجر وقال أبو بكر بن العربى: هذا وإن كان مطلقاً فهو مقيد بالحديث الآخر أن الداعى على ثلاث مراتب: إما أن يعجل له ما طلب وإما أن يدخر له أفضل منه، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله وهذا كما قيد مطلقاً قوله: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾ بقوله تعالى: ﴿**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ**﴾ وفى والحديث أيضاً قبول خبر الواحد العدل ووجوب العمل به، وأن الإمام يبعث العمال لجباية الزكاة وأنه يعظ عماله وولاته ويأمرهم بتقوى الله ويعلمهم ما يحتاجون إليه، وينهاهم عن الظلم، ويعرفهم قبح عاقبته والتنبيه على التعليم بالتدريج، ذكره المصنف.

● **إشكال:**

قال سليمان آل الشيخ[3]: **واعلم أنه لم يذكر فى هذا الحديث ونحوه الصوم والحج، مع أن بعث معاذ كان فى آخر الأمر كما تقدم، فأشكل ذلك على كثير من العلماء.**

قال شيخ الإسلام: أجاب بعض الناس أن الرواة اختصر بعضهم الحديث وليس الأمر كذلك، فإن هذا طعن فى الرواة لأن هذا إنما يقع فى الحديث الواحد مثل حديث عبدالقيس[4] حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره. فأما الحديثان المفصلان فليس الأمر فيهما كذلك.

ولكن عن هذا جوابان:

●**أحدهما**: أن ذلك بحسب نزول الفرائض، وأول ما فرض الله الشهادتان ثم الصلاة، فإنه أمر بالصلاة فى أول أوقات الوحى، ولهذا لم يذكر وجوب الحج فى عامة

(١) تيسير العزيز الحميد (٩٤).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٦٧).

(٣) تيسير العزيز الحيمد(٩٥).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٩٨)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٢١٢/ ٢٣) عن ابن عباس.

الأحاديث إنما جاء فى الأحاديث المتأخـرة. قلت: وهذا من الأحاديث المتأخرة ولم يذكر فيها الجواب(*).

الثانى: أنه كان يذكر فى كل مقـام ما يناسبه، فيذكر تارة الفـرائض التى يقاتل عليها كالصلاة والزكاة، ويذكر تارة الصلاة والصيام إن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصيام. فإما أن يكون قبل فرض الحج كـما فى حديث عبدالقيس ونحوه، وإما أن يكون المخاطب بذلك لاحج عليه.

وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض، ولهذا ذكر الله تعالى فى كتابه القتال عليهما لأنهما عبادتان ظاهرتان بخلاف الصوم، فإنه أمر باطن وهو مما ائتمن عليه الناس، فهو من جنس الوضـوء والإغتسال من الجنابة ونحو ذلك مما يؤتمن عليـه العبد، فـإن الإنسـان يمكنه أن لاينوى الصـوم وأن يأكل سـراً، كـمـا يمكنه أن يكتم حـدثه وجنابته، بخلاف الصلاة والزكاة؛ وهو ﷺ يذكر فى الإعلام الأعمال الظاهرة التى يقاتل الناس عليها، ويصيرون مسلمين بفـعلها، فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصيام، وإن كان واجباً كما فى آيتى «براءة» فـإن «براءة» نزلت بعد فرض الصيام بإتفاق الناس. وكذلك لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن لم يذكر فى حديثه الصيام لأنه تبع وهو باطن ولاذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام، وهو لايجب فى العمر إلا مرة واحدة. أنتهى ملخصاً. أهـ.

وقال ابن حجر(١): قال شيخنا شيخ الإسـلام: إذا كان الكلام فى بيان الأركان لم يخل الشارع منه بشىء كحـديث ابن عمر «**بنى الإسلام عـلى خمس**»(٢) فإذا كـان فى الدعاء إلى الإسلام اكتفى بالأركان الثلاثة الشهادة والصلاة والزكاة، ولو كان بعد وجود فرض الصوم والحج كـقوله تعالى: ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ**﴾ فى موضعين من براءة مع أن نزولها بعد فرض الصوم والحج قطعـاً، وحديث ابن عمر «أمرت أن أقاتل الناس حـتى يشهـدوا أن لا إله إلا الله ويقـيـموا الصـلاة ويؤتوا الزكـاة»(٣) وغيـر ذلك من

(١) فتح البارى (٣/ ٤٢٢).

(٢) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٤٥١٥)، ومسلم فـى الإيمان (١/ ١٧٧ ـ النووى) وانظر «رياض الصالحين» (١٠٧٧ ـ بتخريجنا).

(٣) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٢٥)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٢١١ ـ النووى).
وانظر «رياض الصالحين». (٣٩١ ـ بتخريجنا) وفتح «المجيد» (ح ١٧٧) بتخريجنا.

(*) هكذا فى الأصل ولعل الصواب: الوجوب.

الأحاديث قال: والحكمة فى ذلك أن الأركان الخمسة: اعتقادى وهو الشهادة، وبدنى وهو الصلاة، ومالى وهو الزكاة اقتصر فى الدعاء إلى الإسلام عليها لتفرع الركنين الأخيرين عليها فإن الصوم بدنى محض والحج بدنى مالى، وأيضا فكلمة الإسلام وهى شاقة على الكفار، والصلاة شاقة لتكرارها والزكاة شاقة لما فى جبلة الإنسان من حب المال، فإذا أذعن المرء لهذه الثلاثة كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة إليها، والله أعلم.

فوائد: قال ابن حجر(١):

[الفائدة الأولى] وفى حديث ابن عباس من الفوائد غير ما تقدم: الإقتصار فى الحكم بإسلام الكافر إذا أقر بالشهادتين، فإن من لازم الإيمان بالله ورسوله التصديق بكل ما ثبت عنهما والتزام ذلك، فيحصل ذلك لمن صدق بالشهادتين.

وأما ما وقع من بعض المبتدعة من إنكار شىء من ذلك فلايقدح فى صحة الحكم الظاهر، لأنه إن كان مع تأويل فظاهر، وإن كان عناداً قدح فى صحة الإسلام، فيعامل بما يترتب عليه من ذلك كإجراء أحكام المرتد وغير ذلك.

[الفائدة الثانية] وفيه: قبول خبر الواحد ووجوب العمل به، وتعقب بأن مثل خبر معاذ حفته قرينة أنه فى زمن نزول الوحى فلا يستوى مع سائر أخبار الآحاد.

[وقد ذكر الحافظ فى باب إجازة خبر الواحد ما يغنى].

[الفائدة الثالثة] وفيه: أن الكافر إذا صدق بشىء من أركان الإسلام كالصلاة مثلاً يصير بذلك مسلماً، وبالغ من قال كل شىء يكفر به المسلم إذا جحده يصير الكافر به مسلماً إذا أعتقده، والأول أرجح كما جزم به الجمهور، وهذا فى الإعتقاد أما الفعل كما لو صلى فلا يحكم بإسلامه وهو أولى بالمنع لأن الفعل لاعموم له، فيدخله إحتمال العبث والإستهزاء.

[الفائدة الرابعة] وفيه: وجوب أخذ الزكاة ممن وجبت عليه، وقهر الممتنع على بذلها ولو لم يكن جاحداً، فإن كان مع امتناعه ذا شوكة قوتل، وإلا فإن أمكن تعزيره على الإمتناع عزر بما يليق به، وقد ورد عن تعزيره بالمال حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعاً ولفظه «**ومن منعها ـ يعنى الزكاة ـ فإنا آخذوها، وشطر ماله عزمة من**

(١) فتح البارى (١٣/٣٦٧ ـ ٣٦٨).

عزمات ربنا»(1) الحديث أخرجه أبو داود والنسائى وصححه ابن خزيمة والحاكم، وأما ابن حبان فقال فى ترجمة بهز بن حكيم لولا هذا الحديث لأدخلته فى «كتاب الثقات» وأجاب من صححه ولم يعمل به بأن الحكم الذى دل عليه منسوخ وأن الأمر كان أولاً كذلك ثم نسخ.

وضعف النووى هذا الجواب من جهة أن العقوبة بالمال لاتعرف أولاً حتى يتم دعوى النسخ ولأن النسخ لايثبت إلا بشرطه كمعرفة التاريخ ولايعرف ذلك، واعتمد النووى ما أشار إليه ابن حبان من تضعيف بهز وليس بجيد لأنه موثق عند الجمهور حتى قال إسحق بن منصور عن يحيى بن معين: بهز بن حكيم عن أبيه عن جده صحيح إذا كان دون بهز ثقة.

وقال الترمذى: تكلم فيه شعبة وهو ثقة عند أهل الحديث، وقد حسن له الترمذى عدة أحاديث، واحتج به أحمد وإسحق والبخارى خارج الصحيح وعلق له فى الصحيح.

وقال أبو عبيدة الآجرى عن أبى داود وهو عندى حجة لاعند الشافعى فإن اعتمد من قلد الشافعى على هذا كفاه ويؤيده إطباق فقهاء الأمصار على ترك العمل به فدل على أن له معارضاً راجحاً.

وقول من قال بمقتضاه يعد فى ندرة المخالف.

[الفائدة الخامسة] وقد دل خبر الباب أيضا على أن الذى يقبض الزكاة الإمام أو من أقامه لذلك، وقد أطبق الفقهاء بعد ذلك على أن لأرباب الأموال الباطنة مباشرة الإخراج، وشذ من قال بوجوب الدفع إلى الإمام وهو رواية عن مالك، وفى القديم للشافعى نحوه على تفصيل عنهما فيه اهـ.

[قلت] وفيه أيضاً فوائد أخرى بخلاف ما تقدم فيها:

١ـ تقدم أن ابن حجر قال: «واستدَل به من قال من العلماء أن لايشترط التبرى من كل دين يخالف دين الإسلام خلافاً لمن قال: إن من كان كافراً بشىء وهو مؤمن بغيره لم يدخل الإسلام إلا بترك اعتقاد ما كفر به.

(1) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/٢، ٤)، وأبو داود (١٥٧٥)، والنسائى (٢٥١٥ ـ السيوطى). وانظر «السلسبيل» (٩٧٨ ـ بتخريجنا) والكلام عليه.

قال ابن حجر: والجواب أن اعتقاد الشهادتين يستلزم ترك إعتقاد التشبيه ودعوة بنوة عزير وغيره، فيكتفى بذلك اهـ.

[قلت]: وهذا الجواب غيـر مطابق لأن الذى يقول بهذا القول ـ أى اشتـراط التبرى من كل أعتقاد تسبب فى كفره ـ إنما اشترط ذلك زيادة على الإقرار بالشهادتين فيبقى قول العلماء واستدلالهم بغير تعقب، والله الموفق.

٢ـ أن الكفار غيـر مخاطبين بفـروع الشريعة. حيث دعوا أولاً إلـى الإيمان فقط ثم دعوا إلى العمل «وفـيه نظر لأن مفهوم الشرط مـختلف فى الإحتجاج به وتقـدم تفصيل الرد على ذلك».

٣ـ الدعاء إلى التوحيد قبل القتال، وتوجيـه الإمام عامله فيما يحتاج إليه من الأحكام وغيرها.

٤ـ بعث السعاة لأخذ الزكاة.

٥ـ إيجاب الزكاة فى مال الصبى والمجنون لعموم قوله «من أغنيائهم» قاله عياض وفيه بحث.

٦ـ أن الزكاة لاتدفع إلى الكافر «لعود الضميـر» فى فقرائهم إلى المسلمين سواء قلنا بخصوص البلد أو بالعموم.

٧ـ أن الفقير ليس عليه زكاة.

٨ـ أن من ملك نصاباً لايعطى من الزكاة لأنه غنى.

٩ـ قال البغوى: وفيه أن المال إذا تلف قبل التمكن سقطت الزكاة.

١٠ـ قبـول الإسلام بغيـر إشتراط نظر كـما قالت الرافـضة وغيـرهم من المتفلسـفة ولايشترط أيضاً قراءة فى التوحيد حتى يقبل إسلامه.

١١ـ إجابة دعوة المظلوم وإن كان ظالماً.

١٢ـ وفيه دليل لمن قال: عدم وجوب الوتر.

١٣ـ وفيه أنه لايحكم بـالإسلام إلا بالنطق بالشهادتين وهذا مذهـب أهل السنة كما تقدم تفصيل ذلك.

١٤ـ حرمة كرائم المال على الساعى ويحرم على صاحب المال إخرج شره.

قـــال: ولَهُمَا عَنْ سَهْل بن سَعْد (رَضِيَ الله عَنْهُ): أَن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُحبُّ الله وَرَسُولَهُ، وَيُحبُّهُ الله وَرَسُولُه، يَفْـــتَحُ الله عَلَى يَدَيْه، فَبَاتَ النَّاس يَدُوكُونَ لَيلَتَهم، أَيُّهُمْ يُعطَاهَا، فَلَمَّا أَصــبَحُوا، غَدَوا عَلَى رَســـول الله ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا. فَقَالَ: أَيْنَ عَلَيُّ بـنُ أَبي طَالب؟» فَقيلَ: هُوَ يَشْتَكي عَيْنَيْه. فَأَرْسَلُوا إِلَيْه، فأُتـى به، فَبَصقَ في عَيْنَيه، وَدَعَا لَهُ فَبرأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الــرَّايَةَ، فَقَالَ: (انفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهم، ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الإِسْلاَم، وأَخْبرهُمْ بِمَا يَجبُ عَلَيْهم منْ حَقِّ الله تَعَالَى فيه، فَوَالله، لأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحدًا خَيــرٌ لَكَ منْ حُمْرِ النَّعَم»[1] (يَدُوكُونَ)، أَيْ: يَخُوضُونَ[1].

مناسبة الحديث للباب:

قال عـبد الله بـن جار الله[2]: الشاهـد من الحديث للبـاب قوله: **(ثم ادعـهم إلى الإسلام)** أهـ.

قال ابن باز[3]: قوله **(ثم ادعهـم إلى الإسلام)** ولوكانـوا قد دعوا من قـبل من باب إقامة الحجة وكمال المعذرة. اهـ.

قال قرعاوي[4]: مناسبة الحديث للباب حـيث دل الحديث على أن أول ما يبتدئ به الداعي الدعوة إلى الإسلام وأول ركن في الإسلام هما الشهادتان اهـ.

● هذا الحديث أخرجه البخاري في «صحيحه» مـستشهداً به في أكثر من موضع، لأهمية ما يحويه من فوائد فيها:

الموضع الأول: كتاب الجهاد والسير/ باب: دعوة اليهود والنصارى، وعلى ما يقاتلون عليه؟

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري فـي «الجهاد» / باب: فضل من أسلم على يديه رجل (٦/ ١٦٨/ ح ٣٠٠٩) (ح٤٢٠٩، ٤٢١٠) ومـسلم في «الفـضائل» / باب فـضـائل علي بن أبي طالب (٥/ ١٥/ ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩ - النووي) وأحمـد في «مسنده» (٥/ ٣٣٣). والترمـذي في «المناقب» / باب: مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه من حديث سهل بن سعد.

وانظر «لمعة الاعتقاد» (ص ٤٧ «وفتح المجيد» (ح ١٣٩) بتخريجنا).

(٢) الجامع الفريد (٣٢).

(٣) التعليق المفيد (٥٤).

(٤) الجديد (٧٠).

الموضع الثانى: كتاب الجهاد والسير/ باب: فضل من أسلم على يديه رجل.

الموضع الثالث: كتاب فضائل الصحابة/ باب: مناقب على بن أبى طالب.

الموضع الرابع: كتاب المغازى/ باب: غزوة خيبر.

وذات الحديث من حديث سلمة بن الأكوع أخرجه البخارى فى ثلاث مواضع.

قال سليمان آل الشيخ(١): **قال شيخ الإسلام:** هذا الحديث أصح ما روى لعلى رضى الله عنه من الفضائل أخرجاه فى «الصحيحين» من غير وجه.

(قوله: عن سهل): هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصارى الخزرجى الساعدى أبو العباس صحابى شهير. وأبوه صحابى أيضًا. مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة.

قوله: [يوم خيبر]

قال ابن حجر(٢): وهى مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة من جهة الشام وذكر أبو عبيد البكرى أنها سميت باسم رجل من العماليق نزلها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٣): وقوله: قال يوم خيبر، أى فى غزوة خيبر. فى الصحيحين، واللفظ لمسلم عن سلمة بن الأكوع قال: كان على رضى الله عنه قد تخلف عن النبى ﷺ فى خيبر، وكان رمدًا، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ؟! فخرج على رضى الله عنه فلحق بالنبى ﷺ؛ فلما كان مساء الليلة التى فتحها الله عزّ وجلّ فى صباحها قال رسول الله ﷺ: **«لأعطين الراية أو ليأخذن بالراية غداً رجل يحبه الله ورسوله»** أو قال: **«يحب الله ورسوله يفتح الله عليه»** فإذا نحن بعلى وما نرجوه. فقالوا: هذا على: فأعطاه رسول الله ﷺ الراية، ففتح الله عليه(٤). وهذا يبين أن عليًا رضى الله عنه لم يشهد أول خيبر، وأنه عليه السلام قال هذه المقالة مساء الليلة التى فتحها الله فى صباحها.

قوله [لأعطين الراية] قال ابن القيم(٥): كانت له راية سوداء يقال لها: العُقاب،

(١) تيسير العزيز الحميد (٩٦).

(٢) فتح البارى (٧/ ٥٣٠).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٩٦).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٧٠٢)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ١٨٩/ ٣٥).

(٥) زاد المعاد (١/ ١٣١، ١٣٢).

وفي سنن أبي داود عن رجل من الصحابة قال: رأيت راية رسول الله ﷺ صفراء[1]، وكانت له ألوية بيضاء، وربما جعل فيها الأسود. اهـ.

وعقد البخاري: (باب ما قيل في لواء النبي ﷺ).

قال ابن حجر[2]: اللواء بكسر اللام والمد هي الراية، ويسمى أيضًا العلم، وكان الأصل أن يمسكها رئيس الجيش ثم صارت تحمل على رأسه.

وقال أبو بكر بن العربي: اللواء غير الراية، فاللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح.

وقيل اللواء دون الراية، وقيل اللواء العلم الضخم. والعلم علامة لمحل الأمير يدور معه حيث دار، والراية يتولاها صاحب الحرب.

وجنح الترمذي إلى التفرقة فترجم بالألوية وأورد حديث جابر «أن رسول الله ﷺ دخل مكة ولواؤه أبيض»[3].

ثم ترجم للرايات وأورد حديث البراء «أن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء مربعة من نمرة»[4].

وحديث ابن عباس «كانت رايته سوداء ولواؤه أبيض»[5] أخرجه الترمذي وابن ماجه، وأخرج الحديث أبو داود والنسائي أيضًا.

ومثله لابن عدي من حديث أبي هريرة، ولأبي يعلى من حديث بريدة، وروى أبو داود من طريق سماك عن رجل من قومه عن آخر منهم: «رأيت راية رسول الله ، صفراء[6].

ويجمع بينها باختلاف الأوقات، وروى أبو يعلى عن أنس رفعه «أن الله أكرم أمتي بالألوية» إسناده ضعيف.

---

(١) أخرجه أبوداود (٢٥٩٣) من طريق سماك عن رجل من قومه عن أخر منهم قال . . .فذكره.

(٢) فتح الباري (٦/ ١٤٧).

(٣) أخرجه أبوداود (٢٥٩٢)؛والترمذي (١٦٧٩) وابن ماجة (٢٨١٧) استغربه الترمذي.

(٤) أخرجه أبوداود (٢٥٩١)، والترمذي (١٦٨٠) وقال الترمذي: حسن غريب.

(٥) أخرجه الترمذي (١٦٨١)، وابن ماجة (٢٨١٨) وقال الترمذي: حسن غريب.

(٦) تقدم قريباً.

وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس «كان مكتوبًا على رايته: لا إله إلا الله محمد رسول الله» وسنده واه.

وقيل كانت له راية تسمى العقاب سوداء مربعة، وراية تسمى الراية البيضاء، وربما جعل فيها شيء أسود اهـ.

قوله: (لأعطين الراية غدًا) قال ابن حجر(١): وقع في هذه الرواية اختصار وهو عند أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث بريدة بن الحصيب قال: «لما كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللواء فرجع ولم يفتح له، فلما كان الغد أخذه عمر فرجع ولم يفتح له، وقتل محمود بن مسلمة، فقال النبي ﷺ: **«لأدفعن لوائي غدًا إلى رجل»** الحديث(٢).

وعند ابن إسحق نحوه من وجه آخر، وفي الباب عن أكثر من عشرة من الصحابة سردهم الحاكم في «الإكليل» وأبو نعيم والبيهقي في «الدلائل».

وفي رواية البخاري: (لأعطين الراية غدًا أو ليأخذن غدًا) قال ابن حجر(٣): هو شك من الراوي، وفي حديث سهل الذي بعده **«لأعطين هذه الراية غدًا رجلا»** بغير شك، وفي حديث بريدة **«إني دافع اللواء غدًا إلى رجل يحبه الله ورسوله»**(٤) والراية بمعنى اللواء وهو العلم الذي في الحرب يعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يدفعه لمقدم العسكر، وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، لكن روى أحمد والترمذي من حديث ابن عباس «كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ولواؤه أبيض»(٥) ومثله عند الطبراني عن بريدة، وعند ابن عدي عن أبي هريرة وزاد «مكتوبًا فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهو ظاهر في التغاير، فلعل التفرقة بينهما عرفية، وقد ذكر ابن إسحق وكذا أبو الأسود عن عروة أن أول ما وجدت الرايات يوم خيبر، وما كانوا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية» اهـ.

قال ابن عثيمين(٦):- قوله: «الراية».

العَلَم، وسُمِّي راية؛ لأنَّه يُرى، وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.

---

(١). فتح الباري (٧/ ٥٤٤، ٥٤٥).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٥٣) والنسائي في الكبرى (٨٤٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٤٣٧).

(٣) فتح الباري (٧/ ٥٤٤، ٥٤٥).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) القول المفيد (١/ ١٦٧، ١٦٨).

واللواء قيل: إنه الراية، وقيل: ما لُوِى أعلاه، أو لـوى كلّه؛ فيكون الفرق بينهما: أن الرَّاية مـفلولة لاتُطوى، واللواء يُطوى إما أعـلاه أو كله، والمقصـود منهمـا الدلالة، ولهذا يُسمى عَلَمًا. اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: قـوله: «لأعطينَّ» هذه جـملة مُؤَكَّدة بثلاث مُؤَكِّدات: القـسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لأعطينَّ.

قوله: «غداً».

يُراد به ما بعد اليوم، والأمس يراد به ما قبله.

والأصل أنه يراد بالغـد ما يلى يومـك، ويُراد بالأمس الذى يليه يومك، وقـد يُراد بالغد ما وراء ذلك، قال تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[2]؛ أى: يوم القيامة.

وكذلك بالأمس قد يُراد به ما وراء ذلك؛ أى: ما وراء اليوم الذى يليه يومك اهـ.

فائدة: **قلت**: فى اختصاص على دون غيره من الصحـابه بهذه البشارة مع أنهم جميعًا يحبون الله ورسوله ويحبهم الله ورسوله منقبة عظيمة.

فقـد يقول قائل فـلماذ خص الرسول ﷺ عليـاً ان كان قد أحـب وبشر غيـره بهذه البشارة والمنقـبة كهذا الرجل الذى كان، كـثيرًا ما يؤتى به فى شـرب الخمر ويجلد هذا الرجل ـ شارب الخـمر ـ ومع ذلك قال ﷺ فى حقـه انه يحب الله ورسوله[3] وكذلك سـائر الصحـابة من باب أولى فلـماذا خص عليًا فى هذه الحـالة بهـذه الخـصيـة وهذه المنقبة؟. وهل هذا الاختصاص يعنى أنه أفضل الصحابة؟!

الجواب: بالإختصار أن الخصوصية لاتعنى الأفضلية وأنه ربما يختص بعض الصحابة ببعض المناقب ولايكون دليلاً على أنه أفضل ممن هو أفـضل منه بإجماع الأمة (المسلمين) فقد اختص النبى فى الحـديث أبا بكر وعمر وعثمان وعلى . . «فـقال أرحم أمتى بأمتى أبا بكر، وأشدهم فـى دين الله عمر وأصـدقهم حيـاءً عثمـان وأقضاهم عـلى وأعلمهم بالحلال والحـرام معاذ وأفرضـهم زيد ـ أعلمهم بالفرائـض ـ قال وما أقلت الغبـراء وما أظلت الخـضرء على ذى لهـجه أصدق من أبـى ذر أشبه عـيسى ابن مـريم فى زهده». الحديث[4].

---

(1) القول المفيد (١/ ١٦٨).

(2) الحشر آيه / ١٨.

(3) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٧٨٠) عن عمر به.

(4) تقدم تخريجه فى الباب الأول.

فهل اختصاص زيد مثلاً بأنه أفرضهم يعنى أنه أفضل من أبى بكر؟

الجواب: لا ففى حديث أن الجنة ثمانية أبواب وأن أبا بكر يدعى منهم جميعاً.

ومثال آخر ابن عمر ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ سأل سؤالاً فلم يعرفه إلا ابن عمر وكان أصغر الموجودين وكان موجوداً فى المجلس أبو بكر وعمر هذا السؤال عن الشجرة التى لايسقط ورقها صيفًا ولا شتاءً[1]؟ فوقع فى نفسه الجواب.

فهل معنى هذا أنه أفضل من أبيه ومن أبى بكر.

الجواب: لا فإن الخصوصية لاتعنى الأفضلية فهذا جواب.

وجواب آخر أن الرسول ﷺ اختص علية ليس محاباة منه لعلى، فقد يقول قائل إن لم يكن له خصوصية وتميز وهو كسائر الصحابه فلماذا يخصه النبى بالراية فهذا اتهام للرسول بالمحاباة حاشاه. فإن لم يعدل هو فمن يعدل؟

الجواب أن علياً له مزية وفضل فى هذا العمل على الصحابة فى هذه الموقعة؟ فما هى المزية؟ ثبت فى الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع أنه قال: إن النبى ﷺ قال «**ادعوا لى عليا**» قال فهو أرمد[2].

وفى الحديث أن عليا قال حينما ذهب الرسول إلى خيبر وترك عليًا لأنه أرمد فقال «أنا أتخلف عن النبى ﷺ فى غزوة؟! كبر عليه ذلك حتى وهو مريض وله رخصة فى القعود عن الغزو والصحابة كلهم يعلمون أنه مريض فى المدينة فلحق بالنبى ﷺ حتى حينما أصبحو فاصبحوا كلهم يرجو أن يعطاها فإذا هو على ومانرجوه.. مانأمل أن يكون معنا لأنه من ذوى الأعذار. فلكونه معذوراً مريضاً له رخصة فى التخلف، ومع هذا أخذ بالعزيمة وأتى فهو فضل بهذا العمل - فلذلك استحق على الرايه من دون سائر الصحابة عليهم رضوان الله وفيها تعقب على ـ شيخ الإسلام ـ المصنف فى المسائل والفوائد. حيث قال: وفيه الإيمان بالقدر والتسليم له حيث أنها لم تعطى لمن سعى لها وأعطيت لمن لم يسع لها.

لا والله ابن أبى طالب سعى لها واستحق هذا بسعيه له لابنومه!!.

قوله: (يحبه الله ورسوله) قال ابن حجر[3]: زاد فى حديث سهل بن سعد «**ويحب**

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٢)، ومسلم فى صفة الجنة (٩/ ١٦٧/ ٦٣) عن ابن عمر.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الفتح (٧/ ٥٤٥).

الله ورسوله» وفى رواية ابن إسحق «**ليس بفرار**» وفى حديث بريدة «**لايرجع حتى يفتح الله له**»[1]. اهـ.

قال ابن حجر[2]: وفى حديث سلمة بن الأكوع «أن عليًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»[3] أراد بذلك وجود حقيقة المحبة، وإلا فكل مسلم يشترك مع على فى مطلق هذه الصفة.

وفى الحديث تلميح بقوله تعالى: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** فكأنه أشار إلى أن عليا تام الاتباع لرسول الله ﷺ حتى اتصف بصفة محبة الله له، ولهذا كانت محبته علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق كما أخرجه مسلم من حديث على نفسه قال: «والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى أن لايحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»[4] وله شاهد من حديث أم سلمة عند أحمد[5]. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[6]: **قوله: «يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»** فيه فضيلة عظيمة لعلى رضى الله عنه، لأن النبى ﷺ شهد له بذلك، ولكن ليس هذا من خصائصه.

قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختصاً بعلى ولا بالأئمة، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقى يحب الله ورسوله، لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذى يتبرأون منه ولايتولونه، بل قد يكفرونه أو يفسقونه كالخوارج. لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم، فإن الخوارج تقول فى على مثل ذلك، لكن هذا باطل فإن الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم أنه يموت كافرًا.

وفيه إثبات صفة المحبة لله.

وفيه إشارة إلى أن عليًا تام الاتباع لرسول الله ﷺ حتى أحبه الله، ولهذا كانت محبته علامة الإيمان، وبغضه علامة النفاق؛ ذكره الحافظ بمعناه. اهـ. قلت: وقد تقدم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الفتح (٦/ ٨٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٣٤١/ ١٣١).

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ٢٩٢)، والترمذى (٣/ ٣٧م).

(٦) تيسير العزيز الحميد: (٩٧).

قال ابن عثيمين(١): قوله: «**يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**».

أثبت المحـبة لله من الجانبـين، أى أن الله تعالى يُحِبُّ ويُحَبُّ، وقـد أنكر هذا أهل التعطيل، وقالوا: المراد بمحبة الله للعبد إثابته أو إرادة إثابته، والمراد بمحبة العبد لله محبة ثوابه، وهذا تحريف للكلام عن ظـاهره مخالف لإجمـاع السلف من الصحابة والتـابعين وأئمة الهدى من بعـدهم، ومحبة الله تعالى ثابتـة له حقيقة، وهى من صفـاته الفعلية، وكل شىء من صفات الله يكون له سبب؛ فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب؛ فقد يبغض الله إنسانًا فى وقت ويحبه فى وقت لسبب من الأسباب. اهـ.

قلت: وفيه رد على الشيعة الذين قـالوا أن الولايه لعلى لانه اختص بهذه المنقبة وهو كان أولى بالخلافة من أبى بكر وعمر وقد كفرا لأنهما لم يولباه الخلافة.

الجواب على ذلك من وجـوه أولها: أنه بشر من هو دونه من الصحـابة وهو عبد الله ويلقب حمارًا كـان يشرب الخمر فـيؤتى به فيقيـم عليه الحد فلعنه بعض الصحـابة فقال لاتلعنه فإنه يحب الله ورسوله.

فمن باب أولى العـشرة المبشرون بالجنة فـإن كانت هذه البشـارة سبب لأولوية على رضى الله عنه بالخلافة فقد بشر أبوبكر وعـمر بأكثر من ذلك فهم أولى وأولى وكذلك هذا الشارب للخمر أفيكون أولى بالخلافة؟!

الثانى وهو رد على الشيعـة والنواصب أن يقال: أما على رضى الله عنه فكيف يقبل أن يزوج ابنته من كـافر وهذا (رد على الشيـعة) أما عـمر فكيف يقبل أمـير المؤمنين أن يتزوج من ابنة كافـر وهذا (رد على النواصب والخوارج) فهمـا أجل عندنا من أن يفعلا ذلك.

وسيأتى انقـسام الناس لثلاثة أقسام فى على بـن أبى طالب، وذلك فى كلام الحافظ عند قول المصنف [أين على].

قوله: [يفتح الله على يديه].

قال سليمان آل الشيخ(٢): صريح فى البشارة بحصول الفتح على يديه، فكان الأمر كذلك، ففيه دليل على شهادة أن محمدًا رسول الله اهـ.

وكذلك **قال ابن عثيمين**(٣):

(١) القول المفيد (١/ ١٦٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٨).

(٣) القول المفيد (١/ ١٦٩).

قوله: [فبات الناس يدوكون ليلتهم].

وعند البخارى بلفظ (فنحن نرجوها) قال ان حجر(١): فى حديث سهل هنا: «فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها» وقوله: «يدوكون» بمهملة مضمومة أى باتوا فى اختلاط واختلاف، والدوكة بالكاف الاختلاط، وعند مسلم من حديث أبى هريرة «أن عمر قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ»(٢) وفى حديث بريدة «فما منا رجل له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى تطاولت أنا لها، فدعا عليًا وهو يشتكى عينه فمسحها، ثم دفع إليه اللواء(٣).

ولمسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال: «فأرسلنى إلى على قال: فجئت به أقوده أرمد فبزق فى عينه فبرأ»(٤) اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٥): [قوله: فبات الناس يدوكون ليلتهم]، هو بنصب ليلتهم على الظرفية، ويدوكون قال المصنف: يخوضون. والمراد أنهم باتوا تلك الليلة فى خوض واختلاف فيمن يدفعها إليه.

وفيه حرص الصحابة على الخير ومزيد اهتمامهم به، وذلك يدل على علو مراتبهم فى العلم والإيمان.

قال سليمان آل الشيخ(٦): [قوله: أيهم يعطاها] فهو يرفع أى على البناء.

[قلت] فى قوله: «فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها»، فائدة: - فكله بات يفكر أيهم يعطاها ليس للإمارة فى حد ذاتها وإنما لحب الله ورسوله لمن يعطاها فإذا نظرنا إلى حالنا وحالهم نجد فرقًا كما بين السماء والأرض فى علو همتهم وحرصهم على الخير وفى نومنا وعدم حرصنا على الخير فارق عظيم بيننا وبينهم والأمر كما قال ابن عباس «إنى لأراكم أشد الناس شبهًا ببنى إسرائيل». وبنو إسرائيل مضرب المثل فى الكسل فى كل شىء فإن الله سبحانه وتعالى لما حكى عن موسى عليه السلام حينما قال لهم.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. قالوا ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وقبل ذلك قالوا. ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ حتى الكلام ممل مميت نسأل الله العفو والعافية.

---

(١) فتح البارى (٧/ ٥٤٥).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/ ١٨٨/ ٣٣).

(٣) تقدم.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجهاد (٦/ ٤١٤/ ١٣٢).

(٥) (٦) تيسير العزيز الحميد (٩٧).

ولما قال لهم سبحانه وتعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ ما هان عليهم أن يسجدوا ودخلوا على إستهم من أجل ذلك هم ملوك العالم فى الربا من قديم لايحبون أن يتعبوا فى أى شيء كما قص الله علينا من أخبارهم لكن الصحابة عكس ذلك تماماً والأمثلة على ذلك كثيرة.

فلذلك كان النبى ﷺ يتعوذ من الكسل. فيقول: «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل»(١). وهذا الكسل يشبه حالنا الآن.. والرسول ﷺ تعوذ من الكسل وأسباب الكسل والفتور.

والله المستعان.

قوله: [كلهم يرجو أن يعطاها].

تقدم كلام ابن حجر فى القول قبل السابق مباشرة أن عمر كان أيضًا يرجوها وفى رواية أبى هريرة عند مسلم: أن عمر قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ(٢).

قال سليمان آل الشيخ(٣) فإن قلت: إن كانت هذه الفضيلة لعلى رضى الله عنه ليست من خصائصه؛ فلماذا تمنى بعض الصحابة أن يكون له ذلك؟

قيل الجواب كما قال شيخ الإسلام أن فى ذلك شهادة النبى ﷺ لعلى بإيمانه باطناً وظاهرًا، وإثباتاً لموالاته لله ورسوله، ووجوب موالاة المؤمنين له، وإذا شهد النبى ﷺ لمعين بشهادة أو دعا له بدعاء أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة، ومثل ذلك الدعاء، و«إن كان النبى ﷺ يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو به لخلق كثير، وكان تعيينه لذلك المعين من أعظم فضائله ومناقبه.

قلت: وفى هذه الجملة أيضاً حرص الصحابة على الخير. اهـ.

قوله: [أين على بن أبى طالب]

بوب البخارى: **(باب مناقب على بن أبى طالب) قال ابن حجر**(٤): أى ابن عبد المطلب **(القرشى الهاشمى أبى الحسن)** وهو ابن عم رسول الله ﷺ شقيق أبيه واسمه عبد مناف على الصحيح. ولد قبل البعثة بعشر سنين على الراجح وكان قد رباه النبى ﷺ من صغره لقصة مذكورة فى السيرة النبوية، فلازمه من صغره فلم يفارقه إلى أن مات.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣٦٧)، ومسلم فى الدعاء (١٧/ ٢٩) عن أنس به.
وانظر «منار السبيل» (١٤٧٧ ـ بتخريجنا) أنظر «فتح المجيد» (ح ١٤١) بتخريجنا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٩٨).

(٤) فتح البارى (٧/ ٨٩).

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وكانت ابنة عمة أبيه وهى أول هاشمية ولدت لها شمى، وقد أسلمت وصحبت وماتت فى حياة النبى ﷺ، قال أحمد وإسماعيل القاضى والنسائى وأبو على النيسابورى لم يرد فى حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء فى على وكأن السبب فى ذلك أنه تأخر، ووقع الاختلاف فى زمانه وخروج من خرج عليه، فكان ذلك سبباً لانتشار مناقبه من كثرة من كان بينها من الصحابة رداً على من خالفه، فكان الناس طائفتين، لكن المبتدعة قليلة جدا. ثم كان من أمر على ما كان فنجمت طائفة أخرى حاربوه، ثم اشتد الخطب فتنقصوه واتخذوا لعنه على المنابر سنة، ووافقهم الخوارج على بغضه وزادوا حتى كفروه، مضموما ذلك منهم إلى عثمان.

● **انقسام الناس فى علىٍّ على ثلاثة طوائف:**

قال ابن حجر: فصار الناس فى حق على ثلاثة: أهل السنة والمبتدعة من الخوارج والمحاربين له من بنى أمية وأتباعهم فاحتاج أهل السنة إلى بث فضائله فكثر الناقل لذلك لكثرة من يخالف ذلك، وإلا فالذى فى نفس الأمر أن لكل من الأربعة من الفضائل إذا حرر بميزان العدل لايخرج عن قول أهل السنة والجماعة أصلا.

وروى يعقوب بن سفيان بإسناد صحيح عن عروة قال: «أسلم علىٌّ وهو ابن ثمان سنين»(١) وقال ابن إسحق «عشر سنين» وهذا أرجحها، وقيل غير ذلك. **(وقال النبى ﷺ له أنت منى وأنا منك)**(٢) وهو طرف من حديث البراء بن عازب فى قصة بنت حمزة، وقد وصله البخارى فى الصلح وفى عمرة القضاء مطولاً.

وفى رواية للبخارى(٣): **(فقيل هذا على)** كذا وقع مختصرًا، وبيانه فى رواية إياس بن سلمة عند مسلم(٤)، وفى حديث سهل بن سعد: «فلما أصبح الناس غدو على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: **أين على بن أبى طالب؟** قالوا: يشتكى عينيه، قال: **فأرسلوا إليه**، فأتوا به» وقد ظهر من حديث سلمة بن الأكوع أنه هو الذى أحضره، ولعل عليًا حضر إليهم بخيبر ولم يقدر على مباشرة القتال لرمده، فأرسل إليه النبى ﷺ فحضر من المكان الذى نزل به، أو بعث إليه إلى المدينة فصادف حضوره.

قال سليمان آل الشيخ(٥): قال بعضهم كأنه استبعد غيبته عن حضرته فى مثل هذا الموطن، لاسيما وقد قال: **«لأعطين الراية»**.

(١) ذكر القولين ابن الأثير فى «أسد الغابة» (٤/ ٩١) وزاد أقوالاً أخرى.
(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٢٥١) عن البراء به.
(٣) فتح البارى (٧/ ٥٤٦).
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) تيسير العزيز الحميد (٩٨).

وفيه سؤال الإمام عن رعيته وتفقده أحوالهم وسؤاله عنهم في مجامع الخير. اهـ.

[قلت] وفيه أيضًا فائدة لطيفة: استعمال المعاريض حتى لا يصدم من يأمل منه الخير، وفيه: كرم خلقه ﷺ. والله المستعان.

قوله: [فقيل هو يشتكي] أي من الرمد كما في «صحيح مسلم» عن سعد بن أبي وقاص، فقال: «ادعو لي عليًا» فأتي به أرمد فبصق في عينيه[1]. اهـ.

قوله: [فأرسلوا إليه] بهمزة قطع من أمر من الإرسال، أمرهم بأن يرسلوا إليه يدعوه له ولمسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال: فأرسلني إلى علي، فجئت به أقوده أرمد فبصق في عينيه فبرأ[2].

قوله: (فبرأ) **قال ابن حجر**[3]: بفتح الراء والهمزة بوزن ضرب، ويجوز كسر الراء بوزن علم، وعند الحاكم من حديث علي نفسه قال: «فوضع رأسي في حجره ثم بزق في إلية راحته فدلك بها عيني» وعن بريدة في «الدلائل» للبيهقي «فما وجعها على حتى مضى لسبيله» أي مات. وعند الطبراني من حديث علي «فما رمدت ولا صدعت مذ دفع النبي ﷺ إليَّ الراية يوم خيبر»[4] وله من وجه آخر «فما اشتكيتها حتى الساعة. قال: ودعا لي فقال: «**اللهم اذهب عنه الحر والقر**»، قال فما اشتكيتهما حتى يومي هذا» اهـ[5].

قال سليمان آل الشيخ[6]: قوله: (فبرأ) وهو بفتح الراء والهمزة، بوزن ضرب، ويجوز الكسر بوزن علم، أي عوفي في الحال عافية كاملة، كأن لم يكن به وجع من رمد ولاضعف بصرٍ أصلاً.

فعند الطبراني من حديث علي: «فما رمدت ولا صدعت منذ دفع إليَّ النبي ﷺ الراية»[7].

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في «الفضائل» (٨/ ١٨٧/ ٣٢)، وانظر الفتح الموضع السابق. وأنظر تمام تخريجه في «فتح المجيد» (ح١٤٥) بتخريجنا

(٢) تقدم تخريجه قريباً، وانظر المصدرين الأولين.

(٣) فتح الباري (٧/ ٥٤٦).

(٤) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٢٢) ونسبه لأبي يعلى، وأحمد باختصار قال: ورجالها رجال الصحيح غير أم موسى وحديثها مستقيم. وأنظر تمام تخريجه في «فتح المجيد» (ح ١٤٨) بتخريجنا

(٥) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٢٢) ونسبه للطبراني في «الأوسط» قال: وأسناده حسن.

(٦) تيسير العزيز الحميد (٩٨). (٧) تقدم.

قال ابن عثيمين[1]: قوله: «فبرأ».

هذا من آيات الله الدالة على قدرته وصدق رسول الله ﷺ أهـ.

[قلت]: فهذه ليست دروشة ولاشطحة من شطحات الصوفية التي يفعلونها.

وبلغنى أن بعض الأخوة كان صوفيًا ثم التزم وحكى لنا من أفعالهم القبيحة الكثير

من ذلك: أنه كان يقول أن بعض مشايخ الصوفية كان يبول فى مكان ما ثم وضعوا على بوله مسكاً وكولونيا وقالوا تعالوا انظروا إن الشيخ تبول مسكاً فأخذوا يتبركون بهذه المسك قبحهم الله. فهذا قدرهم عند الله تعالى أن يوضعوا فى كنيف ويلطخو بالنجاسة. نسأل الله العافية.

ولعلى منقبة أخرى أن النبى ﷺ دعا له بإن لايصاب بحر لابرد، فكان يُرى فى اليوم الشديد البرد وهو لايزيد على إزار وفى اليوم الشديد الحر يلبس الصوف رضى الله عنه.

والله المستعان.

قوله: [انفذ على رسلك حتى تنزل ساحتهم].

وفى رواية للبخارى: فى حديث سهل: **(فقال علىٌ يارسول الله أقاتلهم)** هو بحذف همزة الاستفهام.

وفى رواية للبخارى (حتى يكونوا مثلنا) أى حتى يسلموا.

قوله: (فقال انفذ) بضم الفاء بعدها معجمة.

قوله: (على رسلك) بكسر الراء أى على هينتك[2] أهـ.

[قلت] فى قول على رضى الله عنه فى روايه البخارى (حتى يكونوا مثلنا): استعجال النتائج، بالنسبة لحال المدعوين فلا يرضى الداعى منه إلا أن يكون فى يوم أو ليلة صحابى فى المعتقد أو السلوك وإلاشنع عليه والصق به التهم.

كمثل كثير من شباب الصحوة الإسلامية، لكن الرسول ﷺ وجه عليا إلى التدريج فى الدعوة وترك التسرع كما سيأتى. فلا يتسرع الشباب بدعوة من هم فى خارج البيت وخارج دائرة الأهل من الغرباء قبل دعوة البيت أو الأهل فعند ذلك يصطدم بما لايتوقعه، ولذلك.

(١) القول المفيد (١/ ١٧٠).

(٢) فتح البارى (٧/ ٥٤٧).

قال سبحانه تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ فلماذا لم يقل الله تعالى: (الغرباء) بدلاً من (الاهل)؟ الجواب لأن الإنسان يضيق صدره بالأهل، ويتسع للغرباء؛ لأن الأهل محل ضيق الصدر.

قوله: ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ فى الحقيقة: أنها مرتبطة بمسألة دعوة الأهل؛ لأن ضيق الصدر على الأهل يتكئ على تكئة فيه - ماهى بالنسبة للمتزوج - فيقول أنا أعمل ليل نهار وأنا كذا وكذا.. والنبى ﷺ قال: الرفق ما دخل فى شئ إلا زانه.. وما نزع من شيء إلا شانه»(١).

أما الاحتجاج بالعمل والوظائف على ترك الخير فى دعوة الأهل فالله يقول: ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

وقد ذكرت فى شرحى لـ«زاد المعاد» أنك إن لم تأسس قاعدة قوية فى بيتك وخرجت تدعو خارجًا ستجد أهلك يشنعون عليك وتكون أنت المخطئ وإذا قالوا للناس ذلك لم يسمعوا. والنبى ﷺ أول ما أُمر أمر أن يدعوا الأقربين. فأنذر أهله زوجته خديجة ثم الأقرب فالأقرب ثم أعلن دعوته وخرج بها إلى المدينة ثم تدرج فى المرحلية الدعوية. فعليك أن تدعوهم بحكمة.

فها هو على بن أبى طالب كان سيتسرع وقال «يارسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا» فقال له ﷺ **انفذ على رسلك**» حتى تنزل بساحتهم وادعوهم إلى الإسلام. والله المستعان.

قوله: وقال: انفذ على رسلك» قال سليمان آل الشيخ: أما انفذ فهو بضم الفاء، أى: امض لوجهك. **ورسلك**: بكسر الراء وسكون السين، أى على رفقك ولينك من غيرعجلة، يقال لمن يعمل الشىء برفق. **وساحتهم**: فناء أرضهم، وهو حواليها.

وفيه الأدب عند القتال، وترك الطيش، والأصوات المزعجة التى لا حاجة إليها.

وفيه أمر الإمام عماله بالرفق واللين من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة كما يشير إليه قوله: «**حتى تنزل بساحتهم**».

قال ابن عثيمين قوله: «انفذ على رسلك».

أى: مهلك، مأخوذ من رِسْل الناقة؛ أى: حليبها يحلب شيئاً فشيئاً، والمعنى: امش

(١) تقدم تخريجه.

هويناً هويناً؛ لأنَّ المقام خطير؛ لأنَّه يخشى من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

●**فائدة دعوية من وحى قوله ﷺ [انفذ على رسلك]: -**

ذكر ابن باز فى قوله الله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾. الكيفية التى ينبغى أن يتصف بها الداعى ويسلكها يبدأ أولاً بالحكمة. وهى كما سيأتى عنه تطلق على النبوة والعلم والفقه فى الدين وعلى العقل وعلى الوضوح وعلى أشياء أخرى لا تخرج عن قوله ﷺ لعلى «أنفذ على رسلك»(1).

وقال ابن القيم: الدعوة تنقسم الى ثلاثة اقسام من حيث حال المدعو.

١ـ فإنه إما أن يكون طالباً للحق محباً له، مؤثراً له على غيره إذا عرفه فهذا يُدعَى بالحكمة، ولايحتاج إلى موعظة وجدال.

٢ـ وإما أن يكون مشتغلاً بِغَير الحق، لكن لو عرفه آثره واتبعه. فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

٣ـ وإما أن يكون مُعَانداً مُعَارضاً، فهذا يُجادَل بالتى هى أحسن. فإن رجع وإلا انتُقِل معه إلى الجدال إن أمكن». انتهى.

قلت: وهناك حالة رابعة ذكرها ابن باز وهى إذا ظهر من المدعو العناد والظلم فلا مانع من الإغلاظ عليه كما قال الله سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾**.

فالقسم الأول:

قسم يحب الحق حريص عليه. مؤثراً اياه على غيره. فهذا يحتاج إلى الحكمة:

«والحكمة» هى: القرآن والسنه: **﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾**.

و«الحكمة» هى: فعل ماينبغى فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذى ينبغى أو هى: وضع الشىء فى موضعه.

وذكر فيما تقدم **ابن باز**: أنها العلم والفقه أوهى كلمة مشتركة تطلق على معان كثيرة كالنبوة والعلم،و التفقه فى الدين. .و العقل،والورع.

---

(1) راجع رسالة الدعوة إلى الله للشيخ عبدالعزيز بن باز.

قال الشوكاني:ـ رحمه الله ـ هى المانعة من السفه.

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ من يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ وتفسير الحكمة بذلك يدلك على أن الدعوة دعوة شمولية» ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ﴾ بالدين بالسنة بالقرآن بالعلم النافع بغير ذلك من شمولية الاسلام هذه الحكمة تهدى لطلبة الحق الحريصين عليه الطالبين له المؤثرين له على ما سواء ـ نحسبكم جميعاً كذلك ـ.

القسم الثانى الموعظة الحسنة(*): لمن

(أ) للذى انشغل عن الحق بمباح بعمل مثلاً، لكنه لايعرف له حد، فآثره غيره عليه - مثل السواد الأعظم للمسلمين.

(ب) هذا الذى انشغل عن الحق (لمدخن، مدمن التلفاز، مدمن كرة) بضد الحق لكنه لو علمه، أتاه واتبعه.

فمن الخطأ أن تبدأ معهم فى الدعوة بطريقة منفرة له عن الحق، فترى البعض أول ما يذهب اليه يدعوه يقول له السجائر حرام، والكرة حرام، والتلفاز حرام؟ هل تصح هذه الطريقة؟

الجواب لا، هذا خطأ فى طريقة الدعوة وكلمة (حرام وحلال) لاينبغى أن تطلق بهذه الصورة المتكررة العشوائية، خاصة لطالب الحق الحريص عليه.

وأما الثانى، فإننا تؤثر عليه بالترغيب والترهيب. ونذكره بالله، والأحاديث التى فى أهوال القيامة، وأحاديث الصراط وأحاديث فضل الجنة، لعله يرق قلبه فيستجيب، فيأتى الداعى فى هذه الحاله يقول له يا فلان لو تركت هذا لكان خيرًا لك فى صحتك وعافيتك ودينك وكذا وكذا...

فالرسول ﷺ حينما جاءه رجل فقال يارسول الله «إئذن لى فى الزنى» فهل قال له أنه حرام مباشرة؟ وكذا من يشرب السجائر تقول له حرام هو يعلم إنها حرام، وكذلك ايضاً نقول له التلفاز وكذلك يقول له حرام، انظر: إلى دعوة الرسول ﷺ رهبه أولاً قال: «**أتحبه لأمك**» قال لا قال «**اتحبه لأختك**» قال لا قال: **كذلك الناس لايحبونه لأمهاتهم وأخواتهم**(1).

(1) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٥٦، ٢٥٧)، والطبرانى فى «الكبير» (٧٦٧٩) عن أبى أمامة.

(*) راجع رسالة الدعوة إلى الله للشيخ عبدالعزيز بن باز.

فالنبى ﷺ دعى بعض الناس بهذه الآية فقط: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ .فهذه بالموعظة الحسنة.

أيضاً رجل حليق اللحية: هل نقول له انت آثم حرام عليك، بل نتدرج معه حتى يتهيأ لقبول أمر الله وأمر الرسول ونعطه موعظة حسنة حتى إذا تهيأ فعليك معه بالحكمة إن كان طالبًا لها. وعند ذلك ياتى إليك ويقول يا أخى ما هو حكم مشاهدة التلفاز حرام أم حلال؟ هو يطلب إذًا. فعند ذلك نأتيه بالعلم النافع فى هذا الأمر وتجدون مصداق ذلك فيمن حلف باللات وبالعزى له فى الشرع كفارة. **حيث قال ﷺ من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله.**

والنبى ﷺ لم يقل عندما نسمع حالف يحلف بغير الله نقول له انت مشرك، بل بين للصحابة أن لابد من الإحلال ان يحل محل الخبيث الطيب كما تسمعون من يقول: والنبى، ورحمة فلان، . . . نقول له قل لا إله إلا الله(١).

فإن ذلك أيسر عليه، من أن تقول له إنك أشركت. بل قال النبى ﷺ الداء، وترفق بنا بدواء سهل على من وقع فى ذلك.

القسم الثالث، الذى يحتاج إلى الجدال وهو المعاند المستكبر المعرض، لكنه ينقسم إلى قسمين:

(أ) قسم معاند مستكبر مع ظلم: فالدعوة معه بالشدة والغلظة، كدعوة موسى مع فرعون فتارة يقول له قولاً ليناً وتارة يهدده بالله وتارة يقول: إنى لأظنك يا فرعون مثبوراً.

(ب) قسم معاند مستكبر على غير ظلم على جهل منه لم يعتدى فى حال استكباره وأعراضه. . هذا نجادله بالتى هى أحسن. كما قال ﷺ فى قصة الاعرابى الذى جاء إلى النبى ﷺ وطلب منه طلباً فأعطاه فقال «**هل رضيت وهل اعطيت؟** فقال الاعرابى مارضيت وما اعطيت فاعطاه ثلاث مرات لو سأله فقال نفس المقالة فقام الصحابة عليه لينالوا منه فقام ﷺ: واعطاه إلى ان رضى الرجل. وأثنى على الرسول ﷺ فأمره الرسول أن يخرج ويقول: **هذا الثناء أمام الصحابة حتى يسقط ما فى صدورهم ما صنعت وحتى يرضوا عنك**» فذهب فقال مقالته ثم انصرف.

فقال رسول الله ﷺ: «**ألا إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحب الناقة، خلوّ بينى**

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦٥٠)، ومسلم فى الإيمان (٦/ ١١٩/ ٥) عن أبى هريرة.

وبين ناقتى فأنا أرفق بها وأعلم، فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها وأخذ لها من قمام الأرض فردها هوناً هوناً هوناً حتى جاءت، واستناخت وشد عليها، وإنى لو ترتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار»(١).

فهذا المعرض المستكبر أحيانا يحتاج إلى الحسنى أو بالمعاملة الحسنة أو بالجدال إن كان عالماً كما جادل النبى ﷺ النصارى حينما قالوا له ما تقول فى عيسى وفى معجزته؟ فتلا عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

وبهذا انتهت معهم الموعظة الحسنة ولم يبق إلا الإغلاظ والشدة لأنهم بهذا ظلموا امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ذلك لأنهم، لم يرضوا بهذا الجدال الحسن وظلموا وتعدوا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فالغلظة والشدة تأتى أحيانا فى بعض المواقف ولبعض الاقسام ولبعض المدعوين.

لكن الأمر كما قال ﷺ: «الرفق ما دخل فى شىء إلا زانه وما خلا من شىء إلا شانه»(٢).

وقال: «إن الله يعطى على الرفق مالا يعطى على العنف»(٣) والدليل على ذلك ان هناك ثلاثة مراحل ليس فيها انذار، ومرحلة واحدة فيها انذار.

فينبغى على الداعى ألا يجعل الغلظة والشدة هى الأصل مع المدعوين.

وقد يكون أحيانا القول اللين او الرفق هو الشدة قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾. فكان من ذلك قول موسى لفرعون. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ

(١) أخرجه أبوالشيخ والبزار من حديث أبى هريرة، وإسناده ضعيف.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) [صحيح] أخرج مسلم فى البر والصلة (١٦/١٤٦ ـ النووى) عن عائشة به. وانظر «رياض الصالحين» (٦٣٥ ـ بتخريجنا).

﴿مَثْبُوراً﴾ هالكا ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾. قولاً ليناً لأنه لايصلح معه بعد بيان الحجج الواضحة إلا ان يقول له ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ أنا بينت لك حينما سألتنى ﴿مَّن رَّبُّكَ﴾ قلت رب المشرق والمغرب، وبينت لك: أن الله ربك ورب إباءك الأولين. **وقبل أن لم توجد من رب الناس؟!**. فالرب قبل أن توجد وبعد أن تموت. فبعد كل ذلك لم تؤمن إذاً أنت هالك مثبور.

قال ابن عثيمين(١): قوله: «حتى تنزل بساحتهم».

أى: ما يقرب منهم وما حولهم، والنبى ﷺ يقول: «**إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**».

وهذا إذا كنَّا على الوصف الذى عليه الرسول ﷺ وأصحابه، أما إذا كنا على وصف القومية، فإننا لو نزلنا فى أحضانهم؛ فمن الممكن أن يقوموا ونكون فى الأسفل.

قوله: (ثم ادعهم إلى الإسلام) قال ابن حجر(٢): ووقع فى حديث أبى هريرة عند مسلم «فقال على: يارسول الله علام أقاتل الناس؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله**»(٣) واستدل بقوله: «**ادعهم**» أن الدعوة شرط فى جواز القتال، والخلاف فى ذلك مشهور فقيل: يشترط مطلقًا، وهو عن مالك سواء من بلغتهم الدعوة أو لم تبلغهم، قال: إلا أن يعجلوا المسلمين. وقيل لا مطلقاً وعن الشافعى مثله. وعنه لايقاتل من لم تبلغه حتى يدعوهم، وأما من بلغته فتجوز الإغارة عليهم بغير دعاء، وهو مقتضى الأحاديث. ويحمل ما فى حديث سهل على الاستحباب، بدليل أن فى حديث أنس أنه ﷺ أغار على أهل خيبر لما لم يسمع النداء(٤)، وكان ذلك أول ما طرقهم، وكانت قصة على بعد ذلك. وعن الحنفية تجوز الإغارة عليهم مطلقاً وتستحب الدعوة.

قال سليمان آل الشيخ(٥): قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» أى الذى هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومن هذا الوجه طابق الحديث الترجمة. وفى

---

(١) القول المفيد (١/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) فتح البارى (٧/ ٥٤٧).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/ ١٨٨/ ٣٣).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٩٤٣).

(٥) تيسير العزيز الحميد (٩٨، ٩٩).

حديث أبى هريرة عند مسلم: فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، فأعطاه الراية وقال: «امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك» فسار على شيئاً ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ يارسول الله: على ماذا أقاتل الناس؟ فقال: «فقاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلاالله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»(١) وفيه أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، المراد بها الدعوة إلى الإخلاص بها، وترك الشرك وإلا فاليهود يقولونها، ولم يفرق النبى ﷺ فى الدعوة إليها بينهم وبين من لا يقولها من مشركى العرب، فعلم أن المراد من هذه الكلمة هو اللفظ بها، واعتقاد معناها، والعمل به، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٢) وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾(٣) وذلك هو معنى قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» الذى هو الاستسلام لله تعالى، والإنقياد له بفعل التوحيد وترك الشرك، وفيه مشروعية الدعوة قبل القتال، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء، لأن النبى ﷺ أغار على بنى المصطلق وهم غارون، وتستحب دعوتهم لهذا الحديث وما فى معناه؛ وإن كانوا لم تبلغهم وجبت دعوتهم.

قال ابن عثيمين(٤): قوله: «ثم ادعهم».

أى: أهل خيبر، «**إلى الإسلام**»؛ أى: الاستسلام لله.

وقوله: [وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه]

قال سليمان آل الشيخ(٥): أى فى الإسلام أى إذا أجابوا إلى الإسلام، فأخبرهم بما يجب عليهم من حقوقه التى لابد من فعلها، كالصلاة، والزكاة، وهذا كقوله فى حديث أبى هريرة: «**فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»(٦).

(١) تقدم.

(٢) آل عمران آيه/ ٦٤.

(٣) الرعد آيه / ٣٦.

(٤) القول المفيد (١/ ١٧٠).

(٥) تيسير العزيز الحميد (٩٩)

(٦) تقدم قريباً.

وقد فسره أبو بكر الصديق لعمـر رضى الله عنهما لما قاتل أهل الردة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقال له عمر كَيْفَ نُقَاتِلُ الناسَ وقد قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولوا لا إلهَ إلا الله، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّى مالَهُ وَنَفْسَهُ إلا بحقِّه؟» قال أبو بكر: فإن الـزكاة حق المال، والله لَوْ مَنَعونى عَنَاقاً كَانُوا يُؤَدُّونَها إلى رَسُولِ الله ﷺ لَقَاتَلْتُهم على مَنْعِهَا[1].

وحاصله أنهم إذا أجابوا إلى الإسلام الذى هو التوحيد فأخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك من حق الله تعالى فى الإسـلام من الصلاة والزكاة والصيـام والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام الظاهرة وحقوقه. فإن أجابوا إلى ذلك فقد أجابوا إلى الإسلام حقًا، وإن امـتنعوا عن شيء من ذلك فـالقتـال باق بحالـه اجمـاعًا. فدل على أن النطق بكلمـتى الشهادة دليل العصمة لا أنه عصمة، أو يقال: هو العصمة لكن بشرط العمل، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾[2] الآية ولو كان النطق بالشهـادتين عاصـماً لم يكن للتثبت معنى، يدل على ذلك قـوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا﴾[3]. أى عن الشرك وفعلوا التوحيد ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[4] فدل على أن القتال يكون على هذه الأمور.

وفيـه أن لله تعالى حقـوقاً فى الإسلام من لم يأت بهـا لم يكن مسلماً، كـإخلاص العبادة له والكفر بما يعبد من دونه. وفيه بعث الإمام الدعاة إلى الله، كما كان النبى ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون.

وفيه تعليم الإمام أمراءه وعماله ما يحتاجون إليه.

وقال ابن عثيمين[5]: أى: فلا تكفى الدعـوة إلى الإسلام فقط، بل يخـبرهم بما يجب عليهم فـيه حتى يقتنعـوا به ويلتزموا، لكن على التـرتيب الذى فى حديث بعث معاذ.

---

(١)[متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٩٩) ومسلم فى الإيمان (١/ ٢٠٠ ـ النووى).
وانظر «رياض الصالحين» (١٢١٣ ـ بتخريجنا).
وأنظر تمام تخريجه في «فتح المجيد »(ح١٥١) بتخريجنا
(٢) النساء آية/ ٩٤.
(٣)(٤) التوبة آية / ٥.
(٥) القول المفيد (١/ ١٧١).

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هل يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فى الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟

فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا؛ فإننا نقول: الأَوْلى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره.

وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن، وأنهم لا يسلمون عن اقتناع؛ فقد يسلم، وإذا أخبرته ربما يرجع، قلنا: يُخبَرون أولاً بما يجب عليهم من حق الله فيه؛ لئلا يرتدوا عن الإسلام بعد إخبارهم بما يجب عليهم، وحينئذ يجب قتلهم لأنهم مرتدون.

ويحتمل أن يقال: تترك هذه المسألة للواقع وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا أو هذا. اهـ.

[قلت]: **قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام»** فيه أن الدعوة لاتكون إلى جزئية وإن كانت إلى جزئية لمقتضى الحال أو مقتضى المقال أو المدعو فهذا ليس معناه نفى بقيت الاسلام فكما قلت الناس فى هذا طرفان ووسط فمنهم مَنْ أخذ بالعروة الدنيا فقط ودعا إليها ومنهم من دعا إلى العروة العُليا فقط ومنهم من دخل فى كل عرى الاسلام ودعا إليها جميعًا أما من قال: إنى لا أدعو إلا بهذه الجزئية لان الناس لم يفهموا إلا هذه أو أنا لا أحسن إلا هذه مع علمه أن الإسلام ليس هذه الجزئية فقط؛ فنقول له قد أصبت وبارك الله فيك. ومن فعل العكس بأن دعا إلى جزئية من جزئيات الإسلام كالفقه فقط أو العقيدة فقط أو السيرة فقط أو الزهد فقط أو الجهاد فقط أو الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقط أو غير ذلك من جزئيات الإسلام ويعتقد أن الدين كل الدين هو هذه الجزئية فقط حتى والى على ذلك وعادى عليه فقد أخطأ. ذلك بأن الإمام النووى يبين فى معنى الطائفة المصورة أنها بين فقير وعابد وزاهد ومحدث وبصير بالحرب.. إلخ أى أنها تضم هذا كله وليس جزءه فقط لذا نقول لمنْ دعا إلى جزء.

فقد دعوت إلى الجزء وتركت الكل، الله عز وجل يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾. فهذه الآية دليل علي شمولية الدعوة

وقال ﷺ: «**ادعوهم إلى الاسلام**» كل الاسلام. وأخبرهم بما يجب عليهم (أى مقتضيات الإسلام) حق الله على العباد وهو إفراد الله بالعبادة.

تقدم قول الله عزوجل: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**﴾ وذكر ابن باز فى رسالته «الدعوة إلى الله» قول الله عزوجل أيضاً: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ**﴾ وقال: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ**﴾ أى إلى لا إله إلا الله كما ذكره الطبرانى فى كتاب «الدعاء»(١).

(١) أخرجه الطبرانى فى «الدعاء» (١٥٤٩) من قول عكرمة.

وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾.

وفى حديث ابن عباس يقول النبى ﷺ: «ادعـهم إلى شهـادة أن لا إله إلا الله»[(١)]. إلى الإسلام بوجه عام.

كما قال لعلي: «انفذ على رسلك وادعهم إلى الإسلام» أى الإسلام الشمولى وليس إلى جزء بل إلى الإسلام كله الإسلام بضع وسبعون شعبة[(٢)] فندعو إلى أعلاها وندعوا إلى أدناها، بل ندعوا إلى أدناها كـما ندعوا إلى أعـلاها، فلاندعوا إلى الجـهـاد ونترك السواك مثلاً «فأعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى من الطريق».

والناس فى هذا طرفان ووسط: فى الدعوة إلى الإسلام وإلى الله فمنهم من يدعو إلى «الشعب العليا» والآخر يدعو إلى «الشعب الدنيا».

وطوائف تدعو إلى الجهاد وتحرير المسجـد الأقصى وإلى توحيد صفوف المسلمين وهذا طيب ولكن للأسف يحـقروا من يدعـوا إلى الشعب الأخـرى التى هى فى نظرهم أقل أهميـة من الجهـاد بالنظر إلى الجهاد كـمن يدعو إلى الصـوم والزكاة والسـمت الصالح واللحية والسواك وإماطة الأذى.

والنبى ﷺ هو الذى قال إماطة الأذى من شعب الإيمان والذى أمرك بهذا أمرك بهذا ««فلاتحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلق أخاك بوجه طلق»[(٣)]. فالمقصود أن الناس فى هذا الأمر كغيره من الأمور طرفان ووسط

(١) طرف يحصـر دعوته فى هذه الشعب العليـا ويحقر من يدعـو إلى هذه الشعب الدنيا.

(٢) وطرف آخـر: يحقـر الشعب الـعليا ويدعـو إلى الشـعب الدنيا ويقـول الناس يحتاجون إلى كذا وكذا من الأمور الفقـهية أو الأخلاقية أو التربوية. ولأتهكم بمن يدعو إلى الشـعب الدنيا كـما لم يـتهكم خـالد ابن الوليد بـأبى هريرة المحدث ولم يتـهكم أبوهريرة بخالد المجاهد.

نقول هذا طيب وهذا طيب لكن لانتهكم بمن يدعوا إلى ذروة سنام الإسلام والشعب العليا فيه.

---

(١) تقدم في أول حديث في الباب.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٩)، ومسلم في الإيمان (٢/ ٣ ـ النووي) عن أبي هريرة به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٢٧ ـ بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦/ ١٧٧ ـ النووي) عن أبي ذر.
وانظر «رياض الصالحين» (١٢٢ ـ بتخريجنا).

(٣) **والوسط أن ندعو إلى هذا** وذاك طالما أننا ندعوا إلى الإسلام كما فى هذا الحديث الذى بين أيدينا فى كتاب التوحيد وندعو إلى الإسلام كافة لكن بالتدرج والمرحلية.

قال الله عزوجل: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ فالربانى هو الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره.

ولكن إذا كانت هذه المرحلة هى مرحلة الشعب الدنيـا، فلا نكفر أو نفسق من يدعو إلى الشعب العليا بل نضـعها فى خطتنا أيضا ذلك لأن مرحلة الشـعب الدنيا، ما هى إلا تمهيد لهذه المرحلة الشعب العليا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

فأنت تأمر الناس أن يدخلوا فى الإسلام كافـة فلابد وأن تدعوهم إلى الإسلام كافة، وإلا لو دعوتهم إلـى جزئية كـأن تقول خذوا هذه«الجـزئية فـقط فقد خـالفت السنة فى الدعوة ولهذا قال ﷺ لعلى: «**ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما عليهم من حق الله تعالى فيه**.

وكذا قال لمعاذ: «**ادعهم إلى الإسلام**» لكن بتدرج ومرحلية..

قال ابن باز(*): شمولية الإسلام:

الإسلام: عبادة وقيادة. دين ودولة، وعبادة وجهاد ومصحف وسيف وعبادة وسياسة، واجتماع واقتصاد.

فكما تدعو إلى العـبادة تدعو إلى توحيد الله وتدعـوا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتدعو إلى الجهاد، وتدعو إلى تحكيم شرع الله.

وتدعوا إلى الاقـتصاد الإسلامى، لا الاقتـصاد الرأسمالى الغـربى، الرأى يقوم على عبـادة المال والدرهم والدينار من أجله يرابى ويزانى ويعاهر والـغاية تبرر الوسـيلة، فإذا كانت الغاية هى جمع المال فلاتسأل عن الوسـيلة من حلال أم حرام هذه هى الرأسمالية فلا مانع من الإتجار باللحوم البيضاء أو الحمراء طالما أنها أربح التجارات فى العالم.

فالإسلام الحـسنة بين السيئتين اقـتصاد رأسمالى غـربى واقتصاد شـيوعى شرقى وهو الذى لايحترم أموال الناس ويأخذها بغير وجه حـق ويسلبهم أموالهم بدعوى الإشتراكية أما الإسلام فلم يمنعك من التجارة والكسب الحلال من الطرق المشروعة وقال الله تعالى:

(*) راجع في ذلك: «رسالة الدعوة إلى الله» للشيخ ابن باز بتصرف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾.

وقال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه»(١).

وحرم الظلم بوجه عام وحرم الغرر فى المعاملات والغش وهذه هى وسطية الاقتصاد الإسلامي.

وأيضا تجب عليك فى بعض الأوقات أن تدعو إلى هذا أيضا فتدعو إلى الاجتماع الإسلامى وليس الاجتماع الغربى والأوربي.

وأحكام المعاملات بين الأخ وأخيه والشقيق وشقيقه، والابن وأبيه والأبناء وأمهم، وصلة الأرحام.

وهل هناك علم اجتماع أنفع من هذا العلم. ادع إلى الاجتماع الإسلامي.

ادع إلى التآخى الإسلامى ، ادع إلى التآخى والأخوة الإيمانية، ونبذ الفرقة وما يترتب على الفرقة لذلك كانت الدعوة إلى الله وإلى سبيله وإلى الإسلام، دعوة شمولية، ولم تكن دعوة حزبية مذهبية طائفية.

خلاصة هذه الوسطية فى نقاط:

(١) ادعوا إلى الله لا إلى حزب ولا إلى جماعة ولا شيخ ولا مذهب.

فكثيراً من يدعو إلى الله يظن هذا فى نفسه، لكن فى الحقيقة هو يدعو إلى نفسه يدعو ليقال فلان مثلاً شيخ الإسلام أو علاَّمة الزمان أو ترجمان القرآن أو حسنة الدنيا أو هو بارع فى التوحيد وهو حريص على ذلك، هذا لم يدعو إلى الله حتى لو كانت دروسه توحيد بل يدعو إلى نفسه.

تدعو الناس على مذهب معين أو آراء شيخ معين، توالى عليه، وتعادى عليه.

هذه ليست دعوة إلى نفسك لكن إلى غير الله.

لكن دعوتنا إلى الإسلام توالى عليه وتعادى عليه.

(٢) تدعو إلى الإسلام دعوة شمولية ليس التوحيد فقط، ولكن التوحيد ومقتضياته.

(٣) على الداعى إلى الله أن يأخذ بالحق وأن يتبع الحق إذا ظهر دليله ولو خالف فلاناً أو فلاناً.

---

(١) تقدم تخرجه

(٤) عدم التقليد الأعمى وسيأتى مزيد بحث فى التقليد فى الباب الثامن والثلاثين.

(٥) الرفق بالمخالف وعدم التشنيع على الآخر بالمرجوح طالما لم يخرج به عن دائرة أهل السنة كما سبق في حديث السبعين ألف.

قوله (فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً إلخ) قال ابن حجر(١): يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله.

قال سليمان آل الشيخ(٢): **قوله: «فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»**. «أن»: هى المصدرية، واللام قبلها مفتوحة، لأنها لام القسم، وأن ومدخولها مسبوق بمصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره خير.

[قلت]: وفيه جواز القسم بغير استحلاف، لبيان عظم الأمر والتأكيد على وقوعه، والله المستعان.

قال ابن عثيمين(٣): **قوله: «لأن يهدى الله»**

اللام واقعة فى جواب القسم، وأن بفتح الهمزة مصدرية، ويهدي. مؤول بالمصدر مبتدأ، و«خير»: خبر، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(٤).

قوله: (حمر النعم) قال ابن حجر(١): بسكون الميم من حمر وفتح النون والعين المهملة وهو من ألوان الإبل المحمودة، قيل المراد خير لك من أن تكون لك فتتصدق بها، وقيل تقتنيها وتملكها، وكانت مما تتفاخر العرب بها.

مواقف من شجاعة على ابن أبى طالب وأسباب فتح الله على يديه

وذكر ابن إسحق من حديث أبى رافع قال: «خرجنا مع على حين بعثه رسول الله ﷺ برايته فضربه رجل من يهود فطرح ترسه، فتناول على بابًا كان عند الحصن فتترس به عن نفسه حتى فتح الله عليه، فلقد رأيتنى أنا فى سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه(٥)، وللحاكم من حديث جابر«أن عليًا حمل الباب يوم خيبر، وأنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً»(٦) والجمع بينهما أن السبعة عالجوا قلبه،

(١) فتح الباري (٧/٥٤٦- ٥٤٧) .

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٠٠).

(٣) القول المفيد (١/١٧١، ١٧٢).

(٤) البقرة آية/ ١٨٤ .

(٥) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/٢١٢) من طريق ابن إسحاق عن بعض أهله.

(٦) أخرجه البيهقي في المصدر السابق بإسناد ضعيف.

والأربعين عالجوا حمله، والفرق بين الأمرين ظاهر، ولو لم يكن إلا باختلاف حال الأبطال وزاد مسلم فى حديث إياس ابن سلمة عن أبيه «وخرج مرحب فقال: قد علمت خيبر أنى مرحب، الأبيات، فقال علي: أنا الذى سمتنى أمى حيدرة» الأبيات. «فضرب رأس مرحب فقتله» فكان الفتح على يديه»[1] وكذا فى حديث بريدة الذى أشرت إليه قبل وخالف ذلك أهل السير فجزم ابن إسحق وموسى بن عقبة والواقدى بأن الذى قتل مرحبًا هو محمد بن مسلمة، وكذا روى أحمد بإسناد حسن عن جابر[2]، وقيل محمد بن مسلمة كان بارزه فقطع رجليه فأجهز عليه علي[3]، وقيل إن الذى قتله هو الحارث أخو مرحب فاشتبهوا على بعض الرواة، فإن لم يكن كذلك وإلا فما فى الصحيح مقدم على ما سواه، ولا سيما وقد جاء من حديث بريدة أيضًا، وكان اسم الحصن الذى فتحه على القموص وهو من أعظم حصونهم، ومنه سبيت صفية بنت حيي، والله أعلم.

وقال سليمان آل الشيخ [4]بنحو كلام ابن حجر: وحمر بضم المهملة وسكون الميم، والنعم بفتح النون والعين المهملة، أي: خير لك من الإبل الحمر، وهى أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل فى نفاسة الشيء، قيل: المراد خير من أن تكون لك فتتصدق بها، وقيل تقتنيها وتملكها.

قلت: هذا هو الأظهر، والأول لا دليل عليه، أى أنكم تحبون متاع الدنيا، وهذا خير منه.

قال النووي: وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها، وأمثالها معها. وفيه فضيلة الدعوة إلى الله، وفضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد، وجواز الحلف على الفتيا والقضاء والخبر، والحلف من غير استحلاف.

قال ابن عثيمين[5]: قوله: «حمر النعم».

بتسكين الميم: جمع أحمر، وبالضم: جمع حمار، والمراد الأول.

وحمر النعم: هى الإبل الحمراء، وذكرها لأنَّها مرغوبة عند العرب، وهى أحسن وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

(١) تقدم تخريجه. وأنظر شرحنا لزا المعاد»
(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢١٥).
(٣) ذكره البيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢١٦) عن الواقدي. وانظر «شرحنا لزاد المعاد»
(٤) تيسير العزيز الحميد (١٠٠).
(٥) القول المفيد (١/ ١٧١, ١٧٢).

وقوله: «**لأن يهدى الله بك**»، ولم يقل: لأن تهدي؛ لأن الذى يهدى هو الله.

قال ابن باز: والمعنى أى خير لك من الإبل الثمينة [**قلت**:] والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أى أن هذا اللفظ عام وليس بخاص، والله أعلم.

ثم قال: وفيه بيان أهمية الدعوة وتعليم الناس، فإن أبوا قوتلوا ليكف شرهم، ولايكون عقبة فى طريق غيرهم إلى الإسلام ويستعان بهم وبأموالهم فى سبيل الله، . . . اهـ.

والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

وهل المراد الهداية من الكفر إلى الإسلام، أو يعم كل هداية؟

نقول: هو موجه إلى قوم يدعوهم إلى الإسلام.

وهل نقول: إن القرينة الحالية تقتضى التخصيص، وأنَّ من اهتدى على يديه رجل فى مسألة فرعية من مسائل الدين لا يحصل له هذا الثواب بقرينة المقام؛ لأن عليًا موجه إلى قوم كفَّار يدعوهم إلى الإسلام، والله أعلم. اهـ.

● فضائل أخرى للدعوة والداعى خلاف ما تقدم

ذكر ابن باز بعض هذه الفضائل، منها:

(١) قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾.

وتقدم قول الحسن البصرى: هذا ولى الله هذا حبيب الله هذا خيرة الله فى أرضه، استجاب إلى الله ودعا الناس فيما استجاب إلى الله فيه وعمل صالحًا فى هذه الاستجابة. فهو استجاب تلبية لقول الله: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**﴾ الآية.

فهو استجاب ودعا ليس ذلك فقط بل استجاب ودعا وعمل صالحًا كأنما دعا الناس إليه . وهذا أيضًا امتثال لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ**..﴾ ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ**﴾ فهو استجاب ودعا ولم ينس نفسه وعمل صالحًا وقال أننى من المسلمين بلسان حاله لا بلسان مقاله.

(٢) ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ فالخيرية فينا بسبب الدعوة فالفلاح فى الدعوة إلى الله .

(٣) إنها سبيل محمد. والداعى إلى سبيل محـمد على بصيرة هو من اتباعه فهو من أحق الناس أن ينـسب إلى النبيﷺ لكن غيـره ربما نُسب لكن نسبة ادعـاء ولـم ينسب حقيقة إليه.

فهذا بعض فضائل من دعا إلى الله بأدلة القرآن، وأما من السنة:

(١) من دعا إلى هدى كان له مثل أجور من تبعه - إلى يوم القيامة - لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة عليه من الوزر مثل آثام من تبعه - إلى يوم القيامة - لا ينقص ذلك من اثامهم شيئاً أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة[١].

(٢) من دل على خير فلـه مثل أجر فاعله[٢] (الدال على الخير كفاعله). والحديث له قصة.

(٣) «فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيرلك من حمر النعم».

ففيه ثواب أخروى تقـريبه بثواب دنيوى للتقريب، وإلا فالـذى فى الآخرة لا يعدلها الدنيا وما فيها أخرجاه عن سهل بن سعد.

(٤) وعند التـرمذى عن ابن مسعود قـال: قال رسول الله «نضر الله امرأ سـمع منا شيئاً فبلـغه كما سمعه، فرب مبلـغ أوعى من سامع»[٣] وقال الترمذي: حـديث حسن صحيح. وفى الحديث أيضاً: «نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعـاها فاداها كما سمعها»[٤] أخرجه ابن عبد البر، وهو فى شعب الإيمان للبيهقي.

(٥) ما تصـدق مؤمن بصدقة أحـب إلى الله عز وجل من مـوعظة يعظ بهـا قومه، فيفترقون وقد نفعهم الله عزوجل بها. من كلام أبى الدرداء ذكرناه فى كتابنا فقه الخطابة وأصله فى الترغيب والترهيب)[٥].

---

(١) [صحيح]مسلم في العلم (١٦/ ٢٢٧ - النووي). وأنظر كتابي فقه الخطابة وانظر «رياض الصالحين (١/ ١٧ - بتخريجنا).

(٢) [صحيح] مسلم في الإمارة (٣/ ١٣٨).

وانظر «رياض الصالحين» في الموضع السابق بتخريجنا. وأيضاً «كتابنا فقه الخطابة»

(٣) أخرجه أحمـد في «مسنده» (١/ ٣٤٧)، والتـرمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجة (٢٣٢) عن ابـن مسعود وانظر «رياض الصالحين» (١٣٩٢ - بتخريجنا).

(٤) أخرجه ابن عبـدالبر في «جامع بيان الـعلم» (١/ ٣٩) عن زيد بن ثابت بـه وانظر الشعب للبـيهقي (١٧٣٦).

(٥) له شواهد في معناه ذكرها ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢١ - ٢٧) وانظر كتابنا «فقه الخطابة» ص٣٤. الضبعة الثانية.

(٦) هى خير ما ينفع المسلم فى حياته وبعد مماته.

لحديث أبى هريرة عند مسلم (**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث .... علم ينتفع به**»[١]. وفى بعض الطرق علم علمه أو نشره. فهذا يجرى عليه أجره بعد موته.

(٧) من دعا إلى الله وهو يحرص على هداية الناس وعلى صلاحهم فلعل الله أن يجازيه بجزاء من جنس عمله، فيهديه ببركة حرصه على هداية الناس ويصلح من شأنه ببركة ذلك.

(٨) بركة الدعوة وفضل الدعوة : أفضل فضائل الدعوة البركة التى يجدها الداعى على نفسه وصحته وعافيته ووقته وأولاده وأهله.

وأعظم الثمرة وأعظم الفضل الذى يلمسه الداعى نفسه فالداعى هو المستفيد الأول، بهذه الدعوة، يجد من البركة والخير فى رزقه، ووقته ما لا يجده غيره، ويفهم فى الوقت القليل - إذا بورك له ببركة دعوته فى عقله - يفهم مالا يفهمه غيره فى قرون لأن الله تعالى يقول : ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً**﴾.

قال ابن تيمية فى مؤدى ما قال إنه باستقراء الأمم أهل السنة تجدهم أسد وأحد عقلاً من غيرهم وأنهم ينالون من العلوم فى الفترة القليلة ما يناله غيرهم فى قرون وهذا الثبات وهذه الحجة الجيدة فى العقل ببركة دعوتهم وببركة أنهم فعلوا ما يوعظون به، أمروا بالدعوة فدعوا، وأمروا بالعمل بما دعوا إليه فعملوا، وأمروا بالاستجابة فاستجابوا.

فإن الله عز وجل يبارك للرجل والمرأة فى عافيته ببركة الذكر فقط فما الظن بالذكر مع الدعوة.

ففى الصحيح حين جاءت فاطمة وسألت رسول الله ﷺ أن يعطيها خادماً فقال: ليس لك عندى خادم، وقال: «**ألا أدلكما على خير مما سألتمانى؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا !؟ أربعاً وثلاثين وأحمدا ثلاثاً وثلاثين وسبحا الله ثلاثًا وثلاثين**»[٢].

قال ابن حجر: وفيه أن ذكر الله معين للمرأة على عمل البيت وهو أفضل لها من خادم.

---

(١)[**صحيح**] أخرجه مسلم في الوصية (١١/ ٨٥ - النووي) عن أبي هريرة.
وانظر «رياض الصالحين» (٩٥١ - بتخريجنا). وانظر «كتابنا فقه الخطابة»

(٢) [**تفق عليه**] أخرجه البخاري (٣١١٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/ ٤٥ - النووي) عن علي
وانظر «رياض الصالحين» (١٤٦٢ - بتخريجنا).

انظر إلى حال الداعى الذى تفرغ لدعوته، انظر إليه فى أهله وبيته، وانظر إلى حال الآخر الذى أخلد إلى الأرض وقال احبس هذا الوقت مع أولادى فأذاكر لهم أو اصنع لهم كذا وكذا من الأشياء المشروعة فنجد مصداق الحديث القدسى إن صح:

«**يا دنيا من خدمك فاستخدميه ومن خدمنى فاخدميه**». ويشهد لمعناه ماثبت فى الطبرانى وغيره «**من أصبح والدنيا أكبر همه فرق الله شمله وجعل فقره بين عينيه، ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له**»[1].

فلما تفرغ الداعى لله وللدعوة إليه لإرشاد الناس إلى ربهم خدمته الدنيا، والناس تسعى إليه لخدمته، لتحفيظ أبناءه.

ويأتى ناس تساعد زوجته فى تنظيف منزله بل ويأتى آخر يوصله إلى الدروس وغيره وآخر يريد بل يتمنى أن يخدمه.. كذا.

فى حين الآخر الذى تفرغ لأبنائه تأتيه المشاكل من كل حدب وصوب لا تنتهي، والأبناء لا تفهم وينتهى من هذه المشكلة يدخل فى أخرى. وهو مخطئ لأنه فرغ نفسه لهم.

فإن الداعى يخلفه الله فى بيته وأبناءه لا يكونوا غير مهذبين، ولا متبرجات ولا يشربون المخدرات.

نعمة الله على الداعى لاتحصى ثم لا تحصى ثم لا تحصى.

العاجلة قبل الآجلة. فأنت بالخيار إما أن تنزل لهذه الدركات وإما أن تتعرض لهذه البركات تتحرك لهذه النفحات. عسى الله أن يفيض عليك منها أو يصيبك شيء منها.

● **زيادة على رواية المصنف:**

فى رواية للبخاري: **(فأعطاها ففتح عليه)**

قال ابن حجر[2]: فى حديث سهل «فأعطاها الراية» وفى حديث أبى سعيد عند أحمد «فانطلق حتى فتح الله عليه خيبر وفدك وجاء بعجوتها»[3].

وقد اختلف فى فتح خيبر هل كان عنوة أو صلحًا.

وفى حديث عبد العزيز بن صهيب عن أنس[4] التصريح بأنه كان عنوة وبه جزم ابن عبد البر، ورد على من قال: فتحت صلحًا.

---

(١) انظر مجمع الزوائد (١/ ٢٤٨) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، وانظر كتابي «فقه الخطابة» (٢/ ٦١٥) في خطبة القول الملهم في أسباب وعلاج الهم.

(٢) فتح الباري (٧/ ٥٤٥، ٥٤٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٦).

(٤)[متفق عليه] أخرجه البخاري (٤٢٠١)، ومسلم في النكاح (٥/ ٢٣٥/ ٨٤).

فيه مَسائِلُ

الأولى: أَنَ الدَّعْوَةَ إِلَى الله طَرِيق مِنِ اتَّبَعَ رَسُولَ الله ﷺ.

قال: وإنما دخلت الشبهة على من قال فتحت صلحًا بالحصنين اللذين أسلمهما أهلهما لحقن دمائهم، وهو ضرب من الصلح لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال انتهى.

والذى يظهر أن الشبهة فى ذلك قول ابن عمر «أن النبى ﷺ قاتل أهل خيبر فغلب على النخل، وألجأهم إلى القصر فصالحوه على أن يجلو منها وله الصفراء والبيضاء والحلقة ولهم ما حملت ركابهم على أن لا يكتموا ولا يغيبوا» الحديث وفى آخره «فسبى نساءهم وذراريهم، وقسم أموالهم للنكث الذى نكثوا، وأراد أن يجليهم فقالوا: دعنا فى هذه الأرض نصلحها»[1] الحديث أخرجه أبو داود والبيهقى وغيرهما.

وكذلك أخرجه أبو الأسود فى المغازى عن عروة.

فعلى هذا كان قد وقع الصلح ، ثم حدث النقض منهم فزال أثر الصلح ، ثم من عليهم بترك القتل وإبقائهم عمالاً بالأرض ليس لهم فيها ملك، ولذلك أجلاهم عمر، فلو كانوا صولحوا على أرضهم لم يجلوا منها والله أعلم.

واحتج الطحاوى على أن بعضها فتح صلحًا بما أخرجه هو وأبو داود من طريق بشير ابن يسار «أن النبى ﷺ لما قسم خيبر عزل نصفها لنوائبه وقسم نصفها بين المسلمين» وهو حديث اختلف فى وصله وإرساله ، وهو ظاهر فى أن بعضها فتح صلحًا، والله أعلم.



فيه مسائل:

● **الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ.**

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾

والأشمل من ذلك والأبلغ فى مطابقة الآية أن يقال: إن الدعوة إلى الله طريق الرسل وأتباعهم.

---

(١) أخرجه أبوداود (٣٠٠٦) عن ابن عمر به.

الثانية: التَّنْبِيـه عَلَى الإخْلاصِ، لأنَّ كَثِيـراً مِنَ النَّاسِ لَوْ دَعَا إِلَى الحَقّ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى نَفْسه.

الثالثة: أَنَّ البَصِيرَةَ مِنَ الفَرَائِضِ.

الرابعة: مِنْ دَلائِل حُسْنِ التَّوْحِيدِ كَوْنُهُ تَنْزِيهًا لله تَعَالَى عَنِ المَسَبَّةِ.

● **الثانية: التنبيه على الإخلاص.**

وتؤخذ من قوله: ﴿**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ**﴾ ، ولهذا قال: «**لأن كثيـراً من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعـو إلى نفسه**»؛ فـالذى يدعـو إلى الله هو الذى لا يريد إلا أن يقـوم دين الله، والذى يدعـو إلى نفسه هـو الذى يريد أن يكون قوله هو المقـبول، حـقًا كان أم باطلاً.

● **الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.**

وتؤخـذ من قوله تعـالى: ﴿**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيـــرَةٍ**﴾ ووجه كـون البصـيرة من الفرائض؛ لأنه لابـد للداعية من العلم بما يـدعو إليه، والدعـوة فريضة، فـيكون العلم بذلك فريضة.

قلت: لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فالعلم والبصيرة اللازمة للدعوة فرض وواجب لأنه لا تتم الدعوة إلا به.

● **الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهًا لله عن المسبة.**

قلت: وفيه الحديث القدسي: «**يسبنى ابن آدم ويشـتمنى فمن شتمـه لى أن جعل لى ولد ومن سبه لى قال أيعيدنى بعد أن أكون عظامًا**»(١).

ويؤخذ من قوله تعالى : ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ فسبحان الله دليل على أنه واحد لكماله.

ومـعنى عن المسبّة ، أي: وعن مماثلـة الخالق للمـخلوق، إذ تمثـيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

---

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٣١٩٣) عن أبي هريرة به.

الخامسة: أَنَّ مِنْ قُبحِ الشِّرْكِ كَوْنُهُ مَسَبَّةً لله

السادسة: وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: إِبْعَادُ المُسْلِمِ عَنِ المُشْرِكِينَ، لِئَلاَّ يَصِيرَ مِنْهُم وَلَوْ لَمْ يُشْرِك.

السابعة: كَوْنُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ وَاجِبٍ.

● **الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبّة لله.**

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ بعد قوله: ﴿**وسُبْحَانَ اللَّهِ**﴾.

● **السادسة - وهى من أهمها: إبعاد المسلم عن المشركين؛ لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك.**

لقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾، ولم يقل: «وما أنا مشرك» لأنَّه إذا كان بينهم، ولو لم يكن مشركًا، فهو فى ظاهره منهم، ولهذا لما قال الله للملائكة: ﴿**اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ**﴾؛ توجّه الخطاب له ولهم.

● **السابعة: كون التوحيد أول واجب.**

تؤخذ من قوله ﷺ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**»، وفى رواية: «**أن يوحدوا الله**».

وقال بعض العلماء: أول واجب النظر، لكن الصواب أن أول واجب هو التوحيد، لأنَّ معرفة الخالق دلت عليها الفطرة. اهـ.

[قلت]: **وهذه المسألة فيها:** رد على بعض المتكلمين أو على أشباههم الذين فى دائرة أهل السنة فى أنهم قالوا أول واجب هو النظر فى دلائل التوحيد ثم بعد ذلك يوحد. وبعضهم قال لا يقبل توحيد للعامى المقلد لأنه لايوحد إلا بالنظر فى الأدلة، وهذا كلام المعتزلة أو بعض من ينتسب إلى أهل السنة ممن كانوا شابهوا المعتزلة أو كانوا منهم ولعل بعضهم يسلك هذا المسلك وهو التكفير كانوا زماناً يعتبرون الإنسان غير موحد إلا إذا تعلم التوحيد بأدلته على أيديهم ويشرحوا كتاب كذا بحيث بعد ذلك يحكموا عليك بالإسلام فلا يحكموا لك بالإسلام إلا بعد التعلم وكأنهم شابهوا من قال بالنظر فى الأدلة فيما بينهم والجواب عليهم من هذا الحديث: أن النبى ﷺ لم يوجب على هؤلاء ولا على غيرهم النظر أولاً فى الأدلة للتوحيد، ثم يوحدوا بل إنه دعا الأميين ودعا

الثامنة: أَنَّهُ يَبْدَأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الصَّلاةِ.

التاسعة: أنَّ مَعْنَى «أَنْ يُوَحِّدُوا الله» مَعْنَى شَهَادةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله.

الكتابيين إلى التوحيد أولاً لا بالنظر فى أدلته ثم بعد ذلك يوحدوا **«فليكن أول ما تدعوهم إليه هو شهادة أن لا إله إلا الله فإذا وحدوا الله أو فإذا عرفوا الله»**.

لا إلى النظر فى الأدلة بل الشهادة، فيقروا بها أولاً ثم يأتيهم التفصيل والبيان شيئًا فشيئًا ولأن التوحيد توحيد الربوبية ومعرفة الخالق دلت عليه الفطرة.

قال تعالى: **﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾**

وفى صحيح مسلم: **«إنى خلقت عبادى حنفاء»**(١).

وفى الصحيح: **«كل مولود يولد على الفطرة..»**(٢).

فهى مسألة فطرية، وداعى الفطرة فيك يوافق هذه الفطرة المعينة للداعى الذى يدعوك إلى التوحيد قبل عرض الأدلة والحاصل أنه لا مانع من عرض الأدلة لكن لا تكون ابتداء لكى يوحد فى آخر الأمر بل يعرض عليه الإسلام ليقبله جملة وغيبًا ثم يبحث عن الأدلة إن وصل إليها وآمن بها فبها ونعمت.

وإن ارتد فهو مرتد.

ولو كان النظر فى الأدلة واجب ولا يقبل توحيد العامى لكان النبى ﷺ أقر خالد ابن الوليد لما قتل من قال لا إله إلا الله رغم وجود قرينة أنه قالها خشية من السيف ولم يقل لم يكن عنده أدلة، أو أنه لم يفهم معناها أو مقتضياتها ولم يقره على ذلك، بل عاتبه فى ذلك، وقد تقدم هذا الكلام بالتفصيل.

● **الثامنة: أن يُبدأ به قبل كل شيء.**

تؤخذ من قوله ﷺ : **«ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه» «فإن هم أطاعوك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة»**.

● **التاسعة: أنَّ معنى أن يوحِّدوا الله معنى شهادة أن لا إله إلا الله.**

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار.
وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال في تخريج أحاديث الظلال» (٤٠٦).

(٢) تقدم تخريجه.

العاشرة: أَنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الكتـابِ وَهُوَ لاَ يَعْرِفُهَا أَو يَعْرِفُها وَلا يَعْمَلُ بِهَا.

الحادية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى التَعْلِيم بِالتَّدْرِيجِ.

الثانية عشرة: البَدَاءَةُ بِالأَهَمّ فَالأَهَمِّ.

الثالثة عشرة: مَصْرِفُ الزَّكَاةِ.

الرابعة عشرة: كَشْفُ العَالِمِ الشُّبْهَةَ عَنِ المُتَعَلِّمِ.

تؤخذ من تعـبير الصحـابى حيث عبَّر فى رواية بقوله: «شـهادة أن لا إله إلا الله» وفى رواية عبَّر بقوله: «أن يوحدوا الله».

● **العاشرة: أنَّ الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها.**

ومراده بقوله: «لا يعـرفها، أو يعرفها» شهـادة أن لا إله إلا الله، وتؤخذ من قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»، إذ لو كانوا يعرفون لا إله إلا الله، ويعملون بها ما احتاجوا إلى الدعوة إليها.

● **الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.**

تؤخذ من قـوله ﷺ لمعاذ: «**ادعـهم إلى أن يوحـدوا الله، فـإن هم أطاعـوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم ...**» إلخ الحديث.

[قلت] وأيضًا امتثـالاً لقوله تعالى: ﴿**وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنـتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾.

● **الثانية عشرة : البدء بالأهم فالأهم.**

تؤخذ من أمرهﷺ معاذًا بالتوحيد ليدعو إليه أولاً، ثم الصلاة، ثم الزكاة.

● **الثالثة عشرة: مصرف الزكاة.**

تؤخذ من قوله: «**فترد على فقرائهم**».

● **الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.**

المراد بالشبهة هنا: شبهة العلم، أي: يكون عنده جهل.

الخامسة عشرة: النَّهْيُ عَنْ كَرَائِمِ الأَمْوَالِ.

السادسة عشرة: اتِّقَاءُ دَعْوَةِ المَظْلُومِ.

السابعة عشرة: الإِخْبَارُ بِأَنَّهَا لاَ تُحْجَبُ.

تؤخذ من قوله: «**إن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**».

فبيَّن أنَّ هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأنَّ مصرفها الفقراء.

[قلت] لماذا اختار ابن عثيمين أن المصنف قصد ذلك وهو آخذ هذه الفوائد من الحديث جزء جزء.

فقال له خذ صدقة من الأغنياء ترد على الفقراء ثم قال له إياك وكرائم أموالهم فبقى إما أن نقول إن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ترد على فقرائهم فكشف الشبهة عنه أنه أعلمه بمصرف من مصارف الزكاة.

أو إما أن نقول أنه ينهاه عن أخذ الصدقة عن كرائم الأموال.

لأن هذه الكرائم تدخل فى أموالهم فقد يظن أن الأمر عام يشمل جميع الأموال فقال له: إن الأمر يشمل الأموال التى ليس من كرائم الأموال فإما أن تكون الشبهة هى هذه أو أنه بين له مصرف من مصارف الزكاة. لكن الأقرب أن تكون الشبهة فى كرائم الأموال، والله أعلم.

● **الخامسة عشرة: النهى عن كرائم الأموال.**

تؤخذ من قوله: «**فإياك وكرائم أموالهم**»، إذ إياك تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي.

● **السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.**

تؤخذ من قوله: «**واتق دعوة المظلوم**».

● **السابعة عشرة: الإخبار بأنَّها لا تُحجب.**

تؤخذ من قوله: «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**». فقرن الترغيب أو الترهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيبًا، ويبعدها ويزجرها إن كان ترهيبًا، لقوله: «**اتق دعوة المظلوم**» فالنفس قد لا تتقي، لكن إذا قيل: ليس بينها وبين الله حجاب، خافت ونفرت من ذلك.

الثامنة عشرة: مِنْ أَدِلَّةِ التَّوحِيـــدِ مَا جَرَى عَلَى سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَسَادَاتِ الأَوْلِيَاءِ مِنْ المَشَقَّةِ وَ الجُوعِ وَالوبَاءِ.

التاسعة عشرة: قَوْلُهُ: «لأُعطِيَنَّ الرَّايَةَ..» إلخ: عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ.

● **الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.**

والظاهر أن المؤلف رحمه الله يريد الإشارة إلى قصة خيبر، إذ وقع فيها فى عهد النبي ﷺ جوع عظيم، حتى إنهم أكلوا الحمير والثوم، وأمَّا الوباء، فهو ما وقع فى عهد على رضى الله عنه، وأما المشقة، فظاهرة.

ووجه كون ذلك من أدلة التوحيد: أنَّ الصبر والتحمل فى مثل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان فى توحيده وأن قصده الله، ولذلك صبر على البلاء. أهـ.

[قلت] : إن كان رجل منافق ـ نسأل الله العافية ـ يدعو لنفسه، فيريد أن المسجد يملأ والناس تصفق له، ويقال له يا شيخ فلان ويريد أن يذاع اسمه، ولا يدعو إلى الله فإنه إن أوذى وأكل الحمير والثوم كما حدث للصحابة من المشقة والجوع فى غزوة خيبر فإن حدث له مثل هذا، أو أصابه مرض أو تعب فعند ذلك يظهر نفاقه فى جزعه وعدم رضاه وعدم صبره لأنه لم يكن هذا العمل لله خالصاً إنما لحظ نفسه فلما لم يجد هذا الحظ ذهب جفاء مع الزبد وأما ما ينفع الناس فيمكث الأرض فهذا كان ظاهراً جدًا فى هذه الغزوة فإن كان هؤلاء الناس غير مخلصين فما الذى كان يصبرهم على ذلك وما الذى يجعلهم يحتملوا، لو أن أحدهم ذاهب يدعو لوجاهته وشرفه ويقال له يا شيخ فلان ولم يقال له ذلك، بل ضرب وأوذى وجاع.. ومع ذلك صبر واحتمل واحتسب وثبت حتى مرت هذه الفتنة والابتلاءات وهو صامد، والنبى ﷺ يقول: «**أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب**»(1). فإن كان يدعو لنفسه أو لغير الله، فما الذى يجعله يحتمل هذه المشقة، إن كان منافقًا فى مثل هذه المواقف، فصبره على المشقة والجوع والوباء هو والصحابة دليل على أنهم كانوا يدعون إلى الله ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ والله المستعان.

● **التاسعة عشرة: قوله: «لأعطين الراية» علم من أعلام النبوة.**

لأنَّ هذا حصل، فعلى بن أبى طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. اهـ.

---

(1) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٢/ ١١٧ ـ النووي) عن البراء به.

وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال في تخريج أحاديث الظلال» (٥٣٤) وانظر «شرحنا لزاء المعاد».

[قلت] إن الله عز وجل يفتح بالغيب النسبى على من يشاء من الرسل كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فالرسل هم الذين استثنوا فى الغيب والغيب النسبي.

فالغيب غيبان.. غيب مطلق وغيب نسبي.

والغيب المطلق هو الذى ذكره الله عز وجل فى قوله تعالي: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ هذه خالصة لله عز وجل كما قال ابن عمر مرفوعًا فى الصحيح: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله»[1].

حصر وقصر لهذه المفاتح على الله فقط فلا يطلع عليها لا ملك مقرب، ولا نبى مرسل والأدلة على ذلك واضحة وجليه أوضحتها فى خطبة، « الترغيب فى الإيمان بالغيب»[2] فالغيب النسبى هو الذى يفتح الله به على من يشاء من رسله تأييدًا له وتأييدًا لرسالته وإظهارًا لنبوته كما قال تعالى حكاية عن عيسى حينما كان يدعو بنى إسرائيل ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ﴾ فهذا غيب نسبى فتح الله به على من ارتضى من رسله. كعيسى، وكيوسف عليه السلام، قال: ﴿لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ بتأويله قبل أن تأتيكما، فهذا غيب نسبى وليس مطلق.

نعم أصحابه فى السجن لا يعرفونه، لكن من طبخه يعرفونه فهذا غيب نسبى يظهر لمن كان فى خارج السجن لمن كان يصنع الطعام ويغيب عن من فى داخل السجن ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾فالذى أخبر به الرسول ﷺ عن هذا الفتح كان غيباً من جنس الغيب الذى فتح الله به على عيسى ويوف والرسول ﷺ فتح عليه بهذا الغيب وقيل له أن عليًا سيفتح الله على يديه «فأخبر بذلك فكان الأمر كما أخبر فهذا علم من أعلام النبوة».

---

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٤٦٩٧) عن ابن عمر به.

(٢) انظر كتاب «فقه الخطابة وزاد الخطيب».

العشرون: تَفْلُهُ فى عَيْنَيْهِ عَلَمٌ من أَعْلامِهَا أيضاً.

الحادية والعشرون: فَضِيلَةُ عَلىٍّ رَضِىَ الله عَنْهُ.

الثانية والعشرون: فَضْلُ الصَّحَابَةِ في دَوْكِهِم تَلْكَ اللَّيْلَةَ وَشُغْلِهِمْ عَنْ بِشَارَةِ الفَتْحِ.

الثالثة والعشرون: الإيمَانُ بِالقَدَرِ لِحُصولِهَا لِمَنْ لم يِسْعَ لَهَا ومَنْعِهَا عَمَّنْ سَعَى.

● **العشرون: تفله فى عينيه علم من أعلامها أيضًا.**

لأنه بصق فى عينيه، فبرأ كأن لم يكن به وجع.

● **الحادية والعشرون: فضيلة على بن أبى طالب رضى الله عنه.**

وهذا ظاهر؛ لأنَّه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

● **الثانية والعشرون: فضل الصحابة فى دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح.**

لأنهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

● **الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى.**

لأنَّ الصحابة غدوا على رسول الله ﷺ مبكرين، كلهم يرجو أن يُعطاها ولم يعطوها، وعلى بن أبى طالب مريض ولم يسع لها، ومع ذلك أعطى الراية.

[قلت] «فلما أصْبحوا غدو على رسول الله » ولم يحضر على فقال «**أين على بن أبى طالب**» فلم يغدوا معهم، فهم آمنوا بالقدر... إلخ.

إلا أنه لم يسلم للمصنف ماذهب إليه بإطلاق.

فعلى بن أبى طالب وإن لم يغدوا كغدوهم إلا أنه سعى كسعيهم وأكثر وقد تقدم عند مسلم أنه كان مريضًا فله رخصة ورغم ذلك لم يتخلف وخرج مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فهنا سعى كسعيهم وأكثر، فتميز بهذه المزية لأنه سعى وهو معذور وهم ليسوا كذلك . والله المستعان.

الرابعة والعشرون: الأَدَبُ فِي قَوْلِه:«عَلَى رِسْلِكَ»

الخامسة والعشرون:الدَّعْوَةُ إِلىَ الإِسْلاَم قَبْلَ القِتَالِ.

السادسة والعشرون: أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِمَنْ دُعوا قَبْلَ ذلكَ وَقُوتلُوا.

السابعة والعشرون: الدَّعْوَةُ بِالحِكْمَةِ لِقولِه: «أَخبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ».

الثامنة والعشرون: المَعْرفهُ بِحَقِّ الله في الإِسْلاَمِ.

التاسعة والعشرون: ثَوَابُ مَنِ اهْتَدَى عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ.

● **الرابعة والعشرون: الأدب فى قوله: «على رسلك».**

ووجهه : أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع.

● **الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.**

لقوله: «**انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام**».

● **السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.**

قلت: لأنه ﷺ أغار على بنى المصطلق حينما لم يسمع النداء ولم يدعهم أولاً لأنهم دعوا قبل ذلك(١).

● **السابعة والعشرون : الدعوة بالحكمة، لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم.**

لأن من الحكمـة أن تتم الدعوة، وذلك بـأن تأمره بالإسـلام أولاً، ثم تخبـره بما يجب عليه من حق الله، ولا يكفى أن تأمره بالإسـلام، لأنَّه قد يطبِّق هذا الإسلام الذى أمرته به وقد لا يطبقه، بل لابد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر.

● **الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله فى الإسلام.**

تؤخذ من قوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**».

● **التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد.**

لقوله: «**لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم**»، أي: خير لك من

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٥٤١)، ومسلم في الجهاد (١/٢٧٨/٦) عن ابن عمر به وانظر «شرحنا لزاد المعاد» فى هدية ﷺ فى الجهاد.

كل ما يستحسن فى الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم: خير لك من أن تتصدق بنعم حمر.

● **الثلاثون: الحلف على الفتيا.**

لقوله: «**فوالله لأن يهدى الله...**» إلخ ، فأقسم النبى ﷺ وهو لم يُستقسم، والفائدة هى حثه على أن يهدى الله به والتوكيد عليه.

ولكن لا ينبغى الحلف على الفتيا إلا لمصلحة وفائدة، لأنَّه قد يفهم السامع أنَّ المفتى لم يحلف إلا لشك عنده.

والإمام أحمد رحمه الله أحيانًا يقول فى إجابته : **أي والله**، وقد أمر الله رسوله بالحلف فى ثلاثة مواضع من القرآن:

فى قوله تعالى: **﴿يَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾**.

وفى قوله تعالى: **﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾**.

وفى قوله تعالى: **﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾**.

فإذا كان فى القَسَم مصلحة ابتداءً، أو جوابًا لسؤال، جاز وربما يكون مطلوبًا أ.هـ.



٥ بابُ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

● **محتويات الباب:**

١- مناسبة الباب لما قبله من الأبواب، ولكتاب التوحيد.

٢- شرح الترجمة.

٣- مناسبة آيات الباب بعضها ببعض.

● **الآية الأولى: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾** [الإسراء: ٥٢]

١- مناسبة الآية للباب.

٢- الإعراب.

٣- سبب نزول الآية.

٤- أقوال المفسرين فى الآية.

٥- أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية.

٦- فصل فى الوسيلة، وأحكامها.

- معنى الوسيلة لغة واصطلاحاً.

- أقسام الوسيلة [مشروعة- ممنوعة] وتفصيل ذلك

- شبهة: التوسل بجاه النبى ﷺ، والرد عليها

● **الآية الثانية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾**[الزخرف]: ٢٦]

١- مناسبة الآية للباب

٢- الإعراب.

٣- أقوال المفسرين فى الآية

● **علاقة الآية بما قبلها، وبيان المقصود الأصلى منها.**

٤- أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية.

٥- فصل فى عدم البراء من الشرك وأهله

● معنى الولاء، لغة وشرعاً.

- أدلة الولاء من الكتاب والسنة.

-أسباب موالاة الكافرين

- أحكام الموالاة [مكفرة- غير مكفرة].

- صورة الموالاة.

● التشبه، وفيه مسألة الإكراه على الكفر والتقية.

● الحب والمودة للدين، لا للحزب ولا لفرقة.

وفيه مسألة حكم الحب الجبلي للكافر.

● النصرة

● الطاعة والمتابعة

● المعاونة والقيام بالأمر والنصح

● المداهنة على حساب الدين

● تولية الكفار أمور المسلمين

● السكنى معهم فى ديارهم وتكثير سوادهم

- تعريف البراء لغة وشرعاً

- صور ليست من الموالاة

● الاستعانة بغير المسلم لفرض حماية الداعى.

● المؤاجرة والمبايعة مع المشركين.

● البيع والشراء.

● قبول الهداية منهم والإهداء إليهم.

● رد السلام عليهم.

● الإنتفاع بما عندهم.

● الزواج من الكتابية

● **الآية الثالثة:** ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]

١- مناسبة الآية للباب والمراد منها.

٢- الإعراب.

٣- معنى الأحبار والرهبان.

٤- ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين.

٥- أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية.

٦- الشرك فى الحكم.

٧- الحكم بغير ما أنزل الله.

٨ ـ فوائد أخرى- لصاحب «مغنى المريد»

الآية الرابعة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة].

١- مناسبة الآية للباب

٢- مناسبة الأية لكتاب التوحيد.

٣- الإعراب.

٤- أقوال المفسرين فى الآية.

٥- أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية.

٦-ـ المحبة وأنواعها.

٧- كلام ابن القيم فى المحبة والعشق وعلاجه.

٨- أسباب المحبة

● **حديث: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله».**

١- مناسبة الحديث للباب

٢- تقسيم الإسلام إلى إسلام حكمى وإسلام حقيقى

٣- مآخذ على من خلَّط بينهما.

٤- شبه لشراح كتاب التوحيد والرد عليها.

٥- فوائد من قوله «وحسابه على الله»

● **مسائل الباب.**



٥ باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

مناسبة الباب لما قبله من الأبواب، ولكتاب التوحيد أيضاً:

قال سليمان آل الشيخ:(١)

ولما ذكر المصنف فى الأبواب السابقة التوحيد وفضائله، والدعوة إليه، والخوف من ضده الذى هو الشرك، فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة هذا الأمر الذى خلقت له الخليقة، والذى بلغ من شأنه عند الله أن من لقيه به غفر له. وإن لقيه بملء الأرض خطايا.

بيَّن - المصنف رحمه الله - فى هذا الباب أن التوحيد ليس اسماً لا معنى له، أو قولاً لا حقيقة له كما يظنه الجاهلون الذين يظنون أن غاية التحقيق فيه هو النطق بكلمة الشهادة من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معنى الإله هو الخالق المتفرد بالملك، فتكون غاية معرفته هو الإقرار بتوحيد الربوبية، وهذا ليس هو المراد بالتوحيد، ولا هو أيضاً معنى «لا إله إلا الله» وإن كان لابد منه فى التوحيد بل التوحيد اسم لمعنى عظيم، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني،

وحاصله هو: البراءة من عبادة كل ما سوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله، وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، وهو معنى «لا إله إلا الله» كما قال تعالى: **﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾** وقال تعالى حكاية عن مؤمن يٓس: **﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾** وقال تعالى: **﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾** وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: **﴿ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار لاجرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الأخرة﴾** والآيات فى هذا كثيرة تبين أن

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (١٠١ - ١٠٢).

معنى «لا إله إلا الله» هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد، وإفراد الله بالعبادة، فهذا هو الهدى ودين الحق الذى أرسل له رسله، وأنزل به كتابه، أما قول الإنسان لا إله إلا الله من غير معرفة لمعناها، ولا عمل به، أو دعواه أنه من أهل التوحيد، وهو لا يعرف التوحيد، بل ربما يخلص لغير الله من عباداته من الدعاء والخوف والذبح.

والنذر والتوبة والإنابة وغير ذلك من أنواع العبادات، فلا يكفى فى التوحيد، بل لا يكون إلا مشركاً والحالة هذه، كما هو شأن عباد القبور. ثم ذكر المصنف آيات تدل على هذا أ.هـ.

قال ابن باز [1]: وذكر- يعنى المصنف- هذا الباب لتعرف حقيقة التوحيد. أهـ

قال ابن عثيمين [2]: وهذا الباب مهم؛ لأنه لما سبق الكلام على التوحيد وفضله والدعوة إليه، كأن النفس الآن اشْرأَبَّت إلى بيان ما هو هذا التوحيد الذى بُوِّب له هذه الأبواب (وجوبه، وفضله، والدعوة إليه).

فُيجاب بهذا الباب، وهو تفسير التوحيد. أهـ.

قال الفقير: ومناسبة هذا الباب لما قبله

[أولاً]: أنه لما كان الداعى إلى الله داعياً على بصيرة فكان لابد أن يفسر له التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله؛ لذلك بوب المصنف هذا الباب، بعد الدعاء مراعاة لترتيب الآية ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾والتفسير للتوحيد غير بيان معناه، ففى هذا بيان لمجمل معنى التوحيد، وفى التفسير بيان تفصيلى للتوحيد؛ لذلك تعرض فيه لعبادة الأحبار والرهبان، ولموالاة الكفار، وتبرء إبراهيم منهم، والأنداد التى تحب كحب الله؛ ولهذا أيضاً تلا هذا الباب أبواباً كثيرة جداً تفسر التوحيد ببيان ضده من الشرك.

[والثانى]: لأنه لما شرح التوحيد على الإجمال فى الباب الأول، وهذا الشرح على الإجمال كافى للداعية أن يدعو للتوحيد، ولكن هذا الشرح لايكفى لاستمرار الدعوة، فكأنه لما عرَّفه على الإجمال ورغب فيه ورهب من ضده من الشرك بيَّن أنك الآن

---

(١) «التعليق المفيد» (٥٧).

(٢) «القول المفيد» (١/ ١٨٣).

تأهلت للدعوة، لكن هذا القدر لايكفى للاستمرار، فينبغى أن نشرح لك على التفصيل، فناسب لاستمرارية الدعوة أن يذكر بعد باب/ الدعاء إلى (لاإله إلا الله) أن يذكر التوحيد على التفصيل ومعنى الشهادة.

[والثالث] : قاله الشراح أن فى هذا الباب مزيد بيان للتوحيد.

[الرابع]: أنه جمع فى هذا الباب الأبواب، التى لايتصور أن يخرج المرء من الإسلام إلى الكفر إلا من خلالها، فالأمور المكفرة إما تقديم عبادة لغير الله ظاهرة أوباطنة.

أما الظاهرة، ففى قوله: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾** فكانوا يقدمون عبادة ظاهرة منها: الدعاء للأنداد والنظراء مع أن أندادهم ونظرائهم كانوا مسلمين يبتغون إلى الله الوسيلة، فهذا باب.

أو عبادة باطنة كالمحبة والمودة والموالاة **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾** فعبادة ظاهرة أوباطنة تخرج المسلم من الإسلام.

ومن هنا ذكر الآية **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾** فبين أن التوحيد فى البراءة من الشرك والمشركين ليس فقط فى عدم الموالاة والمحبة لهم،وصورة ثالثة: أن يقدم أمر أو نهى لغير الله وإن كان مردها للعبادة التي هى الأمر والنهى ،لكن هنا نص على الصورة فقال: **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾** فبين على الإجمال الأبواب التى تخرج الناس من الإسلام إلى الكفر وهي: التحاكم، الأمر والنهي، العبادة الظاهرة، والعبادة الباطنة، ثم ختم الباب بـ«**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم دمه وماله**»ليعلم أن التوحيد ليس الكلمة فحسب، وإنما الإتيان بلوازمها. والله أعلم.



●شرح الترجمة:

قال سليمان آل الشيخ [1] : قوله : **(باب تفسير التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله)** أى تفسير هاتين الكلمتين، والعطف لتغاير اللفظين، وإلا فالمعنى واحد أ.هـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ[2]: هذا من عطف الدال على المدلول. أ. هـ .

وقال السعدي[3]: هذه المسألة أكبر المسائل وأهمها كما قال المصنف - رحمه الله- وحقيقة تفسير التوحيد: العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال وإخلاص العبادة له.

وذلك يرجع إلى أمرين:

نفى الألوهية كلها عن غير الله، بأن يعلم ويعتقد أن لايستحق الألهية ولاشيئاً من العبودية أحد من الخلق لا نبى مرسل ولا ملك مقرب ولاغيرهما، وأنه ليس لأحد من الخلق فى ذلك حظ ولانصيب.

والأمر الثاني: إثبات الألوهية لله تعالى وحده لاشريك له وتفرده بمعانى الألوهية كلها وهى نعوت الكمال كلها، ولايكفى هذا الإعتقاد وحده حتى يحققه العبد بإخلاص الدين كله لله فيقوم بالإسلام والإيمان والإحسان وبحقوق الله وحقوق خلقه قاصداً بذلك وجه الله وجالباً رضوانه وثوابه.

ويعلم أن من تمام تفسيرها وتحقيقها البراءة من عبادة غير الله، وأنَّ إتخاذ أنداد يحبهم كحب الله أو يطيعهم كطاعة الله أويعمل لهم كما يعمل لله ينافى معنى لا إله إلا الله أشد المنافاة. اهـ.

وقال ابن باز[4]: بين المؤلف هنا تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله بما يوافق لفظها، وبما يضادها، لأن الشيء يعرف بضده، وقد قيل : والضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتميز الأشياء، وذكر هذا الباب لتعرف حقيقة التوحيد.

وحقيقته: هو إفراد الله بالعبادة وتخصيصه بها وبجميع أنواع العبادة، فتؤمن بذلك بالقلب وتعمل بالجوارح. وقوله ﴿**وشهادة أن لا إله إلا الله**﴾هذا من باب عطف الدال والشهادة على المدلول، وهو التوحيد ، فالتوحيد هو شهادة بالله وحده. اهـ.

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (١٠١)

(٢) «فتح المجيد» (١/ ١١٩).

(٣) «القول السديد» (٣١٢٣٠).

(٤) «التعليق المفيد» (٥٧).

وقال ابن عثيمين (١) : التفسير معناه: الكشف والإيضاح، مأخوذ من قولهم: فَسَرَت الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فَسَرْت ثوبي؛ فاتضح ما وراءه، ومنه تفسير القرآن الكريم .

والتوحيد تقدم تعريفه، والمراد به هنا اعتقاد أن الله واحد فى ألوهيته.

وقوله :«وشهادة أن لاإله إلا الله».

معطوف على التوحيد؛ أى: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله والعطف هنا من باب عطف المترادفين؛ لأن التوحيد حقيقة هو: شهادة أن لا إله إلا الله . اهـ.



مناسبة آيات الباب بعضها ببعض، ومابينها من ترابط.

الأولى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾(٢)

الثانية: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣)

الثالثة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(٤)

الرابعة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(٥).

قال حامد بن محمد(٦) والشيخ ـ رحمه الله ـ قد ذكر للإسلام والتوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله أربع آيات من كتاب الله هن له كالقواعد حيث لاوجود له ولاثبات إلا بها، وهن أم المسائل التوحيدية وأصلها ،حيث إن المسائل تتولد منها وتنتج وتتفرع منها تفرع الأغصان من أصل الشجرة.

قلت- أى حامد بن محمد: فكما أن الأغصان تتقارب ضعفاً وقوة، كذلك التوحيد فى قلب المسلم والمؤمن والمحسن، فتأمل.

---

(١) القول المفيد (١/ ١٨٣)
(٢) الإسراء(٥٧)
(٣) الزخرف : ٢٦، ٢٨
(٤) التوبة : ٣١
(٥) البقرة: ١٦٥
(٦) «فتح الله الحميد المجيد» (١٩١)

الآيات المذكورات فى ترقى مراتبها كأربع درجات مالم ترق الأولى لم ترق الثانية ، ومالم ترق الثانية لم ترق الثالثة، ومالم ترق الثالثة لم ترق الرابعة.

الآية الأولى قوله تعالي﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾.

أعلم أن هذه الآية اشتلمت على ثلاث فوائد يلزمك أن تؤمن بها وتعمل بمقتضاها وتنبذ من خالفها وتحاربه.

الأولى: أن ماسوى الله مطلقاً لايملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً.

الثانية: أن ما سواه عبيده وتحت قهره وتصريفه، ويبتغون إليه الوسيلة بالأعمال الصالحة فهو ربهم وإلههم وحده لاشريك له.

الثالثة: أن من سواه يرجون رحمته ويخافون عذابه ويعلمون أن عذابه كان محذوراً، فهو الواحد الأحد المتفرد بالعز والجبروت والملك والملكوت وهو الحى الذى لايموت.

فإذا رقيت هذه الدرجة وماتضمن من الوحدانية حينئذ طولب **بالدرجة الثانية** وهى الحب فى الله والبغض فيه والمولاة فى الله والمعاداة فيه والمشار إليها فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(٢) فينبغى لزارع الإيمان أن يستعين بالله فى إنشاء عرْقين من سويداء قلبه:

عرْق المحبة لأهل الإيمان والتوحيد والطاعة.

وعرْق البغض لأهل الشرك والكفر والنفاق أصلا، ولأهل المعاصى فرعاً، فإذا أنشأتهما من قلبك اسقهما بماء التصديق حتى يثمر عرق المحبة بالموالاة لأهل الحق من النصيحة لهم والدعاء لهم والبر والإحسان إليهم بحسب الطاقة والقدرة والذب عن

(١) الزخرف : ٢٦، ٢٨

(٢) الممتحنة (٤)

أعراضهم وقضاء حوائجهم وإفشائهم بالسلام وعيادة مرضاهم وتشييع جنائزهم وغير ذلك من الحقوق.

ويثمر العرق الثانى بالمعاداة لأهل الباطل من المجاهدة والتبرى منهم وعدم الركون إليهم والتغليظ عليهم وعدم مواكلتهم ومجالستهم إذا رأى منهم العناد والإعراض.

عن ابن عباس «من أحب فى الله وأبغض فى الله وعادى فى الله ووالى فى الله فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد أحد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على مر الدنيا وذلك لايُجْدِ على أهله بشىء». رواه ابن جرير(١).

* فإذا قبلت هذه الدرجة وتمكنت فيها بلا التفات ولامحاباة **طولبت بالثالثة** وهى لب الكتاب وزبدة الرسالة والكتاب، وهى أن يكون الله أحب إليك مما سواه، فإذا تقدم أمره على أمر من عداه وذلك قوله تعالى **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾**(٢). قوله: يحبونهم كحب الله دل على أنهم يساوون مع الله غيره كما قال تعالى حكاية عن المشركين فى النار. **﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**(٣)

قال ابن تيمية: أى فى المحبة، فإذا عرفت من ساوى مع الله غيره فى المحبة أشرك الشرك الأكبر، فكيف بمن رجح محبة الند على الله تعالي؟

بل وكيف بمن أقبل بكليته على غيره قلباً وقالباً؟

بمعنى أنه يعظم أوامر الند وحرماته أشد تعظيماً إذا هتك حرمة من حرمات الند غضب غضب الليث واحمرت وجنته وانتفخت أوداجه وقام وقعد فيه، وإن هتك حرمة من حرمات الله لم يرفع به رأساً بل ويثبط غيره عن القيام فيه.

فإذا رقيت هذه الدرجة وتمكنت فيها **طولبت بالدرجة الرابعة** وهى المتممة للدرجات الثلاث وهى المتابعة لرسول الله ﷺ فيدور مع قول الرسول وفعله نفياً وإثباتاً بلا روغان، فإن أتاه حكم من غيره وازنه بميزان ماجاء به ﷺ، فإن وافقه أخذ بالقول، وإن

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (٣٥٣) بإسناد ضعيف.

(٢) البقرة: (١٦٥) (٣) الشعراء: (٩٧، ٩٨)

خالفه ضربه بالحائط، قال تعالى ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١)وقال تعالي﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(٢) وسيأتى زيادة بيان إن شاء الله فى بابه.

واستدل الشيخ - أى محمد بن عبدالوهاب ـ على ذلك بالآية الرابعة وهى قوله تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾(٣) عن عدى بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية قال: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليسوا يحللون لكم الحرام ويحرمون عليكم الحلال فتطيعونهم؟ قال : بلي، قال : **فتلك عبادتهم**» (٤) . وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**من قال: لاإله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله**» (٥).

اعلم أن الرسول ﷺ قيد قول : لا إله إلا الله بالكفر بما يعبد من دون الله فمن لم يكفر بما يعبد من دون الله ما قال : لاإله إلا الله، فتأمل حتى تميز بين الناس، ويشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب. أهـ



(١) النساء : (٦٥) (٢) النساء : (٩٥)

(٣) التوبة : (٣١)

(٤) سيأتى تخريجه

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الايمان (١/ ٢٣٤/ ٣٧) وسيأتى تمام تخريجه فى حديث المتن من خلال هذا الباب.

وقول الله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾(١).

●مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جار الله(٢): ومناسبتها للباب أن التوحيد لايصح إلا إذا بنى على الإيمان بالله، وإخلاص العبادة له، وعدم التقرب إلا إليه. أ. هـ.

وقال ابن باز(٣): أن دعاء من لايملك كشف الضر أو جلب النفع من دون الله هذا هو الشرك وضده هو التوحيد . أ. هـ.

قال ابن عثيمين (٤) : وجه مناسبة الآية للباب (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله):

أن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك، بحيث لايدعو مع الله أحداً؛ لاملكاً مقرباً، ولانبياً مرسلاً، وهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والملائكة لم يتبرؤا من الشرك، بل هم واقعوان فيه، ومن العجب أنهم يدعون من هم فى حاجة إلى مايقربهم إلى الله تعالي؛ فهم غير مستغنين عن الله بأنفسهم؛ فكيف يغنون غيرهم؟!. اهـ.

وقال القرعاوي(٥): حيث دلت الآية على أن معنى التوحيد هوشهادة أن لاإله إلا الله هو ترك ماعليه المشركون من دعاء الأنبياء والصالحين والاستشفاع بهم إلى الله، وإنه لايكفى النطق بالشهادة مالم يكفر بكل معبود سوى الله. أهـ.

الإعراب(٦):

(أولئك) مبتدأ و(**الذين يدعون**) بدل منه وجملة (**يبتغون**) خبر والواو فاعل و(**إلى ربهم**) متعلقان بالوسيلة و(**الوسيلة**) مفعول به ويجوز لك أن تعرب الذين هى الخبر وجملة يبتغون حال من فاعل يدعون. (**أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه**) أيهم بدل من فاعل يبتغون وأى موصولة ويجوز أن تكون استفهامية فهى مبتدأ وأقرب خبر وعبارة أبى حياة: «واختلفوا فى إعراب (**أيهم أقرب**) وتقديره، فقال الحوفي: أيهم أقرب ابتداء وخبر والمعنى ينظرون أيهم أقرب فيتوسلون به ويجوز أن يكون أيهم أقرب

---

(١) الإسراء ٥٧.
(٢) «الجامع الفريد» (٣٣)
(٣) «التعليق المفيد» (٥٧)
(٤) «القول المفيد» (١/ ١٨٥)
(٥) «الجديد» (٧٢).
(٦) «الإعراب» (٥/ ٤٦٠) .

بدلاً من الواو فى يبتغون، ففى الوجه الأول أضمر فعل التعليق وأيهم أقرب فى موضع نصب على إسقاط حرف الجر لأن نظر إن كان بمعنى الفكر تعدى بفى وإن كانت بصرية تعدت بإلى فالجملة المعلق عنها الفعل على كلا التقديرين تكون فى موضع نصب على إسقاط حرف الجر كقوله (فلينظر أيها أزكى طعاماً) وفى إضمار الفعل المعلق نظرا والوجه الثانى قاله الزمخشرى قال: وتكون أى موصولة أى يبتغى من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله فيكف بغير الأقرب» فعلى هذا الوجه يكون أقرب خبر مبتدأ محذوف واحتمل أن يكون أيهم معرباً وهو الوجه واحتمل أن يكون مبنياً لوجود مسوغ البناء، وأقرب خبر لمبتدأ محذوف والمعنى يبتغون من هو أقرب منهم وأمت إليهم بزلفى الوسيلة إلى الله فما بالك بغير الأقرب فكيف يزعمون أنهم آلهة، (ويرجون رحمته) عطف على (يبتغون) ويرجون: فعل مضارع وفاعل وحذفت لام الفعل وهى الواو لالتقاء الساكنين ورحمته: مفعول به ويخافون عذابه عطف على يرجون رحمته. (إن عذاب ربك كان محذوراً) تعليل للخوف وإن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو ومحذوراً خبركان. اهـ.

● **أسباب النزول**: فى سبب نزولها أقوال

(أحدها): أن نفراً من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجن والنفر من العرب لايشعرون، فنزلت هذه الآية والتى بعدها، روى عن ابن مسعود(١).

عن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن، فأسلم النفر من الجن، وتمسك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل الله﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾(٢) كلاهما بالياء.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: نزلت هذه الآية فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون، والنفر من العرب لايشعرون بذلك(٣).

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى «زاد المسير» ـ(٥/ ٣٧، ٣٨) وانظر تخريجه بعده

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٧١٤)، ومسلم فى التفسير» (٩ / ٣٥٧ / ٢٨)

وأنظر تخريجه فى «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا».

(٣) [صحيح] ذكره السيوطى فى «الدر» (٤ / ٣٤٣) ونسبه لابن جرير، وابن مردويه، وأبى نعيم، والبيهقى فى «الدلائل»

أنظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد»(ح١٥٤) بتخريجنا)

قال ابن كثير : (١). واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾وهذا لايعبر به عن الماضى فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة.

[الثاني]: نزلت فى قبائل من العرب كانت تعبد صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن:

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: كان قبائل من العرب يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن، ويقولون هم بنات الله، فأنزل الله ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾الآية(٢).

[الثالث]: نزلت فى أهل الشرك كانوا يعبدون الملائكة وعزيراً والمسيح وأمه والشمس.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى الاية. قال كان أهل الشرك يعبدون الملائكة والمسيح وعزيراً(٣).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾قال : عيسى وأمه وعزير(٤).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله :﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ قال: هم عيسى وعزير والشمس والقمر(٥).

[الرابع](٦) أن المشركين كانوا يعبدون الملائكة فقط ويقولون : هى تشفع لنا عند الله، فلما ابتلوا بالقحط سبع سنين، قيل لهم ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾، قاله مقاتل ، والمعنى : قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة، ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾له إلى غيركم .

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٤٦).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤ / ٣٤٣) ونسبه لابن جرير

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٣٣١٨) وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن جرير، وابن مردويه.

وأنظر «فتح القدير» (٤ ١٠ ٨-بتخرجنا)

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه. وانظر «فتح القدير» (٨١٥ ـ بتخريجنا).

(٥) [ضعيف) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لسعيد بن منصور وابن جرير، وابن المنذر، «القدير» (٨١٠٦ ـ بتخريجنا) وأيضاً «فتح المجيد» (ح١٥٦) بتخريجنا)

(٦) «زاد لمسير» (٥/٣٧/٣٨).

قال سليمان آل الشيخ

قال شيخ الإسلام[1]: وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله سواء كان من الملائكة أومن الجن أو من البشر.

والسلف في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله معنى لفظ الخبز؟ فيريه رغيفاً، فيقول هذا، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية للنوعين فالآية خطاب لكل من دعا دون الله مدعوا. وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه.

فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية، كما تتناول من دعا الملائكة والجن.

ومعلوم أن هؤلاء كلهم يكونون وسائط فيما يقدره الله بأفعالهم، ومع هذا فقد نهى الله عن دعائهم، وبين أنهم لايملكون كشف الضر عن الداعين ولاتحويله، لايرفعونه بالكلية، ولايحولونه من موضع إلى موضع ، كتغيير صفته أو قدره؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلاً﴾ فذكر النكرة تعم أنواع التحويل فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين، أو دعا الملائكة أو دعا الجن فقد دعا من لايغيثه، ولايملك كشف الضر عنه، ولاتحويله. انتهي.

قال سليمان آل الشيخ[2]: وبنحو ما تقدم من كلام هؤلاء قال جميع المفسرين. أهـ.

●ماجاء فى تفسير الآية من القرآن:

قال الشنقيطى[3]: وهذا المعنى الذى بينه جل وعلا فى هذه الآية الكريمة: من أن كل معبود من دون الله لاينفع عابده، وأن كل معبود من دونه مفتقر إليه ومحتاج له جل وعلا - بينه أيضاً فى مواضع أخر، كقوله فى «سور سبإ»﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[4]وقوله «سورة الزمر»﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات. أهـ.

---

(١) نقلاً عن «تيسير العزيز الحميد» (١٠٢، ١٠٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٠٣).

(٣) «أضواء البيان» (٣/ ٤٣٧).

(٤) سبأ/ (٢٢، ٢٣).

(٥) الزمر/ (٣٨)

قوله [أولئك]

في المشار إليهم بـ ﴿أولئك﴾ أربعة أقوال.

أحدها أنهم الجن الذين أسلموا.

والثانى : الملائكة

والثالث: أنهم المسيح، وعزير، والملائكة، والشمس، والقمر قاله ابن عباس[1].

الرابع: صنف من الملائكة يقال لهم الجن.

قال الفقير: وتقدم فى أسباب النزول تفصيل ذلك والراجح من كلام ابن تيمية.

قوله [يدعون] فيها قولان:

أحدهما: يعبدون ، أى : يدعونهم آلهة، وهذا قول الأكثرين.

والثاني: أنه بمعنى يتضرعون إلى الله فى طلب الوسيلة [2].

وعلى هذا يكون قوله: ﴿**يدعون**﴾ راجعاً إلى ﴿**أولئك**﴾، ويكون قوله : ﴿**يبتغون**﴾ تماماً للكلام.

وعلى القول الأول : يكون «يدعون» راجعاً إلى المشركين، ويكون قوله : ﴿**يبتغون**﴾ وصفاً لـ ﴿**أولئك**﴾ مستأنفاً.

وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبدالرحمن: «تدعون» بالتاء.

قال ابن الأنبارى : فعلى هذا، الفعلُ مردوداً إلى قوله ﴿**فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ**﴾ ومن قرأ ﴿**يدعون**﴾ بالياء، قال : العرب تنصرف من الخطاب إلى الغيبة إذا أُمن اللَّبس . ومعنى ﴿**يدعون**﴾ يدعونهم آلهة[3].

قوله [يبتغون]

قال البغوى [4] : أى يطلبون.

وقال الزمخشري[5]: يحرصون

---

(١) «زاد المسير» (٥/ ٣٧، ٣٨). وتقدم تخريج الحديث.

(٢، ٣) «زاد المسير» (٥/ ٣٧، ٣٨).

(٤) «معالم التنزيل» (٣/ ٥٠٣)

(٥) الكشاف (٢/ ٣٦٤).

قال الرازى[1]: يبتغون فعل المعبودين

وقال القرطبي [2] : مثل البغوي.

وقال السعدي[3] : يتنافسون فى القرب من ربهم.

وقوله [**إلى ربهم الوسيلة**]

● ماجاء فى التفسير بالقرآن

كقوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾.

● التفسير بالمأثور من المرفوع

وعن أبى هريرة رضى الله عـنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «**سلوا الله لى الوسيلة**» قالوا: ومـا الوسيلـة؟ قال: «**القـرب من الله**» ثم قـرأ ﴿**يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب**﴾[4]

● أقوال المفسرين

قال ابن جرير[5]: يقول يبتغـى المدعون أرباباً إلى ربهم القربـة والزلفي، لأنهم أهل إيمان به والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله. أهـ.

وقال البغوي[6]: الوسيلة أى الـقربة، وقيل : الدرجة، أى يتـضرعون إلى الله فى طلب الدرجة العليا وقيل الوسيلة : كل مايتقرب به إلى الله تعالى .أهـ.

قال الزمخشرى [7]: يحرصون أيهم يكون أقـرب إلى الله، وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح. أ. هـ.

---

(١) «التفسير الكبير» (١٠/١٩/٢٣٣).

(٢) تفسير القرطبى (٦/٣٨٩٥).

(٣) تفسير الكريم الرحمن (٣/٨٦).

(٤)أخرجه الترمذى (٣٦١٢) بلفظ آخر وذكره السيوطـى فى «الدر» ونسبه للترمذى وابن مردويه قال: واللفظ له ـ أى لابن مردويه.

(٥) «تفسير ابن جرير» (٨/١٥/ ٧٢).

(٦) «معالم التنزيل» (٣/٥٠٣).

(٧) «الكشاف» (٢/ ٣٦٤).

قال ابن الجوزى [١]: أى يتقرب إليه بالعمل الصالح. أ. هـ.

وقال القرطبي[٢]: يطلبون من الله الزلفة والقربي، ويتضرعون إلى الله تعالى بطلب الجنة، وهى الوسيلة.

أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم، والهاء والميم فى (ربهم) تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعاً أ.هـ.

قال الشنقيطي[٣]:

اعلم أن جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة هنا هو القربة إلى الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه على وفق ماجاء به محمد ﷺ بإخلاص فى ذلك لله تعالي، لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى رضى الله تعالي، ونيل ماعنده من خير الدنيا والآخرة.

وأصل الوسيلة: الطريق التى تقرب إلى الشيء، وتوصل إليه وهى العمل الصالح بإجماع العلماء، لأنه لا وسيلة إلى الله تعالى إلا باتباع رسوله ﷺ.

وعلى هذا فالآيات المبينة للمراد من الوسيلة كثيرة جداً كقوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٤]، وكقوله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾[٥] وقوله ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالوسيلة الحاجة، ولما سأله نافع الأزرق هل تعرف العرب ذلك؟ أنشد له بيت عنترة.

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحّلى وتخضبي[٧]

قال : يعنى لهم إليك حاجة، وعلى هذا القول الذى روى عن ابن عباس، فالمعنى ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ واطلبوا حاجتكم من الله، لأنه وحده هو الذى يقدر على إعطائها.

---

(١) «زاد المسير» (٥/٣٨).

(٢) «تفسير القرطبي» (٦/٣٨٩٥).

(٣) «أضواء البيان» (٢/٧٦، ٧٧).

(٤) الحشر (٧).

(٥) آل عمران (٣١).

(٦) النور (٥٤).

(٧) [إسناده منقطع] أخرجه الطبرانى في«الكبير» (١٠ / ٣٠٤ / ١٠٥٩).

وأنظر «الاتقان فى علوم القرآن» للسيوطى (٧٤٨ ـ بتخريجنا)

ومما يبين معنى هذا الوجه قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾(١) وقوله: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾(٢) الآية، وفى الحديث «إذا سألت فأسأل الله»(٣).

قال مقيده عفا الله عنه: التحقيق فى معنى الوسيلة هو ماذهب إليه عامة العلماء من أنها التقرب إلى الله تعالى بالإخلاص له فى العبادة، على وفق ما جاء به الرسول ﷺ، وتفسير ابن عباس داخل فى هذا، لأن دعاء الله والابتهال إليه فى طلب الحوائج من أعظم أنواع عبادته التى هى الوسيلة إلى نيل رضاه ورحمته.

وبهذا التحقيق تعلم أن مايزعمه كثيرمن ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة فى الآية الشيخ الذى يكون له واسطة بينه وبين ربه، أنه تخبط فى الجهل والعمى وضلال مبين وتلاعب بكتاب الله تعالى ،و اتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار، كما صرح به تعالى فى قوله عنهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(٤) وقوله : ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٥) فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريق الموصلة إلى رضى الله وجنته ورحمته هى أتباع رسوله ﷺ، ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل، ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ الآية .

والظاهر أن الوسيلة فى بيت عنترة معناها التقرب أيضاً إلى المحبوب، لأنه وسيلة لنيل المقصود منه، لذا أنشد بيت عنترة المذكور ابن جرير، والقرطبى وغيرهما لهذا المعنى الذى ذكرنا وجمع الوسيلة: الوسائل، ومنه قول الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافى بيننا والوسائل

(١) العنكبوت (١٧). (٢) النساء (٣٢).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١ / ٢٩٣، ٣٠٣)، والترمذى (٢٥١٦) عن ابن عباس به.
وأنظر «رياض الصالحين» (٦٣ ـ بتخريجنا)

(٤) الزمر (٣). (٥) يونس (١٨).

وهذا الذى فسرنا به الوسيلة هنا هو معناها أيضاً فى قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾(١) الآية، وليس المراد بالوسيلة أيضاً المنزلة التى فى الجنة التى أمرنا ﷺ أن نسأله له الله أن يعطيه إياها، ونرجو الله أن يعطيه إياها، لإنها لاتنبغى إلا لعبد، وهو يرجو أن يكون هو.

قال ابن الجوزى (٢).

فى قوله : ﴿أيهم أقرب﴾ قولان ذكرها الزجاج.

أحدهما : أن يكون ﴿أيهم﴾ مرفوعاً بالابتداء، وخبره ﴿أقرب﴾ ويكون المعنى :يطلبون الوسيلة إلى ربهم، ينظرون أيهم أقرب إليه فيتوسلون إلى الله به.

والثانى أن يكون﴿أيهم أقرب﴾ بدلامن الواو فى ﴿يبتغون﴾ فيكون المعنى يبتغى أيهم هو أقرب الوسيلة إلى الله.

قوله ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾

● ماجاء فى التفسير من القرآن

كقوله تعالى ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾و﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾و﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾و﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾و﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾و﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

وفى الجمع بين الخوف والرجاء آيات كثيرة.

● ماجاء فى التفسير من المرفوع

وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**لو يعلم المؤمن ماعند الله من**

(١) الإسراء/ (٥٧).

(٢) زاد المسير (٥/ ٣٨).

العقوبة ماطمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ماعند الله من الرحمة ماقنط من جنته أحد»(١).

وروى البخاري عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»(٢).

قال النووي(٣) : اعلم أن المختار للعبد فى حال صحته أن يكون خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفى حال المرض يمحض الرجاء وقواعد الشرع، من نصوص الكتاب والسنة وغير ذلك متظاهرة على ذلك. أ. هـ.

قال أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي: اعلم أن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كئود(٤) أهـ.

●أقوال المفسرين:

قال ابن جرير (٥) : (يرجون) بأفعالهم تلك رحمته (ويخافون) بخلافهم أمره عذابه. أ. هـ.

قال البغوى (٦): (يرجون رحمته) جنته. أهـ.

وقال الزمخشرى (٧): يرجون ويخافون كغيرهم من عباد الله، فكيف يزعمون أنهم آلهة. أ. هـ.

قال الرازي(٨): الملائكة يخافون عذاب الله لو أقدموا على الذنب، والدليل عليه قوله تعالى ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ . أهـ.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٤٦٩)، ومسلم فى التوبة (١٧ / ٧٠ـ النووي) وأنظر «رياض الصالحين» (٤٤٤ـ بتخريجنا)

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٤٨٨) وأنظر «رياض الصالحين» (١٠٦ـ بتخريجنا)

(٣) «رياض الصالحين» (١/ ٢٤١) بتخرجنا.

(٤) «مختصر منهاج القاصرين» (٣٢١).

(٥) «تفسير الطبري» (٨/ ١٥/ ٧٢).

(٦) «معالم التنزيل» (٣/ ٥٠٣).

(٧) «الكشاف» (٢/ ٣٦٤).

(٨) «التفسير الكبير» (١٠/ ١٩/ ٢٣٣).

قال القرطبى(١): قال سهل بن عبدالله: الرجـاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا استويا استقامت أحواله، وإن رجح أحدهما بطل الآخر. أهـ.

قال ابن كثير (٢): لاتتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فـبالخوف ينكف عن المناهى وبالرجاء يكثر من الطاعات . أهـ.

قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾

كان محذوراً؛ لأن الله بين صفة العذاب الذى ينبغى أن يحذر منه، بأنه عذاب أليم، عظيم، مهين، شديد، كبير، مقيم، قريب، غير مردود. . . .

وذكر الله عزوجل العذاب مضافاً للجحيم، والسعير، والحريق، و الشديد، والكبير. . فجاء ذكر الـعذاب فى القرآن الكـريم مفرداً، ومضافاً، مـا يقرب من ثلثـمائة وثلاث و ثلاثين مرة. ومن هنا تستشعر مدى تحذير الله عزوجل من الوقوع فى العذاب (**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**)

قال ابن جرير(٣): (**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ**)يامحمد (**كَانَ مَحْذُورًا**) متقى . أ.هـ.

قال البغوي(٤): (**مَحْذُورًا**) يطلب منه الحذر. أهـ.

قال الزمخشري(٥): (**إِنَّ عَـذَابَ رَبِّكَ كَانَ**) حقيقـاً بأن يحذره كل أحد مـن ملك مقرب ونبى مرسل فضلاً عن غيرهم . أهـ.

قال الرازى (٦): فالمراد أن من حقـه أن يحذر، فإن لم يحذره بعض الـناس لجهله فهو لايخرج من كونه بحيث يجب الحذر منه. أ.هـ.

قال القرطبي(٧): أى مخوفاً لا أمان لأحد منه، فينبغى أن يحذر منه ويخاف. أهـ.

قال ابن كثير(٨):أى ينبغى أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله عياذاً بالله أهـ.

قال الشوكانى (٩) : أى إن عذابه سبحانه حقيقى مـن أنه يحذره العباد من الملائكة والأنبياء، وغيرهم . أهـ.

(١) « تفسير القرطبي» (٦/ ٣٨٩٦).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٦). .
(٣) «تفسير الطبري» (٨/ ١٥/ ٧٢)
(٤) «معالم التنزيل» (٣/ ٥٠٣)
(٥) «الكشاف» (٢/ ٣٦٤، ٣٦٥)
(٦) «التفسير الكبير» (١٠/ ١٩/ ٢٣٥).
(٧) «تفسير القرطبي» (٦/ ٣٨٩٦)
(٨) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٦)
(٩) «فتح القدير» (٣/ ٢٤٢)

قال السعدي[1] : أى هو الذى ينبغى شدة الحذر منه والتوقى من أسبابه. وهذه الأمور الثلاثة، الخوف، والرجاء، والمحبة، التى وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هى الأصل، والمادة فى كل خير، فمن تمت له تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور. أهـ.

● ما جاء من كلام الشراح فى الآية :

قال سليمان آل الشيخ[2]: قلت يبين معنى هذه الآية التى قبلها، وهى قوله ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ الآية.

والمعنى : أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لاشريك له.

ثم قال: فتبين أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله :هو ترك ماعليه المشركون من دعوة الصالحين، والاستشفاع بهم إلى الله فى كشف الضر وتحويله، فكيف ممن أخلص لهم الدعوة، وإنه لايكفى فى التوحيد دعواه، والنطق بكلمة الشهادة من غيرمفارقة لدين المشركين، وإن دعاء الصالحين لكشف الضر أو تحويله هو الشرك الأكبر نبه عليه المصنف.

وقال: فقوله ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ لاتتم العبادة إلا بالخوف والرجاء. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾أى مما يحذره كل عاقل أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ [3] **قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالي**: فى هذه الآية ذكر المقامات الثلاثة.

الحب: وهو ابتغاء القرب إليه. .والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، **والرجاء والخوف**، وهذا هو حقيقة التوحيد، وحقيقة دين الإسلام، كما فى «المسند» عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبى ﷺ والله يارسول الله : ماأتيتك إلا بعد ماحلفت عدد أصابعى هذه أن لاآتيك، بالذى بعثك بالحق، ما الذى بعثتَ به؟ قال: **الإسلام** قال: وما الإسلام؟ قال: «**أن تسلم قلبك لله، وأن توجه وجهك إلى الله، وأن تصلى الصلوات المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة**»[4]. أ.هـ.

وبنحو مما سبق قال عبدالله بن جار الله[5]**، وابن باز**[6].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ٨٦). (٢) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٢، ١٠٣)

(٣) فتح المجيد (١/ ١٢١).

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤ / ٤٤٦)، (٥ / ٣، ٤)، والنسائى (٥ / ٤، ٨٢ ـ السيوطي)

(٥) «الجامع الفريد» (٣٣). (٦) «التعليق المفيد» (٥٧).

وقال ابن عثيمين[1]: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون**﴾هو كل داع، كعيسى بن مريم والملائكة، والأولياء، والصالحين. وأما الشجر والحجر فلايدخل فى الآية فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله لايملكون كشف الضر عنكم ولاتحويله من مكان إلى مكان؛ لأنهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، وقد قال الله تعالى مبينا حال هؤلاء المدعوين ﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾.

(**يدعون**) أى دعاء مسألة كمن يدعو علياً عند الشدائد. . .أهـ.

قال القرعاوي[2] : [**الفوائد**]:

(١) بطلان عبادة المشركين لغير الله بكون معبوديهم أنفسهم يطلبون القربى من الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

(٢) صلاح المعبودين لايبرر الشرك بهم.

(٣) إثبات صفة الرحمة لله عزوجل.

(٤) يسير المؤمن إلى الله بالخوف والرجاء إلا في حالة الاحتضار فيقوى جانب الرجاء. أهـ.

قلت: أى مع الخوف لقول الشاب عند موته للرسول ﷺ: أرجو الله وأخشى ذنوبى[3].

قال برهامى[4] : الآية ترد على من تعلق بالأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألوهم. ففى هذا بيان أن هذا الفعل هو الشرك الأكبر المنافى لشهادة أن لا إله إلا الله، وهذا النوع من الشرك الأكبر من أكثر أنواع الشرك انتشاراً فى الأمم، إن لم يكن أكثرها على الإطلاق. أ هـ.

---

(١) القول المفيد (١/ ١٨٤، ١٨٥)

(٢) «الجديد» (٧١، ٧٢)

(٣) أخرجه الترمذى (٩٨٣) ، والنسائى فى الكبرى» (١٠٩٠١)، وابن ماجة (٤٢٦١) عن أنس به.

(٤) «فضل الغنى الحميد» (٩٧).

فصل فى الوسيلة وأحكامها

قال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾

فإذا زعمتم أن هنــاك صالح الجن والحسين والسيدة والأقطاب الأربعـة وغيرهم الذين تزعمون أن تصرف فى الـكون فادعوهم فلا يملكون كشف الضـر عنكم، وهذا صعب، وهناك سؤال اسـهل من هذا هو فهـل يملك هؤلاء تحويل الـضر عنكم فلا يـصبكم؟ لا يستطيعون ذلك.

ولذلك جـاء فى حديث أنس حيـنما جاء رجل فـقال يارسول الله هلكـت المواشى وانقطـعت السبـل فادع الله يغيـثنا فدعـى ثم فى الجمـعة التالـية قال هلـكت الأموال، وانقطعت الـسبل، فادع الله يمسكها فـقال النبي «**اللهم حوالـينا لاعلينا ....، فانـقطعت.. وخرجنا نمشـى فى الشمس**»[1] فالله حول المـطر بعيداً عـنهم وفى الدعـاء الأول كشف الضر بإطلاق وأنزل المطر.

أما الذين يدعون من دونه لايستطيعون ذلك ولا كشف الضر ولاتحويله..

﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**﴾ من الأنبياء كعيسى والعزيـر والملائكة وصالح الجن هم الذين يبتغون إلى ربـهم الوسيلة، كما ثبت فـى الصحيح عن ابن مسعود. وتـقدم فى أسباب النزول[2].

وهذا كثيـر فى أهل البدع والأهواء فمـثلاً إذا اتبع الأشعرى رجـلٌ، والأشعرى رجع عن مذهـبه تمسك هذا الرجـل ومازال أشعري، بالرغـم من رجوع الأشعرى نفـسه عن مذهبه أو اتبع الغزالى فى بعض فلـسفاته أو إمام الحرمين الجوينى فإن الإمام يرجع وهو لم يرجع.

فالذين تدعون يتقربون لله بأعظم القرب. وهو كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩٣٢)، ومسلم فى الاستسقاء(٦ / ١٩١-١٩٥ - النووي) وأنظر السلسبيل» (٧٥١ -بتخريجنا)

(٢) تقدم تخريجه فى أول شرح الآية

● **معنى الوسيلة فى اللغة:** مايتوصل به إلى مقصود قاله ابن كثير وسبق تعريفها من قول الشنقيطى

ومعنى الوسيلة فى الشرع: أحياناً تطلق ويراد بها منزله فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله كما ثبت فى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: **إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىَّ، فإنه من صلى علىَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سئل لى الوسيلة حلت له الشفاعة»**(1).

لكن الوسيلة بهذا المعنى ليست هى المقصود فى هذه الآية كما تقدم ذلك من كلام الشنقيطى.

فالوسيلة هنا ظهرت فى تفسير قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ قال ابن عباس: الوسيلة هى القُرْبُ.

وقال قتادة : هى التقرب لله بطاعته ومايرضيه.

فالوسيلة فى اللغة مرتبطة بتعريفها فى الشرع فهى التى يتوصل بها: إلى المقصود وهو رحمة الله واتقاء عذابه، وكيف تحصل على هذا المقصود؟ الجواب: هو بالقرب والطاعة، وقد علق الله الفلاح عليها وقال فى الآية ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ والجهاد من الوسائل للحصول على المقصود. لذلك ذكره فى الآية بقوله ﴿**وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

● **أقسام الوسيلة:**

[القسم الأول]: التوسل المشروع.

[القسم الثانى]: التوسل الممنوع.

قسم العلماء الوسيلة من حيث الجواز والمنع لقسمين: توسل مشروع وممنوع.

التوسل المشروع:(١) بأسماء الله وصفاته الحسنى.

(٢) التوسل بالعمل الصالح: من إيمان وتوحيد وسائر الأعمال.

(٣) التوسل بدعاء الصالحين. وماعدا ذلك مختلف فيه.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصلاة (٢/ ٣٢٠، ٣٢١/ ٣٨٤) وأنظر رياض الصالحين بتخريجنا (١٠٣٩).

أما الأول فدليلهم: قوله ﴿ولِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾وأدعية الأنبياء ﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾. ﴿وزكريا إذ نادى ربه ربى لاتذرنى فرداً..﴾ ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظُلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ وغير ذلك من أدعية الأنبياء. لحصول مقصود شرعى مثل أدعية إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] والجامع لهذا كله ﴿ولِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

وكذلك حديث الاستخارة فى الصحيح أن يقَّدر له الخير حيث كان[2].

وفى السنة ««اللهم أنى أسألك بأنك أنت الله الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد»[3]

وأيضاً «اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، فأسألك بإيمانى بك وتوحيدى لك».

وقال بعض أهل العلم فى تفسير اسم الله الأعظم أنه هو الفرد الصمد ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

فهذا دليل جواز التوسل بأسماء الله أوصفاته؛ للحصول على مقصد دينوى أوأخروي.

وكذلك دعاء سيد الاستغفار وهو فى الصحيح.

وأشبه به قوله ﷺ فى قصة أبى بكر رضى الله عنه «اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد أن لاإله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه»[4].

[النوع الثانى من التوسل المشروع] التوسل إلى الله بالعمل الصالح، ويندرج فيه النوع الأول؛ لأن النوع الأول إيمان بالله وتوحيد له، فيتوسل إلى الله كما فى الحديث «اللهم أنى أسألك بأنك أنت الله..»...... الحديث[5].

---

(١) البقرة :١٢٩

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١١١٦) عن جابر به.

وأنظر «رياض الصالحين» (٧١٩ ـبتخريجنا)

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٩٣)، والترمذى (٣٤٧٥)،وابن ماجه (٣٨٥٧)

وأنظر «الأذكار للنووى» (١٠٢٢ـ بتخريجنا)

(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧) والترمذى (٣٣٩٢) وقال: حسن صحيح وانظر «الأذكار» بتخريجنا (ح١٩٣) للنووى.

(٥) تقدم قريبا

وكذلك قصة الثلاثة نفر الذين دخلوا الغار وسدت عليهم، فتوسل أحدهم بعفة فرجه والآخر توسل بأمانته والثالث توسل ببره بوالديه، وقال الجميع **«اللهم إن كنا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه»** ففرج الله مابهم من كرب وهو فى الصحيح(١).

[النوع الثالث] التوسل لله بدعاء الصالحين.

وفيه حديث أنس فى الصحيح وفيه إن رجلاً جاء للنبى فقال هلك العيال والدواب فادعوا الله لنا فرفع النبى يديه حتى رؤيا بياض ابطيه فنزل المطر(٢).

فتوسلوا لله بدعاء النبى أن ينزل عليهم الغيث وكذلك توسل الإعرابى فى الجمعة التاليةبدعاء النبى أن يرفع المطر وتقدم الحديث قريباً.

وكذلك جود الألبانى فى كتابه التوسل فى قصة الرجل الأعمى وهى مخرجة فى «السنن» و«المسانيد» بأسانيد لاتخلو من ضعف إلا أنها يشد بعضها بعضاً فروى الإمام أحمد فى «مسنده»: عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبى ﷺ فقال: ادعو الله أن يعافينى، قال: **«إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخرت ذلك فهو خير»**.

وفى رواية: **«وإن شئت صبرت فهو خير لك»**.

فقال: ادعوه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، فيصلى ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: **[اللهم إنى أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه فتقضى لى، اللهم فشفعه فىّ وشفعنى فيه]**

قال: ففعل الرجل فبرأ(٣).

ففيه أنه توسل لله بدعاء النبى بالإضافة إلى عمل صالح له وهو الصلاة والدعاء.

وكذلك توسلهم بدعاء العباس وفيه جواز التوسل بدعاء الصالحين.

القسم الثانى التوسل الممنوع: هو ماخالف التوسل المشروع فى أى صورة أخرى غير هذه الصورة فهو ممنوع مثل: التوسل بالأموات حتى وإن قطعنا لهم بالصلاح، ولو جاز أن يتُوسل بميت لتوسل الصحابة بالرسول وماعدلوا عن ذلك بالعباس كما ثبت عن عمر

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (ح ٢٢١٥) ومسلم فى الرقاق (٦/ ١٧/ ٥٨٦) وأنظر «رياض الصالحين» بتخريجنا (ح١٣).

(٢) تقدم قريباً

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤ / ١٣٨)، والترمذي(١٥٧٨)، وابن ماجه (١٣٨٥)،والنسائى فى «الكبري» (١٠٤٩٥)

في «الصحيح» أنه توسل بالعباس وقال: « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقنا اللهم إنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا»[1].

● **كيف نتوسل؟**

يعني نتقرب إليك بدعاء العباس ونحن نُـأمّن عليه، وهذا فى الحقيقة فيه تواضع من عمر رضـى الله عنه واحتـقاره لنفسـه، وهذا الظن به لأنـه هو كان أولى أن يـدعو لأنه أفضل من العباس. وكان العباس حياً.

أضف لذلك قـول النبى عند مسـلم وغيره: «**إذا مات ابن آدم انقـطع عـمله إلا من ثلاث**»[2] وليس فيه أننا نتوسل به أويغثـنا والثلاثة - المذكورة فى الحديث - هؤلاء من كسبه وليس من كسب أحد.

وكذلك قوله ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ**﴾ أى أنك يا مـحمد لاتسمع الموتى فمن باب أولى أننا لانسمعهم.

وقد يقول قائل إن الناس الأحياء الذين لا يستجـيبون لك هم كالموتى لايسمعون كما قال تعالى ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾ فعلى هـذا يكون الرسول لايُسـمع الموتى - أى الذين لايستجيبون - أما موتى الأجساد فإنه يسمعهم.

نقول: لا لأن الآيـة تحمل على ظـاهرها، وقد حمـلها عمر عـلى ظاهرها فـى قصة القليب فى بدر حينما وضـعهم الرسول فى بدر وخاطبهم (**يا فلان يا فـلان هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً**)؟ فقال عمر يـارسول الله إنك تكلم أجساداً لا أرواح لـها وقد قال الله ﴿**فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ**﴾[3] فعمر لاينكر على النبـي، وإنما أراد أن يعلمنا نحن حتى لا يأتى جاهل فيقول أن النبى كلم الموتى الكفار إذاً فيمكن أننا نكلم الموتى الصالحين.

فعمر رضى الله عنه من الملهمين وله مواقف كثيرة.

مثل: موقفه من الحجر الأسود حينـما قال «لولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»[4] فهل هو لم يعلم أنه حجر إلا فى هذا الوقت؟

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (١٠١٠) وأنظر «الأذكار للنووي» (٤٦١ ـبتخريجنا)

(٢) تقدم تخريجه

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٩٧٩)، ومسلم فى الجنائز (٢ / ٢٣٤ ـ النووي)
وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٦٣)

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١٦١١) عن ابن عمر به.

ولكنه يقول ذلك ليعلمنا حتى لايأتى جاهل فيتمسح فى أحجار الحسين والسيدة زينب ويقول أن النبى والصحابة تمسحوا فى الحجر الأسود فعمر كفانا الرد عليهم.

وكذلك موقفه حينما طلب النبى الورق والمداد ليملى كتاباً لايختلف عليه الناس فمنع عمر ذلك[1] لأنه لن يمكن للنبى ﷺ أن يملى كل الوحى فى هذه الدقائق، وممكن أن يتمسك الناس بهذه الورقة فقط ويتركون الكتاب والسنة وراء ظهورهم.

فعمر لم يقصد أن ينكر على النبى ﷺ وإنما قصد يعلمنا، والنبى ﷺ لم ينكر عليه وقال له «**إن الله رد عليهم أرواحهم**»[2] وفى رواية «**ما أنتم بأسمع لى منهم**»[3] فكأن مسئلة سماعه إياهم خاصية من خصوصيات الرسول ﷺ ونحن من باب أولى لانسمعهم.

فإن قال قائل : أنهم ليسوا أمواتًا بل هم أحياء كما قال ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ**﴾

فالجواب : كما قال المفسرون: إن سبب نزول الآية فى بعض شهداء أحد لاسيما عبدالله -أبو جابر- وقال تعالي﴿ **بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾

ذكر ابن كثير عن ابن مردويه بسنده عن جابر بن عبد الله قال : نظر إلى رسول الله ﷺ ذات يوم فقال «يا جابر مالى أراك مهتمًا؟» قلت يا رسول الله استشهد أبى وترك الدنيا وعيال، فقال: «**ألا أخبرك ما كلم الله أحد قط إلا من وراء حجاب، إنه كلم أباك كفاحًا**» .

قال ابن المدينى أحد رواته: والكفاح: المواجهة - «قال: **سلنى أعطيك، قال: أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانيًا . قال الرب عز وجل إنه قد سبق منى القول أنهم إليها لا يرجعون. قال: أى رب فأبلغ من ورائى، فأنزل الله** : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ** ﴾ الآية[4].

وهذه الحياة حياة برزخية لانعلم عنها شىء والله أعلم بمن يُكلم فى سبيله، ولانقطع

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١٤)، ومسلم فى الوصية(٦ / ١٠٠ / ٢٢) عن ابن عباس به

(٢) (٣) تقدم قريباً

(٤) أخرجه ابن مردويه فى «تفسيره» كما فى تفسير ابن كثير (٢ / ١٤١ ـ الشعب)

لأحد بشهادة فهو حي، لـكن ماهية وحقيقة هذه الحياة ما هي؟ لاسبيل لنا لمعرفة هذه الحياة على الحقيقة والآية عامة ﴿**فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ**﴾ فهو فى الدنيا ميت ولكنه حي عند ربه حياة ورزقاً لانعلمه، كما أورد ابن كثير حديثاً مسلسل بالأئمة الثلاثة، أخرجه أحمد فى «مسنده» عن محمد بن إدريس الشافعي، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه**»[1].

قوله: (يعلق) أى يأكل، وروى مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود مرفوعًا: «**أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل مغلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم إطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ فقالوا: أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى**، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا[2].

وروى أحمد فى «مسنده» عن ابن عباس مرفوعًا «**الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فيه قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية**»[3] تفرد به أحمد.

قال ابن كثير: وكأن الشهداء أقسام منهم من تسرح أرواحهم فى الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون، منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم. اهـ.

هذه حياة لاسبيل لمعرفتها لكنا نؤمن بالله وماجاء عن الله على مراد الله ونؤمن برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

● **تقسيم آخر للتوسل والوسيلة: من حيث الشرع والكون:**

تنقسم الوسائل من هذه الحيثية أيضًا إلى قسمين: وسائل شرعية ووسائل كونية.

أولاً: الوسائل الشرعية: هى القرب والطاعات، ويشترط فيها أن تثبت بالدليل مثل أن نتوسل للشفاعة بالدعاء بعد الأذان« **اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة أت محمداً الوسيلة والفضيلة...**»[4].

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣ / ٤٥٥)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٧ / ٣٧ / ١٢١)

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١ / ٢٦٦)

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٦١٤) عن جابر به
وأنظر «رياض الصالحين» (١٠٤٠ بتخريجنا)

فالتوسل لله بهذا الدعاء -للتعرض للشفاعة- فهذا الدعاء وسيلة شرعية لغايات أخروية أو مثلاً التوسل لله بالصلاة والصيام والحج ترجو رحمته وتخشى عذابه.

والدليل هو الذى دلنا على أنها وسيلة شرعية فهذا أشبه بأنواع التوسل المشروعة الثلاثة السابقة.

ولابد لصلاح العمل من شرطيين هما فى قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾أن يكون العمل صالحًا مع الإخلاص وأيضًا فى قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾يعنى يخلص ويتبع.

ثانياً التوسل الكوني: يعنى التوسل الذى ثبت نفعه بالفطرة التى فطره الله عليها أو التجربة مثال: تتوسل بحبة البركة لأنْ تُشفي، فالله فطر هذه الحبة على هذه الخاصية فهى مخلوقة لهذا فعرفنا الفائدة فيها إما بالشرع وإما بالطب.

فالشرع مثل حبه البركة، وعسل النحل، والحجامة[1].

وبالطب مثل باقى الأدوية التى ثبت بالتجربة أنها نافعة.

سؤال: هل التوسل الكونى مشروع أم ممنوع؟

الجواب: التوسل الكونى له شرطان ليكون مشروعًا:

(الأول) ألا يكون هناك مانع شرعي، مثال: أن النبى وجد رجلاً معلق خيطًا قال: مما هذا؟قال: من الواهنة قال: «**انزعه فإنه لايزيدك إلاوهناً فإنك لو مت على ذلك ما أفلحت أبداً**»[2] فهذا الخيط منع منه الشرع .

الثانى أن يثبت بالتجربة أنها تنفع مثل رباط الضغط الطبي.

قد يقول قائل لماذا أخذتم ماثبت نفعه من جهة الطب ولماذا لا أتعاطى وسيله كونية لم يثبت نفعها من جهة الطب؟

قال ابن تيمية: أن الأصل فى العبادات المنع إلابدليل والأصل فى العادات الإباحة إلا بدليل.

الجواب: أن الثابت نفعه من جهة الطب أقره الشرع فأنت لم يتعلق قلبك بغير الله بل كان قلبك متعلق بالله وبما شرعه لك وأمرك بتعاطيه ودليل ذلك؟.

(١) تقدم تخريجه فى حديث السبعين..

(٢) سيأتى تخريجه

قول النبى «**تداووا عباد الله فإن الله ماأنزل من داء إلا أنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله**».[1]

وسُئل النبى أفى الطب خير؟ قال «**نعم**»

فإذا ثبت بالطب نفع هذه الأشياء فأنا ممتثل لشرع لم أتعلق بجاهلية أم الذى لم يثبت نفعه فكأنما صاحبه متعلق بما تعلقت به الجاهلية الأولى بطيرة أو خيط أو تميمة مثلاً.

وأيضاً قال تعالى فى الوسيلة ﴿**فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً**﴾﴿**وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا**﴾وأيضاً ﴿ **لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا**﴾ فإذا تعلقت بخيط من الواهنة فكأنك تعلقت بشىء لاينفع ولايضر فإذا اعتقدت أن هذا سبب وأن الله نافع على الحقيقة فهذا شرك أصغر لأنه ليس سبب لاشرعى ولاقدرى وقول ابن تيمية: الأصل فى العادات الإباحة إلا بدليل لا يختلف مع ما قلناه من أن الوسائل الكونية مباحة إلا بدليل يمنع.

تنبيه : التوسل بدعاء الصالحين يختلف اختلافاً كبيراً عن طلب الأخ من أخيه الدعاء له بظاهر الغيب؟ فالتوسل بدعاء الصالحين ثابت فى الصحيح[2]، أما طلب الأخ من أخيه أن يدعو له فقد اختلف فى تصحيح الأحاديث التى فيها طلب الدعاء بظهر الغيب كحديث: « **لا تنسانا من صالح دعائك**»[3] قاله ﷺ لعمر عند سفره، والحديث لا يصح إسناده إلى النبيﷺ ولا يثبت عنه، وغيره من الأحاديث التى تحمل نفس المعنى من طلب الدعاء من الغير اختلفوا فى ثبوتها وقالوا فى سبب المنع غير ما تقدم وهو: أن طلب الرجل الدعاء من أخيه يفضى إلى أمرين:

إما إلى مغالاة أو غرور، فإن الرجل المطلوب الدعاء منه ربما يصيبه الغرور، أو ربما يغتر طالب الدعاء بهذا الرجل أو يغالى فيه. لذلك أثر عن عمر أنه لما طُلب منه الدعاء قال للطالب أأنا نبي؟ لكن إذا لم يطلب منك هل يجوز أن تدعو أنت لأخيك بظاهر الغيب؟

(١) تقدم تخريجه فى باب من حقق التوحيد.

(٢) تقدم حديث الاستسقاء بدعاء العباس ـ رضى الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٩٨)، والترمذى (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤) عن عمر به.

الجواب: نعم وهذا ثابت فى القرآن وفى السنة.

قال تعالى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وكذلك إبراهيم دعى لذريته وأولاده والمؤمنين ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ والرسول كان يدعو للصحابة بظاهر الغيب.

لكن هل يجوز طلب الدعاء؟

الجواب: قال ابن عثيمين ـ مؤدى ما قاله: إنه إذا أمنت هذه العلل وأنت تطلبه لاعلى سبيل الضعف والافتقار والاحتياج لدعائه بل تطلبه على سبيل إثابته بإشغاله بذكر وقربة فيثاب ويؤجر عليها وتؤجر أنت على هذه الدلالة والإرشاد فإن فعلت على هذه النية فيجوز.

فربما أخ طيب تقول له أدعولى ولاتنسانى من صالح دعائك.

فيقول فى نفسه: أنا اصبحت ولى من الأولياء، وصاحب كرامات، وشيخ الإسلام وممكن أعطى دورس وغير ذلك. أما التوسل بدعاء الصالحين لايكون بظاهر الغيب بل هو يدعو لك وأنت تُؤمّن كما فى قصة توسلهم بالعباس وكذلك توسلوا بدعاء النبى فدعى وهم أمنوا وليس بظاهر الغيب.

مسألة: التوسل بجاه النبى ﷺ والرد عليه.

أولاً: من القرآن:

استدلوا بقوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ و﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ والرد عليهم من خلال هذه الآيات:

١ - ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾

٢- ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

٣- ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾

٤- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

أما استدلالهم بالآية ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ لجواز التوسل بالمقبورين والموتى

الرد عليهم :إذا كنتم تقصدون بـالوسيلة المعنى اللغوى لها بمعـنى هى التوصل إلى المقصود فهذا معنى الوسيلة لغوياً، ولكن العبرة بالمعنى الشرعي: التوصل إلى الله تعالى على ما شرعه الله عزوجل فلا تكون الآية هنا حجة لهؤلاء الذين توسلوا إلى الله بغير ما شرع .

ثانياً : شبهة التوسل بجاه النبى وما جاء فى ذلك من أحاديث والرد عليها:

(١) ماأخرجه الحـاكم فى «مستدركه» وصححه حـديث توسل آدم بمحمـد فقال الله «**كيف عرفته ولم أخلقه قال رأيت اسمه على العرش**».

قلت هذا الحديث حدثنى الشيخ محمد البنـا أن هذا الحديث فيه ثلاثة علل ومسلسل بثلاثة من الضعفاء وقال الذهبى فى المستدرك أن الحديث موضوع[(١)].

(٢) مسألة التوسل فى حديث فاطمة بنت أسد[(٢)]، وحديث «**اللهم أنى أسألك بحق السائلين عليك**»[(٣)]، وحديث «**إذا أصبح وأمسى**»[(٤)]، وحديث «كان يستفتح بصعاليك المهاجرين»[(٥)] وحديث «**توسلـوا بجاهى فإن جـاهى عند الله عـظيم**»، وهذا الأخير قال بوضعه ابن تيمية فى كتابه التوسل والوسيلة.

وهذه الأحاديث التى ذكرتـها لاتخلو من ضعف كبير لاسيـما وحديث آدم يرده قوله

---

(١) ولفظه : «عن عمر بن الخطاب مرفوعاً: « لما اقتـرف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لى فقال: يا آدم وكيف عرفت محمد ولم أخلقه . قال : ياربت لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى، فرأيت على قوائم العرش مكـتوباً لا إله إلا الله محمداً رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمـك إلاأحب الخلق إليك، فقال: غفرت لـك، ولولا محمد ما خلقتك» أخـرجه الحاكم فى «المستدرك» (٢ / ٦١٥) مـن طريق أبى الحارث عبدالله بن مسـلم الفهرى، ثنا إسـماعيل بن مسلـمة، أنبأنا عبدالرحمن بن زيد بن سلم عن أبيه عن جده عـن عمر، وقالك صحيح الإسناد، وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذا الكتاب. أهـ فتعقبه الذهبى بقوله : بل موضوع .

وعبدالرحمن واه، وعبد الله بن أسلم الفهري: لا أدرى من ذا؟ أهـ، والعلة الثانية: جهالة الإسناد إلى عبدا لرحمن، والعلة الثالثة : اضطراب عبدالرحمن، فتارة يرفعه، وتارة يوقفه على عمر.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢٤ / ٣٥١ / ٨٧١) عن نس، وأبو نعيم فى «الحلية» (٣ / ١٢١) وأنظر «المجمع» (٩ / ٢٥٧)

(٣) أخرجه ابن ماجه (٧٧٨) عن أبى سعيد به بإسناد ضعيف.

(٤) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨ / ٣١٦ / ٨٠٢٧) بإسناد ضعيف وأنظر «المجمع» (١٠ / ١١٧)

(٥) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١ / ٢٩٢ / ٨٥٨) عن أمية بن خالد مرسلاً.

تعالى ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فلما حصل ماحصل من خطيئة آدم وحواء قالا ذلك، ولم يتوسلا بمحمد كما يزعم الصوفية.

(٣) أما **حديث** فاطمة بنت أسد فخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، وابن حبان، والحاكم، وفيه «**رحمك الله يا أمي بعد أمي، إلى أن قال اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع مدخلها في القبر بحق نبيك والأنبياء من قبلي وأنت أرحم الراحمين**»

والجواب عليه: أنه ضعيف لا تقوم به حجة.

(٤) **وحديث «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور»**[1] فالجواب: أنه ظاهر عليه أمارات الكذب والوضع، وعلى فرض صحته فإنه مردود بالحديث الصحيح: «**إذا مات بن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ...**»[2] **الحديث**. فزيارة القبور لا تكون إلا للعظة والتدبر، لا للتوسل والاستغاثة أو الاستعانة بالمقبورين الذين انقطع عملهم.

(٥) وحديث «**يابني كعب بن لؤي انقذوا انفسكم من النار، يا فاطمة انقذي نفسك من النار فإني لاأغني عنك من الله شيئاً**»[3].

(٦) **وحديث «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»**[4] أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.



(١) قال ابن تيمية في «التوسل والوسيلة» تحت هذا الحديث: فهذا الحديث كذب مفترى على النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه لم يروه آحد من العلماء بذلك ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (٢ / ٨١ / ٣٤٨) عن أبي هريرة.

(٤) تقدم تخريجه أيضاً.

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(١)

● **مناسبة الآية للباب:**

قال سليمان آل الشيخ (٢) لما كان قوم إبراهيم يعبدون الله ويعبدون غيره، فتبرأ مما يعبدون إلا الله لاكما يظن الجهال أن الكفار لايعرفون الله، ولايعبدونه أصلاً.

ثم قال: فتبين بهذا أن معنى لاإله إلا الله هو البراءة مما يعبدون من دون الله، وإفراد الله بالعبادة، وذلك هو التوحيد لامجرد الإقرار بوجود الله وملكه وقدرته وخلقه كل شيء. أ هـ.

وقال عبدالله بن جار الله (٣): المناسبة أنها أفادت أن التوحيد معناه تجرد الإنسان من الشرك وإنكاره له، وإخلاص العبادة لله وحده. أهـ.

وقال ابن باز (٤): هذا تفسير التوحيد بمعناه فقوله ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾كقولنا: لاإله، وقوله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ كقولنا: إلا الله. -وسيأتي من كلام محمد بن حسن مايشبه ذلك - فبين أن معنى التوحيد البراءة من عبادة غير الله، وإنكارها واعتقاد بطلانها و الرد عليها، والتوحيد لله وحده بجميع أنواع العبادات. أهـ.

وقال ابن عثيمين(٥): أن التوحيد لايحصل بعبادة الله مع غيره، بل لابد من إخلاصه لله. أهـ.

وقال القرعاوي(٦): حيث دلت الآية على أن توحيد الشخص لايصح إلا إذا تبرأ من عبادة كل ما سوى الله. أهـ.

الإعراب(٧):

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾، الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتذكير العرب بحال جدّهم الأعلي، والظرف متعلق يا ذكر محذوفاً

---

(١) سورةالزخرف :(٢٦ :٢٨)

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٠٤)

(٣) فتح الله الحميد (٣٤)

(٤) التعليق المفيد (٥٨)

(٥) القول المفيد (١/ ١٨٧)

(٦) الجديد(٧٣).

(٧) إعراب القرآن (٩/ ٧٩، ٨٠)

وجملة ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ فى محل جر بإضافة الظرف إليها ﴿لأَبِيهِ﴾ متعلقان بـ﴿قَالَ﴾ و﴿قَوْمِهِ﴾ عطف على ﴿أَبِيهِ﴾ وجملة ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ فى محل نصب مقول القول و﴿مِمَّا﴾ متعلقان ببراء وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ صلة ما ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ إلا أداة استثناء والذى مستثنى والاستثناء منقطع كأنه قال لكن الذى فطرنى فإنه سيهدين ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً بناءً على أنهم كانوا يشركون مع الله الأصنام، وأجاز الزمخشرى وغيره أن تكون إلا صفة بمعنى غير على أن «ما» فى ما تعبدون موصوفة تقديره إننى برآء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى فهو نظير قوله تعالي﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ورجح أبو حبان انقطاع الاستثناء إذ كانوا لايعبدون الله مع أصنامهم. وجملة فطرنى صلة للموصول والفاء تعليلية وإن واسمها وجملة سيهدين خبرها والسين للتأكيد لا للاستقبال أى يديم هدايتى لأنه تعالى هاديه فى المستقبل والحال والمفعول به محذوف أى سيهدينى لرعاية الفاصلة. أهـ.

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾(١).

● ماجاء فى التفسير بالقرآن

قال الشنقيطى (٢) :ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال لأبيه وقومه: إنه براء أى برىء، من جميع معبوداتهم التى يعبدونها، من دون الله أى يعنى أنه برىء من عبادة كل معبود، إلا المعبود الذى خلقه وأوجده فهو وحده معبوده.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى ذكره عن إبراهيم فى مواضع أخر من كتابه كقوله تعالى ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾(٣) الآية وكقوله تعالى :﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

(١) الزخرف (٢٦، ٢٧).

(٢) «أضواء البيان» (١٤٨/٧، ١٤٩)

(٣) الشعراء (٧٥-٧٨).

(٤) الأنعام (٧٨-٧٩).

وزاد جل وعلا فى سورة الممتحنة براءته أيضاً من العابدين وعداوته لهم وبغضه لهم فى الله، وذلك فى قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(١).

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ذكر نحوه فى قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(٣) وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾(٤)

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أى خلقنى. يدل على أنه لايستحق العبادة، إلا الخالق وحده جل وعلا.

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٥) الآية، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾(٦) وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٧) وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾(٨) الآية، وقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٩) وقوله تعالى ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(١٠) الآية إلى غير ذلك من الآيات.

(١) الممتحنة (٤).

(٢) الشعراء(٧٨).

(٣) الصافات (٩٩).

(٤) الأنعام (٧٧).

(٥) البقرة ٢١٠).

(٦) الشعراء (١٨٤)..

(٧) الرعد (١٦).

(٨) النحل (١٧).

(٩) الأعراف.

(١٠) الفرقان (٢-٣).

● **ماجاء فى التفسير من الموقوف**

قوله تعالى : ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**﴾.

عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قرأ: «**إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**» بالياء أى (يعبدون)(١).

● **أقوال المفسرين**

قال ابن جرير(٢): يقول تعالى ذكره ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ**﴾ الذين كانوا يعبدون ما يعبده مشركو قومك يامحمد ﴿ **إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**﴾ من دون الله، فكذبوه، فانتقمنا منهم كما انتقمنا ممن قبلهم من الأمم المكذبة رسلها.

وقيل (**إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**) فوضع البراء وهو مصدر موضع النعت، والعرب لا تثنى البراء ولاتجمع ولاتؤنث، فتقول : نحن البراء والخلاء لما ذكرت أنه مصدر، وإذا قالوا هو برىء منك بالياء، وقد يجمع بريء برآء وأبراء.

ثم ذكر بسنده إلى قتادة قال: كايدهم، كانوا يقولون أن الله ربنا ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله فلم يبرىء من ربه.

قال ابن كثير (٣) يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها إنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان فقال: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ** (٢٦) **إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ** (٢٧) **وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ**﴾

وقال الشوكانى (٤) ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ**﴾ الآية، أى واذكر لهم وقت قوله لأبيه وقومه الذين قلدوا آباءهم وعبدوا الأصنام. أهـ.

وبنحو مما ذكرنا قال جميع من رأينا من المفسرين.

فائدة : علاقة الآية بما قبلها من الآيات فى نفس السورة، وبيان المقصود الأصلى من الآية :

قال الرازي(٥) : اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف، ثم بين أنه طريق

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٥/ ٧٢٠). ونسبه للفضل بن شاذان فى كتاب« القراءات»

(٢) «تفسير الطبري» (١١/ ٢٥/ ٣٨)

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٢، ١٢٣)

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٣١).

(٥) «التفسير الكبير»

باطل ومنهج فاسد، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من الاعتماد على التقليد، أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد، وتقريره من وجهين:

الأول: أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناءً على الدليل.

فنقول: إما أن يكون تقليد الآباء فى الأديان محرماً أو جائزاً، فإن كان محرماً فقد بطل القول بالتقليد. وإن كان جائزاً فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم، وذلك لأنهم ليس لهم فخر ولاشرف إلا بأنهم من أولاده، وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذى هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء، وإذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول إنه ترك دين الآباء، وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء، وإذا كان كذلك وجب تقليده فى ترك الآباء ووجب تقليده فى ترجيح الدليل على التقليد. وإذا ثبت هذا فنقول: فقد ظهر أن القول بوجوب يوجب المنع من التقليد وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلاً، فوجب **أن يكون القول بالتقليد باطلاً** فهذا طريق رقيق فى إبطال التقليد، **وهو المراد بهذه الآية**(١).

الثاني: فى بيان أن ترك التقليد، والرجوع إلى متابعة الدليل أولى فى الدنيا والدين، أنه تعالى بين أن إبراهيم عليه السلام لما عدل عن طريق أبيه إلى متابعة الدليل لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقياً فى عقبه إلى يوم القيامة، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت، فثبت أن الرجوع إلى متابعة الدليل يبقى محمود الآثر إلى قيام الساعة، وأن التقليد والإضرار ينقطع أثره، ولايبقى منه فى الدنيا خبرولا أثر.

فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل وترك التقليد أولى، فهذا بيان المقصود الأصلى من هذه الآية أهـ.

● **قوله ﴿ إلاَّ الَّذى فَطَرَنى فَإنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾** كما قال إبراهيم عليه السلام فى موضع آخر **﴿الَّذى خَلَقَنى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾**(٢).

● **أقوال المفسرين**

قال ابن جرير (٣) **قوله ﴿ إلاَّ الَّذى فَطَرَني﴾** يقول إنى بريء مما تعبدون من شيء إلا من الذى (فطرني) يعنى الذى خلقني.

---

(١) ومذهب من رد التقليد بالجملة دون تفصيل سيأتى مناقشته فى مبحث جليل.

فى وضع الضوابط والقواعد للتقليد فى هذا الكتاب فى الباب السابع والثلاثين (من أطاع العلماء والأمراء) فليرجع إليه لأهميته.

(٢) الشعراء / ٧٨

(٣) تفسير الطبرى (١١/٢٥/٣٨).

﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ يقول: فإنه سيقومنى للدين الحق، ويوفقنى لاتباع سبيل الرشد. ثم أسند عن السدي: (فطرني) قال : خلقنى . أهـ.

وبنحو قول ابن جرير هذا قال المفسرون.

وقال الزمخشري[1] : (فإن قلت) كيف تجعله ـ فطرنـى ـ بدلاً وليس من جنس ما **يعبدون؟** فالجواب: من وجهين (**أحدهما**) أن ذات الله مخالفة لجميع الذوات، فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون.

(الثاني) أن الله تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبود؟

قلت: قالوا : كانوا يعبدون الله مع أوثانهم، وأن تكون (إلا) صفه بمعنى (غير) على أن مافى (ما تعبدون) موصوفة تقديره (إننى براء) من آلهة تعبدونها غير (الذى فطرني)، فهو نظير قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾

[فإن قلت] : مامعنى (سيهدين) على التسويف؟

قلت: قال مرة (فهو يهدين) ومرة (فإنه سيهديـن) فاجمع بينهما، وقدر كأنه قال فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية فى الحال والاستقبال . أهـ.

قوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قال ابن جرير[2] يقول تعالى ذكـره: وجعل قوله ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ وهو قوله لا إله إلا الله ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾، وهم ذريته، فلم يزل فى ذريته من يـقول ذلك من بعده واختلف أهل التأويل فى الكلـمة التى جعلها إبراهيم فى عقبه. أهـ.

قلت: وهو اختلاف تنوع وليس تضاد لأن الأقوال كلها قد قاربت المعنى وإليك البيان

القول الأول: الكلمة هى لا إله إلا الله.

وعن ابن عباس ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ قال : لا إله إلا الله فى عقبه. قال : عقب إبراهيم ولده[3].

وعن قتادة :شهـادة أن لاإله إلا الله والتوحيد، لـم يـزل فـى ذريته من يقـولها من بعده [4].

---

(١) الكشاف (٣/٤١٦)

(٢) تفسير ابن جرير (١٢/٢٥/٣٩).

(٣، ٤) تفسير ابن جرير (١٢/٢٥/٣٩).

وقاله مجاهد [1]، والسدي[2]

القول الثاني: الكلمة هى الإخلاص والتوحيد:

عن مجاهد ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ قال: **الإخلاص والتوحيد** لايزال فى ذريته من يقولها من بعده ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال: يتوبون، أو يذكرون[3].

عن قتادة: التوحيد والإخلاص، يزال فى ذريته من يوحد الله ويعبده[4]. ا.هـ.

(القول الثالث) الكلمة هى الإسلام.

عن عبدالرحمن بن زيد قوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ فقرأ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: جعل هذه باقية فى عقبه، قال **الإسلام**، وقرأ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ فقرأ ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[5].

وعن عكرمة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ قال فى الإسلام أوصى بها ولده.

القول الرابع: أن لاتعبدوا إلا الله:

قال الضحاك الكلمة: أن لاتعبدوا إلا الله[7]. أهـ.

وزاد البغوى [8]عن ابن جرير: يعنى جعل وصية إبراهيم التى أوصى بها بنيه باقية فى نسله وذريته، وهو قوله عزوجل ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾. اهـ.

وقال ابن كثير[9] ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أى: هذه الكلمة وهى عبادة الله وحده لاشريك له، وخلع ماسواه من الأوثان، وهى لا إله إلا الله أى: جعلها فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام. لعلهم يرجعون، أى: إليها.

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعنى: لاإله إلا الله، لا يزال فى ذريته من يقولها.

(١، ٢، ٤، ٥) «تفسير ابن جرير» (١٢/٢٥/٣٩).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٥/٧٤٦). وتقدم من عند ابن جرير

(٦) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم أيضاً فانظره بتخريجنا

(٧) «القرطبي» (٩/٥٨٩٧).

(٨) «معالم التنزيل» (٥/٩٧).

(٩) «تفسير ابن كثير» (٤/١٢٣)

وقال ابن زيد: كلمة الإسلام، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة أهـ.

وقوله (عقبه)

كما قال ابن جرير سابقاً: هم ذريته.

وعن الزهرى قال: عقب الرجل ولده الذكور والإناث وأولاد الذكور(١).

وعن عبيدة قال: قلت لإبراهيم: ما العقب ؟ قال ولده الذكر(٢).

وعن عطاء فى رجل أسكنه رجل له ولعقبه من بعده أتكون امرأته من عقبه؟ قال: لا ولكن ولده عقبه(٣).

قال القرطبى (٤) قال ابن العربى: ولم تزل النبوة باقية فى ذرية إبراهيم، والتوحيد هم أصله وغيره فيه تبع لهم.

وقال ابن العربى: إنما كانت لإبراهيم فى الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين؟ إحداهما فى قوله ﴿**إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ**﴾فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد.

ثانيهما قوله: ﴿**وَاجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ وقيل: بل الأولى قوله ﴿**وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ**﴾ فكل أمة تعظمه، بنوه، وغيرهم ممن يجتمع معه فى سام أو نوح.

وقال القرطبي(٥): (العقب) فى اللغة عبارة عن شيء بعد شيء كان من جنسه أومن غير جنسه، يقال: أعقب الله بخير أى جاء بعد الشدّة بالرخاء وأعقب الشيب السواد وعقب يعقب عقوبًا وعقبا إذا جاء شيئاً بعد شيء ولهذا قيل لولد الرجل: عقبه والمعقاب من النساء التى تلد ذكرًا بعد أنثى هكذا أبدًا. وعقب الرجل: ولده وولد ولده الباقون بعده.

والعاقبة الولد، قال يعقوب: فى القرآن﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ**﴾ وقيل: بل

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٧٤٦/٥). ونسبه لعبد بن حميد

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد أيضاً.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) «القرطبي» (٥٨٩٦/٩)

(٥) «القرطبي» ٥٩٠٠/٩٠).

الورثة كلهم عقب. والعاقبة الولد، ولذلـك فسره مجاهد هنا، وقال ابن زيد: ها هنا هم الذرية. وقال ابن شـهاب: هم الولد وولد الولد. وقـيل غيره على ما تقـدم عن السدى وفى الصحاح والعقب (بكسر القاف) مؤخر القدم وهى مؤنثة، وعقب الرجل أيضاً ولده وولد ولده.

وفيه لغتان: عقب وعقب (بالتسكـين) وهى أيضاً مؤنثة: عن الأخفش. وعقب فلان مكان ابيـه عاقبة أى خلفـه، وهو اسم جاء بمعنـى المصدر كقوله تـعالى ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد فى المعني. وإن اختلف فى الذرية والنسل فقيل إنـهما بمنزلة الولد والعقب؟ لايدخل ولد البنـات فيهما على مذهب مالك. وقيل إنهم يدخلون فيهما أهـ.

قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

وعن مجاهد : (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) قال : يتوبون أو يذكرون. أهـ.

قال البغوي(٢) : لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين، ويرجعون عما هم عليه إلى دين إبراهيم وقال السدي: لعلهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله عزوجل . أهـ.

قال الزمخشري(٣) : لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم أهـ.

وقال ابن الجوزى (٤): لعلهم يرجعون إلى التوحيد كلهم إذا سمعوا أن أباهم تبرأ من الأصنام ووحد الله عزوجل.

وقال الفخر الرازى (٥) بقول الزمخشرى نصاً.

وقال ابن كثير(٦): لعلهم يرجعون إليها ـ إلى الكلمة. اهـ

وقال الشوكاني(٧) : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ تعليل للجعل، أى جـعلها باقية رجاء أن يرجع إليـها من يشرك منهـم بدعاء من يوحد. والضـمير فى (لعلهـم) راجع إلى أهل

---

(١) تقدم تخريجه قريباً

(٢) «معالم التزيل» (٥/ ٩٧)

(٣) «الكشاف» (٣/ ٤٨)

(٤) «زاد المسير» (٧/ ١٣٣)

(٥) «التفسير الكبير» (١٤/ ٢٧/ ٢٠٩)

(٦) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٢٣)

(٧) «فتح القدير» (٤/ ٥٣١)

مكة. وقيل الكلام فيه تقديم وتأخير ؛ والتقدير : فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها... أهـ.

وقال السعدي[1] : (**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه، كإسحاق ويعقوب لبعض، كما قال تعالى ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾أهـ.

أقوال شراح كتاب التوحيد في الآية:

قال سليمان آل الشيخ[2] :

قلت : وروى ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿**إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي** ﴾قال خلقني[3]

وعنه: ﴿**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ قال: إنهم يقولون إن الله ربنا ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ فلم يبرأ من ربه[4] -تقدم- رواه عبد بن حميد.

قلت: يعني أن قوم إبراهيم يعبدون الله ويعبدونه غيره، فتبرأ مما يعبدون إلا الله، لاكما يظن الجهال أن الكفار لايعرفون الله،ولايعبدون أصلاً.

وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**﴾ قال : الإخلاص و التوحيد، لا يزال في ذريته من يوحد الله و يعبده[5]- تقدم - .

فتبين بهذا أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة مما يعبدون من دون الله، وإفراد الله بالعبادة، و ذلك هو التوحيد لامجرد الإقرار بوجود الله وملكه وقدرته وخلقه لكل شيء، فإن هذا يقر به الكفار وذلك هو معنى قوله:﴿**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ فاستثنى من المعبودين ربه وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي شهادة أن لاإله إلا الله. قاله المصنف اهـ.

قال محمد بن حسن[7] : (لاإله) ، نفي الآلهة الباطلة، وذلك قوله ﴿**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ**﴾ وقولك (إلا الله)، إثبات الألوهية للهتعالي،وذلك قوله ﴿**إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٤٠٢)

(٢)« تيسير العزيز الحميد» (١٠٣، ١٠٤)

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٥ / ٣٨) وتقدم.

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) تقدم

(٦) «فتح الله الحميد المجيد» (١٨٧ ـ١٩١)

فتحقق أن التوحيد الذى ألزم الله به العبيد هو إفراد الله بالعبادة نقلاً، وعقلاً، وفطرة.

أما النقل :قوله تعالى **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾**وقوله تعالى **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾**.

أما العقل: فكما قيل البعرة تدل على البعير، والسير يدل على المسير، فكيف لاتدل سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج على اللطيف الخبير؟! فإذا شهدت العقول على صفاته، وتفكرت فى أفعاله الجميلة وتدبرت أقواله الحسنة لدل ذلك على أن من هذه أفعاله التى أبهرت العقول وعجزت عن إدراك حقيقتها أنه هو الله لاإله إلا هو.

وأما الفطرة: فمعلوم بالضرورة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة أنه لا زعم لأحد أن العالم له صانعان مكافئان فى الصفات و الأفعال، بل ولا أثبت أحد من بنى آدم إلهًا مساويًا لله فى جميع صفاته، بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس له شريك مثله، بل عامتهم مقرون بأن الشريك الذى زعموا أنه مملوك لله سواء، كان ملكاً أو نبياً أو كوكباً أو صنماً كما كان مشركو العرب يقولون فى تلبيتهم :(**لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك**)، فأهلَّ رسول الله ﷺ بالتوحيد «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك لبيك...**»[(1)] أهـ. مختصراً.

قلت : ودليل الفطرة أنها تشهد بالتوحيد من الكتاب والسنة قوله تعالى **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ﴾** الآية . قوله ﷺ «**كل مولود يولد على افطرة**»[(2)] وقال تعالى **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾** الآية . والله أعلم وقوله تعالى فى الحديث القدسى عند مسلم «**إنى خلقت عبادى حنفاء**»[(3)].

قال عبد الرحمن آل الشيخ[(4)]: فتدبر كيف عبرالخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذى دلت عليه ووضعت له: من البراءة من كل مايعبد من دون الله من المعبودات الموجودة فى الخارج: كالكواكب، والهياكل، والأصنام التى صورها قوم نوح

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٤ / ٣٤٦ / ٢٢) عن ابن عباس .

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه

(٤) «فتح المجيد» (١/١٢٣)

علـى صور الصالحـين: ود، وسواع، ويغوث، ويـعوق، ونسـراً، وغيرها مــن الأوثان والأنداد التى كان يعبدوها المشركون بأعيانهم. ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذى فطره، وهو الله وحـده لاشريك له، فهذا هو الذى دلـت عليه كلمة الإخلاص مـطابقة، كما قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾(١). فكل عبادة يقصد بها غير الله من دعاء وغيـره فهى باطلة. وهى الشرك الذى لايغفره الله﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(٢). أهـ.

وقال ابن عثيمين(٣) : قوله ﴿إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى﴾ جمع بين النفى والإثبات، فالنفى ﴿إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ والإثبات﴿إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى﴾ فدل على أن التـوحيد لايتم إلا بالـكفـر بما سـوى الله والإيمان بـالله وحده ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾(٤) فهؤلاء يعبـدون الله وغيره؛ لأنه قال ﴿إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِي﴾ والأصل فى الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذلك تبرأ منهم.

وكذا يوجد فى بعض الـبلدان الإسلامية من يصلى ويصوم ويـحج ومع ذلك يذهبون إلى القبور ويسجدون لـها ويركعون، فهم كفار غير موحدين ولايـقبل منهم أى عمل، وذلك من أخطر مايكون على الشعوب الإسـلامية؛ لأن الكفر بما سوى الله عندهم ليس بشىء،وهذا جهل منـهم وتفريط من علماءهم؛ لأن العامى لايـأخذ إلا من عالمه، لكن بعض الناس - والعياذ بالله ـ عالم دولة لا عالم ملة . وفى قول إبراهيم ﷺ ﴿إلا الذى فطرني﴾ ولم يقل إلا الله فائدتان: .

الأولى : الإشارة إلى علـة إفراد الله بالعبادة، لأنه كمـا أنه منفرد بالخلـق فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلى بطلان عـبادة الأصنام، لأنها لم تفـطركم حتى تعبدوهـا، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفى و الإثبات.

---

(١) الحج ٦٢

(٢) غافر ٧٣ - ٧٤

(٣) القول المفيد (١/١٨٦،١٨٧)

(٤) البقرة :٢٥٦

وهذا من البلاغة التامة فى تعبير إبراهيم عليه السلام. أهـ.

فوائد من الآية:

قال ابن عثيمين(١) : يستفاد من الآية أن التوحيد لايحصل بعبادة الله مع غيره، بل لابد من إخلاصه لله، والناس فى هذا المقام ثلاثة أقسام:

١ـ قسم يعبد الله وحده.

٢ـ قسم يعبد غيره فقط.

٣ـ قسم يعبد الله وغيره.

والأول فقط هو الموحد. أهـ.

وقال القرعاوي(٢): - أى من الآية -.

١ـ أن أصل دين الأنبياء واحد وهو التوحيد.

٢ـ الجهر بالحق من صفات المرسلين .

٣ـ وجوب إنكار المنكر ولو على الأقربين.

٤ـ وجوب البراءة من الشرك.

٥ـ بيان أن قوم إبراهيم يعبدون الله، ولكنهم يشركون معه.

٦ـ أن هداية التوفيق خاصة بالله. أهـ.

وهذا النوع من الشرك هو مايعرف بالولاء والبراء.

فصول
الحب والمودة على الدين، لا لفرقة ولا لحزب

قال تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾(٣).

قال الفقير: قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»(٤).

---

(١) «القول المفيد (١/ ١٨٧). (٢) «الجديد» (٧٣).

(٣) المجادلة : ٢٢.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٦٩) ومسلم فى البر والصلة (٨/ ٤٣٧ / ١٦٥)
وأنظر «رياض الصالحين» (٣٦٩ ـ بتخريجنا) .
وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلالة» (٢٥٠)

فهذه حقيقة الموالاة نصرة ومحبة وتذكير لبعضهم.

وقد بين الله علاقة الموالاة بالتوحيد كما ثبت عن السلف مرفوعاً: «**أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله والموالاة فى الله والمعاداة فى الله**»(١) فهذه أوثق عرى الإيمان فكأن جزاء الموالى ليس الغلبة والنصرة فقط إنما هو متعلق بأوثق عرى الإيمان وفى بعض الروايات «**أن تعطى فى الله وتمنع فى الله**» إما موقوفة أو مرفوعة ذكرها صاحب «الولاء والبراء»(٢) فيكون أصل العطاء والمحبة والتزويج لله.

وجزاؤه أيضاً ما ثبت فى الصحيح إذا كان موالاته لله وعلى هذه الكلمة ليس لنصرة حزب أو جماعة أو لنفسه هو الذى يجد حلاوة الإيمان «**ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون...**»(٣) ولو لم يكن فى المذهبية والحزبية آفة إلا هذه الآفة التى تسبب عدم وجود حلاوة الإيمان فى قلبك فلا توالى ولا تعادى إلا على الفرقة أو الشيخ أو الجماعة أو الحزب لكفى بها آفة التى تطعن فى كمال التوحيد ، والرسول قال «**ثلاثة من كن فيه ..**» فى المقابل قال للمتعصب تعصبًا جاهليًا «**ذروها فإنها منتنة**» (٤) فالولاء والبراء ليسوا على حزب حتى لو كان هم الأنصار أو المهاجرين فالأصل هو الله والرسول والإسلام توالى عليه وتعادى عليه معنى ذلك أن كل من دخل فى الإسلام له منا أصل المحبة والولاء حتى لو كان مبتدعاً بدعة غير مكفرة فيوالى من جهة إسلامه ويعادى من جهة ابتداعه فنواليه لإسلامه ونبرأ من ابتداعه، وأيضًا الولاء للرسول ليس للشيخ كيف ذلك: من نرى منه طاعةلله ولرسوله ازداد ولاؤنا ومحبتنا له بقدر طاعته فيما يظهر لنا ومن نرى فيه خلاف ذلك قلّت محبتنا وولاؤنا له بقدر معصيته لله ولرسوله مع الأخذ فى الاعتبار أن أصل الولاء ما زال له لأنه ما زال فى دائرة المسلمين، فلا داعى أن أقول أن هذا أخى وحبيبى لأنه يحضر لشيخنا ويقرأ كتبنا فبقدر سماعه للشيخ يكون قدر حبنا وولائنا له، وبقدر عدم سماعه بقدر بغضنا له فصار الولاء على المشايخ فهى آفة وعقبة كؤود لكل من أراد العمل لله ولإقامة دينه.

وهذا بخلاف الولاء والبراء عند أهل البدع والاهواء فهم يوالون على أهوائهم وبدعهم

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤ / ٢٧٦)، وابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٧ / ٢٢٦ / ٦٩) عن البراء به.

وأنظر كتابنا«فقه الخطابة وزاد الخطيب» فى خطبة شم النسيم.

(٢) انظر «الولاء والبراء» (٤١، ٤٢).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١) ومسلم فى الإيمان (١/ ٢/ ١٣).

وانظر «رياض الصالحين» بتخريجنا (٣٧٦).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم البرو الصلة (٨ / ٣٨١ / ٦٣) عن جابر به.

فمن وافق بدعهم والوه وأحبوه ومن خالف بدعهم عادوه وبغضوه، وهو كقول الرافضة قالوا: «لا ولاء إلا ببراء» يعنى لا ولاء لعلى إلا ببراء من أبى بكر وعمر وتكفيرهم وهذا الكلام مردود عليه.

وقلنا أن الأمة اتفقت أنهم أفضل الأمة بعد النبى والنبى بشرهما بالجنة ولا يبشر أحدًا بالجنة ويعلم الله أنه سيموت على ردة الرسول ذكر من مناقب أبى بكر وعمر مايجل عن أن يوصفا بهذا الوصف القبيح فمن كفرهم فهم أولى بهذا الوصف لحديث «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما» (١).

فقول على بن أبى طالب فى الخوارج: إخواننا بغوا علينا طهرهم السيف الشيعة قالوا: لا ولاء إلا ببراء ، أى لا ولاء لعلى إلا ببراه من أبى بكر وعمر .

هذا الكلام مردود عليه بزواج أم كلثوم من عمر زوجها على من عمر وما كان لعلى أن يزوج ابنته من كافر وهذا كان بعد موت النبى ﷺ .

وفى قصة تزويج بنت على من عمر فى سندها نظر(٢) وفيه فكشف عمر عن ساقها فقالت أم كلثوم : لولا أنك أمير المؤمنين لفقأت عينيك متأولاً قوله ﷺ: «إن استطاع أن ينظر إليها فليفعل»(٣).

قال الشيعة : أن هذه تقيه: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ الرد عليهم، هذه منقصة لعلى وليست منقبة أن يخاف من عمر فأرادوا أن ينزهوا علىٍّ فوقعوا فى أشر مما فروا منه.

فالصواب : أن علياً ما زوج ابنته لأمير المؤمنين إلا لعلمه أنه أفضل الصحابة بعد أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين، وقطع الله له بالرضوان كما قطع لغيره وبشره بالجنة.

فإن قالوا أنهم ارتدوا بعد موت النبى ﷺ فنرد عليهم بالآيات التى تبشرهم بالجنة وكذلك الأحاديث التى فيها مناقبهم فلا يقطع لأحد بهذه المناقب وهو مآله الكفر ويعلم الله أنه سيموت كافرًا ويعلم أنه سيرتد.

وفى الخبر: يأبى الله ويأبى المؤمنون إلا أبا بكر(٤).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٠٤)، ومسلم فى الإيمان (٢ / ٤٩ ـ النووي) عن ابن عمر وانظر «رياض الصالحين» (١٧٣٥ـ بتخريجنا)

(٢) ذكره الألبانى فى الصحيحة (١ / ١٥٦)

(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٨٢) عن جابر به..

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨ / ١٦٣ / ١١) عن عائشة.

وفى الصحيح : «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين**»[1] وفى رواية : «**ومن نفسه التى تكون بين جنبيه**».

ولما كانت هذه المسألة «الحب فى الله والبغض فى الله» لا يفعلها إلا من بلغ الكمال فى الإيمان لهذا كان لها الأجر الكبير يوم القيامة وفى الدنيا أيضًا:

فى الدنيا : «**فيحبه الله**» : وفى الأثر الرجل الذى كان يحب أخاه فى الله فذهب ليزوره فى الله فأنزل الله إليه ملك فقال له «**إن الله يحبك**»[2].

فى الآخرة: «**سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»[3] أى اجتمعا فى الله وتفرقا فى الله رواه مسلم وغيره.

وقال ابن تيمية رحمه الله[4]: «فأما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهته، بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله، وبغض الله ورسوله، وهذا نوع من الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه، ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ**﴾[5] ، ا.هـ.

وقال أيضًا: «إن الله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب، ليكون الدين كله لله ويكون الحب لأوليائه، ويكون البغض لأعدائه والإكرام والثواب لأوليائه، والإهانة والعقاب لأعدائه، وإذا اجتمع فى الرجل الواحد خير وشر، وفجور، وطاعة ومعصية وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة بحسب ما فيه من الشر». ا.هـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»[6]: ولا شك أن من أحب الكافرين على كفرهم، أو حتى رضى بكفرهم، وإن لم يحبه فهو كافر مثلهم، فإن الرضى بالكفر كفر، لأنه رد

---

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (١٥)، ومسلم فى الإيمان (١ / / ٢٩٠/ ٦٩)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (٨ / ٣٦٦ / ٣٨) عن أبى هريرة

وانظر «رياض الصالحين» (٣٨٠ـ بتخريجنا)

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٤٧٩)، ومسلم فى الزكاة (٧ / ١٢٠ـ النووي) عن أبى هريرة

وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٧ ـ بتخريجنا)

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨، ٢٠٨)

(٥) القصص / (٥٠).

(٦) (ص ١١٣، ١١٤).

لكتاب الله عز وجل قال سبحانه: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[1]. وقال: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾[2]، وقد تبرأ حاطب بن أبي بلتعة- كما تقدم - من أن يكون فعل ما فعل بالكفر بعد الإسلام، وهذا من المعلوم قطعًا من دين الإسلام، بل المؤمن حقًا هو من كان إلقاؤه في النار أحب إليه من الكفر، كما قال النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المراء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[3].

فتبين بما ذكرنا لمن يكون حب المؤمن، ولمن يكون بغضه، فالمؤمن كامل الإيمان يحب من كل وجه، والكافر يبغض من كل وجه، والفاسق العاصي الذى عنده أصل الإيمان، يُحَبُّ لإيمانه ويبغض لفسقه ومعصيته كما تقدم بيان ذلك.

وبما تقدم، يتبين لك بطلان الدعاوى المعاصرة التى تنادى **بالمحبة لأهل الأديان، والمساواة بينهما، وتعانق الهلال والصليب**، وعبارة: **الدين لله والوطن للجميع**.

وقد يسمى بعضهم اتباع الملل المختلفة بالنسبة إلى الرسل: المؤمنين من أهل الأديان السماوية، وسعى بعضهم إلى بناء **مجمع الأديان**، وكل هذه الدعاوى إنما نبعت من الكفر، والزندقة، والنفاق، غرضها هدم هذه العقيدة لدى المؤمنين، نسأل الله أن يكف عن المسلمين شر هذه الدعاوى وشر أصحابها.

مسألة: ما هو حكم الحب الجبلى (الطبيعي) للكافر:

نفرق بين الحب الجبلى والحب الذى يُصرف للكافر حبًا فى عقيدته.

فها هو عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول أحب أباه حبًا طبيعيًا فقال للنبى ﷺ: إن كنت قاتل أبى فمرنى أن أقتله حتى لا تأمر غيرى فأرى قاتل أبى فأقتله فأقتل مسلمًا بكافر[4].

(١) آل عمران / (٨٥).

(٢) آل عمران / (١٩).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٦)، ومسلم فى الإيمان (٢ / ١٣ ـ النووي) عن أبى هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٦ ـ تخريجنا)

(٤) أخرجه البيهقى «الدلائل» (٤ / ٦٢) عن عاصم بن عمر بن قتادة به وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة» (٣ / ٢٩٧).

فصول

فصل فى معنى الولاء لغة واصطلاحاً

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

فتقدم معنا أن الكلمة هى كلمة التوحيد والإخلاص والإسلام ولا إله إلا الله.

قال محمد بن عبد الوهاب فى مسائله على هذا الباب:

ذكر سبحانه أن هذه البراءة - يعنى من المعبودين من دون الله-، وهذه الموالاة - يعنى لله عزوجل - هى تفسير شهادة أن لاإله إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أهـ.

ونعنى بالولاء: الموالاة الواجبة لله، ولرسوله، وللمؤمنين، ولازمها حرمة المولاة للكافرين.

ونعنى بالبراء: التبرؤ من الشرك، وأهله، وعداوتهم، وبغضهم ولازمها حرمة البراءة من المسلمين والمؤمنين أو عداوتهم أو بغضهم.

الولاء لغة يأتى فى معانى قريبة من معناه الشرعى فهو المحبة والقربي، لقوله ﷺ « **إن آل أبي بياض ليسوا بأوليائى إنما ولى الله وصالح المؤمنين، ولكن رحماً أبلها ببلالها**»(٢) يعنى: أصلها بصلتها.

وجاء فى لسان العرب: «الموالاة - كما قال ابن الأعرابى -: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له فى أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه، ووالى فلانا إذاأحبه، والمولي: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو الرب، والمالك، و السيد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والحفيد، والعبد، و المعتق، والمنعم عليه، والموالاة ضد المعاداة، والموالاة: المتابعة.

وقال صاحب «المصباح المنير»: الولى فعيل بمعنى: فاعل، من وليه: إذا قام به، وقال: المؤمن ولى الله، بمعنى أنه مطيع لله.

---

(١) الزخرف: / (٢٦ - ٢٨).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى..

وفى الشرع : بمعنى النصرة والتآخى .... كما تقدم من ظاهر الآيات، ولذا.

قال ابن تيمية : «أصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد».

ويتضح بماذكرنا أن أكثر المعانى تدور حول : الحب، والنصرة، والقيام بالأمر، ولوازم ذلك، كالطاعة، والمتابعة، والمعاونة، والصداقة، ولوازم هذه الأمور.

ولما كان قضية الولاء والبراء ركناً من أركان التوحيد، ومقتضى كلمة لا إله إلا الله فقد كثر بيانها فى القرآن والسنة، شأنها شأن كل قضايا العقيدة، وكثر بيان أحكامها، ولوازمها، وما يترتب عليه فى الدنيا والآخرة:

فصل

فى الأدلة من الكتاب والسنة

على الترغيب فى موالاة المؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين وذم الموالى

أولاً : نصوص القرآن : قال الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

قال تعالى مبيناً حرمة اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وأن من والاهم يكون منهم: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**(١). ويخبر سبحانه أن موالاتهم من علامات النفاق، ومرض القلب، وأنها سبب لحبوط العمل، وتستوجب الخسران، قال تعالى : **﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾**(٢).

وقال سبحانه مبيناً أن موالاة الكافرين لاتكون بحال من الأحوال من صفات المؤمنين،

(١) المائدة/ (٥١).

(٢) المائدة / (٥٢ - ٥٦).

وأن من فعلها فقد برىء من الله، وبرىء الله منه: ﴿**لا يَتَّخذ الْمُؤْمنونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ من دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾(١).

وقد بين عزوجل أن الإيمان بالله واليوم الآخر، ومودة الكافرين ولو كانوا من أقرب الأقربين ـ لايجتمعان فى قلب واحد، فقال عزوجل: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(٢).

وجعل سبحانه الإسرار بالمودة للكافرين، ولو كان لحماية أهل، أو ولد، أو مال، دون موافقة القلب على الكفر، أو الرضا به علامة على الضلال، فقال عزوجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾(٣).

وعن على رضى الله عنه قال: بعثنى النبى ﷺ أنا، والزبير، والمقداد، فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها**» فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة قلنا: أخرجى الكتاب، قالت: ما معى كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا به: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**ياحاطب، ماهذا؟**» قال: لاتعجل علىَّ، إنى كنت امرءاً ملصقاً فى قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً، ولا ارتداداً عن دينى، ولارضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه صدقكم**»، فقال عمر رضى الله عنه: دعنى أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله

---

(١) آل عمران / (٢٨) (٢) المجادلة / (٢٢). (٣) المتحنة / (١).

ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم»(1) زاد البخارى فى كتاب المغازى فى «صحيحه»: فأنزل الله سورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾(2).

وقال سبحانه مبينا للمؤمنين الأسوة الحسنة فى هذا الباب: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾(3).

قال ابن كثير - رحمه الله - فى «التفسير»(4): أى لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها، إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾(5).

وبين سبحانه أن من أسباب لعن بنى إسرائيل على ألسنة أنبيائه ورسله توليهم للكافرين، وبين أن ذلك سبب سخط الله عليهم، وخلودهم فى النار، فقال سبحانه، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾(6).

ثم بين - عزوجل أن عدم الإيمان بالله، والنبى ﷺ، والقرآن هو سبب فى هذه الموالاة، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(7).

وبين سبحانه: أن عدم القيام بهذا الركن من أركان الإيمان، يؤدى إلى الفتنة والفساد الكبير فى الأرض، فقال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

(1) [صحيح] البخارى (3007) وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.
(2) الممتحنة/ (1).
(3) الممتحنة / (4).
(4) (4/ ,, 348).
(5) التوبة / (114).
(6) المائدة / (78 - 80).
(7) المائدة / (81).

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[١].

قال ابن كثير رحمه الله فى «التفسير»[٢]: أى: إن لم تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة فى الناس، وهو التباس الأمة، واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل. أ هـ.

ثانياً : نصوص السنة:

١ـ عن جرير بن عبدالله البجلى رضى الله عنه مرفوعاً، وفيه: «**وتنصح المسلم، وتبرأ من المشرك**» [٣].

٢ـ وعن ابن عباس رضى الله عنه مرفوعاً: «**أوثق عرى الإيمان، الموالاة فى الله، والمعاداة فى الله، والحب فى الله، والبغض فى الله**» [٤].

٣ـ وعن ابن عباس رضى الله عنه: «**من أحب فى الله وأبغض فى الله، ووالى فى الله، وعادى فى الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه، حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس اليوم على أمر الدنيا، وذلك لايجزى عن أهله شيئاً**»[٥].

٤ـ وعن جرير بن عبدالله رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «**أنا برىء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين**»، قالوا: يارسول الله، لم؟ قال: «**لاتراءى ناراهما**»[٦].

٥ـ وعن جبلة بن الحارثة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**إذا أويت إلى فراشك فاقرأ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾**[٧]حتى تمر بآخرها، فإنها براءة من الشرك»[٨].

وله شاهد عن نوفل بن معاوية رضى الله عنه[٩].

---

(١) الأنفال / ٧٢، ٧٣. (٢) (٢/ ٣٣١).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٦٤) والنسائى فى «الكبرى» (٧٧٩٨) عن جرير به.

(٤) تقدم تخريجه فى هذا الباب (٥) أخرجه ابن المبارك فى «الزهد» (٣٥٣).

(٦) [حسن صحيح] أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذى (١٦٠٤) عن جرير به.

وانظر «منار السبيل» (٩٩٢١ ـ بتخريجنا.

(٧) الكافرون / (١).

(٨) أخرجه النسائى فى «الكبرى» (١٠٦٣٦) عن جبلة به

(٩) أخرجه أبو داود (٥٠٥٥)، والترمذى (٣٤٠٣) وانظر «الأذكار للنووى» (٢٤٥ ـ بتخريجنا).

قال ابن القيم رحمه الله[1]: إن هذه السورة تشتمل على النفى المحض، فهذا هو خاصية هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك، كما فى وصفها؛ فمقصودها الأعظم هو: البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفى فى الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات الصريح، فقوله: ﴿**لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ براءة محضة، ﴿**وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ إثبات أن له معبوداً يعبدون، وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفى والإثبات، وطابقت قول إمام الحنفاء: ﴿**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾[2] فأنتظمت حقيقة لا إله إلا الله؛ ولهذا كان النبى ﷺ يقرنها بسورة: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ فى سنة الفجر[3] وسنة المغرب[4]، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص أ. هـ.

فصل ماهو السبب فى موالاة الكافرين؟

[١] **الخوف من الدوائر**: قال تعالى مبيناً السبب فى موالاة الكافرين أنه مرض وزيغ ونفاق وعدم إيقان بوعد الله ﴿**تَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ**﴾ الآية

فيقول هؤلاء: إنما نوالى بعض الظلمة لأننا نخشى أن تدور بنا الدوائر، فيصيبونا بأذى فى أنفسنا أو أموالنا. وأصل هذا إنما هو زيغ ونفاق ومرض فى القلب.

[٢] **الطمع فى العزة والمنحة بالرياسة والشرف ونحوه من قبل الكفار**: يقول: ﴿**بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ**﴾ الآية

فالزيغ والمرض وعدم اليقين فى وعد الله هو السبب فى جعل كثير من الناس مداهنين موالين للكافرين. ومنشأ المرض والنفاق من معاصى وذنوب وران على القلب وضعف

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٥٦).

(٢) الزخرف/ (٢٦، ٢٧).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣/ ٢٥٦/ ٩٨) عن أبى هريرة به.

(٤) أخرجه رواه ابن ماجة (١١٦٦) عن عبدالله بن مسعود به.

فى الإيمان دفع كثير من الناس لهذه الموالاة التى نهى الله وبين أنها من صفات المنافقين حيث قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ فهو منافق يخادع الله بهذه الطريقة﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ والمنافق يوالى طمعاً فى العزة﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأحياناً يطلبون مصلحة وعزة والرسول قال «من انتسب إلى تسع أجداد له فى الجاهلية يبتغى بذلك عزاً مازاده الله إلا ذلاً»(١) وفى الحديث المسند «وجعل الصغار والذلة على من خالف أمري»(٢) فهو لو يعلم أن الذلة والصغار على المخالف وأن العزة فى طاعة الله ورسوله ما ابتغى العزة فى المداهنة والمصانعة وموالاة الكافرين وماخالف أمر النبى فالسبب فى موالاة الكافرين إما عزة ومصلحة أو خوف ﴿نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ والاسباب على كثرتها مردها إلى هذين السببين طمع فى مصلحة أو خشية الدائرة.

فصل

فى حكم الموالاة وصورها

أحكام الموالاة للمشركين تارة تكون هذه الموالاة مكفرة إذا امتنعت موانع الكفر عمن فعلها، وتارة تكون كفر أصغر، أو كبيرة، وتارة تكون معصية، وتارة تكره.

١ - **الركون من الموالاة المكفرة** عند انتفاء الموانع ففيها ﴿لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء﴾ وفيها قصه حاطب بن أبى بلتعة المتقدمة فهذه موالاة ومودة لهم، كأن تكون عين وجاسوس للظلمة.

فهذا نوع موالاة الأصل فيه أنه مكفر.

والدليل فهم البخارى فى باب من كفر أخاه متأولاً وفيه أن عمر قال يارسول الله

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند» (٤٠/ ١٣٤) عن أبى ريحانه باختلاف فى أخر.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢ / ٥٠) عن ابن عمر به.

وانظر كتابنا «فقه الخطابة وزاد الخطيب» فى خطبة بذل المعزة فى أسباب العزة.

«دعني أضرب عنق هذا المنافق»[1] والرسول لم ينكر على عمر في الحكم على حاطب بالنفاق الذي فهم البخاري أنه كفَّرَهُ متأولاً لكن ماالذي منع الرسول من إمضاء الحكم عليه واستباحة دمه؟.

الجواب: لقرائن تصرف هذه الفعلة من الكفر للكبيرة.

فما هي هذه القرائن؟ .

الجواب: إيادي حاطب البيضاء في الإسلام؛ لانه بدري ولأن هذه الفعله فلم تكن جربت عليه من قبل وغير ذلك، فالرسول قال لحاطب: **ماحملك على هذا»** فقال : والله ما فعلته ردة ولا رضى بالكفر» إذن فالموالاة للظلمة وللكافرين إن كانت رضى على منهجهم ومعتقدهم وعدم رضى بالاسلام والمسلمين وبمنهجهم فهذا كفر «إنما فعلتها ليكون لي يد عندهم» فقال الرسول «**لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ....» إلخ الحديث**[2].

وأما الركون إليهم فقد قال الله تعالى **﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾**[3].

قال القرطبي في «تفسيره»: الركون حقيقته الاستناد، و الاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به.

قال قتادة :عناه: لاتوادوهم، ولاتطيعوهم. وقال ابن جريج: لاتميلوا إليهم . أهـ. ثم قال رحمه الله: وهذا هو الصحيح في معنى الآية وأنها دالة على هجران أهل الكفر،والمعاصي، من أهل البدع، وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر، أو معصية، إذ الصحبة لاتكون إلا عن مودة، وقد قال حكيم:

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه . . . فكل قرين بالمقارن يقتدى . أهـ.

وقال تعالى : **﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾**[4]. إذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق ﷺ فكيف بغيره؟!!.

٢ - **التشبه من الموالاة التي تتردد بين الكفر والكبيرة والمعصية:** ومن صور الموالاة التي

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) تقدم.

(٣) هود: (١١٣).

(٤) الإسراء: ٧٥.

لايكفر صاحبها، بعض أنواع التشبه وعلى قدر التشبه يكون الحكم على صاحبه: فإذا تشبه فى أصل دينهم بمعنى هل لبس ثوب القسيس يكون تشبه مكفر؟ إذا كان هناك قرينه صارفة من الكفر لغيره مثل أن يقول لبست ثوب القسيس لأدخل الكنيسة وأعرف أخبارهم فنقول هذه قرينه صارقة لكن ظاهرها كفر.

إما إذا كان التشبه ليس فى أصل الدين ولا عَلَمٌ عليهم: مثال الأخوة التى تلبس بنطلون وقميص الآن فهذا تشبه بهم لكن هذا التشبه غير مكفر لأن هذا اللباس ليس عَلَماً عليهم الآن مثل ثوب القسيس. أما إذا فعلها (- أى لبست البنطال والقميص) لمصلحة شرعية فقد تجوز مع الكراهة وقد تجوز بغير كراهة وهذه الصورة أيضاً قد تدخل فى حد الموالاة والقرب والمحبة **«من تشبه بقوم فهو منهم»**(١).

والمسلم يتشبه بالرسول ﷺ فى هديه الظاهر والباطن، وكذا بصحابته رضوان الله عليهم وبما عليه جماعة المؤمنين، فأما التشبه بالكفار فى الظاهر أو الباطن: فمن أخطر الأمور على دين المرء.

فعلى هذا ينقسم التشبه: قسمين:

[القسم الأول]: تشبه يكفر صاحبه: وهو ما كان تشبهاً فى أصل الدين، ولا توجد قرينة لصرف هذا التشبه عن أصل دينهم.

[القسم الثانى] تشبه لا يكفر صاحبه: وهو ما كان تشبهاً ليس فى أصل الدين ويدور هذا القسم بين الكفر الأصغر أو الكبيرة أو المعصية.

قال ابن تيمية رحمه الله فى «اقتضاء الصراط المستقيم»(٢): «ثم جعل - أى الله تعالى - محمداً ﷺ على شريعة من الأمر، شرعها له، وأمره باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لايعلمون، وقد دخل فى الذين لايعلمون: كل من خالف شريعته. و«وأهواءهم» هى: كل ما يهوونه، وماعليه المشركون من هديهم الظاهر - الذى هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك - فهم يهوونه. وموافقتهم فيه: اتباع لما يهوونه؛ ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين فى بعض أمورهم، ويسرون به، ويودون أن لو بذلوا مالاً عظيماً ليحصل ذلك.

ولو فرض أن ليس الفعل من اتباع أهوائهم، فلا ريب أن مخالفتهم فى ذلك أحسم لمادة متابعتهم فى أهوائهم، وأعون على حصول مرضاة الله فى تركها، وأن موافقتهم فى

---

(١) هو جزء من حديث: «بعثت بالسيف» الذى تقدم قريباً.
(٢) (ص ١٤).

ذلك قد تكون ذريعة إلى موافقتهم في غيره؛ فإن من حام حول الحمى أوشك أن يواقعه». أهـ.

وقال رحمه الله:[1] تعليقاً على قول النبي ﷺ: **«من تشبه بقوم فهو منهم»**[2]: «هذا الحديث أقل أحواله أنه يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهرة: يقتضي كفر المتشبه بهم، كما في قوله ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[3].

ثم قال رحمه الله: «فقد يحمل هذا على التشبه المطلق؛ فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك. وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه؛ فإن كان كفراً، أو معصية، أوشعاراً للكفر-[4] وللمعصية: كان حكمه كذلك. وبكل حال: فهو يقتضي تحريم التشبه بهم بعلة كونه تشبهاً.

والتشبه: يعم من فعل الشيء لأجل أنهم فعلوه، وهونادر. ومن تبع غيره في فعل لغرض له في ذلك، إذا كان أصل الفعل مأخوذاً عن ذلك الغير.

فأما من فعل الشيء واتفق أن الغير فعله أيضاً، ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه، ففي كون هذا تشبها نظر. لكن قد ينهى عن هذا، لئلا يكون ذريعة إلى التشبه، ولما فيه من المخالفة، كما أمر بصبغ اللحي، وإعفائها، وإحفاء الشوارب، مع أن قوله ﷺ: **«غيروا الشيب ولاتشبهوا باليهود»**[5] دليل على أن التشبه بهم يحصل بغير قصد منا، ولافعل، بل بمجرد ترك تغيير ماخلق فينا. وهذا أبلغ من الموافقة الفعلية الاتفاقية»أهـ

- فصل في أقسام التشبه ومقامه -

وقال رحمه الله بعد ذلك[6]: اعلم أن أعمالهم ثلاثة أقسام:

- قسم مشروع في ديننا، مع كونه كان مشروعاً لهم، أو لا نعلم أنه كان مشروعاً لهم، لكنهم يفعلونه الآن.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تقدم

(٣) المائدة/ (٥١).

(٤) ومن هذا لبس الزنار والصليب. قال النووي في «روضة الطالبين» ولو شد الزنار على وسطه كفر، واختلفوا فيمن وضع قلنسوة المجوس على رأسه، والصحيح: أنه يكفر. أهـ.

(٥) أخرجه الترمذي (١٧٥٢) عن أبي هريرة وأصله في الصحيحين بلفظ «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم».

(٦) (ص ١٧٨ - ١٨٠)

● وقسم كان مشروعاً، ثم نسخه شرع القرآن.

● وقسم لم يكن مشروعاً بحال، وإنما هم أحدثوه.

وهذه الأقسام الثلاثة، إما أن تكون فى العبادات المحضة، وإما أن تكون فى العادات المحضة - وهى الآداب، وإما أن تجمع العبادات، والعادات، فهذه تسعة أقسام.

●**فأما القسم الأول: وهو ماكان مشروعاً فى الشريعتين، أو ما كان مشروعاً لنا، وهم يفعلونه**: فهذا كصوم عاشوراء، أو كأصل الصلاة والصيام، فهنا تقع المخالفة فى صفة ذلك العمل، كما سن لنا صوم تاسوعاء وعاشوراء[1]، كما أمرنا بتعجيل الفطر مخالفة لأهل الكتاب[2]، وبتأخير السحور: مخالفة لأهل الكتاب[3]، وكما أمرنا بالصلاة فى النعلين[4]: مخالفة لليهود، وهذا كثير فى العبادات، وكذلك فى العادات.

قال رسول الله ﷺ: **«اللحد لنا والشق لغيرنا»** [5].

وسن توجيه قبور المسلمين إلى الكعبة: تمييزاً لها عن مقابر الكافرين، فإن أصل الدفن من الأمور المشروعة فى الأمور العادية ثم قد اختلفت الشرائع فى صفته، وهو أيضاً فيه عبادات.

ولباس النعل فى الصلاة فيه عبادة وعادة، ونزع النعل فى الصلاة شريعة، كانت لموسى عليه السلام، وكذلك اعتزال الحائض، ونحو ذلك من الشرائع - التى جامعناهم فى أصلها، وخالفناهم فى وصفها.

● **القسم الثاني: ماكان مشروعاً ثم نسخ بالكلية**: كالسبت، أو إيجاب صلاة، أو صوم، ولايخفى أن النهى عن موافقتهم فى هذا أبلغ، سواء كان واجباً عليهم، فيكون عبادة، أو محرماً عليهم، فيتعلق بالعادات، فليس للرجل أن يمتنع من أكل اللحوم لكل ذى ظفر على وجه التدين بذلك.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصيام (٨ / ٩ - النووى) عن ابن عباس به.
وانظر «السلسبيل» (١١٤٨ - بتخريجنا).

(٢) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢ / ٤٥٠)، وأبو داود فى الصوم/ باب ما يستحب من تعجيل الفطر (٢/ ٣١٥/ ٢٣٥٣) وابن حبان فى صحيحه (٥/ ٢٠٧) وابن خزيمة (٣/ ٢٧٥/ ٢٠٦٠) وانظر السلسبيل (١١٢٤ - بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصيام (٤/ ٢٢١/ ٤٦) عن عمرو بن العاص بلفظ «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٨٦)، ومسلم فى المساجد (٢/ ٤٧/ ٦٠) عن أنس.

(٥) [ضعيف] أخره أحمد فى «مسنده» (٤ / ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٣)، وأبو داود (٣٢٠٨)، والترمذى (١٠٤٥)، والنسائى (٢١٣٦)، وابن ماجه (١٥٥٤) عن ابن عباس به.
وانظر «السلسبيل» (٩٢٢ - بتخريجنا).

وكذلك ماكان مركباً منهما، وهى الأعياد التى كانت مشروعة لهم، فإن العيد المشروع يجمع عبادة، وهوما فيه من صلاة، أو ذكر، أوصدقة، أو نسك، ويجمع عادة، وهو مايفعل فيه من التوسعة فى الطعام، واللباس، ومايتبع ذلك من ترك الأعمال الواجبه، واللعب المأذون فيه فى الأعياد لمن ينتفع باللعب،و نحو ذلك، ولهذا قال النبى ﷺ لما زجر أبو بكر رضى الله عنه الجاريتين عن الغناء فى بيته قال: **«يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا»**(١). وكان الحبشة يلعبون بالحراب يوم العيد والنبى ﷺ ينظر إليهم.

فالأعياد المشروعة يشرع فيها، وجوباً، أو استحباباً من العبادات مالا يشرع فى غيرها، ويباح فيها، أو يستحب، أو يجب من العادات التى للنفوس فيها حظ، مالا يكون فى غيرها كذلك، ولهذا وجب فطر يوم العيد، وقرن بالصلاة فى أحدهما الصدقة، وقرن بها فى الآخر الذبح، وكلاهما من أسباب الطعام.

فموافقتهم فى هذا القسم المنسوخ من العبادات، أو العادات، أو كليهما أقبح من موافقتهم فيما هو مشروع الأصل؛ ولهذا كانت الموافقة فى هذا محرمة؛ وفى الأول قد لاتكون إلا مكروهة.

● **وأما القسم الثالث: وهو ماأحدثوه من العبادات، أو العادات، أو كليهما ـ** فهو أقبح،وأقبح، فإنه لو أحدثه المسلمون قد يكون قبيحاً، فكيف إذا كان ممالم يشرعه نبى قط؟ بل قد أحدثه الكافرون، فالموافقة فيه ظاهرة القبح . أهـ.

ومن أخطرمظاهر التشبه: التشبه بهم فى أعيادهم، قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عز وجل قد أبدلكم بهما خيراً منهما: يوم الأضحي، ويوم الفطر»** (٢).

وقال مجاهد والربيع بن أنس والضحاك فى قوله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾(٣). قالوا : أعياد المشركين(٤).

وقال عمر رضى الله عنه: «لاتعلموا رطانة الأعاجم، ولاتدخلوا على المشركين كنائسهم، يوم عيدهم، فإن السخطة تنزل عليهم»(٥).

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩٥٢)، ومسلم فى العيدين (٣/ ٤٥٠/ ١٦) عن عائشة به.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ١٠٣)، وأبو داود (١١٣٤)، والنسائى (٣/ ١٧٩ ـ السيوطى) عن أنس به.

وانظر كتابى «فقه الخطابه» وخطبة شم النسيم.

(٣) الفرقان/ (٧٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٩).

(٥) أخرجه البيهقى (٩/ ٢٣٤)، وصحح إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية.

انظر كتابى «فقه خطابة» خطبة شم النسيم.

٣- النصرة

تقدم ما ورد في لسان العرب أن من معاني الولي : الناصر.

ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾(١).

أي: لا ناصر لـهم، والموالاة والمحاباة والـنصرة واجبة علـى كل مسلم لإخـوانه في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾(٢) وقال النبي ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقال رجـل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره»(٣).

ومن أخطر صور مـوالاة الكافرين: نصرهم عـلى المؤمنين، بل ذلك الفـعل يوجب لصاحـبه النار، وينـطبق عليـه بسبب فعـله ذلك أحكام المشركين، مهمـا زعم الإيمان بكلامه، أو اعـتذر بمعذرته، قال تـعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾(٤).

قال ابن جرير رحمه الله فـي «التفسير»(٥): «هذا نهي من الله عز وجـل للمؤمنين أن يتخذوا الكفار أعوانًا وأنصارًا وظهورًا. . .».

قال: «ومعنى ذلك لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهورًا، وأنصاراً ، توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمـين من دون المؤمنين، ومن فعل ذلك فقد برئ من الله، وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر» اهـ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾(٦).

قال ابن كـثير - رحمـه الله - في «تفسيره»(٧): ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بترك الهجرة، وقال: هذه الآية الكريمة عامة في كـل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكباً حرامًا بالإجماع، وبنص هذه الآية.

---

(١) محمد/ ١١. (٢) الأنفال/ ٧٢.

(٣) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٩٥٢) وانظر «رياض الصالحين» (٢٣٩ ـ بتخريجنا)

(٤) آل عمران / (٢٨). (٥) تفسير ابن جرير

(٦) النساء/ (٩٧). (٧) (١/ ٥٤٣).

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على أمر رسول الله ﷺ يأتى السهم فيرمى أحدهم فيقتله أو يضرب عنقه، فيقتل فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾(١).

وروى ابن جرير بسنده عن عكرمة فى هذه الآية قال: «نزلت فى قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبى العاصى بن منبه بن الحجاج، وعلى بن أمية بن خلف، قال: لما خرج المشركون من قريش، وأتباعهم لمنع أبى سفيان بن حرب، وعير قريش من رسول الله وأصحابه، وأن يطلبوا ما نيل منهم يوم «نخلة»، خرجوا معهم بشباب كارهين، كانوا قد أسلموا، واجتمعوا ببدر على غير موعد، فقتلوا ببدر كفارًا، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء الذين سميناهم»(٢).

وعن السدى فى الآية قال: «لما أسر العباس، وعقيل، ونوفل قال رسول الله ﷺ: «**افد نفسك، وابن أخيك**، فقال: يا رسول الله، ألم نصل إلى قبلتك ونشهد شهادتك؟ قال: يا عباس إنكم خاصمتم فَخُصِمتُم، ثم تلا عليه هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾(٣)(٤).

فوضح بما ذكرنا حكم من زعم الإسلام ثم خرج فى صفوف الكافرين مقاتلاً للمسلمين فحكم المشركين يجرى عليه فى جميع هذه الأحوال، وهكذا عامل الرسول ﷺ، والمسلمون من خرج فى بدر، ولو كانوا كارهين، وإنما آثروا مرضاة آبائهم، وأهليهم على الإسلام، والإيمان بالرسول ﷺ ، ولا يصلح مثل هذا إكراهًا ليعذرْ صاحبه(٥)، والظاهر فى سياق الآية، وما ذكرنا من الآثار فى سببِ النزول: أن حكم الكفر ينطبق عليهم فى الآخرة أيضًا، لأن الله قد حكم أن لهم جهنم، وساءت مصيرًا، ولم يدل على خروجهم منها، بل وفى بعض الروايات عن ابن عباس: «فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٥٩٦)، وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٢) أخرجه ابن جرير (٥/ ١٤٨) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٦٥) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم. وانظر الأخير بتخريجنا.

(٣) النساء/ (٩٧).

(٤) انظر ابن جرير المصدر السابق، وذكره السيوطى فى «الدر» ٢/ ٣٦٦)، وزاد نسبته لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٥) الكلام على شروط الإكراه.

﴿الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾[1]، فدل عدم الاستغفار لهم على كونهم ماتوا على الكفر بسبب هذه الموالاة الشركية لأهل الشرك، ولو كانوا آباءهم أو أهليهم.

ويؤيد ذلك ما رواه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[2]. قال: «ذلك أن قومًا كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد ﷺ فليس علينا منهم بأس، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الخبثاء فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله - أو كما قالوا: أتقتلون قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا، ويتركوا ديارهم، نستحل دماءهم، وأموالهم لذلك؟ فكانوا فئتين، والرسول ﷺ عندهم لا ينهى واحدًا من الفريقين عن شيء، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ الآية[3].

والشاهد منها قول المؤمنين: «فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم» ونزلت الآيات بموافقة هذه الطائفة من المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾[4].

قال السدي: إذا أظهروا كفرهم، فاقتلوهم حيث وجدتموهم[5].

وهذا أقرب ما قيل في تفسير الآية موافقًا لسياقها كما قال ابن جرير بعد ذكر الاختلاف فيمن هم المقصودون بهذه الآية.

والقول الآخر أنها نزلت في عبد الله بن أبي سلول، وأصحابه - الذين تخلفوا عن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» وابن أبي حاتم وذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٣٦٥) وزاد نسبته لابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «السنن» وانظر «فتح القدير» بتخريجنا، وكذا تفسير ابن أبي حاتم بتخريجنا أيضاً.

(٢) النساء/ (٨٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٥/ ١٢٢) وابن أبي حاتم في «تفسيره» عن ابن عباس بإسناد ضعيف.

(٤) النساء/ (٨٩).

(٥) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٥/ ١٢٤).

رسول الله في غزوة أحد، والسياق يـ دل على بُعده، كما ذكر ابن جرير والقرطبي وأبو السعـود وغيرهم، وأولـى هذه الأقوال بالـصواب: قول من قـال: نزلت هذه الآيـة في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في قومٍ كانوا ارتدوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة.

وفي قول الله تـعالى: ﴿فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ أوضح الدليـل على أنهم كانوا من غير أهل المدينة. أ.هـ[1].

قال صاحب «فضل الغني الحميد»: وأما تسميتهم منافقين مع التصريح بكفرهم، فإما باعتبـار حالهم السابق- كما ذكره أبو السـعود في «تفسيره»- وإما باعتبـار تكلمهم بالإسلام، مع استمرارهم عـلى ما يناقضه من موالاة الكفار بنصرتهـم، ومظاهرتهم على المسلمـين - وقد ذكرنا الأثر في ذلك- والمنـافق إذا أظهر كفره، وجب قـتله، وإن ظل ينتسب إلى الإسلام.

وهذا الأمر بقـتل المنافقين - إذا أظهـروا نفاقهم- معلـق على المصلحة فـي قتله، أو المفسدة، فـقد ترك رسول الله ﷺ قتل مـن علم نفاقه قـطعًا منهم، وهـو الذي قال له: اعدل[2]. لوجود مفسدة أن يتـحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابـه، في حين أمر بقتل الخوارج حين يخرجون[3]، لظهور مفسـدة تركهم حينئذ، بسفـك الدم الحرام، وانتهاك الحرمات، وانتفاء مفسدة قتلهم، بانتشار الإسلام، وتأسس قواعده، وهذا ما فعله الخليفة الراشد علي بن أبي طـالب رضي الله عنـه[4]، وقد أمر الله بجهاد المنـافقين مع الكفار، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[5].

ورجح ابن جرير إن قتالهم بالـسيف إذا أظهروا نفاقهم، ومثله قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾[6].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٣٣).

(٢) **[متفق عليه]** رواه البخاري (٣١٣٨)، ومسلم (١٠٦٣)، من حـديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، بلفظ لقد شقيت إن لم أعدل».

(٣) **[صحيح]** رواه مسلم (١٠٦٤)، وأبو داود (٤٦٦٧)، وأحمد (٣/ ٣٢)، مـن حديث أبي سعيد، رضي الله عنه بلفظ: «تمرق مارقة عند فرقة المسلمين» - الحديث.

(٤) **[صحيح]** رواه البـخـاري (٦٩٣٢)، وأبـو داود (٤٣٥١)، والتـرمذي (١٤٥٨)، والـنسـائـي (٢/ ١٧٠)، (١/ ٢٨٢).

(٥) التحريم / (٩).

(٦) الأحزاب / (٦٠ - ٦١).

وعن قتادة قال: إذا هم أظهروا النفـاق، فبناء الأمر فى قتال المنافقين عـلى المصلحة والمفسدة فى ذلك، والله تعالى أعلم.

ولو كان هؤلاء المـنافقون قد صرحـوا بعدم انتسابهـم للإسلام، لما كان هنـاك معنى لاختلاف أصـحاب رسول الله ﷺ فيـهم، حتى ينـزل القرآن يبـين صحة نفـاق الذين اختلف المؤمنون فى أمرهم، ويحذر من دافع عنهم من الدفاع عنهم.

قال ابن حزم رحمـه الله فى «المحلى»[1]: «من لحق بدار الكفـر، والحرب مختاراً لمن يليه من المسلـمين، فهو بهذا الفعل مرتد، له أحكام المرتد كـلها - من وجوب القتل عليه متى قدر عليه، وإباحة ماله، وانفساخ نكاحه، وغير ذلك».

وقال أيضًا: «وكذلك من سكن بأرض الهند، والسند، والصين، والترك، والسودان، والروم من المسـلمين، فإن كان لا يقـدر على الخروج من هنـاك، لثقل ظهر، أو لـقلة مال، أو لـضعف جسم، أو لامـتناع طـريق، فهـو معذور، فـإن كان هـناك محـاربًا للمسلـمين، معينًا للكفـار بخدمة أو كتابة، فهـو كافر، وإن كان إنما يقيم هنـالك لدنيا يصيبها، وهو كالذمى لهم، وهو قادر على اللحاق بجمهرة المسلمين، وأرضهم، فما يبعد عن الكفر، وما نرى له عذرًا، ونسأل الله العافية».

قال: «وليـس كذلك من سـكن فى طاعـة أهل الكفـر من الغالـية[2]، ومن جـرى مجراهم، كأهل مصر، والقيروان، وغيرهم، فالإسلام هو الظاهر، وولاتهم على ذلك، لا يجاهـرون بالبراءة مـن الإسلام، بل إلى الإسلام يـنتسبون، وإن كـانوا فى حقـيقة أمرهم كفاراً[3].

وقال أيضًا: وأما من سكن فى بلد تظهر فـيه بعض الأهواء المخرجة إلى الكفر، فهو ليس بكافر، لأن اسم الإسـلام هو الظاهر هنالك على كل حال مـن التوحيد، والإقرار برسالة محمد ﷺ، والبراءة من كل دين غـير الإسلام، وإقامة الصلاة، وصيام رمضان، وسائر الشرائع- التى هى الإسلام، والإيمان، والحمد لله رب العالمين». أهـ.

قال محـمد بن عبد الـوهاب- لما ذكر الأنواع التـى يكفر بهـا الرجل - قال: «النوع

---

(١) (١١/ ١٩٩).

(٢) يقصـد غلاة الشيعـة، كالفاطمـيين الذين كانـوا يحكمـون مصر، والقيـروان، وسائر أفريقـيا، بل والحرمين، وغير ذلك قاله صاحب «فضل الغنى الحميد».

(٣) لابد من الـتنبيه لهـذا الفرق المهم بين طـاعة من يصرحـون بالكفر ، وبين طـاعة من ينتسـبون إلى الإسلام، وهم فى حقـيقة أمرهم كفار، فأمـر الطائفة الأخيرة يحتـاج إلى نظر، واجتهاد، وليـس معلومًا قطعًا من الدين كالأولين، وموالاتهم، وطاعتهم، وإن كانت محرمة إلا أنها ليست عن الملة، مراعاة لهذا الفارق المهم، ما لم يعلم كفرهم، فتنبه قاله صاحب «فضل الغنى الحميد».

الرابع: من سلم من هذا كله، ولكن أهل بلده يصرون على عداوة التوحيد، وأهله واتباع أهل الشرك، وهو يعتذر إن ترك وطنه، يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده، ويجاهد بماله ونفسه، فهذا أيضًا كافر، فإنه لو يأمرونه بتزوج امرأة أبيه، ولا يمكنه ترك ذلك، إلا بمخالفتهم فعل.

وموافقته لهم مع الجهاد معهم بنفسه وماله، مع أنهم يريدون بذلك قطع دين الله ورسوله أكبر من ذلك بكثير، فهو أيضًا كافر، وهو ممن قال الله فيهم: **﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾**(١). اهـ(٢).

قال صاحب «فضل الغنى الحميد». ومما تقدم من الأدلة، وأقوال العلماء، تعرف حكم من يخرج في جيوش الكافرين، المعلنين كفرهم، في قتال المسلمين، لأجل إسلامهم، كالشيوعيين الملحدين، ونحوهم وما يجب على المسلمين أن يعاملوهم به، وبالله التوفيق، ولابد لنا من التنبيه هنا على أن النصرة الواجبة للمؤمنين، إنما تجب في الدين، كما أمر الله بها: **﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾**.

وأما إن كانت انتصارًا لعصبية، أو قومية، أو وطنية دون معرفة الحق من الباطل وإنما هي الطاعة العمياء لمن يرفع رايات الجاهلية، فهذه هي التي قال فيها النبي ﷺ: **«من قاتل تحت راية عمّية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة فقتل، فقتلته جاهلية»**(٣).

وقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان، لا يدري القاتل في أي شيء قتل، ولا يدري المقتول في أي شيء قُتل»**(٤).

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، فقلت: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: **«إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»**(٥).

---

(١) النساء/ (٩١).

(٢) الدفاع لابن عتيق ص:(١٠-١٢) نقلاً عن «الولاء والبراء» ص:(٢٧٤).

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (٦/ ٤٨٠/ ٥٧) عن جند يا بن عبدالله.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم في الفتن (٩/ ٢٦٢/ ٥٥) عن أبي هريرة به.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣١) ومسلم في الفتن (١٨/ ١٠ ـ النووي) وانظر «رياض الصالحين» (١٠ ـ بتخريجنا).

٤ - الطاعة والمتابعة

تقدم ما فى «لسان العرب»: المولى: المتابع، وولى فلان فلانًا، إذا تابعه، والمؤمن: ولى الله فى حق المطيع كما فى «المصباح» فالطاعة، والمتابعة، من أهم معانى الموالاة، التى يجب على المسلم أن يعلم لمن تكون.

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته سبحانه، وطاعة رسوله ﷺ، وأولى الأمر منهم، وهم العلماء والأمراء الذين يقودونهم بكتاب الله، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] وطاعة أولى الأمر مقيدة، بأن لا يأمروا بمعصية، فإن أمروا بمعصية، فلا سمع ولا طاعة، كما استفاضت الآحاديث، «إنما الطاعة فى المعروف»[2] وأمرنا سبحانه باتباع ما أنزله، فقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[3] وهو قد أنزل الكتاب والحكمة: القرآن والسنة، وأوجب أيضاً اتباع سبيل المؤمنين، ومنهجهم فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[4] ولذا كان من أهم مميزات أهل السنة اتباعهم لسلف الأمة من الصحابة فمن بعدهم من الأئمة، لأن هذا المعنى من أسس الموالاة الإيمانية التى تجمعهم، فبهذا تعلم لمن تكون الطاعة، ولمن يكون الاتباع، وممن تتلقى الأوامر، وبأى مقياس توزن، فمَا أنزله الله فى كتابه، وما صح عن رسوله ﷺ، وما أجمع عليه السلف، هو ذلك الميزان الحق، الذى لا يخطئ من اتبعه وأطاعه.

قال ابن كثير فى «تفسيره»[5]: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[6]. أي: اتبعوا كتابه وخذوا سننه ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[7] أي: فيما أمروكم به من طاعة الله، لا فى معصية الله، اهـ.

وقال أيضًا: والظاهر أنها عامة فى كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء.

وأما طاعة الكافرين والمنافقين، ومتابعتهم على الكفر، والضلال، والمعاصي، فهذه

(١) النساء/ (٥٩).

(٢) [متفق عليه] رواه البخارى (٧١٤٥)، ومسلم فى الإمارة (٦/ ٦٧/ ٣٩/٤) عن على به

(٣) الأعراف / ٣.

(٤) النساء / ١١٥.

(٥) (١/ ٥١٨).

(٦ ، ٧) النساء/ ٥٩.

موالاة لهم، حذرنا الله منها، فقال مبينًا عقوبة من يطيعهم فى بعض الأمر: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾(١).

فإذا كان هذا حال من يطيعهم فى بعض الأمر فكيف بمن يكون طوع أمرهم ورهن إشارتهم؟!، نعوذ بالله من الخذلان.

وقال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ والخطاب لأمته: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(٢).
الآثم: هو الفاجر فى أفعاله، والكفور: هو الكافر قلبه.

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٣).

قال ابن كثير: هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى: إذا كان يأمر عبده، ورسوله بهذا، فلأن يأمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى. أ.هـ.

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤) وبين عاقبة من يتبع أهل الكتاب، وأنهم لا يرضون إلا بالكفر الصراح: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٥)، وقال: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، والآيات فى هذا كثيرة، معلومة فى كتاب الله، والأحاديث فى التحذير من متابعة أهل الكتاب متواترة فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعًا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا: يا رسول الله ﷺ اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»(٦).

(١) محمد / (٢٥ - ٢٨).
(٢) الإنسان / (٢٤).
(٣) الأحزاب/ (١ - ٢).
(٤) الجاثية/ (١٨).
(٥) البقرة/ (١٢٠).
(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٤٥٦)، ومسلم فى العلم (٦/ ٤٧٢/ ٦). عن أبى سعيد به.

وقد وقع فى زماننا تحقيق خبر النبى ﷺ أصبحنا لا نرى عجبًا أن نسمع ونقرأ من يدعو لطاعة أهل الكفر شرقًا وغربًا، ويزين للمسلمين اتباعهم فى القليل والكثير، والكفر والفسوق والعصيان، والمظهر والجوهر، ويصرح أن لا تقدم للعرب وللمسلمين، إلا بأخذ ما هم عليه كله، لا يُترك منه شيء فصدق الصادق المصدوق ﷺ واعلم أن طاعتهم فى الكفر كفر، وفى المعصية معصية، مع اعتقاد أنها معصية، وذنب.

قال ابن تيمية رحمه الله[1]: «هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله، فيتبعوهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعهم لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم فكان من اتبع غيره فى خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركًا مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام، وتحريم الحلال ثابتًا، لكنهم أطاعوهم فى معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما قال النبيﷺ : «**إنما الطاعة فى المعروف**»[2]، وقال رسول الله ﷺ : «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[3]، وقال ﷺ: «**لا طاعة لأحد فى معصية الله عز وجل**»[4] وقال ﷺ: «**من أمركم بمعصيةفلا تطيعوه**»[5].

ثم ذلك المحرِّم للحلال، أو المحِلّ للحرام إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسول ﷺ، لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه، ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول، ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسولﷺ، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله ، لا سيما إن تبع فى ذلك هواه، ونصره باللسان واليد، مع علمه

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٠).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧١٤٤)، ومسلم فى الإمارة (٦/ ٤٦٦/ ٣٨) عن ابن عمر به.
(٤) أخرجه أحمد فى « مسنده» (٥/ ٦٦) عن حكم بن عمرو به .
(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٦٧)، وابن ماجه (٢٨٦٣) عن أبى سعيد به .

بأنه مخالف للرسول، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز تقليد أحد في خلافه. اهـ.

قال صاحب «فضل الغني الحميد»: واعلم أن من أخطر مظاهر الطاعة والمتابعة أن ينخرط الإنسان تحت رياستهم في الأحزاب العلمانية، أو الإلحادية، كالشيوعية، والاشتراكية، والقومية الماسونية، ويبذل لها الولاء، والحب والنصرة.

وكيف يتسنى لمسلم يفهم قضية الولاء والبراء أن يرضى باتباع الكفار والمنافقين، مع تصريحهم في أحزابهم، وهيئاتهم، بأنها لا تقوم على أساس الدين، ولا تفرق بين الناس على أساس الدين، وأن المساواة بين الأديان شرط، والمساواة بين أصحابها أيضًا في مشروعة قيامها أصلاً، ويمعنون في الغي، والضلال، حين يرفعون شعارات تدل على وحدة الكفر، والإيمان، تحت راية حزبهم، ويفتخرون بهذا الخزى والخذلان؟! والعياذ بالله.

أفيرضى مسلم غيور على إسلامه أن يقف تحت هذه الراية، التي مزقت من أجلها عقيدة التوحيد، والإيمان ممثلة في قضية الولاء والبراء، والحب والبغض؟! أفيقبل تحت أي ظرف من الظروف، ولأى مصلحة يظنها من المصالح، أن يقول لأمثال هؤلاء: أنا منكم وأنتم مني، بدلاً من: إني بريء مما تعملون، ويتوكل على العزيز الرحيم كما أمر الله تعالى؟!

وهل هان عليه إسلامه لدرجة أن يرضى أن يقدم قربانًا لأوثانهم المعاصرة رايته الإسلامية وانتسابه للإسلام؟!.

فعندهم لا يجوز ولا يمر إلى مجالسهم وهيئاتهم إلا أن يتخلى عن رايته الإسلامية، ويرفع أخرى- أيا ما كانت يسارًا أو يمينًا أو وسطًا - إلا راية الإسلام، اللهم إنا نبرأ إليك من هذا كله.

قال الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان»[1]: «ومن هدى القرآن للتي هي أقوم هديه إلى أن الرابطة التي يجب أن يعتقد أنها هي التي تربط بين أفراد المجتمع، وأن ينادى بالارتباط بها دون غيرها، إنما هي دين الإسلام، لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع

(١) (٣/ ٤٠١).

الإسلامى كـأنه جسـد واحـد، إذا اشتكـى منه عضـو تـداعى لـه سـائر الجسـد بالسـهر والحمى». أ.هـ.

وإلى من يظنون أن المصلحة فى التدسس فى صفوف الجاهلية بأحـزابها وهياكلها: التى تقوم على المبادئ المخالفة لدين الله - نسوق هذه العبارة من«ظلال القرآن»[1] يقول:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2] لا ظاهر الشرك ولا خافيـه، هذه طريقى فمن شاء ليتابع، ومن شاء فأنا سائر فى طريقى المستقيم.

وأصحاب الدعوة إلـى الله لابد لهم من هذا التمـييز، لابد لهم أن يعلـنوا أنهم أمة وحدهم، يفترقون عمن لا يـعتقد عقيدتهم، ولا يسلك مسلكهـم، ولا يدين لقيادتهم، ويتمـيزون ولا يختلـطون، ولا يكفى أن يـدعوا أصحاب هـذا الدين إلى دينـهم، وهم متميعون فى المجتمع الجاهلي، فهذه الدعـوة لا تؤدى شيئًا ذا قيمة إنه لابد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنـهم شيء آخر غير الجاهليـة، وأنهم يتميزون بتجـمع خاص أصرته: العقيـدة المتميزة، وعنوانه: الـقيادة الإسلامية، لابد لـهم أن يميزوا أنفسهم مـن المجتمع الجاهلي، وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلى أيضًا.

إن اندفاعهم، وتمـيعهم فى المجتمع الجاهـلي، وبقاءهم فى ظل القيـادة الجاهلية[3]، يذهب بكل السلطان الذى تحمله عقيدتهم، وبكل الأثر الذى يمكن أن تنشئه دعوتهم، وبكل الجاذبية التى يمكن أن تكون للدعوة الجديدة.

وهذه الحقـيقة لم يكـن مجالها فقـط هو الدعوة النـبوية فى أوساط المـشركين، إن

---

(١) (٤/ ٢٠٣٤).

(٢) يوسف/ ١٠٨.

(٣) «تنبيه» لفظ الجاهليـة قد ورد فى الكتاب والسنة لبيـان ما كان عليه أهل الكفـر والشرك من الجهل والضلال، وكثيرًا ما استعمـله الصحابة فى وصف مرحلة زمنية فى حياتهـم قبل إسلامهم، وهو على هذا يشمل ما كان كفرًا وما كان معصية، فمن الكفر:

ظن الجاهلية - وهو عقائدهم الكفرية من سوء الظن بالله ووحدانيته وأسمائه وصفاته..

وحكم الجاهلية - وهو تشريعاتهم الباطلة التى اخترعوها من غير مستند من شريعة الله.

وحمية الجاهلية- وهى إباؤهم ورفضهم الحـق الذى جاء به الرسول ﷺ موالاة لآبائهم وأجدادهم ومن العصبة قول النـبيﷺ لأبى ذر رضى الله عنه: «إنك امرؤ فيك جاهليـة» رواه البخارى ومسلم، الحديث=

مجالها هو مجال هذه الدعوة، كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس، وجاهلية القرن العشرين لا تختلف فى مقوماتها الأصلية، وفى ملامحها المميزة، عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ.

والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع فى المجتمع الجاهلي، والأوضاع الجاهلية، والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات، ومن خلال هذه الأوضاع، بالدعوة إلى الإسلام، هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة، ولا كيف ينبغى أن تطرق القلوب. إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم، أفلا يعلن أصحاب الدعوة الإسلامية عن عنوانهم الخاص؟! وطريقهم الخاص؟! وسبيلهم التى تفترق تمامًا عن سبيل الجاهلية؟!» اهـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد» فنقول لهؤلاء الواهمين: إن مشروعية الوسيلة، كمشروعية الغاية، سواء بسواء فى المنهج الربانى الذى قال الله عز وجل لنبيه ﷺ مبينًا له: ﴿**اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾(١)، وبين أنه هو العليم بعواقب الأمور، وحقائق الأشياء، الحكيم الذى لا يشرع، ولا يقدر شيئًا عبثًا بغير حكمة، ومنها هذا الأمر، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾(٢) وقال تعالى: ﴿**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾(٣). فاتباع الوحى لا اتباع الهوى، وأهواء أهل الزيغ والضلال، حين يأخذون الناس معهم تارة يمينًا، وتارة يسارًا، ومرة شرقًا، ومرة غربًا، وتارة إشتراكية، وأخرى ديمقراطية، أفنسير معهم فى كل مرة، قال تعالي: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا**﴾(٤).

فلسنا بالأسباب ننتصر، ولا بالقوة والعدد، والعتاد، وإن كان الواجب: إعداد ما استطعنا منها، طالما كان سببًا مشروعًا، وإنما ننتصر بالتوكل على الله فى دفع أذاهم، برد فتنتهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولابد هنا من وقفة على أن الإجابة إلى الحق

=أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه مرفوعًا: «أربع من أمتى من أمور الجاهلية لايتركونهن» - الحديث رواه مسلم، ومنه ربا الجاهلية - إلا أن يستحله أحد - وكذا تبرج الجاهلية، والله أعلم.

وما نقلناه عن صاحب الظلال قصدنا منه إثبات بطلان المداهنة فى أمور الدعوة ووسائلها، وجوب تميز الدعاة فى سلوكهم ومنهجهم عن أهل الباطل كلهم من أهل الشرك والنفاق، أو من أهل البدع والضلال، ولا يلزم منه الحكم بالتكفير أو الشرك الأكبر على كل ما وصف بأنه «جاهلي».

(١) الأحزاب / (١).   (٢ - ٤) الأحزاب / (١، ٢، ٣).

ليست الموالاة للكافرين فى شيء، وليست متابعة لهم، ولا طاعة، بل هى متابعة للحق، وطاعة لله.

قال الإمام ابن القيم - فى عرضه لفوائد غزوة الحديبية- فى «زاد المعاد»[1]: «إن المشركين، وأهل البدع، والفجور، والبغاة، والظلمة، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى، أجيبوا إليه، وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون على تعظيم ما فيه من حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله، مُرضٍ له، أجيب إلى ذلك- كائنًا من كان- ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب، مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع، وأشقها على النفوس». اهـ.

٥ - المعاونة والقيام بالأمر والنصح

قال صاحب «فضل الغنى الحميد» من معانى الموالاة كما سبق القيام بالأمر، فولى الأمر هو الذى يتولى أمر غيره بالصلاح ويعاونه فى قضاء حاجته ومصالحه، وينصح له، وهذا المعنى يجب أن يكون للمؤمنين. قال النبى ﷺ: **«الدين النصيحة»** قيل لمن؟ قال: **«لله ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»**[2]، وقال ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**[3].

ومن موالاة الكافرين معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم على باطلهم، قال تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾**[4] وفى حديث جرير رضى الله عنه: «وتنصح المسلم وتبرأ من المشرك»[5] وقد جعل الله مصير امرأة نوح وامرأة لوط مصير قومهما لأجل معاونتهما لقومهما ورضاهما بما هم عليه. قال تعالى: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا**

---

(١) (٢/ ١٢).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٣٦) عن تميم الدارى.
وانظر «رياض الصالحين» (١٨١٥ ـ بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٠٢٦)، ومسلم فى البر والصلة (٦/ ١٣٩) عن أبى موسى به.
وانظر «رياض الصالحين» (٢٢٤ ـ بتخريجنا).

(٤) المائدة/ (٢).

(٥) سبق تخريجه.

صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(١) ومن معانى ذلك الثناء على الكافرين ونشر فضائلهم ومحاسنهم وإضفاء الأوصاف الفاتنة فى المدح والثناء، مثل أنهم أصحاب المنهج العلمي، وأنهم أصحاب الحضارة، والتقدم، والعلم، والرقي، مع وصف المسلمين بالأوصاف المناقضة، ولا شك أنه لا يجوز وصف الكفار بالعلم مطلقًا بل لابد من التقييد، بل يوصفون بعدم العلم على الإطلاق، ويستثنى بعض العلم الدنيوي، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(٢) فلابد من الحذر من طريقة العلمانيين الذين يأمرون المسلمين باتباع الغرب فى خيره وشره زاعمين أنه لاسبيل للنهوض إلا من خلال اتباع المنهج الغربى فى كل ما جاء به، وأنه لا يجوز الفصل بين العلوم الحديثة ومناهج الحياة الأخرى فى الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والآداب، والفنون، وغيرها مما كان له أخطر الآثار فى حياة المسلمين وازدواج المقاييس فيها والسعى الحثيث للفصل بين الدين والحياة وليس فقط بين الدين والدولة.

٦ - المداهنة على حساب الدين

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(٣).

والمقصود بذلك موافقتهم على شيء من باطلهم على سبيل المجاملة، وكذا تقديمهم وتعظيمهم والمدح والثناء لأكابرهم.

ومن ذلك: تسمية قتلاهم بالشهداء، ووضع أكاليل الزهور على قبورهم، والترحم عليهم وأعظم ذلك خطرًا التصريح بأنهم على الحق، وأنهم لا فرق بينهم وبين المسلمين، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٤).

٧ - تولية الكفار أمور المسلمين

ومن معانى الموالاة: تولية الكفار أمرًا من أمور المسلمين كالإمارة والكتابة ونحوه مما فيه سلطان على مسلم.

(١) التحريم / (١٠).
(٢) الروم / (٦، ٧).
(٣) القلم / (٩).
(٤) القلم / (٣٥، ٣٦).

قال ابن القيم رحمه الله[1]: ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعاً من توليهم، وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية صلة، فلا تجامع معاداة الكافر أبداً. اهـ.

٨ـ السكنى معهم في ديارهم وتكثير سوادهم(*)

قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» [2].

وقال ﷺ: «لاتساكنوا المشركين، ولاتجامعوهم، فمن ساكنهم، أو جامعهم فليس منا»[3]، ويتصل هذا الموضوع بالحديث عن الهجرة والمقصود بها هنا الهجرة من دار الكفر أو الفسق إلى دار الإسلام.

أحكام الهجرة:

قال ابن قدامه في «المغني»[4]: «فالناس في الهجرة على ثلاثة أضرب:

[أحدهم]: من تجب عليه: وهو من يقدر عليها، ولايمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه، مع القيام بين الكفار، فهذا تجب عليه الهجرة، لقول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[5].

وعيد شديد يدل على الوجوب، ولأن القيام بواجب على من قدر عليه والهجرة من ضرورة الواجب، ومالايتم الواجب إلا به فهو واجب.

[الثاني]: من لاهجرة عليه: وهو من يعجز عنها، إما لمرض، أو إكراه على الإقامة أو ضعف من النساء والولدان وشبههم، فهذا لاهجرة عليه، لقوله تعالي: ﴿إِلاَّ

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ٢٤٢).

(*) انظر «الولاء والبراء» للقحطاني (٢٧٠ - ٢٨٢).

(٢) أخرجه «أبو داود (٢٧٨٧)، عن سمرة بن جندب به.

(٣) علقه الترمذي (٤/ ١٥٦) تحت حديث (١٦٠٥) ووصله الحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٤١ـ ١٤٢) وصححه.

(٤) المغني (٨/ ٤٥٧).

(٥) النساء / (٧٩).

﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾(١) ولاتوصف باستحباب، لأنها غيرمقدور عليها.

[الثالث] ـ من تستحب لـه، ولاتجب عليه: وهو من يقدر عـليها، لكنه يتـمكن من إظهار دينه، وإقامته فى دار الكفر، فتستحب له، ليتمكن من جهادهم، وتكثير المسلمين ومعونتهم ويتخلـص من تكثير الكفار ومخالطتهم، ورؤية المنكـر بينهم، ولا تجب عليه لإمكان إقامة واجـب دينه بدون هجرة، وقد كان العـباس عم النبى ﷺ مقيـماً بمكة مع إسلامه. أهـ.

وقال الشوكانى رحمه الله فى «السيل الجرار»(٢):

واعلم أن الـتعرض لذكـر دار الإسلام ودار الكفر قـليل الفائـدة جداً، لما قدمـنا لك الكلام على دار الحرب، وأن الكافرالحربى مبـاح الدم والمال على كل حال، مالم يؤمن من المسلمين، وأن مال المسلم ودمه معصـومان بعصمة الإسلام فى دار الحرب، وغيرها، وإن كانت الفائدة هى ماتـقدم من كونهم يملكون علينا مادخل داراهـم قهراً فقد أوضحنا هنالك أنهم لايملكـون علينا شيئاً، وإن كانت الفائدة ـ وجوب الـهجرة عن دار الكفر فليس هذا الوجـوب مختصاً بدار الكفر، بل هوشـريعة قائمة، وسنة ثابتـة عند استعلاء المنكر، وعدم الاستطـاعة للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهـى عن المنكر، وعدم وجود من يأخذ على المنتهكين لمحارم الله، فحق على العبد المؤمن أن ينجو بنفسه، ويفر بدينه إن تمكن مـن ذلك، ووجد أرضاً خالـية من التظـاهر لمعاصـى الله وعدم التناكـر على فاعلها، فإن لم يجد؛ فليس فى الإمكان أحـسن مما كان وعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بيـده فإن لم يستطع فبلسانه فـإن لم يستطع فبقلبه، كـما أرشد ذلك الصادق المصدوق فيما صح عنه، وإذا قدر أن يغلق على نـفسه بابه، ويضرب بينه وبين العصاة حجابه كان ذلك من أقل ما يجب عليه. أهـ.

ثم قال تعليقاً على قول صاحـب المتن« إلى خلى عما هاجر لأجله»(٣): فوجهه ظاهر لأن الانتقال من شر إلى شر، ومن دار عصاة إلى دار عـصاة ليس فيه إلا إتعاب النفس بقطع المفاوز، فإن كان التظاهر بالمعاصى فـى غير بلده أقل مما هو ببلده كان ذلك وجها للهجرة، وفى الشر خيار. أهـ.

(١) النساء/ (٩٨).

(٢) (٤/ ٥٤٧).

(٣) خليّ عما هجر لأجله معناه: إلى بلد خال من الشر الذى هاجر من بلده لأجل وجوده.

ثم قال رحمه الله: إن كانت المصلحة العائدة على طائفة من المسلمين ظاهرة، كأن يكون له مدخل فى بعض الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، أو فى تعليمه معالم الخير بحيث يكون ذلك راجحاً على هجرته، وفراره بدينه؛ فإنه يجب عليه ترك الهجرة رعاية لهذه المصلحة الراجحة؛ لأن هذه المصلحة الحاصلة له بالهجرة تصير مفسدة بالنسبة إلى المصلحة المرجوة بتركه للهجرة. أهـ.

وقد سبق فى النصرة كلام ابن حزم فيمن يقيم بدار الحرب فراجعه.

فصل موانع التكفير بالموالاة

التقية - الإكراه - المداراة

● **تمهيد فى الفرق بين التقية والمداراة:** قال تعالى ﴿**إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**﴾ والتقية : هى الرخصة فى إظهار الموالاة مع اطمئنان القلب بالإيمان. كما قال ﴿**إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾.

والتقية ربما كانت لخطر حتمى الوقوع فيستخدم المسلم التقية ليدفع الضرر حتمى الوقوع وليس الظنى الوقوع ولكن هى رخصة، والأصل الثبات، وهى لها علاقة بالمداراة والقاسم المشترك بينهما أنهما نفس المعنى فالتقية: هى درء الشد المفسد بالقول اللين.

والمداراة: درء الشر المفسد بالقول اللين(١).

لكن التقية تكون فى الغالب تحت تهديد أما المداراة فليس هناك إكراه.

ومثال المداراة أن النبى ﷺ قال «**بئس أخو العشيرة إئذنوا له**»(٢) فلما دخل ألان له القول وقال: هذا منافق إداريه حتى لايفسد عليّ غيره.

ولم يكن هناك تهديد على النبى ﷺ لكن لمصلحة شرعية فعل ذلك.

فصل

(المانع الأول (الإكراه)

لماكان المسلم قد يتعرض إلى ضرورة تكرهه على إظهار موالاة الكفار أو المنافقين أو أن يدفع عن نفسه شرهم وأذاهم باستعمال التقية لزم أن يكون على بينة من أمره فيما

---

(١) ارجع إلى كتابى «المداهنة والمداراة». يسَّر الله نَشْرَه.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٠٥٤)، ومسلم فى البر والصلة (٨/ ٣٨٨/ ٧٣) عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ به.

يجوز وما لايجوز من ذلك وحدود الإكراه المعتبر شرعاً ومعنى التقية، وشروط اعتبار العمل بها ـ وهذا فصل مختصر فى أهم مسائل هذا الموضوع:

قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

سبب النزول:

قال الحافظ ابن كثير فى «تفسيره»(٢): روى العوفى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبى ﷺ، فأنزل الله هذه الآية(٣)، وهكذا قال الشعبي، وقتادة، وأبومالك. أهـ.

ثم قال: ولهذا اتفق العلماء على أن المكره يجوز له أن يوالى المشركين، إبقاء لمهجته. أهـ.

شروط الإكراه المعتبر شرعاً:

ذكر ابن حجر فى «الفتح»(٤) هذه الشروط:

١ـ أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزًا عن الدفع، ولو بالفرار.

٢ـ أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

٣ـ أن يكون ما هدد به فورياً، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غداً. لايعد مكرهاً، ويستثنى ما إذا ذكر زمنا قريباً جداً، أو جرت العادة بأنه لايخلف.

٤ـ أن لايظهر من الأمور ما يدل على اختياره. أهـ.

أما لوتمكن من الفرار على أن يعطيهم ماله فعل كما فعل صهيب رضى الله عنه.

قال ابن كثير رحمه الله فى «تفسيره»(٥) عند قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾(٦) قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وأبو عثمان النهدي، وعكرمة، وجماعة: «نزلت فى صهيب ابن سنان

(١) النحل/ (١٠٦).
(٢) (٢/ ٥٨٧).
(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٢٤٨) ونسبه لابن المنذر، وابن أبى حاتم. وانظر الأخير بتخريجنا.
(٤) (١٢/ ٣١١).
(٥) (١/ ٢٤٧).
(٦) البقرة (٢٠٧).

الرومي، وذلك أنـه لما أسلم بمكة، وأراد الهجـرة، منعه الناس أن يهاجـر بماله؛ فإن أحب أن يتجرد مـنه ويهاجر، فعل، فتخلـص منهم وأعطاهم ماله، فـأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمـر بن الخطاب، وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا لـه : ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية[1]. أهـ.

ثم قال رحمـه الله وأما الأكثرون فحمـلوا ذلك على أنهـا نزلت فى كل مجـاهد فى سبيل الله. أهـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»[2]: وما فعله صيهـب رضى الله عنه مشروع بلا شك ولكـن هل هو واجب أم مستحب؟ الـذى يظهر أن الإضرار البالغ بـالمال يعد عذراً يسقط من صاحبـه وجوب التخلص من الكفار بدفع المال ويبـقى الاستحباب،و أما الحبة من المال التى لا أثر لها فيلزمه حفظ دينه بدفعها . والله أعلم.

على أي شيء يصح الإكراه؟.

قال القرطبى رحمه الله فى «تفسيره»[3].

«أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره، أنه لايجوز له الإقدام على قتله، ولا انتهاك حرمـته بجلد أو غيره، ويصبـر على البلاء الذى نزل به، ولايـحل له أن يفدى نفسه بغيره، ويسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة.

واختلف فـى الزنا، فقال مطرف، وأصبـغ، وابن الحكم، وابن الماجشـون: لايفعل أحد ذلك، وإن قتـل لم يفعله، فـإن فعله فهو آثـم، ويلزمه الحد، وبه قـال أبوثور، والحسن .

وقال ابن الـعربى : الصحيـح أن يجوز الإقدام على الـزنا، ولاحد عليه خـلافاً لمن ألزمه ذلك. اهـ .

ثم قال رحـمه الله: قال ابن خويـز منداد فى «أحـكامه»: اختلف أصحابـنا متى أكره الرجل عـلى الزنا، فقال بـعضهم : علـيه الحد، لأنه إنما يـفعل ذلك باختـياره، وقال بعضهم: لاحد عليه.

قال ابن خويـز منداد: وهو الصحيـح . وقال أبو حنيفة: إن أكرهه غيـر السلطان حدّ، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يحد ، ولن استحسن أن لايحد، وخالفه صاحباه، فقالا: لاحد علـيه فى الوجهين، ولم يراعوا الانـتشار يعنى انتشـار ذكره قبل الإيلاج - وقالوا : متى علم أن يتـخلص من القتل بفعل الزنا؛ جاز أن ينـتشر، قال ابن المنذر، : لاحد عليه،ولافرق بين السلطان فى ذلك وغير السلطان. اهـ.

(١) انظر «الدر» (١/ ٤٣٠) وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٢) (ص: ١٥٠). (٣) (٥/ ٣٧٩٩).

هل يصح الإكراه على القول والفعل أم القول فقط؟

قال القرطبى رحمه الله فى «تفسيره»[1]: ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت فى القول، وأما فى الفعل فلا رخصة فيه، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله، أو الصلاة لغير القبلة، أو قتل مسلم أو ضربه، أو أكل ماله، أو الزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، يروى هذا عن الحسن البصري، وهو قول الأوزاعى ، وسحنون من علمائنا.

وقال محمد بن الحسن: إذا قيل للأسير : اسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك. فقال : إن كان الصنم مقابل للقبلة، فليسجد، ويكون نيته لله تعالي، وأن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه.

والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة وما أحراه بالسجود حينئذ، فقد قال ابن عمر رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يصلى وهومقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال وفيه نزلت﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾[2] وفى رواية ـ «ويوتر عليها غير أنه لايصلى المكتوبة»[3]، فإذا كان هذا مباحاً فى السفر ـ فى حالة الأمن - لتعب النزول عن الدابة للتنفل، فكيف بحالة هذا المكره؟!.

واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود رضى الله عنه: «ما من كلام يدرأ عنى سوطين من ذى سلطان إلا كنت متكلمًا به»[4] فقصر الرخصة على القول، ولم يذكر الفعل ، وهذا لا حجة فيه، لأنه يحتمل أن يجعل الكلام مثالاً، وهو يريد أن الفعل فى حكمه.

وقالت طائفة: الإكراه فى الفعل والقول سواء إذا أسر الإيمان، روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول، وهو قول مالك، وطائفة من أهل العراق.

وروى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر، وترك الصلاة، أو الإفطار فى رمضان، أن الإثم عنه مرفوع. أ.هـ.

---

(١) (٣٧٩٨/٥).

(٢) البقرة (١١٥). والحديث أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣/ ٢٢٥/ ٣٣).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠٩٧) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٦/ ٢١٢ ـ النووى) وانظر «السلسبيل» (٣٥٤ ـ بتخريجنا).

(٤) ذكره ابن حزم فى «المحلى» (٨/ ٣٣٦) ، وقال: لا يعرف له من الصحابة رضى الله عنهم مخالف .ا.هـ.

بِمَ يصح الإكراه؟

قال القرطبي رحمه الله في «تفسيره»[1]: «واختلف العلماء في حد الإكراه، فروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: «ليس الرجل بآمن على نفسه إذا أخفته، أو أوثقته، أو ضربته».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كلام يدرأ عني سوطين إلا كنت متكلمًا به»[2].

وقال الحسن: «التَّقِيَّة جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة، إلا أن الله تبارك وتعالى لم يجعل في القتل تقية».

وقال النخعي: «القيد إكراه، والسجن إكراه».

وهذا قول مالك إلا أنه قال: «والوعيد المحقق إكراه، وإن لم يقع، إذا تحقق ظلم ذلك المعتدي، وإنفاذه لما يتوعد به».

وليس عند مالك وأصحابه في الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب، وما كان من السجن يدخل من الضيق على المكره، وإكراه السلطان وغيره عند مالك إكراه.

وتناقض الكوفيون فلم يجعلوا السجن والقيد إكراهًا على شرب الخمر، وأكل الميتة، لأنه يخاف منهما التلف، ويجعلوهما إكراهًا في إقراره على ألف درهم.

قال ابن سحنون: وفي إجماعهم على أن الألم والوجع الشديد إكراه ما يدل أن الإكراه يكون من غير تلف نفس، وذهب مالك إلى أن من أكره على يمين بوعيد، أو سجن، أو شرب أنه يحلف، ولا حنث عليه، وهو قول الشافعي، وأحمد، وأبي ثور، وأكثر العلماء. أ.هـ.

هل يختلف حكم الإكراه مع اختلاف المكره عليه ونوع الإكراه؟

قال ابن تيمية[3]: «تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره عليه، فليس الإكراه المعتبر في كلمة الكفر، كالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها، فإن أحمد قد نص في غير موضع: أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب، وقيد، ولا يكون الكلام إكراهًا» أ.هـ.

---

(١) (٥/٦٠٣٨).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) نقلاً عن الولاء والبراء (٣٧٧).

قال القرطبي في «تفسيره»[1]: «أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام خمسة أعوام، وما رضي بذلك لعظيم منزلته، وشريف قدره، ولو أكره رجل بالسجن على الزنا، ما جاز له إجماعًا، فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء، والصحيح أنه إذا كان فادحًا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحده.

وقد قال بعض علمائنا: إنه لا يسقط عنه الحد، وهو ضعيف، فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين، ولا يصرفه بين بلاءين، فإنه من أعظم الحرج في الدين قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2] أ.هـ.

فصل

المانع الثاني (التقية)(*)

قال تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[3].

قال البغوي في «تفسيره»[4]: نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار، ومداهنتهم، ومباطنتهم، إلا أن يكون الكفار غالبين، ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم، فيداريهم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان، دفعًا عن نفسه من غير أن يستحل دمًا حرامًا، أو مالاً حرامًا، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل، وسلامة النية، قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[5]، ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم .أ.هـ.

وقال ابن القيم: في «بدائع الفوائد»[6]: معلوم أن التقاة ليست بموالاة لهم .أهـ.

ولأن باب التقاة باب يمكن أن ينفذ منه الشيطان بسهولة، يزين للضعفاء، ومرضى

---

(١) (٤/ ٣٤١٦).

(٢) الحج/ (٧٨).

(*) وانظر «الولاء والبراء» (٣٦٩ - ٣٧٥).

(٣) آل عمران/ (٢٨).

(٤) (١/ ٣٣٦).

(٥) النحل/ (١٠٦).

(٦) (ص: ٨٠).

القلوب أن يركنوا إلى أعداء الله، قال بعدها مباشرة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ يحذركم في الدنيا أن تتخذوا هذا الباب تكأة، وتستسهلوا هذه الكبيرة - وهي موالاة أعداء الله - وينذركم أن إليه المصير، فيجازيكم على ما فعلتم في الدنيا، فلا تحسبوا أن ترتكبوا هذه الكبيرة في الأرض- مخادعين أنفسكم أو مخادعين الناس - ثم تنجوا من عذاب الله في الآخرة[1].

قال شهاب الدين القرافي في «الاستغناء في أحكام الاستثناء»[2]: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ تقديره: لا تفعلوا ذلك في حالة من الحالات إلا في حالة الاتقاء.

وقال ابن جرير الطبري[3]: في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾: أي إلا أن تكونوا في سلطانهم، فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل أهـ.

فصل

في معنى البراء لغة واصطلاحا

البراء لغة: البعد أو التنزه والحديث في الصحيح «أما أحدهما فكان لايستبرأ من بوله»[4] يعني لايتنزه ويبعد أو إن شئت فقل أن الولاء عكس البراء فالولاء: محبة. والبراء: بغض وعداوة.

والله عز وجل قال لنا أن لنا أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ فالكفر والعداوة والبغض هي معنى البراء في المعنى اللغوي والشرعي، والواجب على المسلم أن يبرأ من الكفر والكافرين وأن يوالي الإسلام والمسلمين كما تقدم معنا في معنى (لاإله) براء (إلا الله) محبة، وأيضاً إذا كان كلمة التوحيد براء وولاء فهي أيضاً قوله تعالى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ أي يتبرأ من الطاغوت ويوالي الله.

(1) راجع «دراسات قرآنية» ص: (٣٢٦). (2) (ص: ٦٣٤).
(3) تفسير الطبري (٣/٢٢٨).
(4) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم في الطهارة (٣/ ٢٠٠ ـ النووي) عن ابن عباس به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٥٤٠ ـ بتخريجنا).

وهذا فيه إشارة إلى أن الذى تبرأ من الكفر والكافرين ووالى الإسلام والمسلمين فهو المهتدى كما قال تعالى: ﴿**إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين**﴾ وهذه منقبة من مناقب الحب فى الله والبغض فى الله قال تعالى ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ**﴾ فلايتصور إلا البراء من الشرك والمشركين ولو كانوا أبائهم.

ومن الأحاديث التى بينت معنى البراء لغة «**اللهم إنى أبرء إليك مما صنع خالد**»(١) وقال بعض الصحابة وهو أنس بن النضر فى غزوة أحد «**اللهم إنى أبرء إليك مما صنع هؤلاء**»(٢) حيث فروا من حول الرسول وهذا الصحابى الذى قال ذلك استشهد بعد أن تبرأ من فعل هؤلاء.

فصل فى الفرق بين القسط والمودة والموالاة

قال الفقير: الله عزوجل يوجهنا ويعلمنا صورة من صور المودة لبعض الأقارب الذين لم يحاربوننا فى الدين ولم يخرجونا من ديارنا قال تعالى ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾(٣).

فرق بين البر والقسط، وبين المودة والموالاة: فالمودة والمولاة: هذا عمل قلبى يثمر عن عمل للجوارح، بخلاف البر والقسط فإنه قد يكون عمل للجوارح وليس له تعلق بعمل القلب ولذلك ربما تقسط مع أحد من الناس وأنت تكرهه امتثالا لقوله تعالى: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا**﴾ إذن فقد نعدل ونقسط مع من نبغضه من باب التقوى والإحسان.

فهذه الآية قد يؤخذ منها أن من لم يقاتلنا نواليه.

الجواب: لا يؤخذ ذلك منها، ولا نواليه، بل نبره ونقسط إليه فقط وسبب نزول الآية أن أسماء رضى الله عنها جاءتها أمها وهى راغبة، وكانت مشركة، فلم تأذن لها

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٣٣٩) عن ابن عمر به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٧/ ٥٣/ ١٤٨)، والترمذى (٣٢٠١) عن أنس للفظ للترمذى.

(٣) الممتحنة/ ٨.

فى الدخول حتى ذهبت للرسول ﷺ تستأذنه، فنزلت الآية[1].

فلا مانع من برها ولكن ليس لها ولاء، وهو عين مافعله النبى ﷺ حينما وصل بعض أقاربه من المشركين حيث قال «**إن بنى فلان ليسوا لى بأولياء، بل لهم عندى رحم أبلها ببلالها**».

وليس التقى من يعدل مع من يحب، ولكن التقى من يعدل مع من لايحب فالعدل عزيز نادر حيث وصى الله المؤمنين بذلك فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ .

وأما قوله الله تعالى ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا**﴾[2].

تبرؤا: أى تخلُّوا عنهم فى وقت هم فى أمس الحاجة إليهم.

قال ابن القيم: من أحب شيئًا من دون الله ليس فى الله وليس لله عذب بمحبته فى الدنيا والآخرة.

وكما أنه لايدخل جنة الآخرة إلا من دخل جنة الدنيا (مجالس العلم: يُرى فى وجهه نضرة النعيم، ومن لم تُر عليه فى الدينا لا يُرى عليه فى الآخرة).

أيضًا من دخل نار الدنيا (نار العشق تكون عليهم فى القبر نار) يدخل نار الآخرة.

ولهذا كان ابن القيم يقول على شيخ الإسلام ؛ كان يُرى عليه نضرة النعيم.

ومن هنا نعرف من هم أولياء الله وأولياء الشيطان.

فأولياء الشيطان هم الذين أحبوا الشيطان وأحبوا منهجه ومعتقده وناصروه وآزروه واتبعوا الظلمات التى يُلبس بها على الناس فعلى وجوههم ظلمة: ﴿**كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا**﴾.

وأما أولياء الرحمن: هم الذين والوا الله واحبوه وتقربوا إليه بما يرضيه سبحانه ومن هنا نعرف قوله تعالى ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾[3] واتبعوا النور الذى أنزل على رسوله فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، نسأل الله أن نكون منهم.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٧٨)، ومسلم فى الزكاة (٧/ ٨٨ ـ النووى) عن أسماء به . وانظر «رياض الصالحين» (٣٢٧ ـ بتخريجنا).

(٢) البقرة/ ١٦٦ .

(٣) يونس / ٦٢، ٦٣ .

صور ليست من الموالاة

قال صاحب «فضل الغني الحميد»: ويلزمنا في هذا المقام أن نبين مايجوز من المعاملة مع الكفار والمشركين وذلك لأن كثيراً من الناس قد يسيء الفهم فيما ورد من الأدلة من معاملات أجازها الشرع مع الكفار فيظن أنها دليل على جواز موالاتهم ومودتهم وما أكثر مانسمع ذلك ونراه فيمن يوالي الكافرين موالاة محرمة وأحياناً كفرية، وهو يحتج بأن الرسول ﷺقد باع واشترى ووهب وقبل الهدية وعاد مرضى الكفار ونحو ذلك فلابد لنا من التفريق بين مايجوز ومالايجوز من معاملة الكفار وأيضاً فكثير من أهل البدع الغلاة يجعلون كل معاملة مع الكفار ـ أو مع من يظنون كفرهم بسبب غلوهم في الدين وبدعتهم ـ موالاة كفرية أومحرمة جهلاً منهم بالفرق بين هذه المعاملات الجائزة وصور الموالاة المحرمة لغة وشرعاً؛ وإليك هذه الصور التي ليست من الموالاة.

١ـ الاستعانة بغير المسلم لغرض حماية الداعي

من أدلة ذلك حماية أبي طالب لرسول الله ﷺ، وقد حرص رسول الله ﷺ على ذلك، وأيضاً قبول أبي بكر رضي الله عنه الدخول في جوار ابن الدغنة، وليست العلة في قبول ذلك مجرد تمتع المسلمين بالراحة والحياة، ولكن للتمكن من نشر الإسلام، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، أو النجاة من إيذاء الكفار، وبطشهم للقيام مستقبلا بالدعوة إلى الله تعالى، وهذا بشرط أن لايكون على حساب أحكام الإسلام، أو التنازل عن شيء منها، وأن يطمئن إلى عدم خيانته للمسلم، أو كشف مايطلع عليه من أمر الدعوة إلى الله تعالى سواء كان ذلك لجميل عليه للمسلم، أو صدق معاملة أو حسن خلق، ولاضير على المسلم إذا استعان على ذلك بموقف المشرك المفيد. لأي سبب من الأسباب(١).

أما الاستعانة بهم في قتال الكفار، فالراجح المنع منه لقول النبي ﷺ: **«أرجع فلن استعين بمشرك»**(٢). و أما في قتال المسلمين فمنعه جماهير العلماء لأنه تسليط للكفار على المسلمين قال تعالى : ﴿**وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾(٣).

---

(١) «أصول الدعوة» لعبد الكريم زيدان.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجهاد (٦/ ٤٣٧/ ١٥٠) عن عائشة به.

وانظر كتابنا «قفو الأثر في شرح بلوغ المرام بكلام ابن حجر».

(٣) النساء : (١٤١)

٢ـ المؤاجرة والمبايعة مع المشركين(*)

قال البخارى فى صحيحه: «باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك فى أرض الحرب» . ثم ساق بسنده عن خباب رضى الله عنه قال: كنت رجلاً قيناً، فعملت للعاص بن وائل فاجتمع لى عنده، فأتيته اتقاضاه، فقال : لا، والله،ولا أقضيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت أما والله حتى تموت، ثم تبعث، فلا، قال: وإنى لميت، ثم مبعوث؟ قلت :نعم، قال : فإنه سيكون لى مال، وولد فأقضيك، فأنزل الله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾(١) . »(٢)

قال ابن حجر فى «فتح البارى»(٣) فى شرح الباب: أورد فيه حديث خباب ـ وهو إذ ذاك مسلم ـ فى عمله للعاص بن وائل، وهو مشرك، وكان ذلك بمكة، وهى إذ ذاك دار حرب، واطلع النبى ﷺ على ذلك، وأقره، ولم يجزم المصنف بالحكم؛ لاحتمال أن يكون الجواز للضرورة، أو أن جواز ذلك كان قبل الإذن فى قتال المشركين ومنابذتهم، وقبل الأمر بعدم إذلال المؤمن نفسه.

قال المهلب:كره أهل العلم ذلك، إلا لضرورة، بشرطين:

أحدهما: أن يكون عمله فيما يحل للمسلم فعله.

والآخر: أن لايعينه على ما يعود ضرره على المسلمين. وقال ابن المنذر: استقرت المذاهب على أن الصناع فى حوانيتهم يجوز لهم العمل لأهل الذمة، ولايعد ذلك من الذلة، بخلاف أن يخدمه فى منزله، وبطريق تبعته له. أهـ.

قال ابن قدامه فى «المغنى»(٤) : لاتجوز إجارة المسلم للذمى لخدمته، نص عليه أحمد فى رواية الأثرم، فقال: إن آجر نفسه من الذمى فى خدمته لم تجز، وإن كان فى عمل شىء جاز، وهو أحد قولى الشافعى. والآخر: تجوز، لأن له إجارة نفسه فى غير الخدمة؛ فجاز فيها، كإجارته من المسلم، ولنا : أنه عقد يتضمن حبس المسلم عند الكافر، وإذلاله أشبه البيع، يحققه أن عقد الإجارة للخدمة يتعين فيه حبسه مدة الإجارة

(*) انظر «الولاء والبراء» للقحطانى (٣٥٤ ـ ٣٥٦)

(١) مريم :٧٧

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٠٩١)،ومسلم فى صفة القيامة (٩/ ١٥١/ ٣٥) عن خباب به.

(٣) فتح البارى (٤/ ٤٥٢)

(٤) المغنى (٥/ ٤١٠)

واستخدامه، والبيع لايتعين فيه ذلك، فـإذا منع منه، فلأن يمنع من الإجارة أولى، فأما إن آجر نفسه فى عمل معين فى الذمة، كخياطة ثوب، جاز بغيرخلاف نعلمه.

ثم قال رحـمه الله: ولأنه عقد معـاوضة لايتضمن إذلال المسلم، ولا استـخدامه أشبه مبايعـته، وإن آجر نفسه مـنه بعمل غيـر الخدمة مدة معلـومة جاز أيضاً فى ظـاهر كلام أحمد. أهـ.

٣ـ البيع والشراء

قال البخـارى رحمه الله: «باب الشراء والـبيع من المشركين وأهـل الحرب» ثم ساق بسنده عن عبدالرحمن بن أبى بكر رضـى الله عنه قال: كنا مع النبى ﷺ ثم جاء رجل مشرك طويل بغنم يسوقها، فقال النبىﷺ **«بيعاً أم عطيـة ـ أو قال ـ أم هبة؟ قال: لا، بل بيع، فاشترى منه شاة»** (١).

قال ابن حجر فى «الفتح»(٢) قال ابن بطال: معاملة الكفار جائزة إلا مع مايستعين به أهل الحرب على المسلمين. ثم قال: وفى الحديث قبول هدية المشرك، لأنه سأله هل يبيع أو يهدى؟. أهـ.

٤ـ قبول الهدية منهم والإهداء إليهم

قال البخـارى رحمه الله: «باب قبـول الهدية من المشـركين» ثم ذكر حديـث أنس فى إهداء أكيـدر دومة للنـبى ﷺ (٣)، وحديث أنـس فى إهداء اليهـودية للنبـىﷺ الشاة المسمومة وأكله منها وأصحابه(٤)، وكذا إهداء ملك أيلة للنبـى ﷺ بغلة بيضاء، فكساه برداً (٥). وقصة هاجر التى أهداها الجبار لإبراهيم عليه السلام (٦).

قال الحافظ فى «الفتح»(٧): فى الجمع بين هذه الأحاديث وحديث: «إنى نهيت عن

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٢١٦)،ومسلم فى الأشربة (٧/ ٢٦٢/ ١٧٥).
(٢) فتح البارى (٤/ ٤٠١)
(٣) [صحيح] علقه البخارى (٢٦١٦) ، ووصله مسلم فى الفضائل (٨/ ٢٦٠/ ١٢٧).
(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٦١٧)، و مسلم فى السلام (٧/ ٤٣٣/ ٤٥).
(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٨١)،ومسلم فى الفضائل (٨/ ٤٥/ ١١) عن أبى حميد به.
(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٣٥٨)،ومسلم فى الفضائل (٨/ ١٣٤/ ١٥٤) عن أبى هريرة به.
(٧) فتح البارى (٥/ ٢٤١)

زبد المشركين»(1). قال«وجمع غير الطبرى بأن الامتناع فى حق من يريد بهديته التودد والموالاة، والقبول فى حق من يرجو بذلك تأنيسه وتأليفه على الإسلام».

وقد روى البخارى فى باب الهدية للمشركين حديث إهداء عمر أخاه المشرك حلة حرير(2). وحديث أسماء فى صلة أمها وهى مشركة (3). وهذا على سبيل التأليف وصلة الرحم من غير مودة.

٥- رد السلام عليهم(*)

قال ابن القيم فى «زاد المعاد»(4) : اختلف فى وجوبه: فالجمهور على وجوبه، وهو الصواب، وقالت طائفة: لايجب الرد عليهم، كما لايجب على أهل البدع، وهو أولى.

والصواب الأول، والفرق: أنا مأمورون بهجر أهل البدع، تعزيراً لهم، وتحذيراً منهم، بخلاف أهل الذمة. أهـ.

ومما يرجح رأى الجمهور فى وجوب الرد على أهل الكتاب قوله ﷺ: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**»(5).

٦- الانتفاع بما عندهم(**)

يجوز أن يتلقى المسلم من غير المسلم ماينفعه فى علم الكيمياء والفيزياء، والفلك، والطب، والصناعة، والزراعة، والأعمال الإدارية، وأمثال ذلك. وهذا حين تنعدم الاستفادة من هذه العلوم من مسلم تقى.

كذلك يجوز الانتفاع بهم فى دلالة الطريق، وماعندهم من سلاح، وملابس، وغير ذلك من الحاجات التى يحتاجها الناس، وجرت العادة فيها أن المسلم والكافر يستويان فى الانتفاع بها. وأدلة الانتفاع بالكفار نجدها فى سنة رسول الله ﷺ، فقد ورد فى

---

(1) أخرجه أبو داود (٣٠٥٧)، والترمذى (١٥٧٧)، عن عياض بن حمار به.

(2) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٦١٩)، ومسلم فى اللباس (٧/ ٦/٢٨٢).

(3) تقدم تخريجه.

(4) (٢/ ٢٧)

(5) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٩٢٦)، ومسلم فى السلام (١٤/ ١٤٤ - النووي) عن أنس به . وانظر «رياض الصالحين» (٨٦٩ - بتخريجنا).

(*) انظر الولاء والبراء للقحطانى (٣٥٩-٣٦١)

(**) انظر «الولاء والبراء» للقحطانى (٣٦٢-٣٦٣)

الحديث عن عائشة رضى الله عنها «استأجر النبى ﷺ وأبو بكر رجلاً من بنى الديل.. هادياً خريتاً» (١).

٧ـ الزواج من الكتابية

قال تعالى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٢).

قال ابن كثير رحمه الله فى «التفسير» (٣) أى : وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لمابعده، وهوقوله تعالى : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فقيل أراد بـه المحصنات الحرائر دون الإماء. حكـاه ابن جرير عن مجاهد، وإنما قال مجاهد المحصنات: الحرائر(٤). فيحتمل أن يكون أراد ماحكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد به بالحرة العفيفة كما قال فى الرواية الأخرى عنه، وهو قول الجمهور هنا، وهو الأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهى مع ذلك غير عفيفة فتفيد حالها بالكلية. اهـ.

ثم قال: وقيل المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات وهو مذهب الشافعى.

وقيل المراد بذلك الذميات دون الحربيات لقوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(٥) وكان ابن عمر رضى الله عنه لايرى التزويج بالنصرانية ويقول: لاأعلم شركاً أعظم من أن تقول أن ربها عيسى وقد قال تعالى : ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾(٦) اهـ.

ثم قال : وقد تزوج جماعة من الصحابة رضي الله عنهم نساء النصارى ولم يروا لذلك بأساً أخذاً بهذه الآية الكريمة مخصصة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٢٦٣)، وانظر «منار السبيل» ـ بتخريجنا ـ.
(٢) المائدة : ٥
(٣) (٢/ ٢٠)
(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٤٦٢) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير. وانظر «فتح القدير (١/ ٣٩٤ ـ بتخريجنا).
(٥) التوبة : ٢٩
(٦) البقرة : ٢٢١ والأثر [صحيح] أخرجه البخارى (٥٢٨٥).

قَبْلِكُمْ﴾ فجعلوا هذه الآية الكريمة مخصصة للتى فى سورة البقرة : ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾إن قيل بدخول الكتابيات فى عمومهاو إلا فلامعارضة بينها وبينها لأن أهل الكتاب قد انفصلوا فى ذكرهم عن المشركين فى غير موضع . أهـ.

فتبين بهذا أن قول أهل العلم: جواز الزواج من الكتابية العفيفة يهودية أو نصراينة ـ ولم يخالف فى ذلك إلا ابن عمر رضى الله عنه فى النصرانية، والأظهر قول الجمهور، إلا أنه لابد هنا من التنبيه إلى أن هذا الزواج لابد أن يظل معه بغض هذه المرأة على دينها، ولامانع من استمرار النكاح مع وجود البغضاء، فكم من بيوت تقوم على غير الحب من مصالح ومنافع أخر، ولما كان هذا الأمر ـ وهو استمرار الزواج دون محبة ـ لايقوى عليه الأكثر كان زواج الكتابية مكروهاً كماثبت النهى عنه عن عمر رضى الله عنه دون تحريم، وقد قال النبى ﷺ، **«فاظفر بذات الدين تربت يداك»**[2].

قوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[1].

● مناسبة الآية للباب والمراد بها:

قال سليمان آل الشيخ[3]: ومراد المصنف رحمه الله بإيراد الآية هنا أن الطاعة فى تحريم الحلال وتحليل الحرام من العبادة المنفية من غير الله تعالى؛ ولهذه فسرت العبادة بالطاعة، وفسر الآله بالمعبود المطاع، فمن أطاع مخلوقاً فى ذلك فقد عبده؟ إذ معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضى إفراد الله بالطاعة وإفراد الرسول بالمتابعة. أهـ

قال عبد الله بن جار الله [4].

أن من أطاع غير الله فى تحريم الحلال وتحليل الحرام فقد اتخذه رباً ومعبوداً وجعله شريكاً لله وذلك ينافى التوحيد أ.هـ.

وقال ابن عثيمين [5]:وجه كون هذه الآية تفسيراً للتوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله أن الله انكر عليهم إتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، وهذه الآية سيأتى فيها

(١) «التوبة» (٣١)

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى» (٥٠٩٠) ومسلم فى الرضاع (١٠/ ٥٠ ـ النووي) عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٣٦٥ ـ بتخيجنا.

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٤، ١٠٥)

(٤) «الجامع الفريد» (٣٤).

(٥) «القول المفيد» (١٨٨، ١٨٩).

ترجمة كاملة فى كـلام المؤلف رحمه الله؛ فهؤلاء جعلوا الأحبار شركاء فـى الطاعة كلما أمروا بشىء أطاعوهم، سواء وافق أمر الله أم لا:

إذًا ؛ فتفسير التوحيد أيضاً بلا إلـه إلا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله وحده ولهذا عـلى الـرغـم من تـأكـيد الـنبـى ﷺ لطـاعـة ولاة الأمر؛ قـال: «**إنما الطاعة فى المعروف**»(١) اهـ.

قال القرعاوى (٢) : حيث دلَّت الآية عـلى أن معنى التوحيـد وشهادة أن لاإله إلا الله يقتضى إفـراد الله بالطاعة وإفراد الرسول بـالمتابعة لأن من أطاع الرسـول فقد أطاع الله.

الإعراب (٣):

قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾

(اتخذوا) فعل وفـاعل، و**(أحبارهم)** مفعـول به و**(رهبانهم)** عطف علـى أحبارهم و**(أربابا)** مفعـول به ثان و**(من دون الله)** صفه لأربـاباً و**(المسيح)** عطف علـى أحبارهم والمفعول الثـانى بالنسبة إليـه محذوف أى رباً و**(ابن)** صفة المـسيح أو بدل منـه، وثبت الألف فيه لأنه صفة بين علمين، والمسيح لقب واللقب من أقسام العلم.

معنى «الأحبار» و«الرهبان»(٤).

«أحبارهم» فى المختار : الحبر الذى يكتب به وموضعه المحبرة بالكسر، والحبر أيضاً الأثر وفى الحديث :**يخرج رجل من النار قد ذهب حبره وسبره**،

قال الفراء: أى هيئته ولونه.

وقال الأصمعـى: الجمال والبهاء وأثر الـنعمة وتحبير الخـط والشعر وغيرها تحـسينه **قلت:** ومنه قـول أبى موسى للرسـول ﷺ أنه كان يسمع مـنه القرآن : لوعلـمت أنك تسمعنـى لحبرته لك تحبيراً والحبر بـالفتح الحبور وهو السرور، وحـبره أى سره، وبابه نصر، وحبرة أيضـاً بالفتح ومنه قولـه تعالى ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أى يسرون وينعمون ويكرمون.

والحبر بالفتح والكسر واحد أحبار اليهود والكسـر أفصح لأنه يجمع على أفعال دون فعول.

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) «الجديد» (٧٥). (٣) «إعراب القرآن» (٤/ ٩٠).

(٤) «إعراب القرآن» (٤/ ٩٠-٩٢)

وقال الفراء: هو بالكسر، وقال أبو عبيدة: هو بالفتح، وقال الأصمعى: لا أدرى أنه بالفتح أو بالكسر، وقال: الحبر بالكسر منسوب إلى الحبر الذى يكتب به لأنه كان صاحب كتب والحبرة كالعنبة برد يمانى والجمع حبر كعنب وحبرات بفتح الباء. وفى المنجد: الحبر والحبر بالفتح والكسر: العالم الصالح، السرور والنعمة، رئيس من رؤساء الدين، الحبر الأعظم: خلف السيد المسيح على الأرض، رئيس الكهنة عند اليهود، والجمع أحبار وحبور.

(رهبانهم) جمع راهب وهو من اعتزل الناس إلى دير طلباً للعبادة والمؤنث راهبة وجمعها راهبات ورواهب. أهـ.

عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ فى سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فقال «أمأنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذ أحلوالهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»(١).

وعن أبى البخترى قال: سأل رجل حذيفة رضى الله عنه فقال أرأيت قوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه(٢).

وعن حذيفة رضى الله عنه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ قال: أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم أطاعوهم فى معصية الله(٣).

وعن قتادة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ اليهود﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ النصارى ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ فى الكتاب الذى أتاهم وعهد إليهم ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سبح نفسه أن يقال عليه البهتان(٤).

وعن الضحاك قال: ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ قراؤهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ علماؤهم (٥).

(١) [حسن] أخرجه الترمذى (٣٠٩٥)، وابن جرير (١٠/ ٨٠).
وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٣٧٤). وانظر «فتح المجيد» (ح١٦٣) بتخريجنا.

(٢) ذكر السيوطى فى «الدر» (٤/ ١٧٤) ونسبه لعبد الرزاق، والفريابى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، والبيهقى فى «الشعب».
وانظر تخريجه فى «فتح القدير» (٥٩٢٢ ـ بتخريجنا).

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ والبيهقى فى «الشعب».

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر وابن أبى حاتم.
وانظر الأخير بتخريجنا وكذا «فتح القدير» (٥٩٢٣ ـ بتخريجنا).

وعن ابن جريج قال : الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى [1].

وعن السدى مثله[2].

وعن الفضيل بن عياض قال الأحبار العلماء والرهبان العباد [3].

● **ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين**

قال ابن جرير [4]: يقول الله جل ثناؤه اتخذ اليهود ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم العلماء، والنصارى ﴿رُهْبَانَهُمْ﴾ وهم أصحاب الصوامع، وأهل الاجتهاد فى دينهم منهم : أهـ.

قال البغوى [5]: فإن قيل أنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه أنهم أطاعوهم فى معصية الله واستحلوا ما أحلوه، وحرموا ما حرموا، فاتخذوهم كالأرباب. ثم ذكر حديث عدى بن حاتم[6].

قال الزمخشرى [7] : اتخذوهم أرباباً، أنهم أطاعوهم فى الأمر بالمعصية وتحليل ماحرم الله وتحريم ما حلله كما تطاع الأرباب فى أوامرهم، ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به عباده، بل كانوا يعبدون الجن، ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ . ثم ذكر أثر عدى.

وبنحوه قال ابن الجوزى[8].

وقال الفخر الرازى[9].

الأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم، نقل أن عدى بن حاتم كان نصرانياً فانتهى إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ سورة براءة، فوصل إلى هذا الآية، قال فقلت لسنا نعبدهم فقال **«أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ماحرم الله فتستحلونه»** فقلت بلى قال: **«فتلك عبادتهم»**

---

(١) ذكره السيوطى فى المصدر الآخر ونسبه لابن المنذر.
وانظر «فتح القدير» (٥٩٢٤ ـ بتخريجنا).

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا وانظر «فتح القدير» (٥٩٢٥ ـ بتخريجنا).

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.
وانظر «فتح القدير» (٥٩٢٦ ـ بتخريجنا).

(٤) «تفسير الطبرى» (٦/ ١٠/ ٨٢)

(٥) «معالم التنزيل» (٣/ ٣٨)

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) «الكشاف» (٢/ ١٤٩)

(٨) «زاد المسير» (٣/ ٣٢٢).

(٩) «التفسير الكبير» (٨/ ١٦/ ٣٨ـ٣٩)

وقال الربيع : قلت لأبى العالية: كيف كانت تلك الربوبية فى بنى إسرائيل؟

فقال :إنهم ربما وجدوا فى كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم وماكانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى.

قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضى الله عنه: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى فى بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها وبقوا ينظرون إلى كالمتعجب، يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها، ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً فى عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

فإن قيل : أنه تعالى لما كفرهم بسبب أنهم أطاعوا الأحبار والرهبان فالفاسق يطيع الشيطان فوجب الحكم بكفره كما هو قول الخوارج.

والجواب:أن الفاسق، وإن كان يقبل دعوة الشيطان إلا أنه لايعظمه لكن يلعنه ويستخف به. أما أولئك الأتباع كانوا يقبلون قول الأحبار والرهبان ويعظمونهم، فظهر الفرق.

والقول الثاني : فى تفسير هذه الربوبية أن الجهال والحشوية إذا بالغوا فى تعظيم شيخهم قدوتهم، فقد يميل طبعهم إلى القول بالحلول والاتحاد، وذلك الشيخ إذا كان طالباً للدنيا بعيداً عن الدين، فقد يلقى إليهم أن الأمر كما يقولون ويعتقدون،وشاهدت بعض المزورين ممن كان بعيداً عن الدين كان يأمر أتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له، وكان يقول لهم أنتم عبيدى، فكان يلقى إليهم من حديث الحلول والاتحاد أشياء، ولو خلا ببعض الحمقى من أتباعه،فربما ادعى الألهية، فإذا كان مشاهداً فى الأمة، فكيف يبعد ثبوته فى الأمم السالفة؟

وحاصل الكلام أن تلك الربوبية يحتمل أن يكون المراد منها أنهم أطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم الله،وأن يكون المراد منها أنهم قبلوا أنواع الكفر، فكفروا بالله، فصار ذلك جارياً مجرى أنهم اتخذوهم أرباباً من دون الله.

ويحتمل أنهم أثبتوا فى حقهم الحلول والاتحاد. وكل هذه الوجوه الأربعة مشاهد وواقع فى هذه الأمة. أهـ.

وقال القرطبى (١).

قوله تعالى ﴿ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال أهل المعانى : جعلو ا أحبارهم ورهبانهم

(١) تفسير القرطبى (٥/ ٢٩٥٩).

كالأرباب حيث أطاعوهم فى كل شىء؛ ومنه قوله تعالى ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أى كالنار

قال عبدالله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانهم.

قال القاضى أبو بكر بن العربى : لايخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جداً أوهزلاً، وهو كيفما كان كفر؛ فإن الهزل بالكفر كفر لاخلاف فيه بين الأمة.

فإن التحقيق أخو العلم والحق، والهزل أخو الباطل، والجهل.

قال علماؤنا: انظر إلى قوله ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

واختلف العلماء فى الهزل فى سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال:

لايلزم مطلقاً. يلزم مطلقاً. التفرقة بين البيع وغيره.

فيلزم فى النكاح والطلاق؛ وهو قول الشافعى فى الطلاق قولاً واحداً.

ولايلزم فى البيع. قال مالك فى كتاب محمد: يلزم نكاح الهازل. وقال أبو زيد عن ابن القاسم فى العتبية: لايلزم. وقال على بن زياد: يفسخ قبلُ وبعدُ. وللشافعى فى بيع الهازل قولان. وكذلك يخرج من قول علمائنا القولان.

وحكى ابن المنذر الإجماع فى أن جد الطلاق وهزله سواء .

وقال بعض المتأخرين من أصحابنا : إن اتفقا على الهزل فى النكاح والبيع، لم يلزم وإن اختلفا غلب الجد الهزل.

وروى أبو داود والترمذى والدراقطنى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «**ثلاث جدهن جدّ وهزلهن جدّ: النكاح و الطلاق والرجعة**»(١) قال الترمذى: حديث حسن غريب، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم.

قلت: كذا فى الحديث «والرجعة» وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: «**ثلاث ليس فيهن لعب النكاح والطلاق والعتق**»(٢) وكذا روى عن على بن

(١) [حسن] أخرجه أبو داود (٢١٩٤) ، والترمذى (١١٨٤). وانظر «منار السبيل» (١٩٨٨ - بتخريجنا).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٥١٠) ونسبه لمالك، وعبد الرزاق، والبيهقى فى «السنن».

أبى طالب[١] وعبدالله بن مسعود وأبى الدرداء[٢] كلهم قال: **ثلاث لا لعب فيهن واللاعب فيهن جاد النكاح والطلاق والعتق** وعن سعيد بن المسيب عن عمر قال: **أربع جائزات على كل أحد العتق والطلاق والنكاح والنذور[٣]**. وعن الضحاك قال: **ثلاث لالعب فيهن**: النكاح والطلاق والنذور. أهـ.

قال ابن كثير[٤] وقوله ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ**﴾ روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان رئيساً فى قومه طيىء وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «**بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم**» وقال رسول الله ﷺ «**ياعدى ماتقول؟ أيضرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يضرك: أيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلهاً غير الله؟**» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال «**إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون**»[٥]. وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسير ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

وقال السدى: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم[٦] ولهذا قال تعالى ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا**﴾ أى الذى إذا حرم الشىء فهو الحرام وماحلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وماحكم به نفذ﴿**لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ أى تعالى

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد الرزاق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/٥٠٩) ونسبه للبخارى فى «تاريخه» والبيهقي.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٢/٣٣٦).

(٥) تقدم تخريجه

(٦) تقدم تخريجه أيضاً.

س وتــنزه عن الشركـاء والنظراء والأعوان والأضـداد والأولاد لاإله إلاهو ولا رب سواه. أهـ

قال الشوكاني رحمه الله[1] وفى هذه الآية مايزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقـليد فى دين الله، وتأثير مايقوله الإسلاف على مـا فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعـة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنـته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لماجاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ الـيهود والنصارى للأحبار والـرهبان أرباباً من دون الله، للقطـع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ماحرموا وحللوا ماحللوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به مـن شبه البيضة بالبيضـة، والتمرة بالتمرة، والمساء بـالماء، فياعباد الله، ويا أتباع مـحمد بن عبدالله، مابـالكم تركتم الكـتاب والسنة جانبـاً، وعمدتم إلى رجال هم مثلـكم فى تعبد الله لهم بـهما وطلبه منهم لـلعمل بما دلاعليه وأفـاده فعلتم بماجاؤوا به مـن الآراء التى لم تعمـد بعماد الحق، ولم تـعضد بعضد الـدين ونصوص الكـتاب والسنـة، تنادى بأبـلغ نداء وتصـوت بأعلى صـوت بمايخالـف ذلك ويبايـنه، فأعرتموها آذاناً صـماً، وقلوباً غلفاً، و أفهامـاً مريضة، وعقولاً مهيضة، وأذهـاناً كليلة، وخواطر عليلة، وانشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غــزية إن غـوت ... غويت وإن ترشد غز ية أرشد

فدعوا ـ أرشدكم الله وإياى ـ كتبًا كتبها لـكم الأموات من أسلافكم، و استبدلوا بها كتاب الله خالقهـم وخالقكم ومتعبد هم ومتـعبدكم، ومعبودهم ومعبـودكم واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وماجاؤوكـم به من الرأى بأقوال إمامكم وإمامهم وقدوتكم وقدوتهم وهو الإمام الأول محمد بن عبدالله ـ ﷺ .

دعوا كل قــول عند قـول محمد ... فما آبن فى دينــه كمخاطــر

اللهم هادى الضال، ومـرشد التائه، وموضح السبيل، اهدنـا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية. أهـ

قال السعدى (٢):

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم علمـائهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ أى : العُبَّـاد المتمردين للـعبادة . ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ يُحلُّـون لهم ماحرم الله فـيحلونـه، ويحرمون لهـم ما أحل الله فيحرمونه ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

(١) «فتح القدير للشوكانى» ٢/ ٣٧٢. (٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٢٣٤).

وكانوا أيضاً يغلون فى مشايخهم وعبادهم، ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبائح، والدعاء والا ستغاثة أهـ .

● **ماجاء من كلام الشراح فى الآية**

قال سليمان آل الشيخ (١): فمعنى التوحيد ـ من الآية ـ وشهادة أن لاإله إلا الله يقتضى إفراد الله بالطاعة، وإفراد الرسول بالمتابعة، فإن من أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله، وهذا أعظم مايبين التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله، لأنها تقتضى نفى الشرك فى الطاعة فما ظنك بشرك العبادة؟ كالدعاء والاستعانة والتوبة وسؤال الشفاعة وغير ذلك من أنواع الشرك فى العبادة، وسيأتى مزيد لهذا إن شاء الله تعالى فى باب من أطاع العلماء . والأمراء . أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٢) بعد أن ذكر حديث عدى: فصارت طاعتهم فى المعصية عبادة لغير الله، وبها اتخذوهم أرباباً كما هو الواقع فى هذه الأمة وهذا من الشرك الأكبر المنافى للتوحيد الذى هو مدلول شهادة أن لاإله إلا الله.

فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة. فأثبتوا مانفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد. أهـ.

قال ابن باز(٣): بين أن هذا شرك بالله، وأن التوحيد هو أن لايعبد إلا الله، لاراهب ولاحبر، ولانبى، ولاصالح، خلافاً لما فعله اليهود من اتخاذ الأحبار، والنصارى من اتخاذ الرهبان أرباباً ـ ثم ذكر جزء من حديث عدى ـ وفيه **«فتلك عبادتهم»**(٤) ويصير بذلك مشركاً كما قال بعد ذلك **(سبحانه عما يشركون)** .

فائدة : بالنسبة لاصحاب القبور فقد اتخذهم القبورين آلهة من دون الله والواجب أن يبين لهم الحق لأن عملهم كفر من أعظم الكفر ولكن لايقتلون بل يبين لهم الحق لإقامة الحجة عليهم فإن أصروا قتلوا إن يسر الله من يقيم ذلك عليهم أ.هـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد(٥) ـ بعد أن ذكر كلام ابن كثير المتقدم ـ من المعلوم أن قضية إفراد الله بالحكم وحده لاشريك له من أهم قضايا العقيدة، وركن من أركان التوحيد، ومخالفتها من أعظم أسباب الشرك على ظهر الأرض، وقد بينت هذه الآية الكريمة أن الحكم، والتشريع، والتحليل، والتحريم، من أخص معانى الربوبية، كما سبق بيانها، وبين الرسول ﷺ أن المتابعة على الحكم عبادة، وأن التعبد لله بالتحاكم

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٤، ١٠٥)
(٢) «فتح المجيد» (١/ ١٢٣).
(٣) التعليق المفيد (٥٨، ٥٩).
(٤) تقدم تخريجه .
(٥) فضل الغنى الحميد (١٥٦ : ١٧٦).

إلى شرعه: توحيد، ومخالفة ذلك : شرك، وككل قضايا العقيدة والتوحيد كثر ذكرهذه المسألة فى كتاب الله عزوجل.

قال تعالى مبيناً أن من اتخذ أحداً مشرعاً فقد جعله لله شريكاً، سواء كانوا أفراداً، أو جماعة، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾(١) وذم المشركين من قريش أعظم الذم فى شأن تشريعات وضعوها من قبل أنفسهم فى أمر بعض الزروع والبهائم، فقال : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

فانظر كيف حكم الله بظلمهم، وشركهم، وضلالهم، من أجل تشريعات البهائم، فكيف بتشريعات البشر فى دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأبضاعهم، . وهم الذين كرمهم الله تعالى ؟! نعوذ بالله من الشرك والخذلان.

---

(١) الشورى/ (٢١)

(٢) الأنعام : (١٣٦ ـ ١٤٤)

وقال تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(١).

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا: فقال لهم رسول الله ﷺ: «ماتجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبدالله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ماقبلها وما بعدها، فقال له عبدالله ابن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدقت يامحمد فيها آية الرجم. فأمر بها رسول الله ﷺ، فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة (٢).

سبحان الله ! إذا كان الله سبحانه قد حكم على اليهود، ومن حذا حذوهم بالكفر من أجل تغيير حكم الرجم إلى الجلد، والتحميم - وهو نوع عقوبة - فكيف بمن يجعل الزنا حرية شخصية إذا كان برضاء الطرفين؟!، ويرى الرجم، وأمثاله من أحكام الله، كالقطع فى السرقة، والقصاص، والجلد، وغيرها - شريعة غاب، ووحشية منافية لحقوق الإنسان، ومن يطالع قانون العقوبات المصرى يرى أن ما فعله اليهود والكافرون - وهم سبب تنزيل الآيات - كان أهون بكثير مما يفعله مشرعوا زماننا.

وإليك بعض الأمثلة من قانون العقوبات المصرى:

- «مادة ٢٦٧» من واقع أنثى بغير رضاها يعاقب بالأشغال المؤبدة، أو المؤقتة (أى إن كان برضاها فلا يعاقب).

- «مادة ٢٧٣» لايجوز محاكمة الزانية إلا بناء على دعوى زوجها، إلا إذا زنى الزوج فى المسكن المقيم فيه مع زوجته، كالمبين فى المادة ٢٧٢، فلاتسمع دعواه عليها. (يعنى إذا زنا كل منهما فى مسكن الزوجية، فلاتصح المطالبة بالمحاكمة).

- «مادة ٢٧٤» المرأة المتزوجة التى ثبت زناها يحكم عليها بالسجن لمدة لاتزيد عن سنتين، لكن لزوجها أن يوقف تنفيذ هذا الحكم برضائه معاشرتها له كما كانت.

- «مادة ٢٧٥» ويعاقب أيضاً الزانى بتلك المرأة بنفس العقوبة.

- «مادة ٢٧٧» كل زوج زنى فى منزل الزوجية، وثبت عليه هذا الأمر بدعوى الزوجية يجازى بالحبس مدة لاتزيد عن ستة أشهر. (أى أنه إذا كان خارج منزل الزوجية، أو لم تطلب محاكمته فليست جريمة)، ووالله إنى لاأدرى ماأقول فى هذا الكفر البواح والشرك البين سوى: إنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) المائدة : (٤٤).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٨٤١) ومسلم فى الحدود (١١/ ٢٠٨ - النووي).
وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١٣٤٩).

● **قال الشنقيطى فى**«أضواء البيان»[(١)]: إن الذين يتبعون القوانين الوضعية التى شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لماشرعه الله عزوجل على ألسنة رسوله ﷺ أنه لايشك فى كفرهم وشركهم، إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحى مثلهم.

● **ثم قال رحمه الله** : اعلم أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعى الذى يقتضى تحكيمه الكفر بخالق السموات والأرض، وبين النظام الذى لايقتضى ذلك، وإيضاح ذلك أن النظام قسمان: إدارى وشرعى،

أما الإدارى الذى يراد به ضبط الأمور، وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع فهذا لا مانع فيه، كتنظيم شئون الموظفين، وتنظيم إدارة الأعمال على وجه لايخالف الشرع[(٢)]، ولايخرج من قواعد الشرع مع مراعاة المصالح العامة.

وأما النظام الشرعى المخالف لتشريع خالق السموات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السموات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى فى الميراث ليس بإنصاف ، وأنهما يلزم استواؤهما فى الميراث، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم، والقطع، ونحوهما أعمال وحشية، ولايسوغ فعلها بالإنسان، ونحو ذلك.

فتحكيم هذا النوع من النظام فى أنفس المجتمع، وأموالهم، وأعراضهم، وأنسابهم، وعقولهم، وأبدانهم، كفر بخالق السموات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذى وضعه خالق الخلائق لها، وهو أعلم بمصالحهم، سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علوا كبيراً. اهـ.

● **وقال رحمه الله**[(٣)] فى تفسير سورة الشورى: الحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ماحرمه الله، والدين هو ماشرعه الله، فكل تشريع من غيره سبحانه باطل، و العمل بتشريع بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أوخير منه كفر بواح لانزاع فيه، وقد دل القرآن فى ايات كثيرة على أنه لاحكم لغير الله وأن اتباع تشريع غيره كفربه .اهـ.

---

(١) (٤/٨٣)

(٢) مع مراعاة أنه ليس من الموالاة: البيع والشراء والإجارة، وعليه يتضح خطأ من زعم أن التوظف فى الوظائف الحكومية الإدارية ،و أنواع الخدمات المباحة المشروعة فى ضوء القواعد الشرعية لدى الحكومات الحاكمة بالقوانين الوضعية يعد شركاً، أوموالاة، أو محرماً، وإنما ذلك الشرك، والكفر، والظلم فى التعاون والرضا بذلك، بل إذا نوى خدمة المسلمين، وكونه فى حاجتهم، فالله المسئول أن يتقبل منه عملاً صالحاً مثاباً عليه فى الدنيا والآخرة.

(٣) (٧/١٦٢)

● **وقال رحمه الله**: اعلم أن الله عزوجل بين فى آيات كثيرة صفات من يستحق أن يكون الحكم له، فعلى كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة، ويقابلهامع صفات البشر، المشرعين للقوانين الوضعية، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع؟

سبحان الله، تعالى عن ذلك، فإن كانت تنطبق عليهم - ولن تكون - فيتبع تشريعهم، وإن ظهر يقينا أنهم أحقر، وأخس، وأذل، وأصغر من ذلك فليقف بهم عند حدهم، ولا يجاوز بهم إلى مقام الربوبية، سبحان الله، أن يكون له شريك فى عبادته، أو حكمه، أو ملكه . أهـ.

● **وقال رحمه الله**: «وكل تحاكم إلى غير شرع فهو تحاكم إلى الطاغوت» وذلك فى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً**﴾[1]. فالكفر بالطاغوت الذى صرح الله بأنه أمرهم به فى هذه الآية شرط فى الإيمان كما بينه تعالى فى قوله﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ**﴾[2]. يفهم منه أن من لم يكفر بالطاغوت؛ لم يستمسك بالعروة الوثقى، ومن لم يستمسك بها؛ فهو مترد مع الهالكين. أ هـ.

● **وقال رحمه الله**[3]: «إن غير الله لايتصف بصفات التحليل والتحريم، ولماكان التشريع وجميع الأحكام، شرعية، أوكونية قدرية، من خصائص الربوبية: كان كل من اتبع تشريعاً غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرع رباً ، وأشركه مع الله» . أهـ.

● **قال ابن كثير رحمه الله فى «تفسيره»**[4] فى تفسير قوله تعالى ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾[5] ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم، المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر، وعدل إلى ماسواه من الآراء، والأهواء، الاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كماكان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات، والجهالات مما يضعونها بآرائهم، وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة من ملكهم «جنكيز خان» الذى وضع لهم«الياسق»، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية، والنصرانية، والملة الإسلامية، وغيرها، وفيها كثيرمن الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى

---

(١) النساء : ١٠ (٢) البقرة / ٢٥٦ (٣) (١٦٩/٧)
(٤) (٦٧/٢). (٥) المائدة : ٥٠

عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية، والنصرانية، والملة الإسلامية، وغيرها، وفيها كثيرمن الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه فى قليل أو كثير، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾أى: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى: ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها؟!، فإنه تعالى هو العالم بكل شىء القادر على كل شىء، العادل فى كل شىء أهـ.

● **ونقل ابن كثير فى «البداية والنهاية»** شيئاً من سخافات هذا «الياسق» ثم قال: فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء،وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة، كفر، فكيف بمن تحاكم إلى «الياسق»، وقدمه عليه، من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين.أهـ.

● **وقال أحمد محمد شاكر رحمه الله فى «عمدة التفسير»**[1] تعليقاً على ابن كثير: أفيجوز ـ مع هذا ـ فى شرع الله أن يحكم المسلمون فى بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوروبا الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء، والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون، لا يبالى واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها؟.

إن المسلمين لم يبلوا بهذا قط ـ فيما نعلم من تاريخهم ـ إلا فى ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التتار، ثم مزجهم فأدخلهم فى شرعته، وزال أثر ما صنعوا بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم، وأن هذا الحكم، السىء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه ولم يعلموه أبناءهم، فما أسرع مازال أثره.

أفرأيتم هذا الوصف القوى من الحافظ ابن كثير ـ فى القرن الثامن ـ لذلك القانون الوضعى، الذى صنعه عدو الإسلام «جنكيز خان»؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين فى هذا العصر، فى القرن الرابع عشر؟ إلا فى فرق واحد، أشرنا إليه آنفاً: أن ذلك كان فى طبقة خاصة من الحكام، أتى عليها الزمن سريعاً، فاندمجت فى الأمة الإسلامية، وزال أثر ما صنعت.

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالاً، وأشد ظلماً وظلاماً منهم؛ لأن أكثر الأمم

(١) (١٧٣/٤)

الإسلامية الآن تكـاد تندمج فى هذه القوانين المخـالفة للشريعة، والتـى هى أشبه شىء بذلك«الياسق» الذى اصطنعه رجل كافر، ظاهر الكفر، هذه القوانين التى بصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يـتعلمها أبناء المسلمين، يفخرون بذلـك آباء وأبناء، ثم يجعلون مرد أمرهـم إلى معتنقـى هذا «الياسق الـعصرى»! ويحقـرون من يخالفهـم فى ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم، وشريعتهم «رجعياً وجامداً» إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة.

بل إنهم أدخلوا أيديهـم فيما بقى فى الحكم من التشريع الإسـلامى، يريدون تحويله إلى «ياسقهم الجديد» باللين تارة، وبالمكر والخديـعة تارة، وبماملكت أيديهم من السلطان تارة، ويصرحون ـ ولايستحيون ـ بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين!!!.

أفيجوز إذن ـ مع هذا ـ لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد، أعنى التشريع الجديد!! أو يجوز أن يرسل أبناءه لتعلم هذا، واعتناقه، واعتقاده، والعمل به، عالما كان الأب أو جاهلاً؟!.

أو يجوز لرجل مسلم أن يلى القضاء فـى ظل هذا «الياسق العصرى» وأن يعمل به، ويعرض عـن شريعته الـبينة؟ مـا أظن رجلاً مسلـماً، يعرف دينـه، ويؤمن به جـملة وتفصيلاً، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله، كتابا محكماً، لايأتيه الباطل من بين يـديه ولامن خلـفه، وبأن طاعـته، وطاعة الـرسول الذى جاء بـه واجبة، قطـعية الوجوب فى كـل حال ـ ما أظنه يستطـيع إلاأن يجزم غير متردد ولا مـتأول، بأن ولاية القضاء فى هذا الحال باطلة بطلاناً أصلياً، لايلحقه التصحيح، ولا الإجازة.

إن الأمر فى هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هى كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداراة، ولا عذر لأحد ممـن ينتسب للإسلام ـ كائناً من كان ـ فـى العمل بها، أو الخضوع لها، أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرىء حسيب نفسه.

ألا فليـصدع العلماء بـالحق غير هيابـين، وليبلـغوا ما أمروا بتبـليغه غير مـوانين، ولامقصرين.

سيقول عنى عبيد هذا «الياسق الـعصرى» وناصروه، أنى جامد، وأنى رجعى، وما إلى ذلك من الأقاويل، ألا فليقولوا ما شاؤوا، فما عبأت يوماً ما بما يقال عنى، ولكنى قلت مايجب أن أقول. أهـ.

● **قال أحمد شاكر حفظه الله فى «عمدة التفسير» (١): عند قوله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢)** اللهم إنى أبـرأ إليك من الضلالة. وبعد، فإن أهل الريب، والفتن ممن تصدوا لـلكلام فى زماننا هذا قد تلمس المعذرة لأهل السلطان فى ترك الحكم بما أنزل الله، وفى القضاء فى الدماء، والأعراض، والأموال بغير شريـعة الله التى أنـزل فى كتـابه، وفى اتخـاذهم قانون أهـل الكفـر شريعة فـى بلاد الإسلام. فلما وقف على هذين الخبرين ـ قول ابن عباس رضى الله عنه: كفر دون كفر، وأثر أبى مجلز ـ اتخذهما رأيا يـرى به صواب القضاء فى الأموال، والأعراض، والدماء بغير ما أنزل الله، وأن مخالفةشريعة الله فى القضاء العام لاتكفر الراضى بها، والعامل عليها.

والناظـر فى هذين الخبريـن لامحيص له من مـعرفة السائـل والمسئول، فأبو مـجلز (لاحق بن حميد السدوسى) تابعى ثقـة، وكان يحب علياً رضى الله عنه، وكان قوم أبى مجلز ـ وهم بنوشيبان ـ من شيعة على يـوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين، واعتـزلت الخوارج، كان فيمن خرج عـلى على رضى الله عنه طائـفة من بنى شيبان، ومن بنى سـدوس بن شيبان بن ذهل. وهؤلاء الذين سألوا أبـا مجلز ناس من بنى عمرو بن سدوس، وهم نفر من الإباضية، والإباضية من جماعة الخوارج الحرورية، هم أصحاب عبدالله بن إباض التميمى، وهم يقـولون بمقالة سائر الخوارج فى التحكيم، وفى تكفير علـى رضى الله عنه إذ حكم الحكمين، وأن علياً لـم يحكم بما أنزل الله فى أمر التحكيم، ثم إن عبدالله بن إباض قال: إن من خالف الخوارج كافر، ليس بمشرك، فخالف أصحابه، وأقـام الخوارج على أن أحكام المشركين تجرى علـى من خالفهم. ثم افترقـت الإباضية بـعد عبدالله ابن إبـاض الإمام افتراقاً، لانـدرى معه ـ فى أمـر هذين الخبرين ـ من أى الفريـقين كان هؤلاء السائلون، بيد أن الإباضـية كلها تقول: إن دور مخالفـيهم دور توحيد إلا معـسكر السلطان، فإنـه دار كفر عندهم، ثم قـالوا أيضاً: إن جميع ما افتـرض الله سبحانه على خلقه إيـمان، وإن كل كبيرة فهى كفر نـعمة، لاكفر شرك، وأن مرتكبى الكبائر فى النار خالدون، مخلدون فيها.

ومن البين: أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة فى تكفيـر الأمراء، لأنهم فى معسكر الـسلطان، ولأنهم ربما عصوا، أو ارتـكبوا بعض مانهاهم الله عن ارتكـابه، ولذلك قال لهم فى الخبر الأول: «فإن هم تـركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قـد أصابوا ذنباً»، وقال لهم فى الخبـر الثانى: «إنهم يعملون بمـا يعلمون، ويعلمون أنه ذنب»، وإذن، لم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء فى

(١) (٤/١٥٦)　(٢) المائدة : ٤٤

الأموال، والأعراض، والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، ولا فى إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، وبالاحتكام إلى حكم غير حكم الله فى كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لايشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم فى تكفير القائل به والداعى إليه.

والذى نحن فيه اليوم - هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، و إيثار أحكام غير حكمه فى كتابه، وسنة نبيه ﷺ، وتعطيل لكل ما فى شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفصيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وأدعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما أنزلت لزمان غير زماننا، ولعلل، وأسباب انقضت؛ فسقطت الأحكام كلها بانقضائها، فأين هذا مما بيناه من حديث أبى مجلز والنفر من الإباضية من بنى عمرو بن سدوس؟!!.

ولو كان الأمر على ما ظنوا من خبر أبى مجلز أنهم أرادوا مخالفة السلطان فى حكم من أحكام الشريعة - فإنه لم يحدث فى تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكماً، وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها. هذه واحدة.

وأخرى : أن الحاكم الذى حكم فى قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه :

إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة،

وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية، فهذا ذنب تناله التوبة، وتلحقه المغفرة.

وإما أن يكون حكم به متأولاً حكماً خالف به سائر العلماء، فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب وسنة رسول الله ﷺ،

وأما : أن يكون كان فى زمن أبى مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء فى أمر جاحداً لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط. فلا يمكن صرف كلام أبى مجلز والإباضين إليه.

فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما فى غير بابها، وصرفهما لغير معناهما؛ رغبة فى نصرة سلطان، أو احتيالا على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله، وفرضه على عباده، فحكمه فى الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله : أن يستتاب، فإن أصر، أو كابر، أو جحد حكم الله، ورضى بتبديل الأحكام، فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين أهـ(1).

● **وقال ابن القيم رحمه الله فى «مدارج السالكين»** (2): والصحيح أن الحكم

(1) من كلام أحمد شاكر

(2) (1/337)

بغيرما أنزل الله يتناول الكفر الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً ـ مع اعترافه، بإنه مستحق للعقوبة ـ فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه مخير فيه ـ مع تيقنه أنه حكم الله ـ فهذا كفر أكبر، وإن جهله، أو أخطأ، فهذا مخطىء له حكم المخطئين. أهـ.

● **وقال الشيخ محمد بن إبراهيم مفتى الديار السعودية فى كتابه «تحكيم القوانين»** [1]: إن من الكفر الأكبر المستبين: تنزيل القانون اللعين، منزلة مانزل به الروح الأمين، على قلب رسوله ليكون من المنذرين، بلسان عربى مبين، فى الحكم به بين العالمين، والرد إليه عند تنازع المتنازعين .أهـ.

● **وقال ايضاً**: فانظر كيف سجل على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسق، من الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً، ولا يكون كافراً، بل هو كافر مطلقاً، إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد، وماجاء عن ابن عباس رضى الله عنه، فى تفسير هذه الآية من رواية طاوس وغيره يدل على أن الحاكم بغيرما أنزل الله كافر، إما كفر اعتقاد ناقل عن الملة، وإما كفر عمل لاينقل عن الملة.

أما الأول، وهو كفر الإعتقاد، فهو أنواع

أحدها: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله،وهو معنى ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه، واختاره ابن جرير، أن ذلك هو جحود ماأنزل الله من الحكم الشرعى، وهذا ما لانزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم: أن من جحد أصلاً من أصول الدين، أو فرعاً مجمعاً عليه، أو أنكر حرفاًمما جاء به الرسول ﷺ قطعياً فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة.

الثانى : ألا يجحد الحاكم بغيرماأنزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه،وأتم وأشمل ؛ لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، إمامطلقاً، أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث التى نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال، وهذا أيضاً لاريب أنه كافر لتفضيله أحكام المخلوقين التى هى محض زبالة الأذهان، وصرف حثالة الأفكار على حكم الحكيم الحميد.

وحكم الله ورسوله لايختلف فى ذاته باختلاف الأزمان، وتطور الأحوال، وتجدد الحوادث، فإنه ما من قضية كائنة ماكانت إلا وحكمها فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ،نصاً، أو ظاهراً، أو استنباطاً، أو غير ذلك، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله، وليس معنى ماذكره العلماء من تغير الفتوى بتغير الأحوال ماظنه من قل نصيبهم ـ أو عدم ـ من معرفة مدارك الأحكام وعللها، حيث ظنوا أن معنى ذلك بحسب مايلائم إرادتهم الشهوانية البهيمية، وأغراضهم الدنيوية، وتصوراتهم الخاطئة الوبية،

---

(١) (ص ٥٠)

ولهذا تجدهم يحامون عليها، ويجعلون النصوص تابعة لها، منقادة إليها، مهما أمكنهم؛ فيحرفون لذلك الكلم عن مواضعه. وحينئذ معنى تغير الفتوى بتغير الأحوال والأزمان مراد العلماء منه: ما كان مستصحبة فيه الأصول الشرعية، والعلل المرعية، والمصالح التى جنسها مراد الله تعالى ورسوله ﷺ

ومن المعلوم أن أرباب القوانين الوضعية عن ذلك بمعزل، وأنهم لايقولون إلا على ما يلائم مراداتهم، كائنة ما كانت والواقع أصدق شاهد.

الثالث: أن لايعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله، فهذا كالنوعين الذين قبله فى كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة؛ لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق، والمناقضة والمعاندة، لقوله عزوجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(١) ونحوها من الآيات الكريمةالدالة على تفرد الرب بالكمال، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقين فى الذات، والصفات، والأفعال، والحكم بين الناس فيما يتنازعون فيه.

الرابع: أن لايعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله فضلا عن أن يعتقد كونه أحسن منه، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله، فهذا كالذى قبله يصدق عليه ما يصدق عليه؛ لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة، الصريحة، القاطعة تحريمه.

الخامس: وهو أعظمها، وأشملها، وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً، وإمداداً، وإرصاداً، وتأصيلاً، وتفريعاً، وتشكيلاً، وتنويعاً، وحكماً، وإلزاماً، ومراجع ومستندات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع هى: القانون الملفق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسى، والقانون الأمريكى، والقانون البريطانى، وغيرها من القوانين، من مذاهب بعض البدعيين المتنسبين إلى الشريعة، ونحو ذلك.

فهذه المحاكم الآن فى كثير من أمصار الإسلام مهيئة، مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب، إثر أسراب، ويحكم حكامها بينهم بمايخالف حكم السنة والكتاب، من أحكام ذلك القانون، وتلزمهم به، وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم، فأى كفر فوق هذا الكفر، وأى مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة.

---

(١) الشورى/ (١١)

وذكر أدلة جميع ما قدمنا على وجه البسط معلومة، معروفة، لايحتمل ذكرها هذا الموضع، فيا معشر العقلاء ! ويا جماعات الأذكياء وأولى النهى! كيف ترضون أن تجرى عليكم أحكام أمثالكم، وأفكار أشباهكم، أو من هم دونك، ممن يجوز عليهم الخطأ، بل خطؤهم أكثر من صوابهم بكثير، بل لاصواب فى حكمهم إلا ماهو مستمد من حكم الله ورسوله، نصاً أو استنباطاً، تدعونهم يحكمون فى أنفسكم، ودمائكم، وسائر حقوقكم، ويتركون، ويرفضون أن يحكموا فيكم بحكم الله ورسوله، الذى لا يتطرق إليه الخطأ، ولايأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. وخضوع الناس، ورضوخهم لحكم ربهم: خضوع، ورضوخ لحكم من خلقهم تعالى ليعبدوه، فكما لايسجد الخلق إلا لله، ولايعبدون إلا إياه، ولا يعبدون المخلوق، فكذلك يجب أن لايرضخوا ولا يخضعوا، أو ينقادوا إلا لحكم الحكيم العليم الحميد، الرءوف الرحيم، دون حكم المخلوق الظلوم الجهول، الذى أهلكته الشكوك، والشهوات، و الشبهات، واستولت على قلوبهم الغفلة، والقسوة، والظلمات، فيجب على العقلاء أن يربأوا بنفوسهم عنه، لما فيه من الاستعباد لهم، والتحكم فيهم بالأهواء، والأغراض، والأخطاء، فضلاً عن كونه كفراً بنص قوله تعالى ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾(١).

السادس: مايحكم به كثير من رؤساء العشائر، والقبائل من البوادى، ونحوهم من حكايات آبائهم، وأجدادهم، وعاداتهم التى يسمونها «سلومهم» يتوارثون ذلك منهم، ويحكمون به، ويحرصون على التحاكم إليه عند النزاع، إبقاءاً على أحكام الجاهلية، وإعراضاً، ورغبة عن حكم الله ورسوله، فلا حول ولاقوة إلا بالله.

أما القسم الثانى: من قسمى كفر الحاكم بغير ما أنزل الله ـ وهو الذى لا يخرج عن الملة ـ وذلك أن تحمله شهوته، وهواه على الحكم فى القضية بغيرما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله: هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ، ومجانبة الهدى، وهذا : وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى، أكبر من الكبائر، كالزنا وشرب الخمر، والسرقة، واليمين الغموس، وغيرها، فإن معصية سماها الله فى كتابه كفراً أعظم من معصية لم يسمها كفراً نسأل الله أن يجمع المسلمين على التحاكم إلى كتابه، انقياداً، ورضاءً ، إنه ولى ذلك والقادر عليه. أهـ.

هذه النقول السابقة من كلام أهل العلم والتى تصرح بكفر من يحكم بالقوانين

---

(١) المائدة / ٤٤

الوضعية أويرضى بها أو يحتمها على النـاس لابد فيها من ملاحظة أن هذا التكفير هو من جهة الـنوع أى أن هذا النوع من الـكفر هو من الكفـر الأكبر، أما من جهـة المعين فالفتوى بأن فـلاناً بعينه كافر لارتكابه هـذا الكفر فإنما هو لأهل العلم بـعد نظرهم فى استيفاء الشـروط وانتفاء الموانع فى مسألة التـكفير، فمن الشروط مثلاً الـعلم، والبلوغ، والعقل، والقصد، والتذكـر، ومن موانع التكفير(١)، الجهل الـناشىء عن عـدم البلاغ، والصغر، والجنون، والخطأ، والنسيان، والإكراه، فلايصح التسرع فى تكفير المعين حتى يستيقن قيام الحجة وانتفاء العذر وليس معنى ذلك عدم تكفير معين بالمرة، بل يمكن أن يحكم على معين بالكفر والردة بعد ثبوت إتيانه للكفر، وقيام الحجة، وانتفاء الشبهة كما بينا، وقد يكون فى ثبوت الشروط وانتفاء الموانع اجتهاد واختلاف بين أهل العلم ينبغى أن يكون من الخلاف السائغ، أما الحكم العام أى من جهة النوع فلا ينبغى الاختلاف فيه أبداً لوضوح الحق بأدلته وإجماع أهل العلم عليه كما سبق بيانه من نقل الإمام ابن كثير رحمه الله.

فإن قال قائل: **فما الواجب علينا شرعاً وقد علمـنا حرمة التحاكم إلى المحاكم التى تحكم بالقانون الوضعى، والمسلمون ملزمون فى بلادهم بهذه القوانين قهراً؟**.

قلنا : الواجب شرعاً أن يـتحاكموا إلى من يحكم بـينهم بحكم الكتـاب والسنة من علمائهم، و لا يسعهم أن يؤخروا هذا الفرض إلى حين التطبيق المزعوم للشريعة، وهؤلاء العلماء المجتهدون، وإن لم يكن لهم القوة المـادية لإلزام الناس بالأحكام أو لتطبيق كل أحكام الشريعة ـ أو قد يترتب مفاسد من تنفيذ بعض الأحكام ربما تفوق مصلحة إقامتها ـ إلا أن قوة إيمان المسلم تدفعه للقبول بحكم الشرع، ولو لم يكن هناك ما يلزمه بالقوة المادية، ومع زيادة الإيمان يزداد ـ بإذن الله ـ من يطبقون هذا، ويلتزمون به من أنفسهم، وعليهـم جميعاً: أن يطبقـوا كل ما يقدرون عليـه من الأحكام فى ضوء قاعدة المـصلحة والمفـسدة المرعيـة شرعاً، وماعـجزوا عنه فـلا يكلفـون به ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾(٢) وعلى كل حال فالمسلم حين يدعو إلى التحاكم للشرع دون غيره، فقد خرج عن حكم الرضا بحكم الطاغوت، فإذا أوقف مضطراً أمام هذه المحاكم الوضعية فعليه أن يدعوهم، ويأمرهم أن يحكموا له بحقه الـشرعى فقط ـ الذى علمه من أهل العلم ـ لاما يزعمونه حقاً فى قانونهم. وكذلك من تـرافع أمام هذه المحاكم لدفع الظلم عن مسلم أو

---

(١) تقدم شىء من هذه الموانع فى هذا الباب كالإكراه، التقيه، والمداراة.

(٢) البقرة / ٢٨٦

رفعه، فعليه أن يطلب مثل ذلك. ومن يطلب هذا الحق لنفسه، أو لغيره من المسلمين، فلا جناح عليه مهما كان المطلوب منه، فإنه لم يأمر إلا بمعروف.

وإليك ما ذكره الأئمة فى مسألة التحاكم إلى أهل العلم المجتهدين، والتزام أحكامهم عند العجز عن التحاكم إلى القاضى الشرعى المعين من الخليفة المسلم:

١ـ قال ابن تيمية رحمه الله فى «مجموع الفتاوى» (١)«خاطب الله المؤمنين بالحدود والحقوق خطاباً مطلقاً كقوله تعالى ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ**﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ**﴾(٤) وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا**﴾ولكن قد علم أن المخاطب بالفعل لابد أن يكون قادراً عليه، والعاجزون لايجب عليهم، وقد علم أن هذا فرض على الكفاية وهو مثل الجهاد، بل هو نوع من الجهاد فقوله تعالى ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ**﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ**﴾(٦) وقوله تعالى ﴿ **إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ**﴾(٧)ونحو ذلك، هو فرض على الكفاية من القادرين، والقدرة هى السلطان. فلهذا وجب إقامة الحدود على ذى السلطان ونوابه والسنة أن يكون للمسلمين إمام واحد، والباقون نوابه، فإذا فرض أن الأمة خرجت عن ذلك لمعصية من بعضها، وعجز من الباقين، أو غير ذلك، فكان لها عدة أئمة: لكان يجب على كل إمام أن يقيم الحدود، ويستوفى الحقوق، ولهذا قال العلماء: إن أهل البغى ينفذ من أحكامهم ما ينفذ من أحكام أهل العدل، كذلك لو شاركوا الإمارة، وصاروا أحزاباً؛ لوجب على كل حزب فعل ذلك فى أهل طاعتهم، فهذا عند تفرق الأمراء وتعددهم، وكذلك لو لم يتفرقوا لكن طاعتهم للأمير الكبير ليست طاعة تامة، فإن ذلك أيضاً إذا أسقط عنه إلزامهم بذلك لم يسقط عنهم القيام بذلك، بل عليهم أن يقيموا ذلك، وكذلك: لو فرض عجز بعض الأمراء عن إقامة الحدود، والحقوق، أو إضاعته لذلك، لكان ذلك الفرض على القادر عليه.

وقول من قال: لايقيم الحدود إلا السلطان ونوابه، إذا كانوا قادرين، فاعلين بالعدل؛

(١) (٣٤/ ١٧٥)
(٢) المائدة: ٣٨
(٣) النور: ٢
(٤) النور: ٤
(٥) البقرة: ٢١٦
(٦) البقرة: ١٦
(٧) التوبة: ٣٩

كما يقول الفقهاء : الأمر إلى الحاكم. إنما هو العادل القادر، فإن كان مضيعاً لأموال اليتامى، أو عاجزاً عنها، لم يجب تسليمها إليه مع إمكان حفظها بدونه،وكذلك الأمير إذا كان مضيعاً للحدود، أو عاجزاً عنها لم يجب تفويضها إليه مع إمكان إقامتها بدونه.

والأصل أن هذه الواجبات تقام على أحسن الوجوه، فمتى أمكن إقامتها من أمير لم يحتج إلى اثنين، ومتى لم يقم إلا بعدد، ومن غير سلطان أقيمت إذا لم يكن فى إقامتها فساد يزيد على إضاعتها، فإنها من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن كان فى ذلك فساد من ولاة الأمر، أو الرعية مايزيد على إضاعتها لم يدفع فساد بأفسد منه، والله أعلم . أهـ.

٢ـ قال إمام الحرمين الجوينى فى «غياث الأمم»(١) بعد أن فرض خلو الزمان من الإمام، ثم عن الكفاءة ذوى الدراية، أو كون ذى الكفاية والدراية مضطهداً، مهضوماً، لعدم اعتضاده بعدة، واستعداد، وشوكة؛ فلا تثبت له الإمامة.

قال :فكيف تجرى قضايا الولايات وقد بلغ تعذرها منتهى الغايات؟

فنقول : أما ما يسوغ استقلال الناس فيه بأنفسهم، ولكن الأدب يقتضى فيه مطالعة ذوى الأمر، ومراجعة مرموق العصر، كعقد الجمع، وجر العساكر إلى الجهاد، واستيفاء القصاص فى النفس والطرف، فيتولاه الناس عند خلو الدهر، ولو سعى عند شغور الزمان طوائف من ذوى النجدة والبأس، فى نقض الطرق، والسعاة فى الأرض بالفساد، فهو من أهم أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإنما ينهى آحاد الناس عن شهر الأسلحة استبداداً إذا كان فى الزمان وَزَرٌ قُوامٌ على أهل الإسلام، فإذا خلى الزمان عن السلطان؛ وجب البدار على حسب الإمكان إلى درء البوائق عن أهل الإيمان، ونهينا الرعايا عن الاستقلال بالأنفس من قبيل الاستحثاث على ما هو الأقرب إلى الصلاح، والأدنى إلى النجاح، فإن ما يتولاه السلطان من أمور السياسة أوقع، وأنجع، وأدفع للتنافس، وأجمع لشتات الرأى، وفى تمليك الرعايا أمور الدماء، وشهر الأسلحة وجوه من الخبل لاينكره ذو العقل، وإذا لم يصادف الناس قواماً بأمورهم يلوذون به، فيستحيل أن يؤمروا بالقعود عما يقتدرون عليه من دفع الفساد، فإنهم لو تقاعدوا عن الممكن، عم الفساد البلاد والعباد، وإذا أمروا بالتقاعد فى قيام السلطان، كفاهم ذو الأمر المهمات وأتاها على أقرب الجهات.

(١) (ص ٢٧٩)

وقد قال العلماء: لو خلى الزمان عن السلطان فحق على قطان كل بلد وسكان كل قرية أن يقدموا من ذوى الأحلام والنهى، وذوى العقول والحجى من يلتزمون امتثال إشارته، وأوامره وينتهون عن مناهيه، ومزاجره، فإنهم لولم يفعلوا ذلك ترددوا عند إلمام المهمات، وتبلدوا عند إطلال الواقعات، ولو انتدب جماعة فى قيام الإمام للغزوات، وأوغلوا فى مواطن المخافات تعين عليهم: أن ينصبوا من يرجعون إلى رأيه إذ لو لم يفعلوا ذلك تهووا فى ورطات المخافات، ولم يستمروا فى شىء من الحالات.

ومما يجب الاعتناء به أمور الولايات التى كانت منوطة بالولاة كتزويج الأيامى، والقيام بأموال الأيتام، فأقول: ذهب بعض أئمة الفقه إلى أن ما يتعلق بالولاية: تزويج الأيامى، فمذهب الشافعى رضى الله عنه، وطوائف من العلماء أن: الحرة، البالغة، العاقلة لا تزوج نفسها، فإن كان لها ولى: زوجها، وإلا فالسلطان ولى من لاولى له، فإذا لم يكن لها ولى حاضر، وشغر الزمان عن السلطان فنعلم قطعاً أن حسم باب النكاح محال فى الشريعة، ومن أبدى فى ذلك تشككاً فليس على بصيرة بوضع الشرع، والمصير إلى سد باب المناكح يضاهى الذهاب إلى تحريم الاكتساب كما سيأتى القول فى ذلك فى الركن الأخير فى الكتاب إن شاء الله عزوجل ـ وهذا مقطوع به، لا مراء فيه، فليقطع النظر وراء ذلك فى تفصيل التزويج، فأقول: إن كان فى الزمان عالم، يتعين الرجوع إليه فى تفاصيل النقض، والإبرام، ومآخذ الأحكام، فهو الذى يتولى المناكح التى كانت يتولاها السلطان إذا كان.

وقداختلف قول الشافعى ـ رحمة الله عليه ـ فى أن من حكم مجتهداً فى زمان قيام الإمام بأحكام أهل الإسلام، فهل ينفذ ماحكم به المحَّكم، فأحد قوليه، وهو ظاهر مذهب أبى حنيفة: أن ينفذ من حكمه ماينفذ من حكم القاضى ـ الذى يتولى منصبه من تولية الإمام، وهذا قول مجتهد فى القياس لست أرى الإطالة بذكر توجيهه، وغرضى منه: إذا انقدح المصير إلى تنفيذ أمر محكم من المفتين فى استمرار الإمامة، واطراد الولاية، والزعامة مع تردد، وتحرى، واجتهاد، وتآخى، فإذا خلى الزمان، وتحقق موجب الشرع على القطع والبت، واستحالة تعطيل المناكح، فالذى كان نفوذه من أمر المحكم مجتهداً فيه فى قيام الإمام يصير مقطوعاً به فى شغور الأيام، وهذا إذا صادفنا عالماً يتعين الرجوع إلى علمه، ويجب اتباع حكمه أهـ.

قال الفقير :

قوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ كما تقدم من كلام أهل العلم

أن علاقة هذه الآية بـ(لا إلـه إلا الله) أنها صرف الأمر والحكم لله كما قال الـعلماء فى تفسير معنى العـبادة المتضمن لهذه الكلمة هى الأوامر والنواهـى فلانصرف الأمر والنهى والحكم والتشريع إلا لأمره وحكمه، لذلك ناسب أن يفسر لا إله إلا الله من خلال قوله **﴿أحْبَارَهُمْ﴾** ومعنى الحبر كمـا فى قوله تعالى **﴿ لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ ﴾**وكما فى قوله **﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَار﴾** فالأحـبار هم علـماء اليهـود والرهبان عـباد النصـارى، وأرباباً: أى إلهـة من دون الله والرسول ﷺ فسرذلك من خلال حديث عدى بن حاتم الطائى وهو فى المسند والترمذى كماتقدم.

فهم حللوا ماحرم الله وحرموا ما أحل الله وهذا فى الواقـع كثير، فالتحليل والتحريم بالهوى المخالـف لأمر الله، مثل : الربا،والغنـاء، والتصوير، والتبرج،وعـبادة القبور وكذلك حرموا أشياء حلال مثل الختان، والنقاب، واللحية، وغير ذلك .

والناس يتبعوهم وهذا الاتباع هو العبادة بعينها.

وقد ذكرنا ذلك فى الباب الأول ودللنـا عليها من خلال سورة يوسف **﴿إن الحكم إلا الله امر الاتعبدو إلا إياه﴾** فالحكم هو العبادة فتتحاكم لغيره فأنت عابد لغيره. .

وذكرنا صور للعبادة مثل عبادة الشيطان .وهـى كانت بالطاعة وليست بالمناسك مثل **﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾** وكذلك عبادة فرعون عبادة طاعة له«**فاستخف قومه فأطاعوه**» فكانت عبادته هى طاعتـه وغير ذلك من الصور.التى تؤكد أن العبادة هى الأمر والنهى وأن الأمر والنهى هما العبادة .

وقد قال تعالى: **﴿ألا له الخلق والأمر﴾**فالخالق هوالذى يحكـم ويأمر فى خلقه ومن حال دون هذا الأمر فقد ضاد الله فـى أمره والنبى ﷺ قال: «**من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى ملكه أو أمره**» وهو عند أبى داود والحاكم.

فالمضادة فى الأمر والملك بمجرد أن عطل حدا وليس بتبديل أو تعطيل أو جحود إنما بمجرد شفاعة، فـما الظن بالمعطل بالكليـة فهو مضاد لله فى ألوهيته وربوبيـته كما تقول قوله تعالى **﴿ألا له الخلق والأمر﴾**، وكما قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾** ومع ذلك هم تحاكموا فكان إيمانهم بالطاغوت هو التحاكم والكفر بالله هو التحاكم لغيره.

هذا وقد قال ابن القيم فى تفسيره الجامع لمعنى الطاغوت: «هو ماتجاوز العبد حده من متبوع أو معبود أومطاع» لذلك ناسب أن يذكر المصنف الآية ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ**﴾ فهم قالوا ذلك ولكن لم يعلموا بمقضياتها أو علموا ولم يعملوا بها كما تقدم معنا فى حديث بعث معاذ لليمن «**إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه لا إله إلا الله**»(١) بالرغم من أنهم أهل كتاب يقولون لاإله إلا الله لذلك عقب الشيخ فى مسائله أنه يحتمل أن يقولها ولايفهم معناها أولا يعمل بمقتضاها فكان مناسب أن يؤكد فى باب تفسير التوحيد صرف الأمر والنهى والحكم والتشريع لله من الآية ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ**﴾..

مسألة: ـ

متى يكون اتخاذ الأحبار والرهبان مكفر ومتى يكون كبيرة أو معصية أعنى متى تخرج هذه العبادة عن الملة ومتى لاتخرج من الملة؟

الطاعة إما أن تكون منبعها شهوة أو تكون منبعها إباء واستكبار فالأولى معصية والثانية كفر وقد ضربنا مثلاً بمعصية آدم وإبليس وقد كفر إبليس ولم يكفر آدم لأن معصية آدم عن شهوةالخلد والملك قال تعالى: ﴿**وقال ما نهاكما ربكما عن تلكم الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين**﴾ فهما فى أول الأمر قالوا سمعنا واطعنا ثم بوساوس إبليس أكلوا ثم ندموا بعد ذلك وقالوا: ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا ورن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾ أما ابليس لم يندم وقال: ﴿**أنظرنى إلى يوم يبعثون...**﴾ فهو مصر على ماهو عليه ليوم البعث لأنه فى إباء واستكبار فليس قابل للحكم فى هذا الأمر، حيث رده بقوله ﴿**ءأسجد لمن خلقت طيناً**﴾ وقوله ﴿**قال أناخير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين**﴾ فنفرق بين هذين الأمرين فإذا جاء رجل مدخن أوامرأة متبرجه، مثلاً، فسألا عن حكم القمار أو مشاهدة الأفلام أو التبرج والتدخين فإذا قلنا له الأدلةعلى تحريم القمار أومشاهد الأفلام أو التبرج أو التدخين فقال أنا مقتنع بما تقولون، لكن الشهوة غلبت علينا.

فهذا المدخن أو هذه المتبرجة أو أى عاصٍ أو عاصية على هذه الصورة لانقول أنه أبى وكفر، بخلاف من نقول له أن هذا حرام بعد ما أقيمت عليه الحجة يقول هذا حلال ورد أمر الله حتى لو لم يفعل هذا الأمر فهو كافر وأطاع هواه طاعة مخرجة عن الملة.

---

(١) تقدم تخريجه.

ويجد أن الكفر المخرج لـه علاقة بالاعتقاد فى القلب مثـل الرد والإباء والاستكبار. قال ابن تيمية فيـما ذكره الشارح فى الكتاب : وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً. حيث أطاعوهم فى تحليل ماحرم الله. وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين:

[**أحدهما**] أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل فيعتقدون تحليل ماحـرم الله أو تحريم ما أحـل الله، اتباعـاً لرؤسائهـم مع علـمهم أنـهم خالفـوا دين الرسل، فهذا كـفر وقد جعله الله ورسوله شركـاً وإن لم يكونوا يصلون لـهم ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيرهم فى خلاف الدين، مع علمه أنه خلافاً للدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله اللهورسوله مشركا مثل هؤلاء.

[**الثانى**] أن يكون اعتقـادهم وإيمانهم بتحريـم الحرام وتحليل الحلال ثابتـاً، لكنهم أطاعوهم فى معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصى التى يعتقد أنها معاصى فهؤلاء لهم حـكم أمثالهم من أهل الـذنوب، كماقدثبت عن الـنبى ﷺ أنه قال : «**إنما الطاعة فى المعروف**» المحلل للحرام إن كان مجتهداً قصـده اتباع الرسول لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمور، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لايؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاءبه الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول فهذا له نـصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله، لاسيما إن اتبع فـى ذلك هواه ونصره بالـيد واللسان، مـع علمه أنه مـخالف للرسول. فـهذا شرك يستحق صاحبه العقوبةعليه.

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لايجوزله تقليد أحدفى خلافه وإنما تنازعوا فى جـواز التقـليد لـلقادر علـى الاستدلال، وإن كـان عاجزاً عـن إظهار الحـق الذى يعلـمه، فهذا يكـون كمن عرف أن دين الإسـلام حق وهو بيـن النصارى، فإذا فـعل ما يقدرعليـه من الحق لايؤاخذ بما عجز عـنه، وهؤلاء كالنجاشى وغـيره، وقد أنزل الله فى هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى ﴿**وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنـزل إليكم وما أنزل إليهم**﴾ وقوله ﴿**وإذا سمعواما أنزل إلى الرسـول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق**﴾وقوله ﴿**ومن قوم موسى أمة يهـدون بـالحق وبـه يعدلون**﴾ وأما إن كـان المتبع للمجتهد عـاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يـقدر عليه مثله، من الاجتهاد فى التقليد، فهذا لايؤاخذ إن أخطأ كما فى القبلة.

وأما من قلد شـخصاً دون نظيره لمجرد هواه، ونـصره بيديه ولسانه مـن غير علم أن معه الحق ، فهذا من أهل الجاهلية ، وإن كان متبـوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً كمن قال فى القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ وإن أخطأ فليتبـوأ مقعده من النار، وهؤلاء من جنـس مانع الزكاة الذى تقدم فيـه الوعيد، ومن

جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً لـه، وكذلك هؤلاء، فيكون فيهم أصغر، ولهم مـن الوعيد بحسب ذلك.

وفى الحديث «إن يسير الرياء شرك»[1] وهذامبسوط عند النـصوص التى فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب .أهـ.

قال السدى : استنصحوا الرجال وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم[2].

فلا يبقى إلا شـيخ لايعلم الفرق بين الـغسل الواجب والكامل ولاشـىء من العلم الواجب والناس يسألون هذا الشيخ فيتجرأ على الفتوى بغير علم فَيضِلُّ ويُضَلُّ.

فمن اعتقد أن ما قالـه هذا الشيخ مخالفة لما جاءت به الشريعة ومـع ذلك يتبعه على هذه المخالفة ففيه شبه بهـؤلاء الذى ذمهم الله من اليهود الذين أشركوا مع الله الأحبار، ولهذا قال ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾فلم يمتثلوا وعبدوا معه الرهبان والأحبار، وقال« ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾فالذى يفـترى على الرسول الـكذب يتبوأ مقعـده من النار وهو حديـث متواتر فالذى يكذب على الله فماذا يفعل به ؟!

أما الذى يتبع الأحبار والرهبان وهو يعلم خطئهم ولم يتبعهم إلا عن هوى ولشهوة ما فهو كمـن فعل ذلك ابتداءً من غير اتبـاع لهم فهى معاصى أو كبائـر ولو كانت ربا مثلاً ولاتكن كفراً كمـا ثبت عن النبى «إنما الطاعة فى المعروف»[3] كما هو الـقول فى طاعة الأمراء الذين طاعـتهم واجبه لكن ليس بإطلاق وإنما فى المعـروف كما قال تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فطاعة الله والرسول مـطلقة أما أولى الأمر فلم يقـل وأطيعوا اولى الأمر منكم وذكـرنا حديث عبدالله بن حذافة الـسهمى فى البخارى فى تفـسير هذه الآية عندما جد بهـم السير فقال لهم أنا من أولـى الأمر عليكم فأطيعونى فاجمعوا حطبا وأوقدوا فيه النـار وأدخلوا فيها فهموا أن يدخلوا إلا أنهم قالوا منها فررتم فننتظـرحتى نأتى الرسول ﷺ فقال: «لو دخلتموها ماخـرجتم منها إلى يوم القيامة إنما الطاعة فى المعروف»[4] فالمتبع للعالم عن شهوة فهـى معصية ولكنها مضعفة حيث ضم فيها معصيتين الطاعة فى المعصية والمعصية نفسها.

(١) [ضعيف] أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩) عن عمر به بإسناد فيه ضعف.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٢٥٧).

قال شيخ الإسلام فى الشرح[(١)] : «ثم ذلك المحرم للحلال.. إن كان مجتهداً قصده إتباع الرسول لكن خفى عليه الحق فى نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، **فلهذا لا يؤاخذه الله** بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذى أطاع به ربه.....»

ففى **الحالة الأولى**: مثل قول ابن حزم : بتضعيف حديث المعازف الذى فى «الصحيح»[(٢)] وقال: أنه مرسل أو معلق - إلا أنه ثبت مسنداً عند أبى داود وغيره - وأحل ابن حزم الغناء بناء على أنه ليس هناك حديث عن النبى ﷺ يحرم الغناء واجتهد وأخطأ، ومثل : أبى حنيفة فإنه جوز الزواج من غير ولى فى بعض الصور وهذا ماتتبعه فى مصر والفتاة تتزوج من غير أب. فهنا أبو حنيفة كان قصده اتباع الرسول ﷺ ولم يكن صح عنده حديث **«لانكاح إلا بولى»**[(٣)] ورده بأصول معينة، وضم لذلك **«الثيب أحق بنفسها والبكر تستأمر»**[(٤)].

قال معنى أحق بنفسها: أى ممكن تزوج نفسها. فلو كان الولى شرطاً: لكان فى كل حالة - الثيب والبكر - ولكنه لم يشترطه للثيب فكذلك لم يشترط أن يكون للبكر ولى فهو اجتهد - ما استطع -ولكنه أخطأ فهو مأجور، وليس كافر، أو آثم ولكن يبقى على التابع للمذهب أن يكون له موقف من هذا الرأى الفقهى.

وهو إن علم أنه أخطأ ثم اتبعه وتحول عن قول الرسول وهو يعلم ذلك يقيناً فهذا له نصيب من الشرك الذى ذكره الله فى الآية قال شيخ الإسلام: وعدل عن قول الرسول فهذا له نصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله، لاسيما إن اتبع فى ذلك هواه.

وهذه النصيحة لكل طالب العلم وخاصة هؤلاء المتعصبين لمذاهبهم أو لشيوخ معينين «لهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لايجوز له تقليد أحد فى خلافه»

وهذا مؤدى ما قاله الإمام الشافعى حيث قال :أجمع المسلمون على أنه من استبانت له سنة عن رسول الله ﷺ فلا يحل له أن يتركها لقول أحد من الناس كائناً من كان.

فقول شيخ الإسلام : «إنما تنازعوا فى جواز التقليد للقادر على الاستدلال»

بمعنى أنك قادر على البحث والنظر والاجتهاد فلا يجوز لك التقليد وهذا الكلام ليس لنا فنحن لسنا أهل للنظر والاجتهاد.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٠، ٧١) مختصراً وأنظر فتح المجيد (١/ ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠).

(٢) علقه البخارى (٥٥٩٠) وانظر «بلوغ المرام» - بتخريجنا.

(٣) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٣٩٤)، وأبو داود (٢٠٨٥)، والترمذى (١١٠١)، وابن ماجه (١٨٨١) عن أبى موسى به.

وانظر «السلسبيل» (٢٠٢٠ - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى النكاح (٩/ ٢٠٤ - النووي) عن ابن عباس به.

وانظر «السلسبيل» (٢٠١٤ - بتخريجنا).

ثم قال: «وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذى يعلمه»

فمثال ذلك فى العمل أوالمدرسة أوالمسجد فعالم بالحق ولايستطيع إظهاره لخوف أو لأى سبب آخر مثل أن لايكون عنده حسن بيان، لكن الظاهر من كلام شيخ الإسلام أن يكون العجز سببه الخوف.

فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى - كالنجاشى - فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لايؤاخذ بماعجز عنه - ﴿لايكلف الله..﴾ - وقد أنزل فيهم ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وماأنزل إليكم وما أنزل إليهم﴾ وقال: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع فما عرفوا من الحق﴾. وقوله ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾، وأما إن كان المتبع - الذيل للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل مايقدر عليه من الاجتهاد فى التقليد، فهذا لايؤاخذ إن أخطأ كما فى القبلة..» ما معنى الاجتهاد فى التقليد يعنى جاء وسأل الشيخ فلان عن حاجته فقال افعله فسأل آخر فقال لا تفعله فسأل ثالث فقال يجوز تفعله أولا تفعله وسأل سبعين من العلماء واجتهد على قدر المستطاع فهذا معناه الاجتهاد فى التقليد فهذا لايؤاخذ إن أخطأ كما فى القبلة عندما ضل الصحابة فى تحدد اتجاه القبلة واجتهدوا فأصبحوا وقد صلوا إلى غير القبلة[1].

فالنبى ﷺ لم يؤاخذهم: فأجزأتهم صلاتهم، ولم يأمرهم بالإعادة؛

لأنهم فعلوا ما يقدر عليه مثلهم،وهذا فيه رد على سؤال من يقول أننا إذا كنا لانعمل فى حزبية ولاجماعات ولا طريقة ولكننا سنعمل عمل جماعى لأن النبى نادانا بذلك فمن المفترض أن يكون لهذا العمل منظم أو قائد؟ فالجواب أن المنظم والقائد هو الإمام الأكبر النبى ﷺ لأن هؤلاء الناس تركوا الجماعات وتمسكوا. بجماعة الرسول ﷺ التى أمرنا بلزومها «**عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ**»[2] **ولما قال «تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحده هى ماكانت على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى»**[3] فى هذه الحالة الجماعة هذه زعيمهم النبى ﷺ فلسنا فى حاجة إلى منظم ولامسئول ولا إمام ولا مرشد ولكن لنا مرشد عام للناس كلهم هو النبى ﷺ.

سؤال : فإن قال : أنا لا أعرف كلام النبى ﷺ وأجهله فلابد من واسطة ينقل لى عنه لأننى لست مؤهلا ؟

---

(١) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٤٥)، وابن ماجه (١٠٢٠) عن عبد الله بن عامر به.
وانظر «السلسبيل» (٣٥٦ - بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه.   (٣) تقدم تخريجه.

الجواب : الواسطة هم أهل العلم ولم يخرجوا عن هذه الجماعة التى جاء الحديث بالحض على لزومها فقال : «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»(١) فمن معانى الجماعة أيضاً أنهم أهل العلم فإذن أنت تذهب لأهل العلم وتلزمهم لينقلوا لك عن النبىﷺ.

سؤال فإن **قال**: وأين أهل العلم الآن ؟! فإننى رأيت أهل العلم متحزبين وغالباً ما يكون تبع جماعة كذا أو كذا؟

الجواب: أنك تذهب لكل من عرفت أنه من أهل العلم وتجتهد فى التقليد، وتنظر بغير هوى ولاعصبية، وترى من هو أقرب هؤلاء للحق، فإذا وصلت لهذه المسألة واتبعت أحد العلماء وأخطأت فلا تؤاخذ.

قال شيخ الإسلام : وأما من قلد شخصاً دون نظيره لمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق فهذا من أهل الجاهلية.»

وهذا يبين مدى الوسطية فى الجواب عن السؤال السابق، وهو أن تسأل كل من تسمع عنه أنه من أهل العلم ولاتقول سأسأل فلان دون فلان: لأن معنى ذلك انك فى نفسك عصبية وهوى لمن تسأله طالما أنهم مثل بعض

فكون أن تفرق بين مثليين فهذا مردود عقلا إلا إذا كان عندك سبب شرعى بأن تقول أن هذا أعلم من هذا وهذا خلاف الصورة السابقة.

لهذا قال شيخ الإسلام : «فهذا من أهل الجاهلية»

مثلما انتصر المهاجرى للمهاجرين والأنصارى للأنصار فقال ياللمهاجرين. وقال الآخر: ياللآنصار

وهذا حلف إسلامى سماه الله بذلك وهذا حلف إسلامى سماه الله والرسول بذلك، لكن لماحصل أنهم مالوا للهوى ونصروا باليد واللسان وضربوا بعضهم فهذه جاهلية فقال النبى ﷺ :«**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهر كم ذروها فإنها منتنة ذروها فإنها خبيثة**»(٢) وأنت تشم النتن من هذه العصبية الجاهلية من بعض طلبة العلم الذين تعصبوا لشيوخهم، واتبعوهم من غير علم أنهم معهم الحق أم لا. كما قال الشاعرالجاهلى : أنهم **لايسألون أخاهم إذا دعاهم فى النادبات على ما قال برهاناً**.

كما كان المبدأ الجاهلى السائد : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى انظر تخريجه فى حاشيتنا على شرح الورقات ط نزار الباز.

(٢) تقدم تخريجه.

وربما يقول قائل ما المانع أن شيخى مصيب وأنا اتبعه؟

الجواب : وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً وممكن يسىء لشيخه وينفر الناس منه لأن العصبية العمياء تنفر كثيراً من المعتدلين عن كثير من المشايخ.

وقول شيخ الإسلام «وأن كان متبوعه مخطئاً كان أثماً فمن قال فى القرآن برأيه أخطأ وإن أصاب وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار وهؤلاء من جنس مانعى الزكاة. الذى تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له، وكذلك هؤلاء، فيكون فيهم أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك» .

قلت: وكذلك هؤلاء لما طغى عليهم حب المشايخ والمذهب صاروا فى طاعتهم حتى لوكانت هذه الطاعة فى معصية الله وهم الذين قال الله فيهم «اتخذوا» فهذه هى المحبة الغير شرعية لذلك ناسب أن يذكر الآية التى بعدها ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله**﴾ فأهل السنة مع حبهم للمشايخ فإذا أخطاءوا لم يتبعوهم ولم يؤثموهم ويقروا بمحبتهم مع تخطئتهم

مثل: كلام ابن القيم لأبى إسماعيل الهروى: هو شيخ الإسلام حبيب إلى قلوبنا، ولكن الحق أحب إلينا منه ﴿**والذين أمنوا اشد حباً لله**﴾ فالندية فى الطاعة سببها محبة

واتخاذ الأحبار والرهبان سببه محبة ممقوته وعصبية ممقوته أعمتهم إلا عن طاعة هؤلاء . فتعسوا، والتعاسة هى عدم الوصول للمراد وعدم الوصول لرضا الله، فلا نال مراد ولا أرضى ربه وهذا هو المتعوس، وهؤلا دعى عليهم الرسول ﷺ بعد أن وبخهم بأنهم فى خبث ونتن، ودعى عليهم ألا يشفيهم الله حتى من هذه الشوكة وغير ذلك من الوعيد الذى حصل لهم(بسبب اتخاذهم مشرع من دون الله ووقوعهم من ذلك فى شرك.

قال تعالى : ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ**﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[1].

*** مناسبة الآية للباب:ـ**

قال سليمان آل الشيخ[2]:ـ من الأمور المبينة لتفسير التوحيد «وشهادة أن لا إله إلا الله، آية البقرة فى الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ وذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم فى الإسلام، فكيف بمن أحب الند حباً أكبر من حب الله؟!.

فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟!.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ- : مراده أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، هو إفراد الله بأصل الحب الذى يستلزم إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وعلى قدر التفاضل فى هذا الأصل. وما ينبنى عليه من الأعمال الصالحة يكون تفاضل الإيمان والجزاء عليه فى الآخرة.

فمن أشرك بالله تعالى فى ذلك فهو المشرك، لهذه الآية: أخبر تعالى عن أهل هذا الشرك أنهم يقولون لألهتهم فى الجحيم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ومعلوم أنهم ما ساووهم به فى الخلق والرزق والملك، «إنما ساووهم به فى المحبة والإلهية والتعظيم والطاعة.

فمن قال لا إله إلا الله وهو مشرك بالله فى هذه المحبة، فما قالها حق القول وإن نطق بها، إذ هو قد خالفها بالعمل، كما قال المصنف فكيف بمن أحب الند حباً أكبر من حب الله؟ وسيأتى الكلام على هذه الآية فى بابها إن شاء الله تعالى أهـ.

قال عبدالله بن جار الله[3]: أنّ من أشرك مع الله غيره فى المحبة فقد جعله شريكاً لله فى العبادة وذلك هو الشرك الأكبر الذى لايغفره الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

قال ابن عثيمين[4]: الشاهد من هذه الآية أن الله جعل هؤلاء الذين سووا محبة الله بمحبة غيره مشركين جاعلين لله أنداداً. أهـ.

---

(١) البقرة : ١٦٥.
(٢) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٥).
(٣) «الجامع الفريد» (٣٥).
(٤) «القول المفيد» (١/ ١٩٤)

وقال القرعاوى[1]: حيث دلّت الآية على أنّ معنـى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هو إفراد الله بأصل الحبّ الذى يستلزم إخلاص العبادة جميعاً لله. أهـ.

*** مناسبة الآية للتوحيد:**

قال الفخر الرازى[2]: اعلم أنه سبحـانه وتعالى لما قرر التوحيد بـالدلائل القاهرة القاطعة أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد لأن تقبيح ضد الشىء مما يؤكد حسن الشىء ولذلك قال الشاعر: **وبضدها تبين الأشياء.**

وقالوا أيضا: **النعمة مجهولة. فإذا فقدت عرفت،** والناس لايعرفون قدر الصحة، فإذا مرضـوا ثم عادة الصحة إلـيهم عرفو قدرهـا. وكذا القول فى جـميع النعم، فـلهذا السبب أردف الله تعالى الآية الدالة على التوحيد بهذه الآية. أهـ.

قلت: وبهذا يظهر مناسبة الآية للتوحيد وهى تبينه بضده كما تقدم.

*** مناسبة الآية للتى قبلها:** أن أصل كلمة الرهبان والأحبار مـحبتهم كما سيأتى عن السدى وغيره بمعناه.

*** الإعراب[3]:**

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾.

الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لـبيان أن بعض الناس لم يعتقد الوحدانية بعد أن ثبت بالدليل القاطع، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. أهـ.

قوله: ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾.

﴿مَن﴾ اسم موصول فى محل رفع مبتدأ مؤخر، أو نكرة موصوفة فى محل رفع مبتدأ مؤخر **﴿يَتَّخِذُ﴾** الجملة الفعلـية لامحل لها؛ لأنها صلة الموصول أو صـفة لـ«مَن» وفاعل يتخذ ضمير مستتر تقديره هو يعود على لفظ مَنْ. أهـ.

قوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بيتخذ **﴿أَندَادًا﴾** مفعول به أ.هـ.

* * * *

قوله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾**

- روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال: قلت يارسول الله أى الذنب أعظم؟ قال **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[4].

---

(1) الجديد (٧٧).
(2) الفخر الرازى (٢/ ٣/ ٢٢٦).
(3) الإعراب (١/ ٢٣٠).
(4) تقدم تخريجه.

قال ابن جرير[١]: الند: العدل، والمثل، كما قال حسان بن ثابت:

أتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء

وعن مجاهد: ﴿أَندَادًا﴾ عدلاء[٢].

وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله[٣].

وعن ابن زيد: الآلهة التي جعلوها معه، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له[٤].

وعن ابن عباس: أشباها[٥].

وعن عكرمة: شريكا[٦]. أهـ.

وعن عكرمة أيضاً ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ أي شركاء[٦].

وزاد ابن أبي حاتم في تفسيره: بسنده عن أبي العالية: ﴿أَندَادًا﴾ أوثاناً[٧].

وبسنده عن أبي مالك: شركاء. أهـ.

وقال البغوي[٨]: ﴿أَندَادًا﴾ أي أصناماً يعبدونها. ا.هـ.

وقال الفخر الرازي[٩]: واختلفوا في المراد بالأنداد على أقوال.

أحدها أنها هي **الأوثان** التي اتخذوها آلهة لتقربهم إلى الله زلفى، ورجوا من عندها النفع والضر. وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور، وقربوا لها القرابين، وهو قول أكثر المفسرين.

وعلى هذا الأصنام أنداداً بعضها لبعض، أي أمثال ليس إنها أندادا لله، أو المعنى: إنها أنداد لله تعالى بحسب ظنونهم الفاسدة.

(١) تفسير الطبري» (١/١/١٢٦، ١٢٧)، (٢/٢/٤٠)

(٢) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق. وذكره السيوطي في «الدر» (١/٧٧) وزاد نسبته لوكيع، وعبد بن حميد.

(٣) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق. وذكره السيوطي في «الدر» (١/٧٦) وانظر «فتح القدير» (٣٢٣ ـ بتخريجنا).

(٤) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق. وذكره السيوطي في «الدر» (١/٧٦) وزاد نسبته لابن أبي حاتم، وانظر «فتح القدير» (٣٢٢).

(٦) أخرجه ابن جرير (٢/٤٠) وذكره السيوطي في «الدر» (١/٣٠٤) ونسبه لعبد بن حميد.

(٧) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٧٦).

(٨) «معالم التنزيل» (١/١٩١).

(٩) «التفسير الكبير» (٢/٤/٢٢٦، ٢٢٧).

(وثانيها) إنهم السادة الذين كانوا يطيعونهم فيحلون لمكان طاعتهم ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، وهو قول عن السدى.

والقائلون بهذا القول رجحوا هذا القول على الأول من وجوه:

(الأول) أن قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الهاء والميم فيه ضمير العقلاء.

(الثانى) أنه يبعد أنهم كانوا يحبون الأصنام كمحبتهم الله تعالى مع علمهم بأنها لاتضر ولاتنفع.

(الثالث) أن الله تعالى ذكر بعد هذه الآية ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا...﴾ وذلك لايليق إلا بمن اتخذ الرجال أنداداً وأمثالا لله تعالى، يلتزمون من تعظيمهم والانقياد لهم، ما يلتزمه المؤمنون من الانقياد لله تعالى.

القول الثالث: فى تفسير الأنداد قول الصوفية والعارفين، وهو أن كل شىء شغلت قلبك به سوى الله تعالى، فقد جعلته فى قلبك نداً لله تعالى وهو المراد من قوله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أهـ.

*** خلاصة ما جاء فى الأنداد:**

[قلت]: اختلف اختلاف تنوع فى المراد بالأنداد على ثمانية أقوال، وهى:

(١) عدلاء (٢) الآلهة (٣) أشباهاً (٤) شركاء

(٥) أوثاناً (٦) أصناماً (٧) سادة (٨) كل ما يشغل عن القلب سوى الله.

وتقدم ذكر من قال بذلك ولا يبعد أن يكون الجميع مراد من الآية. والله أعلم.

*** فائدة(١):**

﴿دُونِ﴾ ظرف للمكان وهو نقيض فوق، نحو هو دونه أى أحط منه رتبة أو منزلة، ويأتى بمعنى أمام نحو: الشىء دونك أى أمامك، وبمعنى وراء نحو: قعد دون الصف. أى وراءه، وقد يأتى بمعنى ردىء وخسيس فلايكون ظرفاً، نحو: هذا شىء دون، وهو حينئذ يتصرف فى وجوه الإعراب. ويأتى بمعنى غير كما فى الآية، وأكثر ما يستعمل حينئذ مجروراً بمن. أهـ.

قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به والجملة الفعلية صفة لأنداداً أو

(١) «إعراب القرآن» (١/ ٢٣١).

حال من الضمير المستكن فى يتخذ ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الكاف ومجرورها فى موضع نصب صفة لمصدر محذوف فهو مفعول مطلق ويجوز الإعراب حالاًوقد رجحه سيبويه والمصدر مضاف إلى مفعوله(١).

قال ابن جرير(٢): وإن الذين اتخذوا هذه الأنداد من دون الله يحبون أندادهم كحب المؤمنين الله. أهـ.

وعن عكرمة ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أى يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله(٣).

وعن قتادة فى قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال: يحبون أوثانهم كحب الله(٤).

وعن مجاهد: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد(٥).

وعن الربيع: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ هى الآلهة التى تعبد من دون الله يقول: يحبون أوثانهم كحب الله(٦).

وعن ابن زيد: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال: هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله(٧).

وعن السدى: يطيعونهم كما يطيعون الله، إذا أمروهم أطاعوهم وعصوا الله(٨).

وعن أبى العالية: يحبون الأوثان كحب الله، أى كحب الذين آمنوا ربهم(٩).

وقال البغوى(١٠): قال الزجاج: يحبون الأصنام كما يحبون الله؛ لأنهم أشركوها مع الله، فسوى بين الله وبين أوثانهم فى المحبة.

وقال ابن الجوزى(١١): وفى قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قولان:

أحدهما: أن معناه: يحبونهم كحب الذين آمنوا لله، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وأبى العالية، وابن زيد، ومقاتل، والفراء.

والثانى: يحبونهم كمحبتهم لله، أى: يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى فى المحبة،

---

(١) «إعراب القرآن» (١/ ٢٣٠).
(٢) «ابن جرير» (٢/ ٤٠).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد.
(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.
(٧) تقدم تخريجه.
(٨) أخرجه ابن جرير فى تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٣) ونسبه إليه.
(٩) «ابن أبى حاتم فى تفسيره» (١/ ٢٧٦)..
(١٠) «معالم التنزيل» (١/ ١٩٢).
(١١) «زاد المسير» (١/ ٢٤٧).

هذا اختيار الزجاج، قال: والقول الأول ليس بشيء، والدليل على نقضه قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ قال المفسرون: أشد حباً لله من أهل الأوثان لأوثانهم.

* * *

إشكال:

قال ابن جرير(١): «فإن قال قائل: وكيف قيل: كحب الله؟ وهل يحب الله الأنداد؟ وهل كان متخذوا الأنداد يحبون الله؟

فيقال يحبونهم كحب الله قيل أن معنى ذلك بخلاف ماذهبت إليه وإنما نظير ذلك قول القائل: بعت غلامي كبيع غلامك، بمعنى بعته كما بيع غلامك وكبيعك غلامك واستوفيت حقي منه استيفاء حقك بمعنى استيفائك حقك فتحذف من الثاني كتابة اسم المخاطب اكتفاء بكنايته في الغلام والحق كما قال الشاعر:

فلست مسلمًا ما دمت حيا على زيد بتسليم الأمير

يعني بذلك كما يسلم على الأمير فمعنى الكلام إذًا: ومن الناس من يتخذ أيها المؤمنون من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله اهـ.

قال الرازي(٢): فإن قيل: العاقل يستحيل أن يكون حبه للأوثان كحبه لله، وذلك لأنه بضرورة العقل علم أن هذه الأوثان أحجار لاتضر، ولاتسمع، ولاتبصر ولاتعقل، وكانوا مقرين بأن لهذا العالم صانعاً مدبراً حكيماً ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ومع هذا الاعتقاد كيف يعقل أن يكون حبهم لتلك الأوثان كحبهم لله تعالى.

وأيضاً فإن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ وإذا كان كذلك، كان المقصود الأصلي طلب مرضات الله تعالى، فكيف يعقل الإستواء مع هذا القول؟.

الجواب: قلنا قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي في الطاعة لها والتعظيم لها، فالإستواء على هذا القول في المحبة لاينافي ما ذكرتموه. اهـ.

قال الفخر الرازي(٣): أما قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فاعلم أنه ليس المراد محبة ذاتهم فلابد من محذوف، والمراد: يحبون عادتهم أو التقرب إليهم والإنقياد لهم، أو جميع ذلك.

---

(١) ابن جرير (٢/ ٤٠)

(٢) التفسير الكبير (٢/ ٤/ ٢٢٧، ٢٢٨)

وقوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فيه ثلاث أقوال:

قيل: فيهم كحبهم الله، وقيل فيه: كالحب اللازم عليهم لله، وقيل فيه: كحب المؤمنين لله.

وإنما اختلفوا هذا الاختلاف من حيث إنهم اختلفوا فى أنهم هل كانوا يعرفون الله أم لا؟

فمن قال: كانوا يعرفون مع اتخاذهم الأنداد تأول على أن المراد كحبهم لله.

ومن قال: إنهم كانوا عارفين بربهم حمل الآية على أحد الوجهين الباقيين إما كالحب اللازم لهم أو كحب المؤمنين لله.

والقول الأول أقرب لأن قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ راجع إلى الناس الذين تقدم ذكرهم.

وظاهر قوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ يقتضى حباً لله ثابتًا فيهم، فكأنه تعالى بين فى الآية السالفة أن الإله واحد، ونبه على دلائله، ثم حكى قوله من يشرك معه، وذلك يقتضى كونهم مقربين بالله تعالى. أهـ.

*** خلاصة القول فى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾**

قال الفقير:

(١) يحبونهم كما يحب المؤمنون الله.

(٢) أو يحبون الأنداد كما يحبون الله.

(٣) مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد.

(٤) يطيعون أندادهم إذا أمروهم ويعصون الله.

(٥) يسوون بين محبة الأنداد ومحبة الله.

* * *

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

الإعراب[١]: ﴿وَالَّذِينَ﴾ الواو استئنافية أو حالية واسم الموصول مبتدأ ﴿آمَنُوا﴾ فعل وفاعله. والجملة صلة الموصول ﴿أَشَدُّ﴾ خبر الموصول ﴿حُبًّا﴾ تمييز ﴿لِلَّهِ﴾ الجار والمجرور متعلقان بحباً. أهـ.

أخرج ابن جرير: بسنده عن مجاهد: فى قوله تعالى ذكره: يحبونهم كحب الله مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد والذين آمنوا أشد حباً لله من الكفار لأوثانهم[٢].

---

(١) «إعراب القرآن» (١/ ٢٣٠).

(٢) «تفسير الطبرى» (١/ ٢/ ٤٠) .وتقدم

وبسنده عن الربيع فى قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال: هى الآلهـة التى تعبد من دون الله يقـول يحبون أوثانهم كـحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله من الكفار لأوثانهم(١).

وبسنده عن ابن وهب: قال: قال ابن زيد فى قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال: هؤلاء المشركـون أندادهم آلهتهم التـى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله والذين آمنوا أشد حبًا لله تعالى ذكره(٢).

وكذا أخرج هذه الآثار ابن أبى حاتم(٣).

قال البغوى(٤): قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾. أى أثبت وأدوم عـلى حبه من المشركين لأنـهم لايختارون على الله ما سواه. والمشركون إذا اتـخذوا صنماً ثم رأوا أحسن منه طرحوا الأول واختاروا الثانى.

قال قتادة: إن الكافر يـعرض عن معبوده فى وقت البلاء ويقبل عـلى الله تعالى كما أخبر الله عزوجل عنهم فقال﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

والمؤمن لايعرض عن الله فى السراء والضراء والشدة والرخاء.

قال سعيد بن جبيـر إن الله عزوجل يأمر يوم القيامة من أحرق نفسـه فى الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهـنم مع أصنامهم فلايدخلون، لعلمـهم أن عذاب جهنم على الدوام. ثم يـقول للمؤمـنين وهم بيـن أيدى الكفـار إن كنتم أحبـائى فادخلوا جـهنم فيقتحمون فيها فينادى مناد من تحت العرش ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

وقيل إنما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأن الله تعالـى أحبهم أولاً ثـم أحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ أ.هـ.

وقال الفخر الرازى(٥): فى بيان أن الذيـن آمنوا هم أشد حباً لله، أما المـتكلمون فقالوا: إن حبهم لله يكون من وجهين.

(أحدهما) أنه ما يصـدر منهم من التـعظيم، والمدح، والثـناء والعبادة خالـصة عن الشرك وعما لاينبغى من الاعتقاد ومحبة غيرهم ليست كذلك.

---

(١) تقدم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «وابن أبى حاتم» (١/ ٢٧٦).

(٤) «معالم التنزيل» (١/ ١٩٢).

(٥) «التفسير الكبير» (٢/ ٤/ ٢٣١).

(والثانى) إن حبهم لله اقترن به الرجاء والثواب والرغبة فى عظيم منزلته والخوف من العقاب والأخـذ فى طريق التخلـص منه، ومن يعبـد الله ويعظمه على هـذا الحد تكون محبته أشد، وأما العارفون فقالوا المؤمنون هـم الذين عرفوا الله بقدر الطاقة البشرية، وقد دللنا على أن الحب من لـوازم العرفان فكلما كان عرفانهم أتم وجب أن تـكون محبتهم أشد فإن قيـل: كيف يمكن أن يقـال محبة المؤمنيـن لله تعالى أشد مع أنا نـرى الهنود يأتون بطاعات شاقة لايـأتى بشىء منها أحد من المسلمين ولايـأتون بها إلا لله تعالى ثم يقتلون أنفسهم حباً لله.

(والجواب) من وجوه.

(أحدها) أن الذين آمنوا لايتضرعون إلا إلى الله بخلاف المشركين فإنهم يعدلون إلى الله عند الحاجة، وعند زوال الحاجة، يرجعون إلى الأنداد، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إلى آخره، والمـؤمن لايعرض عن الله فـى الضراء والسراء والشدة والرخاء، والكافر قد يعرض عن ربه، فكان حب المؤمن أقوى.

(وثانيها) أن من أحب غيـره رضى بقضائه، فلايتـصرف فى ملكه، فأولـئك الجهال قتلوا أنفسهم بغير إذنه، أما المؤمنون فقد يقتلون أنفسهم بإذنه، وذلك فى الجهاد.

(وثالثها) أن الإنسان إذا ابـتلى بالعذاب الـشديد لايمكـنه الاشتغال بمعـرفة الرب، فالذى فعلوه باطل.

(ورابعها) قال ابن عباس: إن المشـركين كانوا يعبدون صنماً، فـإذا رأوا شيئاً أحسن منه تركوا ذلك وأقبلوا على عبادة الأحسن.

(وخامسها) أن المؤمنين يوحدون ربـهم، والكفار يعبدون مع الصنم أصـناماً فتنقص محبة الواحد، أما الإله الواحد فتنضم محبة الجميع إليه اهـ.

وقال القرطبى[1]: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، وإنما قال ذلك لأن الله أحـبهم، أو لأنهم أحبوه، ومـن شهد له محبوبه بـالحب كانت محبته أتم قـال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. أهـ.

قال ابن كثير:[2] قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾. ولحبهم لله وتمام معرفتهم به

---

(١) «تفسير القرطبى» (١/ ٥٨٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩٢).

وتوقيرهم وتوحيدهم لـه لايشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده ويتوكـلون عليه ويلجأون في جميع أمورهم إليه. ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أهـ.

قال الشوكاني(١): أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد بل أحبوها حباً عـظيماً، وأفرطوا فـي ذلك إفراطاً بالـغاً، حتى صار حـبهم لهذه الأوثان ونـحوها متمكنًـا في صدورهم. كتمكن حب المـؤمنين لله سبحانه، فالمـصدر في قوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ مضاف إلى المـفعول، والفاعل محـذوف وهو: المؤمنون، ويجـوز أن يكون المراد: كحبهم لله، أي عبدة الأوثان، قاله ابن كيسان، والزجاج.

ويجوز أن يكون هذا المصدر من المبني للمجهول، أي كما يحب الله. والأولى أولى، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، فإنه استدراك لما يفيده التشبيه من التساوي، أي أن حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد؛ لأن المؤمنين يخصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء، والكفار لايخصون أصنامهم بذلك، بـل يشركون الله معهم، ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله.

ويمكن أن يجعل هذا، أعني قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ دليلاً على الثاني؛ لأن المؤمنـين إذا كانوا أشد حبًـا لله لم يكن حب الـكفار للأنداد كحب المـؤمنين لله، وقيل: المراد بالأنداد هنا: الرؤساء، أي يطيعونهم في معاصي الله، ويقوي هذا الضمير في قلوبهم: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ فإنه لم يـعقل، ويقويه أيضـاً قوله سبحانـه عقب ذلك: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ الآية. أهـ.

قال ناصر السعدي(٢): فإنه تعالى، لما بين وحدانيته وأدلـتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك.

ذكر هنا أن ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ لله أي: نظراء ومثلاء، يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة ـ بعد إقامة الحجة، وبيـان التوحيد ـ عُلِمَ أنه معاند لله، مشاق

---

(١) «فتح القدير» (١/ ٢٣٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ١١٠).

له. أو معرض عن تدبير آياته والتفكير فـى مخلوقاته، فليس له أدنى عذر فى ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخـذون الأنداد مع الله، لايسوونهم بالله فى الخلـق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به، فى العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه.

وفى قوله: «اتخذوا» دليل على أنه ليس لله ند.

وإنما المشركـون جعلوا بعض المخـلوقات أنداداً له، تسمـية مجردة، ولفظـاً فارغاً من المعنى. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾. ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾.

فالمخلوق ليـس نداً لله لأن الله هو الخالق، وغيره مخلـوق، والرب هو الرازق. ومن عداه مرزوق، والله هو الغنى وأنتم الفقراء.

وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه.

والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء.

فعلم علماً يقيناً، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً.

سواء كان ملكاً أو نبياً، أو صالحاً، أو صنماً، أو غير ذلك.

وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام.

فلهذا مدح الله المؤمـنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أى: من أهـل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها.

ولأنهم أحبـوا من يستحق المحبـة على الحقيقة، الذى مـحبته هى عين صـلاح العبد وسعادته وفوزه.

والمشركون أحبوا من لا يسـتحق من الحب شيئاً، ومحبته عين شـقاء العبد وفساده، وتشتت أمره. أ. هـ.

❊ ❊ ❊

* ما جاء في الآية من كلام الشراح:

قال عبدالرحمن بن حسن ال الشيخ[1]:

فكل من اتخذ نداً لله يدعوه من دون الله ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه من قضاء حاجاته وتفريج كرباته - كحال عباد القبور والطواغيت والأصنام فلابد أن يعظموهم ويحبوهم لذلك، فإنهم أحبوهم مع الله. وإن كانوا يحبون الله تعالى ويقولون «لا إله إلاالله» ويصلون ويصومون، فقد أشركوا بالله في المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره. فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه، لأن المشرك لايقبل منه عمل، ولايصح منه. وهؤلاء وإن قالوا: «لا إله إلا الله» فقد تركوا كل قيد قيدت به هذه الكلمة العظيمة: من العلم بمدلولها لأن المشرك جاهل بمعناها. ومن جهله بمعناها جعل لله شريكاً في المحبة وغيرها وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الإخلاص، ولم يكن صادقاً في قولها، لأنه لم ينف ما نفته من الشرك ولم يثبت ما أثبته من الإخلاص، وترك اليقين أيضا؟ لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أوشك فيه، ولم يقبله وهو الحق، ولم يكفر بما يعبد من دون الله، كما في الحديث بل آمن بما يعبد من دون الله باتخذاه الندّ ومحبته له وعبادته إيّاه من دون الله كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعاً لله ويكفرون بما عبد من دون الله.

فبهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله وعلى التوحيد الذى هو معناها الذى دعا إليه جميع المرسلين فتدبر. أهـ.

- **قال حامد بن محمد[2]:** في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ الآية: **قال ابن تيمية**: أي في المحبة فإذا عرفت من ساوى مع الله غيره في المحبة أشرك الشرك الأكبر، فكيف بمن رجح محبة الند على الله تعالى؟!

بل وكيف بمن أقبل بكليته على غيره قلبًا وقالباً؟! .

بمعنى أنه يعظم أوامر الند، وحرماته أشد تعظيماً إذا هتك حرمة من حرمات الند غضب غضب الليث، وأحمرت وجنته، وانتفخت أوداجه، وقام وقعد فيه، وإن هتك حرمة من حرمات الله لم يرفع به رأساً، بل يثبط غيره عن القيام فيه. أهـ.

(١) «فتح المجيد» (١/١٢٣، ١٢٤)

(٢) «فتح الله الحميد المجيد» (١٩٣)

ـ **قال عبدالله بن جارالله**[1]:

يذكر الله تعالى حال المشركين فى الدنيا وما لهم فى الآخرة من العذاب والنكال حيث جعلوا لله مثالاً ونظراء ويساوونهم بالله فى المحبة والتعظيم. اهـ

ـ **قال ابن باز**[2]:

هذا أيضاً من تفسير التوحيد بضده وهو عن الذين يتخذون أنداداً يحبهم ويعظمهم ويدعوهم ويتغيث بهم أو يحبهم حباً خاصاً يقتضى عبادتهم من دون الله هذا هو الشرك الأكبر، والله ذم هؤلاء وتوعدهم بالنار كما فى آخر الآيات ﴿**كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾. اهـ.

ـ **وقال ابن عثيمين**[3]: اختلف المفسرون فى قوله ﴿**كَحُبِّ اللَّهِ**﴾.

ورجح القول الأول وهو : يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة الله، فيكون فى قلوبهم محبة لله، ومحبة للأصنام، ثم قال: وسياق هذه الآية يرجح القول الأول.

ثم قال: فإن محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسهم الضر، فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبة الله؟! وما بالك برجل يحب غير الله ولايحب الله؟! فهذا أقبح وأعظم.

وهذا موجود فى كثير من المنتسبين للإسلام اليوم؛ فإنَّهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله، ولهذا لو قيل له: أحلف بالله؛ حلف صادقاً أو كاذباً، أمَّا الولىّ؛ فلايحلف به إلا صادقاً.

وتجد كثيراً منهم يأتون إلى مكة والمدينة ويرون أنَّ زيارة قبر الرسول ﷺ أعْظم من زيارة البيت؛ لأنَّهم يجدون فى نفوسهم حباً لرسول الله ﷺ كحبٍّ الله أو أعظم، وهذا شرك؛ لأن الله يعلم أننا ما أحببنا رسول الله ﷺ إلا لحب الله، ولأنَّه رسول الله، ما أحببناه لأنَّه محمد بن عبدالله، لكننا أحببناه لأنَّه رسول الله ﷺ؛ فنحن نحبه بمحبة الله، لكن هؤلاء يجعلون محبة الله تابعة لمحبة الرسول ﷺ إن أحبوا الله.

فهذه الآية فيها محنة عظيمة لكثير من قلوب المسلمين اليوم الذين يجعلون غير الله مثل الله فى المحبة.

(١) الجامع الفريد (٣٤).

(٢) التعليق المفيد (٥٨)

(٣) القول المفيد (١/ ١٩٠ ـ ١٩٦).

وفيه أناس أيضاً أشركوا بالله في محبة غيره، لا على وجه العبادة الشرعية؛ لكن على وجه العبادة المذكورة في الحديث، وهي محبة الدرهم والدينار والخميصة والخميلة، يوجد أناس لو فتشت عن قلوبهم، لوجدت قلوبهم ملأى من محبة متاع الدنيا، وحتى هذا الذي جاء يصلي هو في المسجد لكن قلبه مشغول بما يحبه من أمور الدنيا.

فهذا نوع من أنواع العبادة في الحقيقة، ولو حاسب الإنسان نفسه لماذا خُلِق؟

خلق لعبادة الله، وأيضاً خُلِقَ لدار أخرى ليست هذه الدار؛ فهذه الدار مجاز يجوز الإنسان منها إلى الدار الأخرى، الدار التي خُلِقَ لها والتي يجب أن يُعتنى بالعمل لها، يا ليت شعري متى يوماً من الأيام فكَّر الإنسان ماذا عملت؟

وكم بقي لي في هذه الدنيا؟

وماذا كسبت؟

الأيام تمضي ولا أدري هل ازددت قرباً من الله أو بعداً من الله؟

هل نحاسب أنفسنا عن هذا الأمر؟

فلابدّ لكل إنسان عاقل من غاية؛ فما هي غايته؟

نحن الآن نطلب العلم للتقرّب إلى الله بطلبه، وإعلام أنفسنا، وإعلام غيرنا؛ فهل نحن كلما علمنا مسألة من المسائل طبقناها؟ نحن على كل حال نجد في أنفسنا قصوراً كثيراً وتقصيراً، وهل نحن إذا علمنا مسألة ندعوا عباد الله إليها؟

هذا أمر يحتاج إلى محاسبة، ولذلك؛ فإن على طالب العلم ضريبة ليست هيِّنة، عليه أكثر من زكاة المال؛ فيجب أن يعمل ويتحرَّك ويبث العلم والوعي في الأمة الإسلامية، وإلاَّ؛ انحرفت عن شرع الله.

وقال ابن القيم رحمه الله: كل الأمور تسير بالمحبة؛ فأنت مثلاً لا تتحرك لشيء إلا وأنت تحبه، حتى اللقمة من الطعام لاتأكلها إلا لمحبتك لها.

ولهذا قيل: إنَّ جميع الحركات مبناها على المحبة؛ فالمحبة أساس العمل، فالإشراك بالمحبة إشراك بالله.

*** والمحبة أنواع:**

الأول: المحبة لله، وهذه لاتنافي التوحيد، بل هي من كماله، فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله.

والمحبة لله هي أن تحب هذا الشيء؛ لأن الله يحبه، سواء كان شخصاً أو عملاً، وهذا من تمام التوحيد.

قال مجنون ليلى:

أمر على الديار ديار ليلى أقبِّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

الثاني: المحبة الطبيعية التي لايؤثرها المرء على محبة الله؛ فهذه لا تنافي محبة الله؛ كمحبة الزوجة، والولد، والمال، ولهذا لما سئل النبي ﷺ: من أحبّ الناس إليك؟ قال: «**عائشة**». قيل: فمن الرجال؟ قال: «**أبوها**»(١).

ومن ذلك محبة الطعام والشراب واللباس.

الثالث: المحبة مع الله التي تنافي محبة الله كمحبة الله وهي أن تكون محبة غير الله كمحبة الله أو أكثر من محبة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله ومحبة غيره قدّم محبة غير الله، وذلك إذا جعل هذه المحبة نداً لله يقدمها على محبة الله أو يساويها بها(٢). اهـ.

قال ابن رجب: والمحبة منتهى القربة والاجتهاد ولن يسأم المحبون من طول اجتهادهم لله تعالى يحبونه ويحبون ذكره ويحبّبونه إلى خلقه، يمشون بين عباده بالنصائح ويخافون عليهم من أعمال يوم القيامة يوم تبدو الفضائح، أولئك أولياؤه وأحباؤه وأهل صفوته، أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه.

وقال فتح الموصلي: المحبّ لا يجد مع حبّ الله للدنيا لذة ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين.

وقال محمد بن النضر الحارثي: ما يكاد يملّ القربة إلى الله تعالى محبّ لله وما يكاد يسأم من ذلك.

وقال بعضهم: المحبّ لله طائر القلب كثير الذكر متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دأبًا وشوقًا.

وأنشد بعضهم:

وكن لربك ذا حب لتخدمه إن المحبين للأحباب خدامُ

وأنشد آخر:

ما للمحبِّ سوى إرادة حبِّه إن المحبَّ بكلِّ حالٍ يصرعُ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٦٦٢) ومسلم في الفضائل (٨/١٦٢/٨) عن عمرو بن العاص به.

(٢) انظر ما سبق من أقوال المفسرين في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾.

قال الفقير: وقد قسمت المحبة لدى بعض أهل العلم إلى تقسيم آخر:

روى البخارى أن عمر بن الخطاب قال: يارسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا نفسى فقال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك قال: والذى بعثك بالحق لأنت أحب إلى من نفسى قال: الآن ياعمر»[1].

(١) محبة الله: لاتكفى وحدها للنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه. لأن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يزعمون أنهم يحبون الله. وكذبهم الله حيث قال:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾

(٢) محبة ما يحب الله: وهذه هى التى تدخله فى الإسلام وتخرجه من الكفر.

(٣) الحب لله وفى الله: وهى من لوازم محبة ما يحب.

(٤) المحبة مع الله: «المحبة الشركية».

كل من أحب شيئاً مع الله لا لله ولا من أجله ولافيه فقد أتخذه نداً من دون الله وهذه محبة المشركين.

(٥) المحبة الطبيعية: محبة العطشان للماء. محبة النوم والزوجة والولد. لاتذم إلا إذا ألهت عن ذكر الله وشغلت عن محبته.

لما سأل إبراهيم عليه السلام ربه الولد فأعطاه وتعلق حبه بقلبه؛ غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره فأمره بذبحه.

وكان الأمر فى المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً، ولم يكن المقصود ذبح الولد ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب.

فلما بادر الخليل إلى الامتثال وقدم محبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح وفدى الولد بذبح عظيم وبقيت شريعة الفداء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فهذه الآية دالة على نوع من أنواع التوحيد وهو:

لايمكن أن يجتمع فى القلب حب المحبوب الأعلى وحب غيره بل هما ضدان لايتلاقيان. بل لابد أن يفارق أحدهما قلب صاحبه.

فمن كانت قوة محبته كلها للمحبوب الأعلى صرفه ذلك عن محبة ما سواه، فإن أحب ما سواه لم يحبه إلا لأجله أو لكونه وسيلة إلى محبته لأن المحبة الصادقة تقتضى

---

(١) **[صحيح]** أخرجه البخارى (٦٦٣٢).

توحيد المحبوب وأن لايشرك بينه وبين غيره فى محبته ولهذا لايغفر الله سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وخاصية التعبد: الحب مع الخضوع والذل للمحبوب.

كيف يحبك الله؟

أخبر الله تعالى أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب إليه المتقربون، ثم بعدها النوافل، وأن المحب إذا أكثر النوافل يصير محبوبًا لله ففى صحيح البخارى. عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله قال: من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه، الذى يسمع به،وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مَسَاءَته**»(١).

ففى قوله (به): الباء هنا للمصاحبة أى أن يسمع ويبصر ويبطش ويمشى وأنا صاحبه معه. كقوله فى الحديث «**أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه**»(٢) وهذه هى المعية الخاصة فى قوله تعالى: ﴿**لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾.

يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما فى الغار فى تفسير الآية: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾.

(١) متابعة الرسول ﷺ: قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾.

(٢) كثرة تلاوة القرآن:

قال ابن رجب: من أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٥٠٢).
وانظر «جامع العلوم» بتخريجنا (٢/ ٦٣٥).

(٢) تقدم تخريجه

قال خبـاب بن الأرتّ لرجل: تـقرّب إليالله تعـالى ما استـطعت، واعلـم أنك لن تتقرب إليه بشىء هو أحب إليه من كلامه.

وفى الترمذى عن أبـى أمامة مرفوعًا: «ما تقـرب العبد إلى الله تـعالى بمثـل ما خرج منه»(١) يعنى القرآن ، لا شىء عـند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، فـهو لذّة قلوبهم وغاية مطلوبهم.

قال عثمان: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم» .

وقال ابن مسعود: «من أحب القرآن أحب الله ورسوله».

قال بعـض العارفين لمـريد: أتحفظ القـرآن ؟ قال: لا، قال: واغوثاه بـالله لمريد لا يحفظ القرآن فـبم يتنعم؟ فبم يترنم؟ فبـم يناجى ربه تعالى ؟ كان بعضـهم يكثر تلاوة القرآن ثم اشتغل عنه بغيره فرأى فى المنام قائلاً يقول له:

إن كنت تزعم حبى فلم جفوت كتابى
أما تأمـلت مـا فـيه من لطيف عتابى.

(٣) الصلاة:

وأعظم فرائض البدن التى تقرّب إليه الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ .

وقال النبى ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»(٢) .

وقال: «**إذا كان أحدكم يصلى فإنما يناجى ربه، وربه بينه وبين القبلة**»(٣).

وقال: «**إن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت**»(٤).

(٤) عدل الراعى فى رعيته:

ومن الفرائض المـقربة إلى الله تعالى عدل الـراعى فى رعيته سواء كانـت رعية عامة

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٦٨)، والترمذى (٢٩١١) بإسناد ضعيف لضعف ليث بن أبى سُليم.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصلاة (٤/ ٢٠٠- النووى)، عن أبى هريرة.
وانظر «رياض الصالحين» (١٤٣١ ـ بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (١٢١٤) ، وأحمد (٣/ ١٧٦)، وابن حبان فى «صحيحه» (٤/ ١٧/ ح٢٢٦٤- الإحسان)، والبيهقى فى «السنن» عن (٢/ ٢٩٢) أنس بن مالك.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ١٧٢)، والترمذى (٩٠٩) ، والنسائى فى «الكبرى» (١١١٨) عن أبى ذر به. وأصله عند البخارى عن أبى هريرة: إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه فإنما يناجى الله ما دام فى مصلاه.. الحديث.

كالحاكم أو خاصة كعدل آحاد الناس في أهله وولده، كما قال ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**(1).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: **«إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»**(2).

وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إن أحب العباد إلى الله يوم القيامة وأدناهم إليه مجلسًا إمام عادل»(3).

(٥) كثرة ذكر الله تعالى:

قال ابن رجب: ومن ذلك كثرة ذكر الله الذي يتواطأ عليه القلب واللسان.

وفي مسند البزار عن معاذ قال: «قلت: يا رسول الله أخبرني بأفضل الأعمال وأقربها إلى الله تعالى، قال: **«أن تموت ولسانك رطبًا من ذكر الله تعالى»**(4).

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: **«يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»**(5).

وفي حديث آخر**«أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»**(6).

وقال عز وجل ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ ولما سمع النبي ﷺ الذين يرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل وهم معه في سفر قال لهم: **«إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم»**(7).

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٢/ ٢١٣ ـ النووي) عن ابن عمر به

(٢) [**صحيح**]أخرجه مسلم في الإمارة (٤/ ١٢/ ٢١١- النووي) عن عبد الله بن عمرو به.

(٣) [**ضعيف**] أخرجه الترمذي (١٣٢٩)، وأحمد (٣/ ٢٢).

عن أبي سعيد بإسناد ضعيف لضعف عطية العوفي..

وقال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٤) ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٧٤) ونسبة للبزار وحسن إسناده.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/ ١٢- النووي).

عن أبي هريرة. وانظر: «فتح ذي الجلال» (ح٢١) بتخريجنا.

(٦) تقدم.

(٧) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٩٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/ ٢٥- النووي)، عن أبي موسى الأشعري. وانظر كتابنا: «فتح ذي الجلال» (ح٦٩٤).

وفى رواية: «وهو أقرب إليكم من أعناق رواحلكم».

(٦) محبة أحباب الله وموالاتهم ومعاداة أعدائه:

قال ابن رجب: ومن ذلك محبة أحبابه وأوليائه فيه ومعاداة أعدائه فيه، فى سنن أبى داود عن عمر قال: «**إن من عباد الله أناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله تعالى**، قالوا: يا رسول الله من هم؟! قال: **هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور، ولا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس**، ثم تلا هذه الآية: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[(١)] وروى نحوه من حديث أبى مالك الأشعرى عن النبى ﷺ.

وفى حديث «**يغبطهم النبيون بقربهم ومقعدهم من الله تعالى**»[(٢)] وفى المسند عن عمرو بن الجموح عن النبى ﷺ قال: «**لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق ولاية من الله، وإن أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم**»[(٣)].

وسئل المرتعش: بم تنال المحبة؟ قال: بموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه وأصله الموافقة[(*)].

قال الفقير: فحقيقة العبودية لاتحصل مع الإشراك بالله فى المحبة، بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية فإن محبة الرسول ﷺ لايتم الإيمان إلا بها.

ولذلك لا يذوق حلاوة الإيمان إلا من كان الله ورسوله أحب إليه ممن سواهما كما فى حديث «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»[(٤)].

وحديث: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»[(٥)].

---

(١) [حسن] أخرجه أبو داود (٣٥٢٧) عن عمر بن الخطاب به.
وانظر كتابنا«فتح ذى الجلال» (ح٥١٧).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٤٣)، وابن جرير فى «تفسيره» (١١/ ٩٢)، أبى مالك الأشعرى به.

قلت: فيه شهر بن حوشب.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٠) عن عمرو بن الجموح. وفيه رشدين بن سعد.

(*) وانظر «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦٣٧: ٦٤٦) بتخريجنا.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه أيضاً.

الخلاصة من كلام بن القيم أن:

توحيد المحبوب ألا يتعدد محبوبه أى مع الله تعالى بعبادته له وتوحيد الحب، ألا يبقى فى قلبه بقية حب حتى يبذلها له فهذا الحب هو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه وليس لقلبه صلاح ولانعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبتهلله تعالى فلايحب إلا الله ولايحب إلا لله.

وهى محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطناً وهذا لانظير له فى محبة المخلوق ولو كان المخلوق من كان، ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره فى هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لايغفره الله.

واية هذا الباب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ لها علاقة بالآيتين السابقتين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فالندية فى الحب هى سبب صرف الطاعة للأحبار والرهبان؛ وهى سبب فى الولاء والبراء، فمنشأ عبادة العُبَّاد والعلماء شرك المحبة؛ فلذلك ناسب أن نذكر كلامًا له تعلق بالولاء والبراء والمحبة **لشيخ الإسلام** «والواجب على كل مسلم أن يكون حبه وبغضه وموالاته ومعاداته تابعاً لأمر الله ورسوله فلايحب إلا ما أمره الله والرسول أن يحبه ولايبغضه إلا ما أمره الله ورسوله أن يبغضه ومن كان فيه ما يوالى عليه من حسنات وما يعادى عليه من سيئات عومل بموجب ذلك كفساق أهل الملة إذ هم مستحقون للثواب والعقاب والموالاة والمعاداة والحب والبغض بحسب مافيهم من البر والفجور قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وهم عملوا الخير فلابد أن يروا ذلك من محبتنا لهم وعملوا الشر فيروه من بغضنا لهم ولسيئاتهم وهذا مذهب أهل السنة والجماعة بخلاف الخوارج والمعتزلة والمرجئة والجهمية فإن أولئك يميلون لجانب وهؤلاء يميلون إلى جانب».

العشق عارض من العوارض المضعفة لمحبة العبد للرب:

هناك عارض من العوارض المضعفة لهذه المحبة لله وللرسول هو ما يُسمى شرعاً بالعشق، وهو مرض شفاؤه معجز وأعيا دواؤه العشاق، وأعيا علاجه الأطباء.

قال ابن القيم فى فصل فى «هديه ﷺ فى علاج العشق» قال:

هذا مرض من أمراض القلب مخالف لسائر الأمراض فى ذاته وأسبابه وعلاجه».

وهذا العشق سواء عشق الصور أم المردان أو النسوان أو الصبيان فى الحقيقية يمنع فى كثير من الأحيان من محبة الرحمن ويضعف هذه المحبة كما قال ابن القيم:

«إذا تمكن هذا العشق فى القلب واستحكم عز على الأطباء دواؤه وأعيا العليل داؤه وإنما حكاه الله تعالى فى كتابه عن طائفتين من الناس؛ من النساء وعشاق الصبيان. والمُردان فحكاه عن امرأة العزيز فى شأن يوسف -﴿قد شغفها حبًا﴾-.

-وعشق المردان- حكاه عن قوم لوط ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾والسكرة هى العشق وقد افتخر العشاق بهذاالوصف وقالوا: [هل رأى الحب سكارى مثلنا]، فهم لايشعرون إلا بهذا المحبوب ولا يرون إلا المعشوق، ولايتنفسون إلا بتنفسه، فكأنما غابوا عن الدنيا فهم فى سكر إلا به.

فمن قبيح هذا العشق -وهذا من أسباب علاجه- أن الله برء منه المخلصين ونسبه لغير المؤمنين، فإذا لم يكن فى الباب من قبح العشق إلا أن الله لم ينسبه للصالحين أو المسلمين إنما نسبه لامرأة كافرة ولمن كفروا بنبى من الأنبياء.

قال ابن القيم: «وأماما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره أنه ابتلى به فى شأن زينب بنت جحش، وأنه رآها فقال سبحان مقلب القلوب وأخذت بقلبه، وجعل يقول لزيد بن حارثة «أمسكها» حتى أنزل الله عليه ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾(١).

هذا إدعاء باطل أن النبى ﷺ ابتلى بهذا العشق مع زينب بنت جحش وأن تفسير قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ هو عشق زينب هذا الكلام أتى من رجل جاهل بالشرع وجهله بمقام المرسلين المبلغين عن رب العالمين مع أن النبى ﷺ لكفى بذلك قبحًا مبرأ من هذا الأمر وحاشا لله أن يرسل رسولاً بهذا الخلق، نعم كان يحب النبى ﷺ نساءه وأحبهم إليه عائشة ولكن لم تكن تبلغ محبته لها غاية الحب بل محبته ﷺ ما كانت إلا لله عزوجل.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٦٥).

ولذلك ثبت عنه فى الصحيح أنه ﷺ قال «**لو كنت متخذاً أحد خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلاً**»(١) الحديث.

فالخلة أعلى درجات المحبة ولم يصرفها النبى ﷺ لأحد من الناس وإنما كانت لله عزوجل. فتوحيد المحبوب وفراغ القلب إلا من محبته هذا هو من لوازم ومقتضيات لا إله إلا الله وهذا سبب من أسباب دفع السوء والفحشاء المترتب على العشق من قول الله: ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ فلما أخلص وفرغ قلبه إلا من الله ومحبته، كان ذلك سبب لدفع العشق عنه وهذا المرض وما يترتب عليه من سوء وفحشاء وكان ذلك علامة من علامات كمال التوحيد فى نفس هذا العبد، وأنه جاء بمقتضيات هذا التوحيد.

لذلك قال ابن القيم: عشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى المعرضة عنه المتعوضة بغيره عنه فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقاءه دفع ذلك عنه محبة مرض عشق الصور اهـ.

ثم استدل على ذلك بقوله: ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ فلو عشق يوسف أو وقع فى مقدماته فحينما قالت له ﴿**هَيْتَ لَكَ**﴾ لم قال لها ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ**﴾ وهذا موقف لايعرف عظمته إلا من ضعفت نفسه فى أقل من هذه المواقف.

قال ابن القيم: فدل على أن الإخلاص سببًا لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التى هى ثمرته ونتيجته، فصْرفُ المسبب صرفٌ لسببه اهـ.

فالعشق هو حركة قلب فارغ كما قال ابن القيم.

قال بعض السلف: العشق: حركة قلب فارغ، يعنى فارغًا مما سوى معشوقه قال تعالى: ﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ**﴾ أهـ فلما فرغ من محبة الله تحرك قلبه إلى محبة غيره فهو بطبعه لابد أن يحب وهذا شىء جبلى ولكن ما هو التوجيه الشرعى للمحبة أو البغض فالعشق هو حركة قلب فارغ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٦٥٦)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ١٦١/ ٦) وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٣٥٨) بتخريجنا.

واستدل ابن القيم على ما تقدم ذلـك كما تقدم بقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ يعنى فارغًا إلا من تعلقها بموسى ومحبته وقال شاعرهم:

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكن

قال ابن القيم: والعشق مركب من شيئين استحسان للمعشوق، وطمع فى الوصول إليه، فمتى انتفى إحداهما انتفى العشق اه.

قلت: ـ لابد أن تعرفها حتى تدرك هل أنت فى دركة العشاق فتأخذ بالعلاج الشرعى أم أنت دون هذه الدركة أو مقبل أو مدبر فتعلم أيـن أنت منها حتى تعالج ذلك فتقوى محبتك لله.

أولاً: استحسـان الصورة للمعشوق، أو أخـلاقه أو لبسه أو سمته أو صـوته أو غير ذلك.

ثانياً: طمعـاً للوصول إليـه، ولابد للأمرين فـلو استحسـن الصورة ولم يطـمع فى الوصول إليـه لم يكن ذلك عشـقاً مثال: ما نراه من بـعض الجهلاء من حب الـعاصين كالمرأة الـتى تحب لاعب كرة أجنبى مشهور «ماردونـا» واستحسنتـه لكنها لاتطـمع فى الوصول إلـيه لأنه لاعب عالمـى ولأنه فى الأرجنتـين مثلاً ولاسبـيل للوصول لـه فهذا لايسمى عشق.

فلهذا قال ابن القيم فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق.

قال ابن القيم: وقد أعيت علة العشق على كثير مـن العقلاء، وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن كره إلـى الصواب فنقول قد استقرت حكمـة الله عز وجل فى خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه وانحذاب الشىء إلى ما وافقه ومجانسه بالطبـع، وهروبه من مخالـفه، ونفرته عنـه بالطبع فسـر التمازج والاتصال فـى العالم العلوى والسفلى إنما هو التناسب والتشـاكل والتوافق، وسر التباين، والانفصال إنما هو بعدم التشـاكل والتناسب ، وعلى ذلك قام الخـلق والأمر، فالمثل إلى مثلـه مائل وإليه سائر، والضد عن ضده هارب، وعنه نافر ، وقد قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فجعل سبحانه علـة سكون الرجل إلى امرأته كونها من جنسه وجوهره فعلة السكون المذكـور وهو الحب كونها منه فدل على أن العلة ليست بحسن الصورة ولا الموافقة فى القصد والإرادة ، ولا فى الخلق الهدى، وإن كانت هذه أيضًا من أسباب الـسكون والمحبة أيضًا وقد ثبت فى «الصـحيح» عن النبى ﷺ

أنه قال: «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»(١) وفى مسند الإمام أحمد وغيره فى سبب هذا الحديث وغيره فى سبب هذا الحديث أن امرأة بمكة كانت تضحك الناس فجاءت إلى المدينة فنزلت على امرأة تضحك الناس، فقال النبى ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة**. الحديث.

قلت: فسبب العشق على ما تقدم أمران: طبيعى فأنت مجبول على محبة من يناسبك وسبب آخر مكتسب هو فراغ القلب من حب الله سبحانه.

فيقول: قد استقرت حكمة الله فى السبب الجبلى الذى فطرنا عليه فى خلقه وأمره على وجوب التناسق والتآلف بين الأشباه وإنجذاب الشىء إلى موافقه ومجانسه بالطبع».

فتجد أحد الناس يوافقك فى الشكل أو اللبس أو خلق أو دين أو حرفة أو غير ذلك، فعلى قدر الموافقة على قدر التجانس الذى هو من مقدمات المحبة، وعلى قدر الاختلاف على قدر التنافر وهناك تناسب روحى ليس لك فيه علاقة.

فالحرفة والمذهب وغير ذلك أشياء مكتسبة أما التناسب الروحى ليس لك فيه يد كما ثبت فى الصحيح «**الأرواح جنود مجندة**» فتجد رجلاً ملتزمًا وأخ لاتعرف عليه سوء، وتجد نفسك لا تقبله أو تتلاشاه.

وسأل على بن أبى طالب عمر بن الخطاب عن سبب تنافره لأحد الناس فأجابه عمر بهذا الحديث حيث قال له علىٌّ بأن الرجل لا أرى عليه شيئًا وأبغضه فهل سمعت فى ذلك شيئًا عن رسول الله ﷺ قال «**الأرواح جنود مجندة**» هذا يطمئن الأخ عندما يجد أن بعض العامة من الناس الغير ملتزمين بالدين ينفرون منه فيتضايق من ذلك، ولكن هذا ينبغى أن يطمئنه؛ لأن هؤلاء الناس صارت طبائعهم خبيثة تنفر من الطبائع السليمة، وقد استقرت حكمة الله تعالى على أن هذا الأمر لايكون فى الدنيا فقط إنما فى الدنيا والآخرة.

(أولا): فى الدنيا قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ فلم يجعل السكن فى أن تكون زوجتك من الإنس وأنت من الجن ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا**﴾ فهى ليس من جوهرك وفقط لأن السكن لايكون مع أى امرأة من الإنس لكن مع من وجدت روحها توافق روحك

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة(٨/ ٤٣٤/ ١٦٠) عن أبى هريرة.

وأتلفت لـها بالرغم من أنـك قد تكون رأيت أجمـل منها بكثـير قبلها ولـم تأنس إلا بزوجتك هذه. فصار السكن سببه السبب الجبلى وهو تناسب الأرواح.

واقتضت حكمته تعـالى أن يكون هذا الأمر فى الآخرة أيضاً قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال عمر بـن الخطاب: أزواجهم: أشباههـم ونظرائهم يعنى الذين تشـبهوا بهم وكل مثيل مع مـثيله وكذا قال الإمام أحمد.

وقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أى قرن كل صاحب عمل بشكـله ونظيره فقرن بين المتحابين فى الله فى الجنة، وقرن بين المتحابين فى طاعة الشيطان فى الجحيم.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ يعنى ليس فرعون فقط وإنما فرعون وشبيه فرعون ومن ماثل فرعون فى عمله.

شبهة والرد عليها

هنا شبهة أجاب عليها ابن القـيم بعد أن ذكر قول الرسول ﷺ من حديث أنس فى «الصحيح» «**أن رجلاً سأل الـنبى ﷺ متى السـاعة يا رسول الله ؟ قال : وما أعـددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صـوم ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله، قال : أنت مع من أحـببت**، وعند مسلم: «**ولم يلحق بـعملهم** »[1] وفى حديث أبى ذر «**ولا يستطيع أن يعمل بعملهم**»[2] وفى بعض طرق حديث صفوان بـن عسال عند أبى نعيم «**ولم يعمل بمثل عملهم**» وهو يفسر المـراد من قوله ﷺ: **قال أنت مع مـن أحببت**» لأن روحك أحبت الطيبين فدل ذلك على أن نفسك طيبة حتى لو لم تعمل كل عملهم فكما ملت إليهم فى الدنيا فأنت معهم يوم القيامة.

وفى المستدرك «**لايحب المرء قوم إلا حشر معهم**» [3] .

وفى المسند «**ومن تشبه بقـوم فهو منهم**»[4] والشبـهة التى عرضـت وهى «إذا كان سبب العشق هو التناسب الروحى فما باله لايكون من طرفين؟ بل تجده كثيراً من طرف

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٦٧)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٨٦ ـ النووي).
وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٠ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨/ ٦٧/ ٦٣٥٣) بنحو.

(٣) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣٨٤) بنحو عن عائشة رضى الله عنها.

(٤) تقدم تخريجه فى فصول الولاء والبراء

العاشق وحده، فلو كان سببه الاتصال النفسى والامتزاج الروحانى لكانت المحبة مشتركة بينهما؟

فالجواب: أن السبب قد يتخلف عنه مسببه لفوات شرط، أو لوجود مانع، وتخلف المحبة من الجانب الآخر لابد أن يكون لأحد ثلاثة أسباب:

الأول: علة فى المحبة وأنها محبة عرضية، لا ذاتية ولايلزم 'الإشتراك فى المحبة العرضية، بل قد يلزمها نفرة من المحبوب».

يعنى ممكن هذا الحب يكون عارض يعنى حسب مصلحة يزول بزوال المصلحة فهذا موجب للنفرة إذا شعر أنك تحبه لمصلحة أو لغرض.

والسبب الثانى: مانع يكون بالمُحَب يمنع محبة محبوبه له.

فالمُحبَ وهو المعشوق رأى مانع يمنعه من محبة محبوبه كخلق فيه أو شكله أو أخلاقه أو حرفته أو غير ذلك.

والثالث: مانع يقوم بالمحبوب يمنع مشاركته للمحب فى محبته ولولا ذلك المانع لقام به من المحبة لمحبه مثل ما قام بالآخر.

مثل رجل متزوج وهى تحبه وهو لايحبها لأنه متزوج أختها مثلاً فلو انتفت الموانع بأنه طلق أختها سيحبها».

قال ابن القيم: فإذا انتفت هذه الموانع، وكانت المحبة ذاتية فلا يكون قط إلا من الجانبين، ولولا مانع الكبر والحسد والرياسة والمعاداة فى الكفار لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم.

أنواع المحبة:

تقدم ذكر أنواع المحبة من أكثر من وجه، وهذا وجه آخر يبين من أى أنواع المحبة يكون العشق.

المحبة أنواع: **(أفضلها)**: محبة الله عزوجل

(ومنها) محبة الاتفاق فى طريقة أو دين أو نحلة أو صناعة أو غير ذلك فالنوع الأول أفضل وأجل الأنواع ومستلزم لطاعة الله وطاعة الرسول، والثانى قد يكون لله وقد يكون لغير الله فربما أحب فلان لأن دينه هو الإسلام ومنهجه منهج الرسول وعلى مذهب أهل

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٥، ٩١٦٠) والنسائى.

السنة، فأنا أحبه لهذه الأشياء لله عزوجل؛ لأن الله يحبها، وربما يكون من محبتى له عصبية، فهذا اتبع جماعتى فأحبه والعكس.

ومنها محبة لنيل غرض من المحبوب إما من جاهه أو من ماله أو من تعليمه وإرشاده أو قضاء وطر منه وهذه هى المحبة الغرضية التى تزول بزوال موجبها، فإن من ودَّك لأمر ولى عنك عند انقضاءه.

أما محبة المشاكلة والمناسبة التى بين المحب والمحبوب فهى محبة لاتزول إلا لعارض يزيلها كما تقدم بيان هذه العوارض.

ومحبة العشق من هذا النوع، والمقصود أن العشق لما كان مرضاً من الأمراض كان قابلاً للعلاج - فاطمئنوا لأن هذا المرض من أكثر الأمراض المنتشرة فى الأمة وبه فسدت القلوب كما ثبت فى الصحيح «**ألا أن فى الجسد مضغة إذا فسدت فسد الجسد كله وإذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهى القلب**»(١)وفى الحديث الضعيف «**أن النظرة سهم من سهام إبليس يضع فى القلب**»(*) ولعله يشهد له ما جاء فى الصحيح من حديث حذيفة أن **الفتن (لا سيما فتنة العشق) «تعرض على القلوب»**(٢) لاعلى العقول أو العيون» فأى قلب أُشر بها فصار قلب المعشوق له دين آخر هو الذى أشرب من هواه، فلايحب إلا ما يحبه المعشوق ولايكره ولا يتنفس ولايشم إلا رائحة معشوقه،وأنتم تعلمون مجنون ليلى وصل لدرجة الجنون كما قال ابن القيم.

والحديث بين أن القلب إذا وصل إلى فإنه: « **لايعرف معروفاً ولاينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه**»(٣) كما قال تعالى فى عابد الهوى ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ فهم أضل من الأنعام كالمجانين وصاروا فى غفلة ومن آمارات السكر -كما قال ابن القيم فى حقيقة لذة العشق قال-: حقيقتها أنها أحلام نائم أو خيال لاثبات له.

كما قال تعالى فى استفزاز الشيطان لنا بصوته الذى فيه هياج للعشق فينا وهياج لهذه المحبة الغير مشروعة فينا- فتجد كل دندنة الأفلام والمسلسلات حول تهييج الشباب للحب وتنبيه قلوبنا لهذه الرذيلة. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ فسماه الله تعالى طائف وقد مسهم ولكنهم تذكروا وأفاقوا فالشيطان لايستفز القلب الميت ولكن يستفز القلب الحى لأنه ما يدخل الشيطان

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٥٢)،ومسلم فى المساقاة (١١/٢٧ النووي) عن النعمان بن بشير وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٩ بتخريجنا)

(٢) **[صحيح]** أخرجه مسلم فى الإيمان (١/٤٤٦/٢٣١)

(٣) تقدم قبله.

(*) بنحوه أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٤/٣١٤) وصححه وتعقبه الذهبى فضعفه

بالقلب الخرب كما تقدم عن ابن عباس لهذا يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ غرور وأحلام.

ويصل العاشق مع معشوقه إلى أنه يحبه أكثر من الله، إلا أن المحبة لله فوق هذه المحبة لاتقارن ولاتماثل مهما ظن المخلوق أن هذه المحبة هى درجة فوق الخلة بل لاتماثل بين محبة المخلوق للخالق وبين محبة المخلوق للمخلوق ومن ظن أن بينهما تماثل حتى ولو فى اللفظ كالصوفية مثلاً يقولون الأناشيد والأغانى لهؤلاء العشاق ويجعلوها لله فمثلاً يقولون: نحن سكارى فى حب الله أو يقولون نحن نعشق الله أو الوصال بيننا وبين الله فألفاظ العشاق لايجوز قولها بينك وبين الله ومن ظن أن هناك تماثل بين محبة الله ومحبة المخلوق فهذا مقبوح وهو أولى بالقبح والبعد عن الله.

وهذا كلام ابن القيم فى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فنحن نؤتى من ها هنا من القلب لذلك الشيطان لايحاربك إلا فى قلبك والمقصود أنك تعتقد أن الدندنة على إفسادك وإفساد قلبك عن طريق الأغانى والمسلسلات والأفلام والإعلانات والمجلات والأجهزة المتنوعة مهما علت وقويت فالله يبشرك فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ويبشرك بأن هذه الدندنة كخيط العنكبوت، وهذا المرض له علاج فى كتاب ربنا وفى سنة نبينا فيذكر ابن القيم هذه الأدوية وأنا أذكرها بعد أن اذكرك .

علاج محبة غير الله (العشق)

الدواء الأول: أن تستقبح هذا الأمر لعلمك أن الله لم ينسبه إلا لقبيح كما جاء فى امرأة العزيز وقوم لوط وكذلك صرف الله هذا الأمر عن المخلصين وقد تقدم تفصيل ذلك.

قال ابن القيم: (الثانى): إن كان مما للعاشق سبيل للوصول إلى محبوبه شرعاً وقدراً فهو العلاج قدراً مثال ذلك: من عشق من حرمت عليك قدراً أو شرعًا تحريمًا أبديًا ولكن من عشق امرأة لم تحرم عليه لاشرعاً ولاقدراً فالوصول إليها بالطريقة الشرعية هو العلاج كما قال النبى «**يا معشر الشباب فمن استطاع منكم الباءة فليتزوج**»(١).

حتى المتزوج إن نظر لامرأة فاستفزه الشيطان وقذف فى قلبه بحبها ولا سبيل شرعى للوصول إليها فليذهب لأمرته فليأتها فهذا هو العلاج الذى وضعه الرسول ﷺ لهذا المرض فإن الله يذهب ما فى نفسه.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩٠٥)، ومسلم فى النكاح (٩/ ١٧٢ النووي) عن ابن مسعود به. وانظر السلسبيل» (١٩٩٤ بتخريجنا)

لما أخرجه مسلم فى صحيحه عن جابر أن رسول الله ﷺ رأى امرأة، فأتى امرأته زينب وهى تَمْعَسُ منيئَة لها، فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال: « **إن المرأة تقبل فى صورة شيطان، وتدبر فى صورة الشيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما فى نفسه**» وعند مسلم أيضًا بلفظ «**فوقعت فى قلبه فليعمد إلى امرأته فليواقعها فإن ذلك يرد ما فى نفسه**»(١).

قال النووي: «معنى الحديث: أنه يستحب لمن رأى امرأة فتحركت شهوته أن يأتى امرأته أو جاريته إن كانت له، فليواقعها ليدفع شهوته،وتسكن نفسه، ويجمع قلبه على ما هو بصدده قال العلماء: إنما فعل هذا بيانًا لهم، وإرشادًا لما ينبغى لهم أن يفعلوه، فعلمهم بفعله وقوله . وفيه: أنه لا بأس بطلب الرجل امرأته إلى الوقاع فى النهار وغيره، وإن كانت مشتغلة بما يمكن تركه، لأنه ربما غلبت على الرجل شهوة يتضرر بالتأخير فى بدنه أو فى قلبه وبصره والله أعلم.

فهذا كله نفخة كاذبة لإبليس، فلما تأت أهلك كأنك تبصق عليه.

مثلما إذا رأيت حلمًا افزعك فإن الرسول ﷺ أرشدنا إلى أن نبصق على يسارنا ثلاثًا(٢) فتنتهى النفخة الكاذبة له.

ولذلك تجد كثيرًا من العشاق بعد الزواج يصبحوا أعداءًا، فإذا وصل الزوج لزوجته قبل البناء وقضى وطره، يكرهها ويكون ذلك سببأ فى فسخ العقد حيث ذهبت المحبةمن ماءه الذى هدأ شهوته وحبه لها فلذلك قال النبى «**يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج**»(٣) وهذا ليس كلام نظرى فالزواج من أنفع الأدوية وهذا علاج أصلى وهو الزواج.

الثالث: وهناك علاج بدلى وهو الصوم فهو وقاية وجنة، والصوم يعنى ارتفاع المنسوب الإيمانى عند العبد فيقوى على دفع هذا الداء ويتعاطى أسباب النجاة.

وروى ابن ماجه فى «سننه» أن النبى ﷺ قال: «**لم يرى للمتحابين مثل النكاح**»(٤) وقيل فى معناه أن الجماع من أسباب زيادة المحبة والمودة ولذلك فى كثير من المشاكل الزوجية، تأتى الزوجة فتقول: أنا لا أحب زوجى فلا تصدق وتردها بهذا الحديث.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى النكاح (٥/ ٩١/ ٩)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الرؤيا (١٥/ ٢٠ النووي) عن جابر به.

وأنظر «رياض الصالحين» (٨٤٤ بتخريجنا)

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٨٤٧) وصححه الألبانى فى «سلسلته».

وهذا هو المعنى الذى أشار إليه سبحانه عقيب إحلال النساء حرائرهن وإمائهن».

في سورة النساء: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ...﴾ إلى أن قال: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ وهذا مانحن فيه الآن. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ يخفف عنا هذه الشهوة فنحن أضعف من أن نتحملها فمن رحمته أن أحل لنا الحرائر والإماء إن وجدن وكذلك أحل لنا مثنى وثلاث ورباع.

وذكر تخفيفه في هذا الموضع وضعف الإنسان يدل على عدم تحمل هذه الشهوة وأنه خفف عنه بما أباح له من أطايب النساء ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه ثم أباح له من الإماء أن احتاج لذلك.

الرابع: إن كان لاسبيل للعاشق للوصول للمعشوق قدراً وشرعاً فهو الداء العضال فمن علاجه أن يشعر نفسه باليأس من الوصول للمعشوق، فإن النفس متى يئست من الشيء استراحت منه

قلت: لكن العشاق لم يقولوا أن اليأس علاج بل قالوا إن هذا أسمى معانى الغرام ويقول:

الحب من غير أمل أسمى معانى الغرام

يقول ابن القيم: فإن لم يزل مرض العشق مع اليأس فقدانحرف الطبع انحرافاً شديداً كما قال تعالي: ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾.

فينتقل إلى علاج آخر وهو علاج عقله بأن يعلم بأن تعلق القلب بمالا مطمع فى حصوله نوع من الجنون وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس وروحه متعلقة بالصعود إليها والدوران فى فلكها.

فلا تقاس لذة الأبد التى لا نهاية لها بلذة ساعة تنقلب آلام، لأن محبة الله التعب فيها لذة وهى فى غاية المتعة فانظروا إلى رجل داعى يُؤذى ويُضرب ويُهان فى سبيل الله، ومع هذا كله يجد لذة ما بعدها لذة، فمثال ذلك أبى ذر الغفارى حينما كان يذهب خصيصاً ليجهر عند الكعبة بكلمة التوحيد ليضرب ويتمتع بهذا الضرب، ويذهب مرة ثانية.

فكل مكروه فى محبة الله محبوب، والعكس كل أذى فى محبة المخلوق جحيم، بل محبة المخلوق نفسها أذى فإذا نظرت إلى العشاق تجدهم لا ينامون إلا قليلاً ،ولا يأكلون إلا يسيراً، وتضعف أبدانهم، وتصفر وجوههم ويلتهمهم المرض فانقلبت اللذة والمتعة للآلام فالعاقل عندما ييئس نفسه من المعشوق ولايقدر على أن يعالج نفسه بأحد أمرين.

الأول أنه سيفوت على نفسه محبة أعظم، ولذة أدوم، فيها الأذى نعيم، بعكس محبة المخلوق، وهم قالوا ذلك على أنفسهم كل الأغانى [حبك نار] وآخر يقول [عذاب] وغير ذلك.

الأمر الثاني: حصول مكروه أشق عليه من مفارقة هذا المحبوب

قلت: يعنى سيحصل مفاسد عاجلة أو آجلة منها: أن الله سيحرمه من الرزق، سواء مادى أو معنوى أو الإيمان، كما جاء فى الحديث الضعيف فى النظر «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيماناً يجد حلاوته فى قلبه**»(١) فلو تركت لله أبدلك الله إيماناً تحسه فى قلبك وأخرج أحمد والحكيم فى «نوادر الأصول» والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى «الشعب» عن أبى أمامة مرفوعًا: «**ما من مسلم ينظر إلى امرأة» أول رمقة، ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه**»(٢) وربما اجتمع لهذا العاشق المريض الأمران حصول المكروه وفوات المحبوب الأعظم واللذة الأدوم والأنفع.

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء، ولم تطاوعه لهذه المعالجة، فلينظر ما تجلب عليه هذه الشهوة من مفاسد عاجلة وما تمنعه من مصالحها.

الخامس:

قال ابن القيم: فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء فليتذكر قبائح المحبوب وما يدعو للنفرة عنه.

قلت: فمثلاً أنت تحب امرأة ولم تستطع بعد كل هذا الدواء ترك حبها فتذكرها وهى فى دورة المياه تتخلى وتصورها فى حال الحيض الذى سماه الله أذى ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى**﴾ كذلك فى حال التمخض من الأنف والفم كذلك انظر لسيء أخلاقها فكما أن الأشياء المستحسنة داعية للحب فكذلك الأشياء المستقبحة داعية للنفرة.

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) [إسناده ضعيف جداً] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٤٦)، والطبرانى فى «الكبير» (٨/ ٢٤٧/ ٧٨٤٢)بإسناد ضعيف جداً.

قال فى «الصحيح» عن النبى ﷺ قال: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى الله»(١).

ولاتسأل عن البقر الذى يأتى للنجاسة ويشمها ويتلذذ برائحتها فهذا لاتسأل عنه وعده لا فى الموتى بل فى البهائم لماذا نقول ذلك؟ لأنه بالفعل يصل بهذا الشخص إلى دركة أنك تقول له هذا الكلام ويقول لك أعرفه وهذه الأمور من ألذ الأمور فى معشوقتى فهو يتلذذ من ذكرها إذا كانت منسوبة لمعشوقته بل ربما ظن أنه ليس فيها هذه الأمور وربما اصطدم حينما يصل إليها فيجد هذه الأمور.

السادس:

فإن عجزت هذه الأدوية كلها لم يبق له إلا صدق اللجوء إلى من يجيب المضطر إذا دعاه.

قلت: وما أظن هذا إلا فى من فهم أنه فى درك وانحطاط وفى وحل. فهو يصدق فى لجوءه لله بطريق بابه فمتى وفق لذلك فقد قرع باب التوفيق فليعف وليكتم ولا يشبب بذكر المحبوب.

قلت: والتشبيب: يعنى يذكر عشقه له ويصل الأمر إلى التغنى والأشعار بمحبوبته كما قال بعضهم: «عاشق يا بنات النيل وبغنى لكم المواويل».

«ولا يغتر بالحديث الباطل الذى ينسب للرسول عن ابن عباس أنه قال: **«من عشق فعف فمات فهو شهيد»** وفى رواية **«من عشق وكتم وعف وصبر غفر له وأدخله الله الجنة»**(٢).



قوله: فى «الصحيح» قال سليمان آل الشيخ: أي: «صحيح مسلم» عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه عن النبى ﷺ فذكره. وأبو مالك اسمه سعد بن طارق كوفى ثقة،

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الإيمان» / باب: فضل أبى بكر الصديق رضى الله عنه (١/ ٢١٢ ـ النووي). وأحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٧٢) والطبرانى فى «الكبير» (٨/ ٣٨٢/ ح٨١٩١، ٨١٩٤) وابن حبان فى «صحيحه» (١/ ١٩٧/ ح ١٧١ ـ الإحسان).

جميعاً من طريق: أبى مالك عن أبيه عبدالله بن طارق بن أشيم رضى الله عنه فذكره.

وانظر رياض الصالحين (ح٣٩٣) «فتح المجيد» (ح١٧٢) بتخريجنا. ط. نزار الباز

أنظر «المقاص الحسنة» للسخاوى (١١٥٣)

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٠٥، ١٠٦).

مات فى حدود الأربعين ومائة، وأبوه طارق بن أشيم بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحمر بن مسعود الأشجعى صحابى له أحاديث. قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه.

وقال ابن عثيمين[1]: لم يفصح المؤلف رحمه الله بمراده بـالصحيح؛ أهو «صحيح البخاري» أم «صحيح مسلم»، أم أن المراد به الحديث الصحيح؛ سواء كان فى «الصحيحين» معاً أم فى أحداهما أم فى غيرهما، وليس له اصطلاح فى ذلك يحمل عليه عند الإطلاق، وعلى هذا يبحث عن الحديث فى مظانه، وقد ورد هذا التعبير فى سياق المؤلف للحديث فى مواضع أخري، والمراد به هنا «صحيح مسلم». اهـ

مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جار الله[2]: هى أنه دلَّ علـى أنَّ عدم الكفر بما يعبد من دون الله شرك ينافى التوحيد. اهـ.

وقال القرعاوي[3]: حيث دلَّ الحديث على أن معنى التوحيد، وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله لايتم ويكتمل إلا إذا كفر بكل ما يعبد سوى الله. اهـ

قوله: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله»:

قال النووي[4]: شارحاً رواية مسلم قوله: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»**[5] قال الخطابى - رحمه الله: معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب؛ لأنهم يقولون: لا إله إلا الله ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف.

قال: ومعنى «وحسابه على الله» أي: فيما يستسرون به ويخفونه دون ما يخلون به فى الظاهر من الأحكام الواجبة، قال: ففيه أن من أظهر الإسلام وأسر الكفر قبل إسلامه فى الظاهر، وهذا قول أكثر العلماء، وذهب مالك إلى أن توبة الزنديق لاتقبل، ويحكى ذلك أيضاً عن أحمد بن حنبل رضى الله عنهما... هذا كلام الخطابي.

وذكر القاضى عياض معنى هذا وزاد عليه وأوضحه فقال: اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال: لا إله إلا الله تعبيراً عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بهذا مشركوا

---

(١) القول المفيد (١/ ١٩٤).

(٢) الجامع الفريد (٣٦).

(٣) الجديد (٧٨)

(٤) مسلم بشرح النووى (١/ ٢١٢).

(٥) [متفق عليه] حديث ابن عمر أخرجه البخارى (٢٥)، ومسلم فى الإيمان(١/ ٢١١ النووي) وتقدم تخريجه

العرب وأهل الأوثان ومن لايوحد، وهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلايكتفى فى عصمته بقوله: لا إله إلا الله إذ كان يقولها فى كفره وهى من اعتقاده فلذلك جاء فى الحديث الآخر. «**وأنى رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة**». هذا كلام القاضى.

قلت: ولابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ كما جاء فى الرواية الأخرى لأبى هريرة وهى مذكورة فى الكتاب «**حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به**»(١). والله أعلم. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله**» اعلم أن النبى ﷺ فى هذا الحديث علق عصمة المال والدم بأمرين:

الأول: قول لا إله إلا الله.

الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعني، بل لابد من قولها والعمل بها قال المصنف: وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولامعرفة معناها مع التلفظ بها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولاكونه لا يدعو إلا الله وحده لاشريك له، بل لايحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه، فيالها من مسألة ما أجلها، وياله من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

قلت: وقد أجمع العلماء على معنى ذلك فلابد فى العصمة من الإتيان بالتوحيد، والتزام أحكامه، وترك الشرك.

كما قال تعالي: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾(٣) والفتنة هنا: الشرك، فدل على أنه إذا وجد الشرك فالقتال باق بحاله كما قال تعالي: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾(٤).

وقال تعالي: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٥) فأمر بقتالهم على فعل التوحيد، وترك الشرك، وإقامة شعائر

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٢٣٣/ ٣٤)

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٦).

(٣) سورة الأنفال الآية: ٣٩.

(٤) سورة التوبة الآية: ٣٦.

(٥) سورة التوبة الاية: (٥)

الدين الظاهرة. فإذا فعلوها خلى سبيلهم. ومتى أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها فالقتال باق بحاله إجماعاً. ولو قالوا: لا إله إلا الله. وكذلك النبى ﷺ علق العصمة بما علقها الله به فى كتابه.

كما فـى الحديث وفى «صـحيح مسلـم». عن أبى هريـرة مرفوعاً: «أُمـرتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إلهَ إلا الله ويُؤْمِنُوا بى وبِمَا جِئْتُ بِهِ فَإِذا فَعلوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُم وأَمْوَالَهُم إلا بِحقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله»[1].

وفى **«الصحيحين» عنه قال**: لما توفى رسول الله ﷺ وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطـاب لأبى بكر: كيف تقاتل الـناس، وقد قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يـقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مـنى ماله ونفسه إلا بحقه وحسـابه على الله»** فقال أبو بـكر: والله لأقاتلن من فرق بين الـصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال. والله لو مـنعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لـقاتلتهم على منعه. فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال، فعرفت أنه الحق». لفظ مسلم[*].

فانظر كيـف فهم صدِّيق الأمة أن النبى ﷺ لـم يرد مجرد اللفظ بهـا من غير إلزام لمعناها وأحكامها، فكان ذلك هو الصواب، واتفق عليه الصحابة، ولم يختلف فيه منهم اثنان إلا ما كان من عمر حتى رجع إلى الحق. وكـان فهم الصديق هو الموافق لنصوص القرآن والسنَّة.

وفى «الصحيحين» أيضاً عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّـى يَشْهَدُوا أَنْ لا إلهَ إلا الله وأَنَّ مُحمداً رَسُـولُ الله وَيقيمُوا الصَّلاةَ ويُـؤْتُوا الزَّكَاةَ فإذا فَعَلُوهُ عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءَهُم وأموالـهُم إلا بحقها وَحِسَابُهم على الله»[2]. فهذا الحديث كأنه براءة بيَّن فيه ما يقاتَل عليه النـاس ابتداء، فإذا فعلوه وجب الكف عنهم إلا بحقه، فإن فعلوا بعد ذلك ما يناقض هذا الإقـرار والدخول فى الإسلام وجب القتال حتى يكون الدين كله لله، بل لو أقـروا بالأركان الخمسة وفعلوها، وأبوا عن فـعل الوضوء للصلاة ونحوه، أو عن تحريم بعض محرمات الإسلام كالربا أو الزنا أو نحو ذلك وجب قتالهم إجماعاً، ولـم تعصمهم لا إله إلا الله ولا مافعلوه من الأركان.

وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، وأنه لـيس المراد منها مجرد النطق، فإذا كانت لاتعصم من اسـتباح محرماً، أو أبى عن فعل الوضوء مثلاً بـل يقاتل على ذلك

(١) تقدم تخريجه (٢) تقدم.

(*) (متفق عليه) أخرجه البخارى (١٣٩٩) ومسلم فى الايمان (١/ ٢٣٢/ ٣٢).
وانظر «رياض الصالحين» (١٢١٣ ـ بتخريجنا).

حتى يفعله، فكيف تعصم من دان بالشرك وفعله وأحبه ومدحه، وأثنى على أهله، ووالى عليه، وعادى عليه، وأبغض التوحيد الذى هو إخلاص العبادة لله، وتبرأ منه، وحارب أهله، وكفرهم، وصد عن سبيل الله كما هو شأن عباد القبور.

وقد أجمع العلماء على أن من قال: لا إله إلا الله، وهو مشرك أنه يقاتل حتى يأتى بالتوحيد(*).

تنبيه

قال سليمان آل الشيخ: ذكر التنبيه على كلام العلماء فى ذلك فإن الحاجة داعية إليه لدفع شبه عباد القبور فى تعلقهم بهذه الأحاديث وما فى معناها مع أنها حجة عليهم بحمد الله لا لهم.

ثم ذكر كلام النووى المتقدم، وما نقله عن الخطابى والقاضى عياض، فقال:

قال أبو سليمان الخطَّابى فى قوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»: معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، ثم يُقاتلون، ولايرفع عنهم السيف.

وقال القاضى عياض: اختصاص عصم المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك مشركوا العرب، وأهل الأوثان، ومن لايوحد، وهم كانوا أَول من دعى إلى الإسلام، وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلايكتفى فى عصمته بقوله لا إله إلا الله، إذ كانى قولها فى كفره، وهى من اعتقاده، فلذلك جاء فى الحديث الآخر. «**ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**».

وقال النووي: لابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ، وكما جاء فى الرواية الأخري. «**ويؤمنوا بى وبما جئت به**».

وقال شيخ الإسلام: لماسئل عن قتال التتار مع التمسك بالشهادتين، ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام، فقال: كل طائفة ممتنعة من التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبو بكر والصحابة رضى الله عنهم مانعى الزكاة، وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم قال: فأيما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض

(*) كلام سليمان آل الشيخ السابق فيه تفصيل سيأتى بيانه، حيث أنه يفرق بين الإسلام الحكمى والإسلام الحقيقي. فانتبه.

الصلوات المفروضات، أو الصيام أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التى لاعذر لأحد فى جحودها أو تركها، التى يكفر الواحد بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء.

قال: وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة بل هم خارجون عن الإسلام بمنزلة مانعى الزكاة. ومثل هذا كثير فى كلام العلماء.

والمقصود التنبيه على ذلك، ويكفى العاقل المنصف ما ذكره العلماء من كل مذهب فى باب حكم المرتد، فإنهم ذكروا فيه أشياء كثيرة يكفر بها الإنسان، ولو أتى بجميع الدين. وهو صريح فى كفر عباد القبور. ووجوب قتالهم إن لم ينتهوا حتى يكون الدين لله وحده، فإذا كان من التزم شرائع الدين كلها إلا تحريم الميسر أو الربا أو الزنا يكون كافراً يجب قتاله، فكيف بمن أشرك بالله ودعى إلى إخلاص الدين لله والبراءة والكفر بمن عبد غير الله فأبى عن ذلك، واستكبر، وكان من الكافرين؟!

قال ابن عثيمين(١): قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله».

أي: بعبادة من يعبد من دون الله، قلنا ذلك، لأن عيسى بن مريم كان يعبد من دون الله، ونحن نؤمن به، لكن لانؤمن بعبادته ولا بأنه مستحق للعبادة؛ كما قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾**.

وفى قوله: «**وكفر بما يعبد من دون الله**» دليل على أنَّه لايكفى مجرَّد التلفظ بلا إله إلا الله، بل لابد أن تكفر بعبادة من يُعبد من دون الله، بل وتكفر أيضاً بكل كفر، فمن يقول: لا إله إلا الله، ويرى أن النصارى واليهود اليوم على دين صحيح؛ فليس بمسلم، ومن يرى الأديان أفكاراً يختار منها ما يريد؛ فليس بمسلم، بل الأديان عقائد مرسومة من قبل الله - عزوجل -، يتمشى الناس عليها، ولهذا ينكر على بعض الناس فى تعبيره بقوله: الفكر الإسلامي، بل الواجب أن يقال: الدين الإسلامى أو العقيدة الإسلامية،

(١) القول المفيد (١/ ١٩٥)

ولا بأس بقول المفكِّر الإسلامي؛ لأنَّه وصف للشخص نفسه لا للدين الذى هو عليه. أهـ.

● **شبهة تكفير عوام المسلمين المستور حالهم والرد عليها**

استدل أهل البدع والأهواء بقول الإمام محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله- فى (مسائله على هذا الباب): ومنها قوله ﷺ: **«من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»**(١).

وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لاشريك له، بل لايحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله، فإن شك، أو توقف لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها، وأجلها! ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع(٢)! أهـ. على تكفير عوام المسلمين المستور حالهم أو فى التوقف عن الحكم بإسلامهم وعصمة دمائهم وأموالهم لأن ظاهر هذا الكلام من الإمام أنه اشترط ستة أمور لعصمة المال والدم أى للإسلام الحكمى (مناط الحكم) وليس للإسلام الحقيقى (مناط الانتفاع) وهذه الشروط كما تقدم هى [التلفظ معرفة المعنى - الإقرار بذلك- لا يدعو إلا الله- الكفر بما يعبد من دون الله] وهناك شرط سادس[الشك والتردد] لهذا تعلق أهل البدع بهذا الكلام دون النظر منهم إلى من كان يخاطبهم الإمام بهذا الكلام، وإليك الجواب عن هذه الشبهة وما يعتذر به الإمام عن هذا الكلام:

● **الجواب بذكر جملة مختصرة فيما يثبت به حكم الإسلام**(٣).

أولا: النطق بالشهادتين:

لحديث أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله»**(٤).

وحديث ابن عمر رضى الله عنه: **«حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها»**(٥).

(١) تقدم تخريجه وانظر «فضل الغنى الحميد» (١٧٧).
(٢) تقدم ذكر كلامه.
(٣) فضل الغنى الحميد (١٧٩).
(٤) تقدم تخريجه
(٥) تقدم تخريجه

قال النووى رحمه الله: وفيه: صيانة مال من أتى بكلمة التوحيد، ونفسه، ولو كان عند السيف. وفيه: أن الأحكام تجرى على الظاهر، والله يتولى السرائر. أهـ.

قال ابن رجب الحنبلى: ومن المعلوم بالضرورة أن النبى ﷺ كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول فى الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلماً، فقد أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال لا إله إلا الله لما رفع عليه السيف، واشتد نكيره عليه[1] ولم يكن النبى ﷺ ليشترط على من جاءه يريد الإسلام، ثم أن يلتزم الصلاة والزكاة. أهـ.

وقال أيضاً: إن كلمتى الشهادتين بمجردهما تعصم من أتى بهما ويصير بذلك مسلماً، فإذا دخل فى الإسلام: فإن أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وقام بشرائع الإسلام؛ فله ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، وإن أخل بشىء من هذه الأركان فإن كانوا جماعة لهم منعة قوتلوا. أهـ[*].

وحديث أسامة رضى الله عنه هو فى آخر الإسلام، ويدل على هذا الأمر أيضاً حديث المسيب فى قصة موت أبى طالب، وفيه: أن رسول الله ﷺ قال له: **«يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»**[2].

وفى حديث المقداد بن الأسود رضى الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلنى فضرب إحدى يدى بالسيف فقطعها ثم لاذ منى بشجرة، فقال: أسلمت لله، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: **«لاتقتله»** قال: فَقلت يارسول الله، إنه قد قطع يدى ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال رسول الله ﷺ: **«لاتقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك[3] قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته[4] قبل أن يقول كلمته التى قال»**[5].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [متفق عليه] البخارى (١٣٦٠)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٢٤٤/٣٩) عن المسيب بن حزن به.

(٣) أي: معصوم الدم محرم قتله

(٤) أي: غير معصوم الدم لأنك قتلت مسلماً.

(٥) تقدم تخريجه وهو فى «الصحيحين»

(*) جامع العلوم والحكم (١/ ١٣٣)، بتحقيقنا ط نزار الباز.

والكناية عن الشهادتين ممن لايحسنها، كصريح لفظ الإسلام، أفاده مجد الدين ابن تيمية في «المنتقي» في باب ما يصير به الكافر مسلماً، واحتج بحديث ابن عمر رضي الله عنه: «**قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، فجعل خالد يقتل ويأسر**» - الحديث، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**»(١).

وفي الباب حديث معاوية بن الحكم السلمي أن النبي ﷺ قال لجارية: «**أين الله؟**» **قالت: في السماء، قال: «من أنا؟»، قالت: رسول الله، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة»**(٢).

وفيه أيضاً حديث رجل من الأنصار، وفيه من الزيادة السؤال عن الإيمان بالبعث بعد الموت.

قال النووي في «روضة الطالبين» - فيما تحصل به توبة المرتد وفي معناها إسلام الكافر الأصلي -: وقد وصف الشافعي رضي الله عنه توبته، فقال: أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويبرأ من كل دين خالف الإسلام. أهـ.

وقال في موضع: إذا أتى بالشهادتين صار مسلماً، وليس هذا باختلاف قول عند جمهور الأصحاب كما ذكرنا في كتاب الظهار، بل يختلف الحال باختلاف الكفار، وعقائدهم.

قال البغوي: إن كان الكافر وثنياً، أو ثنويًا لايقر بالوحدانية، فإذا قال لا إله إلا الله حكم بإسلامه، ثم يجبر على قبول جميع الأحكام، وإن كان مقراً بالوحدانية، منكراً نبوة نبينا ﷺ؛ لم يحكم بإسلامه، حتى يقول مع ذلك محمد رسول الله إلى جميع الخلق، أو يبرأ من كل دين خالف الإسلام، وإن كان كفره بجحود فرض، أو استباحة محرم لم يصح إسلامه حتى يأتي بالشهادتين، ويرجع عما اعتقده، ويستحب أن يمتحن كل كافر أسلم بالإيمان بالبعث. أهـ.

قال أبو القاسم الخرقي الحنبلي: ومن شهد عليه بالردة، فقال: ما كفرت فإن شهد أن لا إلا الله، وأن محمداً رسول الله لم يكشف عن شيء. أهـ.

قال ابن قدامة في «المغني» شارحاً لهذا الكلام: «إذا ثبتت ردته بالبينة، أو غيرها، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لم يكشف عن صحة ما شهد عليه

---

(١) تقدم تخريجه في مبحث الولاء البراء

(٢) [صحيح] في المساجد (٣/ ٢٣/ ٣٣).

وانظر «منار السبيل» بتخريجنا

به، وخلى سبيله، ولايكلف الإقرار بما نسب إليه لقول النبى ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عزوجل»**(١).

ولأن هذا يثبت به إسلام الكافر الأصلى فكذلك إسلام المرتد، ولا حاجة مع ثبوت إسلامه إلى الكشف عن صحة ردته، وكلام الخرقى محمول على من كفر بجحد الوحدانية، أو جحد رسالة محمد ﷺ، أو جحدهما معا، وأما من كفر بغير هذا، فلا يحصل إسلامه إلا بالإقرار بما جحده، ومن أقر برسالة محمد ﷺ، وأنكر كونه مبعوثاً إلى العالمين؛ لايثبت إسلامه، حتى يشهد أن محمداً رسول الله إلى الخلق أجمعين، أو يتبرأ مع الشهادتين من كل دين يخالف الإسلام، قال: وإن ارتد بجحد فرض؛ لم يسلم حتى يقر بما جحده، ويعيد الشهادتين. أهـ.

وقال أيضاً: وإذا أتى الكافر بالشهادتين، ثم قال: لم أرد الإسلام؛ فقد صار مرتداً، ويجبر على الإسلام، نص عليه أحمد فى رواية جماعة. أهـ.

والنقول فى هذا كثيرة جداً، وهى ـ بحمد الله ـ متفقة على أنه لايشترط أكثر من النطق بالشهادتين فى صحة إسلام الكافر، ولا من يقولها حال كفره، سواء كان مرتداً، أو أصليا، فيحتاج إلى التصريح بالبراءة من كفره مع نطقها، وهذا لايغير من حكم النطق شيئاً لمن لم يكن كذلك، فضلا عمن لايعلم عنه سوى الإسلام الصريح قولاً وعملاً بأركانه، فالتوقف عن الحكم بالإسلام بزعم أن الناس اليوم لا يعرفون معنى لا إله إلا الله، من شر البدع، لأن تفصيل العلم ليس شرطاً، كما بيناه فى شروط «لا إله إلا الله» كما أن الناس فى عصر الرسول ﷺ، والصحابة رضى الله عنهم، ومن بعدهم من أهل العلم كان فيهم العربي، والعجمي، ولم يؤمر أحد بزيادة على القول.

ولذا قال الإمام أحمد: الإسلام: الكلمة، موافقاً للإمام الزهرى فى ذلك ومقصوهما كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يدخل فيه بكلمة الشهادة، بل كان من العرب فى عهده عليه الصلاة والسلام من لايدرى على التفصيل معنى «لا إله إلا الله»، كما يدل عليه قصة ذات أنواط(٢)، فهل عند ذلك غير رسول الله ﷺ حكم النطق بالشهادة؟

وقد عرفنا أن حديث أسامة(٣) فى آخر الإسلام بعد الفرائض، وقد كان عدى بن حاتم(٤) لايدرى أن اتباع الأحبار والرهبان فى تبديل الشرع عبادة لهم تنافى «لا إله إلا الله»(٤).

(١) سبق تخريجه.
(٢) سيأتى تخريجه (٣) تقدم
(٤) حديث عدى بن حاتم رضى الله عنه سبق تخريجه.

والنصارى كلهم على ذلك فلم يطلب الرسول ﷺ منهم بزيادة على الشهادتين، ثم يعلموا بعد ذلك، ورسالته عليه الصلاة والسلام لهرقل من أوضح الأدلة على ذلك(١)، وهذا كله - بحمد الله - طريقة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأبنائه، وعلماء دعوته، فعندما نسب إليهم تكفير عموم المسلمين بين لهم في رسائله: أنه يكفر من قامت عليه الحجة، فأصر على الشرك، أو رضي به، أو قاتل أهل التوحيد مع أهل الشرك، ثم قال: وأكثر الأمة - بحمد الله - ليسوا كذلك، ونفى عن نفسه شبهة التكفير بالعموم(٢).

الأمر الثاني: الذي يثبت به حكم الإسلام: الولادة لأبوين مسلمين أو أحدهما.

وذلك لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، ثم قال أبو هريرة ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾** [الروم: ٣٠](٣).

بوب عليه مجد الدين بن تيمية في «المنتقي»: «باب تبع الطفل لأبويه في الكفر، ولمن أسلم منهما في الإسلام، وصحة إسلام المميز» ولا خلاف بين أهل العلم في أن الأبوين إذا كانا مسلمين؛ كان أولادهما مسلمين، والجمهور على أن الولد يتبع المسلم منهما أيا كان الأب والأم، وهو الصواب بلا شك؛ لهذه الأحاديث، وأما من ولد لأبوين كافرين فهو كافر في أحكام الدنيا، والخلاف مشهور في حكمهم في الآخرة، والأرجح، أنهم في الجنة خدم لأهلها، وقد يكون بعضهم من أهل الإمتحان والله أعلم، ومثل الولادة، أن يسلم أحد أبوي الطفل، وهو دون البلوغ، أو يأسره المسلمون بعيداً عن أبويه؛ فيصير مسلماً بذلك.

الأمر الثالث: الذي يثبت به الإسلام: الصلاة، على الصحيح من أقوال العلماء - مع ثبوت الخلاف فيه - وذلك لحديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل - قال فبلغ ذلك النبي ﷺ فامر لهم بنصف العقل(٤) وقال: **«أنا بريء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين»** قالوا: يارسول الله: لم؟ قال: «لاتراءى ناراهما»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه: بلفظ: «من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم» - الحديث.

(٢) (انظر رسالة منهاج الحق والإتباع) وفيها رسالة الشيخ نفسه لبعض من أنكر عليه، وكذا كتاب: «صيانة الإنسان».

(٣) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، والترمذي (٢١٣٨)، وأحمد (٢/٣٩٣).

(٤) يعني نصف الدية.

(٥) (صحيح) رواه أبو داود (٢٥٣٠) والترمذي (١٦٠٤)

قال ابن القيم رحمه الله: إنما أمر لهم بنصف العقل بعد علمه بإسلامه لأنهم قد أعانوا على أنفسهم بمقامهم بين ظهرانى الكفار فكانوا كمن هلك بجناية نفسه وجناية غيره وهذا حسن جداً. أهـ[1].

قال ابن قدامة: إذا صلى خلف من شك فى إسلامه أو كونه خنثى، فصلاته صحيحة، ما لم يبن كفره، وكونه خنثى مشكلاً لأن الظاهر من المصلين الإسلام، لا سيما إذا كان إمامًا، والظاهر السلامة من كونه خنثى سيما من يؤم الرجال، فإذا تبين بعد الصلاة أنه كان كافرًا أو خنثى مشكلاً فعليه الإعادة على ما بينا.

وإن كان الإمام ممن يسلم تارة ويرتد أخرى: لم يصل خلفه حتى يعلم على أى دين هو.

ثم قال: قال أصحابنا: يحكم بإسلامه بالصلاة، سواء كان فى دار الحرب أو فى الإسلام وسواء صلى جماعة أو فرادى، فإن أقام بعد ذلك على الإسلام فلا كلام، وإن لم يقم عليه فهو مرتد يجرى عليه أحكام المرتدين، وإن فات قبل ظهور ما ينافى الإسلام فهو مسلم يرثه ورثته المسلمون دون الكافرين.

وقال أبو حنيفة: إن صلى جماعة أو منفردًا فى المسجد كقولنا، وإن صلى فرادى فى غير المسجد لم يحكم بإسلامه.

وقال بعض الشافعية: لا يحكم بإسلامه بحال، لأن الصلاة من فروع الإسلام، فلم يصر مسلمًا بفعلها كالحج والصيام، ولأن النبى ﷺ قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها**»، وقال بعضهم: إن صلى فى دار الإسلام فليس بمسلم، لأنه قد يقصد الاستتار بالصلاة، وإخفاء دينه، وإن صلى فى دار الحرب فهو مسلم، لأنه لا تهمة فى حقه.

ولنا: قول النبى ﷺ: «**نهيت عن قتل المصلين**»[2] وقال: «بينا وبينهم الصلاة»[3] فجعل الصلاة حدًا بين الإسلام والكفر، فمن صلى فقد دخل فى حد الإسلام، وقال فى المملوك« فإذا صلى فهو أخوك»، ولأنها عبادة تختص بالإسلام، فالإتيان بها إسلام كالشهادتين، وأما الحج فإن الكفار كانوا يفعلونه، والصيام إمساك عن المفطرات، وقد يفعله من ليس بصائم،اهـ[4].

وقال الشافعى رحمه الله: إن صلى فى دار الحرب؛ حكم بإسلامه، وإن صلى فى دار الإسلام، لم يحكم بإسلامه. أهـ.

---

(١) نقلاً عن عون المعبود. (٢) أخرجه أبو داود (٤٩٢٨) عن أبى هريرة به.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٦٢١)، والنسائى فى «الكبرى» (٣٢٩)، وابن ماجة (١٠٧٩) عن بريدة به وأنظر «السلسبيل» (٢٥٢ بتخريجنا) وتقريب الأسانيد (ح ٤٨) بتخريجنا.

(٤) المغنى (٢/١٦، ١٧).

والصحيح: أن هذا في الظاهر، أما فيما بينه وبين الله فلابد من النطق بالشهادتين، مع القدرة عليهما؛ حتى يصح إيمانه باطناً، لأن النطق بهما: شرط، كما يدل عليه حديث المسيب في موت أبي طالب: حيث كان يعتقد صحتها، لكنه لم ينطق؛ فمات على الشرك.

وقد أطلق بعض أهل العلم أن الكافر يصير مسلماً، إذا أقر بما يصير المسلم كافراً إذا جحده، ويجبر على قبول الإسلام، والصحيح ما ذكرناه من الأمور الثلاثة، وما عداها يفترق عنها؛ فلايصح القياس عليها. والله أعلم.

وهذا كله فيمن علم كفره، أما من لم نعلم كفره، ولا إسلامه، ولكنه أظهر شعار الإسلام؛ وجب أن يعامل بمقتضى ما أظهر، كتحية الإسلام، أو التسمي بأسماءالمسلمين، أو الأذان في قوم[1]،ووجود المسجد، فإن ظهر أنه كان كافراً لم يجعل بما أظهر مرتداً، بل هو على كفره الأصلي؛ لأنه لم يدخل في الإسلام بذلك، وإنما عاملناه بما أظهر من القرائن، بخلاف الشهادتين، والولادة لأب أو أم مسلمين، أو الصلاة فإنه إن ادعى أنه لم يرد الإسلام لم يقبل منه، ويصير مرتداً.

ودليل المعاملة بالقرائن ما رواه أنس رضي الله عنه، قال: **«كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يغز حتى يصبح، فإذا سمع أذاناً أمسك، وإن لم يسمع أذاناً أغار بعد ما يصبح»**[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنمًا له، فسلم عليهم، فقالوا لايسلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه، فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾**[3]. وفي رواية: **«أن الرسول ﷺ أرسل بديته»**[4].

---

(١) يلاحظ هنا أن المؤذن نفسه ينطق بالشهادتين في الأذان فكفره بعد ذلك ردة، أما بالنسبة لمن معه فالأذان قرينة في حقهم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) النساء/ ٩٤.

(٤) [صحيح] أخرجه البخاري (٤٥٩١)، والترمذي (٣٠٣٠)، واللفظ الأول للترمذي

مناقشة قول الإمام - رحمه الله:

مما تقدم من أدلة السنة بفهم سلف الأمة عينه فى الرد على هذه البدعة وهذه الفرقة فى تكفير عوام الأمة، ويبقى مناقشة ما فى قول الإمام من كلام ربما خالف فيه ظاهر ما تقدم عن النبى ﷺ.

قال رحمه الله «وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله» يعنى هذا الحديث يبين معنى لا إله إلا الله. قال «فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله، ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله.. إلخ»

وفيه أنه اشترط ستة أمور لعصمة المال والدم: التلفظ، معرفة المعنى، الإقرار، لايدعوا إلا الله، الكفر بما يعبد من دون الله، عدم الشك والتردد.

فأدخل الإسلام الحكمى فى الإسلام الحقيقى فأين هذا الكلام من قول الرسول لعلى «انفذ على رسلك...»(١) فيدعوهم إلى لا إله إلا الله، ويخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك. فهل هو اشترط عليهم شيئًا فى الحديث من هذه الستة، فيستحيل أن تأمر الناس بالصلاة وأنت تقتلهم فهذا تكليف بالمستحيل والله لم يكلف إلا ما فى الوسع وهذا لايتصور شرعاً ولا عقلاً كما تقدم من كلام ابن رجب الحنبلي.

وكذلك فى حديث معاذ: «ادعوهم إلى لا إله إلا الله»(٢) فأين شرط معرفة معناها والإقرار بها... بل هم صاروا مسلمين قبل أن يدعوا للصلاة والزكاة فكلام الشيخ هنا فيه جمع بين الإسلام الحكمى والحقيقى لكن نلتمس العذر للمعنف فلعله عندما رأى خروجًا عن الإسلام وجاهلية وظن الناس أنه بمجرد التلفظ صاروا كاملى الإسلام فحدث منه رد فعل عنيف للترهيب والزجر فلهذا كما سيأتي، أما رد فعل أهل البدع والأهواء لم ينضبط بضابط علمى أخذوا يشترطون شروطًا الأحاديث ليست فيها وجعلوها فى الإسلام الحكمي.

فإياك مِنْ رد الفعل العاطفي، وتَمَسكْ بأصول أهل السنة من هذا وشغب وتشنيع أهل البدع. فأهل السنة هم الحسنة بين السيئتين فلا نقول أن المتبرجة كافرة بمجرد تبرجها لأن التبرج ليس بكفر ولانقول أنها أخت لنا فى الله بل نقول هى مسلمة عاصية لأن الأخوة فى الله لها شروط ثقال لانستطيع عليها، فإياك من رد الفعل العاطفى الذى فيه وقع كثير من أهل السنة.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وقوله: «فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه».

قال الفقير: فالشك والتردد عمل قلبى فكيف نجرى أحكامًا دنيوية على مسائل باطنية لايعلمها إلا الله عزوجل، فعدم الشك والتردد هو الإسلام الحقيقى وهذا ما قاله النبى «غير شاك فيهما حرمه الله على النار»(١).

وجاء الشارح يؤكد هذا الكلام بقوله: «وهذا هو الشرط المصحح لقوله لا إله إلا الله فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التى ذكرها المصنف رحمه الله أصلاً».

فمجرد الإقرار أسلموا، فندعوهم لإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإن أبوا يعنى أعرضوا بعد الإقرار والإسلام قوتلوا على أنهم مرتدين وليسوا كفار كفر أصلي، فقد يمتنع ولا يفعل مع القبول -أى قَبِل الزكاة ولم يصل فاللحاكم أن يقاتلهم من باب قتال أهل البغى لا الردة كما قاتل أبو بكر مانعى الزكاة الذين كانوا كما قال النووى نقلاً عن الخطابى فى «معالم السنن» فى شرح حديث أبى هريرة «أمرت أن أقاتل الناس..».

قال الخطابي: وفيه أن أبا بكر قاتل صنفين من مانعى الزكاة.

الأول: صنف جحد وأنكر فهذا ارتد وقوتل من باب الردة.

الثاني: وصنف تأول.

فهذا لم يقاتل قتال المرتد؛ لكن قوتل قتال أهل البغي، فهذا امتنع وقوتل على الامتناع فإنهم تأولوا قول الله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فالصدقة منوطة بالرسول فتأولوا أن الذى سيأخذ الزكاة منهم الرسول فقط وهو الذى سيصلى عليهم ويطهرهم بهذه الصلاة، وهذا لا يتصور إلا فى الرسول فإن مات لايأخذها غيره، فتأولوا فحماهم من حكمنا عليهم بالردة.

فلماذا سميت حروب الردة؟

قال النووى: لأن الغالب عليها كذلك، لكن كان فيها ناس بغاة غير مرتدين.

وقدمنا نص كلام الخطابى نقلاً عن النووى قبل كلامنا هذا.

فكذلك قد يمتنع عن الزكاة متؤول أو عن الصلاة بعد أن أقر فهذا اختلف العلماء فى تكفيره وهما قولان وروايتان عن أحمد كما نقلها ابن تيمية فى «فتاويه»، قال: وكذلك مانعى الزكاة فإن الصديق والصحابة ابتدأوا قتالهم، قال الصديق «والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه»(٢) فهم يقاتلون إذا امتنعوا من أداء

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الواجبات وإن أقروا بالوجوب ثم تنازع الفقهاء فى كفر من منعها وقاتل الإمام عليها مع إقراره بالوجوب على قولين هما روايتان لأحمد».

[قلت]: هناك توجيه للروايتين: أن الإمام أحمد حينما قال (يكفر) اعتبر أن القتال على الإمتناع دليل على الرد القلبى، فقال: يكفر فلو أقر بالوجوب، ثم امتنع ثم نصب القتال للإمام فاعتبر الامتناع مع مقاتلة الإمام قرينة على الردة، فقال بكفره.

- وحينما قال (لايكفر) اعتبر أن الإقرار يكفى وأن هذا الامتناع والمقاتلة بغي،وليست قرينة على سوء المعتقد من ردة أو إنكار.

الشاهد من هذا الكلام: أنه يرى أنه بمجرد الإقرار حتى وإذا لم يلتزم الشرائع بعد أن أقر بوجوبها والإيمان بها جملة وعلى الغيب أن هذا لايكفر قولة واحدة حتى وإن قاتل لايكفر قولة واحدة، بل فيها خلاف، فهو لايرى حداً للإسلام إلا الإقرار كما نقل الحافظ فى «الفتح»(١) من هذا المنطلق وهذا الفهم نقرأ كلام الشارح.

إشكال:

ففى صحيح مسلم حديث أبى هريرة، وكذلك فى الصحيحين حديث ابن عمر هناك إشكال فى الحديثين.

فالحديث الأول: فى صحيح مسلم عن أبى هريرة مرفوعًا: «**أُمرتُ أن أُقاتل الناس حَتَّى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي، وبما جئتُ به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءَهم وأموالهم إلا بحقها وحِسَابُهم على الله**».

والحديث الثاني: فى الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «**أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عَصَموا مِنى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحِسَابُهم على الله**».

والإشكال هو أن الحديث لم يذكر الإقرار فقط، وإنما ذكر إقامة الصلاة وإتاء الزكاة فمعنى ذلك أن من قال لا إله إلا الله فقط غير مسلم إسلامًا قطعيًا تجرى عليه أحكام المسلمين فى الدنيا من عصمة المال والدم حتى يصلى ويزكي.

والجواب كما تقدم: أن كلمة «**أقاتل**» غير كلمة «**أقتل**» فهى تدل على قتل أحاد الناس وهذا لايتصور إلا أنهم حلال الدم لكن كلمة (**أقاتل**) لفظ مفاعلة يعنى من الجانبين يعنى إن هم أقروا ثم قاتلوا على عدم الصلاة والزكاة أقاتلهم،ولا يحكم عليهم بالردة

(١) انظر فتح البارى (١/٩٦،٩٧).

قولة واحدة بل يجرى عليهم الخلاف السابق، وهذا الذى احتج به أبو بكر لكنه لم يذكر هذه اللفظة إنما ذكرها أبو هريرة وابن عمر وإلا لو كان ذَكَرَ الصلاة والزكاة لما احتاج للقياس لكان ذكر اللفظة التى تنص على قتالهم لو قاتلوا على عدم الصلاة والزكاة.

فالحديث لايقول إن الإسلام الحكمى إقرار وعمل إنما هو الإقرار فقط فإن قاتلونا قاتلناهم.

وقد أفاض ابن دقيق العيد فى شرح هذه اللفظة فى شرح «عمدة الأحكام».

وفى الحقيقة هذا الحديث كان من أشكل الأحاديث حتى قرأت معنى هذه اللفظة فما وجدت فيه إشكال. وهذا نص عليه الحافظ ابن حجر وقال «**أقاتل**» غير «**أقتل**».

وقال الشافعي: ليس القتال من القتل بسبيل، وقد يحل قتال الرجل، ولايحل قتله. أهـ.

*** ما يعتذر به للمصنف رحمه الله:**

أولاً: **قال صاحب «فضل الغنى الحميد»**: هذا الكلام من المصنف رحمه الله، احتج به بعض أهل البدع فى تكفير عوام المسلمين ـ المستور حالهم ـ أو فى التوقف عن الحكم بإسلامهم، وعصمة دمائهم، وأموالهم، وذلك دون نظر من هؤلاء المبتدعين عن سيرة الشيخ، ودعوته، ومن كان يقاتلهم، وينازعهم، وجعل هذا الحديث حجة عليهم، فإن الشيخ - رحمه الله- إنما كان ينازع، ويقاتل من أصر على الشرك من دعاء غير الله، أو رضى به، وأقره، أو حارب التوحيد وأهله مع أهل الشرك، بعد بلوغ الحجة التى كان يدعوهم إليها، ويبينها لهم من أدلة الكتاب والسنة القطعية، وكان هؤلاء مع حالهم هذا، يقولون لا إله إلا الله فكان رحمه الله يعاملهم على أنهم مرتدون والمرتد الذى يقول لا إله إلا الله حال كفره لاينفعه مجرد الإقرار بها، حتى يضيف إليها الرجوع عما كان سبب ردته، كما هو معلوم من كلام أهل العلم فى أبواب الردة، وهذا مثل قول أهل العلم فى الكتابى الذى يشهد حال كفره لمحمد ﷺ بالرسالة، أو يقر بالوحدانية مع كفره، فلابد أن يضيف إلى الشهادتين عند إسلامه: شهادته لمحمد ﷺ بالرسالة لعموم الإنس والجن. وكالبهائية والقاديانية، فلابد أن يضيفوا إليها: تكذيبهم بالبهاء، وبالقاديان، كما فعل الصحابة مع أصحاب مسيلمة الكذاب، وأمثالهم، أما أن يجعل هذا الكلام حجة للتوقف فى عصمة دم ومال من ثبت له حكم الإسلام، ولم يعلم عنه ردة وخروج من الشرع، ولايحكم بإسلام من نطق الشهادتين، أو ولد لأبوين مسلمين

حتى يختبر ويمتحن بتفاصيل معينة وضعوها، كما تقدم فهذا القول من أخطر البدع، وأضلها، بل هو مخالف للمعلوم من الدين بالضرورة، فكيف يحمل عليه كلام الشيخ، ويقال إن هذا قصده؟!! أهـ[1].

ثانيًا: تقدم من قولنا أن عذر الإمام وجود هذه الردة وهذا الخروج عن الإسلام إلى الجاهلية مع ظن الناس في هذه الحالة بنطقهم بـ «لا إله إلا الله» أنهم صاروا كاملى الإسلام، فكان لهذا الرد العنيف من شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب للترهيب والزجر عن هذه الردة، وهذه الجاهلية ، واستلزم ذلك ألا يفصّل أحيانًا كما فى هذا الموضع ليكون ذلك أدعى للزجر والترهيب، وهذا ما يؤكد ما قدمناه فى المقدمة فى منهج الإمام فى هذا الكتاب، وأنه وعظى، دعوى، أكثر منه علمي، فلهذا ناسب فى مقام الوعظ الإجمال لا التفصيل الذى محله التعليم

ثالثًا: وقد يقال أنه جمع بين الإسلام الحكمى والحقيقي، لأن الأخير يشمل الأول، فإذا عبر عن الأول الإسلام الحكمى -بالأخير- الإسلام الحقيقى - فلأن الأخير يشمله وهذا التعبير نافع جدًا فى مقام الوعظ والترهيب، ومن هنا أنزل بعض السلف آيات الكفر الأكبر على الكفر الأصغر للترهيب،ولأن الأكبر يشمل الأصغر.

قوله: (وحسابه على الله).

فيه قبول توبة الزنديق،

قال النووى[2]: قلت: اختلف أصحابنا فى قبول توبة الزنديق وهو الذى ينكر الشرع جملة فذكروا فيه خمسة أوجه لأصحابنا:

أصحها والأصوب منها: قبولها مطلقاً للأحاديث الصحيحة المطلقة.

والثاني: لاتقبل ويتحتم قتله، لكنه إن صدق فى توبته نفعه ذلك فى الدار الآخرة وكان من أهل الجنة.

والثالث: إن تاب مرة واحدة قبلت توبته فإن تكرر ذلك منه لم تقبل.

والرابع: إن أسلم ابتداء من غير طلب قبل منه وإن كان تحت السيف فلا.

والخامس: إن كان داعياً إلى الضلال لم يقبل منه وإلا قبل منه. والله أعلم. أهـ.

---

(١) فضل الغنى الحميد (١٧٥، ١٧٦).

(٢) شرح النووى لمسلم (١/ ٢١٢)

قال ابن رجب[1]:

قوله (وحسابه على الله): استدل بهذا من يرى قبول التوبة الزنديق، وهو المنافق إذا أظهر العود إلى الإسلام ولم ير قتله بمجرد ظهور نفاقه كما كان النبى ﷺ يعامل المنافقين ويجريهم على أحكام المسلمين فى الظاهر مع علمه بنفاق بعضهم فى الباطن، وهذا قول الشافعى وأحمد فى رواية عنه، وحكاه الخطابى عن أكثر العلماء. والله أعلم. اهـ.

وقال ابن حجر[2] **(وحسابهم على الله)** أى فى أمر سرائرهم، دليل على قبول الأعمال الظاهرة، والحكم بما يقتضيه الظاهر، والإكتفاء فى قبول الإيمان بالإعتقاد الجازم خلافاً لمن أوجب تعلم الأدلة. ويؤخذ منه ترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد الملتزمين للشرائع، وقبول توبة الكافر من كفره، من غير تفصيل بين كفر ظاهر أو باطن.

فإن قيل: مقتضى الحديث قتال كل من امتنع من التوحيد، فكيف ترك قتال مؤدى الجزية والمعاهد؟ فالجواب من أوجه:

(أحدها) دعوى النسخ بأن يكون الإذن بأخذ الجزية والمعاهدة متأخراً عن هذه الأحاديث، بدليل أنه متأخر عن قوله تعالى **﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾**.

(ثانيها): أن يكون من العام الذى خص منه البعض، لأن المقصود من الأمر حصول المطلوب، فإذا تخلف البعض لدليل لم يقدح فى العموم.

(ثالثها): أن يكون من العام الذى أريد به الخاص فيكون المراد بالناس فى قوله **«أقاتل الناس»** أى المشركين من غير أهل الكتاب ويدل عليه رواية النسائى بلفظ **«أمرت أن أقاتل المشركين»**.

فإن قيل: إذا تم هذا فى أهل الجزية لم يتم فى المعاهدين ولافيمن منع الجزية.

أجيب بأن الممتنع فى ترك المقاتلة رفعها لاتأخيرها مدة كما فى الهدنة، ومقاتلة من امتنع من أداء الجزية دليل الآية.

(رابعها) أن يكون المراد بما ذكر من الشهادة وغيرها التعبيرعن إعلاء كلمة الله وإذعان المخالفين، فيحصل فى بعض بالقتل وفى بعض بالجزية وفى بعض بالمعاهدة

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٤٠) بتخريجنا.
(٢) فتح البارى (١/ ٩٧).

(خامسها) أن يكون المراد بالقتال هو، أو ما يقوم مقامه من جزية أو غيرها.

(سادسها) أن يقال الغرض من ضرب الجزية اضطرارهم إلى الإسلام، وسبب السبب سبب، فكأنه قال: حتى يسلموا أو يلتزموا ما يؤديهم إلى الإسلام، وهذا أحسن، ويأتى فيه ما فى الثالث وهو آخر الأجوبة. والله أعلم. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(١): قوله: «**وحسابه على الله**» أى إلى الله تبارك وتعالي، هو الذى يتولى حسابه، فإن كان صادقاً من قلبه جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم. وأما فى الدنيا فالحكم على الظاهر(*)، فمن أتى بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهراً وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

واستدل الشافعية بالحديث على قبول توبة الزنديق، وهو الذى يُظهر الإسلام، ويسرّ الكفر.

والمشهور فى مذهب أحمد ومالك أنها لاتقبل، لقوله تعالى: ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا** ﴾والزنديق لايتبين رجوعه لأنه مظهر للإسلام، مسرللكفر، فإذا أظهر التوبة لم يزد على ما كان منه قبلها.

والحديث محمول على المشرك. ويتفرع على ذلك سقوط القتل وعدمه، أما فى الآخرة فإن كان دخل فى الإسلام صادقاً قبلت.

- **وفيه**: وجوب الكف عن الكافر إذا دخل فى الإسلام ولو فى حال القتال حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

- **وفيه**: أن الإنسان قد يقول: لا إله إلا الله، ولايكفر بما يعبد من دون الله.

- **وفيه**: أن شرط الإيمان الإقرار بالشهادة، والكفر بما يعبد من دون الله مع اعتقاد ذلك واعتقاد جميع ما جاء به الرسول ﷺ.

- **وفيه**: أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن مال المسلم ودمه حرام إلا فى حق كالقتل قصاصاً ونحوه، وتغريمه قيمة ما يتلفه.

قوله: (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب). يعنى أن ما يأتى بعد هذه

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١٠٩).

(*) وهذا تنبيه واضح جلي لتفريق الشيخ فى هذا الموضع بين الإسلام الحكمي والحقيقي، حيث فرق بين الإسلام النافع فى الآخرة والإسلام المحكوم به فى الدنيا، فانتبه.

فِيهِ أَكْبَرُ المَسَائِلِ وَأَهمُّها.

وَهِيَ تَفْسِيرُ التَّوحِيدِ....................................

الترجمة من الأبواب شرح للتوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، لأن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، أن لايعبد إلا الله ولايعتقد النفع والضر إلا فى الله، وأن يكفر بما يعبد من دون الله، ويتبرأ منها ومن عابديها، وما بعد هذا من الأبواب بيان لأنواع من العبادات والاعتقادات التى يجب إخلاصها لله تعالي، وذلك هو معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، والله أعلم. أهـ.

قال ابن عثيمين(١): قوله: «وشرح هذه الترجمة».

المراد بالشرح هنا: التفصيل، والترجمة: هى التعبير بلغة عن لغة أخري، ولكنَّها تطلق باصطلاح المؤلِّفين على العناوين والأبواب، فيقال: ترجم على كذا؛ أي: بوَّب له. أ.هـ.

قال الفقير: وضعت كلمة ترجمة فى اللغة العربية، لتدل على أحد معان أربعة:

أولها: تبليغ الكلام لمن لم يبلغه، ومنه قول الشاعر:

إن الثمانين وبُلِّغتُها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

والمقصود أن الرجل كبر وثقل سمعه.

ثانيها: تفسير الكلام بلغته التى جاء بها، ومنه قيل فى ابن عباس: إنه ترجمان القرآن.

ثالثها: تفسير الكلام بلغة غير لغته.

رابعها: نقل الكلام من لغة إلى أخرى. والدليل حديث هرقل فى الصحيح وحديثه مع أبى سفيان بترجمان.

وأيضاً: تطلق الترجمة على السيرة والتاريخ، كما يقال: ترجمة فلان، أى: سيرته وتاريخه.

وفيه مسائل:

قوله: «**فيه أكبر المسائل وأهمها، وهى تفسير التوحيد**».

فتفسير التوحيد أنه لابد فيه من أمرين:

الأول: البراءة مما سوى الله ـ عزوجل ـ والكفر بغيره.

(١) القول المفيد (١/ ١٩٥، ١٩٦).

وَتَفسيرُ الشَّهَادَةِ. وَبَيَنها بِأُمُورٍ وَاضِحَةٍ.

ومِنْهَا آيَةُ الإِسْرَاءِ: بَيَّنَ فِيها الرَّدَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الصَّالِحِينَ؛ فَفِيهَا بَيَانُ أَنَّ هذَا هُوَ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ.

الثاني: إثبات الألوهية لله وحده؛ فلابد من النفي والإثبات لتحقيق التوحيد؛ لأن التوحيد جعل الشيء واحداً بالعقيدة والعمل، وهذا لابد فيه من النفي والإثبات.

فإذا قلت: زيد قائم؛ أثبتَّ له القيام ولم توحده، لكن إذا قلت: لاقائم إلا زيد؛ أثبت له القيام ووحدته به.

وأيضاً إذا قلت: الله إله أثبتَّ له الألوهية، لكن لم تنفها عن غيره؛ فالتوحيد لم يتم.

قوله: **«تفسير الشهادة»**.

الشهادة: هي التعبير عما تيقنه الإنسان بقلبه؛ فقول: أشهد أن لا إله إلا الله؛ أي: أنطق بلساني معبراً عما يكنه قلبي من اليقين، وهو أنه لا إله إلا الله.

قوله: **«منها آية الإسراء»**.

وهي قوله تعالى: **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾**(١) الآية؛ فبيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، وبيَّن أن هذا هو الشرك الأكبر؛ لأن الدعاء من العبادة، قال تعالى: **﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾**(٢)؛ فدلَّ على أنَّ الدعاء عبادة، وإلا؛ لكان أول الكلام مناقضاً لآخره، مع أنَّ آخر الكلام تعليل لأوله، فكل من دعا أحداً غير الله حياً أو ميتاً؛ فهو مشرك شركاً أكبر.

والدعاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: جائز، وهو أن تدعو مخلوقاً بأمر من الأمور التي يمكن أن يدركها بأشياء محسوسة معلومة؛ فهذا ليس من دعاء العبادة، بل هو من الأمور الجائزة، قال ﷺ: **«وإذا دعاك فأجبه»**(٣).

---

(١) الإسراء: ٥٧

(٢) غافر: ٤١

(٣) **[صحيح]** رواه: مسلم (٤/ ١٧٠٤)

ومنْهَا آيَةُ (براءَة) بيَّـنَ فِيها أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ اتَّخذُوا أَحْبَارَهُـمْ وَرُهبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ الله.

وَبَيَّنَ بـأَنَّهُمْ لَمْ يُـؤْمَرُوا إلاَّ بأنْ يَعْبُـدُوا إلهاً واحداً، مَـعَ أَنَّ تَفسِيـرَهَا الذِّي لا إشْكَالَ فِيه طَاعَةُ العُلَمَاء وَالعُبَّادِ فِي المَعْصِيَةِ، لاَدُعَاؤهم إيَّاهُم.

وَمنْهَا قَوْلُ الخَـلِيلِ عَلَيْه السَّلاَمُ لِـلْكُفَّارِ ﴿إنَّنِي بَـرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الآية.

الثاني: أن تدعو مخلوقاً مطلقاً، سواء كان حياً أو ميتاً فيما لايقدر عليه إلا الله؛ فهذا شرك أكبر لأنك جعلته نداً لله فيما لايقدر عليه إلا الله، مثل: يا فلان اجعل ما فى بطن امرأتى ذكراً.

الثالث: أن تدعو مخلوقاً ميتاً لايجيب بالوسائل الحسية المعلومة؛ فهذا شرك أكبر أيضاً لأنه يدعو من كان هذه حاله حتى يعتقد أن له تصرفاً خفياً فى الكون.

قوله: «**ومنها: آية براءة بين فيها أنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**».

وهذا شرك الطاعة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهية؛ لأنَّ الحكم شرعياً كان أو كونياً إلى الله تعالى؛ فهو من تمام ربوبيته، قال تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾(١)، وقال تعالي: ﴿**لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(٢).

والشيخ رحمه الله جعل شرك الطاعة من الأكبر، وهذا فيه تفصيل، وسيأتى إن شاء الله فى باب من أطاع الأمراء والعلماء فى تحليل ما حرَّم الله أو بالعكس.

قوله: «ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُون إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾(٣)؛ فاستثنى من المعبودين ربه.

فدل هذا على أن التوحيد لابد فيه من نفى وإثبات: البراءة مما سوى الله، وإخلاص العبادة لله وحده.

---

(١) الشورى: ١٠.

(٢) القصص: ٧٠.

(٣) الزخرف: ٢٦.

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هٰذه البَرَاءَةَ وَهذه المُوَالاَةَ هِيَ تَفسِيرُ شَهَادَةِ أن لاَ إلاَّ الله، فَقَالَ: ﴿وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه لعلهم يرجعون﴾.

وَمِنْهَا آيَةُ البَقَرة في الكُفَّار الَّذينَ قَالَ الله فيهم: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ [البقرة: ١٦٧]. ذَكَرَ أَنَّهم يُحِبُّونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ الله، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الله حُبّاً عَظيماً، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ في الإسْلاَم؛ فَكَيْفَ بِمَن أَحَبَّ النِدَّ أَكْبَرَ مِنْ حُبِّ الله؟! وَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يُحِبَّ إلاَّ النِدَّ وَحْدَهُ وَلَمْ يُحِبَّ الله؟!.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ (ﷺ) «مَن قَالَ لاَ إلَهَ إلاَّ الله وَكَفَرَ بِمَا يَعبُدُ مِن دُونِ الله؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى الله».

وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله؛ فقال: ﴿وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه لعلهم يرجعون﴾(١)، وهي لا إله إلا الله؛ فكان معنى قوله: ﴿إنني براءٌ مما تعبدون إلاَّ الذي فطرني﴾ هو معنى قول: لا إله إلا الله.

قوله: «ومنها: قول النبي ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله....» إلخ.

إذاً؛ فلابدّ من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾(٢).

قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله».

أي: كفر بالأصنام، وأنكر أن تكون عبادتها حقاً، فلايكفي أن يقول: لا إله إلا الله، ولا أعبد صنماً، بل لابد أن يقول: الأصنام التي تُعبد من دون الله أكفر بها وبعبادتها.

فمثلاً لايكفي أن يقول: لا إله إلا الله ولا أعبد اللات، ولكن لابد أن يكفر بها ويقول: إنَّ عبادتها ليست بحق، وإلا؛ كان مقراً بالكفر.

فمن رضي دين النصارى دينًا يدينون الله به، فهو كافر لأنَّه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام؛ فقد كذَّب قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾(٣).

وبهذا يكون كافراً، وبهذا نعرف الخطر العظيم الذي أصاب المسلمين اليوم باختلاطهم مع النصاري، والنصارى يدعون إلى دينهم صباحاً ومساءً، والمسلمون لايتحركون، بل بعض المسلمين الذين ما عرفوا الإسلام حقيقة يلينون لهؤلاء، ﴿ودوا لو تدهن

---

(١) الزخرف: ٢٨. (٢) البقرة: ٢٥٦ (٣) آل عمران: ٨٥.

وَهذا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَى (لا إِلَهَ إِلاَّ الله)؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ التَّلفُّظَ بِهَا عَاصِماً للدَّمِ وَالْمَال، بَلْ وَلاَ مَعْرِفَةَ مَعْنَاهَا مَعَ لَفظِهَا، بَلْ وَلاَ الإِقْرارَ بذلك، بَلْ وَلاَ كَونَهُ لاَ يَدْعُو إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ، بَلْ لاَ يحْرُمُ مَالُهُ وَدَمُهُ حَتَّى يُضِيفَ إلى ذلكَ الكُفْرَ بِمَا يُعْبَدُ دُون الله. فَإِن شَكَّ أَو تَوَقَّف؛ لَمْ يَحْرُمْ مَالُهُ وَلاَ دَمُهُ. فَيَالَهَا مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَعْظَمَهَا وَأَجَلَّهَا! وَيَا لَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَهُ! وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَعَهَا لِلْمُنَازِعِ!

فَيُدْهِنُون﴾(1)، وهذا من المحنة التي أصابت المسلمين الآن، وآلت بهم إلى هذا الذل الذى صاروا فيه.

قوله: «**ومنها: آية البقرة فى الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾**(2).

فجعل الله المحبة شركاً إذا أحبَّ شيئاً سوى الله كمحبته لله؛ فيكون مشركاً مع الله فى المحبة، ولهذا يجب أن تكون محبة الله خالصة لايشاركه فيها أحد حتى محبة الرسول ﷺ، فلولا أنَّه رسول ما وجبت طاعته ولا محبته إلا كما نحب أى مؤمن، ولايُمنع الإنسان من محبة غير الله، بل له أن يحب كل شيء تباح محبته؛ كالولد، والزوجة، ولكن لايجعل ذلك كمحبة الله.

قال المؤلف: «**فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟! وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟!**».

فالأقسام أربعة:

الأول: أن يحب الله أشد حباً من غيره؛ فهذا هو التوحيد.

الثاني: أن يحب غير الله كمحبة الله، وهذا شرك.

الثالث: أن يحب غير الله أشد حباً من الله، وهذا أعظم مما قبله.

الرابع: أن يحب غير الله وليس فى قلبه محبة لله تعالي، وهذا أعظم وأطم.

والمحبة لها أسباب ومتعلقات، وتختلف باختلاف متعلقها، كما أن الفرح يختلف باختلاف متعلقه وأسبابه، فعندما يفرح بالطرب؛ فليس هذا كفرحه بذكر الله ونحوه.

حتى نوع المحبة يختلف، يحب والده ويحب ولده وبينهما فرق، ويحب الله ويحب ولده، ولكن بين المحبتين فرق.

فجميع الأمور الباطنة فى المحبة والفرح والحزن تختلف باختلاف متعلقها، وسيأتى إن شاء الله لهذا البحث مزيد تفصيل عند قول المؤلف: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾**.

---

(1) القلم: ٩.

(2) البقرة: ١٦٧.

قوله: «ومنها: قول النبي ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله...» إلخ.

إذا؛ فلا بدّ من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (١).

قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله».

أى: كفر بالأصنام، وأنكر أن تكون عبادتها حقّاً؛ فلا يكفى أن يقول: لا إله إلا الله، ولا أعبد صنماً، بل لا بدّ أن يقول: الأصنام التى تُعبد من دون الله أكفر بها وبعبادتها.

فمثلاً لا يكفى أن يقول: لا إله إلا الله ولا أعبد اللات، ولكن لا بدّ أن يكفر بها ويقول: إنّ عبادتها ليست بحق، وإلا؛ كان مقراً بالكفر.

فمن رضى دين النصارى ديناً يدينون الله به؛ فهو ؛كافر لأنّه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام؛ فقد كذّب قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٢).

وبهذا يكون كافراً، وبهذا نعرف الخطر العظيم الذى أصاب المسلمين اليوم باختلاطهم مع النصارى، والنصارى يدعون إلى دينهم صباحاً ومساءً، والمسلمون لا يتحركون، بل بعض المسلمين الذى ما عرفوا الإسلام حقيقة يلينون لهؤلاء، ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (٣)، وهذا من المحنة التى أصابت المسلمين الآن، وآلت بهم إلى هذا الذل الذى صاروا فيه.



(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) آل عمران: ٨٥.

(٣) القلم: ٩.

باب ٦
من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

● مناسبة الباب لما قبله:

قال سليمان آل الشيخ(١): من هنا ابتدأ المصنف في تفسير التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله بذكر شيء مما يضاد ذلك من أنواع الشرك الأكبر والأصغر، فإن الضد لا يعرف إلا بضده.

كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

فمن لا يعرف الشرك لم يعرف التوحيد وبالعكس، فبدأ بالأصغر الاعتقادي انتقالاً من الأدنى إلى الأعلى اهـ.

قلت: هذا الباب تفسير لمعنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، فـ (لا إله إلا الله) لا نافع ولا دافع للضر إلا الله، و(محمد رسول الله) لا اتخاذ وسيلة إلى جلب النفع أو ودفع الضر إلا وسيلة شرعها رسول الله ﷺ.

● شرح الترجمة:

قال حامد بن محمد(٢): باب في بيان ما يدل من الكتاب والسنة على أن من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما كالودع والخرز والتعويذ وأشباهها، لرفع البلاء أو دفعه. اهـ.

قال ناصر السعدي(٣): هذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب، وتفصيل القول فيها أنه يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: ألا يجعل منها سببًا إلا ما ثبت أنه سبب شرعًا أو قدرًا.

ثانيها: ألا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها وحرصه على النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت، فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، ولا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء، إن شاء أبقى سببيتها جارية

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١٠٩، ١١٠).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (١٩٧).

(٣) القول السديد (٣٣-٣٥).

على مقتضى حكمته ليقوم بها العباد، ويعرفوا بذلك تمام حكمته حيث ربط المسببات بأسبابها، والمعلولات بعللها، وإن شاء غيرها كيف يشاء لئلا يعتمد عليها العباد، وليعلموا تمام قدرته، وإن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده ، فهذا هو الواجب على العبد فى نظره وعمله بجميع الأسباب إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط أو نحوهما قاصداً لذلك رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله فقد أشرك؛ لأنه إن اعتقد أنها هى الدافعة الرافعة، فهذا الشرك الأكبر، وهو شرك، فى الربوبية حيث اعتقد شريكًا مع الله فى الخلق وشرك فى العبودية حيث تأله لذلك وعلق به قلبه طمعًا ورجاء لنفعه، وإن اعتقد أن الله هو الدافع والرافع وحده ولكن اعتقدها سببًا يستدفع بها البلاء فقد جعل ما ليس سببا شرعيًا ولا قدريًا سببًا، وهذا محرم وكذب على الشرع وعلى القدر.

أما الشرع: فإنه نهى عن ذلك أشد النهى وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة.

وأما القدر: فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التى يحصل بها ولا من الأدوية المباحة النافعة، وكذلك هو من جملة وسائل الشرك فإنه لابد أن يتعلق قلب معلقهما بها، وذلك نوع شرك ووسيلة إليه، اهـ.

ولذلك **قال ابن القيم فى المدارج**[1]: «وبالجملة، فليس إسقاط الأسباب من التوحيد، بل القيام بها واعتبارها وإنزالها منازلها التى أنزلها الله فيها هو محض التوحيد والعبودية.

والقول بإسقاط الأسباب هو توحيد القدرية الجبرية اتباع جهم بن صفوان فى الجبر، فإنه كان غاليًا فيه، وعندهم أن الله لم يخلق شيئًا بسبب ولا جعل فى الأسباب قوى وطبائع تؤثر، فليس فى النار قوة الإحراق، ولا فى السمّ قوة الإهلاك، ولا فى الماء والخبز قوة الرى والتغذى به، ولا فى العين قوة الإبصار، ولا فى الأذن والأنف قوة السمع والشم، بل الله - سبحانه- يحدث هذه الآثار عند ملاقاة الأجسام لا بها، فليس الشبع بالأكل، ولا الرى بالشرب. . ولا الطاعات والتوحيد سببًا لدخول الجنة، ولا الشرك والكفر والمعاصى سببًا لدخول النار، بل يدخل هؤلاء النار بمحض مشيئته من غير سبب ولا حكمة. . وطرد هذا المذهب مفسد للدين والدنيا، بل ولسائر أديان الرسل، ولهذا لما طرده قوم أسقطوا الأسباب الدنيوية وعطلوها، ولم يمكنهم ذلك، من أن يأكلوا ويشربوا ويباشروا من الأسباب ما يدفع عنهم الحر والبرد».

وقال[2]: «وقد قال بعض أهل العلم: الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد،

---

(١)،(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٩٥، ٤٩٩).

ومحو الأسباب- أن تكون أسبابًا- تغيير في وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، والتوكل معنى يلتئم من معنى التوحيد والعقل والشرع.

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد، فالالتفات إلى الأسباب ضربان:

أحدهما: شرك

والآخر: عبودية وتوحيد.

فالشرك أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود، فهو معرض عن المسبِّب لها، ويجعل نظره والتفاته مقصورًا عليها، وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها وإنزالها منازلها، فهذا الالتفات عبودية وتوحيد، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب ، وأما محوها أن تكون أسبابًا، فقدح في العقل والحس والفطرة، فإن أعرض عنها بالكلية، كان ذلك قدحًا في الشرع وإبطالاً له.

وحقيقة التوكل: القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب، واعتقاد أنها بيده، فإن شاء منع اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه.

فالموحد المتوكل: لا يلتفت إلى الأسباب، بمعنى أنه لا يطمئن إليها ولا يرجوها ولا يخافها فلا يركن إليها، ولا يلتفت إليها بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها- بل يكون قائمًا بها، ملتفتًا إليها ناظرًا إلى مسببها سبحانه ومجريها، فلا يصح التوكل - شرعًا وعقلاً - إلا عليه سبحانه وحده، فإنه ليس في الوجود سبب تام موجب إلا وحده فهو الذي سبب الأسباب وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها ولم يجعل منها سبباً يقتضي وحده أثره بل لابد معه من سبب آخر يشاركه، وجعل لها أسباباً تضادها وتمانعها، بخلاف مشيئته سبحانه فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر، ولا في الأسباب الحادثة ما يبطلها ويضادها، وإن كان الله سبحانه - قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته، فيشاء الأمر، ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصوله، والجميع بمشيئته واختياره، فلا يصح التوكل إلا عليه، ولا الالتجاء إلا إليه، ولا الخوف إلا منه، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا في رحمته، كما قال أعرف الخلق به ﷺ: **«أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»**(١) وقال : **«لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك»**(٢) .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٦٦)، والنسائي (٣ / ٢٤٨ ـ السيوطي) عن علي به.
وانظر الأذكار للنووي» (٢٣٢ ـ بتخريجنا).

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري (٦٣١١)، ومسلم في الذكر و الدعاء (١٧/ ٣٢ ـ النووي) عن البراء به.
وانظر الأذكار للنووي» (٢٣٨ ـ بتخريجنا).

فإذا جمعت بين هذا التوحيد وبين إثبات الأسباب، استقام قلبك على السير إلى الله، ووضح لك الطريق الأعظم الذى مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم، وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، وبالله التوفيق.

وما سبق به علم الله وحكمه حق، وهو لا ينافى إثبات الأسباب، ولا يقتضى إسقاطها، فإنه سبحانه قد علم وحكم أن كذا وكذا، يحدث بسبب كذا وكذا، فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه، فإسقاط الأسباب خلاف موجب علمه وحكمه، فمن نظر إلى الحدوث بغير الأسباب، لم يكن نظره وشهوده مطابقًا للحق، بل كان شهوده غَيبةً ونظره عمىً، فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها، فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هى عليه فى علمه وحكمه وخلقه وأمره؟!

والعلل التى تتقى فى الأسباب نوعان:

أحدهما: الاعتماد عليها، ،والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها، فهذا شرك يرق ويغلظ، وبين ذلك.

والثاني: ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا أيضًا قد يكون كفرًا وظلمًا، وبين ذلك، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر ، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله ، سبق به علمه وحكمه، وأن السبب لا يضر ولا ينفع، ولا يعطى ولا يمنع، ولا يقضى ولا يحكم، ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية، ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم، فيأتى بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه، ولا تُحَصِّل له فلاحًا، ولا توصله إلى المقصود عليها، فيجرد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادًا، ويُفَرِّغُ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها، تجريدًا للتوكل، واعتمادًا على الله وحده، وقد جمع النبى ﷺ بين هذين الأصلين فى الحديث الصحيح، حيث يقول: **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تَعْجِزْ»**(١)، فأمره بالحرص على الأسباب، والإستعانة بالمسبب، ونهاه عن العجز، وهو نوعان : تقصير فى الأسباب وعدم الحرص عليها، وتقصير فى الاستعانة بالله وترك تجريدها، فالدين كله - ظاهره وباطنه، شرائعه وحقائقه- تحت هذه الكلمات النبوية - والله أعلم. اهـ(٢).

---

(١) [صحيح] أخرج مسلم فى القدر (١٦/ ٢١٥ـ النووى) عن أبى هريرة به.

وأنظر «رياض الصالحين» (١٠١ ـ بتخريجنا)

(٢) انظر حاشية القول المفيد (١/ ٢٠٤، ٢٠٧).

وقال ابن عثيمين[1]: في شرح الترجمة قوله: «**من الشرك**»: من هنا للتبعيض، أي: أن هذا بعض الشرك، وليس كل الشرك.

والشرك: اسم جنس يشمل الأصغر والأكبر، ولبس هذه الأشياء قد يكون أصغر وقد يكون أكبر، بحسب اعتقاد لابسها، وكان لبس هذه الأشياء من الشرك؛ لأنَّ كل من أثبت سببًا لم يجعله الله سببًا شرعيًا ولا قدريًا، فقد جعل نفسه شريكًا مع الله.

فمثلاً: قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء.

وأكل المسهل سبب حسي لانطلاق البطن، وهو قدريّ، لأنَّه يُعلم بالتجارب.

والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله كالجبرية، والأشعرية.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسبب سببًا، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبته الله سبحانه ورسوله، سواء كان سببًا شرعيًا أو كونيًا.

ولا شك أنَّ هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيماناً حقيقيًا، وآمنوا بحكمته، حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهذا من تمام الحكمة.

ولبس الحلقة ونحوها إن اعتقد لابسها أنَّها مؤثرة بنفسها دون الله، فهو مشرك شركًا أكبر في توحيد الربوبية، لأنَّه اعتقد أنَّ مع الله خالقًا غيره.

وإن اعتقد أنَّها سبب، ولكنه ليس مؤثرًا بنفسه، فهو مشرك شركًا أصغر لأنَّه لما اعتقد أنَّ ما ليس بسبب سببًا، فقد شارك الله تعالى في الحكم لهذا الشيء بأنه سبب، والله تعالى لم يجعله سببًا.

وطريق العلم بأنَّ الشيء سبب:

إمَّا عن طريق الشرع، وذلك كالعسل: ﴿**فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ**﴾[2]، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس، قال الله تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾[3].

---

(1) القول المفيد (١/ ٢٠٤:٢٠٩).

(2) النحل: ٦٩.

(3) الإسراء: ٨٢.

وإما عن طريق القدر، كما إذا جربّنا هذا الشيء فوجدناه نافعًا فى هذا الألم والمرض، ولكن لابدّ أن يكون أثره ظاهرًا مباشرًا كما لو اكتوى بالنار فبرئ بذلك مثلاً، فهذا سبب ظاهر بيّن، وإنَّما قلنا هذا لئلا يقول قائل: أنا جربّت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشرًا ، كالحلقة ، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنَّها نافعة، فينتفع لأنَّ للانفعال النفسى للشيء أثرًا بينًا ، فقد يقرأ إنسان على مريض فلا يرتاح له، ثم يأتى آخر يعتقد أن قراءته نافعة، فيقرأ عليه الآية نفسها فيرتاح له ويشعر بخفة الألم، كذلك الذين يلبسون الحِلَق ويربطون الخيوط، قد يحسون بخفة الألم أو اندفاعه أو ارتفاعه بناءً على اعتقادهم نفعها.

وخفة الألم لمن اعتقد نفع تلك الحلقة مجرد شعور نفسي، والشعور النفسى ليس طريقًا شرعيًا لإثبات الأسباب، كما أن الإلهام ليس سببًا للشرع.

قوله: «لبس الحلقة والخيط».

الحلقة : من حديد أو ذهب أو فضة أو ما أشبه ذلك، والخيط معروف.

قوله: «ونحوهما».

كالمرصَّعات، وكمن يصنع شكلاً معينًا من نحاس أو غيره لدفع البلاء، أو يعلّق على نفسه شيئًا من أجزاء الحيوانات، والناس كانوا يُعلّقون القرب البالية على السيارات ونحوها لدفع العين، حتى إذا رآها الشخص نفرت نفسه فلا يعين[(١)] .

قوله: «لرفع البلاء، أو دفعه».

الفرق بينهما : أن الرفع بعد نزول البلاء، والدفع قبل نزول البلاء.

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لا ينكر السبب الصحيح للرفع أو الدفع، وإنَّما يُنكر السبب غير الصحيح. أ.هـ

قال الفقير: قوله (من الشرك لبس الحلقة والخيط...).

هذا من الشرك، إذًا من التوحيد أن لا تتعلق بلبس حلقة أو خيط أو بغيرهما لرفع بلاء أو دفعه، والتوحيد أن لا تطلب دفع الضر أو رفعه إلا من الله، ولا تطلب جلب النفع إلا من الله، ولو طُلبت من غير الله فهو شرك أكبر، ولو طُلبت بوسائل لم يشرعها الله عز وجل فهو شرك أصغر.

---

(١) قال الشيخ عبد العزيز بن باز فى «فتاويه» (٢/ ٣٨٤) عن التمائم: إذا كانت من أسماء الشياطين، أو العظام، أو الخرز، أو المسامير، أو الطلاسم (وهى الحروف المقطعة)، وأشباه ذلك من الشرك الأصغر، وقد تكون شركًا أكبر إذا اعتقد معلق التميمة أنها تحفظه أو تكشف عنه المرض أو تدفع عنه الضرر دون إذن الله تعالى ومشيئته».

مثال: شخـص ذهب إلى الحسـين أو السيدة زيـنب وقال: يا حسين اشفيـنى أو نجحنى ـ طلب دفـع ضر أو جلب نفع: نجاح أو شفاء، أو دفع ضـر ـ فهذا شرك أكبر إن اعتقد أنه ينفع كنفع الله أو بيدها النفع والضر كما أن الله عز وجل بيده ذلك.

إن قال: أنـا لا أطلب إلا من الله وإنـى أعتقـد أن الله عز وجل هـو النافع عـلى الحقيقة وبيده دفع الضـر على الحقيقة لكن هذه وسيلة لدفع الضـر أو لرفعه كما تأخذ حبة البركة لرفع المرض أو بعض الأدوية لدفـع المرض فأنا أيضًا أتوسل بهذه الوسائل حتى تقربنا إلى الله زلفًا ويدفع الله عنا بها الضر ويجلب الله بهذه الوسائل لنا النفع.

ولو قيل لبعضهم أنت لا تطلب الضر والنفع إلا من الله يقول نعم لا أطلبه إلا من الله، تقول له لماذا تتخذ هذه الوسائل قال: لماذا تتخذ حبة البركة وسيلة؟

تقول اتخذت حبة البركة وسيلة لسببين:

(الأول): لأنها ثبـتت بطريقة شرعـية أنها وسيلة لجـلب النفع ودفع الضـر فلذلك اتخذتها ولم اقع فى شرك أصغر ولا أكبر.

الثاني: التجربة أثبتـت أنها نافعة من جهة الطب أما أنـت من قال لك اتخذ هذه الوسائـل سواء هذه الوسائـل أحياء أم أموات أم أتقـياء أم لصوص من شـرع لك هذه الوسائل؟

نعم أنت تقول أن النفع والضر بيد الله لكن اتخاذك هذه الوسائل التى لم يشرعها الله فهذا شرك أصغـر وسر ذلك أن الذى تعلق بوسـائل شرعية فهو متـعلق بالله لأنه تعلق بالله وبالأسباب التى وضعها الله له ووضع فيهـا حكمة الشفاء فتعلقه بالسبب هو تعلقه بمسبب السبب سبحانه وتعالى.

فإذا تعلق بسـبب لم يجعل الله فيه حكمة الـشفاء فكأنه يتعلق بـغير الله فوقع فى شرك أصغر وإن ادعى أنه يعتقد أن النفع والضر بيدى الله عز وجل.

فلذلك كان لبس الحلقة والخيط ونحوهما لدفع البلاء أو لرفعه شرك.

فإن كـان طلب دفع الـبلاء ودفع الضـر من ذات الحلقـة أو ذات الخيط فهـذا شرك أكبر.

وإن قال هى لا تنفع ولا تضر بل النفع والضر كله بيد الله وأنا لا أعتقد إلا ذلك.

نقول له : نعم المعتقد!!، ولكن لماذا تلبس هذا الخيط مثلاً؟

فيقول: وسائل وأسباب اتخذها لذلك.

نقول له: ليـست بأسباب ولم يجعـل الله فيها حكمة الشـفاء فتعلقك بهـا تعلقك

بخيط العنكبوت وبغير الله فأشبهت المشرك فى شركه وإن كنت وقعت فى شرك أصغر وإن كان شركك شرك دون شرك.

فلذلك سمى النبى ﷺ هذا الفعل شرك سواء كان صحيح المعتقد أو فاسد المعتقد، صحيح المعتقد شرك أصغر فاسد المعتقد شرك أكبر، وهذه مقدمة مهمة.

وآخر يقول: لماذا قلتم على لبس الخيط شرك ولما صرف لى الطبيب رباط الضاغط لم تسموا هذا شركًا؟

الجواب: قلنا لأنه ثبت بالطب المقر شرعًا أن فيها نفع ففى الحديث: سئل النبيﷺ: أفى الطب خير؟ : قال : **«نعم»**، وقال: **«تداووا عباد الله»**[1] كما ثبت فى الصحيح.

فنرى كثيراً من العلماء يعلق حكم معين على الطبيب كما حدث أن الشافعى سُئِلَ عن الماء المشمس قال: لا أمنعه إلا من جهة الطب أى إذا أثبت الطب أنه يورث البرص.

كما كان مدعى، والأثر ضعيف فمنعه من قاعدة **«لا ضرر ولا ضرار»** فقول الطبيب معتبر.

فلو قال الطبيب هذا الرباط أو اللزقة تشفى بإذن الله فهذا الطب مأذون فيه: ولا يعد شركاً.

وأما هذا الخيط أو الحظاظة إن ثبت بالفعل أو بالطب أو بالتجربة أنها تشفى فليس بشرك وإن ثبت أنها لا تشفى فهذا شرك فالمسألة مردها إلى المعتقد وإلى الشرع إلى الكتاب والسنة.

فمتى يكون شرك أصغر؟

عند توافر سببان:

١- ثبت بالشرع والقدر - أى بالتجربة - أنها لا تنفع.

٢- أن يتعلق بها معتقداً أنها سبب ينفع ولكن ليس كنفع الله وتدفع الضر ولكن ليس كدفع الله.

ومتى يكون أكبر؟

إذا علقها معتقداً أنها تنفع كنفع الله وتدفع الضر كدفع الله عز وجل.



(١) تقدم تخريجه

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(1).

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

مناسبة الآية للباب ودلالتها عليه:

قال سليمان آل الشيخ(2): لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه كذلك، أي كالآلهة الباطلة المذكورة في الآية لا تملك نفعًا ولا ضرًا- فهذا وجه استدلال المصنف بالآية، وإن كانت الترجمة في الشرك الأصغر، فإن السلف يستدلون بما نزل في الأكبر على الأصغر، كما استدل حذيفة وابن عباس وغيرهما، وكذلك من جعل رؤوس الحمر ونحوها في البيت والزرع لدفع العين كما يفعله أشباه المشركين فإنه يدخل في ذلك. اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ(3): هذه الآية وأمثالها تبطل تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وأن ذلك شرك بالله. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله(4): الدلالة من الآية أنه لا فرق بين اعتقاد المشركين في الأصنام أو الاعتقاد في الخيوط ونحوها مما يفعله الجهال، وأن ذلك كله باطل، لأن الله هو المنفرد بالنفع والضر. اهـ.

وقال ابن عثيمين(5): والشاهد من هذه الاية أن الأصنام لا تنفع أصحابها لا بجلب نفع ولا بدفع ضر فليست أسبابًا لذلك، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب شرعي أو قدري، فيعتبر اتخاذه سببًا إشراكًا بالله.

---

(1) الزمر (38).

(2) تيسير العزيز المجيد (110، 111).

(3) فتح المجيد (1/142).

(4) الجامع الفريد 370، 38).

(5) القول المفيد (1/211، 212).

وهذا يدل على حذق المؤلف وقوة استنباطه، وإلا فالآية بلا شك فى الشرك الأكبر، الذى تعبد فيه الأصنام، ولكن القياس واضح جدًا، لأن هذه الأصنام ليست أسبابًا تنفع، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب، فيعتبر إشراكًا بالله.

وهناك شاهد آخر فى قوله: (حسبى الله) فإن فيه تفويض الكفاية إلى الله دون الأسباب الوهمية، وأما الأسباب الحقيقية ، فلا ينافى تعاطيها توكل العبد على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، لأنها من عنده .اهـ.

وقال القرعاوي[1]: مناسبة الآية للباب حيث دلت الآية على أن دفع الضر من خصائص الله فيكون طلبه من غير الله - كالحلقة والخيط ونحوهما- شركًا .اهـ.

قال الفقير: وقد تعودنا من المصنف أن يبين المراد من الترجمة بالآية أو الحديث المعطوف على الترجمة عطف بيان كما قال فى أول الباب [كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبد وقول الله تعالي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾] أى أن توحيد العبادة هو حق الله على العبد فكذلك يقول هنا أن هذا الخيط والحلقة شرك وهذا الشرك بيانه فى قوله ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم ...﴾ فهذا أشبه من يدعو من دون الله لجلب نفع أو دفع ضر.

الإعراب:

﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الهمزة للاستفهام والفاء الفصيحة و(رأيتم) بمعنى أخبرونى وقد تقدم القول فيها مفصلاً أكثر من مرة (وما تدعون) مفعول رأيتم الأول و(من دون الله) حال، ويجوز أن تكون الفاء عاطفة على مقدر أي: أتفكرتم بعد ما أقررتم به فرأيتم . . . ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ إن شرطية وأرادنى الله فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وهو فى محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف وجملة الشرط اعتراضية والجملة الاستفهامية (هل من كاشفات) مفعول رأيتم الثانى (وهن) مبتدأ و(كاشفات ضره) خبر[2].

●ما جاء فى تفسير الآية من القرآن:

﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾.

---

(١) الجديد (٨١).

(٢) إعراب القرآن (٨/ ٤٢٣).

قال الشنقيطي(١): معلوم أن الخوف من تلك الأصنام من أشنع أنواع الكفر والإشراك بالله، فما ذكره الله عز وجل فى هذه الآية الكريمة من أن المعبودات من دونه لا تقدر أن تكشف ضراً أراد الله به أحداً، أو تمسك رحمة أراد بها أحداً، جاء موضحاً فى آيات كثيرة:

كقوله تعالى: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٤)..

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾(٥) الآية.

والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة اهـ.

وذكر ابن أبى حاتم ههنا حديث قيس بن الحجاج عن حنش الصنعانى عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعًا «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف ورفعت الأقلام واعمل لله بالشكر فى اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع اليسر يسراً**»(٦).

قال مقاتل: لما نزلت الآية سألهم النبى ﷺ فسكتوا.

- وقال غيره: قالوا لا تدفع شيئًا قدره الله، ولكنها تشفع. اهـ(٧).

قوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

● **أقوال التابعين:** وعن قتادة قال: يعنى الأصنام (٨).

---

(١) أضواء البيان: (٧/٣٧). (٢) مريم / (٤٢).
(٣) الشعراء: (٧٢-٧٤). (٤) فاطر/(٢) (٥) يونس /(١٠٧).
(٦) تقدم تخريجه (٧) تفسير القرطبى (٨/٣/٧٠٢).
(٨) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٤/٦) وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/٦) وزاد نسبته لعبد بن حميد

● **أقوال المفسرين:**

قال ابن جرير[1] : يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ (ولئن) سألت يا محمد هؤلاء المشركين العادلين بالله الأوثان والأصنام ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فإذا قالوا ذلك فـ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم﴾ أيها القوم هذا الذى تعبدون من دون الله من الأصنام، والالهة. اهـ.

وبنحو مما قاله ابن جرير، قال جميع من ننقل عنهم من المفسرين أن المقصود: الأصنام والآلهة.

قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾

وقد تقدمت الآيات، والحديث فيه.

● **أقوال التابعين:**

- وعن عاصم أنه قرأ : ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾مضاف لآمنون كاشفات . . . وممسكات رحمته مثلها[2] . اهـ.

● **أقوال المفسرين:**

- **قال ابن جرير**[1]: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ﴾ بشدة فى معيشتى ، ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ﴾ عنى ما يصيبنى به ربى من الضر، ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ يقول إن أرادنى ربى أن يصيبنى سعة فى معيشتى وكثرة مالى ورخاء وعافية فى بدني، ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ﴾ عنى ما أراد أن يصيبنى به من تلك الرحمة، وترك الجواب لاستغناء السامع بمعرفة ذلك، ودلالة ما ظهر من الكلام عليه، والمعنى فإنهم سيقولون : لا. اهـ.

- **وقال البغوي**[3]**: نحو كلام ابن جرير.**

- **قال الزمخشري**[4]: (مسألة) لِمَ فرض المسألة فى نفسه دونهم؟

قلت - يعنى الز مخشرى -: لأنهم خوفوه معرّة الأوثان وتخبيلها، فأمر بأن يقررهم أوّلاً بأن خالق العالم هو الله وحده، ثم يقول لهم بعد التقرير، فإذا أرادنى خالق العالم

---

(١) تفسير الطبرى (١١/٢٤/٦).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/٦١٦) ونسبه لعبد بن حميد.

(٣) معالم التنزيل (٥/١٨). (٤) الكشاف (٣/٣٤٨).

- بضرٍ - أقررتم بـه بضره من مرض أو فقر، أو غـير ذلك من النوازل، أو بـرحمة من صحةٍ، أو غنى أو نحوهما ، هل هؤلاء اللاتى خوفتمونى إياهن كاشفات عنى ضره، أو ممسكات رحمته، حتى إذا ألقـمهم الحجر، وقطعهم حتى لا يحيـروا ببنت شفة، قال ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ كافيًا لمعرّة أوثانكم.

[مسألة] لـم قيل: كاشفات وممسكـات على التأنيث بـعد قوله : ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ ؟

قلت: - يعنى الزمخـشرى - أنثهن وكن إناثًا، وهن: اللات، والـعزي، ومناة، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾ليضعفها ويعجزها زيادة تضعـيف وتعجيز عما طالبهم به من كشـف الضر وإمساك الرحمة، لأن الأنوثة من باب اللـين والرخاوة، كما أن الذكورة من باب الشدة والـصلابة، كأنه قال: الإناث اللاتى هن الـلات والعزى ومناة أضعف مما تـدعون لهن وأعجز، وفيهـا تهكم أيضًا. اهـ.

- وقال ابن الجوزى بنحو كلام ابن جرير[(١)]، وقال:

وقرأ أبو عـمرو، وأبو بكر عـن عاصم : ﴿كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ﴾ و﴿مُسْكَاتٌ رَحْمَتَهُ﴾ منونًا، والباقون : ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ و﴿مُسْكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ على الإضافة. اهـ.

قال الفخر الرازي[(٢)]: اعلم أنـه تعالى لمـا أطنب فى وعـيد المشركـين وفى وعد الموحدين، عاد إلـى إقامة الدليل على تزيـيـف طريقة عبدة الأصنام، وبنى هـذا التزييف على أصلين:

الأصل الأول: هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

والأصل الثاني: أن هذه الأصنام لا قدرة لـها على الخير والشر وهـو المراد من قوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ فثبت أنـه لابد من الإقرار بوجود الإله القـادر الحكيم الرحيم، وثـبت أن هذه الأصنام لا قدرة لهـا على الخير والشر، وإذا كـان الأمر كذلك

(١) زاد المسير (٧/ ٥٥).

(٢) التفسير الكبير (١٣/ ٢٦/ ٢٨٣ , ٢٨٤).

كانت عبادة الله كافية ، وكان الاعتماد عـليه كافيًا وهو المراد من قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإذا ثبت هـذا الأصل لم يلتفت الـعاقل إلى تخويـف المشركين فكان المقصـود من هذه الآية هو التنبيـه على الجواب عما ذكره الله تعالـى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى : ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾اهـ.

وقال القرطبي، وابن كثير، والشوكاني، بنحو قول ابن جرير.

قوله : ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

سيكفيني كل ما أهمني، وعليه اعتمدت، وعليه يعتمد المعتمدون.

بنحو هذا قال جميع من ننقل عنهم من المفسرين.

وقال ابن كثير: أي لا تستطيع شـيئًا من الأمر ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي الله كافي من توكل عليه ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كما قال هود عليـه السلام حين قال قومه : ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ اهـ.

قال الفقير: ﴿بَرِيءٌ﴾ براءة مؤكدة مطلقة، والمد في الكـلمة يشعر بمدى البراءة، كما قال إبراهيم عليه السلام، ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾، فالمدود الكثيرة هنا والطويلة لها معنى الإشعار بشدة وعمق البراءة والمحاجة. . والله أعلم.

● ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[(١)]: جامعًا لأقوال المفسرين السابقة:

قلت: حاصله أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: أرأيتم، أي أخبروني عمـا تدعون من دون الله، أي تـعبدونـهم وتسألـونهم مـن الأنداد والأصنام، والآلـهة المسميات بأسمـاء الإناث الدالة أسماؤهن على بطلانهن وعـجزهن، لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة، كاللات والعزى. ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي بمرض أو فقـر أو بلاء أو شدة ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ أي : لا يقدرون على ذلك أصلاً ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أي: صحة وعـافية، وخير، وكـشف بلاء. ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ قال مقاتل:

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١١٠).

فسألهم النبى ﷺ فسكتوا ، أى لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها، وإنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله ، لا لأنهم يكشفون الضر ويجيبون دعاء المضطر، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(١) وقد دخل فى ذلك كل من دعى من دون الله من الملائكةوالأنبياء والصالحين، فضلاً عن غيرهم فلا يقدر أحد على كشف ضر ولا إمساك رحمة كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢)وإذا كان كذلك بطلت عبادتهم من دون الله ، وإذا بطلت عبادتهم فبطلان دعوة الآلهة والأصنام أبطل وأبطل، ولبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه كذلك، فهذا وجه استدلال المصنف بالآية اهـ.

قال حامد بن محمد(٣): تنبيهات:

(الأول) : ما دل عليه الاستفهام الإنكارى من التوبيخ على ما هم عليه من ترك البارى الرزاق المنعم عليهم الذى بيده ملكوت كل شيء، وتعلقهم بالذى هو مقهور، ومدبر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا يملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وما دل عليه من التفريع عما هو فيه لئلا يستوجبوا المحق والعذاب الآبد.

الثاني: عمومية الحكم والتوبيخ فى كل ما يتعلق به، يدل على ذلك لفظ (ما تدعون) يوضحه التنبيه.

الثالث: وهو قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مطلقًا.

الرابع: ثبوت الإرادة لله خلافًا لمن أنكرها.

الخامس: الاستفهام التقريرى المتضمن عنادهم واستكبارهم عن الحق مع علمهم به.

السادس: الأمر بإفراد الله بالعبادة والتوكل عليه، ففيه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقوله : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

السابع: ثناء الرب على المتوكلين.

وأما شركيته من السنة فبأحاديث متعددة منها حديث عمران الآتى اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ(٤) (٥): فى الآية بيان أن الله وَسَم أهل الشرك بدعوة

---

(١) النحل (٥٣، ٥٤). (٢) فاطر (٢).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٩٧، ١٩٨).

(٤) فتح المجيد (١/ ١٤٢). (٥) التعليق المفيد (٦٣، ٦٤).

غير الله والرغبة إليه من دون الله، والتوحيد ضد ذلك، وهو أن لا يدعو إلا الله، ولا يرغب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة وأئمتها، اهـ.

- **وبنحو كلام سليمان قال عبد الله بن جار الله.**[1]

- **وقال ابن عثيمين**[2]: قوله : ﴿تَدْعُونَ﴾ المراد بالدعاء، دعاء العبادة ، ودعاء المسألة، فهم يدعون هذه الأصنام دعاء عبادة ، فيتعبدون لها بالنذر والذبح، والركوع، والسجود ويدعونها دعاء مسألة لدفع الضرر أو جلب النفع.

وقوله ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى كافيني، والحَسْب : الكفاية، ومنه قوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ وقوله ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فيه حصر الحسب فى الله، فهو كقولك، لا حسب لى إلا الله، بخلاف قوله: الله حسبى فليس فيه الحصر المذكور، فهو كقولك الله حسبى أنا فقط.

قوله : ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر، لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والمعنى أن المتوكل حقيقة هو المتوكل على الله، أما الذى يتوكل على الأصنام والأولياء والأضرحة فليس بمتوكل على الله تعالى.

وهذا لا ينافى أن يوكل إنسانٌ إنسانًا فى شيء، ويعتمد عليه لأن هناك فرقًا بين التوكل على الإنسان الذى يفعل لك شيئًا بأمرك وبين توكلك على الله، لأن توكلك على الله اعتقادك أن بيده النفع والضر وأنك متذلل، معتمد عليه، مفتقر إليه، مفوض أمرك إليه اهـ.

- **شبهة من يعلق خيط أو حلقة، أو جعل رؤوس الحمر فى البيت والزرع لرفع العين، والرد عليهم.**

قال سليمان آل الشيخ[3]: من جعل رؤوس الحمر ونحوها فى البيت والزرع لدفع العين كما يفعله أشباه المشركين، فإنه يدخل فى ذلك أى الذين وسموا بالشرك وقد يحتجون على ذلك بما رواه أبو داود فى المراسيل عن على بن الحسين مرفوعًا: «**احرثوا فَإِنَّ الحَرْثَ مُبَارَك ، وأَكْثِرُوا فِيه مِنَ الجَمَاجِمِ**»[4] وعنه أجوبة:

(١) الجامع الفريد (٣٧). (٢) القول المفيد (١/ ٢١٠، ٢١١).

(٣) تيسير العزيز الحميد (١١١).

(٤) أخرجه أبو داود فى «المراسيل» (٥٤٠) وأنظر كتابنا «جامع المراسيل والمرسلين».

أحدها: أنه حديث ساقط مرسل، وأبو داود لم يشترط فى مراسيله جمع المراسيل الصحيحة الإسناد، وقد ضعفه السيوطى وغيره.

الثاني: أنه اختلف فى تفسير الجماجم، فقيل: هى البذر، ذكره العزيزى فى «شرح الجامع»(*).

وقيل الخشبة التى يكون فى رأسها سكة الحرث، قاله أبو السعادات ابن الأثير فى «النهاية».

وقيل : هى جماجم رؤوس الحيوان ذكره العزيزى وغيره، وعلى هذا فقيل أمر بجعلها لدفع الطير ، ذكره العزيزي، وغيره، وهذا هو الأقرب لو ثبت الحديث مع أنه باطل، وقيل: بل لدفع العين.

وفيه حديث ساقط أنه أَمَرَ بالجَماجِم فى الزَّرْعَ مِنَ أَجْلِ العَيْنِ[1]، وهو مع ذلك منقطع، ذكره السيوطى وغيره، وهذا المعنى هو الذى تعلق به أشباه المشركين ولا ريب أنه معنى باطل، لم يرده النبيﷺ لو كان الحديث صحيحًا، وكيف يريده؟!

وقد : أمر بقطع الأوتار كما فى «الصحيح»[2].

وقال: «**مَنْ تعَلَّقَ شيئًا وُكِّل إليه**»[3].

وقال: «**مَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فلا وَدَعَ الله له**»[4] وكانوا يجعلون ذلك من أجل العين كما سيأتي، فهلا أرخص لهم فيه؟!

الثالث: أن هذا مضاد لدين الإسلام الذى بعث الله به رسله، فإنه تعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ولا يشرك به شيء، لا فى العبادة ولا فى الاعتقاد، وهذا من جنس فعل الجاهلية الذين يعتقدون البركة والنفع والضر فيما لم يجعل الله فيه شيئًا من ذلك، ويعلقون التمائم والودع ونحوهما على أنفسهم لدفع الأمراض والعين فيما زعموا.

(*) أى «الجامع الصغير» للحافظ السيوطي

(١) ذكره اليثمى فى «المجمع» (٥/ ١٠٩). (نسبه للبزار وقال: فيه الهيثم بن محمد بن حفص وهو ضعيف، ويعقوب بن محمد الزهرى ضعيف أيضًا».

(٢) سيأتى تخريجه

(٣) أخره أحمد فى «مسنده» (٤ / ٣١٠)، والترمذى (٢٠٧٢) عن عبدالله بن عكيم.

(٤) سيأتى تخريجه

عن عمران بن حُصين رضى الله عنه أن النبيَّ ﷺ رأى رجلاً فى يده حلقةٌ من صُفر فَقال: «ما هذه؟» قال من الواَهنة، فقال: «انزعها، فإنها لا تزيدكَ إلا وهنًا، فإنك إن متَّ وهى عليك ما أفلحت أبداً».

رواه أحمد بسند لا بأس به(١).

فإن قيل: الفاعل لذلك لم يعتقد النفع فيه استقلالاً، فإن ذلك لله وحده فهو النافع الضار، وإنما اعتقد أن الله جعله سببًا كغيره من الأسباب.

قيل: هذا باطل أيضًا، فإن الله لم يجعل ذلك سببًا أصلاً وكيف يكون الشرك سببًا لجلب الخير ولدفع الضر، ولو قدر أن فيه بعض النفع فهو كالخمر والميسر **﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾**(٢).

فإن قيل: كيف يكون شركًا وقد روى أبو داود ذلك فى «مراسيله» وغيره من العلماء يروون الحديث ولم ينكروه.

قيل: أهل العلم يروون الأحاديث الضعيفة والموضوعة لبيان حالها وإسنادها لا للاعتماد عليها واعتقادها، وكتب المحدثين مشحونة بذلك، فبعضهم يذكر علة الحديث، ويبين حاله وضعفه إن كان ضعيفًا، ووضعه إن كان موضوعًا، وبعضهم يكتفى بإيراد الحديث بإسناده.

ويرى أنه قد برئ من عهدته إذا أورده بإسناده لظهور حال رواته، كما يفعل ذلك الحافظ أبو نعيم، وأبو القاسم بن عساكر وغيرهما ، فليس فى رواية من رواه وسكوته عنه دليل على أنه عنده صحيح أوحسن أو ضعيف، بل قد يكون موضوعًا عنده فلا يدل سكوته عنه على جواز العمل به عنده، وسيأتى فى الكلام على حديث قطع الأوتار ما يدل على النهى عن هذا من كلام العلماء أهـ.



قوله [**عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن النبى ﷺ رأى رجلاً...**] الحديث.

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٤٤٥ ـ شاكر) وابن ماجة (٣٥٣١) وابن حبان (٦٢٨/٧، ٦٢٩- الإحسان) والحاكم فى «المستدرك» (٤ / ٢١٦)

من طريق الحسن، عن عمران بن حصين به.

قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال البوصيرى: إسناد حسن

(قلت): وهو منقطع لعدم سماع الحسن من عمران بن حصين وانظر «جامع التحصيل للعلائى».

وقال الهيثمي فى «المجمع» (١٠٣/٥) في رواية موقوفة: «انبذها عنك فإنك لومت وأنت ترى أنها تنفعك لمت على غير الفطرة» وفيه مبارك بن فضالة وهو ثقة وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

وأنظر «فتح المجيد» (ح١٧٩) بتخريجنا

(٢) [البقرة: ٢١٩].

قال سليمان آل الشيخ[1]: هذا الحديث ذكره المصنف بمعناه، **أما لفظه فقال الإمام** أحمد: حدثنا خلف بن الوليد ، ثنا المبارك عن الحسن قال أخبرني عمران بن حصين أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة قال: أراه قال: من صفر، فقال: **«ويحك ما هذه؟»** قال من الواهنة قال: **«أما إنها لا تزيدك إلا وهنًا، انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا»**.

ورواه ابن ماجة دون قوله **«انبذها»** إلى آخره، وابن حبان في **«صحيحه»**، وقال : **«فإنك إن مِتَّ وُكلت إليها»** والحاكم وقال صحيح الإسناد.

قال المنذري: رووه كلهم عن مبارك بن فضالة عن الحسن عن عمران، ورواه ابن حبان أيضًا بنحوه عن أبي عامر الخزاز، عن الحسن، وهذه متابعة جيدة، إلا أن الحسن اختلف في سماعه من عمران، قال ابن المديني وغيره: لم يسمع منه، وقال الحاكم: وأكثر مشايخنا على أنه سمع منه . قلت: رواية الإمام أحمد ظاهرة في سماعه منه فهو الصواب اهـ.

قال الفقير: وقال العلائي[2] : عن أحمد بن حنبل أنه أنكر على من يقول عن الحسن (حدثني) عمران، أي أنه لم يسمع منه.

وعن يحيي القطان: وقيل له كان الحسن يقول سمعت عمران بن حصين؟ فقال: أما عن ثقة فلا.

وقال ابن معين عن سماع الحسن من عمران : أما من حديث البصريين فلا، وأما في حديث الكوفيين فنعم اهـ.

قلت: ومبارك بن فضالة الراوي عنه بصري، فالحديث ضعيف - ولعل مقصوده بأخبرني قوم عمران، ويحتمل غير ذلك، والله أعلم.

● مناسبة الحديث للباب

قال عبد الله بن جار الله[3]: أفاد أن الاعتقاد بمثل هذه الحلقة من أنواع الشرك، لأمر النبي ﷺ بنزعها وتهديده على تركه .اهـ.

قال ابن عثيمين[4] : هذا الحديث مناسب للباب مناسبة تامة، لأن هذا الرجل لبس حلقة من صفر، إما لدفع البلاء أو لرفعه.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١١٣).
(٢) جامع التحصيل (١٦٤).
(٣) الجامع الفريد (٣٨).
(٤) القول المفيد (١/ ٢١٣).

والظاهر أنه لرفعه ، لقوله: «**لا تزيدك إلا وهنًا**» والزيادة تكون مبنية على أصل أ.هـ.

وقال القرعاوي[1]: حيث دل الحديث على إنكار لُبس الحلقة لدفع الضر، لأن جلب النفع، ودفع الضر من الأفعال الخاصة بالله، وطلبها من غير الله شرك اهـ.



●شرح الحديث

قوله: [عن عمران بن حصين]

قال ابن حجر: عمران بن حصين بن عبيد بن خلف بن عبد نهم بن حذيفة، ويكنى أبا نُجيد روى عن النبيﷺ عدة أحاديث ، وكان إسلامه عام خيبر، وغزا عدة غزوات، وكان صاحب راية خزاعة يوم الفتح، قاله البرقي.

وقال الطبراني : أسلم قديمًا هو وأبوه وأخته، وكان ينزل ببلاد قومه ثم تحول إلى البصرة إلى أن مات بها.. وكان عمر قد بعثه ليفقه أهلها.

وقال أبو عمر: كان من فضلاء الصحابة وفقهائهم يقول عنه أهل البصرة: إنه كان يرى الحفظة وكانت تكلمه، حتى اكتوى.

أخرج ابن أبي أسامة بسنده عن الحسن البصرى عن عمران أنه شق بطنه فلبث زمانًا طويلاً فدخل عليه رجل- فذكر قصته- فقال: إن أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله قال : حتى اكتوى قبل وفاته بسنتين وكان يُسلِمُ عليه، فلما اكتوى فقده ثم عاد إليه.

وكان الحسن يحلف أنه ما قدم البصرة والسرو خير لهم من عمران، أخرجه أحمد فى «الزهد» وكان قد اعتزل الفتنة فلم يقاتل فيها.

وعن مطرف قال عمران بن حصين: إنى محدثك بحديث: إنه كان يُسلم عليَّ، وإن ابن زياد أمرنى فاكتويت فاحتُبس عنى حتى ذهب أثر الكى.

مات عمران سنة اثنتين وخمسين، وقيل: ثلاث اهـ.

قوله: [رأى رجلاً]

قال سليمان آل الشيخ[2]: فى رواية الحاكم: «دخلتُ على رسول الله ﷺ وفى عضدى حلقة صفر فقال: **ما هذه؟** قلت: من الواهنة، فقال: انبذها» فالمبهم فى رواية أحمد، ومن وافقه هو: عمران راوى الحديث اهـ.

---

(١) الجديد (٨٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١١٣).

قال ابن عثيمين[1]: لم يبين اسمه، لأن المهم بيان القـضية وحكمها، لكن ورد ما يدل على أنه عمران نفسه، لكنه أبهم نفسه اهـ. وقد أوضحت الرواية السابقة ذلك

قوله: [في يده حلقة من صفر]

قال القرعاوي[2]: حلقة من صفر هى ما أحاط بالشيء.اهـ.

[قلت]: الصَّفَرُ: داء فى البطن يصفرُّ منه الوجه.

والصُّفْرُ: النحاس الجيد ، وقيل : الصُّفر ضـرب من النحاس، وقيل: هو ما صفر منه اهـ[3].

قوله [ما هذه؟]:

قال سليمان آل الشيخ[4]: يحتمل أن الاستفهام للاستفصال، هل لبسها تحليًا أم لا؟ ويحتمل أن يكون للإنكار فظن اللابس أنه سيفصل. اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ[5] بأن الأظهر فى الاستفهام هنا: أنه للإنكار اهـ.

وقال ابن عثيمين: الاستفهام هذا للاستعلام فيما يظهر وليس للإنكار، اهـ.

خلاصة الاستفهام هنا:

الأول: للاستفصال ، والاستفسار، والاستعلام.

الثاني: الإنكار، رجح الأول ابن عثيمين.

ورجح الثانى عبد الرحمن آل الشيخ، والله المستعان.

●فائدة الاستفهام:

قال سليمان آل الشيخ[6]: فيه استفصال المفتي، واعتبار المقاصد، اهـ.

قال حامد بن محمد[7]: قوله (ما هذه) مستفهمًا أبين دليل على أنه لا يعلم الغيب إلا الله ثم قال، وفى ذلك أقطع دليل على أنه ﷺ لا يحكم بحكم إلا بعد علم اليقين. اهـ.

---

(١) القول المفيد (١/ ٢١٢, ٢١٣).

(٢) الجديد (٨٢).

(٣) النهاية (٣/ ٣٥-٣٦)، واللسان (٤٦٠: ٤٦٥).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١١٣).

(٥) فتح المجيد (١/ ١٤٤).

(٦) تيسير العزيز الحميد (١١٤).

(٧) فتح الله الحميد المجيد (١٩٨, ١٩٩) مختصراً.

وقال ابن عثيمين(١) : أنه ينبغي لمن أراد إنكار المنكر أن يسأل أولاً عن الحال، لأنه قد يظن ما ليس بمنكر منكرًا، ودليله أنه ﷺ قال: **(ما هذه)**. اهـ.

قوله: [من الواهنة].

قال سليمان آل الشيخ(٢): قال أبو السعادات: الواهنة عـرق يأخذ فى المنكب وفى اليد كلها فيُرقى منها.

وقيل هو مرض يأخذ فـى العضد، وربما علق عليها جنـس من الخرز يقال له : خرز الواهنة وهى تأخذ الرجـال دون النساء قال: وإنما نهاه عنها لأنه اتخذهـا على معنى أنها تعصمه من الألم، فكان عنده فى معنى التمائم المنهى عنه أ.هـ

وتتابع كل الشراح على ما قاله سليمان آل الشيخ.

وقال ابن عثيمين(٣): (من) للسببية ، أى لبستها بسبب الواهنة. اهـ.

قوله: [انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا]

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله : «**انزعها فإنهـا لا تزيدك إلا وهنًا**» لفظ الحديث «**انبذها**»، وهو أبلغ، أى اطرحها، والنزع هو الجذب بـقوة، والنبذ يتضمن ذلك وزيادة وهو الطرح والإبعـاد، أمره بطرحها عنه وأخبـر أنها لا تنفعه بل تـضره، فلا تزيده إلا وهنًا، أى ضعفًا ، وكذلك كل أمر نهى عنه فـإنه لا ينفع غالبًا أصلاً ، وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه.

وفيه النهى عن تعـليق الحلق والخرز ونحوهما على المريض، أو غيـره، والتنبيه على النهى عن التداوى بالحرام .

وروى أبو داود بإسناد حـسن والبيهقى عن أبى الدرداء مـرفوعًا حديث: «**تَدَاوُوا ولاَ تَدَاوُوا بِحَرَامٍ**»(٤) فإن قيل: كيف قال ﷺ: «**لا تزيدك إلا وهنًا**» وهى ليس لها تأثير؟.

---

(١) القول المفيد (١/ ٢١٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١١٤).

(٣) القول المفيد (١/ ٢١٣).

(٤) [حسن لغيره] أخرجه أبو داود (٣٨٧٤) وأنظر «الطب النبوي» الذهبى (١٧٥ ـ بتخريجنا) وأنظر «شرحنا لذاد المعاد».

قيل هذا- والله أعلم- يكون عقوبة له على شركه لأنه وضعها لدفع الواهنة ، فعوقب بنقيض مقصوده اهـ.

قال حامد بن محمد[1]: انزعها بصيغة الأمر الدال على الوجوب والفور عند أهل العلم والتحقيق دليل على أن الأفعال الشركية تزال على الفور وجوبًا، وكذلك الأماكن التي يفعل فيها الشرك كما فعل رسول الله ﷺ بالطاغية التي في الطائف أمر المغيرة ابن شعبة وأبا سفيان أن يهدماها بعد تمكنه ﷺ منها، فقد سأله أهل الطائف أن يدعها شهرًا، فأبى ﷺ أن يدعها شيئًا مسمى.

قال ابن القيم: رحمه الله

إذا كان رسول الله حرق مسجد الضرار وأمر بهدمه بحكم التنزيل وهو مسجد يصلى فيه ويذكر الله فيه لما كان بناؤه ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين وكاد في المنافقين فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أندادًا من دون الله أحق بالهدم وأوجب، وكذلك محال المعاصي، والفسوق كالخانات وبيوت الخمارين، وأرباب المنكرات، وقد حرق عمر - رضي الله عنه - قرية بكاملها يباع فيها الخمر، وهمَّ رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركي حضور الجمعة والجماعات، وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم كما أخبر هو عن ذلك »انتهى.

والموجب للفورية أنك تستدرك التوبة عما لا يرضاه الله ولا رسوله ويتوب إلى الله بالأعمال الصالحة قبل أن يدركه الموت وهو لا يشعر:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله. اهـ

وبنحو قول سليمان قال عبد الرحمن آل الشيخ[2]**، وعبد الله جار الله**[3]**، وقال:** وكذلك كل أمر نهى عنه فإنه لا ينفع غالبًا ، وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه اهـ.

وقال ابن عثيمين[4]: في هذا الحديث دليل على عدة فوائد: تقدم الأول.

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (١٩٩ ,٢٠٠).

(٢) فتح المجيد (١/ ١٤٤).

(٣) الجامع الفريد (٣٨).

(٤) القول المفيد (١/ ٢١٣).

الثاني: وجوب إزالة المنكر، لقوله: «**انزعها**» فأمره بنزعها ، لأن لبسها منكر، وأيد ذلك بقوله : «**إنها لا تزيدك إلا وهنًا**»، أي: وهناً فى النفس لا فى الجسم، وربما تزيده وهنًا فى الجسم، أما وهن النفس، فلأن الإنسان إذا تعلقت نفسه بهذه الأمور ضعفت واعتمدت عليها ونسيت الاعتماد على الله - عز وجل- والانفعال النفسى له أثر كبير فى إضعاف الإنسان، فأحيانًا يتوهم الصحيح أنه مريض فيمرض، وأحيانًا يتناسى المرض وهو مريض فيصبح صحيحًا ، فانفعال النفس بالشيء له أثر بالغ، ولهذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضعف النفس من أول الأمر حتى يظن الإنسان أنه مريض بكذا وبكذا، فيزداد عليه الوهم حتى يصبح الموهوم حقيقة.

فهذا الذى لبس الحلقة من الواهنة لا تزيده إلا وهنًا، لأنَّه سوف يعتقد أنها ما دامت عليه فهو سالم، فإذا نزعها عاد إليه الوهن، وهذا بلا شك ضعف فى النفس.

والثالث: أن الأسباب التى لا أثر لها بمقتضى الشرع أو العادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان. اهـ.

[قلت]: وقول الشراح في: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا» النزع: هو الجذب بقوة، أخبر أنها لا تنفعه، بل تضره وتزيده ضعفًا أ.هـ ، وكذلك كل أمر نهى عنه، فإنه لا ينفع غالبًا وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه وإليك **الدليل على ذلك من القرآن والسنة.**

أولاً الدليل من القرآن:

١- ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾

وطالما أنه لن يأخذ شيئًا يشفيه وهذه لن تشفيه فالمرض سيزداد ولا يقل فلا تنفعه حسيًا ولا تزيدك إلا وهنًا لأنك لم تتعاطى سببًا حقيقيًا للشفاء.

٢- وكما قال تعالى فى الربا والمرابى أنه يأذن بحرب من الله ورسوله والربا لا يزيده إلا حربًا من الله ورسوله.

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾

ثانياً من السنة:

(١) **بيَّن الرسول ﷺ أن** الكذب فى البيع والشراء منفقة للسلعة، ممحقة للبركة، فالشيطان يزين له أنه يبيع كثير ولكن لا توجد البركة ولا يبارك الله له فيما يبيعه.

ففي الصحيحين عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**البيعان بالخيار مالم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محققت بركة بيعهم**»(١).

وفي الصحيح أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة**»(٢)

(٢) وفي الصحيحين في حديث حكيم بن حزام: (إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع»(٣) فإن من أخذ هذا المال بحقه يبارك الله له فيه، وإن أخذه بغير حقه ابتلاه الله بالأمراض الكثيرة ولا ينتفع به بل ضره يكون أكثر من نفعه. ونسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

قوله: [ما أفلحت]:

قال سليمان آل الشيخ(٤): قوله: «**فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**» أي لأنه مشرك، والحالة هذه، والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة.

قال المصنف: فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك أكبر الكبائر، وأنه لم يعذر بالجهالة، والإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

قلت ـ أي سليمان ـ: وفيه أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح أبدًا، ففيه رد على المغرورين الذين يفتخرون بكونهم من ذرية الصالحين ، أو من أصحابهم، ويظنون أنهم يشفعون لهم عند الله ، وإن فعلوا المعاصي.

وفيه أن رتب الإنكار متفاوتة فإذا كفى الكلام في إزالة المنكر لم يحتج إلى ضرب ونحوه.

وفيه أن المسلم إذا فعل ذنبًا وأنكر عليه فتاب منه فإن ذلك لا ينقصه، وأنه ليس من شرط أولياء الله عدم الذنوب أ.هـ.

وقال حامد بن محمد(٥): قوله «أبدًا» يدل على أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر،

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٠٧٩) ومسلم (١٠/١٧٦ـ النووي)

وانظر تخريجنا «رياض الصالحين» ح ٦٠ .

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم في المساقاة (١١ / ٤٤ ـ النووي)

وأنظر «رياض الصالحين ١٧٢٣ ـ بتخريجنا)

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٤٧٢) ومسلم (١/٤١٣ الحلبي)

وانظر تخريجنا «رياض الصالحين (ح ٥٢٥).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١١٤). (٥) فتح الله الحميد المجيد (٢٠٠).

لأن أهل الكبائر ما يؤبدون فى العذاب، والمشرك يؤبد قال تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ والشرك يشمل الأكبر والأصغر، وقد صرح النبى ﷺ فى هذا الحديث أن صاحب الشرك الأصغر إن مات وهو عليه ما يفلح أبدًا. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله(١): قوله (**ما أفلحت أبدًا**) يفيد عظم الذنب الواقع بسبب هذا الاعتقاد، لأنه نوع من أنواع الشرك الذى لا يغفر إلا بالتوبة. اهـ.

وقال ابن عثيمين(٢):

أن لبس الحلقة وشبهها لدفع البلاء أو رفعه من الشرك، لقوله: «**لو مت وهى عليك ما أفلحت أبدًا**» وانتفاء الفلاح دليل على الخيبة والخسران، ولكن هل هذا شرك أكبر أو أصغر؟

سبق لنا عند الترجمة، أنه يختلف بحسب اعتقاد صاحبه.

وفي الحديث من الفوائد: أن الأعمال بالخواتيم، لقوله: «**لو مت وهى عليك**»، فعرف أنه لو أقلع عنها قبل الموت لم تضره لأن الإنسان إذا تاب قبل أن يموت صار كمن لا ذنب له. اهـ.

[قال الفقير]:

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: «فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر وأنه لم يعذر بالجهالة، وفيه الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك».

فلماذا لم يعذر بجهله؟

لأن الرسول ﷺ قال له «**فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبدًا**» والرجل لا يعرف.

إلا أنه فى بعض الطرق عند البيهقى أيضًا مع ضعف الحديث قال (**فإنك لو مت بعد ما علمت ما أفلحت أبدًا**) ففيه أنه بعد إقامة الحجة عليه.

قوله: [رواه أحمد بسند لا بأس به].

قال سليمان آل الشيخ(٣): قوله: رواه أحمد بسند لا بأس به، هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله المروزي، ثم البغدادي، إمام أهل عصره، وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدهم ورعًا ومتابعة للسنة، روى عن الشافعى

(١) الجامع الفريد (٣٨). (٢) القول المفيد (١/ ٢٠١).
(٣) تيسير العزيز الحميد (١١٤).

ويزيد بن هارون، وابن مهدى ويحيى القطان وابــن عيينة وعفان وخلق، وروى عنه ابناه عبـد الله وصالـح والبخـارى ومسلـم وأبو داود وأبـو بكر الأثـرم والمروزى وخـلق لا يحصون.

مات سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة

[قال الفقير]:

قوله: «رواه أحمد بسند لا بأس به» هذا من كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

الإمام أحمـد وهو الذى يقـول فيه بعض أهـل السنة - عن الـدنيا ما كـان أصبره وبالماضين ما كان أشبهه، أتته الدنيا فأباها، والشَبه فنفاها، خُرِجَ به من مرو وهو حمل فولُد ببغداد سنة أربع وستين ومائة فى شهر ربيع الأول.

وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك وهى سنة تسع وسبعين، فسمع من هشيم وجرير ابن عبد الحميد وسفيان بن عيينة ومعتمر بـن سليمان، ويحيى بن سعيد القطان ومحمد ابن إدريس الشافعى ويزيد بن هارون وعبـد الرزاق، وعبد الرحمن بن مهدى وخلق لا يحصون بمكة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وغيرها.

وله تلاميـذ من أشهرهم البخـارى ومسلم وحدّث البـخارى عنه فى الصحـيح ولكن أحاديث قليلةتعد على الأصابع فى حدود الثلاثـة فكان يذهب إلى الشيوخ ويتعلم منهم فالإمام أحمد الأصل وخرج منه الإمام البخارى ومسلم.

وروى عنه أيضًا الـرازى وأبو زرعة الدمشقى وعبـد الله بن أبى الدنيا وغيرهـم كثير وروى عنه من شـيوخه عبد الرحـمن بن مهدى والأسود بـن عامر ومن أقرانه عـلى بن المدينى ويحيى بن معين.

قال البخاري: مرض أحمد ليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لثنتى عشرة خلت منه.

وقال حنبل: مات يوم الجمعة فى ربيـع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين. وله سبع وسبعون سنة.

وفيه فـضل ومنقبة لـه أن يموت يوم الجمعة لـقوله ﷺ **«من مـات يوم الجمعـة أمن الفتان»**(١)

وابتلى بمحنة خلق القرآن ومدّ على رجله وفعل فيه الكثير.

فأنت لا تحزن على نفسك إذا ابتليت وتقول أنك هنت على الله ففعل فيك ذلك، لا

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢ / ١٧٦ ، ٢٠٠) عن عبدالله بن عمرو به.

وله عن عقبة بن عامر مرفوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَة فَلاَ أَتَمَّ الله لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَة فَلاَ وَدَعَ الله لَهُ»(١).

وفي رواية: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةَ فَقَدْ أَشْرَكَ»(٢).

فالتمكين يكون بعد الاستضعاف والابتلاء قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ هل هو أول من ابتلى بمحنة خلق القرآن؟ لا ولكن هو أشهر من تصدى لها وآخر من فتن بها ثم أصبح بعد ذلك إمام أهل السنة.

وقال ابنه عبد الله والفضل بن زياد: مات فى ثانى عشر ربيع الآخر. رحمه الله تعالى وابنه عبد الله له (زوائد الزهد) و(زوائد المسند). وغير ذلك

وقال الإمام أحمد ابنى عبد الله محظوظ ما ذاكرنى بحديث إلا ولم أعرفه فهذا الشبل من ذاك الأسد، لأنه يقال فى الحديث الذى لايعرفه أحمد ليس بحديث فعندما يُذكّرهُ بالأحاديث فهذا أمر عظيم.



قوله: وله عن عقبه بن عامر مرفوعاً: «من تعلق تميمة...» الحديث.

[قلت]: يشهد للرواية الثانية حديث صحيح البخاري: «ألا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت» (٣) اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٤): الحديث الأول رواه أحمد كما قال المصنف، ورواه أيضًا أبو يعلى والحاكم وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤ / ٢٥٤) والطحاوى (٤ / ٣٢٥)، وأبى يعلى (٢ / ٩٨)، وابن حبان فى «صحيحه» (٧ / ٦٢٩ ـ الإحسان)، والطبرانى فى «الكبير» (١٧ / ٢٩٧ / ٨٢٠)، والحاكم فى «المستدرك»(٤ / ٢١٦) من طريق حيوة بن شريح، عن خالد بن عبيد المعافري، عن مشرح بن هاعان، عن عقبة بن عامر به.

قال الحاكم: صحيح الإسناد.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٦١٠) وفتح المجيد(ح١٨٣ بتخريجنا)

(٢) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤ / ١٥٦)، والحاكم فى المستدرك» (٤ / ٢١٩)، والطبرانى فى «الكبير» (١٧ / ٣١٩).

عن عقبة بن عامر به.

قال الهيثمى فى «المجمع» (٥ / ١٠٣): رجال أحمد ثقات.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال». (٦١٠) فتح المجيد (ح١٨٤ بتخريجنا)

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تيسير العزيز الحميد (١١٥).

وقوله: وفى رواية: هذا يوهم أن هذا فى بعض الأحاديث المذكورة، وليس كذلك، بل المراد، أنه فى حديث آخر رواه أحمد أيضًا فقال: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، ثنا عبد العزيز بن مسلم، ثنا يزيد بن أبى منصور، عن دحين الحجرى عن عقبة بن عامر الجهنى أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟ قال: «إن عليه تميمة» فأدخل يده فقطعها، فبايعه، وقال: «من علَّق تميمة فقد أشرك» ورواه الحاكم بنحوه، ورواته ثقات.

وقوله: فى هذا الحديث: فأدخل يده فقطعها. أى الرجل، بينه الحاكم فى روايته أهـ.

●**مناسبة الحديث للباب:** حيث دلّ الحديث أن تعليق التميمة معتقدًا فيها النفع شرك لأنَّ جلب النفع ودفع الضر من الأفعال الخاصة بالله[1] اهـ.

قوله: [وله عن عقبة بن عامر]

قال ابن حجر[2]: روى عن النبى ﷺ كثيراً، قال أبو سعيد بن يونس : كان قارئًا، عالمًا بالفرائض، والفقه، فصيح اللسان، شاعرًا، كاتبًا، وهو أحد من جمع القرآن، قال: ورأيت مصحفه بمصر على غير تأليف مصحف عثمان، وفى آخره كتبه عقبة بن عامر بيده.

ولى إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين، ومات قريبًا من الستين. أ.هـ.

قوله [من تعلق تميمة]

قال سليمان آل الشيخ[3]: قوله: «من تعلق تميمة» أى متمسكًا بها عليه، وعلى غيره من طفل أو دابة ونحو ذلك.

قال المنذري: يقال: أنها خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات، واعتقاد هذا الرأى جهل وضلالة إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى.

وقال أبو السعادات: التمائم جمع تميمة وهى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم، يتقون بها العين فى زعمهم، فأبطله الإسلام، قال: كأنهم كانوا يعتقدون أنها تمائم الدواء والشفاء. اهـ.

[قال الفقير]: عرف التميمة بنوعها وليس بالحد المطابق للمحدود وهذا من اختلاف التنوع(*).

---

(١) الجديد (٨٦).

(٢) الإصابة.

(٣) تيسير العزيز الحميد (١١٥).

(*) انظر كتابى النكت المتممة لمقدمة ابن تيمية.

قال حامد بن محمد[1]: لفظ (من) دل على عمومية الفاعل كائنًا من كان، ودل تنكير تميمة على عمومية المعلق من أى جنس كان وأى نوع كان.

وقال أيضًا: قال البيضاوى فى «شرح المشكاة» هى التعاويذ التى تعلق على الصبيان اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ[2]: أى علقها متعلقًا بها قلبه فى طلب خير أو دفع شر. اهـ.

قوله: [فلا أتم الله له].

قال سليمان ال الشيخ[3]: دعاء عليه بأن الله لا يتم له أموره. اهـ.

قال حامد بن محمد[4]: قلت: فى ذلك إخبار ودعاء، أما الإخبار فيخبرﷺ أن من تعلق شيئًا دون الله خذله الله فلا يتم له مقصوده، وهو الحقيقة، لأن المرء مهما توكل على شيء دون الله وكله الله إليه، فحينئذ يضيع فى واد الهلكات.

عن عيسى بن حمزة قال: دخلت على عبد الله بن عكيم وبه حمى فقلت: ألا تعلق تميمة، فقال: نعوذ بالله من ذلك، قال رسول الله ﷺ: **«من تعلق شيئًا وكل إليه»**[5] دعاء منه ﷺ عليه أن لا يتم له مقصوده ولا يرده عن القدر كما قيل:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع.

وقال ابن عثيمين[6]: قوله: «فلا أتم الله له».

الجملة خبرية بمعنى الدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، وكلا الاحتمالين دال على أن التميمة محرَّمة، سواء نفى الرسول ﷺ أن يتم الله له أو دعا بأن لا يتم الله له، فإن كان الرسول ﷺ أراد به الخبر، فإننا نخبر بما أخبر به النبى ﷺ، وإلا، فإننا ندعو بما دعا به الرسول ﷺ. اهـ.

[قال الفقير]: وإن كان خبراً فهو صدق وإن كان دعاءً فهو مستجاب فهو على أية حال لا يتم الله له.

قوله: [ومن تعلق ودعة]:

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: **«ومن تعلق ودعة»** بفتح الواو وسكون المهملة، قال فى «مسند الفردوس» شيء يخرج من البحر يشبه الصدف، يتقون به العين أ.هـ.

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٠١).
(٢) فتح المجيد (١/١٤٧).
(٣) تيسير العزيز الحميد (١١٥).
(٤) فتح الله الحميد المجيد (٢٠١).
(٥) تقدم تخريجه
(٦) القول المفيد (١/٢١٥).
(٧) تفسير العزيز الحميد (١١٥)

قال ابن عثيمين[1]: والودعة: واحدة الودع، وهى أحجار تؤخذ من البحر يعلّقونها لدفع العين، ويزعمون أنَّ الإنسان إذا علّق هذه الودعة لم تصبه العين، أو لا يصيبه الجن.

قوله «فلا ودع الله له»:

قال سليمان آل الشيخ: قوله: «**فلا ودع الله له**» بتخفيف الدال أى لا جعله فى دعة وسكون.

وقيل: هو لفظ بنى من الودعة، أى لا خفف الله عنه ما يخافه، قاله أبو السعادات وهذا دعاء عليه.

وفيه وعيد شديد لمن فعل ذلك، فإنه مع كونه شركاً فقد دعا عليه رسول الله ﷺ بنقيض مقصوده.

قال ابن عثيمين: قوله: «**فلا ودع الله له**».

أى: لا تركه الله فى دعة وسكون، وضد الدعة والسكون القلق والألم.

وقيل: لا ترك الله له خيراً؛ فعومل بنقيض قصده.

[قال الفقير]: وهذا كما دعا على من تعلق بالدرهم والدينار من دون الله قال ﷺ: «**تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**»(*)

قوله: «من تعلق تميمة فقد أشرك».

قال سليمان آل الشيخ[2]: قال ابن عبدالبر: إذا اعتقد الذى علقها انها ترد العين، فقد ظن أنها ترد القدر، واعتقاد ذلك شرك.

وقال أبو السعادات: إنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذى هو دافعه. أهـ.

قال ابن عثيمين[3] وقوله «فقد أشرك».

هذا الشرك يكون أكبر إن اعتقد أنها ترفع أو تدفع بذاتها دون أمر الله، وإلا؛ فهو أصغر. أهـ.



(١) القول المفيد (١/ ٢١٥).

(*) سيأتى تخريجه.

(٢) تيسير العزيز الحميد (١١٦)

(٣) القول المفيد (١/ ٢١٦).

وَلابْن أَبِي حَاتم عَنْ حُذَيْفَةَ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَده خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى، فقطعَهُ وَتَلا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]

قوله [ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط]..... الحديث

قال سليمان آل الشيخ [2]: هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم كما قال المصنف.

ولفظه حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن إشكاب، ثنا يونس بن محمد ثنا حماد بن مسلمة عن عاصم الأحول، عن عزرة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه أو انتزعه ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

قوله [ولابن أبي حاتم] وابن أبي حاتم هو الإمام أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي التميمي الحنظلي، الحافظ ابن الحافظ، صاحب «الجرح والتعديل» والتفسير وغيرهما. ومات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

قوله [حذيفة] هو ابن اليمان، واسم اليمان حسيل بمهملتين مصغراً ويقال حسل بكسر ثم سكون، العبسي بالموحدة، حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين ويقال: صاحب السر، وأبوه أيضاً صحابي، مات حذيفة في أول خلافة علي سنة ست وثلاثين.

قوله «رأى رجلاً في يده خيط من الحمى»

قال سليمان آل الشيخ[3]: قوله رأى رجلا في يده خيط من الحمي. أي: من أجل الحمى لدفعها، وكان الجهال يعلقون لذلك التمائم والخيوط ونحوها.

وروى وكيع عن حذيفة أنه دخل على مريض يعوده، فلمس عضده فإذا فيه خيط فقال. ماهذا؟ فقال: شيء رقي لي فيه، فقطعه فقال: لومت وهو عليك ماصليت عليك.

[**قوله : فقطعه**]، فيه إنكار هذا، وإن كان يعتقد أنه سبب فإن الأسباب لايجوز منها إلا ما أباحه الله ورسوله ﷺ، مع عدم الاعتماد عليه؛ فكيف بماهو شرك كالتمائم والخيوط والخرز والطلاسم ونحو ذلك مما يعلقه الجهال؟

وفيه إزالة المنكرباليد بغير إذن الفاعل، وإن كان يظن أن الفاعل يزيله.

وإن إتلاف آلات المنكر واللهو جائزة وإن لم يأذن صاحبها [4] أ.هـ.

---

(١) يوسف :١٠٦ والأثر أخرجه ابن أبي حاتم في« تفسيره» (١٢٠٤٠) فانظره بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (١١٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) ليس هذا على إطلاقه، بل بالنظر إلى المصالح والمفاسد المترتبة على إزالة المنكر، كما هو معلوم.

قال ابن عثيمين[1]: قوله: «من الحمى»

من هنا للسببية؛ أي: خيط لبسه من أجل الحمى لتبرد عليه.

قوله: «فقطعه».

أي: قطع الخيط، وفعله هذا من تغيير المنكر باليد، وهذا يدل على غيرة السلف الصالح وقوتهم فى تغيير المنكر باليد وغيرها.

قوله: وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

قال سليمان آل الشيخ[2]:- استدل حذيفة بهذه الآية على أن تعليق الخيط ونحوه لما ذكر شرك، أى: أصغر كما تقدم فى الحديث.

ففيه صحة الاستدلال بمانزل فى الأكبر على الأصغر، ومعنى الآية أن الله أخبر عن المشركين أنهم يجمعون بين الإيمان بالله، أى: بوجوده، وأنه الخالق الرازق المحى المميت، ثم مع ذلك يشركون فى عبادته، فسرها بذلك ابن عباس وعطاء ومجاهد والضحاك وابن زيد وغيرهم أهـ.

قال ابن عثيمين[3]: وقوله: ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ فى محل نصب على الحال؛ أى: وهم متلبسون بالشرك، وفى هذا دليل على أن هذا الرجل مؤمن، وأن هذا الخيط الذى لبسه فيه نوع من الشرك.

وفيه دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه إيمان وشرك، ولكن ليس الشرك الأكبر؛ لا يجتمع مع الإيمان، ولكن المراد هنا الشرك الأصغر، وهذا أمر معلوم أ.هـ.

قال حامد بن محمد بن حسن[4]: قطعه ممتثلاً لقوله ﷺ**«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**.(*)

تنبيه: إعلم أن الذين يدعون الإيمان ثلاثة أنواع:

[منهم] من لايلبس إيمانه بشرك كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

[ومنهم] من يلبس إيمانه بشرك يتعلقون بالخيط والحلقة وأشباههما كما قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

---

(١) القول المفيد (١/٢١٦). (٢) تيسير العزيز الحميد (١١٧).

(٣) القول المفيد (١/٢١٦، ٢١٧). (٤) فتح الله الحميد المجيد. (٢٠٣).

(*) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٢٩٦ / ٧٨) عن أبى سعيد به «انظر تمام تخريجه فى رياض الصالحين» (ح١١٨٦ - بتخريجنا)

[ومنهم] من يقول إنه مؤمن وهو كاذب كما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾. أهـ.

قال الفقير: قوله وتلا ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ فاستدل بالآية على أن هذا شرك ففيه صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله فى الشرك الأكبر لشمول الآية له كما تقدم معنا.

فمامعنى ذلك؟ معناه أنه يجوز إسقاط أدلة الشرك الأكبر على الشرك الأصغر فالآية نزلت فى مشركين شرك أكبر وقد قلنا أن الشاطبى قال فى «الموافقات» أن الفاظ الشرك والكفر والظلم الفاظ غائية لايصرف الأكبر إلى الأصغر إلا بقرينة من القرآن أو السنة فهذا الرجل ارتكب شركاً أصغر فلماذا انزل عليه آية فى الشرك الأكبر؟

الجواب:

أولاً: يمكن إسقاطها من باب الترهيب من هذا العمل.

ثانياً: الشرك الأكبر يشمل الشرك الأصغر.

وإذا لم يفهم ذلك فقد نكفر من لايكفر. كيف ذلك؟.

أن نفهم أن حذيفة كفَّر الرجل كفر أكبر دون سؤاله وأسقط عليه آيات الكفر الأكبر والرجل لم يأت إلا بالأصغر فهذا فهم خاطىء لصنيع حذيفة.

وهناك فهم خاطىء أيضاً عكس هذا الكلام وهو: أن قائل يقول إن هذه الآية فى الشرك الأصغر فقط، لأن حذيفة أسقطها على الأصغر.

والرجل لم يأت إلا بالاصغر.

فهذا فهم خاطىء أيضاً.

كما قلنا فى قوله: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون...**﴾ قال ابن عباس: كفر دون كفر فإما أن تقول : الآية فى الكفر الأصغر فقط فنقول له: كما أن الآيات فى الكفر الأكبر ينزلونها فى الكفر الأصغر ولاتدل على أنها فيه فقط فهنا ابن عباس ينزلها على مناط من مناطاتها وهو الكفر الأصغر وإن كانت هى أصلاً فى الكفر الأكبر، فكذلك حذيفة أنزلها فى الكفر الأصغر.

فاحذر من فهمين كلاهما خطأ وهما: أن مرتكب الكبيرة التى تنزل عليه آيات

فيهِ مسائِلُ

الأولى:التَّغْليظُ في لِبْسِ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ ونَحْوِهِمَا لِمثْلِ ذلكَ.

الثانية:أَنَّ الصَّحَابيَّ لَوْ مَاتَ وَهِيَ عَلَيْهِ؛ مَا أَفْلَحَ. فيهِ شَاهِدٌ لِكَلَامِ الصَّحَابَةِ:أَنَّ الشِّرْكَ الأصْغَرَ أَكْبَرُ مِنَ الكَبَائِرِ.

الكفر الأكبر أنه كافر وأن الصحابة كفروه. إنما أنزلوها للتهديد والوعيد، وهذا يؤيد عدم التفصيل فى مقام الترهيب.

الثاني: أن نظن أن الآيات فى الكفر الأصغر فقط.



قوله: «فيه مسائل»

قال ابن عثيمين[(١)]: أى فى هذا الباب مسائل.

● **الأولى: التغليظ فى لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.**

لقوله ﷺ **«انزعها ـ لاتزيدك إلا وهناً ـ لو مت وهى عليك ماأفلحت أبداً»**، وهذا تغليظ عظيم فى لبس هذه الأشياء والتعلق بها.

● **الثانية : أن الصحابى لومات وهى عليه ماأفلح**

هذا وهو صحابي؛ فكيف بمن دون الصحابي؟! فهو أبعد عن الفلاح.

قال ابن عثيمين: قال المؤلف : **«فيه شاهد لكلام الصحابة:أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر»**.

وقوله:«لكلام الصحابة» أى : لقولهم، وهو كذلك؛ فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

قال ابن مسعود رضى الله عنه:«لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً»[(٢)].

وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة؛ لأن الشرك لايغفر ولو كان أصغر، بخلاف الكبائر؛ فإنها تحت المشيئة. أهـ.

---

(١) القول المفيد ١/ ٢١٧، ٢٣٢

(٢) سيأتى تخريجه

قال الفقير: وفيه شاهد لكلام الصحابة لأنه تقدم معنا فى تفسير قوله **﴿إن الله لايغفر أن يشرك﴾** قال بعض العلماء كابن تيمية يحتمل أن الشرك الأصغر لايغفر لأن كلمة شرك فى الآية جاءت نكرة فى سياق النفى فتحمل على العموم الشرك الأصغر والأكبر فصاحب الشرك الأصغر يدخل النار ولايخلد. أما صاحب الكبيرة تحت خطر المشيئة.

والذى يشهد لذلك قول ابن مسعود المتقدم «لئن احلف بالله كاذباً أحب إلى من أحلف بغيره صادقاً» فالحلف بغير الله شرك والكذب كبيرة فلما كان الشرك الأصغر أكبر من الكبائر فاستحب ارتكاب الكبيرة اكثر من الشرك الأصغر وهذا ليس فيه أن ابن مسعود ممكن أن يحلف بغير الله أو أن يحلف بالله كاذباً لكنه أراد أن يهول من الشرك الأصغر.

كما قال شعبة «لئن أزنى أحب إلى من أن أدلس» فهل هذا معناه أن شعبة يجوز الزنى؟! بالطبع، لا لكن أراد أن يبين قبح التدليس بقبح الزنى المعروف والمتفق عليه للتقريب إلى أذهان الناس.

● **الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة .**

قال ابن عثيمين: هذا فيه نظر؛ لأن قوله ﷺ **«لو مت وهى عليك ماأفلحت أبداً»** ليس بصريح أنه لو مات قبل العلم، بل ظاهره: **«لومت وهى عليك ما أفلحت أبداً»**؛ أى : بعد أن علمت وأمرت بنزعها:

[قلت] وقد قدمنا رواية البيهقى **«فإنك لومت بعد ما علمت....»** وفيه ضعف.

قال ابن عثيمين: وهذه المسألة تحتاج إلى تفصيل؛ فنقول: [الجهل] نوعان.

جهل يعذر فيه الإنسان، وجهل لايعذر فيه، فما كان ناشئاً عن تفريط وإهمال مع قيام المقتضى للتعلم؛ فإنه لا يعذر فيه، سواء فى الكفر أو فى المعاصي، وماكان ناشئاً عن خلاف ذلك، أى أنه لم يهمل ولم يفرط ولم يقم المقتضى للتعلم بأن كان لم يطرأ على باله أن هذا الشىء حرام؛ فإنه يعذر فيه، فإن كان منتسباً إلى الإسلام؛ لم يضره، وإن كان منتسباً إلى الكفر؛ فهو كافر فى الدنيا، لكن فى الآخرة أمره إلى الله على القول الراجح: يمتحن؛ فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصى دخل النار.

فعلى هذا من نشأ ببادية بعيدة ليس عنده علماء ولم يخطر بباله أن هذا الشىء حرام، أو أن هذا الشىء واجب؛ فهذا يعذر، وله أمثلة:

الرابعة: أَنَّهَا لاَ تَنْفَعُ فِى العَاجِلَةِ؛ بَلْ تَضُرُّ، لِقَوْلِهِ: «لاَ تَزِيدُكَ إِلاَّ وَهناً».

الخامسة: الإِنْكَارُ بِالتَّغْلِيظِ عَلَى مَنْ فَعَلَ مِثْلَ ذلكَ.

السادسة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً؛ وُكِلَ إِلَيه.

منها: رجل بلغ وهوصغير وهو فى بادية ليس عنده عالم، ولم يسمع عن العلم شيئاً، ويظن أن الإنسان لاتجب عليه العبادات إلا إذا بلغ خمس عشرة سنة، فبقى بعد بلوغه حتى تم له خمس عشرة سنة وهولا يصوم ولا يصلى ولايتطهر من جنابة؛ فهذا لانأمره بالقضاء لأنه معذور بجهله الذى لم يفرط فيه بالتعلم ولم يطرأ له على بال، وكذلك لو كانت أنثى أتاها الحيض وهى صغيرة وليس عندها من تسأل ولم يطرأ على بالها أن هذا الشيء واجب إلا إذا تم لها خمس عشرة سنة؛ فإنها تعذر إذا كانت لاتصوم ولاتصلى .

وأما من كان بالعكس كالساكن فى المدن يستطيع أن يسأل، لكن عنده تهاون وغفلة؛ فهذا لايعذر؛ لأن الغالب فى المدن أن هذه الأحكام لاتخفى عليه، ويوجد فيها علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة؛ فهو مفرط، فيلزمه القضاء ولايعذر بالجهل أهـ.

● **الرابعة: أنها لاتنفع فى العاجلة ، بل تضر؛ لقوله : «لاتزيدك إلا وهنا».**

والمؤلف استنبط المسألة وأتى بوجه استنباطها. أهـ.

قلت: ومن الفوائد أيضاً: الإنكار بالقول ـ والفعل فقطع الخيط ـ من قوله **«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده»** فهو استطاع أن يغيره باليد ففعل وزجر باللسان أهـ

ثم رأيت هذه الفائدة من كلام الشراح كما تقدم.

● **الخامسة الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.**

أى : ينبغى أن ينكر إنكاراً مغلظاً على من فعل مثل هذا، ووجه ذلك سياق الحديث الذى أشار إليه المؤلف، وأيضاً قوله :**«من تعلق تميمة؛ فلا أتم الله له».**

● **السادسة : التصريح بأن من علق شيئاً وكل إليه.**

تؤخذ من قوله : **«من تعلق تميمة؛ فلا أتم الله له»** إذا جعلنا الجملة خبرية، وأن من تعلق تميمة؛ فإن الله لايتم له، فيكون موكولاً إلى هذه التميمة، ومن وكل إلى مخلوق؛ فقد خذل، ولكنها فى الباب الذى بعده صريحة **«من تعلق شيئاً وكل إليه»**[1].

---

(١) تقدم تخريجه من حديث عبدالله بن عكيم

السابعة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ.

الثامنة: أَنَّ تَعْلِيقَ الخَيْطِ مِنَ الحُمَّى مِنْ ذَلِكَ.

التاسعة: تلاوَةُ حُذَيفَةَ الآيَةَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّحَابَةَ يَسْتَدِلُّونَ بالآياتِ الَّتِي فِي الشِّرْكِ الأَكْبَرِ عَلَى الأَصْغَرِ؛ كَمَا ذَكَرَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي آيَةِ البَقَرَةِ.

● **السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة؛ فقد أشرك.**

وهو إحدى الروايتين فى حديث عقبة بن عامر.

● **الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.**

قلت: «قوله من ذلك» أى من الشرك لذا قال ابن عثيمين: يؤخذ من فعل حذيفة أنه رأى رجلاً فى يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾.

● **التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التى فى الشرك الأكبر على الأصغر كما ذكر ابن عباس فى آية البقرة.**

أى أن قوله تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ فى الشرك الأكبر، لكنهم يستدلون بالآيات الواردة فى الشرك الأكبر عليى الأصغر؛ لأن الأصغر شرك فى الحقيقة وإن كان لايخرج من الملة، ولهذا نقول: الشرك نوعان: أصغر وأكبر.

وقوله «كما ذكر ابن عباس فى آية البقرة».

وهى قوله تعالى ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾(١) الآية؛ فجعل المحبة التى تكون كمحبة الله من اتخاذ الند لله ـ عزوجل-

قال الفقير: بل لعل المصنف أراد بآية البقرة قولـه تعالى: ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(*) فقد بوب بها المصنف فى الباب الحادى والاربعين ثم أردف بأثر ابن عباس فى تفسير الأنداد: وهو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة

---

(١) البقرة: ١٦٥

(*) البقرة: ٢٢

العاشرة: أَنَّ تَعْلِيقَ الوَدَعِ مِنَ العَيْنِ مِنْ ذلكَ.

الحادية عشرة: الدُّعَاءُ عَـلى مَنْ تَعَلَّقَ تَميمَةً أَنَّ الله لا يُتِمُّ لَـهُ، ومَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلاَ وَدَعَ الله لَهُ؛ أَيْ: تَرَكَ الله لَهُ.

الليل. وهـو أن تقول والله وحياتك يا فـلان، وحياتى. . . إلخ وعزاه هـناك لابن أبى حاتم وكذلك عزاه ابن كثير لابن عباس فى تفسير هذه الآية كما سيأتي في الباب القادم فى ضوابط الشرك الأصغر والاكبر.

● **العاشرة : أن تعليق الودع من العين من ذلك.**

وقوله : من «ذلك»؛ أى : من تعليق التمائـم الشركية؛ لأنه لا أثر لها ثابت شرعاً ولاقدراً.

● **الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لايتم له، ومن تعلق ودعة؛ فلا ودع الله له؛ أى : ترك الله له.**

تؤخذ من دعاء النبى ﷺ على هؤلاء الذيـن اتخذوا تمائم وودعاً، وليس هذا بغريب أن نؤمر بالدعاء على من خالف وعصى؛ فقد قال النبى ﷺ«**إذا سمعتم من ينشد الضالة فى المسجد ؛ فقولوا : لاردها الله عليك**»(١) ، «**إذا سمعتم من يبيـع أو يبتاع فى المسجد؛ فقولوا : لا أربح الله تجارتك**»(٢).

قلت: «وكما قال فى الكاسيات العاريات: إلعنوهن فانهن ملعونات»(٣) إنتهى.

فهنا أيضاً نقول له: لاأتم الله لك، ولكن الحديث إنما قاله الرسول ﷺ على سبيل العموم؛ فلا نـخاطب هذا بالتصريح ونـقول لشخص رأينا عليـه تميمة: لاأتم الله لك، وذلك لأن مخاطبتنا الفاعل بالتصريح والتعيين سوف يكون سبباً لنفوره، ولكن نقول : دع التمائم أو الودع؛ فـإن النبى ﷺ يقول: «**من تعلق تميـمة؛ فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة؛ فلا ودع الله له**»(٤).

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساجد (٣ / ٥٩ / ٧٩) .

(٢) أخرجه الترمذى (١٣٢١) والنسائى فى «الكبرى» (١٠٠٤)

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢ / ٢٢٣) عن عبد الله بن عمرو به. وصححه أحمد شاكر (٧٠٨٣)

(٤) تقدم تخريجه

٧ بَابٌ

مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

● **تنبيه:**

نظراً لطول هـذا الباب، وكثرة مسائله وفروعـه، وضعنا له ترتيباً يوضـح ما فيه من فوائد ومسائل، ويُسَهِّلُ فهمه واستيعابه، لكل طالب وباحث، كالآتي:

(١) شرح الترجمة ومناسبتها للتوحيد

(٢) علاقة الرقية بالاعتقاد

(٣) تعريف الرقى والتمائم

(٤) الرقية معروفة قبل الإسلام

(٥) تعليق التمائم بين الماضى والحاضر

(٦) حكم الرقى والتمائم

(٧) أدلة تحريم التمائم، وعلاقتها بالتوكل

هل تنافى الرقية التوكل

(٨) أقسام التوكل

(٩) تعليق التمائم شرك أكبر أم أصغر؟

(١٠) ضوابط الشرك الأكبر والأصغر

(١١) دلائل لمعرفة الشرك الأصغر

(١٢) خلاصة القول

(١٣) تنبيه على فائدة من د/ العلياني.

(١٤) الشرك الأصغر أكبر الذنوب

(١٥) حكم تعليق التمائم من القرآن والأدعية النبوية، وترجيح الراجح فى ذلك

(١٦) خلاصة القول فى المسألة السابقة

(١٧) هل الرقى بجميع القرآن أم بما فيه نص فقط

(١٨) حكم التفرغ لأجل القراءة على الناس واتخاذها حرفة

(١٩) هل الرقية توقيفية

(٢٠) ضوابطُ الرقي

(٢١) حديث الباب/ حديث أبى بشير الأنصارى

(٢٢) مناسبته للباب

(٢٣) مناسبة الحديث لكتاب التوحيد

(٢٤) شرح الحديث

(٢٥) حديث الباب/ حديث ابن مسعود

(٢٦) مناسبة الحديث للباب ولكتاب التوحيد

(٢٧) الشرح، وفيه أنواع الرقية من حيث وقوع البلاء قبل وبعد وقوعه.

(٢٨) فائدة: الرد على من قال بمنع تطعيم الأطفال من هذا الباب

(٢٩) أنواع الرقى من حيث توقيفيتها إلى شرعية، وقدرية

(٣٠) هل يرقى من كل داء

(٣١) فائدة

(٣٢) تعريف التولة

(٣٣) حديث الباب/ حديث عبدالله بن عكيم

(٣٤) سبب الحديث

(٣٥) علاقة القلب بما يعلقه العبد من تمائم وخلافه/ أو علاقة الظاهر بالباطن

(٣٦) أقسام التعليق

(٣٧) قول المصنف/ التمائم: شيء يعلق.... إلخ

(٣٨) ذكر الخلاف في تعليق تمائم من القرآن والأدعية النبوية، وقد تقدم، وذكرنا شيئاً منه هنا للمناسبة.

(٣٩) شروط جواز الرقية، وقد تقدم، وذكرناها هنا للمناسبة

(٤٠) حديث الباب/ حديث رويفع

(٤١) مناسبة الحديث للباب

(٤٢) مناسبة الحديث لكتاب التوحيد

(٤٣) شرح الحديث

(٤٤) أثر سعيد بن جبير

(٤٥) أثر إبراهيم النخعي

(٤٦) ذكر مسائل الباب



٧ بابٌ ما جاءَ في الرُّقى والتمائمِ

شرح الترجمة ومناسبتها للتوحيد:

قال: حامد بن محمد[1]: باب ما جاء فى بيان أن الرقى والتمائم والتولة شرك.

لما فيها من التعلق على غير الله فى كشف الضر وجلب النفع، قد قال الله تعالى: ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[2]، وما فيها من الهضم لجناب الربوبية، وقد قال الله: ﴿**قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**﴾[4] وما فيها من التوكل على غيره وقد قال الله: ﴿**فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[5]. هذا والرسول ﷺ كان من شأنه أن يحمى جناب التوحيد بكل وجه ويسد طرق الشرك من كل جهة حتى أنه ﷺ حماه بابتعاده عن مكان الشرك حسماً للمادة. أ هـ.

المقصود من الترجمة:

قال سليمان آل الشيخ[6]: باب ما جاء فى الرقى والتمائم، أي: فى حكمها. ولما كانت الرقى على ثلاثة أقسام.

قسم يجوز، وقسم لايجوز، وقسم فى جوازه خلاف؛ لم يجزم المصنف بكونهما من الشرك لأن فى ذلك تفصيلاً بخلاف لبس الحلقة والخيط ونحوهما لما ذكر فإن ذلك شرك مطلقاً. أهـ

وذكر نحوه ابن عثيمين حيث قال: لم يذكر المؤلف أن هذا الباب من الشرك، لأن الحكم فيه يختلف عن حكم لبس الحلقة والخيط، ولهذا جزم المؤلف فى الباب الأول أنها من الشرك بدون استثناء، أما هذا الباب فلم يذكر أنها شرك، لأن من الرقى ما ليس بشرك، ولهذا قال: «باب ما جاء فى الرقى والتمائم». أهـ[7].

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٠٥).
(٢) الأنعام: ١٧.
(٣) الأحزاب: ١٧.
(٤) فاطر: ٢
(٥) المائدة: ٢٣.
(٦) تيسير العزيز الحميد(١١٧).
(٧) «القول المفيد» (١/ ٢٢٤).

● علاقة الرقى بالاعتقاد والتوحيد:

لقائل أن يقول: الرقى من مباحث الطب، فلماذا أدخلتموها فى العقيدة والتوحيد؟

الإجابة: أن الرقى لها علاقة بالعقيدة والتوحيد من أربعة وجوه:

١ـ أن بعض الرقى فيها الإستعاذة بغير الله والاستعاذه بالجن أو الإنس.

قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه «...كان مما حفظنا عن النبى ﷺ **أن الرقى والتمائم والتولة من الشرك...**»(١).

٢ـ أن بعض الناس يعتمد على الرقى اعتماداً كلياً ويظن أنها مؤثرة بذاتها، ولم يقف بها عند مرحلة السببية، التى لا تؤثر كما قال شاعرهم:

إذا مات لم تفلح مزينة بعده — فنوطى عليه يامزين التمائما(٢)

[مزينة] قبيلة لاتفلح يموت رجل من سادتهم، فأمرهم شاعرهم بالتمائم

٣ـ أن بعض الناس يظن أن الرقية هى الشافية. وهذا معارض للعقيدة الصحيحة التى ذكرها الله فى كتابه وعلى ألسنة رسله. وبينها إبراهيم الخليل عليه السلام فى محاجته لقومه قال سبحانه: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾.

وثبت فى صحيح البخاري: «أن عبدالعزيز قال دخلت أنا وثابت على أنس بن مالك، فقال ثابت: يا أباهريرة اشتكيت! فقال أنس ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ قال: بلى قال: **«اللهم رب الناس، مذهب الباس، اشف أنت الشافى لاشافى إلا أنت شفاء لايغادر سقما»**(٣).

وله أيضا عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يُعوّذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: **«اللهم رب الناس، اذهب الباس، واشف وأنت الشافي، لاشفاء إلا**

---

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٨٧١)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، والحاكم فى «المستدرك» (٤ / ٤١٧ ـ ٤١٨)، والبغوى فى شرح السنة (٣٢٤٠) عن عبدالله به واللفظ للحاكم وانظر «كتابنا فتح ذى الجلال» (ج ٦٠٩).

(٢) اللسان ٧/ ١٢ (٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٧٤٢) انظر «الأذكار للنووى» (٣٥٦ ـ بتخريجنا)

شفاؤك، **شفاء لايغادر سقما»**[1] وعنها أيضاً كان يرقى يقول: **«امسح الباس، رب الناس بيدك الشفاء كاشف له إلا أنت»**[2].

٤ـ أن بعض العلماء كره الرقى ظناً أنها تنافى التوكل استشكالاً بحديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير عذاب ولاحساب **«لايرقون ولايسترقون»**[3]، وتقدم الجواب على ذلك.

● **تعريف الرقى والتمائم لغة واصطلاحاً:**

قال ابن عثيمين[4]: أولاً: قوله: «الرقى».

جمع رقية، وهى القراءة؛ فيقال: رقى عليه ـ بالألف ـ من القراءة، ورقى عليه ـ بالياء ـ من الصعود. أهـ.

قال فى اللسان[5]:

الرقية: العوذة معروفة، قال رؤبة:

فما تركا من عوذة يعرفانها ولارقية إلا بها رقيانى

قال الليث: يقال: فلان عَوْذٌ لك أى ملجأ، وفى الحديث: **«إنما قالها تعوذاً»**[6] أى: أقر بالشهادة لاجئاً إليها ومعتصماً بها ليدفع عنه القتل، وليس بمخلص فى إسلامه فكان الراقى ألتجأ إلى الرقية، أو التجأ من جعل الرقية سبباً للشفاء، أو المُرقى التجأ إلى الراقى، كما قال الله تعالى: **﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾** فى أحد التفسيرين فى الآية كما روى عن ابن عباس وأبى قلابة، وإلاّ فالرقية قد ترد وليس فيها لفظ التعويذ والإلتجاء كما سيأتى أ.هـ

تعريف التمائم [لغة]

قال ابن عثيمين[7]: قوله: «التمائم».

جمع تميمة، وسمّيت تميمة؛ لأنَّهم يرون أنَّه يتم بها دفع العين. أهـ.

وفى النهاية[8] هى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٤٣، ٥٧٤٤)، ومسلم فى السلام (١٤ / ١٨٠ ـ النووى). وانظر «الأذكار» للنووى (٣٥٥ ـ بتخريجنا).

(٢) انظر ما قبله.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) (القول المفيد) (١/ ٢٢٤).

(٥) لسان العرب (١٣/ ٣٣٢).

(٦) تقدم تخريجه عن أسلمة بن زيد.

(٧) القول المفيد (١/ ٢٢٤).

(٨) النهاية (١/ ١٩٨) وجل ما جاء فى تعريفها فى معاجم اللغة من باب التعريف بالمثال.

تعريف التمائم [شرعاً]

قال الفقير: شرعاً: هى اسم جامع لكل ما عُلق من أسباب غير شرعية أو قدرية لدفع ضر أو لرفعة سواء كانت من خشب أو خرز أو معدن أو غير ذلك. أهـ.

فصل

الرقية معروفة قبل الإسلام

وهناك أدلة كثيرة على أن الرقية كانت معروفة قبل الإسلام منها:

(١) ما رواه الإمام مالك فى «الموطأ» عن عمرة بنت عبدالرحمن أن أبا بكر الصديق دخل على عائشة، وهى تشتكى، ويهودية ترقيها؛ فقال أبوبكر: أرقيها بكتاب الله(١).

(٢) روى الإمام أحمد فى «المسند»، عن زينب امرأة عبدالله ابن مسعود، قالت: كان عبدالله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية إن يهجم منا على شيء يكرهه! قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح، قالت: وعندى عجوز ترقينى من الحمرة فأدخلتها تحت السرير، فدخل فجلس إلى جنبى، ورأى فى عنقى خيطاً، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت خيط أرقى لى فيه: قالت فأخذه فقطعه؛ ثم قال: إن آل عبدالله لأغنياء عن الشرك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» قالت: فقلت: له تقول هذا وقد كانت عينى تقذف، فكنت اختلف إلى فلان اليهودى يرقيها، وكان إذا رقاها سكنت. قال: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كفّ عنها، إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال رسول الله ﷺ «**أذهب الباس رب الناس، اشف وأنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لايغادر سقماً**»(٢).

(٣) روى الإمام مسلم فى صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن ضماداً(٣) قدم مكة وكان من أزد شنوءة وكان يرقى من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون فقال: لو أنى رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى قال: فلقيه، فقال: يا محمد إنى أرقى من هذه الريح، وأن الله يشفى على يدى من شاء فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهدى الله فلا مضل له ومن يُضلل فلاهادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:** قال فقال: أعد علىَّ كلماتك هؤلاء!! فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت

---

(١) أخرجه مالك فى «الموطأ» (٢/ ٧١٩/ ١١).

(٢) تقدم تخريجه قريباً

(٣) ترجم له ابن حجر فى الإصابة (٢/ ٢١٠). وهو ضماد بن ثعلبة الأزدى من أزد شنوءة، وقال ابن حبان وابن منده: يقال له ضماد، وضمام وهو غير ضمام بن ثعلبة السعدى من بنى سعد بن بكر.

مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغن ناعوس البحر»[1]. قال فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: فبايعه فقال رسول الله ﷺ، **وعلى قومك**، قال وعلى قومى، قال: فبعث رسول الله ﷺ سرية فمروا بقومه. فقال صاحب السرية للجيش هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال: رجل من القوم أصبت منهم مطهرة فقال: ردوها! فإن هؤلاء قوم ضماد[2]، فهذا ضماد كان يرقى من الريح، وهو فى الجاهلية قبل إسلامه.

(٤) روى مسلم فى صحيحه، عن أبى سفيان عن جابر، قال: نهى رسول الله ﷺ عن الرقى فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله" إنه كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب، وإنك نهيت عن الرقي، قال فعرضوها عليه. فقال: **«ما أرى بأساً من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**[3].

(٥) وفى مسلم أيضاً عن ابن جبير، عن أبيه، عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنا نرقى فى الجاهية فقلنا: يارسول الله، كيف ترى فى ذلك؟ فقال: **«اعرضوا عليّ رقاكم لابأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك»**[4].

فصل

تعليق التمائم بين الماضي والحاضر

التمائم فى الماضى:

إن تعليق التمائم من شعار أصحاب الجاهلية.. وقد ذكر أن العرب فى الجاهية إذا صاروا فى تيه من الأرض وتوسطوا بلاد الجوش خافوا عبث الجان والسعالى والشياطين فيستعيذون بسيد هذا الوادى فلايؤذيهم أحد كما أخبر الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وبناء على هذا صار الجاهليون يتقربون إلى الجن بذبائح لرفع شرهم، فظنوا أيضا أن فى بعض الأحجار والأشجار والحيوانات والمعادن ما يدفع عنهم خطر الجان وعين الإنسان فتعلقوها تمائم وعلقوا بها قلوبهم وذلك لجهلهم بربهم وعدم توكلهم عليه.

(١) وسط البحر ولجته وقعره انظر «شرح النووى» (٦/١٥٧).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٣/٤٦/١٤٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (٦/١٨٧).

ولذا كثرت عندهم التمائم بشكل ملحوظ مثل:

النفرة، يعلق على الصبى ينفر عنه الجان والناس.

سن الثعلب أو سن الهرة

الينجلب، التولة، الخصمة، وهى خرزة للدخول على السلطان تجعل تحت الخاتم.، العطفة السلوانة، القبلة، خرزة بيضاء تجعل فى عنق الفرس، من العين الودعة وغير ذلك.

التمائم فى الحاضر:

يقول ناصر الدين الألبانى[1]: لاتزال هذه الضلالة فاشية بين البدو والفلاحين وبعض المدنيين ومثلها الخرزات التى يضعها بعض السائقين أمامهم فى السيارة يعلقونها على المرآة وبعضهم يعلق نعلاً فى مقدمة السيارة أو فى مؤخرتها، وغيرهم يعلقون نعل فرس فى واجهة الدار والدكان. كل ذلك لدفع العين وزعموا ذلك وغير ذلك مما عم وطم بسبب الجهل بالتوحيد. وما ينافيه من الشركيات والوثنيات التى ما بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا من أجل إبطالها والقضاء عليها. فإلى الله المشتكى من جهل المسلمين اليوم وبعدهم عن الدين. أهـ.

وذكر (الشقيرى)[2]: مجموعة من هذه التمائم الشركية المنتشرة فى عصرنا الحاضر ومن أمثلة ذلك:

حجاباً لـلقرينة يُقال فيه: ألم تر كيف فعل ربك بالقرينة ألم يجعل القرينة فى تضليل وأرسل على القرينة طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل فجعل القرينة كعصف مأكول، يا عافى يا شديد ذا الطول[3].

وهذا من التلاعب بكتاب الله من تبديله والإستهزاء به. أهـ.

[قلت]: ومن أمثلة ذلك مما هو منتشر اليوم قرن الفلفل الأحمر والكف «خمسة وخميسة» والمفتاح سواء كانت هذه الاشياء من المعدن أو نحاس أو ذهب أو بلاستيك بالإضافة إلى التمائم الموروثة عن الفراعين مثل الجعرانة وغيرها

والتمائم فى الماضى تقدمت قبل هذا الفصل.

---

(١) المجلد الأول من السلسلة الصحيحة فى تعليقه على حديث «من علق تميمة فقد أشرك» رقم ٤٩٢ صححه الألبانى. وقد توفى رحمه الله - أثناء مراجعة الكتاب - فى عمان عاصمة الأردن سنة (١٤٢٠) هـ بعد عصر السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخر الموافق الثاني من أكتوبر (تشرين) سنه ١٩٩٩م.

(٢) كتاب السنن والمبتدعات: ص٣٢٥.

(٣) المرجع السابق ص٣٣٢

فصل
فى حكم الرقى والتمائم

قال الفقير: أما الرقية منها ما هو حرام، ومنها ما هو مستحب، ومنها ما هو مباح، ومنها ما هو واجب، ومنها ما هو مكروه.

١ـ الحرام: روى مسلم عن جابر نهى رسول الله ﷺ عن الرقية فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ فقالوا يارسول الله إنه كان عندنا رقية نرقى بها من العقرب والسم وإنك نهيت عن الرقي، قال فعرضوها عليه فقال **ما أرى بأساً من استطاع أن ينفع أخه فليفعل**(١).

[قلت] وسر النهى فى أول الأمر أنها كانت على قانون الجاهلية، وكانت شركية.

وعند أحمد والحاكم بسند حسن صحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ **الرقى والتمائم والتولة شرك**(٢).

٢ـ مستحب: وذلك إذا تعينت سبيلاً للشفاء.

ومن أدلة الاستحباب:

أن النبى ﷺ رقى نفسه وأمر بالرقية ورقى غيره وأقر غيره على الرقية.

الدليل على أنه رقى نفسه: هو حديث عائشة فى الصحيح أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه نفث فى كفية بـ ﴿قل هو الله أحد﴾ وبالمعوذتين جميعاً ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده»(٣). وفى رواية يفعل ذلك ثلاثاً.

وهناك دليل آخر عن عائشة أن النبى ﷺ كان ينفث على نفسه يرقيها فلما مرض مرض الموت نفثت هى على يده وكانت تمسح جسده بيده لأنها أعظم بركة من يدها»(٤) عن عوف والحديث فى الصحيح.

الدليل على أنه أمر بالرقية:

ما ثبت فى الصحيح من حديث أم سلمة أن النبى ﷺ دخل بيتها فرأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة **(والسفعة)**: التغيير إما بسواد أو بحمرة أو بصفرة فلما رأى هذه الجارية قال الرسول «**استرقوا لها فإن بها النظرة**»(٥).

---

(١) تقدم (٢) تقدم تخريجه

(٣) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٦٣١٩)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٢/ ٥ـ النووى) وانظر «الأذكار» للنووى (٢٣٦ ـ بتخريجنا) ـ ولفظه: «كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذتين، فلما مرض مرضه الذى مات فيه جعلتُ أنفث عليه، وأمسحه بيد نفسه، لأنها كانت أعظم بركة من يدى».

(٤) تقدم تخريجه فى حديث السبعين

(٥) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٥٧٣٩)، ومسلم فى السلام (١٤/ ١٨٥ ـ النووى) وانظر «الطب النبوى» (٥٣٨ ـ بتخريجنا).

والدليل على أنه رقى غيره ﷺ:

ما ثبت فى الصحيح من حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يعوذ بعضهم يمسح بيمنه ويقول «**أذهب الباس رب الناس أشف أنت الشافى لاشفاء إلا شفائك شفاءاً لايغادر سقما**»(١).

والدليل على أنه أقر من يرقى:

أنه أقر الراقى فى حديث أبى سعيد الثابت فى الصحيح أنهم مروا على قوم فأستضافوهم فأبوا فلدغ سيدهم والتمس من يرقية، فلم يجدوا، وذهبوا إلى الصحابة فصالحهم على قطيع من الغنم، فأخذ يرقيه بالفاتحة، وأقرهم الرسول ﷺ على ذلك وقال ﷺ: «**وما يدريك أنها رقية أصبتم، اقسموا، واضربوا لى معكم بسهم**»(٢).

فهذا مستحب إذا توافرت فيه شروط الرقية وانتفت عنها الموانع.

٣ـ مباح: روى مسلم عن عوف بن مالك الأشجعى: «**لابأس بالرقى مالم تكن شركاً**»(٣).

٤ـ واجبة: أمره بها وبالتداوى وهو مذهب..... أحمد والشافعى، بالإضافة إلى موته إذا تركها فيجب لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ**﴾.

٥ـ تكره: إذا لم تكن سبيلاً للشفاء.

ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب هم الذين لايسترقون ولايكتوون ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**»(٤) فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم **لايسترقون**، والإسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقيه والرقية من نوع الدعاء.

قال الفقير: حديث السبعين ألف (لايسترقون..........).

فلماذا هذا الحديث يدل على الكراهة.

قد يقول قائل: يحتمل هذا الحديث أن يكون دليلاً على التحريم والمنع، وإنهم لم يسترقون الرقى الشركية أو الرقى التى ليست من كلام العرب.

تقول كيف ذلك فهؤلاء ليسوا مسلمين عاديين بل هم خواص المسلمين، فكل المسلمين

---

(١) فتح البارى (١٠/ ١٧٨).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٣٦)، ومسلم فى اللباس (١٤/ ١٨٧ـ النووى) وانظر «منار السبيل» (١٦٩٥ ـ بتخريجنا)، وانظر «الطب النبوى» (٤٣١ ـ بتحقيقنا).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

لايرقون رقى شركية، وبذلك كانوا مسلمين لأنهم لم يأتوا بشرك، إذاً هؤلاء السبعين بما تيمزوا عليهم إذا لم يتميزوا هؤلاء السبعين على المسلمين العاديين بشيء، إذا كانت الرقى هنا المقصود بها الرقى الشركية.

ولكن هؤلاء السبعين تميزوا بمزية ماهى؟

أنهم لايسترقون أو لايرقون الرقى الظنية، فإذا لم تتعين الرقية سبيلاً للشفاء لكمال توكلهم وثقتهم وإعتماد قلوبهم على الله تركوها.

أما إذا تعينت الرقى سبيلاً للشفاء فلكمال توكلهم وثقتهم واعتماد قلوبهم على الله أخذوا بالرقى القطعية والسبب القوى فى هذا الوقت، فلم يقدح ذلك فى كمال توكلهم على الله.

سؤال وإشكال: لو أن أحد المسلمين رقى رقية شرعية أوقدرية غير ممنوعة توافرت فيها الشروط، وانتفت فيها الموانع، وهو نفسه معتمد على الله ومعتقد أنها سبب، لكن الرقية نفسها لم تتعين سبيلاً للشفاء وليست سبب قوى، هل يحرم عليه ذلك ويأثم؟

الجواب: لا ولكن يكره له ذلك لأنه ترك المستحب وترك المندوب مكروه.

تكره الرقى إذا لم تتعين سبيلاً للشفاء.

وبذلك الرقى تدور مع الأحكام التكليفية الخمسة فتارة تكره وتارة تباح وتارة تحرم وتارة تجب وتارة تستحب كما بينا ذلك. والله المستعان.

الأدلة على تحريم التمائم/ وعلاقة التمائم بالتوكل:

أولاً: من الكتاب العزيز:

قال تعالى: **﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**(١).

وقال تعالى: **﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**(٢).

وقال: **﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا**

---

(١) الأنعام (١٧)

(٢) يونس (١٠٧).

كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(١).

ففي هذه الآيات الكريمات دلالة واضحة على أنه لايكشف الضرّ إلا الله، وأنه سبحانه هو الذى يلجأ إليه العباد لجلب الخير أو لدفع الشر، وهو القادر على ذلك بسبب أو بغير سبب. والأسباب إما أن تكون شرعية.. وهو ما جعله الله سبباً فى الشرع لدفع ضر أو لجلب نفع بنص آية أو حديث. كمثل الدعاء والرقية الشرعية أو سبب قدرى (طبيعى) وهو ما ثبت نفعه بالتجربة ولم يمنع الشرع من تعاطيه، وما التمائم إلا أسباب.

وللتمائم علاقة بالتوكل على الله عزوجل

قال تعالي: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**(٢).

قال تعالى: **﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾**(٣).

فجعل دليل صحة الإسلام التوكل.

قال تعالى: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾**(٤).

فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل.

قال ابن القيم: فجعل الله التوكل شرطاً فى الإيمان، فإن لم يتوكل على الله، وتوكل على التمائم فانتفى عنه شرط من شروط الإيمان، فدل على إنتفاء الإيمان عند انتفائه. أهـ.

هل تنافى الرقية التوكل؟

المقصود هل تنافى الرقية أصل التوكل أم تنافى كمال التوكل فإن قال أصل التوكل؟ نقول تعاطى الرقية الشرعية أو القدرية المشروعة أو غير الممنوعة لا يتنافى وأصل التوكل.

بمعنى أن من تعاطى الرقى لانقول أن بمجرد تعاطيه ليس بمتوكل لأنها من باب

(١) النحل (٥٣، ٥٤).
(٢) المائدة/ ٢٣.
(٣) يونس/ ٨٤
(٤) إبراهيم/ ١١.

تعاطى الدواء، والرسول قال «**تداووا**»(١)وهو لايأمر بأمر وهو قـادح فى أصل الإعتقاد، بل أمر بالرقية ورقى وأقر كما تقدم فلايتصـور أنه هو يرقى ويُفعل به ويأمر بها ثم هى تقدح فى أصل التوكل لا لا تقدح فى أصل التوكل!!

أما إن كان مقصد السائل من السؤال أن الرقية تقدح فى كمال التوكل.

نقول: نعم قد تقدح فى كمال التوكل عـلى الله، نقول أن الرقية الشرعية أو القدرية الغير ممنوعة قد تقدح فى كمال التوكل ولكن متى؟

الجواب: إذا كانت لم تتعين سبيلاً للشفاء.

فالشفـاء بها ظنى وليس قـطعى، فالذى يقدح فى كـمال التوكل هو الأخذ بـالسبب الضعيف، أما إن أخذ بالسبب القوى وتوكـل على الله هذا لايقدح فى كمال توكله على الله.

ونضرب لكم مثال على ذلك ثلاث دراجات بخارية:

فصاحب الدراجة الأولى تركتها غير مربوطة **والثانى** تركها مربوطة بجنزير، **والثالث** مربوطة بخيط ضعـيف وكانت الدراجات الثلاثة خارج المسجد والثـلاثة أشخاص توكلوا على الله ودخلوا المسجد كى يؤدوا الصلاة. فالسؤال هنا: من فيهم الذى توكل على الله توكلاً كاملاً؟ ومن فيهم المتواكل؟ ومن فيهم الذى توكله ناقص؟

الجواب:

١ـ المتواكل الذى تركها بدون ربطها بأى شىء.

٢ـ الذى توكله ناقص الذى ربطها بخيط ضعيف.

(٣) والذى توكله كاملاً الذي أخذ بالسبب القوى وربطها بالجنزير.

ورغم أنه أخذ بالسبب القوى كان معتمداً على الله ومتوكلاً عليه فكان من الممكن أن يعتمد عـلى السبب ـ ويعتمد عـلى الجنزير ـ القوى فقط ولكن إذا تـوكل على الله ولم يرتبط بالسبب فهو معتقد أن السبـب مهما عظم فهو مرتبط بالله. والله عزوجل إن شاء أجرى حكـمة الحفظ فى هـذا السبب وإن شاء لـم يجرى هذه الحـكمة فتسـرق الدراجة البخارية بالجنزير، فهو توكل على الله بهذه الصورة.

لكن الذى ربط بـالخيط يأتى له الشيـطان من هذه الجهة ويوسوس لـه؛ لذلك قال: النبى ﷺ «**استعن بالله ولاتعجز** وإن فاتك شيء **فلاتقل لو كان كـذا لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(٢) **وأيضا** السبب الضعيف يفتح عمل الشيطان.

كيف ذلك؟

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

يأتي إليه الشيطان وهو يصلي ويوسوس له: دراجتك هذه تسرق الآن. وأحسن أحواله أنه شوش عليه صلاته لأنه تأثر بذلك لضعف توكله فهذا توكله ضعيف فإنه والحاله هذه من الممكن أن يخرج من الصلاة نهائياً ويخرج ليطمئن على داجته.

فكذلك الرقية. تكون سبباً قوياً إذا تعينت سبيلاً للشفاء «**مثل رقى العين والحمة**» كما قال «**لارقيه إلا من عين أو حمة**»(١).

فهي هنا لاتقدح في كمال توكله.

ـ لكن إذا أخذ بسبب ضعيف يعني الرقية لم تتعين سبيلاً للشفاء.

مثلاً عنده روماتيزم فالرقية هنا ظنية، ولست قطعية فلو أخذ بسبب ضعيف فإن السبب الضعيف قادح في كمال التوكل على الله والقدح في أصل التوكل يظهر لك من خلال أقسام التوكل على غير الله كما سيأتي.

أقسام التوكل على غير الله:

قال سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب: التوكل على غير الله قسمان:

[**أحدهما**] التوكل في الأمور التي لايقدر عليها إلا الله كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة، فهذا شرك أكبر فإن هذه الأمور ونحوها لايقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى.

[**الثاني**]: التوكل في الأسباب العادية، كمن يتوكل على أمير أو سلطان، فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك فهذا شرك خفي(*) (٢) ولاشك أن الإعتماد على التمائم اعتماداً كلياً يلحق بالنوع الأول.

قد يقول قائل: هذا سبب عادي وربنا جعله في يده فلماذا أصبح شرك خفي؟

الجواب: لأنه توكل على الله وتوكل على السبب فهو شرك أصغر، مثل الرياء كان يعمل للدنيا ولله، كما قال النبي ﷺ **إياكم وشرك السرائر** قالوا وما شرك السرائر؟ قال «**إن يزين الرجل صلاته لما يرى من أعين الناس**»(٣)، فهو دخل الصلاة لله، ثم لما رأى أعين الناس زين صلاته أكثر، وكذلك هذا فإنه اعتمد على الله، واتخذ الأمير سبباً ثم حصل له ثقة وطمئنية للسبب.

(١) تقدم تخريجه (*) ففي شركٌ خفي لأنه اعتمد على الله وعلى الأسباب.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص,٤٩٧

(٣) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحة» (٩٣٧) عن محمود بن لبيد.

فالله يخزيه ويخذله من نفس الجهة التى اطمئن عليها.

وقال تعالى ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ**﴾.

فإذا ركنت لغير الله كأنك ركنت لبيت العنكبوت».

[الثالث]: وهى الوكالة الجائزة وهى توكل الإنسان على غير الله فى فعل ما يقدر عليه، ولكن ليس له أن يعتمد عليه وإن، وكّله، بل يتوكل على الله ويعتمد عليه فى تيسير ما وكله فيه.

ثانياً: الأدلة من السنة على تحريم التمائم وهى كثيرة جداً منها:

١ـ عن عمران بن الحصين أن النبى ﷺ رأى رجلاً فى يده حلقة فقال **ما هذه** قال من الواهنة قال «**انزعها فإنها لاتزيدك: إلاوهناً فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبدا**»(١).

٢ـ عن عقبة بن عامر يقول سمعت رسول الله ﷺ «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلاودع الله له**»(٢).

٣ـ عن عقبة بن عامر الجهنى أن رسول الله ﷺ يقول أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد فقالوا يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا قال: «**إن عليه تميمة**» فأدخل يده فقطعها فبايعه وقال «**من علّق تميمة فقد أشرك**»(٣).

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) وتقدم تخرجه قال البيهقى معلقاً على حديث عقبة بن عامر: «من علق تميمة... الحديث: يحتمل أن يكون ذلك وما أشبهه من النهى والكراهية فيمن تعلقهما وهو يرى تمام العافية وزوال العلة منها على ما كان أهل الجاهلية يصنعون، فأما من تعلقها متبركاً بذكر الله تعالى فيها وهو يعلم أن لا كاشف إلا الله ولادافع عنه سواه فلا بأس بها إن شاء الله

ثم ذكر قول عائشة ـ رضى الله عنها ـ «التمائم ما علق قبل نزول البلاء وما علق بعد نزول البلاء فليس بتميمة» قال: هذا أصح.

ـ ثم ذكر أحاديث النهى، ثم أردفها بقول سعيد بن المسيب، ثم قال: فهذا كله يرجع إلى ما قلنا من أنه إن رقى بما لايعرف وعلى ما كان من أهل الجاهلية من إضافة العافية إلى الرقى لم يجز وإن رقى بكتاب الله أو كما يعرف من ذكر الله متبركاً وهو يرى نزول الشفاء من الله تعالى فلا بأس به وبالله التوفيق. أ.هـ.

(٣) تقدم تخرجه.

٤ـ عن أبى وهب قال: قال رسول الله ﷺ **«وارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفالها ولا تقلدوها أوتار»**(١).

٥ـ عن عباد بن تميم أن أبا بشير الأنصارى رضى الله عنه أخبر أنه كان مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره قال عبدالله(٢) حسبت أنه قال والناس فى مبيتهم فأرسل رسول الله ﷺ رسولاً **«لاتبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت»**(٣).

قال ابن حجر: قال ابن الجوزى، وفى المراد بالأوتار ثلاثة أقوال.

[أحدها]: أنهم كانوا يقلدون الإبل أوتار العشى فلا تصيبها العين بزعمهم فأمروا بقطعها إعلاما بأن الأوتار لاترد من أمر الله شيئاً، وهذا قول مالك وسيأتى تفسير أوضح من هذا.

قلت: (القائل ابن حجر) وعلى ذلك متصلاً بالحديث من كلامه فى الموطأ وعند مسلم وأبى داود وغيرهما قال مالك أرى أن ذلك من أجل العين(٤).

٦ـ عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت كان عبدالله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على شىء يكرهه قالت: وأنه جاء ذات يوم فتنحنح قالت: وعندى عجوز ترقينى من الحمرة فأدخلتها تحت السرير فدخل فجلس إلى جنبى فرأى فى عنقى خيطاً قال:ما هذا الخيط؟ قالت: قلت خيط أرقى لى فيه قالت فأخذه فقطعه ثم قال: إن ال عبدالله لأغنياء عن الشرك سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إن الرقى والتمائم والتولة شرك ـ الحديث**(٥) وقد تقدم.

٧ـ عن عيسى بن عبدالرحمن قال: دخلنا على عبدالله بن حكيم وهو مريض نعودة فقيل له لو تعلقت شيئاً فقال: أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله ﷺ **«من تعلق شيئاً وكل إليه»**(٦).

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٣٤٥)، وأبو داود (٢٥٤٣) والنسائى فى «الكبرى» (٤٤٠٦) وانظر «تحفة المودودى بتخريجنا.

(٢) المراد عبدالله بن أبى بكر وهو الذى يروى عنه عباد بن تميم.

(٣) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٣٠٠٥)، ومسلم فى اللباس والزينة (٧/ ٣٤٧/ ١٠٥)، وأبو داود (٢٥٥٢).

(٤) الإشارة إلى تعليل الأمر بقطع الأوتار كما فى الموطأ قال يحيى سمعت مالكاً يقول أرى ذلك من العين انظر الموطأ (٢/ ٧١٤/ ٣٩)

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

٨ـ عن رويفع بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال «**يا رويفع لعل الحياة ستطول بك بعدى فأخبر الناس أنه من عقد لحيته أو تقلد وترًا أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً برىء منه**»(١).

٩ـ دخل حذيفة رضى الله عنه على مريض فرأى فى عضده سيراً فقطعه أو انتزعه ثم قال: ﴿**ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾(٢).

وهذا يدل على أن حذيفة رضى الله عنه يرى تعليق التمائم من الشرك ولايقول هذا من عنده رضى الله عنه.

وأما قول عائشة رضى الله عنها: والتمائم ما علق قبل نزول البلاء وأما ما علق بعد نزول البلاء فليس بتميمة(٣) فالظاهر أنها تقصد بذلك ما علّق من القرآن كما سيجىء.

فصل

تعليق التمائم هل هو من الشرك الأكبر أم الأصغر

إن تعليق التمائم هو من باب شرك الأسباب، وهذا الشرك قد يكون من الشرك الأكبر وقد يكون من الأصغر حسب حال صاحبه فلأجل ذلك لا يقال إن تعليق التمائم شرك أكبر ولايقال أصغر بإطلاق وإنما ينظر فى حال المتعلق وفى الحال المعلق.

يقول **عبدالرحمن بن ناصر بن سعدى** فى شرحه لباب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه الذى عقده الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى كتاب التوحيد:

وهذا الباب يتوقف على معرفة أحكام الأسباب وتفصيل القول فيها أنه يجب على العبد أن يعرف فى الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: أن لايجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً.

ثانيها: أن لايعتمد العبد عليها بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها وحرصه على النافع منها.

ثالثاً: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه. اهـ(٤).

---

(١) سيأتى تخريجه — (٢) تفسير بن كثير ٤/ ٣٤٢.

(٢) تقدم تخريجه — (٤) القول السديد (٣٣، ٣٤).

وذكر سليمان آل الشيخ[1]: أن لبس الحلقة والخيط لدفع البلاء أو رفعه من الشرك الأصغر.

يقول: ولاشك أن الشيخ يريد أن من اعتقد فيها مجرد السببية هو شرك أصغر. أما لو توكل عليها ورجى النفع من قبلها وتأله لها، أو كانت التميمة من التمائم الشركية، كالإستغاثة بالمخلوقيين فيما لايقدر عليه إلا الله فإن هذا من الشرك الأكبر.

وبمثل هذا قال عبدالعزيز بن باز[2].

حيث قال عن التمائم: إن كانت من أسماء الشياطين أو من العظام أو الخرز أو المسامير والطلاسم - وهى الحروف المقطعة -، وأشباه ذلك أنها من الشرك الأصغر، وقد تكون شرك أكبر إذا اعتقد معلق التميمة أنها تحفظه أو تكشف عنه المرض أو تدفع عنه الضرر دون إذن الله ومشيئته.

فالشيخ هنا ينصب كلامه على صورة واحدة وهى:-

اعتقاد أنها سبب فقط مع صلاح المعتقد، فهذا شرك أصغر سواء كانت من العظم والمسامير أو الخرز أو ..... الطلاسم محتملة ولم يأتى بالتمائم الشركية التى فيها الإستغاثة بالمخلوقيين قولة واحدةً كما تقدم عن صاحب تيسير العزيز الحميد.

وقال ابن باز فى تعليقه على حواشى حامد الفقى على فتح المجيد.

قال: والصواب أن تعليق التمائم ليس من الإستهزاء بالدين بل من الشرك الأصغر ومن التشبه بالجاهلية وقد يكون شرك أكبر على حسب مايكون بقلب صاحب التعليق من اعتقاد النفع فيها وأنها تنفع وتضر دون الله عزوجل وما أشبه هذا الإعتقاد، أما إذا اعتقد أنها سبب للسلامة من العين أو الجن ونحو ذلك فهذا من الشرك الأصغر لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعلها سبباً بل نهى عنها وحذر أنها شرك على لسان رسول الله ﷺ وماذاك إلا لما يقوم بقلب صاحبها من الإلتفات إليها والتعلق بها.

تنبيه:

هذه النقولات تبين أن فهمنا فهم صحيح، حتى لايخرج علينا من يقول أنتم تكفير أو خوارج. أو مثل هذه المجازفات.

ويقول حافظ حكمى صاحب «ومعارج القبول شرح سلم الوصول»[3] قال فى التميمة:

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١١٧- ١١٩).

(٢) التعليق المفيد (٦٩).

(٣) معارج القبول (١/ ٤١٤).

وإن تكــن ممــا ســوى الوحيين

فإنهــا شــرك بغيــر ميــن

بــل إنهــا قسيمــة الأزلام

فى البعد عن سيما أولى الإسلام

ثم قال **(وإن تكن)**: أى التمائم

(مما سوى الوحيين): أى طلاسم اليهود وعباد الهياكل والنجوم والملائكة المستخدمى الجن ونحوهم أو من الخرز أو الحلق من الحديد وغيره **(فإنها شرك)**.

(بغير مين): بغير شك إذ ليست هى من الأسباب المباحة والأدوية المعروفة، بل اعتقدوا فيها اعتقاداً محضاً أنها تدفع كذا وكذا من الآلام لذاتها لخصوصية زعموا فيها كاعتقاد أهل الأوثان فى أوثانهم . اهـ.

(قسيمة الأزلام): أى شبيهة بالأزلام **﴿وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾** والأزلام أن يأتوا بثلاث أعواد ويضعوها فى قدح ويرجوها عود أوسهم مكتوب عليه أفعل، والثاني، لاتفعل، والثالث لاشىء عليه فالاستقسام بالأزلام شرك فى الأسباب قال حافظ حكمى: وقد أدلنا الله خيراً من ذلك: صلاة الإستخارة ودعاءها. اهـ.

قال حافظ حكمى: (عن سيما أولى الإسلام) أى عن زى أهل الإسلام، فإن أهل التوحيد الخالص من أبعد ما يكون عن هذا وهذا، والإيمان فى قلوبهم أعظم من أن يدخل عليه مثل هذا وهم أجل شأناً وأقوى يقيناً من أن يتوكلوا على غير الله أو يثقوا بغيره. وبالله التوفيق أهـ.

قال الفقير: عن سيما: أى العلامة أو الزى كما قال تعالى: **﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾**.

وقال تعالى: **﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِين﴾** فيها قولان.

(الأول): المتأملين. و(الثانى): المتوسمين: المتفرسين أى الذين يصلون إلى حقائق ومتغلقات الأمور ببعض العلامات الظاهرة منها. فيتفرس مثلاً حال الشخص.

والسيما والعلامة: ليس كل أحد يعرفها.

كما أُثر عن عثمان بن عفان لما دخل عليه بعض المسلمين فقال أما يستحى أحدكم أن

يدخل على أمير المؤمنين وأثر الزنا فى عينيه. فعرف ذلك بالفراسة وبالعلامة والسيما والفراسة تزيد فى المؤمن بزيادة إيمانه وتنقص بنقص إيمانه(*).

قال ناصر السعدى:[1] أما التمائم فهى تعاليق تتعلق بها قلوب متعلقيها والقول فيها كالقول فى الحلقة والخيط كما تقدم.

فمنها ما هو شرك أكبر، كالتى تشتمل على الإستغاثة بالشياطين أو غيرهم من المخلوقين. فالإستغاثة بغير الله فيما لايقدر عليه إلا الله شرك كما سيأتى إن شاء الله فى باب/ من الشرك أن يتستغيث بغير الله.

ومنها ما هو محرم كالتى فيها أسماء لايفهم معناها لأنها تجر إلى الشرك.

وأما التعاليق التى فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة فالأولى تركها لعدم ورودها عن الشارع، ولكونها يتوصل بها إلى غيرها من المحرم، ولأن الغالب على متعلقها أنه لايحترمها ويدخل فيها المواضع القذرة.

أما الرقى ففيها تفصيل: فإن كانت من القرآن أو السنة أو الكلام الحسن فإنها مندوبة فى حق الراقى لأنها من باب الإحسان، ولما فيها من النفع، وهى جائزة فى حق المرقى إلا أنه لاينبغى له أن يبتدىء بطلبها، فإن من كمال توكل العبد وقوة يقينه أن لايسأل أحداً من الخلق لارقية ولاغيرها، بل ينبغى إذا سأل أحداً أن يدعو الله أن يلحظ مصلحة الداعى والإحسان إليه بتسببه لهذه العبودية له مع مصلحة نفسه، وهذا من أسرار تحقيق التوحيد ومعانيه البديعة التى لايوفق للتفقة فيها والعمل بها إلا الكُمَّل من العباد. وإن كانت الرقية يدعى بها غير الله ويطلب الشفاء من غيره فهذا هو الشرك الأكبر لأنه دعاء وإستغاثة بغير الله.

فافهم هذا التفصيل، وإياك أن تحكم على الرقى بحكم واحد مع تفاوتها فى أسبابها وغاياتها أهـ.

مسألة:

هل الرقى توقيفية؟

(*) راجع فى الفراسة «الطرق الحكمية» لابن القيم وكذلك «مدارج السالكين» فى مقام الفراسة.

(١) القول السديد (٣٦ ـ ٣٨).

الرقى من حيث ثبوتها نوعان:

١ـ توقيفية: وهى ما أقرّها النبى ﷺ وفعلها وأمر بها.

٢ـ قدرية: للعموم ولابد أن يتوفر فيها شرطان:

١ـ ثبوت النفع

٢ـ عدم المانع الشرعى.

أولاً الرقية الشرعية: فهى توقيفية بمعنى أننا لا نزيد فيها ولاننقص منها عما جاء فى الشرع فى كيفيتها وصفتها ووقتها فى كل شيء خاص بها. يعنى عند استعمالها نقف فيها على ماجاء به الشرع.

مثال: النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه وقرأ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ والمعوذنين ثم نفث فيهما ثم مسح بهما جسده (١) كان يفعل ذلك بالليل، فلا نفعله نحن بالنهار.

أو كما قال لعثمان بن أبى العاص «**ضع يدك على ما تألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً**»(٢) فلا يجوز أن نجعلها ثلاث عشرة وقال «**قل أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات**» فلا يجوز أن تقولها سبعة عشرة .

ثانياً: الرقى القدرية: فهى ليست توقيفية.

بمعنى أنها ليست موقوفة على إذنٍ من الشرع بل لها شرطان:

(١) أن يثبت النفع فيها، أي: يثبت بالتجربة أنها نافعة.

(٢) عدم وجود المانع الشرعى من استخدامها.

الأدلة على ذلك:

أن النبى ﷺ أباح رقى قبل الإسلام

حديث عوف بن مالك الأشجعى فى صحيح مسلم «لما قال النبى ﷺ: **أعرضوا على رقاكم** فقال: ولابأس بالرقي(٣).

وأيضاً حديث جابر لماجاء آل عمرو بن حزم فذكر الحديث.

فقال النبي: «ما أرى بها بأس»(٤).

فالنبى ﷺ أقر الرقى القدرية التى ثبت فيها النفع ولم يثبت فيها المنع فلا يوجد ما يمنع شرعاً من تعاطيها، فلايوجد شرك، ولايوجد، مايقدح فى التوكل، فلا مانع منها.

(١) تقدم تخريجه

(٢) [**صحيح**] أخرجه مسلم فى السلام (١٤/ ١٨٩ـ النووى) وانظر «الأذكار» للنووى (٣٥٧ ـ بتخريجنا).

(٣) تقدم تخريجه. (٤) تقدم تخريجه.

وحديث الشفاء أن النبي ﷺ قال لها« **علميها رقية النملة كما علمتيها الكتابة**» يعني لحفصة والحديث رواه أبو داود في سننه عن الشفاء بنت عبدالله قالت دخل على النبي ﷺ وأنا عند حفصة فقال: «**ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها رقية الكتابة**»(١) والحديث في المستدرك وله قصة أن رجل من الأنصار أصيب بذلك والنملة هي قروح. تظهر في الجنب وتكون هذه الرقية سبب في الشفاء إن شاء الله، فجاء هذا الأنصارى إلى الشفاء بنت عبد الله فقالت له ما رقيت منذ أسلمت، وذهب إلى رسول الله وقال له ما قالت له الشفاء.

فدعى النبي ﷺ للشفاء فقال: «**أعرض عليّ** فعرضتها فقال: «**أرقيه وعلميها حفصة كما علمتيها الكتابة**» الحديث.

فهذه القصة نبين أن رقية النملة من الرقى القدرية التى أقرها الشرع ولم يُعَلّمْها النبى للشفاء بنت عبدالله بل هي كانت عندها.

هل يرقى من كل داء؟

قلنا: نعم يرقى من كل داء للأحاديث المتقدمة أن النبي ﷺ كان إذا مرض أحد من أهل بيته نفث في يديه ومسح عليه وقال: «رب الناس أذهب الباس إشفى أنت الشافي»(٢). وكذلك جبريل كان إذا اشتكى النبى ﷺ يرقيه..»(٣)

فائدة: والرقية القدرية أصلها هي قوله ﷺ« **من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل**»(٤)

وأن الرقى من باب الطب.

وأما إذا جرب الإنسان رقية غير التي وردت عن الرسول ولم يكن فيها محذور شرعى فالظاهر جواز ذلك للأسباب الآتية.

(١) التداوى بالرقى من جنس التداوى بالأدوية.

حديث طلحة فى صحيح مسلم: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال: «**مايصنع هؤلاء**: قال يلقحونه فيجعلون الذكر على الأنثى فتلقح فقال رسول الله ﷺ «**ماأظن يغنى ذلك شيئاً**» قال فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإن إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن وإنما إن حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فأنى لا أكذب على الله عزوجل**»(٥).

---

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/٣٧٢)، وأبو داود (٣٨٨٧)، والنسائى فى «الكبرى» (٧٥٤٣)، والحاكم فى «المستدرك» (٤١٤).

وانظر «الطب النبوى» للذهبى (٥٥٨ ـ بتحقيقنا).

(٢) تقدم تخريجه (٣) تقدم تخريجه (٤) تقدم تخريجه

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/١٢٧/١٣٩) عن طلحة به.

وفى رواية «**أنتم أعلم بشئون دنياكم**» رواه مسلم.

(٣) قال أبو بكر بن العربي: العسل عند الأطباء أقرب مايكون دواء من كل داء من الحبة السوداء ومع ذلك فإن من الأمراض ما لوشرب صاحبه عسل لتأذى به.

(٤) ورد أن النبى أقر بعض الصحابة على رقية تعلموها من غيره ﷺ لما وجد أنها خالية من الشرك.

كما فى حديث ترخيص النبى ﷺ لآل عمرو بن حزم فى رقية الحية[(١)] وكذا قول جابر بن عبدالله: لدغت رجلم منّا عقرب وأنا جالس فقلت يارسول الله أرقي؟: قال: **من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**[(٢)].

وكذا حديث الشفاء بنت عبدالله المتقدم[(٣)].

كذا حديث أنس بن مالك قال فى الرقية: رخص فى الحمى والنملة والعين[(٤)].

(٥) هذه الرقى قد تكون من أمور الدنيا ونحن نعلمها ونجتهد فيها وهذا من سعة الدين ويسره وسماحته.

هناك مقدمة تعين على معرفة الفرق بين الشرك الأكبر من الشرك الأصغر بمعنى آخر ومتى تكون الرقى والتمائم وغيرهما من الشرك الأصغر؟ أو من الشرك الأكبر؟

وذلك بمعرفة الضوابط الآتية: -

الضابط الأول: أن يكون الشرك فى الألفاظ ولم يقصد بها صرف عبادة لغير الله فهو شرك أصغر[(٥)].

أمثلة للشرك الأصغر من هذا النوع.

١) قول الرسول ﷺ لمن قال له «**ما شاء الله وشئت**» فقال الرسول ﷺ **أجعلتنى لله نداً بل ما شاء الله وحده**»[(٦)] وحديث: «**لاتقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان**»[(٧)].

الندية هنا لماذا تحملها على الشرك الأصغر ولاتحملها على الشرك الأكبر؟

الجواب: أن الصحابة بينوا أن الشرك الخفى هو الأصغر.

---

(١) تقدم تخريجه
(٢) تقدم تخريجه
(٣) تقدم تخريجه
(٤) تقدم تخريجه
(٥) وانظر كتاب التمائم د. على بن نفيع العلياني
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٠٤)، وزبو داود (٩٧٨٠)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٨٢١) عن حذيفة به. وانظر «رياض الصالحين» (١٧٤٨ـ بتخريجنا).

وفى تفسير ابن كثير عن ابن عباس فى تفسير قول الله عزوجل: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: الأنداد هو الشرك الخفى، أخفى من دبيب النمل، وهو أن تقول: والله وحياتك، وتقول: لولا الكلب، ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ماشاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان(١).

ـ وأيضاً الحلف بغير الله وقد قال الرسول ﷺ «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(٢). وهذا محمول على الشرك الأصغر كما تقدم عن ابن عباس

ووكالأسماء التى هى تعبيد لغير الله مثل عبدالحسن، وعبدالرسول.

ـ وقول النبى ﷺ: «**من قال لأخيه تعالى أقامرك فليتصدق**»(٣) فهنا جعل له كفارة فلم يحكم عليه بالردة، فهو عليه أثم ومحوه يكون بالكفارة.

الضابط الثانى: أن يكون الشرك فى الأغراض والمقاصد إذا لم يكن صاحبه منافق نفاق اعتقادى، ويقصد الدنيا فقط (لايكون هدفه وغرضه إلا الدنيا فقط).

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ وذلك إذا قصد الدنيا فقط هو شرك أكبر.

أما مثال الشرك الأصغر فى الأغراض والمقاصد أن يرائى الشخص فى صلاته فمع قصده وجه الله وحده قصد وجه الناس أيضاً كما قال الرسول ﷺ: «**إياكم وشرك السرائر**» قالوا فما شرك السرائر يا رسول الله؟ قال «**يقوم الرجل فيزين فى صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه...**»(٤) الحديث وتقدم.

ـ وعن شداد بن أوس قال كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ من الشرك الأصغر(٥).

وهو فى حكم المرفوع أو مرفوع الحكم، وقد ورد حديث مطلق «**أخوف ما أخاف على أمتى الرياء**»(٦)، وأما حديث شداد فمقيد فيحمل المطلق على المقيد.

---

(١) [حسن] أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١/٥٦- ابن كثير).
وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١١).

(٢) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/٤٧)، وزبو داود (٩٣٢٥١، والترمذى (١٥٣٥) عن ابن عمر به، وانظر «رياض الصالحين» (١٧١٤- بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٨٦٠)، ومسلم فى الإيمان (١١/١٠٦- النووي) عن أبى هريرة به، وانظر «رياض الصالحين» (١٨١٠ـ بتخريجنا).

(٤) تقدم تخريجه

(٥) أخرجه البيهقى فى «الشعب» (٦٨٤٢) وفى إسناده ابن لهيعة.

(٦) تقدم من حديث محمود بن لبيد.

ـ وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر خرج إلى المسجد يوماً فوجد معاذ بن جبل عند قبر الرسول ﷺ وهو يبكى فسأله عن بكائه فقال حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: **«اليسير من الرياء شرك ومن عاد أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة»**(١).

نقل النووى الإجماع على أن مرتكب هذا الشرك (الرياء) لايكفر الكفر الأكبر المخرج عن المله ومن العمل لأجل الدنيا ليس لها فقط إذا لم تكن هدفه الوحيد كمثل الذى يجاهد وهو يريد الأجر والذكر والمال.

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

قال الله عزوجل: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه»**(٢).

وكما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح **«تعس عبدالدينار....»**(٣).

الضابط الثالث: أن يكون الشرك فى الأسباب الغير شرعية «الوسائل».

مثل التميمة ـ التولة كالذى اعتمد على الخيط فى الحمّى (سبب ليس شرعى ولاقدرى فهذا شرك أصغر إذا لم يعتمد عليه اعتماداً كلياً).

فإن اعتمد على السبب اعتماده على الرب فقد كفر كفر أكبر كأن يعتقد أن السبب ينفع كنفع الله أو يمنع كمنع الله، فمع سلامة المعتقد اتخذ هذه الأسباب: نقول له أنت أشركت شرك أصغار ويدل على ذلك قول ابن مسعود: **«الطيرة شرك الطيرة شرك وما منا إلا ولكن يذهبه الله بالتوكل»**(٤) وسيأتي.

وفى الحديث: **«من ردته الطيرة من حاجته فقد أشرك»** قالوا فما كفارة ذلك يارسول الله فقال النبى ﷺ تقولوا **«اللهم لاطير إلا طيرك ولاخير إلا خيرك ولا إله غيرك»**(٥) وسيأتى أيضًا.

ـ سؤال: هل الطيرة تدخل فى شرك الأسباب؟

الجواب: نعم لأنهم اعتمدوا عليها كسبب لفعل العمل أو تركه، فإذا اعتقدوا ـ فعلاً ـ

---

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (١/ ٤) وصححه.

(٢) سيأتى تخريجه (٣) سيأتى تخريجه

(٤) سيأتى تخريجه فى باب ما جاء فى التطير.

(٥) سيأتى تخريجه فى الباب المذكور سابقًا

أن بها النفع والضـر كنفع الله عزوجل فقد أشرك شرك أكبر وإن اعتـقد غير ذلك فهو شرك أصغر.

لكن على أية حال يقول عـبدالرحمن بن سعدى[1] وأما الشرك الأصغر فـهو جميع الأقوال والأفعال التى يتوسل بها إلى الشرك (أى الشرك الأكبر).

فالوسيلة إلـى الشرك شرك كالغلو فى المخلـوق الذى لايبلغ رتبة العبادة فـالغلو هو مخصص للشرك الأكبر كما سيأتى بعد ذلك.

فكأنه يقول أن الشرك الأصغر فى جميع الأقوال والأفعال التى يتوسل بها إلى الشرك الأكبر مالـم تبلغ هذه الوسائل درجـة العبادة كالغلو فـى المخلوق مثلاً فقد يغـالى لكن لايصل إلى درجة أنه الله أو ابن الله أو.... كما قالت النصارى.

أيضاً الحلف بغير الله كأن تقول والنبى فهذا غلوا لكن لاتصرف العبادة للنبى.

وأيضاً كيـسير الرياء ونحـو ذلك. فالرياء وسيلـة للوصول إلى الشـرك الأكبر لأنه يوشك بارادة وجه الله ووجه الناس أن لايريد بعد ذلك إلا وجه الناس.

ومما تقدم يظهر لنا أن الشرك الأصغـر هو الذى لاينقض أصل الإيمان، ولايصل إلى العبادة المحضة التى تصرف لغير الله ويمكن أن يعرف الشرك الأصغر بعدة أدلة.

دلائل الشرك الأصغر:

هناك علامات يمكن أن تعرف بها الشرك الأصغر وهى كالآتى:

(١) أن ينص الرسول ﷺ على شيء معين أنه شرك أصغر.

كما قال النبى ﷺ **أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** فسئل عنه فقال «الرياء»[2].

(٢) أن يوصف عمل من الأعـمال بأنه كفر أو شرك ويحدد الشارع عقـوبة بغير حد الردة. فلايترتب على هذا العمل عقوبة المرتدين ولايعامل صاحبه معاملة المرتد.

* كما قال ﷺ فى **«الطيرة أنها شرك»** فقالوا يا رسول الله وما نقول قال قولوا **«اللهم لاطير إلا طيرك ولاخير إلا خيرك ولا إلـه غيرك»**[3] فهنا لم يترتب عـلى العمل عقوبة الردة.

* وكمـا قال النـبى **«من أتـى حائـضًا أو امرأة فـى دبرهـا فقـد كفر بمـا أنزل عـلى محمد»**[4]. وحديث ابن عباس **«من أتى حائضًا فليتصدق بدينار أو بنصف دينار»**[5].

- فهنا لم يترتب على العمل عقوبة الردة.

---

(١) القول السديد (٣٤، ٣٥).
(٢) تقدم تخريجه قريبًا.
(٣) تقدم تخريجه
(٤) [ضعيف] أخرجه أحمد فـى «مسنده» (٤٠٨/٢)، وأبو داود (٣٩٠٤) ، والنسائى فـى «الكبيرى» (٩٠١٧)، والترمذى (١٣٥) عن أبى هريرة به وانظر «منار السبيل» (٢١٧٣ـ بتخريجنا).
(٥)أخرجه أحمد فـى «مسنده» (٢٢٩/١) ، وأبو داود (٢١٦٨،٢٦٤) والنسائـى فى «الكبرى» (٢٨٢)، وابن ماجه (٦٤٠) عن ابن عباس به، وانظر كتابنا «تخريج أحاديث فقه السنة».

- وقال النبى ﷺ «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[1] ثم لم يثبت للقتال حد الردة، بل ثبت للمتقاتلين الأخوة الإسلامية حيث قال الله عز وجل: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ فسماهم مؤمنين فدل ذلك على أن الكفر فى الحديث ليس كفر أكبر بل هو كفر أصغر.

(٣) أن ينص الصحابى على عمل ما بأنه شرك أصغر أو يفهم بنص من النصوص بأنه شرك أصغر. وفهم الصحابة معتبر.

وذلك لأن الرسول ﷺ قد بين لهم العقيدة بياناً شافياً، وهم قد عايشوا الشرك الأكبر بحيث لايلتبس عندهم. لو كان هناك أمر ملتبس عليهم لسألوا النبى ﷺ عنه كما تقدم عن ابن عباس، ففهم ابن عباس حجة على أن هذا العمل ليس شرك أكبر بل هو أصغر.

فإن كان الأمر كذلك فالنظر فى تعليق التمائم وفى الرقى هل هو من الشرك الأصغر أم الأكبر.؟

تقدم معنا أن تعليق التمائم وكذلك الرقى من باب شرك الأسباب.

وهذا الشرك قد يكون من الشرك الأكبر، وقد يكون من الشرك الأصغر.

وإذا أنزلنا هذا الكلام على ماجاء فى تحريم التولة والتمائم، لوجدنا بهذه الأحاديث فى تحريم التمائم، وأنزلنا عليها الضوابط والمعرفات للشرك، لو أنزلنا هذا فوافقتها كانت شرك أصغر، وإذا لم توافقها وتطابقها كانت شرك أكبر.

●**فخلاصة القول**: أن هناك من الأحاديث أطلقت أنها شرك، كما فى قوله ﷺ: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»[2] سنده حسن.

●وقال النبى ﷺ «**الرقى والتمائم والتولة شرك**»[3] والحديث له شواهد تحسنه فهنا وصفه بالشرك فهل هو شرك أصغر أم أكبر.

فيحمل على الأكبر أولاً ثم ينظر إلى الصوارف التى تصرفه إلى الأصغر، وقد تقدم بيانها.

وحذيفة عندما قطع الخيط[4] فهل الرجل أشرك شرك أكبر؟ الجواب: لا.

(١) [صحيح» أخرجه البخارى (٦٠٤٤) عن ابن مسعود به وانظر «رياض الصالحين» (١٥٦٢- بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه (٣) تقدم

(٤) تقدم تخريجه .

لكن المسألة هنا محتملة للشرك الأكبر، حيث أنه لم يحدد، ومحتملة للشرك الأصغر، فحيث لم يترتب على هذا العمل عقوبة المرتدين كان الأصل فيه أنه شرك أصغر وإذا وصل إلى المعتقد صار شرك أكبر.

فإذا ظن واعتقد أن هذه التميمة تنفع كنفع الله أو تدفع كدفع الله فهو شرك أكبر.

فشرك الأسباب الأصل فيه أنه شرك أصغر لكن بشرط ألايعتقد أن هذا السبب ينفع كنفع الله أو يدفع كدفعه.

فالتولة والتمائم والرقى من شرك الأسباب والأصل فيها أنها شرك أصغر؛ ولأن النصوص التى وردت فيها لم يترتب عليها حد الردة.

● **تنبيه:**

لكن الشيخ على بن نُفيع العلياني[1] قال شيئاً غريباً هنا فى هذا الباب.

قال: لايقال تعليق التمائم شرك أكبر ولايقال أصغر بإطلاق وإنما ينظر فى حال المتعلق والمعُلق فيحتمل أن هذا الرجل لايعتمد عليها اعتماده على الله، ولايعتقد أنها تنفع كنفع الله، لكن قد تكون هذه التميمة فى حد ذاتها شرك أكبر.

وهذا فهم الشيخ على بن نُفيع وهو من أهل السنة وليس من الخوارج قال: فإن علق صنم أو رقية شركية فيها إستغاثة بغير الله أو صليباً فهذا من الشرك الأكبر بلاريب، وهذا شرك عمل.

وقال فى المعلق: ينظر إلى معتقده فى شرك الأسباب إن كان يعتقد فى الله اعتقاداً سليماً كان شركاً أصغر،وإن كان يعتقد فى الله اعتقاداً فاسدا، كان شرك أكبر.

أقوال بعض أهل العلم من أشباه المعاصرين.

يقول ناصر بن سعدى فى شرح باب لبس الخيط أو الحلقة يقول:ـ

من الشرك لبس الحلقة ـ وتقدم كلام السعدى قبل كلامنا وضوابط شرك الأسباب، ونقدمه هنا مرة أخرى جواباً على العليانى وتفصيلاً قال: وهذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب ـ الخيط والحلقة والتمائم لدفع البلاء أو رفعه ـ وتفصيل القول فيها أنه يجب على العبد أن يعرف فى الأسباب ثلاثة أمور.

الأمر الأول: أن لا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعا أو قدراً.

قال الفقير: أى أن الله جعل فى شىء ما أزلاً وقدراً أنها فيها حكمة الشفاء فهذه نأخذها، أو ثبت بالشرع أن فيها شفاء كالعسل مثلاً وحبة البركة.

---

(١) صاحب كتاب الرقى والتمائم.

الأمر الثاني: أن لايعتمد العبد عليها بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها وحرصه على النافع منها.

فأخذ بهذه الأسباب بعد أن علم أنها أسباب شرعية أو قدرية ثم بعد أن أخذها كان معتمداً على الله وليس عليها.

الأمر الثالث: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لاخروج لها عن قضاء الله وقدره بل هو يتصرف فيها كيف يشاء إن شاء أبقى سببيتها باقية على مقتضى الحكمة فإن شاء أبقى هذه الأسباب وإن شاء نزع السبب. كما فعل فى النار فى قصة إبراهيم عليه السلام لما نزع منها سببية الإحراق فالله وضع النار حكمة قدرية فهى فيها الإحراق وفيها الإضاءة وفيها المنافع للناس وهى تذكرة ومتاع للمقوين كما قال الله تعالى فى سورة الواقعة ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ فهى فيها دفىء ومتاع ومنافع كثيرة للناس وفيها تذكرة بالنار الأخروية.

فالله عزوجل إن شاء نزع هذه الحكمة من النار كما نزع منها حكمة الإحراق وقال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فكانت كما أمرها الله.

فعلى هذه المقدمات ينبغى أن تعلم قبل الدخول فى أبواب شرك الأسباب أن تعرف هذه المقدمات:

(١) ضوابط الشرك الأصغر من الأكبر.

(٢) علامات الشرك الأصغر.

(٣) الأمور التى يجب أن تراعى عند تعاطى هذه الأسباب.

وبمثل هذا القول قال سليمان آل الشيخ إذ يقول: والمقصود هنا حكم لبس حلقة الصفر والحديد ونحوهما من التمائم إن ذلك من شرك تعطيل المعاملة (يعنى المعاملة بين العبد والرب) التى تجب على العبيد المتعلقة بمعنى إلهية الخالق فإن الإله معناه كل مألوه فى القلب برجاءه فيما هو مختص بجلال الله عزوجل وعظمته والإلتجاء إليه.

فإن من مقتضى الإلهية أن لايكون اللجوء إلا له، وأن لايكون الرجاء والرغبة إلا فيه والرهبة إلا منه، فالتعلق بهذه الأسباب معطل لهذه المعاملة.

وقد استفضنا فى ذكر حكم الرقى والتمائم، بما يكفى والله المستعان ومنه السداد.

فصل

الشرك الأصغر أكبر من كبائر الذنوب

وأدلة ذلك:

(أ) قول بن مسعود «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً»- وتقدم معنا الأثر(١).

ولقد قال ذلك لأن الحلف بالله توحيد وبغيره شرك، فحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك ذكره شيخ الإسلام.

وفيه دليل على أن الحلف بغير الله صادقاً أعظم من اليمين الغموس وأنه أكبر الكبائر(٢).

(ب) مما يدل على خطر الشرك الأصغر أن آيات الوعيد وأحاديث الوعيد المتعلقة بالشرك شاملة للشرك الأكبر والأصغر ولأجل ذلك يستدل السلف الصالح بما نزل فى الأكبر على الأصغر كما بينت عن ابن عباس وحذيفة(٣).

فصل

حكم تعليق التمائم من القرآن والأدعية النبوية(*)

● رأى جماعة من العلماء بأن تعليق القرآن والأدعية النبوية ليس من التمائم وأنه يجوز ومن هؤلاء سعيد بن المسيب وعطاء وأبو جعفر الباقر ومالك، ورواية عن أحمد، وهو قول ابن عبدالبر والبيهقى والقرطبى، وظاهر قول ابن تيمية وابن القيم وابن حجر.

● ويرى بعض(٤) من الصحابة فمن بعدهم أنه لايجوز تعليق القرآن والأدعية النبوية ومن هؤلاء عبدالله بن مسعود وابن عباس وحذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم وإبراهيم النخعى ورواية عن أحمد وابن العربى، وعبدالرحمن بن حسن آل الشيخ وسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، وعبدالرحمن بن سعدى وحافظ بن أحمد

---

(١) تقدم..

(٢) تيسير العزيز الحميد.

(٣) تيسير العزيز المجيد ١٥٤ ـ ١٦٢.

(*) وسيأتى مزيد بيان فى هذا الحكم عند شرح حديث ابن مسعود، وفيه ذكر أن التمائم شرك.

(٤) فى الأصل (الأكثر) وأرى أنه البعض.

بن حكمى ومحمد حامد الفقى ومن المعاصرين: الألـبانى وعبدالعزيز بن باز وغيرهم[(١)] وأما ابن عثيمين[(٢)] وانه قـال الأقرب أن يقال أنـه لا يفعـل، أما أن يصل إلـى درجة التحريم، فأنا أتوقف فيه. أهـ فتصبح فى المسألة ثلاثة أقوال: مبيح، ومانع، ومتوقف.

حجة أصحاب القول الأول[(٣)]:

(١) عموم قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾. ومن السنة لايوجد.

(٢) ومن أقوال الصحابـة قول عائشة: **«أن التميمة ما علـق قبل البلاء لابعده»**[(٤)].. فلو علقت قبل البلاء تصار تميمة أما بعد نزول البلاء لرفعه لاتسمى تميمة.

قال الشراح: قول عائـشة: التمـائم ما علق قـبل البلاء لابعـده، وعائشة لاتـقصد التمـائم الشركـية أو المحرمة؛ لأنهـا لاتجوز قبل ولا بـعد البلاء، وإنما تـقصد التـمائم الشرعية التى فيها أذكار أو قرآن.

وقالوا: فعلى هذا إن جازت التميمة الشرعية فتجوز قبل البلاء وبعده لماذا؟.

لأن التمـائم والرقى قسـمان بدليل أن الـنبى ﷺ جمـعها فى حديـث واحد وقال: **«الرقى والتمائم والتولة شرك»**[(٥)] فالتميمة أن خلت عن الشـرك فتجوز لكن عائشة ترى أنها قبـل البلاء لابعده فنـقول له: إن جوزت التـميمة الشرعيـة قبل البلاء فـتجوز بعد البلاء؛ لأن الرقى تجوز قبل وبعد.

(٣) روى ابن أبى شيبة[(٦)] قال حدثنا هشام قال: حدثنا حجاج قال أخبرنى من رأى سعيد بـن جبير يكتب التـعويذ لمن أتاه، قال حجـاج: وسألت عطاء فقال: ما سـمعنا بكراهية إلا من قبلكم من أهل العراق[(٧)].

---

(١) انظر مراجع أقوال العلماء الذين ذكروا فيما يلى مصنف ابن أبى شيبة كتاب الطب (٥/ ٤٢٧, ٤٣٩) وما بعدها وسنن البيهقى (٩/ ٢١٦) وما بعدها والمستدرك للحاكم (٤/ ٢١٦) وما بعدها وتيسير العزيز الحميد (١٦٨، ١٧٤) و«فتح المجيد» وسلسـلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٥٨٥) والقول السـديد (٣٨) ومعارج القبول (١/ ٣٨٢) وفتاوى الشيخ ابن باز (١/ ٨٢٠).

(٢) القول المفيد (١/ ٢٣٣، ٢٣٤).

(٣) وقال البيهقى فى الـسنن إن قول عائشة أصح من قول عبدالله بن عمروبـن العاص وهو فى المسند والمستدرك وفى الترمذى وحسنه، لكن هذا الأثر ضعيف لتدليس محمد بن إسحاق.

(٤) تقدم تخريجه (٥) تقدم تخريجه

(٦) «المصنف لابن أبى شيبة» (٥/ ٤٣٩-٤٤٠).

(٧) حجاج هو ابن محمد المصيصى وهو ثقة.

وإسناده إلى سعيد بن جبير منقطع أما إسناده إلى عطاء ابن أبى رباح فصحيح.

أما سعيد بن جبير.

فقد أخرجه البيهقى فى «الكبرى» (٩/ ٣٥١).

من طريق عبدالرحمن بـن مهدى، عن شعبة، عن الحجاج، عن فضيل أن سعيـد بن جبير كان يكتب لابنه المعاذة. ثم ذكر قول عطاء السابق.

إسناده ثقات إلا أن الحجاج هذا هو بن أرطاة وهو مدلس.

٤ـ حدثنا عقبة بن خالد، عن شعبة، عن أبـى عصمة قال: سألت سعيد بن المسيب عن التعاويذ فقال: لابأس إذا كان فى أديم[١] والأديم: الجلد.

٥ـ حدثنا ابن نمير، عن عبدالملك، عن عطاء فى الحائض يكون عليها التعويذ، قال: إن كان فى أديم فلـتنزعه، وإن كان فى قصـبة فضة فإن شاءت وضعـته وإن شاءت لم تضعه[٢].

٦ـ حدثنا عبيدالله، عـن حسن، عن جعفر، عن أبيه أنه كان لايـرى بأساً أن يكتب القرآن فى أديم ثم يعلقه[٣].

٧ـ حدثنا عبدالرحيم بن سليمان، عن إسـماعيل بن مسلم، عن ابن سيرين أنه كان لايرى بأساً بالشىء من القرآن[٤].

٨ـ حدثنا عفان قال: حدثنا وهيب قال: حـدثنا أيوب أنه رأى فى عضد عبيد الله بن عبدالله بن عمر خيطا[٥].

---

(١) أبو عصمة هو «نوح بن أبى مريم» ومجمع على ترك حديثه.

وتابعه يحيى بن سعيد عند البيهقى (٩/ ٣٥١/ ١٩٦١٢).

من طريق ابن وهب أخبرنى نافع بن يزيد أنه سأله يحيى بن سعيد عن الرقى وتعليق الكتب فقال: كان سعيد بن المسيب يأمر بتعليقه القرآن وقال: لابأس به.

وإسناده جيد وهى متابعة قوية.

(٢): فلتنزعه لأن التعويذ المكتوب فى الأديم يبقى أو مربوطاً فى الزند وهو لا يجوز لأنه فيها آيات من كتاب الله وقد تصيب المرء نجاسة فلايجوز له أن يحمل هذه الآيات وهو نجس. أهـ.

وإسناده على شرط مسلـم وعبدالملك بن أبى سليمان قال أبوداود: كان مـن أحفظ أهل الكوفة إلا أنه رفع أحاديث عن عطاء.

[قلت]: والأثر الذى فى الباب عن عـطاء وهو موقوف عليه من قوله فلايعد هذا مما يـستنكر عليه إنما يتوقف فيه إذا رفع الحديث

(٣) جعفر هو: بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وإسناده على شرط مسلم.

(٤) بالشىء من الـقرآن: أى الآيات تكتب وتعلـق على الطفل أو يحمـلها الكبير فى خـاتم فضة أو ما شابه ذلك. أهـ

إسماعيل بن مسلم المكى قال أحمد هو منكر الحديث، وقال أبوزرعة ضعيف الحديث وضعفه كثيرون.

(٥) رجال ثقات.

٩ـ حدثنا يحيى بن آدم قال: حدثنا حسن، عن ليث، عن عطاء قال: لابأس أن يعلق القرآن[١].

١٠ـ حدثنا إسحاق الأزرق، عن جويبر، عن الضحاك، لم يكن يرى به بأساً أن يعلق الرجل الشيء من كتاب الله إذا وضعه عند الغسل وعند الغائط[٢].

حجة من قال بالمنع من ذلك:

ـ وأما المانعون فيمكن أن يستدل لهم بالأدلة التالية:

(أولاً) عموم النهى الوارد فى التمائم وقد سبق بيان أدلة تحريم التمائم من هذا البحث وهذا العموم لم يأت ما يخصصه فيبقى على عمومه.

وقد بين الرسول ﷺ كيفية التداوى بالقرآن وهو تلاوته والعمل به ولم يرد عنه فى التعليق شيء بل لم يرد عن الصحابة، وقول عائشة مجمل لم تذكر فيه تعليق القرآن وقولها محتمل فلا أرى أن ننسب إليها الجواز.

الرد: نقول السنة جاءت تخصص الآية العامة، وفعل الصحابة جاء مبيناً للآية ونحتج بأثر عائشة قالوا قولها مجمل نقول: أن ابن أبى شيبة فهم أن هذا الأثر فى تعليق القرآن لأن عائشة ستقول ما الذى يعلق هل هى التميمة الشركية! فما التى تراه فى التعليق.

وقد فهم ذلك ابن أبى شيبة والبيهقى وفهمهم مقدم.

ثانياً: الرد على أثر ابن عمرو أنه ضعيف.

رد ثانى على حامد الفقى فى الأثر المنسوب إلى عبدالله أنه كان يحفظه أولاده الكبار ويكتبه فى ألواح ويعلقه فى عنق الصغار.

فالظاهر أنه كان يعلقه لهم من أجل أن يحفظوه لا على أنه تميمة والتميمة تكتب فى ورقة لافى لوح، وبدليل تحفيظه للكبار.

وهذا الرد فيه نظر كيف أنه يحفظه للكبار وأنه يعلقه للصغار، والذين لم يدركوا ليحفظوه فكيف يحفظوه وهم صغار لم يدركوا؟!

نقولات بعض شراح كتاب التوحيد الذين مالوا لهذا القول، وذكر من توقف فى الحكم:

(١) وليث هو ابن أبى سليم وهو مجمع على ضعفه.

(٢) جويبر ضعيف ويروى عن الضحاك مناكير. وقال أحمد بن حنبل: ما كان عن الضحاك فهو ذاك أيسر، وما كان بسند عن النبى ﷺ فهو منكر.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٩٣) والترمذى (٣٥٢٨) عن عبد الله بن عمرو به، وفى إسناده ابن إسحاق وقال الترمذي: حسن غريب.

قال سليمان آل الشيخ : أعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا فى «جواز تعليق التمائم التى من القرآن وأسماء الله وصفاته، **فقالت طائفة يجوز ذلك**، وهوقول عبدالله بن عمرو بن العاص وغيره» (١). وهو ظاهر ما روى عن عائشة، وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد فى رواية، وحملوا الحديث على التمائم الشركية، أما التى فيها القرآن وأسماء الله وصفاته، فكالرقية بذلك .

قلت: وهو ظاهر اختيار ابن القيم.

وقالت طائفة : لايجوز ذلك، وبه قال ابن مسعود،وابن عباس وهو ظاهر قول حذيفة،وعقبة بن عامر، وابن عكيم رضى الله عنه.

وبه قال جماعة من التابعين، ومنهم أصحاب ابن مسعود، وأحمد فى رواية اختارها كثير من أصحابه،وجزم بها المتأخرون، واحتجوا بهذا الحديث وما فى معناه فإن ظاهره العموم لم يفرق بين التى فى القرآن و غيرها، بخلاف الرقى فقد فرق فيها، ويؤيد ذلك أن الصحابة الذين رووا الحديث فهموا العموم كما تقدم عن ابن مسعود. أهـ.

وقال المبار كفورى (٢). وقد اختلف فى ذلك أهل العلم:

قال العلامة الشيخ أبو الطيب صديق بن حسن القنوجى فى كتابه الدين الخالص: اختلف العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم فى جواز تعليق التمائم التى من القرآن،وأسماء الله تعالى وصفاته.

فقالت طائفة : يجوز ذلك،و هو قول ابن عمرو بن العاص، وهو ظاهر ما روى عن عائشة، وبه قال ابو جعفر الباقر وأحمد فى رواية، وحملوا الحديث (يعنى حديث ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»(٣) رواه أحمد وابن ماجة وابن حبان والحاكم وقال صحيح، وأقره الذهبى على التمائم التى فيها شرك.

وقالت طائفة : لا يجوز ذلك وبه قال ابن مسعود وابن عباس وهو ظاهر قول حذيفة وعقبه بن عامر وابن عكيم، وبه قال جماعة من التابعين منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد فى رواية اختارها كثير من أصحابه. وجزم به المتأخرون واحتجوا بهذا الحديث وما فى معناه

(١) تقدم قريبًا

(٢) تحفة الأحوذى (٦/ ٢٠٠، ٢٠١).

(٣) تقدم تخريجه

قال بعض العلماء وهو عبدالرحمن آل الشيخ: وهذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل .

الأول عموم النهى ولامخصص للعموم.

الثانى : سد الذريعة فإنه يفضى إلى تعليق ماليس كذلك.

الثالث أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه فى حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

قال: وتأمل هذه الأحاديث وماكان عليه السلف يتبين لك بذلك غربة الإسلام، خصوصاً إن عرفت عظيم ما وقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة من تعظيم القبور واتخاذها مساجد، والإقبال إليها بالقلب والوجه، وصرف الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التى هى حق الله تعالى إليها من دونه، كما قال تعالي﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ ونظائرها فى القرآن أكثر من أن تحصر انتهى كلام عبد الرحمن آل الشيخ(١) .

قلت: غربة الإسلام شىء وحكم المسألة شىء آخر، والوجه الثالث المتقدم لمنع التعليق ضعيف جداً لأنه لامانع من نزع التمائم عند قضاء الحاجة ونحوها لساعة ثم يعلقها.

والراجح فى الباب أن ترك التعليق أفضل فى كل حال بالنسبة إلى التعليق الذى جوزه بعض أهل العلم بناء على أن يكون بما ثبت لابما لم يثبت لأن التقوى لها مراتب وكذا فى الإخلاص، وفوق كل رتبة فى الدين رتبة أخرى والمحصلون لها أقل، ولهذا ورد فى الحديث فى حق السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب أنهم هم الذين لايرقون ولايسترقون مع أن الرقى جائزة وردت بها الأخباروالآثار والله أعلم بالصواب. والمتقى من يترك ماليس به بأس خوفاً مما فيه بأس. انتهى كلامه بلفظه .أهـ

قال سليمان آل الشيخ(٢) هذا اختلاف العلماء فى تعليق القرآن وأسماء الله وصفاته، فما ظنك بما حدث بعدهم من الرقى بأسماء الشياطين وغيرهم وتعليقها؟!. بل والتعلق عليهم، والاستعاذة بهم، والذبح لهم، وسؤالهم كشف الضر، وجلب الخير مما هو شرك محض،وهو غالب على كثير من الناس إلا من سلم الله، فتأمل ما ذكره النبى ﷺ،وماكان عليه أصحابه والتابعون، وما ذكره العلماء بعدهم فى هذا الباب وغيره

(١) فتح المجيد (١/ ١٥٦،١٥٧).

(٢) تفسير العزيز الحميد (١٢٢).

من أبواب الكتاب، ثم انظر إلى ما حدث في الخلوف المتأخرة، يتبين لك دين الرسول ﷺ وغربته الآن في كل شيء، فالله المستعان.

قال ابن عثيمين (١). قوله : «وإذا كان المعلق من القرآن.. » إلخ.

إذا كان المعلق من القرآن أو الأدعية المباحة والأذكار الواردة؛ فهذه المسألة اختلف فيها السلف رحمهم الله؛ فمنهم من رخص في ذلك لعموم قوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يذكر الوسيلة التي نتوصل بها إلى الاستشفاء بهذا القرآن؛ فدل على أن كل وسيلة يتوصل بها إلى ذلك فهي جائزة، كما لو كان القرآن دواءً حسياً.

ومنهم من منع ذلك وقال : لايجوز تعليق القرآن للاستشفاء به؛ لأن الاستشفاء بالقرآن ورد على صفة معينة، وهي القراءة به، بمعنى أنك تقرأ على المريض به ؛ فلا نتجاوزها، فلو جعلنا الاستشفاء بالقرآن على صفة لم ترد فمعنى ذلك أننا فعلنا سبباً ليس مشروعاً (٢)، وقد نقله المؤلف رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ولولا الشعور النفسي بأن تعليق القرآن سبب للشفاء؛ لكان انتفاء السببية على هذه الصورة أمراً ظاهراً؛ فإن التعليق ليس له علاقة بالمرض، بخلاف النفث على مكان الألم فإنه يتأثر بذلك.

ولهذا نقول: الأقرب أن يقال: إنه لاينبغي أن تعلق الآيات للاستشفاء بها، لاسيما وأن هذا المعلق قد يفعل أشياء تنافي قدسية القرآن؛ كالغيبة مثلاً، ودخول بيت الخلاء، وأيضاً إذا علق وشعر أن به شفاء استغنى به عن القراءة المشروعة؛ فمثلاً : علق آية الكرسي على صدره، وقال : مادام أن آية الكرسي على صدري فلن أقرأها، فيستغني بغير المشروع عن المشروع، وقد يشعر بالاستغناء عن القراءة المشروعة إذا كان القرآن على صدره(٣).

وإن كان صبياً؛ فربما بال ووصلت الرطوبة إلى هذا المعلق، وأيضاً لم يرد عن النبي ﷺ فيه شيء.

فالأقرب أن يقال : أنه لايفعل، أما أن يصل إلى درجة التحريم؛ فأنا أتوقف فيه،

---

(١) القول المفيد (١/ ٢٢٢/ ٢٢٣).

(٣) انظر أقوال العلماء في هذه المسألة :«مصنف ابن أبي شيبة» (٥/ ٤٢٧، ٤٣٩)، و«سنن البيهقي» (٩/ ٢١٦) ، والمستدرك» (٤/ ٢١٦)، و«تيسير العزيز الحميد» (١٦٨)، و«فتح المجيد» (١٣٢) ، «والقول السديد» (ص٣٨)، و«معارج القبول» (١/ ٣٨٢)، و«فتاوى ابن باز»(١/ ٢٠)، و«مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد العثيمين» (١/ ٥٨).

(٣) وقال الشيخ عبدالعزيز بن باز؛ كما في «فتاويه» (١/ ٢٠): «والصواب أنها محرمة..».

لكن إذا تضمن محظوراً؛ فإنه يكون محرماً بسبب ذلك المحظور قلت: وقال ابن عثيمين في فوائد هذا الباب التي في آخره: والأحوط مذهب ابن مسعود؛ لأن الأصل عدم المشروعية حتى يتبين ذلك من السنة. أهـ. وسيأتي.

● **توجيه لأدلة المانعين:**

التوجيه الأول: عموم النهي الوارد للتمائم وقد سبق بيان أدلة التحريم، ولم يأتي أدلة تخصص هذا العموم فيبقى على عمومه.

نقول: بل أتى ما يخصصها كأثر عائشة والآثار التي أتت عن التابعين، وقول البيهقي وابن تيمية وابن عبدالبر وابن أبي شيبة والقرطبي وكلهم معتمدين على أثر عائشة.

فلو قال قائل: فهل يجوز تخصيص العمومات بقول صحابي؟

نقول: نعم لأن هذا توجيه للنهي، فكأنهم يروا النهي محمول على ما فيه شرك أو كما قال البيهقي ما فيه ذكر أو قرآن لكن يعتمد عليه اعتماده على الله فكأنه يرى أن هذه الأوراد لاتمنع لذاتها.

التوجيه الثاني : فإن قال قائل: لو كان هذا العمل مشروع لبينه الرسول ﷺ كما بين الرقية وأذن فيها مالم يكن فيها شرك حيث قال «**اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى مالم يكن فيها شرك**»(١) ولم يقل هذا القول فيما يتعلق بالتمائم.؟

الجواب: من وجهين:

الأول: أن الرسول ﷺ لما منع من الرقى كان ذلك من أجل ما فيها من الشرك ولما منع من التمائم أيضاً منع لأجل ما فيها من الشرك وقال: «أن الرقى والتمائم شرك»(٢).

ثم أباح الرقى طالما خلت من شرك فهل إذا خلت التميمة من شرك فهل تجوز؟

الجواب: نعم وهذا فهم عائشة وفهم الأئمة من التابعين ومالك ورواية عن أحمد وغيرهم، وهناك علاقات كثيرة بين الرقى والتمائم، وربطهما الشرع، وكذلك اللغة، فاتحدوا في العلة والحكم فيصح القياس.

الثاني: أنه لايلزم للمشروع أو لكل مشروع أن بينه النبي ﷺ فكثير من الأمور المشروعة أجملها النبي ﷺ وبينها الصحابة، فالرسول أجمل الكلام في التمائم ومن الصحابة من فصل كعائشة.

ويمكن أن يقال أيضاً:

بالإستقراء والجمع وجدنا علاقة قوية تربط بين الرقى والتميمة: من أقواها: أن الرسول ﷺ جمع بينها في حديث واحد «**الرقى والتمائم والتولة شرك**»(٣).

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

فإن قيل أنه جمع بينهما لاتحاد «الشرك» نقول:

الرسول ﷺ لايربط بين الأشياء إلا لتماثل فى الغالب أو لوقوع الشبه. ولعل من القواسم المشتركة أنه كما أن من الرقى ما هو مشروع وما هو ممنوع، أن التمائم منها ما هو مشروع وما هو ممنوع، فلما خلت الرقى من الشرك شرعت، كذلك إذا خلت التميمة من الشرك فإنها تشرع أيضاً.

(ب) أن الرسول ﷺ لما قال: «**اعرضوا عليَّ رقاكم**»[1] قال أيضا فى حديث عرض الرقى عليه: «**من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل**»[2] فأجاز الرقى التى خلت من الشرك وثبت فيها النفع، فإذا خلت التميمة من الشرك وثبت فيها النفع شرعاً أو قدراً، ولم يمنع شرع فما المانع من تعاطيها كسائر الأسباب!!

التوجيه الثالث: أقوال الصحابة التى مرّت فى النهى عن ذلك، ولم يصح قول من نسب إليه المخالفة، والصحابة أعرف بهدى النبى ﷺ من غيرهم، وكذلك أكثر التابعين لاسيما وقد قال إبراهيم النخعى بصيغة العموم أنهم كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن[3].

الجواب: قد بينت أدلة جواز تعليق القرآن عن بعض التابعين بأدلة صحيحة كما سبق.

التوجيه الرابع: سد الذرائع واجب شرعى لئلا تختلط التميمة الشركية بالتميمة من القرآن فلاتنكر التميمة الشركية للأشتباه.

نقول: نفرق بين أمرين ما يمنع لذاته وما يمنع لما يترتب عليه، فما يمنع لذاته أشد أما الثانى فإن ضمنا عدم وقوع المفسدة المترتبة عليه فيجوز.

فنقول: نحن نقول بسد الذرائع لكنه لاينسحب على حرمة التمائم الشرعية، بل هى تباح إذا لم يترتب عليها مفسدة وإذا ترتب فتمنع.

وأنا أرى: أن أقوال الأئمة المعاصرين كسليمان وعبدالرحمن، وابن باز، وابن عثيمين مالوا للمنع وللتحريم من هذا الباب سداً للذريعة وحتى لاتختلط على عامة الناس.

التوجيه الخامس: تعليق القرآن يفضى إلى امتهانه، كدخول الخلاء به ونحو ذلك.

الجواب: ليس سبباً للمنع، بل تقدم قول الضحاك أنه كان لا يرى به بأساً إذا وضعه عند الغسل والغائط.

التوجيه السادس: أن حمل القرآن من الذين لايفقهون معناه ولا يعرفون توقيره قد

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم تخريجه.
(٣) مصنف ابن أبى شيبة (٥/ ٤٢٨).

يدخل فى عموم قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ وذلك لأنهم لايدرون مافيه ولايعرفون توقيره وقد يضع بعضهم عليه النجاسة خاصة إذا كان مجنونا ولايميز.

الجواب: نقول: نحن لن نضعها على المجانين، وأما من لايميز فإن كان صبى فيجوز لأن العمومات فى الجواز لم تفرق بين وضعها على كبير مميز أو غير مميز لكن عندما يدخل الصبى الخلاء نتزعها منه.

التوجيه السابع: إن القول بالتعليق قد يعطل سنة الرقية بالمعوذات وغيرها فإن الذى يعلق المصحف بكامله قد يظن أنه لايحتاج أن يتعوذ بالمعوذات وآية الكرسى ونحو ذلك والقرآن كله معلق عليه.

الجواب: فنحن نقول للناس أن الرقية أفضل، والتمائم مختلف فيها، والرقية متفق عليها فهى أولى، وكذلك لاتأخذ بسبب ضعيف وخذ بسبب قوى، ونحن ننبه عليه لكن التنبيه لايمنع فى الفعل أصلاً.

التوجيه الثامن: إن القول بتعليق القرآن متردداً بين الجواز والتحريم وما كان كذلك فالأولى اجتنابه درءاً للمفسدة والله تعالى أعلم.

الجواب: نقول: إذا قلنا الأولى اجتنابه فهو يجوز لكن الأولى اجتنابه ولو قال درءاً للمفسدة فرجع على مسألة سد الذرائع. وقد مضى الرد عليها.

الخلاصة:

إن التمائم التى بالقرآن أو بالأذكار جائزة إذا لم يترتب عليها مفاسد، أو لم تؤدى إلى مفسدة كأن تختلط بالتمائم الشركية، أو أن تعطل الرقى الشرعية، والأولى تركها إذا لم تتعين سبيلاً للشفاء.

وهذا مؤدى ومفهوم كلام البيهقى رحمه الله تعالى.

قال البيهقى(١) معلقاً على حديث عقبة بن عامر «**من علق تميمة...**» الحديث: يحتمل أن يكون ذلك وما أشبهه من النهى والكراهية فمن تعلقها وهو يرى تمام العافية وزوال العلة منها على ما كان أهل الجاهلية يصنعون فأما من تعلقهما متبركاً بذكر الله تعالى فيها وهو يعلم أن لا كاشف إلا الله ولا دافع عنه سواه فلابأس بها إن شاء الله.

ـ ثم ذكر قول عائشة رضى الله عنها أن التمائم ما علق قبل نزول البلاء وما علق بعد نزول البلاء فليس بتميمة قال: وهذا أصح.

ـ ثم ذكر أحاديث النهى ثم أردفها بقول سعيد بن المسيب وعطاء ثم قال: وهذا كله يرجع إلى ما قلنا من أنه إن رقى بما لايعرف، أو على ما كان من أهل الجاهلية من

(١) «السنن الكبرى» (٩/ ٣٥١).

إضافة العافية إلى الرقى لم يجز، وإن رقى بكتاب الله، أو بما يعرف من ذكر الله متبركاً به وهو يرى نزول الشفاء من الله تعالى فلابأس به وبالله التوفيق.

فصل

هل الرقية بجميع القرآن أم بما فيه نص فقط؟

الجواب: أن الرسول ﷺ أقر الرقى القدرية، لأنها أشبه بالطب والتداوي، ولما سئل أفي الطب خير قال «نعم» وقال ﷺ: **«تداووا عباد الله ولا تداووا بمحرم أو بشرك»**(١) لكن هذا التداوي لايمت للشرع بصلة من حيث أنه ليس فيه أذكار ولا قرآن مثل رقيه ضربة الشمس فلايلزم من إقرار الشرع الرقى القدرية أن يقر الرقى التي أنتسبت إلى الشرع من حيث أن فيها قرآن لم ينص عليه الرسول ﷺ أنه يشفي.

وجواب آخر:

يقول تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾(٢). و«من» لابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس؛ كأنه قال: وننزل ما فيه شفاء القرآن.

وفي الخبر «**من لم يستشف بالقرآن فلاشفاء له**».

وأنكر بعض المتأولين أن تكون من للتبعيض، لأنه يحفظ من أن يلزمه أن بعضه **لاشفاء فيه**.

قال ابن عطية: وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون للتبعيض بحيث أن إنزاله إنما هو مبعض، فكأنه قال وننزل من القرآن ما شيئاً شفاء؛ ما فيه كل شفاء(٣).

وذهب ابن القيم(٤) إلى أن «من» هاهنا لبيان الجنس للتبعيض.

وقال رحمه الله: وهذا أصح القولين.

قلت: فهو لا ينفي صحة القول الأول بل هو يرى أن الآخر أصح.

وقوله تعالى: فعلى قول من قال أن «من» للتبعيض فلايجوز الإستدلال بعموم الآية لأنها على قولهم ليست عامة.

وعلى قول من قال أن الأصح أن «من» هنا لبيان الجنس وليست للتبعيض توطئة للإستدلال. بعموم الآية على جواز الرقية بأي أية أو سورة في القرآن وإن لم يكن فيها نص.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الإسراء/ ٨٢.

(٣) القرطبي (٦/ ٣٩٣١ - ٣٩٣٢).

(٤) زاد المعاد/ (٤/ ١٧٦).

فالجواب: إن هذا العام مخصوص بالنصوص الواردة فى الرقية بآيات معينة وبسور معينة مخصوصة مثل ماورد فى شأن الفاتحة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذنين وآية الكرسى والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة. . إلخ.

فينبغى حمل العام على الخاص كما قرر ذلك الأصوليون

وإلا فلا مزية لتخصيص هذه الآيات على غيرها وبذلك تكون الأحاديث التى وردت تبين مزيتها عبثاً لافائدة فيها ولا تكون قد أتت بجديد إذا كان لغيرها من الآيات مالها من الشفاء.

وهذا محال على الشرع الحنيف وقائله ﷺ وقوله تعالى: ﴿وَشِفَاء﴾

أختلف العلماء فيها على قولين.

(أحدهما) أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب، لكشف غطاء القلوب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى، وهذا ما قرره الحافظ بن كثير فى تفسيره لهذه الآية[1].

(والثانى): أنه شفاء من الأمراض بالرقى والتعوذ ونحوه واستدلوا بحديث أبى سعيد الخذرى فى الرقية بالفاتحة.

[قلت]: ولا مانع من أن يكون هذا الاختلاف اختلاف تنوع؛ بمعنى أن كلا القولين حق فهو شفاء من الأمراض الظاهرة بما ورد فى ذلك من نصوص.

وهو شفاء من أمراض القلب أيضاً وقد يكون بعضه شفاء للنوعين معاً وذلك على سبيل المثال ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وفى تصحيح للأعتقاد وصحة للأمراض الظاهرة كما أتت بذلك النصوص والله أعلم.

شبهة: إذا قال قائل أنا استمر على الرقى بجميع القرآن دون تخصيص ما خصصته السنة من آيات القرآن للعلاج فتأتى بنتيجة وتنفع فلماذا لا استمر؟

الجواب: أن النفع وحده لايسوغ الإستمرار، بل فى الرقى الشرعية لابد من الإباحة الشرعية، فالأصل فى الشرع أن تتوقف إلا بدليل يبيح بخلاف الرقى القدرية فإن الأصل فيها الإباحة إلا بدليل يمنع.

قال: فالدليل الذى يبيح هو العموم؟

الجواب: تقدم ما فى العموم وأن أخذت به فليس فيه الإستمرار، وثبوت النفع

(١) ابن كثير (٥/ ١١٠) دار الشعب.

لايسوغ عدم المنع الشرعى فلابد للإستمرار من دليل، فثبوت النفع لايدل على صحة العمل أو بطلانه. فقد يكون هناك عمل شرعى ولايحصل من ورائه نفع، وقد يكون هناك عمل غير شرعى ويحصل من ورائه نفع كما فى قصة زينب زوجة ابن مسعود. فلايجوز لك الاستمرار والمواظبة عليها ولا إرشاد الناس إلى ذلك بورقة أو رسالة أو كتاب. . . إلخ.

ونحن نسمع من المعالجين من يقول لك اسمع آيات السحر فى سورة يونس.

ومعالج ثانى يقول لك تشكيلة ثانية: الصافات، ويس، وتبارك، وقد سمع، ومعالج آخر ينزل لك نصف المصحف فى كتاب ويقول هذه رقية.

لأن الآية لاتحتمل ذلك بوجه من الوجوه، ولأن هذا أيضا مذهب مرجوح ولا نبدع صاحبه شريطة ألا تستمر على هذه الرقية ولا توصلى بها أحداً لأن الآية إن احتملت العموم فلاتحتمل الإستمرار عليها. والله أعلم.

فصل

حكم التفرغ لأجل القراءة على الناس واتخاذها حرفة

من المعلوم أن الله ـ عزوجل ـ أباح الرقى كما تقدم فى مبحث مشروعية الرقية بضوابطها الشرعية، وأباح أخذ الأجرة عليها كما فى صحيح البخارى: رحمه الله ـ حيث قال: باب الشروط فى الرقية بفاتحة الكتاب، وروى بسنده عن ابن عباس أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ مروا بماءٍ فيهم لديغ ـ أو سليم ـ فعرض لهم رجلٌ من أهل الماء، فقال هل فيكم من راق؟ إن فى الماء رجلاً لديغاً أو سليماً؟ فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاءٍ فبرأ فجاء بالشاء، إلى أصحابه فكرهوا ذلك، وقالوا: أخذتَ على كتاب الله أجراً، حتى قدموا المدينة فقالوا: يارسول الله أخذ على كتاب الله أجراً فقال رسول الله ﷺ: **«إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»**(1).

فإذا علم إباحة الرقى، وعلم إباحة أخذ الأجرة عليها انحصر موضوع البحث فى الكيفية التى تتم بها الرقية عند بعض القراء المتأخرين وهى:

التفرغ لهذا العمل واتخاذه حرفة والإشتهار به بين الناس، وهذه الكيفية فى نظرى(2) قد يترتب عليها مفاسد كثيرة بالنسبة للقارىء وبالنسبة للناس المقروء عليهم، منها ما يلى:

---

(1) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٣٦)، ومسلم (١٤/ ١٨٧ ـ النووي) وانظر «الطب النبوي» للذهبى (٤٣١ـ بتخريجنا)

(2) الكلام للدكتور على بن نقيع العليانى.

١ـ أنه من وجود الجموع الكثيرة من الناس عـند القارىء قد يظن عوام الناس أن لهذا القارىء خصوصية معينة بدليل كثرة زحام الناس عليه، وتطغى أهمية القارىء على أهمية المقروء، وهو كلام الله، بل لا يكاد يفكر كثيـر من هؤلاء فى أهمية المقروء وفائدته وإنما تتجه الأنظار للقارىء والأصل فى الرقية هو المقروء، والقارىء تبع لذلك يقول الله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ويقول سبحانه : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ ولا ينكر مالـصلاح القارىء وقوة إيمانه وثقته بربـه وتوكله عليه من تأثير ولكنه تابع لـلمؤثر الأصلى وهو كلام رب العالمين.

فكل ذريعة تضعف ثقة الناس بالمقروء فإنه ينبغى أن تسد ولا تفتح.

يقول الإمام ابن القيم: فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحـد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء وإذا أحسن الـعليل التداوى به (كلام الله) ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقـاد جازم واستيفاء شروط لم يقـاومه الداء أبداً وكـيف تقاوم الأدواء كـلام رب الأرض والسمـاء، الذى لو نزل عـلى الجبال لصدعها أو على الأرض لقطعها أهـ.

٢ـ أنه بالنظر إلـى سيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه وسيرة عـلماء الإسلام الموثوق بعلمهم وفـضلهم لم نر أحداً منهم انقطـع عن أعماله وقصر نفسه علـى معالجة المرضى بالرقى واتخذها حرفة.

واشتهر بها بـين الناس بحيث إذا ذكر اسمه اقترن بهـذه الحرفة، ولا شك أن الناس فى كل زمان تكثر فيهم الأمراض، ولم نر أحد من خلفاء المسلمين نصب قارئاً يقرأ على المرضى كما يـنصب المفتين والقضاة، وإنمـا المريض يقرأ على نفـسه من كتاب الله وإن قابله عالم ذو فضل وديانة وطلب منه الرقية وقرأ عليه فلا حرج .

ومن **المعلوم أن** المشروع بأصلـه قد يمنع إذا صاحبته كـيفية مستحدثـه. فقد صح عن عبدالله بن مسعـود رضى الله عنه مر بامرأة معها تـسبيح تسبح به فقطـعه وألقاه، ثم مر برجل يسبح بحصى فضربه برجله ثم قال: لقد جئتم ببدعة ظلماً أو لقد غلبتم أصحاب محمد ﷺ علماً (١).

(١) تقدم تخريجه، .والحديث فى سنن الدارمـى والبدع لابن وضاح وقال الدوسرى فى النـهج السديد صحيح.

والشيخ الطحان يقول: القول ببدعة السُنة (السبحة) بدعة على أساس أن كلام ابن تيمية يفهم منه أن له سند وأصل، وفي ذلك أحاديث ضعيفة في فضائل الأعمال في «نيل الأوطار» دخل النبي ﷺ على بعض نسائه وهي تسبح على الحصى[1].. فالمسألة لها أصل ضعيف.

[قلت]: ولكن للمخالف أن يقول عليها بدعة حيث أنها ليس لها أصل صحيح والعامل بها نقول أنه ليس مبتدع لأنه متأول.

٣ـ إن الشياطين عندما ترى تعلق الناس بشخص ما قد تساعده وهو لايشعر فتعلن خوفها منه، وخروجها من المريض ونحو ذلك، لتزداد ثقة الناس بالشخص أكثر من ثقتهم بما يتلوه وليعتقدوا أن فيه سراً معيناً.

وقد قال عبدالله بن مسعود لزوجته عندما قالت له كانت عيني تقذف فكنت اختلف إلى فلان اليهودي يرقيها وكان إذا رقاها سكنت قال: إنما ذلك عمل الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقيتها كف عنها[2]وتقدم الأثر مراراً.

يقول ابن تيمية في الفتاوى:[3] ولما كانت الخوارق كثيراً ما تنقص بها درجة الرجل

كان كثير من الصالحين يتوب من مثل هذه الخوارق مع ظنه أنها كرامات فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها فإني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر، تقول: هنيئاً لك ولي الله.

فيقرأ أية الكرسي فيذهب ذلك وأعرف من يقصد صيد الطير، فتخاطبه العصافير وغيرها، وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراء ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنس ويخاطبه بذلك أهـ.

٤ـ قد يتوهم القارىء الذي يزدحم الناس على بابه ويرى كثرة المرضى الذين يعافيهم الله بسبب رقيته، وكيف أن الشياطين تخاف منه، وتخرج من المصروعين؟ قد يتوهم أنه من الأولياء الأبرار ويصيبه العجب ونحو ذلك وقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يخشون من هذا الأمر ويسدون مداخله.

قال ابن عيينة: رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أُبي جماعة فعلاه بالدرة، فقال أبي: أعلم ما تصنع يرحمك الله فقال عمر: أما علمت أنها فتنة للمتبوع مذلة للتابع.

(١) أخرجه أبو داود (١٥٠٠)، والترمذي (٣٥٦٨) عن سعد بن أبي وقاص.
قال الترمذي: حسن غريب.
وانظر «نيل الأوطار» بتخريجنا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الفتاوى (١١/ ٣٠).

٥ـ أن من الملاحظ على القراء أصحاب الكيفية المتقدمة أنهم قد يقولون بغير علم. وذلك أنهم إذا قرأوا على المريض ولم يتكلم الجنى على لسانه، قالوا: ليس فيك جنى وأنت بك عين، أو ليس بك جنى ولاعين ونحو هذا، ولسان.

حالهم يقول: إننا لانقرأ على مصروع إلا ويلزم أن تخاطبنا الجن وتتكلم فرقاً منا أو من قراءتنا، وليس على هذا إثارة من علم.

قال عزوجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾.

٦ـ من الملاحظ على القراء أصحاب الكيفية المتقدمة، أنهم يجمعون الفئام من الناس فيقرأون عليهم جميعا قراءة واحدة حرصاً على كسب الوقت أمام كثرة الزائرين، ثم يدورون على أوعيتهم يتفلون فيها واللعاب والرذاذ الذى خالط القراءة قد ينقضى فى الوعاء الأول والثانى فمن أين لهذا القارئ أن لعابه كله مبارك حتى ولو لم يخالط قراءة القرآن وكيف يستجيز أن يتفل فى ماء وعاء أو أكثر بناء على قراءة واحدة؟ وأين الدليل على هذه الصورة من عمل السلف الصالح؟

٧ـ نظراً لما تدره تلك الكيفية السابقة على أصحابها من أموال طائلة، فقد يقوم بعض المشعوذين والدجالين فيتظاهرون بالقراءة، فيفتحون دكاكين لهذا الغرض ويخلطون الحق بالباطل، فيفتح على الناس باب شر كبير، ولايحصل إنكار على المشعوذين لاختلاط أمرهم بالقراء الذين لايخلطون مع قراءتهم شعوذة وكهانة فيصعب التمييز، والذرائع المفضية إلى الشر يجب سدها حتى وإن كان قَصْدُ صاحبها الحق وقد منع عبدالله من مسعود وأصحابه وجمع من العلماء المحققين تعلق القرآن مع أنّه كلام الله سداً للذريعة، لئلا يفضى ذلك إلى تعلق التمائم(١).

وأفتى بهذا التعليل أعضاء اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء فى المملكة فى الفتوى رقم ٩٩٢ وتاريخ ٤٢٤/ ١٣٩٥هـ(٢).

٨ـ إن بعض القراء أصحاب الكيفية المتقدمة الذين يتفرغون للقراءة على الناس،

(١) انظر فتح المجيد ١٣٢ ومعارج القبول ١/٣٨٢ وانظر بحثنا السابق فى ترجيح الراجح فى هذه المسألة.

(٢) انظر مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢٥ عام ١٤٠٩هـ ص ٤٠.

ويتخذونها حرفة لهم، يظنون أن ذلك من المستحبات، والاستحبابات حكم شرعي، وهو عبادة، وهذا قد يجرهم إلى الوقوع فى البدعة فإن من استحب شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ولم يفعله وخلفاؤه الراشدون مع وجود المقتضى له فى عصرهم، قد أتى باباً من البدع. والرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون وإن قرأوا على المرضى وأخذوا الأجرة على ذلك كما تقدم إلا أنهم لم يتفرغوا لهذا الأمر ولم يشتهروا به شهرة واضحة بين الناس ولم يتخذوا ذلك حرفة ومهنة لاكتساب الرزق يقتصرون عليها.

٩- لقد اشتهر بعض الصحابة بإجابة الدعاء كسعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن الذين دعا لهم رسول الله بإستجابة الدعاء[١] وبعض التابعين كأويس القرنى[٢] رضى الله عنه ومع هذا لم يؤثر أن المسلمين تزاحموا على أبوابهم أفواجاً إثر أفواج لطلب الدعاء على حاجة المسلمين إلى إجابة دعائهم فى صلاح دينهم ودنياهم.

١٠- هذا الأمر فيه مفسدة على الناس وخاصة العوام الذين يتعلقون بالقارىء أكثر من تعلقهم بالله وبكلامه؛ نظراً لما يرونه من شدة الزحام عليه، الأمر الذى لا يرونه عند كثير من العلماء الصلحاء وفيه مفسدة على القارىء نفسه من جهة الشهرة والعجب وابتداع كيفية فى الرقية أهـ.

١١- أن المتفرغ للرقية على الناس فيه مشابهة بالذى يتفرغ للدعاء للناس، فالرقية والدعاء من جنس واحد، فهل يليق بطالب علم أن يقول للناس تعالوا إلىَّ أدعوا لكَم!!.

وهذا مخالف لهدى السلف الصالح فقد كان عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يكرهون أن يطلب منهم الدعاء ويقولون أأنبياءنحن[٣].

١٢ - إن انتشار هذه الظاهرة قد يوهم عوام الناس ومن لاعلم عنده بأن هذه الكيفية هى الطريقة الصحيحة للرقية فيظل الناس يطلبون الرقية من غيرهم وتتعطل سنة رقية الأفراد لأنفسهم وانطراحهم بين يدى رب السماوات والأرض وسؤاله الشفاء.

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٩٩) عن سعد بن أبى وقاص، وصححه

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة (٨/ ٣٣٤/ ٢٢٣).

(٣) انظر الحكم الجدير بالإذاعة لابن رجب ص٥٤.

فصل

ضوابط الرقى في الإسلام

قال الخطابي: وكان عليه السلام قد رقى ورقي، وأمر بها وأجازها، فإذا كانت بالقرآن أو بأسماء الله تعالى فهي مباحة أو مأمور بها، وإنما جاءت الكراهية والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً، أو قولاً يدخله الشرك. قال: ويحتمل أن يكون الذى يكره من ذلك ماكان على مذاهب الجاهلية التى يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون ذلك من قبل الجن ومعونتهم.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ: ويدل على ذلك قول على بن أبى طالب: إن كثيراً من هذه الرقى والتمائم شرك، فاجتنبوه. رواه وكيع، فهذا يبين معنى حديث ابن مسعود ونحوه.

وقال ابن التين: الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى هو الطب الرباني، فإذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالي، فلما عفى عن هذا النوع، فزع الناس إلى الطب الجسمانى وتلك الرقى المنهى عنها التى يستعملها المعزم وغيره ممن يدعى تسخير الجن له، فيأتى بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل يجمع إلى ذكر الله تعالى وأسمائه مايشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم والتعوذ بمردتهم. ويقال: إن الحية لعداوتها الإنسان بالطبع تصادق الشياطين لكونهم أعداء بنى آدم، فإذا عزم على الحية بأسماء الشياطين أجابت وخرجت من مكانها وكذا اللديغ إذا رقى بتلك الأسماء سالت سمومها من بدن الإنسان، ولذلك كره الرقى مالم تكن بآيات الله وأسمائه خاصة، وباللسان العربى الذى يعرف معناه ليكون بريئاً من شوب الشرك.

وعلى كراهية الرقى بغير كتاب الله علماء الأمة.

قال شيخ الإسلام: كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به، فضلاً عن أن يدعو به ولو عرف معناه، لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لايعرف العربية، فأما جعل الألفاظ العجمية شعاراً فليس من الإسلام.

قلت: وسئل ابن عبدالسلام عن الحروف المقطعة، فمنع منها ما لايعرف، لئلا يكون فيه كفر.

وقال السيوطي: قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

أن يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربى وبما يعرف معناه، وأن يعتقد أن الرقية لاتؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالي، فتلخص أن الرقية ثلاثة أقسام. أهـ.

الضابط الأول: – **أن لاتكون شركية:** روى مسلم فى صحيحة عن عوف بن مالك

الأشجعي، قال: كنا نرقى في الجاهلية، فقلنا: يارسول الله كيف ترى فى ذلك؟ فقال **«أعرضوا عليّ رقاكم، لابأس بالرقى مالم يكن فيه شرك»**(١).

[قلت] وأيضاً لحديث ابن مسعود **«إن الرقى والتمائم والتولة شرك»**(٢).

الضابط الثاني: - ألا تكون الرقية رقية سحرية: وذلك لأن الله ـ عزوجل ـ قد حرم السحر، وبين بأنه كفر كما فى قوله ـ عزوجل ـ **﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾** وقوله تعالى: **﴿ولايفلح الساحر حيث أتي﴾** وكما قال موسى للسحرة **﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾**.

وقال رسول الله ﷺ **«ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له»**(٣).

[قلت] وأيضا ثبت فى الصحيح **«اجتنبو السبع الموبقات»** وذكر منها **«السحر والشرك»**(٤)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: اتفق أكثر العلماء على أن الساحر كافر لقوله تعالى: **﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾**.

وثبت قتل الساحر عن عمر وعن حفصة، وعن عثمان، وعن غيرهم. لحديث **«حد الساحر ضربة بالسيف»**(٥). وسنده ضعيف، لايصح مرفوعاً لكن يصح موقوف على حفصة وعمر وغيرهما من الصحابة.

ـ وأيضاً لأنه محرم وهذا أحسن أقواله. والنبى ﷺ نهى عن التداوى بالمحرم وقال **«تداووا بالمحرم»**(٦).

ـ ولأن النبى ﷺ قال **«من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد»**(٧).

الضابط الثالث: ـ ألا تكون الرقية من عراف أو كاهن ولو لم يكن ساحر: قال رسول الله ﷺ **«من أتى عرافًا أو كاهناً فصدقة بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»**(٨).

[قلت]: العراف الذى يدعى معرفة الغيب بمقدمات يستدل بها مثلاً على مسروق أو مكان الضالة. وهذا كلام البغوى وقيل هو الكاهن وقيل إن الكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات وقيل الذى يخبر عن ما فى الضمير.

وقال أبو العباس بن تيمية: العراف اسم للكاهن، والمنجم والرمال الذى يضرب

---

(١) تقدم تخريجه (٢) تقدم تخريجه.

(٣) سيأتى تخريجه فى باب ما جاء فى الكهان ، ونحوهم.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٨٥٧) ، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٨٢ـ النووي) عن أبى هريرة. وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٨٦).

(٥) سيأتى تخريجه (٦) سبق تخريجه

(٧) سيأتى فى باب ما جاء فى الكهان ونحوهم.

(٨) سيأتى تخريجه فى الباب المذكور سابقًا..

الودع ولغيرهم ممن يتكلم فى هذه الأمور بهذه الطرق فإذا ذهب للعراف أو الكاهن ليرقيه لهذا لايجوز لما يثبت أن النبى ﷺ قال: **«ليس منا من تَطير أو تُطير له أو تكهن أو تُكهن له أو سحر أو سُحْر له»**(١).

والفرق بين العراف والكاهن والساحر والدجال. إن الدجال ليس له أى أصول لهذه الصنعات.

الضابط الرابع: - أن تكون الرقية بعبارات ومعنى مفهوم:

فإن لم يعقل معناه، ومالايفهم لايؤمن أن يكون فيه شرك وما كان مظنة الشرك فلا يجوز تعاطيه.

قال ابن حجر: أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع شروط ثلاثة:

أن يكون بكلام الله تعالى.

أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربى.

أو بما يعرف معناه من غيره. وأن يعتقد أن الرقية لاتؤثر بذاتها بل بذات الله تعالى(٢).

[قلت]: الشرط الأول: أن تكون بكلام الله كـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وأن تكون بأسمائه وصفاته كقول النبى ﷺ **«رب الناس أذهب الباس أشفى أنت الشافى»**(٣).

الشرط الثانى: أن تكون بلسان عربى وهذا ما أقره النبى فى رقية النملة أو العقرب أو ما يعرف معناه وليس (شلشلوت، أو جلجلوت، أو أشتاتاً أشتوت، ولادستور) وقد يكون فيه إستغاثة بالجن فتقع فى شرك.

الضابط الخامس: - ألا تكون الرقية بهيئة محرمة: كالجنابة، والحيض، وأمثالها.

[قلت]: ومثال ذلك ما نراه فى واقع المسلمين من أن بعض جهلة النساء تذهب لعراف أو دجال، فيقول لها: تأتى إلىَّ وأنت جنباً أو حائضاً أو نفساء وكأنه يشترط هذه الهيئة للرقية فهذا لايجوز. ولكن هناك هيئة شرعية أقرها الرسول ﷺ كما فى حديث: حديث أبى أمامة بن سهل بن حُنيف قال مر عامر بن ربيعة بسهل بن حُنيف وهو يغتسل فقال لم أركاليوم ولا جلداً مخبئاً فما لبث أن بط به ووقع مغشيٍ عليه صرع فأتى به إلى النبى ﷺ فقيل له أدرك سهلاً صريعاً قال **«من تتهمون به»** قالوا عامر بن ربيعة فقال ﷺ **«علام يقتل أحدكم أخاه إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدعوا له بالبركة»** ثم دعى بماء فأمر عامر أن يتوضأ بوضوء معين، وصفة معينة فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه (وداخلة إزاره) وأمره أن يصب عليه(٤).

---

(١) سيأتى تخريجه.

(٢) فتح البارى (١٠/١٦٦).

(٣) تقدم تخريجه

(٤) تقدم تخريجه.

قيل معناها غسل رجليه حتى الركب والفخذ أيضاً وقيل هى كناية عن النصف الأسفل بما فيه الفرج وقيل هى الفخذين.

وقال سفيان: قال معمر عن الزهرى: وأمره أن يكفأ الإناء خلفه[1].

فهذه هيئة مباحة وهذا الكلام مجرب وقال ﷺ فى الصحيح **«العين حق وإذا استغسلتم فاغتسلوا»**[2] فالمؤمن قد يحسد.

كما سئل الحسن وهل يحسد المؤمن؟ قال ما أنساك أخوة يوسف فهم حسدوه.

الضابط الساس: - أن لاتكون الرقية بعبارات محرمة

[قلت] مثل السب والشتم واللعن ويفعلها كثير من المعالجين عندما يخطاب الجن والدليل إن الله عزوجل لم يجعل الدواء فى المحرم، وكما قال النبى ﷺ **«لاتداووا بالمحرم»**[3]... الحديث عند أبى داود وغيره.

الضابط السابع: أن لايظن الراقى والمرقي أن الرقية وحدها تستقل بالشفاء أو دفع المكروه.

* بل لابد من الاعتقاد أن الله عزوجل هو الذى بيده هذه الحِكَم.

يقول ابن القيم: والأدعية والمعوذات بمنزلة السلاح والسلاح بضاربه لابحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً حاداً لا آفة فيه، والساعد قوياً والمانع مفقوداً حصلت بها النكاية فى العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير[4].

الضابط الثامن: - ألا تكون من نصرانى أو يهودى: أو غير مسلم، لحديث ابن مسعود الحديث الثانى فى الباب، وهذا مذهب ابن مسعود رضى الله عنه وهو الراجح، وسيأتى بيانه.

تنبيه هام:

[قلت]: فإن تبينت لك الضوابط للرقية الشرعية، فلقائل أن يقول: علمنا ما جاء عن الشرع، وعملنا به، لكن: هناك رقى شرعية لم تثبت عن الشرع، استخدمناها من القرآن الكريم، لعموم قول الله تعالى: **﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾**، فما الحكم؟

الجواب تقدم مفصلاً. فلا يكفى معرفة الضوابط فحسب بل بالإضافة إلى هذه المسألة فسيستقيم الأمر للراقى.



(١) تقدم تخريجه

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (١٤/ ١٧١- النووي) عن ابن عباس به.
وانظر «الطب النبوي» للذهبى (٥٤٤- بتخريجنا).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الجواب الكافى (١٤).

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: «أَنْ لاَ يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلاَدَةٌ مِن وَترٍ أو قِلاَدَةٌ إِلاَّ قُطِعَتْ».

«قال مالك وهو أحد رواة الحديث: أرى ذلك من العين»(1).

● قوله: [في الصحيح: عن أبى بشير الأنصارى رضى الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ...]

ولفظه فى الصحيح عن عباد بن تميم عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: «أَنْ لاَ يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلاَدَةٌ مِن وَترٍ أو قِلاَدَةٌ إِلاَّ قُطِعَتْ».

وبوب عليه البخارى باب ما قيل فى الجرس ونحوه فى أعناق الإبل.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى (2): حيث دلَّ الحديث على تحريم تعليق القلائد لدفع الضرر. أهـ.

● مناسبة الحديث لكتاب التوحيد.

قال القرعاوي(2): حيث دل الحديث على أن مثل هذا العمل شرك لأن دفع الضر من الأفعال التى يختص بها الله. أهـ.

قوله «فى الصحيح» أى فى الصحيحين.

قوله (عن أبى بشير) ولفظه فى الصحيح أن أبا بشير الأنصارى أخبره

قال ابن حجر(3) قوله إن أبا بشير الأنصارى أخبره. ليس لأبى بشير وهو بفتح

---

(1) وقول مالك لم نجده عند أحد من شراح كتاب التوحيد أنه فى المتن إلا سليمان آل الشيخ. والحديث [متفق عليه] رواه البخارى فى الجهاد (٣٠٠٥) ومسلم فى اللباس (٧/ ٣٤٧/ ١٠٥) واللفظ والتتمة له. وتقدم تخريجه عند ذكر الأدلة على تحريم التمائم وانظر «فتح المجيد» (ح١٨٩) بتخريجنا.

(2) الجديد (٩٠).

(3) الفتح ٦/ ١٦٤.

ثم معجمة في البخاري غير هذا الحديث الواحد، وقد ذكره الحاكم أبوأحمد فيمن لايعرف اسمه، وقيل اسمه قيس بن عبدالحرير بمهملات مصغر ابن عمرو، ذكر ذلك ابن سعد وساق نسبه إلى مازن الأنصاري، وفيه نظر لأنه وقع في رواية عثمان بن عمرعن مالك عند الدراقطني نسبه أبي بشير ساعدياً، فإن كان قيس يكنى أبا بشير أيضاً فهو غير صاحب هذا الحديث، وأبو بشير المازني هذا عاش إلى بعد الستين وشهد الحرة وجرح بها ومات من ذلك.

قوله:أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفارة

قال ابن حجر [١]: «قوله (في بعض أسفاره) لم أقف على تعيينها.

قال ابن عثيمين[٢]: السفر: مفارقة محل الإقامة، وسمى سفراً؛ لأمرين:

الأول: حسى، وهوأنه يسفر ويظهر عن بلده لخروجه من البنيان.

الثاني: معنوي، وهو أنه يسفر عن أخلاق الرجال؛ أى: يكشف عنها وكثير من الناس لاتعرف أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم إلا بالأسفار.

قوله: فأرسل رسولاً.

قال ابن حجر [٣] قوله: (فأرسل) قال ابن عبدالبر: في رواية روح بن عبادة عن مالك«أرسل مولاه زيداً قال ابن عبدالبر.: وهو زيد بن حارثة فيما يظهر لي.

قوله:«أن لايبقين»

قال سليمان آل الشيخ[٤]. قوله: أن لا يبقين. هو بالمثناة والقاف المفتوحتين؛ وفى رواية لاتبقين بحذف أن والمثناة الفوقية والقاف المفتوحتين أيضاً.

قوله: في رقبة بعير من وتر أو قلادة إلا قطعت»

قال ابن حجر[٥]:

قوله (في رقبة بعير قلادة من وتر أوقلادة) كذا هنا بلفظ «أو» هي للشك أو للتنويع،

(١) الفتح ٦/ ١٦٤
(٢) القول المفيد ١ / ٢٢٥
(٣) الفتح ٦/ ١٦٤
(٤) تيسير العزيز الحميد (١١٨)
(٥) الفتح ٦ / ١٦٤ و ١٦٥.

ووقع في رواية أبي داود عن القعنبي بلفظ «ولاقلادة» وهو من عطف العام على الخاص، وبهذا جزم المهلب، ويؤيد الأول ما روى عن مالك أنه سئل عن القلادة فقال: ماسمعت بكراهتها إلا في الوتر.

وقوله(وتر) بالمثناة في جميع الروايات، قال ابن الجوزي: ربما صحف من لاعلم له بالحديث فقال وبر بالموحدة.

قلت ـ أي ابن حجر: حكى ابن التين أن الداودى جزم بذلك وقال: هو ماينتزع عن الجمال يشبه الصوف، قال ابن التين: فصحف.

قال ابن الجوزي: وفي المراد بالأوتار ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم كانوا يقلدون الإبل أوتار القسى لئلا تصيبها العين بزعمهم، فأمروا بقطعها إعلاماً بأن الأوتار لاترد من أمر الله شيئاً، وهذا قول مالك.

قلت ـ أي ابن حجر ـ: وقع ذلك متصلاً بالحديث من كلامه في الموطأ وعند مسلم وأبي داود وغيرهما، قال مالك: أرى أن ذلك من أجل العين، ويؤيده حديث عقبة بن عامر رفعه «**من علق تميمة فلاأتم الله له**»(١) أخرجه ابو داود أيضاً.

والتميمة ماعلق من القلائد خشية العين ونحو ذلك.

قال ابن عبدالبر: إذا اعتقد الذى قلدها نها ترد العين فقد ظن أنها ترد القدر وذلك لايجوز اعتقاده.

ثانيها: النهى عن ذلك لئلاتختنق الدابة بها عند شدةالركض، ويحكى ذلك عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، وكلام أبي عبيد يرجحه فإنه قال: نهى عن ذلك لأن الدواب تتأذى بذلك ويضيق عليها نفسها ورعيها، وربما تعلقت بشجرة فاختنقت أو وتعوقت عن السير.

ثالثها: أنهم كانوا يعلقون فيها الأجراس حكاه الخطابي وعليه يدل تبويب البخاري.

وقد روى أبو داود والنسائي من حديث أم حبيبة أم المؤمنين مرفوعاً «**لاتصحب الملائكة رفقة فيها جرس**»(٢) وأخرجه النسائي عن أم سلمة أيضاً(٣)، والذى يظهر أن البخارى أشار إلى ماورد في بعض طرقه، فقد أخرجه الدار قطنى من طريق عثمان بن عمر المذكور بلفظ «**لاتبقين قلادة من وتر ولاجرس في عنق بعيرإلا قطع**».

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» ٦٠/٣٢٦)، وأبو داود (٢٥٥٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨١١).

(٣) [صحيح] أخرجه النسائي في «الكبرى» (٨٨١٣) عن أم سلمة به والحديث في مسلم في اللباس والزينة (١٤/ ٩٤ـ النووى) عن أبي هريرة أيضًا.

قلت أي الحافظ: ولا فرق بين الإبل وغيرها في ذلك، إلا على القول الثالث فلم تجر العادة بتعليق الأجراس في رقاب الخيل.

وقد روى أبوداود والنسائي من حديث أبي وهب الجيشاني رفعه «**اربطوا الخيل وقلدوها، ولاتقلدوها الأوتار**»(١) فدل على أن لا اختصاص للإبل، فلعل التقييد بها في الترجمة للغالب. وقد حمل النضر بن شميل الأوتار في هذا الحديث على معنى الثأر فقال: معناه لاتطلبوا بها ذحول الجاهلية.

قال القرطبي: وهو تأويل بعيد. وقال الثوري: ضعيف.

وإلى نحو قول النضر جنح وكيع فقال: المعنى لاتركبوا الخيل في الفتن، فإن من ركبها لم يسلم أن يتعلق به وَتر يطلب به.

والدليل على أن المراد بالأوتار جمع الوتر بالتحريك لا الوتر بالإسكان ماروه أبو داود أيضا من حديث رويفع بن ثابت رفعه «**من عقد لحيته أو تقلد وتراً فإن محمداً بريء منه**»(٢) فإنه عند الرواة أجمع بفتح المثناة.

والجرس بفتح الجيم والراء ثم مهملة معروف،و حكى عياض إسكان الراء والتحقيق أن الذى بالفتح اسم الآلة وبالإسكان اسم الصوت.

وروى مسلم من حديث العلاء بن عبدالرحمن عن أبي هريرة رفعه «**الجرس مزمار الشيطان**»(٣) وهو دال على أن الكراهية فيه لصوته لأن فيها شبهًا بصوت الناقوس وشكله قال النووى وغيره: الجمهور على أن النهى للكراهة وأنها كراهة تنزيه، وقيل للتحريم، وقيل يمنع منه قبل الحاجة،ويجوز إذا وقعت الحاجة. وعن مالك تختص الكراهة من القلائد بالوتر، ويجوز بغيرها إذا لم يقصد دفع العين. هذا كله في تعليق التمائم وغيرها مما ليس فيه قرآن ونحوه، فأما ما فيه ذكر الله فلانهى فيه فإنه إنما يجعل للتبرك به والتعوذ بأسمائه وذكره.

وكذلك لانهى عما يعلق لأجل الزينة مالم يبلغ الخيلاء أو السرف ـ وتقدم معنا بحث التمائم بالقرآن والأذكار النبوية وقدمنا الراجح في المسألة فانظرها ـ.

واختلفوا في تعليق الجرس أيضاً.

ثالثها: يجوز بقدر الحاجة، ومنهم من أجاز الصغير منها دون الكبير. وأغرب ابن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سيأتي تخريجه في باب ما جاء في الرقى والتمائم.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٤/ ٩٤ـ النووي) عن أبي هريرة وانظر «رياض الصالحين» (١٦٩٣ـ بتخريجنا).

حبان فزعم أن الملائكة لاتصحب الرفقة التى يكون فيها الجرس إذا كان رسول الله ﷺ فيها أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(١): قوله: أو قلادة إلا قطعت. هو برفع قلادة أيضاً، عطف على الأول، ومعناه أن الراوى شك، هل قال شيخه قلادة من وتر؟ فقيد القلادة بأنها من وتر، وقال قلادة وأطلق ولم يقيد. ويؤيده ما روى عن مالك أنه سئل عن القلادة فقال: ماسمعت بكراهتها إلا فى الوتر. وفى رواية أبى داود: «ولاقلادة» بغير شك، والأولى أصح لاتفاق الشيخين عليها، وللرخصة فى القلائد، إلا الأوتار.

وكما روى أبو داود والنسائى من حديث أبى وهب الجيشانى مرفوعاً «**اربطوا الخيل وقلدوها، ولاتقلدوها الأوتار**»(٢) ولأحمد عن جابر مرفوعاً مثله(٣) وإسناده جيد.

قال البغوى فى «شرح السنة» تأول مالك أمره عليه السلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين، وذلك أنهم كانوا يشدون بتلك الأوتار والتمائم والقلائد، ويعلقون عليها العوذ، يظنون أنها تعصم من الآفات، فنهاهم النبيﷺ عنها، وأعلمهم أنها لاترد من أمر الله شيئاً.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: كانوا يلقدون الإبل الأوتار لئلا تصيبها العين، فأمرهم النبى ﷺ بإزالتها إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً، وكذلك قال ابن الجوزى وغيره. أهـ.

قال ابن عثيمين(٤): قوله: «قلادة من وتر، أو قلادة». شك من الراوي، والأولى أرجح؛ لأن القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير، وهذا اعتقاد فاسد؛ لأنه تعلق بما ليس بسبب، وقد سبق أن التعلق بما ليس بسبب شرعى أو حسى شرك؛ لأنه بتعلقه أثبت للأشياء سبباً لم يثبته الله لابشرعه ولا بقدره، ولهذا أمر النبيﷺ أن تقطع هذه القلائد.

أما إذا كانت هذه القلادة من غير وتر، وإنما تستعمل للقيادة كالزمام؛ فهذا لابأس به لعدم الاعتقاد الفاسد، وكان الناس يعملون ذلك كثيراً من الصوف أو غيره.

---

(١) تيسير العزيز الحميد١١٨

(٢)تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٣٥٢) عن جابر به.

(٤) القول المفيد ١/ ٢٢٥،٢٢٦.

قوله «فى رقبه بعير».

ذكر البعير؛ لأن هذا هو الذى كان منتشراً حينذاك؛ فهذا القيد بناءً على الواقع عندهم؛ فيكون كالتمثيل، وليس بمخصص. أهـ.

قال حامد بن محمد بن محمد بن حسن(١): فإن القلادة التى للزينة ليست من الشرك ولكنه مظنة للشرك، لأنه يشبه التمائم فى التعليق وأنه ﷺ نهى عنها مطلقاً.

فإن قلت من أين يعرف الإطلاق؟ قلت: من قوله ﷺ (**أو قلادة**) بالتنكير والنكرة بعد النفى تفيد العموم، وأيضاً أنه ﷺ قيد أولاً وقال: «**لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر**» ثم أطلق وقال: أوقلادة نهياً للمشابهة ومظنة الشرك.

قال ابن عثيمن (٢): يستفاد من الحديث.

١ـ أنه ينبغى لكبير القوم أن يكون مراعياً لأحوالهم؛ فيتفقدهم وينظر فى أحوالهم.

٢ـ أنه يجب عليه رعايتهم بما تقتضيه الشريعة: فإذا فعلوا محرماً منعهم منه، وإن نهاونوا فى واجب حثهم عليه.

٣ـ أنه لايجوز أن تعلق فى أعناق الإبل أشياء تجعل سبباً فى جلب منفعة أو دفع مضرة، وهى ليست كذلك لاشرعاً ولاقدراً؛ لأنه شرك، ولايلزم أن تكون القلادة فى الرقبة، بل لو جعلت فى اليد أو الرجل؛ فلها حكم الرقبة؛ لأن العلة هى هذه القلادة، وليس مكان وضعها؛ فالمكان لايؤثر.

٤ـ أنه يجب على من يستطيع تغيير المنكر باليد أن يغيره بيده. أهـ.

قال الفقير: ومن الفوائد أيضاً: أنه على كبير القوم أن يتفقد رعيته وينظر فى الأمور التى تمنع من دخولهم الجنة كما قيل فى معنى الخليفة« أنه يخلف النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به» فيتفقد فى أمورهم فى الدنيا وفى الدين أولاً.

وقد فعل ذلك الخلفاء الراشدين، ومعاوية كان إذا رأى منكراً خرج على المنبر وقال يا أهل المدينة أين علماؤكم فوالله ماهلكت بنو إسرائيل إلا عندما ظهر ذلك فى نسائهم(٣). وقال: على رضى الله عنه: أين علماؤكم فإن نسائكم خرجن يخالطن العلوج فى الأسواق.

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٠٥).

(٢) القول المفيد: (١/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٣٢)، ومسلم فى اللباس (٧/ ٣٥٨/ ١٢٢) عن معاوية به.

وَعَن أبـنِ مَسْعُود رَضَـيَ الله عَنْهُ؛ قَالَ: سَـمعتُ رَسُولَ الله (ﷺ) يـقولُ: «إنَّ الرُّقَى وَالتَّمائمَ وَالتِّوِلَة شِركٌ». رواهُ أَحْمَدُ وَأبو دَاوُدَ.(١).

- وفيه سرعة إخبار رسول رسول الله ﷺ بأوامر الرسول ﷺ.

- وفيه آداب الصحابة فـى تنفيذ أوامر الرسول حيث لايسألوا عـن السبب، وقد كانوا لاينتظـرون السبب بل إذا رأوه يفعل فـعلوا كما جاء فى الـصلاة أنه خلع نعله فـخلعوا نعالهم وقلنا فى تفسير قوله ﴿**يعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور**﴾ أورد ابن كثير أن النبى كان قد أهدر دم بعض الكفار فلما جاء يتحـلل لكى يعفو عنه - النبى فسكت النبى ﷺ ثم فى النهاية من كرمه عفى عنه فقال: «**هلا قام أحدكم قبل أن أعفوا عنه فيضرب عنقه**»، فقـالوا يارسـول الله هلا أومـأت لنا فـقال: «**ماكـان لنبى أن يـكون له خائـنة الأعين**»(٢).



قوله: [وعن ابـن مسعود رضى الله عنـه قال: سمعت رسول الله ﷺ يـقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»].

قال سليمان الشيخ(٣): الحديث، رواه أحمد، وأبو داود ، كما قال المصنف، وفيه قصة كأن المصنف اختصرها.

ولفظ أبى داود: عـن زينب امرأة عبدالله بن مـسعود أن عبدالله بن مـسعود رأى فى عنقى خيطاً. فقال: ماهذا: قلت: خيط رقى لى فيه. قالت: فأخذه فقطعه ثم قال: أنتم آل عبدالله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم شرك**» فقلت: لم تقول هـذا؟ لقد كانت عينى تقذف، وكنت أختلـف إلى فلان اليهودي، فإذا رقاها سكنت: فقال عبدالله: إنما ذلك عمل الشيـطان ينخسها بيده، فإذا رقى كف عنها، إنما كان يـكفيك أن تقـولى كما كان رسـول الله ﷺ يقول: «**أذهب البـأس رب الناس وأشف أنت الشافـى لاشفاء إلا شفاؤك، شفاء لايغـادر سقماً**»(٤). ورواه ابن ماجه وابن حبان، والحاكم قال: صحيح وأقره الذهبي.

وقال سلـيمان آل الشيـخ أيضاً: وفيه عـن أنس قال: رخص رسـول الله ﷺ فى الرقية من العين والحمة والنملة(٥).

---

(١) تقدم تخريجه فى أول هذا الباب.

(٢)[حسن صحيح]أخرجه أبوداود (٢٦٨٣)، والنسائى (٧/ ١٠٥ - السيوطي)عن سعد بن أبى وقاص.

(٣) تيسير العزيزالحميد (١١٩). (٤) تقدم تخريجه. فى أول هذا الباب.

(٥) تقدم تخريجه.

وعن عمران بن حصين مرفوعاً: «لارقية إلا من عين أو حمة أو دم»[1]. رواه أبو داود.

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال عبدالله بن جار الله[2]. أفاد أن عمل هذه الأشياء والاعتقاد بها شرك أهـ.

قال القرعاوى[3]. حيث دل الحديث على أن الرقى غير المشروعة والتمائم والتولة من الشرك.

قال شمس الحق آبادى[4]. قالت زينب (لم تقول هذا) أى وتأمرنى بالتوكل وعدم الاسترقاء فإني وجدت فى الاسترقاء فائدة (لقد كانت عينى تقذف) على بناء المجهول أى ترمى بما يهيج الوجع، وبصيغة الفاعل أى ترمى بالرمص أو الدمع وهو ماء العين من الوجع، والرمص ـ بالصاد المهملةـ ماجمد من الوسخ فى مؤخر العين قاله القاري.

(فكنت اختلف)أى اتردد بالرواح والمجيء.

(سكنت) أى العين وجعها.

(إنما ذلك) بكسر الكاف.

(عمل الشيطان) أى من فعله وتسويله، والمعنى أن الوجع الذى كان فى عينيك لم يكن وجعاً فى الحقيقة بل ضرب من ضربات الشيطان ونزغاته (كان) أى الشيطان (ينخسها) بفتح الخاء المعجمة أى يطعنها قاله القاري.

وفى «فتح الودود» من باب نصر أن يحركها ويؤذيها.

(فإذا رقاها) أى إذا رقى اليهودى العين (كف) الشيطان(عنها) أى عن نخسها وترك طعنها.

(أن تقولى) أى عند وجع العين ونحوها.

(أذهب) أمر من الإذهاب أى أزل (البأس) أى الشدة(رب الناس) أى ياخالقهم ومربيهم (أنت الشافي) يؤخذ منه جواز تسمية الله تعالى بما ليس فى القرآن بشرطين

---

(١) تقدم تخريجه..

(٢) الجامع الفريد ٤٢.

(٣) الجديد ٩٢.

(٤) عون المعبود ٥/ ١٠ / ٢٦٣.

أحدهماأن لايكون فى ذلك مايوهم نقصاً والثانى أن يكون له أصل فى القرآن وهذا من ذاك، فإن فى القرآن ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قاله فى الفتح(١).

(لاشفاء) بالمد مبنى على الفتح وخبره محذوف أى لاشفاء حاصل لنا أوله إلا بشفائك قاله العيني.

(إلا شفاؤك) بالرفع بدل من موضع لاشفاء قاله العيني.

(شفاء)بالنصب على أنه مصدر لقوله اشف.

(لايغادر سقماً) هذه الجملة صفة لقوله شفاء ومعنى لايغادر لايترك (سقماً) وبفتحتين مفعوله ويجوز ضم السين وتسكين القاف أى مرضاً(٢).

قوله: «أن الرقى»

قال شمس الحق(٣). (إن الرقي) بضم الراء وفتح القاف مقصور جمع رقية.

قال الخطابي: وأما الرقى فالمنهى عنه هو ما كان منها بغير لسان العرب فلا يدرى ما هو ولعله قد يدخله سحراً أو كفراً، وأما إذا كان مفهوم المعنى وكان فيه ذكر الله سبحانه فإنه مستحب متبرك به والله أعلم.أهـ وتقدم معنا كلام الخطابى وغيره من أهل العلم فى ضوابط الرقي.

قال سليمان آل الشيخ(٤): قوله: (إن الرقي). قال المصنف: الرقى هى التى تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة. يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً هى الرقيه التى منها شرك، من دعاء غير الله، والاستغاثة والاستعاذة به كالرقى بـاسماء الملائكة والأنبياء والجن ونحو ذلك، أما الرقى بالقرآن وأسماء الله وصفاته ودعائـه والاستعاذة به وحده لاشريك له، فليست شركاً، بل ولا ممنوعة، بل مستحبة أو جائزة.

---

(١) فتح البارى (١٠/٢١٧) قلت: بل أسماء الله توقيفية ولايجوز إشتقاقه إسماً لله من بعض أفعاله إلا إذا ثبت هذا الاسم فى القرآن أو فى السنة.

(٢) قال المنذري: والحديث أخرجه ابن ماجه عن ابن أخت زينب عنها وفى نسخة عن أخت زينب عنها وفيه قصة والراوى عن زينب مجهول.

(٣) عون المعبود (٥/ ١٠/ ٢٦٢).

(٤) تيسير العزيز الحميد١١٩، ١٢١.

وقوله: «فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة» تقدم ذلك في باب من حقق التوحيد وكذلك ورخص فيه من غيرها كما في (صحيح مسلم) عن عوف بن مالك قال:

كنا نرقى في الجاهلية فقلن: يارسول الله كيف ترى في ذلك فقال: **«أعرضوا على رقاكم لابأس بالرقي، مالم يكن فيه شرك»**[1]. أهـ.

قال الفقير: في هذا الحديث: أن تحقيق النفع والمصلحة لايكون حجة ولامسوغ لصحة العمل وكذا لو لم يأتي بآثار طيبة لايكون طعن في العمل فالفساد والصحة مرجعه للدليل، فإذا ثبت الدليل فهذا العمل شرعي حتى ولو لم يترتب عليه أثر طيب أوكبير نفع، فلو أن رجلاً مسحوراً قلت له: إقرأ البقرة، فإذا قرأ زاد تعبه، فذهب لدجال أو ساحر فوصف له رقية شركية فرقِيَ بها فسكن وشعر بتحسن.

فهل معنى هذا أن قراءة سورة البقرة غير شرعية والرقية السحرية شرعية؟!

وهل معنى أن الشرك هنا نافع أنه شرعي أو جائز بل الأمر كما قال ابن مسعود إنما ذلك من الشيطان، فالشيطان قد يشعر الإنسان ببعض البرء والشفاء عند تعاطيه أسباب شركية حتى يلبس عليه ويزين له الباطل.

● **أنواع الرقية من حيث قبل وقوع البلاء وبعد وقوعه.**

أولاً: رقية لدفع البلاء بعد وقوعه ومن أدلتها.

(١) عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل عليه السلام قال: **بسم الله يبريك ومن كل داء يشفيك ومن شر حاسد إذا حسد وشر كل ذي عين**[2].

[قلت] والحديث فيه دليل على أن الرقى من كل مرض لاتختص بمرض دون مرض.

فالرسول ﷺ **(كان إذا اشتكي)** فهنا مطلق الشكوي، وليس شكوى بعينها، وقوله **(كل)** داء فكل من ألفاظ العموم.

(٢) عن أبي سعيد أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: **يامحمد اشتكيت قال نعم قال: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أوعين حاسد الله يشفيك بسم الله أرقيك»**[3].

(٣) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذتين، فلما مرض مرضه الذي مات فيه جعلت أنفث عليه وأمسحه بيد نفسه لأنهاكانت أعظم بركة من يدي[4].

(١) تقدم تخريجه. (٢) [صحيح] أخرجه مسلم في السلام (٧/ ٤٢٤/ ٣٩)..
(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في «السلام» (٧/ ٤٢٤/ ٤٠) وانظر «الأذكار» للنووي بتخريجنا.
(٤) تقدم تخريجه.

[قلت] النفث: هو النفخ بغير رذاذ. التفل برذاذ.

(٤) حديث عثمان بن أبى العاص الثقفي.

أنه شكى إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول «ضع يدك على الذى تألم من جسمك وقل «بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»(١).

ثانياً: رقية لدفع البلاء قبل وقوعه.

(١) ما رواه البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنه قال كان النبى ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: « **إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن. كل عين لامة»(٢).**

فائدة: [قلت] وهذا الحديث وغيره يرد على من يقول أن الرقى الممنوعة فى حديث لايسترقون(٣) هى الرقى قبل وقوع البلاء» وهذا كلام ابن قتيبة وغيره قال لأنه يدافع القدر والقدر لا يدافع فمعنى ذلك على هذا الفهم لايجوز أن تأخذ التطعيم «تطعيم الأطفال» لأنه دواء قبل وقوع الداء لكن هذا الكلام يرده هذا الحديث وغيره.

(٢) روى البخارى عن النبى ﷺ أنه كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات(٤).

(٣) ما رواه مسلم فى «صحيحه» قال ﷺ: «إذا نز ل أحدكم منزلاً فليقل: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، فإنه لايضر شيء حتى يرتحل منه»(٥).

(٤) ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قال فى أول يومه أو فى أول ليلته: بسم الله الذى لايضر مع اسمه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وهو السميع العليم، ثلاث مرات، لم يضره شيء فى ذلك اليوم أو فى تلك الليلة»(٦).**

وغير هذه الأحاديث كثير فى المعنى نفسه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٣٧١) وانظر «الطب النبوى» للذهبى (٥٤٠ بتحقيقنا).

(٣) تقدم تخريجه فى باب من حقق التوحيد. (٤) تقدم تخريجه.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء (١٧/ ٣١ـالنووي) عن خولة بنت حكيم به ، وانظر الأذكار للنووى (٥٦٣ـ بتخريجنا).

(٦) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٧٢) وأبو داود (٣٣٨٨)، والنسائى فى «الكبرى» (٩٨٤٣) وابن ماجه (٣٨٦٩) عن عثمان به، وانظر «الطب النبوي» للذهبى (٥٠٩ـ بتحقيقنا).

قال ابن باز[1] الرقى فيها تفصيل فتجوز بثلاثة شروط

الأول :أن يكون بلسان مفهوم المعنى بالآيات والدعوات المعروفة .

الثانى:أن لايخالف ذلك المعنى، الشرع.

الثالث:أن لايعتقد أنها تنفع بسببها وفى الحديث **(لابأس بالرقية مالم تكن شركاً)**[2] أهـ. كذا قال فى هذا الموضع وتقدم تفصيل ذلك بإطالة فى فصل ضوابط الرقى.

قال بن عثيمين [3]: **قوله «أن الرقى»** جمع رقية، وهذه ليست على عمومها، بل هى عام أريد به خاص، وهو الرقى بغير ماورد به الشرع، أما ماورد به الشرع؛ فليست من الشرك، قال ﷺ فى الفاتحة :**«وما يدريك أنها رقية»**.

وهل المراد بالرقى فى الحديث مالم يرد به الشرع ولو كانت مباحة، أو المراد ماكان فيه شرك؟

الجواب: الثانى ؛ لأن كلام النبى ﷺ لايناقض بعضه بعضاً؛ فالرقى المشروعة التى ورد بها الشرع جائزة.

وكذا الرقى المباحة التى يرقى بها الإنسان المريض بدعاء من عنده ليس فيه شرك جائزة أيضاً. أهـ.

وتقدم فى تقسيم الرقية إلى شرعية وقدرية بحث المسألة بإطالة، فليُرجع إليها.

قوله (والتمائم) قال شمس الحق[4]. والتمائم جمع التميمة وهى التعويذة التى لايكون فيها أسماء الله تعالى وآياته المتلوة والدعوات المأثورة تعلق على الصبى. قال فى النهاية: التمائم جمع تميمة وهى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين فى زعهم فأبطلها الإسلام. اهـ.

وانظر زيادة تعريفها فى أول الباب

قال سليمان آل الشيخ [5].

قوله : والتمائم. تقدم كلام المنذرى وابن الأثير فى معناه وظاهر تخصيص التمائم بما ذكراه. وقال المصنف التمائم شيء يعلق على الأولاد من العين. وقال الخلخالى :

---

(١) التعليق (٩٩، ٧٠) (٢) تقدم تخريجه

(٣) القول المفيد ١/ ٢٢٦، ٢٢٧.

(٤) عون المعبود ٥/ ١٠/ ٢٦٢.

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٢١، ١٢٢

التمائم جمع تميـمة وهى ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعـظام لدفع العين، وهذا منهى عـنه، لأنه لادافع إلا الله، ولايطلب دفـع المؤذيات إلا بالله، وأسمائـه وصفاته، وظاهره أن ما علق لدفع العين وغيرها فهو تميمية من أى شىء كان، وهذا هو الصحيح.

وقد يقال: إن كلام المنـذرى وابن الأثير وغيرهما لايخالفه. قـال المصنف: لكن إذا كان المعلق من القرآن فـرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخـص فيه ويجعله من المنهى عنه، منهم ابن مسعود. أهـ.

وتقدم بـحث ذلك فى [حكم تـعليق التـمائم من القـرآن والأدعية النبويـة] فى هذا الباب، واستفضنا فيه بما يغنى عن إعادته هنا.

قال ابن عثيمين فى قول المصنف (التمائم):

فسرها المؤلف بقـوله: «شىء يعلق على الأولاد يتقون به الـعين»، و هى من الشرك؛ لأن الشارع لم يجعلها سبباً تتقى به العين (١).

وإذا كان الإنسان يلبس أبنائه ملابس رثة وبالية خوفاً من العين؛ فهل هذا جائز؟

الظاهر أنه لابأس به؛ لأنه لم يفعل شيئاً، وإنما تـرك شيئاً، وهو التحسين والتجميل لقول يعقوب عليه وعلـى نبينا الصلاة والسلام ﴿**يابنى لاتدخلـوا من باب واحد وادخلوا مَن ابواب متفرقة**﴾ فهو قصد ابعاد وعدم إثارة حُسادٍ لمنظر الأبناء والأعجاب بهذا المنظر.

ثم قال ابن عثيمـين وقد ذكر ابن القيم فى «زاد المعاد» أن عثمان رأى صـبياً مليحاً، فقال: دسموا نونته، والنونة: هى التى تخرج فى الوجه عندما يضحك الصبى كالنقرة، ومعنى دسموا؛ أى: سودوا.

وأما الخط: وهى أوراق من الـقرآن تجمع وتوضع فـى جلد ويخاط عـليها، يلبـسها الطفل على يده أو رقبته؛ ففيها خلاف بين العلماء.

وظاهر الحديث: أنها ممنوعة، ولاتجوز.

ومن ذلك أن بعضهم يكتب القرآن كله بـحروف صغيرة فى أوراق صغيرة، ويضعها فى صنـدوق صغير، ويعلـقها على الصـبى، وهذا مع أنه مـحدث؛ فهو إهانة لـلقرآن الكريم؛ لأن هذا الـصبى سوف يسيل عليه لـعابه، وربما يتلوث بالنجـاسة، ويدخل به الحمام والأماكن القذرة، وهذا كله إهانة للقرآن.

---

(١) وهو مايطلق عليه المصريون اسم (الحجاب) لحفـظ الأولاد من الحسد، كأنه يحجبهم عن عين إلى سد فلا يقع.

ومع الأسف أن بعض الناس اتخذوا من العبادت نوعاً من التبرك فقط؛ مثل ما يشاهد من أن بعض الناس يمسح الركن اليمانى، ويمسح به وجه الطفل وصدره، وهذا معناه أنهم جعلوا مسح الركن اليمانى من باب التبرك لاالتعبد، وهذا جهل، وقد قال عمر فى الحجر: «إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولاتنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» [1]. أهـ. وتقدم [حكم تعليق التمائم من القرآن والأدعية] فانظره.

قوله «والتولة».

قال شمس الحق[2].

(والتولة) قال الخطابى يقال إنه ضرب من السحر قال الأصمعى: وهى الذى يحبب المرأة إلى زوجها انتهى.

قال القارى: والتولة بكسر التاء وتضم وفتح الواو نوع من السحر أوخيط يقرأ فيه من السحر أو قرطاس يكتب فيه شىء من السحر للمحبة أو غيرها.

وذكر نحو ذلك الشيخ سليمان آل الشيخ فقال[3].

(قوله :والتولة شرك . قال المصنف : هو شىء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والزوج إلى امرأته، وكذا قال غيره أيضاً وبهذا فسره ابن مسعود راوى الحديث كما فى «صحيح ابن حبان» والحاكم. قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناهما، فما التولة؟! قال شىء يضعه النساء يتحببن إلى أزواجهن[4] قال الحافظ: التولة بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً: شىء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر، وإنما كان ذلك من الشرك، لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله. أهـ.

قال ابن عثيمين[5] .

قوله : «التولة»

شىء يعلقونه على الزوج، يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك؛ لأنه ليس بسبب شرعى ولاقدرى للمحبة.

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) عود المعبود ٥/ ١٠ / ٢٦٢، ٢٦٣.

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٢٢).

(٤) تقدم تخريجه

(٥) القول المفيد (١/ ٢٢٨، ٢٢٩)

ومثل ذلك الدبلة.

والدبلة: خاتم يشترى عند الزواج يوضع فى يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج؛ قالت المرأة: أنه لايحبها؛ فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، ويقولون : إنه مادام فى يد الزوج؛ فإنه يعنى أن العلاقة بينهما ثابتة،والعكس بالعكس، فإذا وجدت هذه النية فإنه من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية ـ وهى بعيدة ألا تصحبها ـ؛ ففيه تشبه بالنصارى، فإنها مأخوذة منهم.

وإن كانت من الذهب؛ فهى بالنسبة للرجل فيها محذور ثالث، وهو لبس الذهب؛ فهى إما من الشرك، أومضاهاة النصارى، أو تحريم النوع إن كانت للرجال، فإن خلت من ذلك؛ فهى جائزة لأنها خاتم من الخواتم.

قوله «شرك»

قال شمس الحق: أى كل واحد منها قد يفضى إلى الشرك إماجلياً وإما خفياً. قال القاضى : وأطلق الشرك عليها إما لأن المتعارف منها فى عهده ماكان معهوداً فى الجاهلية وكان مشتملاً على مايتضمن الشرك أو لأن اتخاذها يدل على إعتقاد تأثيرها وهويفضى إلى الشرك .

قال ابن عثيمين (١).

قوله :«شرك».

وهل هى شرك أصغر أو أكبر؟

نقول : بحسب ما يريد الإنسان منها إن اتخذها معتقداً أن المسبب للمحبة هو الله؛ فهى شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها؛ فهى شرك أكبر. وقد تقدم هذا القول فى المقدمة فليرجع إليه. أهـ

قال الفقير: فالتولة تميمة للمحبة. والله كما لم يلجئنا للاستعانة بالسحر لاستخراج الجن فكذلك لم يلجئنا إلى الاستعانة بالتولة لكى تحبب المرأة زوجها فيها، بل هناك من السحر الحلال مايغنينا عن السحر المحرم.

فالمرأة لو امتثلت للشرع سيضعها الرجل فى عينيه، وكذلك الرجل فإن فعل ماعليه ولم تحبه فليعلم أنه لا خير فيها، أو لاخير فيه لها، والله سيبدله خيراً منها.

---

(١) القول المفيد ١/ ٢٢٩.

وَعَنْ عبدِ الله بن عُكَيْمٍ مرفوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ (١).

فإن نفعت هذه التولة وصار شيء من المحبة فهذا هو الهدوء الذى يسبق العاصفة فجاء الشيطان ونسخ ليقنعهم فقط، لكن بعد ذلك بعد أن كان يشتم فقط سيشتم ويضرب فتذهب وتعمل توله مرة ثانية فإن كان متحصن ويسير على الشرع فلن يضره إلا بإذن الله **﴿وماهم بضآرين به من أحد إلا بإذن الله﴾** أما أن كان سفيها فربما يؤثر عليه ويسير معها كما يقولون كالكلب وتحت طوعها.

وهناك سحر للتفريق كما قال تعالى **﴿ويتعلمون منهما مايفرقون بين المرأة وزوجه﴾** وهو عكس التولة وهى سحر للتجميع، فالمسلم والمسلمة لاينبغى أن تتعلق بهذا السفة.

وإن بعض نساء النبى ﷺ من غيرتهن من عائشة أخذن يتكلمن فيها فقال لهن: **إنى رزقت حبها»** فهذه المسألة ليس بيدى **والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن»**(٢) وفى رواية فى السنن والمسند قال: **حبب إلىّ من دنياكم»** (٣) **«حبب إلىّ»** يعنى ليس بيدى، ويعنى بالنساء هنا: زوجاته. فالمسألة لاتتعلق بورق أو حجب فما علاقتها بالقلب؟! فهذا سفه، فالسحر الحلال قطعى الشفاء. بخلاف التولة ظنى الشفاء.

قوله: [وعن عبدالله بن عُكيم...] وروى أبو داود عن عيسى بن حمزة قال: دخلت على عبد الله بن عكيم وبه حمرة. فقلت: ألا تعلق تميمة؟ فقال: نعوذ بالله من ذلك قال رسول الله ﷺ: **«من تعلق شيئاً وكل إليه»**(٤).

وروى وكيع عن ابن عباس قال: اتفل بالمعوذتين ولاتعلق.

وأما القياس على الرقية بذلك، فقد يقال بالفرق، فكيف يقاس التعليق الذى لابد فيه من ورق أو جلود ونحوهما على مالا يوجد ذلك فيه، فهذا إلى الرقى المركبة من حق باطل أقرب.



قوله: [وعن عبدالله بن عكيم مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وكل إليه»..]

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧/٦٦)، ومسلم فى القدر (١٦/ ٢٠٤ ـ النووى) عن عين الله بن عمرو به وانظر «القواعد المثلى» (٧٨ ـ بتخريجنا).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ١٢٨)، والنسائى فى «الكبرى» (٨٧/ ٨٨) عن أنس به وانظر «الطب النبوى» (٦٩ ـ بتخريجنا).

(٤) تقدم تخريجه

ولفظ الترمذى عن عيسى وهو ابن عبدالرحمن بن أبى ليلى قال: «دخلت على عبدالله بن عكيم أبى معبد الجهنى أعوده وبه حمرة، فقلت: ألا تعلق شيئاً؟ قال: الموت أقرب من ذلك، قال النبى ﷺ (من تعلق شيئاً وكل إليه) وبوب عليه باب ماجاء فى كراهية التعليق. أهـ

قوله«عن عبدالله بن عكيم»

قال سليمان آل الشيخ (١).

قوله : عن عبدالله بن عكيم. هو بضم المهملة مصغراً، ويكنى أبا معبد الجهنى الكوفى. قال البخارى : أدرك زمن النبىﷺ، ولا يعرف له سماع صحيح،وكذا قال أبو حاتم وقال معناه أبو زرعة، وابن حبان وابن منده، وأبو نعيم. وقال البغوى يشك فى سماعه . وقال الخطيب : سكن الكوفة، وقدم المدائن فى حياة حذيفة، وكان ثقة، وذكر ابن سعد عن غيره أنه مات فى ولاية الحجاج، وظاهر كلام هؤلاء الأئمة أن الحديث مرسل.

قلت: والحديث له قصة أن عبدالله كان مريضاً فحين دخلوا عليه قال أحدهم وهو عبدالرحمن بن أبى ليلى ألا تعلق شيئاً فهو يرى جواز تعليق التمائم الشرعية لا الشركية فقال: «الموت اقرب من ذلك» يعنى أموت أفضل ولا أعلق شىء لاشرعى ولاغيرشرعى وهذا الكلام بالاستقراء موجود وحقيقية أن الذى يتعلق بشىء غير الله إنما يتعلق بخيط العنكبوت فأى إنسان تعلق بالله يجعل الله له مخرجاً. وأما من تعلق بغير الله فالله يتعسه ويوكسه ولايبالى بأى أوديه الأرض هلك.

وكان فى الصحيح وكتاب الله غنية مما يؤيد هذا المعنى : أن من تعلق شيئاً وكل إليه .

قوله : «من تعلق شيئا وكل إليه»

قال المبارك فورى (٢).

(من تعلق شيئاً) أى من علق على نفسه شيئاً من التعاويذ والتمائم وأشباهها معتقداً أنها تجلب إليه نفعاً أو تدفع عنه ضراً، قاله فى النهاية (وكل إليه) بضم واو وتخفيف كاف مكسورة أى خلى إلى ذلك الشىء وترك بينه وبينه . والحديث استدل به من قال بكراهية تعليق التمائم.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ١٢٢،١٢٣

(٢) تحفة الأحوذى ٦/ ٢٠٠، ٢٠١.

قوله :«من تعلق شيئا وكل إليه» التعلق يكون بالقلب ويكون بالفعل، ويكون بهما جميعاً، أى من تعلق شيئاً بقلبه، أو تعلقه بقلبه وفعله، وكل إليه، أى: وكله الله إلى ذلك الشىء الذى تعلقه، فمن تعلقت نفسه بالله، وأنزل حوائجه بالله،والتجأ إليه، وفوض أمره كله إليه كفاه كل مؤنة، وقرب إليه كل بعيد،ويسر له كل عسير، ومن تعلق بغيره أوسكن إلى علمه وعقله ودوائه وتمائمه، واعتمد على حوله وقوته، وكله الله إلى ذلك وخذله، وهذا معروف بالنصوص والتجارب. قال الله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، ثنا أبو سعيد المؤدب، ثنا من سمع عطاء الخراسانى، قال : لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت، فقلت له : حد ثنى حديثاً أحفظه عنك فى مقامك هذا وأوجز قال: نعم، أو حى الله تبارك وتعالى إلى داود: يا داود أما وعزتى وعظمتى لايعتصم بى عبد من عبيدى دون خلقى أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع، ومن فيهن إلا جعلت له من بينهن مخرجاً، أما وعزتى وعظمتى لايعتصم عبد من عبيدى بمخلوق دونى أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء من يده وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالى بأى واد هلك.(1) أثر ضعيف، بالإضافة إلى أن وهب بن منبه كان يكثر الرواية من أهل الكتاب الإسرائيليات.

قال ابن عثيمين (2).

قوله : «من تعلق شيئاً».

أى : اعتمد عليه وجعله همه ومبلغ علمه، وصار يعلق رجاءه به وزوال خوفه به.

وشيئاً: نكرة فى سياق الشرط ؛ فتعم جميع الأشياء، فمن تعلق بالله سبحانه وتعالى، وجعل رغبته ورجاءه فيه وخوفه منه؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(3) ؛ أى : كافيه، ولهذا كان من دعاء الرسل وأتباعهم عند المصائب والشدائد: «**حسبنا الله نعم الوكيل**»، قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد وأصحابه حين قيل لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾(4).

---

(1) أنظر تخريجه فى «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(2) القول المفيد (1/ 230). (3) الطلاق : 3

(4) [صحيح] أخرجه البخارى (4563) وانظر «فتح القدير» ـ بتخريجنا ـ

قوله: «وكل إليه»

أى :واسند إليه،وفوض

● **أقسام التعليق بغير الله.**

الأول: ماينافى التوحيد من أصله، وهوأن يتعلق بشيء لايمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتماداً معرضاً عن الله، مثل تعلق عباد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، ولهذا إذا مستهم الضراء الشديدة يقولون : يا فلان! أنقذنا؛ فهذا لاشك أنه شرك أكبر مخرج من الملة.

الثاني: ماينافى كمال التوحيد، وهو أن يعتمد على سبب شرعى صحيح مع الغفلة عن المسبب، وهو الله ـ عزوجل ـ، وعدم صرف قلبه إليه؛ فهذا نوع من الشرك، ولانقول شرك أكبر؛ لأن هذا السبب جعله الله سبباً.

الثالث : أن يتعلق بالسبب تعلقاً مجرداً لكونه سبباً فقط، مع اعتماده الأصلى على الله؛ فيعتقد أن هذا السبب من الله، وأن الله لوشاء لأبطل أثره، ولوشاء لأبقاه، وأنه لاأثر للسبب إلابمشيئة الله عزوجل؛ فهذا لا ينافى التوحيد لا كمالاً ولا أصلاً وعلى هذا لاإثم فيه.

ومع وجود الأسباب الشرعية الصحيحة ينبغى للإنسان أن لايعلق نفسه بالسبب، بل يعلقها بالله.

فالموظف الذى يتعلق قلبه بمرتبه تعلقاً كاملاً، مع الغفلة عن المسبب لهذا السبب، وهو الله، قد وقع فى نوع من الشرك، أما إذا اعتقد أن المرتب سبب، والمسبب هو الله ـ سبحانه وتعالى، وجعل الاعتماد على الله، وهو يشعر أن المرتب سبب؛ فهذا لاينافى التوكل.

وقد كان الرسول ﷺ يأخذ بالأسباب مع اعتماده على المسبب، وهو الله ـ عزوجل ـ

وجاء فى الحديث : «**من تعلق**»،ولم يقل : من علق؛ لأن المتعلق بالشيء يتعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث ينزل خوفه ورجاءه وأمله به،وليس كذلك من علق. أهـ.

قال الفقير: واستدل ابن تيميه على هذا المعنى بقول الله ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾فالمشرك والمتوكل على غير الله أيضًا فى ذلك سواء وقد قلنا أن شرط الإيمان هو التوكل فإن لم يتوكل عليه فهو ليس مؤمن

«التمائم» : شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين.

لكن إذا كان المُعَلَّقُ من القرآن؛ فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهى عنه، منهم ابن مسعود رضى الله عنه.

و«الرقى» هى التى تسمى العزائم، وخص منها الدليل ماخلا من الشرك؛ فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحُمَة.

و«التولة» هى شيء يصنعونه يزعمون أنه يُحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.

والله يتركه وشركه كما جاء فى الحديث القدسى« أنا اغنى الشركاء عن الشرك من أشرك معى شيء تركته وشركه»(١) فهو يعاقبه فى الآخرة وكذلك فى الدنيا يتركه ومن تعلق به.

وأيضاً مما ثبت فى السنة عند الترمذى قال النبىﷺ :«ثلاثة اقسم عليهن وأنى محد ثكم حديثاً فاحفظوه مانقص مال من صدقة ومافتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر(فمن نزل به فاقة فأنزلها بالله سدت فاقته وأن أنزلها بالناس لم تسد فاقته) وما ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله بها عزة»(٢).

وفى الصحيح «من يستغنى يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أوتى أحد عطاء أوسع من الصبر»(٣).

وفى الصحيح أيضاً «تعس عبد الدينار»(٤) لأنه تعلق قلبه واعتمد على الدينار والدرهم والخمية فمن تعلق بغير الله كمن تعلق بخيوط العنكبوت ﴿مثل الذين ا تخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت﴾ وذلك بعد حكاية قارون وهامان وفرعون فأحدهم اعتمد على ماله، والآخر على وزارته ووجاهته، والثالث على ملكه، والله بالرغم طغيان الملك والوزارة والمال اعتبر كل هذا خيط عنكبوت مهما كبرت هذه الأشياء فى نظر الناس. أهـ.

قوله [التمائم شيء معلق على الأولاد يتقون به العين]



قدمنا الكلام فى المقدمة لهذا الباب الخلاف فى ذلك وترجيح الراجح من ذلك بما يغنى عن إعادته هنا وذكر بعض أقوال أهل العلم مع شرح كلام شيخ الإسلام محمد

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٢٣١)، والترمذى (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨) عن أبى كبشة به وانظر «رياض الصالحين» (٥٥٨ ـ بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٤٧٠)، ومسلم فى الزكاة (٥/ ١٥٦/ ١٢٤) عن أبى سعيد به.

(٤) سيأتى تخريجه.

عبدالوهاب وتفصيل ذلك والراجح من أقوال أهل العلم، يُرجع إليه فى مقدمات هذا الباب تحت عنوان / حكم التمائم من القرآن والأدعية، وفى ذلك.

قال ابن عثيمين: قوله: والتى تسمى العزائم».

أى : فى عرف الناس.

وعزم عليه؛ أى: قرأ عليه، وهذه عزيمة؛ أى : قراءة.

قوله: «**وخص منها الدليل ماخلا من الشرك**».

أى: الأشياء الخالية من الشرك؛ فهى جائزة، سواءً كان مما ورد بلفظه مثل «**اللهم رب الناس! أذهب الباس، أشف أنت الشافى...**» (١)، أو لم يرد بلفظه مثل : «**اللهم عافه، اللهم اشفه**»، وإن كان فيها شرك؛ فإنها غير جائزة، مثل : «ياجنى ! أنقذه، ويا فلان الميت! اشفه»، ونحو ذلك.

قوله : «**من العين والحُمه**»

وظاهر كلام المؤلف: أن الدليل لم يرخص بجواز القراءة إلا فى هذين الأمرين: «**العين، والحُمة**»، لكن ورد بغيرهما؛ فقد كان النبى ﷺ ينفخ على يديه عند منامه بالمعوذات، ويمسح بهما ما استطاع من جسده (٢)، وهذا من الرقية، وليس عيناً ولاحمة.

ولهذا يرى بعض أهل العلم أن الترخيص فى الرقية من القرآن للعين والحمة وغيرهما لمام، ويقول: إن معنى قول النبى ﷺ : «**لارقية إلا من عين أوحمة**»(٣) أى لا استرقاء إلا من عين أو حمة، والاسترقاء : طلب الرقية؛ فالمصيب بالعين - وهو «**العائن**» - يطلب منه أن يقرأ على المعيون.

وكذلك الحمة يطلب الإنسان من غيره أن يقرأ عليه؛ لأنه مفيد كما فى حديث أبى سعيد فى قصة السرية(٤).

● **شروط جواز الرقية:**

الأول: أن لايعتقد أنها تنفع بذاتها دون الله، فإن اعتقد أنها تنفع بذاتها من دون الله؛ فهو محرم، بل شرك، بل يعتقد أنها سبب لاتنفع إلا بإذن الله.

(١) سبق تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه

(٤) تقدم تخريجه

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قال: قَالَ لِي رَسُولُ الله (ﷺ): «يَا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّداً بَرِيءٌ مِنْهُ»(١).

الثاني: أن لايكون مما يخالف الشرع؛ كما إذا كانت متضمنة دعاء غير الله، أو استغاثة بالجن، وماأشبه ذلك؛ فإنها محرمة، بل شرك.

الثالث : أن تكون مفهومة معلومة، فإن كان من جنس الطلاسم والشعوذة؛ فإنها لاتجوز.

أمابالنسبة للتمائم؛ فإن كانت من أمر محرم، أو اعتقد أنها نافعة لذاتها، أو كانت بكتابة لاتفهم ؛ فإنها لاتجوز بكل حال.

وإن تمت فيها الشروط الثلاثة السابقة فى الرقية؛ فإن أهل العلم اختلفوا فيها كما سبق. أهـ.

قلت وقدمنا فى مقدمة هذا الباب ضوابط الرقية الشرعية بأكثر وأبسط من ذلك فليرجع إليها.



قوله [وروى أحمد عن رويفع قال: قال لى رسول الله ﷺ : يارويفع ... الحديث]
قال سليمان آل الشيخ (٢).

الحديث رواه الإمام أحمد عن يحيى بن إسحاق، والحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن ابن لهيعة، وفيه قصة، فاختصره المصنف، وهذا لفظ الحسن. قال: حدثنا ابن لهيعة: ثنا عياش بن عباس، عن شييم بن بيتان قال: ثنا رويفع بن ثابت قال : كان أحدنا فى زمان رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما يغنم، وله النصف، حتى إن أحدنا ليصير له النصل والريش، والآخر القدح، ثم قال: قال لى رسول الله ﷺ: **«يا رويفع لعل الحياة ستطول بك؛ فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة أو عظم؛ فإن محمداً برئ منه»** ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان، ثنا المفضل، حدثنى عياش بن عباس أن شييم بن بيتان أخبره أنه سمع شيبان القتبانى يقول استخلف مسلمة بن مخلد رويفع بن ثابت الأنصارى على

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٠٩/٤) وأبو داود فى «الطهارة» /باب: ما ينهى عنه أن يستنجى به (٣٦/٩/١)، ومن طريقة البيهقى فى «الكبرى» (١/ ١١٠)، والبغوى فى «شرح السنة» (١١/ ٢٨/ ٢٦٨٠).
وأخرجه النسائى فى «الصغرى» (٨/ ١٣٥) والطبرانى فى «الكبير» (٥/ ٢٨/ ٤٤٩١) من طريق عياش بن عباس، أن شيم بن بيتان أخبره عن شيان القتبانى عن رويفع به وأنظر «فتح المجيد» (ح ٢٠٤) بتخريجنا.
(٢) تيسير العزيز الحميد ١٢٣، ١٢٤.

أسفل الأرض، قال : فسرنا معه، فقال: قال لى رسول الله ﷺ الحديث. وفى الإسناد الأول ابن لهيعة، وفيه مقال، و فى الثانى شيبان القتبانى قيل فيه مجهول، وبقية رجالهما ثقات.

ورواه أبو داود من طريق المفضل به مطولاً وسكت عليه، ثم قال: حدثنا يزيد بن خالد، أنا مفضل عن عياش أن شييم بن بيتان أخبره أيضاً بهذا الحديث عن أبى سالم الجيشانى، عن عبدالله بن عمرو يذكر ذلك وهو معه مرابط بحصن باب البون. قال أبو داود حصن البون بالفسطاط على جبل.

قال سليمان آل الشيخ، وهذا إسناد جيد . رواه النسائى من رواية شييم عن رويفع، وصرح بسماعه منه ولم يذكر شيبان، فإن كان ذكر شيبان وهماً فالإسناد صحيح، وحسنه النووى، وصححه بعضهم .

قال الحافظ أبو زرعة فى «شرح أبى داود» ورواه الطحاوى مختصراً فذكر منه الاستنجاء برجيع دابة أو عظم فقط. ورواه محمد بن الربيع الجيزى فى كتاب من دخل مصر من الصحابة مطولاً، وفيه: أن من عقد لحيته فى الصلاة.

● **مناسبة الحديث للباب.**

قال القرعاوى(١). حيث دل على تحريم تعليق الوتر لدفع الضرر. أهـ

● **مناسبة الحديث للتوحيد.**

قال القرعاوى (٢). حيث تبرأ النبى - ﷺ ممن تعلق وتراً لدفع الضرر لأن جلب النفع ودفع الضرر من الأفعال الخاصة بالله وطلبها من غير الله شرك

قوله : لعل الحياة ستطول بك

قال سليمان آل الشيخ (٣).

قوله : «**لعل الحياة ستطول بك**» علم من أعلام النبوة، لأنه وقع كما أخبر به ﷺ، فإن رويفعاً طالت حياته إلى سنة ست وخمسين، فمات فيها ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها، وهو من الأنصار وقيل : مات سنة ثلاث وخمسين، قاله ابن يونس.

قوله «فأخبر الناس»

(١-٢) الجديد ٩٥، ٩٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١٢٤.

قال سليمان آل الشيخ (١).

قوله : «فأخبر الناس» دليل على و جوب إخبار الناس بذلك على رويفع. وليس هذا مختصاً بل كـل من كان عنده علم ليس عنـد غيره ممايحتاج إليه النـاس، وجب عليه تبليغه للناس، وإعلامهم به، فإن اشترك هو وغـيره فى علم ذلك، فالتبليغ فرض كفاية هذا كلام أبى زرعة.

قوله «أن من عقد لحيته»

قال سليمان آل الشيخ (٢).

بكسر اللام لاغير، قاله فى «المشارق» والجمع لحى، بالكسر والضم، قاله الجوهرى.

قال الخطابى: وأما نهيه عن عقد اللحية، فإن ذلك يفسر على وجهين:

أحدهما : ماكانـوا يفعلـونه من ذلك فى الحـروب، كانوا فى الجـاهلية يـعقدون لحاهم، وذلك من زى بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها.

قلت :ـ يعنى سليمان آل الـشيخ ـ كأنهم كانوا يفعلونه تكبـراً وعجباً، كما ذكره أبو السعادات.

قال : **ثانيهما**: أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التوضيع والتأنيث.

وقال أبو زرعة ابن الـعراقى: والأولى حمله علـى عقد اللحية فى الـصلاة كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع المتقدم ذكرها، فـهو موافق للحديث الصحيح فى النهى عن كف الشعر والثوب، فإن عقد اللحية فيه كفها وزيادة. أهـ.

قال ابن عثيمين (٣).

اللحيـة عند العرب كانت لاتـقص ولاتحلق، كما أن ذلـك هو السنة، لكنـهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب:

منها: الافتخار والعـظمة، فتجد أحدهم يعـقد أطرافها، أويعقدها مـن الوسط عقدة واحدة ليعلم أنه رجل عظيم، وأنه سيد فى قومه.

(١) تيسير العزيز الحميد ١٢٤

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٢٤، ١٢٥).

(٣) القول المفيد (١/ ٢٣٦، ٢٣٧).

الثانى : الخوف من العين؛ لأنها إذا كانت حسنة وجميلة ثم عقدت أصبحت قبيحة، فمن عقدها لذلك؛ فإن الرسول ﷺ برىء منه.

وبعض العامة إذا جاءهم طعام من السوق أخذوا شيئاً منه يرمونه فى الأرض؛ دفعاً للعين، وهذا اعتقاد فاسد ومخالف لقول النبى ﷺ: «**إذا سقطت لقمة أحدكم؛ فليمط ما بها من الأذى، وليأكلها**»(1). أهـ.

قوله :«أوتقلد وتراً»

قال سليمان آل الشيخ (2).

قوله: «أوتقلد وتراً». أى : جعله قلادة فى عنقه أو عنق دابته ونحو ذلك. وفى رواية محمد بن الربيع :«أوتقلد وتراً» يريد تميمة، فهذا يدل على أنهم كانوا يتقلدون الأوتار من أجل العين، إذ فسره بالتميمة وهى تجعل لذلك. أهـ.

قال ابن عثيمين(3).

قوله «أو تقلد وتراً»

الوتر : سلك من العصب يؤخذ من الشاة، وتتخذ للقوس وتراً، ويستعملونها فى أعناق إبلهم أو خيلهم، أو فى أعناقهم، يزعمون أنه يمنع العين، وهذا من الشرك.

قال ابن عثيمين (4).

قلت: وفى رواية أن عبدالله بن مسعود جاء بحجرين وروثه فأخذ الحجرين والقى بالروثه وقال «**انها روثة إنهاركس**»(5) فعدم الاستنجاء لعلتين: **الأولى**: وهى الراجحة أنهما طعام إخواننا من الجن .

الثانية : إن كان الرجيع من روث الخيل والبغال والحمير فهو ركس لايطهر وإن كان من غيره فيطهر وليس بركس كما قال شيخ الإسلام لكن يأثم فاعله لأنه مفسد أفسد على إخواننا من الجن طعامهم لأنه جاء فى الأثر أن الجن حينما أسلموا سألوه ﷺ الزاد فقال كل عظم **ذكر اسم الله عليه يعود أوفر ماكان من اللحم**» وأيضاً «**كل روث ذكر اسم الله عليه يعود أوفر ما كان من العلف للبهائم**»(6) فسألوه الزاد لهم وللبهائم

---

(1) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأشربة (13/207 - النووى) عن أنس به
وأنظر «رياض الصالحين». (609 - بتخريجنا).

(2) تيسير العزيز الحميد (3) القول المفيد 1/237. (4) القول المفيد 1/237/238.

(5) [صحيح] أخرجه البخارى (156) عن ابن مسعود به.
وانظر «السلسبيل» (65 - بتخريجنا).

(6) [صحيح] أخرجه مسلم فى الطهارة (4/169 - النووى) عن ابن مسعود به.
وانظر كتاب «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (797).

فدليل على أنه عندهم بهائم أيضاً» وقد يأكلوا من علفنا والجن يأكل أكلنا وحديث أبى هريرة يدل على ذلك أن بعض الجن سرق تمر الصدقة.[1] فهو وإن اجزأ الاستنجاء بالعظم لكنه يأثم لأنه مفسد.

● **مسألة: ما العلاقة بين عقد اللحية وتقلد الأوتار والاستنجاء بالرجيع والعظم؟**

الجواب: تحتمل الثلاثة أن تكون لها علاقة بالجن أو علاقة بالتمائم.

أما علاقتهم بالجن: ذكر أبو زرعة ابن العراقى أنه حمل النهى على عقد اللحية فى الصلاة وقال: أنه جاء فى الصحيح النهى عن كفت الشعر فى الصلاة [2]وهذا مؤدى قوله كما تقدم.

وجاء فى حديث آخر أن علة النهى عن كفت الشعر أن ذلك مكان للشيطان أوكفت لحيته فهى مكان للشيطان فهذا علاقة الجن بالعقد»

وعلاقة الجن بالقلادة أن النبى ﷺ قال: «**إن الملائكة لاتصحب ركباً فيه جرس**» (٣)

والجرس المنهى عنه ربما كان تميمة وهو فى حديث ابن عمر المعروف. فإن لم تصحبه الملائكة تصحبه الشياطين. فالقاسم المشترك بين عقد اللحية وتقلد الوتر هو الشياطين وأنها أسباب تجلب الشياطين.

الثالث: الاستنجاء بالرجيع والعظم كيف تجلب الشيطان؟

ربما لأنك أفسدت طعامه فربما يؤذيك أو يكون له سلطان عليك لأنك متعد عليه فهو قد يؤذى المتعدى الظالم فلقطع هذا السلطان نهى عن الاستنجاء بطعامه.

علاقة الثلاثة بالتمائم: «تقلد الوتر، عقد اللحية، الاستنجاء برجيع الدابة»

أنهم قد يفعلوا هذا التعقيد تفاؤلاً أو يظن ذلك كما يظن أن القلادة من الوتر قد تجلب النصر أو تدفع العين فقد يظن أن تعقيد اللحية بهذه الطريقة تدفع الضرأو تدفع الهزيمة. وهو ليس بسبب لأسباب النصر كما تفاءلوا بذات أنواط.

فربما كان النهى عن عقد اللحية لذات السبب، ولذات السبب نهى عن القلادة.

فما علاقة الرجيع والعظم»؟ أرى العلاقة بينهما وبين التمائم واضحة الآن من حيث أن الجميع اتخذوا أسباباً تدفع الضر أو تجلب نفع.

والعلاقة بين هذه الثلاثة وقوله «**لعل الحياة ستطول بك من بعدى**» لأن هذه الثلاثة من أوليات الأمور التى ستنسى بعد موت النبى فأخبر بها رويفع أن يخبر بها الناس.

---

(١) علقه البخارى (٥٠١٠) عن أبى هريرة به.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٨٠٩)، ومسلم فى الصلاة (٤/٢٠٦) عن ابن عباس به وأنظر «السلبيل» (٣٢٤ - بتخريجنا)

(٣) تقدم تخريجه.

قوله : «من استنجى برجيع دابة، أو عظم، فإن محمداً برىء منه».

قال سليمان آل الشيخ (١):

قال النووى : أى برىء من فعله وقال بهذه الصيغة ليكون أبلغ فى الزجر.

قلت : ـ سليمان آل الشيخ ـ: فيه النهى عن الاستنجاء برجيع الدواب والعظام، وقد ورد فى ذلك أحاديث، منها ما فى «صحيح مسلم».

عن ابن مسعود مرفوعاً «**فلاتستنجوا بالروث ولابالعظام، فإنه زاد إخوانكم من الجن**»(٢) وعلى هذا فلا يجزأ الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد، وأختار شيخ الإسلام وجماعة الإجزاء وإن كان محرماً. قالوا لأنه لم ينه عنه لكونهما لاينقيان، بل لإفسادهما.

قلت ـ سليمان آل الشيخ ـ الأول أولى.

لما رواه ابن خزيمة والدارقطنى من طريق الحسن بن الفرات، عن أبيه عن أبى حازم الأشجعى، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ نهى أن يستنجى بعظم أو روث وقال: «**إنهما لايطهران**» (٣) وهذا إسناد جيد.

[قلت]: بل ضعيف بهذا اللفظ.

وأيضاً : عندما جاء عبدالله بن مسعود بحجرين وروثة للنبى ﷺ ليستنجى بهم أخذ الحجرين وألقى الروثة وقال «**إنها روثة إنها ركس**»(٤).

قال ابن عثيمين.

الاستنجاء :مأخوذ من النجو،وهو إزالة أثر الخارج من السبيلين؛ لأن الإنسان الذى يتمسح بعد الخلاء يزيل أثره.

ورجيع الدابة: هوروثها.

قوله «**أو عظم**»

العظم المعروف: وإنما تبرأ النبى ﷺ ممن إستنجى بهما؛ لأن الروث علف بهائم الجن والعظم طعامهم، يجذونه أوفر مايكون لحماً.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١٢٥).

(٢) تقدم تخريجه

(٣) [صحيح] أخرجه ابن خزيمة فى «صحيحه» (٨٠) بلفظ مختلف والدار قطنى فى «سننه» (١/٥٦). وانظر «السلسبيل» (٦٤ - بتخريجنا).

(٤) تقدم تخريجه.

وَعَنْ سَعِيد بن جُبير؛ قَالَ:

«مَنْ قَطعَ تَمِيمةً مِنْ إنْسَان؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَة» رَوَاهُ وَكِيعُ

[وله عن إبراهيم قال: «كانوا يكرهون التهائم كلها من القرآن وغير القرآن].

وكل ذنب قرن بالبراء من فاعله؛ فهو من كبائر الذنوب، كما هو معروف عند أهل العلم.

الشاهد من هذا الحديث قوله: «**من تقلد وتراً**».



قوله : [وعن سعيد بن جبير قال....]

قال سليمان آل الشيخ (١).

هذا عند أهل العلم له حكم الرفع، لأن مثل ذلك لايقال بالرأى فيكون على هذا مرسل، لأن سعيداً تابعى، وفيه فضل قطع التمائم لأنها من الشرك. ووكيع هو ابن الجراح بن وكيع الكوفى، ثقة إمام، صاحب تصانيف منها «الجامع» وغيره. روى عنه الإمام أحمد وطبقته. مات سنة سبع وتسعين ومائة.

قال ابن عثيمين (٢).

قوله : وعن سعيد بن جبير؛ قال « من قطع تميمة...» الحديث.

وجه المشابهة بين قطع التميمة وعتق الرقبة: أنه إذا قطع التميمة من إنسان؛ فكأن أعتقه من الشرك، ففكه من النار، ولكن يقطعها بالتى هى أحسن؛ لأن العنف يؤدى إلى المشاحنة والشقاق، إلا إن كان ذا شأن؛ كالأمير، والقاضى، ونحوه ممن له سلطة؛ فله أن يقطعها مباشرة. أهـ

قال سليمان آل الشيخ قوله [قوله عن إبراهيم قال:] (٣).

إبراهيم: هو إبراهيم بن يزيد النخعى الكوفى يكنى أبا عمران، ثقة إمام، من كبار فقهاء الكوفة. قال المزنى: دخل على عائشة ولم يثبت له سماع منها، مات سنة ست وتسعين وله خمسون سنة ونحوها.

(**قوله : كانوا يكرهون التمائم إلى آخره.**) مراده بذلك أصحاب عبدالله بن مسعود كعلقمة والأسود وأبى وائل والحارث بن سويد وعبيدة السلمانى. ومسروق والربيع بن خثيم وسويد بن غفلة وغيرهم من أصحاب ابن مسعود وهم من سادات التابعين، وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم فى حكاية أقوالهم كما بين ذلك الحفاظ كالعراقى وغيره.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ١٢٦، وانظر فتح المجيد (١/ ١٦٢).

(٢) القول المفيد ١/ ٢٣٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٢٦) «وفتح المجيد» (١/ ١٦٢).

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ.

الثانية: تَفْسِيرُ التِّوَلَةِ.

الثالثة: أَنَّ هذِهِ الثَّلاثَةَ كُلَّهَا مِنَ الشِّرْكِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ.

قال ابن عثيمين.

قوله «كانوا»

الضمير يعود إلى أصحاب ابن مسعود؛ لأنهم هم قرناء إبراهيم .

قوله :«التمائم».

هى مايعلق على المريض أو الصحيح، سواء من القرآن أو غيرها للاستشفاء أو لاتقاء العين، أو ما يعلق على الحيوانات.

وفى هذا الوقت أصبح تعليق القرآن لا للاستشفاء، بل لمجرد التبرك والزينة؛ كالقلائد الذهبية، أو الحلى التى يكتب عليها لفظ الجلالة، أو آية الكرسى ، أو القرآن كاملاً؛ فهذا كله من البدع.

فالقرآن ما نزل ليستشفى به على هذا الوجه، إنما يستشفى به على ما جاء به الشرع. أهـ. وتقدم الكلام على هذا مستوفى والحمد لله.



قال ابن عثيمين:

قوله: الأولى : تفسير الرقى والتمائم.

وقد سبق ذلك.

الثانية : تفسير التولة.

وقد سبق ذلك.

وعندى أن منها مايسمى بالدبلة إن اعتقدوا أنها صلة بين المرء وزوجته.

الثالثة : أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء.

الرابعة: أَنَّ الرُّقْيَةَ بالكَلَامِ الحَقِّ مِنَ العَيْنِ وَالحُمَةِ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ التَّمِيمَةَ إِذَا كَانَتْ مِنَ القرآنِ؛ فَقَدِ اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ؛ هَلْ هِيَ مِنْ ذَلِكَ أَمْ لا؟

السادسة: أَنَّ تَعْلِيقَ الأَوْتَارِ عَلَى الدَّوابِّ عَنِ العَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.

ظاهر كلامه حتى الرقى، وهذا فيه نظر؛ لأن الرقى ثبت عن النبي ﷺ أنه يرقى ويرقى [1]، ولكنه لايسترقي؛ أي: لايطلب الرقية؛ فإطلاقها بالنسبة للرقى فيه نظر؛ وقد سبق للمؤلف رحمه الله أن الدليل خص منها ما خلا من الشرك، وبالنسبة للتمائم؛ فعلى رأى الجمهور فيه نظر أيضاً.

وأما على رأى ابن مسعود؛ فصحيح، وبالنسبة للتولة؛ فهى شرك بدون استثناء.

[قلت]: ولعل المصنف لم يستثنى الثلاثة من الشرك لظاهر الأثر الذى أورده مرفوعاً فقد أطلق ﷺ على الثلاثة الحكم بالشرك ولا يرد على هذا الحديث بالذات التفصيل الذى فهم من الأحاديث الأخرى لأن الرقى فى هذا الحديث وكذلك التمائم محمولة على شركية لا الغير شركية لظاهر النص ولاقترانها بالتولة الشركية قولة واحدة والله أعلم.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين أو الحمة ليس من ذلك.

قوله «الكلام الحق».

ضده الباطل، وكذا المجهول الذى لايعلم أنه حق أو باطل.

والمؤلف رحمه الله تعالى خصص العين أوالحمة فقط استناداً لقول الرسول ﷺ **«لا رقية إلا من عين أو حمة»** [2] ولكن الصحيح أنه يشمل غيرهما؛ كالسحر.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن؛ فقد اختلف العلماء: هل هى من ذلك أم لا؟

قوله «ذلك» المشار إليه: التمائم المحرمة

[قلت]: والمعنى إذا كانت التى بالقرآن مختلف الظن فيها فما الظن بغيرها؟!

وقد سبق بيان هذا الخلاف والأحوط مذهب ابن مسعود؛ لأن الأصل عدم المشروعية حتى يتبين ذلك من السنة.

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب على العين من ذلك.

---

(١) القول المفيد ١/ ٢٤٠، ٢٤٤ (٢) تقدم تخريجه

السابعة: الوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنْ تَعَلَّقَ وَتَراً.

الثامنة: فَضْلُ ثَوَابِ مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ.

أى: من الشرك

* (تنبيه) :

ظهر فـى الأسواق فى الآونة الأخـيرة حلقـة من النحـاس يقولون: إنـها تنفـع من الروماتيزم، يزعمـون أن الإنسان إذا وضعها على عضده وفيه روماتيـزم نفعته من هذا الروماتيزم، ولاندرى هل هذا صحيح أم لا؟ لكـن الأصل أنه ليس بصحيح؛ لأنه ليس عندنا دليل شرعى ولاحسى يدل على ذلك، وهى لاتؤثر على الجسم؛ فليس فيها مادة دهنية حـتى نقول: إن الجسم يشـرب هذه المادة وينتفع بـها؛ فالأصل أنها ممنـوعة حتى يثبت لنا بدليل صحيح صريح واضح أن لها اتصالاً مباشراً بهذا الروماتيزم حتى ينتفع بها.

السابعة : الوعيد الشديد على من علق وتراً.

وذلك لبراءة الرسول ﷺ ممـن تعلق وتراً، بل ظاهره أنه كفر مـخرج من الملة، قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ورسوله﴾(١)، ولكن قال اهل العلم: إن البراءة هنا براءة من هذا الفعل ؛ كقوله ﷺ **«من غشنا فليس منا»**(٢).

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

لقول سعيد بن جبير«كان كعدل رقـبة»، ولكن هل قوله حجة أم لا؟ إن قيل : ليس بحجة؛ فكيف يقول المؤلف : فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان؟!

فيقال : إنه إنما كـان كذلك؛ لأنه إنقاذ له من رق الشرك؛ فهو كـمن أعتقه، بل أبلغ.

فهو من باب الـقياس، فمن أنقذ نفسـاً من الشرك؛ فهو كمن أنقـذها من الرق لأنه أنقذه من رق الشيطان والهوى.

---

(١)سورة التوبة: ٣٠

(٢) [صحيح] أخرجه: مسلم فى الإيمان (١/ ٣٨٥/ ١٦٤) عن أبى هريرة به.

التَّاسِعَة: أَنَّ كَلَامَ إِبْرَاهِيمَ لاَ يُخَالِفُ مَا تَقدَّمَ مِنَ الاخْتِلَافِ؛ لأَنَّ مُرَادَهُ أَصْحَابُ عَبْدِ الله بن مسعود.

[قلت]: بل مثل هذا لايقال من قبل الرأى والقياس بل لابد له من توقيف

***فائدة:**

إذا قال التابعى: من السنة كذا؛ فهل يعتبر موقوفاً متصلا ويكون المراد من السنة أى سنة الصحابة، أو يكون مرفوعاً مرسلاً؟

اختلف أهل العلم فى هذا؛ فبعضهم قال: إنه يكون موقوفاً.

وبعضهم قال: يكون مرفوعاً مرسلاً.

وتقدم لنا أنه ينبغى أن يفصل فى هذا، وأن التابعى إذا قاله محتجاً به؛ فإنه يكون مرفوعاً مرسلاً، أماإذا قاله فى سياق غير الاحتجاج؛ فهذا قد يقال: إنه من باب الموقوف الذى ينسب إلى الصحابى.

[قلت]: والأول حمل هذا الاثر كما تقدم على الرفع لأنه لايقال هذا الكلام من قبيل الرأى بل لابد له من موقف وإن لم يذكره.

التاسعة: أن كلام إبراهيم النخعى لايخالف ماتقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبدالله بن مسعود.

وليس مراده الصحابة، ولاالتابعين عموماً اهـ.



٨ بابٌ من تبرّك بشجرٍ أو حجرٍ ونحوهما

* تنبيه: نظر لطول الباب وضعنا له ترتيباً يبين ما فيه، ليسهل فهمه، وجمع فوائده:

(١) شرح التبويب

٢ـ معنى البركة لغة واصطلاحاً.

٣ـ بركة موهومة.

٤ـ كيفية معرفة البركة الباطلة والصحيحة.

٥ـ قوله (شجر).

٦ـ قوله (ونحوهما).

٧ـ مقدمات بين يدى الباب

(١) البركة من الله فلاتطلب إلا منه وأدلة ذلك

(٢) لاتثبت إلا بدليل شرعى لأن الأصل النفى، وهى توقيفية

(٣) كل ما جاز التبرك به [من الأعيان والأقوال والأفعال والأزمان وغيره كما سيأتى] بطريق الشرع فإنما هى سبب للبركة، وليست هى واهبة البركة.

(٤) أن التبرك بالأشياء يكون غالباً بما كان سبب البركة فيه ليس من الأسباب المعهودة للناس.

(٥) التماس البركة لابد لها من دليل شرعى.

٨ـ تقسيم التبرك لمشروع وغير مشروع

أولاً المشروع:

(١) ذات النبى ﷺ

(٢) بالأقوال والأفعال

(أ) بالأقوال كقراءة سورة البقرة

(ب) بالأفعال ـ الاجتماع للطعام. . الأكل من أطراف الصحفة. .

(٣) التبرك بالأمكنة ـ كالمسجد ومكة والمدينة ووادى العقيق.

(٤) التبرك بالأزمنة

(٥) التبرك بالمطعومات

ثانيا الممنوع:

(١) الأمكنة والجمادات

(٢) الأزمنة

(٣) شبهتان والجواب عليهما

٩ـ الشروع فى شروح آيات الباب وحديث الباب.

● ● ●

٨ بابٌ من تبرك بشجرٍ أو حجرٍ ونحوهما

● **شرح التوبيب:**

قال سليمان آل الشيخ(١) كبقعة وغار وعين وقبر ونحو ذلك مما يعتقد كثير من عباد القبور وأشباههم فيه البركة فيقصدونه رجاء البركة، ويعنى بقوله: تبرك، أى طلب البركة ورجاها واعتقدها أى: ما حكمه هل هو شرك أم لا؟. اهـ.

وقال حامد بن محمد(٢) : باب فى بيان أن من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما من بنية أو حجارة أو قبر أو موطىء أو أثر وما أشبه ذلك أشرك وكفر بالكتاب والسنة. اهـ.

قال ناصر السعدى:(٣) أى فإن ذلك من الشرك، ومن أعمال المشركين، فإن العلماء اتفقوا على أنه لايشرع التبرك بشىء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد وغيرها.

فإن هذا التبرك غلو فيها وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها، وهذا هو الشرك الأكبر كما تقدم إنطباق الحد عليه، وهذا عام فى كل شىء حتى مقام إبراهيم وحجرة النبى ﷺ وصخرة بيت المقدس وغيرها من البقع الفاضلة.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليمانى من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله وتعظيم لله وخضوع لعظمته فهو روح التعبد.

فهذا تعظيم للخالق وتعبد له، وذاك تعظيم للمخلوق وتأله له فالفرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذى هو إخلاص وتوحيد، والدعاء للمخلوق الذى هو شرك وتنديد. اهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ(٤) : قوله (باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما) أى فهو مشرك اهـ.

وقال ابن باز(٥): ترك الحكم ليأخذه الطالب مما ذكره من النصوص ، والحكم هو أنه قد أشرك لما سيذكره المؤلف. اهـ.

---

(١) تيسير العزيزالحميد (١٢٦)
(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢١٣)
(٣) القول السديد ٣٩، ٤١
(٤) فتح المجيد (١/ ١٦٤)
(٥) التعليق المفيد (٧٥)

● **أولاً: معنى البركة فى اللغة وكما جاءت فى القرآن:**

قال فى اللسان[1]: وقال الليث فى تفسير «تبارك الله»: تمجيد وتعظيم، وتبارك بالشيء تفاءل به، وتبركت به أى تيمنت به.

قال الراغب: البركة ثبوت الخير الإلهى فى الشيء.

لذلك قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾[2].

وسميت الحياض بركة لثبوت الماء فيها واستقراره فيها، فكأن البركة أيضاً من الثبوت وإن كانت هى من ثبوت الخير الإلهى فى الشيء، وبركة جمعها بِرَك.

ولما كان الخير الإلهى تبينت فى الأشياء بطريقة لاتحس ولاتحصر ولاتحصى سُمى الذى يرى فيه هذه الزيادة وهذا الخبر سُمِىّ مبارك لأنه ثبت فيه الخير الإلهى بطريقة لاتحس ولاتحصر ولاتحصى، قيل لكل من يشاهد منه زيادة غير محسوسة؛ هو مبارك وفيه بركة[3].

وقال ابن القيم رحمه الله فى شرحه لقوله ﷺ: **«اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»**:

البركة حقيقتها الثبوت واللزوم والإستقرار، فمنه برك البعير إذا استقر فى المكان أو على الأرض ومنه المبرك المكان الذى برك فيه البعير، وقال «صاحب الصحاح»: وكل شيء ثبت وأقام فقد برك، والبرك الإبل الكثيرة، والبِركة هى الحوض والجمع برك ذكرة الجوهرى وسميت بذلك لإقامة الماء فيها.

والبركة النماء والزيادة، والتبرك الذى بالنماء والزيادة تقول **«بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما فى خير»**[4] اتعنى زادكم الله من خيره ونمى لكم الخير وجمع بينكما فى خير زائد وفى خير ينمى.

---

(١) اللسان ١٠/٣٩٦.

(٢) الأعراف: ٩٦.

(٣) كتاب الشرك ومظاهره ص٩٩.

(٤) أخرجه أبو داود (٢١٣٠)، الترمذى (١٠٩١)، وابن ماجه (١٩٠٥) عن أبى هريرة به. وهو عند البخارى (٥٣٦٧) بلفظ: بارك الله عليك عن جابر وفى الصحيحين: «بارك عليك» عن أنس.

وانظر «الأذكار للنووى (٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠ - بتخريجنا) وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

لذلك جاء فى الحديث الرجل الذى حسد صاحبه من الصحابة رضى الله عنه فقال ﷺ علام يقتل أحدكم أخاه؟ وذلك حينما رأى الصحابى جلد أخيه فقال لم أر كاليوم جلد مخبأة فقال ﷺ: **«على ما يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه مايعجبه فليدع له بالبركة»** ـ وفى رواية ـ **«فليبرّك»**(١).

أى يدعو بالبركة وزيادة هذه البركة لأخيه.

ويقال بارك فيه وبارك عليه وبارك له.

وفى القرآن الكريم ﴿**بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾، وفيه ﴿**وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ**﴾ وفيه أيضا ﴿**الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾، وفيه ﴿**بَارَكْنَا فِيهَا**﴾، وفى الحديث **«وبارك لى فيما أعطيت»**(٢) وفى حديث سعد الأنصارى الذى آخى النبى ﷺ وبينه وبين عبدالرحمن ابن عوف، فقال له إنى أكثر الأنصار مالا أقسم مالى بينى وبينك وانظر إلى أى نسائى شئت أطلقها لك، فقال له **«بارك الله لك فى أهلك ومالك»**(٣) يعنى دعاء بالبركة فى الأهل والمال والمبارك الذى قد باركه الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى على لسان المسيح ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾ وأيضا قال ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ**﴾ وأيضاً هو أحق أن يسمى مباركاً من كلِّ شيء وهو القرآن لكثرة خيره ولكثرة منافعه، ووجوه البركة فيه كثيرة.

والرب تعالى يقال فى حقه «تبارك» ولايقال «مبارك» لأن الرب لايكون مبارك؛ لأن المبارك يستلزم من يبارك فيه أو عليه، فهو ناقص ويحتاج إلى من يُكَمِّله والله عزوجل منزه عن صفات النقص، موصوف بكل كمال، له صفات الكمال وله الكمال فى الصفات كما هو معلوم من دين الله بالضرورة.

قال ابن عثيمين(٤):

قوله: «تبرّك».

تَفعَّل من البركة، والبركة: هى كثرة الخير وثبوته، وهى مأخوذة من البِركة بالكسر، والبِركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرى الماء بأمرين:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/١٩٩)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذى (٤٦٤)، والنسائى فى «الكبرى» (١٤٤٢)، وابن ماجه (١١٧٨) عن الحسن بن على.
وانظر «السلسبيل» (٤٩٨ ـ بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٩٣٧) عن عبد الرحمن بن عوف به.

(٤) القول المفيد ١/٢٤٥ ـ ٢٥٢

١ـ الكثرة.

٢ـ الثبوت.

والتبرك: طلب البركة، وطلب البركة لايخلو من أمرين:

١ـ أن يكون التبرك بأمر شرعى معلوم؛ مثل القرآن، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾[1].

فمن بركته أنَّ من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أمماً كثيرة من الشرك.

ومن بركته أنَّ الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفّر للإنسان الوقت والجهد.

... إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

٢ـ أن يكون بأمر حسى معلوم؛ مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه؛ فهذا الرجل يتبرك بعلمه ودعوته إلى الخير؛ فيكون هذا بركة لأنَّنا نلنا منه خيرا كثيراً.

● **البركة الباطلة الموهومة**

قال ابن عثيمين[2]: وهناك بركات موهومة باطلة؛ مثل ما يزعمه الدَّجَّالون: أنَّ فلاناً الميت الذى يزعمون أنَّه ولىّ أنزل عليكم من بركته وما أشبه ذلك؛ فهذه بركة باطلة، لا أثر لها، وقد يكون للشيطان أثر فى هذا الأمر، لكنها لاتعدو أن تكون آثاراً حسيّة، بحيث إنَّ الشيطان يخدم هذا الشيخ؛ فيكون فى ذلك فتنة.

وقال أسيد بن حضير: «ما هذه بأول بركتكم يا آل أبى بكر»[3]؛ فإنَّ الله يجرى على بعض الناس من أمور الخير مالا يجريه على يد الآخر.

● **كيفية معرفة البركة الباطلة من الصحيحة**

قال ابن عثيمين: أما كيفية معرفة هل هذه من البركات الباطلة أو الصحيحة؛ فيعرف ذلك بحال الشخص، فإن كان من أولياء الله المتقين المتبعين للسنة المبتعدين عن البدعة؛ فإنَّ الله قد يجعل على يديه من الخير والبركة مالايحصل لغيره.

ومن ذلك ما جعل الله على يد شيخ الإسلام ابن تيمية من البركة التى انتفع بها الناس فى حياته وبعد موته.

---

(١) ص: ٢٩.
(٢) القول المفيد (١/ ٢٤٥ ـ ٢٥٢)
(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٣٤)، ومسلم فى التميم (٢/ ٢٩٢/ ١٠٨).
عن عائشة به وانظر «منار السبيل» ـ بتخريجنا ـ.
وانظر «تقريب الأسانيد» بتخريجنا.

أما إن كان مخالفاً للكتاب والسنة، أو يدعو إلى باطل؛ فإنَّ بركته موهومة، وقد تضعها الشياطين له مساعدة على باطله، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أنه يقف مع الناس في عرفة ثم يأتي إلى بلده ويضحي مع أهل بلده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنَّ الشياطين تحملهم لكي يغتر بهم الناس، وهؤلاء وقع منهم مخالفات، منها: عدم إتمام الحج، ومنها أنهم يمرّون بالميقات ولايُحرمون منه.

قوله: «شجر».

اسم جنس؛ فيشمل أي شجرة تكون، ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه لمّا رأى الناس يتتابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعةالرضوان أمر بقطعها.

قوله: «وحجر».

اسم جنس يشمل أي حجر كان حتى الصخرة التي في بيت المقدس؛ فلايتبرك بها، وكذا الحجر الأسود لايتبرك به، وإنّما يتعبد لله بمسحه وتقبيله؛ اتّباعاً للرسول ﷺ، وبذلك تحصل بركة الثواب.

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «**إنّي لأعلم أنّك حجر لاتضر ولاتنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يُقبّلك؛ ما قبلتك**»(١).

فتقبيله عبادة محضة خلافاً للعامة، يظنون أنّ به بركة حسيّة، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبرُّكاً بذلك.

قوله: «ونحوهما».

أي: من البيوت، والقباب، والحجر؛ حتى حجرة قبر النبي ﷺ؛ فلا يتمسح بها تبركاً، لكن لو مسح الحديد لينظر هل هو أملس أو لا؛ فلا بأس، إلاّ إن خشي أن يُقتدى به؛ فلا يمسحه: اهـ.



(١) تقدم تخريجه

* تنبيه :

لابد من وضع مقدمات قبل الشروع فى هذا الباب:ـ

● **المقدمة الأولى: الدليل من القرآن على أن البركة من الله فلاتطلب إلا منه**

ورد فى القرآن فى غير موضع منه إثبات أن البركة من الله وأن من صفاته أنه تبارك وتبارك قيل هـى بمعنى بارك وقيل هى فعل تـبارك وتعالى، والفعل منهـا بارك ويتعدى بنفـسه تارة وبأداة عـلى تارة . إلى آخـره، والتى تضـاف إليه تضـاف كإضافة الـرحمة والعِزّة، لاتليـق إلا به ولاتختص إلا به ولاتـقال إلا له، لذلك لاتقال هذه الـكلمة فى القرآن إلا لله، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[3]، ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4]، «تباركت ربنـا وتعاليت»، ودائماً يقـرن الله عزوجل بين تبـارك وتعالى وهذا دليل على أن تبارك أيـضاً وصفاً له، كما أن تعالى وصفاً له، فتـناهى فى العلو، وهو تبارك تـناهى فى التقـديس والتمجيـد والتعظيم،والألـيق المعنى الثـانى لأن تبارك وتعالى لاتدل بوجه مـن الوجوه على أنه يفعل ذلك بغيـره، إنما تدل على أن هذا الأمر صفة قائمة به سبحانه وتعالى ولايدل فعله بـغيره على المعنى المطابق لتبارك وتعالى، بل هو لازم من كونها صفة ملازمة به أن تتعدى لغيره[5].

وقال تعالى: ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾. فالبركة منه وإن طلبت من غيره تكون شركاً.

* نستفـيد من هذا أن البركة من الله، ولاتـطلب إلا منه، وإذا طلبت مـن غيره كان شرك ولايقال عن الله (مبارك)، ولكن (تبارك الله) قيـل هى بمعنى (بارك)، وقيل البركة هى فعل (تبـارك وتعالى)،والفعل منهـا (بارك) والفعل منها (تبـارك). وتقدم شىء من ذلك.

وعلى هذا فمن قال أنـا أريد البركة من الشيخ فلان مع عدم ثبوت الـبركة فى الشيخ فلان فهذا شرك. شرك أصغر

---

(١) الأعراف: ٥٤. (٢) المؤمنون: ١٤.

(٣) الفرقان: ١.

(٤) الزخرف: ٨٥.

(٥) جلاء الأفهام. (١٧٨، ١٧٩)

وإن اعتقد أن البركة التى فى الشيخ فلان كـالبركة التى من عند الله فهذا شرك أكبر لأن هذا يدخل فى شرك الأسباب.

● **شرك الأسباب: ماهو ومتى يكون أكبر ومتى يكون أصغر؟**

يكون شرك أصغر إذا أتـخذ سبباً غير شرعى أو قدرى مع سـلامة الإعتقاد، أى مع عدم إعتقاده أنه ينفـع ويضر كنفع الله ويكون أكبر إذا اعتقد أنه يـنفع أو يضر كنفع الله أو كدفعه.

فمسألـة التبرك داخله فـى شرك الأسباب فإنه قـد يتخذ سببـاً للبركة لايكـون بنص ولابتجربة قدرية أثبتت البركة فى هذا الشىء فـكونه يلتمس منه البركة فهذا شرك أصغر وإن اعتقد أن منه البركة كما أنها من الله فهذا شرك أكبر.

● **الدليل من السنة على أن «البركة» من الله فلاتطلب إلا منه**

ـ ما بينت فـى الصحيح من حديث ابـن مسعود رضى الله عنه قال «كـنا نعد الآيات على عهد رســول الله ﷺ بركة وأنتم تعدونهـا تخويفاً كنا مع رســول الله ﷺ فى سفر فقل الماء فدعا الرسول بفضلة من ماء فوضع أصـبعه أو يده فيها وبرّك فيها، فجعل الماء يخرج من بين أصـابعهم فقال ﷺ **«حيّ على الـطهور المبارك والبـركة من الله»** قال ابن مسعود فمـا جعلت همى إلا ما يدخل فى بـطن من الماء من بعدما سمـعت من الرسول ﷺ **«حيّ على الطهور المبارك»**(١).

قوله: **«الطهور المبارك، والبركة من الله»** فنص على أن البركة لـيست منه فهى من الله وهو سبب من أسبابها.

وفى الحديث قوله **الخير كله فى يديك»**(٢) فمن معانى البركـة: ثبوت الخير الإلهى فى الشىء. فالبركة هى ثبوت الخير لذلك قال بعد ذلك تباركت وتعاليت يعنى تناهيت فى العلو والتمجيد والتقديس والتعظيم.

وقوله أيضًا فى دعاء الاستـفتاح في صلاة الليل: **«والخيركله فى يـديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت**(٣).

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٧٩).

وانظر تخريجنا «نظم السلسلة تحقيق كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة».

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين(٣/ ٣٠٩/ ح٧٧١) عن علي به.

وانظر «الأذكار للنووي» بتخريجنا.

(٣) تقدم قبله.

● **فائدة:**

فقوله: **«والشر ليس إليك»** فيه أنه لاينبغى نسبة الشر لله تأدباً مع الله، وهو خالق كل شيء سبحانه «الخيروالشر» ولكن لاينسب الشر إليه أبداً، ولهذا المعنى شواهد كثيرة، كقوله تعالى: **﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾** فهو سبحانه الذى يطعم ويسقى، ويمرض أيضاً، ولكن تأدباً مع الخالق عزوجل لاينسب المرض إليه، فهو منه وليس إليه.

وأيضاً كقوله تعالى حكاية عن أيوب عليه السلام: **﴿أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾** فنسب الشر إلى الشيطان. وقال: **﴿أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** ولم ينسب ذلك الضر إلى الله وسيأتي مزيد شرح وبيان لهذا.

● **المقدمة الثانية: البركة لاتثبت فى شيء إلا بدليل شرعى لأن الأصل النفى أو لأنها عبادة من العبادات فهى توقيفية.**

لأن البركة خير الإله الذى لايحس ولايحصى ولايحصر فلاسبيل لك إليه إلا بتوقيف.

قال عمر: «والله إنى أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»[1].

وقال ﷺ **«لاتجعلوا قبرى عيداً وصلوا على أينما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى»**[1] فى «المسند» وعند أبى داود.

يعنى لاتلتمسوا البركة عند قبرى وتصلوا علىّ رجاء الإستجابة عند قبرى فليس فيه بركة فأى مكان كنتم فيه تبلغنى صلاتكم. إذًا فمسألة البركة من الله لابد من طلبها منه وهو أمر توقيفى لابد له من دليل.

● **المقدمة الثالثة: أن ما يتبرك به من الأعيان والأقوال والأفعال والأزمان التى ثبتت فيها البركة بطريق الشرع إنما هى سبب للبركة وليست هى واهبة لها**[3].

كما أمسك الحكمة فى النار وهى الإحراق فصارت بردًا وسلامًا على إبراهيم وحكمة الذبح فى السكين فصارت لاتقطع فى إسماعيل، والإغراق مع موسى عليه السلام إلى آخره.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سيأتي تخريجه في باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً

(٣) وسيأتى لها صور فى المقدمة السادسة فى (التبرك المشروع).

وقال ﷺ: «**إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا من السام: قلت وما السام قال الموت؟!**»[1].

فهى سبب محض، إذا ثبتت الشروط وانتفت الموانع حصلت البركة، وإذا لم تتوافر الشروط أو وجدت الموانع يمسك الله الحكمة ولاتكون ثمة بركة.

● **المقدمة الرابعة: أن التبرك بالأشياء يكون غالباً بما كان سبباً البركة فيه ليس من الأسباب المعهودة للناس.**

فليس من المعهود مثلاً أن يُأكل من كيلو دقيق شهر، وهذا شىء غير معهود ولايحدث لكل أحد، فإذا رؤى أو شوهد فهو البركة.

وقال النبى ﷺ لأسماء **لاتوكى فيوكى عليك لاتحصى فيحصى عليك**[2].

وعائشة رضى الله عنها كان لها جراب وكان فيه دقيق فكانت تأخذ منه ولاينتهى، حتى أخذته وألقت به.

● **المقدمة الخامسة:[3] أن كيفية إلتماس البركة لابد لها من دليل شرعى - قاعدة - كيف ذلك؟**

مثال: ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال:

«أن النخلة شجرة مباركة» وقال: «شجرة مثل المؤمن لايسقط ورقها صيفاً ولاشتاءً.

أو «**إن من الشجر لما بركته كبركة المؤمن**»[4] حديث ابن عمر.

فالنخلة مباركة: ثبتت البركة فى النخلة بدليل شرعى، والبركة من الله، وهى سبب من الأسباب، حققنا كل الشروط إذاً.

كيف نأخذ البركة من الشجرة هل نتمسح فيها؟

الجواب: لا ولكن نتبع النص الذى بين أن البركة المقصودة من النخلة.

وهو أكل التمر وما يأكل منها كالجمار وهو ما يكون فى أعلى النخلة.

الجمار: طعمه قريب من الكمثرى ولونه أبيض.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم في السلام (١٤/ ٢٠١ - النووي) عن أبي هريرة بـه.

وانظر «الطب النووي» (١٦٩ - بتحقيقنا).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٤٣٣)، ومسلم في الزكاة (٧/ ١١٨ - النووي) عن أسماء به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٦٠ - بتخريجنا).

(٣) لم يذكره الدكتور على بن نفيع العليانى صاحب رسالة «التبرك المشروع والتبرك الممنوع».

(٤) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٢) عن ابن عمر به.

مثال آخر: ثبت في صحيح مسلم أن النبي قال أن سورة البقرة قراءتها بركة «**إن أخذها بركة وتركها حسرة ولايستطيعها البطلة**»(١) فكيف نلتمس البركة منها هل تمسك السورة ونقبلها؟ بل بقراءتها، وبسماعها حتى تخرج الشياطين ويمتلىء البيت بالملائكة فيدل الخير ويخرج الشؤم والشر.

● المقدمة السادسة أقسام التبرك

ينقسم التبرك إلى قسمين

مشروع **ممنوع**

أولاً: التبرك المشروع ومنه:

[**الأول**] التبرك بذات النبي ﷺ وأثاره وهو شيء نظرى في هذه الأوقات لأن النبي ﷺ مات وذاته ليست موجودة والأثار قد إندثرت ولاسبيل لنا إليها فلا نعول على هذا النوع وتقدم معنا أن النبي ﷺ نبع الماء من بين أصابعه وقال «**حي على الطهور المبارك**»(٢) فكان أحد أسباب البركة، والتمسها الصحابة في زمنه أما في زمننا فلا تعويل على ذلك، ولكن في زماننا لاسبيل لنا إليها.

[**الثاني**] التبرك المشروع بالأقوال والأفعال

التبرك المشروع بالأقوال والأفعال والأمكنة والأزمنة والطعام وما في حكمة

أولاً: التبرك المشروع بالأقوال

كل الأقوال الشرعية من ذكر تلاوة القرآن قال تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾(٣).

قراءة سورة البقرة «**إن قراءتها بركة**»(٤). في الحديث الصحيح

ثانيا: التبرك بالأفعال:

(١) سائر الأفعال المشروعة فيها بركة.

كما أن سائر الأفعال الممنوعة فيها شؤم كما قال تعالى: ﴿**طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم**﴾(٥).

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣/ ٣٤٩/ ٢٥٢) عن أبي أمامة به.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) البقرة: ١٥٢.

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) يس: ١٩.

وكذلك الأقوال لكن تخص منها ما فيه نص

والتبرك هو التيمن وعكس التيمن هو التشاؤم، والبركة هى الخير وعكسه الشؤم.

(٢) الاجتماع على الطعام لما روى عن رسول الله ﷺ قال: «**فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه**»(١).

ولحديث: «البركة فى ثلاث فى الثريد والجماعة والسحور(٢)، وأمره ﷺ بلعق الأصابع، حيث قال: «**إنكم لا تدرون فى أى طعامكم البركة**»(٣). ولحديث«**كيلوا الطعام يبارك لكم فيه**»(٤) وهو فى الصحيح، والكيلة فيها البركة لأنها ليس فيها إحصاء وعد، وفيها إجمال ولحديث: «**إن البركة فى وسط الطعام فكلوا من حافتيه، ولاتأكلوا من وسطه**»(٥).

[الثالث]: من التبرك المشروع: التبرك بالأمكنة

قال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾(٦).

وكالأماكن التى فيها نص كالمساجد فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها. وأبغض البلاد إلى الله تعالى أسواقها**»(٧).

---

(١) [إسناده ضعيف] ولكنه حسن لكثرة شواهده، ومن الشواهد: «إن الله يحب كثرة الأيدى فى الطعام» و«كلو جميعاً» أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ١٠٥)، وأبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦) عن وحشى به.

وانظر «رياض الصالحين» (٧٤٤ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٩/ ٢٥١/ ٣١٢٧) ، والبيهقى فى «الشعب» (٧٥٢٠) عن سلمان الفارسى به. قال الهيثمى فى «المجمع» : (فيه أبو عبد الله البصرى قال الذهبيّ: لا يعرف وبقية رجاله ثقات.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأشربة (١٣/ ٢٠٤ ـ النووي). عن كعب بن مالك به.

وانظر «رياض الصالحين» (٧٥١ ـ بتخريجنا).

(٤) أخرجه البخارى(٢١٢٨) عن المقدام به

(٥) [حسن] أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٢٧٠)، وأبو داود (٣٧٧٢)، والترمذى (١٨٠٥)، والنسائى فى «الكبرى» (٦٧٦٢)، وابن ماجه (٣٢٧٧) عن ابن عباس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٧٤٥ ـ بتخريجنا).

(٦) الإسراء: ١.

(٧) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساجد (٣/ ١٨٥/ ٢٨٨). عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٨٤٤ ـ بتخريجنا).

فالتبرك بالمساجد لايكون بالتمسح بترابها ولابجدرانها ونحو ذلك لأن التبرك عبادة، ويشترط فيها المتابعة والتماس البركة فى المساجد، إنما يكون بالإعتكاف فيها وانتظار الصلوات، وصلاة الجماعة، وحضور مجالس الذكر، ونحو ذلك، مما هو مشروع.

وكذلك جاءت الأحاديث فى البركة فى مكة وفى المدينة وفى الشام **«إنى أحرم ما بين لابتيها»**[1].

وفى المدينة «لايدخلها الطاعون» «ولايدخلها الدجال»[2].

وأيضا فى الشام «طوبى للشام، فقلنا لأى شىء ذاك قال **«لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها»**[3] وثبت فى الصحيح أن النبى قال فى وادى العقيق قال **«واد مبارك..»، «ونزل جبريل وأوحى إلىّ أن أنزل فيه فإنه وادى مبارك وقل حجة فى عمرة»**[4] وكذلك وادى وج.

والأماكن كثيرة وصفة التبرك منها ثابت بالشرع، فكيف نلتمس البركة منه؟

الجواب: عن طريق مايلى:

(١) فإن كان بيت المقدس فيشد الرحال إليه وكثرة الصلاة فيه.

(٢) وكذلك المسجد الحرام فبشد الرحال إليه وكثرة الصلاة فيه وبالفرار إليه عند الفتن التى لاتدخل فيها كفتنة الدجال.

(٣) وأيضاً الشام فهى حصن من حصون المسلمين فى زمان الفتن.

[رابعًا]: من التبرك المشروع التبرك بالأزمنة:

- ليلة القدر: وتلتمس بركتها بقيام ليلها وصيام نهارها، فذلك أبرك من ألف شهر قال تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾**[5].

وقال تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾**.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٠٨٤) عن أنس ومسلم فى الحج(٥/ ١٤٥/ ٤٥٦) عن رافع بن خديج به.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٨٨٠) ومسلم فى الحج(٥/ ١٦٤/ ٤٨٥) عن أبى هريرة به.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ١٨٤)، والترمذى (٣٩٥٤) عن زيد بن ثابت به.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١٥٣٤) عن ابن عباس به.

(٥) القدر: ١ ـ ٣..

ـ يوم الجمعة: قال ﷺ: **«خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه دخل الجنة، وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة»**(١).

وشهر رمضان، ويوم عرفة، والعشر الأوائل من ذى الحجة **«ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله قالوا ولا الجهاد......»**(٢) **«إن لله فى أيام دهره لنفحات ألا فتعرضوا لها»**(٣) أخرجه الطبرانى وابن أبى الدنيا **«وسلوا الله أن يستر عوراتكم وأن يؤمن روعاتكم»**(٤).

ـ وفى رواية **«فعسى أن تصيب أحدكم نفحة فلايشقى بعدها أبداً»**(٥).

ـ النفحة: هى البركة والتعرض لها والتماس البركة منها بالطرق المشروعة من حفاظ على العبادات والقربات.

[خامسًا]: **من التبرك المشروع التبرك بالأطعمة وما فى حكمه:**

كالزيت المستخرج من شجرة الزيتون لقوله تعالى: **﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾**(٦).

ولقوله ﷺ: **«كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة»**(٧).

ومن ذلك اللبن، والحبة السوداء، والعجوة، والكمأة، والعسل، وماء زمزم، والخيل، والغنم، والنخل.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٢/ ٦/ ١٤١ ـ النووي) عن أبى هريرة به.
وانظر «رياض الصالحين» (١١٤٩ ـ بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٩٦٩) عن ابن عباس به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٢٥٢ ـ بتخريجنا). انظر تخريجه فى كتابنا «فقه الخطابة وزاد الخطيب» خطبة شعبان.

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٢٨٥٦) عن محمد بن مسلمة به.
قال الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٢٣١) وفيه من لم أعرفهم ومن عرفتهم وثقوا.

(٤) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١/ ٢٥٠/ ٧٢٠) عن أنس به.
قال الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ٢٣١) رجاله رجال الصحيح غير عيسى بن موسى بن إياس بن الكبير وهو ثقة.

(٥) تقدم قبل حديث.

(٦) النور: ٣٥.

(٧) [إسناده مضطرب] أخرجه الترمذى (١٨٥)، وابن ماجه (٣٣١٩) عن ابن عمر به.
وانظر «الطب النبوي» للذهبى (٢٣١ ـ بتخريجنا) وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

واللبن أيضاً لما فى المسند من حديث عائشة: «كان ﷺ إذا آتى بلبن باللبن قال «**كم فى البيت من بركة «بركتين»**[1]. وعند ابن ماجه قال: (**بركة أو بركتان**)[2].

والحديث: «**من أطعمه الله طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه، وأرزقنا خير منه ـ إلا اللبن ـ ومن سقاه الله لبناً فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه**»[3].

وأيضاً ماء زمزم: لحديث «**إنها مباركة**»[4] والماء عامة: ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا**﴾.

● **القسم الثانى: التبرك الممنوع**

التبرك الممنوع: إما بالأمكنة أو الجمادات أو الأزمنة أو بذوات الصالحين وأثارهم

نذكر هنا بالفوائد السابقة فى أول الباب قبل الشروع فى بيان التبرك الممنوع وهى بإختصار:

أولاً: أن البركة من الله فلاتطلب إلا منه.

ثانيا: البركة لاتثبت فى شيء إلا بدليل شرعى لأن البركة عبادة وهى توقيفية.

ثالثاً: أن ما يتبرك به من الأعيان والأقوال وأفعال الأزمان التى ثبتت فيها البركة بطريقة الشرع إنما هى سبب للبركة وليس هى واهبة لها.

رابعاً: أن التبرك بالأشياء يكون غالباً بما كان سبب البركة فيه ليس من الأسباب المعهودة للناس.

خامساً: ثبوت كيفية التبرك بالشرع كما تقدم.

وإليك الآن صور التبرك الممنوع.

١ـ التبرك بالأمكنة المباركة على غير ماورد به الشرع:

روى البخارى فى صحيحه، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال «إنى أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»[5].

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ١٤٥)، وابن ماجه (٣٣٢١) عن عائشة به.

(٢) تقدم قبله.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٢٢٥،٢٨٥)، وأبو داود (٣٧٣٠)، والترمذى (٣٤٥٥)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠١١٨، ١٠١١٩) عن ابن عباس به.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الفضائل» (١٦/ ٢٧ ـ النووي) عن أبى ذر به.

وانظر «الطب النبوي» للذهبى (٣٥٥ ـ بتحقيقنا).

(٥) تقدم تخريجه.

قال ابن حجر فى شرحه لهذا الحديث: وفى قول عـمر هذا التسليم للشارع فى أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة فى اتباع النبى ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه[1].

روى الإمام أحـمد فى «المسند» عن عمر بن عـبدالرحمن بن الحـارث بن هشام، أنه قال: لقى أبو بصيرة الغفارى أبا هريرة وهو جاء من الطور فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الطور صليت فيـه! قال: أما لو أدركتك قـبل أن ترحل إليه ما رحلت إنى سـمعت رسول الله ﷺ يـقول: **«لاتُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مـساجد المسجد الحرام، ومـسجدى هذا، والمسجد الأقصى»**[*].

فالتـبرك بالأمكنة المبـاركة على غيـر ما ورد فى الشـرع؛ كتقـبيل أبواب المسـاجد، والتمسح بأعـتباها والاستشـفاء بتربتها، ومـثل ذلك: التمسح بجدران الكعبـة، أو مقام إبراهيم، وغير ذلك من التبرك الممنوع.

٢ـ ومن ذلك أيضاً الذهاب إلـى القبور لا لقـصد الزيارة، وإنما لقصـد الدعاء عندها لأجل بركتها واعتقاد أن الدعاء عندها أفضل.

قال ابن تيميـة كما فى «اقتضاء الصـراط المستقيم»[2]: «فأما إذا قـصد الرجل الصلاة عند بعض قبور الأنبيـاء، أو بعض الصالحين تبركاً بالصلاة فى تلك البقـعة؛ فهذا عين المحادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله. . .».

٣ـ قال ابن تيمية كـما فى «الاقتضاء»[3]: «...مثل من يذهب إلى حراء ليـصلى فيه ويدعو، أو يسافـر إلى غار ثور ليصلى فيـه ويدعو، أو يذهب إلى الطور الذى كلم الله عليه موسى عليـه السلام ليصلى فيـه ويدعو، أو يسافر إلى غيـر هذه الأمكنة من الجبال وغير الجبال التى يقال فيها مقامات الأنبياء... ولاشرع لأمته زيارة موضع المولد، ولازيارة موضع بيعة العـقبة... ومعلوم أنه لو كان هذا مستحـباً يثيب الله عليه؛ لكان النبى ﷺ أعلم الناس بذلك وأسـرعهم إليـه، ولكان علم أصحـابه بذلك، وكان أصحـابه أعلم بذلك وأرغب فيه ممن بعدهم، فلمـا لم يكونوا يلتفتون إلى شىء من ذلك؛ علم أنه من البدع المحدثة».

---

(١) الفتح (٣/ ٧٠ ٣).

(*) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٣٩٧) وهو في الصحيحين عن أبي هريرة به.
وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

(٢) (٣٣٤).　(٣) (٤٢٤ ـ ٤٢٦).

وقد رد عبدالعزيز بن باز[1] على من طالب بإحياء الآثار النبوية؛ كطريق الهجرة، ومكان خيمة أم عبد، ونحو ذلـك، وبين أن ذلك يجر إلى تعظيمها أو الدعاء عندها أو الصلاة ونحو ذلك، وهذه من الوسائل المفضية إلى الشرك».

٤ـ وكذا الأمكنة التى صلى فيها الرسول ﷺ اتفاقاً، كأن يكون فى سفر ونحو ذلك، ولم يقصد تخصيصها بالصلاة فيها؛ فإنه لايشرع تتبعها والتقرب إلى الله بالصلاة فيها؛ لأنها لم تكن مقصودة لذاتها.

ومن باب أولى الأماكن التى ارتبطت بحوادث نبوية معـينة؛ كغار حراء، وغار ثور، وموقعة بدر، ومكان شجرة بيعة الرضوان، وغير ذلك،

وروى ابن سعد فى «الطبقات» عن نافع؛ قـال: «كان الناس يأتون الشجرة التى يقال لها شجرة الرضـوان، فيصلون عندها، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فأوعدهـم فيها وأمر بقطعها»[2].

٥ـ وكذا الأزمنة المباركة؛ كشهر رمضان، وليلة القـدر، ويوم الجمعة، وغير ذلك إنما تلتمس بركتـها بالقيام بالمشروع فـيها من العبادات، ولو التـمست بركة تلك الأزمنة بأعمال غـير مشروعة؛ لأنكر عليه؛ لأن التـماس البركة فى زمان معـين أو مكان معين عبادة يقتصر فيها على المشروع.

٦ـ ومن ذلك تخصيص أزمنة معينة بنوع من التعظيم والإحـتفالات والعبادات؛ كيوم مولد الرسول ﷺ، ويوم الإسراء والمعراج، ويوم الهـجرة، ويوم بدر، وفتح مكة، وغير ذلك؛ فالتبرك بالأزمنة على هذا النحو من البدع.

٧ـ ومن التبـرك الباطل: التبـرك بذوات الصالحين وآثارهم؛ فـلم يؤثر عن أحد من الناس أنه تبرك بوضوء أبى بكر أو عـرقه أو ثيابه أو ريقه أو غيـر ذلك، ولا عمر ولا عـثمـان ولا على بن أبى طالب رضى الله عنهم، وإنما كـان الصحـابة رضى الله عنهم يتبركـون بوضوء النبى ﷺ وجسمه وعـرقه وريقه وشعره ومـلابسه، وهذا خاص بالنبى ﷺ لايجوز أن يقـاس عليه أحـد من الصالحـين، ولو كانوا من الخلفـاء الراشدين أو العشرة المبشرين، فضلاً عن غيرهم؛ لأن التبرك عبادة مبناها على التوقيف والإتباع[3].

(١) فتاويه (٣/ ٣٣٤).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٨٦) ونسبه لابن أبي شيبة في «مصنفه».

(٣) انظر: «اقتـضاء الصـراط المستـقيم» (ص٣٣٩)، «الإعـتصام» للـشاطبى (ص٨)، «ورسالة التـبرك المشروع والتبرك الممنوع» للعليانى (ص٨١).

* تنبيه: لايجوز القطع لإنسان ما بأنه صالح إلا ما جاء فيه نص، فالصلاح أمر ظاهر وباطن، والباطن لايعلمه إلا الله وحده. ولايحكم بالصلاح من الظاهر فقط، فوجب التوقف بالقطع لأحد بالصلاح، وخصوصاً في الولاية ﴿**ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ فصلاح الظاهر يحكم عليه بالنظر لوقوف الرجل عند أمر الله ونهيه، ولذا **قال شيخ الإسلام** كما في «مجموع الفتاوى»(١) «ولهذا قال الأئمة: إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء، فلاتغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي».

شبهتان والرد عليها

● **الشبهة الأولى:** قد يستدل على جواز التبرك بالأمكنة أو بآثار الصالحين بما:

روى البخاري في صحيحه أن عتبان بن مالك وهو من أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد بدراً من الأنصار أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد أنكرتُ بصري، وأنا أصلي لقومي فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، وودت يارسول أنك تأتيني فتصلي في بيتي، فاتخذه مصلى قال: فقال له رسول الله ﷺ «**سأفعل - إن شاء الله**» قال: عتبان فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله ﷺ فأذنت له فلم يجلس حين دخل البيت ثم قال «**أين تحب أن أصلي في بيتك؟**» قال: فأشرت له إلى ناحية من البيت فكبر فقمنا فصففنا فصلى ركعتين ثم سلم الحديث(٢).

وهذه الشبهة مردودة بالآتي:

(١) لم يقصد عتبان رضي الله عنه أن يتبرك بالموضع الذي صلى فيه رسول الله ﷺ وإنما قصد أن يقره الرسول ﷺ على الصلاة جماعة في داره عند عدم استطاعته حضور الجماعة.

(٢) ولو كان قصد عتبان رضي الله عنه التبرك بموضع مصلاه ﷺ لبقي هذا الموضع يتبرك به الورثة فمن بعدهم، كما كان الصحابة يتداولون قدح رسول الله ﷺ وشعره ﷺ لأجل التبرك به(٣).

(٣) عدم قياس الصالحين وآثارهم على النبي ﷺ.

---

(١) (١/ ٨٣).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٤٢٤) ومسلم في المساجد (٣/ ١٧١/ ٣٦٣) عن عتبان به.

(٣) التبرك المشروع والممنوع ٦٩.

● **الشبهة الثانية:** قد يستدل بما

يروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يتتبع المساجد التى صلى فيها الرسول ﷺ يصلى فيها[1].

والجواب:-

(١) أنه لايدل على أن ابن عمر يفعل ذلك من باب التبرك فهو لم يصرح بذلك رضى الله عنه ولكنه عُرف بشدة مبالغته فى التأسى برسول الله ﷺ.

(٢) ثم إن ابن عمر لايسافر لأجل أن يصلى فى تلك المواطن وإنما إذا سافر من المدينة إلى مكة تحرى النزول فى مكان نزول رسول الله ﷺ والصلاة فى المواضع التى صلى فيها رسول الله ﷺ لينال ثواب التأسى والإقتداء.

(٣) وهذا اجتهاد منه رضى الله عنه وأما غيره من الصحابة فلم يبالغوا فى ذلك خشية من الفتنة كما تقدم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه.

(٤) ومن المعلوم أن الخلفاء الراشدين الأربعة وأغلب الصحابة قد سافروا إلى مكة والمدينة كثيراً، ولم ينقل عن أحد منهم أنه تحرى تتبع آثار الرسول ﷺ ليصلى فيها، أو يدعو فيها، ولو فعلوه لنقل عنهم، كما نقل عن ابن عمر رضى الله عنه ما فعله.

(٥) وهذا الأمر الذى أطبق عليه الصحابة رضوان الله عليهم من عدم تتبع الأمكنة التى صلى فيها رسول الله ﷺ اتنان لاينطبق على الأمكنة التى علم الصحابة رضوان الله عليهم بأنه الرسول ﷺ كان يتحرى الصلاة عندها كمثل أداء ركعتى الطواف خلف المقام كما فى حديث جابر رضى الله عنه فى سياق حجة الوداع، وفيه: «**ثم نفذ إلى مقام** إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿ **وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ﴾ ورفع صوته ليسمع الناس فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين[2]» اهـ.

وكذلك الصلاة فى مسجد الخيف، ومسجد منى؛ لأن النبى ﷺ قال فيه: «**صلى فيه سبعون نبياً**»[3] كذا ذكره الأزرقى فى «أخبار مكة».

* **تنبيه**: كان لابد من ذكر هذه المقدمات والمسائل قبل الشروع فى الباب لأهميتها، ولتمهيد الدخول فيه ، ولتيسير الفهم ولجمع فوائد الباب.



---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٨٣ ـ ٤٩٢).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٨/ ١٧٠ ـ النووي) عن جابر به.

وانظر «السلسبيل» (١٠٦ ـ بتخريجنا).

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١١/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣/ ١٢٨٣) عن ابن عباس به.

قال سليمان آل الشيخ[2]: هكذا ثبت فى خط المصنِّف الآيات يعنى إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾[3].

● **مناسبة الآية للباب:**

قال عبدالله بن جار الله [4]: أن التبرك بالشجر والحجر والقبور من جنس عبادة المشركين لهذه الأصنام، فمن فعل ذلك فقد شابههم فى فعلهم، وما تشبه بقوم فهو منهم اهـ.

قال ابن عثيمين[5]: مناسبة الآية للترجمة أنهم يعتقدون أن هذه الأصنام تنفعهم وتضرهم، ولهذا يأتون إليها؛ يدعونها، ويذبحون لها، ويتقرَّبون إليها، وقد يبتلى الله المرء فيحصل له ما يريد من اندفاع ضر أو جلب نفع بهذا الشرك؛ ابتلاءً من الله وامتحاناً، وهذا قد تقدَّم لنا له نظائر أنَّ الله يبتلى المرء بتيسير أسباب المعصية له حتى يعلم سبحانه من يخافه بالغيب اهـ.

قال القرعاوى[6]: حيث دلت الآية على أن عبادة المشركين لهذه الأوثان إنما كانت لطلب النفع ودفع الضررة فكل من تبرك بشجر أو قبر أو عبد غير ذلك قاصداً بذلك جلب النفع أو دفع الضر فقد شابههم ودخل فى شركهم اهـ.

● **مناسبة الآية لما قبلها:**

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾.

لما ذكر الله المعراج وقال: ﴿**لقد رأى من أيات رب الكبرى**﴾ ذكر بعد ذلك ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ...**﴾ أى أخبرونى ما شأنها بالنسبة لهذه الآيات العظيمة **والاستفهام هنا للاستحقاق والتهكم بهذه الأصنام** وهذه صورة من صور الإلحاد فى أسماء الله الحسنى فألحدوا فى لفظ الله وأنثوه اللات والعزيز جعلوه العزى والمنان جعلوه مناة اهـ وسيأتى تفصيل ذلك فى تفسير الآية.



---

(١) النجم: ١٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٢٦،

(٣) النجم: ٢٣.

(٤) الجامع الفريد (٤٦)

(٥) القول المفيد ١/ ٢٥٧.

(٦) الجديد ١٠٠.

الإعراب:[1].

﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ** ﴾ الهمزة للإستفهام الإنكارى والفاء حرف عطف لترتيب الرؤية على ما ذكر من شئونه تعالى المنافية لها غاية المنافاة والتقدير: أعقيب ما سمعتم من آثار كماله ونفاذ أمره فى الملأ الأعلى وما تحت أطباق الثرى أرأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وفسولتها شركاء لله تعالى. (ورأيتم) فعل وفاعل (واللات) مفعولة (والعزى) (ومناة) معطوفتان على(اللات) (والثالثة الأخرى) صفتان الأولى صفة للتين قبلها والثانية صفة ذم للثالثة، ومفعول رأيتم الثانى محذوف تقديره قادرة على شيء ويجوز أن تكون من رؤية العين فلاتحتاج إلى مفعول ثانٍ. اهـ.

*** ما ورد فى تفسيرها من الموقوف والمقطوع :ـ**

عن ابن عباس قال: كان اللات رجلاً يلت سويق الحاج[2].

وفى لفظ : يلت السويق يسقيه الحاج[3].

وعن ابن عباس قال: كان اللات يلت السويق على الحاج فلايشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه[4].

وعن مجاهد فى قوله ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ** ﴾ قال: اللات كان يلت السويق بالطائف فاعتكفوا على قبره، والعزى شجرات[5].

وعن مجاهد قال: كانت اللات رجلاً فى الجاهلية على صخرة بالطائف وكان له غنم فكان يأخذ من رسلها ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر

---

(١) إعراب القرآن ٩/ ٣٥٢.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٨٥٩) وذكره السيوطى فى «الدر» (٧/ ٦٥٢، ٦٥٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه. وانظر «فتح المجيد» (ح٢١٣) بتخريجنا.

(٣) اللفظ لعبد بن حميد وانظر ما قبله.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن مردويه.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر. وانظر «الإتقان» للسيوطى بتخريجنا.

من الناس، فلما مات عبدوه وقالوا: هو اللات، وكان يقرأ اللات مشددة[١].

وعن ابن جريج في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾ قال: كان رجل من ثقيف يلت السويق بالزيت فلما توفى جعلوا قبره وثناً، وزعم الناس أنه عامر بن الظرب أخذ عدوانا[٢].

وعن أبي صالح قال: اللات الذي كان يقوم على آلهتهم، وكان يلت لهم السويق، والعزى بنخلة كانوا يعلقون عليها السيور والعهن، ومناة حجر بقديد[٣].

وعن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنوا عليها بيتا[٤].

وعن أبي الجوزاء قال: اللات حجر كان يلت السويق عليه فسمي اللات[٥].

وعن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكان بها العزى فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرات فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئاً**»، فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة، وهم حجبتها، امتنعوا في الجبل وهم يقولون يا عزى يا عزى، فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها، فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «**تلك العزى**»[٦].

وعن ابن عباس أن العزى كانت ببطن نخلة وأن اللات كانت بالطائف، وأن مناة كانت بقديد[٧].

وعن قتادة في قوله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ⑲ وَمَنَاةَ﴾ قال: آلهة كانوا يعبدونها،

---

(١) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لسعيد بن منصور والفاكهي.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» في الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.
وانظر «الإتقان» للسيوطي بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه للفاكهي.

(٥) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

(٦) أخرجه النسائي في «تفسيره» (٥٦٧) ذكره السيوطي في «الدر» في الموضع السابق وزاد نسبته لابن مردويه.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» في الموضع السابق ونسبه للطبراني وابن مردويه.
وانظر «فتح القدير» (١١٦١٦ ـ بتخريجنا).

فكان اللات لأهل الطائف وكانت العزى لقريش بسقام شعب ببطن نخلة، وكانت مناة للأنصار بقديد[1].

● **أقوال المفسرين :**

قال القرطبى : لما ذكر الوحى إلى النبى ﷺ وذكر من آثار قدرته ما ذكر، حاج المشركين، إذ عبدوا ما لايعقل. وقيل: أفرأيتم هذه الآلهة التى تعبدونها أو أُوحى إليكم شيئاً كما أوحى إلى محمد ﷺ وكانت اللات لثقيف، والعزى لقريش وبنى كنانة، ومناة لبنى هلال. وقال ابن هشام: كانت مناة لهذيل وخزاعة. أهـ

● **كلام شراح كتاب التوحيد :**

قال سليمان آل الشيخ[2]: ذكر صفة هذه الأوثان:

ليعرف المؤمن كيفية الأوثان، وكيفية عبادتها، وما هو شرك العرب الذين كانوا يفعلونه حتى يفرق بين التوحيد والإخلاص وبين الشرك والكفر، فأما اللات فقرأ الجمهور بتخفيف التاء، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح ورويس عن يعقوب اللات بتشديد التاء، فعلى الأولى قال الأعمش: سمو اللات من الإله والعُزى من العزيز.

قال ابن جرير، وكانوا قد اشتقوا اسمها من الله تعالى، فقالوا اللات مؤنثة منه. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

قال: وكذا العزُى من العزيز.

قال ابن كثير: وكانت صخرة بيضاء منقوشة عليها، بيت بالطائف، له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش،

قال ابن هشام: وكانت فى موضع مسجد الطائف اليسرى، فلم يزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار.

---

(١) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٢٦ : ١٢٩

وعلى الثانية قال ابن عباس كان رجلاً يلت السويق للحاج، لما مات عكفوا على قبره[1]، ذكره البخاري .

وقال ابن عباس كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويلته عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق[2]. وعن مجاهد نحوه، وقال: فلما مات عبدوه[3] رواه سعيد بن منصور والفاكهي وكذا روى ابن ابى حاتم عن ابن عباس: أنهم عبدوه وقال ابن جريج: كان رجل من ثقيف يلت السويق بالزيت، فلما توفى جعلوا إلى قبره وثناً[4]، وبنحو ذلك قال جماعة من أهل العلم.

ولاتخالف بين القولين، فإن من قال: إنها صخرة لم ينف أن تكون صخرة على القبر أو حواليه فعظمت وعبدت تبعاً لاقصداً، فالعبادة إنما أرادوا بها صاحب القبر، فهو الذى عبدوه بالأصالة؛ يدل على ذلك ما روى الفاكهى عن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحى: إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة فعبدوها، وبنوا عليها بيتاً وتقدم الأثر معنا (٥).

فتأمل فعل المشركين مع هذا الوثن، ووازن بينه وبين بناء القباب على القبور، والعكوف عندها ودعائها، وجعلها ملاذاً عند الشدائد.

وأما العُزى فقال ابن جرير: كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف كانت قريش يعظمونها ـ وتقدم الأثر معنا ـ

كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم فقال النبى ﷺ: **«أجيبوه»** قالوا: ما نقول؟ قال: **«قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»**[6].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم .

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) وقال عبد الرحمن آل الشيخ هنا: لا منافاة بين القولين فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تألهاً وتعظيماً. ولمثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت وأثاناً.

وفيه بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام. اهـ. كذا فى فتح المجيد (١/ ٦٥)

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٠٤٣) عن البراء به.

وروى النسائى وابن مردويه عن أبى الطفيل قال لما فتح رسول الله ﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرات فقطع السمرات، وهدم البيت الذى كان عليها، ثم اتى النبى ﷺ فأخبره، فقال **ارجع فإنك لم تصنع شيئاً**، فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة وهم حجبتها امتنعوا فى الجبل وهم يقولون: يا عزى يا عزى: فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها، تحفن التراب على رأسها فعلاها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: **«تلك العزى»**(١).

قال ابن هشام: وكانوا يسمعون منها الصوت. وقال أبو صالح: العزى نخلة كانوا يعلقون عليها السيور والعهن(٢)، رواه عبد بن حميد وابن جرير .

هذا الوثن، ووازن بينه وبين ما يفعله عباد القبور من دعائها، والذبح عندها، وتعليق الخيوط وإلقاء الخرق فى ضرائح الأموات ونحو ذلك، فالله المستعان.

وأما مناة: فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة وأصل اشتقاقها من اسم الله المنان، وقيل: من منى الله الشىء إذا قدره.

وقيل: سميت مناة لكثرة ما يمنى، أى يراق عندها من الدماء للتبرك بها.

قال ابن هشام: فبعث رسول الله ﷺ علياً فهدمها عام الفتح.

قال ابن إسحاق فى «السيرة»: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظم كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدى لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها وتنحر عندها، وهى تعرف فضل الكعبة عليها، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عيه السلام ومسجده.

قلت ـ سليمان آل الشيخ ـ: هذا الذى ذكره ابن إسحاق من شرك العرب هو بعينه الذى يفعله عباد القبور.

بل زادوا على الأولين. إذا تبين هذا فمعنى الآية كما قال القرطبى: إن فيها حذفاً تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله؟!.

وقال غيره: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾(٣)، ذم، وهى المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله: ﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ﴾(٤) أى وضعاؤهم لرؤسائهم.

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) الأعراف: ٣٩.
(٤) النجم: ٢٠.

قال ابن باز: (أفرأيتم) أى هل نفعت هذه الأصنام أم ضـرت والمعنى أنها لم تنفع ولم تضر وكانوا يسألونها ويتبركون بها ويستغيثون فأبطل الإسلام ذلك. اهـ.

قال ابن عثيمين: بعد أن ذكر الله مـا رأى النبى ﷺ من هذه الآيات قال ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ﴾ أى: أخبرونى مـا شأنها، وما حالهـا بالنسبة إلى هذه الآيات العظيمة إنهـا ليست بشيء. والاستفهام: للاسـتخفاف والاستهـجان بهذه الأصنام اهـ.

قوله : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾.

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ الهمزة للإستفهام الإنكارى أيـضا ولكم خبر مقدم والذكر مبتدأ مؤخر وله الأنثى عطف على لكم الذكر(١).

قال ابن عثيمين (٢): هذا أيضاً استفهـام إنكارى على المشركين الذين يجعلون لله البنات ولهم البنين، فإذا ولد لهم الولد الذكر فرحـوا واستبشروا به، وإذا ولدت الأنثى ظل وجـه الإنسان منهم مـسـوداً، وهو كظيم، ومع ذلك يقـولون: الملائكة بنات الله؛ فيجعلون البنات لله ـ والعياذ بالله ـ ولهم ما يشتهون أ. هـ.

قال ابن كـثير(٣): أى أتجـعلـون له ولداً وتجـعلـون ولده أنثى، وتختـارون لكم الذكور؟! أ. هـ.

وقال غيره: يـجوز أن يراد اللات والعزى ومناة إناث، وقد جعلتمـوهن لله شركاء، ومن شأنكم أن تحتقـروا الإناث وتستنكفوا من أن يولدن لكم، أو ينسبن إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله وتسمونهن آلهة؟! أ. هـ.

قال: سليمان آل الشيخ: ـ ما أقرب هذا القول إلى سياق الآية.

قال ابن عثيمين: هذا استفهام انكارى على المشركين الذين يجعلون لله البنات ولهم البنين فـإذا ولد لهم الولد الذكر فـرحوا واسـتبـشروا به، وإذا ولدت الأنثى ظـل وجه الإنسان مـنهم مسـوداً، وهو كظيم، ومع ذلك يقولون: الملائكة بـنات الله، فيجـعلون البنات لله ـ والعياذ بالله ـ ولهم ما يشتهون!! أ. هـ.

---

(١) إعراب القرآن ٩/ ٣٥٣

(٢) القول (١/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٦) وانظر تيسير العزيز الحميد (١٢٩).

قوله: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[1].

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (تلك) مبتدأ والإشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الإستفهامية (وإذن) بمعنى الجواب والجزاء والمعنى: إذ جعلتم له البنات ولكم البنين (وقسم)ة خبر (وضيزى) صفة لقسمة[2].

● **التفسير بالمأثور:**

عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ضِيزَى﴾ قال: جائرة قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول امرىء القيس:

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يعدلون الرأس بالذنب[3]

ـ عن ابن عباس فى قوله ﴿ضيزى﴾ قال: جائر لاحق فيها[4].

ـ عن مجاهد فى قول﴿ضِيزَى﴾ قال منقوصة[5].

ـ وعن قتادة فى قوله ﴿ضِيزَى﴾ قال: جائرة[6].

● **كلام شراح كتاب التوحيد**

قال سليمان آل الشيخ[7]: وقوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾أى: جور وباطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً، فتنزهون أنفسكم عن الإناث، وتجعلونهن لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؟! أهـ وبنحوه قال ابن عثيمين.

قال محيى الدين[8]: وفى قوله ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ فن عجيب أيضاً فقد يتساءل الجاهلون عن السر فى استعمال كلمة (ضيزى) وهى وحشية غير مأنوسة، وسنورد ما أورده ابن الأثير فى مثله السائر ثم نردفه بما استخرجناه نحن؛ قال ابن

(١) النجم: ٢٢. (٢) الإعراب ٩/ ٣٥٣.
(٣) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١٠/ ٣٠٤/ ١٠٥٩٧) عن ابن عباس به.
وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ١٦٤) ونسبه للطستي.
وانظر «الإتقان» للسيوطى (٧٤٨ ـ بتخريجنا).
(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن جرير.
وانظر «فتح القدير» (١١٦١٧ ـ بتخريجنا).
(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٧/ ٦٥٣ ـ ٦٥٤) ونسبه للفريابى وعبد بن حميد، وابن جرير
(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير.
(٧) التيسير ١٢٩. (٨) الإعراب ٩/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

الأثير: «وحضر عندى فى بعض الأيام رجل متفلسف فجرى ذكر القرآن الكريم فأخذت فى وصفه وذكر ما اشتلمت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة فقال ذلك الرجل وأى فصاحة هناك وهو يقول: ﴿ تلك إذن قسمة ضيزى﴾؟ فهل فى لفظة ضيزى من الحسن ما يوصف فقلت له: اعلم أن لإستعمال الألفاظ أسراراً لم تقف عليها أنت ولا أئمتك مثل ابن سينا والفارابى ولا من أضلّهم مثل أرسطاطاليس وأفلاطون وهذه اللفظة التى أنكرتها فى القرآن وهى لفظة (ضيزى) فإنها فى موضعها لايسد غيرها مسدَّها، ألا ترى أن السورة كلها التى هى سورة النجم مسجوعة على حرف الياء فقال تعالى: ﴿والنجم إذا هوى، ما ضلّ صاحبكم وما غوى﴾ وكذلك إلى آخر السورة فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال: ﴿ألكم الذكَر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى﴾، فجاءت هذه اللفظة على الحرف المسجوع الذى جاءت السورة جميعها عليه وغيرها لايسدّ مسدّها فى مكانها وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا: إن غير هذه اللفظة أحسن منها ولكنها فى هذا الموضع لاترد ملائمة لأخواتها ولا مناسبة لأنها تكون خارجة عن حرف السورة، وسأبين ذلك فأقول: إذا جئنا بلفظة فى معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائرة أوظالمة ولا شك أن جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى إلا أنا إذا نظمنا الكلام فقلنا ﴿ألكم الذكَر وله الأنثى تلك إذن قسمة ﴾ ظالمة لم يكن النظم كالنظم الأول وصار الكلام كالشىء المعوز الذى يحتاج إلى تمام وهذا لايخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام فلما سمع ذلك الرجل ما أوردته عليه ربا لسانه فى فمه إفحاماً، ولم يكن عنده فى ذلك شىء سوى العناد».

هذا ما قاله ابن الأثير وهو جيد يدل على ذوق وفهم ولكنه لا يخرج عن الحدود اللفظية، وسنذكر ما سنح للخاطر من أمر معنوى يتعلق بهذا الكلام فنقول لما كان الغرض تهجين قولهم، وتفنيد قسمتهم، والتشنيع عليها اختيرت لها لفظة مناسبة للتهجين والتشنيع كأنما أشارت خساسة اللفظة إلى خساسة أفهامهم وهذا من أعجب ما ورد فى القرآن الكريم من مطابقة الألفاظ لمقتضى الحال أ.هـ.

وقوله: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾

الإعراب(١): ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾(إن) نافية و(هى) مبتدأ (وإلا) أداة حصر (وأسماء) خبر هى (وسميتموها) فعل

(١) الإعراب ٩/ ٣٥٣.

وفاعل ومفعول به ثانٍ والأول محذوف تقديره أصناماً (وأنتم) تأكيد للفاعل ليصحّ عطف (وآباؤكم) عليه على حدّ قول صاحب الخلاصة:

وإن علــى ضمير رفــع متصــل عطفت فافصل بالضمير المنفصل

وجملة (سميتموها) صفة لأسماء وكذلك جملة (ما أنزل) وما نافية (وأنزل الله) فعل وفاعل وبها حال لأنه كان فى الأصل صـفة (لسلطان) (ومن) حرف جر زائد (وسلطان) مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به. اهـ.

[قلت]: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ...﴾ والضمير عائد على الأصنام التى تعبد أو أى وثن مثل القـبور وغيرها فـليس هناك دليل على فعلهم فإذا قـيل لهم «هل عندكم من سلطان بهذا» **﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾** أو **﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾** بل ويتجرأ فيقـول حدثنى قلبى عن ربى وقلنا إن عمر الملهم المحدث ما كان يتجرأ أن يقول حدثنى قلبى عن ربى بل كان يقول هذا ما رأى أمير المؤمنين، فليس هناك دليل أو حجة على عـبادة هذه الأوثان «ذلك أن الله هو الحق وأن الذين يدعون من دونه هو الباطل». اهـ.

قال ابن كثير: ثم قال منكراً عليـهم فيمـا ابتدعوه، وأحدثوه من الكذب والإفـتراء والكفر مـن عبادة الأصنام، وتسـميـتهـا آلهة: **﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنـتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾**(١) أى: من تلقاء أنفسكم: **﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾** أى: من حجة: **﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾** أى: ليس لهم مستند إلاحـسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قـبلهم، وإلا حظ أنفسهم فـى رياستهم، وتعظيـمهم آبائهم الأقدمـين! وقوله: **﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾**.

قال ابن كثير: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا انقادوا له! .اهـ.

قلت (أى سليمان آل الشيخ): فى هذه الآيات من الدلائل القطـعية على بطلان عبادة هذه الطواعيت، وأشباهها مالامزيد عليه، فسبحان من جعل كلامه شفاء وهدى ورحمة، وبشرى للمسلمين.

منها أنها أسماء مؤنثة دالة على اللين والرخاوة، وما كان كذلك فليس بإله.

---

(١) النجم: ٢٣.

ومنها أنكم قاسمتم الله بزعمكم فجعلتم له هذه الأسماء المؤنثة شركاء ودعوتم له الأولاد، ثم جعلتموهم بنات، واختصصتم بالذكور، فجعلتم له المكروه الناقص، ولكم المحبوب الكامل **﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**[1].

ومنها أنها أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، وابتدعتموها.

ومنها ما أنزل الله بها من سلطان. أى حجة وبرهان.

ومنها أنكم لم تستندوا فى تسميتها إلى علم ويقين، وإنما استندتم فى ذلك إلى الظن والهوى اللذين هما أصلا الهلاك: دنيا وأخرى.

ومنها: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾. أى: بإبطال عبادتها، وما كان كذلك فهو عين المحال البين البطلان، وكل واحد من هذه الأدلة كاف شاف فى بطلان عبادتها.

فإن قلت: فأين دليل الترجمة من الآيات؟ قيل: هو بين بحمد الله، لأنه إن كان التبرك بالشجر والقبور والأحجار من الأكبر، فواضح، وإن كان من الأصغر فالسلف يستدلون بما نزل فى الأكبر على الأصغر أهـ[2].

قال ابن عثيمين[3]: وأصل السلطان فى اللغة العربية: ما به سلطة، فإن كان فى مقام العلم؛ فهو العلم، وإن كان فى مقام القدرة؛ فهو القدرة، وإن كان فى مقام الأمر والنهى فهو من له الأمر والنهى فمثلاً قوله تعالى: **﴿لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾**، أى بقدرة وقوة، ومثل قوله تعالى: **﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾**، أى: من حجة وبرهان.

وفى الحديث: **«السلطان ولى من لا ولى له»**[4]، أى: من له الأمر والنهى.

● **قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾**.

﴿إِنْ﴾ هنا بمعنى ما، وعلامة إن التى بمعنى ما أن تأتى بعدها إلا، قال تعالى: **﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾**، يعنى ما هذا إلا ملك كريم، وقال تعالى: **﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾**؛ أى: ما هذا إلا قول البشر، وقال تعالى: **﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾**؛ أى: ما يتبعون إلا الظن.

---

(١) النحل: ٦٠. (٢) تيسير العزيز الحميد (١٢٩، ١٣٠).

(٣) القول المفيد ١/ ٢٥٥: ٢٥٧.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٧، ١٦٥)، وأبو داود (٢٠٨٣)، والترمذي (١١٠٢)، وابن ماجه (١٨٧٩) عن عائشة به.

وانظر «السلسبيل» (٢٠١٩ ـ بتخريجنا).

والظن الذى يتبـعونه هو أنها آلهـة، وأنَّ لله البنات ولهم البنون، والظن لايغنى من الحق شيئاً؛ كما قال تعالى فى آية أخرى.

[**قلت الفقير**]: والظن هو أكذب الحديث، ولايغنى من الحق شيئاً.

● **قوله: ﴿وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾.**

ثم قال: كـذلك أيضاً يتبَّعـون ما تهوى الأنفس، وهذا أضـر شىء على الإنسان أن يتبع ما يهـوى؛ فالإنسان الذى يعبد الله بالهـوى؛ فإنَّه لايعبد الله حقاً، إنمَّا يعـبد عقله وهواه، قال تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾**.

[**قلت**]: وقوله تعالى: **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾**. لكن الذى يعبد الله بالهدى لا بالهوى هو الذى على الحق.

أما الكافر لايهوى شيئاً إلا ركبه كما قال ابن عباس، فما كفر الكافر إلا اتباعاً للظن والهوى فعبد هذه الألهة.

● **قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾.**

ثم قال: أى: على يد النبى ﷺ؛ فكان الأجدر بهم أن يتّبعوا الهدى دون **الهوى**.

قال الفقير: **﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾** فهو القرآن أو الرسول كما قال **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**.

فإن أجرى الله بعض الخير والنفع على أيدى هـذه الألهة الباطل فإنما يفعل ذلك من باب الإبتلاء كـما قال **﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحـدة لجعلنا لمن يكفـر بالرحـمن لبيوتهم سقفاً من فضة..﴾**.

وكما قال ابن مسعود لامرأته حينما علقت خيط «**إنما ذلك من الشيطان كان ينخسها بيده**»(١). فثبوت النفع أو عدم وجوده فـهذا ليس دليل لا على بطلان ما ليس فيه ثمرة ولا على صحة ما فيه ثمرة، كالسُنى قد يدعـو دعوة إلى الله وليس فيها ثمرة، كما يأتى النبى وليس معه أحد ولا يستجيب أحد وقـد يدعو ملحد وتستجيب له الناس، كما يأتى الدجال الأكبر فيستجيب له كثيرون فهذا ليس معناه أن دعوته حقه.

● ● ●

(١) تقدم تخريجه.

وعن أبى واقد الليثى قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ونحن حُدَثاءُ عهدٍ بكفر! وللمشركين سِدرةٌ يعكفون عندها ويَنُوطون بها أسلحتهم يقال لها ذاتُ أنواط! فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبرُ إنَّها السُّنَنُ قُلتُم ـ والَّذى نفسى بيَده ـ كمَا قَالَت بنُو إسرائيل لمُوسَى: ﴿اجعَل لَنا إلهاً كمَا لَهُم آلهَةٌ، قَالَ إنَّكُم قومٌ تجهلُون﴾ لتَركَبُنَّ سُنَنَ مَن كَانَ قَبلَكُم». رواه الترمذى وصححه[1].

قوله [وعن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء ...] الحديث.

قال سليمان آل الشيخ[2]: الحديث رواه الترمذى كما قال المصنف: ولفظه: حدثنا سعيد بن عبدالرحمن المخزومى حدثنا سفيان عن الزهرى عن سنان ابن أبى سنان عن أبى واقد الليثى أن رسول الله ﷺ، لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا: يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبى ﷺ: «**سبحان الله هذا كما قال قوم موسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ والذى نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلكم**» هذا حديث حسن صحيح.

وأبو واقد الليثى اسمه الحارث بن عوف وفى الباب عن أبى سعيد[3]، وأبى هريرة[4]، هذا لفظ الترمذى بحروفه، وفيه مخالفة لما فى الكتاب لفظاً ومعنى، وقد اتفق اللفظان على المقصود هنا. وقد رواه أحمد وأبوداود وأبو يعلى وابن أبى شيبة والنسائى

---

(١) [**صحيح**] أخرجه عبدالرزاق فى «تفسيره» (١/ ٢٢٢/ ٩٣١)، وابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ٣١)، وأحمد فى «مسنده» (٥/ ٢١٨)، والترمذى فى «الفتن»/ باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (/ ٢١٨٠/ ٤/ ٤٧٥) وابن أبى عاصم فى «السنة» (٧٦)، والنسائى فى «تفسيره» (٢٠٥)، وابن حبان فى صحيحه (٨/ ٢٤٨ ـ الإحسان) والطبرانى فى «الكبير» (٣/ ٢٤٣/ ح ٣٢٩٠).

من طريق الزهرى، حدثنا ابن أبى سنان الديلى، عن أبى واقد الليثى به.

قال الترمذى: حسن صحيح.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢١٣)، وزاد نسبته لابن أبى شيبة، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٥٢١٩ ـ بتخريجنا) «فتح المجيد» (ح ٢٢٠) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٢٩: ١٣٠.

(٣) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٧٣٢٠) ومسلم (٨/ ٤٧٢/ ٦) عن أبى سعيد ـ وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٢١) بتخريجنا.

(٤) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (ح ٧٣١٩) وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٢٢) بتخريجنا.

وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبراني بنحوه، وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى من طريق كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده نحوه أيضاً[1].

● **مناسبة الحديث للباب والتوحيد:**

هى أنه أفاد أن التبرك بالأشجار من الشرك[2].

قال القرعاوى[3]: حيث دلَّ الحديث على أن اتخاذ الأشجار للتبرك والعكوف عندها شرك فيدخل فيه كل مايتبرك به من شجر وحجر أو قبر أو غير ذلك.

قوله: «عن أبى واقد الليثى»

قال سليمان آل الشيخ[4]:

قوله: عن أبى واقد الليثى. اسمه الحارث بن عوف، كما قال الترمذى، وقيل الحارث ابن مالك، صحابى مشهور. مات سنة ثمان وستين وله خمسة وثمانون سنة.

قوله: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين».

قال سليمان آل الشيخ[5]:

قوله: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين. فى حديث عمرو بن عوف، قال: غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح ونحن ألف ونيف حتى إذا كنا بين حنين والطائف[6]، ولامخالفة بينهما فى المعنى، فإن غزوة الفتح وحنين كانتا فى سفر واحد. اهـ.

قال ابن عثيمين[7]:

قوله: «خرجنا مع النبى ﷺ»

أى: بعد غزوة الفتح؛ لأنَّ النبى ﷺ لما فتح مكة تجمعت له ثقيف وهوازن بجمع عظيم كثيرا جداً.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢١/ ٢٧) عن عمرو بن عوف به.
قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٤) وفيه كثير بن عبد الله وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه.
وانظر «فتح القدير» (٥٢٢٠ ـ بتخريجنا).

(٢) الجامع الفريد ٤٧.

(٣) الجديد ١٠٣.

(٤) تيسير العزيز الحميد ١٣١.

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٣١.

(٦) تقدم تخريجه قريباً.

(٧) القول المفيد ١/ ٢٥٧: ٢٥٩.

فقصدهم ﷺ ومعه اثنا عشر ألفاً: ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف جاء بهم من المدينة، فلما توجهوا بهذه الكثرة العظيمة؛ قالوا: لن نغلب اليوم من قلة. فأعجبوا بكثرتهم، ولكن بيَّن الله أن النصر من عند الله وليس بالكثرة، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...**﴾(١) الآيتين.

ثم لما انحدروا من وادى حنين وجدوا أنَّ المشركين قد كمنوا لهم فى الوادى؛ فحصل ما حصل، وتفرَّق المسلمون عن رسول الله ﷺ، ولم يبق معه إلا نحو مئة رجل، وفى آخر الأمر كان النصر للنبى ﷺ، والحمد لله.

* **قوله: «حدثاء».**

قال ابن عثيمين: جمع حديث؛ أى: أننا قريب عهد بكفر، وإنَّما ذكر ذلك رضى الله عنه للاعتذار لطلبهم وسؤالهم، ولو وقر الإيمان فى قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال. أ. هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ:(٢) «**ونحن حدثاء عهد بكفر**» فيه دليل على أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لايجهل هذا، وأن المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبه، لايأمن أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة. ذكره المصنف رحمه الله.

قال **ابن الأثير** فى «النهاية»(٣)، السدر: شجرة النبق أهـ.

قوله: «يعكفون عندها».

قال سليمان آل الشيخ(٤): **قوله:** يعكفون عندها. الاعتكاف: هو الإقامة على الشىء بالمكان، ولزومها، ومنه قوله: ﴿**مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ**﴾(*) وكانوا يعكفون عند هذه السدرة تبركاً بها. وفى حديث عمرو بن عوف قال: كان يناط بها السلاح، فسميت ذات أنواط، وكانت تعبد من دون الله، فلما رآها رسول الله ﷺ، صرف عنها فى يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها... الحديث(٥) فيجمع بينهما بأن عبادتها هى العكوف عندها رجاء لبركتها.

(١) التوبة: ٢٥.

(٢) فتح المجيد (١/١٩٩).

(٣) النهاية (٢/٣٥٣ ـ مادة سدر)

(*) الأنبياء: ٥٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد ١٣١.

(٥) تقدم تخريجه.

قال ابن عثيمين[1]: أي: يقيمون عليها، والعكوف، ملازمة الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾[2]. اهـ.

قوله: «ينوطون بها أسلحتهم» أي يعلقونها تبركا[3] أهـ.

قال الفقير: كأنهم يعتقدوا أن هذه الشجرة من أسباب النصر، فلما اعتبروا أشياء لها سبب من أسباب النصر ولم تكن كذلك فأعتقدوا أن الشجرة سبب من أسباب النصر فناهاهم النبي ﷺ وبين لهم أنه كفر، ولما اتخذوا السبب الشرعي ومالوا له وهو الكثرة أدبهم وعلمهم خلاف ذلك، فالعدد معتبر شرعاً كسبب من أسباب النصر كما قال تعالى ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ولكن غير المعتبر الثقة بالسبب والركون إليه حتى لو كان شرعياً فالواجب على المسلم الأخذ بالاسباب مع التوكل على الله والثقة به والاعتماد عليه.

قوله: «يقال لها ذات أنواط».

قال في النهاية: هي اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم أي يعلقونه بها ويعكفون حولها فسألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك وأنواط جمع نوط وهو مصدر سمي به المنوط انتهى[4].

قال أبو السعادات: سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك. وأنواط جمع نوط، وهو مصدر سمي به المنوط[5]. أ.هـ

قوله: «مررنا بقوم لهم سدرة يعكفون عندها».

[**قال الفقير**] **الإعتكاف**: هو الإقامة على الشيء في مكان ومن هنا سمي الإعتكاف بالاعتكاف وهو العكوف على الذكر والصلاة في المساجد لا في غيرها.

والإعتكاف في اللغة هي الإقامة على الشيء في المكان ولزومه ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ وعكفوا عليها أي أقاموا عليها وعبدوها ولم يغادروها.

أما المعنى الشرعي.

هو إقامة ولزوم مخصوص بشروط مخصوصة كانوا يعكفون عندها ـ هذه السدرة ـ

(1) القول المفيد ١/٢٥٩.
(2) البقرة: ١٨٧.
(3) تيسير العزيز الحميد ١٣١.
(4) تحفة الأحوذي
(5) تيسير العزيز الحميد (١٣١).

تبركاً بـها وفى حديث عمـرو بن عوف كان يناط بهـا السلاح، وهذا سبب الـبركة من تعليق الأسلحة يظـنون أنها تجلب النصر وأنهم كانوا يتفاءلون بـها والتفاؤل هو اليمن، واليمن هو البركة واليمن عكس الشؤم والشؤم عكس البركة فكانوا يتبركون بمجرد تعليق الأسلحة.

قوله: «فقال النبىُّ ﷺ الله أكبر».

قال سليمـان آل الشيخ[1]: قولـه: فقال النـبى ﷺ **«الله أكبر»** هكذا فـى بعض الروايات، وفى رواية الترمذى **«سبحان الله»** والمقصود باللفظـين واحد، لأن المراد تعظيم الله، وتنزيهه عن الشرك، والـتقرب به إليه، وفيه تكبير الله وتنزيـهه عند التعجب، أو ذكر الشرك، خلافاً لمن كرهه. أهـ.

[قال الفقير]: وفيه: جواز الذكر بـغير قصد الذكر، وإنما للتعـجب. وأيضاً: إكثار الذكر على كل حال.

قوله: «إنها السنَن» بضم السين أى الطرق[2].

قوله: «قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنوإسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً....» إلخ.

[قلت ـ الفقير]: فيه جواز الحـلف بصفة من صـفات الله، وكثيراً ما كـان يحلف الرسول ﷺ بـه، واستدل به عـلى جواز الحلف بـالصفات، وعـلى هذا فهـل يجوز أن يُحلف برحمة الله؟

الإجابة: نعـم ويجوز أيضا الحلف بالمـصحف؛ لأنه من صفات الله، ولـكن لايقول ـ(والمصحف) فقط، بـل يقول (وكتاب الله) أو (كلام الله) أى لا يحلف بالـصفة مجردة عن الذات بل لابد أن تكون مقرنة بالذات العلية.

قال سليمان آل الشيخ[3]:

أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذى طلبوه منه، وهو اتخاذ شـجرة للعكوف عندها، وتعليق الأسلحة بها تبركاً، كالأمر الذى طلبه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام. حيث قالوا: اجعل لنا إلهاً كما لـهم آلهة فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلـحة، والعكوف عندها، اتخاذ إله مع الله مع أنهم لايعبدونها، ولا يسألونها. فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات، والإستغاثة بهم، والذبح، والنذر لهم، والطواف بقبورهم، وتقبيلها، وتقبيل أعتابها وجدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها؟ وأى نسبة بين هذا، وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركاً؟

(١) تيسير العزيز الحميد ١٣١و١٣٢.
(٢) المصدر السابق ١٣١.
(٣) تيسير العزيز الحميد ١٣٢و١٣٣.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي من أئمة المالكية: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون بها المسامير والخرق فهى ذات أنواط فاقطعوها.

وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعى المعروف بأبى شامة فى كتاب «البدع والحوادث»: ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم الإبتلاء به من تزيين الشيطان للعامة، من تخليق الحيطان والعمد، وسرج مواضع مخصوصة فى كل بلد يحكى لهم حاك أنه رأى فى منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه ويظنون أنهم متقربون بذلك ثم يتجاوزن هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن فى قلوبهم فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهى من بين عيون وشجر وحائط وحجر، وفى مدينة دمشق صانها الله من ذلك مواضع متعددة كعونية الحما خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر فى نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة فى الحديث ثم ذكر الحديث المتقدم.

وكلام الطرطوشى الذى ذكرنا.

ثم قال: ولقد أعجبنى ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجبنيانى رحمه الله تعالى أحد الصالحين ببلاد أفريقية فى المائة الرابعة حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبدالله محمد ابن أبى العباس المؤدب أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية، كان العامة قد افتتنوا بها يأتوها من الآفاق، من تعذر عليها نكاح أو ولد قالت: امضوا بى إلى العافية، فتعرف بها الفتنة، قال أبو عبدالله: فأنا فى السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبى إسحاق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها وأذن الصبح عليها ثم قال: اللهم إنى هدمتها لك فلا ترفع لها رأساً، قال فما رفع لها رأس إلى الآن.

قلت: أبو إسحاق الذى هدمها إمام مشهور من أئمة المالكية زاهد اسمه إبراهيم بن أحمد بن على بن أسلم، وكان الإمام أبو محمد بن أبى زيد يعظم شأنه، ويقول: طريق أبى إسحاق خالية لايسلكها أحد فى الوقت، وكان القابسى يقول: الجبنياني إمام يقتدى به. مات سنة تسع وستين وثلاثمائة. وذكر ابن القيم نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله، ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر، وهذه الشجرة، وهذه العين تقبل النذر، أى تقبل العبادة من دون الله، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له. وسيأتى شىء يتعلق بهذا الباب عند قوله ﷺ: «**اللهمَّ لاتَجعل قَبرِى وَثَناً يُعبَدُ**»(1) وفى هذه الجملة من الفوائد، أن ما

(1) سيأتي تخريجه.

يفعله من يعتقد فى الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها، والعكوف عندها، والذبح لها، هو الشرك، ولايغتر بالعوام والطغام، ولايستبعد كون هذا شركاً، ويقع فى هذه الأمة. فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً، وطلبوه من النبى ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بنى إسرائيل: اجعل لنا إلهاً؛ فكيف بغيرهم مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة؟

وفيها أن الاعتبار فى الأحكام بالمعانى لا بالأسماء، ولهذا جعل النبى ﷺ طلبتهم كطلبة بنى إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك وإن سمى شركه ما سماه، كمن يسمى دعاء الأموات، والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيماً ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، وإن سماه ما سماه. وقس على ذلك. وفيها أن من عبد فهو إله، لأن بنى إسرائيل والذين سألوا النبى ﷺ لم يريدوا من الأصنام والشجرة الخلق والرزق، وإنما أرادوا البركة، والعكوف عندها، فكان ذلك اتخاذاً له مع الله تعالى. وفيها أن معنى الإله هو المعبود، وأن من أراد أن يفعل الشرك جهلاً فنهى عن ذلك فانتهى لايكفر. وأن لا إله إلا الله تنفى هذا الفعل مع دقته وخفائه على أولئك الصحابة. ذكره المصنف، فكيف بما هو أعظم منه؟ ففيه رد على الجهال الذين يظنون أن معناها الإقرار بأن الله خالق كل شيء، وأن ما سواه مخلوق ونحو ذلك من العبارات، والأغلاط على من وقع منه ذلك جهلاً.

وذكر ذلك صاحب **«فتح المجيد»** بشيء من الإختصار.

قال ابن عثيمين[1]: أى: إن الرسول ﷺ قاس ما قاله الصحابة رضى الله عنهم على ما قاله بنو إسرائيل لموسى حين قال: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة؛ فأنتم طلبتم ذات أنواط كما أن لهؤلاء المشركين ذات أنواط.

وقوله عليه الصلاة والسلام: **«والذى نفسى بيده»** المراد أنَّ نفسه بيد الله، لا من جهة إماتتها وإحيائها فحسب؛ بل من جهة تدبيرها وتصريفها أيضاً، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها سبحانه وتعالى -.

قوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم».

قال سليمان آل الشيخ:[2] أى لتتبعن أنتم أيها الأمة سنن من كان قبلكم، بضم السين، أى: طرقهم ومناهجهم وأفعالهم، ويجوز فتح السين. أهـ.

قلت : وفى الحديث الآخر **«لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة»**[3] ففيه شدة الأتباع الدقيق جداً لهم، وقد وقع من ذلك شيء كبير.

---

(١) القول المفيد ١/ ٢٦٠. (٢) تيسير العزيز الحميد (١٣٣).

(٣) سيأتي تخريجه في باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان.

قال ابن عثيمين: أى: لتفعلنَّ مثل فعلهم، ولتقولنَّ مثل قولهم، وهذه الجملة لايراد بها الإقرار، وإنّما يراد بها التحذير؛ لأنَّه من المعلوم أنَّ سنن من كان قبلنا مما جرى تشبيه سنن ضالّة، حيث طلبوا آلهة مع الله؛ فأراد النبى عليه الصلاة والسلام أن يحذِّر أمَّته أن تركب سنن من كان قبلها من الضلال والغى.

والشاهد من هذا الحديث قولهم: **«اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»**؛ فأنكر عليهم النبى ﷺ.

قال النووى ـ وهو مؤدى ما ذكر صاحب «تحفة الأحوذى» عن النووى حيث قال ـ: وفى هذا معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ فقد وقع ما أخبر به ﷺ.

قال سليمان آل الشيخ(١): وهذا خبر صحيح وجد كما أخبر ﷺ ففيه دليل على شهادة أن محمداً رسول الله.

وفى الحديث من الفوائد غير ما تقدم:

النهى عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين، وأنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيها التنبيه على مسائل القبر، أما من ربك؟ فواضح، وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: اجعل لنا إلهاً إلى آخره، قاله المصنف.

وفيه أن الشرك لابد أن يقع فى هذه الآمة؛ كما وقع فيمن قبلها، ففيه رد على من قال: إن الشرك لايقع فى هذه الأمة.

وفيه سد الذرائع.

والغضب عند التعليم.

وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى، فإنه لنا لنحذره، ذكر ذلك المصنف.

تنبيه: ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب كشرب سؤرهم، والتمسح بهم أو بثيابهم، وحمل المولود إلى أحد منهم ليحنكه بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين، والتبرك بعرقهم ونحو ذلك، وقد أكثر من ذلك أبو زكريا النووى فى «شرح مسلم» فى الأحاديث التى فيها أن الصحابة فعلوا شيئاً من ذلك مع النبى ﷺ، وظن أن بقية الصالحين فى ذلك كالنبى ﷺ وكذلك الحافظ فى «الفتح» وهذا خطأ صريح لوجوه:

منها: عدم المقاربة فضلاً عن المساواة للنبى ﷺ فى الفضل والبركة؟.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ١٣٣و١٣٤.

ومنها: عدم تحقق الصلاح، فإنه لايتحقق إلا بصلاح القلب، وهذا أمر لايمكن الإطلاع عليه إلا بنص، كالصحابة الذين أثنى الله عليهم ورسوله، أو أئمة التابعين، أو من اشتهر بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح وقد عدم أولئك، أما غيرهم فغاية الأمر أن نظن أنهم صالحون فنرجو لهم.

ومنها: أنا لو ظننا صلاح شخص فلا نأمن من أن يختم له بخاتمة سوء، والأعمال بالخواتيم، فلا يكون أهلاً للتبرك بآثاره.

ومنها: أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره لا فى حياته، ولابعد موته، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، فهلا فعلوه مع أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ونحوهم من الذين شهد لهم النبى ﷺ بالجنة؟ وكذلك التابعون هلا فعلوه مع سعيد بن المسيب وعلى بن الحسين وأويس القرنى، والحسن البصرى ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم؟ فدل أن ذلك مخصوص بالنبى ﷺ.

ومنها: أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه، وتعجبه نفسه، فيورثه العجب والكبر والرياء، فيكون هذا كالمدح فى الوجه بل أعظم.

[قلت ـ الفقير ـ]: «قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل».

أخبر أن هذا الأمر الذى طلبوه منه هو اتخاذ شجرة للعكوف عندها تبركاً كالأمر الذى طلبه بنو إسرائيل من موسى هذا مثل هذا تماماً، حيث قال «**اجعل لنا إلهاً كما لهم ألهه، قال إنكم قوم تجهلون**» فالنبى ﷺ لما وجد من الصحابة ما يقارب بنى إسرائيل قال «**قلتم كما قالت بنو إسرائيل**»، وجعل حكم الأصنام مثل حكم الأشجار والصحابة ـ على جلالة قدرهم ـ جهل بعضهم ممن كان حديث عهد بكفر ـ أشياء من التوحيد، فما بالنا نحن؟!. ونرى أهمية دراسة وتعلم علم التوحيد ظاهر فى الحديث.

وفى الحديث أيضا يتبين أن: مسألة التبرك لم يقع فيها الصوفية فقط، بل ونحن أيضاً، إذا لم نتنبه لذلك.

قال الفقير: ومن فوائد[1] حديث أبى واقد الليثى: المرحلية فى الدعوة...

طريقة تدرج للخروج من هذه العادة فلاتخرجه مرة واحدة منها بل لابد أن يكون هناك تدرج، والنبى ﷺ فعل ذلك فى عدة مواقف، من ذلك ما جاء فى الحديث المخرج فى الصحيح من **حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله. ومن قال لأخيه تعالى أقامرك**

(١) وبعض هذه الفوائد تقدم؛ غير أننا ذكرناها لفائدته الدعوية

فليتصدق»(١) فهو حديث عهد بكفر، ولسانه تعود على الحلف باللات والعزى، وهم لايساوون شيئاً عنده، ولكن كيف نخرجه عن تعوده هذا؟.

الجواب: لانقول له لو حلفت باللات والعزى تكون كفرت، لا بل الشرع راعى هذا فى الناس، فبين أنه لامانع بعد الكفر بهم وبعد اجتناب عبادتهم لامانع أنك إن وقعت فى الحلف بهم لا قصداً بل لأن اللسان يحتاج لتدريب على الامتناع من الحلف بها فإن قلت له فلها كفارة: **كفارتها (لا إله إلا الله)** وكذلك من كان فى الجاهلية ثم التزم، وقد تعود على الحلف بالنبى ﷺ فلا مانع أن يقول بعد الحلف (لا إله إلا الله) ومثل من قال لأخيه (تراهنى) وهى كلمة مندرجة على اللسان، فالنبى ﷺ قال: **«من قال لأخيه تعالى أقامرك ليتصدق»** نتصور بعض الأخوة قال (تراهنى) ثم أخرج من جيبه صدقة ثم قال مرة ثانية وأخرج صدقة ثم سوف يتريث فى المرة الثالثة ولايقولها أبداً.

فكأن الشرع راعى شدة الجاهلية فى الناس وأنه يصعب على من اعتاد عليها ـ أى العادة كانت ـ مما ذمها الشرع ان يتركها.

ولذلك عائشة رضى الله عنها بينت أنه: «لم يكن أول ما نزل لاتشربوا الخمر، ولو كان أول ما نزل لاتشربوا الخمر لقال الناس لا ندع الخمر»(٢) أى لم يكن الناس أذعنت، ولكن نزل التحريم تدريجياً مثل **﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾** ثم نزل **﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾** كان هذا تمهيداً لأصحاب العادات المذمومة شرعاً للخروج من الإدمان، وفى بداية الأمر بالنسبة لشرب الخمر لم يكن به حد بل كان الصحابة يضربون الشارب بالنعال وذلك لمراعاة أنهم كانوا حدثاء عهد بشرب الخمر، ولم يجلده وضعاً للحد وذلك ليبينوا أن الأمر فيه سعة وفيه رحمة، فعلى الداعية أن يتدرج فى الدعوة حتى لاينفر صاحب المعصية يعنى كأن يقول له: لو أنه هو شارب الخمر أو ممن يستعمل العادة السرية: لاتأتى بها أثناء النهار من أجل الصلوات، وهكذا.

وأنا أقول هذا الكلام لكى نفسر **(حدثاء عهد بكفر)**، فهذا من دواعى خروج مثل هذه الكلمات من ألسنتهم، لما تمكنت العادات الجاهلية منهم أن يقولوا **«والعزى والكعبة» «ورحمة أبى»** فكان لها علاج إذا قلت ذلك فقل **«لا إله إلا الله»**.

وإذا كنت لاتشعر من فعل هذه الأمور أنه بهذه الطريقة أو بهذه المعصية قد خرج من الدين والإسلام، وبينت له أن الأمر فيه سعه، ليعود ويتوب وأنت بذلك لاتجرأه على

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٩٩٣).

المعصية، بل لا تيأسه من التوبة وتبين له سعه الأمر ورحمة الله وتقول له: ولو أخطأت ارجع إلى الله مرة أخرى.

قوله: (نحن حدثاء عهد بكفر) فيه دليل على أنهم هم لاغيرهم يجهلون هذا.

وفيه أيضاً.

أن المتنقل من العادة التى اعتادها قلبه لايأمن أن يكون فى قلبه شيء منها.

مثل: اللات والعزى، ونحن جميعاً فى حالة الغضب يخرج منا مثل هذه الأمور الجاهلية، فلاتكون هذه هى النهاية بالنسبة للأخ، ولانخرجه نحن عن دائرة الإلتزام، بل نحن ننكر عليه، ولكن فى نفس الوقت الإنكار يكون بقدر لاينفره ولايبعده عنا.

فالنبى ﷺ هنا أنكر وأنكر إنكاراً شديداً وذلك لأنهم يتحملون ذلك، ولكن لو غيرهم لايتحمل ذلك فلامانع من الإنكار الذى هو أخف من ذلك فتكون شدة الانكار على قدر تحمل من تنكر عليه، وفى كلا الأمرين لايخلو من حكمة الداعى.

قوله [ذات أنواط] سميت ذات أنواط أى صاحبة الأنواط التى تعلق عليها الأسلحة وكانت تعبد من دون الله فلما رأها النبى ﷺ صرف عنها فى يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها مع أن الشجرة كانت كبيرة ولها ظل كبير ولكن النبى ﷺ لم يجلس تحتها رغم شدة الحر وفيه دليل على سد الذرائع حتى لايقال أنه جالس للتبرك لالللظل، فمجرد القعود شبهه، وأن القدوة للناس لايفعل أمراً هو فى نفسه أو عنده حسن، ولكن ربما رآه الناس على هذا الحال فيتخذونه حجة على باطل.

مثل بعض الإخوة الذين يلعبون الكرة، حتى أن بعضهم عنده فتوى أن الكرة حلال فلو رآه بعض المقلدين له وهو يرتدى قميصاً أبيضاً وذا لحية كثة، والكرة فى يده. فسوف يأخذه الناس حجة على اللعب وغيره.

ومثل ما يحدث أثناء لعب الكرة من سب الدين، والرهان، وسب الأب والأم، وعلى كل شيء يتعلق بلعب الكرة، وعامة الناس لايعرفون أن هذا الأخ متأول، ـ وهذا التأويل باطل عندى ـ، وعلى فرض صحة اعتقادك فيترك من باب سد الذرائع.

فالنبى ﷺ سوف يستظل فقط ولكن تحت شجرة مشبوهه.. وقد يفهم من فعله أمر آخر؛ لذلك لم يفعله ﷺ، فالنبى صرف عنها فى يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها وهذا الأمر يذكرنى برخص كثيرة نأخذ بها مثل: بعض الأخوة الذين يسافرون إلى المصايف متأولين أو يمثلون المسرحيات متأولين أنها إسلامية وكذلك فرق الغناء التى فى

الأفراح التى تسمى بالأفراح الإسلامية.... إلخ فهذه أمور مشبوهة، وكذلك من قُدم له لحم مشبوه فيأكله، فهل هذا مما اضطر إليه فلاتوجد أطعمة أخرى؟

الجواب: لا، لكن يقول: أنا أكل اللحم المشبوه أحسن من الفول، ولأنه ليس لديه عزيمة فهذا الرجل حتى وإن كان عنده هذا اللحم حلال ـ على ما فيه من شبهة ـ فالناس سوف تأخذه مُتمسَك على تحليل ذلك ولايصلح ذلك، فالنبى ﷺ ترك الظل الظليل إلى ظل ليس بظليل ليسد مثل هذا الباب

وهذا الأمر يذكرنى أيضاً بقصة أخ ركب مع سائق سيارة وكان السائق مستمع لأغنية، فقال الأخ للسائق أغلق التسجيل فقال له: لا فقال له: أغلق، فقال: لا. فقال الأخ للسائق: اذاً أنزلنى هنا ـ وكان المكان صحراء ـ.

لو أنكرنا مرة بالقلب سوف نعود والمنكر لا يقف، ويصعد بعض عوام الناس السيارة، فيجد الشيخ الذى عليه علامات السنة جالس والأغانى دائرة، فيقول: كيف يقعد الشيخ ولاينكر؟ فيظن أنه إقرار من الشيخ على جواز الأغانى، وأنها ليست بمحرمة ـ ذلك لأن الشيخ لم ينكر هذا ـ ولو ضحك هذا الشيخ من أى موقف، فيقولوا أنظروا الشيخ قاعد وهو سعيد ومسرور أيضاً، وهذا الأخ الذى أنكر على السائق فعل كما فعل النبى ﷺ سداً للذرائع.

والشاهد أن النبى ﷺ أخذ بالعزيمة سداً للذريعة.

قال الشارح: يجمع بينهما ـ أى: حديث ينطون أسلحتهم، وحديث يعكفون عندها ـ فكأن العكوف عندها بقصد التبرك وكان التعليق بقصد التبرك أيضاً لأنه لو جلس عند الشجرة برهة ثم حارب سوف ينتصر، كذلك لو علق السلاح عليها سوف ينتصر ويقال لها ذات أنواط قال **أبو السعادات**: سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك أ.هـ.

قال الفقير: الصحابة لما طلبوا ذلك لم يكن ذلك من باب الشرك الأكبر لأن الصحابة لا يتصور منهم ذلك ولاهم قصدوا الشرك الأكبر ولامجرد السؤال وإلا صاروا مشركين شركاً أكبر، بل كأن سؤالهم هو أنهم يقترحون على النبى ﷺ أن المشركين لهم أمور يتبركون بها تبركاً ممنوعاً، فهلا جعلت لنا أشياء نطلب منها البركة؟ ولم يقصد النبى ﷺ أن يحكم على الصحابة بل قصد أن يبين لهم قبح فعل هؤلاء يقول لهم أو تظنوا أن فعل هؤلاء محمود قوله واحده؟ أو فيها قولان؟ بل هى مذمومة قولة واحدة وهى أشبه بالأصنام التى مر عليها موسى وقومه، وقولكم أشبه بقول قوم موسى الذين قالوا «**اجعل لنا إلهاً كما لهم ألهة**» لأنهم ظنوا أن الشجر ليس كالصنم، ولكن الشجرة، كانت غريبة شيئاً ما، فالرسول ﷺ بين لهم أنها ليست بغريبة ولكن هذا

فيه مسائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيةِ النَّجْمِ.

الثانية: مَعْرِفَةُ صُورَةِ الأمْرِ الذى طَلَبُوا.

الثالثة: كَوْنُهُمْ لَمْ يَفعلُوا.

الشجر يأخذ حكم الصنم لو فعل معه مثل ما يفعل مع الأصنام، والدليل على هذا أن قولهم أشبه بقول قوم موسى لما مروا على الأصنام «**اجعل لنا إلهاً كما لهم ألهة**» لكن الصحابة لو كانوا مروا على صنم، فهل يُظن بهم أن يطلبوا من الرسول ذلك؟ لايمكن أبدا إنما هم طلبوا فى هذا الموقف الآخر لأنهم ظنوا أن هذه الصورة ـ صورة الشجرة ـ غير الأصنام فالرسول ﷺ بين لهم أن هذه مثل هذه وسؤالكم مثل سؤالهم.



قال ابن عثيمين(١):

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

أى: قوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ الآية، وسبق تفسيرها، وأن الله تعالى أنكر على هؤلاء الذين يعبدون اللات والعزى، وأتى بصيغة الإستفهام الدالة على التحقير والتصغير لهذه الأصنام.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذى طلبوا.

وهو أنهم طلبوا من النبى ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما أنَّ للمشركين ذات أنواط، وهم إنَّما أرادوا أن يتبرَّكوا بهذه الشجرة لا أن يعبدوها؛ فدلَّ ذلك على أنَّ التبرك بالأشجار ممنوع، وأنَّ هذا من سنن الضالين السابقين من الأمم.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

أى: لم يعلّقوا أنواطاً على الشجرة، ويطلبوا من الرسول ﷺ أن يقرَّهم على هذا العمل، بل طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذلك.

قلت: وفى ذلك أنهم علموا أن التبرك عبادة والعبادة الأصل فيها التوقيف فلذا لم يفعلوا ابتداءً حتى سألوا الرسول فأجابهم بما تقدم.

---

(١) القول المفيد ١/ ٢٦١: ٢٧٤.

الرابعة: كَوْنُهُمْ قَصَدُوا التَّقَرُّبَ إِلَى الله بِذلِكَ؛ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُ يُحِبُّهُ.

الخامسة: أَنَّهُمْ إِذَا جَهِلُوا هذا؛ فَغَيْرُهُمْ أَوْلَى بالجَهْلِ.

السادسة: أَنَّ لَهُمْ مِنَ الحَسَنَاتِ وَالوَعْدِ بِالمَغْفِرَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِم.

السابعة: أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) لَمْ، يَعْذُرْهُم بَلْ رَدَّ عَلَيْهِم بِقَوْلِه: «الله أَكْبَرُ! إِنَّها السُّنَنُ! لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم»؛ فَغَلَّظَ الأَمْرَ بِهذِهِ الثَّلاث.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه.

«**بذلك**»؛ أى: بتعليق الأسلحة ونحوها على الشجرة التى يعينها الرسول ﷺ، ولهذا طلبوا ذلك من الرسول لتكتسب بهذا معنى العبادة.

الخامسة: أنَّهم إذا جهلوا هذا؛ فغيرهم أولى بالجهل.

لأنَّ الصحابة لاشكَّ أعلم الناس بدين الله، فإذا كان الصحابة يجهلون أنَّ التبرك بهذا نوع من اتخاذها إلهاً؛ فغيرهم من باب أولى، وقصد المؤلف ـ رحمه الله ـ بهذا أن لانغتر بعمل الناس؛ لأنَّ عمل الناس قد يكون عن جهل؛ فالعبرة بما دلَّ عليه الشرع لابعمل الناس.

قلت: وإن كانوا الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فمن دونهم من باب أولى.

السادسة: أنَّ لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

وهذا معلوم من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿**لا يَسْتَوِى منكُم مَّنْ أَنفقَ من قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى**﴾ فالصحابة رضى الله عنهم لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة وأسباب المغفرة ما ليس لغيرهم، ومع ذلك لم يعذرهم النبى ﷺ بهذا الطلب.

السابعة: أنَّ النبى ﷺ لم يعذرهم، بل ردَّ عليهم بقوله: «الله أكبر! إنَّها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم»؛ فغلَّظ الأمر بهذه الثلاث.

وهى قوله: «**الله أكبر**»، وقوله: «**إنها السنن**»، وقوله: «**لتركبنَّ سنن من كان قبلكم**» فغلظ الأمر لهذا، لأن التكبير استعظاماً للأمر الذى طلبوه، «وإنها السنن» تحذير، و«**لتركبن سنن من كان قبلكم**» كذلك أيضاً تحذير.

الثامنة: الأَمْرُ الكَبِيرُ ـ وَهُوَ المَقصُودُ ـ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ طَلَبَهُمْ كَطَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيل لَمَّا قَالُوا لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلهاً.

التاسعة: أَنَّ نَفْيَ هذا مِنْ مَعْنَى (لاَ إِلَهَ إلا الله) مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائِهِ عَلَى أُولئكَ.

العاشرة : أَنَّهُ حَلَفَ عَلَى الفُتْيا، وَهُوَ لا يَحْلِفُ إلا لِمَصْلَحَة.

الحادية عشرة : أَنَّ الشِّرْكَ فِيهِ أَصْغَرُ وأَكْبَرُ ؛ لأَنَّهُم لَمْ يَرْتَدُّوا بِهذا.

الثامنة: الأمر الكبير وهو المقصود أنَّه أخبر أنَّ طلبهم كطلب بنى إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

فهؤلاء طلبوا سدرة يتبركون به كما يتبرَّك المشركون بها، وأولئك طلبوا إلهاً كما لهم آلهة؛ فيكون فى كلا الطلبين منافاة للتوحيد؛ لأنَّ التبرُّك بالشجر نوع من الشرك، واتخاذه إلهاً شرك واضح.

التاسعة: أنَّ نفى هذا من معنى: لا إله إلا الله، مع دقته وخفائه على أولئك.

أى: أنَّ نفى التبرك بالأشجار ونحوها من معنى لا إله إلا الله؛ فإنَّ لا إله إلا الله تنفى كل إله سوى الله، وتنفى الألوهية عما سوى الله ـ عزوجل ـ؛ فكذلك البركة لاتكون من غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

العاشرة: أنَّه حلف على الفتيا وهو لايحلف إلا لمصلحة.

أى: أن النبى ﷺ حلف على الفتيا فى قوله: **«قلتم، والذى نفسى بيده»**، والنبى ﷺ لايحلف إلاّ لمصلحة، أو دفع مضرَّة ومفسدة، فليس ممن يحلف على أى سبب يكون، كما هى عادة بعض الناس.

قلت: والمصلحة هنا هى التأكيد على القطع بنفى الفارق بين ما طلبوا وبين مطلب اليهود من موسى عليه السلام.

الحادية عشرة: أنَّ الشرك فيه أصغر وأكبر؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا.

حيث لم يطلبوا جعل ذات الأنواط لعبادتها، بل للتبرك بها، والشرك فيه أصغر وأكبر، وفيه خفىٌّ وجلىٌّ.

فالشرك الأكبر: ما يُخرج الإنسان من الملّة.

والشرك الأصغر: ما دون ذلك.

لكن كلمة (مادون ذلك) ليست ميزاناً واضحاً. ولذلك اختلف العلماء في ضابط الشرك الأصغر على قولين:

القول الأول: أنَّ الشرك الأصغر كل شيء أطلق الشارع عليه أنَّه شرك ودلت النصوص على أنَّه ليس من الأكبر، مثل: «**من حلف بغير الله؛ فقد أشرك**»[1]؛ فالشرك هنا أصغر؛ لأنَّه دلَّت النصوص على أن مجرَّد الحلف بغير الله لايُخرج من الملة.

قلت: وقد تقدمت هذه الضوابط.

القول الثاني: أن الشرك الأصغر: ما كان وسيلة للأكبر، وإن لم يطلق الشرع عليه اسم الشرك، مثل: أن يعتمد الإنسان على شيء كإعتماده على الله، لكنه لم يتخذه إلهاً؛ فهذا شرك أصغر[2]؛ لأنَّ هذا الإعتماد الذى يكون كإعتماده على الله يؤدى به فى النهاية إلى الشرك الأكبر، وهذا التعريف أوسع من الأول؛ لأنَّ الأول يمنع أن تطلق على شيء أنَّه شرك إلا إذا كان لديك دليل، والثانى جعل كل ما كان وسيلة للشرك فهو شرك، وربما نقول على هذا التعريف: إن المعاصى كلها شرك أصغر؛ لأنَّ الحامل عليها الهوى، وقد قال تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾[3]، ولهذا أطلق النبى ﷺ الشرك على تارك الصلاة، مع أنَّه لم يشرك؛ فقال: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر: ترك الصلاة**»[4].

فالحاصل أنَّ المؤلف ـ رحمه الله ـ يقول: إنَّ الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنَّهم لم يرتدوا بهذا، وسبق وجه ذلك.

الجلىّ والخفىّ؛ فبعضهم قال: إنَّ الجلىّ والخفىّ هو الأكبر والأصغر، وبعضهم قال: الجلىّ ما ظهر للناس من أصغر أو أكبر؛ كالحلف بغير الله والسجود للصنم.

والخفى: مالايعلمه الناس من أصغرأو أكبر؛ كالرياء، واعتقاد أن مع الله إلهاً آخر.

وقد يقال: إن الجلى ما انجلى أمره وظهر كونه شركاً؛ ولو كان أصغر والخفى: ما سوى ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) بشرط أن يكون الإعتماد صحيحاً، فإن كان غير صحيح كالاعتماد على الموتى ونحوهم؛ فهو شرك أكبر.

(٣) الجاثية: ٢٣.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٧٠ ـ النووي) عن جابر به.
وانظر «السلسبيل» (٢٥١ ـ بتخريجنا).

الثانية عشرة: قَوْلُهُم (وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ)؛ فِيهِ أَنَّ غَيْرَهُمْ لاَ يَجْهَلُ ذلِكَ.

الثالثة عشرة: التَّكْبِيرُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ؛ خِلاَفاً لِمَنْ كَرِهَهُ.

وأيهما الذى لايغفر؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنَّ الشرك لايغفره الله ولو كان أصغر؛ لعموم قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾[1]، و﴿**أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾ مؤول بمصدر تقديره: شركاً به، وهو نكرة فى سياق النفى، فيفيد العموم[2].

وقال بعض العلماء: إنَّ الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة، وأنَّ المراد بقوله: ﴿**أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾ الشرك الأكبر، وأمَّا الشرك الأصغر؛ فإنه يغفر لأنَّه لايُخرج من الملة، وكل ذنب لايخرج من الملة؛ فإنَّه تحت المشيئة، وعلى كلٍ؛ فصاحب الشرك الأصغر على خطر، وهو أكبر من كبائر الذنوب، قال ابن مسعود رضى الله عنه: «لأنْ أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً»[3].

الثانية عشرة: قوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر...».

معناه: أنه يعتذر عما طلبوا، حيث طلبوا أن يجعل لهم ذات أنواط؛ فهم يعتذرون لجهلهم بكونهم حدثاء عهد بكفر، وأما غيرهم ممن سبق إسلامه؛ فلايجهل ذلك.

وعلى هذا؛ فنقول: إنه ينبغى للإنسان أن يقدّم العذر عن قوله أو فعله حتى لايعرض نفسه إلى القول أو الظن بما ليس فيه، ويدل لذلك حديث صفية حين شيعها الرسول ﷺ وهو معتكف، فمرَّ رجلان من الأنصار، فقال: «**إنها صفية بنت حيى**»[4].

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب... إلخ.

تؤخذ من قوله: «**الله أكبر**»؛ أى: الله أكبر وأعظم من أن يشرك به، وفى رواية الترمذى أنه قال: «**سبحان الله**»؛ أى: تنزيهاً لله عما لايليق به قلت: وقد تقدم أن فيه مشروعية التكبير والتسبيح لغير الذكر.

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) انظر: «الرد على البكرى» (ص١٤٦).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٠٣٨) ومسلم في السلام (٧/٤١١/٢٤).

الرابعة عشرة : سَدُّ الذَّرَائِعِ.

الخامسة عشرة : النَّهْيُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ.

السادسة عشرة : الغَضَبُ عِنْدَ التَّعْلِيم.

السابعة عشرة : القَاعِدَةُ الكُلِّيَّةُ. لِقَوْلِهِ: «إِنَّهَا السُّنَنُ».

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الذرائع: الطرق الموصلة إلى الشيء، وذرائع الشيء: وسائله وطرقه.

والذرائع نوعان:

أ ـ ذرائع إلى أمور مطلوبة؛ فهذه لاتسدّ، بل تفتح وتطلب.

ب ـ ذرائع إلى أمور مذمومة؛ فهذه تسدّ، وهو مراد المؤلف رحمه الله تعالى.

وذات الأنواط وسيلة إلى الشرك الأكبر، فإذا وضعوا عليها أسلحتهم وتبرَّكوا بها؛ يتدرج بهم الشيطان إلى عبادتها وسؤالهم حوائجهم منها مباشرة، فلهذا سدّ النبى ﷺ الذرائع.

الخامسة عشرة: النهى عن التشبه بأهل الجاهلية.

تؤخذ من قوله: «**قلتم كما قالت بنو إسرائيل**»؛ فأنكر عليهم، وبهذا نعرف أن الجاهلية لاتختص بمن كان قبل زمن النبى ﷺ، بل كل من جهل الحق وعمل عمل الجاهلين؛ فهو من أهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

والحديث ليس بصريح فى ذلك، وربما يؤخذ من قرائن قوله: «**الله أكبر! إنها السنن...**»؛ لأن قوة هذا الكلام تفيد الغضب.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن».

أى: الطرق، وأن هذه الأمة ستتبع طرق من كان قبلها، وهذا لايعنى الحلَّ والإباحة، ولكنه للتحذير؛ كما قال الرسول ﷺ: «**ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار؛ إلا واحدة**»(1)، وقال: «**ليكونن من أمتى أقوام يستحلون الحر والحرير...**»(2) الحديث، وقال: «**إنّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا**

---

(1) أخرجه ابن أبى عاصم فى «السنة» (٦٤)، وابن ماجه (٣٩٩٣) عن أنس به.
وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(2) تقدم تخريجه.

الثامنة عشرة : أَنَّ هذَا عَلَمٌ مِنْ أَعْلاَمِ النُّبُوَّةِ لِكَوْنِهِ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ.

التاسعة عشرة : أَنَّ كُلَّ ماذَمَّ الله بِهِ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى فِى القُرْآن؛ أَنَّهُ لَنَا.

تخاف أحداً إلا الله»[1]، وما أشبه ذلك من الأمور التى أخبر النبى ﷺ عن وقوعها مع تحريمها.

الثامنة عشرة: أنَّ هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر.

يعنى اتباع سنن من كان قبلنا.

فإن قال قائل: إنَّ النبى ﷺ قد خطب الناس بعرفة، وقال: «**إنَّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب»**[2]؛ فكيف تقع عبادته.

فالجواب: أنَّ إخبار النبى ﷺ بيأس الشيطان لايدلّ على عدم الوقوع، بل يجوز أن يقع، على خلاف ما توقعه الشيطان؛ لأنَّ الشيطان لما حصلت الفتوحات، وقوى الإسلام، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً؛ يئس أن يعبد سوى الله فى هذه الجزيرة، ولكن حكمة الله تأبى إلاّ أن يكون ذلك، وهذا نقوله ولابد؛ لئلا يقال: إنَّ جميع الأفعال التى تقع فى الجزيرة العربية لايمكن أن تكون شركاً، ومعلوم أن الشيخ محمد ابن عبدالوهاب.

رحمه الله جدد التوحيد فى الجزيرة العربية، وأنَّ الناس كانوا فى ذلك الوقت فيهم المشرك وغير المشرك.

فالحديث أخبر عما وقع فى نفس الشيطان ذلك الوقت، ولكنه لايدل على عدم الوقوع، وهذا الرسول ﷺ يقول: «**لتركبنَّ سنن من كان قبلكم**»، وهو يخاطب الصحابة وهم فى جزيرة العرب.

التاسعة عشرة: أنَّ ماذم الله به اليهود والنصارى فى القرآن أنَّه لنا.

هذا ليس على إطلاقه وظاهره، بل يحمل قوله: «**لنا**»؛ أى: لبعضنا، ويكون المراد به المجموع لا الجميع؛ كما قال العلماء فى قوله تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ**﴾[2]، والرسل كانوا من الأنس فقط.

فقوله: «**إنه لنا**»؛ أى: قد يكون من بعضنا.

فإذا وقع تشبه باليهود والنصارى؛ فإنَّ الذم الذى يكون لهم يكون لنا، وما من أحد

---

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٣٥٩٥) عن عدي بن حاتم به.

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٩/ ١٧١/ ٦٥) عن جابر به..

(٢) الأنعام: ١٣٠.

العشرون: أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَهُم أَنَّ العِبَادَاتِ مَبْنَاهَا عَلَى الأَمْرِ، فَصَارَ فِيهِ التنبيه عَلَى مَسَائِلِ القَبْرِ: أَمَّا (مَنْ رَبُّكَ؟) فَوَاضِحٌ وَأَمَّا (مَنْ نَبِيُّكَ؟)؛ فَمِنْ إِخْبَارِهِ بِأَنْبَاءِ الغَيْبِ، وأَمَّا (ما دِينُكَ) فَمِنْ قَوْلِهِم: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً ...) إِلَى آخِرِهِ.

من الناس غالباً إلا وفيه شبه باليهود أو النصارى؛ فالذى يعصى الله على بصيرة فيه شبه من اليهود، والذى يعبد الله على ضلالة فيه شبه من النصارى، والذى يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فيه شبه من اليهود، وهَلُمَّ جرّاً.

وإن كان يقصد ـ رحمه الله ـ أنَّه لابد أن يكون فى الأمة خصلة؛ فهذا على إطلاقه وظاهره؛ لأنَّه قلّ من يسلم.

وإن أراد أنّ كل ما ذُمَّ به اليهود والنصارى؛ فهو لهذه الأمة على سبيل العموم؛ فلا.

العشرون: أنَّه متقرر عندهم أنَّ العبادات مبناها على الأمر... إلخ.

قلت: تؤخذ كما تقدم من أنهم لم يفعلوا لابتداءً بل سألوا الرسول.

قال ابن عثيمين: وهذا واضح؛ فالعبادات مبناها على الأمر، فما لم يثبت فيه أمر الشارع؛ فهو بدعة، قال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ**»(١)، وقال: «**إيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة**»(٢).

فمن تعبّد بعبادة طولب بالدليل؛ لأن الأصل فى العبادات الحظر والمنع، إلا إذا قام الدليل على مشروعيتها.

وأمّا الأكل والمعاملات والآداب واللباس وغيرها؛ فالأصل فيها الإباحة؛ إلا ما قام الدليل على تحريمه.

وقوله: «**مسائل القبر التى يسأل فيها الإنسان فى قبره: من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟**».

ففى هذه القصة دليل على مسائل القبر الثلاث، وليس مراده أنَّ فيها دليلاً على أنَّ الإنسان يسأل فى قبره، بل فيها دليل على إثبات الربوبية والنبوة والعبادة.

أمَّا «**من ربك**»؛ فواضح يعنى أنه لارب إلا الله تعالى.

وأما «**من نبيك**»؛ فمن إخباره بالغيب قال ﷺ: «**لتركبنَّ سنن من كان قبلكم حذو القذَّة بالقذَّة**»(٣)؛ فوقع كما أخبر.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٢/١٨ ـ النووي) عن عائشة به، وانظر «رياض الصالحين» (١٦٥٠ ـ بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سيأتي تخريجه.

الحادية والعشرون : أَنَّ سُنَّةَ أَهْلِ الكِتَابِ مَذْمُومَةٌ كَسُنَّةِ الْمُشْرِكِينَ.

الثانية والعشرون : أَنَّ الْمُنْتَقِلَ مِنَ البَاطِلِ الَّذى اعْتَادَهُ قَلْبُهُ لا يُؤْمَنُ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ تلك العَادَةِ؛ لِقَوْلِه: «وَنحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ».

أمَّا «**ما دينك**»؛ فمن قولهم: ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا**﴾؛ أى: مألوهاً معبوداً، والعبادة هى الدين.

والمؤلف ـ رحمه الله ـ محمد بن عبدالوهاب فهمه دقيق جداً لمعانى النصوص؛ فأحياناً يصعب على الإنسان بيان وجه استنباط المسألة من الدليل.

الحادية والعشرون: أنَّ سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين.

تؤخذ من قوله: «**كما قالت بنو إسرائيل لموسى**».

الثانية والعشرون: أنَّ المنتقل من الباطل الذى اعتاده قلبه لايؤمن أن يكون فى قلبه بقية من تلك العادة.

وهذا صحيح؛ فالإنسان المنتقل من شىء، سواء باطلاً أو لا؛ لايؤمن أن يكون فى قلبه بقية منه، وهذه البقية لاتزول إلا بعد مدة؛ لقوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر»؛ فكأنه يقول: ما سألناه إلا لأنَّ عندنا بقية من بقايا الجاهلية، ولهذا كان من الحكمة تغريب الزانى بعد جلده عن مكان الجريمة؛ لئلا يعود إليها.

فالإنسان ينبغى أن يبتعد عن مواطن الكفر والشك والفسوق؛ حتى لا يقع فى **قلبه** شىء منها.

قال الفقير: وفيه من المسائل والفوائد بخلاف ما تقدم:

ربط القرآن بالواقع وذلك ظاهر فى قوله ﷺ: «**هذا كما قالت بنو إسرائيل ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ إنكم تركبون سنن من كان قبلكم**» فالرسول ﷺ يبين أن صورة الآلهة غير محصورة فى الأصنام فقط، بل قد تتعدى لغيرها إذا ما بذل له نوع طاعة سواء كان شجر أو بشر، ويبين لهم كذلك أن الآية ليست خاصة فى اليهود فقط، بل هى عامة فى كل من ركب سننهم، ويبين كذلك فى هذه القصة حتمية ربط القرآن بالواقع وتنزيله عليه،... ولمزيد تأصيل وتفصيل المسألة راجع كتابنا «فتح ذى الجلال تخريج أحاديث الظلال» والحمد لله رب العالمين.



٩ بابٌ ما جاءَ في الذبح لغيرِ الله

● **شرح الترجمة ومناسبة الباب لكتاب التوحيد وبيان حكم الذبح**

قال سليمان آل الشيخ: (١) فى شرح باب ما جاء فى الذبح لغير الله: أى من الوعيد وهل يكون شركاً أم لا؟

قال ابن عثيمين(٢):

قوله «فى الذبح» أى: ذبح البهائم

قوله «لغير الله» اللام للتعليل أهـ . و«القصد: أى قاصداً بذبحه غير الله»أهـ

وجزم عبد الرحمن(٣) **آل الشيخ** بأنه شرك بالله.

وأكد على ذلك صاحب **«فتح الله الحميد المجيد»** (٤) بقوله «وأنه شرك من فعله دخل النار إن لم يتب منه». أهـ .

وكذلك ناصر السعدى(٥): أنه شرك بأن نصوص الكتاب والسنة صريحة فى الأمر بالذبح لله وإخلاص ذلك لوجهه كما هى صريحة بذلك فى الصلاة: فقد قرن الله الذبح بالصلاة فى عدة مواضع من كتابه.

وإذا ثبت أن الذبح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام. أهـ.

وأكد على هذا ابن باز(٦) بقوله: «أى ما جاء فيه من الوعيد وأنها من الشرك الأكبر كما دلت الأدلة.اهـ.

وهو مؤدى قول حافظ حكمى حيث قال فى منظومته: (٧)

والذبح والنذرُ وغير ذلك ... فافهم هُديت أوضح المسالك
وصرفُ بعضها لغير الله ... شرك وذاك أقبح المناهى

قوله (والذبح) أى ومن أنواع العبادة الذبح نسكاً لله تعالى من هدى وأضحية وعقيقة وغير ذلك، قال الله عز وجل ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾(٨) م وقال تعالى ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي**

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١٣٤)
(٢) القول المفيد ١/ ٢٧٥
(٣) فتح المجيد (١/ ١٧٦)
(٤) فتح الله الحميد المجيد (٩٢١٩)
(٥) القول السديد (٤٢)
(٦)التعليق المفيد (٧٩)
(٧) المعارج ١/ ٣٥٤، ٣٩٧، ٣٦٥
(٨) الكوثر: ٢.

وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾[1] الآيات.

وقال تعالى ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا﴾[2].

وقال أيضاً: و«صرف بعضها» أى شىء منها قل أوكثر (لغير الله) كائناً من كان من ملك أو نبى أو ولى أو قبر أو جنى أو شجر أو حجر أو غيره، كل ذلك (شرك) أكبر، (وذاك) إشارة إلى الشرك هو لأقبح المناهى على الإطلاق، قال الله عز وجل **﴿ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾**.

وفصّل ابن عثمين [3] القول فى المسألة وقسم الذبح لغير الله إلى قسمين: **القسم الأول»**:

أن يذبح لغير الله تقرباً وتعظيماً؛ فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

القسم الثانى

- أن يذبح لغير الله فرحاً وإكراماً؛ فهذا لا يخرج من الملة، بل هو من الأمور العادية التى قد تكون مطلوبة أحياناً وغير مطلوبة أحياناً؛ فالأصل أنها مباحة. ثم قال:

ومراد المؤلف هنا القسم الأول.

فلو قَدِم السلطان إلى بلد، فذبحنا له، فإن كان تقرباً وتعظيماً؛ فإنه شركٌ أكبر، وتحرم هذه الذبائح، وعلامة ذلك: أننا نذبحها فى وجهه ثم ندعها.

أما لو ذبحناها له إكراماً وضيافة، وطبخت، وأكلت؛ فهذا من باب الإكرام، وليس بشرك . أهـ

قال الفقير : لأنك إذا ذبحت للضيف أو للمولود فهو لله فالذبح للضيف ابتغاء وجه الله من باب من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليكرم ضيفه وكذا للعقيقة «**كل مولود مرهون بعقيقته**»[4] وأصله فى الصحيح. وهذا الذبح إن كان للضيف أو للمولود أصله لله لأنه هو الذى أمرنى ولعل الشاهد على ذلك قوله فى الحديث القدسى «**عبدى مرضت فلم تعدنى قال: كيف تمرض وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدى فلانا**

(١) الأنعام: ١٦٢. (٢) الحج: ٣٦.

(٣) القول المفيد (١/ ٢٧٥).

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٧)، وأبو داود (٢٨٣٧)، والترمذي (١٥٢٢)، والنسائى فى «الكبرى» (٤٥٤٦)، وابن ماجه (٣١٦٥) عن سمرة به.

وانظر «تحفة المودود» (٣٧ ـ بتخريجنا).

مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لو جدتني عنده.. الحديث» [١]. . . وكأن الذى عاد المريض فى الحقيقة عاد المريض لله وابتغاء وجه الله.

والمصنف لم يقطع بالحكم مباشرة فكأن المسألة فيها تفصيل وليست شرك على الإطلاق فكأنه التبويب الذى يفيد التفصيل وهو: متى يكون الذبح ممنوع ومتى يكون مشروع وهذه التراجم من عمق علم العلماء فهم إذا كانت المسألة فيها تفصيل أو خلاف لم يجزموا بالحكم بل يتركوها للقارىء حتى يصل إلى الحكم بالأدلة التى سيقت للحكم تحت هذا التبويب.

مثل أن نقول: «باب وجوب صوم رمضان» فحكم صوم رمضان ليس فيه خلاف ولا تفصيل.

فالتبويب طالما لم يقطع بالحكم فيكون فيه اختلاف أو تفصيل فالذبح لغير الله تقرباً وتعظيماً: شرك، فليس فيه خلاف فيكون التبويب للتفصيل.

وهو أنَّ الذبح إما لله وإما لغير الله.

والذبح للضيف والمولود هو لله لأنه يذبح إمتثالاً لأمر الرسول ﷺ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه..»[٢] «وكل مولود مرهون بعقيقته..»[٣] فهو يذبح ابتغاء وجه الله فهو ذبح لله فى الحقيقة وذبح للمولود فى الصورة.

فائدة:

وهناك صورة ثالثة: وهى أن تذبح للضيف ليس ابتغاء وجه الله بل من باب العادة فهذا ذبح لغير الله فى الصورة والحقيقة لكنه ليس شركاً ولا معصيّة ولا إخلاصاً لله.

وهناك صورة رابعة: أن يذبح للضيف لكن لا من باب العبادة ولا من باب العادة لكن من باب السمعة والشهرة فهذه الصورة لا تبلغ درجة الشرك لكن يأثم عليها للسمعة، وهذا محرم أما إن كانت رياء، فشرك أصغر: والله أعلم.

قال ابن عثيمين [٤]: والمؤلف رحمه الله تعالى لا شك أنه يرى تحريم الذبح لغير

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٢٥ ـ النووي) عن أبى هريرة به.
وانظر «رياض الصالحين» (٨٩٨ ـ بتخريجنا).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٣٥)، ومسلم فى اللقطة (١٢/ ٣٠ ـ النووى) عن أبي شريح الكعبى به.
وانظر «رياض الصالحين» (٧٠٨ ـ بتخريجنا).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) القول المفيد ١/ ٢٧٦

الله على سبيل التقرب والتعظيم وأنه شـرك أكبر، لكنه أراد أن يمرن الطالب على أخذ الحكم من الدليل وهذا نوع من التربية العلمية، فإن المعلم أو المؤلف يدع الحكم مفتوحاً، ثم يأتي بالأدلة لأجل أن يكل الحكم إلى الطالب، فيحكم به على حسب ما سبق له من هذه الأدلة. أهـ.

[قلت] فلو سار على هذه التربية العلمية لكان أولى.

والغالب على صنيع المؤلفين والعلمـاء أنهم لا يجرون مثل هذه الصيغ ويضعون مثل هذه التـراجم إلا في المسائـل الخلافية، والأولى أن يُـعتذر للـمصنف لما تـقدَّم من أنَّ المسألة بالفعل فيها تفصيل والله أعلم.

●مسالة في حدّ الكفر الأكبر وتفسيره.

قال: ناصر السعدى[١]:-فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذى يجمع أنواعه وأفراده (أن يَصرِفَ العَبدُ نَوعاً أو فَرداً مِن أَفرَادِ العِبَادَةِ لِغَيرِ الله)

فكل اعتقـاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمـور به من الشارع فصرفه لله وحـده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذى لا يشذ عنه شيء كما أن حد الشرك الاصغر هو.

- (كُلُّ وَسِيلَةٍ وَذَرِيعَةٍ يُتَطَرَقُ مِنـها إِلىَ الشِّركِ الأَكبَرِ مِنَ الإِرَادَاتِ وَالأَقوَالِ وَالأَفعَالِ التِى لَم تَبلُغ رُتبَةَ العِبَادَةِ).

فعليك بهذين الـضابطين للشرك الأكبر والأصغر، فإنه مما يعـينك على فهم الأبواب السابـقة واللاحقة مـن هذا الكتـاب، وبه يحصل لـك الفرقان بيـن الأمور التى يـكثر اشتباهها والله المستعان أ هـ.

قال الفقير:قولـه (كل وسيلـة وذريعة يتـطرق منـها إلى الشـرك الأكبر.. إلخ رتـبة العبادة).

شرك الإرادات كالرياء وهو أصغر لأنه قصد الله وغيره ولو قصد غير الله وحدة لكان أكبر، أو لو كان منافق نفاق إعتقادى.

وشرك الأقوال: مـثل قول **(ما شاء اللـه وشئت)** التى جعـلها ابن عباس مـن الشرك الأصغر لأنه لم يحدث فيه صرف عبادة لغير الله، ولكن إن دعى غير الله فهذا شرك في الأقوال ولكنه أكبر لصرف عبادة لغير الله، والأفعال مثل الرُقى التى لم تبلغ رتبة العبادة

---

(١) القول السديد ٤٣، ٤٤.

وهى من شرك الوسائل وهو أصغر بشرط أن تكون غير شرعية وأن لا يعتمد عليها اعتماده على الله.

● **مسألة**

سئل ابن عثمين: عن حكم الذبح لغير الله؟

وهل يجوز الأكل من تلك الذبيحة؟

فأجاب قائلاً: الذبح لغير الله شرك أكبر لأن الذبح عبادة كما أمر الله به فى قوله: **﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾**(١). وقوله سبحانه: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾**(٢) فمن ذبح لغير الله فهو مشرك شركاً مخرجاً عن الملة- والعياذ بالله- سواء ذبح ذلك لملك من الملائكة، أو لرسول من الرسل، أو لنبى من الأنبياء، أو لخليفة من الخلفاء، أو لولى من الأولياء، أو لعالم من العلماء فكل ذلك شرك بالله- عز وجل- ومخرج عن الملة والواجب على المرء أن يتقى الله فى نفسه، وأن لا يوقع نفسه فى ذلك الشرك الذى قال الله فيه: **﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾**(٣).

●وأما الأكل من لحوم هذه الذبائح فإنه محرم لأنها أُهلَ لغير الله بها وكل شىء أهل لغير الله به، أو ذبح على النصب فإنه محرم كما ذكر الله ذلك فى سورة المائدة فى قوله- تعالى: **﴿حرمت عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾** (٤) فهذه الذباح التى ذبحت لغير الله من قسم المحرمات لا يحل أكلها. أهـ.

قلت: وهناك إجابة أخرى للشيخ بها قيدٌ أو شرط لكلامه المتقدِّم:-

فقد سئل ابن عثيمين: عن حكم الذبح لغير الله؟ مرة أخرى

فأجاب بقوله: تقدم لنا فى غير هذا الموضع أن توحيد العبادة هو إفراد الله- سبحانه وتعالى- بالعبادة بأن لا يتعبد أحد لغير الله- تعالى- بشىء من أنواع العبادة، ومن المعلوم أن الذبح قربة يتقرب بها الإنسان إلى ربه لأن الله- تعالى- أمر به فى قوله: **﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾**(٥). وكل قربة فهى عبادة، فإذا ذبح الإنسان شيئاً لغير الله تعظيماً

(١) الكوثر: ٢. (٢) الأنعام: ١٦٢/١٦٣. (٣) المائدة: ٧٢.
(٤) المائدة: ٣، ٤. (٥) الكوثر/ ٢

وقولُ الله تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

له، وتذللاً، وتقرباً إليه كما يتقرب بذلك ويعظم ربه- عز وجل- كان مشركاً بالله- عز وجل- وإذا كان مشركاً فإن الله- تعالى- قد بين أنه حرم على المشرك الجنة ومأواه النار.

قال الفقير: ففى فتوى الشيخ الأولى لم يذكر هذا القيد وهو: الذبح لغير الله تعظيماً للمذبوح له وتذللاً فلعله جعل هنا الذبح قرينة على تعظيمهم وفساد المعتقد؛ ذلك لأنه قال فى الفتوى المقيدة بالقيد المتقدم وهو التعظيم لتذيلل أو أطلق لأن هذا الذبح إما يكون من باب الإكرام أو التعظيم وكيف يكرم الإنسان ميتاً فيبقى أن يكون للتعظيم وبناء على ذلك نقول: إن ما يفعله بعض الناس من الذبح للقبور - ثم قال ابن عثيمين قبور الذين يزعمون بأنهم أولياء- شرك مخرج عن الملة، ونصيحتنا لهؤلاء أن يتوبوا إلى الله- عز وجل- مما صنعوا، وإذا تابوا إلى الله وجعلوا الذبح لله وحده كما يجعلون الصلاة والصيام لله وحده، فإنه يغفر لهم ما سبق كما قال الله- تعالى-: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾(٢).

بل إن الله تعالى. يعطيهم فوق ذلك فيبدل الله سيئاتهم حسنات كما قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٣).

فنصيحتى لهؤلاء الذين يتقربون إلى أصحاب القبور بالذبح لهم: أن يتوبوا إلى الله من ذلك، وأن يرجعوا إليه، وأن يخلصوا دينهم له سبحانه، وليبشروا إذا تابوا بالتوبة من الكريم المنان، فإن الله سبحانه وتعالى. يفرح بتوبة التائبين وعودة المنيبين(٤).



قوله: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

---

(١) الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣ (٢) الأنفال: ٣٨.
(٣) الفرقان: ٦٨/ ٧٠. (٤) مجموع فتاوى ابن عثيمين ٢/١٤٨، ١٤٩، ١٥٠.

● **ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:**

قال الزمخشرى والرازى وابن كثير والشنقيطى فى تفسير ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى﴾ هذا لقول الله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

● **ما جاء فى تفسير الآية بالسنة:**

عن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام يصلى تطوعاً، قال: الله أكبر وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض.. «الحديث»(١).

واستدل الشافعى بحديث على وبهذه الآية على افتتاح الصلاة بهذا الذكر(٢).

وعن على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ قال إذا قام إلى الصلاة قال: **«وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»..** الحديث»(٣).

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله- ﷺ **«يا فاطمة قومى فاشهدى أضحيتك فإنه يغفر لك بأول قطرة تقطر من دمها كلّ ذنب عملتيه، وقولى: إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين.**

قلت يا رسول الله: هذا لك ولأهل بيتك خاصة فأهل ذلك أنتم أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة»(٤).

الإعراب:

قوله «قل» استئناف مسوق لتأكيد القيام بالشرائع الأصولية والفرعية.

● **كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين (٥) الخطاب للنبى ﷺ: أى: قل لهؤلاء المشركين، معلناً لهم قيامك بالتوحيد الخالص، لأن هذه السورة مكية. أهـ.

قوله «صلاتى» قيل يعنى المفروضه أخرجة ابن أبى حاتم عن مقاتل.

قال ابن عثيمين(٥): الصلاة فى اللغة: الدعاء. وفى الشرع عبادة لله ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم أ. هـ

---

(١) أخرجه النسائى (٢/ ١٣١ ـ السيوطى). (٢) القرطبى (٢٥٨٩).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) [ضعيف] أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٢٢٢)، والبيهقي (٩/ ٢٨٣) عن عمران به.
وانظر «السلسبيل» (١٤٣٣ ـ بتخريجنا).
(٥) القول المفيد (١/ ٢٧٦).

وقيل: يجوز أن يريد بها صلاة العيد، قاله الجصاص.

وأيضاً قيل: الصلاة المشروعة قاله ابن الجوزى وقيل المراد بها هنا صلاة الليل وقيل صلاة العيد ذكرة القرطبى.

قوله «ونسكى».

● كلام المفسرين فى الآية:

قال الجصاص(*): الأضحية لأنها تسمى نسكاً وكذلك كل ذبيحة على درجة القربة إلى الله تعالى فهى نسك قال الله تعالى **﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾** وقال النبى ﷺ **«النسك شاة»(١)** وقال رسول الله ﷺ **فى يوم النحر «إن أول نسكنا فى يومنا هذا الصلاة ثم الذبح»(٢)** فسمى الصلاة والذبح جميعاً نسكاً؛ ولما قرن النسك إلى الصلاة دلَّ على أن المراد صلاة العيد والأضحية وهذا بيل على وجوب الأضحية.

لقوله تعالى: **﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾** والأمر يقضى الوجوب.

- وهذا القول هو أشمل الأقوال وأعمها حيث شمل كل ذبح فى هذه المسائلة، كما نقل المفسرون كالطبرى عن مجاهد أنه قال ذبيحتى فى الحج والعمرة(٣).

وعن سعيد بن جبير قال. ذبحى(٤): أى بإطلاق وكذلك قتادة والضحاك

«وعزاه ابن الجوزى لابن عباس، وعزاه السيوطى لقتادة، قال: ضحيتى، وقال: حجى ومذبحى(٥).

وأيضاً عزاه ابن الجوزى للزجاج:- قال: النسك كل ما تقرُّب به إلى الله- عز وجل- إلا أن الغالب عليه أمر الذبح.

[القول الثانى]:- العبادة وجميع أنواع الطاعات، من قولك نسك فلان فهو ناسك إذا تعبَّد. وهو مؤدى ما نقلة ابن الجوزى والقرطبى عن الزجاج ونقله الزمشخرى وغيرهم من أهل العلم بالتفسير. وهو يدخل فيه القول الأول بلا شك لأنَّ العبادة أعم من الذبح.

(*) أحكام القرآن. (٣/ ٤٢/ ٤٣).

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٨٦) ونسبه لابن مردويه والواحدى عن ابن عباس.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٩٧٦) عن البراء به.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٢٣) ونسبه لابن أبى شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

وانظر «تفسير ابن أ بى حاتم» بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وأبى الشيخ.

(٥) انظر المصدر السابق.

وأيضاً شبيه به [القول الثالث].

وهو الدين. قال ابن الجوزى رواه أبو صالح عن ابن عباس وعزاه القرطبى للحسن قال: نسكى دينى. وهو أيضاً يشمل القول الأول والثانى لذلك جمع ذلك كله ابن عباس فى هذه الرواية عن أبى صالح عنه: أنه الدين والحج والذبائح وهذا من باب اختلاف التنوع.

● **كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين (١): النسك لغة: العبادة. وفى الشرع: ذبح القربان

فهل تحمل هذه الآية على المعنى اللغوى، أو على المعنى الشرعى؟

[الجواب] ما جاء فى لسان الشرع يحمل على الحقيقة الشرعية، كما أن ما جاء فى لسان العرف، فهو محمول على الحقيقة العرفية، وفى لسان العرب على الحقيقة اللغوية. فيحمل النسك فى الآية على المعنى الشرعى.

وقيل: تحمل على المعنى اللغوى، لأنه أعم، فالنسك العبادة: كأنه يقول: أنا لا أدعو إلا الله، ولا أعبد إلا الله، وهذا عام للدعاء والتعبد.

وإذا حملت على المعنى الشرعى صارت خاصة فى نوع من العبادات، وهى: الصلاة والنسك، ويكون هذا كمثال، فإن الصلاة أعلى العبادات البدنية والذبح أعلى العبادات المالية، لأنه على سبيل التعظيم لا يقع إلا قربة هكذا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذه المسألة.

ويحتاج إلى مناقشة فى مسألة أن القربان أعلى أنواع العبادات المالية فإن الزكاة لا شك أنها أعظم، وهى عبادة مالية.

وهناك رأى ثالث يقول: إن الصلاة هى الصلاة المفروضة شرعاً، والنسك العبادة مطلقاً، وقد يكون ذلك من عطف العام على الخاص. أ. هـ

قال الفقير: تقدم نحو ذلك فى القول الثالث قبل كلام ابن عثيمين.

وأما الذى يتبين لنا ترجيحه فيما قال ابن عثيمين، أنه لا يحمل اللفظ إلا على المعنى الشرعى، ولا نصرفه للمعنى اللغوى إلا بقرينة.

ومما يؤيده أن النسك المقصود بها المعنى الشرعى، لا اللغوى، ولا العرفى ما ورد فى سورة الأنعام ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا**﴾(٢) فالله يرد عليهم بقوله ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي....**﴾ فكما أن الصلاة لله فالذبح لله.

---

(١) القول المفيد (١/ ٢٧٩).

(٢) الأنعام: ١٣٦

وأمراً آخر واضح جداً: أن الصلاة لا تكون إلا لله ولو صرفت لغيـر الله فهذا شرك واضح جداً فأراد أن ينبه بالشرك الواضح على الشرك الذى قد يخفى على البعض فقد لا يتصور البعض أنه لو ذبح لفلان من دون الله فهذا شرك أكبر فهو يتصور أنه لو صلى له شرك أكبـر لكن لا يتصور أنه لو ذبح له فهذا شـرك اكبر فتقول له كـما أن الصلاة لله فكذلك الذبح لله.

قد يقول قائل: فى قوله ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي.....**﴾ أن هذه الآية فى مقام الربوبية إذا حملنا الحياة هنا على خلق الحياة الممات على خلق الـممات فهو الخالق والمميت فهذا توحيد لله فى مقام الربوبية.

أما إن حملنا الحياة والممات وما فيها من واجبات ومحرمات فتكون الأية كلها توحيد آلوهية صلاة ونسك وحياة وممات.

فلو حملنا الحـياة والممات على جانب الربوبيـة فهذا إقرار منك فقط أمـا لو حملناها على جانب الألوهية فهـذا إقرار بالقول والفعل فيكون هذا أبلغ فتـجعل كل ما يفعل فى الحياة على وفق ما شـرع وأمر الرسول. وكذلك الممات تجعله لله أمـا بالشهادة أو الموتة الصغـرى أى النوم تجعله لله كـما كـان يفعل معـاذ. فالإقـرار بالألوهية يشـمل الإقرار بالربوبية وزيادة.

فائدة: وهذه فيه رد على العلمانـيين أن الدين فى المسجد فقط أما خارج المسـجد فهذا شأننا مثل الذين قالوا مالله لله وما لقيـصر لقيصر مثل الذين قالوا ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ وقد سئل بعض العلماء [(١)] عن العلمانيـة قال: إن العلمانية صـحيحة لكن فى دينهم هم وفى منـهجهم هم: لأن دينهم بالفعل جـاء بالرهبانية والكنيسـة فقط والصومعـة فقط، ولذلك خرج منهم من يقول مـا لله لله وما لقيـصر لقيـصر، فليس عندهم ما يـديرون به حكوماتهم ودنياهم وقد نعى الله على أقوام هذا منطقهم ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾[(٢)] فسألوا ما علاقة الصلاة والدين بأموالنا ومثل الأمثال التى لهم [كُلْ ما يعجبك والبس ما يعجب الناس]، [والذى يحتاجه البيت يحرم على الجامع].

---

(١) وهو الدكتور جميل غازى- رحمة الله عليه. (٢) هود: ٨٧.

وكذلك هذه الآية ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ترد على الرهبانية والدراويش من هذه الأمة الذين انقطعوا عن الدنيا وجلسوا في المساجد ويرد على من قال «أجلس في المسجد ويأتيني رزقي» فلابد أن تسعى للرزق وتضرب في الأرض وتجعل هذا لله وما جاء الشرع لتجلس في المسجد.

والعلمانية نتحدث فيها لا لأننا في واقع بعيد عن العلمانية وصورها الكثيرة المتداخلة في دقائق حياتنا، لا بل لأن فينا علمانية فنحن ـ مثلا ـ بدلاً من أن نزوج على أساس الدين نزوج على أساس الشهادات أو الأموال، فأى شيء أساسه الدين حذف الدين ووضع بدلاً منه أمر دينوى.

فمثلاً الإمام في الصلاة لابد أن يكون الأقرء والأعلم لكن في أي هيئة أو مصلحة لا يقدم الأقرء بل يقدم المدير أو كذا، وكذلك الأموال إذا كانت لله تخرج مغرماً كما قال تعالى في المنافقين ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ فهو يشعر أنها غرامة لكن يخرجون الأموال بسهولة في المدارس والدروس وهو منشرح الصدر. !!

قال الفقير: وأيضا فكما أن الصلاة لله، فكذلك. النسك والذبح لله وكما أن صرف الصلاة لغير الله شرك فكذلك الذبح صرفه لغير الله شرك كما بين ابن كثير: يأمر الله نبيه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير الله أنه اخلص لله عبادته وذبيحته ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي ....﴾

وقال مجاهد: النسك الذبح في الحج والعمرة.

وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير: النسك الذبح بوجه عام سواء كان الذبح في الحج والعمرة أو كان الذبح بوجه عام في الأضحية أو العقيقة أو غير ذلك فينبغي أن تكون لله عز وجل.

قوله ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

● ما جاء في الآية من السنة والآثار:

كما قال معاذ بن جبل حينما كان يقول: «إني لاحتسب نومتي كما احتسب قومتي».

يعني على وفق ما شرع الرسول وابتغى بها وجه الله عز وجل حتى بالنوم.

فإني أتقوى بهذا النوم على طاعة الله أو أعطي بدني حقه إمتثالاً لقوله- ﷺ في الصحيح «إن لبدنك عليك حق»(١) أو كما قال ﷺ في «الصحيح» وغيره «إن في بضع

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم في الصيام (٨/٣٩ ـ النووي) عن عبدالله بن عمرو به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٢ ـ بتخريجنا).

أحدكم لصدقة»[1] وذلك إذا كان ممتثلاً ليس للشهوة فقط، ولكن ليحصن فرجه عن الحرام، فهذا كله عبادة لله- عز وجل- ويؤجر عليه كما يؤجر على العبادات وأيضاً كما يفعل ذلك فى سائر العادات إذا احتسبها لله كما احتسبها معاذ أو غيره من الصحابة.

وأيضاً ثبت فى الصحيح «إنك ما تنفق نفقةً تبتغى بها وجه الله إلا أُجِرتَ عليها حتى اللقمة ترفعها إلى فىِّ زوجتك لك بها أجر[2](صدقة).

● كلام المفسرين فى الآية:

وللمفسرين فيها أقوال أنه لا يملك محياى ومماتى إلا الله قاله ابن الجوزى وقريب منه قول الرازى حيث قال الله حيث أمر رسوله أن يبين أن صلاته وسائر عبادته وحياته ومماته كلها واقعة بخلق الله تعالى وتقديره وقضائه وحكمة ثم نص على أنه لا شريك. فى طاعته قاله ابن الجوزى وهو مؤدى قول القرطبى «ومماتى لله» فى رجوعى إلى جزائي، قاله ابن الجوزى قال الزمخشرى:- وما أتيته فى حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح.

القول الثالث: فى مماتى «أى ما أوصى به بعد وفاتى ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

● كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين [3] أى حياتى وموتى، أى: التصرف فىَّ وتدبير أمرى حياً وميتاً لله وفى قوله صلاتى ونسكى إثبات توحيد العبادة. وفى ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ إثبات توحيد الربوبية أهـ.

قوله ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

● الإعراب:

قال ابن عثيمين [4]: قوله (لله) خبر إن، و (الله) علم على الذات الإلهية. وأصله الإله، فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال تخفيفاً.

قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ المراد بالعالمين ما سوى الله، وسُمى بذلك؛ لأنه علم على

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الزكاة (٧/ ٩١ ـ النووى) عن أبى ذر به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٢١ ـ بتخريجنا).

(٢) [صحيح]أخرجه البخارى (٥٦) عن سعد بن أبى وقاص به.

(٣) (٤) القول المفيد (١/٢٧٨- ٢٧٩).

خالقه، قال الشاعر.

فواعجبا كيف يعص الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وهى تطلق على العالمين بهذا المعنى، وتطلق على العالمين فى وقت معين، مثل قوله تعالى ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعنى عالمى زمانهم، والرب هنا المالك المتصرف، وهذه ربوبية مطلقة. أهـ.

قوله ﴿لاشريك له﴾:

● **فائدة فى إثبات خلق أفعال العباد والرد على الجهمية:**

قال الرازى:- فى تفسير ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي....﴾ فأثبت كون الكل لله والمحيا والممات لله بمعنى أنه يؤتى به لطاعة الله تعالى فإن ذلك محال، بل معنى كونهما لله أنهما حاصلان بخلق الله تعالى فكذلك أن يكون كون الصلاة والنسك لله مفسراً بكونهما واقعين بخلق الله، وذلك من أدل الدلائل على أن طاعات العبد مخلوقة لله تعالى. أ هـ [1].

قوله (وبذلك)

● **الإعراب:**

قال ابن عثيمين [2]: (بذلك) الجار والمجرور متعلق بـ (أمرت) فيكون دالاً على الحصر والتخصيص وإنما خص بذلك؛ لأنه أعظم المأمورات، وهو الإخلاص لله تعالى، ونفى الشرك فكأنه ما أمر إلا بهذا، ومعلوم أن من أخلص لله تعالى فسيقوم بعبادة الله سبحانه وتعالى فى جميع أموره. أهـ

قوله ﴿أُمِرْتُ﴾

قال ابن عثيمين [3]: إبهام الفاعل هنا من باب التعظيم والتفخيم، وإلا فمن المعلوم أن الآمر هو الله تعالى. أهـ

قال الفقير:

قوله ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾، يعنى بتوحيد الربوبية والألوهية والأوامر والنواهى بذلك

---

(١)(٢)(٣) «القول المفيد» (١/ ٢٨٠).

أمرت وأنا «أول المسلمين» يعنى المستسلمين لله كما قال تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[1] وهو متبع ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ.....﴾[2] والإسلام إذا أفرد فهو يعنى الإسلام والإيمان كما قال ابن تيمية أن الإسلام والإيمان إذا أفترقا اتحدا وإذا اتحدا أفترقا، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[3] وقال ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾[4] فذكر المؤمنين فقط أى المؤمنين والمسلمين، وقال: **(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)**.

وبنحو هذا ذكر جميع المفسرين.

قوله «وأنا أوّل المسلمين».

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال القرطبى: ليس أحدهم بأوّلهم إلا محمد ﷺ. فإن قيل: أو ليس إبراهيم والنبيُّون قبله؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة.

الأوّل أنه أوّل الخلق أجمع معنًى؛ كما فى حديث أبى هريرة من قوله عليه السلام: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة**»[5]. وفى حديث حُذيفة «**نحن الآخرون من أهل الدنيا والأوّلون يوم القيامة المَقْضِيْ لهم قبل الخلائق**»[6].

الثانى- أنه أوّلهم لكونه مقدمًا فى الخلق عليهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾[7]. قال قتادة: إن النبى ﷺ قال: «**كنت أوّلَ الأنبياء فى الخلق وآخرهُم فى البعث**»[8]. فلذلك وقع ذكره هنا مقدّماً قبل نوح وغيره

الثالث- أوّل المسلمين من أهل ملّته؛ قاله ابن العربىّ، وهو قول قَتادة وغيره[9].

---

(١) البقرة: ١١٢.
(٢) آل عمران: ٨٥
(٣) الأحزاب: ٣٥
(٤) التوبة: ٧٢.
(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم فى الجمعة (٣/٤٠٦/١٩، ٩٢٠) عن أبى هريرة به.
(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٣/٤٠٧/٢٢) عن حذيفة به.
(٧) الأحزاب: (٧).
(٨) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/٢٥٣) ونسبه لابن جرير عن قتادة . و فى الباب عن أبى هريرة بإسناد منقطع.
انظر تخريجه فى «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.
(٩) تفسير القرطبى ٢٥٩١ وذكر ذلك غيره من المفسرين كابن الجوزى والرازى وغيرهما.

قال الفقير: وقدمنا أن النبي ﷺ: كان إذا استفتح صلاته يقول: «**وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، ولا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم! أنت الملك، لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، أنت ربى وأنا عبدك، ظلمت نفسى، واعترفت بذنبى، فاغفر لى ذنبى جميعاً؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن الأخلاق؛ لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها؛ لا يصرف عنى سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله فى يديك، والشر ليس إليك والمهدى من هديت، أنا بك وإليك. لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك**»(1).

وقوله الله تعالى ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ وفى معنى الآية

حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله فى ذمته**»(2).

أى لا تنقضوا ذمة الله.

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله: فإذا قالوها، وصلّوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا، فقد حَرُمَت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**(3).

قوله فى الحديث (**حتى يقولوا لا إله إلا الله**) اقتصر عليها ولم يذكر الرسالة وهى مراده كما تقول قرآت الحمد وتريد السورة كلها.

وقيل أول الحديث ورد فى حق من جحد التوحيد فإذا أقر به صار كالموحد من أهل **الكتاب يحتاج إلى الإيمان بما جاء به الرسول، فلهذا عطف الأفعال المذكورة عليها فقال «وصلوا صلاتنا الخ»** والصلاة الشرعية متضمنة للشهادة بالرسالة.

وحكمة الإقتصار على ما ذكر من الأفعال أن من يقر بالتوحيد من أهل الكتاب وإن صلوا واستقبلوا، وذبحوا لكنهم لا يصلون مثل صلاتنا ولا يستقبلون قبلتنا، ومنهم من

---

(1) تقدم تخريجه عن على رضى الله عنه هكذا فى أكثر الروايات، وفى بعضها: «وأنا من المسلمين»، والظاهر أنه من تصرف بعض الرواة، وقد جاء ما يدل على ذلك، فعلى المصلى أن يقول: «وأنا أول المسلمين»، ولا حرج عليه فى ذلك؛ خلافاً لما يزعم البعض؛ توهماً منه أن المعنى: «إنى أول شخص أتصف بذلك بعد أن كان الناس بمعزل عنه» وليس كذلك، بل معناه: بيان المسارعة فى الامتثال لما أمر به، ونظيره ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ وقال موسى ﷺ: ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ . وانظر صفة الصلاة للألبانى (٩٢). . .

(2) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٩١) عن أنس به.

(3) تقدم تخريجه.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[1].

يذبح لغير الله، ومنهم من لا يأكل ذبيحتنا، ولهذا قال فى الرواية الأخرى «**وأكل ذبيحتنا**» والإطلاع على حال المرء فى صلاته وأكله يمكن بسرعة فى أول يوم بخلاف غير ذلك من أمور الدين [2].

وعنه - أى أنس بن مالك- أيضاً عن النبى- ﷺ. . قال: **يا أبا حمزة ما يُحرِّمُ دمَ العبد ومَالهُ؟ فقال من شهَد أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا، وصلى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ما للمسلم، وعليه ما على المُسلم** [3].



قوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾

● الإعراب[4]:

التفات من المتكلم إلى الغيبة والأصل فصلِّ لنا ولكنه عدل عن ذلك لأن فى لفظ الرب حثاً على فعل المأمور به لأنَّ من يربيك يستحق العبادة.

● كلام المفسرين فى الآية:

قوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ وفيها وجوه:-

الأول: أن المراد هو الأمر بالصلاة وهو قول كثير من أهل العلم من الصحابة والتابعين والمفسرين قاله الضحاك، حيث قال: صلِّ لربك الصلاة المكتوبة[5]، وابن عبّاس[6]، وعلى[7] وأنس[8] فى رفع اليدين فى الصلاة ووضعها على الصدر وهو أخص من قول الضحاك.

(١) الكوثر/٢. (٢) الفتح ١/٥٩٣.

(٣) أخرجه البخارى (٣٩٣) وتقدم. (٤) إعراب القرآن ١٠/٥٩٩.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٦٨٩) ونسبه لابن جرير، وابن أبى حاتم.

وانظر الأخير بتخريجنا.

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٦٨٩) ونسبه لابن مردويه ثم نسبه لابن أبى حاتم، وابن شاهين فى «السنة»، وابن مردويه، والبيهقى.

انظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٧) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٦٨٩) ونسبه لابن أبى شيبة فى «المصنف»، والبخارى فى «تاريخه»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والدارقطنى فى «الأفراد»، وأبى الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقى فى «سننه».

وانظر «فتح القدير» (٩-١٤١٠ - بتخريجنا).

(٨) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ والبيهقى فى «السنن».

وكذلك قول أبى جعفر، قال: الصلاة[1].

وكذلك ما نقله البغوى عن مجاهد قال: الصلوات المفروضة بجمع[2].

وما نقله عن عكرمة وعطاء وقتادة: أنها صلاة العيد.

وأيضاً ما رواه ابن جرير عن مجاهد وعطاء وعكرمة صلاة الصبح بجمع[3].

وعن قتادة صلاة الأضحى والنحر[4].

وعن ابن عباس الصلاة المكتوبة وهو الذى نقلة ابن الجوزى[5] والرازى[6] والقرطبى[7] وأستدل الأخير بقول أنس كان النبى ﷺ .. ينحر ثم يصلى فأمر أن يصلى ثم ينحر[8].

- **ايراد على القول الأوّل وجوابه**

فإن قيل اللائق عند النعمة الشكر فلم قال فصل ولم يقل فاشكر.

الجواب من وجوه:-

الأول أن الشكر عبارة عن التعظيم وله ثلاثة أركان:

أحدها: يتعلق بالقلب وهو أن يعلم أن تلك النعمة منه لا من غيره.

والثانى: باللسان وهو أن يمدحه- سبحانه وتعالى-

والثالث: بالعمل وهو أن يخدمة ويتواضع له. والصلاة مشتملة على هذه المعانى وعلى ما هو أزيد منه فالأمر بالصلاة أمر بالشكر وزيادة فكان الأمر بالصلاة أحسن.

والوجه الثانى:- أنه لو قال فاشكر لكان ذلك يوهم أنه لم يكن شاكراً أما الصلاة فقد عرفها بالوحى قال تعالى **﴿ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان﴾**.

---

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٦٨٩) ونسبه لعبدالرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم عن مجاهد، وعطاء وعكرمة.

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٣) تقدم قبله.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير .

(٥) التفسير الكبير (١٦/ ٣٢/ ١٢٩، ١٣٠) (٦) زاد المسير (٨/ ٣٣٢)

(٧) تفسير القرطبى (١٠/ ٧٣٠٨، ٧٣٠٩)

(٨) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٦٩٠) ونسبه لابن جرير.

● كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:

قال ابن عثيمين: (فصلِّ)(١) الفاء للسببية عاطفة على قوله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أى بسبب إعطائنا لك ذلك صل لربك وانحر شكراً لله تعالى على هذه النعمة أهـ.

قوله: ﴿وَانْحَرْ﴾ فيه قولان:

الأول: وهو قول عامة المفسرين أن المراد هو نحر البُدُن .

والثانى: أن المراد بقوله ﴿وَانْحَرْ﴾ فعل يتعلّق بالصلاة إما قبلها أو فيها أو بعدها.

قال ابن عثيمين(٢): المراد بالنحر الذبح، أى اجعل نحرك لله كما أن صلاتك له، فأفادت هذه الآية أن النحر من العبادة، ولهذا أمر الله به، وقرنه بالصلاة.

وقوله ﴿وَانْحَرْ﴾ مطلق، فيدخل فيه كل ما ثبت فى الشرع مشروعيته، وهى ثلاثة أشياء: الأضاحى والهدايا- والعقائق، فهذه الثلاثة يطلب من الإنسان فعلها. أ هـ.

قال الفقير: فالذبح عبادة لأن الله أمر بها فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه. ويدخل فى الذبح كل ذبح مشروع كالأضاحى والهدى والعقائق، أما الهدايا منها ما هو واجب وتكون على المتمتع والمحصر الذى أحصر عن الحج بعدو ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾(٣) أو فى حلق الرأس ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾(٤) هذا إن صح أن يكون هدى لكن الأولى أن تكون فدية لأنها بمنزلة الكفارة.

أما الأضاحى فمختلف فيها فإن كانت الآية ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ فى الأضاحى فيكون الأمر على الوجوب واستدلوا بحديث «**من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا**» فإن صح فهو من أقوى الحجج على الوجوب لكن جمهور العلماء على أنها مستحبة وصرفوا الآية على أنها ليست فى الأضحية فقط بل فيها وفى غيرها، وكذلك الحديث فى غالب علمى لم يصح.

أما العقيقة ففى الصحيح والمسند «**كل غلام مرتهن بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه**»(٥) ولا مجال للاحتجاج بالأضحية والعقيقة على أنها لغير الله بل هى لله لأن ما دفعه هو أمر الله عز وجل.

وقد يظن الناس أن الاضحية تكون للأموات بل هى للأحياء إلا إذا وصى المتوفى بذلك فهذه وصية جائزة وهو مؤدى قول ابن عثيمين(٦).

---

(١) «القول المفيد» (١/ ٢٨٢) (٢) «القول المفيد» (١/ ٢٨٣- ٢٨٤) (٣، ٤) البقرة: ١٩٦.
(٥) تقدم تخريجه. (٦) القول المفيد (١/ ٢٨٣، ٢٨٤).

فصل

الصلاة وعلاقتها بالنحر

قال الفقير: كان ﷺ عمله ديمة وإذا عمل عملاً اثبته وفى حجته ذبح بيده نحو من بضع وستين بدنه عنه وعن نساءه كما فى حديث جابر الطويل[(١)] فى الحج وكان يقولﷺ «أفضل الحج العج والثج»[(٢)]، الثج هو كثرة الذبح والعج: كثرة الذكر وكان أول من يمتثل لهذا الأمر والفضل الذى يذكره كما ثبت «أنه ذبح عن نفسه وأهل بيته ومن لم يضح من أمته»[(٣)] وكما ثبت فى الصحيح «أنه ضحى بكبشين أملحين»[(٤)] وثبت «أنه عق عن الحسن والحسين كبشاً كبشاً»[(٥)].

وكما قال ابن تيمية، كان النبى كثير الصلاة وكثير النحر.

قال ابن تيمية: فى تفسير قوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ قال: أمره الله ان يجمع بين هاتين العبادتين وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والاستقامة وحسن الظن بالله وقوة اليقين وطمئنينة القلب لله عكس حال أهل الكبر وأهل النفرة وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم فى صلاتهم إلى ربهم والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقرة فهو خائف يذبح خوفاً من الفقر لكن الذى يذبح ويكثر من الذبح تأسيا بالرسولﷺ عنده يقين بالله أن الله سيخلف عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ فبحسن ظنه فى الله ذبح ولم يخش الفقر.

قال ابن تيمية: ولهذا ذبح لقوله ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي...﴾ ثم قال: والنسك: الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجه فإنهما أجل ما يتقرب به إلى الله فالصلاة فيها إحرام كما ثبت فى السنن «إحرامها التكبير وتحليلها التسليم»[(٦)] وفيها تحليلان تحليل أصغر

---

(١) [صحيح] تقدم تخريجه وانظر تخريجه مطولاً فى «السلسبيل» (١٠٦ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه الترمذى (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٩٢٤) عن أبى بكر به.
وانظر «لطائف المعارف» (٢/ ٣٨٥ ـ بتخريجنا).

(٣) [حسن] أخرجه أبوداود (٢٨١٠)، والترمذى (١٥٢١) عن جابر به
وانظر «منار السبيل» (١٢٢٩ ـ بتخريجنا).

(٤) [متفق عليه]أخرجه البخارى (١٧١٢)، ومسلم فى الأضاحى (١٣/ ١١٩ ـ النووي) عن أنس به.
وانظر «السلسبيل» (١٤٣٠ ـ بتخريجنا).

(٥) أخرجه أبوداود (٢٨٤١) عن ابن عباس به.
وانظر «تحفة المودود» (٤٢ ـ بتخريجنا).

(٦) [حسن] أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ١٢٣)، وأ بوداود (٦١٨)، والترمذى (٣)، وابن ماجه (٢٧٥) عن على به
وانظر «منار السبيل» (٣٤٨ ـ بتخريجنا).

التسليمة الأولى والأكبر التسليمة الثانية كما فى الحج، وأنت كالمحرم يحرم عليك الكلام واللغو الرفث بل يحرم عليك بعض الواجبات مثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأيضاً أنت تصوم فى فترة الصلاة فيحرم عليك الطعام والشراب فلما جمعت هذه العبادة الجليلة هذه العبادات: فصيام وإحرام وفضلاً عن ذكر الله والإخلاص الوجهة ـ الكعبة ـ والركوع والسجود فضلاً عن أن فيها التوحيد وهذا كله يشبه النسك والحج بهذا قرن الله بينهما أيضاً فى هذه الآية .

- والنحر من أجل العبادات المالية ـ وتقدم ـ أن هذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية، وأن ابن عثيمين قال تعقيباً عليه بل الزكاة

ويجتمع للعبد فى الصلاة ما لا يجتمع له فى غيرها.

يعنى من رقة فى القلب أو خشوع لا يعرفه إلا أرباب المعرفة والنبى ﷺ قال «**أول ما يرفع الخشوع فى الصلاة**» وما يجتمع له فى النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين وحسن الظن أمر عجيب فبالفعل لا تُهدى إلى الفطرة والمتعة إلا أن تذبح وتذبح لله وذبحك لنفسك باسم الله ليس أطيب من ذبحك لله باسم الله فأنت إذا ذبحت لله وباسمه أضحية هذا أطيب والذ من أن تذبح لنفسك لحماً، أطيب للقلب وأطيب للفم فإذا ما ذبح لله انشرح صدره وسُر وفاز بهذا الفضل بخلاف من ذبح للحم، انظر إلى الجزار وإلى مذابحنا ماذا فيها؟! ليس فيها إلا سب الدين واللعن وتجد أن الذبح قد أثر فى نفسية الجزار وربما يهيجه لون الدم.

وربما لو ضربه أحد على أنفه لضربه مثلاً بالساطور أو بعض آلات الذبح، لكن نجد العكس فيمن يذبح لله ولو باشر بيده يومياً أكثر من عشر بُدن ولو كان هذا الأمر اثقل عليه من حمل الجبال وترى ذلك فى الملتزمين بتطبيق السنة حينما يذبحون فى العيد فنجده منشرح الصدر مسرور ويشعر برقة قلب وفرحة ولا يجد العيد إلا فى هذا الذبح والأخر ضاق صدره وتعبت نفسيته وتجد هذا يكبر يسبح ويهلل وهذا تجده يسب ويلعن، أنظر لتأثير الذبح لله وتأثير الذبح لغير الله ولا لله فما الظن فيمن ذبح باسم غير الله ولغير الله، فلا تراه إلا لا عقل له مهووس ممسوس كما قال تعالى فى آكل الربا ﴿**كالذى يتخطبه الشيطان من المس**﴾ فهذا آكل الربا فما الظن بالمشرك، ولهذا جاء فى الأثر «أن النبى سمع إنسان يثنى على كافر فقال له: الكافر لاعقل له وهم يوم القيامه يقولون: ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾.

على أية حال لا يجتمع ما يجتمع للمسلم فى قلبه حال النحر إذا قارنه بالاخلاص من

عَنْ عَلِىٍّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ: «حَدَّثَنِى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثاً، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ». رواهُ مُسْلِم (١).

قوة اليقين وحسن الظن لذلك قال تعالى: **﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾** فإذا ذبح ذبيحتنا باسم الله ولله وصلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهذه هى التقوى وهذا هو الفضل والفرح وانشراح الصدر كما قال تعالى **﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾** يشرح صدره للإسلام بالصلاة والذبح ويشرح صدره بالإسلام كما قال تعالى **﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾**.



قوله: (عن على رضى الله عنه قال:...)

ورواه مسلم أيضاً: عن أبى الطفيل، عامر بن واثلة. قال: كنت عند على بن أبى طالب. فأتاه رجل فقال: ما كان النبى ﷺ يُسِرُّ إليك؟ قال: فغضب وقال: ما كان النبى ﷺ يُسِرُّ إلىَّ شيئاً يكتمه الناسَ غير أنَّهُ قد حدثنى بكلمات أربع قال: فقال: ماهُنَّ؟ يا أمير المؤمنين! قال: قال: **«لعن الله من لعن والده (والديه) ولعن الله من ذبح لغير الله ولعن الله من أوى محدثاً ولعن الله من غير منار الأرض من (سرق منار الأرض)**(٢) وفيه تقديم وتأخير؛ بدأ بـ لعن الله من ذبح لغير الله.

قوله: (حدثنى رسول الله ﷺ):

قال الفقير: فيه أن الصحابة راعوا أداة التحمل وصيغ الأداء عن الرسول حدثنى سمعت..

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الأضاحى»/ باب: تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (٧/ ١٥٥/ ح ١٩٧٨) والنسائى فى «الكبرى» فى «الضحايا»/ باب: ماذبح لغير الله عز وجل (٣/ ٦٧/ ح ٤٥١١)

وفى «المجتبى» (٧/ ٢٣٢- السيوطى) وأبو يعلى الموصلى فى «مسنده» (١/ ٢٩٨/ ح ٥٩٨).

جميعاً من حديث على رضى الله عنه به وانظر «فتح المجيد (ح ٢٣٢) بتخريجنا.

(١) تقدم تخريجه

قوله: (كلمات): الكلمة فى اصطلاح النحويين: القول المفرد أما فى اللغة فهى القول المفيد كما قال النبى **«أصدق كلمة قالها شاعر: آلا كل شيء ما خلا الله باطل»**[1] فهذه الجملة كلها كلمة مفيدة وكذلك فى تفسير قوله **﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ...﴾** يعنى بكلمة واحدة **﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ...﴾**[2] فكل هذه كلمة مفيدة.

قال ابن تيمية: لا تطلق الكلمة فى العربية إلا على جملة مفيدة[3] كما قال صاحب الألفية:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم ... واسم وفعل ثم حرفنا الكلم

قوله: (لعن الله)

- **ماجاء في معنى اللعنة**

قال ابن الأثير: أصل اللعن الطرد والإبعاد، ومن الخَلْق: السبُّ والدعاء أهـ[4].

قال عبدالرحمن آل الشيخ قال شيخ الإسلام: إن الله تعالى يلعن من يستحق اللعنة بالقول، كما يصلى سبحانه على من استحق الصلاة من عبادة [5].

قال الفقير: قيل: واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دُعى عليه بها. والسَّب يُسمى أحياناً لعن.

- **أقسام اللعن:**

قال ابن حجر فى «الفتح»[6]:

قال الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة نفع الله به ما ملخصه:

اللعن الصادر من النبى- ﷺ- على ضربين:

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٨٤)، ومسلم في الشعر (١٥/ ١٢ـ النووي) عن أبى هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (٤٩١ ـ بتخريجنا)

(٢) سبأ: ٤٦.

(٣) انظر «القول المفيد» (١/ ٢٨٤).

(٤) «النهاية» (٤/ ٢٥٥)

(٥) فتح المجيد (١/ ١٧٩).

(٦) فتح البارى (١٠/ ٣٥٤).

أحدهما: يراد به الزجر عن الشىء الذى وقع اللعن بسببه وهو مخوف. فإن اللعن من علامات الكبائر.

والآخر: يقع فى حال الجرح. وذلك غير مخوف، بل هو رحمة فى حق من لعنه، بشرط أن لا يكون الذى لعنه مستحقاً لذلك كما ثبت من حديث ابن عباس عند مسلم أهـ..

قال الفقير: فإذا لعن رسول الله ﷺ أحداً بسبب شىء كان هذا الشىء من الكبائر وهذا اللعن علامة على أن هذا الشىء من الكبائر.

واللعن: هو البعد عن مكان الرحمة أو الطرد من رحمة الله عز وجل هذا إن كان من الله فهو طرد وإبعاد للملعون عن رحمته وإن كان من العبد فهو طلب الطرد والإبعاد من رحمة الله لهذا العبد. وهذا قريب مما نقلناه عن ابن الأثير فى النهاية، وسبق ذكره، ويأتى أيضاً على معنى السبب والله أعلم.

أدلة ما جاء فى القسم الثانى من اللعنة بمعنى الرحمة والزكاة والأجر لمن وقعت عليه.

وعليه بوب النووى فى شرح صحيح مسلم (باب من لعنه النبى ﷺ أو سبَّه أو دعا عليه، وليس هو أهلاً لذلك كان له زكاة وأجراً ورحمة)(١) وذكر الإمام مسلم فيه عدة أحاديث منها.

عَنْ عَائِشَةَ. قَالَتْ: دَخَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ رَجُلاَنِ. فَكَلَّمَاهُ بِشَىء لاَ أَدْرِى مَا هُوَ. فَأَغْضَبَاهُ. **فَلَعَنَهُمَا وَسَبَّهُمَا**. فَلَمَّا خَرَجَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! مَا أَصَابَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئاً مَا أَصَابَهُ هٰذَانِ. قَالَ: «وَمَا ذَاكِ؟» قَالَتْ: قُلْتُ: لَعَنْتَهُمَا وَسَبَبْتَهُمَا. قَالَ: «**أَوَ مَا علمْت مَا شَرَطْتُ عَلَيْهِ رَبِّى؟ قُلْتُ: اللَّهُمَّ! إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ. فَأَىُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَأَجْراً**»(٢).

وفى رواية: فَخَلَوْا بِهِ، فَسَبَّهُمَا، وَلَعَنَهُمَا، وَأَخْرَجَهُمَا(٣).

---

(١) «صحيح مسلم» (٣٩٦/٨ ـ ٤١٠)

(٢ - ٣) [صحيح] أخرجه مسلم (٨٨، ٨٩- البر والصلة).

عَنْ أَبِـى هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَـالَ رَسُولُ الله ﷺ «اللَّهُمَّ! إِنَّـمَا أَنَا بَشَرٌ. فَأَيُّـمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ، أَوْ لَعَنْتُهُ، أَوْ جَلَدْتُهُ. فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً»(١).

عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ. إِلاَّ أَنَّ فِيهِ «زَكَاةً وَأَجْرًا» (٢)

وفى رواية جَـعَلَ «وَأَجْرًا» فِى حَـدِيثِ أَبِـى هُرَيْـرَةَ وَجَعَـلَ «وَرَحْمَةً» فِى حَـدِيثِ جَابِرٍ(٣).

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ الـنَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ! إِنِّى أَتَّـخِذُ عِنْدَكَ عَهْداً لَنْ تُخْـلِفَنِيهِ. فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ. فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ آذَيْتُهُ، شَتَمْتُهُ، لَعَنْتُهُ، جَلَدْتُهُ، فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلاَةً وَزَكَاةً وَقُرْبَةً، تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٤).

وبسند مسلم إلى أبى الزِّنَادِ، بِهَذَا الإِسْنَادِ، نَحْوَهُ. إِلاَّ أَنَّهُ قَالَ: «أَوْ جَلَدُّهُ».

قَالَ أَبُو الزِّنَادِ: وَهِيَ لُغَةُ أَبِى هُرَيْرَةَ. وَإِنَّمَا هِيَ «جَلَدْتُهُ» (٥).

قَـالَ: سَـمِعْتُ أَبَا هُرَيْـرَةَ يَقُـولُ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ الله ﷺ يَـقُـولُ: «اللَّـهُـمَّ! إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ. يَغْضَبُ كَـمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ وَإِنِّى قَدِ اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْداً لَنْ تُـخْلِفَنِيهِ. فَأَيُّمَا مُؤْمِـنٍ آذَيْتُـهُ، أَوْ سَبَبْـتُهُ، أَوْ جَلَـدْتُهُ فَـاجْعَلْـهَا لَهُ كَـفَّارَةً، وَقُـرْبَةً، تُقَـرِّبُهُ بِهَـا إِلَيْـكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٦).

● فائدة: - وهذا الحديث فـيه رد على الصوفية الـذين قالوا إن فصيلة دمـه - عليه الصلاة والسلام - من نور لقوله «بشر، يغضب كما يغضب البشر».

وعَنْ أَبِي هُـرَيْرَةَ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُـولَ الله ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ! فَأَيُّمَا عَبْـدٍ مُؤْمِنٍ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ قُرْبَةً إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٧).

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٨٨، ٨٩- البر والصلة).

(٢-٥) [صحيح] مسلم فى البر والصلة (٩٠، ٩١).

(٦-٧) المصدر السابق (٩٢- ٩٤).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ! إِنِّي اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ. فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَبَبْتُهُ، أَوْ جَلَدْتُهُ. فَاجْعَلْ ذَلِكَ كَفَّارَةً لَهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ. وَإِنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، أَيُّ عَبْدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ أَوْ شَتَمْتُهُ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا**»(٢).

وعن أَنَس بْنُ مَالِك قَالَ: كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ. وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ. فَرَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ اليتيمة. فَقَالَ: «**أَنْتِ هِيَهْ؟ لَقَدْ كَبِرْتِ. لاَ كَبِرَ سِنُّكِ**» فَرَجَعَتِ الْيَتِيمَةُ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تَبْكِي. فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: مَا لَكِ؟ يَا بُنَيَّةُ! قَالَتِ الْجَارِيَةُ: دَعَا عَلَيَّ نَبِيُّ اللهِ ﷺ أَنْ لاَ يَكْبَرَ سِنِّي. فَالآنَ لاَ يَكْبَرُ سِنِّي أَبَدًا. أَوْ قَالَتْ قَرْنِي. فَخَرَجَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ مُسْتَعْجِلَةً تَلُوثُ خِمَارَهَا. حَتَّى لَقِيَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا لَكِ؟ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ!**» **فَقَالَتْ: يَانَبِيَّ اللهِ ! أَدَعَوْتَ عَلَى يَتِيمَتِي؟ قَالَ:** «**وَمَا ذَاكِ؟ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ؟**» قَالَتْ: زَعَمَتْ أَنَّكَ دَعَوْتَ أَنْ لاَ يَكْبَرَ سِنُّهَا وَلاَ يَكْبَرَ قَرْنُهَا. قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**يَا أُمَّ سُلَيْمٍ! أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّي، أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ. أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ. وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ. فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ، مِنْ أُمَّتِي، بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ، أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٣).

وَقَالَ أَبُو مَعْنٍ: يُتَيِّمَةٌ. بِالتَّصْغِيرِ، فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلاَثَةِ مِنَ الْحَدِيثِ(٤).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ أَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ. فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَوَارَيْتُ خَلْفَ بَابٍ. قَالَ: فَجَاءَ فَحَطَأَنِي. وَقَالَ: «**اذْهَبْ وَادْعُ لِي مُعَاوِيَةَ**» قَالَ: فَجِئْتُ فَقُلْتُ: هُوَ يَأْكُلُ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ لِي: «**اذْهَبْ فَادْعُ لِي مُعَاوِيَةَ**» قَالَ: فَجِئْتُ فَقُلْتُ: هُوَ يَأْكُلُ. فَقَالَ: «**لاَ أَشْبَعَ اللهُ بَطْنَهُ**».

(١- ٣) المصدر السابق (٩٢- ٩٤).

(٤) المصدر السابق (٩٥).

قالَ ابْنُ الْمُثَنَّى: قُلْتُ لأُمَيَّةَ: مَا حَطَأَنِي؟ قَالَ: قَفَدَنِي قَفْدَةً[1].

قال الفقير: وهذا الحديث أخرجه ابن حبان فى مناقب معاوية لأن النبى ﷺ دعى عليه، فكان هذا رحمة وزكاة وأجراً.

وأخرج مسلم أيضًا أن ابْنَ عَبَّاس كان يَقُولُ: كُنْتُ أَلْعَبُ مَعَ الصبيان فجاء رسول الله ﷺ فاختبأت منه فذكر بمثله.

باب من لعنه النبى ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً لذلك كان له زكاة وأجراً ورحمة.

ـ قوله ﷺ: **(اللهم إنما أنا بشر، فأى المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجراً)** وفى رواية: **(أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة)**، وفى رواية: **(فأى المؤمنين آذيته، شتمته، لعنته، جلدته اجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة)**، وفى رواية: **(إنما محمد بشرٌ يغضب كما يغضب البشر، وإنى قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيما مؤمن أذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة)**، وفى رواية: **(إنى اشترطت على ربى فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتى بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهوراً وزكاة وقربة)**.

هذه الأحاديث مبينة ما كان عليه ﷺ من الشفقة على أمته، والاعتناء بمصالحهم، والاحتياط لهم، والرغبة فى كل ما ينفعهم.

وهذه الرواية المذكورة آخر تبين المراد بباقى الروايات المطلقة، وإنه إنما يكون دعاؤه عليه رحمة وكفارة وزكاة ونحو ذلك، إذا لم يكن أهلاً للدعاء عليه، والسب واللعن ونحوه وكان مسلماً وإلا فقد دعا ﷺ على الكفار والمنافقين، ولم يكن ذلك لهم رحمة.

● **سؤال: فإن قيل: كيف يدعو على من ليس هو بأهل للدعاء عليه أو يسبه أو يلعنه ونحو ذلك فالجواب ما أجاب به العلماء، ومختصره وجهان:**

أحدهما: أن المراد ليس بأهل لذلك عند الله تعالى، وفى باطن الأمر، ولكنه فى الظاهر مستوجب له، فيظهر له ﷺ استحقاقه لذلك بأمارة شرعية، ويكون فى باطن الأمر ليس أهلاً لذلك، وهو ﷺ مأمور بالحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر.

---

(١) المصدر السابق (٩٦).

والثاني: أن ما وقع من سبه ودعائه ونحـوه ليس بمقصود، بل هو مما جرت به عادة، العرب فى وصل كلامها بلا نية كقوله: تربت يمينك، عقرى، حلقى.

قال الفقير: وجواب ثالث: هذا حدث بسبب بشريته فهو يغضب كما يغضب البشر فلما حـصل منه ذلك بالطبع والجبلة ولم يقـصد حقيـقته ومع ذلك خـشى أن تصادف إجابة فاشترط على ربه ذلك.

ثم قال النووي: وفى هذا الحـديث: **(لا كـبـرت سنك)**، وفى حديث مـعاوية: **(لا أشبع الله بطنك)** ونحو ذلك، لا يقصدون بشيء من ذلك حقيقة الدعاء، فخاف ﷺ أن يصادف شيء من ذلك إجابة فـسأل ربه سبحانه وتعـالى ورغب إليه فى أن يجعل ذلك رحمة وكفارة وقربة وطهوراً وأجراً، وإنما كان يقع هذا منه فى النادر والشاذ من الأزمان، ولم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا لعاناً ولا منتقماً لنفسه، وقد جاء فى الحديث أنهم قالوا: ادع على دوس، فقال: **«اللهم اهد دوساً»**(١)، وقال: **«اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»**. والله أعلم.

وأما قوله ﷺ: (أغضب كما يغضب البشر) فقد يقال: ظاهره أن السب ونحوه كان بسبـب الغضب، وجوابه مـا ذكره المازرى قـال: يحتـمل أنه ﷺ أراد أى دعاءه وسـبه وجلده كان مما يخير فيه بين أمرين أحـدهما: هذا الذى فعله، والثاني: زجره بأمر آخر، فحمله الغضب لله تعالى على أحد الأمرين المتخير فيهما، وهو سبه أو لعنه وجلده ونحو ذلك، وليس ذلك خارجاً عن حكم الشرع والله أعلم.

ومعنى (أجعـلها له صلاة) أي: رحمـة كمـا فى الرواية الأخرى، والصـلاة من الله تعالى الرحمة.

قوله: (جلده) قال: وهى لغـة أبى هريرة، وإنما هو جلدته معناه: أن لـغة النبى ﷺ وهى المشهورة لعامة العرب **(جلدته)** بالتاء، ولغة أبى هريرة **(جلده)** بتشديد الدال على إدغام المثلين، وهو جائز.

قوله: (كانت عند أم سليم يتـيمة) وهى أم أنس فـقـوله (وهى أم أنس) يعني: أم سليم هى أم أنس.

قوله: (فقال لليتيمة أنت هيه) هو بفتح الياء وإسكان الهاء وهى هاء السكت.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/٣١٦/١٩٧) عن أبى هريرة به.

(٢) النووى شرح مسلم (٨/٤٠١)

قولهـا: (لا يكبر سـنى أو قالت قـرني) بفتـح القاف وهو نظـيرها فى العـمر، قال القاضي: معناه: لا يطول عمرها؛ لأنه إذا طال عـمره طال عمر قرنه وهذا الذى قاله فيه نظر؛ لإنه لا يلزم من طول عمر أحد القرنين طـول عمر الآخر، فقد يكون سنهما واحد ويموت أحدهما قبل الآخر.

وأما قوله ﷺ لها: (لا كبر سنك) فلم يرد به حـقيقة الدعاء، بل هو جـار على ما قدمناه فى ألفاظ هذا الباب.

قوله: (تلوث خمارها) هو بالمثلثة فى آخره، أي: تديره على رأسها. اهـ.

فصل فى اللعن على المعيّن واللعن على العموم

ظاهر هـذا الحديث جواز لـعن الظالمـين على العـموم، وقد لعـن الله الظالمين عـلى العموم، فقال ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾.

وأيضاً فى سورة هود ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وتقدم أن الرسول ﷺ لعن على العموم فى لعن الواشـمة والمستوشمة والواشـرة والمستوشرة والواصلة والمـستوصلة[1] والمتشبهين والمتشبهات من الـنساء بالرجال[2] واليهود والـنصارى[3] ومن لعـن والديه[4] و. . . و. . . . إلخ.

ولعن ابـن مسعود أيـضاً لعناً عاماً ممـتثلاً لنهج النبى ﷺ، ففـى «الصحيح[5] قال عبدالله بن مسعود لعن الله الواشمات والمستوشـمات والمتنمصات والمتفلـجات للحسن، المغيرات خلق الله فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغنى أنك لعنت كيت وكيت، فـقال: ومالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو فى كتاب الله. . . »الحديث[6].

---

(١)[متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٤٠)، ومسلم فى اللباس (١٤/ ١٠٥ ـ النووي) عن ابن عمر به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٦٤٧ـ بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٨٨٥) عن ابن عباس به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٦٣٤ـ بتخريجنا).

(٣) سيأتى فى باب ماجاء من التغليظ فيمن عبد الله عن قبر رجل صالح.

(٤) تقدم فى تخريجه حديث الباب .

(٥)[صحيح] أخرجه البخارى فى اللباس / باب: المتنمصات (١٠/ ٣٩٠/ ح٥٩٣٩).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٣١)، ومسلم فى اللباس (١٤/ ١٠٥ ـ النووى) عن ابن مسعود.

فصل متى يجوز لعن المعين

قال ابن حجر: فى شرح حديث عائشة فى النهى عن سب الأموات[1]:-

ووقع لنا أيضاً من روايـة محمد بن فضيل عن الأعمش بزيادة فـيه، أخرجه عمر بن شبة فى «كتاب أخبار البصرة» «عن محمد بن يـزيد الرفاعى عنه بهذا السند إلى مجاهد» أن عائشـة قالت: ما فعل يـزيد الأرجى لعنه الله؟ قـالوا: مات. قالت: استـغفر الله. قالوا: ما هذا؟ فذكرت الحديث.

وأخرج من طريق مسروق أن علياً بعث يزيد بن قيس الأرجى فى أيام الجمل برسالة فلم ترد عليه جواباً، فبـلغها أنه عاب عليها ذلك فكانت تلعنه، ثـم لما بلغها موته نهت عن لعنه وقـالت إن رسول الله نهانا عن سب الأموات وصحـحة ابن حبان[2] من وجه أخر عن الأعمش عن مجاهد بالقصة» [3].

وروى البخارى عن ابن عباس قال: قال أبو لهب- عـليه لعنة الله- للنبى- صلى الله عليه وسلم- تبًالك سائر اليوم، فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[4].

وعلى هذا فـالجائز أن تعمم اللـعن عليه وعلـى غيره، وإن كان هذا المعيًـن لعنه الله ورسوله، يعنى معك نـص فى لعنه بعينه فتلعنه، وإلا فـلا يجوز، وأن كنت لاعناً فلا يكن ذلك خلقك، وإليك الأحاديث فى صحيح مـسلم وغيره الدالة على النهى عن لعن المعين.

هل يجوز لعن (المعين) على الخصوص أم لا يجوز؟

الجواب اختلف فيه العلماء على وجهين:

(١) يجوز، ونسبته إلى ابن الجوزى.

(٢) لا يجوز، وقـد يكون منـسوب لأبى بكـر بن عبدالـعزيز وشيـخ الإسلام وهو الراجح.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٥١٦) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين»(١٥٦٧ ـ بتخريجنا)

(٢) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه» (٥/ ١٠/ ٣٠١٠) عن عائشة به.

(٣) الفتح ٣/ ٣٠٥.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١٣٩٤)

فصل في النهي عن لعن المعين:

عن سمرة بن جندب عن النبي - ﷺ- قال «**لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضب الله ولا بالنار**» (١).

قوله ﷺ: (لا تلاعنوا) بحذف إحدى التائين.

(بلعنة الله) أي لا يلعن بعضكم بعضا فلا يقل أحد لمسلم معين عليك لعنة الله مثلاً **(ولا غضب الله)** بأن يقول غضب الله عليك **(ولا بالنار)** بأن يقول أدخلك الله النار مثلاً، وهذا مختص بمعين لأنه يجوز اللعن بالوصف الأعم، كقوله لعنة الله على الكافرين، أو بالأخص كقوله لعنة الله على اليهود، أو على كافر معين مات على الكفر كفرعون وأبي جهل؛ قاله القاري (٢). أهـ.

ففي صحيح مسلم بشرح النووي باب النهي عن لعن الدواب وغيرها: (٣)- فذكر فيه الأحاديث الآتية

عَنْ عِمْـرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَـالَ: بَيْنَمَا رَسُـولُ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَـارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ فَضَجِرَتْ فَلَعَـنَتْهَا. فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ. فَقَالَ «**خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا. فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ**».

قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَرَاهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ، مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ(٤).

قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهَا، نَاقَةٌ وَرْقَاءَ.

وَفِي رواية: فَقَالَ: «**خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَأَعْرُوهَا فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ**»(٥).

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْـلَمِيِّ، قَالَ: بَيْنَمَـا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَـةٍ، عَلَيْهَا بَعْضُ مَـتَاعِ الْقَوْمِ، إِذْ بَصُرَتْ بِالْـنَّبِيِّ ﷺ. وَتَضَايَقَ بِهِـمُ الْجَبَلُ. فَقَالَتْ: حَـلْ. اللَّهُمَّ! الْعَنْهَـا. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**لاَ تُصَاحِبُنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ**»(٦).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٥)، وأبو داود (٤٩٠٦)، والترمذي (١٩٧٦) عن سمرةبه. وانظر «رياض الصالحين» (١٥٥٧ ـ بتخريجنا).

(٢) عون المعبود ١٣/ ٢٥٢ و ٢٥٣

(٣) صحيح مسلم (٨/ ٣٩٢)

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (٨/ ٨٠).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم (٨١- البر والصلة).

(٦) [صحيح] مسلم (٨٢- البر والصلة).

وفي رواية لاَ. ايْمُ اللهِ! **لاَ تُصَاحِبْنَا رَاحِلَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ مِنَ اللهِ»** أَوْ كَمَا قَالَ(١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«لاَ يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّاناً»**(٢).

وعن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ؛ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَـرْوَانَ بَعَثَ إِلَى أُمِّ الدَّرْدَاءِ بِأَنْجَادٍ مِنْ عِنْدِهِ. فَلَمَّا أَنْ كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، قَامَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِنَ اللَّيْلِ، فَـدَعَا خَادِمَهُ، فَكَأَنَّهُ أَبْطَأَ عَلَيْهِ، فَلَعَنَهُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَتْ لَـهُ أُمُّ الدَّرْدَاءِ: سَمِعْتُكَ، اللَّيْلَةَ، لَعَنْتَ خَادِمَـكَ حِينَ دَعَوْتَهُ. فَقَالَتْ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ **«لاَ يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**(٣).

عَنْ أُمِّ الـدَّرْدَاءِ، عَنْ أَبِي الـدَّرْدَاءِ. سَمِـعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَـقُولُ: **«إِنَّ اللَّعَّـانِينَ لاَ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلاَ شُفَعَاءَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**(٤).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. قَالَ: **«إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا. وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»**(٥).

وذكر المنذرى فى «الترغيب والترهيب» عدة أحاديث ومنها

عن ثابـت بن الضحـاك ـ رضى الله عنه ـ قـال : قال رسول الله ﷺ : **من حلق على يمين بملة غير الإسـلام كاذباً متعمداً فهو كما قال . ومن قَتَـلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ به يَوْمَ الْقِـيَامَةِ، وَلَيْسَ عَـلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فِـيما لاَ يَمْلِـكُ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَـقَتْلِه. رواه الـبخارى ومسلم** (٦).

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا رَأَيْنَا الرَّجُلَ يَلْعَنُ أَخَاهُ رَأَيْنا أَنْ قَدْ أَتَى باباً مِنَ الْكَبَائِرِ (٧) رواه الطبراني.

---

(١)[صحيح] مسلم (٨٣- البر والصلة).

(٢) [صحيح] مسلم (٨٤- البر والصلة).

(٣) [صحيح] مسلم (٨٥- البر والصلة).

(٤) [صحيح] مسلم (٨٦- البر والصلة).

(٥) [صحيح] مسلم (٨٧- البر والصلة).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٠٤٧)، ومسلم فى ا لإيمان (٢/١١٨ـ النووي).
وانظر «رياض الصالحين» (١٥٥٤ ـ بتخريجنا)

(٧) أخرجه الطبرانى في«الأوسط» (٦٦٧٤) عن سلمة به قال المنذرى إسناده جيد

وعَنْ أَبِى الدَّرْدَاء رَضِىَ الله عَنْهُ قالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **إنَّ العَبْدَ إذَا لَعَنَ شَيْئاً صَعدَتِ اللَّعْنَةُ إلَى السَّماء، فَتُغْلَقُ أَبْوابُ السَّمَاء دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبطُ إلَى الأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأخُذُ يميناً وَشمالاً، فَإنْ لَمْ تَجدْ مسَاغًا رَجعَتْ إلَى الَّذى لُعِنَ، فإن كَانَ أَهْلاً، وَإلاَّ رَجعَتْ إلَى قائلها»**(١) رواه أبو داود(٢).

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِىَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **«إنَّ اللَّعْنَةَ إذا وُجِّهَتْ إلَى مَنْ وُجِّهَتْ إلَيْه، فَإنْ أَصابَتْ عَلَيْه سَبِيلاً أَوْ وَجدَتْ فيه مَسْلَكاً، وَإلاَّ قالَتْ: يَارَبِّ وُجِّهْتُ إلَى فُلاَن، فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ مَسْلَكاً، وَلَمْ أَجِدْ عَلَيْهِ سَبِيلاً، فَيُقَالُ لَهَا: ارجعِى منْ حَيْثُ جِئْت»**(٣). رواه أحمد وفيه قصة.

وعَنْ أَنَسٍ رَضِىَ الله عَنْهُ قالَ: سَارَ رَجُلٌ مَعَ النَّبِىِّ ﷺ، فَلَعَنَ بَعِيرَهُ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: **«يَا عَبْدَ الله لاَ تَسر مَعَنَا عَلَى بَعِيرٍ مَلْعُون»**(٤) رواه أبو يعلى وابن أبى الدنيا.

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِى الله عَنْهُ قالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ فِى سَفَرٍ يَسِيرُ، فَلَعَنَ رَجُلٌ نَاقَةً، فَقَالَ: **أَيْنَ صَاحِبُ النَّاقَةِ؟** فَقَالَ الرَّجُلُ: أَنَا، فَقَالَ: **أَخِّرْهَا فَقَدْ أُجِيبَ فِيها**(٥). رواه أحمد.

وعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالدٍ الْجُهَنِىِّ رَضِىَ الله عَنْهُ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ **لاَ تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإنَّهُ يُوقِظُ للصَّلاَة**(٦). رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه إلا أنه قال:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٥) عن أبى الدرداء به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٥٥٩ ـ بتخريجنا)
(٢) الدعاء عليه بالطرد من رحمة الله وعدم التوفيق فالأول قتل معنوى.
(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/٤٠٨، ٤٢٥) عن ابن مسعود به.
قال المنذرى: إسناده جيد إن شاء الله.
(٤) أخرجه أبو يعلى فى «مسنده» (٣٦١٠)
قال الهيثمى فى «المجمع» (٨/٧٧): رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط بنحوه ورجاله أبى يعلى رجال الصحيح.
وقال المنذرى: إسناده جيد.
(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/٤٢٨) قال المنذري: إسناده جيد.
(٦) أخرجه أبو داود (٥١٠١)، والنسائى فى «الكبري» (١٠٧٨١) وابن حبان فى «صحيحه» (٧/٤٩٣) عن زيد بن خالد به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٧٣٣ ـ بتخريجنا)

فَإِنَّهُ يَدْعُو لِلصَّلاَةِ[1]، ورواه النسائى مسنداً ومرسلا.

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ دِيكاً صَرَخَ قَرِيبـاً مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَبَّهُ رَجُلٌ، فَنَهَى عَنْ سَبِّ الدِّيكِ. رواه البزار بإسناد لا بأس به والطبرانى إلا أنه قال فيه:

قالَ: لاَ تَلْعَنْهُ وَلاَ تَسبَّهُ، فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الصَّلاَةِ[2].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ دِيكاً صَرَخَ قَرِيبـاً مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَجُلٌ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَهْ كَلاَّ إِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الصَّلاَةِ. رواه البزار[3].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَلَدَغَتْ رَجُلاً بُرْغُوثٌ فَلَعَنَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لاَ تَلْعَنْهَا فَإِنَّهَا نَبَّهَتْ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ[4] رواه أبو يعلى واللفظ له والبزار إلا أنه وقال: لاتسبو فإنه يقظ نبيًا من الأنبياء لِصَلاَةِ الصُّبْحِ، ورواه الطبرانى فى الأوسط، ولفظه:

ذُكِرَتِ الْبَرَاغِيثُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «إِنَّهَا تُوقِظُ لِلصَّلاَةِ»[5].

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَـالَ: نَزَلْنَا مَنْزِلاً، فَآذَتْنَا الْبَرَاغِيثُ فَسَبَبْنَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لاَتَسُبُّوهَا فَنِعْمَتِ الـدَّابَّةُ، فَإِنـهَا أَيْقَظَتْكُمْ لِذِكْرِ الله:[6] رواه الطبرانى فى الأوسط.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً لَعَنَ الـرِّيحَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «لاَ تَلْعَنِ الرِّيحَ، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، مَنْ لَعَنَ شَيْئـاً لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتَ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ»[7]. رواه أبو

---

(١) تقدم فيما قبله

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير»ى (٩/١٨/٩٧٩٦).

قال الهيثمى فى «المجمع» (٨/٧٧): فى أسناد البزار مسلم بن خالد الزنجى وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات.

(٣) قال المنذر: رواته رواه الصحيح إلا عباد بن منصور

(٤) أخرجه أبو يلى فى «مسنده» (٢٩٥٠) وقال المنذرى وراته رواة الصحيح إلا سويد بن إبراهيم.

(٥) أخرجه الطبرانى فى الأوسط» (٥٧٣٢) عن أنس به.

قال المنذر: رواة الطبرانى ثقات إلا سعيد بن بشير.

(٦) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٩٣١٨)

(٧) أخرجه أبو داود (٤٩٠٨)، والترمذى (١٩٧٨) عن ابن عباس به.

داود والترمذى وابن حبان فى صحيحه، وقال الترمذى: حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير بشر بن عمر.

[قال الحافظ]: وبشر هذا ثقة احتج به البخارى ومسلم وغيرهما، ولا أعلم فيه جرحا.

وَعَنْ أَبى هُرَيْرَةَ رَضِىَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات قَالُوا يَا رَسُولَ الله وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتى حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمؤمنات**»(١) رواه البخارى ومسلم.

قال النووى: قوله ﷺ فى الناقة التى لعنتها المرأة: (**خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة**) وفى رواية: (**لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة**) إنما قال هذا زجرًا لها ولغيرها، وكان قد سبق نهيها ونهى غيرها عن اللعن، فعوقبت بإرسال الناقة، والمراد النهى عن مصاحبته لتلك الناقة فى الطريق، وأما بيعها وذبحها وركوبها فى غير مصاحبته ﷺ وغير ذلك من التصرفات التى كانت جائزة قبل هذا فهى باقية على الجواز؛ لأن الشرع إنما ورد بالنهى عن المصاحبة، فبقى الباقى كما كان، وقوله: (ناقة ورقاء) بالمد، أي: يخالط بياضها سواد، والذكر أورق، وقيل: هى التى لونها كلون الرماد.

قوله: (فقالت حل) هى كلمة زجر للإبل استحثاث، يقال: حل حل بإسكان اللام فيهما، قال القاضي: ويقال أيضاً: حل حل بكسر اللام فيهما بالتنوين، وبغير تنوين.

قوله ﷺ: (خذوا ما عليها وأعروها) هو بهمزة قطع وبضم الراء، يقال: أعريته وعريته إعراءً وتعرية فتعرى، والمراد هنا: خذو ما عليها من المتاع ورحلها وآلتها.

قوله ﷺ: «لا ينبغى لصديق أن يكون لعاناً، ولا يكون اللعانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة» فيه: الزجر عن اللعن، وأن من تخلق به لا يكون فيه هذه الصفات الجميلة؛ لأن اللعنة فى الدعاء يراد بها الإبعاد من رحمة الله تعالى، وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بالرحمة بينهم، والتعاون على البر والتقوى، وجعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد، وأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة، وهى الإبعاد من رحمة الله تعالى، فهو من نهاية المقاطعة والتدابر، وهذا غاية ما يوده المسلم للكافر، ويدعو عليه، ولهذا جاء فى الحديث

(١) تقدم تخريجه

الصحيح: «**لعن المؤمن كقتله**»[1] لأن القاتل يقطعه عن منافع الدنيا، وهذا يقطعه عن نعيم الآخرة ورحمة الله تعالى.

وقيل: معنى لعن المؤمن كقتله في الإثم، وهذا أظهر، وأما قوله ﷺ: «**إنهم لا يكونون شفعاء ولا شهداء**» فمعناه: لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار.

(**ولا شهداء**): **فيه ثلاثة أقوال: أصحها** وأشهرها: لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأمم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات.

والثاني: لا يكونون شهداء في الدنيا، أي: لا تقبل شهادتهم لفسقهم.

والثالث: لا يرزقون الشهادة، وهي القتل في سبيل الله، **فائدة** وإنما قال ﷺ: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً، ولا يكون اللعانون شفعاء» بصيغة التكثير، ولم يقل: لاعناً، واللاعنون.

لأن هذا الذم في الحديث إنما هو لمن كثر من اللعن، لا لمرة ونحوها، ولأنه يخرج منه أيضاً اللعن المباح، وهو الذي ورد الشرع به، وهو لعنة **الله** على الظالمين، لعن الله اليهود والنصارى، لعن الله الواصلة والواشمة والشارب للخمر وآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه والمصورين، ومن انتمى إلى غير أبيه، وتولى غير مواليه، وغير منار الأرض، وغيرهم ممن هو مشهور في الأحاديث الصحيحة.

قوله (من ذبح لغير الله)

قال ابن عثيمين[2]: **قوله**: «**من ذبح لغير الله**» عام يشمل من ذبح بعيراً، أو بقرة، أو دجاجة أو غيرها. **وقوله (لغير الله)** يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي، أو ملك، أو جني، أو غيرهم. أ هـ[3].

قال عبدالرحمن آل الشيخ: قال ابن تيمية: إن الله يلعن من يستحق اللعن ويصلي على من يستحق الصلاة كما قال: ﴿**هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور**﴾ وقال ﴿**إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا**﴾ وقال: ﴿**ملعونين أينما ثقفوا..**﴾ وكذلك الرسول يلعن من يستأهل اللعن ومن لا يستأهله كما تقدم على النحو الذي ذكرنا ثم أكمل كلام شيخ الإسلام قال «ولهذا روى عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن وما أهل به لغير الله ظاهره أنه ما ذُبح لغير الله مثل أن يقول هذه ذبيحة لكذا وإن كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ يعني قال باسم فلان أو لم يتلفظ وقصد أن تكون لفلان فتحريم هذا أظهر من تحريم ذبحه للحم وقال فيه باسم

---

(1) تقدم تخريجه (2) «القول المفيد» (1/ 285).

(3) قدمنا كلام ابن عثيمين على عبدالرحمن آل الشيخ لمناسبته لشرح.

المسيح أو نحوه كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله فإذا حُرِّمَ ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة فلن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو نحوه. فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه يحرم، وقال بل هو شرك أكبر وليس حرام وإن قال باسم الله كما قال فيه طائفة من منافقى هذه الأمة وهو قال أنهم مرتدين لا تقبل ذبيحتهم قال: وإن قال باسم الله كما تفعله طائفة من منافقى هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب أو نحو ذلك.

قال حامد الفقى: وهم الذين يكتبون الحجب والتمائم والتعاويذ فإنهم يتقربون بها يوم السبت أو نحو ذلك من الأيام ويذبحون عند نزول الكوكب الفلانى وهم فى البلاد الإسلامية كثيرون وإن كان هؤلاء مرتدين لاتباح ذبيحتهم بحال لكن يجتمع فى الذبيحة مانعان:

الأول: أنه مما أهل به لغير الله.

والثانى: أنها ذبيحة مرتد فلا تجوز لأن النبى قال فى المجوس «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحى نساءهم أو آكلى ذبائحهم**»(١).

ومن هذا ما يفعله بعض الجاهلين فى مكة وغيرهم باسم الزار وغير ذلك يدقون الطبول ولهذا روى عن النبى ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن، لكن هذا الحديث موضوع.

قال الزمخشرى: إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استأجروا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً ان تصيبهم الجن فأضيفت إليهم الذبائح لذلك».

قال الفقير: وهذا لو أن الناس اشتروا دكاكين أو منازل جديدة قصدها ذلك - أى الذبح للجن - فلا يجوز لكن لو قصدهم الذبح لله شكراً له على هذه النعمة كما فهم من قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾(٢) فهو يصلى ويذبح شكراً على هذه النعمة فجائز أما إن ذبح لغير ذلك فلا يجوز.

قال النووى: الذبح لغير الله معناه: أن يذبح باسم غير الله تعالى كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى أو الكعبة فكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلم أو نصرانى أو يهودى نص عليه الشافعى واتفق عليه أصحابنا فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله سبحانه كان ذلك كفراً، فإن كان الذابح مسلماً قبل ذلك صار بالذبح مرتداً وذكر إبراهيم المروزى من أصحابنا- هذا كلام النووى- أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه لأنه مما أهل به لغير الله.

---

(١)[ضعيف] أخرجه مالك فى «الموطأ» (١/ ٢٣٣/ ٤٢) مختصراً وأنظر «منار السبيل» (١٣٤٤ بتخرجنا)

(٢) الكوثر/ ١.

قال الرافعي: هذا إنما يذبحونه استبشاراً بقدومه كذبح العقيقة لولادة المولود ومثل هذا لا يوجب التحريم، فبعضهم قال: يوجب التحريم وهو مما أهل به لغير الله وبعضهم قال: استبشار وفرح بقدوم السلطان كالاستبشار بقدوم المولود ولا يوجب التحريم، فإن صح القياس فلا يوجب التحريم أما إن تقربوا لله بذبحهم للسلطان فقد يقعوا في المحرم. اهـ.

قوله (لعن الله من لعن والديه)

كلام شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ (١): قال بعضهم: يعني أباه وأمه، وإن عَلَيا. اهـ.

وكذا **قال عبدالرحمن آل الشيخ**

وقال ابن عثيمين (٢): يشمل الأب والأم، ومن فوقهما، لأن الجد أب، كما أن أولاد الابن والبنت أبناء في وجوب الاحترام لأصولهما.

والمسألة هنا ليست مالية، بل هي من الحقوق، ولعن الأدنى أشد من لعن الأعلى، لأنه أولى بالبر، ولعنه ينافي البر.

وقوله (من لعن والديه) أي سبهما وشتمهما، فاللعن من الإنسان السب والشتم، فإذا سببت إنساناً أو شتمته، فهذا لعنه، لأن النبي ﷺ قال: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**» قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال «**نعم يَسُبُ أبا الرجل فيَسُبُ أباه، ويسبُ أمه فيسب أمه**»(٣).

وأخذ الفقهاء من هذا الحديث قاعدة: هي أن السبب بمنزلة المباشرة في الإثم، وإن كان يخالفه في الضمان على تفصيل في ذلك عند أهل العلم. اهـ.

قوله: «لعن الله من آوى محدثاً».

كلام شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ(٤): آوى: بفتح الهمزة ممدودة أي ضم إليه وحمي.

وقال أبو السعادات: يقال: أويت إلى المنزل، وأويت غيري، وأويته وأنكر بعضهم المقصور المتعدي. **قال الأزهري:** هي لغة فصيحة.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (١٣٨) وفتح المجيد (١/ ١٨٠).

(٢) «القول المفيد» (١/ ٢٨٥- ٢٨٦).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم في الإيمان (٢/ ٨٣ـ النووي) عن عبدالله بن عمرو به. وأنظر «رياض الصالحين» (٣٤٠ ـ بتخريجنا)

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٣٨)..

وأمامحدثاً : فقال أبو السعادات: يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول: فمعنى الكسر: من نصر جانياً، وآواه وأجاره مـن خصمه وحال بينه بين أن يقتص منه، والفتح : هو الأمر المبتدع نفسه، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى والصبر عليه، فإنه إذاً رضى بالبدعة وأقر عليها فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه.

ثم قال سليمان (قلت) : الظاهر أنه على الروايـة الأولى يعم المعنين، لأن المحدث أعم من أن يكون بـجناية أو ببدعة فى الـدين، بل المحدث بالبدعة فـى الدين شر من المحدث بالجناية، فإيـواؤه أعظم إثماً، ولهذا عده ابن القيم فى كـتاب «الكبائر» وقال : هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف الحدث فى نفسه، فكلما كان الحدث فى نفسه أكبر، كانت الكبيرة أعظم. أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ كذلك[١].

وقال ابن عثيمين [٢]: أى ضمه إليه وحماه، والإحداث يـشمل الإحداث فى الدين كالبدع الـتى أحدثها الجهـمية والمعتزلـة وغيرهم، والإحداث فى الأمـر، أى فى شئون الأمة: كالجرائم وشبهـها، فمن آوى محدثـاً فهو ملعـون، وكذا من ناصره؛ لأنه الإيواء أن تؤيه لكـف الأذى عنه، فمن ناصره فـهو أشد وأعظم، والمحدث أشـد منه؛ لأنه إذا كان إيواؤه سببـاً للعنة فإى نفس فعلـه جرم أعظم ذلك وزاد : ففيه التحـذير من البدع والإحداث فى الدين، قال النبى ﷺ«**إياكم ومحدثات الأمور، فـإن كل بدعة ضلالة**»[٣] وظاهر الحديث ولوكان أمراً يسيراً أهـ.

قال الفقير: ثبت فى كتاب«السُـنَّة» لابن أبى عاصم[٤] بأسانيد صحاح وحسان أن النـبى ﷺ قال: وهو عـلى حوضـه فى شأن وصف حـوضه ـ «**فلايُذوان رجـال عن حوضى كما يـذاد البعير الضال أناديهم، ألا هـلم ألا هلم ألا هلم فيقال: إنـهم قد بدلوا بعدك فأقول: فسحقاً فسحقاً فسحقاً**»[٥].

وهذا إبعاد لهم فى الآخرة كما طردوا ولعنوا فـى الدنيا يبعدوا ويطردوا ويسحقوا فى الآخرة فالجزاء من جنس العمل فهم ﴿**ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً**﴾.

---

(١) فتح المجيد (١/ ١٨١ ـ١٨٢).

(٢) القول المفيد(١/ ٢٨٦).

(٣) تقدم تخريجه عن العرباض بن سارية

(٤) السنة لابن أبى عاصم (٢/ ٣٥٤)

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الطهارة (٢/ ١٣٧ / ٣٩)

وهذا أيضاً ثابت فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال: **مامن نبى إلا وكان له أصحاب وحواريون، ثم يخلف بعد ذلك خلوف يقولون مالايفعلون ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل**(١).

وهذا الحديث فى المبتدعين الذين يقولون مالا يفعلون ويفعلون إن فعلوا مالا يؤمرون فتكلفوا مالم يكلفهم به الشرع، فهؤلاء واجب جهادهم باليد إن استطعنا وإلا فباللسان وإلا فبالقلب. هذا وإن اواهم أحد وحماهم ودافع عنهم فهو يستحق الحرق وهذه ليست مبالغة.

قال تعالى ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ**﴾

إرصاداً: يعنى مرصد ومؤى. يؤى فيه أصحاب أبى عامر الراهب الذى قال لهم ابنو لى مسجداً حتى إذا أرسلت إليكم الرسل تأووهم فى هذا المسجد، فكان جزاؤهم وجزاء مسجدهم الحرق، وقال تعالى ﴿**لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ**﴾ فمازال هذه النار أو هذا الدخان حتى بعد وفاة رسول الله ـ ﷺ كما ذكر فى بعد الآثار فى تفسير هذه الآية.

فهذا جزاء من آوى محدثاً فى الدنيا.

ومن آواه جزاءه فى الآخرة اللعن والطرد والسحق من الرسول ﷺ.

قوله: «ولعن الله من غير وفى رواية: «من سرق منار الأرض.....»

كلام شراح التوحيد وغيرهم

وهذا عام فى جميع الأرض ودليل العموم ما ثبت فى الصحيح أن النبى ـ ﷺ قال: **من ظلم شبراً من الأرض طُوِّقه من سبع أراضين»**(٢).

يعنى هذا الشر ينزل السبع أراضين ويصبح طوقه من النار ويطوق به يوم القيامة.

وأيضاً عند مسلم**«لعن الله من سرق منار الأرض»**.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٥٣)، ومسلم فى المسافاة (١١/ ٥٠ ـ النووي). عن عائشة به. وأنظر «رياض الصالحين» (٢٠٨ ـ بتخريجنا)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان(١/ ٢٩٧/ ٨٠) عن عبد الله بن مسعود به.

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل فى ذباب ودخل النار رجل فى ذباب» قالوا: وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال : «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئاً. فقالوا لأحدهما: قرب قال: ماعندى شيء قالوا: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للأخر قرب قال ماكنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عزّ وجلّ؟ فضربوا عُنقه، فدخل الجنّة»(١) . رواه أحمد.

منار الأرض: يعنى العلاقات والحدود وقيل حدود الحرم.

خاصة وقيل هو عام فى جميع الأرض ودليل العموم هوما سبق.

قال النووى : منار الأرض : بفتح الميم، علامات حدودها(٢).

قال ابن عثيمين(٣): فمن غيرها ظلماً فهو ملعون،وما أكثر الذين يغيرون منار الأرض لاسيما إذا زادت قيمتها، وما علموا أن الرسول ﷺ يقول: «من ظلم قيد شبر»(٤) فذكر الحديث فالأمر عظيم، مع أن هذا الذى يقتطع من الأرض، ويغير المنار، ويأخذ مالايستحق لايدرى: قد يستفيد منها فى دنياه، وقد يموت قبل ذلك، وقد يُسلط عليه آفة تأخذ ما أخذ.

فالحاصل: أن هذا دليل على أن تغيير منار الأرض من كبائر الذنوب، ولهذا قرنه النبى ﷺ بالشرك وبالعقوق وبالإحداث، مما يدل على أن أمره عظيم وأنه يجب على المرء أن يحذر منه، وأن يخاف الله سبحانه حتى لايقع فيه. أهـ.



قوله: [وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل فى ذباب. ...] الحديث.

قال سليمان آل الشيخ: ذكره المصنف معزواً لأحمد، وأظنه تبع ابن القيم فى عزوه لأحمد ثم قال: وقد طالعت المسند فما رأيته فيه، فلعل الإمام رواه فى كتاب الزهد أو غيره. اهـ.

---

(١) أخرجه أحمد فى «الزهد» (٢٢)، وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٠٣) من طريق أبى معاوية، عن الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب، عن سلمان به.

(٢) تيسير العزيز الحميد(١٣٨، ١٣٩) وفتح المجيد(١/ ١٨٢).

(٣) «القول المفيد» (١/ ٢٨٧).

(٤) تقدم قريباً

تنبيه:

قال الفقير: الحديث فيه علل منها مالاتقدح ومنها مايقدح (١).

فالتى لاتقدح :

الأولى: اختلافهم فى طارق بن شهاب هل هو صحابى أم غير صحابى، فالراجح والأكثر على أنه صحابى لكنه لم يسمع من النبى ﷺ وعدم سماعه عله لاتقدح فى صحة الحديث: لأن مرسل الصحابى حجة لعدم أخذه فى الغالب إلا عن صحابى.

العلة الثانية : هى عنعنة الأعمش وهو مدلِّس، وإذا عنعن المدلس لايقبل حديثه.

العلة الثالثة: وهى أن الإمام أحمد رواه عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسى موقوفاً من قوله فى كتاب الزهد وكذا أبونعيم وابن أبى شيبة.

وهذا هو المحفوظ أنه صح موقوفاً ولم يصح مرفوعاً فهو موقوف على سلمان.

وفى وقفه على سلمان علة لأنه يحتمل أن يكون قد أخذه من أهل الكتاب لأنه كان نصرانى وأسلم فلعله قبل إسلامه.

فالحديث من حيث الثبوت فيه نظر ومن حيث الدلالة فيه نظر.

أما النظر فى ثبوته فهو كما تقدم . ولا حجة فى موقوف لاسيما أنه يحتمل أنه أخذ عن أهل الكتاب وأحسن أحواله أن نتوقف فيه إلاإذا جاء فى شرعنا ما يقره.

أما من حيث الدلالة فإنه لايدل على ماذهب إليه المصنف أن هذا الرجل الذى قرب الذباب لهذا الصنم لم يقصد بذلك الصنم إنما فعل ذلك تقيَّة خشية القتل حتى ينجو من شرِّهم . كما قال فى المسئلة التاسعة.

وهذه المسئلة لم يتابعه عليها الشيخ ابن عثيمين كما سيأتى.

قوله: «طارق بن شهاب».

قال سليمان آل الشيخ: أى البجلى الأحمسى، أبو عبد الله، رأى النبى ﷺ وهو رجل، ويقال: إنه لم يسمع منه شيئاً.

قال البغوى: ونزل الكوفة. قال أبو حاتم: ليست له صحبة، والحديث الذى رواه مرسل.

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد (١٣٩، ١٤٠) وفتح المجيد (١/ ١٨٣، ١٨٤) والقول المفيد (١/ ٢٨٨، ٢٨٩) كلهم ذكروا ما فيه من علل.

وقال أبو داود: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً.

قال ابن حجر: إذا ثبت أنه لقى النبي ﷺ فهو صحابى على الراجح، وإنا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته مرسل صحابى، وهو مقبول على الرجح، وقد أخرج له النسائى عدة أحاديث، وذلك مصير منه إلى إثبات صحبته، وكانت وفاته على ما جرى به ابن حبان سنة ثلاث وثمانين. اهـ.

كلام شراح كتاب التوحيد

قوله: «دخل الجنة رجل فى ذباب».

قال سليمان آل الشيخ[1]: أى من أجل ذباب. أهـ.

وكذا قال عبدالرحمن آل الشيخ[2].

قال ابن عثيمين[3]: (فى) للسببية، وليست للظرافية، أى بسبب ذباب.

ونظيره قوله النبى ﷺ: «دخلت امرأة النار فى هرة حبستها» اهـ.

قال الفقير: فكأن السامعين تقالوا هذا الأمر لكن استدل لعظم هذا الأمر صاحب «تيسير العزيز الحميد» بقول أنس فى الصحيح «انكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد النبى من الموبقات» فكون التقليل من شأن هذا الذباب الذى لا قيمة له فربما تفعل فعلاً لاتلقى له بالاً تهوى به فى النار سبعين خريفاً.

وثبت عن النبى ذات المعنى وأصله فى الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لايلقى لها بالاً من سخط الله يهوى بها فى النار سبعين خريفاً»[4] وفى رواية «أبعد من الثريا» وفى رواية: «لايدرى ما بلغت».

قوله: «قالوا: وكيف ذلك يارسول الله].

كلام شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ[5]: سألوا عن هذه الأمر العجيب؛ لأنهم قد علموا أن الجنة لايدخلها أحد إلا بالأعمال الصالحة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وأن النار

---

(١) تيسير العزيز الحميد «(١/ ١٤٠)

(٢) فتح المجيد (١/ ١٨٤). (٣) القول المفيد (١/ ٢٨٩).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٤٧٨) عن أبى هريرة به.

وأنظر «رياض الصالحين» (١٥١٨ ـبتخريجنا)

(٥) تيسير العزيز الحميد (١٣٩ - ١٤٠).

لايدخلها أحد إلا بالأعمال السيئة، فأكنهم تقالوا ذلك وتعجبوا واحتقروا، فبين لهم النبي ﷺ ما صير هذا الأمر الحقير عندهم عظيماً يستحق هذا عليه الجنة، ويستحق الآخر عليه النار. ولعل هذين الرجلين من بني إسرائيل، فإن النبي ﷺ يحدثهم عن بني إسرائيل كثيراً. اهـ.

وقال حامد بن محمد بن حسن[1]: (وكيف ذلك يارسول الله) استغراباً وتعجباً من دخلوهم الجنة والنار، وليس لهما سبب إلا الذباب، فاستفهموه لكي يبين لهم ما استغربوه ويكشف عنهم ما أشكل عليهم. اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ[2]: بنحو ما قاله سليمان آل الشيخ.

وقال عبد الله بن جار الله[3]: استفهام تعجب كأنهم تقالوا ذلك،وتعجبوا منه. اهـ.

قوله: «مر رجلان على قوم لهم صنماً».

كلام شراح كتاب التوحيد

قال سليمان[4]: الصنم ما كان منحوتاً على صورة. اهـ.

وقال عبد الرحمن[5]: مثل ما قال سليمان: وزاد: ويطلق عليه الوثن. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله[6]: ماكان منحوتاً على هيئةصورة وعبد من دون الله اهـ.

وقال ابن باز[7]: ما نحت على صورة، وما ليس له صورة يقال له وثن ويطلق على الأصنام أوثاناً أيضاً. اهـ.

قوله «لايجاوزه»

كلام شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ[8] : لايمر به، ولايتعداه أحد حتى يقرب له شيئاً وإن قل. أهـ.

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٢١ - ٢٢٢).
(٢) فتح المجيد (١/ ١٨٢ - ١٨٤).
(٣) الجامع الفريد (٥٠ - ٥١).
(٤) تيسير العزيز الحميد (١٣٩ - ١٤٠).
(٥) فتح المجيد (١/ ١٨٢ - ١٨٤).
(٦) الجامع الفريد (٥٠ - ٥١).
(٧) التعليق المفيد (٨١، ٨٢).
(٨) تيسير العزيز الحميد «(١/ ١٤٠).

وكذا **قال عبدالرحمن آل الشيخ**[١].

قوله: «حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرب».

قَرُبَ يَقرُب قُربان: أى ما يتقربـون به إلى الله تعالى. وفى الحديث: «**الصلاة قربان كل تقى**»[٢] أى أن الاتقياء من الناس يتقربون بهـا إلى الله أى يطلبون القُرب منه بها. وفى الحديث «**من راح فى الساعة الأولى فـكأنما قرب بَدَنَة**»[٣] أى كأنما أهدى ذلك الله تعالى، كما يهدى القربان إلى البيت الحرام. **كذا فى «النهاية» لابن الأثير**[٤].

قوله: «قـال ليس عندى شيء أقـرب. قالوا له: قرب ولو ذبـاباً، فقرب ذباباً، فـخلوا سبيله، فدخل النار».

قال سليمـان آل الشيخ[٥]: فى هذا بيان عـظمة الشرك ولو فى شيء قـليل، وأنه يوجب النـار، ألا ترى إلى هذا لما قرب لهـذا الصنم أرذل الحيوان وأخسـه وهو الذباب كان جزاؤه النار؛ لإشراكه فـى عبادة الله، إذ الذبح على سبيل القربة والـتعظيم عبادة، وهذا مطابق لقول تعالى: ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾ وفيه الحذر من الـذنوب وإن كانت صغيره فى الحسـبان. كما قال أنس: «إنكم لتعملون أعـمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدهـا على عهد النبى ﷺ من الموبقات»[٦] رواه البخارى قال المصنف ما معنـاه: وفيه أنه دخل النار بسبب لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم، وفـيه أن الذى دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافراً لم يقل دخل الـنار فى ذباب، وفيه أن عمل القـلب هو المقصود الأعظم حتـى عند عبدة الأوثان. اهـ.

قال حامد بن محمد[٧]: «قال: ليس عندى شيء أقرب» به «قالوا: قرب» له «ولو ذباباً» ضبطاً وحفظاً لأمرهم لئلا يختل فيترك فليستحقر الذباب، وقصد نجاته من عذابهم «فقرب» للصنم «ذباباً فخلوا سبيله فدخل النار» بسبب قربانه الذباب للصنم. اهـ.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٨٨١)، ومسلم فى الجمعة (٦/ ١٣٥ ـ النووي) عن أبى هريرة به. وانظر «السلسبيل» (٧٣٤ ـ بتخريجنا)

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٤٢٢)، والبيهقى فى «الشعب» (٥٧٦١) عن جابر بنحوه.

(٣) فتح المجيد (١/ ١٨٤).

(٤) النهاية (٤/ ٣٢).

(٥) تيسير العزيز الحميد (١٣٩- ١٤٠).

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٩٢) عن أنس به.

(٧) فتح الله الحميد المجيد (٢٢١ - ٢٢٢).

وتابع عبدُ الرحمن آل الشيخ سليمانَ آل الشيخ[١]: وبقولهما قال أيضاً عبد الله ابن جار الله[٢].

وقال ابن باز: «ليس عندى شيء أقرب» فاعتذر بأنه ليس معه شيء يقرب، ولم ينكر ذلك فطمعوا فيه، فأمروه أن يقرب ولو ذباباً فدخل النار، فهذا يدل على أن التقريب للأصنام وغيره ولو كان شيئاً حقيراً فهو من الشرك، لأن الذبح والتقرب لايجوز إلا لله. اهـ.

قال ابن عثيمين[٣]: «فدخل النار» مع أنه ذبح شيئاً حقيراً لايؤكل، لكن لما نوى التقرب به إلى هذا الصنم، صار مشركاً، فدخل النار. اهـ.

قوله: **«وقالوا للآخر: قرب. فقال: ما كنت لأقرب شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة»**.

قال سليمان آل الشيخ[٤]: فى هذا بيان فضيلة التوحيد والإخلاص.

وقال المصنف: وفيه معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين، كيث صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

وفيه شاهد للحديث الصحيح **«الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»**[٥].

قلت: وفيه التنبيه على سعة مغفرة الله وشدة عقوبته، وأن الأعمال بالخواتيم. اهـ.

قال حامد بن محمد[٦]: (فدخل الجنة) لامتناعة عن التقرب لغير الله تعالى إيماناً واحتساباً وإجلالاً وتعظيماً لله تعالى. اهـ.

قال عبد العزيز بن باز[٧]: «ما كنت أقرب شيئاً إلا لله»: فهذا أعرض وبين أنه لايجوز وامتنع فدخل الجنة، وهذا يحتمل أمرين:-

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١٣٩ - ١٤٠).
(٢) الجامع الفريد (٥٠ - ٥١).
(٣) القول المفيد (١/٢٨٨ - ٢٨٩).
(٤) تيسير العزيز الحميد (١٣٩ - ١٤٠).
(٥)[صحيح] أخرجه البخارى (٦٤٨٨) عن ابن مسعود به
وأنظر «رياض الصالحين» (١٠٦ ـبتخريجنا)
(٦) فتح الله الحميد المجيد (٢٢١ - ٢٢٢).
(٧) التعليق المفيد (٨١، ٨٢).

الأول: إما أن شريعتهم ليس فيها عذر بالإكراه ولهذا لم يأخذ بالرخصة ويتخلص من شرهم.

الثانى: يحتمل أنه ترك الرخصة وأخذ بالعزيمة لقوة إيمانه ويقينه فقتلوه. وفى شريعتنا أن من أكره على الشرك ففعل ما أكره عليه بقصد التخلص من شرهم، ولم يطمئن قلبه بذلك فلا حرج لقوله: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ فيأخذ بالرخصة حتى لو قال الكفر بلسانه. اهـ.

● **فائدة:**

قال الفقير: والحديث يفتح مسألة الإكراه، وهل هؤلاء كانوا مكرهين؟

الجواب: نعم كانوا فى حالة إكراه لأن الثانى لم يقرب فقتل فشروط الإكراه توافرت هنا.

فالإكراه: هو إلزام الغير بما لايريده.

شروطه: الأول: أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدر به والمأمور عاجزاً عن الدفع ولو بالفرار.

الثانى: أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

الثالث: أن يكون ماهدده به فورياً، فلو قال إن لم تفعل كذا ضربتك غداً لايعد مكرهاً، ويستثنى ما إذا ذكر زمناً قريباً جداً أو جرت العادة بأنه لايخلف.

الرابع: أن لايظهر المأمور ما يدل على إختياره كمن أكره على الزنا فأولج وأمكنه أن ينزع ويقول أنزلت فيتمادى حتى ينزل، وكمن قيل له طلق ثلاثاً فطلق واحدة وكذا عكسه.

ولافرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور.

ويستثنى من الفعل ماهو محرم على التأبيد كقتل النفس بغير حق.

واختلف فى المكره هل يكلف بترك فعل ما أكره عليه أم لا؟.

فقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازى: انعقد الإجماع على أن المكره على القتل مأمور بإجتناب القتل والدفع عن نفسه وأنه يأثم إن قتل من أكره على قتله. وذلك يدل على أنه مكلف حالة الإكراه، وكذا وقع فى كلام الغزالى وغيره، ويقتضى كلامهم تخصيص الخلاف بما إذا وافق داعية الإكراه داعية الشرع كالإكراه على قتل: الكافروإكراهه على

الإسلام، أما ما خالف فيه داعية الإكراه داعية الشرع كالإكراه على القتل فلاخلاف فى جواز التكليف به، وإنما جرى الخلاف على تكليف الملجأ وهو لايجد مندوحة عن الفعل كمن ألقى من شاهق وعقله ثابت فسقط على شخص فقتله فإنه لامندوحة له عن السقوط ولا اختيار له فى عدمه وإنما هو آلة محضة، ولانزاع فى أنه غير مكلف إلا ما أشار إليه الآمدى من التفريع على تكليف مالايطاق، وقوى جرى الخلاف فى تكليف الغافل كالنائم والناسى وهو أبعد من الملجأ لأنه لاشعور له أصلاً وإنما قال الفقهاء بتكليفه على معنى ثبوت الفعل فى دفعه أو من جهة ربط الأحكام بالأسباب.

وقال القفال: إنما شرع سجود السهو ووجبت الكفارة على المخطىء لكون الفعل فى نفسه متهيئاً من حيث هو لا أن الغافل نهى عنه حالة الغفلة إذ لايمكنه التحفظ عنه، واختلف فيما يهدر به فاتفقوا على القتل وإتلاف العضو والضرب الشديد والحبس الطويل، واختلفوا فى يسير الضرب والحبس كيوم أو يومين(١).

● **ومن ذهب إلى أن الإكراه فى القول دون الفعل استدل بأدلة منها:**

١ - قول ابن عباس والحسن فى التقية باللسان فقط لكن لايقتل النفس التى حرّم الله إلا بالحق(٢).

٢- سبب نزول الآية **﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾** الآية.

وأن عمار أكره على قول الكفر ولم يكسره على فعل الكفر.

لكن الذى مال إليه البخارى هو أن الإكراه فى القول والفعل، فى الكبائر وفى الكفر.

واستدل ابن عثيمين لذلك أيضاً بعموم الآية **﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ﴾** ولم يقل الله عزوجل من كفر بالله بالقول، إنما مطلق الكفر أياً كان بالقول أو الفعل.

ويسلم لهؤلاء التفريق فى القتل.

ومن أدلة الذين قالوا أن الإكراه فى القول والفعل سواء.

١- ما ذكره البخارى فى كتاب الإكراه أن المكرهة على الزنى لايقام عليها الحد

---

(١) البخارى الفتح ١٢/٣٢٦و٣٢٧.

(٢) تقدم تخريجه

واستدل بقصة إبراهيم فى الصحيح مع الطاغية الذى راود سارة عن نفسها وحينما أرادها قامت تتوضأ وتصلى ودعت الله عز وجل أن يحال بينها وبين هذا الطاغية[1] لكن حدثت الخلوة التى هى من مقدِّمات الزنى، لكن لاملام عليها فيها لأنها مكرهة ولاملام على غيرها إن وقعت فى ذلك مكرهة أو فيما هو أشد من ذلك.

٢ـ أورد الحافظ فى «الفتح» مسلم أن عبدالله ابن أبى كانت له جاريتان يكرههما على الزنى فأنزل الله عزوجل ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾[2].

● **هل الإكراه يعم القول والفعل أم يخص القول فقط؟.**

قال ابن بطال تبعاً لابن المنذر: أجمعوا على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل فكفر وقلبه مطمئن بالإيمان أنه لا يحكم عليه بالكفر ولاتبين منه زوجته، إلا محمد بن الحسن فقال: إذا أظهر الكفر صار مرتداً وبانت منه امرأته ولو كان فى الباطن مسلماً. قال: وهذا قول تغنى حكايته عن الرد عليه لمخالفته النصوص.

وقال قوم: محل الرخصة فى القول دون الفعل كأن يسجد للصنم أو يقتل مسلماً أويأكل الخنزير أو يزنى وهو قول الأوزاعى وسحنون.

وأخرج إسماعيل القاضى بسند صحيح عن الحسن أنه لايجعل التقية فى قتل النفس المحرمة.

وقالت طائفة: الإكراه فى القول والفعل سواء[3].

وعن ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص فيطلق ليس بشىء وبه قال ابن عمر وابن الزبير والشعبى والحسن[4].

● **فالحاصل: أن الإكراه فى القول والفعل سواء:**

لكن قد يسلم للمفرّق التفريق بين الإكراه على فعل القتل وفعل غيره، لأن المكره مخير بين قتل نفسه وقتل غيره، فيؤثر قتل نفسه (على) قتل غيره، لأن المصلحة فى

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٨٥٣٣) ، ومسلم فى الفضائل (٤٥١/ ٤٣١/ ٨) عن أبى هريرة.

(٢) النور: ٣٣ . [صحيح] والحديث أخرجه مسلم فى التفسير (٩/ ٣٨٧/ ٢٦) عن جابر .

(٣) الفتح (١٢/ ٣٢٩).

(٤) الفتح (١٢/ ٣٢٩).

رخصة الإكراه الحفاظ على النفس، فلا يؤثر حفاظه على نفسه على حفاظة على نفس غيره ويسلم لمن قال ذلك فى القتل فقط.

● **حد الإكراه:**

واختلف فى الإكراه فأخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن عمر قال «ليس الرجل بأمين على نفسه إذا سجن أو أوثق أو عذب ومن طريق شريح نحوه وزيادة ولفظه «أربع كلهن كره: «**السجن والضرب والوعيد والقيد**» وعن ابن مسعود قال «ما كلام يدرأ عنى سوطين إلا كنت متكلماً به» وهو قول الجمهور، وعند الكوفيين فيه تفصيل، واختلفوا فى طلاق المكرة فذهب الجمهور إلى أنه لايقع، ونقل فيه ابن بطال إجماع الصحابة، وعن الكوفيين يقع ونقل قوله عن الزهرى وقتادة وأبى قلابة، وفيه قول ثالث تقدم عن الشعبى(١). اهـ.

قلت: لكن الإكراه ليس فيه أن تنجو بنفسك وتوقع غيرك.

كما قال ﷺ : «**المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايُسلمه**»(٢) أى لايسلمه لمكروه.

والرخصة فى الإكراه إنما جاءت لحكمة وهى الحفاظ على النفس.

قد يقول قائل: لعلّ هذا الرجل الذى أكره على تقريب الذباب فعله تقيَّة ولم ينشرح صدره بذلك كما ذهب الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله.

نقول: لو فعل ذلك تقية ما دخل النار لأنه مادخل النار إلا لأجل ذلك، والمصنف قال فى المسائل أنَّ هذا الرجل كان مسلماً وإلا لو كان كافراً دخل النار من أجل كفره، وما قال دخل النار من أجل الذباب الذى قربه، فلو أنَّ هذا الرجل فعله مكره وقلبه مطمئن فلماذا يدخل النار، فهو ما دخل النار إلا لأمر فعله استوجب ذلك، وليس هناك إلا أن يكون فعل ذلك رضاً بما يفعل.

وقد يقول قائل: من الممكن أن نفرق بين القول والفعل والمُكرة على القول لايكفر ولا يعاقب كإكراه عمّار بن ياسر على النطق بالكفر والرسول ﷺ قال له: **كيف تجد قلبك** قال: مطمئناً بالإيمان قال: **فإن عادوا فعُد**(٣)، فالنبى ﷺ لم يكفره ولم يذكر عقوبة له، أمّا المكره على الفعل لايكفر لكن قد يعاقب.

(١) الفتح ١٢/٣٢٩. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه عبد الرزاق فى «تفسيره» (١٥٠٩)، وابن جرير فى «تفسيره» (١٤/١٢٢)، والحاكم فى «المستدرك» (٢/٣٥٧) عن عمار به.

انظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٦٢٠).

ونرد فنقول: أن المكرة لايعاقب البتة إلا على قول من يقول فى الكره فى القتل أنّ الذى أكره على قتل المسلم أكره على ذلك يعاقب ويقتص منه ولايعفيه أنّه أكره على قتل المسلم لقول ابن عباس والحسن أن التقية باللسان ولايقتل نفساً محرّمة وإن فعل ولو مكرها لايعفيه من العقوبة الدنيوية وهى القصاص أو الديّة.

● **هل الأولى للإنسان إذا أكره على الكفر أن يصبر ولو قتل أو يوافق ظاهراً أو يتأول.**

الجواب: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»**(١).

عن إسماعيل سمعت قيساً سمعت سعيد بن زيد يقول: لقد رأيتنى وإن عمر موثقى على الإسلام، ولو أنقض أحد مما فعلتم بعثمان كان محقوقاً أن ينقض»(٢).

عن خباب بن الأرث قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: **«قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»**(٣).

قال ابن حجر: فى شرح ترجمة البخارى (باب من إختار الغرب والقتل والهوان على الكفر) وجه أخذ الترجمة منه أنه سوّى بين كراهية الكفروكراهية دخول النار، والقتل والضرب والهوان أسهل عند المؤمن من دخول النار فيكون أسهل من الكفر إن اختار الأخذ بالشدة، ذكره ابن بطال.

وقال أيضاً: فيه حجة لأصحاب مالك، وتعقبه ابن التين بأن العلماء متفقون على إختيار القتل على الكفر، وإنما يكون حجة على من يقول إن التلفظ بالكفر أولى من الصبر على القتل، ونقل عن المهلب أن قوماً منعوا من ذلك واحتجوا بقوله تعالى:

(١) تقدم تخريجه فى بحث الولاء والبراء.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٩٤٢).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٩٤٣) وتقدم..

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، ولاحجة فيـه لأنه قال تلو الآية المذكورة ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ فقيده بذلك، وليس من أهلك نفسه فى طاعة الله ظالماً ولامعتدياً.

وقد أجمعوا على جواز تقحم المهالك فى الجهاد انتهى.

وهذا يقدح فى نقل ابن التين الإتفاق المذكور وأن ثم من قال بأولوية التلفظ على بذل النفس للقتل، وإن كان قائل ذلك يعمـم فليس بشيء، وإن قيده بما لو عرض ما يرجح المفضول كما لو عرض على من إذا تلفظ به نفع متعد ظاهراً فيتجه[1].

قال ابن بطال: أجمعوا على أن من أكره على الكفر وأختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن أختار الرخصـة، وأما غير الكفر فإن أكره على أكل الخنزير وشرب الخـمر مثلاً فالفعل أولى، وقـال بعض المالكية بل يأثم إن منع من أكل غيرها فإنه يصـير كالمضطر على أكل الميتة إذا خاف على نفسه الموت فلم يأكل[2]. اهـ.

ولكنا لانقول بالإثم ولكن نقول بأنه الأولى.

وأيضا لأن الدين مبنى على العزائم ما بُنى على الرخص.

قال ابن عثيـمين فى مسألة: هل الأولى للإنسان إذا أُكـره على الكفر أن يصـبر ولو قتل، أو يوافق ظاهراً ويتأول؟

هذه المسألة فيها تفصيل:

أولاً: أن يوافق ظاهراً وباطناً، وهذا لايجوز لأنَّه ردة.

ثانياً: أن يوافق ظاهراً لا باطناً، ولكن يقصد التخلص من الإكراه؛ **فهذا جائز.**

قال الفقير: وليس بسنة ولا مستحب.

ثالثاً: أن لايوافق لاظاهراً ولاباطناً ويقتل، وهذا جائز، وهو من الصبر.

قال الفقير: كان ينبغى أن يـقول هذا أفضل وهذا أعظم أجراً للإجـماع المنقول عن ابن بطال ولعله عبر بذلك للتفصيل فيها.

ثم قال: لكن أيهما أولى أن يصبر ولو قتل، أو أن يوافق ظاهرا؟

فيه تفصيل:

إذا كان موافـقة الإكراه لايترتـب عليه ضرر فى الدين للعامـة؛ فإنَّ الأولى أن يوافق

(١، ٢) الفتح ١٢/ ٣٣٠، ٣٣١.

ظاهراً لا باطناً، لاسيّما إذا كان بقاؤه فيه مصلحة للناس، مثل: صاحب المال الباذل فيما ينفع أو العلم النافع وما أشبه ذلك، حتى وإن لم يكن فيه مصلحة؛ ففى بقائه على الإسلام زيادة عمل.

قال الفقير: النبى ﷺ حينما سئل عن رجلين شقيقين فقيل: إن أحدهما مات وهو الأفضل والثانى بقى من بعده فقال: أليس يصلى فقالوا: بلى: قال إنكم لاتدرون ما بلغت به صلاته ولذلك نهى ﷺ عن تمنى الموت قال: **«لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان مسيئاً لعله يستعتب وإن كان محسناً لعله يزداد»**[1] «البخارى».

قال ابن عثيمين: وهو قد رُخّص له أن يكفر ظاهراً عند الإكراه؛ فالأولى أن يتأول، ويوافق ظاهراً لا باطنا.

قال الفقير: لكن هذا يتعارض مع إجماع ابن بطال المتقدّم.

ثم قال: أما إذا كان فى موافقته وعدم صبره ضرر على الإسلام؛ فإنه يصبر، وقد يجب الصبر؛ لأنّه من باب الصبر على الجهاد فى سبيل الله، وليس من باب إبقاء النفس، ولهذا لما شكى الصحابة للنبى ﷺ ما يجدونه من مضايقة المشركين؛ قصّ عليهم قصة الرجل فيمن كان قبلنا بأنّ الإنسان كان يمشط ما بين لحمه وجلده بأمشاط الحديد ويصبر[2]، فكأنه يقول لهم: اصبروا على الأذى.

ولو حصل من الصحابة رضى الله عنهم فى ذلك الوقت موافقة للمشركين وهم قلة؛ لحصل بذلك ضرر عظيم على الإسلام.

والإمام أحمد رحمه الله فى المحنة المشهورة لو وافقهم ظاهراً؛ لحصل فى ذلك مضرّة على الإسلام. اهـ.

قلت: تقدم شئ من مسائل الإكراه فى الباب الخامس فانظرها.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٦٧٣)، ومسلم فى الذكر والدعاء (٨٨١٧ـ النووي) عن أبى هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٦ـ بتخريجنا).

(١) تقدم قريبًا.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسيرُ ﴿قُلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي﴾.

الثانية: تَفْسيرُ ﴿فصَلِّ لربِّكَ وانْحَرْ﴾.

الثالثة: البَدَاءَةُ بِلَعنة مَنْ ذَبَحَ لغَيْرِ الله.

الرابعة: لَعْنُ مَن لَعنَ وَالِدَيْه، وَمِنْهُ أَنْ تَلْعَنَ وَالِدَي الرَّجُلِ فَيَلْعَنَ وَالِدَيْكَ.

فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير: ﴿قُلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي﴾.**

وقد سبق ذلك فى أول الباب.

- **الثانية: تفسير ﴿فَصَلِّ لرِبِّكَ وانْحَرْ﴾.**

وقد سبق ذلك فى أول الباب.

- **الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.**

بدأ به؛ لأنَّه من الشرك، والله إذا ذكر الحقوق يبدأ أولاً بالتوحيد؛ لأن حق الله أعظم الحقوق، قال تعالى: **﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾**(1)، وقال تعالى: **﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾**(2)، وينبغى أن يبدأ فى المناهى والعقوبات بالشرك وعقوبته.

قلت: وقد تقدم ذلك فى أول الكُتاب والتدليل عليه بمثل قوله ﷺ «أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين» ونحو ذلك فى حديث ابن مسعود حينما سئل ﷺ عن أى الذنب أعظم(4).

- **الرابعة: لعن من لعن والديه.**

ولعن الرجل له معنيان:

الأول: الدعاء عليه باللعن.

الثانى: سبّه وشتمه؛ لأن الرسول ﷺ فسَّره بقوله: **«يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»**(5).

---

(1) النساء: ٣٦.

(2) الإسراء: ٢٣.

(3) سبق تخريجه

(4) تقدم تخريجه.

(5) تقدم تخريجه

الخامسة: لَعْنُ مَنْ آوَى مُحْدِثاً، وَهُوَ الرَّجُلُ يُحْدِثُ شَيْئاً يَجِبُ فيه حَقٌّ اللهِ؛ فَيَلْتَجِئُ إِلى منْ يُجِيرُهُ مِنْ ذلِكَ.

السادسة: لَعْنُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ، وَهِيَ المَرَاسِيمُ التَّي تُفَرِّقُ بَيْنَ حَقِّكَ وَحَقِّ جَارِكَ مِنْ الأَرْضِ، فَتُغَيِّرُها بتَقْدِيمٍ أَوْ تأْخِيرٍ.

السابعة: الفَرْقُ بَيْنَ لَعْنِ المعيَّنِ ولَعْنِ أَهْلِ المَعَاصِي عَلَى سَبِيلِ العُمُومِ.

الثامنة: هذِهِ القِصَّةُ العَظِيمَةُ، وَهِيَ قِصَّةُ الذُّبابِ.

● **الخامسة: لعن من آوى محدثاً.**

وقد سبق أنه يشمل الإحداث فى الدين والجرائم، فمن آوى محدثاً ببدعة؛ فهو داخل فى ذلك، ومن آوى محدثاً بجريمة؛ فهو داخل فى ذلك.

● **السادسة: لعن من غيّر منار الأرض**

وسواء كانت بينك وبين جارك، أو بينك وبين السوق مثلاً؛ لأنَّ الحديث عام.

● **السابعة: الفرق بين لعن المعيّن ولعن أهل المعاصى على سبيل العموم.**

فالأول ممنوع، قلت: إلا بنص كما تقدم والثانى جائز، فإذا رأيت من آوى محدثاً؛ فلاتقل: لعنك الله، بل قل: لعن الله من آوى محدثاً على سبيل العموم، والدليل على ذلك أنَّ النبى ﷺ لما صار يلعن أناساً من المشركين من أهل الجاهلية بقوله: «**اللهم! العن فلاناً وفلاناً وفلاناً**» نُهى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾[1]؛ فالمعيَّن ليس لك أن تلعنه، وكم من إنسان صار على وصف يستحق به اللعنة ثم تاب فتاب الله عليه، إذن يؤخذ هذا من دليل منفصل، وكأن المؤلف رحمه الله قال: الأصل عدم جواز إطلاق اللعن؛ فجاء هذا الحديث لاعناً للعموم، فيبقى الخصوص على أصله؛ لأنَّ المسلم ليس بالطعَّان ولا باللعَّان، والرسول ﷺ ليس طعّاناً ولا لعّاناً، ولعل هذا وجه أخذ الحكم من الحديث، وإلاّ؛ فالحديث لاتفريق فيه.

● **الثامنة: هذه القصة العظيمة وهى قصة الذباب.**

كأن المؤلف ـ رحمه الله ـ يصحح الحديث، ولهذا بنى عليه حكماً، والحكم المأخوذ من دليل فرع عن صحته، والقصة معروفة.

قلت: وقد يتعرض من بعض العلماء لشرح حديث ويأخذ منه بعض الأحكام ولا يصححه كالحافظ فى مواضع فى «الفتح» والشوكانى فى «النيل» وهذا إما يحمل على أنه

التاسعة: كَوْنُهُ دَخَلَ النَّارَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الذُّبابِ الَّذِى لَمْ يَقصِدْهُ، بَلْ فَعلَهُ تَخَلُّصاً مِنْ شَرِّهِمْ.

التزم شرح الكتاب صحيحه وضعيفه وما يـؤخذ منه أو على افتراض صحته عند من يرى ذلك.

● **التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الـذباب الـذى لم يقصـده، بل فعله تخلصاً من شرّهم.**

هذه المسألة ليست مسلّمة، فإن قوله: قرّب ولو ذباباً يقتضى أنّه فعله قاصداً التقرّب، أما لو فعله تخلصـاً من شرهم؛ فإنّه لايكفر لعدم قصد التقرّب، ولـهذا قال الفقهاء: لو أُكره علـى طلاق امرأته فطـلّق تبعاً لقـول المكره؛ لم يقـع الطلاق، بخلاف مـالو نوى الطلاق؛ فإنّ الطلاق يقع، وإن طلّق دفعاً للإكراه؛ لم يقع، وهذا حق لقوله ﷺ: **«إنّمَا الأعمال بالنيات»**(١).

وظاهر القصة أنّ الرجـل ذبح بنية التقرّب؛ لأنّ الأصل أن الفعل المبنى على طلب يكون موافقاً لهذا الطلب.

ونحن نرى خلاف ما يـرى المؤلف رحمه الله، أى أنّه لو فعله بقصـد التخلّص ولم ينو التقرب لهذا الصنم لايكفر؛ لعموم قوله تعالى: **﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾**(٢).

وهذا الذى فعل ما يوجب الكفر تخلّصاً مطمئن قلبه بالإيمان.

والصواب أيضاً: أنّه لافرق بـين القول المكره عليه والفعل، وإن كان بـعض العلماء يفرق ويقول: إذا أُكره على القول لم يكفر، وإذا أُكـره على الفعل كفر، ويستدل بقصة الذباب، وقصة الـذباب فيها نظر من حيث صـحتها، وفيها نظر من حـيث الدلالة؛ لما سبق أنّ الفعل المبنى على طلب يكون موافقاً لهذا الطلب.

ولو فرض أن الرجل تقرَّب بـالذباب تخلصاً من شرّهم؛ فإنّ لدينا نـصاً محكماً فى الموضوع، وهو قولـه تعالى: **﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾** الآية، ولم يقـل: بالقول، فما دام عـندنا نصّ قرآن صريح؛ فـإنّه لو وردت السنة صحـيحة على وجه مشتبه، فإنّها تحمل عـلى النصّ المحكم.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠)، ومسلم فى الإمارة (١٣/ ٥٣ـ النووي) عن عمر به. وانظر «رياض الصالحين» (١ـ بتخريجنا).

(٢) النحل: ١٠٦.

العاشرة : مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشِّرْكِ فى قُلُوبِ الْمُؤْمنينَ؛ كَيْفَ صَبَرَ ذلكَ عَلَى القَتْلِ وَلَمْ يُوَافقْهُمْ عَلَى طَلَبِهِمْ مَعَ كَوْنِهِم لَمْ يَطْلُبُوا إلا العَمَلَ الظَّاهِرَ؟!.

الحادية عشرة : أَنَّ الَّذِي دَخَلَ النَّارَ مُسْلِمٌ؛ لأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَافِراً؛ لَمْ يَقُلْ: «دَخَلَ النَّارَ فى ذُبَابٍ».

الثانية عشرة : فِيهِ شَاهِدٌ للحديث الصَّحِيح: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِنْ شِرَاكِ نَعلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ»[1].

الخلاصة أن من أكره على الكفر؛ لم يكن كافراً ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان ولم يشرح بالكفر صدراً.

فائدة:

قال الفقير: كما قلنا لم يسلم بها ابن عثيمين للمصنف وكما قلنا أن الإستدراك ليس بدعة بل قد يظهر للصغار مالايظهر للمشايخ كما ظهر لابن عمر مالم يظهر لعمر وأبى بكر عندما سئل النبى عن الشجرة التى مثل المؤمن فقال: فوقع فى نفس أنها النخلة والحديث فى الصحيح[2].

- **العاشرة: معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين... إلخ.**

قال الفقير: معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين أنه يكره أن يعود للشرك كما يكره أن يقذف فى النار ونار الدنيا أحب إليه من الردة.

قال ابن عثيمين: وقد بينها رحمه الله تعالى.

- **الحادية عشرة: أنَّ الذى دخل النار مسلم؛ لأنّه لو كان كافراً لم يقل: دخل النار فى ذباب.**

وهذا صحيح، أى أنَّه كان مسلماً ثم كفر بتقريبه للصنم؛ فكان تقريبه هو السبب فى دخوله النار.

ولو كان كافراً قبل أن يُقرِّب الذباب؛ لكان دخوله النار لكفره أولى، لابتقريب الذباب.

- **الثانية عشرة فيه شاهد للحديث الصحيح: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك».**

والغرض من هذا: الترغيب والترهيب، فإذا عُلم أنَّ الجنَّة أقرب إليه من شراك النعل؛ فإنَّه ينشط على السعى، فيقول: ليست بعيدة؛ كقوله ﷺ لما سئل عما يدخل الجنة ويباعد من النار، فقال: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله**

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.   (٢) تقدم تخريجه

الثالثة عشرة : مَعْرِفَةُ أنَّ عَمَلَ القَلْبِ هُوَ المقصُودُ الأعْظَمُ، حَتَّى عِنْدَ عَبَدَةِ الأصْنَامِ.

عليه»[1]، والنار إذا قيل له: إنها أقرب من شراك النعل يخاف، ويتوقى فى مشيه لئلا يزلّ فيهلك، ورب كلمة توصل الإنسان إلى أعلى علّيين، وكلمة أخرى توصله إلى أسفل سافلين.

● **الثالثة عشرة: معرفة أنَّ عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان.**

والحقيقة أن هذه المسألة مع التاسعة فيها شبه تناقض؛ لأنَّه فى هذه المسألة أحال الحكم على عمل القلب، وفى التاسعة أحاله على الظاهر؛ فقال: بسبب ذلك الذباب الذى لم يقصده بل فعله تخلصاً من شرهم، ومقتضى ذلك أن باطنه سليم، وهنا يقول: إن العمل بعمل القلب، ولاشك أن ما قاله المؤلف ـ رحمه الله ـ حق بالنسبة إلى أنَّ المدار على القلب.

والحقيقة أنَّ العمل مركب على القلب، والناس يختلفون فى أعمال القلوب أكثر من إختلافهم في أعمال الأبدان، والفرقان بينهم قصداً وذلاً أعظم من الفرقان بين أعمالهم البدنية؛ لأنَّ من الناس من يعبد الله لكن عنده من الإستكبار مالايذلّ معه ولايذعن لكل حق، وبعضهم يكون عنده ذلّ للحق، لكن عنده نقص فى القصد؛ فتجد عنده نوعاً من الرياء مثلاً.

فأعمال القلب وأقواله لها أهمية عظيمة، فعلى الإنسان أن يخلصها لله.

وأقوال القلب هى اعتقاداته؛ كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه.

وأعماله هى تحركاته؛ كالحب والخوف، والرجاء، والتوكّل، والاستعانة، وما أشبه ذلك.

والدواء لذلك: القرآن والسنة، والرجوع إلى سيرة الرسول ﷺ بمعرفة أحواله وأقواله وجهاده ودعوته، هذا مما يعين على جهاد القلب.

ومن أسباب صلاح القلب أن لاتشغل قلبك بالدنيا.

قال الفقير: وخلاصته: قد لا يكون هناك تناقض فالتاسعة هم طلبوا منه الذبح مع التقرُّب (الكفر العملى مع الإعتقادى) لهذا الصنم فهذا فيه فائدة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم لعبدة الأوثان، فكأن الشيخ لايرى أنّه قرب وفعل الظاهر فقط ولم يوافق فى الباطن بل فعل الأمرين أو يرى أنهم طلبوا منه الأمرين عمل القلب وعمل الجوارح لكنه لم يستجب إلا فى عمل الجوارح كما صرح بذلك فى المسأله التاسعة فامتنع التناقض وانحل الإشكال لكن تقدم الرد على ذلك فى المسألة التاسعة.

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣١). الترمذى (٦/ ٢٦)، والنسائى فى «الكبري»(١١٣٩٤) وابن ماجه (٣٩٧٣).عن معاذ به .- وانظر «رياض الصالحين» (١٥٢٥ـ بتخريجنا).

١٠ بابُ
لا يُذبَحُ للهِ بِمكانٍ يُذبَحُ فيه لِغيرِ اللهِ

مناسبة هذا الباب لما قبله

قال السعدى (١) : وما أحسن إتباع هذا الباب بالباب الذى قبله؛ فالذى قبله من المقاصد، وهذا من الوسائل، ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذى يذبح فيه المشركون لآلهتهم تقرباً إليها وشركاً بالله قد صار مشعراً من مشاعر الشرك، فإذا ذبح المسلم ذبيحة ولو قصدها لله؛ فقد تشبه بالمشركين وشاركهم فى مشعرهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة والميل إليهم، ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار فى شعارهم، وأعيادهم، وهيئاتهم، ولباسهم، وجميع مايختص بهم؛ إبعاداً للمسلمين عن الموافقة لهم فى الظاهر التى هى وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى إنه نهى عن الصلاة النافلة فى أوقات النهى التى يسجد المشركون فيها لغير الله خوفاً من التشبه المحذور». اهـ.

قال ابن عثيمين (٢):

هذا الانتقال من المؤلف من أحسن ما يكون؛ ففى الباب السابق ذكر الذبح لغير الله؛ فنفس الفعل لغير الله.

وفى هذا الباب ذكر الذبح لله، ولكنه فى مكان يذبح فيه لغيره، كمن يريد أن يضحى لله فى مكان يذبح فيه للأصنام؛ فلا يجوز أن تذبح فيه؛ لأنه موافقة للمشركين فى ظاهر الحال، وربما أدخل الشيطان فى قلبك نية سيئة؛ فتعتقد أن الذبح فى هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر. اهـ.

قال الفقير: وهناك مناسبة أخرى لاتخطر فى الغالب إلا على بال الداعية الذى عانى وكابد فى الدعوة حتى قوبل بعناد وبجدال فأراد أن يرد فما وجد رد أبلغ من هذا التبويب، فحينما تدعو من يذبح لغيرالله، فيقول لك أنا لا أذبح إلا لله، ولا أقصد بها هؤلاء الأولياء إنما أقصد أن أذبح لله، فنقول: سلمّنا لك أنك لا تذبح إلا لله لأننا لاسبيل لنا إلى نيتك وليس لنا إلا ماتقول وتتفوه به، لكن ما تفعله من الذبح لله فى هذا المكان حرام. لايجوز . فكأنه لما بوّب الباب الأوّل فى الذبح لغير الله وبيّن أنه كفر

---

(١) القول السديد ص ٤٤.

(٢) القول المفيد ١/ ٢٩٩

فوجد من الناس من يقول: نعم سلمنا لكم أنه كفر، ولكنّا لانذبح إلا لله لكن عند هؤلاء الأصنام والأولياء وفى هذه الموالد والأعياد: **أفتمنعوننا أن نذبح لله ونتقرب لله؟!** نقول نعم نمنعكم (**لايذبح لله فى مكان يذبح فيه لغير الله**) كأعيادهم ومواليدهم للحديث ولأن هذا تشبه فى الصورة بهم.

ولعله يرد فيقول: لا، بل هو واجب علىّ أن أذبح هنا، نقول له: من أوجبه عليك؟ فيقول أوجبه علىّ النبىُّ ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»(١) وهذا نذر لله وهو ليس بحرام وواجب أن أوفى به، وإنى نذرت أن أذبح لله فى هذا المكان فهذا واجب.

فنجيء له بالحجة الأدمغ وهى قصة ثابت من الضحاك قال نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانه فسأل النبىَّ ﷺ فقال: **هل كان فيها وثن**، قالوا لا، قال **فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**، قالوا لا، قال. **فأوف بنذرك فإنه لاوفاء لنذر فى معصية ولا فيما لايملك ابن آدم**(٢).

يعنى لو كان فيها عيد أو وثن يعبد قبل ذلك، فيكون نذر فى معصية الله لاتفى به.

فلايجوز الوفاء بهذا النذر وعليه كفَّارة ككفارة اليمين كما سيأتى.

شرح الترجمة وماذا أراد المصنِّف بهذا الباب.

قال سليمان آل الشيخ(٣): أى أنَّ ذلك لايجوز لما سيذكره المصنِّف.

قال حامدبن محمد بن حسن(٤): باب فى بيان مايدل على أنه لايباح لمسلم أنه يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله بل ينهى عن ذلك لأنه تحنيث بالاشراك بالله فيه وأنه موضع تهمة من رآك فيه ذابحاً اتهمك بأنكر المنكرات أى الشرك بالله وقد ورد عنه ـ ﷺ أنه قال: «**اتقوا موضع التهم**»(٥). وأيضاً يقتدى بك الجهال فيفشوا الشرك. اهـ.

قال ابن باز(٦): أراد به لايجوز للمؤمنين التشبه بأهلِ المعاصى ولامشاركتهم فى أماكن المعصية وفى أماكن تعبدهم ولوبغير الذبح حتى لاينسب إليهم ويشاركهم. فإذا

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٦٩٦) وأنظر تمام تخريجه فى «منار السبيل» (ح ١٠٥١) بتخريجنا.

(٢) سيأتى تخريجه فى حديث الباب.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١٤١.

(٤) فتح الله الحميد المجيد ٢٢٥

(٥) أذكره العجلونى فى «كشف الخفا» (٨٨) ونقل عن العراقى فى تخريج الإحياء: لم أجد له أصلاً ثم عزاه للخرائطى فى «مكارم الاخلاق» مرفوعاً بنحوه.

(٦) التعليق المفيد ٨٣.

وقول الله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[1].

ذبح فى مكان يذبح فيه لغير الله فإنه قد ينتسب إلى أهل السوء أو يظن به السوء والمؤمن يبتعد عن ذلك كله. اهـ.

وقول الله تعالى ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾

مناسبة الآية للترجمة

قال سليمان آل الشيخ[2]: ووجه الدلالة من الآية على الترجمة من جهة القياس، لأنه إذا منع الله رسوله ﷺ عن القيام لله تعنى فى هذا المسجد المؤسس على هذه المقاصد الخبيثة مع أنه لايقوم فيه إلا لله، فكذلك المواضع المعدة للذبح لغير الله لايذبح فيها الموحد لله، لأنها قد أسست على معصية الله والشرك به، يؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتى.

وأوضح ذلك ابن عثيمين فقال[3].

وجه المناسبة من الآية.

أنه لماكان مسجد الضرار مما اتخذ للمعاصى ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، نهى الله رسوله أن يقوم فيه، مع أن صلاته فيه لله؛ فدل على أن كل مكان يُعصى الله فيه أنه لايقام فيه، فهذا المسجد متخذ للصلاة، لكنه محل معصية؛ فلا تقام فيه الصلاة.

وكذلك لوأراد إنسان أن يذبح فى مكان يُذبح فيه لغير الله كان حراماً؛ لأنه يشبه الصلاة فى مسجد الضرار.

وقريب من ذلك النهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لأنهما وقتان يسجد فيهما الكفار للشمس؛ فهذا باعتبار الزمن والوقت، والحديث الذى ذكره المؤلف باعتبار المكان. اهـ.

قال الفقير: وتتمة لهذه الفائدة أقول:

أنه لعل قائل يقول أن عمر وابن عباس أراد أحدهما أن يصلى فى البيعة أو الكنيسة لولا مافيها من التماثيل فلماذا تمنعون من الذبح فى أماكن يذبح فيها لغير الله ولا تمنعون من الصلاح فى الأماكن التى يصل فيها لغير الله؟!.

الجواب: لما كانت هذه الأرض مكان شرك حرم أن يفعل الإنسان ما يشبه الشرك فيها

---

(١) التوبة ١٠٨

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٤٢

(٣) القول المفيد ١/ ٣٠٢،٣٠٣.

لمشابهة المشركين فى الصورة فإن ذبح المشرك والموحد فى الصورة سواء أما بالنسبة للصلاة فى الكنيسة فإن الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة فلا يكون الإنسان متشبهاً بهذا العمل بخلاف الذبح في المكان الذى يذبح فيه لغير الله فإن الفعل واحد بنوعه ولهذا لو أراد إنسان أن يصلى فى مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك لأنه ليس من نوع العبادة التى يفعلها المشركون فى هذا المكان.

لكن هذه التماثيل إن وجدت فهناك نهى أو كراهة وسبب ودليل النهى والكراهة بوب عليه البخارى باب من صلى وقدامه تنور أو نار أو شىء ممايعبد فأراد به الله(١).

صحّ عن ابن سيرين فيما رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه عنه «أنه كره الصلاة إلى التنور أو إلى بيت النار لأن فيها تشبة بمن يصلى للنار(٢).

وإن كان المصلى للنار يصلى صلاة غير صلاتنا، لكن اتفقا فى هيئة الصلاة، فلذلك كرهها

ثم استدل البخارى على هذا الباب.

عن أنس قال: قال النبى ﷺ «عُرِضَت علىّ النار وأنا أصلى»(٣).

وعن ابن عباس قال: انخسفت الشمس. فصلىّ رسول الله ﷺ ثم قال «أُرِيتُ النارَ فلم أر منظراً كاليوم قطُّ أفظع(٤).

قال ابن حجر: لم يفصح المصنف فى الترجمة بكراهة ولاغيرها، فيحتمل أن يكون مراده التفرقة بين من بقى ذلك بينه وبين قبلته وهو قادر على إزالته أو انحرافه عنه، وبين من لايقدر على ذلك فلايكره فى حق الثانى، وهو المطابق لحديثى الباب، ويكره فى حق الأوّل كما سيأتى التصريح بذلك عن ابن عباس فى التماثيل وكما روى ابن أبى شيبة عن ابن سيرين أنه كره الصلاة إلى التنور أو إلى بيت نار (٥).

قال عمر رضى الله عنه إنا لاندخل كنائسكم من أجل التماثيل التى فيها الصور(٦) وكان ابن عباس يصلى فى البيعة إلا بيعة فيها تماثيل(٧).

(١) (١/ ٦٢٩ ـ الفتح)

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٢/ ٢٧٣) وأورده الحافظ فى الفتح (١/ ٦٢٩) وسكت عنه.

(٣) علقه البخارى (١/ ٦٢٩) ووصله (٥٤٠).

(٤) أخرجه البخارى (٤٣١).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه البخارى تعليقاً (١/ ٣٦٢) وسيأتى من وصله ن قول الحافظ.

(٧) البخارى (١/ ٦٣٢) وسيأتى من وصله.

قال ابن حجر: والأثر وصله عبدالرزاق من طريق أسلم مولى عمر قال: لما قدم عمر الشام صنع له رجل من النصارى طعاماً وكان من عظمائهم وقال: أحب أن تجيئني وتكرمني.

قوله (وكان ابن عباس) وصله البغوى فى «الجعديات» وزاد فيه «فإن كان فيها تماثيل خرج فصلى فى المطر» فى باب من صلى وقدامه تنور أن لامعارضة بين هذين البابين، وأن الكراهة فى حال الاختيار(١).

فكأنه ما لجأ لهذه البيعة إلا للمطر فى الخارج فوجد فيها تماثيل امتنع لأن الأمر مختار هو فيه ويستطيع التحول، وليس مضطر.

فالحديث الأول محمول على حالة عدم الاختيار فيجوز بغير كراهة، والآثار الأخرى عن ابن عباس وعمرو ابن سيرين محمولة على حاله: اختياره للصلاة وقدامه شيء عبد من دون الله فهذا يكره.

فمن صلى على جريدة من جرائد الأخبار أو أمامة صورة أو شيء عبد من دون الله فهذا مكروه لا أعلم فى ذلك خلافاً بين أهل العلم.

الخلاصة: إذاً مدار الأحاديث على النهى عن فعل العبادة فى المكان التى يفعل فيها عبادة من جنسها فلو هذا المكان كان يذبح فيه لغير الله يحرم أن تذبح فيه لله وإن كان يصلى فيه لغير الله يحرم أن نصلى فيه لله.

قال ابن عثيمين: لو ذهب أحد للصلاة فى مكان يذبح فيه لغير الله فهو جائز. أهـ.

قال الفقير: والذى يظهر لى. والله أعلم أنه لايجوز.

لما ذكر البخارى فى كتاب الصلاة، باب الصلاة فى مواضع الخسف والعذاب...

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال **«لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لايصيبكم ما أصابهم»**(٢).

قال ابن حجر(٣): وقع عند البخارى فى المغازى فى أخر الحديث **«ثم قنع ﷺ رأسة وأسرع السير حتى أجاز الوادى»** فدلّ على أنه لم ينزل ولم يصل هناك كما صنع على خسف بابل(٣). اهـ.

(١) الفتح ١/ ٦٣٣.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٣٣) وانظر «رياض الصالحين» (٩٥٧ ـ بتخريجنا)..

(٣) الفتح ١/ ٦٣٢.

فدلّ على أنه لايجوز التقرب لله فى أماكن يعصى فيها الله أو يشرك فيها بالله، أى نوع من أنواع الشرك وأن فعله هذا يدل ـ على أقل ما يكون ـ على كراهة الصلاة فى هذه الأماكن، فيحمل قول الشيخ على الجواز مع الكراهة، أما الجواز بإطلاق ففيه نظر، يُعكِّر عليه الحديث المتقدم.

والحاصل: أن الأرض التى فيها الشرك يحرم تأدية عبادة فيها لله من جنس العبادة التى تقدم فيها لله، وإن كانت العبادة ليست من الجنس وليست من النوع فهذا مكروه.

قوله : ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾

الإعراب[١]: (لا) ناهية (وتقم) فعل مضارع مجزوم بلا الناهية (وفيه)جار ومجرور متعلقان بتقم (وأبداً) ظرف متعلق بتقم أيضاً أى لا تصل فيه أبداً.

● **أقوال المفسرين**

قال الطبرى[٢]: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ لاتقم يا محمد فى المسجد الذى بناه هؤلاء المنافقون ضرارا وتفريقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ثم أقسم جل ثناؤه فقال لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم أنت فيه يعنى بقوله أسس على التقوى ابتدىء أساسه وأصله على تقوى الله وطاعته من أول يوم ابتدىء فى بنائه أحق أن تقوم فيه يقول أولى أن تقوم فيه مصليا وقيل معنى قوله من أول يوم مبدأ أول يوم كما نقول العرب لم أره من يوم كذا بمعنى مبدؤه من أول يوم يراد به من أول الأيام كقول القائل لقيت كل رجل بمعنى كل الرجال ا.هـ.

قال ابن الجوزى[٣]: لاتقم فيه ابداً: أى لاتصل فيه أبداً أ.هـ.

قال الرازى[٤]: **قال المفسرون** : إن المنافقين لما بنوا ذلك المسجد لتلك الأغراض الفاسدة عند ذهاب رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك: قالوا يارسول الله بنينا مسجداً لذى العلة والليلة الممطرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنابالبركة: فقال عليه السلام «إنى على جناح سفر وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه» فلما رجع من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد فنزلت هذه الآية، فدعا بعض القوم وقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وخربوه، ففعلوا ذلك وأمر أن يتخذ مكانه كناسة يلقى فيها الجيف والقمامة»[٥].

---

(١) إعراب القرآن ٤/ ١٧٤.

(٢) تفسير الطبرى ٧/ ١١/ ٢

(٣) زاد المسير (٣/ ٣٧٨)

(٤) التفسير الكبير / ١٦/ ١٩٩، ٢٠٠.

(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١١/ ١٧ - ١٨) وذكره السيوطى فى «الدر» وعزاه لابن إسحاق وابن مردويه. وانظر «فتح القدير» (ح ٦١٧٢) بتخريجنا.

وقال الحسن: هم رسول الله ﷺ أن يذهب إلى ذلك المسجد فنادى جبريل عليه السلام لاتقم فيه أبداً.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله ﴿لا تَقُمْ فِيهِ﴾ نهى له عليه السلام عن أن يقوم فيه. قال ابن جريج: فرغوا من إتمام ذلك المسجد يوم الجمعة، فصلوا فيه ذلك ويوم السبت والأحد، وانهار فى يوم الأثنين. ثم إنه تعالى بين العلة فى هذا النهى، وهى أن أحد المسجدين لما كان مبنياً على التقوى من أول يوم،وكانت الصلاة فى مسجد آخر تمنع من الصلاة فى مسجد التقوى كان من المعلوم بالضرورة أن يمنع من الصلاة فى المسجد الثانى.

فإن قيل: كون أحد المسجدين أفضل لايوجب المنع من إقامة الصلاة فى المسجد الثانى.

قلنا: التعليل وقع بمجموع الأمرين، أعنى كون مسجد الضرار سبباً للمفاسد الأربعة المذكورة، ومسجد التقوى مشتملا على الخيرات الكثيرة. ومن الروافض من يقول: بين الله تعالى أن المسجد الذى بنى من أول الأمر على التقوى، أحق بالقيام فيه من المسجد الذى لا يكون كذلك. وثبت أن علياً ماكفر بالله طرفة عين، فوجب أن يكون أولى بالقيام بالإمامة ممن كفر بالله فى أول أمره. وجوابنا أن التعليل وقع بمجموع الأمور المذكورة، فزال هذا السؤال أهـ.

قال القرطبى(١):

قوله تعالى ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ يعنى مسجد الضرار؛ أى لاتقم فيه للصلاة. وقد يعبر عن الصلاة بالقيام يقال: فلان يقوم الليل أى يصلى؛ ومنه الحديث الصحيح: **«من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه»**(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: فذكره(٢).

قوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان. وظرف الزمان على قسمين: ظرف مقدّر كاليوم، وظرف مبهم كالحين والوقت؛ والأبد من هذا القسم، وكذلك الدهر.

وتنشأ هنا مسألة أصولية، وهى أن «أبداً» وإن كانت ظرفاً مبهما لاعموم فيه ولكنه

(١) تفسير القرطبى ٥/٣٠٩٧.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٠٠٩) ومسلم (٦/ ٣٩، ٤٠ - النووى) وانظر «منار السبيل» (ح ٩٨٦) بتخريجنا.

إذا اتصل بلا النافية أفاد العموم، فلو قال: لاتقم، لكفى فى الانكفاف المطلق. فإذا قال: «أبدا» فكأنه قال فى وقت من الأوقات ولا فى حين من الأحيان. فأما النكرة فى الإثبات إذا كانت خبراً عن واقع لم تعم، وقد فهم ذلك أهل اللسان وقضى به فقهاء الإسلام فقالوا: لو قال رجل لإمرأته أنت طالق أبداً طلقت طلقة واحدة. اهـ.

قال ابن كثير [1]: وقوله ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهى له صلى الله عليه وآله وسلم والأمة تبع له فى ذلك عن أن يقوم فيه أى يصلى أبداً. اهـ.

قال السعدى[2]: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أى: لاتصل فى ذلك المسجد، الذى بنى ضراراً أبداً فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه.

● أقوال شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمن[3]: قوله ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾

ضمير الغيبة يعود إلى مسجد الضرار، حيث بُنى على نية فاسدة، قال تعالى﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، والمتخذون هم المنافقون، وغرضهم من ذلك:

١ـ مضارة مسجد قباء، ولهذا يُسمى مسجد الضرار.

٢ـ الكفر بالله؛ لأنه يقرر فيه الكفر ـ والعياذ بالله ـ؛ لأن الذين اتخذوه هم المنافقون

٣ـ التفريق بين المؤمنين؛ فبدلاً من أن يصلى فى مسجد قباء صف أوصفان يصلى فيه نصف صف، والباقون فى المسجد الآخر، والشرع له نظر فى اجتماع المؤمنين.

٤ـ الإرصاد لمن حارب الله ورسوله يقال: إن رجلاً ذهب إلى الشام، وهو فاسق، وكان بينه وبين المنافقين الذين اتخذوا المسجد مراسلات، فاتخذوا هذا المسجد بتوجيهات منه، فيجتمعون فيه لتقرير مايريدونه من المكر والخديعة للرسول ﷺ وأصحابه، قال الله تعالى ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾؛ فهذه سنة المنافقين الأيمان الكاذبة.

﴿إِنْ﴾: نافية، بدليل وقوع الاستثناء بعدها، أى: ما أردنا إلا الحسنى، والجواب عن هذا اليمين الكاذب: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٢٧٨.

(٣) القول المفيد ١/ ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١.

فشهد الله تعالى على كذبهم؛ لأن ما يسرونه فى قلوبهم ولايعلم مافى القلوب إلا علام الغيوب؛ فكأن هذا المضمر فى قلوبهم بالنسبة إلى الله أمرمشهود يرى بالعين؛ كما قال الله تعالى فى سورة المنافقين: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

قوله: ﴿أبدا﴾ إشارة إلى أن هذا المسجد سيبقى مسجد نفاق.

قوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾.

الإعراب[1]: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ اللام للابتداء (ومسجد) مبتدأ وجملة (أسس على التقوى) صفة (لمسجد) (وعلى التقوى) جار ومجرور متعلقان (بأسس) (وأحق) خبره (ومن أول يوم) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أو (بأسس) وأن تقوم مصدر منصوب بنزع الخافض أى بأن تقوم فيه وهو متعلق (بأحق) وفيه متعلقان (بتقوم).

قال الفقير: فى هذا المسجد ثلاثة أقوال.

(الأول) مسجد الرسول ﷺ: قاله ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدرى، وسعيد بن المسيب.

(الثانى) مسجد قباء: قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعروة، وأبو سلمة ابن عبدالرحمن، والضحاك.

(الثالث) كل مسجد بُنى فى المدينة: قاله محمد بن كعب[2] و إليك تفصيل ذلك.

روى ابن جرير[3].

عن عثمان بن عبيد الله: قال أرسلنى محمد بن أبى هريرة إلى ابن عمر أسأله عن المسجد الذى أسس على التقوى أى مسجد هو مسجد المدينة أو مسجد قباء؟ قال: لا مسجد المدينة [4].

عن خارجة بن زيد عن زيد: قال هو مسجد الرسول [5].

(١) إعراب القرآن ٤/ ١٧٤.

(٢) وانظر زاد المسير (٣/ ٣٧٨).

(٣) الطبرى ٧/ ١١/ ٢١ ـ ٢٢.

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٤٩٦) ونسبه لابن أبى شيبة، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٦١٧٩ ـ بتخريجنا).

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن أبى شيبة، وابن مردويه، والطبرانى.

ونظر «فتح القدير» (٦١٧٨ ـ بتخريجنا).

وعن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال مر بى عبدالرحمن بن أبى سعيد فقلت كيف سمعت أباك يقول فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال لى أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه فى بيت بعض نسائه فقلت يارسول الله أى مسجد الذى أسس على التقوى قال فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ثم قال: «**هو مسجدكم**» هذا هكذا سمعت أباك يذكره(١).

وعن عبدالرحمن بن أبى سعيد عن أبيه: قال المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد النبى الأعظم (٢)

وعن سعيد بن المسيب: قال إن المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد المدينة الأكبر(٣).

وروى أيضاً. عن ابن عباس لمسجد أسس على التقوى من أول يوم يعنى مسجد قباء(٤).

عن عطية لمسجد أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد قباء (٥).

عن ابن بريدة قال مسجد قباء الذى أسس على التقوى بناء نبى الله ﷺ (٦).

قال ابن زيد المسجد الذى أسس على التقوى مسجد قباء(٧).

عن عروة بن الزبير الذين بنى فيهم المسجد الذى اسس على التقوى بنو عمرو بن عوف(٨).

وروى أيضاً.

عن سهل بن سعد قال اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ فى المسجد الذى

---

(١) [مسلم] أخرجه مسلم فى الحج (٥/ ١٨١/ ٥١٤)، وأخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وانظر «فتح القدير» (٦١٧٤ ـ بتخريجنا).

(٢) فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق، وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٤٩٦) ونسبه لابن أبى شيبة، وأبى الشيخ.

(٤) [منقطع] وفتح المجيد (ح ٢٥١) بتخريجنا أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٠٧٦).

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٤٩٦) وزاد نسبته لابن المنذر، والبيهقى فى «الدلائل» وانظر «فتح القدير» ـ٦١٨١ ـ بتخريجنا).

(٤ - ٧) أخرجهم ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق وانظر تمام التخريج فى «فتح المجيد» «ح ٢٥٢ـ٢٥٣) بتخريجنا.

(٨) اخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر (٦/ ٤٩٦) ونسبه لابن أبى شيبه، وأحمد، وعبد بن حميد، والزبير بن بكار فى «أخبار المدينة»، وأبي يعلى، وابن حبان والطبرانى، والحاكم فى «الكنى» وابن مردويه.

وانظر الاتقان للسيوطى بتخريجنا، وانظر «فتح القدير» (١٧٥ بتخريجنا)..

أسس على التقوى فقال أحدهما: هو مسجد النبى وقال الآخر هو مسجد قباء فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه فقال «هو مسجدى هذا».

وعن أبى بن كعب أن النبى ﷺ عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال «مسجدى هذا»(١).

عن ابن أبى سعيد عن أبيه قال تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم فقال رجل هو مسجد قباء وقال آخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «هو مسجدى»(٢).

عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ «المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا وفى كل خير»(٣) عن أبى سعيد أن رجلا من بنى خدرة ورجلا من بنى عمرو بن عوف امتريا فى المسجد الذى اسس على التقوى فقال الخدرى هو مسجد رسول الله ﷺ قال العمرى هو مسجد قباء فأتيا النبى ﷺ وسألاه فقال «هو مسجدى هذا وفى كل خير»(٤).

قال الطبرى (٥): واختلف أهل التأويل فى المسجد الذى عناه بقوله ﴿**لمسجد أسس على التقوى من أول يوم**﴾ فقال بعضهم: هو مسجد رسول الله ﷺ الذى فيه قبره ومنبره اليوم.

وقال آخرون بل عنى بذلك مسجد قباء.

ثم قال - أى ابن جرير - أولى القولين فى ذلك عندى بالصواب قول من قال هو مسجد الرسول ﷺ لصحة الخبر بذلك عن رسول الله أهـ.

وقد تقدم عن سهل بن سعد عن أبى سعيد وغيرهما

قال الرزاى(٦): وقال القاضى؛ لايمنع دخولهما جميعاً تحت هذا الذكر لأن قوله (**لمسجد أسس على التقوى**) هو كقول القائل، لرجل صالح أحق أن تجالسه. فلا يكون ذلك مقصوراً على واحد.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن أبى شيبة، وأحمد، وابن المنذر، وأبى الشيخ، وابن مردوية والخطيب، والضياء في المختار» وانظر فتح القدير» (٦١٧٦٠) بتخريجنا.

وانظر الاتقان للسيوطى بتخريجنا.

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وتقدم بنحوه.

(٣) أخرجه ابنجرير فى الموضع السابق .

وذكره السيوطى فى الدر (٦/٤٩٦) ونسبه لابن أبى شيبة، وأبى الشيخ وابن مردويه . وانظر «فتح القدير» (٦١٨٠ ـ بتخريجنا)

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وتقدم بنحوه.

(٥) تفسير الطبرى ٧/١١/ ٢٠. (٦) التفسير الكبير ٨/١٦/ ٢٠٠.

قال القرطبى[1]: واختلف العلماء فى المسجد الذى أسس على التقوى. فقالت طائفة هو مسجد قباء ثم قال: **والقول الأول أليق بالقصة**؛ لقوله «فيه» وضمير الظرف يقتضى الرجال المتطهرين فهو مسجد قباء - ثم أورد حديث أنس فى ذلك ثم قال: وهذا الحديث يقتضى أن المسجد المذكور فى الآية هو مسجد قباء إلا أن حديث أبى سعيد الخدرى نصٌ فيه النبىُّ ﷺ على أنه مسجده[2] فلانظير معه. أهـ.

قال ابن كثير[3]: وقد ورد فى الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذى فى جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى. وهذا صحيح.

ولامنافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أوّل يوم، فمسجد رسول الله من باب أولى.

قال السعدى[4]: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ ظهر فيه الإسلام فى «قباء» وهومسجد «قباء» أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره، وشعائر دينه، وكان قديماً فى هذا، عريقاً فيه.

فهذا المسجد الفاضل ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ وتتعبد، وتذكر الله تعالى، فهو فاضل، وأهله فضلاء.

قوله ﴿من أول يوم﴾

قال القرطبى[5]: «من» عند النحويين مقابلة منذ؛ فمنذ فى الزمان بمنزلة من فى المكان.

فقيل: إن معناها هنا معنى منذ؛ والتقدير: منذ أول يوم ابتدى بنيانه.

وقيل: المعنى من تأسيس أوّل الأيام، فدخلت على مصدر الفعل الذى هو أسس كما قال:

لمن الديار بقُنَّة الحِجْر أَقْوَيْنَ من حَجَج ومن دَهْرِ

أى من مرّ حجج ومن مر دهر. وإنما دعا إلى هذا أن من أصول النحويين أن «من» لايُجر بها الأزمان، وإنما تجر الأزمان بمنذ؛ تقول ما رأيته منذ شهر أو سنة أو يوم، ولاتقول: من شهر ولا من سنة ولا من يوم. فإذا وقعت فى الكلام وهى يليها زمن فيقدر مضمر يليق أن يجر بمن؛ كما ذكرنا فى تقدير البيت.

وعن ابن عطية. ويحسن عندى أن يستغنى فى هذه الآية عن تقدير، وأن تكون «من» تجر لفظه «أوّل» لأنها بمعنى البداءة؛ كأنه قال: من مبتدأ الأيام.

---

(١) تفسير القرطبى ٥/٣٠٩٩.
(٢) تقدم قريباً.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٣٧٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ٢/٢٧٨.
(٥) تفسير القرطبى ٥/٣٠٩٩، ٣١٠٠.

فائدة: من أين أرخوا التاريخ الإسلامى أفاد السهيلى: «أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ لأنه من المعلوم أنه ليس أول يوم مطلقاً فتعين أنه أضيف إلى شيء مضمر أول الزمن الذى عز فيه الإسلام وعبد فيه النبى ﷺ ربه آمناء ابتداء بناء المسجد فوافق رأى الصحابة ابتداء التاريخ من ذلك اليوم وفهمنا من فعلهم أن قوله﴿مِنْ أَوَّلِ﴾ أنه أول أيام التاريخ الإسلامى كذا قال. اهـ(*).

قوله تعالى: ﴿أحق أن تقوم فيه﴾

قال القرطبى (١): بأن تقوم؛ فهو فى موضع نصب «وأحق» هوأفعل من الحق، وأفعل لايدخل إلا بين شيئين مشتركين، لأحدهما فى المعنى الذى اشتركا فيه مزية على الآخر؛ فمسجد الضرار وإن كان باطلاً لاحق فيه، فقد اشتركا فى الحق من جهة اعتقاد بانيه، أو من جهة اعتقاد من كان يظن أن القيام فيه جائز للمسجدية؛ لكن أحد الاعتقادين باطل باطناً عند الله، والآخر حق باطناً وظاهراً؛ ومثل هذا قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ ومعلوم أن الخيرية من النار مبعودة، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير؛ إذ كل حزب بما لديهم فرحون. وليس هذا من قبيل: العسل أحلى من الخل؛ فإن العسل وإن كان حلوا فكل شيء ملائم فهو حلو؛ ألا ترى أن من الناس من يقدم الخل على العسل مفرداً بمفرد ومضافا إلى غيره بمضاف. اهـ.

قوله تعالى ﴿فيه﴾

قال القرطبى (٢) : من قال: إن المسجد يراد به مسجد النبى ﷺ فالهاء فى ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ عائد إليه، و﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ له أيضاً، ومن قال: إنه مسجد قباء، فالضمير فى «فيه» عائد إليه على الخلاف المتقدم. اهـ.

قال الرازى(٣): أنَّه تعالى رجح مسجد التقوى ـ أى رجح القيام فيه على القيام فى مسجد الضرار، أو غيره من المساجد ـ بأمرين:

---

(١) تفسير القرطبى فى الموضع السابق.

(*) الفتح (٧/ ٣١٤) وانظر كتابى «فقه الخطابة» (٤٤٦).

(٢) تفسير القرطبى فى الموضغ السابق.

(٣) التفسير الكبير ٨/١٦/٢٠١.

أحدهما: أنه بنى على التقوى، وهو الذى تقدم تفسيره. **والثانى:** أن فيه رجالاً يحبون أن يتطهروا». اهـ.

قوله ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾

الإعراب[1]:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (فيه) خبر مقدم و(رجال) مبتدأ مؤخر وجملة (يحبون) صفة لرجال و(أن) وما فى حيزها مفعول (يحبون) أى يحبون الطهارة من الذنوب والحوبات والمعاصى وقيل من الذنوب طهارة الباطن ومن الأحداث طهارة الظاهر (والله) مبتدأ وجملة (يحب المطهرين) خبر.

● **ماجاء فى سبب نزول الآية.**

عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال «**نزلت هذه الآية فى أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية**» [2].

عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية **﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾** بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة قال: «**ما هذا الطهور الذى اثنى الله عليكم**؟فقالوا: يارسول الله ماخرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه، أو قال: مقعدته. فقال النبى ﷺ: «هو هذا»[3].

وعن عويم بن ساعدة الأنصارى «أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال: **إن الله قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذى تطهرون به؟** قالوا: والله يارسول الله مانعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا»[4].

---

(١) إعراب القرآن ٤/ ١٧٤.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤)، والترمذى (٣١٠٠)، وابن ماجه (٣٥٧) قال الترمذى: غريب من هذا الوجه.

وانظر «فتح القدير» (٦١٨٣ ـ بتخريجنا).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٤٩٧) ونسبه للطبرانى، وأبى الشيخ، والحاكم، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٦١٨٤) ـ بتخريجنا).

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٢٢) وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن خزيمة والطبرانى، والحاكم، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٦١٨٥ ـ بتخريجنا). «فتح المجيد» (ح ٢٦٠) بتخريجنا.

وعن طلحة بن نافع قال: حدثنى أبو أيوب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك رضى الله عنهم، أن هذه الآية لما نزلت ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا**﴾ قال رسول الله ﷺ «**يامعشر الأنصار أن الله قد أثنى عليكم خيراً فى الطهور فما طهوركم هذا؟** قالوا: نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة. قال: **فهل مع ذلك غيره؟** قالوا: لا، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحب أن يستنجى بالماء. قال: **هو ذاك فعليكموه**»(١).

وعن مجمع بن يعقوب بن مجمع «أن رسول الله ﷺ قال لعويم بن ساعدة: **ماهذا الطهور الذى أثنى الله عليكم؟** فقالوا: نغسل الأدبار»(٢).

وعن محمد بن عبدالله بن سلام عن أبيه قال: لما أتى رسول الله ﷺ المسجد الذى أسس على التقوى فقال: «**إن الله قد أثنى عليكم فى الطهور خيراً أفلا تخبرونى؟** يعنى قوله ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾ فقالوا: يارسول الله إنا لنجد مكتوباً فى التوراة الاستنجاء بالماء، ونحن نفعله اليوم»(٣).

وعن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ لأهل قباء «**ما هذا الطهور الذى خصصتم به فى هذه الآية** ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا**﴾؟ قالوا: يارسول الله مامنا أحد يخرج من الغائط إلاغسل مقعدته»(٤).

وعن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: «سأل النبى ﷺ أهل قباء فقال: «**إن الله قد أثنى عليكم**» فقالوا: أنا نستنجى بالماء. فقال: **أنكم قد أثنى عليكم فدوموا**» (٥).

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٥٥)، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٠٩٧). وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٤٩٧) وزاد نسبته لابن المنذر، وابن الجارد فى «المنتقى»، والدار قطنى، والحاكم، وابن مردويه، وابن عساكر.

وانظر «فتح القدير» (٦١٨٧ ـ بتخريجنا). «فتح المجيد» (ح ٢٦١) بتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٤٩٧) ونسبه لابن أبى شيبة فى «مصنفة».

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/٦).

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٤٩٨) وزاد نسبته لابن أبى شيبة، والبخارى فى «تاريخه» وابن جرير، والبغوى فى «معجمه» والطبرانى، وابن مردويه.

وانظر تمام تخريجه فى «فتح القدير» (٦١٨٨ ـ بتخريجنا).

(٤) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨/١٤٣/ ٧٥٥٥) عن أبى أمامة بسند ضعيف.

قال الهيثمى فى «المجمع» (١/٢١٣) وفيه شرير أيضاً.

وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبته لعبدالرزاق فى «المصنف».

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبدالرزاق، وابن مردويه.

قال الرازى[1]: **وفى تفسير هذه الطهارة قولان:**

[الأول]: المراد منه التطهير عن الذنوب والمعاصى، وهذا القول متعين لوجوه:

أولها: أن التطهر عن الذنوب والمعاصى هوالمؤثر فى القرب من الله تعالى واستحقاق ثوابه ومدحه.

الثانى: أنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والكفر بالله والتفريق بين المسلمين، فوجب كون هؤلاء بالضد من صفاتهم. ماذاك إلاكونهم مبرئين عن الكفر والمعاصى.

والثالث: أن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر وقدر عند الله لوحصلت طهارة الباطن من الكفر والمعاصى، أما لوحصلت طهارة الباطن من الكفر والمعاصى،ولم تحصل نظافة الظاهر، كأن طهارة الباطن لها أثر، فكان طهارة الباطن أولى.

الرابع: **روى صاحب «الكشاف»**: أنه لما نزلت هذه الآية مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس، فقال «**أمؤمنون أنتم**» فسكت القوم ثم أعادها. فقال عمر: يارسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم؛ فقال عليه السلام«**أترضون بالقضاء**» قالوا نعم: قال «**أتصبرون على البلاء**» قالوا نعم، قال «**أتشكرون فى الرخاء**» قالوا نعم. قال عليه السلام «**مؤمنون ورب الكعبة**» ثم قال: «**يامعشر الأنصار إن الله أثنى عليكم فما الذى تصنعون فى الوضوء**» قالوا: نتبع الماء الحجر. فقرأ النبى عليه السلام ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا**﴾[2] الاية.

[والقول الثانى]: أن المراد منه الطهارة بالماء بعد الحجر. وهو قول أكثر المفسرين من أهل الأخبار.

وأضاف إلى ذلك **[القول الثالث]**: أنه محمول على كلا الأمرين، وفيه سؤال: وهوأن

(١) التفسير الكبير ٨/١٦/٢٠١.

(٢) قال الحافظ فى تخريج الكشاف (ح١٥٤): لم أجده هكذا وكأنه ملفق من حديثين: ذكر المخرج أولهما من الطبرانى فى «الأوسط» قال ـ فذكر سنده ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «دخل رسول الله على عمر ومعه أناس: فقال: أمنون أنتم؟ فسكتوا ثلاث مرات؟ فقال عمر رضى الله عنه يارسول الله نؤمن بما أتيتنا به والحمد الله فى الرخاء ونصبر فى البلاء: ونرضى بالقضاء؟ فقال «مؤمنون ورب الكعبة» إنتهى.

وهذا فيه من المخالفة بين السياقين مالا يخفى وأما الثانى فروى ابن مردويه من طريق ابن عباس نحوه.

لفظ الطهارة حقيقة فى الطهارة عن النجاسات العينية، ومجاز فى البراءة عن المعاصى والذنوب، واستعمال اللفظ الواحد فى الحقيقة والمجاز معاً لايجوز.

والجواب: أن لفظ النجس اسم للمستقذر، وهذا القدر مفهوم مشترك فيه بين القسمين وعلى هذا التقدير، فإنه يزول السؤال، ثم إنه تعالى أعاد السبب الأول، وهو كون المسجد مبنياً على التقوى أهـ.

قال الفقير: وهذا القول الثالث مال إليه ابن عثيمين فى «القول المفيد» وهو أشمل وأجمع للآثار من غيره. والله أعلم.

قال القرطبى(١): أثنى الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية على من أحب الطهارة وآثر النظافة، وهى مروءة آدمية ووظيفة شرعية؛ وفى الترمذى عن عائشة أنها قالت: مرن أزواجكن أن يستطيبوا بالماء فإنى استحييهم(٢). قال: حديث صحيح.

وثبت أن النبى ﷺ كان يحمل الماء معه فى الاستنجاء(٣)؛ فكان يستعمل الحجارة تخفيفاً والماء تطهيراً.

قال ابن العربى: وقد كان علماء القيروان يتخذون فى متوضآتهم أحجاراً فى تراب ينقون بها ثم يستنجون بالماء.

واللازم من نجاسة المخرج التخفيف، وفى نجاسة سائر البدن والثوب التطهير، وذلك رخصة من الله لعباده فى حالتى وجود الماء وعدمه؛ وبه قال عامة العلماء.

وشذ ابن حبيب فقال: لايستجمر بالأحجار إلا عند عدم الماء. والأخبار الثابتة فى الاستجمار بالأحجار مع وجود الماء ترده.

وروى الإمام أحمد عن شبيب أبى روح يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فأوهم فلما انصرف قال «**إنه يلبس علينا القرآن إن أقواماً منكم يصلون معنا لايحسنون الوضوء فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء**» ثم رواه من طريقين آخرين عن عبدالملك بن عمير عن شبيب أبى روح من ذى الكلاع أنه صلى مع النبى ﷺ فذكره(٤).

---

(١) تفسير القرطبى ٥/ ٢١٠٠، ٢١٠١.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ٩٥)، والترمذى (١٩)، والنسائى (١/ ٤٢ ـ السيوطى) عن عائشة وانظر «منار السبيل» (٤٩ ـ بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٥٢)، ومسلم فى الطهارة (٣/ ١٦٢ ـ النووى) عن أنس به. وانظر «منار السبيل» (٥٠ ـ بتخريجنا).

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٧١ - ٤٧٢).

فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام فى العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها. اهـ[1].

قال السعدى[2]: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً، لابد أن يسعى له، ويجتهد فيما يحب.

فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ،والأحداث.

ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد، مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبى ﷺ، بعد ما نزلت هذه الآية فى مدحهم عن طهارتهم.

فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزة من الشرك، والأخلاق الرذيلة والطهارة الحسية، كإزالة الأنجاس، ورفع لأحداث.

ثم فاضل بين المساجد، بحسب مقاصد أهلها موافقتها لرضاه. اهـ.

قال ابن عثيمين [3]:

قوله: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾.

بخلاف من كان فى مسجد الضرار؛ فإنهم رجس؛ كما قال الله تعالى فى المنافقين ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾

قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾

هذه محبة حقيقية ثابتة لله ـ عزوجل ـ تليق بجلاله وعظمته، ولاتماثل محبة المخلوقين، وأهل التعطيل يقولون: المراد بالمحبة: الثواب أو إرادته؛ فيفسرونها إما بالفعل أو إرادته، وهذا خطأ.

وقوله ﴿الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أصله المتطهرين، وأدغمت التاء بالطاء لعلة تصريفية معروفة. اهـ.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٧٦،٣٧٧

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٢٧٨،٢٧٩.

(٣) القول المفيد ١/ ٣٠٢.

قـــال: عَن ثـابت بنِ الـضَّحَّاك رَضِيَ الله عَنْهُ؛ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنحرَ إبلاً ببـوانَه، فَسَأَلَ النَّبيَّ (ﷺ)؟ فَقَال: «هَلْ كَانَ فيـهَا وَثَنٌ منْ أَوثَان الجَاهلَّية يُعَبـدُ؟» قَالُوا: لاَ فقَالَ: «فَهل كَانَ فيها عيدٌ منْ أعيادهم؟» قَالوُا: لا. فَقَالَ رَسُولُ الله (ﷺ) «أَوْف بنــذركَ؛فَإنهُ لاَ وفَاءَ لنَــذْر فى مَعــصيَة الله، ولاَ فيـمَا لاَ يَمْلكُ ابنُ آدَمَ». رَوَاهُ أَبوُ دَاوُدَ، وإسْنَادُهُ عَلَى شَرْطهمَا(١).

قال سليمان الشيخ(٢): هذا الحديـث رواه أبو داود: فقال: حـدثنا داود بن رشـيد قال: ثنا شعيب بن إسحاق عن الأوزاعى قال حـدثنى يحيى بن أبى كثير، قال: حدثنى أبو قلابة. قال: حدثنى ثابت بن الضحاك. قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببوانة، فأتى النبىﷺ فقـال: إنى نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة. فقال النبى ﷺ «**هل كان فيها وثن...**» الحديث. وهذا إسناد جيد.

وروى أبو داود أيضاً عن عمـرو بن شعيب، عن أبيه عن جـده أن امرأة أتت النبى ﷺ. فقـالت: إنى نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا؛ مكان كـان يذبح فيه أهل الجـاهلية قال: «**لصنم**» قالت: لاقال «**لوثن؟**» قالت: لا قال: «**أوف بنذرك**»(٣) مختصر ومعنى قوله: «**لصنم**» إلى آخره. هل يذبحون فيه لصنم أو وثن فيكون كحديث ثابت.

مناسبة الحديث للباب

قال الشنقيطى(٤): اعلم أنه قد دل الحديث على أن مـن نذر أن ينحر تقرباً لله فى محل معـين، فلابأس بإيفائه بنذره، بأن ينحر فى ذلك المحل المعين، إذا لم يتـقدم عليه أنه كان به وثن يعبـد أو عيد من أعياد الجاهليـة. ومفهومه أنه إن كان قـد سبق أن فيه وثناً يعبد، أو عيداً من أعياد الجاهلية: أنه لايجوز النحر فيه. فذكر الحديث ثم قال:

---

(١) أخـرجـه ابو داود فى «الأيمان والنذور» / باب مـايؤمـر به من الوفـاء بالنذر (٣/ ٢٣٥/ ح٣٣١٣) والطبرانى فى الكبير (٢/ ٧٥/ ح١٣٤١) والبيهقى فى «الكبري» (١٠/ ٨٣).

من طريق داود بن رشيد عن شـعيب بن إسحاق عن الأوزاعى عن يحيي بن أبى كثـير عن أبي قلابة عن ثابت بن الضحاك

قال الحافظ فى «التلخيص» (٤/ ١٥٥١/ ح٢٠٧٠) سنده صحيح.

وانظر كتابنا «فقه الخطابة» (١/ ٤٠٢). وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٦٢) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٤٣، ١٤٤.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣١٢).

(٤) أضواء البيان (٥/ ٤٦٦).

وفيـه الدلالة الظاهرة على أن النحر بموضـع كان فيـه وثن يعبد أو عـيد من أعـياد الجاهليـة من معصـية الله تعـالى، وأنه لايجوز بحال، والعلم عنـد الله تعالى. وإسناد الحديث صحيح أهـ.

وقال القرعاوى[1]: حـيث دلّ الحـديث على أنه لايجـوز فـعل الطاعـة فى مكان يعصى الله فيه ومن ذلك الذبح فى مكان يذبح فيه لغير الله.

مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوى[1]: حيث دلّ الحديث على تحريم كل مايؤدى فى النهاية إلى الشرك

قوله «عن ثابت بن الضـحاك» أى: ابن خليفة الأشهلى صـحابى مشهور، روى عنه أبو قلابة وغيره ومات سنة أربع وستين[2].

قوله: «نذر رجل».

قال ابن عثيمين [3].

قوله «نذر» النذر فى اللغة: الإلزام والعهد.

واصطلاحاً: إلزام المكلف نفسه لله شيئاً غير واجب.

وقال بعضهم: لانحتاج أن نقيده بغير واجب، وأنه إذا نذر الواجب صحّ النذر وصار المنذور واجباً من وجهين: من جهة النذر، ومن جهة الشرع، ويترتب على ذلك وجوب الكفارة إذا لم يحصل الوفاء.

والنذر فى الأصل مكروه، بل إن بعض أهل العلم يميل إلى تحريمه؛ لأن النبى ﷺ نهى عنه، وقـال: **«لايأتى بخيـر، وإنما يستـخرج به من البـخيل»**[4] ولأنه إلزام لنفس الإنسان بماجعله الله فى حل منه، وفى ذلك زيادة تكليف على نفسه.

ولأن الغالب أن الذى ينذر يندم، وتجده يسأل العلمـاء يميناً وشمالاً يريد الخلاص مما نذر لثقله ومشـقته عليه، ولاسيمـا ما يفعله بعض العامة إذا مرض، أو تأخـر له حاجة

(١) الجديد ١١٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٤٤.

(٣) القول المفيد ١/٣٠٣،٣٠٤.

(٤) [متفق عليه] أخرجـه البخارى (٦٦٠٨) ومسلم فى الأيمان والنذور (١١/٩٧، ٩٨- النووى) وانظر تمام فى «مثار السبيل» بتخريجنا.

يريدها؛ تجده ينذر كـأنه يقول: إن الله لاينعم عليـه يجلب خير أودفع الضـرر إلا بهذا النذر.

قوله: (رجل).

قال آل الشيخ سليمان [1]:

يحتـمل أن يكون هو كردم بن سفيـان والد ميمونة لما روى أبو داود عنهـا. قالت: خرجت مع أبى فى حـجة رسول الله ﷺ فـرأيت رسول الله ﷺ قالت: فـدنا إليه أبى فقال: يارسـول الله، إنى نذرت إن ولد لى ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة فى عـقبة من الثنايا عدة من النعم. قال: لا أعلم إلا أنها قالت خمسين.

فقـال رسول الله ﷺ**«هل بهـا من هـذه الأوثان شيء؟»** قال. لا. قـال: **«فأوف بما نذرت لله»** وذكر الحديث[2].

قوله: «أن ينحر إبلاً ببوانة»

قال سليمان آل الشيخ[3]: قوله: أن ينحر إبلاً فى حديث ميمونة، قال: **«فأوف بما نذرت لله»** قال: فجـمعها فجعل يذبحـها، فانفلتت منه شاة فطلبـها. وهو يقول: اللهم أوف بنذرى فظفر بها فذبحها فيـحتمل أن يكون نذر إبلاً وغنماً ويحتمل أن يكون ذلك قضيتين!

قال ابن عثيمين[4]: قوله: «إبلا» اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير قلت: أو الجمل.

قول: «ببوانة»

الباء بمعنى فى، وهى للظرفية، والمعنى: بمكان يسمى بوانة.

قال سليمـان آل الشيخ [5]: قوله: **ببوانة**. بضم الباء وقيل بـفتحها قـال البغوى: موضع في أسفل مكة دون يلملم. وقال أبو السعادات: هضبة من وراء ينبع

قوله «**فسأل النبى ﷺ فقال هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**

---

(١) تيسير العزيز الحميد ١٤٤

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/٣٦٦)، وأبو داود (٢١٠٣، ٣٣١٤) عن ميمونة بنت كردم به.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١٤٤.

(٤) القول المفيد ١/٣٠٤، ٣٠٥.

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٤٤.

قال سليمان آل الشيخ [١]: قال في «عروة المفتـاح» الصنم هو ماله صورة، والوثن ماليس له صورة.

قلت - سليمان آل الشيخ ـ هذا هو الصحيح فـي الفرق بينهما؛ وقد جاء عن السلف مايدل على ذلك.

قال ابن عثيمين [٢]: الوثن: كل ماعبد من دون الله؛ من شـجر، أو حجر، سواء نحت أو لم ينحت.

والصنم يختص بما صنعه الآدمي

قوله: «الجاهلية»

نسبة إلى ماكان قبل الرسالة، وسميت بذلك؛ لأنهم كانوا على جهل عظيم.

قوله: «يعبد»

صفة لقوله «وثن» وهو بيان للواقع؛ لأن الأوثان هي التي تعبد من دون الله.

قال سليمان آل الشيخ[٣]: وفيـه المنع من الوفاء بالنذر إذا كـان في المكان وثن من أوثانهم ولو بعد زواله. «ذكره المصنف»

قوله: «**قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**

قال ابن عثيمين[٤]: **قوله: «قالوا: لا»** السائل واحد، لكنه لمـاكان عنده ناس أجابوا النبي ﷺ، ولامانع أن يكون المجيب غيرالمسؤول.

قوله: «عيد»

العيد: اسم لما يعود أو يتكرر، العود بمعنى الرجوع؛ أي: هل اعتاد أهل الجاهلية أن يأتوا إلى هذا المكان ويتـخذوا هذا اليوم عـيداً وإن لم يكن فـيه وثن؟ قالوا: لا. فـسأل النبي ﷺ عن أمرين: عن الشرك، ووسائله.

فالشرك: هل كان فيها وثن؟

ووسائله: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟

---

(١) تيسير العزيز الحميد ١٤٤،١٤٥.

(٢) القول المفيد ١/ ٣٠٤،٣٠٥.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١٤٤.

(٤) القول المفيد ١/ ٣٠٥.

قال سليمان آل شيخ (١):

قال شيخ الإسلام: العيد اسم لما يعـود من الاجتماع العام على وجه مـعتاد، عائد إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك، والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتمـاع الجاهلية، فالعيـد يجمع أموراً منها يوم عـائده كيوم الفطر ويوم الجمـعة، ومنها اجتماع فيه، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات.

وقد يخـتص العيد بمكـان بعينه، وقد يكون مطلقـاً. وكل من هذه الأمور قـد يسمى عيداً، فالزمان. كقول النبى ﷺ فى يوم الجمعة:

«إن هذا يوم جعله الله لـلمسلمين عـيداً»(٢) والاجتماع والأعمـال كقول ابن عباس: شهـدت العيـد مع رسول الله ﷺ والمكان. كـقوله: **«لاتتخذوا قـبرى عيداً»**(٣)وسيأتى تخريجه.

وقد يكون لفظ العيد اسما لمجموع اليـوم والعمل فيه، وهوالغالب . كقول النبى ﷺ لأبى بكر:

دعهـما يا أبا بكر فإنهـا أيام عيد» وفى رواية «فإن لـكل قوم عيداً وهذا عـيدنا»(٤). انتهى.

وفيـه استفـصال المفتـى، والمنع من الوفاء بالنذر إذا كان فى المـكان عيد من أعـياد الجاهليـة ولو بعد زواله، والحذر من مـشابهة المشركـين فى أعيادهم ولو لم يقـصده . ذكره المصنف.

قلت: وعلى هذا تدخل المصايف وما يحدث فيها فى كل عام من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد بعود السنة تدخل فى الأعيـاد الجاهلية المحرمة ولابد فلا يجوز ما يصنع هناك مما يسمى بالمعـسكرات الاسلامية أو المصايف الاسـلامية لهذا وإن زعـموا أنهم ما ذهبوا إلا لله وعبادته هناك فلا يجوز أن يتقـرب لله بعبادة فى مكان حاله كما تقدم والله أعلم.

قوله «قالوا لا فقال رسول الله ﷺ أوف بنذرك»

قال ابن عثيمين (٥) : قوله **«أوف بنذرك»**.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ١٤٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٩٨).

(٣) سيأتى تخريجه.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩٥٢) ومسلم فى العيدين (٣/ ٤٥٠/١٦) وتقدم

(٥) القول المفيد ١/ ٣٠٥،٣٠٦.

فعل أمر مبنى على حذف حرف العلة الياء، والكسرة دليل عليها.

وهل المراد به المعنى الحقيقى أو المراد به الإباحة؟

الجواب: يحتمل أن يراد به الإباحة، ويحتمل أن يراد به المعنى الحقيقى، فبالنسبة لنحر الإبل المراد به المعنى الحقيقى.

وبالنسبة للمكان المراد به الإباحة؛ لأنه لايتعين أن يذبحها فى ذلك المكان؛ إذ إنه لا يتعين أى مكان فى الأرض إلا ما تميز بفضل، والمتميز بفضل المساجد الثلاثة؛ فالأمر هنا بالنسبة لنحر الإبل من حيث هو نحر واجب.

وبالنسبة للمكان؛ فالأمر للإباحة، بدليل أنه سأل هذين السؤالين، فلو أجيب بنعم؛ لقال: لاتوف، فإذا كان المقام يحتمل النهى والترخيص؛ فالأمر للإباحة.

قال الفقير: قول ابن عثيمين: يحتمل أن يراد به الإباحة، ويحتمل أن يراد به المعنى الحقيقى... إلخ.

فبالنسبة لنحر الإبل المراد به المعنى الحقيقى، فواجب عليه أن يذبح لأن النذر كان قبل ذلك لايجب لكنه ألزم نفسه به وأوجبه على نفسه بعد أن كان لايجب.

لكن بالنسبة للمكان المراد به الإباحة، أى مباح أن تفى بنذرك فى هذا المكان.

فإن نذر ذبح إبل فى مكان ما يكون مباح الذبح فى هذا المكان فإن ذبح فى مكان آخر وفى بنذره.

وذلك لأن هناك أصل من الأصول وهو:

لا فضل بقعة فى الأرض على بقعة أخرى فى الأرض إلا ثلاث بقاع فضلت بنص شرعى هى المساجد الثلاث أما غير ذلك فالأرض كلها سواء إلا أن توجب على نفسك نذراً مختص بالمسجد الحرام لأنه أفضل المساجد وليس هناك أفضل منه فيجب الوفاء فى المسجد الحرام ولا يجزى غيره عنه كما نذر عمر فى الجاهلية أن يعتكف يوماً فى المسجد الحرام فأمره ﷺ بالوفاء بالنذر[1] فى المسجد الحرام لا غيره، لكن إن نذر نذراً يفى به فى المسجد الأقصى يجوز أن يوفى به فى المسجد الحرام لأنه أفضل كما ثبت عند أبى داود هذا المعنى كما سيأتى فى آخر الباب القادم، وإن نذرت الذبح فى مكان بعينه فقوله «أوف بنذرك» على الإباحة فى المكان.

(١) أخرجه البخارى (١١٧١)، ومسلم فى الأيمان والنذور (١١/ ١٢٤ ـ النووى.
وانظر «السلسبيل» (١١٧١ ـ بتخريجنا).

فالأمر قبل ذلك كان محذوراً لصنم أو ووثـن أوعيد أو مولد، فلما قال له أوف كأنه أمر بعد حذر فيحمل على الإباحة.

قال سليمان آل الشيخ(1):

قوله : **«فأوف بنذرك»** هذا يدل على أن الذبح لله فى المكان الذى يذبح فيه المشركون لغيره، أو فى محل أعيادهم معصية، لأن قوله: **«فأوف بنذرك»** تعقيب للوصف بالحكم بحرف الفاء، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم فيكون سبب الأمر بالوفاء وجود النذر خاليا عن هذين الوصفين، فيكونان مانعين من الوفاء، ولو لم يكن معـصية لجاز الوفاء به، ولأنه عقبه بقوله: **«فإنه لاوفاء لنذر فى معصية الله»** . فدل أن الصورة المسؤول عنهـا مندرجـة فى هذا اللفظ العـام، لأن العام إذا أورد على سـبب، فـلا بد أن يكون السبب مندرجاً فيه، ولأنه لو كان الذبح فيـما ذكر جائزاً لسوغ ﷺ للناذر الوفاء به كما. سوغ لمن نذرت الضرب بالدف أن تضرب به لأنه عليه السلام استفصل . فلما قالوا: لا. قال له: **«فأوف بنذرك»** وهذا يقتضى أن كون البقعة مكاناً لعيدهم، أو بها وثن من أوثانهم، مانع من الذبح بها وإن نذر، وإلا لما حسن الاستفصال، هذا معنى كلام شيخ الإسلام. وفيه أن تخصيص البقعة بالنذر لابأس به إذا خلا من الموانع. اهـ.

قوله: «فإنه لاوفاء لنذر فى معصية الله».

قال ابن عثيمين(2):

وقولـه«أوف بنذرك» علل ﷺ ذلك بانتفـاء المانع؛ فقـال : **«فإنه لاوفـاء لنذر فى معصية الله».**

قوله: «لاوفاء».

(لا): نافية للجنس، (وفاء): اسمها، (لنذر): خبرها اهـ.

قوله : «فى معصية الله».

قال ابن عثيمين (3): صفة لنذر، أى : لايمكن أن توفى بنذر فى مـعصية الله؛ لأنه لايتقرب إلى الله بمعصيته، وليست المعصية مباحة حتى يقال أفعلها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ (4).

---

(1) تيسير العزيز الحميد ١٤٥،١٤٦.

(٢-٣) القول المفيد (١/٣٠٦)

(٤) تيسير العزيز الحميد(١٤٦)

قوله: فإنه لاوفاء لنذر فى معصية الله دليل على أن هذا نذر معصية، لايجوز الوفاء به لما تقدم وعلى أن نذر المعصية لايجوز الوفاء به.

وقد أجمع العلماء على ذلك لهذا الحديث وحديث عائشة الآتى وما فى معناهما.

واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين؟ على قولين: هما روايتان عن أحمد.

أحدهما: تجب وهو المذهب المشهور عن أحمد. وروى عن ابن مسعود وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه. لحديث عائشة مرفوعاً: **«لانذر فى معصية وكفارته كفارة يمين»**[(1)] رواه أحمد وأهل السنن، واحتج به أحمد وإسحاق.

الثانى لاكفارة عليه. روى ذلك عن مسروق والشعبى، والشافعى لحديث الباب، وحديث عائشة: ولم يذكر فيهما كفارة، وجوابه أن عدم ذكر الكفارة لايدل على عدم وجوبها. أهـ.

وما ذكره سليمان آل الشيخ يدخل فى المسألة الآتية بتفصيل، وهى:

مسألة هل ينعقد نذر المعصية، وهل تجب فيه الكفارة؟

الجواب: بوب البخارى باب : النذر فى الطاعة. ثم ذكر فيه حديث عائشة عن: النبى ﷺ **«من نذر أن يطع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه أن فلا يعصيه**[(2)]**»**.

قال الحافظ: والخبر صريح فى الأمر بوفاء النذر إذا كان فى طاعة، وفى النهى عن عن ترك الوفاء به إذا كان فى معصية، وهل تجب فى الثانى كفارة يمين أولا؟ قولان للعلماء [(3)].

ثم قال: فقال الجمهور :لا، وعن أحمد والثورى وإسحاق وبعض الشافعية والحنفية نعم، ونقل الترمذى اختلاف الصحابة فى ذلك كالقولين، واتفقوا على تحريم النذر فى المعصية واختلافهم إنما هو فى وجوب الكفارة.

واحتج من أوجبها بحديث عائشة **«لانذر فى معصية، وكفارته كفارة يمين»** أخرجه أصحاب السنن ورواته ثقات لكنه معلول[(4)]. ولكن له شاهد من حديث عمران بن

(1) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/٢٤٧) وأبو داود (٣٢٩٠)، والترمذى (١٥٢٤)، النسائى (٧/٢٦ ـ السيوطى)، وابن ماجه (٢١٢٥) وانظر تمام تخريجه فى منار السبيل (ح/ ٢٧٩٠) بتخريجنا.

(2) تقدم تخريجه.

(3) فتح البارى (١١/ ٥٩٠).

(4) أنظر تفصيل الكلام فى «منار السبيل» (٢٧٩٠ ـ بتخريجنا)

حصين[1] أخرجه النسائي وضعفه، وشواهد أخرى، وعموم حديث عقبة بن عامر: «**كفارة النذر كفارة يمين**»[2] أخرجه مسلم. وقد حمله الجمهور على نذر اللجاج والغضب وبعضهم على النذر المطلق لكن أخرج الترمذى وابن ماجه حديث عقبة بلفظ «**كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين**»[3] ولفظ ابن ماجه «**من نذر نذراً لم يسمه**»[4] وفى الباب حديث ابن عباس ـ فذكره مرفوعاً وموقوفاً وعزا لأبى داود المرفوع[5]، والموقوف لابن أبى شيبة[6] ثم قال عن الموقوف: وهو أشبه. وحمله أكثر فقهاء الحديث على عمومه، لكن قالوا: إن الناذر مخير بين الوفاء بما التزمه، وكفارة اليمين.

وفى حديث عائشة المتقدم أولاً وهو بمعنى حديث «**لانذر فى معصية**»[7].

ولو ثبتت الزيادة لكانت مبينة لما أجمل فيه، واحتج بعض الحنابلة بأنه ثبت عن جماعة من الصحابة، ولا يحفظ عن صحابى خلافه، قال: والقياس يقتضيه، لأن النذر يمين، كما وقع فى حديث عقبة لما نذرت أخته أن تحج ماشية لتكفر عن يمينها[8]، فسمى النذر يميناً، ومن حيث النظر هو عقدة الله تعالى بالتزام شىء، والحالف عقد يمينه بالله ملتزماً بشىء، ثم بيَّن أن النذر آكد من اليمين، ورتب عليه أنه لونذر معصية ففعلها لم تسقط عنه الكفارة بخلاف الحالف، وهو وجه للحنابلة واحتج له بأن الشارع نهى عن المعصية وأمر بالكفارة، فتعينت.

واستدل بحديث «**لانذر فى معصية**» لصحة النذر فى المباح؛ لأن فيه نفى النذر فى المعصية، فبقى ماعداه ثابتاً، واحتج من قال أنه يشرع فى المباح بما أخرجه أبو داود من

(١) أخرجه النسائى فى «الكبرى» (٤٧٥٤) بإسناد فيه راو لم يسم.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى «النذر» (١١/ ١٠٤ ـ النووى).

وانظر «السبيل» (٢٦٤٣ ـ بتخريجنا).

(٣) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٤٤) وأبو داود (٣٣٢٣) والترمذى (١٥٢٨) وانظر تمام تخريجه فى «منار السبيل» (٢٧٨٦) بتخريجنا.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢١٢٧) وانظر (٢٧٨٦) فى «منار السبيل» بتخريجنا.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٣٢٢) وانظر منار السبيل بالرقم المتقدم.

(٦) أخرجه ابن أبى شيبه فى مصنفه (٣/ ٤٧٢/ ١٠) وانظر منار السبيل الرقم المتقدم بتخريجنا.

(٧) تقدم قريباً.

(٨) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٨٦٦)، ومسلم فى المنذر (٦/ ١١٤/ ١١).

طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جد[1] وأخرجه أحمد والترمذى من حديث بريدة أن امرأة قالت: يارسول الله إنى نذرت أن أضرب على رأسك بالدف، فقال **أوف بنذرك**[2] وزاد فى حديث بريدة أن ذلك وقت خروجه فى غزوة، فنذرت إن رده الله تعالى سالما[3]، قال البيهقى: يشبه أن يكون أذن لها فى ذلك لما فيه من إظهار الفرح بالسلامة، ولايلزم من ذلك القول بانعقاد النذر به.

وقال ابن حجر: ويمكن ان يقال: إن من قسم المباح ما قد يصير بالقصد مندوباً كالنوم فى القائلة، ويمكن أن يقال إن إظهار الفرح بعود النبى سالماً معنى مقصود يحصل به الثواب أهـ. [4].

قال الشنقيطى[5]:

اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن نذر نذراً لايلزم الوفاء به هل تلزمه كفارة يمين أو لايلزمه شىء.

وحجة من قال : لايلزمه شىء: هو حديث نذر أبى إسرائيل، أنه لايقعد ولايتكلم، ولايستظل، وقد أمره النبى ﷺ فى الحديث الصحيح أنه لايفى بهذا النذر[6]، ولم يقل له إن عليه كفارة يمين.

قال القرطبى فى قصة أبى إسرائيل: هذه أوضح الحجج للجمهور فى عدم وجوب الكفارة، على من نذر معصية، أم ما لا طاعة فيه، فقد قال مالك لما ذكره: ولم أسمع أن رسول الله ﷺ، أمره بالكفارة ، وأما الذين قالوا: إن النذر الذى لا يجب الوفاء به تجب فيه كفارة يمين فقد احتجوا بما رواه مسلم فى صحيحه: عن عقبة بن عامر رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**كفارة النذر كفارة اليمين**»[7] اهـ، وظاهره شموله للنذر الذى لا يجب الوفاء به.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣١٢) وانظر «السبيل» (٢٦٤٦ ـ بتخريجنا)

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٥٣، ٣٥٦)، والترمذى (٣٦٩٠) عن بريدة به قال الترمذى: حسن صحيح غريب.

وانظر «السلسبيل» (٢٦٤٦ ـ بتخريجنا).

(٣) تقدم قبله

(٤) فتح البارى (١١/ ٥٩٥/ ٥٩٦).

(٥) «أضواء البيان» (٥/ ٤٥٣ـ-٤٥٨)

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٧٠٤) عن ابن عباس به.

وانظر «منار السبيل» (٢٧٩٢ ـ بتخريجنا).

(٧) تقدم قريباً.

وقال النووى فى شرح مسلم، اختلف العلماء فى المراد به فحمله جمهور أصحابنا على نذر اللجاج، وهو أن يقول إنسان يريد الامتناع من كلام زيد مثلاً: إن كلمت زيدًا مثلاً، فلله علىّ حجة، أو غيرها، فيكلمه فهو بالخيار بين كفارة يمين، وبين ما التزمه، هذا هو الصحيح فى مذهبنا، وحمله مالك وكثيرون أو الأكثرون على النذر كقوله: علىّ نذر، وحمله أحمد وبعض أصحابنا على نذر المعصية، كمن نذر أن يشرب الخمر وحمله جماعة من فقهاء أصحاب الحديث، على جميع أنواع النذر، وقالوا: هو مخير فى جميع المنذورات بين الوفاء بما التزم، وبين كفارة يمين والله أعلم اهـ كلام النووى.

ولا يخفى بعد القول الأخير لقوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ فهو أمر جازم مانع للتخيير بين الإيفاء به، وبين شىء آخر.

● **والأظهر عندى فى معنى الحديث:** أن من نذر نذرًا مطلقًا كأن يقول: علىّ لله نذر أنه تلزمه كفارة يمين، لما رواه ابن ماجه، والترمذى وصححه، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: **«كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين»**(١) وروى نحوه أبو داود، وابن ماجه، عن ابن عباس(٢).

وفى الحديثين بيان المراد بحديث مسلم، بأن المراد به: النذر المطلق الذى لم يسم صاحبه ما نذره، بل أطلقه والبيان يجوز بكل ما يزيد الإيهام، كما قدمناه مرارًا، والمطلق يحمل على المقيد.

● **ومما يؤيد القول بلزوم الكفارة فى نذر اللجاج:** أن النبى ﷺ لما حرم شرب العسل على نفسه فى قصة ممالأة أزواجه عليه. وأنزل الله فى ذلك: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾(٣) قال الله بعد ذلك ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾(٤) فدل ذلك على لزوم كفارة اليمين، وكذلك قال ابن عباس(٥) وغيره بلزوم كفارة اليمين، على القول بأنه

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) [ضعيف] أخرجه أبو داود (٣٣٢٢) عن ابن عباس به.

وانظر «منار السبيل» (٢٧٨٦ ـ بتخريجنا)س.

(٣) التحريم: ١

(٤) التحريم: ٢ [متفق عليه] والحديث أخرجه البخارى (٥٢٦٧)، ومسلم فى الطلاق (٦/ ٣٣٠/ ٢٠) عن عائشة به.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٦٦)، ومسلم فى الطلاق (٦/ ٣٣٠/ ١٨) عن ابن عباس به

حرم جاريته، والأقوال فيمن حرم زوجتـه، أو جاريته ، أو شيئًا من الحلال معروفة عند أهل العلم، فغير الزوجـة والأمة لا يحرم بالتحريم قولاً واحـدًا والخلاف فى لزوم كفارة اليمين، وعدم لزومها، وظاهر الآية لزومها وبعض العلماء يقول: لا يلزم فيه شيء وهو مذهب مالك وأصحـابه، أما تحريم الرجل امرأته أو جاريته، ففـيه لأهل العلم ما يزيد على ثلاثة عشر مذهـبًا معروفًا فى محلها، وأجراها على القيـاس فى تحريم الزوجة لزوم كفارة الظهـار، لأن من قال لامرأته: أنت على كظهـر أمى فهو بمثابة مـا لو قال لها : أنت حـرام، والظهار نص الله فى كـتـابه، على أن فيـه كفـارته المنصـوصة فى سـورة المجادلة.

أما نذر اللجاج فقد قدمنا القول، بأن فيه كفارة يمين، والمراد بنذر اللجاج النذر الذى يراد به الامتناع من أمر لا التقرب إلى الله.

قال ابن قدامة فى «المغنى» : وجملته أنه إذا أخرج النذر مخرج اليمين، بأن يمنع نفسه أو غيره به شـيئًا، أو يحث به على شيء مثل أن يقول: إن كلمت زيدًا، فلله على الحج أو صدقة مـالى أو صوم سنة، فهذا يمـين، حكمه أنه مخيـر بين الوفاء بما حلف عليه، فـلا يلزمه شيء، وبين أن يحنث فـيتـخير بين فـعل المنذور وبين كفـارة يمين، ويسمـى نذر اللجاج والغـضب، ولا يتعـين الوفاء به، ثم قـال: وهذا قول عـمر وابن عباس، وابن عمر، وعائشـة وحفصة، وزينب بنت أبى سلمة، وبه قال عطاء، وطاوس وعكرمة، والقاسم والحـسن، وجابر بن زيد، والنخعى، وقتادة، وعـبد الله بن شريك، والشافعى، والعنبرى وإسحاق وأبو عبيد، وأبو ثور، وابن المنذر.

وقال سـعيد بن المسـيب: لا شيء فى الحلف بالحج وعن الشعـبى والحارث العكلى وحماد والحكم: لاشيء فى الحلف بصدقة ماله، لأن الكفارة إنما تلزم بالحلف بالله لحرمة الاسم، وهذا ما حلف باسم الله ولا يجـب ما سماه، لأنه لم يخـرجه مخـرج القربة، وإنما التزمه على طريق العقوبة، فلم يلزمه، وقال أبو حنيفة ومالك: يلزمه الوفاء بنذره، لأنه نذر فيلزم الوفاء به كنذر البر، وروى نحو ذلك عن الشعبى.

ولنا ما روى عـمران بن حصيـن قال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: **«لا نذر فى غضب وكفارته كفارة يمين»**(١) رواه سعيد بن منصـور والجوزجانى فى المترجم، وعن عائشة أن النبى ﷺ قال: «**من حلف بالمشى والهـدى، أو جعل ماله فى سـبيل الله أو فى**

(١) [ضعيف] أخرجه أحـمد (٤/ ٤٣٣) والحاكم (٤/ ٣٠٥) والبيـهقى (١٠/ ٧٠) وانظر منار السـبيل (ح٢٧٨٧) بتخريجنا.

المساكين أو فى رتاج الكعبة فكفارته كفارة يمين» إلى أن قال: وعن أحمد رواية ثانية أنه تتعين الكفارة، ولا يجزئه الوفاء بنذره، وهو قول بعض أصحاب الشافعى لأنه يمين ا.هـ. محل الغرض من المغنى، وروى أبو داود، عن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال: إن عدت تسألنى القسمة، فكل مالى فى رتاج الكعبة، فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك ولا نذر فى معصية الرب ولا فى قطيعة رحم وفيما لا تملك»(1) اهـ.

رواه أبو داود. وسعيد بن المسيب لم يصح سماعه من عمر. قاله بعضهم: وعليه فهو من مراسيل سعيد، وذكر جماعة أنه ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر رضى الله عنه، وعن أحمد ما يدل على سماع سعيد، من عمر وأنه قال: إن لم نقبل سعيدًا، عن عمر، فمن يقبل، والظاهر سماعه من عمر كما صدر بما يدل عليه صاحب تهذيب التهذيب وعن مالك، وغيره أنه لم يدرك عمر وحديث سعيد المذكور عن عمر إما متصل، وإما مرسل من مراسيل سعيد، وقد قدمنا كلام العلماء فيها.

وقال الشوكانى فى «نيل الأوطار»: ولكن سعيد بن المسيب لم يسمع من عمر بن الخطاب، فهو منقطع، وروى نحوه عن عائشة: أنها سئلت عن رجل جعل ماله فى رتاج الكعبة إن كلم ذا قرابة. فقالت يكفر عن اليمين(2). أخرجه مالك، والبيهقى بسند صحيح، وصححه ابن السكن اهـ. ولفظ مالك فى «الموطأ» فقالت عائشة رضى الله عنها: يكفره ما يكفر اليمين، وليس فى «الموطأ» أن فتواها هذه فى نذر لجاج بل الذى فيه: أنها سئلت عن رجل قال: مالى فى رتاج الكعبة؛ وهو بابها وهو براء مكسورة، فمثناة فوقية بعدها ألف فجيم.

وهذا الذى ذكرنا هو: حاصل حجة من قال: إن نذر اللجاج فيه كفارة يمين، وهو الأقرب عندى لما ذكرنا، خلافًا لمن قال: لا شىء فيه، وأما نذر المعصية فلا خلاف فى أنه حرام، وأن الوفاء به ممنوع، وإنما الخلاف فى لزوم الكفارة به فمذهب جمهور أهل العلم أنه لا كفارة فيه، وعن أحمد والثورى وإسحاق، وبعض الشافعية، وبعض الحنفية: فيه الكفارة وذكر الترمذى: اختلاف الصحابة فى ذلك، واحتج من قال: بأنه ليس فيه كفارة بالأحاديث الصحيحة، الواردة بأنه: لا نذر فى معصية، ونفى نذر

(1) أخرجه أبو داود (٣٣٧٢).

(2) أخرجه مالك فى «الموطأ» (٢/ ٣٨٣/ ١٧)، والبيهقى فى «الكبرى» (١٠/ ٦٥).

المعصيــة مطلقًا: يدل على نفى أثره، فإذا انتفى النذر من أصله انتفت كـفارته لأن التابع ينتفى بانتفاء المتـبوع، وإن قلنا: إن الصيغة فى قوله: لا نذر فى معصـية، خبر أريد به الإنشاء وهو النهى عن نذر المعصية فالنهى يقتضى الفساد، وإذا فسد المنذور بالنهى، بطل معه تأثيره فى الكفارة، قالوا: والأصل براءة الذمة من الكفارة .

قالوا: ومما يؤيد ذلك الأحاديث الواردة بأنه: لا نذر إلا فيما ابتغى به وجه الله، قال المجد فى المنتقى: رواه أحمد، وأبو داود وفى لفظ عند أحمد: إنما النذر ما ابتغى به وجه الله، وهو من رواية عـمرو بن شعـيب، عن أبيـه عن جده[1] . وفى إسناده مناقـشات تركناها اختصاراً.

واحتج من قال : بأن فى نذر المعصية كفارة ببعض الأحاديث الواردة بذلك.

منها: ما روى عن عـائشة رضى الله عنهـا: أن النبى ﷺ قال: **«لا نذر فى معـصية وكفارته كفارة يمين»**[2] قال المجد فى المنتقى: رواه الخمسة، واحتج به أحمد، وإسحاق ومعلـوم أن مراده بالخمـسة : الإمـام أحمـد وأصحـاب السنن، ولفظ أبى داود فى هذا الحديث:

حدثنـا إسماعـيل بن إبراهيم بن معـمر، ثنا عـبد الله بن المبـارك، عن يونس عن الزهرى، عن أبى سلمـة، عن عـائشة رضى الله عنـها أن النبىﷺ قـال: **«لا نذر فـى معصية وكفارته كفارة يمين»**.

حدثنا ابن السرح قال: ثنا وهب عن يونس، عن ابن شهاب بمعناه وإسناده. قال أبو داود: سمعت أحمد بن شبُّويَه، يقـول: قال ابن المبارك: يعنى فى هذا الحديث: حدث أبو سلمة، فدل ذلك على أن الزهرى لم يسمعه من أبى سلمـة، وقال أحمد بن محمد: وتصديق ذلك: ما حدثنا أيوب يعنى ابن سليمان قال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل يقول : أفسـدوا علينا هذا الحديث، قيل له وصح إفسـاده عندك، وهل رواه غير ابن أبى أويس؟ قـال : أيوب كان أمـثل منه، يعنـى: أيوب بن سليـمان بن بلال، وقـد رواه أيوب.

حـدثنا أحمـد بن محـمد المروزى ، ثنا أيوب بـن سليمـان، عن أبى بكر بن أبى أويس، عن سليمان بن بلال، عن ابن أبـى عتيق وموسى بن عقبـة، عن ابن شهاب، عن سليمان بن أرقم: أن يحيى بن أبى كثير أخبره، عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها قـالت: قال رسول الله ﷺ : **«لا نذر فى معصية وكـفارته كفارة يمين»** قال أحمد

(١) أخرجه أحمد «مسنده» (٢/ ١٨٥)، وأبو داود (٣٢٧٣) وانظر كتابنا «تخريج أحاديث فقه السنة».
(٢) تقدم تخريجه.

ابن محمد المروزى إنما الحديث حديث على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن محمد ابن الزبير، عن أبيه عن عمران بن حصين، عن النبى ﷺ أراد أن سليمان بن أرقم وهم فيه، وحمله عنه الزهرى وأرسله عن أبى سلمة عن عائشة رحمها الله!

قال أبو داود: روى بقية عن الأوزاعى، عن يحيى، عن محمد بن الزبير بإسناد على بن المبارك مثله اهـ، من سنن أبى داود بلفظه، وفيه سوء ظن كثير بالزهرى، وهو أنه حذف من إسناد الحديث واسطتين: وهما سليمان بن أرقم، ويحيى بن أبى كثير، وأرسله عن أبى سلمة وكذلك قال الترمذى بعد إخراجه لحديث عائشة المذكور، لا يصح، لأن الزهرى لم يسمع هذا الحديث من أبى سلمة، ومما يقوى سوء الظن المذكور بالزهرى: أن سليمان بن أرقم الذى حذفه من الإسناد متروك لا يحتج بحديثه، فحذف المتروك ورواية حديثه عمن فوقه من العدول من تدليس التسوية، وهو شر أنواع التدليس وأقبحها، ولا شك أن هذا النوع من التدليس قادح فيمن تعمده، وما ذكره بعضهم: من أن الثورى والأعمش كانا يفعلان هذا النوع من التدليس مجاب عنه بأنهما لا يدلسان إلا عمن هو ثقة عندهما وإن كان ضعيفًا عند غيرهما. ومن المستبعد أن يكون الزهرى يحسن الظن بسليمان بن أرقم مع اتفاق الحفاظ على عدم الاحتجاج به.

● **والحاصل**: أن لزوم الكفارة فى نذر المعصية، جاءت فيه أحاديث متعددة، لا يخلو شىء منها من كلام، وقد يقوى بعضها بعضًا.

وقال الشوكانى: قال النووى فى الروضة حديث «**لا نذر فى معصية وكفارته كفارة يمين**» ضعيف باتفاق المحدثين.

قال الحافظ: قلت: قد صححه الطحاوى، وأبو على بن السكن، فأين الاتفاق انتهى منه، وقد تركنا تتبع الأحاديث الواردة فيه، ومناقشتها اختصارًا، والأحوط لزوم الكفارة، لأن الأمر مقدم على الإباحة كما تقرر فى الأصول للاحتياط فى الخروج من عهدة الطلب، فمن أخرج كفارة عن نذر المعصية، فقد برئ من المطالبة بها باتفاق الجميع، ومن لم يخرجها بقى مطالبًا بها على قول أحمد، ومن ذكرنا معه.

وقال ابن عثيمين ردًا على مسألة (هل ينعقد نذر المعصية؟).

● **الجواب**: نعم، ينعقد، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**من نذر أن يعصى الله فلا يعصه**»(1). ولو قال: من نذر أن يعصى الله فلا نذر له، لكان لا ينعقد، ففى قوله: «**فلا يعصه**» دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ.

---

(1) تقدم تخريجه.

وإذا انعقد، هل تلزمه كفارة أو لا؟

اختلف فى ذلك أهل العلم، وفيها روايتان عن الإمام أحمد:

فقال بعض العلماء: إنَّه لا تلزمه الكفارة، واستدلوا بقول النبى، «**لا وفاء لنذر فى معصية الله**».

وبقوله ﷺ: «**ومن نذر أن يعصى الله ، فلا يعصه**» ولم يذكر النبى ﷺ كفارة، ولو كانت واجبة، لذكرها.

القول الثانى: تجب الكفارة، وهو المشهور من المذهب، لأنَّ الرسول ذكر في حديث آخر غير الحديثين أن كفاته كفَّارة يمين[1] .

قوله: (ولا فيما لا يملك ابن آدم)

قال الشنقيطى[2] : **الفرع الأول**: اعلم أنه لا نذر لشخص فى التقرب بشىء لا يملكه، وقد ثبت ذلك عن النبى ﷺ.

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله فى صحيحه: وحدثنى زهير بن حرب، وعلى بن حجر السعدى واللفظ لزهير قالا: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أيوب، عن أبى قلابة عن أبى المهلب، عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال: كانت ثقيف حلفاء لبنى عقيل فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ الحديث بطوله.

وفيه ما نصه: وأُسرت امرأة من الأنصار، وأصيبت العضباء فكانت المرأة فى الوثاق، وكان القوم يريحون نعمهم بين يدى بيوتهم، فانفلتت ذات ليلة من الوثاق، فأتت الإبل، فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه حتى تنتهى إلى العضباء، فلم ترغ قال: وناقة منوقة، فقعدت فى عجزها، ثم زجرتها فانطلقت ونذروا بها فطلبوها، فأعجزتهم قالت: ونذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها فلما قدمت المدينة رآها الناس فقالوا العضباء ناقة رسول الله ﷺ قالت: إنها نذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنها. فأتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له فقال: «**سبحان الله بئسما جزيتها نذرت لله إن نجاها الله عليها لتنحرنها لا وفاء لنذر فى معصية، ولا فيما لا يملك العبد**»[3] الحديث، ومحل

---

(١) القول المفيد (١/٣٠٩).

(٢) أضواء البيان (٥/٤٠٢).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى النذر (٦/١١١/٨).

الشاهد منه قوله ﷺ : «ولا فيما لا يملك العبد» وهذا نص صحيح صريح فيما ذكرنا، ويؤيد حديث ثابت بن الضحاك : أنه ﷺ قال: «لا وفاء لنذر في معصية الله ولا في قطيعة رحم ولا فيما لا يملك ابن آدم»(١) ا.هـ.

قال الحافظ في بلوغ المرام: رواه أبو داود والطبراني، واللفظ له، وهو صحيح الإسناد، وله شاهد من حديث كردم عند أحمد(٢).

قال سليمان آل الشيخ(٣): قال في «شرح المصابيح»: يعني إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بأن قال: إن شفى الله مريضي فلله علي أن أعتق عبد فلان، أو أتصدق بثوبه ونحو ذلك، فأما إذا التزم في الذمة شيئًا لا يملكه فيصح نذره، مثاله إن شفى الله مريضي فلله علي أن أعتق رقبة، وهو في ذلك الحال لا يملك رقبة ولا قيمتها، فيصح نذره، وإذا شفي ثبت النذر في ذمته.

قال ابن عثيمين(٤): وقوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم» الذي لا يملكه ابن آدم يحتمل معنيين:

الأول مالا يملك فعله شرعًا، كما لو قال: لله عليَّ أن أعتق عبد فلان، فلا يصح لأنَّه لا يملك إعتاقه.

الثاني: ما لا يملك فعله قدرًا، كما لو قال: لله عليَّ نذر أن أطير بيدي، فهذا لا يصح لأنه لا يملكه.

والفقهاء رحمهم الله يمثلون بمثل هذا للمستحيل.

قوله : رواه أبو داود وإسناده على شرطهما:

قال سليمان آل الشيخ(٥): قوله: رواه أبو داود وإسناده على شرطهما: أي: شرط البخاري ومسلم، وأضمرهما للعلم بذلك، وأبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشر بن شداد الأزدي السجستاني، صاحب الإمام أحمد، ومصنف «السنن» وغيرها ثقة إمام حافظ من كبار العلماء، مات سنة خمس وسبعين ومائتين.

---

(١) تقدم تخريجه في حديث الباب.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٤٦).

(٤) القول المفيد ١/ ٣٠٩.

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٤٧.

● **فوائد:**

قال ابن باز[1]: فالشاهد: أن المؤمن لا ينبغى أن يفعل الطاعة فى مكان من أماكن الجاهلية والشرك والمعاصى إلا إذا غُيِّر هذا المكان وصار مسجداً مثلاً أو بيتًا وزالت عنه آثار الجاهلية ونسيت فلا بأس كما أمر النبى بهدم اللات وبناء مسجد مكانه فهذا يجوز التعبد فيه.

ثم قال: فائدة:

إذا حصل شرك أو بدع عند القبور فهذا لا يمنع من زيارتها الشرعية كما إذا حصلت المعصية فى المسجد فلا يمنع من الصلاة فيه.

قلت: وهذا بضوابط للزائر، كما سيأتى بيانها فى الباب التاسع عشر.

ثم قال: فائدة:

أمر عمر بن الخطاب بالصلاة فى الكنيسة لأنهم اتخذوها معبداً لله لكن عبادتهم غير مستقيمة وفيها شرك وباطلة، فلعل الشبهة أنهم اتخذوها معبداً لله أو أن المؤمنين مضطرون للصلاة فيها عند مرورهم منها عند أسفارهم فقد يكون للضرورة أو لأن جنس عبادة الله متفق عليها بينهم فيما يتعلق بالصلاة.

قلت: ولأن الصلاة لاتشبه صلاتهم بخلاف الذبح فهو الصورة واحد فلهذا جازت الصلاة ولم يجز الذبح كما تقدم وكما سيأتى عن ابن عثيمين.

قال ابن عثيمين[2]:

ويستفاد من الحديث:

أنَّه لا يُذبح بمكان يذبح فيه لغير الله، وهو ما ساقه المؤلف من أجله والحكمة من ذلك ما يلى:

الأول: أنَّه يؤدى إلى التشبه بالكفار.

الثانى: أنَّه يؤدى إلى الاغترار بهذا الفعل، لأنَّ من رآك تذبح بمكان يذبح فيه المشركون ظنَّ أن فعل المشركين جائز.

الثالث: أنَّ هؤلاء المشركين سوف يقوون على فعلهم إذا رأوا من يفعل مثلهم، ولا شك أن تقوية المشركين من الأمور المحظورة، وإغاظتهم من الأعمال الصالحة، قال الله

(١) التعليق المفيد ٨٥ (٢) القول المفيد ١/ ٣١٠.

فيه مسائلُ

الأولى: تَفْسِيرُ قوله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

الثانية: أنَّ المَعْصِيَةَ قَدْ تُؤَثِّرُ فِي الأرْضِ، وكَذلك الطَّاعَةُ.

الثالثة: رَدُّ المَسْألَةَ المُشْكلة إلى المسْألَة البيِّنَة؛ ليَزُولَ الإشْكَالُ.

تعالى: ﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾(1).

قلت: ويستفاد من الحديث أيضاً أنه لايذبح لله فى زمان يذبح فيه لغير الله مثل من نذر أن يذبح لله فى عيد ميلاد النبى ﷺ «المولد النبوى» وذلك لأن الحديث شمل النهى عن العيد المكانى والزمانى ومشابهة الجاهليه فيهما.

قال ابن عثيمين(2):

فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾**

وقد سبق ذلك فى أول الباب.

- **الثانية: أنَّ المعصية قد تؤثر فى الأرض، وكذلك الطاعة.**

أى: لما كانت هذه الأرض مكان شرك، حُرِّم أن يعمل الإنسان ما يشبه الشرك فيها لمشابهة المشركين.

أما بالنسبة للصلاة فى الكنيسة، فإنَّ الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة، لا يكون الإنسان متشبهًا بهذا العمل، بخلاف الذبح فى مكان يذبح فيه لغير الله، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلى فى مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك، لأنَّه ليس من نوع العبادة التى يفعلها المشركون فى هذا المكان.

وكذا الطاعة تؤثر فى الأرض، ولهذا، فإن المساجد أفضل من الأسواق، والقديم منها أفضل من الجديد.

- **الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.**

---

(1) التوبة / 120

(2) القول المفيد 1/ 311- 315.

الرابعة: اسْتِفْصَالُ المُفْتِى إِذَا احْتَاجَ إِلَى ذلكَ.

الخامسة: أَنَّ تَخْصِيصَ البُقْعَةِ بِالنَّذْرِ لاَ بأْسَ بِهِ إِذَا خَلاَ مِنَ المَوَانِعِ.

السادسة: المَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

فالمنع من الذبح فى هذا المكان أمر مشكل، لكن الرسولﷺ بيَّن ذلك بالاستفصال.

● **الرابعة: استفصال المفتى إذا احتاج إلى ذلك.**

لأن النبى ﷺ استفصل، لكن هل يجب الاستفصال على كل حال، أو إذا وجد الاحتمال؟

الجواب: لا يجب إلاّ إذا وجد الاحتمال، لأنَّنا لو استفصلنا فى كل مسألة، لطال الأمر.

فمثلاً: لو سألنا سائل عن عقد بيع لم يلزم أن نستفصل عن الثمن : هل هو معلوم؟ وعن المثمن : هل هو معلوم؟ وهل وقع البيع معلَّقًا أو غير معلّق؟ وهل كان ملكًا للبائع؟ وكيف ملكه؟ وهل انتفت موانعه أو لا؟

أمَّا إذا وجد الاحتمال، فيجب الاستفصال، مثل: أن يسأل عن رجل مات عن بنت وأخ وعم شقيق، فيجب الاستفصال عن الأخ: هل هو شقيق لأب أو لأم ؟ فإن كان لأم، سقط، وأخذ الباقى العم، وإلاّ، سقط العم، وأخذ الباقى الأخ.

● **الخامسة:** أنّ تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

لقوله: **«أوف بنذرك»** وسواء كانت هذه الموانع واقعة أو متوقعة.

فالواقعة: أن يكون فيها وثن أو عيد من أعياد الجاهلية.

والمتوقعة: أن يخشى من الذبح من هذا المكان تعظيمه، فإن خُشى، كان ممنوعًا، مثل: لو أراد أن يذبح عند جبل، فالأصل أنه جائز، لكن لو خشى أن العوام يعتقدون أن فى هذا المكان مزيّة، كان ممنوعًا.

● **السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله.**

لقوله: **«هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟»** لأن «كان» فعل ماض، والمحظور بعد زوال الوثن باقٍ، لأنّه ربما يعاد.

السابعة: المَنعُ منهُ إذَا كَانَ فِيه عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهم، ولَوْ بَعْدَ زوَاله.

الثامنة: أنَّهُ لاَ يَجُوزُ الوفَاءُ بِمَا نَذَرَ فِى تلْكَ البُقْعَة لأَنَّهُ نَذْرُ مَعْصيَة.

التاسعة: الحَذَرُ مَنْ مُشَابَهَة المُشْرِكينَ فِى أَعْيَادهِم، ولَو لَمْ يَقْصِدْهُ.

العاشرة : لا نَذْرَ فِى مَعْصِيَة الله.

الحادية عشرة : لاَ نَذْرَ لابْنِ آدَمَ فِيمَا لاَ يَمْلكُ.

● **السابعة: المنع منه إذا كان فيها عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله .**

لقوله: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**»

قلت: وهذا يؤيد ما ذهبت إليه من المنع من الذبح لله فى زمان يذبح فيه لغير الله.

● **الثامنة: أنَّه لا يجوز الوفاء بما نذر فى تلك البقعة، لأنَّه نذر معصية.**

لقوله: «**فإنَّه لا وفاء لنذر فى معصية الله**».

● **التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين فى أعيادهم ولو لم يقصده.**

وقد نصَّ شيخ الإسلام ابن تيمية على أن حصول التشبه لا يشترط فيه القصد، فإنَّه يمنع منه ولو لم يقصده، لكن مع القصد يكون أشدّ إثمًا، ولهذا قال شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب: ولو لم يقصده.

قلت: ودليلهم النهى عن الصلاة، عند الغروب والشروق[1] والصحابه لم يقصدوا المشابهة ومع ذلك نهاهم.

● **العاشرة**: لا نذر فى معصية الله.

هكذا قال المؤلف، ولفظ الحديث المذكور: «**لا وفاء لنذر**» وبينهما فرق .

فإذا قيل لا نذر فى معصية، فالمعنى أن النذر لا ينعقد، وإذا قيل لا وفاء، فالمعنى أن النذر ينعقد، لكن لا يوفى، وقد وردت السنة بهذا وبهذا.

لكن: «**لا نذر**» يحمل على أنَّ المراد لا وفاء لنذر، لقوله ﷺ فى الحديث الصحيح: «**ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**».

● **الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.**

يقال فيه ما قيل فى : لا نذر فى معصية.

والمعنى : لا وفاء لنذر فيما لا يملك ابن آدم، ويشتمل ما لا يملكه شرعًا، وما لا يملكه قدراً أ.هـ.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٨١)،ومسلم فى صلاة المسافرين (٣/ ٣٧٢/ ٢٨٦) عن عمر به.

(١١) بابٌ من الشرك النذر لغير الله

● **مناسبة الباب بما قبله**

قال الفقير: علاقة الباب بما قبله من باب ذكر العام بعد الخاص فقد ذكر حكم الذبح لغير الله فى الباب قبل الماضى وهذا أخص من النذر والنذر أعم يدخل فيه الذبح لغير الله وغيره لكن نص هناك على الذبح لانه أكثر وأعم وأطم ثم ثنى بهذا الباب ليشمل الذبح وغيره والله أعلم.

- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(١):

أى إنه من العبادة، فيكون صرفه لغير الله شركاً، فإذا نذر طاعة وجب عليه الوفاء بها وهو عبادة، وقربة إلى الله. ولهذا مدح الله الموفين به، فإن نذر لمخلوق تقرباً إليه ليشفع له عند الله، ويكشف ضره ونحو ذلك فقد أشرك فى عبادة الله تعالى غيره ضرورة؛ كما أن من صلى لله وصلى لغيره فقد أشرك كذلك. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله(٢): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هى أن النذر لله من أنواع العبادة فصرفه لغير الله شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قبل الشروع فى الباب، لابد من: -

● **تعريف النذر قال الحافظ:** النذور جمع نذر، وأصله الإنذار، بمعنى التخويف، وعرفه الراغب: بأنه إيجاب ماليس بواجب لحدوث أمر. اهـ(٣).

قال الطبرى(٤): والنذر هو كل ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل ومنه قول عنترة:

الشاتمى عرضى ولم أشتمهما والناذرين إذا لم ألقهما دمى اهـ.

قال ابن الجوزى(٥).

ومعنى النذر فى اللغة الإيجاب(٦). وذكره الشوكانى(٧) وابن الجوزى(٨). اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ١٤٧.
(٢) الجامع الفريد ٥٥.
(٣) فتح البارى (١١/ ٥٢٥).
(٤) تفسير الطبرى ١٢/ ٢٩/ ١٢٩.
(٥) زاد المسير ٨/ ١٦٧.
(٦) كذا فى اللسان (٥/ ٢٠٠).
(٧) فتح القدير ٥/ ٣٢٤.
(٨) زاد المسير ١/ ٢٦٧.

قال الرازى[1]: أما النذر فقال أبو مسلم النذر كالوعد، إلا أنه إذا كان من العباد فهو نذر، وإن كان من الله تعالى فهو وعد، واختص هذا اللفظ فى عرف الشرع بأن يقول لله على كذا وكذا من الصدقة، أو يعلق ذلك بأمر يلتمسه من الله تعالى مثل أن يقول إن شفى الله مريضى، أو رد غائبى فعلى كذا كذا.

وقال الرازى فى موضع آخر[2]: النذر ما يلتزمه الإنسان بإيجابه على نفسه يقال: نذر ينذر، وأصله من الخوف لأن الإنسان إنما يعقد على نفسه خوف التقصير فى الأمر المهم عنده، وأنذرت القوم إنذاراً بالتخويف، وفى الشريعة على ضربين: مفسر وغير مفسر.

فالمفسر أن يقول: لله على عتق رقبة، ولله على حج، فههنا يلزم الوفاء به، ولا يجزيه غيره.

وغير المفسر أن يقول: نذرت لله أن لا أفعل كذا ثم يفعله، أو يقول: لله علىَّ نذر من غير تسمية فيلزم فيه كفارة يمين، لقول ﷺ: «**من نذر نذراً وسمى فعليه ما سمى، ومن نذر نذراً ولم يسم فعليه كفارة يمين**». اهـ.

قال القرطبى[3]: والنذر حقيقته ما أوجبه المكلَّف على نفسه من شىء يفعله. وإن شئت قلت فى حَدِّه: النذر هو إيجاب المكلَّف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه. اهـ.

قال الشنقيطى[4]: واعلم: أن النذر فى اللغة النحب - كذا فى اللسان - وهو ما يجعله الإنسان نحباً واجباً عليه قضاؤه، ومنه قوله لبيد:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول ... أنحبٌ فيقضى أم ضلالٌ وباطل

وحاصله: أنه إلزام الإنسان نفسه بشىء لم يكن لازمًا لها، فيجعله واجباً عليها وهو فى اصطلاح الشرع: التزام المكلف قربة لم تكن واجبة عليه.

وقال ابن الأثير فى «النهاية»: يقال: نذرت أنذر وأنذر نذرًا إذا أوجبت على نفسى شيئاً تبرعاً من عبادة أو صدقة أو غير ذلك.

ثم قال الشنقيطى: اعلم: أن تعريف المالكية للنذر شرعًا: بأنه التزام مسلم مكلف، ولو غضبان إلى آخره فيه أمران.

(الأولى) أن اشتراط الإسلام فى النذر فيه نظر، لأن ما نذره الكافر من فعل الطاعات قد ينعقد نذره له بدليل أنه يفعله إذا أسلم بعد ذلك، ولو كان لغواً غير منعقد، لما كان له أثر بعد الإسلام.

(١) التفسير الكبير ١٥/ ٣٠ - ٢٤٢.
(٢) الرازى فى ٤/ ٧/ ٧٦.
(٣) القرطبى ١٠/ ٦٩١٨.
(٤) أضواء البيان ٥/ ٤٦٥.

قال البخارى رحمه الله فى صحيحه: عن ابن عمر: أن عمر قال: يارسول الله ﷺ إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة فى المسجد الحرام قال: «أوف بنذرك»[(١)] انتهى منه. فقوله ﷺ لعمر فى هذا الحديث الصحيح: «أوف بنذرك» مع أنه نذره فى الجاهلية صريح فى ذلك كما ترى، ولا التفات إلى ما أوله به بعض العلماء من المالكية وغيرهم. (الثانى): وقول المالكية فى تعريف النذر، ولو غضبان، لايخفى أن العلماء مختلفون فى نذر الغضبان، هل يلزم فيه ما نذر أو هو من نوع اللجاج، تلزم فيه كفارة يمين؟. اهـ.

قال ابن عثيمين[(٢)]: النذر لغير الله مثل أن يقول: لفلان علىّ نذر، أو لهذا القبر علىّ نذر، أو لجبريل علىّ نذر، يريد بذلك التقرب إليهم، وما أشبه ذلك.

والفرق بينه وبين نذر المعصية: أن النذر لغير الله ليس لله أصلاً، ونذر المعصية لله، ولكنه على معصية من معاصيه، مثل أن يقول: لله علىّ نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصى الله؛ فيكون النذر لله والمنذور معصية.

ونظير هذا الحلف بالله على شىء محرَّم، والحلف بغير الله؛ فالحلف بغير الله مثل: والنبى؛ لأفعلن كذا وكذا، ونظيره النذر لغير الله، والحلف بالله على محرَّم، مثل: والله؛ لأسرقنَّ، ونظيره نذر المعصية. اهـ.

قال الفقير: وسيأتى مزيد تفصيل لهذا الكلام[(٣)].

فصل حكم النذر لغير الله (*)

حكم النذر لغير الله قطع به المصنف وقال: باب من الشرك النذر لغير الله.

قال صاحب أحكام القرآن القاضى أبو بكر بن العربى المالكى: قد نهى عن النذر وندب إلى الدعاء والسبب فيه أن الدعاء عبادة عاجلة، ويظهر به التوجه إلى الله تعالى، والتضرع له، وهذا بخلاف النذر فإن فيه تأخير العبادة إلى حين الحصول وترك العمل إلى حين الضرورة، فقد نص أبو بكر على أن الدعاء والنذر عبادتان. ولايفترى مسلم أن من عبد غير الله فقد أشرك، ولكن قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[(٤)]. اهـ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد ١/٣١٦ و ٣١٧.

(٣) وسيأتى تفصيل هذا الكلام من أضواء البيان - إن شاء الله -.

(*) تقدم شىء من ذلك فى الباب الذى قبل هذا.

(٤) يونس آيه/١٠١ تيسير العزيز الحميد ١٥٧.

- **قال الشيخ: صنع الله الحلبى الحنفى** - فى الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء وأثبت الأجر فى ذلك: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان وفلان فهو لغير الله، فيكون باطلاً. وفى التنزيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ أى صلاتى وذبحى لله كما فسر به قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾ وفى الحديث «لانذر فى معصيه الله»[1] رواه أبو داود غيره، والنذر لغير الله إشراك على الله، إلى أن قال: فالنذر لغير الله كالتربح لغيره.

وقال الفقهاء: خمسة لغير الله شرك الركوع والسجود، والنذر، والذبح، واليمين.

قال: «**والحاصل**»: أن النذر لغير الله فجور، فمن أين تحصل لهم الأجور؟ انتهى[2].

- **وقال صاحب تيسير العزيز الحميد:** أى إنه من العبادة، لكون صرفه لغير الله شركًا[3]. اهـ.

قال المصنف: فى المسألة الثانية من مسائل الباب: إذا ثبت كونه عبادة فصرفه إلى غير الله شرك. اهـ.

قال ابن عثيمين[4]: وهذه قاعدة فى توحيد العبادة فأىّ فعل كان عبادة فصرفه لغير الله شرك.

قال عبد الله جار الله[5]: النذر لغير الله من أنواع العبادة فصرفه لغير الله شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قال السعدى: فإن النذر عبادة مدح الله الموفيين بها وأمر النبى ﷺ بالوفاء بنذر الطاعة، وكل أمر مدحه الشارع أو أثنى على من قام به أو أمر به، فهو عبادة، فإن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة، والنذر من ذلك[6]. اهـ.

- **حكم النذر والناذر.**

قال الشيخ ابن عثيمين: مبيناً حكم النذر لغير الله وحكم الناذر أيضًا.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢)،(٣) تيسير العزيز الحميد (١٤٩، ١٥٠).

(٤) القول المفيد (١/ ٣٢٢).

(٥) الجامع الفريد (ص ٥٥).

(٦) القول السديد ٥٠.

وحكم النذر لغير الله شرك لأنه عبادة للمنذور له وإذا كان عبادة فقد صرفها لغير الله فيكون مشركًا[2].

قال صاحب «المعارج»:

والذبح والنذر وغير ذلك فافهم هديت أوضح المسالك

ثم قال أحمد حكمى - مبيناً بعض أدلة الوفاء بالنذر وأنه عبادة: - «والنذر» أى ومن أنواع العبادة النذر لله عز وجل قال الله تبارك وتعالى: **﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾**[3] وقال تعالى: **﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾**[4]، وقال تعالى: **﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾**[5]. اهـ.

- مناسبة الآية للباب والتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[6]: وجه الدلالة من الآية على الترجمة أن الله تعالى مدح الموفين بالنذر، والله تعالى لايمدح إلا على فعل واجب أو مستحب، أو ترك محرم، لايمدح على فعل المباح المجرد، وذلك هو العبادة، فمن فعل ذلك لغير الله متقربًا إليه فقد أشرك. اهـ.

قال الشيخ حامد بن محمد بن حسن[7]: «دلتا - أى آية سورة الإنسان وآية سورة البقرة - على المقصود بالالتزام، لأن الله أثنى على الناذر الموفى وأقرهم على ذلك قضاء منه عبادة له، فإذ إنه عبادة ففعله لغيره شرك وكفر». اهـ.

قال الشيخ ابن عثيمين[8]: وجه استدلال المؤلف بالآية على أنَّ النذر لغير الله من الشرك: أنّ الله تعالى أثنى عليهم بذلك، وجعله من الأسباب التى بها يدخلون الجنة، ولا يكون سبباً يدخلون به الجنة إلا وهو عبادة؛ فيقتضى أنَّ صرفه لغير الله شرك. اهـ.

---

(١) الإنسان: ٧.

(٢) القول المفيد (٣١٦).

(٣) الحج: ٢٩.

(٤) الإنسان: ٧.

(٥) البقرة: ٢٧٠، وانظر معارج القبول (١/ ٣٦٤، ٣٦٥).

(٦) التيسير ١٤٧.

(٧) فتح الله الحميد المجيد ٢٣٠.

(٨) القول المفيد ١/ ٣١٧.

قال عبد الله بن جار الله(١): ومناسبتها للباب ان الله مدح الموفين بالنذر فدل على أنه عبادة فمن نذر لغير الله متقرباً إليه فقد أشرك. اهـ.

قال القرعاوى(٢): مناسبة الآيه للباب: حيث امتدحت الآية الوفاء بالنذر والله لايمدح إلا على فعل واجب أو مستحب أو ترك محرم لذا يكون الوفاء بالنذر عبادة وصرف العبادة إلى غير الله شرك. اهـ.

● **تبينة**.

قال ابن عثيمين(٣): هذه الآية سيقت لمدح الأبرار، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

ومَدْحُهم بهذا يقتضى أن يكون عبادة؛ لأنَّ الإنسان لايمدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شىء يكون عبادة.

ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾؛ لكان أوضح؛ لأنَّ قوله: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ أمر، والأمر بوفائه يدل على أنه عبادة؛ لأنَّ العبادة ما أمر به شرعاً. اهـ.

- **الاعراب:**

قال الشوكانى(٤): ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ مستأنفه مسوقة لبيان مالأجله رزقوا ما ذكر، وكذا ما عطف عليها. ا.هـ.

قال محيى الدين(٥): ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ كلام مستأنف استئنافاً بيانياً كأنه قيل: بِمَ استحقوا هذا النعيم؟ فقيل يوفون، (ويوفون) فعل مضارع مرفوع (والواو) فاعل (وبالنذر) متعلقان (بيوفون) (ويوماً) مفعول به وجملة كان صفة (ليوم) (وشره) اسم كان (ومستطيراً) خبرها». اهـ.

● **التفسير بالمأثور من المرفوع:**

وأسند البغوى(٦) **عن عائشة**: زوج النبى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**(٧).

(١) الجامع الفريد ٥٥.
(٢) الجديد ١١٧.
(٣) القول المفيد ١/ ٣١٧.
(٤) اعراب القرآن/ ٣١٦.
(٥) فتح القدير ٥/ ٣٤٤.
(٦) معالم التنزيل / ٤٩٧.
(٧) تقدم تخريجه.

وعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فقال: إنى نذرت أن أنحر نفسى، فشغل النبى ﷺ، فذهب الرجل، فوجد يريد أن ينحر نفسه، فقال النبى ﷺ: «الحمد لله الذى جعل فى أمتى من يوفى بالنذر، ويخاف ﴿ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾(١) اهد مائة ناقة»(٢).

وعن مجاهد قال: لما صَدَرَ النبى ﷺ بالأسارى عن بدر أنفق سبعة من المهاجرين على أسارى مشركى بدر منهم أبو بكر وعمر وعلىّ والزبير وعبد الرحمن وسعد وأبو عبيدة بن الجراح، فقالت الأنصار: قتلناهم فى الله وفى رسوله وتفونهم بالنفقة، فأنزل الله فيهم تسع عشرة آية ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾(٣) إلى قوله: ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾(٤).

● **التفسير بالمأثور من الموقوف**

وعن ابن عباس فى قوله: ﴿ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ قال: فاشيا(٥).

● **التفسير بالمأثور من المقطوع**

عن مجاهد ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ قال: إذا نذروا فى حق الله(٦).

وعبد بن حميد عن عكرمة ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ قال: كل نذر فى شكر(٨).

وعن قتادة قوله ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ قال كانوا ينذرون طاعة الله من الصلاة والزكاة والحج والعمرة وما افترض عليهم فسماهم الله بذلك الأبرار فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾(٨).

وعن قتادة يوفون بالنذر قال بطاعة الله وبالصلاة وبالحج والعمرة(٩).

---

(١) الإنسان: ٧.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٣٦٩، ٣٧٠) ونسبه لعبد الرزاق فى «المصنف»، والطبرانى.

(٣) الإنسان: ٥.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن عساكر.

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن المنذر.

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

(٧) نفس المصدر السابق.

(٨) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٩/ ١٢٩).

(٩) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

وعن سفيان قوله **(يوفون بالنذر)** قال: في غير معصية[1].

● أقوال المفسرين

قال الطبرى[2]: يقول تعالى ذكره أن الابرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورا بروا بوفائهم لله بالنذور التى كانوا ينذرونها فى طاعة الله.

ثم قال[3]: وفى الكلام محذوف اجتزئ بدلالة الكلام عليه منه وهو كان ذلك وذلك أن معنى الكلام أن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً يوفون بالنذر فترك ذكر كانوا لدلالة الكلام عليها. اهـ.

قال الفراء[4]: فيه إضمار (كانوا) يوفون بالنذر. وفيه قولان.

أحدهما: يوفون بالنذر إذا نذروا فى طاعة الله، قاله مجاهد وعكرمة.

والثانى: يوفون بما فرض الله عليهم.

وذكر نحو ذلك القرطبى[5] نقلاً عن الجرجانى.

قال الرازى[6]: الإيفاء بالشئ هو الإيمان به وافياً.

قال ابن كثير[7]: (يوفون بالنذر).

أى يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر.

ويتركون المحرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد وهو اليوم الذى شره مستطير أى منتشر عام على الناس إلا من رحم الله. اهـ.

قال السعدى[8]: «يوفون بالنذر» أى بما ألزموا به أنفسهم من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر الذى هو غير واجب فى الأصل عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) زاد المسير ٨/١٦٧.

(٥) تفسير القرطبى ١٠/٦٩١٨.

(٦) التفسير الكبير ١/٢٤٢.

(٧) تفسير ابن كثير ٤/٤٣٩.

(٨) تيسير الكريم الرحمن ٥/ ٣٣٠و ٣٣١.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾(١).

قال حافظ أحمد حكمي: وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**»(٢) رواه الجماعة إلا مسلمًا.

وعن عمر رضى الله عنه قال: نذرت نـذرًا فى الجاهلية، فـسألت النبى ﷺ بـعد ما أسلمت، فأمرنى أن أوفى بنذرى»(٣) رواه ابن ماجه.

وقال البخارى رحمه الله تعالى: باب إثـم مـن لا يفـى بالنذر، وذكـر حديث عمران بن حصين رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**خيركـم قـرنى ثم الـذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» قال عمران: لا أدرى ذكـر اثنتين أو ثلاثاً بـعد قرنه «**ثم يجىء قوم ينـذرون ولا يوفـون، ويخونـون ولا يؤتمـنـون، ويشهـدون ولا يُستشهدون، ويظـهر فيهـم السمـن**»(٤).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن عمر قال: يارسول الله، إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة فى المسجد الحرام، قال «**أوف بنذرك**»(٥) وهو فى الصحيح أيضاً. ولعله هو النذر الذى فى رواية ابن ماجه مبهماً(٦) فسرته رواية الصحيح.

وفى حديث الـرجل الذى سأل النبـى ﷺ فقال له: إن أختى نـذرت أن تحج وإنها ماتت، فقال النبى ﷺ «**لو كان عليها ديـن أكنت قاضيه؟** قال: نعم. قال: **فاقض الله، فالله أحقُّ بالقضاء**»(٧) وغير ذلك من أحاديث الأمر بوفاء النذر عن النبى ﷺ اهـ.



قوله: (وقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾

مناسبة الآية للترجمة.

قال سليمان آل الشيخ(٨): وجه الدلالة من الآية على التـرجمة أن الله تعالى أخبر بأن ما أنفقناه من نفقة أو نذرناه من نذر متقربـين بذلك إليه أنه يعلمه، ويجازينا عليه.

---

(١) البقرة آية: ٢٧٠.

(٢) تقدم تخريجه وانظر «منار السبيل» (ح ٢٧٨٩) بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن ماجة (٢١٢٩). والصلة فى الصحيحين

(٤) البـخارى (٣٦٥٠)، ومسلـم فى الفضـائل (٨/ ٣٢٦/ ٢٢٤) وانظـر «رياض الصالحـين» (٥١٠ ـ بتخريجنا).

(٥) تقدم تخريجه. (٦) تقدم تخريجه.

(٧) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٦٩٩) عن ابن عباس به وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

(٨) تيسير العزيز الحميد ١٤٧.

فدل ذلك أنه عبادة. وبالضرورة يدرى كل مسلم أن من صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك. اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: **قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾** تعليق الشيء بعلم الله دليل على أنه محل جزاء؛ إذ لا نعلم فائدة لهذا الإخبار بالعلم إلا لترتب الجزاء عليه، وترتب الجزاء عليه يدلّ على أنَّه من العبادة التى يُجازى الإنسان عليها، وهذا وجه استدلال المؤلف بهذه الآية. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله[2]: ومناسبتها للباب. أنّ الله أخبر أن ما أنفقناه من نفقة أو نذرناه من نذر متقربين إليه أنه يعلمه ويجازينا عليه، فدلَّ ذلك على أنه عبادة فمن صرفها لغير الله فقد أشرك.

قال القرعاوى[3]: حيث دلّت الآية على أنَّ الله سبحانه يعلم النذر فيجازى عليه.

قال الشوكانى[4]: قوله: **﴿وما أنفقتم من نفقة﴾** «ما» شرطية ويجوز أن تكون موصولة، والعائد محذوف، أى الذى أنفقتموه وهذا بيان لحكم عام يشمل كل صدقة مقبولة، وغير مقبولة، وكل نذر مقبول أو غير مقبول.

قال محيى الدين درويش[5]: **(وما أنفقتم من نفقة)** (الواو) عاطفة (وما) اسم شرط جازم فى محل نصب مفعول به مقدم (لأنفقتم) (ومن نفقة) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، وجعلها كثيرون زائدة، وهو أسهل، ولكنه غير مقيس **(أو نذرتم من نذر)** عطف على ما تقدم **(فإن الله يعلمه)** الفاء رابطة لجواب الشرط (وإن) واسمها وجملة (يعلمه) خبرها والجملة المقترنة بالفاء فى محل جزم جواب الشرط.

● التفسير بالمأثور من المرفوع

وعن عائشة «أن رسول الله ﷺ قال: **من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه**»[6]. وقد تقدم.

وعن عائشة «أن النبى ﷺ قال: **لانذر فى معصية، وكفارته كفارة يمين**»[7].

---

(١) القول المفيد ١/٣١٨.

(٢) الجامع الفريد ٥٦.

(٣) الجديد ١١٨.

(٤) فتح القدير ٣٦٥.

(٥) إعراب القرآن/ ٤٢٠..

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) تقدم تخريجه أيضاً.

وعن عمران بن حصين قال: أُسرت امرأة من الأنصار فـاصيبت العضباء فقعدت فى عجزها، ثم زجرتهـا فانطلقت ونذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنهـا، فلما قدمت المدينة رآها الناس فقالوا: العضباء ناقة رسـول الله ﷺ. فقالت: إنها نذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنها، فأتوا رسـول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: **سبحان الله...! بئس ما جزتها، نذرت لله إن نجاها الله عليـها لتنحرنهـا، لا وفاء لنذر فى معـصية الله، ولا فيـما لا يملك العبد**»(١).

وعن عـقبـة بن عامـر أن رسول الله ﷺ قـال: «**كـفـارة النذر إذا لم يسم كـفـارة اليمين**»(٢).

وعن ثابت بـن الضـحـاك عن النبى ﷺ قـال: «**ليس على العبـد نذر فـيمـا لا يملك**»(٣).

وعن ابن عمر «أن النبى ﷺ نهى عن النذر وقال: «**إنه لا يأتى بخير، وإنما يستخرج به من البخيل**»(٤).

وعن أبى هريرة «أن رسول الله ﷺ قال: **لا تنذروا فان النذر لا يغنى من القدر شيئاً، وإنما يستخرج من البخيل**»(٥).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**لا يأتى ابن آدم النذر بشىء لم أكن قدرته ولكن يلقيه النذر إلى القـدر قد قدرته فيستـخرج الله به من البخيل، فيـؤتينى عليه ما لم يكن يؤتينى عليه من قبل**»(٦).

قال الحافظ: هذا من الأحاديث القدسية، لكن سقط منه التصريح بنسبته إلى الله عز وجل. اهـ(*).

وعن أنس «أن النبى ﷺ رأى شيخاً يهـادى بين ابنيه فقال: **ما بال هذا؟** قالوا: نذر أن يمشى إلى الكعبة قال: **إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنى**، وأمره أن يركب»(٧).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم.

(٣) تقدم تخريجه فى حديث الباب.

(٤) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٦٦٠٨)، ومسلم فى النذور (١١/ ٩٧ ـ النووى) وانظر «السلسبيل» (٢٦٤١ ـ بتخريجنا).

(٥) [**صحيح**] أخرجه مسلم فى النذر (٦/ ١٠٩/ ٥) عن أبى هريرة به.

وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٧٢ ـ ٧٥) وزاد نسبته للترمذى، والنسائى.

(٦) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٦٦٩٤)، ومسلم فى النذر (٦/ ١٠٩/ ٧) عن أبى هريرة به.

(*) فتح البارى (١١/ ٥٨٨).

(٧) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٦٧٠١)، ومسلم فى النذر (٦/ ١١٣/ ٩) عن أنس به.

وعن أبي هريرة «**أن النبي ﷺ أدرك شيخاً يمشي بين ابنيه يتوكأ عليهما. فقال: ما شأن هذا؟** قال ابناه: يارسول الله كان عليه نذر. فقال النبي ﷺ: **اركب أيها الشيخ فإن الله غني عنك وعن نذرك**»(١).

وعن عقبة بن عامر قال: «**نذرت أختي أن تمشي إلى بيت الله حافية، فأمرتني أن أستفتي لها رسول الله ﷺ**، فاستفتيته فقال: «**لتمش ولتركب**»(٢).

وعن ابن عباس: «**أن أخت عقبة بن عامر نذرت أن تحج ماشية وأنها لاتطيق ذلك**، فقال النبي ﷺ: «**إن الله لغني عن مشي أختك فلتركب ولتهد بدنة**»(٣).

وعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله ان اختي نذرت أن تحج ماشية. فقال النبي ﷺ «ان الله لايصنع بشقاء اختك شيئاً، فلتحج راكبة وتكفر يمينها»(٤).

وعن عقبة بن عامر «أنه سأل النبي ﷺ عن اخت له نذرت أن تحج حافية غير مختمرة. فقال: **مروها فلتختمر، ولتركب، ولتصم ثلاثة أيام**»(٥).

وعن ابن عباس قال: «بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس، فسأل عنه فقالوا: هذا أبو اسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد لا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال النبي ﷺ: **مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه**»(٦).

وعن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ قال: **من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً لايطيقه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً أطاقه فليوف به**»(٧) (*).

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في النذر (٦/ ١١٤/ ١٠) عن أبي هريرة به.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣٠٣) عن ابن عباس به.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٢٩٥) عن ابن عباس به.

(٥) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٤٣)، وأبو داود (٣٢٩٣)، والنسائي في الكبرى» (٤٧٥٧)، وابن ماجه (٢١٣٤) وانظر «منار السبيل» (٢٧٩٣ ـ بتخريجنا).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) [المحفوظ موقوف] أخرجه أبو داود (٣٣٢٢) وانظر الكلام عليه في «بلوغ المرام» (١٢٩٠ ـ بتخريجنا).

(*) فيه تقسيم النذور لأربعة وقد مر تقسيم النذر إلى ستة أنواع من كلام ابن عثيمين، وأضفنا إليها اثنين لصبح ثمانية أقسام. والله أعلم.

وعن عمران بن حصين «سمعت رسول الله ﷺ يقول: **النذر نذران. فما كان من نذر فى طاعة الله فذلك لله وفيه الوفاء، وما كان من نذر فى معصية الله فذلك للشيطان، ولا وفاء فيه ويكفره ما يكفر اليمين**»(١).

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا نذر فى معصية ولا غضب، وكفارته كفارة يمين»**(٢).

وعن عمران بن حصين قال: «ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة. قال: **وإن من المثلة أن يخرم أنفه وأن ينذر أن يحج ماشياً، فمن نذر أن يحج ماشياً فليهد هدياً وليركب**»(٣).

● التفسير بالمأثور من الموقوف

وعن سعيد بن جبير قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إنى نذرت أن أقوم على قعيقعان(**) عرياناً إلى الليل. فقال: أراد الشيطان ان يبدى عورتك وأن يضحك الناس بك، إلبس ثيابك وصل عند الحجر ركعتين(٤).

وعن ابن عباس قال: النذور أربعة. فمن نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر فى معصية فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً فيما لايطيق فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذرا فيما يطيق فليوف بنذره(٥).

وابن شهاب عن عوف بن الحارث بن الطفيل وهو ابن أخى عائشة لأمها. أن عائشة رضى الله عنها حدثت: أن عبد الله بن الزبير قال فى بيع أو عطاء أعطته عائشة: والله لتنتهين عائشة أولأحجرن عليها. فقالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم. قالت عائشة: فهوَ لله نذر أن لا أكلم ابن الزبير كلمة أبدا. فاستشفع ابن الزبير بالمهاجرين حين طالت هجرتها إياه. فقالت: والله لا أشفع فيه أحداً أبداً، ولا أحنث نذرى الذى نذرت أبداً، فلما طال على ابن الزبير كلم المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وهما من بنى زهرة فقال لهما: أنشدكما الله إلا أدخلتمانى على عائشة فإنها

(١) أخرجه النسائى (٧/ ٢٨ ـ السيوطى عن عمران به وضعفه النسائى.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٤٣٩)، والنسائى (٧/ ٢٩ ـ السيوطى) عن عمران بإسناد منقطع.

(٣) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣٠٥) عن عمران به بإسناد منقطع.

(**) قُعَيقعان: هو جبل بمكة. قيل سُمى به؛ لأن جرهماً لما تحاربوا كثرت قعقعة السلاح هناك. قاله ابن الأثير فى النهاية (٤/ ٨٨).

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٧٢ ـ ٧٥) ونسبه لابن أبى شيبة.

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد الرزاق، وابن أبى شيبة.

لايحل لها أن تنذر قطيعتى، فاقبل به المسور وعبد الرحمن مشتملين عليه بارديتهما حتى استأذنا علـى عائشة، فقالا: السلام عليـك ورحمة الله وبركاته أندخل؟ فقـالت عائشة: ادخلوا. قالوا: أكـلنا يا أم المؤمنين؟ قالـت: نعم، ادخلوا كلكم. ولا تعـلم عائشة أن معهما ابن الزبير، فلما دخلوا دخل ابن الزبير فى الحجاب واعتنق عائشة وطفق يناشدها ويبكى، وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدان عائشة إلا كلمته وقبلت منه، ويقولان: «قد علمت أن رسول الله ﷺ نهى عما قد علمت مـن الهجرة، وأنه لايحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، فلما أكثروا التذكير والتحريج طفقت تذكرهم وتبكى وتقول: إنى قد نذرت والنذر شديد، فلم يزالوا بها حتى كلمت ابن الزبير، ثم اعتقت بنذرها أربعين رقبـة لله، ثم كانت تـذكر، بعدمـا أعتقـت أربعين رقـبة، فتـبكى حتـى تبل دموعـها خمارها[1].

● التفسير بالمأثور من المقطوع

وعن عبد الله بـن حجيرة الأكبر. أن رجـلاً أتاه فقال: إنى نذرت أن لا أكـلم أخى فقال: ان الشيطان ولد له ولدا فسمـاه نذرا، وان من قطع ما أمر الله به أن يـوصل فقد حلت عليه اللعنة[2].

وعن مجاهـد فى قوله ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ قال: يحصيه[3].

● أقوال المفسرين

قال الطبرى[4]: قوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.......... أنصار﴾.

يعنى بذلـك جلَّ ثناؤه وأى نفقة أنفقـتم يعنى أى صدقة تصـدقتم أو أى نذر نذرتم يعنى بالنذر ما أوجبه المرء على نفسه تبررًا فى طاعة الله وتقرباً به اليه من صدقة أو عمل خير فإن الله يعلمـه أى أن جميع ذلك بعلم الله لايعزب عنه منه شـىء ولا يخفى عليه منه قليل ولا كثير ولكـنه يحصيه أيها الناس عليكم حتى يجازيكم جـميعكم على جميع

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٠٧٣) وانظر «رياض الصالحين» (١٨٦٢ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» ذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٧٢) ونسبه له فانظره بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى المـوضع السابق وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٤) تفسير الطبرى/ ٦١.

ذلك فمن كانت نفقته منكم وصدقته ونذره ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من نفسه جازاه بالذى وعده من التضعيف ومن كانت نفقته وصدقته رياء الناس ونذوره للشيطان جازاه بالذى أوعده من العقاب وأليم العذاب.

قال البغوى[1]:

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾. فيما فرض الله عليكم.

قوله تعالى: ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ أى ما أوجبتموه أنتم على أنفسكم فى طاعة الله فوفيتم به.

قوله: «فإن الله يعلمه».

قال الرازى[2]:

فى قوله: (فإن الله يعلمه) على اختصاره، يفيد الوعد العظيم للمطيعين، والوعيد الشديد للمتمردين، وبيانه من وجوه.

(أحدها) أنه تعالى عالم بما فى قلب المتصدق من نية الإخلاص والعبودية أو من نية الرياء والسمعة.

(وثانيها) أن علمه بكيفيه نية المتصدق يوجب قبول تلك الطاعات، كما قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقوله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

(وثالثها) أنه تعالى يعلم القدر المستحق من الثواب والعقاب على تلك الدواعى والنيات فلا يهمل شيئاً منها، ولا يشتبه عليه شيء منها.

وذكر بنحوه القرطبى.

وقال ابن كثير[3]: يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذرات وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك إبتغاء وجهه ورجاء موعوده، وتوعد من لايعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أى يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله نقمته.

(١) معالم التنزيل (١/ ٣٩٠).

(٢) التفسير الكبير ٣/ ٧٦.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٣٠٤.

وقال بنحوه الشوكانى فى «فتح القدير».

قال السعدى(١): يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر المنذرون فإن الله يعلم ذلك.

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لايضيع عنده مثقال ذرة ويعلم ماصدرت عنه من نيات صالحة، أو سيئة.

- فائدة فى قوله: يعلمه.

قال الطبرى(٢): فإن قال لنا قائل فكيف قال فإن الله يعلمه، ولم يقل يعلمهماوقد ذكر النذر والنفقة؟.

قيل: إنما قال فإن الله يعلمه؛ لأنه أراد، فإن الله يعلم ما أنفقتم أو نذرتم فلذلك وحد الكناية.

وذكر ذلك البغوى فقال(٣):

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾. يحفظه حتى يجازكم به، وإنما قال يعلمه، ولم يقل يعلمها، لأنه رده إلى الآخر منهما، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وإن شئت حملته على: «ما» كقوله ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ ولم يقل بهما.

وهناك قول آخر ذكره الرازى(٤).

قال: (والثانى): أن الكناية عادت إلى ما فى قوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ لأنها اسم كقوله ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾.

وزاد القرطبى الأمر إيضاحًا فقال(٥): ووحد الضمير وقد ذكر شيئين، فقال النحاس: التقدير ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ فإن الله يعلمها، ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ ثم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١ /٢٠٢.

(٢) تفسير الطبرى ١/ ٦١.

(٣) معالم التنزيل / ٣٩٠.

(٤) التفسير الكبير/٧٦.

(٥) تفسير القرطبى/١١٣٩، ١١٤٠.

حذف. ويجوز أن يكون التقدير: وما أنفقتم فإن الله يعلمه وتعود الهاء على «ما» كما أنشد سيبويه لامرىء القيس.

فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يَعْفُ رَسْمُها ... لِما نَسَجَتْها من جَنُوبٍ وشَمأَلِ

ويكون ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ معطوفا عليه. قال ابن عطيّة: ووحد الضمير فى «يعلمه» وقد ذكر شيئين من حيث أراد ما ذُكر أو نُصّ.

قلت - يعنى القرطبى -: وهذا حسن: فإن الضمير قد يراد به جميع المذكور وإن كثر.

وذكر نحو ذلك الشوكانى.

قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

- الإعراب(١):

(وما للظالمين من أنصار) (الواو) استئنافية (وما) نافية (وللظالمين) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ومن حرف جر زائد (وأنصار) مبتدأ مؤخر.

● **التفسير بالمأثور من المرفوع**

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ **«الظلم ظلمات يوم القيامة»(٢)**.

وعن جابر «أن رسول الله ﷺ قال: **«اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»(٣)**.

وعن أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ قال: **«إياكم والظلم فإن الظلم هو الظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش، وإياكم والشح فان الشح دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم، وقطعوا أرحامهم»(٤)**.

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات**

---

(١) إعراب القرآن / ٤٢٠.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٤٤٧)، ومسلم فى البر والصلة (٨/ ٣٧٧/ ٥٧) عن ابن عمر به.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٣٤ ـ النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (٢٠٥ ـ بتخريجنا).

(٤) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه» (٨/ ٤٨ ـ الإحسان)، والحاكم فى «المستدرك» (١/ ١٢)، والبيهقى فى «الشعب» (١٠٨٣٤). وذكرة السيوطى فى «الدر» (١/ ٧٥) وزاد نسبته للبخارى فى «الأدب المفرد».

يوم القيامة، وإياكم والفحش والتفحش، وإياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»(١).

وعن الهرماس بن زياد قال: «رأيت رسول الله ﷺ يخطب على ناقته فقال: **إياكم والخيانة فإنها بئست البطانة، وإياكم والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح حتى سفكوا دماءهم، وقطعوا أرحامهم»**(٢).

وعن عمر بن الخطاب. مثله(٣).

وعن ابن مسعود «ان النبى ﷺ قال: **لاتظلموا فتدعوا فلا يستجاب لكم، وتستسقوا فلا تسقوا، وتستنصروا فلا تنصروا»**(٤).

● **من أقوال التابعين**

وعن شريح قال: **الظالم ينتظر العقوبة، والمظلوم ينتظر النصر**(٥).

● **أقوال المفسرين**

قال الطبرى(٦): ثم أوعد جل ثناؤه من كانت نفقته رياء ونذوره طاعة للشيطان فقال وما للظالمين من أنصار يعنى وما لمن أنفق ماله رياء الناس وفى معضية الله وكانت نذروه للشيطان وفى طاعته من أنصار وهم جمع نصير كما الأشراف جمع شريف ويعنى بقوله من أنصار من ينصرهم من الله يوم القيامة فيدفع عنهم عقابه يومئذ بقوة وشدة بطش ولا بفدية وقد دللنا على أن الظالم هو الواضع للشئ فى غير موضعه وإنما سمى الله المنفق رياء الناس والناذر فى غير طاعته ظالماً لوضعه انفاق ماله فى غير موضعه ونذره فى غير ماله وضعه فيه فكان ذلك ظلماً.

قال البغوى(٧): **قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾**. الواضعين الصدقة فى غير موضعها بالرياء، أو يتصدقون من الحرام.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾. من أعوان يدفعون عذاب الله عنهم، وهى جمع نصير. مثل شريف وأشراف.

---

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (١/ ١١)، والبيهقى فى «الشعب» (٧٤٥٨).

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢٢/ ٢٠٤/ ٥٣٨) عن الهرماش به.

قال الهيثمى فى «المجمع» (٥/ ٢٣٥): وفيه عبدالرحمن بن ملحة وهو ضعيف.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٧٥) ونسبه للأحبهانى.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للطبرانى.

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم فى «تفسيره» فانظره بتخريجنا.

(٦) تفسير الطبرى/ ٦١.

(٧) معالم التنزيل/ ٣٩٠.

قال الرازى[1]: أنه وعيد شديد للظالمين، وهو قسمان، أما ظلمه نفسه فذاك حاصل فى كل المعاصى، وأما ظلمه غيره فبأن لا ينفق أو يصرف الانفاق عن المستحق إلى غيره، أو يكون نيته فى الانفاق على المستحق الرياء والسمعة، أو يفسدها بالمعاصى، وهذان القسمان الأخيران ليسا من باب الظلم على الغير، بل من باب الظلم على النفس. اهـ.

● **أقوال شرح كتاب التوحيد**

قال سليمان آل الشيخ:

وتبعه على ذلك **عبد الرحمن آل الشيخ**[2] فقال: إذا علمت ذلك: فهذه النذور الواقعة من عباد القبور، تقربًا بها إليهم، ليقضوا لهم حوائجهم وليشفعوا لهم، كل ذلك شرك فى العبادة بلا ريب، كما قال تعالى: **﴿وجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾**[3].

قال ابن قدامة: لايصح نذر الشمع والزيت وأشباهه للأماكن التى فيها قبور، فقد لعن النبى ﷺ المتخذين عليها المساجد والسرج[4].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما ما نذر لغير الله، كالنَّذر للأصنام والشَّمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة وكذلك الناذر للمخلوقات فإن كلاهما شرك. والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من هذا، ويقول ما قال النبى ﷺ: **«مَنْ حَلَفَ وَقَالَ فى حَلفه: واللّات والعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لا إله إلا الله»**[5].

وقال فيمن نذر للقبور أو نحوها دُهْناً لِتُنَوّر به ويقول: إنها تقبل النذر كما يقوله بعض الضالين وهذا النَّذر معصية باتفاق المسلمين، لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالاً للسَّدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة. فإن فيهم شبهاً من السدنة التى كانت عند اللات والعزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عليه السَّلام: **﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ**

(١) التفسير الكبير/ ٧٦ و ٧٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٤٨)، وفتح المجيد (١/ ١٩٦، ١٩٨).

(٣) الأنعام: ١٣٦.

(٤) سيأتى تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾(١) والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه، قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ﴾(٢) فالنَّذر لأولئك السَّدنة والمجاورين فى هذه البقاع نذر معصية. وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها، أو لسدنة الأبداد فى الهند والمجاورين عندها».

وقال الرافعى فى «شرح المنهاج»: «وأما النذر للمشاهد التى على قبر ولى أو شيخ، أو على اسم من حلّها من الأولياء، أو تردد فى تلك البقعة من الأولياء والصالحين، فإن قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة - تعظيم البقعة والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيم من دفن بها، أو نسبت إليه، أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطل غير منعقد، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يُدفع بها البلاء ويُستجلب بها النعماء، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم: إنه استند إليها عبد صالح، وينذرون لبعض القبور السُّرجَ والشموع والزيت، ويقولون: القبر الفلانى، أو المكان الفلانى يقبُل النذر، يعنون بذلك: أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، أو قدوم غائب، أو سلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة، فهذا النذر عى هذا الوجه باطل لاشك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً.

ومن ذلك: نذر الشُّموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء، فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلاَّ تبركًا وتعظيمًا، ظانّاً أن ذلك قربة، فهذا مما لاريب فى بطلانه. والإيقاد المذكور محرم، سواء انتفع به هناك منتفع أم لا».

قال الشَّيخ قاسم الحنفى فى شرح «دُرر البحار»: «النَّذر الذى ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة، فيأتى إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة، ويقول: ياسيدى فلان، إن رد الله غائبى، أو عوفى مريضى، أو قضيت حاجتى، فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطَّعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا.

فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه:

منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لايجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لاتكون لمخلوق.

---

(١) الأنبياء: ٥٢.
(٢) الأعراف: ١٣٨.

ومنها: أن المنذور له ميت، والميت لايملك.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف فى الأمور دون الله. واعتقاد ذلك كفر.

إلى أن قال: «إذا علمت هذا. فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقربًا إليها: فحرام بإجماع المسلمين».

نقله عنه ابن نجيم فى «البحر الرَّائق». ونقله المرشدى فى «تذكرته» وغيرهما عنه، وزاد: «قد ابتلى الناس بهذا لا سيما فى مولد البدوى».

وقال الشَّيخ صنع الله الحلبى الحنفى فى الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء: «فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله، فيكون باطلاً. وفى التنزيل: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[1]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ﴾[2] والنَّذر لغير الله إشراك مع الله، كالذَّبح لغيره».

وجاء فى «الدر المختار»: واعلم أن النذر الذى يقع للأموات من أكثر العوام وما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ونحوها إلى ضرائح الأولياء الكرام تقرباً إليهم فهو بالإجماع باطل وحرام مالم يقصدوا صرفها لفقراء الأنام، وقد ابتلى الناس بذلك ولاسيما فى هذه الأعصار، وقد بسطه العلامة قاسم فى شرح درر البحار، ولقد قال الإمام محمد: لو كانت العوام عبيدى لأعتقتهم وأسقطت ولائى لأنهم لايهتدون، فالكل بهم يتعيرون ا.هـ.

وعلق ابن عابدين على ذلك فى الحاشية فقال: ولا يخفى على ذوى الأفهام أن مراد الإمام بهذا الكلام إنما هو ذم العوام، والتباعد عن نسبتهم إليه بأى وجه يرام ولو بإسقاط الولاء الثابت الانبرام، وذلك بسبب جهلهم العام، وتغييرهم لكثير من الأحكام، وتقربهم بما هو باطل وحرام، فهم كلاأنعام يتعير بهم الأعلام ويتبرءون من شنائعهم العظام كما هو أدب الأنبياء الكرام حيث يتبرون من الأباعد والأرحام بمخالفتهم الملك العلام فافهم ما ذكرناه والسلام. اهـ[3].

فائدة[4]:

قال الرازى: المعتزلة تمسكوا بهذه الآية فى نفى الشفاعة عن أهل الكبائر، قالوا: لأن ناصر الإنسان من يدفع الضرر عنه فلو اندفعت العقوبة عنهم بشفاعة الشفعاء لكان أولئك أنصارًا لهم وذلك يبطل قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

(١) الأنعام: ١٢١. (٢) الأنعام: ١٦٢/ ١٦٣.

(٣) حاشية ابن عابدين (٢/٤٣٩، ٤٤٠)، وانظر «أصول الإيمان» (١/ ٩٤، ٩٥).

(٤) التفسير الكبير/ ٧٧.

وَفِى الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَـالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ؛ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِىَ؛ اللهَ فَلاَ يَعْصِه»[١].

واعلم أن العرف لايسمى الشفـيع ناصراً، بدليل قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنـصَرُونَ**﴾ ففرق تعالى بين الشفيع والناصر فلا يلزم من نفى الأنصار نفى الشفعاء.

والجواب الثانى: ليس لمجموع الظالمين أنصار، فلم قلتم ليس لبعض الظالمين أنصار.

فإن قـيل: لفظ الظالمين ولفظ الأنصار جـمع، والجمع إذا قوبل بالجـمع توزع الفرد على الفرد، فكان المعنى: ليس لأحد من الظالمين أحد من الأنصار.

قلنا: لانسلم أن مقابلة الجمع بالجمع توجب توزع الفرد على الفرد لاحتمال أن يكون المراد مقابلة الجمع بالجمع فقط لا مقابلة الفرد بالفرد.

والجواب الثـالـث: أن هذا الدليل الـنافى للشـفـاعـة عـام فى حـق الكل، وفى كل الأوقات، والدليل المثبت للشفاعـة خاص فى حق البعض وفى بعض الأوقات، والخاص مقدم على العام والله أعلم.

والجواب الرابع: ما بينا أن اللفظ العام لايكون قـاطعًا فى الاستغراق، بل ظاهرًا على سبيل الظن القوى فصار الدليل ظنياً، والمسألة ليست ظنية، فكان التمسك بها ساقطاً.



[قوله: وفى الصحيح عن عائشة رضى عنها. . .] إلخ.

- مناسبة الحديث للباب:

قال عـبدالله بـن جار الله[٢]: ومناسـبتـه للبـاب: أنه دلّ على أنَّ النذر لغيـر الله معصية.

قال القرعاوى[٣]: حيث دلَّ الحـديث على وجوب الوفاء بالنذر إذا كـان طاعة لذا يكون الوفاء بالنذر عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك.

قوله: «فى الصحيح».

قال سليمان آل الشيخ[٤]: قوله فى «الصحيح» أى: «صحيح البخارى».

---

(١) تقدم تخريجه وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٢٧٠) بتخريجنا.

(٢) الجامع الفريد: ٥٦.

(٣) الجديد: ١١٩.

(٤) تيسير العزيز الحميد: ١٥٠.

قوله: عن عائشة هى أم المؤمنين، وزوج النبى ﷺ، وبنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، تزوجها النبى ﷺ وهى بنت سبع سنين، ودخل بها وهى بنت تسع سنين، وهى أفقه النساء مطلقاً، وأفضل أزواج النبى ﷺ إلا خديجة ففيهما خلاف كثير. ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح، قاله الحافظ.

قوله: (من نذر أن يطيع الله فليطعه).

قال ابن حجر(١): الطاعة أعم من أن تكون فى واجب، أو مستحب، ويتصور النذر فى فعل الواجب بأن يؤقته، كمن ينذر أن يصلى الصلاة فى أول وقتها فيجب عليه ذلك بقدر طاقته، وأما المستحب من جميع العبادات المالية والبدنية فينقلب بالنذر واجباً، ويتقيد بما قيده به الناذر والخبر صريح فى الأمر بوفاء النذر إذا كان فى طاعة، وفى النهى عن ترك الوفاء به إذا كان فى معصية. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**» أى: فليفعل ما نذره من طاعة الله وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة بشرط يرجوه كقوله: إن شفى الله مريضى فعلى أن أتصدق بكذا ونحو ذلك، وجب عليه أن يوفى بها **مطلقاً** إذا حصل الشرط، إلا أنه حكى عن أبى حنيفة أنه لايلزمه الوفاء بما لا أصل له فى الوجوب، كالاعتكاف، وعيادة المريض. والحديث حجة عليه، لأنه لم يفرق بين ما له أصل فى الوجوب وما لا أصل له، فإن نذر ابتداء كقوله: لله تعالى علىَّ صوم شهر فالحكم أيضاً كذلك فى قول الأكثرين. وعن بعضهم أنه لايلزم، والحديث حجة عليه أيضاً، لأنه لم يفرق بين ما علقه على شرط وبين ما نذره ابتداء ا.هـ.

وسيأتى مزيد تفصيل فى المسألة من كلام الشنقيطى.

قال ابن عثيمين(٣): **قوله: «مَنْ نذر»** جملة شرطية تفيد العموم، وهل تشمل الصغير؟

قال بعض العلماء: تشمله؛ فينعقد النذر منه.

وقيل: لاتشمله؛ لأنَّ الصغير ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام، وبناءً على هذا يخرج الصغير من هذا العموم؛ لأنَّه ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام.

قوله: «أن يطيع الله».

---

(١) فتح البارى مقدمة كتاب الكفارات والنذور.

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٥٠، ١٥١).

(٣) «القول المفيد» (١/٣١٩، ٣٢٠).

الطاعة: هى موافقة الأمر؛ أى: أن توافق الله فيما يريد منك إن أمرك؛ فالطاعة فعل المأمور به، وإن نهاك؛ فالطاعة ترك المنهى عنه، هذا معنى الطاعة إذا جاءت مفردة.

أمَّا إذا قيل: **طاعة ومعصية؛ فالطاعة لفعل الأوامر، والمعصية لفعل النواهى.**

قوله: «فليطعه» الفاء واقعة فى جواب الشـرط؛ لأنَّ الجملة إنشائيَّة طلبيَّة، واللام لام الأمر.

فصل فى حكم الإقدام على النذر

قال الشنقيطى[(١)]: -

اعلم أن الأحاديث الصحيحة، دلت على أن النذر، لاينبغى وأنه منهى عنه، ولكن إذا وقع وجب الوفاء به، إن كان قربة ثم ذكر الشنقيطى ما أخرجه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما يقول: أو لم ينهوا عن النذر، إن النبى ﷺ قال: «**إن النذر لايقدم شيئاً ولا يؤخر وإنما يستخرج بالنذر من البخيل**»[(٢)] وفى البخارى، وفى لفظ للبخارى من حديث أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «**لا يأتى ابن آدم النذر بشىء لم يكن قُدِّرَ، ولكن يلقيه النذر إلى القدر قد قُدِّرَ له فيستخرج الله به من البخيل فَيُؤْتِى عليه ما لم يكن يُؤْتِى عليه من قبل**»[(٣)] اهـ من صحيح البخارى، وهو صريح فى النهى عن النذر، وأنه ليس ابتداء فعله من الطاعات المرغب فيها.

وهذا الذى ذكرنا من حديث الشيخين، عن ابن عمر وأبى هريرة: فيه الدلالة الصريحة على النهى عن الإقدام على النذر، وأنه لا يأتى بخير، وإنما يستخرج به من البخيل.

وفى الأحاديث المذكورة إشكال معروف، لأنه قد دل القرآن على الثناء على الذين يوفون بالنذر، وأنه من أسباب دخول الجنة كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾[(٤)] وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ**﴾[(٥)] وقد دل الكتاب والسنة على وجوب الوفاء، بنذر الطاعة، كقوله تعالى فى هذه

(١) أضواء البيان (٥/ ٤٦٢)

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الإنسان: ٥ -٧.

(٥) البقرة: ٢٧٠.

الآية، ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾[1] الآية. وكقول ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»[2] ويؤيد ذلك ما ثبت في الصحيح، من ذم الذين لم يوفوا بنذورهم فعن.

عمران بن حصين رضي الله عنهما، يحدث عن النبي ﷺ قال: «**خيركم قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» قال عمران: لا أدرى ذكر ثنتين أو ثلاثاً بعد قرنه «**ثم يجيء قوم ينذرون ولا يوفون ويخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون ويظهر فيهم السمن**»[3] اهـ من صحيح البخاري. وهو ظاهر جداً في إثم الذين لا يوفون بنذرهم، وأنهم كالذين يخونون، ولا يؤتمنون. وهذا الحديث أخرجه أيضاً مسلم في صحيحه، عن عمران بن حصين.

وقال النووي في شرحه لحديث عمران هذا فيه وجوب الوفاء بالنذر، وهو واجب، بلا خلاف، وإن كان ابتداء النذر منهياً عنه: اهـ.

قال ابن حجر: ولأجل هذا الإشكال المذكور اختلف العلماء في حكم الإقدام على النذر، فذهب المالكية: إلى جواز نذر المندوبات إلا الذي يتكرر دائماً كصوم يوم من كل أسبوع فهو مكروه عندهم، وذهب أكثر الشافعية: إلى أنه مكروه، ونقله بعضهم عن نص الشافعي للأحاديث الدالة على النهي عنه. ونقل نحوه عن المالكية أيضاً، وجزم به عنهم ابن دقيق العيد. وأشار ابن العربي إلى الخلاف عنهم، والجزم عن الشافعية بالكراهة. وجزم الحنابلة بالكراهة، وعندهم رواية في أنها كراهة تحريم، وتوقف بعضهم في صحتها، وكراهته مروية عن بعض الصحابة. اهـ بواسطة نقل ابن حجر في «الفتح».

وجزم صاحب «المغني»: بأن النهي عنه نهي كراهة.

ثم قال الشنقيطي في حل هذا الإشكال.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الظاهر لي في طريق إزالة هذا الإشكال، الذي لا ينبغي العدول عنه: أن نذر القربة على نوعين:

أحدهما: معلق على حصول نفع كقوله: إن شفى الله مريضي، فعلى لله نذر كذا أو إن نجاني الله من الأمر الفلاني المخوف، فعلى لله نذر كذا، ونحو ذلك.

---

(1) الحج: ٢٩.

(2) تقدم تخريجه.

(3) تقدم تخريجه.

والثانى: ليس معلقًا على نفع للناذر، كأن يتقرب إلى الله تقربًا خالصاً بنذر كذا، من أنواع الطاعة، وأن النهى إنما هو فى القسم الأول، لأن النذر فيه لم يقع خالصاً للتقرب إلى الله، بل بشرط حصول نفع للناذر وذلك النفع الذى يحاوله الناذر هو الذى دلت الأحاديث على أن القدر فيه غالب على النذر، وأن النذر لا يرد فيه شيئاً من القدر.

أما القسم الثانى: وهو نذر القربة الخالص من اشتراط النفع فى النذر، فهو الذى فيه الترغيب والثناء على الموفيين به المقتضى أنه من الأفعال الطيبة، وهذا التفصيل قال به جماعة من أهل العلم.

وإنما قلنا: إنه لا ينبغى العدول عنه لأمرين:

الأول: أن نفس الأحاديث الواردة فى ذلك فيها قرينة واضحة، دالة عليه، وهو ما تكرر فيها من أن النذر لايرد شيئاً من القدر، ولا يقدم شيئاً، ولا يؤخر شيئاً ونحو ذلك. فكونه لا يرد شيئاً من القدر، قرينة واضحة على أن الناذر أراد بالنذر جلب نفع عاجل، أو دفع ضر عاجل فبين ﷺ أن ما قضى الله به فى ذلك واقع لا محالة، وأن نذر الناذر لايرد شيئاً كتبه الله عليه، ولكنه إن قدر الله ما كان يريده الناذر بنذره، فإنه يستخرج بذلك من البخيل الشىء الذى نذر وهذا واضح جداً كما ذكرنا.

الثانى: أن الجمع واجب إذا أمكن وهذا جمع ممكن بين الأدلة واضح تنتظم به الأدلة، ولا يكون بينها خلاف، ويؤيده أن الناذر الجاهل، قد يظن أن النذر قد يرد عنه ما كتبه الله عليه. هذا هو الظاهر فى حل هذا الإشكال. وقد قال به غير واحد. والعلم عند الله تعالى.

تنبيه

فإن قيل: إن النذر المعلق كقوله: إن شفى الله مريضى أو نجانى من كذا، فلله على نذر كذا، قد ذكرتم أنه هو المنهى عنه، وإذا تقرر أنه منهى عنه لم يكن من جنس القربة، فكيف يجب الوفاء بمنهى عنه.

والجواب: أن النص الصحيح دل على هذا فدل على النهى عنه أولاً، كما ذكرنا الأحاديث الدالة على ذلك، ودل على لزوم الوفاء به بعد الوقوع فقوله ﷺ: **«وإنما يستخرج به من البخيل»**(١) نص صريح فى أن البخيل يلزمه إخراج ما نذر إخراجه،

---

(١) تقدم تخريجه.

وهو المصرح بالنهى عنه أولاً، ولا غرابة فى هذا، لأن الواحد بالشخص قد يكون له جهتان. فالنذر المنذور له جهة هو منهى عنه من أجلها ابتداء: وهى شرط حصول النفع فيه، وله جهة أخرى هو قربة بالنظر إليها، وهو إخراج المنذور تقربًا لله وصرفه فى طاعة الله، والعلم عند الله تعالى. اهـ.

ثم قال الشنقيطى: الأرجح الذى لاينبغى العدول عنه هو ما قدمنا من الجمع، والعلم عند الله تعالى.

فصل فى أقسام النذر

قال ابن عثيمين: الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة؛ لقوله ﷺ: **«من نذر أن يطيع الله؛ فليطعه»**(١).

الثانى: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية؛ لقوله ﷺ: **«ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»**(٢)، وقوله: **«فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله»**.

الثالث: ما يجرى مجرى اليمين، وهو نذر المباح؛ فيخير بين فعله وكفارة اليمين، مثل لو نذر أن يلبس هذا الثوب؛ فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفّر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللَّجاج والغضب، وسُمِّى بهذا الاسم؛ لأنَّ اللجاج والغضب يحملان عليه غالباً، وليس بلازم أن يكون هناك لجاج وغضب، وهو الذى يقصد به معنى اليمين، الحثّ، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب.

مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: إن كان حاصلاً؛ فعلى لله نذر أن أصوم سنة؛ فالغرض من هذا النذر التكذيب، فإذا تبين أنه حاصل؛ فالناذر مخيَّر بين أن يصوم سنة، وبين أن يكفِّر كفَّارة يمين؛ لأنَّه إن صام فقد وفى بنذره، وإن لم يصم حنث، والحانث فى اليمين يكفّر كفَّارة يمين.

الخامس: نذر المكروه(٣)، فيكره الوفاء به، وعليه كفارة يمين.

السادس: النذر المطلق، وهو الذى ذكر فيه صيغة النذر؛ مثل أن يقول: لله على نذر؛ فهذا كفارته كفارة يمين كما قال النبى ﷺ: كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين. اهـ.

(١، ٢) تقدم تخريجه

(٣) وذلك كأن ينذر طلاق زوجته، أو يأكل ثوماً أو بصلاً. انظر «حاشية ابن قاسم على الروض» (٧/٤٩٩).

قال الفقير:

السابع: نذر طاعة ومعصية فى آن واحد وتقدم له صور مثل المرأة التى نذرت مع الطاعة ان لا تختمر.

الثامن: نذر الطاعة والمكروه مثل ما جاء فى حديث أبى إسرائيل وفى هاتين الحالتين لا يفعل المعصية أو المكروه أو يفعل الواجب أو الطاعة ولا يكفر فى حال المكروه وهل يكفر فى حال المعصية مع الطاعه فيه نظر والله أعلم.

فصل: شروط النذر لله

قال حافظ بن أحمد حكمى(١): ومن شرط النذر لله تعالى:

(١)أن يكون طاعة.

(٢)وأن يكون مما يطيقه العبد.

(٣)وأن يكون فيما يملك.

(٤)وأن لا يكون فى موضع كان يعبد فيه غير الله تعالى أو ذريعة إلى عبادة غير الله تعالى وألا يكون فى زمان يجيد فيه غير الله كما تقدم.

(٥)وأن لايكون معلقاً بحصول شىء فلا يعتقد الناذر تأثير النذر فى حصوله.

أما الأول: فلقوله ﷺ: «**لانذر فى معصية الله، ولا فى قطيعة رحم**»(٢) الحديث رواه أبو داود، وكذا حديث عائشة السابق وغيره.

وأما الثانى: فلحديث عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: نذرت أختى أن تمشى إلى بيت الله، فأمرتنى أن أستفتى لها رسول الله ﷺ، فاستفتيته فقال «**لتمش ولتركب**»(٣) متفق عليه.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بينما النبى ﷺ يخطب إذ هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا أبو إسرائيل نذر أن يقوم فلا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبى ﷺ: «**مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه**»(٤) فأمره ﷺ بترك ما لم يكن مطيقه ولم يكن مشروعاً، وأمره باتمام الصوم لكونه يطيقه ولكونه مشروعاً.

---

(١) معارج القبول (١/ ٣٦٦، ٣٦٧).

(٢) تقدم تخريجه..

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وأما الثالث: فلقوله ﷺ: «**لا وفاء لنذر فى معصية الله، ولا فيما لايملك ابن آدم**»(١) رواه أبو داود وغيره وإسناده صحيح.

وأما الرابع: فلحديث ثابت بن الضحاك أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: إنى نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة، فقال: «**كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد**»؟ فقالوا: لا، قال: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم**»؟ قالوا لا، قال: «**أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله ولا فيما لايملك ابن آدم**»(٢) رواه أبو داود.

وفى سدّ الذرائع إلى ذلك حديث النهى عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من فعل ذلك كما سيأتى إن شاء الله تعالى.

وأما الخامس: فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**إن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره، وإنما يستخرج بالنذر من البخيل**»(٣) وهو فى الصحيح.

وفيه فى رواية عنه نهى النبى ﷺ عن النذر وقال: «**إنه لايرد شيئاً، ولكنه يستخرج به من البخيل**»(٤).

وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «**لايأتى ابنَ آدم النذرُ بشىء، ولكن يلقيه النذرُ إلى القدر قد قُدِّرَ له، فيستخرج الله به من البخيل، فيؤتى عليه مالم يكن يؤتى عليه من قبل**»(٥) وغير ذلك من الأحاديث، وفيما ذكرنا كفاية إن شاء الله تعالى. اهـ.

قلت: وتقدمت هذه الأحاديث كلها فى مواضع سابقة، وكررناها هنا من كلام حافظ أحمد حكمى لفائدة التدليل على شروط النذر فقط. والله المستعان.

قوله: «وَمَنْ نَذَرَ أن يَعصى الله فلا يَعْصه».

قال سليمان آل الشيخ(٦): زاد الطحاوى: «**وليُكَفِّرَ عَنْ يَمينه**»(٧) قال ابن القطان: عندى شك فى رفع هذه الزيادة أى: لا يفعل المعصية التى نذرها.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تيسير العزيز الحميد (١٥١).

(٧) تقدم تخريجه. .

وقد أجمع العلماء على أنه لايجوز الوفاء بنذر المعصية. اهـ.

قلت: وتقدم فى الباب الذى قبله قول الحافظ: واتفقوا على تحريم النذر فى المعصية، وهل ينعقد موجباً للكفارة أم لا؟.

وقد يستدل بقوله: «**ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**» بصحة النذر فى المباح، كما هو مذهب أحمد وغيره.

يؤيده ما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ورواه أحمد والترمذى عن بريدة أن امرأةً قَالت: يَارَسُولَ اللهِ إنى نَذَرْتُ أَنْ أَضْرِبَ عَلى رَأْسِكَ بِالدُّفِّ. فَقَالَ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكِ**»[1] وإذا صححناه فحكمه حكم الحلف على فعله، فيخير بين فعله وكفارة اليمين. وأما نذر اللجاج والغضب، فهو يمين عند أحمد، فيخير بين فعله وكفارة اليمين.

ولحديث عمران بن حصين مرفوعاً «**لاَ نَذْرُ فى غَضَب، وَكَفَّارتهُ كَفَّارَةَ يَمِين**» رواه سعيد وأحمد، والنسائى، وله طرق، وفيه كلام، فإن نذر مكروهاً كالطلاقِ، استحب أن يكفر ولا يفعله[2] ا.هـ.

وتقدم فى الباب الذى قبله.

قال ابن عثيمين[3]: قوله: «**فلا يعصيه**». ناهية، والنهى بحسب المعصية، فإن كانت المعصية حراماً، فالوفاء بالنذر حرام؛ وإن كانت المعصية مكروهة، فالوفاء بالنذر مكروه.

قال ابن عثيمين[4]: وظاهر الحديث: يشمل ما إذا كانت الطاعة المنذورة جنسها واجب؛ كالصلاة والحج وغيرهما، أو غير واجب؛ كتعليم العلم وغيره.

وقال بعض أهل العلم: لايجب الوفاء بالنذر إلاّ إذا كان جنس الطاعة واجباً، وعموم الحديث يرد عليهم.

قلت: المراد ببعض أهل العلم أبا حنيفة كما تقدم من كلام سليمان آل الشيخ.

وظاهر الحديث أيضاً يشمل من نذر طاعة نذراً مطلقاً ليس له سبب، مثل: «**لله عليَّ أن أصوم ثلاثة أيام**».

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد ١/ ٣٢١.

(٤) القول المفيد ١/ ٣٢٠ و٣٢١.

ومن نذر نذراً معلّقاً، مثل: إن نجحت؛ فلله عليَّ أن أصوم ثلاثة أيام.

ومن فرَّق بينهما؛ فليس بجيد لأنَّ الحديث عام.

قلت: بل التفريق جيد وقد تقدم من كلام الشنقيطى فانظره وهو يشبه كلام ابن عثيمين.

واعلم أنَّ النذر لا يأتى بخير ولو كان نذر طاعة، وإنَّما يستخرج به من البخيل، ولهذا نهى عنه النبى ﷺ، وبعض العلماء يحرِّمه، وإليه يميل شيخ الإسلام ابن تيمية للنهى عنه، ولأنَّك تلزم نفسك بأمر أنت فى عافية منه، وكم من إنسان نذر وأخيراً ندم، وربما لم يفعل.

ويدل لقوة القول بتحريم النذر قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾(1)؛ فهذا التزام مُؤكَّد بالقسم، فيشبه النذر.

قال الله تعالى: ﴿قُل لاَّ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾(2)، أى: عليكم طاعة معروفة بدون يمين، والإنسان الذى لايفعل الطاعة إلاَّ بنذر، أو حلف على نفسه يعنى أن الطاعة ثقيلة عليه.

ومما يدل على قوة القول بالتحريم أيضاً خصوصاً النذر المعلّق: أن الناذر كأنَّه غير واثق بالله - عز وجل -؛ فكأنَّه يعتقد أن الله لا يعطيه الشفاء إلا إذا أعطاه مقابله، ولهذا إذا أيسوا من البرء ذهبوا ينذرون، وفى هذا سوء ظن بالله - عز وجل -.

والقول بالتحريم قول وجيه.

فإن قيل: كيف تحرمون ما أثنى الله على من وفى به؟

فالجواب: أننا لانقول: إنَّ الوفاء هو المحرَّم حتى يقال: إننا هدمنا النص، إنَّما نقول: المحرَّم أو المكروه كراهة شديدة هو عقد النذر، وفرق بين عقده ووفائه؛ فالعقد ابتدائى، والوفاء فى ثانى الحال تنفيذ لما نذر. اهـ.

قلت: وتقدم قول الشنقيطى فى وجه آخر فى الجمع بين الأدلة الدالة على ذم النذر والأدلة الدالة على مدح الموفيين بالنذر ولا أدرى على هذا السبب فى عدم تجويد ابن عثيمين من فرق بين المعلق والمطلق وقد رجع فانتصر للتفريق!!.

---

(1)، (2) النور: ٥٣.

فصل من نذر شيئاً من الطاعة لايقدر عليه

اعلم أن من نذر شيئاً من الطاعة لايقدر عليه لايلزمه الوفاء به، لعجزه عنه.

واختلف فيما يلزمه فى ذلك المعجوز عنه، فلو نذر مثلاً أن يحج، أو يعتمر ماشياً على رجليه، وهو عاجز عن المشى: جاز له الركوب لعجزه عن المشى، وإن قدر على المشى: لزمه[١].

وفى حالة ركوبه عند العجز اختلف العلماء فيما يلزمه فقال بعضهم: لاشىء عليه، لأنه عاجز والله يقول: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[٢] فقد عجز عما نذر ولايلزمه شىء غير ما نذر. وقال بعضهم: تلزمه كفارة يمين. وقال بعضهم: يلزمه صوم ثلاثة أيام. وقال بعضهم: تلزمه بدنة. وقال بعضهم: يلزمه هدى.

قال ابن قدامة فى المغنى: وجملته أن من نذر المشى إلى بيت الله الحرام، لزمه الوفاء بنذره. وبهذا قال مالك، والأوزاعى، والشافعى، وأبو عبيد، وابن المنذر، ولا نعلم فيه خلافاً، وذلك لأن النبى ﷺ قال: «**لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى**»[٣] ولا يجزئه المشى إلا فى الحج أو العمرة. وبه يقول الشافعى. ولا أعلم فيه خلافاً، وذلك لأن المشى المعهود فى الشرع: هو المشى فى حج أو عمرة، فإذا أطلق الناذر حمل على المعهود الشرعى. ويلزمه المشى فيه لنذره، فإن عجز عن المشى: ركب، وعليه كفارة يمين، وعن أحمد رواية أخرى: أنه يلزمه دم، وهو قول الشافعى. وأفتى به عطاء لما روى ابن عباس أن أخت عقبة بن عامر نذرت المشى إلى بيت الله الحرام، فأمرها النبى ﷺ أن تركب، وتهدى هدياً[٤]. رواه أبو داود وفيه ضعف، ولأنه أخل بواجب فى الإحرام فلزمه هدى كتارك الإحرام من الميقات.

وعن ابن عمر وابن الزبير قالا: يحج من قابل، بل ويركب ما مشى، ويمشى ما ركب ونحوه. قال ابن عباس وزاد فقال: ويهدى، وعن الحسن مثل الأقوال الثلاثة وعن النخعى روايتان:

إحداهما: كقول ابن عمر

والثانية: كقول ابن عباس، وهذا قول مالك.

---

(١) أضواء البيان (٥/٤٥٨).

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وقال أبو حنيفة: عليه هدى سواء عجز عن المشى، أو قدر عليه. وأقل الهدى: شاة.

وقال الشافعي: لايلزمه مع العجز كفارة بحال، إلا أن يكون النذر مشياً إلى بيت الله الحرام، فهل يلزمه هدى؟ فيه قولان. وأما غيره فلا يلزمه مع العجز شىء اهـ محل الغرض من «المغنى».

وإذا علمت أقوال أهل العلم: فيما يلزم من نذر شيئاً وعجز عنه، فهذه أدلة أقوالهم نقلناها ملخصة بواسطة نقل المجد فى «المنتقى»، لأنه جمعها فى محل واحد أما من قال: تلزمه كفارة يمين فقد احتج بما رواه أبو داود، وابن ماجه، عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: «**من نذر نذراً ولم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً لم يطقه فكفارته كفارة يمين**»[1] اهـ.

هذا هو حاصل حجة من قال: إن على من نذر نذراً، ولم يطقه كفارة يمين.

وأما الذين قالوا: عليه صيام ثلاثة أيام، فقد احتجوا بما رواه أحمد، وأصحاب السنن عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن أخته نذرت أن تمشى حافية، غير مختمرة، فسأل النبى ﷺ فقال: «**إن الله لايصنع بشقاء أختك شيئاً، مرها فلتختمر ولتركب ولتصم ثلاثة أيام**»[2] اهـ بواسطة نقل المجد فى «المنتقى». قال الشوكانى فى هذا الحديث: حسنه الترمذى ولكن فى إسناده عبيد الله بن زحر وقد تكلم فيه غير واحد من الأئمة اهـ محل الغرض منه.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له - أى الشنقيطى ـ: ظاهر كلام أبى داود فى عبيد الله بن زحرالمذكور،: أنه ثقة عنده، لأنه ذكر تزكيته عن يحيى بن سعيد الأنصارى، ولم يتعقب ذلك بشىء.

وقال ابن حجر فى «التقريب» فى ابن زحر المذكور: صدوق يخطئ، وكلام أئمة الحديث فيه كثير منهم المثنى ومنهم القادح.

وحجة من قال إن عليه بدنة: هى ما رواه عكرمة، عن ابن عباس: أن عقبة بن عامر سأل النبى ﷺ فقال: إن أخته نذرت أن تمشى إلى البيت وشكا إليه ضعفها، فقال النبى ﷺ «**إن الله غنى عن نذر أختك فلتركب ولتهد بدنة**»[3] رواه أحمد، وأبو داود

(١) سبق تخريجه

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

وقال الشوكانى فى هذا الحديث: سكت عنه أبو داود والمنذرى، ورجاله رجال الصحيح: قال الحافظ فى التلخيص: إسناده صحيح.

وحجة من قال: إن عليه هديًا هى: ما رواه أبو داود، حدثنا محمد بن المثنى، ثنا أبو الوليد ثنا همام، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن أخت عقبة بن عامر، نذرت أن تمشى إلى البيت، فأمرها النبى ﷺ أن تركب، وتهدى هديا[1].

وقال الشوكانى فى هذا الحديث: سكت عنه أبو داود والمنذرى، ولزوم الهدى المذكور مروى عن مالك فى الموطأ وفسر الهدى: ببدنة، أو بقرة، أو شاة، إن لم تجد غيرها.

هذا هو حاصل أدلة أقوال أهل العلم: فيما يلزم من نذر شيئاً، وعجز عن فعله. والقول بالهدى والقول بالبدنة، يمكن الجمع بينهما، لأن البدنة هدى، والخاص يقضى على العام.

ثم قال: وقد ذكرنا كلام الناس فى أسانيد الأحاديث الواردة فى ذلك وأحوطها: فيمن عجز عن المشى، الذى نذره فى الحج: البدنة، لأنها أعظم ما قيل فى ذلك، وليس من المستبعد، أن تلزم البدنة، وأنه يجزئ الهدى والصوم وكفارة اليمين، لأن كل الأحاديث الواردة بذلك ليس فيها التصريح بنفى إجزاء شىء آخر. فحديث لزوم كفارة اليمين: لم يصرح بعدم إجزاء البدنة، وحديث الهدى: لم يصرح بعدم إجزاء الصوم مثلاً وهكذا.

وقد عرفت أقوال أهل العلم فى ذلك مع أن الأحاديث لايخلو شىء منها من كلام. ظاهر النصوص العامة: أنه لا شىء عليه، لأن الله يقول: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[2] ويقول: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾[3] ويقول النبى ﷺ: «**إذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم**»[4] وقد ثبت فى صحيح مسلم: أن النبى ﷺ لما قرأ ﴿**رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾[5] الآية. قال الله: قد فعلت[6]. وفى رواية: نعم، ويدخل فى حكم ذلك قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ**﴾[7] الآية اهـ.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) البقرة/ ٢٨٦.
(٣) التغابن/ ١٦.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) البقرة/٢٨٦.
(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٤٢١/ ١٩٩) عن أبى هريرة به.
(٧) البقرة/٢٨٦، أضواء البيان (٥/ ٤٦٢).

* فصل: في حكم من مات وعليه نذر *

قال الشنقيطي[1]: اعلم: أن الأحاديث الصحيحة دلت على أن من مات وعليه نذر أنه يقضى عنه.

أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه: أن عبد الله بن عباس، أخبره: «**أن سعد بن عبادة الأنصاري استفتي النبي ﷺ في نذر كان على أمه، فتوفيت قبل أن تقضيه، فأفتاه: أن يقضيه عنها فكانت سُنَّةً بَعْدُ**» اهـ[2].

تنبيه:

قال الشنقيطي: اعلم: أن عمر وابن عباس أفتيا بقضاء الصلاة المنذورة عن الميت إذا مات ولم يصل ما نذر. قال البخاري في صحيحه: باب من مات وعليه نذر، وأمر ابن عمر امرأة جعلت أمها على نفسها صلاة بقباء فقال: صلِّي عنها[3]. وقال ابن عباس نحوه[4] اهـ من البخاري.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي عليه جمهور أهل العلم، وحكى ابن بطال الإجماع عليه أنه لايصلى أحد عن أحد، أما الصوم والحج عن الميت فقد قدمنا مشروعيتهما. وإن خالف جل أهل العلم في الصوم عن الميت، والعلم عند الله تعالى. وفي «الموطأ» عن مالك بعد أن ذكر حديث «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[5].

قال يحيى: وسمعت مالكاً يقول: معنى قول رسول الله ﷺ: «**من نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» أن ينذر الرجل أن يمشي إلى الشام، أو إلى مصر، أو إلى الرَّبَذَة، أو ما أشبه ذلك مما ليس لله بطاعة، إن كلم فلاناً أو ما أشبه ذلك فليس عليه في شيء من ذلك شيء إن هو كلمه، أو حنث بما حلف عليه، لأنه ليس لله في هذه الأشياء طاعة. وإنما يوفى لله بما له فيه طاعة اهـ. من «الموطأ».

فصل: فيمن نذر جميع ماله لله ليصرف في سبيل الله

قال الشنقيطي[6]: الأظهر عندي: أن من نذر جميع ماله لله ليصرف في سبيل الله،

---

(١) أضواء البيان (٥/٤٦٦).

(٢) أخرجه (٦٦٩٨).

(٣) علقه البخاري (١١/٥٩٢ ـ الفتح).

(٤) المصدر السابق.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أضواء البيان (٥/٤٦٧).

أنه يكفيه الثلث ولا يلزمه صرف الجميع، وهذا قول مالك وأصحابه وأحمد وأصحابه، والزهرى.

وفى هذه المسألة للعلماء عشرة مذاهب أظهرها عندنا: هو ما ذكرنا، ويليه فى الظهور عندنا قول من قال: يلزمه صرفه كله، وهو مروى عن الشافعى والنخعى.

وإذا علمت أقوال أهل العلم فى هذه المسألة:

ثم قال بعد عرض أقوال أهل العلم فاعلم: أن أكثرها لايعتضد بدليل، والذى يعتضد بالدليل منها ثلاثة مذاهب:

الأول: هو أظهرها عندنا، وهو الاكتفاء بالثلث.

والثانى: لزوم الصدقة بالمال كله.

والثالث: قول سحنون: أنه يلزمه إخراج ما لايضر به. أما الاكتفاء بالثلث الذى هو أقربها عندنا، فقد يستدل له ببعض الأحاديث الصحيحة التى فيها النهى عن التصدق بالمال كله، وفيها أن الثلث كثير.

قال البخارى رحمه الله فى صحيحه: باب إذا أهدى ماله على وجه النذر، والتوبة: عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بنيه حين عمى، قال: سمعت كعب ابن مالك يقول فى حديثه: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾[(1)] فقال فى أخر حديثه: إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله ورسوله، فقال النبى ﷺ: **«أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»**[(2)] اهـ.

فظاهر هذا الحديث الصحيح: أن كعباً غير مستشير بل مريد التجرد من جميع ماله على وجه النذر والتوبة، كما فى ترجمة الحديث. وقد أمره ﷺ بأن يمسك بعض ماله، وصرح له بأن ذلك خير له.

وقد جاء فى بعض الروايات أنه فسر ذلك البعض الذى يمسكه بالثلثين، وأنه يتصدق بالثلث.

وقال ابن حجر فى شرح هذا الحديث قوله: **«أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»** زاد أبو داود عن أحمد بن صالح بهذا السند، فقلت: إنى أمسك سهمى الذى بخيبر[(3)]، وهو عند البخارى من وجه آخر عن ابن شهاب، ووقع فى رواية ابن إسحاق

(*) أضواء البيان (٥/ ٤٦٩). (١) التوبة: ١١٨.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦٩٠) ومسلم فى التوبة (٦/ ١٧ ـ النووى). وانظر كتابنا ـ فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال».

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣١٧) وانظر «السلسبيل» بتخريجنا».

عن الزهرى بهذا السند، عند أبى داود: «إن من توبتى إلى الله أن أخرج من مالى كله لله ورسوله صدقة قال: **لا**. قلت: فنصفه؟ قال: **لا**. قلت: فثلثه؟ قال: **نعم**. قلت: فإنى سأمسك سهمى فى خيبر»(١).

واعلم أن ابن إسحاق فى حديثه هذا عند أبى داود، صرح بالتحديث عن الزهرى، فأمن تدليسه.

ثم قال ابن حجر: وأخرج من طريق ابن عيينة، عن الزهرى، عن ابن كعب بن مالك، عن أبيه أنه قال للنبى ﷺ، وذكر الحديث وفيه: «وإنى أنخلع عن مالى كله صدقة» قال: «**يجزىء عنك الثلث**»(٢) وفى حديث أبى لبابة، عند أحمد وأبى داود مثله(٣) اهـ محل الغرض من فتح البارى.

وقد رأيت الروايات المصرحة بأنه يجزئه الثلث عن جميع المال. وظاهر الحديث أنه جازم غير مستشير فمن زعم من أهل العلم أنه مستشير فهو مخالف لظاهر اللفظ، لأن اللفظ مبدوء بجملة خبرية مؤكدة بحرف التوكيد، الذى هو إن «المكسورة فى قوله» «إن من توبتى أن أنخلع من مالى، واللفظ الذى هذه صفته، لايمكن حمله على التوقف والاستشارة، كما ترى فقوله ﷺ لكعب بن مالك وأبى لبابة: إن الثلث يكفى عن الصدقة بجميع المال؛ هو الدليل الذى ذكرنا بسببه: أن أقرب الأقوال عندنا الاكتفاء بالثلث.

وأما قول من قال: يلزمه التصدق بجميعه، فيستدل له بالحديث الصحيح: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»(٤) وهو يدل على إيفائه بنذره، ولو أتى على كل المال، إلا أن دليل ما قبله أخص منه فى محل النزاع والأخص مقدم على الأعم.

وأما قول سحنون: يلزمه التصدق بما لايضر به فيستدل له بقوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾(٥) الآية: لأن العفو فى أصح التفسيرين، هو ما لايضر إنفاقه

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣١٩).

(٣) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٥٣)، وأبو داود (٣٣٢٠) عن أبى لبابة به.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) البقرة: ٢١٩.

بالمنفق، ولا يجحف به لإمساكه ما يسد خلته الضرورية. وهذا قد يرجع إلى الأول لأن الثلث من العفو الذى لايجحف به إنفاقه. فأظهرها الأول كما ذكرنا وباقى الأقوال لا أعلم له دليلاً متجهاً من كتاب، ولا سنة، وما وجه به تلك الأقوال بعض أهل العلم لايتجه عندى، والعلم عند الله. اهـ.

فصل: فيمن نذر أن يسافر إلى مسجد ليصلى فيه

قال الشنقيطى: اعلم أنه قد دل النص الصحيح، على أن من نذر أن يسافر إلى مسجد ليصلى فيه كمسجد البصرة، أو الكوفة أو نحو ذلك لا يلزمه السفر إلى مسجد من تلك المساجد، وليصل الصلاة التى نذرها به فى موضعه الذى هو به.

والنص الصحيح المذكور هو حديث: **«لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدى هذا ومسجد بيت المقدس»**(١). والجارى على الأصول: أنه لايخرج من هذا الحصر الذى صرح به النبى ﷺ فى هذا الحديث الصحيح، إلا ما أخرجه نص صحيح يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة. والأظهر أن من نذر السفر لصلاة فى مسجد إيلياء، وصلاها فى مسجد مكة أو المدينة أجزأته، لأنهما أفضل منه.

وقد قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد أخبرنا حبيب المعلم، عن عطاء بن أبى رباح، عن جابر بن عبد الله: أن رجلاً قام يوم الفتح فقال: يارسول الله إنى نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلى فى بيت المقدس ركعتين قال: **«صل ها هنا ثم أعاد عليه، فقال: صل هاهنا ثم أعاد عليه، فقال: شأنك إذاً»**(٢).

قال أبو داود: وروى نحوه عن عبد الرحمن بن عوف، عن النبى ﷺ.

وفى لفظ لأبى داود عن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن رجال من أصحاب النبى ﷺ، فقال ﷺ: **«والذى بعث محمداً بالحق لو صليت هنا لأجزأ عنك صلاة فى بيت المقدس»**(٣) اهـ. والعلم عند الله تعالى.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [إسناد صحيح] أخرجه أبو داود (٣٣٠٥) عن جابر به.

وانظر كتابنا «قفوا الأثر فى شرح بلوغ المرام بكلام ابن حجر» (١٢٩٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣٠٦).

فيهِ مسائِلُ

الأُولى: وَجُوبُ الوَفَاءِ بِالنَّذْرِ.

الثانية: إِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ عبَادَةً، فَصَرْفُهُ إِلَى غَيْرِ الله شِرْكٌ.

الثالثة: أَنَّ نَذْرَ المَعْصِيَةِ لاَيَجُوزُ الوفاء به.

ولنكتف بما ذكر هنا من مسائل النذر لكثرة والنذر باب مذكور فى كتب الفروع، فمن أراد الإحاطة بجميع مسائله، فلينظرها فى كتب فروع المذاهب الأربعة، وقد ذكرنا هنا عيون مسائله المهمة، والعلم عند الله تعالى. اهـ.

قال ابن عثيمين[1]:

فيه مسائل:

- **الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.**

يعنى: نذر الطاعة فقط، لقوله: «**من نذر أن يطيع الله؛ فليطعه**»، ولقول المؤلف فى المسألة الثالثة: أن نذر المعصية لايجوز الوفاء به.

- **الثانية: إذا ثبت كونه عبادة؛ فصرفه إلى غير الله شرك.**

وهذه قاعدة فى توحيد العبادة، فأىّ فعل كان عبادة؛ فصرفه لغير الله شرك.

قلت: وقد تقدم تأصيل هذه القاعدة من كلام أهل العلم من الشراح وغيرهم.

- **الثالثة: أنَّ نذر المعصية لايجوز الوفاء به.**

لقوله ﷺ: «**من نذر أن يعصى الله؛ فلا يعصه**».

قلت: ولم يتعرض المصنف - رحمه الله - لمسألة الكفارة لأمرين:

الأول: لكثرة الخلاف فيها كما تقدم.

الثاني: لأنها لاتعلق لها بنذر الشرك الذى بوب عليه وهذا من عمق علمه أ.هـ.



---

(١) القول المفيد ١/ ٣٢٢.

١٢ بابٌ

مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

● **مناسبة هذا الباب لما قبله.**

قال السعدي: متى فهمت الضابط السابق في حد الشرك الأكبر وهو أنَّ من صرف شيئاً من العبادة لغير الله فهو مشرك فمن هذه الأبواب الثلاثة التي والى المصنف بيانها اهـ.

● **شرح الترجمة ومناسبتها لكتاب التوحيد:ـ**

قال حامد بن محمد(١): باب في بيان ما يدل على أن من الشرك الاستعاذة بغير الله أهـ.

قال ابن باز(٢): أي من الشرك الأكبر كبقية العبادات التي صرفها لغير الله شرك أكبر؛ لأن الاستعاذة عبادة، كما قال تعالى ﴿ **فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**﴾ و ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾. أهـ.

وبنحوٍ من هذا قال **عبدالله بن جار الله**، حيث قال(٣):

هي أن الاستعاذة بالله من أنواع العبادة وصرفها لغيره شرك ينافي التوحيد أهـ.

● **تنبيه:**

قال الفقير: لم يوفق المصنف في هذه الترجمة حيث أطلق بالشرك على كل استعاذة ولم يقيد فلو قال (باب: الاستعاذة بغير الله) لكان أنسب.

لذا **قال ابن عثيمين**:ـ(٤) **قوله: (من الشرك»)** (من) للتبعيض، وهذه الترجمة ليست على إطلاقها، لأنه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه، فإنه جائز، كالاستعانة. أهـ. وسيأتي بيان أقسام الاستعاذة قريباً.

قال الفقير: قد يعتذر للمصنف عن عدم التفصيل في هذه الترجمة لأنه لاينبغي أن يفصّل في مقام الترهيب بل يمر النصوص على ظاهرها، لأن التفصيل قد يُهوِّن الأمر، لكن سيرد عليه أنه جاء في أبواب أخرى وفصَّل مع أنها أيضاً في أبواب الترهيب والله أعلم.

قوله: (الاستعاذة بالله).

أولاً: تعريف الاستعاذة لغة:

عاذ به يعوذ عوذاً وعياذاً ومعاذاً: لاذ به ولجأ إليه واعتصم.

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (ص٢٣٤).

(٢) «التعليق المفيد» / (٨٩).

(٣) «الجامع الفريد».

(٤) «القول المفيد» (١/ ٣٢٣).

ومعاذ الله أى عياذاً بالله. قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ أى نعوذ بالله معاذاً أن نأخذ غير الجانى بجنايته.

- وتقول العرب للشىء ينكرونه والأمر يهابونه: حُجراً أى دفعاً، وهو إستعاذة من الأمر. وما تركت فلاناً إلا عوذاً منه، وعَوَاذًا منه أى كراهة.

- ويقال أُفْلِتَ فلان من فلان عوذاً إذا خوّفه ولم يضربه أوضربه وهو يريد قتله فلم يقتله.

- والعُوذة والمَعَاذَة والتعويذ: الرقية يُرقى بها الإنسان من فزع أو جنون لأنه يعاذ بها.

- والعُوّذ من اللحم: ما عاذ بالعظم ولزمه وناقة عائذ عاذ بها ولدها، والعائذ من الإبل: الحديثة والنتاج إلى خمس عشرة أونحوها.

والعُوُذ فى الأصل: جمع عائذ من هذا الذى تقدم(١).

والخلاصة: أن الاستعاذة من عاذ يعوذ عوذاً وعياذاً ومعاذاً ومعناه الإلتصاق والإلتزام من الفاعل والرعاية من المفعول وكلاهما عائذاً.

ثانياً: شرعاً:

قال عزوجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾(٧) وقال تعالى عنه عليه السلام ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾(٨).

- وقال النبىﷺ: «**أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم**»(٩).

---

(١) «اللسان» مادة (عوذ).
(٢) النحل (٩٨).
(٣) المؤمنون: (٩٧، ٩٨).
(٤) الأعراف: (٢٠٠).
(٥) الفلق: (١).
(٦) الناس: (١).
(٧) غافر: (٢٧).
(٨) الدخان: (٢٠).
(٩) أخرجه أبوداود (٤٦٦) عن أنس به.
وانظر الأذكار للنووى» بتخريجنا

ـ وقال: **«أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»**(1).

ـ وقال: **«اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك»**(2).

ـ وقال: **«تعوذوا بالله من الفتن»**(3).

ـ واستعاذ ﷺ من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال،(4) ومن الرد أرذل العمر(5)، ومن المأثم والمغرم(6) ومن فتنة القبر، وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، ومن شر فتنة الفقر(7)، ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال(8)، وغير ذلك. أهـ(9).

ـ قال ابن كثير: الاستعاذة هى الإلتجاء إلى الله والإلتصاق بجنابه من شر كل ذى شر والعياذ يكون لدفع الشر. واللياذ لطلب الخير.

ـ وقال سليمان آل الشيخ: ناقلاً معنى كلام ابن القيمّ فى الاستعاذة.

الاستعاذة: الإلتجاء، والإعتصام، والتحرز، وحقيقتها: الهرب من شىء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يمسى المستعاذ به معاذاً، وملجأ ووزراً.

فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه، وألقى نفسه بين يديه واعتصم به، واستجار، وألتجأ إليه، وهذا تمثيل وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب من الإلتجاء إلى الله، والإعتصام به، والإطراح بين يدى الرب، والإفتقار إليه،والتذلل بين يديه، أمر لا تحيط به العبارة(10).

وقال حافظ حكمى:(11) والاستعاذة: ـ أى ومن أنواع العبادة ـ الاستعاذة وهى الإمتناع بالله ـ عزوجل ـ والإلتجاء إليه. أهـ.

---

(1) [صحيح]مسلم فى الذكر والدعاء (١٧/ ٣٢ـ النووى) عن أبى هريرة به. .

(2) أخرجه الترمذى (٣٥٦٦)، والنسائى (٣/٢٤٨ ـ السيوطى) عن على به.

انظر الأذكار للنووى» (٢٣٢ـ بتخريجنا).

(3) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنة (٩/٢١٨/ ٦٧) عن زيد بن ثابت به. .

(4) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٨٩٣)، ومسلم فى الذكرء الدعاء (١٧/ ٢٩ النووى).

(5) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٨٢٢) عن سعد بن أبى وقاص به.

وانظر الأذكار للنووى (١٧١ـ بتخريخنا).

(6) أخرجه البخارى (٨٣٢)، ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥/ ٧٨ ـ النووى عن عائشة به.

(7) أخرجه أبو داود (١٥٤٣)، والترمذى (٣٤٩٥)، والنسائى (٨/ ٢٦٢ ـ السيوطى)، وابن ماجه (٣٨٣٨) عن عائشة به.

وانظر «الأذكار» للنووى (١٠٢٤ـ بتخريخنا).

(8) تقدم قبل حديث. (9) نقلاً عن معارج القبول (١/ ٣٦٢).

(10) تفسير المعوذتين (ص٦٠) بتصرف. (11) معارج القبول (١/ ٣٦٢).

فصل
أقسام الاستعاذة

قال الفقير: تقدم فى أول الباب قول ابن عثيمين أنه إذا استعاذ بشخص فيما يقدر عليه فهذا ليس بشرك وهذا جائز. وعلى هذا أدلة من السنة كثيرة فى الصحيحين وغيرهما أن ناساً استعاذوا بغير الله ولم يشركوا، ولم يحرم عليهم ذلك ـ قلت: فعلى هذا ـ فالاستعاذة تنقسم إلى أقسام منها:ـ

أولاً: استعاذة بغير الله مشروعة:ـ

وهى بالمخلوق الحى الحاضر فيما يستطيعه.

ثانياً: استعاذة بغير الله ممنوعة:ـ

وتنقسم إلى نوعين:ـ

[النوع الأول]: كفر

وينقسم هذا النوع إلى قسمين:ـ

الأول: بالمخلوق فيما لايستطيعه إلا الله.

الثانى: بالمخلوق الحى الغائب أو الميت فيما يستطيعه المخلوق الحى الحاضر.

[النوع الثانى]: حرام.

وهو الاستعاذة بالجن فيما يقدر عليه الجن.

● هذا التقسيم على الإجمال، وإليك تفصيل ذلك:ـ

القسم الأول: الاستعاذة بغير الله المشروعة: بالحى الحاضر فيما يستطيعه.

والأدلة على ذلك كثيرة منها

١ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً:

«ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشى، والماشى فيها خير من الساعى.. من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به»(١) متفق عليه.

٢ـ عن جابر رضى الله عنه:

أن امرأة من بنى مخزوم سرقت فأُتى بها إلى النبى ﷺ فعاذت بأم سلمة زوج النبى ﷺ فقال النبى ﷺ: **«والله لو كانت فاطمة لقطعت يدها»** فقطعت(٢).

٣ـ عن عبيد الله بن القبطية قال:

---

(١) [متفق عليه] البخارى (٧٠٨١)، ومسلم فى الفتن (٩/ ٢٣٥/ ١٠).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحدود (٦/ ٢٠٣/ ١١) عن جابر به وانظر «رياض الصالحين» (٦٥٢ ـ بتخريجنا).

دخل الحارث بن أبى ربيعة وعبدالله بن صفوان وأنا معهما على أم سلمة أم المؤمنين فسألاها عن الجيش الذى يخسف به وكان ذلك فى أيام ابن الزبير فقالت: قال رسول الله ﷺ: «**يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم**» فقلت: يا رسول الله: فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: «**يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته**» قال أبو جعفر: هى بيداء المدينة[1].

٤ـ عن أبى مسعود أنه كان يضرب غلامه فجعل يقول: أعوذ بالله، قال: فجعل يضربه، فقال: أعوذ برسول الله فتركه فقال رسول الله ﷺ: «**والله لله أقدر عليك منك عليه**» قال: فأعتقه[2].

القسم الثانى: الاستعاذة بغير الله الممنوعة وبيان القسم الأول الذى هو كفر

وهذا القسم الذى هو كفر ينقسم إلى قسمين:

(الأول): الاستعاذة بالمخلوق فيما لايستطيعه إلا الله.

(الثانى): الاستعاذة بالمخلوق الحى الغائب أو الميت فيما يستطيعه المخلوق الحى الحاضر.

وإليك أدلة هذين القسمين:ـ سواء كان المستعاذ به إنسياً أو جنياً.

أما الدليل على أنهه الاستعاذة بمخلوق مطلقاً سواء كان حيا أو ميتا إنسياً أو جنياً فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك أكبر، لأنه لايقدر عليه إلا الله، كما تقدم من كلام ابن عثيمين فى باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، فى دعاء المخلوقين والطلب نهم ما لايطلب إلا من الله مثل: يا فلان: اجعل ما بطنى امرأتى ذكراً.

وأما الاستعاذة بالمخلوق الحى الغائب أو الميت فيما يستطيعه المخلوق الحى الحاضر، فهذا شرك أكبر أيضاً، لأنه لايستعيذ ممن كان هذا حاله حتى يعتقد أنه له تصرفاً خفياص فى الكون وهذا أيضا مؤدى ماقاله ابن عثيمين فى الدعاء[3].

قال القرطبي[4] فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾.

قال سعيد ابن جبير: كفراً. ولاخفاء أن الاستعاذة بالجنِّ دون الاستعاذة بالله كفر وشرك أهـ.

قال ابن تيمية:ـ وأنه مبعوث إلى الإنس والجن لما فى ذلك من هدى الإنس والجن ما يجب عليهم من الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر وما يجب من طاعة رسله

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفتن (٩/ ٢٣١/ ٤).

(٢) [صحيح] مسلم فى الأيمان والتدور (٦/ ١٤٣/ ٣٦).

(٣) القول المفيد (١/ ١٩٧، ١٩٨).

(٤) تفسير القرطبى (١٠/ ٦٨٠٣).

ومن تحريم الشرك بالجن وغيرهم كما قال فى السورة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أهـ[١].

وقال ابن القيم: ومن ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ به، وتقرّب إليه بما يحب فقد عبده وإن لم يسمِ ذلك عبادة ويسميه استخداماً. وصَدَق، هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خَدَم الشيطان وعابديه. وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لايخضع له ولايعبده كما يفعل هو به أهـ[٢].

قال ابن كثير[٣]: فى تفسير الآية، وقصة الرجل الذى استعاذ بالجن ـ وستأتى ـ.

وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل وهو ولد الشاة وكان جنياً حتى يرهب الإنس ويخاف منه ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه والله تعالى أعلم.

ـ **قال سليمان آل الشيخ**[٤]: وقد أجمع العلماء على أنه لاتجوز الاستعاذة بغير الله، ولهذا نهوا عن الرقى التى لايعرف معناها، خشية أن يكون فيها شيء من ذلك أهـ.

وهى عبادة وصرفها لغير الله شرك لأن الله أمرنا بها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

قلت: فالله عزوجل معاقب المشرك أو العاصى بنقيض قصده وهى فائدة فى هذا الباب كما سيأتينا.

وقال ابن عثيمين[٥]: **قال شيخ الإسلام**: لايجوز الاستعاذة بالمخلوق عند أحد من الأئمة. وهذا ليس على إطلاقه، بل مرادهم ممالايقدر عليه إلا الله، لأنه لايعصمك من الشر الذى لايقدر عليه إلا الله، إلا الله ومن ذلك أيضاً الاستعاذة بأصحاب القبور؛ فإنَّهم لاينفعون ولايضرّون؛ فالاستعاذة بهم شرك أكبر.

● **أدلة القسم الثانى: المحرم إذا كان المستعاذ جنياً**

قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ الآية.

قال ابن عباس: فزادهم ذلك إثماً

وعن قتادة ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أى إثما[٦].

وقال السدى: كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أخر أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ما مشيتى[٧].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٣).

(٢) نقلاً عن فتح المجيد (١٦٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٤).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٥٣).

(٥) القول المفيد (١/ ٣٣٠).

(٦، ٧) وسيأتى تخريجهما عند الطبرى.

قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي خطيئة[1].

وروى ابن أبي حاتم عن كُرْدُم بن أبي السائب الأنصاري قال خرجت مع أبي من المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة فأوانا المبيت إلى راعي غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعي فقال يا عامر الوادي جارك، فنادى مناد لانراه يقول يا سرحان أرسله. فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة، وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ بمكة ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ....﴾ الآية[2] ثم قال وروى عن عبيد بن عمير ومجاهد وأبي العالية والحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي نحوه. وقد يكون الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة وكان جنياً حتى يرهب الإنس ويخاف منه ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه والله أعلم[3].

قال الطبري: بعد حكاية الأقوال كلها في التفسير: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال معنى ذلك فزاد الإنس والجن بفعلهم ذلك إثماً.

قال ابن عثيمين[4]: وهذه الآية تدل على أن الاستعاذة بالجن حرام؛ لأنها لاتفيد المستعيذ، بل تزيده رهقاً، فعوقب بنقيض قصده، وهذا ظاهر فتكون الواو ضمير الجن والهاء ضمير الإنس أهـ.

[قلت]: فمن استعاذ بالجن فيما يستطيعه ويقدر عليه أثم، وعلى هذا يتنازل قول ابن عباس وعكرمة وقتادة، وغيرهم من أهل العلم.

ومن استعاذ بالجن فيما يقدر عليه إلا الله كفر وعلى هذا يتنزل قول مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما من أهل العلم. وهذا أيضاً يؤكد ما ذهبنا إليه من أن ترجمة المصنف رحمه الله لهذا الباب على إطلاقها، بل فيها تفصيل على النحو الذي سبق.

● شبه وردود ●

من الشبه في هذا الباب، ما يقال:

لماذا تحرمون الاستعاذة بالجن فيما يقدر عليه الجن من الأمور المباحة؟

قلت: لما تجوزون أنتم الاستعاذة؟!

(1) وسيأتي تخريجه عند الطبري.

(2) سيأتي تخريجه

(3) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٤.

(4) «القول المفيد» (١/ ٣٢٤).

فإن قالوا من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾.

فالجواب: أن هذه الآية عامة وآية الجن خاصة فيقدم الخاص على العام كما هو متقرر فى الأصول، لأن دلالة العام ظنية، ودلالة الخاص قطعية.

فإن قالوا: آية الجن لاتدل على أن الاستعاذة بهم فيما يقدرون عليه من المباح حرام؟

فالجواب: أن سبب نزول هذه الآية كما سيأتى من كتب التفسير المسندة أنهم إنما استعاذوا بالجن فيما يقدر عليه من الأمور المباحة فهم استعاذوا بسيد الوادى أو عظيم الوادى من سفهاء قومه، وهذا العظيم يقدر على هذا الأمر، وهذا الأمر مباح.

فإن قالوا: لعلهم استعاذوا بهم فيما يقدرون عليه من المباح مع تعلق قلوبهم بالجن، وهذا لاشك من الشرك، فلهذا ذمهم الله، لا لأصل الاستعاذة بالجن، بل على تعلق قلوبهم بالجن؟

فالجواب من وجوه:

[الأول]: أى الآية لم تذكر إلا أنهم استعاذوا بهم، ولم تذكر عمل القلب، والاستعاذة لاتعنى تعلق القلب بإطلاق، وإلا لما جازت الاستعاذة بالمخلوق الحى الحاضر فيما يقدر عليه ـ كما تقدم ـ !!

فلو كانت تعنى تعلق القلب لكانت كفراً قولة واحدة، ولم يكن فيها هذا التفصيل.

[الثاني]: أنه على فرض احتمال أنهم تعلقت قلوبهم بالجن، فى الاستعاذة فهذه حالة من الأحوال، وليست كل الأحوال، بل تارة يستعيذوا بغير تعلق، وتارة يستعيذوا بتعلق، ولهذا جاء عن السلف تفصيل فى ﴿رَهَقًا﴾ فتارة قالوا: إثماً على الحالة الأولى التى ليس فيها تعلق قلبي، وتارة قالوا: كفراً: أى فى حال عدم التعلق القلبي.

فإن قالوا: فما الفرق بين الاستعاذة بالمخلوق الحى الحاضر فيما يستطيعه والجن الحى الحاضر فيما يستطيعه؟

الجواب: من وجوه:

[الأول]: أن المخلوق الحى حاضر فعلاً، والجن غائب مع حضوره، فلاتراه، فأشبه الإنسان الغائب ودعاؤه ههنا، والاستعاذة به لايكون غالباً إلا لاعتقاد أنه له تصرف خفى يشبه تصرف الإله.

[الثاني]: أن الاستعاذة بالإنسان الحى الحاضر مشروعة بالنصوص المتقدمة.

والاستعاذة بالجن الحى الحاضر ليس فيها أدلة.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾(١).

فإن قال: بالعمومات؟ قلنا ـ كما تقدم ـ أن الخاص قاضى على العام، وأزيدك قول السلف فى مثل هذه المواطن التى ليست لهم فيها سلف: «لو كان خير لسبقونا إليه» ولثبت عن النبى ﷺ أو أحد من الصحابة استعاذ بالجن فيما يقدر عليه من المباح مع توافر الدواعى إلى ذلك فى السلم والحرب إلا ما جاء عن أبى موسى فى وسم إبل الصدقة من عمر بسند ضعيف كما سيأتى وهو عند ابن أبى الدنيا فى «الهواتف».

ومالم يكن بالأمس ديناً فليس اليوم ديناً، بل الثابت أن تسخير الجن بأى نوع كان من خصائص ملك سليمان، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن النبى ﷺ قال: **«وايم الله لولا ما سبقنى إليه أخى سليمان لارتبط إلى سارية من سوارى المسجد حتى يطيف به ولد أهل المدينة»**(٢).

فإن قال: الوجه الأول من الوجهين السابقين يدل على الاستعاذة بالجن كفر، وليس حراماً كما ذهبتم؟

الجواب: إن كان مع فساد المعتقد، فهو متعلق بالقسم الثانى من القسم الأول وإن كان مع سلامة المعتقد، فهو حرام. والله الموفق للصواب.



مناسبة الآية للترجمة:

قال سليمان آل الشيخ(٣): ووجه الاستدلال بالآية على الترجمة أن الله حكى عن مؤمنى الجن أنهم لما تبين لهم دين الرسول ﷺ وآمنوا به، ذكروا أشياء من الشرك كانوا يعتقدونها فى الجاهلية، من جملتها الاستعاذة بغير الله أهـ.

قال عبدالله بن جار الله(٤): أن الله تعالى حكى عن مؤمنى الجن أنهم لما تبين لهم دين محمد ﷺ وءامنوا به ذكروا أشياء من الشرك كانوا يفعلوها فى الجاهلية، ومن جملتها الاستعاذة بغير الله أهـ.

قال ابن عثيمين(٥): ووجه الإستشهاد بالآية: ذم المستعيذين بغير الله، والمستعيذ بالشىء لاشك أنه قد علق رجاءه به، واعتمد عليه، وهو نوع من الشرك. أهـ.

---

(١) الجن/(٦).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٦١)، ومسلم فى المساجد (٣/ ٣٢/ ٣٩) عن أبى هريرة.

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٥٣).

(٤) الجامع الفريد (٥٧). (٥) القول المفيد (١/ ٣٢٣).

قال القرعاوى[1]: مناسبة الآية للباب: حيث دلت الآية على تحريم الاستعاذة بغير الله، لذا تكون الاستعاذة عبادة لله، وصرف العبادة لغير الله شرك أهـ.

إعراب الآية:

(وأنه) عطف، (وأن) واسمها، وجملة (كان) خبرها، (وبرجال) متعلقان (بيعوذون) (ومن الجن) نعت (لرجال)، (فزادوهم) عطف على (كان رجال) (وزادوهم) فعل وفاعل ومفعول به أول، (ورهقاً) مفعول ثانى أهـ[2].

وقال ابن عثيمين[3]: الواو حرف عطف، و(أن) فتحت همزتها بسبب عطفها على قوله **«أنه استمع نفر من الجن»** قال ابن مالك:

وهمز إنَّ افتح لسد مصدر   مسدها وفى سوى ذاك اكسر

فيؤول بمصدر أى: قل أوحى إلى استماع نفر وكون رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن. **قوله: ﴿مِّنَ الإنس﴾** صفة لرجال، لأن رجال نكرة، وما بعد النكرة صفة لها. **قوله ﴿يَعُوذُونَ﴾** الجملة خبر كان، ويقال: عاذ به، ولاذ به، والعياذ مما يُخاف، واللياذ فيما يُؤمل، وعليه قول الشاعر يخاطب ممدوحه، ولايصلح ما قاله إلا لله:

يا من ألوذ به فيما أأمله   ومن أعوذ به مما أحاذره

لايجبر الناس عظماً أنت كاسره   ولايهيضون عظماً أنت جابره

ما جاء فى سبب نزول الآية:

عن كردم بن أبى السائب الأنصارى رضى الله عنه قال: خرجت مع أبى إلى المدينة فى حاجة، وذلك أول ما ذُكِرَ رسول الله ﷺ بمكة، فآوانا المبيت إلى راعى غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب، فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعى فنادى: يا عامر الوادى جارك، فنادى منادٍ لا نراه: يا سرحان أرسله. فإذا الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم لم تصبه كدمة، فأنزل الله على رسوله ﷺ **﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنسِ...﴾**[4] الآية وتقدم الحديث فى القسم الثانى المحرم من الاستعاذة.

---

(١) الجديد (١٢١).

(٢) إعراب القرآن الكريم/ لمحيى الدين درويش (١٠/ ٢٣٧).

(٣) «القول المفيد» (١/ ٣٢٣/ ٣٢٥).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم (ح ١٣٢٥٩) وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٤٣١) وزاد نسبته لابن المنذر، والعقيلى فى «الضعفاء» والطبرانى، وأبى الشيخ فى العظمة، وابن عساكر.
وانظر «فتح القدير» (١٣٢٥٩ ـ بتخريجنا).

عن أبى رجاء العطاردى من بنى تميم قال: بعث رسول الله ﷺ وقد رعيت على أهلى وكفيت مهنتهم، فلما بعث النبى ﷺ خرجنا هراباً فأتينا على فلاة من الأرض، وكنا إذا أمسينا بمثلها قال شيخنا، إنا نعوذ بعزيز هذا الوادى من الجن الليلة، فقلنا ذاك. فقيل لنا: إنما سبيل هذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن أقر بها أمن على دمه وماله. فرجعنا فدخلنا فى الإسلام. قال أبو رجاء: إنى لأرى هذه الآية نزلت فى وفى أصحابى ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(١).

وعن مجاهد عن ابن عباس أن رجلاً من بنى تميم كان جزيئا على الليل والرجال، وأنه سار ليلة فنزل فى أرض مجنة فاستوحش، فعقل راحلته، ثم توسد ذراعيها وقال: أعوذ بسيد هذا الوادى من شر أهله، فأجاره شيخ منهم، وكان منهم شاب وكان سيد فى الجن، فغضب الشاب لما أجاره الشيخ، فأخذ حربة له قد سقاها السم لينحر ناقة الرجل بها فتلقاه الشيخ دون الناقة فقال:

يا مالك بن مهلهل ... مهلاً فذلك محجرى وإزارى
عن ناقة الإنسان لاتعرض لها ... واختر إذا ورد المها أثواري
إنى ضمنت له سلامة رحله ... فاكفف يمينك راشد عن جاري
ولقد أتيت إلى مالم أحتسب ... إلا رعيت قرابتى وجواري
تسعى إليه بحربة مسمومة ... أف لقربك يا أبا اليقطارى
لولا الحياء وأن أهلك جيرة ... لتمزقتك بقوة أظفاري

فقال له الفتى:

أتريد أن تعلو وتخفض ذكرنا ... فى غير مزرية أبا العيزار
متنحلاً أمراً لغيرك فضله ... فارحل فإن المجد للمرار
من كان منكم سيداً فيما مضى ... إن الخيار هم بنو الأخيار
فاقصد لقصدك يا معيكر إنما ... كان المجير مهلهل بن وبار

فقال الشيخ: صدقت كان أبوك سيدنا وأفضلنا دع هذا الرجل لا أنازعك بعده أحداً أفتركه فأتى الرجل النبى ﷺ فقص عليه القصة فقال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحداً

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٤٣١) ونسبه لابن سعد.

منكم وحشه أو نزل بأرض مجنة فليقل: أدعو بكلمات الله التامات التى لايجوزهن برٌ ولا فاجر من شر ما يلج فى الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن فتن الليل، ومن طوارق النهار إلا طارقاً يطرق بخير»، فأنزل الله فى ذلك ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(١).

ما جاء فى تفسير الآية من الأثار الموقوفة والمقطوعة:

عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادى فى الجاهلية فيقول أعوذ بعزيز هذا الوادى فزادهم ذلك إثما(٢).

عن الحسن فى قوله ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال كان الرجل منهم إذا نزل الوادى فبات به قال أعوذ بعزيز هذا الوادى من شر سفهاء قومه(٣).

عن إبراهيم فى قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ كانوا إذا نزلوا الوادى قالوا نعوذ بسيد هذا الوادى من شر ما فيه فتقول الجن ما نملك لكم ولالأنفسنا ضراً ولا نفعاً(٤).

عن إبراهيم فى قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال كانوا فى الجاهلية إذا نزلوا بالوادى قالوا نعوذ بسيد هذا الوادى فيقول الجنيون تتعوذون بنا ولانملك لأنفسنا ضرا ولا نفعا (٥).

عن مجاهد قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال كانوا يقولون إذا هبطوا واديا نعوذ بعظماء هذا الوادي(٦).

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٤٣١) ونسبه لأبى نصر السجزى فى «الإبانة». وقال أبو النصر: غريب جداً لم نكتبه إلا من هذا الوجه.

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٤٣٢) وزاد نسبته لابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (١٣٢٦٠ ـ بتجريخنا).

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٤٣٢) ونسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق. وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٤٣٣) ونسبه لعبد بن حميد.

(٥) أنظر ما قبله

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٤٣٢) ونسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

عن قتادة قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ ذكر لنا أن هذا الحي من العرب كانوا إذا نزلوا بواد قالوا نعوذ بأعز أهل هذا المكان قال الله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أى إثما وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة (١).

عن قتادة ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ كانوا فى الجاهلية إذا نزلوا منزلا يقولون نعوذ بأعز أهل هذا المكان(٢).

عن الربيع بن أنس ﴿وأنه كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال كانوا يقولون فلان من الجن رب هذا الوادى فكان أحدهم إذا دخل الوادى يعوذ برب الوادى من دون الله قال فيزيده بذلك ﴿رَهَقًا﴾ وهو الفَرَق(٣).

قال ابن زيد فى قوله ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال كان الرجل فى الجاهية إذا نزل بواد قبل الإسلام قال إنى أعوذ بكبير هذا الوادى فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم(٤).

وقوله: ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك فقال بعضهم معنى ذلك فزاد الإنس بالجن باستعاذتهم بعزيزهم جراءة عليهم وازدادو هم بذلك اثما.

ذكر من قال ذلك:

عن ابن عباس ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ فزادهم ذلك اثما(٥).

عن قتادة قال قال الله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أى اثما وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة(٦).

عن قتادة ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ يقول خطيئة(٧).

عن إبراهيم ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال فيزدادون عليهم جرأة(٨).

وقال آخرون: بل عنى بذلك أن الكفار زادوا بذلك طغيانا.

ذكر من قال ذلك:

عن مجاهد قوله: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال زاد الكفار طغيانا(٩).

وقال آخرون: بل عنى بذلك فزادوهم فرقا.

ذكر من قال ذلك:

---

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٤٣٢) ونسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق. وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٤٣٣) ونسبه لعبد بن حميد.

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق.

(٥) ـ (٩) تقدموا جمعاً فى الآثار السابقة.

عن الربيع بن أنس ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال فيزيدهم ذلك رهقا وهو الفرق[1].

قال ابن زيد فى قوله ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال زادهم الجن خوفا [2].

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال معنى ذلك فزاد الإنس الجن بفعلهم ذلك اثما وذلك زادوهم به إستحلالا لمحارم الله والرهق فى كلام العرب الإثم وغشيان المحارم ومنه قول الأعشى.

لا شيء ينفعنى من دون رؤيتها هل يشتفى وامق مالم يصب رهقا

يقول مالم يغش محرما أهـ.

● **أقوال المفسرين**

قال ابن جرير الطبرى[3]: قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ يقول تعالى ذكره مخبرا عن هؤلاء النفر وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال من الجن فى أسفارهم إذا نزلوا منازلهم وكان ذلك من فعلهم فيما ذكر لنا كالذى.

وقال ابن الجوزى: فى تفسير[4]: قوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قولان:

أحدهما: أن الإنس زادوا الجن رهقاً لتعوُّذهم بهم، قال مقاتل: والمعنى: أنهم لما استعاذوا بسادتهم قالت السادة: قد سدنا الجن والإنس.

والثانى: أن الجن زادوا الإنس رَهَقاً، ذكره الزجاج. قال أبوعبيدة: زادوهم سَفَهاً وطغياناً. وقال ابن قتيبة: زادوهم ضلالاً. وأصل الرهق: العيب. ومنه يقال: فلان يرهق فى دينه أهـ.

قال الرازى[5]: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ فيه قولان.

(الأول) وهو قول جمهور المفسرين أن الرجل فى الجاهليةإذا سافر فأمسى فى قفر من الأرض، قال أعوذ بسيد هذا الوادى أو بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه، فيبيت فى جوار منهم حتى يصبح.

وقال آخرون: كان أهل الجاهلية، إذا قحطوا بعثوا رائدهم، فإذا وجد مكاناً فيه كلأً وماء رجع إلى أهله فيناديهم، فإذا انتهوا إلى تلك الأرض نادوا نعوذ برب هذا الوادى من أن يصيبنا آفة يعنون الجن، فإن لم يفزعهم أحد نزلوا وربما تفزعهم الجن فيهربون.

القول الثانى: المراد أنه كان رجال من الإنس يعوذن برجال من الإنس أيضاً، لكن

---

(١)، (٢) تقدما قريباً.
(٣) تفسير الطبرى (٢٩/ ٦٨ - ٦٩).
(٤) زاد المسير (٧/ ١٣١).
(٥) التفسير الكبير (٢٩/ ١٥٧).

من شر الجن، مثل أن يقول الرجل، أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى، وأصحاب هذا التأويل إنما ذهبوا إليه، لأن الرجل اسم الإنس لا اسم الجن.

وهذا ضعيف، فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لايسمى رجلاً.

أما قوله: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال المفسرون معناه زادوهم إثما وجرأة وطغياناً وخطيئة وغياً وشراً، كل هذا من ألفظاهم.

قال الواحدي: الرهق غشيان الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ وقوله: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ ورجل مرهق أى يغشاه السائلون. ويقال رهقتنا الشمس إذا قربت.

والمعنى أن رجال الإنس إنما استعاذوا بالجن خوفاً من أن يغشاهم الجن، ثم إنهم زادوا فى ذلك الغشيان، فإنهم لما تعوذوا بهم، ولم يتعوذوا بالله استذلوهم واجترؤا عليهم فزادوهم ظلماً، وهذا معنى قول عطاء خبطوهم وخنقوهم.

وعلى هذا القول: زادوا من فعل الجن.

وفى الآية قول آخر وهو أن زادوا من فعل الإنس وذلك لأن الإنس لما استعاذوا بالجن فالجن يزدادون بسبب ذلك التعوذ طغياناً فيقولون سدنا الجن والإنس، **والقول الأول هو اللائق بمساق الآية والموافق لنظمها أهـ.**

قال القرطبي(١): قال مقاتل: كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن، ثم من بنى حنيفة، ثم فشا ذلك فى العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم أهـ.

ثم قال(٢): وقال سعيد ابن جبير: كفرا. ولاخفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر وشرك.

وقيل: لايطلق لفظ الرجال على الجن؛ فالمعنى: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجن برجال من الإنس، وكان الرجل من الإنس يقول مثلا: أعوذ بحذيفة بن بدر من جنّ هذا الوادى، قال القشيرى: وفى هذا تحكم إذ لايبعد إطلاق لفظ الرجال على الجن أهـ.

قال ابن كثير(٣): أى كنا نرى لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البرارى وغيره، كما كانت عادة العرب فى جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن، أو يصيبهم شيء يسؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعداءه فى جوار رجل كبير، وزمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون

---

(١) (٢) أحكام القرآن (١٠/ ٦٨٠٢ ـ ٦٨٠٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩).

بهم من خوفهم منهم ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أى خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة، وأكثر تعوذاً بهم، كما قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أى اثماً، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة.

وقال ابن أبى حاتم ـ بسنده ـ عن عكرمة قال: كان الجن يَفْرَقُونَ من الإنس كما يَفْرَقُ الإنس منهم، أو أشد فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن فيقول سيد القوم: نعوذ بسيد أهل هذا الوادى، فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الإنس فأصابهم بالخبل والجنون، فذلك قول الله عزوجل: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أى إثماً (١).

● **خلاصة تفسير ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾**

كل الأقوال السابقة فى قوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

قلت: من باب إختلاف التنوع، فالآية تحتمل هذه المعانى فمن استعاذ بالجن فيما يستطيعه ويقدر عليه أثِمَ وعلى هذا يتنزل قول ابن عباس وقتادة، وعكرمة ومن استعاذ بالجن فيما لايقدر عليه إلا الله كفر، وعلى هذا يتنزل قول مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم من أهل العلم، وهو أيضاً يؤكد ما ذهبنا إليه من أن ترجمه المصنف للباب ليست على إطلاقها بل فيها تفصيل وتقسيم كما سبق أنه يجوز الاستعاذة بغير الله فيما يقدر عليه الإنس، وهذه هى الاستعاذة المشروعة والممنوعة تنقسم إلى قسمين:

حرام، وكفر، فالأول ما تقدم من الاستعاذة بالجن فيما يقدر عليه فهذا حرام، والثانى فيما لايقدر عليه إلا الله فهذا كفر.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية:**

قال سليمان آل الشيخ(٢): والمعنى والله أعلم على قول أن الإنس زادوا الجن باستعاذتهم رهقاً، أى اثماً وطغياناً وشراً فضمير الفاعل على هذا العائذين من الإنس وضمير المفعول للمستعاذ بهم من الجن، وعلى القول الثانى بالعكس، وزيادتهم للإنس رهقاً بأغوائهم وإضلالهم، وذلك أن (الرجل) من العرب كان إذا أمسى فى وادٍ قفر فى بعض مسائره وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه، يريد الجن وكبيرهم.

---

(١) أنظر تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا فى تفسير هذه الآية. (٢) تيسير العزيز الحميد (١٥٣، ١٥٤).

ثم قال: والآثار بذلك عن السلف مشهورة.

ثم قال: وقد أجمع العلماء على أنه لاتجوز الاستعاذة بغير الله، ولهذا نهوا عن الرقي، التي لايعرف معناها، خشية أن يكون فيها شيء من ذلك.

قال ملا على القارى الحنفى: ولاتجوز الاستعاذ ة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك، فقال: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ إلى أن قال: وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ الآية.

فاستمتاع الإنسى بالجنى: فى قضاء حوائجه وامتثال أوامره، أو إخباره بشىء من المغيبات، واستمتاع الجنى بالإنسى تعظيمه إياه، واستعاذته به، واستغاثته، وخضوعه له، وفيه أن كون الشىء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر، أو جلب نفع لايدل على أنه ليس من الشرك، ذكره المصنف أهـ.

ونقله **عبدالرحمن آل الشيخ** عنه[1].

قال حامد بن محمد[2]: وقد ذكر الله صريحاً أنهم كانوا يعبدون الجن، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾

وقد كانت عبادتهم للجن استعاذتهم بهم أهـ.

قال ابن باز[3]: الواو للجن، والهاء للإنس أى زاد الجنُ الإنس رهقاً وهو الخوف والذعر، فلما خاف الإنس من الجن تكبرت الجن.

وقال بعض السلف: الواو للإنس، والهاء للجن، أى زاد الإنسُ الجنَ رهقاً. ويكون معنى الرهق الطغيان والإستكبار.

وكلا المعنيين حق فإذا تعوذ الإنسان من الجن فهو تعظيم للجن، ويزاد الجن طغيان وتكبر، ويقابله خوف الإنس من الجن، وقد ذكرهم الله فى معرض الذم فيجب ترك فعلهم. أهـ.

[قلت] تقدم ذكر القولين من كلام ابن الجوزى بترتيب. فانظره إن شئت .

---

(١) فتح المجيد (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣)

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٣٤).

(٣) التعليق المفيد (٨٩، ٩٠).

قال ابن عثيمين[1]: هذه الآية تدل على أن الاستعاذة بالجن حرام، لأنها لاتفيد المستعيذ، بل تزيده رهقاً، فعوقب بنقيض قصده، وهذا ظاهر، أهـ. ثم ذكر الوجهين السابقين فى الواو الهاء.

الفوائد من الآية:

قال القرعاوى[2]: الفوائد ـ أى من الآية ـ:

(١) تحريم الاستعاذة بغير الله.

(٢) أن من التجأ إلى غير الله خذله.

(٣) إثبات وجود الجن وأن فيهم رجالاً ونساءً أهـ.

(٤) **قال صاحب «فضل الغنى الحميد»**: تعليقاً على الآية[3]: لذلك يجب الحذر الشديد من الوقوع فى مثل ذلك أثناء معالجة المصروعين بالجن، وتجنب سؤال ـ الذين يزعمون الإسلام ـ أن يحموا المريض أو يدافعوا عنه أو ينتقموا من عدوه، فإن ذلك كله من هذا الباب، وادعاء الإسلام لايغير من الأمر شيئاً، فإنه لايحل الاستعاذة بالمخلوق كائناً من كان، حتى لو كان مؤمناً، بل ولو كان نبياً أو ولياً اهـ.

[**قلت**]: ولعل مقصده فى الاستعاذة بالمخلوق فيما لايقدر عليه إلا الله، وإلا فقد تقدم من كلام ابن عثيمين أن الإطلاق فيه نظر، فانظره أول الباب. والله أعلم.

قال شيخ الإسلام[4]: أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم زهد وعبادة على غير الوجه الشرعى ولهم أحياناً مكاشفات ولهم تأثيرات يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التى نهى عن الصلاة فيها؛ لأن الشياطين تتنزل عليهم بها وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب الكهان. وكما كانت تدخل فى الأصنام وتكلم عابدى الأصنام وتعينهم فى بعض المطالب كما تعين السحرة، وكما تعين عباد الأصنام وعباد الشمس والقمر والكواكب إذا عبدوها بالعبادات التى يظنون أنها تناسبها. من تسبيح لها ولباس وبخور وغير ذلك؛ فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب. وقد تقضى بعض حوائجهم، إما قتل بعض أعدائهم أو إمراضه، وإما جلب بعض من يهونه، وإما إحضار بعض المال، ولكن الضرر الذى يحصل لهم بذلك أعظم من النفع، بل قد يكون أضعاف النفع.

قوله: ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾.

---

(١) القول المفيد (١/ ٣٢٤).

(٢) الجديد (١٢٠).

(٣) فضل الغنى الحميد (٣٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١٩/ ٤١).

وَعَنْ خَوْلَةَ بنت حكيم قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

قال الشوكاني(٢) ﴿برجال﴾ وصفاً لمن يستعيذون به من رجال الإنس، أى يعوذون بهم من شر الجن، وهذا فيه بُعد.

وإطلاق لفظ رجال على الجن على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من إطلاقه هنا من باب المشاركة. أهـ.

قال ابن عثيمين(٣): يستفاد منه أن للجن رجالاً، ولهم إناث أهـ.

[قلت]: يشهد لهذا حديث: **«أعوذ بالله من الخبث والخبائث»(*)** فقد قيل فيها ذكور الجن وإناثهم - وربما يجامع الرجل من الجن الأنثى من بنى آدم، وكذلك العكس، الرجل من بنى آدم قد يجامع الأنثى من الجن، وقد ذكر الفقهاء الخلاف فى وجوب الغسل بهذا الجماع.

ثم قال: وأما أن الرجل يجامع الأنثى من الجن فقد قيل ذلك، لكن لم أره فى كلام أهل العلم وإنما أساطير تقال. والله أعلم أهـ.



قوله: [وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول......].

مناسبة الحديث للباب:

قال حامد بن محمد(٤): فإن قلتَ: ما المستدل به على الترجمة؟. قلتُ: لما بيَّن الرسول ﷺ أن الاستعاذة بكلمات الله التامات منطوقاً بَانَ مفهوماً أن الاستعاذة بغيرها لاينبغى للمسلم أن يفعلها، وأنها منهى عنها، وأنها حرام. أهـ.

قال عبدالله جار الله(٥): مناسبة الحديث للباب أنه دل على أن كلمات الله غير مخلوقة، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك. أهـ.

قال القرعاوى(٦): مناسبة الحديث للباب حيث دل الحديث على أن الاستعاذة لاتجوز بغير الله أو بصفة من صفاته، لذا تكون الاستعاذة عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك أهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الذكر والدعاء»/ باب: فى التعوذ من سوء القضاء (/ ٩١/ ٣٧ ح ٢٧٠٨) والترمذى فى «الدعوات»/ باب: ما جاء ما يقول إذا نزل منزلاً (/ ٥/ ٤٩٦ح ٣٤٣٧). وأنظر «فتح المجيد» (ح٢٧٧) بتخريجنا و«الأذكار» للنووى (ح ٥٦٣) بتخريجنا.

(٢) «فتح القدير» (٥/ ٣٠٢). (٣) «القول المفيد» (١/ ٣٢٥).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٢٣٤). (٥) الجامع الفريد (٥٨). (٦) الجديد (١٢٣).

(*) أخرجه البخارى (١٤٢)، ومسلم فى الحيض (٢/ ٣٠٦/ ١٢٢) عن أنس به.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال»

قوله: (خولة بنت حكيم).

قال سليمـان آل الشيخ[1]: أى ابن أميـة السلمية، يـقال لها: أم شـريك، ويقال لها: خويلة بالتصغير، ويقال: إنهـا هى الواهبة، وكانت قبل تحت عثمان بن مظعون. قال ابن عبدالبر: وكانت صالحة فاضلة. أهـ وكذا نقل عنه عبدالرحمن آل الشيخ[2].

قولها: (سمعت).

فيه تحرى نساء الصحابة أيضاً فى صيغ التحمل.

قوله: (كلمات الله التامات).

قال ابن حجر[3]: المراد بالكلمات مُطلق الكلمات أهـ.

قلت: سواء كانت هذه الكلمات هى القرآن أو السنة أو الأحكام أو الكلام الشرعى أو الكلام القدرى.

ثم قال: وقيل: الكلمات هى أقضيته.

وقيل: ما وعد به كما قال تعالى: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا**﴾ والمراد بها ـ [وكلمة ربنا هى ما وعدهم به وهو التمكين] ـ قال تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ الآية.

وقيل: المراد بها الكاملة، وقيل: النافعة وقيل: الشافية، وقيل المباركة، وقيل القاضية التى تمضى وتستمر ولايردها شىء ولايدخلها نقص ولاعيب.

قال الخطابى: كان أحمد يستدل بهذا الحديث على أن كلام الله غير مخلوق، ويحتج بأن النبى ﷺ لايستعيذ بمخلوق أهـ.

وقال سليمـان آل الشيخ[4]: قال القـرطبى فى «المفهم»: قيل: مـعناه الكاملات، اللاتى لا يلحقها نقص، ولاعيب، كما يلحق كلام البـشر، وقيل: معناه الشافية الكافية وقيل الكلمات هنا: هى القرآن. فإن الله أخـبر عنه بأنه (وهدى وشفاء) وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى.

ثم قال: فيه دليل على أن كلمـات الله غير مخلوقة، وردوا به على الجهمـية والمعتزلة فى قولهم بخلق القرآن. قالوا: فلو كانت كلمات الله مـخلوقة يأمر النبى ﷺ بالاستعاذة بها، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك. أهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (١٥٤).
(٢) فتح المجيد (١/ ٢٠٣).
(٣) فتح البارى (٦/ ٤٧٢).
(٤) «تيسر العزيز الحميد (١٥٤).

وهذا ما نقله الحافظ عن الخطابى عن الإمام أحمد، وذكرناه فى الكلام السابق لهذا.

ثم ذكر سليمان آل الشيخ أيضاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله: وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لايجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلوا به على أنه كلام الله غير مخلوق. قالوا: لأنه ثبت عن النبى ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التى لايعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك أهـ.

وبنحو هذا الشرح قال حامد بن محمد(١)، وعبدالرحمن آل الشيخ(٢) بنص بكلام سليمان، وعبدالله بن جار الله(٣) بشىء من الإختصار، وباقى الشراح لكتاب التوحيد.

وقال ابن باز(٤): (كلمات) معناها أى كلمات الله النافذة والكونية التى لاراد لها. وقال بعض السلف المراد بالكلمات: الشرعية، وكلمات القرآن؛ لأنها كلمات عظيمة شريفة، وهى كلام الله.

وكل هذا حق، وكلها وصف له سبحانه، فكلامه الكونى نافذ، وكلامه الشرعى أفضل الكلام، وفيه توسل بصفات الله أهـ.

وقد انفرد **ابن عثيمين** بشرح جيد أيضاً كشيخه: (كلمات الله التامات) فقال: (كلمات) من جموع القلة، لأنه جمع مؤنث سالم، وجموع القلة من ثلاثة إلى عشرة والكثرة ما فوق ذلك.

وقيل: جموع الكثرة من ثلاثة إلى مالانهاية له؛ فيكون جمع القلة والكثرة يتفقان فى الابتداء، ويختلفان فى الانتهاء.

قال ابن مالك:

أفْعِلَةٌ أفْعُلُ ثم فِعْلَةْ ... ثُمَّت أفعالٌ جُموعُ قِلَّة
وبَعضُ ذى بِكثرةٍ وضْعاً يفي ... كَأَرْجُلٍ والعكس جاءَ كالصفي

والراجح: أن جموع القلة تدلّ على الكثرة بالدليل.

و«**كلمات**»: جموع قلة دال على الكثرة لوجود الدليل، قال تعالى: **﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾**.

وأبلغ من هذا قوله تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾**.

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٣٤ ـ ٢٣٥).
(٢) فتح المجيد (١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).
(٣) الجامع الفريد (٥٩).
(٤) «التعليق المفيد» (٩٠).

والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونية والشرعية.

وقوله: «من نزل منزلاً» يشمل من نزله على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

وقوله: «أعوذ» بمعنى: ألتجيء وأعتصم.

قوله: «التامات».

تمام الكلام بأمرين:

١ـ الصدق فى الأخبار.

٢ـ العدل فى الأحكام.

قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

قال سليمان آل الشيخ[١]: أى من كل شر فى أى مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره، إنسياً كان أو جنياً أو هامة أو دابة، أو ريحاً أو صاعقة، أى نوع كان من أنواع البلاء فى الدنيا والآخرة وما ههنا موصولة ليس إلا، وليس المراد بها العموم الإطلاقي، بل المراد التقييدى الوصفى والمعنى من شر كل مخلوق فيه شر، لا من شر كل ما خلقه الله تعالى، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر، هذا معنى كلام ابن القيم. قال: والشر يقال على شيئين على الألم وعلى ما يفضى إليه. أهـ.

ـ ونقل عبدالرحمن آل الشيخ[٢] **نص كلام ابن القيم رحمه الله ثم تابع سليمان آل الشيخ على كلامه.**

ـ وقال عبدالله جار الله[٣]: معنى قوله ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أى من شر كل مخلوق فيه شر. والله أعلم أهـ.

ـ وكذا قال القرعاوى[٤].

(١) تيسير العزيز الحميد (١٥٥).

(٢) فتح المجيد (١/٢٠٥).

(٣) الجامع الفريد (١٢٢).

(٤) الجديد (١٢٢).

ـ **قال الشيخ ابن عثيمين**[1]: أي: من شـر الذى خلق؛ لأنَّ الله خلق كلَّ شيء: الخيـر والشر، ولكن الشـرَّ لاينسب إليه؛ لأنَّه خلق الشـر لحكمة، فـعاد بهـذه الحكمة خيراً، فكان خيراً.

وعلى هذا نقول: الشر ليس فى فعل الله، بل فى مفعولاته؛ أى مخلوقاته.

وعلى هذا تكون من موصـولة لاغير؛ أي: من شر الذى خلق؛ لأنك لو أولـتها إلى المصدرية وقلت: من شـرخلقك؛ لكان الخلق هنا مصدراً يجوزأن يراد به الـفعل، ويجوز أيضاً المفعـول، لكن لو جعلتها اسـماً موصولاً تعين أن يكون المراد بهـا المفعول، وهو المخلوق أهـ.

فصل

تقسيم خلق الله من حيث الشر والخير

لايجوز الاستعاذة من كل ماخلق، بل من بعـض ماخلق، فالله عزوجل خلقه ينقسم إلى أقسام ثـلاثة، كما : **قال ابن عثيمين**[2]: وليس كل مـا خلق الله فيه شـر، لكن تستعيذ من شره إن كان فيه شر؛ لأن مخلوقات الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي:

١ـ **شرمحض**؛ كالنار وإبليس باعـتبار ذاتيهـما، أما باعـتبار التى خلقهـما الله من أجلها؛ فهى خير أهـ.

[قلت]: ولاتقول الجن والإنس؛ لأنهما فيهما الخير والشر، والجن يغلب عليه الشر، والإنس يغلب عليه الخيـر بالنسبة إلى الجن وتسن؟ أو تجب الاستعـاذة بالله منهما والله أعلم.

٢ـ **خير محض**؛ كالجنة، والرسل، والملائكة.

[قلت]: ويحرم عليك الاستعاذة بالله منهم، وفى حديث ابنة الجون لما استعاذت بالله من رسول الله ﷺ طلقها [3]. والله أعلم.

٣ـ **فيه شر وخير**، كالإنس والجن، والحيوان.

وأنت إنما تستعيذ من شر ما فيه شر. أهـ.

قوله: «لم يَضُرُهُ شيء حتى يَرحَلَ مِنْ مَنْزِله».

قال سليمـان آل الشيخ[4]: قال القـرطبى: هذا خبر صـحيح وقـول صادق علمنا

(١) «القول المفيد» (١/ ٣٢٧). (٢) القول المفيد (١/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٢٥٤) عن عائشته به (٤) «تيسير العزيز الحميد» (١٥٥).

صدقه دليلاً وتجربة، فإنى منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرنى شىء إلى أن تركته، فلدغتنى عقرب بالمهدية ليلاً، فتفكرت فى نفسى فإذا بى قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات أهـ.

[قلت] وهذا الكلام يُستَحِبُ فى سائر المنازل، لاسيما وإن كان منزلاً جديداً؛ لأن أغلب المساكن الجديدة تكون مهجورة فترة.

قال ابن باز[1]: (لم يضره شىء): نكرة فى سياق النفى فتعم كل شىء وهذا يدل على فضلها، فينبغى العمل بها أهـ.

قال القرعاوى[2]: (لم يضره شىء): لم يصبه أذى، ولا ما يؤدى إلى أذى. أهـ.

قال ابن عثيمين[3]: نكرة فى سياق النفى، فتفيد العموم من شياطين الإنس والجن والظاهر والخفى حتى يرتحل من منزله؛ لأنَّ هذا خبر لايمكن أن يتخلف مخبره؛ لأنَّه كلام الصادق المصدوق، لكن إن تخلف؛ فهو لوجود مانع لا لقصور السبب أو تخلف الخبر.

ونظير ذلك كل ما أخبر به النبى ﷺ من الأسباب الشرعية إذا فعلت ولم يحصل المسبب؛ فليس ذلك لخلل فى السبب، ولكن لوجود مانع، مثل: قراءة الفاتحة على المرضى شفاء، ويقرأها بعض الناس ولايشفى المريض، وليس ذلك قصوراً فى السبب، بل لوجود مانع بين السبب وأثره.

ومنه: التسمية عند الجماع؛ فإنَّها تمنع ضرر الشيطان للولد، وقد توجد التسمية ويضر الشيطان الولد؛ لوجود مانع يمنع من حصول أثر هذا السبب، فعليك أن تفتش ما هو المانع حتى تزيله فيحصل لك أثر السبب أهـ.

مسألة:ـ

قال ابن عثيمين[4]: والمؤلف يقول فى الترجمة : الاستعاذة بغير الله، وهنا استعاذة بالكلمات، ولم يستعذ بالله؛ فلماذا؟

قال ابن عثيمين: أجيب: أن كلمات الله صفة من صفاته، ولهذا استدلّ العلماء بهذا الحديث على أنَّ كلام الله من صفاته غير مخلوق؛ لأنَّ الاستعاذة بالمخلوق لاتجوز فى مثل هذا الأمر، ولو كانت الكلمات مخلوقة ما أرشد النبى ﷺ إلى الاستعاذة بها.

---

(١) التعليق المفيد (٩٠).

(٢) الجديد (١٢٢).

(٣) القول المفيد (١/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(٤) القول المفيد (١/ ٣٢٩).

ولهذا كان المراد من كلام المؤلف: الاستعاذة بغير الله؛ أى: أو صفة من صفاته.

وفى الحديث: **«أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»**(١)، وهنا استعاذ بعزة الله وقدرته، ولم يستعذ بالله، والعزَّة والقدرة من صفات الله، وهى ليست مخلوقة.

ولهذا يجوز القسم بالله وبصفاته؛ لأنها غير مخلوقة.

أمَّا القسم بالآيات، فإنْ أراد الآيات الشرعية؛ فجائز، وإن أراد الآيات الكونيَّة؛ فغير جائز أهـ.

[قلت]: فيه أنه يجوز الاستعـاذة أو الحلف بالله أو بصفة من صفاته لكن بشرط أن تكون مضـافة له تعالى، لا منفـصله كالذى يحلف بالرحـمة فقط، ولكن الصـحيح أن يقول ورحمة الله.

فالصـفة وحدها لايجوز أن تسـتعيذ بهـا لأنها لاتنفك عن الذات، كمـا لايجوز أن تحلف بها منفكة أو منفصلة عن الذات.

فصل

فى أحاديث أخر فى الاستعاذة بالله وصفاته

١ـ عن عثمـان بن أبى العاص الثقفى أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجـعاً، يجدُهُ فى جسده منذ أسلم، فـقال له رسول الله ﷺ: **«ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل: بسم الله (ثلاثاً) وقل (سبع مرات): أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»**(٢).

لعل لقـائل أن يقول لماذا لم يأت المصنف بهـذا الحديث ليـستدل به عـلى الباب؟! **الجواب**: لما كان غيـر مناسب للآية تماماً من كل الوجوه اكتـفى بالأوّل لأنه اشتمل على البديل الشرعى المغنى عن الاستعاذة بالجن إذا نزل الإنسان منزلاً.

٢ـ وأخرج البخـاري عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كـان رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين **«أُعيذُكُمـا بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامـة ومن كل عين لامة»** ويقول: **«إن أباكما كان يعوّذ بهمـا إسماعيل وإسحاق»**(٢) واللامة: كل مايلم بالإنسان من جنون أو خبل.

٣ـ أخرج مسلم عن أبى هريرة قال: جـاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله: ما لقيت من عقرب لدغتنى البارحة؟ قال: **«أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضرك»**(٣).

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء (١٧/ ٣١).

وانظر «الأذكار للنووى» بتخريجنا

٤ـ أخرج أبوداود عـن عبدالله بن عـمرو، عن النبـى ﷺ أنه كان إذا دخل المسـجد يقول: «**أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم. قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: «حفظ منى سائر اليوم»**[(١)] قال النووى: حديث حسن رواه أبوداود بإسناد جيد أهـ.

مسائل حسان، غير ما ذكره المصنف فى الباب:ـ

[قلت]: المصنف حينما منع من الاستـعاذة بغير الله استبدل بها مـا هو خير منها هذا غير مطرد دائماً.

لأن التكلف فى البدائل ربما ميَّع دعوة الإسلام والمسلمين كـمبارايات كرة القدم وفرق التمثيل وغيرها.

وإلا سنخرج الإنسان من جاهلية اسمها جاهلية إلى جاهلية اسمها إسلام.

وكما قال بعض أهل العلم: لاتستبعدوا أن يكون هناك عهر إسلامى.

مسألة: هل الله خالق الشر.

الجواب: من باب الأدب مع الله، حينما تُسئل الله: خالق الشر؟ فلانقول نعم، خالق الشر. وتسكت بل تقول الله خالق كلٍّ شيء، الخير والشر، لكن لم يخلق الشر لذاته، إنما خلقه لحكمة، وهذه الحكمة فى الحقيقة هى التى تجعل الشر خيراً.

مسألة: ما هى الحكمة التى خلق الله من أجلها الشر المحض مثل النار أو الشيطان؟

الجواب: الحكمة لو عُلمت ستعلم أن النار بالنظر إلى هذه الحكمة خـير، لا بالنظر إلى أصل الخلقة.

فإذا علمت أنك لن تدخل الجنة حتى تطهر ومن المطهرات لك أن تدخل النار لتطهر من المعاصى.

فلو لم تكن هذه النار التى تطهر المؤمـن، هل كان سيستـأهل دخول الجنة التى ليس فيها خبيث وليس فيها إلا طيِّب؟!

فيـنبغى أن نعلم أن الله عـزوجل لايخلق الشر إلا لحكمـة تجعل هـذا الشر خـير. بالنسبـة له سبحانه وتعـالى ليس بالنسبة للشـر نفسه، وذلك كـخلق إبليس، أو كخلق النفاق، فلو أن الله ما جعل صنفاً يسمى منافق، وادعى كلٌّ منا الإيمان، ولعلّ يكون فى صدرك ضيق وحرج إذا ظهر لك عدم إخلاص إنسـان، ولكن لاتستطيع أن تقول شيئاً، فعند ما يأتى الله ببلاء وفتن واختبار، بالنظر إلى أنه بلاء فهو شر، لكن بالنظر إلى أن

---

(١) تقدم تخريجه.

الله عز وجل جعله لحكمة - يميز الخبيث من الطيب فهو خير، وربما يشفى الله عزوجل بهذا التمييز صدور قوم مؤمنين، فقد يكون أحدنا ضيق الصدر ويشعر بأن هناك أناس دخيلة على الدين والدعوة، وتتمنى أن لاينتسبوا إلى الإسلام أصلاً، فضلاً عن الدعوة والدعاة، فالله عزوجل حينما يميزهم ويغربلهم؟ يشفى صدرك، وماحدث هذا التمييز إلا بالفتن كما قال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾.

فالله عزوجل لم يخلق الشر لذاته، بل خلقه لحكمة هذه الحكمة تجعله ليس بشر.

أما من قالوا بأن الله عزوجل لم يخلق الشر ولا الخير هم المعتزلة وهى فرقة من الفرق الضالة التى نبه عليها سلفنا الصالح، ولهم خمسة أصول.

١- التوحيد.

٢- والعدل.

٣- والمنزلة بين المنزلتين.

٤- وإنفاذ الوعيد.

٥- والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

وتوحيدهم هو نفى الصفات.

وقريب من هؤلاء المعتزلة ما يدرس فى الأزهر وتسمى (الماتريدية) قريبة الشبه بالمعتزلة، توحيدهم نفى الصفات، ولأنهم نفوا الصفات، قالوا: ربنا عليم بلا علم وسميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، فأثبتوا الأسماء أو بعضها ونفوا الصفات، إلى أن أداهم ذلك إلى أنهم نفوا رؤية الله عزوجل فى الدنيا والآخرة لا للمؤمنين ولالغيرهم.

وذلك لأنهم فى الحقيقة على مذهبهم إنما عبدوا عدماً، فإذا أثبتوا الرؤية، فإنهم بذلك يقيمون الحجة على أنفسهم، فلكى لايقيموا الحجة على أنفسهم بإثباتهم لرؤية الله بأسمائه وصفاته، فقالوا: ليس هناك رؤية أصلا، فتوحيدهم هو نفى الصفات عن الله عزوجل، والعدل عندهم هو أن الله عزوجل لم يخلق الخير ولا الشر، لأنه إن خلق الشر فكيف يعاقب عليه، وجعلوا ذلك من أفعال العباد، ورد عليهم غير واحد من أهل العلم، فمنهم الإمام البخارى فى كتاب مستقل ، اسمه (خلق أفعال العباد والرد على الجهمية) الذين قالوا ما قال المعتزلة، فالجهمية والمعتزلة اتفقوا فى بعض النقاط منها فى نفى الصفات، وعدم خلق أفعال العباد التى سموها العدل، وإنفاذ الوعيد اشتركوا فيه مع الخوارج، فالخوارج قالوا بتكفير صاحب الكبيرة وأنه خالد فى النار، أما المعتزلة فقالوا إنه ليس بكافر بل هو فى منزلة بين المنزلتين، وهذا هو الأصل الرابع من أصول

المعتزلة؛ أن صاحب الكبيرة لا كافر ولامؤمن بل هو فى منزلة بين المنزلتين ـ فاسق ـ لكنهم اتفقوا مع الخوارج فى أنه مخلّد فى النار، وهذا معنى قولهم فى الأصل الثالث «إنفاذ الوعيد»، ومعنى إنفاذ الوعيد يعنى ليس هناك شفاعة لأهل الكبائر، كالخوارج، لكن أهل السنة ـ فى التوحيد ـ أثبتوا الأسماء والصفات إثباتاً بلا تشبيه إلا تكييف، وتنزيهاً بلا تعطيل وأثبتوا ما أثبته الله لنفسه وكذلك ما أثبته الرسول له، فقالوا: نؤمن بالله وما جاء عن الله على مراد الله ونؤمن برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله، وأما فى مسألة «العدل» قالوا ـ أهل السنة ـ الله خالق كلِّ شىء. وإن كان من باب الأدب مع الله ألا ننسب الشر إليه «والشر ليس إليك» كما قال ﷺ فى الحديث[1] وهناك أدلة كثيرة على ذلك منها:

قول أيوب ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾.

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

فإنه لم ينسب المرض لله من باب الأدب مع الله، ولأنه فى الحقيقة لم يخلق المرض لذاته إنما خلق المرض ليطهر به المؤمنين أو يرفع به درجاتهم.

﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

وبالنسبة لإنفاذ الوعد والوعيد، فأهل السنة قالوا: إن أهل الكبائر تحت خطر المشيئة، إن شاء الله عذبهم وإن شاء عفى عنهم حتى وإن لم يأتوا بحسنات ماحيات فهناك أسباب تمحو هذه الكبيرة كالمرض أو المصائب، أو البلايا أو الفتن، أو المحن، أو التوبة أو الاستغفار أو أهوال القيامة أو ضمة القبر وما شاكل ذلك من هذه الحسنات الماحيات، ثم لقوا الله عزوجل بعد ذلك لكبائرهم والعياذ بالله فهم تحت خطر المشيئة، لم نقطع لهم بجنة ولم نقطع لهم بنار، ولأنهم ماتوا على الإسلام فآخر أمرهم إلى الجنة ولابد.

هذا بالنسبة لانفاذ الوعيد عند أهل السنة، أثبتوا الشفاعة لله ولرسوله وللملائكة ولسائر الشفعاء، وهى أيضاً من أسباب الرحمة، وهذه نفتها المعتزلة ونفتها الخوارج.

وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا خلاف أنه واجب على الكفاية عند أهل السنة. على درجاته أما عندهم فهى الخروج على الحكام على تفصيل عندهم.

وبعد:ـ

فإنى ما أردت بذلك إلا أن أنبه أن قول النبى ﷺ أعوذ بكلمات الله التامة ـ التامات من شر ما خلق أن الله خلق الخير وكلَّ شىء ولكن ما خلق الشر لذاته وما خلق الشر

(١) تقدم تخريجه.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الجنِّ.

الثانية: كَوْنُهُ مِنَ الشِّرْكِ.

الثالثة: الاسـتدْلاَلُ عَلَى ذَلِكَ بِالحَدِيـث، لأنَّ العُلَمَاءَ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ الله غَيْرُ مَخْلُوقَة ، قالوا: لأنَّ الاسْتِعَاذَةَ ـ بِالمَخْلُوقِ شِرْكٌ.

الرابعة: فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِه.

الخامسة: أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ، لاَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ.

للشر، إنما خلق الشر لحكمة قد نعلمها، وقد لانعلمها ولكننا نعلم أيضاً أن هذه الحكمة تجعل هذا الشر خيراً، كخلقه للمرض لرفع الدرجات، أو لمحو وتطهير السيئات كما تقدم، والله المستعان.

قال ابن عثيمين[1]: فيه مسائل:

● **الأولى: تفسير آية الجن.**

وقد سبق ذلك فى أول الباب.

● **الثانية: كونه من الشرك.**

أى: الاستعاذة بغير الله، وقد سبق التفصيل فى ذلك.

● **الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث؛ لأنَّ العلماء يستدلّون به على أنَّ كلمات الله غير مخلوقة؛ قالوا: لأنَّ الاستعاذة بالمخلوق شرك.**

وجه الإستشهاد: أنَّ الاستعاذة بكلمات الله لاتخرج عن كونها استعاذة بالله؛ لأنها صفة من صفاته.

● **الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.**

أى: فائدته، وهى أنَّه لايضرك شىء مادمت فى هذا المنزل.

● **الخامسة: أن كون الشىء يحصل به منفعة دنيوية من كفّ شرّ أو جلب نفع لايدل على أنَّه ليس من الشرك.**

---

(١) «القول المفيد (١/ ٣٣١ ـ ٣٣٤).

ومعنى كلامه: أنَّه قد يكون الشيء من الشرك، ولو حصل لك فيه منفعة؛ فلايلزم من حصول النفع أن ينتفى الشرك؛ فالإنسان قد ينتفع بما هو شرك.

مثال ذلك: الجن؛ فقد يعيذوك، وهذا شرك مع أنَّ فيه منفعة.

مثال آخر: قد يسجد إنسان لملك، فيهبه أموالاً وقصوراً، وهذا شرك مع أنَّ فيه منفعة، ومن ذلك ما يحصل لغلاة المداحين لملوكهم لأجل العطاء؛ فلايخرجهم ذلك عن كونهم مشركين.

قال بعضهم:

فكن كما شئت يا من لانظير له وكيف شئت فما خلق يدانيك

[قلت]:ويشهد له قصد ابن مسعود مع امرأته زينب حيث نهاها عن الخيط ويبين أنه شرك برغم أنها أخبرته أنه كان سبباً لمنع القذف من عينيها وقال إنما ذلك من الشيطان.

وفى الحديث فائدة، وهى: أن الشَّرع لايبطل أمراً من أمور الجاهلية إلا ذكر ما هو خير منه؛ ففى الجاهليّة كانوا يستعيذون بالجنّ، فأبدل بهذه الكلمات، وهى: أن يستعيذ بكلمات الله التامَّات من شرّ ما خلق.

وهذه الطريقة هى الطريقة السليمة التى ينبغى أن يكون عليها الداعية، أنَّه إذا سدّ عن الناس باب الشرّ؛ وجب عليه أن يفتح لهم باب الخير، ولا يقول: حرام، ويسكت، بل يقول: هذا حرام، وافعل كذا وكذا من المباح بدلاً عنه، وهذا له أمثلة فى القرآن والسنة.

فمن القرآن قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾**(١)، فلما نهاهم عن قول **﴿رَاعِنَا﴾** ذكر لهم ما يقوم مقامه وهو **﴿انظُرْنَا﴾**.

ومن السنة قوله ﷺ لمن نهاه عن بيع الصّاع من التمر الطيّب بالصاعين، والصاعين بالثلاثة: **«بع الجمع بالدراهم، واشتر بالدراهم جنيباً»**(٢).

فلما منعه من المحذور؛ فتح له الباب السليم الذى لامحذور فيه اهـ.

[قلت]: لكن هذا الباب لايخفى عليك أنه لابد وأن يكون شرعياً لابدعياً فهذا مدعاة لتميع دعوة الإسلام وعدم تميزها مع دعوات الجاهلية كما تقدم فليس معنى النهى عن التمثيل بما فيه من عهر أو مصايف أو معسكرات أو رحلات أو فرق للإخراج أو أيام رياضية... إلخ ليس معنى هذا أنه لابد أن يفتح باباً جديداً بل إن وجدت باباً شرعياً وإلا فلا يلزمنى وكانت هناك أمور ينهى عنها الشرع ولابذكر لها من بديلاً مثل الخمر والميسر والزنا...إلخ.

(١) البقرة: ١٠٤.

(٢) [متفق عليه] رواه: البخارى (٢/ ١١٣)، ومسلم (٣/ ١٢١٥).

١٣ باب من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره

- مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال عبد الله بن جار الله[١]: هي أن الاستغاثة بالله ودعاءه من أنواع العبادة التى أمر الله بها وكل ما كان عبادة لله فصرفه لغيره شرك ينافى التوحيد اهـ.

قال السعدي[٢]: متى فهمت الضابط السابق فى حد الشرك الأكبر، وهو أن من صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهو شرك، فهمت هذه الأبواب الثلاثة التى والَى المصنف بيانها. اهـ.

قلت: يعنى باب: من الشرك النذر لغير الله - وباب: من الشرك الاستعاذة بغير الله - وهذا الباب].

تنبيه:

لم تُوفق هذه الترجمة أيضًا، وذلك لإطلاق المصنف، وكان الأنسب أن يقيد الترجمة.

ولذا قال ابن عثيمين[٣]: وكلام المؤلف ـ رحمه الله ـ ليس على إطلاقه، بل يقيد بما لا يقدر عليه المستغاث به، إما لكونه ميتًا، أو غائبًا، أو يكون الشيء مما لا يقدر على إزالته إلا الله تعالي... إلخ. اهـ.

شرح الترجمة:

قوله (من الشرك).

قال ابن عثيمين[٤]: (من) للتبعيض، فيدل على أن الشرك ليس مختصًا بهذا الأمر. اهـ.

قوله (أن يستغيث)

(الاستغاثة لغة) فى «النهاية» من غاث يغوث غوثًا وفى الحديث: «**اللهم أغثنا وأغثني**» أى فرّج عنّي[٥].

وقال فى اللسان: أى أجابَ الله: غوثاه، وغُواثة، وغَواثة، ولم يأت فى الأصوات شيء بالفتح غيره، وإنما يأتى بالضم، وبالكسر مثل: النِّداء والصِّياح.

(١) الجامع الفريد (٥٩)
(٢) القول السديد (٤٦-٤٧).
(٣) القول المفيد (١/ ٣٣٥).
(٤) القول المفيد (١/ ٣٣٥).
(٥) النهاية (٣/ ٣٩٢- ٣٩٣).

والغُواث بالضم: الإِغاثةُ، وغَوَّث الرجلُ، واستغاث: صاح واغَوثاه! والاسم الغَوْث والغُواث والغَواث. وفى حديث أم إسماعيل: «فهل عندك غَواث؟» الغَواث بالفتح كالغِياث، بالكسر من الإغاثة.

وفى الحديث: «اللهم أغِثنا»(١) من الإغاثة، واستغاثنى فلان فأغَثْتُهُ والاسم الغِياث: صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها وتقول: ضُربَ فلان فَغَوَّثَ تَغْوِيثًا إذا قال: واغوثاه!

وفى كتاب «التهذيب»: والغياث ما أغاثك الله به، ويقول الواقع فى بليةٍ: أغثنى أى فرج عني، ويقال: استَغَثتُ فلانًا فما كان لى عنده مَغُوثة، ولا غَوْثٌ أى إِغاثة. والمصدر من أغاث.

والغَيْثُ: المطر والكلأ، وقيل: الأصل المطر ثم سمى ما ينبت به غيثًا.

وغاثَ الغَيْثُ الأرض: أصابها، ويقال: أغاثَهم الله، وأصابهم غَيْثٌ وغاث الله البلاد يَغيثُها غَيْثًا، إذا أنزل بها الغيث، ومنه الحديث: «فادع الله يَغِثْنا»، وفى حديث رقيقة: «ألا فَغِثتم ما شئتم !» غِثتم: بكسر الغين أى سُقِيتم الغيث، وهو المطر، والسؤال منه: غِثنا، ومن الإغاثة، بمعنى: الإعانة: أغثنا. وربما سمى السحاب والنبات: غَيْثًا، والغَيْث الكلأُ ينبتُ من ماء السماء، وبئر ذاتُ غَيِّثٍ أى ذات مادة، والغَيِّثُ: عَيْلَم الماء، وغَيَّثَ الأعمى طلب الشيء عن كراع. اهـ.

الاستغاثة شرعًا:

قال شيخ الإسلام(٢): هى طلب الغوث، وهو إزالة الشدة كالاستنصار: طلب النصر، والاستغاثة: طلب العون.اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٣) **بعد ذكر قول ابن تيمية**: كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ والدعاء أعم من الاستغاثة، لأنه يكون من المكروب وغيره اهـ.

قوله: (أو يدعو غيره).

قال سليمان آل الشيخ(٤): هذا من عطف العام على الخاص.اهـ.

وقال حامد بن محمد(٥): لأن الدعاء يشمل الاستغاثة وغيره، والاستغاثة لا

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠١٣)، مسلم فى الاستسقاء (٣/ ٤٥٩/ ٨) عن أنس به وقد تقدم.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٠٣).

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٥٥).

(٤) المصدر السابق.

(٥) فتح الله الحميد المجيد (٢٣٨).

تشمل إلا الدعاء الذى فى الكرب، فالاستغاثة لا تكون إلا فى الضيق والكرب وطلب الغوث، وتفريج الكربة، وكشف الشدائد، والدعاء يكون فى الكرب وغيره، فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة اهـ.

قال ابن باز[1]: هذا من عطف العام على الخاص، لأن الاستغاثة من الدعاء، فكل مستغيث داع، وليس كل داعى مستغيث، فالمستغيث هو الذى يدعى عند شدة الكربة. اهـ.

فائدة:

قال ابن تيمية: فأما لفظ (الغوث، والغياث) فلا يستحقه إلا الله، فهو غياث المستغيثين فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره، لا بملك مقرب ولا نبى مرسل.

ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التى يطلبون بها كشف الضر عنهم ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة، والثلاثمائة إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الغوث، فهو كاذب ضال مشرك، فقد كان المشركون كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿**إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾[2] وقال سبحانه وتعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾[3][4].

فصل فى أنواع وأحكام الاستغاثة

قال عبد الله جار الله[5]: أنواع الاستغاثة ثلاثة:

١- واجبة: وهى التى تطلب من الله.

٢- محرمة: وهى التى تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليها إلا الله كالاستغاثة بالأموات والغائبين فى جلب نفع أو دفع ضر.

٣- جائزة: وهى الاستغاثة بالحى الحاضر القادر على نصرته. اهـ.

وتقدم معنا فى الباب السابق لهذا الباب تقسيم أدق من هذا فى أقسام الاستعاذة وينسحب هذا التقسيم على الاستغاثة أيضًا. فانظره.

---

(١) التعليق المفيد (٩١). (٢) الإسراء: ٦٧

(٣) النحل (٦٢) (٤) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٣٧، ٤٣١).

(٥) فتح الله الحميدالمجيد (٥٩).

فصل

أقسام الدعاء

من الشرَّاح من قسمه إلى [دعاء مسألة - دعاء عبادة]

ومنهم من قسمه إلى [ما يقع عبادة - مالا يقع عبادة] وإليك تفصيل ذلك:

قال سليمان آل الشيخ(١): واعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة - ودعاء مسألة، كما حققه غير واحد منهم: شيخ الإسلام، وابن القيم، وغيرهما

ويراد به فى القرآن هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان.

(أ)- **فدعاء المسألة**: هو طلب ما ينفع الداعى من جلب نفع أو كشف ضر فالمعبود لابد أن يكون مالكًا للنفع والضر، ولهذا أنكر الله على من عبد من دونه مالا يملك ضرًا ولا نفعًا كقوله: ﴿**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ وذلك كثير فى القرآن يبين أن المعبود لابد وأن يكون مالكًا للنفع والضر فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعو خوفًا ورجاء، دعاء العبادة. فعلم أن النوعين متلازمان. . اهـ.

ثم قال بعد توسع كبير فى النوع الأول:

(ب): **وأما دعاء العبادة**: فهو عبادة الله تعالى بأنواع العبادات، من الصلاة، والذبح، والنذر، والصيام، والحج وغيرها، خوفًا وطمعًا، يرجو رحمته، ويخاف عذابه، وإن لم يكن فى ذلك صيغة سؤال وطلب، فالعابد الذى يريد الجنة ويهرب من النار، وهو سائل راغب راهب، يرغب فى حصول مراده، ويذهب من فواته، وهو سائل لما يطلبه بامتثال الأمر فى فعل العبادة، وقد فسر قوله تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ بهذا وهذا، قيل: اعبدونى وامتثلوا أمرى أستجب لكم، وقيل: سلونى أعطكم، وعلى هذا القول تدل الأحاديث والآثار.

وقال حامد بن محمد(٢): والدعاء يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، وكلاهما مختصة لله تعالى. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله(٣): ينقسم الدعاء إلى قسمين:

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١٥٦) وتبعه عبد الرحمن آل الشيخ فى فتح المجيد (١/ ٢٠٦ -٢٠٧).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٤٠). (٣) الجامع الفريد (٥٩).

(١) دعاء عبادة: وهو التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة التى شرعها الله لعباده وأمرهم بها.

(٢) دعاء مسألة: وهو طلب ما ينفع الداعى من جلب نفع أو ضر اهـ.

من قسم الدعاء إلى (ما يقع عبادة - وما لا يقع عبادة).

قال ابن عثيمين: [١] والدعاء ينقسم إلى قسمين:

[**القسم الأول**]: **ما يقع عبادة**: وهذا صرفه لغير الله شرك، وهو المقرون بالرهبة والرغبة، والحب، والتضرع. اهـ.

[**قلت**]: وينقسم هذا القسم إلى قسمين:

الأول: أن تدعو مخلوقًا مطلقًا سواء كان حيًّا أو ميتًا فيما لا يقدر عليه إلا الله فهذا شرك أكبر لأنك جعلته ندًا لله فيما لا يقدر عليه إلا الله، مثل: يا فلان اجعل ما فى بطن امرأتى ذكرًا.

وقال ابن عثيمين: فى موضع آخر إن كان المخلوق لا يقدر على ذلك فيدعوه بما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يدعوه بأن ينزل عليه الغيث معتقدًا أنه قادر على ذلك، فإن دعوته فى هذه الحالة شرك مخرج عن الملة، ومع الأسف فإن بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلانًا المقبور الذى بقى جثة أو أكلته الأرض أنه يأتى بالنسل لمن لا يولد له، وهذا والعياذ بالله شرك أكبر مخرج عن الملة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر، والزنا، واللواط، لأنه إقرار على كفر وليس إقرار على فسوق فقط[٢].

الثاني: أن تدعو مخلوقًا ميتًا لا يجيب بالوسائل الحسية المعلومة، فهذا شرك أكبر أيضًا، لأنه لا يدعو من كان هذا حاله، حتى يعتقد أن له تصرفًا خفيًا فى الكون. والله أعلم.

ثم قال: [**القسم الثانى**]: **ما لا يقع عبادة**: هذا يجوز أن يوجه إلى المخلوق، قال النبى ﷺ: «**من دعاكم فأجيبوه**»[٣] وقال: «**إذا دعاك فأجبه**»[٤] وعلى هذا فمراد المؤلف بقوله: (أو يدعو غيره) دعاء العبادة أو دعاء المسألة، فيما لا يمكن للمسؤول إجابته. اهـ.

[**قلت**] و وينقسم أيضًا هذا القسم إلى قسمين:

وبعبارة أخرى إن كان المخلوق قادرًا على ذلك، فليس بشرك قال الله تعالى: ﴿**لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾.

---

(١) القول المفيد (١/٣٣٦). (٢) يراجع القول المفيد (١/١٤٨، ١٤٩، ١٩٧، ٨٨)

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى النكاح (٥/ ٢٥١/١٠٦) عن أبى هريرة به.

فعن ابن عباس: كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم الله ـ عز وجل ـ عن ذلك، إعظامًا لنبيه، قال: فقولوا يا نبي الله، ويا رسول الله، وهكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير.

ولقوله ﷺ «من دعاكم فأجيبوه»(١) وفي رواية عند مسلم من حديث أبي هريرة: «وإذا دعاك فأجبه»(٢) وهذا من حق المسلم على المسلم.

فإن كان الدعاء من هذا الباب فيجوز بأن يوجه إلى المخلوق، كقوله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

فصل

الفرق بين المستغيث والداعي

قال ابن تيمية(٣): قال أبو عبد الله الحليمي: الغياث هو المغيث وأكثر ما يقلل غياث المستغيثين، ومعناه المدرك عبادة في الشدائد إذا دعوه ومجيبهم ومخلصهم، وفي خبر الاستسقاء في الصحيحين: «اللهم أغثنا اللهم أغثنا»(٤) يقال: أغاثه إغاثة، وغياثًا، وغوثًا، وهذا الاسم في معنى المجيب، والمستجيب، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾(٥) إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال، والاستجابة أحق بالأقوال، وقد يقع كل منهما موقع الآخر، قالوا: الفرق بين المستغيث والداعي، أن المستغيث ينادي بالغوث، والداعي ينادي بالمدعو والمغيث، وهذا فيه نظر، فإن من صيغة الاستغاثة (يالله للمسلمين) وقد روى عن معروف الكرخي أنه كان يكثر أن يقول: واغوثاه، ويقول: إني سمعت الله يقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وفي الدعاء المأثور: «يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث، اصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»(٦) والاستغاثة برحمته استغاثة به في الحقيقة، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به في الحقيقة، وكما أن القسم بصفاته قسم به في الحقيقة، ففي الحديث «أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق»(٧)، وفيه «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(٨) أهـ.

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم تخريجه. (٣) مجموع الفتاوى (١/ ١١١).

(٤) تقدم تخريجه. (٥) الأنفال: ٩.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) عن أنس به.

وانظر «الأذكار» للنووي (٣١٦ ـ بتخرجنا).

(٧) تقدم تخريجه. (٨) تقدم تخريجه.

قال السعدي[١]: والفرق بين الدعاء والاستغاثة أن الدعاء عام فى كل الأحوال والاستغاثة هى الدعاء لله فى حالة الشدائد اهـ.

مسألة: **قال الفقير**: إذا كان الدعاء أعم من الاستغاثة، فلماذا لم يستغنى بأحدهما عن الآخر، ولماذا عطف الدعاء على الاستغاثة؟

الجواب: هذا وارد فى كلام العرب، عطف العام على الخاص، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ فالعبادة أعم من الركوع والسجود والسجود أخص.

فإنه خصص هذه العبادة من سائر العبادات تنويهًا بشرفها، وإعلاءً لقدرها»

ولعلّ لهذه النكتة خص المصنف الاستغاثة من جملة الدعاء.

تنويهًا لأهميتها إذا صرفت لله وأنها عبادة، وإذا صرفت لغيره تكون شركًا أو لأنها أكثر ما تقع من الناس.

حكم الاستغاثة بغير الله والدعاء وتلبيس إبليس على المستغيث ومن يستغاث به

قال ابن تيمية[٢]: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم، كفر إجماعاً.

وقال أيضا[٢] وكثيراً مايتصور الشيطان بصورة المدعو المنادى المستغاث به إذا كان ميتاً. وكذلك قد يكون حياً ولا يشعر بالذى ناداه؛ بل يتصور الشيطان بصورته، فيظن المشرك الضال المستغيث بذلك الشخص أن الشخص نفسه أجابه وإنما هو الشيطان، وهذا يقع للكفار المستغيثين بمن يحسنون به الظن من الأموات والأحياء، كالنصارى المستغيثين بجرجس وغيره من قداد يسهم، ويقع لأهل الشرك والضلال من المنتسبين إلى الإسلام الذين يستغيثون بالموتى والغائبين، يتصور لهم الشيطان فى صورة ذلك المستغاث به وهو لايشعر.

واعرف عدداً كثيراً وقع لهم فى عدة أشخاص يقول لى كل من الأشخاص: إنى لم أعرف أن هذا استغاث بي، والمستغيث قد رأى ذلك الذى هو على صورة هذا. و ما اعتقد أنه إلا هذا. وذكر لى غير واحد أنهم استغاثوا بي، كل يذكر قصة غير قصةصاحبه، فاخبرت كلاً منهم أنى لم أجب أحداً منهم ولاعلمت باستغاثته، فقيل: هذا يكون ملكاً، فقلت: الملك لايغيث المشرك، إنما هو الشيطان أراد أن يضله أهـ.

(١) القول السديد (٤٨-٤٩).

(١) مجموع الفتاوي(١٩/ ٤٧) (١/ ١٢٤).

قال سليمان آل الشيخ[1]: قال الإمام أبو الوفاء على بن عقيل الحنبلى صاحب كتاب «الفنون» الذى ألفه فى نحو أربعمائة مجلد، وغيره من التصانيف. قال فى الكتاب المذكور: لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندى كفار لهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع فيها: يا مولاى أفعل بى كذا وكذا، أو إلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى، نقله غير واحد، مقررين له، راضين به، منهم الإمام أبو الفرج بن الجوزى، والإمام ابن مفلح صاحب كتاب «الفروع» وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام[2]. فى «الرسالة السنية»: فإذا كان على عهد النبى ﷺ من انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة فى هذه الأزمان أيضاً قد يمرق أيضاً من الإسلام وذلك بأسباب: منها الغلو الذى ذمه الله فى كتابه حيث قال: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الآية. وكذلك الغلو فى بعض المشايخ، بل الغلو فى على بن أبى طالب، بل الغلو فى المسيح عليه السلام، فكل من غلا فى نبى أو رجل صالح وجعل فيه نوعًا من الإلهية، مثل أن يقول: يا سيدى فلان انصرنى، أو أغثنى، أو ارزقنى أو اجبرنى، أو أنا فى حسبك، ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال، يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده، ولايدعى معه إله آخر والذين يدعون مع الله آلهة أخرى، مثل المسيح، والملائكة، والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، أو تنزل المطر، أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم، يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ويقولون﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ فبعث الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه، لادعاء عبادة، ولادعاء استغاثة. انتهى.

وقد نص الحافظ أبو بكر أحمد بن على المقريزى صاحب كتاب «الخطط» فى كتاب له فى التوحيد على أن دعاء غيرالله شرك.

وقال شيخ الإسلام: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم يدعوهم ويسألهم، كفر إجماعاً، نقله عنه غير واحد مقررين له، منهم ابن مفلح فى «الفروع» وصاحب «الانصاف» وصاحب «الغاية» وصاحب «الاقناع» وشارحهم وغيرهم، ونقله صاحب «القواطع» فى كتابه عن صاحب «الفروع».

(١) تيسير العزيز الحميد(١٥٦ : ١٧٠).

(٢) وانظر «الوصية الكبرى» لابن تيمية(١، ٢، ٣، ٣٢) بتصرف فعلاً عن المصدر سابق.

قلت ـ أي: **سليمان آل الشيخ** ـ: وهو إجماع صحيح معلوم بالضرورة من الدين، وقد نص العلمـاء من أهل المذاهب الأربعة، وغيـرهم فى باب حكم المرتد، على أن من أشرك بالله فهو كافر، أى عبد مـع الله غيره بنوع من أنواع العبادات. وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن دعاء الله عبادة له، فيكون صرفه لغير الله شركاً.

وقال الإمام ابن النحـاس الشافعى فى كتاب «الكبائر» ومنـها إيقادهم السرج عند الأحجـار، والأشجـار والعيـون، والآبار، ويقولون: إنهـا تقبل النذر، وهذه كلـها بدع شنيعة ومنكرات قبيـحة تجب إزالتها ومحو أثرها، فإن أكثر الجهـال يعتقدون أنها تنفع وتضر، وتجلب وتدفع، وتشفى المرض وترد الغائب، إذا نذر لـها، وهذا شرك ومحادة لله تعالى ولرسوله ﷺ.

قلت ـ أى **سليمان آل الشيخ** ـ: فصرح ـ رحمه الله ـ أن الاعـتقاد فى هذه الأمور أنها تـضر وتنفع وتجلب، وتدفع، وتشـفى المريض وترد الغائب إذا نذر لـها، أن ذلك شرك، وإذا ثبت أنه شرك، فلا فرق فى ذلك بين اعتقاده فى الملائكة والنبيين، ولابين اعتـقاده فى الأصنام والأوثـان، إذ لايجوز الإشراك بيـن الله تعالى وبين مـخلوق فيـما يختص بالخالق سبحانـه، كما قال تعالى : ﴿**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾(١) وهذا بعينه هـو الذى يعتقـده من دعا الأنبياء والصالحـين، ولهذا يسألونهم قضـاء الحاجات، وتفريج الكربـات، وشفاء ذوى الأمراض والعاهات، فثبت أن ذلك شرك.

وقال الإمام ابن القيم(٢): **رحمه الله تعالى فى** «شرح المنازل» ومن أنواعه أى الشرك، طلب الحوائج من الموتى، والاستـغاثة بهم، والتوجه إليـهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطـع عمله وهو لايملك لنفسه ضراً ولانـفعاً، فضلاً لمن استـغاث به أو سأله أن يـشفع إلى الله؛ وهذا من جـهله بالشافع والمشـفوع عنده، فـإن الله سبـحانه لايشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله سبحانه لم يجعل سؤال غيره سبباً لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هـذا المشرك بسبب يمنع الأذن، والميت محتاج إلى من يدعو له، كمـا أمرنا النبىﷺ إذا زرنا قبور المسلمـين أن نترحم عليهم، وندعـو لهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس المشـركون هذا وزاروهم زيارة العبادة وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد، فجمعـوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التـوحيد، ونسبتهم إلى التنقص بالأموات، وهم قـد تنقصوا الخالق سـبحانه بالشرك وأولياءه الموحـدين بذمهم

(١) سورة آل عمران: ٨٠

(٢) من مدارج السالكين (١/٣٤٦).

ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وهؤلاء هم أعداء الرسل فى كل زمان ومكان. وما أكثر المستجيبين لهم! ولله در خليله إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾[1] وما نجا من أشرك بهذا الشرك الأكبر، إلا من جرد توحيده الله، وعادى المشركين فى الله، وتقرب بمقتهم إلى الله.

وقال الإمام الحافظ ابن عبد الهادى[2] فى رده على السبكى وقوله: - أى قول السبكى -: إن المبالغة فى تعظيمه، أى تعظيم الرسول ﷺ واجبة يراد بها المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيماً، حتى الحج إلى قبره، والسجود له، والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطى ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضى حوائج السائلين، ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء، فدعوى المبالغة فى هذا التعظيم مبالغة فى الشرك وانسلاخ من جملة الدين.

قلت - أى سليمان آل الشيخ -: هذا هو اعتقاد عباد القبور فيمن هو دون الرسول ﷺ فضلاً عن الرسول ﷺ كما تقدم بعض ذلك.

والأمر أعظم وأطم من ذلك وفى «**الفتاوى البزازية**» من كتب الحنفية، **قال علماؤنا:** من قال: أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر، فإن أراد بالعلماء علماء الشريعة فهو حكاية للإجماع على كفر معتقد ذلك. وإن أراد علماء الحنفية خاصة فهو حكاية لاتفاقهم على كفر معتقد ذلك. وعلى التقديرين تأمله تجده صريحاً فى كفر من دعى أهل القبور، لأنه ما دعاهم حتى اعتقد أنهم يعلمون ذلك، ويقدرون على إجابة سؤاله، وقضاء مأموله.

وقال الشيخ صنع الله الحلبى الحنفى فى كتابه الذى ألفه فى الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفاً فى الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات فى حياتهم وبعد الممات، ويستغاث بهم فى الشدائد والبليات وبهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم فى قضاء الحاجات، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، وقالوا منهم أبدال ونقباء، وأوتاد ونجباء، وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيها الأجور.

قال: وهذا الكلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدى، والعذاب السرمدى، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالف لعقائد الأئمة

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٣٥-٣٦.
(٢) الصارم المنكى فى الرد على السبكى (٤٦٤).

وما اجتمعت عليه الأمة. وفى التنزيل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾(١) إلى أن قال: الفصل الأول فيما انتحلوه من الإفك الوخيم والشرك العظيم.. إلى أن قال: فأما قولهم: إن للأولياء تصرفات فى حياتهم وبعد الممات، فيرده قوله تعالى: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾(٢) ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾(٣) ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(٤) ونحوه من الآيات الدالة على أنه المنفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير، ولاشىء لغيره فى شىء ما بوجه من الوجوه، فالكل تحت ملكه وقهره تصرفاً وملكاً، وإحياء وإماتة، وخلقاً، وتمدح الرب سبحانه بانفراده فى ملكه بآيات من كتابه كقوله: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾(٥) ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾(٦) وذكر آيات فى هذا المعنى ثم قال: فقوله فى الآيات كلها: ﴿مِن دُونِهِ﴾ أى من غيره فإنه عام يدخل فيه من اعتقد من ولى وشيطان يستمده، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمد غيره، إلى أن قال: فكيف يتصور لغيره، من ممكن أن يتصرف، إن هذا من السفاهة لقول وخيم، وشرك عظيم، إلى أن قال: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف فى الحياة. قال جلَّ ذكره: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾(٧) ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾(٨) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾(٩) ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾(١٠).

ثم قال: إذا تبين ذلك، فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئاً من نوعى الدعاء لغير الله فهو مشرك، ولو قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله وصلى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لايعبد إلا الله، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله فما أتى بهما حقيقة، وإن تلفظ بهما، كاليهود الذين يقولون لا إله إلا الله وهم مشركون، ومجرد التلفظ بهما لايكفى فى الإسلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعاً. اهـ.

[قلت] وما قاله عن الدعاء كذلك الاستغاثة وتقدم ذلك فى كلامهم.



(١) سورة النساء، الآية: ١١٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ٦٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٤) سورة المائدة الآية: ١٢٠.
(٥) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٦) سورة فاطر، الآية: ١٣.
(٧) سورة الزمر، الآيه: ٣٠.
(٨) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٩) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(١٠) سورة المدثر، الآيه: ٣٨.

وَقَوْلَ الله تَعَالَى: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(1).

مناسبة آيات وأحاديث الباب للباب ولكتاب التوحيد:-

أورد المصنف فى الباب خمس آيات وحديث:

● **الآية الأولى**: للنهى عن دعاء غير الله لطلب النفع ابتداء، فكأن المصنِّف يقول للذى يدعو غير الله لطلب النفع، **لاتدعو مالا ينفعك ولايضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين** : وكأن هذا الداعى قال بل أدعو لدفع الضر فأتى بالآية الثانية **﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو.... ﴾ الآية**، ولما أتى بهاتين الآيتين فى النفع العام والضر العام، أردفهما بآية فى النفع الخاص وهو الرزق الذى بسببه قد يخرج الناس من دين الله أفواجاً كما دخلوا، فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**.

فما ينبغى للعبد أن يلجأ فى طلب النفع العام أو الخاص أو دفع الضر إلا إلى **الله**، وإلا فليس أضل منه إن فعل عكس ذلك، لذلك أردف هذه الآيات بقوله تعالى: **﴿ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾** الآية ثم ختم هذه الآيات بإثبات النفع المطلق فى حق الله وإقامة الحجة على المشركين بما يعلمون من أحوالهم مع ربهم فى الشدائد، فأورد قوله تعالى: **﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الآية أى: إإله يدعى أو يُستغاث به؟؟!**.

ثم ختم بالحديث الذى يبين مدى حماية المصطفى - ﷺ - لجناب التوحيد وسده لذرائع الشرك بقوله: «**إنه لايستغاث بى وإنما يستغاث بالله عزّ وجل**»(2) وإن كنتم تستغيثون بى فيما استطيعه وأقدر عليه فأتركوه سداً للذريعة.

● **مناسبة الآية للباب:**

قال عبد الله بن جار الله(3): ومناسبة الآية للباب أنها دلت على أنه لايجلب النفع، ولايدفع الضر إلا الله، فمن طلب ذلك من غيره فقد أشرك. اهـ.

---

(1) يونس آية: ١٠٦- ١٠٧. (2) سيأتى تخريجه

(3) الجامع الفريد (ص٦٠).

● **الإعراب**(١): (ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرك) (الواو) عاطفة (ولا) ناهية (وتدع) مضارع مجزوم بلا والفاعل أنت (ومن دون الله) حال (وما) موصول مفعول به وجملة (لاينفعك) صلة وجملة (ولا يضرك) عطف على (لاينفعك). (فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين) الفاء عاطفة وان شرطية وفعلت فى محل جزم فعل الشرط (والفاء) رابطة وان واسمها واذن حرف جواب وجزاء مهمل ومن الظالمين خبر إن. ﴿**وإن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ**﴾ (الواو) عاطفة (وان) شرطية (ويمسسك) فعل الشرط والكاف مفعول به والله فاعل وبضر جار ومجرور متعلقان بيمسسك والفاء رابطة ولا نافية للجنس وكاشف اسمها مبنى، على الفتح وله متعلقان بكاشف والخبر محذوف ويجوز أن يكون له هو الخبر أى كائن له وإلا أداة حصر وهو بدل من الخبر المحذوف على ما تقدم فى «لا إله إلا الله». (وإن يردك بخير فلا راد لفضله) الواو عاطفة وان شرطية ويردك فعل الشرط مجزوم والكاف مفعول به (وبخير) متعلقان بيردك والفاء رابطة ولا نافية للجنس (وراد) اسمها (ولفضله) متعلقان (براد) والخبر محذوف ويجوز أن يكون الجار والمجرور هو الخبر كما تقدم. (يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) جملة يصيب استئنافية والفاعل هو (وبه) جار ومجرور متعلقان بيصيب ومن مفعول (يصيب) وجملة (يشاء) صلة (ومن عباده) حال، (وهو) الواو استئنافية (وهو) مبتدأ (والغفور) خبر أول والرحيم خبر ثان. اهـ.

● **التفسير بالقرآن:**

ذكر سليمان آل الشيخ ما جاء فى القرآن مشابهاً لآية الباب، ومقرراً أن الدعاء عبادة.

كقول الله تعالى: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ **وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا** ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ **وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ** ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ** ﴾(٦).

(١) إعراب القرآن (٤/٣٠٧).
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.
(٥) سورة النساء، الآية: ٣٢.
(٦) سورة الأنعام الآيتان: ٤٠ - ٤١.

وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾(١).

وقال تعالى: عن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(٢) وقال عنه أيضاً: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(٣) الآية.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾(٧).

وقال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾(٨).

وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾(٩) الآية.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(١٠). فكفى بهذه نجاة وحجة وبرهاناً في الفرق بين التوحيد والشرك عموماً وفي هذه المسألة خصوصاً. وقال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾(١١).

(١) سرة الرعد، الآية: ١٤.
(٢) سورة ابراهيم: الآيه: ٣٩.
(٣) سورة مريم، الآيتان: ٤٨ - ٤٩.
(٤) سورة النحل، الآية: ٥٣.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٥٦.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.
(٧) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.
(٨) سورة مريم، الآية: ٤
(٩) سورة القصص، الآية: ٦٤.
(١٠) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.
(١١) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3] وغير ذلك من الآيات.

● **التفسير من الآثار المرفوعة:**

وفي الأحاديث عن النبيﷺ مالا يحصى.

منها قوله ﷺ فيما رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يَا عبَادي كُلكُم ضَالٌ إلا مَنْ هَديتُهُ فَاستَهدُوني أَهْدِكُمْ يَاعِبَادي، كُلُّكُم جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمتُهُ فَاسْتَطعمُوني أُطعِمكُمْ، يَاعِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مِنْ كَسَوْتُهُ فَاستَكسُوني أَكْسُكُمْ يَاعبَادي إنكم تُخْطِئُونَ بِالليلِ والنَّهارِ وأَنا أَغفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً فَاستغفِرُوني أَغفر لَكمْ...» الحديث رواه مسلم[4].

وقوله ﷺ: «يَنزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالى كُلَ لَيْلَةَ إلى السَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ الليل الآخِرُ يقُولُ: مَنْ يَدْعُوني فَأَستَجِبُ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُني فَأُعْطِيَه؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِرَ لَهُ؟» رواه البخاري ومسلم[5].

(١) سورة الزمر، الآية: ٨.

(٢) سورة فاطر، الآيتان: ١٣ - ١٤.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦/ ١٣٢ـ النووي) عن أبي ذر به وانظر «رياض الصالحين (١١٢ـ بتخريجنا).

(٥) [صحيح] أخرجه البخاري (٧٤٩٤). ومسلم في صلاة المسافرين (٦/ ٣٦ـ النووي) عن أبي هريرة به وانظر «الأذكار» للنووي (٢٧٩ـ بتخريجنا)..

وقوله: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عـلى الله مِنَ الدُّعَاءِ» رواه أحمد والترمذى وابن ماجة وابن حبان، والحاكم وصححه(١).

وقوله: «مَنْ لَمْ يَدْعُ الله يَغْضَبْ عَلَيه» رواه أحمد وابن أبى شيبة والحاكم(٢).

وقوله: «سَلُوا الله مِنْ فَضْلِه فَإِنَّ الله يُحبُّ أَن يُسْأَلَ» رواه الترمذى(٣).

وقوله: «الدُّعَاءُ سَلَاحُ الْمُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، ونُـورُ السَّمَوات والأَرْضِ» رواه الحاكم وصححه(٤).

وقوله: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةَ» رواه أحمد والترمذى(٥).

وفى حديث آخر: «الدُّعَاءُ مُخُ العِبَادَةَ» رواه الترمذى(٦).

وقولـه لما سُئـل أى العِـبادةِ أفضــل؟ قَال: «دُعاءُ المرءِ لِنَفْسِه» رواه البخـارى فى «الأدب»(٧).

وقوله: «لَنْ يَنْفَـعَ حَذَر مِنْ قَدَر ولَكِنَّ الدُّعَـاءُ يَنْفَعُ مِمَا نَـزَلَ وَمِمَا لَمْ يَنْزِل فَعـليكُمْ بالدُّعاء يَا عبادَ الله» . رواه أحمد(٨).

وقوله: «سَلُوا الله كُلَ شَيْءٍ حَتَـى الشَّسْعَ إذا انْقَطع، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُيسِّـره لَمْ يَتَيَسَرَ» رواه أبو يعلى بإسناد صحيح(٩).

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسـنـده» (٢/ ٣٦٢)، والترمذى (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩) عن أبى هريرة به ، وانظر فتح المجيد (٢٨٦ـ بتخريجنا). .

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٤٤٢) ، والتـرمذى (٣٣٧٣) ، وابن ماجه (٣٨٢٧) عن أبى هريرة بنحوه ، وانظر «فتح المجيد (ح٢٨٥ـ بتخريجنا).

(٣) أخرجه الترمذى (٣٥٧١) ورجح المرسل.

(٤) أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٢)وانظر المجمع (١٠/ ١٤٧).

(٥) أخرجه أحمد فى «مسـنـده» (٤/ ٢٧١) والبخارى فى «الأدب المفرد» (٧٣٥) ، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذى (٣٣٧٢) والـنسائى فى «الكبرى» (١١٤٦٤) ، وابـن ماجه (٣٨٢٨) عن النعمان بـه وانظر «رياض الصالحين» (١٤٦٨ـ بتخريجنا).

(٦) أخرجه الترمذى (٣٣٧١) واستغربه.

(٧) عن عائشة به وصححه وتعقبه الذهبى بقوله مبارك ـ أحد رواة هذا الحديث ـ: واهٍ.

(٨) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٣٤) عن معاذ به وفيه شهر بن حوشب والمقال فيه مشهور.

(٩) [باطل مرفوع وجيد موقوفًا] أخرجه ابن الـسنى فى «عمل اليوم والـليلة» موقوفًا علـى عائشة ـ رضى الله عنها ، وانظر «المجمع» (١٠/ ١٥٠) وانظر «فتح المجيد» (ح٢٨٨) بتخريجنا.

وقوله: «لِيسأَلَ أحدكُمْ ربهُ حَاجَتهُ كُلها حَتى يَسألهُ شَسعَ نَعْله إِذا انقَطَعَ وحَتَى يَسألهُ المِلحَ» رواه البزار بإسناد صحيح[1].

● **التفسير من الآثار الموقوفة:**

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إنى لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه.

وَقَالَ ابن عَبَاس رضى الله عنهُما. أَفضَلَ العِبَادَةِ الدُعاءُ وَقَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2] رواه ابن المنذر والحاكم وصَحَحه.

● **التفسير من الآثار المقطوعة:**

وقال مطرف: تذكرت ما جماع الخير؟ فإذا الخير كثير، الصلاة والصيام، وإذا هو فى يد الله تعالى، وإذا أنت لا تقدر على ما فى يد الله إلا أن تسأله فيعطيك. رواه أحمد.

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن مجاهد: (ما لاينفعنا ولايضرنا) قال: الأوثان[3].

وبإسناده أيضاً عن مقاتل بن حيان: (الظالمين) يعنى المشركين[4].

وفى قوله تعالى: ﴿فَلا رَادَّ لِفَضْلِه﴾.

أى لايستطيع أحد أن يرد فضل الله أبداً، ولو اجتمعت الأمة على ذلك، وفى الحديث: «اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت»[5].

● **التفسير من الآثار المرفوعة:**

وفى قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

كقوله ﷺ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وذلك للصحابة الذين قالوا للرسول - ﷺ - ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم، فقال لهم ﷺ **أفلا أخبركم بأمر**

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ١٥٠) ونسبه للبزار.

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (١/ ٤٩١).

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٦٢٤)عن مجاهد به وانظره بتخريجنا.

(٤) المصدر السابق (١٠٦٢٥) وانظره بتخريجنا.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصلاة (٤/ ١٣٤ـ النووي) عن أبى سعيد به. وانظر «الأذكار» للنووى (١٢٩ـ بتخريجنا).

تدركون من كان قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم، ولا يأتى أحد بمثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله: تسبحون فى دبر كل صلاة عشراً، وتحمدون عشراً، وتكبرون عشراً».

فجاء الفقراء فقالوا يارسول الله فعلوا مثل ما فعلنا فقال رسول الله ﷺ: **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**[1].

وفى قوله: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ولولا ذاك ما أصاب برحمته أحد، ولاخصّ بفضله أحد.

● **تنبيه: قال القرطبى**[2]: والخطاب له، والمراد غيره. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]:- ظاهر سياق الآية أن الخطاب للرسول ﷺ، وسواء كان خاصاً به أو عاماً له ولغيره؛ فإنَّ بعض العلماء قال: لايصح أن يكون للرسول ﷺ؛ لأنَّ الرسول ﷺ يستحيل أن يقع منه ذلك، والآية على تقدير قل، وهذا ضعيف جداً، وإخراج للآيات عن سياقها.

والصواب: أنَّه إمَّا خاص بالرسول ﷺ والحكم له ولغيره، وإمَّا عام لكل من يصح خطابه ويدخل فيه الرسول ﷺ.

وكونه يوجّه إليه مثل هذا الخطاب لايقتضى أن يكون ممكناً منه، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[4]؛ فالخطاب له ولجميع الرسل، ولا يمكن أن يقع منه باعتبار حاله لا باعتبار كونه إنساناً وبشراً.

إذاً؛ فالحكمة من النَّهى أن يكون غيره متأسياً به، فإذا كان النَّهى موجَّهاً إلى من لايمكن منه باعتبار حاله؛ فهو إلى من يمكن منه من باب أولى اهـ.

● **ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾**[5] **من كلام المفسرين.**

قال ابن جرير الطبرى[6]: القول فى تأويل قوله تعالى: **﴿ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾** يقول تعالى ذكره ولاتدع يامحمد

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٨٤٣)، ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥/ ٩٢ـ النووي) عن أبى هريرة به وانظر «الأذكار للنووي» (١٦٨ـ بتخريجنا).

(٢) الجامع الأحكام القرآن (٥/ ٣٢٢٧).

(٣) «القول المفيد» (١/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٤) الزمر آيه: ٦٥.

(٥) يونس آية: ١٠٦.

(٦) تفسير الطبرى (٧/ ١١/ ١٢٢).

من دون معبودك وخالق شيئاً لا ينفعك فى الدنيا ولا فى الآخرة ولا يضرك فى دين ولادنيا يعنى بذلك الآلهة والأصنام يقول لاتعبدها راجيا نفعها أو خائفا ضرها فإنها لاتنفع ولاتضر فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله فإنك اذًا من الظالمين يقول من المشركين بالله الظالم لنفسه اهـ.

قال ابن الجوزى(١): ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن تركت عبادته. والظالم: الذى يضع الشيء فى غير موضعه. اهـ.

قال الرازى(٢): والممكن لذاته معدوم بالنظر الى ذاته وموجود بايجاد الحق، وإذا كان كذلك فما سوى الحق فلا وجود له إلا بايجاد الحق، وعلى هذا التقدير فلا نافع إلا الحق ولا ضار إلا الحق، فكل شيء هالك إلا وجهه وإذا كان كذلك، فلا حكم إلا لله ولا رجوع فى الدارين إلا إلى الله.

ثم قال فى آخر الآية: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى أو اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله فأنت من الظالمين، لأن الظلم عبارة عن وضع الشيء فى غير موضعه، فإذا كان ما سوى الحق معزولاً عن التصرف، كانت اضافة التصرف إلى ما سوى الحق وضعًا للشيء فى غير موضعه فيكون ظلمًا.

فان قيل: فطلب الشبع من الأكل والرى من الشرب هل يقدح ذلك فى الاخلاص؟

قلنا: لا. لأن وجود الخبز وصفاته كلها بايجاد الله وتكوينه، وطلب الانتفاع بشيء خلقه الله للانتفاع به لا يكون منافياً للرجوع بالكلية الى الله، إلا أن شرط هذا الاخلاص أن لا يقع بصر عقله على شيء من هذه الموجودات إلا ويشاهد بعين عقله أنها معدومة بذواتها. وموجودة بايجاد الحق وهالكة بأنفسها وباقية بابقاء الحق، فحينئذ يرى ما سوى الحق عدما محضاً بحسب أنفسها. ويرى نور وجوده وفيض إحسانه عاليا على الكل. اهـ.

قال القرطبى(٣): ﴿وَلَا تَدْعُ﴾: أى لاتعبد ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن عبدته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن عصيته ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أى عبدت غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى الواضعين العبادة فى غير موضعها. اهـ.

قال ابن كثير(٤): فى تفسير هذه الآية وآيتين قبلها: يقول تعالى لرسوله ﷺ قل يا

(١) زاد المسير (٤/ ٥٤).
(٢) التفسير الكبير (٩/ ١١/ ١٨١).
(٣) تفسير القرطبى (٥/ ٣٢٢٧).
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٩).

أيها الناس إن كنتم فى شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذى أوحاه الله إلىَّ، فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لاشريك له وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التى تدعون من دون الله حقاً، فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرنى، فإنها لاتضر ولاتنفع، وإنما الذى بيده الضر والنفع هو الله وحده لاشريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين. اهـ.

قال ناصر السعدى[1]: قوله: ﴿ **وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ**﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لاينفع ولايضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى: ﴿**فَإِن فَعَلْتَ**﴾ أى دعوت من دون الله مالاينفعك ولايضرك ﴿ **فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ أى من الضَّارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك، كما قال تعالى ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ فإذا كان خير الخلق لو دعا مع الله غيره لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟!! هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده هو المستحق للعبادة لأنه النافع الضار. . . اهـ.

وقال صاحب الظلال[2] **فى قوله تعالى**: ﴿**وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ** ﴾.

لاتدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك من هؤلاء الشركاء والشفعاء، الذين يدعوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر. فإن فعلت فإنك إذن من هؤلاء المشركين! فميز أن الله لايحابى وعدله لايلين. .

﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾.

فالضر نتيجة لازمة لسنة الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه، والخير كذلك. .

فإن مسك الله بضر عن طريق جريان سنته فلن يكشفه عنك إنسان، إنما يكشف باتباع سنته، وترك الأسباب المؤدية إلى الضر إن كانت معلومة، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة. وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سنته فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه. فهذا الفضل يصيب من عباده من يتصلون بأسبابه، وفق مشيئته العامة وسنته الماضية. اهـ.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/٣٣٦).

(٢) «الظلال» (٣/ ١٨٢٥ - ١٨٢٦).

قوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾.

● **التفسير بالقرآن:**

وهذا كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(١).

وكقوله: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾(٢).

لذلك قال ابن عطية: «فإنك إذا من الظالمين» أى المشركين بالله الظالم لنفسه(٣).

● **خلاصة ما ذكر فى تفسير ﴿مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾:-**

(الأول) وضع الشيء فى غير موضعه.

(الثانى) هو الشرك بالله. فهذا من باب اختلاف التنوع لا التضاد، فوضع العبادة فى غير موضعها أى لغير الله هو شرك بالله.

وتوجيه ذلك أن الخطاب للنبى ﷺ ﴿إِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ والمراد غيره كما نقلناه عن القرطبى آنفاً.

قال الشوكانى(٤): ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا جزاء الشرط، أى فإن دعوت من دون الله مالا ينفعك، ولايضرك، فإنك فى عداد الظالمين لأنفسهم، والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره ﷺ. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٥).

هذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٦).

وكقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٧).

---

(١) المؤمنون: ١١٧.
(٢) الشعراء ٢١٣.
(٣) ابن جرير (١١/ ١٧٧).
(٤) فتح القدير (٢/ ٤٩١).
(٥) يونس آيه: ١٠٧.
(٦) الزمر آية: ٣٨.
(٧) فاطر آية: ٢.

● **التفسير من الآثار المرفوعة :**

وقال النبى ﷺ لابن عباس: **إذا سألت فأسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك»**[(١)].

وعن أنس رضى الله عنه «أن رسول ﷺ قال: **«اطلبو الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله تعالى فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن من روعاتكم»**[(٢)].

● **التفسير من الآثار الموقوفة والمقطوعة :**

عن أبى الدرداء رضى الله عنه موقوفاً. مثله سواء. اهـ[(٣)].

عن عامر بن قيس رضى الله عنه قال: ثلاث آيات فى كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق: أولهن: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾ والثانية ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ**﴾ [(٤)] والثالثة ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ [(٥)].

وعن السدى فى قوله: ﴿**وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ**﴾ يقول: بعافية[(٦)].

عن الحسن قال: ثلاث آيات وجدتها فى كتاب الله تعالى اكتفيت بها عن جميع الخلائق ، قوله: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾. اهـ[(٧)].

عن مجاهد: ﴿**فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾: هو الحق[(٨)].

عن سعيد بن جبير ﴿**الْغَفُورُ**﴾ يعنى غفور الذنوب ﴿**الرَّحِيمُ**﴾ يعنى رحيماً بالمؤمنين. اهـ[(٩)].

---

(١) تقدم تخريجه

(٢)تقدم تخريجه.

(٣)ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٧٥) ونسبه لابن أبى شيبة.

(٤) فاطر/ ٢..

(٥) هود/ ٦ .والأثر ذكره السيوطى فى «الدر»(٣/ ٥٧٤) ونسبه للبيهقى فى «الشعب».

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٧٤) ونسبه لأبى الشيخ.

(٧) نفس المصدر السابق.

(٨) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٦٢٦) فانظره بتخريجنا..

(٩) المصدر السابق (١٠٦٢٧).

قال الطبرى(١): القول فى تأويل قوله تعالى: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه وإن يصبك الله يا محمد بشدة أو بلاء فلا كاشف لذلك إلا ربك الذى أصابك به دون ما يعبده هؤلاء المشركون من الآلهة والأنداد وإن يردك بخير يقول وإن يردك ربك برخاء أو نعمة وعافية وسرور فلا راد لفضله يقول فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين ذلك ولايردك عنه ولا يحرمكه لأنه الذى بيده السراء والضراء دون الآلهة والأوثان ودون ماسواه يصيب به من يشاء يقول يصيب ربك يا محمد بالرخاء والبلاء والسراء والضراء من يشاء ويريد من عباده وهو الغفور ولذنوب من تاب وأناب من عباده من كفره وشركه إلى الايمان به وطاعته الرحيم بمن آمن به منهم وأطاعه أن يعذبه بعد التوبة والإنابة(٢). اهـ.

قال البغوى(٢): ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ**﴾ أى يصبك بشدة وبلاء. ﴿**فَلا كَاشِفَ لَهُ**﴾ فلا دافع له ﴿**إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ**﴾ رخاء ونعمة وسعة ﴿**فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾ فلا مانع لرزقه. ﴿**يُصِيبُ بِهِ**﴾ بكل واحد من الضر والخير. ﴿**مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ اهـ.

قال الزمخشرى(٣): أتبع النهى عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لاتنفع ولاتضر أن الله عز وجل هو الضار النافع، الذى إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كلَ أحد فكيف بالجماد الذى لاشعور به؟!. وكذلك إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان؟!

فهو الحقيقة إذاً بأن تتوجه إليه بالعبادة دونها، وهو أبلغ من قوله: ﴿ **إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ**﴾.

● **فإن قلت: لما ذكر المس فى أحدهما، والإرادة فى الثانى؟.**

(قلت): الجواب: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة والإصابة فى كل واحد من الضر والخير، وأنه لا رادَّ لما يريده منهما، ولامزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المس وهو الإصابة فى أحدهما، والإرادة فى الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك على أنه قد ذكر الإصابة بالخير فى قوله تعالى: ﴿ **يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾. اهـ.

---

(١) تفسير الطبرى (٧/١١/١٢٢).
(٢) التفسير الكبير (٩/١٨٣ - ١٨٤).
(٣) «معالم التنزيل» (٣/١٨٨).
(٤) الكشاف (٢/٢٠٥، ٢٠٦)

● مسألة: - قال ابن عثيمين[1]: قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾.

هنا قال: ﴿يُرِدْكَ﴾، وفى الضرّ قال: ﴿يَمْسَسْكَ﴾ فهل هذا من باب تنويع العبارة، أو هناك فرق معنوي؟

الجواب: هناك فـرق معنوى، وهو أن الأشـيـاء المكروهة لاتنسب إلى إرادة الله، بل تنسب إلى فعله؛ أى: مفعوله.

فالمس من فعل الله، والضرّ من مفعولاته؛ فالله لايريد الضر لذاته، بل يريده لغيره؛ لما يترتب عليه من الخير، ولما وراء ذلـك من الحِكَم البالغة، وفى الحديث القدسى: «إن من عبادى من لو أغنيته أفسده الغنى»[2].

أمَّا الخيـر؛ فهـو مراد لله لذاته، ومـفعول لـه، ويقرب من هذا ما فـى سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

فـإذا أصـيب الإنسـان بمرض؛ فالله لـم يرد به الضـرر لذاته، بل أراد المرض، وهو يضره، لكن لم يرد ضـرره، بل أراد خيراً من وراء ذلك، وقـد تكون الحكمة ظاهرة فى نفس المصاب، وقد تكون ظاهرة فى غيره؛ كما قال تعالى: ﴿واتقوا فتنة لاتصبين الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾.

فالمهمّ أنّه ليس لنا أن نتحجَّر حكمـة الله؛ لأنَّها أوسع من عقولنا، لكننا نعلم علم اليقين أنّ الله لا يريد الضـرر لأنَّه ضرر؛ فالضرر عند الله ليس مـراداً لذاته، بل لغيره، ولا يترتَّب عليه إلاَّ الخـير، أمَّا الخير؛ فهو مراد لذاته، ومـفعول له، والله أعلم بما أراد بكلامه، لكن هذا الذى يتبيَّن لى أهـ.

[قلت] وقد تقدم جواب آخر: من كلام الزمخشرى وهو: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة، والإصابة فى كل واحد من الـضر والخير إلى أن قال: فأوجز الكلام بأن ذكر المس وهو الإصابة فى أحدها والإرادة فى الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك.

وتقدم جواب ثالث: ذكره الشوكانى وسيأتى فانظره.

وأولى الأجوبة الثلاثـة بالصواب الجواب الأول لما عليه من أدلة متـواترة من الكتاب السنة. والله أعلم.

قال ابن الجوزى[3]: وإن يصبك بخير، أى برخاء ونعمـة وعافية، فلا يقدر أحد أن يمنعك إياه. ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أى بكل واحد من الضر والخير.

(١) القول المفيد (١/ ٣٤٢، ٣٤٣). (٢) أخرجه الطبرانى من حديث أنس.

(٣) زاد المسير (٤/ ٥٤).

قال الرازى(١): فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه سبحانه وتعالى قرر فى آخر هذه السورة أن جميع الممكنات مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة إليه، والعقول والهة فيه، والرحمة والجود والوجود فائض منه.

واعلم أن الشىء إما أن يكون ضاراً وإما أن يكون نافعاً، وإما أن يكون لاضاراً ولا نافعاً. وهذان القسمان مشتركان فى اسم الخير، ولما كان الضر أمرًا وجودياً لاجرم قال فيه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ولما كان الخير قد يكون وجودياً وقد يكون عدمياً، لاجرم لم يذكر لفظ الأمساس فيه بل قال: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ والآية دالة على أن الضر والخير واقعان بقدرة الله تعالى وبقضائه فيدخل فيه الكفر والإيمان والطاعة والعصيان والسرور والآفات والخيرات والآلام واللذات والراحات والجراحات، فبين سبحانه وتعالى أنه إن قضى لأحد شراً فلا كاشف له إلا هو، وإن قضى لأحد خيراً فلا راد لفضله ألبتة ثم فى الآية دقيقة أخرى، وهى أنه تعالى رجح جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه تعالى لما ذكر إمساس الضربين أنه لا كاشف له إلا هو، وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار لأن الاستثناء من النفى إثبات، ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال إنه لاراد لفضله، وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات، وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال النبى ﷺ رواية عن رب العزة أنه قال: «**سبقت رحمتى غضبى**»(٢).

الثانى: أنه تعالى قال فى صفة الخير ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وذلك يدل على أن جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب.

والثالث: أنه قال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وهذا أيضا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام فى هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والايجاد والتكوين والابداع، وأنه لا موجد سواه ولا معبود إلا إياه، ثم نبه على أن الخير مراد بالذات، والشر مراد بالعرض وتحت هذا الباب أسرار عميقة، فهذا ما نقوله فى هذه الآية.

المسألة الثانية: قال المفسرون: إنه تعالى لما بين فى الآية الأولى فى صفة الأصنام أنها لاتضر ولا تنفع، بين فى هذه الآية أنها لا تقدر أيضاً على دفع الضرر الواصل من الغير، وعلى الخير الواصل من الغير، قال ابن عباس رضى الله عنهما: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ يعنى بمرض وفقر فلا دافع له الا هو.

---

(١) التفسير الكبير (٩/ ١١/ ١٨٣ - ١٨٤).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣١٩٤)، ومسلم فى التوبة (٦/ ١٧ـالنووي) وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٣٤١).

وأما قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ فقال الواحدى: هو من المقلوب معناه وإن يرد بك الخير ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالاخر جاز إبدال كل واحد منهما بالآخر، وأقول التقديم فى اللفظ يدل على زيادة العناية فقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يدل على أن المقصود هو الانسان وسائر الخيرات مخلوقة لأجله. فهذه الدقيقة لاتستفاد إلا من هذا التركيب. اهـ.

قال القرطبى(1): ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده وخطاياهم. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه فى الآخرة. اهـ.

قال ابن كثير(2): فيه بيان لأن الخير والشر، والنفع والضر، إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لايشاركه فى ذلك أحد، فهو الذى يستحق العبادة لاشريك له. ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى لمن تاب إليه، وتوكل عليه، ولو من أى ذنب كان حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه. اهـ.

قال الشوكانى(3): عبر بالفضل مكان الخير، للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لايستحقونه بأعمالهم. اهـ.

أى فى قوله تعالى: ﴿فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾.

ثم قال الشوكانى: قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ هو من القلب، وأصله، وإن يرد بك الخير، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز أن يكون كل واحد منهما مكان الآخر.

قال النيسابورى: وفى تخصيص الإرادة بجانب الخير، والمس بجانب الشر دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات، والشر بالعرض.

[قلت] - أى الشوكانى: - وفى هذا نظر، فإن المس هو أمر وراء الإرادة، فهو مستلزم لها.

والضمير فى قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ راجع إلى فضله. اهـ.

وهو ما قاله الزمخشرى أيضاً كما تقدم.

[قلت] وسبق أن بعض المفسرين قالوا: الضمير يرجع إلى الشر والخير.

ولعل الشوكانى قال ذلك لما ترجح عنده. من كلام أهل اللغة أن الضمير يعود على أقرب مذكور، وفيها خلاف مشهور.

(1) تفسير القرطبى (5/3227).
(2) تفسير ابن كثير (2/419).
(3) فتح القدير (2/491).

● **تعليقات شُرَّاح كتاب التوحيد على الآية:**

قال سليمان آل الشيخ[1]: والأحاديث والآثار فى ذلك لا يحيط بها إلا الله تعالى؛ فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات، بل هو أكرمها على الله كما تقدم؛ فإن لم يكن الإشراك فيه - أى الدعاء - شركاً فليس فى الأرض شرك، وإن كان فى الأرض شرك فالشرك فى الدعاء أولى أن يكون شركاً من الإشراك فى غيره من أنواع العبادة، بل الإشراك فى الدعاء - هو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله، ولهذا يخصلون فى الشدائد لله وينسون ما يشركون، حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد فى البحر يلقون أصنامهم فى البحر ويقولون: يا الله يا الله، لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تجيب المضطر. وقال تعالى: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾[2] فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده، وأن آلهتهم ليس عندها شىء من ذلك، ولهذا احتج سبحانه وتعالى عليهم بذلك على أنه هو الإله الحق، وعلى بطلان إلهية ما سواه.

وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾[3] فهذه حال المشركين الأولين.

وأما عبادة القبور اليوم فلا إله إلا الله، كم ذا بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم فى الشرك؛ فإنهم إذا أصابتهم الشدائد براً وبحراً أخلصوا لآلهتهم وأوثانهم التى يدعونها من دون الله، وأكثرهم قد أتخذ ذكر إلهه وشيخه ديدنه وهِجِّيراه[4] إن قام وإن قعد وإن عثر. هذا يقول: ياعلى، وهذا يقول: يا عبد القادر، وهذا يقول: يابن علوان، وهذا يدعو البدوى، وهذا يدعو العيدروس.

وبالجملة ففى كل بلد فى الغالب أناس يدعونهم ويسألونهم، قضاء الحاجات وتفريج الكربات بل بلغ الأمر إلى أن سألوهم مغفرة الذنوب وترجيح الميزان، ودخول الجنة والنجاة من النار، والتثبيت عند الموت والسؤال، وغير ذلك من أنواع المطالب التى لاتطلب إلا من الله.

وقد يسألون ذلك من أناس يدَّعون الولاية، وينصبون أنفسهم لهذه الأمور وغيرها من أنواع النفع والضر التى هى خواص الإلهية، ويلفقون لهم من الأكاذيب فى ذلك عجائب.

(١) تيسير العزيز الحميد (١٥٩ - ١٦٦).

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٢.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٤) أى: دأبه وشأنه وعادته.

منها: أنهم يدعون أنهم يخلصون من التجأ إليهم ولاذ بحماهم من النار والعذاب، فيقول أحدهم: إنه يقف عند النار فلا يدع أحداً ممن يرتجيه ويدعوه يدخلها أو نحو هذا، وقد قال تعالى لسيد المرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾(١) فإذا كان النبى ﷺ لا يقدر على تخليص أحد من النار، فكيف بغيره، بل كيف بمن يدعى نفسه أنه هو يفعل ذلك؟

ومنها: أن أكثرهم يلفق حكايات فى أن بعض الناس استغاث بفلان فأغاثه، أو دعا الولى الفلانى فأجابه، أو فى كربة ففرج عنه، وعند عباد القبور من ذلك شيء كثير من جنس ما عند عباد الأصنام الذين استولت عليهم الشياطين، ولعبوا بهم لعب الصبيان بالكرة، ويوجد شيء من ذلك فى أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ الذين جاوزوا الحد فى مدحه ﷺ وعصوه فى نهيه من الغلو فيه، وإطرائه كما أطرت النصارى ابن مريم، وصار حظهم منه ﷺ هو مدحه بالأشعار والقصائد، والغلو الزائد، مع عصيانهم له فى أمره ونهيه؛ فتجد هذا النوع من أعصى الخلق له صلوات الله عليه وسلامه. ويقع من ذلك كثير فى مدح غيره، فإن عباد القبور لا يقتصرون على بعض من يعتقدون فيه الضر والنفع، بل كل من ظنوا فيه ذلك بالغوا فى مدحه وأنزلوه منزلة الربوبية وصرفوا له خالص العبودية، حتى إنهم إذا جاءهم رجل وادعى أنه رأى رؤيا مضمونها أنه دفن فى المحل الفلانى رجل صالح، بادروا إلى المحل وبنوا عليه قبة وزخرفوها بأنواع الزخارف، وعبدوها بأنواع من العبادات.

وأما القبور المعروفة أو المتوهمة، فأفعالهم معها وعندها لايمكن حصرها، فكثير منهم إذا رأوا القباب التى يقصدونها كشفوا الرؤوس فنزلوا عن الأكوار، فإذا أتوها طافوا بها واستلموا أركانها، وتمسحوا بها، وصلوا عندها ركعتين، وحلقوا عندها الرؤوس ووقفوا باكين متذللين متضرعين سائلين مطالبهم، وهذا هو الحج، وكثير منهم يسجدون لها إذا رأوها، ويعفرون وجوههم فى التراب تعظيماً لها، وخضوعاً لمن فيها فإن كان، لإنسان منهم حاجة من شفاء مريض أو غير ذلك، نادى صاحب القبر، ياسيدى فلان جئتك قاصداً من مكان بعيد، لاتخيبنى، وكذلك إذا قحط المطر أو عقرت المرأة عن الولد أو دهمهم عدو أو جراد، فزعوا إلى صاحب القبر وبكوا عنده فإن جرى المقدور بحصول شيء مما يريدون، استبشروا وفرحوا ونسبوا ذلك إلى صاحب القبر، فإن لم يتيسر شيء من ذلك اعتذروا عن صاحب القبر بأنه إما غائب فى مكان آخر، أو ساخط لبعض أعمالهم، أو أن اعتقادهم فى أولى ضعيف، أو أنهم لم يعطوه نذره ونحو هذه الخرافات.

(١) سورة الزمر، الآية: ١٩.

ومن بعض أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ قول البوصيري:

يا أكـرم الخلــق مـا لـى من ألوذ به ... ســواك عند حلــول الحـادث العـمم
ولن يضـيق رســول الله جـاهـك بي ... إذا الكــريم تحلى باســم منتــقــم
فإن لـــى ذمــة منـه بتسميـتي ... محمـــداً وهـــو أوفـــى الخلـق بالذمم
إن لم يكن فـى مـعـادى آخـذاً بيــدي ... فـضـــلاً وإلا فـقــل يا زلـة القـــدم

فتأمل ما فى هذه الأبيات من الشرك.

منها: أنه نفى أن يكون له مـلاذًا إذا حلت به الحـوادث، إلا النبى ﷺ، وليس ذلك إلا لله وحده لاشريك له، فهو الذى ليس للعباد ملاذ إلا هو.

الثانى: أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والإضطرار إليه، وسأل منه هذه المطالب التى لاتطلب إلا من الله، وذلك هو الشرك فى الإهية.

الثالث: سؤاله منه أن يشفع له فى قوله:

ولن يضيق رسول الله جاهك بى ... إذا الكـريم تحلى باسم منتقم

وهذا هو الذى أراده المشركـون ممن عبدوه، وهو الجاه والشفـاعة عند الله، وذلك هو الشرك وأيضاً فإن الشفاعة لاتكون إلا بعد إذن الله، فلا معنى لطلبها من غيره، فإن الله تعالى هو الذى يأذن للشافع أن يشفع لأن الشافع يشفع ابتداء.

الرابع: قوله: فإن لى ذمة... إلى آخره.

كذب على الله وعلى رسوله ﷺ فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة، لا بمجرد الإشراك فى الاسم مع الشرك.

الخامس قوله:

إن لم يكن فى معادى آخذاً بيدى ... فضلاً وإلا فقل يازلة القدم

تناقض عظيم وشرك ظاهر، فإنه طلـب أولاً أن لا يضيق به جاهه، ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلاً وإحساناً، وإلا فيا هلاكه.

فيقال: كيف طلبت منه أولاً الشـفاعة ثم طلبت منه هنا أن يتفـضل عليك فإن كنت تقول: إن الشـفاعـة لاتكون إلا بعد إذن الله، فيـكف تدعو النبى ﷺ وترجـوه وتسأله

الشفاعـة؟ فهلا سألتـها من له الشفاعـة جميعاً الذى له ملـك السموات والأرض الذى لاتكون الشفاعة إلا من بعد إذنه؟! فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله.

وإن قلت: ما أريد إلا جاهه، وشفاعته بإذن الله.

قيل: فكيف سألته أن يتـفضل عليك ويأخذ بيدك فى يوم الدين، فهذا مـضاد لقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ**﴾(١) فكيف يجتمع فى قلب عبد الإيمان بهذا وهذا.

وإن قلت: سألته أن يأخذ بيدي، ويتفضل عليَّ بجاهه وشفاعته.

قيل: عاد الأمر إلى طلب الشفاعة من غير الله، وذلك هو محض الشرك.

السادس: فى هذه الأبيات من التبـرى من الخالق - تعالى وتقدس - والاعـتماد على المخلوق فى حـوادث الدنيـا والآخرة مـا لايخفى عـلى مؤمـن، فـأيـن هـذا مـن قـولـه تعالـى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾(٢).

وقوله تعالـى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾(٣).

وقوله: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا**﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا * قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ**﴾(٥).

فإن قيل: هو لم يسـأله أن يتفـضل عليـه، وإنما أخبـر أنه إن لم يدخل فى عمـوم شفاعته فيا هلاكه.

قيل: المراد بذلك سؤاله، وطلب الفضل منه، كما دعاه أول مرة وأخبر أنه لا ملاذ له سواه، ثم صرح بسـؤال الفضل والإحسان بصيـغة الشرط والدعاء، والسـؤال كما يكون بصيغة الطلب يكون بصيغـة الشرط كما قال نوح عليه السلام: ﴿**وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ**﴾(٦).

(١) سورة الانفطار، الآية: ١٧ - ١٩.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٤.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.
(٥) سورة الجن، الآيات: ٢١ - ٢٣.
(٦) سورة هود، الآية: ٤٧.

ومن شعر البرعى قوله:

مـاذا تـعـالم يا شـمس النبـوة من / أضحى إليك من الأشواق فى كبدي
فـامنع جناب صـريع لاصريخ له / نائى المزار غـريب الدار مـبتعدي
حليف ودك واه الصـبـر منتظر / لغـارة منك يا ركنى ويا عـضدي
أسـيـر ذنبى وزلاتى ولا عـمل / أرجـو النجـاة به إن أنت لم تجد

وجرى فى شركه إلى أن قال:

وحل عـقدة كـربى يا محمد من / هم على خطرات القلب مطرد
أرجوك فى سكرات الموت تشهدني / كيمـا يهون إذ الأنفاس فى صعد
وإن نزلت ضـريحـاً لا أنيس به / فكن أنيس وحيد فيه منفرد
وارحم مـؤلفها عبد الرحيم ومن / يليه من أجله وانعشه وافتقد
وإن دعـا فـأجـبه واحم جـانبه / من حـاسد شـامت أو ظالم نكد

وقوله من أخرى:

يـارسـول الله يـا ذا الفـضل يا / بهجة الحشر جاهاً ومقاماً
عـد على عبد الرحيم الملتجي / بحمى عـزك يا غـوث اليتامى
وأقلنى عـثرتى ياسـيـدي / فى اكتساب الذنب فى خمسين عاماً

وقوله:

يا سـيدى يارسـول الله يا أملي / يا مـوئلى يا مـلاذى يوم يلقاني
هبنى بجاهك مـا قدمت من زلل / جـوداً ورجح بفضل منك ميزاني
واسمع دعائى واكشف ما يساورني / من الخطوب ونفس كل أحـزاني
فـأنت أقـرب من ترجى عـواطفه / عندى وإن بعـدت دارى وأوطاني
إنى دعـوتك من نيـابتى برع / وأنت أسـمع من يدعـوه ذو شان
فـامنع جنابى وأكـرمنى وصل نسبي / برحـمـة وكـرامـات وغـفـران

● لقد أنسانا هذا ما قبله، **وهذا بعينه هو الذى ادعته النصارى فى عيسى عليه السلام**، إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله، وهذا لم يطلقه ولكن أتى بلباب دعواهم وخلاصتها، وترك الاسم، إذ فى الاسم نوع تمييز، فرأى الشيطان أن الإتيان بالمعنى دون الاسم أقرب إلى ترويج الباطل، وقبوله عند ذوى العقول السخيفة، إذ كان من المتقرر عند الأمة المحمدية أن دعوى النصارى فى عيسى عليه السلام كفر. فلو أتاهم بدعوى النصارى اسما ومعنى لردوه وأنكروه، فأخذ المعنى وأعطاه البرعي وأضرابه. وترك الاسم للنصارى وإلا فما ندرى ماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث للخالق تعالى وتقدس من سؤال مطلب أو تحصيل مأرب، فالله المستعان وهذا كثير جداً في أشعار المادحين لرسول الله ﷺ، وهو حجة أعداء دينه الذين يجوزون الشرك بالله، ويحتجون بأشعار، هؤلاء، ولم يقتصروا أيضاً على طلب ذلك من النبى ﷺ، بل يطلبون مثل ذلك من غيره، كما حدث بعض الثقات أنه رأى فى رابية صاحب مشهد من المشاهد: هذه راية البحر التيار، به أستغيث، وأستجير، وبه أعوذ من النار.

وقال بعضهم من قصيدة فى بعض آلهتهم:

يا سيدى ياصفى الدين ياسندي ... يا عمدتى بل ويا ذخرى ومفتخري
أنت الملاذ لما أخشى ضرورته ... وأنت لى ملجأ من حادث الدهر

إلى أن قال:

وامنن عليَّ بتوفيق وعافية ... وخير خاتمة مهما انقضى عمري
وكف عنا أكف الظالمين إذا امتدت ... بسوء لأمر مؤلم نكرى
فإننى عبدك الراجى بودك ما ... أملته ياصفى السادة الغرر

قال بعض العلماء: فلا ندرى أى معنى اختص به الخالق تعالى بعد هذه المنزلة، وماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث لخالقه من الأمر، فإن المشركين أهل الأوثان ما يؤهلون من عبدوه لشيء من هذا. انتهى.

وكثير من عباد القبور ينادون الميت من مسافة شهر وأكثر يسألونه حوائجهم، ويعتقدون أنه يسمع دعاءهم ويستجيب لهم، ونسمع عنهم حال ركوبهم البحر واضطرابه من دعاء الأموات والاستغاثة بهم ما لا يخطر على بال، وكذلك إذا أصابتهم الشدائد،

من مرض، أو كسوف، أو ريح شديدة، أو غـير ذلك، فالولى فى ذلك نصب أعينهم، والاستغاثة به هى ملاذهم. ولو ذهبنا نذكر ما يشبه هذا لطال الكلام. اهـ.

● **فائدة:**

قال حامد بـن محمد[(١)]: فإن قلتَ: ربما يحـصل بدعوة غـير الله والاستـغاثة به مقصود الداعى ويظن هذا من كرامات المدعو؟

قلتُ: هذا من جنس ما يفعله الشياطين لعبدة الأوثان حيث تتراءى أحياناً لمن يعبدها وتخاطبهم بـبعض الأمور الغائبة، وتقـضى بعض الطلبات. وقد وقع من هذا كـثير فى المتأخرين وأتباعهم.

ثم قـال: أضلتـهم الشيـاطين بذلك كـمـا كانت تـضل عباد الأصـنـام بمثـل هـذه الأحـوال اهـ.

قال عـبد الله بـن جار الله[(٢)]: يخبـر الله تعالى أنه المنفرد بالـعطاء والمنع، والضر والنفع، دون سواه، فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده، والمعبود وحده. اهـ.

قال عبد العزيز باز[(٣)]: فبين الله أن من دعا من دون الله مالا ينفع ولايضر، وهذا وصف عام لجميع المخلوقـات التى لاتنفع ولاتضر استقلالاً. ونفعـها وضرها بالله وحده وأن من دعا غير الله فـهو مشرك. ويستثنى من ذلك دعاء الحى القـادر فهذا ليس بشرك بإجماع المسلمين يدعوه ليحمل معه أو يسلفه، أو . . أهـ.

قال ابن عثيمين[(٤)]: وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

الدعاء: طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضر، وهو نوعان كما قال أهل العلم:

الأول: دعاء عبـادة، وهو أن يكون قائماً بأمر الله؛ لأنَّ القـائم بأمر الله - كالمصلي، والصائم، والمزكى - يريـد بذلك الثواب والنجاة من العـقاب، ففـعله متضـمِّن للدعاء بلسان الحال، وقد يصحب فعله دعاء بلسان المقال.

الثاني: دعاء مسألة، وهو طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضره.

فالأول لا يجوز صرفه لغير الله، والثانى فيه تفصيل سبق أهـ.

فى أول الباب فى تقسيم الدعاء.

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٤٤).

(٢) الجامع الفريد (٦٠).

(٣) التعليق المفيد (٩١، ٩٢).

(٤) القول المفيد (١/٣٣٨، ٣٣٩).

ثم قال ابن عثيمين قوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: سوى الله.

قوله: ﴿مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾.

﴿مَا لا يَنفَعُكَ﴾، أي: مالايجلب لك النفع لو عبدته ﴿وَلا يَضُرُّكَ﴾ قيل: لا يدفع عنك الضرّ، وقيل: لو تركت عبادته لا يضرّك؛ لأنَّه لايستطيع الانتقام، وهو الظاهر من اللفظ.

وقوله: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾؛ أي: لأنَّه لاينفعك ولا يضرك.

● **تنبيه:**

وهذا القيد ليس شرطاً بحيث يكون له مفهوم؛ فيكون لك أن تدعو من ينفعك ويضرّك، بل هو لبيان الواقع؛ لأن المدعو من دون الله لا يحصل منه نفع ولا ضرر، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

ومن القيد الذي ليس بشرط، بل هو لبيان الواقع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

فإن قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ لبيان الواقع؛ إذ ليس هناك ربّ ثانٍ لم يخلقنا والذين من قبلنا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم﴾؛ فهذا بيان للواقع الأغلب.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1]؛ فهذا بيان للواقع؛ إذ دعاء الرسول ﷺ إيّانا كله لما يحيينا.

وكل قيد يُراد به بيان الواقع؛ فإنَّه كالتَّعليل للحكم؛ فمثلاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[2]؛ أي: اعبدوه لأنَّه خلقكم.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: لأنَّه لايدعوكم إلا لما يحييكم.

(١) الأنفال: ٢٤. (٢) البقرة: ٢١.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ أي: لأنَّه لاينفعك ولايضرك، فعلى هذا لايكون هذا القيد شرطاً، وهذه يسمّيها بعض الناس صفة كاشفة. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾.

قال الجصاص: وفي هذا دلالة على أن المخصوص بالذكر لايدل على أن ما عداه بخلافه لأنه لو كان كذلك لوجب أن يكون ذكر تحريم الربا أضعافاً مضاعفة دلالة على إباحته إذا لم يكن أضعافاً مضاعفة أهـ(*).

قوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

أي: إن دعوت من دون الله مالا ينفعك ولايضرّك.

والخطاب للرسول ﷺ.

و﴿إن﴾: شرطية، وجواب الشرط جملة: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾.

و﴿إذًا﴾؛ أي: حال فعلك من الظالمين، وهو قيد؛ لأنَّ ﴿إذًا﴾ للظرف الحاضر، أي: فإنَّك حال فعله من الظالمين، لكن قد تتوب منه فيزول عنك وصف الظلم؛ فالإنسان قبل الفعل ليس بظالم، وبعد التوبة ليس بظالم، لكن حين فعل المعصية يكون ظالماً كما قال ﷺ: «**لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»(٢)؛ فنفى الإيمان عنه حال الفعل.

ونوع الظلم هنا ظلم شرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٣)، وعبر الله بقوله: ﴿مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقل: من المشركين؛ لأجل أن يبيِّن أنَّ الشرك ظلم؛ لأنَّ كون الداعي لغير الله مشركاً أمر بيِّن، لكن كونه ظالماً قد لايكون بيِّناً من الآية.

● **الآية الثانية قوله:** ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾.

أي: يصبك بضرٍّ؛ كالمرض، والفقر، ونحوه.

قوله: ﴿فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾.

﴿لاَ﴾: نافية للجنس، واسمها: ﴿كَاشِفَ﴾، وخبرها: ﴿لَهُ﴾، و﴿إِلاَّ هُوَ﴾ بدل، وإن قلنا بجواز كون خبرها معرفة صار ﴿هُوَ﴾ الخبر.

(*) أحكام القرآن ٢/ ٥٥ .
(١) يونس: ١٠٧ .
(٢) سبق تخريجه.
(٣) لقمان: ١٣

أي: ما أحد يكشفه أبداً إذا مسَّك الله بضرٍّ إلا الله، وهذا كقول النبي ﷺ: «واعلم أنَّ الأمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلاَّ بشيءٍ قد كتبه الله لك»(١).

قوله: ﴿فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾.

أي: لايستطيع أحد أن يرد فضل الله أبداً، ولو اجتمعت الأمَّة على ذلك، وفي الحديث: «اللهم! لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطى لما مَنعت»(٢).

وعليه؛ فنعتمد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، وبقاء ما أنعم علينا به، ونعلم أنَّ الأمَّة مهما بلغت من المكر والكيد والحيل لتمنع فضل الله؛ فإنَّها لاتستطيع.

قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

الضمير إمَّا أن يعود إلى الفضل؛ لأنَّه أقرب، أو إلى الخير؛ لأنَّه هو الذي يتحدّث عنه، ولا يختلف المعنى بذلك.

قوله: ﴿مَن يَشَاءُ﴾.

كل فعل مقيّد بالمشيئة؛ فإنَّه مقيد بالحكمة؛ لأنَّ مشيئة الله ليست مجردة يفعل ما يشاء لمجرد أنه يفعله فقط؛ لأنَّ من صفات الله الحكمة، ومن أسمائه الحكيم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾(٣).

قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾.

العبودية هنا عامّة؛ لأنَّ قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾ يشمل خير الدنيا والآخرة، وخير الدنيا يصيب الكفّار.

قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: ذو المغفرة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر، وهو ما يُتّقى به السّهام، والمغفر فيه ستر ووقاية.

والرحيم؛ أي: ذو الرحمة، وهي صفة تليق بالله - عز وجل -، تقتضي الإحسان والإنعام.

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) الإنسان: ٣٠.

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(١).

الشاهد قوله: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾؛ فقد نبه الله نبيه أن من يدعو أحداً من دون الله (أي: من سواه) لا ينفعه ولا يضرّه.

قال القرعاوى(٢): الفوائد: ﴿ أى من الآية﴾.

(١) أن جلب النفع ودفع الضر من خصائص الله عز وجل.

(٢) أن من دعا غير الله معتقداً أنه يملك النفع والضر دون الله فقد أشرك.

(٣) اعتبار الشرك ظلماً. اهـ.



قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية.

● **مناسبة الآية للباب:**

قال عبد الله بن جار الله(٣): هى أن الله أمر بطلب الرزق من عنده وحده دون سواه؛ لأنه القادر عليه، فمن طلبه من غيره ممن لا يقدر عليه فقد أشرك به. اهـ.

● **التفسير بالقرآن:**

وهذه كقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾(٤).

وكقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(٥).

وكقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٦).

وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾(٧).

---

(١) العنكبوت آية: ١٧.

(٢) «الجديد» (١٢٥).

(٣) «الجامع الفريد» (٦١).

(٤) الذاريات: ٥٦ - ٥٨.

(٥) الطلاق: ٢ - ٣.

(٦) الأعراف: ٩٦.

(٧) المائدة: ٦٦.

[قلت]: فهذه الآيات كالآية التى أوردها المصنف تربط بين الطاعة والرزق وتبين أن الطاعة والعبادة لله من أعظم أسباب الرزق وليس الشرك، بل يبين الله - عز وجل - فى كتابه أن الشرك من أسباب محق البركة كقوله تعالى فى صاحب الجنتين﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ وقال أيضًا فى قصة سبأ: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾.

وقال ﷺ فى الحديث القدسى: «يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم»[1].

قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾.

كقوله: ﷺ فى الحديث القدسى: «إنى والأنس والجن لفى نباءٍ عظيم، أخلق ويعبد غيرى وارزق ويشكر سواى»[2].

وإذا أضاف الله الشكر له متعدياً باللام فهو إشارة إلى الإخلاص أى إشكروا نعمة الله، وقد تقدم تفسير الشكر وأنه يكون بالقلب واللسان والجوارح، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. فبينا أنه القيام بطاعة الله، وبينا الفرق بينه وبين الحمد.

● **تنبيه: قال ابن عثيمين**[3]: لو أتى المؤلف بأول الآية، لكان أولى. اهـ.

وسيأتى كلامه فى موضعه إن شاء الله وقدر.

الأعراب: - قال محيى الدين درويش[4]: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ (إن) وإسمها وجملة (تعبدون) صلة (ومن دون الله) حال وجملة (لا يملكون) خبر (إن) (ولكم) متعلقات (برزقاً) (ورزقاً) مفعول به (ليملكون) لأنه بمعنى المرزوق أو مصدر مؤول من (إن) والفعل أن لايقدرون أن يرزقوكم ويجوز نصبه على المصدر وناصبه(لايملكون) لأنه فى معناه. ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(الفاء) الفصيحة(وابتغوا) فعل أمر وفاعل(وعند الله) متعلقان

(١) تقدم تخريجه .
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «القول المفيد» (١/ ٣٤٤).
(٤) الإعراب (٧/ ٤١٤).

(بابتغـوا) و(الرزق) مفـعول (ابتغـوا) و(اعبـدوه واشكروا له) عطف على (ابتغـوا إليه) متعلقان (بترجعون) (وترجعون) فعل مضارع مبنى للمجهول (والواو) نائب فاعل. اهـ.

● **ما جاء من كلام أهل التفسير فيها:**

قال الطبرى(١): يقـول جل ثناؤه أن أوثانكم التى تعبـدونها، لاتقـدر أن ترزقكم شيئاً ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ يقول: فـالتمسـوا عند الله الرزق، لا من عند أوثانكم تدركوا ماتبتغون من ذلك ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ يقول: وذلوا له ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ على رزقه إياكم ونعمه التى أنعمهـا عليكم. يقال شكرته، وشكرت له أفصح من شكرته. وقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: إلى الله تردّون من بعد مماتكم فـيسألكم عما أنتم عليـه من عبادتكم غيره، وأنتم عباده وخلقه، وفى نعمه تتقلبون، ورزقه تأكلون. اهـ.

روى ابن أبى حاتم بسنده إلى قـتادة: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قال: كرامة أكرمكم الله بها، فاشكروا لله نعمه(٢).

وبسنده إلى محمد بن كعب القرظي: إن كل عَمَلٍ عُمِلَ لله فهو شكر لأنعم الله(٣). اهـ.

قال البغوى(٤): فى قـوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لا يقـدرون أن يـرزقـوكم ﴿فَابْتَغُوا﴾ فاطلبوا. اهـ.

● **فائدة:**

قال الزمخشرى(٥): فإن قلتَ: **لم نكر الرزق ثم عـرفه - أى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾-؟.**

قلت: لأنه أراد لا يستطيـعون أن يرزقوكم شيـئاً من الرزق، فابتـغوا عند الله الرزق كله، فإنه هو الرزاق وحده لايرزق غيره. اهـ.

---

(١) تفسير الطبرى (١٠/ ٢١/ ٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٧٢١٧) وانظره بتخريجنا.

(٣) المصدر السابق (١٧٢١٨) وانظره بتخريجنا.

(٤) معالم التنزيل (٤/ ٣٧٠).

(٥) الكشاف (٤/ ١٨٦ - ١٨٧).

وعقب الرازى[1] **على قول الزمخشرى أنه**: نكرة فى معرض النفى، أى لارزق عندهم أصلاً، وقال معرفة عند الإثبات عند الله، أى كل الرزق عنده فاطلبوه منه. وفيه وجه آخر: وهو أن الرزق من الله معروف بقوله: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾، والرزق من الأوثان غير معلوم، فقال: ﴿**لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا**﴾ لعدم حصول العلم به أهـ.

قال ابن الجوزى[2]: والمعنى: تعبدون أصناماً أنتم تصنعونها، ثم بيَّن عجزهم بقوله: ﴿**لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا**﴾ أى لايقدرون على أن يرزقوكم. ﴿**فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ**﴾ أى فاطلبوا من الله، فإنه القادر على ذلك. اهـ.

قال الرازى[3]: قوله: ﴿**وَاعْبُدُوهُ**﴾ أى اعبدوه؛ لكونه مستحقاً للعبادة لذاته، ﴿**وَاشْكُرُوا لَهُ**﴾ أى لكونه سابق النعم للخلق، وواصلها بالرزق. اهـ.

قال القرطبى[4]: قوله: ﴿**لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ**﴾ أى اصرفوا رغبتكم فى أرزاقكم إلى الله، فإياه فاسألوه وحده دون غيره اهـ.

وقريب من هذه الأقوال قول ابن كثير[5]، وذكر الشوكانى ذكر نحو قول القرطبى.

قال السعدى[6]: قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ فى نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته. ثم قال: فقال: ﴿**فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ**﴾ حاثاً لهم على من يستحق العبادة، فإنه هو الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه. ﴿**وَاعْبُدُوهُ**﴾ وحده لاشريك له... اهـ.

● **فائدة دعوية.**

هذه الآية التى ذكرها المصنف هنا مع ما قبلها وما بعدها من سورة العنكبوت، تظهر فائدة، بل قاعدة يستند إليها الداعى فى دعوته، وقد أحسن فى إظهار هذه الفائدة صاحب الظلال، حيث قال:

وبعد قصة نوح يطوى السياق القرون حتى يصل إلى الرسالة الكبرى. رسالة إبراهيم: ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** (١٦)

---

(١) التفسير الكبير (١٣/ ٤٥ - ٤٦).

(٢) زاد المسير (٦/ ١٣٢).

(٣) الموضع السابق له.

(٤) تفسير القرطبى (٧/ ٥٠٥٢).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٥).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٩).

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾.

لقد دعاهم دعوة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض؛ وهى مرتبة فى عرضها ترتيباً دقيقاً يحسن أن يتملاه أصحاب الدعوات.

لقد بدأ ببيان **حقيقة الدعوة** التى يدعوهم إليها: **«اعبدوا الله اتقوه»**..

ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إليهم) وما تتضمنه من الخير لهم، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير: **﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**.

وفى هذا التعقيب ما يحفزهم إلى نفى الجهل عنهم، واختيار الخير لأنفسهم) وهو فى الوقت ذاته حقيقة عميقة لامجرد تهييج خطابى!

وفى **الخطوة الثالثة** بين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه:

أولها: أنهم يعبدون من دون الله أوثاناً والوثن: التمثال من الخشب - وهى عبادة سخيفة، وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله.

وثانيها: أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل، وإنما يخلقون إفكاً وينشئون باطلاً يخلقونه خلقاً بلا سابقة أو مقدمة وينشئونه إنشاء من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة.

وثالثها: أن هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعاً، ولا ترزقهم شيئاً: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾**.

وفى الخطوة الرابعة: يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق. الأمر الذى يهمهم ويمس حاجتهم: **﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾**.

والرزق مشغلة النفوس وبخاصة تلك التى لم يستغرقها الإيمان، ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الكامنة فى النفوس.

وفى النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم. ليعبدوه ويشكروه: **﴿واعبدوه واشكروا له﴾**.

وأخيراً يكشف لهم أنه لامفر من الله، فمن الخير أن يثوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين: **﴿إليه ترجعون﴾**.

فإن كذبوا - بعد ذلك كله - فما أهون ذلك! فلن يضر الله شيئاً، ولن يخسر رسوله شيئاً. فقد كذب الكثيرون من قبل، وما على الرسول إلا واجب التبليغ: ﴿وإن كذبوا فقد كذب أمم من قبلكم، وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾.

وهكذا يأخذهم خطوة خطوة، ويدخل إلى قلوبهم من مداخلها، ويوقع على أوتارها في دقة عميقة، وهذه الخطوات تعد نموذجاً لطريقة الدعوة جديراً بأن يتملاه أصحاب كل دعوة، لينسجوا على منواله في مخاطبة النفوس والقلوب. اهـ.

● ما جاء من كلام شُرّاح كتاب التوحيد في الآية.

قال سليمان آل الشيخ[1]: أمر الله تعالى بابتغاء الرزق عنده لا عند غيره ممن لايملك رزقاً من الأوثان والأصنام وغيرها، كما قال في أول الآية: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[2] قال ابن كثير: وهذا أبلغ في الحصر كقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[3]: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾[4] ولهذا قال: ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي لا عند غيره لأنه المالك له وغيره لا يملك شيئاً من ذلك: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ أي أخلصوا له العبادة وحده لاشريك له ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾. أي على ما أنعم عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي فيجازي كل عامل بعمله.

قلت ـ أي سليمان آل الشيخ ـ: في الآية الرد على المشركين الذين يدعون غير الله ليشفعوا لهم عنده في جلب الرزق؛ فما ظنك بمن دعاهم أنفسهم، واستغاث بهم ليرزقوه وينصروه كما هو الواقع من عباد القبور؟!

وقال المصنف: وفيه أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لاتطلب إلا منه. اهـ.

قال ابن باز[5]: في هذه الآية: أمر بالطلب من الله وحده، والاستغاثة به وحده، وعبادته وحده، وأن لايطلب من غيره شيئاً، ويستثنى ما تقدم. اهـ.

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾.

لو أتى المؤلف بأول الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾

(١) تيسير العزيز الحميد (١٧٤).
(٢) سورة العنكبوت: الآية: ١٧.
(٣) سورة الفاتحة: الآية: ٥.
(٤) سورة التحريم، الآيه: ١١.
(٥) التعليق المفيد (٩٢).

لكان أولى؛ فهم يعبدون هذه الأوثان من شجـر وحجر وغيرها، وهى لا تملك لهم رزقاً أبداً، لو دعوها إلى يوم القـيامة مـا أحضرت لهم ولا حـبَّة برٍّ، ولا دفعت عنهم أدنى مرض أو فقـر، فإذا كانت لا تملك الرزق؛ فالذى يملكـه هو الله، ولهذا قال: ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾، أي: اطلبوا عند الله الرزق؛ لأنَّه سبحـانه هو الذى لاينقضى ما عنده، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾(١)، والرزق هو العطاء كمـا قال تعالى: ﴿فارزقوهم منه﴾.

وقوله: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: عند الله: حال من الرزق، وقدَّم الحال مع أنَّ موضـعها التأخير عن صاحبها لإفادة الحصر؛ إذ إنَّ تقديم ما حقُّه التأخير يفيد الحصر؛ أي: فابتغوا الرزق حال كونه عند الله لا عند غيره.

قوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾.

أي: تذلَّلوا له بالطَّاعة؛ لأنَّ العبـادة مأخوذة من التعبيـد، وهو التذليل، ومنه قولهم طريق معبَّد؛ أي: مـذلَّل للسالكين، قد أزيل عنه الأحجـار والأشجار المؤذية؛ لأنَّكم إذا تذلَّلتم له بالطاعة؛ فهو من أسباب الرزق، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾(٢)؛ فأمـر أن نطلب الرزق عنده، ثم أعـقبه بـقوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ إشارةً إلى أنَّ تحقيق العبادة من طلب الرزق؛ لأنَّ العابد ما دام يؤمن أن من يتق الله يجعل له مـخرجاً ويرزقـه من حيث لايحتسب؛ فـعبادته تتـضمَّن طلب الرزق بلسان الحال.

قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾.

إذا أضاف الله الشكر له متعدياً باللام فهو إشارة إلى الإخلاص؛ أي: واشكروا نعمة الله لله؛ فاللام هنا لإفادة الإخلاص؛ لأنَّ الشاكر قد يشكر الله لبقاء النعمة، وهذا لابأس به، ولكن كونه يشكر لله وتأتى إرادة بقاء النعمة تبعاً هذا هو الأكمل والأفضل.

والشكر فسَّروه بأنَّه: القيام بطَاعة المُنعِم، وقالوا: إنَّه يكون فى ثلاثة مواضع:

١ - **فى القلب**: وهو أن يعترف بقلبه أن هذه النعمـة من الله، فيرى لله فضلاً عليه بها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾(٣)، وأعظم نعمة هى نعـمة الإسلام،

(١) النحل: ٩٦.
(٢) الطلاق: ٣.
(٣) النحل: ٥٣.

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾(1)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ الآية(2).

٢ - اللسان: وهو أن يتحدَّث بها على وجه الثناء على الله والاعتراف وعدم الجحود، لا على سبيل الفخر والخيلاء والترفّع على عباد الله؛ فيتحدَّث بالغنى لا ليكسر خاطر الفقير، بل لأجل الثناء على الله، وهذا جائز كما فى قصة الأعمى من بنى إسرائيل لما ذكرهم الملك بنعمة الله، قال: «نعم، كنت أعمى فردَّ الله علىَّ بصري، وكنت فقيراً فأعطانى الله المال»(3)؛ فهذا من باب التحدُّث بنعمة الله.

والنبى ﷺ تحدَّث بنعمة الله عليه بالسِّيادة المطلقة؛ فقال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»(4).

٣ - الجوارح: وهو أن يستعملها بطاعة المنعم(*)، وعلى حسب ما يختصّ بهذه النعمة.

---

(١) الحجرات: ١٧. (٢) آل عمران: ١٦٤.

(٣) يأتى فى باب ما جاء فى قول الله تعالى: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا...﴾.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٧١٢). ومسلم فى الشفاعة (٣/ ٦٥ـ النووي) عن أبى هريرة به. وانظر «رياض الصالحين (١٨٦٩ـ بتخريجنا).

(*) قول الشيخ ابن عثيمين: حفظه الله «بطاعة المنعم» ليس من باب تسمية الله بما لم يسم به نفسه ذلك لأننا تعلمنا منه أن ذلك من باب الإخبار عن الله ولفظ كلام الشيخ:

الألفاظ تنقسم إلى:

(١) إما أن تدل على معنى ناقص نقصاً مطلقاً.

(٢) دالة على كمال فى حال، ونقص فى حال.

(٣) دالة على الكمال، لكن لا غاية الكمال.

(٤) دالة على غاية الكمال.

الدالة على غاية الكمال تكون من أسماء الله، بمعنى أنه ليس فيها نقص أبداً، لا احتماماً ولاتقديراً.

القسم الثانى: ما هو كمال، لكن يحتمل النقص فى التقدير فهذا لا يسمى به الله، ولكن يخبربه عنه، لأن باب الأخبار أوسع، مثل: المتكلم، والشافى، والمريد، والصانع، والفاعل، فهذه الكلمات لايسمى الله بها، ولكن يخبر عنه أخباراً مطلقاً، فنقول: إن الله متكلم، وإن الله مريد..

القسم الثالث: يحتمل نقصاً وكمالاً فى نفس المعنى، لكن متعلق بنفس المعنى، فهذا لايطلق على الله تعالى، وإنما يذكر مقيداً. مثل المكر، والخداع، والاستهزاء، والكيد.

فنقول: الله ماكر بمن يمكر به، يستهزىء بمن يستهزىء به.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[1].

فمثلاً: شكر الله على نعمة العلم: أن تعمل به، وتعلّمه الناس.

وشكر الله على نعمة المال: أن تصرفه بطاعة الله، وتنفع الناس به.

وشكر الله على نعمة الطعام: أن تستعملـه فيما خلُق له، وهو تغذية البدن؛ فلا تبنى من العجين قصراً مثلاً؛ فهو لم يخلق لهذا الشيء.

قوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الجر والمجرور متعلّق بـ ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وتقديمه دلّ على الحـصر، أى أنّ رجوعنا إلى الله - سبحـانه -، وهو الذى سيحاسـبنا على ما حمّلنا إيَّاه من الأمر بالعـبادة، والأمر بالشُّكر، وطلب الرزق منه.

والشاهد من هذا الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾[2]؛ فالفقير يستغيـث بالله لكى ينجيه من الفقر، والله هو الذى يستحقّ الشُّكر، وإذا كانت هذه الأصنام لا تملك الرزق؛ فكيف تستغيث بها؟!

● ● ●

قوله: [وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾].

- مناسبة الآية للباب:

قال عبد الله جار الله[3]: مناسبة الآية للباب أن الله أخبـر فيها أنه لا أضل ممن دعا غيره، وذلك لأنه أشرك فى عبادته. اهـ.

القسم الرابع: نقص محض، فهذا لايسمى الله به، ولايوصف به، مثل: العمى، والصم، والعجز.

فهذه أربع:

١ـ كمال محض فى ذاته وموضوعه.

٢ـ كمال فى ذاته، لافى موضوعه، فيطلق عليه خبر ولايسمى به.

٣ـ كمال ونقص فى ذاته، فيطلق مقيداً.

٤ـ نقص محض.

هذه الأقسام الأربعة ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله فى مواضع متفرقة من كلامه اهـ.

(١) العنكبوت: ١٧.　　(٢) الأحقاف (٥ -٦).

(٣) الجامع الفريد (٦١).

قال القرعاوى[1]: حيث دلت الآية على أنه لا أحد أجهل وأضل ممن دعا غير الله، لذا يكون الدعاء عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

الإعراب[2]: و(**من**) الواو استئنافية، ومن اسم استفهام معناه الإنكار، في محل رفع مبتدأ، و(**أضل**) خبر، و(**ممن**) متعلقان بـ (**أضل**). وجملة (**يدعو**) صلة (**من**) و(**من دون الله**) حال، و(**من**) مفعول (**يدعو**)، وجملة (**لايستجيب له**) صلة، وأجازوا في (**من**) أن تكون نكرة تامة موصوفة، فتكون جملة (**لايستجيب له**) صفة، و(**إلى يوم القيامة**) حال (**وهم عن دعائهم غافلون**) الواو حالية، وهم مبتدأ، و(**عن دعائهم**) متعلقان (**بغافلون**)، و(**غافلون**) خبر (**هم**) والجملة في موضع نصب الحال.

(**وإذا**) الواو حرف عطف، و(**إذا**) ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة (**حشر الناس**) في محل جر بإضافة الظرف إليها و(**الناس**) نائب فاعل، وجملة (**كانوا**) لا محل لها، لأنها جواب شرط غير جازم، وكان واسمها و(**لهم**) حال، و(**أعداء**) خبر (**كانوا**)، و(**كانوا**) عطف، (**وكانوا**) الأولى، (**وبعبادتهم**) متعلقان (**بكافرين**)، (**والهاء**) مضافة إلى (**عبادة**) من إضافة المصدر إلى مفعوله، أى بكونها معبودين (**وكافرين**) خبر كانوا. اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من القرآن:

وهذه الآية موضوع الباب كقوله تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً** ﴾[3].

وكقوله تعالى: ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ** ﴾[4].

وأيضاً كما سيأتي في قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ** ﴾[5].

وقوله: ﴿ **وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ** ﴾.

وقوله: ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا**

---

(1) إعراب القرآن (٩/١٦٨، ١٦٩).
(2) الجديد (١٣٠).
(3) الإسراء: ٥٦.
(4) الرعد: ١٤.
(5) فاطر: ١٣.

بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾(١).

وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾(٢).

وكقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾(٣).

وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾(٤).

وكقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾(٥).

● **أقوال المفسرين:**

قال ابن جرير(٦): يقول تعالى ذكره: أيّ عبدٍ أضل من عبدٍ يدعو من دون الله آلهة ﴿لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يقول لايجيب دعائهم أبداً، لأنها حجر أو خشب، ونحو ذلك.

* وقوله: ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره وآلهتم التي يدعونهم عن دعائهم إياهم في غفلة، لأنها لاتسمع ولاتنطق، ولا تعقل، وإنما عَنَى بوصفها بالغفلة تمثيلها بالإنسان الساهي عما يقال له، إذا كانت لاتفهم مما يقال لها شيئاً، كما لايفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه، وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم، وقبح اختيارهم في عبادتهم من لا يعقل شيئاً ولايفهم، وتركهم عبادة من جميع ما بهم من نعمته، ومن به استغاثتهم عندما ينزل بهم من الحوائج والمصائب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ الآية: يقول تعالى ذكره: وإذا جُمع الناس يوم القيامة لموقف الحساب كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداءً؛ لأنهم يتبرؤن منهم وكانوا بعبادتهم غافلين. اهـ.

(١) يونس: ٢٨.
(٢) الأحقاف: ٦.
(٣) مريم: ٨٢.
(٤) فاطر: ١٤.
(٥) الفرقان: ١٨ - ١٩.
(٦) تفسير الطبري (١١/٢٦/٤).

قال البغوى[1]: قوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعنى الأصنام لاتجيب عابديها إلى شئ يسألونها ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعنى: أبداً ما دامت الدنيا. ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لأنها جماد لاتسمع ولاتفهم. ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ جاحدين. اهـ ذكر ابن الجوزى[2] نحو قول البغوى باختصار.

قال الزمخشري[3]: قال تعالى: ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾:

إذا قامت القيامة وحشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا عليهم ضداً فليسوا فى الدارين إلا على نكد ومضرّة لاتتولاهم فى الدنيا بالاستجابة وفى الآخرة تعاديهم، وتجحد عبادتهم،

قال الرازى[4]: اعلم أنه تعالى بيّن فيما سبق أن القول بعبادة الأصنام قول باطل، من حيث إنها لا قدرة لها البتة على الخلق والفعل والإيجاد والإعدام والنفع والضر، فأردفه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب، وهى أنها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين، ولا تعم حاجات المحتاجين.

وبالجملة فالدليل الأول كان إشارة إلى نفى العلم من كل الوجوه، وإذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة ببديهة العقل أهـ.

قال القرطبى[5]: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أى لا أحد أضل وأجهل ﴿مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهى الأوثان.

ثم قال: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ أى هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة. فالملائكة أعداء الكفار، والجنّ والشياطين يتبرءون غداً من عبادتهم، ويلعن بعضهم بعضًا.

ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء؛ على تقدير خلق الحياة لها؛ دليله قوله تعالى: ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

وقيل: عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم، وجحد المعبودون عبادتهم، وهو قوله: ﴿أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. اهـ.

(١) معالم التنزيل (٥/ ١٣١).
(٢) زاد المسير (٧/ ١٦٩، ١٧٠).
(٣) الكشاف (٣/ ٤٤١، ٤٤٢).
(٤) الرازى (٤/ ٢٦/ ٦،٧).
(٥) تفسير القرطبى (٩/ ٦٠٠٣).

وبنحو هذا قال ابن كثير فى «تفسيره»[1].

قال الشوكانى[2]: قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ أى لا أحد أضل منه ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فكيف يطمع فى الإجابة فضلا عن جلب نفع أو دفع ضر؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين وأضل الضالين.

ثم قال: قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أى إذا حشر الناس العابدين للأصنام كان الأصنام لهم أعداء يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً، وقد قيل: إن الله يخلق الحياة فى الأصنام فتكذبهم.

وقيل: المراد: أنها تكذبهم وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال. وأما الملائكة والمسيح وعزير والشياطين فإنه يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة، كما فى قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[3] ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أى كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين، أى جاحدين مكذبين.

وقيل: الضمير فى ﴿كَانُوا﴾ للعابدين كما فى قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[4] والأول أولى. اهـ.

فائدة:

إذا كان القرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لايستجيبون لهم إلى يوم القيامة؛ وكان هذا يعنى المعبودات التاريخية التى عرفتها الجماعات البشرية عند نزول هذا القرآن، فإن النص أوسع مدلولاً وأطول أمداً من ذلك الواقع التاريخي. فمن أضل ممن يدعو من دون الله أحداً فى أى زمان وفى أى مكان؟ وكل أحد كائنا من كان - لا يستجيب بشيء لمن يدعوه، ولا يملك أن يستجيب. وليس هناك إلا الله فعال لما يريد.. إن الشرك ليس مقصوراً على صوره الساذجة التى عرفها المشركون القدامي. فكم من مشركين يشركون مع الله ذوى سلطان، أو ذوى جاه، أو ذوى مال؛ ويرجون فيهم، ويتوجهون إليهم بالدعاء. وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعاتهم استجابة حقيقية. وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً. ودعاؤهم شرك. والرجاء فيهم شرك. والخوف منهم شرك. ولكنه شرك خفى يزاوله الكثيرون، وهم لايشعرون. اهـ[5].

---

(1) تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٩).
(2) فتح القدير (٥/ ١٥)..
(3) القصص: ٦٣.
(4) الأنعام: ٢٣.
(5) الظلال (٦/ ٣٢٥٦). قلت: ولقد اعتبر البعض أن فى هذا الكلام توسيع لدائرة التكفير من صاحب الظلال وتوجهوا إلى الشيخ الألبانى بسؤال بهذا المعنى فرد حفظه الله بعد أن قرأوا عليه هذا الكلام أين هذا أنا لم أره كما فى تسجيلات حنين الإسلامية شريط بعنوان: الألبانى رأى فى سيد قطب وقد استفدت به فى مقدمة كتابى فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال ط نزار الباز.

فوائد ومسائل من تفسير الآيـة

● **المسألة الأولى:**

ما فائدة الاستفهام فـي قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ . . . الآية؟

تقدم من قـول الطبرى: أن هذا توبيخ من الله لهـؤلاء المشركين لسـوء رأيهم، وقبح اختيارهم فى عبادتهم من لا يعقل شيئاً ولايفهم.

وقال الزمخشرى[1]: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ**﴾معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون فى الضلال كلهم أبلغ ضـلالاً من عبدة الأصنـام حيث يتركـون دعاء السـميع المجيب الـقادر على تحصيل كلّ بغية ومرام ويدعون من دونه جمادًا لايستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة اهـ.

وكذلك قال الرازى[2]: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ **استفهام على سبيل الإنكار** والمعنى أنه لا أمـراً أبعد عن الحق، وأقـرب إلى الجهل ممن يدعـوا من دون الله الأصنام، فيتـخذها آلهة ويعبدها وهى إذا دعيت لاتسـمع، ولا تصح منها الإجابة لا فى الحال ولا بعد ذلك اليوم إلى يوم القيامة.

قال الشوكانى[3]: والاستفهام للتقريع والتوبيخ.

قال ابن عثيمين[4]: وإذا كان الاستفهـام مراداً به النَّفى كان أبلغ من النَّفى المجرَّد؛ لأنَّه يحوِّله من نفى إلى تحدٍّ؛ أي: بيِّن لى عن أحـد أضلّ ممن يدعو من دون الله؟ فهو متضمِّن للتحدّي، وهو أبلغ من قوله: «**لا أضل ممن يدعو**»؛ لأنَّ هذا نفى مجرّد، وذاك نفى مُشْرَب معنى التحدّي.

● **المسألة الثانية:**

تستعمل (من) للعاقل، و(ما) لغير العاقل، فهل تخرج الجمادات وكل ما لايعقل من قوله تعالى: ﴿**مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ**﴾؟

الجواب: **قال الطبرى**[5]: -

وقيل: ﴿ **مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ** ﴾ فأخرج ذكر الآلهة، وهى جماد ـ مخرج ذكر بنى آدم

---

(١) الكشاف (٣/ ٤٤١، ٤٤٢).

(٢) التفسير الكبير (٢٦/٤/ ٦ - ٧).

(٣) فتح القدير (٥/ ١٥).

(٤) القول المفيد (١/ ٣٤٨).

(٥) «تفسير الطبرى» (١١/٢٦/ ٤).

ومن له الاختيار والتمييز، إذ كانت قد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التى تخدم فى خدمتهم إياها فأجرى الكلام فى ذلك على نحو ما كان جارياً فيه عندهم.

قال الزمخشرى:[1] قرئ مالا يستجيب وقرئ يدعو غير الله من لايستجيب ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعبدتها ونحوه قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾. اهـ.

وإنما قيل (من) و(هم) لأن أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلا وغباوة ويجوز أن يريد كلّ معبود.

من دون الله من الجن والإنس والأوثان فغلب غير الأوثان عليها أهـ.

قال الرازى[2]: قوله: ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾.

اختلفوا فيه فالأكثرون على أنه تعالى يحيى هذه الأصنام يوم القيامة وهى تظهر عداوة هؤلاء العابدين وتتبرأ منهم، وقال بعضهم بل المراد عبدة الملائكة، وعيسى فإنهم فى يوم القيامة يظهرون عداوة هؤلاء العابدين فإن قيل ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وكيف يعقل وصف الأصنام وهى جمادات بالغفلة؟ وأيضاً كيف جاز وصف الأصنام بما لايليق إلا بالعقلاء؟ وهى لفظة (من) وقوله: (غافلون) قلنا إنهم لما عبدوها ونزلوها منزلة من يضر وينفع صح أن يقال فيها إنها بمنزلة الغافل الذى لا يسمع ولا يجيب. وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله إن لفظة (من) ولفظة (هم) كيف يليق بها، وأيضاً يجوز أن يريد كل معبود من دون الله من الملائكة وعيسى وعزير والأصنام إلا أنه غلب غير الأوثان على الأوثان. اهـ.

قال الشوكانى[3]: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ الضمير الأول للأصنام والثانى لعابديها، والمعنى: والأصنام التى يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسمعون ولا يعقلون لكونهم جمادات، والجمع بين الضميرين باعتبار معنى «من» وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء؛ لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل.

قال ابن عثيمين: وقوله: ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ﴾ أتى بـ ﴿مَن﴾، وهى للعاقل، مع أنَّهم يعبدون الأصنام والأحجار والأشجار، وهى غير عاقلة؛ لأنَّهم لما عبدوها نزلوها منزلة

(١) «الكشاف» (٣/ ٤٤٢).
(٢) «التفسير الكبير» (١٤/ ٢٦/ ٧٠٦).
(٣) فتح القدير (٥/ ١٥).

العاقل، فخوطبوا بمقتضى ما يدعون؛ لأنَّه أبلغ فى إقامة الحجة عليهم فى أنَّهم يدعون من يرونهم عقلاء، ومع ذلك لايستجيبون لهم، وهذا من بلاغة القرآن؛ لأنَّه خاطبهم بما تقتضيه حالهم ليقيم الحجة عليهم؛ إذ لو قيل: ما لا يستجيب له؛ لقالوا: هناك عذر فى عدم الاستجابة لأنهم غير عقلاء.

● **المسالة الثالثة:**

قوله: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ فهل يستجيبون لهم بعد يوم القيامة؟

قال الرزاى(١): وإنما جعل ذلك غاية لأن يوم القيامة قد قيل إنه تعالى يحييها وتقع بينها وبين من يعبدها مخاطبة فلذلك جعله تعالى حداً، وإذا قامت القيامة وحشر الناس فهذه الأصنام تعادى هؤلاء العابدين. اهـ.

قال فى حاشية الكشاف(٢): قال أحمد وفى قوله إلى يوم القيامة نكتة حسنة وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة ومن شأن الغاية انتهاء المعنى عندها لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية لأنهم فى القيامة أيضاً لايستجيبون لهم فالوجه والله أعلم أنها من الغايات المشعرة بأنّ ما بعدها وإن وافق ما قبلها إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما كالشىء وضدّه وذلك أنّ الحالة الأولى التى جعلت غايتها القيامة لاتزيد على عدم الاستجابة والحالة الثانية التى فى القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم فهو من وادى ما تقدّم آنفاً فى سورة الزخرف فى قوله: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾. اهـ.

قال الشوكانى(٣): وقوله: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ غاية لعدم الاستجابة.

● **المسألة الرابعة:**

﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾، هل المعنى: كان العابدون للمعبودين أعداء، أو كان المعبودون للعابدين أعداء؟

الجواب: **قال ابن عثيمين:** يشمل المعنيين، وهذا من بلاغة القرآن.

الشاهد: قوله: ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فإذا كان من سوى الله لايستجيب إلى يوم القيامة؛ فكيف يليق بك أن تستغيث به دون الله؟! فبطل تعلّق هؤلاء العابدين بمعبوداتهم.

---

(١) «التفسير الكبير» (١٤/١٦/ ٦ - ٧).

(٢) حاشية الكشاف لمحمد عليان الشافعى (٣/ ٤٤١ - ٤٤٢).

(٣) «فتح القدير» (٥/ ١٥).

فالذى يأتى للبدوى أو للدسوقى فى مصر، فيقول: المدد! المدد! أو: أغثني؛ لا يغنى عنه شيئاً، ولكن قد يبتلى فيأتيه المدد عند حصول هذا الشيء لا بهذا الشيء، وفرق بين ما يأتى بالشيء وما يأتى عند الشيء.

مثال ذلك امرأة دعت البدوى أن تحمل، فلما جامعها زوجها حملت، وكانت سابقاً لا تحمل؛ فنقول هنا: إنَّ الحمل لم يحصل بدعاء البدوي؛ وإنَّما حصل عنده لقوله تعالى: ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أو يأتى للجيلانى فى العراق، أو ابن عربى فى سوريا، فيستغيث به؛ فإنه لاينتفع، ولو بقى الواحد منهم إلى يوم القيامة يدعو ما أجابه أحد.

والعجب أنَّهم فى العراق يقولون: عندنا الحسين، فيطوفون بقبره ويسألونه، وفى مصر كذلك، وفى سوريا كذلك، وهذا سفه في العقول، وضلال فى الدين، والعامة قد لايُلامون فى الواقع، لكن الذى يُلام من عنده علم من العلماء ومن غير العلماء.



● ما جاء من كلام شُرّاح كتاب التوحيد فى الآية:

قال سليمان آل الشيخ(١): - حاصل كلام المفسرين أن الله تعالى حكم بأنه لا أضل ممن يدعو من دون الله، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة واستغاثة من هذه حاله.

ومعنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون فى الضلال كلهم أبلغ ضلالاً ممن عبد غير الله ودعاه، حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام، ويدعون من دونه من لا يستجيب لهم، ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دام فى الدنيا وإلى أن تقوم القيامة.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾. أى لايشعرون بدعاء من دعاهم لأنهم إما عباد مسخرون مشتغلون بأحوالهم كالملائكة، وإما أموات كالأنبياء والصالحين وإما أصنام وأوثان.

وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أى إذا قامت القيامة، وحشر الناس للحساب عادوهم، وكانوا بعبادتهم الدعاء وغيره من أنواع العبادة كافرين، كما قال

(١) تيسير العزيز الحميد: (١٦٥، ١٦٦).

تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ فليسوا فى الدارين إلا على نكد ومضـرة، لا تتولاهم بالاستجابة فى الدنيا وتجحد عبادتهم فى الآخرة وهم أحوج ما كانوا إليها.

قال عبد الرحمن آل الشيخ(١): والآية تعم كل من يُدعى من دون الله، كمـا قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً ﴾.
ثم قال: فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله.

ثم قال: وأكـثر ما يستـعمل الدعاء فى الكتـاب والسنة واللغة ولسان الصـحابة ومن بعدهم من العلماء فى السؤال والطلب.

وبنحو كلام سليمان آل الشيخ قال عبد الله بن جار الله(٢)، مختصراً.

وقال ابن باز(٣): وصف المدعون من دون الله بأربعة أصناف: -

الأولى: عدم استجابتهم لهم يوم القيامة.

الثانية: أنهم غافلون عن دعائهم، إما لأنهم أموات، أو جماد لا إحساس له، أو حى مشغول أو ملك لا علم له بمن دعاه.

الثالثة: أنهم يكونون أعداء لمن عبدوهم يوم القيامة.

الرابعة: أنهم يبرءون من عبادتهم وينكرونها. اهـ.

قال ابن عثيمين(٤): قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾.

﴿وَمَنْ﴾: اسم استفهام مبتدأ، و﴿أَضَلُّ﴾: خبره، والاستفهام يُراد به هنا النَّفي، أى لا أحد أضلّ.

و﴿ أَضَلُّ﴾: اسم تفضيل؛ أي: لا أحد أضلّ من هذا.

والضلال: أن يتيه الإنسان عن الطريق الصحيح.

قوله: ﴿مِمَّن يَدْعُو﴾ متعلق بأضل، ويُراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ودعاء العبادة.

قوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: سواه.

(١) فتح المجيد (١/٢١٨ - ٢١٩).
(٢) الجامع الفريد (٦١).
(٣) التعليق المفيد (٩٢).
(٤) «القول المفيد» (١/٣٤٨)

قوله: ﴿لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

﴿مَن﴾: مفعول يدعـو؛ أي: لو بقى كل عمر الدنيا يدعو ما استجاب له، قال الله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، والخبر هنا عن الله تعـالى، قال تعالى: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، يعني: نفسه سبحانه وتعالى. اهـ.

قوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ﴾.

الضمير فى قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على ﴿مَن﴾ باعتبار المعنى؛ لأنَّهم جماعة، وضمير يستجيب يعود على ﴿مَن﴾ باعتبار اللفظ؛ لأنَّه مفرد، فأفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، وجمعه باعتبار المعنى؛ لأنَّ ﴿مَن﴾ تعود على الأصنام، وهى جماعة، و﴿مَن﴾ قد يُراعى لفظها ومعناها فى كلام واحد.

ومنه قـوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾؛ فـهنا راعى اللفـظ، ثم المعنى، ثم اللفظ.

قوله: ﴿ عَن دُعَائِهِمْ ﴾ الضـمير فى دعائهم يعـود إلى المدعـوين، وهل المعنى: ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: الأصنام ﴿ عَن دُعَائِهِمْ ﴾؛ أي: دعـاء الداعين إياهم، فـيكون من باب إضافـة المصدر إلى مفـعوله، أو المعنى: و﴿وَهُمْ﴾ عن دعـاءهم العابدين لهم؛ فـيكون «دعاء» مضافاً إلى فاعله، والمفعول محذوف؟

الأول أبلغ، أى عن دعـاء العـابدين إيَّاهم أبـلغ من دعـاء العـابدين على سـبـيل الإطلاق، فإذا قلت: ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾؛ أي: عن دعاء العابدين إيَّاهم، وجعلت الضمير هنا يعـود على المدعـوين؛ صـار المعنى أنَّ هذه الأصنام غـافلة عن دعـوة هؤلاء إيَّاهم، ويكون هذا أبلغ فى أنَّ هذه الأصنام لاتفيدهم شيئاً فى الدنيا ولا فى الآخرة. اهـ[1].



(١) «القول المفيد» (١/ ٣٤٩ - ٣٥٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ... ﴾ إلخ.

● **مناسبة الآية للباب: قال عبد الله بن جار الله**[2]: فوجه الدلالة أن من طلب ذلك من غير الله فقد أشرك به. اهـ.

قال ابن باز[3]: أى لايستطيع أحد فعل ذلك، فلا ينبغى طلبه إلا من الله. اهـ.

قال القرعاوى[4]: حيث دلت الآية على أنه لايستجيب للمضطر إلا الله سبحانه وتعالى فيكون دعاء المضطر، وهو الاستغاثة عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

● **الإعراب: قال محيى الدين درويش**[5]: (أم) منقطعة لفقدان شرطها، وهو تقدم همزة الاستفهام، وهى بمعنى بل، والإضراب بمعنى التبكيت والتوبيخ، و(من) مبتدأ. اهـ.

قال ابن عثيمين[6]: قوله: ﴿ أَمَّن ﴾. أم: منقطعة، والفرق بين المنقطعة والمتَّصلة ما يلي:

١ - المنقطعة بمعنى بل، والمتصلة بمعنى أو.

٢ - المتصلة لا بد فيها من ذكر المُعادل، والمنقطعة لايشترط فيها ذكر المُعادل.

مثال ذلك: أعندك زيد أم عمرو؟ فهذه متصلة، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ متصلة، وقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ منقطعة؛ لأنَّه لم يذكر لها معادلٌ: فهى بمعنى بل والهمزة.

قوله: ﴿ الْمُضْطَرَّ ﴾ أصلها: المضتر؛ أي: الذى أصابه الضرر، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾؛ فلا يجيب المضطر إلا الله، لكن قيده بقوله: ﴿ إِذَا دَعَاهُ ﴾، أمَّا إذا لم يدعه؛ فقد يكشف الله ضرّه، وقد لايكشفه.

قال محيى الدين درويش: وجملة (دعاه) فى محل جر بإضافة الظرف إليها،

---

(١) النمل: ٦٢.
(٢) الجامع الفريد (٦٣).
(٣) التعليق المفيد (٩٣).
(٤) الجديد (١٣٢)
(٥) إعراب القرآن: (٢٣٨).
(٦) القول المفيد (٣٥١ - ٣٥٢).

و(المضطر) اسم مفعول وطاؤه أصلها تاء الافتعال. (**ويجعلكم خلفاء الأرض أ إله مع الله قليلاً ما تذكرون**) قليلاً: نعت لمصدر محذوف أو لوقت محذوف، وما زائدة لتقليل القليل، وتذكرون فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه، والواو فاعل. اهـ.

● **التفسير بالقرآن:**

وهذا كقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾(1).

وقال أيضاً: ﴿**ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**﴾(2).

وكقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**﴾(3).

● **التفسير من المرفوع وغيره:**

وفي حديث عمران بن حصين، قال له ﷺ: «**يا حصين كم أصبحت تعبد اليوم إلهاً؟**» قال سبعة، قال ستة في الأرض وواحد في السماء.. قال فأيهم تعبد لرغبتك ورهبتك قال: الذي في السماء. قال: يا حصين: أم إنك لو أسلمت لعلمتك كلمتين ينفعانك... الحديث(4).

وقال القرطبي(5) **في تفسير الآية**: وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي بكرة قال قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: «**اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طَرْفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت**».

وفي الحديث: «**ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن: دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده**»(6) ذكره صاحب الشهاب؛ وهو حديث صحيح. وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ لما وَجَّهه إلى أرض اليمن «**واتَّق دعوةَ المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب**»(7). وفي كتاب الشهاب: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على

(1) العنكبوت: 65.　　(2) النحل: 53/54.
(3) الزمر: 8.　　(4) أخرجه الترمذي (3483) عن عمران بإسناد منقطع
(5) تفسير القرطبي (7/ 4939 - 4941).
(6) أخرجه أبو داود (1536)، والترمذي (1905)، وابن ماجه (3862) عن أبي هريرة به.
وانظر «الأذكار للنووي» (550ـ بتخريجنا).
(7) تقدم تخريجه.

الغمام فيقول الله تبارك، وتعالى وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين» وهو صحيح أيضاً.

وخرج الآجرِّى من حديث أبى ذَرٍّ عن النبى ﷺ: «**فإنِّى لا أردها ولو كانت من فم كافر**».

وأخرج ابن أبى حاتم بسنده عن عبيد الله بن أبى صالح قال: دخل عليٌّ طاوس يعاودنى، فقلت له: ادع الله لى يا أبا عبد الرحمن. قال: ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه(١) . اهـ.

قوله: «**ويكشف السوء**».

عن أبى تميمة الهجيمى عن رجل من بلهجيم قال قلت يارسول الله إلام تدعو؟ قال: «**أدعو إلى الله وحده الذى إن مسك ضر فدعوته كشف عنك، والذى إن أضلك بأرض قفر فدعوته رد عليك، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك**» قال قلت أوصنى قال: «**لاتسبن أحداً ولا تزهدن فى المعروف ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقي، واتزر إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لايحب المخيلة**»(٢) .

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر فذكر اسم الصحابى فقال: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا يونس هو ابن عبيد حدثنا عبيدة الهجيمى عن أبيه عن أبى تميمة الهجيمى عن جابر بن سليم الهجيمى قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو محتب بشملة وقد وقع هدبها على قدميه فقلت أيكم محمد رسول الله؟ فأومأ بيده إلى نفسه، فقلت يارسول الله أنا من أهل البادية وفيّ جفاؤهم فأوصنى قال: «**لاتحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه فإنه يكون لك أجره وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لايحب المخيلة، ولاتسبن أحداً**» قال فما سببت بعده أحداً ولاشاة ولا بعيراً(٣) .

وقد روى أبو داود والنسائى لهذا الحديث طرقاً وعندهما طرف صالح منه.

عن سحيم بن نوفل قال: بينما نحن عند عبد الله إذ جاءت وليدة إلى سيدها فقالت: ما يحبسك وقد لفع فلان مهرك بعينه فتركه يدور فى الدار كأنه فى فلك؟ قم فابتغ راقياً فقال عبد الله: لاتبتغ راقياً، وانفث فى منخره الأيمن أربعاً، وفى الأيسر ثلاثاً، وقل: لابأس اذهب البأس رب الناس. اشف أنت الشافى لايكشف الضر إلا أنت

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره»(١٦٥١٩) فانظره بتخريجنا.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/٦٣)، وأبو داود (٤٠٨٤) ، والترمذى (٢٧٢٢)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠١٥٢).- وانظر «رياض الصالحين» (٧٩٧ـ بتخريجنا).

(٣) انظر ما قبله.

قال: فذهب ثم رجع إلينا فقال: فعلت ما أمرتنى فما جئت حتى راث وبال وأكل[1].

عن وهب بن منبه يقول: قرأتُ فى كتاب آخر أن الله تبارك وتعالى يقول: بعزتى إنه من اعتصم بى، فإن كادته السموات بمن فيهن والأرض بمن فيها فإنى اجعل له من بين ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بى، فإنى أخسف به من تحت قدميه الأرض، فاجعله فى الهواء ثم أكلهُ إلى نفسه. اهـ.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾.

● **التفسير بالقرآن:**

الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[3].

وكقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[4].

وكقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[5].

● **التفسير بالمأثور:**

عن قتادة: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ أى خلفاً من بعده خلفاً[6].

وبسنده أيضاً عن السدى قال: خلفاء لمن قبلهم من الأمم[7].

قوله: ﴿قليلاً ما تذكرون﴾.

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: أهل الذكر هم أهل القرآن[8].

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٢١٣) ونسبه لابن أبى شيبة أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٦٥٢٠) فانظره بتخريجنا.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

(٣) النور: ٥٥.

(٤) القصص: ٥ - ٦.

(٥) الأعراف: ١٢٩.

(٦) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦٥٢١) فانظره بتخريجنا.

(٧) المصدر السابق (١٦٥٢٢) فانظره بتخريجنا)

(٨) المصدر السابق (١٦٢٣) فانظره بتخريجنا.

ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير[١]: يقول تعالى ذكره أم ما تشركون بالله خير ، أم الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازل به.

ثم ذكر بسنده عن ابن جريج ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ قال: الضر[٢].

- قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ يقول: ويستخلف بعد أمرائكم فى الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم.

- قوله: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يقول : أءله مع الله سواه يفعل هذه الأشياء بكم، وينعم عليكم هذه النعم.

- قول: ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: تذكرًا قليلاً من عظمة الله ، وأياديه عندكم تذكرون وتعتبرون حجج الله عليكم يسيرًا فلذلك أشركتم بالله غيره فى عبادته. اهـ.

قال البغوي[٣]: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ سكانها، يهلك قرنًا، وينشيء آخر، وقيل: يجعل أولادكم خلفاءكم، وقيل: جعل خلفاء الجن فى الأرض.

﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو : بالياء، والآخرون: بالتاء . اهـ.

وتابعه **ابن الجوزي**[٤] على هذا التفسير بهذا الاختصار على غير عادته.

قال الزمخشري[٥]: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أغيره يقرن به ويجعل شريكًا له وقرئ أإلهًا مع الله بمعنى أتدعون أو تشركون ولك أن تحقق الهمزتين ولوسط بينهما مدّة وتخرج الثانية بين بين.

ثم قال: ﴿خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ خلفاء فيها وذلك توارثهم سكانها والتصرف فيها قرنًا بعد قرن أو أراد بالخلافة الملك والتسلط وقرئ يذكرون بالياء مع الإدغام، وبالتاء مع الإدغام والحذف وما مزيدة أى يذكرون تذكرًا قليلاً والمعنى نفى التذكر والقلة تستعمل فى معنى النفى اهـ.

قال القرطبي[٦]: قوله تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ قال ذو النون : هو الذى قطع العلائق عما دون الله.

---

(١) تفسير الطبرى (١٠/ ٢٠/ ٤).
(٢) المصدر السابق
(٣) معالم التنزيل ٤٠/ ٣١٥).
(٤) زاد المسير (٦/ ٨٢, ٨٣).
(٥) الكشاف (٣/ ١٤٨-١٤٩).
(٦) تفسير القرطبى (٧/ ٤٩٣٩- ٤٩٤١).

وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابوري: هو المفلس.

وقال سهل بن عبد الله: هو الذى إذا رفع يديه إلى الله داعيًا لم يكن له وسيلة من طاعة قدّمها.

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألك بالله أن تدعو لى فأنا مضطر، قال: إذًا فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . قال الشاعر:

وإنّى لأدعُو الله والأمرُ ضيّقٌ ... عليّ فما ينفك أن يتفرّجَا
وربَّ أخ سُدَّتْ عليه وُجوهُهُ ... أصاب لَها لَما دعا الله مَخْرَجَا

ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب فى ذلك أن الضرورة إليه بالتجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمّة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر، كما قال تعالي: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ، وقوله : ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه.

ثم قال: فيجيب المظلوم لموضع إخلاصه بضرورته بمقتضى كرمه، وإجابة لإخلاصه وإن كان كافرًا، وكذلك إن كان فاجرًا فى دينه، ففجور الفاجر وكفر الكافر لا يعود منه نقص ولا وهن على مملكة سيده، فلا يمنعه ما قضى للمضطر من إجابته.

وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر له، أو اقتصاص منه، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره كما قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ وأكد سرعة إجابتها بقوله: «تحمل على الغمام» ومعناه والله أعلم أن الله عز وجل يوكِّل ملائكته بتلقى دعوة المظلوم وبحملها على الغمام، فيعرجوا بها إلى السماء، والسماء قبلة الدعاء ليراها الملائكة كلهم ، فيظهر منه معاونة المظلوم، وشفاعة منهم له فى إجابة دعوته، رحمة له.

وفى هذا تحذير من الظلم جملة، لما فيه من سخط الله، ومعصيته ومخالفة أمره، حيث قال على لسان نبيه فى صحيح مسلم وغيره: «**يا عبادى إنى حرمت الظلم على**

نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا» الحديث، فالمظلوم مضطر، ويقرب منه المسافر، لأنه منقطع عن الأهل والوطن، منفرد عن الصديق والحميم، لا يسكن قلبه إلى مسند ولا معين لغربته، فتصدق ضرورته إلى المولى، فيخلص إليه فى اللجاء، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه، وكذلك دعوة الوالد على ولده، لا تصدر منه مع ما يعلم من حنَّته عليه وشفقته، إلا عند تكامل عجزه عنه، و صدق ضرورته، ورياسه عن برِّ ولده، مع وجود أذيته، فيسرع الحق إلى إجابته.

قوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أى الضر، وقال الكلبي: الجور ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أى سكانها يهلك قومًا وينشيء آخرين، وفى كتاب النقاش: أى ويجعل أولادكم خلفًا منكم، وقال الكلبي: خلفًا من الكفار ينزلون أرضهم ، وطاعة الله بعد كفرهم ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ على جهة التوبيخ، كأنه قال أمع الله ويلكم إله، فـ«إله» مرفوع بـ«مع».

ويجوز أن يكون مرفوعًا بإضمار ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك فتعبدوه، والوقف على ﴿مَّعَ اللَّهِ﴾ حسن.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب «يذَّكَّرُونَ» بالياء على الخبر، كقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فأخبر فيما قبلها وبعدها، واختاره أبو حاتم، الباقون بالتاء خطابًا لقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ اهـ.

قال ابن كثير[(1)] فى قوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه.

ثم قال: وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالدقى الصوفى قال: هذا الرجل كنت أكارى على بغل لى من دمشق

(1) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٩-٣٥٠).

إلى بلد الزبدانى فركب معى ذات مرة رجل فمررنا على بعض الطريق عن طريق غير مسلوكة فقال لى خذ فى هذه فإنها أقرب فقلت لا خبرة لى فيها، فقال بل هى أقرب فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر وواد عميق وفيه قتلى كثيرة فقال لى امسك رأس البغل حتى أنزل فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكينًا معه وقصدنى ففررت من بين يديه وتبعنى فناشدته الله وقلت خذ البغل بما عليه فقال هو لى وإنما أريد قتلك فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل فاستسلمت بين يديه وقلت إن رأيت أن تتركنى حتى أصلى ركعتين فقال عجل فقمت أصلى فأرتج عليّ القرآن فلم يحضرنى منه حرف واحد فبقيت واقفًا متحيرًا وهو يقول هيه أفرغ فأجرى الله على لسانى قوله تعالى : ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى وبيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخر صريعًا فتعلقت بالفارس وقلت بالله من أنت ؟ فقال أنا رسول الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء. قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالمًا.

وذكرفى ترجمة فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية قالت: هزم الكفار يومًا المسلمين فى غزاة فوقف جواد جيد بصاحبه وكان من ذوى اليسار ومن الصلحاء فقال للجواد مالك ويلك إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم فقال له الجواد ومالى لا أقصر وأنت تكل علوفتى إلى السواس فيظلموننى ولا يطعموننى إلا القليل؟ فقال لك عليّ عهد الله أنى لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا فى حجرى فجرى الجواد عند ذلك ونجى صاحبه وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا فى حجره، واشتهر أمره بين الناس وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك وبلغ ملك الروم أمره فقال: ما تضام بلدة يكون هذا الرجل فيها، واحتال ليحصله فى بلده فبعث إليه رجلاً من المرتدين عنده فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته فى الإسلام وقومه حتى استوثق ثم خرجا يومًا يمشيان على جنب الساحل وقد واعد شخصًا آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره فلما اكتنفاه ليأخذاه رفع طرفه إلى السماء، وقال: اللهم إنه إنما خدعنى بك فاكفنيهما بما شئت، قال فخرج سبعان فأخذهما ورجع الرجل سالمًا.

وقوله تعالي: ﴿ **وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ** ﴾ أى يخلف قرنًا لقرن قبلهم وخلفاً لسلف كما قال تعالي: ﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ**﴾.

وقال تعالى : ﴿**وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**﴾.

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أى قومًا يخلف بعضهم بعضًا كما قدمنا تقريره وهكذا هذه الآية ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ أى أمّة بعد أمّة وجيلاً بعد جيل وقومًا بعد قوم ولو شاء لأوجدهم كلهم فى وقت واحد ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحدًا حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ثم يكثرهم غاية الكثرة ويذرأهم فى الأرض ويجعلهم قرونًا بعد قرون وأممًا بعد أمم حتى ينقضى الأجل وتفرغ البرية كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعدّهم عدًا ثم يقيم القيامة ويوفى كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أى يقدر على ذلك أو أإله مع الله يعبد؟ وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له ؟﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أى ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم . اهـ.

قال الشوكانى[1]: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الإنسان إليه على العموم، والمضطر اسم مفعول من الاضطرار، وهو المكروب المجهود الذى لا حول له ولا قوة. وقيل: هو المذنب، وقيل: هو الذى عراه ضر من فقر أو مرض، فألجأه إلى التضرّع إلى الله، واللام فى ﴿الْمُضْطَرَّ﴾ للجنس لا للاستغراق، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين إجابة دعائه وإلا فقد ضمن الله سبحانه إجابة دعاء المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والوجه فى إجابه دعاء المضطر أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص وقطع النظر عما سوى الله ، وقد أخبر الله سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين وإن كانوا كافرين فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[2]، وقال: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ

(١) فتح القدير (٤/ ١٤٢). (٢) يونس/ ٢٢

(٣) العنكبوت/ ٦٥.

﴿إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٣] فأجابهم عند ضرورتهم وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أى الذى يسود العبد من غير تعيين، وقيل: هو الضر، وقيل: هو الجور﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ أى يخلف كل قرن منكم القرن الذى قبله بعد انقراضهم.

والمعنى: يهلك قرنًا وينشيء آخرين. وقيل: يجعل أولادكم خلفًا منكم ، وقيل: يجعل المسلمين خلفًا من الكفار ينزلون أرضهم وديارهم ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ الذى يوليكم هذه النعم الجسام ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أى تذكرًا قليلا ما تذكرون. قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب بالتحتية على الخبر ردًا على قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ واختار هذه القراءة أبو حاتم أهـ.

قال السعدي[١] : أي: هل يجيب المضطرب، الذى أقلقته الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص، مما هو فيه، إلا الله وحده؟

ومن يكشف السوء، أي: البلاء، والشر، والنقمة، إلا الله وحده؟

ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق ، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم، ويأتى بقوم بعدكم، أإله مع الله ، يفعل هذه الأفعال؟

لا أحد يفعل مع الله شيئًا من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون.

ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين لعلمهم أنه مقتدر على دفعه وإزالته.

﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أى : قليل تذكركم وتدبركم للأمور، التى إذا تذكرتموها، أدركتم، ورجعتم إلى الهدى.

ولكن الغفلة والإعراض، شامل لكم، فلذلك ما ارعويتم، ولا اهتديتم . اهـ.

مسائل متعلقة بالآية:

● **المسألة الأولى:**

قال الزمخشري[٢]: (فإن قلت) ما الفرق بين أم وأم فى ﴿أم ما تشركون﴾ و﴿أمن خلق﴾؟ (قلت) تلك متصلة لأنّ المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة لما قال

(١) تيسير الكريم المنان (٣/ ٤٦٩).

(٢) الكشاف (٣/ ١٤٨، ١٤٩).

الله تعالى الله أنه خير أم الآلهة؟ قال بل مّن خلـق السموات والأرض خير، تقريرًا لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء.

وقرأ الأعمش أمن بالتخفيف ووجـهه أن يجعل بدلاً من الله وتقدم مؤدى هذا المعنى وهذا الجواب من ابن عثيمين اهـ.

● **المسألة الثانية:**

قال الزمخشري[1]: الضرورة الحالة المحوجة إلى اللجأ.

والاضطرار افـتعـال منهـا. يقال: اضطـره إلى كذا. والفـاعل والمفـعول مـضطر. والمضطر: الذى أحوجه مرض أو فقـر أو نازلة من نوازل الدهر إلى الملجأ والتضرع إلى الله.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: هو المجهود.

وعن السدي: الذى لا حول له ولا قوة. قيل: المذنب إذا استغفر.

(فإن قلت) قد عم المضطرين بقوله يجيب المضطر إذا دعاه وكم من مضطر يدعوه فلا يجاب ؟.

(قلت) الإجابة موقوفـة على أن يكون المدعوّ به مصلحة؛ ولهذا لا يحـسن دعاء العبد إلا شارطًا فيـه المصلحة، وأما المضطر فمـتناول للجنس مطلقًا يصلح لكله ولبعـضه فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا بدليل، وقد قام الدليل على البعض، وهو الذى أجابته مصلحة فبطل التناول على العموم اهـ.

وذكر الرازي[2] **قول الزمخشري وزاد:**

فقال: (جوابه) قد بينا فى أصول الفـقه أن المفرد المعرف لا يفيد العـموم، وإنما يفيد الماهية فقط، والحكم المثبت للماهية يكفى فى صـدقه ثبوته فى فرد واحد من أفراد الماهية وأيضًا فإنه تعـالى وعد بالاسـتجابة ولم يـذكر أنه يستـجيب فى الحـال وتمام القول فى شرائط الدعاء والإجابة مذكور فى قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ .

فأما قوله : ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة اهـ.

● **المسألة الثالثة:**

قال ابن عثيمين[3]: قوله: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾

(١) الكشاف (١٤٨/٣ - ١٤٩).
(٢) التفسير الكبير (٢٠٩/٢٤/١٢- ٢١٠).
(٣) القول المفيد (٣٥٢/١- ٣٥٣).

أي : يزيل السوء، والسوء: ما يسوء المرء، وهو دون الضرورة، لأنَّ الإنسان قد يُساء بما لا يضرّه، لكن كل ضرورة سوء.

وقوله: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ هل هي متعلّقة بما قبلها في المعنى، وأنَّه إذا أجابه كشف سوءه، أو هي مستقلَّة يجيب المضطر إذا دعاه ثمَّ أمر آخر يكشف السوء؟

الجواب: المعنى الأخير أعمّ، لأنها تشمل كشف سوء المضطر وغيره، ومن دعا الله ومن لم يدعه، وعلى التقدير الأول تكون خاصة بكشف سوء المضطر، ومعلوم أنَّه كلما كان المعنى أعمّ كان أولى، ويؤيّد العموم قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾.

● **المسألة الرابعة:**

قال ابن عثيمين(١)**: إشكال وجوابه:** وهو أنَّ الإنسان المضطر يسأل غير الله ويُستجاب له، كمن اضطر إلى طعام وطلب من صاحب الطعام أن يعطيه فأعطاه، فهل يجوز أم لا؟

الجواب: إنَّ هذا جائز ، لكن يجب أن نعتقد أن هذا مجرَّد سبب لا أنَّه مستقل، فالله جعل لكل شيء سببًا، فيمكن أن يصرف الله قلبه فلا يعطيك، ويمكن أن تأكل ولا تشبع فلا تزول ضرورتك، ويمكن أن يسخره الله ويُعطيْك.

● **المسألة الخامسة:**

قال ابن عثيمين(٢): قوله: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾.

الاستفهام للإنكار، أو بمعنى النفي ، وهما متقاربان، أي: هل أحد مع الله يفعل ذلك ؟!

الجواب: لا ، وإذا كان كذلك، فيجب أن تصرف العبادة لله وحده، وكذلك الدعاء، فالواجب على العبد أن يوجّه السؤال إلى الله تعالى، ولا يطلب من أحد أن يزيل ضرورته ويكشف سوءه وهو لا يستطيع.



ما جاء في الآية من كلام شُرَّاح كتاب التوحيد:

قال : سليمان آل الشيخ(٣): قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾

يقرر تعالى أنه الإله الواحد الذي لا شريك له، ولا معبود سواه مما يشترك في معرفته المؤمن والكافر، لأن القلوب مفطورة على ذلك، فمتى جاء الاضطرار رجعت القلوب إلى الفطرة، وزال ما ينازعها ، فالتجأت إليه وأنابت إليه وحده لا شريك له،

(١) القول المفيد (١/ ٣٥٢/ ٣٥٣).
(٢) القول المفيد (١/ ٣٥٢٣٥٣).
(٣) تيسير العزيز الحميد (١٧٦).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ومثل هذا كثير فى القرآن.

يبين تعالى أنه المدعو عند الشدائد، الكاشف للسوء وحده، فيكون هو المعبود وحده، وكذا قال فى هذه الآية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه والذى لا يكشف ضر المضطرين سواه ومن المعلوم أن المشركين كانوا يعلمون أنه لا يقدر على هذه الأمور إلا الله وحده، وإذا جاءتهم الشدائد أخلصوا الدعاء لله كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فتبين أن من اعتقد فى غير الله أنه يكشف السوء أو يجيب دعوة المضطر، أو دعاه لذلك فقد أشرك شركًا أكبر من شرك العرب كما هو الواقع من عباد القبور.

قال عبد الرحمن آل الشيخ(١): بيَّن تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علم أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده، فذكر ذلك سبحانه محتجًا عليهم فى اتخاذهم الشفعاء من دونه، ولهذا قال ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يعنى يفعل ذلك، فإذا كانت آلهتهم لا تجيبهم فى حال الاضطرار، فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده.

وهذا أصح ما فسر به الآية. اهـ.

وبنحو من هذا قول عبد الله بن جار الله(٢).

قال ابن عثيمين(٣): قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾

الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

قال القرعاوي(٤): الفوائد:

---

(١) فتح المجيد (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

(٢) الجامع الفريد (٦٢).

(٣) القول المفيد (١/ ٣٥٢- ٣٥٣).

(٤) الجديد (١٣٢).

رَوَى الطَّبَرانيُّ بإسْنَاده: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَـافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُم: قُومُوا بنَا نَسْتَغيثُ برَسُول الله ﷺ مِنْ هَذَا المُنَافِق، فَقَال: الـنَّبِيُّ ﷺ إِنَّه لا يُستَغاثُ بي، وإنَّمَا يُسْتَغَاثُ بالله)[1].

---

(١) الإخلاص فى الدعاء سبب للاستجابة.

(٢) إثبات بركة الدعاء ونفعه.

(٣) أن الخير والشر مقدر من الله عز وجل.

(٤) الاستدلال على توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية.

(٥) إجابة الله لدعاء المضطر وكشف سوءه.

(٦) معرفة الله بالفطرة .اهـ.

قوله: [روى الطبرانى بإسناده: أنه كان فى زمن النبى ﷺمنافق...]إلخ.

مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جار الله[2] : الشاهد من الحديث للباب : قوله : **«إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»** . اهـ.

قال ابن باز[3]: الشاهد أنه لا يستغاث بغير الله إلا فيما يقدر عليه الحي. اهـ.

قال القرعاوي[4]: حيث دلَّ الحديث على تحريم الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدرعليه إلا الله لذا تكون الاستغاثة عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك.

قوله: «روى الطبرانى»

قال الشيخ سليمان[5]: قوله: (روى الطبراني) هو الإمام الحافظ الثقة، سليمان ابن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمى الطبرانى صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها، روى عن النسائى وإسحاق بن إبراهيم الدبرى وخلق كثير، ومات سنة ستين وثلاثمائة، وقد بيض المصنف لاسم الراوي، وكأنه والله أعلم نقله عن غيره أو كتبه من حفظه، والحديث عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه. أهـ.

---

(١) [ضعيف] أخرجه الطبرانى كما فى «جامع المسانيد لابن كثير» (٧/ ١٤٠/٤٩٠٤).

قال : حدثنا أحمد بن حماد بن زعبة المصري، حدثنا سعيد بن عفير حدثنا ابن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد، عن على بن رباح، عن عبادة .. الحديث.

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠/١٥٩) وقال: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. وقد رواه أحمد بغير هذا السياق وهو فى الأدب فى باب القيام. وأخرجه أحمد فى مسند (٥/٣١٧) بغير هذا اللفظ كما قال الهيثمى من حديث عبادة بن الصامت. بلفظ«.. فقال رسول الله ﷺ: «لا يقام لى إنما يقام لله تبارك وتعالى».- وانظر «فتح المجيد» (ح٢٩٢) بتخريجنا.

(٢) الجامع الفريد (٦٣)

(٣) التعليق المفيد (٩٣).

(٤) الجديد (١٣٤)

(٥) تيسير العزيز الحميد (١٧٧).

قوله: «بإسناده» :

قال ابن عثيمين[1]: يشير إلى أن هذا الإسناد ليس على شـرط الصحيح، أو المتفق عليه بين الناس، بل هو إسناده الخاص ، وعليه فيجب أن يُراجع هذا الإسناد، فليس كل إسناد محدّث قد تمت فيه شروط القبول.

وذكر الهيـثمى فى «مجمع الزوائد»: «إن رجاله رجـال الصحيح، غير ابن لهـيعة، وهو حسن الحديث، وابن لهيعة خلّط فى آخر عـمره لاحتراق كتبه»، ولم يذكر المؤلف الصحابي، وفى الشرح هو عبادة بن الصامت رضى الله عنه.

قوله: «أنه كان فى زمن النبى ﷺ»

قال ابن عثيمين[2]: أي: عهده وكـان الكافرأولاً يعلن كفره ولا يُبـالي، ولما قوى المسلمون بعد غزوة بدر خاف الكفّار، فصاروا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

قوله: «منافق يؤذى المؤمنين»

قال سليمان آل الشيخ[3]: هذا المنافق لم أقف على تسميته، ويحتمل أن يكون هو عبـدالله بن أُبي، فإنه معروف بالأذى للمـؤمنين بالكلام فى أعراضهم ونحـو ذلك، أما أذاهم بنحو ضرب أو زجر فلا نعلم منافقًا بهذه الصفة.

قال ابن عثيمين[4]: قوله: «**منافق**» المنافق: هو الذى يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهؤلاء ظهروا بعد غزوة بدر.

ولم يسم المنافق فى هذا الحديث، فـيحتمل أنه عبد الله بن أبيّ، لأنّه مـشهور بإيذاء المسلمين، ويُحتمل غيره.

واعلم أن أذيَّة المنافقين للمـسلمين ليست بالضَّرب أو القتل، لأنَّهم يتظاهرون بمـحبة المسلمين، ولكن بالقول والتعريض كما صنعوا فى قصة الإفك.

قوله: «فقال بعضهم»

قال سليمان آل الشيخ[5]: قوله: فقال بعضهم: أى بعض المؤمنين، وهذا البعض القائل لذلك يحتمل أن يكون واحدًا، وأن يكون جماعة، والظاهر أنه واحد، وأظن فى بعض الروايات أنه أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

(1) القول المفيد ١/ ٣٥٤، ٣٥٥.
(2) القول المفيد ١/ ٣٥٥.
(3) تيسير العزيز الحميد ١٧٧.
(4) القول المفيد ١/ ٣٥٥..
(5) تيسير العزيز الحميد ١٧٧.

قال ابن عثيمين[١]: قوله «فقال بعضهم» أى الصحابة .

قوله:«قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ».

قال سليمان آل الشيخ[٢]: قوله : (قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ). مرادهم الاستغاثة به فيما يقدر عليه بكف المنافق عن أذاهم، بنحو ضربه أو زجره، لا الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قال ابن عثيمين[٣]: قوله: «نستغيث» أى : نطلب الغوث وهو إزالة الشدة.

قوله: «من هذا المنافق».

قال ابن عثيمين[٤]: إمَّا بزجره أو تعزيره أو بما يناسب، وفى الحديث إيجاز حذف دلَّ عليه السياق، أي: فقاموا إلى رسول الله فقالوا: يا رسول الله ! إنَّا نستغيث بك من هذا المنافق.

قوله: «إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله».

قال سليمان آل الشيخ[٥]: قال بعضهم : فيه التصريح بأنه لا يستغاث بالنبى ﷺ فى الأمور، وإنما يستغاث بالله، والظاهر أن مراده ﷺ إرشادهم إلى التأدب مع الله فى الألفاظ، لأن استغاثتهم به ﷺ من المنافق، من الأمور التى يقدر عليها، إما بزجره أو تعزيره ونحو ذلك فظهر أن المراد بذلك الإرشاد إلى حسن اللفظ والحماية منه ﷺ لجناب التوحيد، وتعظيم الله تبارك وتعالي.

فإذا كان هذا كلامه ﷺ فى الاستغاثة به فيما يقدر عليه، فكيف بالاستغاثة به أو بغيره فى الأمور المهمة التى لا يقدر عليها أحد إلا الله ؟ كما هو جار على ألسنة كثير من الشعراءوغيرهم؟ وقل من يعرف أن ذلك منكر، فضلاً عن معرفة كونه شركًا.

فإن قلت: ما الجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾[٦] فإن ظاهر الحديث المنع من إطلاق لفظ الاستغاثة على المخلوق فيما يقدر عليه، وظاهر الآية جوازه؟

قيل: تحمل الآية على الجواز، والحديث على الأدب، والأولى والله أعلم.

وقد تبين بما ذكر فى هذا الباب وشرحه من الآيات والأحاديث وأقوال العلماء أن دعاء الميت والغائب والحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله والاستغاثة بغير الله فى كشف

---

(١) القول المفيد ١/ ٣٥٥.
(٢) تيسير العزيز الحميد ١٧٧.
(٣) القول المفيد ١/ ٣٥٥.
(٤) المصدر السابق.
(٥) تيسير العزيز الحميد ١٧٧.
(٦) القصص (١٥).

الضر أو تحويله، هو الشرك الأكبر، بل هو أكبر أنواع الشرك، لأن الدعاء مخ العبادة، ولأن من خصائص الإلهية إفراد الله بسؤال ذلك، إذ معنى الإله هو الذى يعبد لأجل هذه الأمور، ولأن الداعى إنما يدعو إلهه عند انقطاع أمله مما سواه، وذلك هو خلاصة التوحيد، وهو انقطاع الأمل مما سوى الله، فمن صرف شيئًا من ذلك لغير الله، فقد ساوى بينه وبين الله، وذلك هو الشرك، ولهذا، يقول المشركون لآلهتهم وهم فى الجحيم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . اهـ.

قوله:(إنه لا يستغاث بي):

قال ابن باز[1]: يحتمل أمرين:

(الأول) أن النبى ﷺ لا يستطع قتله، لأنه كان ممنوعًا من قتله، لأجل أن لا يتحدث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه، فامتنع من قتله.

(الثاني) يحتمل إن صح الخبر، أن قال سدًا للذريعة وإن كان قادرًا على التخلص منه، حتى لا تقع منهم هذه الكلمة فى أمور لا يقدر عليه. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: ظاهر هذه الجملة النفى مطلقًا، ويحتمل أن المراد: لا يُستغاث به فى هذه القصة المعيّنة.

فعلى الأول: يكون نفى الاستغاثة من باب سد الذرائع والتأدب فى اللفظ، وليس من باب الحكم بالعموم، لأن نفى الاستغاثة بالرسول ﷺ ليس على إطلاقه، بل تجوز الاستغاثة به فيما يقدر عليه.

أمَّا إذا قلنا: إنَّ النفى عائد إلى القضية المعيّنة التى استغاثوا بالنبى ﷺ منها، فإنَّه يكون على الحقيقة، أي: على النفى الحقيقي، أي: لا يُستغاث بى فى مثل هذه القضية، لأنَّ النبى ﷺ كان يعامل المنافقين معاملة المسلمين، ولا يمكنه حسب الحكم الظاهر للمنافقين أن ينتقم من هذا المنافق انتقامًا ظاهرًا، إذ إن المنافقين يستترون، وعلى هذا، فلا يستغاث للتخلص من المنافق إلا بالله.

● شبهات والرد عليها ●

قال سليمان آل الشيخ[3]: ولكن لعباد القبور على هذا شبهات، ذكر المصنف كثيرًا منها فى «كشف الشبهات» ونحن نذكر هنا ما لم يذكره.

فمن ذلك: أنهم احتجوا بحديث رواه الترمذى فى «جامعه» حيث قال:

(١) «التعليق المفيد» (٩٣). (٢) القول المفيد (١/ ٣٥٦).

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٧٨-١٨٢).

حدثنا محمود بن غيلان ثنا عثمان بن عمرو، ثنا شعبة بن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أنَ رَجُلاً ضَرِيرَ البَصَرِ أتَى النَّبى ﷺ فَقَالَ: ادْعُ الله أن يُعافيني، قال: «إن شِئْتَ دَعَوْتُ، وإنْ شِئْتَ صَبَرتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قَالَ: فَادْعُه، فَأمَرَه أَنْ يَتَوضَأَ، وَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ، وَيَدْعُو بِهَذَا الدُعَاءَ «اللَّهُمَّ إنى أسْألُكَ، وأتَوجَّه إلَيكَ بنَبيكَ مُحمد نَبى الرَّحمَة، إنّى توجهتُ به إلَى ربى فى حَاجَتى هَذه لَتُقْضَى، اللَّهُمَّ فَشَفعهُ فيَّ»(١) قال: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من رواية أبى جعفر، وهو غير الخطمي.

هكذا رواه الترمذى ورواه النسائى وابن شاهين والبيهقى كذلك.

وفى بعض الروايات «يَا مُحمد إنى أتوَجَّهُ» إلى آخره.

وهذه اللفظة هى التى تعلق بها المشركون، وليست عند هؤلاء الأئمة، قالوا: فلو كان دعاء غير الله شركًا لم يعلِّم النبى ﷺ الأعمى هذا الدعاء الذى فيه نداء غير الله؟.

والجواب من وجوه: الأول: أن هذا الحديث من أصله وإن صححه الترمذى فإن فى ثبوته نظرًا، لأن الترمذى يتساهل فى التصحيح كالحاكم، لكن الترمذى أحسن نقدًا، كما نص على ذلك الأئمة.

ووجه عدم ثبوته أنه قد نص أن أبا جعفر الذى عليه مدار هذا الحديث هو غير الخطمى، وإذا كان غيره، فهو لا يعرف، ولعل عمدة الترمذى فى تصحيحه أن شعبة لا يروى إلا عن ثقة، وهذا فيه نظر، فقد قال عاصم بن علي: سمعت شعبة يقول: لو لم أحدثكم إلا عن ثقة لم أحدثكم إلا عن ثلاثة. وفى نسخة عن ثلاثين، ذكره الحافظ العراقي، وهذا اعتراف منه بأنه يروى عن الثقة وغيره فينظر فى حاله، ويتوقف الاحتجاج به على ثبوت صحته(*).

الثانى: أنه فى غير محل النزاع، فأين طلب الأعمى من النبى ﷺ أن يدعو له، وتوجهه بدعائه مع حضوره، من دعاء الأموات والسجود لهم، ولقبورهم، والتوكل عليهم، والالتجاء إليهم فى الشدائد والنذر والذبح لهم، وخطابهم بالحوائج من الأمكنة البعيدة: يا سيدى يا مولاى افعل بى كذا؟ فحديث الأعمى شيء ودعاء غير الله تعالى

(١) تقدم تخريجه

(*) تنبيه: تقدم فى الباب الخامس تفصيل التوسل والوسيلة، وفيه حديث الأعمى، حيث أنا عرضنا كلام أهل العلم فى الحكم على الحديث، وذكرنا تجويد الألبانى له، فانظره، وانظر أيضًا باب الشفاعة.

والاستغاثة به شيء آخر فليس فى حديث الأعمى شيء غير أنه طلب من النبى ﷺ أن يدعو له، ويشفع له، فهو توسل بدعائه وشفاعته، ولهذا قال فى آخره: «اللهم فشفعه في» فعلم أنه شفع له.

وفى رواية أنه طلب من النبى ﷺ أن يدعو له، فدل الحديث على أنه ﷺ شفع له بدعائه، وأن النبى ﷺ أمره هو أن يدعو الله ويسأله قبول شفاعته.

فهذا من أعظم الأدلة أن دعاء غير الله شرك، لأن النبى ﷺ أمره أن يسأل قبول شفاعته.

فدل على أن النبى ﷺ لا يدعي، ولأنه ﷺ لم يقدر على شفائه إلا بدعاء الله له، فأين هذا من تلك الطوام.

والكلام إنما هو فى سؤال الغائب أو سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، أما أن تأتى شخصًا يخاطبك فتسأله أن يدعو لك فلا إنكار فى ذلك على ما فى حديث الأعمي، فالحديث سواء كان صحيحًا أو لا، وسواء ثبت قوله فيه يا محمد أو لا، لا يدل على سؤال الغائب، ولا على سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله بوجه من وجوه الدلالات، ومن ادعى ذلك فهو مفتر على الله وعلى رسوله ﷺ، لأنه إن كان سأل النبى ﷺ نفسه، فهو لم يسأل منه إلا ما يقدر عليه، وهو أن يدعو له، وهذا لا إنكار فيه وإن كان توجه به من غير سؤال منه نفسه، فهو لم يسأل منه وإنما سأل من الله بـه.

وسواء كان متوجهًا بدعائه، كما هو نص أول الحديث وهو الصحيح، أو كان متوجهًا بذاته على قول ضعيف، فإن التوجه بذوات المخلوقين، والإقسام بهم على الله بدعة منكرة، لم تأت عن النبى ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه، والتابعين لهم بإحسان ولا الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة الدين.

قال أبو حنيفة: لا ينبغى لأحد أن يدعو الله إلا به.

وقال أبو يوسف: أكره بحق فلان، وبحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت، والمشعر الحرام.

وقال القدوري: المسألة بحق المخلوق لا تجوز، فلا يقول: أسألك بفلان أو بملائكتك أو أنبيائك ونحو ذلك، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق.

واختاره العز بن عبد السلام، إلا فى حق النبى ﷺ خاصة إن ثبت الحديث، يشير إلى الحديث الأعمى، وقد تقدم أنه على تقدير ثبوته ليس فيه إلا أنه توسل بدعائه لا بذاته.

وقد ورد في ذلك حديث رواه الحاكم في «مستدركه» فأبعد النُّجعة[1] من طريق عبدالرحمن بن زيد بن أسلم لَمَّا أَذْنَبَ آدم الذَّنْبَ الَّذِى أَذْنَبَهُ، رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى العرش، فَقَالَ «أَسأَلُكَ بِحقِ مُحمدٍ إلا غَفرْتَ لِى... الحديث»[2] وهو حديث ضعيف بل موضوع، لأنه مخالف للقرآن.

قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3]

فهذا هو الذى قاله آدم.

قال الذهبى فى هذا الحديث: أظنه موضوعًا، وعبد الرحمن بن زيد متفق على ضعفه، قال ابن معين: ليس حديثه بشيء.

الثالث: أن قوله: (**يا محمد إنى أتوجه**) إلخ لم تثبت فى أكثر الروايات، وبتقدير ثبوتها لا يدل على جواز دعاء غير الله، لأن هذا خطاب لحاضر معين يراه ويسمع كلامه، ولا إنكار فى ذلك، فإن الحى يطلب منه الدعاء كما يطلب منه ما يقدر عليه، فأين هذا من دعاء الغائب والميت لو كان أهل البدع والشرك يعلمون ؟!

واحتجوا أيضًا بحديث رواه أبو يعلى وابن السنى فى «عمل اليوم والليلة».

فقال ابن السني: حدثنا أبو يعلى ثنا الحسن بن عمرو بن شقيق ثنا معروف بن حسان ثنا أبو معاذ السمرقندى عن سعيد عن قتادة عن ابن بريدة عن أبيه.

- عَن عَبد الله بن مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إذا انفَلَتَتْ دَابَّةُ أَحَدكُمْ بِأَرضٍ فَليُنَادِ يَا عِبَادَ الله احْبِسُوا**»[4] هكذا فى كتاب ابن السني.

وفى «الجامع الصغير» «**فَإِنَّ لله عَزَّ وَجَلَّ فى الأَرْض حَاضِرًا سَيَحْبِسَهُ عَلَيْكُمْ**».

والجواب: أن هذا الحديث مداره على معروف بن حسان وهو أبو معاذ السمرقندي، فقوله فى الأصل: ثنا أبو معاذ السمرقندى خطأ أظنه من الناسخ، قال ابن عدي: منكر الحديث، وقال الذهبى فى الميزان: قال ابن عدى: منكر الحديث قد روى عن عمرو بن ذر نسخة طويلة كلها غير محفوظة.

---

(١) والنُّجعَة: طلب الكلاء فى موضعه.

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٦١٥) عن عمر به وصححه، وتعقبه الذهبى فى «التلخيص» بقوله: بل موضوع، وعبد الرحمن واهٍ.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٢٣.

(٤) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٥٠٨).

وقال السيوطي: حديث ضعيف، وأقول بل هو باطل، إذ كيف يكون عند سعيد عن قتادة ثم يغيب عن أصحاب سعيد الحفاظ الأثبات مثل يحيى القطان، و إسماعيل بن علية ، وأبي أسامة، وخالد بن الحارث، وأبي خالد الأحمر، وسفيان، وشعبة، وعبد الوارث، وابن المبارك والأنصاري، وغندر، وابن أبي عدى ونحوهم، حتى يأتي به هذا الشيخ المجهول المنكر الحديث ، فهذا من أقوى الأدلة على وضعه، وبتقدير ثبوته لا دليل فيه ، لأن هذا من دعاء الحاضر فيما يقدر عليه كما قال: «**فإن لله فى الأرض حَاضرا سَيَحْبِسه عَلَيْكُم**».

واحتجوا أيضًا بحديث رواه الطبراني فى «المعجم الكبير» فقال: حدثنا طاهر بن عيسى بن قيرس المصرى ثنا أصبغ بن الفرج ، ثنا ابن وهب عن أبى سعيد المكى عن روح بن القاسم عن أبى جعفر الخطمى المدينى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف : أن رَجُلاً كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى عُثْمَان بنِ عَفَان فى حاجة لَهُ فكَانَ عُثْمَان لاَ يَلْتَفِت إِلَيه، وَلا يَنْظُرُ فى حَاجَتِهِ، فَلَقِيَ ابنَ حَنيفٍ فَشكَا إِلَيْهِ ذَلكَ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَان بنُ حَنيف: ائت المَيْضَأة فَتَوَضأ، ثُمَّ ائتِ المسجِدَ فَصلِّ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنى أَسْأَلُكَ، وَأَتَوجه إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا مُحمد نَبى الرَّحْمَةِ يَا مُحمد إِنى أَتَوَجهُ بِكَ إِلَى رَبكَ لِيَقْضى لى حَاجَتِي. . الحديث»(1).

والجواب من وجوه:

الأول: أن رواية طاهر بن عيسى ممن لا يعرف بالعدالة بل هو مجهول، قال: الذهبي: طاهر بن عيسى بن قيرس أبو الحسين المصرى المؤدب عن سعيد بن أبى مريم ويحيي بن بكير، وأصبغ بن الفرج، وعنه الطبرانى . توفى سنة اثنتين وتسعين ومائتين ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً ، فهو إذًا مجهول الحال لا يجوز الاحتجاج بخبره، لا سيما فيما يخالف نصوص الكتاب والسنَّة.

الثاني: قوله: عن أبى سعيد المكى أشد جهالة من الأول، فإن مشايخ ابن وهب المكيين معروفون كداود بن عبد الرحمن، وزمعة بن صالح، وابن عيينة، وطلحة بن عمرو الحضرمي، وابن جريج، وعمر بن قيس، ومسلم بن خالد الزنجي، وليس فيهم من يكنى أبا سعيد، فتبين أنه مجهول.

الثالث: إن قلنا بتقدير ثبوته فليس فيه دليل على دعاء الميت والغائب، غاية ما فيه أنه توجه به فى دعائه، فأين هذا من دعاء الميت ؟ فإن التوجه بالمخلوق سؤال به لا

(1) أخرجه الطبرانى فى «الكبير». (9/ 17/ 8311).

سؤال منه، والكلام إنما هو فى سؤال المخلوق نفسه ودعائه والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله، وكل أحد يفرق بين سؤال الشخص، وبين السؤال به، فإنه فى السؤال به قد أخلص الدعاء لله ولكن توجه على الله بذاته أو بدعائه وأما فى سؤاله نفسه ما لا يقدر عليه إلا الله فقد جعله شريكًا لله فى عبادة الدعاء، فليس فى حديث الأعمى، وحديث ابن حنيف هذا إلا إخلاص الدعاء لله كما هو صريح فيه، إلا قوله: يا محمد إنى أتوجه بك، وهذا ليس فيه المخاطبة لميت فيما لا يقدر عليه، إنما فيه مخاطبته مستحضرًا له فى ذهنه كما يقول المصلى : السلام عليك أيها النبي، ورحمة الله وبركاته.

الرابع: أنهم زعموا أنه دليل على دعاء كل غائب وميت من الصالحين ، فخرجوا عما فهموه من الحديث بفهمهم الفاسد إلى أنه دليل على دعاء كل غائب، وميت صالح، ولا دليل فيه أصلاً على دعاء الرسول ﷺ بعد موته ولا فى حياته فيما لايقدر عليه ثم لو كان فيه دليل على ذلك لم يكن فيه دليل على دعاء الغائب والميت مطلقًا، لأن هذا قياس مع وجود الفارق ، وهو باطل بالإجماع ، إذ ما ثبت للنبى ﷺ من الفضائل والكرامات لا يساويه فيه أحد، فلا يجوز قياس غيره عليه، وأيضًا فالقياس إنما يجوز للحاجة ولا حاجة إلى قياس غيره عليه، فبطل قياسهم بنفس مذهبهم، هذا غاية ما احتجوا به مما هو موجود فى بعض الكتب المعروفة، وما سوى هذه الأحاديث الثلاثة فهو مما وضعوه بأنفسهم ، كقولهم: «**إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور**»(١). وقولهم: «**لو حسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه**»(٢). قال ابن القيم : وهو من وضع المشركين عباد الأوثان. أهـ.

قال الصنعانى: فإن قلت الاستغاثة قد ثبتت فى الأحاديث. فإنه قد صح أن العباد يوم القيامة يستغيثون بآدم أبى البشر، ثم بإبراهيم، ثم بموسى ثم بعيسى، وينتهون إلى محمد ﷺ، بعد اعتذار كل واحد من الأنبياء. فهذا دليل على الاستغاثة بغير الله ليست بمنكر.

قلت: هذا تلبيس. فإن الاستغاثة بالمخلوقين الأحياء فيما يقدرون عليه لاينكرها أحد. وقد قال الله تعالى فى قصة موسى مع الإسرائيلى والقبطى﴿**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ**﴾ وإنما الكلام فى استغاثة القبوريين وغيرهم بأوليائهم، وطلبهم منهم أمورًا لايقدرا عليها إلا الله تعالى: من عافية المريض وغيرها. بل أعجب من هذا: أن القبوريين وغيرهم من الأحياء من أتباع من يعتقدون فيه: يجعلون له حصة من الولد إن عاش، ويشترون منه الحمل فى بطن أمه ليعيش، ويأتون بمنكرات ما بلغ إليها المشركون

(١) تقدم الكلام عليه.

(٢) ذكره السخاوى فى «المقاصد الحسنة» (٨٨٣) وقال: قال ابن تيمية إنه كذاب ونحوه قول شيخنا أنه لا أصل له.

الأولون. ولقد أخبرنى بعض من يتولى قبض مـا ينذر القبوريون لبعض أهل القبور أنه جاء إنسان بـدراهم وحلية نساءه، وقـال هذه لسيده فلاـيـريد صاحب القبر نـصف مهر ابنتي. لأنى زوجتها وكنت ملكت نصفها فلانا ـ يريد صاحب القبرـ.

وهذه النزور بالأموال، وجعل قسط للقبر، كما يجعلون شيئا من الزرع يسمونه «تلما» فى بعض الجهات اليمنية. وهذا شىء مـا بلغ إليه عباد الأصنام وهو داخل تحت قول الله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ بلا شك ولاريب.

نعم استغاثة العباد يوم القيامة وطلبـهم من الأنبياء إنما يدعون الله تعالى ليفصل بين العباد بـالحساب. حتى يريـحهم من هول الموقـف وهذا لاشك فى جوازه. أعنـى طلب الدعاء الله تـعالى من بعض عـباده لبعض. بل قـال ﷺ لعمر رضى الله عنـه لما خرج معتمر «لاتنسنا يا أخي من دعائك»[(١)] وأمرنا سبحانه أن ندعو للمـؤمنين ونستغفر لهم فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ وقد قالت أم سـليم رضى الله عنها «يا رسول الله خادمك أنس، أدع الله له»[(٢)] وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يطـلبون الدعاء عنه ﷺ وهو حى وهـذا أمر متفقى على جوازه والـكلام فى طلب القبوريين من الأموات أو من الأحياء الذين لايملكون لأنفسهم نفعا ولاضرا ولا موتا ولا حياة ولانشـورا أن يشفوا مرضاهـم ويردوا غائبهم، ويـنفسوا عن حبـلاهم، وأن سقوا زرعهم، ويدروا ضروع مـواشيهم ويحفظوهـا من العين، ونحو ذلك من المـطالب التى لايقدر عليها إلا الله ـ هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ فكيف يطلب الإنسان من الجماد أو من حى ـ الجماد خير منه ـ لأنه لاتكليف عليه[(٣)].

قال ابن عثيمين[(٤)]: فيه مسائل:

● **الأولى : أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص**

يعني: حيث قال فـى الترجمة باب من الشرك أن يستغيث بـغير الله أو يدعو غيره، ووجه ذلك أن الاستغاثة طلب إزالة الشدة والـدعاء طلب ذلك وغيره، إذاً الاستغاثة نوع

---

(١) تقدم تخريجه وأنه ضعيف

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تطهير الاعتقاد (ص٣٧: ٣٩).

(٤) القول المفيد ١/ ٣٥٧- ٣٦٣.

الثانية: تَفْسيرُ قَوْلِه ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ ما لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾.

الثالثة: أَنَّ هَذَا هُوَ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ.

الرابعة: أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ فَعَلَهُ إِرْضَاءً لِغَيْرِهِ، صَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

الخامسة: تَفْسيرُ الآية ـ الَّتِي بَعْدَهَا.

من الدعاء، والدعاء أعمّ، فهو من باب عطف العام على الخاص، وهذا سائغ فى اللغة العربية، فهو كقوله تعالى: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾**.

● **الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾.**

الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ خاصة، بدليل الآيات التى قبلها، قال تعالي: **﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾**

فإن قيل: كيف ينهاه الله عن أمر لا يمكن أن يقع منه شرعًا؟

أجيب: إنَّ الغرض هو التنديد بمن فعل ذلك، كأنه يقول: لا تسلك هذا الطريق التى سلكها أهل الضلال، وإن كان الرسول لا يمكن أن يقع منه ذلك شرعًا.

● **الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.**

يؤخذ من قوله تعالى: **﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾**، مضافًا إلى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**.

[قلت]: وهذا يؤيد قول من قال: إن ألفاظ الكفر والشرك والظلم فى القرءان غائية أى تحمل على الأكبر.

● **الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاءً لغيره، صار من الظالمين.**

تؤخذ من كون الخطاب للرسول ﷺ، وهو أصلح الناس، فلو فعل ذلك إرضاءً لغيره، صار من الظالمين، حتى ولو فعله مجاملة لإنسان مشرك، فدعا صاحب قبر إرضاءً لذلك المشرك، فإنه يكون مشركًا، إذ لا تجوز المحاباة فى دين الله. قلت: وفيه رد على من منع إطلاق الشرك أو الكفر على من دعا غير الله ممن يزعم الصلاح أو يزعمون فيه ذلك بدعوى صلاح أو ولايته بزعمهم!!

● **الخامسة: تفسير الآية التى بعدها.**

وهى قوله تعالى: **﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾** الآية، فإذا كان لا يكشف الضرّ إلا الله، وجب أن تكون العبادة له وحده والاستغاثة به وحده.

السادسة: كَوْنُ ذَلِكَ لاَ يَنْفَعُ فِى الدُّنْيَا مَعَ كَوْنِه كُفْراً.

السابعة: تَفْسِيرُ الآيةِ الثَّالِثَةِ.

الثامنة: أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لاَ يَنْبَغِى إِلاَّ مِنَ الله، كَمَا أَنَّ الجَنَّة لا تُطْلَبُ إِلاَّ مِنْهُ.

التاسعة: تَفْسِيرُ الآيةِ الرَّابِعةِ .

العاشرة: أَنَّهُ لا أَضلَّ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ الله.

● السادسة: كون ذلك لاينفع فى الدنيا مع كونه كفراً.

تؤخذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ فلم ينتفع من دعائه هذا ، فخسر الدنيا بذلك، والآخرة بكفره.

[قلت]: وهذا الذى يعبد الله على حرف إن أصابه خير اطمأن به وإن اصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة بسبب أنه يدعو مالا يضره ولا ينفعه بل ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير.

● السابعة: تفسير الآية الثالثة.

وهى قوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ .

وقوله : ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ حال من الرزق، وعليه يكون ابتغاء الرزق عند الله وحده.

● الثامنة: أنَّ طلب الرزق لا ينبغى إلاَّ من الله ، كما أنَّ الجنة لا تطلب إلا منه.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، لأن العبادة سبب لدخول الجنة، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

● التاسعة: تفسير الآية الرابعة:

وهى قوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

● العاشرة: أنَّه لا أضلّ ممن دعا غير الله.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لأن الاستفهام هنا بمعنى النفى .

الحادية عشرة: أنَّهُ غَافِلٌ عَن دُعَاءِ الدَّاعِي لا يَدْرِي عَنْهُ.

الثانية عشرة : أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِبُغْضِ المَدْعُوِّ للدَّاعِي وَعَدَاوتِهِ لَهُ.

الثالثة عشرة: تَسْمِيَةُ تِلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً للمَدْعُوِّ.

الرابعة عشرة: كُفْرُ المَدْعُوِّ بِتِلْكَ العِبَادَةِ.

الخامسة عشرة: هِيَ سَبَبُ كَوْنِهِ أَضَلَّ النَّاسِ.

● **الحادية عشرة: أنَّه غافل عن دعاء الداعي لا يدرى عنه.**

لقوله تعالى: ﴿ **وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ**﴾.

﴿**وَهُمْ**﴾ أي: المدعوون ، ﴿**عَن دُعَائِهِم**﴾، أي : دعاء الداعين، أو عن دعاء الداعين إيَّاهم، فالاحتمال فى الضمير الثاني، وهو قوله : ﴿**عَن دُعَائِهِمْ**﴾ أمَّا الضمير الأول، فإنَّه يعود إلى المدعوين لا ريب، وقد سبق بيانه بالتفصيل.

● **الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعى وعداوته له.**

تؤخذ من قوله تعالي: ﴿ **وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾

● **الثالثة عشرة** : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

تؤخذ من قوله تعالي: ﴿**وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾

● **الرابعة عشرة**: كفر المدعو بتلك العبادة.

معنى كفر المدعو: ردّه وإنكاره، فإذا كان يوم القيامة تبرأ منه وأنكره.

تؤخذ من قوله: ﴿**وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾

● **الخامسة عشرة: هى سبب كونه أضل الناس.**

وذلك لأمور، هى:

١ـ أنه يدعو من دون الله من لايستجيب له.

٢ـ أن المدعوين غافلون عن دعائهم.

٣ـ أنه إذا حشر الناس كانوا له أعداء.

٤ـ أنه كافر بعبادتهم.

السادسة عشرة: تَفْسيرُ الآيةِ الخامسَةِ.

السابعة عشرة: الأمْرُ العَجيبُ، وَهُوَ إِقْرارُ عَبَدَةِ الأَوْثان أَنَّهُ لا يُجيبُ المُضْطَرَّ إلاَّ اللهُ، ولأجْلِ هَذَا يَدْعُونَهُ في الشَدائِد مُخْلصِينَ لَهُ الدِّينَ.

الثامنة عشرة: حِمَايَةُ المُصْطَفى ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَالتَّأَدُّبُ مَعَ اللهِ.

● **السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة.**

وهى قوله تعالى : ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾وقد سبق ذلك .

● **السابعة عشرة : الأمر العجيب،و هو إقرار عَبدَة الأوثان أنَّه لايجيب المضطر إلا الله.. إلخ.**

و هو كما قال رحمه الله: وهذا موجود الآن؛ فمن الناس من يسجد للأصنام التى صنعوها بأنفسهم تعظيماً، فإذا وقعوا فى الشدّة دعوا الله مخلصين له الدين، وكان عليهم أن يلجؤوا للأصنام لو كانت عبادتها حقاً إلاّ أن من المشركين اليوم من هو أشدّ شركاً من المشركين السابقين، فإذا وقعوا فى الشدة دعو ا أولياءهم؛ كعلىّ والحسين، وإذا كان الأمر سهلاً دعوا الله، وإذا حلفوا حلفاً هم فيه صادقون حلفوا بعلىّ أو غيره من أوليائهم، وإذا حلفوا حلفاً هم فيه كاذبون حلفوا بالله ولم يبالوا.

[قلت]: **قال الصنعانى**(١): بل إذا حلف من عليه حق باسم الله تعالى لم يقبلوا منه فإذا حلف باسم ولى من أوليائهم قبلوه وصدقوه وهكذا كان عباد الأصنام. ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾.

قال حامد الفقى: وهم يحكون فى ذلك حكايات اختلقوها أن حالفاً حلف بالولى كاذباً أنه ما سرق سمكة، فما كاد ينتهى من حلفه حتى تصرف الولى فيه وأخرجها من بطنه وأمثال هذا كثير عند سدنة هذه الأوثان، يختلقونها، ويذيعونها فى العامة ترويجاً لتجارتهم الخاسرة قبحهم الله أهـ.

● **الثامنة عشرة : حماية المصطفى حمى التوحيد، والتأدب مع الله.**

اختار المؤلف أنَّ قوله: «**لايستغاث بى**» من باب التأدّب بالألفاظ والبعد عن التعلّق بغير الله، وأن يكون تعلّق الإنسان دائماً بالله وحده؛ فهو يُعلم الأمة أن تلجأ إلى الله وحده إذا وقعت فى الشّدائد، ولاتستغيث إلا به وحده. اهـ



---

(١) تطهير الاعتقاد (٤٠، ٤١).

(١٤) بابُ قولِ اللهِ تعالى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾[١]

ـ الثناء على الترجمة:

تأسى المصنف فى هذا التبويب بطريقة العلماء الراسخين من السلف الصالحين كالبخارى وغيره، إذ يؤثر عنهم الاكتفاء فى التبويب بالآية أو الحديث أو ببعضهما.

ـ المراد من الباب ومناسبته لما قبله:

قال سليمان آل الشيخ[٢]: المراد من هذه الترجمة بيان حال المدعوين من دون الله أنهم لا ينفعون ولايضرون وسواء فى ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون والأصنام، فكل من دعى من دون الله فهذا حاله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[٣]. أ هـ

قال حامد بن محمد[٤]: باب بيان ما يدل من الدلائل والبراهين الساطعة على معنى قوله ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الآية أهـ.

وقال ناصر السعدى[٥]: هذا شروع فى براهين التوحيد وأدلته؛ فالتوحيد له من البراهين النقلية والعقلية ماليس لغيره.

قال ابن عثيمين[٦]: لما ذكر رحمه الله الاستعاذة والاستغاثة بغير الله عزوجل ذكر البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله، ولهذا جعل الترجمة لهذا الباب نفس الدليل.

قال الفقير: ولمناسبة أخرى وهى بيان مدى عجبه الشديد من صنيع هؤلاء المشركين حيث تعلقوا بخيط العنكبوت، فكأن الترجمة الماضية كانت لبيان حال الداعى والعجب من ضلاله فالأعجب والأبين للضلال أن يبين حال المدعوين من دون الله، فوضع هذه الترجمة بعد هذه. والله أعلم.

● **الخلاصة:**

فالمناسبة بإختصار لأمرين

---

(١) الأعراف: ١٩١/ ١٩٢.
(٢) تيسير العزيز الحميد ١٨٢، ١٨٣
(٣) الحج: ٧٣/ ٧٤.
(٤) فتح الله الحميد المجيد (٢٤٨).
(٥) القول السديد ٥٣.
(٦) القول المفيد ١/ ٣٦٤.

الأول: أنه لما بيّن حال الداعي لغير الله وأنه ليس هناك أضل منه فناسب أن يذكر حال المدعو، وأنه ما يملك لنفسه من قطمير.

الثاني: لبيان العجب والدهشة ممن هذا حاله.

وهذا أوان الشروع في الموضوع.

قوله تعالى **﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ...﴾** الآية

ـ مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوي[2]: حيث دلّت الآية على أنّ التوجه إلى غير الله لجلب النفع أو دفع الضر شرك. أ.هـ

قوله: **﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾**.

ـ الإعراب[3]:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكاري، (ويشركون) فعل مضارع، والواو فاعل،و(ما) مفعول به، وجملة (لايخلق) صلة الموصول، و(الواو) حالية، و(هم) مبتدأ، وجملة (يخلقون) بالبناء للمجهول خبر «هم»، و(الواو) نائب فاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتوبيخهم على ما اقترفوه. وهذا الضمير يعود على الأصنام المعبر بـ «ما»، وعبر عنها بـ«ما» لاعتقاد الكفار فيها ما يعتقدونه في العقلاء، ويجوز أن يعود على الكفار، أي: وهم مخلوقون لله، فلوا تفكروا في ذلك لآمنوا.

● **تفسير الآية بما جاء عن التابعين**

عن الحسن في الآية قال: هذا في الكفار، يدعون الله فإذا آتاهما صالحاً هوّدا ونصرا قال **﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾** يقول: يطيعون مالايخلق شيئاً وهي الشياطين لاتخلق شيئاً وهي تخلق **﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾** يقول: لمن يدعوهم.

ـ قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

● **أقوال أهل التفسير**

ـ قال ابن جرير[5]: يقول تعالى ذكره: أيشركون في عبادة الله، ويعبدون معهم **﴿مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾** والله يخلقها وينشئها، وإنما العبادة الخالصة للخالق، لا للمخلوق.

(1) الأعراف/ ١٩١، ١٩٢.
(2) الجديد (١٣٦).
(3) إعراب القرآن (٣/ ٥٠٩).
(4) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٦٢٧) ونسبه لعبد بن حميد، وأبي الشيخ.
(5) تفسير الطبري (٦/ ٩/ ١٠٢).

ثم ذكر بسنده عن ابن زيد قال: وُلِدَ لآدم وحواء ولد فسمياه عبدالله، فأتاهما إبليس فقال ماسميتما يا آدم ويا حواء ابنكما؟ قال: وكان ولدهما قبل ذلك ولد فسمياه عبدالله فمات: فقالا: سميناه عبدالله. فقال إبليس: أتظنان أن الله تارك عبده عندكما لا والله ليذهبن به كما ذهب بالآخر!! لكن أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما فسمياه عبدشمس[1].

قال فذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الشمس تخلق شيئاً حتى يكون لها عبد!! إنما هي مخلوقة وقد قال رسول الله ﷺ **خدعهما مرتين خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض**.

وقيل ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فأخرج مكنيهم مخرج مكنى بني آدم وقد قال ﴿أَيُشْرِكُونَ ما﴾ فأخرج ذكرهم ب (ما) لا بـ (من) مخرج الخبر عن غير بني آدم؛ لأن الذي كانوا يعبدونه إنما كان حجرا أو خشبا أو نحاسا أو بعض الأشياء التي يخبر عنها بـ (ما) لا بـ (من) فقيل لذلك (ما) ثم قيل و(هم) فأخرجت كنياتهم مخرج كناية بني آدم لأن الخبر عنها بتعظيم المشركين إياها نظير الخبر عن تعظيم الناس بعضهم بعضاً أهـ.

- **قال البغوي**[2]: قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعني: إبليس والأصنام ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي هم مخلوقون اهـ

- **قال الزمخشري**[3]: أجريت الأصنام مجرى أولي العلم في قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بناءعلى اعتقادهم فيها، وتسميتهم إياها آلهة.

والمعنى: أيشركون مالا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن الله عز وجل خالقهم، أولا يقدر على اختلاق شيء؛ لأنه جماد وهم يخلقون؛ لأن عبدتهم يختلقونهم فهم أعجز من عبدتهم اهـ.

- **وقال ابن الجوزي**[4] **بعد أن ذكر أثر ابن زيد المتقدم**: وقال غيره: هذا راجع إلى الكفار حيث أشركوا بالله الأصنام وهي لاتخلق شيئًا. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي وهي مخلوقة، اهـ.

وقال الفخر الرازي[5] **رداً على قول ابن زيد، ومن وافقه، ومنتصراً للقول الثاني - أي المقصود بها الأصنام -:**

---

(١) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٥).
(٢) معالم التنزيل (٢/ ٥٨٣).
(٣) الكشاف (٢/ ١٠٩ - ١١٠).
(٤) زاد المسير (٣/ ٢٣٢).
(٥) التفسير الكبير (٨/ ١٥/ ٩٤).

اعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه ليس المراد بقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ما ذكره من قصة إبليس إذ لو كان المراد ذلك لكانت هذه الآية أجنبية عنها بالكلية. وكان ذلك غاية الفساد في النظم والترتيب، بل المراد ما ذكرناه في سائر الأجوبة من أن المقصود من الآية السابقة الرد على عبدة الأوثان. اهـ.

ثم قال: المقصود هذه من الآية إقامة الحجة على أن الاوثان لا تصلح للألهية تقوله ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ معناه أيصدون مالا يقدر على أن يخلق شيئًا وهم يخلقون أى وهم مخلوقون يعنى الأصنام. أهـ.

وقال القرطبى[(١)]: قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أى أيعبدون مالا يقدر على خلق شيء. أهـ ثم ذكر بنحوٍ من كلام الزمخشرى وابن الجوزى والرازى من أن الأصنام أجريت مجرى الناس.

قال ابن كثير[(٢)]: هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهى مخلوقة لله مربوبة مصنوعة لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها بل هى جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ولهذا قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى أتشركون به من المعبودات مالا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ الآيه.

قال الشوكانى[(٣)]: الاستفهام فى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ للتفريع والتوبيخ أى كيف يجعلون لله شريكاً، لايخلق شيئاً، ولايقدر على نفعٍ لهم ولادفعٍ عنهم. أهـ.

(١) تفسير القرطبى (٤/ ٢٧٧٧).   (٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٦).
(٣) فتح القدير (٢/ ٢٩٠).

وقال صاحب الظلال[1]: لما كان هذا هو اتجاه السياق القرآني، فإنه يتنقل من القصة ومن أسلوب الحكاية في الفقرة السابقة إلى مواجهة مشركي العرب وإلى إسلوب الخطاب انتقالاً مباشراً، كأنه امتداد للحديث السابق عليه عن تلك الآلهة.

إن صيغة التعبير القرآنية توحي بأنه كان يعني كذلك تقريعهم على اتخاذ آلهة من البشر، فهذه الواو والنون ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ تشير إلى أن من بين هذه الآلهة على الأقل بشراً من العقلاء الذين يعبر عنهم بضمير العاقل.

وما علمنا أن العرب في وثنيتهم كانوا يشركون بآلهة من البشر بمعنى أنهم يعتقدون بآلهيتهم أو يقدم الشعائر التعبدية لهم، إنما هم كانوا يشركون بأمثال هؤلاء من ناحية أنهم يتلقون منهم الشرائع الاجتماعية، والأحكام والنزاعات. وأن القرآن يعبر عن هذا الشرك، ويسوي بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء.

وهذا هو الاعتبار الإسلامي لهذا اللون من الشرك فهو شرك كشرك الاعتقاد والشعائر لافرق بينه وبينه أهـ.

قلت: بل قد يكون أتزلهم القرآن منزلة العقلاء باعتبار معتقد أهل الجاهلية فيهم وباعتبار معاملتهم لهم وهذا كما تقدم أقوى حجة لا أنه خاطبهم لأنهم بشراً أو من بيتهم بل كانوا أصناماً كذلك قال تعالى: ﴿مَا لا يَخْلُقُ﴾ وهي لغير العاقل ولم يعبر بمن كما تقدم وهذا كما قال شيخ الإسلام في مقدمة التفسير خطأ في الدليل لا في المدلول فالذي ذهب إليه صاحب الظلال صحيح وهو المدلول لكن الآية لا تدل عليه لكنه - رحمه الله وكانت هذه القضية في ذهنة وهو يريد أن يوجه كل آية إليها ولو اكتفى بالأدله المصرحة عليها لأغنت وكفت ووقت والله أعلم.

*** كلام شُرَّاح كتاب التوحيد في الآية:**

قال سليمان آل الشيخ[2]: فحاصل كلام المفسرين على الآية المترجم لها أن قوله تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ توبيخ وتعنيف للمشركين بأنهم يعبدون مع الله تعالى عباداً لاتخلق شيئاً وليس فيها ما تستحق به العبادة من الخلق والرزق والنصر لأنفسهم أو لمن عبدهم وهم مع ذلك مخلوقون مُحدَثون ولهم خالق خلقهم وإن خرج الكلام مخرج الاستفهام، فالمراد به ما ذكرناه.

قال حامد بن محمد[3]: يخبر تعالى عن فساد عقول المشركين وضلالهم وعمى

(١) الظلال (٣/ ١٤١٤). (٢) تيسير العزيز الحميد (١٨٣)

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٢٤٨ - ٢٤٩)

بصائرهم منبهاً على ذلك بالاستفهام الإنكارى أيشركون بالله الذى تفرد بالملك، والحمد، والخلق، والأمر، والعز، والبقاء، والربوبية، والقيومية، والقهر، والتدبير، والإحياء، والإماتة، والعطاء، والمنع، والنفع، والضر، بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولايجار عليه، يفعل ما يشاء ويختار، لامانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، لو أن الخلق أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم قاموا فى صعيد واحد وسألوه فأعطى كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، سبحانه وتعالى بائن عن خلقه غنى عما سواه لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، قادر على كل شيء عليم بكل شيء ما فوق العرش وتحت العرش فى العلم عنده سواء، بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون سبحانه وتعالى عما يشركون أيشركون خلقاً ما أو يشركون به مخلوقاً من ماء مهين مدبراً فى الرحم من حال إلى حال نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يكسو العظام لحماً ثم ينفخ فيه ويرزق من دم الحيض غذاء وشراباً إلى حد معلوم عنده ثم أخرجه متلوثاً بما تكرهه النفوس فيعطف الله عليه الأبوين ويشفقهما عليه فيربيانه بأمر الله وهو يتقلب فى القاذورات ويرضع ثدى أمه إلى حولين لمن أراد أن يتم الرضعاة ثم يخلق له أسناناً نوعين نوع للقطع ونوع للمضغ والطحن وخلق له كل شيء من النعم قال تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**﴾(١). ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾(٢) فالإنسان مدبر مقهور لولا فضل الله ورحمته لكان من الهالكين لايعلم مصالح نفسه ولا مفاسدها، قال تعالى: ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾(٣). يقلبه يميناً وشمالاً وهو لايشعر لو يأتيه أدنى مصيبة من المصائب عجز عن دفعها ورفعها، ضعيف نحيف لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولايملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولايملك فى الكون مثقال ذرة ملكاً حقيقياً ولا نقيراً ولا قطميراً ولا فتيلاً، فمن كان هذا حاله فكيف يتصور أنه ينفع أو يضر أو يعطى أو يمنع أو يخذل أو يعز أو يذل أو يقدر على أمر من الأمور الكونية، وقد قال الله لأفضل الخلق أجمعين وسيد الأنبياء والمرسلين وحبيبه وصفوته من خلقه: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾(٤).

---

(١) إبراهيم (٣٤). (٢) النحل (٥٣)

(٣) البقرة (٢١٦). (٤) آل عمران (١٢٨).

وبنحوه قال عبدالله بن جار الله[1]، وابن باز وزاد[2]:

وفى هذه الآية صفات هؤلاء المعبودين من دون الله وهى أربعة:

الأول: أنهم لايخلقون شيئاً.

الثانى: أنهم مخلوقون مربوبون.

قال ابن عثيمين[3]: هنا عبر بـ ﴿مَا﴾ دون «من»، وفى قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ عبَّر بـ ﴿مَن﴾. أهـ تقدم قول المفسرين فيها، وتابعهم هنا ابن عثيمين حيث قال:

والمناسبة ظاهرة؛ لأنَّ الداعين هناك نزلوهم منزلة العاقل، أمَّا هنا؛ فالمدعو جماد؛ لأنَّ الذى لايخلق شيئاً ولايصنعه جماد لايفيد.

قوله: ﴿شَيْئًا﴾.

نكرة فى سياق النفى؛ فتفيد العموم.

وصف هذه الأصنام بالعجز والنقص.

والربّ المعبود لايمكن أن يكون مخلوقاً، بل هو الخالق؛ فلايجوز عليه الحدوث ولا الفناء.

والمخلوق: حادث، والحادث يجوز عليه العدم؛ لأنَّ ما جاز انعدامه أولاً؛ جاز عقلاً انعدامه آخراً.

فكيف يُعبَد هؤلاء من دون الله؛ إذ المخلوق هو بنفسه مفتقر إلى خالقه وهو حادث بعد أن لم يكن؛ فهو ناقص فى إيجاده وبقائه؟!

ـ إشكال وجوابه:

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿مَا لا يَخْلُقُ﴾ الضمير بالإفراد، وقوله ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الضمير بالجمع؛ فما الجواب؟. أهـ.

---

(1) الجامع الفريد (٦٤).

(2) التعليق المفيد (٩٥).

(3) القول المفيد (٢/ ٢٦٥).

ـ **قال ابن الجوزى**[1]: وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى: وهى مخلوقة. قال ابن الأنبارى: وإنما قال: «ما» ثم قال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن «ما» تقع على الواحد والاثنين والجميع؛ وإنما قال: «وهم» وهو يعنى الأصنام، لأن عابديها ادّعوا أنها تعقل وتميّز، فأجريت مجرى الناس، فهو كقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[3]، وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[4].

قال الرزاى[5]: فإن قيل: كيف وحد ﴿يَخْلُقُ﴾ ثم جمع فقال ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وأيضا فكيف ذكر الواو والنون فى جمع غير الناس؟

والجواب عن الأول: أن لفظة ﴿مَا﴾ تقع على الواحد والاثنين والجمع، فهذه من صيغ الوحدان بحسب ظاهر لفظها. ومحتملة للجمع فالله تعالى اعتبر الجهتين فوحد قوله ﴿يَخْلُقُ﴾ رعاية لحكم ظاهر اللفظ وجمع قوله ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ رعاية لجانب المعنى.

والجواب عن الثانى: وهو أن الجمع بالواو والنون فى غير من يعقل كيف يجوز؟ فنقول: لما اعتقد عابدوها أنها تعقل وتميز فوردوا هذا اللفظ بناء على ما يعتقدونه ويتصورنه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقوله ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾.

قال القرطبى[6]: وقال «يخلقون» بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع، فأجريت مجرى الناس؛ كقوله: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٣٢.

(٢) يوسف: ٤.

(٣) النحل: ١٨.

(٤) يس: ٤٠.

(٥) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ٩٥..

(٦) تفسير القرطبى ٤/ ٢٧٧٧.

الإعراب[1]: ﴿**وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نصرًا ولا أَنفُسَهُمْ ينصُرُون**﴾ الجملة معطوفة على سابقتها، وأنفسهم مفعول به مقدم لينصرون.

● **أقوال المفسرين.**

قال الطبرى[2]: يقول تعالى ذكره أيشرك هؤلاء المشروك فى عبادة الله مالايخلق شيئًا من خلق الله ولايستطيع أن ينصرهم أن أراد الله بهم سوأ أو أحل بهم عقوبة ولا هو قادر إن أراد به سوأ نصر نفسه ولادفع ضر عنها وإنما العابد يعبد ما يعبده لاجتلاب نفع منه أو لدفع ضر منه عن نفسه وآلهتهم التى يعبدونها ويشركونها فى عبادة الله لاتنفعهم ولاتضرهم بل لاتجتلب إلى نفسها نفعاً ولاتدفع عنها ضرًا فهى من نفع غير أنفسها أو دفع الضر عنها أبعد يعجب تبارك وتعالى خلقه من عظيم خطأ هؤلاء الذين يشركون فى عبادتهم الله غيره.

قال البغوى[3] قوله: ﴿**وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا**﴾ الأصنام، أى لاتنصر من أطاعها.

قوله: ﴿**وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُون**﴾ قال الحسن: لايدفعون عن أنفسهم مكروه من أراد بهم بكسر أو نحوه.

قال الزمخشرى[4]: ﴿**لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ**﴾ لعبدتهم ﴿ **نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُون**﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم أهـ.

وقال ابن الجوزى[5] **بنحوٍ من ذلك.**

وقال الفخر الرازى[6]: والنصر: المعونة على العدو والمعنى أن المعبود يجب أن يكون قادرًا على إيصال النفع ودفع الضرر وهذه الأصنام ليست كذلك. فكيف يليق بالعاقل عبادتها؟

(١) إعراب القرآن (٣/٥٠٦).

(٢) تفسير الطبرى (٦/١٩/١٠٢).

(٣) معالم التنزيل (٢/ ٥٨٤).

(٤) الكشاف (٢/ ١١٠).

(٥) زاد المسير (٣/ ٢٣٢).

(٦) التفسير الكبير (٨/ ١٥/ ٩٥).

ثم قال: ﴿وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أى ولايدفعون عن أنفسهم مكروهاً فإن من أراد كسرهم لم يقدروا على دفعه أهـ.

قال القرطبى(١): بنحوِ ما تقدم أن الأصنام لاتنصر ولاتنتصر.

قال ابن كثير(٢): قال تعالى: ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أى لعابديهم ﴿وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ يعنى ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهنيها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه فى قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتؤا لأنفسهم فكان لعمرو بن الجموح وكان سيداً فى قومه صنم يعبده ويطيبه فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه فى حبل فى بئر هناك، فلما جاء عمرو ابن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهاً مستدان　　　لم تك والكلب جميعاً فى قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيداً رضى الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه(٣). أهـ

وقال الشوكانى(٤): من عجز عن نصر نفسه، فهو عن نصر غيره أعجز أهـ.

ما جاء فى الآية من كلام شُرَّاح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(٥): وقوله: ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أى ويشركون به، ويعبدون من هذه حاله لايستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه بأن يدفع عن نفسه من أراد به الضر، ومن هذه حاله فهو فى غاية العجز ، فكيف

---

(١) تفسير القرطبى (٤/٢٧٧٧).　　(٢) ابن كثير (٢/ ٢٦٦).　　(٣) فتح القدير (٢/ ٢٩٠).

(٤) انظر القصة فى «أسد الغابة» (٤/ ٢٠٧) عن ابن إسحاق.　　(٥) تيسير العزيز الحميد ١٨٣.

يكون إلهاً معبوداً، وجميع الأنبياء والملائكة والصالحين وغيرهم داخلون في هذه الأوصاف، فلايقدر أحد منهم أن يخلق شيئاً ولايستطيعون لمن عبدهم نصراً ولاينصرون أنفسهم، وإذا كان كذلك بطلت دعوتهم من دون الله. أ هـ.

قال الفقير: ويستدل له بقوله تعالى: **﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾**.

- وبنحو ذلك قال عبدالرحمن آل الشيخ، وعبدالله بن جار الله، وابن باز[1] وقد زاد: أن من صفات هؤلاء المعبودين من دون الله أنهم لايستطيعون لهم نصراً. إنهم لا ينصرون أنفسهم أهـ.

وقال ابن عثيمين[2]: قوله: **﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾** أي: لايقدرون على نصرهم لو هاجمهم عدو؛ لأنَّ هؤلاء المعبودين قاصرون.

والنصر: الدفع عن المخذول بحيث ينتصر على عدوه.

قوله: **﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾**.

بنصب أنفسهم على أنَّه مفعول مقدَّم، وليس من باب الاشتغال؛ لأنَّ العامل لم يشتغل بضمير السابق.

أي: زيادة على ذلك هم عاجزون عن الانتصار لأنفسهم؛ فكيف ينصرون غيرهم؟!

فبين الله عجز هذه الأصنام، وأنَّها لاتصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه، هي:

١ـ أنَّها لاتخلق، ومن لايخلق لايستحق أن يُعبد.

٢ـ أنَّهم مخلوقون من العدم؛ فهم مفتقرون إلى غيرهم ابتداءً ودواماً.

٣ـ أنهم لايستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: **﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾** أبلغ من قوله: **﴿لَا يَنصُرُونَهُم﴾**؛ لأنَّه لو قال: **﴿لَا يَنصُرُونَهُم﴾**؛ فقد يقول قائل: لكنهم يستطيعون، لكن لما قال: **﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾** كان أبلغ لظهور عجزهم.

٤ـ أنهم لايستطيعون نصر أنفسهم. أ هـ.

وقال القرعاوي[3]: فوائد من الآية:ـ

(١) بيان جهل المشركين.

(٢) إثبات عجز المعبودين غير الله، وعدم صلاحيتهم للعبادة بالدليل العقلي. أهـ



(١) التعليق المفيد (٩٥).
(٢) القول المفيد ١/٣٦٦.
(٣) الجديد (١٣٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1]

مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جار الله[2]: مناسبة الآية للباب أنها دلت على أن دعاء غير الله شرك ينافى التوحيد أهـ.

قال ابن عثيمين[3]: إن الله صرح بأن المدعوين من دون الله لايسمعون دعاء من يدعوهم، فلا يمكن أن نقول إنهم يسمعون دعاء من يدعوهم، لأن هذا كفر بالقرآن أهـ.

قال القرعاوى[4]: حيث دلت الآية على نفى النفع والقدرة عن المعبودين دون الله أهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى: حيث دلت الآية على أن دعاء غير الله شرك أهـ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

- **الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾**(الواو)حالية أو استئنافية و(الذين) مبتدأ وجملة (تدعون) صلة و(من دونه) حال و(ما) نافية و(يملكون) فعل مضارع وفاعل وجملة ما يملكون خبر الذين و(من) حرف جر زائد أهـ.

قال ابن عثيمين: وقيل لاينبغى أن يقال: حرف جر زائد فى القرآن. بل يقال: من حرف صلة. وهذا فيه نظر لأن الحروف الزائدة لها معنى، وهو التوكيد. وإنما يقال: زائد من حيث الإعراب أهـ.

وقطمير مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به[5].

- **ما جاء فى تفسير الآية من الأثار الموقوفة والمقطوعة.**

عن ابن عباس فى قوله ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ قال: القطمير القشر، وفى لفظ الجلد الذى يكون على ظهر النواة[6].

---

(١) فاطر (١٣).
(٢) الجامع الفريد (١٣٢).
(٣) القول المفيد (١/ ٣٧٠).
(٤) الجديد (١٣٨).
(٥) إعراب القرآن (٨/ ١٣٦ - ١٣٧).
(٦) (**ضعيف**) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ١٤ - ١٥) ونسبه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.
فانظر الأخير بتخريجنا
وانظر «فتح القدير» (٥٣٦١٠ - بتخريجنا) «وفتح المجيد» (ح ٢٩٥) بتخريجنا.

عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله ﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾ قال: الجلدة البيضاء التى على النواة قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت أمية بن أبى الصلت وهو يقول:

لم أنل منهم بسطا ولا زبدا ولافوفة ولاقطميرا[(١)]

عن عطاء قال: القطمير الذى بين النواة والتمرة، القشر الأبيض[(٢)].

عن مجاهد فى قوله ﴿قِطْمِيرٍ﴾ قال: لفافة النواة كسحاة البصلة[(٣)].

عن الضحاك فى قوله ﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾ قال: رأس التمرة يعنى القمع[(٤)].

● **أقوال المفسرين**

قال الطبرى[(٥)]: يقول تعالى ذكره والذين تعبدون أيها الناس من دون ربكم الذى هذه الصفة التى ذكرها فى هذه الآيات الذى له الملك الكامل الذى لايشبهه ملك صفته ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ يقول ما يملكون قشر نواة فما فوقها أهـ.

وقال البغوى[(٦)]: وهى لفافة النواة، وهى القشرة الرقيقة التى تكون على النواة أهـ.

وكذا قال الزمخشرى[(٧)] **وابن الجوزى**[(٨)].

قال الرازى:[(٩)] قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أى ذلك الذى فعل هذه الأشياء من فطر السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكاً والملك مخدوم بقدر ملكه، فإذا كان له الملك كله فله العبادة كلها، ثم بين ما ينافى صفة الإلهية، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

لطيفة: ههنا لطيفة وهى أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف.

(أحدهما) أن الخلق بالقدرة والإرادة.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٤ــ ١٥) ونسبه للطستى وتقدم

(٢) [صحيح] ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٢٩٨) بتخريجنا

(٣) [صحيح] ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

وانظر الأخير بتخريجنا. وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٩٦) بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن المنذر.

(٥) تفسير الطبرى (١٠/ ٢٢/ ٨٢).

(٦) معالم التنزيل (٤/ ٥٢٢)

(٧) الكشاف (٣/ ٢٧٢).

(٨) زاد المسير (٦/ ٢٦٠).

(٩) التفسير الكبير (١٣/ ٢٦/ ١٣).

(والثانى) الملك واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ﴾ ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهاً أى معبوداً، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين.

(أحدهما) أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التى الأصنام على صورتها وطوالعها فقال لاملك لهم ولاملَّكهم الله شيئاً ولا ملكوا شيئًا.

(وثانيهما) أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئاً لملكه فإذا لم يملك قطميراً ما خلق قليلا ولا كثيرا.

● خلاصة القول فى تفسير ﴿قِطْمِيرٍ﴾ على أربعة أقوال:

(١) قال القرطبى[1]: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ يعنى الأصنام. **والقطمير**: القشرة الرقيقة البيضاء التى بين الثمرة والنواة. قاله أكثر المفسرين.

(٢) وقال ابن عباس: هو شق النواة، وهو إختيار المبرد، وقاله قتادة وسيأتى أنها تسمى بالقتيل.

(٣) وعن قتادة أيضاً القطمير: القمع الذى على رأس النواة.

(٤) الجوهرى: ويقال: هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة تنبت منها النخلة سيأتى من كلام ابن عثيمين أن هذه لنكتة تسمى النقير وليس قطمير أهـ.

وقال ابن كثير[2]: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى من الأصنام والأنداد، التى هى على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين أهـ.

وقال الشوكانى[3]: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أى لايقدرون عليه، ولا على خلقه أهـ.

وقال السعدى: ولا القطمير الذى هو أحقر الأشياء، وهذا من تنصص النفى وعمومه، فيكف يدعون وهم غير مالكين لشيء من ملك السموات والأرض؟! أهـ.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[4]: حاصل كلام المفسرين كابن كثير وغيره أنه تعالى يخبر

---

(١) تفسير القرطبى (٨/٥٤١٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/٥١٦).
(٣) فتح القدير (٤/٣٣٢).
(٤) تيسير العزيز الحميد (١٨٤).

عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الشروط التى لابد أن تكون فى المدعو وهى الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى عدم شرط بطل أن يكون مدعواً، فكيف إذا عدمت كلها، فنفى عنهم الملك بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

ثم قال: فمن كان هذا حاله فكيف يدعى من دون الله. أهـ.

ـ قال سليمان آل الشيخ[1]: يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزها وضعفهم وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التى تكون فى المدعو، وهى الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوتهم، فكيف إذا عدمت بالكلية؟!

فنفى عنهم بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾. ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أهـ مختصراً **وتابعه على هذا عبدالرحمن آل الشيخ**[2].

قال ابن عثيمين[3]: يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

وقوله: ﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾.

القطمير: سلب نواة التمرة.

وفى النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله فى القرآن لبيان حقارة الشىء:

القطمير: وهو اللفافة الرقيقة التى على النواة.

الفتيل: وهو سلك يكون فى الشق الذى فى النواة.

النقير: وهى النقرة التى تكون على ظهر النواة.

فهؤلاء لايملكون من قطمير، فإن قيل: أليس الإنسان يملك النخل كله كاملاً؟

أُجيب: إنَّه يملكه، ولكنه ملك ناقص ليس حقيقياً؛ فلايتصرف فيه إلا على حسب ما جاء به الشَّرع، فلايملك مثلاً إحراقه للنَّهى عن إضاعة المال أهـ.

قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

ـ الإعراب[4]: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ كلام مسأنف مسوق لتقرير المضمون المتقدم و(إن) حرف شرط جازم و(تدعوهم) فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون وهو فعل مضارع وفاعل ومفعول به و(لا) نافية و(يسمعوا) جواب الشرط و(دعاؤكم) مفعول به و(الواو) حالية أو عاطفة و(لو) حرف شرط

(1) تيسير العزيز الحميد (١٨٤).
(2) فتح المجيد (١/ ٢٣٠).
(3) القول المفيد (١/ ٣٦٧، ٣٦٨).
(4) إعراب القران ٨/ ١٣٧.

و(سمعوا) فعل ماض و(الواو) فاعل و(ما) نافية و(استجابوا) فعل وفاعل والجملة لامحل لها لأنها جواب شرط غير جازم.

● **ما جاء فى تفسير الآية من الآثار المقطوعة**

عن قتادة فى قوله ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾ أى ما قبلوا ذلك منكم ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**﴾ قال: لايرضون، ولايقرون به ﴿**وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ والله هو الخبير أنه سيكون هذا من أمرهم يوم القيامة[1].

عن السدى فى قوله: ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ**﴾ قال: هى الآلهة. لاتسمع دعاء من دعاها وعبدها من دون الله تعالى ﴿**وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾ قال: ولو سمعت الآلهة دعاءكم ما استجابوا لكم بشيء من الخير ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**﴾ قال: بعبادتكم إياها[2].

● **أقوال المفسرين**

قال الطبرى[3]: يقول تعالى ذكره إن تدعو أيها الناس هؤلاء الآلهة التى تعبدونها من دون الله لايسمعوا دعاءكم لأنها جماد لاتفهم عنكم ما تقولون ﴿**وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾ يقول ولو سمعوا دعاءكم إياهم وفهموا عنكم أنها قولكم بأن جعل لهم سمع يسمعون به ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة وليس كل سامع قولا متيسر له الجواب عنه يقول تعالى ذكره للمشركين به الآلهة والأوثان فكيف تعبدون من دون الله من هذه صفته وهو لانفع لكم عنده ولاقدرة له على ضركم وتدعون عبادة الذى بيده نفعكم وضرّكم وهو الذى خلقكم وأنعم عليكم.

قال البغوى[4]: يعنى إن تدعوا الأصنام ﴿**لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾ ما أجابوكم أهـ.

قال الزمخشرى[5]: إن تدعوا الأوثان ﴿**لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ**﴾ لأنهم جماد ﴿**وَلَوْ سَمِعُوا**﴾ على سبيل الفرض والتمثيل ﴿**مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية ويتبرؤن منهم، وقيل: ما نفعوكم أهـ.

وبنحو من ذلك قال ابن الجوزى فى تفسيره[6].

قال الرازى[7]: قوله تعالى: ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ**﴾ إبطالا لما كانوا.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٧/ ١٥) بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم. وأنظر الأخير بتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم. فانظره بتخريجنا.

(٣) تفسير الطبرى (١٠/ ٢٢/ ٨٣). (٤) «معالم التنزيل» (٤/ ٥٢٢). (٥) الكشاف (٣/ ٢٧٢).

(٦) زاد المسير (٦/ ٢٦٠). (٧) التفسير الكبير (١٣/ ٢٦/ ١٣).

يقولون إن فى عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها، والله لايرى ولايصل إليه أحد فقال هؤلاء لايسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب، فيسمع ويقبل.

ثم نزل عن تلك الدرجة، وقال هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا إنهم يجيبون لأن ذلك إنكار للمحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع فى المعقول فلايمكن وقوعه فى المحس به.

قال القرطبى[1]: قوله تعالى: ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ**﴾ أى إن تستغيثوا بهم فى النوائب لايسمعوا دعاءكم؛ لأنها جمادات لاتبصر ولاتسمع ﴿**وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾ إذ ليس كل سامع ناطقا.

وقال قتادة: المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم.

وقيل: أى لوجعلنا لهم عقولا وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولما استجابوا لكم على الكفر أهـ.

وقال ابن كثير[2]: ﴿**مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾أى لايقدرون على شىء مما تطلبون منها أهـ.

وقال الشوكانى[3]: ثم بين سبحانه هل هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لاينفعون ولايضرون ﴿**مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾ لعجزهم عن ذلك أهـ.

● **خلاصة القول فى قوله: ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.**

القول الأول: ما نفعوكم.

القول الثانى: أجابوكم.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد**

قال سليمان آل الشيخ[4]: ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله: ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ**﴾ يعنى أن الآلهة التى تدعونها لايسمعون دعاءكم لأنهم أموات أو ملائكة مشغولون بأحوالهم مسخرون لما خلقوا له أو جماد، فلعل المشرك يقول: هذا فى الأصنام، أما الملائكة والأنبياء والصالحون فيسمعون ويستجيبون فنفى سبحانه ذلك بقوله: ﴿**وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾ أى: لايقدرون على ما تطلبون منهم، وما خص تعالى الأصنام، بل عم جميع من يدعى من دونه.

---

(١) تفسير القرطبى ٥٤١٨/٨.
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥١٦).
(٣) فتح القدير (٤/ ٣٣٢).
(٤) تيسير العزيز الحميد ١٨٤.

ومن المعلوم أنهم كانوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين، كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه، فلم يرخص في دعاء أحد منهم لا استقلالاً ولا وساطة بالشفاعة أ.هـ.

قال ابن عثيمين[1]: قوله ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: إنَّ هذه الأصنام لو دعوتموها ما سمعت، ولو فُرض أنَّها سمعت ما استجابت؛ لأنَّها لاتقدر على ذلك، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[2].

فإذا كانت كذلك؛ فأي شيء يدعو إلى أن تدعي من دون الله؟! بل هذا سفه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[3].

قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

الإعراب[4]: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ الظرف متعلق بيكفرون وبشرككم متعلقان بيكفرون والكاف مضافة إلى المصدر من إضافة المصدر إلى فاعله أي يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم أهـ.

● **التفسير بالمقطوع**

وروى ابن جرير بسنده عن قتادة ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ إياهم ولايرضون ولايقرون[5] أهـ.

● **أقوال المفسرين**

قال ابن جرير[6]: يقول تعالى ذكره للمشركين من عبدة الأوثان: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تتبرأ آلهتكم التي تعبدونها من دون الله من أن تكون كانت لله شركاً في الدنيا.

وبنحوه قال البغوي، والزمخشري.

قال الرازي[7]: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ لما بين عدم النفع فيهم في الدنيا بين عدم النفع منهم في الآخرة بل أشار إلى وجود الضرر منهم في الآخرة بقوله ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي بإشراككم بالله شيئاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي الإشراك.

(١) القول المفيد ١/٣٦٨.
(٢) مريم: ٤٢.
(٣) البقرة: ١٣٠.
(٤) إعراب القرآن ٨/١٣٧.
(٥) تفسير الطبري ١٠/٨٣.
(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» في الموضع السابق.
(٧) التفسير الكبير ١٣/٢٣/ ١٣و١٤.

قال القرطبي[١]: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أن يجحدون أنكم عبدتموهم، ويتبرءون منكم.

ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل؛ كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين؛ أي يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقا، وأنهم أمروكم بعبادتهم؛ كما أخبر عن عيسى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[٢] ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً؛ أي يحييها الله حتى تخبر أنها ليست أهلا للعبادة.

قال ابن كثير[٣]: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي يتبرءون منكم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[٥].

وبنحوه قال الشوكاني والسعدي.

● أقوال شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ[٦]: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ كقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ وهذا نص صريح على أن من دعا غير الله فقد أشرك بشرطه، وأن المدعوين يكفرون به يوم القيامة، ويتبرأون منهم كقوله تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾[٧] فهل على كلام رب العزة استدراك؟! ولهذا قال ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أهـ.

وبنحوه قال عبدالرحمن آل الشيخ، نقلاً عن ابن كثير.

قال ابن عثيمين[٨]: قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

فهؤلاء المعبودون إن كانوا يبعثون ويحشرون؛ فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيراً والمسيح.

---

(١) تفسير القرطبي ٥٤١٨/٨
(٢) المائدة ١١٦
(٣) تفسير القرآن العظيم ٥١٦/٣
(٤) الأحقاف ٦
(٥) مريم ٨٢
(٦) تيسير العزيز الحميد ١٨٤، ١٨٥
(٧) البقرة ١٦٦
(٨) القول المفيد ٣٦٨/١، ٣٦٩

وإن كانوا أحجاراً وأشجاراً ونحوها؛ فيحتمل أن يشملها ظاهر الآية، وهو أنَّ الله يأتى بهذه الأحجار ونحوها؛ فتكفر بشرك من يُشرك بها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**﴾، وما ثبت فى «الصحيحين» عن النبى ﷺ: «**أنه عند بعث الناس يقال لكل أمة: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد من دون الله**»[1]؛ فالحجر يكون أمامهم يوم القيامة، ويكون له كلام ينطق به، ويكفر بشركهم، فإذا كانت المعبودات تحضر وتُحصب فى النار إهانةً لعابديها وتحضر لتُتْبَع إلى النار؛ فلا غرو أن تكفر بعابديها إذا أحضرت.

قوله: ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾.

الإعراب[2]: ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ الأحسن أن يكون الخطاب عاماً أى أيها السامع كائناً من كنت، ولا نافية وينبئك فعل مضارع والكاف مفعوله ومثل خبير فاعله أى عالم ببواطن الأمور أ.هـ

● **التفسير بما أثر**

وروى الطبرى: عن قتادة قوله ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ والله هو الخبير أنه سيكون هذا منهم يوم القيامة[3].

● **أقوال المفسرين**

قال الطبرى[4]: وقوله: ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ يقول تعالى ذكره ولايخبرك يا محمد عن آلهة هؤلاء المشركين وما يكون من أمرها وأمر عبدتها يوم القيامة من تبرئها منهم وكفرها بهم مثل ذى خبرة بأمرها وأمرهم وذلك الخبير هو الله الذى لا يخفى عليه شىء كان أو يكون سبحانه أ.هـ.

قال البغوى[5]: يعنى نفسه أى لاينبئك أحد مثلى خبير عالم بالأشياء أهـ.

قال الزمخشرى[6]: ولايخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير، عالم به ويريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذى يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به، والمعنى أن هذا الذى أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق؛ لأنى خبير بما أخبرت به أهـ.

قال الرازى[7]: ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ يحتمل وجهين.

(**أحدهما**) أن يكون ذلك خطاباً مع النبى ﷺ ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٤٥٨١)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٢١/ ٢٩٩)
(٢) إعراب القرآن ٨/ ١٣٧.
(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢/ ٨٣).
(٤) المصدر السابق.
(٥) معالم التنزيل (٤/ ٥٢٢).
(٦) الكشاف (٣/ ٢٧٢).
(٧) التفسير الكبير (١٣/ ٢١٦/ ١٤).

الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لايعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة وهذا القول مع كون الخبر أمراً عجيبا هو كما قال، لأن المخبر عنه خبير.

(وثانيهما) هو أن ذلك خطاباً غير مختص بأحد، أى هذا الذى ذكر هو كما قال (ولاينبئك) أيها السامع كائناً من كنت (مثل خبير) أ.هـ.

قال القرطبى[1]: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ هو الله عز وجلّ، أى لا أحد أخبر خلق الله من الله، فلاينبئك مثله فى عمله.

قال ابن كثير[2]: وقوله تعالى: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أى ولايخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها.

قال قتادة: يعنى نفسه تبارك وتعالى أخبر بالواقع لامحالة.

*** ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[3]: ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أى لايخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[4]: (قلت) والمشركون لم يسلموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم، فقالوا: تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير من أن كل معبود يعادى عابده يوم القيامة ويتبرأ منه، كما قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾**.

أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: قال مجاهد: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ قال: يقول ذلك كل شىء كان يعبد من دون الله. فالكيس يستقبل هذه الآيات التى هى الحجة والنور والبرهان بالإيمان والقبول والعمل فيجرد أعماله لله وحده دون كل ما سواه ممن لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره أهـ.

---

(١) تفسير القرطبى (٥٤١٨/٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٥١٩/٤).
(٣) تيسير العزيز الحميد (١٨٥).
(٤) فتح المجيد (١/ ٢٣١، ٢٣٢).

قال ابن عثيمين:[1] قوله: ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾.

هذا مثال يُضرب لمن أخبر بخبر ورأى شكاً عند من خاطبه به؛ فيقول: ولاينبئك مثل خبير.

ومعناه: إنَّه لا يُخبرك بالخبر مثل خبير به، وهو الله؛ لأنَّه لايعلم أحد ما يكون في يوم القيامة إلا الله، وخبره خبر صدق؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا**﴾[2].

والخبير: العالم ببواطن الأمور أهـ.

قال القرعاوى[3]: ولايخبرك عن هذا بعلم وأمانة مثل خبير به وبعواقبه وهو الله تعالى أهـ.

مسألة:

هل يسمع الأموات السلام ويردونه على من سلَّم عليهم؟

قال ابن عثيمين: اختلف فى ذلك على قولين:

القول الأول: أن الأموات لايسمعون السلام، وأن قول النبي ﷺ حين زيارة القبور: «السلام عليكم»[4]دعاء لايقصد به المخاطبة، ثم على فرض أنَّهم يسمعون كما جاء فى الحديث الذى صححه ابن عبدالبر وأقره ابن القيم: «**بأن الإنسان إذا سلَّم على شخص يعرفه فى الدنيا رد الله عليه روحه فردَّ السلام**»، وعلى تقدير صحة هذا الحديث إذا كانوا يسمعون السلام ويردونه؛ فلايلزم أن يسمعوا كل شيء، ثم لو فرض أنَّهم يسمعون غير السلام؛ فإن الله صرَّح بأن المدعوين من دون الله لايسمعون دعاء من يدعوهم ؛ فلايمكن أن نقول: إنَّهم يسمعون دعاء من يدعوهم؛ لأنَّ هذا كفر بالقرآن، فتبيَّن بهذا أنَّه لاتعارض بين قوله ﷺ: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**»[5] وبين هذه الآية.

وأمَّا قوله: ﴿**وَلَوْ سَمِعُوا**﴾؛ فمعناه: لو سمعوا فرضاً ما استجابوا لكم؛ لأنهم لايستطيعون.

القول الثانى: أن الأموات يسمعون.

واستدلوا على ذلك بالخطاب الواقع فى سلام الزائر لهم بالمقبرة.

وبما ثبت فى «الصحيح» من أنَّ المشيِّعين إذا انصرفوا سمع المشيَّع قرع نعالهم[6].

---

(١) القول المفيد (١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١). (٢) الأعراف: ٨٧. (٣) الجديد (١٣٨).

(٤) [صحيح] مسلم فى الجنائز (٧/ ٤٠ ـ النووى) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٣ ـ بتخريجنا).

(٥) تقدم قبله

(٦) [صحيح] البخارى (١٣٣٨) عن أنس به.

والجواب عن هذين الدليـلين: أمَّا الأول؛ فإنَّه لايلزم من السلام علـيهم أن يسمعوا، ولهذا كان المسلمون يسلِّمون على النبى ﷺ فى حياته فى التشهد، وهو لايسمعهم قطعاً.

أمَّا الثانى؛ فهو وارد فى وقت خاص، وهو انصراف المشيعين بعد الدَّفن.

وعلى كلٍّ؛ فالقولان متكافئان، والله أعلم بالحال أهـ.

قلت: ويرجح عدم السماع قول عمر للنبى ﷺ حينما كلم قتلى المشركين فى بدر وقد جيفوا «يا أبا جهل بن هشام يا عتبة.. إلخ» قال عمر: يارسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها وهل يسمعون[1]؟!

يقول الله عز وجل: ﴿إنك لا تسمع الموتـى﴾، قال رسول الله ﷺ إنهم الآن يسمعون غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيئاً قال قتادة: أحياهم الله له حتى أسمعهم قوله توبيبخاً وتصغيراً وحسدة وندماً»[2] أ.هـ.

والشاهد أن الرسول أمَر عمر على ما فهم مـن الآية أنه لا يسمع الموتى ولقوله تعالى أيضاً ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ما أنه قال هذه الحالة خاصة بى وبهذه الحالة إنهم الآن يسمعون أما قيل الآن وبعده فلا وهذه إلا قتادة رحمه الله.

قوله وفى الصحيح عن أنس، قال: شُجَّ النبىُّ ﷺ...

مناسبة الحديث للباب:

قال ابن باز[3]: إذا كان أفضل الخلق وأقرب الناس منزلة وأفضل الأنبياء لم يستطع أن يدفع عن نفسه، ولا عن أصحابه وهم أفضل القرون، وإذا كان كذلك لم يستحق أن يعبد من دون الله ويشرك به معه. أهـ.

قال القرعاوى[4]: حيث دل الحديث على أن الأنبياء لايملكون لأحد نفعاً ولا ضراً فكيف بمن دونهم أهـ.

(١) تقدم تخريجه وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٦٤).

(٢) ما قبله

(٣) التعليق (٩٦).

(٤) الجديد (١٤٠).

فَقَالَ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُم؟ فَنَزَلَت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾(١)

قال الفقير: أن النبى ﷺ برغم ما حصل له من المشركين وهو يدعوهم إلى ربهم وقد شج وجهه وكسرت رباعيته ومع ذلك ما عذره الله فى كلمة واحدة، وقال له **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾** فمن باب أولى من سواه ليس له من الأمر شىء كالأنبياء والأولياء والأوثان والأصنام، فالأمر كما تقدم لله وحده من قبل ومن بعد **﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** فكما تفرد بالخلق تفرد بالأمر(٢).

● **فائدة:**

ونستفيد من هذا الحديث أنه يجب الحذر من إطلاق اللسان إذا ما رأى الإنسان مبتلى بالمعاصى، فلانستبعد رحمةالله منه، فإن الله تعالى قد يتوب عليه.

فهؤلاء الذين شجوا نبيهم لما استبعد النبى ﷺ فلاحهم؛ قيل له: «**﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾**.

وفى صحيح مسلم عن جندب؛ أن رسول الله ﷺ حدّث «**أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان وأن الله تعالى قال: «من ذا الذى يتألى علىَّ أن لا أغفر لفلان. فإنى قد غفرت لفلان. وأحبطت عملك**» أو كما قال(٣) ﷺ.

فيجب على الإنسان أن يمسك اللسان لأن زلته عظيمة، ثم إننا نشاهد أو نسمع قوماً كانوا من أكفر عباد الله وأشدهم عداوة انقلبوا أولياء لله، فإذا كان كذلك، فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عتاة(٤).

---

(١) [صحيح] علقه البخارى فى المغازى/ باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٧/ ٤٢٢ ـ الفتح).
قال: قال حميد وثابت عن أنس الحديث.
ووصله مسلم فى الجهاد/ باب غزوة أحد (٦/ ٣٨٩/ ١٠٤) عن عبدالله بن مسلمة حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس به.
ووصله أحمد فى «مسنده» (٣/ ٩٩)، والترمذى فى التفسير/ باب ومن سورة آل عمران (٥/ ٢٢٦/ ٣٠٠٢)، وابن جرير فى «تفسيره» (٤/ ٥٧)، وأبو يعلى فى «مسنده» (٤/ ٣٥/ ٣٧٢٦) عن هشيم.
وأحمد أيضاً (٣/ ١٧٨) عن سهل.
وأخرجه أيضاً (٣/ ٢٠٦) عن ابن أبى عدى.
وأخرجه النسائى فى «الكبرى» فى «التفسير» (٦/ ٣١٤/ ١١٠٧٧) عن إسماعيل بن إبراهيم.
وأخرجه أيضاً عن خالد.
وأخرجه ابن ماجه فى الفتن/ باب الصبر على البلاء (٢/ ١٣٣٦/ ٤٠٢٧) عن عبدالوهاب.
جميعاً عن حميد، عن أنس به.
قال الترمذى: حسن صحيح.
وقال البوصيرى فى «الزوائد» إسناده صحيح ورجال ثقات. وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٠٢) بتخريجنا.
(٢) من القول المفيد بتصرف
(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (٨/ ٤٢٢/ ١٣٧) عن جندب به.
(٤) القول المفيد (١/ ٣٧٤).

مناسبة الحديث لكتاب التوحيد:

قال القرعاوى(١): حيث دل الحديث على أن جلب النفع ودفع الضر من الأفعال الخاصة بالله فيكون طلبها من غير الله شركاً به أهـ.

قوله: [وفى الصحيح] ذكره البخارى تعليقاً من رواية حميد وثابت عن أنس به.

قال ابن حجر(٢): حديث حميد عن أنس وصله أحمد والترمذى والنسائى من طرق عن حميد به: أهـ.

وقال ابن إسحاق فى «المغازى»: حدثنى حميد الطويل عن أنس قال: كسرت رباعية النبى ﷺ يوم أحد وشج وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟!**» فأنزل الله الآية(٣).

وأما حديث ثابت عن أنس فوصله مسلم من رواية حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن النبى ﷺ قال يوم أحد وهو يسلت الدم عن وجهه: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وأدموا وجهه**» فأنزل الله عزوجل: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾الآية.

وذكر ابن هشام: من حديث أبى سعيد الخدرى أن عتبة بن أبى وقاص هو الذى كَسَرَ رَبَاعِيَّةَ النَّبى ﷺ السُّفْلى، وَجَرَحَ شَفَتَهُ السُّفْلَى، وأَن عَبد الله بن شهاب الزُهْرى هُوَ الذى شَجَّهُ فى جَبْهَته، وأَن عَبْدُ الله بْن قَمئة جَرَحَه فى وِجْنَته، فَدَخَلَت حَلَقَتَان مِنْ حلَق المغفر فى وَجْنَتَه، وأَنّ مَالكَ بن سِنَانٍ مَصَّ الدَّمَ مِنْ وَجْهِ رَسُولِ الله ﷺ ثم ازْدَرَدَهُ، فَقَالَ لَهُ: «**لَنْ تَمَسَّكَ النَّار**»(٤).

وروى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبى وقاص قال: فما حرصت على قتل رجل قط حرصى على قتل أخى عتبة بن أبى وقاص لما صنع برسول الله ﷺ يوم أُحد.

وروى الطبرانى من حديث أَبى أُمَامَة. قَالَ: رَمَى عَبْدُالله بنْ قَمئة رسُولَ الله ﷺ يُوْمَ أُحدٍ، فَشَجَّهُ فى وَجْهِهِ، وَكَسَرَ رُبَاعِيَتَهُ. فَقَالَ: خُذْهَا وأَنَا ابن قَمْئَة. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ

---

(١) الجديد ١٤٠.

(٢) فتح البارى (٧/ ٤٢٣).

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة» (٣/ ٢٧) وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٠٦) بتخريجنا.

(٤) ابن هشام فى «السيرة» (٣/ ٢٧ ـ ٢٨).

وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٠٧) بتخريجنا.

وهو يمسح الـدم عن وجهه: «مَا لَكَ أَقْـمأكَ اللهُ» فَسَلَّطَ اللهُ عَـلَيهِ تَيْسَ جَبَـلٍ، فَلَمْ يَزَلْ يَنْطَحُهُ حتّى قطعه قِطْعَةً قِطْعَةً»(١).

وأخرج ابن عائذ فى المغازى عن الوليد بن مسـلم: حدثنى عبدالرحمن بن زيد، عن جابر، فذكر نحوه منقطعاً.

وذكر البخارى في أواخر المغازى شواهد لحديث أنس من حديث أبى هريرة وغيره.

قوله: [شجّ النبىّ ﷺ].

قال ابن عثيمين: الجرح فى الرأس والوجه خاصة وهذا مـخالف لما قال ابن الأثير: الشج فـى الرأس خاصة فـى الأصل وهو أن يضـربه بشىء فـيجرحه فـيه ويشقـه، ثم استعمل فى غيره من الأعضاء وأيضاً لما ذكره ابن منظور فى اللسان عن الليث(١)أ.هـ.ـ

قال الفقير: ويؤيده حديث جابر «كنا فى سفر فـشجّ أحد منا فى رأسه فسأل أصحابه هل تجدون له رخـصة فى التيمـم، قالوا لاجد لك رخصة فـى التيمم وأنت تـقدر على الماء.... إلى آخره»(٢).

وفى حديث أم زرع فى الصحيح «شجَّك أوفلَّكِ أو جمع كلاً لك»(٣).

وفى رواية و[وكسرت رَبَاعيتَه].

قال سليمان آل الشيخ(٤): قال القرطبى: والرباعية ـ بفتح الراء وتخفيف الياء، وهى كل سن بعد ثنية.

قال النووى: وللإنسان أربع رباعيات.

ابن حجر(٥): والمراد أنها كسرت فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها.

قلت ـ سليمان آل الشيخ: فظهر بهذا أن قول بعضهم: إنه شج فى رأسه فيه نظر

قلت: بل لعله أراد وأصل الشج أو نظر إلى أصـله وأنه فى الرأس ثم استعمل فى غيره كما تقدم.

قال النووى:

وفى هذا وقوع الأسقـام والابتلاء بالأنبياء صلـوات الله وسلامه عليهم ليـنالوا جزيل الأجر والثواب، ولتعرف أممهم وغيرهم ما أصابهم، ويتأسوا بهم.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨/ ١٥٤/ ٧٥٩٦) عن أبى أمامة به.

قال الهيثمى فى «المجمع» (٦/ ١١٧): وفيه حفص بن عمر العدنى وهو ضعيف.

وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٦) عن جابر به

وانظر الكلام عليه فى «السلسبيل» (١٢٧ بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥١٨٩)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ٢٢٨/ ٩٢).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٨٥).

(٥) فتح البارى (٧/ ٤٢٣).

قال القرطبى: وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتيقنوا أنهم مخلوقون مربوبون، ولايفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم أهـ.

قوله: [يوم أُحد].

قال ابن حجر[1]: (أحد) بضم الهمزة والمهملة: جبل معروف بينه وبين المدينة أقل من فرسخ، وهو الذى قال فيه ﷺ «**جبل يحبنا ونحبه**»،[2]ونقل السهيلى عن الزبير بن بكار فى «فضل المدينة» أن قبر هارون عليه السلام بأُحـد، وأنه قدم مع موسى فى جماعة من بنى إسرائيل حجاج فمات هناك [قلت ـ أى الحافظ ـ] وسند الزبير بن بكار فى ذلك ضعيف جداً من جهة شيخه محمد بن الحسن بن زبالة منقطع أيضاً وليس بمرفوع.

وكانت عنده الواقعة المشهورة فى شوال سنة ثلاث بإتفاق الجمهور، وشذ من قال سنة أربع أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ[3]: (**أُحد**) شرقى المدينة أهـ.

[قلت] وفى الصـحيح أيضـاً أن النبى ﷺ كان عليـه هو وأبو بكر وعمـر وعثـمان فتزلزل، فقال ﷺ «**أثبت أحد، فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان**»[4].

ـ لماذا سمى بهذا الإسم.

قال السهيلى: سمى أحداً لتوحده وانقطاعـه عن جبالٍ أخرى هناك، أو لما وقع من أهله من نصر التوحيد. أ.هـ

ـ ما جاء فى فضل هذا الجبل غير ما تقدم من أن النبى يحبه وهو يحب النبى ﷺ

فى المسند عن أبى عيـسى بن جبر مرفـوعاً «**جبل أحـد يحبنا ونحبه وهو من جـبال الجنة**»[5].

وقال ابن عثيمين[6]: «**جبل معروف شمالى المدينة**» ولايُقال: المنوَّرة؛ لأنَّ كل بلد

---

(١) فتح البارى (٧/ ٤٢١).
(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٣٦٧) عن أنس به.
(٣) فتح المجيد (١/ ٢٣٤).
(٤) أخرجه البخارى (٣٦٨٦) عن أنس به
(٥) ذكره الحافظ فى «الفتح» (٧/ ٤٣٧) ونسبه لأحمد.
(٦) القول المفيد (١/ ٣٧٣).

دخله الإسلام فهو منورٌ بالإسلام، ولأن ذلك لم يكن معروفاً عند السلف، وكذلك جاء اسمها فى القرآن بالمدينة فقط، لكن لو قيل: المدينة النبوية لحاجة تمييزها؛ فلابأس، وهذا الجبل حصلت فيه وقعة فى السنة الثالثة من الهجرة فى شوال هُزِمَ فيها المسلمون بسبب ما حصل منهم من مخالفة أمر النبى ﷺ؛ كما أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾، وجواب الشرط محذوف تقديره: حصل لكم ما تكرهون.

وقد حصلت هزيمة المسلمين لمعصية واحدة، ونحن الآن نريد الانتصار والمعاصى كثيرة عندنا، ولهذا لايمكن أن نفرح بنصرٍ ما دمنا على هذه الحال؛ إلا أن يرفق الله بنا ويصلحنا جميعاً. أ.هـ.

قوله: [كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟].

ـ قال سليمان آل الشيخ[1]: زاد مسلم من طريق ثابت عن أنس «**وكسروا رَباعيته وأدموا وجهه**» أهـ.

وتقدم معنى الرباعية، وأنها بفتح الراء وتخفيف الياء، كما تقدم من قول القرطبى، وكذا قال ابن حجر.

وقوله: [وأدموا وجهه]

قال ابن حجر[2]: أى جرحوه حتى خرج منه الدم أهـ.

ـ قال ابن عثيمين[3]: **قوله: «فقال: كيف يُفلح وقوم شجُّوا نبيهم؟»**.

الاستفهام يُراد به الاستبعاد؛ أى: بعيد أن يُفلح قوم شجُّوا نبيهم ﷺ.

قوله: «يُفلح» من الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب أهـ.

قوله: [فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾].

بوب البخارى على هذا: باب ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ وذكر فيه حديثين الأول حديث أنس معلقاً وهو الذى هنا والثانى حديث ابن عمر الآتى بعد هذا[4].

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١٨٦).
(٢) فتح البارى (٧/ ٤٣١).
(٣) القول المفيد (١/ ٣٧٣).
(٤) سيأتى تخريجه.

قال ابن حجر[1]: فى مقصود البخارى بالترجمة: أى بيان سبب نزول هذه الآية، وقد ذكر فى الباب سببين، ويحتمل أن تكون نزلت فى الأمرين جميعاً؛ فإنهما كانا فى قصة واحدة.

ثم قال ابن حجر سبباً ثالثاً وهو أنها نزلت فى قصة رعل وذكوان.

ثم قال ابن حجر[2]: والصواب أنها نزلت فى شأن الذين دعا عليهم بسبب قصة أحد، والله أعلم. ويؤيد ذلك ظاهر قوله فى صدر الآية ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى يقتلهم ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أى يخزيهم، ثم قال ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أى فيسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أى إن ماتوا كفاراً أهـ.

قوله: [**فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ﴾**].

قال ابن كثير: أى بل الأمر كله إلىَّ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقال ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ وقال ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ **وقال محمد بن إسحاق** فى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ﴾ أى ليس لك من الحكم شىء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم.

قال ابن جرير[3]: يعنى بذلك تعالى ذكره ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ﴾ فقوله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ منصوب عطفاً على قوله ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ وقد يحتمل أن يكون تأويله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ﴾ حتى يتوب عليهم، فيكون نصب يتوب بمعنى، أو التى هى فى معنى حتى، والقول الأول الأولى بالصواب؛ لأنه لاشىء من أمر الخلق إلى أحد سوى خالقهم قبل توبة الكفار وعقابهم بعد ذلك.

وتأويل قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ﴾ إليك يا محمد من أمر خلقى إلا أن تنفذ فيهم أمرى وتنتهى فيهم إلى طاعتى، وإنما أمرهم إلىَّ، والقضاء فيهم بيدى دون غيرى أقضى فيهم وأحكم بالذى أشاء من التوبة على من كفرنى وعصانى وخالف أمرى أو

(١) فتح البارى (٧/ ٤٢٣).

(٢) فتح البارى (٧/ ٤٢٤).

(٣) تفسير الطبرى (٣/ ٤).

العذاب إما فى عاجل الدنيا بالقتل والنقم المبيرة وإما فى آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بى أهـ.

وقال ابن كثير(١): قال تعالى: ﴿**لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ أى أمركم بالجهاد والجلاء لما له فى ذلك من الحكمة فى كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة فى الكفار المجاهدين فقال ﴿**لِيَقْطَعَ طَرَفًا**﴾ أى ليهلك أمة ﴿**مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا**﴾ أى يرجعوا ﴿**خَائِبِينَ**﴾ أى لم يحصلوا على ما أملوا. ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم فى الدنيا والآخرة له وحده لاشريك له فقال تعالى ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ أى بل الأمر كله إلى ثم ذكر بقية الأقسام فقال ﴿**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾ أى مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة ﴿**أَوْ يُعَذِّبَهُمْ**﴾ أى فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم، ولهذا قال ﴿**فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ أى يستحقون ذلك.

قال الرازى(٢)**: فى الآية مسائل:**

المسألة الأولى: فى سبب نزول هذه الآية قولان.

[قلت: بل ثلاث أقوال كما تقدم من كلام ابن حجر].

(الأول) وهو المشهور: أنها نزلت فى قصة أحد، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا على ثلاثة أوجه.

(أحدها) أنه أراد أن يدعو على الكفار فنزلت هذه الآية والقائلون بهذا ذكروا احتمالات.

(أحدها) روى أن عتبة بن أبى وقاص شجه وكسر رباعيته فجعل يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم**» ثم أراد أن يدعو عليهم فنزلت هذه الآية(٣).

(وثانيها) ما روى سالم بن عبدالله عن أبيه عبدالله بن عمر أن النبى ﷺ لعن أقواما فقال «**اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن صفوان بن أمية**» فنزلت هذه الآية ﴿**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾ فتاب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم(٤).

(وثالثها) أنها نزلت فى حمزة بن عبدالمطلب وذلك لأنه ﷺ لما رآه ورأى مافعلوا به من المثلة قال «**لأمثلن منهم بثلاثين**»، فنزلت هذه الآية قال القفال رحمه الله: وكل هذه

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٠).

(٢) التفسير الكبير (٤/٧/٢٣٨ ـ ٢٤٠).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/١٢٦) ونسبه لابن جرير عن قتادة.

(٤) سيأتى تخريجه.

الأشـيـاء حصلـت يوم أحد فـتزلت هذه الآية عند الكل فـلايمـتنع حـملهـا على كل الاحتمالات.

(الثانى) فى سبب نزول هذه الآيـة أنها نزلت بسبب أنه ﷺ أراد أن يلعـن المسلمين الذين خالفوا أمـره والذين انهزموا فمنعه الله من ذلك وهذا القول مـروى عن ابن عباس رضى الله عنهما.

الوجه الثالث: أنه ﷺ أراد أن يستغفر للمسلميـن الذين انهزموا وخالفوا أمره ويدعوا عليهم فنزلت الآية، فهذه الاحتمالات والوجوه كلها مفرعة على قولنا إن هذه الآية نزلت فى قصة أحد.

القول الثانى: أنها نزلت فى واقعـة أخرى وهى أن النبى ﷺ بعث جمعـاً من خيار أصحابه إلى أهل بئر مـعونة ليعلموهم القرآن فذهب إليهم عـامر بن الطفيل مع عسكره وأخذهم وقـتلهم فجزع من ذلك الـرسول ﷺ جزعا شـديداً ودعا على الكفـار أربعين يوما، فنزلت هذه الآية، هذا قول مـقاتل وهو بعيد لأن أكثر العلمـاء اتفقوا على أن هذه الآية فى قصة أحد، وسياق الكلام يدل عليه وإلـقاء قصة أجنبية عن أول الكلام وآخره غير لائق.

المسألة الثانية: ظاهر هذه الآية يدل على أنها وردت فى أمر كـان النبى ﷺ يفعل فيه فعلا، وكانت هذه الآية كالمـنع منه، وعند هذا يتوجه الإشكال، وهو أن ذلك الفعل إن كان بأمر الله تعالى، فكيف منعه الله منه؟

وإن قلنا إنه ما كـان بأمر الله تعـالى وبإذنه، فكيف يصح هذا مع قوله تعـالى ﴿وما ينطق عن الهوى﴾.

وأيضاً دلت الآية على عـصمة الأنبيـاء عليهم الصلاة والسلام فـالأمر الممنوع عنه فى هذه الآية إن كان حسنا فلم منعه الله؟ وإن كان قبيحاً، فكيف يكون فاعله معصوماً؟.

(والجواب من وجوه)

(الأول) أن المنع من الفعل لايدل على أن الممنوع منه كان مشتـغلا به فإنه تعالى قال للنبى ﷺ ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ وأنه عليه الصلاة والسـلام ما أشرك قط وقال ﴿**يا أيهـا الـنبى اتق الله**﴾ فـهذا لايـدل على أنه مـاكان يتـقى الله، ثم قـال ﴿**وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ**﴾ وهذا لايدل على أنه أطاعهم.

والفائدة فى هذا المنع أنه لما حصل ما يوجب الغم الشـديد، والغضب العظيم، وهو مثلة عمه حمزة، وقتل المسلمـين، والظاهر أن الغضب يحمل الإنسان على ما لا ينبغى من القول والفـعل،، فلأجل أن لاتؤدى مشاهدة تلك المكاره إلى مـا لا يليق من القول والفعل نص الله تعالى على المنع تقوية لعصمته وتأكيداً لطهارته.

(والثانى) لعله عليه الصلاة والسلام إن فعل لكنه كان ذلك من باب ترك الأفضل والأولى، فلا جرم أرشده الله إلى اختيار الأفضل والأولى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ كأنه تعالى قال: إن كنت تعاقب ذلك الظالم فاكتف بالمثل، ثم قال ثانياً: وإن تركته كان ذلك أولى، ثم أمره أمراً جازماً بتركه، فقال ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾.

الوجه الثالث: فى الجواب: لعله ﷺ لما مال قلبه إلى اللعن عليهم استأذن ربه فيه، فنص الله تعالى على المنع منه، وعلى هذا التقدير لايدل هذا النهى على القدح فى العصمة.

المسألة الثالثة: قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فيه قولان: **(الأول)** أن معناه ليس لك من قصة هذه الواقعة ومن شأن هذه الحادثة شىء وعلى هذا فنقل عن المفسرين عبارات (أحدها) ليس لك من مصالح عبادى شىء إلا ما أوحى إليك.

(وثانيها) ليس لك من مسألة إهلاكهم شىء، لأنه تعالى أعلم بالمصالح فربما تاب عليهم.

(وثالثها) ليس لك فى أن يتوب الله عليهم. ولا فى أن يعذبهم شىء.

والقول الثانى: أن المراد هو الأمر الذى يضاد النهى، والمعنى: ليس لك من أمر خلقى شىء إلا إذا كان على وفق أمرى، وهو كقوله ﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ﴾ وقوله ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ وعلى القولين فالمقصود من الآية منعه ﷺ من كل فعل وقول إلا ما كان بأذنه وأمره.

وهذا هو الإرشاد إلى أكمل درجات العبودية، ثم اختلفوا فى أن المنع من اللعن لأى معنى كان؟ منهم من قال الحكمة فيه أنه تعالى ربما علم من حال بعض الكفار أنه يتوب، أو أن لم يتب لكنه علم أنه سيولد منه ولد يكون مسلماً براً تقياً، وكل من كان كذلك، فإن اللائق برحمة الله تعالى أن يمهله فى الدنيا وأن يصرف عنه الآفات إلى أن يتوب أو إلى أن يحصل ذلك الولد فإذا حصل دعاء الرسول عليهم بالإهلاك، فإن قبلت دعوته فات هذا المقصود، وإن لم تقبل دعوته كان ذلك كالاستخفاف بالرسول ﷺ، فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من اللعن وأمره بأن يفوض الكل إلى علم الله تعالى.

ومنهم من قال: المقصود منه إظهار عجز العبودية وأن لايخوض العبد فى أسرار الله تعالى فى ملكه وملكوته، هذا هو الأحسن عندى والأوفق لمعرفة الأصول الدالة على حقيقة الربوبية والعبودية.

المسألة الرابعة: ذكر الفراء والزجاج وغيرهما فى هذه الآية قولين:

(أحدهما) أن قوله ﴿**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾ عطف على ما قبله، والتقدير: ليقطع طرفاً من الذين كفروا، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم، ويكون قوله ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ**﴾ كالكلام الأجنبى الواقع بين المعطوف والمعطوف عليه، كما تقول: ضربت زيداً، فعلم ذلك عمراً، فعلى هذا القول هذه الآية متصلة بما قبلها.

والقول الثانى: أن معنى (أو) ههنا معنى حتى، أو إلا أن، كقولك: لألزمنك أو تعطينى حقى والمعنى: إلا أن تعطينى أو حتى تعطينى، ومعنى الآية ليس لك من أمرهم شىء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتشفى منهم.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾ مفسر عند أصحابنا بخلق التوبة فيهم وذلك عبارة عن خلق الندم فيهم على ما مضى، وخلق العزم فيهم على أن لايفعلوا مثل ذلك فى المستقبل.

قال أصحابنا: وهذا المعنى متأكد ببرهان العقل وذلك لأن الندم عبارة عن حصول إرادة فى الماضى متعلقة بترك فعل من الأفعال فى المستقبل، وحصول الإرادات والكراهات فى القلب لايكون بفعل العبد، لأن فعل العبد مسبوق بالإرادة، فلو كانت الإرادات فعلاً للعبد لافتقر العبد فى فعل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى ويلزم التسلسل وهو محال، فعلمنا أن حصول الإرادة والكراهات فى القلب ليس إلا بتخليق الله تعالى وتكوينه ابتداء، ولما كانت التوبة عبارة عن الندم والعزم، وكل ذلك من جنس الإرادات والكراهات، علمنا أن التوبة لاتحصل للعبد إلا بخلق الله تعالى، فصار هذا البرهان مطابقاً لما دل عليه ظاهر القرآن، وهو قوله ﴿**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾ وأما المعتزلة فإنهم فسروا قوله ﴿**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾ إما بفعل الألطاف، أو بقبول التوبة.

أما قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: إن كان الغرض من الآية منعه من الدعاء على الكفر صح الكلام وهو أنه تعالى سماهم ظالمين، لأن الشرك ظلم قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ وإن

كان الغـرض منها منعه من الدعاء على المسـلمين الذين خالفوا أمـره صح الكلام أيضاً، لأن من عصى الله فقد ظلم نفسه.

المسألة الثانية: يحتمل أن يكون المراد من العـذاب المذكور فى هذه الآية عذاب الدنيا، وهو القتل والأسـر وأن يكون عذاب الآخرة، وعلى التـقديرين فعلم ذلك مـفوض إلى الله.

المسألة الثـالثة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملـة مستـقلة، إلا أن المقصـود من ذكرها تعليل حسن التعذيب، والمعنى: أو يـعذبهم فإنه إن عذبـهم إنما يعذبهم لأنهم ظالمون أ.هـ.

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

قال ابن عـطية: كان الـنبى ﷺ لحقه فـى تلك الحال يأس من فـلاح كفـار قريش؛ فمالت نفسه إلى أن يستأصلهم الله، ويريح منهم. فقيل له: بسبب ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى عواقب الأمور بيد الله فامض أنت لشأنك، ودم على الدعاء لربك.

وقال غيره: المعنى أن الله تعالى مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم أو يكبتهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصـروا، وليس لك من أمرهم شىء، وإنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهـادهم، فعلى هذا يكون قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراض المعطوف والمعطوف عليه.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

أى: نزلت هذه الآية، والخطاب فيها للرسول ﷺ.

و﴿شَيْءٌ﴾: نكرة فى سياق النفى؛ فتعم.

قوله: ﴿الأَمْرِ﴾؛ أى: الشأن، والمراد: شأن الخلق، فشـأن الخلق إلى خالقهم، حتى النبى ﷺ ليس له فيهم شىء.

ففى الآية خطاب للرسول ﷺ وقد شُجَّ وجهه، وكُسِرت رباعيته، ومع ذلك ما عذره الله ـ سبحـانه ـ فى كلمة واحدة: «كيف يُفلح قوم شـجوا نبيهم؟»[3]، فإذا كان الأمر كذلك؛ فما بالك بمن سواه؟ فليس لهم من الأمر شىء؛ كالأصنام، والأوثان، والأولياء،

---

(١) تيسير العزيز الحميد. (٢) القول المفيد ١/ ٣٧٣و ٣٧٤.

(٣) تقدم تخريجه

وَفيه عَنِ ابـنِ عُمَرَ رَضِىَ اللهُ عَنهُـمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَـقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِـنَ الرُّكُوعِ فِى الـرَّكعَةِ الأَخيـرَةِ مِنَ الفَجْـرِ» «اللَّهُمَّ الـعَنْ فُلانًا وَفُـلانًا» بَعْدَمَا يَقُـولُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَـكَ الحَمْدُ» فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ﴾(1).

والأنبياء؛ فالأمر كله لله وحده، كما أنّه الخـالق وحده، والحمد لله الذى لم يجعل أمرنا إلى أحد سواه؛ لأنَّ المخلوق لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً؛ فكيف يملك لغيره؟!

قلت: وتقدم نحو هذا الكلام

قوله: **«فنزلت»**.

الفاء للسببية، وعليه؛ فيكون سبب نـزول هذه الآية هذا الكلام: **«وكيف يفلح قوم شجّوا وجه نبيهم؟»**.

قلت: وهذه صورة من تلات صور تدل دلالة قطعية على سبب التنزول.

الصورة الثانية: وهى أصرح منها تعبيرهم عن السبب بلفظ: «سبب تزول الآية كذا» والثالثة وهى وهردونهما فى الدلالة أن يسأل ﷺ فيوحى إليه ويجيب بما نزل عليه، ولا يكون التعبير بسبب النزول ولا بتلك الفاء ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام حديث ابن مسعود فى الصحيح لما سئل ﷺ عن الروح فرفع رأسه فعرف ابن مسعود أنه يوحى إليه ثم قال **﴿قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾** الآية.

قوله: (وفيه عن ابن عمر رضى الله عنهما...).

- **مناسبة الآية التى فى الحديث للباب: قال القرعاوى** حيث دلت الآية أن الأنبياء وهم أصلح الناس لايملكون نفعاً ولاضراً، فكيف بمن دونهم أهـ(3).
- **مناسبة الآية التى فى الحديـث للتوحيد: قال القرعاوى** حيث دلت الآية على أن جلب النفع ودفع الضر من الأفعال الخاصة بالله، فيكون طلبها من غير الله شركاً به أهـ.

قوله: «وفيه».

أى فى صحـيح البخارى فـى ثلاثة أبواب فى المغـازى والتفسيـر والاعتصام جمـيعاً بترجمة الآية ليس لك من الأمرشىء.

(1) [صحيح] أخرجه البخارى فى «المغازى»/ باب: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ﴾ (٧/ ٤٢٢/ ح٤٠٦٩) وأحمد فى «مسنده» (٢/ ١٤٧)، والنسائى فى «الكبرى» فى «التفسير» (٦/ ٣١٤/ ١١٠٧٦). وانظر ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (ح ٤١٢٥) بتخريجنا)، .وفتح القدير (ح٢٨٧٠) «وفتح المجيد» (ح ٣٠٩) بتخريجنا.

(2) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٧١) عن ابن مسعود به وأنظر «فتح القدير» بتخريجنا

(3) الجديد (١٤١، ١٤٣).

وَفِي رواية: يَدْعو عَلَى صَفْوانَ بنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيل بن عَمْرٍو وَالحَارِث بنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾(١).

قوله: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ».

وفى رواية البخارى فى الاعتصام وسمع النبى ﷺ يقول فى صلاة الفجر ورفع رأسه من الركوع.

وفى التفسير بلفظ «سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الآخرة من الفجر.

قال ابن عثيمين(٢): وقد قيد مكان الدعاء من الصلوات بالفجر وما كان من الركعات بالأخيرة، وما كان من الركن بما بعد الرفع من الركوع أ.هـ.

قوله: [عن ابن عمر].

قال ابن حجر(٣): هو أحد العبادلة، وفقهاء الصحابة والمكثرين منهم، وأمه زينب، ويقال رائطة بنت مظعون أخت عثمان وقدامة ابنى مظعون، للجميع صحبة، وكان مولده فى السنة الثانية أو الثالثة من المبعث، فإنه ثبت أنه كان يوم بدر ابن ثلاث عشرة سنة، وكانت بدر بعد البعثة بخمس عشرة سنة. وفى تاريخ وفاته فى كتاب الصلاة عند البخارى وأنها كانت بسبب من دسه عليه الحجاج فمس رجله بحربة مسمومة فمرض بها إلى أن مات أوائل سنة أربع وسبعين أهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى «المغازى»/ باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٧/ ٤٢٣/ ح٤٠٧٠)

قال الحافظ: وهم من زعم أنه معلق وقوله «سمعت سالم بن عبدالله يقول كان رسول الله ﷺ يدعوا إلخ» هو مرسل.

ووصله الترمذى فى «تفسير القرآن»/ باب: ومن سورة آل عمران (٥/ ٢٢٧ ح٣٠٠٤ وأحمد فى مسنده» (٢/ ٩٣) من حديث ابن عمر.

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب يستغرب من حديث عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه وقد رواه الزهرى عن سالم عن أبيه لم يعرفه محمد بن إسماعيل من حديث عمر بن حمزة وخرجه من حديث الزهرى وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣١٠).

(٢) القول المفيد١/ ٣٧٥.

(٣) فتح البارى (٧/ ١١٢، ١١٣/ ح٣٧٣٨ ـ ٣٧٤١).

[قلت]: ومناقبه كثيرة، وأدخله البخارى فى مناقب الصحيح، وذكر له ثلاثة أحاديث فى فضله وفيـه رؤية رآها وقصها على النبـى وفى آخرها قال ﷺ **«نعم الرجل عبدالله لو كـان يصلى من الليل»** فكان عبـدالله لاينام من الليل إلا قليلاً[1]. والحديث الآخـر قال ﷺ: **«إن عبدالله رجل صالح»**[2].

قوله: [إذا رفع رأسه من الركوع].

قال ابن حجر: الجملة حالية أى قـال ذلك حال رفع رأسه من الركوع ويؤخذ منه أن محل القنوت عند رفع الرأس من الركوع لاقبل الركوع أهـ.

قوله: [من الركعة الأخيرة].

قال ابن حجر[3]: أى الركعة الثـانية من صلاة الصبح كـما صرح بذلك فى رواية حبان بن موسى، وظن الكرمـانى أن قوله (فى الآخرة) متعلق بالحمـد، وأنه بقية الذكر قاله النبى ﷺ فى الاعتدال فقال: فإن قلت: ما وجه التخصيص بالآخرة مع أن له الحمد فى الدنيا. ثم أجاب بأن نعيم الآخـرة أشرف، فالحمد عليه هو الحمد حـقيقة، أو المراد بالآخرة العاقبة أى مآل كل المحمود إليه، انتهى.

وليس لفظ (فى الآخرة) من كلام النبى ﷺ بل هو من كـلام ابن عمر، ثم ينظر فى جمعه الحمد على محمود أهـ.

قوله: «اللهم العن فلاناً وفلاناً».

تقدّم أن اللعن من الله هو الطرد والإبعاد، ومن الناس الدعاء بذلك أو السب.

وتقدم فى الباب التاسع «ما جاء فى الذبح لغير الله] فى شرح حديث على «لعن الله من ذبح لغير الله»[4] تفصيل مسائل اللعن سواء المعين أو العام. فانظره.

قوله: «فلاناً وفلاناً» ابن حجر[5].

وفى رواية البخارى عن حنظلة بن أبى سفيان، سـمعت سالم بن عبدالله يقول: كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام الحديث، قول البـخارى عن حنظلة بن أبى سفيـان معطوف على قوله أخـبرنا معمـر إلى آخره، والراوى له عن حنظلة هو عـبدالله بن المبارك ووهم من زعم أنه مـعلق، وقوله سـمعت

---

(١) أخرجه البخارى (٣٧٣٨) عن ابن عمر به.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٧٤٠، ٣٧٤١) عن حفصة.

(٣) فتح البارى (١٣/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٤) تقدم تخريجه

(٥) الفتح (٧/ ٤٢٤).

سالم بن عبدالله يقول: كان رسول الله ﷺ هو مرسل، والثلاثة الذين سماهم قد أسلموا يوم الفتح، ولعل هذا هو السر فى نزول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ووقع فى رواية يونس عن الزهرى عن سعيد وأبى سلمة عن أبى هريرة نحو حديث ابن عمر، لكن فيه «**اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية**»(١).

وقال الحافظ(٢): وبينت هذه الرواية الثانية أنهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، وهذه الرواية أخرجها البخارى عقب هذا الحديث مرسلة أهـ.

وأخرج أحمد والترمذى هذا الحديث موصولاً من رواية عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه فسماهم وزاد فى آخر الحديث «فتيب عليهم كلهم»،(٣)وأشار بذلك إلى قوله بقية الآية ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

ولأحمد أيضاً من طريق محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر كان رسول الله ﷺ يدعو على أربعة، فنزلت، قال وهداهم الله للإسلام وكان الرابع عمرو بن العاص(٤) وقد عزاه السيهلى لرواية الترمذى، لكن لم أره فيه والله أعلم. كذا قال ابن حجر أ.هـ

وقال ابن حجر فى موضع آخر(٥) قوله (فلاناً وفلاناً): قال الكرمانى: يعنى رعل وذكوان، ووهم فى ذلك، وإنما سمى ناساً بأعيانهم لاقبائل أهـ.

وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «**اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام اللهم العن سهيلاً بن عمر، اللهم العن صفوان بن أمية**، فنزلت هذه الآية، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾فتيب عليهم كلهم(٦).

فلعل الرابع على هذه الرواية هو أبو سفيان.

والرواية التى أشار إليها الحافظ عزاها السيوطى فى «الدر» للترمذى وصححها وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال «كان النبى ﷺ يدعو على أربعة نفس فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية، فهداهم الله للإسلام(٧).

وفى المعنى أيضاً جاء عن سالم بن عبدالله بن عمر، قال: جاء رجل من قريش إلى النبى ﷺ فقال إنك تنهى عن السبى يقول قد سبى العرب ثم تحول قفاه إلى النبى ﷺ وكشف إسته فلعنه ودعى عليه فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ثم أسلم الرجل فحسن إسلامه(٨).

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٠٨٠)، ومسلم فى المساجد (٣/ ١٩٠/ ٢٩٤) عن أبى هريرة به.

(٢) الفتح ٨/ ٧٤.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٩٣)، والترمذى (٣٠٠٤) عن ابن عمر به وانظر «فتح القدير بتخريجنا.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ١٨٨) به. (٥) الفتح (١٣/ ٣٢٦).

(٦) تقدم. (٧) تقدم تخريجه.

(٨) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٢٧) ونسبه لابن إسحاق، والنحاس فى «ناسخة».

وفى الباب عن ابن عمر أن النبى ﷺ لعن فى صلاة الفجر بعد الركوع - فى الركعة الآخرة - فقال: «اللهم العن فلاناً وفلاناً ناساً من المنافقين دعا عليهم - فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾(1).

عن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع فربّما قال إذا قال سمعَ الله لمن حمده اللهم ربَّنا لك الحمد: اللهمَّ أنجِ الوليدَ بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة، اللهمَّ اشدد وَطأتَكَ على مُضرَ، واجعلَها سنينَ كسنى يوسف. يَجهَرُ بذلك. وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر: اللهمَّ العَنْ فلاناً وفلاناً - لأحياء من العرب - حتى أنزَل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية(2) رواه البخارى.

قال ابن حجر: قوله: (كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد) أى فى صلاته.

قوله: (قنت بعد الركوع) تمسك بمفهومه من زعم أن القنوت قبل الركوع، قال: وإنما يكون بعد الركوع عند إرادة الدعاء على قوم أو لقوم.

وتعقب باحتمال أن مفهومه أن القنوت لم يقع إلا فى هذه الحالة.

ويؤيده ما أخرجه ابن خزيمة بإسناد صحيح عن أنس «أن النبى ﷺ كان لايقنت إلا إذا دعا لقوم أو دعا على قوم»(3).

قوله: (وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر) كأنه يشير إلى أنه لايداوم على ذلك.

قوله: (اللهم العن فلاناً وفلاناً لأحياء من العرب) وقع تسميتهم فى رواية يونس عن الزهرى عند مسلم بلفظ «اللهم العن رعلاً وذكوان وعصية».

قوله: (حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾) تقدم استشكاله، وأن قصة رعل وذكوان كانت بعد أحد، ونزول ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كان فى قصة أحد فكيف يتأخر السبب عن النزول؟.

ثم ظهر لى علة الخبر وأن فيه إدراجاً، وأن قوله «حتى أنزل الله» منقطع من رواية الزهرى عمن بلغه.

بين ذلك مسلم فى رواية يونس المذكورة فقال هنا قال يعنى الزهرى ثم بلغنا أنه ترك

(1) ذكره السيوطى فى «الدر» (2/127) ونسبه لعبد بن حميد، والنحاس فى ناسخه».

(2) [متفق عليه] أخرجه البخارى (1006)، ومسلم فى المساجد (3/191/295) عن أبى هريرة به.

(3) أخرجه ابن خزيمة فى «صحيحه» (620) عن أنس به.

ذلك لما نزلت وهذا البلاغ لايصح لما ذكرته، وقد ورد فى سبب نزول الآية شىء آخر لكنه لاينافى ما تقدم، بخلاف قصة رعل وذكوان، فعند أحمد ومسلم من حديث أنس «أن النبى ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية[1].

وطريق الجمع بينه وبين حديث ابن عمر أنه ﷺ دعا على المذكورين بعد ذلك فى صلاته فنزلت الآية فى الأمرين معاً، فيما وقع له من الأمر المذكور وفيما نشأ عنه من الدعاء عليهم، وذلك كله فى أحد، بخلاف قصة رعل وذكوان فإنها أجنبية.

ويحتمل أن يقال إن قصتهم كانت عقب ذلك وتأخر نزول الآية عن سببها قليلاً، ثم نزلت فى جميع ذلك، والله أعلم.

قوله «بعد ما يقول سمع الله لمن حمده».

قال ابن الأثير: أجاب الله حمدَه وتقبله[2].

قوله: «**ربنا ولك الحمد**».

فى بعض روايات البخارى بإسقاط الواو، قال ابن دقيق العيد: «كأنَّ إثباتها دال على معنى زائد؛ لأنه يكون التقدير: ربنا استجب ولك الحمد. فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر.

قال ابن حجر[3]: «**ربنا ولك الحمد**» معين لكون الرفع من الركوع؛ لأنه ذكرَ الاعتدال أهـ.

وقد تقدم معنى الحمد فى بداية الكتاب.

وقال ابن تيمية: والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له.

ونحو من هذا قول ابن القيمً.

ـ فوائد الحديث:

ـ جواز الدعاء على المشركين، بأعيانهم فى الصلاة وأن ذلك لايضر بالصلاة.

ـ التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد وهو قول الشافعى وأحمد وخالف فى ذلك مالك وأبو حنيفة.

---

(١) تقدم تخريجه (٢) النهاية ٢/ ٤٠١ (٣) الفتح ١٣/ ٣٢٥.

ـ أن سبب دعاء النبي ﷺ على المذكورين لكونهم لم يذعنوا للإيمان ليعتصموا به من اللعن؛ لذلك أدخل الحديث البخاريُّ في كتاب الاعتصام.

ـ الإشارة إلى الخلاف المشهور في أصول الفقه، وهو هل كان له ﷺ أن يجتهد في الأحكام أولا[(1)]. واستدل من قال بالاجتهاد بهذا الحديث وأمثاله وبقوله ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾.

وبقوله: «وشاورهم في الأمر».

ويقول عمر: «**إن الرأي كان من الرسول مصيباً وإنما كان منا الظن والتكلُّف**».

قال ابن حجر: وبهذا يمكن أن يقال كان يجتهد ولكنه لايقع فيما اجتهد فيه خطأً أصلاً[(2)] أ.هـ

قوله: «وفي رواية».

تقدّم أنها عند البخاري مرسلة وأسندها أحمد وغيره.

قوله: «صفوان بن أمية وسعيد بن عمرو والحارث بن هشام».

وذلك لأنهم رؤوس المشركين يوم أحد، هم وأبو سفيان بن حرب، فما استجيب له ﷺ فيه، بل أنزل الله ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ فتاب عليهم وحسن إسلامهم كما تقدّم. حتى خلص الأمر لله من قبل ومن بعد، يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته وليس بعيداً من ذلك قصة الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً وسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على عابد فقال ليس لك توبة فأكمل به المائة،ثم دل على عالم، فقال: إنه قتل مائة نفسٍ، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبُد الله معهم، ولاترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء،فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم «حكماً»، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضتهُ ملائكةُ الرَّحمة»[(3)] متفق عليه.

---

(1) الفتح (١٣/ ٣٢٥). (2) الفتح ١٣/ ٣٠٤و٣٠٥.

(3) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم في الذكر والدعاء والاستغفار (١٧/ ٨٢ـ النووي) عن أبي سعيد به.

وأنظر «رياض الصالحين» (٢١ ـ بتخريجنا).

وَفِيــه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عنهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنزِلَ عَلَيْه: ﴿ أَنذرْ عشيرتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[1]، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْش (أَو كَلِمَةً نَحْوَهَا) ـ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُم، لاَ أُغنى عَنْكُم مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بنَ عَبْدِ المُطَّلب إِلاَ أُغنى عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسولِ اللهِ ﷺ لاَ أُغْنى مِنَ اللهِ شَيْئًا ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مَحَمَّدٍ ! سَلِيْنِى مِنْ مَالِى مَا شِئتِ، لاَ أُغْنى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا[2].

مناسبة الحديث للباب:

قال السعدى[3]: إذا كان أشرف الخلق على الإطلاق لايملك نفع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحماً فكيف بغيره؟ فتباً لمن أشرك بالله وساوى به أحداً من المخلوقين، لقد سلب عقله بعد ما سلب دينه أ هـ.

وقال القرعاوى[4]: حيث دل الحديث على أن الأنبياء لايملكون لأحد نفعاً ولاضراً، فكيف بمن دونهم أهـ.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى: حيث دل الحديث على أن جلب النفع ودفع الضر من الأفعال الخاصة بالله، فيكون طلبها من غير الله شركاً به أهـ.



ولفظه فى الصحيح عن عبدالرحمن أنَّ أبا هريرة قال: «قام رسولُ الله ﷺ حينَ أنزلَ الله **﴿وَأَنذرْ عَشيرتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ قال: « يَا مَعْشَرَ قُرَيْش (أَو كَلمَةَ نَحْوَهَا) ـ اشْتَرُوا أَنفُسكُم، لاَ أُغنى عَنكُم مِنَ اللهِ شَيْئًا يا بنى عبد مناف لا أُغنى عنكم من الله شيئاً يا عَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المُطَّلب لاَ أُغنى عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفيَّةُ عَمَّةَ رَسول الله ﷺ لاَ أُغنى عنك مِنَ اللهِ شَيْئًا ، ويَا فَاطِمَةُ بِنْت مَحَمَّدٍ ﷺ سَلِيْنِى مـا شـئت مِنْ مَالِى ، لاَ أُغْنى عَنْكَ مِنَ الله شَيْئًا».**

---

(١) الشعراء: ٢١٤

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى فى «التفسير»/ باب: ﴿وَأَنذرْ عَشيرتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٨/ ٣٦٠/ ٤٧٧١) ومسلم فى «الإيمان (٢/ ٨٢/ ٣٥١)، وأحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٦٠) وابن جرير فى «تفسيره» (١٩/ ٧٣)، والترمذى فى «التفسير»/ باب: ومن سورة الشعراء (٥/ ٣٣٨/ ٣١٨٥)، والنسائى فى «الكبرى» فى «التفسير» (٦/ ٤٢٣/ ١١٣٧٧).

وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ١٧٩) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٩٧٧٢ ـ و«فتح المجيد» (ح ٢١٣) بتخريجنا).

(٢) القول السديد (٥٢). (٤) الجديد (١٤٥).

وفي الصحيح عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس رضىَ الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتَكَ الأقْربين﴾ صَعدَ النبىُّ ﷺ على الصفا فجعل يُنادى: **يا بنى فهر، يا بنى عَدىّ - لبُطون قُريش - حتىَ اجتمعوا، فجعلَ الرجلُ إذا لم يَستطعْ أنِ يَخرجَ أرسل رسولاً لِينظرَ ما هوَ، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: أرأيتكم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادى تريدُ أن تُغيرَ عليكم أكنتم مُصدِّقىَّ؟** قالوا: نعم ما جَرَّبنا عليك إلا صدقاً. قال: **فإنى نَذيرٌ لكم بينَ يدَى عذاب شديد.** فقال أبو لهبٍ: تبّاً لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنَا؟ فنزلَت ﴿**تبَّتْ يدا أبى لهبٍ وتبَّ (١) ما أغنَىٰ عنه مالُه وما كسب**﴾[(١)].

قوله: (**- وفيه عن أبى هريرة - رضى الله عنه، قال قام فينا رسول الله**) وفى طريق آخر عن ابن عباس.

قوله: (عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وأنذرْ عشيرتَكَ الأقْربين﴾.

قال ابن حجر[(٢)]: هذا من مراسيل الصحابة، وبذلك جزم الإسماعيلى لأن أبا هريرة إنما أسلم بالمدينة، وهذه القصة وقعت بمكة، وابن عباس كان حينئذ إما لم يولد وإما طفلاً. ويؤيد الثانى نداء فاطمة فإنه يشعر بأنها كانت حينئذ بحيث تخاطب بالأحكام، و فى السيرة النبوية احتمال أن تكون هذه القصة وقعت مرتين، لكن الأصل عدم تكرار النزول.

وقد صرح فى هذه الرواية بأن ذلك وقع حين نزلت. نعم وقع عند الطبرانى من حديث أبى أمامة قال «لما نزلت ﴿**وأَنذرْ عشيرتَك**﴾ جمع رسول الله ﷺ بنى هاشم ونساءه وأهله فقال: «**يا بنى هاشم، اشتروا أنفسكم من النار، واسعوا فى فكاك رقابكم. يا عائشة بنت أبى بكر، يا حفصة بنت عمر ويا أم سلمة**» فذكر حديثاً طويلاً[(٣)].

فهذا إن ثبت دل على تعدد القصة، لأن القصة الأولى وقعت بمكة لتصريحه فى حديث الباب أنه صعد الصفا، ولم تكن عائشة وحفصة وأم سلمة عنده ومن أزواجه إلاَّ بالمدينة، فيجوز أن تكون متأخرة عن الأولى فيمكن أن يحضرها أبو هريرة وابن عباس أيضا، ويحمل قوله «لما نزلت.. جمع» أى بعد ذلك، لا أن الجمع وقع على الفور، ولعله كان نزل أولا ﴿**وأَنذرْ عشيرتَكَ الأقْربين**﴾ فجمع قريشاً فعم ثم خص كما سيأتى، ثم نزل ثانيا ﴿**ورهطك منهم المخلصين**﴾ فخص بذلك بنى هاشم ونساءه والله أعلم. وفى هذه الزيادة تعقب على النووى حيث قال فى «شرح مسلم» إن

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٨٠١)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٨٣/ ٣٥٥) عن ابن عباس به.

(٢) فتح البارى (٨/ ٣٦٠ - ٣٦٢).

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨/ ٢٦٨/ ٧٨٩٠) قال الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ٨٦): وفيه على بن يزيد الألهانى وهو متروك.

البخارى لم يخرجها أعنى ﴿ورهطك منهم المخلصين﴾ اعتماداً على ما فى هذه السورة، وأغفل كونها موجودة عند البخارى فى سورة ﴿تبت﴾.

قال القرطبي: لعل هذه الزيادة كانت قرآنا فنسخت تلاوتها: ثم استشكل ذلك بأن المراد إنذار الكفار، والمخلص صفة المؤمن.

والجواب عن ذلك: أنه لايمتنع عطف الخاص على العام. فقوله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ عام فيمن آمن منهم ومن لم يؤمن، ثم عطف عليه الرهط المخلصين تنويهاً بهم وتأكيداً.

قال ابن حجر[1]: والسر فى الأمر بإنذار الأقربين أولاً أن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم وإلا فكانوا علة للأبعدين فى الإمتناع، وأن لايأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحابيهم فى الدعوة والتخويف، فلذلك نص له على إنذارهم.

قال سليمان آل الشيخ[2]: وقد أمره الله أيضاً بالنذارة العامة كما قال ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾[3] وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾[4] ولاتنافى بينهما، لأن النذارة الخاصة فرد من أفراد العامة.

قوله: «قام»[5] أى خطيباً، وفى الصحيح من رواية ابن عباس «صعد رسول الله على الصفا.

قوله: «حين أنزل عليه: أى بواسطة جبريل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ويستفاد من ذلك أنه لم يتأخر بل قام فقال: «يا معشر قريش...».

قوله: ﴿أنذِر﴾ أى حذر وخوِّف والإنذار الإعلان المقرون بالتخويف.

قوله: ﴿عَشِيرَتَكَ﴾: عشيرة الرجل هم بنو أبيه الأدنون من الجد الرابع فما دون، أو قبيلته، لأنهم أحق الناس ببرك وإحسانك الدينى والدنيوى. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[6].

(١) فتح البارى (٨/ ٣٦٠ ـ ٣٦٢).
(٢) تيسير العزيز الحميد ١٩٠.
(٣) مريم/ ٩٧.
(٤) يس/ ٦.
(٥) تيسير العزيز الحميد (١٩٠).
(٦) التحريم/٦

وقال ﷺ حينما سئله رجل من أحق بحسن صحابتي؟ قال: «**أمُك. ثم أمك. ثم أمك. ثم أبوك. ثم أدناك أدناك**»[1].

وهو شاهد لقوله ﷺ حينما سُئل أيضاً من أبر **قال أمك**. قال: ثم من **قال: ثم أباك ثم أختك وأخاك**[2]..

قوله: ﴿الْأَقْرَبِينَ﴾ أي الأقرب فالأقرب على النحو المتقدم بيانه من الآية والحديث، الولد ثم الأم ثم الأب ثم الإخوة ثم الأعمام وهكذا.

قوله: «يا معشر قريش» المعشر كمسكن: الجماعة أي يا جماعة قريش، وقريش هو فهر بن النضر بن مالك أحد أجداد الرسول ﷺ **كذا قال ابن عثيمين**.

وذكر الشوكاني ذلك في «فتح القدير». وذكر قولاً آخر. أنهم هم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر، فكل من كان من ولد النضر فهو قُرشي، وقال: هذا القول أصح.

قال ابن عثيمين[3]: ويؤخز من هذا أن الاقرب أولى بالإنذار، لأن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوة هذا الوصف، وذلك أن الوصف الموجب للحكم كلما كان أظهر وأبين، كان الحكم فيه أظهر وأبين أهـ.

ـ لماذا سميت قريش بهذا الإسم؟

ذكر الرازي وجوهاً في تسميتها:

أحدها: أنه تصغير القرش وهو دابة عظيمة تعبن بالسفن، ونسب ذلك لابن عبّاس.

الثاني: أنه مأخوذ من القرش وهو الكسب.

الثالث: **قال الليث**: كانوا متفرقين في غير الحرم فجمعه قُصيٌ بن كلاب في الحرم، حتى اتخذوها مسكناً فسميت قريش لأنَّ التقرش هو التجمع وذكر رابعاً.

قوله: «أوكلمة نحوها» هو بنصب كلمة عطف على ما قبلها وقوله «نحوها» أي بمعناها أو شبهها، وهذا احتراز من الرواة، إذا شكوا أدنى شك، قالوا: «أو كما قال» أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك، حتى لايقعوا في وعيد المتعمد الكذب على الرسول ﷺ.

قوله: «اشتروا أنفسكم».

قال ابن حجر: قوله: في حديث أبي هريرة «**اشتروا أنفسكم من الله**» أي باعتبار

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخاري (٥٩٧١)، مسلم في البر والصله (١٦/ ١٠٢ـ النووي) عن أبي هريرة به، وعند البخاري بدون لفظ «ثم أدناك أدناك».

وأنظر «رياض الصالحين» (٣١٨ـ بتخريجنا)

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٤٠) عن كليب بن منفعة عن جده به

(٣) القول المفيد (١/ ٣٧٨).

تخليصها من النار، كأنه قال أسلموا تسلموا من العذاب، فكان ذلك كالشراء، كأنهم جعلوا الطاعة ثمن النجاة. وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ فهناك المؤمن بائع باعتبار تحصيل الثواب والثمن الجنة.

وفيه إشارة إلى أن النفوس كلها ملك لله تعالى، وأن من أطاعه حق طاعته فى امتثال أوامره واجتناب نواهيه وفى ماعليه من الثمن، وبالله التوفيق.

قوله: «لا أغنى عنكم من الله شيئاً».

قال ابن عثيمين:[1] هذا هو الشاهد من الحديث على الترجمة فى هذا الباب، أى لا أدفع أولا أنفع.

أى لا أنفعكم بدفع شىء عنكم دون الله، ولا أمنعكم من شىء، أراده الله لكم؛ لأنّ الأمر بيد الله، ولهذا أمر الله نبيه بذلك؛ فقال: **﴿قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً﴾** اهـ.

قوله: «شيئاً» قال ابن عثيمين: نكرة فى سياق النفى؛ فتعم أىَّ شىء[2].

وفى هذا حجة على من تعلّق على الأنبياء والصالحين ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه أو يدفعوا عنه، فإن ذلك هو الشرك الذى حرّمه الله تعالى وأقام نبيه بالإنذار عنه[3].

وسقط من لفظ المصنف فى الترجمة.

قوله: (يابنى عبد مناف، اشتروا أنفسكم من الله، يا عباس إلخ) وهى ثابتة فى الصحيح فى رواية موسى بن طلحة عن أبى هريرة عند مسلم وأحمد «دعا رسول الله ﷺ قريشا فعم وخص فقال: **يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار. يامعشر بنى كعب كذلك، يا معشر بنى هاشم كذلك، يامعشر بنى عبدالمطلب كذلك»** الحديث.

ووقع عند البلاذرى من وجه آخر عن ابن عباس أبين من هذا ولفظه «فقال: **يا بنى فهر، فاجتمعوا. ثم قال: يابنى غالب، فرجع بنو محارب والحارث ابنا فهر. فقال: يابنى لؤى، فرجع بنو الأدرم بن غالب. فقال: يا آل كعب، فرجع بنو عدى وسهم وجمع فقال: يا آل كلاب، فرجع بنو مخزوم وتيم. فقال: يا آل قصى، فرجع بنو زهرة. قال: يا آل عبد مناف، فرجع بنو عبدالدار وعبدالعزى. فقال له أبو لهب: هؤلاء بنو عبدمناف عندك».**

---

(١) القول المفيد (١/ ٣٧٩).

(٢) القول المفيد ١/ ٣٧٩.

(٣) فتح المجيد ١/ ٢٤٠.

وعند الواقدى أنه قصر الدعوة على بنى هاشم والمطلب، وهم يومئذ خمسة وأربعون رجلا.

وفى حديث على عند ابن إسحق والطبرى والبيهقى فى «الدلائل» أنهم كانوا حينئذ أربعون يزيدون رجلا أو ينقصون وفيه عمومته أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب[1].

ولابن أبى حاتم من وجه آخر عنه أنهم يومئذ أربعون غير رجل أو أربعون ورجل[2].

وفى حديث على من الزيادة أنه صنع لهم شاة على ثريد وقعب لبن، وأن الجميع أكلوا من ذلك وشربوا وفضلت فضلة، وقد كان الواحد منهم يأتى على جميع ذلك[3].

قوله: «ياعباس بن عبدالمطلب، لا أغنى عنك من الله شيئاً».

قال ابن عثيمين: بنصب «بن»، ويجوز الرفع والنصب فى «عبّاس» وهو عم النبى ﷺ وعبد المطلب جد النبى ﷺ وعباس؛ بالضم؛ لأن المنادى إذا كان معرفة يبنى على الضم، ونعته إذا كان مضافاً ينصب، وهنا ابن عبدالمطلب. ولهذا نصب.

إشكال:

فإن قيل: كيف يقول النبى ﷺ عبد المطلب مع أنه لايجوز أن يضاف عبد إلا إلى الله عزوجل؟

فالجواب:

قال ابن عثيمين: إن هذا ليس إنشاءً، بل هو خبر، فاسمه عبدالمطلب، ولم يسمِّه النبى ﷺ لكن اشتهر بعبدالمطلب، ولهذا انتمى إليه الرسول ﷺ فقال:

أنا النبى لا كذب ... أنا ابن عبدالمطلب[4]

فلو فرض أن لك أب يسمى عبدالمطلب أو عبدالعزيى؟ فإنَّك تنتسب إليه، ولايعد هذا إقراراً، ولكنه خبر عن أمر واقع؛ كما لو قلت: كفر فلان ونافق فلان، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان موجوداً غيرنا اسمه إذا كان لايجوز[5]. أهـ

قوله: «ياصفية عمة رسول الله ﷺ».

قال الحافظ: بنصب عمة، ويجوز فى صفية الرفع والنصب وكذا القول فى قوله يافاطمة بنت محمد.

قوله: «ويافاطمةَ بنتُ محمد».

قال الحافظ[6]: واستدل بعض المالكية بقوله فى هذا الحديث **«يا فاطمة بنت محمد،**

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ١٨) ونسبه لابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، وأبى نعيم، والبيهقى فى «الدلائل» عن على. وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا).

(٢) تقدم قبله (٣) انظر ما تقدم. (٤) انظر ما تقدم

(٥) القول المفيد ١/ ٣٨٠. (٦) فتح البارى (٨/ ٣٦٠).

سلينى من مالى ما شئت، **لا أغنى عنك من الله شيئا**» أن النيابة لا تدخل فى أعمال البر، إذ لو جاز ذلك لكان يتحمل عنها ﷺ بما يخلصها، فإذا كان عمله لايقع نيابة عن ابنته فغيره أولى بالمنع.

وتعقب بأن هذا كان قبل أن يعلمه الله تعالى بأنه يشفع فيمن أراد وتقبل شفاعته، حتى يدخل قوما الجنة بغير حساب، ويرفع درجات قوم آخرن، ويخرج من النار من دخلها بذنوبه، أو كان المقام مقام التخويف والتحذير أو أنه أراد المبالغة فى الحض على العمل، ويكون فى قوله «**لا أغنى شيئا**» إضمار إلا إن أذن الله لى بالشفاعة.

● **فائدة:**

قوله ﷺ «لاأغنى عنك من الله شيئاً» كقوله ﷺ **«ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»** **قال ابن رجب**(١): وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى مغفرته ورحمته بالأعمال كما قال تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٢).

وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾(٣) قال ابن مسعود: يأمر الله بالصراط فيضرب على جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم زمرا زمرا، أوائلهم كلمح البرق ثم كمر الريح ثم كمر المطر ثم كمر البهائم حتى يمرّ الرجل سعيا وحتى يمرّ الرجل مشيا وحتى يمر آخرهم يتلبط على بطنه، فيقول: يارب لم أبطأت بى؟ فيقول: إنى لم أبطىء بك إنما أبطأ بك عملك.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾: «**يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا يا بنى عبدالمطلب لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغنى عنك من الله شيئا، يا صفية عمة النبى ﷺ لا أغنى عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا**»(٤). وفى رواية خارج الصحيحين «**إن أوليائى منكم**

(١) جامع العلوم (٢/٦١٦ ـ ٦١٨) بتخريجنا.

(٢) آل عمران: ١٣٣/ ١٣٤.

(٣) المؤمنون: ٥٧/ ٩١.

(٤) تقدم تخريجه.

المتقون، لايأتى الناس بالأعمال وتأتونى بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون: يا محمد، يا محمد فأقول: قد بلغت»(١).

وخرّج ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: **«إن أوليائى المتقون يوم القيامة، وإن كان نسب أقرب من نسب، يأتى الناس بالأعمال وتأتونى بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون: يا محمد يا محمد، فأقول: هكذا وهكذا وأعرض فى كلا عطفيه»**(٢).

وخرّج البزّار من حديث رفاعة بن رافع أن النبى ﷺ قال لعمر: **«اجمع لى قومك: يعنى قريشا، فجمعهم، فقال: إن أوليائى منكم المتقون، فإن كنتم أولئك فذاك وإلا فانظروا، يأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتونى بالأثقال فيعرض عنكم»**(٣).

وخرجه الحاكم مختصراً وصححه.

وفى المسند عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ لما بعثه إلى اليمن خرج معه يوصيه، ثم التفت وأقبل بوجهه إلى المدينة فقال: **«إن أولى الناس بى المتقون من كانوا وحيث كانوا»**(٤).

وخرجه الطبراني وزاد فيه **«إن أهل بيتى هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بى وليس كذلك، إن أوليائى منكم المتقون من كانوا وحيث كانوا»**(٥).

ويشهد لهذا كله ما فى الصحيحين عن عمرو بن العاص «أنه سمع النبى ﷺ **«يقول: إن آل أبى فلان ليسوا لى بأولياء، وإنما وليى الله وصالحوا المؤمنين»**(٦) يشير إلى أن ولايته لاتنال بالنسب بأولياء، وإنما ولى الله وصالحوا المؤمنين، يشير إلى أن ولايته لاتنال بالنسب وإن قرب وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان أكمل إيماناً وعملاً فهو أعظم ولاية له، سواء كان له نسب قريب أو لم يكن، وفى هذا المعنى يقول بعضهم:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلاتترك التقوى اتكالاً على النسب

لقد رفع الإسلام سلمان فارسى ... وقد وضع الشركُ النسيب أبا لهب

قوله: «سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً».

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة(٧): قال: قال: رسول الله ﷺ **من نفس عن مؤمن**

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٣٤٠) عن رفاعة بن رافع بنحوه

(٢) ذكره ابن رجب فى «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦١٧) ونسبه لابن أبى الدنيا.

(٣) تقدم قبل حديث.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٣٥)، والطبراني فى «الكبير» (٢٠/ ٥٤١٨٢٠) وجود إسناده الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٣٢).

(٥) ما قبله.

(٦) [متفق عليه]. أخرجه البخارى (٥٩٩٠)، ومسلم (٣/ ٨٧ ـ النووى). وانظر «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦١٧ـ بتخريجنا)

(٧) مسلم فى الذكر والدعاء (١٧/ ٢١و٢٢ النووى) و(انظر جامع العلوم والحكوم بتخريجنا (٢/ ٥٩٥) ط نزار الباز.

فيه مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الآيَتَيْنِ.

الثانية: قِصَّةُ أُحُد.

الثالثة: قُنُوتُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الأَوْلِيَاءِ يُؤَمِّنُونَ فِي الصَّلاةِ.

الرابعة: أَنَّ الْمَدْعُوَّ عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ.

كربة من كرب الدنيا... الحديث وفى آخره... ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

قال ابن رجب: فمن أبطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله، لم يسرع به نسبه فيبلغه تلك الدرجات، فإنّ الله تعالى رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب.

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾. أهـ.

وتقدم تمام كلام ابن رجب قبل هذا

قال ابن عثيمين:

قوله: فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

وهما آيتا الأعراف، وسبق ذلك فى أول الباب، والاستفهام فيهما للتوبيخ والإنكار، وكذلك سبق تفسير الآية الثالثة آية فاطر.

الثانية: قصة أحد.

يعنى: حيث شُجَّ النبى ﷺ... الحديث.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين... إلخ.

أراد المؤلف بهذه المسألة أنَّ النبى ﷺ سيد المرسلين، وأصحابه سادات الأولياء، ومع هذا ما أنقذوا أنفسهم؛ فكيف ينقذون غيرهم؟! وليس مراده رحمه الله مجرَّد إثبات القنوت والتأمين عليه، ولهذا جاءت العبارات بسيِّد وسادات؛ فلا أحد من هذه الأمة أقرب إلى الله من الرسول وأصحابه، ومع ذلك يلجؤون إلى الله ـ سبحانه ـ فى كشف الكربات، ومن كانت هذه حاله؛ فكيف يمكن أن يُلجأ إليه فى كشف الكربات؟! فليس مراد المؤلف إثبات مسألة فقهية.

قلت: وفى ذلك معى قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ﴾ الآية.

الخامسة: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّار، مِنْهَا: شَجُّهُمْ نَبِيَّهُمْ، وَحِرْصُهُمْ عَلَى قَتْلِه، وَمِنْهَا التَّمْثِيلُ بِالقَتْلَى مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عَمِّهِم.

السادسة: أَنزَلَ الله عَلَيْه فِي ذَلِكَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

السابعة: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فَتَابَ عَلَيْهِم، فَآمَنُوا.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفَّار.

تؤخذ من قـوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِم﴾؛ فهـذا دليل على أنَّهم الآن ليسـوا على حال مرضية، ومن المعلوم أن صفوان بن أميَّة وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وقت الدعاء عليهم كانوا كفاراً.

وهذا المسألة ـ أى أن المدعـو عليهم كفَّار ـ ترمى إلى أن الرسـول ﷺ وإن كان يرى أنَّه دعا عليهم بحق؛ فـقد قطع الله ـ سبحانه وتـعالى ـ أن يكون له من الأمر شيء لأنَّه قد يقول قائل: إذا كانوا كفاراً؛ أليس يملك الرسول ﷺ أن يدعو عليهم؟

نقول: حتى فى هذه الحال لايملك من أمرهم شـيئاً، هذا وجه قول المؤلف أنَّ المدعو عليهم كفار، وليس مراده الإعـلام بكفرهم؛ لأن هذا معلوم لايستحق أن يُعْنَوَن له، بل المراد فى هذه الحال الذى كان هؤلاء كفاراً لم يملك النبى ﷺ شيئاً بالنسبة إليهم.

الخامسة: أنَّهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار...

أى: إنَّهم مع كفرهـم كانوا معتدين، ومع ذلك قـيل له فى حقِّهم: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾**، وإلا؛ فهم شجُّوا النبى ﷺ، ومـثَّلوا بالقتلى مثل حمـزة بن عبدالمطلب، وكذلك أيضـاً حرصـوا على قتل النبى ﷺ، مع أنَّ كل هؤلاء فـيهم من بنى عـمهم، وفيهم من الأنصار.

السادسة: أنزل الله عليه فى ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

أى: مع ما تقدم مـن الأمور التى تقتضى أن يكون للنبى ﷺ حق بأن يدعـو عليهم أنزل الله: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾**؛ فالأمر لله وحده، فـإذا كان الرسول ﷺ قد قُطع عنه هذا الشيء؛ فغيره من باب أولى.

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فتاب عليهم، فآمنوا.

وهذا دليل على كمال سلطان الله وقدرته؛ فهؤلاء الذين جرى منهم ما جرى تاب الله عليهم وآمنوا، لأنَّ الأمـر كله بيده سبـحانه، وهو الذى يذلّ من يشاء ويعـزّ من يشاء، ومن ذلك ما جرى من عمر رضى الله عنه قبل إسلامه من العداوة الظاهرة للإسلام، وما

جرى منه بعد إسلامه من الولاية والنصرة لدين الله تعالى؛ فرسول الله ﷺ ومَنْ دونه لايستطيعون أن يغيِّروا شيئاً من أمر الله.

الثامنة: القنوت فى النوازل.

وهذه هى المسألة الفقهيَّة، فإذا نزل بالمسلمين نازلة؛ فإنَّه ينبغى أن يُدعى لهم حتى تنكشف.

وهذا القنوت مشروع فى كل الصلوات، كما فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما الذى رواه أحمد وغيره(1)؛ إلاَّ أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون، وقالوا: لايقنت له لعدم ورود ذلك، وقد وقع فى عهد عمر رضى الله عنه ولم يقنت، ولأنَّه شهادة؛ فلاينبغى الدعاء برفع سبب الشهادة.

وظاهر السنة أن القنوت إنما يشرع فى النوازل التى تكون من غير الله، مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أمَّا ما كان من فعل الله؛ فإنَّه يشرع له ما جاءت به السنة، مثل الكسوف؛ فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس رضى الله عنهما، وقال: هذه صلاة الآيات، والجدب يُشرع له الاستسقاء، وهكذا.

وما علمت لساعتى هذه أنَّ القنوت شرع لأمر نزل من الله، بل يُدعى له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضُيِّقَ على المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك؛ فإنَّه يقنت اتباعاً للسنة فى هذا الأمر.

ثم من الذى يقنت: الإِمام الأعظم، أو إمام كل مسجد، أو كل مصلٍّ؟

المذهب: أنَّ الذى يقنت هو الإِمام الأعظم فقط الذى هو الرئيس الأعلى للدولة.

وقيل: يقنت كل إمام مسجد.

وقيل: يقنت كل مصل، وهو الصحيح؛ لعموم قول النبى ﷺ: «**صلوا كما رأيتمونى أصلى**»(2)، وهذا يتناول قنوته ﷺ عند النوازل.

---

(1) أخرجه: أحمد فى «مسنده» (1/ 301)، وأبو داود (1443).

(2) [صحيح]أخرجه البخارى (631)، ومسلم فى المساجد (5/ 174ـ النووى) عن مالك بن الحويرث به. وانظر «منار السبيل» (255 ـ بتخريجنا).

التاسعة: تسمية المدعو عليهم فى الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

وهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام؛ فسمَّاهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، لكن هذا مشروع أو جائز؟

الجواب: هذا جائز وعليه، فإذا كان فى تسمية المدعو عليهم مصلحة؛ كانت التسمية أولى، ولو دعا إنسان لأناس معينين فى الصلاة جاز؛ لأنَّه لايُعدُّ من كلام الناس، بل هو دعاء، والدعاء مخاطبة الله تعالى، ولا يدخل فى عموم قوله ﷺ: **«إن هذه الصلاة لايصلح فيها شىء من كلام النَّاس»**(١).

مسألة: هل الذى نهى عنه الرسول ﷺ الدعاء أو لعن المعينين؟

الجواب: المنهى عنه هو لعن الكفار فى الدعاء على وجه التعيين، أما لعنهم عموماً؛ فلا بأس به، وقد ثبت عن أبى هريرة أنَّه كان يقنت ويلعن الكفرة عموماً، ولابأس بدعائنا على الكافر بقولنا: اللهم! أرح المسلمين منه، واكفهم شرَّه، واجعل شرَّه فى نحره، ونحو ذلك.

أما الدعاء بالهلاك لعموم الكفار؛ فإنه محل نظر، ولهذا لم يدع النبى ﷺ على قريش بالهلاك، بل قال: **«اللهم! عليك بهم، اللهم! اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»**، وهذا دعاء عليهم بالتضييق، والتضييق قد يكون من مصلحة الظالم بحيث يرجع إلى الله عن ظلمه.

فالمهم أن الدعاء بالهلاك لجميع الكفار عندى تردد فيه.

وقد يستدل بدعاء خبيب حيث قال: **«اللهم أحصهم عدداً، ولاتبق منهم أحداً»**(٢) على جوار ذلك؛ لأنَّه وقع فى عهد الرسول ﷺ.

ولأن الأمر وقع كما دعا؛ فإنَّه ما بقى منهم أحد على رأس الحول، ولم ينكر الله تعالى ذلك، ولا أنكره النبى ﷺ، بل إنَّ إجابة الله دعاءه يدلّ على رضاه به وإقراره عليه.

---

(١) تقدم تخريجه بلفظ: واعتقها فإنها مؤمنة

(٢) (صحيح) أخرجه البخارى (٤٠٨٦) عن أبى هريرة به.

العاشرة: لَعْنُ المُعيَّن فى القُنُوت.

الحادية عشرة: قصتُهُ ﷺ لمَّا أُنزِلَ عَلَيْه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾..

الثانية عشرة: جدهُّ ﷺ فى هَذَا الأمرْ، بِحَيْث فَعَلَ مَا نُسبَ بِسَبَبِه إِلَى الجُنُونْ، وَكَذلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الآن.

فهذا قد يُستدل به على جواز الدعاء على الكفار بالهلاك، لكن يحتاج أن يُنظر فى القصة؛ فقد يكون لها أسباب خاصة لاتتأتى فى كل شىء.

ثم إن خبيباً دعا بالهلاك لفئة محصورة من الكفار لالجميع الكفار.

وفيه أيضاً إن صحَّ الحديث: دعاؤه على عتبة بن أبى لهب: «**اللهم! سلِّط عليه كلباً من كلابك**»(١)، فيه دليل على الدعاء بالهلاك، لكن هذا على شخص معين لا على جميع الكفار.

العاشرة: لعن المعيَّن فى القنوت.

هذا غريب، فإن أراد المؤلف ـ رحمه الله ـ أنَّ هذا أمر وقع، ثم نهى عنه؛ فلا إشكال، وإن أراد أنه يُستفاد من هذا جواز لعن المعيَّن فى القنوت أبداً، فهذا فيه نظر لأنَّ النبى ﷺ نُهى عن ذلك.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.

وهى أنَّه لما نزلت عليه الآية نادى قريشاً؛ فعم، ثم خصَّص، فامتثل أمر الله فى هذه الآية.

الثانية عشرة: جده ﷺ فى هذا الأمر، بحيث فعل ما نُسب بسببه إلى الجنون.

أى: اجتهاده ﷺ فى هذا الأمر، بحيث قالوا: إنَّ محمداً جنّ، كيف يجمعنا وينادينا هذا النداء؟!

قلت: فينبغى للداعى أن لايلتفت إلى ما نسب من جنون أو تأخر أو تطرف فى سبيل جده واجتهاده فى دعوته فهذا أمر تواصى به المجرمون.

وقوله: «وكذلك لو يفعله مسلم الآن».

أى: لو أنَّ إنساناً جمع الناس، ثم قام يحذرهم كتحذير النبى ﷺ؛ لقالوا: مجنون،

---

(١) بنحوه أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٥٣٩) وصححه.

الثالثة عشرة: قَوْلُهُ للأبعَد والأقْرب: «لاَ أُغْنى عَنْكَ منَ الله شَيْئًا» حتَّى قَالَ: «يَا فَاطمةُ بنتَ مُحمَّد! لا أُغْنى عَنْكَ من الله شَيْئًا». فَإذَا صرَّحَ - وَهُوَ سيِّدُ المُرْسَلينَ - بِأنَّهُ لا يُغْنى شَيْئًا عَنْ سَيِّدَه نساء العَالَمينَ، وَآمَنَ الإنْسَانُ بأنَّه لاَ يَقُولُ إلاَّ الحَقَّ، ثُم نَظَرَ فيمَا وَقَعَ فِى قُلُوبِ خَواصِّ النَّاس اليَوْمَ، تَبيَّنَ لَهُ تَرْكُ التَّوْحِيدِ وَغُرْبَةُ الدِّينِ.

إلاّ إذا كان معتاداً عند الناس، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ فهذا يختلف باختلاف البلاد والزمان، ثم إنَّه يجب على الإنسان أن يبذل جهده واجتهاده فى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والنبى ﷺ قام بهذا الأمر ولم يُبال بما رُمِيَ به من الجنون.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «لا أغنى عنك من الله شيئاً».

صدق رحمه الله فيما قال؛ فإنَّه إذا كان هذا القائل سيد المرسلين، وقال لسيدة نساء العالمين، ثم نحن نؤمن أنَّ الرسول ﷺ لايقول إلاَّ الحق، وأنَّه لايغنى عن ابنته شيئاً؛ تبيَّن لنا الآن أن ما يفعله خواصّ الناس تَرْك للتوحيد؛ لأنَّه يوجد أُناس خواص يرون أنفسهم علماء، ويراهم من حولهم علماء وأهلاً للتقليد، يدعون الرسول ﷺ لكشف الضرّ وجلب النفع دعوة صريحة، ويرددون:

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وغير ذلك من الشرك وإذا أنكر عليهم ذلك ردّوا على المنكر بأنَّه لا يعرف حق الرسول ﷺ ومقامه عند الله، وأنَّه سيد الكون، وما خلقت الجن والإنس إلا من أجله، وأنَّه خلق من نور العرش، ويُلَبِّسون بذلك على العامة، فيصدِّقهم البعض لجهلهم، ولو جاءهم من يدعوهم إلى التوحيد لم يستجيبوا له؛ لأنَّ سيدهم وعالمهم على خلاف التوحيد، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾[2]، ثم إنَّ المؤمن عاطفته وميله للرسول ﷺ أمر لايُنكر، لكن الإنسان لاينبغى له أن يحكِّم العاطفة، بل يجب عليه أن يتبع ما دل عليه الكتاب والسنة وأيده العقل الصريح السالم من الشبهات والشهوات.

ولهذا نعى الله - سبحانه - على الكفار الذين اتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم بأنَّهم لايعقلون، وكلام المؤلف حق؛ فإنَّ من تأمَّل ما عليه الناس اليوم فى كثير من البلدان الإسلامية تبيَّن له ترك التوحيد وغربة الدين أهـ.

---

(١) آل عمران: ١٤٠.
(٢) البقرة: ١٤٥.

باب ١٥

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[١].

- مناسبة هذا الباب لما قبله، ولكتاب التوحيد:

قال ناصر السعدى[٢]: وهذا أيضاً برهان عظيم آخر على وجوب التوحيد وبطلان الشرك. وهو ذكر النصوص الدالة على كبرياء الرب وعظمته التى تتضاءل وتضمحل عندها عظمة المخلوقات العظيمة، وتخضع له الملائكة والعالم العلوى والسفلى ولاتثبت أفئدتهم عندما يسمعون كلامه أو تتبدى لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات بأسرها خاضعة لجلاله، معترفة بعظمته ومجده خاضعة له خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الرب الذى لايستحق العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم والتأله إلا هو، ومن سواه ليس له من هذا الحق شئ: فكما أن الكمال المطلق والكبرياء والعظمة ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بهاغيره، فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلها حقه تعالى الخاص الذى لايشاركه فيه مشارك بوجه. اهـ.

قلت: واختصر هذا الكلام ابن عثيمين فقال[٣]:

مناسبة الترجمة: أن هذا من البراهين الدالة على أنه لايستحق أحد أن يكون شريكاً مع الله؛ لأنَّ الملائكة وهم أقرب ما يكون من الخلق لله - عزَّ وجل - ماعدا خواص بنى آدم يحصل منهم عند كلام الله سبحانه الفزع. اهـ.

علاقة الباب بما قبله وما بعده

قال الفقير: قلت: وهناك علاقة لهذا الباب بما قبله وما بعده تصح مناسبةٌ أخرى مفسرة لما سبق وموضحة له، تكمن فى: أسباب شرك بنى آدم وخروجهم من عبادة رب العباد إلى عبادة العباد، إما طلباً لدفع الضراء أو جلب النفع، أو طلباً للغيب أو طلباً للشفاعة، أو الغلو فى الصالحين، أو غير ذلك، فأراد المصنِّف فى الباب السابق، قطعَ النفع إلا من الله ودفع الضر إلا منه، وإقامة البراهين على ذلك لدحض هذه الشبه الشركية.

وفى هذا الباب، أراد إقامة البراهين، على قطع كل سبيل من شأنه أن يوصل إلى الغيب، فما ينبغى على عاقل، أن يلجأ لساحر أو كاهن أو عرّاف، فيكفر بما أنزل على

---

(١) سبأ آية: ٢٣

(٢) القول السديد ٥٣ - ٥٥.

(٣) القول المفيد ١/ ٣٩٢.

محمـد، ليسألة عن غـيب ويصدقه فى ذلـك. فأقام البراهـين على أن الملائكة المـقربين لاتسمـع من الوحى ولا مـن الغيب شـيئاً، إذ تفـزع عند سمـاع قول الله فلا تسـمع، ولامستـرقوا السمع فلـهم الشهُب، فلـماذا يخرجون مـن دين الله لطلب الغـيب. وهو سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾(١).

وقال فى الجن ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾(٢).

ثم أراد بالباب التالى فـى الشفاعة إقامة الحجج والبراهين، على أنَّ الـشفاعة خالصة لرب العالمين قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾(٣). وقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(٤) فلا ينبـغى لعاقل فضـلاً عن مسلم أن يخرج مـن دين الله طلباً للـشفاعة فسوف يعامل بنقيض قصده.

- فائدة:

لماذا أخَّر المصنف الشفاعة بعد هذا الباب وقد قدّمها الله فى الآية؟

الجواب: أخرّها المصـنف بعد هذين البـابين لأنها من النفـع الأخروى الآجل، وقدّم هذين البابين لأنهما أيضاً فى النفع الدنيوى العاجل.

- **ماذا أراد المصنِّف بهذا الباب؟**

قال حامد بـن حسن(٥): باب ما يدل عـلى الفوائد التوحـيدية والمسائل الـصمدية ونظام القيومية وسلطان الملكوتية من قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٦): اراد المصنف رحمه الله. بهذه الترجمة بيان حال الملائكة الذين هم أقـوى وأعظم من عُبد من دون الله، فـإذا كان هذا حالهم مـع الله - تعالى - وهيبتهم منـه، وخشيتهم له، فكيف يدعوهم أحـد من دون الله؟ وإذا كانوا لايدعون مع الله تعالى. استقلالاً، ولا وسـاطة بالشفاعة، فغيرهم ممن لايـقدر على شئ من الأموات والأصنام أولى أن لا يدّعى ولا يعـبد ففيه الرد على جميع فرق المـشركين الذين يدعون

(١) الجن: ٢٦. (٢) سبأ: ١٤.

(٣) البقرة: ٢٥٥. (٤) الزمر: ٤٤.

(١) سبأ آيه: ٣٣.

(٥) فتح الله الحميد المجيد ٢٥٦.

(٦) تيسير العزيز الحميد ١٩٣و ١٩٤.

مع الله من لايداني الملائكة، ولايساويهم عن صفة من صفاتهم. وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾(١) فهذه حالهم وصفاتهم وليس لهم في الربوبية والإلهية شيء. بل ذلك لله وحده. لاشريك له.

قال الفقير: ولم يذكر صاحب فتح المجيد شيئاً من ذلك. وقد اختصر هذا الكلام **ابن باز فقال**(٢):

أراد المؤلف بهذا الباب الرد على عباد القبور والأصنام والملائكة وغيرها فبين أن الملائكة إذا كانت تخاف الله وتخاف عذابه إن خالفت أمره فكيف تستحق أن تعبد من دون الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.



- مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوي(٣): حيث دلّت الآية على خوف الملائكة من الله وتذللهم له.

- مناسبة الآية للتوحيد:-

قال ابن عثيمين(٤): أنه إذا كان منفرداً في العظمة والكبرياء، فيجب أن يكون منفرداً في العبادة.

قال القرعاوي(٥):- حيث دلّت الآية على أنَّ الملائكة أنفسهم يخافون الله ويخشونه فكيف يدعون من دون الله وإذا لم تصح عبادتهم لا استقلالاً ولا وساطة بالشفاعة فعبادة غيرهم كالقبور لا تصح من باب أولى.

قوله: «حتَّى..»

قال محيي الدين درويش(٦):- حتى حرف غاية وجر والغاية لمحذوف يفهم من سياق الكلام كأنَّه قيل يتربصون ويتوقفون حائرين مدهوشين وجلين تتفارسهم المخاوف وتتقاذفهم الشكوك أيؤذن لهم أم لا حتى إذا فزع... إلخ أهـ.

وقال بنحو ذلك الزمخشري فقال(٧): ولأي شيء وقعت حتى غاية؟ قلت- يعني

(١) الأنبياء ٢٦ - ٢٨. (٢) التعليق المفيد (٩٩).
(٣) الجديد ١٤٨
(٤) القول المفيد ١/ ٣٩٤. (٥) الجديد ١٤٨.
(٦) إعراب القرآن ٨/ ٨٩.
(٧) الكشاف ٣/ ٢٥٨.

الزمخشري- بما فهم من هذا الكلام من أنَّ ثم انتظاراً للإذن وتوقعاً وتمهلاً وفزعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أولا يؤذن وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملى من الزمان وطول من التربص ومثل هذا الحال دلَّ عليه قوله- عز وجل ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ا-هـ

قال الفقير: وهناك قول أخر فى (حتى) على قول من قال أن الذين سيفزع عن قلوبهم المشركون كما سيجيء.

قال الرازى[١]:- متعلقة بقوله تعالى (زعمتم) أى زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع، ثم تركتم ما زعمتم وقلتم قال الحق.

قوله: ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم﴾

قال محى الدين درويش[٢]: - وفُزِّع بالبناء للمجهول ونائب الفاعل هو الجار والمجرور أى عن قلوبهم وقرىء بالبناء للمعلوم فيتعلق الجار والمجرور به أى فزع الله عن قلوبهم.

قال ابن الجوزى[٣]:- قرأ الأكثرون «فزِّع» بضم الفاء وكسر الزاى. قال ابن قتيبة: خُفِفَ عنها الفَزَع.

وقال الزجاج: معناه كُشِف الفزع عن قلوبهم.

وقرأ ابن عامر، ويعقوب وأبان: (فَزَع) بفتح الفاء والزاى، والفعل لله عز وجل: وقرأ الحسن، وقتادة وابن يعمر: (فرغ) بالراء غير معجمة وبالغين معجمة وهو بمعنى الأول، لأنها فرغت من الفزع.

وقال غيره: بل فرغت من الشك والشرك.

قال الزمخشرى[٤]:- وفرغ أى نفى الوجل عنها وأفنى من قولهم فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء ثم ترك ذكر الوجل وأسند إلى الجار والمجرور كما تقول دفع إلىَّ زيد إذا علم ما المدفوع، وقد تخفف وأصله فرغ الوجل عنها أى انتفى عنه وفى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وقرأ (افرنقع) عن قلوبهم بمعنى انكشف عنها.

---

(١) التفسير الكبير ١٣/٢٥/٢٥٦.

(٢) إعراب القرآن ٨/٨٩.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٤٣.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٥٨.

وعن أبى علقمة أنه هاج به المرار فالتف عليه الناس فلما أفاق قال: مالكم تكأكأتم علىَّ تكأكأكم على ذى جنة افرنقعوا عنى.

والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب اقمطر من حروف القمط مع زيادة الراء وقرىء بالرفع أى مقوله الحق.

قلت : وهذه القراءة الأخيرة (افرنقعوا) لم أجدها إلا عند الزمخشرى ولعلها شاذة لأن علماء اللغة كانوا يستشهدون بهذه المقولة على عدم البلاغة الفصاحة بسبب تنافر الحروف فالله أعلم.

●التفسير من أقوال الصحابة وغيرهم

وروى ابن جرير عن مجاهد:- حتى إذا فزع عن قلوبهم قال كشف عنها الغطاء يوم القيامة.[1]

وعن ابن مسعود ومسروق وغيرهما: -﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم﴾ أى زال الفزع عنها.[2]

قال ابن عباس وابن عمر وأبو عبدالرحمن السلمى والشعبى وإبراهيم النخعى والضحاك والحسن وقتادة فى قوله عز وجل. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَ﴾ يقول خُلى عن قلوبهم[3].

قال قطرب: معنى ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم﴾ أخرج ما فيها من الفزع، وهو الخوف.

قال الشوكانى[4]:- والمعنى: أنَّ الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء من المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام. إلا أنَّ الله سبحانه يأذن للملائكة والأنبياء ونحوهم فى الشفاعة لمن يستحقها، وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى: **﴿وهم من خشيته مشفقون﴾** فإذا أذن لهم فى الشفاعة فزعوا لما يقترن بذلك الحالة من الأمر الهائل والخوف الشديد من أن يحدث شىء من أقدار الله. أ. هـ.

قال الطبرى[5]:- والعرب تستعمل فزع فى معنيين فتقول للشجاع الذى به تنزل

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٢/ ٦٢)

وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٤٤) وزاد نسبته للفرياي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم وأنظر الأخير بتخريجنا)

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

وأنظر «فتح المجيد» بتخريجنا

(٣) ابن كثير ٣/ ٥٠٢.

(٤) فتح القدير ٤/ ٣١٥.

(٥) تفسير الطبرى ١٠/ ٢٢/ ٦٤.

الأمور التى يفزع منها هو مفزع وتقول للجبان الذى يفزع من كلٍّ شيء أنه لمفزع وكذلك تقول للرجل الذى يقضى له الناس فى الأمور بالـغلبة على من نازله فيها هو مغلب وإذا أريد به هذا المعنى كان غالباً وتقول للرجل أيضاً الذى هو مغلوب أبداً مغلب.

قال صاحب الظلال(١):-

صوَّر المشهد الذى تقع فيه الشـفاعة، و هو مشهد مذهل مرهوب ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ** قالوا: مـاذا قال ربكم قـالوا: **الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾.. إنه مشهـد فى اليوم العصيـب. يوم يقف الناس، وينـتظر الشفعـاء والمشفوع فيهم أن يـتأذن ذو الجلال فى عليائه بالشفاعة لمن ينالون هذا المقـام. ويطول الإنتظار. ويطول التوقع. وتعنو الوجوه. وتسكن الأصوات وتخشع القلوب فى إنتظار الإذن من ذى الجلال والإكرام.

ثم تصدر الكلمة الجلـيلة الرهيبة. فتنتاب الرهبة الشافعين والمـشفوعين لهم. ويتوقف إدراكهم عن الإدراك. ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ**﴾... وكشف الفزع الـذى أصابهم، وأفاقوا من الروعة التى غمرتهم فأذهلتهم. أ. هـ.

قال ابن عثـيمين(٢):- قال ذلـك ولم يـقل: ﴿**فُزِّعَت قُلُوبِهِم**﴾: إذ عن تفـيد المجاوزة، والمعنى: جاوز الفزع قلوبهم، أى: أزيل الفزع عن قلوبهم.

والفزع: الخوف المفاجىء، لأنَّ الخوف المستمر لا يُـسَّمى فزعاً. وأصله: النهوض من الخوف. أهـ.

وقوله: ﴿**عَن قُلُوبِهِم**﴾

قال الطبرى(٣):- واختلـف أهل التأويل فـى الموصوفين بـهذه الصفة مـن هم وما السبب الذى من أجله فزع عن قلوبهم.

قال ابن الجوزى(٤):- وفى المشار إليهم قولان:-

أحدهما: أنهم الملائكة «وقد دلَّ الكلام على أنّهم يـفزعون لأمر يطرأ عليهم من أمر الله، ولم يذكـره فى الأية، لأنَّ إخراج الـفزع يدل علـى حصوله. وفـى سبب فزعـهم قولان:

أحدهما: أنهم يفزعون لسماع كلام الله تعالـى. روى عبدالله بن مسعود عن رسول

---

(١) الظلال.

(٢) القول المفيد ١/ ٣٩٢.

(٣) تفسير الطبرى ١٠/ ٢٢/ ٦٢.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٤٣.

الله- ﷺ- قال «إذا تكلَّم الله بالوحى سمع أهل السماء صلصة كجرٍّ السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأيتهم جبريل، فإذا جاءهم جبريل ﴿فُزِّعَ عن قُلُوبِهِم﴾، فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربُّك؟ قال فيقول: ﴿الْحَقَ﴾، فينادون «الحقّ الحقّ»[1].

وروى أبو هريرة عن النبىّ- ﷺ- أنه قال: «إذا قضى الله- عز وجل- الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا افزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم قالوا: الذى قال الحق، وهو العلى الكبير»[2].

وروى ابن جرير عن مسروق[3]:- قال إذا حدث عند ذى العرش أمر سمعت الملائكة صوتاً كجر السلسلة على الصفا قال فيغش عليهم فإذا فزع عن قلوبهم قال: ماذا قال ربكم؟ قال: فيقول من شاء الله الحق وهو العلىُّ الكبير.

وعن سعيد قال: ينزل الأمر من عند رب العزة إلى السماء الدنيا فتفزع أهل السماء الدنيا حتى يستبين لهم الأمر الذى نزل فيه فيقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فيقولون قال الحق وهو العلىُّ الكبير فذلك قوله ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ الأية[4].

وعن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلَّم بالوحى أخذت السموات منه رجفةٌ أو قال رعدةٌ شديدة خوف أمر الله فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أوّل من يرفع رأسه جبرائيل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبرائيل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبرائيل فيقول جبرائيل قال الحق وهو العلىُّ الكبير. قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل فينتهى جبرائيل بالوحى حيث أمره الله»[5].

وعن ابن عباس: أنه كان يقول إنّ الله لما أراد أن يوحى إلى محمد دعا جبريل فلما تكلَّم ربنا بالوحى كان صوته كصوت الحديد على الصفا فلما سمع أهل السموات صوت

---

(١) [المحفوظ موقوف] علقه البخارى (٣/ ٤٦١ ـالفتح) ووصله فى «خلق أفعال العباد» (٣٦٧) وأبو داود (٤٧٣٨). وابن خزيمة فى التوحيد (ص: ١٤٥) وأنظر «الاتقان فى علوم القرآن» للسيوطى بتخريجنا وأنظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا أيضاً وفتح المجيد «ح ٣٢٠».

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» وسيأتى تخريجه.

(٣) المصدر السابق (٢/ ٦٢)

(٤) المصدر السابق (٢٢/ ٦٣).

(٥) المصدر السابق (٢٢/ ٦٣).

الحديد خروا سجداً فلما أتى عليهم جبرائيل بالرسالة رفعوا رؤسهم فقالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير وهذا قول الملائكة(١).

وعن ابن عباس قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ إلى ﴿وهو العلىُّ الكبير﴾ قال لما أوحى الله تعالى ذكره إلى محمد- ﷺ- دعا الرسول من الملائكة فبعث بالوحى سمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحى فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله فقالوا الحق وعلموا أنَّ الله لا يقول إلا حقاً وأنه منجز ما وعد قال ابن عباس وصوت الوحى كصوت الحديد على الصفا فلما سمعوه خروّا سجداً فلما رفعوا رؤسهم ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحقَّ وهو العلىُّ الكبير﴾(٢).

القول الثانى فى سبب فزعهم:

قال ابن الجوزى(٣):- أنهم يفزعون من قيام الساعة.

وفى السبب الذى ظنُّوه بدنو الساعة ففزعوا، قولان:

أحدهما: أنه لما كانت الفترة التى بين عيسى ومحمد- ﷺ- ثم بعث الله محمداً، أنزل الله جبريل بالوحى، فلمَّا نزل ظنَّت الملائكة أنه نزل بشىء من أمر الساعة، فصعقوا لذلك، فجعل جبريل يمرُّ بكلِّ سماءٍ ويكشف عنهم الفزع ويخبرهم أنه الوحى، قاله قتادة، ومقاتل. وابن السائب.

وقيل: لما علموا بالإيحاء إلى محمد- ﷺ- فزعوا لعلمهم أن ظهوره من أشراط الساعة.

والثانى:- أنَّ الملائكة المعقبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض ويكتبون أعمالهم إذا أرسلهم الله- تعالى- فانحدروا. يُسمع لهم صوت شديد، فيحسب الذين هم أسفل منهم من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرُّون سجداً، ويصعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة، وهذا كلَّما مرُّوا عليهم. رواه الضحاك عن ابن مسعود(٤).

القول الثانى:- فيمن أشير إليهم:-

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٢/ ٦٣) وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٤٤١) ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا)

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٤٤١) وزاد نسبته لابن مردويه.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٤٣.

(٤) رواه ابن جرير عن ابن مسعود ١٠/ ٢٢/ ٦٣.

قال ابن الجوزى(١): - أن الذين أشير إليهم المشركون ثم فى معنى الكلام قولان:

أحدهما. أن المعنى: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند الموت- إقامة للحجة عليهم. **قالت لهم الملائكة**: ماذا قال ربكم فى الدنيا؟ قالوا: الحق، فاقروا حين لم ينفعهم الإقرار، قاله الحسن، وابن زيد.

والثانى: حتى إذا كشف الغطاء عن قلوبهم يوم القيامة، قيل لهم: ماذا قال ربكم؟ قاله مجاهد.

قال ابن جرير(٢)- وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب القول الذى ذكره الشعبى عن ابن مسعود لصحة الخبر الذى ذكرناه من ابن عباس عن رسول الله- ﷺ- بتأييده وإذا كان ذلك كذلك فمعنى الكلام لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن أن يشفع عنده فإذا أذن الله لمن أذن له أن يشفع فزع لسماعه إذنه حتى إذا فزع عن قلوبهم فجلى عنهم وكشف الفزع عنهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالت الملائكة: الحق وهو العلى على كلِّ شيء الكبير الذى لا شىء دونه.

قال القرطبي(٣):- وهذا تنبيه من الله- تعالى- وإخبار أن الملائكة مع اصطفائهم ورفعتهم لا يمكنهم أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فإذا أذن لهم وسمعوا صعقوا. وكان هذه حالهم. فكيف تشفع الأصنام أو كيف تؤملون أنتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة.

قال السعدى(٤):- يحتمل أنَّ الضمير فى هذا الموضع، يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون فى اللفظ. والقاعدة فى الضمائر. أن تعود إلى أقرب مذكور.

ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفزع عن قلوب المشركين، أى «زال الفزع» وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم فى الدنيا، وتكذيبهم للحق الذى جاءت به الرسل، أنهم يقرون، أن ما هم عليه من الكفر والشرك، باطل، وأن ما قال الله، وأخبرت به عنه رسله، هو الحق ﴿بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم... وهذا المعنى، أظهر، وهو الذى يدل عليه السياق.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله- تعالى. إذا تكلم بالوحى، سمعته الملائكة، فصعقوا، وخروا لله سجداً. فيكون أول من يرفع رأسه. جبريل،

(١) زاد المسير ٦/ ٢٤٤.

(٢) تفسير الطبرى ٢٢/ ٦٤.

(٣) تفسير القرطبى ٨/ ٥٣٧٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ١٧٥.

فيكلمه الله من وحـيه بما أراد. فإذا زال الصعق عن قلوب الملائكـة، وزال الفزع، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام، الذى صعقوا منه، ماذا قال ربكم؟

فيقول بعضهـم لبعض. قال الحق. إما إجمالاً، لعلمهـم أنه لا يقول إلا حقاً. وإما أن يقولوا، قال كذا وكذا، للكلام الذى سمعوه مـنه، وذلك من الحق فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الألهة، الـتى وصفنا لكم عجزهم ونقصها. وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدقوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم. العلى الكبير- مـن عظمته وجلاله- أن الملائكة الكرام، والمقربين مـن الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق، عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله أنه لا يقول إلا الحق.

فما بال هؤلاء المشركين اسـتكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة مـلكه وسلطانه: فتعالى العلىّ الكبير، عن شرك المشركين. وإفكهم وكذبهم أ.هـ.

قال صاحب الظلال(١):- ولعلهم الملائـكة المقربون هم الذين يجيبون بـهذه الكلمة المعجلة الجامعة: «قالوا الحق...».

قال ابن عثيمين(٢):- وقوله ﴿عَن قُلُوبِهِم﴾، أى قلوب الملائكة، لأنَّ الضمير يعود عليهم بدليل مـا سيأتى من حديث أبى هريرة، ولا أحد من الخلق أعلـم بتفسير القرآن من رسول الله- ﷺ.

قوله ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُم﴾.

قال محيى الدين درويش(٣):- (قالوا) جـواب إذا و(ما) اسم استفـهام وإذا اسم موصول خبر والجملة مقول قال مقدَّم عليـه و(قال ربكم) فعل وفاعل والجملة مقول قالوا الأولى.

قال ابن عثيمين(٤):- والمعنى: قال بعضهم لبـعض: وإنما قلنا ذلك لأن فى الكلام قائلاً ومقولاً له، فلو جعلنا الضمير فى قالوا عائداً على الجميع، فأين المقول له؟

والمعنى: أى شىء قال ربكم؟

وإعراب (ماذا) على أوجه:

١- ما: اسم استفهام مبتدأ، وذا: اسم موصول خبر، أى: ما الذى.

---

(١) الظلال ٥/ ٢٩٠٤.

(٢) القول المفيد ١/ ٣٩٢.

(٣) اعراب القرآن ٨/ ٨٩.

(٤) القول المفيد ١/ ٣٩٣.

٢- ماذا: اسم استفهام مركب من ما وذا.

٣- ما اسم استفهام، وذا زائدة، قال ابن مالك.

ومثل ماذا بعد ما استفهام ... أو من إذا لم تلغ فى الكلام

قوله ﴿قَالُوا الْحَقَ﴾.

قال محيى الدين درويش:- و(قالوا) فعل وفاعل و(الحق) منصوب بقول مقدر أى قال ربنا القول الحق ولك أن تعرب القول مفعولاً مطلقاً أو مفعولاً به والحق صفة ا.هـ.

قال ابن عثيمين:- أى: قال المسؤولون. والحق: صفة لمصدر محذوف مع عامله، والتقدير قال القول الحق. والمعنى: أن الله- سبحانه- قال القول الحق لأنه سبحانه هو الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلا الحق.

والحق فى الكلام هو الصدق فى الأخبار، والعدل فى الأحكام؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[(١)]. ولا يُفهم من قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَ﴾ أنه قد يكون قولاً باطلاً؛ بل هو بيان للواقع، فإن قيل: ما دام بياناً للواقع ومعروفاً عند الملائكة أنه لا يقول إلا الحق، فلماذا الاستفهام؟!

أجيب: أنَّ هذا من باب الثناء على الله بما قال، وأنه سبحانه لايقول إلا الحق أ.هـ.

قال الفقير: أو لشدة محبتهم لربهم سبحانه وتعالى يريدون أن يسمعوا كلامه ولو بواسطة مع كمال علمهم بأنه لا يقول إلا الحق، كما أن الله كان يعلم ما بيمين موسى ولشدة محبته له سأل عن ذلك.

- فائدة فى الرد على من قال بخلق القرآن:

جاء فى شرح الصحيح وسنن ابن ماجة: قالوا : ماذا قال ربكم ولم يقل ماذا خلق ربنا؟ ولو كان كلام الله مخلوقاً لقالوا ماذا خلق؟

قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

قال محيى الدين درويش[(٢)]:- (هو) مبتدأ و(العلى) خبر أول و(الكبير) خبر ثان وهو تتمة كلام الشفعاء.

قال صاحب الظلال[(٣)]:- وهذه الإجابة المعجلة تشى بالروعة الغامرة، التى لا

(١) الأنعام ١١٥.

(٢) إعراب القران ٨/ ٨٩.

(٣) الظلال ٥/ ٤-٢٩٠.

ينطق فيها إلا بالـكلمة الواحدة! فهذا هو موقف الشفاعـة المرهوب. وهذه صورة الملائكة فيه بين يدى ربهم فهل بعد هذا المشهـد يملك أحد أن يزعم أنهم شركاء لله، شفعاء فى من يشرك بالله؟!. اهـ.

قوله ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات[1].

قال الفقير:- كما قال الأوزاعى: كنا نقول والتـابعون وافرون ـ مجتمعون ـ أن الله مستوى على عرشه بائن عن خلقه معهم بعلمه.

وكما قال ابـن المبارك: لما قيـل له: بم نعرف ربـنا؟ قال: «بأنّه على عـرشه بائن عن خلقه» تمسكاً منه بالقرآن، لقوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وقوله﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فى سبعة مواضع من القرآن:

[الأعراف ٥٤- يونس ٣- الرعد ٢- السجدة ٤- الحديد ٤][2].

قال ابن عثيمين[2]: قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

أي: العلى فى ذاتـه وصفاته، والكبير: ذو الكـبرياء، وهى العظمة التـى لا يُدانيها شيء، أى العظيم الذى لا أعظم منه.

والعلو قسمان:

الأول: علـو الصفات، وقـد أجمع عـليه كل مـن يَنتسـب للإسلام حـتى الجهمـيَّة ونحوهم.

الثاني: علوّ الـذات، وقد أنكره كثـير من المنتسبين للإسلام مـثل الجهميـة وبعض الأشاعرة غير المحققين منهم؛ فإنّ المحققين منهم أثبتوا علوّ الذات.

وعلوه لا ينافى كونه مع الخلق يعلمهم ويـسمعهم ويراهم؛ لأنّه ليس كمثله شيء فى جميع صفاته.

وفى الآية فوائد:

١- أن الملائكة يخافون الله؛ كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[3].

٢- إثبات القلوب للملائكة؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾.

---

(١) فتح المجيد ٢٤٤

(٢) القول المفيد ١/ ٣٩٤.

(٣) النحل: ٥٠.

٣- إثبات أنهم أجسام وليسوا أرواحاً مجرَّدة من الجسميَّة، وهو أمر معلوم بالضرورة، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾(١)، وقد رأى النبى ﷺ جبريل له ست مئة جناح قد سدَّ الأفق(٢)؛ فالقول بأنَّهم أرواح فقط إنكار لهم فى الواقع، وهو قول باطل.

لكنهم لا يأكلون ولا يشربون، وإنَّما أكلهم وشربهم التسبيح بدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾(٣)؛ ففى هذا دليل على أنَّ ليلهم ونهارهم مملؤان بذلك، ولهذا جاء: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ﴾، ولم يقل: يسبحون فى الليل؛ أي: أن تسبيحهم دائم، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به.

٤- أنَّ لهم عقولاً؛ إذ إنَّ القلوب هى محلّ العقول خلافاً لمن قال: إنَّهم لا يعقلون، ولأنَّهم يسبحون الله، ويطوفون بالبيت المعمور.

٥- إثبات القول لله- سبحانه وتعالى-، وأنَّه متعلّق بمشيئته؛ لأنه جاء بالشرط: ﴿إِذَا فُزِّعَ﴾، وإذا الشرطية تدلّ على حدوث الشرط والمشروط، خلافاً للأشاعرة الذين يقولون: إنَّ الله لا يتكلَّم بمشيئة، وإنما كلامه هو المعنى القائم بنفسه؛ فهو قائم بالله أزلى أبدي، كقيام العلم والقدرة والسمع والبصر.

ولا ريب أنَّ هذا باطل، وأن حقيقته إنكار كلام الله، ولهذا يقولون: إنَّ الله يتكلَّم بكلام نفسى أزلى أبدي، كما يقولون: هذا الكلام الذى سمعه موسي، وسمعه النبي ﷺ، ونزل به جبريل على الرسول ﷺ شيء مخلوق للتعبير عن كلام الله القائم بنفسه.

وهذا فى الحقيقة قول الجهميَّة؛ كما قال بعض المحققين من الأشاعرة: ليس بيننا وبين الجهميَّة فرق، فإننا اتَّفقنا على أن هذا الذى بين دفتى المصحف مخلوق، لكن نحن قلنا عبارة عن كلام الله، وهم قالوا: هو كلام الله.

فالجهميَّة خير منهم فى أنَّهم يقولون: هذا كلام الله، لكنهم شرّ منهم فى كونهم يصرِّحون أنَّ كلام الله مخلوق.

٦- إثبات أن قول الله حق، وهذا جاء فى القرآن: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾(٤)، وقال: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾(٥)؛ فالله تعالى لا يقول إلاَّ حقّاً؛ لأنَّه هو الحقّ، ولا يصدر عن الحقّ إلا الحقّ.

---

(١) فاطر: ١.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٢٣٢)،ومسلم فى الإيمان (٢/ ٥/ ٢٨٠) عن ابن مسعود به.

(٣) الأنبياء: ٢٠. (٤) الأحزاب: ٤. (٥) ص: ٨٤.

وَفى الصَّحيح عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ رَضيَ الله عنهُ عَن النَّبيِّ ﷺ. قَالَ: «إذَا قَضَى الله الأَمْرَ في السَّمَاء؛ ضَرَبَت المَلائكَةُ بأَجْنحتها خُضْعَاناً لقوله، كأَنَّهُ سلْسلَةٌ عَلَى صَفْوَان، يَنْفُذُهُمْ ذَلكَ. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[1] فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرقُ السَّمْع،وَمُسْتَرقُ السَّمْع هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْض، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بكَفِّه، فَحرَّفَها وبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابعه، فَيَسْمَعُ الكَلمَةَ، فَيُلْقيهَا إلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقيهَا الآخَرُ إلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقيهَا عَلَى لسَان السَّاحر أَو الكَاهن، فَرُبَّمَا أَدركَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَن يُلْقيهَا، وَرُبَّمَا أَلقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْركَه، فَيَكْذبُ مَعَهَا مئَةَ كذْبَة، فَيُقَالُ أَلَيسَ قَد قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا: وكذا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بتلْكَ الكَلمَةَ الَّتى سُمعَت منَ السَّمَاء»[2].

٧- الفزع لكلام الله- عز وجل- وحسن استقبال هذا الكلام والخوف والهلع من أوامره ونواهيه كما كان النبى ﷺ يفعل حينما ينزل عليه جبريل كان فى اليوم الشديد البرد يتفصد عرقاً فيفصم عنى وقد وعيت ما قال وهو فى الصحيح وأيضاً جبريل لما نزل حتى بلغ منه الجهد ليأخذ الأمر بقوة والكتاب بقوة حتى ظن أنه نبى فلابد من أخذ الأمر بقوة والفزع والهلع لاستقبال هذا الأمر والاستعداد بهذين الأمرين بالخوف والقوة وبالرجاء أيضاً «**ماذا قال ربكم قال الحق وهو العلى الكبير**».



قال الفقير:- والمصنف قد أورد هذا الحديث بعد الأية لينوه أو ليبيِّن لنا مدى عمقه العلمى، وتأسيه بالسلف إذ فسروا القرآن بالقرآن وإن لم يجدوا فيفسرونه بالسنة، فلذلك فسر الآية بالحديث وهو كالنص فى المسئلة لا يجوز أن يعدل إلى غيره، كما تقدم معنا من كلام شيخ الإسلام أولا ومن كلام الشيخ ابن عثيمين ثانياً فى القول المفيد.

- مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى[3]:- حيث دلَّ الحديث على بيان حال الملائكة وأنهم يخافون من الله ويخشونه. أهـ.

---

(١)[صحيح] أخرجه البخارى فى التفسير/ باب ﴿إلا من اسرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾(/ ٨/٢٣١ ٤٧٠١) والترمذى فى تفسير القرآن/ باب ومن سورة سبأ (٥ / ٣٦٢ / ٣٢٢٣)، وابن ماجه فى ا لمقدمة / باب فيما أنكرت الجهمية (١ / ٦٩ ـ ٧٠ / ١٩٤). وأنظر الأتقان فى علوم الاتقان» (١٧١٨ ـ بتخريجنا) «وفتح المجيد» (ح٣١٩) بتخريجنا «وفتح القدير» (ح١٠٤٨٨) بتخريجنا) . وابن أبى حاتم فى «تفسيره»(ح١٧٨٩٦) بتخريجنا

(٢) سبأ: ٢٣

(٣) الحديد. (١٥٠).

- مناسبة الحديث للتوحيد:-

قال القرعاوى: حيث دل الحديث علـى أنَّ الملائكة أنفسهم يعبـدون الله ويخافونه فإذا لم يصح دعاؤهم ولا عبادتهم لااستقلالاً ولا وساطة بالشفاعة فعبادة غيرهم لا تصح من باب أولى.

ولفظه فِي الصَّحِيح عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ. قَالَ: «**إِذَا قَضَى الله الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوله، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فإذا افزع عـن قلوبهـم قالوا ماذا قال ربـكم؟ قالوا: لـلذى قال الحق وهو الـعلى الكـبير فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ،وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْـضٍ، ووَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّه، فَحرَّفَها وبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابعِه، فَيَسْمَعُ الكَلَمَةَ،فَيُـلْقيهَا إِلَى مَن تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّـى يُلْقِيهَا عَلَى لِـسَانِ السَّاحِرِ أَو الكَاهِنِ، فَـرُبَّمَا أَدرك الشِّهَابِ قَبْلَ أَن يُـلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلقَاهَا قَـبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ معَها مِـئَةَ كِذْبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيسَ قَد قَـالَ لَنَا يُوْمَ كَذَا: وكذا: كَذَا وكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةَ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ**».

قوله (فى الصحيح) يعنى صحيح البخارى.

قوله «**إذا قضى الله الأمر فى السماء**»

قال ابن حجـر فى حديث النواس بـن سمعان عند الـطبرانى مرفوعـا «إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء بذلك صُعقوا وخروا سجدا، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل، فـيكلمه الله من وحيه بما أراد، فينتهى به على الملائكـة، كلما مر بسماء سأله أهـله ماذا قال ربنا؟ قال الحق، فينـتهى به حيث أمر»(١).

وعند سعـيد بن منصور. وأبى داود وابن جـرير عن ابن مسعود قـال: إذا تكلَّم الله بالوحى، سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان(٢).

وعلقه البخارى وذكره الحافظ موصولاً فـى «المسند» عن أبى معاوية ولفظه «**إن الله عز وجل إذا تكلم بالـوحى سمع أهل السماء للسمـاء صلصلة كجر السلسـلة على الصفاء فيصعقون، فلا يزالـون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا جاءهم جبـريل فزع عن قلوبهم» قال: ويقولون يا جبريل ماذا قال ربكم قال فيقول الحق قال فينادون الحق الحق**.

---

(١) سيأتى تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

قال البيهقى: رواه أحمد بن شريح الرازى، وعلى بن إشكاب، وعلى بن مسلم، ثلاثتهم عن أبى معاوية مرفوعاً. أخرجه أبو داود فى السنن عنهم، ولفظه مثله، إلا أنه (قال: فيقولون: ماذا قال ربك؟) قال: ورواه شعبة عن الأعمش موقوفاً، وجاء عنه مرفوعاً أيضاً أ.هـ.

قال ابن عثيمين[1]:- المراد (بالأمر) الشأن، ويكون القضاء، لقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾.

قوله «ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً» بفتحتين من الخضوع، وفى رواية بضم أوله وسكون ثانيه وهو مصدر بمعنى خاضعين.

وفى حديث ابن مسعود **«سمع أهل السماء الصلصلة»**[2]

قوله: «خضعاناً»

مصدر كقوله غفراناً، قاله الخطاب، وقال غيره:- هو جمع خاضع.

والمعنى:- أى: خضعاناً لقوله.

«كأنه سلسلة على صفوان» وفى رواية فى الصحيح «سمع أهل السموات»

قال ابن حجر: قوله (سمع أهل السموات) فى رواية أبى داود وغيره «سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا» ولبعضهم «الصفوان» بدل «الصفا» وفى رواية الثورى «الحديد» بدل «السلسلة» وفى رواية شيبان بن عبدالرحمن عن منصور عند ابن أبى حاتم «مثل صوت السلسلة» وعنده من رواية عامر الشعبى عن ابن مسعود «سمع من دونه صوتاً كجر السلسلة» ووقع فى حديث النواس بن سمعان عند ابن أبى حاتم «**إذا تكلم الله بالوحى أخذت السموات منه رجفة**» أو قال «**رعدة شديدة من خوف الله، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً**»[3] وكذا وقع قوله «**ويخرون سجدا**» وفى رواية أبى مالك وكذا فى رواية سفيان وابن نمير المشار إليها، ووقع فى رواية شعبة «فيرون أنه من أمر الساعة فيفزعون».

قوله (كأنه) أى القول المسموع وقد يكون هذا المسموع هو رجفة ورعدة وصعق الملائكة (سلسلة على صفوان) هو مثل قوله فى بدء الوحى «صلصلة كصلصلة الجرس» وهو صوت الملك بالوحى.

---

(١) القول المفيد ١/ ٣٩٧.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) سيأتى تخريجه

وقد روى ابن مردويه من حديث ابن مسعود رفعه «اذا تكلم الله بالوحى يسمع أهل السماوات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان فيفزعون»(١).

قال الخطابى: الصلصلة صوت الحديد إذا تحرك وتداخل، وكأن الرواية وقعت له بالصاد، وأراد أن التشبيه فى الموضعين بمعنى واحد، فالذى فى بدء الوحى هذا والذى هنا جر السلسلة من الحديد على الصفوان الذى هو الحجر الأملس يكون الصوت الناشىء عنهما سواء.

قوله (على صفوان) زاد البخارى فى سورة الحجر عن على بن عبدالله «قال غيره- يعنى غير سفيان- «ينفذهم ذلك».

فى حديث ابن عباس عند ابن مردويه من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه «فلا ينزل على أهل سماء إلا صُعِقوا»(٢).

وعند مسلم والترمذى من طريق على بن الحسين بن على عن ابن عباس عن رجال من الأنصار أنهم كانوا عند النبى ﷺ، فرمى بنجم فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون لهذا إذا رمى به فى الجاهلية» قالوا: كنا نقول مات عظيم أو يولد عظيم، فقال: «إنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح سماء الدنيا، ثم يقولون لحملة العرش: ماذا قال ربكم» الحديث(٣).

قوله: [يَنْفُذهم ذلك]

قال ابن حجر: (وقال غيره صفوان ينفذهم) قال عياض ضبطوه بفتح الفاء من صفوان، وليس له معنى وإنما أراد لغير المبهم وقوله (ينفذهم) وهو بفتح أوله وضم الفاء أى يعمهم.

قلت اى ابن حجر: وكذا أخرجه ابن أبى حاتم عن محمد بن عبدالله بن زيد عن سفيان بن عيينة بهذه الزيادة.

وذكره الكرمانى بلفظ (صفوان ينفذ فيهم ذلك) بزيادة لفظ الإنفاذ أى ينفذ الله ذلك القول إلى الملائكة، أو من النفوذ أى ينفذ ذلك إليهم أو عليهم.

---

(١) تقدم تخريجه (٢) تقدم تخريجه

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧ / ٤٨٣ / ١٢٤) عن ابن عباس به.

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا»

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وقد تقدم تفسير الآية وما فيها من فوائد. لاسيما إثبات الكلام لله بصوت وحرف كما هو مذهب أهل السنة وهو مسألة طويلة ولهذا بوب البخارى فى كتاب التوحيد على صفة الكلام لله عز وجل باباً ذكر فيه هذا الأثر وغيره،

قال ابن حجر: قال ابن بطال: استدل البخارى بهذا على أن قول الله قديم لذاته، قائم بصفاته، لم يزل موجوداً به، ولا يزال كلامه لا يشبه المخلوقين، خلافاً للمعتزلة التى نفت كلام الله، وللكلابية فى قولهم: هو كناية عن الفعل والتكوين، وتمسكوا بقول العرب: قلت بيدى هذا أى حركتها. واحتجوا بأن الكلام لا يعقل إلا بأعضاء ولسان، والبارى منزه عن ذلك فرد عليهم البخارى بحديث الباب والآية. ا.هـ

أى الحديث والآية التى ذكرهما مصنف كتاب التوحيد تبعاً للبخارى وغيره.

ثم قال ابن حجر: وملخص ذلك قال البيهقى فى «كتاب الاعتقاد» القرآن كلام الله وكلام الله صفة من صفات ذاته، وليس شيء من صفات ذاته مخلوقاً ولا محدثاً ولا حادثاً. قال تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(1) فلو كان القرآن مخلوقاً لكان مخلوقاً بكن ويستحيل أن يكون قول الله لشيء بقول لأنه يوجب قولاً ثانياً وثالثاً فيتسلسل وهو فاسد، وقال الله تعالى ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾(2) فخص القرآن بالتعليم لأنه كلامه وصفته، وخص الإنسان بالتخليق لأنه خلقه ومصنوعه، ولولا ذلك لقال خلق القرآن والإنسان، وقال الله تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(3) ولا يجوز أن يكون كلام المتكلم قائماً بغيره، وقال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾(4) الآية، فلو كان لا يوجد إلا مخلوقاً فى شيء مخلوق لم يكن لاشتراط الوجوه المذكورة فى الآية معنى لاستواء جميع الخلق فى سماعه عن غير الله فبطل قول الجهمية أنه مخلوق فى غير الله، ويلزمهم فى قولهم أن الله خلق كلاماً فى شجرة كلم به موسى أن يكون من سمع كلام الله من ملك أو نبى أفضل فى سماع الكلام من موسى، ويلزمهم أن تكون الشجرة هى المتكلمة بما ذكر الله أنه كلم به موسى وهو قوله ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾(5) وقد أنكر الله تعالى قول

(1) النحل. (2) الرحمن: ٢/٣.
(3) النساء: ١٦٤. (4) الشورى: ٥١.
(5) طه: ١٤.

المشركين ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ ولا يعترض بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[1] لأن معناه قول تلقاه عن رسول الله كريم كقوله تعالى ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[2] ولا بقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3] لأن معناه سميناه قرآناً، وهو كقوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[4] وقوله ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾[5] وقوله ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[6] فالمراد أن تنزيله إلينا هو المحدث لا الذكر نفسه، وبهذا احتج الإمام أحمد ثم ساق البيهقى حديث نيار بكسر النون وتخفيف التحتانية ابن مُكرِم أن أبا بكر قرأ عليهم سورة الروم فقالوا هذا كلامك أو كلام صاحبك، قال ليس كلامى ولا كلام صاحبى ولكنه كلام الله، وأصل هذا الحديث أخرجه الترمذى مصححا[7].

وعن على بن أبى طالب ما حكمت مخلوقاً، ما حكمت إلا القرآن، ومن طريق سفيان بن عيينة سمعت عمرو بن دينار وغيره من مشيختنا يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق.

وقال ابن حزم فى الملل والنحل: أجمع أهل الإسلام على أن الله تعالى كلم موسى، وعلى أن القرآن كلام الله وكذا غيره من الكتب المنزلة والصحف».

المحفوظ عن جمهور السلف ترك الخوض فى ذلك والتعمق فيه والاقتصار على القول بأن القرآن كلام الله وأنه غير مخلوق ثم السكوت عما وراء ذلك أهـ.

قوله [فيسمعها مسترق السمع]

قال سليمان آل الشيخ:[8] أى يسمع الكلمة التى قضاها الله مسترق السمع، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً فيسمعون أصوات الملائكة بالأمر يقضيه الله كما قال تعالى ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين[9]: أى هذه الكلمة التى تكلمت بها الملائكة. ا. هـ.

---

(١) الحاقة: ٤٠.
(٢) التوبة: ٦. (٣) الزخرف: ٣.
(٤) الواقعة: ٨٢. (٥) النحل: ٦٢.
(٦) الأنبياء: ٢.
(٧) أخرجه الترمذى (٣١٩٤) بدون موضع السابق.
(٨) تيسير العزيز الحميد (١٩٦).
(٩) القول المفيد (١/ ١٤٠٠).

وفى حديث عائشة فى الصحيح لما سئل عن الحق الذى يحدّث به الكهان أحياناً، قال- ﷺ- تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى[1].

وهى مبينة لصفة الإستراق ومفسرة له بالخطف[2].

قال ابن عثيمين[3]: وتأمل كلمة (مسترق) ففيها دليل على أنه يبادر، فكأنه يختلسها اختلاساً بسرعة أو اختلاساً سريعاً ويؤيده قوله تعالى **﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾**[4].

قوله «ومسترق»

قال ابن حجر[5]: كذا فى رواية على عند أبى ذر بالإفراد وهو فصيح، وهو مفرد مضاف فيعم جميع المسترقين، ويؤيده ما فى الصحيح بلفظ (ومسترقوا السمع).

قوله (هكذا بعضه فوق بعض وصفه سفيان).

قال ابن حجر:- اى ابن عيينة **(بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه)** أى فرق، فى رواية على ابن المدينى ووصف سفيان بيده ففرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض».

وفى حديث ابن عباس عند ابن مردويه «كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يسمعون منه الوحى» يعنى يلقيها، زاد على عن سفيان «حتى ينتهى إلى الأرض فيلقى»[6].

قال سليمان آل الشيخ[7]: (وصفه سفيان بكفه أى وصف ركوب بعضهم فوق بعض وسفيان هو ابن عيينة أبو محمد الهلالى الكوفى ثقة حافظ فقيه إمام حجة، إلا أنه

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٦٢)، ومسلم فى السلام (٧ / ٤٨٢ / ١٢٢)

(٢) الفتح ٦٠/٢٠٣ ك الطب.

(٣) القول المفيد (١/ ٤٠٠).

(٤) الصافات: ١٠.

(٥) فتح البارى (٨/ ٣٩٩).

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥ / ٤٤٢) ونسبه لبيهقي، وابن أبى شيبة، وابن مردويه، وأبى نعيم فى «الدلائل»

(٧) تيسير العزيز الحميد (١٩٦).

تغير حفظه بأخره، وربما دلس لكن عن الثقات، مات سنة ثمان وتسعين ومائة وله إحدى وتسعون سنة. أهـ.

قال ابن عثيمين[1]: أى أنها واحد فوق الثانى، أى الأصابع، فالجن يتراكبون واحد فوق الآخر إلى أن يصلوا إلى السماء فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا**﴾.

قال الفقير:

● **وفيه من الفوائد:-**

الأولى:- أن من الجن مسترقون مختلسون خطافون، قال تعالى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾.

الثانية: أنهم يقومون بعمليات انتحارية ذلك لأنهم يتراكبون واحداً فوق الآخر إلى أن يصلوا إلى السماء وهم على ثقة أن أغلبهم سيدركهم الشهاب، ومع ذلك فعلوا.

الثالثة:- ذكر فى غير موضع كما فى صحيح مسلم وغيره أن إبليس له سرايا وجنود وبعوث وعرش وحُجب، فلا غرو ولا عجب أن يكون منهم من يقوم بهذه العمليات الإنتحارية.

الرابعة: مدى حرص أهل الباطل على الباطل ويؤيده قوله تعالى ﴿**وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ**﴾ الأية وقوله تعالى ﴿**إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا**﴾ الاية.

الخامسة:-أهل الحق أولى بهذا من أهل الباطل وإلا يفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير قال تعالى ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**﴾.

قوله: «يسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته.

وفى حديث عائشة فى رواية السرخسى يخطفها من الجن.

(١) القول المفيد (١/ ٤٠١).

قال ابن حجر: أى الكاهن يخطفها من الجن أو الجن الذى يلقى الكاهن يخطفها من جن أخر فوقه.

(ويخطفها) بخاء معجمة وطاء مفتوحة وقد تكسر، وبعدها فاء ومعناه الأخذ بسرعة.

قال سليمان آل الشيخ: أن يسمع المستمع الفوقانى الكلمة من الوحى، فيلقيها إلى الشيطان الذى تحته، ثم يلقيها الآخر من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر والكاهن، وحينئذ يقع الرجم أ.هـ.

قال ابن عثيمين: أى يسمع أعلى المسترقين الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، أى يخبره بها (ومن) اسم موصول، وقوله (تحته) شبه جملة صلة الموصول، لأنه ظرف. أ.هـ.

قوله« ثم يلقيها الأخر إلى من تحته».

أى يسمع أعلى المسترقين الكلمة فيلقيها إلى من تحته أى يخبره بها.

قوله«حتى يلقيها على لسان الساحر أوا لكاهن».

وفى رواية على الساحر والكاهن وكذا قال سعيد بن منصور عن سفيان.

قوله «حتى يلقيها».

فى حديث عائشة «**فيقرها**» أى يصبها، يقول قررت على رأسه دلواً إذا صببته، فكأنه صب فى أذنه ذلك الكلام، ووقع فى رواية يونس«**فيقرقرها** أى يرددها، يقال قرقرت الدجاجة تقرقر قرقرة .إذا رددت صوتها.

قال الخطابي: والمعنى أنَّه إذا ألقى الكلمة لوليه تسامع بها الشياطين فتناقلوها كما إذا صوتت الدجاجة فسمها الدجاج فجاوبتها.

وقيل معانٍ أخرى.

قوله«على لسان الساحر أو الكاهن».

تقدم صفة ذلك. قال مالك والساحر الذى يعمل السحر ولم يعمل ذلك له غيره. وهو مثل الذى قال الله تعالى فى كتابه ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الأخرة من خلاق**﴾ وسيأتى تفصيل ذلك فى أبواب السحر وتقدم قول ابن عثيمين.

والكاهن لفظ يطلق على العراف، والذى يضرب الحصى، والمنجم، ويطلق على من يقوم بأمر أخر ويسعى فى قضاء حوائجه.

وقال في(المحكم): الكاهن القاضى يالغيب. وقال فى (الجامع): العرب تسمى كلٍّ من أذن بشىء قبل وقوعه كاهناً.

وقال الخطابى: الكهنة قوم لـهم أذهان حادة ونفوس شديدة وطباع نارية، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور ومساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه.

أنواع الكهانة.

قال ابن حجر: وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية خصوصاً فى العرب لانقطاع النبوة فيهم. وهى على أصناف: منها ما يتلقونه من الجن، فإنَّ الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه، إلى أن يتلقاه من يُلقه فى أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين، وأرسلت عليهم الشهب، فبقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى **﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾** وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جداً.

قال الفقير: وذلك لأن الحرس لم يكونوا موجودين للسماع فيسمع الجن ويعطوا للكاهن ولذلك كان للكهان شأن كبير وعظيم فى الجاهلية أما بعد الإسلام فليس لهم شأن ولذلك أنا أرجح قول من يقول أن هذه الشهب لا زالت موجودة إلى الآن فإنه لم تكن فقط المناسبة نزول القرآن.

قال ابن حجر: كما جاء فى أخبار شق وسطيح ونحوهما، وأما فى الإسلام فقد ندر ذلك جداً حتى كاد يضمحل ولله الحمد.

ثانيها مايخبر الجنى به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً. أو يطلع عليه من قرب منه لامن بعد.

● **فائدة:**

قال ابن عثيمين (١): وقد التبس على بعض طلبة العلم، فظنوا أنه كل من يخبر عن الغيب ولوفيما مضى فهو كاهن لكن مامضى مما يقع فى الأرض ليس غيباً مطلقاً، بل هو غيب نسبى. اهـ.

قال ابن حجر: ثالثها ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه.

قال الفقير: لأن مستنده ظن وتخيمن مثل أن يخبرك إنسان بما فى ضميرك فإن كان مستند ذلك ظن وتخمين وحدس فهو المذموم وإن كان مستنده فراسة فهذا مشروع لأنه يستدل بإشارات وعلامات على الوجه تنفذ بها من الظاهر إلى الباطن.

---

(١) القول المفيد.

واعتمد الحكم بالفراسة ابن القيم فى كتابه الطرق الحكمية وذكر أن رجلاً دخل على عثمان ـ رضى الله عنه ـــ فقال له رجل أما يستحى رجل أن يدخل على أمير المؤمنين وأثر الزنى فى عينيه، ومن هنا أقرّ الرسول ﷺ مايحدث لعمر من إلهام وقال «**فى كل أمة ـ محدَّثين وملهمين وإن يكن فى أمتى فهو عمر**» والحديث أصله فى الصحيح.

قال ابن حجر : **رابعها** مايستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك، ومن هذا القسم الأخير مايضاهى السحر، وقد يعتضد بعضهم فى ذلك بالزجر والطرق والنجوم.

قلت: كمن يعمل خطأ ويقول أنا تبت كفراسة الخضر مع موسى عندما قال له ﴿**إنك لن تستطيع معى صبراً قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً**﴾. ليس غيباً مطلقاً بل هو غيب نسبى.

قال ابن عثيمين: مثل مايقع فى المسجد يعد غيباً بالنسبة لمن فى الشارع وليس غيبا بالنسبة لمن فى المسجد، وقد يتصل الإنسان بجنى فيخبره عما حد ث فى الأرض، ولو كان بعيداً فيستخدم الجن لكن ليس على وجه محرم(١)، فلا يسمى كاهناً لأن الكاهن ما يخبر عن المغيبات فى المستقبل أ. هـ .

قال الفقير : وما استنكره الشيخ هو ما قرره ابن حجر فى النوع الثانى من أنواع الكهانة وقال فى آخر هذه الأنواع وكل ذلك مذموم شرعاً.

حكم الكهانة وما ورد فى ذمها.

قال ابن حجر : وكل ذلك مذموم شرعاً، وورد فى ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبى هريرة رفعه «**من أتى كاهناً أو عرفاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**»(٢).

وله شاهد من حديث جابر(٣)، وعمران بن حصين أخرجهما البزار بسندين جيدين ولفظهما «**من أتى كاهنا**».

أخرجه مسلم من حديث امرأة من أزواج النبى ﷺ، ومن الرواة من سماها حفصة ـ بلفظ «**من أتى عرافاً**»(٤).

---

(١) وقد تقدم أن استخدام الجن بأى صورة من الصور ممنوع، وليس هناك أى وجه فى الاستخدام عليه دليل إلا ما روى بسند ضعيف عن أبى موسى فى قصة وسم عمر ابل الصدقة، ولا تقوم به حجة. والله المستعان.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥ / ١١٧) ونسبه للبزار . قال: ورجاله رجال الصحيح خلا عقبه بن سنان وهو ضعيف

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧ / ٤٨٤ / ١٢٥)

وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لايقال بالرأي، ولفظه: **«من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً»**(١).

واتفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبى هريرة إلا حديث مسلم فقال فيه: **«لم يقبل لهما صلاة أربعين يوماً»**(٢).

ووقع عند الطبرانى من حديث أنس بسند لين مرفوعاً بلفظ: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برىء مما أنزل على محمد، ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل صلاته أربعين يوماً»(٣) الأحاديث الأول مع صحتها وكثرتها أولى من هذا، والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة، وتارة بالتكفير، فيحمل على حالين من الآتى أشار إلى ذلك القرطبى اهـ.

قوله: «فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها» إلى آخره

قال ابن حجر:(٤) يقتضى أن الأمر فى ذلك يقع عل حد سواء، والحديث الآخر يقتضى أن الذى يسلم منهم قليل بالنسبة إلى من يدركه الشهاب.

ووقع فى روايه سعيد بن منصور عن سفيان فى هذا الحديث «فيرمى هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى يلقى على فم ساحر أو كاهن».

قوله **«فيكذب معها مائة كذبة، فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء»** زاد على بن عبدالله عن سفيان كما فى تفسير الحجرعند البخارى « فيقولون ألم يخبرنا يوم كذا كذا يكون وكذا وكذا فوجدناه حقا الكلمة التى سمعت من السماء.

وفى حديث ابن عباس « فيقول: يكون العام كذا وكذا فيسمعه الجن فيخبرون به الكهنة فتخبر الكهنة الناس فيجدونه » وسيأتى.

وفى حديث عائشة «**(فيخلطون معها مائة كذبة)**(٥) فى رواية ابن جريج **«أكثر من مائة كذبة»** وهو دال على أن ذكر المائة للمبالغة لالتعيين العدد، وقوله كذبة هنا بالفتح وحكى الكسر ا.هـ.

---

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥ / ١١٨) ونسبه للبزار قال: ورجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن مريم وهو ثقة.

(٢) ثقة تخريجه

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٦٦٧٠) قال الهيثمى فى «المجمع» (٥ / ١١٨) قال: وفيه رشدين بن سعد وهو ضعيف وفيه توثيق فى أحاديث الرقاق وبقية رجاله ثقات.

(٤) «الفتح» (١٠ / ٢٢٧، ٢٢٨)

(٥) تقدم تخريجه

مسئلة كيف يتوصل الجنى إلى اختطاف الكلمة واستراق السمع؟

قال ابن حجر: أخرج مسلم فى حديث آخر أصل توصل الجنى إلى الاختطاف فأخرج من حديث ابن عباس «حدثنى رجال من الأنصار أنم بيناهم جلوس ليلاً مع رسول الله ﷺ إذ رمى بنجم فاستنار» فقال: **ما كنتم تقولون إذا رمى مثل هذا فى الجاهلية؟ قالوا :** كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم أو مات رجل عظيم، فقال: **إنها لايرمى بها لموت أحد ولا لحياته. ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى أهل هذه السماء الدنيا فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم حتى يصل إلى السماء الدنيا، فيسترق منه الجني، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يزيدون فيه وينقصون**»[1] بيان كيفيتهم عند استراقهم،بدء الخلق من وجه آخر عن عروة عن عائشة «أن الملائكة تنزل فى العنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمر قضى فى السماء فتسترق الشياطين السمع»[2] فيحتمل أن يريد بالسحاب السماء كما أطلق السماء على السحاب، ويحتمل أن يكون على حقيقته وأن بعض الملائكة إذا نزل بالوحى إلى الأرض تسمع منهم الشياطين، أو المراد الملائكة الموكلة بإنزال المطر . اهـ.

● فوائد الحديث.

قال ابن عثيمين [3].

١ـ إثبات القول لله ـ عزوجل.

٢ـ عظمة الله ـ سبحانه وتعالى .

٣ـ إثبات الأجنحة للملائكة.

٤ـ خوف الملائكة من الله ـ عزوجل ـوخضوعهم له.

٥ـ أن الملائكه يتكلّمون ويعقلون.

٦ـ أنّه لايصدر عن الله إلاّ الحق.

٧ـ أنَّ الله ـ سبحانه ـ يمكِّن هؤلاء الجن من الوصول إلى السماء فتنة للناس، وهى ما يلقونه على الكهان، فيحصل بذلك فتنة، والله ـ عزوجل ـ حكيم.

وقد يُوجد الله أشياء تكون ضلالاً لبعض الناس، لكنها لبعضهم هدى وامتحاناً وابتلاء.

٨ ـ كثرة الجن؛ لأنهم يترادفون إلى السماء، ومعنى ذلك أنهم كثيرون جداً، وأجسامهم خفيفة يطيرون طيراناً.

وذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية فى السحرة الذين يستخدمون الجن وتطير

(١) تقدم تخريجه (٢) تقدم تخريجه (٣) القول المفيد ١/ ٤٠٤،٤٠٥،٤٠٦

وَعَن النَّوَّاسِ بـنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَـى أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ؛ تَكَـلَّمَ بِالوَحْيِ؛ أَخَـذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْـفَةٌ. (أَو قَالَ: رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ) خَـوْفاً مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. فَإِذَا سَـمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَـوَاتِ؛ صُعِقُوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّـداً، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَـعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُـكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِـهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى المَلاَئِكَةِ، كُلَّمَا مَـرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلاَئِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْـرِيلُ؟ فَيَقُـولُ" قَالَ الحَقَّ، وَهُوَ الـعَلِيُّ الكَبِيرُ. فَيَـقُولُونَ كُلُّـهُم مِثْلَ مَـا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ»(١).

بهم: أنهم يصبحون يوم عرفة في بلادهم ويقفون مع الناس في عرفة، وهذا ممكن الآن في الطائرات، لكن في ذلك الوقت ليس هناك طائـرات؛ فتحملهم الشياطين، ويجعلون للناس المكانس التى تكنس بها البيوت، ويقول : أنا أركب المكنسة وأطير بها إلى مكة؛ فيفعلون هذا، وشيخ الإسلام يقول: إن هؤلاء كذبة ومـستخدمون للشياطين، ويسيئون حتى من الناحية العملية؛ لأنهم يمرون الميقات ولايحرمون منه.

٩ـ أنَّ الكهان من أكذب الناس، ولهذا يضيفون إلـى ماسمعوا كذبات كثيرة يضللون بها الناس ، ويتوصلون بها إلى باطلهم تـارة بالترهيب وتارة بالترغيب ، كأن يقولوا : ستقوم القيامة يوم كذا وكذا، وسيجرى عليك كذا من موت أوسرقة مال ونحو ذلك.

١٠ـ أن الساحـر يصور للـمسحور غـير الواقع، وفـى هذا تحذير مـن أهل التمـويه والتلبيس، وأنهم إن صدقوا فى شيء؛ فيجب الحذر منهم بكل حال.



قوله: عن النواس بن سمعان»

قال ابن عثيمين (٢). هذا الحديث لم يخرجه المؤلف، لـكن قد ذكره ابن كثير من

---

(١) لا أصـل له أخـرجه ابـن جـرير فـى «تفـسيره» (٢٢/٦٣)، وابـن أبى حـاتم فـى «تفـسيره» (١٠/٣١٩٧/١٨٩٦م) وأبو الشيخ فـى «العظمة» ١٦٤٠) وابن خزيمة فى «التـوحيد» (ص: ١٤٤) وابن أبى عاصم فى السنة (٥١٥) من طريق نعيم بن حماد، حدثـنا الوليد بن مسلم، عن عبدالرحمن بن يز يدبن جابر، عن عبدالـله بن أبى زكريا، عن رجاء بن حيـوة، عن النواس بن سمعان به. وفى إسـناده نعيم بن حماد وهو ضعيف والوليد بن مسلم وهو مدلس وقد عنعنه

وقال الذهبى فى «الميزان» (٤ / ٢٦٨) قـال أبو زرعة الدمشقى عرضت على دحيم حديـث حدثنا نعيم بن حماد عن الوليد بن مسلم فذكر الاسناد وهذا الحديث.

وقال وحيم: لا أصل له.

وانظر «تفـسير ابن أبى حاتم» بتـخرجنا. وانظر «الاتقـان» (٣٩١ ـ بتخريجنا) . وفـتح المجيد» (ح٣٢٦) بتخريجنا

(٢) القول المفيد ١/٤٠٦، ٤٠٧.

رواية ابن ابى حاتم، وذكر فيه علة، وهى أن فى سنده الوليد بن مسلم، وهومدلس، وقد رواه عن شيخه بالعنعنة؛ فيكون فى الحديث ضعف، إلا أنه قد روى مسلم وأحمد من حديث ابن عباس حديثاً [1] قد يكون شاهداً له، حيث أخبر أن الله إذا تكلم بالوحى سمعه حملة العرش، فسبحوا، ثم سمعه أهل كل سماء، فيسبحون كما سبح أهل السماء السابعة، حتى يصل إلى السماء الدنيا، فتخطفه الجن أو الشياطين.

وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود؛ لكن يدل على أن له أصلاً أهـ.

مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى[2]: حيث دل الحديث على بيان حال الملائكة وخوفهم من الله.

مناسبة الحديث للتوحيد.

قال عبدالله بن جار الله[3]: فيها تقرير التوحيد فإن الملك العظيم الذى تصعق الملائكة من كلامه خوفاً منه ومهابة وترجف منه المخلوقات هو الكامل فى ذاته وصفاته وملكه وغناه عن خلقه لايجوز أن يجعل له شريك فى عبادته.

قال القرعاوى[4]: حيث دل الحديث على أن الملائكة وهم من أعظم مخلوقات الله يخافون الله ويخشونه لذا فتكون عبادة غيرهم لهم باطلة وشركاً.

قوله: «عن النواس بن سمعان»

قال سليمان آل الشيخ [5]. قوله «عن النوس بن سمعان بكسر السين، أى : ابن خالد الكلابي، ويقال: الأنصاري، صحابي، ويقال: إن أباه صحابى أيضاً. قال أبو حاتم الرازي: سكن الشام».

قوله: «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر»

قال ابن عثيمين[6] أى بالشأن

قال سليمان آل الشيخ[7] : قوله : **«إذا أراد الله أن يوحى بالأمر»**... إلخ هذا والله أعلم فى جميع الأمور التى يقضيها الرب تبارك وتعالى، كما يدل عليه عموم

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) الجديد ١٥٣.

(٣) الجامع الفريد ٧١

(٤) الجديد ١٥٣

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٩٩

(٦) القول المفيد ١/ ٤٠٧.

(٧) تيسير ا لعزيز الحميد ١٩٩

اللفـظ، ويدل على ذلك أيضـاً حديث أبى هريـرة الذى تقدم وغيره مـن الأحاديث المتقدمة.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[1]: فيه النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحى وهذا من حجة أهل السنة على النفاة لقولهم : لم يزل الله متكلماً إذا شاء.

قوله «تكلم بالوحي»

قال ابن عثيمين[2]: قوله :«تكلم بالوحي» جملة شرطية تقتضى تأخر المشروط عن الشرط؛ فالإدارة سابقة، والكلام لاحق؛ فيكون فيه ردّ على الأشاعرة الذين يقولون: إن الله لايتكلم بإرادة، وإن كلامه أزلى؛ كالسمع والبصر؛ ففيه إثبات الكلام الحادث، ولا ينقص كمال الله إذا قلنا: إنه يتكلم بما شاء، كيف شاء، متى شاء، بل هذا صفة كمال، لكن النقص أن يُقال : إنه لايتكلم بحرف وصوت، إنما الكلام معنى قائم بنفسه.

قوله : «أخذت السموات منه رجفه».

قال عبدالرحـمن آل الشيخ[3] السموات: مـفعول مقدم، والفـاعل «رجفة» أى: أصاب السماوات من كلامه تعالى رجفة، أى: ارتجفت وهو صريح فى أنها تسمع كلامه تعالـى، كما روى ابن ابـى حاتم عن عكـرمة قال «إذا قضـى الله أمراً تكلـم تبارك وتعالى رجفت السماوات والأرض والجبال،وخرت الملائكة كلهم سُجّداً»[4].

قوله :«أو قال : رعدةً شديدة».

قال سليمان آل الشيخ[5]. قوله :« أو قـال رعدة شديدة يعنـى أن الراوى شك هل قال النبى ﷺ رجفة، أو قال: رعدة، وهو بفتح الراء بمعنى الأول.

قال ابن عثيمين[6]: وإنما تأخذ السـماوات الرجفة أو الرعدة؛ لأنه سبحـانه عظيم يخافه كل شيء، حتى السماوات التى ليس فيها روح.

قوله «خوفاً من الله ـ عزّوجل ـ.

قال سليمان آل الشيخ[7]. لاينكر أن السموات والأرض ترجـف وترتعد خوفاً من

---

(١) فتح المجيد ٢٥٢ موضسة قرطبة.

(٢) القول المفيد ١/٤٠٧. (٣) فتح المجيد ٢٥٢ ط موسسة قرطبة.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠ / ٣١٦٧ / ١٧٨٩٦) فأنظره بتخريجنا وذكره السيوطى فى «الدر» (٥ / ٤٤٤) وأنظر «فتح المجيد» (ح٣٢٧) بتخريجنا

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٩٩ (٦) القول المفيد ١/٤٠٧ ١٨٢.

(٧) تيسير العزيز المجيد ١٩٩، ٢٠٠

الله عزوجل ، فقد قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّموَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ ومن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾(١)

وقال تعالى ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(٢)

وقال تعالى ﴿تَكَادُ السَّموَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾(٣)

وقال تعالى ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٤).

وفى «البخاري» عن ابن مسعود قال : [ولقد] كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل(٥).

وفى حديث(٦) أبى ذر أن النبى ﷺ أخذ فى يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان. هو حديث مشهور فى «المسانيد» .

وكذلك فى «الصحيح»(٧) قصة حنين الجذع الذى كان يخطب عليه النبى ﷺ قبل اتخاذ المنبر، ومثل هذا كثير.

قوله «فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرُّوا لله سجداً».

قال سليمان آل الشيخ(٨). أى يقع منهم الأمران الصعق وهو الغشى والسجود، والله أعلم أيهما قبل الآخر، فإن الواو لاتقتضى ترتيباً.

قال ابن عثيمين (٩) . فإن قيل : كيف يمكن أن يصعقوا ويخروا سجداً؟

فالجواب: أن الصعق هنا ـ والله أعلم ـ يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا.

قوله : فيكون أوّل من يرفع رأسه جبريل.

قال ابن عثيمين(١٠) أوّل بالنصب على أنها خبر مقدم، وجبريل بالرفع على أنها اسم يكون مؤخراً.

---

(١) الإسراء : ٤٤. (٢) فصلت: ١١.

(٣) مريم : ٩٠. (٤) البقرة : ٧٤.

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٧٩) وأحمد فى «مسنده» (١ / ٤٦٠) من عن ابن مسعود وأنظر «فتح المجيد» (ح٣٢٨) بتخريجنا

(٦) قال فى «المجمع» (٨/٢٩٨) : «رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات وفى بعضهم ضعف. وأنتظر «فتح المجيد» (ح٣٢٩) بتخريجنا

(٧) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٨٤) والترمذى فى «أبواب الصلاة»/ باب : ماجاء فى الخطبة على المنبر ت(٥ / ٣٧٩ / ح٥٠٥) ابن عمر به

(٨) تيسير العزيز الحميد ٢٠٠. (٩) القول المفيد ٤٠٨/١.

(١٠) القول المفيد ٤٠٨/١.

قال سليمان آل الشيخ[1]. قوله: «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل» معنى جبريل: عبدالله كما روى ابن جرير، وأبو الشيخ الأصبهانى عن على بن حسين قال: اسم جبريل عبدالله، واسم ميكائيل عبيد الله، وإسرافيل عبدالرحمن، وكل شىء راجع إلى إيل فهو معبد لله عزوجل.

وفيه دليل على فضيلة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑲ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ⑳ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[2] قال أبو صالح فى قوله: ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ قال: جبريل يدخل فى سبعين حجاباً من نور بغير إذن.

وقد ورد فى صفة جبريل أحاديث صحيحه، منها.

ما رواه أحمد بإسناد صحيح عن عبدالله عن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت. والله به عليم[3].

قال عبدالرحمن آل الشيخ[4]: فإذا كان هذا عظم هذه المخلوقات فخالقها أعظم وأجل فيكف يسوّى به غيره فى العبادة: دُعاءً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً، وغير ذلك من العبادات التى لايستحقها غيره؟

فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى وقد قال تعالى، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ㉖ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ㉗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ㉘ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[5].

قوله «فيكلمه الله من وحيه بما أراد».

قال ابن عثيمين[6]. قوله: «بما أراد» أى: بما شاء لأن الله تعالى يتكلم بمشيئة.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٠٠، ٢٠١

(٢) التكوير: ١٩، ٢٠.

(٣) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (١ / ٣٩٥، ٤٠٧) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
والحديث أصله فى الصحيح أخرجه البخارى (٨ / ٤٧٦ / ح٤٨٥٦)، ومسلم (٢ / ٥ / ح ١٧٤)
وأنظر ابن أبى حاتم (ح١٨٦٩٦) بتخريجنا و«فتح المجيد» (ح ٣٣٣) بتخريجنا.

(٤) فتح المجيد ٢٥٤، ٢٥٥ ط مؤسسة قرطبة.

(٥) الأنبياء: ٢٦ـ ٢٩).

(٦) القول المفيد ١/ ٤٠٨.

قوله: ﴿ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مرَّ بسماء يسأله ملائكتها ماذا قال ربنا ياجبريل﴾

قال ابن عثيمين [1]. قوله «ثم يمر جبريل على الملائكة»

لأنه يريد النزول من عند الله إلى حيث أمره الله أن ينتهي إليه بالوحي.

قال سليمان آل الشيخ قوله: [2] . «ثم يمر جبريل على الملائكة» إلى آخره. معناه ظاهر، فإذا كان هذا حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم ممن عبد من دون الله، وشدة خشيتهم من الله، وهيبتهم له مع ما أعطاهم الله من القوة العظيمة التي لايعلمها إلا الله، ومع هذا فقد نفى عنهم الشفاعة بغير إذنه كما قال: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[3] وأخبر أنهم لا يملكون كشف الضر عمن دعاهم ولاتحويله. فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾[4] وفي ضمن ذلك النهي عن دعائهم وعبادتهم الشفاعة أو غيرها، كما قال تعالى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[5] فكيف يدعوهم المشرك ويظن أنهم يشفعون له عند الله كما يشفع الوزراء عند الملوك، وإذا بطلت دعوتهم مع أنهم أحياء ناطقون مقربون عند الله، فدعاء غيرهم من الأموات الذين لايستطيعون سمعاً ولايملكون ضراً ولانفعاً أولى بالبطلان. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[6] وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[7].

قوله: فيقول جبريل: قال: الحق وهو العليُّ الكبير».

قال ابن عثيمين[8]. سبق في تفسير ذلك أنه يحتمل قال الحق في هذه القضية المعينة، أو قال الحق؛ لأن من عادته سبحانه ألا يقول إلا الحق، وأياً كان؛ فإن

(١) القول المفيد ١/٤٠٨.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٠١.
(٣) النجم: ٢٦.
(٤) الإسراء: ٥٦.
(٥) الزمر ٤٣/٤٤.
(٦) الأعراف: ١٩٤
(٧) النحل ٢٠/٢١/٢٢.
(٨) القول المفيد ١/٤٠٨،٤٠٩.

جبريل لايخبر الملائكة بما أوحى الله إليه، بل يقول : قال الحق مبهماً، ولهذا سمى عليه السلام بالأمين، والأمين: هو الذى لايبوح بالسر.

قوله :« وهو العلى الكبير».

تقدم الكلام عليه.

قوله «فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل».

قال ابن عثيمين(١): أى قال : الحق، وهو العلىُّ الكبير.

قوله (فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله - عزوجل) -.

قال ابن عثيمين (٢). أى : يصل بالوحى إلى حيث أمره الله من الأنبياء والرسل.

قال سليمان آل الشيخ (٣) : قوله : ثم ينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عزوجل. قد بيض المصنف رحمه الله بعد هذا، ولعله أراد أن يكتب تمام الحديث ومن رواه وتمامه: «إلى حيث أمره الله عزوجل من السماء والأرض».

ورواه ابن جرير وابن خزيمة وابن أبى حاتم والطبراني.

وفى الحديث من الفوائد إثبات الكلام خلافاً للجهمية، وإثبات الصوت خلافاً لهم وللأشاعرة. أ.هـ.

قلت: وتقدم ذكر شيء من هذا عن الحافظ، فانظره فى هذا الباب

من فوائد الحديث.

قال ابن عثيمين (٤).

● من فوائد الحديث.

١- إثبات الإرادة لقوله: «**إذا أراد الله**»، وهى قسمان : شرعية ،وكونية.

والفرق بينهما أولاً: من حيث المتعلق؛ فالإرادة الشرعية تتعلق بما يحبه الله - عزوجل -، سواء وقع أو لم يقع، وأما الكونية؛ فتتعلق بما يقع، سواء كان مما يحبه الله أو مما لايحبه.

ثانياً: الفرق بينهما من حيث الحكم، أى حصول المراد؛ فالشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، أما الكونية؛ فيلزم منها وقوع المراد.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) القول المفيد ١/٤٠٩\
(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٠١،٢٠٢
(٤) القول المفيد ١/٤٠٩ ، ٤١٢.

فقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[1] هذه إرادة شرعية؛ لأنها لـوكانت كونية لتاب على كل الناس، وأيضاً متعلقها فيما يحبه الله وهو التوبة.

وقوله : ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[2] هذه كـونية؛ لأن الله لايريـد الإغواء شرعاً، أما كوناً وقدراً ؛ فقد يريده.

وقوله ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[3]. هذه كونية، لكنها في الأصل شرعية؛ لأنه قال : ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [4].

وقوله تـعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[5] هذه شرعية؛ لأن قوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ لايمكن أن تكون كونية؛ إذ أن الـعسر يقع، ولو كان الله لايريده قدراً وكوناً؛ لم يقع.

٢ـ أن المخلـوقات وإن كانت جـماداً تحس بعـظمة الخـالق، قال تعـالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[6].

٣ـ إثبـات أن الملائكة يـتكلمـون ويفهمـون ويعقلـون لأنهم يسـألون: ﴿مـاذا قـال ربكم﴾؟ويجابون : قال ﴿الحق﴾، خلافاً لمن قال: إنهم لا يوصـفون بذلك ؛ فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب.

٤ـ إثبات تعدّد السماوات؛ لقوله: «كلما مر بسماء»

٥ـ أن لكل سماء ملائكة مخصصين؛ لقوله «سأله ملائكتها».

٦ـ فضيلة جبريل عليه السلام حيـث إنه المعروف بأمانة الوحي، ولهذا قال ورقة ابن نوفل: «هذا هو النامـوس الذى كان يأتى موسى»[7]، والناموس بالعبرية بمعنى صاحب السر.

٧ـ أمانة جبريل علـيه السلام، حيث ينتهى بالوحـى إلى حيث أمره الله ـ عزوجل ـ فيكون فيـه رد على الرافضة الكفرة الذيـن يقولون: بأن جبريل أمر أن يـوحى إلى على فأوحى إلى محمد ﷺ، ويقولون : خان الأمين فصدها عن حيدرة، وحيدرة لقب لعلى بن أبى طالب؛ لأنه كان يقول فى غزوة خيبر: أنا الذى سمّتنى أمى حيدرة.

---

(١) النساء : ٢٦. (٢) هود : ٣٤. (٣) النساء : ٢٦

(٤) النساء : ٢٦. (٥) البقرة: ١٨٥

(٦) الإسراء: ٤٤.

(٧) [صحيح] أخرجه البخارى (٣) عن عائشة به.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسيرُ الآيَة.

الثانية: مَا فِيهَا مِنَ الحُجَّة عَلَى إبْطَال الشِّرْك، خُصُوصاً مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إنَّها تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَة الشِّرْك مِنَ القَلْبِ.

وفى هذا تناقض منهم؛ لأن وصفه بالأمانة يقتضى عدم الخيان.

٨ـ إثبات العزة والجلال لله عزوجل؛ لقوله «عزوجل» ، والعزة بمعنى الغلبة والقوة، وللعزيز ثلاثة معان:

١ـ عزيز: بمعنى ممتنع أن يناله أحد بسوء.

٢ـ عزيز: بمعنى ذى قدر لايشاركه فيه أحد.

٣ـ عزيز : بمعنى غالب قاهر.

قال ابن القيم:

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذو السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شىء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هى وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان

وأما جل: فالجلال بمعنى العظمة التى ليس فوقها عظمة.



فيه مسائل:

قال ابن عثيمين(١). قوله:

- **الأولى : تفسير الآية.**

أى: قوله تعالى ﴿**حتى إذا فزع عن قلوبهم.....**﴾ الآية ، وقد سبق تفسيرها.

- **الثانية : ما فيه من الحجة على إبطال الشرك.**

وذلك أن الملائكة وهم من هم فى القوة والعظمة يصعقون ويفزعون من تعظيم الله؛

---

(١) القول المفيد ١/ ٤١٣، ٤٢١.

الثالثة: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: (قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ).

الرابعة: سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ جِبْرِيلَ يُجِيبهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (قَالَ: كَذَا وَكَذَا).

السادسة: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ.

السابعة: أَنَّهُ يَقُولُ لأَهلِ السَّمَاوات كُلِّهِم لأَنَّهُم يَسْأَلُونَهُ.

الثامنة: أَنَّ الغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ السَّمَاواتِ كُلَّهُمْ.

فكيف بالأصنام التى تعبد من دون الله وهى أقل منهم بكثير؛ فكيف يتعلق الإنسان بها؟!

ولذلك قيل : إن هذه الآية هى التى تقطع عروق الشرك من القلب؛ لأن الإنسان إذا عرف عظمة الرب سبحانه حيث ترتجف السماوات ويصعق أهلها بمجرد تكلمه بالوحى؛ فكيف يمكن للإنسان أن يشرك بالله شيئاً مخلوقاً ربما يصنعه بيده حتى كان جهال العرب يصنعون آلهة من التمر إذا جاع أحدهم أكلها .

وينزل أحدهم بالوادى فيأخذ أربعة أحجار: ثلاثة يجعلها تحت القدر، والرابع - وهو أحسنها - - يجعلها إلها له.

● **الثالثة : تفسير قوله: ﴿قالوا الحق وهوالعلى الكبير﴾**

وسبق تفسيرها.

● **الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.**

فالسؤال : ماذا قال ربكم؟ وسببه شدة خوفهم منه وفزعهم خوفاً من أن يكون قد قال فيهم مالا يطيقونه من التعذيب.

● **الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا ؛ أى: يقول : قال الحق.**

● **السادسة : ذكر أن أوَّل من يرفع رأسه جبريل**

لحديث النواس بن سمعان ، وفيه فضيلة جبريل.

● **السابعة: أنه يقول لأهل السماوت كلهم لأنهم يسألونه.**

وفى هذا دليل على عظمته بينهم.

التاسعة: ارْتِجَافُ السَّمَاوات لِكَلاَمِ الله.

العاشرة: أَن جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِى يَنْتَهِى بِالوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ الله.

الحادية عشرة: ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِين.

الثانية عشرة: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِم بَعضاً.

الثالثة عشرة: إِرْسَالُ الشُّهُب.

قلت: وفيه دليل أيضا على أنهم جميعاً لا يعلمون ماذا قال الله تعالى يرغم قربهم منه بالنسبة إلى الجن والانس ففيه رد دافع على من يدعى علم الغيب من الجن والانس ومن أشركهم مع الله طلباً للغيب من بينهم.

● **الثامنة: أن الغشى يعم أهل السماوات كلهم.**

تؤخذ من قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السماوات؛ صعقوا وخروا لله سجداً».

● **التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله.**

لقوله: «أخذت السماوات منه رجفة»؛ أى: لأجله تعظيماً لله.

● **العاشرة: أن جبريل هو الذى ينتهى بالوحى إلى حيث أمره.**

أى: لا أحد يتولى إيصال الوحى غير جبريل حتى يوصله إلى حيث أمره به؛ لأنه الأمين على الوحي.

● **الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين**

أى: الذين يسترقون ما يسمع فى السماوات، فيلقونه على الكهان فيزيد فيه الكهان وينقصون.

● **الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً.**

وصفها سفيان ـ رحمه الله ـ بأن حرف يده وبدد بين أصابعه.

● **الثالثة عشرة: إرسال الشهب.**

يعنى: التى تحرق مسترقى السمع. قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾(١).

---

(١) الحجر/ ١٨.

الرابعة عشرة: أَنَّهُ تارةً يُدْرِكُهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَن يُلْقِيَهَا، وتَارَةً يُلْقِيهَا فى أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ.

الخامسة عشرة: كَوْنُ الكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الأَحْيَانِ.

السادسة عشرة: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كَذْبَةٍ.

السابعة عشرة: أَنَّهُ لَمْ يُصَدَّقْ كَذِبُهُ إِلاَّ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِى سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ.

● **الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها فى أذن وليه من الإنس قيل أن يدركه**

قلت: ففيه حرصهم على الموت من أجل الباطل إلا تفعله من أجل الحق تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير.

● **الخامسة عشرة : كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.**

لأنه يأتى بما سمع من السماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما فى السماء؛ صار صادقاً

قلت: أى ومع ذلك يحرم الذهاب بغيركم وإذا كان ينـمن فقد كفرو جمع بين محرمين وإذا ضم إلى ذلك التصديق له.

● **اعتراض وجوابه.**

كيف يسمع المسترقون الكلمة وعندما يسأل الملائكة جبريل يجابون بقال الحق فقط؟

والجواب: إن الوحى لايعلمه أهل السماء، بل هو من الله إلى جبريل إلى النبى ﷺ

أما الأمور القدرية التى يتكلم الله بها؛ فليست خاصة بجبريل، بل ربما يعلمها أهل السماء مفصلة، ثم يسمعها مسترقوا السمع.

● **السادسة عشرة : كونه يكذب معها مئة كذبة.**

أى : يكذب مع الكلمة التى تلقاها من المسترق.

وقوله: «مئة كذبة» هذا على سبيل المبالغة كما سبق وليس على سبيل التحديد .

● **السابعة عشرة: أنه لم يصدق إلا بتلك الكلمة التى سمعت من السماء.**

وأما ما قاله من عنده؛ فهو تخرص؛ فالكلمة التى سمعها تصدق، والذى يضيفه كله كذب يموه به على الناس.

الثامنة عشرة": قَبُولُ النُّفُوسِ لِلبَاطِلِ! كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلاَ يَعْتَبِرُونَ بِمِئَةٍ؟!

التاسعة عشرة: كَوْنُهُمْ يَتَلَقَّى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ تِلْكَ الكَلِمَةَ وَيَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا.

العشرون: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ خِلافاً للأَشْعَرِيَّةِ المُعَطِّلَةِ.

● **الثامنة عشرة : قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمئة؟!**

وهذا صحيح، وليس صفة عامة لعامة الناس، بل لأهل الجهل والسّفه؛ فهم يتعلقون بالكاهن من أجل صدقه مرة واحدة، وأما مئة كذبة ؛ فلا يعتبرون بها، ولاشك أن بعض السفهاء يغترون بالصالح المغمور بالمفاسد، ولكن لايغتر به أهل العقل والإيمان، ولهذا لمانزل قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾(١).

تركهما كثير من الصحابة اعتباراً بالموازنة، والعاقل لايمكن إذا وازن بين الأشياء أن يرجح جانب المفسدة؛ فهو وإن لم يأت الشرع بالتعيين يعرف ويميز بين المضار والمنافع

قلت: هذا دأب السفهاء فى كل عصر ومصر يغترون بالباطل فهم الذين قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ الاية أما الذين أوتوا العلم فلم يغتروا بهذا الباطل المبهرج بل قالوا للسفهاء: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾.

● **التاسعة عشرة : كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها... إلخ.**

الكلمة: هى الصدق؛ لأنها هى التى تروج بضاعتهم، ولو كانت بضاعتهم كلها كذباً ما راجت بين الناس

قلت: وإذا كان أهل الباطل حفظوا الحق واستدلوا به ليرجوا به باطلهم فمن باب أولى أهل الحق يكونوا للحق أحفظ .

● **العشرون : إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة**

الأشعرية: هم الذين ينتسبون إلى أبى الحسن الأشعرى وسموا معطلة لأنهم يعطلون النصوص عن المعنى المراد بها ويعطلون ما وصف الله به نفسه. والمراد تعطيل أكثر ذلك فإنهم يعطلون أكثر الصفات ولا يعطلون جميعها، بخلاف المعتزلة؛ فالمعتزلة ينكرون الصفات ويؤمنون بالأسماء، هؤلاء عامتهم،وإلا ؛ فغلاتهم ينكرون حتى الأسماء، وأما الأشاعرة؛ فهم معطلة اعتباراً بالأكثر؛ لأنهم لايثبتون من الصفات إلا

الحادية والعشرون: التَّصْرِيحُ بأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ والغَشْيَ خَوْفاً مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ.

الثانية والعشرون: أَنَّهُمْ يَخِرُّونَ لله سُجَّداً.

سبعاً، وصفاته تعالى لاتحصى، وإثباتهم لهذه السبع ليس كإثبات السلف؛ فمثلاً: الكلام عند أهل السنة: أن الله يتكلم بمشيئته بصوت وحرف.

والأشاعرة قالوا: الكلام لازم لذاته كلزوم الحياة والعلم، ولا يتكلم بمشيئة، وهذا الذى يسمع عبارة عن كلام الله وليس كلام الله، بل هو مخلوق؛ فحقيقة الأمر أنهم لم يثبتوا الكلام، ولهذا قال بعضهم : إنه لافرق بيننا وبين المعتزلة فى كلام الله؛ لأننا أجمعنا على أن ما بين دفتى المصحف مخلوق، وحجتهم فى إثبات الصفات السبع : أن العقل دل عليها.

وشبهتهم فى إنكار البقية : زعموا أن العقل لايدل عليها.

والرد عليهم بما يلى :

١ـ أن كون العقل يدل على الصفات السبع لا يدل على انتفاء ما سواها؛ فإن انتفاء الدليل المعين لايستلزم انتفاء المدلول؛ فهب أن العقل لايدل على بقية الصفات، لكن السمع دل عليها؛ فنثبتها بالدليل السمعى.

٢ـ أنها ثابتة بالدليل العقلى بنظير ما أثبتم هذه السبع؛ فمثلاً : الإرادة ثابتة لله عندهم بدليل التخصيص، حيث إن الله جعل الشمس شمساً والقمر قمراً والسماء سماءً والأرض أرضاً، وكونه يميز بين ذلك معناه أنه سبحانه وتعالى يريد ؛ إذ لولا الإرادة لكانت الدنيا كلها سواء، فأثبتوها لأن العقل دل عليها.

فنقول لهم: الرحمة لاتمضى لحظة على الخلق إلا وهم فى نعمة من الله؛ فهذه النعم العظيمة من الله تدل على رحمته لخلقه أدل من التخصيص على الإرادة.

والانتقام من العصاة يدل على بغضه لهم، وإثابة الطائعين ورفع درجاتهم فى الدنيا والآخرة يدل على محبته لهم أدل على التخصيص من الإرادة، وعلى هذا فقس؛ فالمؤلف رحمه الله لما كان الأشعرية لايثبتون إلا سبع صفات على خلاف فى إثباتها مع أهل السنة جعلهم معطلة على سبيل الإطلاق، وإلا؛ فالحقيقة أنهم ليسوا معطلة على سبيل الإطلاق .

- **الحادية والعشرون:** التصريح بأن تلك الرجفة والغشى خوفاً من الله ـ عزوجل.
  فيدل على عظمة الخالق جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ.
- **الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً.**

أي: تعظيماً لله واتقاءً لما يخشونه؛ فتفيد تعظيم الله ـ عزوجل ـ كالتى قبلها. أهـ



١٦ بابـ: الشفاعة

ـ محتويات الباب:ـ

١ـ مناسبة الباب لما قبله وماذا أراد المصنف بهذا الباب.

٢ـ شبه الشفاعة والجواب عليها.

٣ـ مدخل للباب.

٤ـ تعريف الشفاعة.

● الآية الأولى فـى الباب ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الآية.

٥ـ مناسبة الآية للباب.

٦ـ مناسبة الآية للتوحيد.

٧ـ إعراب الآية.

٨ـ ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.

٩ـ سبب نزول الآية.

١٠ـ ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد للآية.

● الآية الثانية فى الباب ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ الآية.

١١ـ مناسبة الآية للباب.

١٢ـ مناسبة الآية للتوحيد.

١٣ـ إعراب الآية.

١٤ـ ما جاء فى كلام المفسرين فى تفسيرها.

١٥ـ ما جاء من كلام الشراح لكتاب التوحيد فى الآية.

١٦ـ أقسام الشفاعة.

أ ـ شفاعة الخالق للمخلوق.

ب ـ مواطن شفاعة الله.

جـ ـ شفاعة كلام رب العالمين.

١٧ـ أنواع شفاعة المخلوقين للمخلوقين بإذن رب العالمين.

(أ) شفاعة الملائكة.

(ب) شفاعة النبيين.

(جـ) شفاعة النبى ﷺ وهى قسمان:

ـ **القسم الأول :** شفاعة فى الدنيا فيما يقدر عليه قدراً وشرعاً.

ـ مواطن شفاعة الرسول ﷺ.

ـ **القسم الثانى:** شفاعة النبى ﷺ فى الآخرة وهى أنواع:ـ

(أ) الشفاعة الكبرى.

(ب) شفاعته ﷺ لأهل الجنة فى دخولها.

(جـ) شفاعته ﷺ لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النَّار.

(د) شفاعته ﷺ فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم.

(هـ) شفاعته ﷺ لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم.

(و) شفاعته لأهل الكبائر.

(ز) شفاعته فى بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه.

١٨ـ أسباب شفاعة الرسول ﷺ.

(أ) الدعاء له بالمقام المحمود بعد الأذان.

(ب) الصلاة عليه ﷺ ثم طلب الوسيلة له بعد الأذان.

(جـ) سكنى المدينة والموت فيها.

(د) كثرةالسجود.

١٩ـ عدم ثبوت الشفاعة لزائر قبر الرسول ﷺ.

٢٠ـ شفاعة المؤمنين وهى نوعان:ـ

(أ) فى الدنيا فيما يقدر عليه المخلوق قدراً وشرعاً وهو الدعاء للأموات والأحياء.

(ب) شفاعة فى الآخرة فيما يأذن لهم الله عزوجل فيه.

● شفاعة المؤمنين الشهداء.

● الآية الثالثة فى الباب ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ الآية.

٢١ مناسبة الآية للباب.

٢٢ـ مناسبة الآية للتوحيد.

٢٣ـ إعراب الآية.

٢٤ـ ما جاء فى كلام المفسرين فى الآية

٢٥ ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد.

٢٦ـ إشكال وجوابه.

● الآية الرابعة ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا**...﴾ الآية.

٢٧ـ مناسبة الآية للباب.

٢٨ـ مناسبة الآية للتوحيد.

٢٩ـ إعراب الآية.

٣٠ـ ما جاء فى الآية من كلام المفسرين.

٣١ـ ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية.

٣٢ـ موانع الشفاعة.

(أ) عدم الرضى عن الشافع.

(ب) عدم الإذن له.

٣٣ـ موانع الشفاعة العامة.

(أ) التكذيب بالشفاعة.

(ب) عدم الإذن.

٣٤ـ الموانع الخاصة للشفاعة.

(أ) ترك الأسباب الخاصة للشفاعة الخاصة.

● الآية الخامسة فى الباب ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّه**...﴾ الآية.

٣٥ـ مناسبة الآية للباب.

٣٦ـ مناسبة الآية للتوحيد.

٣٧ـ إعراب الآية.

٣٨ـ ما جاء من كلام المفسرين للآية.

٣٩ـ كلام شيخ الإسلام فى الباب وحديث أبى هريرة من أسعد الناس بشفاعتك.

٤٠ـ الحكمة من الشفاعة.

٤١ـ مسائل الباب.



(١٦) بابُ: الشفاعة

● مناسبة الباب لما قبله وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال سليمان آل الشيخ(١): لما كان المشركون فى قديم الزمان وحديثه إنما وقعوا فى الشرك لتعلقهم بأذيال الشفاعة. كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(٣) وكذلك قطع الله أطماع المشركين منها، ،وأخبر أنه شرك، نزه نفسه عنه، ونفى أن يكون للخلق من دونه ولى أو شفيع، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾(٤).

أراد المصنف فى هذا الباب إقامة الحجج على أن ذلك هو عين الشرك، وأن الشفاعة التى يظنها من دعا غير الله ليشفع له كما يشفع الوزير عند الملك منتفية دنيا وأخرى، وإنما الله هو الذى يأذن للشافع ابتداء، لايشفع ابتداء كما يظنه أعداء الله اهـ.

قال حامد بن محمد(٥): باب فى بيان ما يدل على أن الشفاعة المطلقة لله جميعاً، وليس لأحد من خلقه أن يشفع لأحد إلا بإذنه، أى بإذن الشافع ـ فى شفاعته من رضى عليه ـ من الكتاب والسنة اهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ(٦): باب الشفاعة: أى بيان ما أثبته القرآن منها، وما نفاه وحقيقة ما دل القرآن على إثباته. اهـ.

قال ناصر السعدى(٧): فالمقصود فى هذا الباب ذكر النصوص الدالة على إبطال كل وسيلة وسبب يتعلق به المشركون بآلهتهم، وأنه ليس لها من الملك شىء لااستقلالاً ولامشاركة ولامعاونة ولامظاهرة، ولامن الشفاعة شىء، وإنما ذلك كله لله وحده، فتعين أن يكون المعبود وحده.

وقد قال قبل هذا: إنما ذكر المصنف الشفاعة فى تضاعيف هذه الأبواب؛ لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكةوالأنبياء والأولياء بقولهم: نحن ندعوهم، مع علمنا

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٠٢).
(٢) يونس: (١٨).
(٣) الزمر: (٣). .
(٤) السجدة: (٤).
(٥) فتح الله الحميد المجيد ٢٦٥.
(٦) فتح المجيد (٢٥٨/١).
(٧) القول السديد (٥٥/٥٨).

أنهم مخلوقون مملوكون، ولكن حيث أن لهم عند الله جاهاً عظيماً ومقامات عالية ندعوهم ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عنده، كما يتقرب إلى الوجهاء عند الملوك والسلاطين ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم، وإدراك مآربهم.

وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه الله العظيم ملك الملوك الذى يخافه كل أحد، وتخضع له المخلوقات بأسرها بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء فى تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم. فأبطل الله هذا الزعم.

وبيَّن أن الشفاعة كلها له، كما أن الملك كله له، وأنه لايشفع عنده إلا بأذنه ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله ولا يرضى إلا توحيده، وإخلاص العمل له.

فبين أن المشرك ليس له حظ ولانصيب من الشفاعة.

وبيَّن أن الشفاعة المثبتة التى تقع بإذنه إنما هى الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة، وأنها كلها منه، رحمة منه، وكرامة للشافع ورحمة منه وعفواً عن المشفوع له، وأنه هو المحمود عليها فى الحقيقة، وهو الذى أذن لمحمد ﷺ فيها وأن له المقام المحمود، فهذا يدل عليه الكتاب والسنة فى تفصيل القول فى الشفاعة اهـ.

وقال عبدالله بن جار الله(١): مناسبة هذا الباب للتوحيد: هى أن فيه رد على المشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين، ويقولون: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عنده اهـ.

وقال ابن باز(٢): قد تكلم الناس فى الشفاعة، واضطربت أقوالهم فيها، وشذ المبتدعة بعقيدة باطلة، احتاج العلماء إلى الكلام فيها، ويخصونها بالكلام حتى يعرف المؤمن الحق ويعتقد الاعتقاد الصحيح فيها،

فباب الشفاعة: أى بيان الشفاعة المثبتة والمنفية، والحق والباطل فيها اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ الشفاعة فى كتاب التوحيد، لأن المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنهم شفعاء لهم عند الله، وهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيها بالدعاء والاستغاثة، وما أشبه ذلك.

وهم بذلك يظنون أنهم معظمون لله، ولكنهم منتقصون له؛ لأنه عليم بكل شىء، وله الحكم التام المطلق، والقدرة التامة، فلايحتاج إلى شفعاء.

---

(١) الجامع الفريد (٧٢). (٢) التعليق المفيد (١٠٣).

(٣) القول المفيد (١/ ٤٢٢، ٤٢٣).

ويقولون: إننا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله، فيقربونا إلى الله، وهم ضالون في ذلك، فهو سبحانه عليم قدير وذو سلطان، ومن كان كذلك فإنه لايحتاج إلى شفعاء.

والملوك فى الدنيا يحتاجون إلى شفعاء، إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم، فيساعدهم الشفعاء فى ذلك، أو لقصور سلطانهم، فيتجرأ عليهم الشفعاء فيشفعون بدون استئذان ولكن الله عزوجل كامل العلم والقدرة والسلطان، فلايحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لاتكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

ثم الشفاعة لايراد بها معاونة الله سبحانه وتعالى فى شىء مما شفع فيه، فهذا ممتنع، ولكن يُقصد بها أمران هما:

(١) إكرام الشافع. (٢) نفع المشفوع له اهـ.

[قلت]: بوب المصنف هذا الباب حتى يغلق المصنف بابا من أبواب الشرك، أو سبباً من أسباب الشرك، أو سبباً من أسباب خروج الناس من عبادة الرحمن إلى عبادة الشيطان. فهم قد يخرجون بدعوى أن من يدعوهم من دون الله وسطاء قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(١).

فاتخذوا أولياء من دون الله وزعموا أنهم ماعبدوهم، إنما اتخذوهم وسطاء ليقربوهم إلى الله عزوجل فنفى الله عزوجل ذلك عنهم، وبيَّن أن هذا سبباً من أسباب البعد عن الله، وليس هذا سبباً من أسباب القرب من الله عزوجل.

وأيضاً ربما تعلقوا بالشريك لا من أجل أنه يقربهم كما تقدم، بل من أجل أنه ينفعهم أو يدفع عنهم الضر، فبين الله... أن هؤلاء لايملكون دفع الضر عنهم ولا تحويلا ولا جلب النفع ولو قليلاً وذلك فى غير ما موضع من الأيات.

وزعموا أيضاً أنهم يعبدونهم من أجل البركة أو من أجل التبرك، أو من أجل التماس بعض البركة منهم، فنفى ذلك المصنف فى باب «من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما، أو فى الباب قبل ذلك «من علّق تميمة فلا أتم الله له».

وفيه نفى أن يكون هؤلاء الشركاء منهم بركة أو هم سبب من أسباب البركة، سواء كان هذا الشريك شجر أو حجر، أو أنس أو جن أو ملك.

---

(١) الزمر: ٣

• وأيضا فى هذا الباب: (الشفاعة).

اتخذ الناس شركاء من دون الله لابقصد الشرك بزعمهم ولكن زعموا أنهم شفعاء لهم وقالوا «هؤلاء شفعاؤنا عند الله»، فعبدوهم مع أنهم ربما إعتقدوا أنهم لاينفعونهم، ولايضرونهم وزعموا أنهم ما عبدوهم إلا لأنهم شفعاء لهم عندالله.

• فأراد المصنف فى باب الشفاعة أن يبين أن هذا سبب من أسباب حرمان الشفاعة، وليس سبب من أسباب الشفاعة، فالشفاعة لاتنال إلا كما قال الله عزوجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ يعنى بالقرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[1] فهم ذهبوا إلى الله عزوجل ليس لهم من دون الله ولى ولاشفيع. ولى: يعنى نصير أو معضد أو معين، ولاشفيع يشفع لهم من دون الله عزوجل فالله هو الولى لهم، والله هو المشفّع فيهم، والله هو الشفيع - سبحانه وتعالى - لهم.

• وأيضاً قال تعالى ينفى هذه الشفاعة المزعومة وينفى هذه الشفاعة الشركية فيقول: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[2] ليست للحسن ولا للحسين ولا للشركاء أياً كانوا إنس أم جن أو نبى أو ولى ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ شفاعة مباشرة من الله عزوجل - بغير سبب من الأسباب من المخلوقين أذن لهم فى الشفاعة، وشفاعة من المخلوقين للمخلوقين بإذن من رب العالمين.

• وأيضاً قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[3].

وهو استفهام للنفى والإنكار، أى من هذا الذى يشفع عند الله بدون إذن الله عزوجل تزعمون أن هؤلاء شفعاء، فإن كانوا شفعاء، فالله - عزوجل - لابد أن يرضى عنهم ثم يأذن لهم، والله - عزوجل - لم يخبركم أنه رضى عنهم ولا أذن لهم ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ وقال تعالى ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[4] وهؤلاء ملائكة مقربون ومع ذلك لاتغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد إذن الله ورضاه عن الشافع والمشفع فيه.

• وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ﴾[5].

(١) الأنعام: ٥١. (٢) الزمر: ٤٤. (٣) البقرة: ٢٥٥.
(٤) النجم: ٢٦. (٥) سبأ: ٢٢.

فهم إن أيقنوا أن الشركاء ليس لهم مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض.

فهم ادعوا قالوا «لعلهم يملكون» فنفى الله ـ عزوجل ـ أن يكون لهم ملك.

فقالوا نعم ليس لهم ملك ولكنهم مشاركون، فنفى سبحانه وتعالى الشريك يقول﴿ومالهم فيهما من شرك﴾ الآية .

فقالوا لعلهم ليسوا بشركاء ولابذوى أملاك لكن لعلهم معاونون أو مناصرون لله ـ عزوجل.

فنفى الله ـ عزوجل ـ ذلك بقوله : ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ من نصير ولامعاون.

فقالوا: ليسوا شركاء ولا أصحاب أملاك ولا مناصرين لله ـ عزوجل. ولكن لعلهم شفعاء، كما أن الملك يكون له شريك فى الملك ـ ولله المثل الأعلى ـ أوأن يكون له معاون؛ فالشريك من حقه أن يتحكم فى الشريك الآخر فنفى. الله الشركة والمعاونة والظهير.

فقالوا: لعلهم يشفعوا عنده لدلالهم عليه.

فقال الله تعالى مبيناً أن هذه الشفاعة تقدح فى ملك الملك لأنه فى الحقيقة من نقص الملوك أن يكون عندهم شفعاء، يشفعون بإذنه أو بغير إذنه، سواء هم معاونون له أو غير ذلك، فيجىء أدنى من هو فى المملكة ليزور ويُسِّرب أى شىء على الملك ويتعدى عليه ويفعل أى شىء من وراءه.

فتعالى الله ـ عزوجل ـ عن ذلك علواً كبيراً فلا قادح فى ربوبيته ولا شفيع إلا من بعد إذنه، وإلا لمن ارتضى حتى وإن كان مقرَّب، حتى وإن كان نبياً، حتى وإن كان حبيباً إلى الله ـ عزوجل ـ فهولاء لا أحد منهم يشفع إلا بعد رضى الله عنه وبعد إذن الله ـ عزوجل ـ له.

فهم ظنوا أن ملك الله ـ عزوجل ـ كملك الناس، فظنوا أن هناك مدخل من باب الشفاعة فقطع المصنف عليهم بالأدلة القرآنية والنبوية هذا الباب وبيَّن أن أسعد الناس بشفاعة النبى ﷺ هم الموحدون المخلصون فى توحيدهم، لا المشركون المبتعدون عن توحيد رب العالمين بهذا الشرك.

لذا فقد جوزوا بجزاء من جنس عملهم، أتخذوا الشركاء بقصد الشفاعة فحرموا الشفاعة، فلذلك بوّب المصنف هذا الباب وأورد هذه الأدلة. والله أعلم.

● **شبه الشفاعة والجواب عليها:**

الأولى: فإن قلت: إذا كان من اتخذ شفيعاً عند الله إنما قصده تعظيم الرب تعالى وتقدس أن يتوصل إليه بالشفعاء؟ فلم كان هذا القدر شركاً؟!

الجواب: قال سليمان آل الشيخ(١): قصده للتعظيم لايدل على أن ذلك تعظيم لله تعالى، فكم من يقصد التعظيم لشخص ينقصه بتعظيمه، ولهذا قيل فى المثل المشهور: (**يضر الصديق الجاهل، ولا يضر العدو العاقل**)، فإن اتخاذ الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية، وتنقص للعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: **﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾**(٢) الآية، فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره من اتخذ من دونه نداً، أو شفيعاً يحبه ويخافه ويرجوه، ويذل ويخضع له ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته، ويدعوه ويذبح له، وينذر، وهذه هى التسوية التى أثبتها المشركون بين. الله وبين آلهتهم، وعرفوا وهم في النار أنها كانت باطلاً وضلالاً، فيقولون وهم فى النار **﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**(٣) ومعلوم أنهم ما ساووهم به فى الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا إن آلهتكم خلقت السموات والأرض، وأنها تحيي وتميت، وإنما ساووهم به فى المحبة والتعظيم والعبادة، كما نرى ما عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام، وإنما كان ذلك هضماً لحق الربوبية، وتنقيصاً لعظمة الألوهية، وسوء ظن برب العالمين، لأن المتخذ للشفعاء والأنداد، إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو معين، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غنى عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشفيع، وإما أن يظن أن لايعلم حتى يعلمه الشفيع، أو لايرحم حتى يجعله الشفيع يرحم، أو لا يكفى وحده، أو لايفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده، كما يشفع عند المخلوق أو لايجيب دعاء عباده حتى يسألوا الشفيع أن يرفع حاجتهم إليه، كما هو حال ملوك الدنيا.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) الفتح : ٦ (٣) الشعراء : ٩٧، ٩٨

وهذا أصل شرك الخلق، أو يظن أنه لايسمع حتى يرفع الشفيع إليه ذلك أو يظن أن للشفيع عليه حقاً فهو يقسم عليه بحقه، ويتوسل إليه بذلك الشفيع، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم، ولاتمكنهم مخالفته، وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها. ذكر معناه ابن القيم فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أن ذلك شرك، ونزه نفسه عنه، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أهـ.

الثانية: فإن قلت: إنما حكم سبحانه وتعالى بالشرك على من عبد الشفعاء، أما من دعاهم للشفاعة فقط، فهو لم يعبدهم، فلايكون ذلك شركاً.

الجواب: قال سليمان آل الشيخ[1]: مجرد اتخاذ الشفعاء ملزوم للشرك، والشرك لازم له، كما أن الشرك ملزوم لتنقيص الرب سبحانه وتعالى، والتنقيص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبى، وعلى هذا فالسؤال باطل من أصله، ولا وجود له فى الخارج. وإنما هو شيء قدره المشركون فى أذهانهم، فإن الدعاء عبادة، بل هو مخ العبادة، فإذا دعاهم للشفاعة فقد عبدهم، وأشرك فى عبادة الله شاء أم أبى أهـ.

*** مدخل للباب يعرض موجز لما تضمنه:**

قال الفقير وسنعرض إن شاء الله فى هذا الباب معنى الشفاعة فى اللغة، والاصطلاح.

وتفسير قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ ثم أكر على أقسام الشفاعة، لأن العلماء قالوا فى تفسير قول الله تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أفادت أن الشفاعة أقسام وأنواع.

فالشفاعة تنقسم من حيث الشافع إلى قسمين.

أولاً: شفاعة لرب العالمين خالصة بغير سبب من المخلوقين أذن لهم فى الشفاعة.

وتنقسم هذه الشفاعة إلى شفاعة الله وشفاعة لكلام الله ـ عزوجل ـ القرآن.

ثانياً: شفاعة المخلوقين فى المخلوقين بإذن رب العالمين ـ وتنقسم إلى أربعة أقسام:

(١) شفاعة الملائكة.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٠٣).

(٢) شفاعة النبيين.

(٣) شفاعة النبى ﷺ وهى تنقسم أيضاً إلى ستة أقسام:

١ـ شفاعته لأهل الموقف من أمته ومن غيرهم (الشفاعة العظمى).

٢ـ شفاعته لقوم قد وجبت لهم النار ببعض ذنوبهم من الموحدين، فشفع لهم فى ألا يدخلوها.

٣ـ والشفاعة الثالثة لأقوام من أمته دخلوا النار فيخرجون بفضل الله وبشفاعة النبى ﷺ.

٤ـ دخول الجنة لأهل الجنة، فهم يقفون على بابها حتى يشفع لهم الرسول ﷺ فى دخولها فيدخلوها.

٥ـ فى قوم دخلوا الجنة فيشفع لهم الرسول ﷺ فى رفع درجاتهم فى الجنة.

٦ـ شفاعته فى بعض أهله من الكفار أن يخفف عنهم العذاب وهى خاصة بالنبى ﷺ وبعمه أبى طالب فقط، وأصل الحديث ثابت فى الصحيح أنه يوضع فى ضحضاح من نار تغلى منه دماغه.

كما تنقسم شفاعةالنبى ﷺ من وجه آخر إلى قسمين:

١ـ شفاعة فى الدنيا فيما يستطيعه قدراً وشرعاً وفيه حديث الرجل الأعمى الذى سأل النبى ﷺ أن يرد عليه بصره فدعى له ﷺ بعد أن أمره أن يتوضأ ويُصلى ركعتين ويسأل الله أن يُشفع الرسول ﷺ، فيه وأن يقبل دعوة الرسول فيه، وهذه شفاعة فيما يستطيعه ﷺ قدراً وشرعاً وهو حىٌ فى الدنيا.

٢ـ والشفاعة فى الآخرة وهى التى تنقسم إلى الستة أقسام السابقة.

(٤) شفاعة المؤمنين وهى تنقسم إلى قسمين:

١ـ شفاعة فى الدنيا فيما يقدر عليه المؤمن وهو حى قدراً وشرعاً، كما فى قوله ﷺ الثابت فى الصحيح «**اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما يشاء**»(١)، وهذه شفاعة إما فى جلب منفعة أو فى دفع مضرّة، كما تسأل المشفع التجاوز عن الجرائم وجلب المنافع، وأيضاً من شفاعتهم قدراً وشرعاً أن يصلوا على المتوفى، وثبت أيضاً عن نبينا ﷺ أنه قال: «**ما من مسلم يموت فيصلى عليه أمة من الناس يبلغون مئة فيشفعون فيه إلا شفعهم الله فيه يوم القيامة**»(٢) فهذه الشفاعة أصلها فى الدنيا تنفعه يوم القيامة.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٣٢)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٧٧ ـ النووى) عن أبى موسى به.
وانظر «رياض الصالحين» (٢٤٨ ـ بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٧/ ١٧ ـ النووى) عن عائشة به.
وانظر «رياض الصالحين» (٩٣٤ ـ بتخريجنا).

وأيضاً فى رواية «**يبلغون أربعين، فيشفعون فيه إلا شفعهم الله ـ عزوجل ـ فيه**»(١).

٢ـ شفاعة المؤمنين فى الآخرة وفيه أحاديث فى الصحيحين وفى غيرهما.

أن المؤمنين حينما يمرون بالصراط المستقيم فيسقط من يسقط منهم فى النار ـ ثم يدخل من دخل منهم الجنة برحمة الله وفضله فليس هناك أحد أشد دفاعاً عن المؤمنين الذين وقعوا فى النار برحمة من إخوانهم المؤمنين الذين دخلوا فى الجنة فيقولون ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، فيأمر الله ـ عزوجل ـ الملائكة فتنزل تخرجهم من النار تعرفهم بأثار الصلاة وأثار الوضوء، فإن النار تأكل كلَّ شيء من ابن آدم إلا مواضع الصلاة.

وفى ذلك أحاديث كثيرة ستأتى بإذن الله.

ثم بعد ذلك تفسير قول الله تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ**﴾(٢). ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ**﴾.

يُذكر فى تفسير هاتين الآيتين أيضاً أسباب الشفاعة وموانع الشفاعة.

فمن أسباب الشفاعة:

ـ التوحيد كما فى حديث أبى هريرة من أسعد الناس بشفاعتك يارسول الله قال «**ما ظننت أن يسألنى أحد عن هذا السؤال غيرك لعلمى بحرصك على الحديث**» (٣).

وقد استنبطنا فى أول شرح كتاب التوحيدمن هذا الحديث ما استظهره واستنبطه ابن عبدالبرفى «جامع بيان العلم وفضله» أن النبى ﷺ سمى العلم عند الأطلاق علم الدين وخص بالعلم عند الإطلاق علم العقيدة. وذكر فى الحديث أن «**أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه**» (٤).

وهذا الشرط للشفاعة الخاصة، وأما الشفاعة العامة وهى شفاعة الرسول ﷺ لانصراف أهل الموقف من الموقف فلايشترط له هذا الشرط.

أما باقى أنواع الشفاعة المتقدمة فيشترط لها ـ التوحيد ـ وعلى ذلك أدلة كثيرة؟ تكاد تكون متواترة كما قال تعالى ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ الآية.

فوحد الله عزو جل ذكر الولى والشفيع.

---

(١) أخرجه مسلم فى الجنائز (٧/١٨ـ النووى) عن ابن عباس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٩٣٥ـ بتخريجنا).

(٢) الأنعام: ٥١

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٩٩) وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٣٦) بتخريجنا.

(٤) ما قبله

وأيضاً فى تفسير الخشية يذكر ما ثبت فى كتاب السنة لابن أبى عاصم من حديث أنس مرفوعاً يقول الله تبارك وتعالى: «**أخرجوا من النار من ذكرنى أو خافنى فى مقام**»(١). ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾(٢).

ولقوله ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله خالصة من قلبه**».

هناك شروط أخرى للشفاعة العامة التى تعم جميع الشفعاء وجميع المشفع فيهم(٣).

- ألا يكذب بالشفاعة فمن كذب بالشفاعة حرم الشفاعة كما سيأتينا الأثر عزاه ابن حجر فى الفتح لسعيد ابن منصور - وصححه وعزاه الشيخ مقبل فى كتاب بالشفاعة لغيره وأعتمد تصحيح الحافظ.

ولذلك من المناسب أن نقول أن الله - عزوجل - لا يأذن بالشفاعة إلا لشافع موحِّد أو مشفع فيه موحِّد، وأيضا لا يأذن إلا لشافع يؤمن بالشفاعة ولمشفع فيه يؤمن بالشفاعة.

فقد يسأل سائل هل هناك من لايؤمن بالشفاعة؟

الجواب: نعم كالخوارج والمعتزلة، ينكرون أحاديث الشفاعة ويقولون أن صاحب الكبيرة مخلد فى النار ولايعترفون أن النبى ﷺ له شفاعة يخرج بسببها من كان فى النار من أهل القبلة من أصحاب الكبائر كما سيأتينا متواتراً أو يكاد أن يبلغ حد التواتر كما نُقل ذلك من كتاب السنة لابن أبى عاصم، بل وفى الصحيح.

ومن الشروط:

(١) **- الرضى:** فقد يكون موحد له بعض الأفعال أو الأقوال التى لايرضى عنها الله، كما تقدم معنا فى صحيح مسلم «**إن اللعانيين لايكونوا شفعاء ولا شهداء**»(٤) فهو موحد ولكنه قال قولاً أو فعلاً لايرضى الله - عزوجل - عنه، فيحرم الشفاعة، لايكون شافعاً وقد لايكون مشفع فيه، أو لايكون له شفاعات خاصة، وإن كان يكون له بعض الشفاعة إن أذن الله للشفاعة فيه.

ومن الشروط:

(٢) - الإذن

---

(١) السنة لابن أبى عاصم ح ٨٣٣ والترمذى والحاكم وصححه وحسنه الألبانى بالشواهد والمتابعات.

(٢) الأنبياء: ٢٨.

(٣) تقدم قريباً

(٤) سيأتى تخريجه.

وقد يسأل سائل، هل من الممكن أن يوجد موحد والله راضٍ عنه ولايأذن له؟

الإجابة: نعم لأنه قد لايطلب الشفاعة أصلا، والصحابة رضى الله عنهم جميعاً، ولكن لم يثبت أنهم جميعاً شفعاء، لكن قد يكون فيهم الشفيع وفيهم الذى يشفع وفيهم الذى لايشفع، فإما لايشفع لأنه لم يؤذن له، أو إما لم يشفع لأنه لم يقدِّم على الشفاعة أصلاً فيؤذن له.

- ومن هذه الشروط .

الصلاة فالنار تأكل كلَّ شيء من ابن آدم إلا مواضع السجود وهناك شفاعات خاصة لنيل درجات خاصة ولنيل كرامات خاصة، لاتكون إلا لأعمال خاصة، لكن لابد لها من هذه الشروط العامة.

الشفاعات الخاصة:-

شفاعة النبى ﷺ لأهل الجنة فى الدخول أو فى رفع الدرجات.

وهذه لاتكون إلا بأسبابها وهى أعمال خاصة.

١- كالشهيد يؤذن له بالشفاعة فى سبعين من أهل بيته.

٢- وسورة تبارك تشفع لصاحبها.

٣- الصلاة على النبى ﷺ وطلب الوسيلة كما ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر مرفوعاً: «**من قال حين يسمع النداء. اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة**[(١)]....».

٤- كثرة السجود.

كما سيأتينا فى الرجل الذى سأل النبى ﷺ مرافقته فى الجنة، **قال لاتسألنى غير ذلك أو قال «أو غير ذلك»؟!** قال: لاغير ذلك، **قال: إذاً فأعنى على نفسك بكثرة السجود.**

فالعمل المتميز لنيل درجة من الشفاعة متميزة.

٦- سكنى المدينة.

كما فى صحيح مسلم من حديث ابن عمر «**أن من سكن المدينة وصبر على لأوائها - شدتها - كنت له شفيعاً يوم القيامة**» [(٢)].

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢/ ١١٢/ ح٦١٤).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٥/ ١٦٢/ ٤٨١).

وهذه أيضاً شفاعة إما عامة وإما خاصة لساكنى المدينة.

وكما أن هناك أسباب فهناك **موانع**:

١ـ الشرك.

٢ـ أو عدم رضى الله عن فعل أو قول للشافع.

٣ـ أو عدم الإذن للشافع لسبب أو بغير سبب.

فذلك فضل الله ـ عزوجل ـ يؤتيه من يشاء. كما سيأتينا أن من حِكَم الشفاعة التفضل على المشفع فيه، وإظهار كرامة الشافع. وهذا آوان الشروع فى الموضوع

● **تعريف الشفاعة:**

الشفاعة فى اللغة:

قال ابن الأثير فى النهاية: قد تكرر ذكر الشفاعة فى الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهى السؤال فى التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع، والمشفِّع: الذى يقبل الشفاعة، والمشفَّع: الذى تقبل شفاعته أهـ.

وفى القاموس وتاج العروس: والشفيع: صاحب الشفاعة. والجمع شفعاء: وهو الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب.

وفيهما أيضاً: وشفعته فيه تشفيعاً حين شفع كمنع شفاعة أى قبلت شفاعته كما فى «العباب»، قال حاتم يخاطب النعمان:

فككت عديا كلها من إسارها   فأفضل وشفعنى بقبس بن جحدر

وفى حديث الحدود: «**إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفِّع**»(١).

وفى حديث ابن مسعود: «**القرآن شافع مشفع، وماحِلٌ مصدَّق**»(٢). أى من اتبعه وعمل بما فيه فهو شافع مقبول الشفاعة من العفو عن فرطاته، ومن ترك العمل به تم على إساءته، وصدق عليه فيما يرفع من مساويه، فالمشفع، الذى يقبل الشفاعة، والمشفَّع الذى تقبل شفاعته، ومنه حديث: «**اشفع تشفع**» واستشفعه إلى فلان: أى سأله أن يشفع له إليه.

---

(١) سيأتى

(٢) سيأتى

وَقَوْلُ اللهِ عزَّوَجَلَّ: ﴿وأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(١).

والمعانى الشرعية موافقة للمعان اللغوية فمن الشفعاء من يشفع ابتداء. ومنهم من يشفع بعد الطلب، كما سيأتى إن شاء الله بيانه فى الأحاديث(٢). اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): والشفاعة لغة: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشىء اثنين، والشفع ضد الوتر. قال تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾.

واصطلاحاً: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبى ﷺ لأهل الجنة يدخلوها.

ومثال دفع المضرة: شفاعة النبى ﷺ لمن استحق النار أن لايدخلها.



قوله: وقول الله عزوجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ...﴾ الآية.

● **مناسبة الآية للباب:**

قال سليمان آل الشيخ(٤): الآية دليل على نفى إتخاذ الشفعاء من المؤمنين، وعلى نفيها بغير إذن الله، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع كما قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وليس فى الآية دليل على نفى الشفاعة لأهل الكبائر بإذن الله كما ادعته المعتزلة اهـ.

وقال عبدالله بن جار الله(٥): دلت على أن المؤمنين الذين أخلصوا نيتهم، وعملوا لله، وتركوا التعلق على الأولياء والشفعاء اهـ.

وقال القرعاوى(٦): حيث دلت الآية على نفى الشفاعة التى لم تتوافر شروطها أهـ.

---

(١) الأنعام: ٥١

(٢) الشفاعة ص٦و٧و٨ للشيخ مقبل.

(٣) القول المفيد ١/ ٤٣٣.

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٠٤) بتقديم وتأخير.

(٥) الجامع الفريد (٧٤).

(٦) الجديد (١٥٥).

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى: حيث دلت الآية على نفى الشفاعة عن المخلوق استقلالاً فيكون طلبها من المخلوق شركاً أكبر ومن ذلك طلبها من الأوثان التى زعموا أنهم يعبدونها للشفاعة اهـ.

● الإعراب [1]:

﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ**﴾ الواو عاطفة والكلام معطوف على ما تقدم معدولاً به إلى توجيه الإنذار للذين يتفرس فيهم قبول الاتعاظ والإستعداد لتقبله، وهم المؤمنون العاصون، وأنذر فعل أمر، وبه جار ومجرور متعلقان بأنذر والذين اسم موصول مفعول به وجملة يخافون صلة الموصول، وأن وما بعدها فى تأويل مصدر مفعول يخافون ﴿**لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ الجملة حال من الضمير فى أن يحشروا، أى: أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولى لهم يواليهم ولانصير ولاشفيع يشفع لهم من دون الله، وليس فعل ماض ناقص ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، وولى اسم ليس، ولاشفيع عطف على ولى، ولعل واسمها وجملة يتقون خبرها، وجملة الرجاء حالية.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قوله: ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ**﴾: أى بالقرآن. كما سيأتى بيان ذلك.

كقوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾.

وقوله: ﴿**لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ وكقوله: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾. وقوله: ﴿**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ**﴾.

سبب نزول الآية:

عن عبدالله بن مسعود قال: «مر الملأ من قريش على النبى ﷺ وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك منّ الله عليهم من بيننا، أو نحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل فيهم القرآن ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ**﴾» [2] اهـ.

---

(1) إعراب القرآن الكريم (٣/ ١٢٠، ١٢١).

(2) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٢٤) ونسبه لأحمد، وابن جرير، وابن أبى حاتم، والطبرانى، وأبى الشيخ، وابن مر دويه، وأبى نعيم فى «الحلية».

وأنظر «فتح القدير» وتفسير ابن حاتم بتخريجنا.

قال ابن جرير(١): هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بتعليم أصحابه ما أنزل الله إليه من وحيه وتذكيرهم والإقبال عليهم بالأنذار، وصده عن المشركين به بعد الإعذار إليهم، وبعد إقامة الحجة عليهم حتى يكون الله هو الحاكم فى أمرهم بما يشاء من الحكم فيهم أهـ.

ـ **قال ابن جرير**(٢): يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وأنذر يا محمد بالقرآن الذى أنزلناه إليك أهـ.

ـ **وقال البغوى**(٣): قوله تعالى: ﴿وأَنذِرْ بِهِ﴾ خوف به، أى بالقرآن اهـ.

ـ **وقال الزمخشرى**(٤): ﴿وأَنذِرْ بِهِ﴾ الضمير راجع إلى ما يوحى إلىّ اهـ.

ـ **وقال ابن الجوزى**(٥): ﴿بِهِ﴾ قال الزجاج بالقرآن أهـ.

ـ **قال الفخر الرازى**(٦): الإنذار؛ الإعلام بموضع المخافة، وقوله ﴿بِهِ﴾ قال ابن عباس والزجاج بالقرآن، والدليل عليه قوله تعالى قبل هذه الآية: **﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾**.

وقال الضحاك: ﴿وأَنذِرْ بِهِ﴾ أى بالله، والأول أولى؛ لأن الإنذار يقع بالقول وبالكلام لابذات الله تعالى اهـ.

ـ **قال القرطبى**(٧) **بنحو كلام الرازى وزاد**: وقيل: ﴿بِهِ﴾ باليوم الآخر اهـ.

ـ **وقال ابن كثير**(٨) **بنحو كلام المفسرين السابق.**

ـ **وقال السعدى**(٩): هذا القرآن نذارة للخلق كلهم أهـ.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ كقوله تعالى ﴿الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مشفقون﴾ ﴿الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾.

قال ابن جرير(١٠): القوم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، علماً منهم بأن

(١) تفسير ابن جرير (٥/٧/١٢٧).
(٢) تفسير الطبرى (٥/٧/١٢٧)
(٣) معالم التنزيل (٢/ ٣٦١).
(٤) الكشاف (٢/ ١٦).
(٥) زاد المسير (٣/ ٣٥).
(٦) التفسير الكبير (٦/ ١٢/ ٢٤٤).
(٧) تفسير القرطبى (٤/ ٢٤٢٨).
(٨) ابن كثير (٢/ ١٢٨).
(٩) تفسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٥).
(١٠) تفسير الطبرى (٥/٧/١٢٧).

ذلك كائن، فهم مصدقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يرضى الله، دائمون فى السعى فيما ينقذهم فى معادهم من عذاب الله ثم قال: وقيل ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ومعناه يعلمون أنهم محشرون، فوضعت المخافة موضع العلم؛ لأن خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك ووجوده من غير شك منهم فى ذلك اهـ.

ـ **وقال البغوى**[1]: ﴿يُحْشَرُوا﴾ يجمعوا ويبعثوا قوله تعالى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وقيل ﴿يَخَافُونَ﴾ يعلمون؛ لأن خوفهم إنما كان من علمهم اهـ.

ـ **وقال الزمخشرى**[2]: إما قوم داخلون في الإسلام مقرون بالبعث، إلا أنهم مفرطون فى العمل فينذرهم بما يوحى إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى يدخلون فى زمرة المتقين من المتعلمين، وإما أهل الكتاب؛ لأنهم مقرون بالبعث. وإما ناس من المشركين، عُلم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا، فهم ممن يُرجى أن ينجع فيهم الأنذار دون المتمردين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء اهـ.

ـ **وقال ابن الجوزى**[3]: وإنما ذكر الذين يخافون الحشر دون غيرهم، وإن كان منذر لجميع الخلق لأن الحجة على الخائفين الحشر أظهر؛ لاعترافهم بالمعاد، فهم أحد رجلين:ـ

إما مسلم فينذر ليؤدى حق الله عليه فى إسلامه.

وإما كتابى، فأهل الكتاب مجمعون على البعث أهـ.

ـ **وقال الفخر الرازى**[4] **بتفصيل أوضح وأظهر لهذه الأقوال حيث قال:**

ففيه أقوال: [الأول] أنهم الكافرون الذين تقدم ذكرهم، وذلك أنه ﷺ كان يخوفهم من عذاب الآخرة، وقد كان بعضهم يتأثر من ذلك التخويف، ويقع فى قلبه أنه ربما كان الذى يقول محمد حقاً، فثبت أن هذا الكلام لائق بهؤلاء، لايجوز حمله على المؤمنين؛ لأن المؤمنين يعلمون أنهم يحشروا إلى ربهم، والعلم خلاف الخوف والظن (ولقائل أن يقول): أنه لايمتنع أن يدخل فيه المؤمنون؛ لأنهم وإن تيقنوا الحشر، فلم يتيقنوا العذاب الذى يخاف منه، لتجويزهم أن يموت أحدهم على الإيمان والعمل الصالح، وتجويز ألا

---

(١) معالم التنزيل (٢/ ٣٦١).

(٢) الكشاف (٢/ ١٦).

(٣) التفسير الكبير (٦/ ١٢/ ٢٤٤).

(٤) زاد المسير (٣/ ٣٥).

يموت على هذه الحالة، فلهذا السبب كانوا خائفين من الحشر؛ بسبب أنهم كانوا مجوزين لحصول العذاب وخائفين منه.

[القول الثانى]: أن المراد منه المؤمنون؛ لأنهم هم الذين يقرون بصحة الحشر والنشر والبعث والقيامة، فهم الذين يخافون من عذاب ذلك اليوم.

[والقول الثالث]: أنه يتناول الكل؛ لأنه لا عاقل إلا وهو يخاف الحشر سواء قطع بحصوله أو كان شاكاً فيه؛ لأنه بالاتفاق غير معلوم البطلان بالضرورة، فكان هذا الخوف قائماً فى حق الكل، ولأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل، وكان مأموراً بالتبليغ إلى الكل اهـ.

وقال القرطبى(١) بنحو كلام المفسرين السابق وزاد:

﴿**يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا**﴾ يتوقعون عذاب الحشر. وقيل ﴿**يَخَافُونَ**﴾ يعلمون، فإن كان مسلماً أنذر ليترك المعاصى، وإن كان من أهل الكتاب أنذر ليتبع الحق أهـ.

وقال: الأول أظهر: أى المؤمنون.

ـ **قال الشوكانى(٢)**: يشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين وأهل الذمة وبعض المشركين، وقيل: معنى الخوف على حقيقته.

والمعنى: أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبى ﷺ أن يذكره، وإن لم يكن مصدقاً به فى الأصل، لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبى ﷺ فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع. اهـ.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

ـ **قال ابن جرير(٣)**: قوله: ﴿**لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ**﴾ أى ليس لهم من عذاب الله إن عذبهم ولى ينصرهم فيستنقذهم منه. ﴿**وَلَا شَفِيعٌ**﴾ يشفع لهم عند الله تعالى فيخلصهم من عقابه اهـ.

ـ **وقال البغوى(٤)**: قوله ﴿**لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ**﴾ قريب ينفعهم، ﴿**وَلَا شَفِيعٌ**﴾ يشفع لهم ثم قال وإنما نفى الشفاعة لغيره مع أن الأنبياء والأولياء يشفعون؛ لأنهم لايشفعون إلا بإذنه أهـ.

---

(١) تفسير القرطبى (٤/٢٤٢٨).
(٢) فتح القدير (٢/ ١٢٣، ١٢٤).
(٣) تفسير الطبرى (٥/٧/ ١٢٧).
(٤) معالم التنزيل (٢/ ٣٦١).

ـ **وقال الزمخشري**[1]: قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من يحشروا، بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين، ولامشفوعاً لهم، ولابد من هذه الحال؛ لأن كلاً محشور فالمخوف إنما هو الحشر على هذه الحال اهـ.

ـ **وقال ابن الجوزي**[2]: وذكر الولي والشفيع؛ لأن اليهود والنصارى ذكرت أنها أبناء الله وأحباؤه، فأعلم سبحانه وتعالى أن أهل الكفر ليس لهم من دونه ولي ولاشفيع. وقال غيره ـ أي الزجاج صاحب القول السابق ـ: ليس لهم من دونه ولي، أي: ليس لهم غير الله ولي ولا شفيع؛ لأن شفاعة الشافعين بأمره اهـ.

ـ **وقال الفخر الرازي**[3]: قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ قال الزجاج موضع (ليس) نصب على الحال، كأنه قيل: متخلين من ولي ولاشفيع، والعامل فيه (يخافون)، ثم ههنا بحث: وذلك لأنه إن كان المراد من ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الكفار، فالكلام ظاهر؛ لأنهم ليس لهم عند الله، وذلك لأن اليهود والنصارى كانوا يقولون (نحن أبناء الله وأحباؤه) والله كذبهم فيه، وذكر أيضاً في آية أخرى، فقال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، وقال أيضاً ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وإن كان المراد المسلمين، فنقول: قوله ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ لاينافي مذهبنا في إثبات الشفاعة للمؤمنين؛ لأن شفاعة الملائكة والرسل للمؤمنين، وإنما تكون بإذن الله تعالى لقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ فلما كانت تلك الشفاعة بإذن الله، كانت في الحقيقة من الله تعالى اهـ.

ـ **وقال القرطبي**[4]: ﴿شَفِيعٌ﴾ هذا رد على اليهود والنصارى في زعمهم أن أباهما يشفع لهما حيث قالوا (نحن أبناء الله وأحباؤه) والمشركون حيث جعلوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله فأعلم الله أن الشفاعة لاتكون للكفار، ومن قال الآية في المؤمنين قال: شفاعة الرسول لهم تكون بإذن الله، فهو الشفيع حقيقة إذن، وفي التنزيل ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ اهـ.

---

(١) الكشاف (٢/ ١٦).

(٢) زاد المسير (٣/ ٣٥).

(٣) التفسير الكبير (٦/ ١٢/ ٢٤٥).

(٤) تفسير القرطبي (٤/ ٢٤٢٨).

ـ وقال ابن كثير[1]: قوله ﴿لَيْسَ لَهُم﴾ أى يومئذ ﴿مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أى قريب لهم، ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم اهـ.

ـ وقال الشوكانى[2] بنحوٍ مما تقدم من أقول المفسرين.

ـ وقال السعدى[3]: قوله ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ ولا من يشفع لهم؛ لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شىء اهـ.

ـ وقال فى حاشية الزمخشرى:

وليس كل خائف من البعث لاشفيع له فإن الموحدين أجمعين خائفون وهم مشفوع لهم، وإن عنى باللازمة التى لاينفك ذو الحال عنها كالتى فى قوله وهو الحق مصدقاً فإنما هو حينئذ يبنى على قاعدته فى إنكار الشفاعة فكل خائف عنده لاشفيع له إذ لايخاف إلا أصحاب الكبائر غير التائبين: أو الكفار والكل عنده سواء لاشفيع لهم وحيث أثبتت الشفاعة جعلها خاصة بزيادة الثواب فلاينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح وتكون الشفاعة مفيدة للمزيد على ما يرضيه فهذا عنده لايخاف من البعث لأنه يستوجب الجنة فمن ثم جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان: غير خائف فلاتناوله الآية، وخائف: فذاك إنما خاف لأنه استوجب العقاب فلا شفاعة تناله وهذه من دفائنه الخفية ومكامنه المزوية فتفطن لها والله الموفق برحمته اهـ.

قوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أخرج ابن أبى حاتم[4] بسنده عن الضحاك: لعلهم يتقون النار بالصلوات الخمس.

وبسنده أيضاً عن مجاهد : لعلهم يطيعون أهـ.

قال ابن جرير[5]: يقول: أنذرهم كى يتقوا الله فى أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سخطه باجتناب معاصيه أهـ.

ـ وقال البغوى[6]: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فينتهون عما نهوا عنه أهـ.

ـ وقال الزمخشرى[7]: ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بانذارهم ليتقوا، ثم

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٨).

(٢) فتح القدير (٢/ ١٢٤)

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٦).

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (٤/ ١٢٩٧ / ح٧٣٢٩، ٧٣٣٠).

(٥) تفسير ابن جرير (٥/ ٧/ ١٢٧).

(٦) معالم التنزيل (٢/ ٣٦١).

(٧) الكشاف (٢/ ١٦).

أردفهم ذكر المتقين منهم، وأمرهم بتقريبهم، وإكرامهم، وأن لايطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أى عبادته، ويواظبون عليها اهـ.

ـ **وقال الفخر الرازى**[1]: قوله ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ قال ابن عباس: معناه وأنذرهم لكى يخافوا فى الدنيا وينتهوا عن الكفر والمعاصى.

قالت المعتزلة: وهذا يدل على أنه تعالى أراد من الكفار التقوى والطاعة اهـ.

ـ **وقال القرطبى**[2]: قوله ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ أى فى المستقبل،وهو الثبات على الإيمان اهـ.

ـ **وقال ابن كثير**[3]: قوله ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ فيعملون فى هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به جزيل من ثوابه اهـ.

ـ **وقال السعدى**[4]: قوله ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن الإنذار موجب لذلك وسببه من أسبابه اهـ.



● **كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:**

قال سليمان آل الشيخ[5]: الإنذار: هو الإعلام بموضع المخافة. وقوله: ﴿**بِهِ**﴾ قال ابن عباس: بالقرآن. وقوله: ﴿**الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ**﴾ أى أنذر يا محمد بالقرآن ﴿**الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ**﴾ ﴿**الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب**﴾ وهم المؤمنون كما روى ذلك عن ابن عباس والسدى.

وعن الفضيل بن عياض: ليس كل خلقه عاتب إنما عاتب الذين يعقلون فقال: ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ**﴾ أى وهم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية، فإنهم المقصودون والمنظور إليهم لا أصحاب التجمل والسيادة فإن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم وقوله ﴿**لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ**﴾.

(١) التفسير الكبير (٦/١٢/٢٤٥).
(٢) تفسير القرطبى (٤/٢٤٢٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/١٢٨، ١٢٩).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢/٢٦).
(٥) تسير العزيز الحميد (٢٠٤).

قال الزجاج: موضع ليس نصب على الحال كأنه قال: متخلين من ولى وشفيع والعامل فيه يخافون.

وقال ابن كثير: ليس لهم من دونه يومئذ ولى ولاشفيع من عذابه إن أرادهم به لعلهم يتقون، فيعملون فى هذه الدار عملا ينجيهم الله به من عذابه يوم القيامة

قلت: فنفى سبحانه وتعالى عن المؤمنين أن يكون لهم ولى أو شفيع من دون الله كما هو دين المشركين. فمن اتخذ من دون الله شفيعاً فليس من المؤمنين ولاتحصل له الشفاعة وليس فى الآية دليل على نفى الشفاعة لأهل الكبائر بإذن الله كما ادعته المعتزلة بل فيها دليل على نفى اتخاذ الشفعاء من المؤمنين، وعلى نفيها بغير إذن الله ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع كما قال تعالى ﴿**وما مِن شَفِيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ اهـ.

قال ابن باز[(١)]: وقوله تعالى ﴿ **وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ**﴾ أى أنذر يا محمد بالقرآن﴿**الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا**﴾ ويسمعوا إلى ربهم وهو المسلمون؛ لأن الكفار لم يسمعوا ولم يستجيبوا، والانذار : الإعلام مع التخويف.

- ﴿**لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ**﴾ هذه الشفاعة الباطلة، فإن العباد ليس لهم ولى ولا شفيع بالكلية إلا من رضى الله قوله وعمله فقط؛ لأن الكفار يظنون أن لهم أولياء وشفعاء ينقذونهم من النار، ولايدخلون النار بسببهم حتى عبدهم من دون الله.

﴿**وقالوا هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ**﴾ وقالوا ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾ فبين سبحانه أنه ليس للعباد ولى ولا شفيع دونه، وأن شفاعة الكفار هذه باطلة، وأن الشفاعة الحق هى التى يأذن الله فيها لأنبيائه وأوليائه وأهل طاعته فى أهل التوحيد و الإيمان ، لا فى أهل الكفار والنفاق.

﴿**لعلهم يتقون**﴾ أى لأجل أن يتقوا الله ويستقيموا على دينه إذا عرفوا أنه لاشفاعة ولا ولاية من دونه فيوحدونه ويحذرون من غضبه. اهـ.

وبنحو هذا قال شراح التوحيد ، وقال ابن عثيمين[(٢)]: ﴿**يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا**﴾ أى يخافون مما يقال لهم من سوء العذاب فى ذلك الحشر.

---

(١) التعليق المفيد (١٠٣، ١٠٤)

(٢) القول المفيد ١/ ٤٢٣، ٤٢٤.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[1].

والحشر: الجمع: وقد ضُمِّن هنا معنى الضم والإنتهاء، فمعنى يحشرون، أي: يجمعون حتى ينتهوا إلى الله.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: شافع يتوسط لهم، وهذا محل الشاهد ففى هذه الآية نفى الشفاعة من دون الله، أى من دون إذنه، ومفهومها أنها ثابتة بإذنه، وهذا هو المقصود، الشفاعة من دونه مستحيلة، وبإذنه جائزة وممكنة، أما عند الملوك فجائزة بإذنهم وبغير إذنهم، فيمكن لمن كان قريباً من السلطان أن يشفع بدون أن يستأذن.

ويفيد قوله ﴿مِّن دُونِهِ﴾ أن لهم بإذنه ولياً وشفيعاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ اهـ.

قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾.

قال سليمان آل الشيخ[2]: هكذا أوردها المصنف، ونتكلم عليها وعلى الآية التى قبلها ـ أى من نفس السورة، لا التى قبلها من كلام المصنف ـ ليتضح المعنى.

قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3]. اهـ.

● **مناسبة الآية للباب:**

قال القرعاوى[4]: حيث دلت الآية على أن الشفاعة بجميع أنواعها ملك لله، فلاتنال إلا بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له أهـ.

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

قال القرعاوى[5]: حيث أثبتت الآية ملك لله لايستحقها أحد سواه، فيكون طلبها من غير الله شركاً، ومن ذلك طلبها من الأوثان الذين زعموا أنهم يعبدونهم لأجل الشفاعة اهـ.

● **الإعراب**[6]: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لله خبر مقدم، والشفاعة مبتدأ مؤخر، واللام ﴿لِّلَّهِ﴾ للملك أى أنه مختص بها لايملكها أحد إلا بتمليكه، و﴿جَمِيعًا﴾ حال اهـ.

---

(١) الزمر: (٤٤).
(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٠٤، ٢٠٥)
(٣) الزمر(٤٣، ٤٤).
(٤) الجديد (١٥٧)
(٥) الجديد (١٥٧).
(٦) إعراب القرآن (٨/ ٤٢٧)

وقال ابن عثيمين[1] كذلك وزاد: وقدم الخبر للحصر، والمعنى: لله وحده الشفاعة كلها، لايوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته اهـ.

ما جاء من كلام المفسرين في تفسيرها:

وهي كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[2].

وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[3] فكذبهم وكفرهم بذلك.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[4].

عن قتادة في قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ قال الآلهة[5].

وعن مجاهد في قوله ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ قال: لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه[6] أهـ.

قال ابن جرير[7]: يقول تعالى ذكره: أم اتخذ هؤلاء المشركون بالله من دونه آلهتهم التي يعبدونها شفعاء تشفع لهم عند الله في حاجاتهم.

وقوله: ﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل يا محمد لهم أتتخذون هذه الآلهة شفعاء كما تزعمون، ولو كانوا لا يملكون لكم نفعًا ولا ضرًا، ولا يعقلون شيئًا؟! ﴿قُلْ﴾ لهم إن تكون تعبدونها لذلك وتشفع لكم عند الله، فأخلصوا عبادتكم لله، وأفردوه بالألوهية، فإن الشفاعة جميعًا له، لا يشفع عنده إلا من أذن له، ورضي له قولاً، وأنتم متى أخلصتم له العبادة، فدعوتموه شفعكم.

---

(١) القول المفيد (١/ ٤٢٥).
(٢) يونس/ ١٨
(٣) الزمر/ ٢٣.
(٤) الأحقاف/ ٢٨.
(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٥/ ٦١٨) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير.
(٦) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث والنشور».
(٧) تفسير ابن جرير (١١/ ٢٤/ ٧)..

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يقول له سلطان السموات والأرض وملكها، وما تعبدون أيها المشركون من دونه ملك له يقول: فاعبدوا الملك لا المملوك الذى لا يملك شيئًا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: ثم إلى الله مصيركم، وهو معاقبكم على إشراككم به إن متم على شرككم، ومعنى الكلام ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فاعبدوا المالك الذى له ملك السموات والأرض الذى يقدر على نفعكم فى الدنيا وعلى ضركم فيها، وعند مرجعكم إليه بعد مماتكم، فإنكم إليه ترجعون اهـ.

وقال البغوى(1) : ﴿أَوَ لَوْ كَانُوا﴾ وإن كانوا يعنى الآلهة ﴿لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ من الشفاعة ﴿وَلا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم، وجواب هذا محذوف تقديره: وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم شفعاء اهـ.

وقال الزمخشرى(2): ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أى هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين : أن يكون المشفوع له مرتضى، وأن يكون الشفيع مأذونًا له، وههنا الشرطان مفقودان.

وقال ابن الجوزى(3): **قوله** : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ يعنى كفار مكة، وفى المراد بالشفعاء قولان:

أحدهما: أنها الأصنام، زعموا أنها تشفع لهم فى حاجاتهم، قاله الأكثرون.

والثانى: الملائكة، قاله مقاتل.

﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ من الشفاعة ﴿وَلا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم؟

وجواب هذا الاستفهام محذوف، تقديره: أو لو كانوا بهذه الصفة تتخذونهم؟! أهـ

قلت: وهذا كقول البغوى السابق .

﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أى لا يملكها أحدٌ إلا بتمليكه، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه اهـ.

وقال الفخر الرازى(4): وزاد قولاً ثالثًا والمراد بالشفعاء أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها.

---

(1) معالم التنزيل (٥/ ١٩, ٢٠)

(2) الكشاف (٣/ ٣٤٩).

(3) زاد المسير (٧/ ٥٦, ٥٧).

(4) التفسير الكبير (١٣/ ٢٦/ ٢٨٦).

ثم قال: ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله ، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذى يأذن فى تلك الشفاعة، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ . . . اهـ.

وقال القرطبى[1]: قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ نص فى أن الشفاعة لله وحده. اهـ.

وقال ابن كثير[2]: يقول تعالى ذامًا للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهى لا تملك شيئًا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هى جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير، ثم قال: قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضى وأذن له فمرجعها كلها إليه. اهـ.



ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:

قال الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3] .

قال سليمان آل الشيخ[4]: فقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أى: بل اتخذوا، أى: المشركون والهمزة للإنكار من دون الله شفعاء، أى: أتشفع لهم عند الله بزعمهم كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[5] الآية، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[6] فكذبهم وكفرهم بذلك، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا

(١) تفسير القرطبى (٨/ ٥٧٠٧، ٥٧٠٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥).
(٣) الزمر / (٤٣، ٤٤).
(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٠٤، ٢٠٥).
(٥) سورة يونس، الآية : ١٨.
(٦) سورة الزمر ، الآية : ٣.

آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1] فهذا هو مقصود المشركين ممن عبدوهم وهو الشفاعة لهم عند الله.

قوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ، أى: من دون إذنه وأمره، والحال أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأن يكون المشفوع له مرتضى، وههنا الشرطان مفقودان، فإن الله سبحانه لم يجعل اتخاذ الشفعاء ودعاءهم من دونه سببًا لإذنه ورضاه، بل ذلك سبب لمنعه وغضبه.

قوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾[2] أى: أيشفعون ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم، أو أموات كذلك، حتى ولا يملكون الشفاعة كما قال: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[3] أى : هو مالكها كلها فليس لمن تدعونهم منها شىء.

قال البيضاوى: لعله رد لما عسى يجيبون به وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون، هى تماثيلهم.

والمعنى أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه، ولا يستقل بها، وقوله: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4] تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دون الله بأنه مالك الملك كله، لا يملك أحد أن يتكلم فى أمره دون إذنه ورضاه، فاندرج فى ذلك ملك الشفاعة، فإذا كان هو مالكها بطل اتخاذ الشفعاء من دونه كائن من كان، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أى : فتعلمون أنهم لا يشفعون، ويخيب سعيكم فى عبادتهم، بل يكونون عليكم ضدًا ويتبرؤون من عبادتكم كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[5] وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾[6].

---

(١) الأحقاف : ٢٨.

(٢) الزمر : ٤٣.

(٣) الزمر : ٤٤.

(٤) الحديد : ٢.

(٥) مريم : ٨٢.

(٦) يونس : ٢٨، ٢٩.

وقال ابن عثيمين[1]: فأفادت الآية في قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أن هناك أنواعًا للشفاعة، اهـ.

[قلت]: وهو كما قال:

حيث تنقسم الشفاعة من حيث الشافع إلى قسمين..

الأول: شفاعة رب العالمين، وهذه شفاعة مباشرة بدون سبب من المخلوقين أذن لهم رب العالمين فى الشفاعة.

وهى شفاعة من الخالق للمخلوق.

الثانية: شفاعة المخلوقين فى المخلوقين فى المخلوقين بإذن رب العالمين. وهى أنواع:

أولاً: شفاعة الملائكة.

ثانيًا شفاعة النبى ﷺ

١-الشفاعة الكبرى.

٢- شفاعتهﷺ لأهل الجنة فى دخولها.

٣- شفاعتهﷺ لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم ألا يدخلوها.

٤- شفاعتهﷺ فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم.

٥- شفاعتهﷺ لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم.

٦- شفاعتهﷺ فى بعض أهل الكفر من أهل النار حتى يخفف عذابه وهذه خاصة بأبى طالب وحده.

ثالثًا: شفاعة المؤمنين وهى نوعان:

١- فى الدنيا فيما يقدر- عليه المخلوق قدرًا وشرعًا.

٢- شفاعة فى الآخرة فيما يأذن لهم الله عز وجل فيه.

النوع الأول: شفاعة الخالق للمخلوق.

شفاعة رب العالمين، وهذه شفاعة مباشرة بدون سبب من المخلوقين أذن له فى الشفاعة.

---

(١) القول المفيد (١/ ٤٢٥- ٤٢٩).

مواطن شفاعة الله : بوب ابن أبى عاصم فى كتابه «السنة» فى الشفاعة فى خروج الموحدين من النار.

باب: فى ذكر من يخرج الله بتفضله من النار)

ثم روى بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله تبارك وتعالى: أخرجوا من النار من ذكرنى يومًا أو خافنى فى مقام»**(١).

روى ابن أبى عاصم عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: **يكون قوم فى النار، ما شاء الله أن يكونوا، ثم يرحمهم الله، فيخرجون منها، فيمكثون فى أدنى الجنة فى نهر يقال له الحيوان، لو أضاف أحدهم أهل الدنيا لأطعمهم وسقاهم ولحفهم قال عطاء: وأحسبه قال: ولزوجهم. [لا ينقصه ذلك شيئًا]**(٢).

وعن حذيفة أن رسول الله ـ ﷺ قال : يخرج قوم من النار بعدما محشتهُم النارُ، فيدخلون الجنة، فيسمون الجهنميون.

وأسند عن حذيفة، عن النبى ﷺ قال: **«ليخرجن الله من النار قومًا منتنين قد محشتهم النار، فيدخلون الجنة بشفاعة الشافعين، يسمون فيها الجهنميون»**(٣).

وأسند عن أبى بكرة أن رسول الله ﷺ قال: **«يحمل الناس على الصراط يوم القيامة، فتتقادع**(٤) **بهم جَنَبَتَا الصراط تقادع الفراش فى النار، فينجى الله برحمته من يشاء، ثم أنه يؤذن فى الشفاعة للملائكة والنبيين والشهداء والصديقين، فيشفعون ويخرجون، فيشفعون ويخرجون من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فلقيت**(٥) **أبا بكرة فى جنازة فسألته عن هذا الحديث فحدثنى كما حدثنى**(٦).

وأسند عن عقبة بن صهبان يقول: سمعت أبا بكرة، عن النبى ﷺ **مثله إلى قوله ذرة** من إيمان(٧).

وأسند عن جابر بن **عبد الله** يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وأشار بأصابعه إلى أذنيه: **يخرج** ناس فيدخلون الجنة(٨).

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٣٣). (٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٣٤).

(٣) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٣٦).

(٤) وفى المسند تتقادع والمعنى أن جنبتى الصراط تسقطهم فى النار بعضهم فوق بعض قوله: (فلقيت .) من كلام أبى سليمان البصرى.

(٥) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٣٧)

(٦) فلقيب . . من كلام أبى سليمان البصرى .

(٧) أخرجه ابن أبى حاتم (٨٣٨) وإسناده حسن أو محتمل للتحسين.

(٨) أخرجه فى المصدر السابق (٨٣٩)

وأسند عن جابر يقول سمعت النبى ﷺ يقول. «**إن الله يخرج ناس من النار فيدخلهم الجنة**[1]».

وأسند عن حماد بن زيد قال: سألت عمرو بن دينار: أسمعت جابر بن عبد الله يحدث عن النبى ﷺ **إن الله يخرج قومًا من النار بالشفاعة ؟ فقال: نعم**[2].

وأسند عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: **يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تبارك وتعالى: أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا، فيلقون فى نهر الحياء أو الحياة، شك مالك، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ألم ترَ أنها تخرج صفراء ملتوية**[3]؟

وأسند عن أبى موسى[4] قال: قال رسول الله ﷺ: **إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة يقول الكفار: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا فى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيسمع ما قالوا، فأمر بمن كان من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك أهل النار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا، قال: وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**[5].

وأسند عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **إذا أخرج الله أهل النار من النار بشهادة أن لا إله إلا الله تمنى الآخرون لو كانوا مسلمين**[6].

وأسند عن أنس أن نبى الله ﷺ قال[7]:

لَيُصِيبَنَّ أقواماً سَفْع من النار عقوبة بذنوب أصابوها ثم ليدخلهم الجنة بفضل رحمته.

وأسند عن شقيق، عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله تبارك وتعالى: **﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾**[8] **قال: أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله قال: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صُنِع إليهم المعروف فى الدنيا**[9].

وأسند عن أنس، عن النبى ﷺ مثله[10].

(١) [صحيح] لمصدر السابق (٨٤٠) وأخرجه مسلم (١/ ١٢٢).

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٤١).

(٣) المصدر السابق (٨٤٢).

(٤) المصدر السابق (٨٤٣).

(٥) الحجر: ١.

(٦) المصدر السابق (٨٤٤).

(٧) المصدر السابق (٨٤٥).

(٨) النساء: ١٧٣.

(٩) المصدر السابق (٨٤٦) الضمير يعود على أهل النار.

(١٠) [صحيح] المصدر السابق (٨٥٠) ومسلم.

وأسند عن أبى سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه ما يزن شعيرة**.(١)

وأسند عن أنس أنه حدث ذلك عن رسول الله ﷺ قال: «**فإذا أبصرهم أهل الجنة قال وما هؤلاء؟ فيقال:(٢) هؤلاء الجهنميون**» أو كما قال.

وأسند عن انس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **يدخل قوم جهنم ويخرجون منها ويدخلون الجنة، يعرفون بأسمائهم يقال لهم الجهنميون**(٣).

وأسند عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **يخرج من النار أربعة، فيعرضون على الله عزوجل،فيلتفت أحدهم فيقول: أى رب كنت أرجوك إذا أخرجتنى منها أن لاتعيدنى فيها، فينجيه الله منها**.(٤)

قال الفقير: والشاهد قوله: إذ أخرجتنى.

شفاعة كلام رب العالمين:

أخرج الإمام عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمى عن ابن عمر قال: يجىء القرآن يشفع لصاحبه يقول: يارب لكل عامل عمالة من عمله، وإنى كنت أمنعه اللذة والنوم فأكرمه، فيقال: أبسط يمينك، فيملأ من رضوان الله، ثم يقال: أبسط شمالك، فيملأ من رضوان الله، ويكسى كسوة الكرامة، ويحلى حلية الكرامة: ويلبس تاج الكرامة.

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ **قال: «إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهى ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾**(٥).

هذا حديث حسن(٦).

أما حديث جابر الذى تقدمت الإشارة إليه، أخرجه ابن حبان رحمه الله عن جابر

---

(١) المصدر السابق (٨٥٢). (٢) المصدر السابق (٨٤٧).

(٣) المصدر السابق (٨٤٨).

(٤) [صحيح] المصدر السابق (٨٥٣)، ومسلم (١/ ١٢٣).

(٥) الملك: (١).

(٦) أخرجه الترمذى (٢٨٩١) وحسنه.

عن النبى ﷺ قال: «القـرآن شافع مشفع، وما حل مصدق، ومن جعـله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار»(١).

الحديث حسن.

وأخرج مسلم رحمه الله عن أبى أمامة الباهلى قال: سمعت رسول الله ﷺ: «**اقرأوا القرآن فإنـه يأتى يوم القيامـة شفيعاً لأصحابـه، أقرأوا الزهراوين البقـرة وسورة آل عمران فإنهما يـأتيان يوم القيامة كأنـهما غمامتان، أو كأنهمـا غيايتان أو كأنهما فـرقان من طير صواف تحاجـان عن أصحابـهما، اقرأوا سـورة البقرة فـإن أخذها بركـة وتركها حـسرة، ولايستطيعها البطلة**»(٢).

النوع الثانى:

شفاعة المخلوقين للمخلوقين بإذن رب العالمين.

وهى أربعة أنواع:

أولاً: شفاعة الملائكة:

قال تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ** ﴾(٣).

تقدم حـديث أبى بكـرة «ثم أنه يؤذن فـى الشفاعـة للملائـكة والنبـيين والشـهداء والصديقيين فيشفعون. . . .» إلخ(٤).

ثانيا: شفاعة النبيين:

وفيها حديث أبى بـكرة المتقدم وحديث حذيفة عن أبى بكر عـند ابن أبى عاصم فى شفاعته العـظمى وفيه ثم يقال ادعوا الصديقـين فيشفعون ثم يقال ادعوا الأنـبياء فيجىء النبى ومعه العصابة.

ثالثا: شفاعة النبى ﷺ وهى تنقسم إلى قسمين الأول فى الدنيا والثانى فى الآخرة:

الأول: من شفاعته ﷺ وهى:

تكون فى الدنيا فيما يقدر عليه قدراً و شرعاً.

(١) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه» (١/ ١٦٧ـ الإحسان) وانظر «الإتقان» بتخريجنا.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣/ ٣٤٩/ ٢٥٢).

(٣) النجم: ٢٦.

(٤) ابن أبى عاصم (٨٣٧) حسن أو محتمل لذلك.

أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن عثمان بن حُنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى ﷺ فقال: ادع الله أن يعافينى، قال: **«إن شئت دعوت لك. وإن شئت أخرت ذلك فهو خير»** فقال: ادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه فيصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: **اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه، فتقضى لى، اللهم شفعه فى**(١).

وأخرج أيضاً عن عثمان بن حُنيف أن رجلا ضريراً أتى النبى ﷺ فقال: يا نبى الله ادع الله أن يعافينى فقال: **«إن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لآخرتك. وإن شئت دعوت لك**، قال: بل ادع الله لى: فأمره أن يتوضأ وأن يصلى ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء: **اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة. يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه فتقضى وتشفعنى فيه، وتشفعه فى.**

قال: فكان يقول هذا مراراً. ثم قال: أحسب أن فيها: أن تشفعنى فيه. قال: ففعل الرجل فبرئ(٢).

أخرج الطبرانى ـ رحمه الله ـ عن أبى أمامة بن سهل بن حُنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى حاجة له، فكان عثمان لايلتفت إليه، ولاينظر فى حاجته، فلقى عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: أئت الميضأة، فتوضأ ثم أئت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قال: اللهم أنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم نبى الرحمة، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فيقضى حاجتى، وتذكر حاجتك. ورح إلى حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع مثل ما قال له عثمان، ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة، وقال: حاجتك، فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فائتنا، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر فى حاجتى ولايلتفت إلى حتى كلمته فىّ، فقال عثمان بن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

حنيف: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: **«أفتصبر؟»** فقال: يارسول الله إنه ليس لى قائد وقد شق علـى، فقال له النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: **«أئت الميضأة فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات»**.

قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط(١).

قال الفقير: وقد أعل هذه الرواية الشيخ الألبانى بثلاث علل انظرها فى كتابه «التوسل»(٢) .

قال الفقير: وهذا الحديث أصله صحيح ولكن القصة التى أخرجها الطبرانى: باطلة، لأنها تجيز التوسل بالأموات وهو شرك. وقد تقدم الرد على من توسل بجاه النبى ﷺ محتجاً بحديث الضرير هذا، فى الباب الخامس، وجعلنا له فصلاً مستقلاً فى الباب بعنوان [فصل فى أحكام التوسل والوسيلة] وأيضاً فى الباب الرابع عشر، وقد ضعفه على الإطلاق سليمان آل الشيخ فى هذا الموضع، وهذه المواضع الثلاثة لحديث الضرير فى الكتاب، فتأملها حرصاً على الفائدة. والله الموفق للصواب.

الثانى: شفاعة النبى ﷺ فى الآخرة.

مواطن شفاعة الرسول ﷺ

أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن أنس قال: سألت النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يشفع لى يوم القيامة، قال: قال: **«أنا فاعل بهم»** قلت: «يارسول الله فأين أطلبك؟ قال: **«اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط»** قال: قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: **«فأنا عند الميزان**، قال: قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: **«فأنا عند الحوض، لا أخطىء هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة»**(٣).

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله تعالى ـ أن الشفاعة ستة أنواع:

الأول: الشفَّاعة الكبرى التى يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسَّلام، حتى

---

(١) تقدم

(٢) (ص ٩٢)

(٣) أخرجه الترمذى ٢٤٣٣ وقال: هذا حديث حسن غريب، لانعرفه إلا من هذا الوجه.

تنتهى إليه ﷺ فيقول: «أَنَا لَهَا»[1] وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء لِيَشْفَعُوا لهم إلى ربهم حتى يُريحهم من مقامهم فى الموقف. وهذه شفاعة يَخْتَصُّ بها لايشركه فيها أحد.

الثَّانى: شفاعته لأهل الجنة فى دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة فى حديثه الطَّويل المُتَّفق عليه[2].

الثَّالث: شفاعته لقوم من العُصَاة من أمته قد استوجبوا النَّار بذنوبهم، فيشفع لهم أن لايدخلوها.

الرَّابع: شفاعته فى العصاة من أهل التَّوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم. والأحاديث بها متواترة عن النبى ﷺ وقدأجمع عليها الصَّحابة وأهل السنة قاطبة، وبدَّعوا من أنكرها،و وصَاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضَّلال.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفْعَة درجاتهم وهذه مما لم ينازع فيها أحد. وكلها مُخْتَصَّة بأهل الإخلاص الذين لم يتَّخذوا من دون الله وليًا ولا شفيعًا، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ**﴾(*).

السَّادس: شفاعته فى بعض أهله الكفار من أهل النَّار حتى يخفف عذابه. وهذه خاصَّة بأبى طالب وحده[3].

وهذه أنواع شفاعته ﷺ فى الآخرة على وجه العموم وإليك شرح هذه الأنواع.

ـ **النوع الأول من شفاعة الرسول ﷺ**: وهى الشفاعة الكبرى التى يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام، حتى تنتهى إليه ﷺ فيقول **«أنا لها»** وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم فى الموقف وهذه شفاعة يختصُّ بها لايشركه فيها أحد.

عن أنس رضى الله عنه ـ قال: قال: النبى ﷺ:

---

(١) سيأتى

(٢) تقدم تخريجه.

(*) الأنعام: ٥١.

(٣) تقدم

(*) «[أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون بم ذاك](٤)» [يجمع الله](٢) المؤمنين، و[الأولين والآخرين](٤) يوم القيامة [فى صعيد واحد فيسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنوا الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالايطيقون ومالايحتملون](٤) فينهمون بذلك [ويلقى الناس يوم القيامة ما شاء الله أن يلقوا من الحزن](٣) فيقولون: [ألا ترون ما قد بلغكم](٤) لو استشفعنا على ربنا [تبارك وتعالى](٢) عزوجل، فيرحينا من مقامنا هذا، [انطلقوا بنا إلى آدم فيشفع لنا إلى ربنا](١).

فيأتون آدم ﷺ فيقولون: [يا آدم](١) أنت أبونا [أبو الخلق](٢) [أبو الناس](١) [أبو البشر](٤) خلقك الله [تبارك وتعالى](٢) بيده [ونفخ فيك من روحه](٤) وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مقامنا هذا [ألا ترى إلى ما قد بلغنا](٤)؟!.

فيقول:لست هناكم [إن ربى قد غضب غضبة اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله](٤)، ويذكر [لهم ذنبه](١)، وخطيئته التى أصاب: أكله من الشجرة، قد نهاه الله عنها [فيستحى ربه من ذلك](١) ائتوا نوحاً ﷺ فإنه أول نبى أرسله الله تبارك وتعالى [إلى أهل الأرض](١).

فيأتون نوحاً [فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا](٤) ؟!.

فيقول: [إن ربى غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، إنه كانت لى دعوة دعوت بها على قومى، نفسى نفسى](٤) لست هناكم، ويذكر خطيئته التى أصاب بسؤاله ربه بغير علم [ما ليس له به علم فيستحى ربه من ذلك](١)، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن [الذى اتخذه الله خليلاً فيأتون إبراهيم](٢) [فيقولون: يا إبراهيم: اشفع لنا إلى ربنا](٣) [ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ماقد بلغنا](٤).

فيقول: لست هناكم [إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله](٤).

فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التى أصاب: قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله حين أتى الملك لامرأته: «قولى: إنى أخوك، فإنى أخبره أنك أختى» [نفسى نفسى](٤)، ولكن ائتوا موسى عبداً [اصطفاه الله برسالته](٣) أعطاه الله التوراة وكلمه فيأتون موسى ﷺ [الذى كلمه الله] (٢).

(*) انظر التعليق على هذه الآيات فى آخر الحديث.

فيقولون: [يا موسى](٤): [اشفع لنا إلى ربك](٣) [ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا](٤)؟!.

فيقول: لست هناكم [إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله](٤)، ويذكر خطيئته التى أصاب: قتله الرجل [بغير النفس فيستحى ربه من ذلك](١) [نفسى نفسى](٤)، ولكن ائتوا عيسى عبدالله ورسوله، وكلمة الله وروحه، فيأتون عيسى [فيقولون: يا عيسى [أنت رسول الله كلمت الناس فى المهد، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه(٤) اشفع لنا إلى ربك](٣) [ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا](٤)؟.

فيقول: لست هناكم [إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله، ولم يذكر له ذنباً ـ نفسى نفسى](٤)، ولكن ائتوا محمداً عبداً [جاء اليوم مغفوراً له ليس عليه ذنب](٣) [قد](٢) غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، فيأتونى [فيقولون: يا محمد [أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك أما ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا](٤)؟ اشفع لنا إلى ربك.

فيقول: أنا لها، وأنا صاحبها](٣)، [فأنطلق فأمشى بين سماطين من المؤمنين](١) [حتى استفتح باب الجنة فيفتح لى فأدخل وربى على عرشه](٣) [فاستأذن على ربى تبارك وتعالى](٢) فى داره [فيأذن لى](١) فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: ارفع محمد، قل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسى فأحمده بثناء وتحميد يعلمنيه [لم يحمده بها أحد قبلى، ولايحمده أحد بعدى](٣) فأشفع [فأقول: يارب [أمتى ـ ثلاث مرات ـ](٤) فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال حبة شعيرة](٣)، فيحد لى حداً فأخرجهم [من النار](٢) فأدخلهم الجنة [فيقال: يا محمد: ادخل الجنة من أمتك من لاحساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذى نفسى بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، وكما بين مكة، وبصرى](٤) ثم [أعود](٢) استأذن على ربى فى داره الثانية، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: ارفع رأسك محمد، قل تسمع، واشفع تشفع وسل تعطه فأرفع رأسى فأحمده بثناء وتحميد يعلمنيه [لم يحمده بها أحد قبلى، ولايحمده أحد بعدى](٣)، ثم اشفع [فأقول: يارب! فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال شعيرة](٣)، فيحد لى حداً فأخرجهم [من النار](٢) فأدخلهم الجنة فأستأذن على ربى فى داره الثالثة فيؤذن لى عليه، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: ارفع محمد [قل تسمع

و](1) اشفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسى فأحمده بثناء وتحميد يعلمنيه [لم يحمده بها أحد قبلى، ولايحمده بها أحد بعدى](2)، ثم اشفع [فأقول: يارب: فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال شعيرة](3) فيحد لى حداً فأخرجهم، فأدخلهم الجنة [ثم أتيته الرابعة](1) [فأخر ساجداً فأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد قبلى، ولايحمده بها أحد بعدى قال: فيقال: يا محمد: ارفع رأسك، واشفع تشفع. قال: فأقول: يارب فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال شعيرة قال: فأخر ساجداً فأحمده بمحامد لم يحمده أحد قبلى، ولم يحمد أحد بها بعدى قال: فيقال: يا محمد: أرفع رأسك، قل تسمع، واشفع تشفع. فأقول: يارب، يارب، فيقول: أخرج من كان فى قلبه أدنى شىء قال: فأخرج أناساً من النار يقال لهم: الجهنميون، وإنهم لفى الجنة](3) فما يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن ـ أى وجب عليه الخلود ـ وهو المقام المحمود الذى وعده الله تبارك وتعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ فأخرجهم من النار فأدخلهم الجنة.

قال: [فقال رجل: يا أبا حمزة سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فتغير وجهه، واشتد عليه فقال: ما كل ما نحدثكموه سمعناه من رسول الله ﷺ ولكن لم يكن يكذب بعضنا بعضاً](3) (*).

وأخرج ابن أبى عاصم عن حذيفة، عن أبى بكر الصديق قال: أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم فصلى الغداة ثم جلس مكانه، حتى إذا كان من الضحى، ضحك رسول الله ﷺ، ثم جلس مكانه، حتى صلى الأولى والعصر والمغرب، كل ذلك لايتكلم حتى صلى العشاء الآخرة، ثم قام إلى أهله، فقال الناس لأبى بكر: سل رسول الله ﷺ ما شأنه صنع اليوم شيئاً لم يصنعه قط؟ قال: نعم [فسأله، فقال:] عرض على ما هو

(*) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٠٤) من طريق همام، ثنا قتادة، عن أنس مرفوعاً.. وصححه الألبانى.

(١) زيادات من رواية ابن أبى عدى، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس (السنة ٨٠٨) صححه الألبانى.

(٢) زيادات من رواية محمد بن عبيد بن حساب، ثنا أبو عوانة، ثنا قتادة، عن أنس (٨٠٥)، صححه الألبانى.

(٣) زيادات من رواية معتمر بن سليمان قال: سمعت حميداً يحدث عن أنس (السنة ٨١٦) صححه الألبانى.

(٤) زيادات من رواية أبى هريرة (السنة ٨١١) صححه الألبانى.

والروايات جميعها أصلها فى الصحيحين.

كائن إلى يوم القيامة من أمر الدنيا والآخرة، يجمع الأولون والآخرون فى صعيد واحد يفظع الناس بذلك، حتى انطلقوا إلى آدم، والعرق يكاد أن يلجمهم، فقالوا: يا آدم! أنت أبو البشر وأنت اصطفاك الله، اشفع لنا إلى ربك، فقال: قد لقيت مثل ما لقيتم، فانطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم نوح: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)، فينطلقون إلى نوح، فيقولون: يا نوح اشفع لنا إلى ربك، فأنت اصطفاك الله واستجاب لك فى دعائك، ولم يدع على الأرض من الكافرين دياراً، فيقول: ليس ذاكم عندى، انطلقوا إلى موسى، فإن الله تعالى كلمه تكليماً، فيقول موسى: ليس ذاكم عندى، فانطلقوا إلى عيسى بن مريم فإنه يبرىء الأكمة والأبرص، ويحيى الموتى، فيقول عيسى: ليس ذاكم عندى، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم، فإنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة فانطلقوا إلى محمد فليشفع لكم إلى ربكم، قال: فأنطلق، فيأتى جبريل عليه السلام ربه تبارك وتعالى فيقول: ائذن له وبشره بالجنة، فأنطلق فأخر ساجداً قدر جمعة، ثم يقول الله عزوجل: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع، تشفع، قال: فأذهب لأقع ساجداً قال: فأخذ جبريل بضبعيه، قال: فيفتح الله عليه من الدعاء شيئاً لم يفتحه على بشر، فأقول: أى رب جعلتنى سيد ولد آدم ولافخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولافخر، حتى إنه ليرد علىَّ الحوض أكثر من ما بين صنعاء وأيلة. ثم يقال: ادعوا الصديقين فيشفعون، ثم قال: ادعوا الأنبياء ، فيجىء النبى معه العصابة، والنبى معه الخمسة، والستة، والنبى ليس معه أحد، حتى يقال: ادعوا الشهداء، فيشفعون لمن أرادوا، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله تبارك وتعالى: أنا أرحم الراحمين، ادخلوا جنتى من كان لا يشرك بى شيئاً. قال: فيدخلون الجنة(١).

وأخرج ابن أبى عاصم: عن سلمان قال: تعطى الشمس يوم القيامة حَرّ عشر سنين، ثم تُدْنَى من جماجم الناس حتى يكون قاب قوسين، فيعرقون حتى يرسخ العرق فى الأرض قامة، ثم يرتفع الرجل حتى يعرق الرجل قال سلمان: حتى يقول الرجل غِقْ غِقْ، فإذا رأوا ما هم فيه قال بعضهم لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ائتوا أباكم آدم عليه السلام فليشفع لكم إلى ربكم جل وعز، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا أنت الذى

(١) أخرجه ابن أبى عاصم (٨١٢).

خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك جنته، قم فاشفع لنا إلى ربنا، فقد ترى ما نحن فيه، فيقول: لست هناك، ولست بذاك، فأين الفعلة فيقولون: إلى من تأمرنا؟ فيقول: ائتوا عبداً شاكراً، فيأتون نوحاً عليه السلام، فيقولون: يا نبى الله أنت الذى جعلك الله شاكراً، وقد ترى ما نحن فيه، فقم فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست هناكم، ولست بذاك، فأين الفعلة؟ فيقولون [: إلى من تأمرنا؟ فيقول: ائتوا إبراهيم خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا خليل الرحمن قد ترى ما نحن فيه، فاشفع لنا إلى ربنا، فيقول:لست هناك، ولست بذاك، فأين الفعلة؟ فيقولون: إلى من تأمرنا؟ فيقول: ائتوا موسى عبداً، اصطفا الله برسالاته وبكلامه، فيأتون موسى عليه السلام، فيقولون: قد ترى ما نحن فيه، اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست هناك، ولست بذاك، فأين الفعلة؟ فيقولون: فإلى من تأمرنا فيقول أئتوا كلمة الله وروحه عيسى فيقولون يا كلمة الله، وروحه، قد ترى ما نحن فيه، فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست هناك، ولست بذاك، فأين الفعلة؟ فيقولون: فإلى من تأمرنا؟ فيقول: ائتوا عبداً فتح الله به، وختم، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ويجيء فى هذا اليوم آمنا محمد ﷺ. فيأتون النبىً، فيقولون: يا نبى الله أنت الذى فتح الله بك، وغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وجئت فى هذا اليوم آمناً، وقد ترى إلى ما نحن فيه، فاشفع لنا إلى ربنا، فيقول: أنا صاحبكم، فيخرج يحوش الناس، حتى ينتهى إلى باب الجنة، فيأخذ بحلقة الباب من ذهب، فيقرع الباب، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد ﷺ، قال: فيفتح الله له، قال: فيجيء حتى يقوم بين يدى الله، فيستأذن فى السجود، فيؤذن، فيسجد، فينادى: يا محمد! ارفع رأسك، سل، تعطه، اشفع تشفع، وادع تجب،قال: فيفتح الله عليه من الثناء عليه والتحميد والتمجيد مالم يفتح لأحد من الخلائق، قال: فيقول: أى رب أمتى أمتى أمتى، ثم يستأذن فى السجود، فيوذن له، فيسجد، فيفتح الله عليه من الثناء عليه والتحميد والتمجيد شيئاً لم يفتح لأحد من الخلائق، وينادى: يا محمد! ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، وادع تجب، فيرفع رأسه فيقول: رب أمتى أمتى (مرتين أو ثلاثاً) قال سلمان: فيشفع فى كل من كان فى قلبه مثقال حبة من حنطة من إيمان، أو مثقال شعيرة من إيمان، أو مثقال حبة خردل من إيمان، فذلك] المقام المحمود(١) .

(١) أخرجه ابن أبى عاصم (٨١٣)

- **النوع الثانى مـن شفاعته - ﷺ - شفاعته لأهل الجنة فى دخولها.**

وقد ذكرها أبو هريرة فى حديثه الطويل المتفق عليه. وفيه: «فيقال يا محمد: أدخل الجنة من أمتك من لاحساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فى ماسوى ذلك.

وقال تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾[1].

قال ابن كثير[2]:(حتى إذا جاؤها) أى وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قـنطرة بين الجنة والنار فاقتص لـهم مظالم كانت بينهم فـى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة.

وقد ورد فى حـديث الصور أن المؤمنـين إذا انتهوا إلـى أبواب الجنة تشاوروا فـيمن يستأذن لهم فى الدخول فيقصدون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمداً ﷺوعليهم أجمعيـن كما فعلوا فى العرصات عند استشـفاعهم إلى الله - عز وجل -أن يأتى لفصل القضاء ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها.أهـ

النوع الثالث: شفاعته لقومٍ من العصاة من أمتـه قد استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم أن لايدخلوها.

قال أبو بكر بـن أبى الدنيا فى كتاب «الأهوال» كما فى «النـهاية» لابن كثير: وثنا إسماعيل بن عبيد ابـن أبى كريمة حدثنى محمد بن سلمة عن أبـى عبد الرحيم حدثنى زيد ابن أبى أنـيسة عن المنهال بن عـمرو عن عبد الله بن الحارث عن أبـى هريرة وذكر حديثاً عن أبى هريرة، ثم قال زيد بن أبى أنيسة عن المنهال: حدثنى عبد الله بن الحارث أيضاً أن النبى ﷺ قال: «**أمر بقوم من أمتى قد أمر بهم إلى الـنار، قال: فيقولون: يامحمد ننشدك الشـفاعة، قال: فآمر الملائكة أن يقـفوا بهم، قال: فأنطلق واستـأذن على الرب عز وجل فيأذن لى فـأسجد وأقول: يارب، قوم من أمتـى قد أمر بهم إلى النار، قـال: فيقول لى: انطـلق فأخرج منـهم، قال: فانطـلق وأخرج منـهم من شاء الله أن أخرج، ثـم ينادى الباقون: يا محمد ننشدك الشفاعة فأرجع إلى الرب فاستأذن فيؤذن لى فأسجد، فيقال لى ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع**) الحديث[3].

---

(١) الزمر (٧٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٥.

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الأهوال.

قال ابن كثير: وهذا يقتضى تعداد هذه الشفاعة فيمن أمر بهم إلى النار ثلاث مرات ألا يدخلوها، ويكون معنى قوله: «**أخرج**»، أى أنقذ، بدليل قوله بعد ذلك: «**ويبقى قوم فيدخلون النار**»، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. اهـ.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم.
والأحاديث بها متواترة عن النبى ﷺ وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة وبدَّعوا من أنكرها، وصاحوا به من كلٍّ جانب، ونادوا عليه بالضلال.

● **شفاعته ﷺ لأهل الكبائر.**

بوب ابن أبى عاصم فى كتابه السنُة: (**باب فى ذكر شفاعة النبى ﷺ لأهل الكبائر**) ثم أخرج بسنده[1] عن ابن عمر قال:

مازلنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من فى نبينا ﷺ يقول: «**إن الله تبارك وتعالى لايغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**» قال: **فإنى أخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى يوم القيامة فأمسكنا عن كثير مما كان فى أنفسنا.**

وأخرج عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **إنما شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى**[2].

وعن أنس أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى**[3].

وفيه عن جابر بن عبد الله.

قال أبو بكر: والأخبار التى روينا عن نبينا ﷺ فيما فضله الله به من الشفاعة وتشفيعه إياه فيما يشفع فيه أخبار ثابتة موجبة بعلم حقيقَة ما حَوَتْ على ما اقتصصنا، والصادُّ عن الأخبار الموجبة للعلم المتواترة كافر، وقد ذكرنَاها ما دل[4] على عقده من الكتاب، جعلنا الله وكل مؤمن بها مؤمل لها من أهلها.

النوع الخامس: شفاعته ﷺ لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم وهذه مما لاينازع فيها أحد. وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولاشفيعاً كما قال تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ**﴾[5].

(١) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٣٠).
(٢) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٣١).
(٣) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٣٢).
(٤) كذا فى المطبوع ونبه محقق الكتاب عل وجود سقط أو تحريف فى هذا الموضع
(٥) الأنعام: ٥١

أخرج البخاري رحمه الله عن أبي موسى رضـى الله عنه قال: لما فرغ النبي صلى الله عليه وعـلى آله وسلم من حنـين بعث أبا عامر عـلى جيش إلى أوطاس فلـقى دريد بن الصمة، فقتل دريـد وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى وبعثنى مـع أبي عامر فرمى أبو عامر فى ركبته فانتهيت إليه، فقلت: ياعم من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلى الذى رمانى، فقـصدت له فلحقته، فلما رآني ولى فاتبـعته، وجعلت أقول له: ألا تستحى، ألا تثبت فكف. فـاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلتـه، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم، فنزعـته، فنزا منه الماء، قال: يا ابن أخى أقرىء النبي ﷺ وقل له: استغفر لى، واستخلفنى أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت علـى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فى بيـته على سرير مرمل، وعليه فراش، قد أثر رمال السرير بظهره وجنبـه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال: قل له استغفر لى، فدعا بمـاء فتوضأ ثم رفع يديه، فقال: **«اللهم اغفر لعـبيد أبي عامر»** ورأيت بياض إبطيه، ثم قال: **«اللهم اجعله يوم القيامة فـوق كثير من خلقك من الناس»** **فقلـت: ولى فاستغـفر، فقال: «اللـهم اغفر لعبـد الله بن قيس ذنبـه، وأدخله يوم القـيامة مدخلا كريماً، قال أبو بردة:** إحداهما لأبي عامر والآخرى لأبي موسى(١).

وأخرج مسـلم عن أم سلمـة قالت: دخل رسول الله ﷺ عـلى أبي سلمـة وقد شق بصره فأغمضه، ثم قال: **«إن الروح إذا قبض تبعه البصر»** فضج ناس من أهله فقال: **«لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن المـلائكة يؤمنون على ما تقولون** -ثم: قال- **«اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته فى المهديين، واخلفه فى عقبه فى الغابرين، واغفر لنا وله يارب العالمين، وأفسح له فى قبره، ونور له فيه»**(٢).

النوع السادس: شفاعـته ﷺ فى بعض أهله الكفار من أهل النار حـتى يخفف عذابه. وهذه خاصة بأبي طالب وحده.

أخرج البخاري رحمه الله أن العباس بن عبـد المطلب رضى الله عنه قال للنبي ﷺ: **«ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال:**

«وهو فى ضحضاح من نار، ولو لا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار»(٣).

(١) [صحيح] أخرجه البخاري: (٢٨٨٨).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٣/ ٤٩٢/ ٧).

(٣) تقدم تخريجه.

وذكر البخارى رحمه الله عن ابن الهاد بن عبد الله بن خباب عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ، وذكر عنده عمه، فقال: **«لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه»**(١).

أسباب شفاعة الرسول ﷺ

(١) الدعاء له بالمقام المحمود بعد الأذان:

أخرج البخارى رحمه الله: عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: **«من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلّت له شفاعتى يوم القيامة»**(٢).

(٢) الصلاة على النبى ﷺ ثم طلب الوسيلة له.

أخرج مسلم رحمه الله عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىّ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة»**(٣).

(٣) سكنى المدينة والموت فيها:

أخرج الإمام مسلم رحمه الله عن أبى سعيد مولى المهرى أنه جاء أبا سعيد الخدرى ليالى الحرة فاستشاره فى الجلاء من المدينة وشكا إليه أسعارها، وكثرة عياله، وأخبره أن لا صبر له على جهد المدينة ولأوائها، فقال له: ويحك لآمرك بذلك؟! إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لايصبر أحد على لأوائها فيموت، إلا كنت له شفعياً أو شهيداً يوم القيامة إذا كان مسلماً»**(٤).

وأخرج مسلم رحمه الله عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صبر على لأوائها كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة»(٥).

وأخرج مسلم رحمه الله عن يُحنَّس مولى الزبير أخبره أنه كان جالسًا عند عبد الله بن عمر فى الفتنة، فأتته مولاة له تسلم عليه، فقالت، إنى أردت الخروج يا أبا.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٨٨٥)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٨٧/ ٣٦٠)

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى ٦١٤. (٣) [صحيح] أخرجه مسلم (١/ ٢٨٨).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (فى الحج (٥/ ١٦١/ ٤٧٧)

(٥) تقدم تخريجه.

عبد الرحمن اشتد علينا الزمان، فقال لها عبد الله: اقعدى لكاع، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعًا يوم القيامة**»(١).

وأخرجه مسلم بسند آخر عن يحنس، مولى مصعب عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من صبر على لآوائها وشدتها كنت له شهيداً أو شفيعًا يوم القيامة**» يعنى المدينة.

وأخرج مسلم رحمه الله عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا كنت له شفيعًا يوم القيامة أو شهيدًا»(٣).

(٤)ومن أسباب الشفاعة كثرة السجود

روى عبد الله بن المبارك فى «الزهد» عن حسين بن على قال: حدثتنى فاطمة بنت الحسين أن رجلاً قال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى من أهل شفاعتك قال: «**أعنى بكثرة السجود**»(٤). الحديث مرسل.

فى «أسد الغابة»: وروى شيبان عن جرير عن عبد الملك بن عمير عن مصعب الأسلمى قال: انطلق غلام لنا فأتى النبى ﷺ فقال: أسألك أن تجعلنى ممن تشفع له يوم القيامة، فقال: «**من علمك أو أمرك أو دلك ؟**» فقال: ما أمرنى إلا نفسى قال: «إنى أشفع لك، ثم رده فقال: «**أعنى على نفسك بكثرة السجود**»(٥).

روى الإمام أحمد رحمه الله عن خادم للنبى ﷺ رجل أو امرأة قال: كان النبى ﷺ مما يقول للخادم: «**ألك حاجة؟** قال: حتى كان ذات يوم فقال: يا رسول الله حاجتى أن تشفع لى يوم القيامة، قال: «**ومن دلك على هذا؟** قال: ربى، قال: «**أما لا فأعنّى بكثرة السجود**»(٦).

● **تنبيه عدم ثبوت الشفاعة لزائر قبر الرسول ﷺ:**

قال الشيخ مقبل: وردت أحاديث أن زيارة قبر رسول الله ﷺ سبب لشفاعته ﷺ لا يثبت منها شيء، وسأنقل إن شاء الله عن أهل العلم ما يتعلق بهذه الأحاديث من النقد والتجريح لرواتها(٧). منها «**من زار قبرى وجبت له شفاعتى**».

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٥/ ١٦٢/ ٤٨٢).

(٢) تقدم . (٣) أخرجه مسلم (٥/ ١٦٣/ ٤٨٤).

(٤) أخرجه ابن المبارك فى الزهد ص ٤٥٥ (٥) أسد الغابة (٥/ ١٨٠).

(٦) أحمد (٣/ ٥٠٠). (٧) الشفاعة (٤).

ثالثًا: شفاعة المؤمنين وهى نوعان:

الأول: فى الدنيا فيما يقدر عليه المخلوق قدرًا وشرعًا

الثانى: شفاعة فى الآخرة فيما يأذن لهم الله عز وجل فيه..

[أولاً] : شفاعة المؤمنين فى الدنيا فيما يقدرون عليه قدراً وشرعًا:

شفاعة المصلين على الميت على التوحيد.

أخرج مسلم عن عائشة عن النبى ﷺقال: «**ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له، إلا شفعوا فيه**»(١).

أخرج ابن ماجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ «**من صلى عليه مائة من المسلمين غفر له**»(٢).

وأخرج مسلم رحمه الله عن كريب مولى ابـن عباس عن عبد الله بن عباس أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان، فقال: يا كريب انـظر ما اجتمع له الناس، قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته، فقال: تقول هم أربعون؟ قال: نعم، قال: أخرجوه، فإنى سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «**ما من رجـل مسلم يـموت فيقوم عـلى جنازتـه أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم فيه**» (٣)

شفاعة المؤمنين فى الدنيا بالدعاء للأموات والأحياء.

أخرج البزار عن ابن عمر قال: كنت جالسًـا مع النبى ﷺ: فذكر الحديث فى فضل الحج، وفيه : «**إن الله يقول لـهم عند وقوفهـم بعرفة: أفيضـوا عبادى مغفوراً لـكم ولمن شفعتم له**» الحديث(٤).

وروى الإمام أحمد رحمه الله أن جـرير بن عبد الله قام يخطب يوم تـوفى المغيرة بن شعبة فقال: عليكم باتقاء الله عز وجل والوقار والسـكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن.

---

(١) تقدم . (٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٨٨/١).

(٣) تقدم.

(٤) وقال الهيثمي في المجمع (٣٧٥/٤) رواه البزار ورجاله موثقون

ثم قال: اشفعوا لأميركم فإنه كان يحب العفو.

وقال: أما بعد، فإنى أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أبايعك على الإسلام، فقال رسول الله ﷺ واشترط على النصح لكل مسلم، فبايعته على هذا. ورب هذا المسجد إنى لكم لناصح جميعًا، ثم استغفر ونزل(١).

الثانية: شفاعة المؤمنين فى الآخرة فيما يأذن لهم الله عز وجل فيه.

قد تقدمت أحاديث فى شفاعة الأنبياء والملائكة والمؤمنين، وهذه بقية الأحاديث الواردة فى شفاعة المؤمنين.

أخرج الترمذى رحمه الله عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «**إن من أمتى من يشفع للفئام من الناس، ومنهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة**»(٢).

وأخرج مسلم رحمه الله عن الصُنابحى عن عبادة بن الصامت، أنه قال: دخلت عليه وهو فى الموت فبكيت فقال: مهلاً لم تبكى؟ فوالله لئن شهدتُ لأشهدن لك، ولئن شفعتُ لأشفعن لك، ولئن استطعت لأنفعنك.

ثم قال: والله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثًا واحدًا، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار**»(٣).

قال النووى: وأما قوله (عن الصنابحى عن عبادة أنه قال دخلت على) فهذا كثير يقع مثله، وفيه صنعة حسنة، وتقديره(عن الصنابحى) أنه حدث عن عبادة بحديث قال فيه: دخلت عليه.

وأخرج الإمام أحمد- رحمه الله- عن أبى أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثل الحيين ربيعة ومضر**»، فقال رجل: يا رسول الله أو ما ربيعة من مضر؟ فقال: «**إنما أقول ما أقول**»(٤).

وأخرج الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن أبى برزة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦١) الحديث رجاله رجال الصحيح. وأصله فى الصحيحين.

(٢) أخرجه الترمذى (٤/ ٤٦)وقال: هذا حديث حسن.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٢٥١/ ٤٧).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦).

«إن من أمتى لمن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر، وإن من أمتى لمن يعظم للنار حتى يكون ركنًا من أركانها».

وعن الحارث بن أقيش قال: كنا عند أبى برزة ليلة فحدث ليلتئذ عن النبى ﷺ أنه قال: **«ما من مسلمين يموت لهما أربعة أفراط إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته»** قالوا: يا رسول الله، وثلاثة؟ قال: «وثلاثة» قالوا: واثنان؟ قال: **وإن من من أمتى لمن يدخل الجنة بشفاعته مثل مضر»** قال: «واثنان- قال: **وإن من أمتى لمن يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها»**[1].

وأخرج الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ [2] عن عبد الله بن شقيق قال: جلست إلى رهط أنا رابعهم بإيليا، فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من بنى تميم»** قلنا: سواك يارسول الله؟ قال: «سواى» قلت: أنت سمعته؟ قال: نعم، فلما قام قلت: من هذا؟ قالوا: ابن أبى الجدعاء.

شفاعة المؤمنين الشهداء

روى أبو داود رحمه الله أن نمران بن عتبة الذمارى قال: دخلنا على أم الدرداء ونحن أيتام فقالت: أبشروا فإنى سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته»[3].

روى الترمذى رحمه الله عن المقدام بن معدى كرب قال: قال رسول الله ﷺ **«للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع فى سبعين من أقاربه»**.

هذا حديث حسن صحيح غريب[4].



(١) الحديث أخرجه أيضًا أحمد (٥/ ١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٤).

(٤) أخرجه الترمذى (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩)..

مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى[2]: حيث نفت الآية الشفاعة عن المخلوق استقلالاً بدون إذن الله. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى[3]: حيث دلت الآية على نفى الشفاعة عن المخلوق استقلالاً فيكون طلبها من المخلوق شركًا، ومن ذلك طلبها من الأوثان التى زعموا أنهم يعبدونها من أجل الشفاعة. اهـ

الإعراب[4]:

﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة للرد على المشركين الذين زعموا أن الأصنام تشفع لهم. ومن اسم استفهام معناه النفى فى محل رفع مبتدأ وذا اسم إشارة فى محل رفع خبر «من» والذى اسم موصول بدل أو «من ذا» كلها اسم استفهام مبتدأ و «الذى» هو الخبر، واعلم أن «ذا» الواقعة بعد «ما» الاستفهامية يجوز جعلها اسم موصول، اتفاقًا وأما الواقعة بعد «من» فالأكثر أنها إسم إشارة، و«يشفع» فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو، والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول ﴿عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ الظرف متعلق بيشفع أو بمحذوف حال من الضمير فى يشفع وإلا أداة حصر وبإذنه الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال . اهـ.

قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾.

هى كقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾[7].

---

(١) البقرة/ ٢٥٥.

(٢، ٣) الجديد (١٦٠).

(٤) الإعراب القرآنى (١/ ٣٨٢، ٣٨٣). (٥) النجم / ٢٦.

(٦) النبأ / ٣٨ (٧) الأنبياء/ ٢٨

عن ابن عباس: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ يريد الملائكة مثل قوله ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾[1].

وعن سعيد بن جبير: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ قال: من يتكلم عنده إلا بإذنه؟[2]

وعن أبى العباس الضرير: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ يذكر ربه بقلبه، حتى يأذن له[3]. اهـ.

قال ابن جرير[4]: يعنى بذلك (مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ) لمماليكه إن أراد عقوبتهم إلا أن يخليه ويأذن له بالشفاعة لهم، وإنما قال ذلك تعالى ذكره، لأن المشركين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فقال الله تعالى ذكره لهم: لى ما فى السموات وما فى الأرض مع السموات والأرض ملكًا فلا ينبغى العبادة لغيرى، فلا تعبدوا الأوثان التى تزعمون أنها تقربكم منى زلفى، فإنها لا تنفعكم عندى، ولا تغنى عنكم شيئًا، ولا يشفع عندى أحد لأحد إلا بتخليتى إياه والشفاعة لمن يشفع له من رسلى، وأوليائى، وأهل طاعتى. اهـ.

وقال البغوى[5]: ﴿بِإِذْنِهِ﴾: بأمره. اهـ.

وقال ابن الجوزى[6]: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ فيه رد على من قال: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾. اهـ.

وقال الفخر الرازى[7]: ﴿مَن ذَا الَّذِى﴾ استفهام معناه الإنكار والنفى أى لا يشفع عنده أحد إلا بأمره. اهـ.

وقال القرطبى[8]: وتقرر فى هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء فى الشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممن أكرمهم الله وشرفهم الله، ثم لايشفعون إلا لمن ارتضى.

---

(1) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (1/ 582) ونسبه للطبرانى فى «السنة».

(2، 3) تفسير ابن أبى حاتم (2/ 489). (4) تفسير الطبرى (3/3/7).

(5) معالم التنزيل (3/ 360). (6) زاد المسير (1/ 251)

(7) التفسير الكبير (4/7/11) (8) تفسير القرطبى (2/ 1082 - 1084).

قال ابن عطية: والذى يظهر أن العلماء والصالحين يشفعون فيمن لم يصل إلى النار وهو بين المنزلتين أو وصل، ولكن له أعمال صالحة..

ثم ذكر أحاديث الشفاعة فى الصحيحين .

ثم قال تعقيبًا على قول ابن عطية: (ممن لم يصل أو وصل) يحتمل أن يكون أخذه من أحاديث أخر. والله أعلم.

قال ابن كثير[1]: ﴿**مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له فى الشفاعة اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: قوله: ﴿**مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ فى هذه الآية رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام المصورة على صور الصالحين، وغيرهم، وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه فأنكر ذلك عليهم، وبين عظيم ملكوته وكبريائه وأن أحدًا لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له فى الكلام كقوله: ﴿**لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ**﴾[3]، وقوله: ﴿ **يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾[4] قال ابن جرير فى هذه الآية. نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فقال الله تعالى: ﴿ **لَّهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ**﴾[5] وتقرر فى هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء فى الشفاعة، وهم الأنبياءوالعلماء وغيرهم، والإذن راجع إلى الأمر فيما نص عليه، كمحمد ﷺ إذ قيل له: «**اشفع تُشفع**»، وكذلك قاله غير واحد من المفسرين. اهـ.

إشكال وجوابه:

فإن قيل إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه، فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

والجواب: قال ابن عثيمين[6]: إن الله أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت وأمره بالدعاء، إذن وزيادة.

وأما الشفاعة الموهومة التى يظنها عبَّاد الأصنام من معبودهم، فهى شفاعة باطلة لأن

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٩٢).
(٢) تيسير العزيزالحميد (٢٠٦).
(٣) النبأ، الآية :٣٨
(٤) هود ، الآية : ١٠٥.
(٥) سورة النساء ، الآية : ١٧١
(٦) القول المفيد (١/ ٤٢٩).

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾(١).

الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلا من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم أهـ..

قال ابن عثيمين(٢): قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي﴾ استفهام استنكاري بمعنى النفس، أي لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه.



قوله: [وقوله: ﴿مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الآية

مناسبة الاية للباب:

قال القرعاوي(٣): حيث دلت الآية على نفي الشفاعة عن كل مخلوق إلا بشرطين إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد.

قال القرعاوي(٤): حيث دلت الآية على أن الشفاعة لاتنال إلا بعد إذن الله ورضاه، فدل على أنها ملك لله، وطلبها من غير الله شرك أكبر، ومن ذلك طلبها من الأوثان التي زعموا أنهم يعبدونها لأجل الشفاعة أهـ.

الإعراب(٥): الواو عاطفة، و(كم) خبرية في محل رفع مبتدأ، (ومن ملك) في محل نصب تمييز (كم) الخبرية، وقد تقدم بحثه، و(في السموات والأرض) صفة لـ(ملك) وجملة (لاتغني شفاعتهم) خبر، (شيئاً) مفعول (تغني) أو مفعول مطلق، أي شيئاً من الإغناء ﴿لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾(إلا) أداة حصر و(من بعد) متعلق بـ(تغني) و(أن) وما في حيزها في تأويل مصدر مجرور بالإضافة لبعد، (والله) فاعل (يشاء)(ويرضى) معطوف على (يشاء). اهـ.

وقال ابن عثيمين(٦): (كم) خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين في السماء ومع ذلك لاتغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أذن الله ورضاه. اهـ.

ماجاء في الآية من كلام المفسرين

---

(١) [النجم: ٢٦]

(٢) القول المفيد (١/٤٢٩)

(٣، ٤) الجديد (١٦٢).

(٥) إعراب القران الكريم لمحيى الدين درويش (٩/٣٥٧).

(٦) القول المفيد (١/٤٣١)

كقوله تعالى ﴿ولايقبل منها الشفاعة﴾ ظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة، ولكنه بين في مواضع أخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض.

فنص على عدم الشفاعة للكفاربقوله ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وقد قال ﴿ولايرضى لعباده الكفر﴾ وقال تعالى عنهم مقرراً لهم ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ وقال ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾وأما الشفاعة بدون إذنه﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه﴾والآية التي نحن بصددها ـ وقال : ﴿يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً﴾ إلى غير ذلك من الآيات وادعاء شفعاء عند الله للكفار أو بغير إذنه من أنواع الكفر به جل وعلا، كما صرح بذلك في قوله ﴿ويقولون هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا الذى قررنا من أن الشفاعة للكفار مستحيلة مطلقاً، يستثنى منه شفاعته ﷺ لعمه ـ كما تقدم ـ فهذه الصورة التي ذكرنا من تخصيص الكتاب بالسنة .اهـ (١).

وأخرج(٢) ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله (وكم من ملك. . . .) الآية قال: لقولهم الغرانقة ليشفعونا.

قال ابن جرير (٣). يقول تعالى ذكره ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي﴾ كثير من ملائكة الله لاتنفع شفاعتهم عند الله لمن شفعوا له (شيئا) إلا أن يشفعوا له (من بعد أن يأذن الله) لهم بالشفاعة (لمن يشاء) منهم أن يشفعوا له(ويرضى) يقول: ومن بعد أن يرضى لملائكته الذين يشفعون له أن يشفعوا له فتنفعهم حينئذ شفاعتهم، وإنما هذا توبيخ من الله تعالى ذكره لعبدة الأوثان والملأمن قريش وغيرهم الذين كانوا يقولون(مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فقال الله جل ذكره لهم ما تنفع شفاعة ملائكتي الذين هم عندي لمن شفعوا له إلا من بعد إذني لهم بالشفاعة له، ورضائي، فكيف بشفاعة من دونهم فأعلمهم أن شفاعة مايعبدون من دونه غير نافعتهم. أهـ.

وقال البغوي(٤) ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ ممن يعبدهم هؤلاء الكفار ويرجون

---

(١) أضواء البيان (١/ ٦١، ٦٢)
(٢) الدر المنثور (٦/ ١٦٤).
(٣) تفسير الطبرى (١١/ ٢٧/ ٣٧).
(٤) معالم التنزيل (٥/ ٢٥١).

شفاعتهم عند الله **﴿لا تُغْنِى شفاعتُهُمْ شيْئًا إلاَّ من بعَد أن يأْذن اللَّهُ﴾** فى الشفاعة، **﴿لمن يشاءُ ويرْضى﴾** يعنى من أهل التوحيد.

قال ابن عباس : يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضى الله عنه.

وجمع الكناية قوله **﴿شَفَاعَتُهُم﴾** والملك واحد ؛ لأن المراد من قوله **﴿وكَم مِّن مَّلَك﴾** الكثرة فهو كقوله **﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾**. أهـ.

ـ **وقال الزمخشرى** [1]: يعنى أن أمر الشفاعة ضيق وذلك أن الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم، واغتصاص السموات بجموعهم لوشفعوا بأجمعهم لأحد، لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً قط، ولم تنفع إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له، ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له، فكيف تشفع الأصنام إليه بعبدتهم؟! أهـ.

وقال ابن الجوزى[2] بنحو ما تقدم

وقال الفخر الرازى[3].

قوله تعالى **﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى السَّموات لا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلاَّ مِنْ بعْد أن يَأْذَن اللَّهُ لمن يشاءُ ويَرْضى﴾** .

وقد علم وجه تعلقها بما قبلها فى الوجوه المتقدمة فى قوله تعالى **﴿فالله الآخرة﴾** إن قلنا إن معناه أن اللات والعزى وغيرهما ليس لهم من الأمر شىء **﴿فلله الآخرة والأولى﴾** فلا يجوز إشراكهم فيقولون نحن لانشرك بالله شيئاً، وإنما نقول هؤلاء شفعاؤنا. فقال كيف تشفع هذه ومن فى السموات لايملك الشفاعة، وفيه مسائل.

المسألة الأولى : كم كلمة تستعمل فى المقادير، إما لاستبانتها فتكون استفهامية كقولك كم ذراعاً طوله وكم رجلا جاءك أى كم عدد الجائين تستبين المقدار وهى مثل كيف لاستبانة الأحوال وأى لاستبانة الأفراد، وما لاستبانة الحقائق، وإما لبيانها على الإجمال فتكون خبرية كقولك كم رجل أكرمنى أى كثير منهم أكرمونى غير أن عليه أسئلة **(الأول)** لِمَ لَمْ يجز إدخال من على الاستفهامية وجاز على الخبرية.

---

(١) الكشاف (٤/ ٤٠).

(٢) زاد المسير (٧/ ٢٨٠).

(٣) التفسير الكبير (١٤/٢٨/٦ ٣- ٨ ٣)

(الثانى) لم نصب مميز الاستفهامية وجر الذى للخبرية -

(الثالث) هى تستعمل فى الخبرية فى مقابلة رب فلم جعل اسماً مع أن رب حرف.

أما الجواب عن الأول فهو أن من تستعمل فى الموضع المتعين بالإضافة تقول خاتم من فضة كما تقول خاتم فضة، ولمالم تضف فى الاستفهامية لم يجز استعمال ما يضاهيه وسنبين هذا الجواب.

والجواب عن السؤال الثانى: هو أن نقول إن الأصل فى المميز الإضافة.

وعن الثالث: هو أن كم يدخل عليه حرف الجر فتقول إلى كم تصبر، وفى كم يوم جئت، وبكم رجل مررت ومن حيث المعنى إن كم إذا قرن بها من وجعل مميزه جمعاً كما فى قول القائل كم من رجال خدمتهم ويكون معناه كثير من الرجال خدمتهم ورب وإن كانت للتقليل لكن لا تقوم مقام القليل، فلا يمكن أن يقال فى رب إنها عبارة عن قليل كما قلنا فى كم إنه عبارة عن كثير.

المسألة الثانية: قال شفاعتهم على عود الضمير إلى المعنى، ولو قال شفاعته لكان العود إلى اللفظ فيجوز أن يقال كم من رجل رأيته، وكم من رجل رأيتهم، فإن قلت هل بينهما فرق معنوى؟

قلت نعم، وهو أنه تعالى لما قال ﴿**لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ**﴾ يعنى شفاعة الكل، ولو قال شفاعته لكان معناه كثير من الملائكة كل واحد لا تغنى شفاعته فربما كان يخطر ببال أحد أن شفاعتهم تغنى إذا جمعت، وعلى هذا ففى الكلام أمور كلها تشير إلى عظم الأمر **(أحدها)** كم فإنه للتكثير .

(ثانيا) لفظ الملك فإنه أشرف أجناس المخلوقات .

(ثالثها) فى السموات فإنها إشارة إلى علو منزلتهم ودنو مرتبتهم من مقر السعادة.

(رابعها) اجتماعهم على الأمر فى قوله ﴿**شَفَاعَتُهُمْ**﴾ وكل ذلك لبيان فساد قولهم إن الأصنام يشفعون أى كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلتها فإن الجماد أخس الأجناس والملائكة أشرفها وهم فى أعلى السموات ولا تقبل شفاعة الملائكة فكيف تقبل شفاعة الجمادات؟!

المسألة الثالثة: ما الفائدة فى قوله تعالى ﴿**وَكَم مِّن مَّلَك**﴾ بمعنى كثير من الملائكة مع أن كل من فى السموات منهم لا يملك الشفاعة؟

تقول المقصود الرد عليهم فى قولهم هذه الأصنام تشفع، وذلك لا يحصل ببيان أن ملكا من الملائكة لا تقبل شفاعته فاكتفى بذكر الكثيرة، ولم يقل ما منهم أحد يملك الشفاعة لأنه أقرب إلى المنازعة فيه من قوله كثير مع أن المقصود حاصل به، ثم ههنا بحث وهو أن فى بعض الصور يستعمل صيغة العموم والمراد الكثير، وفى البعض يستعمل الكثير والمراد الكل وكلاهما على طريقة واحدة، وهو استقلال الباقى وعدم الاعتداد، ففى قوله تعالى ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت إليه، وفى قوله تعالى ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ وقوله ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾ يجعل المخرج غير ملتفت إليه فيجعل كأنه ما أخرجه كالأمر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج، وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام، فإن كان الكلام مذكوراً لأمر فيه يبالغ يستعمل الكل.

مثاله: يقال للملك كل الناس يدعون لك إذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لا غير، وإن كان الكلام مذكراً لأمر خارج عنه لا يبالغ فيه لأن المقصود غيره فلا يستعمل الكل.

مثاله: إذا قال الملك لمن قال له اغتنم دعائى كثير من الناس يدعون لى، إشارة إلى عدم احتياجه إلى دعائه لا لبيان كثرة الدعاء له، فكذلك ههنا.

المسألة الرابعة: قال ﴿لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ولم يقل لا يشفعون مع أن دعواهم أن هؤلاء شفعاؤنا لا أن شفاعتهم تنفع أو تغنى وقال تعالى فى مواضع أخرى ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ فنفى الشفاعة بدون الإذن وقال ﴿مالهم من ولى ولا شفيع﴾ نفى الشفيع وههنا نفى الإغناء؟

نقول هم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم، كما قال تعالى ﴿ليقربونا إلى الله زلفى﴾ ثم نقول نفى دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة، أما نفى دعواهم لأنهم قالوا الأصنام تشفع لنا شفاعة مقربة مغنية فقال ﴿لا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ﴾ بدليل أن شفاعة الملائكة لا تغنى، وأما الفائدة فلأنه لما استثنى بقوله ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ أى فيشفع ولكن لا يكون فيه بيان أنها تقبل وتغنى أولا تقبل، فإذا قال ﴿لا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ﴾ ثم قال ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ فيكون معناه تغنى فيحصل البشارة،

لأنه تعالى قال ﴿الَّذين يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقال تعالى ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ والاستغفار شفاعة.

وأما قوله ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ليس المراد نفى الشفاعة وقبولها كما فى هذه الآية حيث رد عليهم قولهم وإنما المراد عظمة الله تعالى، وأنه لا ينطق فى حضرته أحد ولا يتكلم كما فى قوله تعالى ﴿ لايتكلمون إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ﴾.

المسألة الخامسة: اللام فى قوله ﴿ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ تحتمل وجهين:

(أحدهما) أن تتعلق بالإذن وهو على طريقين.

(أحدهما) أن يقال ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ﴾ من الملائكة فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة ويرضى.

(الثانى) أن يكون الإذن فى المشفوع له لأن الإذن حاصل للكل فى الشفاعة للمؤمنين لأنهم جميعهم يستغفرون لهم فلا معنى للتخصيص، ويمكن أن ينازع فيه.

(وثانيهما) أن تتعلق بالإغناء يعنى إلا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة فتغنى شفاعتهم لمن يشاء ويمكن أن يقال بأن هذا بعيد، لأن ذلك يقتضى أن تشفع الملائكة، والإغناء لا يحصل إلا لمن يشاء، فيجاب عنه بأن التنبيه على معنى عظمة الله تعالى فإن الملك إذا شفع فالله تعالى على مشيئته بعد شفاعتهم يغفر لمن يشاء.

المسألة السادسة: ما الفائدة فى قوله تعالى ﴿وَيَرْضَى﴾؟

نقول فيه فائدة الإرشاد، وذلك لأنه لما قال ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ كان المكلف متردداً لا يعلم مشيئته فقال ﴿وَيَرْضَى﴾ ليعلم أنه العابد الشاكر لا المعاند الكافر، فإنه تعالى قال ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فكأنه قال ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ ثم قال ﴿وَيَرْضَى﴾ بياناً لمن يشاء، وجواب آخر على قولنا: لا تغنى شفاعتهم شيئاً ممن يشاء، هو أن فاعل يرضى المدلول عليه لمن يشاء كأنه قال ويرضى هو أى تغنيه الشفاعة شيئاً صالحاً فيحصل به رضاه كما قال ﴿وَيَرْضَى﴾ هو أن تغنيه الشفاعة وحينئذ يكون يرضى للبيان لأنه لما قال ﴿لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ إشارة إلى نفى كل قليل وكثير كان اللازم عنده بالاستثناء، أن شفاعتهم تغنى شيئاً ولو كان قليلاً ويرضى

المشفوع له ليعلم أنها تغنى أكثر من اللازم بالاستثناء ويمكن أن يقال ﴿وَيَرْضَى﴾ لتبين أن قوله ﴿يَشَاء﴾ ليس المراد المشيئة التى هى الرضا، فإن الله تعالى إذا شاء الضلالة بعبد لم يرض به، وإذا شاء الهداية رضى فقال ﴿لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ليعلم أن المشيئة ليست هى المشيئة العامة، إنما هى الخاصة. ا هـ.

[قلت] وقوله ﴿يَشَاء﴾ ليس المراد المشيئة.. إلخ

وهذا فيه شيء من التأويل، والإخبار بالمشيئة على ظاهره فلا تؤول ولا تعطل ولا تكيف. والله الهادى إلى سواء السبيل

- **وقال القرطبى[1]: بنحوٍ مما تقدم، وقال، (كم) تدل على الجمع. ا هـ**

وقال ابن كثير[2]: فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله وهو تعالى لم يشرع عبادتها، ولا أذن فيها بل قد نهى عنها على ألسنة جميع الرسل، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه؟!أ. هـ

- **وقال الشوكانى[3] بنحوٍ من الأقوال السابقة**

ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:

-قال سليمان آل الشيخ[4]:-

قال أبو حيان: كم خبرية ومعناها التكثير وهى فى موضع رفع بالابتداء والخبر لا تغنى. والغناء جلب النفع ودفع الضرر بحسب الأمر الذى يكون فيه الغنى. وكم: لفظها مفرد، ومعناها جمع. وإذا كانت الملائكة المقربون لا تغنى شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه أن يرضاه أهلاً للشفاعة، فكيف تشفع الأصنام لمن عبدها؟!

قلت ـ سليمان الشيخ ـ: فى هذه الآيات من الرد على من عبد الملائكة والصالحين لشفاعة أو غيرها ما لا يخفى، لأنهم إذا كانوا لا يشفعون إلا بإذن من الله ابتداء، فلأى معنى يدعون ويعبدون؟ وأيضاً فإن الله لا يأذن إلا لمن ارتضى قوله وعمله، وهو الموحد لا المشرك كما قال: **﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾** والله لا يرتضى إلا التوحيد كما قال: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**. أ. هـ.

(1) تفسير القرطبى (٩/ ٦٢٧٤).
(2) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٦).
(3) فتح القدير (٥/ ١٠٩).
(4) تيسير العزيز الحميد (٢٠٦).

- **وتابعه على ذلك باقى الشراح**

- **وقال ابن باز**(١): فبين سبحانه أنه لايشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنهم لايشفعون إلا لمن أرتضى، وأن الملائكة لاتملك إذناً فى الشفاعة بل يملكها الله وحده ، فإذا كان هذا حال الملائكة والأنبياء والرسل لا يشفعون إلا بعد الإذن والرضا عن المشفوع فغيرهم من الصالحين والأطفال والأفراد من باب أولى . أهـ.

- **وقال ابن عثيمين**(٢): فللشفاعة شرطان هما:

(١) الإذن من الله (٢) رضاه عن الشافع والمشفوع له. إلى أن قال: وهذه الآية فى سياق بيان بطلان ألوهية اللات والعزى وقال تعالى بعد ذكر المعراج وما حصل للنبى ﷺ فيه (**لقد رأى من آيات ربه الكبرى**) أى العلامات الدالة عليه عز وجل، فكيف به سبحانه؟! فهو أكبر وأعظم ثم قال: فإذا كانت الملائكة وهى فى السماوات فى العلو لا تغنى شفاعتهم إلا بعد إذنه تعالى ورضاه فكيف باللات والعزى وهى فى الأرض؟! ولهذا! قال ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ**﴾ مع أن الملائكة تكون فى السموات وفى الأرض، ولكن أراد الملائكة التى فى السموات العلى وهى عند الله سبحانه، فحتى الملائكة المقربون حملة العرش لا تغنى شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. اهـ.

قلت: وهذا القول قريب من قول الزمخشرى المتقدم

- **فبينت الآية شرطية الشفاعة، فما هى موانعها؟**

موانع الشفاعة

[١] عدم الرضى عن الشافع

فقد يكون الشافع موحداً لكن لا يرضى الله بعض قوله أو عمله كما ثبت فى صحيح مسلم رحمه الله عن أبى الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة**»(٣).

لذلك **قال ابن القيم**: ولا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله كما قال فى الفصل الأول «**من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه**» الآية وفى الثانى «**ولا يشفعون الا لمن ارتضى**» الآية.

---

(١) التعليق (١٠٤، ١٠٥)

(٢) القول المفيد (١/ ٤٣١، ٤٣٢).

(٣) سيأتى

وقوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾(١).

---

[٢] عدم الإذن له

فقد يكون العبد موحداً مرضياً عنه لكن لا يؤذن له.

يستدل لذلك بأن الصحابة جميعاً رضى الله عنهم ورضوا عنه.

ولم يثبت أنهم جميعاً شفعاً.

(من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه).

ومن الموانع العامة للشفاعة أيضاً

[٣]- التكذيب بالشفاعة

أخرج الإمام الأجرى رحمه الله في الشريعة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: من كذب بالشفاعة فليس له فيها نصيب(٢).

وتقدم فى النوع الرابع من شفاعته ﷺ قول أبى بكر - ابن أبى عاصم - أن منكر الشفاعة كافر

الموانع الخاصة وهى ترك الأسباب الخاصة للشفاعة الخاصة.

قوله: [وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾].

● **مناسبة الآية للباب:**

قال القرعاوى(٣): حيث دلت الآية على نفى الشفاعة عن كل مخلوق إلا بشرطين: إذن الله للشافع. ورضاه عن المشفوع له. أ.هـ.

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

قال القرعاوى(٤): حيث دلت الآية على أن الشفاعة لا تنال إلا بعد إذن الله ورضاه فدل على أنها ملك لله وطلبها من غير الله شرك أكبر ومن ذلك طلبها من الأوثان التى زعموا أنهم يعبدونها لأجل الشفاعة. أهـ.

الإعراب(٥): ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ قل فعل أمر مبنى على

---

(١) سبأ (٢٢- ٢٣)

(٢) قال الحافظ فى الفتح ١١ /٤٢٦: وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عن أنس فذكره.

(٣) (٤) الجديد (١٦٢، ١٦٣). (٥) إعراب القرآن (٨/٨٦- ٨٨).

السكون وحرك بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين وجملة **(ادعوا الذين)** مقول القول وجملة **(زعمتم)** صلة **(ومن دون الله)** صفة للمفعول الثانى المحذوف والمفعول الأول محذوف أيضاً تقديره زعمتوهم آلهة فحذف الأول لطول الموصول بصلته وحذف الثانى لقيام صفته، أعنى من دون الله مقامه. وهذا من أعجب الكلام وأوكده ونحن ننقل لك عبارة الزمخشرى بنصها فى هذا الصدد قال: «**فإن قلت أين مفعولا زعم؟**

قلت: **أحدهما** الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول وأما الثانى فلا يخلو إما أن يكون من دون الله أو لا يملكون أو محذوفاً فلا يصح الأول لأن قولك هم من دون الله لا يلتئم كلاماً ولا الثانى لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك فكيف يتكلمون بما هو حجة عليهم وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد فبقى أن يكون محذوفاً تقديره: زعمتموهم آلهة من دون الله فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف فى قوله: **(أهذا الذى بعث الله رسولاً)** استخفافاً لطول الموصول بصلته وحذف آلهة لأنه موصوف صفته من دون الله والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً فإذن مفعولا زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين».

﴿لا يملكون مثقال ذرة فى السموت ولا فى الأرض﴾ الجملة حال من الذين زعمتموهم آلهة ولك أن تجعلها مستأنفة مسوقة لبيان حالهم **(ولا)** نافية **(ويملكون)** فعل مضارع وفاعل **(ومثقال ذرة)** مفعول به (وفى السموات والأرض) متعلقان (بيملكون)أو بمحذوف حال. **﴿وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير﴾** (الواو) عاطفة (وما) نافية (ولهم) خبر مقدم (وفيهما) حال (ومن) حرف جر زائد (وشرك) مجروراً لفظاً مرفوع محلاً على أنه مبتدأ مؤخر أو اسم ما على رأى من يجيز تقدم خبرها على اسمها (والواو) عاطفة أيضاً (وما) نافية (وله) خبر مقدم (ومنهم) حال (ومن ظهير) مبتدأ مؤخر.

(ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) الكلام مستانف مسوق لبيان المصير الذى لاتنفع فيه شفاعة الشافعين إلا لمن سبق القلم بالإذن له، ولا نافية، **(وتنفع الشفاعة)** فعل مضارع وفاعل **(وعنده)** ظرف متعلق **(بتنفع)** أو بمحذوف حال، وإلا أداة حصر ولمن متعلقان بالشفاعة إذ يقال شفعت **له** أو بتنفع.

وللزمخشرى بحث لطيف فى متعلق هذه اللام نورده بنصه قال: «تقول الشفاعة لزيد على معنى أنه الشافع كما تقول: الكرم لزيد على معنى أنه المشفوع له كما تقول: القيام لزيد فاحتمل قوله: ولاتنفع الشفاعة إلا لمن أذن له أن يكون على أحد هذين الوجهين أى لاتنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له أولا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له أى لشفيعه أو هى اللام الثانية فى قولك: أذن لزيد لعمرو أى لأجله،

وكأنه قيل: إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله، وهذا وجه لطيف وهو الوجه». (وأذن) فعل ماض مبنى للمعلوم والفاعل مستتر يعود على الله، وله متعلقان بأذن وقرئ أذن بالبناء للمجهول. اهـ.

● ما جاء من كلام المفسرين فى الآية:

- **قال ابن جرير**[1]: يقول تعالى ذكره: ولاتنفع شفاعة شافع كائناً من كان لمن شفع له إلا أن يشفع لمن أذن الله فى الشفاعة يقول تعالى فإذا كانت الشفاعات لاتنفع عند الله أحداً إلا لمن أذن الله فى الشفاعة له، والله لا يأذن لأحد من أوليائه فى الشفاعة لأحد من الكفرة به، وأنتم أهل كفر به أيها المشركون، فكيف تعبدون من تعبدونه من دون الله زعماً منكم أنكم تعبدونه ليقربونكم إلى الله زلفى، وليشفع لكم عند ربكم فمن إذ كان هذا معنى الكلام فى قوله إلا لمن أذن له المشفوع له. اهـ.

- **قال البغوى**[2]: (ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) الله فى الشفاعة، قاله تكذيباً لهم حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويجوز أن يكون المعنى إلا لمن أذن الله له أن يشفع له، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى (أذن) بضم الهمزة. اهـ.

- **وقال القرطبى**[3]: (ولاتنفع الشفاعة) أى شفاعة الملائكة وغيرهم. اهـ.

وبنحوٍ مما تقدم قال به باقى المفسرين. والله المستعان.

قال سليمان آل الشيخ: هذه الآية هى التى قال فيها بعض العلماء: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها.

قال ابن القيم فى الكلام عليها: وقد قطع الله الأسباب التى يتعلق بها المشركون جميعها قطعاً، يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً فمثله: ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن يكون فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التى يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهى الشفاعة بإذنه،

(١) تفسير الطبرى (١٠/ ٢١/ ٦٢).
(٢) معالم التنزيل (٤/ ٥٠٦).
(٣) تفسير القرطبى (٨/ ٥٣٧٧).

قال: فهو الذى يأذن للشافع، وإن لم يأذن له لم يتـقدم فى الشفاعة بين يديه كما يكون فى حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيـها، وأما كل ما سواه فقير إلـيه بذاته وهو الغنى بذاتـه عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟

فكفى بهذه الآية نـوراً وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد، وقـطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن ممـلوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثـر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنـه له ويظنه فى نوع، وقوم قد خلوا من قبل ولـم يعقبوا وارثاً، وهذا الذى يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم وشر منهم ودونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «**إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية**».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجـاهلية والشرك، وما دعا به القـرآن وذمه، وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوبه وحسـنه، وهو لايعرف أنه الذى كان عليه الجاهـلية، أو نظيره أو شر منه أو دونه، فـتنتقض بذلـك عرى الإسلام، ويعود المعـروف منكراً والمنكـر معروفاً، والبدعة سنَّة والسنَّة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع. ومـن له بصيرة وقلب حى يرى ذلك عياناً، فالله المستعان.

وقال الله تعالى حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾(١) فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنه يقربه إلى الله تعالى. وما أعز من يخلص مـن هذا بل ما أعز من يعادى مـن أنكره. والذى فى قلوب هؤلاء المشركين وسـلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عنـد الله، وهذا عين الشرك. وقد أنكره الله علـيهم فى كتابه، وأبـطله، وأخبر أن الشفاعـة كلها له، وأنه لايشـفع عنده أحد. إلا لمن أذن الله تعالى أن يـشفع له فيه، ورضى قوله وعمله. وهـم أهل التوحيد الذين لم يتـخذوا من دون الله شفعاء، فإنه سبحـانه وتعالى يأذن فى الشفاعـة فيهم لمن يشاء، حيث لم يتخـذوهم شفعاء من دونه؛ فيكون أسعد الناس بـشفاعته من يأذن الله

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

تعالى له، صاحب التوحيد الذى لم يتخذ شفيعاً من دون الله. والشفاعة التى أثبتها الله تعالى ورسوله ﷺ هى الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده والتى نفاها الله تعالى هى الشفاعة الشركية التى فى قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض مقصودهم من شفاعتهم، ويفوز بها الموحدون. انتهى. أى كلام ابن القيم.

ولكن تأمل الآية كيف أمرهم تعالى بدعاء الملائكة أمر تعجيز، والمراد بيان أنهم لا يملكون شيئاً، فلا يدعون لا لشفاعة ولا غيرها، ثم أخبر أنهم هم الذين اتخذوهم بزعمهم شفعاء فنسبه إلى زعمهم وإفكهم الذى ابتدعوه من غير برهان ولا حجة من الله.

وهذه الآية نزلت فى دعوة الملائكة، ودخول غيرهم فيها من باب الأولى، كما روى ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[1] يقول: من عون من الملائكة. وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾[2] فإذا كان اتخاذ الملائكة شفعاء من دون الله شركاً، فكيف باتخاذ الأموات كما يفعله عباد القبور؟ أم كيف باتخاذ الفجار والفساق إخوان الشياطين من المجاذيب الذين جذبهم إبليس إلى جانبه وطاعته شفعاء؟

وأعظم من ذلك اعتقاد الربوبية فى هؤلاء الملاعين مع ما يشاهده الناس منهم من الفجور، وأنواع الفسوق، وترك الصلوات، وفعل المنكرات، والمشى فى الأسواق عراة.

كما قال بعض المتأخرين:

كقوم عراة فى ذرى مصر ما ... على عورة منهم هناك ثياب
يدورون فيها كاشفين لعورة ... تواتر هذا لايقال كذاب
يعدونهم فى مصر هم فضلاءهم ... دعاؤهم فيما يرون مجاب

ومن العجب أنهم لم يأتوا بشىء يدل على كون هؤلاء الشياطين من جملة المسلمين، فضلاً عن كونهم أولياء، فضلاً عن كونهم يدعون ويستغاث بهم، إلا بشىء من المخاريق والسحر والشعبذة، يدعون أن لهم كرامات، وأنهم أولياء لما يظهرونه من المخاريق.

---

(١) سورة سبأ: ٢٢

قال أَبُو العَبَّاس: «نَفَى اللهُ عمَّا سواهُ كُلَّ مَا يَتعلَّقُ به المُشْرِكُون، فَنَفى أَنْ يَكُونَ لغَيْره مُلْكٌ أَوْ قسطٌ منْهُ، أَو يكُونَ عوْناً لله، ولَمْ يَبْقَ إلا الشفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أنَّهَا لا تَنْفَعُ إلاَّ لمَنْ أَذنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿ولا يَشْفَعُونَ إلاَّ لمَنِ ارْتَضَى﴾[1]. فَهَذه الشَّفَاعَةُ الَّتي يَظُنُّهَا المُشْرِكُونَ هي مُنْتَفيةٌ يَوْمَ القيَامَة؛ كَمَا نَفَاهَا القُرْآنُ.

وَأَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ: «أَنَّهُ يَأتي فَيَسْجُدُ لربِّه ويَحمَدُهُ ـ لاَ يَبدأُ بالشَّفَاعَة أَوَّلاً ـ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»(*).

واعلم أن الضلال والكفر إنما استولى على أكثر المتأخرين بسبب نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، وإحسان الظن بمن سحرهم، ودعا إلى نفسه، واقتصارهم على القوانين والدعاوى والأوضاع التي وضعوها لأنفسهم، وإلا فلو قرأوا كتاب الله، وعلموا بما فيه، ورجعوا عند الاختلاف إليه لوجدوا فيه الهدى والشفاء والنور ولكن نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون وتقدم الكلام على بقية الآية اهـ.



قوله: قال أبو العباس: ﴿نَفَى اللهُ عمَّا سواه . . . الخ﴾

قال سليمان آله الشيخ(**): **قوله: (قال أبو العباس)** هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن تيمية، الإمام المشهور، صاحب «المصنفات» شهرته وإمامته في علوم الإسلام وتفننه تغني عن الإطناب في وصفه. قال الذهبي: لم يأت قبله بخمس مائة سنة مثله، وفي رواية: بأربع مائة. وقال أيضاً: لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني لم أر مثله، وما رأى بعينيه مثل نفسه رحمه الله.

وقال ابن دقيق العيد: لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه، يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء. وبالجملة فما أتى بعد عصر الإمام أحمد له نظير، وكانت وفاته سنة ثمان وعشرين وسبعمائة).

قوله: (نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون) أي أن الله تعالى نفى في الآية المذكورة كل ما يتعلق به المشركون من الاعتقاد في غير الله من الملك والشركة فيه والمعاونة والشفاعة؛ فهذه الأمور الأربعة هي التي يتعلق بها المشركون.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(*) جزء من حديث طويل.

(**) تيسير العزيز الحميد (١١٢ - ٢١٩).

قوله: (فنفى أن يكون لغيره ملك)، وذلك فى قوله تعالى: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾(١) ومن لا يملك هذا المقدار فليس بأهل أن يدعى.

قوله: (أو قسط منه). أى من الملك، والقسط - بكسر القاف - هو النصيب من الشيء، وذلك فى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أى ما لمن تدعون من الملائكة وغيرهم فيها، أى فى السموات والأرض من شرك ومن ليس بمالك ولاشريك للمالك فكيف يدعى من دون الله؟

قوله: (أو أن يكون عوناً لله) وذلك فى قوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أى ما لله ممن تدعونهم معين.

قوله: (ولم يبق إلا الشفاعة، فتبين أنها لاتنفع إلا لمن أذن له الرب.. إلخ) جملة الشروط التى لابد وأن يكون أحدها فى المدعو، أربعة حتى يقدر على إجابة من دعاه.

الأول: الملك، فنفاه بقوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾.

الثانى: إذا لم يكن مالكاً فيكون شريكاً للمالك، فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

الثالث: إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً للمالك فيكون عوناً ووزيراً فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾.

الرابع: إذا لم يكن مالكاً ولاشريكاً ولا عوناً فيكون شفيعاً، فنفى سبحانه وتعالى الشفاعة إلا بإذنه، فهو الذى يأذن للشافع ابتداءً فيشفع.

فبنفى هذه الأمور بطلت دعوة غير الله، إذ ليس عند غيره من النفع والضر ما يوجب قصده بشيء من العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة سبأ الآية: ٢٢. (٢) الفرقان: ١٣

(٣) يس: ٧٤

وقال تعالى ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا﴾[1].

قال ابن عثيمين[2]: فبين أنها لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿ولايشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وقال ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾ ومعلوم أنه لايرضى هذه الأصنام لأنها باطلة، وحينئذ فتكون شفاعتها منتفية.

واعلم أن شرك المشركين فى السابق كان فى عبادة الأصنام، أما الآن، فهو فى طاعة المخلوق فى المعصية، فإن هؤلاء يقدسون زعماءهم أكثر من تقديس الله إن أقروا به، فيقال لهم: إنهم بشر مثلكم، خرجوا من مخرج البول والحيض، وليس لهم شرك فى السماوات ولافى الأرض، ولايملكون الشفاعة لكم عند الله، إذاً، فكيف تتعلقون بهم؟! حتى إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين.

والواجب علينا نحو ولاة الأمور طاعتهم، وطاعتهم من طاعة الله، وليست استقلالاً، أما عبادتهم كعبادة الله، فهذه جاهلية وكفر.

قوله: (فهذه الشفاعة التى يظنها المشركون. هى منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن).

يعنى أن الشفاعة التى يطلبها المشركون من الشفعاء والأنداد من دون الله منتفية دنيا وأخرى، كما قال تعالى عن مؤمن يس: ﴿أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئًا ولا ينقذون * إنى إذًا لفى ضلال مبين﴾[3] وقال تعالى: عن مؤمن آل فرعون: ﴿لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة﴾[4] وقال تعالى: ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانًا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون﴾[5].

وقال تعالى: ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب﴾[6].

---

(1) الفرقان : ٥٥ (2) القول المفيد (١/ ٤٣٦، ٤٣٧).
(3) سورة يس، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(4) سورة غافر الآية: ٤٣.
(5) سورة الأحقاف الآية: ٢٨. (6) سورة هود، الآيه: ١٠١.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾(٢) فهذه حال كل من دعى من دون الله لشفاعة أو غيرها فى الدنيا والآخرة.

قوله: **(وأخبر النبى ﷺ أنه يأتى فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً.. إلى آخره).**

هذا ثابت فى «الصحيحين»(*) وغيرهما من حديث أنس وغيره عنه ﷺ فى حديث الشفاعة قال: **«فأَقُومُ فأَمْشى بَينَ سَماطَينِ منَ المُؤْمنينَ حتى أَستأْذنُ على ربى، فإذا رأيتهُ وَقعتُ لَهُ، أَوْ خَررتُ ساجداً لربى فَيدَعنى مَا شاء الله أَنْ يَدَعنى ثُم قَال: ارفَع محمدٌ، قُل تُسمع، وَاشفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعطَهُ فأَرفعُ رأس فأَحمدُ بتَحميد يُعلمنِّيه، ثُمَّ أَشفعُ فَيحدُّ لى حَداً فأُدخلهُم الجنةَ، ثُم أَعودُ إليه الثانيةَ، فَإذا رَأيتُ رَبى وَقَعتُ لهُ، أو خَررتُ ساجداً لربى فَيدَعنى مَا شاءَ الله أن يَدعَنى، ثُم يقول: ارفَعْ مُحمد، قُل يُسمعْ [وسَل] فتُعطه، واشفَعْ تُشفعْ. فَأَرْفَعُ رأَسى فأَحْمُدَهُ بتَحميد يُعلمنيه، ثُم أَشفع فَيحدُّ لى حَداً، فأُدخلهم الجنَّة ثُم أَعُودُ الثالثةَ، فإذا رأيت ربى وَقعتُ لَهُ، أَو خَررتُ ساجداً لربى، فيدَعنى ما شاء اللهُ أن يَدعنى ثُم يُقالُ: ارفعْ مُحمد، قُل يُسمع، وَسَلْ تُعطَهْ، وَاشفَعْ تُشَفَع فأَرفَع رأسى فَأَحمُدَهُ بتحميد يُعلمنِّيه، ثُم أَشفعْ فَيحدُّ لى حَداً فأُدخلهم الجنَّة، ثُم أَعُود الرابعة فأَقُولُ: يَاربِّ مَا بقَى إلاَّ من حبسهُ القُرآنُ»**... الحديث.

فبين ﷺ أنه لايشفع إلا بعد الإذن فى الشفاعة وفى المشفوع فيهم، كما قال: **«فَيحدُّ لى حَداً فأُدخلهُم الجنَّةَ»**.

قوله: **(وقال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك إلى آخره)**. هذا الحديث رواه البخارى ومسلم والنسائى.

وعن أبى هريرة قال: قلت: يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؛ فقال: **«لَقد ظَننْتُ يَا أَبا هُريرَةَ أَنْ لاَ يَسأَلنى عَن هذا الحديثِ أَحدٌ أَوَّلَ منكَ، لما**

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٤.

(*) تقدم وهو فى الصحيحين. بغير هذا اللفظ.

وَقَالَ أَبُو هرَيْرَةَ لَـهُ ﷺ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاس بِشَفَاعَتِـكَ؟ قَالَ: «مَن قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، خَالصاً مِـن قَلبِه»(١) فَتِلْـكَ الشَّفَاعَـة لأَهْلِ الإِخْلاَصِ بِإِذْنِ الله، وَلاَ تَـكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِالله.

وَحَقِيقَتُـهُ أَنَّ الله سُبْحَانَهُ هُوَ الذى يَتَـفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلاَص، فَيَـغْفِرُ لَهُم بِوَاسِطَةِ دُعَاء مَـنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِيُكْرِمَهُ، وَيَـنَالَ المَقَامَ المَحْمُود. فَالشَّـفَاعَةُ الَّتِى نَفَاهَا القُرْآن مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِه فى مَوَاضِعَ.

رأيتُ من حرصكَ عَلَى الحديث، أَسعـدُ النَّاس بِشفَاعَتى يومَ القيامة مَن قال: لا إِلهَ إلا الله خَالِصاً مِن قِبَلِ نَفْسه»

وفى رواية: «خَالِصـاً مُخلصاً مِنْ قَلبه أَو نَفْسه» رواه أحمد من طريق آخر، وصححه ابن حبـان، وفيه: «وَشَفَاعَـتى لِمَنْ شَـهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلا الله مُخْـلصاً، يُصَـدِّقُ قَلبُهُ لِـسَانَهُ وَلِسَانُهُ قَلبَهُ» قـال شيـخ الإسـلام: فجعل أسعد النَاس بشفاعته أكملهم إخلاصاً.

قال ابن القيـم رحمه الله فى معنى حديـث أبى هريرة: تأمَّل هذا الحـديث كيف جعل أعظم الأسباب التـى تُنَال بها شفاعته تجريد التَّوحيد، عكـس ما عند المشركين أن الشَّفاعة تـنال باتخاذهم [أولياءهم] شـفعاء وعبادتهم وموالاتهـم [من دون الله]، فقلب النبى ﷺ ما فى زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشَّـفاعة تجريد التَّوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك اعتقاده أنَّ من اتَّخذه وليًّا أو شفـيعاً أنَّه يشفع له ويَنْفَعهُ عند الله، كما يكون خواص الولاة والمـملوك تنفع مَن والاهم، ولم يعلموا أنَّـه لايشفع عنده أحد إلاَّ بإذنه فى الـشَّفاعة، ولا يأذن فى الـشَّفاعة إلاَّ لمن رَضى قـوله وعمله، كمـا قال فى الفصلِ الأول: ﴿مَن ذَا الَّذى يَشْفَعُ عِندَهُ إلاَّ بِإِذْنه﴾ وفى الفصل الثَّانى: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ وبقى فصـل ثالث، وهو أنه لايرضـى من القول والعمـل إلاَّ توحيده واتبـاع رسوله ﷺ، فـهذه ثـلاثة فصـول تقطـع شجرة الـشرك من قـلب مـن عقلـها ووعاها». اهـ.

قوله: «من أسعد النـاس بشفاعتك» لعلّ أبا هـريرة سئل عن ذلك عند تحـديثه له - ﷺ - **وأريد أن اختبئ دعوتى شفاعةً لامتى فى الأخرة.**

---

(١) تقدم.

وقوله: «أسعد».

قال ابن حجر: ومعنى قوله فى معنى «أسعد» الفعل لا أنها أفعل التفضيل أى سعيد الناس، كقوله تعالى: «**وأحسن مقيلا**» ويحتمل أن يكون أفعل التفضيل على بابها، وأن كل أحد يحصل له سعد بشفاعته، لكن المؤمن المخلص أكثر سعادة بها، فإنه - ﷺ - يشفع فى الخلق لإراحتهم من هول الموقف، ويشفع فى بعض الكفار بتخفيف العذاب كما صح فى حق أبى طالب، ويشفع فى بعض المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها، وفى بعضهم بعدم دخولها بعد أن استوجبوا دخولها، وفى بعضهم بدخول الجنة بغير حساب، وفى بعضهم برفع الدرجات فيها، فظهر الاشتراك فى السعادة بالشفاعة وأن أسعدهم بها المؤمن المخلص[1]: والله أعلم. اهـ

[قلت] وتقدم تقسيم شفاعته ﷺ إلى أقسام فراجعها.

وقال فى موضع آخر[2]: والحاصل أن فى قوله: «أسعد» إشارة إلى اختلاف مراتبهم فى السبق إلى الدخول باختلاف مراتبهم فى الإخلاص، ولذلك أكده بقوله: «من قلبه» مع أن الإخلاص محله القلب، لكن إسناد الفعل إلى الجارحة أبلغ فى التأكيد، وبهذا التقرير يظهر موقع قوله: «**أسعد**» وأنها على بابها من التفضيل، ولا حاجة إلى قول بعض الشراح الأسعد هنا بمعنى السعيد لكون الكل يشتركون فى شرطية الإخلاص، لأنا نقول يشتركون فيه لكن مراتبهم فيه متفاوتة.

وقال البيضاوى: يحتمل أن يكون المراد من ليس له عمل يستحق به الرحمة والخلاص، لأن احتياجه إلى الشفاعة أكثر وانتفاعه بها أوفى والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ: وقال فى الحديث الصحيح: «**مَنْ سَأَلَ الله لى الوَسِيلَةَ حَلَّتْ عليه شَفَاعتى يَوْمَ القيامَةِ**»[3] ولم يقل: كان أسعد الناس بشفاعتى، فعلم أنَّما يحصل للعَبد بالتوحيد والإخلاص من شفاعة الرسول ﷺ وغيرها ما لا يحصل بغيره من الأعمال، وإن كان صالحاً لسؤال الوسيلة للرسول ﷺ، فكيف بما لم يأمر به من الأعمال، بل نهى عنه، فذلك لاينال به خير لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، مثل غلو النصارى فى المسيح، فإنه يضرهم ولا ينفعهم.

ونظير هذا فى «الصحيح» عنهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لكُل نَبى دَعوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّل كُلُّ نَبىٍّ دَعْوتَهُ وإنى اخْتَبَأْتُ دَعْوتَى شَفَاعَةً لأمَّتى يَوْمَ القيامَة، فَهِىَ نَائلةٌ إنْ شَاءَ الله مَنْ مَاتَ من أُمَّتى لا يُشْرِكُ بالله شَيْئاً**» وكذلك فى أحاديث الشَفَاعَةَ كلهـا إنما يشفع فى أهل التوحيد،

(١) الفتح ١/ ٢٣٤/ح ٩٩.
(٢) فتح البارى (١١/ ٤٥١).
(٣) تقدم.

فبحسب توحيد العبد لربه، وإخلاصه دينه لله تعالى يستحق كرامة الله بالشفاعة وغيرها وقال ابن القيم ما معناه: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التى تنال به شفاعته تجريد التوحيد عكس ما عند المشركين من أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعباداتهم وموالاتهم من دون الله فقلب النبى ﷺ ما فى زعمهم الكاذب وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

قوله: وحقيقته. أى حقيقة الأمر، أى أمر الشفاعة أن الله سبحانه هو الذى يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود. فهذا هو حقيقة الشفاعة لا كما يظن المشكون والجهال أن الشفاعة هى كون الشفيع يشفع ابتداء فيمن شاء فيدخله الجنة وينجيه من النار ولهذا يسألونها من الأموات وغيرهم إذا زاروهم وذلك أنهم قالوا: إن الميت المعظم الذى لروحه قرب ومزية عند الله لاتزال تأتيه الألطاف من الله وتفيض على روحه الخيرات فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآه الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له. قالوا: فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ويعكف بهمته عليه ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره وكل ما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به وشفاعته له.

قال ابن القيم: وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابى وغيرهما وصرح بها عباد الكواكب فى عبادتها وقالوا: إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور. وبهذا السر عُبدت الكواكب واتخذت لها الهياكل وصنفت لها الدعوات واتخذت الأصنام المجسدة لها، وهذا بعينه هو الذى أوجب لعباد القبور اتخاذ أعياد وتعليق الستور عليها، وإيقاد السرج عليها، وبناء المساجد عليها، وهو الذى قصد الرسول ﷺ إبطاله ومحوه بالكلية، وسد الذرائع المفضية إليه؛ فوقف المشركون فى طريقه وناقضوه فى قصده وكان ﷺ فى شق وهؤلاء فى شق.

وهذا الذى ذكره هؤلاء المشركون فى زيارة القبور هو الشفاعة التى ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتشفع لهم عند الله.

قالوا: فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله، وتوجه بهمته إليه، وعكف بقلبه عليه، صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذَا جاه وحظوة وقرب من السلطان؛ فهو شديد التعلق به، فما يحصل لذلك السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق بحسب تعلقه به. فهذا سر عبادة الأصنام وهو الذى بعث الله رسله، وأنزل كتبه بإبطاله وتكفير أصحابه،

ولعنهم، وأباح دماءهم، وأموالهم، وسبى ذراريهم، وأوجب لهم النار، والقرآن من أوله إلى آخره، مملوء من الرد على أهمه وإبطال مذهبهم. انتهى[1].

قوله: «بشفاعتك».

المراد بها بعض أنواع الشفاعة وهى التى يقول - ﷺ - **«أمتى أمتى، فيقال له أخرج من النار من كان فى قلبه وزن كذا من الإيمان»**، وأسعد الناس بهذه الشفاعة من يكون إيمانه أكمل ممن دونه، وأما الشفاعة العظمى فى الإراحة من قلب الموقف فاسعد الناس بها من يسبق إلى الجنة،وهم الذين يدخلونها بغير حساب ثم الذين يلونهم وهو من يدخلها بغير عذاب، بعد أن يحاسب ويستحق العذاب. ثم من يصيبه لفح من النار ولايسقط.

قوله: «من قال لا إله إلا الله».

احتراز من المشرك، والمراد مع قوله «محمد رسول الله» لكن قد يكتفى بالجزء الأول من كلمتى الشهادة لإنه صار شعاراً لمجموعهما.

قوله: «خالصاً» احتراز من المنافق، لأن المنافق يقولها. ولكنها ليست بإخلاص ولاصدق، قال تعالى: **﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾**.

الحكمة من الشفاعة

(١) تفضل من الله على المشفع فيه.

أسند ابن أبى عاصم عن أنس أن نبى الله ﷺ قال: **«لَيُصِيبَنَّ أقواماً سَفْع من النار عقوبة بذنوب أصابوها ثم ليدخلهم الجنة بفضل رحمته»**[2].

وأسند أيضاً عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله تبارك وتعالى: **﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾**(*) قال: **أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله قال: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف فى الدنيا**[3].

(١) تقدم

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٤٥)، البخارى (٤/٤٦٨).

(*) النساء: ١٧٣.

(٣) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٤٦).

(٢) كرامة يظهرها الله للشافع سوآء كان نـبى أو ملك من الملائكة أو صديق أو شهيد أو حافظ للقرآن أو مؤمن من المؤمنين.

والأحاديث فى ذلك تقدمت.

وأسند ابن أبى عاصم عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ أنه قال: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكـان فى قلبه من الخير مـا يزن برة، ثم يقال: يخرج مـن النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة**»[١].

وأسند عن أبى سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه ما يزن شعيرة**» فيه كلام طويل»[٢].

قوله:(وينال المقام المحمود) . أى المقام الذى يحمده فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التـأويل ذلك المقام الذى يقومه ﷺ الشـفاعة للناس ليريحهم ربهم مما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

وقال ابن عباس: المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد.

وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافـع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود.

قوله: (فالشفـاعة التى نفاها القرآن ما كـان فيها شرك). يعنى أن الشفاعـة التى نفاها الله فى القرآن هى الشفاعة التى فيها شرك بـالله من دعاء غير الله وعبادته ليشفع له عند الله، فإن الله سبـحانه تفى هذه الـشفاعة وأخبر أنـها لاتكون أبداً، بل أخـبر أن ذلك شرك، ونزه نـفسه عنـه، ونفى أن يكـون للمؤمـنين ولى أو شـفيع من دونـه، مع أن الشفاعة يوم القيامة لهم بإذنه، لا للمشركين كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**﴾ فنفى سبحانه أن تنـفع الشفاعة أحداً إلا من أذن له الرحمن ورضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص. وأمـا المشرك الداعى لغير الله ليشفع له فلا تنفعه الشفاعة، ولا يؤذن لأحد فـى الشفاعة فيه. كما قال: ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ**﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٤٩)، وهو فى مسلم.

(٢) المصدر السابق (٨٥٢)، وهو فى مسلم أيضاً

فيه مسائل

الأولى: تَفْسيرُ الآيَات.

الثانية: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ المَنفيَّه.

الثالثة: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ المُثْبَتَة.

الرابعة: ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الكُبْرَى، وَهِيَ المَقَامُ المَحْمُودُ.

الخامسة: صِفَةُ ما يَفْعَلُهُ ﷺ أنَّهُ لاَ يَبْدأُ بالشَّفَاعَةِ، بَلْ يَسْجُدُ، فَإذَا أُذِنَ لَهُ، شَفَعَ.

● **تنبيه: مسأله الاستشفاع بالله على خلقه ستأتى وأدلتها وحكمها فى الباب الرابع والستين والله المستعان.**

قوله: (**وقد بين النبى ﷺ إلى آخره.**) تقدم ما يتعلق بذلك والله أعلم.

قوله: [فيه مسائل]:

قال ابن عثيمين:

● **الأولى: تفسير الآيات.**

وهى خمس، وسبق تفسيرها فى محالها.

● **الثانية: صفة الشفاعة المنفية.**

وهى ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك؛ فإنّها منفية.

[قلت]: والادلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى عن الظلمة المشركين ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾.

وقوله تعالى ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ**﴾

● **الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.**

وهى شفاعة أهل التوحيد بشرط إذن الله تعالى ورضاه عن الشافع.

● **الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهى المقام المحمود.**

وهى الشفاعة فى أهل الموقف أن يُقضى بينهم، وقول الشيخ: «**وهى المقام المحمود**»؛ أى منه.

● **الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنَّه لايبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له؛ شفع.**

السادسة : مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِهَا؟

السابعة: أَنَّهَا لاَ تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بالله.

الثامنة: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

كما قال شيخ الإسلام رحمه الله، وهو ظاهر، وهذا يدل على عظمة الرب وكمال أدب النبي ﷺ.

[قلت]: فيبين أن الشفاعة لا بد له من عمل هو شرطها فإذا وفى بالشرط بقى الإذن فإذا كان فى حق الرسول فهى حق غيره من باب أولى.

● **السادسة: مَنْ أسعد الناس بها؟**

هم أهل التوحيد والإخلاص من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه. ولا إله إلا الله معناه: لا معبود حق إلا الله، وليس المعنى: لامعبود إلا الله؛ لأنَّه لو كان كذلك؛ لكان الواقع يكذِّب هذا، إذ إنَّ هناك معبودات من دون الله تعبد وتسمَّى آلهة، ولكنها باطلة، وحينئذ يتعين أن يكون المراد لا إله حق إلا الله.

ولا إله إلا الله تتضمن نفياً وإثباتاً، هذا هو التوحيد؛ لأنَّ الإثبات المجرَّد لا يمنع المشاركة، والنفى المجرَّد تعطيل محض، فلو قلت: لا إله معناه عطَّلت كل إله، ولو قلت: الله إله ما وحَّدت؛ لأن مثل هذه الصيغة لاتمنع المشاركة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[1] لما جاء الإثبات فقط أكده بقوله: واحد.

قلت: ولما كانت مراتب الناس فى التوحيد متفاوتة ـ كما تقدم ـ فى باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب كانت أيضاً الشفاعة مراتب متفاوتة بتفاوت مراتب الموحدين فمن أتى بالتوحيد المطلق له الشفاعة المطلقة وهو أسعد الناس بهما ومن فقد حصة من توحيده فقد قدرها حصة من الشفاعة فهو وإن كان سيسعد بها إلا أن الأول أسعد منه فالحصة للحصة والمطلق للمطلق.

● **السابعة: أنَّها لاتكون لمن أشرك بالله.**

لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، وغير ذلك مما نفى الله فيه الشفاعة للمشركين، ولقوله ﷺ: «خالصاً من قلبه».

● **الثامنة: بيان حقيقتها.**

وحقيقتها: أن الله تعالى يتفضَّل على أهل الإخلاص؛ فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود أ هـ.

[قلت]: وتقدم أدلة ذلك والله الموفق.



---

(١) البقرة: ١٦٣.

(٢) المدثر: ٤٨.

١٧ بَابُ

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾[١].

- مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال ناصر السعدى[٢]: وهذه الباب أيضاً نظير الباب الذى قبله؛وذلك أنه إذا كان ﷺ وهو أفضل الخلق على الإطلاق وأعظمهم عند الله جاهاً وأقربهم إليه وسيلة لايقدر على هداية من أحب هداية التوفيق. وإنما الهداية كلها بيد الله. فهو الذى تفرد بهداية القلوب كما تفرد بخلق المخلوقات فتبين بأنه الإله الحق.

قال ابن عثيمين[٣]: مناسبته أنه نوع من الباب الذى قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحداً بالشفاعة والخلاص من العذاب، كذلك لايستطيع أحد أن يهدى أحداً، فيقوم بما أمر الله به. اهـ.

قلت: وأيضاً لأن طلب الهداية من غير الله كطلب الشفاعة والنفع - الذى لايرجى إلا من الله - من غير الله، وهذا شرك، والتوحيد طلب ذلك من الله، كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾.

ولأن طواغيت العالم ادعت ذلك لنفسها وشاركت الله - رب العالمين - فى ذلك، قال فرعون: ﴿**ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**﴾، ورد الله عليه بقوله: ﴿**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ**﴾.

فكان لزاماً على المصنف لهذا وغيره، أن يبين التوحيد بدلائله الذى منها نفى الهداية عمن سوى الله، وطلبها منه سبحانه وتعالى.

- ماذا أراد المصنِّف بهذا الباب؟

قال حامد بن محمد بن حسن [٤]: باب بيان ما يدل على أنه لايهدى الهداية الجامعة للعلم والعمل والتعليم والصبر إلا الله من الكتاب والسنه.

أما من الكتاب فيقول الله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ**﴾. وستأتى أدلة ذلك.

قال سليمان آل الشيخ[٥]: أراد المصنف ـ رحمه الله ـ الرد على عباد القبور الذين

---

(١) القصص ٥٦.

(٢) القول السديد ٥٩ و ٦٠.

(٣) القول المفيد ١/٤٤٧.

(٤) فتح الله الحميد المجيد ٢٧٥.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢١٩

يعتقدون فى الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب وهداية القلوب، وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخروية:

ثم قال: فإذا عرف الإنسان معنى هذه الآية ومن نزلت فيه، تبين، له بطلان قولهم وفساد شركهم، لأن رسول الله ﷺ أفضل الخلق وأقربهم من الله، وأعظمهم جاهاً عنده، ومع ذلك حرص واجتهد على هداية عمه أبي طالب فى حياة أبى طالب وعند موته. فلم يتيسر له ذلك ولم يقدر عليه. اهـ.

- مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى(١): حيث دلت الأية على نفى هداية التوفيق عن النبىٍ ﷺ وهو أكرم الخلق فإذا انتفت عنه وهو بهذه المنزلة فنفيها عن غيره أولى.

- مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى:(١) حيث دلت الآية على أن هداية التوفيق مختصة بالله فيكون طلبها من غير الله شركاً.

الإعراب(٢): كلام مستأنف مسوق لبيان حرصه على إيمان عمه أبى طالب وأن واسمها وجملة (**لاتهدى**) خبرها والفاعل مستتر تقديره أنت مفعول به وجملة (**أحببت**) صلة (**ولكن الله**) الواو عاطفة أو حالية (**ولكن**) واسمها وجملة (**يهدى**) خبرها (**ومن يشاء**) مفعول به (**وهو**) مبتدأ و(**أعلم**) خبر و(**بالمهتدين**) متعلقان بـ (**أعلم**).

التفسير بالقرآن:

قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾(٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ﴾(٤).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾(٥).

قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾(٦).

---

(٣) الجديد ١٦٨.

(٢) اعراب القرآن ٧/ ٣٥٢.

(٣) النحل / ٣٧. (٤) الليل / ١٢.

(٥) البقرة / ١٢٠. (٦) آل عمران / ١٢٨.

قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(١).

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٢).

وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وقال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾(٤).

التفسير بالسنه:

قال ﷺ فى خطبة الحاجة: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره...إنه من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلاهادى له**.. الحديث(٥).

وكان ﷺ يستفتاح صلاة الليل بأدعية منها: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم**(٦).

«**اللهم اهدنى فيمن هديت وعافنى فيمن عافيت وتولنى فيمن توليت**» (٧).

مسألة

قوله «إنك لاتهدى من أحببت».

تقدم أنها نزلت فى عم النبى ﷺ وهو كافر. فكيف كان يحبه؟!

قال ابن الجوزى(٨).

فيها قولان:

أحدهما: من أحببت هدايته وكذا قال القرطبى من أحببت أن يهتدى

قلت:تقدير الكلام «من أحببت هدايته »

---

(١) الفاتحة/ ٦. (٢) يونس/ ٣٥.

(٣) يوسف / ١٠٣. (٤) الكهف/ ١٧

(٥) تقدم تخريجه وانظر تخريجنا «السلسبيل» ح (٢٠٠٨)..

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣/٣٠٨/ ٢٠٠)..

(٧) [حسن] أخرجه أحمد (١/١٩٩، ٢٠٠) وأبو داود (١٤٢٥) والترمذى (٤٦٤) والنسائى (٣/٢٤٨) وابن ماجه (١١٧٨) من حديث الحسن بن على، وانظر تخريجنا على «منار السبيل» ح ٤٧٨.

(٨) زاد المسير ابن الجوزى ٦٠/ ص ١١٢ ط المكتبة العلمية والقرطبى ٧/ ص ٥١٥ ط(الريان).

الثانى: من أحببته لقرابته.

قال ابن كثير: نزلت فى أبى طـالب. عم رسول الله ﷺ وقد كان يحوطـه وينصره ويقوم فى صفه ويحبه حباً شديداً طبيعياً لاشرعياً.

قلت:وكذلك كان النبى ﷺ يحبه حباً طبيعياً لاشرعياً.

كما ثبت عنه ـ ﷺ قال: **«إن بنى فلان ليسوا لى بأولياء ولكن لهم عندى رحم أبلها ببلالها»**[1].

وكما روى ابن إسحاق فـى السيرة عن عبدالله بن عبدالله بن أبـى بن سلول أنه كان أبر الناس بأبية ولما سمع أن النبى ﷺ هم بقتلـه أستأذن النبى ﷺ فى قتله حتى لايقتله غيره فيقتله عبدالله، فيقتل مسلماً بكافر[2].

مسألة التوفيق بـين قوله الله تعالى ﴿نَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وقوله تـعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

المنفى هنـا هداية التوفيق والقـبول . فإن أمر ذلك إلى الله، وهو القـادر عليه، وأما الهداية المذكورة فـى قول الله تعالى: **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**. فإنها هداية الدلالة والبيان، فهو المبين عن الله، والدال على دينه وشرعه[3].

ويؤيده ماجاء فى القرطبى.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى﴾ أى تدعو وتـرشد إلى **﴿ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** دين قويـم لا اعوجاج فيه.

وقال على: إلى كتاب مستقيم: وقرأ عاصم الجحدرى وحوشب **﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى﴾** غير مسمى الـفاعل؛ أى لتدعى والـباقون **﴿لَتَهْدِى﴾** مسمـى الفاعل وفـى قراءة أُبى **﴿وإنك لتدعو﴾**. اهـ[4].

احتمل ابن عثيمين احتمالاً ثالثا فقال:

يقال: إن ذلـك قبل النهـى عن محبة المشـركين، والأول الأقرب؛ أى من أحـببت هدايته لا عينه وهذا عام لأبى طالب وغيره.

---

(١) تقدم تخريجه فى مبحث الولاء والبراء.

(٢) تقدم تخريجه انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى: «لئن رجعنا إلى المدينة. . . .

(٣) فتح المجيد ٢٦٩. (٤) القرطبى ٩/ ٥٨٨٠

ويجوز أن يحبه محبة قرابة، ولا ينافى هذا المحبة الشرعية، وقد أُحبُّ أن يهتدى هذا الإنسان، وإن كنت أبغضه شخصياً لكفره، ولكن لأنى أحب أن الناس يسلكون دين الله(1). اهـ.

فصل: مراتب الهداية

قال ابن القيم

مراتب الهدية الخاصة والعامة عشر مراتب.

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله ـ عزوجل ـ لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه ، وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه الصلاة والسلام. قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(2) فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز.

قال الفراء: العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأى طريق وصل. ولكن لاتحققه بالمصدر. فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾(3).

قال تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾(4) أى بتكليمى لك بإجماع السلف، ولو كان التكليم الذى حصل من الله من جنس ماحصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به فى الآيات معنى.

المرتبة الثانية:

مرتبة الوحى المختص بالأنبياء. قال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾(5)وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾(6) الآية

الوحى فى اللغة: هو الإعلام السريع الخفى وهو أقسام..

---

(1) القول المفيد 1/449.

(2) النساء 164

(3) الأعراف: 143.

(4) الأعراف: 144

(5) النساء 163

(6) الشورى 51.

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشرى فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لاتكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكى قد يتمثل للرسول البشرى رجلاً، يراه عياناً ويخاطبه. وقد يراه على صورته التى خلق عليها. وقد يدخل فيه الملك، ويوحى إليه ما يوحيه. ثم يفصم عنه، أى يقلع. والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ.

قلت: كما ثبت فى الصحيح[1] فى بدء الوحى.

المرتبة الرابعة: **مرتبة التحديث.** وهذه دون مرتبة الوحى الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب. رضى الله عنه - كما قال ﷺ: **«إنه كان فى الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب»**[2].

والمحدِّث: هو الذى يحدث فى سره وقلبه بالشىء، فيكون كما حدث به.

قال شيخنا - أى ابن تيمية: والصديق أكمل من المحدِّث؛ لأنه استغنى بكمال صديقيته و متابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول ﷺ.

قال «وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ماجاء به الرسول. فإن وافقه قَبِلَهُ وإلا ردّه فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال «وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: حدثنى قلبى عن ربى فصحيح أن قلبه حدثه. ولكن عمن؟! عن شيطانه أو عن ربه الذى يعبده من دون الله، فإذا قال: (حدثنى قلبى عن ربى) كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدث به. وذلك كذب.

قال: ومحدث الأمة لم يكن ليقول ذلك، ولا تفوه به يوماً من الدهر. وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبه يوماً: «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: لا أمحه واكتب هذا ما رأى عمر بن الخطاب. فإن كان صواباً فمن الله. وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه برىء» وقال فى الكلالة: «أقول فيها برأيى فإن يكن صواباً فمن الله. وإن يكن خطأ فمنى و من الشيطان»

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ٩٧/ ٨٧).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٦٩٣) عن عائشة. قال الترمذى : حديث صحيح

فانظر إلى مابين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين وأعط كل ذى حق حقه، ولاتجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً.

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام. قال الله تعالى ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(١) فذكر هذين النبيين الكريمين، وأثنى عليهما بالعلم والحكمة وخص سليمان بالفهم فى هذه الواقعة المعينة.

وقال على ابن أبى طالب وقد سُئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء من دون الناس؟ فقال: لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً فى كتابه وما فى هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لايقتل مسلم بكافر(*).

وفى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى - رضى الله عنهما - والفهم الفهم فيما أدلى إليك».

فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله فى قلبه. ويعرف به ويدرك ما لايدركه غيره ولايعرفه. فيفهم من النص مالايفهمه غيره، مع استوائهما فى حفظه وفهم أصل معناه.

قلت: كما فى قصة أبى بكر وعمر فى حروب الردة وحديث ابن عمر فى الصحيح حينما سئل عن الشجرة التى مثل المؤمن

المرتبة السادسة:

مرتبة البيان العام وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه. بحيث يصير مشهوداً للقلب، كشهود العين للمرئيات

وهذه المرتبة هى حجة الله على خلقه التى لايعذب أحداً ولا يضله إلا بعد وصوله إليها الله قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾(٢) وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات فى هذا الباب وعلمت حكمة الله فى إضلاله من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا فى غير موضع كقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٣) وقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾(٤) فالأول كفر عناد والثانى كفر طبع.

(١) الأنبياء ٧٩. (٢) التوبة: ١١٥.

(*) [صحيح] أخرجه البخارى (١١١) وانظر «جزء سعدان» بتخريجنا.

(٣) الصف ٥ (٤) البقرة: ٨٨

وقال تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾(1). فهذا هدى بعد البيان والدلالة. وهوشرط لاموجب فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء.

وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر فى آياته المشهودة ويحضهم على التفكر فى هذه وهذه.

وهذا البيان هو الذى بعث به الرسل. وجُعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، و بعد ذلك يضل الله من يشاء، قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(2) فالرسل تبين. و الله هو الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بعزته وحكمته.

المرتبة السابعة:

البيان الخاص.. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء. وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلاتتخلف عنه الهداية ألبتة. قال تعالى فى هذه المرتبة﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾فالبيان الأول شرط وهذا موجب.

وهذه المرتبة لله خاصة.

المرتبة الثامنة

مرتبة الإسماع قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (19) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (20) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (22) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾(3)، وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ، فإن ذلك حاصل لهم. لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب. فإن

(1) فصلت: 17.

(2) ابراهيم/ 4. (3) فاطر/ 19: 23.

الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما: فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب. فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذى هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن فى قوله ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾(١) وهذا السماع لايفيد السامع إلا قيام الحجة عليه. أو تمكنه منها وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾(٢) الآية.

فسماع القبول ثلاث: مراتب سماع الأذن، وسماع القلب، وسماع القبول و الإجابة﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾(٣).

المرتبة التاسعة:

مرتبة الإلهام: قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(٤). وقال النبى ﷺ **«قل اللهم الهمنى رشدى وقنى شر نفسى»**(٥).

والإلهام أعم من التحديث، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذى حصل له به الإيمان. فأما التحديث: فالنبى ﷺ قال فيه **«إن يكن فى هذه الأمة أحد فعمر»**(*) يعنى من المحدثين، فالتحديث إلهام خاص.

وصورته الشائعة أن يكون خطاباً يلقى فى قلب المؤمن يخاطب به الملك روحه، كما فى الحديث المشهور «إن للملك لمة بقلب ابن آدم. وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾(٦) وقال تعالى ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٧) قيل فى تفسيرها: قوُّوا قلوبهم وبشروهم بالنصر.

وقيل: احضروا معهم القتال.

والقولان حق، فإنهم حضروا معهم القتال وثبتوا قلوبهم.

---

(١) الأنبياء: ٢
(٢) محمد: ١٦.
(٣) الأنفال: ٢٤
(٤) الشمس (٧،٨)
(٥) أخرجه الترمذى (٣٤٨٣) وانظر «الأذكار» للنووى» (١٠٣١ـ بتخريجنا).
(*) تقدم قريبًا.
(٦) البقرة: ٢٦٨
(٧) الأنفال: ١٢

ومن هذا الخطاب. واعظ الله ـ عزوجل ـ في قلوب عباده المؤمنين. كما في «جامع الترمذي» و«مسند أحمد» من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ قال: **«إن الله تعالى ضرب مثلاً: صراطاً مستقيماً. على كَنَفَتى الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة وداع يدعو على رأس الصراط. وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران حدود الله. والأبواب المفتحة، محارم الله فلا يقع أحد في حَدّ من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعي على رأس الصراط: كتاب الله والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن»**[1] الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة.

المرتبة العاشرة: الرؤيا الصادقة، وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال **«الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»**[2] والرؤيا: مبدأ الوحي، وصدقها بحسب صدق الرائي..

وأصدق الناس رؤيا: أصدقهم حديثاً. وهي عند اقتراب الزمان لاتكاد تخطىء. كما قال النبي ﷺ وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها فيتعوض المؤمنون بالرؤيا، وأما في زمن قوة نور النبوة: ففي ظهور نورها قوته ما يغني عن الرؤيا.

وقد قال النبي ﷺ **«لم يبق من النبوة إلا المبشرات قيل: ما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له»**[3] إذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النبي ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: **«أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر فمن كان منكم متحرياً فليتحرها في العشر الأواخر في رمضان»**[4].

والرؤيا كالكشف، منها روحاني، ومنها نفساني ومنها شيطاني. وقال النبي ﷺ: **«الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة فيراه في المنام»**[5] والذي هو من أسباب الهداية هو الرؤيا التي من الله خاصة أهـ[6].

---

(١) تقدم.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم في الرؤيا (١٥/ ٢٠ ـ النووي).
وانظر «رياض الصالحين» (٨٤٠ ـ بتخريجنا).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٩٠) وانظر «رياض الصالحين» (٨٣٩ ـ بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه البخاري (٢٠١٥)، ومسلم في الصيام (٨/ ٥٧ ـ النووي) عن ابن عمر به.
وانظر «رياض الصالحين» (١١٩٣ ـ بتخريجنا).

(٥) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة في «الكبرى» (١٠٧٣٩) عن أبي هريرة به.

(٦) تهذيب مدارج السالكين (بتصرف).

حاجة الإنسان لطلب الهداية ضرورية.

قال ابن تيمية:

والإنسان خلق ظلوماً جهولاً، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى مايهواه من الشيء. فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله. وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه واعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله، وعدل ينافي ظلمه، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم مايخرج به عن الصراط المستقيم وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(1) فإذا كان هذا حاله في آخر حياته أو قريباً منها فكيف حال غيره.

فحاجة العبد إلى سؤاله هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه؛ بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه، فإذا انقطع رزقه مات، والموت لا بد منه.

قلت: ففي المستدرك «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وتستكمل أجلها**». فلا أحد يموت وهو ناقص رزق أو عُمر. فإذا قطع رزقه أنقضى أجله لكن الهداية ربما يقطع الله عنه الهداية وهو حيّ كما قال الله عز وجل في بعض الأحياء ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وقال ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ فهم أحياء يسمعون لكن في لهو يسمعون سماع الأذان أما سماع القلب والعمل فلا يسمعون كما نقلنا في مرتبة الإسماع كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ فكأنه يقول إن العبد إلى سؤاله هذه الهداية في ضرورة وقد يُرزق وهو كافر فالرزق ليس علم على الهداية لكن الهداية بإذن الله سبب من أسباب الرزق لكن الرزق ليس سبب من أسباب الهداية بل الله عز وجل قال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ㉝ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ㉞ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وكان من المهتديين المتقيين باهتدائه وتقواه كان ممن ينصر الله ورسوله وقال تعالى ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ يعني كانت الهداية سبب من أسباب النصر وأيضًا التقوى

---

(1) الفتح: ١ـ٢.

كانت سبب من أسباب النصر لأن النصر يتخلف بقدر المعصية ويأتى على قدر الطاعة فكان هنا بيان على عدم وجود نسبة بين الهداية وبين طلب الرزق والنصر لذلك الله عزوجل لم يقل فى سورة الفاتحة إهدنا النصر المبين ولا إهدنا الرزق المبين قال﴿إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأن بهذه الهداية فيها فلاح وصلاح الدنيا والآخرة ونحن بالفعل مضطرون إليها أكثر من اضطررنا للأكل والشرب بل إنك لا تستطيع أن تستمتع بطعام وشراب - إن كان فيك حس وحياة - إلا بهداية ولا تستمتع بجماع ولا بزوجة ولا بدنيا إلا بما فيها من هداية فإن هداك الله - عز وجل - فهى المتعة وهى النعيم وفى ذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ومن أنعم النعيم محمد ﷺ فبالله عليك هل تستمتع بالنبى إلا بهداية ؟ وتنعم بهذا النعيم إلا بهداية وهل تنعم بمجالس العلم إلا بذلك ، تأتى المجلس فى ضيق وهم وتمشى وأنت سعيد فهل تنعم بهذه المجالس إلا بهداية وتقوى، بل إذا ذهبت إلى البيت وأنت على معصية هل ستجد صدود عن الطعام أم ستجد إقبال ؟ لو كنت على إيمان لله عز وجل؛ لن تجد إلا الصدود وعدم الإقبال، فتجد صدود عن الأكل وعن الجماع وعن الأولاد. أما عندما تذهب إلى البيت وقد فهمت مسألة أو حفظت مسألة أو امتحنت أو اختبرت فى مسائل شرعيةوأجزت فيها ستذهب إلى البيت فى غاية السعادة والدنيا أمامك جميلة تريد أن تأكل وتشرب و...و... لأن هذه من أمتع المتع وأنعم النعيم وألذ اللذات فى الدنيا.

«لذا كان معاذ بن جبل حينما أشرف على الموت يبكى ويقول إنما أبكى على ظمأ الهواجر وقال فيما قال وعلى مزاحمة العلماء بالركب» فهذه كانت أمتع المتع لمعاذ بن جبل لما كان على هداية وصلاح وتقوى، وبالله عليكم لولا هذه الدروس التى تأتيها وهذه العلوم التى نتعلمها هل كانت الدنيا لها لذة؟!.

والله ليس لها لذة ولا سعادة ولا عزة إلا فى هداية الله لنا للإسلام والعمل بطاعته وفى طاعته فالأمر كما قال عمر: لقد أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله. أخرجه الحاكم.

فمن هنا نعلم أننا مضطرون إلى طلب الهداية أكثر من اضطرارنا إلى طلب الطعام والشراب والرزق والزوجة والنكاح وسائر المتع واللذات بل والنصر كذلك إذا كان هذا النصر على أعداءنا أيضًا لا يكون إلا بهداية ولا يكون إلا بتقوى.

وقال ابن تيمية فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده، وكان الموت موصلاً إلى السعادة الأبدية، وكذلك النصر إذا قدر أنه غلب حتى قتل فإنه يموت شهيداً

وفى «الصَّحيح» عَن ابن المُسيِّب، عَنْ أَبيه؛ قال: لَمَّا حضَرتْ أَبَا طَالب الوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَعِنْدَهُ عبْدُالله بنُ أَبى أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهل، فقال له: يَا عَمِّ قُلْ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله كَلمَـةً أُحَاجُّ لَكَ بهَا عنْدَ الله» فقَـالا لَهُ: أَترغَبُ عَن ملَّة عَبْـد الْمُطَّلب؟ فَأَعَادَ عليه النبى ﷺ فأعادا، فَكَانَ آخرُ مـا قال: هُوَ عَلَى ملَّة عَبْد الْمُطَّلبْ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَه إلاّ الله فقَالَ النَّبىُّ ﷺ: «لأَستَغْفرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عنْكَ». فَأَنْزَلَ الله عزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ للنَّبيِّ وَالَّذين آمَنُوا أَن يَستَغْفرُوا للْمُشْرِكين﴾ (١) . وَأَنْزَلَ الله فى أَبِى طَالب: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكنَّ اللَّهَ يَهْدى مَن يَشَاءُ﴾(٢) (٣)

وكان القتل مـن تمام النعمة، فتبين أن الحـاجة إلى الهدى أعظم من الحاجـة إلى النصر والرزق، بل لانسـبة بينهمـا ؛ لأنه إذا هدى كان من المتـقين ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ وكان ممن ينصر الله ورسـوله، ومن نصر الله نصره الله وكان من جند الله، وهم الغالبون، ولهذا كان هذا الدعاء هو المفروض.

وأيضاً فإنه يـتضمن الرزق والنصر فتـبين أن هذا الدعاء جامع لـكل مطلوب ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذا مما يبين لـك أن غير الفاتحة لايقوم مقامها، وإن فـضلها على غيرهـا من الكلام أعظـم من فضل الركـوع والسجود علـى سائر أفعال الخـضوع ، فإذا تعينت الأفعال فهذا القول أولى والله أعلم.

وصلى الله على نبيه محمد وسلم تسليماً كثيرا(٤) أهـ



قوله: [وفى الصحيح...].

وهذا الحديث ذكره البخارى فى خمس مواضع:

ذكره فى كتاب الجنائز فى باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله لا الله

وذكره فى كتاب مناقب الأنصار فى باب قصة ـ أبى طالب.

---

(١) التوبة / ١١٣.

(٢) القصص/ ٥٦.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البـخارى فى التفسـير/باب ﴿إنك لا تهدى مـن أحببت﴾ (٨/ ٣٦٥/ ٤٧٧٢) ومسلم ى الإيمان / باب الدلـيل على صحة إسلام من حضره الموت وباقى مواضـع الحديث فى البخارى ذكرناها فـى الشرح. وانظر تخريجـه فى كتابنا «فتـح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الـظلال» (٧١٣) وفتح المجيد (ح ٣٤١) بتخريجنا.

(٤) مجموع الفتاوى ١٤/ ٣٨،٣٩، ٤٠ بتصرف.

وذكره فى كتاب التفسير فى باب ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾
وذكره فى كتاب التفسير أيضاً فى باب﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وذكره فى كتاب الأيمان والنذور فى باب إذا قال والله لاأتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبَّح أو كبرّ أو حمد أو هلل فهو على نيته.

وقال النبى ﷺ أفضل الكلام أربع. سبحان الله. والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

واللفظ الذى ذكره المصنف هو لفظ مسلم فى كتاب الإيمان فى باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت.

مناسبة الحديث للباب.

قال القرعاوى(١). حيث دل الحديث على نفى هداية التوفيق عن النبى ﷺ فإذا انتفت عنه وهو أكرم الخلق فنفيها عن غيره أولى.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى (٢) حيث دل الحديث على أن هداية التوفيق خاصة بالله سبحانه فيكون طلبها من غير الله شركاً.

قوله فى «الصحيح»

سبق الكلام عليه والمقصود به هنا الصحيحين

قوله «عن ابن المسيب عن أبيه»

قال سليمان آل الشيخ (٣):هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى المخزومى أحد العلماء الأثبات، الفقهاء الكبار الحفاظ العباد اتفقوا على أن مرسلاته أصح المراسيل.

وقال ابن المدينى: لا أعلم فى التابعين أوسع علماً منه. مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين، وأبوه المسيب صحابى بقى إلى خلافة عثمان رضى الله عنه وكذلك جده حزن صحابى، استشهد باليمامة أ.هـ.

[قلت]: وقد حاول النبى ﷺ تغيير اسم جده حزن إلى سهل فقال النبى ﷺ بل أنت سهل فقال حزن: لا أغير اسمًا سمانيه أبى قال سعيد فما زالت فينا تلك الحزونة

(١ـ ٢) الجديد ١٧١.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٢١

أى الشدة واستدل بذلك ابن القيم فى «الزاد» على أن هناك علاقة بين الاسم والمسمى فالأسماء قوالب للمسميات اهـ.

قوله «لماحضرت أبا طالب الوفاة»

قال ابن عثيمين (١): قوله «أبا» بالألف مفعول به منصوب بالألف، لأنه من الأسماء الخمسة.

(الوفاة) يعنى الموت، فاعل حضرت.

قال ابن حجر (٢)

قوله **«لماحضرت أبا طالب الوفاة»** قال الكرمانى: المراد حضرت علامات الوفاة، وإلا فلو كان انتهى إلى المعاينة لم ينفعه الإيمان لو آمن، ويدل على الأول ما وقع من المراجعة بينه وبينهم انتهى.

ويحتمل أن يكون انتهى إلى تلك الحالة لكن رجا النبى ﷺ أنه إذا أقر بالتوحيد ولو فى تلك الحالة أن ذلك ينفعه بخصوصه وتسوغ شفاعته ﷺ لمكانه منه، ولهذا قال: **«أجادل لك بها وأشفع لك»** وسيأتى بيانه. ويؤيد الخصوصية أنه بعد أن امتنع من الإقرار بالتوحيد وقال هو **«على ملة عبدالمطلب»** ومات على ذلك أن النبى ﷺ لم يترك الشفاعة له، بل شفع له حتى خفف عنه العذاب بالنسبة لغيره، وكان ذلك من الخصائص فى حقه.

[**قلت**]: وقد تقدمت الرواية بذلك فى الشفاعة فى الباب الماضى اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ نحو ذلك أومثله.

قوله «جاءه رسول الله ﷺ وعنده أبوجهل وعبدالله بن أبى أمية»

قال ابن حجر (٣).

يحتمل أن يكون المسيب حضر هذه القصة، فإن المذكورين من بنى مخزوم وهو من بنى مخزوم أيضاً، وكان الثلاثة يومئذ كفاراً فمات أبو جهل على كفره وأسلم الآخران. وأما قول بعض الشراح: هذا الحديث من مراسيل الصحابة فمردود، لأنه استدل بأن المسيب على قول امصعب من مسلمة الفتح، وعلى قول العسكرى: ممن بايع تحت

(١) القول المفيد ١/ ٤٤٩

(٢) الفتح ٨/ ٣٦٥، ٣٦٦.

(٣) الفتح ٨/ ٣٦٦.

الشجرة، قال: فأيا ماكان فلم يشهد وفاة أبى طالب لأنه توفى هو وخديجة فى أيام متقاربة فى عام واحد، والنبى ﷺ يومئذ نحو الخمسين انتهى.

ووجه الرد أنه لايلزم من كون المسيب تأخر إسلامه أن لايشهد وفاة أبى طالب كما شهدها عبد الله بن أبى أمية وهو يومئذ كافر ثم أسلم بعد ذلك، وعجب من هذا القائل كيف يعزو كون المسيب كان ممن بايع تحت الشجرة إلى العسكرى ويغفل عن كون ذلك ثابتا فى الصحيح الذى شرحه كما جاء فى المغازى واضحاً.

قوله فقال: «ياعم»

قال ابن حجر [(١)]:وأما «عم» فهو منادى مضاف، ويجوز فيه إثبات الياء، وحذفها.

هنا قال ابن عثيمين[(٢)]: أتى ﷺ بهذه الكنية الدالة على العطف لان العم صنو الأب، أى كالغصن معه.

والصنو الغصن الذى أصله واحد فكأنه معه كالغصن.

[قلت]: ومنه قوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾.

قوله «ياعم» فيها وجهان: يا عمِ، بكسر الميم: على تقدير أنها مضافة إلى الياء وياعمُ بضم الميم: على تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله «قل لاإله إلا الله»

قال سليمان آل الشيخ [(٣)] أى قل هذه الكلمة عارفاً لمعناها معتقداً له فى هذه الحال وإن لم تعمل به، إذ لا يمكن عند الموت إلا ذلك ولابد مع ذلك من شهادة أن محمد رسول الله

قال ابن عثيمين [(٤)]: يجوز أنه قاله على سبيل الأمر والإلزام ، لأنه يجب أن يأمل كل أحد أن يقول: لاإله إلا الله

ويجوز أنه قالها على سبيل الترجى والتلطف معه، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هذه الكلمة ويعرفون معناها، ولهذا بادر بالإنكار.

قوله: (قل لا إله إلا الله).

قال الفقير: فيها فائدة: إن الكافر لو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ومات

---

(١) الفتح ٨/٣٦٦ (٢) القول المفيد ١/ ٤٤٩

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٢١،٢٢٢

(٤) القول المفيد ١/ ٤٥٠

تنفعه، وهذه فيها شاهد لقول الرسول ﷺ **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»** فهل دخل الجنة ابتداءً أم دخل الجنة فى نهاية أمره؟ على اختلاف بين أهل العلم محلها القائل نفسه فإن كان القائل نفسه من أهل الصلاح وختم له بذلك يدخل الجنة ابتداءً أما إن كان من أهل الفساد وقال لا إله إلا الله فهو تحت خطر المشيئة إن شاء الله عذبه ويدخل الجنة وإن شاء الله عفى عنه ويدخل الجنة ابتداءاً أما إن كان من أهل الكفر وقالها فهى أيضًا تنفعه ويكون مصيره للجنة إن شاء الله كما قال النبى «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» إن لم تكن تنفعه فما فائدة عرض لا إله إلا الله عليه فليس لها فائدة إلا أنها تنفعه إذا قالها.

وفيها رد على من ادعى أو زعم من الخوارج إن حد الإسلام ليس الإقرار بلا إله إلا الله مع عدم المناقض فقط ويشترطوا شروط أكثر من ذلك فى الإسلام الحكمى مثل اشتراطهم شروط الإسلام الحقيقى فى الإسلام الحكمى.

فما هو الإسلام الحكمى؟ هو الذى تجرى عليه الأحكام فى الدنيا يكون مسلم بيننا ولكن لن ينفعه ذلك فى الآخرة إلا إذا أتى بشروط الإسلام الحقيقى.

والإسلام الحقيقى: هو الإسلام النافع فى الآخرة المنجى من النار المُدخل الجنة فلا تغتر بقول الناس لك فى الدنيا: «مسلم» وأنت فى الحقيقة منافق فهذه الكلمة لن تنفعك فى الاخرة إلا إذا أتيت معها بالشروط فما هى شروط الإسلام الحقيقى؟

كما قلنا أن الإسلام الحكمى هو الإقرار مع عدم المناقض فإن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ولم نر عليه مناقض لهذه الكلمة فهو عندنا مسلم تجرى عليه أحكام الإسلام لكن هل ينفعه فى الآخرة؟ لا ينفعه فى الآخرة إلا إذا أتى بالشروط السبعة أو أكثر التى وضعها العلماء شروطًا للا إله إلا الله كالعلم والانقياد واليقين والمحبة والإخلاص إلى آخر هذه الشروط التى هى أكثر من سبعة لكن هذه أهمها.

فهنا النبى ﷺ كان سيجرى عليه أحكام الإسلام فى الدنيا بمجرد النطق كما أجرى الأحكام على الغلام اليهودى الذى أقر بالإسلام ثم مات فأجرى عليه أحكام الإسلام فما هى الأحكام بعد موته؟ كالصلاة عليه فقد قال ﷺ فى بعض الروايات التى ذكرها الشيخ الألبانى فى كتاب أحكام الجنائز **«صلوا على صاحبكم»** لأنه بذلك أسلم إسلام حكمى فهذا ليس بكلام المرجئة ولا كلام الخوارج. والله الموافق للصواب

قوله: «كلمة»

قال ابن حجر[1] بالنصب على البدل من لا إله إلا الله أو الاختصاص. ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف.

قال القرطبي[2] أحسن ما تقيد (كلمة) بالنصب على أنه بدل من لا إله إلا الله، ويجوز رفعها على احتمال المبتدأ.

قال ابن عثيمين[3]: ولكنَّ النَّصبُ أوضح.

قوله: «أحاج».

قال ابن حجر[4]: قوله: (أحاج) بتشديد الجيم من المحاجة وهي مفاعلة من الحجة والجيم مفتوحة على الجزم جواب الأمر، والتقدير أن تقل أحاج، ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، ووقع في رواية معمر عن الزهري بهذا الإسناد في الجنائز **«أشهد»** بدل **«أحاج»** وفي رواية مجاهد عند الطبري **«أجادل عنك بها»** زاد الطبري من طريق سفيان بن حسين عن الزهري قال **«أي عم، إنك أعظم الناس عليَّ حقًا، وأحسنهم عندي يدًا»، فقل كلمة تجب لي بها الشفاعة فيك يوم القيامة»**.

قال سليمان آل الشيخ[5]: وفيه دليل على أن الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته، وإن مات على التوحيد نفعته الشفاعة، وإن لم يعمل شيئًا غير ذلك، وأن من كان كافرًا يجحدها إذا قالها عند الموت أجريت عليه أحكام الإسلام، فإن كان صادقًا من قلبه نفعته عند الله وإلا فليس لنا إلا الظاهر، بخلاف من كان يتكلم بها في حال كفره [قلت]: لعل يقصد بذلك المرتد.

قال ابن عثيمين[6]: والمعنى أذكرها حجة لك عند الله وليس أخاصم وأجادل لك بها عند الله،وإن كان بعض أهل العلم قال (إن) معناها أجادل الله بهاولكن الذى يظهر لى أن المعنى: أحاج لك بها عند الله ، أى: أذكرها حجة لك كما جاء فى بعض الروايات **«أشهد لك بها عند الله»**.

قلت: وقد مر من كلام ابن حجرعزوها إلى الجنائز فى الصحيح من رواية معمر عن الزهرى فقوله: قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند ربى: فلولا أنها تنفعه ما كانت تنفع حجة فى الآخرة فهى إن شاء الله مع عدم المناقض مع باقى الشروط تنفع فى الدنيا والآخرة فإذا أتى بها فى الظاهر مع عدم المناقض فقط فلا تنفعه فى الآخرة وإن نفعته فى الدنيا.

---

(١) الفتح ٨/٣٦٦

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٢٢٢.

(٣) القول المفيد ١/ ٤٢٠

(٤) الفتح ٨/٣٦٦.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢٢٢

(٦) القول المفيد ١/ ٤٥١.

قوله: «فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلّب؟»

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟» ذكّراه الحجة الملعونة التى يتعلق بها المشركون من الأولين والآخرين، ويردون بها على الرسل، وهى تقليد الآباء والكبراء، وأخرجا الكلام مخرج الاستفهام مبالغة فى الإنكار لعظمة هذه الحجة فى قلوب الضالين، وكذلك اكتفيا بها فى المجادلة مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصرا عليها.

قال المصنف: وفيه تفسير لا إله إلا الله بخلاف ما عليه أكثر من يدعى العلم، وفيه أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبى ﷺ إذا قال الرجل: قل لا إله إلا الله.

فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

قال ابن عثيمين[2]: القائلان هما عبد الله بن أبى أمية، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه، لأنهم عرفوا أنه إذا قالها- كلمة الإخلاص- وحّد، وملة عبد المطلب الشرك، وذكرا له ما تهيج به نعرته وهى ملة عبد المطلب حتى لا يخرج عن ملّة آبائه.

وقد مات أبو جهل على ملة عبد المطلب، أما عبد الله بن أمية والمسيب الذى روى الحديث فأسلما، فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، رضى الله عنهما.

[قلت]: الإشارة إلى ذلك وتقدمت من كلام ابن حجر ووقع التصريح بذلك فى رواية البخارى وفى لفظ المصنف.

وأبو جهل اسمه عمرو بن هشام والذى كناه بأبى جهل الرسول ﷺ كما سمى أبا لهب بذلك وهذا علم من أعلام النبوة كما هو الحال فى الآية التى نزلت فى أبى لهب ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ومات على الكفر وأيضًا أبو جهل النبى سماه بذلك ومات على الكفر ولماذا أذكر اسمه الآن ؟ عمرو بن هشام لأنه فى إحدى القرى المصرية فى القليوبية فى منطقة اسمها نوى والقرية اسمها «الأشيش» أو القشيش هذه القرية فيها شارع إلى الآن اسمه عمرو بن هشام - ولو سألت أحدهم يقول لك شارع عمرو بن هشام رضى الله عنه؟!! وممكن بعضهم يقول شارع سيدنا عمرو بن هشام لأنه اختلط الحابل بالنابل.

وكنت ذات مرة أتحدث مع أحد الصوفية فقلت له كلمة أداعبه فيها فذكرت له اسم شخص ماجن فى بعض الأفلام البذيئة وذكرت له اسم الفيلم فخلع عليه اسم صحابى فقلت له فهذا ابن سهيل، فقال: رضى الله عنه، ومولانا ابن سهيل!! وابن سهيل

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٢٢.

(٢) القول المفيد ١/ ٤٥١

شخصية رجل عاصى فاسق خاسر، ولا تستبعد أن تقول له عم النبى ﷺ ويقول لك رضى الله عنه، فسبحان الله والحمد لله على نعمة الإسلام.

قوله: «فأعاد عليه النبى ﷺ فأعادا»

قال سليمان آل الشيخ[1]: **قوله: (فأعاد عليه النبى ﷺ فأعادا)**، أى أعاد عليه النبى ﷺ مقالته، وأعادا عليه مقالتهما، مبالغة منه ﷺ، وحرصًا على إسلام عمه، ومع ذلك لم يقدر النبى ﷺ على ذلك، ولا على تخليصه من عذاب الله، بل سبق فيه القضاء المحتوم، واستمر على كفره، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فلو كان عندالنبى ﷺ من هداية القلوب، وتفريج الكروب شيء، لكان أحق الناس بذلك وأولاهم عمه الذى فعل معه ما فعل، وفيه الحرص فى الدعوة إلى الله، والصبر على الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وإن رد ذلك على صاحبه، وتكريره وعدم الاكتفاء بمرة واحدة اهـ.

[قلت]: وفيه حرص الكفار على دعوتهم حتى الموت عليها وهى غايتهم ففيه معنى قوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

قوله: «فكان آخر ما قال»

قال سليمان آل الشيخ[2]: **قوله**: فكان آخر ما قال- هو بنصب آخر على الظرفية- أى آخر زمن تكليمه إياهم، ويجوز رفعه اهـ.

قوله: «هو على ملة عبد المطلّب».

[قلت]: فى الصحيح بلفظ: «آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب».

قال ابن حجر[3]: وفى رواية معمر «هو على ملة عبد المطلب» وأراد بذلك نفسه، ويحتمل أن يكون قال: «أنا فغيرها الراوى أنفة أن يحكى كلام أبى طالب استقباحًا للفظ المذكور، وهى من التصرفات الحسنة.

ووقع فى رواية مجاهد قال: «يا ابن أخى ملة الأشياخ».

ووقع فى حديث أبى حازم عن أبى هريرة عند مسلم والترمذى والطبرى «قال لولا أن تعيرنى قريش يقولون ما حمله عليه إلاَّ جزع الموت لأقررت بها عينك» وفى رواية

---

(١) تيسير العزيزالحميد ٢٢٢

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٢٢.

(٣) الفتح ٨/٣٦٦ - ٣٦٧.

الشعبى عند الطبرانى «قال لولا أن يكون عليك عار لم أبال أن أفعل» وضبط «جزع» بالجيم والزاى، ولبعض رواة مسلم بالخاء المعجمة والراء.) أ.هـ.

قوله: «وأبى أن يقول: لا إله إلا الله».

قال ابن حجر [1]: هو تأكيد من الراوى فى نفى وقوع ذلك من أبى طالب، وكأنه استند فى ذلك إلى عدم سماعه ذلك منه فى تلك الحال، وهذا القدر هو الذى يمكن اطلاعه عليه، ويحتمل أن يكون أطلعه النبى ﷺ على ذلك.

قال المصنِّف[2]: وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف والأكابر، أى زيادة على المشروع بحيث يجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.

قوله: فقال النبىُّ ﷺ «لاستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك».

قال ابن حجر [3]: قال الزين بن المنير: ليس المراد طلب المغفرة العامة والمسامحة بذنب الشرك، وإنما المراد تخفيف العذاب عنه كما جاء مبيناً فى حديث آخر.

قلت: هى غفلة شديدة منه فإن الشفاعة لأبى طالب فى تخفيف العذاب لم ترد، وطلبها لم ينه عنه، وإنما وقع النهى عن طلب المغفرة العامة، وإنما ساغ ذلك للنبى ﷺ اقتداء بإبراهيم فى ذلك، ثم ورد نسخ ذلك كما سيأتى بيانه واضحًا أ.هـ.

قال سليمان آل الشيخ[4]: **قوله**: فقال النبى ﷺ: **«لأَسْتَغْفِرنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنه عنك»**. أقسم ﷺ ليستغفرن له إلا أن ينهى عن ذلك، كما فى رواية مسلم: **«أمَّا والله لأستَغْفِرنَّ لَكَ»**.

قال النووى: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف، وكأن الحلف هنا لتأكيد العزم على الإستغفار، تطييباً لنفس أبى طالب، وكانت وفاة أبى طالب بمكة قبل الهجرة بقليل.

قال ابن فارس: مات أبو طالب، ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا، وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بعد موت أبى طالب بثمانية أيام.

(١) الفتح /٨/ ٣٦٧.
(٢) نقلاً عن تيسير العزيزالحميد ٢٢٣.
(٣) الفتح ٨/ ٣٦٧.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٢٢٣.

قال ابن عثيمين [1]: جملة «**لاستغفرنَّ لك**» مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، والام، ونون التوكيد الثقيلة.

والاستغفار: طلب المغفرة، وكأن النبى ﷺ فى نفسه شىء من القلق.

[قلت]: وهذا واضح من قوله بعد ذلك: «**ما لم أنه عنك**».

قوله: (**ما لم أنه عنك**)

فعل مضارع مبنى للمجهول، والناهى عنه هو الله.

قوله: فأنزل الله عز وجل ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ**﴾ وأنزل الله فى أبى طالب ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ .

قال ابن عثيمين [2]: قوله: ﴿**مَا كَانَ**﴾.

ما: نافية وكان: فعل ماض ناقص.

قوله: ﴿**أَن يَسْتَغْفِرُوا**﴾.

(أن) وما دخلت عليه فى تأويل مصدراسم كان مؤخر.

قوله: ﴿**لِلنَّبِيِّ**﴾

خبرٌ مقدَّم، أى: ما كان استغفاره.

واعلم أنَّ ما كان أو ما ينبغى أو لا ينبغى ونحوها إذا جاءت فى القرآن. والحديث، فالمراد أنَّ ذلك ممتنع غاية الامتناع، كقوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ**﴾[3]. وقوله: ﴿ **وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا**﴾[4].

وقوله: ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**﴾[5].

وقوله ﷺ : «**إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام**»[6].

---

(١) القول المفيد ١/ ٤٥٢.

(٢) القول المفيد ١/ ٤٥٢.

(٣) مريم: ٣٥.

(٤) مريم (٩٢).

(٥) يس: ٤٠.

(٦) [صحيح] مسلم فى الإيمان (٢/ ١٧/ ٢٩٥) عن أبى موس به..

وقوله: ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا﴾، أى يطلبوا المغفرة للمشركين.

قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى﴾

أى: حتَّى ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا لما اعتمر النبىﷺ ومرَّ بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له، فزاره للاعتبار وبكى وأبكى من حوله من الصحابة(١).

فالله منعه من طلب المغفرة للمشركين، لأنَّ هؤلاء المشركين ليسوا أهلاً للمغفرة لأنَّك إذا دعوت الله أن يفعل مالا يليق، فهو اعتداء فى الدعاء. أ.هـ.

[قلت]: فلكى لا يحتج المشركون، بقول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك أو بقوله ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ فلكى لا يحتج المشرك بذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

وفيه جواز ـ كما سيأتينا ـ الإستغفار للمشرك أو طلب الهداية والمغفرة للمشرك حتى إذا مات على الشرك توقفنا عن الإستغفار له.

قوله: «وأنزل الله فى أبى طالب».

أى: فى شأنه.

قوله: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

الخطاب للرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾

كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى، فهو مقرون بالحكمة، أى: من اقتضت حكمته أن يهديه فإنَّه يهتدى، ومن اقتضت حكمته أن يضلّه أضله.

وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره، فالذين يلجؤون إليه ﷺ ويستنجدون به مشركون، فلا ينفعهم ذلك لأنَّه لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنَّه قد قام معه قيامًا عظيمًا، ناصره وآزره فى دعوته، فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟!

قال ابن حجر(٢): قوله: فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أى ما ينبغى لهم ذلك، وهو خبر بمعنى النهى هكذا وقع فى هذه الرواية.

---

(١) [صحيح] رواه مسلم (٢/ ٦٧١).

(٢) الفتح ٨/ ٣٦٧، ٣٦٨.

وروى الطبرى من طريق شبل عن عمرو بن دينار قال قال: النبى ﷺ «**استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فلا أزال أستغفر لأبى طالب حتى ينهانى عنه ربى**». فقال أصحابه: لنستغفرن لآبائنا كما استغفر نبينا لعمه، فنزلت»[1] وهذا فيه إشكال، لأن وفاة أبى طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقًا، وقد ثبت أن النبى ﷺ أتى قبر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت هذه الآية، والأصل عدم تكرر النزول، وقد أخرج الحاكم وابن أبى حاتم من طريق أيوب بن هانئ عن مسروق عن ابن مسعود قال «خرج رسول الله ﷺ يومًا إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكى، فبكينا لبكائه ، فقال: إن القبر الذى جلست عنده قبر أمى، واستأذنت ربى فى الدعاء لها فلم يأذن لى، فأنزل علىَّ: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ**﴾[2] وأخرج أحمد من حديث ابن بريدة عن أبيه نحوه وفيه «نزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب» ولم يذكر نزول الآية.

وفى رواية الطبرى من هذا الوجه «لما قدم مكة أتى رسم قبر».

ومن طريق فضيل بن مرزوق عن عطية «لما قدم مكة وقف على قبر أمه حتى سخنت عليه الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت».

وللطبرانى من طريق عبد الله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس نحو حديث ابن مسعود وفيه «لما هبط من ثنية عسفان»[3] وفيه نزول الآية فى ذلك.

فهذه طرق يعضد بعضها بعضًا ، وفيها دلالة على تأخير نزول الآية عن وفاة أبى طالب.

ويؤيده أيضًا أنه ﷺ قال يوم أحد بعد أن شج وجهه «**رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**»[4] لكن يحتمل فى هذا أن يكون الاستغفار خاصاً بالأحياء وليس البحث فيه، ويحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وإن كان سببها تقدم، ويكون لنزولها سببان: متقدم: وهو أمر أبى طالب ومتأخر: وهو أمر آمنة.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٠٥) ونسبه لابن جرير.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٠٥١) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٠٧) وزاد نسبته الحاكم، وابن مردويه، والبيهقى فى «الدلائل».

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٠٦) ونسبه للطبرانى، وابن مردويه.

(٤) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٣٤٧٧)، ومسلم فى الجهاد (١٢/ ١٤٩ ـ النووى) وانظر كتابنا «**فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال**» (٢٥).

ويؤيد تأخير النزول ما تقدم: فى تفسير بـراءة من استغفاره ﷺ للمنافقين حتى نزل النهى عن ذلك، فإن ذلك يقتضى تأخير النزول وإن تقدم السبب ويشير إلى ذلك أيضًا قوله فى حديث الباب «وأنزل الله فى أبى طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لأنه يشعر بأن الآية الأولى نزلت فى أبى طالب وفى غيره والثانية نزلت فيه وحده.

ويؤيد تعدد السبـب ما أخرج أحمد من طريق أبى إسحق عن أبـى الخليل عن على قال «سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان، فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾[(١)] الآية وروى الطـبرى من طريق ابن أبـى نجيح عن مجاهـد قال «قال المؤمنون ألا نستغفر لآبائنا كما استغفر إبراهيم لأبيه ؟ فنزلت.

ومن طريق قتادة قال «ذكرنا له أن رجالاً» فذكر نحوه.

فائدة:

فى الحديث أن من لم يعمل خيرًا قـط إذا ختم عمره بشهادة أن لا إله إلا الله حكم بإسلامه وأجريت عليه أحكام المسلمين، فإن قارن نطق لسانه عقد قلبه نفعه ذلك عند الله تعالى، بشرط أن [لا](*) يكون وصل إلى حد انقـطاع الأمل من الحياة وعجز عن فهم الخطاب ورد الجواب وهـو وقت المعاينة، وإلـيه الإشارة بقوله تـعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ والله أعلم.

قال ابن عثيمين[(٢)]: الإشكالات الواردة فى الحديث:

الإشكال الأول: الإثبات والنفى فى الهداية ، وقد سبق بيان ذلك.

الإشكال الثانى: قوله لما حضرت أبا طالـب الوفاة يشكل مع قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ وظاهر الحديث قبول توبته.

قلت: وتقدم جـواب ذلك من كلام الحافظ فى أول شرح الحديث وفـى الموضع قبل هذا مباشرة.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٩٩)، والترمذى (٣١٠١)، والنسائى فى «الكبرى» (٢١٦٣). وانظر «الاتقان» للسيوطى (٢٨١ ـ بتخريجنا).

(*) ما بين القوسين ليست من الفتح والسياق يقتضيه.

(٢) القول المفيد ١/ ٤٥٤ - ٤٥٦.

وقال ابن عثيمين:

والجواب عن ذلك من أحد وجهين:

الأول: أن يُقال لما حضرت أبا طالب الوفاة، أى ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به، ولكن عرف موته لا محالة، وعلى هذا، فالوصف لا ينافى الآية.

الثانى: أنَّ هذا خاص بأبى طالب مع النبى ﷺ، ويستدل لذلك بوجهين:

أ- أنَّه قال: «كلمة أحاج لك بها عند الله» ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار.

ب- أنَّه سبحانه أذن للنبى ﷺ بالشفاعة لعمه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلاّ له، والشفاعة له ليُخَفَّف عنه العذاب.

ويضعف الوجه الأول أن المعنى ظهرت عليه علامات الموت: بأنَّ قوله: «لما حضرت أبا طالب الوفاة» مطابقًا تمامًا لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾(١) وعلى هذا يكون الأوضح فى الجواب أن هذا خاص بالنبى ﷺ مع أبى طالب نفسه.

الإشكال الثالث: أنَّ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ فى سورة التوبة، وهى متأخرة مدنيَّة، وقصة أبى طالب مكيَّة، وهذا يدلَّ على تأخُّر النَّهى عن الاستغفار للمشركين، ولهذا استأذن النبى ﷺ للاستغفار لأمَّه وهو ذاهب للعمرة.

ولا يمكن أن يستأذن بعد نزول النهى، فدل على تأخر الآية، وأن المراد بيان دخولها فى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾(٢)، وليس المعنى أنَّها نزلت فى ذلك الوقت.

وقيل: إنَّ سبب نزول الآية هو استئذانه ربه فى الاستغفار لأمه، ولا مانع من أن يكون للآية سببان.

[قلت]: ولا مانع من تأخر نزول الآية عن سببها كما تقدم من كلام الحافظ وتقرر ذلك فى كتب علوم القرآن وضربوا لذلك أمثلة منها حكم اللعان وآية النور التى نزلت

---

(١) النساء: ١٨.

(٢) التوبة: ١١٣.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسيرُ قَوْلِه: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية.

الثانية: تَفْسيرُ قَوْلِه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾ الآية.

بعد حادثتين الأولى قذف هلال ابن أمية بشريك من سحماء[1] والثانية قذف عويمر العجلانى امرأته[2] والرويتان فى الصحيح.

الإشكال الرابع: أنَّ أهل العلم قالوا: يسن تلقين المحتضر لا إله إلا الله، لكن بدون قول قل، لأنَّه ربما مع الضجر يقول: لا، لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هذه الكلمة أو معناها، وفى هذا الحديث قال: «قل».

والجواب: إنَّ أباطالب كان كافرًا، فإذا قيل له: قل وأبى؛ فهو باقٍ على كفره، لم يضرَّه التلقين بهذا؛ فإمَّا أن يبقى على كفره ولا ضرر عليه، وإمَّا أن يهديه الله، بخلاف المسلم، فهو على خطر لأنَّه ربما يضرّه التلقين على هذا الوجه.

[قلت]: بل ثبت عن الرسول ﷺ أنه لقن المسلمين كذلك بلفظ «قل» كما فى المسند من حديث أنس: أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من الانصار فقال: يا خال! قل: لا إله إلا الله، فقال: أخاك أم عم فقال: بل خال... الحديث(*)

فيه مسائل

● **الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾**

قال ابن عثيمين[3]: أى: من أحببت هدايته، وسبق تفسيرها، وبيَّنَّا أنَّ الرسول ﷺ إذا كان لا يستطيع أن يهدى أحدًا وهو حى، فكيف يستطيع أن يهدى أحدًا وهو ميِّت؟! وأنَّه كما قال الله تعالى فى حقِّه: **﴿قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾**[4].

● **الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾** الآية.

وقد سبق تفسيرها وبيان تحريم استغفار المسلمين للمشركين ولو كانوا أولى قربى.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى اللعان (٥/ ٣٨٢/ ١١) عن أنس به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى اللعان (٥/ ٣٧٧/ ١) عن سهل بن سعد به.

(*) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ١٥٢، ١٥٤، ٢٦٨) وصححه الالبانى فى «أحكام الجنائز» على شرط مسلم.

(٣) القول المفيد ١/ ٤٥٧ - ٤٦٤.

(٤) الجن/ ٢١

الثالثة: وَهِيَ المَسْأَلَةُ الكَبِيرَةُ، تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ﴾؛ بِخِلاَفِ مَا عَلَيْهِ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ.

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات: (المرحوم)، فإنَّه حرام لأنَّ هذا مضادة لله- سبحانه وتعالى - وكذلك يحرم إظهار الجزع والحزن على موتهم بالإحداد أو غيره، لأنَّ المؤمنين يفرحون بموتهم، بل لو كان عندهم القدرة والقوة لقاتلوهم حتى يكون الدين كلّه لله أهـ.

[قلت]: لأن الكافر لو عنده القدرة والإستطاعة لقتل المسلمين قال تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ فإن استطاعوا سيفعلون ذلك.

● **الثالثة: وهى المسألة الكبيرة: تفسير قوله «قل لا إله إلا الله»**

أى: الكبيرة من هذا الباب، وقوله: (أى قول النبى ﷺ) لعمه: «**قل لا إله إلا الله**» وعمه عرف المعنى أنه التبرؤ من كل إله سوى الله ، ولهذا أبى أن يقولها لأنَّه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها.

وقوله: «بخلاف ما عليه من يدعى العلم» كأنَّه يشير إلى تفسير المتكلّمين لمعنى لا إله إلا الله، حيث يقولون: إنَّ الإله هو القادر على الاختراع، وأنَّه لا قادر على الاختراع والإيجاد والإبداع إلاّ الله، وهذا تفسير باطل.

نعم، هو حق لا قادر على الاختراع إلاّ الله ، لكن ليس هذا معنى لا إله إلا الله، ولكن المعنى: لا معبود حق إلا الله، لأنَّنا لو قلنا: إنّ معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله، صار المشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم مسلمين، فالظاهر من كلامه رحمه الله أنه أراد أهل الكلام الذين يفسِّرون لا إله إلا الله بتوحيد الربوبيَّة، وكذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون: نحن نقول لا إله إلا الله.

[قلت]: أو لعله يقصد دعاة الضلالة من أهل البدع والاهواء ومن غيرهم الذين يشار إليهم بالبنان فى هذه الأيام يزينون للعوام أنه من قال لا إله إلا الله وإذا نذر لغير الله أو ذبح لغير الله فى ذروة الإسلام وقد قال عليه الصلاة والسلام فيهم «دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها»[1] والسلام..

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٠٨٤) عن حذيفة به.

الرابعة: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ معَهُ يعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبيِّ ﷺ إِذَا قَالَ للرَّجُلِ: قُلْ: «لاَ إِلهَ إِلاَّ الله»؛ فَقَبَّحَ الله مَنْ أبو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ الإِسْلاَمِ.

الخَامسة: جِدهُّ ﷺ وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلاَمِ عَمِّهِ.

● **الرابعة: أنَّ أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ.**

أبو جهل ومن معـه يعرفون مُراد النبيﷺ بقول: لا إلـه إلا الله، ولذا ثاروا وقالوا له: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» وهو أيضًـا أبى أن يقولها لأنَّه يعرف مراد النبى ﷺ بهذه الكلمة، قـال تعالى: ﴿ **إِنَّهـمْ كَانُوا إِذَا قِـيلَ لَـهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ** ﴾[(١)].

فالحاصل أنَّ الذيـن يدَّعون أنَّ معنى لا إله إلا الله، أى: لا قادر عـلى الاختراع إلاَّ هو، أو يقولونها، وهم يعبدون غيره كالأولياء هم أجهل من أبى جهل.

واحترز المؤلف فى عـدم ذكر من مع أبى جهل لأنَّهم أسلمـوا، وبذلك صاروا أعلم ممن بعدهم، خاصة من هم فى العصور المتأخرة فى زمن المؤلف رحمه الله أ.هـ.

[قلت]: فأبو جهل يعرف مراد النبى ﷺ ونـحن لا نعرف مراد النبى ﷺ نسأل الله العفو والعافية. وعرف أن مجرد لا إله إلا الله أنها الـرغبة عن مله عبدالمطلب وعن دين عبدالمطلب.

● وفيها أن من يتمسك بدين الأباء إنما يتمسك بشُبهة أبى جهل.

من يتمسـك بدين الأجداد ويخالف به دين الله ورسـله إنما يتمسك بُشـبه أبى جهل ويكفى فى تقبـيحة أن يعرف أن سلفة فى ذلك هو أبو جهـل أيضا من كان من أسلاف أبى جـهل من جهـله الكـفار قال تعـالى: ﴿ **إِنَّهـمْ كَانُوا إِذَا قِـيلَ لَـهُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ وقال ﴿ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴾.

● **الخامسة: جده ومبالغته فى إسلام عمه.**

حرصه ﷺ وكـونه يتحمل أن يـحاج بالكلـمة عند الله واضح من نـص الحديث، لسببين هما:

١- القرابة.

٢- لما أسدى للرسول ﷺ والإسلام من المعروف، فـهو على هذا مشكور، وإن كان

---

(١) الصافات: ٣٦.

على كفره مسأزوراً وفى النار، ومن مناصرة أبى طالب أنَّه هجر قومه من أجل معارضة النبى ﷺ مناصرته، وكان يعلن على الملأ صدقه، ويقول قصائد فى ذلك ويمدحه، ويصبر على الأذى من أجله، وهذا جدير بأن يحرص على هدايته، لكن الأمر بيد مقلِّب القلوب كما فى الحديث: «إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء» ثم قال ﷺ فى نفس الحديث: «**اللهم! مصرِّف القلوب ! صرِّف قلوبنا على طاعتك**»[1].

[قلت]: ولمواقف عمه مع الإسلام ومع المسلمين ومع الرسول ﷺ ولقرابته للنبى ﷺ.

كان حريص على إسلامه.

لكن المصنف لم يرد ذلك فقط إنما هو يقول أنه برغم حرصه على إسلام عمه إلا إن الأمر لم يكن بيديه ﷺ بل كان بيدى الله ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ**﴾.

إنك لا تهدى من أحببت هدايته برغم حرصك على هدايته.

وتقدم معنا أن النبى ﷺ يئس من إسلام قوم حتى لعنهم ودعا عليهم وقال اللهم العن فلاناً وفلاناً.. فأنزل الله ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ**﴾ فأسلموا وطمع فى إسلام قوم وحرص على إسلامهم فماتوا على الكفر فالحقيقة أن: -﴿**لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ**﴾ وكما أن لله الشفاعة جميعاً أيضاً فلله الهداية جميعاً وفعلاً هذه القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. وليس بيدك بل حتى قلب النبى ﷺ بيدى الله. وإن صح الأثر الذى فى السن وغيره «**اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلومنى فيما لا أملك وتملك**»[2] حينما كان يعدل بين نساءه فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء). لذلك كان النبى يدعوا بهذا الدعاء ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ وقال: «اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

والحديث فى صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

فبدل من أن تطمع فى الهداية من شخص حتى لو كان الرسول، فالرسول لا يملك

---

(١) رواه مسلم. وانظر كتابى فقه الخطابة خطبة «تجديد الايمان».

(٢) سيأتى تخريجه.

السادسة: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وأَسْلَافِهِ.

السابعة: كَوْنُهُ ﷺ اسْتَغْفَرَ لَه فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَن ذَلك.

لنفسه شيئاً فضلاً على أن يملك ذلك لغيره ولمن أحب ذلك له وحرص على ذلك له لعمه أبى طالب أطمع فى الهداية من الله نسأل الله أن يثبت قلوبنا على طاعته.

● **السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب.**

بدليل قولهما: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» حين أمره النبى ﷺ أن يقول لا إله إلا الله، فدل على أنَّ ملة عبد المطلب الكفر والشرك.

وفى الحديث رد على من قال بإلاسلام أبى طالب أو نبوته كما تزعمه الرافضة، قبَّحهم الله، لأن آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

قلت: ولعلهم زعموا ذلك الزعم؛ لأن عبدالمطلب أظهر إسلام فى مواقف منها فى غزوة أبرهة للكعبة دعى الله عز وجل فقال

اللهم أن العبد يمنع رحله فأمنع رحالك

لا يغلبنا صليبهم ومحالهم أبداً محالك

فإن كنت تاركهم وقبلتنا فافعل ما بدالك

فظنوا أن هذا إسلام منه لكن الأمر كما قال الله تعالى ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ يعنى هذا فعلاً إسلام لكن هو على شركه. وأيضاً هذا كان إسلامهم فى حالة الشدة ﴿**ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾ والأيات فى هذا المعنى كثيرة لكن هذا ليس معناه أنهم عند الرخاء ظلوا على إسلامهم لكن عند الرخاء رجعوا إلى دين أبائهم. وهو وضح كفره فى هذا الحديث حينما قال أبو جهل «أترغب عن ملة عبدالمطلب» إذاً فملة عبدالمطلب غير ما يدعوا إليه الرسول ﷺ وكذلك أيضاً فيه الرد على من زعم إسلام أبو طالب نفسه لأنه مات فكان آخر كلامه «على ملة عبدالمطلب» فلم يقل لا إله إلا الله بل أبى أن يقول لا إله إلا الله.

● **السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يُغفر له.**

الرسولﷺ أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن لا يُجيب دعاءه لعمه أبى طالب، لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غيره، قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّه﴾(٢) ليس لأحد تصرّف فى هذا الكون إلاّ ربّ الكون.

وكذا أمُّه ﷺ لم يؤذن له فى الاستغفار لها، فدلَّ على أنَّ أهل الكفر ليسوا أهلاً للمغفرة بأى حال، ولا يُجاب لنا فيهم، ولا يحل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإنَّما يُدعى لهم بالهداية وهم أحياء أ.هـ.

[قلت]: لهذا كان إبراهيم عليه السلام يدعو لأبيه وهو حى فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه وهذا مؤدى ما جاء عن ابن عباس، وانظر متأملاً النبى ﷺ مع جلالة قدره وأنه أعظمنا وأخشانا وأتقانا أعظم الخلق على الإطلاق واستغفر له فعلاً ومع ذلك لم يغفر الله له.

وهو أقرب الناس للإستجابة والإجابة ويدعوا لأقرب الناس إليه ومع ذلك لم يستجيب الله له وهذا يؤكد على معنى قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ وعلى قوله ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وعلى قوله تعالى ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّه﴾ فليس لأحد تصرف فى الكون إلا بعد أمره. وإلا بعد إذنه أياً كان هذا التصرف. لا إستغفار ولا شفاعة ولا هداية ولا شيء وحقيقة هذا من كمال الألهية وكمال الربوبية، والذى يقر بذلك قولاً وعملاً بالفعل هو من كان على كمال العبودية وكمال الذل والطاعة لله عز وجل أما من ظن غير ذلك فى ربوبية الله فهو يقدح فى كمال ربوبية الله عز وجل وهو لم يكمل عبوديته لله سبحانه وتعالى.

● **الثامنة: مضرَّةُ أصحاب السوء على الإنسان.**

المعنى أنه لولا هذان الرجلان، لربما وفّق أبو طالب إلى قبول ما عرضه النبى ﷺ لكن هؤلاء - والعياذ بالله - ذكَّراه نعرة الجاهليَّة ومضرَّة رفقاء السوء، ليس خاصًا بالشرك، ولكن فى جميع سلوك الإنسان، وقد شبَّه النبى ﷺ جليس السوء بنافخ الكير، إمَّا أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة(٣) ، وقال ﷺ: «**فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه**»(٤) وذلك لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذلك روى عن

(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) هود: ١٢٣.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى: (٢١٠١).

(٤) سبق.

النبى ﷺ بسند لا بأس به: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»(١) فالمهمّ أنَّه يجب على الإنسان العاقل أن يُفكِّر فى أصحابه: هل هم أصحاب سوء؟ فليبعد عنهم لأنهم أشد عداءً من الجرب، أو هم أصحاب خير: يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر، ويفتحون له أبواب الخير، فعليه بهم.

[قلت]: لذلك قال ﷺ: «لا تصاحب لا مؤمنا ولا يأكل طعامك الا تقياً»(٢) وأيضاً لعل فى معنى الصاحب الأب والأم والزوجة كذلك.

ففى تفسير قول الله تعالى ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ أنها الزوجة ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أنها الزوجة أيضاً.

● **التاسعة: مضرَّة تعظيم الأسلاف والأكابر.**

لأنَّ أبا طالب اختار أن يكون على ملَّة عبد المطلب حين ذكَّروه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبى ﷺ.

وهذا ليس على إطلاقه، فتعظيمهم إن كانوا أهلاً لذلك فلا يضرّ، بل هو خير، فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شكَّ أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه.

وإن كان تعظيم الأكابر لما هم عليه من العلم والسِّن، فليس فيه مضرَّة وإن كان تعظيمهم لما هم عليه من الباطل، فهو ضرر عظيم على دين المرء، فمثلاً: من يُعظِّم أبا جهل لأنَّه سيد أهل الوادى ، وكذلك عبد المطَّلب وغيره، فهو ضرر عليه ، ولا يجوز أن يرى الإنسان فى نفسه لهؤلاء أى قدر، لأنَّهم أعداء الله - عز وجل- وكذلك لا يُعظِّم الرؤساء من الكفَّار فى زمانه، فإنَّ فيه مضرَّة لأنَّه قد يُورث ما يُضادّ الإسلام، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلَّة من الكتاب والسنة.

قلت: ومن ذلك تعظيم الفراعيين وجعل آلهتهم شعاراً على كل الهيئات والاعتزاز والافتخار بذلك لهذا قال ﷺ: **«من انتسب الى تسعة آباء كفار يريد بهم عزا وفخراً فهو عاشرهم فى النار»**.

(١) تقدم.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/٣٨)، وأبو داود (٤٨٣٢)، والترمذى (٢٣٩٥) وانظر «رياض الصالحين» (٣٦٧ ـ بتخريجنا).

قال الحافظ: رواه أحمد وأبو يعلى باسناد حسن(*).

• العاشرة: الشبهة للمبطلين فى ذلك لاستدلال أبى جهل بذلك.

شبه المبطلين فى تعظيم الأسلاف هى استدلال أبى جهل بذلك فى قوله: «**أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟**» وهذه الشبهة ذكرها الله فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾(١).

فالمبطلون يقولون فى شبهتهم: إنَّ أسلافهم على الحق وسيقتدون بهم، ويقولون: كيف نسفِّه أحلامهم، ونضلل ما هم عليه ؟

وهذا يُوجد فى المتعصِّبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم، حيث لا يقبلون قرآنًا ولا سُنَّة فى معارضة الشيخ أو الإمام، حتى إنَّ بعضهم يجعلهم معصومين، كالرَّافضة، والتيجانيَّة، والقاديانيَّة، وغيرهم، فهم يرون أنَّ إمامهم لا يخطئ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئا.

والواجب على المرء أن يكون تابعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

[قلت]: والواجب على المرء أن يكون متعصب فقط لله ولشرعة ولرسوله وسنته وأما من نصب شخصاً غير الرسول ووالى عليه وعادى عليه فهذا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً قال تعالى ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾ وأيضاً قال ﷺ للمهاجرين والأنصار: حينما تعصب مهاجريهم للمهاجرين وأنصارهم للأنصار قال: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم)(٢) فهذه العصبية إذا لم تكن لله وللرسول فهى جاهلية. إذا لم تكن مضبوطة بضابط شرعى فهى جاهلية وهى منتنة وهى خبيثة كما قال النبى ﷺ للمهاجرين والأنصار (**أبدعوى الجاهلية وأنا بينس أظهركم؟! ذروها فإنها منتنة ذروها فإنها خبيثة**) ونسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين أجمعين ويوحد صفهم وينصرنا على عدونا أ.هـ.

(*) الفتح (٦/ ٦٣٧) وتقدم الحديث فى مبحث الولاء والبراء.

(١) الزخرف: ٢٣.

(٢) تقدم تخريجه.

الحادية عشرة: الشَّاهدُ لكَوْنِ الأعمَال بالخوَاتِيمِ؛ لأنَّهُ لوْ قَالهَا لَنفعْتهُ.

الثانية عشرة: التَّأمُّلُ فى كِبَرِ هَذِه الشُّبْهَةِ فـى قُلُوبِ الضَّالينَ؛ لأنَّ فى القصَّةِ أنَّهُمْ لـمْ يُجَادلُوهُ إلاَّ بهَا، مَـعَ مُبَالغَتِـهِ ﷺ وتَكْريرِه؛ فلأجْـلِ عَظَمَتِهَا ووُضُـوحِهَا عِنْدَهُم اقْتَصَرُوا عليْهَا.

وأما مَن خالفه من الكُبراء والأئمة، فإنَّهم لا يُحتجّ بهم على الـكتاب والسنة، لكن يعتذر لهم عـن مخالفة الكتاب والسنَّـة إن كانوا أهلاً للاعتذار، بحيث لـم يعرف عنهم معارضة لـلنصوص، فيُعـتذر لهم بما ذكره أهل الـعلم ، ومن أحسن مـا أُلِّف فى ذلك كتاب شيـخ الإسلام ابن تيمية: «رفع المـلام عن الأئمة الأعلام» أما من يعـرف بمعارضة الكتاب والسنة، فلا يعتذر له.

● **الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم.**

وهذا مبنىّ عـلى القول بأنَّ معنى حضـرته الوفاة، أى: ظهرت عليه عـلاماتها ولم ينزل به كما سبق.

[قلت]: أى الشاهد لقول: الـنبى ﷺ «الاعمآل بالخواتيم» الحديـث وفيه ان الرجل ليعمل بـعمل أهل النار حتى لا يكـون بينها وبينه لا ذراعاً فـيسبق عليه الكتـاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها.

● **الثانية عشرة: التأمُّل فى كبر هذه الشبهة فى قلوب الضالين.. إلخ**

وهذه الشبهة هى تعظيم الأسلاف والأكابر.

[قلت]: يعنى مسألة شبهة دين الأباء هذه عظـيمة فى صدورهم وكبيرة فى نفوسهم، لأنهم كمـا قال الشيخ محمـد بن الوهاب لما ذكر القـصة بين أنهم لم يجـادلوه إلا بها فقط، يعـنى لم يأتوا بأدلـة من كتاب ولا من سنـة ولا كذ أو كذا.. بل قالوا لـه فقط «أترغب عن ملة عبدالمطلب» فقط وكان هذا كفيل أن يرده عن كل حق، ويرده عن كل خير، فهذا بيـان لهذه الشبهة الكبيرة فى نـفوس المبطلين. نسأل الله العفو والـعافية بهذا انتهى هذا الباب بما فيه ولله الحمد والمنة.



(١٨) بابٌ

ما جاءَ أنَّ سببَ كفرِ بنِي آدمَ وتركهمْ دينهمْ هوَ الغلوُّ فِي الصالِحينَ

ـ مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال سليمان آل الشيخ[١]: لما ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ بعض ما فعله عُبّاد القبور مع الأموات من الشرك.

قلت: كالذبح لهم وطلب الشفاعة منهم والإستغاثة بهم والتبرك بهم وطلب النفع ودفع الضر من جهتهم.

ثم قال سليمان آل الشيخ: أراد أن يبين السبب فى ذلك ليحذر، وهو الغلو مطلقاً لاسيما فى الصالحين فإنه أصل الشرك قديماً وحديثاً لقرب الشرك بالصالحين من النفوس فإن الشيطان يظهره فى قالب المحبة والتعظيم. اهـ.

ـ شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب

قال حامد بن محمد بن حسن[٢]: **باب ما جاء فى بيان** ما يدل من الكتاب والسنة أن سبب كفر بنى آدم بربهم الذى خلقهم من ماءٍ مهين الذى يخرج من بين الصلب والترائب خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث: ظلمة البطن وظلمة الرحم، وظلمة القميص ثم دبّره بأحسن التدبير وهم أجنَّة فى بطون أمهاتهم لايعلمون شيئاً، ثم أذن له بالخروج بالرفق واللين فأدر عليه ثديى أمه بالحليب السائغ إلى حد الفطام ثم أخرج له أسنان منها للقطع ومنها للتنعيم والتطحين، فأنعم عليه من كلٍّ نعمة كما قال تعالى: **﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾**[٣]. وجعل عليه حفظة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه قال تعالى: **﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾**[٤].

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» ٢٢٤.

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٢٨٣.

(٣) إبراهيم ٣٤.

(٤) الأعراف (٢)

ومع ذلك كله إنهم اتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دون الله وأطاعوهم فى المعاصى حتى آلت بهم المعاصى إلى الكفر وتركهم دينهم الذى فطرهم الله عليه وهو عبادة الله وحده لاشريك له، فزين لهم الشيطان أعمالهم واجتهادهم.

بالغلو فى الصالحين قديماً وحديثاً، فأحدث عليهم ذلك الشرك بالله فى حقه الذى لايستحقه إلا هو لا إله إلا هو، وقد نهى الله تعالى عن الغلو فى كتابه الذى أمر الله عباده باتباعه قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾(1). أ. هـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ (2): أراد المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بيان ما يؤول إليه الغلو فى الصالحين من الشرك بالله فى الإلهية الذى هو أعظم ذنب عُصى الله به، وهو ينافى التوحيد الذى دلَّت عليه كلمة الإخلاص: شهادة أن لا إله إلا الله أ. هـ.

قال ابن باز(3): بيَّن المؤلف سبب كفرهم وأغلبه هو الغلو فى الصالحين فهناك أسباب أخرى كالحسد والبغى والغالب أنهم أحبوا الأنبياء والصالحين حتى غلو فيهم فكفروا ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ هذا النصارى وكذلك اليهود لكن النصارى أكثر غلوا.

والمقصود من الباب التحذير من الغلو فى حب الصالحين والأنبياء، وحبهم دين حيث قال ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ والحب والبغض فى الله من الدين كما قال ﷺ **«لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**(*) لكن هذا الحب لايكون بالغلو بل باتباعهم وعدم عصيانهم وطاعتهم لابعبادتهم من دون الله عز وجل وهكذا العلماء والصالحين يكون حبهم بالترضى عنهم والسير على منهجهم فيجب أن تكون محبة شرعية. اهـ.

قلت: ويؤيد هذا أيضاً ما جاء فى الصحيح عنه ﷺ.

(1) الرعد: 11.   (2) فتح المجيد 277.

(3) التعليق المفيد 113.

(*) ضعيف: أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة وأخرجه غيره واستغربه ابن عساكر وضعفه الألبانى انظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (2/ 1061/ ح 725 ب).

«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان». وفى الحديث الضعيف: «حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». وسيأتى فى متن كتاب التوحيد.

قال ناصر السعدى[1]: والناس فى معاملة الصالحين ثلاثة أقسام:

أهل الجفاء الذين يهضمون حقوقهم ولايقومون بحقهم من الحب والموالاة لهم والتوقير والتبجيل.

وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التى أنزلهم الله بها.

وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ولكنهم يبرؤن من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم.

والصالحون أيضاً يتبرؤون من أن يدَّعوا لأنفسهم حقاً من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

واعلم أن الحقوق ثلاثة:

- حق خاص لله لايشاركه فيه مشارك وهو التأله له وعبادته وحده لاشريك له، والرغبة، والإنابة إليه حباً وخوفاً ورجاءً.
- وحق خاص للرسل وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة.
- وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، ومحبة الله ومحبة رسله، ولكن هذه لله أصلاً وللرسل تبعاً لحق الله.

فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة فيقومون بعبودية الله وإخلاص الدين له، ويقومون بحق رسله وأوليائه على إختلاف منازلهم ومراتبهم والله أعلم أهـ.

قوله: (سبب).

قال ابن عثيمين[2]: السبب فى اللغة: ما يتوصَّل به إلى غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾[3].

---

(١) القول السديد ٦٢و٦٣.

(٢) القول المفيد ١/ ٤٦٥.

(٣) الحج: ١٥.

أي: بشيء يوصله إلى السماء ومنه أيضاً سمى الحبلُ سبباً، لأنه يتوصل به إلى استسقاء الماء من البئر.

[قلت]: واصطلاحاً: وصف ظاهر منضبط جعله الشارع سبباً لأمر ما بحيث يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم كرؤية الهلال سبب لصيام رمضان.

قوله: (بنى آدم)(١):

قال ابن عثيمين:- يشمل الرجال والنساء.

قلت كما فى قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية يعنى استروا عوراتكم وكقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾(٢) الآية.

ثم قال ابن عثيمين: ولأنه إذا قيل: بنوفلان وهم قبيلة؛ شمل ذكورهم وإناثهم، أما إذا قيل: بنو فلان، أى رجل معيَّن: فالمراد بهم الذكور ا. هـ.

قوله: (وتركهم)

قال سليمان آل الشيخ(٣): أما تركهم فهو مجرور عطفاً على المضاف إليه.اهـ.

قال ابن عثيمين: (٤) يعنى سبب تركهم.

قوله: (دينهم).

قال ابن عثيمين: مفعول ترك، لأن ترك مصدر ومضاف إلى فاعله و«دينهم» يكون مفعولاً به(٥).

قوله: «الغلو»:

قال ناصر السعدى(٦): والغلو هو مجاوزة الحد بأن يجعل للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيء، فإنَّ حق الله الذى لايشاركه فيه مشارك هو الكمال المطلق، والغنى المطلق، والتصرف المطلق، من جميع الوجوه، وأنه لايستحق العبادة والتأله أحد سواه، فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له نصيباً من هذه الأشياء فقد ساوى به ربَّ

(١) المصدر السابق فى القول المفيد.
(٢) الأعراف: ٢٧.
(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٢٤.
(٤) القول المفيد (١/ ٤٦٦).
(٥) المصدر السابق.
(٦) القول السديد ٦٠و٦١.

العالمين، وذلك أعظم الشرك، ومن رفع أحداً من الصالحين فوق منزلته التى أنزله الله بها فقد غلا فيه وذلك وسيلة إلى الشرك وترك الدين اهـ.

قال ابن عثيمين:[1] هو مجاوزة الحد بالثناء قدحاً أو مدحاً.

قلت: والدليل على أن الثناء يأتى بالقدح أو بالمدح ما ثبت فى الصحيح عن أنس بن مالك ـ يقول: «مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبى ﷺ **«وجبت»**، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: **وجبت**، فقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ما وجبت قال: **«هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنَّة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار. أنتم شهداء الله فى الأرض»**[2]. ولقد حدث الأمران فى من قبلنا، فعيسى عليه السلام حصل فيه الغلو بالمدح فرفعه قوم إلى درجة الألوهية، وحصل فيه الغلو بالقدح فجعله اليهود ولد زنى.

والغالب من مراد المصنف فى هذا الباب أنه أراد مجاوزة الحد فى الثناء بالمدح كما تقدم، ولا استبعد الأخرى لأنَّ من أسباب كفر اليهود أنهم تجاوزوا الحد فى عيسى بالقدح فكفروا بذلك.

وكما حدث الغلو بنوعيه فى من قبلنا كذلك حدث فى هذه الأمة، فنرى شخصاً واحداً يرفعه الناس تارة ويدنوه أخرى وخير الأمور كما قال عبدالله بن مطرف أوسطها وتلك الحسنة بين السيئتين، وهذه هى الوسطية التى بعث بها النبىُّ ﷺ وهذا هو شرعنا شرع وسط الذى من تخلف عنه فهو مُتطرِّف. والله أعلم.

قوله (الصالحين):

قال ابن عثيمين:[3] الصالح هو الذى قام بحق الله وحق العباد.

قلت: كما فى الحديث عن ابن عمر مرفوعاً «**«نعم الرجل عبدالله لو كان يصلى من الليل»**[4] أو عبدالله رجل صالح وكما فى الصحيح من حديث جابر مرفوعاً لما توفى

---

(١) المصدر السابق.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٦٧)، ومسلم فى الجنائز (٧/١٨ ـ النووى) عن أنس به.
وانظر «رياض الصالحين» (٩٥٢ ـ بتخريجنا).

(٣) «القول المفيد» (١/٤٤٦).   (٤) تقدم تخريجه.

النجاشى قال ﷺ: «**قد توفى اليوم رجل صالح من الحبش**»(١) وعند مسلم «**مات اليوم عبدالله صالح أصحمة**»(٢).

والصالح أيضاً هو من قام بحق الله الواجب عليه وزيادة أى قام بالواجبات والمستحبات ويدل عليه حديث ابن عمر المتقدم الذى قال فيه «**عبدالله رجل صالح لو كان يقوم الليل**»(٣). وهو كان يقوم بالواجب فوصفه بالصلاح إذا قام بما هو زائد عن ذلك وهو المستحبات كقيام الليل.

ثم قال ابن عثيمين: وفى هذه الترجمة إضافة الشىء إلى سببه بدون أن يُنسب إلى الله بقوله «**أن سبب كفر بنى أدم وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين**»، هذا جائز إذا كان السبب حقيقة وصحيحاً، وذلك إذا كان السبب قد ثبت من قبل الشرع أو الحس أو الواقع.

وقد قال الرسول ﷺ: «**لولا أنا؛ لكان فى الدرك الأسفل من النار**»(٤) يعنى: عمه أبا طالب اهـ.

قلت: وإضافة الشىء إلى سببه بدون أن ينسب إلى الله عزوجل - جائز فى حالتين.

الأولى: ألا ينسب إل تأدباً معه وإن كان هو منه سبحانه كما قال: ﴿**قل كلٌ من عند الله**﴾ وكما جاء فى الأثر «**والشر ليس إليك**» وكذلك قول أيوب ﴿**إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب**﴾ وقول إبراهيم ﴿**وإذا مرضت فهو يشفينى**﴾ ومثال ذلك أيضاً ترجمة المصنِّف فى هذا الباب.

الثانية: أن يكون هذا السبب ثبت شرعاً أوحساً أو واقعاً فجائز أن يضاف الشىء إلى سببه الثابت بتلك الثلاثة، ويستدل عليه بقوله ﷺ: «**لولا أنا، لكان فى الدرك الأسفل فى النار**»(٥) وقد تقدم كلام ابن عثيمين فى ذلك.



(١) [صحيح] أخرجه البخارى (١٣٢٠) عن جابر به.
(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٦٦/٢٦/٤) عن جابر أيضاً.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) سيأتى تخريجه.
(٥) سيأتى تخريجه.

وقول الله ـ عزوجل ـ : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾(١)

قوله: وقول الله عزوجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الآية.

ـ مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جار الله(٢): أن من دعا نبياً أو ولياً من دون الله فقد اتخذه إلهاً وشابه النصارى فى شركهم واليهود فى تفريطهم أ.هـ.

قال القرعاوى(٣): حيث دلت الآية على أن سبب خروج أهل الكتاب من دينهم هو غلو النصارى فى تعظيم عيسى وغلو اليهود فى ذمّه أ.هـ.

ـ مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى(٣): وإنما اعتبر مثل هذا شركاً لأن النصارى نزّلوا عيسى منزلة الله فعبدوه معه. اهـ.

قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

الإعراب:ـ

قال محيى الدين درويش(٤): كلام مستأنف مسوق لتحذير أهل الكتاب من المغالاة.

ويا حرف نداء وأهل الكتاب منادى مضاف نداء وهم اليهود والنصارى، والكتاب: التوراة لليهود: والإنجيل للنصارى(٥). ولا ناهية وتغلوا فعل مضارع مجزوم بلا، وفى دينكم متعلقان بتغلوا. اهـ.

التفسير بالقرآن

قال الشنقيطى(٦): هذا الغلو الذى نهوا عنه هو وقول غير الحق هو قول بعضهم إن عيسى ابن الله، وقول بعضهم هو الله، وقول بعضهم هو إله مع الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً كما بينه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾(٧).

---

(١) النساء: ١٧.
(٢) «الجامع الفريد» ٧٩.
(٣) «الجديد» ١٧٤.
(٤) إعراب القرآن ٢/ ٣٨٩.
(٥) القول المفيد ١/ ٤٦٧.
(٦) أضواء البيان ١/ ٣٤٠.
(٧) التوبة: ٣٠.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[1].

وقوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[2] وأشار هنا إلى إبطال هذه المفتريات بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾[3].

وقوله: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾[4].

وقوله ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾. وقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أ.هـ.

قال ابن كثير[5]: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير فى النصارى فإنهم تجاوزوا هذا التصديق بعيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة... بل قد غلوا فى اتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فأدعوا فيهم العصمة واتبعوهم فى كل ماقالوا، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالا أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً. ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. اهـ.

ويفسر الآية الأحاديث التى بعده فى الباب.

روى أحمد بسنده عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «**لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبدالله ورسوله**»[6].

ورواه البخارى بسنده عن الزهرى به بلفظ «**فإنما أنا عبدالله ورسوله**»[7].

وروى أحمد بسنده عن أنس بن مالك، أن رجلاً قال: يامحمد ياسيدنا، وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ «**يا أيها الناس عليكم بقولكم ولايستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبدالله، عبدُالله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله ـ عزوجل ـ**»[8].

وروى مسلم عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها**

(1) المائدة: ١٧.
(2) المائدة: ٧٣.
(3) النساء: ١٧١.
(4) النساء: ١٧٢.
(5) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨٢.
(6) سيأتى تخريجه.
(7) سيأتى تخريجه.
(8) سيأتى تخريجه.

إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله من أبواب الجنة الثمانية، من أيها شاء على ما كان من عمل»[٣].

عن قتادة فى قوله ﴿**لا تَغْلُوا**﴾[٤]. قالوا: لا تبتدعوا.

وروى عن الحسن: أنه خطاب لليهود والنصارى، لأن النصارى غلوا فى المسيح فجاوزوا به منزلة الأنبياء حتى اتخذوه إلهاً، واليهود غالت فيه فجعلوه لغير رِشدة فغلا الفريقان جميعاً فى أمره[٣].

وروى ابن جرير عن الربيع بن أنس قال: صاروا فريقين فريق غلوا فى الدين فكان غلوهم فيه الشك فيه الرغبة عنه وفريق منهم قصروا عنه ففسقوا عن أمر ربهم[٤].

قلت: أما [الدين] فإنه يطلق ويراد به الجزاء كما قال ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ ويطلق ويراد به الطريقة كما قال الله ﴿**مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ**﴾ ويطلق ويراد به العبادة وهو المقصود هنا والمعنى لاتغلوا فى عبادتكم وأعمالكم ولا تجعلوها غلواً فى الصالحين وسيأتى.

قال الطبرى[٥]: يعنى جلّ ثناؤه بقوله ﴿يا أهل الكتاب﴾ يا أهل الإنجيل من النصارى ﴿**لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾ يقول لاتجاوزوا الحق فى دينكم فتفرطوا فيه، ولاتقولوا فى عيسى ﴿**غير الحق**﴾ فإن قيلكم فى عيسى أنه ابن الله قول منكم على الله غير الحق؛ لأن الله لم يتخذ ولدا فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابنا ﴿**وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ**﴾.

وأصل الغلو فى كل شيء: مجاوزة حده الذى هو حده.

يقال منه فى الدين قد غلا فهو يغلو غلوّاً وغلا بالجارية عظمها ولحمها: إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها. يغلو بها غلواً وغلاء ومن ذلك قول الحرث بن خالد المخزومى:

خمصانة قلق موشحها رؤد الشباب غلا بها عظم. أهـ

(١) تقدم فى أول الكتاب.

(٢) ذكره فى الدر المنثور (٢/٤٣٩). ونسبه لابن المنذر.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٢/٤١٢..

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٦/٣٤).

(٥) المصدر السابق.

قال الجصاص(١): والغلوُّ فى الدين هو مجاوزة حد الحق فيه. . . ولذلك قيل: دين الله بين المقصر والمغالى أ.هـ.

قال البغوى(٢): نزلت فى النصارى وهم أصناف أربعة: اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية، والمرقسية.

فقالت اليعقوبية: عيسى هو الله، وكذلك الملكانية.

وقالت النسطورية: عيسى هو ابن الله.

وقالت المرقسية: ثالث ثلاثة.

فأنزل الله تعالى هذه الآية. ويقال الملكانية يقولون: عيسى هو الله. واليعقوبية يقولون ابن الله، والنسطورية يقولون: ثالث ثلاثة: علمهم رجل من اليهود يقال له بولص اهـ.

قال ابن الجوزى(٣): قال مقاتل: نزلت فى نصارى نجران السيد والعاقب، ومن معهما، والجمهور على أن المراد بهذه الآية النصارى.

وقال الحسن: نزلت فى اليهود والنصارى.

والغلو: الإفراط ومجاوزة الحد، وفيه غلا السّعر. وقال الزجاج الغلو: مجاوزة القدر فى الظلم.

وغلو النصارى فى عيسى قول بعضهم: هو الله، وقول بعضهم هو ابن الله، وقول بعضهم: هو ثالث ثلاثة.

وعلى قول الحسن غلو اليهود فيه قولهم: إنه لغير رِشْدَةٍ.

وقال بعض العلماء: لاتغلوا فى دينكم بالزيادة فى التشدد فيه أهـ.

قال الرازى(٤): وأعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات اليهود تكلم بعد ذلك مع النصارى فى هذه الآية، والتقدير، ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾ من النصارى ﴿**لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾ أى لاتفرطوا فى تعظيم المسيح، وذلك لأنه تعالى حكى عن اليهود أنهم يبالغون فى الطعن فى المسيح، وهؤلاء النصارى يبالغون فى تعظيمه وكلا طرفى قصدهم ذميم، فلهذا قال للنصارى ﴿**لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾ . اهـ.

---

(١) أحكام القرآن ٢/ ٤١٢.

(٢) معالم التنزيل ٢/ ١٩٢.

(٣) زاد المسير ٢/ ١٥٦.

(٤) التفسير الكبير ٦/ ١١/ ١١٧.

قال القرطبى(١): قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ نهى عن الغلو. والغلو التجاوز فى الحد؛ ومنه غلا السعر يغلو غلاء؛ وغلا الرجل فى الأمر غلوا، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لِداتها؛ ويعنى بذلك فيما ذكره المفسرون غلو اليهود فى عيسى حتى قذفوا مريم، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه رباً؛ فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر؛ ولذلك قال مطَّرف بن عبدالله: الحسنة بين سيِّئتين؛ وقال الشاعر:

وأوف ولاتسوفِ حقَّك كلَّه وصافح فلم يستوفِ قَطُّ كريمُ
ولا تَغْلُ فى شيءٍ من الأمور واقتصدْ كِلاَ طرفَىْ قصْدِ الأمورِ ذميم

وقال آخر:

عليك بأوساطِ الأمور فإنها نَجاةٌ ولاتركَبْ ذَلولاً ولا صَعْبًا اهـ

قال الشوكانى(٢): والمراد بالآية: النهى لهم عن الإفراط تارة، والتفريط أخرى، فمن الإفراط غلو النصارى فى عيسى حتى جعلوه رباً، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة أهـ.

قال ابن تيمية(٣): ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى وغلا فى الدين بإفراط فيه أو تفريط وضاهاهم فى ذلك فقد شابههم كالخوارج المارقين من الإسلام، والذين خرجوا فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه وقاتلهم حين خرجوا على المسلمين بأمر النبى ﷺ كما ثبت ذلك من عشرة أوجه فى (الصحاح) و (المسانيد) وغير ذلك.

وكذلك من غلا فى دينه من الرافضة والقدرية، والجهمية والمعتزلة والأشاعرة، وقال أيضاً: فإذا كان على عهد النبى ﷺ من انتسب إلى الإسلام وقد مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة فى هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام وذلك بأسباب: منها الغلو الذى ذمه الله فى كتابه حيث قال: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾. اهـ.

قال ناصر السعدى(٤): ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو فى الدين، وهو:

---

(١) تفسير القرطبى ٣/٢٠١٧.
(٢) فتح القدير ١/٦٣٣.
(٣) الوصية الكبرى نقلاً عن تيسير العزيز الحميد.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ١/٤٣٢.

مجاوزة الحد، والقدر المشروع، إلى ماليس بمشروع. وذلك كقول النصارى، فى غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعه عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذى لايليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط، من المنهيات، فالغلو كذلك. اهـ.

قال الشنقيطى[١]: وقال بعض العلماء: يدخل فى الغلو وغير الحق المنهى عنه فى هذه الآية ما قالوا من البهتان على مريم أيضاً واعتمده القرطبى وعليه فيكون الغلو المنهى عنه شاملاً للتفريط والإفراط.

وقد قرر العلماء أن الحق واسطة بين التفريط والإفراط وهو معنى قول مطرف بن عبدالله: الحسنة بين سيئتين وبه تعلم أن مَنْ جَانَبَ التفريط والإفراط فقد اهتدى ولقد أجاد من قال:

ولاتغل فى شىءٍ من الأمر واقتصد كلا طرفى قصد الأمور ذميم. أ.هـ

قال مقبل بن هادى الوادعى[٢]: فى هذه الآية الكريمة وفى الحديثين اللذين بعدهما رد على المبتدعة الذين يعملون الموالد ويحتفلون بها سواء أكان باسم النبى ﷺ أم باسم غيره من الصالحين ولو أنهم شغلوا أنفسهم بالقيام بما أوجب الله عليهم من الجهاد فى سبيل الله وبالدعوة إلى الله وبالعبادة المشروعة لما وجدوا الفراغ الذى جعلهم يتخبطون تائهين عن النور الإلهى إلى خزعبلات ما أنزل الله بها من سلطان، وأعداء الإسلام يوردون الشبهات على عوام المسلمين وعلى أشباه العوام ويشككونهم فى دينهم وهؤلاء المخذولون يشغلون المسلمين بالإحتفال بالموالد المبتدعة نسأل الله لنا ولهم الهداية أمين أهـ.

قال صاحب الظلال[٣]: وفى هذا الدرس يتجه السياق إلى إنصاف الحق والعقيدة، وإنصاف عيسى بن مريم كذلك من غلو النصارى فى شأن المسيح ـ عليه السلام ـ ومن الأساطير الوثنية التى تسربت إلى النصرانية السمحة من شتى الأقوام، وشتى الملل، التى احتكت بها النصرانية؛ سواء فى ذلك أساطير الإغريق والرومان، وأساطير قدماء المصريين، وأساطير الهنود!

---

(١) أضواء البيان ١/ ٣٤٠و ٣٤١.
(٢) تحقيق تفسير ابن كثير ٢/ ٥٨٣.
(٣) ٢/ ٨١٥و ٨١٦.

ولقد تولى القرآن الكريم تصحيح عقائد أهل الكتاب التى جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير؛ كما تولى تصحيح عقائد المشركين، المتخلفة من بقايا الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام فى الجزيرة العربية ومن ركام فوقها من أساطير البشر وترهات الجاهلية!

لابل جاء الإسلام ليتولى تصحيح العقيدة فى الله للبشر أجمعين؛ وينقذها من كل إنحراف وكل اختلال، وكل غلو، وكل تفريط، فى تفكير البشر أجمعين فصحح - فيما صحح - اختلالات تصور التوحيد فى آراء أرسطو فى أثينا قبل الميلاد، وأفلاطون فى الإسكندرية بعد الميلاد؛ وما بينهما وما تلاهما من شتى التصورات فى شتى الفلسفات التى كانت تخبط فى التيه، معتمدة على زبالة العقل البشرى، الذى لابد أن تعينه الرسالة، ليهتدى فى هذا التيه.

والقضية التى يعرض لها السياق فى هذه الآيات. هى قضية «التثليث» وما تتضمنه من أسطورة «بنوة المسيح» لتقرير وحدانية الله سبحانه على الوجه المستقيم الصحيح.

ولقد جاء الإسلام والعقيدة التى يعتنقها النصارى - على اختلاف المذاهب - هى عقيدة أن الإله واحد فى أقانيم ثلاثة: الآب. والابن، والروح القدس. والمسيح هو «الابن».. ثم تختلف المذاهب بعد ذلك فى المسيح. هل هو ذو طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية؟ أم هل هو ذو طبيعة واحدة لاهوتية فقط. وهل هو ذو مشيئة واحدة مع إختلاف الطبيعتين؟ وهل هو قديم كالآب أو مخلوق.. إلى آخر ما تفرقت به المذاهب، وقامت عليه الاضطهادات بين الفرق المختلفة.

والثابت من التتبع التاريخى لأطوار العقيدة النصرانية، أن عقيدة التثليث، كذلك عقيدة بنوة المسيح لله - سبحانه - (ومثلها عقيدة ألوهية أمه مريم، ودخولها فى التثليثات المتعددة الأشكال) كلها لم تصاحب النصرانية الأولى. إنما دخلت إليها على فترات متفاوتة التاريخ، مع الوثنيين الذين دخلوا فى النصرانية، وهم لم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة.. والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبساً من الديانات المصرية القديمة، من تثليث «أوزوريس وإيزيس، وحوريس» والتثليثات المتعددة فى هذه الديانة.

قلت: ولقد سمعت من بعض قساوسة الشرق بل هو أبوهم الأول على الإطلاق أنه يُنَزِّل قوله تعالى: ﴿**لقد كفر الَّذين قالُوا إنَ اللَّه ثالثُ ثلاثة**﴾ على إيزيس وأوزوريس

وحوريس، ويقول: نعم إنهم كفروا لأن هذا في الثالوث الوثني أما الثالوث المقدَّس أي الذي يعبدونه الآن فلا تعنيه الآية، وفات هذا القس العرض التاريخي الذي يبيِّن أن فكرة التثليث الذي قالوا به إنما هي وثنية أصلاً وكان الأولى به أن يرجع عنها لهذا التشابه الوثني أو يستحي من ذكرها لولا أن القوم أضل من الحمر كما قال ابن القيم وتقدم معنا الرد على هذه الشبهة من وجوه:

أولها: أنه على هذا الفهم يبقى أن تكون الآية (لقد كفر الذين قالوا إن الله رابع أربعة) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ذلك لأنه إذا ضم إلى إزيس وأوزوريس وحوريس كان رابعهم وليس ثالثهم.

ثانياً: أن الوثنين لم يقولوا إن الله ثالث ثلاثة إنما قالوا بألوهية الثلاثة وهناك فارق ولم يُثبت هذا العرض التاريخي ولاغيره أن أحداً قال هذا القول إلا النصارى.

وتقدم كثير من الرد على هذه الشبهة في شرح حديث عبادة بن الصامت في باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب. والله الموفق لا رب سواه.

ثم قال صاحب الظلال: وقد ظل النصارى الموحدون يقاومون الاضطهادات التي أنزلها بهم الأباطرة الرومان. والمجامع المقدسة الموالية للدولة (الملوكانيون) إلى ما بعد القرن السادس الميلادي على الرغم من كل ما لاقوه من اضطهاد وتغرب وتشرد بعيداً عن أيدي السلطات الرومانية!

وما تزال فكرة «التثليث» تصدم عقول المثقفين من النصارى، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق، ومن بينها الإحالة إلى مجهولات لاينكشف سرها للبشر إلا يوم ينكشف الحجاب عن كل ما في السماوات وما في الأرض!

يقول القس بوطر صاحب رسالة: «الأصول والفروع» أحد شراح العقيدة النصرانية، في هذه القضية: «قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا. ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات والأرض». اهـ.

ولانريد هنا أن ندخل في سرد تاريخي للأطوار وللطريقة التي تسللت بها هذه الفكرة إلى النصرانية. وهي إحدى ديانات التوحيد الأساسية. اهـ.

والحاصل من السرد التاريخي عرض غلو النصارى التدريجي حتى وصلوا إلى هذه الدركة. نسأل الله لهم الهداية للإسلام وللتوحيد الحق. اهـ.

قوله: ﴿وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَ﴾.

قال محيى الدين درويش[1]: الواو عاطفة، ﴿وَلاَ﴾ ناهية ﴿تَقُولُوا﴾ فعل مضارع مجزوم، و﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلقان بتقولوا، و﴿إِلاَّ﴾ أداة حصر، و﴿الْحَقَ﴾ مفعول مطلق على أنه نعت لمصدر محذوف، أى: إلا القول الحق، أو مفعول به لأنه تضمن معنى القول، نحو: قلت قصيدة اهـ.

● **أقوال أهل التفسير**

قال البغوى[2]: لاتقولوا إن له شريكاً وولداً أ.هـ.

قال ابن الجوزى[3]: قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَ﴾.

أى: لاتقولوا: إن الله له شريك أو ابن أو زوجة اهـ.

قال القرطبى[4]: أى لاتقولوا إن له شريكاً أو أبناء اهـ.

قال ابن كثير[5]: وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَ﴾.

أى لاتفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عزوجل عن ذلك علواً كبيراً وتنزه وتقدس وتوحد فى سؤدده وكبريائه وعظمته فلا إله إلا هو ولارب سواه ولهذا قال ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أهـ.

قال الشوكانى[6]: ﴿وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَ﴾ وهو ما وصف به نفسه ووصفته به رسله، ولاتقولوا الباطل كقول اليهود عزيز ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله أهـ.

قال السعدى[7]: ﴿وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَ﴾ وهذا الكلام، يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهى عنهما، وهما: قول الكذب على الله والقول بلاعلم، فى أسمائه وصفاته، وأفعاله، وشرعه، ورسله، والثالث: مأمور وهو: قول الحق فى هذه الأمور. ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق فى شأن عيسى عليه السلام، نصاً على قول الحق فيه، المخالف للطريقة اليهودية والنصرانية قال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أهـ.

---

(١) إعراب القرآن ٢/ ٣٩٠
(١) معالم التنزيل ٢/ ١٩٣.
(٣) زاد المسير ٢/ ١٥٦.
(٤) تفسير القرطبى ٣/ ٢٠١٧.
(٥) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٠.
(٦) فتح القدير ١/ ٦٣٣.
(٧) تفسير ابن كثير ١/ ٤٣٢و ٤٣٣.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾.

قال محيي الدين درويش(١): ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ كلام مستأنف مسوق للتعريف بالسيد المسيح عليه السلام. و﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة، و﴿الْمَسِيحُ﴾ مبتدأ و﴿عِيسَى﴾ بدل منه، و﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بدل أيضاً أو صفة. و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ خبر المبتدأ أهـ.

وذكر ذلك القرطبي أيضاً في تفسيره لهذه الآية أ.هـ.

● **أقوال أهل التفسير**

قال الطبري(٢): يعني جل ثناؤه بقوله ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ما المسيح أيها الغالون في دينهم من أهل الكتاب بابن الله كما تزعمون ولكنه عيسى بن مريم دون غيرها من الخلق لانسب له غير ذلك.

ثم نعته الله جل ثناؤه بنعته ووصفه بصفته فقال هو ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أرسله الله بالحق إلى من أرسله إليه من خلقه وأصل المسيح الممسوح صرف من مفعول إلى فعيل وسماه الله بذلك لتطهيره إياه من الذنوب، وقيل: مسح من الذنوب والأدناس التي تكون في الآدميين كما يمسح الشيء من الأذى الذي يكون فيه فيطهر منه.

ولذلك قال مجاهد ومن قال مثل قوله: المسيح الصديق.

وقد زعم بعض الناس أن أصل هذه الكلمة عبرانية أو سريانية (مشيحا) فعربت فقيل المسيح كما عرب سائر أسماء الأنبياء التي في القرآن مثل إسمعيل وإسحق وموسى وعيسى.

قال أبو جعفر: وليس ما مثل به من ذلك للمسيح بنظير وذلك أن إسماعيل وإسحاق وما أشبه ذلك أسماء لاصفات والمسيح صفة وغير جائز أن تخاطب العرب وغيرها من أجناس الخلق في صفة شيء إلا بمثل ما يفهم عمن خاطبها ولو كان المسيح من غير كلام العرب ولم تكن العرب تعقل معناه ما خوطبت به.

وأما المسيح الدجال فإنه أيضا بمعنى الممسوح العين صرف من مفعول إلى فعيل فمعنى المسيح في عيسى ﷺ الممسوح البدن من الأدناس والآثام ومعنى المسيح في الدجال: الممسوح العين اليمنى أو اليسرى كالذي روى عن رسول ﷺ في ذلك أهـ.

---

(١) إعراب القرآن ٢/ ٣٩٠.

(٢) تفسير الطبري ٤/٦/ ٢٤و ٢٥.

قال القرطبى(١): **الأولى**: ودلّ بقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ على أن من كان منسوبا بوالدته كيف يكون إلهاً!! وحق الإله أن يكون قديما لا مُحدَثا، ويكون «رسُولُ الله» خبراً بعد خبر.

الثانية: لم يذكر الله عزوجل امرأة وسمّاها باسمها فى كتابه إلا مريم ابنة عمران؛ فإنه ذكر اسمها فى نحوٍ من ثلاثين موضعا لحكمة ذكرها بعض الأشياخ؛ فإن الملوك والأشراف لايذكرون حرائرهم فى الملأ، ولايبتذلون أسماءهنّ؛ بل يكنون عن الزوجة بالعِرس والأهل والعِيال ونحو ذلك، فإن ذكروا الإماء لم يكنوا عنهنّ ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر والتصريح بها؛ فلما قالت النصارى فى مريم ما قالت، وفى ابنها صرح الله باسمها، ولم يكنِ عنها بالأمُوة والعبودية التى هى صفة لها؛ وأجرى الكلام على عادة العرب فى ذكر إمائها.

الثالثة: اعتقاد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب، فإذا تكرر اسمه منسوباً للأم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفى الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله. والله أعلم أ هـ.

قال ابن كثير(٢): أى إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه قال له: كن. فكان، رسول من رسله أ هـ.

قال السعدى(٣): ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهى درجة الرسالة، التى هى أعلى الدرجات، وأجل المثوبات أ هـ.

قال صاحب الظلال(٤): فهو على وجه القصد والتحديد: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾.. شأنه فى هذا شأن بقية الرسل، شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد، وبقية الرهط الكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمان أ هـ.

قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾

قال محيى الدين درويش(٥): ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ عطف على رسول، وجملة ﴿أَلْقَاهَا﴾ حالية، ولابد من تقدير «قد» معها، والعامل فى الحال معنى «كلمته»، لأن معنى الكلمة أنه مكون بها من غير أب. ﴿إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ جار ومجرور متعلقان بألقاها أ هـ.

(١) تفسير القرطبى ٣/ ٢٠١٧و ٢٠١٨.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٤٣٣.
(٤) ٢/ ٨١٦و ٨١٧.
(٥) إعراب القرآن ٢/ ٣٩٠.

عن قتادة فى قوله ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ قال: كلمته أن قال: كن فكان[1].

قال الطبرى[2]: وأما قولـه ألقاها إلى مريـم يعنى بالكـلمة الرسالة الـتى أمر الله ملائكته أن تأتى مريم بها بشارة مـن الله لها التى ذكر الله جل ثناؤه فى قوله ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ يعنى برسالة منه وبشارة من عنده.

قال الرازى[3]: والمعنى أنه وجد بكلمة الله وأمره مـن غير واسطة ولانطفة كما قال ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ اهـ.

قال القرطبى[4]: قوله تـعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أى هو مكون بـكلمة «كن» فكان بشراً من غير أب، والعرب تسـمى الشىء باسم الشىء إذا كان صادرا عنه. وقيل: «كلمتـه» بشارة الله تعالى مريم عليهـا السلام، ورسالته إليها علـى لسان جبريل [عليه السلام]؛ وذلك قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقيل: «الكلمـة» ههنا بمعنى الآية؛ قـال الله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ و ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾. وكان لعيسى أربـعة أسماء؛ المسيح وعيسى وكلمـةٌ ورُوحٌ، وقيل غير هذا مما ليس فى القرآن. ومعنى ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أمر بها مريم أ هـ.

قال ابن كثير[5]: وكلمته ألقاها إلى مريم أى خلقه بـالكلمة التى أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريـم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه - عزَّ وجل - فكـان عيسى بإذنه عز وجل وكانت تلك النفخة التى نفخها فى جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم والجميع مخـلوق لله عزوجل ولهذا قيل لعيسى إنـه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكـن له أب تولد منه وإنما هـو ناشىء عن الكلـمة التى قال له بهـا كن فكان، والروح التى أرسـل بها جبريل. قـال الله تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

---

(1) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/٤٣٩) ونسبه لعبدالرزاق، وابن جرير، وابن المنذر وانظر تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا

(2) تفسير الطبرى ٤/٦/٢٥.

(3) التفسير الكبير ٦/١١/١١٧.

(4) تفسير القرطبى ٣/٢٠١٨.

(5) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٠و ٥٦١.

وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ إلى آخر السورة.

وقال تعالى إخباراً عن المسيح ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ الآية

وقال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ هو كقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطى قال سمعت شاذان بن يحيى يقول فى قول الله ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى[2].

وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير فى قوله ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أى أعلمها بها كما زعمه فى قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أى يعلمك بكلمة منه ويجعل ذلك كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

بل الصحيح أنها الكلمة التى جاء بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام. وقال البخارى: حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا الوليد حدثنا الأوزاعى حدثنى عمير بن هانىء حدثنا جنادة بن أبى أمية عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على كان من العمل**»[3] وقال الوليد فحدثنى عبدالرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير بن هانىء عن جنادة زاد «**من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**»[4] وكذا رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن ابن جابر به، ومن وجه آخر عن الأوزاعى به فقوله فى الآية والحديث أ هـ.

قال صاحب الظلال[5]: وأقرب تفسير لهذه العبارة، أنه سبحانه، خلق عيسى بالأمر الكونى المباشر، الذى يقول عنه فى مواضع من القرآن: إنه «كن.. فيكون».. فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم فخلق عيسى فى بطنها من غير نطفة أب ـ كما هو المألوف فى حياة البشر غير آدم ـ والكلمة التى تخلق كل شىء من العدم، لاعجب فى أن تخلق عيسى ـ عليه السلام ـ فى بطن مريم من النفخة التى يعبر عنها بقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾أهـ.

(١) تقدم تخريجه

(٢) انظر تخريجه فى تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا فى تفسير هذه الآيه.

(٣) تقدم تخريجه (٤) تقدم تخريجه (٥) ٢/ ٨١٧.

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

قال محيى الدين درويش(١): وروح عطف على كلمته، ومنه متعلقان بمحذوف صفة لروح. ومن لابتداء الغاية أ.هـ.

قال ابن الجوزى(٢): فى معنى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ سبعة أقوال:

أحدها: أنه روحٌ من أرواح الأبدان. قال أبيّ بن كعب: لما أخذ الله الميثاق على بنى آدم كان عيسى روحاً من تلك الأرواح، فأرسله إلى مريم، فحملت به.

والثانى: أن الروح النفخ، فسُمى روحاً، لأنه حدث عن نفخة جبريل فى درع مريم، ومنه قول ذى الرّمة.

وقلتُ له أرْفعهَا إليك وأحْيِها بروحِك واقْتَتْه لها قيتَةً قدْراً

هذا قول أبى رَوق.

والثالث: أن معنى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ إنسان حىّ بإحياء الله له.

والرابع: أن الروح: الرحمة، فمعناه: ورحمة منه، ومثله ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾(٣)

والخامس: أن الروح هاهنا جبريل. فالمعنى: ألقاها الله إلى مريم، والذى ألقاها روحٌ منه، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو سليمان الدمشقى.

والسادس: أنه سمّاه روحاً، لأنه يحيا به الناس كما يحيون بالأرواح، ولهذا المعنى: سمى القرآن روحاً، ذكره القاضى أبو يعلى.

والسابع: أن الروح: الوحى أوحى الله إلى مريم يبشرها به، وأوحى إلى جبريل بالنفخ فى درعها، وأوحى إلى ذات عيسى أن: كن فكان. ومثله ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾(٤) أى: بالوحى، ذكره الثعلبى.

فأما قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ فإنه إضافة تشريف، كما تقول: بيت الله، والمعنى من أمره، ومما يقاربها قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(٥) أ.هـ.

وبنحو هذا ذكر جلُّ المفسرين كالطبرى وغيره وأذكر تعليقاتهم على هذه الأقوال.

قال الطبرى(٦): ولكل هذه الأقوال وجه ومذهب غير بعيد من الصواب أهـ.

(١) إعراب القرآن٢/ ٣٩٠.
(٢) زاد المسير ٢/١٥٦و ١٥٧.
(٣) المجادلة: ٢٢
(٤) النحل: ٢.
(٥) الجاثية: ١٣.
(٦) تفسير الطبرى ٤/٦/٢٥.

قال القرطبى[1]: قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ هذا الذى أوقع النصارى فى الإضلال فقالوا: عيسى جزء منه فجهلوا وضلوا وعنه أجوبة ثمانية.. ثم ذكر بنحو ما ذكره ابن الجوزى أ هـ.

قال ابن كثير[2]: وليست من للتبعيض كما تقوله النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة بل هى لإبتداء الغاية كما فى الآية الأخرى.

وقد قال مجاهد فى قوله ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أى ورسول منه: وقال غيره: ومحبة منه.

والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله فى قوله: ﴿هذه ناقة الله﴾ وفى قوله ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ وكما روى فى الحديث الصحيح «فأدخل على ربى فى داره» (٣) أضافها إليه إضافة تشريف وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحداً.هـ.

قال صاحب الظلال[4]: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.. وقد نفخ الله فى طينة آدم من قبل روحه. فكان «إنساناً».. كما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وكذلك قال فى قصة عيسى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾.. فالأمر له سابقة.. والروح هنا هو الروح هناك.. ولم يقل أحد من أهل الكتاب ـ وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله ـ إن آدم إله، ولا أقنوم من أقانيم الإله. كما قالوا عن عيسى؛ مع تشابه الحال ـ من حيث قضية الروح والنفخة ومن حيث الخلقة كذلك. بل إن آدم خلق من غير أب وأم: وعيسى خلق مع وجود أم.. وكذلك قال الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

ويعجب الإنسان ـ وهو يرى وضوح القضية وبساطتها ـ من فعل الهوى ورواسب الوثنية التى عقدت قضية عيسى عليه السلام هذا التعقيد كله، فى أذهان أجيال وأجيال وهى ـ كما يصورها القرآن ـ بسيطة بسيطة، وواضحة مكشوفة.

إن الذى وهب لآدم.. من غير أبوين.. حياة إنسانية متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه، لهو الذى وهب عيسى.. من غير أب.. هذه الحياة الإنسانية

---

(١) تفسير القرطبى ٣/ ٢٠١٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦١.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ٢/ ٨١٧.

كذلك.. وهذا الكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التى لاتنتهى عن ألوهية المسيح، لمجرد أنه جاء من غير أب، وعن ألوهية الأقانيم الثلاثة كذلك!.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً أهـ.

قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾.

قال محيى الدين درويش[1]: الفاء الفصيحة، أى: فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾ إيمانا يليق به تعالى، ﴿بِاللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بآمنوا ﴿وَرُسُلِهِ﴾ عطف على لفظ الجلالة، والواو عاطفة، ولاناهية، وتقولوا فعل مضارع مجزوم بها. و﴿ثَلَاثَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف. أى: ولاتقولوا آلهتنا ثلاثة، وجملة آلهتنا ثلاثة فى محل نصب مقول القول أهـ.

● **أقوال أهل التفسير**

قال الطبرى[2]: يعنى بقوله جل ثناؤه فآمنوا بالله ورسله فصدقوا يا أهل الكتاب بوحدانية الله وربوبيته وأنه لا ولد له وصدقوا رسله فيما جاؤكم به من عند الله وفيما أخبرتم به أن الله واحد لاشريك له ولاصاحبة له ولا ولد له ولا تقولوا ثلاثة يعنى ولاتقولوا الأرباب ثلاثة ورفعت الثلاثة بمحذوف دل عليه الظاهر وهو هم ومعنى الكلام ولاتقولوا هم ثلاثة وإنما جاز ذلك لأن القول حكاية والعرب تفعل ذلك فى الحكاية ومنه قول الله ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وكذلك كل ما ورد من مرفوع بعد القول لارافع معه ففيه إضمار اسم راجع لذلك الإسم أهـ.

قال الرازى[3]: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى أن عيسى من رسل الله فآمنوا كإيمانكم بسائر الرسل ولا تجعلوه إلهاً.. ولاتقولوا إن الله سبحانه واحد بالجوهر ثلاثة بالأقانيم. واعلم أن مذهب النصارى مجهول جداً، والذى يتحصل منه أنهم..

أثبتوا ذاتا موصوفة بصفات ثلاثة، إلا أنهم وان سموها صفات فهى فى الحقيقة ذوات، بدليل أنهم يجوزون عليها الحلول فى عيسى وفى مريم بأنفسها، وإلا لما جوزوا عليها أن تحل فى الغير وأن تفارق ذلك الغير مرة أخرى، فهم وإن كانوا يسمونها بالصفات إلا أنهم فى الحقيقة يثبتون ذوات متعددة قائمة بأنفسها، وذلك محض الكفر، فلهذا المعنى قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا﴾ فأما ان حملنا الثلاثة على أنهم يثبتون صفات ثلاثة، فهذا لايمكن إنكاره، وكيف لانقول ذلك وأنا نقول: هو الله الذى لا إله

(1) إعراب القرآن ٢/ ٣٩٠.
(2) تفسير الطبرى ٤/٦/٢٥و٢٦.
(3) التفسير الكبير ٦/١١/١١٨.

إلا هو الملك القدوس السلام العالم الحى القادر المريد، ونفهم من كل واحد من هذه الألفاظ غير ما نفهمه من اللفظ الآخر، ولا معنى لتعدد الصفات إلا ذلك، فلو كان القول بتعدد الصفات كفرا لزم رد جميع القرآن ولزم رد العقل من حيث أنا نعلم بالضرورة أن المفهوم من كونه تعالى عالماً غير المفهوم من كونه تعالى قادرا أو حيا أهـ.

ولقد فصَّل القرطبي هذا الكلام شارحاً ومبيناً بطلان عقيدة النصارى فقال(١): قوله تعالى: ﴿فَآمِنوا بِاللَّهِ ورسلهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ﴾ أى آمنوا بأن الله إله واحد خالق المسيح ومرسله، وآمنوا برسله ومنهم عيسى فلاتجعلوه إلهاً. ﴿تَقُولُوا﴾ آلهتنا (ثلاثة) عن الزجاج. قال ابن عباس: يريد بالتثليث الله تعالى وصاحبته وابنه. وقال الفرّاء وأبو عبيد: أى لاتقولوا هم ثلاثة؛ كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ﴾.

[قال] أبو عليّ: التقدير ولاتقولوا هو ثالث ثلاثة؛ فحذف المبتدأ والمضاف.

والنصارى مع فرقهم مجمعون على التثليث ويقولون: إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم؛ فيجعلون كل أقنوم إلها ويعنون بالأقانيم الوجود والحياة والعلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدُس، فيعنون بالأب الوجود، وبالروح الحياة، وبالابن المسيح، فى كلام لهم فيه تخبط بيانه فى أصول الدين.

ومحصول كلامهم يئول إلى التمسك بأن عيسى إله بما كان يجريه الله سبحانه وتعالى على يديه من خوارق العادات على حسب دواعيه وإرادته.

وقالوا: قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر، فينبغى أن يكون المقتدر عليها موصوفا بالإلهية.

فيقال لهم: لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلا به كان تخليص نفسه من أعدائه ودفع شرهم عنه من مقدوراته، وليس كذلك؛ فإن اعترفت النصارى بذلك فقد سقط قولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلا به؛ وإن لم يسلموا ذلك فلا حجة لهم أيضا؛ لأنهم معارضون بموسى عليه السلام، وما كان يجرى على يديه من الأمور العظام، مثل قلب العصا ثعبانا، وفلق البحر واليد البيضاء والمنّ والسلوى، وغير ذلك؛ وكذلك ما جرى على يد الأنبياء؛ فإن أنكروا ذلك فننكر ما يدعونه هم أيضا من ظهوره على يد عيسى عليه السلام، فلايمكنهم إثبات شىء من ذلك لعيسى؛ فإن طريق إثباته عندنا نصوص القرآن وهم ينكرون القرآن، ويكذبون من أتى به، فلا يمكنهم إثبات ذلك بأخبار التواتر.

وقد قيل: إن النصارى كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعد ما رفع عيسى؛ يصلون إلى القبلة؛ ويصومون شهر رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له بولس، قتل جماعة من أصحاب عيسى

(١) تفسير القرطبي (٣/٢٠١٩، ٢٠٢٠، ٢٠٢١).

فقال: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا وجحدنا وإلى النار مصيرنا، ونحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار؛ وإنى أحتال فيهم فأضلهم فيدخلون النار؛ وكان له فرس يقال لها العقاب، فأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب وقال للنصارى: أنا بولس عدوّكم قد نوديت من السماء أن ليست لك توبة إلا أن تتنصر، فأدخلوه فى الكنيسة بيتا فأقام فيه سنة لايخرج ليلا ولا نهارا حتى تعلم الإنجيل؛ فخرج وقال: نوديت من السماء أن الله قد قبِل توبتك فصدّقوه وأحبّوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نُسْطُوراً وأعلمه أن عيسى بن مريم إله، ثم توجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت وقال: لم يكن عيسى بإنس فتأنس ولابجسم فتجسم ولكنه ابن الله. وعلم رجلا يقال له يعقوب ذلك؛ ثم دعا رجلا يقال له الملك فقال له؛ إن الإله لم يزل ولايزال عيسى؛ فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحدا واحدا وقال له: أنت خالصتى ولقد رأيت المسيح فى النوم ورضى عنى، وقال لكل واحد منهم: إنى غدا أذبح نفسى وأتقرب بها، فأدع الناس إلى نِحلتك، ثم دخل المذبح فذبح نفسه؛ فلما كان يوم ثالثه دعا كل واحد منهم الناس إلى نِحلته، فتبع كل واحد منهم طائفة، فأقتتلوا واختلفوا إلى يومنا هذا، فجميع النصارى من الفرق الثلاث؛ فهذا كان سبب شركهم فيما يقال؛ والله أعلم أهـ.

قال ابن كثير(١): ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ﴾ أى لاتجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وهذه الآية والتى فى سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وكما قال فى آخر السورة المذكورة ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى﴾ الآية وقال فى أولها ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية.

والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط، ولالكفرهم حد بل أقوالهم وضلالهم منتشر فمنهم من يعتقده إلهاً، ومنهم من يعتقده شريكا، ومنهم من يعتقده ولداً وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة.

ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولا. ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق بترك الإسكندرية فى حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذى عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التى لهم وإنما هى الخيانة الحقيرة الصغيرة وذلك فى أيام

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦١.

قسطنطين بانى المدينة المشهورة وأنهم اختلفوا عليه اختلافا لاينضبط ولاينحصر فكانوا أزيد من ألفين أسقفا فكانوا أحزاباً كثيرة كل خمسين منهم على مقالة وعشرون على مقالة ومائة على مقالة وسبعون على مقالة وأزيد من ذلك وأنقص. فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر نفراً وقد توافقوا على مقالة فأخذها الملك ونصرهم وأيدها وكان فيلسوفاً داهية ومحق ما عداها من الأقوال، وانتظم دست أولئك الثلثمائة والثمانية عشر وبنيت لهم الكنائس ووضعوا لهم كتباً وقوانين وأحدثوا فيها الأمانة التى يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعمدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم الملكانية. ثم إنهم اجتمعوا مجمعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية ثم مجمعا ثالثاً فحدث فيهم النسطورية وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة فى المسيح ويختلفون فى كيفية ذلك وفى اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا أو ما اتحدا أو امتزجا أو حل فيه على ثلاث مقالات وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى ونحن نكفر الثلاثة ولهذا قال تعالى: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أى يكن خيراً لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أى الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيهما عبيده وهم تحت تدبيره وتصريفه وهو وكيل على كل شىء فكيف يكون له منهم صاحبة وولد كما قال فى الآية الأخرى ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ إلى قوله: ﴿فَرْدًا﴾اهـ.

قال الشوكانى(١): ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى بأنه سبحانه إله واحد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وبأن رسله صادقون مبلغون عن الله ما أمرهم بتبليغه.

ولاتكذبوهم ولاتغلوا فيهم، فتجعلوا بعضهم آلهة اهـ.

قال السعدى(٢): فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام أمر أهل الكتاب بالإيمان به، وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله، ثالث ثلاثة، أحدهم عيسى، والثانى مريم فهذه مقالة النصارى. قبحهم الله اهـ.

قوله: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

(١) فتح القدير ١/ ٦٣٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٤٣٣.

● أقوال أهل التفسير

قال الطبرى[1]: ثم قال لهم جلّ ثناؤه متوعداً لهم فى قولهم العظيم الذى قالوه فى الله انتهوا أيها القائلون الله ثالث ثلاثة عـما تقولون من الزور والشرك بالله فإنَّ الإنتهاء عن ذلك خير لكم من قيله لما لكم عند الله من العقاب العاجل لكم على قيلكم ذلك أن أقمتم عليه ولم تنيبوا إلى الحق الذى أمرتكم بالإنابة إليه والأجل فى معادكم أهـ.

قال القرطبى[2]: ومذهب أبى عبيدة انتهوا يكن خيراً لكم.

قال محمد بن يـزيد: هذا خطأ؛ لأنه يضمر الشرط وجوابـه، وهذا لايوجد فى كلام العرب.

ومذهب الفرّاء أنه نعت لمصدر محذوف.

قال علىّ بن سليمان: هذا خطأ فاحش؛ لأنـه يكون المعنى: انتهوا الإنتهاء الذى هو خير لكم أهـ.

قال ابن كثير[3]: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أى يكن خيراً لكم أهـ.

قال السعدى[4]: فأمـرهم أن ينـتهوا، وأخبـر أن ذلك، خيـر لهم، لأنـه الذى يتعين، أنه سبيل النجاة وما سواه، فهو طرق الهلاك أهـ.

قال صاحـب الظلال[5]: وهذه الدعـوة للإيمان بالله ورسلـه، ومن بينهم عـيسى بوصفه رسولاً، ومحمـد بوصفه خاتم النبيين ـ والإنتهاء عن تـلك الدعاوى والأساطير، تجيء فى وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف والتقرير المريح أهـ.

قوله: ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

قال محيى الدين درويش[6]: كلام مستأنـف مسوق لتأكيد الوحدانـية، وإنما كافة ومكفوفة، والله مبتدأ وإله خبر، وواحد صفةأهـ.

● أقوال أهل بالتفسير.

قال القرطبى[7]: ويجـوز أن يكون ﴿إله﴾ بـدلاً من اسم الله عزوجـل و﴿واحد﴾ خبره؛ التقدير إنما المعبود واحد أهـ.

قال الطبرى[8]: يعنى بقوله: ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾. ما الله أيها القائلون الله ثالث ثلاثة كما تقولون لأن من كان له ولد فليس بـإله وكذلك من كان له صاحبة فغير جائز

---

(1) تفسير الطبرى ٤/٦/٢٦.
(2) تفسير القرطبى٣/ ٢٠٢١.
(3) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦١.
(4) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٤٣٣.
(5) ٢/ ٨١٧.
(6) إعراب القرآن ٢/ ٣٩٠.
(7) تفسير القرطبى ٣/ ٢٠٢١.
(8) تفسير الطبرى ٤/٦/٢٦.

أن يكون إلهاً معبوداً ولكن الله الذى له الألوهية والعبادة إله واحد معبود لا ولد له ولا والد ولا صاحبة ولاشريك. أهـ.

قال الرازى[1]: ثم أكد التوحيد بقوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾. أهـ.

قال الشوكانى[2]: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لاشريك له ولاصاحبة ولا ولداً. أهـ.

قال السعدى[3]: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أى: هو المنفرد بالألوهية، الذى لاتنبغى العبادة إلا له. أهـ.

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

قال محيى الدين درويش[4]: سبحان مفعول مطلق لفعل محذوف، أى سبحه تسبيحاً. وأن وما فى حيزها مصدر مؤول منصوب بنزع الخافض أى: من أن يكون، والجار والمجرور متعلقان بسبحان، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكون المقدم، وولد اسمها المؤخر، والجملة التنزيهية فى محل نصب على الحال، أى: منزهاً. أهـ.

قال القرطبى[5]: ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى تنزيهاً عن أن يكون له ولد، فلما سقط (عن) كان (أن) فى محل النصب بنزع الخافض، أى كيف يكون له ولد؟ وولد الرجل مُشبه له ولاشبيه لله ـ عزوجل. أهـ.

● **أقوال أهل التفسير.**

قال الطبرى[6]: ثم نزه ـ جلَّ ثناؤه ـ نفسه وعظمها ورفعها كما قال فيه أعداؤه الكفرة به فقال ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ يقول علا الله وجل وعز وتعظم وتنزه عن أن يكون له ولد أو صاحبة. أهـ.

قال البغوى[7]: واعلم أن التبنى لايجوز لله تعالى، لأن التبنى إنما يجوز لمن يتصور له ولد أهـ.

قال ابن الجوزى[8]: ومعنى سبحانه: تبرئته من أن يكون له ولد أهـ.

قال ابن كثير[9]: أى تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً أهـ.

---

(١) التفسير الكبير ٦/١١/١١٩.

(٢) فتح القدير ١/٦٣٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/٤٣٣)

(٤) إعراب القرآن ٢/ ٣٩٠و ٣٩١.

(٥) تفسير القرطبى ٣/٢١-٢٠.

(٦) تفسير الطبرى (٤/٦/٢٦)

(٧) معالم التنزيل ٢/١٩٤.

(٨) زاد المسير ٢/١٥٧.

(٩) تفسير ابن كثير ١/٥٦١.

قال الشوكاني[1]: أى أسبحه تسبيحاً عن أن يكون له ولد أهـ.

قال السعدى[2]: ﴿**سُبْحَانَهُ**﴾ أى «تنزه وتقدس ﴿**أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ**﴾ لأن: ﴿**لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾أهـ.

قال صاحب الظلال[3]: والولادة امتداد للفانى ومحاولة للبقاء فى صورة النسل.. والله الباقى غنى عن الإمتداد فى صورة الفانين، وكل ما فى السموات وما فى الأرض ملك له سبحانه أهـ.

قوله: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.

قال محيى الدين درويش[4]: ﴿**لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ له متعلقان بخبر مقدم محذوف وما اسم موصول مبتدأ وفى السموات متعلقان بمحذوف صلة، وجملة الصلة لا محل لها من الإعراب، وما فى الأرض عطف على ما فى السموات، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه، أى: إذا كان يملك جميع ما فيهما فكيف يتوهم حاجته إلى ولد أ.هـ.

● **أقوال أهل التفسير.**

قال الطبرى[5]: ثم أخبر ـ جلّ ثناؤه ـ عباده أن عيسى وأمه ومن فى السموات ومن فى الأرض عبيده وملكه وخلقه وأنه رازقهم وخالقهم وأنهم أهل حاجة وفاقة إليه ولاكان له عبداً مملوكاً فقال له ما فى السموات وما فى الأرض يعنى لله ما فى السموات وما فى الأرض من الأشياء كلها ملكاً وخلقاً وهو يرزقهم ويقوتهم ويدبرهم فكيف يكون المسيح ابناً لله وهو فى الأرض أو فى السموات غير خارج من أن يكون فى بعض هذه الأماكن أهـ.

قال الرازى[6]: واعلم أنه سبحانه فى كلّ موضع نزه نفسه عن الولد ذكر كونه ملكاً ومالكاً لما فى السموات وما فى الأرض فقال فى مريم ـأى سورة ـ ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً**﴾ والمعنى: من كان مالكا لكل السموات والأرض ولكل ما فيها كان مالكا لعيسى ولمريم لأنهما كانا فى السموات وفى الأرض، وما كانا أعظم من غيرهما فى الذات والصفات، وإذا كان مالكا لما هو أعظم منهما فبأن يكون مالكا لهما أولى، وإذا كانا مملوكين له فكيف يعقل مع هذا توهم كونهما له ولداً وزوجة أهـ.

---

(١) فتح القدير ١/ ٦٣٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٤٣٣.
(٣) ٢/ ٨١٧.
(٤) إعراب القرآن ٢/ ٣٩١.
(٥) تفسير الطبرى ٤/٦/ ٢٦.
(٦) التفسير الكبير ٦/١١/ ١١٩.

قال القرطبى(١): وإن جاز ولد فليجز أولاد حتى يكون كل من ظهرت عليه معجزة ولداً له أهـ.

قال ابن كثير(٢): أى الجميع ملكه وخلقه وجميع مـا فيهما عبيده وهم تحت تدبيره وتصريفه أهـ.

قال الشوكانى(٣): وما جعلتمـوه له شريكاً أو ولداً هو من جملـة ذلك، والمملوك المخلوق لايكون شريكاً ولا ولداً.

قال صاحـب الظلال(٤): ويكفـى البشر أن يرتـبطوا كلهـم بالله ارتباط العـبودية للمعبود: وهو يرعاهم أجمعين، ولا حاجة لإفتراض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم: فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة أهـ.

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾.

قال محيى الدين درويش(٥): الواو استئنافية ﴿وكفى﴾ فعل ماضى و﴿بالله﴾ الباء حرف جر زائد والله فاعل (كفى) مجرور لفظاً بالباء (ووكيلاً) تمييز.

● **أقوال أهل التفسير.**

قال الطبرى(٦): وقوله ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ يقول وحسب ما فـى السموات وما فى الأرض بالله قيما ومدبراً ورازقهم من الحاجة معه إلى غيره أهـ.

قال ابن الجوزى(٧): أى: قيماً على خلقه، مدبراً لهم أهـ.

قال الرازى(٨): **ثم قال ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾** والمعنى أن الله سبحانه كاف فى تدبير المخلوقات وفى حفظ المحدثات فلا حاجة معه إلى القول بإثبات إله آخر، وهو إشارة إلى ما يذكره المتكلمون من أنه سبحانه لما كان عالما بجميع المعلومات قادراً على كل المقدورات كان كافياً فى الإلهية، ولو فرضنا إلها أخـر معه لكان معطلا لافائدة فيه، وذلك نقص، والناقص لا يكون إلها أهـ.

قال القرطبى(٩): وكفى بالله وكيلا أى لأوليائه أهـ.

---

(١) تفسير القرطبى ٣/ ٢٠٢١.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦١.
(٣) فتح القدير ١/ ٦٣٤.
(٤) ٢/ ٨١٨.
(٥) إعراب القرآن ٢/ ١٦١.
(٦) تفسير الطبرى ٤/٦/ ٢٦.
(٧) زاد المسير ٢/ ١٥٧.
(٨) التفسير الكبير ٦/١١/ ١١٩.
(٩) تفسير القرطبى ١/ ٢٠٢١.

قال الشوكاني[1]: فكل الخلق أمورهم إليه ولايملكون لأنفسهم ضراً ولانفعاً أهـ.

قال صاحب الظلال[2]: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾.

وهكذا لايكتفى القرآن ببيان الحقية وتقديرها فى شأن العقيدة إنما يضيف إليها إراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم، وقيامه سبحانه عليهم وعلى حوائجهم ومصالحهم، ليكلوا إليه أمرهم كله فى طمأنينة أهـ.

قال ابن عثيمين[3]: والشاهد من هذه الآية قوله: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ فنهى عن الغلو فى الدين، لأنه يتضمَّن مفاسد كثيرة، منها:

١ـ أنه تنزيل للمغلُوفيه فوق منزلته إن كان مدحاً، وتحتها إن كان قدحاً.

٢ـ أنه يؤدى إلى عبادة هذا المغلوفيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

٣ـ أنه يصدّ عن تعظيم الله سبحانه وتعالى؛ لأن النفس إما أن تنشغل بالباطل أو بالحق، فإذا انشغلت بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه؛ تعلَّقت به ونسيت ما يجب لله تعالى من حقوق.

٤ـ أن المغلو فيه إن كان موجوداً، فإنه يزهو بنفسه ويتعاظم ويعجب بها، وهذه مفسدة تفسد المغلو فيه إن كانت مدحاً، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا إن كانت قدحاً أهـ.

قوله: ﴿فِي دِينِكُمْ﴾

الدين يطلق على العمل والجزاء، والمراد به هنا: العمل والمعنى: لاتجعلوا عبادتكم غلواً فى المخلوقين وغيرهم.

وهل يدخل فى هذا الغلو فى العبادات؟

الجواب: نعم، يدخل الغلو فى العبادات، مثل أن يرهق الإنسان نفسه بالعبادة ويتعبها؛ فإنَّ النبى ﷺ نهى عن ذلك، ومثل أن يزيد عن المشروع، كأن يرمى بجمرات كبيرة، أو يأتى بأذكار زائدة عن المشروع أدبار الصلوات تكميلاً للوارد أو غير هذا؛ فالنهى عن الغلو فى الدين يعم الغلو من كل وجه أهـ.



(١) فتح القدير ١/ ٦٣٤.

(٢) ٢/ ٨١٨.

(٣) القول المفيد ١/ ٤٦٦و ٤٧٠.

وفى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى: ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا﴾[1]. قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونسى العلم عبدت»[2].

- مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى[3]: مناسبة هذه الآية للباب ما ذكره بعض المفسرين من أنَّ هذه الأسماء المذكورة فى الآية كانت أسماء رجال صالحين غلا فى حبهم قومهم فلما ماتوا أوحى إليهم الشيطان أن صوروا على صورهم حتى تتذكروهم حتى إذا مات أهل ذلك القرن واندرس العلم عبدهم من جاء بعدهم. اهـ

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى[4]: حيث دلت الآية على أن الغلو فى الصالحين شرك، وذلك لأن الغلو فيهم صرف شىء من حقوق الله الخاصة به لهم وذلك إشراك لهم مع الله. اهـ

قوله: **[فى الصحيح]** أى صحيح البخارى وهذا الآتى اختصره المصنف والحديث على وجهه بوّب عليه البخارى. باب ﴿**ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق**﴾ قال: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام عن ابن جريج، وقال عطاء.

عن ابن عبَّاس رضى الله عنهما «صارت الأوثان التى كانت فى قوم نُوح فى العرب بعد، أمَّا وَدٌّ فكانت لكلْب بدومة الجنْدَل، وأمَّا سُواعٌ فكانت لهُذَيل، وأمَّا يَغوثُ فكانت لمراد، ثم لبنى غُطيف بالجرف عند سبأ، وأمَّا يَعوق فكانت لهمْدانَ، وأمَّا نَسْرٌ فكانت لحِمير، لآل ذى الكَلاع، أسماءُ رجالِ صالحين من قوم نوحٍ، فلمَّا هَلكوا أوْحَى الشَّيطانُ إلى قومهم أن انصبُوا إلَى مَجالسهم التى كانوا يَجلسون أنصابًا وسَمُّوها بأسمائهم فَفَعلوا، فلم تُعبَدْ، حتى إذا هَلَكَ أولئك وتَنَسَّخ. العلْمُ عُبِدت».

---

(١) نوح /٢٣

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى فى التفسير/ باب: ﴿ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق﴾ (٨/٥٣٥/ح. ٤٩٢٠)

وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٧) وعزاه للبخارى وابن المنذر وابن مردويه.

وانظر فتح القدير (١٣٢٤٩ بتخريجنا) وفتح المجيد ٣٤٤ بتخريجنا.

(٣ - ٤) الجديد.

قوله: (عن ابن عباس) .

قال ابن حجر[1]: قيل هذا منقطع لأن عطاء المذكور هو الخراسانى ولم يلق ابن عباس.

فقد أخرج عبد الرزاق هذا الحديث فى تفسيره عن ابن جريج فقال: أخبرنى عطاء الخراسانى عن ابن عباس.

وقال أبو مسعود ثبت هذا الحديث فى تفسير ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس، وابن جريج لم يسمع التفسير من عطاء الخراسانى وإنما أخذه من ابنه عثمان بن عطاء فنظر فيه.

وذكر صالح بن أحمد بن حنبل فى «العلل» عن على بن المدينى قال: سألت يحيى القطان عن حديث ابن جريج عن عطاء الخراسانى فقال: ضعيف. فقلت: إنه يقول أخبرنا، قال: لا شىء، إنما هو كتاب دفعه إليه انتهى.

وكان ابن جريج يستجيز إطلاق أخبرنا فى المناولة والمكاتبة، وقال الإسماعيلى أخبرت عن على بن المدينى أنه ذكر عن «تفسير ابن جريج» كلامًا معناه أنه كان يقول عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس، فطال على الوراق أن يكتب الخراسانى فى كل حديث فتركه فرواه من روى على أنه عطاء بن أبى رباح انتهى.

وأشار بهذا إلى القصة التى ذكرها صالح بن أحمد عن على بن المدينى ونبه عليها أبو على الجيانى فى «تقييد المهمل» قال ابن المدينى سمعت هشام بن يوسف يقول قال لى ابن جريج سألت عطاء عن التفسير من البقرة وآل عمران ثم قال: اعفنى من هذا، قال قال هشام فكان بعد إذا قال قال عطاء عن ابن عباس قال عطاء الخراسانى. قال هشام: فكتبنا ثم مللنا، يعنى كتبنا الخراسانى، قال ابن المدينى وإنما بينت هذا لأن محمد بن ثور كان يجعلها- يعنى فى روايته عن ابن جريج- عن عطاء عن ابن عباس فيظن أنه عطاء بن أبى رباح.

وقد أخرج الفاكهى الحديث المذكور من طريق محمد بن ثور عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ولم يقل الخراسانى.

وأخرجه عبد الرزاق، كما تقدم فقال الخراسانى، وهذا مما استعظم على البخارى أن يخفى عليه، لكن الذى قوى عندى أن هذا الحديث بخصوصه عند ابن جريج عن عطاء الخراسانى وعن عطاء بن أبى رباح جميعًا ، ولا يلزم من امتناع عطاء بن أبى رباح من

(١) الفتح ٨/ ٥٣٥، ٥٣٦.

التحديث بالتفسير أن لا يحدث بـهذا الحديث فى باب آخر من الأبواب أو فى المذاكرة، وإلا فكيف يخـفى على البخارى ذلك مع تـشدده فى شرط الاتصال واعتمـاده غالبًا فى العلل على على بن المدينى شيخه وهو الذى نبه على هذه القصة.

ومما يؤيد ذلك أنه لم يكثر من تخريج هذه الـنسخة وإنما ذكر بهذا الإسناد موضعين هذا وآخر فى النكاح، ولو كان خفى عليه لاستـكثر من إخراجها لأن ظاهرها أنها على شرطه. اهـ.

قال ابن عثيمين(١):

قوله:﴿ وَقَالُوا﴾: أى : قال بعضهم لبعض.

قوله:﴿لا تَذَرُنَّ ﴾: أى : لا تدعن وتتركن. وهذا نهى مؤكد بالنون.

قوله:﴿آلِهَتَكُمْ ﴾ : هل المراد: لا تذروا عبادتها أو تمكنوا أحدًا من إهانتها؟

الجواب: المعنيان ؟ أى : انتصروا لآلهتكم ولا تمكنوا أحدًا من إهانتها، ولا تدعوها للناس، ولا تدعوا عبادتها أيضًا ، بل احرصوا عليها، وهذا من التواصى بالباطل عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق .

قوله: ﴿وَلا سُوَاعًا﴾ لا زائدة للـتوكيد، مثلـها فى قوله تـعالى: **﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾** ، وفائدتهـا أنهم جعلوا مدخولـها كالمستقل، بخـلاف يعوق ونسر، فهما دون مـرتبة من سبقهما.

قوله: ﴿وداولا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هذه الخمـسة كأن لها مزيَّـة على غيرها، لأنَّ قوله: **﴿آلِهَتَكُمْ﴾** عام يشمل كلَّ ما يعبدون ، وكأنها كبار آلهتهم، فخصوها بالذكر.

والآلهة. جمع إله، وهو كل ما عُبد سواء بحق أو بباطل.

لكن إذا كان المعبود هو الله ، فهو حق، وإن كان غير الله، فهو باطل. اهـ.

قوله: [هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح].

قال ابن حجر(٢): محصل ما قيل فى هذه الأصنام قولان:

---

(١) القول المفيد ١/ ٤٧١، ٤٧٢.

(٢) الفتح ٨/ ٥٣٧.

أحدهما أنها كانت في قوم نوح.

والثاني: أنها كانت أسماء رجال صالحين إلى آخرالقصة.

قلت:- يعني ابن حجر - بل مرجع ذلـك إلى قول واحد . وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: وفي هذا التفسير إشكال، حيث قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح»، وظاهر القرآن أنَّها قبل نوح، قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ ظاهر الآية الكريمة: أنَّ قوم نوح كانوا يعبدونها، ثم نهاهم نوح عن عبادتها، وأمرهم بعبادة الله وحده، ولكنهم أبَوا وقالوا: ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾، وهذا (أعني: القول بأنهم قبل نوح) قول محمد بن كعب ومحمد بن قيس، وهو الراجح ، لموافقته ظاهر القرآن.

ويحتمل- وهو بعيد- أن هذا في أول رسالة نوح، وأنَّه استجاب له هؤلاء الرجال وآمنوا به، ثم بعد ذلك ماتوا قبل نوح ثم عبدوهم، لكن هذا بعيد حتى من سياق الأثر عن ابن عباس.

فالمهم أن تفسير الآية أن يُقال: هذه أصنام في قوم نوح كانوا رجالاً صالحين، فطال على قومهم الأمد، فعبدوهم.

قلت: لكن هنا إشكال آخر كيف رفع العلم ونوح فيهم .

الجواب: أن يقال أنهم لم يسمعوا لنوح أصلاً لقوله تعالى: ﴿. . . جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ الآية.

قوله: [فلما هلكوا، أوحى الشيطان]

أي: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام.

قوله: [أن انصبوا إلى مجالسهم]

الأنصاب: جمع نُصُب، وهو كل ما يُنصب من عصا أو حجر أو غيره.

قوله: [وسموهم بأسمائهم].

(١) القول المفيد ١/ ٤٧٢، ٤٧٣.

أى: ضعوا أنصابًا فى مجالسهم، وقولوا: هذا ود وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر لأجل إذا رأيتموهم تتذكروا عبادتهم، فتنشطوا عليها هكذا زيَّن لهم الشيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لآدم ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ وإذا كان العبد لا يتذكر عبادة الله إلا برؤية أشباح هؤلاء فهذه عبادة قاصرة أو معدومة .اهـ.

قوله: [ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم، عبدت من دون الله.]

وفى رواية للبخارى [وتنسَّخ العلم]

قال ابن حجر(١): **قوله (فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخ العلم)** كذا لهم، ولأبى ذر والكشميهنى «ونسخ العلم» أى علم تلك الصور بخصوصها.

وأخرج الفاكهى من طريق عبيد الله بن عبيد بن عمير قال: أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح، وكانت الأبناء تبر الآباء، فمات رجل منهم فجزع عليه فجعل لا يصبر عنه، فاتخذ مثالا على صورته فكلما اشتاق إليه نظره ثم مات ففعل به كما فعل حتى تتابعوا على ذلك فمات الآباء ، فقال الأبناء . ما اتخذ آباؤنا هذه إلا أنها كانت آلهتهم، فعبدوها.

وحكى الواقدى قال: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة طائر، وهذا شاذ والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار فى سبب عبادتها. والله أعلم.

وقال ابن عثيمين: ذكر ابن عباس- رضى الله عنهما - أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون والقرن مائة سنة، حتى إذا طال عليهم الأمد حصل النزاع والتفرق ، فبعث الله النبيين كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الآية هذا هو تفسير ابن عباس رضى الله عنهما للآية وهل تفسيره حجة؟

الجواب: يرجع فى التفسير أولاً إلى القران، فالقرآن يفسر بعضه بعضًا، مثل قوله تعالى : ﴿مَا أَدْرَاكَ مَاهِيَةْ﴾ تفسيرها: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ فإن لم نجد فى القرآن، فإلى سنة الرسول ﷺ فإن لم نجد فإلى تفسير الصحابة، وتفسير الصحابى حُجَّة بلا شك لأنهم أدرى بالقرآن حيث نزل بعصرهم وبلغتهم ، ويعرفون عنه أكثر من غيرهم ، حتى قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابى فى حكم المرفوع، وهذا ليس بصحيح، لكنه لا شك

(١) الفتح ٨/ ٥٣٧.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ منَ السَّلَفِ لَـمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُم، ثُمَ طَالَ عَلَيهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُم».

وَعَنْ عُـمَرَ . أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَـالَ: «لاَ تُطْرُونِـى كَمَا أَطـرَتِ النَّصَـارَى ابنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا : عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ» أَخرجاه[1].

أنَّه حُجَّة عـلى من بعدهم، فإن اختـلف الصحابة فى التـفسير أخذنا بما يرجـحه سياق الآية، والآيـة تدل عـلى ما ذكـره ابن عبـاس، إلا أنَّ ظاهـر السيـاق أن هؤلاء الـقوم الصالحين كانوا قبل نوح عليه السلام وقد عرفت القول الراجح[2] . اهـ.



قوله: (قال ابن القيم: قال غير واحد السلف. .

والأمد يعنى الزمن .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فاحذر أخى العزيز من طول الزمن لأنه سبب لقسوة القلب إن لم تكن مراعيًا للقلب وكذلك إن لم تحفظ العلم بمذاكرته وطول الأمل سينسخ.

بل الله - عز وجـل- حذر من خطـر طول الزمن عـلى العلـم وعلى القـلب، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعنى عـلى الإسلام- ثم طول الأمد صـاروا أمة واحدة على الكفر فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

قال ابن عثيمين[3]: قوله الأمد الزمـن، وهذا كتفسير ابن عـباس، إلا أن ابن عباس يقول إنهم جعلوا الأنصاب فى مجالسهم وهنا يقول: جعلوها على قبورهم ولا يبعد أنهم جعلوا هذا وهذا، أو أنهم قبروا فى مجالسهم، فتكون هى محل القبور.

والشاهد قولـه: [ثم طال عليهم الأمد فعـبدوهم] فسبب العبادة إذًا الـغلو فى هؤلاء الصالحين حتى عبدوهم. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء / باب ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ (٦/ ٥٥١/ ٣٤٤٥)، وأحمد فى «مسنده» (١/ ٢٣).

من طريق ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر به.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١٨) ، وانظر «فتح المجيد» (٣٤٧) بتخريجنا

(٢) القول المفيد ١/ ٤٧٤, ٤٧٥ . (٣) القول المفيد ١/ ٤٧٥ .

قوله: [وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا تطرونى....]

والحديث على وجهه فى الصحيح .

عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر : «سمعت النبىَّ ﷺ يقول: **«لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»**.

قال ابن حجر: قوله: **(لا تطرونى)** بضم أوله، والإطراء المدح بالباطل تقول أطريت فلانًا مدحته، فأفرطت فى مدحه قوله : **(كما أطرت النصارى ابن مريم)** أى فى دعواهم فيه الإلهية، وغير ذلك. اهـ.

قلت: أما إذا كان المدح بالحق ولمصلحة شرعية فهذا مشروع ليس ممنوع.

كقوله ﷺ لسعد حينما جاءوا به ليحكم فى يهود **«قوموا إلى سيدكم»**(١) ، وكذلك وصفه ﷺ لكثير من الصحابة بأوصاف كما فى الحديث **«أرحم أمتى بأمتى أبو بكر .. إلخ الحديث »**(٢).

قال ابن عثيمين(٣): وهذا النهى يحتمل أنَّه مُنْصَبّ على هذا التشبيه، وهو قوله: **«كما أطرت النصارى ابن مريم»**، حيث جعلوه إلهًا أو ابنًا لله ، وبهذا يوحى قول البوصيرى:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

أى: دع ما قاله النصارى أن عيسى عليه الصلاة والسلام ابن الله أو ثالث ثلاثة : والباقى املأ فمك فى مدحه ولو بما لا يرضيه.

ويحتمل أنَّ النهى عام، فيشمل ما يشابه غلو النصارى فى عيسى بن مريم وما دونه، ويكون قوله: **«كما أطرت»** لمطلق التشبيه لا للتشبيه المطلق، لأن إطراء النصارى عيسى ابن مريم سببه الغلو فى هذا الرسول الكريم ﷺ، حيث جعلوه ابنًا لله وثالث ثلاثة، والدليل على أنَّ المراد هذا قوله: **«إنَّما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»**.

قوله: **«إنما أنا عبد»**.

أى: ليس لى حق من الربوبيَّة، ولا مما يختص به الله- عز وجل- أبدًا.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٠٤٣، ومسلم فى الجهاد والسير (٦/ ٣٣٥/ ٦٤) عن أبى سعيد به..

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ١٨٤)، والترمذى (٣٧٩١)، وابن ماجة (١٥٤) عن أنس به.

(٣) القول المفيد ١/ ١/٤٧٦- ٤٧٨.

قوله: «فقولوا عبد الله ورسوله».

هذان الوصفان أصدق وصف وأشرفه فى الرسول ﷺ، فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله ، قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾(٢)، فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عبادًا لله - عز وجل- أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به، ولهذا يقول الشاعر فى محبوبته:

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائى

أى : أنت إذا أردت أن تكلمنى قل: يا عبد فلانة، لأنَّه أشرف أسمائى وأبلغ فى الذل.

فمحمد ﷺ عبد لا يُعْبَد، ورسول لا يكذب، ولهذا نقول فى صلاتنا عندما نسلِّم عليه ونشهد له بالرسالة: «وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله»(٣) فهذا أفضل وصف اختاره النبى عليه الصلاة والسلام لنفسه.

واعلم أن الحقوق ثلاثة أقسام، وهى:

الأول: حق لله لا يشرك فيه غيره: لا ملك مقرب، ولا نبى مرسل، وهو ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثاني: حق خاص للرسل ، هو إعانتهم وتوقيرهم وتبجيلهم بما يستحقون.

الثالث: حق مشترك، وهو الإيمان بالله ورسله، وهذه الحقوق موجودة فى الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فهذا حق مشترك، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ هذا خاص بالرسول ﷺ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٤) هذا خاص بالله سبحانه وتعالى

والذين يغلون فى الرسول ﷺ يجعلون حق الله له، فيقولون: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، أى: الرسول، فيسبحون الرسول كما يسبحون الله، ولا شك أنَّه شرك، لأن التسبيح من حقوق الله الخاصة به، بخلاف الإيمان، فهو من الحقوق المشتركة بين الله ورسوله.

(١) الفرقان :٦٣. (٢) الصافات : ١٧١.

(٣) [متفق عليه] من حديث ابن مسعود، رواه : البخارى (كتاب الاستئذان، باب السلام اسم من أسماء الله تعالى، ٤/ ١٣٦) ، ومسلم (كتاب الصلاة، باب التشهد فى الصلاة ١/ ٣٠١).

(٤) الفتح :٩.

وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الغُلُوُّ»(١).

ونهى عن الإطراء فى قوله عليه الصلاة والسلام: «كما أطرت النصارى عيسى بن مريم»(٢) لأنَّ الإطراء والغلو يؤدى إلى عبادته كما هو الواقع الآن، فيوجد عند قبره فى المدينة من يسأله، فيقول: يا رسول الله! المدد، المدد يا رسول الله ! أغثنا، يا رسول الله! بلادنا يابسة، وهكذا، ورأيت بعينى رجلاً يدعو الله تحت ميزاب الكعبة موليًا ظهره البيت مستقبلاً المدينة، لأن استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ بالله.

ويقول بعض المغالين : الكعبة أفضل من الحجرة ، فأمَّا والنبى ﷺ فيها، فلا والله، ولا الكعبة ، ولا العرش وحملته، ولا الجنة.

فهو يريد أن يفضِّل الحجرة على الكعبة وعلى العرش وحملته وعلى الجنة، وهذه مبالغة لا يرضاها النبى ﷺ لنا ولا لنفسه.

وصحيح أن جسده ﷺ أفضل، ولكن كونه يقول: إنَّ الحجرة أفضل من الكعبة والعرش والجنة، لأنَّ الرسول ﷺ فيها هذا خطأ عظيم، نسأل الله السلامة من ذلك. اهـ.

وقوله: [وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم...]

قال الفقير: «إياكم والغلو...» هذا الحديث له مناسبة وقصة أن الرسول أرسل من يجمع له من مزدلفة حصيات يرمى بها فى مِنَى فأخذ الرسول حصاة منها: فقال: «**بمثل هذا فارموا وإياكم والغلو...**» فكأن النبى يعلم ما سوف يفعله الناس وإنهم سيتكلفون ما لم يكلفهم الله به فقال: «**بمثل هذا**» وتكون فعلت ما عليك هذا وإن كثيراً من الناس تظن أن إبليس موجود حقيقة فى هذا المكان وقليل من الناس من يعتقد أن هذا مجرد إحياء لذكرى الخليل ورميه لإبليس، لذلك تجد من يعتقد ذلك يرمى ويسب ويقذف بالحجارة والأحذية وما أفرح إبليس إلا مثل هؤلاء السفهاء، لكن النبى ﷺ قال: «بمثل

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٢١٥، ٣٤٧)، والنسائى فى «الكبرى» فى الحج/ باب التقاط الحصى (٢/ ٤٣٥/ ٤٠٦٣)، وابن ماجة فى المناسك/ باب قدر حصى الرمى (٢/ ١٠٠٨/ ٣٠٢٩)، وابن حبان فى «صحيحه» (٦/ ٦٨ ـ الإحسان)، والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٤٦٦)، والبيهقى فى «الكبرى» (٥/ ١٢٧).

من طريق عوف قال: حدثنا زيد بن حصين، عن أبى العالية عن ابن عباس به.

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وانظر «السلسبيل» (١٤١٠ ـ بتخريجنا) الطبعة الثانية. وانظر «فتح المجيد (٣٤٨ ـ بتخريجنا).

(٢) سبق. .

هذا فارموا» إحياء لـذكرى الخليل وتجديـدًا لإعلان الحرب على الـعدو الحقيقى إبـليس ومقتديًا بأبى الأنبياء فالرمى بالحصى الصغير سيحقق المطلوب ولا داعى للحجارة الكبيرة فلا داعى للتنطع والتعمق.

ولذلك قال العـلماء : إن الغلو كما فى الاعـتقادات فهو فى العبـادات وكما هو فى الأقوال هو أيضًا فى الأفعال .

ومن هذا الباب نهى الرسول الصحابة الذين شددوا على أنفسهم وقالوا: «أما أنا أقوم ولا أنام والثانـى أصوم ولا أفطر والثالث لا أتـزوج النساء»(١) وفى رواية ذكـرها ابن تيمية فى الفرقان بين أولياء الرحمـن وأولياء الشيطان أن الرابع قال: «أما أنا فلا أكل اللحم»، فالنبى ﷺ قال «أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتـزوج النساء وآكل اللحم ومن رغب عن سنتى فليس منى» فالمُفْرط الذى يقوم الليل كـله والمُفَرِّط الذى ينام الليل كله والوسطية هى أن يقوم وينام.

فالغلو فى جانب الاعتقاد كما قال تعالى: ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ فلا تغلو فـى الأنبياء ولا الصالحيـن ولا الملائكة فقد عـبد قوم الملائكة وسبـهم قوم آخرون والحسنة أن نكرمهم ولا نعبدهم.

وفى جانب الإيـمان بالله انظروا للـذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ والذين قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾.

وفى جانب الإيمان حصـل التطرف والغلو ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾.

وحصل ذلـك من المرجئة الـذين قالوا: «مـن قال لا إله إلا الله دخل الجنـة» بمجرد القول.

وكذلك الخوارج القائليـن بأن العاصى مخلد فى النار وأما أهل السنـة فقالوا بالحسنة بين السيئتين .

وكذلك أهل السنة فى جانب القدر هم وسط بين الجهمية والقدرية.

وفى جانب العبادات هذا الحديث «بمثل هذا فارموا...»

«فإنما هلك من كان قبلكم الغلو» فمن كان قبلنا هلك بـسبب كفره الذى كان بسبب

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٠٦٣)، ومسلم فى النكاح (٩/ ١٧٥- النووى) عن أنس به. وانظر «رياض الصالحين» (ح١٤٥- بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣/ ٢١٦/٣٢٨) عن عائشة به.

الغلو، وقال نوح: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ فهذا سبب الهلاك الغلو فى جانب الاعتقاد.

فهل الغلو فى جانب العبادات يؤدى للهلكة؟

الجواب: نعم والدليل: «**أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»(٢) وقلنا: «**إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى**» أهلك نفسه وأهلك دابته بسبب جدّه فى السير فلا يريح نفه ولا يريح دابته.

وكان النبى ﷺ يقول: «**أكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا**»(١) يعنى لا يمل من كتابة الحسنات حتى تملوا أنتم من العمل.

قال ابن تيمية(٢): وقوله: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ**» عام فى جميع أنواع الغلو فى الاعتقادات والأعمال...

والنصارى أكثر غلواً فى الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف. وإياهم نهى الله عن الغلو فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

وسبب هذا اللفظ العام رمى الجمار. وهو داخل فيه. فالغلو فيه مثل رمى الحجارة الكبار ونحو ذلك، بناء على أنه قد بالغ فى الحصى الصغار.

ثم علل ذلك بأن ما أهلك من كان قبلنا إلا الغلو فى الدين كما تراه فى النصارى.

وذلك يقتضى أن مجانبة هديهم مطلقاً أبعد عن الوقوع فيما به هلكوا وأن المشارك لهم فى بعض هديهم يخاف عليه أن يكون هالكاً. اهـ

قال ابن عثيمين(٣):

قوله: «إياكم» للتحذير.

قوله: «والغلو»

معطوف على إياكم، وقد اضطرب فيه المعربون اضطراباً كثيراً، وأقرب ما قيل للصواب وأقله تكلفاً: أن إيا منصوبة بفعل أمر مقدّر تقديره إياك احذر، أى «احذر نفسك أن تغرك، والغلو معطوف على إياك، أى: واحذر الغلو.

والغلو كما سبق: هو مجاوزة الحد مدحاً أو ذماً، وقد يشمل ما هو أكثر من ذلك

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٣)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٦/ ٦٤- النووى) عن عائشة به، وانظر رياض الصالحين ١٤٤٠- بتخريجنا).

(٢) الاقتضاء ١٠٦.

(٣) القول المفيد ١/ ٤٧٩: ٤٨٥.

أيضاً؛ فيقال: مجاوزة الحد فى الثناء وفى التعبد وفى العمل؛ لأنَّ هذا الحديث ورد فى رمى الجمرات، حيث روى ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: **«القط لى حصى. فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخذف؛ فجعل ينفضهن فى كفه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإيّاكم والغلو فى الدين؛ فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين»**. هذا لفظ ابن ماجه.

والغلو: فاعل أهلك.

قوله: **«من كان قبلكم»**.

مفعول مقدَّم.

قوله: **«وإنما»**.

أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

قوله: **«أهلك»**.

يحتمل معنيين:

الأول: أن المراد هلاك الدين، وعليه يكون الهلاك واقعاً مباشرة من الغلو؛ لأن مجرَّد الغلو هلاك.

الثانى: أنَّه هلاك الأجسام، وعليه يكون الغلو سبباً للهلاك؛ أى: إذا غلوا خرجوا عن طاعة الله فأهلكهم الله.

وهل الحصر فى قوله: **«فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلو»** حقيقى أو إضافى؟.

الجواب: إن قيل: إنَّه حقيقى؛ حصل إشكال، وهو أنّ هناك أحاديث أضاف النبى ﷺ الهلاك فيها إلى أعمال غير الغلو، مثل قوله ﷺ: **«إنما أهلك من كان قبلكم أنَّهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ»**[1]؛ فهنا حصران متقابلان، **فإذا قلنا**: إنَّه حقيقى بمعنى أنَّه لا هلاك إلاّ بهذا حقيقة؛ صار بين الحديثين تناقض.

وإن قيل: إن الحصر إضافى؛ أى: باعتبار عمل معيَّن؛ فإنَّه لايحصل تناقض بحيث يحمل كل منهما على جهة لاتعارض الحديث الآخر لئلا يكون فى حديثه ﷺ تناقض، وحينئذ يكون الحصر إضافياً، فيقال: أهلك من كان قبلكم الغلو هذا الحصر باعتبار

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٦٧٨٨)، ومسلم فى الحدود (١١/١٨٦- النووى) عن عائشة به، وانظر «رياض الصالحين» (٦٥٢- بتخريجنا).

الغلـو فى التعبّد فـى الحديث الأول، وفى الآخر يُـقال: **أهلك من كـان قبلكم** باعتبار الحكم، فيهلك الناس إذا أقاموا الحد على الضعيف دون الشريف.

وفى هذا الحديث يُـحذّر الرسول ﷺ أمته من الغـلو، ويبرهن على أن الغـلو سبب للهـلاك لأنَّه مخالف لـلشرع ولإهلاكه لـلأمم السابقة؛ فـيستفاد مـنه تحريم الغـلو من وجهين:

الوجه الأول: تحذيره ﷺ، والتحذير نهى وزيادة.

والوجه الثانى: أنَّه سبب لإِهلاك الأمم كمـا أهلك من قبلنا، وما كان سـبباً للهلاك كان محرماً.

● أقسام الناس فى العبادة:

والنَّاس فى العبادة طرفان ووسط؛ فمنهم المُفْرِط، ومنهم المُفَرِّط، ومنهم المتوسط.

فدين الله بين الغالى فيه والجافى عنه، وكون الإِنسان معتدلاً لايميل إلى هذا ولا إلى هذا هذا هو الواجب، فلايجوز التشدد فى الدين والمبالغة، ولا التهاون وعدم المبالاة، بل كن وسطاً بين هذا وهذا.

والغلو له أقسام كثيرة؛ منها: الغلو فى العقيدة، ومنها الغلو فى العبادة، ومنها الغلو فى المعاملة ومنها: الغلو فى العادات.

والأمثلة عليها كما يلى: أمَّا الغلو فى العقيدة؛ فمثل ما تشدَّق فيه أهل الكلام بالنسبة لإثبات الصفات، فإنَّ أهل الكلام تشدَّقوا وتعمَّـقوا حتى وصلوا إلى الهلاك قطعاً، حتى أدَّى بهم هذا التعمُّق إلى واحد من أمرين:

إما التمثيل، أو التعطيل.

إمَّا أنَّهم مثلوا الله بخلقه، فقالوا: هذا معـنى إثبات الصفات، فغلوا فى الإثبات حتى أثبتوا ما نفى الله عن نفسه، أو عطَّلوه وقالوا: هـذا معنى تنزيهه عن مشابهة المخلوقات، وزعموا أنَّ إثبات الصِّفات تشبيه؛ فنفوا ما أثبته الله لنفسه.

لكن الأمة الوسط اقتصدت فى ذلك؛ فلم تتعمق فى الإِثبات ولا فى النفى والتنزيه؛ فأخذوا بظواهر اللفظ، وقالوا: ليس لنا أن نزيـد على ذلك؛ فلم يهلكوا، بل كانوا على الصراط المستقيم، ولما دخل هؤلاء الفرس والروم وغيرهم فى الدين؛ صاروا يتعمَّقون فى هذه الأمـور ويجادلون مـجادلات ومنـاظرات لاتنتـهى أبداً؛ حـتَّى ضاعوا، نـسأل الله السلامة.

وكل الإيرادات التى أوردها المتأخِّرون من هذه الأمَّة على النصوص، لم يوردها الصحابة الذين هم الأمَّة الوسط.

أما الغلو فى العبادات؛ فهو التشدد فيها، بحيث يرى أن الإخلال بشىء منها كفر وخروج عن الإسلام، كغلو الخوارج والمعتزلة، حيث قالوا: أنَّ من فعل كبيرة من الكبائر؛ فهو خارج عن الإسلام وحل دمه وماله، وأباحوا الخروج على الأئمة وسفك الدماء، وكذا المعتزلة، حيث قالوا: من فعل كبيرة؛ فهو بمنزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر؛ فهذا تشدّد أدَّى إلى الهلاك، وهذا التشدد قابله تساهل المرجئة، فقالوا: إن القتل والزنا والسرقة وشرب الخمر ونحوها من الكبائر، لاتخرج من الإيمان، ولاتنقص من الإيمان شيئاً، وأنه يكفى فى الإيمان الإقرار، وإنَّ إيمان فاعل الكبيرة كإيمان جبريل ورسول الله ﷺ؛ لأنَّه لايختلف الناس فى الإيمان حتى يقولون: إنَّ إبليس مؤمن لأنَّه مقر، وإذا قيل: إنَّ الله كفَّره؛ قالوا: إذن إقراره ليس بصادق، بل هو كاذب، وإلاَّ لو استكبر عن أمر الله؛ فهو مؤمن.

وهؤلاء فى الحقيقة يصلحون لكثير من النَّاس فى هذا الزمان، ولاشك أن هذا تطرّف بالتساهل، والأول تطرف بالتشدد، ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، وفاعل المعصية ناقص الإيمان بقدر معصيته، ولا يخرج من الإيمان إلا بما برهنت النصوص على أنه كفر.

وأما الغلو فى المعاملات؛ فهو التشدّد فى الأمور بتحريم كل شىء حتى ولو كان وسيلة، وأنَّه لايجوز للإنسان أن يزيد عن واجبات حياته الضرورية، وهذا مسلك سلكه الصوفيَّة، حيث قالوا: من اشتغل بالدّنيا؛ فهو غير مريد للآخرة، وقالوا: لايجوز أن تشترى ما زاد على حاجتك الضرورية، وما أشبه ذلك.

وقابل هذا التشدّد تساهل من قال: بحِلٍّ كل شىء ينمّى المال ويقوّى الاقتصاد. حتى الرِّبا والغش وغير ذلك.

فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ متطرِّفون بالتساهل؛ فتجده يكذب فى ثمنها وفى وصفها وفى كل شىء لأجل أن يكسب فلساً أو فلسين، وهذا لاشك أنَّه تطرُّف.

والتوسط أن يُقال: تحل المعاملات وفق ما جاءت به النصوص، ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلاثاً[1].

وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[2]؛ فليس كل شيء حراماً؛ فالنبى ﷺ باع واشترى. والصحابة رضى الله عنهم يبيعون ويشترون، والنبى ﷺ يقرّهم.

وأما الغلو فى العادات؛ فإذا كانت هذه العادة يُخشى أن الإنسان إذا تحوَّل عنها انتقل من التحول فى العادة إلى التحول فى العبادة، فهذا لاحرج أن الإنسان يتمسَّك بها، ولايتحول إلى عادة جديدة، أمَّا إذا كان الغلو فى العادة يمنعك من التحوّل إلى عادة مفيدة أفيد من الأولى؛ فهذا من الغلو المنهى عنه، فلو أن أحداً تمسَّك بعادته فى أمر حدث أحسن من عادته التى هو عليها نقول: هذا فى الحقيقة غالٍ ومفرط فى هذه العادة.

وأمَّا إن كانت العادات متساوية المصالح، لكنه يُخشى أن ينتقل الناس من هذه العادة إلى التوسع فى العادات التى قد تُخلّ بالشرف أو الدين؛ فلا يتحول إلى العادة الجديدة. اهـ.

قوله: [ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: هلك المتنطعون]

قال النووى[3]: قوله «هلك المتنطعون» أى المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود فى أقوالهم وأفعالهم.

قال الخطابى[4]: المتنطع المتعمق فى الشىء المتكلِّف للبحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيمالا يعنيهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم، وفيه دليل على أن الحكم بظاهر الكلام، وأنه لايترك الظاهر إلى غيره ما كان له مساغ وأمكن فيه الإستعمال.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «العلم»/ باب: هلك المتنطعون (٦/ ١٦/ ٢٢٠ ـ النووى) وأبو داود فى «السنة»/ باب: لزوم السنة (٤/ ٢٠٠/ ح٤٥٨٤) وأحمد فى «المسند» (١/ ٣٨٦) والبغوى فى «شرح السنة» (١٢/ ٣٦٧/ ٣٣٩٦).

من طريق: ابن جريج عن سليمان بن عتيق عن طلق بن حبيب عن الأحنف بن قيس عن عبدالله بن مسعود مرفوعاً به.

وأنظر «رياض الصالحين» (ح١٤٦) بتخريجنا وانظر فتح المجيد (٣٥٠ ـ بتخريجنا).

(٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) النووى شرح مسلم ٨/ ٤٧٣ دار الحديث).

(٤) نقلاً عن عون المعبود ١٢/ ٣٦١/ ح٤٥٨٤.

قال ابن منظور[1]: والتَّنَطُّعُ فى الكلام: **التعمق فيه مأخوذ منه.**

وفى الحديث: **«هلك المتنطعون»**؛ هم المتعمقون المغالون فى الكلام الذين يتكلمون بأقصى حلوقهم تكبُّراً كما قال النبىُّ ﷺ **«إنَّ أبغضكم إلىَّ الثَّرثارونَ المتفيهقون»** ورجل ثرٌّو ثرثار مُتَشَدِّق كثير الكلام. والثرثرة فى الكلام: الكثرة والتزيد. وفى الأكل. الإكثار فى تخليط. وروى عن النبىِّ ﷺ أنه قال: **«أبغضكم إلىَّ الثرثارون المتفيهقون»** هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق أ.هـ.

قلت: والمتفيهق: الذى يتوسع فى كلامه ويفهق به فمه أى يفتحه فهى صورة من صور الثرثرة وهو الامتلاء يقال: أفهقت الإناءفهق وفى بعض الروايات **«أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافهم الذين يألفون ويؤلفون»** كأن المتفيهق الثرثار متكبر لا يألف ولا يؤلف تنفض الناس من حوله وعكس ذلك متواضع يتكلم للحاجة فقط.

وهى علامة من علامات المؤمنين **«المؤمن يألف ويؤلف»** حسنه الهيثمى فى المجمع ولذلك قال النبى: **«هلك المتنطعون»** قال البغوى بعد إخراجه للحديث قال:

المتنطع: المتعمق فى الكلام المغالى الذى يتكلم بأقصى حلقه مأخوذًا من النِطع.

وفى حديث سعد بن أبى وقاص: **«لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتهم»** يعنى مثل البقر تجتر يعنى يأكل فى الكلام مثل أكل الخبز فهو عمّال على بطَّال يحب الرغى والتكلم الكثير وهى صفة أغلبها فى النساء.

قال ابن الأثير: هو مأخوذ من النَّطع وهو الغارُ الأعلى من الضم، قال: ثم استعمل فى كلِّ تعمق قولاً وفعلاً.

وفى حديث عمر: **«لن تزالوا بخيرما عجلتم الفطر ولم تنطَّعوا تَنَطُّعَ أهل العراق»** أى تتكلفوا القول والعمل.

وقيل: أراد به ههنا الإكثارَ من الأكل والشرب والتوسع فيه حتى يصِلَ إلى الغار الأعلى.

ويستحب للصائم أن يُعجِّلَ الفطر بتناول القليل من الفطور.

ومنه حديث ابن مسعود: **«إيّاكم والتَنَطُّعَ والإختلاف فإنما هو كقول أحدكم هلُمَّ وتعالَ»** أراد النهىَ على المُلاحاةِ فى القراءات المختلفة وأنَّ مرجعها كُلَّها إلى وجه واحدٍ من الصواب كما أنَّ هَلُمَّ بمعنى تعالَ. اهـ.

(١) اللسان مادة (ن ط ع).

فيه مسائل

الأولى: أَنَّ مَنْ فَهِمَ هَذَا البَابَ وبَابَيْنِ بَعْدَهُ، تَبيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ الإِسْلاَمِ، ورَأَى مَنْ قُدْرَةِ الله وتَقْلِيْبِه لِلْقُلُوبِ العجَبَ.

قال ابن عثيمين(١):

قوله: «المتنطعون».

المُتَنَطِّع: هو المتعمق المتقعِّر المتشدق، سواء كان فى الكلام أو فى الأفعال؛ فهو هالك، حتى ولو كان ذلك فى الأقوال المعتادة؛ فبعض الناس يكون بهذه الحالة، حتى إنَّه ربما يقترن بتعمقّه وتنطُّعه الإِعجاب بالنفس فى الغالب، وربما يقترن به الكبر، فتجده إذا تكلم يتكلم بأنفه، فتسلّم عليه تسمع الرد من الأنف إلى غير ذلك من الأقوال.

والتنطّع بالأفعال كذلك أيضاً قد يؤدى إلى الإِعجاب أو إلى الكِبر، ولهذا قال: **«هَلَكَ المتنطِّعون»**.

والتنطّع أيضاً فى المسائل الدينية يشبه الغلو فيها؛ فهو أيضاً من أسباب الهلاك، ومن ذلك ما يفعله بعض الناس من التنطع فى صفات الله تعالى والتقعر فيها، حيث يسألون عما لم يسأل عنه الصحابة رضى الله عنهم، وهم يعلمون أن الصحابة خير منهم وأشد حرصاً على العلم، وفيهم رسول الله الذى عنده من الإِجابة على الأسئلة ما ليس عند غيره من الناس مهما بلغ علمهم.

فهذه الأحاديث الثلاثة كلّها تدلّ على تحريم الغلو، وأنّه سبب للهلاك، وأنّ الواجب أنَّ يسيرالعبد إلى الله بين طرفى نقيض بالدين الوسط، فكما أنَّ هذه الأمَّة هى الوسط ودينها هو الوسط؛ فينبغى أن يكون سيرها فى دينها على الطريق الوسط. اهـ.

قوله فيه مسائل:

قال ابن عثيمين(٢):

- **الأولى: أنَّ من فهم هذا الباب ـ أى: بما مرّ من تفسير الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُم﴾ ـ وبابين بعده، تبيَّن له غربة الإسلام.**

وهذا حق؛ فإنَّ الإِسلام المبنى على التوحيد الخالص غريب، فكثير من البلدان

---

(١) القول المفيد ١/ ٤٨٥ و ٤٨٦.

(٢) القول المفيد ١/٤٨٦: ٥٠٤.

الثانية: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شِرْكٍ حَدَثَ فِي الأَرض كَانَ بِشُبْهَةِ الصَّالِحِينَ.

الثالثة: مَعْرَفَةُ أَوَّلِ شَيْءٍ غُيِّرَ بِهِ دِينِ الأَنْبِيَاءِ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ، مَعَ مَعْرِفَةِ أَنَّ اللهِ أَرْسَلَهُمْ.

الإسلامية تجد فيها الغلو في الصالحين في قبورهم، فلاتجد بلداً مسلماً إلاّ وفيه غلو في قبور الصالحين، وقد يكون ليس قبر رجل صالح، قد يكون وهماً، مثل قبر الحسين بن على رضى الله عنهما؛ فأهل العراق يقولون: هو عندنا، وأهل الشام يقولون: عندنا، وأهل مصر يقولون: عندنا، وبعضهم يقول: هو في المغرب؛ فصار الحسين إمَّا أنه أربعة رجال، أو مُقطَّع أوصالاً، وهذا كله ليس بصحيح؛ فالمهم أنَّه كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: تبين لك غربة الإسلام في المسلمين.

وكذلك الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فيها قبور وقباب تعبد من دون الله ويُحج إليها وتُقصد، ولكن بتوفيق الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه أعان هذا الرجل مع الإمام محمد بن سعود حتى قضى عليها وهدمها، وصارت البلاد ولله الحمد على التوحيد الخالص.

● **الثانية**: **معرفة أوَّل شرك حدث في الأرض.**

وجه ذلك: أنَّ هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقواماً صالحين، فحدث الغلو فيهم، ثم عبدوا من دون الله؛ ففيه الحذر من الغلو في الصالحين.

● **الثالثة**: **معرفة أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم.**

أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء هو الشرك، وسببه هو الغلو في الصالحين، وقوله: «**مع معرفة أن الله أرسلهم**»، قال الله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**﴾(١)؛ أي: كانوا أمة واحدة على التوحيد، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشَّرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ فهذا أوَّل ما حدث من الشرك في بني آدم.

---

(١) البقرة: ٢١٣.

الرابعة: قَبُولُ البِدَعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِعِ وَالفِطَرِ تَرُدُّهَا.

الخامسة: أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَزْجُ الحَقِّ بِالبَاطِلِ.

فَالأَوَّلُ: مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ.

والثَّانِي: فِعْلُ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالدِّينِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا فَظَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

● الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردُّها.

قوله: «قبول البدع».

أي: أنَّ النفوس تقبلها لا لأنَّها مشروعة، بل إن الشرائع تردّها، وكذلك الفطر السليمة تردّها؛ لأنَّ الفطر السليمة جبلت على عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1]؛ فالفطر السليمة لاتقبل تشريعاً إلا ممن يملك ذلك.

● الخامسة: أنَّ سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل.

أراد المؤلف رحمه الله أن يبيّن أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين، ولهذا صوروا تماثيلهم محبَّة لهم، ورغبة فى مشاهدة أشباحهم.

الثانى: أنَّ أهل العلم والدين أرادوا بذلك خيراً، وهو أن ينشطوا على العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا غير الخير الذى أراده أولئك.

ويؤخذ منه: أنَّ مَن أراد تقوية دينه ببدعة؛ فإن ضررها أكثر من نفعها.

مثال ذلك: أولئك الذين يغلون فى الرسول ﷺ ويجعلون له الموالد هم يريدون بذلك خيراً، لكن أرادوا خيراً بهذه البدعة، فصار ضررها أكثر من نفعها؛ لأنها تعطى الإنسان نشاطاً غير مشروع فى وقت معيَّن، ثم يعقبه فتور غير مشروع فى بقية العام.

ولهذا تجد هؤلاء الذين يغالون فى هذه البدع فاترين فى الأمور المشروعة الواضحة

---

(١) الروم: ٣٠.

ليسوا كنشاط غيرهم، وهذا ممَّا يدلّ على تأثير البدع فى القلوب وأنَّها مهما زينَّها أصحابها؛ فلاتزيد الإنسان إلا ضلالاً؛ لأنَّ النبى ﷺ يقول: «**كل بدعة ضلالة**»(١).

فإن قيل: إن للإحتفال بمولده أصلاً من السنة، وهو أن النبى ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين؛ فقال: «**ذاك يوم ولدت فيه، وبعثت فيه، أو أنزل علىَّ فيه**»(٢)، وكان ﷺ يصومه مع الخميس ويقول: «**إنَّهما يومان تُعرض فيهماالأعمال على الله فأحبُّ أن يُعرض عملى وأنا صائم**»(٣).

فالجواب: على ذلك من وجوه:

الأول: أن الصَّوم ليس احتفالاً بمولده كاحتفال هؤلاء، وإنَّما هو صوم وإمساك، أمَّا هؤلاء الذين يجعلون له المولد؛ فإحتفالهم على العكس من ذلك.

فالمعنى: أنَّ هذا اليوم إذا صامه الإنسان؛ فهو يوم مبارك حصل فيه هذا الشىء، وليس المعنى أنَّنا نحتفل بهذا اليوم.

الثانى: أنَّه على فرض أن يكون هذا أصلاً؛ فإنَّه يجب أن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأنَّ العبادات توقيفية، ولو كان الإحتفال المعهود عند الناس اليوم مشروعاً لبيَّنه ﷺ؛ إمَّا بقوله، أو فعله، أو إقراره.

الثالث: أنَّ هؤلاء الذين يحتفلون بمولد النبى ﷺ لا يقيِّدونه بيوم الاثنين، بل فى اليوم الذى زعموا مولده فيه، وهو اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول، مع أنَّ ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية، وقد حقَّق بعض الفلكيين المتأخِّرين ذلك، فكان فى اليوم التاسع لافى اليوم الثانى عشر.

الرابع: أنَّ الاحتفال بمولده على الوجه المعروف بدعة ظاهرة؛ لأنَّه لم يكن معروفاً على عهد النبى ﷺ وأصحابه، مع قيام المقتضى له وعدم المانع منه.

● **مسألة حكم الإحتفال بعيد الميلاد للأطفال:**

فائدة: كل شىء يتّخذ عيداً يتكرَّر كل أسبوع، أو كل عام وليس مشروعاً؛ فهو من

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٣/٤١٨/ ٤٣) عن جابر به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصيام (٤/٣٠٦/ ١٩٧) عن أبى قتادة به.

وانظر كتابنا تخريج أحاديث فقه السنة».

(٣) أخرجه الترمذى (٧٤٧) عن أبى هريرة به. قال الترمذى: حسن غريبا.

وأصله عند مسلم وأنظر «لطائف المعارف» بتخريجنا.

البدع، والدليل على ذلك: أنَّ الشارع جعل للمولود العقيقة، ولم يجعل شيئاً بعد ذلك، واتِّخاذهم هذه الأعياد تتكرر كل أسبوع أو كل عام معناه أنَّهم شبهوه بالأعياد الإِسلامية، وهذا حرام لايجوز، وليس فى الإِسلام شيء من الأعياد إلاّ الأعياد الشرعية الثلاثة: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد الأسبوع، وهو يوم الجمعة.

وليس هذا من باب العادات لأنَّه يتكرَّر، ولهذا لما قدم النبى ﷺ فوجد للأنصار عيدين يحتفلون بهما؛ قال: «**إنَّ الله أبدلكما بخير منهما: عيد الأضحى، وعيد الفطر**»(١)، مع أنَّ هذا من الأمور العادية عندهم. اهـ.

● **السادسة: تفسير الآية التى فى سورة نوح.**

وقد سبق ذلك وبيان أنَّهم يتواصون بالباطل، وهذا خلاف طريق المؤمنين الذين يتواصون بالحق والصبر والمرحمة، ويشبههم أهل الباطل والضلال الذين يتواصون بما هم عليه، سواء كانوا رؤساء سياسيين أو رؤساء دينيين ينتسبون إلى الدين، فتجد الواحد منهم لايموت إلا وقد وضع له ركيزة من بعده ينمِّى هذا الأمر الذى هو عليه.

● **السابعة: جبلة الآدمى فى كون الحق ينقص فى قلبه، والباطل يزيد.**

هذه العبارة تقيد من حيث كونه آدمياً بقطع النَّظَر على من يمنُّ الله عليه من تزكية النفس؛ فإنَّ الله يقول: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾(٢).

قوله: «**جبلة**» على وزن فعلة، وهو ما يجبل المرء عليه؛ أى: يخلق عليه ويُطبع ويبدع، بمعنى الطبيعة التى عليها الإِنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن كونه زكَّى نفسه أو دسَّاها.

فالإِنسان من حيث هو إنسان وصفه الله بوصفين؛ فقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ**

---

(١) تقدم تخريجه.

رواه: أبو داود (كتاب الصلاة، باب صلاة العيدين)، والنسائى فى العيدين، (٣/ ١٧٩)، والحاكم (١/ ٢٩٤)، والبيهقى (٣/ ٢٧٧).

وإسناده صحيح

(٢) الشمس: ٩، ١٠.

كَفَّارٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[2].

أمَّا من حيث ما يمنُّ الله به عليه من الإيمـان والعمل الصالح؛ فإنَّه يرتقى عن هذا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[3]؛ فالإنسان الذى يمنُّ الله عليه بالهدى؛ فـإنَّ الباطل الذى فى قلـبه يتناقص وربما يزول بـالكليَّة؛ كعمـر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل، وغيرهم.

وكذلك أهل العـلم؛ كأبى الحسن الأشعرى، كان مـعتزلياً، ثم كلابيـاً، ثم سنياً، وابن القيم كان صوفيّاً، ثم منَّ الله عليه بصحبة شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فهداه الله على يده حتى كان ربانيًا.

● **الثامنة: فيه شاهد لما نُقل عن السلف أنَّ البدع سبب الكفر.**

قال أهل الـعلم: إنَّ الكـفر له أسباب مـتعدِّدة، ولا مانع أن يـكون للشـىء الواحد أسباب متعددة، ومن ذلـك الكفر، ذكروا من أسبابه البدعة، وقـالوا: إنَّ البدعة لاتزال فى القلب، يظلم منها شيئاً فشيئاً؛ حتَّى يصل إلى الكفر،

واستدلُّوا بقوله ﷺ: «**كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار**»[4].

وقالوا أيضاً: «**إنَّ المعاصى بريد الكفر، وبريد الشىء ما يوصل إلى الغاية**».

والمعاصى كـما أخبر النبى ﷺ تـتراكم على القلب، فـتنكت فيه نكـتة سوداء، فإن تاب؛ صقل قلـبه وأبيض[5]، وإلاَّ؛ فلاتزال هـذه النكتـة السوداء تتـزايد حتى يـصبح مظلماً.

وكذلك حذَّر من محـقرات الذنوب، وضرب لها مثلاً بقـوم نزلوا أرضاً، فأرادوا أن

---

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) الأحزاب: ٧٢.

(٣) التين ٤ ـ ٦.

(٤) تقدم مختصراً.

(٥) أخرجه الترمذى (٣٣٣٤)، والنسائى فى «الكبرى» (٦٧٨) عن أبى هريرة به وانظر «الاتقان» (١٧٧٩ - بتخريجنا).

يطبخـوا، فذهب كل واحد منهـم وأتى بعود، فأتى هـذا بعود وهذا بعود، فجـمعوها، فأضرموا ناراً كبيرة، وهكذا المعاصي[1]؛ فالمعاصى لها تأثيـر قوى على القلب، وأشدّها تأثيراً الشهوة فهى أشدّ من الشبهة؛ لأنَّ الـشبهة أيسر زوالاً على من يَسَّرها الله عليه؛ إذ إن مصدرها الجهل، وهو يزول بالتَّعلُّم.

أما الشهوة، وهى إرادة الإنسـان الباطل؛ فهى البلاء الذى يُقتل بـه العالم والجاهل، ولذا كانت معصـية اليهود أكبر من معصية الـنصارى؛ لأنَّ معصيةاليهود سبـبها الشهوة وإرادة السوء والباطل، والنصارى سببها الشبهة، ولهذا كانت البدع غالبها شبهة، ولكن كثيراً منها سببه الشهوة. ولهذا يبيـن الحق لأهل الشهوة من أهل البدع، فيصرُّون عليها، وغالبهم يقصد بذلك بقاء جاهه ورئاسـته بين الناس دون صلاح الخلق، ويظنُّ فى نفسه ويملى عليه الشيطان أنَّه لو رجع عن بدعته لنقصت منزلته بين الناس، وقالوا: هذا رجل متقلِّب وليس عنده علم، لكن الأمر ليس كذلك؛ فأبو الحسن الأشعرى مَضْرِب المثل فى هذا الباب؛ فإنه لما كان من المعتزلة لم يكن إماماً، ولما رجع إلى مذهب أهل السنَّة صار إماماً؛ فكل من رجع إلى الحق زادت منزلته عند الله ـ سبحانه ـ، ثم عند خلقه.

والخلاصة: أنَّ البدعـة سبب للكـفر، ولا يرد على هـذا قول بعض أهل الـعلم: إنَّ المعاصى بريد الكفر؛ لأنَّه لا مانع من تعدّد الأسباب.

● **التاسعة: معرفة الشيطان بما يؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.**

لأنَّ الشيطان هو الذى سـوَّل لهؤلاء المشركين أن يصوِّروا هذه التمـاثيل والتصاوير؛ لأنَّه يعرف أن هذه البدعة تؤول إلى الشرك.

وقوله: **«ولو حسن قصد الفاعل»**.

أى: إنَّ البدعة شر ولو حسن قصد فاعلهـا، ويأثم إن كان عالماً أنَّها بدعة ولو حسن قصده؛ لأنَّه أقدم على المعصية كمن يجيز الكذب والغش ويدَّعى أنَّه مصلحة، أمَّا لو كان جاهلاً فإنَّه لايأثم؛ لأنَّ جميع المعاصى لا يأثـم بها إلاّ مع العلم، وقد يُثاب على حسن قصده، وقد نبَّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيميـة فى كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»؛ فيثاب على نيَّتـه دون عمله، فعمله هذا غير صالح ولامقـبول عند الله ولا مرضى، لكن

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٣١) عن سهل بن سعد به.

لحسن نيَّته مع الجـهل يكون له أجر، ولهذا قال ﷺ للرجل الـذى صلى وأعاد الوضوء بعدما وجد الماء وصـلَّى ثانيةً: «**لك الأجر مرتين**»(١)؛ لحسن قصده، ولأنَّ عـمله عمل صالح فى الأصل، لكن لو أراد أحد أن يعمل العمـل مرتين مع علمه أنه غير مشروع؛ لم يكن له أجر لأن عمله غير مشروع لكونـه خلاف السنة؛ فقد قال النبى ﷺ للذى لم يعد: «**أصبت السنة**»(٢).

فإن قال: إنى أريد بهذه البدعة إحياء الهمم والتنشيط وما أشبه ذلك.

أجيب: بأن هذه الإرادة طـعن فى رسالة الـرسول ﷺ؛ لأنَّه اتهـام له بالتَّقـصير أو القصور، أى مقـصرٌ فى الإِخبار عن ذلك أو قاصـر فى العلم، وهذا أمر عظـيم وخطر جسيم، ولأن هذا لم يـكن عليه الرسول ﷺ ولا خلفاؤه الـراشدون، أمَّا إذا كان حسن القصد، ولم يعلم أنَّ هذا بدعة؛ فإنَّه يُثاب علـى نيته ولايُثاب على عمله؛ لأنَّ عمله شرّ حابط كما قال النبى ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو ردّ**»(٣).

وأما العامة الـذين لايعلمون، وقد لبِّس علـيهم هذه البدعة وغيرهـا؛ نقول: ماداموا قاصدين للحق ولا علموا به، فإثمهم على من أفتاهم ومن أضلَّهم.

ولهذا يوجد فـى مجاهل أفريقيا وغيرهـا من لايعرفون عن الإِسلام شيئـاً، فلو ماتوا لانقول: إنَّهم مسـلمون ونصلى عليهم ونترحَّـم عليهم مع أنَّهم لم تقم عـليهم الحجَّة، لكننا نعاملهم فى الدنيا بالظاهر، أمَّا فى الآخرة؛ فأمرهم إلى الله.

● **العاشرة: معرفة القاعدة الكليَّة، وهى النَّهى عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه.**

هذا ما حذَّر منه الـنبى ﷺ؛ لأنَّ الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يـكون فى العبادات يكون فى غيرهـا، قال تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا**﴾(٤)، وقال: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا**﴾(٥)، وقد سبق بيان ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٨)، والنسائى (١/ ٢١٣ - السيوطى) عن أبى سعيد به.

(٢) تقدم قبله.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الأعراف: ٣١.

(٥) الفرقان: ٦٧.

الحادية عشرة: مَضَرَّةُ العُكُوفِ عَلَى القَبْرِ لأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

الثانية عشرة: مَعْرِفَةُ النَّهْى عَنِ التَّمَاثِيلِ وَالحِكْمَةُ فى إزَالَتِهَا.

الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ القِصَّةِ وَشِدَّةِ الحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ الغَفْلَةِ عَنْهَا.

الرابعة عشرة: وَهِيَ أَعْجَبُ العَجَبِ: قِرَاءَتُهُم إِيَّاهَا فِى كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالحَدِيثِ، وَمَعْرِفَتُهُم بِمَعْنَى الكَلاَمِ، وَكَوْنُ الله حَالَ بَيْنَهُمْ وبين قلوبهم حَتَّى

● **الحادية عشرة: مضرَّة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.**

المضرَّة الحاصلة: هى أنها توصل إلى عبادتهم.

ومثل ذلك: ما لو قُرِىء القرآن عند قبر رجل صالح، أو تُصدِّق عند هذا القبر يعتقدُ أنَّ لذلك مزيَّة على غيره؛ فإن هذا من البدع، وهذه البدعة قد تؤدّى بصاحبها إلى عبادة هذا القبر.

● **الثانية عشرة: معرفة النهى عن التماثيل.**

التماثيل: هى الصور على مثال رجل، أو حيوان، أو حجر، والغالب أنَّها تُطلق على ما صنع ليعبد من دون الله.

● **الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة.**

أى: قصة هؤلاء الذين غلوا فى الصالحين وغير الصالحين، لكن اعتقدوا فيهم الصلاح، حتى تدرّج بهم الأمر إلى عبادتهم من دون الله؛ فتجب معرفة هذه القصة، وأنَّ أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمة؛ فالحاجة شديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثيرة والنَّاس لو تدبَّرت أحوالهم وسبرت قلوبهم وجدت أنَّهم فى غفلة عن هذا الأمر، وهذا موجود فى البلاد الإسلامية.

● **الرابعة عشرة ـ وهى أعجب العجب ـ: قراءتهم إيَّاها فى كتب التفسير والحديث.**

قوله: **«وأعجب»**.

أى: أكثر عجباً وأشدّ، والعجب نوعان:

اعْتَقَدُوا أَنَّ فِعْلَ قَـوْمِ نُوحٍ هُوَ أَفْضَلُ العِبَادَاتِ، وَاعْتَقَـدُوا أَنَّ مَا نَهَى اللهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ فَهُوَ الكُفْرُ المُبِيحُ للدَّمِ وَالمَالِ.

الخامسة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا إِلاَّ الشَّفَاعَةَ.

الأول: بمعنى الاستحسان، وهو ما إذا تعلّق بمحمود؛ كقول عائشة فى الحديث: «**كان النبى ﷺ يعجبه التيامن فى تنعله وترجله وطهوره، وفى شأنه كله**»[1].

الثانى: بمعنى الإنكار، وذلك فيما إذا تعلّق بمذموم، قال تعالى: ﴿**وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾[2].

وكلام المؤلف هنا من باب الإنكار.

وكلام المؤلف هنا عمّا كان فى زمنه، حيث غفلوا عن هذه القصة مع قراءتهم لها فى كتب التفسير والحديث، واعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، وهذا من أضرّ ما يكون على المرء أن يعتقد السيىء حسناً، قال تعالى: ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾[4].

قوله: «**فاعتقدوا أنّ ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدّم والمال**».

أى: من اعتقد أنّ الشرك والكفر من أفضل العبادات، وأنّه مقرِّب إلى الله؛ فهذا كفر مبيح لدمه وماله، هذا ما أراد المؤلِّف، وإن كان لايسعفه ظاهر كلامه ثم بدا لى ما لعله المراد أن هؤلاء الغالين اعتقدوا أن المنهى عنه هو الكفر المبيح للدم والمال، وأما ما دونه من الغلو؛ فلا نهى فيه، والله أعلم.

● **الخامسة عشرة: التّصريح بأنّهم لم يريدوا إلاّ الشفاعة.**

أى: ما أرادوا إلاّ الشفاعة، ومع ذلك وقعوا فى الشرك.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٣٨٠)، ومسلم فى الطهارة (٣/ ١٦٠ - النووى) عن عائشة به. وانظر «السلسبيل» (٤٤ - بتخريجنا).

(٢) الرعد: ٥.

(٣) فاطر: ٨.

(٤) الكهف: ١٠٣.

السادسة عشرة: ظَنُّهم أنَّ العُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّوَرَ أَرَادُوا ذَلِكَ.

السابعة عشرة: البَيَانُ العَظِيمُ فِى قَوْلِه: «لاَ تُطرُونِى كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَرْيَمَ» فَصَلَوَاتُ الله وَسَلاَمُهُ عَلَيْه، بَلَّغَ البَلاَغَ المُبِينَ.

الثامنة عشرة: نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهلاَكِ المُتَنَطِّعِينَ.

التاسعة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّى نُسِىَ العِلْمُ، فَفِيهَا بَيَانُ مَعْرِفَةِ قَدْرِ وُجُودِه وَمَضَرَّةِ فَقْدِه.

العشرون: أنَّ سَبَبَ فَقْدِ العِلْمِ مَوْتُ العُلَمَاءِ.

● السادسة عشرة: ظنُّهم أنَّ العلماء الذين صوَّروا الصور أرادوا ذلك.

أى: أرادوا أن تشفع لهم، بل ظنّوا أنّها تنشطهم على العبادة، وهذا ظنٌّ فاسد كما سبق.

● السابعة عشرة: البيان العظيم فى قوله ﷺ: «لاتطرونى ...» الحديث.

معنى الإطراء: الغلو فى المدح، والمبالغة فيه.

وهذا الذى نهى عنه ﷺ وقع فيه بعض هذه الأمة، بل أشدّ؛ حتى جعلوا النبى ﷺ المرجع فى كل شىء، وهذا أعظم من قول النصارى: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة.

ومعنى: «بلغ»؛ أى: أوصل وبيَّن.

● الثامنة عشرة: نصيحته إيَّانا بهلاك المتنطِّعين.

وذلك بقوله ﷺ: «هلك المتنطعون»؛ فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التَّحذير من التنطع.

● التاسعة عشرة: التصريح بأنَّها لم تعبد حتى نسى العلم.

أى: لم تُعبد هذه التماثيل إلاَّ بعد أن نُسى العلم اضمحل؛ ففيه دليل على معرفة قدر وجوده أى العلم، وأن وجوده أمر ضرورى للأمَّة؛ لأنَّه إذا فُقِدَ العلم؛ حلَّ الجهل محلَّه، وإذا حلَّ الجهل؛ فلا تسأل عن حال الناس؛ فسوف لايعرفون كيف يعبدون الله، ولاكيف يتقرَّبون إليه.

قلت: فالجهل سبب الهلاك ويشهد له ما روى عنه ﷺ «قتلوه قتلهم الله».

● العشرون: أنَّ سبب فقد العلم موت العلماء.

فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء؛ لم يبقَ إلاّ جهَّال الخلق يفتون بغير علم.

ومن أسباب فقده أيضاً: الغفلة والإعراض عنه، والتشاغل بأمور الدنيا، وعدم المبالاة به.

ثم إنَّ العلم قد يكون موجوداً وهو معدوم، وذلك فيما إذا كَثُرَ القُرَّاء الذين يقرؤون العلم ولا يعملون به، وقلَّ الفقهاء الذين يعملون به؛ فبهذا يُصبح العلم عديم الفائدة ووجوده كعدمه، بل إنَّ في وجوده ضرراً على الأمة؛ لأنَّ العامَّة إذا رأوا من ينتسب إليه ساكتاً غير عامل بما عَلِمَ؛ ظنُّوا أنَّ ما عليه الناس حق.

فضرر العلم الذي لاينفع أشدّ من ضرر الجهل، وإذا وجد الجهل؛ فإنَّ الناس قد يطلبون العلم ويتلمَّسونه.

● **الخلاصة للباب:**

بيان أنَّ الغلو في الصالحين من أسباب الكفر، وليس هو السبب الوحيد للكفر.

وأنَّ خطر الغلو عظيم ونتائجه وخيمة؛ فالواجب تنزيل الصالحين منازلهم؛ فلايستوي الصالح والفاسد، بل ينزَّل كلٌّ منزلته، ولكن لانتجاوز به المنزلة فنغلو فيه؛ فدين الله وسط لايعطى الإنسان أكثر مما يستحق، ولا يسلبه ما يستحق، وهذا هو العدل.

س ١ : ما الفرق بين التنطع والغلو والاجتهاد؟

الجواب: الغلو مجاوزة الحد.

والتنطُّع معناه: التشدُّق بالشيء والتعمُّق فيه، وهو من أنواع الغلو.

أما الاجتهاد: فإنَّه بذل الجهد لإدراك الحق، وليس فيه غلو إلاّ إذا كان المقصود بالاجتهاد كثرة الطاعة غير المشروعة؛ فقد تؤدّي إلى الغلو، فلو أنَّ الإنسان مثلاً أراد أن يقوم الليل ولاينام، وأن يصوم النهار ولايُفطر، وأن يعتزل ملاذ الدنيا كلّها؛ فلا يتزوَّج ولا يأكل اللحم ولا الفاكهة وما أشبه ذلك؛ فإنَّ هذا من الغلو، وإن كان الحامل على ذلك الاجتهاد والبر، ولكن هذا خلاف هدى النبي ﷺ.

س ٢: ما حكم الذهاب إلى قبور الصالحين لقراءة الفاتحة؟.

الجواب: هذا من البدع، سواء قلنا يصل الثواب أو لا يصل؛ فكونك تتَّخذ القراءة عند القبر خاصَّة هذا من البدع.

وإنَّما اختلف السلف فيما إذا قرئت الفاتحة عند الميت بعد دفنه مباشرة أو غيرها من القرآن.

والصحيح أيضاً أنَّه ليس بسنَّة، والسَّنة أن تستغفر له وتسأل له التثبيت أ.هـ.



١٩ بابٌ
ما جاءَ في التغليظِ فيمن عبدَ الله عندَ قبرِ رجلٍ صالحٍ فكيفَ إذا عبدَه؟!

● **مناسبة هذا الباب للذى قبله**

قال سليمان آل الشيخ(١): نوّع المصنِّف التحذير من الافتتان بالقبور، وأخرجه فى أبواب مختلفة، ليكون أوقع فى القلب وأحسن فى التعليم، وأعظم فى الترهيب، فإذا كان قصد قبور الصالحين لعبادة الله عندها فيه من النهى والوعيد ما سيمر بك إن شاء الله، فكيف بعبادة أربابها من دون الله، وإعتيادها لذلك فى اليوم والأسبوع، والشهر مرات كثيرة. اهـ.

قلت: فهو من باب التنويع فى التحذير من القبور والافتتان بها، فبين أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم الغلو فى الصالحين كما فى الباب الماضى، وهذا أصله العكوف عند صورهم أو أصنامهم أو قبورهم لا لعبادتهم بل للنظر إليها والاجتهاد فى طاعة الله عزوجل حتى إذا تنسخ العلم كما قال ابن عباس عُبدت أو عُبد هؤلاء الصالحين فكأنه يحذر من هذا الغلو لأن الغلو فى محبتهم سُيصير قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله وسيصيرها آلة تعبد من دون الله وهذا فى الباب الماضى وهنا أراد أن ينوع فى هذا التحذير فبوب باباً أخر فيه نوع أخر من أنواع التحذير التى تحذر من عبادة المقبور أو عبادة القبور.

ولما استنبط المصنف ـ رحمه الله ـ من الأدلة التى ذكرها فى الباب الماضى لاسيما من أثر بن عباس فى سبب عبادة ود وسواع وغيرهما مضرة العكوف على القبر من أجل عمل صالح كما فى المسئلة الحادية عشرة من مسائل الباب الماضى، ناسب أن يأتى بالأدلة المصرحة بالنهى عن التقرب إلى الله بالعمل الصالح عند قبور الصالحين فلهذا أفرد لها هذا الباب وجمع فيه هذه الأدلة المصرحة بالنهى بمغبة ذلك ومضرته. والله أعلم.

● **مناسبة الباب للتوحيد:**

قال عبدالله بن جارالله(٢): مناسبته لكتاب التوحيد: أن عبادة الأولياء والصالحين شرك أكبر ينافى التوحيد، وعبادة الله عند قبورهم وسيلة إلى الشرك اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٣٤).

(٢) الجامع الفريد (٨٣).

● **شرح الترجمة**

قال حامد بن محمد[1]: باب ما جاء فى بيان ما يدل على أن التغليظ يلزم الذى يطيع الله ورسوله غيرة منه على دينه ـ عزوجل ـ فيمن عبدالله خالصاً، لكن عند قبر رجل صالح حذراً من الفتنة والشرك، هذا إذا كان غير الله، فكيف إذا عبده!! فيكون التغليظ أولى وألزم اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[2]: **قوله**: باب: ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟

أى: الرَّجل الصَّالح، فإنَّ عبادته هى الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته، ووسائل الشرْك محرّمة، لأنها تؤدى إلى الشرك الأكبر، وهو أعظم الذنوب. اهـ.

قلت: فهو من باب الوسائل كأنه فى الباب الأول ذكر النهى عن وسيلة من وسائل الشرك وهنا النهى عن وسيلة أخرى من وسائل الشرك ففى الأول بين أن الغلو وسيلة من وسائل الشرك الأكبر وهنا نهى عن عبادة الله عند قبور الصالحين لأنها وسيلة أخرى من وسائل الشرك الأكبر فهذا تعدد فى التحذير.

قال ناصر السعدى[3]: ما ذكر المصنف فى البابين - (هذا الباب وما بعده)- اهـ.

وأنا أقول والذى قبله.

ثم قال: يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع.

أما المشروع: فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعى من غير شد رحل، يزورها المسلم متبعًا للسُّنَّة فيدعو لأهلها عمومًا ولأقاربه ومعارفه خصوصًا فيكون محسنًا إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسنًا إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ. اهـ.

قلت: لحديث «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكر الآخرة**»[4]. فالمشروع لأمرين: لنفع المقبور ولنفع الزائر، أما نفع المقبور فبالدعاء له، وأما نفع الزائر

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٢). (٢) فتح المجيد (١/ ٢٩٠).

(٣) القول السديد (٦٤).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٢/ ٤٦ ـ النووى) عن بريدة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٢ ـ بتخريجنا).

بهذا القبر والمقبور فبالتأسى وأتباع السنة وتذكر الآخرة، فإذا ذهبت لزيارة القبور من باب إلا فزورها وما ذهبت ألا لذلك فلك بذلك فائدتين الأولى أتباع السنة والثانية تذكر الآخرة فهذا المشروع، و الأجر والثواب فى اتباع السنة فى هذا الباب». ثم قال:

وأما الممنوع: فإنه نوعان:

أحدهما: محرم أو وسيلة للشرك

قلت: لو قال محرم أو وسيلة لشرك لكان أجود وأفضل فيكون المعنى محرم ووسيلة للشرك أى يحصل هذا أو يحصل هذا، أى ما هو محرم وليس وسيلة لشرك وإن كان سيؤدى إليه وليس أكبر وهناك محرم وسيلة للشرك ويؤدى إليه أى الأكبر ولكن هو شرك أصغر. والله أعلم

ثم قال: كالتمسُح بها والتوسل إلى الله بأهلها، والصلاة عندها، وكإسراجها والبناء عليها، والغلو فيها وفى أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والنوع الثانى: شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر ، وهو عين ما يفعله عُبَّاد الأصنام مع أصنامهم.

ولا فرق فى هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون فى تحصيل مطالبه، أو متوسطون إلى الله، فإن المشركين يقولون: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**﴾ و﴿**وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ**﴾ فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم يكفر(١).

من زعم ذلك فقد كَذّب ما جاء به الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة من أن من دعى غير الله فهو مشرك كافر فى الحالين المذكورين سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين.

وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام.

فعليك بهذا التفصيل الذى يحصل به الفرقان فى هذا الباب المهم الذى حصل به من الاضطراب والفتنة ماحصل، ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه. أهـ.

---

(١) كذا فى أصل الكتاب، وفى الحاشية قال: [لعله: لم يكفر].

فِى الصَّحِيح عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لرَسُول الله ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الحَبَشَة، وَمَا فيها منَ الصُّوَر، فَقَالَ: أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهُم الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوَ العَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِه مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيه تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله» فَهَؤُلاءِ جَمَعُوا بَينَ الفِتْنَتَين: فِتْنَة القُبُور، وفِتْنَة التَّمَاثِيلِ(١).

قال ابن باز(٢): هنا باب عظيم كالذى قبله أى باب ماجاء من الأدلة فى التغليظ، فإن كانت الأدلة جاءت بإنكار عبادة الله عند قبور الصالحين فكيف إذا عبده واتخذه إلهاً من دون الله؟! فالتغليظ يكون أشد لأن الأول ـ عبادة الله عند هذا القبر ـ وسيلة لشرك ـ والثانى شرك أكبر. اهـ.

قلت: فهو من باب التفصيل.

قال ابن عثيمين(٣): قوله: «التغليظ» التشديد «قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

قوله «**من عبد الله عند قبر رجل صالح**» أى عمل عملاً تعبد لله به من قراءة أو صلاة أو صدقة أو غير ذلك.

قوله: «فيكف إذا عبده؟»

أى: يكون أشد وأعظم، وذلك لأن المقابر والقبور للصالحين أو من دونهم من المسلمين أهلها بحاجة إلى الدعاء فهم يُزارون ليُنفعوا لا ليُنتفع بهم إلا باتباع السنة فى زيارة المقابر. والثواب الحاصل بذلك، لكن هذا ليس انتفاعاً بأشخاصهم بل انتفاع بعمل الإنسان نفسه بما أتى به من السنة.

فالزيارة التى يُقصد منها الإنتفاع بالأموات زيارة بدعية.

والزيارة التى يُقصد بها نفع الأموات والاعتبار بحالهم زيارة شرعية. اهـ.



قوله: [وفى الصحيح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ....].

ولفظه فى الصحيح.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى الصلاة: باب: هل تنبش قبور مشركى الجاهلية (٢/ ٦٢٤/ ح٤٢٧)، ومسلم فى «المساجد ومواضع الصلاة / باب: النهى عن بناء المسجد على القبور (٣/ ١٤/ ح٥٢٨).

وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٥١) بتخريجنا

(٢) التعليق المفيد (١١٩). (٣) القول المفيد (١/ ٥٠٥).

عن عائشة قالت: لما اشتكى النبى ﷺ ذكرت بعض نساءه كنيسة رأيتَها يقال لها مارية وكانت أم سلمة وأم حبيبة رضى الله عنهما ـ أتتا أرض الحبشة فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها فرفع رأسه فقال: **«أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»**.

ولقد ذكر البخارى هذا الحديث فى «صحيحه» فى عدة أبواب:

باب هل تنبش قبور مشركى الجاهلية، ويتخذ مكانها مساجد(١)؟

باب الصلاة فى البيعة(٢).

باب بناء المسجد على القبر(٣)، واللفظة المنقولة منه.

باب هجرة الحبشة(٤).

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى(٥): حيث دل الحديث على التحذير من بناء المساجد على القبور لما فى ذلك من تعظيم أصحابها، والتعظيم عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك اهـ.

● مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جار الله(٦): هى أن فيه التغليظ والوعيد الشديد لمن اتخذ القبور مساجد اهـ.

وقال القرعاوى(٧): حيث دل الحديث على التغليظ فى النهى فيمن بنى على قبر رجل صالح موضعاً لعبادة الله فكيف بمن عبد صاحب القبر اهـ.

● شرح الحديث:

قوله «أن أم سلمة»

قال ابن الأثير: هى هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية.

---

(١) (١/ ٦٢٤/ح ٤٢٧ ـ فتح).
(٢) (١/ ٦٣٣/ح ٤٣٤ ـ فتح).
(٣) (٣/ ٢٤٧/ ١٣٤١ ـ فتح).
(٤) (٧/ ٢٢٦/ ٢٢٧/ح ٣٨٧٣ ـ فتح).
(٥) الجديد (١٨٥).
(٦) الجامع الفريد (٨٤).
(٧) الجديد (١٨٤).

زوج النبى ﷺ وإحدى أمهات المؤمنين واسم ابيها أبى أمُية: حذيفة، ويعرف بزاد الركب. هو أحد أجواد قريش المشهورين بالكرم، وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن خذيمة بن علقمة ـ وهو جذل الطمان ـ بن فِراس الكنانية.

اختلف فى اسمها، فقيل: رملة وليس بشىء، **وقيل**: هند. وهو الأكثر.

وكانت قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ تحت أبى سلمة بن عبدالأسد المخزومى.

وكانت هى وزوجها أول من هاجر إلى الحبشة.

ويقال أيضاً: إن أم سلمة أول ظعينة هاجرت إلى المدينة. وقيل: بل ليلى بنت ابى حثمة امرأة عامر بن ربيعة. وتزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث بعد وقعة بدر. وقيل: إنه شهد أحداً ومات بعدها **قاله ابن اسحاق** (١).

وفى لفظ البخارى أم حبيبة وأم سلمة.

قال ابن الأثير:(٢) وأم حبيبة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أُميه بن عبد شمس القرشية الأموية. زوج النبى ﷺ إحدى أمهات المؤمنين - رضى الله عنها - كنيت بابنتها حبيبة بنت عبيد الله بن جحش، واسمها رملة وكانت من السابقين إلى الإسلام وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله، فولدت هناك حبيبة، فتنصر عبيد الله، ومات بالحبشة نصرانياً، وبقيت أم حبيبة: ما شعرت.. وذكر القصة ثم قال:

لا اختلاف بين أهل السير وغيرهم فى أن النبى - ﷺ تزوج أم حبيبة وهى بالحبشة إلا مارواه مسلم بن الحجاج فى «صحيحه» أن أبا سفيان لما أسلم طلب من رسول الله ﷺ أن يتزوجها فأجابه إلى ذلك وهو وهم من بعض رواته اهـ.

قاله أيضاً ابن القيم فى «**الزاد**» وتوفيت أم حبيبة سنة أربع وأربعين.اهـ

قلت: وعند البخارى قالت عائشة: «لما أشتكى النبى ﷺ».

قلت: بين ابن حجر أن التنصيص على أنه قال ذلك فى مرض موته قبل أن يموت بخمس فائدة: وهى أن التنصيص على زمن النهى فيه الإشارة إلى أنه من الأمر المحكم الذى لم ينسخ - أى «النهى عن اتخاذ القبور مساجد» - فلهذا حتى لايظن النسخ أو يوهم أو يدعى ذلك صرح الصحابة من الرواة والتابعين على زمن التحديث «قبل موته بخمس» بهذه الوقعة قال ذلك فى مرض موته.

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٧/ ٢٨٦.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٧/ ٣١٥، ٣١٦.

قوله: [ذكرت لرسول الله ﷺ].

وفى لفظ للبخارى «ذكرتا»[1] أى أم سلمة وأم حبيبة.

قال ابن حجر: وكذا لأكثر الرواة [2].

وكان ذكر ذلك فى مرض موته ويدل عليه لفظ البخارى «لما اشتكى النبى ﷺ ذكرت بعض نسائه .. الحديث.

وبوب عليه البخارى «باب بناء المسجد على القبر.

قوله: (كنيسة)

قال ابن حجر[3]: هى معبد النصارى، بكسر الموحدة بعدها مثناه تحتانية، قال صاحب المحكم: البيعة صومعة الراهب.

وقيل كنيسة النصارى والثانى هو المعتمد.

ويدخل فى حكم البيعة الكنيسة وبيت المدارس - بيت اليهود - والصومعة - للرهبان سواء لليهود أو النصارى - وبيت الصنم - للمشركين - وبيت النار للمجوس ونحو ذلك. أهـ.

وفسر البخارى - رحمه الله - البيعة بأنها الكنيسة ويدل على ذلك ذكره هذا الحديث تحت باب «الصلاة فى البيعة».

والبيعة هى الكنيسة -

وهذه الكنيسة تسمى «مارية» لما فى الصحيح أيضاً بلفظ «كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية».

قوله : «رأتها».

وفى الصحيح بلفظ «رأينها» أى أم حبيبة وأم سلمة [4] (وماكان معهما من النساء).

قلت: وفيه جواز حكاية ما يشاهده المؤمن من العجائب فإذا سافرت إلى بلاد الكفر فرأيت عجيبة من العجائب فلا مانع من التحديث بها حتى وإن كانت مخالفة؛ لكن

---

(١)[صحيح] أخرجه البخارى (٤٢٧)

(٢) الفتح ١/ ٦٢٥.

(٣) الفتح ١/ ٦٣٣

(٤) الفتح ١/ ٦٢٥

على الثانى إن كان عالماً حرمة ما تحدَّث بـه أو ما فيه من حرمة، عليه ألا يذكر ذلك إلا مع بيان ما فيها من حرمة. والله أعلم.

قوله :بأرض الحبشة»

وفى بعض الألفاظ بالحبشة، دون أرض .

قال ابن حجر(١) : أرض الحبشة بالجانـب الغربى من بلاد اليمن ومسافـتها طويلة جداً ، وأما اليوم فيقال لها الحَطِى بفتح المهملة وكـسر الطاء المهملة الخفيفة بعدها تحتانية خفيفة ، ويـقال إنهم من ولد حبش بـن كوشن بن حام، قال ابن دريد: جـمع الحبش أُحبوش بضم أوله، وأما قولهم الحبشة فعلى غـير القياس وقد قالوا أيضاً حبشان وقالوا أحبش وأصل التحبيش التجميع، والله أعلم. أهـ.

قوله: «وما فيها من الصور».

قال حامد بن محمد(٢): والتماثيل لما كانوا يصورون عيسى وأمه والأنبياء تعظيماً لهم.

قال ابن عثيمن(٣): الظاهر أن هذه الصور صُوَر مجسمة وتماثيل منصوبة.

قال ابن حجر(٤): وإنما فعل ذلـك أوائلهم ليتأنـسوا برؤية تلك الصـور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدوا كإجتهادهم

[قلـت] : مثل كـلام ابن عباس فـى سبب كفر بـنى آدم وتركهم ديـنهم الغـلو فى الصالحين»

ثم قال: ثـم خلف من بـعدهم خلوف جـهلوا مرادهم ووسـوس لهم الشـيطان أن أسلافكم كانوا يعبـدون هذه الصور ويعظمونها فعبدوها فحـذر النبى ﷺ عن مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك.

وفى الحديث أيضاً «دليل عـلى تحريم التصوير» وحمل بعضهم الـوعيد على من كان فى ذلك الزمان لقرب العهد بعبادة الأوثان.

وأما الأن فلا وقـد أطنب ابن دقيـق العيد أهـ «فى إحـكام الأحكام فى شـرح عمدة الأحكام» وذكره هنا أيضـا ابن حجر فى كتاب اللباس والزينـة فى الرد على من زعم أن الأن يجوز التصاوير لأنه يؤمن منها عبادة الأوثان.

(١) الفتح ٧/ ٢٣٠ .
(٢) «فتح الله الحميد المجيد» (٢٩٢).
(٣) القول المفيد (١ / ٥٠٦)
(٤) فتح البارى (١ / ٦٢٦)

ـ وقد قرأت رسالة أيضاً لبعضهم صرح فيها بذلك تصريحاً عن جهل الكاتب

ثم قال ابن حجر: وقال البيضاوى رحمه الله.

لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبله يتوجهون فى الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً لعنهم ـ الله والرسول ﷺ ـ ومنع المسلمين عن مثل ذلك فأما من أتخذ مسجداً فى جوار صالح وقصد التبرك فى القرب منه لا التعظيم له ولا التوجه نحوه فلايدخل فى ذلك الوعيد. اهـ

● **تنبيه**

[قلت] وسيأتى فى الباب الستين ماجاء في التصوير بتفصيل من كلام أهل العلم وكلام شراح كتاب التوحيد.

وأقول: بل يدخلُ فى ذلك الوعيد لأن النبى ﷺ: نهى عن ذلك وأن التبرك بالصالحين على هذا النحو ممنوع ليس بمشروع:

أولاً: فلم يثبت أن هذا الصالح فيه بركة

ثانياً: وإن ثبت فلم يثبت أن التماس البركة من الصالحين ببناء مساجد قريبة من قبورهم فهذا وذاك لا يجوز.

قوله: «أولئك» بكسر الكاف ويجوز فتحها[١].

قال عبدالرحمن آل الشيخ[٢]: بكسر الكاف، خطاب للمرأة.

قال عبدالله بن جار الله[٣]: مرجع اسم الإشارة هنا إلى الذين يبنون المساجد، ويصورون فيها الصور. اهـ.

وقال ابن باز[٤]: أى الذين فعلوا هذا الفعل اهـ.

قال ابن عثيمين[٥]: المشار إليهم نصارى الحبشة، ويحتمل أن يراد من فعلوا هذه الأفعال أياً كانوا وقوله (أولئك) يجوز فى الكاف الكسر إذا كان الخطاب لأم سلمة، والفتح إذا كان الخطاب بإعتبار الجنس. وقد ذكر العلماء أن فى كاف الخطاب المتصل باسم الإشارة ثلاثة أوجه.

---

(١) الجامع الفريد (٨٣)

(٢) فتح المجيد (١ / ٢٩١)

(٣) الجامع الفريد (١٨٣)

(٤) التعليق المفيد

(٥) القول المفيد ١/٥٠٦، ٥٠٧

الوجه الأول: أن يكون مطابقاً للمخاطب المفرد لـلمفرد. والمثنى للمثنى والجمع للجمع، مذكراً كان أم مؤنثاً.

الوجه الثانى: الفتح مطلقاً.

الوجه الثالث: الكسر للمؤنث مطلقاً، والفتح للمذكّر مطلقاً.

وأشهرها: أن يكون مطابقاً للـمخاطب، ثم الفتح مطلقاً . ثم الفتـح للمذكروالكسر للمؤنث.

قوله «إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح».

قال سليمان آل الشيخ [١] : هذا والله أعلم شك من بعض رواة الحديث، هل قال النبى ﷺ هذا أو هذا، فقيه التحرى فى الروايـة وجواز رواية الحديث بالمعنى. اهـ وتبعه عبدالرحمن آل الشيخ.

- وقال نحوه حامد بن محمد[٢]. وابن عثيمين.

- **قال ابن باز**: هذا بيان حال النصارى وغلوهم فى أمواتهم. اهـ.

وقوله: «بنوا على قبره مسجداً».

قال سليمـان آل الشيخ[٣]: أى موضعا للـعبادة، وإن لم يسم مسجداً كـالكنائس والمشاهد. اهـ.

قال ابن عثيمين[٤]: أى قبر ذلك الرجل الصالح.

قوله: (وصوروا فيه تلك الصور).

قال ابن حـجر: قوله: «**وصوروا فيه تـلك الصور**» وللمستملى «**تيك الـصور**» بالياء التحتانية بدل اللام اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[٥]: الإشارة بتلك الصور إلى ماذكـرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التى فى الكنيسة كما فى بـعض ألفاظ الحديث فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها. اهـ.

قال ابـن باز[٦] : أى صور الـرجل الـصالح أو لـه ولأتبـاعه كمـا جرى لـقوم نوح. اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٣٥.

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٢).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٣٥.

(٤) القول المفيد (١ / ٥٠٨).

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢٣٥.

(٦) التعليق المفيد ١١٩.

قال ابن عثيمين[1]: وربما أنهم يضيفون إلى صورتـه صورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور على أحجام مختلفة، فتجتمع فها صور كثيرة.

قوله : أولئك شرار الخلق عند الله».

قال سليمان آل الشيخ[2]:

مقتضى هذا التحريم ما ذكر، لاسيما وقد ثبت اللعن عليه. قال البيضاوى، لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمـاً لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون فى الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً، لعنهم النبىُ ـ ﷺ ومنع المسلمين عن مثل ذلك.

قال القرطبى: وإنما صور أوائلـهم الصور ليتأسوا بـها ويتذكروا أفعالهـم الصالحة. فيجـتهدون كاجتهـادهم، ويعبدون الله عنـد قبورهم، ثم خلـفهم قوم جهلـوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسـلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمـونها، فحذر النبى ﷺ عن مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك. أهـ

[قلت] : وتقدم ذكر هذا بألفاظ قريبة من كلام ابن حجر

قال حامد بن محمد بن حسن[3]: **(أولئك شرار الخلق عند الله)** لنبذهم حكم الله ورسوله وأتباعهم الآباء والأهواء.

قال ابن باز[4]: فمن فعل هذا الفـعل قد تشبه بالنصارى وعمل عمـلهم ومن تشبه بقوم فهو منهم والمقصود من الكلام التحذير من فعلهم . وقد وقع فى الأمة ذلك وأعظم من فعله هم الرافضة الذين غلوا فى آل البيـت وهم أول من بنى على القبور وبنوا عليها المساجد وعبدوها من دون الله ثـم قلدهم أناس من أهل السنة من كثيرمـن بلاد المسلمين وقد وقع اتباعها للكفار حذو القذة بالقذة. اهـ.

قوله : **(فهؤلاء جمعوا بين فتنتين فتنة القبور وفتنة التماثيل)**

قال سليمان آل الشيخ[5]: هذا من كلام شيخ الإسلام، ذكره المـصنف عنه. يعنى أن الذين بنوا هذه الكنيسة جمعوا فيها بين فتنتين، ضل بها كثير من الخلق.

الأولى: فتنة القبـور، لأنهم افتتنوا بقبور الصـالحين، وعظموها تعظيمـاً مبتدعاً. فآل

(١) القول المفيد ١/ ٥٠٨

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٣٦ .نقله عن فتح البارى (١/ ٦٢٦).

(٣) فتح الله الحميد المجيد. (٢٩٢).

(٤) التعليق المفيد ١١٩، ١٢٠ .

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢٣٦، ٢٣٧.

بهم إلى الشرك، وهم أعظم الفتنتين، بل هى مبدأ. **الفتنة الثانية**: وهى فتنة التماثيل،أى الصور، فإنهم لما افتتنوا بقبور الصالحين وعظموها، وبنوا عليها المساجد، وصوروا فيها الصور لـلقصد الذى ذكره القرطبى. فآل الأمر إلى أن عُبدت الصور ومن هى صورته من دون الله، وهاتان الفتنتان هما سبب عبادة الصالحين كاللات وود وسواع ويغوث ويئوق ونسر أو غير من الصالحين.

قال شيخ الإسلام: - رحمه الله - وهذه العلة هى التى لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور، وهى التى أوقعت كثيرا من الأمم إما فى الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين،وتماثيل يزعمون أنها طلاسم لكواكب ونحو ذلك. فإن الشرك بقبر الرجل الذى يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها فى بيوت الله ولا وقت السحر،ومنهم من يسجد لها وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء مالا يرجونه فى المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبى ﷺ مادتها حتى نهى عن الصلاة فى المقبرة مطلقا[(١)] وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركه المساجد كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها[(٢)]. لأنها أوقات يقصد المشركون فيها الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون سداً للذريعة.

قال: وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة فى تلك البقعة، فهذا عين المعادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله. فإن المسلمين قد أجمعوا على ماعلموه بالإضطرار من دين رسول الله ﷺ أن الصلاة عند القبور منهى عنه. وأنه لعن من اتخذها مساجد. مساجد فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد،و بناء المساجد عليها، فقد تواترت النصوص عن النبى - ﷺ بالنهى عن ذلك والتغليظ فيه.

وقد صرح عامة الطوائف بالنهى عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة.

---

(١)[**ضعيف**] أخرجه الترمذى (٣٤٦)، وابن ماجه فى المساجد والجماعات (٧٤٦) عن ابن عمر به. وانظر «السلسبيل» (٣٥٠ - بتخريجنا).

(٢)[**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٥٨٦)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٦/ ١١٢ - النووى). وانظر «السلسبيل» (٥٤١ - بتخريجنا).

وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِم مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلاَ ذَلِكَ؛ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً » أَخْرَجَاهُ(١).

وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعى بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة. والذى ينبغى أن تحمل على كراهة التحريم إحساناً للظن بالعلماء. وإن لايظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهى عنه أهـ.

قال الحافظ(٢) ابن رجب فى «فتح البارى»:

هذا الحديث يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم فيها، كما يفعله النصارى، ولاريب أن كل واحد منهما محرم على انفراده، فتصور صور الآدميين يحرم، وبناء القبور على المساجد بانفراده يحرم، كما دلت عليه نصوص أخر، يأتى ذكر بعضها. .

قال: والتصاوير التى فى الكنيسة التى ذكرتها أم حبيبة وأم سلمة كانت على الحيطان ونحوهما، ولم يكن لها ظل، فتصوير الصور على مثال صور الأنبياء والصالحين للتبرك بها، والاستشفاع بها يحرم فى دين الإسلام وهو من جنس عبادة الأوثان، وهو الذى أخبر النبى ﷺ أن أهله شرار الخلق عند الله يوم القيامة، وتصوير الصور للتأسى برؤيتها أو للتنزه بذلك، والتلهى محرم وهو من الكبائر وفاعله من أشد الناس عذابا يوم القيامة، فإنه ظالم ممثل بأفعال الله التى لايقدر على فعلها غيره، وأنه تعالى ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولافى صفاته ولافى أفعاله سبحانه وتعالى .

قوله: ولهما».

أى البخارى ومسلم وهويغنى عن قوله فى آخره أخرجاه(٣).

---

(١)[متفق عليه] أخرجه البخارى فى الجنائز/ باب مايكره من اتخاذ المساجد على القبور(٣/٢٣٨/ ١٣٣٠)، ومسلم فى المساجد/ باب النهى عن بناء المسجد فى القبور(٢/ ١٢النووى).
من طريق هلال، عن عروة بن الزبير، وعن عائشة.به
وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٦٤١). وأنظر «فتح المجيد» (ح٣٥٧) بتخريجنا
(٢) فتح البارى لابن رجب نقلاً عن «تحذير الساجد».
(٣) فتح المجيد ٢٩٤.

قال ابن عثيمين[1]: والضمير يعود على البخارى ومسلم، وإن لم يسبق لهما ذكره لكنه لما كان ذلك مصطلحا معروفاً؛ صح أن يعود الضمير عليهما: وهما لم يذكرا اعتماداً على المعروف المعهود.اهـ

[قلت]: بل اعتمد على المذكور أيضاً، لو قلنا أن المصنف قصد بقوله فى الصحيح: أى الكتب التى عنت بالصحيح كالبخارى ومسلم

قوله: عنها.

أى عائشة[2].

قوله: «لما نزل برسول الله ﷺ».

وفى لفظ «لما كان مرض النبى» وفى لفظ «لما حضرته الوفاة» وفى لفظ «فى مرضه الذى لم يقم منه».

قال النووى: [3] هكذا ضبطناه (**نُزل**) بكسر الزاى وفى أكثر الأصول (نزلت) بفتح الحروف الثلاثة، وبتاء التأنيث الساكنة، أى لما حضرت المنية والوفاة. وأما الأول فمعناه نزل ملك الموت والملائكة الكرام.اهـ.

تقدم ذكر فائدة تنصيص الصحابى على زمن الحديث فى أول حديث عائشة السابق قبل هذا.

قوله: (طفق يطرح خميصة له على وجهه)

قال النووى[4]: يقال طَفِقَ بكسر الفاء وفتحها أى جعل، والكسر أفصح واشهر، وبه جاء القرآن ﴿**وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ**﴾ وممن حكى الفتح الأخفش والجوهرى.

والخميصة كساء له أعلام.

قال ابن عثيمن[5]: طفق من أفعال الشروع، واسمها مستتر وجملة يطرح» خبرها.

قوله: «**خميصة**» وهى كساء مربع له أعلام كان يطرحه النبى ﷺ على وجهه.

---

(١) القول المفيد ١/٥٠٩.

(٢) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(٣) مسلم شرح النووى ٣/١٦.

(٤) مسلم شرح النووى ٣/١٦

(٥) القول المفيد ١/ ٥١٠.

قوله: «فإذا اغتم بها كشفها».

أى أصابه الغم بسببها وقد احتضر ﷺ [1].

قوله «وهو كذلك».

أى : وهو فى هذه الحالة عند الاحتضار[2].

قوله: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذو قبور أنبيائهم مساجد»

وفى لفظ **«لعن الله»** وفى لفظ **«قاتل الله اليهود اتخذوا»** يبين، أن من فعل مثل ذلك حل عليه من اللعنة ماحل على اليهود والنصارى[3].

قال ابن عثيمين [4]: يقول هـذا فى سياق المـوت، و**«لعنة الله»** أى طـرده وإبعاده وهذه الجملة يحتمل أنه يراد بها ظاهر اللفظ؛ أى أن النبى ﷺ يخبر بأن الله لعنهم.

ويحتمل أن يراد بها الدعاء به فتكون خبرية لفظاً إنشائية معنى.

والمعنى على هذا الاحتمال أن النبى ﷺ دعا عـليهم وهو فى سياق الموت بسبب هذا الفعل.

قوله «اتخذوا»

قال ابن حجر[5]: قال ابن رشيد: الاتخـاذ أعم من البناء فلذلك أفرده بـالترجمة، ولفظها يقتضى أن بعض الإتخاذ لايكره، فكـأنه يفصل بين ما إذا ترتبت على الإتخاذ مفسده أو لا.

قال ابن عثيمين [6]. الجملة هذه تعليل لقوله **«لعنه الله على اليهود والنصارى»**.

كأن قائلاً يقول ولماذا لعنهم النبى ﷺ.

فكان الجواب أنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مسـاجد أى أمكنة للسجود سواء بنوا مسجداً أم لا. يصلون ويعبدون الله تعالى فيها مع أنها مبنية على القبور اهـ.

---

(1) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(2) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(3) فتح المجيد ٢٩٤.

(4) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(5) الفتح ٣/ ٣٨

(6) القول المفيد ١/ ٥١٠.

إشكال وجوابه:

إشكال ثانى:

قلت: قوله «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» بعض الصوفية ربما يحتج عليك فيقول هذا الكلام فى اليهود والنصارى فلماذا تحتج أنت علينا بهذا الحديث وهو فى اليهود والنصارى والرسول ﷺ لعنهم للتحذير من أن نركب سُنتهم فنلعن كما لعنوا لقوله ﷺ يحذر ما صنعوا.

قوله: **«اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** هو أن النصارى لهم نبى واحد وهو عيسى فكيف يقول «أنبيائهم».

قال الفقير: أنه لم يكن الا عيسى نبياً ورسولاً لكن قد يكون من بعده حواريون أنبياء لكن ليسوا رسل. أو مريم على قول من قال أنها نبية وليست رسولة. فالنصارى أيضاً اتخذوا قبور أنبيائهم.

ثانياً: أن النصارى وإن كان لم يكن لهم نبى إلا عيسى. فهم عظموا ما عظمه يهود من أنبياء اليهود لأنهم آمنوا بعيسى وبالذى قبله. وأمنوا بموسى أيضا، وعظموا الأنبياء التى عظمتها اليهود بعد موسى. وعظموها تعظيماً لليهود لأنهم يؤمنون بالتوارة والإنجيل. فهم لاريب ولاشك يصدق عليهم أنهم أتخذوا قبور أنبيائهم.

قال ابن حجر(١): أو المراد بالاتخاذ أعم من أن يكون ابتداعاً أو اتباعاً فاليهود ابتدعت، والنصاري اتبعت ولاريب أن النصاري تعظم قبور كثير من الأنبياء الذين تعظمهم اليهود. أهـ.

● **أو يقال:**

أن هناك أحاديث لما ذكرت اليهود جمعت ولما ذكرت النصارى أفردت. فقال الرسول ﷺ حينما ذكر اليهود فقط جمع «قال» **«قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** وحينما ذكر النصارى فقط قال ﷺ: **«أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنو على قبره مسجداً»** فلم يذكر أنبياء بل ذكر صالحيهم.

ويؤيد ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم قال:ـ **«قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»** فالأنبياء أخص باليهود والصالحين أخص بالنصارى، وإن كانت النصارى أيضا عظمت من أنبياء بنى إسرائيل الكثير.

---

(١) فتح البارى (١ / ٦٣٤)

●وأيضا هناك إيراد أخر قد ذكرته من قبل:-

قد يقول قائل هم أتخـذوا قبور مساجد ونحن أتخذنا قبراً واحداً مـسجداً. فهم فعلوا ذلك فى أغلب المساجد وفى جلها.

أن هذا بالنـظر إلى مسجد واحد بنـى عليه ولكن بالـنظر إلى باقى المساجـد. التبي بنيتهم عليها القبور وفعتم فيما وقعوا فيه من اتخاذ القبور مساجد، والمساجد قبور.

معنى اتخاذ القبور مساجد

قال الألبانى[1]: الذى يمكن أن يفهم من هذا الاتخاذ، إنما هو ثلاث معان:

الأول: الصلاة على القبور، بمعنى السجود عليها.

الثانى: السجود إليها واستقبالها بالصلاة والدعاء.

الثالث: بناءالمساجد عليها، وقصد الصلاة فيها.

أقوال العلماء فى معنى الإتخاذ المذكور

وبكل واحد من هذه المعانى قال طائفة من العلماء، وجاءت بها نصوص صريحة عن سيد الأنبياء ﷺ.

أما الأول : فقال ابن حجر الهيتمى فى «الزواجر»[2].

«واتخاذ القبر مسجداً معناه الصلاة عليه، أو إليه».

فهذا نص مـنه على أنه يفهـم الاتخاذ المذكور شاملاً لمعـنيين، أحدهما الـصلاة على القبر.

وقال الصنعانى فى «سبل السلام»[3] :«واتخاذ القبور مساجد أعم من أن يكون بمعنى الصلاة إليها، أو بمعنى الصلاة عليها».

قلت ـ الألبانى ـ: يعنى أنه يعم المعنيين كليـهما، ويحتمل أنه أراد المعانى الثلاثة، وهو الذى فـهمه الإمام الشافـعى ـ رحمه الله ـ وسيأتـى نص كلامه فى ذلك. ويـشهد للمعنى الأول أحاديث.

(١) عن أبى سعيد الخدرى : «أن رسول الله ﷺ نهى أن يبنى على القبور، أو يقعد عليها، أو يصلى عليها»[4].

---

(١) من تحذير الساجد بتصرف للشيخ الألبانى ـ رحـمه الله ـ وقد توفى أثناء مراجعة هذا الكتاب أيضاً فى شهر جمادى الآخر.

(٢) السبل (١/ ١٢١). (٣) السبل (١/ ٢١٤)

(٤) ذكره بهذا اللفظ الهيثمى فى «المجمع» (٣/ ٦١) ونسبه لأبى يعلى وقال: رجال ثقات.

(٢) عن ابن عباس قوله ﷺ : «**لاتصلوا إلى قبر، ولاتصلوا على قبر**»(١).

(٣) عن أنس : **أن النبى ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور** (٢).

(٤) عن عمرو بن دينار ـ وسئل عن الصلاة وسط القبور قال : ذكر لى أن النبى ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فلعنهم الله تعالى**» (٣).

أما المعنى الثانى : فقال :المناوى فى«**فيض القدير**» حيث شرح الحديث الثالث المتقدم:

«أى اتخذوها جهة قبلتهم، مع اعتقادهم الباطل، وإن اتخاذها مساجد، لازم (٤) لاتخاذ المساجد عليها كعكسه، وهذا بين به سبب لعنهم لما فيه من المغالاة فى التعظيم .

قال القاضى (يعنى البيضاوى): لما كانت اليهود يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلة ويتوجهون فى الصلاة نحوها، فاتخذوها أوثاناً لعنهم الله، ومنع المسلمين عن مثل ذلك ونهاهم عنه. . . .».

قلت ـ الألبانى ـ: وهذا المعنى قد جاء النهى الصريح عنه، فقال ﷺ: «**لاتجلسوا على القبور،ولاتصلوا إليها**»(٥).

قال على القارى فى «المرقاة»(٦) معللاً النهى: «لما فيه من التعظيم البالغ كأنه من مرتبة المعبود، ولو كان هذا التعظيم حقيقة للقبر أو لصاحبه لكفر المعظم، فالتشبه به مكروه، وينبغى أن تكون كراهة تحريم. وفى معناه بل أولى منه الجنازة الموضوعة (يعنى فى قبلة المصلين)، وهو مما ابتلى به أهل مكة حيث يضعون الجنازة عند الكعبة ثم يستقبلون إليها».

قلت ـ الألبانى ـ: يعنى فى صلاة الفريضة وهذا بلاء عام قد تعداه إلى بلاد الشام والأناضول وغيرها، وقد وقفنا منذ شهر على صورة شمسية قبيحة جداً تمثل صفاً من المصلين ساجدين تجاه نعوش مصفوفة أمامهم فيها جثث جماعة من الأتراك كانوا ماتوا غرقاً فى باخرة.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى «المعجم الكبير» (٢/ ٣٧٦/ ١٢٠٥١) عن ابن عباس به.

(٢) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه» (٤/ ٣٢ ـ الإحسان).

(٣) أخرجه عبد الرزاق(١٥٩١).

(٤) يعنى : يلزم من السجود إليها بناء المساجد عليها، كما يلزم من بناء المساجد عليها السجود إليها وهذا أمر واقع مشاهد.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٤/ ٤٤/ ٩٨) عن أبى مرثد به.

(٦) (٢/ ٣٧٢).

●**تنبيه**

وبهذه المناسبة نلفت النظر إلى أن الغالب من هديه ﷺ هو الصلاة على الجنائز فى «المصلى» خارج المسجد، ولعل من حكمة ذلك إبعاد المصلين عن الوقوع فى مثل هذه المخالفة التى نبه عليها العلامة القارى رحمه الله.

ونحو الحديث السابق ما روى ثابت البنانى عن أنس رضى الله عنه قال: «كنت أصلى قريباً من قبر، فرآنى عمر بن الخطاب، فقال: القبر القبر. فرفعت بصرى إلى السماء وأنا أحسبه يقول: القمر!»(١).

وأما المعنى الثالث: فقد قال به الإمام البخارى فإنه ترجم للحديث الأول بقوله «باب مايكره من اتخاذ المساجد على القبور».

فقد أشار بذلك إلى أن النهى عن اتخاذ القبر مسجداً يلزم منه النهى عن بناء المسجد عليه، هذا أمر واضح، وقد صرح به المناوى كما سبق آنفاً.

وقال الحافظ ابن حجر فى شرح الحديث: هى المقصودة بالبناء، وكذلك إذا نهى عن بناء المساجد على القبور، فهو ينهى ضمناً عن الصلاة فيها؛ لأنها هى المقصودة بالبناء أيضاً، وهذا بين لايخفى على العاقل إن شاء الله تعالى اهـ.

ترجيح شمول الحديث للمعانى كلها وقول الشافعى بذلك.

وجملة القول: أن الاتخاذ المذكور فى الأحاديث المتقدمة يشمل كل هذه المعانى الثلاثة، فهو من جوامع كلمه ﷺ، وقد قال بذلك الإمام الشافعى ـ رحمه الله.

ـ ففى كتابه «الأم»(٢) مانصه.

«وأكره أن يبنى على القبر مسجد، وأن يسوى، وأن يصلى عليه، وهو غير مسوى (يعنى أنه ظاهر معروف) أو يصلى إليه.

قال: وإن صلى إليه أجزأه وقد أساء، أخبرنا مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». قال: وأكره هذا للسنة والآثار، وأنه كره ـ والله تعالى أعلم ـ أن يعظم أحد من المسلمين، يعنى يتخذ قبره مسجداً، ولم تؤمن فى ذلك الفتنة والضلال على ما يأتى بعده».

---

(١) علقه البخارى (١/ ٦٢٥ ـ فتح) ووصله عبدالرزاق فى «مصنفه». (١٥٨١).

(٢) (١/ ٢٤٦).

فقد استدل بالحديث على المعانى الثلاثة التى ذكرها فى سياق كلامه، فهو دليل واضح على أنه يفهم الحديث على عمومه.

وكذلك صنع **المحقق الشيخ على القارى** نقلاً عن بعض أئمة الحنفية فقال.

«سبب لعنهم: إما لأنهم كانوا يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيماً لهم، وذلك هو الشرك الجلى، وإما لأنهم كانوا يتخذون الصلاة لله تعالى فى مدافن الأنبياء والسجود على مقابرهم، والتوجه إلى قبورهم حالة الصلاة نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغةِ فى تعظيم الأنبياء، وذلك هو الشرك الخفى لتضمنه مايرجع إلى تعظيم مخلوق فيما لم يؤذن له، فنهى النبى ﷺ أمته عن ذلك إما لمشابهة ذلك الفعل سنة اليهود، أو لتضمنه الشرك الخفى. كذا قاله بعض الشراح من أئمتنا، ويؤيده ما جاء فى رواية: «**يحذر ما صنعوا**».

قال الألبانى: والسبب الأول الذى ذكره، وهو السجود لقبور الأنبياء تعظيماً لهم وإن كان غيرمستبعد حصوله من اليهود والنصارى، فإنه غير متبادر من قوله ﷺ: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» فإن ظاهره انهم اتخذوها مساجد لعبادة الله فيها على المعانى السابقة تبركاً بمن دفن فيها من الأنبياء، وإن كان هذا أدى بهم - كما يؤدى بغيرهم - إلى وقوعهم فى الشرك الجلى الذى ذكره الشيخ القارىء[1].

حكم اتخاذ القبور مساجد وبيان أن ذلك من الكبائر.

أتخاذ المساجد على القبور من الكبائر.

قال الألبانى[2]: بعد أن تبين لنا معنى الاتخاذ الوارد فى الأحاديث المتقدمة، يحسن بنا أن نقف قليلاً عند هذه الأحاديث لنتعرف منها حكم الاتخاذ المذكور، مسترشدين فى ذلك بما ذكره العلماء حوله فأقول :

إن كل من يتأمل فى تلك الأحاديث الكريمة يظهر له بصورة لا شك فيها أن الاتخاذ المذكور حرام، بل كبيرة من الكبائر، لأن اللعن الوارد فيها، ووصف المخالفين بأنهم شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى، لايمكن أن يكون فى حق من يرتكب ماليس كبيرة كما لا يخفى.

مذهب العلماء فى ذلك

وقد اتفقت المذاهب الأربعة على تحريم ذلك، ومنهم من صرح بأنه كبيرة، وإليك تفاصيل المذاهب فى ذلك.

---

(١) مرقاة المفاتيح (١/ ٤٥٦).

(٢) تحذير الساجد بتصرف.

١ـ مذهب الشافعية : أنه كبيرة

قال الفقيه ابن حجر الهيتمى فى «الزواجر عن اقتراف الكبائر»[١]: «الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتسعون اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واتخاذها أوثاناً، والطواف بها، واستلامها، والصلاة إليها».

ثم ساق بعض الأحاديث المتقدمة وغيرها ثم قال [٢].

«تنبيه»: عد هذه الستة من الكبائر وقع فى كلام بعض الشافعية، وكأنه أخذ ذلك مما ذكرته من الأحاديث، ووجه اتخاذ القبر مسجدا منها واضح، لأنه لعن من فعل ذلك بقبور أنبيائه، وجعل من فعل ذلك بقبور صلحائه شر الخلق عند الله تعالى يوم القيامة، ففيه تحذير لنا كما فى رواية: «يحذر ما صنعوا» أى يحذر أمته بقوله لهم ذلك من أن يصنعوا كصنع أولئك، فيلعنوا كما لعنوا، ومن ثم قال أصحابنا: تحرم الصلاة إلى قبور الأنبياء والأولياء تبركاً وإعظاماً، ومثلها الصلاة عليه للتبرك والإعظام، وكون هذا الفعل كبيرة ظاهر من الأحاديث المذكورة لما علمت، قال بعض الحنابلة:

قصد الرجل الصلاة عند القبر متبركاً به عين المحادة لله ورسوله، وابتداع دين لم يؤذن به الله، للنهى عنها تم إجماعاً، فإن أعظم المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، أو بناؤها عليها والقول بالكراهة محمول على غير ذلك، إذ لا يظن بالعلماء تجويز فعل تواتر عن النبى ﷺ لعن فاعله، ويجب المبادرة لهدمها، وهدم القباب التى على القبور إذ هى أضر من مسجد الضرار، لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ، لأنه نهى عن ذلك، وأمر رسول الله ﷺ بهدم القبور المشرفة، وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر، ولا يصح وقفه ونذره. انتهى».

هذا كله كلام الفقيه ابن حجر الهيتمى، وأقره عليه المحقق الآلوسى فى «روح المعانى»[٣]، وهو كلام يدل على فهم وفقه فى الدين، وقوله فيما نقله عن بعض الحنابلة:

«والقول بالكراهة محمول على غير ذلك».

كأنه يشير إلى قول الشافعى «وأكره أن يبنى على القبر مسجد...» الخ كلامه الذى نقلته بتمامه فيما سبق.

---

(١) (١/ ١٢٠)

(٢) (ص: ١١١).

(٣) (٥/ ٣١).

٢ - مذهب الحنفية الكراهة التحريمية.

والكراهة بهذا المعنى الشرعي قد قال به هنا الحنفية **فقال الإمام محمد تلميذ أبى حنيفة** فى كتابه «الآثار»[١].

«لانرى أن يزاد على ما خرج من القبر، ونكره أن يجصص أو يطين أو يجعل عنده مسجداً».

والكراهة عند الحنفية إذا أطلقت فهى للتحريم، كما هو معروف لديهم، وقد صرح بالتحريم فى هذه المسأله ابن الملك منهم كما يأتى.

٣ - مذهب المالكية التحريم

وقال القرطبى فى تفسيره[٢] بعد أن ذكر الحديث الخامس: «قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد».

٤ - مذهب الحنابلة التحريم.

ومذهب الحنابلة التحريم أيضاً كما فى «شرح المنتهى»[٣] وغيره، بل نص بعضهم على بطلان الصلاة فى المساجد المبنية على القبور، ووجوب هدمها.

فقال ابن القيم فى «زاد المعاد»[٤] فى صدد بيان ما تضمنته غزوة تبوك من الفقه والفوائد، وبعد أن ذكر قصة مسجد الضرار الذى نهى الله تبارك وتعالى نبيه أن يصلى فيه، وكيف أنه ﷺ هدمه وحرقه **قال**: «ومنها تحريق أمكنة المعصية التى يعصى الله ورسوله فيها، وهدمها، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار، وأمر بهدمه وهو مسجد يصلى فيه، ويذكر اسم الله فيه، لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام[٥]. تعطيله، إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له، وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار؛ فمشاهد الشرك التى تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بذلك، كما لم يصح وقف هذا المسجد، وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بنى على قبر كما ينبش الميت إذا دفن فى المسجد نص على ذلك الإمام أحمد وغيره.

(١) (ص: ٤٥).

(٢) (١٠/٣٨).

(٣) (١/٣٥٣).

(٤) (٣/٢٢).

(٥) قلت ـ الألبانى ـ: مفهوم هذا أن ذلك لا يجب على غير الإمام. ومثله من ينوب عنه، وهذا هو الذى يقتضيه النظر الصحيح، لأنه لو قام به غيره لترتب على ذلك مفاسد وفتن بين المسلمين قد تكون أكبر من المصلحة التى يراد جلبها.

فلا يجتمع فى دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعا معاً لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولايجوز ولا تصح الصلاة فى هذا المسجد لنهى رسول الله ﷺ عن ذلك ولعنه من اتخذ القبر مسجداً، أو أوقد عليه سراجا[1] فهذا دين الإِسلام الذى بعث الله به رسوله ونبيه، وغربته بين الناس كما ترى!».

فتبين مما نقلناه عن العلماء أن المذاهب الأربعة متفقة على ما أفادته الأحاديث المتقدمة، من تحريم بناء المساجد على القبور. وقد نقل اتفاق العلماء على ذلك أعلم الناس بأقوالهم ومواضع اتفاقهم واختلافهم، ألا وهو شيخ الإِسلام ابن تيمية رحمه الله، فقد سئل رحمه الله بما نصه:

«هل تصح الصلاة فى المسجد إذا كان فيه قبر؛ والناس تجتمع فيه لصلاتى الجماعة والجمعة أم لا؟ وهل يمهد القبر، أو يعمل عليه حاجز أو حائط؟ فأجاب:

الحمد لله، اتفق الأئمة انه لا يبنى مسجد على قبر، لأن النبى ﷺ قال: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فانى أنهاكم عن ذلك**»، وأنه لايجوز دفن ميت فى مسجد فإن كان المسجد قبل الدفن غُيِّر، إما بتسوية القبر، وإما بنبشه إن كان جديداً، وإن كان المسجد بنى بعد القبر، فإما أن يزال المسجد وإما تزال صورة القبر، فالمسجد الذى على القبر لايصلى فيه فرض ولانفل، فإنه منهى عنه» كذا فى الفتاوى له[2].

وقد تبنت دار الإِفتاء فى الديار المصرية فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية هذه، فنقلتها عنه فى فتوى لها أصدرتها تنص على عدم جواز الدفن فى المسجد، فليراجعها من شاء فى «مجلة الأزهر»[3].

وقال ابن تيمية فى «الاختيارات العلمية»[4].

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٢٢٩)، وأبو داود (٣٢٣٦)، والترمذى (٣٢٠)، والنسائى (٤/ ٩٤ ـ السيوطى)، وابن ماجه (١٥٧٥) عن ابن عباس به.

وانظر «السلسبيل» (٩٤٣ ـ بتخريجنا).

(٢) (١/ ١٠٧) (٢/ ١٩٢).

(٣) (١١/ ص: ٥٠١ - ٥٠٣) وفى المجلة نفسها مقال آخر فى تحريم البناء على القبور مطلقاً فانظر (مجلد سنة ١٩٣٠ص ٣٥٩ - ٣٦٤).

(٤) (ص: ٥٢).

«ويحرم الإسراج على القبور، واتخاذ المساجد عليها، وبينها، ويتعين إزالتها، ولا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين».

ونقله ابن عروة الحنبلي في «الكواكب الدراري»(١). وأقره.

وهكذا نرى أن العلماء كلهم اتفقوا على ما دلت الأحاديث من تحريم اتخاذ المساجد على القبور، فنحذر المؤمنين من مخالفتهم، والخروج عن طريقتهم، خشية أن يشملهم وعيد قوله عز وجل ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾(٢).

و﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾(٣).

قوله: «يُحذر ما صنعوا»: وفي لفظ **«يحذر مثل الذي صنعوا»**.

قال القرطبي: في معنى هذا الحديث وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. اهـ.

قال عبد الرحمن آل شيخ(٤): الظاهر: أنَّ هذا من كلام عائشة -رضي الله عنها- لأنها فهمت من قول النبي - ﷺ - ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم فإنه من الغلو في الأنبياء، ومن أعظم الوسائل - إلى الشرك.

قال ابن عثيمين(٥): أي إنَّه - ﷺ - قال ذلك في سياق الموت تحذيراً لأمته مما صنع هؤلاء لأنه علم أنه سيموت وأنه ربما يحصل هذا ولو في المستقبل البعيد.

قال أيضاً(٦): في هذا الحديث والحديث السابق: التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وهم أفضل الصالحين، لأنَّ مرتبة النبيين هي المرتبة الأولى من المراتب الأربع

---

(١) (٢/ ١٤٤/ ١).

(٢) سورة النساء: الآية ١١٥.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٤) فتح المجيد ٢٩٤، ٢٩٥.

(٥) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(٦) القول المفيد ١/ ٥١٢.

التى قال الله تعالى عنها: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

شبهة: دخول قبر الرسول ﷺ داخل المسجد

إذا قال قائل: نحن الآن واقعون فى مشكلة بالنسبة لقبر الرسول - ﷺ - الآن، فإنّه فى وسط المسجد؛ فما هو الجواب؟

قلنا: الجواب على ذلك من وجوه.

الوجه الأول: أنَّ المسجد لم يبن على القبر، بل بُنِىَّ المسجد فى حياة النبىِّ ﷺ.

الوجه الثانى: أنَّ النبىَّ - ﷺ - لم يدفن فى المسجد، حتى يقال: إن هذا من دفن الصالحين فى المسجد بل دفن فى بيته.

الوجه الثالث: أنَّ إدخال بيوت الرسول - ﷺ - ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس بإتفاق من الصحابة بل بعد أن انقرض أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل. وذلك عام ٩٤ هـ تقريباً، فليس مما أجازه الصحابة أو أجمعوا عليه، مع أنَّ بعضهم خالف فى ذلك، وممَّن خالف أيضاً سعيد بن المسيب من التابعين؛ فلم يرضَ بهذا العمل.

الوجه الرابع: أنَّ القبر ليس فى المسجد، حتى بعد إدخاله؛ لأنَّه فى حجرة مستقلَّة عن المسجد؛ فليس المسجد مبنياً عليه، ولهذا جُعل هذا المكان محفوظاً ومحوطاً بثلاثة جدران، وجَعل الجدارن فى زاوية منحرفة عن القبلة، أى مثلث، والركن فى الزاوية الشماليَّة. بحيث لايستقبله الإنسان إذا صلَّى لأنّه منحرف.

قلت: وذكر نحو ذلك النووى فى مسلم(١).

فبهذا كلة يزول الإشكال الذى يَحتَج به أهلُ القبور، ويقولون هذا منذ عهد التابعين إلى اليوم، والمسلمون قد أقروه ولم ينكروه، فنقول: إنَّ الإنكار قد وُجدَ حتى فى زمن التابعين، وليس محل إجماع وعلى فرض أنه إجماع فقد تبيَّن الفرق من الوجوه الأربعة التى ذكرناها. ا هـ.

---

(١) (١٧/٣).

قال الألبانى[1]: قد يقول قائل: إذا كان من المقرر شرعاً تحريم بناء المساجد على القبور، فهناك أمور كثيرة تدل على خلاف ذلك وإليك بيانها:

أولاً: قوله تبارك وتعالى فى سورة الكهف: ﴿ **قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا** ﴾[2]، ووجه دلالة الآية على ذلك: أن الذين قالوا هذا القول كانوا نصارى، على ماهو مذكور فى كتب التفسير، فيكون اتخاذ المسجد على القبر من شريعتهم، وشريعة من قبلنا شريعة لنا إذا حكاها الله تعالى، ولم يعقبها بما يدل على ردها كما فى هذه الآية الكريمة.

ثانياً: كون قبر النبى ﷺ فى مسجده الشريف، ولو كان ذلك لا يجوز لما دفنوه ﷺ فى مسجده!

ثالثاً (*): زعم بعضهم أن المنع من اتخاذ القبور مساجد إنما كان لعلة خشية الافتتان بالمقبور، ثم زالت برسوخ التوحيد فى قلوب المؤمنين، فزال المنع!

فكيف التوفيق بين هذه الأمور وبين التحريم المذكور؟

وجواباً على ذلك أقول وبالله تعالى أستعين:

الجواب عن الشبهة الأولى:

سيأتى الجواب عليها مفصلاً فى الباب الثانى والعشرون (ماجاء أن بعض هذه الآية تعبد الأوثان) فيه ذكر المصنف فيه آية سورة الكهف المذكورة هنا. والله الموفق للصواب.

وأما الشبهة الثانية وهى أن قبر النبى ﷺ فى مسجده كما هو مشاهد اليوم، ولو كان ذلك حراماً لم يدفن فيه!

والجواب: أن هذا وإن كان هو المشاهد اليوم، فإنه لم يكن كذلك فى عهد الصحابة رضى الله عنهم، فإنهم لما مات ﷺ دفنوه فى حجرته التى كانت بجانب مسجده، وكان يفصل بينهما جدار فيه باب، كان ﷺ يخرج منه إلى المسجد، وهذا أمر معروف مقطوع به عند العلماء، ولا خلاف فى ذلك بينهم، والصحابة رضى الله عنهم حينما دفنوه ﷺ فى الحجرة، إنما فعلوا ذلك كى لايتمكن أحد بعدهم من اتخاذ قبره مسجداً، كما سبق

(١) من تحذير الساجد وحاشيته بتصرف.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢١.

(*) وبترتيب الألبانى (السادسة)

بيانه فى حديث عائشة وغيره. ولكن وقع بعدهم مالم يكن فى حسبانهم! ذلك أن الوليد بن عبد الملك أمر سنة ثمان وثمانين بهدم المسجد النبوى وإضافة حُجر أزواج رسول الله ﷺ إليه، فأدخل فيه الحجرة النبوية حجرة عائشة، فصار القبر بذلك فى المسجد(١) ولم يكن فى المدينة المنورة أحد من الصحابة حينذاك خلافاً لما توهم بعضهم.

قال العلامة الحافظ محمد بن عبد الهادى فى «الصارم المنكى»(٢).

«وإنما أدخلت الحجرة فى المسجد فى خلافة الوليد بن عبد الملك، بعد موت عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة، وكان من آخرهم موتاً جابر بن عبد الله، وتوفى فى خلافة عبد الملك، فإنه توفى سنة ثمان وسبعين، والوليد تولى سنة ست وثمانين، وتوفى سنة ست وتسعين، فكان بناء المسجد وإدخال الحجرة فيه فيما بين ذلك(٣)، وقد ذكر أبوزيد عمر بن شبَّة النميرى فى «كتاب أخبار المدينة» مدينة الرسول ﷺ عن أشياخه عمن حدثوا عنه أن عمر بن عبد العزيز لما كان نائباً للوليد على المدينة فى سنة إحدى وتسعين هدم المسجد وبناه بالحجارة المنقوشة، وعمل سقفه بالساج، وماء الذهب، وهدم حجرات أزواج النبى ﷺ فأدخلها فى المسجد وأدخل القبر فيه».

---

(١) تاريخ ابن جرير (٥/ ٢٢٢ - ٢٢٣) وتاريخ ابن كثير (٩/ ٧٤ - ٧٥).

(٢) (ص: ١٣٦).

(٣) قال الألبانى: وإنما لم يسم الحافظ ابن عبد الهادى السنة التى وقع فيها ذلك لأنها لم ترد فى رواية ثابتة على طريقة المحدثين، وما نقلناه عن ابن جرير هو من رواية الواقدى وهو متهم، ورواية ابن شبة الآتية فى كلام الحافظ ابن عبد الهادى مدارها على مجاهيل، وهم عن مجهول! كما هو ظاهر، فلا حجة فى شىء من ذلك، وإنما العمدة على اتفاق المؤرخين على أن إدخال الحجرة إلى المسجد كان فى ولاية الوليد، وهذا القدر كاف فى إثبات أن ذلك كان بعد موت الصحابة الذين كانوا فى المدينة حسبما بينه الحافظ، لكن يعكر عليه ما رواه أبو عبد الله الرازى فى مشيخته (١/٢١٨) عن محمد بن الربيع الجيزى: «توفى سهل بن سعد بالمدينة وهو ابن مائة سنة وكانت وفاته سنة إحدى وتسعين وهو آخر من مات بالمدينة من أصحاب النبى ﷺ. لكن الجيزى هذا لم أعرفه ثم هو معضل، وقد ذكر مثله الحافظ ابن حجر فى «الإصابة» (٢/ ٨٧) عن الزهرى من قوله فهو معضل أيضاً أو مرسل، ثم عقبه بقوله: «وقيل قبل ذلك، وزعم ابن أبى داود أنه مات بالاسكندرية»، وجزم فى «التقريب» أنه مات سنة ٨٨، فالله أعلم.

وخلاصه القول: أنه ليس لدينا نص تقوم به الحجة على أن أحداً من الصحابة كان فى عهد عملية التغيير هذه، فمن ادعى خلاف ذلك فعليه الدليل، فما جاء فى شرح مسلم» (٥/ ١٣ - ١٤) أن ذلك كان فى عهد الصحابة، لعل مستنده تلك الرواية المعضلة أو المرسلة، وبمثلها لاتقوم حجة، على أنها أخص من الدعوى، فإنها لو صحت إنما تثبت وجود واحد من الصحابة حينذاك، لا (الصحابة).

وأما قول بعض من كتب فى هذه المسألة بغير علم: =

= «فمسجد النبي ﷺ منذ وسعه عثمان رضي الله عنه وأدخل في المسجد ما لم يكن منه، فصارت القبور الثلاثة محاطة بالمسجد لم ينكر أحد من السلف ذلك».

فمن جهالاتهم التي لا حدود لها - ولا أريد أن أقول إنه من افتراءاتهم - فإن أحداً من العلماء لم يقل إن إدخال القبور الثلاثة كان في عهد عثمان رضي الله عنه، بل اتفقوا على أن ذلك كان في عهد الوليد بن عبد الملك كما سبق، أي بعد عثمان بنحو نصف قرن ولكنهم يهرفون بما لايعرفون ذلك لأن عثمان رضي الله عنه فعل خلاف ما نسبوا إليه، فإنه لما وسع المسجد النبوي الشريف احترز من الوقوع في مخالفة الأحاديث المشار اليها، فلم يوسع المسجد من جهة الحجرات، ولم يدخلها فيه، وهذا عين ما صنعه سلفه عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً، بل أشار هذا إلى أن التوسيع من الجهة المشار إليها فيه المحذور المذكور في الأحاديث المتقدمة كما سيأتي ذلك عنه قريباً.

وأما قولهم: «ولم ينكر أحد من السلف ذلك».

فنقول: وما أدراكم بذلك؟! فإن من أصعب الأشياء على العقلاء إثبات نفي شيء يمكن أن يقع ولم يعلم، كما هو معروف عند العلماء، لأن ذلك يستلزم الاستقراء التام والإحاطة بكل ما جرى، وما قيل حول الحادثة التي يتعلق بها الأمر المراد نفيه عنها، وأنى لمثل هذا البعض المشار إليه أن يفعلوا ذلك لو استطاعوا، ولو أنهم راجعوا بعض الكتب لهذه المسألة لما وقعوا في تلك الجهالة الفاضحة، لوجدوا ما يحملهم على أن لا ينكروا مالم يحيطوا بعلمه، فقد قال الحافظ ابن كثير في تاريخه (ص٧٥ج ٩) بعد أن ساق قصة إدخال القبر النبوي في المسجد: «ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد كأنه خشي أن يتخذ القبر مسجدا».

وأنا لا يهمني كثيراً صحة هذه الرواية، أو عدم صحتها، لأننا لا نبني عليها حكماً شرعياً، لكن الظن بسعيد بن المسيب وغيره من العلماء الذين أدركوا ذلك التغيير، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، لمنافاته تلك الأحاديث المتقدمة منافاة بينة، وخاصة منها رواية عائشة التي تقول: «فلولا ذاك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا» فما خشي الصحابة رضي الله عنهم قد وقع - مع الأسف الشديد - بإدخال القبر في المسجد، إذ لا فارق بين أن يكونوا دفنوه ﷺ حين مات في المسجد، وحاشاهم عن ذلك - وبين ما فعله الذين بعدهم من إدخال قبره في المسجد بتوسيعه، فالمحذور حاصل على كل حال كما تقدم عن الحافظ العراقي، وشيخ الاسلام ابن تيمية، ويؤيد هذا الظن أن سعيد بن المسيب أحد رواة الحديث الثاني كما سبق، فهل اللائق بمن يُعترف بعلمه وفضله وجرأته في الحق أن يُظن به أنه أنكر على من خالف الحديث الذي هو أحد رواته، أم أن ينسب إليه عدم إنكاره ذلك، كما زعم هؤلاء المشار إليهم حين قالوا: «لم ينكر أحد من السلف ذلك»!

والحقيق أن قولهم هذا يتضمن طعناً ظاهراً - لو كانوا يعلمون - في جميع السلف، لأن إدخال القبر إلى المسجد منكر ظاهر عند كل من علم بتلك الأحاديث المتقدمة وبمعانيها، ومن المحال أن ننسب إلى جميع السلف جهلهم بذلك، فهم، أو على الأقل بعضهم يعلم ذلك يقيناً، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من القول بأنهم أنكروا ذلك، ولو لم نقف فيه على نص، لأن التاريخ لم يحفظ لنا كل ما وقع، فكيف يقال: إنهم لم ينكروا ذلك؟! اللهم غفرا.

ومن جهالتهم قولهم عطفاً على قولهم السابق:

قال الألباني(١): يتبين لنا مما أوردناه أن القبر الشريف إنما أدخل إلى المسجد النبوى حين لم يكن فى المدينة أحد من الصحابة وأن ذلك كان على خلاف غرضهم الذى رموا إليه حين دفنوه فى حجرته ﷺ، فلا يجوز لمسلم بعد أن عرف هذه الحقيقة أن يحتج بما

«وكذا مسجد بنى أمية منذ دخل المسلمون دمشق من الصحابة وغيرهم والقبر ضمن المسجد لم ينكر أحد ذلك»!

إن منطق هؤلاء عجيب غريب! إنهم ليتوهمون أن كل ما يشهدونه الآن فى مسجد بنى أمية كان موجوداً فى عهد منشئه الأول الوليد بن عبد الملك، فهل يقول بهذا عاقل؟! كلا لا يقول ذلك غير هؤلاء! ونحن نقطع ببطلان قولهم، وأن أحداً من الصحابة والتابعين لم ير قبراً ظاهراً فى مسجد بنى أمية أو غيره، بل غاية ما جاء فى بعض الروايات عن زيد بن واقد أنهم فى أثناء العمليات ووجدوا مغارة فيها صندوق فيه سفط. (وعاء كالقفة) وفى السفط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، مكتوب عليه: هذا رأس يحيى عليه السلام، فأمر به الوليد فرد إلى المكان وقال: اجعلوا العمود الذى فوقه مغيراً من الأعمدة، فجعل عليه = = عمود مسبك مسفط الرأس. رواه أبو الحسن الربعى فى «فضائل الشام» (٣٣) ومن طريقه ابن عساكر فى تاريخه (ج٢ ق١ ص٩- ١٠) وإسناده ضعيف جداً، فيه إبراهيم بن هشام الغسانى كذبه أبو حاتم وأبو زرعة، وقال الذهبى «متروك». ومع هذا فاننا نقطع أنه لم يكن فى المسجد صورة قبر حتى أواخر القرن الثانى لما أخرجه الربعى وابن عساكر عن الوليد بن مسلم أنه سئل أين بلغك رأس يحيى بن زكريا؟ قال: بلغنى أنه ثم، وأشار بيده إلى العمود المسفط الرابع من الركن الشرقى، فهذا يدل على أنه لم يكن هناك قبر فى عهد الوليد ابن مسلم وقد توفى سنة أربع وتسعين ومائة.

وأما كون ذلك الرأس هو رأس يحيى عليه السلام فلا يمكن إثباته، ولذلك اختلف المؤرخون اختلافاً كثيراً، وجمهورهم على أن رأس يحيى عليه السلام مدفون فى مسجد حلب ليس فى مسجد دمشق، كما حققه شيخنا فى الاجازة العلامة الشيخ محمد راغب الطباخ فى بحث له نشره فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق (ج١ ص ٤١ - ١٤٨٢) تحت عنوان «رأس يحيى ورأس زكريا» فليراجعه من شاء.

ونحن لا يهمنا من الوجهة الشرعية ثبوت هذا أو ذاك، وسواء عندنا أكان الرأس الكريم فى هذا المسجد أو ذاك، بل لو تيقنا عدم وجوده فى كل من المسجدين، فوجود صورة القبر فيهما كاف فى المخالفة، لأن أحكام الشريعة المطهرة إنما تبنى على الظاهر، لا الباطن كما هو معروف، وسيأتى ما يشهد لهذا من كلام بعض العلماء، وأشد ما تكون المخالفة إذا كان القبر فى قبلة المسجد، كما هو الحال فى مسجد حلب، ولا منكر لذلك من علمائها!.

واعلم أنه لايجدى فى رفع المخالفة أن القبر فى المسجد ضمن مقصورة كما زعم مؤلفوا الرسالة، لأنه على كل حال ظاهر، ومقصود من العامة وأشباههم من الخاصة بما لايقصد به إلا الله تعالى؛ من التوجه إليه، والاستغاثة به من دون الله تبارك وتعالى، فظهور القبر هو سبب المحذور كما سيأتى عن النووى رحمه الله.

وخلاصة الكلام أن قول من أشرنا إليهم أن قبر يحيى عليه السلام كان ضمن المسجد الأموى منذ دخل دمشق الصحابة وغيرهم لم ينكر ذلك أحد منهم إن هو إلا محض اختلاق!

(١) تحذير الساجد (٦٤).

وقع بعد الصحابة، لأنه مخالف للأحاديث الصحيحة وما فهم الصحابة والأئمة منها كما سبق بيانه، وهو مخالف أيضاً لصنيع عمر وعثمان حين وسعا المسجد ولم يدخلا القبر فيه، ولهذا نقطع بخطأ ما فعله الوليد بن عبد الملك عفا الله عنه، ولئن كان مضطراً إلى توسيع المسجد، فإنه كان باستطاعته أن يوسعه من الجهات الأخرى دون أن يتعرض للحجرة الشريفة، وقد أشار عمر بن الخطاب إلى هذا النوع من الخطأ حين قام هو رضى الله عنه بتوسيع المسجد من الجهات الأخرى ولم يتعرض للحجرة، بل قال: «إنه لا سبيل إليها»[1]، فأشار رضى الله عنه إلى المحذور الذى يترقب من جراء هدمها وضمها إلى المسجد.

ومع هذه المخالفة الصريحة للأحاديث المتقدمة وسنة الخلفاء الراشدين، فإن المخالفين لما أدخلوا القبر النبوى فى المسجد الشريف احتاطوا للأمر شيئاً ما، فحاولوا تقليل المخالفة ما أمكنهم. قال النووى[2] فى «شرح مسلم».

«ولما احتاجت الصحابة[3] والتابعون إلى الزيادة فى مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون، وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة رضى الله عنها مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله، لئلا يظهر فى المسجد[4]، فيصلى إليه العوام،

(١) انظر «طبقات ابن سعد» (٤/ ٢١) و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٨/ ٤٧٨/ ٢) وقال السيوطى فى «الجامع الكبير» (٣/ ٢٧٢/ ٢): وسنده صحيح إلا أن سالماً أبا النضر لم يدرك عمر، و«وفاء الوفا» للسمهودى (١/ ٣٤٣) و«المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية» للعلامة محمد سلطان المعصومى رحمه الله تعالى (ص٤٣) وهو مؤلف رسالة «هدية السلطان إلى بلاد اليابان» التى ادعى أحد الدكاترة أنها ليست له، وإنما لبعض إخواننا! مع أننى تناولتها منه هدية مطبوعة حين زرته فى داره فى مكة فى حجتى الأولى سنة ١٣٦٨هـ.

(٢) (٥/ ١٤).

(٣) عزو هذا إلى الصحابة لايثبت.

(٤) فى هذا دليل واضح على أن ظهور القبر فى المسجد ولو من وراء النوافذ والحديد والأبواب لا يزيل المحذور، كما هو الواقع فى قبر يحيى عليه السلام فى مسجد بنى أمية فى دمشق وحلب، ولهذا نص أحمد على أن الصلاة لا تجوز فى المسجد الذى قبلته إلى القبر، حتى يكون بين حائط المسجد وبين المقبرة حائل آخر، كما سيأتى، فكيف إذا كان القبر فى قبلة المسجد من الداخل ودون جدار حائل؟ ومن ذلك تعلم أن قول بعضهم: «إن الصلاة فى المسجد الذى به قبر كمسجد النبى ﷺ ومسجد بنى أمية لايقال إنها صلاة فى الجبانة، فالقبر ضمن مقصورة مستقل بنفسه عن المسجد، فما المانع من الصلاة فيه».

فهذا قول لم يصدر عن علم وفقه! لأنه المانع بالنسبة للمسجد الأموى لا يزال قائماً وهو ظهور القبر=

ويؤدى الى المحذور، ثم بنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر».

ونقل الحافظ ابن رجب فى «الفتح» نحوه عن القرطبى كما فى «الكواكب»(١)، وذكر ابن تيمية فى «الجواب الباهر»(٢).

«أن الحجرة لما أدخلت إلى المسجد سدُ بابها، وبنى عليها حائط آخر، صيانة له ﷺ أن يتخذ بيته عيداً، وقبره وثناً».

قلت: ومما يؤسف له أن هذا البناء قد بنى عليه منذ قرون - إن لم يكن قد أزيل - تلك القبة الخضراء العالية، وأحيط القبر الشريف بالنوافذ النحاسية والزخارف والنجف، وغير ذلك مما لايرضاه صاحب القبر نفسه ﷺ.

= من وراء المقصورة، والدليل على ذلك قصد الناس للقبر والدعاء عنده وبه والاستغاثة به من دون الله، وغير ذلك مما لايرضاه الله، والشارع الحكيم إنما نهى عن بناء المساجد على القبور سداً للذريعة ومنعاً لمثل هذه الأمور التى تقع عند هذا القبر كما سيأتى بيانه، فما قيمة هذه المقصورة حينئذ مع وقوع هذه المنكرات وغيرها عند القبر؟! بل إن إحاطة القبر بهذه المقصورة على هذا الشكل المزخرف، إنما هى نوع آخر من المنكر الذى يحمل الناس على معصية الله ورسوله، وتعظيم صاحب القبر بما لا يجوز شرعاً، مما هو مشاهد معروف، وسبقت الإشارة إلى بعضه.

ثم ألا يكفى فى إثبات المانع أن الناس يستقبلون القبر عند الصلاة قصداً وبدون قصد، ولعل أولئك المشار إليهم وأمثالهم يقولون: لامانع أيضاً من هذا الاستقبال لوجود فاصل بين المصلين والقبر ألا وهو نوافذ القبر وشبكته النحاسية! فنقول لو كان هذا المانع كافياً فى المنع لما أحاطوا القبر النبوى الشريف بجدار مرتفع مستدير، ولم يكتفوا بذلك، بل بنوا جدارين يمنعون بهما من استقبال القبر. ولو كان وراء الجدار المستدير! وقد صح عن ابن جريج أنه قال: قلت لعطاء: أتكره أن تصلى فى وسط القبور؟ أو فى مسجد إلى قبر؟ قال: نعم، كان ينهى عن ذلك. أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (١/٤٠٤/١٥٧٩). فإذا كان هذا التابعى الجليل (عطاء بن أبى رباح) لم يعتبر جدار المسجد فاصلاً بين المصلى وبين القبر وهو خارج المسجد، فهل يعتبر فاصلاً النوافذ والشبكة والقبر فى المسجد؟!

فهل فى هذا ما يقنع أولئك الكاتبين بجهلهم وخطئهم، وهجومهم على القول بما لا علم لهم به؟ لعل وعسى!

وأما المسجد النبوى الكريم، فلا كراهة فى الصلاة فيه خلافاً لما افتروه علينا، وسيأتى تفصيل القول فيه إن شاء الله تعالى.

على أن لا أريد أن يفوتنى أن أنبه القراء الكرام على أن أولئك الكاتبين يعترفون بكلمتهم السابقة أن الصلاة فى المسجد الذى فيه قبر غير محاط بمقصورة أنها صلاة مكروهة لانتفاء العلة التى من أجلها نفوا الكراهة عن الصلاة فى مسجد بنى أمية بزعمهم، فهل لهم أن يجهروا للناس باعترافهم هذا؟ أم هو شىء اضطرهم إلى القول به التهرب من معارضة الأحاديث السابقة علناً وإن كانوا لا يدعون الناس إلى العمل بها لغاية لاتخفى على العقلاء؟!

(١) (٦٥/٩١/١).

(٢) (ق ٩/٢).

ثم قال الشيخ الألبانى بعد أن قرر حرمة الصلاة فى المساجد التى على القبور: ثم اعلم أن الحكم السابق يشمل كل المساجد، كبيرها وصغيرها، قديمها وحديثها، لعموم الأدلة[1]، فلا يستثنى من ذلك مسجد فيه قبر إلا المسجد النبوى الشريف؛ لأن له فضيلة خاصة لا توجد فى شيء من المساجد المبنية على القبور وذلك لقوله ﷺ: «صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام؛ [فإنه أفضل][2].

ولقوله ﷺ أيضاً: «ما بين بيتى[3] ومنبرى روضة من رياض الجنة»[4].

---

(١) قال الشوكانى فى «شرح الصدور فى تحريم رفع القبور» بعد أن ذكر حديث جابر المتقدم بلفظ: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يبنى عليه» (ص٧٠) من «المجموعة المنيرية»: «وفى هذا التصريح بالنهى عن البناء على القبور، وهو يصدق على من بنى على جوانب حفرة القبر كما يفعله كثير من الناس من رفع قبور الموتى ذراعاً فما فوقه، لأنه لا يمكن أن يجعل نفس القبر مسجداً، فذلك مما دل على أن المراد بعض ما يقربه مما يتصل به. ويصدق على من بنى قريباً من جوانب القبر كذلك، كما فى القباب والمساجد والمشاهد الكبيرة على وجه يكون القبر فى وسطها أو فى جانب منها، فإن هذا بناء على القبر كما لايخفى ذلك على من له أدنى فهم كما يقال: بنى السلطان على مدينة كذا أو قرية كذا سوراً، وكما يقال بنى فلان فى المكان الفلانى مسجداً، مع أن سمك البناء لم يباشر إلا جوانب المدينة أو القرية أو المكان، ولا فرق بين أن تكون تلك الجوانب التى وقع وضع البناء عليها قريبة من الوسط كما فى المدينة الصغيرة والقرية الصغيرة والمكان الضيق، أو بعيدة من الوسط كما فى المدينة الكبيرة والقرية الكبيرة والمكان الواسع، ومن زعم أن فى لغة العرب ما يمنع من هذا الإطلاق فهو لا يعرف لغة العرب، ولا يفهم لسانها، ولا يدرى بما استعمل فى كلامها».

(٢) تقدم تخريجه.

(٢) هذا هو اللفظ الصحيح «بيتى» وأما اللفظ المشهور عى الألسنة «قبرى» فهو خطأ من بعض الرواة كما جزم به القرطبى وابن تيمية والعسقلانى وغيرهم ولذلك لم يخرج فى شيء من الصحاح، وورده فى بعض الروايات لا يصيره صحيحاً لأنه رواية بالمعنى قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى «القاعدة الجليلة» (ص٧٤) بعد أن ذكر الحديث: «هذا هو الثابت الصحيح، ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال (قبرى) وهو ﷺ حين قال هذا القول لم يكن قد قبر، ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة، حينما تنازعوا فى موضع دفنه، ولو كان هذا عندهم لكان نصاً فى محل النزاع، ولكن دفن فى حجرة عائشة، فى الموضع الذى مات فيه، بأبى هو وأمى صلوات الله وسلامه عليه».

(تنبيه) ومن أوهام العلماء أن النووى فى «المجموع» عزا الحديث للشيخين بلفظ «قبرى»، ولا أصل له عندهما فاقتضى التنبيه.

(٤)[صحيح] أخرجه البخارى (١١٩٥)، ومسلم فى الحج (٤/ ١٧٣/ ٥٠) عن عبدالله بن زيد به.

ولغير ذلك من الفضائل، فلوقيل بكراهة الصلاة فيه كان معنى ذلك تسويته مع غيره من المساجد، ورفع هذه الفضائل عنه، وهذا لايجوز كما هو ظاهر، وهذا المعنى استفدناه من كلام ابن تيمية سيأتى فى بيان سبب إباحة صلاة ذوات الأسباب فى الأوقات المنهى عنها، فكما أن الصلاة أبيحت فى هذه الأوقات لأن فى المنع منها تضييعاً لها بحيث لايمكن استدراك فضلها لفوات وقتها، فكذلك يقال فى الصلاة فى مسجده ﷺ. ثم وجدت ابن تيمية صرح بهذا، **فقال فى كتابه «الجواب الباهر فى زور المقابر**[1]».

«والصلاة فى المساجد المبنية على القبور منهى عنها مطلقاً ، بخلاف مسجده، فان الصلاة فيه بألف صلاة، فإنه أسس على التقوى، وكانت حرمته فى حياته وحياة خلفائه الراشدين قبل دخول الحجرة فيه، وإنما أدخلت بعد انقراض عصر الصحابة».

ثم قال[2]: «وكان المسجد قبل دخول الحجرة فيه فاضلاً، وكانت فضيلة المسجد بأن النبى ﷺ بناه لنفسه وللمؤمنين، يصلى لله هو والمؤمنون إلى يوم القيامة، ففضل بنيانه له، فكيف وقد قال: «**صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**»[3]. وقال: «**لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى ومسجدى هذا**»[4]، وهذه الفضيلة ثابتة له قبل أن يدخل فيه الحجرة، فلا يجوز أن يظن أنه صار بدخول الحجرة فيه أفضل مما كان، وهم لم يقصدوا دخول الحجرة فيه، إنما قصدوا توسيعه بإدخال حجر أزواج النبى ﷺ، فدخلت الحجرة فيه ضرورة، مع كراهة من كره ذلك من السلف»[5].

ثم قال[6]:

«ومن اعتقد أنه قبل القبر لم تكن له فضيلة إذ كان النبى ﷺ يصلى فيه والمهاجرون والأنصار، وإنما حدثت له الفضيلة فى خلافة الوليد بن عبد الملك لما أدخل الحجرة فى مسجده ـ.

---

(١) (ص ٢٢/ ١ -٢).

(٢) (٦٧/ ١ - ٢/٦٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١١٨٩)، ومسلم فى الحج (٩/ ١٦٧ ـ النووى) عن أبى هريرة به. وانظر «منار السبيل» (٨٤٢ ـ بتخريجنا).

(٥) تقدم.

(٦) (٥٥/ ١ - ٢).

فهذا لا يقوله إلا جاهل مفرط فى الجهل، أو كافر، فهو مكذب لما جاء عنه، مستحق للقتل، وكان الصحابة يدعون فى مسجده، كما كانوا يدعون فى حياته، لم تحدث له شريعة غير الشريعة التى علمهم إياها فى حياته...، بل نهاهم أن يتخذوا قبره عيداً، أو قبر غيره مسجداً؛ يصلون فيه لله عز وجل، ليسد ذريعة الشرك، فصلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً وجزاه أفضل ما جزى نبياً عن أمته، فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد فى الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه».

الجواب عن الشبهة الثالثة:وهى الزعم بأن المنع إنما كان لعلة، وهى خشية الافتتان بالمقبور، وقد زالت، فزال المنع!!

الجواب: لا أعلم أحداً من العلماء ذهب إلى القول بهذه الشبهة، إلا مؤلف «إحياء القبور»، فإنه تمسك بها وجعلها عمدته فى رد تلك الأحاديث المتقدمة واتفاق الأئمة عليها، فقال ما نصه.

«وأما النهى عن بناء المساجد على القبور، فاتفقوا على تعليله بعلتين:

إحداهما: أنه يؤدى إلى تنجيس المسجد[1]..

وثانيهما: وهو قول الأكثرين بل الجميع حتى من نص على العلة السابقة أن ذلك قد يؤدى إلى الضلال والفتنة بالقبر، لأنه إذا وقع بالمسجد، وكان قبر ولى مشهور بالخير والصلاح، لا يؤمن مع طول المدة أن يزيد اعتقاد الجهلة فيه، ويؤدى بهم فرط التعظيم إلى قصد الصلاة إليه، إذا كان فى قبلة المسجد، فيؤدى بهم ذلك إلى الكفر والإشراك».

ثم ساق شيئاً من النقول فى العلة المذكورة عن بعض العلماء منهم الإمام الشافعى، وقد تقدم نصه فى ذلك ثم قال المؤلف المشار إليه[2].

«فالعلة المذكورة قد انتفت برسوخ الإيمان فى نفوس المؤمنين، ونشأهم على التوحيد الخالص، واعتقاد نفى الشريك مع الله تعالى، وأنه سبحانه المنفرد بالخلق والإيجاد والتصريف (!) وبانتفاء العلة ينتفى الحكم المترتب عليها، وهو كراهة اتخاذ المساجد والقباب على قبور الأولياء والصالحين»!

(١) قال فى حاشية «تحذير الساجد»: وهذه العلة باطلة من وجه لامجال لبيانها الآن، ومن أدلة ذلك بخصوص قبور الأنبياء أن أجسادهم لاتبلى كما صح عن رسول الله ﷺ، فكيف تنجس الأرض بهم؟!

(٢) (ص: ٢ - ٢١).

قلت ـ الألبانى ـ: والجواب: أن يقال: ثبت العرش ثم انقش!

أثبت أولاً أن الخشية المذكورة هى وحدها علة النهى، ثم أثبت أنها قد انتفت، ودون ذلك خرط القتاد.

أما الأول، فإنه لا دليل مطلقاً على أن العلة هى الخشية المذكورة فقط، نعم من الممكن أن يقال: أنها بعض العلة، وأما حصرها بها فباطل، لأن من الممكن أيضاً أن يضاف إليها أمور أخرى معقولة كالتشبه بالنصارى، كما تقدم فى كلام الفقيه الهيتمى، والمحقق الصنعانى، وكالإسراف فى صرف المال فيما لافائدة فيه شرعاً، وغير ذلك مما قد يبدو للباحث الناقد.

وأما زعمه أن العلة انتفت برسوخ الإيمان فى نفوس المؤمنين. . الخ. فهو زعم باطل أيضاً وبيانه من وجه:

الأول: أن الزعم بنى على أصل باطل، وهو أن الإيمان بأن الله هو المنفرد بالخلق، والإيجاد كاف فى تحقيق الإيمان المنجى عند الله تبارك وتعالى، وليس كذلك، فإن هذا التوحيد وهو المعروف عند العلماء بتوحيد الربوبية، كان يؤمن به المشركون الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾[١]، ومع ذلك فلم ينفعهم هذا التوحيد شيئاً، لأنه كفروا بتوحيد الألوهية والعبادة، وأنكروه على النبى ﷺ أشد الإنكار، بقولهم فيما حكاه الله عنهم! ﴿ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾[٢]. ومن مقتضيات هذا التوحيد الذى أنكروه ترك الاستغاثة والاستعانة بغير الله، وترك الدعاء والذبح لغير الله، وغير ذلك مما هو خاص بالله تعالى من العبادات، فمن جعل شيئاً من ذلك لغير الله تبارك وتعالى فقد أشرك به، وجعل له نداً وإن شهد له بتوحيد الربوبية، فالإيمان المنجى إنما هو الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية، وإفراد الله بذلك، وهذا مفصل فى غير هذا الموضوع.

فإذا تبين هذا تعلم أن الإيمان الصحيح غير راسخ فى نفوس كثير من المؤمنين بتوحيد الربوبية، ولا أريد أن أبعد بالقارئ الكريم فى ضرب الأمثلة، فحسبى هنا أن أنقل ما ذكره المؤلف الذى نحن فى صدد الرد عليه، فإنه قال بعد أسطر من كلامه السابق.

---

(١) سورة لقمان الآية ٢٥.

(٢) سورة ص الآية ٥.

«ونراهم (يعنى العامة) يحلفون بالأولياء، وينطقون فى حقهم بما ظاهره الكفر الصراح بل هو الكفر حقيقة بلا ريب ولاشك.. فكثير من جهلة العوام بالمغرب ينطق بما هو كفر صراح فى حق مولاناعبد القادر الجيلانى رضى الله عنه.. فإن عندنا بالمغرب من يقول عن القطب الأكبر؛ مولانا عبد السلام ابن مشيش رضى الله عنه: أنه الذى خلق الدين والدنيا! ومنه من قال - والمطر نازل بشدة: يامولانا عبد السلام الطف بعبادك! فهذا كفر!...».

قلت: فهذا الكفر أشد من كفر المشركين، لأن هذا فيه التصريح بالشرك فى توحيد الربوبية أيضاً، وهو مما لانعلم أنه وقع من المشركين أنفسهم! وأما الشرك فى الألوهية فهو أكثر فى جهال هذه الأمة - ولا أقول عوامهم! - فإذا كان هذا حال المسلمين اليوم، وقبل اليوم، فكيف يقول هذا الرجل:

«وقد انتفت العلة برسوخ الإيمان فى نفوس المؤمنين...»؟!.

وإذا كان يريد بـ «المؤمنين» الصحابة رضى الله عنهم، فلاشك أنهم كانوا مؤمنين حقاً، عالمين بحقيقة التوحيد الذى جاءهم به رسول الله ﷺ، ولكن الشريعة الإسلامية شريعة عامة أبدية، فلا يلزم من انتفاء العلة - لو ثبت - بالنسبة إليهم أن ينتفى الحكم بالنسبة لمن بعدهم، لأن العلة لاتزال قائمة، والواقع أصدق شاهد على ذلك.

الوجه الثانى: علمت مما سبق من الأحاديث أن النبى ﷺ حذر أمته من اتخاذ المساجد على القبور فى آخر حياته، بل فى مرض موته، فمتى زالت العلة التى ذكرها؟ إن قيل: زالت عقب وفاته ﷺ فهذا نقض لما عليه جميع المسلمين أن خير الناس قرنه ﷺ، لأن القول بذلك يستلزم - بناء على ما سبق من كلامه - أن الإيمان لم يكن قد رسخ بعد فى نفوس الصحابة رضى الله عنهم، وإنما رسخ بعد وفاته ﷺ! ولذلك لم تزل العلة وبقى الحكم، وهذا مما لا أتصور أحداً يقول به لوضوح بطلانه. وإن قيل: زالت قبل وفاته ﷺ، قلنا: وكيف ذلك وهو ﷺ إنما نهى عن ذلك فى آخر نَفَسٍ من حياته ﷺ؟! ويؤيده:

الوجه الثالث: أن فى بعض الأحاديث المتقدمة باستمرار الحكم إلى قيام الساعة.

الوجه الرابع: أن الصحابة رضى الله عنهم إنما دفنوه فى حجرته ﷺ خشية أن يتخذ قبره مسجداً، كما تقدم عن عائشة رضى الله عنها فى الحديث فهذه الخشية إما أن يقال: إنها كانت منصبة على الصحابة أنفسهم، أو على من بعدهم، فإن قيل بالأول، قلنا:

فالخشية على من بعدهم أولى، وإن قيل بالثانى، وهو الصواب عندنا، فهو دليل قاطع على أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا لايرون زوال العلة المستلزم زوال الحكم، لا فى عصرهم، ولا فيما بعدهم، فالزعم بخلاف رأيهم ضلال بيّن ويؤيده.

الوجه الخامس: أن العمل استمر من السلف على هذا الحكم ونحوه، مما يستلزم بقاء العلة السابقة، وهى خشية الوقوع فى الفتنة والضلال، فلو أن العلة المشار إليها كانت منتفية لما استمر العمل على معلولها، وهذا بين لايخفى والحمد لله، وإليك بعض الأمثلة على ما ذكرنا.

١ - عن عبد الله بن شرحبيل بن حسنة قال: رأيت عثمان بن عفان يأمر بتسوية القبور، فقيل له: هذا قبر أم عمرو بنت عثمان! فأمر به فسوى(١).

٢ - عن أبى الهَيَّاج الأسدى قال: قال لى على بن أبى طالب: ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ؟ أن لاتدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته(٢).

ولما كان هذا الحديث حجة واضحة على إبطال ما ذهب إليه الشيخ الغمارى فى كتابه المشار إليه سابقاً حاول التقصى منه من طريقين:

الأول: تأويله، حتى يتفق مع مذهبه!

والآخر: التشكيك فى ثبوته! فقال(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى «المصنف» (٣/ ٢٢٢/ ١).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٧/ ٣٦ ـ النووى).

عن على به وانظر «السلسبيل» (٩٢٩ ـ بتخريجنا).

قال الألبانى: ولا مخالفة بين هذا الحديث وبين ما ثبت فى السنة من مشروعية رفع القبر شبراً أو شبرين، حتى يتميز فيصان عن أن يهان، لأن المراد به تسوية ما رفع عليه من البناء، وإن قيل بخلافه قال الشيخ على القارئ فى «المرقاة» (٢/ ٣٧٢) فى شرح الحديث: «(قبراً مشرفاً) هو الذى بنى عليه حتى ارتفع دون الذى أعلم عليه بالرمل والحصباء أى محسومة (!) بالحجار ليعرف ولا يوطأ، (إلا سويته) فى الأزهار: قال العلماء: يستحب أن يرفع القبر قدر شبر ويكره فوق ذلك ويستحب الهدم، وفى قدره خلاف، قيل إلى الأرض تغليظاً، وهذا أقرب إلى اللفظ أى لفظ الحديث من التسوية».

وكذا فى «تحفة الأحوذى» (٢/ ١٥٤) نقلاً عن «المرقاة».

(٣) (ص: ٥٧)

ثم إن موضع الشاهد من الحديث إنما هو بعث علي أبا الهياج إلى تسوية القبور، وكان رئيس شرطته، ففيه دليل واضح على أن علياً - وكذا عثمان رضى الله عنهما فى الأثر المتقدم - كانا يعلمان بقاء هذا الحكم بعد وفاته ﷺ خلافاً لما زعمه الغمارى.

٣ - عن أبى بردة قال: أوصى أبو موسى حين حضره الموت فقال: إذا انطلقتم بجنازتى فأسرعوا المشى ولا يتبعنى مجمر، ولا تجعلوا فى لحدى شيئاً يحول بينى وبين التراب، ولاتجعلوا على قبرى بناء وأشهدكم أنى برىء من كل حالقة[١]، أو سالقة، أو خارقة، قالوا: أو سمعت فيه شيئاً؟ قال: نعم، من رسول الله ﷺ[٢].

٤ - عن أنس: كان يكره أن يبنى مسجد بين القبور[٣].

٥ - عن إبراهيم أنه كان يكره أن يجعل على القبر مسجداً[٤].

وإبراهيم هذا هو ابن يزيد النخعى الثقة الإمام، وهو تابعى صغير مات سنة (٩٦)، فقد تلقى هذا الحكم بلا شك من بعض كبار التابعين أو ممن أدركهم من الصحابة، ففيه دليل قاطع على أنهم كانوا يرون بقاء هذا الحكم واستمراره بعده ﷺ، فمتى نسخ؟!

٦ - عن المعرور بن سويد قال: «خرجنا مع عمر فى حجة حجها، فقرأ بنا فى الفجر ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[٥] و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾[٦]، فلما قضى حجه ورجع والناس، يبتدرون، فقال: ما هذا؟ فقال: مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال: هكذا هلك أهل الكتاب، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً! من عرضت له منكم فيها الصلاة، فليصل، ومن لم يعرض له منكم فيه الصلاة فلا يصل»[٧].

٧ - عن نافع قال:

«بلغ عمر بن الخطاب أن ناساً يأتون الشجرة التى بويع تحتها، فأمر بها فقطعت»[٨].

(١) (الحالقة): هى التى تحلق شعرها عند المصيبة، و(السالقة): التى ترفع صوتها، و(الخارقة): التى تخرق ثيابها عند المصيبة.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/٣٩٧).

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة (٢/ ١٨٥) ورجاله ثقات رجال الشيخين.

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة (٢/ ٢٧٠/ ١٢).

(٥) سورة الفيل: الآية ١.

(٦) سورة قريش، الآية: ١.

(٧) أخرجه ابن أبى شيبة (٢/ ٢٧٠/ ٩).

(٨) قال الألبانى: يبعد ذلك كله ما أخرجه البخارى فى «صحيحه» - (الجهاد) من طريق أخرى =

٨ - عن قزعة قال: سألت ابن عمر: آتي الطور؟ فقال: دع الطور ولا تأتها، وقال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد[١] .

٩- عن علي بن حسين : أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فدعاه فقال: ألا أحدثك بحديث سمعته من أبي عن جدي رسول الله ﷺ ؟ قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي، فإن صلاتكم وتسليمكم تبلغني حيثما كنتم»[٢].

= عن نافع قال: قال ابن عمر رضي الله عنهما: «رجعنا من العام المقبل، فما اجتمع اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، كانت رحمة من الله».

قلت: يعني الألباني - خفاءها عليهم. فهو نص على أن الشجرة لم تبق معروفة المكان حتى يمكن قطعها من عمر، فدل ذلك على ضعف رواية القطع الدال عليه الانقطاع الظاهر فيها نفسها.

ومما يزيدها ضعفاً ما روى البخاري في «المغازي» من «صحيحه» عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: «لقد رأيت الشجرة، ثم أتيتها بعده، فلم أعرفها».

ومن طريق طارق بن عبد الرحمن قال: «انطلقت حاجاً، فمررت بقوم يصلون، قلت: ما هذا المسجد قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان فأتيت سعيد بن المسيب، فضحك فقال: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها. وفي رواية: فعميت علينا فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها! وعلمتموها أنتم! فأنتم أعلم!.

أقول: ولئن كنا خسرنا هذه الرواية المنقطعة كشاهد فيما نحن فيه من البحث بعد التأكد من ضعفها، فقد كسبنا ما هو أقوى منها، مما يصلح دليلاً لما نحن فيه، وهو حديث المسيب هذا، وحديث ابن عمر: فقد قال الحافظ في شرحه إياه: «والحكمة في ذلك أن لايحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها حتى ربما أفضى بهم الأمر إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر، كما نراه الآن مشاهداً فيما هو دونها، وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله: «كانت رحمة من الله»، أي كان خفاؤها عليهم بعد ذلك رحمة من الله تعالى».

قلت- يعني الألباني -:ومن تلك الأشجار التي أشار إليها الحافظ شجرة كنت رأيتها منذ أكثر من عشر سنين شرقي مقبرة شهداء أحد،خارج سورها، وعليها خرق كثيرة، ثم رأيتها في موسم السنة الماضية (١٣٧١) قد استأصلت من أصلها . والحمد لله، و حمى المسلمين من شر غيرها من الشجر وغيره من الطواغيت التي تعبد من دون الله تعالى.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٦٨/ ٦) وتقدم بنحوه عن أبي بصرة الغفاري.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة أيضًا (٢/ ٢٦٩/ ٢).

ويقويه ما أخرجه ابن أبي شيبة أيضًا وابن خزيمة في «حديث على بن حجر» وابن عساكر من طريقين عن سهيل بن أبى سهيل أنه رأى قبر النبى ﷺ، فالتزمه ومسح، قال: فحصبنى حسن بن حسن بن على بن أبى طالب فقال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتخذوا بيتى عيدًا ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا على حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغنى**»[1].

١٠- عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبرى عيداً وصلوا على، فإن صلاتكم تبلغنى**[2]. **حيثما كنتم**»[3].

١١- ورأى ابن عمر فسطاطًا[4] على قبر عبد الرحمن فقال: «انزعه يا غلام فإنما يظله عمله»[5].

١٢- عن أبى هريرة أنه أوصى أن لا يضربوا على قبره فسطاطًا[6].

١٣- وروى ابن أبى شيبة وابن عساكر مثله عن أبى سعيد الخدرى[7].

١٤ - عن محمد بن كعب قال: هذه الفساطيط التى على القبور محدثة[8].

١٥ - عن سعيد بن المسيب أنه قال فى مرضه الذى مات فيه: إذا ما مت، فلا تضربوا على قبرى فسطاطًا[9].

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٢/٢٦٨/ ١).

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا.

(٢) قوله «تبلغنى» هذا الحديث وغيره مما تقدم صريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لا يسمع صلاة المصلين عليه، فمن زعم أن النبى ﷺ يسمعها فقد كذب عليه، فكيف حال من يزعم أنه ﷺ يسمع غيرها ؟!

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الفسطاط بيت من شعركما فى «اللسان» وفى «الكواكب الدرارى»: «وكره أحمد أن يضرب على القبر فسطاط».

(٥) علقه البخارى (٣/ ٢٦٤ ـ الفتح) وانظر كتابنا «بغية الفائز الجامع الأحكام الجنائز»..

(٦) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٣/٢١٦/ ١).

(٧) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٣/٢١٦/ ٢).

(٨) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٣/٢١٧/ ٥).

(٩) رواه ابن سعد (٥/ ١٤٢).

١٦ - عن سالم مولى عبد الله بن على بن حسين قال: أوصى محمد بن على أبو جعفر قال:

«لاترفعوا قبرى على الأرض»[١].

١٧ - عن عمرو بن شرحبيل قال: «لاترفعوا جدثى - يعنى القبر - فإنى رأيت المهاجرين يكرهون ذلك»[٢].

واعلم أن هذه الآثار وان اختلفت دلالاتها، فهى متفقة على النهى فى الجملة عن كل ما ينبىء عن تعظيم القبور تعظيماً يخشى منه الوقوع فى الفتنة والضلال، مثل بناء المساجد والقباب على القبور، وضرب الخيام عليها، ورفعها أكثر من الحد المشروع، والسفر والاختلاف إليها[٣]، والتمسح بها، ومثل التبرك بآثار الأنبياء ونحو ذلك، فهذه الأمور كلها غير مشروعة عند السلف الذين سميناهم من الصحابة وغيرهم، وذلك يدل على أنهم كانوا جميعاً يرون بقاء علة النهى عن بناء المساجد على القبور وتعظيمها بما لم يشرع، ألا وهى خشية الضلال والافتتان بالموتى كما نص عليها الإمام الشافعى رحمه الله فيما سبق، بدليل استمرارهم على القول بالحكم المعلول بهذه العلة، فإن بقاء أحدهما يستلزم بقاء الآخر، كما لايخفى، وهذا بالنسبة لمن نص منهم على كراهة بناء المساجد على القبور ظاهر، أما الذين صرحوا بالنهى عن غير ذلك، مثل رفع القبر وضرب الخيمة عليه ونحوه مما أجملنا الكلام عليه آنفاً، فهم يقولون ببقاء الحكم المذكور من باب أولى، وذلك لوجهين:

الأول: أن بناء المساجد على القبور أشد جرماً من رفع القبور وضرب الخيام عليها، لما ورد من اللعن على البناء، دون الرفع والضرب المذكور.

الثاني: أن المفروض فى أولئك السلف الفهم والعلم، فإذا ثبت عن أحد منهم النهى عن شىء هو دون ما نهى عنه الشارع، ولم ينقل هذا النهى عن أحدهم، فنحن نقطع بأنه ينهى عنه أيضاً، حتى ولو فرض عدم بلوغ النهى إليه لأن نهيه عما هو دون هذا يستلزم النهى عنه من باب أولى، كما لا يخفى.

---

(١) رواه الدولابى (١/ ١٣٤ - ١٣٥) ورجاله ثقات غير سالم هذا، فهو مجهول كما قال الذهبى فى «الميزان» والحلى الشيعى فى «خلاصة الأقوال» (ص ١٠٨) ـ الألبانى.

(٢) رواه ابن سعد (٦/ ١٠٨) بسند صحيح ـ الألبانى.

(٣) الاختلاف إليها أى: إكثار التردد لزيارتها، وهذا مستفاد من قوله ﷺ «اللهم لاتجعل قبرى عيداً».

فثبت أن القول بانتفاء العلة المذكورة وما بنى عليه كله باطل، لمخالفته نهج السلف الصالح رضى الله عنهم، مع مصادمته للأحاديث الصحيحة. والله المستعان.

قوله: ﴿ولولا ذلك أبرز قبره﴾.

قال ابن حجر[(١)]: قوله فى رواية أخرى: «لأبرز قبره» أى: لكشف قبر النبىّ - ﷺ - ولم يتخذ عليه الحائل والمراد الدفن خارج بيته، وهذا قالته عائشة قبل أن يوسع المسجد النبوى ولهذا لـمَّا وُسِّع المسجد جعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة حتى لايتأتى لأحد أن يصلى إلى جهة القبر مع استقبال القبلة. اهـ

وتقدم ذلك من كلام الألبانى وغيره نقلاً عن الذين تكلموا فى تاريخ المدينة من أهل العلم.

قال عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ[(٢)]: قوله «لولا ذلك».

أى ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبىّ - ﷺ - مسجداً لأبرز قبره وُجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم فى البقيع.

قال ابن عثيمين[(٣)]: وهذا أحد الأسباب التى أوجبت أن لا يبرُز مكان قبره - ﷺ - ومن أسباب ذلك إخباره - ﷺ - أنه ما قُبض نبىٌّ إلا دفن حيث قُبِض[(٤)]. ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أن السبب الواحد قد يترتب عليه حكمان أو أكثره كغروب الشمس يترتب عليه جواز إفطار الصائم، وصلاة المغرب.

قال الألبانى[(٥)]: «قال الكرمانى: مفاد الحديث منع اتخاذ القبر مسجداً، ومدلول الترجمة اتخاذ المسجد على القبر، ومفهومهما متغاير، ويجاب بأنهما متلازمان، وإن تغاير المفهوم».

وهذا المعنى هو الذى أشارت إليه السيدة عائشة رضى الله عنها بقولها فى آخر الحديث الأول:

«فلولا ذاك أبرِزَ قبره، غير أنه خُشِى أن يُتَّخذَ مسجداً».

إذ المعنى فلولا ذاك اللعن الذى استحقه اليهود والنصارى بسبب اتخاذهم القبور

---

(١) الفتح مع البخارى ٢٣٨/١.
(٢) فتح المجيد ٢٩٥.
(٣) القول المفيد ٥١١/١.
(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٨/١)، وابن ماجه (١٦٢٨) عن ابن عباس به.
(٥) من تحذير الساجد بتصرف مع الحاشية.

مساجد المستلزم البناء عليها، لجعل قبره ﷺ فى أرض بارزة مكشوفة، ولكن الصحابة رضى الله عنهم لم يفعلوا ذلك خشية أن يبنى عليه مسجد من بعض من يأتى بعدهم فتشملهم اللعنة.

قال الألبانى: ويؤيد هذا ما روى ابن سعد[1] بسند صحيح عن الحسن وهو (البصرى) قال: ائتمروا[2] أن يدفنوه ﷺ فى المسجد، فقالت عائشة: إن رسول الله ﷺ كان واضعاً رأسه فى حجرى إذ قال: قاتل الله أقواماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، واجتمع رأيهم أن يدفنوه حيث قبض فى بيت عائشة.

قلت ـ يعنى الألبانى ـ: فهذه الرواية - على إرسالها - تدل على أمرين اثنين:

أحدهما: أن السيدة عائشة فهمت من الاتخاذ المذكور فى الحديث أنه يشمل المسجد الذى قد يدخل فيه القبر، فبالأحرى أن يشمل المسجد الذى بنى على القبر.

الثانى: أن الصحابة أقروها على هذا الفهم، ولذلك رجعوا إلى رأيها فدفنوه ﷺ فى بيتها اهـ.

قوله: «غير أنه خشى أن يُتَخذ مسجداً».

وفى لفظ البخارى «غير أنى أخشى أن يُتخذ مسجداً».

قال ابن حجر[3]: قوله: «غير أنى أخشى» كذا هنا وفى رواية أبى عوانة عن هلال .. «غير أنه خُشىً أو خَشِىً على الشك هو بفتح الخاء المعجمة أو ضمها، وفى رواية مسلم «غير أنه خُشِىً» بالضم لاغير، فرواية الباب تقتضى أنها هى التى امتنعت من إبرازه ورواية الضم مبهمة يمكن أن تفسر بهذه والهاء ضمير الشأن وكأنها أرادت نفسها ومن وافقها على ذلك، وذلك يقتضى أنهم فعلوه بإجتهاد بخلاف رواية الفتح فإنها تقتضى أن النبىً - ﷺ - هو الذى أمرهم بذلك. . . أهـ

وهذا مؤدى ما قاله صاحب «تيسير العزيز الحميد» «وفتح المجيد» «والقول المفيد» وزاد الآخير فقال: والحقيقة أن الأمر كله حاصل: فالرسول - ﷺ - أخبر بأنَّه ما قُبض نبى إلا دفن حيث قبض، ولعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفاً من اتخاذ - قبره مسجداً ، والصحابة. رضى الله عنهم - اتفقوا على أن يُدفن - ﷺ - فى بيته بعد تشاورهم لأنهم خشوا ذلك. اهـ.

---

(1) (2/241) ـ الألبانى.

(2) أى تشاوروا. (3) 3/239.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ الله قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: إِنِّي أَبرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُم خَلِيلٌ فَإِنَّ الله قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاتَّخَذتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً. أَلاَ وإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُم عَنْ ذَلِكَ(١).

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلاَةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً» فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلاَةُ فِيهِ، فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِداً، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِداً، كَمَا قَالَ ﷺ «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً»(٢).

قوله: [عن جندب بن عبدالله]

قال ابن الأثير: هو جندب بن عبدالله بن سفيان اليحلى العلقى، له صحبة ليست بالقديمة، يكنى أبا عبدالله، سكن الكوفة، ثم انتقل إلى البصرة.

وقال ابن منده وأبو نعيم : ويقال له : جندب الخير. والذى ذكره ابن الكلبى أن جندب الخير هو جندب بن عبد الله الأزدي. أهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «المساجد» مواضع الصلاة/ باب: فضل بناء المساجد والحث عليها (/ ٣/ ١٦ ح٥٣٢).

من حديث جندب به.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى فى التيمم/ باب قوله ﷺ **«جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً»** (١/ ٢٢٤/ ٤٣٨).

ومسلم فى «المساجد» فى فاتحته (٥/ ٣ - النووى) وأحمد (٣/ ٣٠٤) والنسائى فى «المجتبى» فى «الطهارة»/ باب: التيمم بالصعيد (١/ ٢٠٩) والدارمى فى / باب: الأرض كلها طهور ما خلا المقبرة والحمام (١/ ٣٣٢، ٣٣٣). وابن حبان فى «صحيحه (٨/ ١٠٤/ ح ٦٣٦٤ الإحسان) والبيهقى فى «السنن الكبرى» (١/ ٣٢٦/ ح١٠١٧) والبغوى فى «شرح السنة» فى «الفضائل» (١٣/ ١٩٦/ ٣٦١٦) وابن أبى شيبة فى «المصنف (٧/ ٤١٠) وانظر «عمدة الأحكام» (ح٤٢) بتخريجنا وانظر «تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد» (ح ٣٠) بتخريجنا أيضاً.

وانظر «فتح المجيد» (٣٥٩). بتخريجنا.

وقال ابن حجر: وقال البغوى: يقال له: جندب الخير، وجندب الفاروق، وجندب بن أم جندب. اهـ.

وذكر المزى فى ترجمته: عن جندب بن عبدالله كنا مع النبى ﷺ ونحن فتيان حذاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيماناً. اهـ رواه ابن ماجه بسند صحيح قال أبو أحمد العسكرى وخليفة فى «الطبقات»: مات فى فتنة ابن الزبير، بعد أربع وستين. اهـ[1].

قوله: [سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول]

تقدم ذكر فائدة التنصيص على زمن سماعه ـ أى قبل أن يموت بخمس ـ عند قوله فى الحديث السابق (لما نزل برسول الله ﷺ)، وفى أول حديث عائشة الذى فى أول الباب.

قوله: [إنى أبرأ إلى الله]

قال النووى[2]: معنى (أبرأ) أى امتنع من هذا وأنكره. اهـ.

وبهذا القول قال شراح كتاب التوحيد، **وقال ابن عثيمين[3]:** البراءة هى التخلى، أى أتخلى أن يكون لى منكم خليل. اهـ.

قوله: [أن يكو ن لى منكم خليل]

قال النووى[4]: الخليل: هو المنقطع إليه، وقيل: المختص بشىء دون غيره. قيل: هو مشتق من (الخَلة) بفتح الخاء، وهي الحاجة . وقيل: من (الخُلَّة) بضم الخاء، وهى تخلل المودة فى القلب. فنفى ﷺ أن تكون حاجته وانقطاعه إلى غير الله تعالي، وقيل: الخليل من لايتسع القلب لغيره.

قال ابن حجر[5]: واختلف فى المودة والخلة والمحبة والصداقة، هل هى مترادفة أو مختلفة؟

قال أهل اللغة: الخلة أرفع رتبة، وهو الذى يشعر به حديث الباب.

وكذا قوله عليه السلام: «**لو كنت متخذاً خليلاً غير ربى**» فإنه يشعر بأنه لم يكن له

---

(١) انظر ترجمة فى «أسد الغابة» (١/ ٣٦٠) والإصابة (١/ ٢٥٠) وتهذيب الكمال بحاشية بشار (١٣٧/ ٥).

(٢ (٤) شرح مسلم (٣/ ١٧).

(٣) القول المفيد (١/ ٥١٤).

(٥) فتح البارى (٧/ ٢٧، ٢٨).

خليل من بني آدم وقد ثبتت محبته ﷺ لجماعة من أصحابه كأبي بكر وفاطمة وعائشة والحسنين وغيرهم.

وقال سليمان آل الشيخ[1]: والخليل هو المحبوب غاية المحبة، مشتق من الخلة بفتح الخاء، وهى تخلل المودة فى القلب كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني   وبذا سمى الخليل خليلاً

هذا هو الصحيح فى معناه كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم.

قال القرطبى: وإنما كان فى ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله، وتعظيمه، ومعرفته، فلايسع لمخالة غيره. اهـ.

جمع ابن حجر بين المحبة والخلة للنبى ﷺ: قال: ولا يعكر على هذا اتصاف إبراهيم عليه السلام بالخلة ومحمد ﷺ بالمحبة، فتكون المحبة أرفع رتبة من الخلة، لأنه يجاب عن ذلك بأن محمداً ﷺ قد ثبت له الأمران معاً فيكون ر جحانه من الجهتين، والله أعلم.

وقال: وقال الزمخشرى: الخليل هو الذى يوافقك فى خلالك ويسايرك فى طريقك أو الذي يسد خللك، وتسد خلله، أو يداخلك خلال منزلك، انتهى.

وكأنه جوز أن يكون اشتقاقه مما ذكر.

وقيل أصل الخلة: انقطاع الخليل إلى خليله، وقيل: الخليل من يتخلله سرك وقيل: من لايسع قلبه غيرك، وقيل: أصله الخلة: الاستصفاء، وقيل: المختص بالمودة، وقيل: اشتقاق الخليل من الخلة بفتح الخاء وهى الحاجة، فعلى هذا فهو المحتاج إلى من يخاله، وهذا كله بالنسبة إلى الإنسان، وأما خلة الله للعبد فبمعنى نصره له ومعاونته. اهـ.

[قلت]: وهذا الأخير واضح فساد تأويله لأمرين:-

(١) صرف قول النبى ﷺ عن ظاهره بدون ذكر قرينة شرعية لهذا التأويل.

(٢) قال الله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ و﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأشباه هذه الآيات تعارض هذا التأويل معارضة صريحة وتبين خطأ هذا المذهب؛ لأنه على هذا التأويل يكون المؤمنون من اتخذهم الله أخلاء، وعند ذلك لايكون ثمة تفضيل لإبراهيم عليه السلام فما قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾. والحق أن نذكر صفة الخلة كما هى دون تأويله ولا تعطيل كما هو مذهب أهل السنة فى

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٣٩).

الأسماء والصفات والله أعلم.

قال ابن عثيمين[1]: قوله (خليل) هو الذي يبلغ فى الحب غايته، لأن حبه يكون قد تخلل الجسم كله.

قال الشاعر يخاطب محبوبته فذكر البيت السابق ثم قال:

والخلة أعظم أنواع المحبة وأعلاها، ولم يثبتها الله ـ عزوجل ـ فيما نعلم إلا لأثنين من خلقه وهما إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ ومحمد ﷺ: «إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً» وبهذا تعرف الجهل العظيم الذي يقوله العامة: إن إبراهيم خليل الله ومحمداً حبيب الله، وهذا تنقص فى حق الرسول ﷺ؛ لأنهم بهذه المقالة جعلوا مرتبة النبي ﷺ دون مرتبج إبراهيم، ولأنهم إذا جعلوه حبيب الله لم يفرقوا بينه وبين غيره من الناس فإن الله يحب المحسنين والصابرين وغيرهم ممن علق الله بفعلهم المحبة، فعلى رأيهم لافرق بين الرسول ﷺ وغيره، لكن الخلة ما ذكرها إلا لإبراهيم، والنبى ﷺ أخبر أن الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً فالمهم: أن العامة مشكل أمرهم دائماً يصفون الرسول ﷺ بأنه حبيب الله فنقول: أخطأتم وتنقصتم نبيكم، فالرسول ﷺ خليل الله، لأنكم إذا وصفتموه بالمحبة أنزلتموه عن بلوغ غايتها. اهـ.

وسيأتى كلام ابن القيم بنحو هذا قريباً.

قوله: [فإن الله قد اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً]

تقدم كلام ابن عثيمين، وكأنه تابع سليمان آل الشيخ وأيضا:

عبدالرحمن آل الشيخ[2]:حيث قال فيه: بيان أنَّ الخلَّة فوق المحبة.

قال ابن القِّيم: ـ رحمه الله ـ«وأما ما يظنه بعض المغالطين من أنَّ المحبَّة أكمل من الخلَّة، وأنّ إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله ـ فمن جهلهم، فإنَّ المحبة عامة والخلَّة خاصَّة، وهى نهاية المحبة، وقد أخبر النبىُّ ﷺ أن الله قد اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليلا غير ربه، مع إخباره بحبِّه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب. (ومعاذ بن جبل) وغيرهم ـ رضى الله عنهم ـ وأيضاً فإنَّ الله «يحب التوابين ويحب المتطهرين» و«يحب الصابرين» وخلَّته خاصَّة بالخليلين.

مسائلة:

(١) القول المفيد (١/ ٥١٤، ٥١٥).

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد (٢٣٩) وفتح المجيد ٢٩٧.

قال الرسول ﷺ «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل»[1] هل معنى ذلك أننا لايجوز أيضا أن يتخذ الأخ أخا وخليلاً؟

الجواب: أن كون النبي ﷺ بدأ إلى الله من إن يكون له منهم خليلاً هذا من خصائصه ﷺ وليس الخله ممنوعه بإطلاق والسبب هو أن قوله ﷺ: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**». فلا يجوز عليه بعد أن أتخذه الله خليلاً أن يتخذ هو غير الله خليلاً. بل لابد وأن تكون العلاقة أيضا من جنس محبة الله له. فكما أن الله عزوجل اتخذه خليلاً فهو برأ إلى الله من أن يكون له منهم خليلاً لكن هو لم يمنع من الخلة بإطلاق ولو كانت الخلة ممنوعة ما قال في الحديث «ولو كنت متخذاً خليلاً لإتخذت أبا بكر خليلاً» فهو لو كانت ممنوعة ما جزله أن يقول هذه المقولة. لأنه لما قال «لو كنت متخذاً خليلاً» يفهم منه جواز الخلة ولكنه لم يتخذه خليلاً ولأن الله عزوجل أقر هذه الخله فيما بين المؤمنين فقال تعالى: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾ فأجاز أن يكون بين التقي والمتقي خلة وإن هذه الخلة لايترتب عليها عداوة في الآخرة بخلاف خلة أصحاب الجحيم قال تعالى: ﴿**وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ ولأن النبي ﷺ ثبت عنه في سنن أبي داود وعند النسائي والترمذي أنه قال ﷺ «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[2] إلا أنه لاينبغي أن تكون الخلة مهما بلغت إلا أن تكون في الله «أن تحب المرء لاتحبه إلا في الله» كما تقدم معنا مراراً في حديث «**ثلاث منكم فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**........» الحديث فإن كان هذه أساس الخلة والمحبة فيما بينك وبين أخيك فلا بأس من أن تخالل وتصادق» والله أعلم.

قوله: [ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر]

[قلت]: كذا اقتصر مسلم على هذه اللفظة، وعند البخاري بزيادة، في مناقب الصحابة من حديث أبي سعيد قال: «**ولكن أخوة الإسلام ومودوته**» وعن ابن عباس «**ولكن أخي وصاحبي**» وعنه «**ولكن أخوة الإسلام أفضل**»، وعند أحمد من حديث ابن الزبير «**لاتخذت أبا بكر، ولكنه أخي في الدين، وصاحبي في الغار**» ووقع في رواية أحمد من طريق ابن جريج عن ابن أبي مليكة في طرق الحديث السابق «**لو كنت متخذاً خليلاً سوى الله حتى ألقاه**»[3].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه أحمد في «مسنده» (2/ 303)، وأبو داود (4833)، والترمذي (2378) عن أبي هريرة.

(3) وانظر فتح الباري (7/ 28) بتصرف.

●**إشكال بين هذه اللقطة وبين بعض الطرق السابق ذكرها بلفظ «ولكن أخوة الإسلام أفضل»**

قال ابن حجر(١): وأخرجه أبو يعلى بلفظ «ولكن خلة الإسلام أفضل» وفيه إشكال، فإن الخلة أفضل من أخوة الإسلام، لأنها تستلزم ذلك وزيادة. فقيل: المراد أن مودة الإسلام مع النبي ﷺ أفضل من مودته مع غيره. وقيل: أفضل بمعنى فاضل، ولايعكر على ذلك اشتراك جميع الصحابة في هذه الفضيلة، لأن رجحان أبي بكر عرف من غير ذلك، وأخوة الإسلام ومودته متفاوتة بين المسلمين في نصر الدين وإعلاء كلمة الحق وتحصيل كثرة الثواب، ولأبي بكر من ذلك أعظمه وأكثره، والله أعلم.

قال ابن حجر(٢): **وفي قوله: [ولو كنت متخذا خليلاً...]** منقبة عظيمة لأبي بكر لم يشاركه فيها أحد ونقل ابن التين عن بعضهم أن معنى قوله: «ولو كنت متخذاً خليلاً» لو كنت أخص أحداً بشيء من أمر الدين لخصصت أبا بكر، قال: وفيه دلالة على كذب الشيعة في دعواهم أن النبي ﷺ كان خص علياً بأشياء من القرآن وأمور الدين لم يخص بها غيره.

قلت ـ أي الحافظ(٣) ـ: والاستدلال بذلك متوقف على صحة التأويل المذكور، وما أبعدها. اهـ.

●**إشكال ثاني وجوابه:**

قال ابن حجر(٤): أما ما روى عن أُبي بن كعب قال: «إن أحدث عهدي بنبيكم قبل موته بخمس، دخلت عليه وهو يقول: «**إنه لم يكن نبي إلا وقد اتخذ من أمته خليلاً، وإن خليلي أبوبكر، ألا وإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**» أخرجه أبوالحسن الحربي في «فوائده».

وهذا يعارضه ما في رواية جندب عند مسلم ـ أي حديث هذا الباب ـ وفيه «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل**».

فإن ثبت حديث أبي أمكن أن يجمع بينهما بأنه لما برىء من ذلك تواضعاً لربه وإعظاماً له أذن الله تعالى فيه من ذلك اليوم لما رأى من تشوفه إليه وإكراماً لأبي بكر بذلك، فلايتنافى الخبران، أشار إلى ذلك المحب الطبري، وقد روى من حديث أبي أمامة نحو حديث أبي بن كعب دون التقييد بالخمس، أخرجه الواحدي في «تفسيره» والخبران واهيان والله أعلم.

(١) فتح الباري (٧/ ١٧). (٢) وانظر فتح الباري (٧/ ٢٨) بتصرف.
(٣) فتح الباري (٧/ ١٧). (٤) فتح الباري (٧/ ١٧).

●**إشكال ثالث وجوابه:**

قال ابن حجر[(١)]: قال الداودي: لاينافى هذا ـ أى قوله «لـو كنت متخذاً خليلاً» ـ قول أبى هريرة وأبى ذر وغيرهما «أخبرنى خليلى ﷺ»؛ لأن ذلك جائز لهم.

ولايجوز للواحد منـهم أن يقول أنا خليل النبى ﷺ، ولهذا يقـال إبراهيم خليل الله ولايقال: الله خليل إبراهيم. قلت: ولايخفى ما فيه. اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ[(٢)]: قوله «ولو كنـت متخذاً خليلاً من أمـتى لاتخذت أبا بكر خليلاً» فيـه دليل على أن الصديق أفضل الصحابة، حـيث صرح ﷺ أنه لو اتخذ خليلاً غير ربه، لاتخذ أبا بكر، ففيه رد على الرافضة وعلى الجهمية الذين هم شر أهل البدع، بل أخرجـهم بعض السلف من الثنـتين والسبعين فرقة، وبسبـب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهـم أول من بنى عليها المساجد، قاتلهـم الله. قاله المصنف اهـ. وسيأتى إن شاء الله.

و قال حامد بن محمد[(٣)]: «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر» لما رأيت منه من التصديق والنصح لله ولرسوله اهـ.

وقال عبـد الله بن جار الله[(٤)]: أى لو قُدر أنى أحببت أحـداً مع الله لكان أبا بكر صاحبه فى الغار. اهـ.

وقال ابن باز[(٥)]: فلم يتخذه خليلاً لئلا تزاحم محبته محبة الله عزوجل اهـ.

وقال ابن عثيمين[(٦)]: «لو» حرف امتناع لامتناع، فيـمتنع الجواب لامتناع الشرط، وعلى هذا امتنع ﷺ من اتخاذ أبى بكر خليلاً، لأنه يمتنع أن يتخذ من أمته خليلاً. اهـ.

وقال القرعاوى[(٧)]: لو كان فى نيته أن يتخذ من الخلق خليلاً. . . اهـ.

قوله: «**ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد**».

قال ابن عثيمين: «قوله: «ألا».

للتنبيه، وهذه الجملة من الحديث الأوّل لكنه ابتدأها بالتنبيه لأهمية المقام[(٨)].

---

(١) فتح البارى (٢٧/٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٣٩، ٢٤٠).

(٣) فتح الله الحميد (٢٩٣).

(٤) الجامع الفريد (٨٥).

(٥) التعليق المفيد (١٢١).

(٦) القول المفيد (٥١٥/١، ٥١٦).

(٧) الجديد (١٨٩).

(٨) القول المفيد ٥١٦/١.

قال سليمان آل الشيخ وتبعه عبدالرحمن آل الشيخ[1]: قال الخلخالي: «وإنكار النبيّ ﷺ صنيعهم هذا مخرَّج على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً.

قلت: والدليل أنه كان للتعظيم حديث معاذ.

الثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء. والأوّل: هو الشرك الجلي، والثاني: الخفي، فلذلك استحقوا اللعن.

قلت ـ أي سليمان ـ الحديث أعم من ذلك، فيشمله ويشمل بناء المساجد والقباب عليها. اهـ.

قال حامد بن محمد[2]: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذوان قبور أنبيا ئهم مساجد» فيقعون في الشرك، والكفر؛ بالغلو فيهم. اهـ.

وقال عبدالله بن جار الله[3]:ـ وهذا هو ـ الشاهد من الحديث. اهـ.

قال ابن باز[4]: «كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد» وفي مسلم «أنبيائهم وصالحيهم مساجد»، وسقطت لأنه نقلها من اقتضاء الصراط المسقيم وقد سقطت من هناك. ومنع من هذا بثلاثة طرق:

الأول: ذم ما فعلوه.

قلت: لقوله: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد».

الثاني: قوله «لاتتخذوا».

الثالث: قوله «فإني أنهاكم عن ذلك».

وهذه مبالغة منه في النهي عن ذلك لأنه وسيلة إلى الشرك كما حصل الآن. اهـ.

قوله: «ألا فلاتتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٤٠) وانظر فتح المجيد ٢٩٩.

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٣).

(٣) الجامع الفريد (٨٥).

(٤) التعليق المفيد ١٢١.

قال النووي[1]: قال العلماء: إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره و قبر غيره مسجد خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية، ولما احتاجت الصحابة - رضوان الله عليهم جميعاً - والتابعون إلى الزيادة في مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة - رضي الله عنها - مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - بنوا على القبرحيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد، فيصلي إليه العوام ويؤدي إلى المحذور، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لايتمكن أحد من استقبال القبر، ولهذا قال في الحديث «لولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً. والله أعلم بالصواب. اهـ.

قال حامد بن محمد[2]: «أفلا تتخذوا القبور مساجد» فتقعون فيما وقعوا فيه. «فإني أنهاكم عن ذلك».

قال ابن عثيمين: قوله: «ألا فلا تتخذوا».

هذا تنبيه آخر للنهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره.

قوله: «فإني أنهاكم عن ذلك».

هذا نهي باللفظ دون الأداة تأكيداً لهذا النَّهي لأهمية المقام[3].

قوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته».

قال عبدالرحمن آل الشيخ[4]: أي: كما في حديث جندب وهذا من كلام شيخ الإسلام، وكذا من بعده.

وقال ابن عثيمين[5]: الضمير يعود إلى النبيِّ ﷺ والمنهي عنه هو اتخاذ القبور مساجد.

قوله: «ثم إنه لعن - وهو في السياق - من فعله».

---

(١) القول المفيد ١/٥١٦ .

(٢) شرح مسلم (١٧/٣).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٣٩,

(٤) فتح المجيد ٢٩٩ .

(٥) القول المفيد ١/٥١٧ .

قال عبدالرحمن آل الشيخ[1]: كما فى حديث عائشة.

قلت ـ والكلام لازال له ـ فكيف يسوغ بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تُعظَّم القبور ويُبنى عليها، ويصلى عندها وإليها؛ هذا أعظم مُشاقة ومحادة لله تعالى ولرسوله ﷺ لو كانوا يعلمون.

قوله: «والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن المسجد».

قال سليمان آل الشيخ[2]:

قوله: والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجداً، يعنى: أن الصلاة عند القبور وإليها من اتخاذها مساجد الملعون من فعله، وإن لم يبن مسجداً، فتحرم الصلاة فى المقبرة وإلى القبور، بل لاتنعقد أصلاً[*] لما فى هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها، من لعن من اتخذها مساجد.

وروى مسلم عن أبى مَرْثَدٍ الغَنوىِّ رضى الله عنه قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: **«لاتَجلِسُوا على القبُورِ ولاَ تَصلُّوا إليهَا»**[3].

وعن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً **«الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»**[4] رواه أحمد وأهل السنن، وصححه ابن حبان والحاكم من طرق على شرط الشيخين.

وفى «صحيح البخارى» أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أنس بن مَالكٍ يُصلى عِندَ قَبرٍ فَقَال: القَبْرَ القَبْرَ»[5] وهذا يدل على أنه كان من المستقر عند الصحابة ما نهاهم عنه نبيهم ﷺ، من الصلاة عند القبور.

وفعل أنس لايدل على اعتقاد جوازه، فإنه لعله لم يره، ولم يعلم أنه قبر أو ذهل عنه، فلما نبهه عمر تنبه.

---

(1) فتح المجيد ٢٩٩.

(2) تيسير العزيز الحميد ٢٤٠.

(*) وهذا قول من جملة الأقوال المتقدمة والتى ستأتى بتفصيل قريباً فى حكم الصلاة على القبور أو إليها وانظر باقى الأقوال من كلام العلامة الألبانى التى ذكرناها من كتابه وكلام غيره من الفقهاء.

(3) سبق تخريجه.

(4) [يحسن] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/٨٣، ٩٦)، وأبو داود (٤٩٢)، والترمذى (٣١٧)، وابن ماجه (٧٤٥) عن أبى سعيد به.

وانظر «السلسبيل» (٣٥١ ـ بتخريجنا).

(5) تقدم.

وفى هذا كله إبطال قول من زعم أن النهى عن الصلاة فيها لأجل النجاسة، فهذا أبعد شىء عن مقاصد الرسول ﷺ، بل العلة فى ذلك الخوف على الأمة أن يقعوا فيما وقعت فيه اليهود والنصارى، وعباد اللات والعزى من الشرك.

ويدل على ذلك أن النبى ﷺ لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم قطعاً أن هذا ليس لأجل النجاسة، لأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، فهم فى قبورهم طريون.

وقد لعن النبى ﷺ متخذى المساجد عليها وموقدى السرج عليها، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما هو لعن فاعله، لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعلها نصباً يوفض إليها المشركون كما هو الواقع، فهكذا اتخاذ المساجد عليها.

قال ابن القيم: وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه، وذرائعه، وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده جزم جزماً لايحتمل النقيض، أن هذه المبالغة واللعن والنهى بصيغتيه، صيغة (**لاتفعلوا**) وصيغة (**إنى أنهاكم**) ليس لأجل النجاسة. بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه، أو عدم من تحقيق لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبى ﷺ صيانة لحمى التوحيد، أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا التعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيماً وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد. ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل على عباد يغوث ويعوق ونسر، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة. فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن فى طريقتهم، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقهم وإنزالهم منازلهم التى أنزلهم الله إياها من العبودية، وسلب خصائص الإلهية.

قلت: ـ سليمان آل الشيخ ـ: وممن علل بخوف الفتنة والشرك الشافعى وأبو بكر الأثرم وأبو محمد المقدسى وشيخ الإسلام وغيرهم وهو الحق(*).

قال ابن عثيمين(١): «عندها» أى: القبور.

(*) وهذا فيه رد على المسألة المتقدمة، بأن العلة انتفت وانتشر الدين وظهر الإيمان، ولم يبق من آثار الشرك شىء، كما نقل ـ عن الغمارى وغيره ممن نهج هذا النهج ـ ذلك الشيخ الألبانى ورد عليهم، وهنا تأكيد لرده السابق.

(١) القول المفيد ١/ .

وقولـه «من ذلك»؛ أى: من اتـخاذها مـساجد، وعـلى هذا؛ فلاتجـوز الصلاة عـند القبور، ولهـذا نهى النبىُّ ﷺ كما فى «صحـيح مسلم» من حديث أبى مـرثد الغنوى ـ المتقدم ـ أن يُصَلَّى إلى القبور؛ فقال: «**لاتصلوا إلى القبور**»(١).

قال النووى: قوله ﷺ «لاتجلسوا على القبور ولاتصلوا عليها» فيه تصريح بالنهى عن الصلاة إلى الـقبر. قال الشافعـى رحمه الله وأكره أن يعظـم مخلوق حتى يجـعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعد من الناس.

حكم الصلاة فى هذه المساجد وعلاقته بالباب.

قال الألبانى:(٢) قصد الصلاة فى المساجد المبنية على القبور يبطل الصلاة.

إن للمصلى فى المساجد المذكورة حالتين:

الأولى: أن يقصـد الصلاة فيها مـن أجل القبور والتـبرك بها كمـا يفعله كثـير من العامة، وغير قليل من الخاصة!

الثانية: أن يصلى فيها اتفاقاً لاقصداً للقبر.

ففى الحالة الأولى لاشـك فى تحريم الصلاة فيها بل فى بطـلانها، لأنه إذا نهى ﷺ عن بناء المساجد على القبور، ولعن من فعل ذلك، فالنهى عن قصد الصلاة فيها أولى، والنهى هنا يقتضى البطلان كما سبق قريباً.

قال الفقير: هذا الكلام فيه فوائد:ـ

الأولى: أن الألبانى وهو من أئمة السلفية لنا أجاز تقسيم الناس لعوام وخواص. لأننا نسمع من بعض المشايخ وطلبة العلم أنهـم لايرون تقسيم الناس إلى أخوة ملتزمين وغير أخوة. ويرون أن هذا أشبه بفعل المبتدعة والشـيعة والخوارج وغيرهم. فها هو أحد أئمة السلفية يُجَوِّز بل ينص على تقسيم الناس إلى عوام وإلى خواص.

الثانية: أنه يلوح وينوه ببعض من نعدهم من الخواص، أو يعدهم كذلك العوام أنهم من خواص الناس أى من الأئمة والدعاة والمشايخ يصـلون فى هذه المساجد ويعقدون فيها دروساً وخطباً كمـا نوهت ببعضهم بعد وفاتـه بفترة قليلة وبينت أنـه أيضا برغم أن له محاسن إلا أن له مساوىء من أعظمها خطراً أنه يعقد هذه الدروس فى هذه المساجد وإنما يسوغ بذلك لـلعوام الصلاة فيها، وكذلك يـكون حجة أو شبهة للعـامى إذا ما عرضت

(١) تقدم.

(٢) من تحذير الساجد بحاشيته بتصرف.

عليه أن النبى ﷺ منع من ذلك وقال «**لعنة الله على اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**».

كراهة الصلاة فى المساجد المذكورة ولو لم تقصد من أجل القبر.

قال الألباني: وأما فى الحالة الثانية، فلايتبيـن لى الحكم ببطلان الصلاة فيها، وإنما الكراهة فقط، لأن القول بالبطلان فى هذه الحالة لابد له من دليل خاص، والدليل الذى أثبتنا به البطلان فى الحالة الأولى لا يمكن سحبه على هذه الحالة، ذلك لأن البطلان فى الحالة السابقة إنما صح بناء على النهى عن بناء المسجد على القبر، وهذا النهى لايتصور إلا مع تحقق قصد البناء فيصح القول بأن قصد الصلاة فى هذا المسجد يبطلها، وأما القول ببطلان الصلاة فيه دون قصد، فليس عليه نهى خاص يمكن الاعتماد عليه فيه ولايمكن أن يقاس قياساً صحيحاً بله أولوياً.

ولعل هذا هو السبب فى ذهاب الجمهور إلى الكراهة دون البطلان، أقول هذا معترفاً بأن الموضوع يحتاج إلى مزيد من التحقيق، وأن القول بالبطلان محتمل، فمن كان عنده علم فى شىء من ذلك، فليتفضل ببيانه مع الدليل مشكوراً مأجوراً.

وأما القول بكراهة الصلاة فى المساجد المبنية على القبور، فهذا أقل ما يمكن أن يقوله الباحث، وذلك لأمرين:

الأول: أن فى الصلاة فيها تشبهاً باليهود والنصارى الذين كانوا ولايزالون يقصدون التعبد فى تلك المساجد المبنية على القبور![1].

الثانى: أن الصلاة فيها ذريعة لتعظيم المقبور فيها تعظيماً خارجاً عن حد الشرع، فينهى عنها احتياطاً وسداً للذريعة، لا سيما ومفاسد المساجد المبنية على القبور ماثلة للعيان كما سبق مراراً، وقد نص العلماء على كل من العلتين، فقال العلامة ابن الملك من علماء الحنفية:

«إنما حرم اتخاذ المساجد عليها، لأن فى الصلاة فيها استناناً بسنة اليهود».

---

(١) قرأت مقالاً فى مجلة «المختار» عدد مايو ١٩٨٥ تحت عنوان «الفاتيكان المدينة القديمة المقدسة» يصف فيه كاتبه «رونالد كارلوس بيتن كنيسة بطرس فى هذه المدينة فيقول (ص٤٠):

«إن كنيسة القديس بطرس وهى أكبر كنيسة من نوعها فى العالم المسيحى، تقوم على ساحة مكرّسة للعبادة المسيحية منذ أكثر من سبعة عشر قرناً، إنها قائمة على قبر القديس نفسه: صياد السمك، حوارى المسيح، وتحت أرضيتها يقع تيه من المقابر الأثرية، والخرائب الرومانية القديمة».

ثم ذكر أنه يقصدها نحو مائة ألف شخص فى أيام الأعياد الكبيرة للعبادة!.

نقله الشيخ القارى فى «المرقاة»[1] وأقره، وكذلك قال بعض العلماء المتأخرين من الحنفية وغيرهم كما سيأتى.

قلت: ولأن النبى ﷺ قال: **«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»** فهذه هى العمومات التى استدل بها الحنابلة وغيرهم على بطلان هذه الأمور. والذى يصلى فى مساجد فيها قبور فهو عمل عملاً ليس عليه أمر النبى ولا الصحابة «فعمله مردود باطل».

فقول الألبانى أن القول بالبطلان محتمل فهذا الإحتمال قد يترجح أيضا ويقوى بهذه العمومات. والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى «القاعدة الجليلة»: واتخاذ المكان مسجداً هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها، كما تبنى المساجد لذلك، والمكان المتخذ مسجداً إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين، فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد تقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده، لأن ذلك ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده، فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله. والفعل إذا كان يفضى إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة، ينهى عنه كما نهى عن الصلاة فى الأوقات الثلاثة، لما فى ذلك من المفسدة الراجحة، وهو التشبه بالمشركين الذى يفضى إلى الشرك، وليس فى قصد الصلاة فى تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع فى غير ذلك من الأوقات، ولهذا تنازع العلماء فى ذوات الأسباب[2] فسوغها كثير منهم فى هذه الأوقات، وهو أظهر قولى العلماء، لأن النهى إذا كان لسد الذريعة أبيح للمصلحة الراجحة، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه فى هذه الأوقات.

ويفوت إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها، فأبيحت لما فيها من المصلحة، بخلاف ما لاسبب له، فإنه يمكن فعله فى غير هذا الوقت، فلا تفوت بالنهى عنه مصلحة راجحة، وفيه مفسدة توجب النهى عنه. فإذا كان نهيه عن الصلاة فى هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك، لئلا يفضى ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها، كان معلوماً أن دعوة الشمس

(١) (١/ ٤٧٠).

(٢) قلت ـ يعنى الألبانى ـ: يعنى الصلوات ذوات الأسباب كركعتى تحية المسجد وسنة الوضوء ونحوها.

والسجود لها هو محرم لنفسه، وأعظم تحريماً من الصلاة التى نهى عنها لئلا يفضى إلى دعاء الكواكب، كـذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنـبياء والصالحين مساجـد، فنهى عن قصدها للصلاة عندها، لئلا يفضى ذلـك إلى دعائهم - كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريماً من اتخاذ قبورهم مساجد».

واعلم أن كراهية الصلاة فـى هذه المساجد هو أمر متفق عليه بين الـعلماء، كما سبق بيانه ويأتى، وإنما اختـلفوا فى بطلانها، وظاهر مذهب الحنابـلة أنها لاتصح، وبه جزم المحقق ابن القيم كمـا تقدم، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى «اقتضـاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»[1].

«فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين والملوك وغيرهم يتعين إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لاأعلم فـيه خلافاً بين العلماء المعروفين، وتكره الـصلاة فيها من غير خلاف أعلمه، ولا تصح عـندنا فى ظاهر المذهب لأجل النهى والـلعن الوارد فى ذلك، ولأجل أحاديث أخـر، وليس فى هذه المسألـة خلاف لكون المدفون فيـها واحداً ، وإنما اختلف أصحابنا فى المقبرة المجردة عن مسجد، هل حدها ثلاثة أقبر أو ينهى عن الصلاة عند القبر الفذ، وإن لم يكن عنده قبر آخر؟

الجواب: على وجهين:-

قلت: والوجه الثانى هو الذى رجحه فـى «الإختيارات العلمية» **فقال**[2]: «وليس فى كلام أحمد وعامة أصحاب هذا الفرق، بل عموم كلامـهم وتعليلهم واستدلالهم يوجب منع الصـلاة عند قبر واحد مـن القبور، وهو الصواب، والمـقبرة كل ما قبـر فيه، لا أنه جمع قبر.

وقال أصحابـنا: وكل ما دخل فى اسـم المقبرة مما حول الـقبور لا يصلى فـيه، فهذا يعين أن المنع يكون متناولاً لحرمة القبر المنفرد وفنائه المضاف إليه.

وذكر الآمدى وغيره، أنه لاتجوز الصلاة فيه (أى المسجـد الذى قبلته إلى القبر) حتى يكون بين الحائط وبين المقبرة حائل آخر، وذكر بعضهم أنه منصوص أحمد.

قال أبو بكر الأثرم: سمعت أبا عبـدالله يعنى أحمد يسأل عن الصـلاة فى المقبرة؟ فكره الصلاة فى المقبرة.

قيل له: المسجد يكون بين القبور أيصلى فيه؟ فكره ذلك.

---

(١) (ص: ١٥٩).

(٢) (ص: ٢٥).

قيل له: إنه مسجد وبينه وبين القبور حاجز؟ فكره أن يصلى فيه الفرض، ورخص أن يصلى فيه على الجنائز.

قلت: وحتى لايقول قائل أنه كره أن يصلى فيه الفرض فيصلى فيه النفل فنقول وصلاة النفل أيضاً لاتجوز وإنما تجوز الجنائز، لأنها تجوز أن تُصَلي بين القبور بل غالب فعل النبى ﷺ أنه كان يصلى على الجنازة عند القبور، وصلاة الجنازة هذه صلاة غير سائر الصلوات فى حكمها وكيفتها فإنها إن جازت عند القبور؛ فلاتجوز صلاة الفريضة عند القبور؛ لأن هذه الصلاة تعرف عن سائر الصلوات قليس فيها ركوع ولا سجود إنما هى قيام فقط فإن جازت عند القبور فلا يجوز قياس الفرائض والنوافل عليها. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد أيضاً: «لايصلى فى مسجد بين المقابر إلا الجنائز، لأن الجنائز هذه سنتها».

قال الحافظ ابن رجب فى «الفتح»: «يشير إلى فعل الصحابة، قال ابن المنذر: قال نافع مولى ابن عمر: صلينا على عائشة وأم سلمة وسط البقيع، والإمام يومئذ أبو هريرة وحضر ذلك ابن عمر»(١). انظر «الكواكب الدرارى»(٢).

ولعل اقتصار الإمام أحمد فى الرواية الأولى على ذكر الفرض فقط لايدل على أن غيره من السنن جائز، فإن من المعلوم أن النوافل صلاتها فى البيوت هو الأفضل ولذلك لم يذكرها مع الفرض، ويؤيده عموم قوله فى الرواية الثانية «لايصلى فى مسجد بين المقابر إلا الجنائز». فهذا نص فيما قلناه.

ويؤيد المنصوص عن أحمد ما تقدم عن أنس:

«كان يكره أن يبنى مسجد بين القبور».

فإنه صريح على أن جدار المسجد لايكفى حائلاً بينه وبين القبر، بل لعل هذا القول ينفى جواز بناء المسجد بين القبور مطلقاً، وهذا هو الأقرب لأنه أحسم لمادة الشرك.

قلت: وقوله «يكره» فى لسان الشرع أى يحرم لأن الله قال فى سورة الإسراء ﴿**كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا**﴾ يعنى محرم وفى الحديث. «**إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال......**» يعنى أنه محرم.

---

(١) قلت ـ يعنى الألبانى ـ: هذا الأثر أخرجه عبدالرزاق فى «المصنف» (١/٤٠٧/١٥٩٤) بسند صحيح عن نافع به.

(٢) (٦٥/٨١/١، ٢).

ثم قال ابن تيمية فى «الاقتضاء»: «وقد كانت البُنية التى على قبر إبراهيم عليه السلام مسدودة لا يُدخل إليها إلى حدود المائة الرابعة، فقيل إن بعض النسوة المتصلات بالخلفاء رأت فى ذلك مناماً فَنُقبت لذلك! وقيل: إن النصارى لما استولوا على هذه النواحى نقبوا ذلك، ثم تُرِك ذلك مسجداً بعد الفتوح المتأخرة، وكان أهل الفضل من شيوخنا لا يصلون فى مجموع تلك البنية، وينهون أصحابهم عن الصلاة فيها اتباعاً لأمر رسول الله ﷺ، واتقاء لمعصيته كما تقدم».

هكذا كان شيوخهُم فيما مضى، وأما شيوخنا اليوم فهم فى غفلة من هذا الحكم الشرعى، فكثير منهم يقصدون الصلاة فى مثل هذه المساجد، ولقد كنت اذهب مع بعضهم، - وأنا صغير لم اتفقه بالسنة بعد - إلى قبر الشيخ ابن عربى لأصلى معه عنده! فلما أن علمت حرمة ذلك باحثت الشيخ المشار إليه كثيراً فى ذلك حتى هداه الله تعالى، وامتنع من الصلاة هناك، وكان يعترف بذلك لى، ويشكرنى على أن كنت سبباً لهدايته، رحمه الله تعالى وغفر له. والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

كراهة الصلاة فى المسجد المبنى على القبر ولو دون استقباله

قال الألبانى: واعلم أن كراهة الصلاة فى المساجد المبنية على القبور مضطردة فى كل حال، سواء كان القبر أمامه أو خلفه، يمينه أو يساره، فالصلاة فيها مكروهة على كل حال، ولكن الكراهة تشتد إذا كانت الصلاة إلى القبر، لأنه فى هذه الحالة ارتكب المصلى مخالفتين، الأولى فى الصلاة فى هذه المساجد، والأخرى الصلاة إلى القبر، وهى منهى عنها مطلقاً سواء كان فى المسجد أو غير المسجد بالنص الصحيح عن رسول الله ﷺ.

أقوال العلماء فى ذلك

وقد أشار إلى هذا المعنى البخارى بقوله فى «الصحيح»: «باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، ولما مات الحسن بن الحسين بن على رضى الله عنه ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت، فسمعوا صائحاً يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا»[١] ثم ساق بعض الأحاديث المتقدمة، فقال الحافظ ابن حجر الشافعى فى شرحه:

(١) علقه البخارى (٣/٢٣٨ - الفتح).

«ومناسبة هذا الأثر للباب أن المقيم فى الفسطاط لايخلو من الصلاة هناك، فيلزم اتخاذ المسجد عند القبر، وقد يكون القبر فى جهة القبلة فتزداد الكراهة»[1].

وذكر نحوه العينى الحنفى فى «عمدة القارىء»[2].

وفى «الكوكب الدرى على جامع الترمذى» للشيخ المحقق محمد يحيى الكاندهلوى الحنفى ما نصه[3]:

«وأما اتخاذ المساجد عليها، فلما فيه من التشبه باليهود واتخاذهم مساجد على قبور أنبيائهم وكبرائهم، ولما فيه من تعظيم الميت وشبهٍ بعبسدة الأصنام؛ لو كان القبر فى جانب القبلة، وكراهة كونه فى جانب القبلة أكثر من كراهة كونه يميناً أو يساراً وإن كان خلف المصلى فهو أخف من كل ذلك، لكن لايخلو عن كراهة».

وفى «شرعة الإسلام» من كتب الحنفية ما نصه[4]:

«ويكره أن يبنى على القبر مسجد يصلى فيه».

فهذا باطلاقه يؤيد ما ذكرنا من أقوال العلماء، وتقدم نحوه عن الإمام محمد رحمة الله تعالى[5].

ففى هذه النقول ما يؤيد ما ذهبنا إليه فى كراهة الصلاة فى المساجد المبنية على القبور مطلقاً، سواء صلى إليها أو لا، فيجب التفريق بين هذه المسألة وبين الصلاة إلى القبر الذى ليس عليه مسجد، ففى هذه الصورة إنما تحقق الكراهة عند استقبال القبر، على أن بعض العلماء لم يشترطوا أيضاً الاستقبال فى هذه الصورة فقال بالمنع من الصلاة حول القبر مطلقاً، كما تقدم قريباً عن الحنابلة، ونحوه فى «حاشية الطحاوى» على «مراقى الفلاح» من كتب الحنفية[6]، وهذا هو اللائق بباب سد الذرائع لقوله ﷺ: «... فمن

---

(١) ونقل الشيخ محمد بن مخيمر من علماء الأزهر فى «القول المبين» (ص٨١) عن الحافظ ابن حجر أنه قال فى «شرح الفتح» لحديث ذى الخلصة من «صحيح البخارى» فى الكلام على الغزوات ما نصه:

«وفى الحديث النهى عن الصلاة فى المساجد التى فيها قبور يفتن الناس بها، وأنه يجب إزالتها».

قلت: ولم أره فى المكان المذكور من «الفتح» فيحتمل أن يكون فى موضع آخر منه، والله أعلم.

(٢) (١٤٩/٤).

(٣) (ص:١٥٣).

(٤) (ص:٥٦٩).

(٥) (ص:٥٨).

(٦) (ص:٢٠٨).

اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع ...» الحديث[1].

قوله: «بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ جُعلت لىَّ الأرض مسجداً وطهوراً».

قال سليمان آل الشيخ[2]: أى: فمن الأرض مسجداً، وليست مسجداً مبنياً، لكن لما كان يسجد فيها سميت مسجداً، فدلّ هذا الحديث على أن من صلى عند القبور أو إليها فقد اتخذها مساجد. وهذا الحديث طرف من حديث صحيح متفق عليه عن جابر.

قال البغوى فى «شرح السنة» أراد أنَّ أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا فى بيعهم وكنائسهم، وأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفاً عليهم، وتيسيراً، ثم خصّ من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: فقوله «مسجداً» أى: مكاناً للسجود. اهـ.

وهذا معنى ثالث زائد على المعنيين الأوليين، وهو أن يقال: كل شىء تصلى فيه؛ فإنَّه مسجد ما دمت تصل فيه، كما يقال للسجادة التى تُصلى عليها مسجد أو مُصلًى وإن كان الغالب عليها اسم مُصلًّى.

قلت: وكل مكان أو موضع يصلى فيه يسمى مسجداً كما قال ﷺ **«جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً».**

قال سليمان آل الشيخ[4]:

قوله: (طهوراً): أراد به التيمم.

وفى حديث جندب من الفوائد أيضاً:

العبرة فى مبالغته ﷺ فى النهى عن بناء المساجد على القبور، كيف بيَّن لهم ذلك أولاً، ثم قَبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان فى النزع لم يكتف بما تقدَّم، بل لعن من فعل ذلك فدلّت هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة على تحريم البناء على القبور مطلقاً، فلذلك اكتفى المصنف بإيرادها عن غيرها كحديث جابر.

مسألة:

قال الفقير: لو أن رجلاً بنى بناءً على قبر (مسجد) ومنع الناس أن يصلوا فيه، فهل

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تيسير العزيز الحميد ٢٤٢.

(3) القول المفيد ١/ ٥١٩.

(4) تيسير العزيز الحميد ٢٤٢.

هذا محرّم أم لا؟ وما الدليل؟ وهل ينهى عن فعله هذا أم لا؟ وهل هو بفعله هذا يدخل في زمرة الذين اتخذوا القبور مساجد؟.

الجواب: هذه الفعلة منهى عنها لوجوه:

الأول: أن هذا نص من نصوص الحديث «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ومن صور الاتخاذ البناء عليها، وهو قد بنى عليها وإن لم يصل فيها.

الثاني: أنه وإن منع الصلاة فيها فإنه لم يمنع البناء عليها وإن كان بغير قصد الصلاة فيه، لأن ذلك ذريعة للصلاة فيه فيما بعد.

الثالث: أن هذا من باب إضاعة المال.

الرابع: أنه مسجد وإن لم يُصل فيه لأن الأرض كلها مسجد وإن لم يصل فيها، كذلك صورة هذا المسجد يطلق عليها كما تطلق على الأرض كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا**﴾ فسماها مسجد برغم خرابها ومنه ذكر اسم الله عليها. والله أعلم.

قوله: «وهي معنى قولها: خشى أن يتحذ مسجداً».

الضمير في «**قولها**» يرجع إلى عائشة(١).

قوله: «فإنّ الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً».

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية(٢).

قال سليمان آل الشيخ(٣): أي: لما علموا من تشديده في ذلك وتغليظه، ولعن من فعله، فكيف يتخذون على قبره مسجداً؟ وإنما خشوا أن يعتاده بعض الجهال للصلاة عنده، من غير شعور من الصحابة بذلك، فلذلك دفنوه في بيته.

قال ابن عثيمين(٤): قد يُقال: «**خَشى أن يُتَّخذ مسجداً**» معناه: خَشِيَ أنْ يبنى عليه مسجد، لكن يبعده أن الصحابة لايمكن أن يبنوا حول قبره مسجداً؛ لأنَّ مسجده مجاور لبيته؛ فكيف يبنون مسجداً آخر؟! هذا شيء مستحيل بحسب العادة؛ فيكون معنى قولها: «**خَشِيَ أن يُتخذ مسجداً**»؛ أي: مكاناً يُصلى فيه، وإن لم يُبْنَ المسجد.

ولاريب أنَّ أصل تحريم بناء المساجد على القبور أن المساجد مكان الصلاة، والناس يأتون إليها للصلاة فيها، فإذا صلى الناس في مسجد بني على قبر؛ فكأنَّهم صلّوا عند

---

(١) القول المفيد ١/٥١٨.

(٢) القول المفيد ١/٥١٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٤٢).

(٤) القول المفيد ١/٥١٨و٥١٩.

القبر، والمحذور الذى يوجد فى بناء المساجد على القبور يوجد فيما إذا اتخذ هذا المكان للصلاة؛ وإن لم يبن مسجد.

فتبيَّن بهذا أنَّ اتخاذ القبور مساجد له معينان:

الأول: أن تبنى عليها مساجد.

الثانى: أن تُتَّخذ مكاناً للصلاة عندها وإن لم يبن المسجد، فإذا كان هؤلاء القوم مثلاً يذهبون إلى هذا القبر ويصلون عنده ويتخذونه مصلًّى؛ فإنَّ هذا بمعنى بناء المساجد عليها، وهو أيضاً من اتخاذها مساجد.

قلت: وتقدم معنى ثالث للإتخاذ وهو الصلاة إليها.

قوله: «**وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد أتخذ مسجدا**» إلى آخره.

قال سليمان آل الشيخ: أى وإن لم بين مسجداً.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[1]: أى وإن لم يُبين مسجد بل كل موضع يُصلَّى فيه يسمى مسجداً، يعنى وإن لم يقصد بذلك، كما إذا عُرِض لمن أراد أن يُصلى فأوقع الصلاة فى ذلك الموضع الذى حانت الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً.

قال سليمان آل الشيخ[2]: قوله: **بل كل موضع يصلى فيه فقد اتخذ مسجداً**، الظاهر أن الأول فى الأمكنة المعدة للصلاة، وإن لم يبن فيها مسجداً وهذا فى أى موضع صلى فيه، وإن يعد لذلك كالمواضع التى يصلى فيها المسافر ونحو ذلك، فعلى هذا إذا صلى عند القبور ولو مرة واحدة وإن لم يكن هناك مسجد فقد اتخذها مساجد.

قال ابن عثيمين[3]: وهذا يشهد له العُرف؛ فإنَّ الناس الذين لهم مساجد فى مكان أعمالهم، كالوزارات والإدارات لو سألت واحداً منهم أين المسجد؟

لأشار إلى المكان الذى اتخذوه مصلى يصلون فيه، مع أنه لم يُبن، لكن لما كانت الصلاة تَقْصد فيه، صار يُسمَّى مسجداً.

ما علاقة أول الحديث بآخره؟

قال الفقير: أن من أمارات شر هؤلاء أنهم اتخذوا القبور مساجد، وزن ذلك سيكثر قبل قيام الساعة وأن اتخاذ القبور مساجد من علامات الساعة أيضا. يدل على ذلك ما ثبت فى الصحيح فى باب «لاتقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور» عن أبى هريرة رضى

---

(١) فتح المجيد ٣٠١.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٤٢).

(٣) القول المفيد ١/ ٥١٩.

الله عنه قال: «**لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول ياليتنى مكانه**»(١) والذى بعده فى باب «تغير الزمان حتى تعبد الأوثان» وفيه أيضا عن أبى هريرة قال ﷺ: «**لاتقوم الساعة حتى تضطرب إلياتُ نساء دوس بذى الخلصة**»(٢) صنم لدوس. أى ستعبد الأوثان مرة ثانية. والقبور من الأوثان لأن الوثن هذا أعم من الصنم. لأن الوثن يشمل كل ما عبد على شكل صورة أو على غير شكل صورة. أم الصنم فيختص بمن له صورة من إنسان أو حيوان والوثن أعم فيشمل ماله صورة أو ماليس له صورة فيدخل فيه القبر. لاسيما وأن الباب القادم يسمى «باب ما جاء في أن عبادة الله عند قبر الصالحين يصيرها أوثاناً». فعبادة الأوثان ستكثر قبل قيام الساعة بل الناس سترتد ثانية إلى الوثنية،.

وذكر ابن حجر فى هذا الحديث ما أخر جه الحاكم عن عبدالله بن عمر قال: «**لاتقوم الساعة حتى تتدافع مناكب نساء بنى عامر على ذى الخلصة**» وأخرج بن عدى من رواية أبى معشر عن سعيد عن أبى هريرة رفعه: «**لاتقوم الساعة حتى تعبد اللات والعزى**»(٣) فإذا كانت اللات والعزى ستعبد فمن باب أولى القبور ستعبد أيضاً.

إذن يوجد علاقة بين قرب الساعة ووجود شرار الخلق ووجود الأوثان.

وفى رواية عند مسلم «**لايذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى**» وفيه «**فيبعث الله ريحاً طيبة فتوفى كل من فى قلبه مثقال حبه من خردل. من إيمان فيبقى من لا خير فيهم فيرجعون إلى دين أبائهم**»(٤) وأيضاً فى رواية عند مسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً «**يخرج الدجال فى أمتى**» وفيه «**فيبعث الله عيسى بن مريم فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين فى زمن عيسى عليه السلام بعد موت الدجال فيرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلايبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من حبه من خير أو إيمان إلا قبضتها فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع**» «**لايعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان ثم ينفخ فى الصور**».



(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفتن (٩/٢٦١/٥٣) عن أبى هريرة به.

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) أخرجه ابن عدى فى «الكامل» (٧/ ٥٣).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الفتن» (١/ ٢٦٠/ ٥٢) عن عائشة به.

وَلأحْمَدَ بسَنَد جيِّد عَن ابن مَسْعُود ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ مَرْفُوعًا: «إنَّ منْ شرَار النَّاسِ مَن تُدْرِكُهُم السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ» رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِه»(١).

قوله: [ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه.....الحديث].

قلت: الحديث كما بينا في الحاشية أخرجه أحمد وابن خزيمة وابن حبان والطبراني في «الكبير» والبزار، حسنه الهيثمي، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وعزوه لأبي حاتم في «صحيحه». أي ابن حبان في صحيحه.

قوله: [مرفوعاً].

قال ابن عثيمين: المرفوع ما أسند إلى النبي ﷺ.

قوله: «إن من شرار الخلق».

قال سليمان آل الشيخ(٢): «شرار» هو بكسر الشين، جمع شر. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): من للتبعيض، وشرار: جمع شر، مثل صحاب جمع صَحْب، والمعنى: أصحاب الشر، وفي هذا دليل على أنَّ الناس يتفاوتون في الشر، وأنَّ بعضهم أشد من بعض.

كما أنهم يتفاوتون في الخير أيضاً لقوله تعالى: ﴿ **هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾. وذلك من حيث الكمية، فمن صلى ركعتين، فليس كمن صلى أربعاً.

ومن حيث الكيفية فمن صلى وهو قانت خاشع حاضر القلب، ليس كمن صلى وهو غافل.

---

(١) [صحيح] أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٤٠٥، ٤٣٥)، (٣/ ٤١٤)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٧٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٨/ ٢٩٩).

من طريق زائدة، عن عاصم بن أبي النجود، عن شقيق، عن عبدالله بن مسعود به.

وذكره الهيثمي في «المجمع»: (٢/ ٢٧) وقال: رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن وفي (٨/ ١٣) قال: رواه البزار بإسنادين في أحدهما عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح.

قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وانظر «فتح المجيد (٣٦٦ ـ بتخريجنا».

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٤٣).

(٣) القول المفيد ١/ ٥٢٢.

ومن حيث النوعية، فالفرض أفضل من النفل، وجنس الصلاة أفضل من جنس الصدقة، لأن الصلاة أفضل الأعمال البدنية، وهذا الذى تدل عليه الأدلة هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو التفاضل فى الأعمال، حتى فى الإيمان الذى هو فى القلب يتفاضل الناس فيه، بل إن الإنسان يحس فى نفسه أنه فى بعض الأحيان يجد فى قلبه من الإيمان مالايجده فى بعض الأحيان فكيف بين شخص وشخص؟ فهو يتفاضل أكثر اهـ.

قوله: «من تدركهم الساعة وهم أحياء».

قال سليمان آل الشيخ[١]: أى من تقوم عليهم الساعة بحيث ينفخ فى الصور وهم أحياء، وهذا كالحديث الآخر الذى فى مسلم: **«لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»**.

قال عبدالله بن جار الله[٢]: معنى تدركهم الساعة: علاماتها ومقدماتها كخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها. اهـ.

قال ابن عثيمين[٣]: من اسم موصول اسم إن، والساعة، أى: يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها داهية وكل شىء داهية عظيمة يسمى ساعة، كما يقال: هذه ساعتك فى الأمور الداهية التى تصيب الإنسان اهـ.

قال القرعاوى[٤]: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة» أى أن الساعة لاتقوم إلى على شرار الناس. اهـ.

إشكال وجوابه

فإن قلت: ما الجمع بين هذا وبين حديث ثوبان:

«لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحقّ»[٥] وما فى معناه.

قال سليمان آل الشيخ[٦]: قيل: حديث ثوبان مستغرق للأزمنة، عام فيها، وهذا مخصص.

قلت: وهو مؤدى قول ابن بطال كما نقله الحافظ فى «الفتح».

قال ابن عثيمين[٧]: والجمع بينهما أن يُقال:

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٤٣).

(٢) الجامع الفريد (٨٥).

(٣) القول المفيد ١/ ٥٢٢.

(٤) الجديد (١٩١).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٧/ ٧٤/ ١٧٠) عن ثوبان.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٢٤٣. (٧) القول المفيد ١/ ٥٢٣.

إنَّ المُراد بقوله: «حتى تقوم الساعة»؛ أى: إلى قرب قيام الساعة، وليس إلى قيامها بالفعل لأنها لاتقوم إلا على شرار الخلق؛ فالله يُرسل ريحاً تقبض نفس كل مؤمن ولايبقى إلا شرار الخلق وعليهم تقوم الساعة.

قال ابن حجر(١): المراد بقوله: **«حتى تأتيهم الساعة»** ساعتهم هم، وهى وقت موتهم بهبوب الريح والله أعلم.

قلت: وهو أفضل من الأوّل.

قوله: «والذين يتخذون القبور مساجد».

قال سليمان آل الشيخ(٢): **قوله:** «والذين يتخذون القبور مساجد» الذين فى محل نصب عطفاً على من الموصولة، أى: إن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد، بالصلاة عندها وإليها وبناءِ المساجد عليها.

وهذا المعنى متواتر عن النبى ﷺ، معلوم بالاضطرار من دينه وكل ذلك شفقة على الأمة وخوفاً عليهم أن يقودهم ذلك إلى الشرك بها وبأصحابها، كما قاد إلى ذلك اليهود والنصارى. فأبى عباد القبور إلا الضرب بهذه الأحاديث الجدار ونبذها وراء الظهر، أو الدفع فى صدورها وأعجازها بحمل ذلك على غير قبور الأنبياء والصالحين. أما قبورهم فتجوز الصلاة إليها وعندها، وبناء المساجد والقباب عليها ورجاء أن تصل إليهم العواطف الروحانية. ولاريب أن هذا مراغمة ومحادة لله ورسوله، وهذا من قول اليهود: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾(٣) فإن النبى ﷺ إنما لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، كما هو نص حديث عائشة رضى الله عنها وغيره، وقبور غيرهم إنما أخذ النهى عن البناء عليها من هذه الأحاديث ونحوها بقياس الأولى، أو من عموم أحاديث أخر، فمن أعظم المراغمة والمناسبة والمحادة لله ورسوله، أن تحمل على غير ما وردت فيه، ويباح ما وردت بالنهى عنه، ولعن من فعله، ولكن هذا شأن عباد القبور **﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**(٤) وقد أجمع العلماء على النهى عن البناء على القبور وتحريمه ووجوب هدمه لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة، التى لامطعن فيها بوجه من الوجوه ولافرق فى ذلك بين البناء فى مقبرة مسبلة، أو إلا أنه فى المملوكة أشد ولاعبرة بمن شذ من المتأخرين فأباح ذلك إما مطلقاً، وإما فى المملوكة.

(١) الفتح ١٣/ ٨٣.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٤٣: ٢٤٨.
(٣) البقرة: ٩٣.
(٤) سورة القصص: الآية ٥٠.

قال الإمام أبو محمد بن قدامة: ولايجوز اتخاذ المساجد على القبور.

لأن النبى ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ والنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أنبيائِهِم مَسَاجِدَ»(١).

إلى أن قال: فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوم وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين.

وقال ابن القيم: يجب هدم القباب التى على القبور لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ.

وقال أبو حفص: تحرق الحجرة بل تهدم. فإذا كان هذا كلامه فى الحجرة فكيف بالقبة.

وقال الشافعى: أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه، وعلى من بعده من الناس.

وقال أيضاً: تسطح القبور ولا تبنى ولاترفع، وتكون على وجه الأرض.

وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما فى القرافة من الأبنية، منهم ابن الجميزى والظهير الترمينى وغيرهما.

وقال القاضى ابن كج: ولايجوز أن تجصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب ولا غير قباب، والوصية بها باطلة.

وقال الأذرعى: وأمَا بطلان الوصية ببناء.

القباب وغيرها من الأبنية العظيمة، وإنفاق الأموال الكثيرة، فلاريب فى تحريمه.

قلت أى سليمان آل الشيخ: وجزم النووى فى «شرح المهذب» بتحريم البناء مطلقاً، وذكر فى «شرح مسلم» نحوه أيضاً.

وقال القرطبى فى حديث جابر: نَهَى أن يُجَصَّصَ القَبْر أو يُبنى عليه وبظاهر هذا الحديث(٢).

قال مالك: وكره البناء والجص على القبور.

ووجه النهى عن البناء والتجصيص فى القبور أن ذلك مباهاة واستعمال زينةالدنيا فى أول منازل الآخرة وتشبه بمن كان يعبد القبور ويعظمها، وباعتبار هذه المعانى وبظاهر هذا النص ينبغى أن يقال: هو حرام، كما قال به بعض أهل العلم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٧/٣٧ ـ النووى) عن جابر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٧٠ ـ بتخريجنا).

وقال ابن مرشد: كره مالك البناء على القبر، وجعل البلاطة المكتوبة وهو من بدع أهل الطول. أحدثوه إرادة الفخر والمباهاةوالسمعة، وهو مما لا اختلاف فيه. اهـ.

قال عبدالله بن جار الله[1]: ومعنى اتخاذ القبور مساجد: الصلاة عندها، وإليها، وبناء المساجد عليها كما تقدم. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: **(الذين يتخذون القبور مساجد)** فهم من شرار الخلق، وإن لم يشركوا؛ لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها، لكنها تعطى حكمها بالمعنى العام، فإن كانت وسيلة لواجب صارت واجبة وإن كانت وسيلة لمحرم، فهي محرمة.

فشر الناس في هذا الحديث ينقسمون إلى صنفين:ـ

الأول: الذين تدركهم الساعة وهم أحياء.

الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد اهـ.

●المفاسد المترتبة على بناء المساجد على القبور:

قال سليمان آل الشيخ[3]: واعلم أنه قد وقع بسبب البناء على القبور من المفاسد التي لايحيط بها على التفصيل إلا الله، ما يغضب لله من أجله كل من في قلبه رائحة إيمان، كما نبه عليه ابن القيم وغيره.

منها: اعتيادها للصلاة عندها، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك.

ومنها: تحرى الدعاء عندها. ويقولون: من دعا الله عند قبر فلان استجاب له، وقبر فلان الترياق المجرب، وهذا بدعة منكرة.

ومنها: ظنهم أن لها خصوصيات بأنفسها في دفع البلاء وجلب النعماء. ويقولون: إن البلاء يدفع عن أهل البلدان بقبور من فيها من الصالحين، ولا ريب أن هذا مخالف للكتاب والسنّة والإجماع. فالبيت المقدس كان عنده من قبور الأنبياء والصالحين ما شاء الله، فلما عصوا الرسول وخالفوا ما أمرهم الله به، سلط الله عليهم من انتقم منهم. وكذلك أهل المدينة لما تغيروا بعض التغير، جرى عليهم عام الحرة النهب والقتل وغير ذلك من المصائب مالم يجر عليهم قبل ذلك. وهذا أكثر من أن يحصر.

(١) الجامع الفريد (٨٥).

(٢) القول المفيد (١/٥٢٣).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٤٨).

ومنها: الدخول فى لعنة رسول الله ﷺ، باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها.

ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد، وخراب المساجد. كما هو الواقع ودين الله بضد ذلك.

ومنها: اجتماعهم لزيارتها واختلاط النساء بالرجال، وما يقع فى ضمن ذلك من الفواحش وترك الصلوات. ويزعمون أن صاحب[1] التربة تحملها عنهم، بل اشتهر أن البغايا يسقطن أجرتهن على البغاء فى أيام زيارة المشايخ، كالبدوى وغيره تقرباً إلى الله بذلك، فهل بعد هذا فى الكفر غاية.

ومنها: كسوتها بالثياب النفيسة المنسوجة بالحرير والذهب والفضة ونحو ذلك.

ومنها: جعل الخزائن والأموال ووقف الوقوف لما يحتاج إليه من ترميمها ونحو ذلك، ومنها: إهداء الأموال ونذر النذور لسدنتها العاكفين عليها الذين هم أصل كل بلية وكفر، فإنهم الذين يكذبون على الجهال والطغام بأن فلاناً دعا صاحب التربة فإجابه، واستغاثة فأغاثه، ومرادهم بذلك تكثير النذر والهدايا لهم.

ومنها: جعل السدنة لها كسدنة عباد الأصنام.

ومنها: الأقسام على الله فى الدعاء بالمدفون فيها.

ومنها: أن كثيراً من الزوار إذا رأى البناء الذى على قبر صاحب التربة سجد له. ولاريب أن هذا كفر بنص الكتاب والسنَّة وإجماع الأمة، بل هذا هو عبادة الأوثان، لأن السجود للقبة عبادة لها، وهو من جنس عبادة النصارى للصور التى فى كنائسهم على صور من يعبدونه بزعمهم الباطل، فإنهم عبدوها ومن هى صورته، وكذلك عباد القبور لما بنوا القباب على القبور آل بهم إلى أن عبدت القباب ومن بنيت عليه من دون الله عزَّ وجلَّ.

ومنها: النذر للمدفون فيها، وفرض نصيب من المال والولد؛ وهذا هو الذى قال الله - عزوجل - فيه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾[2] الآية. بل هذا أبلغ فإن المشركين ما كانوا يبيعون أولادهم لأوثانهم.

ومنها: أن المدفون فيها أعظم فى قلوب عباد القبور من الله وأخوف، ولهذا لو طلبت من أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان كاذباً أو صادقاً، وإذا طلبت

(١) أى الولى المزعوم.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٦.

بصاحب التربة لم يقدم إن كان كاذباً. ولا ريب أن عباد الأوثان ما بلغ شركهم إلى هذا الحد، بل كانوا إذا أرادوا تغليظ اليمين غلظوها بالله كما فى قصة القسامة وغيرها.

ومنها: سؤال الميت قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، والإخلاص له من دون الله فى أكثر الحالات.

ومنها: التضرع عند مصارع الأموات والبكاء بالهيبة والخشوع لمن فيها أعظم مما يفعلونه مع الله فى المساجد والصلوات .

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله وهى المساجد؛ فيعتقدون أن العبادة والعكوف فيها أفضل من العبادة والعكوف فى المساجد؛ وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين فإنهم يعظمون المسجد الحرام أعظم من بيوت الأصنام يرون فضله عليها، وهؤلاء يرون العكوف فى المشاهد أفضل من العكوف فى المساجد.

ومنها: أن الذى شرعه الرسول ﷺ فى زيارة القبور إنما هو تذكرة الآخرة.

كما قال: «زُورُوا القُبُورَ فَإِنها تُذَكِّرُكُمْ الآخِرَة»[1] والإحسان إلى المزور بالترحم عليه والدعاء له والاستغفار، وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت فقلب عباد القبور الأمر، وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم ونصرهم على الأعداء ونحو ذلك.

فصاروا مسيئين نفوسهم وإلى الميت ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه الله من الدعاء والترحم والاستغفار له.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله عباد القبور بها، فإنه يؤذيهم ما يفعلونه عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة. كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرأون منه كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[2].

ومنها: محادة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها.

ومنها: التعب العظيم مع الوزر الكبير، والإثم العظيم، وكل هذه المفاسد العظيمة وغيرها مما لم يذكر، إنما حدثت بسبب البناء على القبور، ولهذا تجد القبور التى ليس

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة الأحقاف :٦

فيه مسائل

الأولى: مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ فِيمَنْ بَنَى مَسْجِداً يُعْبَدُاللهُ فِيهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، وَلَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الفَاعِلِ.

عليها قباب لا يأتيها أحد ولايعتادها لشيء مما ذكر إلا ما شاء الله، وصاحب الشرع أعلم بما يؤول إليه هذا الأمر؛ فلذلك غلظ فيه وأبدأ وأعاد، ولعن من فعله، فالخير والهدى فى طاعته، والشر والضلال فى معصيته ومخالفته.

والعجب ممن يشاهد هذه المفاسد العظيمة عند القبور، ثم يظن أن النبى ﷺ إنما نهى عن اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة كما يظنه بعض متأخرى الفقهاء، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر المجازر والحشوش بل ذكر التحرز من البول والغائط أولى. وإنما لأجل نجاسة الشرك التى وقعت من عباد القبور لما خالفوا ذلك: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(١).

وخلاصة الباب:

قال ابن عثيمين: أنَه يجب البعد عن الشرك ووسائله، ويغلّظ على من عبدالله عند قبر رجل صالح.

وكلام المؤلف رحمه الله فى قوله: «**عبدالله**» يشمل الصلاة وغيرها والأحاديث التى ساقها فى الصلاة، ـ لكنه رحمه ـ الله كأنَّه قاس غيرها عليها، فمن زعم أنَّ الصدقة عند هذا القبر أفضل من غيره؛ فهو شبيه بمن اتخذه مسجداً لأنَّه يرى أنَّ لهذه البقعة أو لمن فيها شأناً يفضل به على غيره؛ فالشيخ عمَّم، والدليل خاص.

فإن قيل: لايستدلّ بالدليل الخاص على العام؟

أجيب: إنَّ الشيخ أراد بذلك أنَّ العلَّة هى تعظيم هذا المكان؛ لكونه قبراً، وهذا كما يوجد فى الصلاة يوجد فى غيرها من العبادات؛ فيكون التعميم من باب القياس لا من باب شمول النَّص لها لفظاً.



فيه مسائل:

- **الأولى:** ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحَّت نيَّة الفاعل.

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

الثانية: النَّهْيُ عَنِ التَّمَاثِيلِ وغلَظُ الأمرِ فِى ذَلكَ.

الثالثة: العِبْرَةُ فِى مُبَالَغَته ﷺ فِى ذَلِكَ كَيْفَ بَيَّنَ لَهُمْ هَذَا أَوَّلاً، ثُمَّ قَبْلَ مَوْته بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي السِّيَاقِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ.

قال ابن عثيمين: تؤخذ من لعن النبى ﷺ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

قوله: **«ولو صحَّت نيَّة الفاعل»**؛ لأنَّ الحكم عُلِّق على مجرَّد صورته؛ فهذا العمل لايحتاج إلى نيَّة لأنَّه مُعلَّق بمجرد الفعل.

فالنيَّة تؤثر فى الأعمال الصالحة وتصحيحها، وتؤثر فى الأعمال التى لايقدر عليها فيعطى أجرها، وما أشبه ذلك، بخلاف ما عُلِّق على فعل مجرد؛ فلا حاجة فيه إلى النية.

أى: ولو كان يعبد الله، ولو كان يريد التقرُّب إلى الله ببناء هذا المسجد اعتباراً بما يؤول إليه الأمر، وبالنتيجة السيئة التى تترتَّب على ذلك، وهذه النقطة نتدرَّج منها إلى نقطة أخرى، وهى التحذير من مشابهة المشركين اهـ.

قلت: بغض النظر عن نيتهم لحديث النهى عن الصلاة عند غروب الشمس.

ثم قال: وإن لم يقصد الإنسان المشابهة، وهذه قد تخفى على بعض الناس، حيث يظنّ أنَّ التشبه إنَّما يحرم إذا قصدت المشابهة، والشرع إنَّما علق الحكم بالتشبه؛ أى: بأن يفعل ما يشبه فعلهم، سواء قصد أو لم يقصد، ولهذا قال العلماء فى مسألةالتشبه: وإن لم ينو ذلك؛ فإن التشبه يحصل بمطلق الصورة.

فإن قيل: قاعدة **«إنَّما الأعمال بالنيات»**(١) هل تعارض ما ذكرنا؟

الجواب: لاتعارضه؛ لأنَّ ما عُلِّق بالعمل ثبت له حكمه وإن لم ينو الفعل؛ كالأشياء المحرمَّة؛ كالظهار، والزِّنا، وما أشبهها.

● **الثانية: النهى عن التماثيل وغلظ الأمر فى ذلك.**

تؤخذ من قوله: **«وصوروا فيه تلك الصور»**(٢)، ولاسيما إذا كانت هذه الصورة معظَّمة عادةً؛ كالرؤساء، والزعماء، والأب، والأخ، والعم.

أو شرعاً، مثل: الأولياء، والصالحين، والأنبياء، وما أشبه ذلك.

● **الثالثة: العبرة فى مبالغته ﷺ فى ذلك، كيف بيَّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال؟! ثم لما كان فى السياق لم يكتف بما تقدَّم.**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه

وهذا مِمَّا يدلّ على حرص النبى ﷺ على حماية جانب التوحيد؛ لأنَّه خلاصة دعوة الرسل، ولأنَّ التوحيد أعظم الطاعات؛ فالمعاصى ولو كبرت أهون من الشرك، حتى قال ابن مسعود: «**لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلىَّ من أن أحلف بغيره صادقاً**»(١)؛ لأنَّ الحلف بغيره نوع من الشرك، والحلف بالله كاذباً معصية، وهى أهون من الشرك.

فالشرك أمره عظيم جداً، ونحن نحذِّر إخواننا المسلمين مما هم عليه الآن من الإنكباب العظيم على الدنيا حتى غفلوا عما خُلِقُوا له، واشتغلوا بما خُلِقَ لهم؛ فعامة الناس الآن تجدهم مشتغلين بالدنيا، ليس فى أفكارهم إلاّ الدنيا قائمين وقاعدين ونائمين ومستيقظين، وهذا فى الحقيقة نوع من الشرك؛ لأنَّه يوجب الغفلة عن الله - عزوجل -، ولهذا سمّى النبى ﷺ من فعل ذلك عبداً لما تعبَّد له، فقال: «**تعس عبدالدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبدالخميلة**»(٢)، ولو أقبل العبد على الله بقلبه وجوارحه لحصل ما قُدّر له من الدنيا؛ فالدنيا وسيلة وليست غاية، وتعس من جعلها غاية، كيف تجعلها غايةً وأنت لاتدرى مقامك فيها؟! وكيف تجعلها غاية وسرورها مصحوب بالأحزان؛ كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا   ويوم نُساءُ ويوم نُسَرّ

فالحاصل: أنَّ النبى ﷺ بُعث لتحقيق عبادة الله، ولهذا كان حريصاً على سدّ كلّ الأبواب التى تؤدى إلى الشرك؛ فالرسول ﷺ حذَّر من اتخاذ القبور مساجد ثلاث مرات:

الأولى: فى سائر حياته.

والثانية: قبل موته بخمس.

والثالثة: وهى فى السياق.

● **الرابعة**: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

تؤخذ من قوله ﷺ: «**ألا فلا تتخذوا القبور مساجد**»؛ فإنَّ قبره داخل فى ذلك بلاشك، بل أول ما يدخل فيه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سيأتى تخريجه.

الخامسة: أَنَّهُ منْ سُنَنْ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِم.

السادسة: لَعْنَهُ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

السابعة: أَنَّ مُرَادَهُ ﷺ تَحْذِيرُهُ إِيَّانا عَنْ قَبْرِهِ.

الثامنة: العِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.

التاسعة: فِي مَعْنَى اتِّخَاذِهَا مَسْجِداً.

العاشرة: أَنَّه قَرَنَ بَيْنَ مَنِ اتَّخَذَهَا مَسْجِداً وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَى الشِّرْكِ قَبْلَ وُقُوعِه مَعَ خَاتِمَتِه.

● **الخامسة: أنَّه من سنن اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم.**

تؤخذ من قوله ﷺ: «**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وبئس رجلاً جعل إمامه اليهود والنصارى وتشبه بهم فى قبيح أعمالهم.

● **السادسة: لعنه إيَّاهم على ذلك.**

تؤخذ من قوله: «**لعنة الله على اليهود والنصارى**».

● **السابعة: أنَّ مراده تحذيره إيَّانا عن قبره.**

تؤخذ من قول عائشة: «**يُحذّر ما صنعوا**»؛ أى: ما صنعه اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم.

● **الثامنة: العلَّة فى عدم إبراز قبره.**

تؤخذ من قول عائشة: «**ولولا ذلك أبرز قبره؛ غير أنَّه خشى أن يتخذ مسجداً**».

هناك علة أخرى، وهى: إخباره بأنَّه ما من نبى يموت إلا دفن حيث يموت، ولايمتنع أن يكون للحكم علَّتان، كما لايمتنع أن يكون للعلَّة حكمان.

قلت: لكن تقدم أن الحديث ضعيف.

● **التاسعة: فى معنى اتِّخاذها مسجداً.**

سبق أن ذكرنا أن لها معنيين:

١- بناء المساجد عليها.

٢- اتخاذها مكاناً للصلاة تقصد فيصلَّى عندها، بل إنَّ من صلَّى عندها ولم يتخذها للصلاة؛ فد اتخذها مسجداً بالمعنى العام. اهـ.

قلت: أن لها معنى ثالث وهى الصلاة إليها.

● **العاشرة: أنَّه قرن بين من اتَّخذها مسجداً وبين من تقوم عليه الساعة؛ فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.**

الحادية عشرة: ذَكَرَهُ فِي خُطْبَتِه قَبْلَ مَوْتِه بِخَمْسٍ الرَّدَّ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا أَشَرُّ أَهْلِ البِدَعِ، بَلْ أَخْرَجَهُمْ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وَهُمُ الرَّافِضَةُ والجَهْمِيَّةُ، وبِسَبَبِ الرَّافِضَةِ حَدَثَ الشِّرْكُ وَعِبَادَةُ القُبُورِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهَا المَسَاجِدَ.

قوله: «إنه قرن.. إلخ» وهى: أن من تقوم عليهم شرار الخلق والذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء هؤلاء الكفار، والذين يتخذون القبور مساجد هؤلاء فعلوا أسباب الشرك والكفر.

وقوله: [مع خاتمته] ومعنى هذا أنَّ الرسول ﷺ ذكر التحذير من الشرم قبل أن يموت.

● **الحادية عشرة: ذكره فى خطبته قبل موته بخمس الردّ على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع.**

قوله: **«قبل أن يموت بخمس»**.

أى: خمس ليالٍ، والعرب يعبرون عن الأيام بالليالى وبالعكس.

قوله: **«أشر أهلِ البدع»**.

يقال: أشر، ويقال: شر؛ بحذف الهمزة، وهو الأكثر استعمالاً.

وإنما تكلم المؤلف رحمه الله عن حال الرافضة والجهميَّة وحكمهما قبل ذكر اسمهما من أجل تهييج النفس على معرفتهما والاطلاع عليهما؛ لأنَّ الإنسان إذا ذكر له الحكم والوصف قبل ذكر الموصوف والمحكوم عليه؛ صارت نفسه تتطلع وتتشوق إلى هذا، فلو قال من أول الكلام: الرد على الرافضة والجهمية؛ فلايكون للإنسان التشوق مثل ما لو تكلَّم عن حالهما وحكمهما أوّلاً.

وحالهما: أنَّما أشر أهل البدع.

وحكمهما: أن بعض أهل العلم أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة.

والرافضة: اسم فاعل من رفض الشيء إذا استبعده، وسموا بذلك لأنَّهم رفضوا زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب حين سألوه: ما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فأثنى عليهما، وقال: هما وزيرا جدى. فرفضوه وتركوه، وكانوا فى السابق معه، لكن لما قال الحق المخالف لأهوائهم؛ نفروا منه والعياذ بالله، فسمُّوا رافضة.

وأصل مذهبهم من عبدالله بن سبأ، وهو يهودى تلبَّس بالإسلام، فأظهر التشيع لآل البيت والغلو فيهم ليشغل الناس عن دين الإسلام ويفسده كما أفسد بولص دين النصارى عندما تلبَّس بالنصرانية.

وأوّل ما أظهر ابن سبأ بدعته فى عهد على بن أبى طالب، حتى إنَّه جاءه وقال: أنت الله حقّاً ـ والعياذ بالله ـ فأمر على بالأخدود فحُفرت، وأمر بالحطب فجُمع، وبالنار فأوقدت، ثم أحرقهم بها؛ إلاَّ أنَّه يُقال: إنَّ عبدالله بن سبأ هرب وذهب إلى مصر ونشر بدعته؛ فالله أعلم.

فالمهم أن علياً رضى الله عنه رأى أمراً لم يحتمله، حيث ادعوا فيه الألوهيَّة فأحرقهم بالنار إحراقاً، ثم بدأت لهذه الفرقة الخبيثة تتكاثر؛ لأنَّ شعارها فى الحقيقة النفاق الذى يسمونه التقيّة، ولهذا كانت هذه الفرقة أخطر ما يكون على الإِسلام؛ لأنَّها تتظاهر بالإِسلام والدعوة إليه، وتقيم شعائره الظاهرة؛ كتحريم الخمور وما أشبه ذلك، لكنها تناقضه فى الباطن؛ فهم يرون أئمتهم آلهة تدير الكون، وأنَّهم أفضل من الأنبياء والملائكة والأولياء ـ وأنَّهم فى مرتبة لا ينالها ملك مقرَّب ولا نبى مرسل، وهؤلاء كيف يصح أن تقبل منهم دعوى الإِسلام.

ولذلك يقول عنهم شيخ الإِسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى كثير من كتبه قولاً إذا اطلع عليه الإنسان عرف حالهم: «إنَّهم أشد الناس ضرراً على الإسلام، وأنَّهم هجروا المساجد وعمروا المشاهد»؛ فهم يقولون: لا نُصلى جماعةً إلاَّ خلف إمام معصوم ولا معصوم الآن، وهم أوّل من بنى المشاهد على القبور كما قال الشيخ هنا، ورموا أفضل أتباع الرسول على الإِطلاق- وهما أبو بكر وعمر- بالنفاق، وأنَّهما ماتا على ذلك؛ كعبد الله بن أبى بن سلول وأشباهه والعياذ بالله؛ فإنظر بماذا تحكم على هؤلاء بعد معرفة معتقدهم ومنهجهم؟!

وأما الجهميَّة؛ فهم أتباع الجهم بن صفوان، وأول بدعته أنَّه أنكر صفات الله، وقال: إنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلِّم موسى تكليماً؛ فأنكر المحبة والكلام، ثم بدأ هذه البدعة تنتشر وتتسع، فاعتنقها طوائف غير الجهمية؛ كالمعتزلة ومتأخِّرى الرافضة؛ لأنَّ الرافضة كانوا بالأول مشبِّهة، ولهذا قال أهل العلم: أوّل من عُرف بالتشبيه هشام بن الحكم الرافضى، ثم تحوَّلوا من التشبيه إلى التعطيل، وصاروا ينكرون الصفات.

والجهم بن صفوان أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، والجعد أخذ بدعته عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت الذى أخذها عن لبيد بن الأعصم اليهودى الذى سحر النبى ﷺ؛ فتكون بدعة التعطيل أصلها من اليهود، ثم إنَّ الجهم بن صفوان نشأ فى بلاد خراسان، وفيها كثير من الصابئة وعُبَّاد الكواكب والفلاسفة، فأخذ منهم أيضاً ما أخذ، فصارت هذه البدعة مُركَّبة من اليهوديَّة والصابئة والمشركين.

وانتشرت هذه البدعة فى الأمة الإِسلامية، وهؤلاء الجهميَّة معطلة فى الصفات ينكرون الصفات، ومنهم من أنكر الأسماء مع الصفات، وهذه الأسماء التى يضيفها الله -

سبحانه- إلى نفسه جعلوها إضافات وليست حقيقة، أو أنها أسماء لبعض مخلوقاته؛ فالسميع عندهم بمعنى من خلق السمع فى غيره والبصير كذلك، وهكذا.

ومنهم من أنكر أن يكون الله متَّصفاً بالإثبات أو العدم، فقالوا: لا يجوز أن نثبت لله صفة أو ننفى عنه صفة؛ حتى قالوا: لا يجوز أن نقول عنه: إنَّه موجود ولا إنَّه معدوم؛ لأنَّنا إن قلنا بأنه موجود شبهناه بالموجودات، وإن قلنا بأنه معدوم شبهناه بالمعدومات؛ فنقول: لا موجود ولا معدوم؛ فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، وهذا لا يمكن؛ لأنَّ تقابل الوجود والعدم من تقابل النقيضين اللذين لا يمكن ارتفاعهما ولا اجتماعهما، بل لابد أن يوجد أحدهما، فوصف الله بذلك تشبيه له بالممتنعات على قاعدتهم.

ومذهبهم فى القضاء والقدر: الجبر، فيقولون: إنَّ الإنسان مجبر على عمله يعمل بدون اختياره إن صلَّى؛ فهو مجبر، وإن قتل؛ فهو مجبر، وهكذا؛ فعطّلوا بذلك حكمة الله لأنَّه إذا كان كل عامل مجبراً على عمله لم يكن هناك حكمة فى الثواب والعقاب، بل بمجرَّد المشيئة يعاقب هذا ويثيب هذا، وبذلك عطّلوا عن الفاعلين أوصاف المدح والذم، فلا يمكن أن تمدح إنساناً أو تذمّه؛ لأنَّ العاصى مجبر والمطيع مجبر.

ويقال لهم: إنَّكم إذا قلتم ذلك أثبتم أنَّ الله أظلم الظالمين؛ لأنَّه كيف يعاقب العاصى وهو مجبر على المعصية؟ ويثيب الطائع وهو مجبر على طاعته؟ فيكون أعطى من لايستحق، ومنع من يستحق، وهذا ظلم.

فقالوا: هذا ليس بظلم؛ لأنَّ الظلم تصرف المالك فى غير ملكه، وهذا تصرف من المالك فى ملكه يفعل به ما يشاء.

وأجيب: بأنَّه باطل؛ لأنَّ المالك إذا كان متَّصفاً بصفات الكمال لن يخلف وعده، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا**﴾(1)، فلو أخلف هذا الوعد؛ لكان نقصاً فى حقه وظلماً لخلقه، حيث وعدهم فأخلفهم.

ومذهبهم فى أسماء الإيمان والدين الإرجاء، فيقولون: إنَّ الإيمان مجرَّد اعتراف الإنسان بالخالق على الوصف المعطل عن الصفات حسب طريقتهم، وأنَّ الأقوال والأعمال لا مدخل لها فى الإيمان، وأنَّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

ومن هذه الأمور الثلاثة قالوا: إنَّ أفسق وأعدل عباد الله فى الإيمان سواء، بل قالوا: إنَّ فرعون مؤمن كامل الإيمان، وجبريل مؤمن كامل الإيمان، لكن فرعون كفر؛ لأنَّه ادّعى الربوبية لنفسه فقط، فصار بذلك كافراً.

(1) طه: ١١٢.

الثانية عشرة: مَا بُلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.

الثالثة عشرة: مَا أُكْرِمَ بِهِ مِنَ الخُلَّةِ.

قال ابن القيم عنهم:

والناس في الإيمان شيء واحد كالمشط عند تماثل الأسنان

فمذهبهم من أخبث المذاهب إن لم تقل أخبثها، لكن أخبث منه مذهب الرافضة، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنَّ جميع البدع أصلها من الرافضة»؛ فهم أصل البليَّة في الإسلام، ولهذا قال المؤلف: «أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة»، ولعل الصواب من الثلاث والسبعين فرقة، أو أنَّ الصواب أخرجهم إلى الثنتين والسبعين؛ أي: أخرجهم من الثالثة التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه؛ لأنَّ المعروف أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي من كانت على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وصدق رحمه الله في قوله عن هاتين الطائفتين الرافضة والجهمية: «شر أهل البدع».

وقد قتل الجهم بن صفوان سلمة بن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيَّار لأنَّه أظهر هذا المذهب ونشره.

وقول المؤلف: **«وبسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أوّل من بنى عليها المساجد»**، ولهذا يجب الحذر من بدعتهم وبدعة الجهمية وغيرها، ولاشك أنَّ البدع دركات بعضها أسفل من بعض؛ فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعاً لمنهج السلف الصالح في هذا الباب وفي غيره.

● **الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شدة النزع.**

تؤخذ من قولها: **«طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها»**، وفي هذا دليل على شدّة نزعه، وهكذا كان الرسول ﷺ يمرض ويوعك كما يوعك الرجلان[1] من الناس، وهذا من حكمة الله ـ عزوجل ـ؛ فهو ﷺ شدد عليه البلاء في مقابلة دعوته وأوذي إيذاءً عظيماً، وكذلك أيضاً فيما يصيبه من الأمراض يضاعف عليه، والحكمة من ذلك لأجل أن ينال أعلى درجات الصبر؛ لأنَّ الإنسان إذا ابتلي بالشر وصبر كان ذلك أرفع لدرجته.

والصبر درجة عالية لا تُنال إلاّ بوجود أسبابها، ومنها الابتلاء؛ فيصبر ويحتسب حتى ينال درجة الصابرين.

● **الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلَّة.**

---

(١) [صحيح] أخرجه: البخاري. (٥٦٤٧)، ومسلم في البر والصلة (٨/ ٣٧٠/٤٥).

الرابعة عشرة: التَّصْرِيْحُ بِأَنَّهاَ أَعْلَى مِنَ المَحَبَّة.

الخامسة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الصدِّيقَ أَفْضَلُ الصحابة.

السادسة عشرة: الإِشَارَةُ إِلَى خِلافَته.

ويدل عليها قوله ﷺ: **«إنَّ الله اتَّخذنى خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً»**[١]، ولاشك أنَّ هذه الكرامة عظيمة؛ لأننا لانعلم أحداً نال هذه المرتبة إلا رسول الله ﷺ وإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

● **الرابعة عشرة: التصريح بأنَّها أعلى من المحبة.**

ودليل ذلك أنَّه ﷺ كان يحب أبا بكر، وكان أحبّ الناس إليه؛ فأثبت له المحبة، ونفى عنه الخلّة؛ فدلَّ هذا على أنَّها أعلى من المحبة، والتصريح ليس من هذا الحديث فقط، بل بضمه إلى غيره؛ فقد ورد من حديث آخر أنَّه صرَّح: **«بأنَّ أبا بكر أحب الرجال إليه»**[٢]، ثم قال هنا: **«لو كنت متخذاً أحداً خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً»** فدلّ على أنَّ الخلَّة أعلى من المحبة.

● **الخامسة عشرة: التصريح بأنَّ الصدِّيق أفضل الصحابة.**

تؤخذ من قوله ﷺ: **«ولو كنت متَّخذاً من أمتى خليلاً، لاتَّخذت أبا بكر خليلاً»**، فلو كان غيره أفضل منه عند النبى ﷺ؛ لكان أحق بذلك.

ومن المسائل الهامة أيضاً:

أنَّ الأفضليَّة فى الإيمان والعمل الصالح فوق الأفضلية بالنسب؛ لأنَّنا لو راعينا الأفضلية بالنسب؛ لكان حمزة بن عبدالمطلب والعباس رضى الله عنهما أحقّ من أبى بكر فى ذلك، ومن ثمَّ قُدّم أبو بكر رضى الله عنه على على بن أبى طالب وغيره من آل النبى ﷺ.

[قلت]: وهنا ينجلى معنى قول النبى ﷺ **«ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»**.

● **السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.**

قال سليمان آل الشيخ[٣]: لأن من كانت محبته لشخص أشد فهو أحق الناس بالنيابة عنه لاسيما وقد قال ذلك فى مرض موته، خصوصاً وقد استخلفه على الصلاة بالناس وغضب لما صلى عمر بهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٤٠).

قال ابن عثيمين: لم يقل التصريح، وإنَّما قال: الإشارة؛ لأنَّ النبى ﷺ لم يقل: إنَّ أبا بكر هو الخليفة من بعده، لكن لَمَّا قال: «**لو كنت متَّخذاً من أمتى خليلاً؛ لاتَّخذت أبا بكر خليلاً**» عُلِمَ أنَّـه رضى الله عنه أولى النـاس برسول الله ﷺ؛ فيكون أحـق الناس بخلافته أهـ.

قلت: وللنبىِّ ﷺ إشارات أخرى فى استخلاف أبى بكر مثل «**مروا أبا بكر فليصلىِّ بالناس**»[١] وهو فى الصحيح، ومنها المرأة التـى جاءت فسألت النبىَّ ﷺ إذا جئتُ فلم أجدك ـ وتُعَرِّض بموته ـ فقال «**ءات أبا بكر**»[٢] وهو فى الصحيـح، ومنها «أنه لما رأى رؤيا وهو يجلس على بئر وينزع من البئـر ثم أعطى أبا بكر فنزع ثم بعد ذلك عمر»[٣] وهو فى الصحيح، ومنه قوله ﷺ «**سدُّوا كلَّ خوخوة فى المسـجد إلا خوخة أبى بكر**»[٤] وهو فى الصحيح.

ولقد نوهـت إلى هذه الآثار على كثـرتها للإمعان فـى الرد على الروافض والبـاطنية الذين كفروا أبـا بكر وعمر، أو جعلوا أبا بـكر ليس أهلاً لهذه الخلافـة، بل هو مؤهل لهذا لأنَّ النبىَّ ﷺ أثـنى عليه ثناء ما بعده ثـناء حتى أنه كان يفضله عـلى عمر ولذلك شاهد فى الصحيح حينما أسرع أبو بكر فى عمر بكلمة فقال له أبو بكر ردهًا حتى تكون قصاصاً فلم يرضى عمر، فـلما ذهب إلى النبى ﷺ قال: **بل اجلس غفـر الله لك يا أبا بكر** فلما جاء عمر عـنَّفة الرسول ﷺ وقال **جئتكم فقلتـم كذبت وقال أبو بكر صدق، ووساني وآمن بى إذ كفر بى الناس وواسانى بنفسـه وماله وزوّجنى ابنته. فهل أنتم تاركوا لى صاحبى** فما أُغْضب بعدها أبداً[٥]، وهو يشير بذلك إلى قول الله تعالى ﴿**إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ فالله عز وجل لم يثبـت هذه الصحبة لأحد إلا لأبى بكر مـع أن كلهم أصحاب لكـن اختصاصه بالصحـبة تنويه على أن لـه مرتبة أعلى فى الصحبة على غيره فلذلك استأهل أن يكون خليفة رسول الله ﷺ.



(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٠٤)، ومسلم فى الصلاة (٤/ ١٤٠ ـ النووى) عن عائشة به. وانظر «رياض الصالحين» (٤٥٤ ـ بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخار ى (٣٦٥٩)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ١٦٢/ ١٠) عن جبير بن مطعم به.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦٧٦)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ١٧٢/ ١٧) عن أبى هريرة به.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٦٧) عن ابن عباس به.

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦٦١) عن أبى الدرداء به.

٢٠ باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

مناسبة الباب لما قبله، وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال سليمان آل الشيخ(١): أراد المصنِّف - رحمه الله- بهذه الترجمة أمورًا:

أولها: التحذير من الغلو فى قبور الصالحين .

الثانى: أنَّ الغلوَّ فيها يَؤول إلى عبادتها.

الثالث: أنَّها إذا عُبِدَت سُمِّيت أوثانًا ولو كانت قبور الصالحين .

الرابع: التنبيه على العِلَّة فى المنع من البناء عليها واتخاذها مساجد .اهـ.

وقال حامد بن محمد(٢) : فى التعليق على قول المصنِّف: باب ما جاء أنَّ الغلوّ فى قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تُعْبَد من دون الله ، لَمَّا مضى من أنَّ التردد - أى على القبور ولو لعبادة الله - يورث التأله والتعظيم شيئًا فشيئًا حتى تعبد من دون الله، الذى خلق الكون بأسره - سبحانه وتعالى عمَّا يشركون .اهـ.

وقال ابن باز(٣): وهذا صحيح كمّا سبق، فالغلو يـجعل المغلو فيه معبودًا من دون الله، ولهذا لَمـا غلى أناس فى قـبور بعض الصالحـين جعلوهـا تُعْبَد من دون الله كـقبر الصالحين من الحسن والحسين وفاطمة وغير ذلك.

وهكذا هذه الأمَّـة غلو فى الرسول ﷺ وعـبدوه واستغاثوا بـه ودعوه من دون الله ، وفى سابق الزمان لما غلى قوم نوحٍ فى الصالحين أدى إلى عبادتهم وتقدّم.

قال ابن عثيمين(٤): هذا الباب له صلة بما قبله، وهـو أن الغلو فى قبور الصالحين يُصيِّرها أوثانًا تُعبد من دون الله ، أى: يؤول الأمر بـالغالين إلى أن يعبدوا هذه القبور أو أصحابها .اهـ.

قلت: فبعد أن ذكر المصنـف فى الباب قبل الماضى عاقبة الغلـو فى الصالحين، وأنه سبب كفر بـنى آدم ، اتبع ذلك بباب فى الوسيـلة الموصلة للغلو وهـو : عبادة الله عند قبورهم فكان لابد وأن يفرد بابًا فى عاقبة من غالَ فى القبر نفسه، فناسب وضعه هنا.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٤٨) .
(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٧).
(٣) التعليق المفيد (١٢٥)
(٤) القول المفيد : (١/ ٥٣٩).

والأولى - والله أعلم- تقديم هذا الباب على الذى قبله، من باب تقديم الغاية على الوسيلة، والبدء بالأشر ثم الأخف، أو تأخير الباب الماضى على الذى قبله، من باب تقديم الوسيلة على الغاية وهذا الأولى، فيكون الترتيب على هذا النحو:

باب التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟

فهذا السبب فى الغلو فى المقبور والقبر فيجعل الأول معبود والثانى وثن، وهو ما صرح به فى الترجمتين،و هو الذى تسبب فى كفر بنى آدم، وتركهم دينهم، وصيَّر القبور أوثانًا.

ولعل المصنف وضع هذه الترجمة بالنظر إلى دعاءه ﷺ فالنبى ﷺ ما دعى إلا لما علم أن من كان قبلنا اتخذوا قبور أنبياءهم وصالحيهم مساجد، فلذلك ناسب أن توضع الأبواب التى فيها عبادة القبور واتخاذها مساجد قبل هذا الباب ولكن هذا من حيث الدعاء، ولكن من حيث الترجمة نفسها فالأولى كما قلت، والله الموفق للصواب.

● مناسبة الباب للتوحيد:

قال الفقير: هى أن الغلو فى قبور الصالحين يؤول إلى عبادتها من دون الله وهذا شرك واضح.

شرح الترجمة:

قوله: [ما جاء أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانًا]

قال سليمان آل الشيخ(١): وبالجملة فالغلو أصل الشرك فى الأولين والآخرين إلى يوم القيامة .اهـ.

وقال ابن عثيمين(٢): والغلو: مجاوزة الحد مدحًا أو ذمًا والمراد هنا مدحًا والقبور لها حق علينا من وجهين:

١- أن لا نفرّط فيما يجب لها من الاحترام، فلا تجوز إهانتها، ولا الجلوس عليها، وما أشبه ذلك.

٢- أن لا نغلو فيها فنتجاوز الحد. اهـ.

[قلت]: والرسول ﷺ نهانا عن الإفراط والتفريط بوجه عام. وفى القبور بوجه خاص،ثم قال ففى صحيح مسلم قال على بن أبى طالب لأبى الهياج الأسدى: «ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سوَّيته»(٣) وفى رواية: «ولا صورة إلا طمستها»(٤) اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٤٨) (٢) القول المفيد (١/ ٥٣٩) (٣، ٤) تقدم تخريجه

[قلت]: وفى هـذه الرواية : جمع بين الصورة وطمسهـا والوثن وكسره، **كلاهما عند** مسلم، وفيه درء الشبهة القائلة أن الصورة المحرمة هى التماثيل، فقال فى التمثال يكسر، وفى الصورة تطمس ، ففيها الفرق بين الصورة المجسمة وحبيسة الظل وأن كلاهما منهى عنه، والله أعلم .اهـ.

والقبر المشرف: هو الذى يتميز عن سائر القبور، فلابد أن يسوى ليساويها لئلا يظنّ أن لصاحب هذا القبر خصوصية ولو بعد زمن، إذ هو وسيلة إلى الغلو فيه .اهـ

قوله: **«الصالحين»**:

قال ابن عثيمين: يشمل الأنـبياء والأولياء، بل ومـن دونهم وتقدم فى الـباب قبل الماضى مزيد بيان لمعنى الصالح والغلو.أهـ

قال سليمان آل الشيخ[(١)]:

الأوثان: هـى المعبودات الـتى لا صورة لهـا كالقـبور والأشجار والـعمد والحيـطان والأحجار ونحوها، وقد تقدم بيان ذلك .

وقيل: الوثن: هو الصـنم، والصنم هو الوثن، وهذا غير صحـيح إلا مع التجريد، فأحدهما قد يعنى به الآخر، وأما مع الاقتران فيفسر كل واحد بمعناه . اهـ.

وقال ابن عثيمين[(٢)]: جمع وثـن ، وهو كل ما نُـصب للعـبادة ، وقد يقـال له : صنم، والصنم: تمثال مُمَثَّل، فيكون الوثن أعم .أهـ

قلت: واستدل المصنف على ذلك بقوله ﷺ: **«اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد»**.

ثم قال: ولكن ظاهـر كلام المؤلف أنَّ كل ما يعبد من دون الله يُـسمَّى وثنًا وإن لم يكن على تمثال نصب، لأنَّ القبور قد لا يكون لها تمثال يُنصب على القبرفيعبد.أهـ.

قوله: «تعبد من دون الله»

قال ابن عثيمين: أى : من غيره، وهـو شامل لما إذا عبدت وحدهـا أو عبدت مع الله، لأنَّ الواجب فى عبادة الله إفـراده فيها، فإذا قُرِنَ بها غيره صـارت عبادة لغير الله، وقد ثبت فى الحديث القدسى أن الله تعالى يقول : **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه»**[(٣)] اهـ.



(١) تيسير العزيزالحميد (٢٤٨)

(٢) القول المفيد (١/ ٥٤٠)

(٣) تقدم تخريجه .

رَوَى مَالِكٌ فِى «الموطأ» أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِى وَثَنًا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِم مَسَاجِدَ»(١).

●قوله [روى مالك فى الموطأ ....] الحديث .

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا الحديث رواه مالك فى باب جامع الصلاة «مرسلاً عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أنَّ رسول الله ﷺ قاله .

ورواه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» عن أبى خالد الأحمر عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به ولم يذكر عطاء. ورواه البزار عن عمر بن محمد عن زيد عن عطاء عن أبى سعيد الخدرى مرفوعًا(٣)، وعمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب نفسه من أشراف أهل المدينة.

روى عنه مالك والثورى وسليمان بن بلال فالحديث صحيح عند من يحتج بمراسيل الثقات، وعند من قال بالمسند لإسناد عمر بن محمد له بلفظ الموطأ سواء، وهو ممن تقبل زيادته، وله شاهد عند الإمام أحمد والعقيلى من طريق سفيان، عن حمزة بن المغيرة، عن سهيل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة رفعه «**اللهم لا تجعل قبرى وثنًا يعبد، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٤) اهـ.

مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جار الله(٥): أن النبى ﷺ خاف أن يقع من أمته ما وقع لغيرهم من الأمم السابقة فتجعل قبره وثنًا يعبد من دون الله. اهـ.

وقال القرعاوى(٦): حيث دل الحديث على أن القبور ستتخذ أوثانًا فى هذه الأمة، لذا سأل الله بأن يحمى قبره من أن يتخذ وثنًا .اهـ

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى(٧): حيث دل الحديث على أن اتخاذ القبور مساجد وسيلة لعبادة أصحابها، وذلك شرك مناف للتوحيد .اهـ.

---

(١) أخرجه مالك فى «الموطأ» (١/ ١٥٦/ ٨٥) عن عطاء بن يسار مرسلاً.
وأخرج ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٣/ ٢٦٩) وعبد الرزاق فى «مصنفه» (١/ ٤٠٦/ ١٥٨٧). عن زيد بن أسلم مرسلاً.
قال ابن عبدالبر : لا خلاف عن مالك فى إرسال هذا الحديث
وانظر فتح المجيد (٣٧٥- بتخريجنا).
(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٤٨، ٢٤٩).
(٣) [ضعيف] ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٢/ ٢٨) وقال: رواه البزار وفيه عمر بن صهبان وقد اجتمعوا على ضعفه. وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٧٨) بتخريجنا.
(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده (٢/ ٢٤٦) عن أبى هريرة به. وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٩٧) بتخريجنا.
(٥) الجامع الفريد (٨٧). (٦، ٧) الجديد (١٩٥).

شرح الحديث:

قوله (روى مالك)

قال سليمان آل الشيخ[1] : هو الإمام مالـك بن أنس بن مالك بن أبـى عامر بن عمر الأصبحى أبو عـبد الله المدنى الفقيه إمام دار الهجرة ،وأحـد الأئمة الأربعة، وأحد المتقنين فى الحديث حتى قال البخارى، أصـح الأسانيد كلها: مالك عن نافع عن ابن عمر مات سنة تسع وسبعين ومائة. وكان مولده سنة ثلاث وتسعين .

قلت : أى مات عـن ستة وثمانين عاماً فـهو خيرنا ولابد إن صح قـول النبى ﷺ «**خيركم من طال عمره وحسن عمله**» ومن النادر أن تجد بعض الأئمة ليس بمعمِّر. والله أعلم.

وقوله [فـى الموطأ]: سُمىّ الموطـأ لأنَّه لما ألفه قبل عرضــه على مئة من علمـاء المدينة فواطئوه عليه أى وافقوه عليه، فسماه الموطأ يعنى المتفق عليه، وقيل الموطأ أى الممهد وهو من أوائل الكتب التى صنفت فى الحديث والفقه ، وهو مروى بروايات كثيرة عن الإمام مالك فتجد الموطأ بروايـة محمد بن حسن الشيبانى تلميذ أبى حنـيفة، وغيره من تلاميذ الإمام مالك، وتجد أنّ كل موطأ منها ليس فيه أحاديث فى الآخر بسبب أن الإمام مالك كان يحدث به مراراً ويراجع فيكون أسعد التلاميذ من أخذ العرض الأخير للموطأ.

«والموطأ» من الكـتب التى خدمت خدمة لم يـخدمها كتاب حديثـى أبدًا، يكفى أن أذكر لكم أن الإمام ابن عبد البر فى كتاب «التمهيد» فى شرحه للموطأ بلغ إحدى عشر مجلدًا وفى اثنين وعشرين جزءاً إلى الآن مطبوع والباقى مخطوط ولم يطبع مع أنّ الموطأ هو مجلّد واحد وإن تعددت رواياته لا تخرج عـن مجلّد واحد وكتاب «الاستذكار» أيضاً لابن عبدالبر من الكتب المطولة جداً على الموطأ.

ومنها من كتب فى وصل مراسيل موطأ مالك وتعليقاته ومعلّقات مالك، وفى رجال مالك كإسعاف المبطأ فى رواة الموطأ للسيوطى.

وهذا يدلك علـى شرف الكتاب وشرف الكاتب كـما ذكرنا فى النكت المتـممة على مقدمه ابن تيمية .

قوله: [اللهم] : قال ابن عثيمين[2]: أصلها (يا الله) فحذفت (يا) النداءلأجل البداءة باسم الله، وعـوض عنها الميـم الدالة على الجـمع، فكأن الداعـى جمع قلبـه على الله، وكانت الميم فى الآخرة لأجل البداءة باسم الله. اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٤٩).

(٢) القول المفيد (١/ ٥٤١، ٥٤٢).

وهذا كثير فى دعائه ﷺ، وبهذا يتبين لك جهل بعض العامة من الناس الذين يؤمنون وراء الإمام - خاصة فى قنوت الفجر أو قنوت الوتر أو ختم القرآن على خلاف فقهى فى جواز القنوت فى هذه المواضع - بقولهم (يا الله) ويُقدم بين يدى اسم الجلال (الله) بحرف النداء، بل وربما كان الإمام أو الداعى - فيقول (يا الله يا الله) فيقدم بين يدى اسم الجلالة، والسنة فى الدعاء أن يقول (اللهم) ولا يُحدث طريقة من عنده للدعاء، والله المستعان.

قوله: [لا تجعل قبرى وثنًا يعبد]:

قال ابن عثيمين[1]: لا : للدعاء .اهـ.

قلت: وكذلك تستعمل للأمر .

ثم قال: لأنها طلب من الله .

قلت: فهى من الأدنى للأعلى، وأيضا لتصدر الكلام بقوله (اللهم) فإن كانت من الأعلى كانت أمرًا و نهى ، وإن كانت من المساوى فالتماس .

ثم قال: (وتجعل): تصيِّر، والمفعول الأول لها : (قبرى) . والثانى (وثنًا).

وقوله (يعبد) صفة لوثن، وهى صفة كاشفة ، لأن الوثن هو الذى يُعبد من دون الله وإنما سأل النبى ﷺ ربه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد، لأن دعوته كلها بالتوحيد ومحاربة الشرك . أهـ

قال سليمان آل الشيخ[2]: قد استجاب الله دعاء رسول الله ﷺ، فمنع الناس من الوصول إلى قبره لئلا يعبد استجابة لدعاء رسوله ﷺ .

كما **قال ابن القيم**: فأجاب رب العالمين دعاءه:

حتى غدت أرجاؤه بدعائه : فى عزة وحماية وصيان[3]

وأحاطه بثلاثة جدران، ودل الحديث على أن قبر الرسول ﷺ لو عبد لكان وثنًا، فما ظنك بقبر غيره من القبور التى عبدت هى وأربابها من دون الله، وإذا أريد تغيير شىء من ذلك أنف عُبَّادُها، واشمأزت قلوبهم، واستكبرت نفوسهم، وقالوا: تنقص أهل الرتب العالية، ورموهم بالعظائم، فماذا يقولون لو قيل لهم : إنها أوثان تعبد من دون الله؟ فالله المستعان على غربة الإسلام.

(١) القول المفيد (١/ ٥٤١, ٥٤٢). (٢) تيسير العزيز الحميد (٢٤٩- ٢٥١)

(٣) فتح المجيد نقلاً عن النونية، كما سيأتى

وهذه هى الفتنة العظمى التى قال فيها عبد الله بن مسعود: «كَيْفَ أنْتُم إذا لَبِسَتكُمْ فتنة يهرمُ فيها الكَبيرُ، ويُنشأُ فيها الصغير، تَجرى على النَّاس، يَتَّخذُونَها سنَّةً، إذا غُيِّرت قِيل غُيِّرت السُّنَّة»(١) ويؤخذ من الحديث المنع من تتبع آثار الأنبياء والصالحين كقبورهم ومجالسهم، ومواضع صلاتهم للصلاة، والدعاء عندها، فإن ذلك من البدع، أنكره السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم، ولا نعلم أحدًا أجازه أو فعله إلا ابن عمر على وجه غير معروف عند عباد القبور، وهو إرادة التشبه برسول الله ﷺ فى الصلاة فيما صلى فيه ونحو ذلك، ومع ذلك فلا نعلم أحدًا وافقه عليه من الصحابة، بل خالفه أبوه وغيره، لئلا يفضى ذلك إلى اتخاذها أوثانًا كما وقع.

قال ابن عبد الباقى فى «شرح الموطأ» روى أشهب عن مالك أنه كره لذلك أن يدفن فى المسجد قال: وإذا منع من ذلك فسائر آثاره أحرى بذلك ، وقد كره مالك طلب موضع شجرة بيعة الرضوان مخالفة لليهود والنصارى. انتهى.

وقال ابن وضاح: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبى ﷺ فقطعها، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة،

قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع: أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر رضى الله عنه . وقد تقدم هذا الأثر والذى يليه فى بحث التبرك المشروع والتبرك الممنوع.

وقال المعرور بن سويد: صليت مع عمر بن الخطاب فى طريق مكة صلاة الصبح، فقرأ فيها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾(٢) و﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾(٣) ثم رأى الناس يذهبون مذاهب فقال: أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فهم يصلون فيه: فقَال: إنما أَهْلكَ مَنْ كَانَ قَبْلكُم بِمثلِ هَذَا: كانُوا يَتَتَبعُونَ آثَارَ أنبيائهم، ويتخذُونها كَنائس وَبِيعاً فمَن أدركتهُ الصلاةَ فى هَذهِ المساجدَ فَليصلِ، ومَن لا فليمض ولَا يَتعمدَها»(٤).

وفى **«مغازى ابن إسحاق»** من زيادات يونس بن بكير عن أبى خلدة خالد بن دينار: حدثنا أبو العالية قال: لما فتحنا تستر وجدنا فى بيت مال الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ، فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية فأنا أول رجل قرأه من العرب، قرأته مثل ما أقرأ القرآن.

(١) [منقطع] أخرجه الدارمى (١/ ٦٤) والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٥١٤) وانظر كتابنا «فقه الخطابة وزاد الخطيب» (١/ ٤٤) وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٨٠) بتخريجنا.

(٢) الفيل: ١. (٣) قريش: ١ (٤) تقدم تخريجه .

فقلت لأبى العالية : ما كان فيه ؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم ، وما هو كائن بعد.

قلت: فما صنعتم بالرجل ؟

قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشرة قبرًا متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعمينه على الناس لا ينبشونه.

قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون.

فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال رجل يقال له: دانيال .

فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة .

قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ففى هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهو إنكار منهم لذلك ، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ولم يستحب الشارع قصدها فهو من المنكرات ، وبعضه أشد من بعض ، سواء قصدها ليصلى عندها ، أو ليدعو عندها أو ليقرأ عندها ، أو ليذكر الله عندها، أو لينسك عندها بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التى لم يشرع تخصيصها به لا نوعًا ولا عينًا، لأن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها، كمن يدعو الله فى طريقه، ويتفق أن يمر فى طريقه بالقبور أو كَمَنْ يزورها ويسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى كما جاءت به السنَّة ، فإن ذلك ونحوه لا بأس به، وأما تحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه فى غيره ، فهذا هو المنهى عنه، والفرق بين النوعين ظاهر، فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز فى ممره بصنم أو صليب أو كنيسة أو دخل إليها ليبيت فيها مبيتًا جائزًا ودعا الله فى الليل، أو أتى بعض أصدقائه ودعا الله فى بيته لم يكن بهذا بأس. ولو تحرى الدعاء عند هذه المواضع لكان من العظائم بل قد يكون كفرًا. أهـ

قلت: وقد اختصر صاحب فتح المجيد: آخر هذا الكلام فما أجاد(*).

(*) فتح المجيد ص١/٣١٢ ، ٣١٣.

مسألة :

شخص يقول كل يوم أذكار الصباح والمساء، وهو يقولها ذات مرة وكان يركب سيارة فمر بقبر من قبور الصالحين أو غيرهم، فهل هو بذلك دعا الله هناك في ذلك المكان ـ لما مر عليهم ويصبح بذلك ممن عظم المكان في الصباح؟

الجواب:

قال الفقير: فارق بين قصده بذلك الدعاء والأذكار المكان وأصحابه المقبورين وبين حدوث ذلك اتفاقاً لأنها أذكاره ووِرده، وبين أن يقصد أن يدعو الله ويذكره عند هذه القبور . لكن الواضح من السؤال أن ذلك قَدَراً لاقصداً وهو يقول الأذكار مر على ذلك القبر سواء راكباً أم ماشياً فهو في هذه الحالة لا يوقف أذكاره حتى ينتهي من المرور، بل يستمر لأن قصده ونيته لم تكن أن يذكر الله للقبر .

قوله: [اشتد غضب الله].

قال سليمان آل الشيخ(١): هذه الجملة بعد الأولى تنبيه على سبب لحوق اللعن بهم وهو توسلهم بذلك إلى أن تصير أوثانًا .اهـ.

قال ابن باز(٢): «اشتد غضب الله» لأنهم جعلوها أوثانًا تعبد من دون الله حيث بنوا عليها المساجد فعظموها فطافوا بها واستغاثوا بها ونذروا لها، فاللات لما غلى فيه أهل الطائف صار معبودًا من دون الله فهذه سنة الأولين والآخرين، فالبناء على القبور وتعظيمها يصيرها أوثانًا تعبد وإن لم يعبدوها الآن فالوسائل تجر إلى الغايات.أهـ

قال ابن عثيمين(٣): **قوله: «غضب الله»** .

صفة حقيقية ثابتة لله - عز وجل- لا تماثل غضب المخلوقين لا في الحقيقة ولا في الأثر، وقال أهل التأويل: غضب الله هو الانتقام ممّن عصاه، وبعضهم يقول: إرادة الانتقام ممَّن عصاه.

وهذا تحريف للكلام عن مواضعه، لأنَّ النبي ﷺ لم يقل: انتقم الله، وإنَّما قال: اشتدّ غضب الله، وهو ﷺ يعرف كيف يُعبِّر، ويعرف الفرق بين غضب الله وبين الانتقام، وهو أنصح الخلق وأعلم الخلق بربِّه، فلا يمكن أن يأتي بكلام وهو يريد خلافه، لأنَّه لو أتى بذلك لكان ملبسًا، وحاشاه أن يكون كذلك ، فالغضب غير

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٥١) .(٢) التعليق المفيد (١٢٦).

(٣) القول المفيد (١/٥٤٢/٥٤٤).

الانتقام وغير إرادة الانتقام، فالغضب صفة حقيقية ثابتة لله تليق بجلاله لا تماثل غضب المخلوق، لا فى الحقيقة ولا فى الأثر.

وهناك فروق بين غضب المخلوق وغضب الخالق، منها:

١- غضب المخلوق حقيقته هو : غليان دم القلب، وجمرة يلقيها الشيطان فى قلب ابن آدم حتى يفور. أهـ.

[قلت] : لحديث: «**إنى لأعلم كلمة لو قالها هذا لذهب عنه ما يجد، قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»(١) لذلك فى علاج الغضب ذكر ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم فى شرح حديث «لاتغضب»(٢) أن من أدوية علاج الغضب الوضوء فالنبى ﷺ قال« **إن الغضب من الشيطان والشيطان من النار والماء يطفأ النار فتذهب فتتوضأ فيذهب ما أنت عنه فيه**» (٣).

وأيضاً ذكر من الأدوية ما يبين أن حقيقة الغضب من الشيطان وأن أصل الغضب من الشيطان حيث قال «فليتحول» فليغير هيئته «فإن كان واقفاً فليجلس وإن كان جالساً فليضجع»(٤) وهكذا لأن التحويل من شأنه أن يقلل تمكن واستحواذ الشيطان منك وعليك . فلذلك ناسب أن نقول أن غضب المخلوق حقيقته غليان دم القلب وجمرة يلقيها الشيطان فى قلب ابن آدم.

ولما رواه أحمد والترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال فى خطبته : «**ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم، أفما رأيتم إلى جمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس من ذلك شيء، فليلزق بالأرض**(٥) اهـ.

ثم قال: أما غضب الخالق : فإنه صفة لا تماثل هذا، قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦١١٥)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/ ٦٣ ـ النووى).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦١١٦) عن أبى هريرة به
وانظر «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٧٨ ـ بتخريجنا).

(٣) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٢٢٦) عن أبى هريرة به
وانظر جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٤٤ ـ بتخريجنا).

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ١٥٢) وأبو داود (٤٧٨٢ عن أبى ذر به.
وانظر «جامع العلوم الحكم» (١/ ٢٤٢) بتخريجنا).

(٥) أخرجه أحمد فى«مسنده» (٣/ ٧) والترمذى (٢١٩١) ، وابن ماجه (٢٨٧٣ ٤٠٠٠ . ٤٠٠٧،)

٢- أن غضب الآدمى يؤثر آثاراً غير محمودة، فالآدمى إذا غضب قد يحصل منه ما لا يحمد، فيقتل المغضوب عليه، وربما يُطلّق زوجته، أو يكسر الإناء، ونحو ذلك. لذلك فى سنن أبى داود قال ﷺ «لاطلاق ولاعتاق فى إغلاق»[١] أى غضب وسمى إغلاق لأنه يغلق على العقل. بحيث مثلا أن شخص يأتى ويقول أنا طلقت أمرأتى لكنى كنت غضبان فقول له: الغضب غضبان: (فالأول) غضب يغلق غلى العقل فيجعلك كالسكران أو المجنون؛ فتتصرف وتفعل ولاتعى ما تفعل (والثانى) غضب لا يخرجك عن الوعى بحيث تعرف ما تفعل. فإن كان من النوع الأول فلا يقع الطلاق للحديث وإن كان من النوع الثانى فيقع كما قال تعالى حكاية عن موسى ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وفى المثل السائر الذى نسبه بعض الناس للنبى ﷺ وهو ليس مرفوعاً للنبى ﷺ وبين ذلك الشيخ محمد عمرو فى «تبيض الصحيفة»:

«من استُغضب ولم يغضب فهو جبان ومن استرضى ولم يرضى فهو حمار أو حيوان»[٢]

هذ قول الشافعى:

وقوله: **«من استغضب ولم يغضب فهوجبان»**: وهذه صفة نقص: فلو ربنا كان لايغضب برغم أنه يستغضب أو يحصل ما يغضبه فلو لم يكن يغضب فهذه إذن صفة نقص أم كمال. فنقول أنها صفة نقص ألا يغضب فى هذه الحالة إذن فنسبة الغضب إلى الله نسبتة صفة من صفات الكمال إليه كما تقدم ولكن بالنسبة للمخلوق تكون أحياناً صفة نقص وهو الغالب وأحيانا صفة محمودة كأن يغضب لله ولحرماته والرسول ﷺ ثبت عنه فى الصحيح أنه كان لايغضب لنفسه إلا إذا إنتهكت حرمات الله [٣] وأيضاً ثبت فى الصحيح حينما قال له بعض الصحابة: إنى لأتأخر عن الصلاة مما يطول بنا فلان فخرج مغضباً لم ير فى هذا الغضب قبل ذلك فقال «**إن منكم منفرين من أم الناس فليخفف**[٤] الحديث، وغضب على أسامة حينما قتل الرجل الذى قال أسلمت، غضب عليه حتى تمنى أسامة أن لم يكن أسلم قبل هذه[٥].

---

(١) [إسناده ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ٢٧٦) وأبو داود (٢١٩٣) وابن ماجه (٢٠٤٦) عن عائشة به. وأنظر منار السبيل» (٢٢١٧) بتخريجنا)

(٢) قال الشيخ محمد عمرو ـ حفظه الله ـ لا أصل له مرفوعاً وانظر «تبيض الصحيفة» (٨٩)

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٦١٢٦)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ٩١/ ٧٧) عن عائشة بنحو

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٠٣)، ومسلم فى الصلاة (٤/ ١٨٤ ـ النووى) عن أبى مسعود البدرى به.

(٥) تقدم تخريجه.

إذن فقد تكون الصفة «صفة الغضب» للمخلوق صفة مذمومة وهو الغالب وأحياناً صفة محمودة. أما بالنسبة للخالق فهى لاتحتمل مذمة ولانقص لاتحتمل إلا الكمال ؛ لأنها تختلف مع صفة المخلوق فى الحقيقة وفى الأصل.

ثم قال: ـ أى ابن عثيمين ـ أما غضب الله، فلا يترتب عليه إلا آثار حميدة لأنه حكيم، فلا يمكن أن يترتب على غضبه إلا تمام الفعل المناسب الواقع فى محله.

فغضب الله ليس كغضب المخلوقين، لا فى الحقيقة، ولا فى الآثار، وإذا قلنا ذلك، فلا نكون وصفنا الله بما يماثل صفات المخلوقين، بل وصفناه بصفة تدلّ على القوّة وتمام السلطان، لأنَّ الغضب يدلّ على قدرة الغاضب على الانتقام وتمام سلطانه، فهو بالنسبة للخالق صفة كمال، وبالنسبة للمخلوق صفة نقص.

ويدل على بطلان تأويل الغضب بالانتقام قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

فإنَّ معنى ﴿آسَفُونَا﴾ أغضبونا، فجعل الانتقام غير الغضب ، بل أثرًا مترتبًا عليه، فدلَّ هذا على بطلان تفسير الغضب بالانتقام.

واعلم أنَّ كل من حرَّف نصوص الصفات عن حقيقتها وعما أراد الله بها ورسوله، فلابد أن يقع فى زلّة ومهلكة، فالواجب علينا أن نسلّم لما جاء به الكتابُ والسنةُ من صفات الله تعالى على ما ورد إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل ولا تأويل اهـ.

قوله: [قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد]:

قال سليمان آل الشيخ(١): فيه إشارة إلى ما ترجم له المصنف.

وفيه تحريم البناء على القبور وتحريم الصلاة عندها وقد روى أصحاب مالك عنه أنه كره أن يقول القائل: زرت قبرالنبى ﷺ، وعلل وجه الكراهة بقوله : «**اللهم لا تجعل قبرى وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» فكره إضافة هذا اللفظ إلى القبر لئلا يقع التشبه بفعل أولئك سدًا للذريعة وحسمًا للباب، ذكره الطبرى وفيه أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه. ذكره المصنف .اهـ.

قال حامد بن محمد(٢): وقعوا فى المحذور الذى أوجب لهم اللعنة والعذاب.اهـ.

● كراهية إطلاق اسم الزيارة حتى على الزيارة الشرعية:

وقال عبد الرحمن آل الشيخ(٣) نقلاً عن ابن تيمية(٤): **قال شيخ الإسلام رحمه**

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٥١)
(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٧)
(٣) فتح المجيد (١/ ٣١٣، ٣١٤)
(٤) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٥٨، ٣٥٩).

الله تعالى: «ومالك قد أدرك الناس من التابعين، وهم أعلم النَّاس بهذه المسألة ، فدل على أنه لم يكن معروفًا عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ - إلى أن قال - وقد ذكروا في أسباب كراهته أن يقول: «زُرت قبر النبي ﷺ» لأنَّ هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يُريد به الزيارة البدعية، وهو قصد المَيت لسؤاله ودُعائه، والرَّغبة إليه في قضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يفعله كثير من النَّاس، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة، وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يَدل على معنى فاسد ، بخلاف الصلاة والسلام عليه، فإنَّ ذلك مما أمر الله به.

أما لفظ الزيارة في عموم القبور فلا يُفْهَم منها مثل هذا المعنى، ألا ترى إلى قوله: «فَزُوروا القُبور فإنَّها تُذَكِّرُكُم الآخِرة»[1] مع زيارته لقبر أمه[2]، فإن هذا يتناول قبور الكفار، فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع ، بخلاف ما إذا كان المَزُور مُعَظَّمًا في الدِّين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيرًا ما يعنى بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشِّركية، فلهذا كره مالك ذلك في هذا، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المَفْسَدَة» اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله[3]: الحديث يدل على:

١- أن النبي ﷺ خاف أن يقع من أمته ما وقع لغيرهم من الأمم السابقة فتجعل قبره وثنًا يعبد من دون الله.

٢- تحريم البناء على القبور، والصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر.

٣- إثبات صفة الغضب لله على ما يليق بجلاله.

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ فحمى قبره بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه اهـ.

وقال ابن عثيمين[4]: **قوله: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**

أي: جعلوها مساجد، إمَّا بالبناء عليها ، أو بالصلاة عندها، فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، والبناء عليها من اتخاذها مساجد أهـ .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنائز (١٠٥/٥١/٤) عن أبي هريرة به وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٨٤م) بتخريجنا.

(٣) الجامع الفريد (٨٧).

(٤) القول المفيد (١/ ٥٤٤)

[قلت] وهناك قول ثالث تقدم فى الباب الماضى، وهو الصلاة إليها.

ثم قال: وهنا نسأل: هل استجاب الله دعوة نبيه ﷺ بأن لا يجعل قبره وثنًا يُعبد، أم اقتضت حكمته غير ذلك ؟

الجواب: **يقول ابن القيم:** إن الله استجاب له، فلم يُذكر أنَّ قبره ﷺ جُعل وثنًا، بل إنَّه حمى بثلاثة جدران، فلا أحد يصل إليه حتى يجعله وثنًا يُعبد من دون الله، ولم يسمع فى التاريخ أنَّه جُعل وثنًا.

قال ابن القيم فى «النونية»:

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران. أهـ

حتى غدت أرجاؤه بدعائه فى غيرة وحماية وصيان(١)

وهذا هو البيت الثانى بعده.

[قلت]

وهذا الكلام تقدم معناه عن الإمام النووى والقرطبى وابن تيمية وابن حجر، وغيرهم من أهل العلم فى الباب الماضى.

ثم قال: صحيح أنه يوجد أناس يغلون فيه، ولكن لم يصلوا إلى جعل قبره وثنًا ولكن قد يعبدون الرسول ﷺ ولو فى مكان بعيد، فإن وجد من يتوجَّه له ﷺ بدعائه عند قبره، فيكون قد اتَّخذه وثنًا، لكن القبر نفسه لم يجعل وثنًا. اهـ.

وقال القرعاوى(٢) ذاكرًا للفوائد من الحديث:

(١) قصد القبور وتعظيمها عبادة لها، فيكون شركًا مهما كان قُرب صاحبها من الله.

(٢) إثبات صفة الغضب على الوجه اللائق به سبحانه، وتقدم ذكر ذلك.

(٣) تحريم بناء المساجد على القبور، تقدم ذلك.

(٤) تحريم الصلاة عند القبور ولو لم يبن مسجدًا. اهـ.

سؤال: ماذا على الناس الذين يذهبون إلى مسجد القبلتين أو مسجد قباء والصلاة فيه

---

(١) القصيدة النونية (٢/٢١٢) بشرح خليل هراس. وأضفت البيت الثانى للإفاده.

(٢) الجديد (١٩٥).

ركعتين ولم يكن هناك صلاة أثناء الزيارة وذلك أثناء العمرة وما حكم قصد الصلاة فى الحرم عند بئر زمزم، فماذا عليهم أيضًا؟(*)

الجواب

قال الفقير: الصلاة فى مسجد قباء تعدل عمرة، وكانﷺ يقصد مسجد قباء للصلاة فيه وهو أيضًا المسجد الذى أسس على التقوى، على أحد قولى المفسرين، أما مسجد القبلتين فلا يجوز قصده من أجل الصلاة فيه ولا من أجل التبرك به، أما إذا مررت اتفاقًا على المسجد فصليت من غير قصد فيه فيجوز. أما تعمد الصلاة فيه فلا تجوز، وهذا إمّا محرّم أو مكروه كراهة تحريمية منهى عنها.

أما الصلاة عند زمزم فلو كان يصلى عنده لأنه من المسجد الحرام فجائز أما إذا كان يصلى عندها لأنها زمزم فلا يجوز له ذلك ووقع فى المحظور، وهذا لا يناقض البركة التى فى ماء زمزم فهو لما شرب له، وطعام طعم وشفاء سقم، ولكن ليس فيه أن تقصد البقعة بالصلاة بل ينبغى أن نلتمس البركة بالطرق الشرعية كما تقدم بحث ذلك مطولاً فى باب من تبرك بشجر أو حجر والله تعالى أعلم.

سؤال: نرجو التنبيه على من يذهب إلى المملكة، وخاصة إلى المدينة بعدم زيارة بعض المساجد التى تسمى مسجد بلال وعمر وهى بجوار بعضها يذهب إليها الناس للزيارة والصلاة فيها بل وتنقل سيارات خاصة بذلك تقول «المزارات» وكذلك فى مكة يذهبون إلى الغار وما يسمى بجبل الثور وهذه الأمور غائبة على كثير من العامة وبعض الخاصة، وجزاك الله خيرًا؟

الجواب/ قال الفقير: نعم بعض من يذهب إلى المدينة يفعل ذلك وهذه المساجد يقال أنها مكان غزوة الأحزاب وهو الآن ليس على ما كان عليه بل أصبح طريقًا ممهدًا تسير فيه السيارات لكن هناك مساجد شبه مهجورة، يقولون عليها أنها هى الأماكن التى وضعها النبى ﷺ لأبى بكر وعمر كقوّاد للسرايا، فجعلوا أماكنها مساجد تتخذ للعبادة، والحمد لله أغلبها قد خَرِب إلا مسجد واحد يوشك على الخراب، وفى الغالب من يقصد هذه المساجد ليسوا من أهل السُّنة بل من أهل البدع والأهواء من الصوفية والباطنية والشيعة، ومن المزارات أيضًا أحد وقبور الشهداء فى أحد وقبر حمزة.

(*) تنبيه : هذا السؤال والذى بعده إحدى الأسئلة التى سُئلت أثناء إلقاء محاضرات فى شرحى للكتاب من هذا الباب.

ولابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ».

وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلحَاجِّ»(١).

ولكن المسئولين عن الإرشاد والدعوة هناك- جزاهم الله خيراً- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يسعون جاهدين أن يمنعوا الناس من ذلك كما أنشأوا حاجزًا من الأسلاك على الجبل الذى به غار حراء ومنعوا الصعود للجبل والغار ، وبعض الأماكن لم يستطيعوا أن يفعلوا فيها ذلك، وأيضًا لما خربت بعض المساجد التى تقصد من أجل هذا الأمر لم يعمروها، وهذا يحمد لهم، لكن فى الحقيقة هم لن يستطيعوا أن يفعلوا كلَّ شيء، بل نستطيع أن نفعل نحن بأن نتواصا بهذا الحق ونصبر عليه.



قوله: [ولابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ...] إلخ

مناسبة الأثر للبابَ وللتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(٢): وسبب عبادة اللات هو الغلو فى قبره حتى صار وثنًا يعبد، كما كان ذلك هو السبب فى عبادة الصالحين، ود، وسواع، ويغوث ، ويعوق، ونسر، وغيرهم، وكما كان ذلك هو السبب فى عبادة الصالحين من الأموات وغيرهم اليوم، فإنهم غلوا فيهم، وبنوا على قبورهم القباب والمشاهد، وجعلوها ملاذًا لقضاء المآرب، اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ(٣): ومناسبته للباب أنهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه، وصار قبره وثنًا من أوثان المشركين: .اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله(٤): مناسبة الآية للباب أن تعظيم الرجال الصالحين والغلو فى قبورهم والعكوف عليها يؤدى إلى الشرك المنافى للتوحيد .اهـ.

وقال ابن باز(٥): فاللات لما غلى فيه أهل الطائف صار معبودًا من دون الله. فهذه سنة الأولين والآخرين، فالبناء على القبور وتعظيمها يصيرها أوثانًا تعبد، وإن لم يعبدوها الآن ، فالوسائل تجر إلى الغايات.اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى «التفسير»/ باب: «أفرأيتم اللات والعزى» (٨/ ٤٧٨/ح ٤٨٥٩) وابن جرير فى «تفسيره» (٢٧/ ٣٥) بدون الجملة الأخيرة .

وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/ ١٦٣) وعزاه لعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه. تقدم تخريجه. وانظر تمام التخريج فى «فتح المجيد» (ح ٢١٣ ـ ٢١٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٥٢)

(٣) فتح المجيد (١/ ٣١٦).

(٤) الجامع الفريد (٨٨)

(٥) التعليق المفيد (١٢٦).

وقال ابن عثيمين[1] : قالوا: هـذا الرجل المحسن الذى يـلت السويق للـحجاج ، ويطعمهم إياه ثم بـعد ذلك عبدوه، فصار الغلو فى القبور يصيـرها أوثانًا تعبد من دون الله.

وفى هذا الـتحذير من الـغلو في القـبور، ولهذا نُهى عـن تجصيصهـا والبناء علـيها والكتابة عليهـا خوفًا من المحظور العظيم الذى يجعلها تـعبد من دون الله .اهـ. وسيأتى باقى كلام الشيخ فى موضعه.

وقال القرعاوى[2]: حيث أفاد الأثر بأن اللات فى الأصـل اسم لرجل صالح كان يلت السويق للحجاج ، فلما مات غلو فـى قبره واتخذوه صنمًا يعبد من دون الله، فعلى هذا كل قبر غلا الناس فى تعظيمه سيؤدى إلى عبادته، وإن لم يسمونه عبادة . اهـ.

شرح الأثر: قوله [ولابن جرير] : هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبرى صاحب «التفسير» و«التاريخ» وغيرهما.

قال ابن خزيمة: لا أعلم على الأرض أعـلم من محمد بن جريـر وكان من الأئمة المجتهـدين لا يقلد أحـدًا وله أصحاب يـتفقهون عـلى مذهبه ولـد سنة أربع وعـشرين ومائتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة[3] .

قال ابن عثيمين[4]: وتفسيره: هو أصل التفسير بـالأثر، ومرجع لجميع المفسرين بالأثر، ولا يخلو من بـعض الاثار الضعيفة، وكأنَّه يريد أن يجـمع ما روى عن السلف من الآثار فى تفـسير القرآن، ويدع للقارئ ، الحكـم عليها بالصحة أو الضـعف بحسب تتبع رجال السند، وهى طريقة جيدة من وجه، وليست جيدة من وجه آخر.

فجيدة مـن جهة أنَّها تجمع الآثـار الواردة حتى لا تضيـع وربما تكون طرقها ضـعيفة ويشهد بعضها البعض.

وليست جـيدة من جهة أنَّ القاصر بـالعلم ربَّما يخلـط الغث بالسمين ويـأخذ بهذا وهذا، لكـن من عرف طريقة الـسند، وراجع رجال الـسند، ونظر إلى أحوالـهم وكلام العلماء فيهم، علم ذلك .أهـ

قال الفقير:: بل مؤدى كلام أهل العلم جواز العمل بالضعيف وروايته فى التفسير قال البيهقى فى مقدمة دلائل النبوة[5] : تساهلوا فـى التفسير عن قوم لا يوثـقونهم فى

(١) القول المفيد (١/٥٤٨).
(٢) الجديد (١٩٦)
(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٥١ ، ٢٥٢).
(٤) القول المفيد ١/ ٥٤٥و٥٤٦
(٥) دلائل النبوة (١/ ٣٥-٣٧).

الحديث، ثم ذكر ليث بن أبى سليم وجويبر بن سعيد، والضحاك، ومحمد بن السائب- يعنى الكلبى - وقال هؤلاء يحمد حديثهم ويكتب التفسير عنهم وإنما تساهلوا فى أخذ التفسير عنهم، لأن ما فسروا به ألفاظه تشهد لهم به لغات العرب، وإنما أظنهاعملهم فى ذلك الجمع والتقريب فقط .اهـ.

ثم قال اى ابن عثيمين: وقد أضاف إلى تفسيره بالأثر: التفسير بالنظر ولا سيما ما يعود إلى اللغة العربية، ولهذا دائمًا يُرجِّح الرأى ويستدلّ له بالشواهد الواردة فى القرآن وعن العرب.

ومن الناحية الفقهية، فالطبرى مجتهد، لكنه سلك طريقة خالف غيره فيها بالنسبة للإجماع، فلا يعتبر خلاف الرجل والرجلين، وينقل الإجماع ولو خالف فى ذلك رجل أو رجلان، وهذه الطريقة تؤخذ عليه، لأنَّ الإجماع لابد أن يكون من جميع أهل العلم المعتبرين فى الإجماع، وقد يكون الحق مع هذا الواحد المخالف.

والعجيب أنى رأيت بعض المتأخرين يحذرون الطلبة من تفسيره، لأنَّه مملوء على زعمهم بالإسرائيليات، ويقولون: عليكم بـ «تفسير الكشّاف» للزمخشرى وما أشبه ذلك، وهؤلاء مخطئون، لأنهم لجهلهم بفضل التفسير بالآثار عن السلف واعتزازهم بأنفسهم وإعجابهم بآرائهم صاروا يقولون هذا.اهـ.

قوله: [عن سفيان]

قال سليمان آل الشيخ(1):فإن كان ابن عيينة فقد تقدمت ترجمته، وإن كان الثورى وهو الأظهر فهو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الكوفى، ثقة حافظ فقيه إمام حجة عابد، وكان مجتهدًا، له أتباع وأصحاب يتفقهون على مذهبه، مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربع وستون سنة اهـ.

قوله [عن منصور]

قال سليمان آل الشيخ(2): هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمى أبو عتاب - بمثناة ثقيلة ثم موحدة - الكوفى، ثقة ثبت فقيه، مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .اهـ.

قوله [عن مجاهد]

قال سليمان آل الشيخ(3) : هو ابن جبر - بالجيم والموحدة- أبو الحجاج المخزومى مولاهم المكى، ثقة إمام فى التفسير والعلم، أخذ التفسير عن ابن عباس وغيره، مات

(1، 2، 3) تيسير العزيز الحميد (252).

سنة أربع ومائة ، قاله يحيى القطان، وقال ابـن حبان : مات سنة اثنتين أو ثلاثة ومائة وهو ساجد، وكان مولده إحدى وعشرين فى خلافة عمر رضى الله عنه .اهـ.

قوله: «أفرأيتم اللات والعزى»

قال ابن عثيمين(١): الهمزة للاستفهام، والمراد به الـتحقير، والخطاب لعابدى هذه الأصنام اللات والعزّى. . . إلخ.

لما ذكر الله تعالـى قصة المعراج وما حصل فيـه من الآيات العظيمة التـى قال عنها: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ أى: ما نسـبة هذه الأصنام للآيات الكبيرة التى رآها النبى ﷺ ليلة المعراج.

اللات:

قال ابن حجر(٢): قال الإسماعيلى: هذا التفسيـر- أى تفسير اللات بأنه رجل يلت سويق الحاج - على قراءة من قرأ اللات بتشديد التاء.

قلت- أى الحافظ - وليس ذلك بلازم بل يحتـمل أن يكون هذا أصله وخفف لكثرة الاستعمال، والجمهور على القراءة بالتـخفيف . . وقد روى التشديد عن قراءة ابن عباس وجماعة من أتباعه،ورُويت عن ابن كثير أيضًا، والمشهور عنه التخفيف كالجمهور . . .

قال سليمان آل الشيخ(٣): لا تخالف بين هذا التفسـير والقراءة وبين قراءة من قرأ بالتخفيف. وقال: إنه كان حجر فعبدوه، واشـتقوا له من اسم الله الإله كما تقدم تقريره فى باب/ من تبرك بشجر، وأيضًا فيجاب عـلى الأول بأن أصله التشديد، وخفف لكثرة الاستعمال، وأما كونهم اشتقوا هذا الاسم من اسم الله فلا ينافى أيضًا ذلك .اهـ.

قال ابن عثيمين(٤): فالتخفيف يُرجَّح أنه من الإله، والتشديد يرجح أن أصله رجل يلت السويـق، وغلو فى قبره، وقالوا: هذا الـرجل المحسن الذى يلت السويـق للحجاج

(١) القول المفيد ١/ ٥٤٧.

(٢) الفتح ٨/ ٤٧٨

(٣) تيسيرالعزيز الحميد (٢٥٢).

(٤) القول المفيد (١/ ٥٤٧، ٥٤٨).

ويطعمهم إيَّاه ثم بعد ذلك عبدوه، فصار الغلو فى القبور يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله . أهـ.

قال ابن حجر[1]: واختلف فى اسم هذا الرجل فروى الفاكهى من طريق مجاهد قال: «كان رجل فى الجاهلية على صخرة بالطائف وعليها له غنم، فكان يسلو من رسلها ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيسًا ويطعم من يمر به من الناس، فلما مات عبدوه» وكان مجاهد يقرأ اللات مشددة.

ومن طريق ابن جريج نحوه، قال وزعم بعض الناس أنه عامر بن الظرف انتهى،

وهو ـ بفتح الظاء المشددة وكسر الراء ثم موحدة وهو العدوانى بضم المهملة وسكون الدال ، وكان حكم العرب فى زمانه، وفيه يقول شاعرهم

«ومنا حكم يقضى ولا ينقض ما يقضى »

وحكى السهيلى أنه عمرو بن لحى بن قمعة بن إلياس بن مضر، قال ويقال هو عمرو بن لحى وهو ربيعة بن حارثة وهو والد خزاعة انتهى.

وحرف بعض الشراح كلام السهيلى وظن أن ربيعة بن حارثة قول آخر فى اسم اللات، وليس كذلك ، وإنما ربيعة بن حارثة اسم لحى فيما قيل، والصحيح: أن اللات غير عمرو بن لحى، فقد أخرج الفاكهى من وجه آخر عن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحى: إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة فعبدوها وبنوا عليها بيتاً، وفى الصحيح فى باب مناقب قريش أن عمرو بن لحى هو الذى حمل العرب على عبادة الأصنام، وهو يؤيد هذه الرواية، وحكى ابن الكلبى أن اسمه صرمة بن غنم. اهـ.

هل هو أقدم أم مناة.

قال ابن حجر: وكانت اللات بالطائف وقيل بنخلة وقيل بعكاظ ، والأول أصح، وقد أخرجه الفاكهى أيضًا من طريق مقسم عن ابن عباس ، قال هشام بن الكلبى: كانت مناة أقدم من اللات فهدمها على عام الفتح بأمر النبى ﷺ، وكانت اللات أحدث من مناة فهدمها المغيرة بن شعبة بأمر النبى ﷺ لما أسلمت ثقيف وكانت العزى أحدث

(١) الفتح ٨/ ٤٧٨ .

من اللات وكان الذى اتخذها ظالم بن سعد بوادى نخلة فوق ذات عرق فهدمها خالد بن الوليد بأمر النبى ﷺ عام الفتح.[1]اهـ

قلت: «وقد تقدم شيء من هذا فى باب من تبرك بشجره أو حجر» وقول الله تعالى **﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾** .

قال ابن عثيمين[2]: وفى هذا التحذير من الغلو فى القبور، لهذا نُهى عن تجصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفًا من هذا المحظور العظيم الذى يجعلها تعبد من دون الله، وكان الرسول ﷺ يأمر إذا بعث بعثًا، بأن لا يدعوا قبرًا مشرفًا إلا سووه، لعلمه أنه مع طول الزمان سيقال: لولا أنَّ له مزيَّة ما اختلف عن القبور، فالذى ينبغى أن تكون القبور متساوية لا ميزة لواحد منها عن البقية اهـ.

قلت: وعلى رواية التشديد أنه كان رجل يلتُّ السويق فقالوا هذا رجل محسن فغلو فيه، فهذا - والله أعلم من باب التنبيه على الأغلظ من خلال التنبيه على الأخف، فيكون التحذير من الغلو فى قبور المجاهدين أو الشهداء أوالزعماء أشد من ذلك لما لهم من الفضل والأجر - إن كانوا من المقبولين - أعظم ممن يخدم الحجاج لقوله تعالى: **﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾** .

العزى:

قال ابن كثير[3]: قال ابن إسحاق فى «السيرة»: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحُجَّاب وتهدى لها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها وهى تعرف فضل الكعبةعليها لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده فكانت لقريش ولبنى كنانة:

(١) تقدم تخريجه.
(٢) القول المفيد ١/٥٤٨.
(٣) ابن كثير (٤/٢٤٥).

العزى بنخلة وكان سدنـتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفـاء بنى هاشم قلت بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول:

يا عزى كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

وقال النسائى: أخبرنا على بن المنذر أخبرنا ابن فضيل حدثنا الوليد بن جميع عن أبى الطفيل قال لما فـتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نـخلة وكانت بها العزى فأتاها خالـد وكانت على ثلاث سمرات فقطع السمـرات وهدم البيت الذى كان عليها ثم أتى النـبى ﷺ فأخبره فقال: «**ارجع فإنك لم تصـنع شيئًا**» فرجع خالـد فلما أبصرته السدنة وهم حـجبتها امعنوا فى الجبل وهم يقولون يا عـزى ياعزى فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة نـاشرة شعرها تحثو التراب على رأسهـا فغمسها بالسيف حتـى قتلها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «**تلك العزى**»(١) اهـ.

قلت: تقدم أيضًا شىء من هذا فى باب من تـبرك بشجر أو حجر وقول الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى**﴾.

قوله: «يَلُتُّ» قال ابـن منـظور: لتت: لَـتَّ السويقَ والأقِطَ ونحـوَهما، يَلُتُّـه لَتًا: جَدَحَه، وقيل: بَسَّه بالماء ونحوه، أنشد ابن الأعرابى:

سَفَّ العَجوزِ الأقِطَ المَلْتُوتَا.

واللتات: ما لت به.

قال الليث: اللت بل السويق، والبسُّ أشد منه.

يقال: لت السويق أى بله، ولت الشىء يـلتُّه إذا شده وأوثقه، وقد لُتَّ فلانٌ بفلانٍ إذا لُزَّ به وقُرن معه.

واللات، فيما زعم قوم من أهل اللغة : صخرة كان عندها رجل يلت السويق للحاج فلما مات، عُبدت

قال ابـن سيـده : ولا أدرى ما صحـة ذلك، وسيأتى ذكر الـلات، بالتخفـيف فى موضعه.

(١) تقدم تخريجه

قال الليث الليث : اللت الفعل من اللتات، وكل شيء يُلت به سويق أو غيره نحو السمن ودهن الآلية وفى حديث مجاهد فى قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى﴾ قال: كان رجل يلت السويق لهم، وقرأ : أفرأيتم اللاتَّ والعزى بالتشديد .

قال الفراء والقراءة اللاتَ، بتخفيف التاء ، قال: وأصله اللاتَّ بالتشديد، لأن الصنم إنما سمى باسم اللات الذى كان يَلُت عند هذه الأصنام لها السويق أى يَخْلِطُه، فخفف وجعل اسمًا للصنم،

قال ابن الأثير: وذكر أن التاء فى الأصل مخففة للتأنيث، وليس هذا بابها، وكان الكسائى يقف على اللاهً، بالهاء.

قال أبو إسحق: وهذا قياس، والأجود اتباع المصحف، والوقوف عليها بالتاء،

قال أبو منصور: وقول الكسائى يوقف عليها بالهاء يدل على أنه لم يجعلها من اللت، وكان المشركون الذين عبدوها عارضوا باسمها اسم الله تعالى الله علوًا كبيرا عن إفكهم ومعارضتهم وإلحادهم فى اسمه العظيم .

واللتات : ما فُتَّ من قشور الخشب.

ابن الأعرابى : اللتُّ الفتّ، قال امرؤ القيس يصف الحُمُر:

تَلُتُّ الحَصَى لتًا بسُمْرٍ رَزِينةٍ مَوارِنَ ، لا كُزْمٍ ولا مَعِراتِ

قال: تلت أى تَدُقّ، والسُمْرُ، الحوافر، والكزم : القصار، وقال هِمْيانُ فى اللت، بمعنى الدق.

حَطما على الأنْفِ وَسَماً عَلبا وبالعَصَا لتًا، وخَنْقاً سَأْبا

قال أبو منصور: وهذا حرف صحيح، ورُوى عن الشافعى، رضى الله عنه، أنه قال فى باب التيمم: ولا يجوز التيمم بلتات الشجر، وهو ما فت من قشره اليابس الأعلى، قال الأزهرى: لا أدرى لُتاتٌ أم لِتاتٌ، وفى الحديث : ما أبقى منى إلا لُتاتا ، اللتات : ما فُتّ من قشور الشجر ، كأنه قال: ما أبقى من المرض إلا جلدا يابسًا كقشرة الشجرة. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[1]: ولت السويق هو خلطه بالسمن ونحوه .اهـ.

قال ابن منظور[2]: والسويق معروف، والصاد فيه لغة لمكان المضارعة، والجمع أسوقة. غيره: السَّويق ما يُتَّخذ من الحنطة والشعير، ويقال: السويق المُقل الحَيىّ، والسيوق السَّبق الفَتِيَ، والسَّويق الخمر، ....

قال ابن عثيمين[3]: هو عبارة عن شعير يُحمَّص، ثم يطحن، ثم يخلط بتمر أو شبهه، ثم يؤكل. أهـ.

قوله: [**وكذا قال أبوالجوزاء عن ابن عباس : كان يَلتُّ السويق للحاج**].

قال سليمان آل الشيخ[4]: أبو الجوزاء هو أوس بن عبد الله الربعي، ثقة مشهور، مات سنة ثلاث وثمانين، وهذا الأثر ذكره المصنف ولم يعزه، وقد رواه البخاري .

ثم قال: وبالجملة فالغلو أصل الشرك فى الأولين والآخرين إلى يوم القيامة. وقد أمرنا الله تعالى بمحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم فلا نرفعهم فوق منزلتهم، ولا نحطهم منها لما يعلمه تعالى فى ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم ، فإن الشرك بهم غلو فيهم ، وأنزلوهم منازل الإلهية وعصوا أمرهم وتنقصوهم فى صورة التعظيم لهم ، فتجد أكثر هؤلاء الغالين فيهم العاكفين على قبورهم معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته، عائبين لها مشتغلين بقبورهم عما أمروا به ودعوا إليه.

وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هى باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم، وسلوك طريقتهم دون عبادتهم وعبادة قبورهم، والعكوف عليها كالذين يعفكون على الأصنام واتخاذهم أعيادًا ومجامع للزيارات والفواحش وترك الصلوات، فإن من اقتفى آثارهم كان متسببًا فى تكثير أجورهم باتباعه لهم، ودعوته الناس إلى اتباعهم، فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه،

(1) تيسير العزيز الحميد (٢٥٢).
(2) لسان العرب مادة (س - و- ق)
(3) القول المفيدا / ٥٤٨ .
(4) تيسير العزيز الحميد (٢٥٢-٢٥٣).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِـيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «لَعَنَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ، وَالْمُتَخذِينَ عَلَيها الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ» رواهُ أَهْلُ السُّنَنِ(١).

وحرمهم ذلك الأجر، فأى تعظيم لهم واحترام فى هذا .اهـ.

قال ابن عثيمين(٢): والغريب أن الناس فى جاهليتهم يكرمون حجاج بيت الله ويلتون لهم السويق وكان العباس أيضًا يسقى لهم من زمزم، وربما يجعل من زمزم نبيذًا، يحليه زبيبًا أو نحوه، وفى الوقت الحاضر صار الناس بالعكس يستغلون الحجاج غاية الاستغلال - والعياذ بالله - حتى يبيعوا عليهم ما يساوى ريالاً بريالين وأكثر حسب ما يتيسر لهم وهذا فى الحقيقة خطأ عظيم، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فكيف بمن يفعل الإلحاد ؟! .اهـ.



قوله: [عن ابن عباس رضى الله عنهما : قال: . . . إلخ]

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٣): وفى الباب حديث أبى هريرة وحديث حسان بن ثابت.

فأما حديث أبى هريرة فرواه أحمد والترمذى وصحَّحه(٤).

وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد (١/ ٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤، ٣٣٧) وأبو داود فى الجنائز / باب زيارة القبور (٣/ ٢١٦/ ح٣٢٣٦) والترمذى فى الصلاة / باب: كراهية أن يتخذ على القبر مسجدًا (٢/ ١٣٦/ ٣٢٠) والنسائى فى الجنائز/ باب: التغليظ فى اتخاذ السرج (٤/ ٩٤، ٩٥- السيوطى) وابن ماجة فى الجنائز : باب/ النهى عن زيارة النساء (١/ ٥٠٢/ ١٥٧٥) والحاكم (١/ ٣٧٤) والبيهقى (٤/ ٧٨/ ٧٢٠٦) والطبرانى فى الكبير (١٢/ ١٤٨/ ١٢٧٢٥) وابن حبان فى صحيحه (٥/ ٧٢/ ٣١٦٩، ٣١٧٠- الإحسان).

جميعًا من طريق محمد بن جحادة سمعت أبا صالح عن ابن عباس

قال الترمذى : حديث ابن عباس حديث حسن

وذكره الحافظ فى «التلخيص» (٢/ ١٣٧/ ٧٩٨) وقال: والجمهور على أن أبا صالح هو مولى أم هانئ وهو ضعيف وانظر منار السبيل» (ح ٨٣٠) بتخريجنا. «وفتح المجيد» (ح ٣٩٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد (١/ ٥٤٩).

(٣) انظر فتح المجيد (١/ ٣١٧، ٣١٨) .

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٧، ٣٥٦) والترمذى (١٠٥٦) وابن ماجه (١٥٧٦).

وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٩٣) بتخريجنا.

قال: «لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور»[1].

وحديث ابن عباس هذا في إسناده أبو صالح مولى أم هانئ، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم، قال علي بن المديني، عن يحيى القطان: لم أر أحدًا من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانئ، وما سمعت أحدًا من الناس يقول فيه شيئًا ، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبد الله بن عثمان،

قال ابن معين: ليس به بأس، ولهذا أخرجه ابن السكن في صحيحه، انتهى من «الذهب الإبريز» عن الحافظ المزى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «وقد جاء عن النبى ﷺ من طريقين: فعن أبى هريرة رضى الله عنه «**أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور**»[2] وذكر حديث ابن عباس، ثم قال: ورجال هذا ليس رجال هذا، فلم يأخذه أحدهما عن الآخر، وليس فى الإسنادين من يتهم بالكذب، وإنما التضعيف من جهة سوء الحفظ ومثل هذا حجة بلا ريب، وهذا من أجود الحسن الذى شرطه الترمذى، فإنه جعل الحسن: ما تعددت طرقه ولم يكن فيه متهم، ولم يكن شاذًا، أى مخالفًا لما ثبت بنقل الثقات.

وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالفه أحد من الثقات . . هذا لو كانا عن صاحب واحد، فكيف إذا كان هذا رواه عن صاحب وذاك عن آخر ؟ فهذا كله يبين أن الحديث فى الأصل معروف».

● **مناسبة الحديث للباب ومراد المصنف:**

- **قال سليمان آل الشيخ**[3]: ووجه إيراد المصنف هذا الحديث فى هذا الباب دون الذى قبله، هو أنه لعن المتخذين عليها المساجد والسرج، وقرن بينهما، فهما قرينان فى اللعنه، فدلَّ ذلك على أنه ليس المنع من اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة، بل لأجل نجاسة الشرك ولذلك قرن بينه وبين الإسراج عليها، وليس النهى عن الإسراج لأجل النجاسة فكذلك البناء اهـ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٢) وابن ماجه (١٥٧٤) وانظر تخريجنا لفتح المجيد (ح ٣٩٤).

(٢) تقدم تخريجه (٣) تيسير العزيز الحميد (٢٥٤).

- **قال حسن بن محمد**[1]: لما فيه من ذلك المحذور الذى يؤول إلى الشرك، وعبادة غير الله. اهـ.

- **قال ابن عثيمين**[2]: المناسبة للباب أن اتخاذ المساجد عليها وإسراجها غلو فيها، فيؤدى بعد ذلك إلى عبادتها. اهـ.

- **وقال القرعاوى**[3]: حيث نهى ﷺ عن الغلو فى القبور ببناء المساجد عليها وإشعال السرج عليها، وذلك لأنه يؤدى إلى تعظيم أصحابها فيصيرها أوثاناً تعبد بالتعظيم. اهـ.

لماذا أورد المصنف هذا الحديث فى هذا الباب دون الذى قبله؟!

● [قلت] فالأولى أن يقال وجه إيراد المصنف هذا الحديث فى هذا الباب دون الذى قبله أنه أتى بالمراحل الموصله إلى جعل القبور أوثاناً، وهى

(أولاً) الزيارة.

(ثانياً) الإكثار فيها، وعبر عن ذلك بقوله: «زوارات القبور»

(ثالثاً) اتخاذها مساجد.

(رابعاً): الإسراج لها من باب التعظيم.

(خامساً) الإسراج لها من باب النذر لها أو لأصحابها أولهما. والله أعلم.

قوله: [لعنَ رسولُ الله ﷺ]:

قال ابن عثيمين[4]: قوله (لعن): اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعنى لعن رسول الله ﷺ، أى: دعا عليهم باللعنة. اهـ.

قلت: وقد تقدم فى باب / ماجاء فى الذبح لغير الله - أن هذا فيمن استحق اللعن، أما من لم يستحق اللعن، ولعنه رسول الله ﷺ فهو فى حقه رحمة. والله المستعان.

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٧).

(٢) القول المفيد (١/ ٥٥١).

(٣) الجديد (١٩٨).

(٤) القول المفيد (١/ ٥٥١)

وقال ابن عثيمين[(١)]: قوله: [زائرات القبور]:

زائرات: جمع زائرة، والزيارة هنا معناها: الخروج إلى المقابر، وهى أنواع:

منها ما هو سنَّة، وهى زيارة الرجال للاتعاظ والدعاء للموتى.

ومنها ما هو بدعة، وهى زيارتهم للدعاء عندهم وقراءة القرآن ونحو ذلك.

ومنها ما هو شرك، وهى زيارتهم لدعاء الأموات والاستنجاد بهم والاستغاثة ونحو ذلك.

وزائر: اسم فاعل يصدق بالمرَّة الواحدة، وفى حديث أبى هريرة: «**لعن رسول الله ﷺ زوَّارات القبور**»[(٢)]، بتشديد الواو، وهى صيغة مبالغة تدلّ على الكثرة أى كثرة الزيارة». اهـ.

● **حكم زيارة القبور للنساء، وقوله: (زائرات القبور): -**

قال سليمان آل الشيخ[(٣)]: أى من النساء، وهذا يدل على تحريم زيارة القبور عليهن كما هو مذهب أحمد وطائفة. وقيل فى تعليل ذلك أنه يخرجها إلى الجزع والندب والنياحة والافتتان بها وبصورتها، وتأذى الميت ببكائها.

- كما فى حديث آخر: «**فإنكن تفتن الحى وتوذين الميت**»[(٤)] وإذا كان زيارة النساء مظنة وسبباً للأمور المحرمة فى حقهن وحق الرجال، وتقدير ذلك غير مضبوط؛ لأنه لايمكن حد المقدار الذى لايفض إلى ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع.

ومن أصول الشريعة أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنها فتحرم سداً للذريعة، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة لما فى ذلك من الفتنة، وكما حرمت الخلوة الأجنبية .

وليس فى زيارتها من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة، لأنه ليس فى زيارتها إلا دعواها لميت أو اعتبارها به، وذلك ممكن فى بيتها.

- وقد روى الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن حسان بن ثابت مرفوعاً: «**لعن الله زوارات القبور**»[(٥)]

---

(١) القول المفيد (١/ ٥٥٢، ٥٥٧).

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٥٣، ٢٥٤).

(٤) سيأتى تخريجه قريباً .

(٥) تقدم تخريجه

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ: «لعن زوارات القبور»[١] رواه أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه، وضعفه عبد الحق، وحسنه ابن القطان، ولايعارض هذا حديث. «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»[٢] رواه مسلم وغيره؛ لأن هذا إن سلم دخول النساء فيه، فهو عام والأول خاص، والخاص مقدم على العام، وأيضاً ففى دخول النساء فى خطاب الذكور خلاف عند الأصوليين. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[٣]: والذين رخصوا فى الزيارة اعتمدوا على ما روى عن عائشة رضى الله عنها: أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن وقالت: «لو شهدتك مازرتك»[٤] وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب للرجال؛ إذ لو كان كذلك لاستحبّت زيارته، سواء شهدته أم لا»[٥].

قلت ـ أى عبدالرحمن ـ فعلى هذا لاحجة فيه لمن قال بالرخصة.

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذى من رواية عبد الله بن أبى مليكة عنها، وهو يخالف سياق الأثرم له عن عبد الله بن أبى مليكة أيضاً: «أن عائشة رضى الله عنها أَقْبَلَتْ ذَاتَ يَوْم من المقابر. فقلت لها: يا أم المؤمنين، أَلَيْسَ نَهَى رسول الله ﷺ عن زِيَارَة القُبور؟ قالت: نعم، نَهَى عَنْ زِيارةِ القُبور، ثمَّ أَمَرَ بِزِيارتها»[٦].

فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا وقال: «ولا حجة فى حديث عائشة؛ فإن المحتج عليها احتج بالنهى العام، فدفعت ذلك بأن النهى منسوخ، ولم يذكر لها المحتج النهى الخاص بالنساء الذى فيه لعنهن على الزيارة. يبين ذلك قولها: «قد أمر بزيارتها» فهذا يبين أنه أمر بها أمراً يقتضى الاستحباب، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة.. ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال، ولم تقل لأخيها: «لما زرتك». واللعن صريح فى التحريم، والخطاب بالإذن فى قوله: «فزوروها» لم يتناول النساء فلا يدخلن فى الحكم الناسخ،

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) فتح المجيد (١/ ٣١٨).

(٤) أخرجه الترمذى (١٠٥٥) وانظر تمام التخريج فى «فتح المجيد» (٣٩٧) بتخريجنا.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤/ ٣٤٥) بتصرف.

(٦) أخرجه الحاكم فى المستدرك » (١/ ٣٧٦) وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٩٨) بتخريجنا وسيأتى أنظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤/ ٣٥١، ٣٥٢) بتصرف.

والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء، وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو المعروف عند أصحابه، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص؟ إذا قد يكون قوله: «لعن الله زوارات القبور» بعد إذنه للرجال في الزيارة. يدل على ذلك: أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج. ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهي عنها محكم، كما دلت عليها الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر»[1].

والصحيح: أن النساء لم يدخلن في الإذن في زيارة القبور لعدة أوجه:

أحدها: أن قوله ﷺ: «**فزوروها**» صيغة تذكير.. وإنما يتناول النساء أيضاً على سبيل التغليب. لكن هذا فيه قولان.

قيل: إنه يحتاج إلى دليل منفصل، وحينئذ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل.

وقيل: إنه يحمل على ذلك عند الإطلاق. وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة.. ولا ينسخها عند جمهور العلماء، ولو كان النساء داخلات في هذا الخطاب لاستحبّ لهن زيارة القبور، وما علمنا أحداً من الأئمة استحب لهن زيارة القبور، ولا كان النساء على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور»[2].

«**ومنها**: أن النبي ﷺ علل الإذن للرجال بأن ذلك: «**يُذكِّر المَوْتَ، ويُرَقِّقُ القَلْبَ، وتُدْمعُ العين**» هكذا في مسند أحمد[3]. ومعلوم أن المرأة إذا فُتِحَ لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والنَّدب والنِّياحة؛ لما فيها من الضَّعف وقلَّة الصَّبر. وإذا كانت زيارة النِّساء مظنَّة وسبباً للأمور المُحَرَّمة، فإنه لا يمكن أن يحد المقدار الذي لا يُفْضِي إلى ذلك، ولا التَّمييز بين نوع ونوع، ومن أصول الشَّريعة: أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها. فيحرم هذا الباب سَدّاً للذريعة، كما حَرَّم النَّظر إلى الزِّينة الباطنة، وكما حرَّم الخُلوة بالأجنبية وغير ذلك. وليس في ذلك من المَصْلحة ما يعارض هذه المفسدة. فإنَّه ليس في ذلك إلاَّ دعاؤها للميت. وذلك ممكن في بيتها»[4].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤/٣٥٣، ٣٥٤) بتصرف.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤/ ٣٤٤، ٣٤٥) بتصرف.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥٠) الحاكم (١/ ٣٧٦) وانظر فتح المجيد (٤٠١ - بتخريجنا).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الرسلام (٢٤/ ٣٥٥، ٣٥٦).

قلت: وهذا الأخير نص كلام سليمان آل الشيخ السابق ثم قال:

«ومن العلماء من يقول: التَّشييع كذلك، ويحتج بقوله ﷺ: **«ارْجِعْنَ مأزُورَاتٍ غَيْرَ مَأجُوراتٍ، فإنَّكن تَفْتِنَّ الحيَّ وتُؤْذِين الميت»**(١).

وقوله لفاطمة: **«أمَا إنَّك لَوْ بَلَغْتِ مَعهُم الكَدى لَمْ تَدْخُلى الجنة»**(٢).

ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين من «أنَّه نَهَى النِّساء عن اتِّباع الجنائز»(٣).

ومعلوم أن قوله ﷺ: **«مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَة فَلَهُ قِيراطٌ، وَمَنْ تَبعَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَان»**(٤) هو أَدَلُّ على العموم من صيغة التَّذكير. فإن لفظ «مَنْ» يتناول الرِّجال والنِّساء باتِّفاق النَّاس، وقد عُلِمَ بالأحاديث الصَّحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهى النبى ﷺ لهن عن اتباع الجنائز، فإذا لم يدخلن فى هذا العموم. فكذلك فى ذلك بطريق الأولى»(٥). انتهى ملخصاً.

قلت أى عبدالرحمن آل الشيخ: ويكون الإذن فى زيارة القبور مخصوصاً بالرجال، خص بقوله: **«لعن الله زَوَّارات القُبور...»** الحديث. فيكون من العام المَخْصوص.

وعما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضاً.

منها: أن ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضى الله عنهما معارض بما ورد عنهما فى هذا الباب فلا يثبت به نسخ.

ومنها: أن قول الصَّحابى وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع. وأما تعليمه عائشة كيف تقول: إذا زارت القبور ونحو ذلك، فلا يدل على نسخ ما دلَّت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهى الأكيد والوعيد الشَّديد، والله أعلم. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٧٨) وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن ابن ماجة وانظر فتح المجيد (٤٠٢ - بتخريجنا).

(٢) أخرجه أحمد (٢/١٦٨، ١٦٩) وأبو داود (٣١٢٣) وانظر «فتح المجيد» (٤٠٣ - بتخريجنا)

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (١٢٧٨) ومسلم (٧/٢) وانظر «فتح المجيد (٤٠٤ - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١٣٢٥)، ومسلم (١٣١٧) وانظر «فتح المجيد» (٤٠٥ - بتخريجنا).

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤/٣٤٦).

وقال عبد الله بن جار الله[٦]: زيارة القبور حرام على النساء لأنه ﷺ لعن زائرات القبور اهـ.

وقال ابن باز[٧]: فيه حرمة زيارة القبور على النساء على الصحيح للأدلة وكما فى حديث حسان بن ثابت وأبى هريرة بمعناه فزيارة القبور مختصة بالرجال ثم قال: لايجوز زيارة النساء حتى إلى قبر النبى ﷺ على الصحيح؛ لأن الحديث عام، وورد لفظ. (زوارات) لكن ورد أيضاً (زائرت). اهـ.

قال ابن عثيمين[٣]: وفى الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها من كبار الذنوب، والعلماء فى ذلك على ثلاثة أقوال:-

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب؛ لهذا الحديث.

القول الثانى: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه؛ لحديث أم عطية: «**نهينا عن اتِّباع الجنائز، ولم يعزم علينا**»[٤].

القول الثالث: أنَّها تجوز زيارة النساء للقبور؛ لحديث المرأة: أنَّه ﷺ مرَّ بامرأة وهى تبكى عند قبر، فقال لها: «**اتقى الله واصبرى**». فقالت له: إليك عنى؛ فإنَّك لم تصب بمثل مصيبتى. فانصرف الرسول ﷺ عنها، فقيل لها: هذا رسول الله ﷺ. فجاءت إليه تعتذر؛ فلم يقبل عذرها[٥] اهـ.

[قلت]: كذا فهم الشيخ وليس فى الحديث أنه لم يقبل عذرها بل قال ابن حجر: نقلاً عن الطيبى صدر هذا الجواب منه ﷺ عن قولها: لم أعرفكَ على أسلوب الحكيم كأنه قال لها: دعى الإعتذار فإنى لا أغضب لغير الله وانظرى لنفسك ثم قال: وفى الحديث من الفوائد غير ما تقدم ما كان فيه عليه الصلاة والسلام من التواضع والرفق بالجاهل، ومسامحة المصاب وقبول اعتذاره ا. هـ[٦].

---

(١) الجامع الفريد (٨٨).

(٢) التعليق المفيد (١٢٦).

(٣) القول المفيد (١/ ٥٥٣).

(٤) تقدم تخريجه قريباً

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (١٢٨٣)، ومسلم فى الجنائز (٣/ ٤٩٨/ ١٥) عن أنس به وانظر «رياض الصالحين» (٣٢ ـ بتخريجنا).

(٦) الفتح (٣/ ١٧٩).

ثم قال ابن عثيمين:

وقال: «**إنَّما الصبر عند الصدمة الأولى**»(١)، فالنبى ﷺ شاهدها عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنَّما أمرها أن تتقى الله وتصبر.

ولما ثبت فى «صحيح مسلم» من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبى ﷺ خرج إلى أهل البقيع فى الليل، واستغفر لهم ودعا لهم، وأنَّ جبريل أتاه فى الليل وأمره، فخرج ﷺ مختفياً عن عائشة، وزار ودعا، ورجع، ثم أخبرها الخبر؛ فقالت: ما أقول لهم يارسول الله؟ قال: «**قولى: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين..**»(٢) إلخ.

قالوا: فعلَّمها النبى ﷺ دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز.

ورأيت قولاً رابعاً: أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال؛ لقوله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها؛ فإنها تذكِّركم الآخرة**»(٣)، وهذا عام للرجال والنساء.

ولأنَّ عائشة رضى الله عنها زارت قبر أخيها، فقال لها عبد الله بن أبى مليكة: أليس النبى ﷺ قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت: إنَّه أمر بها بعد ذلك(٤).

وهذا دليل على أنَّه منسوخ.

قال ابن عثيمين: والصحيح القول الأول، ويجاب عن أدلة الأقوال الأخرى: بأن الصريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح؛ فمن ذلك:

أولاً: دعوى النسخ غير صحيحة؛ لأنَّها لاتقبل إلا بشرطين:

١ - تعذر الجمع بين النصين، والجمع هنا سهل وليس بمتعذِّر؛ لأنَّه يمكن أن يُقال: إنَّ الخطاب فى قوله: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها**»(٥) للرجال، والعلماء اختلفوا فيما إذا خوطب الرجال بحكم: هل يدخل فيه النساء أو لا؟ وإذا قلنا بالدخول وهو الصحيح-؛ فإنَّ دخولهن فى هذا الخطاب من باب دخول أفراد العام فى العموم؛ وعلى هذا يجوز أن يخصص بعض أفراد العام بحكم يخالف العام، وهنا نقول: قد خصَّ النبى ﷺ النساء من هذا الحكم، فَأَمْرُه بالزيارة للرجل فقط؛ لأنَّ النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم بلعن الزائرات، وأيضاً مما يبطل النسخ قوله: «**لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج**»(٦)، ومن المعلوم أن قوله:

(١) تقدم

(٢) [**صحيح**] أخرجه مسلم فى الجنائز (٧/ ٤٠ النووى) عن عائشة به وانظر «رياض الصالحين (٥٨٣ ـ بتخريجنا)

(٣) تقدم تخريجه (٤) تقدم تخريجه (٥)، (٦) سبق تخريجه.

«**والمتخذين عليها المساجد والسرج**» لا أحد يدعى أنَّه منسوخ، والحديث واحد؛ فادعاء النسخ فى جانب منه دون آخر غير مستقيم، وعلى هذا يكون الحديث محكماً غير منسوخ.

٢ - العلم بالتأريخ، وهنا لم نعلم التأريخ؛ لأن النبى ﷺ لم يقل: كنت لعنت من زار القبور، بل قال: «**كنت نهيتكم**»، والنَّهى دون اللعن.

وأيضاً؛ فإنَّ قوله: «**كنت نهيتكم**» خطاب للرجال، ولعن زائرات القبور خطاب للنساء؛ فلا يمكن حمل خطاب الرجال على خطاب النساء، إذاً؛ فالحديث لايصح فيه دعوى النسخ.

وثانياً: وأما الجواب عن حديث المرأة وحديث عائشة؛ فإن المرأة لم تخرج للزيارة قطعاً أهـ [قلت]: لو قال احتمالاً لكان أجود.ـ

ثم قال : لكنها أصيبت، ومن عظم المصيبة عليها لم تتمالك نفسها لتبقى فى بيتها، ولذلك خرجت وجعلت تبكى عند القبر ممَّا يدلُّ على أن فى قلبها شيئاً عظيماً لم تتحمَّله حتى ذهبت إلى ابنها وجعلت تبكى عند قبره، ولهذا أمرها ﷺ أن تصبر؛ لأنَّه علم أنَّها لم تخرج للزيارة، بل خرجت لما فى قلبها من عدم تحمُّل هذه الصدمة الكبيرة؛ فالحديث ليس صريحاً بأنها خرجت للزيارة، وإذا لم يكن صريحاً؛ فلا يمكن أن يُعارض الشىء الصريح بشىء غير صريح.

وأما حديث عائشة؛ فإنَّها قالت للرسول ﷺ: «ماذا أقول؟ فقال: قولى: السلام عليكم»[1] فهل المراد أنها تقول ذلك إذا مرَّت، أو إذا خرجت زائرة؟ فهو محتمل؛ فليس فيه تصريح بأنَّها إذا خرجت زائرة؛ إذ من الممكن أن يراد به إذا مرت بها من غير خروج للزيارة، وإذا كان ليس صريحاً؛ فلا يُعارض الصريح.

وأما فعلها مع أخيها رضى الله عنهما؛ فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها عبد الله ابن أبى مُلَيْكَة بلعن زائرات القبور، وإنَّما استدل عليها بالنهى عن زيارة القبور مطلقاً؛ لأنَّه لو استدل عليها بالنهى عن زيارة النساء للقبور أو بلعن زائرات القبور؛ لكنا ننظر بماذا ستجيبه.

فهو استدل عليها بالنهى عن زيارة القبور، ومعلوم أن النهى عن زيارة القبور كان

---

(١) تقدم تخريجه

عاماً، ولهذا أجابته بالنسخ العام، وقالت: إنَّه قد أمر بذلك، ونحن وإن كنَّا نقول: إن عائشة رضى الله عنها استدلت بلفظ العموم؛ فهى كغيرها من العلماء لايُعارض بقولها قول الرسول ﷺ، على أنه روى عنها؛ أنها قالت: «لو شهدتك ما زرتك»(١)، وهذا دليل على أنها رضى الله عنها خرجت لتدعو له؛ لأنَّها لم تشهد جنازته، لكن هذه الرواية طعن فيها بعض العلماء، وقال: إنَّها لاتصح عن عائشة رضى الله عنها، لكننا نبقى على الرواية الأولى الصحيحة؛ إذ ليس فيها دليل على أنَّ الرسول ﷺ نسخه، وإذا فهمت هى؛ فلا يُعارض بقولها قول الرسول ﷺ.

● **إشكال وجوابه: فى قوله: «زوَّارات القبور»** ألا يمكن أن يحمل النهى على تكرار الزيارة لأن «زوارات» صيغة مبالغة؟.

الجواب: قال ابن عثيمين(٢): هذا ممكن، لكننا إذا حملناه على ذلك؛ فإننا أضعنا دلالة المطلق «زائرات».

والتضعيف قد يحمل على كثرة الفاعلين لا على كثرة الفعل؛ فـ «زوارات» يعنى: النساء إذا كنَّ مئة كان فعلهن كثيراً، والتضعيف باعتبار الفاعل موجود فى اللغة العربية، قال تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ﴾(٣)، فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف؛ إذ الباب لايُفتح إلا مرة واحدة، وأيضاً قراءة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ﴾(٤)، فهى مثلها.

فالرَّاجح تحريم زيارة النساء للمقابر، وأنَّها من كبائر الذنوب.

وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فى «مجموع الفتاوى»(٥) اهـ.

قوله: [والمتخذين عليها المساجد والسرج].

قال سليمان آل الشيخ(٦): قوله: «والسرج». هذا دليل على تحريم اتخاذ السرج على القبور.

قال أبو محمد المقدسى: لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، لأن فيه تضييعاً للمال فى غير فائدة، وإفراطاً فى تعظيم القبور، أشبه تعظيم الأصنام.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٣٧٦)، والبيهقى (٤/٧٨) وانظر «فتح المجيد» (٣٩٧ - بتخريجنا).

(٢) القول المفيد (١/٥٥٧). (٣) ص آية: ٥٠. (٤) الزمر آية: ٧١

(٥) وانظر الفتاوى (٢٤/٣٤٣) .(٦) تيسير العزيز الحميد (٢٥٤).

وقال ابن القيم: اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر. اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ[1]: قال محمد بن إسماعيل الصَّنعاني رحمه الله في كتابه تطهير الإعتقاد[2]: «فإن هذه القِباب والمَشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشِّرك والإلحاد، وأكبر وسيلة إلى هَدْم الإسلام وخَرَاب بنيانه: غالب - بل كل - من يعمرها هم الملوك والسَّلاطين والرُّؤساء والولاة، إمَّا على قريب لهم، أو على من يُحْسِنُون الظَّن فيه من فاضل أو عالم أو صُوفي أو فقير أو شيخ كبير، ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي مَنْ بعدهم فيجد قبراً قد شُيِّد عليه البناء، وسرجت عليه الشُّموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه السُّتور، وألقيت عليه الأوراد والزُّهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر. وتأتيه السَّدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضر وبفلان النَّفع. حتى يَغْرِسوا في جِبِلته كل باطل، والأمر ما ثَبَتَ في الأحاديث النَّبوية مِن لعن من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها وأحاديث ذلك واسعة معروفة. فإن ذلك في نفسه مَنْهِيٌّ عنه. ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة». انتهى.

قال ابن عثيمين: قوله: «والمتخذين عليها المساجد».

هذا الشاهد من الحديث؛ أي: الذين يضعون عليها المساجد، وقد سبق أنَّ اتخاذ القبور مساجد له صورتان:

١ - أن يتخذها مصلًّى يُصَلَّى عندها.

٢ - بناء المساجد عليها.

[قلت]: أو الصلاة إليها، وتقدم تفصيل ذلك كثيراً في باب التغليظ فيمن عبدالله عند قبر رجل صالح.

قوله: «**والسرج**». جمع سراج، توقد عليها السرج ليلاً ونهاراً تعظيماً وغلواً فيها اهـ.

● **مسألة:**

وهل يدخل في اتِّخاذ السرج على المقابر ما لو وضع فيها مصابيح كهرباء لإنارتها؟

---

(١) فتح المجيد (١/ ٣٢٢).

(٢) تطهير الاعتقاد للصنعاني (ص٥٣، ٥٤) مع تصريف قليل.

الجواب: قال ابن عثيمين(١): أمَّا فى المواطن التى لا يحتـاج الناس إليها، كما لو كانت المقبرة واسعة وفيها موضع قد انتهى الناس من الدفن فيه؛ فلا حاجة إلى إسراجه، فلا يسرج، أمَّا الموضع الذى يقبر فيه فيسـرج ما حوله؛ فقد يُقال بجوازه؛ لأنَّها لاتسرج إلا بالليل؛ فليس فى ذلك ما يدل على تعظيم القبر، بل اتخذ الإسراج للحاجة.

ولكن الذى نرى أنَّه ينبغى المنع مطلقاً للأسباب الآتية:

١ - أنَّه ليس هناك ضرورة.

٢ - أنَّ الناس إذا وجدوا ضرورة لـذلك؛ فعندهم سيارات يمـكن أن يوقدوا الأنوار التى فيها ويتبيَّن لهم الأمر، ويمكنهم أن يحملوا سراجاً معهم.

٣ - أنَّه إذا فتح هذا الباب؛ فإنَّ الشرّ سيتَّسع فـى قلوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعد، فلو فرضنا أنَّـهم جعلوا الإضاءة بعد صلاة الفجر ودفنوا الميت؛ فمن الذى يتولَّى قفل هذه الإضاءة؟

الجواب: قد تترك، ثم يبقى كأنَّه متَّخذ عليها السرج؛ فالذى نرى أنَّه يمنع نهائياً.

أمَّا إذا كان فى المقبرة حجرة يوضع فيها اللبن ونحوه؛ فلا يأس بإضاءتها لأنَّها بعيدة عن القبور، والإضاءة داخلة لاتُشاهد؛ فهذا نرجو أن لا يكون به بأس.

والمهم أنَّ وسائل الشرك يجـب على الإنسان أن يبتعد عنها ابتعـاداً عظيماً، ولايقدر للزمن الذى هو فيه الآن، بل يقدر للأزمان البعيدة؛ فالمسألة لست هينة. اهـ.

● **مسألة**: ماهى الصلة بين الجملة الأولى: «**زائرات القبور**»، والجملة الثانية: «**المتَّخذين عليها المساجد والسرج**»؟.

قال ابن عثيمين(٢): الصلة بينهما ظاهرة: هى أنَّ المرأة لـرقة عاطفتها وقلّة تمييزها وضعف صـبرها ربما تـعبد أصحاب الـقبور تعـطفاً علـى صاحب القبـر؛ فلهذا قـرنها بالمتخذين عليها المساجد والسرج. أهـ وتقدم شىء من ذلك من كلام سليمان آل الشيخ.

فصل

فى «الرد على من منع النساء من زيارة القبور مطلقاً»

قال الفقير: ذكر الشيخ ابـن عثيمين - حفظـه الله تعالى: فى القول المفـيد ثلاثة أقوال فى زيارة النساء للمقابر:

[**القول الأول**]: تحريم زيارة النساء للقبور بل إنه من الكبائر والذنوب لهذا الحديث.

---

(١) القول المفيد (١/ ٥٥١، ٥٥٢).

(٢) القول المفيد (١/ ٥٥١، ٥٥٢).

[**القول الثانى**]: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل لدرجة التحريم وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه لحديث أم عطية «نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا»(١) أى لم يشدد علينا أى لم يفرض علينا هذا الأمر.

[**القول الثالث**]: إنها تجوز زيارة النساء للقبور لحديث المرأة أنه ﷺ مر بامرأة وهى تبكى عندالقبر فقال لها: «**اتقى الله واصبرى**» فقالت له: إليك عنى فإنك لم تصب بمثل مصيبتى فانصرف الرسول الله ﷺ عنها فقيل لها هذا رسول الله ﷺ فجاءت إليه تعتذر فلم يقبل اعتذارها(٢).

قلت: ابن عثيمين - حفظه الله- ذكر الحديث بالمعنى وقوله «أنه لم يقبل عذرها» ليست فى الحديث بل الثابت فى الصحيح «أن النبى ﷺمر على امرأة تبكى عند قبر فقال «**اتقى الله واصبرى**» فقالت: إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى ولم تعرفه فقيل لها إنه النبى ﷺ فجاءت النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت لم أعرفك فقال إنما الصبر عند الصدمة الأولى» فتبين من ذلك أن ما ذكره الشيخ حفظه الله بالمعنى ليس بحديث.

فإن قال قائل هذا فهم الشيخ ابن عثيمين حفظه الله وأما الذى ذكرتم هو من فهمكم وهنا يقدم فهم الشيخ حفظه الله.

[**قلت**]: الشيخ ابن عثيمين حفظه الله حبيب إلى قلوبنا جميعاً ولكن الحق أحب إلينا منه حيث أن فهمه حفظه الله لم يوافق فهم السلف لهذا الحديث فقد قال ابن حجر نقلاً عن الطيبى: أنه قال صدر ذلك عنه ﷺعن قولها لم أعرفك على أسلوب الحكيم كأنه قال لها دعى الاعتذار فإنى لا أغضب لنفسى ولكن انظرى لنفسك ثم قال «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**» وكأن الجواب على طريقة الحكماء فكأنه غير منتظر لهذا الاعتذار فكأنه الأمر أعظم من ذلك ولذلك أجاب بالإجابة المتقدمة.

- **ثم قال ابن حجر**: وفى الحديث من الفوائد غير ما تقدم:

ما كان فيه عليه الصلاة والسلام. من التواضع والرفق بالجاهل ومسامحة المصاب وقبول الاعتذار أهـ(٣).

قلت: فدل ذلك على أنه قبل العذر»

فإن كان فهم الشيخ ابن عثيمين أنها اعتذرت ولم يقبل فهذا مخالف لفهم الطيبى أما إذا كان قوله لم يقبل اعتذارها: أى لم ينظر إليه ولم يلتفت إليه ولم يأبه به، فهذا قد

(١) تقدم تخريجه (٢) تقدم تخريجه (٣) وتقدم ذلك قريباً

يكون وجيهاً وقوله «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»: فالنبى ﷺ شاهدها عند القبر ولم ينهها عن الزيارة وإنما أمرها أن تتقى الله وتصبر.

[قلت]: إن ابن عثيمين نقل ما قال به ابن حجر، حيث ذكر فى «الفتح» ما: يؤيد الجواز فى حديث الباب وقال موضع الإجازة منه أنه ﷺ لم ينكر قعودها على القبر وتقريره حجه، هذا هو الدليل الأول.

الدليل الثانى: ما ثبت فى صحيح مسلم من حديث عائشة الطويل أن النبى ﷺ خرج إلى أهل البقيع بالليل واستغفر لهم ودعا لهم وأن جبريل أتاه فى الليل وأمره فخرج ﷺ مختفيًا عن عائشة ودعا ورجع ثم أخبرها الخبر فقالت ما أقول لهم يا رسول الله فقال قولى «**السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين**»(1)ومحل الشاهد أنه علمها كيف تقول إذا دخلت وزارت فعلمها النبى ﷺ دعاء زيارة القبور وهذا دليل على الجواز.

ثم قال الشيخ ابن عثيمين - حفظه الله تعالى - ورأيت قولاً رابعًا: أن زيارة النساء للقبور سنة كلرجال قلت: وهذا القول الرابع هو أول ما ذكره ابن حجر فى عرض الاختلاف فى المسألة حيث قال: وكأن البخارى لم يثبت على شرطه الأحاديث المصرحة بالجواز، وقد أخرجه مسلم من حديث بريدة، وفيه نسخ النهى عن ذلك، ولفظه: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**» وزاد أبو داود والنسائى من حديث أنس: «**فإنها تذكركم الآخرة**»(2) وهذا عام للرجال والنساء. وللحاكم من حديث أنس أيضًا فيه **وترق القلب وتدمع العين فلا تقولواهجراً**»(3) أى كلامًا فاحشًا وهو بضم الهاء وسكون الجيم وله من حديث ابن مسعود «**فإنها تزهد فى الدنيا**»(4) ولمسلم من حديث أبى هريرة مرفوعًا «**زوروا القبور فإنها تذكر الموت**»(5).

قال ابن حجر: فى قول من قال بالكراهة مطلقًا مثل ابن سيرين وإبراهيم النخعى والشعبى قال ومقابله من قال بوجوب الزيارة أى أنها واجبة وهذا قول ابن حزم فقال: أن زيارة القبر واجبة ولو مرة واحدة فى العمر لورود الأمر به.

---

(1) تقدم تخريجه (2) تقدم تخريجه

(3) أخرجه الحاكم (1/376) عن أنس به

(4) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (1/375) قال الذهبى فى «التلخيص»: أيوب ضعفه ابن معين»

(5) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (4/52/105)

ثم قال ابن حجر واختلف فى النساء فقيل دخلن فى عموم الإذن وهو قول الأكثر فلما كان النهى عامًا كـان الإذن عامًا، وممن حمل الإذن على عمومه للرجـال والنساء» عائشة رضى الله عنـها» فروى الحـاكم من طريـق ابن أبى ملـيكة أنه رآهـا زارت قبر أخيـها عبدالرحـمن فقيل لها ألـيس نهى النبى ﷺ عـن ذلك قالت: نعم كان نـهى ثم أمر بزيارتها[1].

قال الشيخ ابن عثيمين: ولأن عائشة زارت قبر أخيها فقـال عبد الله بن أبى مليكة أليس الـنبى نهى عن زيـارة القبور قالـت نهى ثم أمر بـعد ذلك» وهذا دليل عـلى أنه منسوخ أى النهى.

ثم شرع شيـخنا ابن عثيمن يـرجح فقال: والراجح القـول الأول أى : وهو تحريم زيارة النساء للقبور.

ويجاب على الأدلة فى الأقوال الأخرى بأن الصريح منـها غير صحيح والصحيح غير صريح.

ثم قال: دعوى النسخ غير صحيحة لأنها لا تقبل إلا بشرطين:

الشرط الأول: تعذر الجمع بين نصين والجمع هنـا سهل وليس بمتعذر لأنه يمكن أن يقال أن الخطاب فى قوله **«كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»**. للرجال.

والعلماء اختلـفوا فيما إذا خوطب الرجال بحكم هل يـدخل فيه النساء أو لا . وإذا قلنا بالدخول ـ قلت: وهـذا الصحيح لحديث أبى داود **«إنما النساء شـقائق الرجال»**[2]، كما فهم الخطابى أى شقائق الرجال فى الأوامر والنواهى ـ فإن دخولهن فى هذا الخطاب من باب الـدخول فى بعض أفـراد العام، لأن **«ألا فزوروها»** يعم الرجال والـنساء وهنا يجوز أن يخصص هذا البعض بحكم يخالـف العام وهنا نقول قد خص النبى ﷺ النساء من هذا الحكم فأمره بالزيارة للرجال فقط لأن النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم بلعن الزائرات .

[قلت]: أما أولاً فنقول أنه بهذا لم يجمع، لأنه قال لابد للنسخ من شرطين.

أولاً: تعذر الجمع ثم شرع يجمع لكنه لم يجـمع، فإن سلمنا له بالجمع بين حديث

(١) تقدم تخريجه

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/٢٥٦)، أبو داود (٢٣٦) ، والترمذى (١١٣)، وابن ماجه (٦١٢) عن عائشة به.

«لعن الله الزوارات» و«كنت نهيتكم عن زيارة القبور» فلم يجمع هو بين هذا الأثر وقول عائشة نهى ثم أمر، هذه واحدة.

الثانية: أن هذا التخصيص لم يخصص منع النساء مطلقًا من الزيارة وإنما خص منع النساء من الإكثار فقط، لأنه لم يقل لعن الله زائرة القبور وإنما قال لعن الله زوارات القبور.

والأولى أن يكون الجمع بين الأحاديث المتقدمة أن يقال بما قال العلماء ونقله ابن حجر عن القرطبي في «الفتح» في الرد على ابن أبي إسحاق في «المهذب» حيث ذهب إلى منع النساء مطلقًا واستدل بحديث عبد الله بن عمرو **«لعن الله زوارات القبور»** وأخرجه الترمذي وصححه من حديث أبي هريرة[١] وله شاهد من حديث ابن عباس[٢] وحديث حسان بن ثابت[٣].

قال ابن حجر قال القرطبي: هذا اللعن إنما هو للمكثرات من الزيارة لما تقتضيه الصفة من المبالغة ولعل السبب ما يفضي إليه ذلك من تضييع حق الزوج والتبرج وما ينشأ منهن من الصياح ونحو ذلك. فقد يقال إذا أمن جميع ذلك فلا مانع من الإذن لأن تذكر الموت يحتاج إليه الرجال والنساء وهذا هو وجه الجمع.

[قلت]: الحديث لم يمنع مطلقاً وإنما نهى عن الإكثار لأنه مفضى إلى الغلو والتعظيم ومفضى إلى الشرك وهذا محل الشاهد وكذلك مفضى إلى الجزع ومفضى إلى أشياء أخر تدور بين الكراهة والمعصية والشرك فإذا أمنت هذه الأمور فلها أن تزور وهذا الإعمال للنصوص أولى من الإهمال.

وكذلك من قال بالنسخ فنقول. دعوى النسخ لا تقبل إلا بدليل.

وهذا الحديث لم يتعارض مع حديث «الزوارات» لأنه في المكثرات وهذه المرأة لم تكثر.

قال ابن عثيمين- حفظه الله-: ومما يبطل النسخ قوله **«لعن رسول الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»**.

[قلت]: وهذا الحديث ليس منسوخ بل هو حديث محكم ولا نقول بالنسخ وهذا الكلام معنا لا علينا.

فنحن لم نتبنى قول القائل بالنسخ لكن لا يلزم من اتحاد الحكمين في حديث واحد أن يحكما جميعًا أو أن ينسخا جميعًا بل قد يختلفا في الحكم ويختلفا في الرفع وفي الوضع وفي النسخ.

---

(١) تقدم تخريجه (٢) تقدم في حديث الباب (٣) تقدم تخريجه

وهذا كالآيـات الكثيرات فى سـورة البقرة أو أيات أخـر وأحاديث أخر فيهـا أحكام متفقة فى النص لكن متباينة فى الحكم مثل قوله تعالى: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾ أو ﴿**كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾ فهذا مـباح «وأتوا حقـه» واجب فهذين حكمين فى نص واحد مع اختلافهما لكن الكلام المتقدم وجيه فيمن قال بنسخ هذا الحديث، نحن لم نقل برأيه بل نقول نجمع بينه وبين أحاديث الجواز.

الشرط الثانى: العلم بالتاريخ. وهنا لم نعلم التاريخ لأن النبى لم يقل «**كنت لعنت من زار القبور ألا فزوروها**» وإنما قال فذكر الحديث والنهى دون اللعن.

وأيضًا كنتم نـهيتكم خطاب للرجال ولـعن زائرات القبور خطاب للنـساء فلا يمكن حمل خطاب الرجال على خطاب النساء إذن فالحديث لا يصح فيه دعوى النسخ ومع أنه محكم إلا أنـه لم يمنع من مـطلق الزيارة، وإنما نـهى عن زيارة مخصـوصة وهى زيارة المكثرة.

وأما الجواب عن حديث المرأة وحديث عائشة: وقول الشيخ ابن عثيمين عليه:

فإن المرأة لم تخرج للزيارة قطعًا لكنها أصيبـت ؟ ومن عظم المصيبة عليها لم تتملك نفسهـا لتبقى فى بيتـها ولذلك خرجت وجعلـت تبكى عند قبره ولـهذا أمرها ﷺ أن تصبـر لأنه علم أنها لـم تخرج للزيارة بـل خرجت لما فى قلـبها من عدم تحمـل لهذه الصدمة الكبيرة والحديث ليس صريحًا بـأنها خرجت لزيارة وإذا لم يكن صريحًا فأنه لا يعارض الشىء الصريح بشىء غير صريح.

قلت: وهذا الكلام يرد عليه من وجوه:

أولاً: قوله «فإن المرأة لم تخرج لزيارة قطعـًا وهو - حفظه الله- قد أجاب بنفسه عن هذا القول فقال الحديث ليس صريح بأنها خرجت لزيارة أى محتمل أنها خرجت لزيارة وإن كان غير مصرح والأولى أن يقال أنها لم تخرج لزيارة احتمالاً حيث أن الحديث لم يقطع بأنها لـم تخرج لزيارة فما المانع من حمل الحديـث على الأمرين أى أن وجودها عند القبر محتمل لزيارة هذا القبر ومحتمل أنها خرجت لتبكى عند القبر من شدة هلعها فنقول ففى الحديث جواز زيارة النساء للمقابر .

وفى الحديث جواز أن تخرج المرأة لغير الزيارة بقصد البكاء عند القبر من شدة الهلع ومن باب أولى إذا خرجت بهذا القصد فيجـوز لها أن تذهب إلى الزيارة حيث أن النبى لم ينهها عن عـدم الزيارة ولا عدم البكاء وإنما أمرها بالصبر وهـذا يدل على أنه أقرها على البكاء، ومن باب أولى . تقر على الزيارة.

إذن لا مانع من حمل الحديث على الفائدتين.

فلو قال قائل إن هذا فهم الشيخ ابن عثيمين فهل لا نأخذ به ونأخذ بفهمنا؟؟! مع أن الأصح أننا نأخذ بقوله ونترك قولنا ويقدم فهمه.

فنقول له: نعم هذا فهم الشيخ ابن عثيمين حفظه الله ولكنه خالف فهم بعض السلف فالبخاري ـ رحمه الله ـ بوب على هذا الحديث باب «زيارة القبور» وأتى بأثر وجود المرأة فيه عند القبر فكأنه يقول أن الحديث أيضًا متضمن لهذا المعنى: مشروعية الزيارة، وكذلك قال ابن حجر هنا: باب زيارة القبور أى مشروعيتها كأنه لم يصرح بالحكم لما فيه من اختلاف ثم قال هنا:

وذكر هذا الحديث فى زيارة القبور مع احتمال أن تكون المرأة المذكورة تأخرت بعد الدفن عند القبر، وهذا سبب ثان غير الذى قاله الشيخ ابن عثيمين أنه ممكن أن تكون هذه المرأة اتبعت الجنازة وهم حملوها وذهبوا وجلست هى إذن هى لم تكن ذاهبة للقبر وإنما ذاهبة لتتبع الجنازة.

ثم قال ابن حجر: والزيارة إنما تطلق على من أنشأ إلى القبر قصدًا. فلماذا هو ذكر هذا الحديث الذى فيه هذا الاحتمال فيقال من جهة استواء الحكم فى حقها من حيث أمرها بالتقوى والصبر لما رأى من جزعها ولم ينكر عليها الخروج من بيتها فدل على أنه جائز وهذا أعم من أن يكون خروجها لتشييع ميتها فأقامت عند القبر بعد الدفن أو أنشئت قصد زيارته للخروج بسبب الميت.

فقال إن خروجها يعم الصور الثلاثة هذه:

الصورة التى ذكرها الشيخ ابن عثيمين - حفظه الله- والصورة التى احتملها غيره وذكرها الحافظ ومحتمل أنها كانت تزور فالحديث يعم الثلاثة، فلا نقول أنه محتمل الثلاثة فالاحتمال يسقط الاستدلال .

الاحتمال هذا لا يسقط الاستدلال بل الاحتمال هنا يعم مشروعية الجميع، فإن قيل لا نقول بمشروعية الزيارة لحديث آخر، وهو ماتقدم بلفظ: **«لعن الله الزوارات»** نقول هذا الحديث هو محل نزاع وهذا الحديث لا تدخل فيه هذه المرأة لأنه ﷺ نعى على من تكثر الزيارة فقط وهذه المرأة لا تكثر من الزيارة.

أما حديث عائشة أنها قالت لرسول الله ماذا تقول عند زيارة القبور فقال **«أقول السلام عليكم»** فهل المراد أنها لا تقول ذلك إلا إذا خرجت أو إذا مرت زائرة ؟.

الجواب: محتمل أنها تقول إذا مرت أو إذا زارت

فأيضًا نقول أنه بالاحتمال لا يسقط الاستدلال فهذا الاحتمال دليل على إعمال الاحتمالات كلها فلما بينت دل ذلك على مشروعية هذا الدعاء عند المرور بالقبور بغير

قصد الزيارة وعند الزيارة تقول ذلك الدعاء أيضاً، لا أنها ممنوعة من الزيارة وما دليل المنع يقول «لعن الله الزوارات» نقول لا يثبت المنع لأن هناك وجه للجمع فنحن نُعمل ولا نُهمل نعمل جميع النصوص ولا نهمل نصًا منها ونقول حينما شرع لها الزيارة وعلمها كيف تقول إنما شرع لها الزيارة بشروط منها:

أن لا تكثر لحديث «لعن الله الزوارت»

ثم بعد ذلك فعلها - أى عائشة رضى الله عنها - مع أخيها عبد الرحمن .

قال فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها عبد الله بن أبى مليكة **«لعن زائرات القبور»** وإنما استدل عليها بالنهى عن زيارة القبور مطلقًا.

وهذا لنعلم أن هذا الحديث ليس بمنسوخ فنقول نعم أنه ليس منسوخًا بل هو محكم وهذا دليل على أن عبد الله بن أبى مليكة حينما احتج على عائشة بلعن زوارات القبور فهم أن هذا الحديث لا تدخل فيه هى. فهولم يقل لها «ألم يلعن الله زوارات القبور؟» لم يقل لها ذلك لأنه فهم أنها لم تكثر بل زارت مرة . فلا يصح أن يحتج عليها بحديث اللعن بل احتج عليها بحديث النهى فقالت له«نهى ثم أمر» فقول عبد الله ابن أبى مليكة ألم ينهى ؟ هذا دليل على أن الزوارات لم تدخل فيه عائشة أو من فعلت كفعل عائشة إذن الحديث محكم وحديث نهى ثم أمر محكم يدل على الإذن، ثم قال الشيخ - حفظه الله- «أما فعلها مع أخيها لم يستدل عليه عبد الله بن أبى مُليكة فى لعن زوارات القبور» وإنما استدل عليه بالنهى عن زيارة القبور مطلقًا لكنا ننظر بماذا ستُجيب؟؟

[فنقول]: إن هذا الكلام حجة لنا وهذا الفهم لابن أبى مليكة ولعائشة لنا إن ابن أبى مليكة لم يفهم أنها تدخل فى حديث اللعن واحتج عليها بالنهى فقالت له: «نهى ثم أمر».

«قالوا وإن كنا نقول إن عائشة رضى الله عنها استدلت بلفظ العموم فهى كغيرها من العلماء لا يعارض بقولها قول الرسول ﷺ لكن نقول ليست هناك معارضة بين حديث «نهى ثم أمر» وحديث «لعن الله زوارات القبور» فهذا محكم وهذا محكم وهذا موافق وهذا موافق، على أنه روى عنها أنها قالت «لو شهدتك ما زرتك»(١) وهذا الحديث ضعيف وسواء هى شاهدته ثم زارته أو شاهدته لكن هى لا تزوره فهى فى النهاية زارته أى كان الدافع للزيارة فلو كانت الزيارة ممنوعة ما شهدته لكن لما كانت الزيارة مشروعة قالت هذا لكن لعل إن صح هذا القول عنها فى عدم الدخول فى المكثرات أو فى التقليل من الزيارات . .

(١) تقدم تخريجه

ثم قال ابن عثيمين: «وهذا دليل على أنـها خرجت لتدعو له» فنحـن نقول نعم إنها تخرج بالآداب الشرعية المتقدمة التى منها الدعاء له.

ثم قال الشيخ: «على أننا نقول أن كلمة زائرات تدل على معنى آخر وهو الكثرة» .

فيقول ابن عثيمين: «إشكال وجوابه» فى قوله «زوارات» .

«ألا يحمل النهى فى قوله عن تكرار الزيارة لأن زوارات صيغة مبالغة فهو قال هنا لا يوجد إشكال.

الجواب: هذا ممكن لأن هذا فهم القرطبى وفهم السلف ومؤدى قول أهل اللغة فيقول لكننا إذا حملناه عـلى ذلك فكأننا أضعنا دلالة المطلق «زائرات» فتـدل على الكثرة فيقول والتضعيف قد تحمل على كثرة الفاعلـين لا على كثرة الفعل «زوارات» يعنى نساء إذا كن هكذا كان فعلهـن كثير والتضعيف باعتبـار الفعل موجود فى اللغة العربـية قال تعالى: ﴿**جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ**﴾ فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف إذ الباب لا يفتـح إلا مرة واحدة وأيضًـا قراءة ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ**﴾ فهى مثلـها فالراجح تعميم زيارة النساء للمقابر وأنها من الكـبائر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى مجموع الفتاوى.

أقول الجواب: أولاً سنجيب بكلام الشيخ ابن عثيمين نفسه.

فقال فى شـرحه لقوله «لعن الله زوارات الـقبور» وفى الحديث : وذلـك اسم فاعل وزوارات بتشديد الواو هى صيغة مبالغة تدل على الكثرة أى كثرة الزيارة فنقول لا مانع من إعمال الأمرين، دلالة المطلق فى زائرات ودلالة المطلق فى «زوارات» لماذا؟

لأننا أصلاً إذا أعممنـا دلالة المطلق فى زائرات عطلنا دلالة المـطلق فى «زوارات» فقد يقال: لا لم نعطل أنما إذا نهينا الزائرة عن الزيارة لكن الراجح أن نقول: كلا اللفظين معتبر وثـابت وضوحه فمراده الإكثار مـن الزيارة وأيضًا مراد من «زائرات» الـنهى عن زيارة النساء المقابر جماعة أى لا تذهب مع نساء جماعة ، ولا تذهب مع رجال لماذا لأن النساء إذا اجتمعن فى ذلك الموقف إذن إن شـاء الله ظن شراً ولا تسأل عن الخبر فنقول إن مراد زائرات» لم تمنع من الزائرة إنما منعت من أن تصحب الزائرة معها نساء أخريات فتكون هذه الصورة أيضًا حتى لو كانت مرة يصدق عليهن «اللعن».

إذن لفظ زورات مراد والمقصد منهـا ألا تبالغ وزائرات مراد بشرط إذا زارت أن تزور بمفردها وهذا عيـن ما فعلته أم المؤمنين والمرأة الـتى كانت تبكى عند القـبر، فهذه كانت وحدها وهذه كانت وحدها ولم تصحب معها هذه غيرها وهذه لم تصحب معها غيرها، والله أعلم.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الأَوْثَانِ.

الثانية: تَفْسِيرُ العِبَادَةِ.

الثالثة: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلاَّ مِمَّا يُخَافُ وُقُوعُهُ.

الرابعة: قَرْنُهُ بِهَذَا اتِّخَاذَ قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ.

الخلاصة فى حكم زيارة النساء للمقابر أنها مشروعة بشروط منها.

(١) عدم الإكثار وتقدم دليل ذلك.

(٢) عدم خروج أكثر من امرأة فى الزيارة، لقوله (زائرات) كما تقدم.

(٣) ألا يفضى ذلك إلى الغلو المفضى إلى الشرك.

(٤) ألا يفضى ذلك إلى الانتقاص من حق الزوج كما تقدم عن القرطبى.

(٥) ألا تَفتن أو تُفتن.

(٦) أن تقصد بالزيارة تذكرة الآخرة، وإيصال النفع للميت بالدعاء له.

(٧)الالتزام بالآداب الشرعية لزيارة المقابر.

(٨) ألا تخصص للزيارة وقت موافق لأوقات أهل البدع كالأعياد وغيرها .

فإن التزمت بهذه الشروط شرعت لها الزيارة، وإلا منعت سدًا للذريعة والله الموفق للصواب.



قال ابن عثيمين:

قوله: فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير الأوثان**: وهى: كل ما عُبد من دون الله، سواء كان صنماً أو قبراً أو غيره.
- **الثانية: تفسير العبادة**: وهى: التذلّل والخضوع للمعبود خوفاً ورجاءً ومحبةً وتعظيماً؛ لقوله: «**لاتجعل قبرى وثناً يُعبد**»(١).
- **الثالثة**: أنَّه ﷺ لم يستعذْ إلاَّ ممَّا يُخاف من وقوعه: وذلك فى قوله: «**اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد**»(٢).
- **الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد**: وذلك فى قوله: «**اشتدَّ غضب الله على قوم اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٣).

---

(١) تقدم تخريجه　(٢) تقدم تخريجه　(٣) تقدم تخريجه

الخامسة: ذِكْرُ شِدَّةِ الغَضَبِ مِنَ اللهِ.

السادسة: وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللاَّتِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الأَوْثَانِ.

السابعة: مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ.

الثامنة: أَنَّهُ اسْمُ صَاحِبِ القَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَى التَّسْمِيَةِ.

التاسعة: لَعْنُهُ زَوَّارَاتِ القُبُورِ.

العاشرة: لَعْنُهُ مَنْ أَسْرَجَهَا.

● **الخامسة: ذكر شدّة الغضب من الله.** تؤخذ من قوله: «**اشتد غضب الله**».

وفيه: إثبات الغضب من الله حقيقةً، لكنه كغيره من صفات الأفعال التى نعرف معناها ولا نعرف كيفيتها.

وفيه أنَّه يتفاوت كما ثبت فى الحديث الصحيح حديث الشفاعة: «**إنَّ ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله ولا بعده**»[1].

● **السادسة - وهى من أهمها -: معرفة صفة عبادة اللات التى هى من أكبر الأوثان.**

وذلك فى قوله: «**فمات، فعكفوا على قبره**».

● **السابعة: معرفة أنَّه قبر رجل صالح.**

تؤخذ من قوله: «**كان يلتّ لهم السويق**»[2]، أى: للحجاج؛ لأنَّه معظَّم عندهم، والغالب لايكون معظَّماً إلا صاحب دين.

● **الثامنة: أنَّه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية**: وهو أنَّه كان يلت السويق.

● **التاسعة: لعنه زوّارات القبور.** أى: النبى ﷺ، وذكر رحمه الله لفظ: «**زوارات القبور**» مراعاةً للفظ الآخر.

● **العاشرة: لعنه من أسرجها**: وذلك فى قوله: «**والمتخذين عليها المساجد والسرج**».

وهنا مسألة مهمة لم تذكر، وهى: أنَّ الغلو فى قبور الصالحين يُصيرها أوثاناً كما فى قبر اللات، وهذه من أهم الوسائل، ولم يذكرها المؤلف رحمه الله، ولعلَّه اكتفى بالترجمة عن هذه المسألة بما حصل للات، فإذا قيل بذلك؛ فله وجه.

مسألة: المرأة إذا ذهبت للروضة فى المسجد النبوى لتصلى فيها، فالقبر قريب منها، فتقف وتسلِّم، ولا مانع فيه.

والأحسن البعد عن الزِّحام ومخالطة الرجال، ولئلا يظّن من يشاهدها أنَّ المرأة يجوز لها قصد الزيارة؛ فيقع الإنسان فى محذور، وتسليم المرء على النبى ﷺ يبلغه حيث كان. اهـ.

●●●

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

باب (٢١)

ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

مناسبة هذا الباب لما قبله من الأبواب:

قال سليمان آل الشيخ: واعلم أن في الأبواب المتقدمة شيئاً من حمايته ﷺ لجناب التوحيد، ولكن أراد المصنف هنا بيان حمايته الخاصة. ولقد بالغ ﷺ، وحذر وأنذر، وأبدأ وأعاد، وخص وعم في حماية الحنيفية السمحة التي بعثه الله بها، فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل، كما قال بعض العلماء: هي أشد الشرائع في التوحيد والإبعاد عن الشرك، وأسمح الشرائع في العمل اهـ.

قلت: وهو التنصيص بعد عدمه، والتصريح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال وأيضاً فإن النبي ﷺ ليس فقط عم ثم خص بل تستطيع أن تقول إن هذه المناسبة للتنصيص بعد عدمه والتصريح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، فهناك نصوص أبهمت ولم ينص فيها على المراد فأراد أن ينص عليه، ومثال ذلك: ذكر مسألة القبر في الباب الماضي على الإجمال فأراد أنه ينص ويصرح ويفصل هذا الأمر فذكر الأبواب التي تفصل وتنص على المقصود والمراد، وهو اتخاذ القبر عيداً، **«لاتتخذوا قبري عيداً وصلوا على حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني»**[(١)] إلى آخر الأبواب التي فيها التفصيل بعد الاجمال، والتنصيص والبيان بعد الإبهام.

وأيضاً: حينما حذر النبي ﷺ في الأبواب الماضية وسد كلّ طريق يوصل الى الشرك في الأبواب الماضية، وأخبر أنَّ أناساً وطوائف من هذه الأمة ستعبد القبور وستتخذها أوثاناً تعبد من دون الله، فلعلّ قائل يقول: فعلى ما تدعوا؟ ولماذا نحذر الناس ونرهب من هذا الأمر وندعو إلى ضده وهو سيقع لا محاله فهذه الدعوة لافائدة فيها؟! فأتى المصنِّف بهذا الباب ليبين أنَّ النبي ﷺ - برغم أنه أخبر بهذا الأمر أنه سيقع إلا أن ذلك لم يثنيه عن دعوته ومع ذلك ظلَّ يدعوا ويحذر الناس من هذا الأمر الذى وثق فى وقوعه، فنحن ليس علينا إلا البلاغ، حتى وإن كنا نعلم أن الساعة قامت، لقوله - ﷺ -: **«إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها»**[(٢)].

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٨٣) عن أنس به.

وهذا برغم أن الساعة ستقوم ولن يستفيد بهذه الشجرة أحد، ولكن دورك أن تغرس لكى تؤجر، وكذلك إذا وثقت أن الناس ليس منهم فائدة ولايعمل منهم أحد ولا يستجيب منهم أحد فلابد أن تدعو أيضاً، فليس دورك أن تهدى ولكنك سبب كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

فالرسول ﷺ كان يعلم نفاق المنافق وكان يعظه، وكان يعلم هلاك الهالك، ويعظه ويذكره، ويقوم بواجب الدعوة نحوه كأى أحد.

فكأن هذا الباب لتجديد الدعوة إلى حماية جناب التوحيد وسد كلّ طريق يوصل إلى الشرك حتى وإن أخبرنا من الصادق المصدوق أن هذه الأمة ستخرج من دين الله أفواجاً كما دخلت فيه أفواجاً وأنهم سيعبدون الأوثان والأصنام وأن الساعة لاتقوم حتى تضطرب إليات نساء دوس بذى الخلصة كما ثبت فى الصحيح(١).

فالواجب على الداعى أن يدعوا ويذكر ولا ينتظر النتائج والعواقب. والله المستعان.

● **مناسبة الباب لكتاب التوحيد:**

قال حامد بن محمد(٢): ما جاء فى حماية المصطفى - من الخلق لأجل الرسالة محمد بن عبد الله ﷺ - جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك لأنه ﷺ ما أرسل إلا لنفيه بالبيان والسنان. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٣): المراد حمايته عما يقرب منه، أو يخالطه من الشرك وأسبابه اهـ.

● **شرح الترجمة والتبويب:**

قال سليمان آل الشيخ(٤): الجناب: هو الجانب اهـ.

قال ناصر السعدى(٥): من تأمل نصوص الكتاب والسنة فى هذا الباب رأى نصوصاً كثيرة تحث على القيام بكل ما يقوى التوحيد وينميه ويغذيه، من الحث على الإنابة إلى الله وانحصاره تعلق القلب بالله رغبة ورهبة وقوة الطمع بفضله وإحسانه والسعى لتحصيل ذلك وإلى التحرر من رق المخلوقين وعدم التعلق بهم بوجه من الوجوه أو الغلو فى أحد منهم. والقيام التام بالأعمال الظاهرة والباطنة وتكميلها، وخصوصاً

---

(١) سيأتى تخريجه.

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٠٠).

(٣) فتح المجيد (١/ ٣٢٤).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٥٥).

(٥) القول السديد (٦٩، ٧٠).

حث النصوص على روح العبودية وهو الإخلاص التام لله وحده، ثم في مقابلة ذلك نهى عن أقوال وأفعال فيها الغلو بالمخلوقين ونهى عن التشبه بالمشركين لأنه يدعو إلى الميل إليهم.

ونهى عن أقوال وأفعال يخشى أن يتوسل بها إلى الشرك كل ذلك حماية للتوحيد ونهى عن كل سبب يوصل إلى الشرك، وذلك رحمة بالمؤمنين ليتحققوا بالقيام بما خلقوا له من عبودية الله الظاهرة والباطنة وتكميلها لتكمل لهم السعادة والفلاح وشواهد هذه الأمور كثيرة معروفة.

قال عبد الله بن جار الله(١): الجناب هو الجانب، والمراد بحمايته: صيانته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه. اهـ.

- **وقال ابن باز**(٢): بيَّن المؤلف بهذه الترجمة ما جاء به النبي ﷺ وحمايته التوحيد من الأقوال والأفعال الشركية وجناب الشيء: الجزء منه، وحمى التوحيد: زائد على الجانب، فالثانية أبلغ من الأولى، لأن الأولى في الجانب، والثانية في الحمى، وهنا ذكر الوسائل الفعلية لحماية التوحيد من الشرك، وفي باب حماية التوحيد وسد طرق الشرك، وسيأتي ذكره فيه الحماية القولية، أي حمى التوحيد بالتحذير من الشرك وما يوصل إليه من أقوال وأفعال. اهـ.

- **وقال ابن عثيمين: قوله: «المصطفى»**.

أصلها: المصتفى، من الصفوة، وهو خيار الشيء؛ فالنبي ﷺ أفضل المصطفين لأنَّه أفضل أولي العزم من الرّسل، والرسل هم المصطفون والمراد به: محمد ﷺ، والاصطفاء على درجات أعلاها اصطفاء أولي العزم من الرسل، ثم اصطفاء الرسل، ثم اصطفاء الأنبياء، ثم اصطفاء الصديقين، ثم اصطفاء الشهداء، ثم اصطفاء الصالحين.

[قلت] : وسيأتي في الباب قبل الأخير من هذا الكتاب (حماية النبي ﷺ حمى التوحيد) ففي هذا الباب عبر بالمصطفى لمناسبة الآية ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾ ولأن الحماية في باب الأفعال أشق منها في باب الأقوال فناسب التبويب هنا بالمصطفى وهناك بالنبي والله أعلم.

قوله: «حماية» من حمى الشيء، إذا جعل له مانعاً يمنع من يقرب حوله، ومنه حماية الأرض عن الرعي فيها، ونحو ذلك. اهـ.

[قلت]: ومنه قوله ﷺ: **«ألا إن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه»** وفي

(١) الجامع الفريد (٩٠).
(٢) التعليق المفيد (١٢٧).

الحديث أيضا قال: «كالراعى يحوم حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[1] فالحمى هو ما يحميه الملك من الأراضى ويجعله فى سلطانه ولله المثل الأعلى فهو المليك المقتدر وحماه كل ماله سلطان قدرى أو شرعى عليه وحمى الله وسلطان الله الشرعى هى المحارم فلايجوز أن تقترب منها وكذلك الحمية والاحتماء وفى الحديث «إن الله إذا أراد بعبده خيراً حماه من الدنيا كما يحمى أحدكم سقيمه» وهو كما يحميك الطبيب من السقم ومن ذلك قول طبيب العرب: الحارث بن كلده.

المعدة بيت الداء   والحميةُ هى الدواء

قوله: «جناب».

بمعنى جانب، والتوحيد: تفعيل من الوحدة، وهو إفراد الله تعالى بمايجب له من الربوبيَّة والألوهيَّة والأسماء والصفات. اهـ.

[قلت]: قد تكون بمعنى جانب وزيادة أى كأنه تفخيم لجناب التوحيد فإذا أردت أن تفخم جانبًا لأحد فإنك تقول له جنابك لم تفعل ذلك فكأنه أراد أن يعظم جناب التوحيد فهو عظيم ولذلك الرسول حماه اهـ.

قوله: «التوحيد» قلت: التوحيد من الوحده وهو أفراد الله تعالى بما يجب له من الأولهية والربوبية والأسماء والصفات أو أفراد الله بالعبادة.

قوله: «وسده كل طريق».

أى: مع الحماية لم يدع الأبواب مفتوحة يلج إليها من شاء، ولكنه سدَّ كل طريق يوصل إلى الشرك؛ لأنَّ الشرك أعظم الذنوب، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾.

قوله: «يوصل إلى الشرك».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الشرك الأصغر لا يغفره الله؛ لعموم قوله: ﴿**أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾، وعلى هذا؛ فجميع الذنوب دونه لقوله: ﴿**أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾؛ فيشمل كبائر الذنوب وصغائرها؛ فالشرك ليس بالأمر الهيِّن الذى يُتهاون به، فالشرك يفسد القلب والقصد، وإذا فسد القصد فسد العمل؛ إذ العمل مبناه على القصد، قال تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ**

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٠٥١)، ومسلم فى المساقاة (١١/٢٧ ـ النووى) عن النعمان بن بشير به وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٩ ـ بتخريجنا).

﴿الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال ﷺ: **«إنَّما الأعمال بالنيَّات»**(*).

إذاً، فالرسول ﷺ حمى جانب التوحيد حمايةً محكمة، وسدَّ كل طريق يُوصل إلى الشرك ولو من بعيد؛ لأنَّ من سار على الدرب وصل، والشيطان يزيِّن للإنسان أعمال السوء شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى الغاية اهـ.

قلت: تقدم معنا قبل ذلك كلام ابن تيمية وقال معلقاً عليه ابن عثيمين أن شيخ الإسلام لم يتفق قوله في هذه المسألة فمرة قال: يغفر الشرك الأصغر ومرة قال: لايغفر، وهنا أورد القول بأنه لايغفر من باب الترهيب في الشرك. وهذا جمعاً بين القولين:ـ

فالشرك الأكبر لايغفر ويخلد صاحبه في النار.

والشرك الأصغر لايغفر إلا أن الله عزوجل يخرج صاحبه ـ بفضله وكرمه منه ـ من النار لا أنه قد غفر له.

فهذا توجيه ـ تقدم ـ إن سلم فيصح القول بهذا التوجيه.

ـ وأما كونه يفسد القلب:ـ فهو كما قال تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾** وكما قال تعالى حين فسدت نية بعض الصحابة **﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾** فكان هذا التغير في القلب سببه شرك الإرادة وكان هذا سبب من أسباب هزيمة المسلمين في هذه الغزوة ولأن الشرك أيضاً محبط للعمل كما قال تعالى **﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾** وقال تعالى: **﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** لذلك حمى الرسول ﷺ جانب التوحيد حماية محكمة وسد كل طريق يوصل إلى الشرك اهـ.

● **مسألة: لماذا عبر المصنف باسمه المصطفى دون غيره من أسمائه؟**

الجواب: **[قلت]**: عبر المصنف عن الرسول بالمصطفى، وليس بمحمد أو أحمد وغير ذلك من أسمائه لقول الله تعالى ـ الذي سيأتي ـ **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** ولقوله تعالى: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾** فالله خالق الخلق، واصطفى منهم الأنبياء، واصطفى من الأنبياء أولي العزم، واصطفى من أولي العزم الرسول ﷺ فهو أيضاً من هذه الحيثية مصطفى، وأيضاً كلمة المصطفى تبين أنه هو المؤهل لحماية جناب التوحيد؛ لأن المصطفى إذا كان هو خيار من

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(١).

من خيار من خيار، وإذا كان هو من صفوة الناس والرسل، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ فلا يأمر إلا بما فيه رحمة وخير لنا، ولاينهى إلا عما فيه عنت ومشقة علينا، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولما ذكرها المصنف في أدلة الباب وعلم تفسيرها وأنه من أخيرنا وأصفانا ناسب أن يذكر هذا الإسم في الترجمة دون سائر أسمائه ﷺ. والله أعلم.

وقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ...﴾ الآية.

● **مناسبة الآية للباب وللتوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذه الآية وما فيها من أوصافه الكريمة ومحاسنه الجمة التي تقتضي أن ينصح لأمته، ويبلغ البلاغ المبين، ويسد الطرق الموصلة إلى الشرك، ويحمي جناب التوحيد غاية الحماية، ويبالغ أشد المبالغة في ذلك لئلا تقع الأمة في الشرك، وأعظم ذلك فتنة القبور، فإن الغلو فيها هو الذي جر الناس في قديم الزمان وحديثه إلى الشرك لاجرم فعل النبي ﷺ ذلك، وحمى جناب التوحيد حتى في قبره الذي هو أشرف القبور حتى نهى عن جعله عيداً، ودعا الله أن لايجعله وثناً يعبد أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ(٣): فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في حق أمته أنذرهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبين لهم ذرائعه المُوصِّلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها. اهـ.

وكذا قال عبدالله بن جار الله(٤).

وقال ابن باز(٥): فهذه أوصافه فإن كانت هذه حاله فالواجب اتباعه ومحبته ولكن

(*) تقدم تخريجه.

(١) التوبة (١٢٨، ١٢٩).
(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٥٦).
(٣) فتح المجيد (١/٣٢٦).

(٤) الجامع الفريد (٩٠).
(٥) التعليق المفيد (١٢٨/ ١٢٧).

حصل العكس فعادوه حتى أرادوا قتله. ثم من كانت هذه صفاته فإنه لايترك أمته بدون نصح لذلك أمر بالتوحيد وحث الناس على الاستقامة وحذر من الشرك وأسبابه بأقواله الكثيرة كحديث «**لا تطرونى كما اطرت النصارى**»(١)... «**إياكم والغلو**»(٢)... «**هلك المتنطعون**»(٣) أهـ.

وقال قرعاوي: حيث دلت الآية على حرص النبى ﷺ على أمته وهذا يقتضى حمايته لجانب التوحيد وسده كل طريق يؤدى إلى الشرك وقد فعل ذلك، فنهى عن تعظيم القبور بالبناء وفى مقدمتها قبره عليه الصلاة والسلام أهـ.

● **فصل/ العلاقة بين السورة وختمها بهذه الآية، وعلاقة ذلك بالباب:**

قال الفخر الرازى(٤): اعلم أنه تعالى لما أمر رسوله عليه السلام أن يبلغ فى هذه السورة إلى الخلق تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحميلها، إلا لمن خصه الله تعالى بوجوه التوفيق والكرامة، ختم السورة بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف، وهو أن هذا الرسول منكم، فكل ما يحصل له من العز والشرف فى الدنيا فهو عائد إليكم. وأيضاً فإنه بحال يشق عليه ضرركم وتعظم رغبته فى إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم فى حقكم، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها، والأب الرحيم ربما أقدم على تأديبات شاقة، إلا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق، وأن الأب مشفق، صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة أهـ.

[قلت]: بل وأقول مستعذبة كما يؤدب الشيخ التلميذ بتأديبات شاقة لكن لما علم التلميذ أن هذا الشيخ رحيم ورفيق، وإنما يفعل ذلك من باب الحرص على الطالب وإيصال الخير إليه استعذب التلميذ هذه المشقة.

ثم قال: وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان. فكذا ههنا لما عرفتم أنه رسول الله حق من عند الله، فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير، ثم قال للرسول عليه السلام: فإن لم يقبلوها بل أعرضوا عنها وتولوا فاتركهم ولاتلتفت إليهم وعول على الله وارجع فى جميع أمورك إلى الله ﴿**فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ وهذه الخاتمة لهذه السورة جاءت فى غاية الحسن ونهاية الكمال. اهـ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سيأتى تخريجه.

(٤) «التفسير الكبير» (٨/ ٣٦/ ٢٤١).

قلت: وعلاقة هذا بالتبويب أن المصطفى قد يحتاج لحماية جناب التوحيد ولسد كل باب يوصل الإنسان إلى الشرك، قد يحتاج هذا إلى فرض تكاليف شاقة جداً فى باب الأقوال وفى باب الأفعال الظاهرة والباطنة فينبغى أن تتحملوها وتقبلوها وتقوموا طواعية لأنه جاء من أنفسنا وهو الحريص علينا وهو الرؤوف بنا والرحيم بنا فينبغى أن يكون هذا سائغ لتقبل هذه التكاليف الشاقة التى ما فرضها إلا حماية جناب التوحيد لنا ولحرصه علينا أن نقع فى شرك، ثم إذا تولى متولى بعد هذا البيان ولم يقبل هذه التكاليف الشاقة فيما يبدو له ولم يتحملها وأعرض فقل أنت كما قال الرسول ﷺ «حسبى الله» كافينى.

ـ **فائدة**: لماذا قال ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ولم يضف اسمه لشيءٍ من مخلوقاته سوى العرش العظيم؟

الجواب:

أحياناً إذا ضاق صدر الداعى بالناس وقتل نفسه حسرة عليهم لايخرج من هذه الحالة إلا إذا تفكَّر فى شيء عظيم، وهذا الشيء العظيم الذى عَظُمَ فى نفسه وفى قلبه يتضائل معه هذا العنت وهذا الضيق وهذا الإعراض من الناس وقد يحدث أذى له من الناس وغير ذلك فلايخرج من هذا الحال من الضيق والكرب والهم إلا أن يجد هذه الدائرة يعنى المنطقة التى هو فيها دائرة ضيقة بالنسبة لغيرها، فمثلاً ما منطقة المطرية فى مصر؟ وما مصر فى أفريقيا؟! وما أفريقيا فى الكرة الأرضية؟! وما الكرة الأرضية فى السماء الأولى إلا كحلقة فى فلاة وما السماوات إلا كحلقة فى فلاة بالنسبة للكرسى وما هذا الكرسى الذى هو موضع القدم إلا كحلقه فى فلاة بالنسبة للعرش.

فلايضيق صدره بالتضييق عليه فى منطقة أو دائرة من الأرض بل إذا كانت نيته خالصة فى أن يُعبِّد الناس لرب العالمين، فليتوكل على الله رب العرش العظيم. ويقول بحق وحسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

● إعراب الآية:

ـ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ اللام جواب للقسم المحذوف، و(قد) حرف تحقيق و﴿جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ فعل، ومفعول به، وفاعل. و ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ صفة، أى من جنسكم، ومن نسبكم، عربى مثلكم.

ـ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿عَزِيزٌ﴾ صفة ثانيةلرسول، وفى النحاة من يمنع تقدم الوصف غير الصريح، على الوصف الصريح، ويمكن أن يجاب بأن ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ جار ومجرور، متعلقان بجاءكم، و(عليه) متعلقان بعزيز، و(ما) مصدرية أو موصولة وعلى كلا التقديرين، فهى ومدخولها، أى هى وصلتها فاعل (عزيز) الذى هو صفة مشبهة، ويجوز أن يكون (عزيز) خبر مقدم، و ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ فى تأويل مصدر مبتدأ مؤخر، والجملة صفة لرسول، و﴿حَرِيصٌ﴾ صفة ثالثة أو ثانية، و ﴿عَلَيْكُم﴾ جار ومجرور، متعلقان بحرص، و﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلقان برؤوف، و﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ صفتان رابعة وخامسة، أو ثالثة ورابعة لرسول.

- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ الفاء عاطفة، و(تولوا) فعل وفاعل فى محل جزم فعل الشرط، والفاء رابطة، و﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ خبر مقدم، ومبتدأ مؤخر، والجملة مقول القول.

﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ...جملة حالية ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (عليه) جار ومجرور متعلقان بتوكلت، وهو مبتدأ و (رب العرش) خبر و(العظيم) صفة للعرش أهـ[1].

● **ما جاء فى تفسير الآية من القرآن:**

قال الشنقيطى[2]: هذه الآية الكريمة تدل على أن بعث هذا الرسول الذى هو من أنفسنا الذى هو متصف بهذه الصفات المشعرة بغاية الكمال، وغاية شفقته علينا هو أعظم منن الله تعالى وأجزل نعمة علينا، وقد بين لك فى مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[3] وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[4] وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[5].

- قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أمر تعالى فى هذه الآية الكريمة نبيه

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه/ لمحيى الدين درويش (٤/ ١٩٩).

(٢) «أضواء البيان» (٢/ ٣٥٤).

(٣) آل عمران: (١٦٤).

(٤) إبراهيم: (٢٨).

(٥) الأنبياء: (١٠٧).

ﷺ بالتوكل عليه جل وعلا، ولاشك أنه ممتثل ذلـك، فهو سيد المتوكلينى عيه صلوات الله وسلامه، والتوكل على الله تعالى، وهو شأن إخوانه من المرسلين صلوات الله عليهم وسلامه، كما بـين تعالى ذلك فى آيات آخر، كقـوله عن هود عليه وعلى نبـينا الصلاة والسلام ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾(١) وقولـه تعالـى عن نوح: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ﴾(٢) وقوله تعالى عـن جملة الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾(٣) الآية. ومن أوضح الأدلة على عظم توكل نبينا ﷺ على الله، قوله يوم حنين، وهو على بغلة فى ذلك الموقف العظيم «أنا النبى لاكذب أنا ابن عبدالمطلب» أهـ.

ـ قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

● ما جاء فى التفسير بالمرفوع:

عن جبـير بن نفيـر أن رسول الله ﷺ قال: لقد جاءكم رسول إليـكم ليس بوهن، ولاكسل؛ ليحـى قلوباً غلفاً ويفـتح أعيناً عمياً، ويسـمع آذاناً صماً، ويقيم ألـسنة عوجاً، حتى يقال: لا إله إلا الله(٤).

عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: يـارسول الله ما معنى ﴿أَنفُسِكُمْ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ «أنا أنفَسِكُم نسباً وصهراً وحسباً، ليس فىَّ ولا فى آبائى من لدن آدم سفاح كلها نكاح»(٥).

(١) هود: (٥٤، ٥٦).

(٢) يونس: (٧١).

(٣) إبراهيم: (١٢).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠١٥٩) فانظره بتخريجنا.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٢٥) ونسبه لابن مردويه.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ **«خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح»**(١).

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ **«ما ولدنى من سفاح الجاهلية شىء وما ولدنى إلا نكاح كنكاح الإسلام»**(٢). وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **«خرجت من نكاح غير سفاح»**(٣).

عن محمد بن على بن حسين أن النبى ﷺ قال **«إنما خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن ادم لم يصبنى من سفاح أهل الجاهلية شىء، لم أخرج إلا من طهرة»**(٤).

عن على بن أبى طالب «أن النبى ﷺ قال: **«خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى، وأمى لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء»**(٥).

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ **«لم يلتق أبواى قط على سفاح، لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً، لاتتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما»**(٦).

عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: **«خير العرب مضر، وخير مضر بنو عبدمناف، وخير بنو عبدمناف بنو هاشم، وخير بنو هاشم بن عبدالمطلب، والله ما افترقا شعبتان منذ خلق الله آدم إلا كنت فى خيرهما»**(٧).

عن أنس قال: خطب النبى ﷺ فقال: أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرهما، فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شىء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم، حتى انتهيت إلى أبى وأمى، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً»(٨).

---

(١) ذكره السيوطي فى الموضع السابق ونسبه لابن سعد وابن عساكر. وانظر كتابنا الإتحاف بحقوق العاقد قبل الزفاف.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للطبرانى.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن سعد، وابن عساكر.

(٤) الدر المنثور.

(٥) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٤٧٢٨) عن على به.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٢٥) وزاد نسبه لابن أبى عمر العدنى فى «مسنده»، وأبى نعيم فى «الدلائل»، وابن عساكر.

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٢٥) ونسبه لأبى نعيم فى «الدلائل».

(٧) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن سعد.

(٨) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للبيهقى فى «الدلائل»، وابن عساكر.

عن ابن عباس «أن قريشاً كانت نوراً بين يدى الله تـعالى قبل أن يخلق الخلق بألفى عام، يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق الله آدم عليه السلام ألقى ذلك النورفـى صلبه. قـال رسول الله ﷺ : «**فأهبـطنى الله إلى الأرض فـى صلب آدم علـيه السلام، وجعلنى فى صلب نوح، وقذف بى فى صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجنـى من بين أبوى لم يلتقيا على سفاح قط**»(١).

عن جعفـر بن محمد عن أبيـه فى قوله ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقـال رسول الله ﷺ خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح(٢).

عن ابن عبـاس «أن رسول الله ﷺ قرأ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ يعنى من أعظمكم قدراً(٣).

● **ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:**

عن عبيد بن عمير قال: كان عمر لايثبت آية فى المصحف حتى يشهد رجلان، فجاء رجل من الأنصار بهـاتين الآيتين ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ إلى آخرها.

فقال عمر: لا أسألك عليها بينة أبداً، كذلك كان رسول الله ﷺ(٤).

● **ما جاء فى تفسير الآية من الموقوف والمقطوع:**

وعن ابن عباس فى قوله﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾قال: قد ولدتموه يامعشر العرب(٥).

وقال ابن عباس: ليس من العرب قبيلة إلا وقدولدت النبى ﷺ وله فيهم نسب(٦).

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٢٦) ونسبه لابن أبى عمر العدنى.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠١٥٨). فانظره بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٢٨) ونسبه لابن جرير، وابن المنذر، وأبى الشيخ.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٢٤) وزاد نسبته لعبدالـرزاق فى «المصنف»، وابن جرير، والبيهقى فى «سننه»، وأبى الشيخ. وانظر «فتح المجيد» (ح ٤١٠) بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٢٥) ونسبه للحاكم.

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن سعد.

(٦) تقدم تخريجه.

وقال السدى : من العرب من بنى إسماعيل.

وقال جعفر بن محمد الصادق: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية من زمان آدم عليه السلام[1]. ثم قال : وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيص (من أنفسكم) بفتح الفاء أي: من أشرفكم وأفضلكم . اهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال ابن جرير[2]: يقول تعالى ذكره للعرب لقد جاءكم أيها القوم رسول الله إليكم من أنفسكم تعرفونه لامن غيركم فتتهموه على انفسكم فى النصيحة

وقال البغوى[3]: قوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعرفون نسبه وحسبه.

وقال الزمخشرى:[4] ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم، ومن نسبكم العربى مثلكم. أهـ.

خلاصة أقوال المفسرين فى قوله﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾

وقال ابن الجوزى:[5] قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قرأ الجمهور بضم الفاء.

وقرأ ابن عباس، وأبو العالية، والضحاك، وابن محيصن،ومحبوب عن ابى عمرو: بفتحها:

وفى المضمومة أربعة أقوال:

أحدها: من جميع العرب، قاله ابن عباس؛ قال :ليس فى العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله ﷺ.

الثانى: ممن تعرفون.

الثالث: من نكاحٍ لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية. قاله جعفر الصادق.

الرابع: بشر مثلكم، فهو آكد للحجةُ، لأنكم تفقهون عمن هومثلكم. قاله الزجاج.

وفى المفتوحة ثلاثة أقوال (أى: أنْفَسِكم):ـ

أحدها: أفضكلم خُلقاً

الثانى: أشرفكم نسباً

الثالث: أكثركم طاعة لله عزوجل. أهـ.

قال الفخر الرازى[6]: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى من العرب قال ابن عباس: ليس فى

(١) تقدم تخريجه. (٢) تفسير الطبرى (٧/١١/٥٥). (٣) معالم التنزيل (٣/١٣٣).
(٤) الكشاف (٢/١٩٧) (٥) زاد المسير (٣/٣٩٣). (٦) تفسير الفخر الرازى: ٨/١٦/ ص٢٤١.

العرب قبيلة إلاوقد ولدت النبى عليه السلام بسبب الجدات، مضرها وربيعها ويمانيها فالمضريون والربيعيون هم العدنانية، واليمانيون هم القحطانية ونظيره قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾(١) والمقصود منه ترغيب العرب فى نصرته، والقيام بخدمته، كأنه قيل لهم: كل ما يحصل له من الدولة والرفعة فى الدنيا فهو سبب لعزكم ولفخركم، لأنه منكم ومن نسبكم أهـ.

[قلت]: ونظيره قوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ**﴾.

قال القرطبى(٢): والخطاب للعرب فى قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم فى ذلك، إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه وَشُرِّفوا به عابر الأيام وقال الزجاج: وهى مخاطبة لجميع العالم والمعنى: لقد جاءكم رسول من البشر. وقوله تعالى: ﴿**مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ يقتضى مدحاً لنسب النبىِّ ﷺ وأنه من صحيح العرب وخالصها، وفى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم**»(٣) أهـ.

[قلت]: **وهنا فائدة**: وهى أن جميع النعرات الجاهلية إذا كانت لنصرة الإسلام فلا يُتعصَّب لها، ولا تُرفع هذه الراية التى هى أصل دينهم وديدنهم، فالعرب كانوا متعصبين للعروبة فلما جاءت العروبة تنصر الإسلام كفروا بها، وأيضاً فرعون كان متعصباً للسحرة فلما نصروا موسى كفر بهم مع أن السحر. كان دينه وديدنه، ولكنه دينه وديدنه إذا كان ينصره وينصر منهجه الفاسد، وهذا فى نصر أى قومية كانت وما الجزائر منّا ببعيد.

قال ابن كثير(٤): **يقول تعالى** ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿**ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم**﴾ ثم قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ أى منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته» وذكر الحديث. اهـ.

قلت: فمن الممكن أن يكون من أسباب الصد عن الدعوة أن يكون المدعويين جاهلين

(١) آل عمران (١٦٤). (٢) تفسير القرطبى ٥/ ٣١٤٠.
(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/ ٤١/ ١) عن واثلة به.
(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٨٩.

بأحوال الداعي، ولكن عندما تعرفه وتعرف نسبه وصفته وأمانته وصدقه ومدخله ومخرجه فيكون بالنسبة لنا كتاباً مفتوحاً ليس في حياته شيء مبهم.

قال صاحب الظلال[1]: ولم يقل جاءكم رسول منكم. ولكن قال «من أنفسكم» وهي أشد حساسية وأعمق صلة، وأدلّ على نوع الوشيجة التي تربطهم به. فهو بصفة من أنفسهم، تتصل بهم صلة النفس بالنفس، وهي أعمق وأحسن أهـ.

[قلت]: وهو يشير إلى الوشيجة الإيمانية المتوقعة من كل مؤمن أن يصبح الرسول والمؤمنون كالنفس الواحدة والجسد الواحد هو من أنفسهم وهم كذلك «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد... الحديث» إلخ.

ومثله أبو بكر فكان رسول الله يشرب وأبو بكر يقول حتى رضيت.

قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

● **التفسير بالقرآن**

وهو كقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾[2].

● **التفسير بالآثار الموقوفة والمقطوعة:**

عن ابن عباس ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ قال: شديد عليه ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ما شق عليكم[3].

عن قتادة في قوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية. قال: جعله الله من أنفسهم فلايحسدونه على ما أعطاه الله من النبوّة والكرامة، عزيز عليه عنت مؤمنهم، حريص على ضالهم أن يهديه الله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

عن قتادة قال ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ عنت مؤمنهم[5].

عن سعيد بن أبي عروبة: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أن تفضلوا[6].

● **ما جاء في تفسير الآية من أقوال أهل التفسير:**

(1) (٣/ ١٧٤٣). (2) سورة الحجرات (٧).
(3) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٦٢) فانظره بتخريجنا.
(4) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٦٠) وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٥٢٩) وزاد نسبته لابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ.
وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا.
(5) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٦٣) فانظره بتخريجنا.
(6) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٦٤). فانظره بتخريجنا.

قال ابن جرير[1]: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى عزيز عليه عنتكم، وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى أهـ.

وقال البغوى[2]: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد عليه ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ قيل (ما) صلة، أى عنتكم، وهو دخول المشقة والمضرة عليكم. **وقال القتيبى**: ما أعنتكم وضركم. **وقال ابن عباس**: ما ضللتم.

وقال الضحاك والكلبى، ما أثمتم. أهـ.

وقال الزمخشرى[3]: أى شديد عليه؛ لكونه بعضاً منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العذاب أهـ.

وقال ابن الجوزى[4]: فيه قولان:

(الأول): شديد عليه ما شق عليكم.

(الثانى): شديد عليه ما اثمكم أهـ.

قال الفخر الرازى[5]: قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ اعلم أن العزيز هو الغالب والغالب الشديد، والعزة هى الغلبة والشدة وأما العنت فيقال عنت الرجل يعنت عنتا إذا وقع فى مشقة وشدة لايمكنه الخروج منه ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾

وقال الفراء (ما) فى قوله (ماعنتم) فى موضع رفع والمعنى عزيز عليه عنتكم، أى يشق عيه مكروهكم، وأولى المكروه بالدفع مكروه عقاب الله تعالى وهو إنما أرسل ليدفع هذا المكروه أهـ.

وقال القرطبى[6]: قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى يعز عليه مشقتكم والعنت: المشقة، من قولهم: أكَمة عَنُوت إذا كانت شاقة مهلكة. وقال ابن الأنبارى:

---

(١) تفسير الطبرى (٧/ ١١/ ٥٥).
(٢) معالم التنزيل (٣/ ١٣٣).
(٣) الكشاف (٢/ ١٧٩).
(٤) زاد المسير (٣/ ٣٩٣٩).
(٥) التفسير الكبير (٨/ ١٦/ ٢٤٢).
(٦) تفسير القرطبى (٥/ ٣١٤١).

أصل التعنت التشديد، فإذا قالت العرب: فلان يتعنت فلاناً ويُعنته فمرادهم يشدد عليه ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه. وقد تقدم فى «البقرة» «وما» فى «عنتم» مصدرية وهى ابتداء «و«عزيز» خبر مقدم. ويجوز أن يكون «ماعنتم» فاعلاً بعزيز، و«عزيز» صفة للرسول، وهو أصوب. اهـ.

قال ابن كثير[١]: وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى يعزُّ عليه الشىء الذى يعنت أمته ويشق عليها، ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه أنه قال «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[٢] وفى الصحيح «**إن الدين يسر**»[٣] وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه أهـ.

[قلت]: ولذلك قال لمعاذ وأبى موسى لما أرسلهما «**بشّرا ولا تنفرا ويسرا ولاتعسرا**»[٤] وهو فى الصحيح.

قال سليمان آل الشيخ[٥]: وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ أى شديد عليه جداً ما عنتم، أى عنتكم. وهو لحاق الأذى الذى يضيق به الصدر، ولايهتدى للمخرج، وهى هنا لفظ عام، أى ما شق عليكم من كفر وضلال وقتل وأسر وامتحان بسبب الخلق. اهـ.

قال ابن عثيمين[٦]: قوله عزيز أى صعب لأن هذه المادة العين والزاى فى اللغة العربية تدل على الصلابة، ومنه «أرض عزاز»، أى: صلبة قوية. والمعنى: أنه يصعب عليه ما يشق عليكم، ولهذا بعث بالحنيفية السمحة، وما خيّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً وهذا من التيسير الذى بعث به الرسول ﷺ. اهـ.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾.

● **ما جاء فى تفسير الآية من قول النبي - ﷺ -:**

أخرج مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً وجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم**

(١) ابن كثير ٤/ ٣٨٩.
(٢) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٦٦) عن أبى أمامة به.
وانظر كتابنا «تخريج أحاديث فقه السنة» وانظر «السلسبيل» (١٧٥ - بتخريجنا).
(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٩) عن أبى هريرة به. وانظر «فتح المجيد» (٤١٢) بتخريجنا.
وانظر «رياض الصالحين» (١٤٧ - بتخريجنا).
(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٠٣٨)، ومسلم فى الجهاد والسير (٦/ ٧/٢٨٣).
(٥) تيسير العزيز الحميد ٢٥٥. (٦) القول المفيد ١/ ٥٦٥.

عن النار، وأنتم تفلتون من يدى»[1].

وقال الإمام أحمد بسنده عند عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ «إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع ألا وإنى آخذ بحجزكم أن تهافتوا فى النار كتهافت الفراش أو الذباب»[2].

وقال البزار: عن عكرمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه فى شىء قال عكرمة أراه قال فى دم فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال: «أحسنت إليك؟» قال الأعرابى لا ولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابى إلى البيت فقال «إنما جئتنا تسألنا فاعطيناك فقلت ما قلت» فزاده رسول الله ﷺ شيئاً وقال «أحسنت إليك؟» فقال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. قال النبى ﷺ «إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت، وفى أنفس أصحابى عليك من ذلك شىء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب عن صدورهم» فقال نعم: فلما جاء الأعرابى قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال، وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضى، كذلك يا أعرابى؟»، فقال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال النبى ﷺ: «إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً. فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه إليها وأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وإنى لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار» رواه البزار ثم قال لانعلمه يروى إلا من هذا الوجه (قلت) وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم أهـ.

قلت: وهو أيضاً عند أبى الشيخ فى أخلاق النبى ﷺ بسند ضعيف.[3]

● **ما جاء فى التفسير من أقوال الصحابة والتابعين:**

عن ابن عباس فى قوله ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أن يؤمن كفاركم[4].

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/ ١٩/٥٤) عن جابر به.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٣٩٠) عن ابن مسعود به.

(٣) أخرجه أبو الشيخ فى أخلاق النبى ﷺ (١٧٨) عن أبى هريرة به.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٥٢٩) ونسبه لابن أبى حاتم، وأبى الشيخ وقد تقدم.

عن قتادة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ قال: حريص على ضالهم أن يهديه[1].

● ما جاء فى التفسير من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير[2]: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ يقول: حريص على هدى ضلالكم، وتوبتهم، ورجوعهم إلى الحق أهـ.

وقال البغوى[3]: قوله ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أى على إيمانكم وصلاحكم أهـ.

وقال الزمخشرى[4]: قوله ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ حتى لايخرج أحد منكم عن اتباعه، والاستسعاد بدين الحق الذى جاء به أهـ.

وقال ابن الجوزى[5]: قال الحسن: حريص على أن تؤمنوا أهـ.

وقال الفخر الرازى[6]: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ والحريص يمتنع أن يكون متعلقاً بذواتهم، بل المراد حريص على إيصال الخيرات إليكم فى الدنيا والآخرة.

واعلم أن هذا التقدير يكون قوله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم﴾ معناه: شديدة معزته عن وصول شىء من آفات الدنيا والآخرة إليكم، وبهذا التقدير لايحصل التكرار.

قال الفراء: الحريص: الشحيح. ومعناه: أنه شحيح عليكم أن تدخلوا النار وهذا بعيد؛ لأنه يوجب الخلو عن الفائدة. أهـ.

قال القرطبى[7]: قال أبو جعفر النحاس: وأحسن ما قيل فى معناه مما يوافق كلام العرب ما حدثنا أحمد بن محمد الأزدى، قال حدثنا عبدالله بن محمد الخزاعى، قال سمعت عمرو بن على يقول: سمعت عبدالله بن داود الخُريبى يقول فى قوله عزوجل ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ قال: أن تدخلوا النار، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ قال أن تدخلوا الجنة ... وقال الفراء: شحيح بأن تدخلوا النار.

والحرص على الشىء: الشح عليه أن يضيع ويتلف. اهـ.

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تفسير الطبرى (٧/ ١١/ ٥٥).

(٣) معالم التنزيل (٣/ ١٣٣).

(٤) الكشاف (٢/ ١٧٩).

(٥) زاد المسير (٣/ ٣٩٣).

(٦) التفسير الكبير (٨/ ١٦/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٧) تفسير القرطبى (٥/ ٣١٤١).

الخلو عن الفائدة لأن هذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ولهذا قال الشوكاني في «تفسيره» بأن هذا هو الأولى والله أعلم.

قال ابن كثير[1]: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وقال الطبراني بسنده عن أبي ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً قال وقال رسول الله ﷺ ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم[2].

● **أقوال الشراح:**

قال ابن عثيمين[3]: الحرص: بذل الجهد لإدراك أمر مقصود، والمعنى: باذل غاية جهده في مصلحتكم، فهو جامع بين أمرين: دفع المكروه الذي أفاده قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ وحصول المحبوب الذي أفاده قوله ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، فكان النبي ﷺ جامعاً بين هذين الوصفين، وهذا من نعمة الله علينا وعلى الرسول ﷺ أن يكون على هذا الخلق العظيم الممثل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. اهـ.

قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

● **ما جاء في التفسير بالقرآن:**

هي كقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾[4].

● **ما جاء في التفسير من الآثار المرقوقة:**

عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ **«جاء جبريل فقال لي: يا محمد إن ربك يقرئك السلام، وهذا ملك الجبال قد أرسله الله إليك وأمره أن لايفعل شيئاً إلا بأمرك. فقال له ملك الجبال: إن الله أمرني أن لا أفعل شيئاً إلا بأمرك، إن شئت دمدمت عليهم الجبال، وإن شئت رميتهم بالحصباء، وإن شئت خسفت بهم الأرض قال: يا ملك الجبال فإني آتي بهم لعله أن يخرج منهم ذرية يقولون: لا إله إلا الله. فقال ملك الجبال عليه السلام: أنت**

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٩).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٥٥/ ١٦٤٧) عن أبي ذر به.

قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٦٤): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبدالله بن يزيد المقرىء وهو ثقة.

(٣) القول المفيد ١/ ٥٦٦.

(٤) الشعراء: (٢١٥، ٢١٦).

كما سمَّاك ربك رؤوف رحيم»(١).

عن أبى صالح الحنفى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رحيم ولايضع رحمته إلا على رحيم. قلنا: يارسول الله كلنا نرحم أموالنا وأولادنا. قال: ليس بذلك ولكن كما قال الله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

● أقوال المفسرين:

قال ابن جرير(٣): قوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى رفيق رحيم. أهـ.

قال البغوى(٤): قيل: ﴿رَءُوفٌ﴾ بالمطيعين، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالمذنبين أهـ.

وقال أبى روق: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ كلهم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٥) أهـ.

وقال الزمخشرى(٥): ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم، ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال ابن الجوزى(٦): قوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: سماه بأسمين من أسمائه وقال أبو عبيدة: ﴿رَءُوفٌ﴾ فعول، من الرأفة، وهى أرق من الرحمة، ويقال: ﴿رَءُوفٌ﴾ وأنشد:

ترى للمؤمنين عليك حقاً كفعل الوالد الرؤوف الرحيم

وقيل: الرؤوف بالمطيعين، ورحيم بالمذنبين أهـ.

● مسألة:

قال الفخر الرازى(٧): لما قال ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فهذا النسق يوجب أن يقال ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بالمؤمنين، فلم ترك هذا النسق وقال ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؟

الجواب: أن قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يفيد الحصر، بمعنى أنه لا رأفة

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠١٦٩) وانظر «الدر» (٣/ ٥٢٩).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٢٩) ونسبه لابن مردويه.

(٣) تفسير الطبرى (٧/ ١١/ ٥٥).

(٤) معالم التنزيل (٣/ ١٣٣).

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (٦/ ١٩١٨)

(٦) زاد المسير (٣/ ٣٩٣).

(٧) التفسير الكبير (٨/ ١٦/ ٢٤٣)

ولارحمة إلا بالمؤمنين، فأما الكافرون فليس لهم عليهم رأفة ورحمة إلا بالمؤمنين، وهذا كالمتمم لقدر ما ورد فى هذه السورة من التغليظ كأنه يقول: إنى وإن بالغت فى هذه السورة فى التغليظ إلا أن ذلك التغليظ على الكافرين والمنافقين وأما رحمتى ورأفتى فمخصوصة بالمؤمنين فقط، فلهذه الدقيقة عدل عن ذلك النسق أهـ.

قال القرطبى(١): الرؤوف: المبالغ فى الرأفة والشفقة.

وقال الحسين بن الفضل: لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا النبى محمد ﷺ، فإنه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أهـ.

وقال الشوكانى(٢): ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم أيها العرب؛ أو الناس ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أهـ.

وقال السعدى(٣): ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه، وتوقيره، وتعزيره أهـ.

قال ابن عثيمين(٤): والرحمة: رقة بالقلب تتضمن الحنو على المرحوم والعطف عليه بجلب الخير له ودفع الضرر عنه.

وقولنا: رقَّة فى القلب هذا باعتبار المخلوق، أمَّا بالنسبة لله تعالى؛ فلا نفسِّرها بهذا التفسير؛ لأنَّ الله تعالى ليس كمثله شىء، ورحمة الله أعظم من رحمة المخلوق لاتدانيها رحمة المخلوق ولاتماثلها؛ فقد ثبت عن النبى ﷺ؛ أنه قال: «**إنَّ لله مئة رحمة وضع منها رحمة واحدة يتراحم بها الخلق منذ خلقوا إلى يوم القيامة، حتى إنَّ الدَّابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»(٥).

فمن يحصى هذه الرحمة التى فى الخلائق منذ خلقوا إلى يوم القيامة كمية؟ ومن يستطيع أن يقدِّرها كيفية؟ لا أحد يستطيع إلاَّ الله عزوجل ـ الذى خلقها؟

فهذه رحمة واحدة، فإذا كان يوم القيامة رحم الخلق بتسع وتسعين رحمة بالإضافة إلى الرحمة الأولى، وهل هذه الرحمة تدانيها رحمة المخلوق؟.

الجواب: أبداً، لاتدانيها، والقدر المشترك بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق أنَّها صفة تقتضى الإحسان إلى المرحوم، ورحمة الخالق غير مخلوقة؛ لأنَّها من صفاته، ورحمة

(١) تفسير القرطبى (٥/ ٣١٤١). (٢) فتح القدير (٢/ ٤٣٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٩١). (٤) القول المفيد ١/ ٥٦٦: ٥٦٨.
(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى التوبة (٩/ ٧٩/ ١٧) عن أبى هريرة به.

المخلوق مخلوقة؛ لأنَّها من صفاته؛ فصفات الخالق لايمكن أن تنفصل عنه إلى مخلوق لأنَّنا لو قلنا بذلك لقلنا بحلول صفات الخالق بالمخلوق، وهذا أمر لايمكن؛ لأنَّ صفات الخالق يتَّصف بها وحده، وصفات المخلوق يتَّصف بها وحده، لكن صفات الخالق لها آثار تظهر فى المخلوق، وهذه الآثار هى الرحمة التى نتراحم بها.

قلت: كما قال تعالى: ﴿**فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾.

قوله: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾.

- **ما جاء فى التفسير بالقرآن:**

كقوله تعالى: ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا**﴾.

- **ما جاء فى التفسير بأقوال المفسرين:**

قال ابن جرير(١): فإن تولى يا محمد هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك من قومك، فأدبروا عنك، ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة فى الله، وما دعوتهم إليه من النور والهدى.

﴿**فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ**﴾ يكفينى ربى ﴿**لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ لامعبود سواه أهـ.

وقال البغوى(٢): ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا**﴾ إن أعرضوا عن الإيمان وناصبوك أهـ.

وقال الزمخشرى(٣): كالبغوى وزاد: فاستعن وفوض إليه، فهو يكفيك معرتهم ولايضرونك، وهو ناصرك عليهم.

وقال ابن الجوزى(٤): بمثل ما تقدم.

وقال الفخر الرازى(٥): ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا**﴾ يريد المشركين والمنافقين. وقيل: تولوا عن طاعة الله تعالى وتصديق الرسول عليه الصلاة والسلام. وقيل: تولوا عن قبول التكاليف الشاقة المذكورة فى هذه السورة، وقيل: تولوا عن نصرتك فى الجهاد.

واعلم أن المقصود من هذه الآية بيان أن الكفار لو أعرضوا ولم يقبلوا التكاليف، لم يدخل فى قلب الرسول حزن ولا أسف، لأن الله حسبه وكافيه فى نصره على الأعداء وفى إيصاله إلى مقامات الآلاء والنعماء.

---

(١) تفسير الطبرى (٧/ ١١/ ٥٥).
(٢) معالم التنزيل (٣/ ١٣٣).
(٣) الكشاف (٢/ ١٧٩).
(٤) زاد المسير (٣/ ٣٩٣).
(٥) التفسير الكبير (٨/ ١٦/ ٢٤٣).

﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وإذا كان لا إله إلا هو وجب أن يكون لامبدىء لشيء من الممكنات ولا محدث لشيء من المحدثات إلا هو، وإن كان هو الذى أرسلنى بهذه الرسالة، وأمرنى بهذا التبليغ كانت النصرة عليه والمعونة مرتقبة منه. أهـ.

وقال القرطبى[(١)]: بنحو ما تقدم.

وقال ابن كثير[(٢)]: فإن تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى الله كافى لا إله إلا هو عليه توكلت روى أبو داود ـ بسنده ـ عن أبى الدرداء قال: «**من قال إذا أصبح، وإذا أمسى: حسبى الله لا إله إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه**»[(٣)] وقد رواه ابن عساكر ـ بسنده إليه وزاد: «**سبع مرات صادقاً كان بها أو كاذباً إلا كفاه الله ما أهمه**» وهذه زيادة غريبة، ورواه أيضاً مرفوعاً مثله بالزيادة، وهذا منكر والله أعلم أهـ.

وقال ناصر السعدى[(٤)]: فإن تولوا عن الإيمان والعمل، فامضى فى سبيلك، ولا تزل فى دعوتك وقل ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى الله يكفينى، جميع ما أهمنى... أهـ.

قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾:

● **ما جاء فى التفسير بالقرآن:**

كقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ وقوله ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وقوله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

● **ما جاء فى التفسير قول الصحابي:**

ـ وروى مسلم عن ابن عباس قال: «كان آخر قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار: «**حسبى الله ونعمى الوكيل**»[(*)].

● **ما جاء فى أقوال المفسرين:**

قال ابن جرير[(٥)]: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وبه وثقت، وعلى عونه اتكلت، وإليه، وإلى نصره استندت فإنه ناصرى ومعينى على من خالفنى وتولى عنى منكم ومن غيركم من الناس أهـ.

---

(١) تفسير القرطبى (٥/ ٣١٤١). (٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩١).
(٣) أخرجه أبوداود (٥٠٤١) عن أبى الدرداء به.
وانظر «الأذكار للنووى» (٢١٩ ـ بتخريجنا).
(٤) تفسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٩١). (*) سيأتى تخريجه. (٥) تفسير الطبرى (٧/ ١١/ ٥٦).

وقال الرازى[1]: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يفيد الحصر، أى لا أتوكل إلا عليه أهـ.

وقال القرطبى[2]: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى اعتمدت أهـ.

وقال الشوكانى[3]: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى فوضت جميع أمورى أهـ.

وقال السعدى[4]: أى اعتمدت ووثقت به فى جلب ما ينفع ودفع ما يضر أهـ.

قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

● ما جاء فى التفسير من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير[5]: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذى يملك كل ما دونه، والملوك كلهم مماليكه وعبيده، وإنما عنى بوصفه جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم الخبر عن جميع ما دونه أنهم عبيده، وفى ملكه وسلطانه، لأن العرش العظيم إنما كان يكون للملوك فوصف نفسه بأنه ذو العرش دون سائر خلقه، وأنه الملك العظيم دون غيره، وأن من دونه فى سلطانه وملكه جار عليه حكمه وقضاؤه أهـ.

وقال الزمخشرى[6]: وقرأ ﴿الْعَظِيمِ﴾ بالرفع، وعن ابن عباس: العرش لايقدر أحد قدره أهـ.

وقال ابن الجوزى[7]: إنما خص العرش بالذكر؛ لأنه الأعظم، فيدخل فيه الأصغر أهـ.

وقال الفخر الرازى[8]: والسبب فى تخصيصه للعرش بالذكر أنه كلما كانت الآثار أعظم وأكرم كان ظهور جلاله المؤثر فى العقل والخاطر أعظم، ولما كان أعظم الأجسام هو العرش كان المقصود من ذكره تعظيم جلال الله سبحانه.

فإن قالوا: العرش غير محسوس فلايعرف وجوده إلا بعد ثبوت الشريعة فكيف يمكن ذكره فى معرض شرح عظمة الله تعالى؟

قلنا: وجود العرش أمر مشهور والكفار سمعوه من اليهود والنصارى، ولايبعد أيضاً أنهم كانوا قد سمعوه من أسلافهم أهـ. وبنحو ما تقدم ذكر باقى المفسرين.

---

(١) التفسير الكبير (٨/١٦/٢٤٣).
(٢) تفسير القرطبى (٥/٣١٤٣).
(٣) فتح القدير (٢/٤٣٦).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢/٢٩١).
(٥) تفسير الطبرى (٧/١١/٥٦).
(٦) الكشاف (٢/١٧٩).
(٧) زاد المسير (٣/٣٩٣).
(٨) التفسير الكبير (٨/١٦/٢٤٤).

عَنْ أَبِي هُـرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «لا تَجْعَلُوا بُيُـوتَكُم قُبُـوراً، وَلاَ تَجْعَـلُوا قَـبْرِي، عِيـداً، وَصَلُّوا عَـلَيَّ فَإِنَّ صَـلاَتَكُم، تَـبْلُـغُنِي حَـيْثُ كُنْتُم»[1] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

● ما جاء في الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[2]:

وفي الآية مسائل:ـ

[منها]: التنبيه على هذه النعمة العظيمة، وهي إرسال الرسول ﷺ فينا كما قال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

[ومنها]: كونه منا نعمة أخرى عظيمة.

[ومنها]: كونه بهذه الصفات نعم متعددة.

[ومنها]: مدح نسبه ﷺ، فهو أشرف العرب بيتاً ونسباً.

[ومنها]: رأفته بالمؤمنين.

[ومنها]: غلظته على الكفار والمنافقين أهـ.

- قال سليمان آل الشيخ[3]: رواه أبو داود:

وغيره من حديث عبد الله بن نافع الصائغ قال: أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة فذكره. ورواته ثقات مشاهير، لكن عبد الله بن نافع فيه لين لا يمنع الاحتجاج به. قال ابن معين: هو ثقة. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم الرازي: ليس بالحافظ تعرف وتنكر. قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومثال هذا قد يخاف أن يغلط أحياناً، فإذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة. وقال الحافظ ابن عبد الهادي: هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد كثيرة يرتقي بها إلى درجة الصحة. اهـ.

---

(1) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٧) وأبو داود في «كتاب المناسك» / باب: زيارة القبور (٢/ ٢٢٥/ ح ٢٠٤٢) والبيهقي في شعب الإيمان» (٣/ ٤٩١/ ح ٤١٦٢).
جميعاً من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة.
انظر «رياض الصالحين» (ح ١٤٠٤) و«فتح المجيد» (٤١٥). بتخريجنا.

(2) تيسير العزيز الحميد (٢٥٦، ٢٥٧).

(3) تيسير العزيز الحميد (٢٦٠).

● **مناسبة الحديث للباب والتوحيد:**

قال القرعاوى[(١)]: حيث دل الحديث على تحريم اتخاذ قبره عيداً، وذلك حماية منه لجانب التوحيد، وسد كل طريق يؤدى إلى الشرك. اهـ.

قوله: [لاتجعلوا بيوتكم قبوراً].

قال سليمان آل الشيخ[(٢)]: **- قال شيخ الاسلام**[(٣)] **نوّر الله ضريحه**: أى لاتعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحرى العبادة فى البيوت، ونهى عن تحريها عند القبور عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم.

وفى الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً: «**اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً**»[(٤)].

وفى صحيح مسلم. عن أبى هريرة - رضى الله عنه- «**لاتجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة**»[(٥)].

وفيه أن الصلاه فى المقبره لاتجوز وأن التطوع فى البيت أفضل منه فى المسجد وفى حديث أبى هريرة الذى ذكرنا كراهة القراءة فى المقابر، وكل هذا إبعاد لأمته عن الشرك اهـ.

- وقال حسن بن محمد[(٦)]: أى لاتجعلوا بيوتكم مثل القبور لاتصلون فيها بل صلوا فيها السنن والنوافل ولأنها فى البيت أفضل، قيل: لأنه أبعد مثل الرياء وأقرب للإخلاص. اهـ.

- وقال عبد الله بن جار الله[(٧)]: نهاهم ﷺ أن يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها والعبادة كما تهجر القبور عن الصلاة إليها مخافة الفتنة بها، وما يفضى إلى عبادتها. اهـ.

- وقال ابن باز[(٨)]: بنحو هذا.

---

(١) الجديد (٢٠٣).   (٢) تيسير العزيز الحميد (٢٦٠).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٦٢).

(٤) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (١١٨٧)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٦/ ٦٧ ـ النووى) عن ابن عمر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١١٣١ ـ بتخريجنا).

(٥) **[صحيح]** أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٦/ ٦٨ ـ النووى) عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٠٢٠ ـ بتخريجنا).

(٦) فتح الله الحميد المجيد (٣٠٠).   (٧) الجامع الفريد (٩١).   (٨) التعليق المفيد (١٢٨).

- **وقال ابن عثيمين**[(١)]: **(لاتجعلوا)** الجملة هنا نهى، فلا ناهية، والفعل مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل.

وقوله: (بيوتكم) جمع بيت، وهو مقر الإنسان وسكنه، سواء كان من طين أو حجارة أو خيمة أو غير ذلك، وغالب ما يراد به الطين والحجارة.

[قلت]: قال الله تعالى: **﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾**.

وقوله: (قبوراً) مفعول ثان، لتجعلوا وهذه الجملة اختلف فى معناها، فمنهم من قال: **لاتجعلوها قبوراً؛ أى: لاتدفنوا فيها**، وهذا لاشك أنَّه ظاهر اللفظ، ولكن أُورِدَ على ذلك دفن النبى ﷺ فى بيته.

وأجيب عنه بأنَّه من خصائصه ﷺ؛ فالنبى ﷺ دفن فى بيته لسببين:

١ - ما روى عن أبى بكر أنَّه سمع النبى ﷺ يقول: **«ما من نبى يموت إلاَّ دفن حيث قُبِض»**(٢)، وهذا ضعَّفه بعض العلماء.

٢ - ما روته عائشة رضى الله عنها: **«أنه خشى أن يُتخذ مسجداً»**.

وقال بعض العلماء: المراد بـ **«لاتجعلوا بيوتكم قبوراً»**؛ أى: لا تجعلوها مثل القبور، : المقبرة لاتصلون فيها، وذلك لأنَّه من المتقرر عندهم أنَّ المقابر لايُصلَّى فيها، وأيَّدوا هذا التفسير بأنَّه سبقها جملة فى بعض الطرق: **«اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم، ولا تجعلوها قبوراً»**(٣)، وهذا يدل على أن المراد: لا تدعوا الصلاة فيها.

وكلا المعنيين صحيح؛ فلا يجوز أن يُدفن الإنسان فى بيته، بل يُدفن مع المسلمين؛ لأنَّ هذه هى العادة المتَّبعة منذ عهد النبى ﷺ إلى اليوم، ولأنَّه إذا دُفن فى بيته؛ فإنَّه ربما يكون وسيلة إلى الشرك، فربما يعظَّم هذا المكان، ولأنه يحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند زيارتهم للمقابر، ولأنَّه يضيق على الورثة من بعده فيسأمون منه، وربما يستوحشون منه، وإذا باعوه لايُساوى إلا شيئاً قليلاً، ولأنه قد يحدث عنده من الصخب واللعب واللغو الأفعال المحرمة ما يتنافى مع مقصود الشارع؛ فإن الرسول ﷺ يقول: **«زوروا القبور؛ فإنها تذكركم الآخرة»**(٤)

وأما أن المعنى: لاتجعلوها قبوراً؛ أى: مثل القبور فى عدم الصلاة فيها؛ فهو دليل على أنه ينبغى إن لم نقل: يجب أن يجعل الإنسان من صلاته فى بيته ولايخليه من الصلاة.

---

(١) القول المفيد (١/ ٥٧١ - ٥٧٥).

(٢) أخرجه ابن ماجة (١٦٢٨) عن أبى بكر به.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) سبق.

وفيه أيضا : أن من المتقرر عندهم أن المقبرة لايصلى فيها.

إذاً؛ فيكون هذا النهى عن ترك الصلاة فى البيوت لئلاً تشبه المقابر؛ فيكون فيه دليل واضح على أن المقابر ليست محلاً للصلاة، وهذا هو الشاهد من الحديث للباب؛ لأن اتخاذ المقابر مساجد سبب قريب جداً للشرك.

واتخاذها مساجد سبق أن له مرتبتين:

الأولى: أن يبنى عليها مسجداً.

الثانية: أن يتخذها مصلى يقصدها ليصلى عندها.اهـ.

[قلت]: **الثالثة**: أن يصلى فيها.

ثم قال: والحديث يدل على أن الأفضل: أن المرء يجعل من صلاته فى بيته وذلك جميع النوافل؛ لقوله ﷺ «**أفضل صلاة المرء فى بيته؛ إلا المكتوبة**»[(١)] ؛ إلاماورد الشرع أن يفعل فى المسجد، مثل : صلاة الكسوف، وقيام الليل فى رمضان، حتى ولو كنت فى المدينة النبوية؛ لأن النبى ﷺ قال ذلك وهو فى المدينة، وتكون المضاعفة بالنسبة للفرائض أو النوافل التى تسن لها جماعة أهـ.

قال القرعاوى[(٢)]

الفوائد : أى من الحديث:

١ـ تحريم هجر البيوت من عبادة الله.

٢ـ تحريم الصلاة فى ا لمقابر .أهـ.

قال أبى الطيب شمس الحق أبادى [(٣)]

«**لاتجعلوا بيوتكم قبوراً**» أى لاتتركوا الصلوات والعبادة فتكونوا فيها كأنكم أموات. شبه المكان الخالى عن العبادة بالقبور، والغافل عنها بالميت ثم أطلق القبر على المقبرة. وقيل المراد لاتدفنوا فى البيوت، وإنما دفن المصطفى فى بيت عائشة مخافة إتخاذ قبره مسجداً ذكره القاضى .

قال المناوى فى فيض القدير: وقال الخفاجى: ولايرد عليه أنه ﷺ دفن فى بيته لأنه اتبع فيه سنة الأنبياء عليهم السلام كما ورد: ما قبض نبى إلا دفن حيث يقبض[(*)] فهو مخصوص بهم. انتهى.

---

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٧٣١)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٣/ ٣٢٥/ ٢١٣) عن زيد بن ثابت به.

(٢) الجديد (٣٠٣).

(٣) عون المعبود (٦/ ٣١).

(*) تقدم تخريجه.

قوله: [ولاتجعلوا قبرى عيداً] قال ابن تيمية[1] العيداسم لما يعود من الاجتماع على وجه معتاد، عائداً إما يعود السنة أو يعود الأسبوع، أو الشهر، ونحو ذلك.اهـ.

قال ابن رجب:[2] العيد هو موسم الفرح والسرور، وأفراح المؤمنين وسرورهم فى الدنيا إنما هو بمولاهم إذا فازوا بإكمال طاعته، وحازوا ثواب أعمالهم بوثوقهم بوعده لهم عليها بفضله ومغفرته، كما قال تعالى **﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾**

قال بعض العارفين: ما فرح أحدٌ بغير الله إلا بغفلته عن الله، فالغافل يفرح بلهوه وهواه والعاقل يفرح بمولاه.

وأنشد سحنون فى هذا المعنى:

وكان فؤادى خالياً قبل حُبِّكُم ... وكان بذكر الخلق يَلهو ويمرحُ
فلما دعا قلبى هواك أجابه ... فلست أراهُ عن فنائك يَبرحُ
رُميتُ بِبُعد منك إن كنت كاذباً ... وإن كنت فى الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شىءٌ فى البلاد بأسرها ... إذا غِبْتَ عن عينى لعينى يَملُحُ

لما قدم النبى ﷺ المدنية كان لهم يومان يلعبون فيهما فقال: **«إن الله قد أبدلكم يومين خيراً منهما: يوم الفطر والأضحى»**[3] فأبدل الله هذه الأمة بيومى اللعب واللهو يومى الذكر والشكر والمغفرة.

ففى الدنيا للمؤمنين ثلاثة أعياد:

عيد يتكرر كل أسبوع، وعيدان يأتيان فى كل عام مرة - الفطر والأضحى - اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[4]: **وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:** العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان، مأخوذ من المعاودة والاعتياد، فإن كان اسماً للمكان فهو المكان الذى يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة أو لغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام العيد فيها عيداً،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٤٢).

(٢) لطائف المعارف (٢/٤٤٩، ٤٥٠) بتخريجنا

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/١٠٣)، وأبوداود (١١٣٤)، والنسائى (٣/١٧٩ ـ السيوطى) عن أنس به.

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٥٧).

وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر اهـ.

ثم قال سليمان[1]: معنى الحديث، نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، واجتماع معهود كالعيد الذى يكون على وجه مخصوص فى زمان مخصوص، وذلك يدل على المنع فى جميع القبور وغيرها لأن قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذ هعيداً فقبر غيره أولى بالنهى كائناً من كان. قال المصنف: وفيه النهى عن الإكثار من الزيارة اهـ.

[قلت]: لأن المرة والمرتين لاتكون عادة ولاعيد ولايكون إلا بالإكثار. والله أعلم.

- **وقال حامد بن محمد**[2]: نهى رسول الله ﷺ أن يجعلوا قبره عيداً يعودونه حذراً مما وقع فى السلف الماضى من الأمم. اهـ.

- **وقال عبد الله بن جار الله**[3]: نحو ما تقدم.

- **وقال ابن باز**[4]: ولايدخل فى هذا زيارته ﷺ بدون شد الرحال، وبدون غلو فيها، وعبادة عندها. اهـ.

- **وذكر ابن عثيمين**[5] **أن الظاهر من الحديث**: لاترددوا على قبرى وتعتادوا ذلك، سواء قيدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع، فإنه ﷺ نهى عن ذلك، وإنما يزار لسبب كما لو قدم الإنسان من سفر فذهب إلى قبره فزاره، أو زاره ليتذكر الآخرة كغيره من القبور. وما يفعله بعض الناس فى المدينة كلما صلى الفجر ذهب إلى قبر النبى ﷺ من أجل السلام عليه فيعتاد هذا كل فجر، يظنون أن هذا مثل زيارته فى حياته فهذا من الجهل، وما علموا أنهم إذا سلموا عليه فى أى مكان فإن تسليمهم يبلغه. اهـ.

● **شبهة، والرد عليها**: -

قيل أن قوله ﷺ: **«ولا تجعلوا قبرى عيداً»** أن النهى هذا عن ملازمة قبره والعكوف عنده واعتياد قصده وانتيابه، ونهى أن يجعل كالعيد الذى إنما يكون فى العام مرة أو مرتين، فكأنه قال: لا تجعلوه كالعيد الذى يكون من الحول إلى الحول، واقصدوه كل ساعة وكل وقت.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٥٨، ٢٥٩).
(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٠٠).
(٣) الجامع الفريد (٩١).
(٤) التعليق المفيد (١٢٨).
(٥) القول المفيد (١/ ٥٧٥).

الجواب: قال ابن القيم رحمه الله(١): وهذا مراغمة ومحادة ومناقضة لما قصده الرسول ﷺ وقلب للحقائق، ونسبة الرسول ﷺ إلى التلبيس والتدليس بعد التناقض، فقاتل الله أهل الباطل أنى يؤفكون. ولا ريب أن من أمر الناس باعتياد أمر وملازمته وكثرة انتيابه بقوله: **«لا تجعلوا قبري عيداً»**، فهو إلى التلبيس وضد البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان، وهكذا غيرت أديان الرسل، ولولا أن الله أقام لدينه الأنصار والأعوان الذابين عنه، لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله. ولو أراد رسول الله ﷺ ما قاله هؤلاء الضلال لم ينه عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ويلعن فاعل ذلك، فإنه إذا لعن من اتخذها مساجد يعبد الله فيها، فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها وأن يعتاد قصدها وانتيابها ولا تجعل كالعيد الذي يجيء من الحول إلى الحول؟! وكيف يسأل ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد؟! وكيف يقول أعلم الخلق بذلك؟! «ولولا ذلك لأبرز قبره»، ولكن خشي أن يتخذ مسجداً، وكيف يقول: **«لاتجعلوا قبري عيداً»**. **«وصلوا علي حيثما كنتم»**؟! وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضلال الذين جمعوا بين الشرك والتحريف؟! وهذا أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين رضي الله عنهما، نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبره ﷺ، واستدل بالحديث وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جده علي رضي الله عنهما(٢)، وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضلال، وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن شيخ أهل بيته، كره أن يقصد الرجل القبر إذا لم يكن يريد المسجد، ورأى أن ذلك من اتخاذه عيداً. انتهى. - أي كلام ابن القيم -.

قال سليمان آل الشيخ(٣): - وكيف يريد النبي ﷺ هذا المعنى ويعبر عنه بهذا الكلام، مع أنه أفصح الخلق وأنصحهم، وكان يمكنه أن يقول: أكثروا زيارة قبري، أو اجعلوه عيداً تعتادون المجيء إليه والعبادة عنده؟! فظهر بطلان هذا القول. اهـ.

وقال قرعاوي(٤) **مختصراً للرد السابق**: وهذا التأويل باطل من عدة وجوه:

أحدها: أن هذا فيه تلبيس وإيهام والشريعة لم تأت إلا بالوضوح والصراحة.

الثاني: لو كان قصد النبي ﷺ ما ذكره هؤلاء لفعله أهل بيته ولأمروا به.

الثالث: أن الصحابة (رضي الله عنهم) لم يؤثر عنهم أنهم أمروا بذلك أو عملوه وهم أدرى بقصد النبي ﷺ. اهـ.

قوله: [وصلوا علي، فإنَّ صلاتكم تَبْلُغُني حيثما كنتم].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/١٩٨، ٣٠٠).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٥٧، ٢٥٨).

(٤) الجديد (٢٠٣).

قال سليمان آل الشيخ[1]: **قال شيخ الإسلام**[2]: يشير بذلك إلى أن ما ينالنى منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبرى وبعدكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً. انتهى. ـ أى كلام ابن تيمية ـ.

وقد روى أبو داود عن أبى هريرة مرفوعاً: **«مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلاَّ رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»**[3].

وعن أوس بن أوس مرفوعاً: **«أَكْثِرُوا مِنَ الصَّلاةِ عَلَيَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ الجُمُعَةِ فَإِنَّ صَلاَتَكُم مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»** قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تُعْرَضُ صَلاَتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ؟ قال: **«إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ لُحُومَ الأَنْبِيَاءِ»**[4] رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجة، فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن صلاتنا عليه تبلغه سواء كنا عند قبره أو لم نكن، فلا مزية لمن سلم عليه أو صلى عند قبره، كما قال الحسن بن الحسن: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء.

وأما حديث: **«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتُهُ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ غَائِباً بُلِّغْتُهُ»**[5] فرواه البيهقى وغيره من حديث العلى بن عمرو الحنفى: حدثنا أبو عبد الرحمن عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فذكره. قال البيهقى: أبو عبد الرحمن هذا، هو محمد بن مروان السدى فيما أرى، وفيه نظر. قلت: محمد بن مروان السدى الصغير قال فيه يحيى بن معين: ليس بثقة. وقال الجوزجانى. ذاهب الحديث. وقال النسائى: متروك الحديث، وكذلك قال أبو حاتم الرازى والأزدى: وقال صالح بن محمد: كان يضع الحديث على أن معناه صحيح معلوم من أحاديث أخر، كإخباره بسماع الموتى لسلام من يسلم عليهم إذا مر على قبورهم.

● **مسألة**: فإن قيل: إذا سمع سلام المسلم عليه عند قبره حصلت المزية بسماعه.

الجواب: قيل: هذا لو حصل الوصول إلى قبره، أما وقد منع الناس من الوصول إليه بثلاثة جدران، فلا تحصل مزية، فسواء سلم عليه عند قبره أو فى مسجده إذا دخله، أو فى أقصى المشرق والمغرب، فالكل يبلغه، كما وردت به الأحاديث، وليس فى شىء منها أنه يسمع صوت المصلى والمسلم بنفسه، إنما فيها أن ذلك يعرض عليه ويبلغه ﷺ،

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٥٩). (٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٦٦٣).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/٥٢٧)، وأبوداود (٢٠٤١) عن أبى هريرة به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٤٠٥ ـ بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/٨)، وأبوداود (١٠٤٧)، والنسائى (٣/٩٢)، وابن ماجة (١٣٦٣) عن أوس به وانظر «السلسبيل» (٧٤٠ ـ بتخريجنا).

(٥) أخرجه العقيلى فى «الضعفاء» (٤/١٣٦)، وابن الجوزى فى الموضوعات (٣٠٢٨ ـ ٣٠٣).

ومعلوم أنه أراد بذلك الصلاة والسلام الذى أمر الله به، سواء صلى عليه فى مسجده أو فى مدينته أو فى مكان آخر، فعلم أن ما أمر الله به من ذلك فإنه يبلغه، وأما من سلم عليه عند قبره فإنه يرد عليه، وذلك كالسلام على سائر المؤمنين ليس هو من خصائصه، ولكن لا يوصل إلى قبره ﷺ. اهـ.

- **وقال عبد الرحمن آل الشيخ**(1): بنحو ذلك.

- **وقال عبد الله بن جار الله**(2): يرشدنا ﷺ أن نكثر من الصلاة عليه فى كل زمان ومكان، ويقول إنما ينالنى منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبرى وبُعدكم، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيداً تترددون إليه لأجل ذلك. اهـ.

- **وقال ابن باز**(3): بنحو ذلك.

- **وقال ابن عثيمين**(4): قوله: (وصلّوا علىّ) هذا، أى: قولوا: اللهم صلى على محمد، وقد أمر الله بذلك فى قوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ وفضل الصلاة على النبى ﷺ معروف، ومنه أن من صلى عليه مرةً واحدة، صلى الله عليه بها عشراً(5) والصلاة من الله على رسوله ليس معناها كما قال بعض أهل العلم: إنَّ الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الآدميين الدعاء.

فهذا ليس بصحيح، بل إنَّ صلاة الله على المرء ثناؤه عليه فى الملأ الأعلى، كما قال أبو العالية وتبعه على ذلك المحقِّقون من أهل العلم.

ويدلُّ على بطلان القول الأول قوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ** ﴾؛ فعطف الرحمة على الصلوات، والأصل فى العطف المغايرة، ولأن الرحمة تكون لكل أحد، ولهذا أجمع العلماء على أنه يجوز أن تقول: فلان رحمه الله، واختلفوا: هل يجوز أن تقول: فلان صلى الله عليه؟

فمن صلَّى على محمد ﷺ مرة أثنى الله عليه فى الملأ الأعلى عشر مرات، وهذه نعمة كبيرة. اهـ.

قلت: تقدم هذا وغيره فى مقدمة الكتاب.

قوله: «فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم».

---

(1) فتح المجيد (1/328).
(2) الجامع الفريد (91).
(3) التعليق المفيد (128).
(4) القول المفيد (1/575 : 577).
(5) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصلاة (2/4/85) عن عبدالله بن عمرو بن.
وانظر «رياض الصالحين» (140 - بتخريجنا).

ثم قال ابن عثيمين: حيث: ظرف مبنى على الضم فى محل نصب، ويُقال فيها: حيث، وحوث، وحاث، لكنها قليلة.

● **كيف تبلغه الصلاة عليه؟**

الجواب: نقول: إذ جاء مثل هذا النص وهو من أمور الغيب؛ فالواجب أن يُقال: الكيف مجهول لا نعلم بأى وسيلة تبلغه، ولكن ورد عن النبى ﷺ: **«أنَّ لله ملائكة سياحين يسيحون فى الأرض يبلّغون النبى ﷺ سلام أمَّته عليه»**(١)، فإن صحَّ؛ فهذه هى الكيفية اهـ.

[قلت] فائدة انتفاع الأموات بدعاء الأحياء. قاله قرعاوى(٢).

قوله: [رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات].

قال ابن عثيمين(٣): هذا التعبير من الناحية الاصطلاحية، ظاهره أن بينهما اختلافاً، ولكننا نعرف أن الحسن: هو أن يكون الراوى خفيف الضبط؛ فمعناه أن فيه نوعاً من الثقة، فيجمع بين كلام المؤلف - رحمه الله - وبين ما ذكره عن رواية أبى داود بإسناد حسن: أنَّ المراد بالثقة ليس غاية الثقة؛ لأنه لو بلغ الى حد الثقة الغاية لكان صحيحاً؛ لأن ثقة الراوى تعود على تحقيق الوصفين فيه، وهما العدالة، والضبط، فإذا خف الضبط خفت الثقة، كما إذا خفت العدالة أيضاً تخف الثقة فيه.

فيجمع بينهما على أن المراد: مطلق الثقة، ولكنه لاشك فيما أرى أنه إذا أعقب قوله: «حسن» بقوله: «رواته ثقات» أنه أعلى مما لو اقتصر على لفظ «حسن».

ومثل هذا ما يُعبّر به ابن حجر فى «تقريب التهذيب» بقوله: «صدوق يهم»، وأحياناً يقول: «صدوق»، وصدوق أقوى؛ فيكون توثيق الرجل الموصوف بصدوق أشد من توثيق الرجل الذى يوصف بأنه يهم.

لايقول قائل: إن كلمة يهم لاتزيده ضعفاً؛ لأنه مامن إنسان إلا ويهم.

فنقول هذا لايصح؛ لأن قولهم: (يهم) لايعنون به الوهم الذى لايخلو منه أحد، ولولا أن هناك غلبة فى أوهامه ما وصفوه بها. اهـ.



(١) أخرجه النسائى فى «الكبير» (١٢٠٥) عن ابن مسعود به.

(٢) الجديد (٢٠٣).

(٣) القول المفيد (١/ ٥٧٧، ٥٧٨).

وَعَنْ عَلِيِّ بـنِ الحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْـهُ، أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُـرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَـيَدْخُلُ فيهَا فَيَدعُو، فَنَهَاهُ وَقَالَ: أَلا أُحَدِّثُكُمْ حَـدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تَتخذُوا قَـبْرِي عيداً، ولا بُيُوتَكُم قُبُوراً، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُم لَيَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُم» رَوَاهُ فِي «المُخْتَارَةِ»(١).

قوله: [وعن على بن الحسين رضى الله عنه أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة.... إلخ].

قال سليمان آل الشيخ(٢): رواه أبو يعلى والقاضى إسماعيل والحافظ الضياء فى «المختارة».

قال أبو يعلى: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ثنا زيد بن الحباب ثنا جعفر بن إبراهيم من «ولد» ذى الجناحين ثنا على بن عمر عن أبيه عن على بن حسين فذكره. وعلى بن عمر هو: على بن عمر بن على بن الحسين.

قال شيخ الإسلام: فانظر كيف هذه السنة كيف. مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم. فكانوا أضبط.

قلت: أى سليمان آل الشيخ ـ وللحديثين شواهد: منها ما رواه ابن أبى شيبة، حدثنا أبو خالد الأحمر عن ابن عجلان عن سهيل عن جبير بن حنين قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاتَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً وَلاَ بُيُوتِكُمْ قُبوراً، وَصَلُّوا عليَّ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَإِن صَلاتكُمْ تَبْلُغنى»**.

وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبدالعزيز بن محمد أخبرنى سهيل بن أبى سهيل قال: أتى إلحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عند القبر فنادانى وهو فى بيت فاطمة يتعشى فقال: هلم إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: ما لى رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبى ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال: إن الرسول

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٢/ ٢٦٩/ ٢).

قال: حدثنا أبو خالد الأحمر، عن ابن عجلان، عن سهيل بن حسين بن حسن قال . . . .فذكر الحديث، بالمرفوع منه فقط.

وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية فى «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص: ١٠٩).

وانظر «فتح المجيد» (ح ٤١٨) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٦١)

ﷺ قال: «لاتَتَّخذوا قَبرى عيداً ولا تَتخذوا بُيُوتكُمْ مَقَابرَ وَصلُّوا عَلَىَّ، فَإنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغَنى حيثُ ما كُنْتُمْ؛ لَعَنَ اللهُ اليهودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أنْبِيَائِهم مَسَاجِدَ» ما أنتم ومن بالأندلس الا سواء.

ورواه القاضى إسماعيل: فى كتاب فضل الصلاة على البنى ﷺ ولم يذكر: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء.

وقال سعيد: أيضاً حدثنا حبان بن على ثنا محمد بن عجلان عن أبى سعيد مولى المهرى قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاتتخذوا قبرى عيداً ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى»**.

قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان أى حديث أبى هريرة وهذا الحديث - من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لاسيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضى ثبوته عنده هذا لو لم يرو من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسنداً. اهـ.

● **مناسبة الحديث للباب وللتوحيد:**

قال القرعاوى[١]: حيث دل الحديث على تحريم اعتياد قبر النبى ﷺ - لأجل الدعاء وغيره، وذلك حماية منه لجانب التوحيد وسد كل طريق يؤدى الى الشرك. اهـ.

قوله: [عن على بن الحسين]. قال سليمان آل الشيخ[٢]: أيك ابن على بن أبى طالب المعروف بزين العابدين رضى الله عنه وهو أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم.

قال الزهرى: ما رأيت قرشياً أفضل منه. مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح، وأبوه الحسين سبط النبى ﷺ وريحانته، حفظ عن النبى ﷺ، واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة. اهـ.

قوله: أنه رأى رجلاً يجىء إلى فرجة: قال سليمان آل الشيخ[٣]: هو بضم الفاء وسكون الراء واحدة الفرج - وهى الكوة فى الجدار والخوخة ونحوهما اهـ.

قال ابن عثيمين[٤]: **قوله: «يجىء إلى فرجة»** كانت عند قبر النبى ﷺ هذا الرجل لاشك أنَّه لم يتكرر مجيئه إلى هذه الفرجة إلاّ لاعتقاده أنَّ فيها فضلاً ومزيَّة، وكونه يظنُّ أن الدعاء عند القبر له مزيَّة، فتح باب ووسيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات

(١) الجديد (٢٠٥).
(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٦١، ٢٦٢).
(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٦١، ٢٦٢)
(٤) القول المفيد (١/ ٥٧٩).

إذا كانت عند القبر؛ فلا يجوز أن يعتقد أنهَ لها مزيّة، سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة، ولهذا نقول: تكره القراءة عند القبر إذا كان الإنسان يعتقد أنَّ القراءة عند القبر أفضل. اهـ.

قوله: [فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ....]

قال سليمان آل الشيخ[(١)]: هذا يدل على النهى عن قصد القبور والمشاهد؛ لأجل الدعاء والصلاة عندها كما تقدم بعض ذلك، لأن ذلك من اتخاذها عيداً كما فهمه على بن الحسين من الحديث. فنهى ذلك الرجل عن المجئ إلى قبر النبى ﷺ للدعاء عنده، فكيف بقبر غيره ويدل أيضاً على أن قصد الرجل القبر لأجل السلام إذا لم يكن يريد المسجد من اتخاذه عيداً المنهى عنه، ولهذا لما رأى الحسن بن الحسن سهيلاً عند القبر نهاه عن ذلك وذكر له الحديث مستدلاً به وأمر بالسلام عليه عند دخول المسجد.

قال: ما علمت أحداً. أى: من علماء السلف رخص فيه لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً، ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلى منهى عنه، لأن ذلك من اتخاذه عيداً، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتى قبر النبى ﷺ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك.

قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. بل كان الصحابة والتابعون يأتون إلى مسجده ﷺ فيصلون خلف أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، ثم إذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه فى الصلاة أكمل وأفضل. وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم بل نهاهم بقوله: «**لاتتخذوا قبرى عيداً وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى**» فبين أن الصلاة تصل إليه من بعد وكذلك السلام. ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وكانت الحجرة فى زمانهم يدخل إليها من الباب إذ كانت عائشة فيها، وبعد ذلك إلى أن بنى الحائط الآخر. وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الأحاديث أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج كما طمع الشيطان فى غيرهم، فأضلهم عن قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم فى الظاهر، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر. ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبى ﷺ ليلة المعراج.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٦١: ٢٦٥).

والمقصود أن الصحابة ما كانوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره، كما يفعله من بعدهم من الخلوف وإنما كان بعضهم يأتى من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر، كما كان ابن عمر رضى الله عنه يفعل.

قال عبيد الله بن عمر عن نافع: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبى ﷺ فقال: السلام عليك يارسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه، ثم ينصرف. قال عبيد الله: ما نعلم أحداً من أصحاب النبى ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر. وهذا يدل على أنه لايقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام: إن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضة وفى «المبسوط» قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبى ﷺ ولكن ليسلم ويمضى.

والحكاية التى رواها القاضى عياض بإسناده عن مالك فى قصته مع المنصور وأنه قال لمالك: يا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به يشفعه الله فيك.

فهذه الرواية ضعيفة، أو موضوعة لأن فى أسنادها من يتهم محمد بن حميد ومن تجهل حاله.

ونص أحمد أنه يستقبل القبلة، ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره وذلك بعد تحيته والسلام عليه، فظاهر هذا أنه يقف للدعاء بعد السلام. وذكر أصحاب مالك أنه يدعو مستقبلاً القبلة يوليه ظهره.

وبالجملة: فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لايستقبل القبر وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟ ومن الحجة فى ذلك ما روى ابن زبالة وهو فى أخبار المدينة. عن عمر بن هارون عن سلمة بن وردان وهما ساقطان قال: رأيت أنس بن مالك يسلم على النبى ﷺ، ثم يسند ظهره إلى جدار القبر، ثم يدعو.

وفى الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ، وإلى غيره من القبور والمشاهد، لأن ذلك من اتخاذها أعياداً بل من أعظم الأسباب الإشراك بأصحابها، كما وقع من عباد القبور الذين يشدون إليها الرحال، وينفقون فى ذلك الكثير من الأموال، وليس لهم مقصود إلا مجرد الزيارة للقبور تبركاً بتلك القباب والجدران فوقعوا فى الشرك.

هذه المسألة التى أفتى فيها شيخ الإسلام أعنى من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين، ومشاهدهم ونقل فيها اختلاف العلماء فى الإباحة والمنع، فمن مبيح لذلك كأبى حامد الغزالى وأبى محمد المقدسى.

ومن مانع لذلك كابن بطة وابن عقيل وأبى محمد الجوينى والقاضى عياض، وهو قول الجمهور نص عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة وهوالصواب.

فقام عليه بعض المعاصرين له كالسبكى ونحوه فنسبه إلى إنكار الزيارة مطلقاً وهو لم ينكر منها إلا ما كان بشد رحل، كما أنكره جمهور العلماء قبله أو الزيارة التى يكون فيها دعاء الأموات والاستغاثة بهم فى الملمات، مع ما ينضم إلى ذلك من أنواع المنكرات.

ومما يدل على النهى عن شد الرحال إلى القبور ونحوه. ما أخرجاه فى «الصحيحين».

عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال: **«لا تَشدوا الرِّحال إلاَّ إلَى ثَلاَثَة مَسَاجدَ: مَسْجِدى هذا، والمَسْجِد الحَرَامِ والمسجد الأقصى»**(١) فدخل فى ذلكَ شَدها لزيارة القبور والمشاهد فإما أن يكونَ نهياً، وإما أن يكون نفياً للإستحباب.

وقد جاء فى رواية فى «الصحيح» بصيغة النهى صريحاً فتعين أن يكون للنهى. ولهذا فهم منه الصحابة. المنع كما فى «الموطأ» و«السنن».

عن بصرة بن أبى بصرة الغفارى أنه قال لأبى هريرة وقد أقبل من الطور: لو أدمتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: **«لاَ تُعْمَلُ المَطىُّ إلا إلَى ثَلاَثَة مَسَاجِدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِى هَذا، والمَسْجِدِ الأقْصى»**(٢).

وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة فى أخبار المدينة بإسناد جيد عن قزعة. قال: أتيت ابن عمر فقلت: إنى أريد الطور. فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى، فدع عنك الطور فلا تأته.(٣) اهـ.

ثم قال عبد الرحمن آل الشيخ(٤): فابن عمر وبَصْرة بن أبى بصرة جعلا الطور مما نهى عن شد الرِّحال إليه. لأن اللفظ الذى ذكراه فيه النهى عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة، فعلم أن المُسْتَثْنَى منه عام فى المساجد وغيرها، وأن النهى ليس خاصاً بالمَسَاجد، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث اهـ.

وروى أحمد وعمر بن شبة أيضاً عن شهر بن حوشب. قال: سمعت أبا سعيد وذكر عنده الصلاة فى الطور. فقال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«لايَنْبَغى للمُطىِّ أَنْ تُشَدَّ رِحالَهَا إلَى مَسْجِدٍ يُبْتَغَى فِيهِ الصَّلاَةَ غيرَ المسجدَ الحَرَامَ، وَمَسْجِدِى هَذا، وَالمَسْجِدِ**

(١) سيأتى تخريجه

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) سيأتى.

(٤) فتح المجيد (١/ ٣٣٤، ٣٣٥).

الأقصى»(١).

ثم قال سليمان آل الشيخ(٢). فأبو سعيد جعل الطور مما نهى عن شد الرحال إليه، مع أن اللفظ الذى ذكره إنما فيه النهى عن شدها إلى المساجد، فدل على أنه علم أن غير المساجد أولى بالنهى، والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة وأن الله تعالى سماه الوادى المقدس والبقعة المباركة، وكلم الله موسى هناك. وهذا ظاهر لا يخفى على أحد ممن يقول بفحوى الخطاب وتنبيهه، وهم الجمهور الأئمة الأربعة وأتباعهم ولهذا لم يوجبوا على من نذر أن يسافر إلى أثر نبى من الأنبياء أو إلى قبورهم أو غير قبورهم الوفاء بذلك، بل لو سافر إلى مسجد قباء من بلد بعيد لم يكن هذا مشروعاً باتفاق الأئمة الأربعة، مع أن النبى ﷺ كان يأتيه كل سبت راكباً وماشياً، وإن كان فى وجوب الوفاء بنذر إتيانه خلاف والجمهور على أنه لايجب.

وقد صرح مالك وغيره. بأن من نذر السفر إلى المدينة النبوية إن كان مقصوده الصلاة فى مسجد النبى ﷺ، أوفى بنذره، وإن كان مقصوده مجرد زيارة القبر من غير صلاة فى المسجد لم يف بنذره. قال: لأن النبى ﷺ. قال: «**لاتعمل المطى إلا إلى ثلاثة مساجد**»، ذكره إسماعيل بن إسحاق فى «المبسوط» ومعناه فى «المدونة» و«الجلاب» وغيرهما من كتب أصحاب مالك. اهـ.

ثم قال عبد الرحمن(٣): ومن أراد بسط القول فى ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيبًا لابن الأخنائى فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصَّحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى؛ لأن المفسدة فى ذلك ظاهرة. اهـ.

ثم قال سليمان آل الشيخ(٤): وبالجملة فقد تنازع العلماء فى جواز شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، فالجمهور على المنع، وطائفة من المتأخرين على الجواز، فاستحباب شد الرحال إلى القبور والمشاهد والتقرب به إلى الله كما ظنه السبكى وغيره، قول مبتدع مخالف للإجماع قبله، والأحاديث التى احتج بها كحديث:

«**مَنْ زَارَنِى بَعدَ وَفَاتِى فَكَأَنَّمَا زَارَنِى فِى حَيَاتِى**»(٥) ونحوها لا يصح منها شىء عن

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٦٤، ٩٣) عن أبى سعيد به وفيه شهر بن حوشب وانظر «فتح المجيد» (ح ٤٢٤) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٦٤).

(٣) فتح المجيد (١/ ٣٣٤، ٣٣٥).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٦٥).

(٥) أخرجه الدارقطنى فى «سننه» (٢/ ٢٧٨/ ١٩٢) عن ابن عمر بإسناد ضعيف جداً.

رسول الله ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه البتة، بل هى ما بين ضعيف وموضوع، أو كلها موضوعة كما قد بين عللها شيخ الإسلام وغيره.

وكثير منها لايدل على محل النزاع إذ ليس فيه إلا مطلق الزيارة. وذلك لا ينكره شيخ الإسلام ولا غيره من العلماء، لأنه محمول على الزيارة الشرعية الجارية على وفق مراد النبى ﷺ، وهى التى لا يكون فيها شرك ولا شد رحل إلى قبره، وبتقدير ثبوتها لاتدل على شد الرحال إلى قبر غيره، والسبكى أجاز ذلك فى سائر القبور فخالف الأحاديث وخرق الإجماع، والله أعلم.

ثم قال عبد الرحمن(١): وأما النهى عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها: أنها لا مصلحة فى ذلك تُوجب شدَ الرِّحال، ولا مزية تَدْعو إليه. وقد بسط القول فى ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادى فى كتاب «الصَّارم المنكى» فى رده على السبكى وذَكَر فيه عِلل الأحاديث الواردة فى زيارة قبر النبى ﷺ وذكر هو وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى: أنه لا يَصِحُ منها حديث عن النبى ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، مع أنها لاتدل على محل النِّزاع؛إذ ليس فيها إلاَّ مُطْلق الزِّيارة، وذلك لا ينكره أحد بدون شدِّ الرِّحال، فيحمل على الزِّيارة الشرَعية التى ليس فيها شِركٌ ولا بدعة اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: قال: «المصنف»: وفيه أنه ﷺ فى البرزخ تعرض عليه أعمال أمته فى الصلاة والسلام.

قوله: [رواه فى «المختارة»] قال سليمان آل الشيخ: المختارة كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على «الصحيحين» ومؤلفة هو أبو عبد الله محمد بن عبدالواحد المقدسى الحافظ ضياء الدين الحنبلى، أحد الأعلام وحفاظ الحديث.

قال الذهبى: أفنى عمره فى هذا الشأن مع الدين المتين والورع والفضيلة التامة والثقة والاتقان، انتفع الناس بتصانيفه والمحدثون بكتبه فالله يرحمه ويرضى عنه.

وقال شيخ الإسلام: تصحيحه فى «مختارته» خير من تصحيح «الحاكم» بلا ريب. مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة اهـ.

وقال ابن عثيمين(٢): **قوله: «رواه فى المختارة»**.

الفاعل مؤلف المختارة: اسم للكتاب، أى الأحاديث المختارة.

والمؤلف هو عبد الغنى المقدسى(*)، من الحنابلة، وما أقل الحديث فى الحنابلة، يعنى

(١) فتح المجيد (١/ ٣٣٥). (٢) القول المفيد (١/ ٥٨١).

(*) كذا قال ابن عثيمين أنه عبدالغنى، وما ذكره سليمان آل الشيخ قبله أنه محمد بن عبدالواحد، هو الصواب، كلاهما له تصانيف فى الحديث، وهما أخوان فلعل هذا الذى دفع الشيخ ابن عثيمين بذكر عبدالغنى. والله أعلم.

المحدثيـن، وهذا من أغرب مـا يكون، يعنـى أصحاب الإمام أحمـد أقل الناس تحـديثاً بالنسبة للشافعية.

فالحنـابلة غلب عـليهم رحمـهم الله الفقـه مع الحديث؛ فصـاروا محدثين وفـقهاء، ولكنهم رحـمهم الله بشر، فإذا أخذ من هذا الـعلم صار ذلك زحاماً للـعلم الآخر، أما الأحناف؛ فإنَّهم أخذوا بالفقه، لكن قلَّت بضاعتهم فى الحديث، ولهذا يُسمَّون أصحاب الرأى (يعنـى: العقل والقيـاس)؛ لقلة الحديث عـندهم، والشافعـية أكثر الناس عـناية بالحديث والتفسير، والمالكيَّة كذلك، ثم الحنابلة وسط، وأقلَّهم فى ذلك الأحناف مع أن لهم كتباً فى الحديث اهـ.

- **وقال حامد بن محمد**(١): فبين على بن الحسين رضى الله عنه أن دعاءه عند قبر النبى ﷺ نهى عنه، ولو نيته كانت صالحة حذراً من الغلو الذى أهلك من قبل. اهـ.

- **وقال ابـن باز**(٢): فيـصلى علـى النبى ﷺ فـى كل مكان فـى البيت والـسوق والطريق ولايخصـون السلام والصلاة عليه عند الـقبر ولهذا أنكر على بن الحـسين على الرجل وبين له أن هذا ليس بمشروع وأنك تسلم عليه وتمضى لا تجلس عند القبر تدعو.

هذه سنة جاءت عن أهل البـيت وكلهم بينوا أن إتخاذ القبر عيـداً وسيلة إلى الشرك إذًا لعكفـوا عنده وصلوا عنده ودعـوا عنده جرهم هذا إلى الـشرك والغلو فحسـم النبى المادة. ومن إتخـاذ القبور مساجد والبـناء عليهم وتجصـيصها وفرشها يؤدى إلـى إعتقاد العامة أنها معظمة وأنها تتفع وكل هذا قد وقع مع أن النبى ﷺ قد حمى جناب التوحيد وحذر من الشرك. اهـ.

- **وقال عبد الله بن جار الله**(٣):

● **يستفاد من هذا الباب مايلى: -**

١ - النهى عن زيارة قبر النبى ﷺ على وجه مخصوص.

٢ - الحث على صلاة النافلة فى البيت.

٣ - أن صلاتنا وسلامنا على النبى ﷺ تبلغه وإن بعدنا عن قبره.

٤ - النهى عن قصد القبور لأجل الصلاة والـدعاء عندها لأن ذلك من إتخاذها عيداً من وسائل الشرك.

٥ - أن قصد الرجـل القبر لأجل السلام إذا لم يـكن يريد المسجد من إتـخاذه عيداً المنهى عنه.

٦ - أن قصد القبـر للسلام إذا دخل المسجد لـيصلى منهى عنـه لان ذلك من إتخاذه عيداً. اهـ.

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (٣٠٠). (٢) التعليق المفيد (١٢٩).
(٣) الجامع الفريد (٩١).

قوله: [ألا أحدثكم حديثاً].

قال ابن عثيمين(١): (قال: أحدثكم) والرجل واحد؛ لأنَّ الظاهر أنَّه كان عند أصحابه يحدثهم، فجاء هذا الرجل إلى الفرجة.

و«ألا»: أداة عرض؛ أي: أعرض عليكم أن أحدثكم.

وفائدتها: تنبيه المُخاطَب إلى ما يريد أن يحدثه به.

قوله: «عن أبي عن جدي».

أبوه: الحسين، وجده: على بن أبي طالب.

قوله: [عن رسول الله ﷺ] قال ابن عثيمين: السند متصل، وفيه عنعنة لكنها لاتضر، لأنها من غير مدلس، فتحمل على السماع. اهـ.

قوله: [لاتتخذوا قبري عيداً].

قال ابن عثيمين(٢): يقال فيه كما في الحديث السابق: أنَّه نهى أن يُتخذ قبره عيداً يُعتاد ويتكرَّر إليه؛ لأنَّه وسيلة إلى الشرك.

قوله: [«ولا بيوتكم قبوراً»].

قال ابن عثيمين(٣): سبق معناه.

قوله: [وصلوا عليَّ؛ فإنَّ تسليمكم يبلغني حيث كنتم].

قال ابن عثيمين(٤): اللفظ هكذا، وأشك في صحته؛ لأنَّ قوله: «صلوا عليَّ» يقتضي أن يُقال: فإن صلاتكم تبلغني؛ إلاَّ أن يُقال هذا من باب الطي والنشر. والمعنى: صلوا عليَّ وسلموا؛ فإنَّ تسليمكم وصلاتكم تبلغني، وكأنَّه ذكر الفعلين والعلَّتين، لكن حذف من الأولى ما دلَّت عليه الثانية، ومن الثانية ما دلَّت عليه الأولى.

وقوله: [وصلُّو عليَّ].

قال ابن عثيمين: سبق معناها، والمراد: صلوا علىَّ في أي مكان كنتم، ولا حاجة إلى أن تأتوا إلى القبر وتسلِّموا على وتصلوا علىّ عنده.

قوله: [يبلغني].

قال ابن عثيمين: تقدم كيف يبلغه ﷺ.



---

(١) القول المفيد (١/ ٥٧٩: ٥٨٠).

(٢ ـ ٤) القول المفيد (١/ ٥٧٩: ٥٨٠).

فيه مسائلُ

الأولى: تَفسيرُ آيَة (بَراءَةٌ).

الثانية: إِبْعَادهُ أُمَّتَهُ هذَا الحمَى غَايَةَ البُعْد.

الثالثة: ذكرُ حرْصه علَيْنَا ورأفته وَرَحْمَته.

الرابعة: نَهْيُهُ عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِه عَلَى وَجْـهٍ مَخْصُوصٍ، مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ.

الخامسة: نَهْيُهُ عَنِ الإكثَارِ من الزِّيَارَةِ.

فيه مسائل:

- **الأولى**: تفسير آية براءة: **قال ابن عثيمين**: وسبق ذلك فى أول الباب.
- **الثانية**: إبعاده ﷺ أمته عن هذا الحمى غاية البعد. توخذ من قوله: «**لاتجعلوا بيوتكم قبوراً، ولاتجعلوا قبرى عيداً**».
- **الثالثة**: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته. وهذا مذكور فى آية براءة.
- **الرابعة**: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص. تؤخذ من قوله: «**ولا تجعلوا قبرى عيداً**»؛ فقوله: «**عيداً**» هذا هو الوجه المخصوص.

وزيارة قبر النبى ﷺ من أفضل الأعمال من جنسها؛ فزيارته فيها سلام عليه، وحقه ﷺ أعظم من غيره.

وأما من حيث التذكر بالآخرة؛ فلا فرق بين قبره وقبر غيره.

- **الخامسة**: نهيه عن الإكثار من الزيارة. أى على غير وجه مخصوص والإقلال على وجه مخصوص تؤخذ من قوله: «**لاتجعلوا قبرى عيداً**»، لكنه لايلزم منه الإكثار، لأنَّه قد لا يأتى إلاَّ بعد سنة، ويكون قد اتخذه عيداً؛ فإنَّ فيه نوعاً من الإكثار.
- **السادسة**: حثه على النافلة فى البيت.

تؤخذ من قوله: «**ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً**»، وسبق أنَّ فيها معنيين:

المعنى الأول: أن لا يقبر فى البيت، وهذا ظاهر الجملة.

والثانى: الذى هو من لازم المعنى أن لاتترك الصلاة فيها.

- **السابعة**: أنَّه متقرر عندهم أنَّه لا يُصلى فى المقبرة.

السادسة: حثُّهُ عَلَى النَّافلَة فِي البَيْتِ.

السابعة: أَنَّهُ مُقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لاَ يُصَلَّى فِي المَقْبَرَةِ.

الثامنة: تَعْلِيلُ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلاَةَ الرَّجُلِ وَسَلاَمَهُ عَلَيْهِ يَبْلُغُهُ وَإِنْ بَعُدَ، فَلاَ حَاجَةَ إِلَى مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ القُرْبَ.

التاسعة: كَوْنُهُ ﷺ فِي البرزَخِ تُعْرَضُ أَعْمَالُ أُمَّتِه فِي الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ عَلَيْهِ.

تؤخذ من قوله: «**لاتجعلوا بيوتكم قبوراً**»؛ لأنَّ المعنى: لا تجعلوها قبوراً، أى: لا تتركوا الصلاة فيها على أحد الوجهين؛ فكأنَّه من المتقرر عندهم أنَّ المقابر لايُصلَّى فيها.

الثامنة: تعليل ذلك بأنَّ صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بَعُد؛ فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القُرب.

أى: كونه نهى ﷺ أن يجعل قبره عيداً، العلَّة فى ذلك: أنَّ الصلاة تبلغه حيث كان الإنسان؛ فلا حاجة إلى أن يأتى إلى قبره، ولهذا نسلِّم ونصلِّى عليه فى أى مكان؛ فيبلغه السلام والصلاة.

ولهذا قال على بن الحسين: «ما أنت ومن فى الأندلس إلاّ سواء».

● **التاسعة: كونه ﷺ فى البرزخ تعرض أعمال أمته فى الصلاة والسلام عليه.**

أى: فقط فكل من صلى عليه أو سلَّم عرضت عليه صلاته وتسليمه، ويؤخذ من قوله: «**فإنَّ تسليمكم يبلُغنى حيث كنتم**». اهـ.



باب (٢٢)
ما جاء أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان

● **مناسبة الباب لما قبله:**

قال الفقير: علاقة هذا الباب بالباب الذى قبله هو أنَّه لَمَّا بين فى الباب الذى قبله ما يدل على حرص المصطفى ﷺ وحمايته جناب التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، فقد يحتج ضال أو مبتدع أنَّ هذه الأمور الشركية لن تقع أبدًا فى هذه الأمة بعد كلِّ هذا الجهد والبذل من الرسول ﷺ فجاء بباب «ما جاء أنَّ بعض هذه الأمة تعبد الأوثان» ليصرِّح فيه ويؤكد أنه مع كلِّ هذا الجهد لابد من وقوع بعض هذه الأمة فى الشرك. والله أعلم.

وأيضاً فهو للتفصيل بعد الإجمال فى جانب حمايته ﷺ جناب التوحيد كما تقدم.

أو لدفع الوهم بأن الخطاب فى الأبواب السابقة للصحابة فقط فجاء بهذا الباب ليدفعه ويبين أن الخطاب عام لجميع الأمة والله أعلم.

● **مناسبة الباب للتوحيد:**

قال الفقير: ومناسبة هذا الباب للتوحيد حيث دل على حرص المصطفى جناب التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، ومن هذه الطرق إيهام الشيطان لبعض هذه الأمة أنهم لم يقعوا فى عبادة الأوثان، حتى إذا وقعوا لم يتصور أن ما وقعوا فيه هو من جنس عبادة الأوثان لأمنهم من ذلك، كما حصل لعباد القبور والله أعلم.

● **ماذا أراد المصنف بهذا الباب:**

قال سليمان آل الشيخ[1]: أراد المصنِّف بهذه الترجمة الرد على عباد القبور الذين يفعلون الشرك ويقولون: أنه لا يقع فى هذه الأمة المحمدية وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله فبين فى هذا الباب كلام الله وكلام رسوله ﷺ ما يدل على وقوع الشرك فى هذه الأمة، ورجوع كثير منها إلى عبادة الأوثان وإن كانت طائفة منها لا تزال على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى. اهـ. ولم يذكر صاحب فتح المجيد شيئاً فى ذلك.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٦٥- ٢٦٦).

قال عبد الرحمن بن ناصر السعدى[1]: مقصود هذه الترجمة الحذر من الشرك والخوف منه، وأنه أمر واقع فى هذه الأمة لا محالة، والرد على من زعم أن من قال: لا إله إلا الله وتسمى بالإسلام أنه يبقى على إسلامه ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم، وسمى ذلك توسلاً لا عبادة فإن هذا باطل.

فإن الوثن اسم جامع لكل ما عبد من دون الله لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية، ولا بين الأنبياء والصالحين والطالحين فى هذا الموضع وهو العبادة فإنها حق الله وحده، فمن دعا غير الله أو عبده فقد اتخذه وثنًا وخرج بذلك عن الدين، ولم ينفعه انتسابه إلى الإسلام، فكم انتسب إلى الإسلام من مشرك وملحد وكافر ومنافق، والعبرة بروح الدين وحقيقته لا بمجرد الأسامى والألفاظ التى لا حقيقة لها. اهـ.

وبنحو أول هذا الكلام ذكر صاحب الجامع الفريد[2].

قال ابن باز[3]: أى باب ما جاء من أحاديث وآيات تدل على ذلك وأنها غير معصومة من[*] الوقوع فى الشرك وكما دخل الناس فى دين الله أفواجًا صاروا يخرجون منه وقد وقع فى عهد الصديق من الردة ما وقع.

قال ابن عثيمين[4]: سبب مجيء المؤلف بهذا الباب لدحض حجة من يقول: إن الشرك لا يمكن أن يقع فى هذه الأمة، وأنكروا أن تكون عبادة القبور والأولياء من الشرك، لأن هذه الأمة معصومة منه، لقوله ﷺ «**إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب، ولكن فى التحريش بينهم**»[5]. اهـ.

والجواب عن هذا: سبق الكلام عنه على المسألة الثامنة عشرة من مسائل باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما.

ويرد أيضاً على المفرطين من هذه الأمة الذين وقعوا فى بدعة الإرجاء ورجوا المغفرة وهم يصرون على الشرك وما يؤول إليه.

● شرح الترجمة:

قوله: «أن بعض هذه الأمة»:

(١) القول السديد (٧١، ٧٢، ٧٣).
(٢) الجامع الفريد ٩٣.
(٣) التعليق المفيد ١٣١
(*) فى المطبوع (فى).
(٤) القول المفيد ١/ ٥٨٥.
(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى صفات المنافقين (٩/ ١٧١/ ٦٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾[1] .

قال ابن عثيمين [2]: أى لا كلها، لأن فى هذه الأمة طائفة لا تزال مع الحق إلى قيام الساعة، لـكنه سيأتى فـى آخر الزمان ريح تقبـض روح كلِّ مسلم، فلا يـبقى إلا شرار الناس كما تقدم .

قوله : (تعبد)

قال ابن عثيمين :

بفتح التاء، وفى بعض النسخ: «يعبد» بفتح الياء المثناة من تحت.

فعلى قراءة : «يَعبد» لا إشكال فيها، لأن «بعض» مذكر.

وعلى قراءة « تعبد» فإنه داخل فى قول ابن مالك:

وربما أكسب ثان أولاً   تأنيثاً إن كان لحذف مؤهلاً

ومثلوا لذلـك بقوله: قطعت بعض أصابـعه، فالتأنيث هنا من أجـل أصابعه لا من أجل بعض فإذا صحت النسخة «تعبد» فهذا التأنيث اكتسبه المضاف من المضاف إليه .

قوله: «الأوثان»

جمع وثن، وهو كل ما عبد من دون الله.

قلت : وهو نفس تعريف الطاغوت كما تـقدم فى أوّل الكتاب أو كما تقدم من كلام ناصر السعدى: اسم جامع لكل ما عبد من دون الله.



قال المصنِّف: وقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ**﴾ الآية.

مناسبة الآية للباب والتوحيد

قال ابن باز[3]: فهم أوتوا نصيبًا أى حظًا من الكتاب لكن لم يعملوا به بل خالفوه وآمنوا بالجبت والطاغوت وقالوا هؤلاء أهدى مـن الَّذين آمنوا سبيلاً فإذا كان هذا قد وقع من اليهود فسيقع من هذه الأمة لحديث «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»، فدلَّ على أن هذا سيكون فى أمـة محمد ﷺ من يكفر ويـقول إنَّ الكفرة أهدى من اتبـاع النبى ﷺ وهو وقع قديمًا ويقع الآن ممن يفضِّلون اليهود والنصارى على هذه الأمة. اهـ.

---

(١) النساء: ٥١.   (٢) القول المفيد ١/ ٥٨٥.

(٣) التعليق المفيد ١٣١.

وقد عبر ابن عثيمين [1] **عما تقدم بأسلوبه فقال:** وجه المناسبة فى الآية للباب لا يتبين إلا بالحديث وهو: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»[2] فإذا كان الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت وأن من هذه الأمة من يركب سنن من كان قبله يلزم من هذا أن فى هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت، فتكون الآية مطابقة للترجمة تمامًا. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله[3]: أنه إذا كان فى أهل الكتاب من يؤمن بالجبت والطاغوت فالرسول ﷺ قد أخبر أن أمته ستفعل مثل ذلك. اهـ.

قال القرعاوى[4]: دلت الآية على وجود الشرك فى أهل الكتاب وقد ثبت أن هذه الأمة ستعمل ما عمله أهل الكتاب ومن ذلك الشرك. اهـ.

● **سبب نزول الآية:**

قال ابن الجوزى[5]: فى سبب نزولها أربعة أقوال:

أحدها: أن جماعة من اليهود قدموا على قريش، فسألوهم: أديننا خيرٌ، أم دين محمد؟ فقال اليهود: بل دينكم، فنزلت هذه الآية[6]، هذا قول ابن عباس.

والثاني: أن كعب بن الأشرف، وحيى بن أخطب، قدما مكة، فقالت لهما قريش: أنحن خيرٌ، أم محمدٌ؟ فقالا: أنتم، فنزلت هذه الآية[7]، هذا قول عكرمة فى رواية، وقال قتادة: فنزلت فى كعب، وحيى، ورجلين آخرين من بنى النضير قالوا لقريش: أنتم أهدى من محمد[8].

والثالث: أن كعب بن الأشرف وهو الذى قال لكفار قريش: أنتم أهدى من محمد، فنزلت هذه الآية، وهذا قول مجاهد، والسدى، وعكرمة فى رواية.

---

(١) القول المفيد ١/ ٥٨٨.
(٢) سيأتى تخريجه.
(٣) الجامع الفريد ٩٤.
(٤) الجديد ١/ ٢٠٨.
(٥) زاد المسير ٢/ ٦٤-٦٥.
(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٠٦) ونسبه لأحمد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم عن ابن عباس بنحوه

وانظر «فتح القدير» (٣٤٩٥ و«فتح المجيد» (٤٢٧) بتخريجنا).
(٧) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبى حاتم عن عكرمة به.

وانظر «فتح القدير» (٣٤٩٩ - بتخريجنا).
(٨) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

والرابع: أن حيي بن أخطب قال للمشركين: نحن وإياكم خيرٌ من محمد، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن زيد، والمراد بالمذكورين في هذه الآية اليهود. اهـ.

قلت: وهذا بهتان عظيم فياليتهم قالوا أنتم مثل محمد فُتقبل ولو من بعيد، إنما قالوا: ﴿أَهْدَىٰ﴾ فهذه بجاحة وسماجة كالذين قالوا ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وهم كانوا أحسن حالاً عندما قالوها من هؤلاء وإن كانوا هنا جعلوا الربا هو الأصل وجعلوا البيع هو الفرع. وهذه مكابرة ومغالطة أيضا. وإنما الأولى أن يقولوا إنما الربا مثل البيع لأن البيع حله هو الأصل والربا هو الفرع فإذا أردت أن تقيس فقس الفرع على الأصل فاجعل البيع هو الأصل واجعل الربا فرع. وهذه تشبه إلى حد ما ما قيل في الآية المذكورة ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ والله أعلم.

● أقوال المفسرين:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾.

قال الطبري[1]: يعني بذلك جل ثناؤه ألم تر بقلبك يا محمد إلى الذين أعطوا حظًا من كتاب الله فعلموه. اهـ.

وخالفه ابن عثيمين في قوله: [ألم تر بقلبك]. وسيأتي.

قال الرازي[2]: اعلم أنه تعالى حكى عن اليهود نوعًا آخر من المكر، وهو أنهم كانوا يفضلون عبدة الأصنام على المؤمنين، ولا شك أنهم كانوا عالمين بأن ذلك باطل، فكان إقدامهم على هذا القول لمحض العناد والتعصب. اهـ.

قلت: كما يفضلون الآن عبدة الشيطان على عبدة الرحمن. ونحن نعلم بأن عبدة الشيطان يمولها المؤسسات اليهودية وهم يقولون بأنهم أهدى من الذين هم على الحق سبيلاً وأيضاً يقفون بجوار الملاحدة ضد الإسلام والمسلمين وهم مع هذا الإلحاد ليرفعوه ضد الإسلام والمسلمين.

قال الشوكاني[3]: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ هذا تعجيب من حالهم بعد التعجيب الأول...

قلت: ونحن نستفيد من هذه الآية أن الحسد من طباع اليهود وأن من يحسد يحمله الحسد على عدم الإنصاف والعدل مع الآخرين فهذا ركب مراكب اليهود ـ نسأل الله العفو

(١) تفسير الطبري ٤/٥/٨٣.
(٢) التفسير الكبير ٥/ ١/ ١٣٣
(٣) فتح القدير ١/ ٥٦٧.

والعافية ـ فهذا من قبائح اليهود وحسدهم للمؤمنين والنبى وإن أخلاقهم الرذيلة وطبائعهم الخبيثة حملتهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله أو حكم لغير شرع الله. فدخل فى ذلك السحر والكهانة وعبادة غير الله وطاعة الشيطان كل هذا من الجبت والطاغوت كما سيأتى مفصلاً من كلام ابن الجوزي.

● **التفسير بكلام شراح كتاب التوحيد**

قال ابن عثيمين[1]: قلت: ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ الاستفهام هنا للتقرير والتعجيب، والرؤية بصرية ـ بخلاف ما قاله الطبرى أن الرؤية قلبية ـ بدليل أنَّها عُدِّيت بإلى، وإذا عُدِّيت بإلى صارت بمعنى النظر.

والخطاب إمَّا للنبى ﷺ ، أو لكل من يصحّ توجيه الخطاب إليه، أى: ألم تر أيها المُخاطَب؟

قوله: ﴿**إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا**﴾.

أى: أُعطوا، ولم يعطوا كل الكتاب، لأنَّهم حرموا بسبب معصيتهم، فليس عندهم العلم الكامل بما فى الكتاب.

قوله: ﴿**نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ المنزَّل.

والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل.

وقد ذكروا لذلك مثلا، وهو كعب بن الأشرف حين جاء إلى مكة، فاجتمع إليه المشركون، وقالوا: ما تقول فى هذا الرجل (أى : النبى ﷺ) الذى سفَّه أحلامنا ورأى أنَّه خير منَّا ؟ فقال لهم : أنتم خير من محمد، ولهذا جاء فى آخر الآية: ﴿**نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ اهـ وتقدم هذا فى سبب النزول من كلام ابن الجوزى.

قوله [يؤمنون بالجبت والطاغوت]:

● **أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[2]: يعنى يصدقون بالجبت والطاغوت ويكفرون بالله ويعلمون أن الإيمان بهما كفر والتصديق بهما شرك، ثم اختلف أهل التأويل فى معنى الجبت والطاغوت .

ثم ذكر الطبرى هذه الأقوال:

(١) القول المفيد ١/ ٥٨٦ و٥٨٧ .

(٢) تفسير الطبرى (٤/ ٥/ ٨٣-٨٤).

الأول: الجبت والطاغوت صنمان . قاله عكرمة[1].

الثانى: الجبت الأصنام، والطاغوت: تراجمة الأصنام، فأسند عن ابن عباس قال : الجبت الأصنام والطاغوت الذين يكونون بين أيدى الأصنام يعبرون عنها بالكذب ليضلوا الناس[2].

قلت: واليهود ملوك السحر فى العالم إلى الآن هم والنصارى وهم ملوك وأئمة فى عبادة الصور والأصنام كما فى حديث عائشة فى الباب الذى قبله الذى ترويه أم سلمة وأم حبيبة رضى الله عنها حينما ذهبا للحبشة فوجدا كنيسة إلخ[3]. فهو يؤمنون بالجبت والسحر وهم الذين زوروا على سليمان عليه السلام هذا التزوير وقالوا أنه كان يُسير مملكته بالسحر قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ أمرهم الذين وضعوا كتب السحر كما قيل فى التفسير تحت عرش سليمان وأخرجوها لما مات فقالوا إن سليمان كان يسير ملكه بالسحر.

وكذلك تبعهم اليهود فى تعليم وتعلم ونصرة السحر والإيمان به كما هم أيضا أئمة فى عبادة الأوثان والصور كما سبق فتأمل.

ثم ذكر الطبرى:

الثالث: الجبت الكاهن، والطاغوت رجل من اليهود يدعى كعب بن الأشرف وكان سيد اليهود.

الرابع: الجبت السحر، والطاغوت الشيطان، قاله عمر بن الخطاب[4]، ومجاهد[5]، والشعبى[6].

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/٣٠٧) ونسبه لعبد الرزاق. وانظر الاتقان للسيوطى بتخريجنا.

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم. فانظره بتخريجنا.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكر السيوطى فى «الدر» ـ(٢/٣٠٧) وزاد نسبته للفريابى، وسعيد بن منصور، وعبدبن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم ، ورستة فى الإيمان».

وانظر «فتح القدير» «وفتح المجيد» (٤٢٨) بتخريجنا.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق ونسبه السيوطى فى «الدر» لعبد بن حميد. وانظر «فتح المجيد» (٤٣١) بتخريجنا .

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

الخامس: الجبت السحر، والطاغوت شيطان فى صورة إنسان يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم، قاله مجاهد(١).

السادس: الجبت الساحر، والطاغوت الشيطان، قاله زيد بن أسلم(٢).

السابع: الجبت الساحر، والطاغوت الكاهن، قال سعيد بن جبير الجبت: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوت الكاهن(٣)، وكذا قال رفيع وأبو العالية(٤).

الثامن: الجبت الشيطان، والطاغوت الكاهن، قاله قتادة(٥) والسدى(٦).

التاسع: الجبت الكاهن، والطاغوت الشيطان، قاله سعيد بن جبير(٧).

العاشر: الجبت الكاهن، والطاغوت الساحر. قاله محمد بن جحادة(٨).

الحادى عشر: الجبت حيى بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. قاله ابن عباس(٩) والضحاك(١٠).

الثانى عشر: الجبت كعب بن الأشرف، والطاغوت الشيطان كان فى صورة إنسان قاله مجاهد(١١).

ثم قال ابن جرير بعد عرض هذه الأقوال:

---

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق بإسناد ضعيف وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/٣٠٨) وزاد نسبته لابن أبى حاتم.

فانظره بتخريجه.

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق «وانظر الاتقان» بتخريجنا.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/٣٠٨) وزاد نسبته لعبد بن حميد.

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٧) المصدر السابق.

(٨) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٩) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/٣٠٧) وزاد نسبته لابن أبى حاتم.

فانظره بتخريجنا. و«فتح المجيد» (٤٣٩) بتخريجنا .

(١٠) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(١١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وتقدم.

والصواب: من القول فى تأويل ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أن يقال: يصدّقون بمعبودين من دون الله يدعونهما من دون الله، ويتخذونهما إلهين، وذلك أن الجبت والطاغوت: اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله، أو طاعة، أو خضوع له كائناً ما كان ذلك المعظم من حجر، أو إنسان، أو شيطان... اهـ.

وذكر ابن أبى حاتم[1] ستة وجوه لتفسير كلمة «الجبت» وسبعة وجوه «للطاغوت»، فذكرها بنحو الأقوال المتقدمة للطبرى، إلا أنه أضاف إليها قولين آخرين وهما: -

الثالث عشر: الجبت: **الشرك**. قاله ابن عباس[2].

الرابع عشر: الطاغوت: **ما يعبدون من دون الله**. قاله ابن وهب عن مالك[3].

وذكر البغوى[4] هذه الوجوه، وزاد:

الخامس عشر: الجبت: **الأوثان**، والطاغوت: شياطين الأوثان.

السادس عشر: الجبت والطاغوت: **هما كل معبود يعبد من دون الله**. قاله أبو عبيدة.

وهذه الوجوه الستة عشر المتقدمة رتبها ابن الجوزى «فى تفسيره» على النحو التالى:

فى «**الجبت**» سبعة أقوال: **[قلت]**: بل عشرة أقوال[5].

قال: **(أحدها)**: أنه **السّحر**، قاله عمر بن الخطاب، ومجاهد، والشعبى.

(والثانى): **الأصنام**، رواه عطية، عن ابن عباس. وقال عكرمة: الجبت، صنم.

(والثالث): **حيى بن أخطب**، رواه ابن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، والفراء.

(والرابع): **كعب بن الأشرف** رواه الضحاك، عن ابن عباس، وليث عن مجاهد.

وقال الرازى:[6] فى سبب تسمية كعب وحيى بن أخطب بهذا: وكانت اليهود يرجعون إليهما. فسميا بهذين الاسمين لسعيهما فى إغواء الناس. ثم قال ابن الجوزى:

(والخامس): **الكاهن**: روى عن ابن عباس، وبه قال ابن سيرين، ومكحول.

(١) تفسير ابن أبى حاتم (٣/ ٩٧٦). فانظره بتخريجنا.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى المصدر السابق فانظره بتخريجنا.

(٣) المصدر السابق.

(٤) معالم التنزيل (٢/ ٨٨).

(٥) وسبق تخريج بعضها.

(٦) التفسير الكبير (٢/ ٦٥، ٦٦).

(والسادس) **الشيطان**، قاله سعيد بن جبير فى رواية، وقتادة، والسدى.

(والسابع): الساحر، قاله أبـو العاليـة، وابن زيد. وروى أبو بـشر، عن سعـيد بن جبير، قال: الجبت: الساحرُ بلسان الحبشة. اهـ.

[قلت: وهناك ثلاثـة أقوال أخرى لم يذكرها وهى (الشرك - الأوثـان - كل معبود من دون الله) وفى المراد (**بالطاغوت**) ها هنا ستة أقوال:

[قلت: بل هى تسعة].

قال: (**أحدها**): الشيطان، قاله عمر بن الخطاب، ومجاهد فى رواية، والشعبى، وابن زيد.

(**والثانى**): أنه اسم للذيـن يكونون بين يدى الأصنـام يعبرون عنها ليـضلوا الناس. رواه العوفى، عن ابن عباس.

(**والثالث**) كعـب بن الأشـرف، رواه ابن أبى طـلحـة، عن ابن عـباس، وبـه قال الضحاك، والفراء.

(**والرابع**) الكاهن، وبه قال سعيد بن جبير، وأبو العالية، وقتادة، والسدى.

(**والخامس**): أنه الصنم، قاله عكرمة. وقال: الجبت، والطاغوت صنمان.

(**والسادس**): الساحر، روى عن ابن عباس، وابن سيرين، ومكحول.

فهذه الأقـوال تدل على أنهـما اسمان لمسـميين. وقـال اللغويون مـنهم ابن قتـيبة، والزجـاج: كل معـبود من دون الله، مـن حجر، أو صـورة، أو شيطـان، فهو جـبت وطاغوت. اهـ.

[قلت] وهناك ثـلاثة أقول أخرى (شـيطان فى صـورة إنسان يتـحاكمون إلـيه - ما يعبدون من دون الله - شياطين الأوثان) وإن كان منهم قولان تشابها مع مطلق الشيطان إلا أن فيهما زيادة تفصيل. والله أعلم.

وذكر الرازى بعـض هذه الوجوه ثـم قال[1]: وبالجملـة فالأقاويل كثيـرة، وهما كلمتان وضعتا علمين على من كان غاية فى الشر والفساد.

وزاد القرطبى[2]: غير ما تقدم فقال:

---

(١) الرازى ٥/ ١٥/ ١٣٣/ ١٣٤.

(٢) القرطبى ٣/ ١٨١٨ - ١٨١٩.

وقيل: هما كل معبود من دون الله، أو مطـاع فى معصية الله - وهذا حسن، وأصل الجبت الجبس وهو الذى لاخير فيه، فأُبدلت التاء من السين، قاله قُطْرُب، وقيل: الجبت إبليس والطاغوت اولياءه وقول مالك فى هذا الباب حسن ـ تقدم ـ يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقوله تـعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾. وروى قطن بـن المخارِق عن أبيه قـال: قال رسول الله - ﷺ -: «**الطَّرق والطيرة والعيافة من الجبت**» والطرق الزجر، والعِيافه الخط. خرجه أبو داود فى سننه[1] وقيل: الجبت كل ما حرم الله، والطاغوت كل ما يطغى الانسان. والله أعلم.اهـ.

وبنحو من هذا قال ابن كثير[2]، ونقل عن الجوهرى فى «الصـحاح» أن الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[3]: الظاهر أنه يعمم ذلك كله - يـعنى من الوجوه المتقدمة - كما قال الجوهرى. وأما الطاغوت فتقدم الكلام عليه. اهـ يعنى فى الباب الأول.

وتابعه على ذلك عبد الرحمن آل الشيخ[4].

قال ابن عثيمين[5]: قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أى يصدِّقون بهما، ويقرونهما ولا ينكرونهما، فإذا أقر الإنسان هذه الأوثان؛ فقد آمن بها.

والجِبْت: قيل: السحر، وقيل: هو الصنم، والأصح: أنَّه عام لكل صنم أو سحر أو كهانة أو ما أشبه ذلك.

والطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مُطاع.

فالمعبود كالأصنام، والمتبوع كعلماء الضلال، والمطاع كالأمراء؛ فطاعتهم فى تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرَّم الله تعد من عبادتهم.

والمراد من كان راضيـاً بعبادتهم إياه، أو يُقـال: هو طاغوت باعتبار عـابديه؛ لأنَّهم

---

(١) وسيأتى تخريجه وشرحه فى موضعه إن شاء الله.

(٢) تفسير ابن كثير (١/٤٨٦).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٦٧).

(٤) فتح المجيد (١/٣٣٨).

(٥) القول المفيد ١/٥٨٧ و ٥٨٨.

تجاوزوا به حده، حيث نزلوه فوق منزلته التى جعلها الله له، فتكون عبادتهم لهذا المعبود طغياناً؛ لمجاوزتهم الحدَّ بذلك.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

قلت: رأيت المفسرين أجمعوا على أن المقصود بهم مشركوا مكة.

وقال البغوى[1]: أبو سفيان وأصحابه اهـ. وهما بمعنى واحد.

قوله: ﴿ هَؤُلاءِ ﴾.

قال ابن جرير[2]: يعنى بذلك هؤلاء الذين وصفهم الله بالكفر. اهـ.

وهم كفار مكة. وكذا لباقى المفسرين.

قوله: ﴿ هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ .

ما جآء فيها من المأثور

عن مجاهد فى قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ قال: اليهود تقول ذاك، ويقولون: قريش أهدى من محمد وأصحابه وتقدم كلام ابن الجوزى فى سبب نزول هذه الآية.

- **من أقوال المفسرين**

- **قال الطبرى**[3]. يعنى بذلك جل ثناؤه ويقولون للذين جحدوا وحدانية الله ورسالة رسوله محمد ﷺ هؤلاء يعنى بذلك هؤلاء الذين وصفهم الله بالكفر أهدى يعنى أقوم وأعدل من الذين آمنوا يعنى من الذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ سبيلا يعنى طريقا وإنما ذلك مثل ومعنى الكلام أن الله وصف الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من اليهود بتعظيمهم غير الله بالعبادة والإذعان له بالطاعة فى الكفر بالله ورسوله ومعصيتهما وأنهم قالوا إن أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان به وأن دين أهل التكذيب لله ولرسوله أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ولرسوله.

- **قال ابن الجوزى**[4]: قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾يعنى لمشركى قريش: أنتم ﴿أَهْدَىٰ﴾من الذين أمنوا، يعنون النبى وأصحابه «طريقاً» فى الديانة والاعتقاد.

(1) معالم التنزيل (٢/ ٨٩).
(2) تفسير الطبرى (٤/ ٥/ ٨٤).
(3) تفسير الطبرى ٤/ ٥/ ٨٤، ٨٥.
(4) زاد المسير ٢/ ٦٦.

- **قال ابن كثير**[(١)]: أى يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذى بأيديهم وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاؤا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبى ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴾.

قال ناصر السعدى: فى« القول السديد» أن الذى حملهم على ذلك التفضيل هو الكفر والحسد.

وقال فى تفسيره[(٢)]: ﴿**وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ أى: لأجلهم، تملقاً لهم ومداهنة، وبغضاً للإيمان: ﴿ **هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا** ﴾ أى: طريقاً.

فما أسمجهم، وأشد عنادهم، وأقل عقولهم!!

وكيف سلكوا هذا المسلك الوخيم، والوادى الذميم؟!!

هل ظنوا أن هذا، يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء؟

فهل يفضل دين، قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله، ورسله، وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله، فى السر والإعلان والكفر بما يعبد من دونه، من الأوثان، والأنداد، والكاذبين، وعلى صلة الأرحام، والإحسان، إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، ومصدق فى جميع الأقوال والأعمال، فهل هذا إلا من الهذيان؟

وصاحب هذا القول، إما من أجهل الناس، وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عناداً وتمرداً، ومراغمة للحق. اهـ.

● **فوائد الآية:**

قال سليمان آل الشيخ[(٣)]: وفيه معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت فى الموضع، هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها اهـ.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٤٤.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٦٧).

وكذا تابعه عبد الرحمن آل الشيخ(١).

قال القرعاوى(٢):

١ - إثبات إنحراف أهل الكتاب.

٢ - أن المداهنة فى الدين، وكتمان الحق من صفات اليهود.

[قلت] وقد عرف العلماء المداهنة فقالوا: هى معايشة الفاسق مع إظهار الرضا عنه من غير إنكار عليه مع القدرة(٣).

٣ - وجود الشرك فى أهل الكتاب. اهـ.

[قلت]: ٤ - أن المعاصى والمداهنة والحب لأهل الشرك والمعاصى سبب من أسباب حرمان العلم.

٥ - أن تزين الباطل، وتسويته بالحق أحياناً، وتفضيله عليه أحياناً، من صفات اليهود. وفيهم قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾.

٦ - التشنيع على المؤمنين والتنقيص من قدرهم، من صفات اليهود القديمة.

قلت: أى هى ليست حديثة فالتشهير بالمؤمنين فى كل دول أوروبا وأمريكا وغيرهما ظاهر فهذا الملتحى أو العربى الذى يلبس العقال هذا موسوم بأخس وأحط السمات وللأسف يوجد من العرب ولا أقول المسلمين من يساعد على هذا بمسلكه المشين فى هذه الدول فهم يتعمدوا ذلك.

وحدثنى بعض من أثق به ممن سافر إلى هذه الدول فقال: أنه يوجد كاميرات تصويرية فى حُجر يدخلها الرجل ويظن أنها مغلقة ولكن هى مفتوحة من خلال الشاشات المتصلة بهذه الكاميرات وهو ظاهر على الشاشة التليفزيونية. وما يحدث منه أيضاً فى الخارج للناس ويجعلون الناس ينظرون إلى العربى فيأتوا بأمرأة جميلة جداً فتستدرج أحد العرب وتأتى به إلى ذلك المكان لكى يظهر على ملأ وهى تنقص وبخس من كرامته وكرامة الزى العربى الإسلامى وتخسف به الأرض، وتجعله هذه العاهرة يفعل حركات بها ذل حتى تمكنه من نفسها إن مكنته. فهذا الكلام أصلاً وراءه يهود، فمثلاً يأتون بالمشايخ والمنقبات والقساوسة فى الأفلام الجنسية والقصد منها أن تسقط هيبة هؤلاء فتأمل ذلك. فنسأل الله ينصر الإسلام ويعز المسلمين. آمين.

(١) فتح المجيد (٣٣٨/١). (٢) «الجديد» (٢٠٨).

(٣) انظر رسالتى المداهنة والمدارة يسر الله طبعها..

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾(1).

---

٧ - لعن اليهود ومن شايعهم وشابههم بسبب تخلقهم بهذه الأخلاق الخبيثة.

٨ - قد يكون الإنسان على قدر من العلم الشرعى مع نسبته إلى شرع ودين، ولا يمنع ذلك من وقوعه فى الشرك. والله المستعان.



قوله: [وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً ﴾ الآية]

● مناسبة الآية للباب:-

قال عبد الله بن جار الله(2): ومناسبة الآية للباب: أنه إذا كان فى أهل الكتاب من يؤمن بالجبت والطاغوت فالرسول ﷺ قد أخبر أن أمته ستفعل مثل ذلك اهـ.

قال ابن باز(3): فإذا كان من قبلنا عبد الطاغوت: وهو الشيطان وكل ما يعبد من دون الله فهكذ يوجد فى هذه الأمة من يعبد الطاغوت والأوثان لحديث «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**»(4).

[قلت]: وتظهر مناسبة الآية للباب بما أخرجه ابن أبى الدنيا فى «ذم الملاهي» عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن النبى ﷺ قال: «**سيكون فى أمتى خسف ومسخ ورجف وقردة وخنازير**» وسيأتى.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى(5): دلت الآية على وجود الشرك فى أهل الكتاب بعبادتهم للطاغوت وقد ثبت أن هذه الأمة ستعمل ما عمله أهل الكتاب ومن ذلك الشرك.

● سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزى(6): سبب نزولها قول اليهود للمؤمنين: والله ما علمنا أهل دين أقلّ حظاً منكم فى الدنيا والآخرة، ولا ديناً شرًا من دينكم. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قوله: [قل].

---

(1) المائدة: ٦٠. (2) الجامع الفريد ٩٤. (3) التعليق المفيد ١٣٣.
(4) سيأتى تخريجه.
(5) الجديد ٢١٠.
(6) «زاد المسير».

قال الطبرى[١]: يقول تعالى ذكره لنبيه محـمـد - ﷺ - قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار. . . اهـ.

وتابعه البغوى[٢] فقال: (قل) يا محمد. اهـ.

● كلام شراح كتاب التوحيد:

وقال ابن عثيمين[٣]: الخطاب للنـبى ﷺ ردًا على هؤلاء اليهود الـذين اتخذوا دين الإسلام هزواً ولعباً. اهـ.

قوله: [هل أنبئكم]

● كلام المفسرين:

قال الطبرى[٤]: **(هل أنبئكم)** يامعشر أهل الكتاب بشر من ثواب ما تنقمون منا من إيماننا بالله وما أنزل إلينا من كتاب الله وما أنزل من قبلنا من كتبه. اهـ.

قال البغوى[٥]: (هل أنبئكم) أخبركم. اهـ.

● كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثـيمين[٦]: وقوله: «أنـبئكم» أى أُخبـركم، والاستفهـام هنا للتـقرير والتشويق أى: سأقرر لكم اهـ.

قوله: [بشر من ذلك].

● كلام المفسرين:

قال البغوى[٧]: «بشر من ذلك» الـذى ذكرتم، يعنى قولهم، لـم نر أهل دين أقل حظاً فى الدنيا والآخرة، ولا ديناً شراً من دينكم.

فذكر ذلك الجواب بلفظ الابتداء، وإن لم يكن الابتداء شراً، لقوله تعالى **﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ﴾**. اهـ.

قال ابن الجوزى[٨]: وفى قوله: **«بشر من ذلك»** قولان:

أحدهما: بشرّ من المؤمنين، قاله بن عباس.

والثانى: بشر مما نقمتم من إيماننا، قاله الزجاج.

ورجح الأوّل الرازى[٩] فقال: (من ذلك إشاره إلى المنـقم، ولا بدمن حذف المضاف

---

(١) تفسير الطبرى (٤/ ٦/ ١٨٩). (٢) معالم التنزيل (٢/ ٢٧٤).
(٣) القول المفيد (١/ ٥٨٨). (٤) تفسير الطبرى (٤/ ٦/ ١٨٩).
(٥) معالم التنزيل (٢/ ٢٧٤). (٦) القول المفيد (١/ ٥٨٨). (٧) معالم التنزيل (٢/ ٢٧٥).
(٨) زاد المسير (٢/ ٢٢٩). (٩) التفسير الكبير (٦/ ١٢/ ٣٩).

وتقديره: بشر من أهل ذلك، لأنه قال: من لعنه الله، ولايقال الملعون شر من ذلك الدين بل يقال: إنه شر ممن له ذلك الدين.

فان قيل: فهذا يقتضي كون الموصوفين بذلك الدين محكوماً عليهم بالشر، ومعلوم أنه ليس كذلك.

قلنا: إنما خرج الكلام على حسب قولهم واعتقادهم، فإنهم حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر، فقيل لهم: هب أن الامر كذلك ولكن لعنة الله وغضبه ومسخ الصور شر من ذلك. اهـ.

ورجح الثانى القرطبى[1] فقال: - بشر ماتريدون لنا من المكروه، وهذا جواب قولهم: ما نعرف ديناً شر من دينكم.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد :

قال ابن عثيمين[2]: قوله «بشر من ذلك». شر: هنا أسم تفضيل وأصلها أشر لكن حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الإستعمال، ومثلها كلمة غير مخففة من أخبر، والناس مخففة من الاناس وكذا كلمة الله مخففة من الإله وقوله: (ذلك) المشار اليه ما كان عليه الرسول - ﷺ - وأصحابه. فإن اليهود يزعمون أنهم هم الذين على الحق، وأنهم خير من الرسول - ﷺ - وأصحابه، وأن الرسول - ﷺ - واصحابه ليسوا على الحق فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ . اهـ.

قوله: «مثوبة».

● ما جاء فيها من الآثار:

عن ابن زيد قال: المثوبة. الثواب مثوبة الخير ومثوبة الشر، وقرىء ﴿بِشَرٍّ﴾.

عن السدى[3] فى قوله ﴿مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ يقول: ثواباً عند الله[4].

قال الرازى[5]: «مثوبة» نصب على التمييز ـ وهو ما رجحه بن عثيمين وسيأتى ـ ووزنها مفعلة كقولك: مقولة ومجوزة، وهو بمعنى المصدر، وقد جاءت مصادر على مفعول كالمعقول والميسور.

فإن قيل: المثوبة مختصة بالإحسان، فكيف جاءت فى الاساءه؟

قلنا: هذا على طريقة قوله: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وقول الشاعر:

---

(١) تفسير القرطبى (٤/ ٢٢٣١). (٢) القول المفيد ١/ ٥٨٩.

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٥٢٢ ونسبه لابن جرير.

(٤) ذكره السيوطى فى «الموضع السابق» ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) التفسير الكبير ٦/ ١٢/ ٣٨ و ٣٩.

تحية بينهم ضرب وجيع اهـ

قال القرطبي[1]: «مثوبة»: نصب على البيان، وأصلهـا مفعولة فألقيت حركة الواو على الثاء فسكنت الواو وبعدها واو ساكنة فحذفت إحداهما لذلك، ومثله مقولة ومجوزة ومضوفة على معنى المصدر كما قال الشاعر:

وكنت إذا جارى دعا لمضــــوفة ... أشمر حتى ينصف الساق مئزرى

قال ابن كثير[2]: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ أى هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنوه بنـا؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿أساليب القر﴾ أى أبعده من رحمته ﴿وغضب عليه﴾ أى غضباً لايرضى بعده أبداً ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ . اهـ.

ولاخلاف بين قول الرازى والقرطبى وهذا يتضح من كلام ابن عثيمين .

قال ابن عثيمين[3]: مثوبة: تمييز لشر، لأن شـر اسم تفضيل، وما جاء بعد أفعل التفضيل مبيناً له يكون منصوباً على التمييز قال ابن مالك:

اسم بمعنى من مبين نكرة ... ينصب تمييزاً بما قد فسرة

إلى أن قال:

والفاعل المعنى انصبن بأفعلا ... مفصلاً كأنت أعلى منزلا

والمثوبة: من ثاب يثوب إذا رجع، ويطلق على الجزاء، أى: بشر من ذلك جزاء عند الله.

[قلت]: وهنا التعريض يفـيد التهكم، وأيضا الآيات تصرح بهذا التـهكم كأنه تنزلاً أوعلى فرض قولكـم وتنزلاً على أعتقادكم الفاسد سـنجيب بتهكم بهذا المعـتقد الفاسد وبتعريض بمن تهكم بالمؤمنين وبالنبى ﷺ الأمين.

كما قال تعالى متهكـما ببعض الكافرين: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ فهل يوجد عزة أو كرم فى النار إنما هذا من باب التهكم. وأيضا قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهل يوجد بشرى للكفار. فالله عزوجل قال: ﴿لا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ وهذا نفى صريح.

قوله: ﴿عند الله﴾.

قال ابن عثيمين[4]: أى: فى علمه وجزاءه عقوبة أو ثواباً.

قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾.

(١) تفسير القرطبى ٤/ ٢٢٣١. (٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٧١).
(٣) القول المفيد ١/ ٥٨٩.

● ما فى تفسير الآية من كلام المفسرين :

قال الطبرى[1]: فإنه فى موضع خفض رداً على قوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ فكأن تأويل الكلام إذا كان ذلك كذلك قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله بمن لعنه الله. ولو قيل: هو فى موضع رفع. لكان صواباً على الاستئناف بمعنى ذلك من لعنه الله أو هو من لعنه الله.

ولو قيل: هو فى موضع نصب لم يكن فاسداً بمعنى: قل هل أنبئكم من لعنه الله فيجعل أنبئكم على ما فى من واقعاً عليه. اهـ.

قلت: ولعنة اليهود ثابتة فى الكتاب والسنة ففى الكتاب الآية التى هنا ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم...﴾ وقال أيضاً: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وقال: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وبينت الآيات أسباب لعنهم حتى نتقى هذه الأسباب.

فالله عزوجل لعنهم فى غير موضع من الكتاب.

والرسول ﷺ لعنهم كما ثبت اللعن فى الصحيحين «**لعنة الله على اليهود**»[2].

وأيضاً فى سورة الفاتحة ثبت فى المسند وغيره أن النبى ﷺ قال: لعدى بن حاتم الطائى حينما جاء يسلم فقال له: «**يا عدى اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون**»[3] أخرجه أبى حاتم وذكرناه فى تفسير سورة الفاتحة فى تعليقنا على تفسير ابن أبى حاتم وتحقيقنا له.

وأما معنى ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾: يعنى من أبعده الله، وأسحقه من رحمته، وغضب عليه.. غضباً منه عليهم وسخطاً فجعل لهم الخزى والنكال فى الدنيا... اهـ.

قال ابن الجوزى[4] **بنحو من الطبرى فقال:**

قال الزجاج: وموضع «مَنْ» فى قولّه: «مَنْ لعنه الله» إن شئت كان رفعاً، وإن شئت كان خفضاً، فمن خفض جعله بدلاً من «شرٍ» فيكون المعنى: أنبئكم بمن لعنه الله؟ ومن رفع فبإضمار «هو» كأنَّ قائلاً قال: مَن ذلك؟ فقيل: هو من لعنه الله. قال أبو صالح

(١) تفسير الطبرى (١٨٩/٦/٤). (٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٤٠) فانظره بتخريجنا.
(٤) زاد المسير ٢/ ٢٣٠.

عن ابن عباس: من لعنه الله بالجزية، وغضب عليه بعبادة العجل، فهم شر مثوبة عند الله. اهـ.

وقال نحوه الرازى فى «التفسير الكبير»[1].

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد :

قال ابن عثيمين[2]: من: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من لعنه الله؛ لأنَّ الاستفهام انتهى عند قوله: ﴿**مثوبة عند الله**﴾، وجواب الاستفهام: ﴿**من لعنه الله**﴾.

ولعنه؛ أى: طرده وأبعده عن رحمته اهـ. كما تقدم.

فائدة[3]: جواز لعن الكفار على سبيل العموم.

[قلت] : تقدم فى (باب : ما جاء فى الذبح لغير الله من الوعيد وأنه شرك) عند حديث على رضى الله عنه، ذكرنا هناك تفصيل ما جاء فى لعن العموم ولعن المعين فانظره تجد فوائد جمة إن شاء الله.

قوله: «وغضب عليه».

قال الرازى[4]: اعلم أنه تعالى: ذكر من صفاتهم أنواعاً: **أولها**: أنه تعالى لعنهم، **وثانيها**: أنه غضب عليهم **وثالثها**: أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت. اهـ.

● كلام شراح كتاب التوحيد :

قال ابن عثيمين[5]: قوله: ﴿**وغضب عليه**﴾ أى: أحلَّ عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضى الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصحّ تحريفه إلى معنى الانتقام، وقد سبق الكلام عليه ـ أى فى شرح حديث: **اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد**[6]. والقاعدة العامة عند أهل السنة: أن آيات الصفات وأحاديثها تجرى على ظاهرها اللائق بالله - عز وجل -؛ فلا تجعل من جنس صفات المخلوقين، ولاتحرف فتنفى عن الله؛ فلا نغلو فى الإثبات ولا فى النفى. اهـ.

قال القرعاوى [7]: ومن فوائد هذا الآية: إثبات صفه الغضب لله سبحانه على الوجه اللائق به سبحانه.

قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾.

---

(١) ٦/١٢/٣٩. (٢) القول المفيد ١/ ٩٠. (٣) الجديد ٢١٠.

(٤) التفسير الكبير ٦/١٢/٣٩. (٥) القول المفيد ١/ ٥٩٠. (٦) سيأتى تخريجه.

(٧) الجديد ٢١٠.

● ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث :

عن عثمان بن عطاء عن أبيه «أن النبى ﷺ قال: «**سيكون فى أمتى خسف، ورجف، وقردة، وخنازير**»(١).

عن ابن مسعود قال: «سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهى مما مسخ الله؟ فقال: «**إن الله لم يهلك قوماً أو يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير قبل ذلك**»(٢).

قلت: وهذا لايخالف الحديث الأوّل ويجمع بينهما بما جاء عن ابن مسعود قال: «سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهى من نسل اليهود؟ فقال: **لا، إن الله لم يلعن قوماً قط فمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم**»(٣).

قلت: وبهذا الأثر أيضاً نعلم أن من المسخ قطع النسل كما يحدث لبعض ممالك الكفر الآن كما تقدم.

وقال تعالى: ﴿**كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ فهذا الأمر يفيد التكوين فالله عزوجل صرح بمسخهم قردة وخنازير فى غير موضع من كتابه الكريم، وكذلك فى السنة ثبتت عن نبينا ﷺ هذه الأحاديث التى تثبت أن هناك مسخ وقع لليهود كما ثبت فى صحيح مسلم من حديث ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ:ـ عن القردة والخنازير أهى مما مسخ الله. فقال: ـ «**إن الله لم يهلك قوماً أو يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عاقبة وإن القردة والخنازير قبل ذلك**»(٤).

فالله عزوجل يضرب عليهم الذلة. ومن باب الذلة أن لايجعل لهم نسلاً ولا عاقبة. وهذه معنى من معانى ضرب الذلة على اليهود أنهم يقتلوا. كما قال تعالى: ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا**﴾ ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ**﴾ أى أن الذلة هنا قلة عددهم وهو موجود الآن فتأمل.

ويقع هذا المسخ أيضاً فى الجن لأنهم مكلفون كالإنس ويدلُّ على ذلك ما جاء.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٥٢٣) ونسبه لابن أبى الدنيا فى «ذم الملاهى».

(٢) أخرجه مسلم فى القدر (٨/ ٤٦٥/ ٣٣) عن ابن مسعود به.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٥٢٢) ونسبه للطيالسى، وأحمد، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن مردويه.

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٤) تقدم تخريجه.

عن ابـن عبـاس قال: قـال رسول الله ﷺ **«الحيات مسـخ الجن كما مسخـت القردة والخنازير»**[1].

قلت: وذكر ابن جـرير قصة فى مـسخ بنى إسرائـيل قردة وخنازيـر فيها من الـعبر والعظات[2]. والنبى ﷺ نهى عن قتل الحيات «وهذا فـى صحيح مسلم» وعوامر البيوت وهذا النهى كان له قـصة وسبب. أن هناك رجل من الصحابة كان مـتزوج حديثا فرجع من الغزو فوجد امرأته على باب الدار فلما تعجب من ذلك وأندهش فأشارت إلى السرير بالداخل فلما دخل فوجد حية على السريـر فأخذ الحربة فصرعها فصرعته. فلايدرى من مات أولاً. فمن هاهنا ذكر ﷺ **«أن هذه البيوت مسكونة وقـال: «إياكم وعوامر البيوت» أو «نهى عن عوامر البيوت»**[3].

وفى صحيح مسلم أيضاً أمر بالتحجير عليها ثلاثاً»[4].

وهناك أيضا أحاديث فى هذا المعنى مرفوعة ومـوقوفة فى بيان مسخ اليهود والنصارى قردة وخنازير.

عن عمرو بن كثـير عن أفلح مولى أبى أيوب الأنصارى قـال: حدثت أن المسخ فى بنى إسرائيل من الخنازير كان، أن امرأة كانت من بنى إسرائيل كانت فى قرية من قرى بنى إسرائيل، وكان فيها ملك بنى إسرائيـل، وكانوا قد استجمعوا على الهلكة، إلا أن تلك المرأة كانت على بقية من الإسلام متمـسكة، فجعلت تدعو إلى الله حتى إذا اجتمع إليها ناس فبايـعوها على أمرها، قالت لهم: أنه لابد لـكم من أن تجاهدوا عن دين الله وأن تنادوا قومكم بذلك، فاخرجوا فإنى خـارجة، فخرجت وخرج إليها ذلك الملك فى الناس، فقـتل أصحابها جميـعاً وانفلتت من بـينهم، ودعت إلى الله حتى تجـمع الناس إليهـا، إذا رضيت منهم أمـرتهم بالخروج فخـرجوا وخرجت معهـم فأصيبوا جمـيعاً، وانفلتـت منهم، ثم دعت إلى الله حـتى إذا اجتمع إليهـا رجال واستجابوا لهـا أمرتهم بالخروج فخرجـوا وخرجت معهم فأصيبوا جـميعاً، وانفلتت منـهم، ثم دعت إلى الله حتى إذا اجتـمع إليها رجال واستـجابوا لها أمرتهـم بالخروج فخرجوا وخرجـت معهم فأصيبوا جميعاً، وانفلتت من بينـهم فرجعت وقد أيست وهى تقول: سبحان الله..! لو كان لهذا الدين ولى وناصر لقد أظهره بعد، فـباتت محزونة وأصبح أهل القرية يسعون فى نواحيها خنازير مسخهم الله فى ليـلتهم تلك، فقالت حين أصبحت ورأت ما رأت: اليوم أعلم أن الله قد أعز دينه وأمر دينه. قال: ـ يـعنى مولى أبى أيوب ـ فما كان مسخ

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٥٢٣) ونسبه لابن مردويه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم فى السلام (٧/ ٤٩٢/ ١٣٩) عن أبى سعيد به.

(٤) أخرجه مسلم فى السلام (٧/ ٤٩٣/ ١٤٠) عن أبى سعيد به.

لخنازير فى بنى إسرائيل إلا على يدى تلك المرأة[1].

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين :**

قال ابن الجوزى[2]: وروى عن ابن عباس أن المسخين من أصحاب السبت: مسخ شبابهم قردة، ومشايخهم خنازير. وقال غيره: القردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار مائدة عيسى. وكان ابن قتيبة يقول: أنا أظنُّ أن هذه القردة، والخنازير هى المسوخ بأعيانها توالدت قال: واستدللت بقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ**﴾ فدخول الألف واللام يدل على المعرفة، وعلى أنها القردة التى تعاين، ولو كان أراد شيئاً انقرض ومضى، لقال: وجعل منهم قردة وخنازير، إلا أن يصحّ حديث أم حبيبة فى «المسوخ» فيكون كما قال عليه السلام. قلت أنا: وحديث أم حبيبة فى «الصحيح» انفرد بإخراجه مسلم، وهو أن رجلاً سأل النبى ﷺ، فقال: يارسول الله، القردة والخنازير هى مما مُسخ؟ فقال النبى عليه السلام: «**إن الله لم يمسخ قوماً أو يهلك قوماً، فيجعل لهم نسلاً ولا عقابة، وإن القردة والخنازير قد كانت قبل ذلك**»[3] وتقدم الحديث فلا يُلتفت إلى ظن ابن قتيبة.

وبنحوه قال **الرازى**[4] وغيره من المفسرين.

فائدة: فيه دليل على مسخ إثبات أهل الكتاب قردة وخنازير.

● **هل منا من سيغضب الله عليه ويلعنه ويُمسخ؟**

الجواب: قال الفقير: نعم قال سفيان كما سيأتى من كلام ابن عثيمين «من ضل من علمائنا ففيه (شبه) من اليهود» لأن اليهود سبب الغضب أنهم علموا ولم يعملوا فغضب الله عليهم. والنصارى ضالون لأنهم عملوا وتوسعوا فى العمل بغير علم. فمن ضل من علمائنا ففيه شبه من اليهود وسيغضب الله عليه ومن ضل من عبادنا ففيه شبه بالنصارى.

وليس معنى تحذير النبى ﷺ لنا مما صنع اليهود إلا لكى لانصاب بما أُصيبوا به من لعن. وإلا لم يكن النبى ﷺ لعن طوائف من هذه الأمة «**لعن الله النامصة والمتنمصة....**»[5]، «**لعن الله من غير منار الأرض**»[6]، «**لعن الله من ذبح لغير الله**»[7]، «**لعن الله من لعن والديه**»[8] واللعن هذا فى الأمة أم لا؟ فى الأمة وحصل فى اليهود.

إذن غضب الله عليهم وسيغضب على طوائف من هذه الأمة.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٥٢٣) ونسبه لابن جرير.
(٢) زاد المسير ٢/ ٢٣٠.
(٣) تقدم من حديث ابن مسعود عنها.
(٤) التفسير الكبير (٦/ ١٢/ ٣٩).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) تقدم تخريجه.
(٨) تقدم تخريجه.

وكذلك سيجعل من هذه الأمة أيضا مسخ. والأدلة :ـ

أولاً: ما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ـ **«أما يخشى أحدكم أن يرفع رأسه قبل الإمام أن يقلب الله رأسه رأس حمار وصورته صورة حمار»**(1) وفي بعض الطرق التي أوردها ابن حجر في الفتح قال **«أو صورة كلب»** وابن حجر لم يستبعد أن يكون المسخ هاهنا حقيقياً وأن الله يقلب صورته صورة حمار أو رأسه رأس حمار حقيقة. وإن كان بعض العلماء قال إن المسخ مسخ معنوي، إلا أن ابن حجر لم يستبعد أن يكون المسخ مسخاً حقيقياً» واستدل بحديث **«سيكون من أمتي أقواماً يستحلون الحر والحرير....»** ثم قال **«ويبيت أقوام إلى جنب علم فيهدم الله عليهم هذا العلم «الجبل» ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»**(2).

فاليهود استحلوا فعبدوا الطاغوت والجبت فلعنوا ومسخوا قردة وخنازير.

وكنت قلت في خطبة: «تارك الصلاة والمسخ الثالث» أنهم يسمون **«عابد الطاغوت»** بالمسخ الثالث» فهو أحمر من الحمار وأشر من القردة والخنازير وأنزلت في الخطبة عابد الطغوت هذا على تارك الصلاة وقلت إذا كان الذى يصلي ويرفع رأسه قبل الإمام فإن الله عزوجل سيقلب رأسه رأس حمار فكيف بالذى لايصلي وأيضا كما نهى ﷺ عن الإقعاء في الصلاة كإيقعاء الكلب وعن البروك كبروك الجمل وعن توطن مكان بالمسجد كتوطن البعير.

فكيف بالذى يترك الصلاة بالكلية فهذا ليس له وصف إلا عابد الطاغوت وراجع في ذلك كتابي «فقه الخطابة وزاد الخطيب» والله الموفق ولا رب سواه.

قوله ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

ذكر المفسرون وجوه القراءة فيها. فأجملها ابن الجوزي(3) حيث قال:

فيها عشرون قراءة. اهـ نذكرها بشئ من الاختصار.

(1) (وعَبَدَ)	(2) عَبُدَ	(3) وعَبَدوا	(4) وعَبَدَ الطاغوت.
(5) وعَبيد	(6) وعُبَّـدَ	(7) وعابد	(8) وعُبُد
(9) وعُبِدَ	(10) وعَبَّد	(11) وعَبْدَ	(12) وعَبَدة الطواغيت
(13) وعُبَـدَ	(14) وعَبْدَة	(15) وعَبُدُ	(16) وعُبْد
(17) وعابدُ	(18) وعَبَدَةُ	(19) وعُبَادَ	(20) وعَبَادُ.

---

(1) [صحيح] أخرجه البخاري (691)، ومسلم في الصلاة (4/ 150 ـ النووي) عن أبي هريرة به.

(2) علقه البخاري (5590) عن أبي مالك الأشعري به.

(3) زاد المسير (2/ 230 - 231).

ثم قال: والمراد به هاهنا - يعني الطاغوت - قولان:

أحدهما: الأصنام. والثاني: الشيطان. اهـ.

قال الرازي[1]: قال الفراء: تأويله وجعل منهم القردة ومن عبد الطاغوت، فعلى هذا: الموصول محذوف.

وقيل: الطاغوت العجل، وقيل: الطاغوت الأحبار، وكل من أطاع أحداً في معصية الله فقد عبده. اهـ. وتقدم الخلاف في ذلك.

قال ابن كثير[2]: وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ قرىء وعبد الطاغوت على أنه فعل ماض والطاغوت منصوب به أي وجعل منهم من عبد الطاغوت وقرىء وعبد الطاغوت بالإضافة على أن المعنى وجعل منهم خدم الطاغوت أي خدامه وعبيده وقرىء وعبد الطاغوت على أنه جمع الجمع عبد وعبيد وعبد مثل ثمار وثمر حكاها ابن جرير عن الأعمش وحكى عن بريدة الأسلمي أنه كان يقرؤها وعابد الطاغوت وعن أُبي وابن مسعود عبدوا وحكى ابن جرير عن أبي جعفر القارىء أنه كان يقرؤها وعبد الطاغوت على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ثم استبعد معناها والظاهر أنه لا بعد في ذلك لأن هذا من باب التعريض بهم أي وقد عبدت الطاغوت فيكم وأنتم الذين فعلتموه.

وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر. ولهذا قال: ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وسيأتي توجية بعض هذه القراءات من كلام شيخ الإسلام ومن كلام ابن عثيمين.

● ما جاء في تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[3]: الصواب أنه معطوف على قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فهو فعل ماض معطوف على ما قبله من الأفعال الماضية؛ أي من لعنه الله ومن غضب عليه، ومن جعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت. لكن الأفعال المقدمة الفاعل فيها هو اسم الله مظهراً ومضمراً، وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت وهو الضمير في عبد. ولم يعد سبحانه لفظ من لأنه جعل هذه الأفعال كلها صفة لصنف واحد وهم اليهود. اهـ. نقل ذلك عن ابن تيمية.

قال ابن عثيمين[4]: قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

فيها قراءتان في ﴿عَبَدَ﴾ وفي ﴿الطَّاغُوتَ﴾.

---

(١) ٦/ ١٢/ ٤٠.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٧١).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٦٨.

(٤) القول المفيد ١/ ٥٩١، ٥٩٢.

الأولى: بضم الباء ﴿عَبُدَ﴾، وعليها تكسر التاء في ﴿الطَّاغُوتِ﴾؛ لأنه مجرور بالإضافة.

الثانية: بفتح الباء ﴿عَبَدَ﴾ على أنَّه فعل ماض معطوف على قوله: ﴿لعنه الله﴾ صلة الموصول، أي: ومن عبد الطاغوت، ولم يعد ﴿مَن﴾ مع طول الفصل؛ لأنَّ هذا ينطبق على موصوف واحد، فلو أعيدت مَن لأوهم أنَّهم جماعة آخرون وهم جماعة واحدة؛ فعلى هذه القراءة يكون ﴿عَبَدَ﴾ فعلاً ماضياً، والفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هو يعود على الضمير في قوله: ﴿لعنه الله﴾.

وبهذا نعرف اختلاف الفاعل في صلة الموصول وما عطف عليه لأنَّ الفاعل في صلة الموصول ﴿الله﴾، والفاعل في هذا المعطوف يعود على المفعول «الهاء» لا على الفاعل.

وعلى كل حال؛ فالمراد بها عابد الطاغوت.

فالفرق بين القراءتين بالباء فقط؛ فعلى قراءة الفعل مفتوحة، وعلى قراءة الاسم مضمومه.

والطاغوت على قراءه الفعل في ﴿عَبَدَ﴾ تكون مفتوحة ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، وعلى قراءة الاسم تكون مكسوره بالاضافة ﴿وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ﴾ وذكر في تركيب ﴿عَبَدَ﴾ مع (الطاغوت) أربع وعشرون قراءة، ولكنها قراءات شاذه غير القراتئين السبعيتين ﴿عَبَدَ﴾ ﴿عَبُدَ﴾. اهـ.

فائدة[1]: قد تكون المعاصي سبباً للعقوبة في الدنيا كما هي سبباً للعقوبة في الآخرة.

قوله: «أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل».

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال ابن الجوزي[2]: **قوله تعالى: ﴿أولئك شرّ مكانا﴾** أي: هؤلاء الذين وصفناهم شر مكانا من المؤمنين، ولا شرّ في مكان المؤمنين، ولكن الكلام مبني على كلام الخصم، حين قالوا للمؤمنين: لا نعرف شراً منكم، فقيل: من كان بهذه الصّفة، فهو شرٌ منهم. اهـ وفصَّل هذا.

الرزاي[3] **قال**: وفي لفظ المكان وجهان:

---

(١) القول المفيد ١/ ٥٩١و ٥٩٢.
(٢) زاد المسير ٢/ ٢٣١.
(٣) التفسير الكبير ٦/ ١٢/ ٤٠.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾(١).

الأول: قال ابن عباس رضى الله عنهما: لأن مكانهم سقر، ولا مكان أشد شراً منه.

والثانى: أنه أضيف الشر فى اللفظ إلى المكان وهو فى الحقيقة لأهله، وهو من باب الكناية كقولهم: فلان طويل النجاد كثير الرماد، ويرجع حاصله إلى الاشارة إلى الشيء بذكر لوازمه وتوابعه.

ثم قال **﴿وأضل عن سواء السبيل﴾** أى عن قصد السبيل والدين الحق. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية عير المسلمون أهل الكتاب وقالوا: يا إخوان القردة والخنازير، فافتضحوا ونكسوا رؤسهم. اهـ.



● مناسة الآية للباب والتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(٢): يخبر تعالى عن الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا هذه المقالة: **﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾** وقد حكى ابن جرير فى القائلين فى ذلك قولين:

أحدهما: أنهم المسلمون.

والثانى: أنهم المشركون وعلى القولين فهم مذمومون لأن النبى ﷺ قال: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»(٣)** يُحَذِّر ما فعلوا ولما يفضى إليه ذلك من الإشراك بأصحابها كما هو الواقع، ولهذا لما فعلته اليهود والنصارى جَرَّهم ذلك إلى الشرك، فدل ذلك على أن هذه الأمة تفعله كما فعلته اليهود والنصارى فيجرها ذلك إلى الشرك، لأن ما فعلته اليهود والنصارى ستفعله هذه الأمة شبراً بشبر وذراعاً بذراع كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذى لاينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى وبهذا يظهر وجه استشهاد المصنف بهذه الآية اهـ.

وبنحوه ذلك قال عبدالله بن جار الله(٤).

وقال ابن باز(٥): فإذا كان فى الأمم الماضية من اتخذوا المساجد على القبور وعظموها فكذلك فى هذه الأمة، وقد وقع من يدعى بالإسلام كما هو حال المسلمين اهـ.

وبنحو ما تقدم قال قرعاوى(٦).

---

(١) الكهف: ٢١. (٢) تيسير العزيز الحميد ٢٦٨. (٣) تقدم تخريجه.

(٤) الجامع الفريد (٩٥). (٥) التعليق المفيد (١٣٢). (٦) الجديد (٢١٢).

قوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن السدى: ... فقال الملك: لأتخذن عند هؤلاء القوم الصالحين مسجداً، فلأعبدن الله فيه حتى أموت. فذلك قوله ﴿ **قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾[1].

عن قتادة فى قوله ﴿ **قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ**﴾ قال: هم الأمراء، أو قال: السلاطين[2].

عن سعيد بن جبير قال: بنى عليهم الملك بيعة فكتب فى أعلاها أبناء الأراكنة أبناء الدهاقين.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال ابن قتيبة:[3] يعنى المطاعين والرؤساء **قال المفسرون: وهم الملك وأصحابه** المؤمنون اتخذوا عليهم مسجداً. اهـ.

قال الرازى[4]: قال تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ**﴾ **قيل:** المراد به الملك المسلم. وقيل أولياء أصحاب الكهف. **وقيل:** رؤساء البلد ﴿**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾ نعبد الله فيه ونستبقى آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد. اهـ.

قال ابن كثير[5]: ﴿**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾ حكى ابن جرير فى القائلين ذلك قولين:

أحدهما: إنهم المسلمون منهم.

والثانى: أهل الشرك منهم فالله أعلم. . والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ولكن هل هم محمودون أم لا؟ **فيه نظر:** لأن النبى ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد. يحذر مافعلوا**»[6] وقد روينا

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٧٥١) عن السدى به.
فانظره بتخريجنا.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٣٩٢) زاد نسبته لعبدالرزاق.
وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٣) زاد المسير ٥/ ٩١.

(٤) التفسير الكبير ١١/ ٢١/ ١٠٦.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٥.

(٦) تقدم تخريجه.

عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه. أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده فيها شىء من الملاحم وغيرها. اهـ.

قال الشوكانى(١): فقال: ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون وقيل: هم أهل السلطان والملك من القوم المذكورين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم والأوّل أولى قال الزجاج هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور لأن المساجد للمؤمنين.

● **كلام المفسرين:**

قوله: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

قال ناصر السعدى(٢): ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أى: نعبد الله تعالى فيه ونتذكر به أحوالهم وما جرى لهم وهذه الحالة محظورة. نهى عنها النبى ﷺ وذم فاعليها ولايدل ذكرها هنا. على عدم ذمها. فإن السياق فى شأن أهل الكهف والثناء عليهم وأن هؤلاء وصل بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجداً بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم. وحذرهم من الإطلاع عليهم. فوصلت الحال إلى ما ترى وفى هذه القصة دليل على أن من فرَّ بدنية من الفتن. سلَّمه الله منها وأن من حرص على العافية، عافاه الله ومن أوى إلى الله. أواه الله وجعله هداية لغيره. من تحمَّل الذل فى سبيله وابتغاء مرضاته. كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لايحتسب. ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾. اهـ.

● **كلام شراح كتاب التوحيد :**

قال ابن عثيمين(٣):

من فوائد الآية الثالثة ما يلى:

(١) ما تضمن سياق هذه الآية من القصة العجيبة فى أصحاب الكهف وما تضمنته من الآيات الدالة على كمال قدرة الله وحكمته.

---

(١) فتح القدير ٣/ ٢٨٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ١١٧.

(٣) القول المفيد ١/ ٥٩٦و ٥٩٧.

(٢) أن من أسباب بناء المساجد على القبور الغلو في أصحاب القبور لأن الذين غلبوا على أمرهم بنوا عليهم المساجد لأنهم صاروا عندهم محل الاحترام والإكرام فغلوا فيهم.

(٣) أن الغلو في القبور وإن قل قد يؤدي إلى ما هو أكبر منه ولهذا قال النبي ﷺ لعلي حين بعثه «**ألا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته**»(*).

[قلت]: (٤) إن الدار الدنيا غالباً للذين يبغون العلو في الأرض والفساد ولو باسم الدين والآخرة على خلاف ذلك قال تعالى ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا**﴾.

(٥) وفيه ذم الرأي، لأنهم لما استحسنوا رأيهم بعقولهم القاصرة شرعوا، قالوا ﴿**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾.

(٦) ويستفاد أيضا منه[1] أنَّ اتخاذ المساجد على القبور من سنن الأمم السابقة.

شبهة وجوابها[2]:

قد يقول قائل: إذا كان من المقرر شرعاً تحريم بناء المساجد على القبور، فهناك أمور كثيرة تدل على خلاف ذلك منها.

قوله تبارك وتعالى في سورة الكهف قال: ﴿**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾ ووجه دلالة الآية على ذلك. أنَّ الذين قالوا هذا القول كانوا نصارى، على ما هو مذكور في كتب التفسير، فيكون اتخاذ المسجد على القبر من شريعتهم، وشريعة من قبلنا شريعة لنا إذا حكاها الله تعالى، ولم يعقبها بما يدل على ردها كما في هذه الآية الكريمة.

قال الألباني: والجواب عنها من ثلاثة وجوه:

الأول: أنَّ الصحيح المتقرر في علم الأصول أنَّ شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا لأدلة كثيرة منها قوله ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي...** (فذكرها، وآخرها) **وكان النبيُّ يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة**»[3].

(*) تقدم تخريجه مراراً.

(١) الجديد للقرعاوي ٢١٢.

(٢) بتصرف من تحذير الساجد من ٤٨ : ٥٨ للشيخ الألباني.

(٣) [صحيح] أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥/٣ ـ النووي) عن جابر به.

قال الألوسى: لايقال إنَّ الآية ظاهرة فى كون ما ذكر من شرائع من قبلنا وقد استدلَّ بهـا، فقد روى أنـه ﷺ قال: «من نام عـن صلاة أو نسيـها»[1] الحديث ثم تـلا قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[2]. وهو مقول لموسى عليه السلام، وسياقه الإستدلال، واحتج أبو يوسف على جرى القـود بين الذكر والأنثى بآية ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ والكرخى على جريه بين الحر والعبد والمسلم والذمـى بتلك الآية الواردة فى بنى إسرائيل إلى غير ذلك، لأنا نقول: مذهبنا فى شرع من قبلنا وإن كـان أنه يلزمنا على أنَّه شريعتنا، لكن لا مطلقاً، بل إن قصَّ الله تعالى علينـا بلا إنكار، وإنكار رسوله ﷺ كإنكاره ـ عزوجل ـ وقد سمعت أنه عليه الصلاة والسلام لعن الـذين يتخذون المساجد على القبور، على أن كون ما ذكر من شرائع من قبلنا ممنوع، وكيف يمكن أن يكون اتخاذ المساجد على القبور من الشرائع المتقدمة مع ما سمعت من لعن الـيهود والنصارى حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، والآية ليست كالآيات الذى ذكرنا أنفاً احـتجاج الأئمة بها وليس فيها أكثر من حكاية قول طائفة من الناس وعزمهم علـى فعل ذلك، وليست خارجة مخرج المدح لهم والحض على الـتأسى بهم، فمتى لـم يثبت أنَّ فيهم مـعصوماً لايدل فعلهـم فضلاً عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصدده أهـ.

الثانى: هب أنَّ الصواب قول من قـال: «شريعة من قبلنا شريعة لـنا» فذلك مشروط عندهم بمـا إذا لم يرد فى شرعنـا ما يخالفه، وهـذا الشرط معدوم هنـا، لأنَّ الأحاديث تواترت فى النـهى عن البناء المذكور كمـا سبق، فذلك دليل على أنَّ مـا فى الآية ليس شريعة لنا.

الثالث: لانسلم أنَّ الآية تفيـد أن ذلك كان شريعة لمن قبلنا غاية مـا فيها أنَّ جماعة من الناس قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فليس فيها التصريـح بأنهم كانوا مؤمنين، وعلى التسليم فليس فيها أنهم كانوا مؤمنين صالحين، متمسكين بشريعة نبىّ مرسل، بل الظاهـر خلاف ذلك، قال الحـافظ بن رجب فـى «فتح البـارى فى شرح البـخارى» من «الكواكب الدرارى فى شرح حديث لعن اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٩٧)، ومسلم فى المساجد (٣/ ٢٠١/ ٦٨٤) عن أنس به.
وانظر «منار السبيل» (٣١٠ ـ بتخريجنا).

(٢) طه: ١٤.

وقد دلَّ القرآن على مثل ما دلَّ عليه هذا الحديث، وهو قول الله ـ عزوجل ـ فى قصة ـ أصحاب الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فجعل اتخاذ القبور علـى المساجد من فعل أهـل الغلبة على الأمور، وذلـك يشعر بأنَّ مستنـده القهر والغلبة واتـباع الهوى وأنه ليس من فعل أهـل العلم والفضل المنتصـر لما أنزل الله على رسله من الهدى» أهـ.

قلت: وقد تقدم كلام المفسرين فى ذلك. اهـ.

قال الهيتمى: فى سياق رده على من أفتى بجواز البناء على قبور العلماء مستدلاً بهذه الآية ـ وقد أفتى جمع بهدم كل ما بقرافة مصر من الأبنية، حتى قبة الإمام الشافعى عليه الرحمة، التى بناها بعض الملوك، وينبغـى لكلٍّ أحد هَدْم ذلك مالم يخشى منه مفسدة، فيتعين الرفع للإمام أخذاً من كلام ابن الرفعه فى الصلح أهـ.

قال الألبانى: وقد استدلّ بالآية المذكورة على الجواز المـزعوم، بل على استحباب بناء المساجد على القبـور بعض المعاصرين. لكن من وجه آخر مبتدع مـغاير بعض الشىء لما سبق حكايـته ورده، فقال ما نصه، «والدلـيل من هذه الآية إقرار الله تعالـى إياهم على ماقالوا، وعدم رده عليهم»!

وهذا الاستدلال باطل من وجهين:

الأول: أنه لايصـح أن يعتبر عدم الـرد عليهم إقـراراً لهم، إلا إذا ثبت أنهـم كانوا مسلمين وصـالحين متمسكين بشريـعة نبيهم، وليس فى الآية ما يـشير أدنى إشارة إلى أنهم كانوا كذلك بل يحتمل أنهم لم يـكونوا كذلك وهذا هو الأقرب؛ أنهم كانوا كفاراً أو فجاراً، كما سبق من كـلام ابن رجب وابن كثير وغيرهما، وحينئـذٍ فعدم الرد عليهم لايعد إقراراً بل إنكاراً، لأنَّ حكاية القول عن الكـفار والفجار يكفى فى رده عزوه إليهم! فلا يعتبر السكوت عليه إقراراً كما لا يخفى، ويؤيده الوجه الآتى:

الثانى: أنَّ الاستدلال المـذكور إنما يـستقيم علـى طريقة أهـل الأهواء من الماضـيين والمعاصريين، الذين يكتفون بالقرآن فقط ديـناً، ولايقيمون للسنة وزناً، وأما على طريقة أهل السنة والحديث الذيـن يؤمنون بالوحيين، مصدقين بقولـه ﷺ فى الحديث الصحيح المشهور «**ألا إنى أوتيت القرآن ومـثله معه**» وفى رواية «**ألا إن ما حـرّم رسول الله مثـل ما حرّم الله**».

وَعَنْ أبى سَعْيد (رَضىَ الله عَنْه) أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَـالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم حَذوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، حتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوه» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله ! اليَهُودَ وَالنصَّارىَ؟ قَالَ «فَمَنْ؟» أخرجاه(١).

فهذا الإستدلال عندهم. والمستدل يزعم أنه منهم باطل ظاهر البطلان، لأنَّ الرد الذى نفاه قد وقع فى السنة المتواترة كما سبـق، فكيف يقول: «إنَّ الله أقرّهم ولم يرد عليهم، مع أنَّ الله لعنهم على لسان نبيه ﷺ فأىُّ ردٍ أوضح وأبيّن من هذا؟!

وما مثل من يستـدل بهذه الآية على خلاف الأحاديث المتقدمة، إلا كـمثل من يستدل على جواز صنع التماثيل والأصنام بقوله تعالى فى الجن الذين كانوا مذللين لسليمان عليه السلام، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾(٢) يستدل بها عـلى خلاف الأحاديث الصحيحة الـتى تحرِّم التماثيل والتصـاوير! وما يفعل ذلك مسلم يؤمن بحديثه ﷺ أهـ.



قوله: [وعن أبى سعيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لتتبعن سنن....إلخ].

ولفظ البخارى: عن أبى سـعيد الخدرى عن النـبىِّ ﷺ قال: **«لتتبعـن سنَنَ من كان قبلكـم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حـتى لو دخلوا جحر ضب تـبعتموهم قلـنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟».**

وبوّب عليه باب قول النبى ﷺ **«لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم».**

ولفظ مسلم: قال رسـول الله ﷺ **«لتَتَّبِعُن سنَنَ الذين من قـبلكم. شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دَخَلوا فِى جحـرِ ضَبٍّ لاتبعتُمُوهُم.** قلنا يا رسول الله الـيهود والنصارى؟ قال: **فمن؟».**

---

(١) أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء/ باب مـا ذكر عن نبى إسرائيل (٦/٥٧١/٣٤٥٦، ومسلم فى العلم/ باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٨/ ٤٧٢/٦).

من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد به.

وانظر «فتح المجيد» (٤٤٥ ـ بتخريجنا).

(٢) سبأ: ١٣.

قال سليمان آل الشيخ[1]: هذا الحديث أورده المصنف بهذا اللفظ معزواً «للصحيحين» ولعله نقله عن غيرهما.

● **مناسبة الحديث للباب والتوحيد.**

قال سليمان آل الشيخ: ووجه مطابقة الحديث للترجمة واضح لأن الأمم قبلنا وجد فيها الشرك فكذلك يوجد في هذه الأمة كما هو الواقع. اهـ.

وقال نحوه ابن عثيمين والقرعاوى أيضاً فى «الجديد».

قوله: «لتتبِعُن».

قال ابن حجر[2]: بمثناتين مفتوحتين ثم موحدة مكسورة وعين مهملة مضمومة ونون ثقيلة وأصله تتبعون سنَن بالمهملة والنون بعدها نون أخرى «**من كان قبلكم**» بفتح اللام أهـ.

قال سليمان آل الشيخ[3]: (لتتبعن) هو بضم العين وتشديد النون أهـ.

قال ابن عثيمين[4]: اللام موطئة للقسم، والنون للتوكيد، فالكلام مُؤَكَّد بثلاثة مُؤَكِّدات: القَسَم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لتتبعنَّ.

قوله (سنن):

قال ابن حجر: بفتح السين للأكثر، وقال ابن التين: قرأناه بضمها، وقال المهلب: بالفتح أولى، لأنه الذي يستعمل فيه الذراع والشبر، وهو الطريق قلت: وليس اللفظ الأخير ببعيد من ذلك أهـ.

قال سليمان آل الشيخ[3]: أى طريق من كان قبلكم. أهـ ثم نقل بعض كلام الحافظ.

قال ابن عثيمين[4]: فيها روايتان: «سَنَن» و «سُنَن».

أما «سُنَن»؛ بضم السين: جمع سُنَّة، وهى الطريقة.

وأما «سَنَن»؛ بالفتح: فهى مفرد بمعنى الطريق.

وفَعَل تأتى مفردة مثل: فَنَنٌ جمعها أفنان، وسبب جمعها أسباب أهـ.

وفى رواية البخارى [شبراً شبراً، وذراعاً ذراعاً].

قال ابن حجر[5]: فى رواية الكشميهنى «شبراً بشبر وذراعاً بذراع» عكس الذى قبله

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٧١. (٢) فتح البارى (١٣/ ٣١٣). (٣) تيسير العزيز الحميد (٢٦٩).
(٤) القول المفيد (١/ ٥٩٧). (٥) فتح البارى (١٣/ ٣١٣).

قال عياض الشبر والذراع والطريقة ودخول الجحر تمثيل للأقتداء بهم فى كل شىء ما نهى الشرع عنه وذمه. اهـ.

قوله: [حذو القذة بالقذة].

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «حذو القذة بالقذة» هو بنصب حذو على المصدر.

قال ابن عثيمين[2]: «حذو» بمعنى محاذياً، وهى منصوبة على الحال من فاعل «تتبعن» أى حال كونكم محاذين لهم حذو القذة بالقذة اهـ.

ثم قال سليمان آل الشيخ[1]: والقذة ـ بضم القاف ـ واحدة القذ وهى ريش السهم، وله قذتان متساويتان، أى: لتفعلن أفعالهم ولتتبعن طرائقهم حتى تشبهوهم وتحاذوهم كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى، ثم إن هذا لفظ خبر معناه النهى عن متابعتهم، ومنعهم من الالفتات لغير دين الإسلام، لأن نوره قد بهر الأنوار وشريعته نسخت الشرائع، وهذا من معجزاته، فقد اتبع كثير من أمته سنن اليهود والنصارى وفارس فى شيمهم ومراكبهم وملابسهم، وإقامة شعارهم فى الأديان والحروب والعادات من زخرفة المساجد، وتعظيم القبور واتخاذها مساجد، حتى عبدوها ومن فيها من دون الله، وإقامة الحدود والتعزيرات أو وصفه بها رسوله على الضعفاء دون الأقوياء، وترك العمل يوم الجمعة، والتسليم بالأصابع، وعدم عيادة المريض يوم السبت، والسرور بخميس البيض، وأن الحائض لا تمس عجيناً، واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، والإعراض عن كتاب الله، والإقبال على كتب الضلال من السحر والفلسفة والكلام والتكذيب بصفات الله التى وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، ووصفه بما لايليق به من النقائص والعيوب إلى غير ذلك مما اتبعوا فيه اليهود والنصارى. اهـ.

وبنحو هذا قال ابن باز.

قلت: وهذا الشيخ سليمان أيضاً يصرح بعدم جواز يوم الجمعة راحة من العمل ولقد سبقه إلى ذلك الغزالى(*) ومن أدلته قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ أى انتشروا واعملوا ولكن لما أخذت اليهود السبت راحة. أخذنا نحن الجمعة راحة أيضاً اتباعاً لسنة اليهود.

وقال ابن عثيمين: شارحاً هذا الكلام ومفصلاً له:ـ

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) القول المفيد (١/٥٦٨ ـ ٦٠١).

(*) إحياء علوم الدين.

وقوله: «لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم» ليس على ظاهره، بل هو عام مخصوص؛ لأننا لو أخذنا بظاهره كانت جميع هذه الأمةتتبع سنن من كان قبلها، لكننا نقول: إنَّه عامّ مخصوص؛ لأنَّ في هذه الأمة من لايتبع كما أخبر النبي ﷺ أنه لاتزال طائفة من هذه الأمة على الحق، وقد يقال: إنَّ الحديث على عمومه وأنَّه لايلزم أن تتبع هذه الأمة الأمم السابقة في جميع سننها، بل بعض الأمة يتبعها في شيء وبعض الأمة يتبعها في شيء آخر، وحينئذ لا يقتضي خروج هذه الأمة من الإسلام، وهذا أولى لبقاء الحديث على عمومه، ومن المعلوم أنَّ منْ طُرق من كان قبلنا مالايُخرِج من الملَّة، مثل: أكل الربا، والحسد، والبغي، والكذب.

ومنه ما يخرج من الملَّة، كعبادة الأوثان.

السَّنَنُ: هي الطرائق، وهي متنوعة، منها ما هو اعتداء على حق الخالق، ومنها ما هو اعتداء على حق المخلوق.

فمن هذه السنن: عبادة القبور والصالحين؛ فإنَّها موجودة في الأمم السابقة وقد وجدت في هذه الأمة، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

ومن ذلك: الغلو في الصالحين كما وجد في الأمم السابقة وجد في هذه الأمة.

ومنها: دعاء غير الله، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: بناء المساجد على القبور موجود في السابقين، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: وصف الله بالنقائص والعيوب؛ فقد قالت اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وقالوا: إنَّ الله تعب من خلق السموات والأرض، وقد وجد في هذه الأمة من قال بذلك أو أشد منه؛ فقد وجد من قال: ليس له يد، ومنهم قال: لايستطيع أن يفعل ما يريد فلم يستو على العرش، ولاينزل إلى السماء الدنيا ولايتكلم، بل وجد في هذه الأمة من يقول: بأنَّه ليس داخلاً في العالم، وليس خارجاً عنه ولامتصلاً به ولامنفصلاً عنه؛ فوصفوه بما لايمكن وجوده، ومنهم من قال: لاتجوز الإشارة الحسيَّة إليه، ولايفعل، ولايغضب ولايرضى، ولايحب وهذا مذهب الأشاعرة.

ومنها: أكل السحت؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: أكل الربا؛ فقد وجد في الأمم ووجد في هذه الأمة.

ومنها: التحيل على محارم الله؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: إقامة الحدود على الضعفاء ورفعها عن الشرفاء؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: تحريف كلام الله عن مواضعه لفظاً ومعنى؛ كاليهود حين قيل لهم: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، فدخلوا على قفاهم، وقالوا: حنطة ولم يقولوا حطَّة، ووجد في هذه الأمة من فعل كذلك؛ فحرَّف لفظ الاستواء إلى الاستيلاء، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، وقالوا هم: الرحمن على العرش استولى.

قال ابن القيم: إنَّ اللام في استولى مزيدة زادها أهل التحريف كما زاد اليهود النون في (حطَّة) فقالوا: (حنطة).

نون اليهود ولام جهمي هما ... في وحي رب العرش زائدتان

أمر اليهود بأن يقولوا حطَّة ... فأبوا وقالوا حنطة لهوان

وكذلك الجهمي قيل له استوى ... فأبى وزاد الحرف للنقصان

ووجد في الأمم السابقة من اتَّخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله، ووجد في هذه الأمة من يُعارض قول النبي ﷺ بقول شيخه.

فإذا تأمَّلت كلام النبي ﷺ وجدته مطابقاً للواقع: «لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم».اهـ.

● **صور من متابعة المسلمين لليهود**

[قلت]: وسب اليهود الملائكة وعادوهم قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الآية ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ ومنا من قال: يأكلون أرز ولبن مع الملائكة وأيضاً يصف عشيقته كأنها ملك أو مثل الملائكة، وظهر من كذلك ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وظهر منا كذلك وظهر منهم من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، وظهر منا من يفعل ذلك ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ وظهر منا من يقل أيضاً من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن أشرك، فرد الله على ذلك ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

وظهر منهم الفِرق والأحزاب، وظهر منا يفعل ذلك، وظهر منهم من يدحض ما مع المخالف من حق وباطل، وظهر منا من يفعل ذلك.

وظهر منهم من يتهم أشرف الناس بأحط الأعمال، وظهر منا من يفعل ذلك نسأل الله السلامة والعافية والمعافاة(١).

(١) وانظر مقدمتنا في شرح «حلية طالب العلم» يسر الله طبعها.

قوله: [حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه].

قال ابن حجر[1]: (جحر) بضم الجيم وسكون المهملة، و(الضب) الحيوان المعروف أهـ.

قلت: وهو حيوان يشبه الفأرة إلا أن أسنانه الأمامية مرتفعة ويقال لكل من ارتفعت أسنانه كذلك «ضب» أو فلان له ضب اهـ.

وتابع سليمان آل الشيخ[2] ابن حجر على ذلك.

وقال ابن عثيمين[3]: هذه الجملة تأكيد منه ﷺ للمتابعة. وجحر الضب من أصغر الجحور، ولو دخلوا جحر أسد من باب أولى أن ندخله؛ فالنبي ﷺ قال ذلك على سبيل المبالغة، كقوله ﷺ: «**من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوّقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين**»[4] ومن اقتطع ذراعاً؛ فمن باب أولى أهـ.

ـ ثم ذكر سليمان آل الشيخ الأحاديث الشاهدة لهذا المعنى:ـ

فقال: ففي حديث آخر: «**حَتَّى لَوْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلاَنِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ**»[5].

وفي حديث آخر: «**حَتَّى لَوْ أَحَدَهُمْ جَامَعَ امْرَأَتَهُ فِي الطَّرِيقِ لَفَعَلْتُمُوهُ**»[6] صحت بذلك الأحاديث، فأخبر أن: أمته ستفعل ما فعلته اليهود والنصارى وفارس من الأديان والعادات والاختلاف.

قال شيخ الإسلام: هذا خرج مخرج الخبر والذم لمن يفعله كما كان يخبر عما يكون بين يدي الساعة من الأشراط والأمور المحرمة أهـ.

قال ابن عثيمين[7]: لكن يبقى النظر: **هل هذا الحديث للتحذير أو للإقرار؟**

الجواب: لاشك أنَّه للتحذير وليس للإقرار؛ فلايقول أحد: سأحسد وسآكل الربا، وسأعتدي على الخلق؛ لأنَّ الرسول ﷺ قال ذلك، فمن قال ذلك؛ فإننا نقول له: أخطأت؛ لأن قول النبي ﷺ لاشك أنَّه للتحذير، ولهذا قال الصحابة: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟

(١) فتح الباري (١٣/ ٣١٣). (٢) تيسير العزيز الحميد (٢٧٠). (٣) القول المفيد (١/ ٦٠٢).
(٤) أخرجه. الترمذي (٢٦٤١) واستغربه. (٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٥٥). (٧) القول المفيد (١/ ٦٠٠، ٦٠١)

ثم نقول لهم أيضاً: إنَّ الرسول ﷺ أخبر بأشياء ستقع، ومع ذلك أخبر بأنها حرام بنص القرآن.

فمن ذلك أنه أخبر أنه الرجل يكرم زوجته ويعق أمه، وأخبر أنَّ الإنسان يعصى أباه ويدنى صديقه، وهذا ليس بجائز بنص القرآن، لكن قصد التحذير من هذا العمل.

ووجد فى الأمم السابقة من يقول للمؤمنين: إنَّ هؤلاء لضالون، ووجد فى هذه الأمة من يقول للمؤمنين: إن هؤلاء لرجعيُّون.

فالمعاصى لها أصل فى الأمم على حسب ماسبق، ولكن من وفقه الله للهداية اهتدى.

والحاصل: أنَّك لاتكاد تجد معصية فى هذه الأمة إلا وجد لها أصل فى الأمم السابقة.

ولاتجد معصية فى الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثاً فى هذه الأمَّة أهـ.

قال سليمان آل الشيخ[1]: وقال غيره: وجمع ذلك أن كفر اليهود أشد من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولايتبعونه عملاً ولا قولاً، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون فى أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون مالايعلمون، ففى هذه الأمة من يحذو حذو الفريقين. ولهذا كان السلف كسُفيان بن عُيينة يقولون: مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ اليَهودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارى وقضاء الله نافذ بما أخبر به رسوله ﷺ بما سبق فى علمه، لكن ليس الحديث إخباراً عن جميع الأمة لما تواتر عنه أنها لاتجتمع على ضلالة أهـ. وقد تقدم ذكر ذلك عن ابن عثيمين.

قوله: [قالوا يارسول الله اليهود والنصارى؟].

قال سليمان آل الشيخ[2]: يرفع اليهود خبر مبتدأ محذوف، أى: أهم اليهود والنصارى الذين نتبع سنتهم؟ وقوله: قال: «فمن»؟ استفهام إنكار. أى: فمن هم غير أولئك؟ ثم إنه فسر هنا باليهود والنصارى. وفى رواية أبى هريرة فى البخارى بفارس والروم ولاتعارض.

كما سيأتى فى حل هذا التعارض من كلام ابن حجر الآتى قريباً.

قال ابن عثيمين[3]: قوله: **«قالوا اليهود والنصارى»** يجوز فيها وجهان:

الأول: نصب اليهود والنصارى على أنَّه مفعول لفعل محذوف تقديره: أتعنى اليهود والنصارى؟

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٧٠).

(٢) عن تيسير العزيز الحميد (٢٧٠و ٢٧١).

(٣) القول المفيد (١/ ٦٠٢ ـ ٦٠٣).

الثانى: الرفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أهم اليهود والنصارى؟

وعلى كل تقدير؛ فالجملة إنشائية لأنهم يسألون النبى ﷺ؛ فهى استفهامية، والاستفهام من باب الإنشاء.

واليهود: أتباع موسى عليه الصلاة والسلام، وسمّوا يهوداً نسبة إلى يهوذا من أحفاد إسحاق، أو لأنَّهم هادوا إلى الله؛ أى: رجعوا إليه بالتوبة من عبادة العجل.

قلت: ويستدله بقوله تعالى: ﴿**إنا هدنا إليك**﴾.

والنصارى: هم أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام، وسمّوا بذلك نسبة إلى بلدة تسمَّى الناصرة، وقيل: من النصرة؛ كما قال تعالى ﴿ **مَنْ أنصَارِى إِلَى اللَّه**﴾. أهـ.

قوله: [فمن؟!].

قال ابن حجر(١): قوله: (قال فمن) هو استفهام إنكار والتقدير: فمن هم غير أولئك أهـ.

ثم قال ابن حجر(٢): وقد أخرج الطبرانى من حديث المستورد بن شداد رفعه «**لاتترك هذه الأمة شيئاً من سنن الأولين حتى تأتيه**»(٣) ووقع فى حديث عبدالله بن عمرو عند الشافعى بسند صحيح «**لتركبن سنة من كان قبلكم حلوها ومرها**» قال ابن بطال: أعلم ﷺ أن أمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء كما وقع للأمم قبلهم، وقد أنذر فى أحاديث كثيرة بأن الآخر شر، والساعة لاتقوم إلا على شرار الناس، وأن الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من الناس. قلت: ـ ابن حجر ـ وقد وقع معظم ما أنذر به ﷺ وسيقع بقية ذلك، وقال الكرمانى: حديث أبى هريرة مغاير لحديث أبى سعيد لأن الأول فسر بفارس والروم، والثانى باليهود والنصارى، ولكن الروم نصارى وقد كان فى الفرس يهود، أو ذكر ذلك على سبيل المثال لأنه قال فى السؤال كفارس انتهى. ويعكر عليه جوابه ﷺ بقوله: «**ومن الناس إلا أولئك**» لأن ظاهرة الحصر فيهم، وقد أجاب عنه الكرمانى بأن المراد حصر الناس المعهود من المتبوعين.

قلت ـ ابن حجر ـ: ووجهه أنه ﷺ لما بعث كان مُلْك البلاد منحصراً فى الفرس والروم وجميع من عداهم من الأمم من تحت أيديهم أو كلا شىء بالنسبة إليهم، فصح الحصر بهذا الاعتبار، ويحتمل أن يكون الجواب اختلف بحسب المقام، فحيث قال فارس

(١، ٢) فتح البارى (١٣/ ٣١٤).

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٣١٣) وفى إسناده ابن لهيعة.

والروم كان هناك قرينة تتعلق بالحكم بين الناس وسياسة الرعية، وحيث قيل اليهود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات أصولها وفروعها، ومن ثم كان في الجواب عن الأول «ومن الناس إلا أولئك» وأما الجواب فى الثانى بالإبهام فيؤيد الحمل المذكور وأنه كان هناك قرينة تتعلق بما ذكرت أهـ.

● فوائد: ـ فيه ذم الرأى: **قال ابن حجر**(١):

واستدل ابن عبدالبر فى باب ذم القول بالرأى إذا كان على غير أصل بما أخرجه من جامع ابن وهب «أخبرنى يحيى بن أيوب عن هشام بن عروة أنه سمع أباه يقول «لم يزل أمر بنى إسرائيل مستقيماً حتى حدث فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم فأحدثوا فيهم القول بالرأى وأضلوا بنى إسرائيل»(٢) قال: وكان أبى يقول «السنن السنن فإن السنن قوام الدين»(٣).

وعن ابن وهب أخبرنى بكر بن مضر عمن سمع ابن شهاب الزهرى وهو يذكر ما وقع الناس فيه من الرأى وتركهم السنن، فقال: «إن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذى كان بأيديهم حين استقلوا الرأى وأخذوا فيه»(٤).

وأخرج ابن أبى خيثمة من طريق مكحول عن أنس «قيل: يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ قال: **«إذا ظهر فيكم ما ظهر فى بنى إسرائيل، إذا ظهر الإدهان فى خياركم والفحش فى شراركم، والملك فى صغاركم، والفقه فى رذالكم»**.

وفى مصنف قاسم ابن أصبغ بسند صحيح عن عمر «فساد الدين إذا جاء العلم من قبل الصغير استعصى عليه الكبير، وصلاح الناس إذا جاء العلم من قبل الكبير تابعه عليه الصغير» وذكر أبو عبيد أن المراد بالصغر فى هذا صغر القدر لا السن والله أعلم أهـ.

قال ابن عثيمين(٥):

● **من فوائد الحديث:**

١ـ ما أراده المؤلف بسياقه، وهو أنَّ بعض هذه الأمة يعبد الأوثان؛ لأنَّه من سنن من قبلها، وقد أخبر ﷺ أننا ستتبعهم.

---

(١) فتح البارى (١٣/ ٣١٤).

(٢) أخرجه ابن عبدالبر فى «بيان جامع العلم ونقله» (٢/ ١٣٨).

(٣) المصدر السابق. (٤) انظر المصدر السابق.

(٥) القول المفيد ١/ ٦٠٣: ٦٠٥.

٢ـ **ويستفاد أيضاً من فحوى الكلام التحذير من متابعة من قبلنا فى معصية الله.**

٣ـ **أنَّه ينبغى معرفة ما كان عليه من كان قبلنا مما يجب الحذر منه لنحذره، وغالب ذلك ـ ولله الحمد ـ موجود فى القرآن والسنة.**

قلت: وكأنه يشير إلى أن من أراد فقه الواقع فمصدره الأوّل الكتاب والسنة ومن أعرض عنهما ولجأ إلى غيرها من الكتب فلا يهتدى. والله أعلم.

٤ـ استعظام هذا الأمر عند الصحابة؛ لقولهم اليهود والنصارى، فإنَّ الاستفهام للاستعظام؛ أى: استعظام الأمر أن نتبع سنن من كان قبلنا بعد أن جاءنا الهدى مع النبى ﷺ.

٥ـ أنَّه كلما طال العهد بين الإنسان وبين الرسالة، فإنَّه يكون أبعد من الحق؛ لأنَّه أُخْبِر عن مستقبل ولم يُخبر عن الحاضر، ولأنَّ من سنن من قبلنا أنَّه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾(*).

فإذا كان طول الأمد سبباً لقسوة القلب فيمن قبلنا؛ فسيكون فينا، ويشهد لذلك ما جاء فى «البخارى» من حديث أنس رضى الله عنه؛ أنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «**لا يأتى على الناس زمان إلاّ وما بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم**»[1]، ومن تتبع أحوال هذه الأمة وجد الأمر كذلك، لكن يجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد؛ فحديث أنس رضى الله عنه حديث صحيح سنداً ومتناً؛ فالمتن ليس فيه شذوذ، والسند فى «البخارى»، والمراد به من حيث الجملة، ولذلك يوجد فى أتباع التابعين من هو خير من كثير من التابعين؛ فلا تيأسوا، فتقولوا: إذاً لايمكن أن يوجد فى زماننا هذا مثل ما سبق؛ لأنَّنا نقول: إنَّ مثل هذا الحديث يراد به الجملة، وإذا شئتم أن يتّضح الأمر؛ فانظروا إلى جنس الرجال وجنس النساء؛ أيهما خير؟

والجواب: جنس الرجال خير، قال تعالى: ﴿**وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾، لكن يوجد

(*) وقد أطلنا شرح الآية من حيث أسباب النزول وعلاقتها بالإيمان وغيره فى كتابنا «فقه الخطابة وزاد الخطيب» فى خطبة تجديد الإيمان. فيرجع إليها تتمة للفائدة.

(١) سبق تخريجه.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا،

في النساء من هي خير من كثير من الرجال، فيجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

فإذا نظرنا إلى مجموع القرن كله نجد أن ما بعد القرن شر منه، لا باعتبار الأفراد ولاباعتبار مكان دون مكان؛ فقد تكون أمة فى بعض الجهات يرتفع الناس فيها من حسن إلى أحسن، كما لو نشأ فيها علماء نفع الله بهم؛ فإنَّهم يكونون أحسن ممن سبقهم.

أمَّا الصحابة؛ فلا أحد يساويهم فى فضل الصحبة، حتى أفرادهم لايمكن لأحد من التابعين أن يساويهم فيها مهما بلغ من الفضل؛ لأنَّه لم يدرك الصحبة.

مسألة: ما هى الحكمة من ابتلاء الأمة بهذا الأمر: «**لتتبعن سنن**...» إلخ، وأن يكون فيها من كل مساوىء من سبقها؟

الجواب: الحكمة ليتبين بذلك كمال الدين؛ فإنَّ الدين يعارض كل هذه الأخلاق، فإذا كان يُعارضها دلّ على أنَّ كل نقص فى الأمم السابقة، فإنَّ هذه الشريعة جاءت بتكميله؛ لأنَّ الأشياء لاتتبيَّن إلاّ بضدّها؛ كما قيل: وبضدها تتبيَّن الأشياء. اهـ.

وقال القرعاوى[1]: ذاكراً أيضاً لفوائد الحديث:ـ

١ـ بيان معجزة للنبى ﷺ حيث تحقق ما أخبر به.

٢ـ توضيح الأشياء المعنوية بالأمثلة الحسية من أساليب التعليم فى الإسلام.

٣ـ تحريم مشابهة أهل الكتاب وفارس والروم.

٤ـ سؤال أهل العلم عما خفى حكمه أهـ.

قلت: وفيه عدم جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة وهذا متقرر فى علم الأصول.



مناسبة الحديث للباب:

قال قرعاوى[2]: حيث دلَّ الحديث أنَّ بعض هذه الأمة سيعبد الأوثان. قلت: وقوله: وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان.

قوله: [عن ثوبان].

---

(١) الجديد ٢١٣و ٢١٤.

(٢) الجديد (٢١٧).

وأُعْطِيتُ الكَنْزَين: الأَحْمَرَ، وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَن لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِن سِوَى أَنْفُسِهِم، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَأَنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَيُرَد وإني أعطيتك لأُمَّتك أن لاأهْلكهم بِسَنَة بِعَامَّةٍ وَأَن لا أُسَلِّطَ عَلَيهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُم، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيهِم مَن بِأَقْطَارِهاَ ـ أو قال من بين أقطارها ـ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُم يُهْلِكُ بَعْضاً، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً»(1).

قال سليمان آل الشيخ(2): قوله: عن ثوبان. هو ثوبان مولى النبي ﷺ صحبه ولازمه ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين. أهـ.

قوله: [زوى لي].

قال الخطابي(3): معناه قبضها وجمعها، يقال: انزوى الشيء إذا انقبض وتجمع أهـ.

وقال سليمان آل الشيخ(4): **قال التوربشتي**: زويت الشيء جمعته وقبضته، يريد به تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب وحاصله أن الله طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة نظره.

وقال القرطبي: أي جمعها لي حتى أبصرت ما تملك أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها.

[قوله فرأيت].

قال سليمان آل الشيخ: وظاهر هذا اللفظ يقتضي أن الله تعالى قوى إدراك بصره، ورفع عنه الموانع المعتادة فأدرك البعيد من موضعه كما أدرك بيت المقدس من مكة، وأخذ يخبرهم عن آياته وهو ينظر إليه أهـ. وسيأتي مزيد شرح في ذلك.

وقال ابن عثيمين: [فرأيت] أي بعيني، فهي رؤية عينية ويحتمل أن تكون رؤية منامية. اهـ.

---

(1) [صحيح] أخرجه مسلم (9/ 240/ 2889) والترمذي (4/ 471/ 2175).
عن ثوبان به.
وانظر «فتح المجيد» (ح 448) بتخريجنا.

(2) تيسير العزيز الحميد (271).

(3) عون المعبود (11/ 322).

(4) تيسير العزيز الحميد (271).

قوله: [مشارقها ومغاربها].

قال سليمان آل الشيخ(١): من أقصى المشارق والمغارب أهـ.

وقال ابن عثيمين(٢): أى: أماكن الشرق والغرب منها.

وهل المراد هنا بالزوى أنّ الأرض جمعت، أو أنَّ الرسول ﷺ قُوِّى نظره حتى رأى البعيد؟

الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أنَّ الأرض جمعت، لا أن بصره قوى حتى رأى البعيد.

وقال بعض العلماء: المراد قوة بصر النبى ﷺ: أن الله أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول، ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها؛ فالله على كل شىء قدير؛ فهو قادر على أن يجمع له ﷺ الأرض حتى تكون صغيرة فيدركها من مشارقها إلى مغاربها.

● **اعتراض وجوابه:**

فإن قيل: هذا إن حمل على الواقع؛ فليس بموافق للواقع؛ لأنَّه لو حصرت الأرض بحيث يدركها بصر النبى ﷺ المجرد؛ فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارى؟

والجواب: بأنَّ هذا من الأمور الغيبية التى لايجوز أن تورد عليها كيف ولِمَ، بل نقول: إنَّ الله على كل شىء قدير؛ إذ قوة الله ـ سبحانه ـ أعظم من قوتنا وأعظم من أن نحيط بها، ولهذا أخبر النبى ﷺ أنَّ الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم(٣)؛ فلايجوز أن نقول: كيف يجرى مجرى الدم؟ فالله أعلم بذلك.

وهذه المسائل التى لاندركها يجب التسليم المحض لها، ولهذا نقول فى باب الأسماء والصفات: تجرى على ظاهرها مع التنزيه عن التكييف والتمثيل، وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة أهـ.

قلت: «**قوله وتحتمل أن تكون رؤية منامية**»: هذا الإحتمال بعيد لأنه ﷺ قال فى الحديث نفسه «**أنه دعا الله عزوجل**» فلايكون الدعاء إلا فى اليقظة على الراجح.

وأنا أعيد وأكرر فى هذه النقطة كثيراً لأن الصوفية أستدلوا أستدلالاً عجيباً على جواز

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٧١). (٢) القول المفيد (٦٠٦/١، ٦٠٧، ٦٠٨).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٧١٧١)، ومسلم فى السلام (١٥٥/١٤ ـ النووى) عن صفية به. وانظر «رياض الصالحين» (١٨٥٢ ـ بتخريجنا).

التصاوير ومشاهدة التلفاز والسينما بـهذا الحديث وقالوا إن الله سبحانه وتعالى ـ ﴿تعالى الله عن ذلك علو كبيراً﴾ أتى بالأرض وزواها على شاشـة تليفزيونية فالرسول ﷺ شاهد المشارق والمغارب من خلال الشاشة تليفزيونيا وسينمائياً.

ونحن نقول: ـ هذا الكلام يخالف فهم السلف للحديث وفهم الشراح حيث قالوا إن الرؤية حقيقية وبعينى الرأس وأما مانراه فى الـتلفاز فهى خيالات وصور وليست حقيقة. بدليل أنك قد ترى فى التلفاز خدع سينمـائية وليست حقيقة والحديث يدل على أنه رأى رؤية حقـيقية بعيـنى رأسه إما بقوة الإدراك أو تـقريب البعـيد وكلاهما ليـس على الله بعزيز.

ثانياً: أن هذا الأمر فيه كرامة لرسول عليه السـلام وفيه عظيم القدرة لله عزوجل وفيه معجزة من معجزاته وكون هذا الأمر على شاشة تلـفزيونية لا تأباه! العقول السليمة فقط بل تأباه المعجزة والقدرة.

وإذن فما الفرق بين صنع الله لنبيه وصنع البشر للبشر؟! والله أعلم.

قوله: «وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها».

قال سليمان آل الشيخ[1]: قال القرطبـى: هذا الخبر وجد مخبره كمـا قاله، فكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن ملك أمته اتسع إلـى أن بلغ أقصى بحر طنجة، بالنون والجيم الذى هو منتهى عمارة المغرب إلى أقـصى المشرق، ما وراء خراسان والنهر وكثير من بلاد الهـند والسند والصـغد. ولم يتسع ذلك الاتـساع من جهة الجنـوب والشمال، ولذلك لـم يفكر علـيه السلام أنه أريـه ولا أخبر أن ملك أمـته يبلغـه. وقوله: زوى: يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل، وأن يكون مبنياً للمفعول والأول أظهر أهـ.

قال النووى[2]: فيه إشارة إلـى أن ملك هذه الأمة يكـون معظم امتداده فـى جهتى المشرق والمغرب، وهكذا وقع، وأما فى جهتى الجنوب والشمال قليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب أهـ.

قال ابن عثيمين[3]: معنى المراد بالأمة: أمة الإجابة التى آمنت بالرسول ﷺ سيبلغ ملكها ما زوى للرسول ﷺمنها، وهذا هـو الواقع؛ فإنَّ ملك هذه الأمة اتَّسع من المشرق

(١) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٢.

(٢) شرح مسلم (٩/ ٢٤٢).

(٣) القول المفيد ١/ ٦٠٨.

ومن المغرب اتِّساعاً بالغاً، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير، والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلى السِّند والهند وما وراء ذلك، ومن المغرب إلى ما وراء المحيط، وهذا يحقق ما رآه النبى ﷺ.

فائدة:

قال الخطابى: يتوهم بعض الناس أن (من) هاهنا معناها التبعيض فيقول: كيف شرط هاهنا فى أول الكلام الاستيعاب ورد آخره إلى التبعيض، وليس ذلك على ما يقدرونه وإنما معناه التفصيل للجملة المتقدمة، والتفصيل لايناقض الجملة ولايبطل شيئاً منها، لكنه يأتى عليها شيئاً فشيئاً ويستوفيها جزءاً جزءاً. والمعنى أن الأرض زويت جملتها له مرة واحدة فرآها ثم يفتح له جزء جزء منها حتى يأتى عليها كلها فيكون هذا معنى التبعيض فيها أهـ(١).

قوله: «وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ، وَالأَبْيَضَ».

قال سليمان آل الشيخ(٢): قال القرطبى: يعنى بهما كنز كسرى وهو ملك الفرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم، وقصورهما وبلادهما. وقد دل على ذلك قوله عليه السلام حين أخبر عن كلاهما أهـ.

[قلت] قال النووى(٣): الذهب والفضة، والمراد كنز كسرى وقيصر ملكى العراق والشام أهـ.

ثم ذكر سليمان آل الشيخ حديث **«وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِه لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزهُمَا فِى سَبِيلِ الله»**(٤) وعبر بالأحمر عن كنز قيصر. لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة. وقد ظهر ذلك ووجد كذلك فى زمان الفتوح فى إمارة عمر رضى الله عنه ـ فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته، وما كان فى بيوت أمواله وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر لما فتحت بلاده. كذا قال فى الغالب على كنوز كسرى وقيصر وعكس ذلك: التوربشتى والخلخالى. والأبيض والأحمر منصوبان على البدل أهـ.

(١) عون المعبود (١١/ ٣٢٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٧٢).

(٣) شرح مسلم (٩/ ٢٤١).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦١٨)، ومسلم فى الفتن (٩/ ٢٦٧/ ٧٥) عن أبى هريرة به.

قال ابن عثيمين[1]: وقوله: «**أعطيت**» هل هو ﷺ أعطيها في حياته، أم بعد موته؟

الجواب: بعد موته أعطيت أمته ذلك، لكن ما أعطيت أمته؛ فهو كالمعطى له؛ لأنَّ امتداد ملك الأمة لا لأنَّها أمة عربية كما يقول الجهّال، بل لأنَّها أمة إسلامية أخذت بما كان عليه الرسول ﷺ.

قلت: وقد تقدم فى أوّل الكتاب أن خطاب الله تعالى للنبى على ثلاثة أنواع منها هذا النوع أنه يخاطبه ويكون المراد بها أمته دونه وارجع إلى تفسير قوله: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾ الآية فى أول الكتاب تجد ذلك.

قوله: (وإنى سألت ربى لأمتى أن لايهلكها بسنة بعامة).

قال سليمان آل الشيخ[2]: هكذا ثبت فى أصل المصنف بعامة بالباء وهى رواية صحيحة فى أصل «مسلم» وفى بعض أصوله بسنة عامة بحذفها. قال القرطبى: وكأنها زائدة لأن عامة صفة لسنة فكأنه قال: بسنة عامة.

ويعنى بالسنة: الجدب العام الذى يكون به الهلاك العام، ويسمى الجدب والقحط سنة ويجمع على سنين كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ**﴾. أى: بالجدب المتوالى أهـ.

قال ابن عثيمين[3]: السنة: الجدب والقحط، وهو يهلك ويدمر، قال ﷺ: «**اللهم! اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف**»[4]، وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ**﴾، ويحتمل أن يكون المعنى بعام واحد؛ فتون[*] الباء للظرفية.

وعامة؛ أى: عموماً تعمهم أهـ.

قوله: «وإن ربى قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لايرد».

---

(١) [صحيح] القول المفيد (١/٦٠٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد ١/٢٧٢، ١/٢٧٣.

(٣) القول المفيد ١/٦٠٩.

(٤) تقدم من حديث أبى هريرة به.

(*) هكذا فى المطبوع ولعلها [فتكون].

قال سليمـان آل الشيخ[1]: قال بعضـهم: أى إذا حكمت حكـماً مبرماً فإنـه نافذ لايرد بشيء، ولايقدر أحد على رده، بل كل جميع الخلق تمضى عليهم الأقدار طوعاً وكرهاً كما قال النبى ﷺ: «**لارَادَ لِمَا قَضَيْتَ**»[2] **قلت: ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ** الظاهر أنه سواء فى ذلك المبرم والمعلق، فالكل لايرد فإن هذا إخبار عن عدم الرد لجنس القضاء، والنبى ﷺ سأل ذلك مطلقاً فأجيب بهذا واستجاب له دعاءه مالم يوجد الشرط المقتضى لتسليط العدو، فإذا وجد ذلك وجد القضاء المعلق.

قال ابن عثيمين[3]: اعلم أن قضاء الله نوعان:

(١) قضاء شرعى قد يُرد؛ فقد يرده الله ولايقبلونه.

(٢) قضاء كونى لايرد، ولابد أن ينفذ.

وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعهما قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ**﴾.

ومثال القضاء الشرعي: قوله تعالى: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾؛ لأنَّه لو كان كونيًا؛ لكان كل الناس لايعبدون إلا الله.

ومثال القضاء الكوني: قوله تعالى: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾؛ لأنَّ الله تعالى لا يقضى شرعاً بالـفساد، لكنه يقضى به كوناً وإن كـان يكرهه سبحانـه؛ فإنَّ الله لايحب الفســاد ولا المفسدين، لكنـه يقضى بذلك لحكمة بالغة، كما قَسَّم خلقه إلـى مؤمن وكافر؛ لما يترتَّب على ذلك من المصالح العظيمة.

والمراد بالقضاء فى هذا الحديث: القضاء الكونى؛ فلا أحد يستطيع ردّه مهما كان من الكفر والفسوق؛ فقـضاء الله نافذ على أكبر الناس عتواً واستكباراً، فـقد نفذ على فرعون وأُغرق بالماء الذى كان يفتخر به، وعلى طواغيت بنى آدم فأهلكهم الله ودمَّرهم.

وفى قوله: «**إذا قضيت قضاء؛ فإنَّه لايُرد**» من كمال سلطان الله وقدرته وربوبيَّته ما هو ظاهر؛ لأنَّه ما من مَلِك سوى الله إلاَّ يمكن أن يرد ما قضى به.

واعلم أنَّ قضاء الله كمشيئته بالحكمة؛ فهـو لايقضى قضاءً إلاَّ والحكمة تقتضيه، كما

(١) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٣.

(٢) ذكره الحافظ فى «الفتح» (١١/ ٥٢١) ونسبه للطبرانى وحسن إسناده.

(٣) القول المفيد ١/ ٦١٠.

لايشاء شيئاً إلا والحكمة تقضتيه، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾؛ فيتبيَّن أنَّه لايشاء شيئاً إلاّ عن علم وحكمة، وليس لمجرّد المشيئة.

خلافاً لمن أنكر حكمة الله من الجهمية وغيرهم، فقالوا: إنَّه لايفعل الأشياء إلاّ لمجرد المشيئة، فجعلوا على زعمهم المخلوقين أكمل تصرُّفاً من الله؛ لأنَّ كل عاقل من المخلوقين لايتصرَّف إلا لحكمة، ولهذا كان الذى يتصرَّف بسفه يحجر عليه، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾.

فنحن نقول: إنَّ الله ـ جل وعلا ـ لايفعل شيئاً ولايحكم بشىء إلاّ لحكمة.

ولكن هل يلزم من الحكمة أن نحيط بها علماً؟

الجواب: لايلزم؛ لأنَّنا أقصر من أن نحيط علماً بِحِكَم الله كلها، صحيح أنَّ بعض الأشياء نعرف حكمتها، لكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها.

والمقصود من قوله: «**إذا قضيت قضاءً؛ فإنَّه لايُرد**» بيان أن من الأشياء التى سألها النبى ﷺ مالم يُعطها؛ لأنَّ الله قضى بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يَرُدّ ما قضاه الله ـ عزوجل ـ.

والقضاء قد يتوقف على الدعاء، بل إن كل القضاء أو أكثر القضاء له أسباب؛ فدخول الجنة لايمكن إلا بسبب يترتَّب دخول الجنة عليه، وهو الإيمان والعمل الصالح.

كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله ـ عزوجل ـ منعه حتى نسأل، لكن من الأشياء مالاتقتضى الحكمة وجوده، وحينئذ يجازى الداعى بما هو أكمل، أو يؤخر له ويدخر له عند الله ـ عزوجل ـ، أو يصرف عنه من السوء ما هو أعظم، والدعاء إذا تمت فيه شروط القول ولم يُجَب؛ فإننا نجزم بأنَّه ادُّخِر له. اهـ. **قلت**: وقد تقدم صدر هذا الكلام عند قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ الآية فى أول الكتاب.

قوله: [وإنى أعطيتُك لأمتك أن لا أهلكم بسنة بعامة ... إلخ].

قال سليمان آل الشيخ(١): «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً**» أى حتى يوجد ذلك منهم فإن وجد، فإنه يسلط عليهم عدوهم من الكفار، فيستبيح جماعتهم وإمامهم ومعظمهم، لا كل الأمة، ثم أيضاً تكون العاقبة لهذه الأمة إن رجعوا عما هم فيه من

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٧٤/ ٢٧٣)

الأسباب الموجبة للتسليط، وكذلك وقع، فإن هذه الأمة لما جعل بأسها بينها اقتتلوا فأهلك بعضهم بعضاً، وسبى بعضهم بعضاً، فلما فعلوا ذلك تفرقت جماعتهم واشتغل بعضهم ببعض عن جهاد العدو، واستولوا عليهم، كما وقع ذلك في المائة السابعة، في المشرق والمغرب، فاختلفت ملوك المشرق وتخاذلوا واستولى التتار على غالب أرض خراسان، وعلى العراق، وديار الروم، وقتلوا الخليفة والعلماء والملوك الكبار، وكذلك ملوك المغرب اختلفوا وتخاذلوا واستولت الإفرنج على جمع بلاد الأندلس والجزر القريبة منها، فهى فى أيديهم إلى اليوم، بل استولوا على كثير من بلدان الشام حتى استنقذها منهم صلاح الدين بن أيوب، وغيره أهـ.

قال ابن عثيمين(١) شارحاً كلام «تيسير العزيز الحميد»:

وقوله: «**وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة**» هذه واحدة.

والثانية: قوله: «**أن لا أسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً**».

وهذه الإِجابة قُيدت بقوله: «**حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً**» إذا وقع ذلك منهم؛ فقد يُسلّط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم؛ فكأنّ إجابة الله لرسوله ﷺ فى الجملة الأولى بدون استثناء، وفى الجملة الثانية باستثناء «**حتى يكون بعضهم ...**».

وهذه هى الحكمة من تقديم قوله: «**إذا قضيت قضاءً؛ فإنّه لايُرد**»؛ فصارت إجابة الله لرسوله ﷺ مقيَّدة.

ومن نعمة الله أنَّ هذه الأمة لن تهلك بسنة بعامة أبداً؛ فكل من يدين بدين الرسول ﷺ؛ فإنّه لن يهلك، وإن هلك قوم فى جهة بسنة؛ فإنّه لايهلك الآخرون.

فإذا صار بعضهم يقتل بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً؛ فإنَّه يُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، وهذا هو الواقع؛ فالأمة الإِسلامية حين كانت أمة واحدة عوناً فى الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة، ولمَّا تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً؛ سلَّط الله عليهم عدواً من سوى أنفسهم، وأعظم من سُلِّط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطاً لانظير له؛ فيقال: إنهم قتلوا فى بغداد وحدها أكثر من خمس مئة عالم فى يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا

(١) القول المفيد ١/٦١٣، ٦١٤.

الكتب الإِسلامية جسراً على نهر دجلة يطؤونـها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بـطونهن ويخرجون أولادهن يتحـركون أمامهم فيقتلونـهم، وهى حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن الأثيـر فى «الكامل»: «لقـد بقيت عدة سنـين معرضاً عن ذكـر هذه الحادثة استعظاماً لها كـارهاً لذكرها فأنا أُقدم رجلاً وأُوخر أخرى، فمن الذى يـسهل عليه نعى الإِسلام والمسلمين؟! ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك؟! فيا ليت أمى لم تلدنى! وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسـياً منسياً! إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء عـلى تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذلك لا يجدى...»، وذكر كلاماً طويلاً ووقائع مفجعة، ومن أراد مزيداً من ذلك؛ فليرجع إلى حوادث سنة ٦١٧ من الكتاب المذكور.

وفى الحديـث دليل تحريـم القتال بيـن المسلمـين، وإهلاك بعضـهم بعضـاً، وسبى بعضهم بعضاً، وأنَّه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم. اهـ.

ثم قال: وقوله: «أن لايسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم».

أى: لايُسلـط عليهم عـدواً، والعدو: ضد الولى، وهـو: المُعَادى المُبْغِـض الحاقد، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار، ولهذا قال: «من سوى أنفسهم» اهـ(١).

قوله: «من سوى أنفسهم».

قال سليمان آل الشيخ: أى: من غيرهم يعنى الكفار اهـ.

قوله: «فيستبيح بيضتهم».

قال سليمان آل الشيخ(٢):

قال الجوهرى: بيضة كل شىء حـوزته، وبيضة القوم ساحتهم، وعـلى هذا فيكون معنى الحديث: إن الله تـعالى لايسلط العدو على كافـة المسلمين حتى يستبـيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهـم كل من بين أقطار الأرض، وهو جوانبها. وقيل: بـيضتهم مـعظمهم وجـماعتهم. قلـت: ـ يعنى سلـيمان آل الشيـخ ـ وهذا هو الظاهر، وأن الله تعالى لايسلط الكفار على معظـم المسلمين وجماعتهم وإمامهم ما داموا بضد هذه الأوصاف المذكورة فى قوله؛ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً. فأما إذا وجدت هذه الأوصاف، فقد يسلط الكفار على جماعتهم ومعظمهم وإمامهم كما وقع اهـ.

(١) القول المفيد ١/ ٦٠٩.
(٢) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٣.

ورواه البرقاني في «صحيحه»، وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف، لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون، ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»(١).

قال ابن عثيمين(٢): ومعنى: «**يستبيح**»: يستحلّ، والبيضة: ما يجعل على الرأس وقاية من السهام ـ وتقدم من قول سليمان آل الشيخ ـ والمراد: يظهر ع ليهم ويغلبهم أهـ.



قوله: [رواه البرقاني في صحيحه]:

قال سليمان آل الشيخ(٣): هو الحافظُ الكبير، أبو بكر، أحمدُ بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزميُّ الشافعي. ولد سنة ستٍ وثلاثين وثلاثمائة، ومات سنة خمسٍ وعشرين وأربعمائة.

قال الخطيب: كان ثبتاً ورعاً، لم نرَ في شيوخنا أثبت منه، عارفاً بالفقه. كثير التصانيف، صنَّف (مسنداً) ضمّنه ما اشتمل عليه (الصحيحان)، وجمع حديث الثوري، وحديث شُعبة، وطائفة وكان حريصاً على طلب العلم منصرف الهمة إليه. قلت: ـ يعني سليمان آل الشيخ ـ وهذا المسند الذي ذكره الخطيب هو صحيحه الذي عزا إليه المصنف أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٤): وهذا الحديثُ رواه أبوداود بتمامه، بسنده إلى أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله، أو قال: إن ربي زوى لي الأرض، فرأيت مشارق الأرض ومغاربها وإنَّ مُلك أُمتي سيبلغ ما زُوي لي منها، وأعطيتُ الكنزين: الأحمرَ والأبيض، وإني سألتُ ربي لأمَّتي أنْ لا يُهلكها بسَنة**

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٧٨) وأبو داود (٤/ ٩٥/ ٤٢٥٢) وابن ماجة (٢/ ١٣٠٤/ ٣٩٥٢) والحاكم (٤/ ٤٤٩).

من طريق أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان بنحوه.

(٢) القول المفيد ١/ ٦٠٩.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٧٤).

(٤) فتح المجيد (١/ ٤٤٨ ـ ٤٥٠).

عامة، ولايسلِّط عليها عدوٌ من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال لي: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنَّه لايُرى، ولا أُهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضَتهم، ولو اجتمع عليهِمْ مَن بَين أقطارها ـ أو قال: بأقطارها ـ حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً، وحتى يكون بعضهم يَسْبى بعضاً، وإنَّما أخافُ على أمتي الأئمةَالمُضلين. وإذا وضع السيف في أمتي لم يرتفع عنها إلى يوم القيامة. ولاتقوم الساعةُ حتى يلحقَ قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تَعبُد قبائلُ من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون كلُّهم يزعم أنَّه نبي، وأنا خاتمُ النبيين، لانبيَّ بعدي، ولاتزال طائفةٌ من أُمتي على الحق ـ قال ابنُ عيسى: ظاهرين، ثم اتفقا ـ لايضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».

وروى أبوداود أيضاً، عن عبدالله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «تدورُ رَحَى الإسلام لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أوسبعٍ وثلاثين، فإنْ يهلكوا فسبيلُ مَن هلك، وإن يَقُمْ لهم دينُهم يقم سبعين عاماً»، قال: قلتُ: مما بقى أو مما مضى؟ قال: مما مضى»[1].

وروى في (سننه) أيضاً، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يتقارَبُ الزمان وينقصُ العلم، وتظهرُ الفتن، ويُلقى الشحُّ، ويكثرُ الهرْجُ» قيل: يارسول الله، أيَّهْ هو؟ قال: «القتل القتل»[2].

قوله: [وإنما أخاف عيكم الأئمة المضلين].

قال سليمان آل الشيخ[3]: أي الأمراء والعلماء والعباد، الذين يقتدي بهم الناس، ويحكمون فيهم بغير علم فيضلون ويضلون، فهم ضالون عن الحق مضلون لغيرهم، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾[4] وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[5] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[6] ولشدة الضرورة إلى اتباع

(١) أخرجه أبوداود (٤٢٥٤). وانظر تخريجنا «فتح المجيد» (ح ٤٥٣).

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (٧٠٦١) ومسلم (٨/ ٤٧٥) وأبوداود (٤٢٥٥) وانظر تخريجنا فتح المجيد (ح ٤٥٤).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٧٤ ـ ٢٧٧).

(٤) الأعراف/ ٣٨.

(٥) الأحزاب/ ٦٧.

(٦) الكهف/ ١٠٤.

أئمة الهدى ومعرفتهم، والتفريق بينهم وبين أئمة الضلال المغضوب عليهم والضالين. أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى سلوك صراط أئمة الهدى وهم المنعم عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولايعملون به، ولا الضالين الذين يعملون على غير شرع من الله، بل بما تهوى أنفسهم. فصراط المنعم عليهم هو الجامع بين العلم بالهدى والعمل به، وقد وصف النبى ﷺ أئمة الهدى لما ذكر التفرق من بعده، بأنهم الذين كانوا على ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه، كما رواه أبوداود وغيره. فمن كان على ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه فهو من الأئمة المهديين، ومن خالفهم فهو من الضالين، كالذى يقول لأصحابه من كانت له حاجة فليأت إلى قبرى فإنى أقضيها له، ولاخير فى رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب، أو نحو هذا كالذى يدعى أنه يخلص أصحابه ومريديه من النار، وأنه يحفظ الناس ويكلأهم إذا اعتقدوه، ويضر بهم إذا كفروا به وحاربوه. ويدعى أن ذلك من كرامته. وكالذى يمشى فى الأسواق عرياناً ولايشهد بصلاة ولا ذكر الله علماً بل يعيب علماء الشرع، ويغمزهم ويسميهم أهل علم الظاهر ويدعى أنه صاحب علم الباطن، وربما يدعى أنه يسعه الخروج من شريعة محمد ﷺ، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام، ونحو ذلك من الكفر والهذيان. وكالذى يدعى أن العبد يصل مع الله إلى حال تسقط عنه التكاليف، أو يدعى أن الأولياء يدعون ويستغاث بهم فى حياتهم ومماتهم، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، أو أنه يطلع على اللوح المحفوظ، ويعلم أسرار الناس وما فى ضمائرهم، أو يجوز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، وايقادها بالسرج والشموع، وكسوتها بالحرير والديباج والفرش النفيسة أو يدعى أن من عمل بالقرآن والسنَّة فى أصول الدين وفروعه فقد ضل وأضل وابتدع، أو أن ظواهر القرآن فى آيات الصفات تشبيه وتمثيل، وأن الهدى لايؤخذ منه فى هذا الباب ولا فى غيره، وإنما يؤخذ من الشبهات الوهمية التى يسميها بزعمه براهين عقلية. فكل هؤلاء وأشباههم من أئمة الضلال الذين خاف النبى ﷺ على أمته وحذر منهم والضابط فى الفرق بين أئمة المتقين وبين الأئمة المضلين قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(١) فافهم عن ربك وكن على بصيرة، ولايغرك جلالة شخص أو عظمته فى النفوس. فربك أعظم واتباعك لكلامه وكلام رسول الله ﷺ هو الفرض، والعصمة منتفية عن غير الرسول، وربك أدرى بما فى

(١) آل عمران، الآيتان ٣١، ٣٢.

الضمائر؛ فرب من تعتقده إمام هدى ليس كذلك، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)] فكل من أتى بشيء يخالف ما جاء عن الله وعن رسوله، فهو من أهواء الذين لايعلمون، ومن لم يستجب للرسول ﷺ فإنما يتبع هواه. قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

وعن زياد بن حدير قال: قال لي عُمر: هَلْ تَعرفُ مَا يَهدمَ الإسلامَ؟ قُلتُ: لاَ. قَالَ: يَهدمهُ زَلَّةُ العَالم، وَجِدَالُ المُنَافِق بالكِتَاب، وَحكْم الأئمة المُضلِّينَ»[(٢)]. رواه الدارمي.

وقال يزيد بن عميرة: كان معاذ بن جبل لايجلس مَجلساً للذِّكرِ إلا قَال حينَ يَجْلسُ: الله حكمٌ قِسْطٌ هَلَكَ المُرتَابُونَ... الحديث». وفيه: واحذروا زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمةالحق. قلت لمعاذ: ما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال لي: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال: ما هذه ولايثنيك ذلك عنه، فإنه لعله يراجع الحق، وتلق الحق إذا سمعته فإن على الحق نوراً[(٣)]. رواه أبو داود وغيره وما أحسن ما قال ابن المبارك رضي الله عنه:

وهل أفسد الدين إلا الملو ... ك وأحبار سوء ورهبانها.أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ[(٤)]: وهذا هو الضَّلالُ البعيد؛ يدعو أصحابه إلى أنْ يعبدوه من دون الله، ويسألوه مالايقدر عليه من قضاء حاجاتهم، وتفريج كُرباتهم، وقد قال تعالى: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٨.

(٢) أخرجه الدارمي في«سننه» (١/ ٧١).

(٣) أخرجه أبوداود (١/ ٤٦).

(٤) فتح المجيد ٤٥٠، ٤٥١.

لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ من نَّفعه لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا من دُونه آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3] وأمثالُ هذا فى القرآن كثير، يُبيِّنُ تعالى الهدى من الضلال.

ومن هذا الضَّرب: مَنْ يدّعى أنه يصلُ مع الله إلى حالٍ تسقط عنهم التكاليف، أو يدَّعى أنَّ الأولياء يُدعون أو يستغاث بهم فى حياتهم ومماتهم. وأنَّهم ينفعون ويضرُّون ويدبِّرون الأمور على سبيل الكرامة، أو أنه يطلع على اللوح المحفوظ، ويعلم أسرارَ الناس وما فى ضمائرهم.

أو يُجوِّز بناء المساجد على قبور الأولياء والصاحين، وإيقادها بالسُّرج، ونحو ذلك من الغُلو والإفراط والعبادة لغير الله. فما أكثر هذا الهذيان والكفر، والمحادة لله ولكتابه ولرسوله.

وقوله ﷺ: «**وإنما أخافُ على أمتى الأئمة المضلين**» أتى بإنمَّا، التى قد تأتى للحصر؛ بياناً لشدة خوفه على أُمَّته من أئمة الضلال. وما وقع فى خَلَد النبى ﷺ من ذلك، إلاَّ لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقعُ نظير ما فى الحديث قبله من قوله: «**لتتبعن سَنَن من كان قبلكم**» الحديث[4].

وقد بيَّن الله تعالى فى كتابه صراطَهُ المستقيم، الذى هو سبيل المؤمنين. فكلُّ من أحدث حَدثاً ليس فى كتاب الله ولا فى سُنة رسوله ﷺ فهو ملعونٌ، وحدثُه مردود؛ كما قال ﷺ: «**مَن أحدثَ حدثاً، أو آوى مُحدثاً فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبلُ الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولاعَدْلاً**»[5].

وقال: «**مَن أحدَث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ**»[6].

وقال «**كل مُحدَثة بدعة وكلُّ بدعة ضلالة**»[7].

---

(1) الحج: ١٢ ـ ١٣.

(2) الفرقان: ٣.

(3) العنكبوت: ١٧.

(4) تقدم.

(5) [صحيح] أخرجه البخارى (١٨٧)، مسلم)٥/١٤٨) وانظر «فتح المجيد» (٤٥٦ ـ بتخريجنا).

(6) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٦٩٧)، ومسلم (ح/١٢) وانظر «فتح المجيد» (٤٥٧ ـ بتخريجنا).

(7) أخرجه أحمد (٤/١٢٦، ١٢٧) وانظر «فتح المجيد» (٤٥٨ ـ بتخريجنا).

وهذه أحاديثُ صحيحة، ومدارُ أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها.

وقد بيَّن الله تعالى هذا الأصلَ في مواضع من كتابه العزيز، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1] وقال ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية[2] ونظائرُها في القرآن كثيرة. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: قوله: «إنما أخاف من أمتي الأئمة المضلين».

بيَّن الرسول ﷺ أنَّه لايخاف على الأمة إلاَّ الأئمَّة المضلين.

والأئمَّة: جمع إمام، والإمام قد يكون إماماً في الخير أو الشر، قال تعالى في أئمة الخير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

وقال تعالى عن آل فرعون أئمة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾.

والذى فى حديث الباب: «**الأئمة المضلين**»، أئمة الشر، وصدق النبى ﷺ، إنَّ أعظم ما يُخاف على الأمة الأئمة المضلون؛ كرؤساء الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين تفرَّقت الأمة بسببهم.

والمراد بقوله: «**الأئمة المضلين**»: الذين يقودون الناس باسم الشرع، والذين يأخذون الناس بالقهر والسلطان؛ فيشمل الحكام الفاسدين، والعلماء المضلين، الذين يدَّعون أنَّ ما هم عليه شرع الله، وهم أشدّ الناس عداوةً لهم.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: لو كان لى دعوة مستجابة؛ لصرفتها للسلطان؛ فإنَّ بصلاحه صلاح الأمة.

[قلت]: ومما يؤدى هذا المعنى من التحذير من الأئمة المضلين، وأئمة الضلال فى القرآن الكريم، وأنهم إذا فسدوا فسد بفسادهم الناس. قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

قال ابن كثير[4]: والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان

---

(١) الأعراف: ٢ (٢) الجاثية: ١٨ ـ ١٩.

(٣) القول المفيد (١/ ٦١٤ ـ ٦١٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٨).

ابن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى. وفى الحديث الصحيح «**لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**» قالوا اليهود والنصارى؟ قال «**فمن؟**» وفى رواية فارس والروم؟ قال: «**فمن الناس إلا هؤلاء**»؟»(١) والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم فى الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجىء إليهم فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوّة وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباؤوا بغضب من الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أى وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعونه إلى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لاينصرون.

وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ الآية، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك.

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها اهـ.

ومن الأحاديث: حديث حذيفة فى الفتن وفيه: «**دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**» وفى روايات أخرى «**دعاة يهدون بغير هدى ويستنون بغير سنتى**»(٢).

وحديث: «**غير الدجال أخوف منى عليكم الأئمة المضلين**»(٣).

وفى هذا الباب أحاديث كثيرة. والله المستعان.

قوله: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة».

قال سليمان آل الشيخ(٤): أى: إذا وقعت الفتنة والقتال بينهم بقى إلى يوم القيامة، وكذلك وقع. فإن السيف لما وضع فيهم بقتل عثمان رضى الله عنه لم يرتفع

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفتن (٩/ ٢٨٩/ ١١٠) عن النواس بن سمعان.

(٤) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٦.

إلى اليوم، وكذلك يكون إلى يوم القيامة. ولكن يكثر تارة ويقل أخرى، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى.

قوله: «**وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ**».

قال سليمان ابن عبدالله[1]: الحي واحد الأحياء، وهي القبائل. وفي رواية أبي داود: «**ولاتقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين**» والمعنى أنهم ينزلون معهم في ديارهم، ويصيرون منهم بالردة ونحوها.

قال ابن عثيمين[2]: وأما الحي؛ فالظاهر أنَّ المراد به الجنس، وليس واحد الأحياء، وإن قيل: إنَّ المراد واحد الأحياء؛ فلابد أن يكون لهذا الحي أثره وقيمته في الأمة الإسلامية، بحيث يتبيَّن ويظهر، وربما يكون لهذا الحي إمام يزيغ - والعياذ بالله - ويفسد؛ فيتبعه كل الحي، ويتبيَّن ويظهر أمره.

والحي: بمعنى القبيلة.

وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني، بمعنى أنَّه يذهب هذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكمي، بمعنى أن يعملوا بعمل المشركين، أو الأمران معاً؟

الظاهر أنَّ المُراد جميع ذلك. اهـ.

قوله: «**وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِن أُمَّتِي الأَوْثَانَ**».

قال سليمان آل الشيخ[3]: الفئام - مهموز - الجماعات الكثيرة. قاله أبو السعادات، وفي رواية أبي داود: «**وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان**» ومعناه ظاهر.

وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الذين ينكرون وقوع الشرك، وعبادة الأوثان في هذه الأمة، وفي معنى هذا ما في «الصحيحين»:

عن أبي هريرة مرفوعاً: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلْيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ على ذي الخَلَصَةِ**»[4] قال: وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية. وروى ابن حبان عن معمر قال: إن عليه الآن بيتاً مبنياً مغلقاً.

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة مرفوعاً: «**لايَذْهَبُ اللَّيْلُ والنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللاتُ**

(١) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٦.

(٢) القول المفيد ١/ ٦١٥، ٦١٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٦، ٢٧٧.

(٤) تقدم تخريجه.

وَالعُزَّى»[1] وقيل: إن القبر المنسوب إلى ابن عباس بالطائف إنه قبر اللات، وكانوا يعبدونه، ويطوفون به ويقربون إليه القرابين وينذرون له النذور ويسألونه قضاء حاجتهم وتفريج كربتهم.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[2]: قال العَلامة ابنُ القيم - فى قصة هدم اللاَّت لَمَّا أسلمت ثقيف -: فيه أنه لا يجوزُ إبقاءُ مواضعِ الشرك والطواغيت بعد القُدرة على هدمها وإبطالها، يوماً واحداً.

وكذلك حُكمُ المشاهد التى بُنيت على القبور، والتى اتُّخذت أوثاناً تُعبدُ من دون الله. والأحجار التى تُقصد للشرك والنذر، لايجوز إبقاءُ شىء منها على وجه الأرض مع القُدرة على إزالتها. وكثيرٌ منها بمنزلة اللاَّت والعُزَّى ومناة، وأعظم شركاً عندها وبها. فاتَّبعَ هولاء سَنَن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القُذَّة بالقذة، وغلب الشركُ على أكثر النفوس؛ لظهور الجهل وخفاء العلم. فصار المعروفُ منكراً والمنكر معروفاً، والسُّنة بدعة والبدعة سنة. وطُمست الأعلام، واشتدت غُربة الإسلام، وقلَّ العُلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتدَّ البأس، وظهر الفسادُ فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس.

ولكن لاتزال طائفةٌ من العصابة المحمَّدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أنْ يرث الله الأرضَ ومن عليها وهو خيرُ الوارثين. انتهى ملخصاً. **قلتُ**: - يعنى عبدالرحمن آل الشيخ - فإذا كان هذا فى القرن السابع وقبله، فما بعده أعظمُ فساداً [كما هو الواقع].

قلت: وفى القرنين العشرين والحادى والعشرين من الفساد وما هو أعظم.

قال ابن عثيمين[3]: الفِئام؛ أى: الجماعات، وهذا وقع؛ ففى كل جهة من جهات المسلمين من يعبدون القبور ويعظِّمون أصحابها ويسألونهم الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم، وفئام؛ أى: ليسوا أحياءً؛ فقد يكون بعضهم من قبيلة، والبعض الآخر من قبيلة: ؛ فيجتمعون.

قوله: «وَإِنَّهُ سَيَكُونَ فِى أُمَّتِى كَذَّابُونَ، ثَلاَثُونَ».

قال سليمان آل الشيخ[4]: كلهم يزعم أنه نبى. **قال القرطبى**: وقد جاء عددهم معيناً فى حديث. حذيفة قال:

---

(1) تقدم تخريجه. (2) فتح المجيد ١/ ٤٥٤، ٤٥٥.

(3) القول المفيد ١/ ٦١٦.

(4) تيسير العزيز الحميد ١/ ٦٧٧ : ٦٧٨.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ دَجَّالُونَ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ، مِنْهُمْ أَرْبَعُ نُسْوَةٍ»(١) أخرجه أبو نعيم وقال: هذا حديث غريب تفرد به معاوية بن هشام قلت: ـ يعني عبدالرحمن آل الشيخ ـ حديث ثوبان أصح من هذا **قال القاضي عياض**: عدد من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك، وعرف واتبعه جماعة على ضلالته، فوجد هذا العدد فيهم ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا.

وقال ابن حجر: قد ظهر مصداق ذلك في زمن النبي ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، ثم خرج في خلافة أبي بكر طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح التميمية في بني تميم، وقتله الأسودُ قبل أن يموت النبي ﷺ، وقُتل مسيلمةُ الكذاب في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وتاب طليحة ومات على الإسلام على الصحيح في زمن عمر رضي الله عنه. ويقال: إن سجاح تابت أيضاً، ثم خَرَجَ المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير فأظهر محبة أهل البيت، ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين فاتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك، أو أعان عليه فأحبه الناس ثم إنه زين له الشيطان أن يدعي النبوة، وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه؛ ومنهم الحارث الكذاب خرج في خلافة عبدالملك بن مروان فقتل، وخرج في خلافة بني العباس جماعة. وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً فإنهم لايحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة، وبدت له شبهة. كمن وصفنا. وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر أ. هـ.

قال ابن عثيمين(٢): قوله: «وإنَّه سيكون من أمتي كذابون ثلاثون».

حصرهم النبي ﷺ بعدد، وكلهم يزعم أنَّه نبي أُوحي إليه، وهم كذابون؛ **لأن** النبي ﷺ خاتم النبيين ولانبي بعده، فمن زعم أنَّه نبي بعد الرسول ﷺ؛ فهو كاذب كافر حلال الدم والمال، ومن صدَّقه في ذلك؛ فهو كافر حلال الدم والمال، وليس من المسلمين ولا من أمة محمد ﷺ، ومن زعم أنَّه أفضل من محمد، وأنه يتلقى من الله مباشرة ومحمد ﷺ يتلقى منه بواسطة الملك؛ فهو كاذب كافر حلال الدم والمال أ. هـ.

قوله: «وأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّين».

قال سليمان آل الشيخ(٣): قوله: «وأنا خاتم النبيين» الخاتم ـ بفتح التاء ـ بمعنى

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٦) وانظر «فتح المجيد (٤٦٥ ـ بتخريجنا).
(٢) القول المفيد ١/ ٦١٦، ٦١٧.
(٣) تيسير العزيز الحميد / ٢٧٨.

الطابع، وبكسرها بمعنى فاعل الطبع والختم. قال الحسن: خاتم الذى ختم به؛ أى: آخر النبيين، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وإنما ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فى آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ، مصلياً إلى قبلته، فهو كآحاد أمته.

كما قال النبى ﷺ: «والَّذى نَفْسى بِيَده لَيَنْزِلَنَّ فيكمُ ابْنُ مَرِيَمَ حَكَماً مُقْسِطاً، فَليَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلنَّ الخنَزيرَ، وليَضعَنَّ الجزيةَ»[1].

قال ابن عثيمين[2]: أى: آخرهم، وأكد ذلك بقوله: «**لانبى بعدى**»، فإن قيل: ما الجواب عما ثبت فى نزول عيسى بن مريم فى آخر الزمان، مع أنه نبى ويضع الجزية ولايقبل إلا الإسلام؛ فالجواب: إن نبوته سابقة لنبوة محمد ﷺ، وأما كونه يضع الجزية ولايقبل إلا الإسلام؛ فليس تشريعاً جديداً ينسخ قبول الجزية، بل هو تشريع من محمد ﷺ؛ لأنه أخبر به مُقَرِّراً له.

قوله: [لاتزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم].

قال ابن حجر فى «الفتح»[3]: قال النووى: فيه أن الإجماع حجة، ثم قال: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه، ومحدث، ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وزاهد، وعابد، ولايلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم فى قطر واحد، وافتراقهم فى أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا فى البلد الواحد وأن يكونوا فى بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولاً فأولاً إلى أن لايبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله انتهى كلامه ملخصاً مع زيادة فيه أهـ.

قال سليمان آل الشيخ[4]: قوله: «**ولاتزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم**» قال يزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى من هم. وكذلك قال أنهم أهل الحديث عبدالله بن المبارك، وعلى بن المدنى، وأحمد بن سنان والبخارى وغيرهم. وقال ابن المدينى فى رواية: هم العرب واستدل برواية من روى هم أهل الغرب، وفسر الغرب بالدلو العظيمة لأن العرب هم الذين يستقون بها.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٢٢٢)، ومسلم (٢/١٨٩) وانظر «فتح المجيد» (٤٦٧).
(٢) القول المفيد ١/٦١٧. (٣) فتح البارى (١٣/٣٠٨).
(٤) تيسير العزيز الحميد ٢٧٨، ٢٧٩.

قلت ـ سليمان ـ: ولا تعارض بين القولين، إذ يمتنع أن تكون الطائفة المنصورة لاتعرف الحديث، ولاسنن رسول الله ﷺ بل لايكون منصوراً على الحق إلا من عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهم أهل الحديث من العرب وغيرهم، فإن قيل: فلم خصصه بالعرب؟ قيل: المراد التمثيل لا الحصر، أى أن العرب إن استقاموا على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهم الطائفة المنصورة حال استقامتهم. قال القرطبى: وفيه دليل على أن الإجماع حجة، لأن الأمة إذا أجمعت فقد دخل فيه الطائفة المنصورة.

وقال المصنف: وفيه الآية العظيمة أنهم مع قلتهم لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم. والبشارة بأن الحق لايزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لاتزال عليه طائفة. اهـ.

وقال بنحوه عبدالرحمن آل الشيخ وابن عثيمن ثم قال الأخير(١):

مسألة: قال بعض السلف: إن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث؛ فما مدى صحة هذا القول؟

فقال: الجواب: هذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل لابد من التفصيل، فإن أريد بذلك أهل الحديث المُصْطَلَح عليه، الذين يأخذون الحديث رواية ودراية وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير وما أشبه ذلك؛ فهذا ليس بصحيح؛ لأنَّ علماء التفسير والفقهاء الذين يَتَحَرَّوْن البناء على الدليل هم فى الحقيقة من أهل الحديث، ولايختص بأهل الحديث صناعة؛ لأن العلوم الشرعية: تفسير، وحديث، وفقه... إلخ.

فالمقصود: إن كل من تحاكم إلى الكتاب والسنة؛ فهو من أهل الحديث بالمعنى العام وأهل الحديث هم: كل يتحرى العمل بسنة رسول الله ﷺ؛ فيشمل الفقهاء الذين يتحرَّون العمل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحاً.

فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً لايعتبر اصطلاحاً من المحدّثين، ومع ذلك؛ فهو رافع لراية الحديث.

والإمام أحمد ـ رحمه الله ـ تنازعه طائفتان: أهل الفقه قالوا: إنَّه فقيه، وأهل الحديث قالوا: إنه محدِّث.

وهو إمام فى الفقه والحديث والتفسير، ولاشك أن أقرب الناس تمسُّكاً بالحديث هم الذين يعتنون به.

ويُخشى من التعبير بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث أن يظنّ أنَّهم أهل الحديث الذين يعتنون به اصطلاحاً، فيخرج بذلك غيرهم.

---

(١) القول المفيد (١/ ٦١٩).

فإذا قيل: أهل الحديث بالمعنى الأعم الذين يأخذون بالحديث، سواء انتسبوا إليه اصطلاحاً واعتنوا به أو لم يعتنوا، لكنهم أخذوا به؛ فيحنئذٍ يكون صحيحاً أ.هـ.

[قلت]: والأولى الجواب بما تقدم عن النووي في معنى الطائفة المنصورة أنها بين فقيه؛ ومحدث، وزاهد وعابد.. إلخ، أو أن هذا من باب التفسير بالمثال الذي يحتاج إليه العلماء للتوضيح غالباً وليس بذكر الحد المطابق للمحدود من كل الوجوه، وهذا اختلاف تنوع لاتضاد، وعرفه ابن تيمية بقوله: هو أن يذكر كل واحد من المختلفين من الاسم العام بعض أفراده على سبيل المثال لا على سبيل ذكر الحد المطابق للمحدود. والله المستعان.

قوله: «لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُم، وَلا مَنْ خَالَفَهُم».

قال ابن عثيمين(١): قوله: «لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم». خذلهم؛ أي: لم ينصرهم ويوافقهم على ماذهبوا إليه، وفي هذا دليل على أنَّه سيوجد من يخذلهم، لكنه لايضرهم؛ لأنَّ الأمور بيدالله، وقد قال ﷺ: «**واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك**»(*)، وكذلك لايضرهم من خالفهم؛ لأنَّهم منصورون بنصر الله؛ فالله ـ عزوجل ـ إذا نصر أحداً فلن يستطيع أحد أن يخذله. أ.هـ.

قوله: [حتى يأتي أمر الله].

قال ابن حجر(٢): المراد بأمر الله: هبوب تلك الريح، وأن المراد بقيام الساعة: ساعتهم، وأن المراد بالذين يكونون ببيت المقدس: الذين يحصرهم الدجال إذا خرج فينزل عيسى إليهم فيقتل الدجال، ويظهر الدين في زمن عيسى، ثم بعد موت عيسى تهب الريح المذكورة، فهذا هو المعتمد في الجمع، والعلم عند الله تعالى أهـ.

[قلت]: أي الجمع بين حديث «**حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون**» وحديث «**لاتقوم الساعة إلا على شرار الناس**».

قال سليمان آل الشيخ(٣): **قوله**: «**حتى يأتي أمر الله**» الظاهر أن المراد بأمر الله ما روى من قبض من بقى من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام، ثم لايبقى إلا شرار الناس كما روى الحاكم.

وأصله في «مسلم» عن عبدالرحمن بن شماسة أن عبدالله بن عمرو قال: «**لاَ تَقُومُ**

---

(١) القول المفيد (٦١٨/١).

(٢) فتح الباري (٣٠٧/١٣).

(*) تقدم تخريجه

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٧٩/١، ٢٨٠.

السَّاعَةُ إلا عَلَى شِرَارِ الخَلْق، هم شرٌّ منْ أهلِ الجَاهليَّةِ لاَ يَدْعُونَ الله بشَيْءٍ إلاَّ ردَّهُ عليهم لاتزَالُ عصَابَةٌ منْ أُمَّتى يُقَاتلون عَلى أمرِ الله، قَاهرينَ لعَدُوِّهِمْ لا يَضرُّهُم من خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُم على ذَلكَ» فقال عبدالله أَجَلْ ثم: يَبْعثُ الله ريحا كَريح المسك، مَسُّهَا مَس الحَرير، فَلاَ تَتْركُ نَفساً فى قَلبه مِثقَالُ حَبَّة مِن إيمان إلا قَبضَتْهُ، ثُم يَبقَى شِرَارُ النَّاسِ، عَليهم تَقُومُ الساعَةُ»(١).

وفى «صحيح مسلم» عن ابن مسعود مرفوعاً: «لاتقُومُ السَّاعَةُ إلا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ»(٢).

وفى «صحيحه» أيضاً: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يُقَالَ فى الأَرْضِ الله الله» وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وسائر الآيات العظام(٣).

وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة، رواه أحمد.

ويؤيده حديث عمران بن حصين مرفوعاً: «لاَ تَزَالُ طَائفَةٌ منْ أُمَّتى يُقَاتلونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُم حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرهُمُ المَسيحَ الدجال» رواه أبو داود والحاكم(٤). وعلى هذا فالمراد بقوله فى حديث عقبة وما أشبهه من الاحاديث «حتى تأتيهم الساعة» ساعتهم وهى وقت موتهم بهبوب الريح؛ ذكره الحافظ وهو المعتمد ـ وقد تقدم هذا الكلام بنصه فى الأبواب المتقدمة ـ وقد اختلف فى محل هذه الطائفة؛ فقال ابن بطال: إنها تكون ببيت المقدس حتى إلى أن تقوم الساعة.

كما روى الطبرانى من حديث أبى أُمَامَةَ: قِيلَ يَا رَسُول الله وأَيْنَ هُم؟ قَالَ: «بِبيْتِ المَقْدِسِ»(٥).

وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه: «هم بالشام»(٦) وهذا قول أكثر الشارحين.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٧/ ٧٦)، والحاكم (٤/ ٤٥٦) وانظر «فتح المجيد» (٤٧١).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفتن (٩/ ٣١٤/ ١٣١) عن ابن مسعود به.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (١/ ٤٥٥) وانظر «فتح المجيد» (٤٧٢).

(٤) أخرج أبوداود (٢٤٨١)، والحاكم (٤/ ٤٥٠).

(٥) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٧٦٤٣) وانظر «فتح المجيد» (٤٧٣).

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦٤١) وانظر «فتح المجيد».

وفى كلام الطبرى ما يدل على أنه لايجب أن تكون فى الشام أو فى أول بيت المقدس دائماً إلى أن يقاتلوا الدجال، بل قد تكون فى موضع آخر، لكن لاتخلو الأرض منها حتى يأتى أمر الله. قلت: ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ وهذا هو الحق فإنه ليس فى الشام منذ أزمان أحد بهذه الصفات، بل ليس فيه إلا عباد القبور، وأهل الفسق وأنواع الفواحش والمنكرات، ويمتنع أن يكونوا هم الطائفة المنصورة، وأيضاً فهم منذ أزمان لايقاتلون أحداً من أهل الكفر، وإنما بأسهم وقتالهم بينهم. وعلى هذا فقوله فى الحديث: هم ببيت المقدس. وقول معاذ: هم بالشام. المراد أنهم يكونون فيه بعض الأزمان دون بعض، وكذلك الواقع فدل على ما ذكرنا. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[1]: ويشهدُ له الواقع، وحالُ أهلِ الشام وأهل بيت المقدس [فإنهم] من أزمنةٍ طويلة لايُعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه، فى القرن السابع وأوّلِ الثامن.

فإنَّهم على الحق يدعون إليه، ويناظرون عليه، ويجاهدون فيه. وقد يجيء من أمثالهم بعدُ بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة، والله على كلِّ شيءٍ قدير.

ومِمَّا يؤيِّدُ هذا: أنَّ أهل الحق والسنة فى زمن الأئمة الأربعة، وتوافر العُلماء فى ذلك الزمان وقبله وبعده، لم يكونوا فى محلٍّ واحد. بل هم فى غالب الأمصار: فى الشام منهم أئمة، وفى الحرمين، وفى مصر، وفى العراق، وفى اليمن.

وكلُّهم على الحق يُناضلون ويُجاهدون أهل البدع، ولهم المصنفات التى صارت أعلاماً لأهل السنة، وحُجَّةً على كلِّ مُبتدع.

فعلى هذا: فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تفترق، وقد تكون فى الشام، وقد تكون فى غيره.

فإنَّ حديث أبى أمامة، وقول معاذ، لايُفيدُ حصرها بالشام، وإنما يُفيد أنها تكون فى الشام فى بعض الأزمان لا فى كلِّها اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: **فى قوله [حتى يأتى أمر الله]**: الكونى، وذلك عند قيام الساعة، عندما يأتى أمره سبحانه وتعالى بأن تقبض نفس كل مؤمن، حتى لايبقى إلاّ شرار الخلق فعليهم تقوم الساعة اهـ.

---

(١) فتح المجيد ١/ ٤٦٠، ٤٦١.

(٢) القول المفيد (١/ ٦١٩).

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاء.

تقدم هذا بشيء من التفصيل من كلام ابن حجر، وفيه هنا فائدة لذلك ذكرناه والله المستعان.

قوله: «تبارك وتعالى».

قال سليمان آل الشيخ[1]: قال ابن القيم: البركة نوعان: أحدهما بركة وهى فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة على تارة، وبأداة فى تارة والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك فكان مباركاً بجعله تعالى. والنوع الثانى بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لايقال لغيره ذلك ولايصلح إلا له عزوجل، فهو سبحانه المتبارك وعبده ورسوله المبارك. كما قال المسيح عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك، وأما صفة تبارك فمختصه به كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أفلا تراها كيف أطردت فى القرآن جارية عليه مختصة به لاتطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كتعالى وتعاظم ونحوه، فجاءت تبارك على بناء تعالى الذى هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك، دال على كمال بركته وعظمتها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف تبارك تعاظم. وقال ابن عباس: جاء بكل بركة وأعلم أن هذا الحديث بجملته مما عُد من الأدلة على الشهادتين فإن كل جملة منه وقعت كما أخبر بها ﷺ.

وتقدم هذا الكلام فى باب من تبرك بشجر أوحجر بالتفصيل والله المستعان.



فيه مسائل:

● **الأولى: تفسير آية النساء.**

قال ابن عثيمين: وهى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، وقد سبق ذلك.

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٨٠، ٢٨١.

الثانية: تَفْسيرُ آيَةِ المَائِدَةِ.

الثالثة: تَفْسيرُ آيَةِ الكَهْفِ.

الرابعة: وَهِيَ أَهَمُّهَا: مَا مَعْنَى الإِيمَانِ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ؟ هَلْ هُوَ اعْتِقَادُ قَلْبٍ؟ أو مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بُغْضِهَا وَمَعْرِفَةِ بُطْلانِهَا؟

الخامسة: قَوْلُهُم: إِنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ أَهْدَى سَبِيلاً مِنَ المُؤْمِنِينَ.

● الثانية: وهى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، وقد سبق تفسيرها.

والشاهد منها هنا قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

● الثالثة: تفسير آية الكهف.

يعنى: قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، وقد سبق بيان معناها.

● الرابعة ـ وهى أهمها ـ: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد القلب، أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

أما إيمان القلب واعتقاده؛ فهذا لاشك فى دخوله فى الآية.

وأما موافقة أصحابها فى العمل مع بغضها ومعرفة بطلانها؛ فهذا يحتاج إلى تفصيل، فإن كان وافق أصحابها بناءً على أنها صحيحة؛ فهذا كفر، وإن كان وافق أصحابها ولايعتقد أنها صحيحة؛ فإنه لايكفر، لكنه لاشك على خطر عظيم يخشى أن يؤدى به الحال إلى الكفر والعياذ بالله.

● الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

يعنى: إن هذا القول كفر وردَّة؛ لأنَّ من زعم أن الكفار الذين يعرف كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين؛ فإنه كافر لتقديمه الكفر على الإيمان.

السادسة: وَهِيَ المَقْصُودُ بِالتَّرْجَمَةِ: أَنَّ هَـذَا لابُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيد.

السابعة: تَصْرِيحُهُ بِوُقُوعِهَا ـ أعني: عِبَادَةَ الأَوْثَان.

الثامنة: العَجَبُ العُجَابُ: خُرُوجُ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، مِثْلُ الْمُخْتَارِ مَعَ تَكَلُّمِه بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتَصْرِيحه بِأَنَّهُ مِنْ هَذِه الأُمَّةِ، وَأَنَّ الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هَذَا يُصَدَّق فِي هَذَا كُلِّه مَعَ التَّضَادِّ الوَاضِحِ، وَقَدْ خَرَجَ الْمُخْتَارُ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَتَبِعَهُ فِئَامٌ كَثِيرَةٌ.

● السادسة ـ وهي المقصودة بالترجمة ـ: أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

● السابعة: تصريحه بوقوعها؛ أعني: عبادة الأوثان.

والترجمة التي أشار إليها رحمه الله هي قوله: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»، وحديث أبي سعيد هو قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟». أخرجاه.

وهذا يتضمن التحذير من أن تقع هذه الأمة في مثل ما وقع فيه من سبقها.

الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يُصَدَّق في هذه كله، مع التَّضاد الواضح وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

والمختار هو ابن أبي عبيد الثقفي، خرج وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير رضي الله عنه، وأظهر محبة آل البيت، ودعا الناس إلى الثأر من قتلة الحسين؛ فتتبعهم، وقتل كثيراً ممن باشر ذلك أو أعان عليه، فانخدع به العامة، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل يأتيه.

ولاشك أن هذه المسألة من العجب العجاب أن يدعي النبوة وهو يؤمن أن القرآن

التاسعة: البِشَارَةُ بِأَنَّ الحَقَّ لا يَزُولُ بِالكُلِّيَّـةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَى، بَلْ لا تَزَالُ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ.

العاشرة: الآيَةُ العُـظْمَى: أَنَّهُـمْ مَعَ قِلَّتِهِم لاَ يَضُرُّهُـمْ مَنْ خَذَلَهُـم وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ.

الحادية عشرة: أنَّ ذَلِكَ الشَّرْطَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

الثانيـة عشرة: مَا فـيه مـنَ الآيَاتِ العَـظِيـمَةِ: مـنْهَا إِخْبَاره بـأَنَّ الله زَوَى لَهُ المَشَـارِقَ وَالمغَـارِبُ، وأَخْبَرَ بـمَعْنَـى ذَلِكَ، فَـوَقَعَ كَمَـا أَخْبَرَ بـخَلافِ الجَـنُوبِ والشِّمَال، وإِخـبارُه بأَنَّه أُعطِيَ الـكنزَيْن وإخباره بإجـابة دعوته لأمته فـي الإثنتين وإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مُنِعَ الثَّالِثَةَ، وإِخْـبَارُهُ بِوُقُوعِ السَّيْفِ، وأَنَّهُ لاَ يُرْفَعُ إِذَا وَقَعَ. وإِخْبَارُهُ

حق، وفي القرآن أن محمداً ﷺ خاتم النبييـن؛ فكيف يكون صادقاً، وكيف يُصدَّق مع هذا التناقض؟! ولكن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

● **التاسعة: البشارة بأن الحق لايزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لاتزال عليه طائفة.**

يعني: من هذه الأمة منصورة إلى يوم القيامة.

يؤخذ هذا من آخر الحديث: «**لاتزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لايضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى**».

● **العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قتلهم لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.**

آية عظمى: أن الكثرة الكاثرة من بني آدم على خلاف ذلك، ومع ذلك لايضرونهم، ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾(١).

● **الحاديثة عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.**

وقد سبق.

● **الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة.**

أي: ما في هذا الحـديث من الآيات العظيـمة، والآيات: جمع آية، وهـي العلامة،

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

بإهْلاَك بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَسَبْى بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَخَوْفُهُ عَلَى أُمَّته منَ الأَئمَّة المضلِّين وإخْبَارُهُ بظُهور المُتنبِّئين فى هَذَه الأُمَّة، وإخْبارُهُ ببقَاء الطَّائفَة المَنْصُورَة، وَكُلُّ هَذَا وَقَعَ، كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحدَة منْهَا من أَبْعَدُ مَا يَكُونُ فى العُقُول .

والآيات التى يريد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام هى العلامات الدالة على صدقهم.

فمما فى هذا الحديث: إخبارة بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك؛ فوقع كما أخبر فى خلاف الجنوب والشمال، فإن رسالة النبى ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال، وهذا من علم الغيب الذى أطْلَع الله رسوله ﷺ عليه.

ومنها: إخباره أنه ﷺ أُعْطى الكنزين، وهما كنزا كسرى وقيصر.

ومنها: إخباره بإجابة دعوته لأمته فى الاثنتين، وهما ألا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً... إلخ، ومنع الثالثة، وهى ألا يجعل بأس هذه الأمة بينها؛ فإن هذا سوف يكون كما صرّح به حديث عامر بن سعد عن أبيه: «**إن النبى ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية؛ دخل، فركع فيه ركعتين وصلينا معه، ودعا دعاءً طويلاً، وانصرف إلينا؛ فقال: «سألت ربى ثلاثاً فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة: سألت ربى ألا يهلك أمتى بالسنة؛ فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتى بالغرق؛ فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم؛ فمنعنيها**»[1]؛ أى منعنى إياها.

ومن الآيات التى تضمنها هذا الحديث: إخباره بوقوع السيف فى أمته، وأنه إذا وقع؛ فإنه لايرفع حتى تقوم الساعة، وقد كان الأمر كذلك؛ فإنه منذ سُلّت السيوف على المسلمين من بعضهم على بعض بقى هذا إلى يومنا هذا.

ومنها: إخباره بإهلاك بعضهم بعضاً وسبْىْ بعضهم بعضاً، هذا أيضاً واقع.

ومنها: خوفه على أمته من الأئمة المضلين، والأئمة: جمع إمام، والإِمام: هو من يقتدى به؛ إما لعلمه، وإما لسلطته، وإما لعبادته.

---

(١) [صحيح] أخرجه: مسلم عن الفتن (٩/ ٢٤١/ ٢٠) عن سعد رضى الله عنه.

الثالثة عشرة: حَصْرُ الخَوْفِ عَلَى أُمَّتِه مِنْ الأئمَةِ المُضلين.

الرابعة عشرة: التَنبِيهُ عَلَى مَعْنى عِبَادَةِ الأوْثَانِ.

ومنها: إخباره بظهور المتنبئين فى هذه الأمة، وأنهم ثلاثون، قال ابن حجر[1]: «هذا الحصر بالثلاثين لايعنى انحصار المُتَنَبِّئِين بذلك؛ لأنهم أكثر من ذلك».

قلت: ـ أى ابن عثيمين ـ فيكون ذكر الثلاثين لبيان الحد الأدنى؛ أى أنهم لاينقصون عن ذلك العدد، وإنما عدلنا عن ظاهر اللفظ للأمر الواقع، وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر فى ترك المؤلف رحمه الله العدد فى مسائل الباب مع أنه صريح فى الحديث.

ومنها: إخباره ببقاء الطائفة المنصورة، وهذا كله وقع كما أخبر.

قال الشيخ رحمه الله: «مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون فى العقول».

● **الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.**

ووجه هذا الحصر أن الأئمة ثلاثة أقسام: أمراء وعلماء وعباد؛ فهم الذى يخشى من إضلالهم لأنه متبوعون، فالأمراء لهم السلطة والتنفيذ، والعلماء لهم التوجيه والإرشاد، والعبَّاد لهم تغرير الناس وخداعهم بأحوالهم، فهؤلاء يطاعون ويقتدى بهم، فيخاف على الأمة منهم: لأنهم إذا كانوا مضلين ضلَّ بهم كثير من الناس، وإذا كانوا هادين اهتدى بهم كثير من الناس.

قد ربط الشرع بين فساد السلطة والأمراء وبين فساد المجتمع فى حديث مسلم. **صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤسهن كأسنمة البخت المائلة لايدخلن الجنة ولايجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»**[2].

● **الرابعة عشر: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.**

يعنى أنَّ عبادة الأوثان لاتختص بالركوع والسجود لها، بل تشمل اتباع المضلين الذين يحلون ما حرم الله فيُحلّه الناس، ويُحَرِّمون ما أحله الله فيحرمه الناس.



---

(١) «فتح البارى» (٦/ ٦١٧).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الناس والزينة (٧/ ٣٦٢/ ١٢٥) عن أبى هريرة به.

(٢٣) بابُ
مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(١): لما كان السحر من أنواع الشرك إذ لا يأتى السحر بدونه ولهذا جاء فى الحديث: «**ومن سحر فقد أشرك**»(*) أدخله المصنف فى كتاب التوحيد، ليبين ذلك تحذيراً منه كما ذكر غيره من أنواع الشرك. اهـ.

وقال ناصر السعدى(٢): وجه إدخال السحر فى أبواب التوحيد أن كثيرًا من أقسامه لا يتأتى إلا بالشرك والتوسل بالأرواح الشيطانية إلى مقاصد الساحر فلا يتم للعبد توحيد حتى يدع السحر كله قليله وكثيره اهـ.

وقال ابن عثيمين(٣): لأن من أقسام السحر ما لايتأتى غالبًا إلا بالشرك، فالشياطين لا تخدم الإنسان غالبًا إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوى بنى آدم فيدخلهم فى الشرك والمعاصى . اهـ.

شرح الترجمة والتبويب، وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٤): باب ما جاء فى السحر أى: والكهانة .

قال حامد بن حسن بن محسن(٥): باب ما جاء فى بيان السحر وأنواعه وحكمه . اهـ.

تعريف السحر لغة:

قال ابن حجر(٦): قال الراغب وغيره: السحر يطلق على معان:

أحدها: ما لطف ودق، ومنه سحرت الصبى خادعته واستملته، وكل من استمال شيئًا فقد سحره ومنه إطلاق الشعراء سحر العيون لاستمالتها النفوس، ومنه قول الأطباء: الطبيعة ساحرة ومنه قوله تعالى: ﴿**بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ**﴾ أى مصرفون عن المعرفة، ومنه حديث: «**إن من البيان لسحراً**»(٧) ثم ذكر ثلاث أنواع أخرى ستأتى فى نقل ابن كثير عن الرازى اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٨١). (٢) القول السديد (٧٤, ٧٥).

(*) سيأتى تخريجه فى الباب القادم عن أبى هريرة.

(٣) القول المفيد (٢/٧). (٤) فتح المجيد (١/ ٣٦٢).

(٥) فتح الله الحميد المجيد (٣١٣) (٦) فتح البارى ١٠/ ٢٣٢)

(٧) [صحيح] أخرجه البخارى (٥١٤٦) عن ابن عمر به وأنظر «فتح المجيد» (٤٧٥) بتخريجنا.

وقال ابن كثير[1]: السحر فى اللغة عبارة عما لطف وخفى سببه، ولهذا جاء فى الحديث: «**إن من البيان لسحراً**»: وسمى السحور لكونه يقع خفيًا آخر الليل.

والسَّحر: الرئة، وهى محل الغذاء، وسميت بذلك لخفائها، ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه.

كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة: انتفخ سَحْرُك، أى: انتفخت رئته من الخوف.

وقالت عائشة رضى الله عنها: توفى رسول الله ﷺ بين سَحْرى ونحْرى[*]. وقال تعالى: ﴿**سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ**﴾ أى: أخفوا عنهم عملهم. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ[2] بنحو بعض كلام الحافظ حيث قال:

عبارة عما خفى ولطف سببن ولهذا جاء فى الحديث: «**إن من البيان لسحراً**» وسمى السحور سحوراً لأنه يقع خفيًا آخر الليل وقال تعالى: ﴿**سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ**﴾ أى اخفوا عنهم علمهم.

وقال نحو ذلك ابن عثيمين[3]: وزاد فكل شىء خفى سببه. يسمى سحراً.

واصطلاحًا: قال سليمان: قال أبو محمد المقدسى فى «الكافى»: السحر عزائم ورقى وعقد يؤثر فى القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجته ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه قال الله تعالى: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾وقال سبحانه ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾ يعنى السواحر اللاتى يعقدن فى سحرهنَّ وينفثن فى عقدهن. اهـ.

أقسام السحر:

قال ابن كثير[4]: وقد ذكر أبو عبد الله الرازى أن أنواع السحر ثمانية:

الأول: سحر الكلدانيين والكشدانيين[5]، الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة، وهى السيارة وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم، وأنها تأتى بالخير والشر، وهم الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل ﷺ، مبطلاً لمقالتهم ورادًا لمذهبهم، وقد استقصى فى «كتاب السر المكتوم، فى مخاطبة الشمس والنجوم» المنسوب إليه فيما ذكره القاضى ابن خلكان[6] وغيره، ويقال: أنه تاب منه، وقيل: إنه صنفه على وجه إظهار الفضيلة لا

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٢).
(*) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٤٥١) عن عائشة به.
(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٨١، ٢٨٢).
(٣) القول المفيد (٢/ ٥).
(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٩ - ٢١٢- الشعب)
(٥) الكلدانيون والكشدانيون: طائفتان من عبدة الكواكب (تاج العروس).
(٦) وفيات الأعيان: ٣/ ٣٨١.

على سبيل الاعتقاد، وهذا هو المظنون به، إلا أنـه ذكر فيه طرائفهم فى مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة، وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه، وما يتنسكون به.

قال: والنوع الثانى: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية: ثم استدل على أن الوهم له تأثير، بأن الإنسان يمكنه أن يمشى على الجسر الموضوع على وجه الأرض، ولا يمكنه المشى علـيه إذا كان ممدودًا على نـهر أو نحوه، قال: وكمـا أجمعت الأطباء عـلى نهى المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصـروع إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة[1] للأوهام.

قال: وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق.

وله أن يسـتدل على ذلـك بما ثبت فـى الصحيـح أن رسول الله ﷺ ، قال: **«العين حَقّ، ولو كان شىء سَابق القدر لسبقته العين»**[2].

قال: فإذا عرفت هذا، فنـقول: النفس التى تفعل هذه الأفاعيـل قد تكون قوية جدًا، فتستغنى فى هـذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات، وقد تكون ضعـيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات.

وتحقيقه: أن النفـس إذا كانت مستـعلية علـى البدن[3] شديـدة الانجذاب إلى عـالم السموات صارت كأنها روح من الأرواح السماوية، فكـانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم، وإذا كـانت ضعيفة شـديدة التعلق بـهذه الذات البدنيـة، فحينئذ لا يـكون لها تصرف ألبتة إلا فى هذا البدن، ثم أرشد إلى مـداواة هذا الداء بتقليل الغذاء، والانقطاع عن الناس والرياء.

قلت: وهذا الذى يشير إليه هو التصرف بالحـال، وهو على قسمين: تارة يكون حالا صحيحةً شرعية يتصرف بها فيـما أمر الله ورسوله ﷺ ويترك ما نهى الله عنه ورسوله، وهذه الأحوال مواهب من الله تـعالى وكرامات للصالحين من هـذه الأمة، ولا يسمى هذا سحرًا فى الشرع، وتارة تكون الحال فاسدة لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ولا يتصرف بها فى ذلك، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشريعة، ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبـته لهم، كما أن الدجّال - لعنه الله- له مـن الخوارق للعادات ما دلّت علـيه الأحاديث الكـثيرة، مع أنه مذمـوم شرعًا لعنـه الله وكذلك من شابـهه من مخالفى الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام: وبسط هذا يطول جدًا، وليس هذا موضعه.

(١) منطبعة، والمثبت عن تفسير الرازى ٣/ ٢٣١.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) مشتغلة عن البدن، ينظر تفسير الرازى: ٣/ ٢٣٢.

قال: **النوع الثالث من السحر: الاستعانة بالأرواح الأرضية**[1]، **وهم من الجن**، خلافًا للفلاسفة والمعتزلة، وهم على قسمين: مؤمنين، وكفار، وهم الشياطين، وفى ذلك نظر ولكن فى اعتبار كون الشياطين جميعًا كفارًا نظرًا لأنه كان هناك شياطين فى مملكة سليمان وسليمان لم يكن ليرضى بوجود كفار فى مملكته وهو الذى لم يرض بالكفر فى مملكة سبأ. قال: واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية، لما بينهما من المناسبة والقرب، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخل والتجريد، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير.

النوع الرابع من السحر: التخيلات، والأخذ بالعيون والشعبذة، ومبناه أن البصر قد يخطئ ويشتغل بالشيئ المعين دون غيره، ألا ترى أن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شيئ يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه، عمل شيئًا آخر عملاً بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه، فيتعجبون منه جدًا، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكل ما يفعله.

قال: وكلما كانت الأحوال التى تفيد حسن البصر نوعًا من أنواع الخلل أشد، كان العمل أحسن، مثل أن يجلس المشعبذ فى موضع مضيء جدًا، أو مظلم، فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها بكلالها، والحالة هذه.

قلت: وقد قال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدى فرعون إنما كان من باب الشعبذة، ولهذا قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**﴾، وقال تعالى: ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ**﴾ قالوا: ولم تكن تسعى فى نفس الأمر، والله أعلم.

النوع الخامس من السحر: الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية، كفارس على فرس فى يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق، من غير أن يمسه أحد، ومنها الصور التى تُصورها الروم والهند، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصورونها ضاحكة وباكية.

إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور المخاييل، قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل.

(١) الاستعانة بالأرضية، وينظر المرجع السابق: ٣/ ٣٣٣.

قلت: يعني ما قاله بعض المفسرين: **إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصى، فحشوها زئبقًا فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق، فيخيل إلى الرائى أنها تسعى باختيارها.**

قال الرازي: ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، ويندرج فى هذا الباب علم جر الأثقال بالآلات الخفيفة .

قال: وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعد من باب السحر، لأن لها أسبابًا معلومة يقينية، من اطلع عليها قدر عليها.

قلت: ومن هذا القبيل حيل النصارى[1] على عامتهم، بما يرونهم إياه من الأنوار، كقضية قُمامة الكنيسة التى لهم ببلد المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام، وأما الخواص فهم يعترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم فيرون ذلك سائغًا لهم، وفيه شبه الجهلة والأغبياء من متعبدى الكرامية[2]، الذين يرون جواز وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب فيدخلون فى عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم: **«من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»**[3] وقوله: **«حدثوا عنى ولا تكذبوا على فإنه من يكذب على يلج النار»**.

ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان، وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور تَرِق له فتذهب فتلقى فى وكره من ثمر الزيتون، ليتبلغ به، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله وتوصل إلى أن جعله أجوف، فإذا دخلته الريح يسمع له صوت كصوت ذلك الطائر، وانقطع فى صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم، وعلق ذلك الطائر فى مكان منها، فإذا كان زمان الزيتون فتح بابًا من ناحية، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة، فَيُسْمع صوتها كذلك الطائر فى شكله أيضًا، فتأتى الطيور فتحمل من الزيتون شيئًا كثيرًا فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون فى هذه الصومعة، ولا يدرون ما سببه ؟ ففتنهم بذلك وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

(١) تأمل هذا النص جيدًا!!!

(٢) الكرامية: أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام، وهم طوائف بلغ عددهم اثنى عشرة فرقة، وكان أبو عبد الله من المجسمة والمشبهة، ويوافقون المعتزلة فى التحسين والتقبيح العقليين (الملل والنحل للشهرستانى: ١/ ٩٩ وما بعدها).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١٠)، ومسلم فى المقدمة (١/ ١٠ /٣) عن أبى هريرة به.

قال الرازى: النوع السادس من السحر: الاستعانة بخواص الأدوية يعنى فى الأطعمة والدهانات، قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد.

قلت: يدخل فى هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعيًا أنها أحوال له، من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

قال: النوع السابع: من السحر تعليق القلب: وهو أن يدعى الساحر أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز، اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك، وحصل فى نفسه نوع من الرهب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء.

قلت: هذا النمط يقال له التنبلة، وإنما يروج على ضعفاء العقول من بنى آدم، وفى علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المتنبل حاذقًا فى علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره.

قال: النوع الثامن من السحر: السعى بالنميمة والتضريب[(١)] من وجوه خفيفة لطيفة: وذلك شائع فى الناس.

قلت: النميمة على قسمين، تارة تكون على وجه التحريش وتفريق قول[(٢)] المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه فأما إذاكانت على وجه الإصلاح، وائتلاف كلمة المسلمين، كما جاء فى الحديث: **«ليس بالكذاب من ينم خيرًا»**[(٣)]، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة، فهذا أمر مطلوب، كما جاء فى الحديث: **«الحرب خُدعة»**[(٤)] وكما فعل نعيم بن مسعود فى تفريقه بين كلمة الأحزاب وقريظة، وجاء إلى هؤلاء فنمى إليهم عن هؤلاء كلامًا.

ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئًا آخر، ثم لأم بين ذلك، فتناكرت النفوس وافترقت، وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء والبصيرة النافذة، والله المستعان.

ثم قال الرازى: فهذه جملة الكلام فى أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه.

---

(١) أى الإغراء، وفى بعض نسخ التفسير (التقريب) والأولى أظهر والله أعلم.

(٢) وفى طبعة المكتبة القيمة» [قلوب].

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٦٩٢)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/١٥٧ ـ النووى) عن أم كلثوم به وانظر «رياض الصالحين» (٢٥١ ـ بتخريجنا).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٠٣٠)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٢/٤٥ ـ النووى) عن جابر به وانظر «رياض الصالحين» (١٣٥٥ ـ بتخريجنا).

قلت: «وإنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر، لـلطافة مداركها». اهـ.

واقتصر سليمان آل الشيخ[1]: على قوله: منه ما هو تخييل، ومنه ماله حقيقة، كما يفهم مما تقدم اهـ.

وأما ابن عثيمين[2]: فقال: وأما في الشرع فإنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: عقد ورُقى، أي: قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، لكن قد قال الله تعالى:

﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ويستدل له بقصة سحر النبي في الصحيح[3].

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله، فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف.

فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك ويستدل لذلك بحديث التولة.

فيؤثر على بدن المسحور بإضعافه شيئًا فشيئًا حتى يهلك.

وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه.

وفي عقله، فربما يصل إلى الجنون والعياذ بالله. اهـ.

وتقدم تفصيل ابن كثير والرازي بأوسع من ذلك.

● **هل للسحر حقيقة أم لا؟ وهل هذه الحقيقة تقلب الأعيان أم هي تأثير في المزاج فقط؟** الجواب: **قال أبو محمد في الكافي** ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه.

وروت عائشة رضي الله عنها- أن النبي ﷺ سُحِر حتى أنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، وإنه قال لها ذات يوم: «**أتاني رجلان فجلس أحدهما عند رجلي والآخر عند رأسي فقال الذي عند رجلي: ما بال الرجل ؟ قال: مطبوب - يعني مسحوراً - قال: ومن طبَّه ؟ قال: لبيد بن أعصم قال: وفيم ؟ قال في جف طلعة ذكر في مشط وماشطة تحت رعوفة في بئر ذروان .. الحديث**» رواه البخاري اهـ[4].

قال ابن كثير[5]: حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر، قال: وربما كفّروا من اعتقد وجوده، قال: وأما أهل السنة فقد جَوَّزُوا أن

---

(١) تيسير العزيزالحميد (٢٨٢). (٢) القول المفيد (٢/ ٥).
(٣) تقدم تخريجه (٤) تقدم تخريجه. (٥) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٨).

يقدر الساحر أن يطير فى الهواء، ويقلب الإنسان حمارًا، والحمار إنسانًا، إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشيـاء عندما يقول الساحر تلـك الرقى والكلمات المُعيَّنـة، فإما أن يكون المؤثر فى ذلك هو الفلك والنجوم فلا، خلافًا للـفلاسفة والمنجمين والصابئة، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلـق الله تعالى، بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومن الأخبار بأن رسـول الله ﷺ سُحر، وأنَّ السحر عَمل فيه، وبـقصة تلك المرأة مع عائشة رضى الله عنها، وما ذكرت تلك المرأة مـن إتيانها بابل وتعلمها السحر، قال: ويما يذكر فى هذا الباب من الحكايات الكثيرة، ثم قال بعد هذا:

وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن هبيـرة بن محمد بن هبيرة فى كتابة: «الإشراف على مذاهب الأشراف فى السحر، فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة، فإنه قال: لا حقيقة له عنده.

قال ابن حجر[1]: رادًا على من أنكر حقيقة السحر فى قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ هذه الآية عمدة مـن زعم أن السحر إنما هو تخيـيل، ولا حجة له، بها لأن هـذه وردت فى قصة سحـرة فرعون، وكان سحـرهم كذلك، ولا يلـزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل.

قال أبو بكر الرازى فى «الأحكام»: أخبر الله تعالى أن الذى ظنه موسى من أنها تسعى لم يكن سعيًا وإنما كان تخييلاً، وذلك أن عـصيهم كانت مجوفة قد ملئت زئبقًا، وكذلك الحبال كـانت من أدم محشوة زئبقًا، وقـد حفروا قبل ذلك أسرابًا وجـعلوا لها آزاجًا وملأوها نارًا فـلما طرحت على ذلك المـوضع وحمى الزئبق حركـها لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير، فلما أثقلته كثافة الحبال والعصى صارت تتحرك بحركته فظن من رآها أنها تسعى، ولم تكن تسعى حقيقة.

وقال فى موضع آخر[2]: واختلف فى السـحر فقيل: هو تخييل فقـط ولا حقيقة له وهذا اختيار أبى جعفر الأسترباذى من الشافـعية وأبى بكر الرازى من الحنفية وابن حزم الظاهرى وطائفة.

قال النووى: والصحيح أن له حقـيقة وبه قطع بالجمهور وعليه عـامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة انتهى.

لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقـلاب عين أو لا ؟ فمن قال إنه تخييل فقط منع ذلك، ومن قال إن له حقيقة اختلفوا هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعًا من

(١) فتح البارى (١٠/ ٢٣٥، ٢٣٦)
(٢) فتح البارى (١٠/ ٢٣٣).

الأمراض أو ينتهى إلى الإحالة بحيث يصير الجماد حيوانًا مثلاً وعكسه؟ فالذى عليه الجمهور هو الأول، وذهبت طائفة قليلة إلى الثانى، فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمسلم، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف، فإن كثيرًا ممن يدعى ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه.

ونقل الخطابى أن قومًا أنكروا السحر مطلقًا وكأنه عنى القائلين بأنه تخييل فقط وإلا فهى مكابرة.

وقال المازرى: جمهور العلماء على إثبات السحر وأن له حقيقة، ونفى بعضهم حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة، وهو مردود لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو مزج بين قوى على ترتيب مخصوص، ونظير ذلك ما يقع من حذاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض حتى ينقلب الضار منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعًا اهـ.

وقال القرطبى: السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب، غير أنها لدقتها لايتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادتها الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاتها وأكثرها تخييلات بغير حقيقة وإيهامات بغير ثبوت فيعظم عند من لا يعرف ذلك كما قال الله تعالى عن سحرة فرعون ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ مع أن حبالهم وعصيهم لم تخرج عن كونها حبالاً وعصيًا، ثم قال: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيرًا فى القلوب كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر، وفى الأبدان بالألم والسقم، وإنما المنكور أن الجماد ينقلب حيوانًا أو عكسه بسحر الساحر ونحو ذلك. اهـ.

● **هل يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله فى كتابه:**

قال ابن حجر[1]: وقيل لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله تعالى فى قوله: ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ لكون المقام مقام تهويل، فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره.

قال المازرى: والصحيح من جهة العقل أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك، قال: والآية ليست نصًا فى منع الزيادة، ولو قلنا إنها ظاهرة فى ذلك اهـ.

● **متى كان بدأ السحر:**

قال ابن حجر[2]: فى قول الله تعالى: ﴿لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ

(1) فتح البارى (١٠/ ٢٣٣).
(2) فتح البارى (١٠/ ٢٣٤).

السِّحْرَ﴾ الآية، فى هذه الآية بيان أصل السحر الذى يعمل به اليهود، ثم هو مما وضعته الشياطين على سليمان بن داود عليهما السلام ومما أنزل على هاروت وماروت بأرض بابل، والثانى متقدم العهد على الأول لأن قصة هاروت وماروت كانت من قبل زمن نوح عليه السلام، على ما ذكر ابن إسحق وغيره، وكان السحر موجودًا فى زمن نوح إذ أخبر الله عن قوم نوح أنهم زعموا أنه ساحر، وكان السحر أيضًا فاشيًا فى قوم فرعون وكل ذلك قبل سليمان .اهـ.

● **حكم تعلم السحر:**

قال ابن كثير [(١)] **: حكى الرازى فى المسألة الخامسة فى أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور:** اتفق المحققون على ذلك، لأن العلم لذاته شريف، وأيضًا لعموم قوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾**، ولأن السحر لو لم يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة، والعلم بكون المعجز معجزًا واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب، فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبًا، وما يكون واجبًا فكيف يكون حرامًا وقبيحًا!

قال ابن كثير: هذا لفظه بحروفه فى هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظر من وجوه، **أحدها:** قوله: «العلم بالسحر ليس بقبيح» إن عنى به ليس بقبيح عقلاً، فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا، وإن عنى أنه ليس بقبيح شرعًا، ففى هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر.

وفى الصحيح: «**من أتى عرافًا أو كاهنًا، فقد كفر بما أنزل على محمد**»[(٢)] وفى السنن: «**من عقد عُقدة ونفث فيها فقد سحر**»[(٣)].

وقوله: «ولا محظور اتفق المحققون على ذلك» كيف لا يكون محظورًا مع ما ذكرناه من الآية والحديث ؟!

واتفاق المحققين يقتضى أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم، وأين نصوصهم على ذلك، ثم إدخاله السحر فى عموم قوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾** فيه نظر، لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعى، ولم قلت إن هذا منه؟ ثم ترقيه إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل لعلم

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٠٨). (٢) تقدم تخريجه.

(٣) سيأتى تخريجه فى الباب القادم عن أبى هريرة.

بالمعجز إلا به، ضعيف بل فاسد، لأن معظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هى القرآن العظيم، الذى ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه، والله أعلم .اهـ.

وقال ابن حجر(١): وأما تعلمه وتعليمه حرام، فإن كان فيه ما يقتضى الكفر كفر واستتيب منه ولا يقتل، فإن تاب قبلت توبته، وإن لم يكن فيه ما يقتضى الكفر عزر.

وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر لأحد أمرين إما لتمييز ما فيه كفر عن غيره وإما لإزالته عمن وقع فيه، فأما الأول فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرده لا تستلزم منعًا، كمن يعرف كيفية عبادة الأوثان للأوثان لأن كيفية ما يعمله الساحر إنما هى حكاية قول أو فعل، بخلاف تعاطيه والعمل به، وأما الثانى فإن كان لا يتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق فلا يحل أصلاً وإلا جاز للمعنى المذكور.

ثم قال: وهذا فصل الخطاب فى هذه المسألة .اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): قال الشافعى رحمه الله إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وإنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته تضر اهـ. وسيأتى كلام الشافعى أيضاً من عند ابن كثير.

● **حكم تعلم السحر واستعماله:**

قال ابن كثير(٣): **واختلفوا فيمن يعلم السحر ويستعمله،** فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يكفر بذلك، ومن أصحاب أبى حنيفة من قال: إن تعلمه فيتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر، ومن تعلمه معتقدًا جوازه أو أنه ينفعه كَفَر، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر.

وقال الشافعى - رحمه الله: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك: فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقد أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها، فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر. اهـ.

(١) فتح البارى (١٠/ ٢٣٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٨٣). (٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٨).

● حكم السحر والساحر:

قال ابن حجر[(١)]: وقد استدل بهذه الآيـة على أن السحر كفر ومتعـلمه كافر، وهو واضح فى بعض أنواعه التى قدمتها وهو التعبد للشياطين أو للكواكب، وأما النوع الآخر الذى هو من باب الشعوذة فلا يكفر به من تعلمه أصلاً.

قال النووى: عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبى ﷺ من السبع الموبقات، ومنـه ما يكون كفرًا، ومنه مالا يكون كفرًا بل معـصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضى الكفر فهو كفر وإلا فلا.

قال ابن حجر: وعن مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب بل يتحتم قتله كالزنديق.

قال عياض: وبقول مالك قال أحمد وجماعة من الصحابة والتابعين اهـ.

وفى إيراد البـخارى هذه الآية: ﴿**لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾ إشارة إلى اختيار الحكم بكفر السـاحر لقوله فيها: ﴿ **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾ فإن ظاهـرها أنهم كفـروا بذلك، ولا يكفـر بتعليـم الشىء إلا وذلك الشىء كفر، وكذا قوله فى الآية على لسان الملكين ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ**﴾ فإن فيه إشارة إلى أن تعلم السحر كفر فيكون العمل به كفرًا، وهذا كله واضح على ما قررته من العمل ببعض أنواعه اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[(٢)]: فدلت الآية عـلى تحريم السحر، وهو كـذلك، بل هو محرم فى جميـع أديان الرسل عليهم السلام كـما قال تعالى: ﴿**وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى**﴾ واستدل بها بعضهم على كفر الساحر لعموم قوله تعالى: ﴿**لَمَنِ اشْتَرَاهُ**﴾ يدل على قوله تعالى: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾ وقد نص أصحاب أحمد على أنه يكفر بتعلمه وتعليمه.

وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تعلم شيئًا من السحر قليلاً كان أو كثيرًا كان آخر عهده من الله**»[(٣)] وهذا مرسل.

واختلفوا هل يكـفر الساحر أو لا؟ فذهب طائفة من السلف إلـى أنه يكفر، وبه قال

---

(١) فتح البارى (١٠/ ٢٣٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٨٢، ٢٨٣).

(٣) أخرجه عبدالرزاق فى «مصنفه» (٥٣/ ١٨١) وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

مالك وأبو حنيفة وأحمد، قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقى شيء يضر فلا يكفر، وقيل: لا يكفر إلا أن يكون فى سحره شرك فيكفر، وهذا قول الشافعى وجماعته.

ثم قال وعند التحقيق ليس بين القولين اختلاف فإن من لم يكفر لظنه أنه يتأتى بدون الشرك وليس كذلك بل لا يأتى السحر الذى من قبل الشياطين إلا بالشرك وعبادة الشيطان والكواكب، ولهذا سماه الله كفرًا فى قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

وفى حديث مرفوع رواه رزين: «**الساحر كافر**».

وقال أبو العالية: السحر من الكفر.

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ وذلك أنهما علماء الخير والشر والكفر والإيمان فعرفا أن السحر من الكفر

وقال ابن جريج فى الآية: لا يجترئ على السحر إلا الكافر، وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر، وإن سمى سحرًا فعلى سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنميمة سحرًا، ولكنه يكون حرامًا لمضرته يُعزَّر من يفعله تعزيزًا بليغًا اهـ.

تقسيم السحر من حيث الحكم:

قال ابن عثيمين(١):

(أ) شرك، وهو الأول الذى يكون بواسطة الشياطين، يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور:

(ب) **عدوان**، وهو الثانى الذى يكون بواسطة الأدوية والعقاقير، ونحوها.

وبهذا التقسيم الذى ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة، وهى: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟ اهـ.

يأتى الخلاف والراجح فى ذلك.

قال ابن عثيمين(٢): اختلف أهل العلم: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟

فمنهم من قال: إنه يكفر.

ومنهم من قال: إنه لا يكفر.

---

(١) القول المفيد (٢/ ٦٢٥)..

(٢) القول المفيد (٢/ ٦).

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾[1].

ولكن التقسيم السابق الذى ذكرناه يعنى منه ما هو شرك وما هو عدوان يتبين به حكم هذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشياطين، فإنه يكفر لأنه لا يتأتى ذلك إلا بالشرك غالبًا لقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ..﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها، فلا يكفر، ولكن يعتبر عاصيًا معتديًا اهـ.



قوله: [وقول الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾].

مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ[2]: دلت الآية على تحريم السحر، وهو كذلك، وهو محرم فى جميع أديان الرسل عليهم السلام اهـ.

قال القرعاوى[3]: حيث دلت الآية على أن السحر كفر أ.هـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى[4]: حيث حذرت الآية من السحر الذى لا يتم إلا بالشرك، والشرك منافى للتوحيد.

الإعراب[5]: (ولقد) الواو استئنافية مسوقة للشروع فى بيان حالهم بعد تعلم السحر واللام جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق (علموا) فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم (لمن) اللام لام الابتداء وتفيد التأكيد ومن اسم موصول مبتدأ وجملة (اشتراه) لا محل لها (ما) نافية أو حجازية (له) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم أو خبر ما (فى الآخرة) الجار والمجرور فى محل نصب حال (من) حرف جر زائد

---

(1) البقرة / ١٠٢

(2) تيسير العزيز الحميد (٢٨٢).

(3، 4) الجديد للقرعاوى ص٢٢٠. (5) إعراب القرآن ١/ ١٥٩.

(خلاق) اسم مجرور بمـن لفظًا مبتدأ مؤخـر أو اسم ما والجملة فى محـل رفع خبر من والجملة كلها فى حيز النصب وقد سدت مفعولى علموا المعلقة عن العمل. اهـ.

ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى[1]: قال جل ثنـاؤه: لقد علم النابذون مـن يهود بنى إسرائيـل كتابى (وراء ظهورهم) تجاهـلاً منهم، التاركون العمل بمـا فيه من اتباعك يا محـمد، واتباع ما جئت به بـعد إنزالى إليك كتـابى مصدقًا لما معهـم، وبعد إرسالك إليهـم بالإقرار بما معهم، وما فى أيديهم المؤثرون عليه اتباع السحر الذى تلته الشياطين على عهد سليمان، والذى أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت (لمـن اشترى) السحر بكتابى الذى أنزلته على رسولى فآثره عليه (ماله فى الآخرة من خلاق). اهـ.

ثم روى ابن جريـر عن قتادة والسدى ومجـاهد وابن زيد فى قولـه تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**﴾ قد علم ذلك أهل الكـتاب أو اليهود فى عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له عند الله يوم القيامة.

وروى أيضًا عـن مجاهد والسدى وسـفيان فى قوله تـعالى: ﴿**مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**﴾ أنه ماله فى الآخرة من نصيب.

وروى عن قتادة ﴿**مِنْ خَلاقٍ**﴾ من حجة وعن الحسن ليس له دين.

وعن ابن عباس ﴿**مِنْ خَلاقٍ**﴾ قال قوام.

ورجح الأول فقال[2]: وأولى الأقوال بالصواب قول من قـال معنى (الخلاق) فى هذا الموضع النصـيب وذلك أن ذلك معناه فى كلام العـرب ومنه قوله ﷺ **«ليؤيدن الله هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»** يعنى لا نصيب لهم ولا حظ فى الإسلام والدين ومنه قول أمية بن أبى الصلت:

يدعون بالويل فيها لا خلاق لهم إلا سرابيل من قطر وأغلال

يعنى بذلك لا نـصيب لهم ولا حظ إلا سرابيل وأغلال. فكذلـك قوله: (ما له فى الآخرة من خلاق) ما له فـى الدار الآخرة حظ من الجنة من أجل أنه لـم يكن له إيمان ولا دين، ولا عمل صالـح يجازى به فى الجنَّة ويثـاب عليه فيكن له حـظ ونصيب من

(١) تفسير الطبرى (١/ ١/ ٣٧٠).
(٢) تفسير الطبرى ١/ ٣٧١.

الجنة، وإنما قال جل ثناؤه ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ فوصفه بأنه لا نصيب له فى الآخرة وهو يعنى به لا نصيب له من جزاء وثواب وجنة دون نصيبه من النار إذ كان قد دلَّ ذمه جلَّ ثناؤه أفعالهم التى نفى من أجلها أن يكون لهم فى الآخرة نصيب على مراده من الخير وإنه إنما يعنى بذلك أنه لا نصيب لهم فيها من الخيرات وأما من الشرور فإنَّ لهم فيها نصيبًا اهـ.

وبنحو هذا الذى ذكره الطبرى ذكر البغوى والرازى والقرطبى وغيرهم من المفسرين.

قال ناصر السعدى[1]: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أى اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أى: رغب فى السحر رغبة المشترى فى السلعة، ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ أى: نصيب بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ علمًا يثمر العمل ما فعلوه.

قال سليمان آل الشيخ[2]: أى ولقد علم اليهود والذين استبدلوا السحر عن متابعة الرسل والإيمان بالله لمن اشتراه، أى: استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله ومتابعة رسله ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ ثم قال: وقال الحسن: ليس له دين، فدلت الآية على تحريم السحر .اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: ما له من نصيب، وكل من ليس له فى الآخرة من خلاق، فمقتضاه أن عمله حابط باطل، لكن إما أن يقتضى النصيب انتفاء كليًا فيكون العمل كفرًا، أو ينتفى كمال النصيب فيكون فسقاً. اهـ.

مسألة: قوله ﴿اشْتَرَاهُ﴾ على الحقيقة أم على سبيل الاستعارة؟

قال الفخر الرازى[4]: إنما ذكر لفظ الشراء على سبيل الاستعارة، لوجوه!

الأول: أنهم لما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وأقبلوا على التمسك بما تتلوا الشياطين فكأنهم قد اشتروا ذلك السحر بكتاب الله.

الثانى: أن الملكين إنما قصدوا بتعلم السحر الاحتراز عنه ليصل بذلك الاحتراز إلى منافع الآخرة، فلما استعمل السحر، فكأنه اشترى بمنافع الآخرة منافع الدنيا.

الثالث: أنه لما استعمل السحر علمنا أنه إنما تحمل المشقة ليتمكن من ذلك الاستعمال فكأنه اشترى بالمحن التى تحملها قدرته على ذلك الاستعمال اهـ.

---

(١) تيسر الكريم الرحمن ١/ ٦٠.
(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٨٢).
(٣) القول المفيد ٢/ ٨.
(٤) التفسير الكبير (٢/ ٣/ ٢٤١).

مسألة:

قال الرازى[2]: بقى فى الآية سؤال: وهو أنه كيف أثبت لهم العلم أولاً فى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ ثم نفاه عنهم فى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

والجواب من وجوه: أحدها. أن الذين علموا غير الذين لم يعلموا، فالذين علموا هم الذين علموا السحر ودعوا الناس إلى تعلمه وهم الذين قال الله فى حقهم ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ وأما الجهال الذين يرغبون فى تعلم السحر فهم الذين لا يعلمون.

وهذا جواب الأخفش وقطرب.

[قلت]: وذكره القرطبى ومال إليه.

وثانيها: لو سلمنا كون القوم واحداً ولكنهم علموا شيئًا وجهلوا شيئًا آخر، علموا أنهم ليس لهم فى الآخرة خلاق ولكنهم جهلوا مقدار ما فاتهم من منافع الآخرة وما حصل لهم من مضارها وعقوباتها.

وثالثها: لو سلمنا أن القوم واحد والمعلوم واحد ولكنهم لم ينتفعوا بعلمهم بل أعرضوا عنه فصار ذلك العلم كالعدم كما سمى الله تعالى الكفار ﴿صماً وبكماً وعمياً﴾ إذ لم ينتفعوا بهذه الحواس. اهـ.

قلت: أو كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾.



قوله[وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾].

مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ[3]: تقدم الكلام عليها فى الباب الذى قبله.

ووجه إيرادها هنا ظاهر لأن السحر من الجبت كما قال عمر بن الخطاب.

قال القرعاوى[4]: حيث دلَّت الآية على تحريم تعاطى السحر وذم فاعله.

قال ابن عثيمين[5]: الآية الثانية قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أى: اليهود.

(1) النساء / 51.
(2) التفسير الكبير (1/3/241).
(3) تيسير العزيز الحميد (183).
(4) الجديد (222)
(5) القول المفيد 2/8، 10.

قَالَ عُمَرُ: «الجِبْتُ: السِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ»(*).

﴿**بِالْجِبْتِ**﴾ أى السحر كما قرأها عمر بن الخطاب واليهود كانوا من أكثر الناس تعلمًا للسحر وممارسة له، ويدعون أن سليمان عليه السلام علمهم إياه، وقد اعتدوا، فسحروا النبى ﷺ.

قوله: ﴿**الطَّاغُوتِ**﴾ أجمع ما قيل فيه: هو ما تجاوز به العبد حده، من معبود، أو متبوع، أو مطاع ومعنى « من معبود» أى بعلمه ورضاه، هكذا قال ابن القيم رحمه الله.



قوله: [قال عمر: «الجبت: السحر، والطاغوت الشيطان].

قال سليمان آل الشيخ[1]: هذا الأثر رواه ابن أبى حاتم وغيره، وفيه معرفة الجبت والطاغوت والفرق بينهما.

قال ابن عثيمين[2]: فسرها أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه- بأنها السحر.

وأما تفسيره الطاغوت بالشيطان، فإنه من باب التفسير بالمثال.

والسلف رحمهم الله يفسرون الآية أحيانًا بمثال يحتذى عليه، مثل قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾.

قال بعض المفسرين: الظالم لنفسه: الذى لا يصلى إلا بعد خروج الوقت، والمقتصد: الذى يصلى فى آخر الوقت، والسابق بالخيرات: الذى يصلى فى أول الوقت.

وهذا مثال من الأمثلة، وليس ما تدل عليه الآية على وجه الشمول، ولهذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذى لا يخرج الزكاة، والمقتصد من يخرج الزكاة ولا يتصدق، والسابق بالخيرات من يخرج الزكاة ويتصدق.

فتفسير عمر رضى الله عنه للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال، لأن الطاغوت أعم من الشيطان، فالأصنام تعتبر من الطواغيت، كما قال تعالى: ﴿**وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**﴾ والعلماء والأمراء، الذين يضلون الناس يُعتبرون طواغيت، لأنهم طغوا وزادوا وفعلوا ما ليس لهم به حق. اهـ.

[قلت]: وهذا عين ما قرره شيخ الإسلام فى مقدمة التفسير له، حيث قال فى

(*) تقدم تخريجه.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٨٣).
(٢) القول المفيد (٢/ ٩-١٠).

وقَالَ جَابرٌ: «الطَّوَاغِيتِ كُهَّانٌ، كَانَ يَنزِلُ عَلَيهِم الشَّيْطَانُ، فِي كُلِ حَيٍّ وَاحِدٌ»(*).

اختلاف التنوع هو أن يذكر كل واحد من المختلفين بعض اللفظ العام بعض أفراده على سبيل المثال على سبيل ذكر الحد المطابقة للمحدود ثم ضرب الأمثلة السابقة على ذلك وضرب غيرها والله أعلم(1).

قال قرعاوى(2): الفوائد:

١- بيان انحراف أهل الكتاب.

٢- وجود السحر فى أهل الكتاب.

٣- أن المداهنة وشهادة الزور من صفات اليهود .اهـ.



قوله: [وقال جابر: الطواغيت كهان كانت تنزل عليهم الشيطان... إلخ].

قال سليمان آل الشيخ(3): هذا الأثر رواه ابن أبى حاتم بنحوه مطولاً عن وهب بن منبه قال: سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التى كانوا يتحاكمون إليها، قال: إن فى جهينة واحدًا وفى أسلم واحدًا وفى هلال واحدًا وفى كل حى واحدًا، وهم كهان تتنزل عليهم الشياطين.

ثم قال ومطابقة هذه الترجمة ظاهرة من جهة أنَّ الساحر طاغوت من الطواغيت إذا كان هذا الاسم يطلق على الكاهن فالساحر أولى لأنه أشر وأخبث.

قوله: «جابر»

قال سليمان آل الشيخ(4): هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام أبو عبد الله الأنصارى ثم السلمى بفتحتين. صحابى جليل ابن صحابى جليل مكثر عن النبى ﷺ. مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كف بصره وله أربع وتسعون سنة. اهـ.

قوله: «الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان فى كلِّ حيٍّ واحد»

قال سليمان آل الشيخ(5): المراد بهذا أن الكهان. من الطواغيت لا أنهم الطواغيت لا غير. وقوله كان ينزل عليهم الشيطان. أراد الجنس لا الشيطان الذى هو إبليس فقط، بل تتنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم ببعض الغيب، مما يسترقونه من السمع فيصدقون مرة ويكذبون مائة.

(*) تقدم تخريجه.

(1) انظر كتابى النكت المتممة على مقدمة ابن تيمية.

(2) الجديد (٢٢٢).

(3) تيسير العزيز الحميد ٢٨٤

(4) نفس المصدر السابق.

(5) تيسير العزيز الحميد ٢٨٤.

وَعَنْ أَبِي هُـرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَـالَ: اجْتَنِبُوا الـسَّبْعَ المُوبِقَات. قَالُوا: يَـا رَسُولَ الله ! وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ: الـشِّرْكُ بِالله ، وَالسِّحْـرُ، وَقَتْلُ النَّفْـسِ التِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالحَقِّ، وأَكْـلُ الرِّبَا، وأَكلُ مَالِ اليَـتِيمِ، وَالتَّولِّي يَـوْمَ الزَّحفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المؤمنات»[1].

قوله: (فى كل حى واحد الحى): واحد الأحياء، وهم القبائـل أى: فى كلِّ قبيلة من قبائل العرب كاهن يـتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب، وكذلـك كان الأمر قبل مبعث النبى ﷺ فأبطل الله ذلك بالإسلام حرست السماء بالشهب .اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: هذا أيضًا من باب التفسير بالمـثال، حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان.

والكاهن؛ قيل: هو الذى يخبر عما فى الضمير.

وقيل: الذى يخبر عن المُغيبات فى المستقبل.

وكان هؤلاء الكهان تَنزل عـليهم الشياطين بما استرقوا من الـسمع من السماء، وكان كل حى من أحياء العرب لهم كاهن يستخدم الشيـاطين، فتسترق له السمع، فتأتى بخبر السماء إليه.

وكانوا يتحاكمون إليهم فى الجاهلية.

والطواغيت ليـسوا محصورين فى هؤلاء، فتفـسير جابر رضى الله عنه تفسير بالمثال كتفسير عمر رضى الله عنه.



قولـه: وعن أبـى هريرة رضـى الله عنه، أن رسـول الله ﷺ قال: اجـتنبـو السـبع الموبقات. . . . إلخ.

هذا الحديث أخرجه البخارى فى أكثر من موضع فذكره فى كتاب الوصايا قال: باب قول الله تعـالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ ولفظه ما ذكره المصنف.

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى فى الحدود /بـاب: «رمى المحصنات» (١٢/١٨٨/ح ٦٨٥٧) «مسلم فى «الإيمان/ باب: «أكبر الكبائر» (١/ ٢/ ٨٢، ٨٣ النووى) من حديث أبى هريرة.

وانظر كتابنا فتح ذى الجلال (ح٤٨٦). وانظر «فتح المجيد» (ح ٤٨٥) بتخريجنا).

(٢) القول المفيد (٢/ ١٠-١١).

وذكره فى كتاب الطب وبوب عليه «باب الشرك والسحر من الموبقات» ولفظه: «اجتنبوا الموبقات: الشرك بالله والسحر» وذكره فى كتاب الحدود، باب «رمى المحصنات» ولفظه هو لفظ المصنف أيضًا وأخرجه مسلم بنفس اللفظ.

مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى(١): حيث دلَّ الحديث على تحريم تعلم السحر وتعليمه.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى(٢): حيث حرّم السحر لأن مبناه على الشرك.

قوله [اجتنبوا]

قال سليمان آل الشيخ(٣): أى ابعدوا، وهو الأبلغ من لا تفعلوا، لأن نهى القربان أبلغ من نهى المباشرة، ذكره الطيبى اهـ.

وقال ابن عثيمين: النبى ﷺ أنصح الخلق للخلق، فكل شىء يضر الناس فى دينهم ودنياهم يحذرهم منه، ولهذا قال: «اجتنبوا» وهى أبلغ من قوله: اتركوا، لأن الاجتناب معناه أن تكون فى جانب وهى فى جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها.

«واجتنبوا» أى: اتركوا، بل أشد من مجرد الترك، لأن الإنسان قد يترك الشىء، وهو قريب منه، فإذا قيل: اجتنبه، يعنى: اتركه مع البعد.

قوله: [السبع الموبقات]:

قال ابن حجر(٤): الموبقات المهلكات.

قال سليمان آل الشيخ(٥): المهلكات، وسميت الكبائر موبقات لأنها تهلك فاعلها فى الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفى الآخرة من العذاب اهـ.

[قلت]: وفى الحديث: **كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»**وهو فى صحيح مسلم.

قال ابن حجر(٦): وقال ابن مالك: تضمن هذا الحديث حذف المعطوف للعلم به، فإن التقدير اجتنبوا الموبقات الشرك بالله والسحر وأخواتها، وجاز الحذف لأن الموبقات سبع، وقد ثبتت فى حديث آخر، واقتصر فى هذا الحديث على ثنتين منها - يقصد الرواية المتقدمة فى باب الشرك والسحر من الموبقات - تنبيهًا على أنها أحق بالاجتناب.

(١، ٢) الجديد ٢٢٥.
(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٨١)
(٤) فتح البارى (١٠/ ٢٤٣).
(٥) تيسير العزيز الحميد (٢٨١)
(٦) فتح البارى (١٠/ ٢٤٣).

ذكر ما ورد فى عدد الكبائر والراجح من ذلك:

ثم قال ابن حجر[(١)]: قال المهلب: سميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها.

قلت: والمراد بالموبقة هنا الكبيرة كما ثبت فى حديث أبى هريرة من وجه آخر أخرجه البزار وابن المنذر من طريق عمر بن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رفعه «**الكبائر الشرك بالله وقتل النفس**» الحديث مثل رواية أبى الغيث، إلا أنه ذكر بدل السحر الانتقال إلى الأعرابية بعد الهجرة[(٢)].

وأخرج النسائى والطبرانى وصححه ابن حبان والحاكم من طريق صهيب مولى العتواريين عن أبى هريرة وأبى سعيد قالا: «قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يصلى الخمس ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة**»[(٣)] الحديث، ولكن لم يفسرها، والمعتمد فى تفسيرها ما وقع فى رواية سالم، وقد وافقه كتاب عمرو بن حزم الذى أخرجه النسائى وابن حبان فى صحيحه والطبرانى من طريق سليمان بن داود عن الزهرى عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده قال: «كتب رسول الله ﷺ كتاب الفرائض والديات والسنن وبعث به مع عمرو بن حزم إلى اليمن» الحديث بطوله، وفيه «**وكان فى الكتاب: وإن أكبر الكبائر الشرك**»[(٤)] فذكر مثل حديث سالم سواء.

وللطبرانى من حديث سهل بن أبى خيثمة عن على رفعه «اجتنب الكبائر السبع» فذكرها لكن ذكر التعرب بعد الهجرة بدل السحر[(٥)].

وله فى الأوسط من حديث أبى سعيد مثله وقال: «**الرجوع إلى الأعراب بعد الهجرة**»[(٦)] ولإسماعيل القاضى من طريق المطلب بن عبد الله بن حنطب عن عبد الله

---

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١/ ١٠٣) ونسبه للبزار. قال: وفيه عمر بن أبى سلمة ضعفه شعبه وغيره ووثقه أبو حاتم، وابن حبان وغيرهما.

(٢) القول السديد (٧٤ ، ٧٥).

(٣) أخرجه النسائى (٥/ ٨ ـ السيوطى)، وابن خزيمة فى «صحيحه» (٣١٥)، وابن حبان فى «صحيحه» (٣/ ١٢٢ـ الإحسان)، والحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٢٤٠). وانظر «الدر» (٢/ ٢٦٠).

(٤) أنظر تخريجه فى مقدمتنا على «منار السبيل».

(٥) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١/ ١٠٣) عن سهل بن أبى حثمة عن أبيه ونسبه للطبرانى فى «الكبير» وفيه ابن لهيعة.

(٦) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٥٧٠٩)

قال الهيثمى فى «المجمع» ١٠/ ١٠٤): وفيه أبو بلال الأشعرى وهو ضعيف.

ابن عمرو قال: «صعد النبى ﷺ المنبر ثم قال **أبشروا من صلى الخمس واجتنب الكبائر السبع نودى من أبواب الجنة»** فقيل له: أسمعت النبى ﷺ يذكرهن ؟ قال: نعم[1]، فذكر مثل حديث على سواء.

وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الحسن قال الكبائر الإشراك بالله، فذكر مثل الأصول سواء إلا أنه قال: **«اليمين الفاجرة»** بدل السحر.

ولابن عمر فيما أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» والطبرى فى التفسير.

وعبد الرزاق والخرائطى فى «مساوئ الأخلاق» وإسماعيل القاضى فى «أحكام القرآن» مرفوعًا وموقوفًا قال: **«الكبائر تسع»** فذكر السبعة المذكورة وزاد **«الإلحاد فى الحرم وعقوق الوالدين»**[2].

ولأبى داود والطبرانى من رواية عبيد بن عمير بن قتادة الليثى عن أبيه رفعه **«إن أولياء الله المصلون ومن يجتنب الكبائر** قالوا: ما الكبائر؟ قال: هن تسع، **أعظمهن الإشراك بالله»** فذكر مثل حديث ابن عمر سواء إلا أنه عبر عن الإلحاد فى الحرم باستحلال البيت الحرام[3]، وأخرج إسماعيل القاضى بسند صحيح إلى سعيد بن المسيب قال: **«هن عشر»** فذكر السبعة التى فى الأصل وزاد: **«وعقوق الوالدين واليمين الغموس وشرب الخمر»**. ولابن أبى حاتم من طريق مالك بن حريث عن على قال: **«الكبائر»** فذكر التسعة إلا مال اليتيم وزاد **«العقوق والتعرب بعد الهجرة وفراق الجماعة ونكث الصفقة»**[4]، وللطبرانى عن أبى أمامة أنهم تذاكروا الكبائر فقالوا: الشرك ومال اليتيم والفرار من الزحف والسحر والعقوق وقول الزور والغلول والزنا فقال رسول الله ﷺ: **«فأين تجعلون الذين يشترون بعهد الله ثمنا قليلاً»**[5].

قلت: فى كتاب الأدب عند البخارى أبواب اليمين الغموس وكذا شهادة الزور وعقوق الوالدين.

---

(1) ذكره الهيثمى فى «المجمع»(1/ 103 ـ 104) ونسبه للطبرانى فى «الكبير» وفيه مسلم بن الوليد بن العباس ولم أر من ذكره.

(2) ذكره السيوطى فى «الدر» (2/ 262) وزاد نسبته لابن راهوية، وعن بن حميد، وابن المنذر.

(3) أخرجه أبو دواد (2875) ولم يذكر لفظه والنسائى (7/ 89) مختصراً، والطبرانى فى «الكبير» (17/ 47/ 101)، والبيهقى فى «الكبرى» (10/ 86).

وانظر «الدر» (2/ 262).

(4) ذكره السيوطى فى «الدر» (2/ 264) ونسبه لابن أبى حاتم.

(5) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير وقال: بسند حسن.

وعند عبد الرزاق والطبراني عن ابن مسعود: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله**»[١] وهو موقوف، وروى إسماعيل بسند صحيح من طريق ابن سيرين عن عبد الله بن عمرو مثل حديث الأصل لكن قال: «البهتان» بدل السحر والقذف، فسئل عن ذلك فقال: البهتان يجمع. وفي «الموطأ» عن النعمان بن مرة مرسلاً: «**الزنا والسرقة وشرب الخمر فواحش**» وله شاهد من حديث عمران بن حصين[٢] عند البخاري في «**الأدب المفرد**» والطبراني والبيهقي وسنده حسن، وعند البخاري من حديث ابن عباس في النميمية ومن رواه بلفظ الغيبة وترك التنزه من البول[٣] كل ذلك في الطهارة، ولإسماعيل القاضي من مرسل الحسن ذكر «الزنا والسرقة» وله عن أبي إسحق السبيعي «شتم أبي بكر وعمر»، وهو لابن أبي حاتم من قول مغيرة بن مقسم[٤].

وأخرج الطبري عنه بسند صحيح «**الإضرار في الوصية من الكبائر**»[٥] وعنه «**الجمع بين الصلاتين من غير عذر**»[٦] رفعه.

وله شاهد أخرجه ابن أبي حاتم عن عمر قوله[٧]، وعند إسماعيل من قول ابن عمر ذكر النهبة.

ومن حديث بريدة عند البزار «منع فضل الماء ومنع طروق الفحل»[٨].

ومن حديث أبي هريرة عند الحاكم «**الصلوات كفارات إلا من ثلاث: الإشراك بالله ونكث الصفقة وترك السنة**»[٩] ثم فسر نكث الصفقة بالخروج على الإمام وترك السنة بالخروج عن الجماعة أخرجه الحاكم.

---

(١) ذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٠٤) ونسبه للطبراني في «الكبير» قال: واسناده صحيح. وانظر «الدر» (٢/ ٢٦٤). وسيأتي.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٢٠٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم في الطهارة (٣/ ٢٠٠ ـ النووي). وانظر «رياض الصالحين» (١٥٤٠ ـ بتخريجنا).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٢٦٦) ونسبه لابن أبي حاتم فانظره بتخريجنا.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر»(٢/ ٢٦٤) ونسبه لابن أبي حاتم فانظره بتخريجنا.

(٦) أخرجه الترمذي (١٨٨) وضعفه.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٢٦٣) ونسبه لابن أبي حاتم.

(٨) ذكره الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٠٥) ونسبه للبزار. قال: وفيه صالح بن حيان وهو ضعيف ولم يوثقه أحد.

(٩) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١١٩ ـ ١٢) عن أبي هريرة به.

ومن حديث ابن عمر عند ابن مردويه «**أكبر الكبائر سوء الظن بالله**».

ومن الضعيف في ذلك نسيان القرآن أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس رفعه «**نظرت في الذنوب فلم أر أعظم من سورة من القرآن أوتيها رجل فنسيها**»[(١)] وحديث «**من أتى حائضًا أو كاهنًا فقد كفر**»[(٢)] أخرجه الترمذي، فهذا جميع ما وقفت عليه مما ورد التصريح بأنه من الكبائر أو من أكبر الكبائر صحيحًا وضعيفًا مرفوعًا وموقوفًا، وقد تتبعته غاية التتبع، وفي بعضه ما ورد خاصًا ويدخل في عموم غيره كالتسبب في لعن الوالدين وهو داخل في العقوق وقتل الولد وهو داخل في قتل النفس والزنا بحليلة الجار وهو داخل في الزنا والنهبة والغلول واسم الخيانة يشمله ويدخل الجميع في السرقة وتعلم السحر وهو داخل في السحر وشهادة الزور وهي داخلة في قول الزور ويمين الغموس وهي داخلة في اليمين الفاجرة والقنوط من رحمة الله كاليأس من روح الله.

والمعتمد من كل ذلك ما ورد مرفوعًا بغير تداخل من وجه صحيح وهي السبعة المذكورة في حديث الباب والانتقال عن الهجرة والزنا والسرقة والعقوق واليمين الغموس والإلحاد في الحرم وشرب الخمر وشهادة الزور والنميمة وترك التنزه من البول والغلول ونكث الصفقة وفراق الجماعة، فتلك عشرون خصلة وتتفاوت مراتبها، والمجمع على عده من ذلك أقوى من المختلف فيه إلا ما عضده القرآن أو الإجماع فيلتحق بما فوقه ويجتمع من المرفوع ومن الموقوف ما يقاربها.

الحكمة من الاقتصار على السبعة.

قال ابن حجر[(٣)]: ويحتاج عند هذا إلى الجواب عن الحكمة في الاقتصار على سبع، ويجاب بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو جواب ضعيف.

وبأنه أعلم أولاً بالمذكورات ثم أعلم بما زاد فيجب الأخذ بالزائد.

أو أن الاقتصار بحسب المقام بالنسبة للسائل أو من وقعت له واقعة ونحو ذلك.

وقد أخرج الطبري وإسماعيل القاضي عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال: هن أكثر من سبع وسبع.

(١) أخرجه أبو داود (٤٦١)، والترمذي (٢٩١٦) واستغربه الترمذي.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الفتح ١٣/ ١٩٠.

وفى رواية عنه هى إلى السبعين أقرب.

وفى رواية إلى السبعمائة. ويحمل كلامه على المبالغة بالنسبة إلى من اقتصر على سبع، وكأن المقتصر عليها اعتمد على حديث الباب المذكور. أهـ.

قال ابن عثيمين[1]: هذا لا يقتضى الحصر، فإن هناك موبقات أخرى، ولكن النبى ﷺ يحصر أحيانًا بعض الأنواع والأجناس، ولا يعنى بذلك عدم وجود غيرها.

ومن ذلك حديث: **«السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله»**[2] فهناك غيرهم، ومثله. اهـ.

قلت: وحديث: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنا بدلالة حديث أبى هريرة فى الباب على الحصر لكونه وقع بـ «أل» المعرفة فإنه حصرها، لأن هذه أعظم الكبائر .اهـ.

حد الكبيرة: واختلاف العلماء فى ذلك والترجيح:

قال ابن حجر[3]: وإذا تقرر ذلك عرف فساد من عرف الكبيرة بأنها ما وجب فيها الحد، لأن أكثر المذكورات لا يجب فيها الحد.

قال الرافعى فى «الشرح الكبير»: الكبيرة هى الموجبة للحد، وقيل ما يلحق الوعيد بصاحبه بنص كتاب أو سنة، هذا أكثر ما يوجد للأصحاب، وهم إلى ترجيح الأول أميل، لكن الثانى أوفق لما ذكروه عند تفصيل الكبائر، وقد أقره فى «الروضة»، وهو يشعر بأنه لا يوجد عن أحد من الشافعية الجمع بين التعريفين، وليس كذلك.

فقد قال الماوردى فى «الحاوى»: هى ما يوجب الحد أو توجه إليها الوعيد، أو فى كلامه للتنويع لا للشك، وكيف يقول عالم إن الكبيرة ما ورد فيه الحد مع التصريح فى الصحيحين بالعقوق واليمين الغموس وشهادة الزور وغير ذلك، والأصل فيما ذكره الرافعى قول البغوى فى «التهذيب» من ارتكب كبيرة من زنا أو لواط أو شرب خمر أو غصب أو سرقة أو قتل بغير حق ترد شهادته، وإن فعله مرة واحدة، ثم قال: فكل ما يوجب الحد من المعاصى فهو كبيرة.

وقيل ما يلحق الوعيد بصاحبه بنص كتاب أو سنة انتهى.

---

(١) القول المفيد (٢/).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) فتح البارى ١٣/ ١٩٠-١٩١.

والكلام الأول لا يقتضى الحصر، والثانى هو المعتمد.

وقال ابن عبد السلام: لم أقف على ضابط الكبيرة يعنى يسلم من الاعتراض قال: والأولى ضبطها بما يشعر بتهاون مرتكبها إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها، قال وضبطها بعضهم بكل ذنب قرن به وعيد أو لعن.

قلت: وهذا أشمل من غيره، ولا يرد عليه إخلاله بما فيه حد، لأن كل ما ثبت فيه الحد لا يخلو من ورود الوعيد على فعله، ويدخل فيه ترك الواجبات الفورية منها مطلقًا والتراخية إذا تضيقت.

وقال ابن الصلاح: لها أمارات.

منها: إيجاب الحد.

ومنها: الإبعاد عليها بالعذاب بالنار ونحوها فى الكتاب أو السنة.

ومنها: وصف صاحبها بالفسق.

ومنها: اللعن، قلت: وهذا أوسع مما قبله، وقد أخرج إسماعيل القاضى بسند فيه ابن لهيعة عن أبى سعيد مرفوعًا «**الكبائر كل ذنب أدخله صاحب النار**» وبسند صحيح عن الحسن البصرى قال «كل ذنب نسبه الله تعالى إلى النار فهو كبيرة» ومن حسن التعريف قول القرطبى فى المفهم «كل ذنب أطلق عليه بنص كتاب أو سنة أو إجماع أنه كبيرة أو عظيم أو أخبر فيه بشدة العقاب أو علق عليه الحد أو شدد النكير عليه فهو كبيرة، وعلى هذا فينبغى تتبع ما ورد فيه الوعيد أو اللعن أو الفسق من القرآن أو الأحاديث الصحيحة والحسنة ويضم إلى ما ورد فيه التنصيص فى القرآن، والأحاديث الصحاح والحسان على أنه كبيرة، فمهما بلغ مجموع ذلك عرف منه تحرير عدها، وقد شرعت فى جميع ذلك وأسأل الله الإعانة على تحريره بمنه وكرمه، وقال الحليمى فى «المنهاج» : ما من ذنب إلا وفيه صغيرة وكبيرة، وقد تنقلب الصغيرة كبيرة بقرينة تضم إليها، وتنقلب الكبيرة فاحشة كذلك، إلا الكفر بالله فإنه أفحش الكبائر وليس من نوعه صغيرة، قلت: ومع ذلك فهو ينقسم إلى فاحش وأفحش، ثم ذكر الحليمى أمثلة لما قال فالثانى كقتل النفس بغير حق فإنه كبيرة، فإن قتل أصلاً أو فرعًا أو ذا رحم أو بالحرم أو بالشهر الحرام فهو فاحشة، وشرب الخمر كبيرة، فإن كان فى شهر رمضان نهاراً أو فى الحرم أو جاهر به فهو فاحشة والأول كالمفاخذة مع الأجنبية صغيرة، فإن كان مع

امرأة الأب أو حليلة الابـن أو ذات رحم فكبيرة، وسرقة ما دون النـصاب صغيرة، فإن كان المسروق مـنه لا يملك غيـره وأفضى به عدمه إلى الـضعف فهو كبـيرة، وأطال فى أمثلة ذلـك، وفى الكثير منـه ما يتعقب، لكن هـذا عنوانه، وهو منهـج حسن لا بأس باعتباره، ومداره على شدة المفسدة وخفتها والله أعلم.

قال ابن عثـيمين[1]: كان الصـحابة رضى الله عنهـم أحرص الناس على الـعلم، والنبى ﷺ إذا ألقى إليهم الشىء مبهمًا طلبوا تفسيره وتبيينه، فلما حذرهم النبى ﷺ من السـبع الموبقـات قالوا ذلك لأجـل أن يجتنـبوهن، فـأخبرهم، وعـلى هذه القـاعدة أن الصحابة رضـى الله عنهم أحرص الناس على العـلم لكن ما كانت الحكمـة فى إخفائه، فإن النبى ﷺ لا يخـبرهم، كقوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتـسعين اسمًا من أحـصاها دخل الجنة**»[2] ولم يردْ تبيينها عن النبى ﷺ فى حديث صحيح.

وقد حاول بعـض الناس أن يصحح حـديث سرد الأسماء التـسعة والتسعـين، ولم يصب، بل نقل شـيخ الإسلام اتفاق أهل المعرفة فى الحديث عـلى أن عدها وسردها لا يصح عن النبى ﷺ، وصدق رحمه الله بدليل الاختلاف الكبير فيها.

فمن حاول تصحيح هذا الحديث، قال: إن الـثواب عظيم، «من أحصاها دخل الجنة» فلا يمكن للصحابة أن يُفَوِّتوه، فلا يسألوا عن تـعيينها، فدل هذا على أنها قد عُيِّنت من قبل النبى ﷺ.

لكن يجاب عـن ذلك بأنه ليس بلازم، ولو عـينها النبى ﷺ، لكـانت هذه الأسماء التسـع والتسعيـن معلومة لـلعالم أشد مـن علم الشـمس، ولنقلـت فى «الصحيـحين» وغيرهما، لأن هذا مما تدعـو الحاجة إليه، وتلح بحفظه والعنايـة به، فكيف لا يأتى إلا عن طرق واهية وعلى صور مختلفة؟!

فالنبى ﷺ لم يبيـنها لحكمة بالغة، وهى أن يطلبها النـاس ويتحروها فى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حتى يعلم الحريص من غير الحريص.

كما ولم يبين النبى ﷺ ساعة الإجابة يوم الجـمعة، والعلماء اختلفوا فى حديث أبى موسى الذى فـى مسلم، حيث قـال فيه : «**إنها مـا بين أن يخـرج الإمام إلى أن تقـضى الصلاة**»(*) فإن بعضهـم صححه وبعضهم ضـعفه، لكن هو عندى صـحيح، لأن علة

(١) القول المفيد (٢/ ١٢، ١٣، ١٤، ١٥).

(٢) سيأتى تخريجه.

(*) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٣/ ٤٠٣/ ١٦).

لتضعيف فيه واهية، والحال تؤيد صحته، لأن الناس مجتمعون أكبر اجتماع فى البلد على صلاة مفروضة، فيكون هذا الوقت فى هذه الحال حريًا بإجابة الدعاء، وكذلك ليلة القدر لم يبينها النبى ﷺ مع أنها من أهم ما يكون .

قوله: «قالوا : يا رسول الله! وما هن؟»

سألوا عن تبيينها، وبه تتبين الفائدة من الإجمال، وهى أن يتطلع المُخاطب لبيان هذا المجمل، لأنه إذا جاء مبنيًا من أول وهلة، لم يكن له التلقى والقبول كما إذا أجمل ثم بُيّن.

قوله: «وما هن»

«**ما**» اسم استفهام مبتدأ، و«**هن**»: خبر المبتدأ.

وقيل: بالعكس، «**ما**»: خبر مقدم وجوبًا، لأن الاستفهام له الصدارة، و«**هن**»: مبتدأ مؤخر.

لأن «**هن**» ضمير معرفة، و «**ما**» نكرة، والقاعدة المتبعة أنه يُخبَر بالنكرة عن المعرفة ولا عكس . اهـ.

قوله: (قال: الشرك بالله).

قال سليمان آل الشيخ[1]: هو أن يجعل لله ندًا يدعوه كما يدعو الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله، وبدأ به لأنه أعظم ذنب عصى الله به، كما فى الصحيحين عن ابن مسعود سألت أو سُئل - رسول الله ﷺ أىُّ الذنب عند الله أكبر؟ قال «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»[2].

قال ابن عثيمين[3]: والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته.

فمن اعتقد أن مع الله خالقًا أو معينًا، فهو مشرك، أو أن أحدًا سوى الله يستحق أن يعبد، فهو مشرك وإن لم يعبده، فإن عبده، فهو أعظم، أو أن لله مثيلاً فى أسمائه، فهو مشرك، أو أن الله استوى على العرش كاستواء الملك على عرش مملكته، فهو مشرك، أو أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان إلى أسفل بيته من أعلى، فهو مشرك.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٨٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد ٢/ ١٦، ١٧.

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

وبين ﷺ أن الشرك أعظم ما يكن من الجناية والجُرْم بقوله حين سئل : أى الذنب أعظم : «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

فالذى خلقك وأوجدك وأمدك وأعدك ورزقك كيف تجعل له نـدًا؟ فلو أن أحدًا من الناس أحسن إليك بما دون ذلك، فجعلت له نظيرًا، لكان هذا الأمر بالنسبة إليه كفرًا وجحودًا. اهـ.

قوله: «والسحر»: والسحر تقدم معناه، وهذا وجه إيراد المصنف لهذا الحديث فى الباب[1].

قال ابن عثيمين[2]: قوله «والسحر» : أى من الموبقات، وظاهر كلام النبى ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير.

لأنه إن كان بواسطة الشياطين، فالذى لا يأتى إلا بالإشراك بهم، فهو داخل فى الشرك بالله.

وإن كان دون ذلك، فهو أيضًا جرم عظيم، لأن السحر من أعظم ما يكون فى الجناية على بنى آدم، فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه ويُقْلقه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك، لأن البيهمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمى، فإنه إذا صُرِف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلى الشرك بالله عز وجل.

قوله: «وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق».

قال ابن عثيمين[3]: القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس: البدن الذى فيه الروح، والمراد بالنفس هنا: نفس الآدمى وليس نفس البعير والحمار وما أشبهها.

وقوله: «إلا بالحق».

أى: بالعدل، لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام، فالمراد به العدل، وإن

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٨٧).

(٢) القول المفيد ٢/١٧-٢٧.

(٣) القول المفيد ٢/١٧، ١٨، ١٩.

ذكر بإزاء الأخبار، فالمراد به الصدق، والعدل: هو ما أمر الله به ورسوله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾(١).

والنفس المحرمة أربعة أنفس، هى: نفس المؤمن، والذمى، والمُعاهَد، والمُستأمن، بكسر الميم: طالب الأمان.

فالمؤمن لإيمانه، والذمى لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة- الذمى، والمعاهد، والمستأمن - أن الذمى هو الذى بيننا وبينه ذمة، أى: عهد على أن يقيم فى بلادنا معصومًا مع بذل الجزية.

وأما المعاهد، فيقيم فى بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا ولا نحاربه.

وأما المستأمن، فهو الذى ليس بيننا وبينه ذمة ولا عهد، لكننا أمّناه فى وقت محدد، كرجل حربى دخل إلينا بأمان للتجارة ونحوها، أو ليفهم الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾(٢) وهناك فرق آخر، وهو أن العهد يجوز من جميع الكفار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار وهذا هو المشهور من المذهب، والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار.

فهذه الأنفس الأربع قتلها حرام، لكنها ليست على حد سواء فى التحريم، فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمى، ثم المعاهد، ثم المستأمن .

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى.

أشك فى ذلك، لأن المستأمن من له عهد خاص، بخلاف المُعاهدين، فالمعاهدون يتولى العهد أهل الحل والعقد منهم، فليس بيننا وبينهم عقود تأمينات خاصة، وأيا كان، فالحديث عام، وكل منهم معصوم الدم والمال.

وقوله: «إلا بالحق» أى مما يوجب القتل، مثل : الثيب الزانى، أى بالرجم والنفس بالنفس، أى بالقصاص، والتارك لدينه المفارق للجماعة، أى المرتد يقتل لردته.

قوله «وأكل الربا» الربا فى اللغة : الزيادة، ومنه قوله تعالى : ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾(٣) يعنى زادت.

وفى الشرع : تفاضل فى عقد بين أشياء يجب فيها التساوى، ونسأ فى عقد بين أشياء يجب فيها التقابض.

(١) النحل: ٩٠. (٢) التوبة : ٦. (٣) الحج: ٥

والربا: ربـا فضل ؟ أى «زيادة» وربـا نسيئـة، أى : تأخير، وهـو يجرى فى سـتة أموال، بيـنها الرسول ﷺ فـى قوله : **«الذهب بالذهـب، والفضة بالفضة والـبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح»**(١) فهذه هى الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين، وهذه الأصناف الستة إن بعت منـها جنسًا بمثله جرى فيها ربا الفضل وربا النسيئة، فلو زدت واحدًا على آخر، فهـو ربا فضل، أو سويته لكن أخَّرت القبض، فهو ربا نسيئة، وربما يجتمع النوعان كما لو بعت ذهبًا بذهب متفاضلاً والقبض متأخرًا، فقد اجتمع فـى هذا العقد ربا الفضل وربا النـسيئة، وعلى هذا فإذا بعت جنـسًا بجنسه، فلابد من أمرين : التساوى، والتقابض فى مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة، أى: اتفـق المقصود فى العوضين، فإنه يجرى ربا النـسيئة دون ربا الفضل، فـذهب بفضة متفاضـلاً مع القبض جائز، وذهـب بفضة متساويًا مع التأخير ربا لتأخير القبض.

قال ﷺ: **«فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد»** (٢).

وقولنا : اتفقا فى الغرض والمقصود احترازًا ما إذا اختلف الغرض منها.

فالذهب مثلاً ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبر قوت.

وعلى هـذا يجوز بيع صـاع من البر بديـنار من الذهب مـع التفرق وعدم الـتساوى لاختلاف القصد، لأن هذا يقصد به النقد والثَّمَنِيَّة، وهذا يقصد به القوت

فإن قيل: الحديث يدل على أنه لا يصح إلا بالقبض، فما هو الجواب؟

نقول: حقيقة إن هذا مقتضى الحديث أنك إذا بعت ذهبًا ببر وجب التقابض، لقوله ﷺ: **«فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد»** (٣).

والجواب عن هذا أن نقول: قد دلت السنة من وجـه آخر على أن القبض ليس بشرط فيما إذا كان أحدهما ثمنًا، قال ابن عباس: قدم الـنبى ﷺ المدينة وهم يُسلفون فى الثمار السنة والسنتين، فقال: **«من أسلف فى شىء فليسلف فى كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم»**(٤).

وعلى هذا، فـحديث: **«فبيـعوا كيف شـئتم إذا كان يـدًا بيد»** لا عموم لمفـهومه، فلا يشترط القبض فى كـل صورة من صور المخالفة، وإنما يشترط القبض فـيما إذا اتفقا فى

(١) [صحيح] أخرجـه (١١/ ١٥/ ١٥٨٧) عن عبـادة به. وانظـر كتابنـا «فتح ذى الجـلال فى تخـريج أحاديث الظلال» (١٢٤)

(٢) ما قبله (٣) ما قبله

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساقاة (٦/ ٤٦/ ١٢٧) عن ابن عباس به.

الغرض، كذهب بفضة، أو بر بشعير، وأما ذهب أو فضة بشعير، ونحوه، فلا يشترط القبض.

واختلف العلماء فيما عدا هذه الأصناف الستة، فالظاهرية قالوا: لا يجرى الربا إلا فى هذه الأصناف الستة، لأنهم لا يرون القياس فيقتصر على ما جاء به النص، فيجوز عندهم مبادلة أرز بذرة متفاضلاً مع تأخر القبض لأنهما لا يدخلان فى المنصوص عليه.

وأما أهل القياس من المذاهب الأربعة، فإنهم عدّوا الحكم إلى غيره، إلا أن بعضًا منهم لم يُعد الحكم إلى غيرها، وهو من أهل القياس، مثل ابن عقيل رحمه الله فإنه قال: لا يجرى الربا إلا فى هذه الأصناف الستة، لا لأنه قياس، ولكن لأن العلماء اختلفوا واضطربوا فى العلة التى من أجلها كان الربا، فلما اضطربوا فى العلة ألغينا جميع هذه العلل، وأبقينا النص على ما هو عليه من الحصر فى المنصوص عليه.

والصحيح أن الربا يجرى فى غير الأصناف الستة، وأن العلة هى الكيل والادخار مع الطعم، وهو أن يكون قوتًا مدخرًا، وهذا بالنسبة للبر والتمر والشعير.

وبالنسبة للذهب والفضة : العلة هى الجنس والثَّمَنِيَّة، فقولنا: «الجنس» لأجل أن يشمل الحلى إذا بيع بعضه ببعض، فيجرى فيه الربا، مع أنه ليس بثمن، والثمنية مثل الدراهم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة، فإنها بمنزلة الذهب والفضة، أو يقال: العلة الثمنية فقط والحلى خارج عن الثمنية خروجًا طارئًا، لأن التحلى طارئ، والأصل فى الذهب والفضة الثمنية، لأنهما ثمن الأشياء.

وأما الملح، فقال شيخ الإسلام: إنه يصلح به القوت، أى: فهو تابع له، فالعلة ليس أنه قوت، لكنه من ضرورياته، ولهذا لو طحنت برًا ولم يكن فيه ملح، لم يبق إلا أيامًا يسيرة، فيفسد، فإن كان فيه الملح منعه من الفساد، فيقول: لما كان يصلح به القوت جعل له حكمه.

وقوله: «وأكل الربا».

ذكر النبى ﷺ الأكل، لأنه أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، ولهذا قال تعالى فى بنى إسرائيل: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل، فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله فى الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

قوله: «وأكل مال اليتيم»:

اليتيم: هو الذى مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكرًا أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه، فليس يتيمًا لا شرعًا ولا لغةً.

لأن اليتيم مأخوذ من اليُتْم، وهو الانفراد، أى: انفرد عن الكاسب له، لأن أباه هو الذى يكسب له.

وخص اليتيم، لأنه لا أحد يدافع عنه، ولأنه أولى أن يرحم، ولهذا جعل الله له حقًا فى الفىء، وإذا كان أحق أن يرحم، فكيف يسطو هذا الرجل الظالم على ماله فيأكله؟!

ويقال فى أكل مال اليتيم ما قيل فى أكل الربا، فليس خاصًا فى الأكل بل حتى لو استعمله فى السكن أو الفرش أو الكتب أو غيرها، فهو داخل فى ذلك.

وأكل مال غير اليتيم ليس من الكبائر، لأن اليتيم له شأن خاص، ولهذا توعد الله من يأكل أموال اليتامى، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾. اهـ.

قلت: (ظلمًا) يشير إلى جواز أكل ماله بالحق، وهو جاء صريحًا فى قوله : ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**﴾ والأكل بالتى هى أحسن أشار إليه قوله تعالى: ﴿**وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ وله ثلاث صور ذكرها ابن الجوزى فى تفسيره منها القرض.

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله «التولى يوم الزحف» أى: الإدبار من وجوه الكفار وقت ازدحام الطائفتين فى القتال وإنما يكون كبيرة إذا فر إلى غير فئة أو غير منحرف لقتال كما قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ اهـ.

وشرح ذلك ابن عثيمين[2] فقال: التولى : بمعنى الإدبار، والإعراض، ويوم الزحف، أى : يوم تلاحم الصفين فى القتال مع الكفار، وسمى يوم الزحف، لأن الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلى بعض، كالذى يمشى زحفًا كل واحد منهم يهاب الآخر، فيمشى رويدًا رويدًا .

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٨٧). (٢) القول المفيد ٢/ ٢٤، ٢٥، ٢٦.

والتولى يوم الزحف من كبائر الذنوب، لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد فى سبيل الله ، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء الله وهذا يؤدى إلى هزيمة المسلمين.

لكن هذا الحديث خصصته الآية، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فالله سبحانه استثنى حالين:

الأولى: أن يكون متحرفًا لقتال، أى: متهيئًا له، كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيء الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتى العدو من جهته، فهذا لا يعد متوليًا، إنما يعد متهيئًا.

الثانية: المتحيز إلى فئة كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضى عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها، فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه، بشرط ألا يكون على الجيش ضرر، فإن كان على الجيش ضرر وذهبت طائفة كبيرة إلى هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش وتكسره أمام العدو، فإنه لا يجوز، لأن الضرر هنا متحقق، وإنقاذ السرية غير متحقق، فلا يجوز لأن المقصود إظهار دين الله، وفى هذا إذلال لدين الله. إلا إذا كان الكفار أكثر من مِثْلَى المسلمين، فيجوز الفرار حينئذ، لقوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها، كالطائرات، إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين، فلا يجوز لهم أن يبقوا، لأن مقتضى ذلك أنهم يغررون بأنفسهم.

وفى هاتين الآيتين تخصيص السنة بالكتاب، وهو قليل. اهـ.

[قلت]: بل هناك أحاديث خصصت هذا التولى كقوله ﷺ: «**أنا فئتكم ..**» الحديث.

ثم قال: ومن تخصيص السنة بالكتاب أن من الشروط التى بين النبى ﷺ والمشركين فى الحديبية أن من جاء من المشركين مسلمًا يرد إليهم(1)، وهذا الشرط عام يشمل الذكر

(1) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٢٦٩٩)، ومسلم فى الجهاد (٦/ ٣٧٧/ ٩٣).

والأنثى، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾.

قوله: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»:

قال الشيخ سليمان[1]: قوله «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»: هو بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا، وبكسرها: الحافظات فروجهن منه، والمراد الحرائر العفيفات، ولا يختص المتزوجات بل حكم البكر كذلك بالإجماع كما ذكره الحافظ، إلا إن كانت دون تسع سنين، والمراد رميهن بزنا أو لواط، والغافلات أي: عن الفواحش وما رمين به، لا خبر عندهن من ذلك، فهو كناية عن البريئات لأن الغافل بريئ عما بهت به من الزنا، والمؤمنات، أي: بالله تعالى، احترازًا عن قذف الكافرات، فإنه من الصغائر.

قال ابن عثيمين[2]:

القذف: بمعنى الرمي، والمراد به هنا الرمي بالزنا، والمحصنات هنا الحرائر، وهو الصحيح، وقيل: العفيفات عن الزنا.

والغافلات: وهن العفيفات عن الزنا البعيدات عنه، اللاتي لا يخطر على بالهن هذا الأمر. اهـ.

قلت: وشهد له قصة الإفك حيث كانت عائشة غافلة عما رميت به وكذلك الوليد ابن عبد الملك قال: ما ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا حتى قص الله خبر قوم لوط.

ثم قال: والمؤمنات احترازًا من الكافرات، فمن قذف امرأة هذه صفاتها، فإن ذلك من الموبقات، ومع ذلك يقام عليه الحد- ثمانون جلدة- ولا تقبل شهادته ويكون فاسقًا، فجعل الله عليه ثلاثة أمور، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

وهذا الاستثناء لا يشمل أول الجُمَل بالاتفاق، ويشمل آخر الجُمَل بالاتفاق، واختلف

(١) تيسير العزيز ٢٨٧، ٢٨٨.
(٢) القول المفيد ٢/ ٢٦، ٢٧.

العلماء فى الجملـة الثانية، وهى قوله : ﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ فقيل: إنه يعود إليها، وقيل: لا يعود. اهـ.

قلت: وانظر تفصيل ذلك عند ابن كثير وغيره.

ثم قال: وبناء على ذلك إذا تاب القاذف: هل تقبل شهادته أم لا؟

الجواب: اختلف فى ذلك أهل العلم:

فمنـهم من قال: لا تـقبل شهادتـه أبدا ولو تاب، وأيـدوا قولهم بـأن الله أبّد ذلك بقوله: ﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ وفائدة هذا التأبيد أن الحكم لا يرتفع عنه مطلقًا.

وقال آخرون : بل تقبـل، لأن مبنى قبول الشهادة وردها علـى الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة، زال ما يترتب عليه.

وينبغى فى مثل هذا أن يقال: إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين، فليفعل.

وإلا، فالأصل أنه إذا زال الفسق وجب قبول الشهادة، وهل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟

الجواب: الذى علـيه جمهور أهـل العلم أن قـذف الرجل كقذف المـرأة، وإنما خصّ بذلك المرأة، لأن الغالب أن القذف يكون للنسـاء أكثر، إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام، وقذف المرأة أشد، لأنه يستلزم الشك فى نسـب أولادها من زوجها، فيلحق بهن القذف ضررًا أكثر، فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلبى لا مفهوم له، لأنه لبيان الواقع.

والشاهد من هذا الحديث قوله : «السحر» اهـ.

قلت: ومن الآيات المرهبة من قذف المحصنة: ﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾.

ومن الأحاديث التى ترهب قذف المحصنات حديث: «**قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة**».

وحديث: «**وإن أربا الربا الاستطالـة فى عرض المسلم**» وهذا يدل علـى أن الواو فى الحديث لا تقتضـى الترتيب، لأن القذف أشد من الربـا، وكذلك قوله «**ألا أدلكم على شراركم الثرثارون النمامون المفرقون بين الأحبة الباغون للبراء العيب أو العنت**».



وَعَنْ جُنْدَب مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ»(١).

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذه الحديث رواه الترمذيُّ كما قال: المصنِّف من طريق إسماعيل عن مسلم المكي وقال بعد أن رواه: لانعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف فى هذا الحديث من قبل حفظه، وإسماعيل بن مسلم العبدى البصرى، قال وكيع هو نفسه، ويروى عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب موقوف أهـ.

ورواه أيضاً الدارقطنى والبيهقى والحاكم وقال: صحيح غريب وقال الترمذى فى «العلل» سألت عنه محمداً يعنى البخارى فقال: هذا لاشىء وإسماعيل ضعيف جداً وقال الذهبى فى «الكبائر» إنه من قول جندب وأشار مغلطاى إلى أنه وإن كان ضعيفاً يتقوى بكثرة طرقه وقال: أخرجه جمع: منهم البغوى الكبير والصغير والطبرانى والبزار ومن لايحصى كثرة أهـ.

قوله: «عن جندب».

قال سليمان آل الشيخ(٣): قوله: عند جندب. ظاهر صنيع الطبرانى فى «الكبير» أنه جندب بن عبد الله البجلى جندب الخير الأزدى قاتل الساحر، فإنه رواه فى «ترجمة»

---

(١) أخرجه الترمذى فى الحدود/ باب ما جاء فى السحر (٤/ ٦٠/ ١٤٦٠)، والدارقطنى فى «سننه» (٣/ ١١٤)، والطبرانى فى «الكبير» (٢/ ١٦١/ ١٦٦٥)، والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣٦٠)، والبيهقى فى «الكبرى» (٨/ ١٣٦).

من طريق إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب..... فذكره.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد وإن كان الشيخان تركا حديث إسماعيل بن مسلم فإنه غريب صحيح وله شاهد صحيح على شرطهما جميعاً من ضد هذا. اهـ.

قال الترمذى: هذا حديث لانعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكى يضعف فى الحديث. وإسماعيل بن مسلم العبدى البصرى، قال وكيع هو ثقة ويروى عن الحسن أيضاً والصحيح عن جندب موقوفاً.

قال البيهقى: إسماعيل بن مسلم ضعيف.

وقال الترمذى فى «العلل الكبير» (١/ ٢٣٧/ ح ٤٣) سألت محمداً عن هذا الحديث؟ فقال: هذا لاشىء وإنما رواه إسماعيل بن مسلم وضعف إسماعيل بن مسلم المكى جداً.

وقال الحافظ فى «الفتح» (١٠/ ٢٤٧) فى سنده ضعف وانظر «فتح المجيد» (ح ٢ ٥٠) بتخريجنا.

(٢ - ٣) تيسير العزيز الحميد (٢٨٨).

جندب البجلى من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبى ﷺ وذكره؛ وخالد العبد ضعيف.

قال ابن حجر: والصواب أنه غيره، فقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين؛ عن الحسن عن جندب الخير أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات. وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: فذكره. وجندب الخير هو جندب بن كعب، وقيل جندب بن زهير، قيل هما واحد كما قاله ابن حبان. أبو عبد الله الأزدى الغامدى صحابى.

قوله: «حدُّ الساحر ضربهُ بالسيف».

قال سليمان آل الشيخ[1]: وروى ابن السكن من حديث بريدة أن النبى ﷺ قال: **«يُضْرَبُ ضَرْبَةً فَيَكُونَ أُمَّةً وَحْدَهُ»**[2].

قوله: «حد الساحر ضربة بالسيف». روى بالهاء وبالتاء وكلاهما صحيح، وبهذا الحديث أخذ أحمد ومالك وأبو حنيفة فقالوا: يقتل الساحر. وروى ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبدالله وجندب بن كعب وقيس بن سعد وعمر ابن عبدالعزيز. ولم ير الشافعى عليه القتل بمجرد السحر إلا إن عمل فى سحره ما يبلغ الكفر. وبه قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد، والأول أولى للحديث، ولأثر عمر الذى ذكره المصنف وعمل به الناس فى خلافته من غير نكير فكان إجماعاً. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: قوله «حد الساحر ضربة بالسيف».

حده يعنى: عقوبته المحددة شرعاً.

وظاهره أنه لايكفر؛ لأن الحدود تطهِّر المحدود من الإثم.

والكافر إذا قتل على ردته؛ فالقتل لايطهره.

وهذا محمول على ما سبق: أن من أقسام السحر مالايخرج الإنسان عن الإسلام، وهو ما كان بالأدوية والعقاقير التى توجب الصرف والعطف وما أشبه ذلك.

قوله: «ضربة بالسيف».

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٨٩.

(٢) أخرجه ابن السكن كما فى الإصابة (١/ ٢٥٠) وانظر «فتح المجيد» (ح ٥٠٦) بتخريجنا

(٣) القول المفيد ٢/٢٨و ٢٩.

روى بالتاء بعد الباء، وروى بالهاء، وكلاهما صحيح، لكن الأولى أبلغ؛ لأن التنكير وصيغة الوحدة يدلان على أنها ضربة قوية قاضية.

هذا كناية عن القتل، وليس معناه أن يضرب بالسيف مع ظهره مصفحاً.

قال ابن عثيمين(١): «**حكم قتل الساحر**» وأما قتل الساحر، فإن كان سحره كفراً؛ قُتِل قتل ردة، إلا أن يتوب على القول بقبول توبته، وهو الصحيح، وإن كان سحره دون الكفر؛ قُتِل قَتْل الصائل؛ أى: قتل لدفع أذاه وفساده فى الأرض، وعلى هذا يرجع فى قتله إلى اجتهاد الحاكم، وظاهر النصوص التى ذكرها المؤلف أنه يقتل بكل حال؛ فالمهم أن السحر يؤثر بلاشك، لكنه لايؤثر بقلب الأعيان إلى أعيان أخرى؛ لأنه لايقدر على ذلك إلا الله ـ عزوجل ـ وإنما يُخَيَّل إلى المسحور أن هذا الشىء انقلب وهذا الشيئ تحرك أو مشى وما أشبه ذلك، كما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سحرة آل فرعون، حيث كان يخيل إليه من سحرهم إنها تسعى. اهـ.

● **هل يقتل الساحر بمجرد فعله واستعماله؟**

قال ابن كثير(٢): **وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله؟** فقال مالك وأحمد: نعم. وقال الشافعى وأبو حنيفة: لا فأما إن قتل بسحره إنسانا فإنه يُقتل عند مالك والشافعى وأحمد. وقال أبو حنيفة: لايقتل حتى يتكرر منه ذلك، أو بقى بذلك فى حق شخص معين. وإذا قُتِل فإنه يُقْتَل حدا عندهم إلا الشافعى، فإنه قال: يقتل ـ والحالة هذه ـ قصاصاً.

● **هل حكم الرجل الساحر والمرأة سواء؟**

قال ابن كثير(٣): **واختلفوا فى المسلمة الساحرة،** فعند أبى حنيفة لاتقتل، ولكن تحبس. وقال الثلاثة: حكمها حكم الرجل، والله أعلم وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزى، قال: قرَأَ على أبى عبدالله ـ يعنى أحمد بن حنبل ـ عمر بن هارون، حدثنا يونس، عن الزهرى، قال: يقتل ساحر المسلمين ولايقتل ساحر المشركين، لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها. اهـ.

قلت: وفى الباب قتل حفصة رضى الله عنها للمرأة التى سحرتها.

● **هل يعفى عن الذمى إذا سَحَرَ**

أخرج البخارى(٤) عن ابن شهاب سُئل: أَعَلى من سَحَرَ من أهل العهد قتل؟ قال:

---

(١) القول المفيد (٢/٦،٧).

(٢ ـ ٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٢).

(٤) (٦/ ٣١٩ الفتح).

بلغنا أن رسول الله ﷺ قد صنع له ذلك فلم يقتل من صنعه، وكان من أهل الكتاب.

وأخرج أيضاً عن عائشة أن النبي ﷺ سُحر حتى كان يخيل إليه أنه صنع شيئاً ولم يصنعه(١).

قال ابن حجر: قال ابن بطال: لايُقتل ساحر أهل العهد لكن يعاقب، إلا إن قَتل بسحره فيُقتل، أو أحدث حدثاً فيؤخذ به وهو قول الجمهور.

وقال مالك: إن أدخل بسحره ضرراً على مسلم نقض عهده بذلك. وقال أيضاً: يُقتل الساحر ولايستتاب، وبه قال أحمد وجماعة وهو عندهم كالزنديق.

قوله: (وكان من أهل الكتاب) قال الكرماني: ترجم البخاري بلفظ الذمى، وسئل الزهرى بلفظ أهل العهد، وأجاب بلفظ أهل الكتاب، فالأولان يقاربان، وأما أهل الكتاب فمراده من له منهم عهد، وكان الأمر فى نفس الأمر كذلك.

قال ابن بطال: لاحجة لابن شهاب فى قصة الذى سحر النبى ﷺ؛ لأنه كان لاينتقم لنفسه؛ ولأن السحر لم يضره فى شىء من أمور الوحى ولا فى بدنه، وإنما كان اعتراه شىء من التخيل وذلك أن عفريتاً تفلت عليه ليقطع صلاته فلم يتمكن من ذلك، وإنما ناله من ضرر السحر ما ينال المريض من ضرر الحمى.

قلت ـ ابن حجر ـ: ولهذا الاحتمال لم يجزم البخارى بالحكم، ثم ذكر طرفاً من حديث عائشة أن النبى ﷺ سُحر، وأشار بالترجمة إلى ما وقع فى بقية القصة أن النبى ﷺ لما عوفى أمر بالبئر فردمت، وقال: **«كرهت أن أثير على الناس شراً»** أهـ.

● **هل للساحر توبة؟**

قال ابن كثير(٢): قال الرازى: وهل إذا تاب الساحر تُقْبَل توبته؟ فقال مالك، وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهما: لاتقبل وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى: تقبل. وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبى حنيفة أنه يقتل، كما يقتل الساحر المسلم وقال مالك والشافعى وأحمد: لايقتل. يعنى لقصة لبيد بن أعصم.

ورجح ابن عثيمين(٣) أن له توبة، وقال: وهو الصحيح.



(١) تقدم.

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢٠٨).

(٢) القول المفيد (٦/٢).

وَفِى «صَحِيحِ البُخَارِى» عَنْ بَجَالَةَ بنِ عَبَدَةَ، قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ: أَنَ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ». قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلاثَ سَوَاحِرَ»(١).

قوله: [وفى صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة، قال: كتب عمر بن الخطاب... إلخ].

قلت: الحديث فى صحيح البخارى وليس فيه هذا اللفظ.

قال ابن حجر(٢): زاد مسدد وأبو يعلى فى روايتهما **«اقتلوا كل ساحر، قال: فقتلنا فى يوم ثلاث سواحر وفرقنا بين المحارم منهم، وصنع طعاماً فدعاهم وعرض السيف على فخذيه، فأكلوا بغير زمزمة».**

وقال: وأما الأمر بقتل الساحر فهو من مسائل الخلاف، وقد وقع فى رواية سعيد بن منصور من الزيادة **«واقتلوا كل ساحر وكاهن»** أهـ.

[قلت]: وتقدم فى أول الباب حكم قتل الساحر.

قال سليمان آل الشيخ(٣): وهذا الأثر رواه البخارى كما ذكره المصنف، لكنه لم يذكر قتل السحرة. ولفظه: عن بجالة بن عبدة قال: كنت كاتباً لجزء بن معاوية عم الأحنف فأتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة: فرقوا بين كل محرم من المجوس ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوسى هجر. وعلى هذا فعزو المصنف إلى البخارى يحتمل أنه أراد أصله لالفظه ورواه الترمذى والنسائى مختصراً، ورواه عبدالرزاق وأحمد وأبوداود والبيهقى مطولاً. ورواه القطيعى فى الجزء الثانى من «فوائده» بزيادة. فقال: حدثنا أبو على بشر بن موسى الأسدى. ثنا هوذة بن خليفة ثنا عوف عن عمار مولى بنى هاشم عن بجالة بن عبدة قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن اعرضوا على من كان قبلكم من

---

(١) أخرجه البخارى فى «الجزية والموادعة»/ باب: الجزية والموادعة مع أهل الذمة (٦/ ٢٩٧/ ح٣١٥٦) وعبدالرزاق فى «مصنفه» (ح١٨٧٤٥) وابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٦/ ٥٨٣).

جميعاً من حديث بجالة بن عبدة.

ولفظ المصنف هذا لم يذكره البخارى. قال الحافظ رواه مسدد وأبو يعلى فى روايتهما اقتلوا كل ساحر فذكره.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٥١٤) بتخريجنا.

(٢) فتح البارى (٦/ ٣٠١).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٨٩ - ٢٩٠).

المجوس أن يدعوا نكاح أمـهاتهم وبناتهم وأخواتهم ويـأكلوا جميعاً كيما نلـحقهم بأهل الكتاب، ثم اقتلوا كل كاهن وساحر.

قلت ـ سليمان آل الشيخ ـ: وإسناده حسن.

قوله: «عن بجالة»(١) هو بفتح الموحدة بعدها جيم، ابن عبدة بفتحتين التيمى العنزى بصرى ثقة.

قوله: **«كتب إلينا عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كلّ ساحر وساحرة.. إلى آخره.**

قال سليمـان آل الشيخ(٢): صريح فـى قتل السـاحـر والساحرة، وهو مـن حجج الجمهور القائلين بأنه يقتل، وظاهره أنه يقـتل من غير استتابه، وهو كذلك على المشهور عن أحمـد. وبه قال مالـك: إن الصحابـة لم يستـتيبوهـم، ولأن علم السـحر لايزول بالتوبة. وعن أحمد يستتاب فإن تاب قبلت توبته وخلى سبيله، وبه قال الشافعـى، لأن ذنبه لايـزيد على الـشرك، والمشرك يـستتاب وتقـبل توبتـه، فكذلك الـساحر وعلـمه بالسحـر لايمنع توبته، بدليل ساحـر أهل الكتاب إذا أسلم ولذلك صح إيمـان سحـرة فرعـون وتوبتهم.

قلت: الأول أصح لـظاهر عمل الصحـابة. فلو كانت الإستـتابة واجبة لفـعلوها أو بينوها وأما قياسه على المشرك فلايصح. لأنـه أكثـر فسـادا وتشبيهاً من المشرك، وكذلك لايصح قياسه على ساحر أهل الكتاب لأن الإسلام يَجُبّ ما قبلـه، وهذا الخلاف إنما هو فى إسقـاط الحـد عـنه بالتوبة؛ أما فيما بينه وبين الله فإن كـان صـادقـا قبـلت توبته.

قال ابن عثيمين(٣): وهذا القتل هل هو حد أم قتله لكفره؟

يحتمل هذا وهذا بناءً على التفصيل السابق فى كفر الساحر، ولكن بناء على ما سبق من التفصـيل نقول: من خرج به السحر إلـى الكفر فَقَتْلُه قَتْل ردة، ومـن لم يخرج به السحر إلى الكفر فقتله قتل حد يجب تنفيذه.

والحاصل: أنـه يجب أن نقـتل السحـرة، سواء قلنـا بكفرهـم أم لم نقل؛ لأنَّـهم يُمْرضون ويقتلون، ويُفَرِّقون بين المرء وزوجه، وكذلـك بالعكس؛ فقد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء، ويتوصلون إلـى أغراضهم؛ فإن بعضهم قد يسحر أحداً لـيعطفه إليه وينال مأربه منه، كما لو سحر امرأة ليبغى بـها، ولأنهم كانوا يسعون فى الأرض فساداً؛ فكان

(١ - ٢) تيسير العزيز الحميد (٢٨٩ ـ ٢٩٠).

(٣) القول المفيد ٢/ ٣٠ و ٣١.

وَصَحَّ عَنْ حَفصةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، «أَنَّها أمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا. سَحَرَتْهَا، فَقُتِلت»[1].

وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ[2].

واجباً على ولى الأمر قتلهم بدون استتابة مادام أنه حَدٌّ لضررهم وفظاعة أمرهم، فإن الحد لايستتاب صاحبه، متى قبض عليه وجب أن ينفذ فيه الحد.



قوله: [وصح عن حفصة رضى الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها...] إلخ.

قال سليمان آل الشيخ[3]: هذا الأثر رواه مالك فى «الموطأ» عن محمد بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النبى ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وكانت قد دبرتها فأمرت بها فقتلت. ورواه عبدالرزاق وحفصة هى أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبى ﷺ بعد خنيس بن حذاقة سنة ثلاث وماتت سنة خمس وأربعين.

قال سليمان آل الشيخ[4]: المراد به هنا قطعاً جندب الخير الأزدى قاتل الساحر، وهو جندب بن كعب بن عبدالله قال أبو حاتم: جندب بن كعب قاتل الساحر. ويقال: جندب بن زهير فجعلها واحداً وفرق بينهما ابن الكلبى وغيره قال ابن عبدالبر: ذكر الزبير أن جندب بن زهير قاتل الساحر والصحيح أنه غيره وأشار المصنف بهذا إلى قتله

---

(1) أخرجه مالك فى «الموطأ» (٢/ ٦٦٣/ ١٤).

من طريق محمد بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة.... فذكره.

ووصله عبدالرزاق فى «المصنف» (١٠/ ١٨٠/ ١٨٧٤٧) عن عبد الله أو عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر أن جارية لحفصة سحرتها.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٥١٥) بتخريجنا).

(2) أخرجه البخارى فى «التاريخ الكبير» (٢/ ١/ ٢٢٢/ ٢٢٦٨)، والطبرانى فى الكبير» (٢/١٧٧/ ١٧٢٥)، والبيهقى فى «الكبرى» (٨/ ١٣٦).

من طريق خالد الحذاء، عن أبى عثمان النهدى به.

وأخرجه عبدالرزاق فى «مصنفه» (١٠/ ١٨١/ ١٨٧٤٨).

عن عمرو بن دينار، قال: سمعت بجالة التيمى قال: وجد عمر.... الحديث. وانظر «فتح المجيد» (ح ٥١٦) بتخريجنا

(٣ - ٤) تيسير العزيز الحميد ٢٩٠.

قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ البَقَرَةِ.

الساحر كما روه البخاري في «تاريخه» عن أبي عثمان النهدي قال: كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه فعجبنا فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدي فقتله. رواه البيهقي في «الدلائل» مطولاً وفيه فقال الناس: سبحان الله يحيي الموتى. ورآه رجل صالح من المهاجرين فنظر إليه فلما كان من الغد اشتمل على سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه وقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه فأمر به الوليد فسجن. وذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة.

قوله: [قال أحمد: ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ]

قال سليمان آل الشيخ(١): أحمد هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل. وقوله: عن ثلاثة أي: صح قتل الساحر، عن ثلاثة أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ، يعني: عمر وحفصة، وجندباً والله أعلم.

قال ابن عثيمين(٢): والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية؛ لأنهم يسعون في الأرض فساداً، وفسادهم من أعظم الفساد؛ فقتلهم واجب على الإمام، ولايجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم؛ لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في أرضهم وفي أرض غيرهم، وإذا قُتلوا سَلِمَ الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر. اهـ.

قوله: فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير آية البقرة.**

قال ابن عثيمين(٣):

وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾(٤)، أي: نصيب، ومن لا خلاق له في الآخرة؛ فإنه كافر؛ إذ كلٌّ من له نصيب، فإن مآله إلى الجنة.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٩١.
(٢) القول المفيد ٢/ ٣١.
(٣) القول المفيد ٢/ ٣٢: ٣٥.
(٤) البقرة: ١٠٢.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ الجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ والفَرْقُ بَيْنَهُمَا.

الرابعة: أنَّ الطَّاغُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الجِنِّ وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الإِنْسِ.

الخامسة: مَعْرِفَةُ السَّبْعِ المُوبِقَاتِ المَخْصُوصَاتِ بِالنَّهْيِ.

السادسة: أنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ.

السابعة: أنَّه يُقْتَلُ وَلاَ يُسْتَتَابُ.

● **الثانية: تفسير آية النساء.**

وهي قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾(1)، وفَسَّر عمر الجبت بالسحر والطاغوت بالشيطان، وفُسِّر بأن الجبت: كل مالاخير فيه من السحر وغيره.

وأما الطاغوت؛ فهو: كل ما تجاوز به الإنسان حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

● **الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما.**

وهذا بناءً على تفسير عمر رضي الله عنه.

● **الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس.**

تؤخذ من قول جابر: الطواغيت كهان، وكذلك قول عمر: الطاغوت الشيطان، فإن الطاغوت إذا أطلق؛ فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس.

● **الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.**

وقد سبق بيانها.

● **السادسة: أن الساحر يكفر.**

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ الآية(1).

● **السابعة: أنه يقتل ولايستتاب.**

---

(1) النساء: ٥١.

(٢) البقرة: ١٠٢.

يؤخذ من قـوله: «حد الساحر ضربة بـالسيف»(١)، والحد إذا بلـغ الإمام لايستـتاب صاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر؛ فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحد وبين عقوبـة الكفر، وبهذا نعرف خـطأ من أدخل حكم المرتد فـي الحدود، وذكروا من الحدود قتل الردة.

فقتل المرتد ليس من الحدود؛ لأنه يستتاب، فإذا تاب ارتفع عنه القتل، وأما الحدود؛ فلا ترتفع بـالتوبة إلا أن يتوب قبل القدرة عـليه، ثم إن الحدود كفارة لصاحـبها وليس بكافر، والقتل بالردة ليس كفارة وصاحبها كافر؛ لايصلى عليه، ولايُغسَّل، ولايدفن في مقابر المسلمين.

- **الثامنة: وجود هذا فى المسلمين فى عهد عمر؛ فكيف بعده؟!**

تؤخذ من قوله: «**كتب عمر: أن اقتلـوا كل ساحر وساحرة**»؛ فهذا إذا كـان فى زمن الخليفة الثانى فى القرون المفضلة، بل أفضـلها؛ فكيف بعده من العصور التى بعدت عن وقت النبى ﷺ وخلفائه وأصـحابه؟! فهو أكثر انتشاراً بين المسلميـن، وكلما بَعُد الناس عن زمن الرسالة استولت عليهم الضلالة والجهالة؛ فالضلالة: ارتكاب الخطأ عن جهل، والجهالة: ارتكاب الخطأ عن عمد، ولهذا نقـول: من عمل سوءً بجهالة؛ فهو آثم، ومن عمل سوءً بجهل؛ فلـيس بآثم، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**﴾(٢)، والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد، وهى السفه أ.هـ.



(١) سبق.

(٢) النساء: ١٧.

باب ٢٤
بيان شيء من أنواع السحر

ثناء العلماء على هذه الترجمة:

قال ابن عثيمين(١): أن المؤلف كان حكيماً في تعبيره بالترجمة، حيث قال: باب بيان شيء من أنواع السحر، ولم يحكم عليها بشيء؛ لأن منها ما هو شرك، ومنها ما هو من كبائر الذنوب، ومنها دون ذلك، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب تأثيره وآثاره. اهـ.

ماذا أراد المؤلف بهذا الباب:

قال سليمان آل الشيخ(٢):

أراد المصنف هنا أن يبين شيئاً من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها على الناس. اهـ.

قال ابن باز(٣):

أراد المؤلف أن يبين شيئاً مما يسمى سحراً لينتبه المؤمن ويجتنبها ويبتعد عنها وقد تسمى سحراً من جهة أنها تضر وتؤذى وإن لم تكن سحراً من جهة المعنى والحقيقة الذى هو استخدام الشياطين وعبادتهم فهذا سحر محبط.

أما الثانية فهو يعمل عمل السحر ويؤذى وإن لم يكن سحراً فى الحقيقة أ.هـ.

قلت: كالنميمة.

قال ابن عثيمين(١):

قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر».

أى: بيان حقائق هذه الأشياء مع حكمها.

وقد سبق أن السحر ينقسم إلى قسمين: كفر، وفسق.

فإن كان باستخدام الشياطين وما أشبه ذلك؛ فهو كفر.

وكذلك ما ذكره هنا من أنواع السحر: منها ما هو كفر، ومنها ما هو فسق حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية. أ.هـ.

مناسبة الباب لما قبله

قال سليمان آل الشيخ(٤):

لما ذكر المصنف ما جاء فى السحر أراد هنا أن يبين شيئاً من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها على الناس. حتى اعتقد كثير من الناس أن من صدرت عنه هذه الأمور فهو من الأولياء، وعدوها من كرامات الأولياء وآل الأمر إلى أن عُبِدَ أصحابها ورجى منهم النفع

---

(١) القول المفيد (٢/٣٦).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٩١).

(٣) التعليق المفيد.

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٩١).

والضر، والحفظ والكلاءة والنصر أحياء وأمواتاً، بل اعتقد كثير فى أناس من هؤلاء أن لهم التصرف التام المطلق فى الملك. أ.هـ

قلت: ومن المناسبات أيضاً التفصيل بعد الاجمال.

قال عبد الله بن جار الله:

ماصلة هذا الباب لما قبله؟

هى أنه لما ذكر المؤلف السحر ذكر شيئاً من أنواعه. اهـ.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد

تقدم فى الكلام على الباب الماضى

شرح التبويب:

قول المصنف [أنواع]

قال ابن عثيمين(١):

والأنواع: جمع نوع، والنوع أخص من الجنس؛ لأن الجنس اسم يدخل تحته أنواع، والنوع يدخل تحته أفراد، وقد يكون الجنس نوعاً باعتبار ما فوقه، والنوع جنساً باعتبار ما تحته.

فالإنسان نوع باعتبار الحيوان، والحيوان باعتبار الإنسان جنس؛ لأنه يدخل فيه الإنسان والإبل والبقر والغنم، والحيوان باعتبار الجسم نوع؛ لأن الجسم يشمل الحيوان والجماد.

و«أنواع» هنا باعتبار الجنس العام.

قوله: (السحر).

قال ابن عثيمين: وسبق أن السحر فى اللغة: كل ما كان خفى السبب دقيقاً فى إدراكه حتى عد الفخر الرازى من جملة أنواع السحر الساعات، وهى فى القديم عبارة عن آلات مركبة؛ فكيف بالساعات الألكترونية اليوم؟! اهـ.

قلت: وتقدم نقل هذا وغيره فى الباب السابق من كلام ابن كثير فى الرد على قول الرازى.

تمهيد

فى الفرق بين السحر والمعجزة والكرامة

هناك أمور تحدث للصالحين ولأولياء الله تسمى بالكرامات، ونفس هذه الأمور أو

(١) القول المفيد (٢/٣٦).

قريباً منها تحدث للدجالين، والسحرة، فكيف نفرق بين الكرامة، وبين الأحوال الشيطانية؟

الجواب: ذكر ابن تيمية الفروق بين السحر والمعجزة والكرامة فى مجموع الفتاوى فى أكثر من موضع، على سبيل المثال فى المجلد العاشر والحادى عشر، وأيضاً فى رسالة «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان».

وكذلك ابن حجر فى «الفتح»(١) حيث نقل عن المازرى قوله:

والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد، **والكرامة** لا تحتاج إلى ذلك بل إنما تقع غالباً اتفاقاً، **وأما المعجزة** فتمتاز عن الكرامة بالتحدى.

ونقل إمام الحرمين الإجماع على أن **السحر** لا يظهر إلا من فاسق، وأن **الكرامة** لاتظهر على فاسق.

ونقل النووى فى زيادات الروضة عن المتولى نحو ذلك.

وينبغى أن يعتبر بحال من يقع الخارق منه، فإن كان متمسكاً بالشريعة متجنباً للموبقات فالذى يظهر على يده من الخوارق كرامة، وإلا فهو سحر، لأنه ينشأ عن أحد أنواعه كإعانة الشياطين أ. هـ.

وذكر الشيخ سليمان شيئاً من ذلك فى كتاب «تيسير العزيز الحميد» فأنقله إختصاراً ولمن أراد المزيد عليه بالرجوع إلى ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية فى ذلك.

قال سليمان آل الشيخ(٢):- ولابد من ذكر فرقان يفرق به المؤمن بين ولى الله وبين عدو الله، من ساحر وكاهن وعائف(٣) وزاجر ومتطير ونحوهم ممن قد يجرى على يده شيء من الخوارق.

فاعلم أنه ليس كل من جرى على يده شيء من خوارق العادة يجب أن يكون ولياً لله تعالى، لأن العادة تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغيب، مما يخبره به الشياطين المسترقون للسمع.

وفعل الشياطين بأناس ممن ينتسبون إلى دين وصلاح ورياضة مخالفة للشريعة كأناس من الصوفية وكرهبان النصارى ونحوهم، فيطيرون بهم فى الهواء ويمشون بهم على الماء ويأتون بالطعام والشراب والدراهم، وقد يكون ذلك بعزائم ورقى شيطانية وبحيل

---

(١) (١٠/٢٣٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٩١ - ٢٩٤.

(٣) العرّاف

وأدوية، كالذين يدخلون النار بحجر الطلـق ودهن النارنج. وقد يكون برؤيا صادقة فيها وما يستدل به على وقوع ما لم يقع، وهذه مشتركة بين ولى الله وعدوه. وقد يكون ذلك بنوع طيرة يجدها الإنسـان فى نفسه فتوافق القدر وتقع كما أخبر وقـد يكون بعلم الرمل والضرب بالحصى، وقد يكون ذلك استدراجاً والأحوال الشيطانية كثيرة.

وقد فرق الله بين أوليـائه وأعدائه فى كتابه فاعتصم بـه وحده، لا إله إلا هو فإنه لا يضل من اعتصم به ولا يشقى. قال الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(١) فذكر تعالى أن أولياءه الـذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم المؤمنون المتقون ولم يشترط أن يجرى على أيديهم شىء من خوارق العادة. فدل أن الشخص قد يكون وليـاً لله وإن لم يجر على يديه شىء من الخوارق إذا كان مؤمناً متقياً.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢) فأولياء الله المحبوبـون عند الله هم المتبعون للرسـول ﷺ باطناً وظاهراً؛ ومن كان بخلاف هذا فليس بمؤمن فضلاً عـن أن يكون ولياً لله تعالى، وإنما أحبهم الله تعالى لأنهم والوه، فأحبوا ما يحب، وأبغـضوا مايبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا مما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما ينـهى، وأعطوا من يحب أن يعطى، ومنعوا من يحب أن يمنع. وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد.

وبالجملة: فأوليـاء الله هم أحبابه المـقربون إليه بالـفرائض والنوافـل وترك المحارم، الموحدون له، الذين لا يـشركون بالله شيئاً وإن لم تجر على أيديـهم خوارق فإن كانت الخوارق دليلاً على ولاية الله فلتكن دليلاً على ولاية الساحر والكاهن والمنجم والمتفرس، ورهبان اليهود والنـصارى، عباد الأصنام؛ فإنهم يجرى لهـم من الخوارق ألوف، ولكن هى من قبل الشـياطين؛ فإنهم يتنزلون عـليهم لمجانستهم لهم فـى الأفعال والأقوال كما قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(٤) وقد طـارت الشياطين ببعـض من ينتسب إلى الولاية، فقال: لا إله إلا الله فسقـط وتجد عمدة كثير من الناس فى اعتقادهم الولاية فى شخص أنـه قد صدر عنه مكاشفة فى بعض الأمور أو بعض الخوارق للعادة، مثل أن يشير إلى شخـص فيموت أو يطير فى الهواء إلى مكة أو

(١) يونس: ٦٢.
(٢) آل عمران: ٣١.
(٣) الشعراء: ٢٣١.
(٤) الزخرف: ٣٦.

غيرها أحيـاناً أو يمشى على الماء أو يمـلأ إبريقاً من الهواء أو يخبـر فى بعض الأوقات بشىء من الغيب، أو يختفى أحياناً عن أعـين الناس، أو يخبر بعض الناس بما سرق له أو بحال غائب أو مريض، أو أن بعض الناس اسـتغاث به وهو غائب أو ميت، فرآه قد جاء فقضى حاجته أو نحو ذلك.

وليس فى شـىء من هذه الأمور ما يدل على أن صـاحبها مسلم فضـلاً من أن يكون ولياً لله، بل قـد اتفق أولياء الله على أن الرجـل لو طار فى الهواء ومشى عـلى الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ، وموافقته لأمره ونهيه.

ومثل هذه الأمور قد يكون صاحبها ولياً لله وقد يكون عدواً له، فإنها قد تكون لكثير من الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمـنافقين وأهل البدع، وتكون لهؤلاء من قبل الشياطين أو تكون استدراجاً فلا يـجوز أن يظن أن كل من كان له شىء من هذه الأمور فهو ولى لله بل يعرف أوليـاء الله بصفاتهم وأحوالهم وأفعالهم التـى دل عليها الكتاب والسنَّـة؛ وأكثر هذه الأمور قد تـوجد فى أشخاص يكـون أحدهم لا يتوضأ ولا يـصلى المكتوبة ولا يتنظف ولا يـتطهر الطهارة الشرعية، بل يكون ملابسـاً للنجاسات، معاشراً للكلاب، يأوى إلى المزابل، رائحته خبيثة، ركَّـاباً للفواحش، يمشى فى الأسواق كاشفاً لعورته غامزاً للشرع، مستهزئاً به وبحملته، يأكل العقارب والخبائث التى تحبها الشياطين كافراً بالله، سـاجداً لغير الله من القـبور وغيرها، يكره سـماع القرآن وينفر مـنه ويؤثر سماع الأغـانى والأشعار ومزامـير الشيطـان على كلام الرحـمن. فلو جرى عـلى يدى شخص من الخوارق مـاذا عساه أن يجرى فلا يكون ولـياً لله، محبوباً عنده حـتى يكون متبعاً لرسوله ﷺ باطناً وظاهراً.

فإن قلت: فعلى هذا ما الفرق بين الكرامة وبين الاستدراج والأحوال الشيطانية؟

قيل: إن علمـت ما ذكرنا عرفـت الفرق لأنه إذا كان الـشخص مخـالفاً للشـرع فما يجرى له من هـذه الأمور ليس بكرامة، بل هـى إما استدراج وإما من عمل الـشياطين، ويكون سـببها هو ارتكاب مـا نهى الله عنه ورسولـه ﷺ، فإن المعاصى لا تكـون سبباً لكرامة الله، ولا يستعـان بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصـل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والدعاء بل تحصل بمـا تحبه الشياطين كالاستغاثة بغيـر الله، أو كانت مما يستعان بهـا على ظلـم الخلق وفعـل الفواحش فـهى من الأحوال الـشيطانـية لا من الكـرامات الرحمانية؛ وكلما كان الإنسان أبعد عن الكتاب والسنَّة كانت الخوارق الشيطانية له أقوى وأكثر من غيره، فإن الجـن الذين يقترنون بالإنس من جنسهم. فـإن كان كافراً ووافقهم على ما يـختارونه من الكفر والـفسوق والضلال والإقسام علـيهم بأسماء من يعـظمونه،

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَر، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بن العَلاَء، حَدَّثَنَا قَطَنُ بنُ قَبِيصَةَ عن أَبِيه، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ». قَالَ عَوْفٌ: العِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرق: الخَطُّ يُخَطُّ بالأَرْضِ، والجبت: قَالَ الحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ. وَلأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِي، وابْنِ حِبَّانَ: فِي «صَحِيحِهِ» لَهُم المُسْنَدُ مِنْهُ(١).

وللسجود لهم وكتابة أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة؛ فعلوا معه كثيراً مما يشتهيه بسبب ما برطلبهم به من الكفر وقد يأتونه بما يهواه من امرأة وصبي، بخلاف الكرامة فإنها لا تحصل إلا بعبادة الله والتقرب إليه ودعائه وحده لا شريك له، والتمسك بكتابه، واجتناب المحرمات، فما يجرى من هذا الضرب فهو كرامة.

وقد اتفق على هذا الفرق جميع العلماء.

وبالجملة: فإن عرفت الأسباب التى بها تنال ولاية الله عرفت أهلها وعرفت أنهم أهل الكرامة؛ وإن كنت ممن يسمع بالأولياء وهو لا يعرف الولاية ولا أسبابها ولا أهلها بل يميل مع كل ناعق وساحر: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ ولشيخ الإسلام كتاب- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان- فراجعه فإنه أتى فيه بالحق المبين. اهـ.

ولم يذكره صاحب «فتح المجيد» ولو بالإختصار.



قوله: (قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف...) الحديث.

- مناسبة الحديث للباب.

قال القرعاوى(٢):

دل الحديث على أن العيافة والطرق والطيرة من أنواع السحر. أهـ.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (١٠/٤٠٣/٢/١٩٥٠٢)، وأحمد فى «مسنده» (٣/٤٧٧)، (٥/ ٦٠)، وأبو داود فى الطب/ باب فى الخط وزجر الطير (٤/١٥/٣٩٠٧)، والنسائى فى «الكبرى» فى التفسير (٦/ ٣٢٤/١١١٠٨)، وابن حبان فى «صحيحه» (٧/٦٤٦/٦٠٩٨)، والبيهقى فى «الكبرى» (٨/١٣٩)

من طريق عوف العبدى، عن حيان بن قطن بن قبيصة، عن أبيه... الحديث.

وانظر «رياض الصالحين» (١٦٧٣)، وابن أبى حاتم (٥٤٤٢) و«فتح المجيد» (ح٥٢٢) بتخريجنا.

(٢) الجديد (٢٣٠)

- مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى [1]: أفاد الحديث أن هـذه الثلاثة من الســحر، والسحر مبنى على الشرك. أهـ.

قوله: (قال أحمد)

قال سليمان آل الشيخ [2]:- هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

ومحمد بن جعفر هو المشهور بغندر الهذلى البصرى ثقة مشهور، ثبت فى شعبة حتى فضله على بن المدينى فيه على عبدالـرحمن بن مهدى بل أقر له ابن مهدى بذلك. مات سنة ست ومائتين.

وعوف هو ابن أبى جـميلة- بفتح الميـم- العبدى البصرى المعـروف بعوف الأعرابى ثقة. مات سنة ست أو سبع وأربعين ومائة، وله ست وثمانون سنة.

وحيان بن العلاء هو بالتحتية ويقال حبان بن مخارق أبو العلاء البصرى مقبول.

وقطن- بفتحتين- أبو سهلة البصرى صدوق.

«قوله: عن أبيه».

هو قبيصة- بفتـح أوله وكسر الموحدة ابن المخارق- بضـم الميم وتخفـيف المعجمة أبو عبد الله الهلالى، صحابى نزل البصرة.

قوله: «إنَّ العيافة»

قال سليمان آل الشيخ [3]: قال عوف: العيافة زجر الطيـر. هذا التفسير ذكره غير واحد كما قال عوف وهو كذلك.

قال أبو السعادات: العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادة العرب كثيراً وهو كثير فى أشعارهم، يقال: عاف يعيف عيفاً إذا زجر وحدس وظن أ.هـ.

قال حامد بن محـمد بن حسن [4]: (قلت): العيافة علـى ما ذكرها أهل العلم: زجر الطير، والـتفاؤل بأسمائها وأصواتهـا وممرها وهو من العرب كثيـر فى أشعارهم. يقال: عاف يعـيف عيفاً إذا زجر وحدس وظن، وبـنو أسد يذكرون بالعيـافة ويوصفون

---

(١) الجديد (٢٣٠).

(٢- ٣) تيسير العزيز الحميد (٢٩٤).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٣١٩).

بها. قيل: إن قوماً من الجن تذاكروا أعيافهم فأتوها فقال: ضلت ناقة فلو أرسلتهم معنا من يعيف فقالوا لغلام منهم: انطلق معهم فاستردفه أحدهم، ثم ساروا فلقيهم عقاب كاسرة إحدى جناحيه فاقشعر جلد الغلام وبكى فقالوا: مالك؟ فقال: كسرت جناحاً، ورفعت جناحاً، وحلفت بالله صراحاً، ما أنت بإنسى ولا تبغى لقاحاً، وأنشد الشيخ التوربشتى وقال:

تتحابى هدهد فوق بابه ... هدى وبيان بالجناح يلوح

وقالوا حمامات فحم لقائها ... وطلح فسلت والمطى طليح

وقال آخر:

يغنى الطائرات بين سلمى ... على غضبين من غرب وبان

وقال آخر:

جرت سخاً فقلت لها أجيرى ... نوى مشهولة فمتى اللقاح السانح

مما كانوا يمنون به أى قلت للنفس: أجيرى، أى: طغى حال نوى، والمشمولة المكروهة من الشمال، فإنه كانوا يكرهونها لما فيها من البرد، وذهابها بالغيم الذى فيه الحيا والخصب. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله[1]: العيافة: زجر الطير وتنفيرها وإرسالها والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها. اهـ.

قال ابن باز[2]: العيافة: زجر الطير. كما قال عوف. فيزجرون الطير ويزعمون أنها تدلهم على شيء فيشاءمون بها تارة ويتيمنون بها تارة أخرى، وهذا من عمل الجاهلية، والطيور ليس عندها خير ولاشر ولكن هذا من جهلهم وخلالهم كما يتشاءمون بالغراب والبومة أو حيوان سيئ الخلقة، ويتيمنون بالحيوان الحسن الخلقة، ويقولون هذا مخرج طيب والعكس كذلك. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: مصدر عاف يعيف عيافةً، وهى: زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل؛ فعند العرب قواعد فى هذا الأمر؛ لأن زجر الطير له أقسام:

---

(١) الجامع الفريد (١٠٥).

(٢) التعليق المفيد (١٤٣)

(٣) القول المفيد ١/ (٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٢)

فتارة يزجرها للصيد، كما قال أهل العلم فى باب الصيد: إن تعليم الطير بأن ينزجر إذا زجر؛ فهذا ليس من هذا الباب.

وتارةً يزجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل، فإذا زجر الطائر وذهب شمالاً تشاءم، وإذا ذهب يميناً تفاءل، وإن ذهب أماماً؛ فلا أدرى أيتوقفون أم يعيدون الزجر؟ فهذا من الجبت.

قال: ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لاحقيقة له فماذا يعنى كون الطائر يذهب يمينا أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً؟ فهذا لا أصل له وليس بسبب شرعى ولا حسى فإذا اعتمد الإنسان على ذلك فقد اعتمد على أمر خفى لا حقيقة له وهذا سحر كما سبق تعريف السحر فى اللغة أ.هـ.

قوله: «الطرق»

قال سليمان آل الشيخ(١): قوله: والطرق: الخط يخط فى الأرض، هكذا فسره عوف، وهو تفسير صحيح. وقال أبو السعادات: هو الضرب بالحصي الذى يفعله النساء. قلت أي سليمان: وأيّاما كان فهو من الجبت. أهـ.

قال حامد بن محمد(٢): (الطرق) هو الضرب بالحصى الذى تفعله النساء. وقيل: هو الخط فى الرمل، واقتصر فى الفائق على الوجه الأول، وأنشد قوله لبيد:

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ... ولا زاجرت الطير ما الله صانع

قال عبد الله بن جار الله(٣): (الطرق): الخط يخط فى الأرض، وقيل: هو الضرب بالحصى. اهـ.

قال ابن باز(٤): (الطرق) الخط يخط فى الأرض، ويقولون هذا يدل على كذا، وأنه يحصل كذا، وهذا قد يكون من العبث أحياناً، وقد يكون تخييلاً، وهو فى الحقيقة خدمة للشيطاين، وأخذ بأقوالهم وطاعتهم، ودعوة علم الغيب، وكله كذب، وهى لاتفيد شيئاً. اهـ.

قال ابن عثيمين (٥): هى من السحر؛ لأنهم يستعملونه فى السحر ويتوصلون به إليه.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٩٤.
(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٢٠).
(٣) الجامع الفريد (١٠٥).
(٤) التعليق المفيد (١٤٣).
(٥) القول المفيد ١/(٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٢).

وفسره عوف: بأنه الخط يخط فى الأرض، وكأنه من الطريق، من طرق الأرض يطرقها إذا سار عليها، وتخطيطها مثل المشى عليها يكون له أثر فى الأرض كأثر السير عليها.

ومعنى الخط بالأرض معروف عندهم، يضربون به على الرمل على سبيل السحر والكهانة، ويفعله النساء غالباً، ولا أدرى كيف يتوصلون إلى مقصدوهم وما يزعمونه من علم الغيب، وأنه سيحصل كذا على ما هو معروف عندهم؟! وهذا نوع من السحر.

أما خط الأرض ليكون سترة فى الصلاة.

[قلت]: إن صحح الحديث لأن الحديث ضعيف أو لبيان حدودها ونحو ذلك؛ فليس داخلاً فى الحديث.

فإن قيل: قد صح عن الرسول ﷺ أنه سئل عن نبى من الأنبياء يخط؛ فقال: من وافق خطه؛ فذاك[1].

قلنا: يجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يمكن الحصول عليه؛ لأنه قال: فمن وافق خطه فذاك، وما يدرينا هل وافق خطه أم لا؟

الثانى: أنه إذا كان الخط بالوحى من الله تعالى كما فى حال هذا النبى؛ فلا بأس به؛ لأن الله يجعل له علامة ينزل الوحى بها بخطوط يعلمه إياها.

أما هذه الخطوط السحرية؛ فهى من الوحى الشيطانى.

فإن قيل: طريقة الرسول ﷺ أنه يسد الأبواب جميعا خاصة فى موضوع الشرك؛ فلماذا لم يقطع ويسد هذا الباب؟

فالجواب: كأن هذا والله أعلم أمر معلوم، وهو أن فيه نبياً من الأنبياء يخط؛ فلابد أن يجيب عنه الرسول ﷺ.

[قلت]: بل أجاب ﷺ بهذه الطريقة ليسد هذا الباب لأنه كما تقدم علق على أمر مستحيل الوقوع فكأنه يقول من وافق خطه وهذا مستحيل ولن تستطيعوا ذلك فذاك والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ[2]: وفى الحديث دليل على تحريم التنجيم لأنه إذا كان الخط ونحوه الذى هو من فروع النجامة من الجبت فكيف بالنجامة. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم من حديث معاوية بن الحكم.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٩٥).

قلت: وفيه تحريم قراءة الفنجان أو الكوتشينة ونحو ذلك من باب أولى.

فائدة: نبهت غير مرة على أن الشيطان يحاول أن يتشبه بالله فى كل افعاله حتى فى باب الوحى فلما أوحى الله لبعض أنبياءه عن طريق الخط أوحى هو لبعض أولياءه كذلك عن طريق الخط ولما أوحى الله عن طريق التباس جبريل بالنبى ثم يفصم عنه وقد وعي ما قال كذلك أوحى هو باللبس الشيطانى ولما أوحى عن طريق جبريل فى صورة بشر جاء هو لأولياءه فى صورة بشر كما جاء فى دار الندوة.

قوله: «والطيرة».

قال سليمان آل الشيخ[1]: وأما الطيرة فسيأتى الكلام عليها فى بابها إن شاء الله. اهـ.

وقصد الباب السبع والعشرون [التطير].

قال حامد بن محمد[2]: الطيرة: بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تسكن، وهى التشاؤهم بالشئ، وهو مصدر تطير طيرة، مثل تخير خيرة، ولم يجئ من المصادر غيرهما، وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح والبوارح من الطير، والظبا، وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير فى جلب نفع أو دفع ضر، فلا يصدنهم مما يتوجهون إليه من المقاصد أو من سواء السبيل والصراط المستقيم ما يجدونه فى صدورهم من الوهم. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله[3]: والطيرة: هى التشاؤهم بمرئى أو مسموع. اهـ.

قال ابن باز[4]: التشاؤم بالمرئى أو المسموع، وهى محرمة، ومن الشرك الأصغر، وقد تكون أكبر إذا اعتقد بأن الطائر يتصرف فى الكون أو يدبر شيئاً، ولكن الغالب أنهم يتشاؤمون بها فقط. فكل هذا من عمل الجاهلية ومن الجبت. اهـ.

قال ابن عثيمين[5]:- والطيرة من السحر أيضاً لأنها مثل العيافة تماماً مستند إلى أمر خفى لا يصح الاعتماد عليه وسيأتى فى باب الطيرة ما يستثنى منه.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٩٥).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٢٠).

(٣) الجامع الفريد (١٠٥).

(٤) التعليق المفيد (١٤٣، ١٤٤).

(٥) القول المفيد ٢/ ٣٩ ٤١.

والطيرة: على وزن فِعَلَة، وهى اسم مصدر تطَّيـر، والمصدر منه تَطَيّر، وهى التشاؤم بمرئى أو مسمـوع. وقيل: التشاؤم بمعلوم مـرئياً كان أو مسموعاً، زمانـاً كان أو مكاناً، وهذا أشمل؛ فيشمل ما لا يرى ولا يسمع؛ كالتطير بالزمان. اهـ.

[قلت]: مثل تطير الجهلة بيوم الجمعة ويقولون فيه ساعة نحس.

وأصل التطيـر: التشاؤم، لكن أضيفت إلـى الطير؛ لأن غالب التشـاؤم عند العرب بالطير، فعلقت به، وإلا؛ فإن تعريفها العام: التشاؤم بمرئى أو مسموع أو معلوم.

وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالمكان وبالأشخاص، وهذا من الشرك كما قال النبى ﷺ.

والإِنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم؛ ضاقت عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شىء أنه شؤم، حتى إنه يوجد أناس إذا أصبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال: اليوم يوم سوء، وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشتر- والعياذ بالله-، وكان بعضهم يتـشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: إنه يوم نحس وشؤم، ومـنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما فى النكاح، وقد نقضت عائشة رضى الله عنها هذا التشاؤم، بأنه ﷺ عقد عليها فـى شوال، وبنى بها فى شوال؛ فكانت تقول: «أيـكن كان أحظى عنده منى؟»[(١)]، والجواب: لا أحد.

فالمهم أن التـشاوم ينبغى للإِنسان أن لا يطـرأ له على بال؛ لأنه يُنكِّد علـيه عيشه؛ فالواجب الاقتـداء بالنبى ﷺ حيث كان يعـجبه الفأل[(٢)]؛ فينبغى لـلإِنسان أن يتفاءل بالخير ولا يتشاءم، وكذلك بعض النـاس إذا حاول الأمر مرة بعد أخرى تشاءم بأنه لن ينجح فيه فيتـركه، وهذا خطأ؛ فكل شىء ترى فيه المصلحة؛ فـلا تتقاعس عنه فى أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرى حتى يفتح الله عليك.

قلت: ويستدل بقوله ﷺ **«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله مـن المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ما ينفعك و استعـن بالله ولا تعجز فإن فاتك شىء فلا تقل لو كان كذا لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان»[(٣)]**

وقد يكون عمل الشيطان ها هنا ليس فـقط الندم على ما فات بل التشاؤم الصادر عن عدم تحصيل ما فات وادراكه والله أعلم.

(١) [صحيح] أخرجه: فى النكاح (٥/ ٢٢٥/ ٧٣).
(٢) سيأتى تخريجه
(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى القدر ١٦٠/ ٢١٥ ـ النووى) عن أبى هريرة به.
انظر «رياض الصالحين» (١٠١ ـ بتخريجنا)..

قوله: «من الجبت» قال سليمان آل الشيخ[1] أى: من أعمال السحر.

قال القاضى: والجبت فى الأصل الفشل الذى لا خير فيه ثم استعير لما يعبد من دون الله وللساحر والسحر.

وقال الطيبى: «من» فيه إما ابتدائية أو تبعيضية، فعلى الأول المعنى الطيرة ناشئة من الساحر، وعلى الثانى المعنى الطيرة من جملة السحر والكهانة، أو من جملة عبادة غير الله، أى الشرك يؤيده قوله فى الحديث **«الِّطيَرَةُ شِركٌ»**[2] انتهى.

قال ابن عثيمين[3]: سبق أن الجبت السحر، وعلى هذا فتكون (مِنْ) للتبعيض على الصحيح وليست للبيان، أى هذان النوعان من الجبت. أهـ.

قوله [قال عوف: العيافة: زجر الطير] تقدم ذلك

قوله [والطرق: الخط يخط فى الأرض] تقدم بيان ذلك من كلام سليمان وابن عثيمين.

وزاد حامد بن محمد[4]: قال ابن عباس: الخط يخط فى الأرض، كان نبى من الأنبياء يخط فيعرف بالفراسة بتوسط تلك الخطوط.

قيل: هو إدريس، فمن وافق خطه فى الصورة والحالة وهو قوة الخاط فى الفراسة، والعلم والعمل الموجبين لها فذاك مصيب، وذا محال، لأن خط ذاك النبى معجزة له، ولذا قال ﷺ **«من وافق خطه فذاك»** على سبيل الزجر، معناه لايوافق أحد خط ذلك النبى ﷺ لأنه معجزة. قال: والخط هو ما يخط الحازى بالحاء المهملة والزاى المعجمة: الذى يحرز الأشياء ويقدرها بظنه، ويقال للمنجم الحازى أيضاً؛ لأنه ينظر فى النجوم وأحكامها بظنه، والحازى: هو الكاهن. قال: والخط هو علم تركه الناس يأتى صاحب الحاجة إلى الحازى فيعطيه حلواناً فيقول: اقعد حتى اخط لك وبين يدى الحازى غلام له معه ميل، ثم يأتى إلى أرض رخوة فيخط فيها خطوطاً بالعجلة لئلا يلحقها العدد ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين وغلامه يقول للتفال: ابنى عيان أسرعا لبيان فإن بقى خطان فهما علامة النجح وإن بقى خط واحد فهو علامة الخيبة.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩١٠) والترمذى (١٦١٤) وقال: حسن صحيح.

(٣) القول المفيد (٢/٣٩).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٣٢٠، ٣٢١).

قال صاحب النهاية المشار إليه: علم معروف وللناس فيه تصانيف كثيرة ويستخرجون به الضمير وغيره على زعمهم هذا.

قلت - أي حامد -: كيف يتصور استخراج الضمير وغيره من الغيوبات، وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ﴾ قال صاحب «الكشاف»: وقد بطل بهذه كرامات الأولياء بإدعائهم الغيب فيه. اللهم إلا أن يكون من نوع الفراسة لقول ﷺ: **«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»**(*) قاله أكثر أهل العلم. اهـ.

قوله: «والجبت: قال الحسن رنَّة الشيطان»

قال سليمان آل الشيخ(١):- لم أجد فيه كلاماً.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢): ذكر إبراهيم بن محمد بن معلم: أنَّ في تفسير بقي بن مخلد «أن إبليس رن أربع رنات: رنة حين لُعن، ورنة حين أهبط، ورنه حين ولد رسول الله ﷺ ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب»

قال سعيد بن جبير: «لما لعن الله تعالى إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة منها فى الدنيا إلى يوم القيامة» رواه ابن أبى حاتم(٣).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة، رنَّ إبليس رنَّة اجتمعت إليه جنوده «رواه الحافظ الضياء فى المختارة».

الرنين: الصوت. وقد رن يرنُّ رنيناً. وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله تعالى. أهـ

قال ابن عثيمين(٤): بعد أن ذكر الكلام المتقدم

والظاهر أن رنة الشيطان؛ أي: وحى الشيطان؛ فهذه من وحى الشيطان وإملائه. اهـ.

[قلت]: ويؤيده المعنى اللغوى وقول ابن عباس المتقدم اجتمعت إليه جنوده وأيضاً لأن الباب اشتمل على كثير من طرق الوحى الشيطانى مثل الخط.

(*) سيأتى تخريجه.

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٩٥..

(٢) فتح المجيد: ٣٧٧- ٣٧٨ ط قرطبه.

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (٧/ ١٢٣٨٩). فانظره بتخريجنا.

(٤) القول المفيد ٢/ ٤١- ٤٢.

وأيضاً: لأن جبريل كان يـأتى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علـى النبى وتقدم أن الشيطان يحاول أن يتشبه بالله حتى فى باب الوحى.

قال: وقول الحسن جاء فى تفسير ابن كثير باللفظ الذى ذكره المؤلف وجاء فى «المسند» بلفظ إنه الشيطان[1].

قوله [إسناده جيد)

قال ابن عثيمين[2]: وعندى أنه أقل من جيد فى الواقع إلا أن يكون هناك متابعات وكان بعض العلماء يذهب إلى أن الحديث إذا صح متنه، وكان موافقاً للأصول؛ فإنه يتساهل فى سنده، والعكس بالعكس، إذا كان مخالفاً للأصول؛ فإنه لا يبالى بالسند، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة؛ فهذا مشكل لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند فى حديث آخر حكمنا بأنه جيد؛ فالأَوْلَى أن يقال: إن السند فيه ضعف، ولكن المتن صحيح، فأنا أرى أن مثل هذا لا يحكم له بالجود؛ إذ جَيِّد أرقى من حسن، ثم الحكم بالحسن فى مثل هذا السند فى نفسى منه شىء؛ لأنه ينبغى لنا أن نتحرى فى الحديث عن الرسول ﷺ، إلا أن الذى يخفف الأمر هو صحة المتن أ.هـ.

[قلت]: وسبب عدم قوله بتجويد هذا الحديث أو تحسينه أن فيه راوٍ مقبول كما تقدم، وهذا يعنى كما قال ابن حجر أن حديثه لين إلا إذا توبع، والحديث له شواهد معنوية كثيرة فلهذا جوده المصنف.

ثم قال ابن عثيمين[3]:

وأيهما أهم: السند أم المتن؟

الجواب: كلاهما مهمان، لكن المتن إذا كان صحيحاً تشهد له الأصول قد تستغنى عنه بما تشهد به الأصول، أما السند؛ فلابد منه، يقول ابن المبارك: لولا السند؛ لقال كل من شاء ما شاء».

قوله [ولأبى داود والنسائى وابن حبان فى «صحيحه» لهم المسندُ منه].

قال سليمان آل الشيخ[4]: يعنى أن هؤلاء رووا الحديث واقتصروا على المرفوع منه، ولم يذكروا التفسير الذى فسره به عوف. وقد رواه أبو داود فى التفسير المذكور بدون كلام الحسن.

(1) «المسند» (٥/ ٦٠).

(2) القول المفيد ٢/ ٤١ - ٤٢.

(3) القول المفيد (٢/ ٣٨).

(4) تيسير العزيز الحميد (٢٩٥).

وَعَن ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ الله عنهمَا؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَدَ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ[1].

والنسائى هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن على ببن سنان بن بحر بن دينار أبو عبدالرحمن صاحب «السنن» وغيرها من المصنفات. روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة بن سعيد وخلق. وكان إليه المنتهى فى الحفظ والعلم لعلل الحديث. مات سنة ثلاث وثلاثمائة وله ثمان وثمانون سنة.

قوله: (وعن ابن عباس......).

قال سليمان آل الشيخ[2]: هذا الحديث رواه أبو دداود كما قال المصنِّف بإسناد صحيح، وكذا صححه النووى والذهبى ورواه أحمد ولبن مماجه.

مناسبة الحديث للباب:

قال ابن باز[3]: تعلم أمر النجوم فى التأثير فى الكون هو من أقوال المنجمين والمشعوذين، وهو باطل، ومنه التعلق بالنجوم فى موت أحد وحياته أو زوال ملك فلان وغيره. أ. هـ

وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف:-

إن من أنواع السحر: تعلم النجوم ليستدل بها على الحوادث الأرضية، وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند؛ لكن من حيث المعنى صحيح تشهد له النصوص الأخرى.

قال القرعاوى[4]: حيث دل الحديث على أن علم التنجيم نوع من السحر.

مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوى[5]: حيث دل الحديث على أن علم التنجيم نوعاً من السحر والسحر مبنى على الشرك.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٣١١) وأبو داود فى «الطب»/ باب: النجوم (٤/ ١٥/ ٣٩٥) وابن ماجه فى «الأدب/ باب: تعلم النجوم (٢/ ١٢٢٨/ ٣٧٢٦) والبيهقى (٨/ ٢٣٩/ ح ١٦٥١٣).

من طريق يحيى، عن سعيد بن أخنس عن الوليد بن عبدالله، عن يوسف بن ماهك عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ... فذكره.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٦٧٤) و«فتح المجيد (ح٥٢٦) بتخريجنا

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٩٦.　　(٣) التعليق المفيد (١٤٤).

(٤ - ٥) الجديد ٢٣١.

قوله: «وعن ابن عباس- رضى الله عنهما. قال: قال رسول الله ﷺ- من اقتبس شعبة من النجوم»

قال سليمان آل الشيخ(١):

قوله: «من اقتبس» قال أبو السعادات: قبست العلم واقتبسته إذا تعلمته انتهى.

وعلى هذا فالمعنى من تعلم.

قال ابن عثيمين(٢):

قوله: «من».

شرطية، وفعل الشرط: «اقتبس»، وجوابه: «فقد اقتبس».

قوله: «اقتبس».

أى: تعَلَّم؛ لأن التَّعلُّم وهو أخذ الطالب من العالم شيئاً من علمه.

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر»

قال سليمان آل الشيخ(٣).

قوله: «شعبة» أى: طائفة وقطعة من النجوم والشعبة: الطائفة من الشىء والقطعة منه، ومنه الحديث «والحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ» أى جزء منه.

قوله: فقد «اقتبس شعبة من السحر». أى: المعلوم تحريمه.

قال شيخ الإسلام: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ وهكذا الواقع فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الأخرة.

قال عبدالله بن جار الله(٤): معنى اقتبس: أخذ وحصل وتعلم. شعبة من النجوم: طائفة وجزءً من علم النجوم أهـ.

ثم قال: **حكم تعلم النجوم:** على قسمين جائز ومحرم، فالجائز ما يدرك بطريق المشاهدة كالاستدلال بالشمس والقمر والنجوم على أوقات الصلوات وجهة القبلة ونحو ذلك.

والمحرم ما يَدَّعيه أهل التنجيم من معرفة الحوادث التى لم تقع بمجىء الأمطار ووقت

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٩٦. (٢) القول المفيد ٢/٤٣.
(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٩٦). (٤) الجامع الفريد (١٠٥).

هبوب الرياح وتغيير الأسعار وغير ذلك مما استأثر الله بعلمه فلا يعلمه أحد غيره. أ.هـ.

قال ابن باز[1]: والمراد علم أن للنجوم تأثير، فهذا هو المنكر وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، أما الاستفادة من النجوم وسيرها في معرفة القبلة والحر والبرد فلا بأس به، لأنه من علم التسيير لا من علم التأثير وهو من نعمة الله أ. هـ.

قال ابن عثيمين[2]:

المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف؛ لأن هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التى لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له؛ فالسحر لا يقلب الأشياء، لكنه يُموِّه، وهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال.

قوله «علماً من النجوم»

قال ابن عثيمين[3]:

قوله: «من النجوم».

المراد: علم النجوم، وليس المراد النجوم أنفسها؛ لأن النجوم لا يمكن أن تُقتبس وتُتَعَلَّم، والمراد به هنا علم النجوم الذى يستدل به على الحوادث الأرضية؛ فيستدل مثلاً باقتران النجم الفلانى بالنجم الفلانى على أنه سيحدث كذا وكذا.

ويستدل بولادة إنسان فى هذا النجم على أنه سيكون سعيداً، وفى النجم الآخر على أنه سيكون شقيّاً فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من عند الله، قد تكون أسبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة، لكن ليس للنجوم بها علاقة، ولهذا جاء فى حديث زيد بن خالد الجهنى فى غزوة الحديبية؛ قال: صلى بنا رسول الله ذات ليلة على أَثَر سماء من الليل؛ فقال: **«قال الله تعالى: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فمن قال: مُطِرنا بِنَوْء كذا وكذا**- بنوء يعنى: بنجم، والباء للسببية؛ يعنى: هذا المطر من النجم-؛ **فإنه كافر بى مؤمن بالكوكب، ومن قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب»**[4].

(1) التعليق المفيد (١٤٤).
(2) القول المفيد (٢/ ٤٥، ٤٦).
(3) القول المفيد ٢/ ٤٣ ٤٥.
(4) سيأتي تخريجه.

فالنجوم لا تأتى بالمطر ولا تأتى بالرياح أيضاً. ومنه نأخذ خطأ العوام الذين يقولون: إذا هبت الريح طلع النجم الفلانى؛ لأن النجوم لا تأثير لها بالرياح، صحيح أن بعض الأوقات والفصول يكون فيها ريح ومطر؛ فهى ظرف لهما، وليست سبباً للريح أو المطر.

* وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير، وهو أن يُستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية؛ فهذا محرم باطل لقول النبى ﷺ: **«من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر»**[1] وقوله فى حديث زيد بن خالد: **«من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب»**[2]، ولقول النبى ﷺ فى الشمس والقمر: **«إنهما آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»**[3]؛ فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثانى: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات؛ فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحياناً، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: **﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**[4]، فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية؛ فقال تعالى: **﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾**[5]؛ فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمان لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلانى دخل وقت السيل ودخل وقت الربيع، وكذلك على الأماكن؛ كالقبلة، والشمال، والجنوب.

قوله: «زاد ما زاد»

قال سليمان آل الشيخ[6]:

قوله: «زاد ما زاد» يعنى: كلما زاد من علم النجوم زاد له من الأثم مثل إثم الساحر، أو زاد اقتباس شعب السحر ما زاد اقتباس علم النجوم.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سيأتى تخريجه

(٣) سيأتى تخريجه.

(٤ - ٥) النحل: ١٥، ١٦.

(٦) تيسير العزيز الحميد (٢٩٦)

قلت: والقـولان متلازمان لأن زيادة الإثم فـرع عن زيادة السحر، وذلـك لأنه تحكم على الغـيب الذى استأثر الله بعلـمه. فعلم أن تأثيـر النجوم باطل محرم، وكـذا العمل بمقتضاه كالتقرب إليها بتقريب القرابين لها كفر. قاله ابن رجب.

وتابع سليمان آل الشيخ عـلى هذا: عبدالرحمن آل الشيخ، وعـبدالله بن جار الله، وابن باز.

وقال ابن عثيمين(١): ووجه ذلك أن الشىء إذا كان من الشـىء فإنه يزداد بزيادته. أ.هـ

قلت: وسيأتى مزيـد شرح وبيان لأنواع التنجيم الجائز والمحـرم فى باب ما جاء فى التنجيم والله الموفق لارب سواه.

مسألة فى حكم صناعة التنجيم، والأجرة عليها، وتأجير الدكاكين أو الحوانيت أو البيوت لهم.

وهل يتعين على أحد من المسلمين تغيير هذا المنكر؟.

سئل ابن تيمية عن(٢):

صناعة التنجيم محرمة أم لا؟ وهل يجوز أخذ الأجرة على ذلك، وبذلها حرام أم لا؟ وهل يجب على ولى الأمر وكل مسلم يقدر على ذلك إزالة ذلك أم لا؟

فأجاب: الحمد لله رب الـعالمين. لا يحـل شىء من ذلك، وصناعـة التنجيـم التى مضمونـها الأحكام والتأثـير، وهو الاستدلال على الحـوادث الأرضية بالأحوال الفـلكية والتمزيـج بين القوى الفـلكى(*) والقوابـل الأرضية: صنـاعة محرمة بـالكتاب والـسنة وإجماع الأمة، بل هـى محرمة على لسان جميـع المرسلين فى جميع الملـل. قال تعالى ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ وقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

(١) القول المفيد (٢/٤٦).

(٢) مجموع فتاوى (٣٥/١٩١- ١٩٦).

(*) هكذا فى المطبوع ولعلها [الفلكية].

وروى أحمد وأبو داود وابـن ماجة وغيرهـم بإسـناد صحيح عن ابـن عباس قال:- فذكر حديث الباب- فـإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفـلحون، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وقد تبين بما ذكرنـاه أن الأجرة المأخوذة على ذلك والهبة والكرامـة حرام على الدافع والآخذ وأنه يحـرم على الملاك والنظار والوكـلاء إكراء الحوانيت المملوكـة أو الموقوفة أو غيرها من هؤلاء الكفار الـفساق بهذه المنفعة إذا غلب على ظنهم أنهـم يفعلون فيها هذا الجبت الملعون.

ويجب على ولى الأمر وكل قادر السعي فى إزالة ذلك.

وأفراخ الصابئة عباد الكواكب، فهل كانـت بعثة الخليل صلاة الله وسلامه عليه إمام الحنفاء إلا إلى سلف هؤلاء، فإن نمروذ بن كنعـان كان ملك هؤلاء، وعلماء الصابئة هم المنجمون ونحوهم، وهل عُبدت الأوثان فى غـلبة الأمر إلا عن رأى هذا الصنف الخبيث الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله.

وقد اعترف رؤساء المنـجمين من الأولين والآخرين أن أهل الإيـمان أهل العبادات، والدعوات، يرفع الله عنهم ببركة عباداتهم ودعائهم وتوكلهم على الله ما يزعم المنجمون أن الأفلاك توجبه.

ويعترفون أيضاً بأن أهـل العـبادات والدعـوات ذوى التوكـل علـى الله يعطون من ثواب الدنيا والآخرة ما لـيس فى قوى الأفلاك أن تجلبه، فالحمد لله الـذى جعـل خـير الدنيا والآخرة فى اتبـاع المـرسلين. أ. هـ.

وقـد أجمـل الإجـابة فـى موضـع آخـر(١) حـيث قال:

بل ذلك- صناعة التـنجيم- محرم بإجماع المسلميـن، وأخذ الأجرة على ذلك، ومن الجلوس فى الحوانيت والـطرقات، ومنع الناس أن يكروهم، والقيـام فى ذلك من أفضل الجهاد فى سبيل الله. والله أعلم-أهـ.



(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٧).

وللنَّسَائى من حَديث أَبى هُرَيَرَة «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، ومَنْ سَحَرَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، ومَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِّلَ إِلَيْه» (١).

قوله: [وللنسائى من حديث أبى هريرة: «من عقد عقدة ثم نفث فيها...] الحديث.

قال سليمان آل الشيخ(٢):

هذا الحديث ذكره المصنف من حديث أبى هريرة وعزاه للنسائى ولم يبين هل هو موقوف أو مرفوع؟ وقد رواه النسائى مرفوعاً وذكر المصنف عن الذهبى أنه قال: لا يصح وحسنه ابن مفلح. اهـ.

قلت: ولعله استغنى بقوله حديث عن رفعه، ذلك لأنه يرى أن الحديث لا يختص إلا بالمرفوع

مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى(٣): دل الحديث على أن التعقيد والنفث فيه، نوع من السحر. أهـ.

مناسبة الحديث لكتاب التوحيد:

قال القرعاوى(٤): اعتبر الحديث الساحر مشركاً.

قال ابن عثيمين(٥): إن هؤلاء الذين يتعلقون بالسحر، ويجعلونه صناعة يصلون بها إلى مآربهم يوكلون إلى ذلك، وآخر أمرهم الخسارة والندم.

قوله: [من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر]

قال سليمان آل الشيخ(٦): أعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة حتى ينعقد ما يريدونه من السحر.

ولهذا أمر الله بالاستعاذة من شرهم فى قوله: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ﴾ يعنى: السواحر اللآتى يفعلن ذلك والنفث هو النفخ مع ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما، والنفث فعل الساحر. فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذى يريده المسحور ويستعين عليه

---

(١) أخرجه النسائى فى «المجتبى» (٧/ ١١٢) وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/ ٧١٩) وعزاه لابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (ح ١٤٢٢٧) و«فتح المجيد» (٥٢٨) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٩٦). (٣ - ٤) الجديد (٢٣٤).

(٥) القول المفيد (٢/ ٤٦). (٦) تيسير العزيز الحميد (٢٩٦)

بالأرواح الخبيثة، نفخ فى تلك العقد نفخاً معه ريق فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك. وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيب السحر بإذن الله الكونى القدرى لا الإذن الشرعى قاله ابن القيم أهـ.

قال ابن عثيمين[(١)]: النَّفْث: النفخ بريق خفيف، والمراد هنا النفث من أجل السحر.

أما لو عقد عقدة، ثم نفث فيها من أجل أن تحكم بالرطوبة؛ فليس بداخل فى الحديث، والنفث من أجل السحر يفعلونه بعض الأحيان للصرف؛ فيصرفون به الرجل عن زوجته، ولا سيما عند عقد النكاح؛ فيبعد الرجل عن زوجته، فلا يقوى على جماعها، فمن عقد هذه العقدة؛ فقد وقع فى السحر كما قال تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾. اهـ.

[قلت]: تقدم غير مرة أنه لابد للشيطان من مثال كونى يقتدى به فى عمله الشركى أو السحرى، والمثال الكونى الذى قلده الشيطان أولياؤه فى النفخ أو النفث أو الريق هى تلك الرقى الشرعية التى ثبتت عن نبينا ﷺ قبل النوم حيث أمر بجمع الكفين والنفخ أو النفث فيهما وقراءة المعوذات وسورة الإخلاص ثم مسح ما استطاع من جسده مبتدأ بوجهه ورأسه. الحديث. وفى الصحيح قال ﷺ «**تربة أرضنا بريق بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا**»(*).

قوله [ومن سحر فقد أشرك]

قال سليمان آل الشيخ[(٢)]: وقوله: «ومن سحر فقد أشرك». نص فى أن الساحر مشرك إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم.

وقال ابن عثيمين [(٣)]: (من) شرطية، وفعل الشرط (سحر) وجوابه (**فقد أشرك**).

وهذا لا يتناول جميع السحر، إنما المراد مَنْ سَحَرَ بالطرق الشيطانية.

أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها؛ فقد سبق أنه لا يكون مشركاً، لكن الذى يسحر بواسطة طاعة الشياطين واستخدامهم فيما يريد؛ فهذا لا شك أنه مشرك. أهـ.

---

(١) القول المفيد (٢/٤٦، ٤٧).

(*) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٧٤٥)، ومسلم في السلام (١٤/ ١٨٣ ـ النووى) عن عائشة به.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٩٧). (٣) القول المفيد (٢/ ٤٧- ٤٨).

[قلت]: وكذلك من يتقرب إلى الكواكب السيارة كسحر أهل بابل، أو الذى يجمع بين الصورتين كذلك، كما تقدم. والله أعلم.

قوله [من تعلق شيئاً وكل إليه]

قال سليمان آل الشيخ(1):

قوله: «**ومن تعلق شيئاً وكل إليه**». أى: من تعلق قلبه شيئاً بحيث يتوكل عليه: ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشىء. فإن تعلق العبد على ربه وإلهه وسيده ومولاه، رب كل شىء ومليكه وكله إليه فكفاه ووقاه وحفظه وتولاه، ونعم المولى ونعم النصير كما قال تعالى: ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾ ومن تعلق على السحرة والشياطين وكله الله إليهم فأهلكوه فى الدنيا والآخرة.

وبالجملة فمن توكل على غير الله كائناً من كان وكل إليه وأتاه الشر فى الدنيا والآخرة من جهته مقابلة له بنقيض قصده، وهذه سنة الله فى عباده التى لا تبدل، وعادته التى لا تحول، أن من اطمأن إلى غيره أو وثق بسواه أو ركن إلى مخلوق يدبره أجرى الله تعالى له بسببه أو من جهته خلاف ما علّق به آماله وهذا أمر معلوم بالنص والعيان.

ومن تأمل ذلك فى أحوال الخلق بعين البصيرة النافذة رأى ذلك عياناً.

وفائدة هذه الجملة بعد ما قبلها الإشارة إلى أن الساحر متعلق على غير الله فإنه متعلق على الشياطين.

قال ابن عثيمين(2): «تعلق شيئاً»؛ أى: استمسك به، واعتمد عليه.

«وكل إليه»؛ أى: جعل هذا الشىء الذى تعلق به عماداً له، ووكله الله إليه، وتخلى عنه.

ومناسبة هذه الجملة للتى قبلها: أن النافخ في العُقَد يريد أن يتوصل بهذا الشيء إلى حاجته ومآربه، فيُوكل إلى هذا الشىء المُحَرَّم.

ووجه آخر: وهو أن من الناس من إذا سُحِر عن طريق النفخ بالعقد ذهب إلى السحرة وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراءات والأدوية المباحة والأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه، قال تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغٌ أمره**﴾، وإذا كان الله حسبك؛ فلابد أن تصل إلى ما تريد.

---

(1) تيسير العزيز الحميد (٢٩٧).

(2) القول المفيد (٢/٤٨).

قال: وَعَن ابْنِ مَسْعُود أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «ألاَ هَلْ أُنبِّئُكُم مَا العَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسلِم (١).

لكن من تعلق شيئاً من المخلوقين وكل إليه، ومن وكل إلى شيء من المخلوقين وكل إلى ضعف وعجز وعورة، وقد يشمل الحديث من اعتمد على نفسه وصار معجباً بما يقول ويفعل؛ فإنه يوكل إلى نفسه، ويوكل إلـى ضعف وعجز وعورة، ولهذا ينبغى أن تكون دائماً متعلقاً بالله فى كل أفعالك وأحوالك حتى فى أهون الأمور.

ونقول للإنسان: اعتمد على نفسك بالنسـبة للناس، فلا تسألهم ولا تستذل أمامهم، واستغن عنهم ما استطعت، أما بالنسبة للـه؛ فلا تستغن عنه، بل كن دائماً معتمداً على ربك حتى تـتيسر لك الأمور، ومن هـذا النوع من يتعلقـون ببعض الأحراز يعلـقونها؛ فإنهـم يوكلون إلى هذا، ولا يـحصل لهم مـقصودهم، لكـنهم لو اعتمـدوا على الله، وسلكوا السبل الشرعية؛ حصل لهم ما يريدون، ومن هذا النوع أيضاً من تعلق شيئاً من القبور، وجـعلها مَلْجَأَه ومُغِـيثَه عند طلب الأمـور؛ فإنه يوكل إليه، والإنسـان قد يفتن ويحصل له المطلـوب بدعاء هؤلاء، ولكن هذا المطلوب الذى حصل حـصل عند دعائهم لابدعائهم، والآية صريحة فى ذلك، قال الله تعالى: **﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة...﴾**، لكن الله تعالى قد يفتن من شاء من عباده.

[قلت] قد مر فى بـاب من تبرك بشجر أو حجـر وغيره مثل باب من الـشرك لبس الحلقة والخـيط قوله ﷺ **«من تعلق شيـئاً وكل إليه»** وقوله **«من تعلق تميـمة فقد أشرك»** وقوله **«من تعلق تميمة فلا أتم الله لـه ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»** وقوله **«انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً»** إلى غير ذلك من النصوص.

قوله: قال: وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «هل أنبئكم ما العضة؟!

مناسبة الحديث للباب:

قال سليمان آل الشيخ(٢): ظاهر إيراد المصنف لهذا الحديث هنا يدل على أن معنى العضة عنده هنا هو السحر، ويدل على ذلك حديث: **«كَادَتِ النَّمِيمَةَ أَنْ تَكُونَ سِحْراً»**(٣)

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة/ باب تحريم التميمـة (٦/١٦/١٥٩) وأحمد فى مسنده» (١/١٤٣٧) مطولاً والدارمى فى «سننه» (٢/٢٢٩٩، ٣٠٠٠) مطولاً والبيهقى فـى «السنن الكبرى» (١٠/٢٤٦/ ح ٢١١٥٨).

جميعاً من طريق: أبى الأحوص عن عبدالله بن مسعود.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٥٤١) بتخريجنا.

وانظر «فتح المجيد (٥٢٩- بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٩٧) (٣) حديث موضوع.

رواه ابن لال في «مكارم الأخلاق» بإسناد ضعيف. وذكر ابن عبدالبر عن يحيى بن أبي كثير قال: يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة.

وقال أبو الخطاب في «عيون المسائل»، ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس. قال في «الفروع» ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعلمه على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر، ولهذا يعلم بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله الساحر أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين، لكنه يقال الساحر إنما كفر لوصف السحر وهو أمر خاص، ودليله خاص، وهذا ليس بساحر وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة انتهى ملخصاً. وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة. أ.هـ.

قال القرعاوي[1]: حيث دل الحديث على أن النميمة نوع من السحر، وذلك لأن النميمة تؤثر ما يؤثر أو أكثر أ.هـ.

قوله [ألا]

قال ابن عثيمين[2]: أداة استفتاح والغرض تنبيه المخاطب، والاعتناء بما يلقى إليه أهـ.

قوله [هل أنبئكم]

قال سليمان آل الشيخ[3]: أخبركم أ.هـ.

قال ابن عثيمين[4]: الاستفهام للتشويق؛ كقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾.

لأن الإنسان مشتاق إلى العلوم يحب أن يَعْلَم، وقد يكون المراد به التنبيه؛ لأن المُوَجَّه إليه الخطاب ينبغي أن ينتبه لِيَعْلَم، وهي تصلح للجميع.

ومعنى أنبئكم: أخبركم، وهي مرادفة للخبر في اصطلاح المحدثين، وقال بعض

---

(١) الجديد (٢٣٥).

(٢) القول المفيد (٢/ ٥٠).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٩٧).

(٤) القول المفيد (٢/ ٥٠).

العلماء من ناحية اللغة لا الاصطلاح: إن الإِنـباء لغة يكون فى الأمور الهامة، والإِخبار أعم منه يكون فى الهامة وغير الهامة.

قوله: [ما العضة].

قال سليمـان آل الشيخ[١]: قوله «مـا العضه»: هو بـفتح العـين المهملـة وسكون المعجـمة. قال أبو الـسعادات: هكذا تـروى فى كتب الحـديث: والذى جاء فـى كتب الغريب «**ألا أنبئـكم ما العـضَه**» بكـسر العيـن وفتح الـضاء وفى حديـث آخر «**إياكم والعضِه**» قال الزمخشرى: أصلـها العضهه فعلة من العضه وهو الـبهت فحذفت لامه، كما حذفت من السنة والشفة. وتجمع على عضين.

ثم فسره بقوله: هى النميمة القالة بين الـناس وعلى هذا فاطلق عليها العضه لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً.

ذكره القرطبى والحديث دليل على تحريم النميمة، وهو كذلك بالإجماع. وقد قال أبو محمد بن حزم: اتفقوا علـى تحريم الغيبة والنميمة فى غير النصيـحة الواجبة، وفيه دليل على أنها من الكبائر. اهـ.

قال ابن عثـيمين[٢]: قوله: «الـعضهُ» على وزن الحبـل والصمت والوعد، بمـعنى القطع، وأما العِضة على وزن عدة؛ فإنها التفريق، وأياً كان؛ فإنها تتضمن قطعاً وتفريقاً أ.هـ

[قلت] ومنه قـوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ أى مفرقاً يؤمـنون ببعض ويكفرون ببعض. أهـ.

ثم قال:- قوله: «هى النميمة».

فعيلـة بمعنى مفعولـة، وهى من نمّ الحديث إلى غيره؛ أى: نـقله، والنميمـة فسرها بقوله: «**القالة بين الناس**»؛ أى: نقل القول بين الناس، فيـنقل من هذا إلى هذا، فيأتى لفلان ويقول: فلان يـسبك؛ فهو نم إليه الحديث ونقله، وسـواء كان صادقاً أو كاذباً، فإن كان كاذباً؛ فهو بهت ونميمة، وإن كان صادقاً؛ فهو نميمة.



(١) تيسير العزيز الحميد (٢٩٨).

(٢) القول المفيد (٢/ ٥٠).

قال: ولَـهُمَا عَـنِ ابنِ عُـمرَ رَضِىَ الله عَـنْهمَـا أن رَسُولَ الله ﷺ قَـالَ: «إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»(*).

هذا الحديث ذكره البخـارى فى كتاب الطب باب إنَّ من البيان سحراً ولفظه «أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا، فعجب الـناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ- إنَّ من البيان لسحراً، أو إنَّ بعض البيان سحراً.

مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى(١): حيث دل الحديث أن بـعض البيان نوع من الســحر وذلك لأنه يستميل القلوب كما يستميل السحر.

قوله: [إن من البيان لسحراً]

قال ابن حجر(٢): قال الخطابى: البيان اثنان:

(أحدهما) ما تقع به الإبانة عن المراد بأى وجه كان.

(والآخر) ما دخلته الصنعة بحيث يروق للسامعين ويستميل قلوبهم، وهو الذى يشبه بالسحر إذا جلب القلب وغلب على النفس حـتى يحول الشىء عن حقيقته ويصرفه عن جهته، فيلوح للناظر فى معرض غيره. وهذا إذا صرف إلى الحق يمدح، وإذا صرف إلى الباطل يذم.

قال: فعلى هذا فالذى يشبه بالسحر منه هو المذموم.

وتعقب بأنه لا مانع مـن تسمية الآخر سحراً، لأن السحر يطلق عـلى الاستمالة كما تقدم تقريـره فى أول باب السحر، وقد حمـل بعضهم الحديث علـى المدح والحث على تحسين الكـلام وتحبير الألفاظ - وفى الحديـث قال أبو موسى: «لو كنت أعـلم مكانك يارسول الله لحبرته لك تحبيراً»(٣) وهذا واضح إن صح أن الحديث ورد فـى قصة عمرو بن الأهتم.

وحمله بعضهم عـلى الذم لمن تصنع فى الكلام وتكلف لتحـسينه وصرف الشىء عن ظاهره، فشبه بالسـحر الذى هو تخييل لغير حقيقة، وإلـى هذا أشار مالك حيث أدخل هذا الحديث فى «الموطأ» فى «باب ما يكره مـن الكلام بغير ذكر الله» وفى «باب الخطبة»

(*) تقدم تخريجه.

(١) الجديد (   ).

(٢) فتح البارى (١٠/ ٢٤٨).

(٣) سيأتى تخريجه.

من كتاب النكاح فى «الصحيح» الكلام على حديث الباب من قول صعصعة بن صوحان فى تفسير هذا الحديث ما يؤيد ذلك، وهو أن المراد به الرجل يكون عليه الحق، وهو ألحن بالحجة من صاحب الحق فيسحر الناس ببيانه فيذهب بالحق، وحمل الحديث على هذا صحيح، لكن لا يمنع حمله على المعنى الآخر إذا كان فى تزيين الحق.

وبهذا جزم ابن العربى وغيره من فضلاء المالكية.

وقال ابن بطال: أحسن ما يقال فى هذا أن هذا الحديث ليس ذماً للبيان كله ولا مدحاً لقوله من البيان، فأتى بلفظة «من» التى للتبعيض قال: وكيف يذم البيان وقد امتن الله به على عباده حيث قال ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ انتهى.

والذى يظهر أن المراد بالبيان فى الآية المعنى الأول الذى نبه عليه الخطابى، لا خصوص ما نحن فيه.

وقد اتفق العلماء على مدح الإيجاز، والإتيان بالمعانى الكثيرة بالألفاظ اليسيرة، وعلى مدح الإطناب فى مقام الخطابة بحسب المقام، وهذا كله من البيان بالمعنى الثانى. نعم الإفراط فى كل شئ مذموم، وخير الأمور أوسطها. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ(١): البيان: البلاغة والفصاحة. قال صعصعة بن صوحان: صدق نبى الله أما قوله: «**وإن من البيان لسحر**» فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه، فيذهب بالحق. وقال ابن عبدالبر: تأولته طائفة على الذم؛ لأن السحر مذموم. وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح لأن الله تعالى مدح البيان. قال: وقد قال عمر بن عبدالعزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله فقال: هذا والله السحر الحلال.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ: الأول أصح وهو أنه خرج مخرج الذم لبعض البيان لا كله، وهو الذى فيه تصويب الباطل وتحسينه، حتى يتوهم السامع أنه حق أو يكون فيه بلاغة زائدة عن الحد، أو قوة فى الخصومة حتى يسحر القوم ببيانه، فيذهب بالحق ونحو ذلك فسماه سحراً لأنه يستميل القلوب كالسحر، ولهذا قال ﷺ لَمَّا جَاءَهُ رجلان منَ المَشْرِقِ فَخَطَبَا فَعَجِبَ الناسُ لبيانهما فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا**»(٢) كما رواه مالك والبخارى وغيرهم.

وأما جنس البيان فمحمود، بخلاف الشعر فجنسه مذموم إلا ما كان حكماً ولكن لا

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٩٨، ٢٩٩).
(٢) تقدم تخريجه.

يحمد البيان إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب أو تصوير الباطل فى صورة الحق، فإذا خرج إلى هذا الحد فهو مذموم.

وعلى هذا تدل الأحاديث كقوله ﷺ: **«إنَّ الله يَبْغضُ البَلِيغَ مِنَ الرجَالِ الَّذِى يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِه تَخلُّلَ البَاقرَة بِلسَانِهَا»**. رواه أحمد وأبو داود(١).

وقوله ﷺ: **«لَقَدْ رَأَيتُ أوْ لَقد أُمِرْتُ أَنْ أَتجوَّزَ فِى القَوْلِ فَإنَّ الجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ»** رواه أبو داود(٢).

ثم تابع ابن عثيمين ابن حجر فقال: والبيان نوعان:

الأول: بيان لابد منه، وهذا يشترك فيه جميع الناس فكل إنسان إذا جاع قال: إنى جعت، وإذا عطش قال: إنى عطشت، وهكذا.

الثاني: بيان بمعنى الفصاحة التامة التى تَسْبِى العقول وتغير الأفكار، وهى التى قال فيها الرسول ﷺ: **«إن من البيان لسحراً»**.

وعلى هذا التقسيم تكون **«من»** للتبعيض؛ أى: بعض البيان- وهو البيان الكامل الذى هو الفصاحة- سحر.

أما إذا جعلنا البيان بمعنى الفصاحة فقط؛ صارت **«من»** لبيان الجنس.

ووجه كون البيان سحراً: أنه يأخذ بلب السامع، فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن الباطل حق لقوة تأثير المتكلم، فينصرف إليه، ولهذا إذا أتى إنسان يتكلم بكلام معناه باطل، لكن لقوة فصاحته وبيانه يسحر السامع حقاً(*)، فينصرف إليه، وإذا تكلم إنسان بليغ يُحِذِّر من حق، ولفصاحته وبيانه يظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف عنه، وهذا من جنس السحر الذى يسمونه العطف والصرف، والبيان يحصل به عطف وصرف فالبيان فى الحقيقة بمعنى الفصاحة، ولا شك أنها تفعل فعل السحر، وابن القيم يقول عن الحُور: حديثها السحر الحلال.

وقوله: **«إن من البيان لسحراً»**، وهل هذا على سبيل الذم، أو على سبيل المدح، أو لبيان الواقع أم ينظر إلى أثره؟

الجواب: الأخير هو المراد؛ فالبيان من حيث هو بيان لا يمدح عليه ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبات الباطل؛ فهو

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٦٥) وأبو داود (٥٠٠٥) والترمذى (٢٨٥٣).

(٢) أخرجه أبوداود (٥٠٠٨).

(*) كذا فى الأصل، ولعل الكلام (يسحر السامع فيظنه حقاً).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ.

مذموم؛ لأنه استعمال لنعمة الله فى معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل؛ فهو ممدوح، وإذا كان البيان يستعمل فى طاعة الله وفى الدعوة إلى الله؛ فهو خير من العىّ، لكن إذا ابْتُلِىَ الإنسان ببيان ليصد الناس عن دين الله؛ فهذا لا خير فيه، والعِىّ خير منه، والبيان من حيث هو لا شك أنه نعمة، ولهذا امتن الله به على العبد؛ فقال تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[1].

قلت: وقد سمى الرسول العي الذى هو ضد البيان بالمرض حيث جاء فى الحديث «إنما شفاء العي السؤال» وقد سخر فرعون من موسى لعدم بيانه كما أخبر الله تعالى عنه حديث قال: ﴿أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين﴾ لهذا دعا موسى ربه فقال: ﴿واحلل العقدة من لسانى يفقهوا قولى﴾.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: «إن من البيان».

«إن»: حرف توكيد، ينصب الاسم ويرفع الخبر، «ومن»: يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس؛ فعلى الأول يكون المعنى: إن بعض البيان سحر وبعضه ليس بسحر، وعلى الثانى يكون المعنى: إن جنس البيان كله سحر.

قوله: «لسحراً».

اللام للتوكيد، و«سحراً»: اسم إن.

والبيان: هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة الله على الإنسان، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾. اهـ.



قوله: «فيه مسائل».

أى: فى هذا الباب وما تضمنه من الأحاديث والآثار مسائل:

● **المسألة الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.**

قال ابن عثيمين[3]: وقد سبق تفسير هذه الثلاثة وتفسير الجبت.

---

(١) القول المفيد ٢/ ٥٣ ـ ٥٥. (٢) القول المفيد (٢/ ٥٣).

(٣) القول المفيد ٢/ ٥٦ و ٥٧.

الثانية: تَفْسِيرُ العِيَافَة وَالطَّرْق.

الثالثة: أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ نَوْعٌ مِنَ السِّحْرِ.

الرابعة: العَقْدُ مَعَ النَفْثُ مِنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ النَّمِيمَةَ مِنْ ذَلِكَ.

السادسة: أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُ الفَصَاحَةِ.

- **الثانية: تفسير العيافة والطرق.**

وقد بيّنت فى الباب أيضاً وشرحت.

- **الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر.**

لقوله: «**من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر**»، وسبق الكلام عليها أيضاً.

- **الرابعة: العقد مع النفث من ذلك.**

لحديث أبى هريرة: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها؛ فقد سحر**»، وقد تقدم الكلام على ذلك.

- **الخامسة: أن النميمة من ذلك.**

لحديث ابن مسعود: «**ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هى النميمة**»، وهى من السحر؛ لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس والتحريش بينهم، وقد سبق بيان ذلك.

- **السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.**

أى: من السحر بعض الفصاحة؛ لقول النبى ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**»، والمؤلف ـ رحمه الله ـ قال: بعض الفصاحة استدلالاً بقوله ﷺ: «**إن من البيان**»؛ لأن «**من**» هنا عند المؤلف للتبعيض، ووجه ذلك من السحر أن لسان البليغ ذى البيان قد يصرف الهمم وقد يلهب الهمم بما عنده من الفصاحة. اهـ.



باب ٢٥

باب ماجاء فى الكهان ونحوهم

● **مناسبة هذا الباب لما قبله**

قال سليمان آل الشيخ (١): ولما ذكر المصنف شيئاً مما يتعلق بالسحر ذكر ماجاء فى الكهان ونحوهم كالعراف اهـ. لمشابهة هؤلاء للسحرة.

[قلت]: وقد تكون هناك مناسبة أخرى أردف بسببها المصنف هذا الباب بعد الذى قبله وهى أنه لما ختم الباب الماضى بقوله ﷺ **«إن من البيان لسحراً»** وكان منه مذموم يشبه السحر فى العطف والصرف وعلى رأس من يستخدم هذا النوع من البيان هم الكهان فناسب أيضاً أن يذكر ما جاء فى الكهان وليس أدل على ذلك مما ثبت عن النبى ﷺ حين قضى فى جنين امرأة ضربتها الأخرى فسقط ميتاً بغرة على عاقلة الضاربة قال رجل منهم: كيف ندى من لاشرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، ومثل دمه يطل قالﷺ: **«إياكم وسجع الكهان»**(*) وأيضاً هناك مناسبة أخرى فى هذا الباب وهو أن القاسم المشترك بين السحر والكهانة أن كلاهما جبت.

● **مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد**(٢).

قال عبدالله بن جار الله: مناسبة هذا الباب للتوحيد هى أن الكهانة **لا** تخلو من الشرك المنافى للتوحيد ودخل فيها الشرك من جهتين.

من جهة التقرب إلى غير الله كاستخدام الشياطين والاستعانة بهم ومن جهة دعوى مشاركة الله فى علم الغيب الذى اختص به.

قال ناصر السعدى(٣): أى من كان يدعى علم الغيب بأى طريق من الطرق وذلك أن الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب فمن ادعى مشاركة الله فى شىء من ذلك بكهانة أوعرافة أو غيرها أو صدق من ادعى ذلك فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه وقد كذب الله ورسوله - **قلت**: ذلك لأنه تعالى قال **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾**اهـ وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لاتخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التى تستعين لها على دعوى العلوم الغيبية فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله فى علمه الذى اختص به ومن جهة التقرب إلى غير الله وفيه إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٠

(٢) الجامع الفريد ١٠٨

(*) وسيأتى وتخريجه فى أثناء الباب.

(٣) القول السديد ٧٧ : ٩٧.

● **تعريف الكهانة، والكهان، والكاهن:**

قال ابن حجر[1]: الكهانة بفتح الكاف ويجوز كسرها ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب، والأصل فيه استراق الجن السمع من كلام الملائكة، فيلقيه فى أذن الكاهن والكاهن لفظ يطلق على العراف، والذى يضرب بالحصى. والمنجم. ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى فى قضاء حوائجه.

وقال فى «المحكم» : الكاهن القاضى بالغيب.

قلت: فأى أحد يحكم بالغيب هو كاهن، فإذا لم يكن عنده علم وضرب فى المسألة ضرب عشواء متكهن، فهذا مُخمِّن مُخرِّص لعدم وجود برهان على قوله وهى محض كهانة ولا يصح أن تقول «**أتكهن لك**» .

وقال فى «الجامع» : العرب تسمى كل من أذن بشىء قبل وقوعه كاهناً.

قلت/ وأذن يعنى أعلم ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ أى إعلام من الله ورسوله وأصل الآذان فى اللغة هو الإعلام.

وقال الخطابى: الكهانة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور ومساعدتهم بكل ماتصل قدرتهم إليه. وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية، خصوصاً فى العرب لانقطاع النبوة فيهم اهـ.

قلت/ لكن بعد النبوة فالحمد لله كما حمد الله الخطابى أنها قلَّت أو انعدمت لكن تعود الجاهلية مرة أخرى تعود أيضاً الكهانة إلى ازدهارها وإلى نموها وانتشارها.

ونقل سليمان آل الشيخ نفس كلام ابن حجر كعادته فى كثير من نقولاته بعد أن يهذبها ويختصرها وربما رجح مالم يرجحه ابن حجر وقلّ أن يتعقبه حيث قال[2]:

والكهانة ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب والأصل فيه استراق الجن السمع من كلام الملائكة فتلقيه فى أذن الكاهن؛ والكاهن لفظ يطلق على العراف والذى يضرب الحصى والمنجم. وقال فى «المحكم»: الكاهن القاضى بالغيب.

وقال الخطابى: الكهان فيما علم بشهادة الامتحان؛ قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة، وطبائع نارية، فهم يفزعون إلى الجن فى أمورهم ويستفتونهم فى الحوادث، فيلقون إليهم الكلمات اهـ.

---

(١) فتح البارى (١٠/٢٢٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٠٠).

قال ابن باز[١]: الكاهن هو الذى له رإى من الجن، أى صاحب، وحكمهم أنه يجب القضاء عليهم وتعزيرهم وتكذيبهم وعدم سؤالهم.اهـ.

فعرّف الكاهن وما ينبغى تجاهه من أولى الأمر.

قال ابن عثيمين[٢]: الكهان: جمع كاهن، والكهنة أيضاً جمع كاهن، وهم قوم يكونون فى أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، ـ ولذلك سموهم طاغوت وجبت ـ وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما كان فى السماء، تسترق السمع من السماء، وتأتى وتخبر الكاهن، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر مايضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء؛ اعتقده الناس عالماً بالغيب،ـ وتقدم معنا فى باب ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ صفة استراق السمع وصفة تلقى الكهنة الكلمة من السماء عن طريق الجن وكيف أنه يضيف عليها مئة كذبة وأنه يُصدَّق فى هذه المئة من أجل الكلمة التى جاءته من خبر السماء ـ فصاروا يتحاكمون إليهم؛ فهم مرجع للناس فى الحكم، ولهذا يسمون الكهنة؛ إذ هم يخبرون عن الأمور فى المستقبل، يقولون: سيقع كذا وسيقع كذا، وليس من الكهانة فى شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب؛ فإن الأمور التى تدرك بالحساب ليست من الكهانة فى شيء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر ؛ فهذا ليس من الكهانة؛ لأنه يدرك بالحساب، وكما لو أخبر أن الشمس تغرب فى ٢٠ من برج الميزان مثلاً فى الساعة كذا وكذا؛ فهذا ليس من علم الغيب، وكما يقولون : إنه سيخرج فى أول العام أو العام الذى بعده مذنب (هالى)، وهو نجم له ذنب طويل؛ فهذا ليس من الكهانة فى شيء؛ لأنه من الأمور التى تدرك بالحساب؛ فكل شيء يدرك بالحساب، فإن الإخبار عنه ولو كان مستقبلاً لايعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة.

مسألة: وهل من الكهانة مايخبر به الآن من أحوال الطقس فى خلال أربع وعشرين ساعة أوما أشبه ذلك؟

الجواب:لا؛ لأنه أيضاً يستند إلى أمور حسية، وهى تكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم؛ فيكون صالحاً لأن يمطر، أولا يمطر، نظير ذلك فى العلم البدائى إذا رأينا تجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول: يوشك أن ينزل المطر.

فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس؛ فليس من علم الغيب، وإن كان بعض

---

(١) التعليق المفيد (١٤٩).

(٢) القول المفيد (٢/ ٥٨، ٥٩).

العامة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون: إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذى يدرك بالحس إنكاره قبيح؛ كما قال السفاريني:

فكل معلوم بحس أو حجا   فنكره جهل قبيح بالهجا

فالذى يعلم بالحس لايمكن إنكاره ولو أن أحداً أنكره مستنداً بذلك إلى الشرع؛ لكان ذلك طعناً بالشرع اهـ.

● **الفرق بين العراف، والكاهن، والمنجم، والرمال:**

قال ابن تيمية (١): العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم فى معرفة الأمور بهذه الطريقة. وتقدم كلام ابن حجر وسليمان آل الشيخ تبعاً له.

وسيأتى تتمة كلام ابن تيمية فى آخر هذا الباب مستفيضاً - والله المستعان.

وقال ابن حجر (٢): العراف : من يستخرج الوقوف على المغيبات بضرب من فعل أو قول .اهـ. فكأن الجميع ليس هناك فرق بينهم.

وقال عبدالله بن جار الله(٣): **العراف**: هو الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة ونحو ذلك، وقيل : هو الكاهن.

والكاهن: هو الذى يأخذ عن مسترق السمع ويخبر عن المغيبات فى المستقبل، وقيل: هو الذى يخبر عما فى الضمير.

والمنجم: هو الذى يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية - كحظك اليوم وأنت والنجوم.

والرمال: هو الذى يدعى معرفة المغيبات بطريق الضرب بالحصى، والخط فى الرمل. أهـ.

وقال ابن عثيمين(٤).**العراف**:صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة؛ أى: من ينتسب إلى العرافة.

والعراف:قيل: هو الكاهن، وهو الذى يخبر عن المستقبل.

وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل على معرفة الغيب

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٠٥) والجامع الفريد (١١٠).
(٢) فتح البارى (١٠/٢٢٨).   (٣) الجامع الفريد (١١٠).
(٤) القول المفيد (٢/ ٦٠).

بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، ويدل عليه الاشتقاق؛ إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وادعى بها المعرفة اهـ.

● **أنواع الكهانة وحكمها:**

قال ابن حجر[١]: هي على أصناف:

منها: مايتلقونه من الجن، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه، إلى أن يتلقاه من يلقه فى أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين، وأرسلت عليهم الشهب، فبقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى﴿**إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**﴾، وكانت أصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جداً كما جاء فى أخبار شق وسطيح ونحوهما، وأما فى الإسلام فقد ندر ذلك جداً حتى كاد يضمحل ولله الحمد.

ثانيها: مايخبر الجنى به من يواليه بما غاب عن غيره مما لايطلع عليه الإنسان غالباً، أو يطلع عليه من قرب منه لامن بعد.

ثالثها: ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس، وهذا قد يجعل الله فيها لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه.

رابعها: ما يستند إلى التجربة والعادة، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهى السحر، وقد يعتضد بعضهم فى ذلك بالزجر والطرق والنجوم. وكل ذلك مذموم شرعاً. اهـ.

● **ماجاء فى ذم الكهانة غير ماذكر المصنف فى الباب.**

أخرج البخارى: عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قضى فى امرأتين من هذيل أقتتلتا، فرمت إحداهما الأخرى بحجر ، فأصاب بطنها وهى حامل، فقتلت ولدها الذى فى بطنها، فاختصموا إلى النبىﷺ ، فقضى أن دية ما فى بطنها غُرَّةٌ عبدٌ أو أمة، فقال ولى المرأة التى غرمت كيف أغرَمُ يارسول الله من لاشرب ولا أكل، ولانطق ولااستهل، فمثل ذلك يُطل فقال النبى ﷺ «**إنما هذا من إخوان الكهان**»[٢].

---

(١) فتح البارى (١٠/ ٢٢٧) وأنظر شرح النووى لصحيح مسلم(٧/ ٤٨٥).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٩٠٩)، ومسلم فى القسامة (١/ ١٧٧ ـ النووى) عن أبى هريرة به. وانظر «منار السبيل» (٢٣٨٨ ـ بتخريجنا).

وأخرج أيضاً: عن أبى مسعود: نهى النبى ﷺ عن ثمن الكلب، ومهر البغى، وحلوان الكاهن(١).

وأخرج أيضاً: عن عائشة رضى الله عنها قالت: سأل ناسٌ رسول الله ﷺ عن الكهان فقال «**ليس بشىء**» فقالوا: يارسول الله: إنهم يحدثوننا أحياناً بشىء حقاً، فقال رسول الله ﷺ «**تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة**»(٢).

قال ابن حجر(٣): وورد فى ذم الكهانة ماأخرجه أصحاب السنن(٤) والحاكم من حديث أبى هريرة رفعه «**من أتى كاهناً أوعرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**».

وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين أخرجهما البزار بسندين جيدين ولفظهما: «**من أتى كاهناً**»

وأخرجه مسلم من حديث امرأة من أزواج النبى ﷺ ومن الرواة من سماها حفصة ـ بلفظ «**من أتى عرافاً**».

ـ وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لا يقال بالرأى، ولفظه «**من أتى عرافاً أو ساحراً أوكاهناً**»(٥).

ـ وأتفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبى هريرة إلا حديث مسلم فقال فيه «**لم يقبل لهما صلاة أربعين يوماً**».

ووقع عند الطبرانى من حديث أنس بسند لين مرفوعاً بلفظ: «**من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برىء مما أنزل على محمد، ومن أتاه غير مصدق له، لم تقبل صلاته أربعين يوماً**»(٦).

ـ والأحاديث مع صحتها وكثرتها أولى من هذا، والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة، وتارة بالتكفير، فيحمل على حالين من الآتى أشار إلى ذلك القرطبى. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٢٣٧)، ومسلم فى المساقاة (١٠/ ٢٣١ ـ النووى) عن أبى مسعود به.

وانظر «منار السبيل» (١٣٨٨ ـ بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه. (٣) فتح البارى (١٠/ ٢٢٧ـ٢٢٨).

(٤) سيأتى فى نهاية هذا الباب تنبيه سليمان آ ل الشيخ على توهيم الحافظ فى لفظة (أصحاب السنن).

(٥) تقدم تخريجه. (٦) تقدم تخريجه.

● **الفرق بين ما تقدم وبين الدجال:**

قال الفقير: الدجال ـ في غالب علمي ـ ليس عنده هذه المقدمات الخاصة بصنعة الكهانة ولا العرافة ولا التنجيم، ولكنه يفعل فعلهم بدون ما عندهم من أدوات، فهم عندهم أصول يتكهنون بها وهو يجهلها ومع ذلك يعمل بالكهانة على جهل.

فالدجال: هو المتكهن مع جهله بأصل الكهانة.

● **الفارق بين الفراسة والكهانة:**

قال الفقير:

(١) الفراسة غالباً لايدعى صاحبها الغيب بخلاف الكاهن فإنه يدعى هذا الغيب ويفتخر بادعائه، بل وربما كثر مريدوه بسبب هذا الادعاد، وهذا بخلاف المتفرس لايدعى الغيب فضلاً أن يفتخر به.

(٢) الكهانة لها مقدمات غالباً غير مشروعة، وأما الفراسة فإنها تعتمد على مقدمات مشروعة.

مثال ذلك:

أنت تعرف أن من يعصى الله ـ عزوجل ـ فى معصية معيَّنة، هذه المعصية قد تؤثر على عقله ووجهه وبدنه وقوته، كما قال ابن عباس فى المعصية أنها ضعف فى العقل وكِسفة فى الوجه وسواد فى القلب ووهنٌ فى الجسد.

فقد تنظر فى وجهه فرد فتعلم أنه يفعل العادة السرية نتيجة مقدمات وهى ما تراها على وجهه وتستشعرها فى عقله، حتى إذا جاءك وحكى لك أن فرداً آخر واقع فى هذه المشكلة علمت أنَّ الفراسة فى محلها وأنه هو الواقع فى ذلك بدون ادعاء الغيب وبمقدمات مشروعة لأنه علِم من قول الصحابة وأقوال أهل الطب المعتبرة شرعاً هذه النتيجة.

وهذا كما علم عثمان ـ رضى الله عنه ـ بمثل هذه المقدمات فنظر إلى بعض أصحابه فقال: ألا يستحى أن يدخل أحدكم على أمير المؤمنين وأثر الزنا فى عينيه. وهذا إن صح الأثر، وعقد ابن القيم أيضاً فى كتابه «الطرق الحكمية» فصولاً للفراسة بل اعتبر للقاضى أن له الحكم بالفراسة، فإن كانت محض تخمين وظن أو كهانة ما اعتبرها ابن القيم فى الحكم ودلل عليها، وذكر أيضاً فراسات للنبى ﷺ وتفرسات للخلفاء الراشدين.

ويستدل للفراسة بأدلة من القرآن والسنة

من القرآن قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ والمتوسم هو المتفرس، كأن يتوسم فى وجوه الناس الخير لما يراه من أمارات وعلامات دلته على ذلك.

وأحياناً تكون هذه الآيات غامضة، تحتاج إلى فراسة قوية، وأحياناً تكون هذه الآيات ظاهرة وواضحة، لاتحتاج إلى فراسة قوية.

فهذه فوارق بين الكهانة والفراسة والتحديث والإلهام، وقد تقدم الإلهام والتحديث فى باب ﴿إنك لاتهدى من أحببت﴾ بما يغنى عن إعادته هنا.

(٣) الكهانة تزيد بزيادة الكفر وتنقص بنقصانه، وأما الفراسة فتزيد بزيادة الإيمان وتنقص بنقصانه، ولهذا نقل ابن القيم عن بعض السلف أنَّ من غضَّ بصره لم تخطىء له فراسة، ومن هاهنا جاء الحديث الضعيف «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله**»(١).

فكلما ازداد الإيمان تزداد الفراسةولم تخطىء وكلما قلّ الإيمان أو ضعف بكثرة المعاصى ضعفت الفراسة، أما الكاهن فكلما ازداد تقربه إلى الشياطين زادت خدمتهم له، فزادت كهانته قوة، وزاد ما يخبر به من الغيب النسبى.

ويتأيد كلٌّ ذلك بما ذكره ابن القيم فى منزلة الفراسة في مدارج السالكين شرح منال السائرين.

فقال صاحب «المنازل»: الفراسة: استئناس حكم غيب.

قال ابن القيم: والاستئناسى استفعال من آنست كذا، وإذا رأيته، فإن أدركت بهذا الاستئناسى حكم غيب، كان فراسة وإن كان بالعين. كان رؤية وإن كان بغيرها من المدارك فبحسبها.

ثم قال صاحب «المنازل» : «من غير استدلال بشاهده». قال ابن القيم:هذا الاستدلال بالشاهد على الغائب: أمر مشترك بين البر والفاجر. والمؤمن والكافر، كالاستدلال بالبروق والرعود على الأمطار. وكاستدلال رؤساء البحر بالكدر الذى يبدو لهم فى جانب الأفق على ريح عاصف أو نحو ذلك.

وكاستدلال الطبيب بالسِّحْنة والتفسرة على حال المريض.

ويَدِقُّ ذلك حتى يبلغ إلى حد يعجز عنه أكثر الأذهان. وكما يستدل بسيرة الرجل على عاقبة أمره فى الدنيا من خيرٍ أو شرٍ فيطابق. أو يكاد.

---

(١) أخرجه الترمذى (٣١٢٧) واستغربه.

فهذا خارج عن الفراسة التى تتكلم فيها هذه الطائفة. وهو نوع فراسة، لكنها غير فراستهم. وكذلك ما علم بالتجربة من مسائل الطب والصناعات والفلاحة وغيرها والله أعلم. أهـ.

قال صاحب «المنازل» : «الفراسة علي ثلاث درجات: الدرجة الأولى : فراسة طارئة نادرة، تسقط على لسان وحشى فى العمر مرة، لحاجة وسمع مريد صادق إليها، لايتوقف على مخرجها، ولا يؤبه لصاحبها، وهذا شىء لايخلص من الكهانة وما ضاهاها، لأنهاكم تشر عن عين، ولم تصدر عن علم، ولم تسبق بوجود» قال ابن القيم:

قوله: «وهذا شىء لايخلص من الكهانة»(*).

يعنى أنه من جنس الكهانة. وأحوال الكهان معلومة قديماً وحديثاً فى إخبارهم عن نوع من المغيبات بواسطة إخوانهم من الشياطين الذين يلقون إليهم السميع، ولم يزل هؤلاء في الوجود ويكثرون فى الأزمنة والأمكنة التى يخفى فيها نور النبوة. ولذلك كانوا أكثر ما كانوا فى زمن الجاهلية، وكل زمان جاهلية وبلد جاهلية وطائفة جاهلية، فلهم نصيب منها بحسب اقتران الشياطين بهم وطاعتهم لهم وعبادتهم إياهم.

وقوله ـ أى صاحب «المنازل» ـ : «لأنها لم تشرعن عين».

أى عن عين الحقيقة التى لايصدر عنها إلا الحق. يعنى غير متصلة بالله ـ عزوجل ـ.

وقوله ـ أى صاحب «المنازل» ـ : «لم يصدر عن علم».

يعنى أنها ظن وحسبان لاعن علم ويقين. وصاحبها دائماً فى شك. ليس على بصيرة من أمره.

وقوله ـ أى صاحب «المنازل» ـ : «ولم تسبق بوجود».

أى لم يسبقها وجود الحقيقة لصاحبها، بل هو فارغ.. بل فاقد من غير أهل الوجود. والله أعلم.

قال ـ **أى صاحب «المنازل»** ـ : **«الدرجة الثانية»** فراسة تُجتَنَى من غرس الإيمان. وتطلع من صحة الحال. وتلمع من نور الكشف».

قال ابن القيم: هذا نوع من الفراسة مختص بأهل الإيمان ولذلك قال **«تجنى من غرس الإيمان»** وشبه الإيمان بالغرس، لأنه يزداد وينمر، ويزكو على السقى، ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه. وأصله ثابت فى الأرض. وفروعه فى السماء. فمن غرس الإيمان فى

(*) مابين القوسين كلام صاحب المنازل.

أرض قلبه الطيبة الزاكية، وسقى ذلك الغِراس بماء الإنخلاص والصدق والمتابعة، كان من بعض ثمره هذه الفراسة.

قوله ـ أي صاحب «المنازل» ـ: «وتطلع من صحة الحال».

يعني: أن صدق الفراسة من صدق الحال. فكلما كان الحال أصدق وأصح فالفراسة كذلك.

قوله ـ أي صاحب «المنازل» ـ: «وتلمع من نور الكشف».

قال ابن القيم: يعني أن نور الكشف من جملة ما يولد الفراسة بل أصلها نور الكشف.

وقوة الفراسة، بحسب قوة هذا النور وضعفه وقوته وضعفه بحسب قوة مادته وضعفها. والله أعلم اهـ.

● أسباب انتشار الكهانة والسحر

لماذا تنتشر؟ ومتى تنتشر وفي أي الأماكن تنتشر؟

قال الفقير: السبب ورد في سورة البقرة، قال تعالى: **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ...﴾** الآية.

فالسبب هو نبذ كتاب الله وراء الظهور، ونبذ العلم، وتفشي الجهل، وهذا المناخ يهيىء مكاناً هو مرتع للكهانة والسحر والعرافة وما شاكل ذلك من ضروب ادعاء الغيب.

والواقع يؤيد ذلك؛ فما كثر الجهل في مكان إلا وتزامن مع ظهوره: السحر والعرافة والكهانة وهذه الضروب في ادعاء الغيب.

فهذا سببه، وهذا وقته، وهذا مناخه الذي يظهر فيه.

وليس أدل على ذلك من أنك ما ترى هذه الأمور غالباً إلا في النجوع والقرى والأرياف التي أبعد ماتكون عن العلم والعلماء وطلبة العلم.

وهذا هو الحاصل فيمن ينتسب إلى الباطنية من الصوفية وغيرهم. وقد تقدم كلام ابن القيم في المسألة السابقة عند قوله وهذا شيء لايخلص من الكهانة.



رَوَى مُسْلِمٌ فِى «صَحِيحه» عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا لا لَيلة»(١).

قوله: روى مسلم فى صحيحه عـن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال: **«من أتى عرافاً .....الحديث».**

مناسبة الحديث للباب(٢):

قال سليمان آل الشيخ :حيث دل الحديث على أن العرافه وتصديقها حرام اهـ.

مناسبة الحديث للتوحيد(٣):

قال سليمان آل الشيخ :حيث ذم النبـى ـ ﷺ ـ من صدق العراف لأنه جعله شريكاً مع الله فى علم الغيب أهـ.

قلت: تقدم قول ابن حـجر أنه قال: اتفقت ألفاظـهم على الوعيد بلـفظ حديث أبى هريرة إلا حديث مسلم اهـ.

يعنى هـذا الحديث، ثم ذكر له رواية أكـثر تفصيلاً مـن حديث أنس بسند فـيه لين مرفوعاً ـ**«من أتى كاهنـاً فصدقه بما يقول فقـد برىء مما أنزل على محمـد، ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل له صلاته أربعين يوماً»(٤)**.اهـ

وقال سليمـان آل الشيخ(٥): هذا الحديث رواه مـسلم كما قال المصنـف، ولفظه: حدثنا محمد بن المثـنى العنزى ثنا يحيى بن سعيد عن عبـيد الله ـ فى نسخة: عبد الله ـ عن نافع عن صفية عن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال: **«من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً وليلة»** هكذا رواه، وليس فيه فصدقه»

قوله [من]

---

(١)[صحيح] أخرجه مسلم فى السلام / باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٥/ ١٤/ ٢٢٧) وأحمد فى «مسنده» (٤/ ٦٨)، (٥/ ٣٨٠).

من حديث صفية بنت أبى عبيد عن بعض أزواج النبى ﷺ

وانظر رياض الصالحين (ح ١٦٧٢) بتخريجنا) وانظر فتح المجيد(٥٣٢ ـ بتخريجنا).

(٢)(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٠٠).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تيسير العزيز الحميد (٣٠٠).

قال ابن عثيمين[1]: شرطية، فهى للعموم.

قلت/ أى تعم كلَّ من ذهب لهذا المذكور.

قوله :[عرافاً]

تقدم تعريفه من كلام ابن تيمية، وابن حجر، وغيرهما.

وقال النووى[2]**أيضاً**: العراف من جملة أنواع الكهان، قال الخطابى وغيره: العراف هو الذى يتعاطى معرفة مكان المسروق، ومكان الضالة ونحوهما. اهـ.

[قلت] وقد مر نقل عبدالله بن جار الله لهذا القول فى الفرق بين العراف والكاهن.. ولكنه لم ينسبه. والله المستعان.

قوله[فسأله عن شىء]

قال سليمان آل الشيخ[3]: وظاهر الحديث أن هذا الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله سواء صدقة أو شك فى خبره، لأن إتيان الكهان منهى عنه.

قلت: ويشهد له حديث أنس المتقدم.

قال بن باز[4]:ليست هذه اللفظة فى مسلم فلعل المؤلف وهم أو نقله من نسخة فيها هذه الكلمة فى مجموعة التوحيد: (فصدقه) هى عند أحمد.

وذكر ابن عثيمين [5] **تعليلاً اخر فقال:**

ليست فى «صحيح مسلم»، بل الذى فى «مسلم»: «فسأله؛ **لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»، وزيادتها فى نقل المؤلف؛ إما لأن النسخة التى نقل منها بهذا اللفظ«**فصدقه**» أو أن المؤلف عزاه إلى «مسلم» باعتبار أصله، فأخذ من «مسلم» : «فسأله»، وأخذ من أحمد: «فصدقه». اهـ.

ثم قال ابن باز: فرواية مسلم تدل على أن السؤال المجرد لايجوز لأن فيه رفعاً من شأنهم وسؤالهم وسيلة إلى تصديقهم وتعظيماً لقدرهم ولما يقولون به سر الشعوذة،

(١) القول المفيد (٢/ ٥٩)

(٢) مسلم بشرح النووى (٧/ ٤٨٦).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٠٠).

(٤) التعليق المفيد(١٤٩)

(٥) القول المفيد (٢/ ٦٠_٦٣)

فينبغي تركهم وتناسيهم، وعند مسلم عن معاوية بن الحكم قال **«ليسوا بشيء، ولا تأتوهم»**(١) احتقاراً لهم وإعراضاً عنهم وإماتة لهم ولشأنهم. اهـ.

قلت: فالقول كما قال القائل اسكت عن الشر ليندثر وحدِّث عن الخير لينتشر.

وقال ابن عثيمين: قوله**«فسأله؛ لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»**.

ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوماً، ولكنه ليس على إطلاقه؛ فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:

قلت/ لكن فى الحقيقة، مع هذا التقسيم لابد أن تحطاط فى السؤال الجائز المشروع كما سيأتى.

القسم الأول: أن يسأله سؤالاً مجرداً؛ فهذا حرام لقول النبى ﷺ« **من أتى عرافاً...**»فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه؛ إذ لاعقوبة إلا على فعل مُحرم.

القسم الثانى: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله؛ فهذا كفر لأن تصديقه فى علم الغيب تكذيب للقرآن ، حيث قال تعالى **﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾**

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره: هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله؛ فهذا لا بأس به، ولايدخل فى الحديث.

وقد سأل النبى ﷺ ابن صياد؛ فقال: **«ماذا خبأت لك؟ قال : الدُّخ. فقال : اخسأ؛ فلن تعدو قدرك»**(٢) فالنبى ﷺ سأله عن شىء أضمره له؛ لأجل أن يختبره، فأخبره به.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه فى أمور يتبين بها كذبه وعجزه، وهذا مطلوب، وقد يكون واجباً.

وإبطال قول الكهنة لا شك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجباً؛ فصار السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب مادلت عليه الأدلة الشرعية الأخرى. اهـ.

قلت: والقسم الرابع الأولى أن يتنزل عليه حديث ابن صياد، ذلك لأن النبى ﷺ أراد

(١) أخرجه مسلم فى المساجد (٣/ ٢٣/ ٣٣) وتقدم.
(٢) أخرجه مسلم فى الفتن (٩/ ٢٧٥/ ٨٦) عن ابن مسعود به.

أيضاً أن يظهر عجز ابن صياد وكذبه، وهذا واضح من قوله« اخسأ فلن تعدو قدرك»[٢] وبالجملة فهو يدخل فى القسم الثالث والله تعالى أعلم.

ثم قال ابن عثيمين: وقد ذكر شيخ الإسلام أن الجن يخدمون الإنس فى أمور، والكهان يستخدمون الجن ليأتوهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب ما يضيفون، وخدمة الجن للإنس ليست محرمة على كل حال، بل هى على حسب الحال.

فالجنى يخدم الإنسان فى أمور لمصلحة الإنس، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة، بل لأنه يحبه فى الله ولله ولا شك أن من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس، لأنه يجمعهم الإيمان بالله. اهـ.

[قلت]: وهذا محله إذا كانت هذه الخدمة من الجن بغير استعانة أو استعاذة من الإنس، وإلا سيدخل فى عموم من ذمهم الله بقوله ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾ أما إن كانت الخدمة بغير ذلك كما فُعل مع أبى هريرة رضى الله عنه فجائزة بلا خلاف. والله المستعان.

ثم قال ابن عثيمين: وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضى الله - عز وجل - إما فى الذبح لهم، أو فى عبادتهم، أو ما أشبه ذلك.اهـ.

[قلت]: وهذا شرك..

ثم قال: والأغرب من ذلك أنهم ربما يخدمون الإنس لأمر محرم من زنا أو لواط، لأن الجنية قد تستمتع بالإنسى بالعشق والتلذذ بالاتصال به، أو بالعكس، وهذا أمر معلوم مشهود، حتى ربما كان الجنى الذى فى الإنسان ينطق بذلك، كما يُعلم من الذين يقرؤون على المصابين بالجن.

والنبى ﷺ حضر إليه الجن وخاطبهم، وأرشدهم، ووعدهم بعطاء لا نظير له، فقال لهم : «**كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة، فهى علف لدوابكم**»[٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وذُكر أن في عـهد عمر رضي الله عـنه امرأة لها رئـي من الجن - يعنـي صاحب -، وكانت توصـيه بأشياء، حتى إذا تـأخر عمر ذات يوم، فأتوا إلـيها، فقالوا: ابحثي لنا عنه، فذهب هذا الجنـي الذي فيها، وبحث وأخبرهم أنه في مـكان كذا، وأنه يَسِمُ إبل الصدقة[1] اهـ.

[قلت]: تقدم في باب / الاستـعاذة بغير الله أن الاستعاذة بالجن لها أحـكام، منها ما هو كفر، ومـنها ما هو محرم، وذلـك مستفاد من تـفسير السلف لـقول الله عز وجل: ﴿فزادوهم رهقًا﴾ فبعضهم قال (إثماً) وبعضهم قـال (كفرًا) فإن استعان أو استعاذ بالجن فيما لا يستطيعه إلا الله عز وجل فهو كفر، وإن استـعان أو استعاذ بهم فيما يستطيعون فهو إثم، لأنه أشـبه الاستغاثة بالمخلوق الحي الـغائب فيما يستطيـعه الحي الحاضر، أو دعاءه كذلك، ولأنه لم يثبت دليل على الاسـتعانة بالجن في المعروف أو المباح ولو كان خيراً لسبقونا إليه.

أما إذا قدَّم لنا الجن الخدمة في المعروف المشروع بغـير طلب منا له فهذا جائز لحديث أبي هريرة حـينما عرض الشيطـان عليه هذه الخدمة: تعـليم آية الكرسي وفضـلها، في مقابل أن يخلي سبيله، وعلى هذه الصورة الأخـيرة يحمل قول من قال من العلماء بجواز أو بوقوع خدمة الجني لـلإنسي في المعروف أما القصة التي ذكرهـا الشيخ - حفظه الله - فهي عند أبي الدنـيا بسند ضعيف ومن أخطر ما يكون ذكـر هذه الآثار في الكتب، لأن المسلمين - إلا من رحم ربي - خرجوا من باب العلاج بالقرآن الذي هو دين الله إلى دين الشيطان بغير دليل، فما الظنُّ إذا كان مـعهم شبه كهذا الأثر، وخاصة أنه في كتاب من كتب التوحيد وينسب لابن تيمية ويستشهـد به ابن عثيمين شارحاً لكتاب التوحيد لمحمد بن عبدالوهاب.

وأنا أتعجب من هـذا، فهل يتصور أن يرى الصحابة - كأبـي موسى الأشعري الذي ذهب لهذه المرأة كما جاء في هذا الأثر المتقـدم - وأمرها أن تأمر من فيها من الجن الذي تلَبَّس بها لـيذهب فيبحث لهم عن عمر ولايـتعاونون فيما بينهم علـى إخراجه؟ فكيف يتأتى ذلك؟

فهذا والله إن لم يثـبت ضعفه فهو من النـكارة بمكان فكيف وقد ثـبت ضعفه. والله أعلم.

قوله: «لم تقبل له صلاة أربعين يومًا».

قال سليمان آل الشيخ[2]: إذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسؤول قال النووي

(1) وسيأتي تخريجه في آخر الباب. (2) تيسير العزيز الحميد ٣٠١.

وغيره: معناه: أنه لا ثواب له فيها ، وإن كانت مجزئة فى سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلى إعادة ، ونظير هذه الصلاة فى أرض مغصوبة مجزئة مسقطة للقضاء ، لكن لا ثواب له فيها، قاله جمهور أصحابنا قالوا: فصلاة الفرض إذا أتى بها على وجهها الكامل ترتب عليها شيئان سقوط الفرض، وحصول الثواب، فإذا أداها فى أرض مغصوبة حصل له الأول دون الثانى ولابد من هذا التأويل فى هذا الحديث فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العرَّاف إعادة صلاة أربعين ليلة فوجب تأويله، هذا كلامه، وهو مبنى على الملازمة بين الإجزاء وعدم الإعادة، والصواب أن عدم الإعادة لا يستلزم الإجزاء لكن الصلاة فى الأرض المغصوبة فى إجزائها نزاع والمشهور من مذهب أحمد أنها تجزئ وتجب إعادتها وفى الحديث النهى عن إتيان الكاهن ونحوه قال القرطبى: يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم على من يتعاطى شيئًا من ذلك من التعزيرات وينكر عليهم أشد النكير وعلى من يجيئ إليهم، ولا يغتر بصدقهم فى بعض الأمور ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينسب إلى العلم فإنهم غير راسخين فى العلم، بل من الجهال بما فى إتيانهم من المحذور.

قال ابن عثيمين(١): نفى القبول هنا هل يلزم منه نفى الصحة أولاً؟

نقول: نفى القبول إما أن يكون لفوات شرط، أو لوجود مانع، ففى هاتين الحالين يكون نفى القبول نفيًا للصحة، كما لو قلت : من صلى بغير وضوء لم يقبل الله صلاته، ومن صلى فى مكان مغصوب لم يقبل الله صلاته عند من يرى ذلك .

وإن كان نفى القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع، فلا يلزم من نفى القبول نفى الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفى: إما نفى القبول التام، أى: لم تقبل على وجه التمام الذى يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة.

وإما أن يراد به أن هذه السيئة التى فَعَلَها تقابل تلك الحسنة فى الميزان، فتسقطها ويكون وزرها موازيًا لأجر تلك الحسنة وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة لكن الثواب الذى حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطته.

ومثله قوله ﷺ: «**من شرب الخمر، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا**» (٢).

---

(١) القول المفيد ٢/ ٦٢.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٥) والترمذى (١٨٦٢) عن ابن عمر به.

قوله: «أربعين يومًا».

قال ابن عثيمين[1]: تخصص هذا العدد لا يمكننا أن نعلله، لأن الشىء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالبًا أن يعرف حكمته، فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خصصت بذلك ، فهذا من الأمور التى يقصد بها التعبد لله، والتعبد لله بما لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته، لأنه أبلغ فى التذلل، صحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن كون الإنسان ينقاد لما لا يعرف حكمته دليل على كمال الانقياد والتعبد لله - عز وجل - فهو من حيث العبودية أبلغ وأكمل، أما ذاك، فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلغ، لأن النفس إذا علمت بالحكمة فى شىء اطمأنت إليه بلا شك، وازدادت أخذًا له وقبولاً، فهناك أشياء مما عَيَّنه الشرع بعدد أو كيفية لا نعلم ما الحكمة فيه، ولكن سبيلنا أن نكون كما قال الله تعالى عن المؤمنين: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم**﴾.

فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله، إلا ما استثنى، كالقسم الثالث والرابع، أى لاختبارهم وبيان كذبهم لما فى إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة التى ترتب على تشجيعهم، وإغراء الناس، وهم فى الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة. اهـ.

[**قلت**]: إن كان مقصد الشيخ ابن عثيمين عدم إمكان تعليل العدد فوجيه أما إن كان المقصد عدم تعليل علاقة العدد بالعقوبة على هذا الفعل فيمكن أن يعلل هذا العدد بأن الشرع أورده لبيان حجم الجرم الذى فعله هذا الذى أتى كاهنًا أو عرافًا حيث بين أن ذلك مبطل لصلاة أربعين يومًا على قول الحنابلة أو لثواب صلاة أربعين يومًا على قول الشافعية كما تقدم فى حديث «**إن قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة**» أى لشدة جرم هذه القاذفة استحقت هذا العقاب أى أن هذه الجريمة لا تكفر إلا بصلاة أربعين يومًا لكن يبقى السؤال لماذا الأربعين؟! ولماذا لم تكن أقل أو أكثر وهذا الذى قصده الشيخ بقوله: لا يمكننا أن نعلله وأيضاً إذا كانت المحافظة على تكبيرة الإحرام فى صلاة الجماعة أربعين يوماً فيها براءة من النفاق وبراءة من النار فالذهاب إلى العرافين ونحوهم حتى ولو بسؤال بغير تصديق فهذا ضرب من ضروب النفاق.

(١) القول المفيد ٢/ ٦٣، ٦٤.

وَعَنْ أبى هُرَيْرَةَ (رَضىَ الله عَنْهُ) عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

فإذا كان من الأجور المترتبة على هذه المحافظة أن يأخذ براءة من النفاق فهو يبطل له صلاة أربعين يوماً فيبطل له هذا الأجر لأنه نافق لأن من صفات المنافقين أنهم مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ولحديث ابن عمر مرفوعاً: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، لاتدرى أيها تتبع»(٢).

● **مسألة:**

إن قال قائل: لماذا خص الصلاة دون باقى العبادات؟

قال الفقير: قلنا أن الصلاة فى الدرجة الثانية بعد الإيمان بالغيب كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ**﴾ فإنه إن لم يؤمن بالغيب وذهب إلى هذا الكاهن فلابد من أن تحبط صلاته. فهذه مترتبة على هذه، لأنه إن لم يأت بالمقدمة وهو الإيمان بالغيب فلابد أن ينقض المترتب على الإيمان بالغيب وهو إقامة الصلاة.



قوله عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من أتى كاهنا فصدقه...» الحديث.

قال سليمان آل الشيخ(٣): هذا الحديث رواه أبو داود ولفظه: حدثنا موسى بن

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/٤٠٨، ٤٧٦) وأبو داود فى «الطب»/ باب: فى الكاهن (٤/١٤/ح٣٩٠٤) والنسائى فى «الكبرى» فى «عشرة النساء» (٥/٣٢٣/ح٩٠١٦) والترمذى فى «أبواب الطهارة» باب: ما جاء فى كراهية إتيان الحائض (١/٢٤٢، ٢٤٣/ ح١٣٥) وابن ماجه فى «الطهارة وسننها» باب: النهى عن إتيان الحائض (١/٢٠٩/ ح٦٣٩)، والدارمى فى «سننه» (١/٢٥٩) وابن الجارود فى «المنتقى» (ح١٠٧) والبيهقى فى الكبرى (٧/١٩٨).

من طريق حماد بن سلمة عن حكيم الأثرم عن أبى تميمة.

قال البخارى فى «التاريخ الكبير» (٣/١٧/٩٦٧) هذا حديث لا يتابع عليه لا يعرف لأبى تميمة سماع من أبى هريرة اهـ.

وانظر «منار السبل» (ح٢١٧٣) بتخريجنا ، وفتح المجيد (٥٣٤) .بتخريجنا

(٢)[صحيح]أخرجه مسلم فى صفات المنافقين (٩/١٣٩/١٧)عن ابن عمر به وانظر «الدر» (٢/٤١٨).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠١، ٣٠٢.

إسماعيل ثنا حماد . ح وحدثنا مسدد ثنا يحيى عن حماد بن سلمة عن حكيم الأثرم، وعن أبى تميمة عن أبى هُرَيرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من أتى كاهنًا** - قال موسى فى حديثه : **فصدقه بما يقول [ثم اتفقا) أو أتى امرأة**، قال مسدد: امرأته حائضًا، أو أتى امرأة قال مسدد : يعنى : **امرأته فى دبرها فقد برئ مما أنزل على محمد** ﷺ»(١) ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجة بنحوه وقال الترمذى: لا نعرفه إلا من حديث الأثرم، وضعف محمد هذا الحديث من جهة إسناده وقال البغوى: سنده ضعيف وقال الذهبى ليس إسناده بالقائم قلت: أطال أبو الفتح اليعمرى فى بيان ضعفه وادعى أن متنه منكر، وأخطأ فى إطلاق ذلك، فإن إتيان الكاهن له شواهد صحيحه منها ما ذكر المصنف بعده وكذلك إتيان المرأة فى الدبر له شواهد، منها: ما رواه عبد بن حميد بإسناد صحيح عن طاووس أن رجلاً سأل ابن عبَّاس عن إتيان المرأة فى دبرها فقال: تسألنى عَن الكُفر؟(٢) ومنها ما رواه الترمذى والنسائى وابن حبان فى «صحيحه».

وصححه ابن حزم عن ابن عباس مرفوعًا: «**لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة فى الدبر**»(٣) والأحاديث في ذلك كثيرة. وغاية ما ينكر من متنه ذكر إتيان الحائض والله أعلم.

قلت: وذكرها ابن القيم فى «الزاد»

● **مناسبة الحديث للباب(٤)**:

قال القرعاوى: حيث دل الحديث بطريق الإلزام أو اللزوم على كفر الكهان.

● **مناسبة الحديث للتوحيد(٥)**:

قال القرعاوى: حيث دل الحديث بطريق اللازم على أن الكهانة كفر وذلك لما يعتمدون من وسائل الشرك فى كهانتهم.

● **شرح الحديث**:

قوله: «**من أتى كاهنًا**»:

قلت: أى من أراد.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) عبد الرزاق فى مصنفه (٢٠٩٥٣).

(٣) [ضعيف] أخرجه الترمذى (١١٦٥)، والنسائى فى «الكبرى» (٩٠٠١) عن ابن عباس به. وانظر «بلوغ المرام» (٩٥٣ ـ بتخريجنا).

(٤، ٥) الجديد ٢٤٠.

قال ابن عثيمين[1]: تقدم معنى الكاهن وأنهم كانوا رجالاً فى أحياء العرب تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قوله: «فصدقه».

أى : نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر يعنى: تثبيته وتحقيقه، فقال: هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: «بما يقول»

قال ابن عثيمين[2]: «ما» عامة فى كل ما يقول، حتى ما يحتمل أنه صدق، فإنه لا يجوز أن يصدقه، لأن الأصل فيهم الكذب.

قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد» .

قال ابن عثيمين[3]: أى : بالذى أنزل، والذى أنزل على محمد ﷺ القرآن أنزل إليه بواسطة جبريل، وقال تعالى: ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين**﴾ وقال تعالى : ﴿**قل نزله روح القدس من ربك**﴾ وبهذا نعرف أن القول الراجح فى الحديث القدسى أنه من كلام الله تعالى معنى، وأما لفظه، فمن الرسول ﷺ لكنه حكاه عن الله، لأننا لو لم نقل بذلك لكان الحديث القدسى أرفع سنداً من القرآن، حيث إن الرسول ﷺ يرويه عن ربه مباشرة والقرآن بواسطة جبريل.

ولأنه لو كان من كلام الله لفظًا لوجب أن تثبت له أحكام القرآن، لأن الشرع لا يفرق بين المتماثلين، وقد علم أن أحكام القرآن لا تنطبق على الحديث القدسى، فهو لا يتعبد بتلاوته، ولا يقرأ فى الصلاة ، ولا يعجز لفظه، ولو كان من كلام الله، لكان معجزاً لأن كلام الله لا يماثله كلام البشر، وأيضًا باتفاق أهل العلم فيما أعلم أنه لو جاء مشرك يستجير ليسمع كلام الله وأسمعناه الأحاديث القدسية، فلا يصح أن يقال: إنه سمع كلام الله.

فدل هذا على أنه ليس من كلام الله، وهذا هو الصحيح، وللعلماء فى ذلك قولان : هذا أحدهما، والثانى: أنه من قول الله لفظًا. **قلت**: وقد تقدم هذا الكلام فى الفرق بين الحديث القدسى والنبوى والقرآن فى باب «فضل التوحيد ومايكفر من الذنوب».

---

(١) القول المفيد ٢/ ٦٥ : ٦٨.

(٢)(٣) القول المفيد (٢/ ٦٥، ٦٦).

فإن قال قائل: كيف تصححون هذا والنبى ينسب القول إلى الله، ويقول: قال الله تعالى، ومقول القول هو هذا الحديث المسوق؟

قلنا : هذا كما قال الله تعالى عن موسى وفرعون وإبراهيم: قال موسى، قال فرعون، قال إبراهيم . . . مع أننا نعلم أن هذا اللفظ ليس من كلامهم ولا قولهم، لأن لغتهم ليست اللغة العربية، وإنما نُقِل نقلاً عنهم، ويدل لهذا أن القصص فى القرآن تختلف بالطول والقصر والألفاظ، مما يدل على أن الله سبحانه ينقلها بالمعنى، ومع ذلك ينسبها إليهم، كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى﴾ وقال عن موسى : ﴿وقال موسى لقومه استعينوا بالله﴾ وقال عن فرعون: ﴿قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم﴾ اهـ.

[قلت]: فإن قال قائل: فما الفرق بين الحديث القدسى والنبوى على هذا حيث أن الجميع من الله معناً، ومن الرسول لفظًا؟!

الجواب: ما قاله ابن عثيمين فى: أن الحديث القدسى ما رواه النبى عن ربه وقد أدخله المحدثون فى الأحاديث النبوية لأنه منسوب إلى النبى ﷺ تبليغاً اهـ، وقال غيره ويفرق بين الحديث القدسى وبين الحديث النبوى بأن الحديث القدسى وحى بالمعنى من الله عزوجل أما ألفاظه فهى من عند رسول الله ﷺ على الأرجح من قولى العلماء، أما الأحاديث النبوية فهى قسمان: قسم توقيفى، تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحى وبينه للناس بكلامه، وقسم اجتهادى وهو الذى استنبطه الرسول ﷺ من فهمه للقرآن لأنه مبين له، وهذا القسم يقره الوحى إن كان صواباً ويسدد ما عسى أن يقع فيه من خطأ.

وبهذا يمكن أن يقال: إن الأحاديث النبوية مردها جميعاً إلى الوحى، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فإن قيل: إذا كان الحديث النبوى وحياً بالمعنى كالحديث القدسى، فلماذا لانسميه قدسياً أيضاً؟ ويجاب على ذلك بأنا نقطع فى الحديث القدسى بنزول معناه من عند الله تعالى لورود النص الشرعى على نسبته إلى الله بقوله ﷺ قال الله تعالى: ولذا سمى قدسياً، أما الأحاديث النبوية فلم يرد فيها مثل هذا النص فيحتمل فى كل واحد فيها أن يكون توقيفاً أو أن يكون مستنبطاً بالاجتهاد، ولذا سمينا الجميع نبوياً وقوفاً عند القدر المقطوع به، ولو كان لدينا ما يميز الوحى التوقيفى منها لسميناه قدسياً كذلك اهـ(١).

(١) محاضرات فى علوم القرآن/ محمد سالم ـ صلاح الصاوى (ص١٠، ١١).

وَللأَرْبَعَة وَالحَاكِم ـ وقَالَ: «صَحيحٌ عَلَى شرْطهمَا» - عَنْ «أَبِى هُرَيرَة : «مَنْ أَتى عرَّافًا، أَو كَاهنًا فَصدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفرَ بِمَا أُنزلَ عَلَى مُحَمَّد ﷺ»[1].

قوله: «بما أنزل على محمد»

قال ابن عثيمين[2]: ذكر أهل السنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه مُنزَّل أو أنزل من الله، فهى دالة على علو الله - سبحانه وتعالى - بذاته، وعلى أن القرآن كلام الله، لأن النزول يكون من أعلى، والكلام لا يكون إلا من متكلم به.

قوله: «كفر بما أنزل على محمد»:

قال ابن عثيمين: وجه ذلك: أن ما أنزل على محمد قال الله تعالى فيه : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ وهذا من أقوى طرق الحصر، لأن فيه النفى والإثبات

قلت: وقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ الآية فهى دالة على حصر الغيب لله لأن مفاتحه لايعلمها إلا هو فمن باب أولى الغيب لايعلمه إلا هو ا.هـ.

فالذى يصدق الكاهن فى علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، فهو كافر كفرًا أكبر مخرجًا عن الملة، وإن كان جاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب، فكفره كفر دون كفر. اهـ.

[قلت]: وفيه حجة لمن قال: أن من كفر بآية من القرآن أو بعض آية فقد كفر بالقرآن كله.



قوله: وللأربعة والحاكم

قال سليمان آل الشيخ[3]: هكذا بيَّض المصنف اسم الراوى، وقد رواه أحمد والبيهقى والحاكم عن أبى هريرة مرفوعًا ولفظ أحمد:

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٤٢٩) والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٨) ومن طريقه البيهقى (٨/ ١٣٥).

من طريق عوف قال خلاس عن أبى هريرة . . . فذكره.

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرطهما جميعًا من حديث ابن سيرين ولم يخرجاه ، وانظر فتح المجيد (٥٣٥- بتخريجنا.

(٢) القول المفيد (٢/ ٦٧, ٦٨).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٠٢).

حدثنا يحيى بن سعيد عن عوف عن خلاس عن أبى هريرة والحسن عن النبى ﷺ فذكره، وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى فقد روى عن عوف عن خلاس عن أبى هريرة ، حديث أن موسى كان رجلاً حييًا . . الحديث. قال العراقى فى أماليه: حديث صحيح، وقال الذهبى: إسناده قوى وعلى هذا فعزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك فإنه لم يروه أحد منهم وأظنه تبع فى ذلك الحافظ فإنه عزاه فى «الفتح» إلى أصحاب السنن والحاكم، فوهم، ولعله أراد الذى قبله.

قلت: وهو كما قال وانظر فتح البارى[1] فى موضع هذا الوهم.

قال ابن عثيمين:[2]

قوله: «وللأربعة والحاكم».

الأربعة هم : أبو داود، والنسائى ، والترمذى، وابن ماجه، والحاكم ليس من أهل «السنن»، لكن له كتاب سمى «صحيح الحاكم».

قلت:واسمه الحقيقى: «المستدرك على الصحيحين».

قوله: «صحيح على شرطهما»

قال ابن عثيمين[3]: أى : شرط البخارى ومسلم، لكن قول: «على شرطهما» هذا على ما يعتقد، وإلا، فقد يكون الأمر على خلاف ذلك.

ومعنى قوله «على شرطهما» ، أى: أن رجاله رجال «الصحيحين» وأن ما اشترطه البخارى ومسلم موجود فيه.

ونحن لا ننكر أن هناك أحاديث صحيحة لم يذكرها البخارى ومسلم، لأنهما لم يستوعبا الصحيح كله، وهذا أمر واقع، ولكن ينظر فى قول من قال إن هذا الحديث على شرطهما، فقد تكون فيه علة خفية خفيت على هذا القائل، ويكون البخارى ومسلم علماها وتركا الحديث من أجلها.

قوله: «صحيح»:

يقولون: الحاكم ممن يتساهل بالتصحيح ، ولهذا قالوا: (لا عبرة) بتصحيح الحاكم، ولا بتوثيق ابن حبان، ولا بوضع ابن الجوزى، ولا بإجماع ابن المنذر.

(١) فتح البارى (١٠/ ٢٢٧).

(٢) القول المفيد (٢/ ٦٨-٧٠).

(٣) القول المفيد ٢/ ٦٩. ٧٠.

وهذا القـول فيه مجازفـة فى الحقيقـة، لأن كلمة «لا عـبرة»، أى: لا يلتفـت إليه، والصواب أنه لا يؤخذ مقبولاً فى كل حـال، مع أنى تدبرت كلام ابن المنذر رحمه الله، ووجدت أنه دائمًا إذا نقل الإجـماع يقول: إجماع من نحفظ قوله مـن أهل العلم، وهو بهذا قد احتفظ لنفسه، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

ولكـننا مـع ذلك نقـول: إذا كان الرجـل ذا اطلاع واسـع، فقد يـكون هذا الـقول إجماعًا، أما إذا كان هـذا الرجل لا يعرف إلا ما حوله، فإن قوله هـذا لا يكون إجماعًا ولا يوثق به، ولا نحكم بأنه إجماع.

مثاله : فلو قال رجل لم يدرس إلا المذهب الحنبلى فى مسألة، وقال: هذا إجماع من نحفظ قولـه من أهل العلم، فإن قوله هذا لا يـعتبر، لأنه لم يحفظ إلا قـولاً قليلاً من أقوال أهل العلم .

قوله: «من أتى كاهنًا»:

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «من أتى كاهناً» إلى آخره

قال بعضهـم: لا تعارض بين هذا الخبر، وبـين قوله ﷺ**«من أتى عرافًا فـسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»**[2] إذ الغرض فى هذا الحديث أنه سأله معتقدًا صدقه وأنه يعلم الغيب فإنه يكفر، فإن اعتقد أن الجن تلقى إليه ما سمعته من الملائكة، أو إنه بإلهام فصدقه من هذه الجهة لايكفر، كذا قـال، وفيه نظر، وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقـد صدقه بأى وجـه كان، لاعتقـاده أنه يعلـم الغيب، وسـواء كان ذلك من قـبل الشياطين أو من قبـل الإلهام لا سيما وغالب الكهان فى وقت النـبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين.

وفى حديث رواه الطبرانى عن واثلة مرفوعًا: «مَنْ أتى كاهنًا فسأله عن شىء حجبت عنه التوبة أربعين ليلة فإن صدقَه بما قال كفر»[3] قال المنذرى: ضعيف - فهذا - لو ثبت - نص فى المسألة لكـن ما تقدم من الأحاديث يشهد له ، فإن الحديـث الذى فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة ليس فيه ذكـر تصديقه والأحاديث التى فيها إطلاق الكفر مقيدة بتصديقه.

قال ابن عثيمين[4]: قوله: «من أتى عرافًا أو كاهنًا».

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٢.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣)ذكره فى «المجمع» (١١٨/٥) وضعفه.

(٤) القول المفيد ٢/ ٧٠.

وَلأبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا[1].

«أو» يحتمل أن تكون للشك، ويحتمل أن تكون للتنويع، فالحديث الأول بلفظ عراف، والثانى بلفظ كاهن، والثالث جمع بينهما، فتكون «أو» للتنويع.

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثانى مغنيان عنه، لأن كثرة الأدلة مما يُقوىِّ المدلول، أرأيت لو أن رجلاً أخبرك بخبر فوثقت به، ثم جاء آخر وأخبرك به ازددت توثقًا وقوة، ولهذا فرق الشارع بين أن يأتى الإنسان بشاهد واحد أو شاهدين.

وظاهر صنيع المؤلف: أن حديث أبى هريرة: «**من أتى عرافًا أو كاهنًا**» أنه موقوف، لأنه قال عن أبى هريرة، لكنه لما قال فى الذى بعده: «موقوفًا ترجح عندنا أن الحديث الذى قبله مرفوع.

قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد» . . .

قال سليمان آل الشيخ[2]: قال الطيبى: المراد بالمنزل الكتاب والسنة، أى: من ارتكب الهناة فقد برئ من دين محمد ﷺ وما أنزل عليه انتهى. وهل الكفر فى هذا الموضوع كفر دون كفر أو يجب التوقف؟ فلا يقال ينقل عن الملة. ذكروا فيها روايتين عن أحمد وقيل: هذا على التشديد والتأكيد أى قارب الكفر والمراد كفر النعمة، وهذان القولان باطلان . اهـ.

[قلت]: تقدم تفصيل الشيخ ابن عثيمين للكفر فى الحديث الذى قبله حيث قال: أن الذى يصدق الكاهن فى علم الغيب وهو يعلم أن لا يعلم الغيب إلا الله فهو كافر كفراً أكبر مخرج عن الملة.

وإن كان جاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب فكفره دون كفر.



قوله: «ولأبى يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً».

قال سليمان آل الشيخ[3]: أبو يعلى اسمه أحمد بن على بن المثنى الموصلى الإمام

---

(١) أخرجه أبو يعلى فى «مسنده» (٥٣٨٦).

قال: حدثنا عبد الرحمن بن سلام، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن أبى إسحاق، عن هبيرة بن بريم عن عبد الله بن مسعود . . . فذكره.

والطبرانى فى «الكبير» (١٠/٩٣/ح١٠٠٥).

وقال: حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطى ثنا عيسى بن إبراهيم البركى ثنا عبد العزيز بن مسلم عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله . . فذكره.

وانظر فتح القدير (ح ٨٢٦) بتخريجنا «وفتح المجيد» (٥٣٧- بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٠٣.   (٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠٣.

وَعَنْ عِمْرَانَ بنَ حُصَيْنٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَو تُطُيِّرَ لَهُ، أَو تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَو سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[1] رَوَاهُ البَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَن أَتَى..» إِلَى آخِرِهِ[2].

صاحب التصانيف كـ «المسند» وغيره روى عن يحيى بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق وكان من الأئمة الحفاظ مات سنة سبع وثلاثمائة.

وهذا الأثر رواه البزار أيضًا وإسناده على شرط مسلم ولفظه: «**من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»[3] وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر والمصدق لهما لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضًا.



قوله: وعن عمران ابن حصين مرفوعاً: «ليس منا من تطير أو تطير له.... الحديث».

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي[4]:

حيث دل الحديث بطريق اللازم على كفر الكاهن.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

حيث دل الحديث بطريق اللازم على أن الكاهن كافر لأنه يعتمد الشرك في كهانته.

---

(١) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١١٧) وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق ابن الربيع وهو ثقة.

وانظر فتح القدير (ح ٨٢٧) بتخريجنا. وفتح المجيد بتخريجنا (ح٥٣٩)

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ٣٠١، ٣٠٢/ح٤٢٦٢).

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١١٧) وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه زمعة بن صالح وهو ضعيف. وأنظر «فتح المجيد» (ح ٥٤٠) بتخريجنا

(٣) أخرجه الطبراني (١٠٠٠٥) وانظر المجمع (٥/ ١١٨).

(٤) الجديد ٢٤٣.

قال سليمـان آل الشيخ(١): هذا الحديـث رواه الطبرانى كـما قال «المصـنف» فى «الأوسط» قال المنذرى: إسناد الطبرانى حسن وإسناد البزار جيد.

قلت: ولعل المصنف أقر التحسين والتجويد من المنذرى أو ابن حجر.

قوله: «ليس منا»

قال سليمـان آل الشيخ(٢): أى ليس يفـعل ذلك من هو من أشـياعنا العامـلين باتباعنا المقتفين لشرعنا.

قال ابن عثيمين(٣): تقدم الكلام على هذه الكلمة، وأنها لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.

قوله: «من تطير»

قال سليمان آل الشيخ(٤): قوله: «**من تطير**» أى فعل الطيرة «**أو تطير له**» أى: أمر من يتطير له كذلك معنى تكهن أو تُكهن له أو سُحر له.

قال ابن عثيمين:(٥) **التطير**: هو التشاؤم بالمرئى أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير، لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بها، وقد سبق ذلك.

[قلت]: أى فى الباب السـابق وغيره مثل باب «من حـقق التوحيد دخل الجنـة بغير حساب». اهـ.

قال ابن عثيمين: ومنه ما يحصل لبعض الناس إذا شرع فى عمل، ثم حصل له فى أوله تعثر تـركه وتشاءم، فهذا غير جائز، بـل يعتمد على الله ويتوكل عـليه، وما دمت أنك تعلم أن فى هذا الأمر خيرًا، فغامر فيه، ولا تشاءم، لأنك لم توفق فيه لأول مرة، فكم من إنسان لم يوفق فى العمل أول مرة، ثم وفق فى ثانى مرة أو ثالث مرة؟!

ويقال: إن الكسائى - إمام النحو - طلب النحو عدة مرات، ولكنه لم يوفق، فرأى نملة تحمل نواة تمر، فتصعد بها إلـى الجدار، فتسقط، حتى كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلى الجدار وتجاوزته، فقال: سبحان الله! هـذه النملة تكابد هذه النواة حتى نجحت، إذن أنـا سأكابد علـم النحو حتـى أنجح، فكابد، فـصار إمام أهل الكـوفة فى النحو.

(١، ٢) تيسير العزيز الحميد ٣٠٤.

(٣) القول المفيد ٢/ ٧١.　　(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٠٤.

(٥) القول المفيد ٢/ ٧١، ٧٢.

قوله: «أو تطير له».

بالبناء للمفعول، أى: أمَرَ من يتطير له، مثل أن يأتى شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الفلانى، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك لأنظر: هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك، فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله : **«من تطير»** يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

وقوله: «أو تكهن أو تكهن له».

سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب فى المستقبل يقول: سيكون كذا وكذا، وربما يقع، فهذا متكهن، ومن الغريب أنه شاع الآن فى أسلوب الناس قولهم، تكهن بأن فلانًا سيأتى، ويطلقون هذا اللفظ الدال على عمل محرم على أمر مباح، وهذا لا ينبغى، لأن العامى الذى لا يفرق بين الأمور يظن أن الكهانة كلها مباحة بدليل إطلاق هذا اللفظ على شىء مباح معلوم إباحته.

قلت: ويدل عليه قوله تعالى ﴿ **لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا**﴾

قوله: «أو تكهن له»

أى طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول للكاهن: ماذا سيصيبنى غدًا، أو فى الشهر الفلانى، أو فى السنة الفلانية، وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

قوله: «أو سحر أو سحر له».

تقدم تعريف السحر، وتقدم بيان أقسامه.

قوله: «أو سحر له»

أى: طلب من الساحر أن يسحر له، ومنه النشرة عن طريق السحر، فهى داخلة فيه، وكانوا يستعملونها على وجوه متنوعة، منها أنهم يأتون بطست فيه ماء، ويصبُّون فيه رصاصًا، فيتكون هذا الرصاص، ويسمونها العامة عندنا «ضب الرصاص» وهذا من أنواع السحر المحرم، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من فاعله.

الشاهد من هذا الحديث : قوله «ومن أتى كاهنًا. .» إلخ ، وقوله: «ورواه الطبرانى فى «الأوسط» بإسناد جيد من حديث ابن عباس . . .» إلخ، فيكون هذا مقويًا للأول.

قوله «رواه البزار».

قال سليمان آل الشيخ[1] : اسمه أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٤.

قَالَ البَغَوِيّ: «العَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى المَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».

البصرى صاحب «المسند الكبير» الذى عـزا إليه المصنف، روى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق، قال الدارقطنى : ثقة يخطئ ويتكل على حفظه مات سنة اثنين وتسعين ومائتين.



قوله: [قال البغوى: «العراف: الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات.... الخ»].

البغوى: بفتحتين اسمه الحسين بن مسعود بن الفراء المعروف بمحيى السنَّة الشافعى صاحب التصانيف، وعالم أهل خراسان وكان ثقة فقيهًا زاهدًا مات فى شوال سنة ست عشرة وخمسمائة .

قوله: العـرَّاف الذى يدعى معرفـة الأمور إلى آخره: هذا تفسير حسن وظاهره يقتضى أن العـراف هو الذى يخبـر عن الواقـع كالمسروق والـضالة، وأحسـن منه كلام شـيخ الإسلام: أن العراف اسم للـكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، كالحـازر الذى يدعى علم الغيب أو يدعى الكشف، وقال أيضًا: والمنجـم يدخل فى اسم العراف وعند بعضهم هو فى معناه وقـال أيضًا: والمنجم يدخل فى اسم الـكاهن عند الخطابى وغيره مـن العلماء وحكى ذلك عن العرب وعند آخرين من جنس الـكاهن وأسوء حالاً منه، فيلحق به من جهة المعنى.

وقال الإمام أحمد: العرَّاف(*) طرف من السحر والساحر أخبث.

وقال أبو السعادات: العرَّاف المنجم والحازر الذى يدعى علم الغيب وقد استأثر الله تعالـى به، وقال ابن القيـم : من اشتهر بإحـسان الزجر عنـدهم سموه عائفـًا وعرافًا، والمقصود مـن هذا معرفة أن من يـدعى علم شىء من المـغيبات فهو إمـا داخل فى اسم الكاهن، وإمـا مشارك له فى المعـنى فيلحق بـه، وذلك أن إصابة المخبر بـبعض الأمور الغائبة فى بعض الأحيان يكون بالكشف ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفأل والزجر والطير والضـرب بالحصى والخط فى الأرض والتنجـيم والكهانة والسحـر ونحو هذا من علوم الجاهـلية، ونعنى بالجاهـلية : كل من ليس من اتـباع الرسل كالفلاسفـة والكهان والمنجمين وجـاهلية العرب الذين كانوا قـبل مبعث النبى ﷺ، فإن هذه عـلوم قوم ليس لهم عـلم بما جاءت به الـرسل عليـهم السلام وكل هـذه الأمور يسمى صـاحبها كـاهنًا وعرافًا أو فـى معناهما فـمن أتاهم فصـدقهم بما يقـولون لحقه الوعيـد ، وقد ورث هذه

(*) فى فتح المجيد العرافة ٣٩١.

وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ، وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذِى يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِى الْمُسْتَقْبَلِ. وَقِيلَ: الَّذِى يُخْبِرُ عَمَّا فِى الضَّمِيرِ.

العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل عليها بإخباره ببعض المغيبات، فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن المتقى، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولى فيها ولا قدرة له عليها بخلاف من يدعى أنه ولى الله ويقول للناس اعلموا إنى أعلم المغيبات فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب وإن كانت أسبابًا محرمة كاذبة فى الغالب.

ولهذا قال ﷺ فى وصف الكهان: «**فيكذبون [منها] مائة كذبة [من عند أنفسهم]**»(١) فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعى الولاية والعلم بما فى ضمائر الناس مع أن نفس دعواه دليل على كذبه لأن فى دعواه الولاية تزكية النفس المنهى عنها بقوله: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم**﴾ وليس هذا من شأن الأولياء بل شأنهم الإزدراء على نفوسهم وعيبهم لها وخوفهم من ربهم فكيف يأتون الناس يقولون: اعرفوا أنا أولياء وأنا نعلم الغيب، وفى ضمن ذلك طلب المنزلة فى قلوب الخلق، واقتناص الدنيا بهذه الأمور وحسبك بحال الصحابة والتابعين وهم سادات الأولياء أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شىء؟ لا والله بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن كالصديق، وكان عمر يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكى فى صلاته، وكان يمر بالآية فى ورده بالليل فيمرض منها ليالى يعودونه الناس، وكان تميم الدارى يتقلب فى فراشه لا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفًا من النار، ثم يقوم إلى صلاته ويكفيك فى صفات الأولياء ما ذكر الله من صفاتهم فى سورة (الرعد) و(المؤمنون)، و(الفرقان)، و(الذاريات)، و(الطور) فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء لا أهل الدعوى، والكذب، ومنازعة رب العالمين فيما اختص من الكبرياء والعظمة، وعلم الغيب بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعى لذلك وليًا لله؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ولبَّسوا بها على خفافيش البصائر، نسأل الله السلامة والعافية فى الدنيا والاخرة. اهـ.

---

(١) تقدم تخريجه.

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ ابنِ تَيمِيَّةَ: العَرَّافُ اسمٌ للكَاهِنِ، وَالمنَجِّمِ والرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِم، مِمَّن يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ.

قال ابن عثيمين[1]: العراف: صيغة مبالغة فإما أن يراد بها الصيغة، وإما أن يراد بها النسبة، وهو الذى يدعى معرفة الأشياء، وليس كل من يدعى معرفة يكون عرافًا، لكن من يدعى معرفة تتعلق بعلم الغيب، فيدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها.

وظاهر كلام البغوى رحمه الله: أنه شامل لمن ادعى معرفة المستقبل والماضى، لأن مكان المسروق ماضٍ قد سُرق، وكذلك الضالة قد حصل الضياع، ولكن المسألة ليست اتفاقية بين أهل العلم، ولهذا قال المؤلف رحمه الله: «وقيل: هو» أى: العراف الكاهن.

والكاهن: هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل .

قوله: «وقيل: هو الذى يخبر عما فى الضمير»

أى: أن تضمر شيئًا فتقول: ما أضمرت؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا .

أو المغيبات فى المستقبل، تقول: ماذا سيحدث فى الشهر الفلانى فى اليوم الفلانى؟ ماذا ستلد امرأتى؟ متى يقدم ولدى؟ وهو لا يدرى.

والخلاصة: أن العلماء اختلفوا فى تعريف العراف ، فقيل:

هو الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها، فيكون شاملاً لمن يخبر عن أمور وقعت.

وقيل: الذى يخبر عما فى الضمير.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل اهـ.

قوله: «وقال أبو العباس: ابن تيمية»:

قال ابن عثيمين[2]: هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، يكنى بأبى العباس ، ولم يتزوج، ولم يتركه من باب الرهبانية، ولكن والله أعلم كان مشغولاً بالجهاد العلمى مع قلة الشهوة ، وإلا لو كان قوى الشهوة لتزوج، وليس كما يدعى المزورون أن له ولدا مدفونًا إلى جانبه فى دمشق، فإنه غير صحيح قطعًا.

قوله: [العراف: اسم للكاهن والمنجم ... إلخ].

---

(١) القول المفيد (٢/ ٧٤، ٧٥).

(٢) القول المفيد ٢/ ٧٥.

قال ابن عثيمين[1]: وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جزم بهذه، ولكن شيخ الإسلام قال: وقيل العراف، وذكره بقيل، ومعلوم أن ما ذكر بقيل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم ينقضه، فهذا دليل على أنه ارتضاه.

وعلى كل حال، فشيخ الإسلام ساق هذا القول وارتضاه، ثم قال: ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء الرّمال والمنجم ونحوهم، فإنهم يدخلون فيه بالعموم المعنوى، لأن عندنا عمومًا معنويًا، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعمومًا لفظيًا، وهو ما دل عليه اللفظ ، بحيث يكون اللفظ شاملاً له.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن استخدام الإنس للجن له ثلاث حالات:

الحال الأولى:أن يستخدم فى طاعة الله، كأن يكون له نائبًا فى تبليغ الشرع، فمثلاً: إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقى منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه فى تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو فى المعونة على أمور مطلوبة شرعًا، فهذا لا بأس به، بل إنه قد يكون أمرًا محمودًا أو مطلوبًا، وهو من الدعوة إلى الله - عز وجل - والجن حضروا النبى ﷺ وقرأ عليهم القرآن ، وولوا إلى قومهم منذرين، والجن فيهم الصلحاء والعباد والزهاد والعلماء، لأن المنذر لابد أن يكون عالمًا بما ينذر، عابدًا مطيعًا لله - سبحانه- فى الإنذار.

الحال الثانية: أن يستخدمهم فى أمور مباحة، مثل أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور المباحة، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمة، صار حرامًا، كما لو كان الجنى لا يساعده فى أموره إلا إذا ذبح له أو سجد له أو أشبه ذلك.

ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مرة فى سفره، فاشتغل فكر أبى موسى، فقالوا له: إن امرأة من أهل المدينة لها صاحب من الجن، فلو أمرتها أن ترسل صاحبها للبحث عن عمر، ففعل، فذهب الجنى، ثم رجع، فقال: إن أمير المؤمنين ليس به بأس، وهو يَسِمُ إبل الصدقة فى المكان الفلانى[2]، فهذا استخدام فى أمر مباح.

---

(١) القول المفيد (٢/٧٦,٧٧).

(٢) [مرسل] الأثر ذكره «شيخ الإسلام» كما فى مجموع الفتاوى» (١٩/ ٦٣) .

قال : وقد روى عن أبى موسى الأشعرى أنه أبطأ عليه خبر عمر وكان هناك امرأة لها قرين من الجن فسأله عنه فأخبره أنه ترك عمر يسم إبل الصدقة اهـ.

وصدره - رحمه الله - بصيغة «روى » وهى مشهورة عند أهل التحقيق أنها من صيغ التمريض.

وهذا الأثر أخرجه ابن أبى الدنيا فى «الهواتف» (١٦٥). =

قلت: وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أنه لايجوز الاستعاذة في الأمور المباحة وأن الأثر الذي أورده الشيخ ضعيف.

الحال الثالثة: أن يستخدمهم في أمور محرمة، كنهب أموال الناس وترويعهم، وما أشبه ذلك، فهذا محرم، ثم إن كانت الوسيلة شركًا صار شركًا، وإن كانت وسيلته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجني الفاسق يألف هذا الإنسي الفاسق ويتعاون معه على الإثم والعدوان، فهذا يكون إثمًا وعدوانًا، ولا يصل إلى حد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من يسأل الجن، ويصدقهم في كل ما يقولون، فهذا معصية وكفر، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي، فمن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، كما ثبت ذلك عنه ﷺ(١)، وهي: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم..﴾ الآية. اهـ.

مسألة:

قال سليمان آل الشيخ(٢): فإن قلت: كيف يكون علم الخط من الكهانة؟

وقد روى أحمد ومسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ ومنا رجال يخطون، فقال: **«كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك»(٣)**.

=قال: حدثني عبد الله بن أبي بدر، حدثني يحيى بن اليمان، عن سفيان، عن عمر بن محمد، عن سالم بن عبد الله قال: أبطأ خبر عمر على أبي موسى.. فذكره بنحوه.

[قلت]: في إسناده يحيى بن يمان العجلي صدوق عابد إلا أن في روايته عن سفيان الثوري مقال، قال الساجي: ضعفه أحمد بن حنبل، وقال: حدثنا عن الثوري بعجائب لا أدري لم يزل هكذا أو تغير حين لقيناه أو لم يزل الخطأ في كتبه وروى من التفسير عن الثوري عجائب، قال إبراهيم بن الجنيد عن يحيى بن معين: ليس مثبت، لم يكن يبالي أي شيء حدث، كان يتوهم الحديث، قال: وقال وكيع: هذه الأحاديث التي يحدث بها يحيى بن يمان ليست من أحاديث الثوري - تهذيب الكمال (٣٢/ ٥٧-٥٩) وسأل عثمان بن سعيد ابن معين عن حديثه في الثوري فقال: ليس بالقوى: «شرح علل الترمذي» (ص: ٣٠٠).

وفيه علة أخرى وهي الانقطاع بين سالم وعمر - رضي الله عنه - قال العلائي: (٢١٩): ذكر أبو زرعة أن حديثه عن أبي بكر الصديق، وعن جده عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - مرسل، قال العلائيس: وهذا لا ريب فيه اهـ.

وانظر «الطب النبوي (٥٦٩- بتحقيقنا).

(١)علقه البخاري وتقدم. (٢) تيسير العزيز الحميد (٣٠٦، ٣٠٧)

(٣)[صحيح] أخرجه مسلم في المساجد (٣/ ٢٣/ ٣٣) وتقدم.

قلت سليمان: قال النووى: معناه أن من وافق خطه فهو مباح له لكن لا طريق لنا إلى العلم باليقين بالموافقة، فلا يباح والقصد أنه لا يباح إلا بيقين الموافقة وليس لنا بيقين، وقال غيره: المراد به النهى عنه والزجر عن تعاطيه. لأن خط ذلك النبى كان معجزة وعلمًا لنبوته، وقد انقطعت نبوته ولم يقل فذلك الخط حرام دفعًا لتوهم أن خط ذلك النبى حرام .

قلت - سليمان آل الشيخ -: ويحتمل أن المعنى أن سبب إصابة صاحب الخط هو موافقته لخط ذلك النبى، فمن وافق خطه أصاب، وإذا كان كذلك وكانت الإصابة نادرة بالنسبة إلى الخط، ولا طريق إلى اليقين بالموافقة صار ذلك بالنسبة إلى من يتعاطاه من أنواع الكهانة لمشاركته لها فى المعنى إذا علمت ذلك فاعلم أن مذهب الإمام أحمد أن حكم الكاهن والعرَّاف الاستتابة، فإن تابا وإلا قتلا، ذكره غير واحد من الأصحاب.

فأما المعزم الذى يعزم على المصروع، ويزعم أنه يجمع الجن وأنها تطيعه، والذى يحل السحر، فقال فى «الكافى» ذكرهما أصحابنا فى السحرة الذين ذكرنا حكمهم، وقد توقف أحمد لما سئل عن الرجل يحل السحر، فقال قد رخص فيه بعض الناس، قيل: إنه يجعل فى الطنجير ماء ويغيب فيه، فنفض يده، وقال: ما أدرى ما هذا؟! قيل له: فترى أن يؤتى مثل هذا يحل؟ قال: ما أدرى ما هذا ؟ قال: وهذا يدل على أنه لا يكفر صاحبه، ولا يقتل.

قلت سليمان: إن كان ذلك لا يحصل إلا بالشرك والتقرب إلى الجن فإنه يكفر ويقتل . ونص أحمد: لا يدل على أنه لا يكفر، فإنه قد يقول مثل هذا فى الحرام البين . اهـ.

[قلت]: وتقدم جواب ابن عثيمين عن حديث معاوية فى النبى الذى كان يخط فى الباب الماضى وسيأتى التفصيل والراجح فى حل السحر عن المسحور فى الباب القادم (ماجاء فى النشرة).



وقَالَ: ابنُ عبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ) ويَنْظُرُونَ فِي النُّجومِ : «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلاقٍ»(١).

قوله: [وقال: ابن عباس فى قوم يكتبون «أبا جاد»....إلخ].

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا الأثر ذكره المصنف عن ابن عباس، ولم يعزه .

وقد رواه الطبرانى عن ابن عباس مرفوعًا، وإسناده ضعيف، ولفظه «ربَّ مُعلمُ حُروف أبى جادٍ دارس فى النجوم ليس له عند الله من خلاق يوم القيامة» ورواه أيضًا حميد بن زنجويه عنه بلفظ «رب ناظر فى النجوم ومتعلم حروف أبى جاد ليس له عند الله خلاق»(٣).

[قلت]: وفى تضعيف الشيخ سليمان الأثر نظر فقد أخرجه عبدالرزاق فى«مصنفه» عن معمر، عن ابن طاوس عن أبيه، عن ابن عباس قال: «إن قوماً يحسبون أبا جاد، وينظرون فى النجوم ولا أرى لمن فعل ذلك من خلاف» وإسناده صحيح على شرط الشيخين والله أعلم.

قوله: «يكتبون أبا جاد وينظرون فى النجوم».

قال ابن عثيمين(٤): الواو هنا ليست عطفًا، ولكنها للحال، يعنى: والحال أنهم ينظرون، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها.

قوله: «ما أرى من فعل ذلك».

قال سليمان آل الشيخ(٥): قوله ما أرى . يجوز فتح الهمزة من أرى بمعنى لا أعلم له عند الله من خلاق : أى من نصيب، ويجوز ضمها بمعنى لا أظن ذلك لاشتغاله بما فيه من اقتحام الخطر والجهالة.

ويجوز فتح الهمزة بمعنى: أعلم، وبالضم بمعنى: ما أظن.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١١/٢٦/١٩٨٠٥) والبيهقى (٨/١٣٩) من طريق معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس. وإسناده صحيح.

وأخرجه الطبرانى فى «الكبير» من طريق خالد بن زيد العمرى، ثنا محمد بن مسلم، ثنا إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عباس مرفوعاً به قال الهيثمى فى «المجمع» (٥/١١٧): وفيه خالد بن يزيد العمرى وهو كذاب. وأنظر «فتح المجيد» (ح٥٤٣) بتخريجنا

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٠٧).

(٣) تقدم قبله.

(٤) القول المفيد (٢/٧٨، ٧٩).

(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٠٧.

وقوله: «أباجاد»

قال سليمان آل الشيخ: وادعاء علم الغيب الذى استأثر الله به، وكتابة : أبى جاد وتعلمها لمن يدعى بها معرفة علم الغيب هو الذى يسمى علم الحرف ، ولبعض المبتدعة فيه مصنف، فأما تعليمها للتهجى وحساب الجمل فلا بأس بذلك.

قال ابن عثيمين: هى: أبْجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ.. وتعلم أباجاد ينقسم إلى قسمين :

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجُمَّل، وما أشبه ذلك، فهذا لا بأس به، وما زال أناس يستعملونها ، حتى العلماء يؤرخون بها، قال شيخنا عبد الرحمن بن سعدى رحمه الله فى تاريخ بناء المسجد الجامع القديم :

جد بالرضا واعط المنى ... من ساعدوا فى ذا البنا

تاريخه حين انتهى ... قول المنيب اغفر لنا

والشهر فى شوال يا ... رب تقبل سعينا

فقوله: «اغفر لنا » لو عددناها حسب الجمل صارت ١٣٦٢هـ.

وقد اعتنى بها العلماء فى العصور الوسطى، حتى فى القصائد الفقهية والنحوية وغيرها.

ويؤرخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، ولم يُرد ابن عباس هذا القسم .اهـ.

[قلت]: قال السخاوى فى شرح منظومة ابن الجزرى (الغاية)[1]:

[الجُمَّل] وسردها، وهى تسع كلمات كل كلمة منها ثلاثة أحرف من حروف المعجم الأولى فأربعة وترتيبها الراسخ الثابت عند أهل الحساب، أن الحرف الأول من كل هذه الكلمات التسع آحاد، والثانى منها أعشار، والثالث مئات والغين وهو الحرف الرابع من الكلمة الأولى والموحدة بثنتين، والجيم بثلاثة، وهكذا والياء التحتانية بعشرة والكاف بعشرين واللام بثلاثين، وهكذا، والقاف بمائة، والراء بمائتين والشين المعجمة بثلمائة، وهكذا.

ذكر ابن الجزرى مثال ذلك :

سنَّةً (يا) النبى والصديق (جى) ... عُمَرَ (كج) عُثمانَ (هَلْ) على (لى)

(١) انظر الهداية شرح الغاية فى علم الرواية (ص١٣٥، ١٣٦) بتحقيقنا وتخريجنا.

قال السخاوى: أشار إلى تعيين وفاته ﷺ والخلفاء الأربعة رضى الله عنهم فالياء التحتانية والألف إلى أن وفاته ﷺ سنة إحدى عشرة من الهجرة فى ربيع الأول وبالجيم والتحتانية أيضًا إلى أن وفاة صاحبه وخليفته أبى بكر الصديق كانت فى سنة ثلاث عشرة.

بالكاف والجيم أيضًا إلى أن وفاة عمر بن الخطاب كانت فى سنة ثلاث وعشرين وذلك فى آخر يوم من ذى الحجة شهيدًا.

وبالهاء واللام إلى أن وفاة عثمان بن عفان كانت فى سنة خمس وثلاثين وذلك فى ذى الحجة أيضًا شهيدًا وباللام والتحتانية إلى أن وفاة على بن أبى طالب كانت فى سنة أربعين، وذلك فى رمضان شهيدًا .

واستعمل فيه تلفيق الأربعين من الحرفين مع الاستغناء عنهما بالميم للضرورة كما أشرت إليه أولاً.

ثم قال ابن عثيمين(١):

الثانى: محرم، وهو كتابة «أباجاد» كتابة مربوطة بسير النجوم وحركتها وطلوعها وغروبها، وينظرون فى النجوم ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما سيحدث فى الأرض، إما على سبيل العموم، كالجَدْب والمرض والحرب وما أشبه ذلك، أو على سبيل الخصوص، كأنه يقول لشخصك سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس فى هذا وما أشبه ذلك، فهم يربطون هذه بهذه، وليس هناك علاقة بين حركات النجوم واختلاف الوقائع فى الأرض. اهـ.

وقوله: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق».

قوله: «خلاق»:

قال ابن عثيمين(٢): أى نصيب .

ظاهر كلام ابن عباس أنه يرى كفرهم، لأن الذى ليس له نصيب عند الله هو الكافر، إذ لا ينفى النصيب مطلقًا عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عُذِّب بقدر ذنوبه، أو تجاوز الله عنها، ثم صار آخر أمره إلى نصيبه، الذى يجده عند الله.

[قلت]: وتقدم معنى الخلاق فى باب «ما جاء فى السحر» فى تفسير قوله تعالى : **﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق﴾**.

---

(١) القول المفيد (٢/ ٧٨، ٧٩).

(٢) القول المفيد ٢/ ٨٠.

قوله : «وينظرون فى النجوم»:

قال سليمان آل الشيخ(١): قوله: وينظرون فى النجوم هذا محمول على علم التأثير لا التسيير، كما سيجىء فى باب التنجيم، وفيه عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم، كما قال تعالى : ﴿**فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون**﴾ .

قال ابن عثيمين(٢): ولم يبين المؤلف رحمه الله حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة فى الدنيا، وذلك أننا إن حكمنا بكفرهم، فحكمهم فى الدنيا أنهم يستتابون، فإن تابوا، وإلا، قتلوا كفاراً.

وإن حكمنا بعدم كفرهم، إما لكون السحر لا يصل إلى الكفر، أو قلنا: إنهم لا يكفرون ، لأن المسألة فيها خلاف، فإنه يجب قتلهم لدفع مفسدتهم ومضرتهم، حتى وإن قلنا بعدم كفرهم ، لأن أسباب القتل ليست مختصة بالكفر فقط، بل للقتل أسباب متعددة ومتنوعة، قال تعالى : ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض**﴾ فكل من فسد على الناس أمور دينهم أو دنياهم، فإنه يستتاب ، فإن تاب، وإلا قتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام.

والنظر فى النجوم ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يستدل بحركاتها وسيرها على الحوادث الأرضية، سواء كانت عامة أو خاصة، فهو شرك إن اعتقد أن هذه النجوم هى المدبرة للأمور، أو أن لها شركًا، فهو كفر مخرج عن الملة، وإن اعتقد أنها سبب فقط، فكفره غير مخرج عن الملة، ولكن يسمى كفراً، لقول النبى ﷺ على إثر سماء كانت من الليل: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال: قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، أما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب**»(*).

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلى قسمين بحسب اعتقاد قائله.

الثانى: أن يتعلم علم النجوم ليستدل بحركاتها وسيرها على الفصول وأوقات البذر والحصاد والغرس وما أشبهه ، فهذا من الأمور المباحة، لأنه يستعان بذلك على أمور دنيوية.

القسم الثالث: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات وجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة، فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية أو فرض عين.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٨.
(٢) القول المفيد ٢/ ٨٠، ٨١.
(*) سيأتى تخريجه.

فيه مسائل

الأولى: أنَّه لا يَجْتَمِعُ تَصْدِيقُ الكَاهِنِ مَعَ الإِيمَانِ بِالقُرآنِ.

الثانية: التَّصْرِيح بِأَنَّهُ كُفْرٌ.

فصل

ما جاء في أجر الكاهن، والرمال، والعراف، والمنجم، والضارب بالحصى.

أخرج البخاري[1]: عن أبي مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي، وحلوان الكاهن».

قال الحافظ[2]: «حلوان الكاهن هو حرام بالإجماع، لما فيه من أخذ العوض على أمر باطن، وفي معناه التنجيم والضرب بالحصى وغير ذلك مما يتعاناه العرافون من استطلاع الغيب.

والحلوان: مصدر حلوته إذا أعطيته، وأصله من الحلاوة، شُبه بالشيء الحلو من حيث أنه يأخذه سهلاً بلا كلفة ولا مشقة، يقال: حلوته إذا أطعمته الحلو، والحلوان أيضًا الرشوة، والحلوان أيضًا أخذ الرجل مهر ابنته لنفسه .اهـ.

[قلت]: إنما أردت في هذا الفصل الإمعان في حرمة الكهانة والعرافة والتنجيم، وغيرها ولبيان حرمة الأجر أيضًا الذي يتعاطاه هؤلاء، وحرمة هذا الحلوان على الآخذ والمعطي .

فعلى هذا : فالذي يذهب للكاهن أو العراف أو الدجال بالثمن قد ارتكب محرمين : (الأول) الإتيان . (الثاني): دفع الحلوان . فإذا ضم إلى ذلك تصديقه فقد كفر، والله نسأل صلاح أحوال المسلمين ودفع الأذى عنهم.

قوله: فيه مسائل:

● **الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.**

قال ابن عثيمين[3]:

يؤخذ من قوله : **«من أتى كاهنًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد»** ووجهه : أنه كذَّب بالقرآن، وهذا من أعظم الكفر.اهـ.

[قلت]: لأن القرآن إن كنت مصدقاً به فلابد وأن تكذب الكاهن، وإن كنت مصدقاً للكاهن فسوف تكون بلك مكذباً للقرآن الذي نص على أنه لايعلم الغيب إلا الله وحده لا شريك له.

● **الثانية: التصريح بأنه كفر**: تؤخذ من قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد».

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) فتح الباري (٤/٤٩٨). (٣) القول المفيد ٢/ ٨٢: ٨٤.

الثالثة: ذِكْرُ مَنْ تُكُهِّنَ لَهُ.

الرابعة: ذِكْرُ مَ تُطُيِّرَ لَهُ.

الخامسة: ذِكْرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ.

السادسة: ذِكْرُ مَنْ تَعَلَّمَ أَبَا جَادٍ.

السابعة: ذِكْرُ الفَرْقِ بَيْنَ الكَاهِنِ وَالعَرَّافِ.

● **الثالثة: ذكر من تُكهن له:** تؤخذ من حديث عمران بن حصين، حيث قال: «ليس منا» ، أى: إنه كالكاهن فى براءة النبى ﷺ منه.

● **الرابعة: ذكر من تطير له:** تؤخذ من قوله: «أو تطير له».

● **الخامسة: ذكر من سحر له.** تؤخذ من قوله: «أو سُحر له».

وأتى المؤلف بذكر من تكهن له ، أو سحر له، أو تطير له، لأنه قد يعارض فيه معارض، فيقول هذا فى الكهان ، وهذا فى المتطيرين، وهذا فى السحرة، فقال: إن من طلب أن يفعل له ذلك، فهو مثلهم فى العقوبة.

● **السادسة: ذكر من تعلم أباجاد.** وتعلم ذلك فيه تفصيل لا يحمد ولا يذم، إلا على

● **السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.**

وفى هذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: أن العراف هو الكاهن، فهما مترادفان، فلا فرق بينهما.

القول الثانى: أن العراف هو الذى يستدل على معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها، فهو أعم من الكاهن، لأنه يشمل الكاهن وغيره، فهما من باب العام والخاص.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقدمات يستدل عليها والكاهن هو الذى يخبر عما فى الضمير ، أو عن المغيبات فى المستقبل.

فالعراف أعم، أو أن العراف يختص بالماضى، والكاهن بالمستقبل، فهما متباينان، والظاهر أنها متباينان، فالكاهن من يخبر عن المغيبات فى المستقبل والعراف من يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك .



٢٦ بابٌ ما جاءَ فى النشرة

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:-**

قال سليمان آل الشيخ[1]:- لما ذكر المصنف حكم السحر والكهانة ذكر ما جاء فى النشرة، لأنها قد تكون من قبل الشياطين والسحرة، فتكون مضادة للتوحيد، وقد تكون مباحة، كما سيأتى تفصيله.

[قلت]: لما كانت النشرة حل السحر عن المسحور ولايكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر ناسب أن تذكربعد أبواب الكهانة والسحر ولأن الجميع قد يستعينون فى ذلك بالشياطين فيقعون من ذلك فى شرك.

وقد تقدم فى مناسبة الباب الماضى أن المصنف لما ذكر شيئاً مما يتعلق بالسحر، ذكر ما يتعلق بالكهان وغيرهم كالعراف لمشابه هؤلاء بالسحرة، ولما كانت النشرة ضرب من ضروب السحر ناسب أن تذكر بعد هذه الأبواب، وإن كان الأولى أن توضع قبل الباب الماضى.

ولأن باب ماجاء فى النشرة أليق والصق بالسحر من باب ماجاء فى الكهان فالمناسب أن يعم ثم يفصل ثم يخص النشرة فيقال باب ماجاء فى السحر على الإجمال ثم على التفصيل فى باب بيان شىء من أنواع السحر ثم يخص النشرة لأهميتها وإنتشارها ثم يأتى باب ماجاء فى الكهان لأنه أليق بالباب الذى سيأتى وهو باب ماجاء فى التطير لأنهما يجتمعان فى أن كل من المتطير والمتكهن يتحاكمان إلى غير الله إلى شىء خفى ينشدون من وراءه أمراً غيبى فى بهذا تنسجم الأبواب وتترتب فى الأذهان.

وأيضاً فإن هذه الأبواب فى الكهانة والسحر والنشرة بينها عموم حيث تجتمع جميعاً فى الاعتماد على أشياء خفية وهى فى الغالب جاهلية. والله أعلم.

● **مناسبة الباب لكتاب التوحيد:-**

قال عبدالله بن جار الله[2]:- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: هى أن بعض أنواع النشرة من حل السحر وهو لا يحصل غالباً إلا بالشرك المنافى للتوحيد.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٨.

(٢) الجامع الفريد ١١١.

- **شرح الترحمة والتبويب.**

قلت: ترجمة الباب من باب عطف البيان والله أعلم

- **تعريف النشرة:**

قال ابن عثيمين: لغة:- بضم النون: فُعْلَة من النشر وهو التفريق[(١)].

وقال عبدالله بن جار الله[(٢)]:- الكشف والإزالة.

قلت: وكلاهما واحد لأن النشـرة إذا قلنا أنها من النشر والتفريق فـبالنشرة يفرق عن المسحور والسحر وينتشر عنه.

وإذا قلنا أنه مـن الكشف والإزالة فبالنشـرة يكشف عن المسحور الـسحر ويز ال عن المسحور السحر فكلاهما مؤداه واحد.

وشرعاً:-

قال سليمان آل الشيخ[(٣)]:- قال أبو السعادات: النشرة ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من كان يظـن أن به مساً من الجن، سميت نشرة لأنه ينشـر بها عنه ما خامره من الداء: أى يكشف ويزال.

وقال الحسن: النشرة من الـسحر، وقد نشرت عنه تنشيراً، ومنه الحـديث «فَلَعَلَّ طُباً أَصَابَهُ ثُمَّ نُشِرهُ بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾: أى رقاه.

وقال غيره: ونشره أيضاً إذا كتب له النشرة، وهى كالتعويذ والرقية.

وقال ابن الجـوزى: النشرة حـل السحر عن المـسحور، ولا يكـاد يقدر علـيه إلا من يعرف السحر.

قال السعدى:[(٤)]- هو حل السحر عـن المسحور، ذكر فيه المصنف كـلام ابن القيم فى التفصيل بين الجائز منه والممنوع وفيه كفاية.

وذكر نحو ذلك **ابن باز** وعبدالله بن جار الله **وابن عثيمين** وزاد ابن باز فقـال: يقال نشر عنه إذا حل ما أصابه وزاد ابن عثيمين : لأن هذا الذى يحل السحر عن المسحور: يرفعه ، ويزيله، ويفرقه.

---

(١) القول المفيد ٢/ ٨٥.
(٢) الجامع الفريد ١١١.
(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠٨.
(٤) القول السديد ٧٩.

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ). رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ،قَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ: ابنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ»(١).

حكمها:

قال ابن عثيمين(٢):- أما حكمها؛ فهو يتبين مما قاله المؤلف ـ رحمه الله ـ، وهو من أحسن البيانات.

ولا ريب أن حل السحر عن المسحور من باب الدواء والمعالجة، وفيه فضل كبير لمن ابتغى به وجه الله، لكن فى القسم المباح منها.

لأن السحر له تأثير على بدن المسحور وعقله ونفسه وضيق الصدر، حيث لا يأنس إلا بمن استعطف عليه.

وأحياناً يكون أمراضاً نفسية بالعكس، تنفر هذا المسحور عمن تنفره عنه من الناس، وأحياناً يكون أمراضاً عقلية؛ فالسحر له تأثير إما على البدن، أو العقل، أو النفس. أهـ

قلت: كأن ابن عثيمين أحال الحكم على كلام ابن القيم الآتى فى المتن أنه إذا كانت النشرة حل السحر بالسحر فهى حرام، وإما إذا كانت بغير سحر فمباحة، وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه.

قوله :[قال: عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال: هى من عمل الشيطان]

قال سليمان الشيخ(٣):- هذا الحديث رواه أحمد، ورواه عنه أبو داود فى «سننه» والفضل بن زياد فى كتاب «المسائل» عن عبدالرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن عمه وهب بن منبه عن جابر، فذكره. قال ابن مفلح: إسناد جيد، وحسن الحافظ إسناده، ورواه ابن أبى شيبة، وأبو داود فى المراسيل عن الحسن رفعه **«النشرة من عمل الشيطان»**.(٤).

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» ، وأبو داود فى الطب/ باب فى النشرة (٤/ ٥/ ٣٨٦٨) من طريق عبدالرزاق قال: حدثنا عقيل بن معقل قال: سمعت وهب بن منبه يحدث عن جابر .. فذكره وانظر «فتح القدير (ح ٥٤٧) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/ ٨٥.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠٩.

(٤) أخرجه أبو داود فى «المراسيل» (٤٥٣) عن الحسن مرسلاً.

قلت: ولعل المصنف تابع الحافظ وابن مفلح على تحسين الحديث .

- مناسبة الحديث للباب:-

قال القرعاوى[1]: حيث دل الحديث على تحريم النشرة. أهـ

[قلت] مناسبة الحديث للباب ظاهرة، حيث أن الباب فى النشرة والحديث فيه السؤال عن حكم النشرة وحقيقتها.

- مناسبة الحديث للتوحيد:-

قال القرعاوى[2]:- حيث دل الحديث على تحريم نشرة الجاهلية التى لا تتم إلا بالشرك. أهـ

[قلت] وهذا كلام جيد، لأن قوله (نشرة جاهلية) معناه أن هناك نشرة إسلامية كما سيأتى.

وعلى هذا فالنشرة الجاهلية من عمل الشيطان، وأما النشرة الإسلامية فلا دخل للشيطان فيها ولايدخلها شرك.

قوله: «عن جابر أنَّ رسول الله سُئِل عن النُّشرة؟»

قال سليمان آل الشيخ[3]:-

قوله: سئل عن النشرة؛ الألف واللام فى النشرة للعهد: أى النشرة المعهودة التى كان أهل الجاهلية يصنعونها، هى من عمل الشيطان، لا النشرة بالرقى والتعوذات الشرعية والأدوية المباحة، فإن ذلك جائز كما قرره ابن القيم فيما سيأتى.

وشرح ذلك ابن عثيمين فقال: [4]:- قوله فى حديث جابر «سئل عن النشرة»

أل للعهد الذهنى؛ أى: المعروفة فى الجاهلية التى كانوا يستعملونها فى الجاهلية، وذلك طريق من طرق حل السحر.

ثم ذكر أنواعها فقال: وهى على نوعين:

الأول: أن تكون باستخدام الشياطين، فإن كان لا يصل إلى حاجته منهم إلا

---

(١) الجديد ٢٤٦.

(٢) الجديد ٢٤٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠٩.

(٤) القول المفيد ٢/٨٦ و ٨٧.

بالشرك؛ كانت شركاً، وإن كان يتوصل لذلك بمعصية دون الشرك؛ كان لها حكم تلك المعصية.

الثاني: أن تكون بالسحر؛ كالأدوية والرُّقى والعُقَد والنَّفْث وما أشبه ذلك؛ فهذا له حكم السحر على ما سبق.

[قلت] فعلى هذا فإن استخدام الشياطين إما شرك، وإما معصية - فإذا كانت النشر باستخدام الشياطين، والشياطين لا يخدمون إلا بالشرك - فهو شرك، وإن كانت الشياطين لايخدمون إلا بمعصية فهى معصية، لهاحكم المعصية.

ثم قال: ومن ذلك ما يفعله بعض الناس، أنهم يضعون فوق رأس المسحور طستاً فيه ماء ويَصبُّون عليه رصاصاً ويزعمون أن الساحر يظهر وجهه فى هذا الرصاص؛ فيستدل بذلك على من سحره، وقد سئل الإمام أحمد عن النشرة، فقال إن بعض الناس أجازها، فقيل له: إنهم يجعلون ماء فى طَسْت، وإنه يغوص فيه، وإنه يبدو وجهه، فنفض يده وقال: ما أدرى ما هذا؟ ما أدرى ما هذا؟ فكأنه رحمه الله توقف فى الأمر وكره الخوض فيه. أهـ

قوله: فقال «هو من عمل الشيطان».

قال ابن عثيمين[1]:- أى: من العمل الذى يأمر به الشيطان ويوحى به؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء ويوحى إلى أولياءه بالمنكر، وهذا يغنى عن قوله: إنها حرام، بل هو أشد؛ لأن نسبتها للشيطان أبلغ فى تقبيحها والتنفير منها، ودلالة النصوص على التحريم لا تنحصر فى لفظ التحريم أو نفى الجواز، بل إذا رُتبت العقوبات على الفعل كان دليلاً على تحريمه. أهـ

قلت: فإن قوله ﴿هومِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ ربما يكون الزجر أبلغ إذا عرفت أن ورائها عدو لك هو الشيطان.

ودلائل النصوص لاتنحصر فى ذلك بل أساليب القرآن فى طلب الكف عن الفعل كثيرة من ذلك.

١- صريح النهى، كقوله تعالى ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[2].

(١) القول المفيد ٢/ ٨٧.

(٢) النحل: ٩٠

٢- التحريم، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ﴾(١) و﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾(٢)

٣- عدم الحل، كقوله تعالى: ﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾(٣).

٤ـ صيغة النهى، وهى المضارع المسبوق بلا الناهية، أو فعل الأمر الدال على طلب الكف، مثل: دَعْ، وذَرْ، واجتنب كقوله ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٤) وقوله ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾(٥) وقوله ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾(٦).

٥ـ نفى البر عن الفعل، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾(٧).

٦ـ نفى الفعل، كقوله تعالى ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾(٨).

٧ـ ذكر الفعل مقروناً باستحقاق الإثم، كقوله تعالى﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾(٩).

٨ـ ذكر الفعل مقروناً بوعيد، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١٠).

٩ـ وصف الفعل بأنه شر كقوله ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾(١١).

١٠ـ التعبير بنفى الصحة بلفظ ماكان، كقوله تعالى﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾(١٢).

١١ـ الاستفهام الإنكارى فى بعض المواضع كقوله ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾(١٣).

(١) الأعراف: ٣٣ — (٢) النور: ٣٢ — (٣) النساء: ١٩
(٤) الإسراء: ٣٤ — (٥) الأنعام: ١٢٠ — (٦) الأحزاب: ٤٨
(٧) البقرة: ١٧٧ — (٨) البقرة " ١٩٣ — (٩) البقرة: ١٨١
(١٠) التوبة: ٣٤ — (١١) آل عمران: ١٨٠ — (١٢) التوبة: ١٧
(١٣) البقرة: ٤٤

١٢ ـ ذكر الفعل مقروناً بعقوبة نصية كقوله ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ﴾(١).

١٣ـ الحكم على الفعل بأنه كفر، أوظلم ، أو فسق كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(٢)و﴿الظَّالِمُونَ﴾و﴿لْفَاسِقُونَ﴾(*).

قوله: «رواه أحمد بسند جيد وأبو داود»

قال ابن عثيمين(٣):ـ

سند أبي داود إلى أحمد متصل؛ لأنه قد حدثه وأدركه. أهـ

قلت: لأن الإمام أحمد من مشايخ الإمام أبي داود له كتاب في مسائل الإمام أحمد فالبخاري وأبو داود من تلاميذ الإمام أحمد والترمذي من تلميذ البخاري إذاً الإمام أحمد شيخ شيخ الترمذي.

قوله «سُئِل أحمد عنها فقال ابن مسعود: يكره هذا كله».

قلت: وذلك لأنه جاء عن ابن القيم في «إعلام الموقعين» أنه رتب مصادر الفقه عند الإمام أحمد فكان على رأس الأدلة الكتاب والسنة ثم بعد الكتاب والسنة: والإجماع ثم قول الصحابة إذا اجتمعوا ثم بعد ذلك إذا تفرقوا ـ إختلفوا ـ يأخذ أقرب هذه الأقوال إلى الدليل ثم بعد ذلك القياس فلم أفتاى بقول ابن مسعود دل ذلك أنه ليس عنده دليل صحيح.

إشكال: إذا كان الإمام أحمد هو راوي الحديث نفسه أن النشرة من عمل الشيطان فكيف لم يكن عنده دليل وكيف يعدل عن الحديث إلى قول ابن مسعود؟

قال الفقير: يجاب عنه بأجوبة

١ـ أن يقال أنه أجابه قبل أن يبلغه الحديث فلم يكن عنده في هذا الوقت في هذه الساعة هذا الحديث فلذلك أجاب بقول ابن مسعود.

٢ـ أنه لعله كان عنده هذا الحديث لكن لم يـر صحته فأتى بقول الصحابي الأصح عنده.

---

(١) المائدة : ٣٨ (٢) المائدة : ٤٤ـ ٤٧

(٣) القول المفيد ٢/ ٨٧.

(*) وانظر «تاريخ التشريع الإسلامي» للدكتور مناع القطان نقلاً عن «تاريخ التشريع» للخضرى.

٣ـ أو لعل السائل كان يعلم أن فى المسألة حديثاً فأراد شيئاً آخر بخلاف الحديث فقال له الإمام أحمد عبدالله بن مسعود كان يكره ذلك كله.

٤ـ أولعله لم يصح هذا الحديث عنده فأراد أن يبين أن أصله صحيح وأن المعنى صحيح لأنه جاء عن ابن مسعود هذا النهى ولم يعلم له مخالف فمعناه صحيح. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ(١):-

قوله: وقال: سئل أحمد عنها فقال ابن مسعود: يكره هذا كله مراد أحمد، والله أعلم أن ابن مسعود يكره النشرة التى من عمل الشيطان والنشرة التى بكتابة وتعليق كالتمائم، فإن ابن مسعود كان يكره التمائم كلها من القرآن وغير القرآن، أما النشرة بالتعويذ والرقى بأسماء الله وكلامه من غير تعليق فلا أعلم أحداً كرهه، وكذلك ما رواه ابن أبى شيبة عن إبراهيم: كانوا يكرهون التمائم والرقى، والنشر محمول على ما ذكرنا.

[قلت]: ويؤيد ذلك قول ابن مسعود لامرأته حينما وجدها معلقة خيطاً رقى لها فيه فنهاها ووصف هذا الفعل بالشرك ووصاها بما جاء عن الرسول ﷺ اللهم رب الناس أذهب البأس واشف أنت الشافى، لاشفاء إلا شفاؤك، شفاءً لايغادر سقماً(٢).

قال ابن عثيمين(٣):- قوله: «فقال: ابن مسعود يكره هذا كله».

أجاب ـ رحمه الله ـ بقول الصحابى، وكأنه ليس عنده أثر صحيح عن النبى ﷺ فى ذلك، وإلا لاستدل به.

إشكال وجواب: ثم قال وجواب المشار إليه فى قوله: «يكره هذا كله» كل أنواع النشرة، وظاهره: ولو كانت على الوجه المباح على ما يأتى، لكنه غير مراد؛ لأن النشرة بالقرآن والتعوذات المشروعة لم يقل أحد بكراهته، وسبق أن ابن مسعود رضى الله عنه كان يكره تعليق التمائم من القرآن وغير القرآن.

وعلى هذا؛ فالكلية فى قول أحمد: «يكره هذا كله» يراد بها النشرة التى من عمل الشيطان، وهى النشرة بالسحر والنشرة التى من التمائم.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٩.
(٢) تقدم تخريجه
(٣) القول المفيد ٢/ ٨٧ و ٨٨.

وَفى «البُخَارِىّ» عَنْ قَتَادَةَ : «قُلْتُ لابْنِ المُسَيَّب رَجُلٌ به طِبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَن امرأَته ، أيُحلُّ عنْهُ أَوْ يُنْشرَ ؟ قَالَ: لا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ»(١).

وقوله: «يكره».

الكراهة عند المتقدمين يراد بها التحريم غالباً، ولا تخرج عنه إلا بقرينة، وعند المتأخرين خلاف الأولى؛ فلا تظن أن لفظ المكروه فى عرف المتقدمين أو كلامهم مثله فى كلام المتأخرين، بل هو يختلف، انظر إلى قوله تعالى: **﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾**، إلى أن قال بعد أن ذكر أشياء محرمة: **﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾**، ولا شك أن المراد بالكراهة هنا التحريم.

قلت: والسبب عند أبى حنيفه على وجه الخصوص وعند الشافعى فى أنهما كانا لايقولان على الحرام حرام ولكن يقولان مكروه تورعاً من الوقوع فى خلاف قوله تعالى **﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لايفلحون﴾**

أنظر إلى تورع الأئمة بجلالة قدرهم أنه يخافوا أن يقولوا هذا حرام من الحرام الذى عليه دليل ولكن ليس دليل قطعى بل دليل ظنى عند أبى حنيفة فلا يقدر أن يقول حرام ولكن يقول مكروه حتى كان المكروه عنده منزلة أقل من الحرام عند الجمهور وفوق المكروه وهو ماثبت حرمته بدليل ظنى بخبر الآحاد وخبر الأحاد هو الحديث الذى ثبت بطريق واحد حتى ولو فى صحيح البخارى.

فبرغم ثبوت الحرمه لم يقل عليه حرام وقال عليه مكروه لكى لايقع فى خلاف قوله تعالى **﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لايفلحون﴾**.

---

(١) علقه البخارى فى الطب/ باب هل يستخرج السحر (١٠/٢٤٣ ـ الفتح)

قال الحافظ: فى «الفتح» (١٠ / ٢٤٤) وصله أبو بكر الأثرم فى «كتاب السنن» من طريق أبان العطار، عن قتادة ومثله ـ طريق هشام الدستوائى عن قتادة.. قال : وأخرجه الطبرى فى «التهذيب» عن طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المبيد. أهـ.

وأنظر «فتح المجيد» (ح٥٤٨) بتخريجنا

وانظر إلى واقعنا تجد أن كلمة حرام وحلال منتشرة للغاية وهو لايعلم أنه يكذب على الله ليس كذب على الناس فقط بل هو كذب على الله عزوجل.

قوله: [وفى البخارى عن قتادة: قلت لابن المسيب رجل به طب أو يؤخذ. إلخ

هذا الأثر رواه البخارى تعليقاً فى كتاب الطب باب. هل يستخرج السحر؟

قال ابن حجر(١):- وصله أبو بكر الأثرم فى «كتاب السنن» من طريق أبان العطار عن قتادة ومثلـه من طريق هشام الدستوائى عـن قتادة بلفظ **«يلتمس من يداويه؟؛ فقال: إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع»** وأخرجه الطبرى فى (التهذيب) من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد ابن المسيـب أنه كان لا يرى باساً إذا كان بالرجل سحر أن يمشى إلى من يطلق عنه، فقال: هو صلاح. أهـ

- مناسبة الأثر للباب:-

قال القرعاوى(٢):- حيث أفاد الأثر أن سـعيد بن المسيب يرى جـواز حل السحر عن المسحور. أهـ

قوله: «عن قتادة».

قال سليمان آل الشيخ(٣):-

قوله: عن قتادة هو ابن دعامة بكسر الدال السدوسى البصرى ثقة ثبت فقيه من أحفظ التابعين، يقال إنه ولد أكمه مات سنة بضع عشرة ومائة.

قلت: غالباً ماتجد العلماء عند الولادة هكذا وتكون هذه آية على أنه لايكون عنده الحواس التى يستطيع بها الإنسان أن يُحصّل العلم كما يُحصل الإنسان السميع البصير، ومع ذلك يكون آية فى العلم أكثر من الإنسان السـميع البصير كما قيل فى البخارى أنه وُلد أعمى، نعم بعد ذلك دعت له أمه فاستُجيب لها فأبصر ثم صار الإمام البخارى.

قوله: «قلت لابن المسيب رجُلٌ به طب»

قال ابن حجر(٤): **«قوله: «به طب» بكسر الطاء أى السحر. أهـ**

قال سليمان آل الشيخ(٥):-

يقال: طب الرجل بالضم إذا سحر ويقال: كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً، كما قالوا

(١) الفتح ٢٤٤/١٠.
(٢) الجديد ٢٤٧.
(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠٩.
(٤) الفتح ٢٤٤/١٠.
(٥) تيسير العزيز الحميد.

للديغ: سليم، وقال ابن الأنبارى: الطب من الأضداد يقال لعلاج الداء: طب، والسحر من الداء، يقال له: طب.

قلت: كما فى الصحيح من حديث أبى سعيد حين مرهو وأصحابه فى اهـ سفر على قوم فقالوا: «إن سيدنا سليم فهل معكم راقى»(*) وأطلقوا على المريض اسم السليم تفاؤلاً

وذكر ذلك ابن عثيمين بأسلوبه فقال(١):- قوله: «رجل به طب».

أى: سِحْر، ومن المعلوم أن الطب هو علاج المرضى، لكن سمى السحر طباً من باب التفاؤل، كما سمى اللديغ سليماً والكسير جبيراً.

قلت: كما يقال للمريض فى الواقع الآن: إذا سئل عنه: هو بعافيه.

قوله: «أو يؤخذ عن إمرأته»

قال ابن حجر(٢):- قوله (أو يؤخذ) بفتح الواو مهموز وتشديد الخاء وبعدها معجمه أى يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها، والأخذة بضم الهمزة: هى الكلام الذى يقوله الساحر، وقيل خرزة يرقى عليها، أو هى الرقية نفسها.

قال ابن عثيمين(٣):-

والعجيب أنه مشتهر عند الناس أنه إذا كان عند العقد، وعقد أحد عقدة عند العقد؛ فإنه يحصل حبسه عن امرأته، وبالغ بعضهم؛ فقال: إذا شبك أحدهم بين أصابعه عند العقد حبس الزوج عن أهله، وهذا لا أعرف له أصلاً.

قلت: سواء كان هكذا أوهكذا إذا نوى بالتشبيك السحر فهو حرام وإن لم سحر لأن من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر وإن لم يقصد السحر فإن كان هذا التشبيك ليس سحر وقصد به السحر له حكم الساحر فالأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى وكذلك إن أتى سحراً ولم يقصد به السحر فقد سحر لأن النبى أطلق كما تقدم أن من عقدة عقدة ونفث فيها فقد سحر ولم يقل ونوى السحر حتى ولو كان ينوى هزار ولعب فهو قد بسحركما تقدم فى باب بيان شىء من أنواع السحر فكذلك ههنا إذا علم أن تشبيك الأصابع يسحر أو يأخذ الرجل عن إمراته وفعل ذلك بهذا القدر فقد سحر.

(*) تقدم تخريجه (١) القول المفيد ٢/ ٣٠٩. (٢) الفتح ١٠/ ٢٤٤.

(٣) القول المفيد ٢/ ٨٩.

ثم قال ابن عثيمين ولكن كثيراً ما يقع حبس الزوج عن زوجة ويطلبون العلاج.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن من العلاج أن يطلقها، ثم يراجعها؛ فينفك السحر.

لكن لا أدرى هل هذا يصح أم لا؟ فإذا صح؛ فالطلاق هنا جائز؛ لأنه طلاق للاستبقاء، فيطلق كعلاج، ونحن لا نفتى بشيء من هذا، بل نقول: لا نعرف عنه شيئاً.

قلت: أين من أفتى بهذا مع قوله ﷺ فى فضل قراءة البقرة: «قراءتها بركة وتركها حسرة ولايستطيعها البطلة»[1] أى السحرة والحديث عند مسلم وسيأتى وهى مجربة مجربة سورة البقرة فهلا أمربها ووصابها ودعا إليه خير من أن يأمر أو يفتى بالطلاق وهذا أمره محتمل أو ظن مستبعد وقوع الحل ووقوع العلاج بالطلاق فكيف يأخذ بالظن المستبعد ويترك اليقينى المجرب وهو سورة البقرة لكن لعل من أفتى بذلك أو عمل بهذه الفتوى أخشى أن يقع فى شرك لأنه نظر إلى أن الساحر قصد بهذا السحر التفريق كما قال تعالى ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ فهو قال الساحر طائعاً له وطائعاً لشيطانه إننا سنطلق فإذا طلق بهذا يحصل ويقع مرادا الساحر فينحل السحر وينفك لكن أنحل بطريقة غير شرعية لاترضى رب البرية وإنما ترضى الشاطين والمسالك الجاهلية وأخشى أنه يقع فى شرك بسبب ذلك.

لأنه إنما فعل ما فعل إرضاءً لشيطان وليس طاعة للشيطان وإذا قال إنما أنا أطيع الرحمن نقول بل الرحمن أوحى إلى نبيه ﷺ أن قراءة سورة البقرة قراءتها بركة وتركها حسرة .. ولايستطيعها البطلة فهلا أخذ بذلك بدلاً من أن يلبى مطالب الشياطين كما يفعل أولياؤهم.

فالزار فى الحقيقة والذبح هذا إنما تلبية لرغبات إبليس، فالشيطان يريد هذا ذلك ويحبه فيفعلون له ما يريد، وبعده ينحل السحر أو يهدأ المسحور أو يتفق الناس مع بعضهم، أو تنحل المشاكل التى يعانون منها.

فما الفرق بين هذا، وبين أن يطلق امرأته تلبية لرغبات إبليس، ليس هناك فرق .

ولإن الشيخ بن عثيمين يدرى أن هذه المسألة ليست مريحة، لذلك قال فى آخر كلامه: «ونحن لانفتى بشىء من هذا، بل نقول لانعرف عنه شيئاً» وهذا من الشيخ - حفظه الله فراسة وبعد نظر، لأنه سيأتى ضعيف العقل، ويقول : بأن الشيخ قد أفتى بهذا، وليس نقل هذا ، لكن أفتى بهذا ونقل هذا وأجاز هذا، ومن الممكن أن تطلقها.

---

(١) تقدم تخريجه

ثم قال ابن عثيمين: و«أو» فى قوله: «أو يؤخذ» يحتمل أنها للشك من الراوى: هل قال قتادة «به طب» أو قال: «يؤخذ عن امرأته»؟

أى: أو قلت: يؤخذ، ويحتمل أن تكون للتنويع، أى أنه سأله عن أمرين: عن المسحور، وعن الذى يؤخذ عن امرأته.

قلت:لراجح التنويع لأن النشرة تطلق على جميع أنواع السحر سواء الأخذ عن المرأة، أو الربط، أو الحبس عنها، وعن مطلق السحر لكن سيأتى فى صفة النشرة ما يفيد أنها للشك.

قوله: «أيحل عنه أو «ينشر»

قال ابن حجر[(١)]:-

قوله **(أويحل عنه)** بضم أوله وفتح المهملة.

قوله **(أو ينشر)** بتشديد المعجمة من النشرة بالضم وهى ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحراً أو مساً من الجن، قيل لها ذلك لأنه يكشف بها عنه ما خالطه من الداء، ويوافق قول سعيد بن المسيب ما تقدم فى «باب الرقية» فى حديث جابر عند مسلم مرفوعاً «من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل»[(٢)]

قلت: فكأن سعيد بن المسيب فهم من هذا الحديث أنه إنما نهى عما يضر أماما ينفع فلم ينه عنه أهـ. ويؤيد مشروعية النشرة ما تقدم فى حديث «**العين حق**»[(٣)] فى قصة اغتسال العائن .

قلت: لانها صورة من صور النشرة الشرعية أهـ

وقد أخرج عبدالرزاق من طريق الشعبى قال: لا بأس بالنشرة العربية التى إذا وطئت لا تضره، وهى أن يخرج الإنسان فى موضع عضاه فيأخذ عن يمينه وعن شماله من كل ثم يدقه ويقرأ فيه ثم يغتسل به. وذكر ابن بطال أن فى كتب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسى والقواقل.

قلت: وربما كانت للمعوذتين والاخلاص.

---

(١) الفتح ١٠/ ٢٤٤ و ٢٤٥.

(٢) تقدم تخريجه (٣) تقدم تخريجه

ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به فإنه يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله، أهـ

وممن صرح بجواز النشرة المزنى صاحب الشاقعى وأبو جعفر الطبرى وغيرهما ثم وقفت على صفة النشرة .

قلت: حذر ابن باز من هذه النشرة لاحتمال أن يكون أخذها من أهل الكتاب

صفة النشرة

قال ابن حجر ففى «كتاب الطب النبوى» لجعفر المستغفرى قال: وجدت فى خط نصوح بن واصل على ظهر جزء من «تفسير قتيبة بن أحمد البخارى»

قلت: وهذه الرواية تفيد أن هذا شك من الرواى، لأنه قال : رجل به طب أخذ عن امرأته، وفسر الطب بأنه أخذ عن امرأته. أهـ

قال: قال قتادة لسعيد بن المسيب: رجل به طب أخذ عن امرأته أيحل له أن ينشر؟ قال: لا بأس، إنما يريد به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه. قال نصوح: فسألنى حماد بن شاكر: ما الحل وما النشرة؟ فلم أعرفهما، فقال: هو الرجل إذا لم يقدر على مجامعة أهله وأطاق ما سواها فإن المبتلى بذلك يأخذ حزمة قضبان وفأساً ذا قطارين ويضعه فى وسط تلك الحزمة ثم يؤجج نارا فى تلك الحزمة حتى إذا ما حمى الفأس استخرجه من النار وبال على حره فإنه يبرأ بإذن الله تعالى، وأما النشرة فإنه يجمع أيام الربيع ما قدر عليه من ورد المفازة وورد البساتين ثم يلقيها فى إناء نظيف ويجعل فيهما ماءً عذباً ثم يغلى ذلك الورد فى الماء غلياً يسيراً ثم يمهل حتى إذا فتر الماء أفاضه عليه فإنه يبرأ بإذن الله تعالى. قال حاشد: تعلمت هاتين الفائدتين بالشام. قلت- يعنى الحافظ- :وحاشد هذا من رواة الصحيح عن البخارى، وقد أغفل المستغفرى أن أثر قتادة هذا علقه البخارى فى صحيحه وأنه وصله الطبرى فى تفسيره، ولو اطلع على ذلك ما اكتفى بعزوه إلى تفسير قتيبة بن أحمد بغير إسناد، وأغفل أيضاً أثر الشعبى فى صفته وهو أعلى ما اتصل بنا من ذلك. أهـ

قال ابن باز: مثل هذا لايعمل فيه برأى ليث بن أبى سليم، ولا برأى ابن القيم ولاغيرهما، وإنما يعمل بالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ، لابشيء مما يقول ابن أبى سليم ولا ابن القيم، وما ينقل عن وهب بن منبه على سنة الإسرائيلين لا على هدى خير المرسلين، ومن باب هذا التساهل دخلت البدع ثم الشرك الأكبر، وعلى المؤمن

الناصح لنفسه أن يعض بالنواجذ على هدى رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ويتجنب المحدثات، وإن كانت عمن يكون، فكل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا الرسول ﷺ.

قلت: وهذا الكلام فى الحقيقة عمدة فى هذا الأمر

قوله «قال: لابأس به: إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع، فلم ينه عنه»

قال سليمان آل الشيخ[1]:-

قوله: قال لا بأس به... إلى آخره يعنى أن النشرة لا بأس بها لأنهم يريدون بها الإصلاح أى إزالة السحر، ولم ينه عما يراد به الإصلاح، إنما ينهى عما يضر، وهذا الكلام من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم هل هو نوع من السحر أم لا، فإما أن يكون ابن المسيب يفتى بجواز قصد الساحر الكافر المأمور بقتله، ليعمل السحر، فلا يظن به ذلك، حاشاه منه، ويدل على ذلك قوله: إنما يريدون به الإصلاح، فأى إصلاح فى السحر؟ بل كله فساد وكفر والله أعلم. أهـ

قلت: لأن الله عزوجل يقول: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ وهذا فى الساحر أصالة﴿ **مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ وكيف نسمى أعمال السحر صالحة، أو صلاحاً وإن أرادوا الإصلاح. أهـ.

وفصل ذلك ابن عثيمين فقال[2]:-

كأن ابن المسيب ـ رحمه الله ـ قسم السحر إلى قسمين: ضار، ونافع.

فالضار محرم، قال تعالى: ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** ﴾[3]، والنافع لا بأس به، وهذا ظاهر ما روى عنه، وبهذا أخذ أصحابنا الفقهاء، فقالوا: يجوز حل السحر بالسحر للضرورة، وقال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز حل السحر بالسحر، وحملوا ما روى عن ابن المسيب بأن المراد به ما لا يعلم عن حاله: هل هو سحر، أم غير سحر؟ أما إذا علم أنه سحر؛ فلا يحل، والله أعلم.

ولكن على كل حال حتى ولو كان ابن المسيب ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز؛ فلا يلزم من ذلك أن يكون جائزاً فى حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول ﷺ عن النشرة؟ فقال: **«هى من عمل الشيطان»**[4]. أهـ

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣١٠.
(٢) القول المفيد ٢/ ٨٩ و ٩٠.
(٣) البقرة.
(٤) تقدم تخريجه

وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ، أَنَّهُ قَالَ: «لاَ يَحِلُّ السِّحْرَ إِلا سَاحِرٌ».

قلت: الخلاصة من كلام سعيد إما يحمل على حل السحر بالطرق الشرعية فكلامه وجيه واما يحمل على حل السحر بالطرق الغير شرعية ـ وهذا لا يظن به- فلا يلتفت إليه لأنه مخالف للكتاب والسنة ولا يخفى أن العمل لا يقتصر لقبوله على القصد الحسن النافع فقط بل لا بد من الاتباع وموافقة السنة فلا تغتر بقول ابن المسيب: انما يريدون الإصلاح لأن إرادة الخير مع المخالفة للكتاب أو السنة لا تنفع قال تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحا ولا يشرك» وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أى متبع بعد إسلام واخلاص النية وحسن القصد والله أعلم.

قوله: [وروى عن الحسن أنه قال: «لايحل السحر إلا ساحر]

قال سليمان آل الشيخ(١):-

هذا الأثر ذكره ابن الجوزى فى «جامع المسانيد» بغير إسناد، ولفظه «لا يطلق السحر إلا ساحر»، وروى ابن جرير فى «التهذيب» من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأساً إذا كان بالرجل سحر أن يمشى إلى من يطلق عنه، فقال: هو صلاح، قال قتادة: وكان الحسن يكره ذلك يقول: لا يعلم ذلك إلاّ ساحر، قال: فقال سعيد بن المسيب: إنما نهى الله عما يضر، ولم ينه عما ينفع.

قوله: «عن الحسن»

قال سليمان آل الشيخ(٢):-

هو ابن أبى الحسن، واسمه يسار- بالتحتانية، والمهملة ـ البصرى الأنصارى مولاهم ثقة فقيه إمام فاضل من خيار التابعين. مات سنة عشر ومائة، وقد قارب التسعين. أهـ

رأى بعض الصحابة وحدث عنهم.

قال ابن عثيمين(٣):-

هذا الأثر إن صح؛ فمراد الحسن الحل المعروف غالباً، وأنه لا يقع إلامن السحرة.

قلت: وهو بذلك لا يرى جوازه على هذه الصورة



(١) تيسير العزيز الحميد ٣١٠.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣١٠.

(٣) القول المفيد ٢/ ٣١٠.

قَالَ ابنُ القَيِّم: «النُشْرَةُ: حَلُّ السِّحرِ عَنِ المَسْحُور، وَهِيَ نَوْعَان: أَحدُهُمَا حَلٌّ بسحرٍ مثْلِه، وَهُوَ الَّذِى منْ عَمَلِ الشَّيْطَان، وَعَلَيْه يُحْمَلُ قَوْلُ الحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشرُ وَالمُنْتَشرُ إلَى الشَّيْطَان، بمَا يُحبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عنِ المَسْحُور، وَالثَّانى: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعوُّذَاتِ وَالأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوات المُبَاحَة، فَهَذَا جَائِزٌ».

قوله: قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور.. إلخ».

قلت: وهذا هو الاستدلال، وكثيراً ما يذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى المتن فى الباب منهج أهل السنة فى الاستدلال، ومنهج أهل السنة فى طلب الدليل، وهو الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، كما أتى فى باب المحبة، فهو بعد أن آتى بالآيات آتى بقول ابن عباس« وتقطعت بهم الأسباب» قال: المودة، أيضاً فى هذا الباب بادلالة المرفوعة ثم الموقوفة ثم المقطوعة ليبين الدليل بفهم السلف : فالسلف منهم من يفهم من كلامه الجواز، ومنهم من لايفهم من كلامه إلا المنع مطلقاً، ومنهم من فصل، فأما الذى منع مطلقاً ابن مسعود، وهذا ظاهر كلامه فيما تبعه فيه الإمام أحمد فى ذلك، وأما الجواز مطلقاً فيفهم من كلام قتادة وسعيد بن المسيب، والمنع أيضاً من كلام الحسن البصري، ثم التفصيل من كلام ابن القيم، وهو الكلام الذى ختم به المصنف هذا الباب، وهذا ترتيب بديع فى الاستدلال، وفى أصول أهل السنة فى طلب الدليل، وهو الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة. أهـ

قال ابن عثيمين(١):- هذا الكلام جيد ولا مزيد عليه.

قال الشيخ سليمان(٢):-

هذا الثانى هو الذى يحمل عليه كلام ابن المسيب.

قلت: يعنى بذلك النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية المباحة، فهذا جائز، وهذا الذى يحمل عليه قول سعيد بن المسيب أنه قال بالجواز مطلقاً، إذا كانت النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية المباحة. أهـ.

أو على نوع لا يدرى هل هو من السحر أم لا؟ وكذلك ما روى عن الإمام أحمد من إجازة النشرة، فإنه محمول على ذلك وغلط من ظن أنه أجاز النشرة السحرية. وليس

---

(١) القول المفيد ٢/ ٩١.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣١٠ و ٣١١.

فى كلامه ما يدل على ذلك، بل لما سئل عن الرجل يحل السحر قال: قد رخص فيه بعض الناس. قيل: إنه يجعل فى الطنجير ماء ويغيب فيه فنفض يده وقال: لا أدرى ما هذا؟ قيل له: أفترى أن يؤتى مثل هذا؟ قال: لا أدرى ما هذا؟ وهذا صريح فى النهى عن النشرة على الوجه المكروه. وكيف يجيزه؟ وهو الذى روى الحديث أنها من عمل الشيطان لكن لما كان لفظ النشرة مشتركاً بين الجائزة والتى من عمل الشيطان ورأوه قد أجاز النشرة ظنوا أنه قد أجاز التى من عمل الشيطان، وحاشاه من ذلك. ومما جاء فى صفة النشرة الجائزة ما رواه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبى سليم قال: بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تقرأ فى إناء فيه ماء ثم تصب على رأس المسحور الآية التي في يونس ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ وقوله: ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ إلى آخر أربع آيات. وقوله ﴿إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ وقال ابن بطال: فى كتاب وهب بن منبه أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسى والقواقل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به فإنه يذهب عنه كل ما به وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله.

وقد تقدم فيما نقله الحافظ فى الفتح.

قلت: فانظر التدرج فى الردود:

الرد الأول: ما قاله الشيخ ابن باز وابن عثيمن.

أنه يؤخذ من هذا ويرد وأن كلام وهب على سنة الإسرائيليين،

الرد الثانى: أن هذا لم يصح عن الليث بن أبى سليم، لأننا لاندرى بلغه عمن، فلعله بلغه عمن يأخذ عن بنى إسرائيل، فيعود الأمر إلى ما عاد إليه فى أثر وهب أن هذا على سنة الإسرائيلين لاعلى سنة هدى خير المرسلين.

الرد الثالث: على فرض صحته وثبوته عنهما فيأخذ منهم ويرد لأن الأمر كما قال ابن عباس ومالك: «كلٌ يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر ﷺ».

الرد الرابع: وعلى فرض أن هذا الكلام كالأحاديث، وله حكم المرفوع، فنقول: سنمنع منه من باب سد الذريعة لئلا تختلط النشرة المشروعة بغير المشروعة، لهذا.

قلت: والأولى من هذا كله ما صح عن نبينا فى النشرة ففيه غنية وفيه الكفاية لمن أراد الهداية ولأهميته سأفرد له فصلاً أقدم له بمقدمة فى أسباب الإصابة بالسحر والتحصن منه.

فصل في النشرة الشرعية

أسباب الإصابة بالسحر:-

قال ابن القيم[1]:- وعند السحرة: أن سِحرهم إنما يَتم تـأثيره فى القلوب الضعيفة المنفعِلة، والنفوس الشهوانية التى هى معلقة بالسُّفليات.

قلت: والسفلـيات يعنى الشهـوات والأمور الدنيئة الخبـيثة، التى توافق طـبع الجنى الخبيث والساحر الخبيث، فمثلاً : تذهب إلـى الساحر فيقول : أنك قد عُمل لك عملاً سفلى، وهو لايدرى مامعنى سفلى .

وكلام ابن القيـم لايدل على أن السفليـات الجن، لأنه ليس لديه ميـل للجن، وإنما معناه: ميل للأمور الدنـيئة المنحطة الخبيثة، التى تتفق مـع خبث ودنائة وسفول الجن أو الساحر . أهـ.

ولهذا فإن غالب ما يؤثر: فى النساء، والصبيان.

قلت: وفـى هـذا رد على خرافـات المعالجين الذيـن يقـولون بـأن الصبى لايُـلبس ولايمس أهـ.

والجُهال، وأهل البوادى، ومن ضَعُف حظه مـن الدين والتوكل والتوحيد، ومن لا نصيبَ له من الأوراد الإلهية والدعوات والتعوُّذات النبوية.

قلت: وهذا يبين مدى أهمـية أذكار الصباح والمساء وإنى لأتعجـب من المعالِج الذى يصفها للمعالَج ولايقولها هو.

وبالجملة: فسلطانُ تأثيرِه فى القُلوب الضعيفة المنفعلة التى يكون ميلُها إلى السُّفليات، قالوا: والمسحـورُ هو الذى يُعين على نـفسه، فإنا نجد قلبه مـتعلقاً بشىء كثـير الالتفات إليه، فيتـسلط على قلبه بمـا فيه مِن الميل والالتفـات، والأرواح الخبيثة إنما تتسـلطُ على أرواح تلقاها مستعِدَّة لتسلُّطها عليها بمَـيلها إلى ما يناسب تلك الأرواح الخبيثة، وبفراغها من القوة الإلـهية، وعدم أخذها للعـدة التى تُحاربها بـها، فتجدها فارغة لا عـدة معها، وفيها ميل إلى مـا يُناسبها، فتتسلط عليـها، ويتمكَّن تأثيرُها فيهـا بالسحر وغيره، والله أعلم.

قلت: انظر كما قلنا فى العشاق وفى باب العـشق فى باب تفسير التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله

---

(١) زاد المعاد (٤/١١٦).

قال العاشق

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

فارغ من العـدة الإلهية التى تدفع عـنه هذا العشق، فتـمكن هذا العشق منـه وتسلط عليه، فالسلطنـة هذه تؤثر فيه بعد ذلك، كالسحر يتسلط علـيه فينسى ويسرح ، لأن هذا سلطان غير شرعى على القلب وهذا سلطـان غير شرعى على القلب والنفس والعشق داء أيضاً وربما كان للسحر علاج أسهل من علاج العشق.

ومن هنا يتبين أن سبـب تسلط هذ الأشياء على القلب وعلى الـنفس إنما هو استعداد النفس لها، وذلك من وجهين:

أما أولاً: بميلها إلى الخبيث.

أما ثانيا : فبفراغها بلن القوة الإلهية.

فأعرف هذا، وعض عليه بالنواجذ تكن فى حصن حصين. أهـ

إيراد وجوابه:-

قال ابن حجر(١):-

ويعكر عليه ـ أى على كلام ابن القيم ـ حديث الباب، وجواز السحر على النبى ﷺ مع عظيم مقامه وصدق توجهه وملازمة ورده، ولكن يمكن الانفصال عن ذلك بأن الذى ذكره محمول على الغالب، وأن ما وقع به ﷺ لبيان تجويز ذلك، والله أعلم.

قلت: ويجاب أيضاً : بأنه لم يقل يلزم مـن وجود السحر، إنما قال : لايوجد سحر غالباً إلا بوجود هذين الأمرين أهـ.

التحصن والحماية من السحر

قال ابن القيم(٢):- اعلم أن الأدوية الطبـيعية الإلهية تنفعُ مِن الـداء بعد حصوله، وتَمنَعُ مِن وقوعه، وإن وقع لم يقعِ وقوعاً مضـراً، وإن كان مؤذياً، والأدوية الطبيعية إنما تنفعُ، بعد حصول الداء، فالتـعوذاتُ والأذكار، إما أن تمنعَ وقوعَ هذه الأسباب، وإما أن تحول بيـنها وبين كـمالِ تأثيرهـا بحسب كمال الـتعوذ وقوته وضـعفه، فالرُّقـى والعُوَذ تُستَعمل لحفـظ الصحة، ولإزالة المرض، أما الأول: فكما فى «الصحـيحين» من حديث عائـشة كان رسـولُ الله ﷺ إذا أوى إلى فراشـه نَفَـثَ فى كفَّـيْهِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمُعَوِّذَتَيْن. ثم يمسحُ بهما وجهَه، وما بلغت يدُه مِن جسده(٣).

(١) الفتح (١٠/٢٤٦) .(٢) زاد المعاد (٤/١٦٧، ١٦٨). (٣) تقدم تخريجه

وكما فى حديث عُوذة أبى الدرداء المرفوع «اللَّهُمَّ أنْتَ ربِّى لاَ إله إلاَّ أنْتَ علَيْكَ تَوكَّلْتُ وأنْتَ ربُّ العرْشِ العَظِيم»، وقد تقدَّم وفيه: «مَنْ قَالها أوَّل نهاره لم تُصبْهُ مُصيبة حتى يُمسى، ومن قالها آخر نهاره لم تُصبه مصيبة حتى يُصبح»(١).

وكما فى «الصحيحين»: «مَنْ قرأ الآيتيْنِ منْ آخرِ سُورةِ البقَرةِ فى ليْلَةٍ كفَتاهُ»(٢).

قلت: أى كفاية عامة مما سيقع. أهـ.

وكما فى «صحيح مسلم» عن النبى ﷺ: «مَنْ نزَلَ منْزلاً فقَالَ: أعُوذُ بكلمَات الله التَّامَّات منْ شرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يضُرَّهُ شىءٌ حتَّى يرْتَحلَ منْ منْزله ذلك»(٣).

وكما فى «سنن أبى داود» أن رسول الله ﷺ كان فى السفر يقول بالليل: «يَا أرْضُ، ربِّى وربُّك الله، أعُوذُ بالله منْ شرِّك وشرِّ مَا فيك، وشرِّ مَا يدُبُّ علَيْك، أعُوذُ بالله منْ أسَد وأسْود، ومن الحيَّة والعقْرب، ومنْ سَاكنِ البلَد، ومنْ وَالد ومَا ولَدَ»(٤).

وكذلك صلاة الضحى والفجر فى جماعة والعشاء فى جماعة ثبت عن نبينا ﷺ: «من صلى الصبح فهو فى ذمة الله» (٥) وفى الحديث القدسى عند أبى داود ابن آدم اركع اربع ركعات فى أول النهار اكفك آخره»(٦) وبالجملة فهذا وغيره مما صح عن نبينا فيه الحفظ والكفاية لمن أراد الوقاية وهى خير من العلاج لكن إن لم يكن شىء من ذلك فإليك العلاج الربانى لهذا السحر الشيطانى.

علاج السحر بالدعاء والقرآن والأذكار

قال ابن القيم(٧):- ومن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية، بل هى أدويته النافعة بالذات، فإنه مِن تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية، ودفعُ تأثيرها يكون بما يُعارِضُها

---

(١) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة» (٥٧)، والطبرانى فى الدعاء» (٣٤٣).
وانظر الأذكار للنووى».(٢٠ ـ بتخريجنا)

(٢) أخرجه البخارى (٥٠٠٩)، مسلم فى صلاة المسافرين(٣/ ٣٥١/ ٢٥٥) وأنظر «شرحنا لزاد المعاد.

(٣) تقدم تخريجه

(٤) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ١٣٢)، وأبو داود (٢٦٠٣) وانظر شرحنا لزاد المعاد.
وانظر «الأذكار للنووى»(٥٦٤ ـ بتخريجنا)

(٥)أ خرجه ابن ماجه (٣٩٤٦) عن سمرة به. وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

(٦) [صحيح] أخرجه أحمد فى مسنده» (٦/ ٤٤٠)،و أبو داود (١٢٨٩)، والترمذى (٧٥)، والنسائى« الكبرى»(٦٧)
وانظر «منار السبيل(٥١٦ ـ بتخريجنا) وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

(٧) زاد المعاد (٤/ ١٦١).

ويُقاومها من الأذكار، والآيات، والدعوات التى تُبْطِلُ فعلها وتأثيرها، وكلما كانت أقوى وأشدّ، كانت أبلغَ فى النُّشْرةِ، وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كل واحدٍ منهما عُدَّتُه وسلاحُه، فأيُّهما غلب الآخر، قهره، وكان الحكم له، فالقلبُ إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره، وله من التوجهات والدعوات والأذكار والتعوذات: ورد لا يُخِلُّ به يُطابق فيه قلبه لسانه، كانَ هذا مِن أعظم الأسباب التى تمنع إصابة السحر له، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يُصيبه.

١ـ علاج السحر بالدعاء

قلت: وهذا لايقول به أحد من المعالجين للمعالج إلا من رحم ربى .أهـ.

وفيه حديث عائشة رضى الله عنها فى سحر لبيد للنبى ﷺ وفيه «حتى كان رسول الله ﷺ يُخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما يفعله - حتى إذا كان ذات يوم- أو ذات ليلة- وهو عندى، لكنَّهُ دعا ودَعا ثم قال. . . . . الحديث[1]».

قال ابن حجر[2]:-

وفى رواية فى كتاب بدء الخلق «فى الصحيح» «حتى كان ذات يوم دعا ودعا»

قال الكرمانى:- يحتمل أن يكون هذا الإستدراك من قولها «عندى» أى لم يكن مشتغلا بى بل اشتغل بالدعاء ويحتمل أن يكون من التخيل أى كان السحر أضره فى بدنه لا فى عقله وفهمه بحيث أنه توجه إلى الله ودعا على الوضع الصحيح والقانون المستقيم. ووقع فى رواية ابن نمير عند مسلم «فدعا، ثم دعا، ثم دعا» وهذا هو المعهود منه أنه كان يكرر الدعاء ثلاثاً. وفى رواية وهيب عند أحمد وابن سعد «فرأيته يدعو». قال النووى: فيه استحباب الدعاء عند حصول الأمور المكروهات وتكريره والالتجاء إلى الله تعالى فى دفع ذلك.

قلت أى ابن حجر: سلك النبى ﷺ فى هذه القصة مسلكى التفويض وتعاطى الأسباب، ففى أول الأمر فوض وسلم لأمر ربه فاحتسب الأجر فى صبره على بلائه، ثم لما تمادى ذلك وخشى من تماديه أن يضعفه عن فنون عبادته جنح إلى التداوى ثم إلى الدعاء، وكل من المقامين غاية فى الكمال. أ. هـ

قلت: الظاهر أنه دعى بعد التفويض وقبل تعاطى الأسباب لذلك بدأنا من أدوية السحر بالدعاء.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (ح٥٧٦٣). ومسلم فى السحر (٧/٤٢٩/٤٣) عن عائشة به.
(٢) الفتح (١٠/٢٣٨).

٢- علاج السحر بقراءة سورة البقرة.

عن أبى أمامة الباهلى: قال: سمعت رسول الله ، يقول: **«اقرأوا القرآن. فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرأو الزهروايـن: البقرة وسورة آل عمران. فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنَّهُمَا غَمَامَتَان. أو كأنَّهمَا غـيابَتَان أو كأنهما فرقان من طير صوَاف. تحاجّان عن أصحابهما. اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة. ولا يستطيعُهَا البَطلَةُ**.

قال معاوية: بلغنى أن البطلة السحَرَةُ (*).

٣- علاج السحر بآخر آيتين من سورة البقرة

وعند مسلم أيضاً بسنده. **عن ابن مسعود قال**: قال رسول الله ﷺ **«الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما فى ليلة كفتاه»**(*).

قلت: ولهذا انصح المعالجين بهذا الكلام، لأنه عليه أدلة وهو كلام شافٍ كافٍ،ومن لم يشف بهذا فلا شفاه الله.

٤- علاج السحر بالرقية بالفاتحة

أخرجا فى «الصحيحين» من حديث أبى سعيد الخدرى، قال: انطلق نفرٌ مِن أصحابِ النبىِّ ﷺ فى سفرةٍ سافرُوهـا حتى نزلوا على حىٍّ من أحياءِ العرب، فاستضافوهم، فأبَوا أن يُضيِّفُوهم، فَلُدغَ سيِّدُ ذلك الحى، فَسَعَوْا له بكُلِّ شىء لاَ يَنْفَعُه شىء، فقال بعضهم: لو أتيتُم هؤلاءِ الرهطَ الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شىء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهطُ! إن سيِّدَنَا لُدغَ، وسَعينا له بِكُلِّ شىء لا يَنْفَعهُ، فَهَلْ عِنْدَ أحدٍ منكم من شىء؟ فقال بعضُهم: نعم والله إنى لأَرْقى، ولكن استَضَفْنَاكُم، فلم تُضيِّفُونَا، فما أنا بَرَاقٍ حتى تَجْعَلُوا لـنا جُعلاً، فصالَحُوهم على قَطيعٍ مِن الغنم، فانطلق يَتْفُل عليه، ويقرأ: ﴿الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فكأنما أُنشطَ مِن عِقَال، فانطلق يمشى وما به قَلَبَةٌ، قال: فأوفوهُم جُعْلَهُم الذى صالحوهم عليه، فقال بعضُهم: اقتسِمُوا، فقال الذى رَقَى: لا تفعلوا حتى نأتىَ رَسُولَ الله ﷺ، فنذكر له الذى كان، فننظر ما يأمُرنا، فَقَدمُوا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك، فقال: **«ومَا يُدْرِيكَ أنَّها رُقْيَةٌ؟»**، ثم قال: **«قَدْ أصبْتُم، اقسِمُوا واضْرِبُوا لى مَعَكُم سَهْماً»**(*).

(*) تقدم تخريجه

قال ابن القيم[1]:-

ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواصٌ ومنافعُ مجربة، فما الظنُّ بكلام رب العالمين، الذى فَضْلُهُ على كل كلامٍ كفضلِ الله على خلقه الذى هو الشفاء التام، والعِصمةِ النافعة، والنورُ الهادى، والرحمة العامة، الذى لو أُنْزِلَ على جبل لتَصَدَّعَ من عظمته وجلالته. قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] ، و «من» ها هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، هذا أصَحُّ القولين[*].

فما الظنُّ بفاتحة الكتاب التى لم يُنْزل فى القرآن، ولا فى التوراة، ولا فى الإنجيل، ولا فى الزبور مِثلُها، المتضمنة لجميع معانى كتب الله، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب- تعالى- ومجامعها، وهى الله، والرب، والرحمن، وإثبات المعاد.

وحقيقٌ بسورةٍ هذا بعضُ شأنها، أن يُستشفى بها من الأدواء، ويُرقى بها اللديغُ.

وبالجملة فما تضمنته الفاتحةُ مِن إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويضِ الأمر كلِّه إليه، والاستعانة به، والتوكلِ عليه، وسؤاله مجامع النِّعم كلها، وهى الهداية التى تجلبُ النعم، وتدفَعُ النِّقم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية.

وقد قيل: إن موضع الرُّقية منها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولا ريبَ أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانة، والافتقارِ والطلبِ، والجمع بين أعلى الغايات، وهى عبادةُ الربِّ وحده، وأشرف الوسائل وهى الاستعانةُ به على عبادته ما ليس فى غيرها، ولقد مرَّ بى وقت بمكة سَقِمْتُ فيه، وفَقَدْتُ الطبيبَ والدواء، فكنت أتعالج بها، آخذ شربةً من ماء زمزم، وأقرؤها عليها مراراً، ثم أشربه، فوجدتُ بذلك البرءَ التام، ثم صِرت اعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غايةَ الانتفاع.

وفى تأثير الرُّقى بالفاتحة وغيرها فى علاج ذواتِ السُّموم سِر بديع، فإن ذوات السموم أثرت بكيفيات نفوسِها الخبيثة، كما تقدم، وسلاحها حُماتها التى تلدَغُ بها، وهى لا تلدغ حتى تغضَب، فإذا غضبت، ثار فيها السُّمُّ، فتقذفه بآلتها، وقد جعل الله سبحانه لكل داءٍ دواءً، ولكل شىء ضِداً، ونفس الراقى تفعلُ فى نفس المرقى، فيقعُ بين

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٦٢).

(٢) الإسراء: ٨٢

(*) وتقدم تفصيل القول فى أبواب الرقية فى الرقية بكل القرءان أم بالثابت فقط فانظره هناك.

نفسيهما فعل وانـفعال، كما يقع بين الداء، والدواء، فتقوى نفسُ الـراقى وقوته بالرقية على ذلك الداء، فيـدفعُه بإذن الله، ومدارُ تأثير الأدوية والأدواء على الـفعل والانفعال، وهو كـما يقع بـين الداء والـدواء الطبـيعيـيـن، يقع بـين الداء والـدواء الروحانيـين، والروحانى، والـطبيعى، وفى النفـث والتّفل استعانـة بتلك الرطوبة والهـواء، والنفس المباشر للرقية، والـذكر والدعاء، فإن الرُّقية تخرُج مِن قلب الراقـى وفمه، فإذا صاحبها شيءٌ من أجزاء باطنه من الريق والهواء والنفس، كانت أتمَّ تأثيراً، وأقوى فعلاً ونفوذاً، ويحصُل بالازدواج بينهما كيفية مؤثرة شبيهة بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية(١).

قلت: وبهذا يظهر أيضـاً سر علاج السحر بالفاتحة حيث أن الساحـر نفث فى العِقد بنفس ورطوبـات ورقى وتعاويذ خبيثة فكـان لابد من علاج ذلك بمقابلة الخبـيث بنفس ورطوبات ورقى طيبة.

قلت: وخلاصة هذا:

إذا كان هذا المسحور إنما سحر بنفث، كما قال تعالى ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾، وكما قال ﷺ: «**من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر**»(٢).

فهذا النـفث إنما حصل بتأثيـر نفس خبيثة أخـرجت نفس من بطن خبـيثة مع رذاذ خبيث وتفل خبيث لايحمل إلا الغضب ولايحمل إلا الشر لكل إنسان لاسيما المسحور، فهذا بالاستعانة مع شيطان خبيث لايحـمل إلا الشر لهذا المسحور، حصل بهذا وهذا مع تلقى واستعداد المسحور لهذا الخبث، حصل من هذا وهذا أن المسحور تأثر.

فلابد عـند العلاج أن يعـالج بالتى كـانت هى الداء فـالداء كان نفث خـبيث ورذاذ ورطوبات خبيثة. أهـ.

وبالجملة: فتنفس الراقى تُـقابل تلك النفوس الخبيثـة، وتزيدُ بكيفية نفســه، وتستعين بالرقية وبـالنفث على إزالة ذلك الأثر، وكلـما كانت كيفية نفس الـراقى أقوى، كانت الرقية أتم، واستعانته بنفثه كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها.

وفى النفث سِر آخر، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة والخبيثة، ولهذا تفعلُه السحرةُ كما يفعله أهلُ الإيمان. قال تعالى: ﴿**وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾، وذلك لأن النفس

(١) زاد المعاد (٤/١٧٨).

(٢) تقدم تخريجه

تتكيَّفُ بكيفية الغضب والمحاربة، وتُرسِلُ أنفاسها سِهاماً لها، وتمدُّها بالنفث والتفل الذى معه شىء مِن الريّق مصاحب لكيفية مؤثرة، والسواحرُ تستعين بالنفث استعانةً بينة، وإن لم تتصل بجسم المسحور، بل تنفث على العُقدة وتعقدها، وتتكلم بالسحر، فيعمل ذلك فى المسحور بتوسط الأرواح السفلية الخبيثة، فتقابلُها الروح الزكية الطيبة بكيفية الدفع والتكلم بالرقية، وتستعينُ بالنفث، فأيُّهُما قوى كان الحكم له، ومقابلة الأرواح بعضها لبعض، ومحاربتُها وآلتها مِن جنس مقابلة الأجسام، ومحاربتها وآلتها سواء، بل الأصل فى المحاربة والتقابل للأرواح والأجسام آلتها وجندها، ولكن من غلب عليه الحِسُّ لا يشعرُ بتأثيرات الأرواح وأفعالِهَا وانفعالاتِهَا لاستيلاء سُلطان الحِسِّ عليه، وبُعْدِهِ من عالم الأرواح، وأحكامها، وأفعالها.

والمقصود: أن الروح إذا كانت قويةً وتكيَّفت بمعانى الفاتحة، واستعانت بالنفث والتفل، قابلت ذلك الأثر الذى حصل من النفوس الخبيثة، فأزالته والله أعلم.

٥- علاج السحر بالمعوذتين

قال ابن القيم(١):- وفى المعوِّذتين الاستعاذةُ مِن كل مكروه جملة وتفصيلاً، فإن الاستعاذَة مِن شر ما خلق تَعُمُّ كُلَّ شر يُستعاذ منه، سواء كان فى الأجسام أو الأرواح، والاستعاذة من شر الغاسق وهو الليل، وآيته وهو القمر إذا غاب، تتضمن الاستعاذةَ مِن شر ما ينتشِرُ فيه من الأرواح الخبيثة التى كان نورُ النهار يحولُ بينها وبين الانتشار، فلما أظلم الليل عليها وغاب القمرُ، انتشرت وعاثت.

والاستعاذة من شر النفاثات فى العُقد تتضمن الاستعاذة من شر السواحر وسِحرهن.

والاستعاذة مِن شر الحاسد تتضمن الاستعاذَة مِن النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها.

والسورة الثانية: تتضمن الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن، فقد جمعت السورتان الاستعاذة من كل شر، ولهما شأن عظيم فى الاحتراس والتحصن من الشرور قبل وقوعها، لهذا أوصى النبى ﷺ عُقبة بن عامر بقراءتهما عَقِبَ كُلِّ صلاة(٢)، ذكره الترمذى فى «جامعه» وفى هذا سر عظيم فى استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة.

(١) ذاد المعاد (٤/١٨١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٣)، والترمذى (٢٩٠٣)، والنسائى فى «الكبرى» (١٢٥٩).

وانظر «الأذكار للنوى» (١٧٣ ـ بتخريجنا) قال الترمذى «حديث حسن صحيح» وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

وقال: «ما تعوَّذ المتعوذون بمثلهما» . وقد ذكر أنه ﷺ سحر فـي إحدى عشر عُقدة، وأن جبريل نزل عـليه بهما، فجعل كُـلَّما قرأ آية منهمـا انحلَّت عُقدة، حتى انحـلت العقد كُلُّها، وكأنما أُنشِطَ مِن عِقال[1].

٦ـ قراءة البقرة، والفاتحة، والمعوذتين، والإخلاص على مـاء والاغتسال فيه والوضوء والشرب.

فيمن كره: القرآن يكتب لمن يسقاه.

أخرج ابن أبى شيبة

عن إبراهيم أنه سئل عن رجل كان بالكوفـة يكتب آيات من القرآن فيسقاه المريض، فكره ذلك[2].

قلت: وهذا مر كثير فى كراهة ابن مسعود وأصحابه لذلك كله والرد عليه.

فى الرخصة فى القرآن يكتب لمن يسقاه.

وأخرج ابن ابى شيبة بسنده

عن عائشة أنها كانت لا ترى بأساً أن يعوِّذ فى الماء ثم يصب على المريض[3]

عن أبى قلابة وليث عن مجاهد أنهما لم يريا بأسا أن يكتب آية من القرآن ثم يسقاه صاحب الفزع[4].

وأخرج عن الأسود أن أم المـؤمنين عائشـة سئلت عن النـشرة فقالت: ما تـصنعون بهذا؟ هذا الفرات إلى جانبكم؟ يستنقع فيه أحدكم يستقبل الجرية[5].

قلت: ولعل ابن أبى شـيبة أورده ها هنا ليدلـل على أن الماء مما يستخـدم فى النشرة والقرآن كذلك فلا بأس بـجمعها يقرأ القرآن على ماء ولعـموم قوله تعالى **﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾** وما ثبـت فى المسنـد وغيره من حـديث أبى سعـيد مرفوعـاً «الماء

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» «٦/ ٧١٧» ونسبه لابن مردويه ، والبيهقى فى «الدلائل» وانظر «فتح القدير» (١٤٢٠٨ ـ بتخريجنا)

(٢) أخرجه ابن شيبة (٥/ ٤٣٤).

(٣) (٤) أخرجه ابن أبى شيبة (٥/ ٤٣٣).

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة (٥/ ٤٣٣).

طهور»[1]. أى طاهر مطهر وسيأتى من كلام عـوف ابن مالك الأشجعى لما مرض قال: أئتونى بماء فإن الله تعالى يقول ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ والله أعلم.

قال ابن تيمية : ويجوز أن يكتب للمصاب وغيـره من المرضى شيئا من كتاب الله وذكره بالمداد المبـاح ويغسل ويقى كما نص عـلى ذلك أحمد وغيره ثم اسـتدل بأثر ابن عباس الآتى(*) .

قال الذهبى:-

ونص أحمد أن القـرآن إذا كتب فى شىء وغسل وشرب ذلك المـاء فإنه لا بأس به، وأن الرجل يكتب القرآن فى إناء ثم يسقيـه المريض، وكذلك يقرأ القرآن على شىء ثم يشرب كـل ذلك لا بأس به، وكذلـك يُقرأ على المـاء، ويرش على المريـض، وكذلك يكتب للمرأة إذا عسرت عليها ولادتها شىء من القرآن وتسقى.

وروى أن ابن عباس قـال: كَانَ إِذَا عَسَر عَلَى الْمَـرْأة وِلادتها أَخَذَ إِنَاءً نَظِيـفاً وكَتَبَ فِيهِ: ﴿كَأَنَّهُم يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَـدُونَ وكَأَنَّهُم يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ إلى آخِرِ الأية ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾.

ثُمَّ يُغْسَلُ وَتُسْقَى الْمَرْأَةَ وَيَنْضَحُ عَلَى بَطْنِهَا [2].

٧ـ علاج السحر باستخراجه

بوب البخارى باب. هل يَستخرجُ السحرَ؟

ثم علق عن قَتادة قلت لسعيد بن المـسيب: رجلٌ به طب أو يُؤَخَّذ عن امرأته- أيحل عنه أو يُنشَّر؟ قال: لا بأسَ به؛ إنما يُريدونَ به الإِصلاح. فأما ما يَنفعُ فلم يُنهَ عنه[3].

---

(١) أخرجه أحـمد فى «مسنده» (٣/ ٣١)، وأبـو داود (٦٦)، والترمذى (٦٦)، والنـسائى (١/ ١٧٤ ـ السيوطى)

وانظر «السلسبيل»(١١ـبتخريجنا)

(*) مجموع الفتاوى (١٩/ ٦٤)

(٢) (موقوف) «أخرجـه ابن أبى شيبة (٥/ ٤٣٣/ ١)، وابن السـنى فى «عمل اليوم والـليلة» (ص٢٠٦-٢٠٧/ ح٦٢٤). الطب النبوى» للذهبى ص٢٨٨. بتحققنا

(٣) تقدم تخريجه

ثم أخرج بسنده عن عائشةَ رضىَ الله عنها قات: كان رسولُ الله ﷺ سُحِرَ، حتى كان يرى أنه يأتى النساءَ ولا يأتيهنَّ. قال سُفيان: وهذا أشدُّ ما يكون من السحر إذا كان كذا. فقال: «**يا عائشة، أعلمت أنَّ الله قد أفتانى فيما استفتَيتهُ فيه؟ أتانى رجلان، فقعد أحدهما عند رأسى والآخرُ عند رجلىَّ، فقال الذى عند رأسى للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مَطبوب. قال:ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم رجل من بنى زريق حليف ليهود كان منافقاً. قال: وفيم؟ قال: فى مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: فى جُف طلْعة ذكر تحت رَعُوفة فى بئر ذَرْوان، قالت: فأتى النبىُّ ﷺ البئر حتى استخرَجه، فقال هذه البئر التى أريتها، وكأنَّ ماءها نُقاعة الحناء، وكأن نخلَها رءوس الشياطين. قال فاستُخرِجَ. قالت فقلت: أفلا- أى تَنشرْتَ-؟ فقال: أما والله فقد شفانى، وأكرهُ أنْ أُثيرَ على أحد منَ الناس شرا**» (١).

قال ابن حجر(٢):-

قوله (باب هل يستخرج السحر)؟ كذا أورد الترجمة بالاستفهام إشارة إلى الاختلاف، وصدر بما نقله عن سعيد بن المسيب من الجواز إشارة إلى ترجيحه.

ويبين ابن القيم هدى النبى ﷺ فى علاج السحر فذكر ثلاثة أنواع

أحدها- وهو أبلغها:- استخراجه وإبطاله، كما صحَّ عنه ﷺ أنه سأل ربه سبحانه فى ذلك، فدل عليه، فاستخرجه مِن بئر، فكان فى مِشْطٍ ومُشَاطة، وجُفِّ طَلْعَة ذَكَر، فلما استخرجه، ذهب ما به، حتى كأنما أُنْشِطَ مِن عِقَال، فهذا من أبلغِ ما يُعالج به المطبوبُ، وهذا بمنزلة إزالةِ المادة الخبيثة وقلعِها مِن الجسد بالاستفراغ(٣).

٨ـ علاج السحر باستفراغه من المكان الذى وصل إليه

قال ابن القيم(٤):- والنوع الثانى: الاستفراغ فى المحل الذى يصل إليه أذى السِّحر، فإن للسحر تأثيراً فى الطبيعة، وهيجان أخلاطها، وتشويشِ مزاجها، فإذا ظهر أثره فى عضو، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو، نفع جداً.

وقد ذكر أبو عبيد فى كتاب «غريب الحديث» له بإسناده. عن عبدالرحمن بن أبى ليلى، أن النبى ﷺ احتجم على رأسه بِقَرْنٍ حين طُبَّ قال أبو عبيد: معنى طبَّ: أى سحر.

وقد أشكل هذا على من قل علمه، وقال: ما للحجامة والسحر، وما الرابطة بين هذا

(١) تقدم تخريجه (٢) (الفتح) (١٠/ ٢٤٤) (٣) (٤) زاد المعاد (٤/ ١١٤).

الداء وهذا الدواء، ولو وجد هـذا القائل أبقراط، أو ابن سينا، أو غيرهـما قد نص على هذا العلاج، لـتلقاه بالقـبول والتسليـم، وقال: قد نصَّ عليـه من لا يُشك فى معـرفته وفضله.

فاعلم أن مادة السحر الذى أصيب به ﷺ انـتهت إلى رأسه إلى إحدى قُواه التى فيه بحيث كان يُخيل إليه أنه يفعل الشىء ولم يـفعله، وهذا تصرف من الساحر فى الطبيعة والمادة الدموية بحيث غلبت تلك المادة على البـطن المقدم منه، فغيرت مزاجه عن طبيعته الأصلية.

والسحر: هو مركب من تأثيرات الأرواح الخبيثة، وانفعال القُوى الطبيعية عنها، وهو أشد ما يكـون من السحر، ولا سيمـا فى الموضع الذى انتـهى السحرُ إليه، واستعمالُ الحجامة علـى ذلك المكان الذى تضررت أفعالُه بـالسحر مِن أنفع المَعالجة إذا استُعْمِلَتْ على القانُونِ الذى ينبغى.

قال أبقراط: الأشياء التـى ينبغى أن تُستَفْرَغَ يجب أن تُستفـرغ مِن المواضع التى هى إليها أميلُ بالأشياء التى تصلُح لاستفراغها.

وقالت طائفة مـن الناس: إن رسولَ الله ﷺ لما أُصيب بهذا الداء، وكـان يُخيَّل إليه أنه فعـل الشىء ولم يفـعله، ظنَّ أن ذلك عـن مادة دموية أو غـيرها مالت إلـى جهة الدماغ، وغـلبت على البـطن المقدم منه، فـأزالت مزاجه عن الحالـة الطبيعيـة له، وكان استعمالُ الحجامة إذ ذاك مِن أبلغ الأدوية، وأنفـع المَعالجة، فاحتجم، وكان ذلك قبل أن يُوحى إليه أن ذلك من السحر، فلما جـاءه الوحيُ من الله تعالى، وأخبره أنه قد سُحِرَ، عدل إلى العِلاج الحقيقـى وهو استخراجُ السحر وإبطاله، فسأل الله سبـحانه، فدلَّه على مكانه، فاسـتخرجه، فقام كأنما أُنشطَ مـن عِقال، وكان غايةُ هذا السحر فـيه إنما هو فى جسده، وظاهِر جوارحه، لا على عقلِه وقلبِه، ولذلك لم يكن يعتقدُ صحة ما يُخيَّل إليه من إتيـان النساء، بـل يعلم أنه خـيال لا حقيـقة له، ومثلُ هـذا قد يحدُثُ مـن بعض الأمراض، والله أعلم.

٩ـ الدواء بالعَجْوةِ للسحر

كذا بوب البخارى ثـم أخرج بسنده عن عامر بن سعد عـن أبيه رضى الله عنه، قال «قال النبى ﷺ: من اصـطَبحَ كلَ يوم تمرات عجوة لم يَضرة سُم ولا سِـحر ذلك اليوم إلى الليل». وقال غيره «سبعَ تمرات»(١).

وأخرج بسنده عن عامر بن سعد «سمعتُ سعداً رضىَ الله عنه يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: من تَصبَّحَ سبعَ تمرات عجوة لم يَضره ذلك اليوم سم ولا سحر»(٢).

(١)، (٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٧٦٨)، (٥٧٦٩). ،ومسلم فى الأشربة(١٤/٢ ـ النووى). وانظر «الطب النبوى» (١٤٩ بتحقيقنا).

قال ابن حجر(١):

قوله (باب الدواء بالعجوة للسحر) العجوة ضرب من أجود تمر المدينة وألينه. وقال الداودى: هو من وسط التمر. وقال ابن الأثير: العجوة ضرب من التمر أكبر من الصيحانى يضرب إلى السواد، وهو مما غرسه النبى ﷺ بيده بالمدينة. وذكر هذا الأخير القزاز.

قوله (**من اصطبح**) فى رواية أبى أسامة «**من تصبح**» وكذا فى رواية جمعة عن مروان فى الصحيح فى الأطعمة، وكذا لمسلم عن ابن عمرو كلاهما بمعنى التناول صباحاً.

قوله (**كل يوم تمرات عجوة**) كذا أطلق فى هذه الرواية، ووقع مقيداً فى غيرها، ففى رواية جمعة وابن أبى عمر سبع تمرات، وكذا أخرجه الإسماعيلى من رواية دحيم عن مروان، وكذا هو فى رواية أبى أسامة فى الباب، ووقع مقيداً بالعجوة فى رواية أبى ضمرة أنس بن عياض عن هاشم بن هاشم عند الإسماعيلى، وكذا فى رواية أبى أسامة، وزاد أبو ضمرة فى روايته التقييد بالمكان أيضاً ولفظه «**من تصبح بسبع تمرات عجوة من تمر العالية**» والعالية القرى التى فى الجهة العالية من المدينة وهى جهة نجد، وللزيادة شاهد عند مسلم من طريق ابن أبى مليكة عن عائشة بلفظ «**فى عجوة العالية شفاء فى أول البكرة**» ووقع لمسلم أيضاً من طريق أبى طوالة عبدالله بن عبدالرحمن الأنصارى عن عامر بن سعد بلفظ «**من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح**» وأراد لابتى المدينة وإن لم يجر لها ذكر للعلم بها.

قوله (**لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل**) السم معروف وهو مثلث السين، والسحر تقدم تحريم القول فيه قريباً، وقوله «**ذلك اليوم**» ظرف وهو معمول ليضره، أو صفة لسحر، وقوله «**إلى الليل**» فيه تقييد الشفاء المطلق فى رواية ابن أبى مليكة حيث قال «**شفاء أول البكرة فى أول ترياق**» وتردده فى ترياق شك من الراوى، والبكرة بضم الموحدة وسكون الكاف يوافق ذكر الصباح فى حديث سعد، والشفاء أشمل من الترياق يناسب ذكر السم، والذى وقع فى حديث سعد شيئان السحر والسم، فمعه زيادة علم. وقد أخرج النسائى من حديث جابر رفعه «**العجوة من الجنة، وهى شفاء من السم**»(٢) وهذا يوافق رواية ابن أبى مليكة. والترياق بكسر المثناة وقد تضم وقد تبدل المثناة دالاً أو طاء بالإهمال فيهما، وهو دواء مركب معروف يعالج به المسموم، فأطلق على العجوة اسم الترياق تشبيها لها به، وأما الغاية فى قوله «**إلى الليل**» فمفهومه أن السر الذى فى العجوة من دفع ضرر السحر والسم يرتفع إذا دخل الليل فى حق من تناوله من أول

(١) الفتح (١٠/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه النسائى فى «الكبرى» (٦٧١٥) عن أبى سعيد وجابر به

النهار، ويستفاد منه إطلاق اليوم على ما بين طلوع الفجر أو الشمس إلى غروب الشمس، ولا يستلزم دخول الليل، ولم أقف فى شىء من الطرق على حكم من تناول ذلك فى أول الليل هل يمكن كمن تناوله أول النهار حتى يندفع عنه ضرر السم والسحر إلى الصباح، والذى يظهر خصوصية ذلك بالتناول أول النهار لأنه حينئذ يكون الغالب أن تناوله يقع على الريق، فيحتمل أن يلحق به من تناول الليل على الريق كالصائم، وظاهر الإطلاق أيضاً المواظبة على ذلك. وقد وقع مقيداً فيما أخرجه الطبرى من رواية عبد الله من نمير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها «**كانت تأمر بسبع تمرات عجوة فى سبع غدوات**» وأخرجه ابن عدى من طريق محمد بن عبدالرحمن الطفاوى عن هشام مرفوعاً، وذكر ابن عدى أنه تفرد به، ولعله أراد تفرده برفعه، وهو من رجال البخارى لكن فى المتابعات.

قال الخطابى: كون العجوة تنفع من السم والسحر إنما هو ببركة دعوة النبى ﷺ لتمر المدينة لا لخاصية فى التمر.

وقال النووى: فى الحديث تخصيص عجوة المدينة بما ذكر، وأما خصوص كون ذلك سبعاً فلا يعقل معناه كما فى أعداد الصلوات ونصب الزكوات. قال: وقد تكلم فى ذلك المازرى وعياض بكلام باطل فلا يغتر به انتهى.

وقال القرطبى: ظاهر الأحاديث خصوصية عجوة المدينة بدفع السم وإبطال السحر، والمطلق منها محمول على المقيد، وهو من باب الخواص التى لا تدرك بقياس ظنى. ومن أئمتنا من تكلف لذلك فقال: إن السموم إنما تقتل لإفراط برودتها، فإذا داوم على التصبح بالعجوة تحكمت فيه الحرارة وأعانتها الحرارة الغريزية فقاوم ذلك برودة السم مالم يستحكم. قال: وهذا يلزم منه رفع خصوصية عجوة المدينة بل خصوصية العجوة مطلقاً بل خصوصية التمر، فإن من الأدوية الحارة ما هو أولى بذلك من التمر، والأولى أن ذلك خاص بعجوة المدينة. ثم هل هو خاص بزمان نطقه أو فى كل زمان؟ هذا محتمل، ويرفع هذا الاحتمال التجربة المتكررة، فمن جرب ذلك فصح معه عرف أنه مستمر، وإلا فهو مخصوص بذلك الزمان. قال وأما خصوصية هذا العدد فقد جاء فى مواطن كثيرة من الطب كحديث «**صبوا على من سبع قرب**[1]» «وقوله المفؤود الذى وجهه للحارث بن كلدة **أن يلدّه بسبع تمرات**، وجاء تعويذه سبع مرات، إلى غير ذلك. وأما فى غير الطب فكثير، فما جاء من هذا العدد فى معرض التداوى فذلك لخاصية لا يعلمها إلا الله أو من أطلعه على ذلك، وما جاء منه فى غير معرض التداوى فإن العرب تضع هذا العدد موضع الكثرة وإن لم ترد عدداً بعينه.

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٤٤٤٢)، ومسلم فى الصلاة (٤/ ١٣٥٤ ـ النووي) وانظر «الطب النبوي» (٤٦١ ـبتحقيقا)

وقال ابن القيم: عجوة المدينة من أنفع تمر الحجاز، وهو صنف كريم ملزز متين الجسم والقوة، وهو من ألين التمر وألذه. قال: والتمر فى الأصل من أكثر الثمار تغذية لما فيه من الجوهر الحار الرطب، وأكله على الريق يقتل الديدان لما فيه من القوة الترياقية، فإذا أديم أكله على الريق جفف مادة الدود وأضعفه أو قتله انتهى. وفى كلامه إشارة إلى أن المراد نوع خاص من السم وهو ما ينشأ عن الديدان التى فى البطن لا كل السموم، لكن سياق الخير يقتضى التعميم لأنه نكرة فى سياق النفى، وعلى تقديم التسليم فى السم فماذا يصنع فى السحر. أهـ.

وقال أيضاً (١): ونفع هذا العدد من هذا التمر من هذا البلد من هذه البقعة بعينها من السم والسحر؟ بحيث تمنع إصابته من الخواص التى لو قالها بقراط وجالينوس وغيرهما من الأطباء. لتلقاها عنهم الأطباء بالقبول والإذعان والإنقياد مع أن القائل إنما معه الحدس والتخمين والظن؟ فمن كلامه كله يقين وقطع برهان ووحى أولى أن تتلقى أقوالُه بالقبول والتسليم وترك الإعتراض؟ وأدوية السموم تارة تكون بالكيفية وتارة تكون بالخاصية كخواص كثير من الأحجار والجواهر واليواقيت. والله أعلم. أهـ.

١٠- علاج السحر بالعسل الأبيض

وقول الله عز وجل ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾

قال القرطبى(٢): إختلف العلماء فى قوله تعالى ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ هل هو على عمومه أم لا؟

فقالت طائفة: هو على العموم فى كل حال ولكل واحد، فروى عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئا إلا جعل عليه عسلا، حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلا. وحكى النقاش عن أبى دَجَّرة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشى بالعسل ويتداوى بالعسل. وروى أن عوف بن مالك الأشجعى مرض فقيل له: ألا نعالجك؟

فقال: ائتونى بالماء، فإن الله تعالى يقول ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ ثم قال ائتونى بعسل، فإن الله تعالى يقول ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ وائتونى بزيت، فإن الله تعالى يقول ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ فجاءوه بذلك كله فخلطه جميعاً ثم شربه فبرىء. ومنهم من قال: إنه على العموم إذا خلط بالخل ويطبخ فيأتى شرابا ينتفع به فى كل حالة من كل داء. أهـ.

قال ابن حجر(٣):-

وفيه من المنافع- أى العسل- ما لخصه الموفق البغدادى وغيره فقالوا: يجلو الأوساخ

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٩٢). (٢) تفسير القرطبى (٦/ ٣٧٥٢). (٣) الفتح (١٠/ ١٤٦).

التي فـى العروق والأمعاء، ويدفـع الفضلات؟ ويغسـل خمل المعدة ويسـخنها تسخـينا معتدلاً، ويـفتح أفواه العروق ويشد المـعدة والكبد والكلـى والمثانه والمنافذ، وفيـه تحليل للرطوبات أكلا وطلاء وتغذية، وفيه حفظ المعجونات وإذهاب لكيفية الأدوية المستكرهة، وتنقية الكبد والصدر أ. هـ

قلت وعلى فرض عدم عـموم الآية ففى ما ذكره الموفق يدل على أن الـعسل ينفع من السحر المأكول أو المشروب حيث أن العسل يجلو هذه الأوساخ **ويدفع هذه الفضلات**

وبنحو كلام الموفق قال ابن القيم وزاد (١):-

وفى سنن «ابن ماجة مرفوعـاً من حديث أبى هريرة **«من لعق العـسل ثلاث غدوات كل شهـر، لم يصبـه عظيم مـن البلاء»**(٢) «وفى أثـر آخر» **عليكم بالشـفائين العسل والقرآن»**(٣) فجمع بين الطب البشرى والإلهى، وبين طب الأبدان، وطب الأرواح، وبين الدواء الأرضى والدواء السمائى.

١١ـ العلاج بالحبة السوداء

ثبت فى «الـصحيحين»: من حديث أبـى سلمة، عن أبى هُريـرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «عَلَيْكُم بِهذِهِ الحَبَّةِ السَّـوْدَاء، فَإنَّ فيها شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إلا السَّامَ». والسَّامُ: الموتُ (٤).

قال ابن القيم: **الحبة السوداء**: هى الشُّونيز فى لغـة الفرس، وهى الكمُّون الأسود، وتسمَّى الكمون الهندي، قال الحربي، عـن الحسن: إنها الخردل، وحكى الهروي: أنها الحبة الخضراء ثمرة البطم، وكلاهما وهم، والصواب: أنها الشُّونيز.

وهى كثيرة المنـافع جداً، وقوله: «**شفاء من كل داء**»، مثل قوله تعالى: **﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾**(٥) أي: كلَّ شيءٍ يقبل التدمير ونظائره، وهى نافعة من جميع الأمراض الباردة، وتدخل فى الأمراض الحارة اليابسة بالعَرَض، فتُوصل قوى الأدوية الباردة الرطبة إليها بسُرعة تنفيذها إذا أخذ يسيرُها (٦).

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٢).

(٢) [ضعيف] أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٠) عن أبى هريرة به. وانظر «الطب النبوي» (٢٦٩ ـبتحققنا).

(٣) [ضعيف مرفوع] أخرجه ابن مـاجه (٣٤٥٢) عن ابن مسعـود به. انظر «الطب الـنبوى» (٢٧٠ ـ بتحققنا).

(٤) [متفق عليه] أخرجه الـبخارى (٥٦٨٧) ومسلم فـى السلام (١٤/ ٢٠١ ـ النووي) وانظـر «الطب النبوي» (١٦٩ ـبتحققنا)

(٥) الأحقاف: ٢٥

(٦) زاد المعاد (٤/ ٢٧٣).

فيه مسائل

الأولى: النَّهْيُ عَنِ النُّشْرَة.

الثانية: الفَرْقُ بَيْنَ المَنْهِيِّ عَنْهُ والمُرَخَّصِ فِيهِ مِمَّا يُزِيلُ الإشْكَالَ.

قال ابن حجر(١):-

وقال الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة: تكلم الناس فى هذا الحديث وخصوا عمومه وردوه إلى قول أهل الطب والتجربة التى بناؤها على ظن غالب- فتصديق من لا ينطق عن الهوى أولى بالقبول من كلامهم. إنتهى وقد تقدم توجيه حمله على عمومه بأن يكون المراد بذلك ما هو أعم من الإفراد والتركيب، فلا محذور فى ذلك ولا خروج عن ظاهر الحديث. والله أعلم. أهـ.

قلت: وعلى قول ابن القيم وصريح قول ابن أبى جمرة فالحبة السوداء تدخل فى علاج السحر والله أعلم.

١٢- الإنغماس فى الفرات أو النيل سبع مرات لعلاج للسحر

أخرج ابن أبى شيبة بسنده.

- عن عائشة قالت: من أصابه بسرة أوسم أو سحر فليأت الفرات فليستقبل الجرية فينغتمس فيه سبع مرات(٢).

قلت: وتقدم عنها وقد سئلت عن النشر فقالت: ما تصنعون بهذا؟ هذا الفرات إلى جانبكم، يستنقع فيه أحدكم يستقبل الجرية.

وقلت: ولا فرق بين النيل والفرات فى هذا لانهما نهران من الجنة كما فى الحديث النيل والفرات نهران من الجنة(*) ولعل هذا هو سر الاستشفاء بماء الفرات والنيل قياس عليه والله أعلم.



قال ابن عثيمين(٣):- قوله فيه مسائل

الأولى: النهى عن النشرة.

تؤخذ من قوله ﷺ: «هى من عمل الشيطان»، وهنا ليس فيه صيغة نهي، لكن فيه ما يدل على النهي؛ لأن طرق إثبات النهى ليست الصيغة فقط، بل ذم فاعله ونحوه، وتقبيح الشيء وما أشبه ذلك يدل على النهي.

---

(١) الفتح (١٠/١٥٢). (٢) ابن أبى شيبه (٥/٤٣٤/١). (٣) القول المفيد ٢/ ٩١ و ٩٢.

(*) صححه الالبانى فى «السلسلة».

قلت: وقد استخلص الشيخ الخضرى فى كتابه «تاريخ التشريع الإسلامى» أساليب القرءان فى طلب الكف عن الفعل فبلغت ثلاثة عشرة أسلوبا منها النهى والتحريم وعدم البخل وتغراير ونفى الفعل ذكر الفعل مقرنا بإثم أوم قرونا بوعيد أو وصف الفعل بأنه شر. . إلخ كما تقدم.

الثانية: الفرق بين المنهى عنه والمرخص فيه.

تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله وتفصيله.

إشكال وجوابه:

ما الجمع بين قول الفقهاء رحمهم الله يجوز حل السحر بالسحر، وبين

قولهم يجب قتل الساحر؟

الجمع أن مرادهم بقتل الساحر من يضر بسحره دون من ينفع؛ فلا يقتل، أو أن مرادهم بيان حكم حل السحر بالسحر للضرورة، وأما الإبقاء على الساحر؛ فله نظر آخر، والله أعلم. أهـ

قلت:أو يحمل على ما إذا تعلم إنسان السحر وهو ليس بساحر يعرف كيف يعالج أو يميز بينه وبين غيره أو لفرض آخر شرعى كما تقدم جواز ذلك عن بعض العلماء ثم طلب منه أن يعالج فهو هذه الحالة ليس بساحر وإن حل السحر بالسحر فلاينسحب عليه قولهم يجب قتل الساحر والله أعلم.



باب (٢٧)
ما جاء في التطير

● **تمهيد:**

قال الفقير: تقدم معناه فى أول كتاب التوحيد فى الباب الثانى (من حقق التوحيد دخل الجنة) حديث ابن عباس فى صفة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب قوله «**ولايتطيرون**»(*) ، وذكر قول ابن حجر أن المراد أنهم لايتشاءمون كما كانوا يفعلون فى الجاهلية. أهـ.

وذكر ابن عثيمين أن التطير أبطله الشرع لضرره على الإنسان عقلاً وتفكيراً وسلوكاً.

وأيضاً فى الباب الرابع والعشرين (بيان شىء من أنواع السحر)تقدم قول سليمان آل الشيخ فى الفرقان الذى يفرِّق به بين ولى الله وبين عدو الله أن أولياء الله لايتطيرون وأولياء الشيطان يتطيرون ويتشاءمون.

وحديث «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت»(*) أى من السحر، لتستوى بذلك الطيرة مع العيافة والطرق فى أنها سحر، وأن العيافة: هى زجر الطير، كما قال عوف أحد رواة هذا الحديث. وأبو السعادات قال بأنها التفاؤل بأسماء وأصوات الطير وممرها.

وفائدة هذا التكرار، هو، معرفة أين ذُكرت كلمة تطير عند المذاكرة ومراجعة ماسبق من الأبواب سواء فى الأبواب القريبة أو البعيدة، فأول باب ذكر فيه التطير هو «باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب» وقول الله تعالى ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ وذكر ضمن أحاديث الباب حديث السبعين ألف، وفيه أنهم يدخلون الجنة بغير حساب، ولما سُئل عنهم النبى ﷺ قال: «**هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**»، وفى بعض روايات مسلم «**لا يرقون**»، وهى صحيحة ثابتة خلافاً لقول ابن تيمية أنها شاذة، ومن تابعه على ذلك، فذكر هناك معنى التطير، وحكمه، وذكر هناك علاقة التطير بالمجتمعات الجاهلية، وصور التطير فى الماضى والحاضر.

وكذلك فى الباب الرابع والعشرين «باب بيان شىء من أنواع السحر وهنا ذكر كلام النبى ﷺ «**إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت**» أى من السحر كما قال عوف أحد رواة الحديث، وغير هذا من المواضع التى ستتكلم عنها بالتفصيل فى هذا الموضع، فهناك عزونا لهذا الموضع، وهنا أيضاً أشرنا إلى أنه تقدم شىء من التفصيل فى ذلك.

(*) تقدم

وهذه المواضع المتفرقة يـجمعها هذا الباب بشىء من التفصـيل والإيضاح، وهو يربط بين ما تقدم من مسائل وما سيأتى من مسائل التطير. وهذا أوان الشروع فى الباب:

● **مناسبة الباب لما قبله:**

قال الفقير: كما قلت فى الباب الماضى الأنسب أن يأتى بباب النشرة بعد باب بيان شىء من أنواع السحر، ثم باب: ماجاء فى الكهـان ونحوهم، ثم باب ماجاء فى التطير ذلك لأن هذا الترتيب أليـق وتعلق النشرة بالسحر، والكهانة بـالتطير ألصق ذلك؛ لأن النشـرةكما تقدم حل الـسحر عن المسحـور، وغالباً ماتكـون بسحر؛ ولذا هى مـن عمل الشيطان. والتطيـر تحاكم إلى غير الله وتحكم على الغيب، وإدعاء له بـغير دليل شأنها فى ذلك شأن الكهانـة إلا أن التطير تحاكم إلى طير، والكهـانة تحاكم إلى إنس إلا أن هذه الأبواب الأربعـة تجتمع جميعـاً فى الاعتماد على أشـياء جاهلية، وهى فـى الغالب خفية. والله أعلم.

● **مناسبة الباب للتوحيد**

قال سليمان آل الشيخ(١):

ولما كانت الطيـرة باباً من الشرك منافياً للـتوحيد أو لكماله لأنها من إلـقاء الشيطان وتخويفه ووسوستـه، ذكره المصنف فى كتاب التوحيد تحذيراً مـنها وإرشاداً إلى كمال التوحيد بالتوكل على الله. أهـ.

وتابعه على هذه المناسبة **عبدالرحمن آل الشيخ** حيث قال (٢):

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافى لكمال التوحيد الواجب لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووســوسته ذكرها المصنف رحمه الله فـى كتاب التوحيد تحذيراً مما يـنافى كمال التوحيد الواجب أ. هـ.

وقال عبدالله بن جار الله(٣):

مناسبة هـذا الباب لكتاب التوحيد هـى أن الطيرة من الشرك المنافى لـلتوحيد، أو لكماله الواجب لما فيها من تعلق القلب بغير الله أهـ.

وقال ابن عثيمين(٤): أن التطير ينافى التوحيد. أهـ. كما سيأتى تفصيل ذلك.

قال الفقير: ولما كان التوحيد تصديـق لله، وما جاء عن الله، وما جاء عن رسول الله وكان التطير ادعاء الغيب لغير الله، فهذا يناقض التوحيد، وتقدم معنا أن «من أتى كاهناً

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣١١،٣١٢) (٢) فتح المجيد (٢/ ٤٠١).
(٣) الجامع الفريد (١١٣) (٤) القول المفيد (٢/ ٩٣)

أو عرافاً فصدقه فقد كفر»، لأن ما أنـزل على محمد فيه ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ فكونك تـزعم أن فلان أو فلانة يعـلم الغيب، فقـد كفرت بما أنزل على محمد، ولما تربط الـتعاسة والسعادة وهى مسائل غيبيـة، سواء غيب مطلق أو غيب نسبى، إذا اعتقدت أن غير الله يعرفهـا، هذا الكلام يقدح فى أصل التوحيد وليس فى الكمال.

وكذلك هذا التطير يتنافى مع التوكل لأن النبى ﷺ قال «لا يتطيرون»، والمتطير غير متوكل على الله أبداً، بل متوكل على غير الله، وليس عنده ثقة بالله، بل عنده ثقة بغير الله، لأن الذى رده الطيرة، أو الذى دفعه للعمل هو أصل الطيرة، وليس ثقته بالله، ولا توكله على الله.



• شرح الترجمة [ماجاء فى الطيرة]

قال ابن حجر فى «الفتح»(١):

بكسر المهملة وفتح التحتانية وقد تسكن هى التشاؤم بالشين، وهو مصدر تطير مثل تخير حيرة.

قال بعـض أهل اللغة لم يـجىء من المصادر هـكذا غير هاتـين، وتعقب بأنـه سمع طيبة، وأورد بعضهم التولة وفيه نظر.

وأصل التطير: أنهم كـانوا فى الجاهلية يعتمدون على الطـير فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطيـر طار يمنة تيمن بـه واستمر، وإن رآه طار يسرة تشـاءم به ورجع، وربما كان أحدهـم يهيج الـطير ليطـير فيعـتمدها، فـجاء الشرع بالـنهى عن ذلـك، وكانوا يسمـونه. (السانح) بمهـملة ثم نون ثم حـاء مهملة، (والـبارح) بموحدة وآخره مهـملة، (فالسانح) ما ولاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلى يمينك ، (والبارح) بالعكس.

وكانوا يتيمنون بالسانح ويتشاءمون بـالبارح؛ أنه لايمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه، وليس فـى شىء من سنوح الطـير وبروحها مـايقتضى مـا اعتقدوه، وإنما هو تـكلف بتعاطى مالا أصل له، إذ لانطـق للطير ولاتمييز فيستدل بفعله علـى مضمون معنى فيه، وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله.

قلت: وهذا يحدث، فإنـك تجد، رب المنزل إذا أراد أن يذهب إلى عملـه، يسأل ابنه الصغيـر، ما رأيك هل أذهب أم لا؟ فإذا قـال له: لا تذهب، جلس ولـم يذهب، وإذا

(١) فتح البارى (١٠/ ٢٢٣)

قال له: اذهب، يتفائل ويـذهب، فهذا أشبه ما يكون بالتطير، لأنـه أخذ العلم من غير مظانه، فـهذا الذى يفعل ذلـك لم يشبه المتطـيرين فحسب لكـن هو فى الحقيقـة يشبه الطالحين مثل الصـوفيين وأهل البدع والأهواء. الذين يذهبون إلـى من لا يعقل، بل هو مجنون، ويزعمون أنه ولى لله.

ثم قال ابن حجر[1]: وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينـكر التطير ويتمدح بتركه، قال شاعر منهم: وهو المرقش.

ولـقـد غـدوت وكـنـت لا أغـدو عـلـى واقٍ وحـاتم
فـإذا الأشـائـم كـالأيـا مـن والأيـامـن كـالأشـائـم

وقال أخر

الـزجـر والـطـيـر والـكـهـان كـلـهـم مـضـلـلـون ودون الـغـيـب أقـفـال

وقلت انظر لقد أصاب قوله تعالى ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ فإذا كان مفاتح الغيب عند الله فأين الغيب نفسه إذ دونه أقفال هيهات أن تصل إلى المفتاح فضلاً على أن تصل إلى القفل فضلاً إلى أن تصل إلى ما وراء هذه الاقفال أ.هـ

وقال آخر:

وماعاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحاً، ولا عن ريثهن قصور

وقال آخر:

لعمرك ماتدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال آخر:

تـخـيـر طـيـرة فـيـهـا زيـاد لـتـخـبـره، ومـافـيـهـا خـبـيـر
تـعـلـم أنـه لاطـيـر إلا عـلـى مـتـطـيـر، و هـو الـثـبـور
بـلـى شـىء يـوافـق بـعـض شـىء أحـايـيـنـا، وبـاطـلـه كـثـيـر

(١) فتح البارى (١٠/ ٢٢٣، ٢٢٤)

وكان أكثرهم يتطيرون ويعتمدون على ذلك ويصح معهم غالباً لتزيين الشيطان ذلك، وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين.

قلت: أو فتنة من الله عز وجل لهؤلاء كما أن الله عز وجل يفتن يأجوج ومأجوج حين يقتلون من في الأرض بزعمهم ثم يضربون بسهامهم في السماء فتنزل بدماء فيقولون قتلنا من في الأرض وقتلنا من في السماء يعنون بذلك الله عز وجل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

● الترهيب من الطيرة وطرق علاجها:

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه من حديث أنس رفعه **«لاطيرة والطيرة على من تطير»**[(١)] وأخرج عبدالرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية عن النبي ﷺ **«ثلاثة لايسلم منهن أحد: الطيرة، والظن، والحسد. فإذا تطيرت فلا ترجع؛ وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق»**[(٢)] وهذا مرسل أو معضل، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة[(٣)] أخرجه البيهقي في «الشعب».

قلت: قوله **«وإذا حسدت فلا تبغ»، هذا يدل على أن هناك حسد فيه بغي، وحسد ليس فيه بغي، فالحسد المشروع الذي لا بغي فيه هو الغبطة، وهي تمنى ما مع الغير من خير مع عدم تمنى زولها، وفيه قال** ﷺ: «لاحسد إلا في اثنتين، رجل أتاه الله مالاً فينفقه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة، وفي رواية «ورجل آتاه الله القرآن» فلا حسد إلا في هذين.

قوله «وإذا ظننت فلا تحقق»، وهذا إذا ما ظننت بأخيك ظناً سيئاً، إذا حدث هذا **منك فلا تحقق، لأنك لو فعلت ستأكد الظن وتجعله يقيناً أ.هـ.**

وأخرج ابن عدي بسند لين عن أبي هريرة رفعه **«إذا تطيرتم فامضوا، وعلى الله فتوكلوا».**

قلت: فالتوكل علاج للتطير والمضي وعدم الرجوع بسبب الطيرة علاج الطيرة أما السير والجرى وراء التطير أو التشاؤم فهذا عمل بالتطير أو التشاؤم ينافي التوكل على الله عز وجل وعدم الثقة به وتقع بذلك في شرك أكبر أو أصغر أ.هـ.

وأخرج الطبراني عن أبي الدرداء رفعه **«لن ينال الدرجات العلا من تكهن، أو**

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧/ ٦٤٢) عن أنس به.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» (١٩٥٠٤) ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١١٧٢)

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١١٧٣) عن أبي هريرة بنحوه.

استقسم، **أو رجع من سفر تطيراً»**[1] ورجاله ثقات، إلا أننى أظن أن فيه انقطاعاً، وله شاهد عن عمران بن حصين وأخرجه البزار فى أثناء حديث بسند جيد.

قلت: قول أبى الدرداء الذى رفعه «لن ينال الدرجات العلا...».

قوله: «تكهن» أى: ذهب وقام بهذه الكهانة، وتقدم معنا فى باب «ما جاء فى الكهان ونحوهم»، قوله ﷺ «ليس منا من تكهن أو تُكهن له».

وأما الاستقسام، فهو كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ﴾ وهو أن يحدث القسمة بعد ذبح الجزور أقسام، وبعد ذلك يأتوا بالأزلام من خشب ويضرب بها، ويخرج نصيب كلاً منهما، فهذا تقسيم لكن عن طريق الضرب بالأقداح بهذه الصفة.

وأخرج أبو داود والترمذى وصححه هو وابن حبان عن ابن مسعود رفعه **«الطيرة شرك، وما منا إلا تطير، ولكن الله يذهبه بالتوكل»**وقوله **«ومامنا إلا»**[2] من كلام ابن مسعود أدرج فى الخبر.

وقد بينه سليمان بن حرب شيخ البخارى فيما حكاه الترمذى عن البخارى عنه.

وإنما جعل ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى، وقوله «ولكن الله يذهبه بالتوكل»إشارة إلى أن من وقع له ذلك فسلم لله ولم يعبأ بالطيرة أنه لايؤاخذ بما عرض له من ذلك **قلت** بل ربما يؤجر اذ ما دفع ذلك بالحديث السابق وفيه فإذا تطيرت فلا ترجع فإذا لم يرجع ودفع التطير معتثلاً لأمر النبىً فهو مأجور والله أعلم أ.هـ.

وأخرج البيهقى فى« الشعب» من حديث عبدالله بن عمرو موقوفاً**«من عرض له من هذه الطيرة شىء فليقل: اللهم لاطير إلا طيرك، ولاخير إلا خيرك، ولا إله غيرك»**.[3]

قلت: ذكر فى هذه الفقرة الترهيب من الطيرة لبيان أنها شرك، وأنه ليس له الدرجات العلا، وذكر فى أضعاف ذلك علاج الطيرة، وهى إما بالتوكل أو عدم الرجوع: أو المضى أ.هـ.

قال القرطبى فى «تفسيره»[4]:

كانت العرب تتيمن بالسانح، وهو الذى يأتى من ناحية اليمين. وتتشاءم بالبارح،

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع»(٥/ ١١٨) ونسبه للطبرانى بإسنادين وقال: ورجال أحدهما ثقات.

(٢) سيأتى تخريجه (٣) سيأتى تخريجه

(٤) تفسير القرطبى (٤/ ٢٧٠٠:٢٧٠٢).

وهو الذى يأتى من ناحية الشمال. وكانوا يتطيرون أيضاً بصوت الغراب، ويتأولونه البَيْن. وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً على أمور، وبأصواتها فى غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك. هكذا الظباء إذا مضت سانحة أو بارحة، ويقولون إذا برحت: «من لى بالسانح بعدالبارح». إلا أن أقوى ماعندهم كان يقع فى جميع الطير؛ فسموا الجميع تطيراً من هذا الوجه. وتطير الأعاجم إذا رأوا صبياً يذهب به إلى المعلم بالغداة، ويتيمنون برؤية صبى يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السقاء على ظهره قربة مملوءة مشدودة، ويتيمنون برؤية فارغ السقاء مفتوحه، ويتشاءمون بالحَمَّال المثقَل بالحِمل، والدابة المُوقَرة، ويتيمنون بالحَمَّال الذى وضع حِمله، وبالدابة يُحَطّ عنها ثِقْلُها. فجاء الإسلام بالنهى عن التطير والتشاؤم بما يسمع من صوت طائرٍ ما كان، وعلى أى حال كان؛ فقال عليه السلام: «أقروا الطير على مكناتها». وذلك أن كثيرا من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير فى وكرها فنفَّرها؛ فإن أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السانح عندهم. وإن أخذت ذات الشمال رجع، وهذا هو البارح عندهم. فنهى النبى ﷺ عن هذا بقوله: «أقروا الطير على مكناتها»(١) هكذا فى الحديث . وأهل العربية يقولون«وكُنُاتها» قال امرؤ القيس:

وقد أغتدى والطير فى وكناتها

والوُكْنة: اسم لكل وَكْر وعُش. والوَكْن: موضع الطائر الذى يبيض فيه ويُفْرِخ، وهو الخرق فى الحيطان والشجر. ويقال: وَكَن الطائر يكِن وُكونا إذا حضن بيضه. وكان أيضاً من العرب من لايرى التطيَّر شيئاً، ويمدحون من كذّب به. قال المُرَقِّش:

ولقد غدوت وكنت لا ... أغدو على واقٍ وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا ... مِن والأيامن كالأشائم

قلت: هذا يبين أنَّ الطير هو طير سواء ذهب جهة اليمين أو اليسار فليس له علاقة بالخير المقدر لك إن قدر لك أو بالشر إن قدر لك لكن جاء الإسلام فنهى عن ذلك كله وعلمنا الرسول ما هو أفضل من ذلك كله فكما قال الصحابة كان يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كسورة من القرآن والحديث ثابت فى الصحيح عن جابر رضى الله عنه ـ كان النبى ـ ﷺ ـ يعلمنا الإستخارة فى الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: إذا هم أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل...» الحديث.

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع»(٥/١٠٦) وقال: رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدها ثقات.

فليس هناك أفضل من أن تذهب إلى الله وتتقدم بين يديه بركعتين ثم تسأله بجامع الخير ومجامع التوحيد والثناء عليه بأحسن أسمائه وصفاته، فلا يُظن بعد ذلك إلا التوفيق، فهل يستوى هذا مع التطير الذى ليس له معنى شرعى ولا ضابط من الدين.

لهذا **قال عكرمة:** كنت عند ابن عباس فمر طائر يصيح؛ فقال رجل من القوم: خير، خير. فقال ابن عباس: ما عند هذا لاخير ولاشر.

ومثال ذلك أيضاً: ما تصدره النساء من أصورات فى الأعراس الجاهلية تحيَّة لأهل العروسين فإذا سمع أحد الحاضرين هذا الصورت الذى يسمونه (زغروطة). استبشر وقال خيراً ويفرح بذلك ولكنى أقول: إن هذا من فعل الشياطين لما جاء فى الحديث إن صح «صوتان لايحبهما الله صورت فى فرح وصورت في حزن أو جنازة» ولو قلنا بأنَّه لا يصح، فنقول: قال تعالى ﴿**فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ**﴾ فهذا نصٌ فى حرمة هذه الأصوارت، وهذا الذى يثنى على هذا الصورت ويقول (خيراً) هو فى قلبه مرض لأنه طمع والله أعلم.

ثم قال القرطبى:

قال علماؤنا: وأما أقوال الطير فلاتعلق لها بما يجعل دلالة عليه. ولا لها علم بكائن فضلاً عن مستقبل فتُخبر به.

ولافى الناس من يعلم منطق الطير؛ وإلا ماكان الله تعالى خصّ به سليمان عليه السلام من ذلك. فالتحق التطير بجملة الباطل. والله أعلم.

وقال عليه السلام «**ليس منا من تحلّم أو تكهّن أو ردّه عن سفره تطير**».

وقوله (تحلم) يعنى أنه يدَّعى رؤية مالم يره كمن يدعى أنه رأى النبىَّ - ﷺ - ولم يره، وكثيراً ما يدعى ذلك أصحاب الطرق الصوفية ويرتقى الرجل عندهم بذلك ولأن الرؤية الصادقة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة فكان لابد من الترهيب من ادعاء رؤية ما لم يره وهو التحلم ولو ترك الأمر دون ترهيب لأختلط الخير بالشر ولصُدّ عن السنة لذلك عدها الامام الذهبى من الكبائر فى كتابه أ.هـ.

وروى أبو داود عن عبدالله بن مسعود عن النبى ﷺ قال: «**الطِّيَرة شرك - ثلاثا - ومامنا إلا ولكنّ الله يذهبه بالتوكل**»[١].

وروى عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «**مَن رجّعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**». قيل: وماكفارة ذلك يارسول الله؟ قال: «**أن يقول أحدهم اللهم لاطير إلا طيرك ولاخير إلا خيرك ولا إله غيرك ثم يمضى لحاجته**»[٢]. وفى خبر

---

(١) سيأتى تخريجه

(٢) سيأتى تخريجه

آخر: «إذا وجد ذلك أحدكم فليقل اللهم لايأتى بالحسنات إلاأنت ولايذهب بالسيئات إلا أنت ولاحول ولاقوة إلا بك».ثم يذهب متوكلاً على الله؛ فإن الله يكفيه ما وجد فى نفسه من ذلك، وكفاه الله تعالى ما يهمه(1). أهـ.

● حكاية التطير غالباً عن أعداء الرسل:

قال القيم(*): لم يحك الله التطير إلا عن أعداء الرسل كما قالوا لرسلهم ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. وكذلك حكى الله سبحانه عن قوم فرعون فقال فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ حتى إذا أصابهم الخصب والسعة والعافية قالوا لنا هذه أى نحن الجديرون الحقيقون به ومن أهله وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه قالوا هذا بسبب موسى وأصحابه أصبنا بشؤمهم ونفض علينا غبارهم بقوله المتطير لمن يتطير به فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده كما قال تعالى عن أعداء رسوله ﷺ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ فهذه ثلاثة مواضع حكى فيها التطير عن أعدائه وأجاب سبحانه عن تطيرهم بموسى وقومه بأن طائرهم عند الله لا بسبب موسى وأجاب عن تطير أعداء رسول الله ﷺ بقوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وأجاب عن الرسول بقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ وأما قوله ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ فقال ابن عباس طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم.

وفى رواية شؤمهم عند الله ومن قبله أى إنما جاءهم شؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

وقال أيضًا أن الأرزاق والأقدار تتبعكم وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أى ما تطير له من الخير والشر فهو لازم له فى عنقه والعرب تقول جرى له الطائر بكذا من الخير والشر قال أبو عبيدة: الطائر عندهم الحظ، وهو الذى تسميه العامة البخت يقولون هذا يطير لفلان أى يحصل له.

(1) سيأتى تخريجه.

(*) مفتاح دار السعادة -(٥٧٨ - ٥٨٠)

قلت ومنه الحديث فطار لنا عثمان بن مظعون أى أصابنا بالقرعة لما اقترع الأنصار على نزول المهاجرين عليهم.

وفى حديث رويفع بن ثابت حتى أن أحدنا ليطير له النصل والريش وللآخر القدح أى يحصل له بالشركة فى الغنيمة.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أن الطائر ههنا هو العمل قاله الفراء وهو يتضمن الرد على نفاة القدر وخص العنق بذلك من بين سائر أجزاء البدن لأنها محل الطوق الذى يطوقه الإنسان فى عنقه فلا يستطيع فكاكه ومن هذا يقال اثم هذا فى عنقك، وأفعل كذا واثمه فى عنقى، والعرب تقول طوقها طوق الحمامة وهذا ربقه فى رقبته.

وعن الحسن ابن آدم لتنظر لك صحيفة إذا بعثت قلدتها فى عنقك فخصوا العنق بذلك لأنه موضع القلادة والتميمة واستعمالهم التعاليق فيها كثير كماخصت الأيدى بالذكر فى نحو (بما كسبت أيديكم) (بما قدمت يداك) ونحوه.

وقيل المعنى أن الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله من عذاب النار وهو الذى أصابهم فى الدنيا.

وقيل المعنى إن سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذى يجرى عليه ما يسوءهم ويعاقبون عليه بعد موتهم بما وعدهم الله ولاطائر أشأم من هذا.

وقيل حظهم ونصيبهم وهذا لايناقض قول الرسل طائركم معكم أى حظكم ومانالكم من خير وشر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ليس هو من أجلنا ولابسببنا بل ببغيكم وعدوانكم، فطائر الباغى الظالم معه وهو عند الله كما قال تعالى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ ولو فقهوا وفهموا لما تطيروا بما جئت به لأنه ليس فيما جاء به الرسول ﷺ ما يقتضى الطيرة فإنه كله خير محض لاشر فيه، وصلاح لافساد فيه، وحكمة لاعبث فيها، ورحمة لاجور فيها، فلو كان هؤلاء للقوم من أهل الفهم و العقول السليمة لم يتطيروا من هذا فإن الطيرة إنما تكون بالشر لابالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة، وليس فيما أنبتهم به لو فهموا ما يوجب تطيرهم بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصابهم التى يتناولوها منه بأعمالهم وكسبهم.

ويحتمل أن يكون المعنى طائركم معكم أى راجع عليكم فالطير الذى حصل لكم إنما

يعود عليكم، وهذا من باب القصاص فى الكلام مثل قوله فى الحديث أخذنا فالك من فيك ونظيره قول النبى ﷺ «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم » فعلى هذا معنى طائركم معكم أى تصيبكم طيرتكم التى تطيرتم بها لأنهم اعتقدوا الشؤم فيها، ولاشؤم فيها ألبته فقيل لهم الشؤم منكم وهو نازل بكم فتأمله وهذا يشبه قوله تعالى ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قيل جزاء مكرهم عنده فمكر بهم كما مكروا برسله، مكره تعالى بهم إنما كان بسبب مكرهم فهو مكرهم عاد عليهم وكيدهم عاد عليهم فهكذا طيرتهم عادت عليهم وحلت بهم.

فائدة:

وسمى جزاء المكر مكراً وجزاء الكيد كيداً تنبيها على أن الجزاء من جنس العمل ولما ذكر سبحانه أن أصابهم من حسنه وسيئة أى نعمة ومحنة فالكل منه تعالى بقضائه وقدره فكأنهم قالوا فما بالك أنت تصيبك الحسنات والسيئات كما تصيبنا فذكر سبحانه أن ماصابه من حسنة فمن الله منَّ بها عليه وأنعم بها عليه، وما أصابه من سيئة فمن نفسه أى بسبب من قبله أى لا لنقص ما جاء به، ولا لشر فيه، ولا لشؤم يقتضى أن تصيبه السيئة، بل بسبب من نفسه ومن قبله وقد قيل فى قوله تعالى ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أن طائرهم ههنا هو السبب الذى يجيء فيه خيرهم وشرهم فهو عند الله وحده وهو قدره وقسمه إن شاء رزقكم وعافاكم وإن شاء حرمكم وابتلاكم ومن هذا قالوا طائر الله لاطائر كلبى قدر الله الغالب الذى يأتى بالحسنات ويصرف السيئات.

ومنه «اللهم لاطير إلا طيرك ولاخير إلاخيرك ولاإله غيرك» وعلى هذا فالمعنى بطائركم نصيبكم وحظكم الذى يطيركم ومن فسره بالعمل فالمعنى طائركم الذى طار عنكم من أعمالكم وبهذين القولين فسر معنى قوله تعالى ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وأنه ما طار عنه من عمله أو صار لازما له مما قضى الله عليه وقدر عليه وكتب له من الرزق والأجل والشقاوة والسعادة أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(١) عن تطير الجاهلية:

نفاه الشرع وأبطله ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير فى جلب نفع أو دفع ضر.

قال المدائنى: سألت رؤبة بن العجاج ما السانح؟ قال: ماولاك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: ماولاك مياسره. قال: والذى يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذى يجيء من خلفك هو القاعد والقعيد.... أهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣١١، ٣١٢).

وقال حامد بن محمد[1]: بيَّن رسول الله ﷺ الطيرة، وفسرها بقاعدة كلية ـ كما سيأتى ـ يفهم منها أن كل شىء أمضاك وجرأك على أمر، أوردك ومنعك عنه فذاك الطيرة، ومن مضى أو امتنع بسببها فقد أشرك. أهـ.

وقال ناصر السعدى[2]:

وهو التشاؤم بالطيور، والأسماء، والألفاظ، و البقاع، وغيرها، فنهى الشارع عن التطير وذم المتطيرين، وكان يحب الفأل ويكره الطيرة. أهـ.

وسيأتى الفرق بينهما إن شاء الله.

قلت: وقد يحدث هذا التشاؤم بالصالحين أو باسمه كما تشأمت اليهود بجبريل عليه السلام وعادوه وقالوا إن كان الذى ينزل عليه جبريل فهذا الذى يأتى بالحرب وهو عدونا وإن كان ميكائيل فهو حبيبنا لأنه الذى ينزل بالقطر فالله عز وجل نفى ذلك عن جبريل وقال **﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾** فإنهم تشاءموا بالملك الذى لا يعصى ولا يأتى إلا بالخير بل هو كما وصفه الله ـ سبحانه وتعالى ـ **﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ولكن السبب فى تشاؤمهم بالملك مع صلاحه هو مرض القلب** الذى يقلب الأمور ويجعل المعروف منكراً والمنكر معروفاً والبدعة سنة والسنة بدعة والحسنة سيئة والسيئة حسنة، فالذى يمرض قلبه تنقلب عنده كلُّ الأمور، لذلك فإنه لابد أن يحذر كلٌّ منا فى حاله إحساسه بمرض فى قلبه من شبه أو شهوة أن يتخذ قراراً مصيرياً فى حياته فإنه قد تغلبه شهوته أو تعميه عن الحق فصدق من قال «مرآة الحب ـ يعنى الشهوة ـ عمياء» لا يرى فيها الحق وقد تغلبه شهوته فتسبق قراره ويقع أثر ذلك فى هلاك ووبال عليه.

وذلك لأنه فى حالة المرض ـ مرض القلب تكون الأمور عند صاحب هذا القلب غير منضبطة تماماً فليحذر الإنسان من زواج أو طلاق أو ذهاب لشيخ أو ترك شيخ وقلبه مريض.

ولكن إذا كان هناك قرار لابد من أخذه ولازال القلب على مرضه لم يبرأ بعد فماذا يفعل صاحب هذا القلب؟.

أقول. يتخير رجلاً تقياً يعرف عنه ذلك أثناء صلاح قلبه فيستشيره ويقص عليه الخبر، فيكون بذلك قد عرض الأمر على قلب سليم فإن شرح الله صدره لهذا الأمر فليفعل بعد الإستخارة ولعله يدل على ذلك ما تقدَّم مراراً أن عمر بن الخطاب ـ رضى

---

(1) فتح الله الحميد المجيد (٣٣٩)　　(٢) القول السديد(٨٠)

الله عنه ما تقدم لقتال المرتدين إلا بعد أن رأى ان الله شرح صدر أبى بكر لقتالهم فعلم أنه الحق.

وأنت كذلك إذا لم تعوِّل على قلبك لشهوة أو شبهة فعوِّل على قلوب من تظن فيهم الخير فإن رأو لك شيئاً فهو خير بعد الاستخارة. والله أعلم.

وقال عبدالله بن جار الله(١):

التطير هو التشاؤم بمرئى أو مسموع من الطيور ونحوها، وحكمه التحريم؛ لأنه شرك. أهـ.

قال ابن باز: (ماجاء فى التطير) أى من النهى عنه، والوعيد فيه، أهـ ثم ذكر تعريف الطيرة بنحو مما تقدم.

وقال ابن عثيمين(٢):

التطير فى اللغة: مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر: هل يذهب يميناً أوشمالاً أوما أشبه ذلك، فإن ذهب إلى الجهة التى فيها التيامن؛ أقدم، أو فيها التشاؤم؛ أحجم.

أما فى الاصطلاح: فهى التشاؤم بمرئى أومسموع، هذا من الأمور النادرة؛ لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح؛ لأن الاصطلاح يدخل على الألفاظ قيوداً تخصها، مثل الصلاة لغة: الدعاء، وفى الاصطلاح أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها.

وإن شئت؛ فقل: التطير: هو التشاؤم بمرئى أومسموع أو معلوم قلت هو اوسع واشمل التعريفات.

بمرئى مثل: لو رأى طيراً فتشاءم لكونه موحشاً

أومسموع مثل: من هم بأمر فسمع أحداً يقول لآخر: ياخسران، أو ياخائب، فيتشاءم.

أو معلوم؛ كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات؛ فهذه لاترى ولاتسمع. أهـ.

قلت: وصور التشاؤم كثيره معلومة وهى قديمة وحديثة من ذلك تشاؤم الجاهليين قديماً بالزواج فى شهر شوال، لذلك أراد النبىُّ - ﷺ - إزالة ذلك الإعتقاد ومخالفتهم فتزوج عائشة فى شوال وبنى بها أيضاً فى شوال والحديث عند مسلم.

---

(١) الجامع الفريد (١١٣)

(٢) القول المفيد (٢/ ٩٣).

وكذلك الجاهلية الحديثة وتشاؤم أهلها بساعة نخسى فى يوم الجمعة ولا يسمعون إلى قول النبى - ﷺ - أن فيه ساعة إجابة، فهو مصدر للخير لا للنحس.

وكذلك من جمع بين المسموع والمرئى مثل رؤية تكسير بعض الأشياء فيتشاءم أو يتفاءل ويعتقد أنها ذهبت بالشر ولا يتذكر قول النبىِّ - ﷺ - لو قدَّر الله لكان، قدر الله وما شاء فعل، وآمن بالقدر خيره وشره ويقابل ذلك بالرضى والتسليم.

وقال حافظ بن أحمد حكمى(١):

أما الطيرة: فهى ترك الإنسان حاجته، واعتقاده عدم نجاحها، تشاؤماً بسماع بعض الكلمات القبيحة: كياهالك، أو ياممحوق، ونحوهما.

وكذا التشاؤم ببعض الطيور كالبومة، وماشاكلها إذا صاحت، قالوا: إنها ناعبةأو مخبرة بشر.

وكذا التشاؤم بملاقاة الأعور أوالأعرج أو المهزول أو الشيخ الهرم أو العجوز الشمطاء.

وكثير من الناس يتشام بما يعرض له نفسه فى حال خروجه، كما إذا عثر، أو شيك، يرى أنه لايجد خيراً.

ومن ذلك التشاؤم ببعض الأيام، أو بعض الساعات، كالحادى والعشرين من الشهر وآخر أربعاء فيه ونحو ذلك، فلا يسافر فيها كثير من الناس، ولايعقد فيها نكاحاً ولايعمل فيها عملاًمهماً ابتداء، يظن أن يعتقد أن تلك الساعة نحس.

ومن ذلك التشاؤم بوقوع بعض الطيور على البيوت يرون أنها معلمة بِشَرٍ وكذا صوت الثعلب عندهم.

ومن ذلك الاستقسام بالأزلام الذى أمر الله تعالى باجتنابه، وأخبر أنه رجس من عمل الشيطان، وهذا ما شاكله كثير منه كان فى الجاهلية قبل النبوة وقد أبطله الإسلام، فأعاده الشيطان فى هذا الزمان أكثر مما كان عليه فى الجاهلية بأضعاف مضاعفة، ووسع دائرة ذلك وساعده عليه شياطين الإنس من الكهنة والمنجمين وأضرابهم وأتباعهم، أرداهم الله وألحقهم به. آمين أهـ.

● **التطير من الأمراض النفسية:**

وقال محيى الدين درويش(٢): اصطلح علماء النفس على معنى أثبت لها، فاعتبروها مرضاً من شعبة أمراض الخوف الناشىء عن ضعف الأعصاب واختلالها، إلا أنها خوف خاص له بواعثه وأعراضه، وأولها ضعف الأعصاب، فالرجل السليم لايتطير

(١) معارج القبول (٢/ ٣٣١/ ٣٣٢).

(٢) إعراب القرآن الكريم(٣/ ٤٣٥).

ولايتشاءم، لأنه يتنظر من الدنيا خيراً، ولا يحس النفرة بينه وبينها، ومن ثم لم يحس الخوف ولا التطير منها، ويمكن أن نعتبر الطيرة أنها تشاؤم مؤقت استدعته ظروف طارئة، وجو يلائم حالات اليأس والتشاؤم العارضة، فإذا بالمتطير يتسلف الفزع من الشر قبل وقوعه. أهـ.

فصل

ماجاء في الفرق بين الطيرة والفأل

قال الخطابي: الفرق بين الفأل والطيرة أن الفأل من طريق حسن الظن بالله والطيرة لاتكون إلا في السوء في فلذلك كُرهت.

وقال النووي: الفأل يستعمل فيما يسوء، وفيما يسر، وأكثره في السرور والطيرة لاتكون إلا في الشؤم، وقد تستعمل مجازاً في السرور انتهى.

قال ابن القيم(*): وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة وهي أن التطير هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع باب الشرك بل ولجه وبرىء من التوكل على الله وفتح على نفسه باب الخوف والتعليق بغير الله والتطير مما يراه أو يسمعه، وذلك قاطع له عن مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فيصير قلبه متعلقاً بغير الله عبادة وتوكلاً فيفسد عليه قلبه وإيمانه وحاله ويبقى هدفاً لسهام الطيرة ويساق إليه من كل أوب، ويقيض له شيطان من ذلك مايفسد عليه دينه ودنياه وكم هلك بذلك وخسر الدنيا والآخرة، فأين هذا من الفأل الصالح السار للقلوب المؤيد للأمال، الفاتح باب الرجاء، المسكن للخوف، الرابط للجأش، الباعث. على الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاستبشار المقوى لأمله السار لنفسه فهذا ضد الطيرة.

فالفأل يفضى بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد.

والطيرة تفضى بصاحبها إلى المعصية والشرك، فلهذا استحب ﷺ الفأل وأبطل الطيرة أهـ.

قال ابن حجر: وكأن ذلك بحسب الواقع، وأما الشرع فخص الطيرة بما يسوء، والفأل بما يسر، ومن شرطه ألايقصد إليه فيصير من الطيرة. أهـ(١).

قال الرازي(٢): ثم اعلم الله تعالى على لسان رسوله أن طيرتهم باطلة، فقال

(*) مفتاح دار السعادة (٥٩٤)

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٢٥).

(٢) التفسير الكبير(٧/ ١٤/ ٢٢٥).

(لاطيرة ولاهام) وكان النبى ﷺ يتفاءل ولايتطير. وأصل الفأل الكلمة الحسنة، وكانت العرب مذهبها فى الفأل والطيرة واحد، فأثبت النبى ﷺ الفأل وأبطل الطيرة قال محمد الرازى ـ رحمه الله ـ: ولابد من ذكر فرق بين البابين. والأقرب أن يقال: إن الأرواح الإنسانية أصفى وأقوى من الأرواح البهيمية والطيرية. فالكلمة التى تجرى على لسان الإنسان يمكن الاستدلال بها بخلاف طيران الطير، وحركات البهائم، فإن أرواحها ضعيفة، فلا يمكن الاستدلال بها على شىء من الأحوال. أهـ.

قال ناصر السعدى[1]: **والفرق بينهما: أن الفأل** الحسن لايدخل بعقيدة الإنسان ولابعقله وليس فيه تعليق القلب بغير الله بل فيه من المصلحة النشاط والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة.

وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود أو على حالة من الأحوال المهمة ثم يرى فى تلك الحال مايسره أو يسمع كلاما يسره مثل يا راشد أوسالم أوغانم، فيتفاءل ويزداد طمعه فى تيسير ذلك الأمر الذى عزم عليه، فهذا كله خير وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شىء.

وأما الطيرة: فإنه إذا عزم على فعل شىء من ذلك من الأمور النافعة فى الدين أو فى الدنيا، فيرى أو يسمع ما يكره أثر فى قلبه أحد أمرين، أحدهما أعظم من الآخر.

(أحدهما) أن يستجيب لذلك الداعى فيترك ماكان عازما على فعله أو بالعكس فيتطير بذلك وينكص عن الأمر الذى كان عازما عليه، فهذا كما ترى قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه فى إرادته وعزمه وعمله، فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه واخل بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لاتسأل عما يحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين وتعلقه بالأسباب وبأمور ليست أسباباً، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله.

وهذا من ضعف التوحيد والتوكل ومن طرق الشرك ووسائله، ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثانى:أن لايستجيب لذلك الداعى ولكنه يؤثر فى قلبه حزنا وهما وغما، فهذا وأن كان دون الأول لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله. وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوى تطيره ، وربما تدرج به إلى الأمر الأول.

فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وذمها ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل أهـ.

---

(١) القول السديد(٨٠:٨٢).

قلت: وبإستعراض سيرة النبيُ - ﷺ - وأحواله، نجده قد غيَّر بعض الأسماء واستبشر ببعض الأسماء، فلما جاءه سهل ابن عمرو فى صالح الحديبية قال لأصحابه سهل أمركم وذلك لأنَّ الأسماء قوالب لأصحابها وحكمة الله تأبى إلا ذلك، فمحمد هو محمد وهو كثير المحامد، وأبو لهب كنيته هكذا ومآله إلى النار وسهيل له حظ ونصيب من اسمه وهذا كله عليه أدلة ذكرها ابن القيم فى زاد المعاد فى فصل الأسماء وهدى النبى - ﷺ - فيها، والذى سميته بعد ذلك بالقول السامى فى فقه الأسامى من ذلك أن الرسول ﷺ كان يحب إذا أبرد إليه بريد أن يكون ذو اسم حسن لأنَّ هذا سيقوى الرجاء فى الله وسيترتب على ذلك أثار طيبة مثل حلو الهمة فى طلب الخير وعدم اليأس، ولهذا كانت الأسماء قوالب لأصحابها ولذات السبب كان النبى - ﷺ - يغير الأسماء القبيحة إلى الحسن ومن لم يستجب لهذا التغير كان يصيبه حظهٌ من اسمه، فهدا الرجل الذى كان اسمه (حزن) سماه النبيُ - ﷺ - سهل فلما أبى وقال لا أغير اسماً سمانيه ابى لم تزل تلك الجزونة فيه وفى أهله ولو سمع كلام النبى - ﷺ - لأثر ذلك فى أخلاقه وأخلاق أولاده أيضاً من بعده - والله أعلم.

● **من فرق بين الطيرة والتشاؤم**

قال ابن حجر(١):

وذكر البيهقى فى «الشعب» عن الحليمى ما ملخصه: كان التطير فى الجاهلية فى العرب إزعاج الطير عند إرادة الخروج للحاجة، فذكر ماتقدم ثم قال: وهكذا كانوا يتطيرون بصوت الغراب وبمرور الظباء فمرا الكل تطيراً، لأن أصله الأول. قال: وكان التشاؤم فى العجم إذا رأى الصبى ذاهباً إلى المعلم تشاءم أو راجعاً تيمن، وكذا إذا رأى الجمل موقراً حملاً تشاءم فإن رآه واضعاً حمله تيمن، ونحو ذلك. فجاء الشرع برفع ذلك كله. وقال« **من تكهن أو رده عن سفر تطير فليس منا**»(٢) ونحو ذلك من الأحاديث.

قال ابن حجر(٣): والتطير والتشاؤم بمعنى واحد. أهـ.

وقال ابن عثيمين(٤):

واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله.

---

(١) فتح البارى (١٠/ ٢٢٦)

(٢) تقدم

(٣) فتح البارى (١٠/ ٢٢٤).

(٤) القول المفيد (٢/ ٩٣، ٩٤).

وبين ما يحصل له، وهذا لاشك أنه يخل بالتـوحيد؛ لأن التوحيد عبادة واستعانة، قال تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقال تعالى ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾.

فالطيرة محرمة، وهى منافية للتوحيد كما سبق، والمتطير لايخلو من حالين:

الأول: أن يحجـم ويستجـيب لهذه الـطيرة ويدع الـعمل، وهذا مـن أعظم التـطير والتشاؤم.

والثانى: أن يمضى لكـن فى قلق وهم وغم يخشـى من تأثير هذا المتطـير به، وهذا أهون.

وكلا الأمرين نقص فى التوحيد وضرر على العـبيد، بل انطلق إلى ما تريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد على الله ـ عزوجل، ولا تسىء الظن بالله ـ عزوجل أهـ.



قوله: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾

والآية من أولها ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

● **مناسبة الآية للباب :**

قال سليمـان آل الشيخ(٢): ومطابـقة الآيتين ـ أى هـذه الآية والتى بعـد ذلك فى المتن ـ لمقصود الـباب ظاهر لأن الله تعالى لم يـذكر التطير إلا عن أعدائـه فهو من أمر الجاهلية لا من أمر الإسلام. أهـ قلت: وتقدم ذكر ابن القيم ذلك عن أعداء الله.

وقال عبد الرحـمن آل الشيخ(٣): مناسبة الآيتين للتـرجمة: أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشـركين وقد ذمهم الله تعالى به ومقتـهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير وأخبر أنه شرك كما سيأتى فى أحاديث الباب. أهـ.

وقال عبدالله بن جار الله(٤): ومناسبة الآيتين للباب: أنهما دلتا على أن التطير من أعمال الكفار وقد ذمهم الله به ومقتهم عليه أهـ.

وقال القرعاوى(٥): حيث دلت الآية على تحريم التطير أ.هـ.

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

ماتقدم من مناسبة الآية للباب وأيضاً.

(١) الأعراف: ١٣١ (٢) تيسير العزيز الحميد (٣١٣)
(٣) فتح المجيد(٢/٥٠٨) (٤) الجامع الفريد(١١٤). (٥) الجديد(٢٥١)

قال القرعاوى[1]:

حيث دلت الآية على أن الطيرة شرك لأنه تعليق للقلب بغير الله وإثبات سبب دون الله. أهـ

الإعراب[2]: الفاء عاطفة، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة جاءتهم الحسنة فى محل جر بالإضافة، والمراد ما يصيبهم من الرخاء والخصب، وجملة قالوا لامحل لها لأنها جواب شرط غير جازم، ولنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر متقدم، وهذه اسم إشارة فى محل رفع مبتدأ مؤخر، والجملة الأسمية فى محل نصب مقول قولهم أهـ.

● **ماجاء فى تفسير الآية بالقرآن.**

قال الشنقيطى[3]: ذكر تعالى فى هذه الآية الكريمة: أن فرعون وقومه إن أصابتهم سيئة أى قحط وجدب ونحو ذلك، تطيروا بموسى وقومه فقالوا: ماجاءنا هذا الجدب والقحط إلا من شؤمكم، وذكر مثل هذا عن بعض الكفار مع نبينا ﷺ فى قوله: ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ**﴾الآية[4].

وذكر نحوه أيضاً عن قوم صالح مع صالح فى قوله: ﴿**قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ**﴾[5].

وذكر نحو ذلك أيضاً عن القرية التى جاءها المرسلون فى قوله: ﴿**قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ**﴾[6]. وبين تعالى أن شؤمهم من قبل كفرهم، ومعاصيهم. لا من قبل الرسل قال فى «الأعراف»: ﴿**أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ**﴾[7]. وقال فى سورة «النمل» فى قوم صالح: ﴿**قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ**﴾[8]. وقال فى «يس» ﴿**قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ**﴾[9] الآية أهـ.

● **ماجاء فى تفسير الآية من آثار:**

عن مجاهد فى قوله﴿**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ**﴾العافية، والرخاء﴿**قَالُوا لَنَا هَذِهِ**﴾نحن أحق بها، ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**﴾بلاء، وعقوبة﴿**يَطَّيَّرُوا**﴾ويتشاءموا ﴿**بِمُوسَىٰ**﴾[10].

---

(1) الجديد (٢٥١).
(2) إعراب القرآن لمحيى الدين درويش(٩/ ٤٣٤).
(3) أضواء البيان (٢/ ٢٤٧)
(4) النساء: ٧٨
(5) النمل٤٧.
(6) يس ١٨.
(7) الأعراف ١٣١
(8) النمل ٤٧.
(9) يس ١٩
(10) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٢٠٢) ونسبه لابن أبى شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.
تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا.

وعن ابن زيد فى قوله﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ الآية، قالو ما أصابنا هذا إلا بك ياموسى، وبمن معك، ما رأينا شراً ولاأصابنا حتى رأيناك. وقوله﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ قال الحسنة ماتحبون،وإذا كان مايكرهون قالوا: ما أصابنا هذا إلا بشؤم هؤلاء الذين ظلموا، قال قوم صالح﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ فقال الله: ﴿إنما طائركم عندالله بل أنتم قوم تفتنون﴾(١).

وعن مجاهد: قوله ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ تشائموا بموسى ﷺ.(٢)

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قوله ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾

قال ابن جرير(٣): يقول تعالى ذكره: فإذا جاءت آل فرعون العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا ما يحبون فى دنياهم، قالوا(لنا هذه) نحن أولى بها. أهـ.

وقال البغوى(٤). قوله﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ يعنى الخصب والسعة والعافية.

وقوله تعالى ﴿لَنَا هَٰذِهِ﴾أى نحن أهلها ومستحقوها على العادة التى جرت لنا فى سعة أرزاقنا، ولم يروها تفضلاً من الله عزوجل فيشكروه عليها. أهـ.

وقال الزمخشرى(٥)بنحو مما تقدم،وكذا **ابن الجوزى**(٦)، **والفخر الرازى**(٧)، **والقرطبى**(٨)، **وابن كثير**(٩) **وقال الشوكانى**(١٠): قوله ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ أى الخصلة الحسنة من الخصب بكثرة المطر، وصلاح الثمرات، ورخاء الأسعار. . أهـ.

وقال السعدى (١١) مثلهم

قوله﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ٢٠)
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٥/ ١٥٤٣) فانظره بتخريجنا
(٣) تفسير الطبرى (٦/ ٩/ ١٠)
(٤) معالم التنزيل (٢/ ٥٢٦)
(٥) الكشاف(٢/ ٨٤).
(٦) زاد المسير(٣/ ١٩٠).
(٧) التفسير الكبير(٧/ ١٤/ ٢٢٤)
(٨) تفسير القرطبى(٤/ ٢٧٠٠).
(٩) تفسير ابن كثير(٢/ ٢٣٠).
(١٠) فتح القدير(٢/ ٢٤٨).
(١١) تيسير الكريم الرحمن (٢، ١٤٤).

الإعراب[1]:

وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معــه الواو عاطفة، وإن شرطية، وتصبهم فعل الشرط ، والهاء مفعول به، وسيئة فاعل.

● **ماجاء فى تفسير الآية من الآثار:**

روى ابن ابى حاتم[2] بسنده عن زيد بن أسلم فى قوله ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**﴾ قال: إذا كان ما يــكرهون قالــوا إنما أصابنــا هذا بشؤم هؤلاء الــذين بين أظــهرنا كمــا قال قوم صالح﴿**إنا تطيرنا بك وبمن معك**﴾ فقال الله ﴿**إنما طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون**﴾.

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال ابن جرير[3]: **قوله**﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**﴾يعني جدوب، وقحوط، وبلاء. أهـ.

وقال البغوى[4]: مثل قول ابن جرير وزاد: ورأوا ما يكرهون . أهـ.

وقال الزمخشرى[5]:سيئة من ضيقة وجدب. أهـ.

وقال ابن الجوزى [6]: بنحوماتقدم.

وقال الفخر الرازى[7]: بنحو ماتقدم وزاد: والمرض والضر. أهـ.

وقال القرطبى[8]:بنحو ماتقدم، **وكذا ابن كثير**[9].

وقال الشوكانى [10]: أى خصلة سيئة من الجدب والقحط. . أهـ.

وقال السعدى[11]: بنحو ماتقدم.

مسألة:

فإن قال قائل : كــيف قيل فى ﴿**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ**﴾ بإذا؟ وتعريف الحسنة؟﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**﴾ بإن ؟ وتنكير السيئة؟

الجواب: قال الزمــخشرى[12]: لأن جنس الحســنة واقعة كالواجب، لكثــرته واتساعه وأما السيئة فلا تقع إلا فى النُدرة، ولايقع إلاشىء منها، ومنه قوله بعضهم:

قد عددت أيامَ البلاء ∴ فهل عددتَ أيام الرخاء.أهـ.

(١) إعراب القران (٣/ ٤٣٤).

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (٥/ ١٥٤٣).

(٣) تفسير الطبرى (٦/٩/ ٢٠)

(٤) معالم التنزيل (٢/ ٥٢٦)

(٥) الكشاف(٢/ ٨٤)

(٦) زاد المسير (٣/ ١٩٠)

(٧) التفسير الكبير(٧/ ١٤/ ٢٢٤)

(٨) تفسير القرطبى (٤/ ٢٧٠٠)

(٩) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٠).

(١٠) فتح القدير (٢/ ٢٤٨)

(١١) تيسير الكريم الرحمن(٢/ ١٤٤)

(١٢) الكشاف (٢/ ٨٤).

قوله ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ وهى كقوله تعالى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾

الإعراب(١):

يطيروا جواب الشرط، وبموسى جار ومجرور متعلقان بيطيروا، ومن عطف على موسى، ومعه ظرف مكان متعلق بمحذوف لامحل له من الأعراب لأنه صلة الموصول.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

روى ابن أبى حاتم عن مجاهد قوله« يطيروا. . بموسى ومن معه» تشائموا بموسى ﷺ

● أقوال المفسرين فى الآية:

قال ابن جرير: يقول: يتشاءموا بهم، ويقولوا: أذهبت حظوظنا وأنصباؤنا من الرخاء والخصب والعافية مذ جاءنا موسى عليه السلام. أهـ.

وقال البغوى: وقالوا ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم، فهذا من شؤم موسى وقومه.

وقال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر، كان مُلك فرعون أربع مائة سنة، وعاش ست مائة وعشرون سنة لايرى مكروهاً، ولو كان له فى تلك المدة جوع، أو حُمى ليلة، أو وجع ساعة، لما ادعى الربوبية قط. أهـ.

وقال ابن الجوزى: بنحو كلام الطبرى، وزاد تعريف الطيرة وقد مضى تعريفها مفصلاً فى أول الباب.

وكذا قال الفخر الرازى وزاد: قوله(يطيروا) أُدغمت التاء فى الطاء، لأنهما من مكان واحد من طرف اللسان وأصول الثنايا . أهـ.

وزاد القرطبى: وقرأ طلحة (تطيروا) على أنه فعل ماض، والأصل فى هذا من الطيرة وزجر الطير، ثم كثر استعماله حتى قيل لكل ما تشاءم تطير.

وقال ابن كثير(٢): أى هذا بسببهم، وماجاءوا به . أهـ.

وقال الشوكانى(٣)، والسعدى(٤) كأقوال المفسرين السابقة.

وقال صاحب الظلال(٥):

فحين تنحرف الفطرة عن الإيمان بالله، فإنها لاترى يده ـ سبحانه وتعالى ـ فى تصريف هذا الوجود، ولاترى قدره الذى تنشأ به الأشياء والأحداث، وعندئذ تفقد

(١) إعراب القرآن (٣/ ٤٣٤) (٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٠) (٣) فتح القدير (٢/ ٢٤٨)
(٤) تيسير (الكريم الرحمن) (٠/ ٣١٢). (٥) الظلال (٣/ ١٣٥٦).

إدراكها وحساسيتها بالـنواميس الكونية النافذة الثابتة، فتفسر الحـوادث تفسيرات منفصلة منعزلة، لاصلة بينها ولاقاعدة ولاترابط، وتـهيم مع الخرافة فى دروب ملتوية متفرقة، لاتلتقـى عند قاعدة ولاتجتمع وفـق نظام، ـ وذلك كالذى قاله ـ (خـروشوف) ـ صاحب الاشتراكية العلميـة عن معاكسة الطبيعة لهم، فى تعليل نـقص الثمرات والغلات، وكما يقولوا الـذين يمضون مع هذه الـعلمية ـ المدعـاة ـ فى تعليل مثـل هذه الأحداث، و هم ينكرون قدر الله، وفيهـم من يدعى بعد استنكار غيب اللهوقدر الله أنه مـسلم وهو ينكر أصول الإيمان بالله. وهكذا مـضى فرعون وآله يعللون الأحداث، الحسنـة التى تصبهم هى من حسن حظهم وهم يستحقونها. والسـيئة التى تصبهم هى بشؤم موسى ومن معه عليهم ومن تحت رأسهم. أهـ.

قوله﴿ألا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾كقوله فى قصة ثمود﴿قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله﴾.

الإعراب(١):﴿ألا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنـدَ اللَّهِ﴾ ألا أداة استـفتاح وتـنبـيه، وإنما كـافة ومكفوفة، وطائرهم مبتدأ، وعند الله ظرف مكان مـتعلق بمحذوف خبر، والجملة مستأنفة مسوقة مـن قيله تعالى للـرد على اقتنائهـم، وأن ما أصابهم هو جزاء وفاق لأعـمالهم السيئة المسجلة عنده . أهـ.

● **ماجاء فى تفسير الآية من الآثار:**

عن ابن عباس:﴿ألا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ قال الأمر من قبل الله(٢).

وعن الضحاك فى قوله﴿طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾يقول : الأمر من قبل الله، ما أصابكم من أمر فمن الله، فبما كسبت أيديكم(٣).

● **أقوال المفسرين:**

قال ابن جرير :يقول تعالى ذكره: ألا ما طائر آل فـرعون وغيرهم،وذلك أنصباؤهم من الرخاء والخصب وغير ذلك من أنصباء الخير والشر إلا عند الله.أهـ.

قال البغوى(٤): قوله ﴿ألا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ نصيبهـم من الخصب والجدب، والخير والشر، كلـه من الله. وقال ابن عباس: ﴿طَائِرُهُمْ﴾ ما قضى عليهم، وقدرلهم،

(١) إعراب القرآن وبيانه (٣/ ٤٣٤) (٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (٩/ ٢١)
(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٥/ ١٥٤٣) فانظره تخريجنا
(٤) معالم التنزيل (٢/ ٥٢٦).

وفى رواية عـنه: شؤمهم عنـدالله ومن قبل الله. إى إنما جـاءهم الشؤم بكفـرهم بالله. وقيل معناه: الشؤم العظيم. وهو الذى لهم عندالله من عذاب .أهـ.

وقال الزمخشري[1]:

طائرهم عـند الله أى سبب خيرهـم وشرهم عند الله وهو حـكمه ومشيئـته والله هو الذى يشاء مايصيبهم من الحسنة والسيئة وليس شؤم أحد ولايمنه بسبب فيه كقوله تعالى ﴿قل كل من عند الله﴾ويجوز أن يكون معناه ألا إنما سبب شـؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عند الذى يجرى عليهم ما يسوءهم لأجله ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله فى قوله سبحانه﴿النار يعرضون عليها﴾ الآية ولاطائـر أشأم من هذا وقـرأ الحسن﴿إنما طيركم عند الله﴾ وهو اسم لجمـع طائر غير تكسيـر ونظيره التجر والركـب وعند أبى الحسن هو تكسير .أهـ. قلت: بل هو مكتوب قيل ان يخلق الله الخلق بخمسين ألف سنة

وقال ابن الجوزى[2]:

قال أبو عـبيدة ﴿إلا﴾ تنبيه وتـوكيد ومجاز﴿طائرهم﴾حظهم ونصيـبهم وقال ابن عباس: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أى إن الذى أصابهم من الله: قـال الزجاج: المعنى ألا إن الشؤم الذى يلحقهم هو الذى وُعدوا به فى الآخرة لامايناالهم فى الدنيا أهـ.

وقال الفخر الرازى[3]:

وقوله ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ فى الطائر قولان:

القول الأول: قال ابن عباس: يـريد شؤمهم عند الله تعالـى أى من قبل الله أى إنما جاءهم الشر بـقضاء الله وحكمة فالطـائر ههنا الشؤم ومثـله قوله تعالى فى قـصة ثمود ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾

قال الفراء: وقد تشاءمت الـيهود بالنبى ﷺ بالمـدينة، فقالوا غلت أسـعارنا وقلت أمطارنا مذ أتانا، قال الأزهرى: وقيل للـشؤم طائر وطير وطيرة، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير بـبارحها، ونعيق غربانها، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها ، فسموا الشؤم طيرا وطائرا وطيرة لتشاؤمهم بها.

---

(1) الكشاف (٢/ ٨٤).   (2) زاد المسير (٣/ ١٩٠)

(3) التفسير الكبير(٧/ ١٤/ ٢٢٥).

القول الثانى: فى تفسير الطائر قال أبو عبيدة ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾أى حظهم، وهو ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إنما طائرهم ما قضى وقدر لهم[(١)] والعرب تقول: أطرت المال وطيرته بين القوم فطار لكل منهم سهمه. أى حصل له ذلك السهم.

وأعلم أن على كلا القولين المعنى: أن كل مايصيبهم من خير أوشر فهو بقضاء الله تعالى وبتقديره أهـ.

وقال القرطبى[(٢)]:﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾أى ما قدرلهم وعليهم. أهـ.

وقال ابن كثير[(٣)]:يقول مصائبهم عند الله . أهـ

فائدة:

قال الشوكانى[(٤)]:وكان هذا الجواب﴿**ألا إنما طائرهم عندالله**﴾على نمط مايعتقدونه، وبما يفهمونه ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذى يجرى بقدر الله وحكمته ومشيئته. أهـ.

وقال صاحب الظلال[(٥)]:إن ما يقع لهم مصدره واحد، إنه من أمر الله، ومن هذا المصدر تصيبهم الحسنة للابتلاء وتصيبهم السيئة للابتلاء ﴿**ونبلوكم بالشرو الخير فتنة وإلينا ترجعون**﴾ويصيبهم النكال للجزاء . أهـ.

قوله ﴿وَأَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾

الإعراب[(٦)]: الواو حالية، لكن واسمها، والجملة نصب على الحال، وجملة لايعلمون خبركان. أهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال ابن جرير[(٧)]: قوله﴿**ولكن أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ أن ذلك كذلك فلجهلهم بذلك كان يتطيرون بموسى ومن معه. أهـ.

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تفسير القرطبى (٤/ ٢٧٠٠).
(٣) تفسير ابن كثير(٢/ ٢٣٠).
(٤) فتح القدير (٢/ ٢٤٨)
(٥) الظلال (٣/ ١٣٥٧)
(٦) إعراب القرآن (٣/ ٤٣٤)
(٧) تفسير الطبرى (٦/ ٩/ ٢٠)

وقال البغوى [1]: قوله ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾أن الذى أصابهم من الله. أهـ.

وقال الفخر الرازى[2]:ولكن أكثرهم لايعلمون أن الكل من الله تعالى، وذلك لأن أكثرهم الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وتقديره، والحق أن الكل من الله، لأن كل موجود فهو إما واجب الوجود لذاته، والواجب واحد وما سواه ممكن لذاته، والممكن لذاته لايوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، وبهذا الطريق يكون الكل من الله فاسنادها إلى غير الله يكون جهلا بكمال الله تعالى أهـ.

وقال القرطبى [3]: ولكن أكثرهم لايعلمون أنَ ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عزوجل بذنوبهم، لامن عند موسى ومن معه. أهـ.

وقال الشوكانى[4]: ولكن أكثرهم لايعلمون بهذا بل ينسبون الخير والشر إلى غير الله جهلاً منهم. أهـ.

وقال السعدى[5]: فلذك قالوا ما قالوا . أهـ.

وقال صاحب الظلال[6]: ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾كالذين ينكرون غيب الله، وقدره فى هذه الأيام باسم (العقلية العلمية) ـ العلمانية ـ وكالذين ينسبون إلى الطبيعة المعاكسة باسم الاشتراكية العلمية كذلك!! وكلهم جهال، وكلهم لايعلمون. أهـ.

● **كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:**

قال سليمان آل الشيخ[7]: **وعبد الرحمن آل الشيخ**[8] **وقال عبد الله بن جار الله**[9]: **قوله تعالى ﴿قالوا طائركم معكم﴾** المعنى والله أعلم: حظكم وما نالكم من شر

---

(1) معالم التنزيل (٢/ ٥٢٦)

(2) التفسير الكبير(٧/ ١٤/ ٢٢٥).

(3) تفسير القرطبى (ـ٢/ ٢٧٠٠)

(4) فتح القدير (٢/ ٢٤٨).

(5) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٤٤)

(6) الظلال (٣/ ١٣٥٦).

(7) تيسير العزيز الحميد(٣١٢).

(8) فتح المجيد (٢/ ٤٠٢)

(9) الجامع الفريد (١١٣، ١١٤)

معكم بسبب **أفعالكم** وكفركم ليس من أجلنا ولا بسببنا. أهـ بنحو كلام المفسرين، ونقل كلام ابن جريرالمتقدم وغيره.

وقال ابن عثيمين[1]: في معنى ﴿**يطيروا بموسى ومن معه**﴾ أنهم إذا جاءهم البلاء والجدب والقحط قالوا: هـذا من موسى وأصحابه. فأبطل الله هذه العـقيدة بقوله﴿**ألاإنما طائرهم عند الله**﴾ الذى قدره، ولاعلاقة لموسى وقومه به، بل إن الأمر يقتضى أن موسى وقومه سبب لـلبركة والخير ولكن هـؤلاء - والعياذ بالله **يُلبسون علـى العوام ويوهمون** الناس خلاف الواقع. . . . أهـ.

قال القرعاوى[2]:

الحسنة : أى خصب وسعة ويسر وعافية.

لنا هذه : نحن جديرون بها ومستحقون لها.

سيئة : أى جدب وضيق وبلاء ومرض.

يطيروا بموسى ومن معه: أى يتشاءمون بموسى وأصحابـه ويزعمون أن ماجاءهم من المصائب حاصل بسبب موسى وأصحابه.

ألا إنما طائرهم عند الله: إنما جاءهم الشؤم من قبل الله بسبب كفرهم وتكذيبهم بأيات الله.

ولكن أكثرهم لايعلمون: أى لايعلمون أن الخير والشر مقدر من الله. أهـ.

ثم قال: الفوائد من الآية:

١ـ أن الخير والشر مقدران من الله.

٢ـ تحريم كفر النعمة.

٣ـ تحريم الطيرة والتشاؤم .

٤ـ أن الجهل سبب لكل شر. أهـ.

قلت: وفيها انصاف المسلمين مع الجاهليين حيث تطيروا بهم ومع ذلك لم يتطير المسلمون بهم.



(١) القول المفيد (٢/ ٩٥).

(٢) الجديد (٠ ٢٥).

وقول الله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

قوله: وقول الله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾

والآية التى قبلها﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⟨١٨⟩ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾(١).

مناسبة الآية للباب وللتوحيد: هى نفس ما تقدمت فى الآية السابقة.

الإعراب(٢):

طائركم مبتدأ ومعكم ظرف متعلق بمحذوف خبر والهمزة للاستفهام الإنكارى التوبيخى وإن شرطية وذكرتم فعل ماض مبنى للمجهول وهو فى محل جزم فعل الشرط وجواب الشرط محذوف والقاعدة عند سيبويه أنه إذا اجتمع شرط واستفهام يجاب الاستفهام ويحذف جواب الشرط وذهب غيره إلى إجابة الشرط، والتقدير عند سيببويه تتطيرون وعند الآخرين تطيروا بالجزم وبل حرف عطف واضراب أى ليس الأمر كذلك وأنتم مبتدأ وقوم خبر ومسرفون صفة أهـ. وذكر نحو ذلك الشوكانى.

● **ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:**

وقال ابن كثير(٣): ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أى مردود عليكم. كقوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ وقال قوم صالح ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ وقال عز وجل ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أ.هـ.

وقال الشنقيطى:كقول الله تعالى﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

---

(١) يس (١٨، ١٩).

(٢) إعراب القرآن وبيانه(٨/ ١٨٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٠).

وقال فى تفسير آية يس: أى بليتكم جادتكم من ذنوبكم وكفركم. أهـ.[1].

وقال أيضاً فى موضع آخر[2] فى المراد بالطائر فى آية الباب من سورة يس:

الأول: أن المراد بالطائر: العمل، من قولهم: طارله سهم إذا خرج له. أى الزمناه ما طارله من عمله.

الثاني: أن المراد بالطائر ما سبق له فى علم الله من شقاوة أو سعادة. والقولان مثلا زمان؛ لأن ما يطير له من العمل هو سبب ما يؤول إليه من الشقاوة أو السعادة.

فإذا عرفت الوجهين المذكورين فأعلم أنا قدمنا فى ترجمه هذا الكتاب المبارك: أن الآية قد يكون فيها للعلماء قولان أو أقوالا، حق ويشهد له قرآن ـ فنذكر جميع الأقوال وأدلتها من القرآن؛ لأنها كلها حق، والوجهان المذكوران فى تفسير هذه الآية الكريمة لكلاهما يشهد له قرآن

أما على القول الأول بأن المراد بطائرة عمله فالآيات الدالة على أن عمل الإنسان لازم له كثيرة جداً كقوله تعالى ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا**﴾ وقوله تعالى ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ وقوله ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾ والآيات بمث لهذا كثير جداً.

وأمّا على القول بأنّ المراد بطائره نصيبه الذى طار له فى الأزل من الشقاوة أو السعادة فالآيات الدالة على ذلك أيضاً كثيرة، كقوله: ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ**﴾ وقوله ﴿**وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ أى للإختلاف إلى شقى وسعيد خلقهم ﴿**فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ**﴾ وقوله فريق فى الجنة وفريق فى السعير إلى غير ذلك من الآيات أهـ.

- **ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:**

وعن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله ﴿**طَائِرُكُم مَّعَكُمْ**﴾ قال: شؤمكم [3].

وعن يحيى بن وثاب أنه قرأها ﴿**أَئِن ذُكِّرْتُم**﴾ بالخفض وقرأها زر بن حبيش ﴿**أَئِن ذُكِرْتُم**﴾ بالنصب[4].

(١، ٢) الدر المنثور (٧/ ٥٠، ٥١).

(٣، ٤) انظر الدر المنثور (٧/ ٥٠، ٥١)

وعن مجاهد فى قوله ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ يقول: ماكتب عليكم واقع بكم[1].

قوله ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال ابن جرير[2]: يقول تعالى ذكره: قالت الرسل لأصحاب القرية﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ يقولون: أعمالكم وأرزاقكم وحظكم من الخير والشر معكم، ذلك كله فى أعناقكم، ومن ذلك من شؤمنا، أن أصابكم سوء فبما كتب عليكم وسبق لكم من الله.

ثم أسند عن ابن عباس وكعب: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أى أعمالكم معكم، وكذا قال قتادة.

قال البغوى[3]: يعنى شؤمكم معكم بكفركم، وتكذيبهم، أى أصابكم الشؤم من قبلكم وقال ابن عباس، والضحاك : حظكم من الخير والشر ا.هـ.

وقال الزمخشرى[4]: أو أسباب شؤمكم معكم، وهى كفرهم ومعاصيهم ا.هـ.

وقال ابن الجوزى[5]:أى شؤمكم معكم بكفركم، لابنا.ا.هـ

وقال الفخر الرازى[6]: بنحو ذلك. اهـ

وقال القرطبى[7]:قال ابن عباس معناه الأرزاق، والأقدار تتبعكم. وقال الفراء: رزقكم وعملكم، والمعنى واحد ا.هـ.

وقال الشوكانى[8]:بنحو كلام المفسرين المتقدم.

(١) انظر الدر المنثور (٧/ ٥٠،٥١)

(٢) تفسير ابن جرير(١٠/٢٦/١٠٢)

(٣) معالم التنزيل (٤/٥٣٨)

(٤) الكشاف (٣/ ٢٨٣)

(٥) زاد المسير (٦/ ٢٧٦)

(٦) التفسير الكبير(١٣/ ٢٦/ ٥٤/ ٥٥).

(٧) تفسيرالقرطبى(٨/ ٥٤٦٠)

(٨) فتح القدير (٤/ ٣٥٣).

قراء الامصار وهى دخول ألف الاستفهام على حرف الجزاء وتشديد الكاف على المعنى الذى ذكرناه عن قارئيه كذلك لاجماع الحجة من القراء عليه .أهـ.

قال البغوى[١]: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أى وعظتم بالله تطيرتم بنا. أهـ.

وقال الزمخشرى[٢]: بنحو ماتقدم

وقال ابن الجوزى[٣]: أى وعظتم وخوّفتم، وهذا استفهام جوابه محذوف تقديره : أئن ذكرتم تطير تم بنا؟

وقيل : أئن ذكرتم قلتم هذا القول؟. أهـ.

وقال الفخر الرازى[٤]:

قالوا: أئن ذكرتم جواباً عن قولهم ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ يعنى أتفعلون بنا ذلك .وإن ذكرتم أى بين لكم الأمر بالمعجز والبرهان. أهـ

وقال القرطبى[٥]:

وفيه تسعة أوجه من القراءات:

(١) قرأ أهل المدينة﴿أَيِن ذُكِّرْتُم﴾ بتخفيف الهمزة الثانية

(٢) وقرأ أهل الكوفة﴿أَئِن﴾ بتحقيق الهمزتين

(٣)﴿أَا إِن ذُكِّرْتُم﴾ بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين الهمزتين.

(٤) ﴿أَا يِن﴾ بهمزة بعدها ألف، وبعد الألف همزة مخففة.

(٥)﴿أَا أَنْ﴾ بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف.

(٦) ﴿أَ أَنْ﴾ بهمزتين مخففتين مفتوحتين، وحكى القراءات هذه قراءة أبى رزين.
قلت: وحكاه الثعلبى عن زربن حبيش وابن السميقع.

(٧) وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصرى ﴿أَيْن ذُكِّرْتُم﴾ بمعنى حيث.

وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة﴿ذُكِرْتُم﴾ بالتخفيف. ذكر جميعه النحاس.

(٨) وذكر المهدوى عن طلحة بنُ مُصَرِّف وعيسى الهمزانى ﴿آئِن ذُكِّرْتُم﴾ بالمد على أن الهمزة للاستفهام دخلت على همزة مفتوحة.

---

(١) معالم التنزيل (٤/٥٣٨) (٢) الكشاف (٣/ ٢٨٣) (٣) زاد المسير (٦/ ٢٧٦)
(٤) التفسير الكبير (١٣/٢٦/٥٥) (٥) تفسير القرطبى(٨/ ٥٤٦٠).

(٩) ﴿أنْ﴾ للماجشون، بهمزة واحدة مفتوحة.

فهذه تسع قراءات. أهـ

وقال ابن كثير[١]: ﴿أئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي من أجل أنَّا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا. أهـ.

وقال السعدى[٢]: أي بسبب أنا ذكرناكم مافيه صلاحكم وحظكم قلتم لنا ما قلتم.

وقال صاحب الظلال[٣]: يعنى أترجموننا وتعذبوننا لأننا نُذَكِّرُكُم! أفهذا جزاء التذكير؟!

قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾:

● **ماجاء فى الآية من أقوال المفسرين**

قال ابن جرير[٤]: يقول: قالوا لهم ما بكم التطير بنا، ولكنكم قوم أهل معاصى وآثام قد غلبت عليكم الذنوب والآثام اهـ.

وقال البغوى[٥]: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ مشركون مجاوزون الحد. اهـ.

وقال الزمخشرى[٦]: ﴿مسرفون﴾ فى العصيان، ومن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله وتذكيرهم، أو ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ فى ضلالكم متمادون فى غيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله. اهـ.

وقال ابن الجوزى[٧]: المسرفون ها هنا المشركون. اهـ.

وقال الفخر الرازى[٨]: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ حيث تجعلون من يتبرك به كمن يتشاءم به وتقصدون إيلام من يجب فى حقه الإكرام أو ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ حيث تكفرون، ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان فإن الكافر بالمسىء فإذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل.

وبالإصرار يكون مسرفًا، والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك فى كثير من الأشياء أما فى التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك الإيلام والإكرام،

(١) تفسيرابن كثير (٣/ ٥٣٠)
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢١٥)
(٣) الظلال (٥/ ٢٩٦٢).
(٤) تفسير ابن جرير الطبرى (١٠/ ٢٦/ ١٠٢).
(٥) معالم التنزيل (٤/ ٥٣٨).
(٦) الكشاف (٣/ ٢٨٣)
(٧) زاد المسير (٦/ ٢٧٦)
(٨) التفسير الكبير (١٣/ ٢٦/ ٥٥).

وأما فى الكفر فلأن الواجب اتباع الدليل ، فإن لم يوجد به فلا أقل من أن لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الإيمان، فإن قيل بل للإضراب فما الأمر المضرب عنه؟ نقول يحتمل أن يقال قوله (أئن ذكرتم) وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل إلى الكذب بقولهم: (إن أنتم إلا تكذبون) فكأنهم قالوا أنحن كاذبون وإن جئنا بالبرهان، لا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ويحتمل أن يقال أنحن مستحقون للرجم والإيلام، وإن بينا صحة ما أتينا به، لا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وأما الحكاية فمشهورة، وهى أن عيسى - عليه السلام- بعث رجلين إلى أنطاكية فدعيا إلى التوحيد وأظهرا المعجزة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فحبسهما الملك ، فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة ، وقرب نفسه إلى الملك بحسن التدبير، ثم قال له : إنى أسمع أن فى الحبس رجلين يدعيان أمرًا بديعًا ، أفلا يحضران حتى نسمع كلاً منهما ؟ قال الملك بلى : فأحضرا وذكرا مقالتهما الحقة، فقال لهما شمعون: فهل لكما بينة؟ قالا نعم ، فأبرأ الأكمة والأبرص وأحييا الموتى، فقال شمعون أيها الملك إن شئت أن تغلبهم، فقل للآلهة التى تعبدونها تفعل شيئًا من ذلك، قال الملك : أنت لا يخفى عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم، فقال شمعون : فإذن ظهر الحق من جانبهم، فآمن الملك وقوم وكفر آخرون، وكانت الغلبة للمكذبين . اهـ.

وقال القرطبى(١): قال قتادة: (مسرفون) فى تطيركم،وقال يحيى بن سلاّم: مسرفون فى كفركم ، وقال ابن بحر : السرف ههنا الفساد ، ومعناه : بل أنتم قوم مفسدون، وقيل: مسرفون مشركون، والإسراف مجاوز الحد، والمشرك يجاوز الحد . اهـ.

وقال الشوكانى(٢): بل أنتم قوم عادتكم الإسراف فى معصية، والإسراف فى الأصل: مجاوزة الحد فى مخالفة الحق اهـ.

وقال السعدى(٣) : فلم يزدهم دعاؤهم إلا نفورًا واستكبارًا .اهـ.

وقال صاحب الظلال(٤): تتجاوزون الحدود فى التفكير والتقدير، وتجاوزون على الموعظة بالتهديد والوعيد، وتردون على الدعوة بالرجم والتعذيب!

---

(١) تفسير القرطبى (٨/ ٥٤٦٠) (٢) فتح القدير (٤/٣٥٣)
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/٢١٥) (٤) الظلال (٥/٢٩٦٢).

● **ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:**

قال سليمان آل الشيخ(١): المعنى والله أعلم أى حظكم ومـا نالكم من خير وشر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكـم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا بل ببغيكم وعداوتكم فطائر الباغى الظالم معه وهو عند الله كما قال تعالى : **﴿وإن تصبهم سيئة يقولـوا هذه من عنـدك قل كل من عـند الله فما لـهؤلاء القوم لا يـكادون يفقـهون حديثًا﴾** ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا لما جـئت به، لأن ليس فيما جاء به الرسول ﷺ ما يقتضى الطيرة كأنه خير محض لا شر فيه وصلاح لا فساد فيه، وحكمه لا عيب فيها ورحمة لا جور فيها.

فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول الـسليمة لم يتطيروا من هذا لأن الطيرة إنما تكون بالـشر لا بالخير المحض والحكمة والرحـمة بل طائرهم معهم بـسـبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو عنـد الله كسائر حظوظهم وأنصبائهم التى ينالونـها منه بأعمالهم ويحتمل أن يكون المعنى (**طائركم معكم**) أى راجع عليكم فالتـطير الذى حصل لكم إنما يعود عليكم وهذا من باب القصاص فـى الكلام ونظيره قوله عليه السلام: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم**» ذكره ابن القيم. اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ(٢): نحو كلام سليمان باختصار.

● **فائدة:**

قال ابن عثيمين(٣): ولا منافـاة بين هذه الآية، والتـى ذكرها المؤلف قبـلها، لأن (الأولى) تدل على أن المقدر لـهذا الشىء هو الله (والثانية) تبيِّن سبـبه، وهو أنه منهم ؟ فهم فـى الحقيقـة طائرهم معـهم (أى الشؤم) الحـاصل عليهـم معهم مـلازم لهم؟ لأن أعمالهـم نستلزمه ، كما قـال تعالى **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾**(٤) وقال تعالى **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**(٥)

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣١٣).

(٢) فتح المجيد (٢/٤٠٢، ٤٠٣).

(٣) القول المفيد (٢/٩٦, ٩٧).

(٤) الروم : ٤١.

(٥) الأعراف : ٩٦.

● شرح الحديث

قوله:[عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لاعدوى ...] أخرجاه، أي البخاري ومسلم.

قوله﴿لاعدوى﴾

قال أبو السعادات: العدوى اسم من الإعداء كالدعوى والبقوى من الإدعاء والإبقاء. يقال: أعداه الداء يعديه إعداء، وهو أن يصيبه مثل ما بصاحب الداء. وذلك أن يكون ببعير جرب مثلاً يتقى مخالطته بابل أخرى حذار أن يتعدى ما به من الجرب إليها فيصيبها ما أصابه انتهى[1].

مسالك أهل العلم في الجمع بين حديث«لاعدوى» وحديث «فرمن المجذوم»:

قال ابن حجر[2]:أخرج ابن خزيمة في «كتاب التوكل» له شاهد من حديث عائشة ولفظه«**لاعدوى إذ رأيت المجذوم ففر منه كما تفر من الأسد**» وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد الثقفي عن أبيه قال:«كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه رسول الله ﷺ: **إنا قد بايعناك، فارجع**[3].

قال عياض: اختلفت الآثار في المجذوم، فجاء ماتقدم عن جابر«أن النبي ﷺ أكل مع مجذوم وقال : ثقة بالله وتوكلاً عليه[4] قال فذهب عمر وجماعة من السلف إلى الأكل معه ورأوا أن الأمر باجتنابه منسوخ، وممن قال بذلك عيسى بن دينار من المالكية، قال والصحيح الذي عليه الأكثر ويتعين المصير إليه أن لانسخ، بل يجب الجمع بين الحديثين وحمل الأمر باجتنابه والفرار منه على الاستحباب والأحتياط، والأكل معه على بيان الجوازأهـ.

هكذا اقتصر القاضي ومن تبعه على حكاية هذين القولين،وحكى غيره قولا ثالث وهو الترجيح.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣١٣).

(٢) فتح البارى (١٠/١٦٨:١٧٢).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في السلام (١٤/٢٢٨ ــ النووى)

وانظر «الطب النبوى» (٤٦٦ ـبتحققنا)

(٤) [ضعيف مرفوعاً] أخرجه أبو داود (٣٩٢٥)، والترمذى (١٨١٧)، وابن ماجه (٣٥٤٢) عن جابر به

وانظر «الطب النبوى» (٤٦٥ ـ بتحقيقنا.)

وقد سلكه فريقان (أحـدهما) سلك ترجيح الأخبار الدالة على نـفي العدوى وتزييف الأخبار الدالة على عكس ذلك مثل حديث الـباب فأعلوه بالشذوذ، وبأن عائشة أنكرت ذلك، فأخـرج الطبرى عنـها «أن امرأة سألتهـا عنه فقالـت: ما قال ذلك، ولكـنه قال **«لاعدوى»**(١) وقال **«فمن أعدى الأول»**(٢)؟ قالت: وكان لى مولـى به هذا الداء فكان يأكل فى صحـافى ويشرب فى أقداحى وينـام على فراشى وبأن أبا هريـرة تردد فى هذا الحكم كما سيأتى بيانه فيؤخذ الحكم من رواية غيره، وبأن الأخبار الواردة من رواية غيره فى نفى العدوى كثيرة شهيرة بخلاف الأخبار المرخصة فى ذلك، ومثل حديث **«لاتديموا النظر إلى المجذومين»**(٣) وقد أخرجه ابن ماجه وسنده ضعيف.

ومثل حـديث عبدالله بن أبى أوفـى رفعه**«كلم المجـذوم وبينك وبيـنه قيد رمـحين»** أخرجه أبو نعيم فى الطب بسند واه.

ومثل ما أخرجه الطبرى من طريق معمر عن الزهرى «أن عمر قال لمعيقيب: أجلس منى قيد رمح» ومن طريق خارجة بن زيد كان عمر يقول نحوه، وهما أثران منقطعان.

وأما حديث الشريد الذى أخرجه مسلم فليس صريحا فى أن ذلك بسب الجذام.

والجواب عن ذلك: أن طريق الترجيح لايصار إليها إلا مع تعذر الجمع، وهو ممكن، فهو أولى.

الفريق الثانى:سلكوا فى الترجيح عكس هذا المسلك، فردوا حديث لاعدوى بأن أبا هريرة رجع عنه إما لشكه فيه وإما لثبوت عكسه عنده كما سيأتى إيضاحه قالوا: والأخبار الدالة على الاجتناب أكـثر مخارج وأكثر طرقا فالمصير إليهـا أولى، قالوا: وأما حديث جابر«أن النـبى ﷺ أخذ بيد مجذوم فـوضعها فى القـصعة وقال: **«كل ثقة بـالله وتوكلاً عليه»**(٤) ففيه نظر، وقـد أخرجه الترمذى وبين الاختلاف فيه عـلى روايه ورجح وقفه على عمر، وعـلى تقدير ثبوته فليـس فيه أنه ﷺ أكل معه، وإنما فيـه أنه وضع يده فى القصعة، قاله الكلاباذى فى **«معانى الأخبار»**.

والجواب: أن طريق الجمع أولى كما تقدم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما قبله.

(٣) [حسن] أخرجه ابن ماحه (٣٥٤٣) عن ابن عباس به.

وانظر«الطب النبوى» (٤٦٣ ـ بتحقيقنا)

(٤) تقدم تخريجه

وأيضاً فحديث لاعدوى ثبت من غير طريق أبى هريرة فصح عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبى وقاص وجابر وغيرهم، فلا معنى لدعوى كونه معلولا، والله أعلم.

وفى طريق الجمع مسالك أخرى.

أحدها نفى العدوى جملة وحمل الأمر بالفرار من المجذوم على رعاية خاطر المجذوم، لأنه إذا رأى الصحيح البدن السليم من الآفة تعظم مصيبته وتزداد حسرته، ونحوه حديث «**لاتديموا النظر إلى المجذومين**»(١) فإنه محمول على هذا المعنى.

ثانيها: حمل الخطاب بالنفى والإثبات على حالتين مختلفتين، فحيث جاء «**لاعدوى**» كان المخاطب بذلك من قوى يقينه وصحح توكله بحيث يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى، كما يستطيع أن يدفع التطير الذى يقع فى نفس كل أحد، لكن القوى اليقين لايتأثر به، وهذا مثل ماتدفع قوة الطبيعة العلة فتبطلها، وعلى هذا يحمل حديث جابر فى أكل المجذوم من القصعة وسائر ماورد من جنسه، وحيث جاء «**فرمن المجذوم**»(٢) كان المخاطب بذلك من ضعف يقينه، ولم يتمكن من تمام التوكل فلا يكون له قوة على دفع اعتقاد العدوى، فأريد بذلك سد باب اعتقاد العدوى عنه بأن لايباشر مايكون سببا لإثباتها.

وقريب من هذا كراهيته ﷺ الكى مع إذنه فيه كما تقدم تقريره، وقد فعل هو ﷺ كلا من الأمرين ليتأسى به كل من الطائفتين.

ثالث المسالك: قال القاضى أبو بكر الباقلانى: إثبات العدوى فى الجذام ونحوه مخصوص من عموم نفى العدوى، قال: فيكون معنى قوله «**لاعدوى**» أى إلا من الجذام

والبرص والجرب مثلاً، قال: فكأنه قال لا يعدى شىء شيئًا إلا ما تقدم تبيينى له أن فيه العدوى، وقد حكى ذلك ابن بطال أيضًا.

رابعها: أن الأمر بالفرار من المجذوم ليس من باب العدوى فى شىء بل هو لأمر طبيعى وهو انتقال الداء من جسد لجسد بواسطة الملامسة والمخالطة وشم الرائحة، ولذلك يقع فى كثير من الأمراض فى العادة انتقال الداء من المريض إلى الصحيح بكثرة المخالطة.

وهذه طريقة ابن قتيبة فقال: المجذوم تشتد رائحته حتى يسقم من أطال مجالسته

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٥٦٣) بتخريجنا).

ومحادثته ومضاجعته، وكذا يقع كثيرًا بالمرأة من الرجل وعكسه، وينزع الولد إليه، ولهذا يأمر الأطباء بترك مخالطة المجذوم لا على طريق العدوى بل على طريق التأثر بالرائحة لأنها تسقم من واظب اشتمامها.

قال: ومن ذلك قوله ﷺ «**لا يورد ممرض على مصح**»[1] لأن الجرب الرطب قد يكون بالبعير، فإذا خالط الإبل أو حككها وأوى إلى مباركها وصل إليها بالماء الذى يسيل منه، وكذا بالنظر نحو ما به .

قال: وأما قوله :«**لا عدوى**» فله معنى آخر، وهو أن يقع المرض بمكان كالطاعون فيفر منه مخافة أن يصيبه، لأن فيه نوعًا من الفرار من قدر الله.

(**المسلك الخامس**): أن المراد بنفى العدوى أن شيئًا لا يعدى بطبعه نفيًا لما كانت الجاهلية تعتقده أن الأمراض تعدى بطبعها من غير إضافة إلى الله، فأبطل النبى ﷺ اعتقادهم ذلك وأكل مع المجذوم ليبين لهم أن الله هو الذى يمرض ويشفى، ونهاهم عن الدنو منه ليبين لهم أن هذا من الأسباب التى أجرى الله العادة بأنها تفضى إلى مسبباتها، ففى نهيه إثبات الأسباب، وفى فعله إشارة إلى أنها لا تستقل ، بل الله هو الذى إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئًا وإن شاء أبقاها فأثرت، ويحتمل أيضًا أن يكون أكله ﷺ مع المجذوم أنه كان به أمر يسير لا يعدى مثله فى العادة، إذ ليس الجذمى كلهم سواء ، ولا تحصل العدوى من جميعهم بل لا يحصل منه فى العادة عدوى أصلاً كالذى أصابه شىء من ذلك ووقف فلم يعد بقية جسمه فلا يعدى، وعلى الاحتمال الأول جرى أكثر الشافعية .

قال البيهقى بعد أن أورد قول الشافعى ما نصه: الجذام والبرص يزعم أهل العلم بالطب والتجارب أنه يعدى الزوج كثيرًا، وهو داء مانع للجماع لا تكاد نفس أحد تطيب بمجامعة من هو به ولا نفس امرأة أن يجامعها من هو به، أما الولد فبين أنه إذا كان من ولده أجذم أو أبرص أنه قلما يسلم، وإن سلم أدرك نسله.

قال البيهقى : وأما ما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : «**لا عدوى**» فهو على الوجه الذى كانوا يعتقدونه فى الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى. وقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شىء من هذه العيوب سببًا لحدوث ذلك ، ولهذا قال

(١) تقدم تخريجه وأنظر «فتح المجيد» (ح ٥٥٧) بتخريجنا.

ﷺ «فر من المجذوم فرارك من الأسد»(١) وقال «لا يورد ممرض على مصح»(٢)وقال فى الطاعون : «من سمع به بأرض فلا يقدم عليه»(٣) وكل ذلك بتقدير الله تعالى.

وتبعه على ذلك ابن الصلاح فى الجمع بين الحديثين ومن بعده وطائفة ممن قبله .

(المسلك السادس): العمل بنفى العدوى أصلاً ورأسًا، وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسد الذريعة لئلا يحدث للمخالط شيء من ذلك فيظن أنه بسبب المخالطة فيثبت العدوى التى نفاها الشارع، وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد وتبعه جماعة فقال أبو عبيدة: ليس فى قوله : «لا يورد ممرض على مصح» إثبات العدوى، بل لأن الصحاح لو مرضت بتقدير الله تعالى ربما وقع فى نفس صاحبها أن ذلك من العدوى فيفتتن ويتشكك فى ذلك، فأمر باجتنابه.

قال: وكان بعض الناس يذهب إلى الأمر بالاجتناب إنما هو للمخافة على الصحيح من ذوات العاهة.

قال: وهذا شر ما حمل عليه الحديث، لأن فيه إثبات العدوى التى نفاها الشارع، ولكن وجه الحديث عندى ما ذكرته، وأطنب ابن خزيمة فى هذا فى «كتاب التوكل» فإنه أورد حديث «لا عدوى» عن عدة من الصحابة وحديث «لا يورد ممرض على مصح» من حديث أبى هريرة .

وترجم للأول «التوكل على الله فى نفى العدوى» .

وللثانى: «ذكر خبر غلط فى معناه بعض العلماء، وأثبت العدوى التى نفاها النبى ﷺ».

ثم ترجم «الدليل على أن النبى ﷺ لم يرد بإثبات العدوى بهذا القول » فساق حديث أبى هريرة « لا عدوى، فقال أعرابى: فما بال الإبل يخالطها الأجرب فتجرب؟ قال : فمن أعدى الأول» ثم ذكر طرقه عن أبى هريرة، ثم أخرجه من حديث ابن مسعود، ثم ترجم «ذكر خبر روى فى الأمر بالفرار من المجذوم قد يخطر لبعض الناس أن فيه إثبات العدوى وليس كذلك» وساق حديث «فر من المجذوم فرارك من الأسد»(٤)

(١، ٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٧٣) ، ومسلم فى السلام (١٤/٢٠٣ ـ النووى)

وأنظر «الطب النبوى» (٥٢١ ـ بتحقيقنا)

وانظر «فتح المجيد» (ح ٥٦٥) بتخريجنا.

(٤) تقدم تخريجه.

من حديث أبى هريرة ومن حديث عائشة، وحديث عمرو بن الشريد عن أبيه فى أمر المجذوم بالرجوع، وحديث ابن عباس «**لا تديموا النظر إلى المجذومين**»(١) ثم قال: إنما أمرهم ﷺ بالفرار من المجذوم كما نهاهم أن يورد الممرض على المصح شفقة عليهم، وخشية أن يصيب بعض من يخالطه المجذوم الجذام، والصحيح من الماشية الجرب فيسبق إلى بعض المسلمين أن ذلك من العدوى فيثبت العدوى التى نفاها ﷺ فأمرهم بتجنب ذلك شفقة منه ورحمة ليسلموا من التصديق بإثبات العدوى، وبين لهم أنه لا يعدى شىء شيئًا.

قال: ويؤيد هذا أكله ﷺ مع المجذوم ثقة بالله وتوكلاً عليه. وساق حديث جابر فى ذلك.

ثم قال: وأما نهيه عن إدامة النظر إلى المجذوم فيحتمل أن يكون لأن المجذوم يغتم ويكره إدمان الصحيح نظره إليه، لأنه قل من يكون به داء إلا وهو يكره أن يطلع عليه اهـ.

وهذا الذى ذكره احتمالاً سبقه إليه مالك، فإنه سئل عن هذا الحديث فقال: ما سمعت فيه بكراهية، وما أدرى ما جاء من ذلك إلا مخافة أن يقع فى نفس المؤمن شىء.

وقال الطبرى: الصواب عندنا القول بما صح به الخبر، وأن لا عدوى، وأنه لا يصيب نفسا إلا ما كتب عليها، وأما دنو عليل من صحيح فغير موجب انتقال العلة للصحيح إلا أنه لا ينبغى لذى صحة الدنو من صاحب العاهة التى يكرهها الناس، لا لتحريم ذلك، بل لخشية أن يظن الصحيح أنه لو نزل به ذلك الداء أنه من جهة دنوه من العليل فيقع فيما أبطله النبى ﷺ من العدوى.

قال: وليس فى أمره بالفرار من المجذوم معارضة لأكله معه، لأنه كان يأمر بالأمر على سبيل الإرشاد أحيانًا وعلى سبيل الإباحة أخرى، وإن كان أكثر الأوامر على الإلزام، وإنما كان يفعل ما نهى عنه أحيانًا لبيان أن ذلك ليس حرامًا.

وقد سلك **الطحاوى** فى «**معانى الآثار**» مسلك **ابن خزيمة** فيما ذكره فأورد حديث «**لا يورد ممرض على مصح**»(٢) ثم قال: معناه أن المصح قد يصيبه ذلك المرض فيقول الذى أورده لو أنى ما أوردته عليه لم يصبه من هذا المرض شىء، والواقع أنه لو لم

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

يورده لأصابه لكون الله تعالى قدره، فنهى عن إيراده لهذه العلة التى لايؤمن غالباً وقوعها فى قلب للمرء، ثم ساق الأحاديث فى ذلك فاطنب وجمع بينها بنحو ما جمع به ابن خزيمة، ولذلك **قال القرطبى فى «المفهم»** : إنما نهى رسول الله ﷺ عن إيراده الممرض على المصح مخافة الوقوع فيما وقع فيه أهل الجاهلية من اعتقاد العدوى ، أو مخافة تشويش النفوس وتأثير الأوهام ، وهو نحو قوله **«فر من المجذوم فرارك من الأسد»**(١) وإن كنا نعتقد أن الجذام لا يعدى، لكنا نجد فى أنفسنا نفرة وكراهية لمخالطته، حتى لو أكره إنسان نفسه على القرب منه وعلى مجالسته لتأذت نفسه بذلك، فحينئذ فالأولى للمؤمن أن لا يتعرض إلى ما يحتاج فيه إلى مجاهدة، فيجتنب طرق الأوهام، ويباعد أسباب الالام، ومع أنه يعتقد أن لا ينجى حذر من قدر، والله أعلم.

قال الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة: الأمر بالفرار من الأسد ليس للوجوب، بل للشفقة، لأنه ﷺ كان ينهى أمته عن كل ما فيه ضرر بأى وجه كان، ويدلهم على كل ما فيه خير، وقد ذكر بعض أهل الطب أن الروائح تحدث فى الأبدان خللاً فكان هذا وجه الأمر بالمجانبة، وقد أكل هو مع المجذوم، فلو كان الأمر بمجانبته على الوجوب لما فعله.

قال: ويمكن الجمع بين فعله وقوله بأن القول هو المشروع من أجل ضعف المخاطبين، وفعله حقيقة الإيمان، فمن فعل الأول أصاب السنة وهى أثر الحكمة، ومن فعل الثانى كان أقوى يقينًا لأن الأشياء كلها لا تأثير لها إلا بمقتضى إرادة الله تعالى وتقديره، كما قال تعالى **﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾**(٢) فمن كان قوى اليقين فله أن يتابعه ﷺ فى فعله ولا يضره شىء، ومن وجد فى نفسه ضعفاً فليتبع أمره فى الفرار لئلا يدخل بفعله فى إلقاء نفسه إلى التهلكة.

والحاصل: أن الأمور التى يتوقع منها الضرر وقد أباحت الحكمة الربانية الحذر منها فلا ينبغى للضعفاء أن يقربوها وأما أصحاب الصدق واليقين فهم فى ذلك بالخيار.

قال : وفى الحديث أن الحكم للأكثر لأن الغالب من الناس هو الضعف، فجاء الأمر بالفرار بحسب ذلك. اهـ.

ورجح سليمان آل الشيخ (٣) قول ابن الصلاح ومن تبعه، فذكر أنه أحسن

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) البقرة (١٠٢).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣١٥، ٣١٦.

الأقوال، فقال: وأحسن من هذا كله ما قاله البيهقى، وتبعه ابن الصلاح وابن القيم وابن رجب وابن مفلح وغيرهم أن قوله: **«لا عدوى»** على الوجه الذى كانوا يعتقدونه فى الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى وأن هذه الأمراض تعدى بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سببًا لحدوث ذلك، ولهذا قال: **«فر من المجذوم كما تفر من الأسد»** وقال: **«لا يورد ممرض على مصح»**(١) وقال فى الطاعون: **«من سمع به بأرض فلا يقدم عليه»**(٢) وكل ذلك بتقدير الله تعالى كما قالﷺ: **«فمن أعدى الأول»** يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره، فكذلك الثانى وما بعده.

وروى الإمام أحمد والترمذى عن ابن مسعود مرفوعًا، **«لا يعدى شيء»** قالها ثلاثًا فقال الأعرابى: يا رسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فتجرب كلها، فقال رسول الله ﷺ: **«فمن أجرب الأول لا عدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها»**(٣) فأخبر عليه السلام أن ذلك كله بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالى: **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾** .

وأما أمره بالفرار من المجذوم ونهيه عن إيراد الممرض على المصح وعن الدخول إلى موضع الطاعون، فإنه من باب اجتناب الأسباب التى خلقها الله تعالى، وجعلها أسبابًا للهلاك والأذى، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان فى عافية، فكما أنه يؤمر أن لا يلقى نفسه فى الماء أو فى النار أو تحت الهدم أو نحو ذلك كما جرت العادة بأنه يهلك ويؤذى، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، وقدوم بلد الطاعون فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره.

وأما إذا قوى التوكل على الله، والإيمان بقضائه وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتمادًا على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ففى هذه الحال تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كانت فيه مصلحة عامة أو خاصة.

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده(١/ ٤٤٠)، والترمذى(٢١٤٣) عن ابن مسعود به وفى إسناده رجل لم يسم.

وعلى هذا يحمل الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى أن النبى ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه فى القصعة ثم قال: «**كل باسم الله ثقة بالله وتوكلا عليه**»[١] وقد أخذ به الإمام أحمد .. وروى ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضى الله عنهم ونظير ذلك ما روى عن خالد بن الوليد من أكْل السم ومن مشْى سعد بن أبى وقاص وأبى مسلم الخولانى بالجيوش على متن البحر قاله ابن رجب. اهـ.

وقال ابن عثيمين[٢] مرجحًا بين هذه الأقوال المتقدم ذكرها:

الجذام مرض خبيث معدٍ بسرعة ويتلف صاحبه، حتى قيل: إنه الطاعون، فالأمر بالفرار من المجذوم لكى لاتقع العدوى منه إليك. وفيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمراً حتمياً بحيث تكون علة فاعلة، وأمْر النبى ﷺ بالفرار[٣]، وأن لايورد ممرض على مصح[٤] من باب تجنب الأسباب، لا من باب تأثير الأسباب بنفسها، فالأسباب لاتؤثر بنفسها، لكن ينبغى لنا أن نتجنب الأسباب التى تكون سبباً للبلاء، لقوله تعالى﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ ولايمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى؛ لأن هذا الأمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى فإن قيل : إن الرسول ﷺ لما قال: «**لاعدوى**» قال رجل يا رسول الله ! الإبل تكون صحيحة مثل الظِّباء، فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال النبى ﷺ **فمن أعدى الأولى؟**[٥]» يعنى أن المرضى نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله ـ عزوجل ـ فكذلك إذا انتقل بالعدوى، فقد انتقل بأمر الله، والشىء قد يكون له سبب معلوم، وقد لايكون له سبب معلوم، فَجَرَبُ الأول ليس سببه معلوماً، إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذى بعده له سبب معلوم، لكن لو شاء الله تعالى لم يَجْرَب، ولهذا أحياناً تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولاتموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية، وقد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولايصابون فالإنسان يعتمد على الله ويتوكل عليه وقد روى أن النبى ﷺ جاءه رجل مجذوم فأخذ بيده وقال له: «**كل من الطعام**»[٦] الذى كان يأكل منه الرسول ﷺ لقوة توكله ﷺ، فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدى.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) القول المفيد (٢/ ١٠٠، ١٠١، ١٠٢).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) تقدم تخريجه

وهذا الجمع الذى أشرنا إليه هو أحسن ما قيل فى الجمع بين الأحاديث. أهـ.

قوله ﷺ: «فر من المجذوم فرارك من الأسد».

● **خلاصة القول فى المسألة:**

قال ابن حجر فى «النزهة» [1]: كلاهما فى الصحيح- أى الحديثين- وظاهرهما التعارض ووجه الجمع بينهما أن هذه الأمراض لا تعدى بطبعها، لكن الله سبحانه وتعالى جعل مخالطة المريض بها للصحيح سببًا لإعدائه مرضه. ثم قد يتخلف ذلك عن سببه كما فى غيره من الأسباب، كذا جمع بينهما ابن الصلاح تبعاً لغيره.

والأولى فى الجمع بينهما أن يقال: إن نفيه ﷺ للعدوى باق على عمومه، وقد صح قوله ﷺ لا يعدى شىء شيئًا» وقوله عليه السلام لمن عارضه بأن البعير الأجرب يكون فى الإبل الصحيحة فيخالطها فتجرب، حيث رد عليه بقوله **فمن أعدى الأول**[2]؟ يعنى أن الله سبحانه وتعالى ابتدأ ذلك فى الثانى كما ابتدأ فى الأول.

وأما الفرار من المجذوم فمن باب سد الذرائع لئلا يتفق للشخص الذى يخالطه شىء من ذلك بتقدير الله ابتداء لا بالعدوى المنفية، فيظن أن ذلك بسبب مخالطته فيعتقد صحة العدوى، فيقع فى الحرج، فأمر بتجنبه حسمًا للمادة .والله أعلم اهـ.

● **فائدة من حديث «فر من المجذوم»:**

قال ابن حجر [3]: واستدل بالأمر بالفرار من المجذوم لإثبات الخيار للزوجين فى فسخ النكاح إذا وجده أحدهما بالآخر ، وهو قول جمهور العلماء .

وأجاب فيه من لم يقل بالنسخ بأنه لو أخذ بعمومه لثبت الفسخ إذا حدث الجذام ولا قائل به. ورد بأن الخلاف ثابت، بل هو الراجح عند الشافعية، وقد تقدم فى النكاح الإلمام بشىء من هذا .

واختلف فى أمة الأجذم: هل يجوز لها أن تمنع نفسها من استمتاعه إذا أرادها؟ واختلف العلماء فى المجذومين إذا كثروا هل يمنعون من المساجد والمجامع؟ وهل يتخذ لهم مسكن منفرد عن الأصحاء؟ ولم يختلفوا فى النادر أنه لا يمنع ولا فى شهود الجمعة. اهـ.

---

(١) نزهة النظر ص١٠٣، ١٠٤).

(٢) تقدم تخريجه

(٣) الفتح (١٠/ ١٧٢).

قوله [ولا طيرة]:

(تعريفها):

سيأتى فى نهاية هذا الباب فى تعريفها حديث الفضل بن العباس رضى الله عنهما: إنما الطيرة ما أمضاك أوردك. أهـ.

قال ابن حجر(١): هى التشاؤم وهى مصدر تطير مثل تحير حيرة. اهـ.

وتقدم فى أول الباب كلام الحافظ مستفيضًا وكلام غيره من أهل العلم، وهل الطيرة والتشاؤم بمعنى واحد أم لا؟

وبينا الفرق بين الطيرة والفأل. فلا حاجة للتكرار ثانيًا.

وقال ابن حجر (٢) **فى موضع آخر فيمن تطير:** إذا اعتقد أن الذى يشاهده من حال الطير موجبًا ما ظنه ولم يضف التدبير إلى الله تعالى، فأما إن علم أن الله هو المدبر ولكنه أشفق من الشر لأن التجارب قضت بأن صوتًا من أصواتها معلومًا أو حالا من أحوالها معلومة يردفها مكروه فإن وطن نفسه على ذلك أساء، وإن سأل الله الخير واستعاذ به من الشر ومضى متوكلاً لم يضره ما وجد نفسه من ذلك، وإلا فيؤخذ به، وربما وقع به ذلك المكروه بعينه الذى اعتقده عقوبة له كما كان يقع كثيرًا لأهل الجاهلية. والله أعلم اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٣):

قوله: «ولا طيرة» قال ابن القيم: هذا يحتمل أن يكون نفيًا أو يكون نهيًا أى لا تتطيروا، ولكن قوله فى الحديث: **«ولا عدوى ولا صفر ولا هامة»** يدل على أن المراد النفى وإبطال هذه الأمور التى كانت الجاهلية تعانيها، والنفى فى هذا أبلغ من النهى، لأن النفى يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهى إنما يدل على المنع منه.

[قلت]: وسيأتى أيضاً فى متن المصنف حديث ابن مسعود: «الطيرة شرك الطيرة شرك» وحديث ابن عمر «من ردته الطيرة عن حاجة فقد أشرك» قال سليمان:

وفى «صحيح مسلم» عن معاوية بن الحكم السلمى أنه قال لرسول الله ﷺ «كنا نتطير» فقال: **«ذاك شىء يجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنكم»**(٤) فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو فى نفسه وعقيدته لا فى المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذى يطيره ويصده لا ما رآه وسمعه، فأوضح ﷺ لأمته الأمر وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التى أرسل

---

(١) فتح البارى (١٠/٢٢٣).
(٢) فتح البارى (١٠/٢٢٦).
(٣) تيسير العزيزالحميد ٣١٦- ٣٢٠.
(٤) تقدم تخريجه

بها رسله ونزل بهـا كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمـر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهـم، لئلا يبقى فيها علق منها ولا يتلبسوا بعمل من أعمـال أهل النار ألبتة، فمن استمسـك بعروة التوحيد الوثقى واعتـصم بحبله المتين، وتوكل على الله قطع هاجس الطيرة، من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها.

قال عكرمة : كـنا جلوسًا عند ابن عبـاس فمر طائر يصيح، فقـال رجل من القوم: خير خيـر فقال ابن عباس: لا خير ولا شـر فبادره بالإنكار علـيه لئلا يعتقد تـأثيره فى الخير والشر.

وخرج طاووس مـع صاحب له فـى سفر فصـاح غراب فقال الـرجل : خير فـقال طاووس : وأى خير عند هذا لا تصحبنى؟ انتهى» ملخصاً.

● **إشكال وجوابه**:ولكن يشكل عليه :

ما رواه ابن حبان فى صحيحه عن أنس مرفوعًا: « **لا طيرة، والطيرة على من تطير** » فظاهر هذا أنها تكون سببًا لوقوع الشر بالمتطير[(١)].

وجوابه: أن المراد بذلك من تـطير تطيرًا منهيًا عـنه، وهو أن يعتمد على مـا يسمعه ويراه حتى يمنعه مما يريده من حاجته، فإنه قد يـصيبه ما يكرهه عقوبة له فأما من توكل على الله ووثق به بـحيث علق قلبه بالله خـوفًا ورجاء ، وقطعه عن الالتـفات إلى غير الله، وقال وفعل ما أمر به فإنه لا يضره ذلك.

وأما من اتقى أسباب الضـرر بعد انعقادها بالأسباب المنهى عنهـا فإنه لا ينفعه ذلك غالبًا كمن ردته الطيرة عن حاجته خشية أن يصـيبه ما تطير به، فإنه كثيرًا ما يصاب بما يخشى به.

● **إشكال ثانى وجوابه**. وهو ما بوبه البخارى بعنوان

● باب ما يذكـر من شؤم الفرس ثم أسند عـن سالم بن عبد الله أن عبـد الله بن عمر رضى الله عنهـما قال: سمعت النـبى ﷺ يقول «**إنما الشـؤم فى ثلاثة: فـى الفرس، والمرأة والدار**».

وأسند عن سهيل بن سعد الـساعدى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن كان فى شىء ففى المرأة والفرس والمسكن».

قال ابن حجر[(٢)]: **قوله (باب ما يذكر من شؤم الفرس)** أى هل هو على عمومه، أو مخصوص ببعض الخـيل؟ وهل هو على ظاهره، أو مؤول؟ وسيأتى تـفصيل ذلك، وقد أشار بإيراد حديث سهل بعد حديث ابن عمر إلى أن الحصر الذى فى حديث ابن عمر

(١) تقدم تخريجه. (٢) فتح البارى (٦/ ٧١ : ٧٤).

ليس على ظاهره، وبترجمة الباب الذى بعده وهى «الخيل لثلاثة» إلى أن الشؤم مخصوص ببعض الخيل دون بعض وكل ذلك من لطيف نظره ودقيق فكره.

قوله (إنما الشؤم) بضم المعجمة وسكون الهمزة وقد تسهل فتصير واوًا.

قوله (فى ثلاث) يتعلق بمحذوف تقديره كائن قاله ابن العربى، قال: والحصر فيها بالنسبة إلى العادة لا بالنسبة إلى الخلقة انتهى، وقال غيره: إنما خصت بالذكر لطول ملازمتها، وقد رواه مالك وسفيان وسائر الرواة بحذف «إنما» لكن فى رواية عثمان بن عمر « **لا عدوى ولا طيرة، وإنما الشؤم فى الثلاثة**»[1] قال مسلم لم يذكر أحد فى حديث ابن عمر «**لا عدوى**» إلا عثمان بن عمر، **قلت - يعنى ابن حجر -**: ومثله فى حديث سعد بن أبى وقاص الذى أخرجه أبو داود، لكن قال فيه: «**إن تكن الطيرة فى شىء**» الحديث[2]، والطيرة والشؤم بمعنى واحد وظاهر الحديث أن الشؤم والطيرة فى هذه الثلاثة ، **قال ابن قتيبة**: ووجهه أن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون فنهاهم النبى ﷺ وأعلمهم أن لا طيرة، فلما أبوا أن ينتهوا بقيت الطيرة فى هذه الأشياء الثلاثة. **قلت**: أى: ابن حجر فمشى ابن قتيبة على ظاهره، ويلزم على قوله أن من تشاءم بشىء منها نزل به على ما يكره، **قال القرطبى**: ولا يظن به أنه يحمله على ما كانت الجاهلية تعتقده بناء على ذلك يضر وينفع بذاته فإن ذلك خطأ، وإنما عنى أن هذه الأشياء هى أكثر ما يتطير به الناس، فمن وقع فى نفسه شىء أبيح له أن يتركه ويستبدل به غيره، **قلت: - يعنى ابن حجر -** وقد وقع فى رواية عمر العسقلانى- وهو ابن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر - عن أبيه عن ابن عمر بلفظ «ذكروا الشؤم فقال: إن كان فى شىء ففى» ولمسلم «**إن يك من الشؤم شىء حق**» وفى رواية عتبة بن مسلم «**إن كان الشؤم فى شىء**» وكذا فى حديث جابر عند مسلم[3] وهو موافق لحديث سهل بن سعد ثانى حديثى الباب، وهو يقتضى عدم الجزم بذلك بخلاف رواية الزهرى، **وقال ابن العربى**: معناه إن كان خلق الله الشؤم فى شىء مما جرى من بعض العادة فإنما يخلقه فى هذه الأشياء ، **قال المازرى**: يحمل هذه الرواية إن يكن الشؤم حقًا فهذه الثلاث أحق به، بمعنى أن النفوس يقع فيها التشاؤم بهذه أكثر مما يقع بغيرها، وجاء عن عائشة أنها أنكرت هذا

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٧٥٣) ومسلم فى السلام (١٤/ ٢٢٠ ـ النووى) عن ابن عمر به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٦٧٨ ـ بتخريجنا). وانظر «فتح المجيد» (ح ٥٧٥) بتخريجنا
(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٢١)
(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧/ ٤٧٩/ ١٢٠) عن جابر به.

لحديث، فروى أبو داود الطيالسى فى مسنده عن محـمد بن راشد عن مكحول قال: قيل لعائشة إن أبا هريرة قال «قال رسول الله ﷺ **الشؤم فى ثلاثة**» فقالت: لم يحفظ، إنه دخل وهو يقول «**قاتل الله اليـهود، يقولون الشـؤم فى ثلاثة**» فسمع آخـر الحديث ولم يسمع أوله ، **قلت: ـ يعنى ابن حجر ـ** ومكحول لم يسمع من عائـشة فهو منقطع، لكن روى أحمد وابـن خزيمة والحاكم مـن طريق قتادة عن أبـى حسان «أن رجلين مـن بنى عامر دخلا علـى عائشة فقالا: إن أبا هريـرة قال «إن رسول الله ﷺ قال: «**الطيرة فى الفرس والمـرأة والدار**» فغضبت غـضبًا شديدًا، وقالت: ما قـاله، وإنما قال: «**إن أهل الجاهلية كانوا يـتطيرون من ذلك**»[1] انتهى ولا مـعنى لإنكار ذلك على أبـى هريرة مع موافقة من ذكـرنا من الصحابة له فى ذلك، وقـد تأوله غيرها على أن ذلك سـيق لبيان اعتقـاد الناس فى ذلك، لا أنه إخـبار من النبـى ﷺ بثبوت ذلك، وسيـاق الأحاديث الصحيحة المتقدم ذكرها يبعد هذا التأويل، **قال ابن العربى**: هذا جواب سـاقط لأنه ﷺ لم يبعث ليخبر الناس عن معتقداتهم الماضية والحاصلة ، وإنما بعث ليعلمهم ما يلزمهم أن يعتقدوه انتهى. وأمـا ما أخرجه الترمذى من حديث حكيم بن مـعاوية قال «سمعت رسول الله ﷺ يـقول «**لا شؤم، وقد يـكون اليمـن فى المرأة والدار والـفرس**»[2] ففى إسناده ضعف مع مخالفته للأحاديث الصحيحة، **وقال عبد الرزاق** فى مصنفه عن معمر سمعت من يفسر هذا الحديث يقول: شؤم المرأة إذا كانت غير ولود وشؤم الفرس إذا لم يغز عليه، وشـوم الدار جار السوء[3]. وروى أبو داود فى الـطب عن ابن القـاسم عن مالك أنه سئل عنه فقال: كم من دار سكنها ناس فهلكوا[4].

قال المازرى: فيحمله مـالك على ظاهره، والمعنى أن قدر الله ربما اتفـق ما يكره عند سكنى الدار فـتصير فى ذلك كالسبب فـتسامح فى إضافة الشىء إلـيه اتساعًا **وقال ابن العربى**: لم يرد مالـك إضافة الشؤم إلى الدار، وإنمـا هو عبارة عن جرى العـادة فيها فأشار إلى أنه ينبغى للمرء الخروج عنها صيانة لاعتقاده عن التعلق بالباطل .

وقيل: معـنى الحديث أن هذه الأشيـاء يطول تعذيب الـقلب بها مع كـراهة أمرها لملازمتها بالسكنى والصحبية ولو لم يعتقد الإنسان الشؤم فيها، فأشار الحديث إلى الأمر بفراقها ليزول التعذيب.

قلت:ـ يعنى ابن حجر ـ وما أشار إلـيه ابن العربـى فى تأويل كلام مـالك أولى،

(١) أخرجه الحاكم فى«المستدرك» (٢/ ٤٧٩)، والبيهقى فى «الكبرى» (٨/ ١٤٠) عن عائشة به.

(٢) أخرجه الترمذى (٢٧٢٤) مكرر

(٣) أخرجه عبدالرزاق فى «مصنفه» (١٠/ ٤١١)

(٤) ذكره أبو داود (٤/ ١٨)

وهو نظير الأمر بالفرار من المجذوم مع صحة نفى العدوى، والمراد بذلك حسم المادة وسد الذريعة لئلا يوافق شىء من ذلك القدر فيعتقد من وقع له أن ذلك من العدوى أو من الطيرة فيقع فى اعتقاد ما نهى عن اعتقاده، فأشير إلى اجتناب مثل ذلك.

والطريق فيمن وقع له ذلك فى الدار مثلاً أن يبادر إلى التحول منها، لأنه متى استمر فيها ربما حمله ذلك على اعتقاد صحة الطيرة والتشاؤم .

وأما ما رواه أبو داود وصححه الحاكم من طريق إسحق بن طلحة عن أنس «قال رجل: يا رسول الله إنا كنا فى دار كثير فيها عددنا وأموالنا، فتحولنا إلى أخرى فقل فيها ذلك، فقال: **«ذروها ذميمة»**[(١)]، وأخرج من حديث فروة بن مسيك[(٢)] بالمهملة مصغرًا ما يدل على أنه هو السائل ، وله شاهد من حديث عبد الله بن شداد بن الهاد أحد كبار التابعين، وله رواية بإسناد صحيح إليه عند عبد الرزاق[(٣)]، **قال ابن العربى** ورواه مالك عن يحيى بن سعيد منقطعًا[(٤)] قال: والدار المذكورة فى حديثه كانت دار مكمل بضم الميم وسكون الكاف وكسر الميم بعدها لام - وهو ابن عوف أخو عبد الرحمن ابن عوف- قال : وإنما أمرهم بالخروج منها لاعتقادهم أن ذلك منها، وليس كما ظنوا، لكن الخالق جل وعلا جعل ذلك وفقًا لظهور قضائه، وأمرهم بالخروج منها لئلاً يقع لهم بعد ذلك شىء فيستمر اعتقادهم. **قال ابن العربى**: وأفاد وصفها بكونها ذميمة جواز ذلك، وأن ذكرها بقبيح ما وقع فيها سائغ من غير أن يعتقد أن ذلك كان منها، ولا يمتنع ذم محل المكروه، وإن كان ليس منه شرعًا كما يذم العاصى على معصيته وإن كان ذلك بقضاء الله تعالى، **وقال الخطابى**: هو استثناء من غير الجنس، ومعناه إبطال مذهب الجاهلية فى التطير، فكأنه قال: «إن كانت لأحدكم دار يكره سكناها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس يكره سيره فليفارقه.

قال وقيل إن شؤم الدار ضيقها وسوء جوارها ، وشؤم المرأة أن لا تلد، وشؤم الفرس أن لا يغزى عليه.

وقيل المعنى ما جاء بإسناد ضعيف رواه الدمياطى فى الخيل **«إذا كان الفرس ضروبًا فهو مشئوم»**، وإذا حنت المرأة إلى بعلها الأول فهى مشئومة ، وإذا كانت الدار بعيدة من المسجد لا يسمع منها الأذان فهى مشئومة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٢٤)

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٢٣)

(٣) أخرجه عبدالرزاق فى «مصنفه» (١٩٥٢٦)

(٤) أخرجه مالك فى «الموطأ» (٢/ ٧٤١/ ٢٣) عن يحيى بن سعيد به.

وقيل: كان قوله ذلك فى أول الأمر، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ الآية ، حكاه ابن عبد البر، والنسخ لا يثبت بالاحتمال، لا سيما مع إمكان الجمع ولا سيما وقد ورد فى نفس هذا الخبر نفى التطير ثم إثباته فى الأشياء المذكورة .

وقيل يحمل الشؤم على قلة الموافقة وسوء الطباع، وهو كحديث سعد بن أبى وقاص رفعه «**من سعادة المرء المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الهنىء ومن شقاوة المرء المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء**»[1] أخرجه أحمد، وهذا يختص ببعض أنواع الأجناس المذكورة دون بعض، وبه صرح ابن عبد البر فقال: يكون لقوم دون قوم، وذلك كله بقدر الله.

وقال المهلب ما حاصله: أن المخاطب بقوله «**الشؤم فى ثلاثة**» من التزم التطير، ولم يستطع صرفه عن نفسه، فقال لهم: إنما يقع ذلك فى هذه الأشياء التى تلازم فى غالب الأحوال، فإذا كان كذلك فاتركوها عنكم ولا تعذبوا أنفسكم بها.

ويدل على ذلك تصديره الحديث بنفى الطيرة.

واستدل لذلك بما أخرجه ابن حبان عن أنس رفعه «**لا طيرة ، والطيرة على من تطير، وإن تكن فى شىء ففى المرأة**»[2] الحديث، وفى صحته نظر لأنه من رواية عتبة بن حميد عن عبيد الله بن أبى بكر عن أنس، وعتبة مختلف فيه اهـ.

قال ابن حجر[3] فى موضع آخر : **قال الشيخ تقى الدين السبكى**: تخصيص الشؤم بمن تحصل منها العداوة والفتنة؟ لا كما يفهمه بعض الناس من التشاؤم بكعبها أو أن لها تأثيرًا فى ذلك، وهو شىء لا يقول به أحد من العلماء؟ ومن قال إنها سبب فى ذلك فهو جاهل، وقد أطلق الشارع على من ينسب المطر إلى النوء الكفر فكيف بمن ينسب ما يقع من الشر إلى المرأة مما ليس لها فيه مدخل وإنما يتفق موافقة قضاء وقدر فتنفر النفس من ذلك، فمن وقع له ذلك فلا يضره أن يتركها من غير أن يعتقد نسبة الفعل إليها. قلت: ـ يعنى ابن حجر ـ وفى الحديث أن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن، ويشهد له قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فجعلهن من حب الشهوات وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل فى ذلك، ويقع فى

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/١٦٨) عن سعيد بن أبى وقاص به.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) فتح البارى (٩/٤١).

المشاهدة حب الرجل ولد من امرأته التي هى عنده أكثر من حبه ولده من غيرها، ومن أمثلة ذلك قصة النعمان بن بشير فى الهبة(١) وقد قال بعض الحكماء: النساء شر كلهن وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن ومع أنهـا ناقصة العقل والدين تحمل الرجل على تعاطى ما فيه نقص العقل والدين كشغله عن طلب أمور الدين وحمله على التهالك على طلب الدنيا وذلك أشد الفساد وقد أخرج مسلم حديث أبى سعيد فى أثناء حديث «**واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء**»(٢) اهـ.

● **قال سليمان آل الشيخ وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة منها**

قوله عليه السلام فى حديث أنس «الطيرة على من تطير»(٣) وقد يجعل الله سبحانه تطير العبد وتشاءمه سببًا لحلول المكروه كما يجعل الثقة به والتوكل عليه، وإفراده بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التى يدفع بها الشر.

وقال ابن القيم : إخباره ﷺ بالشؤم فى هذه الثلاثة، ليس فيه إثبات الطيرة التى نفاها الله وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق أعيانًا منها مشؤومة على من قاربها وسكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطى سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير على وجهه، ويعطى غيرهما ولدًا مشؤومًا يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس فيخلق بعض هذه الأعيان سعودًا مباركة، ويقضى بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوسًا يتنحس بها من قاربها، وكل ذلك بقضائه وقدره كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة، ولذذ بها من قاربها من الناس، وخلق ضدها وجعلها سببًا لألم من قاربها من الناس، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس فكذلك فى الديار والنساء والخيل فهذا لون والطيرة الشركية لون» انتهى.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٥٨٦)، ومسلم فى الهبات (١١/ ٦٥ ـ النووى) وانظر «منا السبيل» بتخريجنا»

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء والاستغفار (١١/ ٥٥ ـ النووى) «رياض الصالحين» (٧١ ـ بتخريجنا)

(٣) تقدم.

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ-: ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابة، أن يسأل الله من خيرها وخير ما جبلت عليه، ويستعيذ من شرها وشر ما جبلت عليه»[1] وكذلك ينبغى لمن سكن دارًا أن يفعل ذلك ولكن يبقى على هذا أن يقال هذا جار فى كل مشؤوم فما وجه خصوصية هذه الثلاثة بالذكر؟ وجوابه أن أكثر ما يقع التطير فى هذه الثلاثة فخصت بالذكر. لذلك ذكره فى «شرح السنن».

ومنها ما روى مالك عن يحيى بن سعيد قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: دار سكناها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال، فقال النبى ﷺ: **«دعوها ذميمة»**[2] رواه أبو داود عن أنس بنحوه[3] وجوابه أن هذا ليس من الطيرة المنهى عنها، بل أمرهم بالانتقال لأنهم استثقلوها واستوحشوا منها، لما لحقهم فيها ليتعجلوا الراحة مما دخلهم من الجزع ، لأن الله قد جعل فى غرائز الناس استثقال ما نالهم الشر فيه، وإن كان لا سبب له فى ذلك وحب من جرى على يديه الخير لهم، وإن لم يردهم به، ولأن مقامهم فيها قد يقودهم إلى الطيرة، فيوقعهم ذلك فى الشرك والشر الذى يلحق المتطير بسبب طيرته، وهذا بمنزلة الخارج من بلد الطاعون غير فار منه، ولو منع الناس الرحلة من الدار التى تتوالى عليهم فيها المصائب والمحن، وتعذر الأرزاق مع سلامة التوحيد فى الرحلة للزم، كل من ضاق عليه رزق فى بلد أو قلة فائدة صناعته أو تجارته فيها أن لا ينتقل عنها إلى غيرها ومنها.

فإن قيل: ما الفرق بين الدار وبين موضع الوباء حيث رخص فى الارتحال عن الدار دون موضع البلاء؟ أجاب بعضهم أن الأمور بالنسبة إلى هذا المعنى ثلاثة أقسام.

أحدها: ما لا يقع التطير منه نادرًا، أو لا مكررًا فهذا لا يصغى إليه كنعى الغراب فى السفر، وصرخ بومة فى دار، وهذا كانت العرب تعتبره .

ثانيها: ما يقع به ضرر، ولكنه يعم ولا يخص يندر ولا يتكرر كالوباء، فهذا لا يقدم عليه ولا يفر منه.

وثالثها: سبب محض ولا يعم ويلحق به الضرر لطول الملازمة كالمرأة، والفرس،

---

(1) أخرجه أبو داود (٢١٦٠) وابن ماجه (١٩١٨) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به.
وانظر «الأذكار» للنووى (٧٢١ ـ بتخريجنا) وصححه الألبانى فى آداب الزفاف.

(2) تقدم تخريجه

(3) تقدم تخريجه .

والدار فيباح له الاستبدال، أو التوكل على الله، والإعراض عما يقع فى النفس ذكره فى «شرح السنن».

ومنها: حديث اللقحة لما منع النبى ﷺ حربا ومُرَّةَ من حَلَبِهَا وأَذِنَ ليعيش رواه مالك(١).

وجوابه: أن ابن عبد البر قال: ليس هذا عندى من باب الطيرة لأنه محال أن ينهى عن شيء ويفعله، وإنما هو من طلب الفأل الحسن، وقد كان قد أخبرهم عن أقبح الأسماء أنه حرب ومرة، فالمراد بذلك حتى لا يتسمى بهما أحد، وقد روى ابن وهب فى «جامعه» ما يدل على هذا فإنه قال فى هذا الحديث «فقام عمر بن الخطاب فقال: أتكلم يا رسول الله أم أصمت؟ فقال: **«بلْ اصْمُت وأُخبرك بما أردت، ظننت يا عمر أنَّها طِيَّرة ولا طير إلا طيره، ولا خير إلا خَيْرُه ولكن أُحبُ الفألَ الحسنَ»** وعلى هذا تجرى بقية الأحاديث التى توهم بعضهم أنها من باب الطيرة. أهـ

قوله: «ولا هامة».

قال ابن حجر (٢): **قال أبو زيد:** هى بالتشديد، وخالفه الجميع فخففوها، وهو المحفوظ فى الرواية، وكأن من شددها ذهب إلى واحدة الهوام وهى ذوات السموم، وقيل دواب الأرض التى تهم بأذى الناس، وهذا لا يصح نفيه إلا أن أريد أنها لا تضره لذواتها وإنما تضر إذا أراد الله إيقاع الضرر بمن أصابته، وقد **ذكر الزبير بن بكار فى «الموفقيات»** أن العرب كانت فى الجاهلية تقول: إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة - وهى دودة- فتدور حول قبره فتقول: اسقونى اسقونى، فإن أدرك بثأره ذهبت وإلا بقيت، وفى ذلك يقول شاعرهم:

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

قال: وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب، **وذكر ابن فارس وغيره من اللغويين** نحو الأول: إلا أنهم لم يعينوا كونها دودة، بل **قال القزاز:** الهامة طائر من طير الليل، كأنه يعنى البومة، **وقال ابن الأعرابى:** كانوا يتشاءمون بها، إذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نعت إلى نفسى أو أحداً من أهل دارى، **وقال أبو عبيد:** كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامة فتطير، ويسمون ذلك الطائر الصدى،

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (٢/ ٤٧١/ ٢٤) عن يحيى بن سعيد به

(٢) الفتح ١٠/ ٢٥٢.

فعلى هذا فالمعنى فى الحديث لا حياة لهامة الميت، وعلى الأول لا شؤم بالبومة ونحوها، ولعل البخارى ترجم «لا هامة» مرتين بالنظر لهذين التفسيرين والله أعلم اهـ.

قوله: «ولا صفر»

قال البخارى: (باب لاصفر: وهو داء يأخذ بالبطن).

قال ابن حجر [1]: **قوله (باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن)** كذا جزم بتفسير الصفر، وهو بفتحتين، وقد نقل أبو عبيدة معمر بن المثنى فى «غريب الحديث» له عن يونس بن عبيد الجرمى أنه سأل رؤبة بن العجاج فقال: هى حية تكون فى البطن تصيب الماشية والناس، وهى أعدى من الجرب عند العرب، فعلى هذا فالمراد بنفى الصفر ما كانوا يعتقدونه فيه من العدوى، ورجح عند البخارى هذا القول لكونه قرن فى الحديث بالعدوى، وكذا رجح الطبرى هذا القول واستشهد له بقول الأعشى «ولا يعض على شرسوفه الصفر» والشرسوف بضم المعجمة وسكون الراء ثم مهملة ثم فاء: الضلع، والصفر دود يكون في الجوف فربما عض الضلع أو الكبد فقتل صاحبه، وقيل المراد بالصفر الحية لكن المراد بالنفى نفى ما كانوا يعتقدونه أن من أصابه قتله ، فرد ذلك الشارع بأن الموت لا يكون إلا إذا فرغ الأجل ، وقد جاء هذا التفسير عن جابر وهو أحد رواة حديث «لا صفر» قاله الطبرى، قيل فى الصفر قول آخر، وهو أن المراد به شهر صفر، وذلك أن العرب كانت تحرم صفر وتستحل المحرم، فجاء الإسلام برد ما كانوا يفعلونه من ذلك فلذلك قال ﷺ **«لا صفر» قال ابن بطال**: وهذا القول مروى عن مالك، والصفر أيضًا وجع فى البطن يأخذ من الجوع ومن اجتماع الماء الذى يكون منه الاستسقاء، ومن الأول حديث **«صفرة فى سبيل الله خير من حمر النعم»** أى جوعة، ويقولون صفر الإناء إذا خلا عن الطعام، ومن الثانى فى حديث ابن مسعود «أن رجلا أصابه الصفر فنعت له السكر» أى حصل له الاستسقاء فوصف له النبيذ، وحمل الحديث على هذا لا يتجه، بخلاف ما سبق أ.هـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]:

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول: أن أهل الجاهلية كانوا يستشئمون بصفَر، ويقولون: إنه شهر مشؤوم فأبطل النبى ﷺ ذلك **قال ابن رجب**: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، وكثير من الجهال يتشاءم بصفر وربما ينهى عن السفر

(١) فتح البارى (١٠/ ١٨١).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٢١)

فيه، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهى عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال فى النكاح فيه خاصة. أهـ

قال ابن عثيمين(١): والحديث فى سياق التطير، والأقرب أن صفر يعنى الشهر وأن المراد نفى كونه مشؤومًا، أى لا شؤم فيه، وهو كغيره من الأزمان يُقدر فيه الخير ويقدر فيه الشر، وهذا النفى فى هذه الأمور الأربعة ليس نفيًا للوجود، لأنها موجودة، ولكنه نفى للتأثير، فالمؤثر هو الله، فما كان منها سببًا معلومًا، فهو سبب صحيح، وما كان منها سببًا موهومًا فهو سبب باطل، ويكون نفيًا لتأثيره بنفسه إن كان صحيحًا، ولكونه سببًا إن كان باطلاً .اهـ.

ثم قال(٢): فالأزمنة لا دخل لها فى التأثير وفى تقدير الله - عز وجل- فصفر كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر، وبعض الناس إذا انتهى من شىء فى صفر أرَّخ ذلك وقال: انتهى فى صفر الخير، وهذا من باب مداواة البدعة ببدعة، والجهل بالجهل، فهو ليس شهر خير ولا شهر شر.

أما شهر رمضان، وقولنا: إنه شهر خير، فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شهر خير، وقولهم : رجب المعظم، بناءً على أنه من الأشهر الحرم. ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال: خيرًا إن شاء الله، فلا يقال: خير ولا شر، بل هى تنعق كبقية الطيور.

فهذه الأربعة التى نفاها الرسول ﷺ تبين وجوب التوكل على الله وصدق العزيمة، ولا يضعف المسلم أمام هذه الأشياء، لأن الإنسان لا يخلو من حالين:

إما أن يستجيب لها بأن يُقْدِم أو يُحجِم أو ما أشبه ذلك، فيكون حينئذ قد علَّق أفعاله بما لا حقيقة له ولا أصل له، وهو نوع من الشرك.

وإما أن لا يستجيب بأن يكون عنده نوع من التوكل ويقدم ولا يبالى، لكن يبقى فى نفسه نوع من الهم أو الغم، وهذا وإن كان أهون من الأول، لكن يجب ألا يستجيب لداعى هذه الأشياء التى نفاها الرسول ﷺ مطلقًا، وأن يكون معتمدًا على الله- عز وجل.

وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل، فإذا نظر ذكر النار تشاءم، وإذا نظر ذكر الجنة قال: هذا فأل طيب، فهذا مثل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام.

---

(١) القول المفيد ٢/٩٩، ١٠٠.

(٢) القول المفيد ٢/١٠٢، ١٠٣، ١٠٤.

فالحاصل أننا نقول: لا تجعل علـى بالك مثل هذه الأمور مطلقًا، فـالأسباب المعلومة الظاهرة تقى أسباب الشر، وأما الأسباب الموهومة التى لم يجعلها الشرع سبباً بل نفاها، فلا يجوز لك أن تتعلق بها، بل احمد الله على العافية وقل ربنا عليك توكلنا.

وهذا النفى فـى هذه الأمور الأربعة ليس نفيًـا للوجود، لأنها موجودة، ولـكنه نفى للتأثير، فالمؤثر هـو الله فما كان منها سببً معلومًا، فهو سبـب صحيح، وما كان منها سببًا موهومًـا، فهو سبب باطل، ويكون نفيًـا لتأثيره بنفسه إن كان صحـيحًا، ولكونه سببًا إن كان باطلاً اهـ.

قوله: «ولا نـوء» قال سليمان آل الـشيخ[1]: واحد الأنواء وسيأتى الـكلام عليه فى باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله «لا نوء» واحـد الأنواء، والأنواء: هى منازل الـقمر، وهى ثمان وعشرون منزلة، كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة.

وهذه النجوم بعـضها يسمى النجوم الشـمالية ، وهى لأيام الصيف، وبعـضها يسمى النجوم الجنوبية، وهى لأيام الشتاء، وأجرى الله العادة أن المطر فى وسط الجزيرة العربية يكون أيام الشتاء، أما أيام الصيف، فلا مطر.

فالعرب كـانوا يتشاءمون بـالأنواء، ويتفاءلون به فـيقولون: هذا نجم سـعود وخير، ولهذا إذا أمطروا قالوا: مـطرنا بنوء كذا، ولا يقولون: مطرنا بـفضل الله ورحمته، ولا شك أن هذا غاية الجهل.

ألسنا أدركنـا هذا النوء بعينه فى سنـة يكون فيه مطر وفى سنة أخـرى لا يكون فيه مطر ؟

ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التى كانت كثيرًا ما يكون فى زمنها الأمطار.

فالنوء لا تأثير له، فقولنا : طلع هذا النجم، كقولنا: طلعت الشمس ، فليس له إلا طلوع وغروب، والنوء وقت تقدير، وهو يدل على دخول الفصول فقط.

وفى عصرنا الحاضر يعلق المطر بالضغط الجوى والمنخفض الجوى، وهذا وإن كان قد

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٢١).

(٢) القول المفيد (٢/ ١٠٤ و ١٠٥).

يكون سببًا حقيقيًا ، ولكن لا يفتح هذا الباب للناس، بل الواجب أن يقال: هذا من رحمة الله ، هذا من فضله ونعمه، قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾[1] وقال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾[2] .

فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية، من الأمور الجاهلية التى تصرف الإنسان عن تعلقه بربه.

فذهبت أنواء الجاهلية،وجاءت المنخفضات الجوية، وما أشبه ذلك من الأقوال التى تصرف الإنسان عن ربه - سبحانه وتعالى -.نعم المنخفضات الجوية قد تكون سببًا لنزول المطر، لكن ليست هى المؤثرة بنفسها . فتنبه ا.هـ.

وسيأتى مزيد من الشرح له فى باب الاستسقاء.

قوله: «ولاغُوْلَ».

قال سليمان آل الشيخ[3]: هو بالفتح مصدر معناه البعد والهلاك وبالضم الاسم وجمعه أغوال وغيلان وهو المراد هنا.

قال أبو السعادات: الغول واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول فى الفلاة تتراءى للناس فتتغول تغولاً أى: تتلون تلوناً فى صور شتى وتغولهم أى تضلهم عن الطريق وتهلكهم فنفاه النبى ﷺ وأبطله. وقيل: قوله: «**لا غول**» ليس نفياً لعين الغول ووجوده، وإنما فيه إبطال زعم العرب فى تلونه بالصور المختلفة واغتياله. فيكون المعنى بقوله: «**لاغول**» أنها لا تستطيع أن تضل أحداً ويشهد لـه.

الحديث الآخر: «لاَ غَوْلَ وَلَكِنَّ السَّعَالى سَحَرَةِ الجنَّ» أى ولكن فى الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل.

ومنه الحديث: «إِذا تَغَوَّلَتِ الغُيْلاَن فَبَادِرُوا بالأَذَانِ»[4] أى: ادفعوا شرها بذكر الله،

---

(١) النور:٤٣

(٢) الروم :٤٨

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٢١و٣٢٢

(٤) [مرسل] أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة. (٥٢٤) عن جابر به. وانظر «الأذكار» للنووى (٥٦٢ ـ بتخريجنا)

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيرَةَ وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ». قَالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»(١).

وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدمها. ومنه حديث أبى أيوب كان لى تمر فى سهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ. أهـ

قال ابن عثيمين(٢): **قوله: «ولا غول».**

جمع غَوْلَة أو غُولة، ونحن نسميها باللغة العامية: (الهولة)؛ لأنها تهول الإنسان.

والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يميناً وشمالاً تلونت لهم الشياطين بألوان مفزعة مخيفة، فتُدخِل فى قلوبهم الرعب والخوف، فتجدهم يكتئبون ويستحسرون عن الذهاب إلى هذا الوجه الذى أرادوا، وهذا لاشك أنه يضعف التوكل على الله، والشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على الإنسان بقدر ما يستطيع، قال تعالى: **﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾**(٣).

وهذا الذى نفاه الرسول ﷺ هو تأثيرها؛ فلا تهمُّكم لأنها خوّفتكم، فلا تلتفتوا إليها، وليس المقصود بالنفى نفى الوجود، وأكثر ما يبتلى الإنسان بهذه الأمور إذا كان قلبه معلقاً بها، أما إن كان معتمداً على الله غير مبالٍ بها؛ فلا تضره ولا تمنعه عن جهه قصده أ.هـ.



قوله [ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ ....] الحديث

هذا الحديث رواه البخارى فى كتاب الطب فى باب الفأل ولفظه «**لاطيرة وخيرها الفأل**. قالوا: وما الفأل يارسول الله؟ قال: «**الكلمة الصالحة يسمعها أحدُكم**». وهو لفظ مسلم أيضاً.

مناسبة هذا الحديث للباب.

قال القرعاوى(٤): حيث دل الحديث على إبطال الطيرة.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «الطب» / باب: الفأل (١٠/ ٢٢٤/ ح ٥٧٥٦) ومسلم فى «السلام »/ باب: الطيره والفأل وما يكون من الشؤم (٥/ ١٤/ ٢١٩) وأبو داود فى «الطب»/ باب: الطيرة (٣٩١٦/١٧/٤).

وانظر: «رياض الصالحين» (ح ١٦٧٧) بتخريجنا وفتح المجيد (٥٥٩) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/ ١٠٥ و ١٠١. (٣) المجادلة: ١٠. (٤) الجديد (٢٥٦).

- مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوى[1]: حيث أنكر الحديث الطيرة وذلك لانها تعليق للقلب بغير الله وهذا شرك به.

قوله:[ولهما عن أنس قال...]

أى : وعند البخارى ومسلم أيضاً عن أنس.

قوله: «لاعدوى، ولاطيرة».

تقدم الكلام على ذلك مفصلاً فى شرح الحديث الماضى.

قوله: «ويعجبنى الفأل».

قال ابن القيم (*): فى لفظ **(وخيرها الفأل)** وفى لفظ**(وأصدقها الفأل)** وفى لفظ **(وكان يعجبه الفأل)**

قال ابن حجر[2]: بفاء ثم همزة وقد تسهل، والجمع فئول بالهمزة جزماً.

قال سليمان آل الشيخ[3]: قال أبو السعادات: الفأل مهموز فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيها يسر، يقال: تفاءلت بكذا، وتفاءلت على التخفيف والقلب. وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفاً.

قال ابن القيم[4]: ليس فى الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانه عن مقتضى الطبيعة، ومن حب الفطرة الإنسانية التى تميل إلى مايوافقها ويلائمها كما أخبرهم ﷺ أنه حبب إليه من الدنيا النساء والطيب[4] وكان يحب الحلوى والعسل[5] ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان، ويستمع إليه، ويحب معالى الأخلاق، ومكارم الشيم.

وبالجملة: يحب كل كمال وخير، وما يفضى إليهما، والله سبحانه وتعالى قد جعل فى غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشر، والفوز والظفر، ونحو ذلك.

فإذا قرعت هذه الأسماء الاسماع استبشرت بها النفس وانشرح لها الصدر، وقوى بها القلب، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال، فأحزنها ذلك، وأثار لها

(١) الجديد (٢٥٦). (٢) الفتح ١٠/ ٢٢٥

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٢٢.

(٤)(*) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤٤).

(٥) تقدم تخريجه (٦) تقدم تخريجه

خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضرراً فى الدنيا، ونقصاً فى الإيمان، ومقارفة للشرك». اهـ.

ونقل سليمان آل الشيخ ذلك عنه.

قوله: «وقالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة».

قال ابن القيم(*): وفى لفظ مسلم «**ويعجبنى الفأل الصالح**» أى الكلمة الحسنة. وقال «**إذا أبردتم إلىَّ بريداً فاجعلوه حسن الاسم، حسن الوجه**».

ثم قال ابن القيم: قال عبدالله بن عباس: لاطيرة لكنه فأل، و الفأل المرسل: يسار، وسالم، ونحوه من الاسم يعرض لك على غير ميعاد.

وسئل بعض العلماء عن الفأل؟ فقال: أن تسمع وأنت قد أضللت بعيراً أوشيئاً. (ياواجد) . أو وأنت خائف(يا سالم).

وقال الأصعمى سألت ابن عون عن الفأل ؟ فقال: أن يكون مريضاً فيسمع (ياسالم) وأخبرك عن نفسى بقضية من ذلك،وهى أنى أضللت بعض الأولاد فى يوم التروية بمكة وكان طفلاً فجهدت فى طلبه والنداء عليه فى سائر الركب إلى وقت يوم الثامن فلم أقدر له على خبر، فآيست منه، فقال لى إنسان إن هذا عجز، اركب وأدخل الآن إلى مكة فتطلبه فيها، فركبت فرساً فما هو إلا أن استقبلت جماعة يتحدثون فى سواد الليل فى الطريق، وأحدهم يقول : ضاع له شىء فلقيه فلا أدرى انقضاء كلمته كان أسرع أم وجدانى الطفل مع بعض أهل مكة فى محملة عرفته بصوته.

فقوله ﷺ: «**ولا طيرة وخيرها الفأل**» ينفى عن الفأل مذهب الطيرة من تأثير أو فعل أوشركة ويخلص الفأل منها. أهـ.

قال الحافظ(1): وقال فى حديث أنس «**ويعجبنى الفأل الصالح، الكلمة الحسنة**» وفى حديث عروة بن عامر الذى أخرجه أبو داود قال: «ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «**خيرها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله**» وقوله: «**وخيرها الفأل**»(2).

(1) الفتح ١٠/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(*) مفتاح دار السعادة (٥٨٢ ـ٥٨٣)

(2) سيأتى تخريجه

قال الكرماني: تبعاً لغيره. هـذه الإضافة تشعر بأن الفأل من جملـة الطيرة، وليس كذلك بل هى إضـافة توضيح، ثم قال: وأيضاً فإن مـن جملة الطيرة كما تـقدم تقريره التيامن، فبـين بهذا الحديث أنه ليس كل الـتيامن مردوداً كالتشاؤم، بل بـعض التيامن مقبول.

قلت: ـ يعنى ابن حجر ـ وفى الجواب الأول دفع فى صدر السؤال، وفى الثانى تسليم السؤال ودعوى التخصـيص وهو أقرب وقد أخرج ابن ماجه بسند حـسن عن أبى هريرة رفعه: **«كان يعجبه الفـأل ويكره الطيرة»**(1) وأخرج الترمذى من حديث حـابس التميمى أنه سمع النبى ﷺ يقول: **«العين حق، وأصدق الطيرة الفأل»**(2) ففى هذا التصريح أن الفأل من جملة الطيرة لكنه مستثنى.

وقال الطيبى: الضمير المؤنث فى قـوله: **«وخيرها»** راجع إلى الطيـرة، وقد علم أن الطيرة كلها لا خير فيها، فهـو كقـوله تعالى: ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً**﴾ وهو مبنى عـلى زعمهم؛ وهو من إرخـاء العنـان فـى المخادعة بأن يجرى الكـلام على زعم الخصم حتـى لايشمئز عن التـفكر فيه، فإذا تفـكـر فأنصـف مــن نفسه قبـل الحق، فقوله: **«خيرها الفأل»** إطمـاع للسامـع فى الاستمـاع والقبول، لا أن فـى الطيرة خـيراً حقيقة، أو هو مـن نحـو قوله: **«الصيف أحـر مـن الشتاء»** أى الفأل فى بابـه أبلغ مـن الطـيرة فى بابهـا.

والحاصل: أن أفعل التفضيل فى ذلك إنما هو بين القدر المشترك بين الشيئين، والقدر المشترك بـين الطيرة والفأل تأثـير كل منهما فـيما هو فيه، والفأل فـى ذلك أبلغ. **قال الخطابى:** وإنما كان ذلك لأن مصدر الـفأل عن نطق وبيان، فكأنه خـبر جاء عن غيب، بخلاف غيره فإنه مستند إلى حركة الطائر أو نطقه وليس فيه بيان أصلا، وإنما هو تكلف ممن يتـعاطاه، وقد أخرج الـطبرى عن عكرمـة قال: كنت عنـد ابن عباس، فمـر طائر فصاح، فقال رجل: خير خير، فقال ابن عباس: ما عند هذا لاخير ولاشر اهـ

وتقدم أثر ابن عباس وغيره عند قوله: **(ولا طيرة)**. والله أعلم.

ثم قال: قال ابن بطال: جعل الله فى فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها كما جعل فيهـا الارتياح بالمنظر الأنيق والمـاء الصافى وإن كان لايملكـه ولايشربه. وأخرج

---

(1) [رجاله ثقات] أخرجه ابن ماجه (٣٥٣٦) وقال البوصيرى: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(2) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٦٧)، (٥/ ٧٠)، والترمذى (٢٠٦١).

الترمذى وصححه من حديث أنس «أن النبى ﷺ كان إذا خرج لحاجته يعجبه أن يسمع: يا نجيح ياراشد»[1] وأخرج أبو داود بسند حسن عن بريدة: «أن النبى ﷺ كان لايتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً يسأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رؤى كراهة ذلك فى وجهه»[2]. اهـ.

[قلت] وتقدم فى أول هذا الباب التفرقة بين الفأل والطيرة. والله أعلم.

ثم قال: قال الحليمى: وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال. **وقال الطيبى:** معنى الترخص فى الفأل والمنع من الطيرة هو أن الشخص لو رأى شيئاً فظنه حسناً محرضاً على طلب حاجته فليفعل ذلك. وإن رآه بضد ذلك فلا يقبله بل يمضى لسبيله. فلو قبل وانتهى عن المضى فهو الطيرة التى اختصت بأن تستعمل فى الشؤم. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ[3]: بيَّن لهم ﷺ أن الفأل يعجبه، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهى عنها. أهـ.

قال ابن عثيمين[4]: فـ «الكلمة الطيبة»

فـ «الكلمة الطيبة» تعجبه ﷺ؛ لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط، والمضى قُدُماً لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة، بل هذا مما يشجع الإنسان؛ لأنها لاتؤثر عليه، بل تزيده طمأنينةً وإقداماً وإقبالاً.

وظاهر الحديث : الكلمة الطيبة فى كل شيء، لأن الكلمة الطيبة فى الحقيقة تفتح القلب وتكون سبباً لخيرات كثيرة، حتى إنها تدخل المرء فى جملة ذوى الأخلاق الحسنة.

وهذا الحديث جمع النبى ﷺ فيه بين محذورين ومرغوب؛ فالمحذوران هما العدوى والطيرة، والمرغوب هو الفأل، وهذا من حسن تعليم النبى ﷺ؛ فمن ذَكَرَ المرهوب ينبغى أن يذكر معه ما يكون مرغوباً، ولهذا كان القرآن مثانى إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة، وهكذا. أهـ.



(١) أخرجه الترمذى (١٦١٦) عن أنس به

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٢٠) عن بريدة به.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٢٢)

(٤) القول المفيد ٢/١٠٦و١٠٧

وَلأبِى دَاوُدَ بِسَنَد صَحيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بن عَامر، قَالَ: «ذُكِرَتْ الطِّيَرَةُ عِنْدَ النبى ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الفَأْلُ، وَلا تَرُدُّ مُسْلمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُم مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لا يَأْتِى بِالحَسَنَاتِ إِلاَّ أَنْتَ وَلا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلاَّ أَنْتَ، وَلاَ حَولَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ»[1].

● **مناسبة الحديث للتوحيد:**

قال محمد القرعاوى[2]: حيث أنكر الحديث الطيرة لانها تعليق للقلب بغير الله وهذا شرك به. أهـ

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال محمد القرعاوى[3]: حيث دل الحديث على إبطال الطيرة.

قوله: «عن عقبه بن عامر».

قال سليمان آل الشيخ[4]: قوله: عن عقبة بن عامر هكذا وقع فى نسخ التوحيد، وصوابه عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وهو مكى اختلف فى نسبه، فقال أحمد بن حنبل فى روايته: عن عروة بن عامر القرشى، وقال غيره الجهنى، واختلف فى صحبته فقال الباوردى: له صحبة. وذكره ابن حبان فى ثقات التابعين، وقال المزى لا صحبة له تصح.

قلت: قال المنذرى: وقال أبو القاسم الدمشقى: ولاصحبة له تصح، وذكر البخارى وغيره أنه سمع من ابن عباس فعلى هذا يكون الحديث مرسلاً (*) أهـ.

---

(١) أخرجه أبو داود فى «الطب»/ باب: فى الطيرة (٤/١٨٢١٧/ح ٣٩١٩) والبيهقى فى «الكبرى» (٨/ ٢٤٠/ ح ٦٥٢١).

من طريق: وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن عروة بن عامر قال... فذكره.

وسند الحديث غير صحيح لعلتين: -

أحدهما: الاختلاف فى صحبة عروة بن عامر كما ذكر ذلك الإمام النووى والذهبى وابن حجر.

ثانيها: فى الإسناد عنعنة حبيب بن أبى ثابت وهو مدلس.

وانظر: «رياض الصالحين» (ح١٦٨٠) بتخريجنا، وفتح المجيد (٥٨٥ - بتخريجنا).

(٢ - ٣) الجديد ٢٥٨.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٣.

(*) عون المعبود» (١٠/٤١٦)

قلت: وعلى ذلك فقول المصنف: «ولأبى داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر ـ عروة بن عامر ـ » أى بسند صحيح إليه لا إلى النبى ﷺ والله أعلم.

قوله: «قال: ذكرت الطيرة عند النبى - ﷺ -».

قال ابن عثيمين(١): وهذا الذكر إما ذكر شأنها، أو ذكر أن الناس يفعلونها، والمراد: تحدث الناس بها عند رسول الله ﷺ. أ.هـ.

قوله: «فقال: أحسنها الفأل».

قال سليمان آل الشيخ(٢): قد تقدم أنه - ﷺ - كان يعجبه الفأل.

قال ابن عثيمين(٣): قوله: «أحسنها الفال». أهـ

قلت: تقدم فى أول الباب الفرق بين الطيرة والفأل، وسبق أن الفأل ليس من الطيرة، لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام؛ فإنه يزيد الإنسان نشاطاً وإقداماً فيما توجه إليه؛ فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإلا؛ فبينهما فرق لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمُتَطَّير به، وضعف توكله على الله، ورجوعه عما همَّ به من أجل ما رأى لكن الفأل يزيده قوة وثباتاً ونشاطاً؛ فالشبه بينهما هو التأثير فى كل منهما. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٤): وروى الترمذى وصححه عن أنس أن النبى ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع: يانجيح ياراشد(٥).

وروى أبو داود عن بُريدة أنَّ النَّبىَّ ﷺ كَانَ لاَ يَتَطَيَّرُ مِنْ شَىْءٍ، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ عَاملاً سأَلَ عن اسمه فَإِذَا أَعْجَبَهُ فَرِحَ بِهِ رُئِىَ بِشْرُ ذلكَ فى وَجْههِ وإن كَرِهَ اسمهُ، رُئِىَ كراهية ذَلِكَ فى وجهه. . . . الحديث(٦) وإسناده حسن. فهذا فى استعمال الفأل. **قال ابن القيم فى الكلام على الحديث المشروح**: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا منعه من الرقى بالشرك وإذنه فى الرقية إذا لم يكن فيها شرك لما فيها من المنفعة الخالية عن المفسدة.

(١) القول المفيد ٢/١٠٨.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٢٣.

(٣) القول المفيد (٢/١٠٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٣، ٣٢٤.

(٥) تقدم تخريجه

(٦) تقدم تخريجه

قوله: «ولاترد مسلماً».

قال سليمان آل الشيخ[1]: قال الطيبى تعريضه بأنَّ الكافر بخلافه. أهـ

قوله: «فإن رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت».

قال سليمان آل الشيخ[2]: **قوله: «اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت»** أى: لا تأتى الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لاشريك لك، الذى تأتى بالحسنات وتدفع السيئات. وهذا دعاء مناسب لمن وقع فى قلبه شىء من الطيرة، وتصريح بأنها لاتجلب نفعاً ولاتدفع ضراً، ويعد من اعتقدها سفيهاً مشركاً.

قال ابن عثيمين[3]: **قوله: «فإذا رأى أحدكم ما يكره».**

فحينئذ قد تردُ على قلبه الطيرة، ويبتعد عما يريد، ولا يقدم عليه، وقد ذكر النبى ﷺ دواء لذلك وقال: **«فليقل: اللهم لايأتى بالحسنات.. »** إلخ.

قوله: «اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت».

وهذا هو حقيق التوكل، وقوله: «اللهم». يعنى: يألله، ولهذا بُنيت على الضم؛ لأن المنادى علم، بل هو أعلم الأعلام وأعرف المعارف على الإِطلاق، والميم عوض عن يا المحذوفة، وصارت فى آخر الكلمة تبركاً بالابتداء باسم الله- سبحانه وتعالى -، وصارت ميماً؛ لأنها تدل على الجمع؛ فكأن الداعى جمع قلبه على الله.

قوله: «لا يأتى بالحسنات إلا أنت».

أى: لايُقدِّرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا الله وحده لا شريك له، وهذا لا ينافى أن تكون الحسنات بأسباب؛ لأن خالق هذه الأسباب هو الله، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسباب خلقها الله؛ صار الموجد حقيقةً هو الله.

والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن فى عينه.

ويشمل ذلك الحسنات الشرعية؛ كالصلاة والزكاة وغيرها؛ لأنها تسر المؤمن،

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٢٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٢٤

(٣) القول المفيد ٢/١٠٨ - ١١٠.

ويشمل الحسنات الدنيوية؛ كالمال والولد ونحوها، قال تعالى: **﴿إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾**، وقال تعالى في آية أخرى: **﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾**(١).

وقوله: «إلا أنت».

فاعل يأتي: لأن الاستثناء هنا مفرغ.

قوله: «ولايدفع السيئات إلا أنت».

السيئات: ما يسوء المرء وقوعه وينفر منه حالاً أو مآلاً، ولا يدفعها إلا الله، ولهذا إذا أصيب الإنسان بمصيبة التجأ إلى ربه تعالى، حتى المشركون إذا ركبوا في الفلك، وشاهدوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدين.

ولا ينافي هذا أن يكون دَفْعُها بأسباب؛ فمثلاً لو رأى رجلاً غريقاً، فأنقذه فإنما أنقذه بمشيئة الله، ولو شاء الله لم ينقذه، فالسبب من الله.

فعقيدة كل مسلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا الله، وبمقتضى هذه العقيدة؛ فإنه يجب أن لا يسأل المسلم الحسنات ولا يسأل دفع السيئات إلا من الله، ولهذا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يسألون الله الحسنات ويسألون دفع السيئات، قال تعالى عن زكريا: **﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾**(٢)، وقال تعالى: عن أيوب: **﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾**(٣)، وهكذا يجب أن يكون المؤمن أيضاً.

قوله: «ولاحول ولاقوة إلا بك».أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٤): قوله: «ولاحول ولاقوة إلا بك».

قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك» استعانة بالله تعالى على فعل التوكل، وعدم الالتفات الى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه وعقوبة لفاعلها وذلك إنما يصدر من تحقيق التوكل، الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات، ودفع المكروهات، والحول: التحول والانتقال من حال إلى حال، والقوة على ذلك، أي لا حول ولا قوة

(١) آل عمران: ١٢٠.

(٢) آل عمران: ٣٨.

(٣) الأنبياء: ٨٣.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٤.

على ذلك الحول إلا بك، وذلك يفيد التوكل على الله لأنه علم وعمل، فالعلم معرفة القلب بتوحد الله بالنفع والضر، وعامة المؤمنين بل كثير من المشركين يعلمون ذلك، والعمل هو ثقة القلب بالله وفراغه من كل ما سواه، وهذا عزيز ويختص به خواص المؤمنين، وهو داخل فى هذه الكلمة، لأن فيها التبرى من الحول والقوة والمشيئة، بدون حول الله وقوته ومشيئته والاقرار بقدرته على كل شيء، وبعجز العبد عن كل شيء إلا ما أقدره عليه ربه، وهذا نهاية توحيد الربوبية الذى يثمر التوكل وتوحيد العبادة. أهـ

قال ابن عثيمين(١): قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك».

فى معناها وجهان:

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله؛ فالباء بمعنى فى، يعنى: إلا فى الله وحده، ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون الحول والقوة المنفيان عن غير الله هما الحول المطلق والقوة المطلقة؛ لأن غير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبية ليست بكاملة؛ فالحول الكامل والقوة الكاملة فى الله وحده.

الثانى: أن الحول والقوة مضاف إلى المخلوق؛ فالباء للاستعانة أو للسببية، أى: لا حول لنا ولا قوة لنا إلا بالله - عز وجل -، وهذا المعنى أصح، وهو مقتضى وردها فى مواضعها؛ إذ إننا لا نتحول من حال إلى حال، ولانقوى على ذلك إلا بالله؛ فيكون فى هذه الجملة كمال التفويض إلى الله، وأن الإنسان يبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول والقوة.

فإن صحّ الحديث؛ فالرسول ﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المتشائم أن نقول: **«اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات، إلا أنت، ولا حول ولاقوة إلا بك». قلت: تقدم فى أول الباب جملة من الأثار فيها أسباب أخرى لعلاج الطيرة فراجعها.**



(١) القول المفيد ٢/ ١١٠ و ١١١.

وعن ابنِ مَسْعُود مَـرْفُوعاً: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِـرْكٌ، وَمَا مِنَّا إلاَّ.. ولَكِنَّ اللهَ يُذهِبُـهُ بالتَّوَكُّلِ» رَوَاهُ أَبُـو دَاوُدَ، والتِّرمذِىُّ وصَحَّـحَهُ وجَعَلَ آخِرَهُ مِـنْ قَولِ ابنِ مَسْعُودٍ(١).

قوله: وعن ابن مسعود مرفوعاً الطيرة شرك الحديث

قال سليمـان آل الشيخ(٢): «هذا الحديث رواه أيـضاً ابن ماجة وابن حـبان ولفظ أبى داود: **«الطيرة شرك الطيرة شرك ثلاثاً»**.أهـ

- مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال القرعاوى(٣): حيث دل الحديث على أنَّ الطيرة شرك».اهـ.

قوله: «الطيرة شرك الطيرة شرك».

قال سليمان آل الشيخ(٤):

صريح فى تحريم الطيرة وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله. وقال ابن حمدان فـى «الرعاية» تكره الطيـرة. وكذا قال: غير واحد من أصحـاب أحمد. قال ابن مفـلح: والأولى القطع بـتحريمها. ولـعل مرادهم بالـكراهة التحريـم قلت: - أى سليمان آل الشيخ - بل الصواب القطع بتحريمها لأنها شرك وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهة الاصطلاحية؟ فإن كان القائل بكـراهتها أراد ذلك فلا ريب فى بطلانه. قال فى «شرح السنن» وإنما جعل الطـيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن التـطير يجلب لهم نفعاً أو يدفع عنهم ضراً. إذا عملوا بموجبه فكأنهم شركوه مع الله تعالى.أهـ

قال ابن عثيمين(٥): **قوله: «الطيرة شرك، الطيرة شرك».**

هاتان الجملتان يؤكد بعضهما بعضاً من باب التوكيد اللفظى.

وقوله: «شرك».

أى: إنها من أنواع الشرك، وليست الشرك كله، وإلا؛ لقال: الطيرة الشرك.

وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر المخرج عن الملة، أو أنها نوع من أنواع الشرك؟

---

(١) أخرجـه أحمد فى «مسنده» (١/ ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠)، وأبـو داود فى الطـب / باب فى الطـيرة (٤/١٦/ ٣٩١٠) والترمذى فى السـير/ باب ما جاء فى الطيرة (٤/ ١٦٠/ ١٦١٤) والحاكـم فى «المستدرك» (١/ ١٨)، والبيهقى ى «الكبرى» (٨/ ١٣٩).

من طريق سلمة بن كهيل، عن عيسى بن عاصم، عن زر، عن عبد الله به.

قال الترمذى: هذا حـديث حسن صحيح لانعرفه إلا مـن حديث سلمة بن كهيل، وروى شـعبة أيضاً عن سلمة هذا الحديث.

قال: سمعت محمد بن إسـماعيل يقول: كان سليمان بن حرب يقول فى هـذا الحديث وما مِّنا ولكن اللهَ يَذْهِبُهُ بالتوكُّل. قـال سليمان: هذا عندى قول عبد الله بن مسعود وما مـنّا وانظر فتح المجيد (ح ٥٨٨). بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٢٤.
(٣) الجديد ٢٦٠.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٤ و ٣٢٥.
(٥) القول المفيد ٢/ ١١١: ١١٣.

نقول: هى نوع من أنـواع الشرك؛ كقوله ﷺ: **«اثنتان فى الناس هـما بهم كفر»**(١) أى: ليس الـكفر المخرج عن الملـة، وإلا؛ لقال: «هما بهـم الكفر»، بل همـا نوع من الكفر.

لكن فى ترك الصلاة قال: **«بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»**(٢)، فقال: **«الكفر»**، فيجب أن نعرف الفرق بين «أل» المعرفـة أو الدالة على الاستغراق، وبين خلو اللفظ منها، فإذا قيل: هذا كفر؛ فالمـراد أنه نوع من الكفر لايخرج من الملة، وإذا قيل: هذا الكفر؛ فهو المخرج من الملة.

فإذا تطير إنسان بشىء رآه أو سمعه؛ فإنه لا يعد مشركاً شركاً يخرجه من الملة، لكنه أشرك من حيـث إنه اعتمد على هـذا السبب الذى لم يـجعله الله سبباً، وهـذا يضعف التوكل على الله ويوهن العزيمة، وبذلك يعتبر شركاً من هذه الناحية.

والقاعدة: **«إن كل إنسان اعتمد على سبب لم يجعـله الشرع سبباً؛ فإنه مشرك شركاً أصغر»**.

وهذا نوع من الإشراك مع الله؛ إما فى التشريـع إن كان هذا السبب شرعياً، وإما فى التقدير إن كان هذا السبب كونياً، لكن لو اعتقـد هذا المتشائم المتطير أن هذا فاعل بنفسه دون الله؛ فهو مشرك شركاً أكبر؛ لأنه جعل لله شريكاً فى الخلق والإيجاد. أهـ

قوله: «وما منَّا إلا».

قال ابن عثيمين(٣): قوله: «ومامنا».

«منا»: جار ومجرور خبر لمبتدأ محـذوف، إما قبل (إلا) إن قدرت ما بعد إلا فعلاً؛ أى وما منا أحد إلا تطير، أو بعد (إلا)؛ أى وما منا إلا متطير.

والمعنى: ما منا إنسان يسلم من التطير؛ فـالإنسان يسمع شيئاً فيتشاءم، أو يبدأ، فى فعل؛ فيجد أوله ليس بالسهل فيتشاءم ويتركه. أهـ

قال سلـيمان آل الشـيخ(٤): قولـه: «وما منا إلا». قـال أبو القـاسم الأصبهـانى والمنذرى: فـى الحديث إضمـار والتقدير ومـا منا إلا وقد وقع فـى قلبه شـىء من ذلك انتهى. وحاصله وما منا إلا من يعتريه التطير ويسبق إلى قلبه الكراهة فيه. فحذف ذلك اعتماداً على فهم السامع. وقال الخلخالى: حذف المـستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة وهذا نوع من أدب الكلام.

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) القول المفيد ٢/١٣/١١٤.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٥.

قوله: «ولكن الله يذهبه بالتوكل».

قال سليمان آل الشيخ(١): قوله: «ولكن الله يذهبه بالتوكل» أى ما منا إلا من يقع فى قلبه ذلك، ولكن لما توكلنا على الله وآمنا به، واتبعنا ما جاء به الرسول ﷺ واعتقدنا صدقه، أذهب الله ذلك عنا وأقر قلوبنا على السنَّة واتباع الحق. أهـ

قال ابن عثيمين(٢):

والتوكل: صدق الاعتماد على الله فى جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله.

فلا يكفى صدق الاعتماد فقط، بل لا بد أن تثق به؛ لأنه سبحانه يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(٣).أهـ

قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود».

قال سليمان آل الشيخ(٤): قوله: وجعل آخره من قول ابن مسعود قال الترمذى: سمعت محمد ابن إسماعيل يقول: كان سليمان بن حرب يقول فى هذا: «وما منا» هذا عندى من قول ابن مسعود، فالترمذى نقل ذلك عن سليمان بن حرب ووافقه على ذلك العلماء. قال ابن القيم: وهو الصواب، فإن الطيرة نوع من الشرك. أهـ

قلت: وكذا قال الخطابى: وهذه الجملة أى من قوله: «مامنا إلا...» إلى أخره ليست من قول النبى ﷺ وإنما هو قول عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه وتقدم فى أول الباب عن ابن حجر (*)ـ.

قال ابن عثيمين(٥): قوله: «**وجعل آخره من قول ابن مسعود**».

وهو قوله: «**وما منا إلا....**» إلخ.

وعلى هذا يكون موقوفاً، وهو مدرج فى الحديث، والمدرج: أن يُدخل أحد الرواة كلاماً فى الحديث من عنده بدون بيان، ويكون فى الإسناد والمتن، ولكن أكثره فى المتن، وقد يكون فى أول الحديث، وقد يكون فى وسطه، وقد يكون فى آخره، وهو الأكثر.

مثال ما كان فى أول الحديث: قول أبى هريرة رضى الله عنه: «**أسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقاب من النار**»(٦)؛ فقوله: «**أسبغوا الوضوء**» من كلام أبى هريرة، وقوله: «**ويلٌ للأعقاب من النار**» من كلام الرسول ﷺ.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٢٥.
(٢) القول المفيد ٢/ ١١٤ و ١١٥
(٣) الطلاق: ٣.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٥.
(٥) القول المفيد ٢/ ١١٤.
(*) عون المعبود (١٠/ ٤٠٦ـ٤٠٧)
(٦) [متفق عليه] أخرجه: البخارى(١٦٥)،ومسلم فى الطهارة (٣/ ١٣١ ـ النووى)

وَلأحْمَدَ منْ حَديث ابنِ عَمْرو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَته، فَقَدْ أشْرَكَ» قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلكَ؟ قَالَ: «أنْ يَقُولَ الَّلهُمَّ لاَ خَيْرَ إلاَّ خَيرُكَ، ولاَ طَير إلاَّ طَيرُكَ، ولاَ إلَه غَيْرُكَ»(١).

ومثال ما كان فى وسطه قول الزهرى فى حديث بدء الوحى: «**كان رسول الله ﷺ يَتَحنَّث فى غار حراء، والتحنث: التعبد**»(٢)، ومثال ما كان فى آخره: هذا الحديث الذى ذكره المؤلف، وكذا حديث أبى هريرة، وفيه: «**فمن استطاع منكم أن يطيل غرته؛ فليفعل**»(٣)، فهذا من كلام أبى هريرة(٤).



قال سليمان آل الشيخ(٥): هذا الحديث رواه الإمام أحمد والطبرانى عن عمرو بن العاص مرفوعاً وفى إسناده ابن لهيعة وفيه اختلاف وبقية رجاله ثقات. أهـ

- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد.

قال القرعاوى(٦): حيث دل الحديث على شرك من ردته الطيرة عن المضى فى حاجته. أهـ

قال سليمان آل الشيخ(٧): قوله: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**» وذلك أن التطير هو التشاؤم بالشىء المرئى أو المسموع فإذا استعملها الإنسان فرجع بها عن سفره وامتنع بها عما عزم عليه؛ فقد قرع باب الشرك، بل ولجه وبرىء من التوكل على الله،

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٢٢٠).

من طريق ابن لهيعة أخبرنا ابن مسيرة عن أبى عبد الرحمن الحلبى عن عبد الله بن عمرو.. فذكره.

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥/ ١٠٥) وقال: رواه أحمد والطبرانى وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف.

وله شاهد من حديث بريدة عن أبيه أخرجه الطبرانى فى «الدعاء» (ح ١٢٧٠). وانظر «فتح المجيد» (ح ٥٩٠) بتخريجنا.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٢٥٢/٤٧٤)

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (١٣٦)، ومسلم فى الطهارة (٢/ ١٣٦/ ٣٤) عن أبى هريرة به.

(٤) وانظر أمثله على ذلك فى كتابنا« التيسير والتأصيل والسلفية فى شرح المنظومة البيقونية» فى مبحث المدرج

(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٢٠.

(٦) الجديد ٢٦٢.

(٧) تيسير العزيز الحميد ٣٢٦

وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، وذلك قاطع له عن مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيصير قلبه متعلقاً بغير الله، وذلك شرك فيفسد عليه إيمانه، ويبقى هدفاً لسهام الطيرة. ويقيض له الشيطان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه، وكم ممن هلك بذلك وخسر الدنيا والآخرة.

قوله: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك».

قال ابن عثيمين[(١)]: قوله في حديث ابن عمرو: «من».

شرطية، وجواب الشرط: «فقد أشرك»، واقتران الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصلح لمباشرة الأداة، وحينئذ يجب اقترانه بالفاء، وقد جمع ذلك في بيت شعر معروف، وهو قوله:

اسميةٌ طَلبيّةٌ وبِجَامِدِ ... وبِمَا وقَدْ ولَنْ وبالتَّنفِيسِ

قوله: **«من ردته الطيرة عن حاجته».**

الحاجة: كل ما يحتاجه الإنسان بما تتعلق به الكمالات، وقد تطلق على الأمور الضرورية. أهـ

قوله: **«فقد أشرك».**

أي: شركاً أكبر إن اعتقد أن هذا المُتشاءم به يفعل ويحدث الشر بنفسه، وإن اعتقده سبباً فقط فهو أصغر؛ لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا الباب، وهي: «إن كل من اعتقد في شيء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كوناً ولا شرعاً؛ فشركه شرك أصغر؛ لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله قد جعله سبباً كوناً أو شرعاً؛ فالشرعي: كالقراءة والدعاء، والكوني: كالأدوية التي جُرِّب نفعها».

قوله: «قالوا: فما كفارة ذلك».

قال سليمان آل الشيخ[(٢)]: قوله: «فما كفاره ذلك إلى آخر الحديث. هذا كفارة لما يقع من الطيرة ولكن يمضي مع ذلك ويتوكل على الله أهـ

قال ابن عثيمين[(٣)]: قوله: «فما كفارة ذلك».

أي: ما كفارة هذا الشرك، أو ما هو الدواء الذي يزيد هذا الشرك؟ لأن الكفارة قد تطلق على كفارة الشيء بعد فعله، وقد تطلق على الكفارة قبل الفعل، وذلك لأن

---

(١) القول المفيد ٢/ ١١٥ : ١١٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٢٦.

(٣) القول المفيد ٢/ ١١٦.

الاشتقاق مأخوذ من الكفر، وهو الستر، والستر واقٍ؛ فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

قوله: «قال اللهم لاخير إلا خيرك ولاطير إلا طيرك».

قال ابن عثيمين(١): قوله: **«اللهم لاخير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك».**

أي: الطيور كلها ملكك؛ فهي لا تفعل شيئاً، وإنما هي مسخرة، قال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ**﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾(٣) فالمهم أن الطير مسخرة بإذن الله؛ فالله تعالى هو الذى يدبرها ويصرفها ويسخرها تذهب يميناً وشمالاً، ولا علاقة لها بالحوادث.

ويحتمل أن المراد بالطير هنا ما يتشاءم به الإنسان؛ فكل ما يحدث للإنسان من التشاؤم والحوادث المكروهة؛ فإنه من الله كما أن الخير من الله؛ كما قال تعالى: ﴿ **أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ** ﴾(٤).

لكن سبق لنا أن الشر فى فعل الله ليس بواقع، بل الشر فى الفعل، بل فعله تعالى كله خير؛ إما خير لذاته، وإما لما يترتب عليه من المصالح العظيمة التى تجعله خيراً.

- ما يستفاد من هذا الحديث:

قال سليمان آل الشيخ(٥): وفيه الاعتراف بأن الطير خلق مسخر مملوك لله، لا يأتى بخير ولايدفع شراً، وأنه لا خير فى الدنيا والآخرة إلا خير الله، فكل خير فيهما فهو من الله تعالى تفضلاً على عباده وإحساناً إليهم وأن الالهية كلها لله ليس فيها لأحد من الملائكة والانبياء عليهم السلام شركة، فضلاً عن أن يشرك فيها ما يراه ويسمعه مما يتشاءم به. أهـ

قال ابن عثيمين(٦): **يستفاد من هذا الحديث:**

١ - أنه لايجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته، وإنما يتوكل على الله ولا يبالى بما رأى أو سمع أو حدث له عند مباشرته لـلفعل أول مرة؛ فإن بعض الناس إذا حصل

---

(١) القول المفيد ٢/١١٦.
(٢) الملك: ١٩.
(٣) النحل: ٧٩.
(٤) الاعراف: ١٣١.
(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٢٦.
(٦) القول المفيد ٢/١١٨ و ١١٩.

وَلَهُ: مِنْ حَدِيث الفَضْلِ بنِ العَبَّاسِ: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ»(١).

له ما يكره فى أول مباشرته الفعل تشاءم، وهذا خطأ؛ لأنه ما دامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية؛ فلا تهتم بما حدث.

٢ - أن الطيرة نوع من الشرك؛ لقوله: «**من ردته الطيرة عن حاجته؛ فقد أشرك**».

٣ - أن من وقع فى قلبه التطير ولم ترده الطيرة؛ فإن ذلك لا يضر كما سبق فى حديث ابن مسعود: «**وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**»(٢).

٤ - أن الأمور بيد الله خيرها وشرها.

٥ - انفراد الله بالألوهية؛ كما انفرد بالخلق والتدبير.



قوله: من حديث الفضل....

قال سليمان آل الشيخ(٣):

هذا الحديث رواه أحمد فى «المسند» ولفظه حدثنا حماد بن خالد قال: ثنا ابن علاثة عن مسلمة الجهنى قال: سمعته يحدث عن الفضل بن عباس قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوماً فبرح ظبى فمال فى شقه فاحتضنته فقلت: يارسول الله تطيرت قال: «**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك**» هكذا رواه أحمد وفى إسناده نظر وقرأت بخط المصنف فيه رجل مختلف فيه، وفيه انقطاع أى: بين مسلم وبين الفضل وهو ابن العباس بن عبدالمطلب ابن عم النبى ﷺ وأكبر ولد العباس. قال ابن معين: قتل يوم اليرموك فى عهد أبى بكر رضى الله عنه. وقال غيره: قتل يوم مرج الصفر، سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة. قال أبو داود: قتل بدمشق كان عليه درع النبى ﷺ. وقال الواقدى وابن سعد: مات فى طاعون عمواس. أهـ

---

(١) [اسناده ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٢٢٠).
من طريق حماد بن خالد عن ابن عُلاثة عن مسلمة الجهنى عن الفضل بن عباس...... فذكره.
قال أحمد شاكر: إسناده ضعيف. لانقطاعه.
وذكره الحافظ فى «المطالب العالية» (٢/ ٣٥٤/ح ٢٤٥٦) عن أبى أمامة. وانظر «فتح المجيد» (ح ٥٩١) بتخريجنا.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٢٦.

قوله: إنما الطيرة».

قال ابن عثيمين(١): قوله فى حديث الفضل: «إنما الطيرة».

هذه الجملة عند البلاغيين تسمى حصراً؛ أى ما الطيرة إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث فى قلبك ولم تلتفت إليه، ولا ريب أن السلامة منها حتى فى تفكير الإنسان خير بلاشك، لكن إذا وقعت فى القلب ولم ترده ولم يلتفت لها؛ فإنها لا تضره، لكن عليه أن لا يستسلم، بل يدافع؛ إذ الأمر كله بيد الله. أهـ

قال سليمان آل الشيخ(٢): **قوله: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»**. هذا حد للطيرة المنهى عنها بأنها ما أوجب للإنسان أن يمضى لما يريده ولو من الفأل، فإن الفأل إنما يستحب لما فيه من البشارة والملاءمة للنفس، فأما أن يعتمد عليه ويمضى لأجله مع نسيان التوكل على الله فإن ذلك من الطيرة. وكذلك إذا رأى أو سمع ما يكره فتشاءم به ورده عن حاجته فإن ذلك أيضاً من الطيرة. أهـ

قال ابن عثيمين(٣): أما «ما ردك»؛ فلا شك أنه من الطيرة؛ لأن التطير يوجب الترك والتراجع.

وأما **«ما أمضاك»**؛ فلا يخلو من أمرين:

الأول: أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاحه أو عدم نجاحه بالتطير، كما لو قال: سأزجر هذا الطير، فإذا ذهب إلى اليمين؛ فمعنى ذلك اليُمْن والبركة، فيقدم؛ فهذا لاشك أنه تطير؛ لأن التفاؤل بمثل انطلاق الطير عن اليمين غير صحيح؛ لأنه لا وجه له؛ إذ الطير إذا طار؛ فإنه يذهب إلى الذى يرى أنه وجهته، فإذا اعتمد عليه؛ فقد اعتمد على سبب لم يجعله الله سبباً، وهو حركة الطير.

الثانى: أن يكون سبب المُضىّ كلاماً سمعه أو شيئاً شاهده يدل على تيسير هذا الأمر له؛ فإن هذا فأل، وهو الذى يعجب النبى ﷺ، لكن إن اعتمد عليه وكان سبباً لإقدامه؛ فهذا حكمه حكم الطيرة، وإن لم يعتمد عليه ولكنه فرح ونشط وازداد نشاطاً فى طلبه؛ فهذا من الفأل المحمود.

---

(١) القول المفيد ٢/١١٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٢٧.

(٣) القول المفيد ١١٩ - ١٢٠.

فيه مسائل

الأولى: التَّنْبيهُ عَلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾[1] مَعَ قَوْلِهِ تعالى ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾[2].

الثانية: نَفْيُ العَدْوَى.

الثالثة: نَفْيُ الطِّيَرَةِ.

الرابعة: نَفْيُ الهَامَةِ.

الخامسة: نَفْيُ الصَّفَرِ.

والحديث فى سنده مقال، لكن على تقدير صحته هذا حكمه.

فيه مسائل:

قال ابن عثيمين[3]:

● **الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾**، مع قوله: **﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾**.

أى: لكى يتنبه الإنسان، فإن ظاهر الآيتين التعارض، وليس كذلك؛ فالقرآن والسنة لا تعارض بينهما ولا تعارض فى ذاتهما، إنما يقع التعارض حسب فهم المخاطب، وقد سبق بيان الجمع أن قوله: **﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾** أن الله هو المقدر ذلك، وليس موسى ولا غيره من الرسل، وأن قوله: **﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾** من باب السبب؛ أى: أنتم سببه.

● **الثانية: نفى العدوى.**

وقد سبق أن المراد بنفيها نفى تأثيرها بنفسها لا أنها سبب للتأثير؛ لأن الله قد جعل بعض الأمراض سبباً للعدوى وانتقالها.

● **الثالثة: نفى الطيرة.** أى: نفى التأثير لا نفى الوجود.

● **الرابعة: نفى الهامة.** وقد سبق تفسيرها.

● **الخامسة: نفى الصفر.** وسبق تفسيره.

---

(١) الأعراف: ١٣١. (٢) يس: ١٩.

(٣) القول المفيد ٢/١٢١ - ١٢٤.

السادسة: أَنَّ الفَأْلَ لَيسَ مِنْ ذَلِك، بَلْ مُسْتَحَبٌّ.

السابعة: تَفْسِيرُ الفَأْلِ.

الثـامنة: أَنَّ الوَاقِـعَ فى القُلُـوبِ مِنْ ذَلِكَ مَـعَ كَرَاهَتِهِ لاَ يَـضُرُّ بَلْ يُذْهِـبُهُ الله بِالتَّوَكُّلِ.

التاسعة: ذِكْرُ مَا يَقُولُ مَنْ وَجَدَهُ.

العاشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الطِّيَرَةَ شِرْكٌ.

الحادية عشرة: تَفْسِيرُ الطِّيَرَةِ المَذْمُومَةِ.

● **السادسة: أن الفـأل ليـس من ذلك، بل مستحب.** تؤخذ من قول النبى ﷺ: «**يعجبنى الفأل**»، وكل ما أعجب النبى ﷺ؛ فهو حسـن، قالت عائشة رضى الله عنها: «**كان النبى ﷺ يعجبه التيامن فى تنعله وترجله وطهوره وفى شأنه كله**»(١).

● **السابعة: تفسـير الـفأل.** فسره النبى ﷺ بأنه: الكلمة الطيبة، وسبق أن هذا التفسير على سبيل المثـال لا على سبيل الحصر؛ لأن الفأل كل ما ينـشط الإنسان على شىء محمود؛ من قوله، أو فعل مرئى أو مسموع.

● **الثامنة: أن الواقع فى القلوب من ذلك مع كراهته لايضر، بل يذهبه الله بالتوكل».**

أى: إذا وقع فى قلبك وأنت كاره له؛ فإنه لايضـرك ويذهبه الله بالتوكل؛ لقول ابن مسعود: «**وما منا إلاَّ.... ولكن الله يذهبه بالتوكل**».

● **التاسعة: ذكر ما يقول من وجده.** وسبق أنه شيئان.

أن يقول: «اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

أو يقول: «اللهم لاخير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك».

● **العاشرة: التصـريح بأن الطـيرة شـرك».** وسبـق أن الطيرة شرك، لكن بتفصيل، فإن اعتقد تأثيرها بنفسها؛ فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنها سبب؛ فهو شرك أصغر.

● **الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.** أى: ما أمضاك أو ردك. أهـ



---

(١) سبق تخريجه.

باب (٢٨)

ما جاء في التنجيم

● مناسبة هذا البـاب لما قبله

قال ابن باز[١]: لما كان التنجيم شائعًا معمولاً به ذكره المؤلف، ولما كان من التنجيم كالطيرة من حـيث التعدى على علم الغيـب ناسب أن يأتى بالتنجيم ومـا جاء فيه بعد الطيرة. اهـ

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال السعدى[٢]: التنجيم ينـافى التوحيد لما فيه من هذه الدعاوى الـباطلة- لمشاركة الله فى علم الغيب الذى انفرد به أو تصديق لمـن ادعى ذلك،- ولما فيه من تعلق القلب بغير الله ولمـا فيه من فساد العـقل، لأن سلوك الطرق الباطـلة وتصديقها مـن مفسدات العقول والأديان. اهـ.

قلت: وقد تقدم ذلك فى باب شىء من أنواع السحر

وقال عبـد الله بن جار الله[٣]: مناسبة هـذا الباب لكتاب التوحـيد هى أن بعض أنواع التنجيم من الشرك المنافى للتوحيد. اهـ.

● شرح الترجمة، وماذا أراد المصنف بها:

قال سليمان آل الشيخ[٤]: المراد هنا ذكر ما يجوز من التنجيم ومالا يجوز وما ورد فيه مـن الوعيد، قال شيـخ الإسلام: «التنجيم هو الاستدلال بـالأحوال الفلكيـة على الحوادث الأرضية»[٥].

قلت: وتقدم فى باب ما جاء فى الكهان ونحوهم.

وقال الخطابى: علم النجوم المنهى عنه هو ما يدعـيه أهل التنجيم من علم الكوائن، والحوادث التـى لم تقع وستـقع فى مستـقبل الزمان، كـأوقات هبوب الريـاح، ومجىء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، وما كـان في معناها من الأمور التى يزعمون أنهم يدركون معرفتها بمسير الكواكب فى مـجاريها واجتماعها وافتراقها، ويدعون أن لها

---

(١) التعليق المفيد (١٦٧)

(٢) القول السديد(٨٣)

(٣) الجامع الفريد (١١٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٣٢٧)

(٥) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٢)

تأثيرًا فى السفليات وأنها تجرى على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطى لعلم قد استأثر الله به لا يعلم الغيب سواه[1]. اهـ.

قلت: وهو ما يفعله الكهان والعراف كما تقدم فى بابه.

وقال ابن باز[2]: والتنجيم: مصدر ينجم تنجيمًا أى حرز وحدس بما يعتقده فى النجوم، والتنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية فينظرون فى النجوم واجتماعها وافتراقها وطلوعها وغروبها وتقاربها وتباعدها ويستدلون بها على أنه يقع كذا، وهذا باطل من دعوى علم الغيب التى أبطلها الله بقوله ﴿**قل لا يعلم الغيب إلا الله**﴾ أما النظر فى النجوم من باب التسيير لمعرفة منازل القمر لتحديد أوقات الصلاة والمطر فلا بأس به كما هو رأى أحمد وإسحاق بن راهوية .اهـ وسيأتى فى أنواع التنجيم. أهـ وقد تقدم من كلام الخطابى.

وقال ابن عثيمين[3]: التنجيم : مصدر نجم بتشديد الجيم، أى تعلم علم النجوم، أو اعتقد تأثير النجوم .اهـ.

وقال صاحب فضل الغنى الحميد[4]: هو الاستدلال بمطالع النجوم، والكواكب، أو غروبها على وقوع بعض الحوادث ومنه قراءة أو كتابة حظك اليوم، أو أنت والنجوم، كما هو مشاهد فى الجرائد والمجلات المعاصرة اهـ.

●أقسام التنجيم، وحكم كل قسم:

وقال الخطابى:

١- علم النجوم المنهى عنه هو: فذكر ما تقدم أنه ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التى لم تقع وستقع فى مستقبل الزمان كأخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجىء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار وما كان فى معانيها من الأمور، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب فى مجاريها، وباجتماعها واقترانها، ويدعون لها تأثيراً فى السفليات وأنها تتصرف على أحكامها، وتجرى على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاط لعلم استأثر الله سبحانه به لا يعلم الغيب أحد سواه.

٢ - فأما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والحس الذى يعرف به الزوال

---

(١) معالم السنن (٤/ ٢١٢، ٢١٣)
(٢) التعليق المفيد (١٦٧)
(٣) القول المفيد (٢/ ١٢٥)
(٤) فضل الغنى الحميد (٨٠).

ويعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فى ما نهى عنه؛ وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل مادام متناقصاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقى وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربى، وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التى يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة، فإنما هى كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لانشك فى عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة، ويشاهدوها فى حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة عنها بالمعاينة، وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم إذا كانوا غير متهمين فى دينهم ولامقصرين فى معرفتهم. اهـ.

وهناك تقسيم آخر، إلى: -

جائز ومحرم:

- **فأما الجائز:** فهو ما كان من جنس الحساب، ويدرك بطريق المشاهدة والخبر، كمعرفة حركات النجوم والكواكب تنقلاتها ومنازلها، وذلك للتعرف على نحو الكسوف والخسوف والزوال وجهة القبلة وما شابه ذلك. فهذا ونحوه ليس من باب علم الغيب فى شىء، وإنما هو من جنس علم الحساب الذى علمه الله عباده.

وقد اخترع أهل هده الصناعة لمعرفة ذلك منظارات مقربة وآلات حاسبة، ومراصد كاملة الأسباب والآلات، وتعرفوا من خلال ذلك على كثير من العوالم العلوية حتى أصبحت كأنها على الأرض.

ولا شك أن ما كان من هذا القبيل فلا يصح أن يختلف فيه مطلقاً، لأنه مما يعرف بالحساب كما سبق، وهو مما أجرى الله به العادة فلا يحرم أبداً، فكان الإخبار عنه بمنزلة الإخبار بأن الهلال يطلع إما ليلة الثلاثين أو الليلة التى بعدها، أو أن الشمس تغرب آخر النهار وأمثال ذلك.

قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾(٢).

---

(١) الرحمن: ٥.   (٢) يونس: ٥.

قال الخطابى: أما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والخبر، الذى يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة فهو غير داخل فيما نهى الله عنه - وتقدم هذا -.

وقال ابن رجب: والمأذون فى تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم قليله وكثيره. وأما علم التسيير فتعلم ما يحتاج منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور، وما زاد عليه لا حاجة إليه لشغله عما هو أهم منه.

وقال ابن تيمية(١): لاريب أن النجوم (نوعان): - حساب - وأحكام.

فأما الحساب فهو معرفة أقدار الأفلاك والكواكب. وصفاتها ومقادير حركاتها، وما يتبع ذلك فهذا فى الأصل علم صحيح لاريب فيه كمعرفة الأرض وصفاتها، ونحو ذلك لكن جمهور التدقيق منه كثير التعب، قليل الفائدة، كالعالم مثلاً بمقادير الدقائق والثوانى والثوالث فى حركة السبعة المتحيرة «**الخنس، الجوار الكنس**». اهـ.

وقال فى موضع آخر(٢): وهو بصدد حديثه عن الكسوف والخسوف-: وما أخبر به النبى ﷺ لاينافى لكون الكسوف له وقت محدد يكون فيه، حيث لايكون كسوف الشمس إلا فى آخر الشهر ليلة السرار ولايكون خسوف القمر إلا فى وسط الشهر وليالى الإدبار.

ومن ادعى خلاف ذلك من المتفقهة أو العامة فلعدم علمه بالحساب، ولهذا يمكن المعرفة بما مضى من الكسوف وما يستقبل، كما يمكن المعرفة بما مضى من الأهلة وما يستقبل إذ كل ذلك بحساب كما قال تعالى: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**﴾ وقال تعالى: ﴿**جَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا**﴾ وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾ وقال ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾. اهـ.

ثم قال(٣): وأما الأحكام التى هى من جنس السحر، منها ما هو دعاية الكواكب، وعبادة لها، وأنواع من الشرك.

وأما المحرم فهو قسمان:

الأول: الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث المستقبلة ـ

قال الفقير: مثل حظك اليوم وأنت والنجوم. ا.هـ وهو ما يدعيه أهل التنجيم من

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٨١).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٨١).

الاستدلال على الحوادث بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها، وهذا من جنس الاستقسام بالأزلام، فهو تحكم على الغيب وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا شك فى فساد هذه الصناعة وحرمتها.

وقد علم الخاصة والعامة بالتجربة والتواتر أن الأحكام التى يحكم بها المنجمون يكون الكذب فيها أضعاف الصدق، فصدقهم كصدق الكهان، يصدقون فى كلمة ويكذبون فى مائة، وذلك أن مبنى علمهم أن الحركات العلوية هى السبب فى الحوادث، والعلم بالسبب يوجب العلم بالمسبب، وهذا إنما يكون إذا علم السبب التام الذى لايتخلف عنه حكمه، وهؤلاء - إن علموا - لا يعلمون إلا جزءاً يسيراً من جملة الأسباب الكثيرة، ولا يعلمون بقية الأسباب ولا الشروط ولا الموانع، وذلك مثل من يعلم أن الشمس فى الصيف تعلو الرأس حتى يشتد الحر، فيريد أن يعلم من هذا مثلا أن العنب الذى بأرض كذا يصير زبيباً، وهذا وإن كان يقع أحياناً ولكن أخذه من مجرد حرارة الشمس جهل عظيم، إذ قد يكون هناك عنب وقد لا يكون، وقد يثمر شجره أو لا يثمر، وقد يؤكل عنها وقد يعصر وقد يسرق، وكل ذلك وارد!

وقد أراد المنجمون أن يمنعوا عليّا رضى الله عنه من السفر لقتال الخوارج قائلين له: إنك إن سافرت والقمر فى العقرب هزم أصحابك! فقال على: بل أسافر ثقة بالله وتوكلاً على الله. فبورك له فى سفره هذا، وكتب له فيه النصر والغلبة.

قال الخطابى: علم النجوم المنهى عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التى ستقع فى مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح، ومجئ المطر، وتغير الأسعار، وما فى معناها من الأمور التى يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب فى مجاريها واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثيراً فى السفليات وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا يعلم الغيب سواه.

وقال ابن تيمية: والسحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع، وذلك أن النجوم التى من السحر نوعان: **أحدهما** علمى، وهو الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث من جنس الاستقسام بالأزلام...

إلى أن قال: والدلالة الدالة على فساد هذه الصناعة وتحريمها كثيرة وليس هذا موضعها، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال: **«من أتى عرافاً فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين يوما»**(١) والعراف قد قيل: إنه اسم عام للكاهن والمنجم

---

(١) تقدم تخريجه

والرمّال ونحوهم ممن يتكلم فى تقدم المعرفة بهذه الطرق. ولو قيل: إنه فى اللغة اسم لبعض هذه الأنواع. فسائرها يدخل فيه بطريق العموم المعنوى، كما قيل فى اسم الخمر والميسر ونحوهما(١).

الثانى: القول بتأثير الكواكب فى الأمور، وأن الحوادث مركبة على تأثيرها ولاشك أن هذا كفر بإجماع المسلمين

ـ قال الفقير: ويستدل له بحديث الأنواء وسياتى ـ فإذا انضم إلى ذلك دعاؤها والاستعانة بها فقد بلغ الكفر غايته ومنتهاه.

قال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به.

وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة: من أغرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ولعمرى ما من نجم إلا ويولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم، وما عِلْم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشىء من هذا الغيب؟! ولو أن أحداً أُعلم الغيب لعلمه آدم الذى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شىء قلت: وسيأتى هذا الأثر وشرحه حيث صدر به المصنف هذا الباب(٢).

حكم من يعتقد أن النجوم مؤثرة فى سعده ونحسه

قال ابن تيمية: واعتقاد المعتقد أن نجماً من النجوم السبعة هو المتولى لسعده ونحسه اعتقاد فاسد وإن اعتقد أنه هو المدبر له فهو كافر، وكذلك إذا انضم إلى ذلك دعاؤه والاستعانة به كان كفراً وشركاً محضاً(٣)(*).

وقال سليمان آل الشيخ(٤): واعلم أن التنجيم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو كفر بإجماع المسلمين، وهو القول بأن الموجودات فى العالم السفلى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٥/ ١٧١ - ١٧٣.

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ١٧٧.

(*) وانظر «أصول الإيمان» (١/ ١٠٤ - ١٠٧).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٧و ٣٣٢ و ٣٣٣.

مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات، وأن الكواكب فاعلة مختارة وهذا كفر بإجماع المسلمين، وهذا قول الصابئة المنجمين الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا كانوا يعظمون الشمس والقمر والكواكب تعظيماً يسجدون لهم ويتذللون لها ويسبحونها تسابيح معروفة فى كتبهم، ويدعونها دعوات لاتنبغى إلا لخالقها وفاطرها وحده لاشريك له، ويبنون لكل كوكب هيكلاً: أى موضعاً لعبادته ويصورون فيه ذلك الكوكب، ويتخذونه لعبادته وتعظيمه، ويزعمون أن روحانية ذلك الكوكب تنزل عليهم وتخاطبهم وتقضى حوائجهم. وتلك الروحانيات هى الشياطين تنزلت عليهم وخاطبتهم وقضت حوائجهم. وقد صنف بعض المتأخرين فى هذا الشرك مصنفاً وذكر صاحب «التذكرة» فيها.

الثاني: الاستدلال على الحوادث الأرضية بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك، ويقول: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته فلا ريب فى تحريم ذلك، **واختلف المتأخرون فى تكفير القائل بذلك. وينبغى أن يقطع بكفره** لأنها دعوى لعلم الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه بما لا يدل عليه.

القسم الثالث: عن علم التنجيم وهو تعلم منازل الشمس والقمر، للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصوات والفصول، وهو كما ترى من اختلاف السلف فيه. فما ظنك بذينك القسمين ومنازل القمر ثمانية وعشرون كل ليلة فى منزلة منها فكره قتادة وسفيان بن عينية تعلم المنازل.

وأجازه أحمد واسحاق وغيرهما قال الخطَّابى: أما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذى يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة، فإنه **غير داخل فيما نهى عنه** وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً. فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقى، وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربى. وهذا علم يصح دركه بالمشاهدة. إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوا له من الألات التى يستغنى الناظر فيها عن مراعات مدته ومراصدته، وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لانشك فى عنايتهم بأمر الدين، ومعرفتهم بها وصدقهم فيما

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٢١٢) ونسبه لابن المنذر.

أخبروا به عنها. مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة، ويشاهدوها على حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم، إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفته.

قلت: سليمان آل الشيخ: وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لايرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر[1] قلت - سليمان آل الشيخ - لأنه لا محذور في ذلك.

وعن إبراهيم أنه كان لايرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم مايهتدى به. رواه ابن المنذر.

قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم قليله وكثيره. وأما علم التسيير فتعلم ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور وما زاد عليه لا حاجة إليه لشغله عما هو أهم منه، وربما أدى تدقيق النظر فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين كما وقع من أهل هذا العلم قديماً وحديثاً، وذلك يفضي اعتقاده إلى خطأ السلف في صلاتهم وهو باطل انتهى. مختصراً.

قلت ـ سليمان آل الشيخ ـ وهذا هو الصحيح إن شاء الله، ويدل على ذلك الآيات والأحاديث التي تقدمت.

وهل يدخل في النهي وقت الكسوف الشمسي والقمري أم لا؟ رجح ابن القيم أنه لا يدخل.

قلت: ومن العلماء من جعلهم قسمين.

قال ناصر السعدي[2]:

التنجيم نوعان: نوع يسمى عِلم التأثير: «وهو الاستدلال بالاحوال الفلكيه على الحوادث الكونيه فهذا باطل ودعوى لمشاركه الله في علم الغيب الذى أنفرد به أو تصديق لمن ادعى ذلك، وهذا ينافي التوحيد لما فيه من هذه الدعوى الباطله، ولما فيه من تعلق القلب بغير الله، ولما فيه من فساد العقل، لان سلوك الطرق الباطله، وتصديقها من مفسدات العقول والاديان.

النوع الثاني: علم التسيير وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب على القبلة والاوقات والجهات، فهذا النوع لابأس به، بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع اذا كان وسيلة إلى معرفة اوقات العبادة أو إلى الإهتداء به في الجهات.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٤/ ٢١٢) ونسبه لابن المنذر.

(٢) القول السديد ٨٣ و ٨٤.

فيجب التفريق بين ما نهى عنه الشارع وحرمه، وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه فالاول هو المنافى للتوحيد.

قلت: وجمع بين من قال أنه ثلاثة أقسام وبين من قال أنه قسمين ابن عثيمين بشرحه وتفصيله لهذه الاقسام.

فقال: وعلم النجوم(١) ينقسم إلى قسمين:

١ - علم التأثير.

٢ - علم التسيير.

فالأول: علم التأثير.

وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(أ) أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هى التى تخلق الحوادث والشرور؛ فهذا شرك أكبر؛ لأن من ادعى أن مع الله خالقاً؛ فهو مشرك شركاً أكبر؛ فهذا جعل المخلوق المسخر خالقاً مُسخراً.

(ب) أن يجعلها سبباً يدعى به علم الغيب؛ فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا؛ لأن النجم الفلانى صار كذا وكذا، مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاءً؛ لأنه ولد فى النجم الفلانى، وهذا حياته ستكون سعيدة؛ لأنه ولد فى النجم الفلانى؛ فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلةً لادعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة؛ لأن الله يقول: ﴿ **قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾، وهذا من أقوى أنواع الحصر؛ لأنه بالنفى والإثبات، فإذا ادعى أحد علم الغيب؛ فقد كَذَّب القرآن.

(ج) أن يعتقدها سبباً لحدوث الخير والشر، أى أنه إذا وقع شىء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئاً إلا بعد وقوعه؛ **فهذا شرك أصغر.**

مسألة: فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبى ﷺ فى قوله فى الكسوف: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بها عباده**»(٢)؛ فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٢٥ - ١٢٨.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١٠٤١) ومسلم فى الكسوف (٦/ ٢١٥ ـ النووى) عن أبى مسعود وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

والجواب من وجهين:

الأول: أنه لا يُسلَّم أن للكسوف تأثيراً فى الحوادث والعقوبات من الجَدْب والقَحْط والحروب، ولذلك قال النبى ﷺ: **«إنهما لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته»**، لا فى ما مضى ولا في المستقبل، وإنما يخوف الله بهما العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثاني: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيراً؛ فإن النص قد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصاً به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصلاً أن لهما تأثيراً فى هذا؛ لأن الحديث لا يقتضيه؛ فالحديث ينص على التخويف، والمُخَوِّف هو الله تعالى، والمَخُوف عقوبته، ولا أثر للكسوف في ذلك، وإنما هو علامة فقط.

الثاني: علم التسيير.

وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية؛ فهذا مطلوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجباً، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة؛ فالنجم الفلانى يكون ثلث الليل قبلة، والنجم الفلانى يكون ربع الليل قبلة؛ فهذا فيه فائدة عظيمة.

الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية؛ فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات؛ كمعرفة أن القطب يقع شمالاً، والجدى وهو قريب منه يدور حوله شمالاً، وهكذا؛ فهذا جائز، قال تعالى: **﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾**(1).

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر؛ فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون.

والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل: طلع النجم الفلانى؛ فهو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذى يأتى بالبرد أو بالحر أو بالرياح. والصحيح عدم الكراهة؛ اهـ.



(1) النحل: ١٦.

قَالَ البُخَارِيُّ فِى «صَحِيحه»: قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ الله هَذه النُّجُومَ لِثَلاث: زِينَةً للسَّمَاء، وَرُجُومًا للشَّيَاطين، وَعَلامَات، يُهْتَدَى بهَا ، فَمَنْ تَأَوَّلَ فيهَا غَيْرَ ذَلكَ؛ أَخْطَأَ وَ أَضَاعَ نَصيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لاَ علْمَ لَهُ به».انتهى[1].

قوله : قال البخارى فى صحيحه قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث .. الأثر

قوله: «قال البخارى فى صحيحه».

قال ابن حجر [2]: وصله عبد بن حميد من طريق شيبان عنه به وزاد فى آخره «وأن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة: من غرس بنجم كذا كان كذا ومن سافر بنجم كذا كان كذا ولعمرى ما من النجوم نجم إلا ويولد به الطويل والقصير والأحمر والأبيض والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائرة من هذا الغيب شىء. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[3]: هذا الأثر علقه البخارى فى «صحيحه» كما قال المصنف وأخرجه عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والخطيب فى كتاب «النجوم» عن قتادة. ولفظه قال: «إن الله إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة: من غرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشىء من هذا الغيب، ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذى خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شىء. اهـ.

---

(١) أخرجه البخارى تعليقاً (٦/ ٣٤١) ابن جرير (٢٩/ ٣).
قال: حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة. . فذكره.
وابن أبى حاتم فى تفسيره (١٠/ ٣٣٦٣/ ح ١٨٩٣٠).
وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٣/ ٦٣) ونسبه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والخطيب فى «كتاب النجوم».
وانظر ابن أبى حاتم فى تفسيره وفتح المجيد (ح ٥٩٣) بتخريجنا. .
(٢) الفتح (٦/ ٣٤١).
(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٢٨).

- **مناسبة الأثر للباب[1]: قال القرعاوى:** حيث أفاد الأثر رأى قتادة أنه لايجوز الاعتقاد فى النجوم أكثر من الامور الثلاثة المذكور.

- **مناسبة الآثر لـلتوحيد[2]: قال القرعاوى:** حيث أنكر قتادة ما يدعيه أهل التنجيم من علم الغيب، لأن ذلك إشراك مع الله فى علم الغيب.

وكره قتادة تعلم منازل القمر ولم يرخص فيه ابن عيينة، ذكره حرب عن قتادة ورخص أحمد وإسحاق فى تعلم المنازل. اهـ.

قوله: [قال قتادة].

هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، الدوسى، أبو الخطاب، وكان أَكْمَه.

وقال أبو بكر الأثرم: سمعت أحمد بن حنبل يقول: كان قتادة أحفظ أهل البصرة لايسمع شيئاً إلا حفظه؛ وقُرِئَ عليه صحيفةَ جابر مرة واحدة فحفظها.

وكان من العلماء، كان له خمس وخمسون سنة يوم مات.

وقال عبد الرزاق عن معمر: سمعت قتادة يقول: ما فى القرآن أية إلا قد سمعت فيها شيئاً.

وعن مطر الورَّاق: ما زال قتادة متعلماً حتى مات.

وعن همام: سمعت قتادة يقول: ما أفتيت بشىء من رأيى منذ عشرين سنة.

وعن سعيد بن المسيب يقول: ما أتانى عراقىٌّ أحفظ من قتادة.

وعن بكر بن عبد الله المزنى: من سره أن ينظر إلى أحفظ من أدركنا فى زمانه أجدر أن يؤدى الحديث كما سَمِعَهُ فلينظر إلى قتادة؟ ما رأيت الذى هو أحفظ منه ولا أجدر أن يؤدى الحديث كما سمعه.

وعن مطر الورَّاق: كان قتادة إذا سمع الحديث يختطفه إختطافاً، وكان إذا سمع الحديث يأخذه العويل والزَّوِيُل حتى يخطفه.

قال أبو حاتم: سمعت أحمد بن حنبل: وذكر قتادة، فأطنب فى ذكره فجعل ينشر من علمه وفقهه، ومعرفته بالاختلاف والتفسير وغير ذلك، وجعل يقول: عالم بتفسير القرآن: وباختلاف العلماء. وصَفَهُ بالحفظ والفقه، فقال: قَلَّ ما تجد من يتقدمه أمَّا المِثْل فلعل[3]. اهـ.

---

(١) الحديد ٢٦٤.

(٢) الجديد ٢٦٤.

(٣) «تهذيب الكمال (٢٣/٥٠٧؛ ٥٠٩؛ ٥١١).

قوله: [ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح] خلق الله هذه النجوم لثلاث].

قال ابن عثيمين[1]: اللام للتعليل؛ أى: لبيان العلة والحكمة.

قوله: «لثلاث».

ويجوز لثلاثة، لكن الثلاث أحسن، أى: لثلاث حكم، لهذا حذف تاء التأنيث من العدد. اهـ.

قوله: [زينة للسماء] لقوله الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾.

● التفسير : بأقوال المفسرين.

قال ابن جرير[2]: بقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهى النجوم وجعلها مصابيح لاضاءتها وكذلك الصبح إنما قيل له صبح للضوء الذى يضىء للناس من النهار. اهـ.

قال البغوى[3]: قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أراد الأدنى من الأرض وهى التى يراها الناس، وقوله: ﴿بِمصابيح﴾ الكواكب، واحدها مصباح، وهو السراج. سمى الكواكب مصباحاً لإضاءته. اهـ.

قال الزمخشرى[4]: (الدنيا) القربى؛ لأنها أقرب السموات إلى الناس، ومعناه السماء الدنيا منكم والمصابيح السرج سميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح، فقيل، (ولقد زينا) سقف الدار التى اجتمعتم فيها (بمصابيح) أى بأى مصابيح لاتوازيها مصابيحكم إضاءة. اهـ.

قال ابن حجر[5]:

وذكر ابن دحية فى «التنوير» من طريق أبى عثمان النهدى عن سلمان الفارسى قال: النجوم كلها معلقة كالقناديل من السماء الدنيا كتعليق القناديل فى المساجد. اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد.

قال سليمان آل الشيخ[6]: وفيه إشارة إلى أن النجوم فى السماء الدنيا كما هو ظاهر الآية، وفيه حديث رواه ابن مردويه عن ابن مسعود قال:

---

(١) القول المفيد (٢/ ١٢٨).

(٢) تفسير الطبرى (١٢/ ٢٩/ ٣).

(٣) معالم التنزيل (٥/ ٤٢٠).

(٤) الكشاف (٤/ ١٢١).

(٥) فتح البارى (٦/ ٣٤١).

(٦) تيسير العزيز الحميد (٣٢٨).

قال رسول الله ﷺ: «وأما السماء الد نـيا فإن الله خلقها من دخان وجعـل فيها سراجا وقمرا منيرا، وزينها بمـصابيح النجوم، وجعلها رجوما للشياطـين وحفظا من كل شيطان رجيم».

قال ابن عثيمين(١):

الأولى: زينة للسماء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾(٢)؛ لأن الإنسان إذا رأى السماء صافـية فى ليلـة غير مقـمرة وليس فـيها كهرباء يجد لهذه النجوم من الجمال العظيم مالا يعلمه إلا الله؛ فتكون كأنها غابة محلاة بأنواع مـن الفضة اللامعـة، هذه نجمة مضيـئة كبيرة تمـيل إلى الحمره، وهذه تمـيل إلى الزرقة، وهذه خفيفة، وهذه متوسطة، وهذا شيء مشاهد.

وهل نقول: إن ظاهر الآية الكريمة أن النجـوم مُرصَّعة فى السماء، أو نقول: لايلزم ذلك؟

الجواب: لايلزم مـن ذلك أن تكون النجوم مـرصعة فى السماء، قـال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٣)؛ أى: يدورون، كل له فلك.

وأنا شاهدت بعينـى أن القمر خسف نجمة من النجوم، أى غطـاها، وهى من النجوم اللامعة الـكبيرة كان يقرب حولـها فى آخر الشهر، وعـند قرب الفجر غطاهـا؛ فكنا لا نراها بالمرة، وذلك قبل عامين فى آخر رمضان.

إذن هى أفلاك متفاوتة فى الارتفاع والنزول، ولايلزم أن تكون مُرصَّعة فى السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾؟

قلنا: إنه لايلزم من تزيين الشيء بـالشيء أن يكون ملاصقاً له، أرأيت لو أن رجلاً عمر قـصراً وجعل حوله ثـريات من الكهربـاء كبيرة وجميـلة، وليست علـى جدرانه؛ فالناظر إلى القصر من بُعْدٍ يرى أنها زينة له، وإن لم تكن ملاصقة له.

قلت: ويـؤيد قول ابن عثـيمن قول الرازى حيـث قال(٤): اعلم أن ظاهـر هذه الآية

---

(١) القول المفيد ٢/١٢٨ و ١٢٩.

(٢) الملك: ٥

(٣) الأنبياء: ٣٣.

(٤) التفسير الكبير (٦١/٢٩/١٥).

لايدل على أن هـذه الكواكب مركوزة فى السـماء الدنيا، وذلك لأن السـموات إذا كانت شفافة، فالكواكب سواء كانت فى السمـاء فى الدنيا أو كانت فى سموات أخرى فوقها، فهى لابد وأن تظهـر فى السماء الدنيا، وتلوح منهـا، فعلى التقدير السماء الـدنيا مزينة بهذه المصابيح. اهـ.

قوله: [رجوماً للشياطين] لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾.

● أقوال المفسرين

قال ابن جـرير[1]: يقول وجـعلنا المصـابيح التى زيـنا بها الـسماء الدنيـا رجوماً للشياطين ترجم بها. اهـ.

قال البغوى[2]: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ مرامى ﴿لِّلشَّيَاطِينِ﴾ إذا استرقوا السمع. اهـ.

وقال الزمخشرى[3]: وضمـنا إلـى ذلك منـافع أخـر أنا ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ لأعداءكم ﴿لِّلشَّيَاطِينِ﴾ الذين يخـرجونكم من النور إلـى الظلمات، وتهتـدون بها فى ظلمـات البر والبحـر، وعن محمد بـن كعب: فى الـسماء نجم والله ما لأحـد من أهل الأرض، ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة.

والرجوم: جـمع رجم، وهو مصدر، سـمى به ما يرجم بـه، ومعنى كونهـا مراجم للشياطـين أن الشهب تنقض لـرمى المسترقة منهـم منفصلة من نار الـكواكب، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنـفسها؛ لأنها قارة فى الفلك على حالـها وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار، والنار ثابتة كاملة لاتنقص.

وقيل: من الشيـاطين المرجومة من يقتله الـشهاب. ومنهم: من يخبلـه، وقيل معناه (وجعلناها) ظنوناً ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس، وهم النجامون. اهـ.

قال ابن حـجر[4]: قال أبو عـلى الفارسـى فى قوله تـعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ الضمير للسماء، أى وجعلنا شهبها رجوماً، على حذف مضاف، فصار الضمير للمضاف إليه. اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

---

(١) تفسير الطبرى (١٢/ ٢٩/ ٣).

(٢) معالم التنزيل (٥/ ٤٢٠).

(٣) الكشاف (٤/ ١٢١، ١٢٢).

(٤) فتح البارى (٦/ ٣٤١).

قال ابن عثيمين:[1]؛ أي: لشياطين الجن، وليسوا شياطين الإنس؛ لأن شياطين الإنس لم يصلوها، لكن شياطين الجن وصلوها؛ فهم أقدر من شياطين الإنس، ولهم قوة عظيمة نافذة، قال تعالى عن عملهم الدال على قدرتهم: ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ** ﴾[2]، أي: سخرنا لسليمان: ﴿ **وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ** ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ** ﴾[4]؛ أي: من سبأ إلى الشام، وهو عرش عظيم لملكة سبأ؛ فهذا يدل على قوتهم وسرعتهم ونفوذهم.

وقال تعالى: ﴿ **وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا** ﴾[5].

والرَّجْم: الرمي. اهـ.

قوله: [وعلامات يهتدى بها]: لقوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وهذه هي الغاية الثالثة لخلق النجوم كما قال قتادة.

● أقوال أهل التفسير.

قال ابن جرير[6]: اختلف أهل التأويل في المعنى بالعلامات:

فقال بعضهم: معالم الطريق بالنهار، وبالنجم هم يهتدون بالليل. قاله ابن عباس.

وقال آخرون: عنى بها النجوم. قال إبراهيم: منها ما يكون علامات، ومنها ما يهتدون به. وكذا قال مجاهد، وقتادة وقال (وعلامات): النجوم.

وقال آخرون: عنى بها الجبال. قاله الكلبي - كذا مختصراً -.

وقال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال أن الله تعالى ذكره عدَّد على عباده من نعمه إنعامه عليهم بما جعلهم لهم من العلامات التي يهتدون بها في

---

(1) القول المفيد (٢/ ١٢٩).

(2) ص: ٣٧.

(3) ص: ٣٨.

(4) النمل: ٣٩.

(5) الجن: ٩.

(6) تفسير الطبري (٧/ ١٤/ ٦٣، ٦٤).

مسالكهم وطرقهم التى يسيرونها ولم يخصص بذلك بعض العلامات دون بعض، فكل علامة استدل بها الناس على طرقهم وفجاج سبلهم فداخل فى قوله: ﴿وَعَلامَاتٍ﴾ والطرق المسبولة الموطوءة علامة للناحية المقصودة، والجبال علامات يهتدى بهن إلى قصد السبيل، وكذلك النجوم بالليل، غير أن الذى هو أولى بتأويل الآية أن تكون العلامات من أدلة النهار إذا كان الله قد فصل منها أدلة الليل بقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

إلى أن قال: النجم الذى يهتدى به ليلاً الجدى والفرقدان؛ لأن بها اهتداء السفر دون غيرها من النجوم. اهـ.

وبنحو قول ابن جرير قال البغوى[1]، **وزاد**: فى قوله: **(وعلامات)** قال بعضهم: هاهنا تم الكلام، ثم ابتدأ **(وبالنجم هم يهتدون)**..

وقال السدى: أراد بالنجوم الثريا، وبنات نعش، والفرقدان، والجدى يهتدون بها إلى الطرق والقبلة. اهـ.

وبنحو ذلك قال الزمخشرى[2]، **وزاد**: قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه ﴿النَّجْمِ﴾ مقحم فيه ﴿هُمْ﴾ كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون. فمن المراد بهم؟ قلت: - يعنى الزمخشرى - كأنه أراد قريشاً كان لهم اهتداء بالنجوم فى مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا. اهـ.

وزاد ابن الجوزى[3]: ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ أنه اسم جنس، والمراد جميع النجوم، قاله الزجاج.

- وقرأ الحسن والضحاك وأبو المتوكل ويحيى بن وثاب: (وبالنُّجْم) بضم النون، وإسكان الجيم، وقرأ الجحدرى: (وبالنُّجُم) بضم النون والجيم. وقرأ مجاهد (وبالنجوم) بواو على الجمع. اهـ.

وبنحو من هذه الأقوال قال الرازى[4]. **وقال القرطبى**[5]: ﴿يَهْتَدُونَ﴾ فى

---

(1) معالم التنزيل (٣/ ٤٢١).

(2) الكشاف (٢/ ٣٢٥).

(3) زاد المسير (٤/ ٣٣١).

(4) التفسير الكبير (١٠/ ٢٠/ ١٢).

(5) تفسير القرطبى (٦/ ٣٧٠٨).

الأسفار، وهذا قول الجمهور وقال ابن العربى: أما جميع النجوم فلا يهتدى بها إلا العارف بمطالعها ومغاربها والفرق بين الجنوبى والشمالى منها، وذلك قليل فى الآخرين. . اهـ.

وقال ابن كثير[1]: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فى ظلام الليل. اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[2]: (وعلامات).

أى دلالات على الجهات والبلدان ونحو ذلك يهتدى بها بصيغة المجهول. أى يهتدى بها الناس فى ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾[3]. اهـ.

وقال ابن عثيمين[4]: الثالثة: علامات يُهتَدى بها، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[5]؛ فذكر الله تعالى نوعين من العلامات التى يهتدى بها:

الأول: أرضية، وتشمل كل ما جعل الله فى الأرض من علامة؛ كالجبال، والأنهار، والطرق، والأودية، ونحوها.

والثانى: أفقية فى قوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

والنجم: اسم جنس يشمل كل ما يهتدى به، ولا يختص بنجم معين؛ لأن لكل قوم طريقة فى الاستدلال بهذه النجوم على الجهات، سواء جهات القبلة أو المكان، برآ أو بحراً.

وهذا من نعمة الله أن جعل علامات علوية لا يحجب دونها شىء، وهى النجوم؛ لأنك فى الليل لاتشاهد جبالاً ولا أودية، وهذا من تسخير الله، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[6].

قوله: [فمن تأول فيها بغيرذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف مالا علم له به].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٥٤٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٢٩).

(٣) الأنعام: ٩٧.

(٤) القول المفيد (٢/ ١٣٠ - ١٣١).

(٥) النحل: ١٦.

(٦) الجاثية: ١٣.

قال ابن حجر[1]: قال الداوودى: قول قتادة فى النجوم حسن، إلا قوله: (أخطأ وأضاع نفسه)؛ لأنه قصر فى ذلك؛ بل قائل ذلك كافر. انتهى.

ولم يتعين الكفر فى حق من قال ذلك، وإنما يكفر من نسب الاختراع إليها، وأما من جعلها علامة على حدوث أمر فى الأرض فلا. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: وليس المراد يهتدون بها فى علم الغيب ولهذا قال: فمن تأول فيها بغير ذلك. أى: زعم فيها غير ما ذكر الله تعالى فى هذه الثلاث فادعى بها علم الغيب فقد أخطأ أى حيث تكلم رجماً بالغيب وأضاع نصيبه أى: حظه من عمره لأنه اشتغل بما لا فائدة فيه بل مضرة محضة. وتكلف ما لا علم له به أى: تعاطى شيئاً لايتصور علمه، لأن أخبار السماء والأمور المغيبة لاتعلم إلا من طريق الكتاب والسنَّة، وليس فيهما أزيد مما تقدم. اهـ.

وقال ابن باز[3]: قوله: (من تأول فيها بغير ذلك أخطأ).

لأن زعم أنها تدل على كذا وكذا من علوم الغيب، فقد أخطأ وأضاع نصيبه، أى من الآخرة، وتكلف ما لايعلم. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: **فإن قلت**: إن المنجمين قد يصدقون بعض الأحيان.

قيل: صدقهم كصدق الكهان يصدقون مرة ويكذبون مئة، وليس فى صدقهم مرة ما يدل على أن ذلك علم صحيح كالكهان.

وقد استدل بعض المنجمين بآيات من كتاب الله على صحة علم التنجيم منها قوله [تعالى]: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

والجواب: أنه ليس المراد بهذه الآية أن النجوم علامات على الغيب يهتدى بها الناس فى علم الغيب، وإنما المعنى وعلامات أى: دلالات على قدرة الله وتوحيده. وعن قتادة ومجاهد أن من النجوم ما يكون علامة لايهتدى بها، وقيل: إن هذا من تمام الكلام الأول وهو قوله تعالى: ﴿ **وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ** ﴾ أى: وألقى لكم معالم يعلم بها الطريق والأراضى من الجبال الكبار والصغار يستدل بها المسافرون فى طرقهم. وقوله: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ قال ابن عباس فى الآية: ﴿**وَعَلامَاتٍ**﴾ يعنى: معالم الطرق بالنهار ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ قال:

---

(1) فتح البارى (٦/٣٤١). (2) تيسير العزيز الحميد (٣٢٩). (3) التعليق المفيد (١٦٨).

يهتدون به فى البحر فى أسفارهم[1]. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم. فهذا القول ونحوه هو معنى الآية، فالاستدلال بها على صحة علم التنجيم استدلال على ما يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام، بما لا يدل عليه لا نصاً ولا ظاهراً وذلك أفسد أنواع الاستدلال، فإن الأحاديث جاءت عن النبى ﷺ بإبطال علم التنجيم وذمه.

منها حديث: **«مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ عِلْمِ النُّجُومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ»**[2] الحديث وقد تقدم. وعن عبد الله بن محيريز التابعى الجليل أن سليمان بن عبد الملك دعاه فقال: لو علمت علم النجوم فازددت إلى علمك فقال: **قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ على أُمَّتى ثَلاَثٌ: حَيْفُ الأئمة، وتَكْذِيبٌ بالقَدر، وإيمَانٌ بالنُّجُومِ»**[3] وعن رجاء بن حيوة أن النبى ﷺ قَالَ: **«مِمَا أَخَافُ على أُمَّتى التَصْدِيقَ بِالنُّجُومِ، والتَكْذِيبَ بِالقَدَرِ، وَحَيْفُ الأئمة»**[4] رواهما عبد بن حميد. فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لا سيما وقد احتج به من أرسله. وعن أبى محجن مرفوعاً: **«أَخَافُ عَلى أُمَّتِى مِنْ بَعْدِى ثَلاثاً: حَيْفُ الأئمة، وإيماناً بالنُّجُومِ، وتَكْذِيباً بِالقدر»**[5] رواه ابن عساكر وحسنه السيوطى. وعن أنس مرفوعاً **«أخَافُ على أُمَّتى بَعْدِى خَصْلَتين: تَكْذِيباً بِالقَدَرِ، وإيمـاناً بِالنُّجُومِ»**[6] رواه أبو يعلى وابن عدى والخطيب فى كتاب «النجوم» وحسنه السيوطى أيضاً.

روى الإمام أحمد والبخارى عن ابن عمر مرفوعاً: **«مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمسٌ لايَعلَمُها إلا الله لاَ يَعْلَمُ مَا تَغيضُ الأَرحَامُ إلا الله، وَلاَ يَعْلَمُ مَا فى غد إلا الله وَلاَ يَعْلمُ مَتَى يَأت المطرُ أَحدٌ إلا الله، وَلاَ تَدْرِى نَفسٌ بِأَىّ أَرضٍ تَموتُ إلاَ الله وَلاَ يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إلاَ الله»**[7] لفظ البخارى.

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٤٩٦) وذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٢١٢) وزاد نسبته لابن جرير، وابن مردويه وانظر «فتح المجيد» (ح٥٩٩) بتخريجنا.

(٢) تقدم.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٥) ونسبه لعبد بن حميد. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٠٠) بتخريجنا.

(٤) المصدر السابق. وانظر «فتح المجيد (ح٦٠٠) بتخريجنا.

(٥) أخرجه ابن عبدالبر فى «جامع بيان العلم» (٢/ ٣٩) عن أبى محجن به.

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٦٥) ونسبه لأبى يعلى، وابن مردويه، والخطيب. وانظر «فتح المجيد (ح٦٠٢) بتخريجنا.

(٧) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٣٧٩).

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقد طهر الله هذه الجزيرة من الشرك ما لم تضلهم النجوم»** رواه ابن مردويه.

وعن ابن عمر مرفوعًا: **«تعلموا من النجوم ما تهتـدون به فى ظلمات البر والبْحر ثم انتهوا»**(١).

وعن أبى هـريرة قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَـنِ النَّظَرِ فى الـنُّجُومِ»(٢) رواهما ابن مردويه والخطيب.

وعن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أما بعد: فَإِنَ نَاساً يزْعُمُونَ أَنَ كُسُوفَ هَذِهِ الشَّمْسِ، وَكَسُوفَ هَذَا القَمَرَ، وَزَوَالُ هَذِهِ النُّجُوم عَنْ مَوَاضِعهَا لمَوْت رجَـال عُظَمَاء مِنْ أَهْلِ الأَرضِ، وأَنَّهم قَدْ كَذَبُوا وَلَكـنَّها آيَاتٌ مِن آيَاتِ اللهِ يَعْتَبِرُ بِها عِبَادهُ لِينظُرَ مِنْ يُحْدثُ لَهُ مِنهُمْ تَوْبَة**»(٣) رواه أبو داود. وفى الباب آحاديث وآثار غير ما ذكرنا. فتـبين بهذا أن الاستدلال بالآية على صحة أحكـام النجوم من أفسد أنواع الاستدلال.

ومنها قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿**فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ**﴾.

والجواب: أن هذا من جنس استدلاله بالآية الأولى فى الفساد، فأين فيها ما يدل على صحة أحكـام النجوم بوجه من وجوه الـدلالات؟ وهل إذا رفع إنسان بصره إلـى النجوم فنظر إليها دل ذلك عـلى صحة علم النجوم عنده؟ وكل الناس يـنظرون إلى النجوم فلا يدل ذلك على صحة علم أحكامها. وكأن هذا ما شعر أن إبراهيم عليه السلام إنما بعث إلى الصابئة المنجمين مبطلاً لقولهم مناظراً لهم على ذلك.

فإن قيل على هذا: فما فائدة نظرته فى النجوم؟

قيل: نظرته فى النجوم من معاريض الأفعال ليتوصل به إلى غرضه من كسر الأصنام كما كان قوله: ﴿ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** ﴾ فمن ظن أن نظرته فى النجوم ليستنبط منها علم الأحكام وعلم أن طالعه يقتضى عليه بالنحس فقد ضل ضلالاً بعيداً.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٦٤) ونسبه لابن مردويه، والخطيب.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٦٤) ونسبه لابن مردويه، والمرهبى، والخطيب.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى داود والخطيب.

وهو فى أبى داود (١١٨٤) بدون موضع الشاهد.

قال: وكَرِهَ قَتَادَةُ تَعلُّمَ مَنَازِلَ القَمَرِ، ولَمْ يُرَخِّصِ ابنُ عُيَيْنَةَ فيه ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا ورَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ أحْمَدُ وإسْحَاقُ.

ولهذا جاء فى حديث الشفاعة الصحيح أنه عليه السلام يقول: «**لست هناكم ويَذْكُرُ لَهُمْ خَطَايَاهُ التى أصَابَها**[1]» وعدها العلماء فى قوله تعالى إخباراً عنه ﴿ **إنّى سَقِيمٌ**﴾. وقوله: ﴿ **بَلْ فعلهُ كَبِيرُهُمْ هذا**﴾ وقوله عن سارة: هى أختى[2]. فلو كان قوله: ﴿**إنّى سَقِيمٌ** ﴾ أخذه من علم النجوم لم يعتذر من ذلك، وإنما هى من معاريض الأفعال، فلهذا اعتذر منها كما اعتذر من قوله: ﴿ **بَلْ فعلهُ كَبِيرُهُمْ**﴾ ذكر ذلك ابن القيم. لكن قوله: وعدها العلماء. يدل على أنه لم يستحضر الحديث الوارد فى عدها. وقد:

رواه أحمد والبخارى وأصحاب «السنن» وابن جرير وغيرهم عن أبى هريرة أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَمْ يَكْذِبْ إبراهيمُ عليه السلامُ غير ثَلاثَ كَذِبَاتٍ اثنتينِ فى ذاتِ الله قَوْلُهُ: ﴿ إنّى سَقِيمٌ ﴾، وقولُهُ: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله فى سَارَةَ هىَ أُختى**» لفظ ابن جرير[3].

وروى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد مرفوعاً: «**فى كَلمات إبْراهيمَ الثَلاثَ التى قالَ: مَا منهَا كَلمةٌ إلا مَا حَالَ بها عَن دين الله، فَقَالَ: ﴿ إنّى سَقِيمٌ ﴾، وقَالَ: ﴿ بلْ فَعَلهُ كَبِيرُهُمْ هذَا﴾، وقَالَ للملك حينَ أرادَ امرأتهُ: «هِيَ أختى»**[4] وفى إسناده ضعف. وقال قتادة فى الآية: العرب تقول لمن تفكر: نظر فى النجوم قال ابن كثير: يعنى قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يكذبهم به فقال: إنى سقيم أى ضعيف. اهـ.



قوله: [قال: وكره قتادة تعلم منازل القمر.... إلخ] الأثر.

● مناسبة الأثر للباب:

قال القرعاوى[5]: حيث دل الأثر على أن قتادة وابن عيينة يكرهان تعلم منازل القمر وأما أحمد وإسحاق فإنهما يجوزانه. اهـ.

---

(١) تقدم فى باب الشفاعة رواه البخارى.
(٢) تقدم تخريجه. (٣) تقدم تخريجه.
(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥٧٨/٤) ونسبه لأبى يعلى.
(٥) الجديد (٢٦٤).

● **شرح الأثر:**

قال سليمان آل الشيخ: هذا هو القسم الثالث من علم التنجيم، وهو تعلم منازل الشمس والقمر؛ للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول، وهو كما ترى من اختلاف السلف فيه. فما ظنك بذينك القسمين. اهـ أى المذكورين فى أول هذا الباب.

قال ابن عثيمين[(١)]:

قوله: «وكره قتادة تعلم منازل القمر».

أى: كراهة تحريم بناءً على أن الكراهة فى كلام السلف يراد بها التحريم غالباً.

وقوله: **«تعلم منازل القمر»** يحتمل أمرين:

الأول: أن المراد به معرفة منزلة القمر، الليلة يكون فى الشرطين، ويكون فى الأكليل؛ فالمراد معرفة منازل القمر كل ليلة؛ لأن كل ليلة له منزلة حتى يتم ثمانياً وعشرين وفى تسعٍ وعشرين وثلاثين لا يظهر فى الغالب.

الثانى: أن المراد به تعلم منازل النجوم؛ أى: يخرج النجم الفلانى فى اليوم الفلانى، وهذه النجوم جعلها الله أوقاتاً للفصول؛ لأنها [٢٨] نجماً، منها [١٤] يمانية و[١٤] شمالية؛ فإذا حلت الشمس فى المنازل الشمالية صار الحر، وإذا حلت فى الجنوبية صار البرد، ولذلك كان من علامة دنو البرد خروج سهيل، وهو من النجوم اليمانية. اهـ.

قوله: «لم يرخص فيه ابن عيينة».

هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران، أبو محمد الكوفى.

ولد سفيان سنة سبع ومائة. قال الزهرى: ما رأيت طالباً لهذا الأمر أصغر سناً منه. وقال ابن عيينة: ما كتبتُ شيئاً قط إلا شيئاً حفظته قبل أن اكتبه وقال الشافعى: لولا مالك، وسفيان لذهب علم الحجاز. وقال ابن المبارك: سئل سفيان الثورى عن سفيان ابن عيينة فقال: ذاك أحد الأحدين، ما كان أغربه!

وقال بشر بن المفضل: ما بقى على وجه الأرض أحد يشبه سفيان بن عيينة.

وقال يحيى بن سعيد: سفيان أمامٌ اليوم منذ أربعين سنة. وقال الشافعى: ما رأيتُ أحداً من الناس فيه من آلة العلم ما فى سفيان بن عيينة، وما رأيتُ أحدًا أكفأ عن الفتيا منه.

(١) القول المفيد ٢/ ١٣١ و ١٣٢.

وقال سفيان بن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعـماً أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله فإن لا إله إلا الله لهم فى الآخرة كالماء فى الدنيا.

وقال: العلم إن لم ينفعك ضرك[1].

مناقبه كثيرة وفضائله غزيرة، له أقوال تظهر عليها نور الحكمة.

[قوله: ذكره حرب عنهما]

قال سليمان آل الشيخ[2]: هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرمانى الفقيه من أجلة أصحاب الإمام أحمد روى عن أحمد وإسحاق وابن المدينى وابن معين وأبى خثيمة وابن أبى شيبة وغيرهم، وله مصنفات جليلة منها كتاب «المسائل» التى سئل عنها الإمام أحمد وغيره وأورد فيها الأحاديث والآثار وأظنه روى أثر قتادة وابن عيينة فيها. مات سنة ثمانين ومائتين. وإسحاق هو إبراهيم بن مخلد أبو يعقوب الحنظلى النيسابورى الإمام المعروف بابن راهويه روى عن ابن المبارك وأبى أسامة وابن عيينة وطبقتهم قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين، وروى عنه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم، وروى هو أيضاً عن أحمد مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

قوله: [أحمد]

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيبانى المروزى، نزيل بغداد أبو عبدالله، أحد الأئمة، ثقة حافظ فقيه، مات سنة (٢٤١) وله سبع وسبعون سنه[3]. وتقدمت ترجمته بأطول من ذلك.

قوله: [وإسحاق]

هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد، المعروف بابن راهَوَيْه. أحد أئمة المسلمين، وعلماء الدين، اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد، ورحل إلى العراق والحجاز واليمن والشام، وعاد إلى خراسان فاستوطن نيسابور إلى أن مات بها، وانتشر علمه عند أهلها.

ولما سُئل أحمد بن حنبل عنه قال: مثل إسحاق يسأل عنه؟! إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين[4]. مناقبة كثيرة.

---

(١) «تهذيب الكمال» للمزى (١١/ ١٧٧ - ١٩٦) ترجمته فيها مطولة.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٣٣).

(٣) «التقريب» للحافظ (ت/ ٩٦).

(٤) «تهذيب الكمال» (٢/ ٣٧٣ - ٣٨٨).

وَعَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابنُ حِبَّانَ فِى «صَحِيحِه»[2].

قال ابن عثيمين[1] تعقيباً على الأثر:

والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر؛ لأنه لاشرك فيها؛ إلا إنْ تَعَلَّمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد، وأنها هى الجالبة لذلك؛ فهذا نوع من الشرك، أما مجرد معرفة الوقت بها: هل هو الربيع، أو الخريف، أو الشتاء؛ فهذا لا بأس به. اهـ.



قوله: وعن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لايدخلون الجنة.....» الحديث.

مناسبة الحديث للباب[3]:

قال القرعاوى: حيث دل الحديث على تحريم التصديق بجميع انواع السحر ومنها التنجيم. اهـ.

- مناسبة الحديث للتوحيد[4]:

قال القرعاوى: حيث حرم الحديث التصديق بالسحر ومنه التنجيم وذلك لما فيه من دعوى علم الغيب وذلك إشراك مع الله فى علمه. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[5]: هذا الحديث رواه أيضاً الطبرانى والحاكم وقال: صحيح وأقره الذهبى. وتمام الحديث: **«وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُدْمِنُ الخمرِ سَقَاهُ الله مِن نَهرِ الغُوطَةِ نَهرٌ يَجرى مِنْ فُرُوجِ المومِسَاتِ يُؤْذِى أَهلَ النَّارِ ريح فُروجِهنَّ».**

---

(١) القول المفيد (٢/ ١٣٢).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٣٩٩) وابن حبان فى «صحيحه» (٧/ ٣٦٦/ ح ٥٣٢٢) وأبو يعلى فى «مسنده» ((٦/ ٣٨٩/ ح ٧٢١٢)، والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ١٥٦). عن المعتمر بن سليمان عن الفضل بن ميسرة عن أبى جرير أن أبا بردة حدثه عن أبى مرسى. . فذكره.

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥/ ٧٤) وقال رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى ورجال أحمد وأبو يعلى ثقات.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ١٤، ٨٣).

من طريق الأعمش عن سعد الطائى عن عطية بن سعد عن أبى سعيد الخدرى. وانظر «فتح المجيد (ح٦٠٥) بتخريجنا.

(٣ - ٤) الجديد (٢٦٦). (٥) تيسير العزيز الحميد (٣٣٤).

قوله: (عن أبى موسى)

قال سليمان آل الشيخ(١): هو عبد الله بن قيس بن سليم بـن حضار بفتح المهملة وتشديد الضـاد المعجمة أبو موسى الأشعرى، صـحابى جليل استعملـه النبى ﷺ وأمره عمر ثم عثمان، وهو أحد الحكمين بصفين مات سنة خمسين.

قوله: [ثلاثة لايدخلون الجنة]

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا من نصوص الوعيد التى كره السلف تأويلها وقالوا: أمِرُّها كما جاءت، وإن كان صـاحبها لاينتقل عن الملة عندهـم وكان المصنف رحمه الله يميل إلى هذا القـول وقالت طائفة: هو على ظاهره فلا يدخل الجـنة أصلاً مدمن الخمر ونحوه. ويكـون هذا مخصصاً لـعموم الأحاديث الدالـة على خروج الموحديـن من النار ودخولهم الجنة، وحمله أكثر الشراح على من فعل ذلك مستحلاً، أو على معنى أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد العذاب إن لم يتوبوا والله أعلم. اهـ.

وقال ابن عثيمين(٣): هى الدار التى أعـدها الله لأوليائه المتقين، وسُـمِّيت بذلك؛ لكثرة أشجارها لأنها تُجِن من فيها أى تستره.

وقوله: «ثلاثة لايدخلون الجنة».

هل المراد الحصر وأن غيرهم يدخل الجنة؟

الجواب: لا؛ لأن هناك من لا يدخلون الجنة سـوى هؤلاء؛ فهذا الحديث لايدل على الحصر.

وهل هؤلاء كفار لأن من لا يدخل الجنة كافر؟

اختلف أهل العلم فى هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعـصية، لكن الخوارج يقولون: هو كافر، والمعتـزلة يقولون: هو فى منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتـان على أنهم مخلدون فى النار، فَيُجْرُون هذا الحديث ونحوه على ظاهره، ولا ينظرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من فى قلبه إيمان وإن قل؛ فإنه لابد أن يدخل الجنة.

القول الثانى: إن هذا الوعيد فيمـن استحل هذا الفعل بدليل النصـوص الكثيرة الدالة

(١ - ٢) تيسير العزيز الحميد (٣٣٤).

(٣) القول المفيد (٢/ ١٣٣).

على أن من فى قلبه إيمان وإن قل؛ فلا بـد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب؛ لأن من استحلـه كافر ولو لم يفعله، فمـن استحل قطيعة الرحم أو شـرب الخمر مثلاً؛ فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من بـاب أحاديث الوعـيد التى تمـر كما جاءت ولا يـتعرض لمعناها، بـل يقال: هكذا قال الله وقال رسولـه ونسكت؛ فمثلاً: قولـه تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾(1)، هذه الآية من نصوص الوعيد؛ فنؤمن بها، ،ولا نتعرض لمعناها ومعارضتها للنصوص الأخرى، ونـقول: هكذا قال الله، والله أعلم بما أراد، وهذا مذهـب كثير من السلف؛ كمالك وغيره، وهذا أبلغ فى الزجر.

القول الرابع: أن هذا نفى مطلق، والنفى المطلق يُحـمَل على المقيد؛ فيقال: لايدخلون الجنة دخولاً مطلقاً يعنى لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخولاً يسبقه عذاب بقدْر ذنوبهـم، ثم مرجعهـم إلى الجنة، وذلك لأن نـصوص الشرع يُصـدَّق بعضها بـعضاً، ويلائم بعضها بعضاً، وهذا أقرب إلى القواعـد وأبْيَن حتى لا تبقى دلالة النصوص غير معلومة؛ فتقيد النصوص بعضها ببعض.

وهناك احـتمال: أن من كانت هـذه حاله حرى أن يختـم له بسوء الخاتمة، فـيموت كافراً، فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حالـه إليه، وحينئذ لايبقى فى المسألة إشكال، لأن من مات على الكفر؛ فلن يدخل الجنة، وهو مخلد فى النار، وربما يؤيده قوله ﷺ: «**لا يزال المرء فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً**»(2)؛ فيكون هذا قولاً خامساً.

قوله: [مدمن خمر].

قال سليمان آل الشيخ(3): أى المداوم على شربها. اهـ.

وقال ابن عثيمين(4): هو الذى يـشرب الخمر كثـيراً، والخمر حـده الرسول ﷺ بقوله: «**كل مسكر خمر**»(5)، ومعنى «أسكر»؛ أى: غَطَّى العـقل، وليس كل ما غطى العقل فهو خـمر؛ فالبنج مثلاً ليس بـخمر، وإذا شرب دهناً فأغمى علـيه؛ فليس ذلك بخمر، وإنما الخمر الذى يغطى العقل علـى وجه اللذة والطرب؛ فتجد الشارب يحس أنه فى منزلة عظيمة وسعادة وما أشبه ذلك، قال الشاعر:

ونشربها فتتركنا ملـــوكاً   وأسـداً ما ينهنهنا اللقـــاء

وقال حمزة بن عبد المطلب - وكان قد سكـر قبل تحريم الخمر - للنبى ﷺ: «وهل

(1) النساء: ٩٣.
(2) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٨٦٢). عن ابن عمر به.
(3) تيسير العزيز الحميد (٣٣٢).
(4) القول المفيد (٢/ ١٣٣).
(5) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأشربة (٧/ ١٨٨/ ٧٣) عن ابن عمر به.

أنتم إلا عبيد أبي»؛ فالذي يغطي العقل على سبيل اللذة محرم بالكتاب والسنة، ومن استحله؛ فهو كافر، إلا إن كان ناشئاً ببادية بعيدة، أو حديث عهد بالإسلام، ولا يعلم الحكم الشرعي في ذلك؛ فإنه يعرف ولا يكفر بمجرد إنكاره تحريمه. اهـ.

قوله: [قاطع رحم]

قال سليمان آل الشيخ[1]: أي: القرابة كما قال تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ**﴾[2].

وقال ابن عثيمين[3]: الرَّحِم: هم القرابة، قال تعالى: ﴿**وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**﴾[4]، وليس كما يظنه العامة أنهم أقارب الزوجين؛ لأن هذه تسمية غير شرعية، والشرعية في أقارب الزوجين: أن يُسمَّوا أصهاراً.

ومعنى قاطع الرحم: أن لا يصله، والصلة جاءت مطلقة في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ** ﴾[5]، ومنه الأرحام وما جاء مطلقاً غير مقيد؛ فإنه يتبع فيه العرف كما قيل:

وكلُّ ما أتى ولَمْ يُحَدَّد ... بالشّرع كالحرْز فبالعرف احْدُد

فالصلة في زمن الجوع والفقر: أن يعطيهم ويلاحظهم بالكسوة والطعام دائماً، وفي زمن الغنى لا يلزم ذلك.

وكذلك الأقارب ينقسمون إلى قريب وبعيد؛ فأقربهم يجب لهم من الصلة أكثر مما يجب للأبعد.

ثم الأقارب ينقسمون إلى قسمين من جهة أخرى: قسم من الأقارب يرى أن لنفسه حقاً لابد من القيام به، ويريد أن تصله دائماً، وقسم آخر يقدر الظروف وينزل الأشياء منازلها؛ فهذا له حكم، وذلك له حكم.

والقطيعة يرجع فيها إلى العرف؛ إلا أنه يستثنى من ذلك مسألة، وهي: ما لو كان العرف عدم الصلة مطلقاً، بأن كنا في أمة تشتت وتقطعت عرى صلتها كما يعرف الآن في البلاد الغربية؛ فإنه لا يعمل حينئذ بالعرف، ونقول: لابد من صلة، فإذا كان هناك صلة في العرف اتبعناها، وإذا لم يكن هناك صلة؛ فلا يمكن أن نعطل هذه الشريعة التي أمر الله بها ورسوله.

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٣٢). (٢) محمد: ٢٢.
(٣) القول المفيد (٢/ ١٣٤، ١٣٥). (٤) الأحزاب: ١٦. (٥) الرعد: ٢١.

والصلة ليس معناها أن تصل من وصلك؛ لأن هذا مكافأة، وليست صلة؛ لأن الإنسان يصل أبعد الناس عنه إذا وصله، إنما الواصل؛ كما قال الرسول ﷺ: **«من إذا قطعت رحمه وصلها»**(١)، هذا هو الذى يريد وجه الله والدار الآخرة.

وهل صلة الرحم حق لله أو للآدمى؟

الظاهر أنها حق للآدمى، وهى حق لله باعتبار أن الله أمر بها.

قوله: (ومصدِّق السحر).

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «ومصدق بالسحر»(٣) مطلقاً ويدخل فيه التنجيم لحديث: **«من اقتبس علماً من النجوم اقتبس علماً من السحر»** وهذا وجه مطابقة الحديث للباب. قال الذهبى: فى «الكبائر» ويدخل فيه تعلم السيمياء وعملها، وهو محض السحر، وعقد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة قال: وكثير من الكبائر بل عامتها إلا الأقل يجهل خلق من الأمة تحريمة وما بلغه الزجر فيه ولا الوعيد عليه، فهذا الضرب فيهم تفصيل، فينبغى للعالم أن لا يجهل على الجاهل بل يرفق به ويعلمه سيما إذا قرب عهده بجهله، كمن أسر وجلب إلى أرض الإسلام وهو تركى فبالجهد أن يتلفظ بالشهادتين فلا يأثم أحد إلا بعد العلم بحاله وقيام الحجة عليه.

قال ابن عثيمين(٤):

قوله: «ومصدق بالسحر». هذا هو شاهد الباب، ووجهه أن علم التنجيم نوع من السحر، فمن صدَّق به؛ فقد صدَّق بنوع من السحر، فقد سبق: **«أن من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر»**، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المُنجِّم: سيحدث كذا وكذا، وصدق به؛ فإنه لا يدخل الجنة، لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله، قال تعالى: **﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾**(٥).

فإن قيل: لماذا لايجعل السحر هنا عاماً ليشمل التنجم وغير التنجيم؟

أجيب: إن المصدق بما يخبره به السحرة من علم الغيب يشمله الوعيد هنا، وأما المصدق بأن للسحر تأثيراً؛ فلا يلحقه هذا الوعيد؛ إذ لا شك أن للسحر تأثيراً، لكن تأثيره تخييل، مثل ما وقع من سحرة فرعون حيث سحروا أعين الناس حتى رأوا الحبال والعصى كأنها حيات تسعى، وإن كان لا حقيقة لذلك، وقد يسحر الساحر شخصاً

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٩٩١) عن عبدالله بن عمرو به وانظر «رياض الصالحين» (٣٢٤ ـ بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣٤ و ٣٣٥.

(٣) تقدم تخريجه..

(٤) القول المفيد ٢/ ١٣٥ و ١٣٦.

(٥) النمل: ٦٥.

فيه مسائل

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل.

فيجعله يحب فلاناً ويبغض فلاناً؛ فهو مؤثر، قال تعالى: ﴿ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ** ﴾[1]؛ فالتصديق بأثر السحر على هذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنه تصديق بأمر واقع.

أما من صدق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهباً أو نحو ذلك؛ فلا شك في دخوله في الوعيد؛ لأن هذا لايقدر عليه إلا الله - عز وجل -.اهـ.

قوله: فيه مسائل:

قال ابن عثيمين[2]:

- **الأولى: الحكمة في خلق النجوم.** وهي ثلاث:

- أنها زينة للسماء - ورجوم للشياطين. - وعلامات يهتدى بها.

وربما يكون هناك حِكَم أخرى لانعلمها.

- **الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.** لقول قتادة: «**من تأول فيها غير ذلك؛ أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به**».

ومراد قتادة في قوله: «**غير ذلك**» ما زعمه المنجمون من الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وأما ما يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة؛ فلا ضلال لمن تأوله.

- **الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.** سبق ذلك.

- **الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف انه باطل:** من صدق بشيء من التنجيم أو غيره من السحر بلسانه ولو اعتقد بطلانه بقلبه، فإن عليه هذا الوعيد، كيف يُصدق وهو يعرف أنه باطل، لانه يؤدى إلى إغراء الناس وبتعلمه وبممارسته اهـ.



---

(١) البقرة: ١٠٢.

(٢) القول المفيد: ٢/ ١٣٩، ١٤٠.

باب (٢٩)
ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

● مناسبة هذا الباب لما قبله

قال الفقير: لما كان الاستسقاء بالانواء أعظم ما جاء فى التنجيم أفرد له هذا الباب ولما كان متعلقاً بالتنجيم ناسب أن يأتى به بعده فالمصنف عم ثم خص والله أعلم.

● مناسبة هذا الباب للتوحيد.

قال السعدى[(١)]: لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم وإضافتها إليه قولاً واعترافاً واستعانة بها على طاعته كان قول القائل: مطرنا بنؤ كذا وكذا ينافى هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء.

والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله فإنه الذى تفضل بها على عباده. ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال فينزل عليهم بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم.

فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق ويضيفها إليه ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره وهذا الموضع من محققات التوحيد وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.

قال عبدالله بن جار الله[(٢)]: هى أن نسبة مجىء المطر إلى الأنواء واعتقاد أن لها تأثير فى إنزال المطر شرك ينافى التوحيد اهـ.

● شرح الترجمة والتبويب وماذا أراد المصنِّف بهذا الباب.

قال سليمان آل الشيخ[(٣)]: باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء أى من الوعيد.

والمراد نسبة السقيا ومجىء المطر إلى الأنواء جمع نوء وهى منازل القمر.

قال أبو السعادات: وهى ثمانية وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ يسقط فى الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع

---

(١) القول السديد (٨٤، ٨٥، ٨٦)

(٢) الجامع الفريد (١٢٠).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٣٥.

طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت فى الشرق فتنقضى جميعها مع انقضاء السنة. وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها فيقولون: مطرنا بنوء كذا، وإنما سمى نوءاً لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق. ينوء نوءاً أى: نهض وطلع.

قال ابن عثيمين[1]: الاستسقاء: طلب السُّقْيا؛ كالاستغفار: طلب المغفرة، والاستعانة: طلب المعونة، والاستعاذة: طلب العَوْذ، والاستهداء: طلب الهداية؛ لأن مادة استفعل فى الغالب تدل على الطلب، وقد لا تدل على الطلب، بل تدل على المبالغة فى الفعل، مثل: استكبر؛ أى: أن تطلب منها أن تسقيك.

حكم الاستسقاء بالأنواء

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا! اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر، قال تعالى: **﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾**، وقال تعالى: **﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾**، وقال تعالى: **﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾**.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهى عن دعاء غير الله، وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هى الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يَدْعُها؛ فهذا شرك أكبر فى الربوبية، والأول فى العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك فى الربوبية؛ لأنه لم يَدْعُها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضى الحاجة.

القسم الثانى: شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سبباً مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل؛ لأن كل من جعل سبباً لم يجعله الله سبباً لا بوحيه ولا بقدره فهو مشرك شركاً أصغر. اهـ.

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٤١ و ١٤٢.

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1].

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

- مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ[2]: روى الإمام أحمد والترمذى وحسنه وابن جرير وابن أبى حاتم والضياء فى المختارة عن على رضى الله عنه قال وقال رسول الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يقول: شركم، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا»[3]

وهذا أولى ما فسرت به الآية، وروى عن على وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراسانى وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين. وبه يظهر وجه استدلال المصنف بالآية على الترجمة. اهـ.

قلت: وسيأتى تفصيل أقوال المفسرين فى الآية.

قال عبدالله بن جار الله[4]: أنّ من نسب نعمة من النعم إلى غير الله وهو المطر فى هذا الموضع إنه مشرك كافر.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى[5]: حيث دلّت الآية على كفر من نسب النعم إلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء

قلت: سيأتى من كلام القرعاوى فى شرح أثر ابن عباس، فى سبب النزول أن المناسبة هى تكذيب الآية لمن نسب النعم رلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء لأن ذلك إشراك مع الله مع إنعامه.

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

---

(١) الواقعة ٨٢.　　(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣٥.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٠٨)، وابن جرير فى «تفسيره» (٢٧/ ١١٩)، والترمذى (٣٢٩٥) وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٤) وزاد نسبته لابن منيع، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والخرائطى فى مساوىء الأخلاق، وابن مردويه، والضياء فى «المختارة» وانظر الإتقان» (١٧٦٢ - بتخريجنا).

(٤) الجامع الفريد ١٢٠ و ١٢١.

(٥) الجديد ٣٦٨.

الإعراب[1]: ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ الواو حرف عطف ﴿وتجعلون رِزْقَكُمْ﴾ فعل مضارع والواو فاعل و﴿رِزْقَكُم﴾ مفعول تجعلون الأول وأن واسمها وجملة تكذبون خبرها وأن وما في حيزها في موضع المفعول الثانى ولابد من تقدير مضاف أي شكر رزقكم ا.هـ.

● **سبب نزول الآية:**

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ: «**أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر**، قالوا: هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم. لقد صدق نوء كذا، فنزلت هذه الآية ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[2].

قلت: وسيأتى الأثر عند المصنف فى أخر الباب فانظر شرحه هناك

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ سافر فى حر شديد، فنزل الناس على غير ماء فعطشوا، فاستسقوا رسول الله ﷺ، فقال لهم: «**فلعلىّ لو فعلت فسقيتم قلتم هذا بنوء كذا وكذا**»، قالوا: يا نبىّ الله ما هذا بحين أنواء، فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ ثم قام فصلى، فدعا الله تعالى، فهاجت ريح وثاب سحاب، فمطروا، حتى سال كل واد، فزعموا أن رسول الله ﷺ مر برجل يغرف بقدحه ويقول: هذا نوء فلان، فنزل ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[3].

عن علىّ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿وتجعلون شكركم﴾[4].

عن أبى عبدالرحمن السلمى قال: قرأ على رضى الله عنه الواقعات فى الفجر، فقال: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» فلما انصرف قال: إنى قد عرفت أنه سيقول قائل: لم

(1) إعراب القرآن ٩/ ٤٤٧ و ٤٤٨.

(2) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٣٣٧/ ١٢٧) عن ابن عباس به وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٣) وزاد نسبته لابن المنذر، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (١١٨٦٦ ـ بتخريجنا)

(3) ذكره السوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٤) ونسبه لابن مردويه.

(4) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن مردويه.

وانظر فتح القدير» (١١٨٧١ ـ بتخريجنا).

قرأها هكذا؟ إني سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها كذلك، كانوا إذا مطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله ﴿وتجعلون شكركم أنكم إذ مطرتم تكذبون﴾[1].

● **التفسير.**

● **ما جاء في تفسير الآية من الأحاديث:**

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**لو أمسك الله المطر عن الناس ثم أرسله لأصبحت طائفة كافرين**، قالوا: هذا بنوء الذبح يعني الدبران»[2].

وعن زيد بن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح زمن الحديبية في أثر سماء، فلما أقبل علينا فقال: «**ألم تسمعوا ما قال ربكم في هذه الآية: ما أنعمت على عبادي نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين. فأما من آمن بي وحمدني على سقياي فذلك الذي آمن بي، وكفر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك الذي آمن بالكوكب وكفر بي**»[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوماً لأصحابه: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **إنه يقول: إن الذين يقولون نسقى بنجم كذا وكذا فقد كفر بالله، وآمن بذلك النجم، والذين يقولون سقانا الله فقد آمن بالله وكفر بذلك النجم**[4].

وعن عبد الله بن محيريز أن سليمان بن عبدالملك دعاه فقال: لو تعلمت علم النجوم فازددت إلى علمك، فقال: قال رسول الله ﷺ:

«**إن أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث، حيف الأئمة، وتكذيب بالقدر، وإيمان بالنجوم**»[5].

وعن رجاء بن حيوة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مما أخاف على أمتي التصديق بالنجوم والتكذيب بالقدر وظلم الأئمة**»[6].

---

(١) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن مردويه أيضاً.
وانظر «فتح القدير» (١١٨٧٣ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٨٣٦) عن أبي سعيد به.
وانظر «فتح القدير» (١١٨٦٨ ـ بتخريجنا).

(٣) سيأتي تخريجه في الباب

(٤) ذكره السيوطي في«الدر» (٦/ ٢٣٥) ونسبه لعبد بن حميد.

(٥) تقدم تخريجه

(٦) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

وعن جابر السوائي رضي الله عنـه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أخاف على أمتي ثلاثاً استسقاء بالأنواء وحيف السلطان وتكذيباً بالقدر»**(١).

وعن معاوية الليثي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكون الناس مجدبين، فينزل الله عليهم رزقاً من رزقه فيصبحون مشركين، قيل له: كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا»**(٢).

وعن أبي هريرة رضـي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله ليصبح القوم بالنعمة أو يمسيهم بها فيصبح بها قوم كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا»**(٣).

ثانياً بأقوال السلف

● **أولاً من الصحابة**

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ **﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾** قال: يعنـي الأنواء وما مطر قوم إلا أصـبح بعضهـم كافراً وكانوا يـقولون: مطرنا بـنوء كذا وكذا، فأنزل الله تعالى **﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾**(٤).

وعن أبي عبدالرحمن قـال: كان عليّ رضي الله عنه يقرأ **﴿وَتَجْعَلُونَ شكركم أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾**(٥).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما **﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾** قال: الاستسقاء بالأنواء(٦).

و عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله «وتجعلون شكركم» يقول: على ما أنزلت عليكم من الغيـث والرحمة، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وكـان ذلك منهم كفراً بما أنعم الله عليهم(٧).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما مطـر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون:

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣٦) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٢٩) عن معاوية به.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣)، ونسبه لابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣٣) ونسبه لأبي عبيد فـي «فضائله» وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

وانظر «فتح القدير» (١١٨٧٢ـ بتخريجنا).

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣٥) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣٥) ونسبه لعبد بن حميد.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٢٣٦) ونسبه لابن جرير

مطرنا بنوء كـذا وكذا، وقرأ ابـن عباس رضى الله عـنهمـا «وتجعلـون شكركم أنـكم تكذبون»[1].

● **ثانياً : من التابعين**

وعن قتادة ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فقال: أما الحسن فـقال: بئس ما أخذ القوم لأنفسهم لـم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب، قال: وذكر لـنا أن الناس أمحلوا على عهد نبى الله ﷺ، فقالوا يانبى الله: لو استسقيت لنا؟ فقال: عسى قوم إن سقوا أن يقولوا سقينـا بنوء كذا وكذا، فاستسقى نبى الله ﷺ، فمطـروا، فقال رجل: إنه قد كان بقى من الأنواء كذا وكذا، فأنزل الله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[2].

وعن مجاهد ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: قولهم فى الأنـواء مطرنا بنوء كذا وكذا، فيقول: قولوا: هو من عند الله تعالى هو رزقه[3].

وعن عوف عـن الحسن فى قـوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: تجعـلون حظكم منه أنكم تكذبون، قال عوف رضى الله عنه: وبلغنى أن مشركى العرب كانوا إذا مطروا فى الجاهلية قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا[4].

وعن عطاء الخراسانى رضى الله عنه فى قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: كان ناس يمطرون فيقولون مطرنا بنوء كذا وكذا[5].

● **ثالثا : من أقوال المفسرين**

قال ابن الجوزى[6]: وللمفسرين فى معنى هذه الأية ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الرزق ها هـنا بمعنى الشـكر. روت عائشة عن رسـول الله ﷺ أنه قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ قال: ﴿شكركم﴾، وهذا قول عـلى بن أبى طالب، وابـن عباس. وكان على يقرأ ﴿وَتَجْعَلُونَ شكركم﴾.

والثانى: أن المعنى: وتجـعلون شكر رزقكم تكـذيبكم، قاله الأكثـرون. وذلك أنهم كانوا يمطرون، فيقولون: مطرنا بنوء كذا.

والثالث: أن الرزق بمعنى الحظ. فالمعنى: وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، ذكره الثعلبى. وقرأ أبى بن كعب، والمفضل عن عاصم «تَكْذِبون» بفتح التاء، وإسكان الكاف، مخفَّفة الذال.

---

(١) نفس المصدر السابق.
(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٥) ونسبه لعبد بن حميد
(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد ،و ابن جرير
(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.
(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٦) ونسبه لابن جرير.
(٦) زاد المسير ٧/ ٣٢٨ و ٣٢٩.

قال الطبرى[1]: وتجعلون شكر الله على رزقه إياكم التكذيب وذلك كقول القائل لآخر إحسانى إليك إساءة منك إلىّ، بمعنى جعلت شكر إحسانى أو ثواب إحسانى إليك إساءة منك إلىّ وقد ذكر عن الهيثم أن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان بمعنى ما شكر.

قال ناصر السعدى[2]: وقوله ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ أى: تجعلون مقابلة منّة الله عليكم بالرزق والتكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنؤ كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها.

فهلا شكرتم الله على إحسانه، إذا أنزل اليكم، ليزيدكم من فضله. فإن التكذيب والكفر، داع لرفع النعيم وحلول النقم.

● **ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين[3]:

قوله ﴿**رِزْقَكُمْ**﴾ الرِّزق هو العطاء، والمراد به هنا: ما هو أعم من المطر؛ فيشمل معنيين:

الأول: أن المراد به رزق العلم؛ لأن الله قال: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾؛ أى: تخافونهم فتداهنونهم، وتجعلون شكر ما رزقكم الله به من العلم والوحى أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الأية.

الثانى: أن المراد بالرزق المطر، وقد روى فى ذلك حديث عن النبى ﷺ[4] لكنه ضعيف ؛ إلا أنه صح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير الآية: أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء، وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسباً للباب تماماً.

والقاعدة فى التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعاً بدون منافاة تحمل عليهما جميعاً، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح.

---

(١) تفسير الطبرى ١١/ ٢٧/ ١١٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٥/ ١٦٦ و ١٦٧.

(٣) القول المفيد ٢/ ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤.

(٤) تقدم تخريجه فى أول الباب

عَنْ أَبِى مَالِكَ الأَشْعَرِىِّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النبىَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِى أُمَّتِى مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ فِى الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِى الأَنسَابِ، والاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ». وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرعٌ مِنْ جَرَبٍ»[1] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد؛ لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر بمن ينعم عليها؛ فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك، سواء قلنا: المراد بالرزق المطر الذى به حياة الأرض، أو قلنا: إن المراد به القرآن الذى به حياة القلوب؛ فإن هذا من أعظم الرزق؛ فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب؟!

واعلم أن التكذيب نوعان:

أحدهما: التكذيب بلسان المقال، بأن يقول: هذا كذب، أو المطر من النوء، ونحو ذلك.

والثانى: التكذيب بلسان الحال، بأن يُعظِّم الأنواء والنجوم معتقداً أنها السبب، ولهذا وعظ عمر بن عبدالعزيز الناس يوماً؛ فقال: «أيها الناس! إن كنتم مصدقين؛ فأنتم حمقى، وإن كنتم مكذبين؛ فأنتم هلكى»، وهذا صحيح؛ فالذى يُصدِّق ولا يعمل أحمق، والمكذب هالك؛ فكل إنسان عاصٍ نقول له الآن: أنت بين أمرين: إما أنك مصدق بما رُتِّب على هذه المعصية، أو مكذب، فإن كنت مصدقاً؛ فأنت أحمق، كيف لا تخاف فتستقيم؟! وإن كنت غير مصدق؛ فالبلاء أكبر، فأنت هالك كافر.



قوله : عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: أربع فى أمتى من أمر الجاهلية .. الحديث »

قلت: أخرجه مسلم فى الجنائز باب التشديد فى النياحة.

- مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى[2]: حيث دل الحديث على تحريم الاستسقاء بالأنواء. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الجنائز»/ باب التشديد فى النياحة (٣/ ٥٠٧/ ح٢٩). وأحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٤٢، ٣٤٤).

من حديث أبى مالك الأشعرى وانظر فتح المجيد (ح٦١٤) بتخريجنا.

(٢) الجديد ٢٧١.

- مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوى(1): حيث أنكر الحديث الاستسقاء بالنجوم لأنه طلب للنفع من غير الله وذلك شرك به. اهـ.

قوله. «عن أبى مالك الأشعرى».

قال سليمان آل الشيخ(2): اسمه الحارث بن الحارث الشامى صحابى تفرد عنه بالرواية أبو سلام، وفى الصحابة أبو مالك الأشعرى اثنان غير هذا جزم به الحافظ. ا هـ.

قوله: «انّ النبىَّ - ﷺ - قال: أربع من أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن»

قال سليمان آل الشيخ(3):

قوله «أربع من أمتى»

أى: من أفعال أهلها بمعنى أنها معاصى ستفعلها هذه الأمة. إما مع العلم بتحريمها وإما مع الجهل بذلك كما كان أهل الجاهلية يفعلونها. والمراد بالجاهلية هنا ما قبل المبعث سموا بذلك لفرط جهلهم وكل ما يخالف ما جاءت به الأنبياء والمرسلون فهو جاهلية منسوبة إلى الجاهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل وإنما يفعله جاهل.

قال شيخ الإسلام: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذماً لمن لم يتركه، وهذا يقتضى أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم فى دين الإسلام وإلا لم يكن فى إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها. ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم وهذا كقوله تعالى: **﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾** فإن فى ذلك ذماً للتبرج وذماً لحال الجاهلية الأولى وذلك يقتضى المنع من مشابهتهم فى الجملة. اهـ.

قال ابن عثيمين(4): قوله فى حديث أبى مالك: «أربع فى أمتى».

الفائدة من قوله: «**أربع**» ليس الحصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها فى المعنى، وإنما

(1) الجديد ٢٧١

(2) تيسير العزيز الحميد ٣٣٦.

(3) تيسير العزيز الحميد ٣٣٦.

(4) القول المفيد ٢/ ١٤٥- ١٤٧.

يقول النبي ﷺ ذلك من باب حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد؛ لأنه يقرب الفهم، ويثبت الحفظ.

قوله: **«من أمر الجاهلية»**.

أمر هنا بمعنى شأن؛ أي: من شأن الجاهلية وهو واحد الأمور، وليس واحد الأوامر؛ لأن واحد الأوامر طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

وقوله: **«من أمر الجاهلية»**.

إضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقبيح والتنفير؛ لأن كل إنسان يقال: فِعْلُك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب؛ إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل، ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية؛ فالغرض من الإضافة هنا أمران:

١- التنفير.

٢- وبيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان؛ إذ ليست أهلاً بأن يراعيها الإنسان أو يعتنى بها؛ فالذى يعتنى بها جاهل.

قلت: وهذا ما فهمه أبو ذر من قول الرسول ﷺ: **«إنك امروء فيك جاهلية»** فيما عير بلالاً بأمة وقال له يا ابن السوداء وسيأتى اهـ.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل البعثة؛ لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يُسمَّون بالأميين، والأمى هو الذى لا يقرأ ولا يكتب؛ نسبةً إلى الأم، كأن أمه ولدته الآن.

لكن لما بُعث فيهم هذا النبى الكريم؛ قال تعالى: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾**(١)؛ فهذه منة عظيمة أن بعث فيهم النبى عليه الصلاة والسلام لهذه الأمور السامية:

١- يتلو عليهم آيات الله.

٢- ويزكيهم؛ فيطهر أخلاقهم وعبادتهم وينميها.

٣- ويعلمهم الكتاب.

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

٤- والحكمة.

هذه فوائد أربع عظيمة لو وزنت الدنيا بواحدة منها لوزنتها عند من يعرف قدرها، ثم بيَن الحال من قبل قال: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، و﴿وَإِن﴾ هذه ليست نافية، بل مُؤكِّدة؛ فهى مخففة من الثقيلة، يعنى: وإنهم كانوا من قبل لفى ضلال مبين.

إذن المراد بالجاهلية ما قبل البعثة؛ لأن الناس كانوا فيها على جهل عظيم.

فجهلهم شامل للجهل فى حقوق الله وحقوق عباده، فمن جهلهم أنهم يُنصّبون النُّصب ويعبدونها من دون الله، ويقتل أحدهم ابنته لكى لا يُعيّر بها، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر. اهـ.

قلت: الجاهلية : هى زمن ما قبل بعثة النبى ﷺ وسموا بذلك لفرط جهلهم

والجاهلية: سلوك غير منضبط بضابط شرعى.

قال ابن تيمية فى «الإيمان الأوسط» من هذا الحديث : إن المسلم قد يكون فيه شىء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولايُوجب ذلك كفره ولافسقه. اهـ فمن صور الجاهلية .

[١] حكم الجاهلية [٢] ظن الجاهلية [٣] تبرج الجاهلية [٤] حمية الجاهلية [٥] دعوى الجاهلية . . . والله أعلم (*).

قوله: **(لا يتركونهن)**.

المراد: لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع، بأن يكون كل واحد منها عند جماعة، والثانى عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين، وقد تجتمع هذه الأقسام فى قبيلة، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعاً، إنما الأمة كمجموع لابد أن يوجد فيها شىء من ذلك؛ لأن هذا خبر من الصادق المصدوق ﷺ، والمراد بهذا الخبر التنفير؛ لأنه ﷺ قد يخبر بأشياء تقع وليس غرضه أن يُؤخذ بها؛ كما قال ﷺ: **«لتركبن سنن من كان قبلكم اليهود والنصارى»**(١)؛ أى: فاحذروا، وأخبر ﷺ: **«أن الظعينة تخرج من صنعاء إلى حضر موت لا تخشى إلا الله»**(٢)؛ أى: بلا محرم، وهذا خبر عن أمر واقع وليس إقراراً له شرعاً.

(*) وانظر تعليقى على «أحكام الجنائز» للألبانى

(١)،(٢) تقدم تخريجه

قوله: «أمتى».

أى: أمة الإجابة.

قوله: «الفخر بالأحساب»

قال سليمان آل الشيخ[1]: أى التشرف بالأباء والتعاظم بعد مناقبهم ومآثرهم وفضائلهم وذلك جهل عظيم، إذ لا شرف إلا بالتقوى كما قال تعالى: **﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾** الآية. وقال تعالى: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**.

وروى أبو داود عن أبى هريرة مرفوعاً **«إِنَّ الله قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُم عُبِّيَّةَ الجاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآباءِ مُؤْمِنٌ تَقِّى وفاجِرٌ شَقِىٌّ أَنْتُمْ بَنِى آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرابٍ لَيَدَعَنَّ رِجالٌ فَخْرَهُم بِأَقْوَامٍ إنما هُم فَحمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّم أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى الله مِنَ الجُعْلانِ التى تَدْفَعُ بِأَنفِهَا النتن»**[2] والأحساب جمع حسب وهو ما يعده الإنسان له ولآبائه من شجاعة وفصاحة ونحو ذلك.

قال ابن عثيمين[3]: الفخر: التعالى والتعاظم، والباء للسببية؛ أى: يفخر بسبب الحسب الذى هو عليه.

والحَسَبُ: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد، كأن يكون من بنى هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة، فيفتخر بذلك، وهذا من أمر الجاهلية؛ لأن الفخر فى الحقيقة يكون بتقوى الله الذى يمنع الإنسان من التعالى والتعاظم، والمتقى حقيقة هو الذى كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد تواضعاً للحق وللخلق.

وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية؛ فلا يجوز لنا أن نفعله، ولهذا قال تعالى لنساء نبيه ﷺ: **﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾**، واعلم أن كل ما ينسب إلى الجاهلية؛ فهو مذموم ومنهى عنه. اهـ.

قلت: وجاء الذم والنهى صريحا فيما أخرجه أحمد عن أبى ريحانه أن النبى ﷺ

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٣٦ و ٣٣٧.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٦١)، وأبو داود (٥١١٦) ، والترمذى (٣٩٥٦)

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا..

(٣) القول المفيد ٢/ ١٤٨

قال: «من انتسب إلى تسعة آبآء كفار يريد بهم عزاً وفخراً فهو عاشرهم فى النار»(*).

إشكال: فإن قيل إن النبى ﷺ قال: «أنا ابن عبد المطلب وغير ذلك»

الجواب: يوب البخارى على هذا الحديث وغيره باب من انتسب إلى آبائه فى الإسلام والجاهلية.

قال ابن حجر أى جواز ذلك خلافاً لمن كرهه مطلقاً فإن محل الكراهة ما إذا أورده على طريق المفاخرة والمشاجرة واستدل لذلك بحديث أبى ريحانه المتقدم(**).

قال سليمان آل الشيخ(١):

قوله: «**والطعن فى الانساب**» أى: الوقوع فيها بالذم والعيب أو يقدح فى نسب أحد من الناس فيقول: ليس هو من ذرية فلان أو يعيره بما فى آبائه من المطاعن.

ولهذا لما عَيَّرَ أبو ذَرٍ رَضى الله عنهُ رَجُلاً بِأُمِّهِ، قَالَ النَّبىُّ ﷺ لأبى ذَرٍ «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَهلية** . . . الحديث(٢)» متفق عليه. فدل ذلك أن التعيير بالأنساب من أخلاق الجاهلية، وأن الرجل مع فضله وعلمه ودينه قد يكون فيه بعض هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره وفسقه. قاله شيخ الإسلام.

قوله: «والطعن فى الأنساب»

قال ابن عثيمين(٣):

قوله: «**الطعن فى الأنساب**».

الطَّعْن: العيب؛ لأنه وخز معنوى كوخز الطاعون فى الجسد، لهذا سُمِّى العيب طعناً.

والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن فى نسبه كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مقطعة البظور- وهى شىء فى فرج المرأة يقطع عند ختان النساء.

قال سليمان آل الشيخ(٤):

قوله: «**والاستسقاء بالنجوم**». أى نسبة السقيا ومجىء المطر إلى النجوم والأنواء، وهذا هو الذى خافه النبى ﷺ على أمته.

(*) قال الحافظ فى الفتح (٦/ ٦٣٧) رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن.

(**) الفتح (٦/ ٦٣٦، ٦٣٧).

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٣٧.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٠٥٠) ومسلم فى الإيمان (٦/١٤٦/٣٨) عن أبى ذر به

(٣) القول المفيد ٢/ ١٤٨.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٣٧ و ٣٣٨

كما روى الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائى قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «أخَافُ على أُمَّتِي ثَلاثاً اسْتِسقَاء بِالنُّجُوم، وَحَيْفُ السُّلْطَان، وتَكْذِيباً بِالقَدَرِ»(١)

إذا تبين هذا، **فالاستسقاء بالنجوم نوعان:**

أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم، فهذا كفر ظاهر إذ لا خالق إلا الله، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وليس هذا معنى الحديث، فالنبى ﷺ أخبر أن هذا لا يزال فى أمته، ومن اعتقد أن النجم ينزل المطر فهو كافر.

الثانى: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن الله تعالىٰ هو الفاعل لذلك المنزل له، لكن معنى أن الله تعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم، فحكى ابن مفلح خلافاً في مذهب أحمد فى تحريمه وكراهته، وصرح أصحاب الشافعى بجوازه، **والصحيح أنه محرم**، لأنه من الشرك الخفى، وهو الذى أراده النبى ﷺ، وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه، وأبطله، وهو الذى كان يزعم المشركون، ولم يزل موجوداً فى هذه الأمة إلى اليوم، وأيضاً فإن هذا من النبى ﷺ حماية لجناب التوحيد وسد لذرائع الشرك ولو بالعبادات الموهمة التى لا يقصدها الإنسان، كما قال لرجل قال له: ما شاء الله وشئت، قال:

«أجعلتنى لله نداً، بل ما شاء الله وحده»(٢).

وفيه التنبيه على ما هو أولى بالمنع من نسبة السقيا إلى الأنواء كدعاء الأموات، وسؤالهم الرزق والنصر والعافية ونحو ذلك من المطالب، فإن هذا من الشرك الأكبر، سواء قالوا: إنهم شفعاؤنا إلى الله، كما قال تعالى إخباراً عن المشركين: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ أو اعتقدوا أنهم يخلقون، ويرزقون، وينصرون استقلالاً على سبيل الكرامة، كما ذكره بعض عباد القبور فى رسالة صنعها فى ذلك؛ لأنه إذا منع من إطلاق نسبة السقيا إلى الأنواء مع عدم القصد والاعتقاد، فلأن يمنع من دعاء الأموات والتوجه إليهم فى الملمات مع اعتقاد أن لهم أنواع التصرفات أولى وأحرى. اهـ.

قلت: واختصر ذلك الشيخ عبدالرحمن آل الشيخ وأتيت هنا بتمام الكلام للإفاده.

---

(١)،(٢) تقدم تخريجه

قوله «والإستسقاء بالنجوم»

قال ابن عثيمين[1]: أى: نسبة المطر إلى النجوم، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله- عز وجل-، أما إن اعتقد أن النجوم هى التى تخلق المطر والسحاب أو دعاها من دون الله لتنزل المطر؛ فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة. اهـ.

قوله: «والنياحة على الميت»

قال سليمان آل الشيخ[2]: قوله: «والنياحة» أى. رفع الصوت بالندب على الميت، لأنها سخط لقضاء الله ومعارضة لأحكامه وسوء أدب مع الله، ولا كذلك ينبغى أن يفعل المملوك مع سيده، فكيف يفعله مع ربه وسيده ومالكه وإلهه الذى لا إله له سواه، الذى كل قضائه عدل، وأيضاً ففيها تفويت الأجر مع ذهاب المصيبة. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: قوله: **«والنياحة على الميت»**.

هذا هو الرابع، والنياحة: هى رفع الصوت بالبكاء على الميت قصداً، وينبغى أن يضاف إليه على سبيل النَّوح؛ كنوح الحمام.

والنَّدْبُ: تعداد محاسن الميت.

والنياحة من أمر الجاهلية، ولابد أن تكون فى هذه الأمة، وإنما كانت من أمر الجاهلية:

إما من الجهل الذى هو ضد العلم.

أو من الجهالة التى هى السَّفَة، وهى ضد الحكمة.

وإنما كانت كذلك لأمور، هى:

١- أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزناً وعذاباً.

٢- أنها تسخط من قضاء الله وقدره واعتراض عليه.

٣- أنها تُهيِّج أحزان غيره.

وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله- وهو من علمائنا الحنابلة- أنه خرج فى جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا فى المقبرة صرخ رجل وقال: ﴿ **قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾؛ فقال له ابن عقيل رحمه الله: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهييج الأحزان.

(١) القول المفيد ٢/١٤٨ و ١٤٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣٨

(٣) القول المفيد ٢/١٤٩و ١٥٠.

٤- أنه مع هذه المفاسد لا يَرُدُّ القضاء، ولا يرفع ما نزل.

قوله: قال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها»

قال النووى (*): فيه دليل على تحريم النياحة وهو مجمع عليه .

وفيه : صحة التوبة مالم يمت المكلف ولم يصل إلى الغرغرة .اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(١):

قوله: وقال «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها**». فيه تنبيه على أن الوعيد والذم لا يلحق من تاب من الذنب، وهو كذلك بالإجماع، فعلى هذا إذا عرف شخص بفعل ذنوب توعد الشرع عليها بوعيد لم يجز إطلاق القول بلحوقه لذلك الشخص المعين، كما يظنه كثير من أهل البدع، فإن عقوبات الذنوب ترتفع بالتوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة نبيهم ﷺ فيهم، وعفو الله عنهم.

وفيه أن من تاب قبل الموت ما لم يغرغر فإن الله يتوب عليه

كما فى حديث ابن عمر مرفوعاً: «**إنَّ الله تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغرغِر**»(٢). رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى «صحيحه».

قال ابن عثيمين(٣): والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة، لكن الغالب وقوعها من النساء، ولهذا قال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها**»؛ أى: إن تابت قبل الموت؛ تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة، وأن الحسنات لاتمحوه لأنه من كبائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات فلا يمحوها إلا التوبة. اهـ.

قوله: «تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران»

قال سليمان آل الشيخ(٤):

قوله: «**تقام يوم القيامة**». أى تبعث من قبرها، «**وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**».

قال القرطبى: السربال واحد السرابيل، وهى الثياب والقمص؛ يعنى أنهن يلطخن بالقطران، فيصير لهن كالقميص حتى يكون اشتعال النار والتصاقها بأجسادهن- أعظم ورائحتهن أنتن وألمهن بسبب الجرب أشد. وروى عن ابن عباس أن القطران هو النحاس

(*) شرح مسلم (٣/ ٥٠٩)

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٣٩.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ١٣٢)، والترمذى (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣) عن ابن عمر به وانظر «رياض الصالحين» (١٩ ـ بتخريجنا).

(٣) القول المفيد ٢/ ١٥٠

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٣٩

المذاب، وروى الثعلبى فى «تفسيره» عن عمر بن الخطاب أنه سمع نائحة فأتاها، فضربها بالدرة حتى وقع خمارها، فقيل يا أمير المؤمنين: المرأة المرأة قد وقع خمارها قال: إنها لا حرمة لها. اهـ.

قوله: «ودرع من جرب»

قال ابن عثيمين[1]: الجرب: مرض معروف يكون فى الجلد، يؤرق الإنسان، وربما يقتل الحيوان، والمعنى: إن كل جلدها يكون جرباً بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء؛ لأن الجرب أى شىء يمسه يتأثر به؛ فكيف ومعه قطران؟!

والحكمة أنها لما لم تُغَطِّ المصيبة بالصبر غُطِّيت بهذا الغطاء سربال من قطران ودرع من جرب؛ فكانت العقوبة من جنس العمل.

● **ويستفاد من الحديث:**

١- ثبوت رسالته ﷺ؛ لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوقع كما أخبر **قاله سليمان آل الشيخ**.

٢- التنفير من هذه الأشياء الأربعة: الفخر بالأحساب، والطعن فى الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت.

٣- أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليه فى الآخرة، وكل ذنب عليه الوعيد فى الآخرة؛ فهو من الكبائر.

٤- أن كبائر الذنوب لا تكفر بالعمل الصالح؛ لقوله: **«إذا لم تتب قبل موتها»**.

٥- أن من شروط التوبة أن تكون قبل الموت؛ لقوله: **«إذا لم تتب قبل موتها»**، ولقوله تعالى: ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ** ﴾.

٦- أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة؛ فمن أهل العلم من قال: إنه داخل تحت المشيئة: إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له.

ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة، وإنه لابد أن يعاقب، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾؛ فقال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، وبهذا نعرف عظم سيئة الشرك، قال ابن مسعود رضى الله عنه: **«لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً»**[2].

(١) القول المفيد ٢/ ١٥٠و١٥١و١٥٢

(٢) تقدم تخريجه.

وَلَهُمَا عَنْ زَيْد بن خَالد ـ رَضيَ اللهُ عَنْهُ ـ، قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ الله ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبيَةِ عَلَى أَثْرِ سَمَاء كَانَتْ منَ اللَّيْلِ، فَلمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ ربُّكُم؟» قَالُوا: الله ورسوله أعلم. قَالَ: «يُقَالَ: أَصْبَحَ منْ عبَادي مُؤمنٌ بي وَكَافرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطرْنَا بفَضْلِ الله وَرَحْمَته، فَذَلكَ مُؤمنٌ بي كَافرٌ بالكَوْكَب، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطرْنَا بنَوْء كَذَا وَكَذا، فَذَلكَ كَافرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوْكَبِ»(١).

لأن الحلف بغير الله من الشرك، والحلف بالله كاذباً من كبائر الذنوب، وسيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب.

٧- ثبوت الجزاء والبعث.

٨- أن الجزاء من جنس العمل.



قوله: ولهما عن زيد بن خالد ـ رضى الله عنه ـ قال «صلى لنا رسول الله.....» الحديث.

قلت: قوله: «ولهما» أى البخارى ومسلم فقد أخرجه البخارى فى كتاب الأذان باب يستقبل الامام الناس إذا سلم، ومسلم فى الإيمان.

- مناسبة الحديث للباب.

قال عبدالله بن جار الله[٢]: أنه دل على نسبة مجىء المطر إلى الأنواء كفر بالله[٣].

- مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوى[٤]: حيث أعتبر الحديث أن من نسب المطر إلى الأنواء كافراً لأنه نسب النعمه وهى المطر إلى غير الله فأشرك معه غيره. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه مالك فى «الموطأ» (١/ ١٧٠)، والبخارى فى الآذان/ باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٢/ ٣٨٨/ ٨٤٦)، ومسلم فى الإيمان / باب كفر من قال: مطرنا بالنوء (٢/ ٥٩ ـ النووى)، وأحمد فى «مسنده» (٤/ ١١٧)، وأبو داود فى الطب / باب النجوم (٤/ ١٥/ ٣٩٠٦)، والنسائى فى «الكبرى» فى عمل اليوم والليلة (٦/ ٢٢٩/ ١٠٧٦١)، والبيهقى فى «الكبرى» (٣/ ٣٥٨)، والبغوى فى «شرح السنة» (٤/ ٤١٩/ ١١٦٩). عن زيد بن خالد به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٣٤ ـ بتخريجنا) وانظر فتح المجيد (ح٦١٩) بتخريجنا.

(٢)، (٣) الجامع الفريد ١٢٣. (٤) الجديد ٢٧٤.

قوله: عن زيد بن خالد

قال سليمان آل الشيخ[١].

قوله: عن زيد بن خالد. أى الجهنى المدنى، صحابى مشهور، مات سنة ثمان وستين بالكوفة، وقيل غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: صلى لنا رسول الله ﷺ

قال ابن حجر[٢] أى لأجلنا، أو اللام بمعنى الباء أى صلى بنا، وفيه جواز إطلاق ذلك مجازاً وإنما الصلاة لله تعالى. أهـ

قال ابن عثيمين[٣] : أى: إماماً؛ لأن الإمام يصلى لنفسه ولغيره، ولهذا يتبعه المأموم، وقيل: إن اللام بمعنى الباء، وهذا قريب، وقيل: إن اللام للتعليل؛ أى: صلى لأجلنا. أهـ

قوله: (بالحديبية):

قال النووى(*): فيها لغتان: تخفيف الياء ، وتشديدها ، والتخفيف هو الصحيح المشهور المختار، وهو قول الشافعى وأهل اللغة وبعض المحدثين .اهـ.

قال ابن حجر[٤]: بالمهملة والتصغير وتخفيف ياءوها وتثقل، يقال سميت بشجره حدباء هناك.

قال ابن عثمين[٥]: أى: صلاة الفجر، والحديبية فيها لغتان: التخفيف، وهو أكثر، والتشديد، وهى اسم بئر سمى بها المكان، وقيل: إن أصلها شجرة حدباء تسمى حديبية، والأكثر على أنها اسم بئر، وهذا المكان قريب من مكة بعضه فى الحل وبعضه فى الحرم، نزل به الرسول ﷺ فى السنة السادسة من الهجرة لما قدم معتمراً، فصده المشركون عن البيت، وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، ويسمى الآن الشِّميسى. اهـ.

قوله: على إثر

قال النووى(*): هو بكسر الهمزة وإسكان الثاء وبفتحها جميعاً لغتان مشهورتان، والسماء : المطر .

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠.

(٢) الفتح (٢ ص٦٠٧)، ونقله الشيخ سليمان فى تيسير العزيز الحميد وغيره.

(٣) القول المفيد ١٥٣/٢.

(٤) الفتح (٢ ص٦٠٧)

(٥) القول المفيد ١٥٣/٢

(*) شرح مسلم (٣٣٨/١).

قال ابن حجر[٥] بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور وهو ما يعقب الشيء.

قال ابن عثيمين[١]: الإثر معناه العَقب، والأثر: ما ينتج عن السير. اهـ.

قوله: «سماء».

قال ابن حجر[٢] أي مطر واطلق عليه سماء لكونه ينزل من جهة السماء وكل جهة علو تسمى سماء. اهـ.

قوله: كانت من الليل

قال ابن حجر [٣]: كذا للأكثر وللمستملى والحموى (من الليلة) بالإفراد

قال ابن عثيمين[٤]: «من» لابتداء الغاية، هذا هو الظاهر - والله أعلم -، ويحتمل أن تكون بمعنى في للظرفية.

قوله: فلما انصرف

قال ابن حجر [٥]: أي من صلاته أو من مكانه. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[٦].

قوله: فلما انصرف. أي من صلاته لا من مكانه، كما يدل عليه قوله: أقبل على الناس. أي التفت إليهم بوجهه الشريف، ففيه دليل على أنه لا ينبغي للإمام إذا صلى أن يجلس مستقبل القبلة، بل ينصرف إلى المأمومين، كما صحت بذلك الأحاديث[٧]. أهـ وقال بنحوه عبد الرحمن آل الشيخ.

قال ابن باز[٨]

من عادته - ﷺ - أنه إذا سلم استغفر ثلاثاً وقال اللهم أنت السلام.. ثم يعطى الناس وجهه ويذكر بقية الاذكار. أهـ.

قلت: وذلك ثانيا في صحيح مسلم من حديث عائشة[٩].

---

(٦) الفتح ٢ صـ٦٠٧.

(١) القول المفيد ٢/ ١٥٣

(٢) الفتح ٢ ص٦٠٧.

(٣) الفتح ٢ ص٦٠٧.

(٤) القول المفيد ٢/ ١٥٣.

(٥) الفتح ٢ ص٦٠٧.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٣٤.

(٧) قال نحوه بين عثيمين فى القول ٢/ ٢٥٣

(٨) التعليق المفيد ١٧١.

(٩) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساجد (٣/ ٩٧/ ١٣٦) عن عائشة به

قوله: هل تدرون

قال ابن حجر(١)

لفظ استفهام معناه التنبيه، ووقع فى رواية سفيان عن صالح عند النسائى **«ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة»** وهذا من الأحاديث الإلهية وهى تحتمل أن يكون النبى ﷺ أخذها عن الله بلا واسطة أو بواسطة. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢)

قوله: «هل تدرون». لفظ استفهام، ومعناه التنبيه. وفى رواية النسائى: **«أَلَم تَسمَعُوا مَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيلَةَ»** وهذا من الأحاديث القدسية.

قال الحافظ: وهى تحمل على أن النبى ﷺ أخذها عن الله بواسطة أو بلا واسطة، وفيه إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليخبرهم، وإخراج العالم التعليم للمسألة بالاستفهام فيها ذكره المصنف. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣)

الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سيلقى عليهم، وإلا؛ فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله؛ لأن الوحى لا ينزل عليهم.

ومعنى قوله: **«هل تدرون»** أى: هل تعلمون.

قوله «ماذا قال ربكم؟»

قال ابن عثيمين(٤)

والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة؛ لأن ربوبية الله للمؤمن خاصة كما أن عبودية المؤمن له خاصة، ولكن الخاصة لا تنافى العامة؛ لأن العامة تشمل هذا وهذا، والخاصة تختص بالمؤمن. اهـ.

قوله «قالوا: الله ورسوله أعلم»

قال سليمان آل الشيخ(٥)

فيه حسن الأدب للمسؤول عما لا يعلم، وإنه يقول ذلك أو نحوه، ولا يتكلف ما لا يعنيه اهـ.

---

(١) الفتح (٢ ص٦٠٨). (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠. (٣) القول المفيد ٢/ ١٥٤.
(٤) القول المفيد ٢/ ١٥٤. (٥) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠.

وذكر نحو ذلك ابن باز فقال: «الله ورسوله أعلم» هذا من أدب الصحابة رضى الله عنهم وبعد موته ﷺ يقال الله أعلم لأن الوحى انقطع فلا يعلم ما بعده كما فى حديث الحوض إلا ما يعرضه الله عليه كالصلاة عليه. اهـ.

قوله: «أصبح من عبادى»

قال ابن حجر(٢): هذه إضافة عموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر بخلاف مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ فإنها إضافة تشريف. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٣): فإن قيل: هذا يدل على أن المراد بالكفر هنا هو الأكبر قيل: ليس فيه دليل إذ الأصغر يصدر من الكفار(٤).

قال النووى(*): اختلف العلماء فى كفر من قال (مطرنا بنوء كذا) على قولين:

أحدهما: هو كفر بالله تعالى سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام، قالوا: وهذا فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشأ للمطر، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم.

ومن اعتقد هذا فلاشك من كفره، وهذا القول هو الذى ذهب إليه جماهير العلماء والشافعى منهم، وهو ظاهر الحديث.

قالوا: وعلى هذا لو قال (**مطرنا بنوء كذا**) معتقداً أنه من الله تعالى وبرحمته وأن النوء ميقات له وعلامة اعتباراً للعادة، فكأنه قال: مطرنا فى وقت كذا، فهذا لا يكفر.

واختلفوا فى كراهته، والأظهر كراهته، لكنها كرهة تنزيه لا إثم فيها، وسبب الكراهية أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها؛ ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم.

والقول الثانى: فى أصل تأويل الحديث، أن المراد كفر نعمة الله تعالى؛ لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب، وهذا فيمن لايعتقد تدبير الكوكب، ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة فى الباب بلفظ: «**أصبح من الناس شاكر وكافر**» وفى الرواية الأخرى: «

(١) التعليق ١٧١.

(٢) الفتح ٢ ص٦٠٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠.

(٤) قال نحوه صاحب فتح المجيد ٢/ ٥٤٣.

(*) شرح مسلم (١/ ٣٣٨ـ٣٣٩)

ما أنعمت على عبادى من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين» وفى الرواية الأخرى: **«ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين»** فقوله **«بها»** يدل على أنه كفر بالنعمة والله أعلم. اهـ.

وقال ابن حجر[1]:

قوله **(مؤمن بى وكافر)** يحتمل أن يكون المراد بالكفر هنا كفر الشرك بقرينة مقابلته بالإيمان، ولأحمد من رواية نصر بن عاصم الليثى عن معاوية الليثى مرفوعاً **«يكون الناس مجدبين فينزل الله عليهم رزقاً من السماء من رزقه فيصبحون مشركين يقولون: مطرنا بنوء كذا»**[2] ويحتمل أن يكون المراد به كفر النعمة، ويرشد إليه قوله فى رواية معمر عن صالح عن سفيان **«فأما من حمدنى على سقياى وأثنى علىَّ فذلك آمن بى»** وفى رواية سفيان عند النسائى والإسماعيلى نحوه، وقال فى آخره **«وكفر بى»** أو قال **«كفر نعمتى»** وفى رواية أبى هريرة عند مسلم **«قال الله: ما أنعمت على عبادى من نعمة إلا أصبح فريق منهم كافرين بها»**[3] وله فى حديث ابن عباس **«أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر»**[4] وعلى الأول حمله كثير من أهل العلم، وأعلى ما وقفت عليه من ذلك كلام الشافعى، قال فى **«الأم»**: من قال مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه مطر نوء كذا فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ لأن النوء وقت والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ومن قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا فى وقت كذا فلا يكون كفراً، وغيره من الكلام أحب إلىَّ منه، يعنى حسماً للمادة، وعلى ذلك يحمل إطلاق الحديث، وحكى ابن قتيبة فى «كتاب الأنواء» أن العرب كانت فى ذلك على مذهبين على نحو ما ذكره الشافعى، قال: وكانوا فى الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء إما بصنعه على زعمهم وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم وجعله كفراً، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعاً فى ذلك فكفره كفر تشريك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة لأنه لم يقع فى شىء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين لتناول الأمرين، والله أعلم.

---

(١) الفتح ٢/ ص٦٠٨.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) **[صحيح]** أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٣٣٧/ ١٢٦)

(٤) تقدم تخريجه

ولا يرد الساكت، لأن المعتقد قد يشكر بقلبه أو يكفر، وعلى هذا فالقول فى قوله «**فأما من قال**» لما هو أعم من النطق والاعتقاد، كما أن الكفر فيه لما هو أعم من كفر الشرك وكفر النعمة، والله أعلم بالصواب. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ مقرباً كلام ابن حجر وشارحاً له(١):

قوله: «مؤمن بى وكافر». المراد بالكفر هنا هو الأصغر بنسبة ذلك إلى غير الله وكفران نعمته، وإن كان يعتقد أن الله تعالى هو الخالق للمطر المنزل له بدليل قوله فى الحديث «**فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته**» إلى آخره، فلو كان المراد هو الأكبر، لقال أنزل علينا المطر نوء كذا، فأتى بباء السببية ليدل على أنهم نسبوا وجود المطر إلى ما اعتقدوه سبباً. وفى رواية: «**فأما من حمدنى على سقياى وأثنى على، فذاك من آمن بى**» فلم يقل: فأما من قال: إنى المنزل للمطر فذاك من آمن بى، لأن المؤمنين والكفار يقولون ذلك: فدل على أن المراد إضافة ذلك إلى غير الله، وإن كان يعتقد أن الفاعل لذلك هو الله. وروى النسائى والإسماعيلى نحوه وقال فى آخره: «**وكفر بى أو كفر نعمتى**».

وفى رواية أبى صالح عن أبى هريرة عند مسلم قال رسُولُ الله ﷺ: «**أَلَمْ تَرَوْ إلى ما قَالَ ربُّكم؟ قال: مَا أَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِى مِنْ نِعْـمَةٍ إلاَّ أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنْهمْ بِهَا كَافِرِينَ**»(٢).

وله من حديث ابن عَباسٍ: «**أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ ومِنْهُمْ كَافِرٌ**» الحديث(٣).

وفى حديث معاوية الليثى مرفوعاً: «**يَكُونُ النَّاسُ مُجْدِبِينَ فَيُنْزِلُ الله عَلَيهم رِزْقاً مِنْ رِزْقِه فَيُصْبِحُونَ مُشْرِكِينَ، يَقُولُونَ: مُطِرنا بِنَوءِ كَذَا**»(٤) رواه أحمد، فبين الكفر والشرك المراد هنا بأن نسبة ذلك إلى غيره تعالى، بأن يقال: مطرنا بنوء كذا، **قال ابن قتيبة:** كانوا فى الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء إما بصنعه على زعمهم، وإما بعلامته؛ فأبطل الشرع قولهم، وجعله كفراً؛ فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعاً فى ذلك، فكفره كفر شرك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة، فليس بشرك؛ لكن

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤١,٣٤٢.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة؛ لأنه لم يقع فى شىء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين.

وقال الشافعى: من قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا فى وقت كذا، فلا يكون كفراً، وغيره من الكلام أحب إلى منه.

قلت: يعنى سليمان آل الشيخ: قد يقال: إن كلام الشافعى لايدل على جواز ذلك، وإنما يدل على أنه لا يكون كفر شرك، وغيره من الكلام أحسن منه. أما كونه يجوز إطلاق ذلك أو لا يجوز، فالصحيح أنه لا يجوز، لما تقدم أن معنى الحديث هو نسبة السقيا إلى الأنواء لفظاً، وإن كان القائل لذلك يعتقد أن الله هو المنزل للمطر، فهذا من باب الشرك الخفى فى الألفاظ، كقوله: لولا فلان لم يكن كذا، وفيه معنى قوله تعالى ﴿**وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ**﴾ فإن كثيراً من النعم قد تجر الإنسان إلى شر، كالذين قالوا: «مطرنا بنوء كذا» بسبب نزول النعمة.

وفيه التفطن للإيمان فى هذا الموضع. ذكره المصنف، يشير إلى أن المراد به هنا نسبة النعمة إلى الله وحمده عليها، كما فى قوله: ﷺ إخباراً عن ربّه تعالى: «**فَأَمَّا مَنْ حَمِدَنِى عَلَى سُقْيَاىَ وَأَثْنَى عَلَىَّ فَذَاكَ مَنْ آمَنَ بِى**» وقوله: «**فأما من قال: مُطِرْنا بِفَضْلِ الله ورَحْمَته**» الحديث

وفيه أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة. ذكره المصنف. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(١)

قوله: «**مؤمنٌ بى وكافر**» إذا اعتقد أنَّ للنوء تأثيراً فى إنزال المطر، فهذا كفر؛ لأنه شركٌ فى الربوبية، والمشركُ كافر. وإنْ لم يعتقد ذلك، فهو من الشرك الأصغر؛ لكونه نسب نعمةَ الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوءَ سبباً لإنزال المطر فيه، وإنَّما هو فضلٌ من الله ورحمة. يحُبسه إذا شاء، ويُنزِله إذا شاء.

ودلَّ هذا الحديث: أنه لا يجوز لأحدٍ أنْ يُضيف أفعالَ الله إلى غيره، ولو على سبيل المجاز.

وأيضاً، الباءُ تحتمل معانى، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة؛ لما عرفتَ من أنَّ هذا باطل. ولا تصدقُ أيضاً على أنها للمصاحبة، لأن

(١) فتح المجيد ٢/ ٥٤٣، ٥٤٤.

المطر قد يجيءُ في هذا الوقت وقد لا يجيء فيه. وإنما يجيء المطرُ في الوقت الذي أراد الله مجيئه فيه، برحمته وحكمته وفضله. فكلُ معنى تُحمل عليه الباءُ في هذا اللفظ المنهي عنه فاسدٌ.

فيظهر على هذا: تحريمُ هذه اللفظة مطلقاً؛ لفساد المعنى. وقد تقدّم القطعُ بتحريمه في كلام صاحب (الفروع) و (الإنصاف).

قوله: فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته

قال سليمان آل الشيخ(١).

قوله: أي من نسبه إلى الله واعتقد أنه أنزله بفضله ورحمته من غير استحقاق من العبد على ربه وأثنى به عليه، فقال: «مطرنا بفضل الله ورحمته»، وفي الرواية الأخرى: «**فأما من حمدني على سقياي، وأثنى على فذاك من آمن بي**» وهكذا يجب على الإنسان أن لا يضيف نعم الله إلى غيره ولا يحمدهم عليها بل يضيفها إلى خالقها ومقدرها الذي أنعم بها على العبد بفضله ورحمته، ولا ينافي ذلك الدعاء لمن أحسن بها إليك، وذكر ما أولاكم من المعروف إذا سلم لك دينك، والسر في ذلك- والله أعلم- أن العبد يتعلق قلبه بمن يظن حصول الخير له من جهته وإن كان صنع له في ذلك، وذلك نوع شرك خفي فمنع من ذلك.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢): فالفضلُ والرحمة صِفتان لله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أنَّ ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات: كالحياة، والعلم. وصفات الأفعال؛ كالرحمة التي يرحم بها عباده، كلها صفاتٌ لله قائمة بذاته، ليست قائمةً بغيره، فتفطَّنْ لهذا؛ فقد غلِط فيه طوائف.

وفي هذا الحديث: أنَّ نعم الله لا يجوز أنْ تُضاف إلاَّ إليه وحده، وهو الذي يُحمد عليها، وهذه حالُ أهل التوحيد. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): أي: قال بلسانه وقلبه، والباء للسببية، والفضل: العطاء والزيادة.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٢.

(٢) فتح المجيد ٢/ ٥٤٤.

(٣) القول المفيد ٢/ ١٥٦.

والرحمة: صفة من صفات الله، يكون بها الإنعام والإحسان إلى الخلق.

قوله «فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب».

قال ابن باز(١): لانه علم أن الله مُنزل الأمطار وهذا المطر من رحمة الله وفضله.

قال ابن عثيمين(٢): لأنه نسب المطر إلى الله ولم ينسبه إلى الكوكب، ولم ير له تأثيراً فى نزوله، بل نزل بفضل الله. اهـ.

قوله: «بنوء»

قال النووى(*): فيه كلام طويل قد لخصه الشيخ أبو عمرو بن الصلاح - رحمه الله - فقال: النوء فى أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر ناء النجم ينوء نوءاً أى سقط وغاب وقيل أى نهض وطلع وبيان ذلك أن ثمانية وعشرين نجماً معروفة المطالع فى أزمنة السنة كلها، وهى المعروفة بمنازل القمر الثمانية والعشرين يسقط كل ثلاثة عشر ليلة نجم فى المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله فى المشرق من ساعته وكان أهل الجاهلية إذا كان عند ذلك مطر ينسبونه إلى الساقط الغارب منهما.

وقال الأصمعى: إلى الطالع منهما. قال أبو عبيد: ولم أسمع أحداً ينسب النوء للسقوط إلا فى هذا الموضع، ثم أن النجم نفسه قد يسمى نوءاً تسمية للفاعل بالمصدر.

قال أبو إسحاق الزجاج فى بعض أماليه: الساقطة فى الغرب هى الأنواء والطالعة فى المشرق هى البوارح. والله أعلم . اهـ.

قال: ومعنى النوء سقوط نجم فى المغرب من النجوم الثمانية والعشرين التى هى منازل القمر، قال: وهو مأخوذ من ناء إذا سقط، وقال آخرون: بل النوء طلوع نجم منها، وهو مأخوذ من ناء إذا نهض، ولا تخالف بين القولين فى الوقت لأن كل نجم منها إذا طلع فى المشرق وقع حال طلوعه آخر فى المغرب لا يزال ذلك مستمراً إلى أن تنتهى الثمانية والعشرون بانتهاء السنة، فإن لكل واحد منها ثلاثة عشر يوماً تقريباً.

قوله: وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا

---

(١) التعليق المفيد ١٧١.

(٢) القول المفيد ٢/١٥٦.

(*) شرح مسلم (١/٣٣٩)

قال ابن حجر[1].

قوله (مطرنا بنوء كذا وكذا) فى حديث أبى سعيد عند النسائى «مطرنا بنوء المجدح» بكسر الميم وسكون الجيم وفتح الدال بعدها مهملة ويقال بضم أوله هو الدبران بفتح المهملة والموحدة بعدها، وقيل سمى بذلك لاستدباره الثريا، وهو نجم أحمر صغير منير. **قال ابن قتيبة**: كل النجوم المذكورة له نوء غير أن بعضها أحمر وأغزر من بعض، ونوء الدبران غير محمود عندهم، انتهى. وكأن ذلك ورد فى الحديث تنبيهاً على مبالغتهم فى نسبة المطر إلى النوء ولو لم يكن محموداً، أو اتفق وقوع ذلك المطر فى ذلك الوقت إن كانت القصة واحدة. وفى مغازى الواقدى أن الذى قال فى ذلك الوقت «مطرنا بنوء الشعرى» هو عبدالله بن أبيٍّ المعروف بابن سلول أخرجه من حديث أبى قتادة. وفى هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم طرح الإمام المسألة على أصحابه وإن كانت لا تدرك إلا بدقة النظر. ويستنبط منه أن للولى المتمكن من النظر فى الإشارة أن يأخذ منها عبارات ينسبها إلى الله تعالى كذا قرأت بخط بعض شيوخنا، وكأنه أخذه من استنطاق النبى ﷺ أصحابه عما قال ربهم وحمل الاستفهام فيه على الحقيقة، لكنهم رضى الله عنهم فهموا خلاف ذلك، ولهذا لم يجيبوا إلا بتفويض الأمر إلى الله ورسوله. اهـ.

قلت : بل الأولى أن يستنبط من هذه الجزئية ماسيأتى من كلام سليمان تبعاً للمصنف أن فيها إخراج العالم التعليم للمسألة بالاستفهام فيها، وذلك لأن هذا الاستنباط بعيد ومع بعده فيه شبهة للصوفية وغيرهم ممن ينصبون لأنفسهم أئمة ثم يغالون فيهم بل يدعون أنهم يعرفون الغيب أو العلم اللدنى أو غير ذلك.

قال سليمان آل الشيخ[2]: كالصريح فيما ذكرنا أن المراد نسبة ذلك إلى غير الله، وإن كان يعتقد أن المنزل للمطر هو الله. ولهذا لم يقل فأما من قال: أنزل علينا المطر أو أمطرنا نوء كذا.

قال المصنف: وفيه التفطن للكفر فى هذا الموضع يشير إلى أن المراد بالكفر هنا هو نسبة النعمة إلى غير الله كالنوء ونحوه على ما تقدم، ولما كان إنزال الغيث من أعظم نعم الله وإحسانه إلى عباده لما اشتمل عليه من منافعهم، فلا يستغنون عنه أبداً كان من شكره الواجب عليهم أن يضيفوه إلى البر الرحيم المنعم، ويشكروه فإن النفوس قد جبلت على حب من أحسن إليها، والله تعالى هو المحسن المنعم على الإطلاق الذى ما بالعباد من نعمة فمنه وحده، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾. اهـ.

---

(1) الفتح ٢/ صـ ٦٠٨، ٦٠٩.   (2) تيسير العزيز الحميد ٣٤٢.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[1]: قال القُرطبي في شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العربُ إذا طلع نجمٌ من المشرق وسقط آخرُ من المغرب فحدث عند ذلك مطرٌ أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب؛ نسبةَ إيجادٍ واختراع، ويُطلقون ذلك القولَ المذكور في الحديث. فنهى الشارعُ من إطلاق ذلك؛ لئلا يعتقد أحدٌ اعتقادهم، ولا يشتبه بهم في نطقهم. انتهى.

قوله: فمنهم من ينسبُه نسبةَ إيجاد. يدلُّ على أنَّ بعضهم لا يعتقد ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فدلَّ على أنَّ منهم من يعرف ويقرُّ بأنَّ الله هو الذي أوجد المطر، وقد يعتقد هؤلاء أنَّ للنوء فيه شيئاً من التأثير.

والقرطبيُّ في شرحه لم يُصرِّح أنَّ العرب كلَّهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره، فلا اعتراض عليه بالآية؛ للاحتمال المذكور. اهـ

قال ابن باز[2].

لأنه من أنواع الكفر ولا يقول صدق نوء كذا أو سقينا بنوء كذا بل يقول مطرنا بفضل الله ورحمته.

«مطرنا بنوء كذا» أن قصد به أنه هو الذي خلق المطر وهو المتصرف في الكون فهذا كفر أكبر وأن قصد أنه سبب لهذا المطر فهذا نوع من أنواع الكفر ولكنه كفر أصغر لأنه ليس هو المتسبب بل كله من الله تعالى والنجم ظرف من الظروف تقع فيه الحوادث كما تقع في الأيام والليالي. أما إذا قال مطرنا في الصيف أو نحوه فلا بأس لأنه إخبار عن الوقت. فالواجب الحذر من أخلاق الجاهلية والاعتراف بنعمة الله سبحانه. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: الباء للسببية؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب، وصار كافراً بالله؛ لأنه أنكر نعمة الله ونسبها إلى سبب لم يجعله الله سبباً؛ فتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسي نعمة الله، وهذا الكفر لا يُخرِج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب وليس إلى النوء على أنه فاعل.

---

(١) فتح المجيد (٢/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) التعليق المفيد ١٧١، ١٧٢.

(٣) القول المفيد ٢/ ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨.

لأنه قال: «مطرنا بنوء كذا»، ولم يقل: أَنْزَلَ علينا المطَر نوء كذا؛ لأنه لو قال ذلك؛ لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد، وبه نعرف خطأ من قال: إن المراد بقوله: «مطرنا بنوء كذا» نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد؛ لأنه لو كان هذا هو المراد؛ لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا ولم يقل مطرنا به.

فعُلِم أن المراد أن من أقر بأن الذى خلق المطر وأنزله هو الله، لكن النوء هو السبب؛ فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذى لا يخرج من الملة.

والمراد بالكوكب النجم، وكانوا ينسبون المطر إليه، ويقولون: إذا سقط النجم الفلانى جاء المطر، وإذا طلع النجم الفلانى جاء المطر، وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت، وإنما نسبة سبب؛ فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.

٢- نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.

٣- نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله: مطرنا بنوء كذا؛ أى: جاءنا المطر فى هذا النوء أى فى وقته. ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول: مطرنا بنوء كذا، ويجوز مطرنا فى نوء كذا، وفرّقوا بينهما أن الباء للسببية، وفى للظرفية، ومن ثَمَّ قال أهل العلم: إنه إذا قال: مطرنا بنوء كذا وجعل الباء للظرفية فهذا جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى، لكن لا وجه له من حيث اللفظ؛ لأن لفظ الحديث: «من قال: مطرنا بنوء كذا»، والباء للسببية أظهر منها للظرفية، وهى وإن جاءت للظرفية كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ﴾، لكن كونها للسببية أظهر، والعكس بالعكس؛ فـ «فى» للظرفية أظهر منها للسببية وإن جاءت للسببية؛ كما فى قوله ﷺ: «دخلت امرأة النار فى هرة»[1]. اهـ

والحاصل أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقاً، ولا يظن أنها تأتى سببية؛ فهذا جائز، ومع ذلك؛ فالأولى أن يقال لهم: قولوا: فى نوء كذا. اهـ

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٣١٨)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٧٢ - النووى) عن ابن عمر به، وانظر «رياض الصالحين» (١٦٠٣ - بتخريجنا)

● **فوائد الحديث:**

قال سليمـان آل الشيخ [١]: وفيه القاء العـالم للمسألة على أصحابه لـيختبرهم وتقدمت هذه الفائدة من كلام ابن حجر.

- وإخراج العالم التعليم للمسألة بالاستفهام فيها.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[٢]:

- أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز.

- إن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده وهو الـذى يُحمد عليها، وهذا حال أهل التوحيد.

قال عبدالله بن جار لله [٣]:

١- لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره.

٢- أن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده.

٣- إثبات صفه الفضل والرحمة لله تعالى.

قال القرعاوى[٤]

١- استحباب انصراف الإمام بعد التسليم والتوجه إلى المأمومين.

٢- استحباب التشويق إلى العلم بالاستجواب.

٣- إثبات صفة القول لله.

٤- حسن الادب للمسئول عمالا يعلم.

٥- تحريم الكفر بالنعم.

٦- إثبات صفة الرحمة لله

٧- نسبة النعمة إلى غير الله كفر بها.

٨- تحريم قول الإنسان مطرنا بنؤ كذا



(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠

(٢) فتح المجيد ٢/٥٤٣.

(٣) الجامع الفريد ١٢٣.

(٤) الجديد ٢٧٣.

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيْثِ ابنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وفيه: «قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَد صَدَقَ نَوءِ كَذَا وَكَذَا. فَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الآيات:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾(*)[1]

قوله: «ولهما من حديث ابن عباس ... » الحديث.

قال سليمان آل الشيخ[2]: الحديث لمسلم فقط ولفظه عن ابن عباس «مُطر الناس على عهد النبى- ﷺ- فقال النبى- ﷺ- **أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا** وقال: فنزلت هذه الآية ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

قلت: وتقدم عزو السيوطى له فى «الدر» إلى مسلم فقط.

مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى[3]: حيث دلت الآية على كفر من نسب النعم إلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى[4]: حيث كذبت الآية من نسب النعم إلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء لأن ذلك إشراك مع الله فى إنعامه. اهـ.

قوله «قال بعضهم».

قال سليمان آل الشيخ[5]: ذكر الواقدى فى مغازيه عن أبى قتادة أن عبدالله ابن أبى هو القائل فى ذلك الوقت: مطرنا بنوء الشعرى. وفى صحة ذلك نظر.

(*) الواقعة (٧٥-٨٢)

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٤٣.

(٣)،(٤) الجديد ٢٧٦.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٤٣.

قوله: «لقد صدق نوء كذا...»

تقدم قريباً تعريف النوء، وماجاء فيه من أقوال أهل العلم.

قوله [فأنزل الله هذه الآيات]

قال النووى(*): قال الشيخ أبو عمرو ـ رحمه الله ـ :ليس مراده أن جميع هذا نزل فى قولهم فى الأنواء، فإن الأمر فى ذلك وتفسيره يأبى ذلك وإنما النازل فى ذلك قوله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ والباقى نزل فى غير ذلك، ولكن اجتمعا فى وقت النزول، فذكر الجميع من أجل ذلك.

قال الشيخ أبو عمرو ـ رحمه الله ـ ومما يدل على هذا أن فى بعض الروايات عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى ذلك الاقتصار على هذا القدر اليسير فحسب، هذا آخر كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ اهـ.

قلت: ولهذا لم نفسر إلا هذه الآية على منهجنا فى الكتاب والباقى فسرناه بكلام شراح التوحيد فقط.

قوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ هذا قسم من الله عزَّ وَجَلَّ، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمة المقسم به وتشريفه. وتقديره: أقسم بمواقع النجوم، ويكون جوابه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، فعلى هذا تكون (لا) صلة لتأكيد النفى، فتقدير الكلام: ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم.

قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ﴾ فليس الأمر كما تقولون، ثم استؤنف القسم بعد، فقيل: ﴿أُقْسِمُ﴾؛ ومواقع النجوم. قال ابن عباس يعنى نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً فى السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. ومواقعها نزولها شيئاً بعد شيء، وقيل: النجوم هى الكواكب، ومواقعها مساقطها عند غروبها، قال مجاهد: مواقع النجوم يقال: مطالعها ومشارقها، واختاره ابن جرير.

قال النووى(*): وأما مواقع النجوم، فقال الأكثرون : المراد نجوم السماء، ومواقعها: مغاربها.

وقيل مطالعها، وقيل : انكدارها، وقيل : انتثارها يوم القيامة، وقيل: النجوم نجوم

(*) شرح مسلم (١/ ٣٣٩)

القرآن، وهى أوقات نزوله، وقال مجاهد: مواقع النجوم محكم القرآن. والله أعلم اهـ.

ثم قال سليمان آل الشيخ

فائدة: وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم فى القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه:

أحدها أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الغي والجهل؛ فتلك هداية فى الظلمات الحسية، وآيات القرآن هداية فى الظلمات المعنوية؛ فجمع ين الهدايتين مع ما فى النجوم من الزينة الظاهرة للعالم وفى القرآن من الزينة الباطنة؛ ومع ما فى النجوم من الرجوم للشياطين، وفى آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن؛ والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية؛ مع ما فى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول، ذكره ابن القيم. اهـ.

قال ابن عثيمين(١):

فإن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويُصدِّقون كلامه؛ فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به؛ فلا فائدة منه، قال تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**﴾.

أجيب: أن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربى لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المُخاطَب، والقرآن نزل بلسان عربى مبين.

الثانى: أن المؤمن يزداد يقيناً من ذلك، ولا مانع من زيادة المُؤكِّدات التى تزيد فى يقين العبد، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾.

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه؛ فكأنه يقيم فى هذا المُقْسَم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عِظَم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان الوجهان لا

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٥٩.

يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التى أقسم بـها تنويهاً له بها وتنبيهاً على عظمها.

الخامس: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات.

وقوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾

الله- سبحانه- يتحدث عن نفسه بضمير المفرد؛ لأنه يدل على الانفراد والتوحيد؛ فهو سبحانه واحد لا شريك له، ويتحدث عن نفسه بضمير الجمع؛ لأنه يدل على العظمة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ الآية، ولا يتحدث عن نفسه بالمثنى؛ لأن المثنى محصور باثنين.

والباء حرف قسم، والمواقع جمع موقع.

واختلف فى النجوم؛ فقيل: إنها النجوم المعروفة؛ فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.

وأقسم الله بها؛ لما فيها من الدلالة على كمال القدرة فى هذا الانتظام البديع وما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب؛ فإن السماء عند نزول الوحى مُلِئَت حرساً شديداً وشهباً.

وقيل: إن المراد آجال نزول القرآن، ومنه قولهم: «نزل القرآن مُنجَّماً»، وقول الفقهاء: يجب أن يكون دين المُكَاتَب مؤجلاً بنجمين فأكثر؛ فيكون الله أقسم بمواقع نزول القرآن، وقد سبقت لنا قاعدة مفيدة، وهى أنه إذا كان المعنيان لا يتنافيان تحمل الآية على كل منهما، وإلا؛ طُلب المرجح. اهـ.

قلت: انتهى هنا محل الشاهد من الآيات وسنورد باقى التفسير تبعاً لشراح كتاب التوحيد مقتصرين على كلامهم فقط.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

قال سليمان آل الشيخ(١).

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال ابن كثير: أى وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم عليه. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٤.

﴿كَرِيمٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو القرآن أي: أنه وحي الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر وكهانة أو شعر، بل هو قرآن كريم أي: عظيم كثير الخير، لأنه كلام الله.

قال ابن القيم: فوصفه بما يقتضي حسناً وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهي الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره، وحسن منظره من النبات وغيره، ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن.

قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله تعالى كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان، والعلم والحكمة. اهـ.

قال ابن عثيمين[1]:

قوله: **﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾**

﴿لَقَسَمٌ﴾: خبر إن، وهذا القسم أكد الله عظمته بإن واللام تنويهاً بالمُقْسَم عليه وتعظيمه.

وقوله: **﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾**.

مُؤكِّد ثالث كأنه قال: ينبغي أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه؛ فهو أعظم من أن يكون مجهولاً؛ فإنه يحتاج إلى علم وانتباه، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته؛ فانتبهوا.

قوله: **﴿لَقُرْآنٌ﴾**.

مصدر مثل الغفران والشكران بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول؛ فعلى الأول يكون المراد أنه جامع للمعاني التي تضمنتها الكتب السابقة من المصالح والمنافع، قال تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾**، وعلى الثاني يكون بمعنى المجموع؛ لأنه مجموع مكتوب.

قوله: **﴿كَرِيمٌ﴾**.

يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال في العطاء متعد للغير، ويطلق على الشيء البهي الحسن، ومنه قول النبي ﷺ: **«إياك وكرائم أموالهم»**[2].

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٦١ - ١٦٣.
(٢) تقدم تخريجه

أى: البهى منها والحسن، وهذا كمال فى الذات، وهذان المعنيان موجودان فى القرآن؛ فالقرآن لا أحسن منه بذاته، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

والقرآن يعطى أهله من الخيرات الدينية والدنيوية والجسمية والقلبية، قال تعالى: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ فهو سلاح لمن تمسك به، ولكن يحتاج إلى أن نتمسك به بالقول والعمل والعقيدة؛ فلا بد أن يصدق العقيدة العملُ، قال ﷺ: «**ألا إن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب**»(1).

ووصف الله القرآن فى آية أخرى بأنه مجيد، والمجد صفة العظمة والعزة والقوة، والقرآن جامع بين الأمرين: فيه قوة وعظمة، وكذا خيرات كثيرة وإحسان لمن تمسك به.

قوله ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾

قال سليمان آل الشيخ(2):

وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ قال ابن كثير: أى: معظم فى كتاب معظم محفوظ موقر. وقال ابن القيم: اختلف المفسرون فى هذا فقيل: هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة. قوله: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه. اهـ.

قال ابن عثيمين(3):

قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾.

كتاب فعال بمعنى مفعول، مثل: فراش بمعنى مفروش، وغراس بمعنى مغروس، وكتاب بمعنى مكتوب.

والمكنون: المحفوظ، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

---

(1) [صحيح] أخرجه البخارى(52)، ومسلم فى المساقاة (11/27 ـ النووى) عن النعمان بن بشير به وانظر «رياض الصالحين» (589 ـ بتخريجنا).

(2) تيسير العزيز الحميد 344.

(3) القول المفيد 2/163.

واختلف المفسرون فى هذا الكتاب على قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه كل شىء.

الثانى: وإليه ذهب ابن القيم أنه الصحف التى فى أيدى الملائكة، قال تعالى: **﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾**، فقوله: **﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾** يرجح أن المراد الكتب التى فى أيدى الملائكة؛ لأن قوله: **﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾**؛ أى: الملائكة، يوازن قوله: **﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾**، وعلى هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد. اهـ.

قوله ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾.

قال سليمان آل الشيخ(١):

وقوله: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: **﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾** قال: الكتاب الذى فى السماء.(٢).

وفى رواية: **﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾** يعنى: الملائكة (٣).

وقال قتادة: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما فى الدنيا فإنه يمسه المجوسى النجس والمنافق الرجس. قال: وهى فى قراءة ابن مسعود: **﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾** (٤)

واختار هذا القول كثيرون منهم ابن القيم ورجحه،

وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين فأخبر الله تعالى أنه: **﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾** كما قال: **﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ إلى قوله: ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾**.

قال ابن كثير: وهذا قول جيد وهو لا يخرج عن القول قبله.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٤- ٣٤٥.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٢) ونسبه لآدم، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقى فى «المعرفة»

وانظر «فتح القدير» (١١٨٥٣ ـ بتخريجنا)

(٣) ما قبله

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير.

وقال البخارى فى «صحيحه» فى هذه الآية لا يجد طعمه إلا من آمن به.

قال ابن القيم: وهذا من إشارة الآية وتنبيهها وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً. ولا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه منه حرج بوجه من الوجوه.

وقال آخرون: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ أى: من الجنابة والحدث قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناه الطلب. قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف كما فى:

حديث ابن عمر مرفوعاً عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَنْهى أَنْ يُسَافَرَ بِالقُرآنِ إِلى أَرْضِ العَدُوِّ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالُه العَدُوُّ»[1]، واحتجوا على ذلك بما.

رواه مالك فى «الموطأ» عن عبدالله بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أن لاَ يَمَسَّ القُرْآنُ إِلاَّ طَاهِرٌ[2]. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]:

قوله: ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾.

الضمير يعود إلى الكتاب المكنون؛ لأنه أقرب شىء، وهو بالرفع ﴿لا يَمَسُّهُ﴾ باتفاق القراء، وإنما نبهنا على ذلك؛ لدفع قول من يقول: إنه خبر بمعنى النهى، والضمير يعود على القرآن؛ أى: نهى أن يمس القرآن إلا طاهر، والآية ليس فيها ما يدل على ذلك، بل هى ظاهرة فى أن المراد به اللوح المحفوظ؛ لأنه أقرب مذكور، ولأنه خبر، والأصل فى الخبر أن يبقى على ظاهره خبراً لا أمراً ولا نهياً حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، ولم يرد ما يدل على خلاف ذلك، بل الدليل على أنه لا يراد به إلا ذلك، وأنه يعود إلى الكتاب المكنون، ولهذا قال الله: ﴿إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ باسم المفعول، ولم يقل: إلا المطَّهِّرون، ولو كان المراد المطَّهِّرين لقال ذلك، أو قال: إلا المتطهرون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

---

(١) أخرجه البخارى (٢٩٩٠)، ومسلم فى الإمارة (٧/١٧/٩٢) وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

(٢) أخرجه مالك فى «الموطأ» (١/١٧٧)

وانظر مقدمه تخريجنا لمنار السبيل».

(٣) القول المفيد ٢/١٦٢- ١٦٣- ١٦٤.

والمطهرون: هم الذين طهرهم الله تعالى، وهم الملائكة، طهروا من الذنوب وأدناسها، قال تعالى: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، وفرق بين المطهِّر الذى يريد أن يفعل الكمال بنفسه، وبين المطهَّر الذى كمله غيره وهم الملائكة، وهذا مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أن المراد بالكتاب الكتب التى فى أيدى الملائكة، وفى الآية إشارة على أن من طهر قلبه من المعاصى كان أفهم للقرآن، وأن من تنجس قلبه بالمعاصى كان أبعد فهماً عن القرآن؛ لأنه إذا كانت الصحف التى فى أيدى الملائكة لم يمكن الله من مسها إلا هؤلاء المطهرين؛ فكذلك معانى القرآن.

فاستنبط شيخ الإسلام من هذه الآية: أن المعاصى سبب لعدم فهم القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾؛ فهم لا يصلون إلى معانيها وأسرارها؛ لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

قلت: ويستدل على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: الآية

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنه ينبغى لمن استفتى أن يقدم بين يدى الفتوى الاستغفار لمحو أثر الذنب من قلبه حتى يتبين له الحق، واستنبطه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قال سليمان آل الشيخ(١)

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال ابن كثير أى: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذى لا مرية فيه وليس وراءه حق نافع. وفى هذه الآية إثبات أنه كلام الله تكلم به.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٥- ٣٤٦.

قال ابن القيم: ونظيره ﴿ولكن حق القول منى﴾ وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وإثبات علو الله سبحانه على خلقه، فإن النزول والتنزيل الذى تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشىء من أعلى إلى أسفل، ولا يرد عليه قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ لأنا نقول: إن الذى أنزلها فوق سمواته فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم: وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم، وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم وإحسانه وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم؟ فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به. وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

فائدة: أى: تريدون أن تمالؤوهم فيه وتركنوا إليهم.

قال ابن القيم: ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الأدهان فى غير موضعه وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء فى طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به. فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه؟! ولم ينزل للمداهنة، وإنما أنزل بالحق وللحق، والمداهنة إنما تكون فى باطل قوى لا تمكن إزالته، أو فى حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق، ويلتزم بعض الباطل. فأما الحق الذى قام به كل حق فكيف يداهن فيه؟ وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، تقدم الكلام عليها أول الباب، والله أعلم(١).

قال ابن عثيمين(٢) قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

---

(١) وانظر رسالتى (المداهنة المداراة) يسر الله طبعها.

(٢) القول المفيد ٢/ ١٦٥- ١٦٦.

خبر ثان لقوله: ﴿وإنه﴾، وهو كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ فهو خبر مكرر مع قوله: ﴿لَقُرْآنٌ﴾.

وتنزيل؛ أي: منزل؛ فهي مصدر بمعنى اسم المفعول منزل من رب العالمين، أنزله الله على قلب النبي ﷺ؛ لأنه محل الوعي والحفظ بواسطة جبريل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

قال ابن عثيمين(1):

ويستفاد من الآية ما يلي:

١- أن القرآن نازل لجميع الخلق؛ ففيه دليل على عموم رسالة النبي ﷺ.

٢- أنه نازل من ربهم، وإذا كان كذلك؛ فهو الحكم بينهم الحاكم عليهم.

٣- أن نزول القرآن من كمال ربوبية الله، فإذا أضيف إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ علم أن القرآن رحمةٌ للعباد أيضاً، وربوبية الله مبنية على الرحمة، قال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وكل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه؛ فهو رحمة بهم.

٤- أن القرآن كلام الله؛ لأنه إذا كان الله أنزله؛ فهو كلامه لا كلام غيره كما قاله السلف رحمهم الله، وهو غير مخلوق؛ لأن جميع صفات الله حتى الصفات الفعلية ليست مخلوقة.

والقرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

فإن قيل: هل كل منزل غير مخلوق؟

قلنا: لا، لكن كل منزل يكون وصفاً مضافاً إلى الله؛ فهو غير مخلوق؛ كالكلام، وإلا؛ فإن الله أنزل من السماء ماء وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ والأنعام مخلوقة، فإذا كان المُنَزَّل من عند الله صفة لا تقوم بذاتها، وإنما تقوم بغيرها؛ لزم أن يكون غير مخلوق؛ لأنه من صفات الله.

(١) القول المفيد (٢/ ١٦٦-١٦٩)

قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾.

الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والحديث: القرآن، والمُدْهن: الخائف من غيره الذى يحابيه بقوله وفعله.

والمعنى: أتدهنون بهذا الحديث وتخافون وتستخفون؟! لا ينبغى لكم هذا، بل ينبغى لمن معه القرآن أن يصدع به وأن يبينه ويجاهد به، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف؛ أى: أتجعلون شكر رزقكم؛ أى: ما أعطاكم الله من أى شىء من المطر ومن إنزال القرآن؛ أى: تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبى ﷺ وإن كان ذكرها فى المطر؛ فإنها تشمل المطر وغيره.

وقيل: إنه ليس فى الآية حذف، والمعنى: تجعلون شكركم تكذيباً، وقال: إن الشكر رزق، وهذا هو الصحيح، بل هو من أكبر الأرزاق، قال الشاعر:

إذا كان شُكرى نعمةَ الله نعْمَةً ... علىَّ لَهُ فى مِثْلِهَا يَجبُ الشُّكرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إلا بِفَضْلِه ... وإن طالتْ الأيامُ واتصلَ العُمرُ

فالنعمة تحتاج إلى شكر، ثم إذا شكرتها؛ فهى نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثانٍ، وإن شكرت فى الثانية؛ فهى نعمة تحتاج إلى شكر ثالث، وهكذا أبداً، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

قوله: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾

﴿أن﴾ وما دخلت عليه فى تأويل مصدر مفعول تجعلون الثانى؛ أى: تُصيِّرون شكركم تكذيباً، ولا شك أن هذا من السَّفه أن يقابل الإنسان نعمة ربه بالتكذيب، إن كانت وحياً كَذَّب خبره ولم يمتثل أمره ولم يجتنب نهيه، وإن كانت عطاءً تنمو به الأجسام نسبه إلى غير الله، قال: هذا من النوء أو هذا من عملى؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾.



فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الوَاقِعَةِ.

الثانية: ذِكْرُ الأَرْبَعِ الَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ.

الثالثة: ذِكْرُ الكُفْرِ فِي بَعْضِهَا.

الرابعة: أَنَّ مِنَ الكُفْرِ مَا لاَ يُخْرِجُ عَنِ المِلَّةِ.

الخامسة: قوله: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ»، بِسَبَبِ نزول النعمة.

قوله: وفيه مسائل

- **الأولى: تفسير آية الواقعة.**

قال ابن عثيمين[1]

وهى قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، وقد مر تفسيرها.

- **الثانية: ذكر الأربع التى من أمر الجاهلية.**

وهى الطعن فى الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنـواء، والنياحة على الميت.

- **الثالثة: ذكر الكفر فى بعضها.**

وهى الاستسقاء بالأنـواء، وكذلك الطعن فى النسب، والنياحة عـلى الميت؛ كما فى حديث: **«اثنتان فى الناس هما بهم كفر: الطعن فى النسب، والنياحة على الميت»**.

- **الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة.**

وهى أن الاستسقاء بالأنـواء بعضه كفر مخرج عن الملة وبعـضه كُفر دون ذلك، وقد سبق بيان ذلك.

قلت: وكذلك الطعن فى النسب

- **الخامسة: قوله: «أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر» بسبب نزول النعمة.**

---

(1) القول المفيد ٢/١٧٠

السادسة: التَّفَطُّنُ للإيمَانَ فِى هَذَا المَوْضِعِ.

السابعة: التَّفَطُّنُ للكُفْرِ فِى هَذَا المَوْضِعِ.

الثامنة: التَّفَطُّنُ لِقَوْلِه: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وكَذَا».

أى: إن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء، والواجب على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله، بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سبباً، مثال ذلك: رجل غرق فى ماء، وكان عنده رجل قوى، فنزل وأنقذه؛ فإنه يجب على هذا الذى نجا أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمر أمراً قدريًا وأمراً شرعياً أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ، فأنت تعتقد أن هذا سبب محض.

أما إن غرق وييسر الله له، فخرج، فقال: إن الولى الفلانى أنقذنى؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه سبب غير صحيح، ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب، بل يريد أنه منقذ بنفسه؛ لأن اعتقاد أنه سبب وهو فى قبره غير وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالى؛ فيقعون فى الشرك الأكبر من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون، ثم قد يفتنون؛ فيحصل لهم ما يريدون عند دعاء الأولياء لا به؛ لأننا نعلم أن هؤلاء الأولياء لا يستجيبون لهم؛ لقوله تعالى: **﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾**(١)، وقوله: **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾**(٢).

- **السادسة: التفطن للإيمان فى هذا الموضع.**

وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته.

- **السابعة: التفطن للكفر فى هذا الموضع.**

وهو نسبة المطر إلى النوء؛ فيقال: هذا بسبب النوء الفلانى، وما أشبه ذلك.

- **الثامنة: التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا».**

---

(١) الأعراف: ١٩٨.

(٢) الأحقاف: ٥.

التاسعة: إِخْرَاجُ العَالِمِ للمُتَعَلِّمِ المَسْأَلَةَ بالاسْتِفهَامِ عَنْهَا لِقَوْلِه: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟».

العاشرة: وَعِيدُ النَّائِحَةِ.

وهذا قريب من قوله: «مطرنا بنوء كذا» لأن الثناء بالصدق على النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعده، ثم بتنفيذ وعده.

● **التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها؛ لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم».**

وذلك أن يلقى العالم على المتعلم السؤال لأجل أن يتنبه له، وإلا؛ فالرسول : يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله، لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر؛ فقال: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**»، وهذا يوجب استحضار قلوبهم.

قلت: وفى كلام الشيخ ابن عثيمين رد آخر على الفائدة التى أوردها ابن حجر من هذا الحديث وهى أن الولى قد يعرف بالإشارات عبارات ينسبها الله تعالى وحمل الاستفهام فيها على حقيقته وفهم الصحابة خلاف أى أن الاستفهام ليس على حقيقته لأنهم يعلمون أن الرسول يعلم أن الصحابة لايعلمون ماذا قال الله وهو ماذهب إليه الشيخ هاهنا . والله أعلم.

● **العاشرة: وعيد النائحة.**

وذلك بقوله: «إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب، وهذا وعيد عظيم.



٣٠ باب

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾(١).

تمهيد: [قلت]: تقدم فى الباب الخامس (تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله) مسائل الولاء (المحبة لله ورسوله) والبراء (بغض أعداء الله) بتفصيل فهذا الباب - الثلاثين - له علاقة بالباب الخامس أيضاً، ليس هذا فحسب بل وله علاقة بباب (التغليظ فيمن عبدالله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده) حيث ذكر فيه حديث جندب بن عبدالله وفيه «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليل» حيث ذكرنا هناك الفرق بين الخلة والمحبة والمسائل المتفرعة عليهما، فالجمع بين هذين البابين مع هذا الباب يجمع لك الفوائد كلها.

● **مناسبة هذا الباب لما قبله**

قال الفقير: لما كان من أعظم أسباب حركة القلب وتعلقه بمحبوبه - سبحانه وتعالى - كثيرة ذكره ومطالعة آلائه ونعمائه كان الإستسقاء بالأنواء دليلاً على فراغ القلب من هذه المحبة ومن أسبابها التى منها مطالعة آلآء الله ونعمائه على العبد بل فى هذا الاستسقاء صرف لهذه المحبة وأسبابها لغير الله لهذا ولغيره ناسب أن يذكر المصنف باب المحبة بعد باب الاستسقاء بالأنواء والله أعلم.

● **ماذا أراد المصنف بهذا الباب.**

قال الشيخ حامد بن محمد بن حسن:(٢) باب ماجاء فى بيان المحبة وأنواعها المأمور بها والمنهى عنه. اهـ.

قال ابن عثيمن(٣): جعل المؤلف رحمه الله تعالى الآية هى الترجمة، ويمكن أن يُعنى بهذه الترجمة باب المحبة.

قال الرازى(٤): اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قرر التوحيد بالدلائل القاهرة القاطعة أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد لأن تقبيح ضد الشيء مما يؤكد حسن الشيء ولذلك قال الشاعر : **[وبضدها تتبين الأشياء]**.

وقالوا أيضاً: النعمة مجهولة، فإذا فقدت عرفت، والناس لايعرفون قدر الصحة، فإذا مرضوا ثم عادت الصحة إليهم عرفو قدرها، وكذا القول فى جميع النعم. أهـ

---

(١) البقرة : ١٦٥

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٣٤٨.

(٣) القول المفيد٢/ ١٧٣.

(٤) تفسير الرازى (٢/ ٤/ ٢٢٦).

● مناسبة الباب للتوحيد

قال سليمان آل الشيخ[1]: لما كانت محبة الله سبحانه، هى أصل دين الإسلام، الذى يدور عليه قطب رحاها، فبكمالها يكمل الإيمان، وبنقصانها ينقص توحيد الإنسان، نبه المصنف رحمه الله، على وجوبها على الأعيان.

ولهذا جاء فى الحديث«**أَحِبُّوا الله لِمَا يَغْذُوكُمْ به مِنْ نِعْمَةٍ**»[2] الحديث رواه الترمذى والحاكم.

وفى حديث آخر: «أحبوا الله بكل قلوبكم»[3].

وفى حديث معاذ بن جبل، فى حديث المنام «**وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك**»[4] رواه أحمد والترمذى وصححه.

● إخلاص المحبة أصل التوحيد:

قال ابن تيمية[*]: اسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل وهكذا الدين الذى يدين به الناس فى الباطن والظاهر لابد فيه من الحب والخضوع، بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم، فإنها قد تكون خضوعاً ظاهراً فقط. اهـ وقال: أصل الإشراك العملى بالله الإشراك فى المحبة، قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ**﴾ الآية. اهـ.

قال ناصر السعدى[4]: أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده وهى أصل التأله والتعبد له، بل هى حقيقة العبادة، ولايتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعا لهذه المحبة التى بها.

ومن تفريعها وتكميلها الحب فى الله، فيحب العبد مايحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض مايبغضه الله من الأشخاص والأعمال ويوالى أولياءه ويعادى أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ انداد من الخلق يحبهم كحب الله ويقدم طاعتهم على طاعة الله ويلهج

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٦،٣٤٧.

(٢) أخرجه الترمذى(٣٧٨٩). والحاكم فى «المستدرك» (٣/ ١٥٠) وصححه وقال الترمذي: حسن غريب

(٣) ذكره فى «الدر» (٣/ ٦٧) ونسبه للبيهقى فى «الدلائل».

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٤٣)، والترمذى (٣٢٣٥) عن معاذ بن جبل به. وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(*) جامع الرسائل (٢/ ٢٢٠، ٢٢٥).

(٤) القول السديد ٨٧،٨٨.

بذكرهم ودعائهم فهذا هو الشرك الأكبر، الذى لايغفره الله وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره ممن لايملك له شيئاً، وهذا السبب الواهى الذى تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج مايكون العبد لعمله، وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضا وعداوة. أهـ

قال ابن باز(١): هذا الباب فى إثبات محبة الله وأنها من أهم العبادات وأفضل القربات وأساس الدين لأن حبه يقتضى الإخلاص له والامتثال لأمره: وترك نهيه والإنقياد له. أهـ

قال الشيخ ابن عثيمن(٢): وأصل الأعمال كلها هو المحبة؛ فالإنسان لايعمل إلا لما يحب ؛إما لجلب منفعة، أو لدفع مضرة، فإذا عمل شيئاً؛ فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام، أو لغيره كالدواء. أهـ

قدر منزلة المحبة

قال ابن القيم(٣): هى المنزلة التى يتنافس فيها المتنافسون، وإلى عملها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، فهى قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهى الحياة التى من حرمها، فهو من جملة الأموات، والنور الذى من فقده، ففى بحار الظلمات، والشفاء الذى من عدمه؛ حلت بقلبه جميع الأسقام واللذة التى من لم يظفر بها، فعيشه كله هموم وآلام، وهى روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التى متى خلت منها؛ فهى كالجسد الذى لاروح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل، لم يكونوا أبداً بدونها واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولا هى داخليها.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، وقد قضى الله تعالى يوم قدر مقادير الخلائق، بمشيئته وحكمته البالغة، أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة . تالله لقد سبق القوم السعادة، وهم على ظهور الفرش نائمون، ولقد تقدموا الركب بمراحل وهم فى مسيرهم واقفون، وأجابوا مؤذن الشوق، إذ نادى بهم : حى على الفلاح، وبذلوا نفوسهم فى طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضى والسماح ، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول مسراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح ا.هـ وأطال فى وصفها فراجعه فى «المدارج». أهـ

---

(١) التعليق المفيد ١٧٣ (٢) القول المفيد ٢/ ١٧٤ .

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٦، ٧) وانظر تيسير العزيز الحميد ٣٤٧.

قال ابن تيمية(١): «اعلم أن محـركات القلوب إلى الله ـ عزوجل ـ ثـلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهى مقصودة لذاتها؛ لأنها تراد فى الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف؛ فإنه يزول فى الأخرة.. والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق؛ فالمحبة تلقى العبد فى السير إلـى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن الطريق، والرجاء يقوده؛ فهذا أصل عظيم يجب على كل عبـد أن يتنبه له؛ فإنها لاتصـح له العبودية بدونه، وكل أحـد يجب أن يكون عبداً لله لالغيره.

فإن قيل: فالعبد فى بعض الأحيان قد لايكون عنـده محبة تبعثه على طلب محبوبه؛ فأى شىء يحرك القلوب؟

قلنا: شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به.

والثانى: مطالعـة آلائه ونعمائه... فـإذا ذكر العبد ما أنعـم الله به عليه من تـسخير السماء والأرض، وما فيهما من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلا بد أن يثير عنده باعثاً.

وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد، والزجر، والعرض، والحساب، ونحوه.

وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم، والحلم، والعفو». أهـ

قال ابن عثيمين(٢): وعبادة الله مبـنية على المحبة، بـل هى حقيقة الـعبادة؛ إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك قشراً لاروح فـيها، فإذا كان الإنسان فى قلبه محبة لله وللوصول إلى جنته؛ فسوف يسلك الطريق الموصل إلى ذلك.

ولهذا لما أحب المشركون آلهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أومع الله. أهـ

● أقسام المحبة وحكم كل قسم.

قال ابن تيمية(*): ومحبة الله ورسوله على درجتين: واجـبة، وهي درجة المقتصدين ومستحبة وهى درجة السابقين.

[فالأولى]: تقتضى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بحيث لايحب شيئاً يبغضه كمـا قال تعالى: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ وذلك يقتضى محـبة جميع ما أوجبه الله تعالى وبغـض ما حرمه الله تعالى، وذلك واجب.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥). (٢) القول المفيد ٢/ ١٧٤. (*) جامع الرسائل (٢/ ٢٢٧، ٢٧٨).

[الثانية]: أما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة، وهذه حال المقربين الذين قربهم الله إليه. اهـ.

قال الشيخ سليمان(١): واعلم أن المحبة قسمان، مشتركة وخاصة: فالمشتركة ثلاثة أنواع:

[أحدها]: محبة طبيعية، كمحب الجائع للطعام، والظمآن للماء ونحو ذلك . وهذه لاتستلزم التعظيم.

الثاني: محبة رحمة وإشفاق، كمحبة الوالد لولده الطفل، وهذه أيضاً لاتستلزم التعظيم.

الثالث:محبة أنس وألف، وهى محبة المشتركين فى صناعة، أو علم أو مرافقة أو تجارة أوسفر، لبعضهم بعضاً، وكمحبة الإخوة، بعضهم بعضاً. فهذه الأنواع الثلاثة، التى تصلح للخلق، بعضهم من بعض، ووجودها فيهم، لايكون شركاً فى محبة الله.

ولهذا كان رسول الله ﷺ، يحب الحلواء والعسل، وكان يحب نساءه، وعائشة أحبهن إليه وكان يحب أصحابه وأحبهم إليه الصديق رضى الله عنه.

القسم الثاني: المحبة الخاصة التى لاتصلح إلا لله ومتى أحب العبد بها غيره كان شركاً لايغفره الله.

وهى محبة العبودية، المستلزمة للذل، والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، فهذه المحبة لايجوز تعلقها بغير الله أصلاً كما حققه ابن القيم؛ وهى التى سوى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها. كما قال تعالى فى الآية التى ترجم لها المصنف: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾**. اهـ.

قال حامد بن حسن(٢): اعلم أن أنواع المحبة التى تنسب إلى الله : محبة الله ومحبة فى الله ومحبة مع الله.

[فالمحبة التى لله]: محبته ومحبة مايحبه من النيات والأقوال والأفعال.

[والمحبة التى فى الله]: محبة من يحبه الله كالأنبياء والمرسلين وعبادة الصالحين.

[وأما المحبة التى مع الله]: فهى المحبة الشركية التى ذكرها فى كتابه المنهيه عنها وذلك قول الله تعالى **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ والذين أمنوا أشد حباً لله﴾**. اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٨.

(٢) فتح الله الحميد المجيد. (٣٤٨).

قال ناصر السعدى[1]: بهذه الأنواع الثلاثة للمحبة لله وفى الله ومع الله.

حيث قال: واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التى هى أصل الإيمان والتوحيد.

الثانى: المحبة فى الله وهى محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة مايحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرهم، وهذه تابعه لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله وهى محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر، وحجر، وبشر، وملك، وغيرها وهى أصل الشرك وأساسه.

ثم قال: وهنا قسم رابع: وهو المحبة الطبيعية التى تتبع مايلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة إن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت فى باب العبادات، وأن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى مالايحبه الله دخلت فى المنهيات. وإلا بقيت من أقسام المباحات والله أعلم.

ولقد جمع **ابن عثيمين** بين أقوال أهل العلم فى أقسام المحبة شارحاً ومفصلاً كلام سليمان آل الشيخ وغيه **فقال**[2]:

والمحبة تنقسم إلى قسمين

القسم الأول: محبة عبادة، وهى التى توجب التذلل والتعظيم، وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضى أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، وهذه خاصة بالله، فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة؛ فهو مشرك شركاً أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

القسم الثانى:محبة ليست بعبادة فى ذاتها، وهذه أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفى الله، وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله؛ أى: كون الشيء محبوباً لله تعالى من أشخاص؛ كالأنبياء، والرسل والصديقين ، والشهداء، والصالحين.

أو أعمال؛ كالصلاة، والزكاة، وأعمال الخير، أو غير ذلك.

وهذا النوع تابع للقسم الأول الذى هو محبة الله.

النوع الثانى: محبة إشفاق ورحمة، وذلك كمحبة الولد، والصغار، والضعفاء.

---

(١) القول السديد ٨٨

(٢) القول المفيد ٢/ ١٧٤ ـ ١٧٧.

النوع الثالث: محبة إجلال وتعظيم لاعبادة؛ كمحبة الإنسان لوالده، ولمعلمه، ولكبير من أهل الخير.

النوع الرابع: محبة طبيعية؛ كمحبة الطعام، والشراب، والملبس، والمركب، والمسكن.

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول، والبقية من قسم المباح؛ إلا إذا اقترن بها ما يقتضى التعبد صارت عبادة؛ فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة، وكذلك يحب ولده محبة شفقة، وإذا اقترن بها ما يقتضى أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة. أهـ.

● أقسام الناس من حيث المحبة والإرادة:

قال شيخ الإسلام(*): أصل كل فعل وحركة فى العالم من الحب والإرادة، فهو أصل كل فعل ومبدؤه. وقال: وهنا انقسم الناس أربعة أقسام:

[القسم الأول]: قوم لهم قدرة، ولهم إرادة ومحبة غير مأمور بها، فهم يجاهدون ويستعملون جهدهم وطاقتهم لكن لا فى سبيل الله، بل فى سبيل آخر، إما محرمة، كالفواحش، ما ظهر منها وبطن، والإثم والبغى بغير الحق والإشراك بالله مالم ينزل به سلطاناً، والقول على بغير علم الحق.

وإما فى سبيل لاينفع عند الله مما جنسه مباح، لاثواب فيه، لكن الغالب أن مثل هذا كثيراً ما يقتون به من الشبه، ما يجعله فى سبيل الله أو فى سبيل الشيطان.

[القسم الثانى]: قوم لهم إرادة صالحة، ومحبة كاملة لله، ولهم قدرة كاملة، فهؤلاء هم سادة المحبين المحبوبين المجاهدين فى سبيل الله، لايخافون لومة لائم، كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة.

[القسم الثالث]: قوم فيهم إرادة صالحة ومحبة لله قوية تامة، لكن قدرتهم ناقصة، فهم يأتون بمحبوبات الحق من مقدورهم ولايتركون مما يقوون عليه، لكن قدرتهم قاصرة، ومحبتهم كاملة، فهو مع القسم الذى قبله ومازال فى المؤمنين على عهد النبى ﷺ وبعده من هؤلاء خلق كثير، وفى مثل هؤلاء قال النبى ﷺ «إن بالمدينة لرجالاً ماسرتم مسيراً ولاسلكتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر» وقال له سعد بن أبى وقاص: يا رسول الله: الرجل يكون فى حامية القوم يسهم له مثلما يسهم لأضعفهم؟ فقال: «ياسعد وهل تنصرون إلا بضعفائكم؟ بدعائهم وصلواتهم واستغفارهم» ـ كلاهما فى «الصحيح» ـ.

(*) «جامع الرسائل» رسالة (قاعدة فى المحبة) (٢/١٩٣، ٢٨١، ٢٨٤).

[القسم الرابع] من قدرته قاصرة، وإرادته للحق قاصرة، وفيه من إرادة الباطل ما الله به عليم، فهؤلاء ضعفاء المجرمين، ولكن قد يكون لهم من التأثير بقلوبهم نصيب وحظ مع أهل باطلهم، كما يوجد فى العلماء والعباد والزاهدين من المشركين وأهل الكتاب ومنافقى هذه الأمة مافيه مضاهاة لعلماء المؤمنين وعبادهم، وذلك أن الشيطان جعل لكل شيء من الخلق نظيراً فى الباطل، فإن أصل الشر هو الإشراك بالله، كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله. اهـ.



قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ الآية

● **مناسبة الآية للباب والتوحيد.**

قال ابن عثيمن(١): منع الإنسان أن يحب أحداً كمحبة الله؛ لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة، وهذا يوجد فى بعض العباد وبعض الخدم؛ فبعض العباد يعظمون ويحبون بعض القبور أوالأولياء كمحبة الله أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون الله ويعظمونهم أكثر مما يعظمون الله، قال تعالى ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾اهـ

قال القرعاوى(٢): حيث دلت الآية على أن من أحب شيئاً كحب الله فقد إتخذه نداً» مع الله وذلك هو الشرك. أهـ

● **الإعراب**(٣):

قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن بعض الناس لم يعتقد الوحدانية بعد أن ثبت بالدليل القاطع ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم(٣).

وقوله﴿مَن يَتَّخِذُ﴾

﴿مَن﴾ اسم موصول فى محل رفع مبتدأ مؤخر أو نكرة موصوفة فى محل رفع مبتدأ

(١) القول المفيد ٢/ ١٧٩ وقال نحوه عبد الله بن جار الله.
(٢) الجديد ٢٧٨.
(٣) إعراب القرآن وبيانه لمحى الدين درويش (١/ ٢٣٠)

مؤخر(يتخذ) الجملة الفعلية لامحل لها لأنها صلة الموصول أوصفة لـ«من» وفاعل يتخذ ضمير مستتر تقديره هو يعود على لفظ من.

قوله ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾

جار ومجرور متعلقان بيتخذ (أنداداً) مفعول به[1].

● ماجاء فى تفسير الآية من أحاديث وآثار:

فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال: قلت يارسول الله أى الذنب أعظم؟ قال **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[2].

روى ابن جرير بسنده عند قتادة:

قوله **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾**[3] من الكفار لأوثانهم وبنحوه عن عكرمة[4].

وبسنده عن مجاهد:

فى قوله تعالى ذكره (**يحبونهم كحب الله**) مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد والذين آمنوا أشد حباً لله من الكفار لاوثانهم[5].

وبسنده عن الربيع قوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ من الكفار لأوثانهم﴾[6].

وبسنده عن ابن وهب قال: قال ابن زيد فى قوله ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله قال هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين أمنوا الله والذين أمنوا اشد حبا لله تعالى ذكره[7].

---

(١) إعراب القرآن وبيانه لمحى الدين درويش (١/ ٢٣٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢/ ٤٠) وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٤) ونسبه لعبد بن حميد

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد وانظر «فتح المجيد» (ح٦٢٨) بتخريجنا.

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٧) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٢٩ بتخريجنا).

وبسنده عن السدي: ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله قال: الأنداد من الرجال يطيعونهم ما يطيعون الله إذا أمروهم أطاعوهم وعصوا الله[1].

● **ماجاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[2]. فإن قال قائل وكيف قيل كحب الله وهل يحب الله الأنداد وهل كان متخذ الأنداد يحبون الله فيقال يحبونهم كحب الله قيل أن معنى ذلك بخلاف ماذهبت إليه وإنما نظير ذلك قول القائل بعت غلامى كبيع غلامك بمعنى بعته كما بيع غلامك وكبيعك غلامك و استوفيت حقى منه حقك بمعنى استفائك حقك فتحذف من الثانى كناية اسم المخاطب اكتفاء بكنايته فى الغلام والحق كما قال الشاعر.

فلست مسلما مادمت حيا ❋ على زيد بتسليم الأمير

يعنى بذلك كما يسلم على الأمير فمعنى الكلام إذا ومن الناس من يتخذ أيها المؤمنون من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله. أهـ

قال الرازى[3]: اختلفوا فى المراد بالأنداد على أقوال:

(أحدها) أنها هى الأوثان التى اتخذوها آلهة لتقربهم إلى الله زلفى، ورجوا من عندها النفع والضر، وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور، وقربوا لها القرابين، وهو قول أكثر المفسرين،وعلى هذا الأصنام أنداد بعضها لبعض، أى أمثال ليس إنها أندادا لله، أو المعنى: إنها أنداد لله تعالى بحسب ظنونهم الفاسدة .

(وثانيها) إنهم السادة الذين كانوا يطيعونهم فيحلون لمكان طاعتهم ماحرم الله، ويحرمون ما أحل الله، عن السدى، والقائلون بهذا القول رجحوا هذا القول على الأول من وجوه:

(الأول)أن قوله (**يحبونهم كحب الله**) الهاء والميم فيه ضمير العقلاء .

(الثانى) أنه يبعد أنهم كانوا يحبون الأصنام كمحبتهم الله تعالى مع علمهم بأنها لاتضر ولاتنفع .

(الثالث) أن الله تعالى ذكره بعد هذه الآية (**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين**) وذلك

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق
(٢) ٢/ ٤٠.
(٣) التفسير الكبير ٢/ ٤/٢٢٦/ ٢٢٧

لايليق إلا بمن اتـخذ الرجال أنداداً وأمثالا لله تعالى، يـلتزمون من تعظيمـهم والإنقياد لهم، ما يلتزمه المؤمنون من الإنقياد لله تعالى.

(القول الثالث) فى تفسير الأنـداد قول الصوفية والعارفين، وهو أن كـل شىء شغلت قلبـك به سوى الله تعـالى، فقد جعـلته فى قـلبك نداً لله تعـالى وهو المراد مـن قوله **(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)** أهـ

قال ابن كثير[1]: يذكر تعالى حال المشركين به فـى الدنيا ومآلهم فى الدار الآخرة حيث جعـلوا له أنداداً أى أمثالاً ونظـراء يعبدونهم معـه ويحبونهم كحـبه هو الله لاإله إلاهو ولاضد له ولاند له ولاشريك معه.

فائدة[2]:

(دون) ظرف للـمكان وهونقيـض فوق، نحو هو دونـه أى أحط منه رتبة أومـنزلة، ويأتى بمعنى أمام نحو: الشىء دونك أى أمـامك، وبمعنى وراء نحو :قعد دون الصف، أى وراءه، وقد يأتى بمعنى ردىء وخسيس فـلايكون ظرفاً، نحو : هذا شىء دون، وهو حينئذ يـتصرف فى وجوه الإعراب. ويأتى بمعنـى غير كما فى الآية،وأكثر ما يـستعمل حينئذ مجروراً بمن. أهـ

قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

● الإعراب:

(يحبونهم) فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به والجملة الفعلية صفةلأنداداً أو حال من الضمير المستكن فى يتخذ(كحب الله) الكاف ومجرورها فى موضع نصب صفة لمصدر محذوف فهو مفعول مطلق ويجوز الإعراب حـالاً وقد رجحه سيبويه والمصدر مضاف إلى مفعوله[3].

● أقوال المفسرين فى الآية:

قال ابن الجوزى[4]:

وفى قوله:﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قولان.

أحدهما: أن معناه: يحبونهم كحب الذين آمنوا لله ، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وأبى العالية، وابن زيد، ومقاتل، والفراء.

(١) تيسير القرآن العظيم ١/ ١٩٢

(٢) إعراب القرآن ١/ ٢٣١.

(٣) إعراب القرآن ١/ ٢٣١.

(٤) زاد المسير / ١٤٧

والثانى:يحبونهم كمحبتهم لله، أى : يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى فى المحبة. هذا اختيار الزجاج.

قال : والقـول الأول ليس بشىءوالدلـيل على نقضـه قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

قال المفسرون: أشد حباً لله من أهل الأوثان لأوثانهم. أهـ

قال الرازى[1]: أما قوله تعالى (**يحبونهم كحب الله**) فاعلم أنه ليـس المراد محبة ذاتهم فـلا بد من محذوف، والمـراد يحبون عادتـهم أو التقرب إلـيهم والإنقيـاد لهم، أوجميع ذلك، وقوله،(**كحب الله**) فيه ثلاثة أقوال:

قيل: فيه كحبهم لله، **وقيل فيه**: كالحب اللازم عليهم لله، **وقيل فيه**: كحب المؤمنين لله.

وإنما اختلفوا هذا الإختلاف من حيث إنهم اختلفوا فى أنهم هل كانوا يعرفون الله أم لا؟

فمن قال: كانوا يعرفون مع اتخاذهم الأنداد تأول على أن المراد كحبهم لله.

ومن قال إنـهم ماكانوا عـارفين بربهم حمـل الآية على أحد الـوجهين الباقـيين إما كالحب اللازم لهم أو كـحب المؤمنين لله والقول الأول أقرب لأن قوله(يحـبونهم كحب الله) راجع إلى الناس الذين تقدم ذكرهم، وظاهر قـوله (كحب الله) يقتضى حباً لله ثابتاً فيهم، فكأنه تعالى بين فى الآية السالفة أن الإله واحد، ونبه على دلائله، ثم حكى قوله من يشرك معه،و ذلك يقتضى كونهم مقربين بالله تعالى .

● إشكاله وجوابه

فإن قيل: العاقل يستحيـل أن يكون حبه للأوثان كحبه لله، وذلك لأنه بضرورة العقل يعلم أن هذه الأوثان أحجار لاتضر،ولاتسمع، ولاتـبصر، ولاتعقل، وكانوا مقرين بأن لهذا العـالم صانعاً مدبراً حـكيماً ولهذا قـال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ومع هذا الاعتقاد كيف يعقل أن يكـون حبهم لتلك الأوثان كحبهم لله تعالى، وأيضاً فإن الله تعالى حـكى عنهم أنهم قالوا﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

(١) التفسير الكبير ٢/ ٤/ ٢٢٧،٢٢٨.

زُلْفَىٰ﴾ وإذاكان كذلك، كان المقصود الأصلى طلب مرضات الله تعالى، فكيف يعقل الاستواء مع هذا القول؟

قلنا قوله**﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾** أى فى الطاعةلها. والتعظيم لها، فالإستواء على هذا القول فى المحبة لاينافى ماذكرتموه. أهـ

قال عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ(١): وهذه التسوية المذكورة فى قوله تعالى : حكاية عنهم وهم فى النار أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهى محضرة معهم فى العذاب**﴿تالله إن كنالفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين﴾** ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين فى الخلق والربوبية وإنما سووهم به فى المحبة والتعظيم وهذا أيضاً هو العدل المذكور فى قوله تعالى **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾** به غيره فى العبادة التى هى المحبة والتعظيم.

قال الشوكانى(٢): أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد ، بل أحبوها حباً عظيماً، وأفرطوا فى ذلك إفراطاً بالغاً، حتى صار حبهم لهذه الأوثان ونحوها متمكناً فى صدورهم، كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه . فالمصدر فى قوله: **﴿كحب الله﴾** مضاف إلى المفعول، والفاعل محذوف وهو: المؤمنون.

ويجوز أن يكون المراد: كحبهم لله، أى عبدة الأوثان، قاله ابن كيسان والزجاج.

ويجوز أن يكون هذا المصدر من المبنى للمجهول، أى كما يحب الله.

والأول أولى، كقوله**﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾**، فإنه استدراك لما يفيده التشبيه من التساوى، أى أن حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد؛ لأن المؤمنين يخصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء، والكفار لايخصون أصنامهم بذلك، بل يشركون الله معهم، ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله. ويمكن أن يجعل هذا، أعنى قوله**﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** دليلا على الثاني؛ لأن المؤمنين إذا كانوا أشد حبا لله لم يكن حب الكفار للأنداد كحب المؤمنين لله؛

وقيل: المراد بالأنداد هنا: الرؤساء، أى يطيعونهم فى معاصى الله، ويقوى هذا الضمير فى قلوبهم: **﴿يحبونهم﴾** فإنه لمن يعقل، ويقويه أيضاً قوله سبحانه عقب ذلك: **﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾** الآية.

---

(١) فتح المجيد ٢/ ٥٥٤، ٥٥٥

(٢) فتح القدير١/ ٢٣١.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾

● **الإعراب:**

(والذين) الواو استئنافية أو حالية واسم الموصول مبتدأ (آمنوا) فعل وفاعله. والجملة صلة الموصول(أشد) خبر الموصول (حباً) تمييز(لله) الجار والمجرور متعلقان بحباً[1].

● **أقوال المفسرين فى الآية:**

قال البغوى[2]:

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أى أثبت وأدوم على حبه من المشركين لأنهم لايختارون على الله ماسواه. والمشركون إذا اتخذوا صنماً ثم رأوا أحسن منه طرحوا الأول واختار الثانى.

قال قتادة: إن الكافر يعرض عن معبوده في وقت البلاء ويقبل على الله تعالى كما أخبر الله عزوجل عنهم فقال ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ والمؤمن لايعرض عن الله فى السراء والضراء والشدة والرخاء.

قال سعيد بن جبير: إن الله عزوجل يأمر يوم القيامة من أحرق نفسه فى الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم فلا يدخلون، لعلمهم أن عذاب جهنم على الدوام . ثم يقول للمؤمنين وهم بين أيدى الكفار إن كنتم أحبائى فادخلوا جهنم فيقتحمون فيها فينادى مناد من تحت العرش ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾

وقيل إنما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأن الله تعالى أحبهم أولا ثم أحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم قال تعالى ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

قال الرازى[3]: فى بيان أن الذين آمنوا هم أشد حباً لله، أما المتكلمون فقالوا: إن حبهم لله يكون من وجهين .

(أحدهما) أنه مايصدر منهم من التعظيم، والمدح، والثناء والعبادة خالصة عن الشرك وعما لاينبغى من الاعتقاد ومحبة غيرهم ليست كذلك .

(والثاني) ـ أى والإشكال الثانى ـ أن حبهم لله اقترن به الرجاء والثواب والرغبة فى عظيم منزلته والخوف من العقاب والأخذ فى طريق التخلص منه، ومن يعبد الله ويعظمه

---

(١) إعراب القرآن ١/ ٢٣١.
(٢) معالم التنزيل ١/ ١٩٢.
(٣) التفسير الكبير ١/ ٤/ ٢٣٠، ٢٣١.

على هذا الحد تكون محبته أشد، وأما العارفـون فقالوا المؤمنون هم الذين عرفوا الله بقدر الطاقة البشرية، وقد دللنا على أن الحب من لوازم العرفان فكلما كان عرفاتهم أتم وجب أن تكون محبتهم أشد

فإن قيل: كيف يمكن أن يقال محبة المؤمـنين لله تعالى أشد مع أنا نرى الهنود يأتون بطاعات شاقة لايأتى بشىء منها أحد من المسـلمين ولايأتون بها إلا لله تعالى ثم يقتلون أنفسهم حباً لله.

(والجواب) من وجوه

(أحدها) أن الذين آمنوا لايتضرعون إلا إلى الله بخلاف المشركين فإنهم يعدلون إلى الله عند الحـاجة، وعند زوال الحاجة يـرجعون إلى الأنداد، قال تـعالى **﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** إلى آخـره والمؤمن لايعـرض عن الله فى الـضراء والسراء والشدة والرخاء، والكافر قد يعرض عن ربه، فكان حب المؤمن أقوى

(وثانيها) أن من أحب غيره رضى بـقضائه، فلا يتصرف فى ملكـه، فأولئك الجهال قتلوا أنفسهم بغير إذنه، أما المؤمنون فقد يقتلون أنفسهم بإذنه،وذلك فى الجهاد .

(وثالثها) أن الإنسان إذا ابتلى بالعذاب الشديد لايمكنه الاشتغال بمعرفة الرب، فالذى فعلوه باطل .

(ورابعها) قال ابن عباس: إن المشـركين كانوا يعبدون صنماً، فـإذا رأوا شيئاً أحسن منه تركوا ذلك وأقبلوا على عبادة الأحسن .

(وخامسها) أن المؤمنين يوحدون ربهـم، والكفار يعبدون مع الصنم أصنـاما فتنقص محبة الواحد، أما الإله الواحد فتنضم محبة الجميع إليه.

قال ابن كثير(١):

قوله **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** ولحبهم لله وتمام معرفتهم بـه وتوقيرهم وتوحيدهم له لايشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجأون فى جميع أمورهم إليه. ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال. الآية . أهـ.

قال ناصر السعدى(١): فإنه تعالى، لما بين وحدانيته وأدلـتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١١٠،١١١

ذكر هنا أن ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ مع هذا البيان التام ﴿ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ لله أى : نظراء ومثلاء، يساويهم فى الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة ـ بعد إقامة الحجة، وبيـان التوحيد ـ علم أنه معاند لله، مشاق له. أو معرض عن تدبير آياته والتفكير فـى مخلوقاته، فليس له أدنى عذر فى ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخـذون الأنداد مع الله، لايسوونهم بالله فى الخلـق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به فى العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه.

وفى قوله«اتخذوا» دليل على أنه ليس لله ند .

وإنما المشركـون جعلوا بعض المخـلوقات أنداداً له، تسمـية مجردة، ولفظـاً فارغاً من المعنى . كما قال تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾(١) ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾(٢) .

فالمخلوق ليـس نداً لله لأن الله هو الخالق، وغيره مخلـوق، والرب هو الرازق. ومن عداه مرزوق، والله هوالغنى وأنتم الفقراء.

وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه.

والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شىء.

فعلم علماً يقيناً، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً.

سواء كان ملكاً أو نبياً، أو صالحاً، أو صنماً، أو غير ذلك.

وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام.

فلهذا مدح الله المؤمـنين بقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أى : من أهـل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها.

(١) الرعد: ٣٣.

(٢) النجم : ٢٣

ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذى محبته هى عين صلاح العبد وسعادته وفوزه.

والمشركون أحبوا من لايستحق من الحب شيئاً، ومحبتهم عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾أهـ.

● **ماجاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ [1]:

قوله﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ نتكلم عليها متابعة لبعض شراح كتاب التوحيد لتعلقها بما قبلها تكميلاً للفائدة، وإن لم يذكرها المصنف، وفيها قولان :

أحدهما: وهو الصحيح أن المعنى: والذين آمنوا أشد حباً لله محبة المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة.

والثانى: والذين آمنوا أشد حباً لله من حب أصحاب الأنداد لأندادهم التى يحبونهم من دون الله، قال ابن القيم: والقولان مرتبان على القولين فى قوله تعالى **﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾** وفى الآية دليل على أن الله لايقبل من العمل إلا ماكان خالصاً، وأن الشرك محبط للأعمال.

قال حامد بن حسن [2]: واعلم أن المحبة تستلزم الطاعة ولابد كما هو المعلوم بالضرورة فمن يدعى محبه الله يلزمه طاعته فى متابعه رسوله كما قال تعالى **﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** فمخالفة الله ورسوله تخل بالمحبة وتقدح فيهاوكلما زادت المخالفة والمعاصى على قدر بعدها من محبة الله وقربها من عداوته حتى تؤول إلى الشرك والكفر كما ورد المعاصى بريد الكفر، فالمخالف إذا أدعى المحبة فليس بصادق:

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٩

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٣٤٨،٣٤٩

تعصى الآله وأنت تظهر حبه هذا وربى فى الإله شنيع

لوكان حبك صادقاً لاطعته إن المحب لمن يحب مطيع اهـ

● **فائدة:** فى معنى الشوق ودرجاته والفرق بينه وبين المحبة

قال ابن القيم(١): والشوق أثر من آثار المحبة، وحكم من أحكامها فإنه سفر القلب إلى المحبوب فى كلِّ حال.

والمحبة أعلى منه. لأن الشوق عنها يتولد، وعلى قدرها يقوى ويضعف.

قال يحيي بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

وقال أبو عثمان: علامته حب الموت، مع الراحة والعافية ، كحال يوسف لما ألقى فى الجب لم يقل (توفني) ولما أدخل السجن لم يقل (توفني) ولما تمَّ له الأمر والأمن والنعمة، قال (توفنى مسلماً).

وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: شوق العابد إلى الجنة، ليأمن الخائف، ويفرح الحزين. ويظفر الأمل.

الدرجة الثانية: شوق إلى الله عزوجل زرعة الحب الذى ينبتُ على حافات المنن . فعلَّق قلبه بصفاته المقدسة. فاشتاق إلى معانية لطائف كرمه. وآيات بره وأعلام فضله . وهذا شوق تغشاه الميارُّ وتخالجه المسارُّ ويقاومه الاصطياد.

والشوق إلى الله لاينافى الشوق إلى الجنة، فإن أطيب مافى الجنة قربه تعالي،ورؤيته، وسمع كلامه ورضاه.

الدرجة الثالثة: نار اضرمها صفو المحبة، فنغصت العين. وسلبت السلوة ولم ينهنها معزى دون اللقاء. أهـ.

وليرجع إلى تفصيل ذلك إلى مدارج السالكين.



(١) مدارج السالكين ٣/ ٥٤ ـ٦١.

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(١).

● **مناسبة الآية للباب:**

قال عبدالله بن جار الله أن فيها وعيد شديد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه(٢). أهـ

قال القرعاوى: حيث دلت الآية على تحريم تقديم حب هذه الأشياء الثمانية على حب الله ورسوله(٣). أهـ

● **مناسبة الآية للتوحيد**

قال القرعاوى: حيث دلت الآية على وجوب حب الله ورسوله، لذا يكون الحب نوعاً من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك(٤). أهـ

● **سبب النزول:**

عن مجاهد قال: أمروا بالهجرة فقال العباس بن عبدالمطلب: أنا أسقى الحاج. قال طلحة أخو بنى عبدالدار: أنا أحجب الكعبة فلانهاجر، فأنزلت ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾(٥)

وعن مقاتل فى هذه الآية قال: هي فى الهجرة(٦).

قال القرطبى(٧):

لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلي المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأب لابنه والأخ لأخيه والرجل لزوجته: إنا قد أمرنا بالهجرة؛ فمنهم من سارع لذلك،

---

(١) [التوبة: ٢٤]. (٢) الجامع الفريد ١٢٦

(٣) الجديد: ٢٨٠.

(٤) الجديد: ٢٨٠

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٨٧) فانظره بتخريجنا.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٤٠٣) وزاد نسبته لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبى الشيخ.

(٦) ذكره السيوطي في الموضع السابق (٣/٤٠٣) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٧) تفسير القرطبى / ٢٩٣٣، ٢٩٣٤

ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول: والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعكم ولاأنفق عليكم شيئاً أبدا ومنهم من تتعلق به امرأته وولده ويقولون له: أنشدك الله ألا تخرج فنضيع بعدك؛ فمنهم من يرق فيدع الهجرة ويقيم معهم؛ فنزلت﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾. يقول إن استحبوا الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ بعد نزول الآية﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ . ثم نزل فى الذين تخلفوا ولم يهاجروا: (قل إن كان آباءكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم).

قال ابن الجوزى[1]:

فى سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في الذين تخلفوا مع عيالهم بمكة ولم يهاجروا، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن على بن أبى طالب قدم مكة، فقال لقوم: ألاتهاجرون؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا، فنزلت هذه الآية، قاله ابن سيرين.

والثالث: أنه لما نزلت الآية التى قبلها، قالوا: يارسول الله، إن نحن اعتزلنا من خالفنا فى الدين، قطعنا آباءنا وعشيرتنا، وذهبت تجارتنا، وخربت ديارنا، فنزلت. حكيناه عن ابن عباس. أهـ

قوله (قل إن كان آباؤكم..)

الإأعراب[2]: إن شرطية وكان واسمها ومابعده عطف عليه وأحب خبر كان وإليكم حال ومن الله جار ومجرور متعلقان بأحب ورسوله وجهاد فى سبيله عطف على الله أى من الهجرة إليهما.

● ماجاء في الآية من آثار :

روى ابن جرير بسنده عن السدى (وأموال اقترفتموهاوتجارة تخشون كسادها) يقول تخشون أن تكسد فتبيعوها ومساكن ترضونها قال هى القصور والمنازل[3].

(١)زاد المسير ٣/ ٣١٢.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٧٧

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٠/ ٧٠) وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٤٠٣) ونسبه لابن أبى حاتم ، وأبى الشيخ.

عن قتادة رضى الله عنه فى قوله ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ قال أصبتموها[1].

قوله «عشيرتكم»

● أقوال المفسرين:

قال البغوى[2]: قرأ أبو بكر عن عاصم عشيراتكم بالألف على الجمع والآخرون بلا ألف على التوحيد، لأن العشيرة واقعة على الجمع، ويقوى هذه القراءة أن أبا الحسن الأخفش قال: لا تكاد العرب تجمع العشيرة على العشيرات، إنما تجمعها على العشائر. أهـ

قال ابن الجوزى[3]:

فأما العشيرة، فهم الأقارب الأدنون. وروى أبو بكر عن عاصم و«عشيراتكم» على الجمع . قال أبو على: وجهه أن كل واحد من المخاطبين له عشيرة، فإذا جمعت.

قلت: - أى ابن الجوزى - عشيراتكم؛ وحجة من أفرد: أن العشيرة واقعة على الجمع، فاستغنى بذلك عن جمعها . قال الأخفش : لاتكاد العرب تجمع عشيرة : عشيرات، إنما يجمعونها على عشائر. أهـ

قال القرطبى[4]: هى الجماعة التى ترجع إلى عقد واحد كعقد العشرة فما زاد؛ ومنه المعاشرة وهى الاجتماع على الشيء. أهـ

قوله «وأموال اقترفتموها».

● أقوال المفسرين:

قال ابن الجوزى[5]: والاقتراف يعنى الاكتساب. أهـ

قال القرطبى[6]: وأموال اقترفتموها يقول: اكتسبتموها بمكة. وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره. أهـ

قال السعدى[7]:

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أى: اكتسبتموها ،وتعبتم فى تحصيلها.

---

(1) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

(2) معالم التنزيل ٣/ ٢٣ (٣)(٥) زاد المسير ٣/ ٣١٢، ٣١٣

(٤) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤

(٦) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤ (٧) تيسير الكريم ٢/ ٢٢٧

خصهـا بالذكر، لأنها أرغـب عند أهلها، وصـاحبها أشد حرصـاً عليها، ممن تـأتيه الأموال من غيرتعب ولاكدّ. أهـ.

قوله: ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾.

●أقوال المفسرين:

قال القرطبى(١):

﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ قال ابن المـبارك: هى البـنات والأخوات إذا كسـدن فى البيت لايجدن لهن خاطباً قال الشاعر :

كسدن من الفقر فى قومهن   وقد زادهن مقامى كسوداً أهـ

قال الشوكانى(٢): والتجارة الأمتعة التى يشترونها ليربحوا فيها

قال السعدى(٣): ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾أى: رخصها نقصـها، وهذا شامل لجميع أنـواع التجارات والمكـاسب من عـروض التجـارات، من الأثمـان، والأوانى، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك. أهـ

قوله ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾

تقدم مارواه بن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى معنى المساكن.

●أقوال المفسرين:

قال القرطبى:(٤) ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ يقول: ومنازل تعجبكم الإقامة فيها. أهـ

قال الشوكانى:(٥) والمراد بالمساكن التى يرضونها: المنـازل التى تعجبهم وتميل إليها أنفسهم ويرون الإقامة فيها أحب إليهم من المهاجرة إلى الله ورسوله.

قوله ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

● ما جاء فى الآية من الآحاديث:

أخرج أحمد الـبخارى عن عبدالله بن هـشام رضى الله عنه قال: كـنا مع رسول الله

---

(١) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤.
(٢) فتح القدير ٢/ ٣٦٦.
(٣) تيسيرالكريم الرحمن (٣/ ٢٢٧).
(٤) تفسير القرطبى٤/ ٢٩٣٤.
(٥) فتح القدير ٢/ ٣٦٦.

ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: والله لانت يارسول الله أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى فقال النبىﷺ **«لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»**(١).

قال ابن كثير(٢): وانفرد بإخراجه البخارى فرواه عن يحيى بن سليمان عن ابن وهب حيوة بن شريح عن أبى عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبدالله بن هشام عن النبى ﷺ بهذا. اهـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال القرطبى(٣):أحب إليكم من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة. «وأحب» خبر كان . ويجوز فى غير القرآن رفع«أحب» على الابتداء والخبر ، واسم كان مضمر فيها . وأنشد سيبويه:

إذا متٌ كان الناسِ صنفان: شامتٌ وآخرُ مُثنٍ بالذى كنتُ أصنعُ

وأنشد:

هى الشفاء لدائى لو ظفرتُ بها وليس منها شفاءُ الداءِ مبذول

وفى الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله، ولاخلاف فى ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب أهـ.

قال السعدى(٤): فإن كانت هذه الأشياء **﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾** فأنتم فسقة ظلمة .أهـ

قوله ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾.

● ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث:

روى الإمام أحمد(٥): وأبو داود واللفظ له من حديث أبى عبد الرحمن الخراسانى عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول **«إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»**(٦) .

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٣٠،٣٣١

(٣) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤،٢٩٣٥

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٢٢٧

(٥) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤

(٦) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده»(٢/ ٤٢) وأبو داود (٣٤٦٢) عن ابن عمر به وانظر «السلسبيل» (١٥٣٨ ـ بتخريجنا). وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٣٠) بتخريجنا.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن يزيد بن هارون عن أبى حباب عن شهر بن حوشب أنه سمع عبدالله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك[١]، وهذا شاهد للذى قبله والله أعلم. أهـ

●كلام المفسرين:

قال القرطبى [٢]: وجهاد فى سبيله فتربصوا صيغته صيغة أمر ومعناه التهديد . يقول انتظروا.

قال القرطبى: «وجهاد فى سبيله» دليل على فضل الجهاد، وإيثاره على راحة النفس وعلائقها بالأهل والمال كفاية، والحمد الله . وفى الحديث الصحيح **«إن الشيطان قعد لابن آدم ثلاث مقاعد قعد له فى طريق الإسلام فقال أتذر دينك ودين آبائك فخالفه وأسلم وقعد له فى طريق الهجرة فقال له أتذر مالك وأهلك فخالفه وهاجر ثم قعد له فى طريق الجهاد فقال له تجاهد فتقتل فينكح أهلك ويقسم مالك فخالفه وجاهد فحق على الله أن يدخله الجنة»**[٣] وأخرجه النسائى من حديث سبرة بن أبى فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان...**» فذكره [٤]. قال البخارى : «ابن الفاكه» ولم يذكر فيه اختلافاً. وقال ابن ابى عدى: يقال ابن الفاكه وابن أبى الفاكه. انتهى.

قوله ﴿ **فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾.

الإعراب[٥]:

﴿**فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾[٣]. الفاء رابطة وتربصوا فعل أمر وفاعل وحتى حرف غاية وجر ويأتى منصوب بأن مضمرة بعد حتى والله فاعل وبأمره جار ومجرور متعلقان بيأتى والله مبتدأ وجملة لايهدى القوم الفاسقين خبر ومعنى الأمر هنا التهديد ومفعوله محذوف. أى انتظروا عقوبة عاجلة أو آجلة، وهذه الآية من أشد الآيات تهديداً وإرعاداً وإبراقاً وردعاً لكل من تسول له نفسه إيثار الفانية على الباقية ومراعاة جانب الأهل والعشيرة وترك جانب الله . أهـ

---

(١) ما قبله

(٢) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٨٣)، والنسائى فى «الكبرى» (٤٣٤٢) عن سبرة بن الفاكه به.

(٤) أما قبله

(٥) إعراب القرآن / ٧٧

قال البغوى[1]:

(فتربصوا): فانتظروا (حتى يأتى الله بأمره) قال عطاء بقضائه وقال مجاهد ومقاتل بفتح مكة وهذا أمر تهديد ، (والله لايهدي) ولايوفق ولايرشد (القوم الفاسقين). الخارجين عن الطاعة وقال نحوه ابن الجوزي.

قال الشوكاني[2]:

﴿**حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ فيكم وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم، وقيل المراد بأمر الله سبحانه: القتال وقيل فتح مكه وفيه بُعد، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح وفى هذا وعيد شديد ويؤكده إبهام الأمر وعدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردد بين أنواع العقوبات ﴿**والله لايهدى القوم الفاسقين**﴾ أى الخارجين عن طاعته، النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه. أهـ

روى ابن جرير: عن مجاهد (حتى يأتى الله بأمره بالفتح)[3] وعنه أيضاً (فتربصواحتى يأتى الله بأمره) فتح مكة[4].

قال بن جرير [5]. يقول تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد للمتخلفين عن الهجرة إلى دار الإسلام المقيمين بدار الشرك إن كان المقام مع (أبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) وكانت (أموال اقترفتموها) يقول اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) بفراقكم بلدكم (ومساكن ترضونها) فسكنتموها (أحب إليكم من) الهجرة إلى (الله ورسوله) من دار الشرك ومن (جهاد فى سبيله) يعنى فى نصرة دين الله الذى ارتضاه (فتربصوا) يقول فتنتظروا (حتى يأتى الله بأمره) حتى يأتى الله بفتح مكة والله لايهدى القوم الفاسقين يقول الله لايوفق للخير الخارجين عن طاعته وفى معصيته وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل أهـ

قال الزمخشرى[6] :

وهذه آية شديدة لاترى أشد منها كأنها تنعى على الناس ماهم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه هل يجد عنده من

---

(١) معالم التنزيل ٣/ ٢٣
(٢) فتح القدير ٢/ ٣٦٦
(٣) أخرجه ابن جريرفى «تفسيره» (١٠/ ٧٠)
(٤) تفسير الطبرى ٦/ ١٠/ ٧٠
(٥) ما قبله
(٦) الكشاف ٢/ ١٤٥.

التصلب في ذات الله والثبات على دين الله مايستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدرى أى طرفيه أطول ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره. أهـ

قال ناصر السعدى(1):

(فتربصوا» أى : انتظروا مايحل بكم من العقاب﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الذى لا مرد له.

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة، أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء.

وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلامة ذلك،أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس نفسه فيها هوى والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يفوت عليه محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه.

فإنه إن قدم ماتهواه نفسه، على مايحبه الله دل على أنه ظالم، تارك لمايجب عليه. أهـ

● **فوائد جليلة**

قال الرازى(2)

وهذه الآية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا،وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا .

واعلم أنه تعالى ذكر الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار، وهى أمور أربعة:

أولها: مخالطة الأقارب، وذكر منهم أربعة أصناف على التفصيل وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج، ثم ذكر البقية بلفظ واحد يتناول الكل، وهى لفظ العشيرة.

(1) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٢٢٧،٢٢٨

(2) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ٢٠.

وثانيها: الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

وثالثا : الرغبة فى تحصيل الأموال بالتجارة.

ورابعها :الرغبة فى المساكن.

ولا شك أن هذا الترتيب ترتيب حسن، فإن أعظم الأسباب الداعية إلى المخالطة القرابة. ثم إنه يتوصل بتلك المخالطة إلى إبقاء الأموال الحاصلة. ثم إنه يتوصل بالمخالطة إلى اكتساب الأموال التى هى غير حاصلة، وفى آخر المراتب الرغبة فى البناء فى الأوطان والدور التى بنيت لأجل السكني، فذكر تعالى هذه الآشياء على هذا الترتيب الواجب، وبين بالآخرة أن رعاية الدين خير من رعاية جملة هذه الأمور. أهـ

● **ماجاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد**

قال سليمان آل الشيخ(١):

وهو تنبيه على أن من فعل ذلك؛ فهو من الفاسقين فهذا تشديد، ووعيد عظيم، ولا يخلص منه إلا من صح إيمانه فخلص لله سره وإعلانه، وعلى أن المحبة الصادقة تستلزم تقديم مراضى الله على هذه الثمانية كلها، فكيف بمن آثر بعضها على الله ورسوله، وجهاد فى سبيله.

فإن قلت: قد قال شيخ الإسلام: إن كثيراً من المسلمين أو أكثرهم بهذه الصفة.

قيل: مراده أن كثيراً من المسلمين قد يكون ما ذكر أحب إليه من الله ورسوله أى: فى إيثار ذلك على فعل أمر الله، وأمر رسوله الذى ينشأ عن المحبة لا فى الحب الذى يوجب قصد المحبوب بالتأله، فإن من ساوى بين الله وبين غيره فى هذا الحب؛ فهو مشرك، فكيف إذا كان غير الله أحب إليه كما هو الواقع من عباد القبور، فإنهم يحبون أندادهم أعظم من حب الله، وذلك أن أصل الحب يحتمل الشركة بخلاف الخلة، فإنها لاتقبل الشركة أصلا. أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢):

قال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** ﴾(٣)

---

(١) تيسيرالعزيز الحميد ٣٥٠.   (٢) فتح المجيد ٢/٤٤٦   (٣) المائدة : ٥٤

وذكر لهم أربع علامات:

أحدها: أنهم أذلة على المؤمنين، قيل معناه: أرقَّاء رُحماء مشفقين عليهم عاطفين عليهم. فلما ضمن (أذلة) هذا المعنى عدَّاه بأداة (على) قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده.

وعلى الكافرين كالأسد على فريسته **﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾**(١) - وهذه هى الثانية - **العلامة الثالثة** الجهاد فى سبيل الله تعالى بالنفس واليد واللسان والمال وذلك يحقق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم فى الله لومة لائم، فهذا علامة صحة المحبة فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة.

وقال تعالى **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾**(٢) فذكر المقامات الثلاثة: الحب. وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً أنه لايتنافس إلا فى قرب من يحب قربه وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه.

وعند الجهمية والمعطلة: مامن ذلك كله شىء فإنه عندهم لاتقرب ذاته من شىء ولايقرب من ذاته شىء، ولايحب لذاته ولايحب فأنكروا حياة القلوب ونعيم الأرواح وبهجة النفوس وقرة العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة.

ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته فلا يعرفونه ولايحبونه ولايذكرونه إلاعند تعطيل أسمائه وصفاته فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ويرمونهم بالأدواء التى هم أحق بها وأهلها.

وحَسب ذى البصيرة وحياة القلب، ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده والله المستعان.

وقال رحمه الله - يعنى ابن القيم - لاتُحَدُّ المحبةُ بَحَدٍّ أوضح منها فالحدود لاتزيدها

---

(١) الفتح ٢٩ (٢) الإسراء: ٥٧

إلا خفاء فحدها وجودها، ولاتصف المحبة بوصف أظهر من المحبة وإنما يتكلم الناس فى أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها.

وأجمع ماقيل فى ذلك ماذكره أبو بكرالكتانى عن الجنيد.

قال أبو بكر : جرت مسألة فى المحبة بمكة - أعزها الله - فى أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا : هات ماعندك ياعراقى فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرق قلبه أنوار هيبته وصفا شرابه من كأس مودته، وانكشف لها الحياء من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله، فهو لله وبالله،و مع الله فبكى الشيوخ، وقالوا: ماعلى هذا مزيد، جبرك الله ياتاج العارفين».

● **الأسباب لمحبة الله:**

وذكر رحمه الله تعالى - يعنى ابن القيم -: «أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أُريد به.

الثانى: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه فى رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: وهو - أعجبها - إنكسار القلب بين يديه.

الثامن:الخلوة وقت النزول الإلهى وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله - عزوجل -.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبّة،ودخلوا على الحبيب.»(١).

(١) فتح المجيد ٢/ ٥٥٥

قال ابن عثيمين (١):

فدلت الآية على أن محبة هؤلاء وإن كانت من غير محبة العبادة إذا فُضلت على محبة الله صارت سبباً للعقوبة.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يهمل أوامر الله لأوامر والده؛ فهو يحب أباه أكثر من ربه.

وما فى القلوب وإن كان لا يعلمه إلا الله، لكن له شاهد فى الجوارح، ولذا يروى عن الحسن - رحمه الله - أنه قال: «ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه»؛ فالجوارح مرآة القلب.

فإن قيل: المحبة فى القلب ولايستطيع الإنسان أن يملكها، ولهذا يروى عن النبى ﷺ؛ أنه قال: «**اللهم إن هذا قسمى فيما أملك؛ فلا تلمنى فيما لا أملك**»(٢) وكيف للإنسان أن يحب شيئاً وهو يبغضه، وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكناً؟

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد؛ فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة وبالعكس، إما لسبب ظاهر أو لإرادة صادقة، فمثلاً: لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك، فتكرهه لهذا السبب، أو لإرادة صادقة؛ كرجل يحب شرب الدخان، فصار عنده إرادة صادقة وعزيمة ثابتة، فكره الدخان، فأقلع عنه.

وقال عمر رضى الله عنه للنبى ﷺ: «إنك لأحب إلى من كل شيء إلا من نفسى. قال النبى ﷺ: **لاوالذى نفسى بيده؛ حتى أكون أحب إليك من نفسك**. قال: الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى. فقال النبى ﷺ: **الآن يا عمر**»(٣)؛ فقد ازدادت محبة عمر رضى الله عنه للنبى ﷺ.

وأقره النبى ﷺ على أن الحب قد يتغير.

وربما تسمع عن شخص كلاماً وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب؛ فتعود محبتك إياه.



(١) القول المفيد ٢/ ١٨٠، ١٨١

(٢) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ١٤٤)، وأبو داود (٢١٣٤)، والترمذى (١١٤٠)، والنسائى (٧/ ٦٤ - السيوطى)، وابن ماجه (١٩٧١) عن عائشة به.

وانظر «السلسبيل» (٢١٣٤ - بتخريجنا)

(٣) تقدم تخريجه

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ، مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١) أَخْرَجَاهُ.

وهذا لفظ البخارى

وبوّب عليه باب حب الرسول ـ ﷺ ـ من الإيمان.

وذكر فيه حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«فوالذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»**(٢).

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال عبدالله بن جار الله(٣)

أنَّ محبة الرسول ـ ﷺ ـ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها أهـ.

قال ابن عثيمين(٤) مناسبة هذا الحديث ظاهرة، إن محبة الرسول ﷺ من محبة الله، ولأنه إذا كان لايكمل الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ. أحب إلى الإنسان من نفسه والناس أجمعين فمحبة من أولى وأعظم.اهـ

قال القرعاوى(٥): مناسبة الحديث للباب

حيث دل الحديث على وجوب محبة الله ورسوله على محبة من سواهما. أهـ .

● **مناسبة الحديث للتوحيد:**

قال القرعاوى(٦): حيث دل الحديث على وجوب تقديم محبة الله ورسوله على من سواهما لذا تكون المحبة عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك .اهـ

قوله «لايؤمن أحدكم» أى إيماناً كاملاً (٧).

قال سليمان آل الشيخ (٨):

قوله «لايؤمن أحدكم». أى لايحصل له الإيمان الذى تبرأ به ذمته، ويستحق به

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «الإيمان» / باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١/ ٧٥/ ح١٥) ومسلم فى الإيمان / باب وجوب محبة رسول الله ﷺ (١/ ٢٩٠/ح ٧٠). من حديث أنس. وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٣١) بتخريجنا

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري(ح١٤)

(٣) الجامع الفريد ١٢٦ .

(٤) القول المفيد ٢/ ١٨٦ .

(٥) (٦) الجديد ٢٨٢

(٧) قاله الحافظ فى الفتح ١/ ٧٥

(٨) تيسير العزيزا لحميد ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣

دخول الجنة بلا عذاب حتى يكون الرسول ﷺ «أحب إليه من أهله وولده ووالده والناس أجمعين»، بل لايحصل له ذلك حتى يكون الرسول أحب إليه من نفسه أيضاً.

كما فى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه المتقدم (١).

فمن لم يكن كذلك، فهو من أصحاب الكبائر، إذا لم يكن كافراً، فإنه لايعهد فى لسان الشرع نفى اسم مسمى أمر الله به ورسوله إلا إذا ترك بعض واجباته فأما إذا كان الفعل مستحباً فى العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب، ولو صح هذا لنفى عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج وحب الله ورسوله، لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبى ﷺ، بل ولاأبو بكر ولاعمر، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفى عن جمهور المسلمين، من الأولين والآخرين، وهذا لايقوله عاقل. وعلى هذا فمن قال إن المنفى هو الكمال، فإن أراد أنه نفى الكمال الواجب الذى بذم تاركه يتعرض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أنه نفى الكمال المستحب فهذا لم يقع قط فى كلام الله ورسوله ﷺ **قاله شيخ الإسلام.** وأكثر الناس يدعى أن الرسول أحب إليه مما ذكر، فلا بد من تصديق ذلك بالعمل المتابعة له، وإلا فالمدعى كاذب؛ فإن القرآن بين أن المحبة التى فى القلب تستلزم العمل الظاهر بحبها كما قال تعالى: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** وقال تعالى: **﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾** إلى قوله: **﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله سمعوا وأطاعوا. فتبين أن هذا من لوازم الإيمان والمحبة، لكن كل مسلم لابد أن يكون محباً بقدر ما معه من الإسلام كما أن كل مؤمن لابد أن يكون مسلماً، وكل مسلم لابد أن يكون مؤمناً، وإن لم يكن مؤمناً الإيمان المطلق، لأن ذلك لايحصل إلا لخواص المؤمنين، إن الإستسلام لله ومحبته لاتتوقف على هذا الإيمان الخاص.

قال شيخ الإسلام: وهذا الفرق يجده الإنسان من نفسه ويعرفه من غيره، فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا على الإسلام، التزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله، وهم مسلمون، ومعهم إيمان مجمل، لكن دخول حقيقة الإيمان إلى

(١) تقدم تخريجه

قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك؛ وإلا فكثير من الناس لايصلون إلى اليقين، ولا إلى الجهاد ولو شُكِّكُوا لشكوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفاراً ولامنافقين. بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه مايدرأ الريب، ولاعندهم من قوة الحب لله ورسوله مايقدمونه على الأهل والمال. وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب، وإلاصاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق انتهى.

قال ابن عثيمين(١):

هذا نفى للإيمان، ونفى الإيمان تارة يراد به نفى الكمال الواجب، وتارة يراد به نفى الوجود؛ أى : نفى الأصل.

والمنفى فى هذا الحديث هو كمال الإيمان الواجب؛ إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول ﷺ إطلاقاً؛ فلا شك أن هذا نفى لأصل الإيمان أهـ.

قوله حتى أكون أحب إليه»

قال ابن حجر(٢):

قوله(أحب) هوأفعل بمعنى المفعول، وهو مع كثرته على خلاف القياس، وفصل بينه وبين معموله بقوله«إليه» لأن الممتنع الفصل بأجنبى. . . . . والمراد بالمحبة هنا حب الاختيار لاحب الطبع، **قاله الخطابى.**

وقال النووى: فيه تلميح إلى قضية النفس الأمارة والمطمئنة، فإن من رجح جانب المطمئنة كان حبه للنبى ﷺ راجحاً، ومن رجح جانب الأمارة كان حكمه بالعكس. وفى كلام القاضى عياض أن ذلك شرط فى صحة الإيمان، لأنه حمل المحبة على معنى التعظيم والإجلال. تعقبه صاحب المفهم بأن ذلك ليس مراداً هنا، لأن اعتقاد الأعظمية ليس مستلزماً للمحبة، إذ قد يجد الإنسان إعظام شيء مع خلوه من محبته.

قال : فعلى هذا من لم يجد من نفسه ذلك الميل لم يكمل إيمانه، وإلى هذا يومىء قول عمر الذى رواه البخارى فى «**الأيمان والنذور**»- وتقدم - من حديث عبدالله بن هشام أن عمر بن الخطاب قال للنبى ﷺ «لأنت يا رسول الله أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى. فقال : «**لا والذى نفسى بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**. فقال له عمر: فإنك الآن والله أحب إلى من نفسى. فقال : **الآن ياعمر**» انتهى.

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٨٢

(٢) الفتح ١/ ٧٥،٧٦،٧٧

فهذه المحبة ليست باعتقاد الأعظمية فقط، فإنها كانت حاصلة لعمر قبل ذلك قطعاً أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[١]:

وفيه أن محبه الرسول ﷺ واجبة تابعه لمحبة الله لازمه لها، فإنها محبة لله ولأجله، تزيد بزيادة محبة الله فى قلب المؤمن وتنقص بنقصانها، وكل من كان محباً لله فإنما يحب فى الله ولأجله كما يحب الإيمان والعمل الصالح. وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالأعتماد عليه ورجائه فى حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب منه، وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله لما فيها من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة فى الله ولاجله، التى هى من كمال التوحيد، وبين المحبة مع الله التى هى محبة الإنداد من دون الله لما يتعلق فى قلوب المشركين من الإلهية التى لاتجوز إلا لله وحده. أهـ

قال ابن عثيمين[٢]:

ومحبة رسول الله ﷺ تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء؛ فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثانى: لما قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته.

الثالث:لما آتاه الله من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

الرابع: أنه سبب هدايتك وتعليمك وتوجيهك اهـ

قلت: لقوله ﷺ **«إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلّمكم»**[٣].ولقوله ﷺ **«من ترك مالاً فلورثته ومن ترك ديناً فإلي وعلي**[٤].لقوله ﷺ «فى الدجال **«إن يظهرو أنا فيكم فأنا حجيجكم وإن يظهر بعدى فامرؤ حجيج نفسه »**[٥].وغير ذلك، لذلك كان كثير من

---

(١) فتح المجيد ٢/ ٥٦٢.

(٢) القول المفيد ٢/ ١٨٢، ١٨٣

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٢٤٧)، وأبو داود (٨)، النسائى (١/ ٣٨- السيوطي)، وابن ماجه عن أبى هريرة به.

(٤) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٢٢٩٨)، ومسلم فى الفرائض (١١/ ٥٦ - النووي) عن ابى هريرة به وانظر «منار السبيل» (١٨٤٧ - بتخريجنا)

(٥) **[صحيح]** أخرجه مسلم فى الفتن(١٨/ ٦٣ -النووي) عن النواس بن سمعان به

الصحابة يجمعون له أبويهم (بأبى وهو أمـى ﷺ) بل وأنفسهم بالقول والعمل كثيرا ما نسمعهم يقولـون له فداك نفسى يا رسول الله وتقرأ من سيرتهـم معه أيضاً أنهم فادوه بأنفسهم لله درهم.

الخامس: لصبره على الأذى فى تبليغ الرسالة.

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله

قوله «من ولده ووالده»

قال ابن حجر (١):

قوله(من والده وولده) قدم الوالد للأكثرية لأن كل أحد له والد من غير عكس، وفى رواية النسائى فى حديث أنس تقديم الولد على الوالد، وذلك لمزيد الشفقة.

وذكر الولد والوالد أدخل فى المعنى لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال، بل ربما يكونان أعز من نفسه، ولهذا لم يذكر النفس أيضاً فى حديث أبى هريرة .

وهل تدخل الأم فى لفظ الوالد؟ إن أريد به من له الـولد فيعم،أو يقال أكتفى بذكر أحدهما كما يكتـفى عن أحد الضدين بالآخر ويكون ما ذكر على سبـيل التمثيل والمراد الأعزه، كأنه قال: أحب إليه من أعزته. أهـ

قوله: قلت: «والناس أجمعين»

قال ابن حجر(٢):

ذكر الناس بعد **الوالد والولد** من عطف العام على الخاص وهوكثير، وقدم الوالد على الولد فى رواية لتقدمه بالزمان والإجلال، وقدم الولد فى أخرى لمزيد الشفقة.

وهل تدخل الـنفس فى عموم قـوله والناس أجمعـين؟ الظاهر دخوله. وقـيل إضافة المحبة إليه تقتضى خروجه منهم وهو بعيـد، وقد وقع التنصيص بذكر النفس فى حديث عبدالله بن هشام أى حديث عمر بن الخطاب المتقدم ــ أهـ.

● من فوائد الحديث

قال سليمان آل الشيخ(٣):

إذا كان هذا شأن محبة الرسول ﷺ فما الظن بمحبة الله.

وانظر «رياض الصالحين»(١٨١١ ـبتخريجنا)

(١) الفتح ١/ ٧٥،٧٦. (٢) الفتح ١/ ٧٦.

وفيـه أن الأعمال من الإيمـان؛ لأن المحبة عمـل، وقد نفى الإيمـان عمن لم يـكن الرسول ﷺ أحب إليه مما ذكر فدل على ذلك.

وفيه أن نفى الإيمان لايدل على الخروج من الإسلام أهـ

قال ابن عثيمن[1]:

ويستفاد من هذا الحديث مايلي:

١ـ وجوب تقديم محبةالرسول ﷺ على محبة النفس.

٢ـ فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال؛ لأنه يجب أن تقدم محبته على نفسك ومالك.

٣ـ أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول اللهﷺ ويبذل لذلك نفسه وماله وكل طاقتـه؛ لأن ذلك من كمـال محبة رسـول اللهﷺ، ولذلك قال بـعض أهل العـلم فى قوله﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾؛ أى : مبغضك، قالوا : وكذلك من أبغض شريعته ﷺ؛ فهو مقطوع لاخير فيه.

٤ـ جواز المحبة الـتى للشفقـة والإكرام والتعظيـم؛ لقوله ﷺ:«**أحب إليـه من ولده ووالده....**»؛ فأثبت أصل المحبة، وهذاأمر طبيعى لاينكره أحد.

٥ـ وجوب تقديم قول الـرسول ﷺ على قول كل الناس؛ لأن مـن لازم كونه أحب من كـل أحد أن يكـون قوله مـقدماً عـلى كل أحـد من النـاس؛ حتى عـلى نفـسك، فمثلاً: أنت تقول شيـئاً وتهواه وتفعله، فيأتى إليك رجل ويـقول لك: هذا يخالف قول الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول أحـب إليك من نفسك؛ فأنت تنتصـر للرسول أكثر مما تنتصـر لنفسك، وترد علـى نفسك بقول الـرسول ﷺ ؛ فتدع ماتهواه مـن أجل طاعة الرسول ﷺ، وهذا عنوان تقديم محبته على محبة النفس، ولهذا قال بعضهم:

تـعصـى الإلـه وأنـت تـزعـم حبـه ... هـذا لـعـمـرى فـى الـقـيـاس بـديـع
لـو كـان حبـك صـادقـاً لأطـعـتـه ... إن المحـب لمـن يـحـب مـطـيـع[2]

قال ابن تيمية: محبة الله مستلزمة لمحبـة مايحبه من الواجبات كما قال تعالى﴿ **قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبـه الله تعالى على عـباده وأحبه، وهو سبـحانه أعظم شـىء بغضاً لمن لم يـتبع

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٨٣ ـ١٨٦.

(٢) «جامع الرسائل» (٢/٢٥٨) وقال (٢٨٤)

رسوله، فمن كان صادقاً فى دعوى محبة الله اتبع رسوله لامحالة، وكان الله رسوله أحب إليه مما سواهما.

«والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك، ولكن لاتزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة فى القلب ولم تكن الذنوب عن نفاق؛ كما فى «صحيح البخاري» عن عمر بن الخطاب: حديث حمار الذى كان يشرب الخمر، وكان النبى ﷺ يقيم عليه الحد، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل، فقال النبى ﷺ «لاتلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله...»؛ فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات، والمعاصى تنقص المحبة، وهذا معنى قول الشبلى لماسئل عن المحبة؛ فقال: ماغنت به جارية فلان: فذكر البيتين.

«والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل؛ فالعابد محب خاضع، بخلاف من يحب من لايخضع له، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر، وبخلاف من يخضع لمن لايحبه كما يخضع للظالم؛ فإن كلاً من هذين ليس عبادة محضة، وإن كان محبوباً لغير الله ومعظم لغير الله؛ ففيه شوب العبادة؛ كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: «تعس عبدالدرهم، تعس عبد الدينار...»

قال ابن عثيمين: إذا يؤخذ من هذا الحديث وجوب تقديم قول الرسول، على قول كل الناس حتى على قول أبي بكر وعمر عثمان، وعلي قول الأئمة الأربعة ومن بعدهم، قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(١).

ولكن إذا وجدنا حديثاً يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة أومخالفاً لقول أهل العلم وجمهور الأمة؛ فالواجب التثبت والتأنى فى الأمر؛ لأن اتباع الشذوذ يؤدى إلى الشذوذ.

ولهذا إذا رأيت حديثاً يخالف ماعليه أكثر الأمة أو يخالف الأحاديث الصحيحة التى كالجبال فى رسوها؛ فلاتتعجل فى قبوله، بل يجب عليك أن تراجع وتطالع فى سنده حتى يتبين لك الأمر، فإذا تبين؛ فإنه لابأس أن يخصص الأقوى بأضعف منه إذا كان حجة؛ فالمهم التثبت فى الأمر، وهذه القاعدة تنفعك فى كثير من الأقوال التى ظهرت أخيراً، وتركها الأقدمون وصارت محل نقاش بين الناس، فإنه يجب اتباع هذه القاعدة، ويقال: أين الناس من هذه الأحاديث؟ ولو كانت هذه الأحاديث من شريعة الله؛ لكانت

---

(٢) «جامع الرسائل» (٢/٢٥٨) وقال (٢٨٤)

وَلَهُمَا(١) عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاَثٌ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ اللهَ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ).

وَفِي رِوَايَةٍ: «لاَ يَجِدُ أَحَدٌ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى ..» إِلَى آخِرِهِ.

منقولة باقية معلومة مثل ما ذكر أن الإنسان إذا لم يطف طواف الإفاضة قبل أن تغرب الشمس يوم العيد، فإنه يعود محرماً، فإن الحديث وإن كان ظاهر سنده الصحه، ولكنه ضعيف وشاذ، ولهذا لم يذكر أنه عمل به إلا رجل أو رجلان من التابعين، وإلا فالأمة على خلافه فمثل هذه الأحاديث يجب أن يتحرى الإنسان فيها ويتثبت، ولانقول: إنها لايمكن أن تكون صحيحه. أهـ.



قوله : [ولهما عنه قال : قال رسول الله ﷺ ثلاث من كن .....] الحديث

ذكره البخاري في أربع مواضع:

أولهم: في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان وهواللفظ الذى جاء به المصنف.

الثاني: باب من كره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار من الإيمان.

ولفظه(٢): **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبداً لايحبه إلا لله ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى فى النار.**

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الإيمان» / باب : حلاوة الإيمان (١/ ٧٧/ ح١٦)، ومسلم فى «الإيمان» / باب خصال الإيمان (١/ ٢/ ١٣ـ النووى) وأحمد فى «مسنده» (٣/ ١٠٣، ١٧٢، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٧٥، ٢٨٨) والترمذى فى «الإيمان»/ باب ماجاء فى ترك الصلاة (٥/ ١٥/ ح٢٦٢٤) والنسائى فى الكبرى» فى الإيمان وشرائعه/ باب حلاوة الإيمان (٦/ ٥٢٧/ ح١١٧١٩) وابن ماجه فى «الفتن/ باب: الصبر على البلاء(٢/ ١٣٣٨/ ح٤٠٣٣) وابن حبان فى «صحيحه» (١/ ٢٢٩، ٢٣٠/ ح٢٣٧، ٢٣٨ ـ الإحسان) وعبدالرزاق فى «مصنفه» (١١/ ٢٠٠/ ح٢٠٣٢٠) والبغوى فى شرح السنة»(١١/ ٤٩/ ح٢١) جميعاً من طريق : عبدالوهاب الثقفى عن أيوب أبى قلابة عن أنس مرفوعاً به. وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٣٣) بتخريجنا

(٢) ح٢١

الثالث: فى كتاب الأدب، باب الحب فى الله. ولفظه[1]

«لايجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرءلايحبه إلالله، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله،وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

الرابع: فى كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ولفظه[2]:

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلالله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار».

● **مناسبة الحديث للباب :**

قال القرعاوى[3]:

حيث دل الحديث على وجوب تقديم محبة الله ورسوله على محبة من سواهما.اهـ

● **مناسبة الحديث للتوحيد:**

قال القرعاوى[4]:

حيث دل الحديث على وجوب تقديم حب الله ورسوله على من سواهما وهذا يدل على أن المحبة نوع من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك.أهـ

قوله : [ولهما عنه قال .....]

أى : وللبخارى ومسلم عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ

قوله«ثلاث»

قال ابن حجر[5]:هو مبتدأ والجملة الخبر وجاز الابتداء بالنكرة لأن التنوين عوض من المضاف إليه فالتقدير خصال يحتمل فى إعرابه غير ذلك.

وذكر ذلك ابن عثيمن واستدل عليه بقول ابن مالك فى الألفية فقال[6].

وإعراب «ثلاث»: مبتدأ، وجاز الابتداء بها لأنها مفيدة على حد قول ابن مالك أهـ.

ولايجز الابتداء بالنكرة ما لم تفد... ... ...

قال عبدالرحمن آل الشيخ[7]: أى ثلاث خصال.

(1) ح٦٠٤١
(2) ٦٩٤١
(3) الجديد للقرعاوى ٢٨٤
(4) الجديد للقرعاوى ٢٨٤
(5) الفتح ١/ ٧٧ ط دار الحديث
(6) القول المفيد ٢/ ١٨٧
(7) فتح المجيد ٢/ ٥٦٣

قوله«من» : شرطية[1]:

قوله «كن» أى حصلن، فهى تامة[2].

قال ابن عثيمن [3]:

«كن» أصلها كان؛ فتكون فعلاً ماضياً ناسخاً، والنون اسمها .

قوله (فيه) خبرها [4]:

قوله «وجد بهن»

قال ابن عثيمين[5]:

وجد: فعل ماض فى محل جزم جواب الشرط ، والجملة من فعل الشرط وجوابه فى محل رفع خبر المبتدأ. أهـ

قوله «حلاوة الإيمان»

قال ابن حجر[6]:وفى قوله:حلاوة الإيمان استعارة تخييلية، شبه رغبة المؤمن فى الإيمان بشىء حلو وأثبت له لازم ذلك الشىء وأضافه إليه وفيه تلميح إلى قصة المريض والصحيح لأن المريض الصفراوى يجد طعم العسل مراً والصحيح يذوق حلاوته على ماهى عليه وكلما نقصت الصحة شيئاً ما نقص ذوقه بقدر ذلك فكانت هذه الأستعارة من أوضح مايقوى استدلال المصنف على زيادة والنقص قال الشيخ أبو محمد بن ابى جمرة:

إنما عبر بالحلاوة لأن الله شبه الإيمان بالشجرة فى قوله: **﴿مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾** فالكلمة هى كلمة الإخلاص والشجرة أصل الإيمان وأغصانها اتباع الأمر واجتناب النهى وورقها مايهتم به المؤمن من الخير وثمرها عمل الطاعات وحلاوة الثمر جنى الثمرة وغاية كماله تناهى نضج الثمرة وبه تظهر حلاوتها. أهـ.

وقال النووى[7] معنى حلاوة الإيمان:

استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق وإيثار ذلك على أغراض الدنيا ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته وكذلك الرسول.

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٨٧

(٢) قاله الحافظ فى الفتح ١/ ٧٧ دار الحديث

(٣)القول المفيد ٢/ ١٨٧

(٤) القول المفيد ٢/ ١٨٧

(٥)القول المفيد ٢/ ١٨٧

(٦) الفتح ١/ ٧٧ ط دار الحديث

(٧) فتح المجيد٢/ ٥٦٣

قال سليمان آل الشيخ[١]:

والشجرة لها ثمرة والثمرة لها حلاوة فـكذلك شجرة الإيمان لابد لها من ثمرة ولابد لتلك الـثمرة من حلاوة. لكن قـد يجدها المؤمن وقـد لايجدها وإنما يجدهـا بما ذكر فى الحديث. أهـ

قوله «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

قال ابن حجر[٢]:

معناه أن من استكمل الإيمان علم أن حـق الله ورسوله آكد عليه من حق أبيه وأمه وولده وزوجه وجميـع الناس، لأن الهدى من الضلال والخلاص من الـنار إنما كان بالله على لسان رسـوله، ومن علامات محبته نصـر دينه بالقول والفعل والذب عـن شريعته والتخلق بأخلاقه، والله أعلم. أهـ

وقال أيضاً [٣]: قوله «أحب إليه»

منصوب لأنه خبر يكون. قال البيضاوى:

المراد بالحب هنا الحب العـقلى الذى هو إيثار ما يقتضى العقـل السليم رجحانه وإن كان علـى خلاف هوى النفـس كالمريض يـعاف الدواء بطبـعه فينفـر عنه ويميـل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله فإذا تـأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولاينهى إلا بما فيه صلاح عاجل أوخلاص آجـل والعقل يقتـضى رجحان جانب ذلـك، تمرن على الائتمـار بأمره بحيث يصير هواه تبعاً لـه ويلتذ بذلك التذاذاً عقلياً إذ الإلتذاذ الـعقلى إدراك ماهو كمال وخير من حيث هو كذلك. أهـ

قال سليمان آل الشيخ[٤]: فى التعليق على كلام البيضاوى المتقدم.

وكلامه - يعنى البيضاوى - على قواعد الجهمية ونحوهم من نفى محبة المؤمنين لربهم لهم. والحق خلاف ذلك بـل المراد فى الحديث أن يكون الله ورسوله عنـد العبد أحب إليه مما سواهما حباً قلبياً كما فى بعض الأحاديث.

«أحبوا الله بكل قـلوبكم» فيمـيل بكليـته إلى الله وحده حتـى يكون وحده محـبوبه

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٥٤

(٢) الفتح ١٠/ ٤٧٨

(٣) الفتح ١/ ٧٧ ط دار الحديث

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٥٤

ومعبوده، وإنما يحب من سواه تبعاً لمحبته كما يحب الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين لما كان يحبهم ربه سبحانه؛ وذلك موجب لمحبة مايحبه سبحانه وكراهة ما يكره، وإيثار مرضاته على ماسواه والسعى فيما يرضيه ما استطاع وترك ما يكره. فهذه علامات المحبة الصادقة ولوازمها. وأما مجرد إيثار ما يقضى العقل رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه إلى آخر كلامه. فهذا قد يكون فى بعض الأمور علامة على الحب ولازماً له لا أنه هو الحب. أهـ

ثم قال ابن حجر(١):

قال البيضاوى: وعبر الشارع عن هذه الحالة بالحلاوة لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة قال: وإنما جعل هذه الأمور الثلاثة عنواناً لكمال الإيمان لأن المرء إذا تأمل أن المنعم بالذات هو الله تعالى وأن لامانح ولامانع فى الحقيقة سواه، وأن ماعداه وسائط وأن الرسول هو الذى يبين له مراد ربه اقتضى ذلك أن يتوجه بكليته نحوه: فلايحب إلا مايحب ولايحب من يحب إلا من أجله وأن يتيقن أن جملة ماوعد وأوعد حق يقيناً ويخيل إليه الموعود كالواقع فيحسب أن مجالس الذكر رياض الجنة وأن العود إلى الكفر إلقاء فى النار انتهى ملخصا وشاهد الحديث من القرآن قوله تعالى ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم ـ إلى قوله ـ أحب إليكم من الله ورسوله**﴾ ثم هدد على ذلك ويوعد بقوله ﴿**فتربصوا**﴾.

●**فائدة:** فيه إشارة إلى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل، فالأول من الأول والأخير من الثانى. وقال غيره: محبة الله على قسمين فرض وندب، فالفرض المحبة التى تبعث على امتثال أوامره والانتهاء عن معاصيه والرضا بما يقدره، فمن وقع فى معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره فى محبة الله حيث قدم هوى. نفسه والتقصير تارة يكون مع الإسترسال فى المباحات والإستكثار منها، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع فى الرجاء فيقدم على المعصية أو تستمر الغفلة فيقع .و هذا الثانى يسرع إلى الإقلاع مع الندم. وإلى الثانى يشير حديث «**لايزنى الزانى وهو مؤمن**»(٢) والندب أن يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع فى الشبهات،والمتصف عموماً بذلك نادر. قال : وكذلك محبة الرسول على قسمين كما تقدم، ويزاد أن لايتلقى شيئاً من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته،ولايسلك إلا طريقته،ويرضى بما شرعه حتى لايجد فى نفسه

(١) الفتح ١/ ٧٨، ٧٩ ط دار الحديث

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٥٧٨)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٣١٧/ ١٠٠) عن أبى هريرة به. وأنظر «فتح المجيد» (ح٧٣٥ بتخريجنا)

حرجاً مما قضاه، ويتخلق بأخلاقه فى الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها، فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان، وتتفاوت مراتب المؤمنين بحسب ذلك.

وقال محيى الدين: هذا حديث عظيم أصل من أصول الدين. ومعنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمل المشاق فى الدين، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا، ومحبة العبد لله تحصل بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول وإنما قال «مما سواهما» ولم يقل «ممن» ليعم من يعقل ومن لايغفل.

● **إشكال وجوابه**

قال النووى: وفيه دليل على أنه لابأس بهذه التثنية. و أما قوله للذى خطب فقال ومن يعصهما «**بئس الخطيب أنت**»(١) فليس من هذا، لأن المراد فى الخطب الإيضاح، وأما هنا فالمراد الإيجاز فى اللفظ ليحفظ، ويدل عليه أن النبى ﷺ حيث قاله فى موضع آخر قال «**ومن يعصهما فلايضر إلا نفسه**»(٢) واعترض بأن هذا الحديث إنما ورد أيضاً فى حديث خطبة النكاح، وأجيب بأن المقصود فى خطبة النكاح أيضاً الإيجاز فلا نقض. وثم أجوبة أخرى، منها دعوى الترجيح، فيكون حيز المنع أولى لأنه عام. والآخر يحتمل الخصوصية، ولأنه ناقل والآخر مبنى على أصل، ولأنه قول والآخر فعل. ورد بأن احتمال التخصيص فى القول أيضاً حاصل بكل قول. ليس فيه صيغة عموم أصلاً، ومنها دعوى أنه من الخصائص، فيمتنع من غيرالنبى - ﷺ ولايمتنع منه، لأن غيره إذا جمع أوهم إطلاقه التسويه، بخلافه هو فإن منصبه لايتطرق إليه إبهام ذلك. وإلى هذا مال ابن عبد السلام. و منا دعوى التفرقة يوجه آخر وهو أن كلامه ﷺ هنا جملة واحدة فلا يحسن إقامة الظاهر فيها مقام المضمر، وكلام الذى خطب جملتان لايكره إقامة الظاهر فيهما مقام المضمر، وتعقب هذا بأنه لايلزم من كونه لايكره إقامة الظاهر فيهما مقام المضمر أن يكره إقامة المضمر فيهما مقام الظاهر، فما وجه الرد على الخطيب مع أنه هو ﷺ جمع كما تقدم؟ ويجاب بأن قصة الخطيب - كما قلنا - ليس فيها صيغة عموم، بل هى واقعة عين، فيحتمل أن يكون فى ذلك المجلس من يخشى عليه توهم التسوية كما تقدم. ومن محاسن الأجوبة فى الجمع بين حديث الباب وقصة الخطيب أن تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لاكل واحدة منهما، فإنها وحدها لاغيه إذا لم ترتبط بالأخرى. فمن يدعى حب إليه مثلا ولايحب رسوله

(١)[صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٣/ ٤٢٠/ ٤٨) عن عدى بن حاتم به وانظر «فقه الخطابة وزاد الخطيب» للمؤلف

(٢) أخرجه أبو داود (٢١١٩) عن ابن مسعود به.

لاينفعه ذلك، ويشير إليه قوله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فأوقع متابعته مكتنفة بين قطرى محبة العباد ومحبة الله تعالى للعباد. وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كل واحد من العصيانيين مستقل باستلزام الغواية، إذ العطف فى تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين فى الحكم، ويشير إليه قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فأعاد ﴿أَطِيعُوا﴾ فى الرسول ولم يعده فى أولى الأمر لأنهم لا استقلال لهم فى الطاعة كاستقلال الرسول . أنتهى ملخصاً من كلام البيضاوى والطيبى . ومنها أجوبة أخرى فيها تكلم: منها أن المتكلم لايدخل فى عموم خطابه، ومنها أن له أن يجمع بخلاف غيره. أهـ.

قلت: وفيما قاله الإمام النووى إشكال وتعقبات للشيخ الألبانى فأنظرها فى كتابنا «فقه الخطابة» فى الباب الرابع، والله أعلم.

قال حامد بن محمد(١): وأيضاً تستلزم المحبة: الحب فيه والبغض فيه والمولاه فيه والمعاداة فيه كما هو المشاهد المتعارف شرعاً وعرفاً ومن لم يكن كذلك فليس بصادق فى محبته ولو فعل ما فعل من الطاعة .

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢): **قوله**

«أن يكون الله ورسوله أحب إليه ما سواهما»، يعنى بالسوى : مايحبه الإنسان بطبعة كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها، فتكون: أحب هنا على بابها.

وأما المحبة الشركية ـ التى قد تقدم بيانها ـ فقليلها وكثيرها ينافى محبة الله ورسوله وفى بعض الأحاديث **«أحبو الله بكل قلوبكم»**. ـ وتقدم ـ

فمن علامات محبة الله ورسوله: أن يحب مايحبه الله ويكره مايكرهه الله ويؤثر مرضاته على ماسواه. ويسعى فى ما يرض ما استطاع ويبعد عما حرمّه ويكرهه أشد الكراهة ويتابع رسوله ويمتثل أمره ويترك نهيه كما قال تعالى ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف مانهى عنه فذلك علم على عدم محبة الله ورسوله فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله . فمن أحب الله وأطاعة أحب الرسول وأطاعة ومن لا فلا. كما فى آية المحنة ونظائرها والله المستعان.

وانظر «فقه الخطابة وزاد الخطيب» للمؤلف

قلت: ـ يعني عبدالرحمن آل الشيخ ـ ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته فإنه يحب من عبده أن يطيعه والمحب يحب مايحبه محبوبه ولابد.

ومن لوازم محبة الله أيضاً. محبة أهل طاعته كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده فمحبة ما يحبه اللهومن يحبه الله من كمال الإيمان كما فى حديث ابن عباس الآتى. أهـ.

قوله «وأن يحب المرء لايحبه إلا لله»

قال يحيى بن معاذ[1]:حقيقة الحب فى الله أن لايزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء أهـ

قال ابن عثيمين[2]:

قوله «وأن يحب المرء» يشمل الرجل والمرأة.

قوله: **«لايحبه إلا لله»** : اللام للتعليل؛ أى : من أجل الله؛ لأنه قائم بطاعة الله ـ عزوجل ـ.

وحب الإنسان للمرء له أسباب كثيرة: يحبه للدنيا، ويحبه للقرابة، ويحبه للزمالة، ويحب المرء زوجته للاستمتاع، ويحب من أحسن إليه، لكن إذا أحببت هذا المرء لله؛ فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان. أهـ.

قوله «وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذا أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار»

قال ابن حجر[3]: **قوله «وأن يكره أن يعود فى الكفر »**.

زاد أبو نعيم فى المستخرج من طريق الحسن بن سفيان عن محمد بن المثنى شيخ البخارى **«بعد إذا أنقذه الله منه»** وكذا هو فى طريق أخرى للبخاري، والإنقاذ أعم من أن يكون بالعصمة منه ابتداء بأن يولد على الإسلام ويستمر أو بالإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان كما وقع لكثير من الصحابة وعلى الأول فيحمل قوله يعود على معنى الصيرورة بخلاف الثانى فإن العود فيه ظاهره.

فإن قيل: فلم عدى العود بفى ولم يعده بإلى؟ فالجواب أنه ضمنه معنى الاستقرار وكأنه قال يستقر فيه ومثله قوله تعالى **﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾**

● **تنبيه**: استدل به على فضل من أكره على الكفر فترك ذلك إلى أن قتل وأخرجه من

---

(1) الفتح ١/ ٧٩ ط دار الحديث
(2) القول المفيد ٢/ ١٨٨
(3) الفتح ١/ ٧٩، ٨٠

هذا الوجه فى الأدب فى فضل الحب فى الله ولفظه فى هذه الرواية: «**وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذا نقذه الله منه**» وهى أبلغ من لفظ حديث الباب لأنه سوى فيه بين الأمرين وهنا جعل الوقوع فى نار الدنيا أولى من الكفر الذى أنقذه الله بالخروج منه من نار الأخرى وكذا رواه مسلم من هذا الوجه، وصرح النسائى فى روايته والإسماعيلى بسماع قتادة له من أنس والله الموفق وأخرجه النسائى من طريق طلق بن حبيب عن أنس وزاد فى الخصلة الثانية ذكر البغض فى الله ولفظه: «**وأن يحب فى الله ويبغض فى الله**»[1] وقد تقدم البخارى ترجمته «**والحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان**» وكأنه أشار بذلك إلى هذه الرواية والله أعلم.

وقال أيضاً[2]:

سوى - أى البخارى - فى ترجمة باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر بين كراهية الكفر وكراهية دخول النار، والقتل والضرب والهوان أسهل عند المؤمن من دخول النار فيكون أسهل من الكفر إن اختار الأخذ بالشدة، ذكره ابن بطال وقال أيضاً: فيه حجة لأصحاب مالك، وتعقبه ابن التين بأن العلماء متفقون على اختيار القتل على الكفر، وإنما يكون حجة من يقول إن التلفظ بالكفر أولى من الصبر على القتل، ونقل عن المهلب أن قوماً منعوا من ذلك واحتجوا بقوله تعالى ﴿**ولاتقتلوا أنفسكم**﴾ الاية، ولاحجة فيه لأنه قال تلو الآية المذكورة ﴿**ومن يفعل ذلك عدوناً وظلماً**﴾فقيده بذلك، وليس من أهلك نفسه فى طاعة الله ظالماً ولامعتدياً.

وقد أجمعوا على جواز تقحم المهالك فى الجهاد انتهي، وهذا يقدح فى نقل ابن التين الاتفاق المذكور وأن ثم من قال بأولوية التلفظ على بذل النفس للقتل، وإن كان قائل ذلك يعمم فليس بشىء، وإن قيده بمالو عرض مايرجح المفضول كما لو عرض على من إذا تلفظ به نفع متعد ظاهراً فيتجه.

قال ابن عثيمين[3]:

قوله: «وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار».

هذه الصورة فى كافر أسلم؛ فهو يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار، وإنما ذكر هذه الصورة؛ لأن الكافر يألف ما كان عليه أولاً؛ فربما يرجع إليه، بخلاف من لايعرف الكفر أصلاً.

---

(١) أخرجه النسائى فى «الكبري» (١١٧١٨)

(٢) الفتح ١٢/ ٣٣١

(٣) القول المفيد ٢/ ١٨٨، ١٨٩

فمن كره العود فى الكفر كما يكره القذف فى النار؛ فإن هذا من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

قوله: «وفى رواية: لايجد أحد حلاوة الإيمان».

قال عبدالرحمن آل الشيخ: قوله : وفى رواية (لايجد أحد) هذه الرواية أخرجها البخارى فى الأدب من صحيحه : ولفظه **«لايجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلالله، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه وحتى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**. وقد تقدم أن المحبة هنا: عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور؛ والإجلال والهيبة ولوازم ذلك . قال الشاعر:

أهابك إجلالا وما بك قدرة ... علىَّ ولكن ملءُ عين حبيبها. اهـ

أتى المؤلف بهذه الرواية؛ لأن انتفاء وجدان حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولى عن طريق المفهوم، وهذه عن طريق المنطوق،ودلالة المنطوق أقوى من دلالة المفهوم. أهـ

قال سليمان آل الشيخ (١): قال شيخ الإسلام:

أخبر النبى ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك. واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذى هو المحبوب أو المشتهى قال : فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح يتبع كمال محبة العبد لله،وذلك بثلاثة أمور تكميل هذه المحبة وتفريعها ودفع ضدها. فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فإن محبة الله ورسوله، لايكتفى فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله، أحب إليه مما سواهما.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ: ولايكون كذلك، إلا إذا وافق ربه، فيما يحبه وما يكرهه، وقال : وتفريعها أن يحب المرء لايحبه إلا الله.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ: فإن من أحب مخلوقا لله، لا لغرض آخر، كان هذا من تمام حبه لله ، فإن محبة محبوب المحبوب، من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله، وأولياءه، لأجل قيامهم بمحبوبات الله، لالشيء آخر، فقد أحبهم لله لالغيره قال: ودفع ضدها أن يكره ضد الإيمان، كما يكره أن يقذف فى النار.

---

(١) تيسير العزيز الحميد٣٥٤،٣٥٥

قلت ـ يعني سليمان آل الشيخ ـ : وإنما كره الضد، لما دخل قلبه من محبة الله، فانكشف له بنور المحبة محاسن الإسلام، ورذائل الجهل، والكفران، وهذا هو المحب الذي يكون مع من أحب.

كما في «الصحيحين» عن أنس قال : قال رجل : يا رسول الله متى الساعة؟ قال : «و ماأعددت لها؟» قال: ما أعددت لهامن كثير صلاة ولاصيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ :«أنت مع من أحببت»[1] وفي رواية للبخاري فقلنا: ونحن كذلك، قال : نعم . قال أنس: ففرحنا يومئذ، فرحاً شديداً.[2] أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ [3]:قوله (كما يكره أن يقذف في النار) .

أي يستوي عنده الأمران وفيه : رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقاً وإن تاب منه.

والصواب : أنه إن لم يتب كان نقصاً وإن تاب فلا ولهذا كان المهاجرون والأنصار أفضل هذه الأمة مع كونهم في الأصل كفاراً فهداهم الله إلى الإسلام . والإسلام يمحو ما قبله كذلك الهجرة كما صح الحديث بذلك. اهـ

فوائد الحديث:

قال سليمان آل الشيخ[4]: وفي الحديث من الفوائد، أن الله تعالى يحبه المؤمنون، وهو تعالى يحبهم، كما قال : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

وفيه رد ما يظنه بعض الناس، من أنه من ولد على الإسلام؛ أفضل ممن كان كافراً فأسلم، فمن اتصف بهذه الأمور؛ فهو أفضل ممن لم يتصف بهامطلقاً، ولهذا كان السابقون الأولون، أفضل ممن ولد على الإسلام.

وفيه رد على الغلاة، الذى يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقاً، والصواب أنه إن لم يتب كان نقصاً وإن تاب فلا، ولهذا كان المهاجرون والأنصار، أفضل هذه الأمة، وإن كانوا في أول الأمركفاراً يعبدون الأصنام، بل المنتقل من الضلال إلى الهدى، ومن السيئات إلى الحسنات، يضاعف له الثواب، قاله شيخ الإسلام.

وفيه دليل على عداوة المشركين وبغضهم؛ لأن من أبغض شيئاً أبغض من اتصف به، فإذا كان يكره الكفر كما يكره أن يلقى في النار، فكذلك يكره من اتصف به. أهـ



(1) تقدم تخريجه
(2) ما قبله
(3) فتح المجيد ٢/٥٦٦، ٥٦٧
(4) تيسير العزيز الحميد ٣٥٦

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللهِ، وَوَالَى فِي اللهِ، وَعَادَى فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، وَلَن يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ ـ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ ـ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا»(١) رَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ.

● **مناسبة هذا الأثر للباب والتوحيد(٢):**

حيث أفاد الأثر أن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ يرى أن المحبة عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك

وقال ابن عباس رضى الله عنه ـ فى قوله تعالي﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ قال المودة. اهـ وسيأتى الأثر الثانى بعد قريباً.

قوله «من أحب فى الله»

قال ابن عثيمين(٣):

من : شرطية، وفعل الشرط أحب، وجوابه جملة: «**فإنما تنال ولاية الله بذلك**».

و«**فى**»: يحتمل أن تكون للظرفية؛ لأن الأصل فيها الظرفية، ويحتمل أن تكون للسببية؛ لأن «فى» تأتى أحياناً للسببية؛ كما فى قوله ﷺ: «**دخلت امرأة النار فى هرة**»(٤)، أى : بسبب هرة.

وقوله: «**فى الله**».

أى: من أجله، إذا قلنا: إن فى للسببية، وأما إذا قلنا: إنها للظرفية؛ فالمعنى: من أحب فى ذات الله؛ أى : فى دينه وشرعه لا لعرض الدنيا. أهـ

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠/ ٣٣٤٤م/ ح١٨٨٤٨) عن ابن عباس به
وأخرجه الطبرانى فى «الكبير»(١٢/ ٤١٧/ ح١٣٥٣٧) عن ابن عمر موقوفاً.
وأخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (١/ ٣١٢)
من طريق ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن ابن عمر مرفوعاً
وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١/ ٩٠) و قال رواه الطبرانى فى الكبير» وفيه ليث بن أبى سليم والأكثرون على ضعفه .
وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٤) ونسبه لابن أبى شيبة و الحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول» وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٤٠) بتخريجنا)
(٢) الجديد ٢٨٥. (٣) القول المفيد ٢/ ١٩٠ (٤) سبق تخريجه

قال سليمان آل الشيخ(١):

قوله «من أحب فى الله» أى أحب المسلمين والمؤمنين فى الله . أهـ

قلت: وتقدم فى الباب الخامس علاقة شهادة أن لاإله إلا الله بالحب فى الله، والبغض فى الله، وتقدم صوره هذه الموالاة والمعاداة فلينظر فيه مع هذا الموضع تجد فوائد غزيرة والله المستعان.

قوله «وأبغض فى الله».

قال سليمان آل الشيخ(٢):

قوله: (وأبغض فى الله)أى: أبغض الكفار والفاسقين فى الله لمخالفتهم لربهم وإن كانوا أقرب الناس إليه كما قال تعالى**﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾** الآية.

قال ابن عيثمين(٣):

قوله: «وأبغض فى الله»

البغض الكره؛ أى : أبغض فى ذات الله إذا رأى من يعصى الله كرهه.

وفرق بين «فى» التى للسببية و«فى» التى للظرفية؛ فالسببية الحامل له على المحبة أو البغضاء هو الله، والظرفية موضع الحب أو الكراهة هو فى ذات الله ـ عزوجل ـ؛ فيبغض من أبغضه الله، ويحب من أحبه.

قوله «ووالى فى الله»

قال سليمان آل الشيخ(٤):

قوله: ووالى فى الله:هذا بيان للازم المحبة فى الله وهو الموالاة فيه إشارة إلى أنه لا يكفى فى ذلك مجرد الحب، بل لابد مع ذلك من الموالاة التى هى لازم الحب ، وهى النصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين باطناً وظاهراً. أهـ

قال ابن عثيمين(٥):

الموالاة : هى المحبة والنصرة وما أشبه ذلك أهـ.

قوله «وعادى فى الله»

قال سليمان آل الشيخ(٦):

قوله : (وعادى فى الله) هذا بيان للازم البغض فى الله وهو المعاداة فيه أى: إظهار

وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٤) ونسبه لابن أ بى شيبة و الحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول» وأنظر «فتح المجيد» (ح ٦٤٠ بتخريجنا)

(٢) الجديد ٢٨٥. (٣) القول المفيد ٢/ ١٩٠ (٤) سبق تخريجه

العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله والبراء منهم، والبعد عنهم باطناً وظاهراً إشارة إلى أنه لا يكفى مجرد بغض القلب بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾

فهذا علامة الصدق فى البغض فى الله. أهـ

قال ابن عثيمين[1]:

قوله: «وعادى فى الله»

المعاداة ضد الموالاة؛ أى: يبتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم فى الله.

قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك»

قال سليمان آل الشيخ[2]:

قوله: (فإنما تنال ولاية الله بذلك): يجوز فتح الواو وكسرها أى: لايكون العبد من أولياء الله ولاتحصل له ولاية الله إلا بما ذكر من الحب فى الله، والبغض فى الله، والموالاة فى الله والمعاداة فى الله.

كما روى الإمام أحمد والطبرانى عن النبى ﷺ قال: **«لايجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاية لله»**[3].

وفى حديث آخر: **«أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله عز وجل»**[4] رواه الطبراني وغيره. وينبغى لمن أحب شخصاً فى الله أن يأتيه فى بيته فيخبره أنه يحبه فى الله.

كما روى أحمد والضياء عن أبى ذر مرفوعاً: **«إذا أحبَّ أحدكم صاحبه فيأته فى منزله فليخبره أنَّه يحبه لله»**[5] وفى حديث ابن عمر عند البيهقى فى «الشعب» **«فإنه يجد مثل الذى يجد له»**[6].

---

(١) القول المفيد ٢/ ١٩١ (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٥٧، ٣٥٨

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٣٠) قال الهيثمى فى «المجمع»(١/ ٨٩): وفيه رشدين بن سعد وهو منقطع ضعيف ـ وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٤١) بتخريجنا

(٤) تقدم تخريجه فى مبحث الولاء والبراء وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٤٢) بتخريجنا

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٤٥) وفيه ابن لهيعة

(٦) أخرجه البيهقى فى «الشعب» (٩٠١٠) عن ابن عمر به

قال ابن عثيمين[1]: قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك».

هذا جواب الشرط؛ أي: يدرك الإنسان ولاية الله ويصل إليها؛ لأنه جعل محبته وبغضه وولايته ومعاداته لله.

وقوله «ولاية».

يجوز في الواو وجهان: الفتح والكسر، قيل: معناهما واحد، وقيل: بالفتح بمعنى النصرة، قال تعالى ﴿ من ولايتهم من شيء﴾، بالكسر بمعني الولاية على الشيء.

قوله «بذلك».

الباء للسببية، والمشار إليه الحب في الله والبغض فيه، والموالاة فيه والمعاداة فيه.

وهذا الأثر موقوف، لكنه بمعنى المرفوع؛ لأن ترتيب الجزاء على العمل لايكون إلا بتوقيف، إلا أن الأثر ضعيف.

فمعنى الحديث: أن الإنسان لايجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتى يكون كذلك، ولوكثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلاً عن مؤمن أن يوالى أعداء الله، فيرى أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه بالنقائص والعيوب، ثم يواليهم ويحبهم؟! فهذا لو صلى وقام الليل كله وصام الدهر كله؛ فإنه لايمكن أن ينال طعم الإيمان، فلا بد أن يكون قلبك مملوءً بمحبة الله وموالاته، ويكون مملوءً ببغض أعداء الله ومعاداتهم، وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أتُحِبُّ أعداءَ الحبيبِ وتَدَّعي ... حُباً له مَا ذاكَ في إمْكَانِ

قلت: ولعل الشيخ ابن عثيمين: استفاد من كلام الشيخ سليمان الآتى بعده.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «إذا رأيتُ النصرانى أغمض عينى؛ كراهة أن أرى بعينى عدو الله».

هذا الذى يجد طعم الإيمان، أما ـ والعياذ بالله ـ الذى يرى أن اليهود أو النصارى على دين مرضى ومقبول عند الله بعد بعثة النبى ﷺ؛ فهو خارج عن الإسلام، مكذب بقول الله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[3] وقوله﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4] ولكثرة

(١) القول المفيد ٢/ ١٩١، ١٩٢.
(٢) المائدة: ٣
(٢) آل عمران: ١٩
(٤) آل عمران: ٨٥

اليهود والنصارى والوثنيين صار فى هذه المسألة خطر على المجتمع، وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرق بين مسلم وكافر، ولايدرى أن غير المسلم عدو لله ـ عزوجل ـ ، بل هو عدو له أيضاً؛ لقوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾**(١)؛ فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصداقة، قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**(٢).

فالآن أصبحنا فى محنة وخطر عظيم؛ لأنه يخشى على أبنائنا وأبناء قومنا أن يركنوا إلى هؤلاء ويوادوهم يحبوهم، ولذلك يجب أن تخلص هذه البلاد بالذات منهم؛ فهذه البلاد قال فيها الرسول ﷺ: **«لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لاأدع إلا مسلماً»**(٣)، وقال: **«أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب»**(٤)،وقال : **«أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»**(٥)، وهذا كله من أجل أن لايشتبه الأمر على الناس ويختلط أولياء الله بأعدائه». اهـ

قوله : «ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك»

قال سليمان آل الشيخ(٦):

قوله :(ولن يجد عبد طعم الإيمان) إلى آخره، أى: **لايجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه** حتى يحب فى الله، ويبغض فى الله، ويعادى فى الله، ويوالى فى الله، وهذا منتزع من حديث أنس السابق.

وفى حديث أبى أمامة مرفوعاً **«من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»**(٧) رواه أبو داود. والعجب ممن يدعى محبة الله وهو على خلاف ذلك، وما أحسن ما قال ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدعى ... حبًا له ماذاك فى إمكان

---

(١) الممتحنة: ١   (٢) المائدة: ٥١

(٣) [صحيح] أخرجه : مسلم فى الجهاد (٦/ ٣٣٥/ ٦٣) عمر بن الخطاب عن به .

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٠٥٣)، ومسلم فى الوصية (٦/ ١٠٠/ ٢٠) والحديث الذى بعده بلفظ الحديث

(٥) ما قبله   (٦) تيسير العزيز الحميد ٣٥٨

(٧) أبو داود (٤٦٨١) عن ابى أمامة به وأنظر «فتح المجيد» (ح٦٤٣) بتخريجنا)

قولـه «وقد صارت عامـة مؤاخاة النـاس على أمر الـدنيا وذلك لايـجدى على أهـله شيئاً».

قال سليمان آل الشيخ(١):

أى :المؤاخاة على أمر الدنيا لايجدى على أهله شيئاً أي: لاينفعهم أصلا بل يضرهم كما قال تعالى ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾فهذا حال كل خلة ومحبة كانت فى الـدنيا على غير طـاعةالله فإنها تعـود عداوة وندامة يوم القيـامة بخلاف المحبة والخلة على طاعة الله فإنها من أعظم القربات كما جاء فى:

حديث السبعة الذين يظلهم الله فى ظُلّه يوم لاظل إلا ظله قال: «ورجلان تحاباً فى الله اجتمعاً عليه وتفرقاً عليه». (٢) اهـ

قال ابن عثيمين(٣):

قوله: «وقد صار عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لايجدى على أهله شيئاً»

قوله «عامة»

أى: أغلبية.

وقوله: «مؤاخاة الناس».

أى: مودتهم ومصاحبتهم.

أى: أكثر مودة الناس ومصاحبتهم على أمـر الدنيا، وهذا قاله ابن عباس، وهوبعيد العهد منا قريب العهد من النبوة، فإذا كان الـناس قد تغيروا فى زمنه؛ فما بالك بالناس اليوم؟

فقد صارت مـؤاخاة الناس ـ إلا النادر ـ علـى أمر الدنيا، بل صار أعـظم من ذلك، يبيعون دينهم بدنياهم، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٤)، ولما كان غالب مـايحمل على الخيانة هو المـال وحب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٥). اهـ

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٧٩)، ومسلم فى الزكاة (٧/ ١٢٠ ـالنووي) عن أبى هريرة به وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٧ ـ بتخريجنا).

(٣) القول المفيد ٢/ ١٩٣ـ١٩٥

(٤) الأنفال :٢٧

(٥) الأنفال : ٢٨

قلت: ومن صور الموالاة على أمر الدنيا أن يحب الرجل لأنه سيزوجه قريبه أو غريبه وإن كان هذا الرجل شيخاً أو عالماً يحب لعلمه أو دعوته أو يحبه لأنه يبحث له عن عمل أو سيعطيه مالا ولو على سبيل القرض أو المصلحة من مصالح الدنيا لا الدين مثل وجاهته ورياسته فى الدنيا أو وظيفته.

فوائد الأثر

قال ابن عثيمين ويستفاد من أثر ابن عباس رضى الله عنهما:

أن لله تعالى أولياء، وهوثابت بنص القرآن، قال تعالى ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾(١)، وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾(٢)، فلله أولياء يتولون أمره ويقيمون دينه، وهويتولاهم بالمعونة والتسديد والحفظ والتوفيق، والميزان لهذه الولاية قوله تعالى: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾(٣).

قال شيخ الإسلام: «من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً»، والولاية سبق أنها النصرة والتأييد والإعانة.

والولاية تنقسم إلى: ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله؛ فمن الأولى قوله تعالى ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾(٤)، ومن الثانية قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...**﴾(٥).

والولاية التى من الله للعبد تنقسم إلى عامة وخاصة؛ فالولاية العامة هى الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق؛ فالله هو الذى يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى ﴿**ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**﴾(٦).

والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته، وهذه خاصة

(١) البقرة: ٢٥٧
(٢) المائدة: ٥٥
(٣) يونس: ٦٢
(٤) البقرة: ٢٥٧ (٥) المائدة: ٥٦
(٦) الأنعام: ٦٢

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾(١) قَالَ: (المَوَدَّةُ)(٢).

بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾(٣). وقال﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ  الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٤).

قال ابن باز (٥):

بل قد يضرهم إذا صدهم عن الحق وخالف شرع الله أما إذا اشتغلوا بالدنيا فى البيع والشراء وطلب الرزق وكان لايضر إيمانهم ولا يوقعهم فى المعاصى ويستعينون بذلك على طاعة الله فهذا لاحرج فيه. أهـ

●●●

قوله: [وقال ابن عباس فى قوله تعالى.......]

قال سليمان آل الشيخ(٦): هذا الأثر رواه عبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه. أهـ

● مناسبة تفسير ابن عباس للباب والتوحيد:

قال القرعاوى (٧): حيث أفاد تفسير ابن عباس للآية أن المودة إذا لم تكن لله سيخسرها صاحبها يوم القيامة لأنها إشراك مع الله فى المحبة. أهـ

قوله: «وقال ابن عبّاس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ قال «المودة».

قلت: الأثر أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» وابن أبى حاتم فى «تفسيره»، والحاكم فى «المستدرك» وصححه.

---

(١) البقرة: ١٦٦.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/ ٤٣)، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١/ ٢٧٨/ ح١٤٩٢)، والحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٢٧٢).

عن طريق أبى عاصم عن عيسى قال أخبرنى قيس بن سعد عن عطاء عن ابن عباس... فذكره.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (١/ ٣٠٤) ونسبه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه.

وانظر ابن أبى حاتم بتخريجنا و«فتح القدير» (ح١١٣٧) و«فتح المجيد» (ح٦٤٦) بتخريجنا

(٣) البقرة: ٢٥٧ (٤) يونس: ٦٢ (٥) التعليق المفيد ١٧٥.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٣٦٠. (٧) الجديد ٢٨٢.

قال ابن عثمين[1]:

يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

الأسباب: جمع سَبَبَ، وهو كل ما يتُوصَّل به إلى شيء.

وفى اصطلاح الأصوليين: مايلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم؛ فكل ما يوصل إلى شيء، فهو سبب، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾، ومنه سُمِّي الحبل سبباً؛ لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر. اهـ

قلت وتقدم فى باب بيان أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم الغلو فى الصالحين.

قوله: «المودّة».

قال سليمان آل الشيخ[2]:

المودة: أي: المحبة التى كانت بينهم فى الدنيا تقطعت بهم وخانتهم أحوج ما كانوا إليها وتبرأ بعضهم من بعض. كما قال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام: أنه قال لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ وهذه الآية وإن كانت نزلت فى المشركين عباد الأوثان الذين يحبون أندادهم وأوثانهم كحب الله، فإنها عامة لأن الإعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ولهذا قال قتادة: وتقطعت بهم الأسباب قال: أسباب الندامة يوم القيامة والأسباب المواصلة التى يتواصلون بها ويتحابون بها فصارت عداوة يوم القيامة، يلعن بعضهم بعضاً. رواه عبد بن حميد وابن جرير فهذا حال من كانت مودته لغير الله فاحذر من ذلك. أهـ

قال ابن عثيمين[3]:

هذا الأثر ضعفه بعضهم، لكن معناه صحيح؛ فإن جميع الأسباب التى يتعلق بها المشركون لتنجيهم تتقطع بهم، ومنها محبتهم لأصنامهم وتعظيمهم إياها؛ فإنها

(١) القول المفيد ٢/ ١٩٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٦٠.

(٣) القول المفيد ٢/ ١٩٦و ١٩٧.

فيه مسائل

الأولى: تفسير آية (البقرة).

الثانية: تفسير آية (براءة).

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

لاتنفعهم، ولعل ابن عباس رضى الله عنهما أخذ ذلك من سياق الآيات؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ...﴾، ثم قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

وبه تعرف أن مراده المودة الشركية، فأما المودة الإيمانية كمودة الله تعالى ومودة ما يحبه من الأعمال والأشخاص؛ فإنها نافعة موصلة للمراد، قال الله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ...﴾ الآية.



قال ابن عثيمين(١):

قوله : فيه مسائل:

- **الأولى: تفسير آية البقرة.**

وهى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، وسبق ذلك.

- **الثانية: تفسير آية براءة.**

وهى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الآية، وسبق تفسيرها.

- **الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.**

وفى نسخة: **«وتقديمها على النفس والأهل والمال»**.

ولعل الصواب: وجوب تقديم محبته كما هو مقتضى الحديث، وأيضاً قوله: **«على النفس»** يدل على أنها قد سقطت كلمة تقديم أو وتقديمها، وتؤخذ من حديث أنس السابق ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

---

(٤) القول المفيد٢/ ١٩٧و١٩٩.

الرابعة: أَنَّ نَفْيَ الإيمَانِ لاَ يَدُلُّ عَلَى الخُرُوجِ مِنَ الإسْلامِ.

الخامسة: أنَّ للإيمَانِ حَلاوَةً قَدْ يَجِدهَا الإنْسَانُ وَقَدْ لا يَجِدهَا.

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فذكر الأقارب والأموال.

● **الرابعة: أن نفي الإيمان لايدل على الخروج من الإسلام.**

سبق أن المحبة كسبية، وذكرنا في ذلك حديث عمر رضي الله عنه لما قال للرسول ﷺ: «**والله إنك لأحب إليّ من كل شئ إلا من نفسي. فقال له ومن نفسك. فقال: الآن، أنت أحب إليّ من نفسي**»، وقوله: «**الآن**» يدل على حدوث هذه المحبة، وهذا أمر ظاهر، وفيه أيضاً أن نفي الإيمان المذكور في قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده...**» لايدل على الخروج من الإسلام؛ لقوله في الحديث الآخر: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**»؛ لأن حلاوة الإيمان أمر زائد على أصله؛ أي: إن الدليل مركب من الدليلين.

ونفي الشيء له ثلاث حالات: فالأصل أنه نفي للوجود، وذلك مثل: «**لا إيمان لعابد صنم**»، فإن منع مانع من نفي الوجود؛ فهو نفي للصحة، مثل: «**لا صلاة بغير وضوء**»(١)، فإن منع مانع من نفي الصحة؛ فهو نفي للكمال، مثل: «**لا صلاة بحضرة طعام**»(٢)؛ فقوله: «**لا يؤمن أحدكم**» نفي لـلكمال الواجب لا المستحب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**لا ينفى الشيء إلا لانتفاء واجب فيه ما لم يمنع من ذلك مانع**».

● **الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لايجدها.**

تؤخذ من قوله: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**»، وهذا دليل انتفاء الحلاوة إذا انتفت هذه الأشياء.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الطهارة (٣/ ١٠٢ ـ النووي) عن ابن عمر به.
وانظر «منار السبيل» (١٤٨ ـ بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في المساجد (٥/ ٤٦/ ٥٦٠) عن عائشة به
وانظر «رياض الصالحين» (١٧٥٦ بتخريجنا)

السادسة: أَعْمَالُ القَلْبِ الأَرْبَعِ الَّتِي لاَ تُـنَالُ وِلاَيَةُ الله إِلاَّ بِهَا، وَلاَ يَجِدُ أَحَدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ إِلاَّ بِهَا.

السابعة: فَهْمُ الصَّحَابِيِّ لِلوَاقِعِ، أَنَّ عَامَّةَ المُؤَاخَاةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا.

الثامنة: تَفْسِيرُ ﴿تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ مَنْ يحبُّ الله حُبًّا شَدِيداً.

● **السادسة: أعمال القلب الأربعة التى لاتنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.**

وهي: الحب فى الله، والبغض فى الله، والولاء فى الله، والعداء فى الله.

لاتنال ولاية الله إلا بها، فلو صلى الإنسان وصام ووالى أعداء الله؛ فإنه لاينال ولاية الله، قال ابن القيم:

أَتُحِبُّ أعداءَ الحبيبِ وتَدَّعى حُبّاً له مَا ذاكَ فى إِمْكَانِ

وهذا لايقبله حتى الصبيان أن توالى من عاداهم.

وقوله: **«ولايجد أحد طعم الإيمان إلا بها»** مأخوذة من قول ابن عباس: **«ولن يجد عبد طعم الإيمان... » إلخ.**

● **السابعة: فهم الصحابى للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.**

الصحابى يعنى به ابن عباس رضى الله عنهما، وقوله: **«إن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا»**، هذا فى زمنه؛ فكيف بزمننا؟!اهـ

قلت: وفيه أن دراسة الواقع لفهمه أمر سلفى وليس بدعى وأنه لابد منه مع العلم الشرعى للضمان من الزلل فى الفتوى أو الحكم بوجه عام وعلى الناس بوجه خاص فإذا كان معه العلم الشرعى مع فهمه للواقع الذى يسقط عليه هذا العلم أصاب وإلا أخطأ والله أعلم.

● **الثامنة: تفسير قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾.**

فسرها بالمودة، وتفسير الصحابى إذا كانت الآية من صيغ العموم تفسير بالمثال؛ لأن العبرة فى نصوص الكتاب والسنة بعموماتها، فإذا ذكر فرد من أفراد هذا العموم؛ فإنما يقصد ه التمثيل، أي: مثل المودة، لكن حتى الأسباب الأخرى التى يتقربون بها إلى الله وليست بصحيحة؛ فإنها تنقطع بهم ولا ينالون منها خيراً.

العاشرة: الوَعِيدُ عَلَى مَنْ كَانَ الثَمَانِيَةَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ.

الحادية عَشرة: أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ نِدًا تَسَوَى مَحَبَّتُهُ مَحَبَّةَ الله، فَهُوَ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ.

[قلت]: وهذا مؤدى قول شيخ الإسلام فى «مقدمة التفسير» حيث قال فى اختلاف التنوع أنه نوعان الثانى أن يذكر كل واحد من المختلفين من الأسم العام بعض أفراده على سبيل التمثيل لاسبيل ذكر الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه

● **التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.**

تؤخذ من قوله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾**، وهم يحبون الأصنام حباً شديداً، وتؤخذ من قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا﴾**؛ فأشد: اسم تفضيل يدل على الاشتراك بالمعنى مع الزيادة؛ فقد اشتركوا فى شدة الحب، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حباً من هؤلاء لأصنامهم. اهـ

[قلت]: ومع حبهم الشديد لله لم ينفعهم ذلك لما أشركوا معه غيره فى هذه المحبة فما الظن بمن أحب الله حباً قليلاً بل بمن لم يحب الله أصلاً؟! بل ما الظن بمن يبغض الله ويعاديه؟!

● **العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه.**

الثمانية هى المذكورة فى قوله تعالي: **﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾**.

والوعيد فى قوله: **﴿فَتَرَبَّصُوا﴾**؛ فأفاد المؤلف ـ رحمه الله ـ تعالى أن الأمر هنا للوعيد.

● **الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.**

لقوله تعالى: **﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾**، ثم بَيَّنَ فى سياق الآيات أنهم مشركون شركاً أكبر، بدليل ما لهم من العذاب. أهـ

[قلت]: فمن باب أولى من أحب الشركاء أكثر من الله أو من لم يحب الله أو عاداه أشرك شرك أكبر والله أعلم.



(٣١) بابٌ

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

ـ مناسبة الباب لما قبله:

قال ابن عثيمين (٢).

● مناسبة الباب لما قبله: أن المؤلف ـ رحمه الله ـ أعقب باب المحبة بباب الخوف؛ لأن العبادة ترتكز على شيئين: المحبة، والخوف.

فبالمحبة يكون امتثال الأمر، وبالخوف يكون اجتناب النهى، وإن كان تارك المعصية يطلب الوصول إلى الله، ولكن هذا من لازم ترك المعصية، وليس هو الأساس.

فلو سألت من لا يزنى لماذا؛ لقال: خوفاً من الله.

ولو سألت الذى يصلى؛ لقال: طمعاً فى ثواب الله ومحبة له.

وكل منهما ملازم للآخر؛ فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول إلى رحمته. اهـ.

مناسبة الباب للتوحيد

قال ناصر السعدى(٣): هذا الباب عقده المصنف ـ رحمه الله ـ لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده والنهى عن تعلقه بالمخلوقين وبيان أنه لايتم التوحيد إلا بذلك أهـ.

قال ابن عثيمين (٤): ومناسبة الخوف للتوحيد أن من أقسام الخوف ما يكون شركاً منافياً للتوحيد . اهـ.

ـ ماذا أراد المصنف بهذا الباب

قال ابن باز (٥): أراد المؤلف أن يبين وجوب خوف الله تعالى خوفاً يحمله على الإخلاص له وأداء ما فرض عليه والوقوف عند حدوده. أهـ

---

(١) آل عمران ١٧٥.

(٢) القول المفيد ٢/٢٠٢.

(٣) القول السديد / ٨٩.

(٤) القول المفيد ٢/٢٠٦.

(٥) التعليق المفيد (١٧٧).

بيان منزلة الخوف وأنه من أعظم مقامات الدين

قال سليمان آل الشيخ (١): الخوف من أفضل مقامات الدِّين وأجلها فلذلك قال المصنف على وجوب إخلاصه لله تعالى وقد ذكره الله تعالى في كتابه عن سادات المقربين من الملائكة والأولياء والصالحين قال الله تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾(٢)

وقال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾(٣)

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ﴾(٥) وأمر بإخلاصه له فقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(٦)

وقال تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾(٧)

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾(٨).

- هل الأفضلُ للإنسان أن يغلِّب جانب الخوف أو يُغلِّب جانب الرجاء؟

قال ابن عثيمين (٩): وهل الأفضل للإنسان أن يُغلِّب جانب الخوف أو يُغلِّب جانب الرجاء؟

اختلف في ذلك:

فقيل: ينبغي أن يغلب جانب الخوف؛ ليحمله ذلك على اجتناب المعصية ثم فعل الطاعة.

وقيل: يغلب جانب الرجاء؛ ليكون متفائلاً، والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل.

وقيل: في فعل الطاعة: يغلب جانب الرجاء؛ فالذي منّ عليه بفعل هذه الطاعة سيمن عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: إذا وفقك الله للدعاء؛ فانتظر الإجابة لأن

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٦١)
(٢) الأنبياء :٢٨
(٣) النحل الآية: ٥٠.
(٤) المؤمنون: الآية ٥٧.
(٥) الأحزاب: الآية ٩٠
(٦) البقرة الآية: ٤٠
(٧) المائدة الآية: ٤٤
(٨) النحل الآية: ٥٢
(٩) القول المفيد ٢/ ٢٠٢- ٢٠٤

الله يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]، وفى فعل المعصية يغلب جانب الخوف؛ لأجل أن يمنعه منها ثم إذا خاف من العقوبة تاب.

وهذا أقرب شيء، ولكن ليس بذاك القرب الكامل؛ لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[2]؛ أى: يخافون أن لا يقبل منهم، لكن قد يقال بأن هذه الآية يعارضها أحاديث أخرى؛ كقوله ﷺ فى الحديث القدسى عن ربه: «**أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى**»[3].

وقيل: فى حال المرض يغلب جانب الرجاء، وفى حال الصحة يغلب جانب الخوف؛ فهذه أربعة أقوال.

وقال الإمام أحمد: ينبغى أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً؛ فأيها غلب هلك صاحبه؛ أى: يجعلهما كجناحى الطائر، والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط. أهـ

وخوف الله تعالى درجات؛ فمن الناس من يغلو فى خوفه، ومنهم من يفرّط، ومنهم من يعتدل فى خوفه.

والخوف العدل هو الذى يَرُدّ عن محارم الله فقط، وإن زدت على هذا؛ فإنه يوصلك إلى اليأس من روْح الله.

ومن الناس من يفرط فى خوفه بحيث لا يردعه عما نهى الله عنه. أهـ

أقسام الخوف ودرجاته

قال الفقير:

والخوف فى الأصل ينقسم إلى قسمين:

أ- خوف السر، أو خوف العباد والتذلل والتعظيم والخضوع.

ب - الخوف الطبيعى.

فمن قسمه إلى أربعة أقسام كصاحب «التيسير» وعبدالله بن جار الله والقرعاوى فإنما ذلك باعتبار تقسيم كل قسم إلى قسمين، فخوف السر : ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول : الخوف من الله، أومن وعيده، وهو التأله والتعبد له، وهو من أعظم الواجبات الإيمانية.

(١) غافر الآية: ٦٠. (٢) المؤمنون الآية: ٦٠.

(٣) تقدم تخريجه

القسم الثانى: إن كان لغير الله كالوثن أو الطاغوت أو غائباً فهو الشرك.

والخوف الطبيعى ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إن كان يحمل على ترك و اجب، كـالجهاد ، والأمر بالمعروف ، وغير ذلك، فهو محرم.

القسم الثانى : إن كان لايحمل علـى ذلك فهو مباح، وإن كاوهماً فينـبغى أن يدفعه المؤمن.

ومن قســمه إلى ثلاثة أقسـام فقط كابن باز، فـإنما ذلك باعتبـار تقسيمه لـقسم دون الآخر.

وإليك بيان ذلك:

قال سليمان آل الشيخ [(١)]: وهو - أى الخوف - على ثلاثة أقسام:-

أحدها: خوف السر وهو أن يخاف من غير الله أن يـصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلـك؛ بقدرته ومشيئته سـواء ادعى أن ذلك كرامة للمخوف بـالشفاعة أو على سبـيل الإستقلال، فهـذا الخوف لا يجوز تعلـقه بغير الله أصلاً لأن هـذا من لوازم الإلهـية، فمن اتـخذ مع الله نداً يـخافه هـذا الخوف فهو مـشرك. وهذا هو الـذى كان المشركون يعتقدونه فى أصنامهم وآلهـتهم ولهذا يخوفون بها أولياء الـرحمن كما خوفوا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال لهم: ﴿**وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ *** ﴾[(٢)] وقال تعالى عن قوم هـود إنهم قالوا له: ﴿**إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ**﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿**وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ**﴾[(٤)] وهذا القسم هو الواقع اليوم من عباد القبور، فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت كما يخافون الله بل أشد.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٦١) ٥٢.

(٢) الأنعام الآية: ١٨.

(٣) هود الآية: ٥٤/٥٥.

(٤) الزمر الآية: ٣٦.

ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الإيمان كاذباً أو صادقاً فإن كان اليمين بصاحب التربة لم يقدم على اليمين إن كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون فى التراب أخوف عنده من الله ولا ريب أن هذا ما بلغ إليه شرك الأولين بل جهد أيمانهم اليمين بالله تعالى، وكذلك لو أصاب أحداً منهم ظلم لم يطلب كشفه إلا من المدفونين فى التراب. وإذا أراد أن يظلم أحداً فاستعاذ بالله أو ببيته لم يعذه، ولو استعاذ بصاحب التربة أو بتربته لم يقدم عليه أحداً ولم يتعرض له بالأذى حتى أن بعض الناس أخذ من التجار أموالاً عظمية أيام موسم الحاج، ثم بعد أيام أظهر الإفلاس فقام عليه أهل الأموال، فالتجأ إلى قبر فى جدة يقال له المظلوم فما تعرض له أحد بمكروه خوفاً من سر المظلوم وأشباه هذا من الكفر، وهذا الخوف لا يكون العبد مسلماً إلا بإخلاصه لله تعالى وإفراده بذلك دون من سواه.

الثانى: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بغير عذر إلا لخوف من الناس فهذا محرم وهو الذى نزلت فيه الآية المترجم لها وهو الذى جاء فيه: الحديث: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ لاَ تُغَيِّرَهُ؟ فَيَقُولُ: يَارَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ فَيَقُولُ: إِيَّاىَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى**»(*) رواه أحمد

الثالث: خوف وعيد الله الذى توعد به العصاة وهو الذى قال الله فيه: ﴿**ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ**﴾ (١) وقال: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿**قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ**﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿**وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً**﴾(٤) وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان، ونسبة الأول إليه كنسبة الإسلام إلى الإحسان وإنما يكون محموداً إذا لم يوقع فى القنوط واليأس من روح الله، ولهذا قال شيخ الإسلام: هذا الخوف ما حجزك عن معاصى الله فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه.

(*) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٢٧)، وابن ماجه (٤٠٠٨) عن أبى سعيد به.
وانظر «فتح المجيد» (ح٦٤٧) بتخريجنا.

(١) إبراهيم الآية: ١٤ (٢) الرحمن الآية: ٤٦
(٣) الطور الآية: ٢٦ (٤) الإنسان الآية: ٧

بقي قسم رابع: وهو الخوف الطبيعي كالخوف من عدو وسبع وهدم وغرق ونحو ذلك، فهذا لا يذم وهو الذي ذكره الله عن موسى عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾(١) إذا تبين هذا فمعنى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي يخوف أولياءه ويوهمكم أنهم ذو بأس وشدة أهـ.

وتابعه على ذلك عبدالرحمن آل الشيخ(٢).

قال حامد بن محمد بن حسن(٣): واعلم أن الخوف خوفان:

الأول: خوف من الله وهذا الذي هو أحد جناحي طير الإيمان فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه. وهذا هو المأمور به وهو علامة الإيمان كما قال تعالى ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤).

والثاني: خوف مع الله بمعنى أنك تخاف من غيره مثل خوفه أوأشد كما ذكر الله في شأن المنافقين إنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وهذا الخوف الشركي المنهي عنه الذي صاحبه يخلد في النار ولا يكون هذا إلا لعدم إيمانه بالله وعظمته وجلاله وقهريته وملكوتيته على جميع الخلق وقد ذم الله الذين جعلوا فتنه الناس كعذاب الله في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾(٥) ومعلوم بالضرورة أنه إذا لاحظ ما يجري عليه من محن الناس وفتنتهم عند نطقه بالحق وجعله كعذاب الله سواء حينئذٍ أرضاهم بسخط الله فيسخط عليه الله ويسخط عليه الناس. أهـ

قال ناصر السعدي(٦): ولابد في هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الإشتباه اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة وتارة يقع طبيعة وعادة وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته.

«فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه؛ كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لأنه

---

(١) القصص الآية: ٢١.

(٢) فتح المجيد (٢/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤)

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٣٥٣.

(٤) آل عمران الآية ١٧٥.

(٥) العنكبوت الآية: ١٠

(٦) القول السديد ٩٠و٩١.

أشرك فى هذه العبادة التى هى من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد على خوفه من غير الله على خوفه من الله».

وأيضا فمن خشى الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد ومن خشى غيره فقد جعل لله نداً فى المحبه وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروهاً أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك مما هو واقع من عباد القبور وإن كان الخوف طبيعياً كمن يخشى من عدو أوسبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهرى فهذا النوع ليس عبادة وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولاينافى الإيمان.

وهذا إذا كان خوفا محققاً قد انعقدت أسباب الخوف فليس بمذموم وإن كان هذا خوفا وهمياً كالخوف الذى ليس له سبب أصلاً أوله سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه فى وصف الجبناء وقد تعوذ ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع حتى أن خواص المؤمنين وأقويائهم تنقلب المخاوف فى حقهم أمنأو طمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم القلبية وكمال توكلهم ولهذا أتبعه بهذا الباب. أهـ

قال عبدالله بن جار الله(١): وهو أربعة أنواع:

١ـ خوف الله تألهاً وتعبداً له وتقرباً إليه، وهو من أعظم واجبات الإيمان.

٢ـ خوف السر، وهو أن يخاف الإنسان من غير الله من وثن أو طاغوت أو ميت أو غائب أن يصيبه بما يكره، وهذا شرك أكبر ينافى التوحيد.

٣ـ أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس فهذا محرم وهو نوع من الشرك بالله المنافى لكمال التوحيد.

٤ـ الخوف الطبيعى، وهو الخوف من عدو أو سبع ونحو ذلك مما يخشى ضرره، فهذا جائز ولايذم فاعله. أهـ.

قال ابن باز(٢): الخوف ثلاثة أقسام:

الأول: الخوف من الله: وهو أعظمها وأوجبها، ويحب فيه الرخلاص، وصرفه لغيره شرك، شرك إن خاف منها أن تصيبه بمكروه.

الثانى: خوف يحمل على فعل معصية الله وترك الواجب وهو الخوف من المخلوق

---

(١) الجامع الفريد (١٣١)

(٢) التعليق المفيد (١٧٧، ١٧٨).

وهو معصية وفيـه نزل قوله تعالى: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ ويحمله على ترك الجهاد، والواجب أن لا يخاف الإنسـان من المخلوق إلا خوفاً يحمله علـى ما شرعه الله، وأباحه ولايحمله على المعـاصى، فالخوف من المخلوق فى الأشياء الحسية والطـبيعة جائز لابأس به، فهو فطـرى، ويشرع الحذرمن مقتضاه كـالخوف من اللص فيغلق بـابه أو يخاف من سبع فيحمل السلاح أو المرض أو نحوها.

والترجمـة فى النوع الثانى، وهو الـذى حدث فى أحد من بث الشيـطان الخوف فى قلوب المؤمنين من الكـافرين، والتثبيط عن الجهاد، فنهاهم الله وأمرهـم بالثبات، فنفر إليهم النبى ﷺ بعد أحد ولم يحصل قتال.

الثالث: الخوف الطبيعى من اللص والسبع والمرض ونحوه .أهـ

والخوف أقسام:

والأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع، وهو ما يسمى بخوف السر.

وهذا لا يصلح إلا لله ـ سبحانه ـ، فمن أشرك فـيه مع الله غيره؛ فهو مشرك شركاً أكبـر، وذلك مثـل: من يخـاف من الأصنـام أو الأموات، أو مـن يزعمـونهم أولـياء ويعتقدون نفعهم وضرهم؛ كما يفعله بـعض عُبَّاد القبور: يخاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله.

الثانى: الخوف الطبيـعى والجِبِلِّى؛ فهذا فى الأصـل مباح؛ لقوله تعالـى عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ (١)، وقوله عنه أيضا: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾(٢)، لكن إن حمـل على ترك واجب أو فعـل محرم؛ فهو محـرم، وإن استلزم شيئاً مباحاً كان مـباحاً، فمثلاً من خاف من شيء لا يؤثر عليـه وحمله هذا الخوف على ترك صلاة الجماعة مع وجوبها؛ فهذا الخوف محرم، والواجب عليه أن لا يتأثر به.

وإن هدده إنسان على فعـل محرم، فخافه وهو لا يستطيع أن ينـفذ ما هدده به؛ فهذا خوف مـحرم لأنه يؤدى إلـى فعل محـرم بلا عذر، وإن رأى ناراً ثـم هرب منهـا ونجا بنفسه؛ فهذا خوف مباح، وقد يكون واجباً إذا كان يتوصل به إلى إنقاذ نفسه.

وهناك ما يسمى بالوهم وليس بخوف، مـثل أن يرى ظل شجرة تهتز، فيظن أن هذا عدو يتهـدده؛ فهذا لا ينبغـى للمؤمن أن يكـون كذلك، بل يطارد هـذه الأوهام لأنه لا حقيقة لها، وإذا لم تطاردها؛ فإنها تهلكك. اهـ.

---

(١) القصص الآية: ٢١.

(٢) القصص الآية: ٣٣.

قال القرعاوى[1]: للخوف أربعة أقسام.

أولاً: خوف السر : وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما شاء من مرض أو فقر ونحو ذلك بقدرته ومشيئته، سوءاً أدعى أن ذلك كرامة للمخلوق بالشفاعة أو على سبيل الاستقلال فهذا الخوف لايجوز لأنه شرك أكبر.

ثانياً: الخوف من المخلوق : المؤدى إلى فعل محرم أو ترك واجب فهذا حرام.

ثالثاً : خوف وعيد الله : الذى وعد به العصاة، وهذا الخوف من أعلى امراتب الإيمان

رابعاً : الخوف الطبيعى : كخوف الإنسان من السبع ونحوه، وهذا جائز. أهـ

قوله: قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ الآية

ـ مناسبة الآية للباب

قال القرعاوى[2]: حيث دلت الآية على وجوب إخلاص الخوف لله تعالى. اهـ.

ـ مناسبة الآية للتوحيد:

قال عبدالله بن جار الله[3]: أنها دلت على وجوب إفراد الله بالخوف لأنه عبادة فصرفه لغير الله شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قال القرعاوى[4]: حيث دلت الآية على وجوب إخلاص الخوف لله لذا يكون الخوف نوعاً من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

قوله: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾.

الإعراب:

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان القائل وإنما كافة ومكفوفة وذلكم مبتدأ والشيطان مبتدأ ثان وجملة يخوف خبر الشيطان والمبتدأ الثانى وخبره خبر اسم الاشارة ويجوز أن نعرب ذلكم مبتدأ والشيطان بدلا من ذلكم وجملة

---

(١) الجديد / ٢٨٧.

(٢) الجديد / ٢٨٧

(٣) الجامع الفريد ١٣٠.

(٤) الجديد ٢٨٧.

يخوف خبر ذلكم ويجوز أيضاً أن نعرب ذلكم مبتدأ والشيطان خبره وجملة يخوف أولياءه مستأنفة أو حالاً. اهـ. [1].

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار

أخرج ابن جرير[2] بسنده :ـ

وعن ابن عباس﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ يقول الشيطان يخوف المؤمنين بأوليائه[3].

وعن عطاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾[4].

عن قتادة قوله :﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ يخوف والله المؤمن بالكافر ويرهب المؤمن بالكافر[5].ـ

قال مجاهد:﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ قال يخوف المؤمنين بالكفار[6].

وعن ابن إسحق ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ أى أولئك الرهط يعنى النفر من عبدالقيس الذين قالوا لرسول الله ﷺ ما قالوا وما ألقى الشيطان على أفواههم يخوف أولياءه أى يرهبكم باوليائه [7].

وعن سالم الأفطس فى قوله: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ قال يخوفكم بأوليائه [8] عن السدى قال ذكر أمر المشركين وعظمهم فى أعين المنافقين فقال: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ يعظم أولياءه فى صدور كم فتخافونهم[9].

عن أبى مالك ﴿**يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ**﴾ قال: يعظم أولياءه فى أعينكم[10].

---

(1) إعراب القرآن ٢/ ١١٢.
(2) «تفسير ابن جرير» (٤/ ١٢٢).
(3) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق من طريق العوفى عنه.
(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٨٢) ونسبه للفريابى، وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وابن الأنبارى فى «المصاحف».
(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.
(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٨٢) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر.
(٧) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.
(٨) المصدر السابق.
(٩) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.
(١٠) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٨٢) ونسبه لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم. وانظر الأخير بتخريجنا.

عن عكرمة فى الآية قال: تفسيرها يخوّفكم بأوليائه(١).

عن إبراهيم فى الآية قال: يخوّف الناس أولياءه (٢).

عن الحسن فى الآية قال: إنما كان ذلك تخويف الشيطان، ولا يخاف الشيطان إلا ولى الشيطان(٣).

● **ما جاء من أقوال المفسرين فى تفسير الآية:**

قال الطبرى(٤): فإن قال قائل: وكيف قيل يخوف أولياءه وهل يخوف الشيطان أولياءه قيل: إن كان معناه يخوفكم بأوليائه يخوف أولياءه قيل: ذلك نظير قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ بمعنى: لينذركم بأسه الشديد وذلك أن البأس لاينذر وإنما ينذر به وقد كان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول معنى ذلك يخوف الناس أولياءه كقول القائل هو يعطى الدراهم ويكسو الثياب بمعنى هو يعطى الناس الدراهم ويكسوهم الثياب فحذف ذلك للإستغناء عنه وليس الذى شبه ذلك بمشبه لأن الدراهم فى قول القائل هو يعطى الدراهم معلوم أن المعطى هى الدراهم وليس كذلك الأولياء فى قوله يخوف أوليائه مخوفين بل التخويف من الأولياء لغيرهم فلذلك افترقا. اهـ.

قال البغوى (٥):

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾. يعنى ذلك الذى قال لكم ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ من فعل الشيطان ألقى فى أفواههم لترهبوهم وتجبنوا عنهم. اهـ

قال ابن الجوزى (٦) :

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ قال الزجاج: معناه: ذلك التخويف كان فعل الشيطان، سوّله للمخوفين. اهـ.

وقال أيضاً (٧) : والذى نختاره فى الآية: أن المعنى: يخوفكم أولياءه. تقول العرب: قد أعطيت الأموال، يريدون: أعطيت القوم الأموال، فيحذفون القوم، ويقتصرون على

---

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.
(٤) تفسير الطبرى ٣/ ٤/ ١٢٢.
(٥) معالم التنزيل(١/ ٥٨٨).
(٦) زاد المسير ١/ ٤٠٣.
(٧) زاد المسير ١/ ٤٠٤

ذكر المفعول الثاني. فهذا أشبه من ادعاء «باء» ما عليها دليل، ولا تدعوا إليها ضرورة. اهـ.

قال الرازي [1]: اعلم أن قوله ﴿الشَّيْطَانُ﴾ خبر ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ بمعنى: إنما ذلكم المثبط هو الشيطان و﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ جملة مستأنفة بيان لتثبيطه، أو ﴿الشَّيْطَانُ﴾ صفة لإسم الإشارة و﴿يُخَوِّفُ﴾ الخبر، والمراد بالشيطان الركب، وقيل: نعيم بن مسعود، وسمى شيطاناً لعتوه وتمرده في الكفر، كقوله (شياطين الإنس والجن) وقيل هو الشيطان يخوف بالوسوسة.

أما قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ ففيه سؤال: وهو أن الذين سماهم الله بالشيطان إنما خوفوا المؤمنين، فما معنى قوله ﴿ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ والمفسرون ذكروا فيه ثلاثة أوجه: **الأول** تقدير الكلام: ذلكم الشيطان يخوفكم بأوليائه فحذف المفعول الثاني وحذف الجار، ومثال حذف المفعول الثاني قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي فاذا خفت عليه فرعون، ومثال حذف الجار قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً﴾ معناه: لينذركم ببأس وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ أي لينذركم بيوم التلاق وهذا قول الفراء، والزجاج، وأبي علي. قالوا: ويدل عليه قراءة أبي بن كعب (يخوفكم بأوليائه).

القول الثاني: أن هذا على قول القائل: خوفت زيدا عمرا، وتقدير الآية: يخوفكم أولياءه، فحذف المفعول الأول، كما تقول: أعطيت الأموال، أي أعطيت القوم الأموال، قال إبن الأنباري وهذا أولى من ادعاء جار لا دليل عليه وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْساً﴾أي لينذركم بأساً وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ أي لينذركم يوم التلاق والتخويف يتعدى إلى مفعولين من غير حرف جر تقول: خاف زيد القتال، وخوفته القتال وهذا الوجه يدل عليه قراءة ابن مسعود (يخوفكم أولياءه).

القول الثالث: أن معنى الآية: يخوف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين، والمعنى الشيطان يخوف أولياءه الذين يطيعونه ويؤثرون أمره، فأما أولياء الله، فإنهم لا يخافونه إذا خوفهم ولا ينقادون لأمره ومراده منهم، وهذا قول الحسن والسدى، فالقول الأول فيه محذوفان.

والثاني فيه محذوف واحد.

والثالث لا حذف فيه.

(١) التفسير الكبير ٥ / ٩ / ١٠٥ و ١٠٦.

وأما الأولياء فهم المشركون والكفار. اهـ.

قال القرطبى [1]: وقال الحسن والسدى: المعنى يخوف أولياءه المنافقين؛ ليقعدوا عن قتال المشركين. فأما أولياء الله فإنهم لا يخافونه إذا خوّفهم. وقد قيل: إن المراد هذا الذى يخوّفكم بجمع الكفار شيطانٌ من شياطين الإنس؛ إمّا نُعيم بن مسعود أو غيره، على الخلاف فى ذلك كما تقدم. اهـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال عبد الرحمن آل الشيخ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى يخوفكم أولياءه. اهـ.

قال ابن عثيمين [2]: **وأوليائه**: أى: أنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بذلك؛ فكل من نصر الفحشاء والمنكر؛ فهو من أولياء الشيطان، ثم قد يكون النصر فى الشرك وما ينافى التوحيد؛ فيكون عظيماً وقد يكون دون ذلك.

وقوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ من ذلك ما وقع فى الآية التى قبلها، حيث قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، وذلك ليصدوهم عن واجب من واجبات الدين، وهو الجهاد، فيخوفونهم بذلك، وكذلك ما يحصل فى نفس من أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فيُخوِّفه الشيطان ليصده عن هذا العمل، وكذلك ما يقع فى قلب الداعية.

والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، فإذا ألقى الشيطان فى نفسك الخوف؛ فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام على كلمة الحق ليس هو الذى يدنى الأجل، وليس السكوت والجبن هو الذى يبعد الأجل؛ فكم من داعية صدع بالحق ومات على فراشه؟! وكم من جبان قتل فى بيته؟!

وانظر إلى خالد بن الوليد، كان شجاعاً مقداماً ومات على فراشه، وما دام الإنسان قائماً بأمر الله؛ فليثق بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وحزب الله هم الغالبون. اهـ.

قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) تفسير القرطبى ٣ / ١٥٢٤و١٥٢٥.

(٢) القول المفيد ٢/٢٠٦و ٢٠٧.

الإعراب[1]: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الفاء هى الفصيحة أى إذا وثقتم بهذا فلا تخافوهم وخافون عطف على لاتخافوهم والواو فاعل والنون للوقاية وحذفت ياء المتكلم جوازاً باتفاق القراء السبعة فى الرسم، وإن شرطية، كنتم كان واسمها فعل الشرط فى محل جزم بإن. والجواب محذوف دل عليه ما قبله، ومؤمنين خبر كنتم. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن :

قال ابن كثير[2]: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا علىَّ والجأوا إلىَّ فإنى كافيكم وناصركم عليهم كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

● ما جاء فى تفسير الآية بالسنة :

وعن أبى سعيد مرفوعا: إن من ضعف اليقين أن ترضى بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على مالم يؤتك الله إن رزق الله لايجره حرص حريص ولا كراهية كاره[3].

وعن عائشة رضى الله عنها. أن رسول الله ﷺ قال: «**من التمس رضى الله بسخط**

(١) إعراب القرآن ٢/ ١١٢.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٧و٤٠٨.
(٣) وسيأتى تخريجه.

الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ومن التمس رضى الله بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»[1].

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال البغوى[2]: قوله تعالى: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ فى ترك أمرى.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بوعدى لأنى متكفل لكم بالنصر والظفر. اهـ.

قال ابن الجوزى[3]: قوله تعالى: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ يعنى أولياء الشيطان ﴿وَخَافُونِ﴾ فى ترك أمرى. **وفى «إنْ» قولان:**

أحدهما: أنها بمعنى: «إذ» قاله ابن عباس، ومقاتل.

والثانى: أنها للشرط، وهو قول الزجاج فى آخرين.

قال الرازى[4]: وقوله: ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ الكناية فى القولين الأولين عائدة إلى الأولياء، وفى القول الثالث عائدة إلى **(الناس)** فى قوله ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ فتقعدوا عن القتال وتجبنوا ﴿وَخَافُونِ﴾ فجاهدوا مع رسولى وسارعوا إلى ما يأمركم به ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعنى أن الإيمان يقتضى أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس. اهـ.

قال القرطبى[5]: قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ﴾ أى خافون فى ترك أمرى إن كنتم مصدّقين بوعدى. والخوف فى كلام العرب الذُّعْر. وخَاوَفَنى فلان فَخُفْتُه، أى كنتُ أشدّ خوفًا منه. والخَوْفاءُ المَفَازَةَ لا ماء بها. ويقال: ناقةٌ خَوْفَاء وهى الجَرْبَاء. والخافة كالخريطة من الأَدَم يُشْتَارُ فيها العَسَل.

قال سَهلُ بنُ عبدالله: اجتمع بعض الصدّيقين إلى إبراهيم الخَلِيلِ فقال: ما الخوفُ؟ فقال: لاتأمن حتى تبلغ المأمن.

قال سهل: وكان الربيع بن خثيم إذا مرّ بِكِيرٍ يُغْشَى عليه؛ فقيل لعلىّ ابن أبى طالب ذلك؛ فقال: إذا أصابه ذلك فأعلمونى. فأصابه فأعلموه، فجاءه فأدخل يده فى قميصه فوجد حركته عالية فقال: أشهد أنّ هذا أخوف زمانكم. ١

---

(١) سيأتى تخريجه.
(٢) معالم التنزيل ١/ ٥٨٩.
(٣) زاد المسير ١/ ٤٠٤.
(٤) التفسير الكبير ٥/ ٩/ ١٠٦.
(٥) تفسير القرطبى ٣/ ١٥٢٥و ١٥٢٦.

فالخائف من الله تعالى هو أن يخَافَ أن يُعاقبَه إمّا فى الدنيا وإمّا فى الآخرة؛ ولهذا قيل: ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه، بل الخائفُ الذى يترك ما يخَافُ أن يُعذَّب عليه.

ففرض الله تعالى على العباد أن يخافوه فقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقال ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾. ومدح المؤمنين بالخوف فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾. ولأرباب الإشارات فى الخوف عبارات مرجعها إلى ما ذكرنا.

قال الأستاذ أبو علىّ الدَّقاق: دخلت على أبى بكر بن فُورَك رحمه الله عائدا، فلما رآنى دمعتْ عيناه، فقلت له: إنّ الله يعافيك ويَشفيك. فقال لى: أترانى أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت.

وفى سُنَن ابن ماجه عن أبى ذَرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنى أرى مالاترون وأسمع مالاتسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكٌ واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعُدات تجأرون إلى ا لله والله لوددت أنى كنت شجرة تعضد**

أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن غريب ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال: لوددت أنى كنت شجرة تعضد. والله أعلم. اهـ.

قال الشوكانى(١): ﴿وَخَافُونِ﴾ فافعلوا ما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه؛ لأنى الحقيق بالخوف منى، والمراقبة لأمرى ونهيى لكون الخير والشر بيدى، وقيده بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يقتضى ذلك. اهـ.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(٢): **قال ابن القيم**: ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه لئلا يجاهدوهم ولا يأمروهم بمعروف ولا ينهوهم عن منكر فأخبر تعالى أن هذا من كيده وتخويفه، ونهانا أن نخافهم.

قال: والمعنى عند جميع المفسرين يخوفكم بأوليائه قال قتادة: يعظمهم فى صدوركم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوى خوفه منهم.

---

(١) فتح القدير ١ / ٤٨٣.

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣٦٣.

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾(١).

قلت: ـ يعني سليمان آل الشيخ ـ فأمر تعالى بإخلاص هذا الخوف له، وأخبر أن ذلك شرط في الإيمان، فمن لم يأت به لم يأت بالإيمان الواجب؛ ففيه أن إخلاص الخوف لله من الفرائض. اهـ.

قال ناصر السعدي(٢): وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده وأنه من لوازم الإيمان فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله أهـ.



وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ...﴾. الآية.

● مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جار الله(٣): أنها دلت على أن المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات أفردوا الله بالخوف والخشية دون سواه. اهـ.

قال القرعاوي(٤): حيث دلت على وجوب إخلاص خشية التعظيم لله. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوي(٥): دلت الآية على وجوب إخلاص خشية التعظيم لله، لذا تكون هذه الخشية نوعاً من العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

الإعراب(٦) : إنما كافة ومكفوفة ويعمر مساجد الله فعل مضارع ومفعول به مقدم والمراد بعمارتها رمّ ما استرم منها، وتنظيفها وتنويرها وتعظيمها وتأثيثها بالرياش الفاخر المقتنى، ومن اسم موصول فاعل يعمر وجملة آمن صلة وما بعده عطف عليه وإعرابه ظاهر. اهـ.

(١) التوبة: ١٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن.
(٣) الجامع الفريد ١١٣.
(٤) الجديد ٢٨٩.
(٥) الجديد ٢٨٩
(٦) إعراب القرآن (٦٩).

● سبب نزولها كما قال ابن الجوزى: أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر فيهم العباس بن عبد المطلب، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فعيَّروهم بالشّرك، وجعل على بن أبى طالب يوبخُ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقالوا: وهل لكم من محاسن؟ قالوا: نعم، لنَحن أفضل منكم أجراً؛ إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقى الحجيج، ونفك العانى، فنزلت هذه الآية(*)، قال مقاتل فى جماعة.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أحاديث الآثار:**

روى ابن جرير عن ابن عباس: قوله ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ يقول من وحد الله وآمن باليوم الآخر، يقول أقر بما أنزل الله ﴿**وَأَقَامَ الصَّلاةَ**﴾ يعنى الصلوات الخمس ولم يخش إلا الله يقول ثم لم يعبد إلا الله، قال ﴿**فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ**﴾ يقول أن ﴿**أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ كقوله لنبيه ﴿**يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**﴾ يقول إن ربك سيبعثك مقاما محمودا وهى الشفاعة وكل عسى فى القرآن فهى واجبة(١).

وابن إسحق قال ثم ذكر قول قريش إنا أهل الحرم وسقاة الحاج وعمار هذا البيت ولا أحد أفضل منا فقال: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ أى أن عمارتكم ليست على ذلك ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ**﴾ أى من عمرها بحقها ﴿**مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ**﴾ فأولئك عمارها ﴿**فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ وعسى من الله حق(٢).

وهناك أحاديث كثيرة فى فضل بناء المساجد وتعميرها يُرجع إليها فى تفسير هذه الآية من كتاب الدر المنثور وغيره.

واقتصر على ما أخرجه البغوى فى «معالم التنزيل»(٣) فروى بإسناده عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله قال: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**»(٤).

(*) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٩٥) ونسبه لابن جرير، وأبى الشيخ عن الضحاك بنحوه.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٦ / ١٠، ٦٧).

(٢) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق. (٣) معالم التنزيل٣/ ١٧.

(٤) أخرجه الترمذى (٢٦١٧)، وابن ماجة(٨٠٢) عن أبى سعيد بسند ضعيف وانظر «رياض الصالحين» وانظر «فتح المجيد» (ح٦٤٩) بتخريجنا.

وعن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «**من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح**»(١).

وعن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أراد بنا المسجد فكره الناس ذلك وأحبوا أن يدعه، فقال عثمان: سمعت النبى ﷺ يقول: «**من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً كهيئته فى الجنة**»(٢).

وعن أبى عاصم بهذا الإسناد وقال: بنى الله له بيتاً فى الجنة(٣).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن الجوزى(٤): ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ**﴾ على الجمع. وقرأ عاصم، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائى على الجمع فيهما.

وفى المراد بالعمارة قولان:

أحدهما: دخوله والجلوس فيه.

والثانى: البناء له وإصلاحه؛ فكلاهما محظور على الكافر. اهـ.

قال الرازى(٥): إنه تعالى لما بين أن الكافر ليس له أن يشتغل بعمارة المسجد، بين أن المشتغل بهذا العمل يجب أن يكون موصوفا بصفات أربعة:

الصفة الأولى: قوله: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ وإنما قلنا إنه لابد من الإيمان بالله لأن المسجد عبارة عن الموضع الذى يعبد الله فيه، فمن لم يكن مؤمنا بالله، امتنع أن يبنى موضعا يعبد الله فيه، وإنما قلنا أنه لابد من أن يكون مؤمنا بالله واليوم الآخر لأن الاشتغال بعبادة الله تعالى إنما تفيد فى القيامة، فمن أنكر القيامة لم يعبد الله، ومن لم يعبد الله لم يبن بناء لعبادة الله تعالى.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يذكر الإيمان برسول الله؟.

قلنا فيه وجوه:

الأول: أن المشركين كانوا يقولون: إن محمداً إنما ادعى رسالة الله طلبا للرياسة

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٦٦٢٤)، ومسلم فى المساجد (٢/ ٥/ ١٧٠ ـ النووى) وانظر (ح١٢٥) رياض الصالحين بتخريجنا.

(٢) أخرجه البغوى فى «معالم التنزيل» (٣/ ١٧) وفى الباب عن واثلة بن الأسقع، وابن عباس، وغيرهما.

(٣) أخرجه البغوى فى «معالم التنزيل» (٣/ ١٧) بإسناده.

(٤) زاد المسير (١/ ٤٠٤). (٥) التفسير الكبير (٨/ ١٦/ ١٠).

والملك، فههنا ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، وترك النبوة كأنه يقول مطلوبى من تبليغ الرسالة ليس إلا الإيمان بالمبدأ والمعاد، فذكر المقصود الأصلى وحذف ذكر النبوة تنبيها للكفار على أنه لامطلوب له من الرسالة إلا هذا القدر.

الثانى: أنه لما ذكر الصلاة، والصلاة لاتتم إلا بالأذان والإقامة والتشهد، وهذه الأشياء مشتملة على ذكر النبوة كان ذلك كافيا.

الثالث: أنه ذكر الصلاة، والمفرد المحلى بالألف واللام ينصرف إلى المعهود السابق، ثم المعهود السابق من الصلاة من المسلمين ليس إلا الأعمال التى كان قد أتى بها محمد ﷺ، فكان ذكر الصلاة دليلا على النبوة من هذه الوجوه.

الصفة الثانية: قوله ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ والسبب فيه أن المقصود الأعظم من بناء المساجد إقامة الصلوات، فالإنسان مالم يكن مقرا بوجوب الصلوات امتنع أن يقدم على بناء المساجد. اهـ.

قلت: فما القول فيمن لا يصلى فى المسجد وبنى مسجداً. !

الصفة الثالثة: قوله ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

واعلم أن اعتبار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى عمارة المسجد كأنه يدل على أن المراد من عمارة المسجد الحضور فيه، وذلك لأن الإنسان إذا كان مقيما للصلاة فإنه يحضر فى المسجد فتحصل عمارة المسجد به، وإذا كان مؤتيا للزكاة فإنه يحضر فى المسجد طوائف الفقراء والمساكين لطلب أخذ الزكاة فتحصل عمارة المسجد به. وأما إذا حملنا العمارة على مصالح البناء فإيتاء الزكاة معتبر فى هذا الباب أيضاً لأن إيتاء الزكاة واجب وبناء المسجد نافلة، والإنسان مالم يفرغ عن الواجب لايشتغل بالنافلة والظاهر أن الإنسان مالم يكن مؤديا للزكاة لم يشتغل ببناء المساجد. اهـ.

قلت: وستأتى الصفة الرابعة عند تفسير قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾.

قال القرطبى(١): قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ دليل على أن الشهادة لعمار المساجد بالإيمان صحيحة؛ لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها، وقد قال بعض السلف: إذا رأيتم الرجل يعمر المسجد فحسنوا به الظن.

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخُدْرِى أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم الرجل**

---

(١) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٢٩.

يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[1].

فى رواية: «يتعاهد المسجد»[2]. قال: حديث حسن غريب.

قال ابن العربى: وهذا فى ظاهر الصلاح ليس فى مقاطع الشهادات؛ فإن الشهادات لها أحوال عند العارفين بها؛ فإن منهم الذكىّ الفَطِن المحصل لما يعلم اعتقادا وإخبارا، ومنهم المغفّل، وكل واحد ينزَّل على منزلته ويقدَّر على صفته. اهـ.

قال الشوكانى[3]: واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيها بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداه مما افترضه الله على عباده؛ لأن كل ذلك من لوازم الإيمان، وقد تقدّم الكلام فى وجه جمع المساجد وفى بيان ماهية العمارة، ومن جوّز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال عبدالرحمن آل الشيخ[4]: فأثبت لهم عمارة المسجد بعد أن نفاها عن المشركين، لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أو ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ وما كان كذلك فالعدم خير منه فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذى مُعظمه التوحيد، مع العمل الخالص من شوائب الشرك والبدع. وذلك كله داخل فى مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة. اهـ.

قال ابن عثيمين[5]: **قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ﴾.**

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، والمراد بالعِمارة العمَارة المعنوية، وهى عمارتها بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحوها، وكذلك الحسية بالبناء الحسى؛ فإن عمارتها به حقيقة لاتكون إلا ممن ذكرهم الله؛ لأن من يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر لم يعمرها حقيقةً؛ لعدم انتفاعه بهذه العمارة؛ فالعمارة النافعة الحسية والمعنوية من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، ولهذا لما افتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما قبله.

(٣) فتح القدير ٢/ ٣٦٤.

(٤) فتح المجيد ٢/ ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٥) القول المفيد ٢/ ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠.

اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، وأضاف سبحانه المساجد إلى نفسه تشريفاً؛ لأنها موضع عبادته.

قوله: **﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾**.

﴿مَنْ﴾: فاعل يعمر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور، وهى:

- الإيمان بوجوده.

- وربوبيته.

- وألوهيته.

- وأسمائه وصفاته.

﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ هو يوم القيامة، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنه لا يوم بعده.

قال شيخ الإسلام: ويدخل فى الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به النبى ﷺ مما يكون بعد الموت مثل فتنة القبر وعذابه ونعيمه.

لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامته وارتحل إلى دار الجزاء.

ويقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر كثيراً؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان إلى الامتثال، فإنه إذا آمن أن هناك بعثاً وجزاء؛ حمله ذلك على العمل لذلك اليوم، ولكن من لايؤمن باليوم الآخر لايعمل؛ إذ كيف يعمل لشىء وهو لايؤمن به؟!

قوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾.

أى: أتى بها على وجه قويم لانقص فيه، والإقامة نوعان:

إقامة واجبة: وهى التى يقتصر فيها على فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات.

وإقامة مستحبة: وهى التى يزيد فيها على فعل ما يجب فيأتى بالواجب والمستحب.

قوله: **﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾**.

﴿آتَى﴾ تنصب مفعولين: الأول هنا الزكاة، والثانى: محذوف تقديره مستحقها.

﴿الزَّكَاةَ﴾: هى المال الذى أوجبه الشارع فى الأموال الزكوية وتختلف مقاديرها حَسَبَ ما تقتضيخ حكمة الله ـ عزوجل ـ.

قوله: **﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾**.

الإعراب[1]: الواو عاطفة ولم حرف وقلب وجزم ويخش مجزوم بلم والفاعل مستتر يعود على من آمن وإلا أداة حصر ولفظ الجلالة مفعول به.

قال الرازي[2]: قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ وفيه وجوه:

الأول: أنا أبا بكر رضى الله عنه بنى فى أول الإسلام على باب داره مسجدا وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن والكفار يوذونه بسببه، فيحتمل أن يكون المراد هو تلك الحالة، يعنى إنا وإن خاف الناس من بناء المسجد إلا أنه لايلتفت إليهم ولايخشاهم ولكنه يبنى المسجد للخوف من الله تعالى.

الثانى: يحتمل أن يكون المراد منه أن يبنى المسجد لا لأجل الرياء والسمعة وأن يقال إن فلاناً يبنى مسجدا، ولكنه يبنيه لمجرد طلب رضوان الله تعالى ولمجرد تقوية دين الله.

فإن قيل: كيف قال ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ والمؤمن قد يخاف الظلمة والمفسدين؟

قلنا: المراد من هذه الخشية الخوف والتقوى فى باب الدين، وأن لايختار على رضا الله رضا غيره.

قال القرطبى[3]: **قوله تعالى**: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ إن قيل: ما من مؤمن إلا وقد خشى غير الله، ومازال المؤمنون والأنبياء يخشون الأعداء من غيرهم. قيل له: المعنى ولم يخش إلا الله مما يعبدك؛ فإن المشركين كانوا يعبدون الأوثان ويخشونها ويرجونها جواب ثان ـ أى لم يخف فى باب الدين إلا الله.

قال الشيخ سليمان[4]: وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولامحالة أن الإنسان يخشى غيره، ويخشى المحاذير الدنيوية، وينبغى أن يخشى فى ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

قلت ـ أى سليمان ـ: ولهذا قال ابن عباس الآية: لم يعبد إلا الله فإن الخوف كما قال ابن القيم: عبودية القلب، فلايصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب.

قال ابن عثيمين[5]: **قوله**: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٦٩و ٧٠.

(٢) التفسير الكبير ٨/١٦/١١.

(٣) تفسير القرطبى ٤ / ٢٩٢٩.

(٤) تفيسير العزيز الحميد ٣٦٤.

(٥) القول المفيد ٢/ ٢١٠ و ٢١١.

في هذه الآية حصر طريقة الإثبات والنفي.

﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ نفي، ﴿إِلاَّ اللَّهَ﴾ إثبات، والمعنى: إن خشيته انحصرت في الله ـ عزوجل ـ؛ فلايخشى غيره.

والخشية نوع من الخوف، لكنها أخص منه، والفرق بينهما:

١ـ أن الخشية تكون مع العلم بالمخشى وحاله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، والخوف قد يكون من الجاهل.

٢ـ أن الخشية تكون بسبب عظمة المخشى، بخلاف الخوف؛ فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخُوف.

قوله: ﴿فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

الإعراب[1]: الفاء الفصيحة وعسى فعل ماض من أفعال الرجاء وأولئك اسمها وأن يكونوا خبرها ومن المهتدين خبر يكونوا، أي فحال هؤلاء الموصوفين بالصفات الأربع مرجوة والعاقبة عند الله معلومة.

قال الرازي[2]: ثم أنه تعالى لما ذكر هذه الأوصاف قال ﴿فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وفيه وجوه:

الأول: قال المفسرون ﴿فَعَسَىٰ﴾من الله واجب لكونه متعاليا عن الشك والتردد.

الثاني: قال أبو مسلم ﴿فَعَسَىٰ﴾ ههنا راجع إلى العباد وهو يفيد الرجاء فكان المعنى إن الذين يأتون بهذه الطاعات إنما يأتون بها على رجاء الفوز بالاهتداء لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ والتحقيق فيه أن العبد عند الإتيان بهذه الأعمال لايقطع على الفوز بالثواب، لأنه يجوز على نفسه أنه قد أخل بقيد من القيود المعتبرة في حصول القبول.

والثالث: وهو أحسن الوجوه ما ذكره صاحب الكشاف وهو أن المراد منه تبعيد المشركين عن مواقف الاهتداء، وحسم إطماعهم في الإنتفاع بأعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها، فإنه تعالى بين أن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع

(١) إعراب القرآن ٣/ ٧٠.

(٢) التفسير الكريم ٨/١٦/١١و١٢.

وضموا إليها الخشية من الله، فهؤلاء صار حصول الاهتداء لهم دائراً بين ـ لعل وعسى ـ فما بال هؤلاء المشركين يقطعون بأنهم مهتدون ويجزمون بفوزهم بالخير من عند الله تعالى وفى هذا الكلام ونحوه لطف بالمؤمنين فى ترجيح الخشية على الرجاء.

قال الشوكانى[1]: وفى قوله: ﴿فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ حسم لأطماع الكفار فى الانتفاع بأعمالهم، فإن المصوفين بتلك الصفات إذا كان اهتداؤهم مرجوا فقط، فكيف بالكفار الذين لم يتصفوا بشىء من تلك الصفات وقيل: «عسى من الله واجبة» وقيل: هى بمعنى خليق، أى فخليق أن يكونوا من المهتدين. وقيل: إن الرجاء راجع إلى العبادة.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: ﴿فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

قال ابن عباس: «عسى من الله واجبة»[3] وجاءت بصيغة الترجى؛ لئلا يأخذ الإنسان الغرور بأنه حصل على هذا الوصف، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾؛ فالله لايكلف نفساً إلا وسعها؛ فالذين لايستطيعون حيلةً ولايهتدون سبيلاً جديرون بالعفو.

الشاهد من الآية: قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾، ومن علامات صدق الإيمان أن لايخشى إلا الله فى كل ما يقول ويفعل.

ومن أراد أن يصحح هذا المسير؛ فليتأمل قول الرسول ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك»[4]. اهـ.



---

(١) فتح القدير ٢/ ٣٦٤.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢١١ و ٢١٢.

(٣) أخرجه البيهقى (٩/ ١٣) وانظر تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا.

(٤) تقدم تخريجه.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾[1].

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا..... الآية﴾

● **مناسبة الآية للباب**

قال سليمان آل الشيخ: وإنما حمل ضعيف البصيرة على أن جعل فتنة الناس كعذاب الله، وهو الخوف منهم أن ينالوه بما يكره بسبب الإيمان بالله، وذلك من جملة الخوف من غير الله، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة،

قال عبدالله بن جارالله[2]: هى أنه إذا كان الله هو الكافي لعبده وجب أن لايتوكل إلا عليه. اهـ.

وقال القرعاوى[3]: حيث دلت الآية على تحريم مساواة الخوف من الله بالخوف من المخلوق. اهـ.

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

قال القرعاوى[4]: دلت على وجوب تقديم خوف الله على خوف سواه لذا يكون الخوف عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

● **الإعراب[5]:**

قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان حال المنافقين بعد أن بين حال المؤمنين والكافرين فيما تقدم ومن الناس خبر مقدم ومن نكرة موصوفة مبتدأ مؤخر أى ناس وهو أولى من جعلها موصولة وجملة يقول صفة لمن على اللفظ وجملة آمنا مقول القول وبالله متعلقان بآمنا. اهـ.

● **سبب نزول الآية**

وما جاء فى تفسيرها من الآثار

روى ابن جرير[6] بسنده عن ابن عباس قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا

---

(1) العنكبوت: ١٠.

(2) الجامع الفريد ١٣٢.

(3)و(4) الجديد ٢٩١.

(5) إعراب القرآن ٧/ ٤٠٥.

(6) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٠/ ٨٥، ٨٦)، وابن أبى حاتم فى تفسيره (١٧١٧٥)عن ابن عباس به

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال فتنته أن يرتد عن دين الله إذا أوذى فى الله[(١)].

وعن مجاهد قوله: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال أناس يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة فى أنفسهم افتتنوا فجعلوا ذلك فى الدنيا كعذاب الله فى الآخر[(٢)].

وبسنده عن الضحاك يقول قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية نزلت فى ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون فإذا أوذوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر مخافة من يؤذيهم وجعلوا أذى الناس فى الدنيا كعذاب الله[(٣)].

وبسنده عن ابن زيد: فى قول الله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال هو المنافق إذا أوذى فى الله رجع عن الدين وكفر وجعل فتنة الناس كعذاب الله وذكر أن هذه الآية نزلت فى قوم من أهل الإيمان كانوا بمكة فخرجوا مهاجرين فأدركوا وأخذوا فأعطوا المشركين لما نالهم أذاهم ما أرادوا منهم [(٤)].

وبسنده عن ابن عباس قال كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بإسلامهم فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعهم قبل بعض فقال المسلمون كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاسغفروا لهم فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾ إلى آخر الآية قال فكتب إلى من بقى بمكة من المسلمين بهذه الآية أن لاعذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت فيهم هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا وأيسوا من كل خير ثم نزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجا فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل[(٥)].

(١) العنكبوت: ١٠. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٧١٧١).

وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٢٧٠) وزاد نسبه للفريابي، وابن أبى شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وأنظر الدر (٥/ ٢٧١).

وبسنده وعن قتادة قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال هذه الآيات أنزلت فى القوم الذين ردّهم المشركون إلى مكة وهذه الآيات العشر مدنية إلى ههنا وسائرها مكى[1]. اهـ.

ـ سبب نزولها:

قال ابن الجوزى[2]: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال:

أحدها: أنَّها نزلت فى المؤمنين الذين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدُّوا، رواه عكرمة عن ابن عباس[3].

الثاني: نزلت فى قوم كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاءٌ من الله أو مصيبة فى أنفسهم وأموالهم افتتنوا، قاله مجاهد[4].

الثالث: نزلت فى ناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا وأصابهم بلاءٌ من المشركين رجعوا إلى الشّرك، قاله الضحاك[5].

الرابع: أنها نزلت فى عيَّاش بن أبى ربيعة، كان أسلم، فخاف على نفسه من أهله وقومه، فخرج من مكة هارباً إلى المدينة، وذلك قبل قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجزعت أمُّه فقالت لأخويه أبى جهل والحارث ابنى هشام ـ وهما أخواه لأمّه: والله لا آوى بيتاً ولا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تأتيانى به، فخرجا فى طلبه فظفرا به، فلم يزالا به حتى تابعهما وجاءا به إليها، فقيَّدتْه، وقالت: والله لا أحُلُّك من وَثاقك حتى تكفُر بمحمد، ثم أقبلت تجْلِده بالسِّياط وتعذّبه حتى كفر بمحمد عليه السلام جَزَعاً من الضَّرْب، فنزلت فيه هذه الآية، ثم هاجر بَعْد وحَسُنَ إسلامه، هذا قول ابن السائب، ومقاتل. وفى رواية عن مقاتل أنَّهما جَلَداه فى الطريق مائتى جلدة، فتبرأً من دين محمد، فنزلت هذه الآية. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٧١٧١).

(٢) زاد المسير ٦ / ١٢٨.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

● **ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبري(١): يقول تعالى ذكره ومن الناس من يقول أقررنا بالله فوحدناه فإذا آذاه المشركون في إقراره بالله جعل فتنة النـاس اياه في الدنيا كعذاب الله في الآخرة فارتد عن إيمانـه بالله راجعا على الـكفر به ولئـن جاء نصر من ربـك يا محمد أهل الإيـمان به ليقولن هؤلاء المرتدون عن إيمانهم الجاعلون فـتنة الناس كعذاب الله إنا كنا أيها المؤمنون معكم ننصركم عـلى أعدائكم كذبا وإفكا يقول الله أوليس الله بأعـلم أيها القوم من كل أحد بما فـي صدور جميع خلـقه القائليـن آمنا بالله فإذا أوذي في الله ارتـد عن دين الله وغيرهم فكيف يخادع من كان لايخفى عليه خافية ولايستتر عنه سر ولا علانية. اهـ.

قال الرازي(٢): **أقسام المكلفيـن ثلاثة** مؤمن ظاهـر بحسن اعتقاده، وكافـر مجاهر بكفره وعناده، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضمر الكفر في فؤاده، والله تعالى لما بين الـقسمين بقولـه تعالى ﴿**فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ وبين أحوالهما بقوله: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ**﴾ إلى قوله ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ بين القسم الثالث وقال: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا**﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا**﴾ ولم يقل آمنت مع أنه وحد الأفعال التي بعده كقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ**﴾ وقوله: ﴿**جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ**﴾ وذلك لأن المنافق كان يشبـه نفسه بالمؤمن، ويقول إيماني كـإيمانك فقال ﴿**آمَنَّا**﴾ يعني أنا والمؤمن حقاً آمنا، إشعاراً بأن إيمانه كإيمانه، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال في القتـال، وهزموا خصومهـم يقول الجبان خرجـنا وقاتلناهـم وهزمناهم، فيـصح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهـم حتى تقول خرجنا وقاتلنا؟ وهذا الرد يدل على أنه يفـهم من كلامه أن خروجه وقتالـه كخروجهم وقتالهم، لأنـه لا يصح الإنكار عليه في دعوى نفس الخروج والقتال، وكذا قول القائـل أنا والملك ألفينا فلاناً واستقبلناه ينكر، لأن المفـهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظـهار كون إيمانهم كإيمـان المحقين كان الواحد يقول ﴿ **آمَنَّا**﴾ أي أنا والمحق. اهـ

قال ابن كثير(٣): يقول تعالى مخبراً عن قوم من الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم

---

(١) الطبري ١٠ / ٢٠ / ٨٥.
(٢) التفسير الكبير ١٣/ ٢٥ / ٣٨، ٣٩.
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٣) وانظر تيسير العزيز الحميد (٢٦٥، ٢٦٦).

يثبت الإيمان فى قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة فى الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم، فارتدوا عن الإسلام. قال ابن عباس يعنى فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذى فى الله.

وقال ابن القيم: الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين إما أن يقول أحدهم آمناً، وإما أن لايقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر؛ فمن قال: آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه، والفتنة. الإبتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب؛ ومن لم يقل: آمنا فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه فمن آمن بالرسل وأطاعهم، عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتلى بما يؤلمه؛ ومن لم يؤمن بهم، ولم يطعهم، عوقب فى الدنيا والآخرة، وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم، فلابد من حصول الألم لكل نفس آمنت، أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة؛ والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء، ثم يصير له الألم الدائم. والإنسان لابد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه، وعذبوه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم؛ كمن عِنْدَهُ دِينٌ وَتُقى حَلَّ بين قوم فجار ظلمة، ولايتمكنون من فجورهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم فى الأبتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم، فلابد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم، فالحزم كل الحزم بما قالت أُم المؤمنين لمعاوية. مَنْ ارضَى الله بِسَخْطِ النَّاسِ كَفَاهُ الله مَؤُنَةَ النَّاسِ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخْطِ الله لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ الله شَيْئاً. فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاهُ شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم.

قوله: ﴿فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

الإعراب[1]: **﴿فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾** الفاء حرف عطف وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وفى الله متعلقان بأوذى وجملة أوذى فى محل جر بإضافة الظرف إليها أى فى سبيل الله وجملة جعل لامحل لأنها جواب إذا وفتنة الناس مفعول جعل الأول وكعذاب الله فى موضع المفعول الثانى، أو الكاف اسم بمعنى

(١) إعراب القرآن (٤٠٥ و ٤٠٦).

مثل فى موضع المفعول الثانى والمعنى جـزع من أذى الناس، فأطاعهم كما يطيع الله من يخافه ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ الواو عاطفة واللام موطـئة للقسم وإن حرف شرط جازم وجاءهم فـعل ماض فى محل جزم فعل الشرط والـهاء مفعول به ونصر فاعل ومن ربك متـعلقان بجاءهم أو بمحذوف صفة لنصر، لـيقولن: اللام واقعة فى جواب القسم ويقـولن فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحـذوفة لتوالى الأمثال وواو الجماعة المحذوفة لالتقـاء الساكنين فاعل وجملة إنا مقول القول وإن واسـمها وجملة كنا خبرها ومعكم ظرف متعلق بمحذوف خبر كنا.

● **ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين :**

قال البغوى(١): أى: جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله فى الآخرة. أى: جزع من عذاب الناس ولم يصبر عليه، فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه، هذا قول السدى وابن زيد قالا: هو المنافق إذا أوذى فى الله رجع عن الدين وكفر ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: فتح ودولة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ يعنى: هؤلاء المنافين للمؤمنين ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ على عدوكم وكنا مسـلمين، وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قـلنا، فكذبهم الله وقال: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من الإيمان والنفاق. اهـ.

قال ابن الجوزى(٢): **قوله تعالى**: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أى: نالـه أذى أو عذاب بسبب إيمانه ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أى: ما يصيبه من عذابهم فى الدنيا ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ فى الآخرة؛ وإنما يـنبغى للـمؤمن أن يصبـر على الأذى فى الله تعـالى لما يرجو مـن ثوابه ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يعنى دولة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ يعنى المنافقين للمؤمنين ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ على دينكم، فكـذَّبهم الله عزوجل وقال: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾(٣) من الإيمان والنفاق. اهـ

قال الرازى(٤): قوله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ هو فـى معنى قـوله ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ غير أن المراد بتلك الآية الصابـرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذيـن لم يصبروا عليهـا فقال هناك ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ وقال ههـنا ﴿أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ونم يقل فى سـبيل الله واللطيفة فـيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصـابر وخسة

(١) معالم التنزيل ٤/ ٣٦٧.　　(٢) زاد المسير ٦/ ١٢٩.
(٣) العنكبوت/ ١٠.　　(٤) التفسير الكبير ١٣ / ٢٥ / ٣٩و ٤٠.

المنافق الكافر فقال هناك أوذى المؤمن فى سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه، وأوذى المنافق الكافر فترك الله بنفسه، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الإيذاء إلى حد الإكراه، ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان فلايترك الله، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية، والمؤمن أوذى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتى الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة.

قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال الزمخشرى: جعل فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر، وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله.

وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى ترددوا فى الأمر، وقالوا إن آمنا نتعرض للتأذى من الناس وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام، واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولايكون التردد إلا عند التساوى ومن أين إلى أين تعذيب الناس لايكون شديداً، ولايكون مديداً لأن العذاب إن كان شديداً كعذاب النار وغيره يموت الإنسان فى الحال فلا يدوم التعذيب، وإن كان مديداً كالحبس والحصر لايكون شديداً وعذاب الله شديد وزمانه مديد، وأيضاً عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع، وأيضاً عذاب الناس عليه ثواب عظيم، وعذاب الله بعده عذاب أليم، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولاتعد عذاباً كما تقطع السلعة المؤذية ولاتعد عذاباً.

قال ﴿فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ ولم يقل عذاب الناس لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحاناً وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحاناً من الإنسان كالصبر على العبادات.

لو قال قائل هذا يقتضى منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازاً عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله، فنقول ليس كذلك، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً، وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً، بل فى باطنه الإيمان، ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ يعنى دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية، وفيه فوائد نذكرها فى مسائل:

الأولى: قال ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ ولم يقل من الله، مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله ﴿أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ وقوله ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة.

المسألة الثانية: لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهذا يقتضى أن يكونوا قائلين: إنا معكم إذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين، فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين إنا معكم إذا جاء النصر، لكن النصر لايجيء إلا للمؤمن، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم فى الحال، ثم كر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين، لايطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة، فكذلك المسلم وإن كسر فى الحال فالعاقبة للمتقين، فالنصر لهم فى الحقيقة.

المسألة الثالثة: فى ليقولن قراءتان:

إحداهما: الفتح حملا على قوله ﴿مَن يَقُولُ آمَنَّا﴾ يعنى من يقول آمنا إذا أوذى يترك ذلك القول، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم.

وثانيهما: الضم على الجمع إسناداً للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم. فإن المنافقين كانوا جماعة. اهـ.

قال ابن كثير(١): أخبر عن حال الداخل فى الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أُوذى فى الله جعل فتنة الناس له، وهى أذاهم له، ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذى لابد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك فى فراره منه وتركه السبب الذى يناله به كعذاب الله الذى فر منه المؤمنون بالإيمان. فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب، وهذا لضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس فى الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله؛ وغبن كل الغبن إذا استجار من الرمضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال إنى كنت معكم والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق انتهى. اهـ

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٨٣.

● ما جاء فى تفسير الآية فى أقوال شراح كتاب التوحيد :

قال سليمان آل الشيخ[1]: وفى الآية رد على المرجئة والكرامية، وفيها الخوف على نفسك، والإستعداد للبلاء إذ لابد منه مع سؤال الله العافية. اهـ

قال صاحب الظلال[2]: ذلك النموذج من الناس يعلن كلمة الإيمان فى الرخاء يحبسها حقيقة الحمل هينة المؤونة لاتكلف إلا نطقها باللسان، «فإذا أوذى فى الله» بسبب الكلمة التى قالها وهو آمن معافى ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ فاستقبلها فى جزع واختلت فى نفسه القيم واهتزت فى ضميره العقيدة وتصور أن لاعذاب بعد هذا الأمر الذى يلقاه حتى عذاب الله وقال فى نفسه: ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شىء فعلام أصبر على الإيمان وعذاب لايزيد على ما أنا فيه من عذاب؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر، وعذاب الله الذى لايعرف أحد مداه. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: قوله ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ ومعلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله، فيوافق أمره؛ فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله؛ فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم جعلاً لهذه الفتنة كالعذاب؛ فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله؛ لأنه جعل إيذاءهم كعذاب الله، ففر منه بموافقة أمرهم؛ فالآية موافقة للترجمة.

وفى هذه الآية من الحكمة العظيمة، وهى ابتلاء الله للعبد لأجل أن يمحص إيمانه، وذلك على قسمين:

الأول: ما يقدره الله نفسه على العبد؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[5].

الثانى: ما يقدره الله على أيدى الخلق من الإيذاء امتحاناً واختباراً، وذلك كالآية التى ذكر المؤلف.

وبعض الناس إذا أصابته مصائب لايصبر، فيكفر ويرتد أحياناً ـ والعياذ بالله ـ ،

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٦٦.

(٢) الظلال ٥/٢٧٢٣ ـ ٢٧٢٤.

(٣) القول المفيد ٢/٢١٣: ٢١٥.

(٤) الحج: ١١.

(٥) البقرة: ١٥٥/١٥٦.

وأحياناً يكفر بما خالف فيه أمر الله - عزوجل - فى موقفه فى تلك المصيبة، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصاً عظيماً؛ فليكن المسلم على حذر؛ فالله حكيم يمتحن عباده بما يتبين به تحقق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

قوله: «الآية».

أى: إلى آخر الآية: وهى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

كانوا يدعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان، فإذا انتصر المسلمون قالوا: نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنيمة وغيرها. اهـ.

قوله: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

الإعراب(١):

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ الهمزة للاستفهام التقريرى التوبيخى والواو عاطفة على محذوف يقتضيه السياق وليس فعل ماض ناقص والله اسمها والباء حرف جر زائد وأعلم مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر ليس وبما متعلقان بأعلم وفى صدور العالمين صلة ما.

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:**

قال الرازى(٢): بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبيس ولايصح ذلك لهم. لأن التلبيس إنما يكون عندما يخالف القول القلب، فالسامع يبنى الأمر على قوله ولايدرى ما فى قلبه فيلتبس الأمر عليه. وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور، وهو أعلم بما فى صدر الإنسان من الإنسان فلايلتبس عليه الأمر، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما فى القلب، فالمنافق الذى يظهر الإيمان ويضمر الكفر كافر، والمؤمن المكره الذى يظهر الكفر ويضمر الإيمان مؤمن والله أعلم بما فى صدور العالمين، ولما بين أنه أعلم بما فى قلوب العالمين، بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم.

(١) إعراب القرآن (٦٠٤).
(٢) التفسير الكبير ١٣/ ٢٥/ ٤٠.

● **ما جاء في تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد :**

قال ابن عثيمين[(١)]: وقوله: ﴿**أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ**﴾.

قيل في مثل هذا السياق: إن الواو عاطفة على محذوف يُقدَّر بحسب ما يقتضيه السياق.

وقيل: إنها عاطفة على ما سبقها على تقدير أن الهمزة بعدها؛ أي: وأليس الله.

قوله: ﴿**أَعْلَمَ**﴾ مجرور بالفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل.

فالله أعلم بما في صدور العالمين، أي بما في صدور الجميع؛ فالله أعلم بما في نفسك منك، وأعلم بما في نفس غيرك، لأن علم الله عام.

وكلمة ﴿**أَعْلَمَ**﴾: اسم تفضيل، وقال بعض المفسرين ولاسيما المتأخرون منهم: ﴿**أَعْلَمَ**﴾ بمعنى عالم، وذلك فراراً من أن يقع التفضيل بين الخالق والمخلوق، وهذا التفسير الذي ذهبوا إليه كما أنه خلاف اللفظ؛ ففيه فساد المعنى؛ لأنك إذا قلت: أعلم بمعنى عالم، فإن كلمة عالم تكون للإنسان وتكون لله، ولاتدل على التفاضل؛ فالله عالم والإنسان عالم.

وأما تحريف اللفظ؛ فهو ظاهر، حيث حرفوا اسم التفضيل الدال على ثبوت المعنى وزيادة إلى اسم فاعل لا يدل على ذلك والصواب أن (أعلم) على بابها وانها اسم تفضيل، وإذا كانت اسم تفضيل؛ فهي دالة دلالة واضحة على عدم تماثل علم الخالق وعلم المخلوق، وأن علم الخالق أكمل.

وقوله: ﴿**بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ**﴾.

المراد بالعالمين: كل من سوى الله؛ لأنهم عَلَم على خالقهم، فجميع المخلوقات دالة على كمال الله وقدرته وربوبيته.

والله أعلم بنفسك منك ومن غيرك؛ لعموم الآية.

وفي الآية تحذير من أن يقول الإنسان خلاف ما في قلبه، ولهذا لما تخلف كعب بن مالك في غزوة تبوك قال للرسول ﷺ حين رجع: «**إني قد أوتيت جدلاً، ولو جلست إلى غيرك من ملوك الدنيا؛ لخرجت منهم بعذر، لكن لا أقول شيئاً تعذرني فيه فيفضحني الله فيه**»[(٢)].

---

(١) القول المفيد ٢/ ٢١٥: ٢١٦.

(٢) **[صحيح]** أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم في التوبة (٩/ ١٠٠/ ٥٣) عن كعب به . وانظر «رياض الصالحين» (٢١ ـ بتخريجنا). .

عَن أَبِى سَعِيد رَضِىَ الله عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ أَن تُرضِىَ النَّاسَ بِسَخط الله، وَأَنْ تَحْمَدَهُم عَلَى رِزْقِ الله، وَأَنْ تَذُمَّهُم عَلَى مَا لَمْ يُؤتكَ الله، إِنَّ رِزْقَ الله لاَ يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلاَ يَرُدُّه كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»(١).

الشاهد من الآية: قوله: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾؛ فخاف الناس مثل خوف الله تعالى. اهـ.



قوله [عَن أَبِى سَعِيدٍ رَضِىَ الله عَنْهُ مَرْفُوعًا: ...].

ـ مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جارالله(٢): أن فيه ذم لمن خاف الناس وقدَّم رضاهم على رضى الله. اهـ.

وقال القرعاوى(٣): دل الحديث على تحريم ترك شيء من الواجب خوفاً من الناس. اهـ.

ـ مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى(٤): حيث أفاد الحديث أن الخوف نوع من العبادة، والعبادة لغير الله شرك. اهـ.

● شرح الحديث:

قوله: عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين...» الحديث.

[قلت]: لم يعزه المصنف ـ رحمه الله ـ لأحد من المصنفين والحديث أخرجه أبو نعيم فى «الحلية»، والبيهقى فى «الشعب» من طريق عطية العوفى عن أبى سعيد به. وعطية العوفى ضعيف الحديث وكان يدلس. قال مسلم بن الحجاج: قال أحمد وذُكر عطية العوفى فقال: هو ضعيف الحديث. ثم قال: بلغنى أن عطية العوفى كان يأتى الكلبى ويسأله عن التفسير وكان يكنيه بأبى سعيد فيقول: قال أبو سعيد، وكان هشيم

---

(١) [ضعيف] أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (٥/١٠٦)، (١٠/٤١)، والبيهقى فى «الشعب» (/٢٢١ ١/٢٢١) من طريق عطية العوفى، عن أبى سعيد به. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٥١) بتخريجنا.

(٢) الجامع الفريد ١٣٣. (٣) الجديد ٢٩٣.

(٤) الجديد ٢٩٣.

يضعف حديثه عطية. وقال أحمد: حدثنا أبـو أحمد الزبيرى قال: سمعت الكلبى قال: كنانى عطية أبا سعيد (*). اهـ.

قوله(1): «إنّ من ضعف اليقين».

«من»: للتبعيض، والـضعف ضد القوة، ويقال: ضَعفٌ أو ضُعف، وكـلاهما بمعنى واحد؛ أى: من علامة ضعف اليقين.

قال فى المصباح»: والضعف بفتح الضاد فى لغة تميم وبضمها فى لغة قريش خلاف القوة والصحة واليقين، المراد به الإيمان كله(2).

كما قال ابنُ مَسْعُودٍ: «اليَقِينُ الإِيمانُ كُلُّهُ، وَالصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ»(3)، رواه الطبرانى بسـند صحـيح ورواه أبـو نعيم فـى «الحلـية» والـبيـهقـى فى «الـزهد» مـن حديـثه مرفوعاً(4) ولايثبت رفعه. قاله الحافظ ويدخل فى ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق.

كما فـى حديث ابن عـباس مرفوعاً: «فَـإِن اسْتَطَعْـتَ أَنْ تَعْمَلَ بِالـرضى فى اليـقينِ فَافْعَلْ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِع فَإِنَّ فى الصَّبْرِ عَلى ما تَكْره خَيراً كثيراً»(5).

وفى رواية أخرى فى إسنادها ضعف: «قُلْتُ يَا رَسُولَ الله: كَيْفَ أَصْنَعُ بِاليَقِينِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْلَمَ أن مَا أَصَابَكَ لم يكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصِيبَكَ»(6).

قوله: «أن ترضى الناس بسخط الله».

قال سليمان آل الشيخ(7): قوله: أن ترضى الناس بسـخط الله أى: تؤثر رضاهم

(*) تهذيب الكمال (٢٠/١٤٧).

(1) القول المفيد ٢/٢١٦.

(2) تيسير العزيز الحميد ٣٦٧.

(3) علقه البخارى (١/ ٦٠ ـ الفتح) بالشطر الأول منه ووصله البرانى فى «اليد» (٩/١٠٧/١٥٤٤).

قال الهيثمى فى «المجمع» (١/٥٧): رجاله رجال الصحيح. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٥٣) بتخريجنا.

(4) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية(٥/ ٣٤).

(5) أخرجه الحاكم فى «الم تدرك» (٣/ ٥٤١) وتعقبه الذهبى بقو ه : لم يخرج الشيخان لابن خراش لاالقداح لأن القـداح قالس أبو ح تم،: متروك والآخـر مختلف فيـه وعب الملك لم يـسمع من ابن عباس فيما أرى، وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٥٤) بتخريجنا.

(6) أخرجه ابن جـرير فى «تف يره» (٢٨ / ٧٩ـ ٨٠) وانظـر «جامع العلوم والحـكم» (١/ ٣٢٦ و«فتح المجيد» (ح ٦٥٥) بتخريجنا).

(7) تيسير العزيز الحميد ٣٦٧.

على رضى الله، فتوافقهم على ترك الأمور، أو فعل المحظور استجلاباً لرضاهم فلولا ضعف اليقين لما فعلت ذلك، لأن من قوى يقينه علم أن الله وحده هو النافع الضار وأنه لامعول إلا على رضاه، وليس لسواه من الأمر شىء، كائناً ما كان فلايهاب أحداً، ولايخشاه لخوف ضرر يلحقه من جهته كما قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

قوله: «أن ترضى».

قال ابن عثيمين(١): اسم إن مؤخر، وخبرها مقدم: **«من ضعف اليقين»**، والتقدير: إن إرضاء الناس بسخط الله من ضعف اليقين.

قوله: «بسخط الله».

الباء للعِوَض، يعنى: أى تجعل عوض إرضاء الناس سخط الله، فتستبدل هذا بهذا؛ فهذا من ضعف اليقين. اهـ.

قلت: وعن عائشة مرفوعاً «من أرض الناس ـ سخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ومن أرضى الله يسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس»(*)

قال ابن عثيمين(١): واليقين أعلى درجات الإيمان، وقد يراد به العلم، كما تقول: تيقنت هذا الشيء، أى: علمته يقيناً لايعتريه الشك، فمن ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله؛ إذ إنك خفت الناس أكثر مما تخاف الله، وهذا مما ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم؛ فتجد الإنسان يجيء إلى شخص فيمدحه، وقد يكون خالياً من هذا المدح، ولايُبيّن ما فيه من عيوب، وهذا من النفاق وليس من النصح والمحبة، بل النصح أن تبين له عيوبه ليتلافاها ويحترز منها، ولا بأس أن تذكر له محامده تشجيعاً إذا أُمِن فى ذلك من الغرور. أهـ

قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله».

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله» أى: تحمدهم وتشكرهم على ما وصل إليك على أيديهم من رزق؛ بأن تضيفه إليهم وتنسى المنعم المتفضل على الحقيقة وهو الله رب العالمين الذى قدر هذا الرزق لك وأوصله إليك بلطفه ورحمته فإنه لطيف لما يشاء وهو العليم الحكيم فإذا أراد أمراً قيض له أسباباً ولاينافى ذلك:

(*) سيأتى تخريج. (١) القول المفيد ٢/٢١٧. (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٦٨.

حديث: «مَنْ لاَ يَشْكُرِ النَّاسَ لاَ يَشْكُرِ اللهَ»[1] لأن المراد هنا إضافة النعمة إلى السبب ونسيان الخالق، والمراد بشكر الناس عدم كفر إحسانهم ومجازاتهم على ذلك بما استطعت فإن لم تجد فجازهم بالدعاء. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: الحَمْدُ: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

ولكنه هنا ليس بشرط المحبة والتعظيم؛ لأنه يشمل المدح.

و**«رزق الله»**: عطاء الله؛ أي: إذا عطوك شيئاً حمدتهم ونسيت المُسبِّب وهو الله، والمعنى: أن تجعل الحمد كله لهم متناسياً بذلك المسبب، وهو الله؛ فالذى أعطاك سبب فقط، والمعطى هو الله، ولهذا قال النبى ﷺ: **«إنما أنا قاسم، والله يعطى»**.

أما إن كان في قلبك أن الله هو الذى منّ عليك بسياق هذا الرزق، ثم شكرت الذى أعطاك؛ فليس هذا داخلاً فى الحديث، بل هو من الشرع؛ لقوله ﷺ: **«من صنع إليكم معروفاً؛ فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به؛ فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»**[3].

إذن الحديث ليس على ظاهره من كل وجه؛ فالمراد بالحمد أن تحمدهم الحمد المطلق ناسياً المُسبِّب وهو الله - عزوجل -، وهذا من ضعف اليقين، كأنك نسيت المنعم الأصلى، وهو الله - عزوجل ، الذى له النعمة الأولى، وهو سفه أيضاً؛ لأن حقيقة الأمر أن الذى أعطاك هو الله، فالبشر الذى أعطاك هذا الرزق لم يخلق ما أعطاك، فالله هو الذى خلق ما بيده، وهو الذى عطف قلبه حتى أعطاك، أرأيت لو أن إنساناً له طفل، فأعطى طفله ألف درهم وقال له: أعطها فلاناً، فالذى أخذ الدراهم يحمد الأب؛ لأنه لو حمد الطفل فقط لَعَدّ هذا سفهاً؛ لأن الطفل ليس إلا مرسلاً فقط، وعلى هذا؛ فنقول: إنك إذا حمدتهم ناسياً بذلك ما يجب لله من الحمد والثناء؛ فهذا هو الذى من ضعف اليقين، أما إذا حمدتهم على أنهم سبب من الأسباب، وأن الحمد كله لله - عزوجل -؛ فهذا حق، وليس من ضعف اليقين. أهـ

قلت: وقد تقدم الحديث القدسى« إنى والأنس والجن لفى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويُشكر سواى» وفيه ضعيف إلا أن معناه صحيح.

---

(1) أخرجه أحمد فى «مسنده(٢/ ٢٥٨)، وأبو داود (٤٨٠١١)، والترمذى (١٩٥٤) عن أبى هريرة به. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٥٦) بتخريجنا.

(2) القول المفيد ٢/ ٢١٨و ٢١٩.

(3) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٨، ٩٩، ١٢٧)، والبخارى فى «الأدب المفرد» (٢١٦)، وأبو داود (/ ٣١٠ ٢)، والنسائى (٥/ ٨٢).

وانظر «فتح المجيد» (ح٦٥٧) بتخريجنا.

قوله: «وأن تذمهم على مالم يؤتك الله».

قال سليمان آل الشيخ(١): قوله: «وأن تذمهم على مالم يؤتك الله» أى: إذا طلبتهم شيئاً فمنعوك ذممتهم على ذلك، فلو علمت يقيناً أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده وأن المخلوق مدبر لايملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره، وأن الله لو قدر لك رزقاً؛ أتاك ولو اجتهد الخلق كلهم فى دفعه، وأن أرادك بمنع لم يأتك مرادك ولو اجتمع الخلق كلهم فى إيصاله إليك لقطعت العلائق عن الخلائق وتوجهت بقلبك إلى الخالق تبارك وتعالى ولهذا قرر ذلك بقوله: «**إن رزق الله لايجره حرص حريص ولايرده كراهية كاره**» فلاترض الخلق بما يسخط الله، ولاتحمدهم على رزق الله، ولا تذمهم على مالم يؤتك الله طلباً لحصول رزق من جهتهم فـ ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾

قال شيخ الإسلام: اليقين يتضمن اليقين فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا ارضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لابوعد الله ولابرزق الله، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما فى أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفاً منهم، ورجاء لهم وذلك من ضعف اليقين، وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر فى ذلك إلى الله لالهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشألم يكن، فإذا ذممتهم على ما يقدر كان ذلك من ضعف يقينك فلاتخفهم ولا ترجهم، ولاتذمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمة الله ورسوله فهو المذموم.

ولَمَّا قَالَ بَعْضُ وَفْدِ بَنِى تَمِيم: أَىّ محمد أَعْطِنى فإِنَّ حَمْدِى زين وَذَمِّى شين قَالَ ﷺ، «**ذَاكَ الله**»(*) وفى الحديث: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال داخلة فى الإيمان وإلا لم تكن هذه الثلاث من ضعفه وأضدادها من قوته. أهـ

قال ابن عثيمين(٢): هذه عكس الأولى؛ فمثلاً: لو أن إنساناً جاء إلى شخص يوزع دراهم، فلم يعطه، فسبه وشتمه؛ فهذا من الخطأ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٦٨و ٣٦٩.

(*) أخرجه الترمذى (٣٢٦٧) عن البراء به قال الترمذى : حسن غريب وأنظر «فتح القدير» (١١٣٨٨ـ و«فتح المجيد» (ح٦٥٩) بتخريجنا)

(٢) القول المفيد ٢/٢١٩و ٢٢٠.

وَعَنْ عَـائِشَةَ رَضِـيَ اللهُ عَنْهَـا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَـنْ التَمَـسَ رِضَى اللهِ بِسَخَـطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللهُ عَـنْهُ وَأَرْضَى عَنْـهُ النَّاسَ، وَمَنْ الـتمَسَ رضى الـنَّاسِ بِسَخطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِه(١).

لكن من قَصر بواجـب عليه، فَيُذَم لأجل أنه قَصّر بالواجـب لا لأجل أنه لم يعط؛ فلايذم من حيث القَدَر؛ لأن الله لو قَدّر ذلك لوجدت الأسباب التى يصل بها إليك هذا العطاء.

وقوله: «مالم يؤتك».

علامة جزمـه حذف الياء، والمفعـول الثانى محذوف؛ لأنـه فضله، والتقـدير: مالم يؤتكه. أهـ

قوله: «إنَّ رزق الله لا يجره حرص حريص ولايرده كراهية كاره».

قال ابن عثيمين(٢): هذا تعليل؛ لقوله: «**أن تحمدهم وأن تذمهم**».

و «**رزق الله**»: عطاؤه، لـكن حرص الحريـص من سببـه بلا شك، فإذا بـحث عن الرزق وفعلس الأسباب؛ فـإنه يكون فعل الأسباب الموجبة للرزق، لـكن ليس المعنى أن هذا السـبب موجب مسـتقل، وإنما الذى يـرزق هو الله تعالـى، وكم من إنسان يـفعل أسباباً كثيرة للرزق ولا يرزق، وكم من إنسان يفعل أسباباً قليلة فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعى، كما لو وجـد ركازاً فى الأرض أو مات له قريب غنى يرثه، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: «**ولايرده كراهية كاره**».

أى: أن رزق الله إذا قَدّر للعبد، فلن يمنعه عـن كراهية كاره؛ فكم من إنسان حسده الناس، وحاولوا منع رزق الله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.



قوله: [وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «من التمس رضى الله...]

مناسبة الحديث للباب:

قال ابن عثيمين(٣): قوله: «**ومن التمس رضا الناس بسخط الله**»؛ أى: خوفاً منهم حتى يرضوا عنه؛ فقدم خوفهم على مخافة الله تعالى. أهـ

---

(١) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه»س (١/ ٢٤٧ـ الإحسان) من طريق واقد العـمرى، عن أبيه، عن مـحمد بن المكنـدر ، عن عروة، عن عـائشة به. وانظر «فتـح المجيد» (ح ٦٦٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٢٠

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٢٢.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى[1]: حيث دل الحديث على وجوب إخلاص الخوف لله. لذا يكون الخوف نوعاً من العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. أهـ

قوله: [رواه ابن حبان فى «صحيحه»].

قال ابن حبان فى «صحيحه» أخبرنا الحسن بن سفيان، قال: حدثنا عبد الله بن عمر الجعفى قال: حدثنى عبدالرحمن المحاربى، عن عثمان بن واقد العمرى، عن أبيه، عن محمد بن المنكدر، عن عروة، عن عائشة ... الحديث».

قوله: من التمس رضى الله بسخط الناس».

قال سليمان آل الشيخ[2]: **قوله: «من التمس» أى: طلب.**

قال شيخ الإسلام: كتبت عائشة إلى معاوية وروى أنها رفعته **«من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن ارضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً»**[3] هذا لفظ المرفوع ولفظ الموقوف «من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً»[4] هذا اللفظ المأثور عنها، وهذا من أعظم الفقه فى الدين والمأثور أحق وأصدق، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه. وكان عبده الصالح والله يتولى الصالحين وهو كاف عبده **﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾** والله يكفيه مؤنة الناس بلاريب، **وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد يحصل ذلك**، لكن يرضون إذا سلموا من الاغراض، وإذا تبين لهم العاقبة، **«ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً»**، كالظالم الذى يعض على يديه، **وأما كون حامده ينقلب ذاماً فهذا يقع كفراً ويحصل فى العاقبة، فإن العاقبة للتقوى لاتحصل ابتداء عند أهوائهم. قلت:** وإنما يحمل الإنسان على إرضاء الخلق بسخط الخالق هو الخوف منهم. فلو كان خوفه خالصاً لله لما أرضاهم بسخطه، فإن العبيد فقراء عاجزون لاقدرة لهم على نفع ولا ضر البتة، وما بهم من نعمة فمن الله، فكيف يحسن بالموحد المخلص أن يؤثر رضاهم على رضاء رب العالمين؟ الذى له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، ومنه الخير كله، وإليه

---

(١) الجديد ٢٩٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٦٩و ٣٧٠

(٣) أخرجه الترمذى (٢٤١٤) عن عائشة به. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٦٢) بتخريجنا.

(٤) أخرجه الترمذى تحت الموضع السابق وموقوفاً وهو أشبه. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٦٣) بتخريجنا.

يرجع الأمر كله، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. وقد أخبر تعالى أن ذلك من صفات المنافقين في قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ وما أحسن ما قيل:

إذا صح منك الود يا غاية المنى فكل الذى فوق التراب تراب

قال ابن رجب: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب؟.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾

وفى الحديث: عقوبة من خاف الناس واثر رضاهم على رضى الله، وأن العقوبة قد تكون فى الدين عياذاً بالله من ذلك. فإن المصيبة فى الأديان أعظم من المصيبة فى الأموال والأبدان.

وفيه شدة الخوف على عقوبات الذنوب، لاسيما فى الدين فإن كثيراً من الناس يفعل المعاصى ويستهين ولايرى أثراً لعقوبتها، ولايدرى المسكين بماذا أصيب؟ فقد تكون عقوبته فى قلبه كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لانحصى إثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. أهـ

قال ابن عثيمين(١): «**التمس**»: طلب، ومنه قوله ﷺ فى ليلة القدر: «**التمسوها فى العشر**»(٢).

وقوله: «**رضا الله**».

أى: أسباب رضاه، قوله: «**بسخط الله**»: الباء للعِوَض؛ أى: إنه طلب ما يرضى الله ولو سخط الناس به بدلاً من هذا الرضا، وجواب الشرط: «**رضى الله عنه وأرضى عنه الناس**».

قوله: «**رضى الله عنه وأرضى عنه الناس**».

هذا ظاهر، فإذا التمس العبد رضا ربه بنية صادقة رضى الله عنه؛ لأنه أكرم من عبده وأرضى عنه الناس، وذلك بما يلقى فى قلوبهم من الرضا عنه ومحبته؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

---

(١) القول المفيد ٢/ ٢٢١و ٢٢٢. .

(٢) تقدم تخريجه

قوله: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله».

«التمس»: طلب؛ أى: طلب ما يرضى الناس، ولو كان بسخط الله؛ فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده، لهذا قال: «سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»؛ فألقى فى قلوبهم سخطه وكراهيته. أهـ

قال ابن عثيمين[1]: فيستفاد من الحديث ما يلى:

١ـ وجوب طلب ما يرضى الله وإن سخط الناس؛ لأن الله هو الذى ينفع ويضر.

٢ـ أنه لايجوز أن يلتمس ما يسخط الله من أجل إرضاء الناس كائناً من كان.

٣ـ إثبات الرضا والسخط لله على وجه الحقيقة، لكن بلا مماثلة للمخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وأما أهل التعطيل؛ فأنكروا حقيقة ذلك، قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، وهذا لايليق بالله، وهذا خطأ؛ لأنهم قاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق. فنرد عليهم بأمرين: بالمنع، ثم النقض:

فالمنع: أن نمنع أن يكون معنى الغضب المضاف إلى الله ـ عزوجل ـ كغضب المخلوقين.

والنقض: فنقول للأشاعرة: أنتم أثبتم لله ـ عزوجل ـ الإرادة، وهى ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، والرب عز وجل لايليق به ذلك، فإذا قالوا: هذه إرادة المخلوق. نقول: والغضب الذى ذكرتم هو غضب المخلوق.

وكل إنسان أبطل ظواهر النصوص بأقيسة عقلية؛ فهذه الأقيسة باطلة لوجوه:

الأول: أنها تبطل دلالة النصوص، وهذا يقتضى أن تكون هى الحق، ومدلول النصوص باطل، وهذا ممتنع.

الثانى: أنه تقوّلٌ على الله بغير علم؛ لأن الذى يبطل ظاهر النص يُؤوِّله إلى معنى آخر؛ فيقال له: ما الذى أدراك أن الله أراد هذا المعنى دون ظاهر النص؟ ففيه تقول على الله فى النفى والإثبات فى نفى الظاهر، وفى إثبات مالم يدل عليه دليل.

الثالث: أن فيه جناية على النصوص، حيث اعتقد أنها دالة على التشبيه؛ لأنه لم يعطل إلا لهذا السبب؛ فيكون ما فهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كفراً أو ضلالاً.

الرابع: أن فيها طعناً بالرسول ﷺ وخلفائه الراشدين؛ لأننا نقول: هذه المعانى التى صرفتم النصوص إليها هل الرسول ﷺ وخلفاؤه يعلمون بها أم لا؟

(١) القول المفيد ٢/ ٢٢٢: ٢٢٥.

فيه مسائل

الأولى: تفسيرُ آيَة (آل عمرَان).

فإن قالوا: لايعلمون؛ فقد اتهموهم بالقصور، وإن قالوا: يعلمون ولم يبينوها؛ فقد اتهموهم بالتقصير.

فلاتستوحش من نص دل على صفة أن تثبتها، لكن يجب عليك أن تجتنب أمرين هما:

التمثيل والتكييف؛ لقوله تعالى: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾(١)، وقوله: ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(٢)، فإذا أثبت الله لنفسه وجهاً أو يدين؛ فلاتستوحش من إثبات ذلك؛ لأن الذى أخبر به عن نفسه أعلم بنفسه من غيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً، وهو يريد لخلقه الهداية، وإذا أثبت رسوله ذلك له؛ فلاتستوحش من إثباته؛ لأنه ﷺ:

- أصدق الخلق.
- وأعلمهم بما يقول عن الله.
- وأبلغهم نطقاً وفصاحةً.
- وأنصح الخلق للخلق.

فمن أنكر صفة أثبتها الله لنفسه أو أثبتها له رسوله، وقال: هذا تقشعر منه الجلود وتنكره القلوب؛ فيقال: هذا لاينكره إلا إنسان فى قلبه مرض، أما الذين آمنوا؛ فلا تنكره قلوبهم، بل تؤمن به وتطمئن إليه، ونحن لم نُكَلَّف إلا بما بَلَغَنا، والله يريد لعباده البيان والهدى، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٣)؛ فهو لايريد أن يعمى عليهم الأمر، فيقول: إنه يغضب وهو لايغضب، ويقول: إنه يهرول وهو لايهرول هذا خلاف البيان. أهـ



قوله «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

قال ابن عثيمين(٤):

وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وسبق.

(١) النحل: ٧٤.
(٢) الإسراء: ٣٦.
(٣) النساء: ٢٦.
(٤) القول المفيد ٢/ ٢٢٥و٢٢٦.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَة (بَرَاءةٌ).

الثالثة: تَفْسِير آيَة (العَنْكَبُوت).

الرابعة: أَنَّ اليَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَى.

الخامسة: عَلاَمَةُ ضَعْفِه، وَمِنْ ذَلِكَ: هَذِه الثَّلاثَ.

السادسة: أَنَّ إِخْلاصَ الخَوْفِ لله مِنَ الفَرَائِضِ.

السابعة: ذِكْرُ ثَوَابِ مَنْ فَعَلَهُ.

الثانية: تفسير آية براءة.

وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، وسبق.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، وقد تكلمنا على تفسيرها فيما سبق.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى.

تؤخذ من الحديث: «إن من ضعف اليقين ...» الحديث.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

وهي: أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على مالم يؤتك الله.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

وتؤخذ من قوله في الحديث: «من التمس...» الحديث، ووجهه ترتيب العقوبة على من قدَّم رضا الناس على رضى الله تعالى.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

وهو رضا الله عنه، وأنه يرضى عنه الناس، وهو العاقبة الحميدة.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس، ولاينال مقصوده.

وخلاصة الباب:

أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف، وأن لا يبالى بأحد فى شريعة الله تعالى، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالى وإن سخط الناس عليه؛ فالعاقبة له، وإن التمس رضا الناس وتعلق بهم وأسخط الله انقلبت عليه الأحوال، ولم ينل مقصوده، بل حصل له عكس مقصوده، وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس. أهـ.

قلت: وهو فى تعاسة وانتكاس دائماً وفيه قوله ﷺ تعس عبد الدرهم نعس عبدالدينا وفى الحديث أن اعطى رضى وإن عم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش وتقدم الحديث وشرحه.



باب (٣٢)

قَولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

● **تمهيد:**

قال الفقير: تقدم فى باب (من حقق التوحيد دخل الجنة) شىء مما يتعلق بهذا الباب، فى حديث وصف السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب، فكان من وصفهم **«وعلى ربهم يتوكلون»**.

ونقلنا عن ابن حجر قول الجمهور فى معرفة التوكل وحقيقته وبيانه، حيث قالوا: التوكل يحصل بأن يثق بوعد الله ويوقن بأن قضاءه واقع ، ولايترك اتباع السنة فى ابتغاء الرزق مما لابد له منه من مطعم، ومشرب، وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لاتجلب بذاتها نفعاً ولاتدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى، والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح فى توكله، وهم مع ذلك فيه على قسمين: واصل وسالك.

فالأول: صفة الواصل، وهو الذى لايلتفت إلى الأسباب ولوتعاطاها.

وأما السالك: فيقع له الالتفات إلى السبب أحياناً، إلا أنه يدفع ذلك عن نفسه بالطرق العلمية والأذواق الحالية إلى أن يرتقى إلى مقام الواصل. أهـ.

ثم ذكر ـ هناك ـ أدلة مشروعية الإكتساب وأنه من أفعال المتوكلين، كحديث أبى هريرة:

«أفضل ماأكل الرجل من كسبه، وكان داود يأكل من كسبه»(**) وأيضاً الحذر لاينافى التوكل قال تعالى ﴿خذو حذركم﴾ ... وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالتوكل ذكرناها هناك بشىء من الإجمال، وهنا نتوسع عما سبق بما يناسب الباب، والله الموفق للصواب.

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال ناصر السعدى(*): إن كان هذا خوفاً وهمياً كالخوف الذى ليس له سبب أصلاً أوله سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه فى وصف الجبناء، وقد تعوذ ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا

(١) المائدة الآية: ٢٣.

(*) القول السديد (٩٠،٩١)

(**) أخرجه البخارى (٢٠٧٢) عن المقدام بنحوه.

النوع حتى أن خواص المؤمنين وأقويائهم تنقلب المخاوف فى حقهم أمنا وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم القلبية وكمال توكلهم لهذا أتبعه بهذا الباب. أهـ.

وقال ابن عثيمين(١): ـ هى أن الإنسان إذا أفرد الله - سبحانه - بالتوكل؛ فإنه يعتمد عليه فى حصول مطلوبه وزوال مكروهه، ولا يعتمد على غيره. أ. هـ.

قلت: أى أن سبب تخويف الشيطان لأولياءه أنهم والوه وتركوا ولاية الله لهذا لم يعتمدوا عليه ولم يتوكلوا عليه فكانوا عرضة لتخويف الشيطان. والله أعلم.

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(٢): فى الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة، وعلى أنه فرض، وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك. اهـ.

وقال حامد بن محمد(٣): والتوكل هو الاعتماد على الله فى جلب منافعه ودفعه مضاره وهذا أمر يختص لله تعالى ومنحصر عليه فمن توكل على غيره أشرك الشرك الأكبر الذى يخلد صاحبه فى النار إن مات عليه. أهـ.

● مناسبة الآية لكتاب التوحيد:ـ

قال عبدالله بن جار الله(٤): أن التوكل على الله عبادة يجب إخلاصه لله فصرفه لغيره شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قال ابن عثيمين(*): وهذه الآية تقتضى انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل على الله، إلا إن حصل اعتماد كلى على غير الله، فهو شرك أكبر ينتفى له الإيمان كله. اهـ وسيأتى ذلك فى موضعه.

وقال القرعاوى(٥): حيث دلت الآية على أن التوكل على الله نوع من العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. أهـ

ـ ماذا أراد المصنف بهذا الباب.

قال سليمان آل الشيخ(٦) : ـ ومراد المصنف بهذه الترجمة النص على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما تقدم فى صفة السبعين ألفاً الذين

(١) القول المفيد (٢/ ٢٢٨).
(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٧١
(٣) فتح الله الحميد المجيد (٣٥٦).
(٤) الجامع الفريد ١٣٤.
(*) القول المفيد (٢/ ٢٣٦).
(٥) الجديد (٢٩٨)
(٦) تيسير العزيز الحميد ٣٧١.

يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ ولذلك أمر الله به غير آية من القرآن أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطاً فى الإيمان والإسلام ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه كما فى الآية المترجم لها. أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ(١): وأراد المصنف ـ رحمه الله ـ بهذه الترجمة للآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصها لله تعالى، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر، أى: وعلى الله توكلوا لاعلى غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله فى جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى فهو من أعظم منازل ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ فلايحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله كما فى هذه الآية، وكما قال تعالى ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**﴾ وقوله ﴿ **لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا**﴾ والايات فى الأمر به كثيرة جداً. أهـ.

قال عبدالعزيز بن باز(٢): أراد المصنف بهذه الترجمة بيان وجوب التوكل على الله، والاعتماد عليه فى جميع أمور الدين والدنيا، والتوكل هو التفويض إلى الله والثقة به والإيمان بأنه مسبب الأسباب وكل شىء بيده وماشاءه كان وما لم يشاءه لم يكن، ويعلم أن القدر قد سبقه بكل شىء، وليس للعبد قدرة على أى شىء لما يشاءه الله سبحانه وتعالى مع الأخذ بالأسباب. أهـ

● معنى التوكل لغة

قال أبو السعادات(٣): ـ يقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمرى إلى فلان أى: ألجأته واعتمدت عليه فيه، وكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجز عن القيام بأمر نفسه انتهى.

وقال أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة(٤): اعلم أن التوكل مأخوذ من الوكالة، يقال: وكل فلان أمره إلى فلان، أى فوض أمره واعتمد فيه عليه.

● حقيقة التوكل اصطلاحا

قال الغزالى(٥): التوكل منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالى درجات المقربين.

(١) فتح المجيد (٢/ ٤٧٦) (٢) التعليق المفيد(١٨١)
(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٢١) مادة: وكل
(٤) مختصر منهاج القاصدين (٣٣٢). (٥) إحياء علوم الدين (٥/ ١١٥)

وهو فى نفسه غامض من حيث العلم، ثم هو شاق من حيث العمل.

ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع.

والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تغيير فى وجه العقل وانغماس فى غمرة الجهل.

وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد أهـ.

وقدمنا من كلام ابن حجر قول الجمهور فى حقيقته.

قال أحمد عبدالرحمن بن قدامة(١): فالتوكل عبارة على اعتماد القلب على الموكل، ولايتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة. والقوة. والهداية.

فإذا عرفت هذا فقست عليه التوكل على الله سبحانه وإذا ثبت فى نفسك أنه لا فاعل سواه، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحده لامحالة ولم يلتفت إلى غيره بوجه، فإن كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك، فسببها أحد أمرين:

إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال.

وإما بضعف القلب باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه - فإن القلب قد ينزعج بإبقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان فى اليقين، فإنه من كان يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه منه وتعذر عليه تناوله.

ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت فى قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماداً فى الحال، ولاينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذلك جبن فى القلب، وهو نوع ضعف قلماً يخلو الإنسان منه، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضاً، حتى يخاف أن يبت فى البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.

فإذا لم يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً أهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٢): قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. **وقال أبو إسماعيل الأنصارى**: التوكل كلة الأمر إلى مالكه والتعويل على وكالته. إذا تبين ذلك فمعنى الآية المترجم لها أن موسى عليه السلام أمر قومه بدخول الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم، ولا يرتدوا على أدبارهم خوفاً من الجبارين، بل يمضوا قدماً لا يهابونهم

(١) مختصر منهاج القاصدين (٣٣٢).   (٢) تيسير العزيز الحميد (٣٧١).

ولا يخشونـهم، متوكلين علـى الله فى هزيمتهم، مـصدقين بصحة وعده لـهم إن كانوا مؤمنين. أهـ

قال ناصر السعدى(١): ـ وحقيقة التـوكل على الله: أن يعلم العـبد أن الأمر كله لله. وأنه ما شاء اللـه كان، وما لم يشألم يكـن، وأنه هو النافع الضار المـعطى المانع، وأنه لا حول ولاقوة الا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه فى جلب مصالح دينه ودنياه، وفى دفع المضار ويـثق غايه الوثوق بربه فى حصول مطـلوبه، وهو مع هذا باذل جهده فى فعل الأسباب النـافعة. فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعـتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين

قال القرطبى(٢): التوكل الإعتمـاد على الله مع إظهار العجـز، والاسم التكلان. يقال منه: اتكلت عليه فى أمرى، وأصله «اوتكـلت» قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ثمَّ أبدلت منها التاء وأدغمته فى تاء الافتعـال. ويقال وكلته بأمرى توكيلاً، والاسم الوكالة بكسر الواو وفتحها. أهـ

وقال ابن عثيمين(٣):

والتوكل

هو الاعتماد عـلى الله ـ سبحانه وتـعالى ـ فى حصول المطلـوب، ودفع المكروه، مع الثقة به وفعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف له. أهـ

● **درجات التوكل:**

قال ابن القيم(٤):

الدرجة الأولى: فأول ذلك : معرفة بالرب وصفاته: من قـدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علـمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهـذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه فى مقام التوكل.

الدرجه الثانية: إثبات فى الأسباب والمسببات.

فإن من نـفاها فتوكلـه مدخول. وهذا عكس مـا يظهر فى بدوات الـرأى: أن إثبات الأسباب يقدح فى التوكل، وأن نفيها تمام التوكل.

فالتوكل من أعظم الأسباب التى يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر

---

(١) القول السديد ٩٢ و ٩٣.

(٢) تفسير القرطبى٣/ ١٤٩٥.

(٣) القول المفيد ٢/٢٢٨.

(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥ ـ ١٢٨)

الأسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها. فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها. وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه. والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره. فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل. ولايقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب فى مقام توحيد التوكل.

فإنه لا يستقم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل: توحيد القلب. فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة قلبه. فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لايصح إلابرفض الأسباب. وهذا حق. لكن رفضها عن القلب لاعن الجوارح. فالتوكل لايتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها. فيكون منقطعاً منها متصلاً بها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه.

بحيث لايبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولاسكون إليها. بل يخلع السكون إليها من قلبه. ويلبسه السكون إلى مسببها.

وعلامة هذا : أنه لايبالى بإقبالها وإدبارها . ولايضطرب قلبه، ويخفق عند إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره. لأن اعتماده على الله، وسكونه إليه، واستناده إليه، قد حصنه من خوفها ورجائها.

الدرجة الخامسة : حسن الظن بالله عزوجل.

فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له. يكون توكلك عليه. ولذلك فسَّرَ بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتحقيق : أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه. إذ لايتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لاترجوه. والله أعلم.

الدرجه السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته.

وبهذا فسره من قال: أن يكون العبد بين يدى الله. كالميت بين يدى الغاسل، يقلبه كيف أراد. لايكون له حركة ولا تدبير.

وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير. يعنى الاستسلام لتدبير الرب لك. وهذا فى غير باب الأمر والنهى. بل فيما يفعله بك. لا فيما أمرك بفعله.

فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له. وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة السابعة: التفويض

وهو روح التوكل ولُبُّهُ وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره إلى أبيه، العالم بشفقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها. فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كلَفَهَا وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته.

فإذا وضع قدمه فى هذه الدرجة . انتقل منها إلى درجة «الرضى»

الدرجة الثامنة: الرضا

هى ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل: بها. فإنما فسر بأجلّ ثمراته، وأعظم فوائده. فإنه إذا توكل حق التوكل رضى بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا ـ رضى الله عنه ـ يقول : المقدور يكتنفه أمران : التوكل قبله، والرضى بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل ورضى بالمقضى له بعد الفعل . فقد قام بالعبودية. أو معنى هذا.

قلت ـ ابن القيم ـ: وهذا معنى قول النبى ﷺ فى دعاء الاستخارة «**اللهم إنى أستخيرك بعلمك. وأستقدرك بقدرتك . وأسألك من فضلك العظيم**» فهذا توكل وتفويض . ثم قال: «**فإنك تعلم ولا أعلم . وتقدر ولا أقدر. وأنت علام الغيوب**» فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة وتوسل إليه سبحانه بصفاته التى هى أحب ما توسل إليه بها المتوسلون. ثم سأل ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً، أو آجلا، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلا. فهذا هو حاجته التى سألتها . فلم يبق عليه إلا الرضى بما يقضيه له. فقال: « **وأَقدر لى الخير حيث كان . ثم رَضِّنِى به**»(١).

---

(١) البخارى تقدم تخريجه

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التى من جملتها: التوكل والتفويض . قبل وقوع المقدور. والرضى بعده. وهو ثمرة التوكل . والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له. فتفويضه معلول فاسد.

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل. وتثبت قدمه فيه. وهذا معنى قول بشر الحافى: يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله. لو توكل على الله لرضى بما يفعله الله به.

وقول يحيى بن معاذ ـ وقد سئل : متى يكون الرجل متوكلاً؟ ـ فقال إذا رضى بالله وكيلاً. أهـ.

التوكل أصل لجميع مقامات الإسلام والإيمان والإحسان:ـ

قال سليمان آل الشيخ [١]:ـ

قال ابن القيم: فجعل التوكل على الله شرطاً فى الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه وفى الآية الآخرى: **﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾**[٢] فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وقال: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾**[٣] فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد. والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام. وبين التوكل والهداية. فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقوماته إلا على ساق التوكل.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ[٤]: ـ وفى الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة، وعلى أنه فرض، وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٧٢.

(٢) يونس: ٨٤.

(٣) إبراهيم: ١١ .

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٧١.

قال شيخ الإسلام: وما جاء أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (1). أهـ

«التوكل» من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى.

قال ابن القيم(*) : فإن التوكل له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم «الغفار، والتواب ، والعفو ، والرؤوف، والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطى ، والمحسن» وتعلق باسم «المعز المذل، الحافظ. الرافع ، المانع» من جهة توكله عليه فى إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر، وتعلق بأسماء «القدرة،والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل. وكلما كان بالله أعرف، كان توكله أقوى أهـ.

التوكل من أعظم واجبات التوحيد والإيمان.

قال ناصر السعدى(2):ـ التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد الإيمان وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه ويتسع توحيده والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به فى كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه. أهـ

قال ابن عثيمين بعد ما بين أقسام التوكل(3): ـ

ومما سبق يتبين أن التوكل من أعلى المقامات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطحباً له فى جميع شؤونه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولا يكون للمعطلة أن يتوكلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية»؛ لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى، والإنسان لا يعتمد إلا على من كل كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه.

---

(1) الحج: ٣١

(*) مدارج السالكين (٢/ ١٣٠)

(2) القول السديد ٩١ و ٩٢

(3) القول المفيد ٢٣٤ و ٢٣٥.

وكذلك القدرية؛ لأنهم يقولون: إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف في أعمال العباد.

ومن ثمَّ نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق، وبه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين. أهـ

● دعاوى تشتبه بالتوكل والرد عليها:

قال ابن القيم(١): وكثيراً ما يشتبه فى هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص. فيشتبه التفويض بالإضاعة . فيضيع العبد حظه. ظناً منه أن ذلك تفويض وتوكل. وإنما هو تضييع لاتفويض. فالتضييع فى حق الله. والتفويض فى حقك.

ومنه: اشتباه التوكل بالراحة، وإلقاء حمل الكَلِّ. فيظن صاحبه أنه متوكل. وإنما هو عامل على عدم الراحة.

وعلامة ذلك: أن المتوكل مجتهد فى الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد مستريح من غيرها لتعبه بها. والعامل على الراحة آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة. وتسقط به عنه مطالبة الشرع. فهذا لون. وهذا لون.

ومنه : اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها. فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد وزندقة. فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركون إليها مع قيامه بها. وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

ومنه : اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز. والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله فى طلوع ثمرته، وتنمتها وتزكيتها، كغارس الشجرة، وباذر الأرض. والمغتر العاجز: قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصح بعد بذلك المجهول.

ومنه : اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم، وسكون القلب إليه. ولايميز بينهما إلا صاحب البصيرة. كما يذكر عن أبى سليمان الداراني: أنه رأى رجلاً بمكة لايتناول شيئاً إلا شربة من ماء زمزم. فمضى عليه أيام . فقال له أبو سليمان يوماً : أرأيت لو غارت زمزم؛ أى شيء كنت تشرب؟ فقام وقبل رأسه، وقال : جزاك الله خيراً، حيث أرشدتنى. فإنى كنت أعبد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضى.

وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم إلى المعلوم .وهم يظنون أنه إلى الله. وعلامة

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٢٨، ١٢٩، ١٣٠)

ذلك: أنه متى انقطع معلوم أحدهم حضره هَمَّهُ وبَثُّه وخوفه. فعلم أن طمأنيته وسكونه لم يكن إلى الله.

ومنه: اشتباه الرضى عن الله بكل ما يفعله بعبده ـ مما يحبه ويكرهه ـ بالعزم على ذلك، وحديث النفس به. وذلك شيء والحقيقة شيء آخر. كما يحكى عن أبي سليمان أنه قال: أرجو أن أكون أعطيت طرفاً من الرضى، لو أدخلني النار لكنت بذلك راضياً.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هذا عزم منه على الرضى وحديث نفس به. لو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء. وفرق بين العزم على الشيء وبين حقيقته.

ومنه: اشتباه علم التوكل بحال التوكل فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله. فيظن أنه متوكل. وليس من أهل التوكل. فحال التوكل: أمر آخر من وراء العلم به. وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها. وحال المحب العاشق وراء ذلك، وكمعرفة علم الخوف وحال الخائف وراء ذلك وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها.

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوى فيه بالحقائق، والعوارض بالمطالب، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله. ويمكنه نيلها بأيسر شيء. وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيراً فهذا توكل العاجز القاصر الهمة. كما يصرف بعضهم همته وتوكله. ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين. وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين والله أعلم. اهـ.

● أقسام التوكل على غير الله.

قال سليمان آل الشيخ(١):ـ

التوكل على غير الله قسمان.

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة؛ فهذا شرك أكبر فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٧٣.

الثاني: التوكل فى الأسباب الظاهرة العادية، كمـن يتوكل على أمير أو سلطان، فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك. فهذا نوع شرك خفى.

والوكالة الجائزة: هى توكل الإنسان فـى فعل مقدور عليه. ولكن لـيس له أن يتوكل وإن وكله بـل يتوكل عـلى الله ويعتـمد عليه فـى تيسيـر ما وكله فـيه كما قـرره شيخ الإسلام. أهـ.

وقال ابن عثيمين[1]: شارحاً ومفصلاً كلام سليمان آل الـشيخ فى التوكل على غير الله.

والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه، بحيث يعتقد أن بيده جلب النـفع ودفع الضر؛ فيعتمد علـيه اعتماداً كاملاً، مع شعوره بـافتقاره إليه؛ فهذا يجب إخلاصه لله تعالى، ومَنْ صرفه لغـير الله؛ فهو مشرك شركاً أكبر؛ كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغـائبين، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً فى الكون، فيعتمد عليهم فى جلب المنافع ودفع المضار.

الثانى: الاعتماد على شخص فى رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، وقال بعضهم: من الشـرك الخفى، مثل اعتماد كثير من الناس علـى وظيفته فى حصول رزقه، ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار؛ فتجد فى نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهـر؛ فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب، بل جعله فوق السبب.

الثالث: أن يعتمد على شخص فيما فوض إليـه التصرف فيه، كما لو وكلت شخصاً فى بيع شىء أو شرائه، وهذا لا شىء فيه؛ لأنه اعتمد عـليه وهو يشعر أن المنزلة العليا له فوقه؛ لأنه جعله نائباً عنه، وقد وكل الـنبى ﷺ على بن أبى طالب أن يذبح ما بقى من هديه [2]، ووكل أبا هريرة عـلى الصدقة [3]، ووكل عروة بن الجعـد أن يشترى له أضحية [4]، وهذا بخلاف القسم الثالث؛ لأنه يشـعر بالحاجة إلى ذلك، ويرى اعتماده على المُتَوكَل عليه اعتماد افتقار. أهـ

---

(١) القول المفيد ٢/ ٢٣٣ و ٢٣٤.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٤/ ٤٢٩/ ١٤٧) عن جابر به.

(٣) أخرجه البخارى تعليقاً وتقدم

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦٤٣) وانظر «بلوغ المرام» بتخـريجنا وانظر شرحى «لزاد المعاد» لابن القيم.

قال سليمان آل الشيخ [1]:- «وكل سبب لم يأذن به الله باطل مضر لمتخذه؛ فلا يتعاطى، وإذا حقق المؤمن أن الله - سبحانه - رب كل شيء وخالقه ومليكه؛ فإنه لا ينكر ما خلقه الله تعالى من الأسباب، كما جعل المطر سبباً للنبات.

قال تعالى: ﴿**وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة**﴾ [2]، وجعل الشمس والقمر سببين لما يخلقه بهما، والدعاء سبباً لما يحصل للمدعو له أو عليه، والدواء سبباً لذهاب الداء، قد نبه على ذلك النبي ﷺ بقوله: «**لم ينزل الله داءً إلا أنزل له شفاء**» (يعني: دواء)، «**علمه من علمه، وجهله من جهله**» [3].

رواه: الإمام أحمد في «مسنده» من حديث أسامة بن شريك، وفي لفظ: «**إن الله لم يضع داء إلا وضع له دواءً أو شفاءً إلا داء واحداً**. قالوا: يارسول الله! وما هو؟ قال: **الهرم**» [4].

وهذا يعم داء القلب والروح والبدن، أرشد ﷺ العرنيين لما شكوا له الوخم ووجع البطن أن يلحقوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها، [5] وجعل الجهل داء ودواؤه سؤال العلماء.

قال رسول الله ﷺ في قصة صاحب الشجة: «**قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذا لم يعلموا؛ فإنما شفاء العي السؤال**» [6]، كما أن وجود الداء سبب للألم.

روى مسلم في «صحيحه» من حديث سهل بن حنيف عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**العين حق، ولو أن شيئاً سابق القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا**» [7]، وكذا السحر، قال تعالى: ﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ [8]؛ فهو سبب لألم الفؤاد، ويوجب البغضاء والفرقة بين الزوجين، والنار سبب للإحراق، والسكين سبب للقطع، والحبل سبب لإظهار الماء في الدلو، وأكل الطعام سبب لذهاب ألم الجوع، وشرب الماء سبب لذهاب ألم العطش، والكدح بالاجتهاد في تحصيل العلم سبب للفهم، والمتاجرة بالمال سبب لفائدة الربح، وطاعة الله سبب لرضائه ورحمته،

---

(1) التوضيح عن توحيد الخلاّق للشيخ سليمان صـ١٦٩ ص ـ١٧٢ نقلاً عن حاشية القول المفيد ٢/٢٢٨و٢٣١.

(2) البقرة: ١٦٤. (3) تقدم تخريجه (4) تقدم تخريجه

(5) [صحيح] أخرجه البخاري (٥٦٨٦)، ومسلم في القسامة (١١/ ٥٣ - النووي) عن أنس به وانظر «السلسبيل» (٢٥٣٠ - بتخريجنا) وانظر شرحي «لزاد المعاد».

(6) تقدم تخريجه (7) تقدم تخريجه (8) البقرة: ١٠٢.

ومعصيته سبب لسخطه انتقامه؛ فالأسباب المنصوص عليها لا تنكر، ولا يتكل عليها؛ إذ فى إنكارها نقص فى العقل، وفى الاتكال عليها شرك فى الدين، وكل من الإنكار والاتكال منتفٍ شرعاً، لكن قد يتخلف المسبب عنه مع قيام السبب؛ إذ الضار والنافع والمعطى والمانع هو الله وحده، قال تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾[2]، وكتخلف إحراق النار عن إبراهيم عليه السلام حين وضع فيها، وحدة السكين حين أمرّها الخليل على حلقوم ولده إسماعيل عليهما السلام، ولا محيص عن الأخذ فى الأسباب؛ فليس المتوكل من فتح للسارق الباب، ولا من قال: أنا متوكل أستغنى عن الطعام والشراب.

قال أفضل الأحباب لمن سأل: أيعقل الناقة أو يتكل؟! قال: «**اعقلها وتوكل**»[3]

وأفضل المتوكلين أشد عباد الله حرصاً على فعل الأسباب؛ فقد أمر بإطفاء السراج والتسمية وإغلاق الأبواب[4]، ونفض الفرش وطى الثياب[5]، وحفظ الصبيان أول الليل لانتشار الشياطين[6]، وهذا الباب لا يحصيه العادون من سنن المرسلين؛ فالأخذ فيها لا ينافى التوكل؛ لأنه الانقطاع عن جميع الخلق، وتفويض الأمور إلى الملك الحق وحده، وحينئذ؛ فلا بد أن يعرف فيها ثلاثة أمور:

أحدها: أنها لا تستقل بالمطلوب، بل تتعاطى عن غير ركون إليها، ومع هذا؛ فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود، وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الخلق، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الخلق.

الثانى: أنه غير جائز اعتقاد أن الشىء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو بما يخالف الشريعة؛ كان مبطلاً فى إثباته، آثماً فى اعتقاداته.

---

(١) البقرة: ١٠٢

(٢) الأنفال: ١٧.

(٣) حسن أخرجه الترمذى (٧/ ٢٥) عن أنس به.
وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٧١٩) وقلنا هناك (حسن).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٦٥٣)، ومسلم فى الأشربة (٧/ ٢٠١/ ٩٦) عن جابر به.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الدعوات (٦٣٢٠)، ومسلم فى الذكر والدعاء (١٧/ ٣٧ ـ النووى) عن أبى. هريرة به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٤٦٣ ـ بتخريجنا).

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأشربة (٧/ ٢٠٢/ ٩٧) عن جابر به.

الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ شىء منها سبباً إلا أن يكون مشروعاً، إما استحباباً، أو مأذوناً؛ فإن العبادات مبناها على التوقيف؛ فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وأن يقول على الله بلا علم، فيدعو غير الله بما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى، وإن ظن أن ذلك سبب فى حصول غرضه لاعتقاده أن ذلك المدعو يشفع له فيما دعاه فيه؛ لأنه جنس ما اعتقده الأولون فى آلهتهم، وكذلك لا يجوز أن يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة، وإن ظن أن ذلك سبب فى حصول ما يطلبه من أغراض دنياه أو ثواب أخراه على زعم اعتقاده؛ فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده؛ إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، والرسول ﷺ إنما بعث لتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به؛ فمصلحته راجحة، وما نهى عنه؛ فمفسدته راجحة، ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ (١).

من ذلك: قول المحرمات وقول السخريات ليتوصل بها إلى تحصيل شىء من أمتعة الدنيا أو القرب لدى ملك من ملوكها، قال تعالى ﴿ **وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ** ﴾ (٢)، وكل شرك زور ولا عكس، وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ** ﴾ (٣).

ومنه: التداوى بالمحرمات، فلم يجعل الله الشفاء فيما حرمه، بل نزعه عنه وأوهنه، والبدع التى ليست من شريعة الإسلام فى شىء، بل هى من شعب الشرك الظاهرة، كأتربة أضرحة القبور لا يحل استعمالها أدوية، ولا تعاطيها لما فى استعمالها من الاعتقادات الباطلة، والمفاسد فى الدين الظاهرة؛ فهى أشبه بما فعله المشركون الأولون بآلهتهم من تعظيم الأصنام والتبرك والتمسح بها فى كل مشهد خاص وعام.

ومنه: ما اعتنى به بعض الأغبياء الجهال وعوام الضلال دعوتهم بدعاء تمخشياً وتمشيشاً، ودعوتهم فى الشدائد بأسماء أصحاب الكهف، وشمبخ وغيرهم، وبالدعوات المجهولات، يزعمون أن هذه من الأسماء العظام والأدعية المستجابات، وأنه من الإنجيل والتوراة؛ فكل هذا من تلبيس إبليس على هؤلاء الجند الذين اختاروه واختارهم؛ فلسنا ملتزمين فى شريعتنا ـ ملة الإسلام ـ بتلك الأدعية فى الصباح والمساء، ولم يقله أحد من العلماء الأدباء، بل الأغبياء السفهاء من القصاص اختاروها لتعزير العوام وجمع الحطام؛

---

(١) النور: ٤٠ (٢) الحج: ٣١

(٣) هود: ١١٣.

فلم يعاملوا الله بالإخلاص، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾،(١) وأما الأسماء المنهى عنها؛ فإن الشيطان يظهر تأثيرات ويورى تلبيسه فيها منافع ظاهرة فى أكثر الأحيان، وهى حسرات، بل قد يكون التلفظ بتلك الكلمات كفراً لا يعرف معناها بالعربية، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(٢)، وكل واسطة أو وسيلة نهى الشارع عنها لا يجوز اتخاذها فى جلب نفع أو كشف ضر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِ﴾ (٣) الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾(٥)، قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دهلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا، فأمر الله المسلمين أن يخلصوا له الدعوة إذا دخلوا مساجدهم(٦)

وقال سعيد بن جبير: المساجد الأعضاء التى يقع عليها السجود مخلوقة لله، فلا تسجدوا عليها لغيره فى كل ما أريد إبداءه من خير ينفعه أو ضر يضره، قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ (٧)، وقال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾(٨)،؛ أى لا أحد؛ فلا يدانيه سبحانه أحد، ولا يستقبل سواه تعالى بما أراده، ولا يعطى لما منعه؛ فهذه الأسباب التى تتخذ وسائط ووسائل فى الجلب والدفع الذين لا يقدر عليهما إلا الله وحده منفية بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ إلا أسباباً وردت عن الله أو رسوله؛ كالتوحيد، والصلاة بحضور قلب وخشوع وذل وانكسار، والدعاء، والاستغفار بعد الإقلاع عن الذنب والندم على فعله والعزم على ألا يعود إليه، والأعمال الصالحة؛ من صدقة، وصلة رحم، وطاعة الله وتقواه؛ فهى الأسباب فى جلب الخير، ودفع الشر، كما صرح به القرآن الكريم والسنة».

(١) الأعراف: ١٨٠

(٢) الأنعام: ٣٨.

(٣) يونس: ١٠٦

(٤) الأنعام: ١٧.

(٥) الجن: ١٨

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر»(٦/ ٤٣٦) ونسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر

(٧) الرعد: ١٤ (٨) البقرة: ٢٥٥

●ضوابط الأسباب المشروعة والممنوعة وعلاقة ذلك بالتوكل

قال ابن عثيمين: ولا بد ـ أي للتوكل ـ من أمرين (١) :

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتماداً صادقاً حقيقياً.

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها.

فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب؛ نقص توكله على الله، ويكون قادحاً فى كفاية الله؛ فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه.

ومن جعل اعتماده على الله ملغياً للأسباب؛ فقد طعن فى حكمة الله؛ لأن الله جعل لكل شيء سبباً، فمن اعتمد على الله اعتمادا مجردا؛ كان قادحاً فى حكمة الله؛ لأن الله حكيم، يربط الأسباب بِمُسَبَّباتها، كمن يعتمد على الله فى حصول الولد وهو لا يتزوج.

والنبى ﷺ أعظم المتوكلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب؛ فكان يأخذ الزاد فى السفر، ولما خرج إلى أُحد ظاهر بين درعين؛ أى: لبس درعين اثنين، ولما خرج مهاجراً أخذ من يدله الطريق، ولم يقل سأذهب مهاجراً وأتوكل على الله، ولن أصطحب معى من يدلنى الطريق، وكان ﷺ يتقى الحر والبرد، ولم ينقص ذلك من توكله.

ويذكر عن عمر رضى الله عنه أن قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد، فجئ بهم إلى عمر، فسألهم، فقالوا: نحن المتوكلون على الله. فقال: لستم المتوكلين، بل أنتم المتواكلون.

والتوكل نصف الدين، ولهذا نقول فى صلاتنا: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾(٢)؛ فنطلب من الله العَوْن اعتماداً عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته.

وقال تعالى: ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ (٤)، ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل؛ لأن الإنسان لو وُكِل إلى نفسه وُكِل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعبادة؛ فهو حين يعبد الله يشعر أنه متوكل على الله، فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل، وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه فى

(١) القول المفيد ٢/٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣.
(٢) الفاتحة: ٥.
(٣) هود: ١٢٣.
(٤) التوبة: ١٢٩.

أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد في الغالب على الأسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك؛ فيفوتنا ثواب عظيم، وهو ثواب التوكل، كما أننا لا نُوفَّق إلى حصول المقصود كما هو الغالب، سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها. أهـ

وانظر أيضاً كلام ابن القيم في: (باب من الشرك لبس الحلقة). اهـ.



● **الإعراب** (٢) ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الواو استئنافية، والجملة مستأنفة مسوقه لتوصيتهم بالإتكال على الله أولاً، والأخذ بأسباب الحيطة والحذر ثانياً، والفاء في قوله، [فتوكلوا] جواب أمر مخدوف لابد من تقديره: تنبهوا فتوكلوا على الله، وعلى الله متعلقان بتوكلوا كما قالت العرب: زيداً فاضرب، تقديره: تنبه فاضرب زيداً، وكثيراً ما يأتي معمول ما بعد الفاء متقدماً عليها. وإن شرطية، وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمها ومؤمنين خبرها، وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله، أي: فتوكلوا. أهـ.

وقال ابن عثيمين(٣): قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾

﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلقة بقوله: ﴿تَوَكَّلُوا﴾، وتقديم المعمول يدل على الحصر؛ أي: على الله لا على غيره، ﴿فَتَوَكَّلُوا﴾؛ أي: اعتمدوا.

والفاء لتحسين اللفظ وليست عاطفة؛ لأن في الجملة حرف عطف وهو الواو، ولا يمكن أن نعطف الجملة بعاطفين؛فتكون لتحسين اللفظ؛ كقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾، والتقدير: «بل الله اعبد».

قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

﴿إِنْ﴾: شرطية، وفعل الشرط ﴿كُنتُم﴾، وجوابه قيل: إنه محذوف دل عليه ما قبله، وتقدير الكلام: إن كنتم مؤمنين فتوكلوا، وقيل: إنه في مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب اكتفاء بما سبق؛ فيكون ما سبق كأنه فعل معلق بهذا الشئ، وهذا أرجح؛ لأن الأصل عدم الحذف.

---

(١) المائدة: ٢٣.

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٤٤٤

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٣٥ و ٢٣٦.

وقول أصحاب موسى فى هذه الآية يفيد أن التوكل من الإيمان ومن مقتضياته، كما لو قلت: إن كنت كريماً فأكرم الضيف. فيقتضى أن إكرام الضيف من الكرم.

وهذه الآية تقتضى انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل على الله؛ إلا إن حصل اعتماد كُلِّى على غير الله؛ فهو شرك أكبر ينتفى له الإيمان كله. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى:(١) وهذا أيضاً خبر من الله جل وعز عن قول الرجلين اللذين يخافان الله أنهما قالا لقوم موسى يشجعانهم بذلك ويرغبانهم فى المضى لأمر الله بالدخول على الجبارين فى مدينتهم توكلوا أيها القوم على الله فى دخولكم عليهم ويقولون لهم ثقوا بالله فإنه معكم إن أطعتوه فيما أمركم من جهاد عدوكم، وعنيا بقولهما ان كنتم مؤمنين إن كنتم مصدقى نبيكم ﷺ فيما أنبأكم عن ربكم من النصرة والظفر عليهم وفى غير ذلك من أخباره عن ربه ومؤمنين بأن ربكم قادر على الوفاء لكم بما وعدكم من تمكينكم فى بلاد عدوه وعدوكم. اهـ.

قال ﴿الرازى﴾ (٢) **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** يعنى لما وعدكم الله تعالى النصر فلا ينبغى أن تصيروا خائفين من شدة قوتهم وعظم أجسامهم بل توكلوا على الله فى حصول هذا النصر لكم إن كنتم مؤمنين مقرين بوجود الإله القادر ومؤمنين بصحة نبوة موسى عليه السلام. اهـ.

قال: ابن كثير:(٣) **﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** أى إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم ودخلتم البلد التى كتبها لكم فلم ينفع ذاك فيهم شيئاً. اهـ.

قال السعدى:(٤) **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** فإن فى التوكل على الله ـ وخصوصاً فى هذا الموطن ـ تيسيراً للأمر ونصراً على الأعداء.

(١) الطبرى ٤/٦/١١٥.
(٢) الفخر الرازى ٦/١١/٢٠٤.
(٣) ابن كثير ٢/٣٧.
(٤) تفسير الكريم الرحمن (١/ ٤٦٤)

وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(١)(*)

دل هذا على وجوب التوكل وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله. اهـ.

قال صاحب الظلال (٢):

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فعلى الله وحده ـ يتوكل المؤمن وهذه هى خاصية الإيمان وعلامته وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟ لبنى إسرائيل؟!. اهـ.



قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

● مناسبة الآية الباب:ـ

قال القرعاوى: (٣) حيث دلت الآية على وجوب التوكل على الله دون من سواه. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:ـ

قال القرعاوى (٤) حيث دلت الآية أن التوكل نوع من العبادة، وصدق العبادة لغير الله شرك. اهـ.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

● الإعراب: (٥).

إنما كافة ومكفوفة، والمؤمنون مبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان من أراد بالمؤمنين، بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث الآتية، والذين خبر، وإذا ظرف لما يستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة ذكر الله فى محل جر بالإضافة، والله نائب فاعل، وجملة وجلت قلوبهم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم. اهـ.

---

(١) الأنفال : ٢

(*) تنبيه/ بعض شراح كتاب التوحيد أتى بالآية هكذا والبعض زاد ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

(٢) ظلال التفسير ٢/ ٨٧٠.

(٣ - ٤) الجديد ٣٠٠

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٥٢٧

فإن إيمان هذه الساعة زيادةٌ على إيمان أمس؛ فمن صدّق ثانيا وثالثا فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدّم. وقيل: هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة؛ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أى الذى استوى فى الإيمان ظاهرُهم وباطنهم. ودل هذا على أن لكل حق حقيقة؛ وقد قال عليه السلام لحارثة: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك»؟ الحديث.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد؛ أمؤمن أنت؟ فقال له: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن. وإن كنت تسألنى عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فوالله ما أدرى أنا منهم أم لا.

وقال أبو بكر الواسطِىّ: من قال أنا مؤمن بالله حقا؛ قيل له: الحقيقة تشير إلى إشراف واطلاع وإحاطة؛ فمن فقده بطل دعواه فيها.

يريد بذلك ما قاله أهل السنة: إنّ المؤمن الحقيقى من كان محكوما له بالجنة، فمن لم يعلم ذلك من سِرّ حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح. اهـ.

قال ابن كثير(١): قد استدل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية، وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب كما هو مذهب جمهور الأمّة بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعى وأحمد بن حنبل وأبى عبيد كما بينا ذلك مستقصى فى أول شرح البخارى ولله الحمد والمنة. اهـ.

قلت: وهذا فيه رد على الرازى وغيره كالقرطبى الذين قالوا أن الإيمان هو التصديق فقط كما تقدم.

قال الشوكانى(٢): والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة، أو التعبير عن بديع صنعته، وكمال قدرته فى آياته التكوينية بذكر خلقها البديع، وعجائبها التى يخشع عند ذكرها المؤمنون. **قيل: والمراد بزيادة الإيمان** هو زيادة انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات. وقيل: المراد بزيادة الإيمان زيادة العمل؛ لأن الإيمان شيء واحد لايزيد ولا ينقص والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه. اهـ.

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٥.

(٢) فتح القدير ٢/ ٣٠٢.

قال ناصر السعدى[1]: ووجه ذلك، أنهم يلقون له السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم

لأن التدبر من أعمال القلوب، لأنه لابد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه ويتذكرون ما كانوا نسوه.

أو يحدث فى قلوبهم رغبة فى الخير واشتياقاً إلى كرامة ربهم.

أو وجلاً من العقوبات وازدجارا عن المعاصى، وكل هذا مما يزيد به الإيمان.

قال صاحب الظلال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

والقلب المؤمن يجد فى آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً، وما ينتهى به إلى الاطمئنان.. إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشرى بلا وساطة، ولا يحول بينه وبينه شيء إلا الكفر الذى يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه؛ فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن.

لذلك يتكرر فى القرآن تقرير هذه الحقيقة فى أمثال قوله تعالى: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**.. ومن ذلك قول أحد الصحابة ـ رضوان الله عليهم: كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن.

وبهذا الإيمان كانوا يجدون فى القرآن ذلك المذاق الخاص. يساعدهم عليه ذلك الجو الذى كانوا يتنسمونه؛ وهم يعيشون القرآن فعلاً وواقعاً؛ ولا يزاولونه مجرد تذوق وإدراك؛ وفى الروايات الواردة فى نزول الآية قول سعد بن مالك وقد طلب أن ينفله رسول الله ﷺ السيف، قبل أن ينزل القران الذى يرد ملكية الأنفال للرسول ﷺ فيتصرف فيها بما يريد. وقد قال له: **«إن هذا السيف لا لك ولا لى، ضعه»** فلما نودى سعد من ورائه بعد وضعه السيف وانصرافه، توقع أن يكون الله ـ سبحانه ـ قد أنزل فيه شيئاً؛ قال: «قلت: قد أنزل الله فىّ شيئاً» قال رسول الله ﷺ: **«كنت سألتنى السيف وهو ليس لى، وإنه قد وهب لى، فهو لك»**[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٨٤.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٩١) ونسبه لأحمد، وابن مردويه، وأبى داود، والترمذى وصححه، والنسائى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى.

قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الإعراب[1]: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ صفة ثالثة داخلة فى نطاق الصلة للموصول، وعلى ربهم جار ومجرور متعلقان بيتوكلون، والتقديم يفيد الاختصاص، أى: عليه لا على غيره.

● ما جاء فى الآية من الآثار:

روى ابن جريربسنده عن قتادة وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون قال هذا نعت أهل الإيمان فأثبت نعتهم ووصفهم فأثبت صفتهم[2].

عن سعيد بن جبير قال: التوكل على الله جماع الإيمان[3].

عن ابن عباس قال: التوكل جماع الإيمان[4].

عن سعيد بن جبير قال: التوكل على الله نصف الإيمان[5].

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى[6]: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول والله يوقنون فى أن قضاءه فيهم ماض فلايرجون غيره ولايرهبون سواه. اهـ.

قال البغوى[7]: قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: يفوضون إليه أمورهم ويثقون به، ولا يرجون غيره، ولايخافون سواه.

قال الرازى[8]: الصفة الثالثة: للمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ واعلم أن صفة المؤمنين أن يكونوا واثقين بالصدق فى وعده ووعيده، وأن يقولوا صدق الله ورسوله، وأن لايكون قولهم كقول المنافقين ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ثم نقول: هذا الكلام يفيد الحصر، ومعناه: أنهم لايتوكلون إلا على ربهم، وهذه الحالة

(١) إعراب القرآن ٣/ ٥٢٧.
(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ١٢١).
(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٩٧) ونسبه لابن أبى شيبة، وأحمد فى «الزهد» وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى «الشعب».
وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.
(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للبيهقى.
(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٩٨) ونسبه لابن أبى حاتم، فانظره بتخريجنا.
(٦) ابن جرير (٩/ ١٢٠).
(٧) معالم التنزيل ٢/ ٥٩٦.
(٨) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ١٢٤.

مرتبة عالية ودرجة شريفة. وهي: أن الإنسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد فى أمر من الأمور إلا على الله.

واعلم أن هذه الصفات الثلاثة مرتبة علـى أحسن جهات الترتيب، فإن المرتبة الأولى هى: الوجل من عقاب الله.

والمرتبة الثانية: هى الانقياد لمقامات التكاليف لله.

والمرتبة الثالثة: هى الانقطاع بالكلية عما سوى الله، والاعتماد بالكلية على فضل الله، بل الغنى بالكلية عما سوى الله تعالى. اهـ.

قال ابن كثير(١): ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ وأنه المتصرف فى الملك وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان. اهـ.

قال ناصر السعدى(٢): ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لاشريك له.

﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: يعتمدون فى قلوبهم على ربهم، فى جلب مصالحهم، ودفع مضارهم الدينية، والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل. والتوكل: هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به. اهـ.

قال صاحب «الظلال»: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

عليه وحده.. كما يفيده بناء العبارة. لايشركون معه أحداً يستعينون به ويتوكلون عليه.. أو كما عقب عليها الإمام ابن كثير فى التفسير: «أى لايرجون سواه»، ولايقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف فى الملك لاشريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد ابن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان(٣).

وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحدانية الله؛ وإخلاص العبادة له دون سواه فما يمكن أن

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٥و ٢٧٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٨٤.
(٣) تقدم تخريجه.

يجتمع فى قلب واحـد، توحيد الله والتوكل على أحد معه سبحـانه. والذين يجدون فى قلوبهم الاتكال علـى أحد أو على سبب يجب أن يبحثوا ابتداء فـى قلوبهم عن الإيمان بالله!

وليس الاتكال علـى الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب. فالمؤمن يـتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطـاعته فيما يأمر به من اتـخاذها؛ ولكنه لايجعل الأسـباب هى التى تنشىء النتـائج فيتكل عليها. إن الذى يـنشىء النتائج ـ كما ينـشىء الأسباب ـ هو قدر الله. ولا علاقة بين السبب والنتيجة فى شعور المـؤمن اتخاذ السبب عبادة بالطاعة وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لايقدر عليه إلا الله.. وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها؛ وفى الوقت ذاتـه وهو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله فى استيفائها.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾.

وهنا نرى للإيـمان صورة حركية ظاهرة ـ بعد مـا رأيناه فى الصفات السابـقة مشاعر قلبية باطنة ـ ذلـك أن الإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمـل. فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان التى لابد من ظهورها للعيان، لتشهد بالوجود الفعلى لهذا الإيمان.

وإقامة الصلاة ليست مجرد أدائها. إنما هى الأداء الذى يحقق حقيقتها. الأداء الكامل اللائق بـوقفة العـابد فى حضرة المـعبود ـ سبـحانه ـ لامجرد الـقراءة والقيـام والركوع والسجود والقلب غافل! وهى فى صورتها الكاملة تلك تشهد للإيمان بالوجود فعلاً.

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

فى الزكاة وغـير الزكاة.. وهم ينـفقون ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.. فهو بعـض مما رزقهم الرازق.. وللنص القرآنى دائماً ظلاله وإيحاءاته. فهم لم يخلقوا هذا المال خلقا، إنما هو مما رزقهـم الله إياه ـ من بين ما رزقـهم وهو كثيـر لايحصى ـ فإذا أنـفقوا فإنما ينـفقون بعضه. ويحتفظون منه ببقية، والأصل هو رزق الله وحده!

تلك هى الصفات الـتى حدد الله بها ـ فى هذا المقام ـ الإيمان. وهى تـشمل الاعتقاد فى وحدانيـة الله؛ والاستجابة الوجـدانية لذكره؛ والتـأثر القلبى بـآياته؛ والتوكل عـليه وحده؛ وإقامة الصلاة له، والإنفاق من بعض رزقه. اهـ.



وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.(١)

قوله: [﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾].

● **مناسبة الآية للباب.**

قال عبدالله بن جار الله(٢): هي أنه إذا كان الله هو الكافي لعبده وجب أن لايتوكل إلا عليه. اهـ.

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

قال القرعاوي(٣): حيث دلت الآية على أن التوكل نوع من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

● **الإعراب**(٤):

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حسبك خبر مقدم والله مبتدأ مؤخر أو بالعكس ومن عطف على الله وجملة اتبعك صلة ومن المؤمنين حال.

والمعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون، أي كافيك الله وكافيك المؤمنون ويحتمل أن تكون بمعنى مع وما بعده منصوب، كما تقول: حسبك وزيداً درهم، والمعنى كافيك وكافي المؤمنين الله، لأن عطف الظاهر على المضمر في مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر في علم النحو، وأجازه الكوفيون، قال الفراء: ليس بكثير في كلامهم أن تقول: حسبك وأخيك، بل المستعمل أن يقال: حسبك وحسب أخيك، بإعادة الجار فلو كان قوله ومن اتبعك مجروراً لقيل: حسبك الله وحسب من اتبعك، واختار النصب على المفعول معه النحاس. اهـ.

● **الفوائد اللغوية والنحوية:**

حسب: قال أبوحيان: وحسبك مبتدأ مضاف إلى الضمير وليس مصدراً ولا اسم فاعل.

قال سيبويه: «قالوا حسبك وزيداً درهم لما كان فيه من معنى كفاك وقبح أن يحملوه على المضمر نووا الفعل كأنه قال: حسبك وبحسب أخاك درهم ولذلك كفيك» كفيك

---

(١) الأنفال: ٦٤.

(٢) الجامع الفريد ١٣٦.

(٣) الجديد ٣٠١.

(٤) إعراب القرآن ٤/٣٨و ٣٩.

وهو من كفاه يكفيه، وكذلك قطك تقول: كفيك وزيداً درهم، وقطك وزيداً درهم، وليس هذا من باب المفعول معه وإنما جاء سيبويه به حجة للحمل على الفعل للدلالة. فحسبك يدل على كفاك ويحسبنى مضارع أحسبنى فلان إذا أعطانى حتى أقول حسبى. فالناصب فى هذا فعل يدل عليه المعنى، وهو فى: كفيك وزيداً درهم. أوضح لأنه مصدر للفعل المضمر أى ويكفى زيداً. وفى قطك وزيداً درهم التقدير فيه أبعد، لأن قطك ليس فى الفعل المضمر شىء من لفظه، إنما هو مفسر من حيث المعنى فقط. وفى ذلك الفعل المضمر فاعل يعود على الدرهم، والنية بالدرهم التقديم، فيصير من عطف الجمل، ولايجوز أن يكون من باب الإعمال لأن طلب المبتدأ للخبر وعمله فيه ليس من قبيل طلب الفعل أو ما جرى مجراه ولا عمله، فلايتوهم ذلك فيه.

وقال الزجاج: «حسب اسم فعل والكاف نصب والواو بمعنى مع»، فعلى هذا يكون الله فاعلاً لحسبك، وعلى هذا التقدير يجوز فى: ومن أن يكون معطوفاً على الكاف لأنها مفعول باسم الفعل لا مجرور، لأن اسم الفعل لايضاف، إلا أن مذهب الزجاج خطأ لدخول العوامل على حسبك، تقول: بحسبك درهم وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ ولم يثبت كونه اسم فعل فى مكان فيعتقد فيه أنه يكون اسم فعل واسماً غير اسم فعل كرويد. اهـ.

قال الشنقيطى: قال بعض العلماء: إن قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ فى محل رفع بالعطف على اسم الجلالة، أى حسبك الله، وحسبك أيضاً من ابتعك من المؤمنين.

وممن قال بهذا: الحسن، واختاره النحاس وغيره، كما نقله القرطبى، وقال بعض العلماء، هو فى محل خفض بالعطف على الضمير الذى هو الكاف فى قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ وعليه.

فإن قيل: هذا الوجه الذى دل عليه القرآن، فيه أن العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، ضعفه غير واحد من علماء العربية، قال ابن مالك فى [الخلاصة]:

وعود خافض لدى عطف على ... ضمير خفض لازماً قد جعلا

فالجواب من أربعة أوجه:

الأول: أن جماعة من علماء العربية صححوا جواز العطف من غير إعادة الخافض، قال ابن مالك فى [الخلاصة]:

وليس عندى لازماً إذ قد أتى ... فى النظم والنثر الصحيح مثبتا

وقد قدمنا فى «سورة النساء» فى الكلام على قوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾(١) شواهده العربية، ودلالة قراءة حمـزة عليه، فى قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾(٢).

الوجه الثانى: أنه من العطف على المحل، لأن الكـاف مخفوض فى محل نصب، رذ معنى ﴿حَسْبُكَ﴾ يكفيك، قال فى [الخلاصة]:

وجر ما يتبع ما جر ومن راعى فى الاتباع المحل فحسن

الوجه الثالث: نصبه بكونه مفعولاً معه، على تقدير ضعف وجه العطف، كما قال فى [الخلاصة]:

والعطف إن يمكن بلا ضعف أحق والنصب مختار لدى ضعف النسق

الوجه الـرابع: أن يكـون ﴿وَمَنِ﴾ مبـتدأ خـبره مـحذوف، أى ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فحسبهم الله أيضاً، فيكون من عطف الجملة، والعلم عند الله تعالى. اهـ

قال ابن عثيمين: و ﴿النَّبِيُّ﴾.

فعيل بمعنى مفـعَل بفتح العين ومفعِل بكسرها؛ أى: مُنبَأ، ومُنْبِىء؛ فالرسول ﷺ منبأ من قبل الله، ومنبىء لعباد الله.

قوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾.

أى: كافيك، والحَسْبُ: الكـافى، ومنه قولهم: أعطى درهماً فحـسب، وحسب خبر مقدم، والله مبتدأ مؤخر، والمعنى: مـا الله إلا حسبك، ويجوز العكس؛ أى: أن تكون حسب مبتدأ والله خبره، ويكون المعنى: ما حسبك إلا الله، وهذا أرجح.

قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿مَنِ﴾: اسم موصوف مبنية على السكون، وفـى عطفها رأيان لأهل العـلم: قيل: حسبك الله، وحسبك من اتبـعك من المؤمنين؛ فـ ﴿مَنِ﴾ معطوفة عـلى الله لأنه أقرب، ولو كان العطف على الكاف فى حسبـك؛ لَوَجَب إعادة الجار، وهذا كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالله أيد رسوله بالمؤمنين، فيـكونون حَسْباً له هنا كما كان الله حَسْباً له.

---

(١) النساء: ١٢٧. (٢) النساء: ١.

وهذا ضعيف، والجواب عنه من وجوه:

أولاً: قولهم: عطف عليه لكونه أقرب ليس بصحيح؛ فقد يكون العطف على شيء سابق، حتى إن النَّحْويين قالوا: إذا تعددت المعطوفات يكون العطف على الأول.

ثانياً: قولهم: لو عطف على الكاف لوجب إعادة الجار، والصحيح أنه ليس بلازم، قال ابن مالك: إذ قد أتى فى النظم والنثر الصحيح مثبتاً.

ثالثاً: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ فالتأييد لهم غير كونهم حسبه؛ لأن معنى كونهم حسبه أن يعتمد عليهم، ومعنى كونهم يؤيدونه أى ينصرونه مع استقلاله بنفسه، وبينهما فرق.

رابعاً: أن الله - سبحانه - حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ**﴾؛ فَفَرَّق بين الحسب والإيتاء، وقال تعالى: ﴿**قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾، فكما أن التوكل على غير الله لايجوز؛ فكذلك الحسب لايمكن أن يكون غير الله حسباً، فلو كان؛ لجاز التوكل عليه، ولكن الحسب هو الله، وهو الذى عليه يتوكل المتوكلون.

خامساً: أن فى قوله: ﴿**وَمَنِ اتَّبَعَكَ**﴾ ما يمنع أن يكون الصحابة حسباً للرسول ﷺ، وذلك لأنهم تابعون؛ فكيف يكون التابع حسباً للمتبوع؟! هذا لايستقيم أبداً؛ فالصواب أنه معطوف على الكاف فى قوله: ﴿**حَسْبُكَ**﴾؛ أى: وحسب من اتبعك من المؤمنين، فتوكلوا عليه جميعاً أنت ومن اتبعك. اهـ.

● تفسير القرآن بالقرآن:

قال الشنقيطى: فالمعنى حسبك الله أى كافيك وكافى من اتبعك من المؤمنين، وبهذا قال الشعبى، وابن زيد وغيرهما، وصدر به صاحب الكشاف، واقتصر عليه ابن كثير وغيره، والآيات القرآنية تدل على تعيين الوجه الأخير، وأن المعنى كافيك الله، وكافى من اتبعك من المؤمنين لدلالة الاستقراء فى القرآن على أن الحسب والكفاية لله وحده، كقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ**﴾[1]، فجعل الإيتاء لله، ورسوله، كما قال: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾[2]،وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل

---

(١) التوبة: ٥٩.
(٢) الحشر: ٧.

جعل الحسب مختصاً به وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(1)؟ فخص الكفاية التى هى الحسب به وحده، وتمدح تعالى بذلك فى قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(2)، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(3) ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده.

وقد أثنى سبحانه وتعالى على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (4) وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾(5) الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

● **ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:**

أولاً: تفسيرها بما جاء عن الصحابة:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما أسلم عمر رضى الله عنه قال المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم، وأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(6).

عن ابن عباس قال: لما أسلم مع النبى ﷺ تسعة وثلاثون رجلا وامرأة، ثم أن عمر رضى الله عنه أسلم، فصاروا أربعين فنزل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(7).

ثانياً: تفسيرها بما جاء عن التابعين

عن سعيد بن جبير قال: لما أسلم مع النبى ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة، ثم أسلم مع النبى ﷺ عمر نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ...﴾ الآية(8).

(1) الزمر: ٣٦.
(2) الطلاق: ٣.
(3) الأنفال: ٦٢.
(4) آل عمران: ١٧٣.
(5) التوبة: ١٢٩.
(6) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٦٢) ونسبه للبزار. وانظر «الاتقان» للسيوطى بتخريجنا.
(7) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٦٢) ونسبته للطبرانى، وأبى الشيخ، وابن مردويه.
(8) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٩١٣٥) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٦٢) وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه.

عن سعيد بن المسيب قال: لما أسلم عمر رضى الله عنه، أنزل الله فى إسلامه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾(١).

عن الزهرى فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: فقال: نزلت فى الأنصار(٢).

عن الشعبى فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حسبك الله وحسبك من اتبعك(٣).

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: أسلمت رابع أربعين، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

عن مجاهد فى الآية قال: يقول: حسبك الله والمؤمنون(٥).

وروى ابن جرير عن الشعبى: فى قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال حسبك وحسب من معك(٦).

وعن الشعبى أيضاً بنحوه إلا أنه قال حسبك الله وحسب من شهد معك(٧).

عن ابن زيد فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال يا أيها النبى حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين أن حسبك أنت وهم الله(٨).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٩١٣٦) وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن إسحاق.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للبخارى فى«التاريخ»، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى محمد إسماعيل بن على الخطبى فى «الأول» من تحديثه.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٠/٢٦، ٢٧) وتقدم عنه بنحوه.

(٧) نفس المصدر السابق.

(٨) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» ٦/ ١٠/٢٦و ٢٧.

قال ابن جرير: فمن من قوله ومن اتبعك من المؤمنين على هذا التأويل الذى ذكرناه عن الشعبى نصب عطفا على معنى الكاف فى قوله حسبك الله لاعلى لفظه لأنها فى محل خفض فى الظاهر وفى محل نصب فى المعنى؛ لأن معنى الكلام يكفيك الله ويكفى من اتبعك من المؤمنين. وقد قال بعض أهل العربية فى من أنها فى موضع رفع على العطف على اسم الله كأنه قال: حسبك الله ومتبعوك إلى جهاد العدو من المؤمنين دون القاعدين عنك منهم.

واستشهد على صحة قوله ذلك بقوله حرض المؤمنين على القتال.

قال الطبرى(١): يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** الله يقول لهم ـ جل ثناؤه ـ ناهضوا عدوكم فإن الله كافيكم أمرهم ولايهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم فإن الله مؤيدكم بنصره. اهـ.

قال ابن الجوزى(٢): **﴿حَسْبُكَ﴾** فيها قولان:

أحدهما: حسبك الله وحسب من اتبعك، هذا قول أبى صالح عن ابن عباس وبه قال ابن يزيد ومقاتل، والأكثرون.

والثانى: حسبك الله ومتبعوك، قاله مجاهد وعن الشعبى كالقولين وأجاز الفراء والزجاج الوجهين.

قال أبوسليمان الدمشقى: هذا لايحفظ والسورة مدنية بإجماع، والقول الأول أصح. اهـ.

قال القرطبى(٣): ليس هذا تكريزا؛ فإنه قال فيما سبق: **﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾** وهذه كفاية خاصة. وفى قوله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾**أراد التعميم؛ أى حسبك الله فى كل حال. وقال ابن عباس: نزلت فى إسلام عمر؛ فإن النبى ﷺ كان أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلا وستٌ نسوة؛ فأسلم عمر وصاروا أربعين. والآية مكية، كُتبت بأمر رسول الله ﷺ فى سورة مدنيّة، ذكره القُشيرى.

قلت: ـ يعنى القرطبى ـ ما ذكره من إسلام عمر رضى الله عنه عن ابن عباس؛ فقد

---

(١) تفسير الطبرى ٦/ ١٠/ ٢٦.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٨٦.

(٣) تفسير القرطبى ٤/ ٢٨٨١و ٢٨٨٢.

وقع في السيرة خلافه. عن عبدالله بن مسعود قال: ما كنا نقدر على أن نُصلّي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

قال ابن إسحاق: وكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا أو ولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلا، إن كان عمّار بن ياسر منهم. وهو يُشكّ فيه. وقال الكَلْبي: نزلت الآية بالبَيْداء في غزوة بدر قبل القتال.

قوله تعالى: **﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** قيل: المعنى حسبك الله، وحسبك المهاجرون والأنصار.

وقيل: المعنى كافيك الله، وكافي من تبعك؛ قاله الشَّعْبي وابن زيد. والأوّل عن الحسن. واختاره النحاس وغيره.

فـ «من» على القول الأوّل في موضع رفع، عطفا على اسم الله تعالى. على معنى: فإن حسبك الله وأتباعك من المؤمنين. وعلى الثاني على إضمار. ومثلهُ قوله ﷺ: **«يكفينيه الله وأبناء قَيْلة»**.

وقيل: يجوز أن يكون «ومن اتبعهم مِن المؤمنين» حسبهم الله؛ فيضمر الخبر. ويجوز أن يكون «من» في موضع نصب، على معنى: يكفيك الله ويكفي من اتبعك. اهـ.

قال ابن كثير(*): يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال، ومناجزة الأعداد، ومبارزة الأقران ويخبرهم أنه حسبهم، أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم، وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. اهـ.

قال ناصر السعدي(1): أي وكافي أتباعك من المؤمنين.

وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفالة والنصرة على الأعداء، فإذا أتوا بالسبب، الذي هو الإيمان والاتباع فلابد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

(*) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٢١٠.

● **ما جاء في تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان الشيخ[1]: **قال ابن القيم:** أي: الله وحده كافيك وكافي أتباعك، فلاتحتاجون معه إلى أحد، وقيل: المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون.

قال ابن القيم: وهذا خطأ محض لايجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة. قال تعالى: **﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾**[2] ففرق بين الحسب والتأييد؛ فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب فقال تعالى: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾**[3] ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب تعالى لهم بذلك فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك؟ وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله، فكيف يشرك بينه وبينهم في حسب رسوله ﷺ؟ هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل. ونظير هذا قوله سبحانه: **﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾**[4].

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول كما قال: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾**[5] وجعل الحسب له، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال: **﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾** ولم يقل وإلى رسوله؛ بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال: **﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾**[6] فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لايكون إلا له سبحانه وتعالى انتهى كلامه.

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة، لأن الله تعالى أخبر أنه حسب رسوله، وحسب أتباعه. أي: كافيهم وناصرهم، فنعم المولى ونعم النصير، وفي ضمن ذلك أمر لهم بإفراده تعالى بالحسب، استكفاء بكفايته تبارك وتعالى وذلك هو التوكل. اهـ.

قال ابن عثيمين[7]: المراد به الرسول ﷺ يخاطب الله رسوله بوصف النبوة أحياناً

---

(1) تيسير العزيز الحميد ٣٧٤و ٣٧٥.
(2) سورة الأنفال، الآية: ٦٢.
(3) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.
(4) سورة التوبة، الآية: ٥٩.
(5) سورة الحشر، الآية: ٧.
(6) سورة الشرح، الآية: ٨.
(7) القول المفيد ٢/٢٣٨و ٢٤٠.

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1].

وبوصف الرسالة أحياناً، فحينما يأمره أن يُبَلِّغ يناديه بوصف الرسالة، وأما فى الأحكام الخاصة؛ فالغالب أن يناديه بـوصف النبوة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾.



قوله: [﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾] الآية.

● **مناسبة الآية للباب:**

قال القرعاوى[2]: حيث دلت الآية على وجوب التـوكل على الله لأن الله بالتوكل يحفظ عبدة ويكفيه. اهـ.

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

قال القرعاوى[3]: حيـث دلت الآية علـى أن التوكل نـوع من العبـادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

● **الإعراب:**[4]

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ عطف على مـا تقدم ومن شرطية مبـتدأ ويتوكل فعل الشرط وعلى الله متعـلقان بيتوكل والفاء رابطة وهو مبتدأ وحسـبه خبر والجملة فى محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أحاديث وآثار:**

أولاً: تفسيرها من السنة:

عن عمر بن الخطاب رضيى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»**[5].

---

(١) الطلاق: ٣.

(٢) الجديد: ٣٠٢.

(٣) الجديد: ٣٠٣.

(٤) إعراب القرآن ١٠/ ١٢١.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٥٧) ونسبه لسعيد بن منصور، والبيهقى فى «الشعب».
وانظر «فتح القدير» (١٣٠٣٢ ـ بتخريجنا).

عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «**من رضى وقنع وتوكل كُفى الطلب**»(١).

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقه فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل**»(٢).

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من جاع أو احتاج فكتمه الناس وأفضى به إلى الله كان على الله أن يفتح له قوت سنة من حلال**»(٣).

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أوحى الله إلى عيسى اجعلنى من نفسك لهمك، واجعلنى زخراً لمعادك وتوكل على أكفك ولا تول غيرى فأخذلك(٤).

ثانياً: تفسيرها من أقوال السلف (الصحابة والتابعين):

وأخرج أحمد فى الزهد عن عمار بن ياسر قال: كفى بالموت واعظاً. وكفى باليقين عنى وكفى بالعبادة شغلاً(٥).

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: ليس المتوكل الذى يقول تقضى حاجتى، وليس كل من توكل على الله كفاه ما أهمه، ودفع عنه ما يكره، وقضى حاجته، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً(٦).

عن وهب قال: يقول الله تبارك وتعالى: «**إذا توكل على عبدى لو كاته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج**»(٧).

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى(٨): ومن يتوكل على الله فهو حسبه ومعنى ذلك أن الله بالغ أمره بكل حال توكل عليه العبد أولم يتوكل عليه وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك: **ثم ذكر بسنده عن مسروق ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ**

---

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن مردويه.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٣٨٩)، وأبوداود (١٦٤٥)، والترمذى (٢٣٢٦) عن ابن مسعود به.

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٢٣٥٨) عن أبى هريرة به وانظر «الدر» (٦/ ٣٥٧).

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبدالله بن أحمد فى «زوائد الزهد».

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأحمد فى «الزهد».

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٥٦) ونسبه لابن مردويه.

وانظر «فتح القدير (١٣٥١ ـ بتخريجنا).

(٧) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٥٧) ونسبه لأحمد فى «الزهد» وتقدم.

(٨) تفسير الطبرى (١٢/ ٢٨/ ٩٠).

بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ توكل عليه أو لـم يتوكل عليه غير أن المتـوكل يكفر عنه سيئاتـه ويعظم له أجرا[1].

وبسنده عن الشعبى قال تجالس شتير بن شـكل ومسروق فقال شتير إما أن تحدث ما سمعـت من ابن مسعود فـأصدّقك وإما أن أحدث فتـصدّقنى قال مسـروق لا بل حدث فأصدّقك فقال سمعت ابن مسعود يقال أن أكبر آية فى القرآن تفوضا ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ قال مسروق صدقت[2]. اهـ.

قال الرازى[3]: يدل على عدم الإحتياج للكسب فى طلب الرزق. اهـ.

قال القرطبى[4]: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أى من فَوّض إليه أمره كفاه مـا أهَمه. وقيل: أى من اتـقى الله وجانب المعاصى وتـوكّل عليه، فلـه فيما يعطيه فى الآخرة من ثوابه كفاية. ولم يرد الـدنيا؛ لأن المتوكل قد يصاب فى الدنيا وقد يُقْتَل. اهـ.

قال ابن كثير[5]: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يونس ثنا ليث ثـنا قيس بن الحجاج عن حنش الـصنعانى عن عبدالله بن عبـاس أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يومـا فقال له رسول الله ﷺ «**ياغلام إنى معلمك كلمات، احفظ الله يحـفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سـألت فسأل الله، وإذا استعنت فـاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتـمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بـشىء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يـضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله علـيك رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[6] وقد رواه الترمـذى من حديث الليث بن سـعد وابن لهيعة بـه وقال حسن صحيح، وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنـا بشير بن سلمان عن سيار أبى الحكم عن طارق بن شـهاب عن عبدالله بـن مسعود قـال: قال رسول الله ﷺ «**من نزل بـه حاجة فأنزلها بالناس كان قمنا أن لاتسهل حاجته، ومن أنزلها بالله تعالى أتاه الله برزق عاجل أو بموت آجل**»[7] ثم رواه عن عبدالرزاق عـن سفيان عن بشير عن سيـار أبى حمزة ثم قال وهو الصواب، وسيار أبو الحكم لم يحدث عن طارق. اهـ.

---

(1) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(2) المصدر السابق.

(3) التفسير الكبير ١٥/ ٣٠/ ٣٤.

(4) تفسير القرطبى ١٠/ ٦٦٤٠.

(5) ٤/ ٣٦٧.

(6) تقدم تخريجه.

(7) تقدم تخريجه.

قال ناصر السعدى(١): ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فى أمر دينه ودنيـاه، بأن يعتمد على الله فى جلب ما ينفعه، ودفع مـا يضره، ويثق به تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أى: كافيه الأمر الذى توكل عليه فيه.

وإذا كان الأمر فى كفالة الغنى القوى، العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء.

ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له فلهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أى: لابد من نفوذ قضائه وقدره.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان الشيخ(٢): قال ابن القيم: أى: كافيه، ومن كان الله كـافيه وواقيه؛ فلا مطمع فيه لعدوه، ولايضره إلا أذى لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش. وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً؛ وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء، وهو فى الحقيقة إحسان إليه، واضرار بنفسه؛ وبين الضرر الذى يشتفى به منه.

قال بعض السلـف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعـل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(٣) ولم يقل: فلـه كذا وكذا من الأجر، كما قال فى الأعمال، بل جعل نفسه سبحـانه كافى عبده المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه، فلـو توكل العبد عـلى الله حق توكله، وكـادته السموات والأرض ومَن فـيهن، لجعل له مخرجاً، وكفاه، ونصره، انتهى.

وفى أثر رواه أحـمد فى «الزهد» عـن وهب بن منـبه، قال الله عز وجل فـى بعض كتبه: «بِعِزَّتى إِنَّهُ مَنْ اعتـصَمَ بى فَإِنْ كَادَتْهُ السموات وَمَنْ فيهـنَّ، والأَرْضُونَ بِمَنْ فيهنَّ؛ فإنى أجْعَل لَـهُ بِذَلِكَ مَخْرَجاً، وَمَنْ لَمْ يَعْتَـصِم بى، فإنى أَقْطَعُ يَدَيْهِ مِنْ أَسْبَاب السَّماء؛ وأَخْسِفَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْـه الأرضَ؛ فَأَجْعَلُهُ فى الهوَاء ثُم أَكلُهُ إلى نَفْسـه، كفَا بى لعَبْدى مَالاً، إذا كَانَ عَبْدى فـى طَاعَتى أعطيه قَبْلَ أَنْ يَسْـأَلَنى، وأَسْتَجيبُ لَهُ قـبل أَنْ يَدْعُونى، فَأَنَا أَعْلَمُ بِحاجَتِه التى تَرفقُ به منْهُ»(٤). وفى الآية دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم

(١) تيسير الكريم الرحمن ٥/ ٢٥٣.
(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣٧٥و ٣٧٦.
(٣) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٤) تقدم تخريجه.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.(*) (١)

الأسباب فى جلب المنافع، ودفع المضار؛ لأن الله علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسباً له، ذكره شيخ الإسلام. وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل؛ لأنه تبارك وتعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل، كما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٢) فجعل التقوى الذى هو قيام بالأسباب المأمور بها، فحينئذ إذا توكل على الله، فهو حسبه، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل، فلا ينبغى للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التى لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكر معناه ابن القيم. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): جملة شرطية تفيد بمنطوقها أن من يتوكل على الله، فإن الله يكفيه مهماته وييسر له أمره؛ فالله حسبه ولو حصل له بعض الأذية، فإن الله يكفيه الأذى، والرسول ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك يصيبه الأذى ولاتحصل له المضرة؛ لأن الله حسبه؛ فالنتيجة لمن اعتمد على الله أن يكفيه ربه المؤونة.

والآية تفيد بمفهومها أن من توكل على غير الله خُذِلَ؛ لأن غير الله لا يكون حسباً كما تقدَّم، فمن توكل على غير الله تخلى الله عنه، وصار موكولاً إلى هذا الشىء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله بمقدار توكله على غير الله. اهـ.



قوله: [وعن ابن عباس قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم ...].

قوله: «قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار».

(*) آل عمران: ١٧٣.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى التفسير/ باب ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ الآية (ح ٤٥٦٣، ٤٥٦٤). وانظر «فتح المجيد» (٦٧٠ ـ بتخريجنا).

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٤٠و ٢٤١.

قال سليمـان آل الشيخ[1]: رواه البخارى وقـد ذكر الله القصة فى سـورة الأنبياء. اهـ.

قال ابن حجر[2]: **قوله: (قالها إبراهيم عليـه السلام حين ألقى فى النار)** فى الرواية التى بعدها «أن ذلك آخر ما قال» وكذا وقع فى رواية الحاكم المذكورة، ووقع عند النسائى من طريق يحيى بن أبى بكير عن أبى بكـر كذلك، وعند أبى نعيم فى «المستخرج» من طريق عبيدالله بن مـوسى عن إسرائيل بهذا الإسناد «أنها أول ما قـال» فيمكن أن يكون أول شىء وآخر شىء قال، والله أعلم. اهـ.

● **فائدة فى التوكل:**

قال سليمان آل الشيخ[3]: **قال ابن القيم**: وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليـه، وهو الذي يُؤَمِّـنُ خوف الخائف ويـجير المسـتجير وهـو نعم المولـى، ونعم النصيـر؛ فمن تولاه، واستنصر بـه، وتوكل عليه وانقطـع بكليته إليه، تـولاه، وحفظه وحرسه، وصانه. ومن خافه، واتقاه أمنه مما يـخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع. اهـ.

قال عبدالرحـمن آل الشيخ[4]: قوله: (قالهـا إبراهيم عليه الســلام حين ألقى فى النار) قال تـعالى: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ**﴾ الآية. اهـ.

وقال ابن باز[5]: قالها إبراهيم فأنجاه الله من النار حين ألقاه النمرود، وقال ﴿**يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾ فكفاه شرهم ونجاه منهم، وصارت آية معجزة تدل على صدق رسالته. اهـ.

وقال ابن عثيمين[6]: وقول ابن عـباس رضى الله عنهمـا (إن إبراهيم قالـها حين ألقى فى النار) قول لامجـال للرأى فيه، فيكون له حكم الرفع. اهـ. وسـيأتى تتمة قول ابن عثيمين.

---

(١) (٣) تيسير العزيز الحميد (٣٧٥).

(٢) الفتح ٨/ ٧٧.

(٤) فتح المجيد (٢/ ٤٨٤).

(٥) التعليق المفيد (١٨٢).

(٦) القول المفيد (٢/ ٢٤٣).

قوله: «وقالها محمد ﷺ... إلى آخره».

قال ابن حجر[1]: **قوله: «حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم»** فيه إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحق مطولاً فى هذه القصة، وأن أبا سفيان رجع بقريش بعد أن توجه من أحد فلقيه معبد الخزاعى فأخبره أنه رأى النبى ﷺ فى جمع كثير، وقد اجتمع معه من كان تخلف عن أحد وندموا، فثنى ذلك أبا سفيان وأصحابه فرجعوا، وأرسل أبوسفيان ناساً فأخبروا النبى ﷺ أن أبا سفيان وأصحابه يقصدونهم فقال: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾.

ورواه الطبرى من طريق السدى نحوه ولم يسم معبدا قال «أعرابيا» ومن طريق ابن عباس موصولاً لكن بإسناد لين قال «استقبل أبو سفيان عيراً واردة المدينة» ومن طريق مجاهد أن ذلك كان من أبى سفيان فى العام المقبل بعد أحد، وهى غزوة بدر الموعد، ورجح الطبرى الأول.

ويقال إن الرسول بذلك كان نعيم بن مسعود الأشجعى، ثم أسلم نعيم فحسن إسلامه.

قيل إطلاق الناس على الواحد لكونه من جنسهم كما قال فلان يركب الخيل وليس له إذ ذاك إلا فرس واحد. **قلت**: وفى صحة هذا المثال نظر. اهـ.

وقال نحو ذلك شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين[2]: قوله فى أثر ابن عباس رضى الله عنهما: **«قالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾».**

وهذا فى نص القرآن لما انصرف أبوسفيان من أُحُد أراد أن يرجع إلى النبى ﷺ وأصحابه ليقضى عليهم بزعمه، فلقى ركباً، فقال لهم: إلى أين تذهبون؟ قالوا: نذهب إلى المدينة. قال: بلِّغوا محمداً وأصحابه أنّا راجعون إليهم فقاضون عليهم. فجاء الركب إلى المدينة، فبلغوهم؛ فقال رسول الله ﷺ ومن معه: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾. وخرجوا فى نحو سبعين راكباً، حتى بلغوا حمراء الأسد، ثم إن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة[3]، وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين؛ حيث اعتمدوا عليه تعالى. اهـ.

(١) الفتح ٨/ ٧٧و ٧٨. (٢) القول المفيد ٢/ ٢٤١و ٢٤٢.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٧٧) ونسبه لابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقى فى «الدلائل» وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

قال سليمان آل الشيخ[1]: **قوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾** أى: نعم الموكول إليه المتوكل عليه؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ فقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة التوكل على الله والالتجاء إليه. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: «**قال لهم الناس**».

أى: الركب قوله: «**إن الناس**».

أى: أبا سفيان ومن معه، وكلمة الناس هنا يمثل بها الأصوليون للعام الذى أريد به الخصوص.

قوله: ﴿حَسْبُنَا﴾.

أى: كافينا، وهى مبتدأ والله خبره.

قوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

﴿نِعْمَ﴾: فعل ماضٍ، ﴿الْوَكِيلُ﴾: فاعل، والمخصوص محذوف تقديره: هو؛ أى: الله، والوكيل: المُعْتمد عليه سبحانه، والله - سبحانه - يطلق عليه اسم وكيل، وهو أيضاً مُوَكِّل، والوكيل فى مثل قوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، وأما الموكل؛ ففى مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

وليس المراد بالتوكيل هنا إنابة الغير فيما يحتاج إلى الاستنابة فيه؛ فليس توكيله سبحانه من حاجة له، بل المراد بالتوكيل الاستخلاف فى الأرض لينظر كيف يعملون. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[3]: ففى هاتين القصتين فضل هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام فى الشدائد.

ولهذا جاء فى الحديث: «**إِذَا وَقَعْتُم فِى الأَمْرِ العَظِيمِ فَقُولُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ**

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٧٦.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٤٢و ٢٤٣.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٧٧.

الوَكيلُ»(1) رواه ابن مردويه وأن القيام بالأسباب مع التوكل على الله لايتنافيان، بل يجب على العبد القيام بهما، كما فعل الخليلان عليهما الصلاة والسلام.

ولهذا جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى عن عوف بن مالك أنَّ النَّبىَّ ﷺ قَضى بيْنَ رَجُلَيْنَ فَقَالَ المَقْضىُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبرَ: حَسْبِىَ الله وَنِعْمَ الوَكيلُ، فَقَال رسول الله ﷺ: **«رُدُّوا علىَّ الرَّجُل»** فَقَال مَا قلت؟ قالَ: قلتُ: حَسْبِىَ الله ونِعْمَ الوَكيل. فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله يَلُومُ على العَجْزِ، ولَكنْ عَلَيْكَ بِالكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فقل حَسْبِىَ الله وَنِعْمَ الوَكيلُ»**(2) وفى الآية دليل على أن الإيمان يزيد وينقص. قال مجاهد فى قوله: **﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾** قال: الإيمان يزيد وينقص، وعلى أن ما يكرهه الإنسان قد يكون خيراً له، وأن التوكل أعظم الأسباب فى حصول الخير، ودفع الشر فى الدنيا والآخرة. اهـ.

قال حامد بن محمد(3): فالتوكل معظم منازل السائرين إلى الله تعالى معتمدين عليه فيما ينوبهم لا ينظرون إلى غيره لعلمهم أنه الكافى فى جميع أمورهم، فهو حسبهم، **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾**. اهـ.

وقال عبدالله بن جار الله(4): معنى (حسبنا) كافينا ومتول أمورنا، فلانتكل إلا عليه (ونعم الوكيل) أى نعم الموكول إليه والمعتمد عليه.

من فضل هذه الكلمة العظيمة أنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام فى الشدائد وجاء فى الحديث **«إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»**(*) والله أعلم. اهـ.

وقال ابن باز(5): وقال محمد ﷺ بعد أحد حين قالوا له أن المشركين قد جمعوا لكم ليكروا عليكم ثانية، فقال: **﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾** فكفاه الله.

---

(1) ذكره السيوطى فى «الدر» (2/ 181) ونسبه لابن مردويه عن أبى هريرة به.
وانظر «فتح القدير» و«فتح المجيد» (ح672) بتخريجنا.

(2) أخرجه أحمد فى «مسنده» (6/ 24)، وأبوداود (3627)، والنسائى فى «الكبرى» (10462) عن عوف بن مالك به.
وانظر «الأذكار للنووى» (333 ـ بتخريجنا).

(3) فتح الله الحميد المجيد (357).

(4) الجامع الفريد (137).

(*) سبق تخريجه قريباً.

(5) التعليق المفيد (182).

فيه مسائل

الأولى: أَنهَ التَوَكُّلَ مِنَ الفَرَائِضِ.

وهكذا ينبغى للمسلم أن يقولها عند الشدائد، لكن هذا لايمنع من الأخذ بالأسباب لأن النبى ﷺ قالها، وقد لبس الدرع وحمل السلاح ووضع الخوذة على رأسه، وكذلك فعل أصحابه، ويوم الأحزاب حفروا الخندق، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين(١): وقول ابن عباس رضى الله عنهما: **إن إبراهيم قالها حين ألقى فى النار»** قول لامجال للرأى فيه؛ فيكون له حكم الرفع.

وابن عباس ممن يروى عن بنى إسرائيل؛ فيحتمل أنه أخذه منهم، ولكن جزمه بهذا، وقرنه لما قاله الرسول ﷺ مما يبعد أن يكون أخذه من بنى إسرائيل.

الشاهد من الآية: قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾؛ حيث جعلوا حسبهم الله وحده.

● **(تنبيه):**

قولنا: «وابن عباس ممن يروى عن بنى إسرائيل» قول مشهور عند علماء المصطلح، لكن فيه نظر؛ فإن ابن عباس رضى الله عنهما ممن ينكر الأخذ عن بنى إسرائيل؛ ففى «صحيح البخارى» أنه قال: «يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يُشَبْ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بَدَّلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب؟! فقالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! ولا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم». اهـ(٢).



قوله: «وفيه مسائل».

قال ابن عثيمن(٣):

● **الأولى: أن التوكل من الفرائض.**

---

(١) القول المفيد ٢/ ٢٤٣.

(٢) صحيح أخرجه البخارى (٢٦٨٥).

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٤٤و ٢٤٥.

الثانية: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الإِيمَانِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الأَنْفَالِ).

الرابعة: تَفْسِيرُ الآيَةِ فِي آخِرِهَا.

الخامسة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الطَّلاَقِ).

السادسة: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ وَمُحَمَّدٍ ﷺ فِي الشَّدَائِدِ.

ووجهه أن الله علّق الإيمان بالتوكل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وسبق تفسيرها.

● **الثانية: أنه من شروط الإيمان.**

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

● **الثالثة: تفسير آية الأنفال.**

وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ الآية، والمراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل، وإلا؛ فالإنسان يكون مؤمناً وإن لم يتصف بهذه الصفات، لكن معه مطلق الإيمان، وقد سبق تفسير ذلك.

● **الرابعة: تفسير الآية في آخرها أي آخر الأنفال.**

وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: حَسْبُك وحَسْب من اتبعك من المؤمنين، وهذا هو الراجح على ما سبق.

● **الخامسة: تفسير آية الطلاق.**

وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، وقد سبق تفسيرها.

● **السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد.**

يعني قول: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

وفي الباب مسائل غير ما ذكره المؤلف، منها:

زيادة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

ومنها: أنه عند الشدائد ينبغي اللإنسان أن يعتمد على الله مع فعل الأسباب؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه قالوا ذلك عندما قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، ولكنهم فَوَّضوا الأمر إلى الله، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ومنها: أن اتباع النبي ﷺ مع الإيمان سبب لكفاية الله للعبد. اهـ.

قلت: ما ذكره المؤلف على الإجمال تضمن هذه المسائل وزيادة والله أعلم.



باب (٣٣)

قَوْلُ الله تَعَـالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[١].

● **مناسبة الباب لما قبله:**

قال الفقير: ومناسبته لما قبله ظاهرة فى أن التوكل على الله والثقة به كان من أعظم ما يدفع عن المتوكل تخويف الشيطان إذا أراد أن يخوفه؛ لأنه بهذا التوكل دخل فى ولاية الرحمن وخرج من ولاية الشيطان فلا سبيل له عليه، وإن خوفه لم يخف إلا الله، لهذا كان من ثمرات التوكل على الله الخوف منه والرجاء فيه، ولهذا ناسب أن يورد المصنف هذا الباب بعد باب التوكل. وتقدم فى باب من حقق التوحيد ما حكاه النووى عن أبى جعفر الطبرى وغيره من السلف أنهم قالوا: لايستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى.

● **ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد:-**

قال سليمان آل الشيخ[٢]:

المراد بهذه الترجمة التنبية على الجمع بين الرجاء والخوف، ولذلك ذكر بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ** ﴾[٣] هذا هو مقام الأنبياء والصديقين كما قال تعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً** ﴾[٤] فابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب بحبه وطاعته، ثم ذكر الرجاء والخوف وهذه أركان الإيمان.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾[٥].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ**﴾[٦].

وقال إخبارًا عن شعيب: ﴿ **قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا**

---

(١) الأعراف: ٩٩.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٧٨ - ٣٨٠.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٥٦.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ٨٠.

اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾[1] فوكلا الأمر إلى مالكه، وقال تعالى عن الملائكة عليهم السلام: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2].

وقال النبي ﷺ: «**فَوَ اللهِ إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُم لَهُ خَشْيَةً**»[3] وكلما قوى إيمان العبد ويقينه قوى خوفه ورجاؤه مطلقًا. قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾[4] وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾[5].

قالت عائشة: يارسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال: «**لا يابنت الصديق هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه**» رواه الإمام أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه[6].

قال ابن القيم: «**الخوف من أجل منازل الطريق**، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهم به أليق وله ألزم؛ فإن العبد إما أن يكون مستقيمًا أو مائلاً عن الاستقامة. فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف، فنشأ الخوف من الله عند المعصية **وهو ينشأ من ثلاثة أمور أحدها معرفته بالجناية وقبحها**.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

الثالث: أنه لا يعلم أنه يمنع من التوبة، ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وسبب قوتها وضعفها يكون قوة الخوف، وضعفه، هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد. **وبالجملة** فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوقوف باتيانه بالتوبة النصوح؛ هاج من

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٠.

(٣) [**متفق عليه**] أخرجه البخاري (٦١٠١) - ومسلم في الفضائل (٨/ ١١٧/ ١٢٧) عن عائشة به.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٥) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠.

(٦) أخرجه الترمذي (٣١٧٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٥)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٢). وانظر الإتقان للسيوطي (١٧٠٦ - بتخريجنا).

قلبه من الخوف ما لايملكه، ولا يفارقه حتى ينجو وأما إن كان مستقيمًا مع الله؛ فخوفه يكون من جريان الأنفاس لعلمه بأن الله مقلب القلوب وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن - عز وجل - فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، كما ثبت عن النبي ﷺ[1].

وكانت أكثر يمينه «لا ومقلب القلوب»[2] ويكفي هذا قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[3] فأى قرار لمن هذه حاله ومن أحق بالخوف منه، بل خوفه لازم له في كل حال، وإن توارى عنه بغلبة حال أخرى عليه، فالخوف حشو قلبه، لكن توارى عنه بغلبة غيره، فوجود الشيء غير العلم به، فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد، وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله عز وجل وعزته وجلاله، وأنه الفعال لما يريد، وأنه المحرك للقلب المصرف له كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم انتهى. فهذا الخوف الثاني هو من خوف المكر. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[4]: قصد المصنِّف - رحمه الله - تعالى بهذه الآية، التنبيه على أنَّ الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أنَّ القنوط من رحمة الله كذلك، وذلك يرشد إلى أنَّ المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة وأرشد إليه السلف والأئمة.

وقال أيضًا في «قرة عيون الموحدين»[5]: أراد المصنِّف - رحمه الله تعالى - أن الأمن من مكر الله يدل على ضعف الإيمان فلا يبالي صاحبه بما ترك من الواجبات، وفعل المحرمات، لعدم خوفه من الله بما فعل أو ترك وهذا من أعظم الذنوب وأجمعها للعيوب. اهـ.

قال ناصر السعدي[6]: مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفاً من الله، راجياً له راغباً راهباً، إن نظر الى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجا من ربه

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢٩١)، وأبو يعلى (٤٦٦٩) وانظر القواعد المثلى» (٧٨ - بتخريجنا). وأصله في «الصحيح» وهو الذي بعده.

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٦١٧) وانظر القواعد المثلى» (٧٨ - بتخريجنا).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٤) فتح المجيد ٢/ ٥٩٧.

(٥) ١٧٥.

(٦) القول السديد ٩٣ - ٩٥.

تمام النعمة بقبولها وخاف من ردها بتقصيره فى حقها. وان ابتلى بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها وخشى بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضًا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر ويخشى من اجتماع المصيبتين فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحد فى كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع، وبه تحصل السعادة، ويخشى على العبد من خلقين رذيلين:

(أحدهما) أن يستولى عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه.

(الثانى) أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان.

● أسباب القنوط من رحمة الله.

قال ناصر السعدى(١): وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

(أحدهما) أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيم على الأسباب التى تمنع الرحمة فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفاً وخلقاً لازمًا. وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد. ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوى.

(الثانى) أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة ويظن بجهله أن الله لايغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب وتضعف إرادته فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها.

فلو عرف هذا ربه ولم يخلد الى الكسل لعلم أن أدنى سعى يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه.

● أسباب الأمن من مكر الله.

قال ناصر السعدى(٢): وللامن من مكر الله أيضاً سببان مهلكان:

(١) (٢) انظر الموضع السابق.

(أحدهما) إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضاً غافلاً مقصراً عن الواجبات منهمكاً في المحرمات حتى يضمحل خوف الله من قلبه ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوى والأخروى.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابداً جاهلاً معجباً بنفسه مغروراً بعمله فلا يزال به جهله حتى يدل بعمله ويزول الخوف عنه، ويرى أن له عند الله المقامات العالية فيصير آمنا من مكر الله متكلاً على نفسه الضعيفة المهينة، ومن هنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق إذ هو الذى جنى على نفسه.

فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد. اهـ.

● تعريف المكر:

قال ابن الجوزى(١): المكر من الخلق خبث وخداع، ومن الله - عز وجل - المجازاة. فسمي باسم ذلك. لأنه مجازاة عليه كقوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** ﴾، ﴿**وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ لأن مكره مجازاة ونصر للمؤمنين. اهـ.

قال الرازى(٢): أصل المكر في اللغة السعي بالفساد في خفية ومداجاة، قال الزجاج: يقال مكر الليل، وأمكر إذا أظلم: وقال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ**﴾ وقال: ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾ وقيل أصله من اجتماع الأمر وإحكامه، ومنه امرأة ممكورة، أى مجتمعة الخلق.

وإحكام الرأى يقال له الإجماع والجمع قال الله تعالى: ﴿ **فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ**﴾ فلما كان المكر رأيًا محكمًا قويًا مصونًا عن جهات النقص والفتور. لاجرم سمي مكرًا.

قال محيى الدين درويش(٣): المكر في اللغة: الستر، يقال: مكر الليل أى أظلم وستر بظلمته ما فيه، واشتقاقه من المكر، وهو شجر ملتفّ كأنهم تخيلوا أنّ المكر يلف الممكور به. وامرأة ممكورة أى ملتفة ثم خصصوه بالخبث والخداع. اهـ.

---

(١) زاد المسير ١/ ٣٢١.

(٢) التفسير الكبير ٤/ ٨/ ٧٣.

(٣) إعراب القرآن ١/ ٥١٧.

قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

قوله: وقول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ ـ الآية.

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى[2]: حيث دلّت الآية الكريمة على وجوب الخوف من مكر الله.

● مناسبة الآية للتوحيد: -

قال القرعاوى[3]: حيث دلّت الآية على تحريم الأمن من مكر الله لأن ذلك يستلزم تنقيص كمال الله المطلق وذلك منافٍ لكمال التوحيد. اهـ.

وبنحو ذلك ذكر عبد الله بن جار الله.

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

● الإعراب[4]: الهمزة للاستفهام الاستنكارى التوبيخى والفاء عاطفة والتكرير لزيادة النكير والتوبيخ وقد تقدم القول فى المراد بمكر الله.

﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الفاء عاطفة ولا نافية و(يأمن مكر الله) فعل ومفعول به وإلا أداة حصر والقوم فاعل والخاسرون صفه.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:-

عن هشام بن عروة قال: كتب رجل إلى صاحب له: إذا أصبت من الله شيئًا يسرك فلا تأمن أن يكون فيه من الله مكر **﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾**[5].

عن زيد بن أسلم أن الله تبارك وتعالى قال للملائكة «ما هذا الخوف الذى قد بلغكم وقد أنزلتكم المنزلة التى لم أنزلها غيركم؟ قالوا: ربنا لا نأمن مكرك، لا يأمن مكرك إلا القوم الخاسرون»[6].

عن على بن أبى حليمة قال: كان ذر بن عبد الله الخولانى إذا صلى العشاء يختلف

---

(1) الأعراف: ٩٩.

(2) الجديد: ٣٠٦.

(3) الجديد: ٣٠٧.

(4) الإعراب: ٣/ ٤١٤.

(5) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٩٣) ونسبه لابن أبى حاتم.

(6) نفس المصدر السابق.

في المسجد، فإذا أراد أن ينصرف رفع صوته بهذه الآية ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[1].

عن إسماعيل بن رافع قال: من الأمن لمكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة[2].

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[3]: يقول تعالى ذكره: أفأمن يا محمد هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله ويجحدون آياته، استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم فى دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش كما استدرج الذين قص عليهم قصصهم من الأمم قبلهم فإن مكر الله لا يأمنه يقول لا يأمن ذلك أن يكون استدراج جامع مقامهم على كفرهم وإصرارهم على معصيتهم إلا القوم الخاسرون وهم الهالكون. اهـ.

قال البغوى[4]: ومكر الله استدراجه إياهم مما أنعم عليهم فى دنياهم.

وقال عطية: أخذه وعذابه. اهـ.

قال الرازى[5]: ويدل قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أن المراد أن يأتيهم عذابه من حيث لايشعرون. قاله على وجه التحذير وسمى هذا العذاب مكراً توسعاً، لأن الواحد منا إذا أراد المكر بصاحبه، فإنه يوقعه فى البلاء من حيث لايشعر به، فسمى العذاب مكرا لنزوله بهم من حيث لايشعرون، وبين أنه لا يأمن نزول عذاب الله على هذا الوجه ﴿إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وهم الذين لغفلتهم وجهلهم لايعرفون ربهم، فلا يخافونه، ومن هذه سبيله، فهو أخسر الخاسرين فى الدنيا والآخرة، لأنه أوقع نفسه فى الدنيا فى الضرر، وفى الآخرة فى أشد العذاب. اهـ.

قال القرطبى[6]: قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أى عذابه وجزاءه على مكرهم وقيل: مكره استدراجه بالنعمة والصحة اهـ.

قال ابن كثير[7]: أى بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعة وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن اهـ.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٩٤) ونسبه لعبد الله بن أحمد فى «زوائد الزهد».
(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.
(٣) الطبرى ٦/٩/٧.   (٤) معالم التنزيل ٢/ ٥١٤.
(٥) التفسير الكبير ٧/١٤/ ١٩٤.   (٦) القرطبى ٤/ ٢٦٩٠.   (٧) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٥.

قال الشوكاني[1]: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ للتقريع والتوبيخ وإنـكار ماهم عليه من أمان مالا يؤمَن من مكر الله بهم وعقوبته لهم، وفى تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير، لإنكار ما أنكـره عليهم، ثم بـين حال من آمن مكـر الله فقال: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، أى الذين افرطوا فى الخسران، ووقعوا فـى وعيده الشديده وقيل: مكر الله هنا: هو استدراجه بالنعمة والصحة والأولى حمله على ماهو أعم من ذلك. اهـ.

قال ناصر السعدى[2]: وهذه الآية الكريمـة، فيها من التخويف البـليغ، على أن العبد، لا ينبغى له أن يكون آمنا، على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفًـا وجلاً، أن يبتلى ببلـية، تسلب ما معه مـن الإيمان، وأن لايزال داعيًا بقوله: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك**».

وأن يعمل ويسعى، فـى كل سبب يخلصه من الشر، عند وقـوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة. اهـ.

قال صاحب الظلال[3]: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ وتدبيره الخفى المغيب عن البشر ليتقوه ويحذروه.

﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار ومن يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار!

أفأمنوا مكر الله وهـم يرثون الارض من بعد أهلهـا الذاهبين، الذين هلكوا بذنوبهم، وجنت عليهم غفلتهم؟ أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم. اهـ.

[قلت]: وكلام المفسرين الســابق فى المكر المذكور فى الآية يحمل علـى تفسير وبيان معنـى المكر لاعلـى تأويل الصـفة، وصرفها عـن حقيقـتها، كمـا قال مالك فـى صفة الاستواء: الاستواء مـعلوم ـ أى معناه معلوم ـ والـكيف مجهول ـ كذلك يـقال فى صفة المكر وبيان معــناه فإنه معلوم، وأما كيفـيته مجهولة، والسؤال عنـه بدعة. بل الأمر فى صفة المكر كما قال ابن عثيمين: لاتنفى عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها فى مقام التـى تكون مدحاً يوصـف بها، وفى المقام التـى لاتكون مدحاً لايوصـف بها. اهـ وسيأتى كلامه كاملاً قريباً. والله أعلم.

(١) فتح القدير ٢/ ٢٣٨. (٢) تيسير الكريم الرحمن/ ١٣٦.
(٣) الظلال (٣/ ١٣٤٠).

● ماجاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(١): إذا علمت هذا فمعنى الآية المترجم لها أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل، بين أن الذى حملهم على ذلك هو الأمن من عذاب الله، وعدم الخوف منه، كما قال: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ثم بين أن ذلك بسبب الجهل والغرة بالله، فأمنوا مكره فيما ابتلاهم به من السراء والضراء، بأن يكون استدراجًا، فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أى: الهالكون. فدل على وجوب الخوف من مكر الله.

قال الحسن: من وسع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له.

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سلوتهم وغرتهم ونعمتهم. فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر به إلا القوم الفاسقون. رواهما ابن أبى حاتم.

وفى الحديث «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ؛ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»(٢) رواه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم. وقال إسماعيل بن رافع: من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب، يتمنى على الله المغفره. رواه ابن أبى حاتم. اهـ(٣).

قال حامد بن محمد(٤): الأمن من مكر الله: اطمئنان القلب بعدم عقوبة الله وعدم مراقبتها والغفلة عنها وهو على معاصى الله ومساخطه فلا يحذر الله فيما هو عليه ولا يخافه فكأنه شك وأنكر اسمه القهار وأن لايكون له مظهر فإذا ما تدركه العقوبة فإذا هو من الخاسرين كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾(٥).

فالأمن من مكر الله من المهالك التى لانجاة منها إلا بفضل الله ورحمته وكذلك القنوط من رحمة الله لما يرى من رداءة نفسه وقلة طاعته له فييأس حينئذ من رحمة الله وذلك من المهالك لأنه يقنط من رحمته الواسعة ولم يتدارك لما فاته من التلف ولم يرجوا الله فى توفيقه إياه على ما يجب ويرضى وعفوه عما مضى فكأنه شك أو أنكر

(١) تيسير العزيز الحميد / ٣٨٠.
(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٤٥) عن عقبة بن عامر به، وانظر تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا.
(٣) تقدم تخريجه. (٤) فتح الله الحميد المجيد ٣٥٩ (٥) الأنعام ٤٤.

اسمه الغفور الرحيم العفو وأن يكون له مظهر فما يضل عن صراط الله الذى أرسل به الرسول ﷺ وهدى عليه أولياءه.

قال ابن عثيمين[١]: (أفأمنوا) الضمير يعود على أهل القرى؛ لأن ما قبلها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

فقوله: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ يدل على كمال الأمن لأنهم فى بلادهم، وأن الخائف لاينام، وقوله: ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يدل أيضًا على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق؛ لأنه لو كان عندهم ضيق فى العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا فى الضحى - فى رابعة النهار - يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء؛ فهم نائمون وفى رغد، ومقيمون على معاصى الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم، غافلون عن ذكر خالقهم؛ فهم فى الليل نَوْم، وفى النهار لعب، فبين الله - عز وجل - أن هذا من مكره بهم، ولهذا قال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فالذى يَمُنُّ الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو فى الحقيقة خاسر.

فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمك من جوع، وآمنك من خوف، وكساك من عرى؛ فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله، بل أنت خاسر؛ لأن هذا من مكر الله بك.

قوله: ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الاستثناء للحصر، وذلك لأن ما قبله مُفَرَّغ له؛ فالقوم فاعل، والخاسرون صفتهم.

وفى قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ دليل على أن لله مكرًا، والمكر هو: التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لايشعر، ومنه ما جاء فى الحديث: **«الحرب خدعة»**[٢].

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن الماكر فى محله محمود يدل على قوة المكر، وأنه غالب على خصمه،

---

(١) القول المفيد ٢/٢٤٦ - ٢٤٩.

(٢) تقدم تخريجه.

ولذلك لا يوصف الله بـه على الإطلاق؛ فلا يجوز أن تقول: إن الله مـاكر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام تكون فيـه مدحًا، مثل قوله تعالى: ﴿ ويمكرون ويمكر الله ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون ﴾(٣)، ومثل قوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾، ولا تنفى عنه هـذه الصفة على سبيل الإطلاق، بـل إنها في المقام التي تكون مدحًا يوصف بها وفي المقام التي لاتكون مدحًا لا يوصف بها.

وكذلك لايُسمَّى الله بها؛ فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر.

وأما الخيانة؛ فلا يوصف الله بها مطلقًـا لأنها ذم بكل حال؛ إذ إنها مكر في موضع الائتمان، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ﴾(٤)، ولم يقل: فخانهم.

وأما الخـداع فهو كالمـكر يوصف الله بـه حيث يـكون مدحًا؛ لـقوله تعـالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾(٥)، والمكر من الصـفات الفعلية؛ لأنهـا تتعلق بمشيئة الله - سبحانه -.

● **ويستفاد من هذه الآية:**

١ - الحذر من النعم التي يجلبها الله للعبـد لئلا تكون استدراجًا؛ لأن كل نعمة فلله عليك وظيفة شكرها، وهي القيام بطاعة المُنـعِم، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم؛ فاعلم أن هذا من مكر الله.

٢ - تحريم الأمن من مكر الله، وذلك لوجهين:

الأول: أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾.



قوله: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾.

● **مناسبة الآية للباب.**

قال عـبدالله بـن جار الله(٦): أن القنـوط من رحمة الله ذنب عـظيم ينافـى كمال التوحيد كما أن الأمن من مكر الله كذلك.

(١) الحجر/٥٥.
(٢) الأنفال: ٣٠.
(٣) النمل: ٥٠.
(٤) الأنفال: ٧١.
(٥) النساء: ١٤٢.
(٦) الجامع الفريد.

● مناسبة الآية للتوحيد.

قال القرعاوى(١): حيث دلت الآية الكريمة على تحريم القنوط من رحمة الله لأن ذلك تنقيص لكرم الله المطلق وذلك مناف لكمال التوحيد.

● ما جاء فى تفسير الآية من وجوه القَراءات:

قال الطبرى(٢): واختلفت القراء فى قراءة قوله من القانطين فقرأته عامة قرآء الأمصار من القانطين بالألف.

وذُكر عن يحيى بن وثاب أنه كان يقرأ ذلك القنطين والصواب من القراءة فى ذلك ما عليه قراء الامصار لإجماع الحجة على ذلك وشذوذ ما خالفه وقوله قال **(ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون)** يقول تعالى ذكره قال إبراهيم للضيف ومن ييأس من رحمة الله إلا القوم الذين قد أخطؤا سبيل الصواب وتركوا قصد السبيل فى تركهم رجاء الله ولا يخيب من رجاه فضلوا بذلك عن دين الله.

واختلفت القراء فى قراءة قوله **(ومن يقنط)** فقرأ ذلك عامة قراء المدينة والكوفة ومن يقنط بفتح النون إلا الأعمش والكسائى فإنهما كسرا النون من يقنط فأما الذين فتحوا النون منه ممن ذكرنا فإنهم قرؤا من بعد ماقنطوا بفتح القاف والنون وأما الاعمش فكان يقرأ ذلك من بعد ماقنطوا بكسر النون وكان الكسائى يقرؤه بفتح النون وكان أبو عمرو ابن العلاء يقرأ الحرفين جميعاً على النحو الذى ذكرنا من قراءة الكسائى وأولى القرآت فى ذلك بالصواب قراءة من قرأ من بعد ما قنطوا بفتح النون ومن يقنط بكسر النون لإجماع الحجة من القراء على فتحها فى قوله من بعد ما قنطوا فكسرها فى ومن يقنط أولى إذا كان مجمعاً على فتحها فى قنط لأن فعل اذا كانت عين الفعل منها مفتوحة ولم تكن من الحروف الستة التى هى حروف الحلق فإنها تكون فى يفعل مكسورة أو مضمومة فأما الفتح فلا يعرف ذلك فى كلام العرب. اهـ.

الإعراب(٣): الواو عاطفه و**(من)** اسم استفهام معناه النفى فى محل رفع مبتدأ.

وجمله **(يقنط)** خبره و**(من رحمة ربه)** متعلقان بيقنط و**(إلا)** أداة حصر و**(الضالون)** بدل من الضمير المستتر فى يقنط بدل بعض من كل ولم يؤت معه بضمير لقوة تعلق المستثنى بالمستثنى منه.

● ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث:

(١) الجديد ٣٠٨.
(٢) تفسير الطبرى ٧/ ١٤/ ٢٨.
(٣) إعراب القرآن ٥/ ٢٤٧.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**الفاجر الراجى لرحمة الله، أقرب منها من العابد القانط**»(١).

● **ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:**

عن السدى ﴿**مِنَ الْقَانِطِينَ**﴾ قال: الآيسين(٢).

الأعمش، عن يحيى أنه قرأها «**فلا تكن من القنطين**» بغير ألف. قال: وقرأ ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ**﴾ مفتوحة النون(٣).

عن سفيان بن عيينة قال: من ذهب يقنط الناس من رحمة الله، أو يقنط نفسه فقد أخطأ، ثم نزع بهذه الآية ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾(٤).

عن السدى ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ**﴾ قال: من ييأس من رحمة ربه(٥).

عن موسى بن على، عن أبيه قال: بلغنى أن نوحًا عليه السلام قال لابنه سام: يابنى، لا تدخلن القبر وفى قلبك مثقال ذرة من الشرك بالله؛ فإنه من يأت الله عز وجل مشركاً فلا حجة له. ويابنى، لا تدخل القبر وفى قلبك مثقال ذرة من الكبر فإن الكبر رداء الله، فمن ينازع الله رداءه يغضب الله عليه. ويابنى، لاتدخلن القبر وفى قلبك مثقال ذرة من القنوط؛ فإنه لايقنط من رحمة الله إلا ضال(٦).

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.**

قال البغوى(٧): «من رحمة ربه إلا الضالون».

أى الخاسرون والقنوط من رحمة الله كبيرة.

قال: أمن من مكره. اهـ.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ١٩١) ونسبه للحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول».

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٤١٠) فانظر بتخريجنا، وأنظر «الدر» (٤/ ١٩١).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ١٩١) ونسبه لأبى عبيد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم (١٢٤١١) وأنظر «الدر» (٤/ ١٩١).

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم (١٢٤١٢) وأنظر «الدر» فى الموضع السابق.

(٦) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٤١٣) وزاد نسبته السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق لأحمد فى «الزهد».

(٧) معالم التنزيل ٣/ ٤٠٦.

قال الزمخشري[1]: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب أو إلا الكافرون. كقوله ﴿لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعنى لم أشكو ذلك قنوطاً من رحمته ولكن استبعاداً له فى العادة التى اجراها الله. اهـ.

قال ابن الجوزى[2]: والقنوط بمعنى اليأس ولم يكن إبراهيم قانطاً ولكنه استبعد وجود الولد. اهـ.

قال الرازى[3]: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذا الكلام حق، **لأن القنوط من رحمة الله تعالى لايحصل إلا عند الجهل بأمور أحدها**: أن يجهل كونه تعالى قادراً عليه.

وثانيها: أن يجهل كونه تعالى عالماً باحتياج ذلك العبد إليه.

وثالثها: أن يجهل كونه تعالى منزهاً عن البخل والحاجة والجهل، فكل هذه الأمور سبب للضلال، فلهذا المعنى قال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾. اهـ.

قال السعدى[4]: الذين لاعلم لهم بربهم وكمال اقتداره.

وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق، لرحمة الله شيئًا كثيراً.

قال صاحب الظلال[5]: قال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾.

وبرزت كلمة «الرحمة» فى حكاية قول إبراهيم تنسيقا مع المقدمة فى هذا السياق وبرزت معها الحقيقة الكلية: أنه لايقنط من رحمة ربه إلا الضالون. الضالون عن طريق الله، الذين لايستروحون روحه، ولا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته. فأما القلب الندى بالإيمان، المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمت حوله الخطوب، ومهما غام الجو وتلبد، وغاب وجه الأمل فى ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر.. فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين. وقدرة الله تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج، وتغير الواقع كما تغير الموعود. اهـ.



---

(١) الكشاف ٢/ ٣١٥.
(٢) زاد المسير ٤/ ٣٠٩.
(٣) التفسير الكبير ١٠/ ١٩/ ٣٠٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ١٤.
(٥) ٤/ ٢١٤٨.

● **ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾، نبه المصنف رحمه الله بهذه الآية على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط من رحمة الله، بل يرجوها مع العمل الصالح. كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ ذكر سبحانه أنهم يرجون رحمة الله مع الاجتهاد فى الأعمال الصالحة فأما الرجاء مع الإصرار على المعاصى، فذاك من غرور الشيطان؛ إذا تبين ذلك، فقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْنَطُ**﴾ حكاية قول إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بولده إسحاق عليه السلام، فقال: ﴿**أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰ أَن مَّسَّنِىَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ**﴾[2] استبعادًا لوقوع هذا فى العادة مع كبر السن منه ومن زوجته قالوا: ﴿**بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ**﴾ أى: الذى لا ريب فيه ولا مثنوية، بل هو أمر الذى ﴿**إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[3] وإن بعد مثله فى العادة التى أجراها فإن ذلك عليه يسير؛ إذا أراده، فلا تكن من القانطين، أى لا تيأس من رحمة الله، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾ فأجابهم بأنه ليس بقانط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر، وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

قال السدى: ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ**﴾ قال: من ييأس من رحمة ربه(*). رواه ابن أبى حاتم: ﴿**إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو الكافرون، كقوله: ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾[4].

وفى حديث مرفوع «الفَاجِرُ الرَّاجِي لِرَحْمَةِ الله أَقْرَبُ مِنهـا مِنَ العَابِدِ القَانِطِ» رواه الحيكم الترمذى والحاكم فى «تاريخه[5]».



(١) تيسير العزيز الحميد ٣٨١.
(٢) الحجر ٥٤.
(٣) يس: ٨٢.
(*) تقدم.
(٤) يوسف: ٨٧.
(٥) ذكره الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير» (٤٠٢٢) ونسبه للحكم والشيرازى فى «الألقاب» وقال الألبانى: موضوع.

وَعَنْ ابـنِ عبَّاسٍ ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ الـكَبَائـر؟ فَقَالَ: «الشِّـرْكُ بِالله، واليَأسُ مِنْ رَوحِ الله، وَالأَمْنُ مِنْ مَكرِ الله»(١).

قوله: [وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سُئلَ عن الكبائر؟.....إلخ].

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا الحديث رواه البزار وابن أبى حاتم من طريق شبيب بن بشر عـن عكرمة عن ابن عباس أن رسـول الله ﷺ كان متكئاً، فدخل عـليه رجل، فقال: ما الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله» وذكر الحديث. ورجاله ثقـات إلا شبيب بن بشر فقال ابن معين: ثقة، ولينه ابن أبى حاتم، ومـثل هذا يكون حسناً. وقال ابن كثير: فى إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا. اهـ.

[قلت]: قوله لينه ابن أبى حاتم، وجدناه فى «تهذيب الكمال» أبو حاتم وقوله (ومثل هذا يكون حـسناً) لكنا رأينـا جرحاً مفسراً ذكره فـى «تهذيب الكمال» قـال ابن حبان: يخطئ كثيراً، وقال الحافظ: صدوق يخطئ، فمثل هذا لايحسن إلا بمتابع. لاسيما وابن كثير رجح وقفه مما يـدل على احتمال الخطأ منه فى هذه الرواية فـهو رفعه، وغيره وقفه. والله أعلم.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى(٣): حيث دل الحديـث على وجوب الجمع بين الـرجاء والخوف من الله سبحانه وتعالى. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى(٤): حيث دلّ الحديـث على وجوب الجمع بين الـرجاء والخوف من الله لأن ذلك يثبت الكمال المطلق لله تعالى وهذا محقق لكمال التوحيد. اهـ.

قوله: «سئل عن الكبائر فقال».

قال ابن عثيمين(٥): الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد دلَّ على ذلك القرآن، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾، والكبائر ليـست على درجةٍ واحدةٍ فبعضها أكبر من بعض.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم من طريق شبيب وانظر فتح المجيد (٦٧٦ - بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢.   (٣ - ٤) الجديد ٣١٠.

(٥) القول المفيد ٢/ ٢٥٢.

واختلف العلماء: هل هى معدودة أو محدودة؟

قال بعض أهل العلم: إنها معدودة، وصار يعددها ويتتبع النصوص الواردة فى ذلك.

وقيل: إنها محدودة، وقد حدَّها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ فقال: «كل ما رُتِّب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت فى الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محبوب أو بحصول مكروه»، وهذا واسعٌ جداً يشمل ذنوبًا كثيرةً.

ووجه ما قاله: أن المعاصى قسمان: قسم نهى عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد؛ فعقوبة هذا تأتى بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات؛ كقوله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[1]، وكذلك ما ورد فى العمرة إلى العمرة، والوضوء من تكفير الخطايا؛ فهذه من الصغائر.

وقسم رُتِّب عليه عقوبة خاصة؛ كاللعن، أو الغضب، أو التبرؤ من فاعله، أو الحد فى الدنيا، أو نفى الإيمان، وما أشبه ذلك؛ فهذه كبيرة تختلف فى مراتبها.

والسائل فى هذا الحديث إنما قَصْدُه معرفة الكبائر ليجتنبها، خلافًا لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط، ولذلك نقصت بركة علمهم. اهـ.

قلت: وقد تقدم فى باب «ما جاء فى السحر» فى شرح حديث «اجتنبوا السبع الموبقات»[2]: حد الكبيرة واختلاف العلماء فى ذلك والراجح.

قوله: «الشرك بالله».

قال سليمان آل الشيخ[3]: قوله: «الشرك بالله» هو أكبر الكبائر، إذ مضمونه تنقيص رب العالمين وإلههم ومالكهم وخالقهم الذى لا إله إلا هو، وعدل غيره به، كما قال: ﴿ **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ فهو أظلم الظلم، وأقبح القبيح، ولهذا لايغفر إن لم يتب منه، بخلاف غيره من الذنوب، ففى مشيئة الله إن شاء غفرها، وإن شاء عذب بها. اهـ

قال ابن عثيمين[4]: قوله: «**الشرك بالله**».

ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر؛ لأن الشرك

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الطهارة (٢/ ١١٨/ ١٤) عن أبى هريرة به.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢. (٤) القول المفيد ٢/ ٢٥٣.١

الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا»(١)، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب؛ فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقًا.

والشرك بالله يتضمن الشرك بربوبيته، أو بألوهيته، أو بأسمائه وصفاته. اهـ.

قوله: «واليأس من روح الله».

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «واليأس من روح الله» أي: قطع الرجاء والأمل من الله فيما يرومه ويقصده قال تعالى: ﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وذلك إساءة ظن بكرم الله ورحمته وجوده ومغفرته. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): اليَأْسُ: فَقْدُ الرجاء، والروح بفتح الراء قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، واليأس من روح الله من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة. اهـ.

قوله: «الأمن من مكر الله».

قال سليمان آل الشيخ(٤): قوله: «والأمن من مكر الله» أي: من استدراجه للعبد أو سلبه ما أعطاه من الإيمان - نعوذ بالله من غضبه - وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يرد فيه حصر الكبائر فيما ذكر، بل الكبائر كثيرة، لكن ذكر ما هو أكبرها، أو من أكبرها، ولهذا قال ابن عباس: «هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع»(٥)، رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وفي رواية «هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»(٦). اهـ.

قال ابن عثيمين: بأن يعصي الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾(٧).

---

(١) تقدم تخريجه وسيأتي تخريجه. (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٥٣. (٤) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٢٦١) ونسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الشعب».

وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٢٦١) ونسبه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٧) الإعراف: ١٨٣.

وَعَنِ ابْنُ مَسْعُود، قَالَ: «أَكْبَرُ الكَبَائِر: الإِشْرَاكُ بِالله وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله، وَالقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله ، وَاليَأْس مِنْ رَوْحِ الله » رَوَاهُ عَبْدُ الرَزَّاق. (١)

وظاهر هذا الحديث: الحصر، وليس كذلك لأن هناك كبائر غير هذه، ولكن الرسول ﷺ يجيب كل سائل بما يناسب حاله؛ فلعله رأى هذا السائل عنده شئ من الأمن من مكر الله أو اليأس من روح الله، فأراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغى أن يفطن لها الإنسان فيما يأتى من النصوص الشرعية مما ظاهره التعارض، فيحمل كل واحد منها على الحال المناسبة ليحصل التآلف بين النصوص الشرعية. اهـ.



قوله: «وعن ابن مسعود قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله...» إلخ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا الأثر رواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود، قال ابن كثير: وهو صحيح إليه بلاشك، ورواه الطبرانى أيضاً. اهـ.

- **مناسبة الحديث للباب: قال القرعاوى**(٣): حيث دل على وجوب الرجاء والخوف من الله. اهـ.

- **مناسبة الحديث للتوحيد: قال القرعاوى**(٤): حيث دل على وجوب الجمع بين الرجاء والخوف من الله لأن ذلك مثبت لكمال الله المطلق وذلك محقق لكمال التوحيد. اهـ.

قوله: «أكبر الكبائر».

قال سليمان آل الشيخ(٥): قوله أكبر الكبائر: الإشراك بالله. أى: فى ربوبيته أو عبادته وهذا بالإجماع. اهـ.

قال ابن عثيمين(٦): قوله فى أثر ابن مسعود: **«الإشراك بالله»**: هذا أكبر الكبائر؛ لأنه انتهاك لأعظم الحقوق، وهو حق الله تعالى الذى أَوجَدَك وأَعدَّك وأَمدَّك؛ فلا أحد أكبر عليك نعمةً من الله تعالى.

قوله: «الأمن من مكر الله» سبق شرحه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (١٠/ ٤٥٩ - ٤٦٠/ ١٩٧٠١) ومن طريقه الطبرانى فى «الكبير» (٩/ ١٧١/ ٨٧٨٤) عن معمر، عن أبى إسحاق، عن وبرة، عن عامر بن الطفيل، عن ابن مسعود به. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٧٨) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢. (٣ - ٤) الجديد ٣١٢.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٨٣. (٦) القول المفيد ٢/ ٢٥٤ و ٢٥٥.

قال سليمان آل الشيخ:

قوله. «والقنوط من رحمة الله». قال أبو السعادات: هو أشد اليأس من الشيء قلت: يعني سليمان آل الشيخ- فعلى هذا يكون الفرق بينه وبين اليأس كالفرق بين الاستغاثة والدعاء، فيكون القنوط من اليأس، وظاهر القرآن أن اليأس أشد لأنه حكم لأهله بالكفر، ولأهل القنوط بالضلال، وفيه التنبيه على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف، وفي المرض الرجاء، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، **قال**: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف فإذا كان الغالب عليه الرجاء فسد، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا خشيته في الغيب والشهادة إنه على كل شيء قدير. اهـ.

قال ابن عثيمين: المراد بالقنوط أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب، والمراد باليأس هنا أن يستبعد زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك؛ لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود.

والخلاصة: أن السائر إلى الله يعتريه شيئان يُعوِّقانه عن ربه، وهما الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، فإذا أصيب بالضراء أو فات عليه ما يحب؛ تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله؛ فتجد الإنسان مقيمًا على المعاصي مع توافر النعم عليه، ويرى أنه على حق فيستمر في باطله؛ فلا شك أن هذا استدراج. اهـ.

قلت: تقدم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ الآية، والآية التي بعدها»[1].

وفي الحديث أيضاً عن أبي موسى مرفوعاً: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ الآيه[2] وهو في الصحيح وقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً**﴾ الآية.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، مسلم في البر والصلة (١٦/ ١٣٧ - النووي) عن أبي موسى به.

وانظر «رياض الصالحين» (٢٠٩ - بتخريجنا).

فيه مسائلْ

الأولى: تَفْسيرُ آيَة الأعْرَاف.

الثانية: تَفْسيرُ آيَة الحِجْر.

الثالثة: شِدَّةُ الوَعيد فيمَنْ أمِنَ مَكْرَ الله.

الرابعة: شِدَّةُ الوَعيد فِي القُنُوط.

قوله: «وفيه مسائل».

● الأولى: تفسير آية الأعراف

قال ابن عثيمين(١): قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وقد سبق تفسيرها.

● الثانية: تفسير آية الحجر.

وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾، وقد سبق تفسيرها.

● الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

وذلك بأنه من أكبر الكبائر؛ كما في الآية والحديث؛ وتؤخذ من الآية الأولى، والحديثين.

● الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

تؤخذ من الآية الثانية والحديثين. اهـ.



---

(١) القول المفيد ٢/٢٥٦.

باب (٣٤)
من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال الفقير: ولما كان من ثمرات التوكل الخوف والرجاء - كما تقدم- ولذا جاء هذا الباب في الترتيب بعد التوكل أيضًا ناسب أن يأتي بعد التوكل الصبر على أقدار الله والرضا بها؛ لأن الرضا بالقدر، والصبر عليه من ثمرات التوكل أيضًا، بل هي حقيقته.

ـ مناسبة الباب للتوحيد

قال ناصر السعدي[1]: وأما الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان بل هما أساسه وفرعه. فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه ويرضاه ويقرب إليه، وصبر عن محارم الله فإن الدين يدور على ثلاثة أصول.

تصديق خبر الله ورسوله وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما.

فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم ولكن خص بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به. فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله، وإن لله أتم الحكمة في تقديرها وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد، رضى بقضاء الله وسلَّم لأمره وصبر على المكاره، تقربا إلى الله ورجاء لثوابه وخوفا من عقابه واغتناما لافضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوى إيمانه وتوحيده. أهـ.

قال عبد الله بن جار الله[2]: مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هي أن عدم الصبر على أقدار الله وتسخطها ينافي التوحيد والإيمان .اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: وخص المؤلف- رحمه الله- في هذا الباب الصبر على أقدار الله؛ لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية؛ لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية اللهتعالى. اهـ.

● **ماذا أراد المصنف بهذا الباب؟:**

قال ابن باز: أراد المصنف بهذا الباب أن يبين أن الصبر على ما يقدره الله من

---

(١) القول السديد ٩٥و ٩٦.

(٢) الجامع الفريد (١٤١)

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٥٩

الإيمان وأن المؤمن لا ينبـغى له أن يجذع عند المصيبة فى نفسـه أو ولده أو ماله أو أهله بل يتحمل . اهـ.

● **شرح التبويب :**

قال سليمان آل الشيخ(١): لما كان ببديع حكمته ولطـيف رحمته، قضى أن يبتلى النوع الإنسـانى بالأوامر والنواهـى والمصائب التى قـدرها عليهم أمـرهم بالصـبر على ذلك، وافترضه عـليهم تسلية لهـم وتقـوية عـلى ذلـك، ووعـدهم عـليه الثـواب بغير حساب اهـ.

ـ تعريف الصبر

قال ابن عثيمين(٢): **فى اللغة**: الحَبْس، ومنه قولهم: «قـتل صبراً»؛ أى: محبوساً مأسوراً.

وفى الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء. اهـ.

ـ أنواعه(٣):

الأول: الصـبر عـلى طاعة الله؛ كمـا قال تعـالى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾(٥)، وهذا من الصبر عـلى الأوامر؛ لأنه إنما نزل عليه القران لـيُبلِّغَه؛ فيكون مأموراً بـالصبر على الطاعة.

وقال تعالى: ﴿ **وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**٢٢٨٩**وَاصْبِرْ**﴾(٧)؛ فهذا صبر عن معصية الله.

الثالث: الصبر على أقـدار الله، قال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**﴾، فيدخل فى هذه

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٨٣).
(٢) القول المفيد٢/٢٥٧
(٣) القول المفيد ٢/٢٥٧و ٢٥٩.
(٤) طه: ١٣٢.
(٥) الإنسان: ٢٣/ ٢٤.
(٦) الكهف: ٢٨.
(٧) يوسف: ٣٣.

الآية حكم الله القدرى، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾(1)؛ لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذى قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدى بناته: «مرها؛ فلتصبر ولتحتسب»(2).

إذن الصبر ثلاثة أنواع، أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلا؛ فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة إذا فُتن الإنسان مثلاً بامرأة جميلة تدعوه إلى نفسها فى مكان خال لايطلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة؛ فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، قد يصلى الإنسان مئة ركعة وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة؛ فقد يموت له مثلاً قريب أو صديق أو عزيز عليه جداً، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

وبهذا يندفع الإيراد الذى يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر؛ إذ بعض المعاصى يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق؛ فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هى بقطع النظر عن الصابر.

وكان الصبر على الطاعة أعلى؛ لأنه يتضمن إلزاماً وفعلاً، فتلزم نفسك الصلاة فتصلى، والصوم فتصوم، والحج فتحج... ففيه إلزام وفعل وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر عن المعصية لأن فيه كفاً فقط؛ أى: إلزاماً للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار؛ فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فعلاً ولاتركاً، وإنما هو من قدر الله المحض(3). اهـ.

ـ منزلة الصبر:

قال سليمان آل الشيخ(4): قال الإمام أحمد ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً.

---

(1) الأحقاف: ٣٥.

(2) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (١٢٨٤)، ومسلم فى الجنائز (٦/ ٢٢٤، ٢٢٥ـ النووى) عن أُسامة بن زيد به وانظر «رياض الصالحين» (٣٠ ـ بتخريجنا).

(3) القول المفيد ٢/٢٥٨و ٢٥٩.

(4) تيسير العزيز الحميد ٣٨٣و ٣٨٤.

وقال عليه السلام: «**مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خيراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[1] رواه البخارى ومسلم.

وفى حديث آخر: «**الصَّبْرُ نصفُ الإِيمَانِ**»[2] رواه أبو نعيم والبيهقى فى «الشعب».

وقال عمرُ: **وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بالصبْرِ**[3]. رواه البخارى. وقال على بن أبى طالب: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بار الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له.

والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة واشتقاقه من صبر إذا حبس ومنع، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكى والسخط، والجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب ونحوهما ذكره ابن القيم[3]. اهـ

قال ابن عثيمين[4]:

قوله: «على أقدر الله» جمع قَدَر، وتطلق على المقدور وعلى فعل المقدِّر، وهو الله تعالى، أما بالنسبة لفعل المقدر؛ فيجب على الإنسان الرضا به والصبر، وبالنسبة للمقدور؛ فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا.

مثال ذلك: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدَّر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به؛ لأنه من تمام الرضا بالله رباً.

وأما بالنسبة للمقدور الذى هو احتراق السيارة؛ فالصبر عليه واجب، والرضا به مستحب وليس بواجب على القول الراجح.

والمقدور قد يكون طاعات، وقد يكون معاصى، وقد يكون من أفعال الله المحضة؛ فالطاعات يجب الرضا بها، والمعاصى لايجوز الرضا بها من حيث هى مقدور، أما من حيث كونها قدر الله؛ فيجب الرضا بتقدير الله بكل حال، ولهذا قال ابن القيم:

فَلِذاكَ نَرضَى بالقضاء ونَسْخَطَ الـ ـمَقْضِيّ حين يكونُ بالعِصْيانِ

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية؛ فعليه الرضا لأن الله هو الذى قَدّر هذا، وله الحكمة فى تقديره، وإذا نظر إلى فعله؛ فلايجوز له أن يرضى به لأنه معصية، وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور. اهـ

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٦٩)، ومسلم فى الزكاة (٧/ ١٤٤ ـ النووى) عن أبى سعيد به. وانظر «رياض الصالحين» (٢٧ ـ بتخريجنا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) علقه البخارى باب (١١/ ٣٠٩ ـ الفتح) قال الحافظ: ووصله أحمد فى «الزهد» بسند صحيح.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٥٩و ٢٦٠.

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[1].

قوله: وقول الله تعالى: **﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾**

وأول الآية: قوله تعالى: **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**.

ـ مناسبة الآية للباب:

قال عبد الله بن جار الله[2]: أنها بينت ثواب الصبر والتحلي به والحث عليه.

قال القرعاوي[3]: حيث دلت الآية الكريمة على أن الصبر على أقدار الله وعدم الجزع من علامات الإيمان بالله. اهـ

قوله: **﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**.

الإعراب[4]: **﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** (الواو) حرف عطف (ومن) اسم شرط جازم فى محل رفع مبتدأ (ويؤمن) فعل الشرط (وبالله) متعلقان (بيؤمن) (ويهد) جواب الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة (وقلبه) مفعول به وفعل الشرط والجزاء خبر (من) والله مبتدأ (وبكل شىء) متعلقان (بعليم) (وعليم) خبر (الله). اهـ

● ما جاء فى تفسير الآية من أحاديث وآثار

وفى الحديث المتفق عليه **«عجبا للمؤمن لايقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»**[5].

وقال أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحارث بن يزيد عن على بن رباح أنه سمع جنادة بن أبى أمية يقول سمعت عباده بن الصامت يقول إن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أى العمل أفضل الله قال **«إيمان بالله وتصديق به وجهاد فى سبيل الله»** قال أريد أهون من هذا يا رسول الله؟ قال: **«لا تتهم الله فى شىء قضى لك به»**[6].

---

(١) التغابن: ١١.　(٢) الجامع الفريد ١٤٢.　(٣) الجديد ٣١٤.

(٤) ١٠/ ١١٤ إعراب القرآن.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الزهد (١٨/ ١٢٥ ـ النووى) عن صهيب بن سنان به. وانظر «رياض الصالحين» (٢٨ ـ بتخريجنا).

(٦) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣١٨) عن عبادة به وفيه ابن لهيعة وحاله معروف.

عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعنى يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه[1].

وعن أبى ظبيان قال كنا عند **علقمة** فقرىء عنده هذه الآية ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فسئل عن ذلك فقال هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيسلم ذلك ويرضى[2].

وعن علقمة أيضاً مثله غير أنه قال فى حديثه فيعلم أنها من قضاء الله فيرضى بها ويسلم[3] وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول والله بكل شيء ذو علم بما كان ويكون وما هو كائن من قبل أن يكون[3].

عن ابن مسعود رضى الله عنه فى الآية قال: هى المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى[4]

عن ابن جريج فى الآية قال: من أصاب من الإيمان ما يعرف به الله فهو مهتدى القلب[5].

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[6]: يقول تعالى ذكره: لم يصب أحدا من الخلق مصيبة إلا بإذن الله يقول إلا بقضاء الله وتقديره ذلك عليه ومن يؤمن بالله يهد قلبه يقول ومن يصدق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك يهد قلبه يقول يوفق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه. اهـ.

قال البغوى[7]: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ فصدق أنه لايصيبه مصيبة إلا بإذن الله ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه فيسلم لقضاءه.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٨/ ٧٩، ٨٠)، وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٤٤) وزاد نسبته لابن المنذر.

وانظر «فتح القدير» (٤٠٠٤ - ١٣٠٠ - بتخريجنا).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٤٤) ونسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقى فى «الشعب».

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٤٤) ونسبه لسعيد بن منصور.

وانظر «فتح القدير» (٣٠٠٣-١٣٠٠- بتخريجنا).

(٥) ذكره السيوطى فى الموضوع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٦) تفسير الطبرى ١٢/ ٢٨/ ٧٩.

(٧) معالم التنزيل ٥/ ٣٩٦.

قال ابن الجوزى[١]: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فيه ستة أقوال:

أحدها: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس[٢]. **وقال علقمة:** هو الرجل تصيبه المصيبة: فيعلم أنها من قبل الله تعالى، فيسلم، ويرضى[٣].

والثانى: يهد قلبه للاسترجاع، وهو أن يقول: إنا لله، وإنا إليه راجعون قاله مقاتل.

والثالث: أنه إذا ابتلى صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر، قاله ابن السائب، وابن قتيبة.

والرابع: يهد قلبه، أى: يجعله مهتدياً، قاله الزجاج.

والخامس: يهد وليَّه بالصبر والرضى، قاله أبو بكر الورَّاق.

والسادس: يهد قلبه لاتباع السنة إذا صح إيمانه، قاله أبو عثمان الحيرى. وقرأ أبوبكر الصديق، وعاصم الجحدرى، وأبو نهيك: «يَهْدَ» بياءٍ مفتوحة. ونصب الدال «قَلْبُهُ» بالرفع. قال الزجاج: هذا من هدأ يهدأ: إذا سكن. فالمعنى: إذا سلَّم لأمر الله سكَنَ قلبُه. وقرأ عثمان بن عفان، والضحاك، وطلحة بن مصرف، والأزرق عن حمزة: «نَهْد» بالنون. وقرأ على بن أبى طالب، وأبو عبدالرحمن: «يُهْدَ» بضم الياء، وفتح الدال «قَلْبُهُ» بالرفع اهـ.

قال الرازى[٤]: قوله تعالى: ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أى عند المصيبة أو عند الموت أو المرض أو الفقر أو القحط، ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم لقضاء الله تعالى ويسترجع، فذلك قوله: ﴿ يَهْدِ قَلْبَه﴾ أى للتسليم لأمر الله، ونظيره قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، قال أهل المعانى يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء، وهو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما يهد قلبه إلى ما يحب ويرضى وقرىء «نهد قلبه» بالنون وعن عكرمة «يهد قلبه» بفتح الدال وضم الياء، وقرىء «يهدأ» قال الزجاج هدأ قلبه يهدأ إذا سكن، والقلب بالرفع والنصب ووجه النصب أن يكون مثل سفه نفسه ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى اطمئنان القلب عند المصيبة، وقيل ﴿عَلِيمٌ﴾ بتصديق من صدق رسوله فمن صدقه فقد هدى قلبه. اهـ

---

(١) تقدم تخريجه قريباً (٢) الرازى ١٥/ ٣٠/ ٢٧.

(٣) تقدم تخريجه

قلت: وتأويل الرازى لقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يُشَمُّ من القول الأول تأويله لصفة العلم والقول الثانى الذى ذكره بصيغة التمريض هو الأقرب لإثبات صفة العلم لله كما قال القرطبى وابن كثير والسعدى وغيرهم من أهل العلم وتقدم من قول علقمة التصريح بذلك.

قال القرطبى(١): قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ أى: يصدِّق ويعلم أنه لايصيبه مصيبة إلا بإذن الله.

﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للصبر والرضا. وقل: يُثَبِّته على الإيمان. وقال أبو عثمان الجيزى: من صح إيمانه يهد الله قلبه لأتباع السُّنَّة. وقيل: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ عند المصيبة. فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ قاله ابن جبير. وقال ابن عباس: هو أن يجعل الله فى قلبه اليقين؛ ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال الكَلْبى: هو إذا ابتُلِىَ صَبَرَ، وإذا أنعِم عليه شكَر، وإذا ظُلم غفر. وقيل: يَهْدِ قلبه إلى نيل الثواب فى الجنة.

وقراءة العامة «يَهْدِ» بفتح الياء وكسر الدال؛ لذكر اسم الله أوّلاً. وقرأ السُّلَمى وقتادة «يُهْدَ قَلْبُه» بضم الياء وفتح الدال على الفعل المجهول ورفع الباء؛ لأنه اسم فعل لم يسمّ فاعله.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف والأعرج «نَهْدِ» بنونٍ على التعظيم «قلَبه» بالنصب. وقرأ عِكْرمة «يَهْدأْ قلبُه» بهمزة ساكنة ورفع الباء، أى يسكن ويطمئن. وقرأ مثله مالك بن دِينار، إلا أنه لَيَّن الهمزة. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لايخفى عليه تسليم مَن انقاد وَسلَّم لأمره، ولا كراهة من كرهه. اهـ

قال ابن كثير(٢): ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى فى قلبه ويقينا صادقا وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرا منه.

---

(١) تفسير القرطبى ٦٦١٨/١٠و ٦٦١٩

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٢.

قال سليمان آل الشيخ[1]: أخبر تعالى أن ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى الأنفس إلا بإذن الله ، أى: بقدر وأمره كما قال فى آية أخرى ﴿**إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ قال ابن عباس فى قوله: ﴿**إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ إلا بأمر الله، يعنى : من قدره ومشيئته ﴿**وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله جازاه الله تعالى بهداية قلبه التى هى أصل كل سعادة وخير فى الدنيا والآخرة.

وقد يخلف عليه أيضًا فى الدنيا ما أخذه منه أو خيرًا منه كما قال: ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ قال ابن عباس: يهد قلبه اليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه(*) .اهـ.

قلت: وتقدم أثر ابن عباس.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[2] **مثل ما قاله سليمان**: وزاد : قوله ﴿**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته، وذلك يوجب الصبر والرضا .اهـ.

قال عبد الله بن جار الله[3] **مثل من سبقه وزاد**: ويستفاد من هذه الآية أن الصبر على المصيبة سبب لهداية القلوب، وطمأنينتها، وأنها من ثواب الصابرين .اهـ.

وقال ابن عثيمين[4]: ﴿**مَن**﴾ اسم شرط جازم، وفعل الشرط ﴿**يُؤْمِن**﴾ وجوابه ﴿**يَهْدِ**﴾ والمراد بالإيمان بالله هنا الإيمان بقدره اهـ.

وقال القرعاوى[5]: ﴿**يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ يهد قلبه للصبر والرضا بالمصيبة اهـ.

قوله: ﴿**يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾.

---

(1) تيسير العزيز الحميد (٣٨٤، ٣٨٥).

(*) تقدم تخريجه.

(2) فتح المجيد (٢/ ٤٩٤).

(3) الجامع الفريد (١٤٢)

(4) القول المفيد (٢/ ٢٦٠-٢٦١).

(5) الجديد (٣١٣).

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»[1].

يرزقه الطمأنينة، وهذا يدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب، فإذا اهتدى القلب اهتدت الجوارح؛ لقوله ﷺ: **«إن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»**[2]. اهـ.

قوله: قال علقمة: «هو الرجل...»

قال سليمان الشيخ[3]: هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبى حاتم عن علقمة وهو صحيح، وعلقمة هو ابن قيس بن عبدالله النخعى الكوفى ولد فى حياة النبى ﷺ، وسمع من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم، وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم مات بعد الستين. اهـ

مناسبة الآثر للباب

قال القرعاوى[4]: حيث دلَّ الأثر على أن علقمة ـ رحمه الله تعالى ـ يرى أن الصبر على المصائب والتسليم من علامات الإيمان.

قوله: «هو الرجل تصيبه المصيبة».

تقدم قول ابن عباس فى قوله: **﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾** يعنى يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه[5].

وعن ابن مسعود فى قوله: **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** الآية هى المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيُسلم الأمر لله ويرضى بذلك[6].

قال سليمان[7]: هذا تفسير للإيمان المذكور فى الآية لكنه تفسير باللازم وهو صحيح، لأن هذا لازم للإيمان الراسخ فى القلب، وقريب منه تفسير سعيد بن جبير ومن يؤمن بالله يهد قلبه يعنى: يسترجع يقول: **«إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»**. وفى الآية أن الصبر سبب لهداية القلب، وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وأن الأعمال من الإيمان وفيها إثبات القدر. اهـ

---

(1) تقدم تخريجه قريباً (2) تقدم تخريجه
(3) تيسير العزيز الحميد ٣٨٥. (4) الجديد ٣١٥.
(5) تقدم تخريجه.
(6) تقدم تخريجه. (7) القول المفيد ٢/ ٢٦١.

وَفِى صَحِيحِ مُسْلِم. عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِى النَّاسِ هُمَا بِهما كفرٌ: الطَّعْنُ فِى النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ»[1].

قال ابن عثيمين[2]: وتفسير علقمة هذا من لازم الإيمان؛ لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله، فيرضى ويُسلِّم، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر. اهـ.

قلت: وفيه اتباع المصنِّف لهدى السلف فى التفسير بالمأثور

قوله: وفى صحيح مسلم. عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان فى الناس هما بهما كفر...»

- **مناسبة الحديث للباب: قال عبدالله بن جار الله**[3]: أنه دل على تحريم النياحة لما فيها من التسخط على القدر المنافى للصبر اهـ وقال بنحوه القرعاوى فى الجديد.

قوله: «اثنتان»[4].

قوله فى حديث أبى هريرة: «**اثنتان**».

مبتدأ، وسَوَّغ الابتداء به التقسيم، أو أنه مفيد للخصوص.

قوله: «فى الناس هما» أى: الاثنتان[5].

قلت: وفى المسند بلفظ: **«اثنتان من أمر الجاهلية لا يتركها الناس»**

قوله: «بهما كفر».

قال النووى[6]: وفيه أقوال أصحها: أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية.

والثانى: أنه يؤدى إلى الكفر.

والثالث: أنه كفر النعمة والإحسان.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على الطعن فى النسب والنياحة (١/ ٢/ ٥٧) وأحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٧٧) مختصراً وأيضاً فيه (٢/ ٤٣١) بلفظ اثنتان من أمر الجاهلية لا يتركها الناس...» من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وانظر «رياض الصالحين» (ح٢٦٦٩) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٦١.

(٣) الجامع الفريد ١٤٢.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٦٢.

(٥) قاله صاحب التيسير ٣٨٥.

(٦) النووى شرح مسلم ١/ ٣٣٤.

والرابع: أن ذلك فى المستحل.

وفى هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن فى النسب والنياحة، وقد جاء فى كل واحد منهما نصوص معروفة. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ[1]: أى: هاتان الخصلتان هما كفر قائم فى الناس. فنفس الخصلتين حيث كانتا فى أعمال الكفار، وهما قائمتان بالناس، لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق، حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً حتى يقوم به أصل الإيمان.

وفرق بين الكفر المعرف باللام كما فى قوله ﷺ: «**ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة**»[2] وبين كفر منكر فى الإثبات. اهـ.

قال الشيخ ابن عثيمين[3]: قوله: «**بهما**»: الباء يحتمل أن تكون بمعنى «من»؛ أى: هما منهم كفر، ويحتمل أن تكون بمعنى «فى»؛ أى: هما فيهم كفر.

قوله: «كفر» أى: هاتان الخصلتان كفر ولايلزم من وجود خصلتين من الكفر فى المؤمن أن يكون كافراً، كما لايلزم من وجود خصلتين فى الكافر من خصال الإيمان؛ كالحياء، والشجاعة، والكرم؛ أن يكون مؤمناً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: أى فى شرح كلمة «بهما كفر»(*) «بخلاف قول رسول الله ﷺ: «**بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة**» فإنه هنا أتى بأل الدالة على الحقيقة؛ فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة، بخلاف مجىء «كفر» نكرة؛ فلايدل على الخروج عن الإسلام. اهـ

قوله: «الطعن فى النسب».

قال سليمان آل الشيخ[4]: أى عيبه، ويدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه فى ظاهر الشرع، ذكره بعضهم. اهـ.

(١) نقلاً عن كتاب تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) القول المفيد ٢/٢٦٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

(*) وابين القوسين اضفناه للمنع من اللبس.

قوله: «النياحة على الميت».

قال سليمان آل الشيخ[1]: أى رفع الصوت بالندب بتعديد شمائله لما فى ذلك من التسخط على القدر والجزع المنافى للصبر، وذلك كقول النائحة: واعضداه واناصراه، واكاسياه ونحوه. وفيه دليل على أن الصبر واجب لأن النياحة منافيه له، فإذا حرمت دل على وجوبه، وفيه أن من الكفر مالاينقل عن الملة. اهـ

قال ابن عثيمين[2]: **قوله «النياحة»**. أى: أن يبكى الإنسان على الميت بكاء على صفة نَوْح الحمام؛ لأن هذا يدل على التضجر وعدم الصبر، فهو مناف للصبر الواجب، وهذه الجملة هى الشاهد للباب.

والناس حال المصيبة على مراتب أربع:

الأولى: التسخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ويغضب على قدر الله عليه، وقد يؤدِّى إلى الكفر، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ**﴾، وقد يكون باللسان؛ كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح؛ كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك.

الثانى: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

الصَّبرُ مِثلُ اسمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لكِنْ عواقِبُهُ أحلى مِنَ العَسَلِ

فيرى الإنسان أن هذا الشىء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحمله ويتصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره وإن كان قد يحزن من المصيبة؛ لأنه رجل يسبح فى القضاء والقدر، أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به على سهل أو جبل، إن أصيب بنعمة أو أصيب بضدها؛ فالكل عنده سواء، لا لأن قلبه ميت؛ بل لتمام رضاه بربه - سبحانه وتعالى - يتقلب فى تصرفات الرب - عزوجل -، ولكنها عنده سواء؛ إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه، وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٦٢و ٢٦٤.

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ مَسْعُود مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَى بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»(١).

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة، وذلك يكون فى عباد الله الشاكرين حين يرى أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته شكر الله على ذلك، قال النبى ﷺ: **«ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شىء إلا كفّر له بها، حتى الشوكة يشاكها»**(٢).

كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك. اهـ.

قوله:ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: «وليس منا من ضرب الخدود ...»الحديث.

ذكره البخارى فى أربعة مواضع فى الصحيح الأولى: باب ليس منَّا من شقَّ الجيوب. ولفظه «ليس مِنّا من لَطَمَ الخدود، وشقَّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».

الثانية: باب:ليس مِنّا من ضَرب الخدود.

الثالثة: باب: ما يُنهى عن الويل ودعوى الجاهلية.

الرابعة: باب: ما ينهى من دعوى الجاهلية.

وذكر لفظة المصنف فى تبويبه.

مناسبة الحديث للباب

أنه أفاد تحريم هذه الأشياء وأنها تنافى الصبر والإيمان الواجب.

قوله: «ليس منا من شقَّ الجيوب».

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الجنائز/ باب ليس منا من شق الجيوب (٣/ ١٩٥/ ١٢٩٤)، ومسلم فى الإيمان/ باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب (٢/ ١٠٩، ١١٠ ـ النووى).
عن عبدالله بن مسعود به.
وانظر «السلسبيل» (٩٥٤ ـ بتخريجنا). وانظر «فتح المجيد» (٦٨٧) بتخريجنا.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٦٤٢)، ومسلم (فى البر والصلة (١٦/ ١٣٠ـ النووى) وانظر «رياض الصالحين (٣٨ ـ بتخريجنا).

(٣) الجامع الفريد ١٤٣. وقال نحوه القرعاوى.

قال ابن حجر:

قال الزين[1] بن المنير:

أفرد - أى البخارى - هذا القدر بترجمة ليشعر بأن النفى الذى حاصله التبرى يقع بكل واحد من المذكورات لا بمجموعها.

قلت - يعنى ابن حجر -: ويؤيده رواية لمسلم بلفظ **«أو شق الجيوب، أو دعا»** إلخ.

قوله: «ليس منا».

قال ابن حجر[2]: أى من أهل سنتنا وطريقتنا، وليس المراد به إخراجه عن الدين، ولكن فائدة إيراده بهذا اللفظ المبالغة فى الردع عن الوقوع فى مثل ذلك كما يقول الرجل لولده عند معاتبته: لست منك ولست منى، أى ما أنت على طريقتى.

وقال الزين بن المنير ما ملخصه: التأويل الأول يستلزم أن يكون الخبر إنما ورد عن أمر وجودى، وهذا يصان كلام الشارع عن الحمل عليه، والأولى أن يقال: المراد أن الواقع في ذلك قد تعرض لأن يهجر ويعرض عنه فلا يختلط بجماعة السنة تأديباً له على استصحابه حالة الجاهلية التى قبحها الإسلام، فهذا أولى من الحمل على مالايستفاد منه قدر زائد على الفعل الموجود.

وحكى عن سفيان أنه كان يكره الخوض فى تأويله ويقول: ينبغى أن يمسك عن ذلك ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ فى الزجر وقيل: المعنى ليس على ديننا الكامل، أى أنه خرج من فرع من فروع الدين وإن كان معه أصله، حكاه ابن العربى.

ويظهر لى - أى ابن حجر - أن هذا النفى يفسره التبرى الآتى فى حديث أبى موسى حيث قال «برىء منه النبى ﷺ» وأصل البراءة الانفصال من الشىء، وكأنه توعده بأن لايدخله فى شفاعته مثلا. وقال المهلب: قوله أنا برىء أى من فاعل ما ذكر وقت ذلك الفعل، ولم يرد نفيه عن الإسلام.

قلت: - يعنى ابن حجر - بينهما واسطة تعرف مما تقدم أول الكلام، وهذا يدل على تحريم ما ذكر من شق الجيب وغيره. وكأن السبب فى ذلك ما تضمنه ذلك من عدم الرضا بالقضاء، فإن وقع التصريح بالاستحلال مع العلم بالتحريم أو التسخط مثلا بما وقع فلا مانع من حمل النفى على الإخراج من الدين. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[3] تبعاً لابن حجر: قوله: «ليس منا» هذا من نصوص

---

(١) الفتح ٣/ ١٩٥. (٢) الفتح ٣/ ١٩٥. (٣) تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثورى وأحمد كراهة تأويلها ليكون أوقع فى النفوس، وأبلغ فى الزجر، وقيل أى: ليس من أهل سنتنا وطريقتنا، لأن الفاعل لذلك ارتكب محرماً، وترك واجباً. ولس المراد إخراجه من الإسلام بل المراد المبالغة فى الردع عن الوقوع فى ذلك، كما يقول الرجل لولده عند معاقبته: لست منى ولست منك، فالمراد أن فاعل ذلك ليس من المؤمنين الذين قاموا بواجبات الإيمان. اهـ.

قوله: «لطم الخدود».

قال ابن حجر(١): خص الخد بذلك لكونه الغالب في ذلك، وإلا فضرب بقية الوجه داخل فى ذلك. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): بل ولو ضرب غير الوجه كالصدر فكما لو ضرب الخد فيدخل فى معنى ضرب الخد إذ الكل جزع مناف للصبر فيحرم. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): «قوله: من **ضرب الخدود**» العموم يراد به الخصوص؛ أى: من أجل المصيبة. اهـ.

قوله: «وشق الجيوب».

قال الحافظ(٤): جمع جيب بالجيم والموحدة وهو ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس والمراد بشقه إكمال فتحه إلى آخره وهو من علامات التسخط. اهـ.

قال ابن عثيمين(٥): هوطوق القميص الذى يدخل منه الرأس، وذلك عند المصيبة تَسَخُّطاً. وعدم تحمل لما وقع فيه. اهـ.

قلت: ويشهد لمعنى الجيب قوله تعالى: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾.

قوله: «ودعى بدعوى الجاهلية».

قال ابن حجر(٦): فى رواية «**دعى بدعوى الجاهلية**» فى رواية مسلم «**بدعوى أهل الجاهلية**» أى من النياحة ونحوها، وكذا الندابة كقولهم: واجبلاه وكذا الدعاء بالويل والثبور. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٧).

قوله: «ودعى بدعوى الجاهلية» قال شيخ الإسلام: هو ندب الميت وقال ابن القيم:

---

(١) الفتح ٣/ ١٩٥.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٧/ ٣٨٦.
(٣) القول المفيد ٢/ ٢٦٤.
(٤) الفتح ٣/ ١٩٥.
(٥) القول المفيد ٢/ ٢٦٥.
(٦) الفتح ٣/ ١٩٦.
(٧) تيسير العزيز الحميد ٣٨٧و ٣٨٨.

الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية للإنسان، ومثله التعصب للمذاهب والطوائف، والمشايخ وتفضيل بعض على بعض فى الهوى والعصبية وكونه منتسباً إليه يدعو إلى ذلك، ويوالى عليه، ويعادى ويزن الناس به، فكل هذا من دعوى الجاهلية.

قلت: يعنى سليمان آل الشيخ: الصحيح أن دعوى الجاهلية يعم ذلك كله وقد جاء لعن من فعل ما فى هذا. الحديث عند ابن ماجة، وصححه ابن حبان عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ **«لَعَنَ الخَامِشَةَ وَجْهَهَا، وَالشَّاقَّةَ جَيْبَهَا، وَالدَّاعِيَةَ بِالوَيْلِ وَالثُّبُورِ»**(١) وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، لأنها مشتملة على التسخط على الرب وعدم الصبر الواجب، والإضرار بالنفس من لطم الوجه، وإتلاف المال؛ بشق الثياب وتمزيقها وذكر الميت بما ليس فيه، والدعاء بالويل والثبور والتظلم من الله تعالى وبدون هذا يثبت التحريم الشديد، فأما الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم، ولا تنافى الصبر الواجب.

نص عليه أحمد لما رواه فى «مسنده» عن أنس أن أبا بكر رضى الله عنه دخل على النبى ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يديه على صدغيه وقال: «وَانبِيَاهُ واخَليلاهُ وَاصفيَاهُ»(٢).

وكذلك صح عن فاطمة رضى الله عنها أنها ندبت أباها ﷺ فقالت: **يَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَباً دَعَاهُ**... الحديث(٣).

واعلم أن الحديث المشروح لايدل على النهى عن البكاء أصلاً، وإنما يدل على النهى عما ذكر فيه فقط. وكذلك يدل على النهى عما فى معناه كالبكاء برنة، وحلق الشعر، وخمش الوجوه، ونحو ذلك. أما البكاء على وجه الرحمة، والرقة ونحو ذلك فيجوز. بل قال شيخ الإسلام: البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب ولا ينافى الرضى بقضاء الله، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه.

قلت: - يعنى الشيخ سليمان - ويدل لذلك قوله عليه السلام لما مات ابنه إبراهيم: «تَدْمَعُ العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلاَ نَقُولُ إلا ما يَرْضَى رَبُّنَا والله يا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمحزُونُونَ»(٤) وهو فى «الصحيح».

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٨٥) وابن حبان فى «صحيحه» (٥/ ٦٢ـ الإحسان).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) عن عائشة به.

(٣) [صحيح] أخرجه رواه البخارى (٤٤٦٢)...

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٠٣)، ومسلم فى الفضائل (١٥/ ٧٤ـ النووى) عن أنس به. وانظر «رياض الصالحين» (٩٢٩ ـ بتخريجنا).

وَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

وفى «الصحيحين» عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ انطلق إلى أحد بناته ولها صبى فى الموات. فَرُفِعَ إليه الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا فى شَنَّة. فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ. فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: **«هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا الله فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ الله مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»**(٢).

قال ابن عثيمين(٣): قوله: **«ودعى بدعوى الجاهلية»**.

دعوى مضاف والجاهلة مضاف إليه، وتنازع هنا أمران:

الأول: صيغة العموم **(دعوى الجاهلية)**؛ لأنه مفرد مضاف فيعم.

الثاني: القرينة؛ لأن ضرب الخدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة فيكون دعا بدعوى الجاهلية عند المصيبة، مثل قولهم: وا ويلاه! وانقطاع ظهراه!

والأولى أن ترجح صيغة العموم، والقرينة لا تخصصه؛ فيكون المقصود بالدعوى كل دعوى منشؤها الجهل.

وذكر هذه الأصناف الثلاثة؛ لأنها غالباً ما تكون عند المصائب، وإلا؛ فمثله هدم البيوت، وكسر الأوانى، وتخريب الطعام، ونحوه مما يفعله بعض الناس عند المصيبة. اهـ.

وهذه الثلاثة من الكبائر؛ لأن النبى ﷺ تبرأ من فاعلها.

ولايدخل فى الحديث ضرب الخد فى الحياة العادية؛ مثل: ضرب الأب لابنه، لكن يكره الضرب على الوجه للنهى عنه، وكذلك شق الجيب لأمر غير المصيبة. اهـ.

قوله: «وعن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد بعبده الخير...» الحديث.

قال سليمان آل الشيخ(٤): هذا الأثر رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الترمذى

---

(١) أخرجه الترمذى فى «الزهد»/ باب: ما جاء فى الصبر على البلاء (٤/ ٦٠١ / ح٢٣٩٦) وابن ماجه فى «الفتن» / باب: الصبر على البلاء (٢/ ١٣٣٨/ ح٤٠٣١) والبيهقى فى «الشعب» (٧/ ١٤٤/ ح ٩٧٨٢).
من طريق: يزيد بن أبى حبيب عن سعد بن سنان عن أنس.
وقال الترمذى: حسن غريب.
وهو عند الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٦٩٠).
من طريق حميد عن أنس بغير هذا اللفظ. وانظر «فتح المجيد» (ح٦٩١) بتخريجنا).
(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٢٨٤)، ومسلم فى الجنائز (٦/ ٢٢٤ـ النووى) عن أسامه بن زيد به.
وانظر «رياض الصالحين» (٣٠ـ بتخريجنا).
(٣) القول المفيد ٢/ ٢٦٥. (٤) تيسير العزيز الحميد: ٣٨٩.

وفى: سناده سعد بن سنان. قال الذهبى فى موضع: سعد ليس حجة وفى أخر كأنه غير صحيح، وأخرجه الطبرانى. والحاكم عن عبد الله بن مغفل، وأخرجه ابن عدى عن أبى هريرة والطبرانى عن عمار بن ياسر وحسنه السيوطى. اهـ.

ـ **مناسبة الحديث للباب: قال عبدالله بن جار الله**(١). أنه دل على المصائب التى يبتلى بها الإنسان مكفرات لذنوبه إذا صبر واحتسب. اهـ.

قال القرعاوى(٢): حيث دل الحديث على أن من اتصف بالإيمان صبر على ما قدر عليه من المصائب لأنها خير له. اهـ.

قوله: **«إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة فى الدنيا»**.

قال سليمان آل الشيخ(٣): قوله: **«إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا»** قال شارح «الجامع الصغير»: أى: بصب البلاء والمصائب عليه جزاء لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة، كما يعلم من مقابله الآتى ومن فعل به فقد أعظم اللطف به، لأن من حوسب بعمله عاجلاً فى الدنيا خف جزاؤه عليه حتى يكفر بالشوكة يشاكها، حتى بالقلم يسقط من الكاتب فيكفر عن المؤمن بكل ما يلحقه فى دنياه حتى يموت على طهارة من دنسه.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ: وفى الصحيح **«لاَ يَزَالُ البَلاَءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِى على الأَرْضِ ولَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَة»**(٤).

وفى «المسند» وغيره من حديث أبى هريرة مرفوعاً **«لاَ يَزَالُ البَلاَءَ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فى جَسَدِه وَمَالِه وَفِى وَلَدِه حَتَّى يَلْقَى الله وَمَا عَلَيْـه خَطِيئة»**(٥) قال شيخ الإسلام: المصائب نعمة، لأنها مكفرات للذنوب؛ ولأنها تدعو إلى الصبر؛ فيثاب عليها؛ ولأنها تقتضى الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، ومعلوم أن هذا من أعظم النعم، ولو كان رجل من أفجر الناس فإنه لابد أن يخفف الله عنه عذابه بمصائبه. فالمصائب رحمة ونعمة فى حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها فى معاصى أعظم مما كان قبل ذلك؛ فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه فى دينه، فإن من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو جوع

---

(١) الجامع الفريد (١٤٣). (٢) الجديد ٣٢٠.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٨٩و ٣٩٠. (٤) انظر ما بعده

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٢٨٧، ٤٥٠)، والترمذى (٢٣٩٩) عن أبى هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (٥٠ـ بتخريجنا).

حصل له من الجزع والسخط والنفاق ومرض القلب، أو الكفر الظاهر، أو ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضرراً في دينه بحسب ذلك؛ فل هذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة المصيبة، كما من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية؛ فهي بعينها فعل الرب عزَّ وجل رحمة للخلق، والله تبارك وتعالى محمود عليها، فإن اقترن بها طاعة كان ذلك نعمة ثانية على صاحبها وإن اقترن بها للمؤمن معصية، فهذا مما تتنوع فيه أحوال الناس كما تتنوع أحوالهم في العافية، فمن ابتلى فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعدما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه حيث قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ فحصل له غفران السيئات، ورفع الدرجات وهذا من أعظم النعم. فالصبر واجب على كل مصاب؛ فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك انتهى ملخصاً. اهـ.

قال ابن عثيمين(١): قوله في حديث أنس: «**إذا أراد الله بعبده الخير**».

الله يريد بعبده الخير والشر، ولكن الشرَّ المراد لله تعالى ليس مراداً لذاته بدليل قول النبي ﷺ: «**والشر ليس إليك**»،(٢) ومن أراد الشر لذاته كان إليه، ولكن الله يريد الشر لحكمة، وحينئذ يكون خيراً باعتبار ما يتضمنه من الحكمة.

قوله: «**عجل له بالعقوبة في الدنيا**».

العقوبة: مؤاخذة المجرم بذنبه، وسميت بذلك؛ لأنها تعقب الذنب، ولكنها لاتقال إلا في المؤاخذة على الشر.

وقوله: «**عجل له بالعقوبة في الدنيا**».

كان ذلك خيراً من تأخيرها للآخرة؛ لأنه يزول وينتهي، ولهذا قال النبي ﷺ للمتلاعنين: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**» (٣).

وهناك خير أولى من ذلك وهو العفو عن الذنب، وهذا أعلى؛ لأن الله إذا لم يعاقبه في الدنيا ولا في الآخرة؛ فهذا هو الخير كله، ولكن الرسول ﷺ جعل تعجيل العقوبة خيراً باعتبار أن تأخر العقوبة إلى الآخرة أشد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾(٤).

---

(١) القول المفيد ٢/٣٦٦و ٣٦٧. (٢) تقدم تخريجه من حديث علي ـ رضي الله عنه.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٣١٢)، ومسلم في اللعان (١٠/ ١٢٤ ـ النووي) عن ابن عمر به. وانظر «السلسبيل» بتخريجنا.

(٤) طه: ١٢٧.

قلت: أو لأن فى التعجيل قطع برفع العذاب الأخروى الأشد أما إذا لم يعجل له فلا يقطع بالعفو بل هو فى خطر المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه وهناك ما يدل على أنه إلى الأخذ بالعقوبة أقرب من العفو مثل حديث أبى هريرة قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: «هل أخذتك أم ملدم قط؟ قال وما أم ملدم؟ قال: **حر يكون بين الجلد وللحم**. قال: ما وجدت هذا قط. قال: فهل أخذلو الصداع قط؟ قال: وما الصداع؟ قال: عرق يضرب فى الرأس. قال: ما وجدت هذا قط. فقال رسول الله ﷺ - **من سره أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا**»(*).

والعقوبة أنواع كثير:

منها: ما يتعلق بالدِّين، وهى أشدها؛ لأن العقوبات الحسية قد يتنبه لها الإنسان، أما هذه؛ فلا يتنبه لها إلا من وفَّقه الله، وذلك كما لو خفت المعصية فى نظر العاصى؛ فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغَيْرة على حرمات الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ**﴾.

ومنها: العقوبة بالنفس، وذلك كالأمراض العضوية والنفسية.

ومنها: العقوبة بالأهل؛ كفقدانهم، أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال؛ كنقصه أو تلفه وغير ذلك. اهـ.

قلت: ويشهد له قوله تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ الآية.

قوله: «وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه».

أى: أخرّ عنه العقوبة بذنبه(1).

قال ابن عثيمين(2): «أمسك عنه»؛ أى: ترك عقوبته.

والإمساك فعل من أفعال الله، وليس معناه تعطيل الله عن الفعل، بل هو لم يزل ولا يزال فعّالاً لما يريد، لكنه يمسك عن الفعل فى شىء ما لحكمه بالغة؛ ففعله حكمة، وإمساكه حكمة. اهـ.

(*) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٣٢)، والنسائى فى «الكبرى» (٧٤٩١) عن أبى هريرة به.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٠. (٢) القول المفيد ٢/ ٢٦٧و ٢٦٨.

قوله: «حتى يوافى به يوم القيامة».

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «حتى يُوافى به يوم القيامة» هو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بحتى مبنياً للفاعل. قال العزيزى: أى: لايجازيه بذنبه فى الدنيا حتى يجيء فى الآخرة مستوفر الذنوب وافيها فيستوفى ما يستحقه من العقاب؟

قلت - يعنى سليمان الشيخ - وهذا مما يزهد العبد فى الصحة الدائمةخوفاً أن تكون طيباته عجلت له فى الحياة الدنيا، والله تعالى لم يرض الدنيا لعقوبة أعدائه، كما لم يرضها لإثابة أوليائه بل جعل ثوابهم أن أسكنهم فى جواره ورضى عنهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

لهذا لما ذَكَرَ النَّبى ﷺ الأَسْقَامَ قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله وَمَا الأَسْقَامَ؟ وَالله مَا مَرِضْتُ قَطِ. قَالَ: «قُمْ عَنَّا فَلَسْتَ مِنَّا» رواه أبوداود[2].

وهذه الجملة هى آخر الحديث فأما قوله: وقال النبى ﷺ: «إن عظم الجزاء» إلى آخره فهو أول حديث آخر لكن لما رواهما الترمذى بإسناد واحد عن صحابى واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه من الفوائد أن البلاء للمؤمن من علامات الخير خلافاً لما يظنه كثير من الناس، وفيه الخوف من الصحة الدائمة أن تكون علامة شر، وفيه تنبيه على رجاء الله وحسن الظن به فيما يقضيه لك مما تكره، وفيه معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية.

قلت: وتقدم حديث أبى هريرة فى الرجل الذى لم يمرض قط وتدعوه الرسول بالنار.

قال الشيخ ابن عثيمين[3]: قوله: «حتى يوافى به يوم القيامة». أى: يوافيه الله به: أى: يجازيه به يوم القيامة، وهو الذى يقوم فيه الناس من قبورهم لله رب العالمين.

وسمى بيوم القيامة لثلاثة أسباب:

١ـ قيام الناس من قبورهم؛ لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٠.
(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٨٩)
(٣) القول المفيد ٢/٢٦٨و ٢٧٠.
(٤) المطففين: ٦.

٢ـ قيام الأشهاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(١).

٣ـ قيام العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(٢).

والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث: تسلية الإنسان إذا أصيب بالمصائب لئلا يجزع، فإن ذلك قد يكون خيراً، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فيحمد الله أنه لو يؤخر عقوبته إلى الآخرة.

وعلى فرض أن أحداً لم يأت بخطيئة وأصابته مصيبة؛ فنقول له: إن هذا من باب إمتحان الإنسان على الصبر، ورفع درجاته باحتساب الأجر، لكن لايجوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يرى أنه لم يخطىء أن يقول: أنا لم أخطىء؛ فهذه تزكية، فلو فرضنا أن أحداً لم يصب ذنباً وأصيب بمصيبة؛ فإن هذه المصيبة لا تلاقي ذنباً تكفره لكنها تلاقي قلباً تمحصه؛ فيبتلي الله الإنسان بالمصائب لينظر هل يصبر ولا؟ ولهذا كان أخشى الناس لله ـ عزوجل ـ وأتقاهم محمد ﷺ، يوعك كما يوعك رجلان منا(٣)، وذلك لينال أعلى درجات الصبر فينال مرتبة الصابرين على أعلى وجوهها، ولذلك شدد عليه ﷺ عند النزع، ومع هذه الشدة كان ثابت القلب، ودخل عليه عبدالرحمن بن أبي بكر وهو يستاك، فَأَمدَّه بصره (يعني: ينظر إليه)، فعرفت عائشة رضي الله عنها أنه يريد السواك، فقالت: آخذه لك؟ فأشار برأسه نعم. فأخذت السواك وقضمته وألانته للرسول ﷺ، فأعطته إيَّاه، فاستن به، قالت عائشة: ما رأيته استن استناناً أحسن منه، ثم رفع يده وقال: **«في الرفيق الأعلى»**(٤).

فانظر إلى هذا الثبات واليقين والصبر العظيم مع هذه الشدة العظيمة، كل هذا لأجل أن يصل الرسول ﷺ أعلى درجات الصابرين، صبر لله، وصبر بالله، وصبر في الله حتى نال أعلى الدرجات.

فمن أصيب بمصيبة، فحدثته نفسه أن مصائبه أعظم من معائبه؛ فإنه يُدِلُّ على ربه بعمله ويُمِنُّ عليه به، فليحذر هذا.

---

(١) غافر: ٥١.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) **[متفق عليه]** أخرجه: البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٢٧ـ النووي)؛ عن حديث عبدالله بن مسعود به.

وانظر «رياض الصالحين» (٣٩ ـ بتخريجنا).

(٤) **[صحيح]** أخرجه البخاري (٤٤٣٨) عن عائشة به.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخْطُ»(١) حَسَّنَهُ التِّرْمِذِي.

ومن ذلك يتضح لنا أمران:

١ـ إن إصابة الإنسان بالمصائب تعتبر تكفيراً لسيئاته وتعجيلاً للعقوبة فى الدنيا، وهذا خير من تأخيرها له فى الآخرة.

٢ـ قد تكون المصائب أكبر من المعائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. اهـ.



وقوله: وقال النبيّ ﷺ: «إن عظم الجزاء...» الحديث.

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا الحديث رواه الترمذى ولفظه حدثنا قتيبة، ثنا الليث عن يزيد بن أبى حبيب عن سعد بن سنان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله بعبده الخير»** الحديث الذى قبل هذا ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبى ﷺ قال: **«إن عظم الجزاء»** الحديث ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ورواه ابن ماجة وصححه السيوطى.

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد مرفوعاً: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ قَوْماً ابْتلاَهُمْ فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الجَزَعُ» قال المنذرى: رواته ثقات(٣).

مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جار الله(٤): أن فيه وعيد لمن سخط أقدار الله ولم يصبر على البلاء. اهـ.

قال القرعاوى: حيث حرَّم الحديث الجزع من أقدار الله وهذا يدل على أن الصبر على أقدار الله من الإيمان. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٤٣٨) عن عائشة به.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩١.

(٣) [جيد] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨) عن محمود بن لبيد به وجوده شيخنا الفاضل «محمد عمرو» فى تبيض الصحيفة (ص: ١٢).

(٤) الجامع الفريد ١٤٤.

قوله: «إنّ عظم الجزاء من عظم البلاء».

قال سليمان آل الشيخ [(١)]: **قوله: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»** بكسر المهملة وفتح الظاء فيهما ويجوز ضمها مع سكون الظاء أي: من كان ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم، فعظمة الأجر وكثرة الثواب مع عظم البلاء كيفية وكمية جزاء وفاقاً.

قلت - يعني سليمان آل الشيخ - ولما كان الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس جزاء كانوا أشد الناس بلاء.

كما في حديث سَعدٍ سُئِلَ النَّبي ﷺ: أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بَلاَءً؟ قَالَ: **«الأَنْبياءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأمثل يُبْتَلى الرَّجُلُ عَلَى حَسْبِ دينه، فَإِنْ كَانَ في دينه صَلْباً اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ في دينه رقة ابْتُلِيَ عَلَى قَدْرِ دينه، فَمَا يَبْرحُ البَلاَءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشي عَلى الأَرْضِ وَمَا عَلَيْه خطيئةٌ»**[(٢)] رواه الدارمي، وابن ماجة، والترمذي وصححه. وقد يحتج بقوله: **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»** (و) من يقول: إن المصائب والأسقام (و) يثاب[(*)] عليها غير تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم وغيره أن ثوابها تكفير الخطايا فقط إلا أن كانت سبباً لعمل صالح كالتوبة، والإستغفار والصبر والرضى،فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها.

كما في حديث **«إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها، أو قال: لم ينلها بعمله ابتلاه الله في جسده، أو في بلده، أو في ماله، ثم صبره حتى يُبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تبارك وتعالى»** رواه أبو داود في رواية ابن داسة والبخاري في «تاريخه» وأبو يعلى في «مسنده» وحسنه بعضهم. وعلى هذا فيجاب عن الأول إن عظم الجزاء مع عظم البلاء أي: إذا صبر واحتسب أهـ.

قال ابن عثيمين[(٤)]: **«إن عظم الجزاء من عظم البلاء»** يتقابل عظم الجزاء مع البلاء، فكلما كان البلاء أشد وصبر الإنسان صار الجزاء أعظم؛ لأن الله عَدْل لا يجزي المحسن بأقل من إحسانه، فليس الجزاء على الشوكة يشاكها كالجزاء على الكسر إذا كسر، وهذا دليل على كمال عدل الله، وأنه لايظلم أحداً، وفيه تسلية المصاب. اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩١و ٢٩٢.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ١٧٢)، والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سعد بن أبي وقاص به.

(*) كذا في الكتاب والكلام يستقيم بحذفهما.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٧٢)، وأبو داود(٣٠٩٠) عن خالد السلمي عن أبيه به.

(٤) «القول المفيد».

قوله: «وإن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم»

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم» صريح فى حصول الابتلاء لمن أحبه الله ولما كان الأنبياء عليهم السلام أفضل الأحباب كانوا أشد الناس بلاء، وأصابهم من البلاء فى الله مالم يصيب أحدا لينالوا بذلك الثواب العظيم، والرضوان الأكبر وليأتسى بهم من بعدهم، ويعلموا أنهم بشر تصيبهم المحن والبلايا فلا يعبدونهم.

فإن قلت: كيف يبتلى الله أحبابه.

قيل: لما كان أحد لايخلو من ذنب كان الابتلاء تطهيراً لهم كما صحت بذلك الأحاديث وفى أثر إلهى «أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب» ولأنه زيادة فى درجاتهم لما يحصل مع المصيبة للمؤمن من الأعمال الصالحة كما تقدم فى حديث: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة»(*) الحديث ولأن ذلك يدعو إلى التوبة فإن الله تعالى يبتلى العباد بعذاب الدنيا ليتوبوا من الذنوب كما قال تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2] فمن رزقه الله التوبة بسبب المصيبة كان ذلك من أعظم نعم الله عليه، ولأن ذلك يحصل به دعاء الله والتضرع إليه؛ ولهذا ذم الله من لايستكين لربه ولا يتضرع عند حصول البأساء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[3] ودعاء الله والتضرع إليه من أعظم النعم، فهذه النعمة والتى قبلها من أعظم صلاح الدين، فإن صلاح الدين فى أن يعبد الله وحده ويتوكل عليه، وأن لاتدع مع الله إلها آخر لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة. فإذا حصلت لك التوبة التى مضمونها أن تعبد الله وحده، وتطيع رسله بفعل المأمور، وترك المحظور، كنت ممن يعبد الله، وإذا حصل لك الدعاء الذى هو سؤال الله حاجاتك فتسأله ما تنتفع به وتستعيذ به مما تستضر به كان هذا من أعظم نعم الله عليك، وهذا كثيراً ما يحصل بالمصائب. وإذا كانت هذه النعم فى المصائب فأولى الناس بها أحبابه، فعليهم حينئذ أن يشكروا الله. لخصت ذلك من كلام شيخ الإسلام رحمه الله أهـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: «وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم». أى: اختبرهم بما يقدر

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٢و ٣٩٣.

(٢) الروم: ٤١.

(*) تقدم تخريجه قريباً

(٣) المؤمنون: ٧٦.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٧١.

عليهم من الأمور الكونية؛ كالأمراض، وفقدان الأهلِ، أو بما يكلفهم به من الأمور الشرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فذكره الله بالنعمة وأمره بالصبر؛ لأن هذا الذى نُزل عليه تكليف يكلف به.

كذلك من الابتلاء الصبر عن محارم الله؛ كما فى الحديث: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إنى أخاف الله**»(١)؛ فهذا جزاؤه أن الله يظله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله. اهـ.

قوله: «فمن رضى فله الرضى»

قال سليمان آل الشيخ(٢): **قوله: «فمن رضى فله الرضى»** أى: من رضى بما قضاه الله وقدره عليه من الابتلاء فله الرضى من الله جزاءاً وفاقاً كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(٣) وهذا دليل على فضيلة الرضى؛ وهو أن لايعترض على الحكم ولايتسخطه ولا يكرهه.

وقد وصى النبى ﷺ رجلاً فقال: «**لاَ تَتَّهِمِ الله فِى شَىْءٍ قَضَاهُ لَكَ**»(٣) فإذا نظر المؤمن بالقضاء والقدر فى حكمة الله ورحمته وأنه غير متهم فى قضائه دعاه ذلك إلى الرضى، قال ابن مسعود: إن الله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح فى اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط.

قال ابن عون: ارض بقضاء الله من عسر ويسر فإن ذلك أقل لهمك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضى حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والرخاء كيف تستقضى الله فى أمرك ثم تسخط إن رأيت قضاء مخالفاً لهواك؟ ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك لكان فيه هلاكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك؛ وذلك لقلة علمك بالغيب، إذا كنت كذلك ما أنصفت من نفسك، ولا أصبت باب الرضى ذكره ابن رجب قال: وهذا كلام حسن. اهـ.

قال ابن عثيمين(٤): **قوله: «فمن رضى؛ فله الرضى، ومن سخط، فله السخط».** «من»: شرطية، والجواب: «**فله الرضا**»؛ أى: فله الرضا من الله، وإذا رضى الله عن

---

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٦٤٧٩)، ومسلم فى الزكاة (٧/ ١٢٠- النووى) عن أبى هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٧ - بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٢.

(٣) البينة: ٨.

(٤) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١/ ٥٩) ونسبه لأحمد قال: وفى إسناده ابن لهيعة

شخص أرضى الناس عنه جميعا، والمراد بالرضا: الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله، وهذا واجب بدليل قوله: «ومن سخط».

قوله: «ومن سخط فله السخط».

قال سليمان آل الشيخ: قوله: «ومن سخط» هو بكسر الخاء قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضى به أي: من سخط أقدار الله فله السخط أي: من الله وكفى بذلك عقوبة. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وفيه دليل أن السخط من أكبر الكبائر وقد يستدل به على إيجاب الرضى كما هو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب ورجحه شيخ الإسلام، وابن القيم. قال شيخ الإسلام: ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم قال وأما ما جاء من الأثر **«من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي فليتخذ رباً سواي»** فهذا إسرائيلي ليس يصح عن النبي ﷺ قلت - يعني سليمان آل الشيخ - قد روى الطبراني في الأوسط معناه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً: **«مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَاءِ الله وَيُؤْمِنُ بِقَدَرِ الله فَلْيَلْتَمِسَ إلهاً غَيْرَ الله»**(1) قال الهيثمي: فيه حزم بن أبي حزم وثقه ابن معين، وضعفه جمع وبقية رجاله ثقات فإن ثبت هذا دل على وجوبه.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك أي من الرضى أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله تعالى عليه بها انتهى.

واعلم أنه لاتنافي بين الرضى وبين الإحساس بالألم فكثير ممن له أنين من وجع وشدة مرض قلبه مشحون من الرضى والتسليم لأمر الله.

فإن قيل: ما الفرق بين الرضى والصبر؟

فالجواب: قال طائفة من السلف منهم عمر بن عبدالعزيز، والفضيل، وأبو سليمان، وابن المبارك، وغيرهم: إن الراضي لايتمنى غير حاله التي هو عليها بخلاف الصابر، وقال الخواص: الصبر دون الرضى، الرضى أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضي بأي ذاك كان، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر.

قلت: - يعني سليمان آل الشيخ -كلام الخواص هذا عزم على الرضى ليس هو الرضى فإنه إنما يكون بعد القضاء.

---

(1) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٢٧٣) عن أنس به وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٠٧): «رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه سهيل بن أبي حزم وثقه ابن معين وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات».

كما في الحديث «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَى بَعْدَ القَضَاءِ»[1] لأن العبد قد يعزم على الرضى بالقضاء قبل وقوعه فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة، فمن رضى بعد وقوع القضاء فهو الراضى حقيقة قاله ابن رجب. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: «ومن سخط» فقابل الرضا بالسخط، وهو عدم الصبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولم يقل هنا «فعليه السخط» مع أن مقتضى السياق أن يقول فعليه؛ كقوله تعالى: **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾**[3].

فقال بعض العلماء: إن اللام بمعنى على؛ كقوله تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾**؛ أى: عليهم اللعنة.

وقال آخرون: إن اللام على ما هى عليه، فتكون للاستحقاق؛ أى: صار عليه السخط باستحقاقه له، فتكون أبلغ من «على»؛ كقوله تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾**؛ أى: حَقَّت عليهم باستحقاقهم لها، وهذا أصح.

- **ويستفاد من الحديث:**

إثبات المحبة والسخط والرضا لله ـ عزوجل ـ، وهى من الصفات الفعلية لتعلقها بمشيئة الله تعالى؛ لأن (إذا) فى قوله: «**إذا أحب قوماً**» للمستقبل، فالحب يحدث؛ فهو من الصفات الفعلية.

والله تعالى يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويبغضه عند وجود سبب البغض، وعلى هذا؛ فقد يكون هذا الشخص فى يوم من الأيام محبوباً إلى الله وفى آخر مُبْغَضاً إلى الله؛ لأن الحكم يدور مع علته.

وأما الأعمال؛ فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات، فَيُؤَوِّلُون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إرادتها، قالوا: لأن إثبات هذه الصفات يقتضى النقص ومشابهة المخلوقين، والصواب ثبوتها لله ـ عزوجل ـ على الوجه اللائق به كسائر الصفات التى يثبتها من يقول بالتأويل.

(١) أخرجه أحمد «مسنده» (٤/ ٢٦٤)، والنسائى فى «الكبرى» (١٢٢٨) عن عمار بن ياسر به.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٧١و ٢٧٣.

(٣) فصلت: ٤٦.

فيه مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ التَّغَابُنِ.

الثانية: أَنَّ هَذَا مِنَ الإِيمَانِ بالله.

الثالثة: الطَّعْنُ فِى النَّسَبِ.

الرابعة: شِدَّةُ الوَعِيدِ فِيمَنْ ضَرَبَ الخُدودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ.

ويجب فى كل صفة أثبتها الله لنفسه أمران:

١ـ إثباتها على حقيقتها وظاهرها.

٢ـ الحذر من التمثيل أو التكييف.

قلت: ويستفاد فيه أن الجزآء من جنس العمل.

أن العبد قد يحبه الله ثم يفعل ما يوجب سخطه تعالى فيسخط عليه.

قال ابن عثيمين(١)**:**

قوله: «فيه مسائل».

● **الأولى: تفسير آية التغابن:**

وهى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾، وقد فسرها علقمة كما سبق تفسيراً مناسباً للباب.

قلت: وابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهما - كذلك.

● **الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.**

المشار إليه بقوله: (هذا): هو الصبر على أقدار الله.

● **الثالثة: الطعن فى النسب.**

وهو عيبة، وهو من الكفر، لكنه لا يُخْرج من الملة.

● **الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية.**

---

(١) القول المفيد ٢/ ٢٧٣: ٢٧٥.

الخامسة: علامة إرادَةِ الله بِعَبْدِهِ الخَيْرَ.

السادسة: إرادَةَ الله به الشَّرَّ.

السابعة: عَلاَمَةُ حُبِّ الله لِلْعَبْدِ.

الثامنة: تَحْرِيمُ السَّخْطِ.

التاسعة: ثَوَابِ الرِّضَا بِالبَلاَءِ.

لأن النبى ﷺ تبرأ منه.

[قلت]: قوله ﷺ: «ليس منا» وبنسبة ذلك العمل إلى الكفر تارة وإلى الجاهلية أخرى.

● **الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.**

وهو أن يُعجِّل له الله العقوبة فى الدنيا.

● **السادسة: إرادة الله به الشر.**

أى: علامة إرادة الله به الشر، وهو أن يؤخر له العقوبة فى الآخرة.

● **السابعة: علامة حب الله للعبد.**

وهى الابتلاء.

قلت: بقوله: **«إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم»** ويؤيده قوله ﷺ: فى الصحيح **«من يرد الله به خيراً يصب منه»**.

● **الثامنة: تحريم السخط.**

يعنى: مما يبتلى به العبد؛ لقوله ﷺ: **«ومن سخط؛ فله السخط»**، وهذا وعيد.

● **التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.**

وهو رضا الله عن العبد؛ لقوله ﷺ: **«من رضى؛ فله الرضا»**. اهـ.



باب (٣٥)
ما جاء في الرياء

● **مناسبة الباب لما قبله.**

قلت: أن الرياء من أعظم الأسباب للجزع وعدم الصبر على أقدار الله ذلك لأن المنافق المرائى إنما قصد بعمله غير وجه الله تعالى من وجاهة ومشرف أو غير ذلك فإذا لم يجد ذلك بل وجد ضده من زلازل وفتن ومحن؛ تزلزل وقال فى جزع وخوف ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ وهم تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت».

مناسبة الباب للتوحيد

قال سليمان آل الشيخ(١): ولما كان خلوص العمل من الشرك والرياء شرطاً فى قبوله لمنافاة الشرك والرياء للتوحيد نبه المصنف على ذلك تحقيقاً للتوحيد. اهـ.

قال ناصر السعدى(٢): اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين، وروح التوحيد، والعبادة وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله، وثوابه، وفضله، فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائع الإسلام الخمس، وحقائق الإيمان التى هى الإحسان بحقوق الله وحقوق عباده. مكملاً لها قاصداً بها وجه الله والدار الآخرة لايريد بذلك رياء ولاسمعة ولا رياسة ولا دنيا، وبذلك يتم إيمانه وتوحيده. اهـ.

قال عبدالله بن جار الله(٣): وعلاقة هذا الباب بكتاب التوحيد: أن الرياء شرك أصغر مناف لكمال التوحيد. اهـ.

ـ شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال ابن باز(٤): هذا الباب عقده المؤلف للتحذير من الرياء. اهـ.

قال ابن عثيمين(٥): المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ أطلق الترجمة، فلم يفصح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء على ما جاء فيه. اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٤.

(٢) القول السديد ٩٧.

(٣) الجامع الفريد ١٤٥.

(٤) التعليق المفيد (١٨٩).

(٥) القول المفيد (٢/٢٧٦).

تعريف الرياء

قال ابن حجر[1]: الرياء بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد وهو مشتق من الرؤية والمراد به اظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها. ا.هـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: والرياء مصدر راءى يرائى مراءاة ورياء؛ وهو أن يرى الناس أنه يعمل عملا على صفة وهو يضمر فى قلبه صفة أخرى، فلا اعتداد ولا ثواب إلا بما خلصت فيه النية لله تعالى. ذكره القاضى أبو بكر بمعناه. ا.هـ.

قال ابن عثيمين[3]: مصدر رائى يرائى، أى: عمل عملاً ليراه الناس ويقال مراءة كما يقال جاهد يجاهد مجاهده، ويدخل فى ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس ويقال له مُسَمِّع، وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه: «**من راءى راءى الله به ومن سمَّع سمَّع الله به**»[4].

والرياء خلق ذميم، وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾. ا.هـ.

قلت: وكذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ**﴾ الآية.

حكم الرياء والعمل المخالط له.

قلت: سيأتى من كلام سليمان آل الشيخ نقلاً عن ابن رجب الحنبلى تفصيل أبسط وأدل فى شرح الحديث الأول لكن إليك كلام ناصر السعدى وابن عثيمين كالتوطئة قبل الدخول فى الباب وتفصيلاته وشروحه.

قال ناصر السعدى[5]: واعلم أن الرياء فيه تفصيل: فإن كان الحامل للعبد على العمل قصد مراءاة الناس واستمر على هذا القصد الفاسد فعمله حابط وهو شرك أصغر. ويخشى أن يتذرع به الشرك الأكبر.

---

(١) الفتح (١١/ ٣٤٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٤و ٣٩٥.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٧٦.

(٤) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٦٤٩٩)، ومسلم فى الزهد والرقائق (١٨/ ١١٦ - النووى) عن جندب بن عبد الله به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٦٢٢ - بتخريجنا).

(٥) القول السديد ٩٨و ٩٩.

وإن كان الحامل على العمل إرادة وجه الله مع إرادة مراءاة الناس، ولم يقلع عن الرياء بعمله. فظاهر النصوص أيضاً بطلان هذا العمل.

وإن كان الحامل للعبد على العمل وجه الله وحده، ولكن عرض له الرياء فى أثناء عمله، فإن دفعه وخلص إخلاصه لله لم يضره. وإن ساكنه واطمأن إليه نقص العمل وحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام فى قلبه من الرياء، وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء.

والرياء آفة عظيمة ويحتاج إلى علاج شديد وتمرين النفس على الإخلاص ومجاهدتها فى مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة والإستعانة بالله على دفعها لعلَّ الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده ا. هـ.

قال ابن عثيمين[1]: موضحاً ومفصلاً لكلام ناصر السعدى والرياء يبحث فى مقامين:

المقام الأول: فى حكمه.

فنقول: الرياء من الشرك الأصغر؛ لأن الإنسان قصد بعبادته غير الله، وقد يصل إلى الأكبر، وقد مَثَّل ابن القيم للشرك الأصغر؛ فقال: «مثل يسير الرياء»، وهذا يدل على أن الرياء كثير قد يصل إلى الأكبر.

المقام الثانى: فى حكم العبادة إذا خالطها الرياء، وهو على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس من الأصل، كمن قام يصلى من أجل مراءاة الناس ولم يقصد وجه الله؛ فهذا شرك والعبادة باطلة.

الثانى: أن يكون مشاركاً للعبادة فى أثنائها، بمعنى أن يكون الحامل له فى أول أمره الإخلاص لله ثم يطرأ الرياء فى أثناء العبادة.

فإن كانت العبادة لاينبنى آخرها على أولها؛ فأولها صحيح بكل حال، والباطل آخرها.

مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين مخلصاً وراءى فى الخمسين الباقية؛ فالأولى حكمها صحيح، والثانية باطلة.

أما إذا كانت العبادة ينبنى آخرها على أولها؛ فهى على حالين:

(١) القول المفيد ٢/٢٧٦و ٢٧٩.

أ- أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه؛ فإنه لايؤثر عليه شيئاً؛ لقول النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حَدَّثَتْ به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»(١).

مثال ذلك: رجل قام يصلى ركعتين مخلصاً لله، وفى الركعة الثانية أحس بالرياء فصار يدافعه؛ فإن ذلك لايضره ولا يؤثر على صلاته شيئاً.

ب- أن يطمئن إلى هذا الرياء ولايدافعه؛ فحينئذ تبطل جميع العبادة؛ لأن آخرها مبنى على أولها ومرتبط به.

مثال ذلك: رجل قام يصلى ركعتين مخلصاً لله، وفى الركعة الثانية طرأ عليه الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه، فاطمأن لذلك ونزع إليه؛ فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض.

الثالث: ما يطرأ بعد انتهاء العبادة؛ فإنه لا يؤثر عليها شيئاً، اللهم إلا أن يكون فيه عدوان؛ كالمَنِّ والأذى بالصدقة، فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيبطلها؛ لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾(٢) وسيأتي.

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة.

وليس من الرياء أيضاً أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة فى نفسه، بل ذلك دليل على إيمانه، قال النبي ﷺ: «**من سرَّته حسناته وساءته سيئاته؛ فذلك المؤمن**»(٣) وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك؛ فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**». اهـ(٤).

وقد تقدم هذا أيضاً من كلام القرطبي عند تفسير قوله تعالى ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾.

قلت: وليس من الرياء أن يحسن العمل كقراءة القرءان للشيخ وهو يعرضه عليه للإختبار وليس من الرياء تحسين العلم فى هذه الحالة أيضاً لهذا الغرض وليس من الرياء أن يحسنه تحسينا لإرضاء الشيخ إذا علم منه أنه يرضى ويفرح لذلك فعند أبي

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (١/٤٢٣/٢٠١) عن أبي هريرة به..
(٢) البقرة: ٢٦٤.
(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/١٨)، والترمذي (٢١٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩٢٢٣) من عمر به.
(٤) [متفق عليه] أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤/١٨٩ - النووي) عن أبي ذر به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٦٢٤ - بتخريجنا).

يعلى من حديث أبى موسى حين مربه الرسول وهو يقرأ فى بيته فلما أصبح ﷺ قال لأبى موسى: لو رأيتنى وأنا استمع قراءتك البارحة فقال أبو موسى: **«أما إنى لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيراً»**(١) الحديث.

وليس من الرياء أن يظهر للكفار من القوة ما يرهبهم وإن كان الأمر على خلاف ذلك؛ لما ثبتت فى الصحيح(٢) أن النبى ﷺ أمرهم أن يرملوا فى الأشواط الثلاثة وأن يضطبعوا، وفى بعض الألفاظ فى الصحيح(٣) **«ليرى المشركين قوتهم»** وفى خارج **«الصحيح»** بلفظ **«رآينا المشركين»**.

قال ابن حجر(٤): ويؤخذ منه جواز إظهار القوة بالعدة والسلاح ونحو ذلك للكفار إرهاباً لهم، ولا يعد ذلك من الرياء المذموم. أ.هـ.

الفرق بين الرياء والسمعة:

قال ابن حجر(٥): الرياء بكسر الراء التحتانية والمد وهو مشتق من الرؤية والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها وقد تقدم.

والسمعة بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سمع ـ والمراد بها نحو ما فى الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر.

قال الغزالى: المعنى طلب المنزلة فى قلوب الناس بأن يريهم الخصال المحمودة، والمرائى هو العامل.

وقال ابن عبدالسلام: الرياء أن يعمل لغير الله والسمعة أن يخفى عمله لله ثم يحدث به الناس. اهـ.

ونقل ذلك سليمان آل الشيخ بنحوه.



---

(١) [صحيح] أخرجه أبو يعلى فى «مسنده» (٧٢٤٢) عن أبى موسى به.
(٢) فتح البارى (ح ١٦٠٢).
(٣) فتح البارى (ح ٤٢٥٦).
(٤) فتح البارى (٣/ ٥٤٩). (٥) الفتح ١١/ ٣٤٤.

● **فصل فى ما جاء فى ذم الرياء والترهيب منه:**

عن أبى هريرة، أن رجلا قال: «**يا رسول الله، الرجل يجاهد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضاً من الدنيا؟ قال: لا أجر له. فأعظم الناس هذه فعاد الرجل، فقال: لا أجر له**»(١).

عن شداد بن أوس قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر(٢).

عن شداد بن أوس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك. ثم قرأ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾**(٣) الآية.

عن شداد بن أوس رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يخبر عن ربه عز وجل يقول: «**أنا خير قسيم لمن أشرك بى، من أشرك بى شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به، أنا عنه غنى**»(٤).

عن عبدالرحمن بن غنم أنه قيل له: «أسمعت رسول الله ﷺ يقول: **من صام رياء فقد أشرك، ومن صلى رياء فقد أشرك، ومن تصدق رياء فقد أشرك**؟؟ قال: بلى، ولكن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾** فشق ذلك على القوم واشتد عليهم فقال: «**ألا أفرجها عنكم**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: «**هى مثل الآية التى فى الروم ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾**(٥) فمن عمل رياء لم يكتب لا له ولا عليه.

عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشرك الخفى، أن يقوم الرجل يصلى لمكان رجل**»(٦).

---

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٣٧١) وصححه وزاد نسبته السيوطى وللبيهقى.

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣٢٩) وصححه، وذكره السيوطى فى «الدر» وزاد نسبته لابن أبى الدنيا، وابن مردويه، والبيهقى.

(٣) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣٢٩) وذكره السيوطى وزاد نسبته لأحمد، وابن أبى الدنيا، وابن مردويه، والبيهقى.

(٤) ذكره السيوطى ونسبه للطيالسى، وأحمد، وابن مردويه.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٤٦٠) ونسبه للبزار، وابن منده، والبيهقى، وابن عساكر.

(٦) سيأتى تخريجه.

وعن شداد ابن أوس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أخاف على أمتى الشرك والشهوة الخفية** قلت: أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: **نعم، أما إنهم لايعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون الناس بأعمالهم**. قلت: يارسول الله، فالشهوة الخفية؟ فقال: **يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته**»(١).

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ يرويه عن ربه قال: «**أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه، وهو للذى أشرك**»(٢).

عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **الرياء، يقول الله يوم القيامة: إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»(٣).

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعرض أعمال بنى آدم بين يدى الله عزوجل يوم القيامة فى صحف مختتمة، فيقول الله: القوا هذا واقبلوا هذا**. فتقول الملائكة: **يا رب، والله ما رأينا منه إلا خيراً. فيقول: إن عمله كان لغير وجهى ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى**»(٤).

عن الضحاك بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله: أنا خير شريك، فمن أشرك معى أحداً فهو لشريكى. يا أيها الناس، أخلصوا الأعمال لله فإن الله لايقبل من الأعمال إلا ما خلص له، ولاتقولوا هذا لله وللرحم، فإنه للرحم وليس لله منه شيء**»(٥).

عن عبدالله بن عمرو، أنه قال: **يا رسول الله، أخبرنى عن الجهاد والغزو**. قال: ياعبدالله، إن قاتلت صابراً محتسباً **بعثك الله صابراً محتسباً؛ وإن قاتلت مرائياً مكاثراً على أى حال قاتلت أو قتلت، بعثك الله على تلك الحال**»(٦).

---

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣٣٠) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٤٧٥) وزاد نسبته لأحمد، والحكيم الترمذى والبيهقى.

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) ذكره السيوطى ونسبه لأحمد، والبيهقى.

(٤) ذكره السيوطى ونسبه للبزار، والبيهقى.

(٥) ذكره السيوطى ونسبه للبزار، وابن مردويه، والبيهقى بسند لابأس به.

(٦) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٨٥ - ٨٦) وصححه.

عن يحيى بن الوليد بن عبادة عن جده، أن النبى ﷺ قال: **«من غزا وهو لاينوى فى غزاته إلا عقالاً، فله ما نوى»**(١).

عن يعلى بن منبه قال: **«كان النبى ﷺ يبعثنى فى سراياه، فبعثنى ذات يوم وكان** رجل يركب فقلت له: **ارحل**. قال: ما أنا بخارج معك. قلت: **لم؟** قال: حتى تجعل لى ثلاثة دنانير. قلت: الآن حين ودعت النبى ﷺ ما أنا براجع إليه، ارحل ولك ثلاثة دنانير. فلما رجعت من غزاتى ذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال: **أعطها إياه فإنها حظه من غزاته»**(٢).

عن أبى أمامة قال: **«جاء رجل إلى رسول الله ﷺ** فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: رسول الله ﷺ: **لا شىء له. فأعادها ثلاث مرات يقول** رسول الله ﷺ: **لا شىء له**. ثم قال: **إن الله لايقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه»**(٣).

عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال: **«الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما ابتغى به وجه الله عزوجل»**(٤).

عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: **«من يسمع يسمع الله به، ومن يرائى يرائى الله به»**(٥).

عن عبدالله بن عمر: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من قام بخطبة لايلتمس بها إلا رياء وسمعة، أوقفه الله عزوجل يوم القيامة فى موقف رياء وسمعة»**(٦).

عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ قال: **«من يرائى يرائى الله به، ومن يسمع يسمع الله به»**(٧).

عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم وشرك السرائر. قالوا: وما**

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣١٥)، والنسائى (٦/ ٢٤ - السيوطى)، والحاكم فى «المستدرك» (٢/ ١٠٩)، وذكره السيوطى وزاد نسبته، للدارمى، والرويانى، وابن بيان، والطبرانى.

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (٢/ ١١٠) وانظر «الدر» فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه النسائى (٦/ ٢٥ - السيوطى) والطبرانى فى «الكبير» (٨/ ١٦٥/ ٧٦٢٨)، وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٤٧٥) وزاد نسبته لأبى داود.

(٤) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للطبرانى بسند لا بأس به.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبة، وأحمد.

(٧) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبة، وأحمد عن أبى سعيد.

شرك السرائر؟ قال: أن يقوم أحدكم يريد صلاته جـاهداً لينظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر»(١).

عن ابن مسـعود قال: من صلى صلاة والنـاس يرونه، فليصل إذا خلا مـثلها، وإلا فإنما هي استهانة يستهين بها ربه(٢).

وعن حذيفة مثله(٣).

عن عمرو بن عبسة قال: إذا كان يوم القيامة؛ جيء بالدنيا فيميز منها ما كان لله وما كان لغير الله رمى به في نار جهنم(٤).

عن أبي موسـى الأشعري قال: خطبنا رسـول الله ﷺ ذات يوم فقال: «**أيها الناس، اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل**. فقالوا: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسـول الله! قال: **قولوا: اللـهم إنا نعوذ بك أن نـشرك بك شيئاً نـعلمه ونستـغفر لما لانعلم»**(٥).

عن عبادة بن الصامت قال: **يجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال: ميزوا ما كان لله فيميز، ثم يقول: القوا سائرها في النار**(٦).

عن معاذ بن جبل: سـمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن يسيراً مـن الرياء شرك، وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، وإن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء الذين إن غابوا لم يفـتقدوا وإن حضروا لم يدعوا ولـم يعـرفوا، قلوبهم مصابيح الـدجى، يخرجون من كل غبراء مظلمة»**(٧).

عن أبي الدرداء، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الاتقاء على العمل أشد من العمل، إن الرجل ليعمـل فيكتب له عمل صالح معـمول به في السر، يضعف أجره سبـعين ضعفاً، فلايزال به الشيـطان حتى يذكره للناس، فيكـتب علانية ويمحى تضعـيف أجره كله، ثم**

(١) ذكره السيوطي في الدر ونسبه لابن أبي شيبة وتقدم بنحوه.
(٢) ذكره السيوطي في الدر ونسبه لابن أبي شيبة عن ابن مسعود.
(٣) ذكره السيوطي في الدر ونسبه لابن أبي شيبة عن حذيفة.
(٤) ذكره السيوطي في الدر ونسبه للبيهقي.
(٥) ذكره السيوطي في الدر ونسبه لابن أبي شيبة.
(٦) ذكره السيوطي في الدر ونسبه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي في «الشعب».
(٧) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/٣٢٩) وصححه وذكره السيوطي في «الدر» وزاد نسبته، والبيهقي في «الشعب».

لايزال به الشيطـان حتى يذكره للناس الثانيـة ويجب أن يذكر ويحمد عليـه فيمحى من العلانية ويكتب رياء، فاتقى الله امرؤ صان دينه فإن الرياء شرك»[١].

عن أبى أمامة، عـن النبى ﷺ قال: **«أن أحسن أوليائى عنـدى منزلة، رجل ذو حظ من صلاة.. أحـسن عبادة ربـه فى السر وكـان غامضاً فـى الناس لايشـار إليه بالأصـابع، عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه»**[٢].

عن أبى هند الدارى: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من قام رياء أو سمعة، رايا الله به يوم القيامة وسمع به»**[٣].

عن عمر بن النضر قال: بلغنى أن فى جهنـم وادياً تعوّذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة أعد ذلك للمرائين من القراء[٤].

عن أبى هـريرة قال: خرج النبـى ﷺ فقال: **«تعـوّذ بالله من جـب الحزن، قـيل من** يسكنه؟ قال: **المراؤون بأعمالهم»**[٥].

عن جابر قـال: قال رسول الله ﷺ: **يقول الله عـزوجل: كل من عمل عـملاً أراد به غيره فأنا منه برىء»**[٦].

عن أبـى هريـرة قال: رسـول الله ﷺ: «**اتقوا الشـرك الأصغر**، قالوا: ومـا الشرك الأصغر؟ قال: **الرياء يـوم يجازى الله العـباد بأعمالـهم، يقول: اذهبـوا إلى الذين كـنتم تراؤون فى الدنيا، انظروا... هل تصيبون عندهم جزاء؟»**[٧].

عن محمد بن الحنفية قال: كل مالا يبتغى به وجه الله يضمحل[٨].

عن أبى العالية قال: قال لى أصحاب محمـد ﷺ: يا أبا العالية، **لا تعمل لغير الله فيكلك الله عزوجل إلى من عملت له**[٩].

عن ربيع بن خثيم قال: **مالم يرد به وجه الله عزوجل يضمحل**[١٠].

(١) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى وضعفه.

(٢) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لأحمد، والبيهقى.

(٣) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن سعد، وأحمد، والبيهقى.

(٤) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى عن عمر.

(٥) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى عن أبى هريرة.

(٦) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى عن جابر.

(٧) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن مردويه.

(٨) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/ ٤٦٢) ونسبه لأبى نعيم فى «الحلية».

(٩) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن أبى شيبة، وأحمد فى «الزهد».

(١٠) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبة.

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[1].

قوله الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ...... ﴾ الآية.

ـ مناسبة الآية للباب والتوحيد

قال عبدالله بن جارالله[2]: أن السعادة والخير والفلاح فى لقاء الله تبارك وتعالى وأن لقاء الله يحصل بالعمل الصالح الخالص من الرياء والسمعة. اهـ.

قال القرعاوى[3]: دلت الآية الكريمة على أن العمل لايقبل إلا إذا كان خالياً من الشرك. ومن الشرك الرياء. اهـ.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

الإعراب[4]: ﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة.

وأنا مبتدأ و﴿بَشَرٌ﴾ و ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ صفة. اهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من آثار:**

قال ابن عباس: علم الله رسوله المتواضع لئلا يزهو على خلقه، فأمره الله أن يقر، فيقول: أنا آدمى مثلكم، إلا أنى خصصت بالوحى وأكرمنى الله به[5].

● **ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[6]: يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المشركين يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ من بنى آدم لا علم لى إلا ما علمنى الله وأن الله يوحى إلى أن معبودكم الذى يجب عليكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً معبوداً واحد لاثانى له ولا شريك اهـ.

قال الشنقيطى[7]: أمر جل وعلا نبيه ﷺ فى هذه الآية الكريمة أن يقول للناس:

---

(١) الكهف: ١١١.

(٢) الجامع الفريد ١٤٦.

(٣) الجديد ٣٢٤.

(٤) إعراب القرآن ٦/ ٥٠.

(٥) معالم التنزيل ٥/ ٦٠٦ وذكره بنحوه ابن الجوزى فى زاد المسير.

(٦) الطبرى (١٦/ ٣١ ـ ٣٢).

(٧) الأضواء ٤/ ١٥١و ١٥٢.

﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى لا أقول لكم إنى ملك ولا غير بشر، بل أنا بشر مثلكم أى بشر من جنس البشر، إلا أن الله تعالى فضلنى وخصنى بما أوحى إلىَّ من توحيده وشرعه. اهـ.

● **ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.**

قال سليمان آل الشيخ[1]: يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: قل يا محمد للناس ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى فى البشرية، ولكن الله منَّ علىّ وفضلنى بالرسالة، وليس لى من الربوبية، ولا من الإلهية شئ، بل ذلك لله وحده لاشريك له. اهـ.

قال حامد بن محمد[2]: دلت هذه الآية مطابقة وتضمناً والتزاماً على فوائد جليلة:

الأولى: أن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأموال ولكن ينظر إلى القلوب العامرة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[4].

وفى رواية: «**ولكن ينظر إلى القلوب العامرة**».

الثانية: دلت على عمومية الحكم والأمر لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[5].

الثالثة: الإيمان الحقيقى الذى لا يزلزله شيء لأن الإيمان الذى لاثبات له لا ينفع معه العمل.

الرابعة: الإيمان باليوم الآخر لقوله تعالى: لقاء ربه.

الخامسة: الإيمان بالرسول والكتاب لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ والصالح لا

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٩٥).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٦٧ ـ ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

(٣) سبأ: ٣٧.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر. والصلة (٨/ ٣٦٣/ ٣٤) عن أبى هريرة به.

(٥) الكهف: ١١٠.

يكون إلا على ما أمر الله تعالى وأمر الله لايتصور إلا بإرسال رسول معه كتاب من ربه فيه أوامره ونواهيه.

السادسة: الإيمان بالملائكة والأنبياء والرسل الذين من قبل والكتب لأنه منها أمره بالرسول المرسل والقرآن المنزل لزمه الإيمان بذلك كله لأنها مذكورة فيه وذكره الرسول ﷺ فالإيمان بهذه الأمور أصل الأعمال الدينية وهو كما قال الحسن: «**ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني بل ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال**»[1] أي أعمال الجنان واللسان والأركان؛ ولذا عقب الله تعالى العمل الصالح بفاء التفريع أي من كان يرجو لقاء ربه فليعمل فذلك دليل إيمانه صادقاً محققاً.

والعمل الصالح جنس يشمل أعمال الجوارح كلها فينبغي لداعي الإيمان: نية خالصة، وعمل خالص من الرياء، ولسان صادق، وأفعال جملية، وسمت مرضي، وخلق حسن، وطريقة مستقيمة، وسيرة مديمة، وبصيرة قوية، وذكر كثير، وتفكر وتدبر.

أما النية قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾[2].

وأما العمل الخالص قوله تعالى: ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾[3].

وأما اللسان الصادق قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[4].

وأما الأفعال الجميلة قوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾[5].

وأما السمت المرضي قوله تعالى: ﴿**وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ**

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الشورى: ٢٠.

(٣) الزمر: ٢، ٣.

(٤) التوبة: ١١٩.

(٥) التوبة: ٧١.

يتوكلون (٣٦) والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون (٣٧) والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون (٣٨) والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾(١).

وأما الخلق الحسن قوله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾(٢).

وأما السيرة الدائمة قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾(٣).

وأما الطريقة المستقيمة فمبناها على البصيرة القوية والبصيرة القوية مبناها على العلم اليقيني وقد ذكرها الله على الترتيب قال تعالى: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾(٤). فبين الله أنه لا يعلم الحق من الباطل ولا يميزه إلا الذين أوتوا العلم فيستبصر بالبصيرة النافذة القوية ويميز حينئذ بين الحق والباطل ويخبت له قلبه، ثم بين أن ذلك هو الصراط المستقيم.

وأما الذكر قوله: ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما﴾(٥).

وأما التفكر قوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب (١٩٠) الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾(٦).

ولما كان أصل الأعمال الدينية كلها التوحيد والإخلاص الذى لا يشوبه شرك قال تعالى: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾(٧) والشرك أكبر وأصغر، فالأكبر يحبط الأعمال

(١) الشورى: ٣٦ - ٣٩.

(٢) الفرقان: ٦٣.

(٣) فصلت: ٣٠.

(٤) الحج: ٥٤.

(٥) الأحزاب: ٣٥.

(٦) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٧) الكهف: ١١٠.

كلها كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]. وأما الشرك الأصغر فهو الرياء والسمعة والتصنع للناس فى الأعمال الدينية، فذا يحبط العمل الذى راءى فيه أو سمع فيه لا غير. عن أبى هريرة مرفوعاً: قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه»[2]. رواه مسلم. وعن أبى سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى، قال: الشرك الخفى يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل»[3].

قال ابن عثيمين[4]: يأمر الله نبيه أن يقول للناس: إنما أنا بشر مثلكم، وهو قَصْر النبى ﷺ على البشرية، وأنه ليس ربّاً ولا مَلَكاً، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾، فذكر المثل من باب تحقيق البشرية. ا.هـ.

قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

الإعراب[5]: جملة ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة لبشر ﴿إِلَيَّ﴾ متعلقان بيوحى ﴿أَنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة ولكنها لم تخرج عن المصدرية فهى وما بعدها فى محل رفع نائب فاعل و﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ مبتدأ وإله خبر و﴿وَاحِدٌ﴾ صفة. ا.هـ.

قال ابن عثيمين[6]:

قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

أولاً: تعريف الوحى:

الوَحْيُ فى اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[7].

---

(١) الزمر: ٦٥.

(٢- ٣) سيأتى تخريجه.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٧٩.

(٥) إعراب القرآن ٦/ ٥٠.

(٦) القول المفيد ٢/ ٢٧٩و ٢٨٠.

(٧) مريم: ١١.

قلت: وهى مؤدى قول ابن تيمية فى «مقدمة التفسير»[1] حيث قال: «هو إعلام سريع خفى». ا.هـ.

وفى الشرع: إعلام الله بالشرع.

والوحى: هو الفرق بيننا وبينه ﷺ؛ فهو متـميز بالوحى كغيره من الأنبياء والرسل. اهـ.

● **ما جاء فى الآية من كلام المفسرين:**

قال الطبرى[2]: ﴿**يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾ إن الله يوحى إلى أن معبودكم الذى يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً معبوداً واحداً لا ثانى له ولا شريك له وقد تقدم.

قال الشنقيطى[3]: وقوله هـنا: ﴿**يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾ أى فوحـدوه ولاتشركـوا به غيره. وهذا الذى بـينه تعالى فـى هذه الآية؛ أوضحه فى مـواضع أخر. كقوله فـى أول «فصلت»: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا**﴾[5].

وقوله: ﴿**قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ**﴾[6] الآية. وهذا الـذى أمر الله به نبـيه ﷺ فى هذه الآيـة من أنه يقول للناس أنه بشر، ولكن الله فضله علـى غيره بما أوحى إليه من وحيه جاء مثله عن الرسل غيره صلوات الله وسلامه علـيهم فى قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾[7] الآية. فكون الرسل مثل البشر من حيث أن أصل الجميع وعـنصرهم واحد، وأنهم تجرى على جميعـهم الأعراض البشرية

---

(١) «النكت المتممة على مقدمة ابن تيمية» ص ٥٧ للمؤلف.

(٢) الطبرى (١٦/ ٣١ ـ ٣٢).

(٣) أضواء البيان ٤/ ١٥٢.

(٤) فصلت: ٦/ ٧.

(٥) الإسراء: ٩٣.

(٦) الأنعام: ٥٠.

(٧) إبراهيم: ١١.

لاينافى تفضيلهم على سائر البشر بما خصهم الله به من وحيه واصطفائه وتفضيله كما هو ضرورى.

وقال بعض أهل العلم: معنى هذه الآية قل يا محمد للمشركين: إنما أنا بشر مثلكم، فمن زعم منكم أنى كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإننى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به عما سألتم عنه من أخبار الماضين كقصة أصحاب الكهف. وخبر ذى القرنين. وهذا له اتجاه والله تعالى أعلم. اهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿**أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾. هذه الجملة فى تأويل مصدر نائب فاعل ﴿**يُوحَى**﴾، وفيها حصر طريقه ﴿**أَنَّمَا**﴾؛ فيكون معناها: ما إلهكم إلا إله واحد، وهو الله، فإذا ثبت ذلك؛ فإنه لايليق بك أن تشرك معه غيره فى العبادة التى هى خالص حقه، ولذلك قال تعالى بعد هذا: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾. اهـ

قوله: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» أ.هـ.

الإعراب[1]: الفاء استئنافية و﴿**مَن**﴾ اسم شرط جازم فى محل رفع مبتدأ و﴿**كَانَ**﴾ فعل ماض ناقص واسمها يعود على ﴿**مَن**﴾ وجملة ﴿**يَرْجُو**﴾ خبرها و﴿**لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾ مفعول به، ﴿**فَلْيَعْمَلْ**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط واللام لام الأمرو ﴿**يعمل**﴾ فعل مضارع مجزوم بلام الأمر و﴿**عَمَلاً**﴾ مفعول مطلق أو مفعول به و﴿**صَالِحًا**﴾صفة ﴿**وَلا يُشْرِكْ**﴾ لا ناهية و﴿**يُشْرِكْ**﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية و ﴿**بِعِبَادَةِ رَبِّهِ**﴾ متعلقان بيشرك و﴿**أَحَدًا**﴾ مفعول يشرك. اهـ.

سبب نزول الآية وما جاء فى ذلك من أحاديث وآثار:

عن مجاهد قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أتصدق بالصدقة وألتمس بها ما عند الله، وأحب أن يقال لى خيراً: فنزلت ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾ الآية[2].

---

(١) إعراب القرآن ٦/ ٥٠.

(٢) ذكره السيوطى ونسبه لهناد فى «الزهد».

عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية. قال: نزلت فى المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً غيره، وليست هذه فى المؤمنين(١).

عن طاوس قال: قال رجل: يا نبى الله، إنى أقف مواقف أبتغى وجه الله، وأحب أن يرى موطنى. فلم يردّ عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٢).

وموصولاً عن طاوس عن ابن عباس(٣).

وعن مجاهد قال: كان من المسلمين من يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه، فأنزل الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾(٤) الآية.

عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد فى ذلك لمقالة الناس، فلامه الله فنزل فى ذلك ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٥).

● **التفسير بالمأثور.**

● **أولاً قول النبى ﷺ.**

قال النبى ﷺ: **«إن ربكم يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معى فى عمله أحداً من خلقى تركت العمل كله له ولم أقبل إلا ما كان لى خالصاً»**. ثم قرأ النبى ﷺ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٦).

عن شداد بن أوس قال: قال النبى ﷺ: **«إذا جمع الله الأولين والآخرين ببقيع واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعى، قال: أنا خير شريك، كل عمل عمل لى فى دار الدنيا**

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٣٠١٣) فانظره بتخريجنا، والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٣٣٠) وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٤٦٩ ـ ٤٧٥) ونسبه لابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن مردويه، والبيهقى فى «الشعب».

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٣٠١٤) فانظره بتخريجنا، وذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبدالرزاق، وابن أبى الدنيا فى الإخلاص، وابن أبى حاتم، والطبرانى، والحاكم.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للحاكم وصححه، والبيهقى موصولاً.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٣٠١٥) وأنظر «الدر» (٤/ ٤٥٩).

(٥) ذكره السيوطى فى الموقع السابق ونسبه لابن منده، وأبى نعيم فى «الصحابة»، وابن عساكر.

(٦) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وانظر «الدر» (٤/ ٤٥٩).

كان لى فيه شريك، فأنا أدعه اليوم ولا أقبل اليوم إلا خالصاً» ثم قرأ. ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(١).

عن أبى سعد بن أبى فضالة الأنصارى ـ وكان من الصحابة ـ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لاريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله لله أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»(٢).

● ثانياً من أقوال التابعين:

عن سعيد فى قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ قال: ثواب ربه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ﴾ قال: لا يرائى ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٣).

عن سعيد بن جبير فى قوله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ قال: من كان يخشى البعث فى الآخرة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ من خلقه.

عن كثير بن زياد قال: قلت للحسن قول الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قال: فى المؤمن نزلت. قلت: أشرك بالله؟ قال: لا، ولكن أشرك بذلك العمل عملاً يريد الله به والناس، فذلك عليه(٤).

عن عبدالواحد بن زيد قال: قلت للحسن: أخبرنى عن الرياء، أشرك هو؟ قال: نعم يا بنى، وما تقرأ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٥).

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى(٦): فى تفسير ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ

(١) أخرجه الطبرانى فى «الدر» (٧/ ٢٩٠/ ٧١٦٧) ذكره السيوطى ونسبه للطبرانى.
(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٦٦)، والترمذى (٣١٥٤)، وابن ماجه (٤٢٠٣) وزاد نسبته السيوطى لابن سعد، والبيهقى.
(٣) نسبه السيوطى فى «الدر» لهناد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى.
(٤) ذكره السيوطى فى الموقع السابق ونسبه لابن أبى حاتم عن كثير بن زياد.
(٥) ذكره السيوطى فى الموقع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.
(٦) تفسير الطبرى ٨/ ١٦/ ٣١و ٣٢.

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ فمن كان يرجو لقاء ربه يقول فمن يخاف ربه يوم لقائه ويراقبه على معاصيه ويرجو ثوابه على طاعته فليعمل عملاً صالحاً يقول فليخلص له العبادة وليفرد له الربوبية. اهـ.

قال الشنقيطي[١]: اعلم أن الرجاء كقوله هنا ﴿يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يستعمل في رجاء الخير، ويستعمل في الخوف أيضاً. واستعماله في رجاء الخير مشهور. ومن استعمال الرجاء في الخوف قول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عواسل

فقوله «لم يرج لسعها» أي لم يخف لسعها. ويروى حالفها بالحاء والخاء، ويروى عواسل بالسين، وعوامل بالميم.

فإذا علمت أن الرجاء يطلق على كلا الأمرين المذكورين ـ فاعلم أنهما متلازمان، فمن كان يرجوا ما عند الله من الخير فهو يخاف ما لديه من الشر كالعكس. ا.هـ.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ: قال شيخ الإسلام[٢]: أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة والمشاهدة بعد السلوك والسير وقالوا: إن لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى وأطال في ذلك واحتج له، وقال سعيد بن جبير: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ قال: من كان يخشى البعث في الآخرة رواه ابن أبي حاتم. اهـ.

قال ابن عثيمين[٣]: والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة؛ لأن اللقيا على نوعين:

الأول: عامة لكل إنسان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾[٤]، ولذلك قال مفرّعاً على ذلك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ...﴾ الآية.

الثاني: الخاصة بالمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالى، كما ذكر ذلك بعض أهل العلم.

(١) أضواء البيان ٤/ ١٥٣.

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣٩٥.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٠.

(٤) الانشقاق: ٩.

قوله[1]: ﴿**فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا**﴾. الفاء رابطة لجواب الشرط، والأمر الإرشاد؛ أي: من كان يريد أن يلقى الله على الوجه الذى يرضاه سبحانه؛ فليعمل عملاً صالحاً.

والعمل الصالح: ما كان خالصاً صواباً.

وهذا وجه الشاهد من الآية.

فالخالص: ما قُصِد به وجه الله، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[2].

والصواب: ما كان على شريعة الله، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[3].

ولهذا قال العلماء: هذان الحديثان ميزان الأعمال.

فالأول: ميزان الأعمال الباطنة.

والثانى: ميزان الأعمال الظاهرة. اهـ.

قوله: ﴿**وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾.

قال سليمان آل الشيخ[4]:

قال ابن القيم: كما أنه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغى أن تكون العبادة له وحده لاشريك له فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة انتهى. وهذان ركنا العمل المتقبل لابد أن يكون صواباً خالصاً فالصواب أن يكون على السُّنة وإليه الإشارة بقوله: ﴿**فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا**﴾ والخالص أن يخلص من الشرك الجلى والخفى وإليه الإشارة بقوله: ﴿**وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾.

روى عبدالرزاق وابن أبى الدنيا فى كتاب «الإخلاص» وابن أبى حاتم والحاكم عن طاوس قال: قَالَ رَجُلٌ يَا نَبِيَّ الله إِنِّى أَقِفُ المَوَاقِفَ أَبْتَغِى وَجْهَ الله وَأُحِب أَنْ يُرى مَوْطِن فَلم يَرُدَّ عَليهِ شَيْئاً حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآية: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً**

---

(١) القول المفيد ٢٨٠، ٢٨١.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) تقدم تخريجه.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٩٥..

صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[1] رواه الحاكم وصححه موصولاً عن طاوس عن ابن عباس[2] **وفى الآية دليل على الشهادتين**، وأن الله تعالى فرض على نبينا ﷺ أن يخبرنا بتوحيد الإلهية، وإلا فتوحيد الربوبية لم ينكره الكفار الذين كذبوه وقاتلوه ذكر المصنف، وفيها تسمية الرياء شركاً وفيها أن من شروط الإيمان بالله واليوم الآخر أن لايشرك بعبادة ربه أحداً، ففيه التصريح بأن الشرك الواقع من المشركين إنما هو فى العبادة لا فى الربوبية وفيها الرد على من قال: أولئك يتشفعون بالأصنام ونحن نتشفع بصالح لأنه تعالى قال: **﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ فليس بعد هذا بيان افتتح الآية بذكر براءة النبى ﷺ الذى هو أقرب الخلق إلى الله وسيلة** أى: براءته من الإلهية وختمها بقوله: **﴿أَحَدًا﴾**. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: **والشاهد من الآية**: أن الرياء من الشرك، فيكون داخلاً فى النهى عنه.

وفى هذه الآية دليل على ملاقاة الله تعالى، وقد استدلَّ بها بعض أهل العلم على ثبوت رؤية الله؛ لأن الملاقاة معناها المواجهة.

وفيها دليل على أن الرسول ﷺ بشر لايستحق أن يعبد، لأنه حصر حاله بالبشرية، كما حصر الألوهية بالله.

قال سليمان آل الشيخ[4]: **واعلم رحمك الله** أن هذه الآية المعرفة التى [تنفعه][5] إلا من ميز بين توحيد الربوبية وبين توحيد الإلهية تمييزاً تاماً وعرف ما عليه غالب الناس إما طواغيت ينازعون الله فى توحيد الربوبية الذى لم يصل إليه شرك المشركين، وإما مصدق لهم تابع لهم، وإما شاك لايدرى ما أنزل الله على رسوله، ولايميز بين دين الرسول ﷺ وبين دين النصارى، ذكره المصنف وفيها أن أصل دين النبى ﷺ الذى بعث به هو الإخلاص كما فى هذه الآية وقوله: **﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾** وذلك هو دعوة الرسل من

(١ - ٢) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد /٣٩٦.

(٥) هكذا فى المطبوع ولعلها (لاتنفع).

وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - مَرْفُوعًا: قَالَ اللهُ تَعَالَى: «أَنَا أَغنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشركَ فيه مَعِى غَيرِى تَركْتُهُ وشِرْكَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.(١)

أولهم إلى آخرهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وذلك هو الحنيفية الإبراهيمية جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه.



قوله: «عن أبى هريرة مرفوعاً. قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك..» الحديث.

قال الفقير: وهذا الحديث أخرجه مسلم فى الزهد والرقائق فى باب من أشرك فى عمله غير الله، وأحمد فى المسند وابن ماجه فى الزهد باب الرياء والسمعة والبيهقى فى الشعب جميعاً من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة.

قال ابن عثيمين(٢): هذا الحديث يرويه النبى ﷺ عن ربه، ويسمى هذا النوع بالحديث القدسى

ـ مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جار الله:(٣) أنَّ عمل المرائى باطل لاثواب له فيه بل يأثم به.

ـ مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال القرعاوى:(٤) دلّ الحديث على بطلان العمل الذى وقع فيه شرك ومن الشرك الرياء.

ـ قوله (قال الله تعالى أنا أغنى).

قال ابن عثيمين(٥): «أغنى» اسم تفضيل وليست فعلاً ماضياً ولهذا أضيفت إلى الشركاء. اهـ.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الزهد والرقائق»/ باب: من أشرك فى عمله غير الله (٢/ ٥٩٢ - الحلبى) وأحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٠١، ٤٥٣) وابن ماجه فى «الزهد»/ باب الرياء والسمعة (٢/ ٩٤٠٥/ ح ٤٢٠٢) والبيهقى فى «الشعب» (٥/ ٣٢٩/ ح٦٨١٥).
جميعاً من طريق العلاء بن عبدالرحمن، عن أبيه عن أبى هريرة.
وانظر «رياض الصالحين» (ح١٦١٩) «وفتح المجيد» (ح ٧٠٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٨٢. (٣) الجامع الفريد ١٤٦.

(٤) الجديد ٣٢٦. (٥) القول المفيد (٢/ ٢٨٢).

ـ **قوله: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك).**

قال النووي[1]: أنا غنى عن المشاركة وغيرها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: **قوله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك»**، لما كان المرائى قاصداً بعمله الله تعالى وغيره، كان قد جعل الله تعالى شريكاً، فإذا كان كذلك فالله تعالى هو الغنى على الإطلاق والشركاء بل جميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار؛ فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذى جعل له فيه شريك، فإن كماله تبارك وتعالى وكرمه وغناه يوجب أن لايقبل ذلك ولايلزم من اسم التفضيل إثبات غنى للشركاء، فقد تقع المفاضلة بين الشيئين وإن كان أحدهما لا فضل فيه كقوله تعالى: **﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**[3] وقوله تعالى: **﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾**[4]. اهـ.

قال ابن عثيمين[5]: إذا كان بعض الشركاء يستغنى عن شركته مع غيره؛ فالله أغنى الشركاء عن المشاركة.

فالله لايقبل عملاً له فيه شرك أبداً، ولايقبل إلا العمل الخالص له وحده، فكما أنه الخالق وحده؛ فكيف تصرف شيئاً من حقه إلى غيره؟ فهذا ليس عدلاً، ولهذا قال الله عن لقمان: **﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾**[6]، فالله الذى خلقك وأعدك إعداداً كاملاً بكل مصالحك وأمدك بما تحتاج إليه، ثم تذهب وتصرف شيئاً من حقه إلى غيره؟! فلاشك أن هذا من أظلم الظلم. اهـ.

قال ابن عثيمين: قوله: (من عمل عملاً). قوله (عملاً) نكرة فى سياق الشرط فتعم أى عمل من صلاة أو صيام، أو حج، أو جهاد، أو غيره. اهـ.

قوله: (من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى).

(١) مسلم بشرح النووى ٩/ ٣٤٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٦، ٣٩٧.

(٣) النمل: ٥٩.

(٤) الفرقان: ٢٤.

(٥) القول المفيد ٢/ ٢٨٢، ٢٨٣.

(٦) لقمان: ١٣.

قال النووى(١): فمن عمل شيئاً لى ولغيرى لم أقبله بل تركته لذلك الغير والمراد أن عمل المرائى باطل لا ثواب عليه ويأثم به.

قال سليمان آل الشيخ (٢): **قوله: «من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى»** أى: من قصد بذلك العمل الذى يعمله لوجهى غيرى من المخلوقين تركته وشركه، وفى رواية عند ابن ماجه وغيره: **«فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِى أَشْرَكَ»**.

قال الطيبى: الضمير المنصوب فى تركته يجوز أن يرجع إلى العمل والمراد من الشرك الشريك.

قال ابن رجب: واعلم أن العمل لغير الله أقسام فتارة يكون رياءً محضاً فلا يراد به سوى مراءاة المخلوقين لغرض دنيوى، كحال المنافقين فى صلاتهم كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ**﴾ وكذلك وصف الله الكفار بالرياء فى قوله: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ**﴾ وهذا الرياء المحض لايكاد يصدر من مؤمن فى فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر فى الصدقة الواجبة، أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التى يتعدى نفعها فإن الإخلاص فيها عزيز وهذا العمل لايشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من اللهوالعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه ثم ذكر أحاديث تدل على ذلك منها الحديث الذى ذكره المصنف.

[قلت]: وسبق ذكر الأحاديث والآثار فى ذلك فى فصل مستقل بعد تفسير قوله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ**﴾.

قال ابن رجب: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء مثل أخذ أجرة للخدمة أو أخذ شىء من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر جهادهم ولم يبطل بالكلية.

وفى «صحيح مسلم» عن عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: **«مَا مِنْ غَازِيَة تَغْزُو فِى سَبِيلِ الله فَيُصِيبُونَ الغنيمةَ، إلاَّ تعجَّلُوا ثُلُثى أَجْرِهِمْ مِنَ الآخرَة. ويبقى لَهُمُ الثُّلُثُ وإِنْ لم يصيبوا غنيمة تمَّ لَهُمْ أَجْرُهُم»**(٣) قلت - يعنى سليمان آل الشيخ - هذا لايدل على أنهم غزوا لأجلها فلايدل على ثبوت الأجر لمن غزا يلتمس عرضاً قال: وقد ذكرنا فيما مضى

(١) شرح النووى ٩/ ٣٤٣.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٧و ٤٠٠.
(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٧/ ٥٩/ ١٥٣).

أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضاً من الدنيا أنه لا أجر له وهى محمولة على أنه لم يكن له غرض فى الجهاد إلا الدنيا قلت. يعنى سليمان آل الشيخ ظاهر حديث أبى هريرة أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ الله رَجُلٌ يُرِيدُ الجِهَادَ فِى سَبِيلِ الله] وَهُوَ يَبْتَغِى عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: **«لا أَجْرَ لَهُ»** فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ وَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ لِرَسُولِ الله ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفَهِّمْهُ، فقال: يَا رَسُولَ الله رَجُلٌ يُرِيدُ الجِهَادَ فِى سَبِيلِ الله وَهو يبتغى عَرَضاً من عرض الدنيا؟ قال: **«لا أجر له»**. فقالوا للرجل عُدْ لِرَسُولِ الله ﷺ فقال له الثالثة فقالَ لهُ: **«لا أجر له»** فأعاد عليه ثلاثاً والنبى ﷺ يقول: **«لا أجر له»**(١) رواه أبو داود. يدل على أن نية الجهاد إذا خالطها نية أجرة الخدمة أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة لم يكن له أجر، ويحتمل أن يكون معنى يريد الجهاد أى: يريد سفر الجهاد ولم ينو الجهاد إنما نوى عرض الدنيا.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد: التاجر والمستأجر والمكارى أجرهم على قدر ما يخلص من نيتهم فى غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه، وماله لايخلط به غيره.

وقال أيضاً: فيمن يأخذ جعلا على الجهاد إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس كأنه خرج لدينه فإن أعطى شيئا أخذه وكذا روى عن عبد الله بن عمرو قال: إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقا فلا بأس بذلك وإما أن أحدكم إن أعطى درهماً غزا وإن لم يعط درهماً لم يغز فلا خير فى ذلك.

قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - هذا يدل على الفرق بين ما كانت نية الدنيا مخالطة له من أول مرة، بحيث تكون هى الباعث له على العمل، أو من جملة ما يبعث عليه، كالذى يلتمس الأجر والذكر، فهذا الأجر له وبين ما كانت النية خالصة لله من أول مرة، ثم عرض له أمر من الدنيا لايبالى به، سواء حصل له أو لم يحصل، كالذى أجمع على الغزو سواء أعطى أو لم يعط. فهذا لا يضره ونحوه التجارة فى الحج كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ وعلى هذا ينزل ما روى عن مجاهد أنه قال فى حج الجمال وحج الأجير وحج التاجر: هو تام لاينقص من أجورهم شيء: أى: لأن قصدهم الأصلى كان هو الحج دون التكسب.

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١٦) عن أبى هريرة به.

قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ودفعه؛ فلايضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لايضره ذلك، ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري ورجحا أن عمله لايبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروى عن الحسن البصرى وغيره، ويستدل لهذا القول.

بما أخرجه أبوداود فى مراسيله عن عطاء الخراسانى أنَّ رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللهِ إنَّ بَنى سَلَمَةَ كُلهم يُقَاتِلُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ للدُّنْيَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ نَجْدَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، قَالَ: **«كُلُّهُمْ إذاً كَانَ أصل أَمْرِهِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِىَ العُلْيَا»**(١). وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو عمل مرتبط آخره بأوله، كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه، كالقراءة والذكر، وانفاق المال ونشر العلم؛ فإنه ينقطع بنية الرياء، الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية. فأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله له الثناء الحسن فى قلوب المؤمنين، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك؛ لم يضره، وفى هذا المعنى جاء فى:

حديث أبى ذر عن النبى ﷺ أنه سُئِلَ عَن الرجلِ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ فَقَالَ: **«تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ»**(٢). رواه مسلم انتهى ملخصاً وسبق من كلام ابن عثيمين.

إذا تبين هذا؛ فقد دل الكتاب والسنة على حبوط العمل بالرياء، وجاء الوعيد بالعذاب عليه، قال الله تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾**(٣) والآية بعدها.

وروى مسلم فى «صحيحه» حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار، المقاتل ليقال جرىء، والمتعلم ليقال عالم، والمتصدق ليقال جواد(٤).

فأما ما رواه البزار وابن مندة والبيهقى عن معاذ بن جبل مرفوعاً **«مَنْ عَمِلَ رِيَاءً لاَ يُكْتَبُ لاَ لَهُ، وَلاَ عَلَيْهِ»**(٥). ذكره السيوطى فى «الدر» ولم أقف على إسناده فما أظنه يثبت، والكتاب والسنة يدلان على خلافه، بل هو موضوع. اهـ.

وتقدم ذلك مختصراً فى أول الباب

---

(١) رواه أبوداود فى المراسيل (١، ٢). (٢) تقدم تخريجه.

(٣) سورة هود، الآية: ١٥.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (١٣/ ٥٠ - النووى) عن أبى هريرة به وانظر «رياض الصالحين» (١٦٢٠ - بتخريجنا).

(٥) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ٥٤) وقال: رواه البزار وفيه محمد بن السائب الكلبى وهوكذاب».

قوله: (تركته وشركه).

قال النووى[1]: هكذا وقع فى بعض الأصول (وشركه)، وفى بعضها (وشريكه) وفى بعضها (وشركته). اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: أى: لم أثبه على عمله الذى أشرك فيه.

وقد يصل هذا الشرك إلى حد الكفر، فيترك الله جميع أعماله؛ لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه.

والمراد بشركه، عمله الذى أشرك فيه، وليس المراد شريكه؛ لأن الشريك الذى أشرك به مع الله قد لايتركه، كمن أشرك نبياً أو ولياً؛ فإن الله لايترك ذلك النبى والولى. اهـ.

قلت: وهذا دليل الغنى الكامل من الله تعالى إذ أن المخلوق إن شاركه أحدٌ فى حقه عنوة بغير حق قبل ذلك وإن كان مستغنى عن هذه الشراكة إلا أنه قد يقبل هذا الوضع إما مضطر أو لحاجة أما الغنى الحميد بالذات العليم القدير بالذات فهو يجير ولا يجُار عليه لذا يتركه وشركه والله أعلم.

المستفاد من الحديث

قال ابن عثيمين[3]:

● ويستفاد من هذا الحديث:

١ـ بيان غنى الله تعالى؛ لقوله: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»**.

٢ـ بيان عظم حق الله وأنه لايجوز لأحد أن يشرك أحداً مع الله فى حقه.

٣ـ بطلان العمل الذى صاحبه الرياء؛ لقوله: **«تركته وشركه»**.

٤ـ تحريم الرياء؛ لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبوله يدل على الغضب، وما أوجب الغضب؛ فهو مُحَرَّم.

٥ـ أن صفات الأفعال لا حصر لها؛ لأنها متعلقة بفعل الله، ولم يزل الله ولايزال فعالاً. اهـ.



(١) شرح مسلم ٩/ ٣٤٣.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٨٣.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

وَعَنْ أَبِى سَعِيد مَرْفُوعاً: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيكُمْ عِنْدِى مِنَ المَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ«الشِّرْكُ الخَفِى يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»[1]. رَوَاهُ أَحْمَدُ.

قوله: [وعن أبى سعيد مرفوعاً ألا أخبركم بما هو أخوف.... الحديث]

قال سليمان آل الشيخ[2]: هذا الحديث رواه أحمد كما قال المصنف، ورواه ابن ماجه، وابن أبى حاتم، والبيهقى، وفيه خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: «ألا أخبركم» الحديث وفى سنده ضعف. ومعناه صحيح.

وروى ابن خزيمة فى صحيحه معناه عن محمود بن لبيد قَالَ خَرَجَ النَّبىُّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَشِرْكُ السَّرَائِرِ» قَالُوا: يا رَسُولَ الله وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: «يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّى فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ جَاهِداً لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَيْهِ فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ»[3]. اهـ.

مناسبة الحديث للباب وللتوحيد

قال القرعاوى[4]: دل الحديث على أن النبى ﷺ أخوف ما يخاف علينا الشرك الخفى وهو الرياء، لذا يجب اجتنابه والحذر منه.ا.هـ.

قوله: (ألا).

قال ابن عثيمين[5]: أداة عَرْض، والغرض منها تنبيه المُخَاطَب؛ فهو أبلغ من عدم الإتيان بها. ا.هـ.

قوله: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال».

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٣٠)، وابن ماجة فى الزهد/ باب الرياء والسمعة (/ ٤٢٠٤ ١٤٠٦).

من طريق كثير بن زيد، عن ربيح بن عبدالرحمن بن أبى سعيد الخدرى، عن أبيه، عن أبى سعيد به.

قال فى «الزوائد»: إسناده حسن، وكثير بن زيد وربيح بن عبدالرحمن مختلف فيهما. وانظر «فتح المجيد» (ح ٤٠٧) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٠١.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الجديد ٣٢٧.

(٥) القول المفيد ٢/ ٢٨٤.

قال سليمان آل الشيخ[1]: **قوله: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال»** إنما كان الرياء كذلك، لخفائه وقوة الداعى إليه، وعسر التخلص منه لما [لا](*)يزينه الشيطان، والنفس الأمارة فى قلب صاحبه. اهـ.

قوله: «بما هو».

قال ابن عثيمين[2]: ما: اسم موصول بمعنى الذى.

قوله: (أخوف عليكم عندى).

قال ابن عثيمين[3]: أى عند الرسول ﷺ لأنه ﷺ من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، وأعظم فتنة فى الأرض هى فتنة المسيح الدجال، لكن خوف النبى ﷺ من فتنة هذا الشرك الخفى أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك؛ لأن التخلص منه صعب جداً، ولذلك قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسى على شىء مجاهدتها على الإخلاص»، وقال النبى ﷺ: **«أسعد الناس بشفاعتى من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه**(*)، ولايكفى مجرد اللفظ بها، بل لابد من إخلاص وأعمال يتعبد بها الإنسان لله ـ عزوجل ـ.

قوله: (المسيح الدجال).

قال ابن عثيمين[4]: المسيح؛ أى: ممسوح العين اليمنى، فذكر النبى عيبين فى الدجال:

أحدهما: حسى، وهو أن الدجال أعور العين اليمنى؛ كما قال النبى ﷺ: **«إن الله لايخفى عليكم، إنه ليس بأعور وإن الدجال أعور العين اليمنى»**[5].

والثانى: معنوى، وهو الدجال؛ فهو صيغة مبالغة، أو يقال بأنه نسبة إلى وصفه الملازم له، وهو الدَّجَل والكذب والتمويه، وهو رجل من بنى آدم، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بحكمته يخرجه ليفتن الناس به، وفتنته عظيمة؛ إذ ما فى الدنيا منذ خُلِق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أشد من فتنة الدجال.

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠١.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٨٤، ٢٨٥.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧.

(*) تقدم تخريجه.

(*) كذا بالأصل، ولعل الصواب حذفها؛ إظهاراً للمعنى.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧.

(٥) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٣٤٣٩)، ومسلم فى الفتن (١٨/ ٥٩ - النووى) عن عبد الله بن عمر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٨٢٢ - بتخريجنا).

والمسيح الدجال ثبتت به الأحاديث واشتهرت حتى كان من المعلوم بالضرورة؛ لأن النبي ﷺ أمر أمته أن يتعوذوا بالله منه فى كل صلاة، وقد حاول بعض الناس إنكاره وقالوا: ما ورد من صفته متناقض ولايمكن أن يصدق به، لكن هؤلاء يقيسون الأحاديث بعقولهم وأهوائهم، وقدرة الله بقدرتهم، ويقولون: كيف يكون اليوم الواحد عن ستة والشمس لها نظام لاتتعداه؟ وهذا لاشك جهل منهم بالله؛ فالذى جعل هذا النظام وهو الله، وهو القادر على أن يُغَيِّره متى شاء؛ فيوم القيامة تُكَوَّر الشمس، وتَتَكَدَّر النجوم، وتُكْشَط السماء، كل ذلك بكلمة «كن»، ورَدّ هذه الأحاديث بمثل هذه التعاليل دليل على ضعف الإيمان وعدم تقدير الله حق قدره، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1].

فالذى نؤمن به أنه سَيَخْرُجُ فى آخر الزمان، ويحصل منه كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ.

ونؤمن أن الله على كل شيء قدير، وأنه قادر على أن يبعث على الناس من يفتنهم عن دينهم؛ ليتميز المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب، مثل ما ابتلى الله بنى إسرائيل بالحيتان يوم سبتهم شرعا ويوم لايبتون لاتأتيهم ومثل ما ابتلى الله المؤمنين بأن أرسل عليهم الصيد وهم حُرُم، تناله أيديهم ورماحهم ليعلم الله من يخافه بالغيب، وقد يبتلى الله أفراد الناس بأشياء يمتحنهم بها، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾. اهـ.

قوله: «قالوا: بلى».

قال سليمان آل الشيخ[2]: قوله: قالوا: بلى. فيه الحرص على العلم، وأن من عرض عليك أن يخبرك بما فيك فلاينبغى لك رده، بل قابله بالقبول والتعلم.

قوله: (قال الشرك الخفى).

قال سليمان آل الشيخ[3]: قوله: قال: «الشرك الخفى» سمى الرياء شركاً خفياً، لأن صاحبه يظهر أن عمله لله، ويخفى فى قلبه أنه لغيره، وإنما تزين بإظهاره أنه لله بخلاف الشرك الجلى. وفى حديث محمود بن لبيد الذى تقدم فى باب الخوف من الشرك تسميته بالشرك الأصغر.

---

(١) الزمر: ٦٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٠١.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٠١

وعن شداد بن أوس قال: كُنَّا نَعُدُّ الرِّيَاءَ عَلَى عَهْدِ رَسُولُ الله ﷺ، الشِّرْكَ الأَصْغَرَ(1). رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب «الإخلاص» وابن جرير فى «التهذيب» والطبرانى والحاكم وصححه. فظاهره أنه من الأصغر مطلقاً» وهو ظاهر قول الجمهور.

وقال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر؛ فكيسير الرياء والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك ومالى إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده انتهى.

ففسر الشرك الأصغر باليسير من الرياء، فدل على أن كثيره أكبر، وضد الشرك الأكبر والأصغر التوحيد والإخلاص، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة باطنا وظاهراً كما قال تعالى: ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾(2) وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ**﴾(3) وقال تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى**﴾(4).

وقيل: الإخلاص استواء أحوال العبد فى الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه أى: لملاحظة الخلق، والصدق فى الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره. اهـ.

وأوضح ذلك أكثر ابن عثيمين فقال(5):

الشرك قسمان خفى وجلى:

فالجَلِيّ: ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله أو قول ما شاء الله وشئت، أو بالفعل مثل الانحناء لغير الله تعظيماً.

والخَفِيّ: ما كان فى القلب، مثل الرياء؛ لأنه لايَبِين؛ إذ لايعلم ما فى القلوب إلا الله، ويُسَمَّى أيضاً «شرك السرائر»، وهذا هو الذى بيَّنه الله بقوله: ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾؛

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) الزمر: ٢/ ٣.

(3) الزمر: ١١.

(4) الزمر: ١٤.

(5) القول المفيد ٢/ ٢٨٧و ٢٨٩.

لأن الحساب يوم القيامة على السرائر، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، وفى الحديث الصحيح فيمن كان يأمر بالمعروف ولايفعله وينهى عن المنكر ويفعله: أنه «**يلقى فى النار حتى تَنْدَلِقَ أقتاب بطنه، فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار، فيسألونه، فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولايفعله، وينهى عن المنكر ويفعله**»[1].

قلت: وهذا كقوله تعالى: «**يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر**» الآية.

قوله: «**يقوم الرجل، فيصلى، فيزين صلاته**».

يتساوى فى ذلك الرجل والمرأة، والتخصيص هنا يسمى مفهوم اللَّقب، أى أن الحكم يُعَلَّق بما هو أشرف، لا لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل. اهـ.

قوله: «فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل».

قال سليمان آل الشيخ[2]: **قوله: «فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»** فسر الشرك الخفى بهذا أن يعمل الرجل العمل لله، لكن يزيد فيه صفة كتحسينه وتطويله ونحو ذلك، لما يرى من نظر رجل فهذا هو الشرك الخفى، وهو الرياء. والحامل له على ذلك هو حب الرياسة، والجاه عند الناس. اهـ.

قلت: لكن لا يدخل فيه حال أبى موسى مع النبى ﷺ وقوله: «لو علمت مكانك يارسول الله لحبرته لك تحبرًا»(*) لما تقدم ولأنه لم يطمع من ذلك فى رياسة ولا وجاهة بل إدخال السرور على الرسول ﷺ فإذا كان إدخاله على المسلم خير ويسر فالرسول ﷺ من باب أولى.

قال ابن عثيمين[3]: **وقوله: «فيزين صلاته»**. أى: يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير، ونحو ذلك.

قوله: «**لما يرى من نظر رجل إليه**».

«ما» موصولة، وحذف العائد؛ أى: للذى يراه من نظر رجل، وهذه هى العلة لتحسين الصلاة؛ فقد زيَّن صلاته ليراه هذا الرجل فيمدحه بلسانه أو يُعظِّمه بقلبه، وهذا شرك. اهـ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(*) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

فيه مسائل

الأولى: تفسير آية الكهف.

ـ **ما يستفاد من الحديث:** التحذير من هذا الريآء الخفي وهذه الشهوة الخفية:

قال سليمان آل الشيخ(١):

قال الطيبي: وهو من أضر غوائل النفس، وبواطن مكائدها، يبتلى به العلماء والعباد، والمشمرون عن ساق الجد لسلوك طريق الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات؛ عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير، وإظهار العلم والعمل. فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق. ولم يقتنع باطلاع الخالق تبارك وتعالى، وفرحت بحمد الناس، ولم تقنع بحمد الله وحده، فأحبت مدحهم، وتبركهم بمشاهدته وخدمته وإكرامه وتقديمه في المحافل فأصابت النفس في ذلك أعظم اللذات، وأعظم الشهوات، وهو يظن أن حياته بالله تعالى، وبعباداته، وإنما حياته هذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة، قد أثبت اسمه عند الله من المنافقين، وهو يظن أنه عندالله من عباده المقربين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة. انتهى كلامه. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: وفي الحديث من الفوائد شفقته ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال، والحذر من الرياء ومن الشرك الأكبر إذ كان ﷺ يخاف الرياء على أصحابه مع علمهم وفضلهم، فغيرهم أولى بالخوف. اهـ.

فيه مسائل:

قال ابن عثيمين(٢):

- **الأولى:** تفسير آية الكهف.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٢/٤٠٣ـ٤٠٢.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩١.

الثانية: الأَمْرُ العَظِيمُ فِي رَدِّ العَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللهِ.

الثالثة: ذِكْرُ السَّبَبِ المُوجِبِ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الغِنَى.

الرابعة: أَنَّ من الأَسْبَابِ أَنَّهُ خَيْرُ الشُّرَكَاءِ.

الخامسة: خَوْفُ النبيِّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ.

وسبق الكلام عليها.

قلت: وهي قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولايشرك . .﴾ الآيه.

- **الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.**

وذلك لقوله: «**تركته وشركه**»، وصار عظيماً؛ لأنه ضاع على العامل خساراً، وفحْوَى الحديث تدل على غضب الله - عزوجل - من ذلك.

- **الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى.**

يعني: الموجب للرد هو كمال غنى الله - عزوجل - عن كل عمل فيه شرك، وهو غني عن كل عمل، لكن العمل الصالح يقبله ويثيب عليه.

- **الرابعة: أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء.**

أي: من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحداً، أن الله خير الشركاء، فلا يُنَازَع من جَعَل شريكاً له فيه.

قلت: لأن المشارك قد ينازع شريكه ليخلق لاسيما وقد دخل هذه الشركة عنوة بغير حق أما الله سبحانه فيترك ذلك من باب الخيرية المطلقة لا الضعف والغنى المطلق ولا العوز والحاجه والفقر والله أعلم.

- **الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء.**

وذلك لقوله ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال**». وإذا كان يخاف ذلك على أصحابه؛ فالخوف على من بعدهم من ذلك من باب أولى.

قلت: فالخوف على غير العاملين من البطاليين إنما هو ابتداءً وانتهاءً من الدجال أم على الأوليآء والأصفياء والعمال إنما الخوف عليهم من الرياء أكبر من الدجال لأنهم أقدر

السادسة: أَنَّهَ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنَّ المَرْءَ يُصَلِّى لله، لِكَنْ يُزَيِّنُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ.

على صد فتنته من البطالين لكن نخشى عـلى عملهم من الرياء وأما البطال فليس له من عمل يخشى عليه من الرياء إلا النذر اليسير إن وجد والله الموفق لارب سواه.

● **السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلى المرء، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه.**

وهذا التفسير ينطبق تماماً على الرياء؛ فـيكون أخوف علينا عند رسوله ﷺ من المسيح الدجال.

ولم يذكر المؤلف مسألة خوف النبى ﷺ عـلى أمته من المسيح الدجال؛ لأن المقام فى الرياء لا فيما يخافه النبى ﷺ على أمته. اهـ.



٣٦ بابٌ

من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

● **الفرق بين هذه الترجمة والتي قبلها، ومناسبتها للباب السابق:**

قال سليمان آل الشيخ(١): قد ظن بعض الناس أن هذا الباب داخل في الرياء، وأن هذا مجرد تكرير فأخطأ، بل المراد بهذا أن يعمل الإنسان عملاً صالحاً يريد به الدنيا كالذي يجاهد للقطيفة والخميلة ونحو ذلك، ولهذا سماه النبي ﷺ، عبدًا لذلك بخلاف المرائي، فإنه إنما يعمل ليراه الناس ويعظموه، والذي يعمل لأجل الدراهم والقطيفة ونحو ذلك أعقل من المرائي، لأن ذلك عمل لدنيا يصيبها. والمرائي عمل لأجل المدح، والجلالة في أعين الناس، وكلاهما خاسر نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه. اهـ.

- **قال عبد الرحمن آل الشيخ**(٢): بينهما عموم وخصوص مطلق؛ يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء كما تقدم بيانه كحال المنافقين، وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام. ويفارقه الرياء بكونه عمل عملاً صالحاً أراد به عرضًا من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالاً كما في الحديث: «تعس عبد الدينار...أو يجاهد للمغنم او غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): وعنوان الباب له ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون مكرراً مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنى واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله أخص من هذا الباب؟ لأنه خاص في الرياء، وهذا أعم، وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعًا مستقلاً عن الباب الذي قبله، وهذا هو الظاهر؛ لأن

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٠٣).

(٢) فتح المجيد (٢/ ٥١٢).

(٣) القول المفيد (٢/ ٢٩٣).

الإنسان فى الباب السابق يعمل رياء يريد أن يمدح فى العبادة، فيقال: هو عابد، ولا يريد النفع المادى. اهـ.

● **مناسبة الباب للتوحيد.**

قال عبد الله بن جار الله(1): هى أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافى كمال التوحيد الواجب ويحبط الأعمال. اهـ.

قال السعدى(2): من أعظم ما ينافى هذا - التوحيد - مراءاة الناس، والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم، أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدح فى الإخلاص والتوحيد. اهـ.

● **ماذا أراد المصنف بهذه الترجمة:**

قال عبد الرحمن آل الشيخ(3): أراد المصنف ـ رحمه الله ـ بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافى كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له فى عمل دون عمل، ولايسترسل معه، والمؤمن يكون حذرًا من هذا وهذا. اهـ.

● **شرح الترجمة:**

قال حسن بن محمد(4): **باب** - فى بيان ما جاء أن - **من الشرك** - الأكبر الذى يخلد صاحبه فى النار، ولاينجى منه إلا من أراد الله نجاته، وهو الشرك فى النية.

قال ابن القيم: وهو البحر الذى لاساحل له وقل من ينجو منه فمن أراد بعمله غير وجهه أو نوى شيئاً غير التقرب لله وطلب الجزاء منه فقد أشرك فى نيته والاخلاص أن يخلص لله فى أفعاله وأقواله وإراداته ونياته وهذه هى فى الحقيقة ملة إبراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهى حقيقة الإسلام ومن يبتغ غير الاسلام دينا فهو فى الاخرة من الخاسرين وهى مله إبراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه أنتهى كلامه رحمه الله.

فإذا ثبت أن **من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا** فلتنظر نفس ماهى عليه حتى تتدارك

---

(1) الجامع الفريد (148).

(2) القول السديد (98)

(3) فتح المجيد (2/ 513).

(4) فتح الله الحميد المجيد (2/ 373).

نفسها بالانكسار بين يدى الله، والتضرع إليه لأن ينجيه من هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم. اهـ.

وقال ناصر السعدى[1]: وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أعراضها؛ فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا القصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة؛ فهذا ليس له فى الآخرة من نصيب، وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن وإن كان ضعيف الإِيمان لابد أن يريد الله والدار الآخرة.

وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان؛ فهذا وإن كان مؤمنًا فإنه ناقص الإِيمان والتوحيد والإخلاص، وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص فى عمله إخلاصاً تاماً، لكنه يأخذ على عمله **جُعلاً** معلوماً يستعين به على العمل والدين؛ **كالجُعالات** التى تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد الذى يرتب على جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التى تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها؛ فهذا لا يضر أخذه فى إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا، وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معيناً على قيام الدين، ولهذا جعل الله فى الأموال الشرعية؛ كالزكوات وأموال الفىء وغيرها جزءً كبيراً لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة. اهـ.

وقال ابن عثيمين[2]: **قوله: ﴿من الشرك﴾.**

﴿من﴾ للتبعيض؛ أى: بعض الشرك.

قوله: ﴿الدنيا﴾ مفعول بإرادة؛ لأن إرادة مصدر مضاف إلى فاعله، وإذا أردت أن تعرف المصدر إن كان مضافًا إلى فاعلة أو مفعوله؛ فحوله إلى فعل مضارع مقرون بأن، فإذا قلنا: باب من الشرك أن يريد الإِنسان بعمله الدنيا؛ فالإِنسان فاعل، وعلى هذا؛ فإرادة مصدر مضاف إلى فاعله، والدنيا مفعول به.

وفى هذا الباب لايريد أن يمدح بعبادته ولا يريد المراءاة، بل يعبد الله مخلصًا له، ولكنه يريد شيئاً من الدنيا؛ كالمال، والمرتبة، والصحة فى نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك، فهو يريد بعمله نفعاً فى الدنيا غافلاً عن ثواب الآخرة. اهـ.

---

(١) القول السديد (٩٩، ١٠٠).

(٢) القول المفيد (٢/ ٢٩٣، ٢٩٤).

● **الفرق بين الرياء فى العبادة والتشريك فيها:-**

قال القرافى(١):

اعلم أن الرياء شرك وتشريك مع الله تعالى فى طاعته، وهو موجب للمعصية والإثم والبطلان فى تلك العبادة؛ فالرياء: أن يعمل العمل المأمور به المتقرب به إلى الله تعالى ويقصد به وجه الله تعالى، وأن يعظمه الناس أو يعظمهم؛ فيصل إليه نفعهم أو يندفع به ضررهم.

وأما مطلق التشريك كمن يجاهد لتحصيل طاعة الله بالجهاد وليحصل له المال من الغنيمة؛ فهذا لايضيره ولا يحرم عليه بالإجماع؛ لأن الله جعل له هذا فى العبادة، ففرق بين جهاده ليقول الناس: هذا شجاع، أو ليعظمه الإمام فيكثر عطاؤه من بيت المال، هذا ونحوه رياء وحرام، وبين أن يجاهد لتحصيل السبايا والكراع والسلاح من جهة أموال العدو مع أنه قد أشرك، ولا يقال لهذا: رياء بسبب أن الرياء أن يعمل ليراه غير الله من خلقه.

وكذلك من حج وأشرك فى حجة غرض المتجر، وكذلك من صام ليصح جسده، أو ليحصل له زوال مرض من الأمراض التى ينافيها الصوم، ولايقدح هذا فى صومه، بل أمر به صاحب الشرع فى قوله: «يامعشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع؛ فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء»(٢) أى: قاطع، فأمر الرسول ﷺ بالصوم لهذا الغرض، ولو كان ذلك قادحاً لم يأمر به ﷺ فى العبادة.

فهذه الأغراض لايدخل فيها تعظيم الخلق، بل هى تشريك أمور من المصالح ليس لها إدراك، ولاتصلح للإدراك ولا للتعظيم، ولا يمنع أن هذه الأغراض المخالطة للعبادة قد تنقص الأجر، وأن العبادة إذا تجردت عنها زاد الأجر وعظم الثواب».

وقال العز بن عبد السلام فى «**قواعد الأحكام**»: إن قيل: هل يكون انتظار الإمام المسبوق ليدركه فى الركوع شركًا فى العبادة أم لا؟ قلت: ظن بعض العلماء ذلك، وليس كما ظن، بل هو جمع بين قربتين؛ لما فيه من الإعانة على إدراك الركوع، وهى قربة أخرى؛ والإعانة على الطاعات من أفضل الوسائل عند الله.

---

(١) نقلاً من القول المفيد ٢/ ٢٩٤.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩٠٥) ومسلم فى النكاح (٩/ ١٧٢، ١٧٥ - النووى) عن ابن مسعود به وأنظر «السلسبيل» (١٩٩٤ - بتخريجنا).

● **أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا.**

قال ابن عثيمين[1]:

١ - أن يريد المال؛ كمن أَذَّنَ ليأخذ راتب المؤذن، أو حج ليأخذ المال.

٢ - أن يريد المرتبة؛ كمن تعلم فى كلية ليأخذ الشهادة فترتفع مرتبته.

٣ - أن يريد دفع الأذى والأمراض والآفات عنه؛ كمن تـعبد لله كى يجزيه الله بهذا فى الدنيا بمحبة الخلق له ودفع السوء عنه وما أشبه ذلك.

٤ - أن يتعبد لله يريد صرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير وهناك أمثلة كثيرة.

مسألة:

قال ابن عثيمين[2]: فإن قيل: هل يدخـل فيه من يتعلمون فى الكُـلِّيات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟

والجواب: إنهم يدخلون فى ذلك إذا لم يريدوا غرضاً شرعياً، فنقول لهم:

أولاً: لا تقصدوا بذلـك المرتبة الدنيوية، بل اتـخذوا هذه الشهادة وسيلة لـلعمل فى الحقول النافعة للخلق؛ لأن الأعمال فى الوقـت الحاضر مبنية على الشهادات، والناس لا يستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة.

ثانياً: أن من أراد العلم لذاته قـد لا يجده إلاَّ فى الكليات؛ فيدخل الكـلية أو نحوها لهذا الغرض، وأما بالنسبة للمرتبة؛ فإنها لاتهمه.

ثالثاً: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين - حسنى الدنيا وحسنى الآخرة -؛ فلا شىء عليه لأن الله يقول: **﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾**[3]؛ فرغبه فى التقوى بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لايحتسب.

فإن قيل: من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص مع أنه أراد المال مثلاً؟

أجيب: إنـه أخلص العبـادة ولم يرد بها الخـلق إطلاقاً، فـلم يقصد مـراءاة الناس ومدحهم، بل قصد أمرًا مادياً؛ فإخلاصه ليس كاملاً لأن فيه شركاً، ولكن ليس كشرك الرياء يريد أن يمـدح بالتقرب إلى الله، وهذا لم يرد مدح الناس بـذلك، بل أراد شيئاً دنيئاً غيره.

قلت: ليستعين بهذا الشىء المادى أو الدنيـوى على أمر الآخرة فهذا لاشىء عليه كما مر من كلام السعدى ثم قال ابن عثيمين:

(١، ٢) القول المفيد ٢٩٦ - ٢٩٨).

(٣) الطلاق: ٢/ ٣.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

ولا مانع أن يدعو الإنسان فى صلاته ويطلب أن يرزقه الله المال، ولكن لايصلى من أجل هذا الشىء؛ فهذه مرتبة دنيئة.

أما طلب الخير فى الدنيا بأسبابه الدنيوية؛ كالبيع، والشراء، والزراعة؛ فهذا لاشىء فيه، والأصل أن لا نجعل فى العبادات نصيبًا من الدنيا، وقد سبق البحث فى حكم العبادة إذا خالطها الرياء فى باب الرياء.

● **ملاحظة:**

بعض الناس عندما يتكلمون على فوائد العبادات يحولونها إلى فوائد دنيوية.

فمثلاً يقولون: فى الصلاة رياضة وإفادة للأعصاب، وفى الصيام فائدة إزالة الرطوبة وترتيب الوجبات، والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هى الأصل؛ لأن الله لم يذكر ذلك فى كتابه، بل ذكر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وعن الصوم أنه سبب للتقوى؛ فالفوائد الدينية فى العبادات هى الأصل والدنيوية ثانوية، لكن عندما نتكلم عند عامة الناس؛ فإننا نخاطبهم بالنواحى الدينية، وعندما نتكلم عند من لايقتنع إلا بشىء مادى؛ فإننا نخاطبه بالنواحى الدينية والدنيوية، ولكل مقام مقال أ هـ.



وقوله الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ....﴾ الآيتين.

مناسبة الآيتين للباب.

قال عبد الله بن جار الله(٢): أن فيهما وعيد لمن قصد بعمله الدنيا بإحباط عمله ودخول النار. اهـ.

وقال ابن باز(٣): وهذا وعيد، والآية فى الكفار والذين عبدوا الله لأجل الدنيا كالمنافقين، وعمومه يوجب الحذر من إرادة الإنسان بعمله الدنيا ولو كان ذلك فى بعض الأمور. اهـ.

---

(١) هود / (١٥، ١٦). (٢) الجامع الفريد (١٤٨). (٣) التعليق المفيد (١٩١).

قال القرعاوى[1]: دلت الآيتان على أن طلب الدنيا بعمل الآخره مبطل لثوابها. اهـ.

قوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾.

الإعراب:

قال القرطبى[2]:

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ﴾ زائدة، ولهذا أجزم الجواب فقال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ قاله الفراء.

وقال الزجاج: ﴿مَن كَانَ﴾ فى موضع جزء بالشرط وجوابه ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ أى من يكن يريد، والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل، كما قال زهير:

ومن هاب أسبابَ المنيةِ يَلْقَها ... ولو رامَ أسبابَ السَّماءِ يُسلَّم

وقال صاحب الإعراب[3]: (من) اسم شرط جازم فى محل رفع مبتدأ واسم كان ضمير مستتر يعود على (من) وجملة (يريد الحياة الدنيا) خبر كان (وكان) فعل الشرط مجزوم محلاً (وزينتها) عطف على الحياة (ونوفّ) جواب الشرط مجزوم بحذف حرف العلة (واليهم) جار ومجرور متلعقان (بنوفّ) (وأعمالهم) مفعول به وفيها متعلقان بمحذوف حال وهم الواو حالية وهم مبتدأ (وفيها) متعلقان (بيبخسون) وجملة (لا يبخسون) خبر هم.

وقال الفراء: (كان) هنا زائدة وتقديره (من يرد الحياة الدنيا)، وهو قول جميل وطريف لولا أنه غير مطرد ولا يسوغ حمل القرآن عليه. اهـ.

● سبب نزول الآية:

عن أنس رضى الله عنه فى قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ قال: نزلت فى اليهود والنصارى[4].

عن الضحاك فى الآية قال: نزلت فى أهل الشرك[5].

(١) الجديد (٣٢٩). (٢) تفسير القرطبى (٥/ ٣٢٤١).

(٣) إعراب القرآن (٤/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٧٣٦) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤) وزاد نسبته لابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن المردوية.

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٧٤٠) وأنظر «الدر» (٣/ ٥٨٤).

قال ابن الجوزى[1]: اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال.

أحدها: أنها عامة فى جميع الخلق، وهو قول الأكثرين.

والثانى: فى أهل القبلة، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أنها فى اليهود والنصارى قال أنس.

والرابع: أنها فى أهل الرياء أهـ.

وقال الفخر الرازى[2]: **المسألة الأولى**: اعلم أن فى الآية قولين:ـ

القول الأول:أنها مختصة بالكفار، لأن قوله: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ يندرج فيه المؤمن والكافر والصديق والزنديق. لأن كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها، إلا أن آخر الآية يدل على أن المراد من هذا العام والخاص وهو الكافر، لأن قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ لايليق إلا بالكفار، فصار تقدير الآية: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط، أى تكون إرادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالباً لسعادات الآخرة، كان حكمه كذا وكذا، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه.

فمنهم من قال: المراد منهم منكروا البعث فإنهم ينكرون الآخرة ولايرغبون إلا فى سعادات الدنيا. وهذا قول الأصم وكلامه ظاهر.

والقول الثانى: أن الآية نزلت فى المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها.

والقول الثالث: أن المراد اليهود والنصارى؛ وهو منقول عن أنس.

والقول الرابع: وهو الذى اختاره القاضى أن المراد: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها أهـ.

القول الثانى: وهو أن تجرى الآية على ظاهرها فى العموم، ونقول: إنه يندرج فيه المؤمن الذى يأتى بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة، ويندرج فيه الكافر الذى هذا صفته، وهذا القول مشكل، لأن قوله: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾ لايليق بالمؤمن، إلا إذا قلنا: المراد ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾ بسبب

---

(١) زاد المسير (٤/٦٥٢٦٤).

(٢) التفسير الكبير (٩/١٧/٢٠٧٢٢٠٦).

هذه الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة المقرونة بالرياء، ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخباراً كثيرة فى هذا الباب. روى أن الرسول عليه السلام قال «**تعوذوا بالله من جب الحزن** قل وما جب الحزن؟ قال عليه الصلاة والسلام «**واد فى جهنم يلقى فيه القراء المراؤن**»[1] وقال عليه الصلاة والسلام «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه**».

وقال عليه الصلاة والسلام «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه».

قال القرطبى[2]: والصحيح العموم أهـ.

وقال ابن عثيمين[3]: **اختلف فيمن نزلت فيه آية هود:**

١ـ قيل: نزلت فى الكفار؛ لأن الكافر لايريد إلا الحياة الدنيا، ويدل لهذا سياقها والجزاء المُرتَّب على هذا، وعليه يكون وجه مناسبتها للترجمة أنه إذا كان عمل الكافرين يراد به الدنيا، فكل من شاركهم فى شىء من ذلك؛ ففيه شىء من شركهم وكفرهم.

٢ـ وقيل: نزلت فى المرائين؛ لأنهم لايعملون إلا للدنيا؛ فلا ينفعهم يوم القيامة.

٣ـ وقيل: نزلت فيمن يريد مالاً بعمله الصالح.

والسياق يَدلُّ للقول الأول؛ لقوله تعالى: ﴿**أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾. اهـ.

ثمر ذكر الحديث عن أبى هريرة المتقدم وماذا فعل معاويه عند ما سمعه.

● **تنبيه:**

اقتصر المؤلف ـ رحمه الله ـ على الإشارة إلى تكميل الآية الأولى، وزدنا الآية التالية سهواً وعسى أن يكون خيراً. هكذا قال ابن عثيمين اهـ.

● **التفسير بالقرآن.**

قال الشنقيطى[4]: ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الشورى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**﴾[5] ولكنه تعالى بين فى سورة بنى إسرائيل تعليق ذلك على مشيئته جل وعلا

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تفسير القرطبى (٥/ ٣٢٤٢).
(٣) القول المفيد (٢/ ٢٩٨، ٢٩٩).
(٤) أضواء البيان (٣/ ١١).
(٥) الشورى: ٢٠.

بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾(١) الآية. اهـ.

[قلت] وكقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾(٢).

● **ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث والآثار:**

● **أولاً: التفسير بالمرفوع:**

عن عقبة بن مسلم حدثه أن شفى بن مانع الأصبحى حدثه أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال من هذا فقالوا أبو هريرة فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس فلما سكت وخلى قلت أنشدك بحق وبحق لما حدثنى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته قال فقال أبوهريرة أفعل لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ ثم نشغ نشغة ثم أفاق فقال لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ فى هذا البيت ما فيه أحد غيرى وغيره ثم نشغ أبوهريرة نشغة شديدة ثم مال خارا على وجهه واشتد به طويلا ثم أفاق فقال حدثنى رسول الله ﷺ **أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضى بينهم وكل أمة جاثية فأول من يدعى به رجل جمع القرآن ورجل قتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله للقارىء ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى قال بلى يارب قال فماذا عملت فيما علمت قال كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله له بل أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال بلى يارب قال فماذا عملت فيما أتيتك قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقال له فيما ذا قتلت فيقول أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله له بل أردت أن يقال فلان جرىء وقد قيل ذلك ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى فقال أباهريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر لهم النار يوم القيامة قال الوليد أبو عثمان فأخبرنى عقبة أن شفيا هو الذى دخل على معاوية فأخبره بهذا.** عن العلاء بن أبى حكيم أنه كان سيافا لمعاوية قال فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبى هريرة فقال أبو هريرة وقد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقى من الناس ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى

---

(١) الإسراء: ١٨.

(٢) آل عمران: ١٤٥.

ظننا أنه هلك وقلنا هذا الرجل شر ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه فقال صدق الله ورسوله من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وقرأ إلى وباطل ما كانوا يعملون-[(١)].

عن أنس رضى الله عنه[(٢)] قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاثة فرق. فرقة يعبدون الله خالصا، وفرقة يعبدون الله رياء، وفرقة يعبدون الله يصيبون به دنيا، فيقول للذى كان يعبد الله للدنيا: بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى؟ فيقول: الدنيا. فيقول: لا جرم لاينفعك ما جمعت ولاترجع إليه انطلقوا به إلى النار، ويقول للذى يعبد الله رياء: بعزتي وجلالى ما أردت بعبادتى؟ قال: الرياء. فيقول: إنما كانت عبادتك التى كنت ترائى بها لايصعد إلىّ منها شىء ولاينفعك اليوم انطلقوا به إلى النار، ويقول للذى كان يعبد الله خالصا: بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى فيقول: بعزتك وجلا لك لا أنت أعلم به منى كنت أعبدك لوجهك ولدارك. قال: صدق عبدى انطلقوا به إلى الجنة»[(٣)].

وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بناس بين الناس إلى الجنة، حتى إذا دنوا منها استنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فيقولون: يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من الثواب وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون. قال: ذلك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظيم، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ولم تجلونى، وتركتم للناس ولم تتركوا إلى، فاليوم اذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتم من الثواب»[(٤)].

● **ثانياً: التفسير بأقوال السلف:**

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٢/ ١٠، ١١)، والترمذى (٢٣٨٢) عن أبى هريرة به وتقدم بنحوه. وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤) وزاد نسبته لابن المنذر، والبيهقى فى «الشعب» وانظر «فتح المجيد» (ح ٧١٠) بتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٥٨٤) ونسبه للنحاس فى «ناسخه»..

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٤) نفس المصدر السابق.

عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ أى ثوابها ﴿**وَزِينَتَهَا**﴾ مالها[1].

عن السدى مثله[2].

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية فقال: من عمل صالحاً التماس الدنيا، صوم أو صلاة، أو تهجد بالليل، لايعمله إلا لالتماس الدنيا[3].

عن عبدالله بن معبد قال: قام رجل إلى على ـ رضى الله عنه ـ فقال: أخبرنا عن هذه الآية ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا**﴾ إلى قوله: ﴿**وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ قال له: نعم. ويحك، ذاك من كان يريد الدنيا، ولايريد الآخرة[4].

عن مجاهد كان يقول فى هذه الآية: هم أهل الرياء، هم أهل الرياء[5].

عن مجاهد: ممن لاتقبل منه يصوم ويصلى، يريد به الدنيا، ويدفع عنها[6].

عن قتادة: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ يقول: من كانت الدنيا همته وسدمه وطلبته، ونيته[7].

وعنه أيضاً: من كان إنما همته الدنيا إياها يطلب[8].

وأخرج أيضاً عن مجاهد: ممن لايقبل منه[9].

وعن سعيد بن جبير، فى هذه الآية: هو الرجل يعمل عمل الدنيا، لايريد بها الله، وهى مثل الآية فى الروم ﴿**وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ**﴾[10].

وعن الضحاك: يقول من عمل عملاً صالحاً يريد به وجه الله فى غير تقوى يعنى من أهل الشرك[11].

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» الدر المنثور (٣/ ٥٨٤، ٥٨٥).

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» الطبرى (١٢/ ١٠، ١١، ١٢) وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن أبى حاتم.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسير» (ح١٠٧٣٨) وذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤) وزاد نسبته لأبى الشيخ.

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع الأخير.

(٧) أخرجه ابن جرير فى الموضع الأخير وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٥) ونسبه لأبى الشيخ.

(٨) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٩ ـ١١) المصدر السابق.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

ـ **قال ابن جرير**[(١)]: يقول تعالى ذكره: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا، وأثاثها، وزينتها يطلب به أهـ.

ـ **قال البغوى**[(٢)]: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أى: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَزِينَتَهَا﴾ نزلت فى كل من عمل عملاً يريد به غير الله عزوجل. اهـ.

قلت: وتقدم فى أسباب النزول ذكر الاختلاف فى نزولها فانظره.

ـ **قال الفخر الرازى**[(٣)]: اعلم أن الكفار كانوا ينازعون محمدا ﷺ فى أكثر الأحوال، فكانوا يظهرون من أنفسهم أن محمدا مبطل ونحن محقون، وإنما نبالغ فى منازعته لتحقيق الحق وإبطال الباطل، وكانوا كاذبين فيه، بل كان غرضهم محض الحسد والاستنكاف من المتابعة، فأنزل الله تعالى هذه الآية لتقرير هذا المعنى.

ثم قال: أن المراد: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها، وعمل الخير قسمان: العبادات، وإيصال المنفعة إلى الحيوان، ويدخل فى هذا القسم الثانى البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعى فى دفع الشرور وإجراء الأنهار. فهذه الأشياء إذا أتى بها الكافر لأجل الثناء فى الدنيا، فإن بسببها تصل الخيرات والمنافع إلى المحتاجين، فكلها تكون من أعمال الخير. فلا جرم هذه الأعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم. وأما العبادات: فهى إنما تكون طاعات بنيات مخصوصة، فإذا لم يؤت بتلك النية، وإنما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا، وتحصيل الرياء والسمعة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات.

وإذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ المراد منه الطاعات التى يصح صدورها من الكافر أهـ.

---

(١) تفسير ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٠).

(٢) معالم التنزيل (٣/ ١٩٧).

(٣) التفسير الكبير (٩/ ١٧/ ٢٠٦).

ـ **قال الشوكاني**(١): وإدخال ﴿كَانَ﴾ فى الآية يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم لايكادون يريدون الآخرة، ولهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون فى الآخرة لأنهم جرّدوا قصدهم إلى الدنيا ولم يعملوا للآخرة أهـ.

قال صاحب الظلال(٢): ونحن نشهد فى هذه الأرض أفراداً اليوم وشعوباً وأمماً تعمل لهذه الدنيا، وتنال جزاءها فيها. ولدنياها زينة، ولدنياها انتفاخ!

فلايجوز أن نعجب ولا أن نسأل: لماذا؟ لأن هذه هى سنة الله فى هذه الأرض: ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لايجوز أن ينسينا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله فى الكسب والمتاع فينالوا زينة الحياة الدنيا لايبخسون منها شيئا وينالوا كذلك متاع الحياة الآخرة إن العمل للحياة الأخرى لايقف فى سبيل العمل للحياة الدنيا. بل إنه هو هو مع الاتجاه إلى الله فيه. ومراقبة الله فى العمل لاتقلل من مقداره ولاتنقص من آثاره، بل تزيد وتبارك الجهد والثمر، وتجعل الكسب طيباً والمتاع به طيباً، ثم تضيف إلى متاع الدنيا متاع الآخرة. إلا أن يكون الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات الحرام وهذه مردية لا فى الآخرى فحسب، بل كذلك فى الدنيا ولو بعد حين وهى ظاهرة فى حياة الأمم وفى حياة الأفراد. وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات على مدار القرون. اهـ.

قال ناصر السعدى(٣): ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾.

أى: كل إرادته، مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها، من النساء، والبنين والقناطيرالمقنطرة، من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث.

قد صرف رغبته، وسعيه، وعمله فى هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئاً. فهذا لايكون إلا كافراً، لأنه لو كان مؤمنا، لكان ما معه من الإيمان ما يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا.

بل نفس إيمانه، وما تيسر له من الأعمال، أثر من آثار إرادته الدار الآخرة. اهـ.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ(٤): **قال الضحاك**: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من

(١) فتح القدير (٢/ ٥٠١).

(٢) الظلال (٤/ ١٨٦٢، ١٨٦٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٤٥/ ٣٤٦).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٠٣.

غير تقوى؛ عجل له ثواب عمله فى الدنيا، واختاره الفراء[1].

قال ابن القيم: وهذا القول أرجح. ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وقالت طائفة: هذه الآية فى حق الكفار. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

أى: البقاء فى الدنيا.

قوله: ﴿وَزِينَتَهَا﴾.

أى: المال، والبنين، والنساء، والحرث، والأنعام، والخيل المُسوَّمة؛ كما قال تعالى: **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**.

- **قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾.**
- **التفسير بالمأثور من المرفوع والموقوف والمقطوع.**

عن محمد بن كعب القرظى أن النبى ﷺ قال: «**من أحسن من محسن، فقد وقع أجره على الله، فى عاجل الدنيا، وآجل الآخرة**»[3].

عن ابن عباس رضى الله عنهما: **﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾** نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة، والسرور فى الأهل، والمال، والولد[4].

عن قتادة قال: من كان إنما همته الدنيا إياها يطلب، أعطاه الله مالاً، وأعطاه فيها ما يعيش وكان ذلك قصاصاً له بعمله[5].

عن مجاهد رضى الله عنه **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾** قال: من عمل للدنيا لايريد به الله وفاه ذلك العمل فى الدنيا أجر ما عمل[6].

عن سعيد بن جبير فى قوله **﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾** قال: ثواب ما عملوا فى الدنيا من خير أعطوه فى الدنيا، وليس لهم فى الآخرة إلا النار[7].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد ٢/٢٩٨، ٢٩٩.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٢/١١).

(٤ - ٧) تقدمت مصادرهم قريباً.

عنه أيضاً: وربما عملوا من خير أعطوه فى الدنيا، وليس لهم فى الآخرة إلا النار[1].

عنه أيضاً: من عمل للدنيا، وفيه فى الدنيا[2].

عن مجاهد قال: ممن لايقبل منه، جوزى به، يعطى ثوابه[3].

عن مجاهد: لايريد بها وجه الله أعطاه الله فى الدنيا ثواب ذلك مثل ما أنفق فذلك قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾[4].

وعن مجاهد فى قوله: قال: نعجل لمن لايتقبل منه[5].

وعن الضحاك فى قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ قال: يقول يعجل الله له ثواب عمله فى الدنيا، يوسع عليه فى المعيشة، والرزق، ويقر عينه فيما حوله، ويدفع عنه من مكاره الدنيا، فى نحو هذا، وليس له فى الآخرة من نصيب[6].

وعن الضحاك فى الآية يقول من عمل عملاً صالحاً فى غير تقوى، يعنى من أهل الشرك، أعطى على ذلك أجراً فى الدنيا يصل رحماً، يعطى سائلاً، يرحم مضطراً فى نحو هذا من أعمال البر، يعجل الله له ثواب عمله فى الدنيا، يوسع عليه فى المعيشة والرزق، ويقر عينه فيما حوله، ويدفع عنه من مكاره الدنيا فى نحو هذا، وليس له فى الآخرة من نصيب[7].

وعن الحسن فى قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ قال: طيباتهم[8].

● **أقوال أهل التفسير.**

ـ **قال ابن جرير**[9]: نوف إليهم أجور أعمالهم فيها، وثوابها أهـ.

ـ **وقال البغوى**[10]: قوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أى: نوف لهم أجور أعمالهم فى الدنيا بسعة الرزق، ودفع المكاره، وما أشبهها أهـ.

(١ـ ٣) تقدمت مصادرهم قريباً.

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١٢/ ١٠، ١١).

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦/ ١٢/ ١٠،١١).

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١٢/ ١٠، ١١).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١٢/ ١٠).

(٨) أخرجه ابن جرير فى الموقع السابق وانظر «الدر» (٣/ ٥٨٥).

(٩) المصدر السابق. (١٠) معالم التنزيل (٣/ ١٩٧).

ـ **وقال الزمخشرى**[١]: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيـا وهو ما يرزقونه فيها من الصحة والرزق وقـيل هم أهل الرياء يقال للقراء منهم أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك. ولمن وصل الرحم وتصدق فعلت حتى يقال فقيل ولمن قاتل فقتل قاتلت حتى يقال فلان جرىء فقد قيل.

وقرىء يوفّ بالياء على أن الـفعل لله عزوجل توف إليهم أعمالهم بالـتاء على البناء للمفـعول وفى قراءة الحسن نوفى بـالتخفيف بإثبـات الياء لأن الشرط وقع ما فيـا كقوله يقول لا غائب مالى ولا حرم اهـ.

ـ **وقال ابن الجوزى**[٢]: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى أجور أعمالهم اهـ.

ـ **وقـال الفـخـر الـرازى**[٣]: المراد من تـوفيـة أجور تلك الأعـمـال هـو أن كـل ما يستـحقونه بها من الثواب فإنه يصـل إليهم حـال كـونهـم فـى دار الدنيا، فإذا خرجـوا مـن الدنيا لم يبق معهم من تلك الأعمال أثر من آثار الخيرات، بل ليـس لهـم منهـا إلا النـار.

واعلم أن العقل يدل عليه قطعا، وذلـك لأن من أتى بالأعمال لأجل طلب الثناء فى الدنيا، ولأجل الرياء، فذلك لأجل أنه غلب على قلبه حب الدنيا، ولم يحصل فى قلبه حب الآخرة، إذ لو عرف حقيقة الآخرة وما فيها من السعادات لامتنع أن يأتى بالخيرات لأجل الدنيا ويسىء أمر الآخرة، فثبت أن الآتى بأعمال البر لأجل الدنيا لابد وأن يكون عظيم الرغبة فى الدنيا عديم الطلب لـلآخرة ومن كان كذلك فإذا مات فإنه يفوته جميع منافع الدنيا ويبقى عاجزاً عن وجدانها غير قادر على تحصيلها، ومن أحب شيئا ثم يحل بينه وبـين المطلوب فإنـه لابد وأن تشتعل فـى قلبه نيران الحـسرات فثبت بهـذا البرهان العقلى، أن كل من أتى بعمل من الأعمال لطلب الأحوال الدنيوية فإنه يجد تلك المنفعة الدنيوية الـلائقة بذلك العمل، ثم إذا مات فـإنه لايحصل له منه إلا النـار ويصير ذلك العمل فى الدار الآخرة محبطا باطلا عديم الأثر.

قال القرطبى[٤]: قال بـعض العلـماء: معنـى هذه الآية قولـه عليه الـسلام: «**إنما الأعمال بالنيات**» وتدلك هذه الآية على أن من صام فى رمضان لا عن رمضان لايقع عن رمضان، وتدل على أن من تـوضأ للتبرد والتنظف لايقع قربة عـن جهة الصلاة، وهكذا كل ما كان فى معناه.

(١) الكشاف (٢/ ٢١٠).
(٢) زاد المسير (٤/ ٦٤، ٦٥).
(٣) تفسير الكبير (٩/١٧/٢٠٧، ٢٠٨).
(٤) القرطبى (٥/ ٣٢٤٢).

وذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة، وكذلك الآية التي في الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ الآية.

وكذلك ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ قيدها وفسرها التي في «سبحان»: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ إلى قوله: ﴿مَحْظُورًا﴾ فأخبر سبحانه أن العبد ينوى ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد. وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ منسوخة بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾.

والصحيح ما ذكرناه وأنه من باب الإطلاق والتقييد، ومثله قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داعٍ دائماً على كل حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ والنسخ في الأخبار لايجوز، لاستحالة تبدّل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على الله تعالى؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه، على ما هو مذكور في الأصول وبنحو كلام القرطبي قال الشوكاني.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد.**

قال سليمان آل الشيخ: فقال إن السلف كانوا يسمون التقييد والتخصيص نسخاً وإلا فالآية محكمة اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: **قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾** فعل مضارع معتل الآخر مجزوم بحذف حرف العلة ـ الياء؛ لأنه جواب الشرط.

والمعنى: أنهم يُعطَون ما يريدون في الدنيا، ومن ذلك الكفار لايسعون إلا للدنيا وزينتها، فعجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

ولهذا لما بكى عمر حين رأى النبي ﷺ قد أثّر في جنبه الفراش، فقال: «ما يبكيك؟». قال: يا رسول الله! كسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت على هذه الحال. فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك قوم عجِّلت لهم طيباتهم**»[2]، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم؛ لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم؛ صار عليهم أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا. اهـ.

---

(١) القول المفيد (٢/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) أصله أخرجه مسلم في الطلاق (٥/ ٣٣٩/ ٣٠) عن عمر به.

قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾.

● **التفسير بالمأثور**

أولاً من الموقوف.

عن ابن عباس فى قوله ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ قال: وهو فى الآخر من الخاسرين[(١)].

ثانياً من المقطوع.

عن مجاهد ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ أجر ما عملوا فيها[(٢)].

عن قتادة: ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ يقول: لايظلمون ـ فى الآخرة ـ[(٣)].

عن الضحاك ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ ليس له فى الآخرة من نصيب[(٤)].

عن مجاهد: ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ قال: لاينقصون[(٥)].

● **أقوال أهل التفسير.**

قال ابن جرير[(٦)]: ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ وهم فى الدنيا ﴿لا يُبْخَسُونَ﴾ يقول: لاينقصون أجرها، ولكنهم يوفونه فيها أهـ.

ـ **وقال البغوى**[(٧)]: أى فى الدنيا لاينقص حظهم أهـ.

ـ **وقال ابن الجوزى**[(٨)] بنحو ذلك.

ـ **وقال الشوكانى**[(٩)]: قال القاضى: معنى الآية من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا، وهم ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والمنافع، فخص الجزاء بمثل ما ذكره، وهو حاصل لكل عاملاً للدنيا، ولو كان قليلاً يسيراً. أهـ.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١٢).

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق ونسبه السيوطى فى «آلدر» (٣/ ٥٨٥) لأبى الشيخ.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٥) المصدر السابق

(٦) ابن جرير فى الموضع السابق.

(٧) معالم التنزيل (٣/ ١٩٧).

(٨) زاد المسير (٤/ ٦٤، ٦٥).

(٩) فتح القدير (٢/ ٥٠٠).

- **وقال السعدى**[1]: لاينقصون شيئاً مما قدر لهم، ولكن هذا نعيمهم أهـ.

قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾.

الإعراب[2]: اسم الإشارة مبتدأ والذين خبره وجملة ليس صلة ولهم خبر مقدم لليس وفى الآخرة حال وإلا أداة حصر والنار اسم ليس المؤخر.

الواو عاطفة (وحبط) فعل ماض (وما) فاعله وجملة (صنعوا) صلة ويجوز أن تكون ما مصدرية وهى مع مدخولها فى تأويل مصدر فاعل (حبط) وفيها متعلقان (بصنعوا أو بحبط وباطل والواو عاطفة وباطل خبر مقدم وما اسم موصول مبتدأ مؤخر ويجوز أن تكون ما مصدرية وهى مع مدخولها فى تأويل مصدر مبتدأ مؤخر وكانوا كان واسمها وجملة يعملون خبرها.

- **التفسير بالمأثور.**

عن الضحاك فى الآية: يقول: ما عملوا من عمل صالح فى شركهم عجل الله لهم ثوابه فى الدنيا، ولم يكن لهم فى الآخرة إلا النار[3].

- **أقوال أهل التفسير.**

- **قال ابن جرير**[4]: ذكر هؤلاء الذين ذكرت أنا نوفيهم أجور أعمالهم فى الدنيا ليس لهم فى الآخرة إلا النار يصلونها وحبط ما صنعوا فيها يقول وذهب ما عملوا فى الدنيا وباطل ما كانوا يعملون لأنهم كانوا يعملون لغير الله فأبطله الله وأحبط عامله أجره أهـ.

- **وقال البغوى**[5]، بنحوه **وكذا ابن الجوزى**[6]

وقال القرطبى: قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾ إشارة إلى التخليد، والمؤمن لايُخلد، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ**﴾ الآية. فهو محمول على مالو كانت موافاة هذا المرائى على الكفر.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) إعراب القرآن (٤/ ٣٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦/ ٢٠١٠، ٢٠١١).

(٤) ابن جرير (٧/ ١٢/ ١٠). (٥) معالم التنزيل (٣/ ١٩٧).

(٦) زاد المسير (٤/ ٦٤/ ١٦٥).

وقيل ليس لهم إلا النار فى أيام معلومة ثم يخرج؛ إما بالشفاعة، وإما بالقَبضة. والآية تقتضى الوعيد بسلب الإيمان. اهـ.

ـ **وقال الشوكانى**[1]: الإشارة إلى المريدين المذكورين، ولابد من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشىء من الأعمال المعتد بها، الموجبة للجزاء الحسن فى الدار الآخرة، أو تكون خاصة بالكفار كما تقدم أهـ.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد.**

ـ **وقال سليمان آل الشيخ**[2]: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾ أى: أنهم لم يعملوا إلا للحياة الدنيا وزينتها.

قال ابن عثيمين[3]: **قوله**: ﴿**أُوْلَئِكَ**﴾. المشار إليه الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها.

● **قوله**: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ**﴾.

فيه حصر طريقة النفى والإثبات، وهذا يعنى أنهم لن يدخلوا الجنة؛ لأن الذى ليس له إلا النار محروم من الجنة والعياذ بالله.

● **قوله**: ﴿**وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا**﴾.

● **قوله**: ﴿**وَحَبِطَ**﴾

● **التفسير بالمأثور.**

عن السدى عن أبى مالك ﴿**وَحَبِطَ**﴾ يعنى: بطل[4].

● **قوله**: ﴿**مَا صَنَعُوا فِيهَا**﴾.

وعن ابن عباس: وحبط عمله الذى كان يعمل إلتماس الدنيا وهو فى الآخرة من الخاسرين[5].

---

(١) فتح القدير (٢/٥٠١).

(٢) تيسير العزيز الحميد

(٣) القول المفيد (٢/٢٩٨، ٢٩٩).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦/ ٢٠١٢) وانظر «الدر» (٣/٥٨٦).

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى الموضع السابق.

وعن ابن عباس: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾ فى الدنيا[1].

وعن السدى ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾ قال: وحبط ما عملوا من خير[2].

● قوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الإعراب:

قال القرطبى[*]: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ابتداء وخبر؛ قال أبو حاتم: وحذف الهاء؛ ال النحاس: هذا لايحتاج إلى حذف؛ لأنه بمعنى المصدر؛ أى وباطل عمله. وفى حرف أبى وعبدالله ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وتكون «ما» زائدة؛ أى وكانوا يعملون باطلا. اهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:**

وعن ابن عباس[3]: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فى الدنيا.

وعن السدى: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: وباطل فى الآخرة ليس لهم فيها جزاء[5].

وعن أبى بن كعب أنه قرأ ﴿وَبَاطِلاً مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6].

● **أقوال أهل التفسير.**

وقال الزمخشرى[7]: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى كان عملهم فى نفسه باطلا لأنه لم يعمل لوجه صحيح والعمل الباطل لاثواب له وقرىء وبطل على الفعل وعن عاصم وباطلا بالنصب وفيه وجهان أن تكون ما إبهامية وينتصب بيعملون ومعناه وباطلا أى باطل كانوا يعملون وأن تكون بمعنى المصدر على وبطل بطلانا ما كانوا يعملون.

---

(1) انظر المصدر السابق.

(2) نفس المصدر.

(*) القرطبى (٦/ ٣٢٤٣).

(3) ابن أبى حاتم (٦/ ٢٠١٢).

(4) (5) نفس المصدر.

(6) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤، ٥٨٥) ونسبه لأبى عبيد، وابن المنذر.

(7) الكشاف.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد.**

قال سليمان آل الشيخ[(١)]: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾.

قال بعض المفسرين ـ **قلت:** هو الزمخشرى كما تقدم ولعله أبهمه لاعتزاله لكن هذا النقل حجة لى فى النقل عنه بعيداً عن بدعته واعتزاله. :أى: وحبط فى الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم يعنى: لم يكن لهم ثواب، لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفى إليهم ما أرادوا: **﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أى: كان عمله فى نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له. أنتهى.

قال ابن عثيمين[(٢)]: الحُبوط: الزوال؛ أى: زال عنهم ما صنعوا فى الدنيا.

قوله: **﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**.

﴿وَبَاطِلٌ﴾: خبر مقدم لأجل مراعاة الفواصل فى الآيات والمبتدأ «ما» فى قوله: **﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**؛ فأثبت الله أنه ليس لهؤلاء إلا النار وأن ما صنعوا فى الدنيا قد حبط، وأن أعمالهم باطلة.

وقوله تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾** مخصوصة بقوله تعالى: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾**.

مسألة/

قال سليمان آل الشيخ[(٣)]: فإن قيل: الآية على القول الأول تقتضى تخليد المؤمن من المريد بعمله الدنيا فى النار.

[قلت]: وقد تقدم معنا هذا من قول القرطبى، حيث قال أن الآية فيها إشارة إلى ذلك أى التخليد ثم أجاب بقوله تعالى **﴿إن الله لايغفر أن يشرك به.. الآيه﴾**وغير ذلك والله أعلم.

ثم قال ـ أى سليمان آل الشيخ ـ: قيل: إن الله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠٤.

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٠٢.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٠٤، ٤٠٥.

وبطل؛ لم يبق معه ما ينجيه. فإن كان معه إيمان لم يرد به الحياة الدنيا وزينتها، بل أراد به الله والدار الآخرة، لم يدخل هذا الإيمان فى العمل الذى حبط وبطل. ونجاه هذا الإيمان من الخلود فى النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذى به النجاة المطلقة فالإيمان إيمانان إيمان يمنع دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله وحده يبتغى بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود فى النار، فإن كان مع المرائى شىء منه، وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد. ذكره ابن القيم.

وقد سئل شيخ الإسلام المصنف عن معنى هذه الآية فأجاب بما ملخصه: ذكر عن السلف من أهل العلم فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم، ولايعرفون معناه.

فمن ذلك العمل الصالح الذى يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان، أو يتركه خالصاً لله، لكنه لايريد ثوابه فى الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظه أهله وعياله، أو إدامة النعم عليهم، ولا همة له فى طلب الجنة، والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله فى الدنيا، وليس له فى الآخرة نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثانى: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذى ذكره مجاهد فى الآية أنها نزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالاً صالحة، ونيته رياء الناس لاطلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً مثل أن يحج لمال يأخذه، لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل الغنم، فقد ذكر أيضاً

هذا النوع فى تفسير هذه الآية. وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكتبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيراً، وهؤلاء أعقل من الذين قبلهم، لأنهم عملوا لمصلحة يحصلونها، والذين قبلهم عملوا من أجل المدح والجلالة فى أعين الناس. ولايحصل لهم طائل، والنوع الأول أعقل من هؤلاء. لأنهم عملوا لله وحده لاشريك له، لكن لم يطلبوا منه الخير الكثير الدائم وهو الجنة، ولم يهربوا من الشر العظيم وهو النار.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصاً فى ذلك لله وحده لاشريك له، لكنه على عمل يكفره كفراً يخرجه عن الإسلام مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام الكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة، يريدون بها ثواب الله فى الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم. فهذا النوع أيضا قد ذكر فى هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره. وكان السلف يخافون منها، قال

بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل منـى سجدة واحدة لتمنيت الموت، لأن الله يقول: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ ثم قال: بقى أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجـه الله طالباً ثواب الآخرة ثم بعد ذلك عمل أعـمالاً قاصداً بها الدنيا مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعـده لأجل الدنيا، كما هو واقع؛ فهو لما غلب عليه منـهما. وقد قال بعضهم: القـرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخـلص، وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين وهو هذا وأمثاله. انتهى. وقد أجاد وأفاد رحمه الله.

قال ابن عثيمين[1]: فإن قيل: لماذا لانجعل آية هود حـاكمة على آية الإِسراء ويكون الله توعد من يريد العاجلة فى الدنيا أن يجعل له ما يشاء لمن يريد؟ ثم وعد أن يعطيه ما يشاء؟

أجيب: إن هذا المعنى لايستقيم لأمرين:

أولاً: أن القاعدة الشرعية فى النصوص أن الأخص مُقَدَّم على الأعم، وآية هود عامة؛ لأن كل من أراد الحياة الدنيـا وزينتها وفى إليه العمل وأعطـى ما أراد أن يعطى، أما آية الإِسراء؛ فهى خاصة: ﴿**عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ**﴾، ولايمكن أن يُحكم بالأعم على الأخص.

الثانى: أن الواقع يشهد عـلى ما تدل عليه آية الإِسراء؛ لأن فى فقـراء الكفار من هو أفقر من فقـراء المسلمين؛ فيكون عمـوم آية هود مخصوصاً بآية الإِسـراء؛ فالأمر موكول إلى مشيئة الله وفيمن يريده.

قلت: وقد تقدم الكلام فى ذلك عن القرطبى وغيره.

قال سليمان آل الشيخ: وفى الآية من الفوائد.

الأولى: أن الشرك محبط للأعمال.

الثانية: وأن إرادة الدنيا وزينتها بالعمل كذلك.

الثالثة: وأن الله يجازى الكافر بحسناته.

الرابعة: وكذلك طالب الدنيا، ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة.

الخامسة:

السادس: الفرق بين الحبوط والبطلان. اهـ.



(١) القول المفيد ٢/ ٣٠٠، ٣٠١.

وَفِى الصَّحِيحِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ تَعس عَبْدُ الدِّينَار، تَعس عَبْدُ الدِّرْهَم، تَعس عَبْدُ الخَمِيصَة، تَعس عَبْدُ الخَمِيلَة، إِن أُعطَى، رَضِىَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ؛ سَخِطَ، تَعس وَانتكس، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ. طُوبَى لِعَبْد آخذ بِعنَانِ فَرَسِه فِى سَبِيلِ الله، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٌ قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِى الحِرَاسَةِ، كَانَ فِى الحِرَاسَةِ وَإِنَ كَانَ فِى السَّاقَة كَانَ فِى السَّاقَة إِن استَأذَنَ لَم يُؤذَن لَهُ. وَإِن شَفَعَ لَم يُشَفَّعْ)(١).

قال الفقير: ذكره البخارى فى موضعين فى الصحيح. فى باب بالحراسة فى الغزو فى سبيل الله].

ولفظه: تعس عبدالدينار والدرهم والقطيفة والخميصه، وإن أُعطى رضى وإن لم يعط لم يرض.

وفى [باب ما يتقى من فتنة المال وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾].

ولفظه تعس عبدالدينار والدرهم والقطيفه والخميصة، إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرضى.

مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جار الله(٢): أن العمل الصالح إذا كان القصد منه طلب الدنيا فهو شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قال القرعاوى(٣): دل الحديث على أن من كانت الدنيا غاية أمره ومنتهى قصده فقد عبدها واتخذها شريكا مع الله. اهـ.

● **ماذا أراد المصنف بهذا الحديث: -**

قال ابن عثيمين(٤): وقد أراد المؤلف بهذا الحديث أن يتبين أن من الناس من يعبد الدنيا؛ أى: يتذلل لها ويخضع لها، وتكون مناه وغايته، فيغضب إذا فقدت ويرضى إذا

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب الحراسة فى الغزو (٣٨٨٧) وأطرافه (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥) وتقدم تخريجه.

(٢) الجامع الفريد (١٤٩/ ١٥٠). (٣) الجديد (٣٣٢).

(٤) القول المفيد (٢/ ٣٠٣).

وجدت، ولهذا سمَّى النبى ﷺ من هذا شأنه عبداً لها، وهذا من يعنى بجمع المال من الذهب والفضة؛ فيكون مريداً بعمله الدنيا. اهـ.

قوله: [تعس].

- **قال ابن حجر**[1]: بفتح أوله وكسر المهملة ويجوز فتحها وهو ضد سعد، تقول تعس فلان أى شقى، وقيل معنى التعس الكب على الوجه، قال الخليل: التعس أن يعثر فلايفيق من عثرته وقيل التعس الشر وقيل البعد وقيل الهلاك، وقيل التعس أن يخر على رأسه، وقيل تعس أخطأ حجته. ويغيت. اهـ.

- **وقال فى موضع آخر**[2]: والمراد هنا هلك وقال ابن الأنبارى: التعس الشر، قال تعالى: ﴿**فَتَعْسًا لَّهُمْ**﴾ أراد ألزمهم الشر، وقيل التعس البعد أى بعداً لهم. وقال غيره قولهم تعسا لفلان نقيض قوله لعا له، فتعسا دعاء عليه بالعثرة ولعا دعاء له بالانتقاش. اهـ.

- **وقال سليمان آل الشيخ**[3]: قال أبو السعادات: يقال: تعس يتعس، إذا عثر، وانكب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك أهـ.

- **قوله [عبدالدينار، تعس عبدالدرهم].**

الدينار من الذهب، والدرهم من الفضة أهـ[4].

الدينار: هو النقد من الذهب، والدينار الإسلامى زنته مثقال، وسماه عبدالدينار؛ لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه، وقدمه على طاعة ربه، ويقال فى عبدالدرهم ما قيل فى عبدالدينار، والدرهم هو النقد من الفضة، وزنة الدرهم الإسلامى سبعة أعشار المثقال؛ فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل أهـ[5].

قال ابن حجر[6]: أى طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبده.

قال الطيبى: قيل خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه فى محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذى لايجد خلاصاً، ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدينار لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة.

(١) فتح البارى (٦/ ٩٧).
(٢) فتح البارى (١١/ ٢٥٩).
(٣) تيسير العزيز الحميد (٤٠٦).
(٤) التعليق المفيد (١٩٢).
(٥) القول المفيد (٢/ ٣٠٢، ٣٠٣).
(٦) فتح البارى (١١/ ٢٥٩).

وقال غيره: جعله عبداً لهما لشغفه وحرصه، فمن كان عبداً لهواه لم يصدق في حقه **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** فلايكون من اتصف بذلك صديقاً. اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ مهذباً لكلام ابن حجر ومختصراً له(1): **فإن قيل**: لم سماه النبي ﷺ عبدالدينار والدرهم.

قيل: لما كان ذلك هو مقصوده ومطلوبه الذي عمل له، وسعى في تحصيله بكل ممكن حتى صارت نيته مقصورة عليه يغضب ويرضى له صار عبداً له.

قال شيخ الإسلام: فسماه النبي ﷺ عبدالدينار والدرهم، وعبدالقطيفة، وعبدالخميصة وذكر فيه ما هو دعاء وخبر وهو قوله (تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش).

وهذه حال من أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه وهذه حال من عبدالمال. وقد وصف ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن منع سخط كما قال تعالى: **﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾** فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة، أو نحو ذلك من هواء نفسه إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده إلى أن قال: وهكذا أيضاً طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه.

وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيكون المال عنده، يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه. وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبدوه فيكون هلوعاً.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد فهذه ينبغي أن لايعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها وربما صار مستعبداً معتمداً على غير الله فيها، فلايبقى معه حقيقة العبودية لله، ولاحقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «**تعس عبدالدرهم، تعس عبدالدينار، تعس عبد الخميصة، تعس عبدالخميلة**» وهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله، فإن الله إذا عطاه إياها رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبدالله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما

(1) تيسير العزيز الحميد (٤٠٦، ٤٠٧).

أبغض الله ورسوله، ويوالى أولياء الله، ويعادى أعداء الله، فهذا الذى استكمل الإيمان، انتهى ملخصًا. اهـ.

قوله: [تعس عبد الخميصة]

قال ابن حجر(١): كساء مربع، له علمان. اهـ.

وقال أيضًا(٢): قال الأصمعى: الخمائص: ثياب خز أو صوف معلمة، وهى سود، كانت من لباس الناس.

وقال أبو عبيد: هو كساء مربع له علمان، وقيل: هى كساء رقيق من أى لون كان، وقيل: لا تسمى خميصة حتى تكون سوداء معلمة. اهـ.

وقول أبى السعادات بنحو هذا.

قوله [تعس عبد الخميلة]

قال أبو السعادات(٣): والخميلة بفتح الخاء المعجمة.

الخميل والخميلة: القطيفة، وهى ثوب له خمل من أى شىء كان.

وقيل: الخميل الأسود من الثياب. اهـ.

وقال فى اللسان (٤): الخَميلة والخَمْل والخمالة: ريش النعام، والجمع الخَمِيل، والخَمْلَة والخِمْلَة والخَمِيلة: القطيفة.

قال أبو خراش:

وظلت تُراعى الشمس حتى كأنها فُويق البضيع فى الشعاع خَمِيل

وقال السكرى: الخميل: القطيفة ذات الخَمْل... اهـ.

وقال ابن عثيمين(٥): وهذا من يعنى بمظهره وأثاثه، لأن الخميصة كساء جميل والخميلة فراش وثير، ليس له هَمٌّ إلا هذا الأمر، فإذا كان عابدًا لهذه الأمور لأنه صرف لها جهوده وهمته، فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئًا من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا؟! فهذا أعظم. اهـ

قلت: وهذا هو عبدالموضه فلا يعمل إلا لها وعليها إذا قيل له أو قيل لها لم هذا الثياب الكاسى العارى قالت: الموضه كده لم هذا الأثاث الذى جاوز حد الاسراف ولم

(١) فتح البارى (١/ ٥٧٦)
(٢) فتح البارى (١٠/ ٢٩١)
(٣) النهاية (٢/ ٨١)
(٤) اللسان (٢٢١/ مادة خمل)
(٥) القول المفيد (٢/ ٣٠٣).

تلقى من أجله آثاثاً فاخراً جديداً قـالوا لأن الموضة كده فإن قيل لهم هذا إسراف والله لا يحب المسرفيين قالـوا لكن الموضه العـام هنا كذا وكذا ولا يـجوز أن نتخلف عـنها أو نخالفها فهذا أو هذه هى أو هو المتـعوس لأن سيظل هكذا إلى ان يموت لا هو نال مراده لانه الموضه لاتثبت ولا دفع عنه المكروه. . والله أعلم.

قوله: [إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط]

تقدم أن ابن تيمية[1] قال: وُصِفَ بأنه إن أعطى رضى، وإن مُـنِعَ سخط، كما قال تعالى: **﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾** فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهـكذا حال من كان متعلقًا برئاسة أو بصورة، أو نحو ذلك من هواء نفسه إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له.

إلى أن قال : ولو طـلبها من الله، فإن الله إذا أعـطاه إياها رضى، وإن منـعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله، ويسخطه ما يسخط الله . . .اهـ.

وقال ابن حجر[2]: وعند ابن ماجه والإسماعيلـي بلفظ آخر «الوفاء عوض الرضا» وأحدهما ملزوم للآخر غالبًا .اهـ.

وقال حامد بن محمد[3]: أى سخطه ورضاه لأطماع الدنيا، إن حصلت رضى، وإن لم تحصل سخط قاطـعًا النظر عن رضى الله، وسخطه، فصار عـبد الدينار والدرهم والخميصة والخميلة بهذه الحيثية فدعا رسول الله ﷺ على من هذا حاله اهـ.

وقال ابن عثيمين[4]: يحتمل أن يكون المعطى هو الله فيكون الإعطاء قدريًا، أى: إن قدر الله له الرزق والـعطاء رضى وانشرح صدره، وإن مُـنِع وحُرِم المال سخط بـقلبه وقوله، كأن يقـول : لماذا كنت فقيرًا وهذا غنـيًا؟ وما أشبه ذلك، فيكون سـاخطًا على قضاء الله وقدره لأن الله منعه.

والله سبحانه وتعالى - يعطى ويمنع لحكمة، ويعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن يحب.

---

(١) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد (٤٠٦، ٤٠٧)

(٢) فتح البارى (١١/٢٥٩)

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٣، ٣٧٤).

(٤) القول المفيد (٢/٢٠٣، ٢٠٤).

والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره، إن أعطى شكر، وإن مُنع صبر.

ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الإعطاء الشرعى، أى : إن أعطى من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضى، وإن لم يعط سخط، وكلا المعنيين حق، وهما يدلان على أن هذا الرجل لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له، ولهذا سماه الرسولُ ﷺ عبدًا له. اهـ.

قوله [تعس وانتكس]

قال ابن حجر(١): تقدم معنى التعاسة: وهى الشقاوة، والكب على الوجه، أو يعثر فلا يفيق من عثرته أو هو الهلاك. . .

وقوله «وانتكس» بالمهملة أى عاوده المرض، وقيل إذا سقط اشتغل بسقطته حتى يسقط أخرى، وحكى عياض أن بعضهم رواه «انتكش» بالمعجمة وفسره بالرجوع، وجعله دعاء له لا عليه، والأول أولى.

وقال فى موضع آخر(٢) : وقوله وانتكس فعلى ما تقدم من تفسير التعس بالسقوط يكون المراد أنه إذا قام من سقطته عاوده السقوط، ويحتمل أن يكون المعنى بانتكس بعد تعس انقلب على رأسه بعد أن سقط، ثم وجدته فى شرح الطيبى، قال فى قوله «**تعس وانتكس**» فيه الترقى فى الدعاء عليه لأنه إذا تعس انكب على وجهه فإذا انتكس انقلب على رأسه، وقيل التعس الخر على الوجه والنكس الخر على الرأس. اهـ.

وذكر سليمان آل الشيخ كلام ابن حجر بالنص، وزاد قول أبى السعادات وهو قريب من هذا.

وقال ابن عثيمين(٣): تعس أى : خاب وهلك، وانتكس، أى: انتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له، فكلما أراد شيئًا انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد. اهـ.

قوله: [إذا شيك فلا انتقش]

قال ابن حجر(٤): قوله: «وإذا شيك فلا انتقش» : بكسر المعجمة وسكون التحتانية بعدها كاف.

---

(١) الفتح ٦/ ٩٧

(٢) الفتح ١١/ ٢٥٩

(٣) القول المفيد ٢/ ٣٠٤

(٤) الفتح ٦/ ٩٧

وانتقش: بالقاف والمعجمة.

والمعنى إذا أصابته الشوكة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش، تقول نقشت الشوك إذا استخرجته. وذكر ابن قتيبة أن بعضهم رواه بالعين المهملة بدل القاف ، ومعناه صحيح لكن مع ذكر الشوكة تقوى رواية القاف.

ووقع فى رواية الأصيلى عن أبى زيد المروزى «**وإذا شيت**» بمثناة فوقانية بدل الكاف وهو تغيير فاحش ، وفى الدعاء بذلك إشارة إلى عكس مقصوده لأن من عثر فدخلت فى رجله الشوكة فلم يجد من يخرجها يصير عاجزًا عن الحركة والسعى فى تحصيل الدنيا.

وقال ايضاً[١]: وفيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يثبطه عن السعى والحركة، وسوغ الدعاء عليه، كونه قصر عمله على جمع الدنيا واشتغل بها عن الذى أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات.

قال الطيبى: وإنما خص انتقاش الشوكة بالذكر لأنه أسهل ما يتصور من المعاونة، فإذا انتفى ذلك الأسهل انتفى ما فوق بطريق الأولى. اهـ.

وقال بنحوه سليمان آل الشيخ وذكر نص كلام ابن حجر وزاد من كلام أبى السعادات بنحوه.

قال ابن عثيمين[٢]: أى: إذا أصابته شوكة ، فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه.

وهذه الجمل الثلاث يحتمل أن تكون خبرًا منه ﷺ عن حال هذا الرجل ، وأنه فى تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذى، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على مَنْ هذه حاله، لأنه لا يهتم إلا للدنيا، فدعا عليه أن يهلك، وأن لا يصيب من الدنيا شيئًا، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه، وقد يصل إلى الشرك عندما يصُدّه ذلك عن طاعة الله حتى أصبح لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له. اهـ .

قلت: وإن كان خبراً فهو الصدق وإن كان دعاءً فهو مستجاب ففى كلا الحالتين الوعيد محققه والدر أعلم.

قوله: [طوبى لعبد]

(١) الفتح ١١/ ٢٥٩

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٠٤

قال ابن حجر: إشارة إلى الحض على العمل بما يحصل به خير الدنيا والآخرة.

وقال سليمان ال الشيخ[1]: قال أبو السعادات: طوبى اسم الجنة، وقيل: هى شجرة فيها.

وقد روى ابن وهب عن عمرو بن الحارث أن دراجاً حَدَّثَهُ أنَّ أبا الهيثم حدثه عن أبى سعيد فى حديث فقال رجل: يَا رسُولَ الله وَمَا طُوبَى؟ قال: «**شَجَرَةٌ فِى الجَنَّةِ مَسِيرةَ مَائَةَ سَنَة ثِيابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِها**» رواه حرملة عنه[2].

ورواه أحمد فى «مسنده» من حديث عتبة بن عبد السلمى جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الحَوْضِ وذَكَرَ الجَنَة، ثُمَّ قَالَ الأعْرَابِى وَفِيـهَا فَاكِهة. قال: «نَعَمْ وفيها شَجَرَةٌ تُدْعَى طُوبَى» الحديث[3].

قال الزجاج: فى قوله: طوبى لهم ومعناه: العيش الطيب.

وقال ابن الأنبارى: الحال المستطابة لهم لأنه فُعْلى من الطيب، وقيل: معناه هنيئًا بطيب العيش لهم وهذه الأقوال ترجع إلى قول واحد. اهـ.

قال ابن عثيمين[4]: و«طوبى» فُعْلَى من الطيب، وهى اسم تفضيل، فأطيب للمذكر وطوبى للمؤنث، والمعنى: أطيب حال تكون لهذا الرجل، وقيل: إن طوبى شجرة فى الجنة، والأول أعم، كما قالوا فى ويل: كلمة وعيد، وقيل: وادٍ فى جهنم، والأول أعم.

وقوله [آخذ بعنان فرسه]

قال سليمان آل الشيخ[5]: أى فى طريق الجهاد. اهـ.

قال ابن عثيمين[6]: أى: ممسك بمقود فرسه الذى يقاتل عليه وهذا عكس الأول، فهو لا يهتم للدنيا، وإنما يهتم للآخرة، فهو فى استعداد دائم للجهاد فى سبيل الله. اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠٧، ٤٠٨

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٧١) بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٨٣)

(٤) القول المفيد ٢/ ٣٠٤، ٣٠٥.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٠٨

(٦) القول المفيد ٢/ ٣٠٤، ٣٠٥.

قوله: [فى سبيل الله]

قال ابن عثيمين(١): ضابطه أن يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا لا للحمية أو الوطنية أو ما أشبه ذلك، لكن إن قاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلداً إسلاميًا يجب الذود عنه، فهو فى سبيل الله، وكذلك من قاتل دفاعاً عن نفسه أو ماله أو أهله، فإن النبى ﷺ قال: **«من قتل دون ماله، فهو شهيد»**(٢) فأما من قاتل للوطنية المحضة، فليس فى سبيل الله، لأن هذا قتال عصبية يستوى فيه المؤمن والكافر، فإن الكافر يقاتل من أجل وطنه أهـ.

قلت: أو تحمل الأدلة على حالين الأولى حالة الجماعة المسلمة فجهادها لايكون إلا لتكون كلمة الله هى العليا والحالة الثانية هى حالة الافراد فهم قد يقاتلون عن أموالهم وغير ذلك من ممتلكاتهم الشخصية التى لا يجوز للجماعة أن تحارب من أجلها إلا إذا كان ذلك فى سبيل الله ولله كأن يكون المال لله فقاموا لرده أو ليستعنوا به على إعلاء كلمة الله وإذلا له الكفر وأهله كما خرج الصحابة فى بدر وهم يودون أن غير ذات الشوكه تكون لهم وهى العير والله أعلم.

قوله [أشعث رأسه، مغبرة قدماه]

قال ابن حجر(٣): قوله «أشعث» صفة لعبد وهو مجرور بالفتحة لعدم الصرف. و«رأسه» بالرفع الفاعل.

قال الطيبى «أشعث رأسه مغبرة قدماه» حالان من قوله «العبد» لأنه موصوف.

قال الكرمانى: يجوز الرفع ولم يوجهه وقال غيره: ويجوز فى أشعث الرفع على أنه صفة رأس، أى رأسه أشعث، وكذا قوله «مغبرة قدماه». اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٤): قوله: «أشعث الرأس» هو بنصب أشعث صفة لعبد لأنه غير مصروف للصفة ووزن الفعل، ورأسه مرفوع على الفاعلية لأشعث وهو مغبر الرأس وفيه فضل إصابة الغبار فى سبيل الله.

قوله: «مغبرة قدماه» هو كأشعث فى الإعراب والمراد به كثرة الغبار له فى سبيل الله لكثرة جهاده ومصابرته. اهـ.

---

(١) القول المفيد ٢/ ٣٠٥.

(٢) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٢٤٨٠)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ١٦٤ - النووى) وانظر «رياض الصالحين» (١٣٥٨ - بتخريجنا).

(٣) الفتح ٦/ ٩٧.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٠٨

قال ابن عثيمين[1]: أى رأسه أشعث من الغبار فى سبيل الله، فهو لا يهتم بحاله ولا بدنه ما دام هذا الأمر ناتجًا عن طاعة الله- عز وجل- وقدماه مغبرة من السير فى سبيل الله، وهذا دليل على أن أهم شىء عنده هو الجهاد فى سبيل الله، أما أن يكون شعره أو ثوبه أو فراشه نظيفًا ، فليس له هم فيه.

قوله : [إن كان فى الحراسة ، فهو فى الحراسة، وإن كان فى الساقة، فهو فى الساقة]

قال ابن حجر[2]: هذا من المواضع التى اتحد فيها الشرط والجزاء لفظًا لكن المعنى مختلف، والتقدير إن كان المهم فى الحراسة كان فيها، وقيل معنى «فهو فى الحراسة» أى فهو فى ثواب الحراسة، وقيل هو للتعظيم أى إن كان فى الحراسة فهو فى أمر عظيم، والمراد منه لازمه أى فعليه أن يأتى بلوازمه ويكون مشتغلا بخويصة عمله.

وقال ابن الجوزى: المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو، فإن اتفق له السير سار، فكأنه قال: إن كان فى الحراسة استمر فيها وإن كان فى الساقة استمر فيها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[3]: قوله :«إن كان فى الحراسة» قال بعضهم : هو بكسر الحاء أى : حماية الجيش ومحافظتهم عن أن يهجم عليهم عدوهم.

قوله: «**كان فى الحراسة**» أى : امتثل غير مقصر فيها بالنوم والغفلة ونحوهما.

قوله: «**وإن كان فى الساقة كان فى الساقة**» أى: أن جعل فى مؤخرة الجيش صار فيها ولزمها .

وقال الخلخالى: والمعنى ائتماره لما أمر وإقامته حيث أقيم لا يفقد من مكانه، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة وأكثر آفة.

قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - وفيه فضيلة الحرس فى سبيل الله.

قال ابن عثيمين[4]: الحراسة والساقة ليست من مُقَدَّم الجيش، فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساقة أن يكون فى مؤخرته، وللجملتين معنيان:

---

(١) القول المفيد ٢/٣٠٣

(٢) الفتح ٦/٩٧

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٠٨، ٤٠٩

(٤) القول المفيد ٢/٣٠٦

أحدهما: أنه لا يبالى أين وضع، وإن قيل له : احرس، حرس، وإن قيل: له: كن فى الساقة، كان فيها، فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلاً.

الثانى: إن كان فى الحراسة أدى حقها، وكـذا إن كان فى الساقة، والحديث الصالح لمعنيين، يحمل عليهما جميعًا إذا لم يكن بينهما تعارض، ولا تعارض هنا.

قوله: [إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع]

قال ابن حجر(١): فيه ترك حب الرياسة والشهرة وفضل الخمول والتواضع. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: «إن استأذن لم يـؤذن له» أى: إن استأذن على الأمراء، ونحـوهم لم يأذنوا له، لأنـه ليس بذى جاه ولا يقـصد بعمله الـدنيا فيطلـبها منهم، ويتردد إليهم لأجلها بل هو مخلص لله.

قوله: «وإن شـفع» بفتح أولـه وثانيه مبـنى للفاعـل، ويشفع بتـشديد الفاء، مبنى للمفعول، والمراد والله أعلم أنه لا يشفع عند المـلوك ونحوهم، لعدم جاهه عندهم وعلى تقدير شفاعته، إن شفع لم يشفع بل يردون شفاعته.

قال بعضـهم: قيل : إن هذا إشارة إلـى عدم التفاته إلـى الدنيا وأربابهـا بحيث لا يبتغى مـالا ولا جاهًا عند الناس، بل يكون عـند الله وجيهًا ولم يقبل النـاس شفاعته، ويكون عند الله شفيعًا مشفعًا.

كما فى الحديث الذى رواه أحمد ومسلم عـن أبى هريرة مرفوعًا: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوع بالأبواب لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأبَرَّهُ»(٣). اهـ.

قال ابن عثيمين (٤): أى هو عـنـد الناس ليـس له جاه ولا شرف، حـتى إنه إن استأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهل السلطة ليـس له مرتبة، فإن شفع لم يُشَفَّع، ولكنه وجيه عند الله وله المنزلة العالية، لأنه يقاتل فى سبيله.

والشفاعة: هى التوسط للغير بجلب منفعه أو دفع مضرة.

قلت وقد تقدم المعنى اللغوى والاصطلاحى فى باب الشفاعة.

(١) الفتح ٦/ ٩٨

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٠٩

(٣) **[صحيح]** أخرجه مسلم (٢٦٢٢).

(٤) القول المفيد ٢/ ٣٠٣.

والاستئذان: طلب الإذن بالشيء.

والحديث قَسَّم الناس إلى قسمين:

الأول: ليس لهم إلاَّ الدنيا، إما لتحصيل المال، أو لتجميل الحال، فقد استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته.

الثاني: أكبر هَمَّه الآخرة، فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

ويستفاد من الحديث:

قال سليمان آل الشيخ[(١)]: وفيه أن هذه الأمور ونحوها لا تكون لهوان المؤمن على الله بل لكرامته، وفيه الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات، قاله المصنف. اهـ.

قال ابن عثيمين[(٢)]:

١- أن الناس قسمان كما سبق.

٢-أن الذي ليس له هم إلاَّ الدنيا قد تتقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهي الشوكة، بخلاف الحازم الذي لا تهمه الدنيا، بل أراد الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قدّره الله له.

٣- أنه ينبغي لمن جاهد في سبيل الله ألاّ تكون همه المراتب بل، يكون همه القيام بما يجب عليه، إما في الحراسة، أو الساقة، أو القلب، أو الجنب، حسب المصلحة.

٤- أن دنو مرتبة الإنسان عند الناس لا يستلزم منه دنو مرتبته عند الله- عز وجل- فهذا الرجل الذي إن شفع لم يُشَفَّع وإن استأذن لم يُؤْذنَ له قال فيه الرسول ﷺ «طوبى له» ولم يقل: إن سأل لم يُعْط، بل لا تهمه الدنيا حتى يسأل عنها، لكن يهمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول على ذوي السلطة للمصالح العامة. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله[(٣)]: ما يستفاد من هذا الباب:

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠٩

(٢) القول المفيد (٢/٣٠٧).

(٣) الجامع الفريد (١٥٠).

١- تحريم إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

٢- وعيد من قصد الدنيا بعمل الآخرة بإحباط عمله ودخوله النار.

٣- الحث على إخلاص العمل لله.

٤- ترك حب الرئاسة والشهرة.

٥- فضل الخُمول والتواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم .اهـ.

وقال قرعاوى[1]: الفوائد:

١- جواز الدعاء على أهل المعاصى على سبيل العموم .

٢- ذم شدة الحرص على الدنيا.

٣- من كانت الدنيا أكبر همه وقع فى المشاكل.

٤- استحبابه الاستعداد للجهاد وقيل يجب.

٥- فضل الجهاد فى سبيل الله.

٦- الانضباط العسكرى من تعاليم الإسلام.

٧- فضل حراسة الجيش.

٨- يقاس المرء بعمله لا بمظهره.

٩- لا يلزم من وجاهة الشخص عند الله وجاهته فى الدنيا .اهـ.

١٠ - **قلت**: وفيه فضل سقاية الجيش.

١١ - فيه معنى قوله ﷺ: «البذاذه من الإيمان»[*].

١٢ - فيه أن النهى عن عدم تسكين الشعر بالمشط ليس على إطلاقه فإذا كان ذلك فى سبيل الله فهى منقبه وإلا فهذا تشبه بالشيطان.

١٣ - أن على المجاهد أن يوجد حيث أمره إمامه وقائدة فلا يجوز أن يجاهد بشرط أن يوضع فى مقدمه أو مؤخره أو ميمنة أو ميسرة.

(١) الجديد (٣٣٢).

(*) أخرجه البيهقى فى «الشعب» (٨١٣٥) عن كعب بن مالك به.

فيه مسائل:

الأولى: إِرَادَةُ الإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرة.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ هُود.

الثانية: تَسْمِيَةُ الإِنْسَانِ الْمُسْلِمِ عَبْدَ الدينَارِ وَالدِّرْهَمِ والخَمِيصَةِ.

الرابعة: تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أَعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.

---

١٤ - فيه معنى قوله ﷺ: «لاتحقرن من المعروف شيئاً»(١).

فيه مسائل:

قال ابن عثيمين(٢):

● **الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.**

وهذا من الشرك، لأنه جعَل عمل الآخرة وسيلة لعمل الدنيا، فيطغى على قلبه حب الدنيا حتى يقدمها على الآخرة ، والحزم والإخلاص أن يجعل عمل الدنيا للآخرة.

● **الثانية: تفسير آية هود.**

وقد سبق ذلك

● **الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة:**

وهذه العبودية لا تدخل فى الشرك ما لم يصل بها إلى حد الشرك، ولكنها نوع آخر يخل بالإخلاص، لأنه جعل فى قلبه محبة زاحمت محبة الله - عز وجل- ومحبة أعمال الآخرة.

● **الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط.**

هذا تفسير لقوله ﷺ: «عبد الدينار، عبد الدرهم، عبد الخميصة، عبد الخميلة إن

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/١٧٧ - النووى) عن أبى ذر به وانظر «رياض الصالحين» (١٢٢ - بتخريجنا).

(٢) القول المفيد (٢/٣٠٨، ٣٠٩).

الخامسة: قَوْلُهُ (تَعِسَ وَانْتَكَسَ).

السادسة: قَوْلُهُ «وَإِذَا شِيكَ، فَلاَ انْتَقَشَ».

السابعة: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُجَاهِدِ الْمَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.

أعطى رضى وإن لـم يعط سخط» وهذه علامة عـبوديته لهذه الأشيـاء أن يكون رضاه وسخطه تابعًا لهذه الأشياء.

● **الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».**

قلت: تقدم المعنـى أنه لانال مراده ومطلوبه ولافـر من مكروهه فهو لهـذا فى شقآء كلما أراد أن يخرج فيه من غم أُعيد فيه.

● **السادسة: قوله: «إذا شيك فلا انتقش»**

يحتمل أن تكون الجمل الثلاث خبرًا أو دعاءً، وسبق شرح ذلك.

● **السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.**

فقوله فى الحديث «**طوبى لعبد..**» يدل على الثناء عليـه، وأنه هو الذى يستحق أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير، وأصحاب الفرش والمراتب.



باب (٣٧)

مَنْ أطاعَ العلماءَ والأمراءَ في تحريمِ ما أحلَّ اللهُ أوْ تحليلِ ما حرّمهُ فقدِ اتخذهمْ أرباباً.

● **يحتوى هذا الباب على المسائل الآتية:**

● **ترجمة الباب:**

١ـ مناسبة الباب لما قبله ولكتاب التوحيد

٢ـ ماذا أراد المصنف بهذه الترجمة.

٣ـ مسألة/ تعارض الترجمة مع قوله تعالى ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ والجواب عليه.

٤ـ شرح الترجمة .

● **أثر ابن عباس/ يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء:**

١ـ مناسبة الآثر للباب وللتوحيد.

٢ـ شرح الآثر.

٣ـ فوائد الآثر.

٤ـ وقوف السلف عند حكم رسول الله ﷺ والرجوع عن حكمهم إن خالف.

● **قـول الإمـام أحمـد/ عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأى سفيان.**

١ـ شرح قول الإمام أحمد.

٢ـ تفسير قوله تعالى ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ** ﴾ـ التى ذكرها الإمام أحمد فى قوله ـ

٣ـ قول شراح التوحيد فى شرح الآثر فى التقليد والاتباع.

٤ـ فصل فى التقليد.

(١) تعريف التقليد لغة واصطلاحاً.

(٢) حكم التقليد.

(٣) فساد التقليد ونفيه، والفرق بين التقليد والاتباع.

(٤) قبول قول الرسول والعمل به ليس تقليداً.

(٥) الفرق بين التقليدوالاتباع.

(٦) تقليد العامة للعلماء.

(٧) ماذا يقال للمقلد.

(٨) حجج المقلدين والجواب عليها من كلام ابن القيم.

● **تنبيهات مهمة تتعلق بالتقليد**

(٩) بعض أسباب رد الشرع لقول الشيخ ممن يقلده.

(١٠) هل للمقلد عذر فى الخطأ كما للمجتهد.

(١١) لايجوز للمقلد أن يفتى بما أفتاه به شيخه

(١٢) شبهة المقلدين، والرد عليها.

(١٣) الضرورة عذر فى التقليد للمضطر.

(١٤) نحب الأئمة جميعاً، وحبنا للحق أشد.

(١٥) الأعذار لمخالفة رسول الله ﷺ.

(١٦) لابد لمن يرى التقليد أن يفرق بين كلام إمامه وكلام ما ألحق بعده على قواعد مذهبه.

(١٧) الرد على من قال بإغلاق الاجتهاد.

(١٨) خطورة الإعراض عن الكتاب والسنة بكتب الفروع.

● **حديث عدى بن حاتم أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم﴾.**

١ـ مناسبة الحديث للباب وللتوحيد.

٢ـ شرح الحديث.

٣ـ مايستفاد من الحديث.

وفيه تقسيم اتباع العلماء أو الأمراء إلى ثلاثة أقسام. (وفيه كلام محمد بن إبراهيم فى رسالته تحكيم القوانين.

٤ـ فائدة (ومن لم يحكم بمن أنزل الله فأولئك هم الكافرون)و(الظالمون) و(الفاسقون)

- خلاصة القول فى شبهة التسوية بين العلمانية وبين انحرافات التطبيق الجزئية.

- شبهة وجوابها.

-فتاوى أئمة المسلمين فى علمانية التشريع.

● **مسائل الباب.**

- شرح المسائل.



بابٌ
من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً.

● **مناسبة هذا الباب لماقبله.**

قال الفقير: وعلاقة هذا الباب بالـذى قبله أنَّ الرياء وإرادة الدنيا بالعمـل يجتمعان كما تقدم فى أن كلاً منهما تزين وتصع بالـعمل عند الناس، وأغلب هذا التزين واشتباه إنما يكون للعلماء والامراء وربما جرَّ ذلك إلى مداهنـتهم ومصانعتهم فى مخالفة أمر الله وأمر رسول الله ﷺ إمـا بالإقرار على المخالـفة منهم أو بالمخـالفة من أجلهـم فإن كان التزبين للعلماء فالغالب على العمل المـتزيَّن به لهم الصلاح وإن كان هو فى حقيقته فيه مخالـفة إبتغاء طاعـتهم، وذلك بخلاف الـعمل للأمراء لـكسب عرض دنيوى مـنهم، فالغالب عـليه الفساد كما فـعل غياث بن إبراهيم حـينما دخل على المهـدى وهو يلعب بالحمام فوضع حديثاً على رسول الله ﷺ بلفظ «**لا سبق إلا فى نصل أو خفٍ أو حافُر أو جناح**» فزاد جناح وكذب على الرسول مداهنة للمهدى ببدرة(١).

فالأول الغـالب عليه الريـاء والثانى الغالـب عليه إرادة الإنسان بـعمله الدنيـا وهما صورتان من صور طاعة العلماء والأمراء فى مخالفة الشرع. والله الموفق.

● **مناسبة الباب وللتوحيد.**

قال سليمان آل الشيخ(٢): لما كانت الطاعة من أنواع العبادة، بل هى العبادة، فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله عليهم السلام.

نبه المصنف - رحمه الله تعالى - بهذه التـرجمة على وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالى بها، وأنه لا يُطاع أحد من الخلق إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله وإلا فلا تجب طاعة أحد مِّن الخلق استقلالاً.

والمقصود هنا الطاعة الخاصة فى تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن أطاع مخلوقاً فى ذلك غير الرسول ﷺ فإنه لاينطـق عن الهوى فهو مشرك كما بينه الله تعالى فى قوله **﴿إِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾** أى علماءهم **﴿إِتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**

(١) الموضوعات لابن الجوزى (١/ ٤٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٠٩، ٤١٠).

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وفسرها النبى ﷺ بطاعتهم فى تحريم الحلال وتحليل الحرام، كما سيأتى فى حديث عدى(*). أهـ وتقدم ذلك أيضاً .

وقال عبدالله بن جار الله(١): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هى أن طاعة الرؤساء فى تحريم الحلال، وتحليل الحرام، شرك أكبر ينافى التوحيد. أهـ.

قال ناصر السعدى(٢):ووجه ماذكره المصنف ظاهر، فإن الرب، والإله هو الذى له الحكم القدرى، والحكم الشرعى، والحكم الجزائى، وهو الذى يؤله ويعبد وحده لاشريك له، ويطاع طاعة مطلقة، فلايعصى بحيث تكون الطاعات كلها تبعاً لطاعته. فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء على هذا الوجه، وجعل طاعتهم هى الأصل وطاعة الله ورسوله تبعاً لها، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله يتألههم، ويحاكم إليهم، ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله، فهذا هو الكفر بعينه، فإن الحكم كله لله، كما أن العبادة كلها لله . أهـ.

(قلت): وقد بيَّن المصنف فى أبواب الكتاب المتقدمة على التفصيل المتقدم، بعض أنواع الشرك، وهنا يذكر نوعاً آخر من أنواع الشرك وهو شرك التحليل والتحريم والحكمية فأفرده ليدلل على أن الطاعة التامة المطلقة لله ولما جاء به رسول الله ﷺ وأن هذه عبادة، وصرفها لغير الله شرك، وأكثر ما يقع هذا الشرك عند طاعة العلماء والأمراء فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً.

● **ماذا أراد المصنف بهذه الترجمة.**

قال ابن باز (٣): أراد المصنف بهذه الترجمة تحقيق التوحيد، واتباع الشريعة، وتعظيم أمر الله ونهيه، والحذر من تقليد الشيوخ والأمراء فى مايخالف شرع الله وهو التقليد الأعمى - إلى أن قال - فالطاعة إما تكون فى المعروف، فطاعتهم فى خلاف شرع الله حرام، ولاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق، فلا يطيع والده أو ولده أوزوجه فى خلاف الشرع من الحل والحرمة، وطاعتهم فيما يخالف الشرع، وهو اتخاذهم آلهة من دون الله . أهـ.

وقال حامد بن محمد(٤): باب ماجاء فى بيان أن من أطاع العلماء والأمراء فى

(*) سبق تخريجه.

(١) الجامع الفريد (١٥١).

(٢) القول السديد (١٠١، ١٠٢، ١٠٣).

(٣) التعليق المفيد (١٩٥).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٧)

تحريم ما أحل الله أو تحليل ماحرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله، لجعله إياهم المطاعون فى مخالفة الله وتغيير حكمه. أهـ.

مسألة:

فإن قيل: قد قال الله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وقيل: هم العلماء، وقيل هم الأمراء. وهما روايتان عن أحمد. وقال ابن القيم: والتحقيق: بأن الآية تعم الطائفتين.

الجواب: قال سليمان آل الشيخ[1]: قيل: إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله، فكان العلماء مبلغين لأمر الله وأمر رسوله، والأمراء منفذين له فحينئذ تجب طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسوله، كما قال ﷺ:

«**لاطاعة فى المعصية، إنما الطاعة فى المعروف**»[2]وقال «**على المرء المسلم فيماأحب وكره، إلا أن يأمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة**»[3] حديثان صحيحان، فليس فى هذه الآية ما يخالف آية براءة. أهـ.

قلت: وسبب ورود قوله ﷺ: إنما الطاعة فى المعروف من أقطع الأجوبة أيضاً على هذه المسألة حيث إن عبد الله بن حذافه كان أميراً أمره الرسول ﷺ على السرية فأمرهم بجمع الحطب ثم إضمار النار فيها ثم الدخول في النار حتى قال بعضهم: منها فررتم فلم يدخلوا ولما رجعوا سألوا رسول الله ﷺ فقال: لو دخلتموها ما خرجتم إلى يوم القيامة إنما الطاعة فى المعروف[4] وسيأتى الحديث وشرحه فى الصفحة القادمة أو بعدها.

وسيأتى مزيد بيان من كلام الشنقيطى فى الفرق بين التقليد والاتباع.

● شرح الترجمة:

قال ابن عثيمين[5]: قوله: **«من أطاع العلماء»**.

«من» يحتمل أن تكون شرطية، بدليل قوله: **«فقد اتخذهم»**؛ لأنها جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة؛ أى «باب الذى أطاع العلماء».

وقوله: **«فقد اتخذهم»**.

خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء؛ لأن الاسم الموصول كالشرط فى العموم، وعلى الأول

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٠).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧١٤٥)، ومسلم فى الإمارة (٦/٤٦٧/٣٩) عن على به وتقدم.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم فى الإمارة (٦/٤٦٦/٣٨) عن ابن عمر به.

(٤) تقدم قبل حديث.

(٥) القول المفيد (٢/ ٣١٠ـ ٣١٢).

تقرأ «باب» بالتنوين، وعلى الثاني بدون تنوين، و الأول أحسن.

والمراد بالعلماء بشرع الله، وبالأمراء: أولو الأمر المنفذون له، وهذان الصنفان هم المذكوران في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فجعل الله طاعته مستقلة وطاعة رسوله مستقلة، وطاعة أولى الأمر تابعة، ولهذا لم يكرر الفعل ﴿أَطِيعُوا﴾؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وأولو الأمر هم أولو الشأن، وهم العلماء؛ لأنه يستند إليهم في أمر الشرع والعلم به، والأمراء؛ لأنه يستند إليهم في تنفيذ الشرع وإمضائه، وإذا استقام العلماء و الأمراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور؛ لأن العلماء أهل الإرشاد والدلالة، والأمراء أهل الإلزام والتنفيذ.

قوله: **«في تحريم ماأحل الله»**.

أي: في جعله حراماً؛ أي: عقيدة أو عملاً.

«أو تحليل ماحرم الله».

أي: في جعله حلالاً عقيدة أو عملاً؛ فتحريم ما أحل الله لاينقص درجة في الإثم عن تحليل ماحرم الله، وكثير من ذوى الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلى تحريم ماأحل الله أكثر من تحليل الحرام، بعكس المتهاونين، وكلاهما خطأ، ومع ذلك؛ فإن تحليل الحرام فيما الأصل فيه الحل أهون من تحريم الحلال؛ لأن تحليل الحرام إذا لم يتبين تحريمه فهو مبنى على الأصل، وهو الحل، ورحمة الله ـ سبحانه ـ سبقت غضبه؛ فلا يمكن أن نحرم إلامايتبين تحريمه، ولأنه أضيق وأشد، والأصل أن تبقى الأمور على الحل والسعة حتى يتبين التحريم.

أما في العبادات فيشدد؛ لأن الأصل المنع والتحريم حتى يبينه الشرع كما قيل:

والأصل في الأشياء حل وأمنع عبادة إلا بإذن الشارع

قوله «أرباباً» جمع رب، وهو المتصرف المالك.

والتصرف نوعان: تصرف قدرى، وتصرف شرعي.

فمن أطاع العلماء في مخالفة أمر الله ورسوله؛ فقد اتخذهم أرباباً من دون الله باعتبار التصرف الشرعي؛ لأنه اعتبرهم مشرعين واعتبر تشريعهم شرعاً يعمل به، وبالعكس الأمراء. أهـ.

قوله (. . . . . والأمراء).

تقدم الكلام على طاعة العلماء، وأما طاعة الأمراء، فقد بوب البخارى في صحيحه. باب السمع والطاعة للإمام، مالم تكن معصية (١).

باب السمع والطاعة للإمام، مالم تكن معصية [١].

وأسند - عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ. **اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة»**[٢].

وبسنده عن ابن عباس يرويه قال: قال النبى ﷺ: **من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية»**[٣].

وبسنده عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة»**[٤].

وبسنده عن على رضى الله عنه قال: بعث النبى ﷺ سرية وأمَّر عليهم رجلا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم وقال: أليس قد أمر النبى ﷺ أن تطيعونى؟ قالوا: بلى قال : قد عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها. فجمعوا حطباً فأوقدوا نارا؛ فلما هموا بالدخول فقاموا ينظر بعضهم إلى بعض فقال بعضهم: إنما تبعنا النبى ﷺ فراراً من النار افندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه فذكرللنبى ﷺ فقال: **لو دخلوها ماخرجوا منها أبداً، إنما الطاعة فى المعروف»**[٥].

قال ابن حجر[٦]: قوله «باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية» إنما قيده بالإمام وإن كان فى أحاديث الباب الأمر بالطاعة لكل أمير ولو لم يكن إماما لأن محل الأمر بطاعة الأمير أن يكون مؤمراً من قبل الإمام.

قوله «**اسمعو واطيعوا وإن استعمل**» بضم المثناة على البناء للمجهول أى جعل عاملاً بأن أمر إمارة عامة على البلد مثلا أو ولى فيها ولاية خاصة كالإمامة فى الصلاة أو جباية الخراج أومباشرة الحرب، فقد كان فى زمن الخلفاء الراشدين من يجتمع له الأمور الثلاثة ومن يختص ببعضها.

قوله «**حبشى**»بفتح المهملة والموحدة بعدها معجمة منسوب إلى الحبشة. وفى الصلاة فى «باب إمامة العبد». عن محمد بن بشار عن يحيى القطان بلفظ «**اسمعو وأطيعوا وإن استعمل حبشى**» ومن رواية غندر عن شعبة بلفظ، قال النبى ﷺ لأبى ذر «**اسمع وأطع ولو لحبشى**».

---

(١) فتح البارى (١٣/ ١٣٠ _ الفتح). (٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٧١٤٢).

(٣) [متفق عليه] البخارى (٧١٤٣)، ومسلم فى الإمارة (٦/ ٤٨٠/ ٥٥).

(٤) [صحيح] البخارى (٧١٤٤). (٥) [صحيح] البخارى (٧١٤٥) وتقدم.

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٦/ ٤٦٥/ ٣٦) عن أبى ذر بنحوه.

وقد أخرج مسلـم من طريق غندر عن شعـبة بإسناد آخر إلى أبى ذر أنـه انتهى إلى الربذة فإذا عبد يؤمهم فذهب يتأخـرلأجل أبى ذر فقال أبو ذر «أوصانى خليلى»[1] فذكر نحوه. وظهرت بهذه الـرواية الحكمة فى تخصيص أبى ذر بالأمـر فى هذه الرواية، وقد جاءت فى حديث آخر الأمر بذلك عموماً.

ولمسـلم أيضاً مـن حديث أم الحصـين «**اسمعـوا وأطيعوا ولو استـعمل عليكـم عبد يقودكم بكتاب الله**»[2].

قوله «كأن رأسـه زبيبة» واحدة الزبيب المأكول المعروف الـكائن من العنب إذا جف، وإنما شبـه رأس الحبشى بالزبـيبة لتجمـعها ولكون شعـره أسود، وهو تمثيل فـى الحقارة وبشاعة الصورة وعدم الاعتداد بها.

نقل ابن بطال عن المـهلب قال: قوله «**اسمعو وأطيعوا**» لايوجب أن يكون المستعمل للعبد إلا إمامة قـرشى، لما تقدم أن الإمامة لاتكون إلا فى قريش، وأجـمعت الأمة على أنها لاتكون فى العبيد.

قلت - أى ابن حجر - : ويحـتمل أن يسمى عبداً باعتبار ماكـان قبل العتق، وهذا كله إنما هو فـيما يكون بطريق الاخـتيار، وأما لوتغلب عـبد حقيقة بطريـق الشوكة فإن طاعته تجب إخماداً للفتنة مالم يأمر بمعصية كما تقدم تقريره.

وقيل المراد أن الإمام الأعظم إذا استـعمل العبد الحبشى على إمـارة بلد مثلا وجبت طاعته، وليس فيه أن العبد الحبشى يكون هو الإمام الأعظم.

وقال الخطابى: قد يضرب المثـل بما لايقع فى الوجود، يعنـى وهذا من ذاك أطلق العبد الحبشى مبالغة فى الأمر بالطاعة وإن كان لايتصور شرعاً أن يلى ذلك.

● حرمة طاعة الامام والأمير فى المعصية والأدلة على ذلك.

قوله «مالم يؤمر بمعصية» هذا يفيد ما أطـلق فى الحديثين الماضيين مـن الأمر بالسمع والطاعة ولو حبشى، ومن الصبر على مايقـع من الأمير مما يكره، والوعيد على مفارقة الجماعة.

قوله «فإذا أمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة» أى لايجب ذلـك بل يحرم علـى من كان قادراً على الامتناع، وفى حديث معاذ عند أحمد «**لاطاعة لمن لا يطع الله**»[3].

(١) فتح البارى (١٣/ ١٣٠: ١٣٢)

(٢) **[صحيح]** أخرجه مسلم فى الإمارة ـ(٦/ ٤٦٦) عن أم الحصين به.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٢١٣) عن أنس أن معاذاً.. الحديث.

قال الهيثـمى فى «المجمع» (٥/ ٣٢٥): رواه أحمد، وأبو يعلـى وفيه عمرو بن زينب ولم أعـرفه وبقية رجاله رجال الصحيح.

وعنده وعند البزار فى حديث عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفارى **«لاطاعة فى معصية الله»**[1] وسنده قوى.

وفى حديث عبادة بن الصامت عند أحمد والطبرانى **«لاطاعة لمن عصى الله تعالى»**[2] وحديث عبادة فى الأمر بالسمع والطاعة **«إلاأن تروا كفرأبواحاً»**[3].

ثم قال ابن حجر: وملخصه أنه ينعزل بالكفر إجماعاً فيجب على كل مسلم القيام فى ذلك، فمن قوى على ذلك فله الثواب، ومن داهن فعليه الإثم، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض.

ومن صور الأمر من الأمير فى المعصية ما أمر به عبد الله ابن حذافه السريه[4].

وبقوله: **(فأوقدوا ناراً)** كذا وقع فى المغازى والأحكام: أن أميرهم غضب منهم فقال أوقدوا ناراً، وبقوله **«قد عزمت عليكم لما فعلتم»** بالتخفيف وجاء بالتشديد قيل إنها بمعنى «إلا».

لذا قال ﷺ: **«لو دخلوها ماخرجوا منها»** قال الداودى: يريد تلك النار لأنهم يموتون بتحريقها فلا يخرجون منها أحياء.

قال: وليس المراد بالنار نار جهنم ولا أنهم مخلدون فيها لأنه قد ثبت فى حديث الشفاعة **«يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان»**[5].

قال: وهذا من المعاريض التى فيها مندوحة، يريد أنه سيق مساق الزجر والتخويف ليفهم السامع أن من فعل ذلك خلد فى النار، وليس ذلك مراداً وإنما أريد به الزجر والتخويف.

وقد قيل إنه لم يقصد دخولهم النار حقيقة وإنما أشار لهم بذلك إلى أن طاعة الأمير واجبة ومن ترك الواجب دخل النار، فإذا شق عليكم دخول هذه النار فكيف بالنار الكبرى، وكأن قصده أنه لو رأى منهم الجد فى ولوجها لمنعهم. أهـ.

وقال ابن حجر: فى موضع آخر[6]: وفيه أن الأمر المطلق لايعم الأحوال لأنه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى فى حال الغضب وفى حال الأمر بالمعصية فبين لهم ﷺ أن الأمر بطاعته مقصور على ماكان منه فى غير معصية واستنبط منه الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة أن الجمع من هذه الأمة لايجتمعون

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٦٦) قال الهيثمى فى «المجمع» (٥/ ٢٢٦): ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٢٥) عن عبادة بن الصامت به.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٦/ ٤٦٨/ ٤٢) عن عبادة به.

(٤) تقدم تخريجه. (٥) تقدم فى باب الشفاعة. (٦) فتح البارى (٧/ ٦٥٧)

على خطأ لانقسام السرية قسمين: منهم من هان عليه دخول النار فظنه طاعة و منهم فهم حقيقه الأمر وأنه مقصور على ماليس بمعصية، فكان اختلافهم سبباً لرحمة الجميع.

وبوب البخارى فى الجهاد باب السمع والطاعة للإمام، وزاد الكشميهنى (مالم يأمر بمعصية).

قال ابن حجر: والإطلاق محمول عليه قوله ﷺ **«السمع والطاعة حق مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة»**. والمراد نفى الحقيقة الشرعية لاالوجودية. أهـ.(١).

قال ابن حجر(٢): فى تفسير قوله **﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾** الآية.

بعد أن ذكر الاشكال الذى أورده الداودى فى سبب نزول الآية في عبدالله بن حذافة أمير السرية: وينتفى الإشكال الذى أبداه لأنهم تنازعوا فى إمتثال ما أمرهم به، وسببه أن الذين هموا أن يطيعوه وقفوا عند إمتثال الأمر بالطاعة، والذين إمتنعوا عارضه عندهم الفرار من النار، فناسب أن ينزل فى ذلك مايرشدهم إلى مايفعلونه عند التنازع وهو الرد إلى الله ورسوله، أى إن تنازعتم فى جواز الشيء وعدم جوازه فارجعوا إلى الكتاب والسنة، والله أعلم. أهـ.

قلت: فعلى هذا إن أمر بمعصية أو كفر فلاطاعة له كما تقدم وإن أمر بالمعروف فله السمع والطاعة، وإن أمر بأمر معروف من وجه ومنكر من وجه فهنا يقع التنازع فوجب الرد إلى كتاب الله وهكذا يظهر أن طاعة الأمراء والرؤساء ليست مطلقة إنما هى فى طاعة الله وهذ مؤدى كلام ابن القيم حيث قال فى تفسير قوله تعالى **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾**: فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمربه على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقا، سواء ما أمر به فى الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتى الكتاب ومثله معه، ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل، وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول إيذاناً بأنهم يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ماجاء به الرسول فلاسمع ولاطاعة. أهـ.(٣).



(١) فتح البارى (٦/ ١٣٥)

(٢) فتح البارى (٨/ ١٠٢)

(٣) إعلام الموقعين(١/ ٣٩).

وَقَالَ ابنُ عَبَّاس: «يُوشِكُ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاء، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!».[1]

قوله: «وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة....».

● **مناسبة الأثر للباب وللتوحيد:**

قال ابن باز[2]: فهذا يدل على أن لايجوز مخالفة أمر الله ورسوله بقول أبي بكر وعمر، ولوقال أبو بكر وعمر ـ وهم خير الناس بعد الأنبياء ـ فمن دونهم من باب أولى أن لايطاعوا فيما يخالف الشرع. أهـ.

وقال القرعاوي[3]: حيث دل الأثر على أن رأى ابن عباس تحريم تقديم رأى المخلوقين على سنه رسول الله ﷺ، وإنما حرم ذلك ابن عباس؛ لأنه شرك مع الله في الطاعة أهـ.

● **مناسبة ورود هذا القول:**

قال سليمان وتبعه عبدالرحمن آل الشيخ[4]: هذا القول من ابن عباس رضى الله عنهما جواب لمن قال له إن أبابكر وعمر رضى الله عنهما، لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، أو ماهو معنى هذا، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، ويقول: «إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حل من عمرته شاء أم أبى» لحديث سراقة بن مالك حين أمرهم النبى ﷺ أن يجعلوها عمرة، ويحلوا إذا طافوا البيت، وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة يارسول الله ﷺ: ألعامنا هذا أم للأبد؟ فقال «للأبد»[5] والحديث فى الصحيحين.

---

(١) أخرجه الخطيب فى «الفقيه والمتفقه» (٣٧٩، ٣٨٠) عن ابن عباس به.
وانظر «فتح المجيد (٧٢١) بتخريجنا.

(٢) التعليق المفيد (١٩٥).

(٣) الجديد (٣٣٤).

(٤) فتح المجيد (٢/٥٢٨) والمعنى لسليمان، واللفظ لعبد الرحمن إلا آخره..

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٥٠٥)، ومسلم فى الحج (٤/٤٠٦/١٤١) عن جابر به.

وحينئذ فلاعذر لمن استفتى أن ينظر فى مذاهب العلماء، وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم، مادل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك كما قال تعالى ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾

وللبخارى ومسلم وغيرهما أن النبى ﷺ قال: «**لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معى الهدى لأحللت**»(١) هذا لفظ البخارى فى حديث عائشة رضى الله عنها. ولفظه فى حديث جابر: «**افعلوا ما أمرتكم به، فلولا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم**»(٢) فى عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس.

وبالجملة: فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء...» الحديث.

فقال هذا الكلام الصادر عن محض الإيمان، وتجريد المتابعة للرسول ﷺ وإن خالفه من خالفه كائناً من كان. أهـ.

الشرح:

قوله: «يوشك»

قال سليمان آل الشيخ (٣): (يوشك) بضم أوله وكسر الشين المعجمة. قال أبو السعادات: أى يقرب ويدنو ويسرع.

وقوله (أن تنزل عليكم حجارة من السماء)

قال حامد بن محمد(٤): غضباً من الله تعالى ومقتاً. أهـ.

وقال ابن باز (٥): وعيد لهم بالعقوبة. أهـ.

وقال ابن عثيمين(٦): أى من فوق تنزل عليكم عقوبة لكم، ونزول الحجارة من السماء ليس بالأمر المستحيل، بل هو ممكن، قال تعالى فى أصحاب الفيل: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ وقال تعالى فى قوم لوط ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ والحاصب الحجارة تحصبهم من السماء

(١) سيأتى تخريجه فى باب ما جاء فى اللو.
(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الحج (٤/٤٠٧/١٤٣) عن جابر به.
(٣) تيسير العزيز الحميد (٤١٠)
(٤) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٧)
(٥) التعليق المفيد (١٩٥)
(٦) القول المفيد (٢/٣١٢)

قوله« أقول (قال رسول الله ﷺ)وتقولون (قال ابو بكر وعمر)؟!»

قال سليمان آل الشيخ(١): قال الشافعي أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحـد فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر، وهما من هما، فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنة رسول الله ﷺ بإمامه وصاحب مذهبه الذى ينتسب إليه؟!

ويجعل قوله عياراً على الكتاب والسنـة، فما وافقه قَبِلَهُ، وما خالفه رده أو تأوله فالله المستعان.

وما أحسن ما قال بعض المتأخرين:

فإن جاءهم فيه الدليل فيه موافقاً ... لماكـــان للآبا إليــه ذهــاب

رضوه وإلا قيـل هـــذا مـؤول ... ويركـــب للتأويل فيه صعـاب

ولاريب أن هذا داخل فى قوله تعالى ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ الاية أهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ(٢): وقال الإمام مالك رحمه الله تـعالى: «مامنا إلاّ راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبرﷺ». وكلام الأئمة فى هذا المعنى كثير(٣):

ومازال العلماء رحمهم الله يجتهدون فى الـوقائع: فمن أصاب منهم فله أجران،ومن أخطأ فـله أجر، كما فـى الحديث(٤). لكن إذا اسـتبان لهم الـدليل أخذوا بـه وتركوا اجتهادهم. وأما إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يـثبت عن النبى ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك. فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد.

وفى عصر الأئمة الأربـعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحـاديث ممن هى عنده باللقـى والسماع،ويسافر الـرجل فى طلب الحديث إلـى الأمصار عدة سنين. ثـم اعتنى الأئمة بالتصانيـف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيدها،وبينوا صحيحـها من حسنها من

---

(١) تيسيرالعزيز الحميد (٤١١)

(٢) فتح المجيد(٢/٥٢٩، ٥٣٠)

(٣) راجع فى ذلك: إيقاظ همم أولى الأبصار للقلانى، ومقدمة صفة صلاة النبى ﷺ للألبانى.

(٤) سبق تخريجه

ضعيفها والفقهاء صنفوا فى كل مذهب. وذكروا حجج المجتهدين. فسهل الأمر على طالب العلم. وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده.

وفى كلام ابن عباس رضى الله عنهما ما يدل على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به - تقليداً لإمامه - فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ؛ لمخالفته الدليل. وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عمر البزاز، حدثنا زياد بن أيوب، حدثناأبو عبيدة الحداد، عن مالك بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع، غير النبى ﷺ».

وعلى هذا: فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء، كائنا من كان ونصوص الأئمة على هذا. وأنه لايسوغ التقليد إلا فى مسائل الاجتهاد التى لادليل فيها يرجع إليه من كتاب ولاسنة، فهذا هو الذى عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار فى مسائل الاجتهاد. وأما من خالف الكتاب والسنة: فيجب الرد عليه، كما قال ابن عباس والشافعى ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه. كما تقدم فى كلام الإمام الشافعى رحمه الله تعالى أهـ.

● وسيأتى مزيد نقل عن سليمان وعبد الرحمن آل الشيخ فى مسألة اتباع الدليل وذم التقليد. وفى مسألة الاجتهاد، بعد تفسير الآية. والله المستعان.

وقال حامد بن محمد(١):(أقول قال رسول الله ﷺ)ومع هذا تقابلون قول رسول الله ﷺ بقول غيره (وتقولون قال أبو بكر وعمر).

قلت: فإذا كان هذا المقت العظيم فيمن يقابل قول رسول الله ﷺ بقول خليفتيه أبى بكر وعمر، فكيف بمن يقابل قول الله وقول رسوله بغيرهما، ويرد حكم الله ورسوله بقول غيرهما؟! أهـ.

وقال ابن باز(٢): المعنى احتجُ عليكم فى المسألة بأمر الله ورسوله، فتخالفون وتردون على بخلاف أمر الله ورسوله،بقول أبى بكر وعمر؟

وهذا حث من ابن عباس على اتباع الشرع والحذر من تعظيم الرجال فيما يخالف الشرع. أهـ.

(١) فتح الله الحميد المجيد (٣٣٧)

(٢) التعليق المفيد (١٩٥)

وقال ابن عثيمين[1]: قوله «أقول قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!»

أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب، قال النبي ﷺ: **«إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا»**. رواه مسلم[2]، وروى عنه ﷺ؛ أنه قال **«اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر»**[3]، وقال ﷺ: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»**[4]. ولم يعرف عن أبي بكر أنه خالف نصاً في رأيه، فإذا كان قول أبي بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقولهما قول الرسول ﷺ، فإنه يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء؛ فما بالك بمن يعارض قوله ﷺ بمن هو دون أبي بكر وعمر؟! والفرق بين ذلك كما بين السماء والأرض؛ فيكون هذا أقرب للعقوبة.

وفي الأثر التحذير عن التقليد الأعمى والتعصب المذهبي الذي ليس مبنياً على أساس سليم.

وبعض الناس يرتكب خطأ فاحشاً إذا قيل له: قال رسول الله ﷺ، قال: لكن في الكتاب الفلاني كذا وكذا؛ فعليه أن يتقي الله الذي قال في كتابه: **﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾**[5]، ولم يقل ماذا أجبتم فلاناً وفلاناً، أما صاحب الكتاب، فإنه إن علم أنه يحب الخير ويريد الحق؛ فإنه يدعى له بالمغفرة والرحمة إذا أخطأ، ولايقال: إنه معصوم، يعارض بقوله قول الرسول ﷺ.

وقال القرعاوي[1]**: الفوائد من الحديث:**

(١) بيان فضل ابن عباس، ودقة فهمه.

---

(١) القول المفيد (٢/ ٣١٢)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في المساجد، (٣/ ١٩٧/ ٣١١) عن أبي قتادة به.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٨٢)، والترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧) عن حذيفة به وحسنه الترمذي.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٦٧)، وابن ماجه (٤٤) عن العرباض بن سارية به

وأنظر «رياض الصالحين» (١٥٩ ـ بتخريجنا)

(٥) القصص: ٦٥.

(١) الجديد (٣٣٣)

(٢) لايلتفت لأى رأى يخالف الكتاب والسنة مهما كان مصدره.

(٣) وجوب الغضب من أجل الله ورسوله. أهـ.

(قلت) وفيه أيضاً.

١ـ شدة خوف الصحابة من عقوبة الله إذا خالفوا.

٢ـ احتمال نزول حجارة من السماء على المخالفين للكتاب والسنة، ولما أخرجه البخارى فى «صحيحه» عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه سمع النبى ﷺ يقول: **ليكونن أقوام من أمتى يستحلون الحرّ والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم . يعنى الفقير ـ لحاجته فيقولوا أرجع إلينا غداً فيبينهم الله، ويضع العلم، ويسمخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة.**[١]

قال ابن حجر[٢]: (يبيتهم الله) أى يهلكهم ليلاً، (ويمسخ آخرين. . . .» قال ابن العربى يحتمل على الحقيقة كما وقع للأمم السابقة، ويحتمل أن يكون كناية عن تبدل أخلاقهم.

قلت: والأول أليق بالسياق.

(ويضع العلم) قال ابن بطال إن كان العلم جبلاً فيدكدكه، وإن كان بناء فيهدمه، ونحو ذلك. أهـ.

قلت والأخير موضع الشاهد والله أعلم.

٣ـ الاتباع فيه النجاة من عذاب الله وسخطه وغضبه، فى الدنيا والآخرة.

٤ - الانكار على المخالف بالشدة والإغلاظ عليه أحياناً لا يخالف الحكمة التى أمر بها الداعى إلى الله ولا يقع تحت قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ الآية.

وفى الباب عن سالم بن عبدالله بن عمر قال «إنى لجالس مع ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ فى المسجد، إذ جاءه رجل من أهل الشام، فسأله عن التمتع بالعمرة إلى الحج؟ فقال ابن عمر: حسن جميل. فقال: فإن أباك كان ينهى عن ذلك؟! فقال: ويلك! فإن كان أبى قد نهى عن ذلك، وقد فعله رسول الله ﷺ وأمر به، فبقول أبى تأخذ أم بأمر رسول الله ﷺ؟!-قال: بأمر رسول الله ﷺ، فقال: فقم عنى[٣].

---

(١) علقه البخارى (٥٥٩٠) عن أبى مالك به.

(٢) فتح البارى (١٠/٥٩، ٦٠)

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٩٥)، والترمذى (٨٢٤) عن ابن عمر بنحوه.

وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبل: «عَجِبْتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإسْنَادَ وَصِحَّتَهُ يَذْهَبُونَ إلى رَأي سُفْيَانَ، واللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ. لَعَلَّهُ إذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيغِ فَيَهْلِكَ!!

وقوف السلف عند حكم رسول الله ﷺ والرجوع عن حكمهم إن خالفه

عن ابن أبى ذئب قال: قضى سعد بن إبراهيم: يعنى ابن عبد الرحمن بن عوف - على رجل برأى ربيعة الرأى بن أبى عبدالرحمن، فأخبرته عن رسول الله ﷺ بخلاف ماقضى به فقال سعد لربيعة، هذا ابن أبى ذيب، وهو عندى ثقة، يحدث عن النبى ﷺ بخلاف ماقضيت به، فقال له ربيعة، قد اجتهدت ومضى حكمك فقال سعد: واعجباً! أنفذ قضاء سعد، ولا أنفذ قضاء رسول الله ﷺ ؟بل أرد قضاء سعد بن أم سعد، وأنفذ قضاء رسول الله ﷺ فدعا سعد بكتاب القضية فشقه،وقضى للمقضى عليه(١).



● **شرح قول الإمام أحمد**

قوله «وقال أحمد بن حنبل».

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا الكلام من أحمد رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب، قال الفضل عن أحمد: نظرت فى المصحف فوجدت طاعة الرسول فى ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾**(٣)، الآية وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة إلا الشرك لعله إذا أراد بعض قوله: أن يقع فى قلبه شىء من الزيغ فيزيغ قلبه؛ فيهلكه وجعل يتلو هذه الآية **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾**(٤)، قال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأى سفيان، فقال: عجبت لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأى سفيان وغيره . قال الله: **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** وتدرى ما الفتنة؟ الكفر . قال الله تعالى

---

(١) ذكره الألبانى فى حاشية «صفة الصلاة» (٥٤) وعزاه لابن عساكر (٧/ ٥١/ ١)

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤١١) (٣) سورة النور :٦٣.

(٤) النساء: ٦٥.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾(١) فيدعون الحديث عن رسول الله وتغلبهم أهواءهم إلى الرأى. ذكر ذلك شيخ الإسلام.

قلت: وكلام أحمد فى ذمه التقليد وإنكار تأليف كتب الرأى كتب كثيرة مشهور أهـ.

قوله(عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته).

قال سليمان آل الشيخ: قوله: عرفوا الإسناد أى: إسناد الحديث وصحته أى: ـحكمه، وسلم إلى فلان فى كذا، أى تركـح

[قلت]: وصحته كدليل يستدل به لابغيره.

وقال حامد بن محمد(٢): علموا أنه عن رسول الله ﷺ وثبت عندهم، أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ (٣): أى: إسناد الحديث وصحته، فإذا صح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء. أهـ.

وقال عبدالله بن جار الله(٤): عجب الإمام أحمد بمعنى الإنكار على أولئك الذين يعرفون إسناد الحديث، وأنه صحيح عن رسول الله ﷺ، لامجال للكذب والطعن فيه، ويتركونه، ويأخذون برأى بعض الناس، كسفيان الثورى. أهـ.

وقال ابن باز(٥): بنحو ماتقدم.

وقال ابن عثيمين (٦): قول أحمد رحمه الله: «عجبت».

العجب نوعان:

الأول: عجب استحسان؛ كما فى حديث عائشة رضى الله عنها: «كان الرسول ﷺ يعجبه التيامن فى تنعله وترجله وطهوره وفى شأنه كله»(٧).

الثانى: عجب إنكار؛ كما فى قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾(٨)، والعجب فى كلام الإمام أحمد هنا عجب إنكار.

قوله«**الإسناد**». المراد به هنا رجال السند لانسبة الحديث إلى روايه؛ أى: عرفوا صحة الحديث بمعرفة رجاله أهـ.

قلت: أى مع سائر الشروط الأخرى كما لا يخفى إذ ليس شرطًا لصحة الحديث

(١) سورة البقرة: ١٩١.
(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٧)
(٣) فتح المجيد (٢/ ٥٣١)
(٤) الجامع الفريد (١٥٢)
(٥) التعليق المفيد (١٩٦)
(٦) القول المفيد (٢/ ٣٦٥)
(٧) تقدم تخريجه
(٨) الصافات: ١٢

صحة الإسناد فقط بل قد يكون الحديث صحيحاً الإسناد وهو ضعيف فكم من حديث صحيح الإسناد ولكن متنه معلول.

فمثلاً: حديث على رضى الله عنه فى صلاة أربع ركعات ومعها دعاء لحفظ القرآن[1]، فإن الحافظ الذهبى قال فيه: مع نظافة سنده، حديث منكر جدًا فى نفسى منه شىء. اهـ. كذا فى «الميزان»، وقال فى «تلخيصه على المستدرك»: وقد حيرنى والله جودة إسناده. اهـ.

وقد بين علم «علل الأحاديث» الأحاديث الموضوعة التى رُكِّبت على متون صحيحة الإسناد عن طريقة مخالفة أو معارضة المتن للقرآن أو لأحاديث متواترة صحيحة أو بأخطاء فى التواريخ أو عن طريق سماجة ألفاظه أو ركاكته وغير ذلك من طرق بيان علل الأحاديث سواء صحت أسانيدها أو لا، وذكر جملة من ذلك ابن القيم فى كتاب «المنار المنيف» والله أعلم.

قوله «سفيان»

قال سليمان آل الشيخ [2]: الثورى الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب ومذهب مشهور فانقطع. أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ[3]: الإمام الزاهد، العابد الثقة الفقيه[4]. وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم الله فى الكتب التى يذكر فيها مذاهب الأئمة، «كالتمهيد» لابن عبد البر، و«الاستذكار» له، وكتاب «الإشراف على مذاهب الأشراف» لابن المنذر، و«المحلى» لابن حزم، و«المغنى» لأبى محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة الحنبلى، وغير هؤلاء. أهـ.

قلت: وله ترجمة تقدمت.

وقبل الشروع فى شرح الموضوع وهو كلام الإمام نفسر الآية لما فى ذلك من بيان لغرض الإمام والله المستعان.

تفسير الآية

تمام الآية ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5].

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤١٢)

(٣) فتح المجيد (٢/ ٥٣١)

(٤) ترجمته فى: السير (٧/ ٢٢٩) وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٣) وحلية الأولياء (٦/ ٣٥٦: ٧/ ١٤٤).

(٥) سورة النور (٦٣)

سبب نزول الآية:

عن عروة ومحمد بن كعب القرظى قالا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب، نزلوا بمجمع الأسيال من بئر رومة بالمدينة قائدها أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بتغمين إلى جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ الخبر، وضرب الخندق على المدينة وعمل فيه، وعمل المسلمون فيه، وابطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابتة نائبة من الحاجة التى لابد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه فى اللحوق لحاجته، فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله فى أولئك المؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ...﴾ إلى قوله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(1)

وعن مقاتل بن حيان فى قوله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قال: هم المنافقون . كان يثقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة ـ ويعنى بالحديث الخطبة ـ فيلوذون ببعض الصحابة حتى يخرجوا من المسجد، وكان لايصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبى ﷺ فى يوم الجمعة بعدما يأخذ فى الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبى ﷺ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبى يخطب بطلت جمعته(2).

وعن مقاتل قال: كان لايخرج أحد لرعاف، أو أحداث، حتى يستأذن النبى ﷺ يشير إليه بأصبعه التى تلى الإبهام، فيأذن له النبى ﷺ يشير إليه بيده، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس فى المسجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج، فأنزل الله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾(3).

---

(1) ذكره السيوطى فى «الدر» (5/ 110) ونسبه لابن إسحاق ، وابن المنذر، والبيهقى فى «الدلائل».

(2) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (8/ 2657) فأنظره بتخريجنا

(3) ذكره السيوطى فى «الدر» (5/ 111) ونسبه لابى داود فى مراسيله.

وعن الضحاك فى قوله ﴿لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1] قال: كان لا يستأذنه إذا غزا إلا المنافقون. فكان لايحل لأحد أن يستأذن رسول الله ﷺ أو يتخلف بعده إذا غزا، ولاتنطلق سرية إلا بإذنه. ولم يجعل الله للنبى ﷺ أن يأذن لأحد حتى نزلت الآية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يقول: أمر طاعة ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ فجعل الاذن إليه يأذن لمن يشاء . فكان إذا جمع رسول الله ﷺ الناس لأمر يأمرهم وينهاهم صبر المؤمنون فى مجالسهم، وأحبوا ما أحدث لهم رسول الله ﷺ بما يوحى إليه، وبما أحبوا وكرهوا، فإذا كان شىء مما يكره المنافقون، خرجوا يتسللون يلوذ الرجل بالرجل يستتر لكى لايراه النبى ﷺ . فقال الله تعالى: إن الله تعالى يبصر الذين يتسللون منكم لوذا[2].

هذا فى سبب نزول الآية عامة، وأما موضع الشاهد منها الذى استشهد به الإمام أحمد فهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

فقوله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾

قال القرطبى [3]: احتج الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية، ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها أهـ.

تفسير الآية بما جآء فى القرآن.

وقال الشنقيطى[4]: الضمير فى قوله: عن أمره راجع إلى الرسول ﷺ أو إلى الله والمعنى واحد، لأن الأمر من الله والرسول مبلغ عنه، والعرب تقول: خالف أمره وخالف عن أمره: وقال بعضهم: يخالفون: مضمن معنى يصدون، أى يصدون عن أمره.

وهذه الآية الكريمة قد استدل بها الأصوليون على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضى

(١) التوبة: ٤٤.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ١١٢) ونسبه لأبى الشيخ.

(٣) تفسير القرطبى (٧/ ٤٧١٥)

(٤) أضواء البيان (٦/ ١٧٢)

الوجوب، لأنه جل وعلا توعد المخالفين عن أمره بالفتنة أو العذاب الأليم وحذرهم من مخالفة الأمر. وكل ذلك يقتضى أن الأمر للوجوب، مالم يصرف عنه صارف، لأن غير الواجب لايستوجب تركه الوعيد الشديد والتحذير».

(وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة من اقتضاء الأمر المطلق الوجوب دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ فإن قوله: ﴿ارْكَعُوا﴾ أمر مطلق، وذمه تعالى للذين لم يمتثلوه بقوله: ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ يدل على أن امتثاله واجب. وكقوله تعالى لإبليس ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾(1) فإنكاره تعالى على إبليس موبخاً بقوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ يدل على أنه تارك واجباً .وأن امتثال الأمر واجب مع أن الأمر المذكور مطلق، وهو قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾(2)وكقوله تعالى عن موسى ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾(3) فسمى مخالفة الأمر معصية، وأمره المذكور مطلق، وهو قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾(4) وكقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(5) وإطلاق اسم المعصية على مخالفة الأمر يدل على أن مخالفة عاص، ولايكن عاصياً إلابترك واجب، أو ارتكاب محرم. وكقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(6) فإنه يدل على أنها أمر الله،وأمر رسوله مانع من الاختيار موجب للامتثال، وذلك يدل على اقتضائه الوجوب كما ترى. وأشار إلى أن مخالفته معصية بقوله بعده: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾(7).

اعلم أن اللغة تدل على اقتضاء الأمر المطلق الوجوب بدليل أن السيد لو قال لعبده اسقنى ماء مثلاً، ولم يمتثل العبد أمر سيده فعاقبه السيد فليس للعبد أن يقول: عقابك

(1) الأعراف : 12
(2) البقرة : 34
(3) طه :93
(4) الأعراف :142
(5) التحريم : 6
(6) الأحزاب : 36
(7) الأحزاب : 36

لى ظلم لأن صيغة الأمر فى قولك: اسقنى ماء لم توجب عَلَىَّ الامتثال فقد عاقبتنى على ترك ما لايلزمنى، بل يُفهم من نفس الصيغة أن الامتثال يلزمه، وأن العقاب على عدم الامتثال واقع موقعه. أهـ.

تفسير الآية بما جاء من أقوال السلف.

أخرج ابن جرير[1] عن ابن زيد، قال: هؤلاء المنافقون الذين يرجعون بغير إذن رسول الله.

وأخرج ابن ابى حاتم[2] عن ابن حيان: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يعنى المنافقون

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن صالح قال: إنى لخائف على من ترك المسح على الخفين أن يكون داخلاً فى هذه الآية **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**

وأخرج ابن ابى حاتم عن ابن زيد: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الذين يصنعون هذا.

تفسير الآية بما جاء من أقوال السلف

قال ابن جرير[3]: فليتق من يفعل ذلك منكم الذين يخالفون أمر الله فى الإنصراف عن رسول الله ﷺ إلا بإذنه، أن تصيبهم فتنة من الله أو عذاب أليم. أهـ.

ثم قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ وأدخلت (عن)؛ لأن معنى الكلام: فليحذر الذين يلوذون عن أمره، ويدبرون عنه معرضين. هـ.

وقال البغوى[4]: بنحو قول ابن جرير.

قال الزمخشرى[5]: الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين، وهم المنافقون، فحذف المفعول؛ لأن الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه.

---

(١) تفسير ابن جرير(٩/١٨/١٣٥

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (٨/ ٢٦٥٧)

(٣) تفسير ابن جرير(٩/١٨/١٣٥)

(٤) معالم التنزيل (٤/ ٢٢٣، ٢٢٤)

(٥) الكشاف (٣١/ ٨٧)

والضمير فى (أمره) لله سبحانه وتعالـى أو لرسول الله ﷺ والمعنى عن طاعته ودينه أهـ.

وقال ابن الجوزى [(١)]: فى هاء الكناية قولان ـ فذكـر ما قاله الزمخشرى،وعزى الأول لمجاهد والثانى لقتادة ـ ثم قال وفى (عن) قولان:

أحدهما أنها زائدة. قاله الأخفش،

والثانى هو ماذكره الطبرى سابقاً . أهـ.

وقال الفخر الرازى [(٢)]: كما تقدم ذكـر الرسول فقد تقدم ذكر الله تـعالى لكن القصد هو الرسول فإلـيه ترجع الكناية وقال أبو بكر الرازى الأظهـر أنها لله تعالى لأنه يليه، وحكم الكناية رجوعها إلى مايليها دون ما تقدم أهـ. .

قلت : ورجح ابن عثيمين أن الضيمر يعود على الرسول ﷺ.

وقال ابن كثير[(٣)]: أى عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله، ومـنهاجه، وطريقته، وسنتـه، وشريعتـه. فتوزن الأقوال والأعـمال بأقوالـه وأعماله، فـما وافق ذلك قُـبل، وماخالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنـاً من كان، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنـه قال: «**من عمل عـملاً ليس عليه أمـرنا فهو رد**»[(*)]أى : فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً. أهـ.

وقال الشوكانى[(٤)]: (فليحذر) الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها، أى يخالفون أمر النبى ﷺ بترك العمل بمقـتضاه، وعدى فعل المخالفة بـ (عن) مع كونه متعـدياً بنفسه؛ لتضمينه معـنى الإعراض أو الصد، وقيل الضمير لله سبحانه؛ لأنـه الآمر بالحقيقة. أهـ وسبق كلام الزمخشرى عن الضمير هنا.

وقال ناصر السعدى[(٥)]:﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ**﴾ أى يذهبون إلى بعض شئونهم عن أمـر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شـأن من شؤونه؟! وإنما ترك أمر الله من دون شغل له. أهـ

قوله(أن تصيبهم فتنة)

تفسيرها من القرآن

قال الشنقيطى[(٦)]: قد دل استقـراء القرآن العظيم أن الفـتنة فيه أطلقت عـلى أربعة معان.

(١) زاد المسير (٥/ ٤٠١)

(٢) التفسير الكبير (١٢/ ٢٣/ ٤١)

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٢)

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٨)

(*) تقدم تخرجه

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٨٤)

(٦) أضواء البيان (٦/ ١٧٢)

(٧)الذاريات/ ١٣

الأول: أن يراد بها الإحراق بالنار كقوله تعالى ﴿ **يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ**﴾[7] وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾[1] الآية. أى أحرقوهم بنار الأخدود على القول بذلك.

الثاني: وهو أشهرها إطلاق الفتنة على الإختبار كقوله تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾[2] الآية وقوله تعالى: ﴿**لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا** (١٦) **لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾[3].

والثالث: إطلاق الفتنة على نتيجة الإختيار إن كانت سيئة كقوله تعالي: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾[4]. وفى الأنفال ﴿**وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾[5] فقوله ﴿**حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾[6]. أى حتى لايبقى شرك على أصح التفسيرين، ويدل على صحته قوله بعده: ﴿**وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾، لأن الدين لايكون كله لله حتى لايبقى شرك كما ترى، ويوضح ذلك قوله ﷺ، «**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الله**»[*] كما لايخفى.

والرابع: إطلاق الفتنة على الحجة فى قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾[7]، أى لم تكن حجتهم، كما قال به بعض أهل العلم.

والأظهر عندى: أن الفتنة فى قوله هنا: ﴿**أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ**﴾ أنه من النوع الثالث من الأنواع المذكورة.

وأن معناه أن يفتنهم الله أى يزيدهم ضلالاً بسبب مخالفتهم، عن أمره، وأمر رسوله ﷺ.

وهذا المعنى تدل عليه آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، كقوله جل وعلا: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[8] وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾[9] وقوله تعالى ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**﴾[10] الآية. وقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ**﴾[11] الآية والآيات بمثل ذلك كثيرة والعلم عند الله تعالى.

---

(١) البروج: ١٠ (٢) الأنبياء: ٣٥
(٣) الجن ١٦-١٧ (٤) البقرة: ١٩٣
(٥) الأنفال: ٣٩ (٦) البقرة: ١٩٣ (*) تقدم تخريجه
(٧) الأنعام: ٢٣ (٨) المطففين: ١٤
(٩) الصف: ٥ (١٠) البقرة: ١٠ (١١) التوبة: ١٢٥

تفسيرها بما جاء عن السلف والمفسرين

قال ابن جرير[1]: الفتنة ههنا: الكفر. أهـ.

وذكر ابن أبي حاتم[2] **هذا القول عن**: مقاتل، وروى عن السدى، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم نحو ذلك.

وقال البغوى(٣): قال مجاهد: بلاء فى الدنيا أ هـ.

وقال الزمخشرى[4]: الفتنة : محنة فى الدنيا.

وعن ابن عباس (فتنة) : قتل. وعن عطاء :زلازل وأهوال. وعن جعفر بن محمد: يسلط عليهم سلطاناً جائراً. أهـ.

وقال ابن الجوزى[5]: فى الفتنة هنا ثلاثة أقوال:

أحدها: الضلالة. قالها ابن عباس.

والثانى والثالث تقدما.

وقال الفخر الرازى[6]: قال الحسن: الفتنة هى ظهور نفاقهم. أهـ.

وقال القرطبى[7]: الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول . أهـ.

وقال ابن كثير[8]: (فتنة) أى فى قلوبهم من كفر، أو نفاق، أو بدعة. أهـ.

وقال الشوكانى[9]:الفتنة هنا غير مقيدة. أهـ ثم ذكر بعض هذه الأقوال.

وقال السعدى[10]:(فتنة) أى شرك، وشر. أهـ.

قلت: وخلاصة الأقوال فى الفتنة اثنا عشرة قولاً:

(١) الكفر (٢) النفاق (٣) بلاء فى الدنيا ومحنة (٤) زلازل وأهوال

(٥) سلطان جائر (٦) الضلالة (٧) ظهور نفاقهم (٨) الطبع على القلوب

(٩) بدعة (١٠) شرك (١١) شر (١٢) مطلقة غير مقيدة (فتنة) أى عامة.

---

(١) تفسير ابن جرير (١٩/١٨/١٣٣، ١٣٤)

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (٨/٢٦٥٧)

(٣) معالم التنزيل (٤/٢٢٤) (٤) الكشاف (٣/٨٧)

(٥) زاد المسير (د/٤٠١) (٦) التفسير الكبير (١٢/٢٣/٤٣)

(٧) تفسير القرطبى (٧/٤٧١٥)

(٨) تفسير ابن كثير (٣/٢٩٢) (٩) فتح القدير (٤/٥٨)

(١٠) تيسير الكريم الرحمن (٣/٣٨٤).

فائدة :

وقال الفخر الرازي [(١)]**:إنما ردد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الأمرين ﴿فتنة أو عذاب إليم﴾ لأن ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك في الدنيا، فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد أهـ.**

قال ابن عثيمين [(٢)]: الفتنة فسرها الإمام أحمد بالشرك، وعلى هذا يكون الوعيد بأحد أمرين: إما الشرك، وإما العذاب الأليم. أهـ.

قلت : ولامانع من إعمال هذه المعاني جميعاً لأن هذا من قبيل اختلاف التنوع لا التضاد لأن الآية تحتمل ذلك كله وهذا مؤدى قول الشوكاني والله أعلم.

قوله تفسيرها بالماثور

أولاً من السنة ﴿أو يصبهم عذاب أليم﴾

عن يحيى بن أبي كثير قال: نهى رسول الله ﷺ أصحابه أن يقاتلوا ناحية من خيبر، فانصرف الرجال عنهم وبقي رجل، فقاتلهم، فرموه، فقتلوه، فجيء به إلى النبي ﷺ فقال: أبعد ما نهينا عن القتال؟ فقالوا: نعم . فتركه ولم يصل عليه[(٣)].

وعن مجاهد قال: أشد حديث سمعناه عن النبي ﷺ قوله في سعد ابن معاذ في أمر القبر. ولما كانت غزوة تبوك قال: «**لايخرج معنا إلا رجل مُقْوٍ**» فخرج رجل على بكر له صعب، فصرعه، فمات فقال الناس: الشهيد الشهيد. فأمر النبي ﷺ بلالاً أن ينادي في الناس «**لايدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولايدخل الجنة عاص**»[(٤)].

وعن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه ذات يوم وهو مستقبل العدو: **لا يقاتل أحد منكم**، فعمد رجل منهم ورمى العدو وقاتلهم، فقتلوه، فقيل للنبي ﷺ استشهد فلان فقال: **أبعد مانهيت عن القتال؟** قالوا : نعم قال «**لايدخل الجنة عاص**»[(٥)].

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «**مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها، جعل الفراش، وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها قال : فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها**»[(٦)]أخرجاه من حديث عبد الرزاق. أ. هـ

---

(١) التفسير الكبير (١٢/ ٢٣/ ٤٣)　　(٢) القول المفيد (٢/ ٣١٦)

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٥/ ١١١) ونسبه لعبد الرزاق في «المصنف»

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٥/ ١١٥) ونسبه لعبد الرزاق.

(٥) نفس المصدر السابق　　(٦) تقدم تخريجه

ثانيًا من السلف وأقوال المفسرين

(١) القتل : أخرج ابن أبى حاتم[١] عن مقاتل. وذكره ابن الجوزى [٢].

(٢) . أويصيبهم فى عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على صنيعهم ذلك. أخرجه ابن جرير[٣] عن الضحاك.

(٣) وجيع فى الآخرة. قاله البغوى[٤]، والزمخشرى[٥]، وابن الجوزى، والشوكانى[٦].

(٤) عذاب فى الدنيا بقتل، أو حد، أو حبس، أونحو ذلك . قاله ابن كثير[٧]

وقال الشوكانى) **وكلمة (أو) لمنع الخلو. أهـ**

وهذا أوان الشروع فى الموضوع وهو شرح كلام الامام أحمد

قال سليمان آل الشيخ [٨]:ومراد أحمد الإنكار على من يعرف إسناد الحديث وصحته ثم بعد ذلك يقلد سفيان أو غيره، ويعتذر بالأعذار الباطلة إما بأن الأخذ بالحديث اجتهاد والاجتهاد انقطع منذ زمان، وإما بأن هذا الإمام الذى قلدته أعلم منى فهو لايقول إلا بعلم. ولايترك هذا الحديث مثلاً إلا عن علم، وإما بأن ذلك اجتهاد ويشترط فى المجتهد أن يكون عالماً بكتاب الله عالماً بسنة رسول الله ﷺ،وناسخ ذلك ومنسوخه، وصحيح السنة وسقيمها، عالماً بوجوه الدلالات، عالماً بالعربية والنحو والأصول، ونحو ذلك من الشروط التى لعلها لاتوجد تامة إلا فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، كما قاله المصنف. فيقال له: هذا إن صح فمرادهم بذلك المجتهد المطلق، أما أن يكون ذلك شرطاً فى جواز العمل بالكتاب والسنة فكذب على الله، وعلى رسوله ﷺ، وعلى أئمة العلماء بل الفرض والحتم على المؤمن إذا بلغه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعلم معنى ذلك فى أى شيء كان أن يعمل به ولو خالفه من خالفه؛ فبذلك أمرنا ربنا تبارك وتعالى ونبينا ﷺ.

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم (٨/ ٢٦٥٧)

(٢) زاد المسير (٥/ ٤٠١)

(٣) تفسير ابن جرير (٩/ ١٨/ ١٣٥)

(٤) معالم التنزيل (٤/ ٢٢٤)

(٥) الكشاف (٣/ ٨٧)

(٦) فتح القدير (٤/ ٥٨)

(٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٢).

(٨) تيسير العزيز الحميد (٤١٢)

وأجمع على ذلك العلماء قاطبة إلا جهال المـقلدين وجفاتهم، ومثل هؤلاء ليسوا من أهل العلم كما حكى الإجماع على أنهم ليسوا من أهل العلم، منهم ـ أبو عمر بن عبد البر وغيره. قال الله تعالى : ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(١) وقال تعـالى : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾(٢) فشهد تعالـى لمن اطاع الرسول ﷺ بالهداية. وعند جـفاة المقلدين أن من أطاعه ﷺ ليس بمهتدى إنما المهتدى مـن عصاه، وعدل عن أقواله، ورغب عن سنته إلى مذهب أو شيخ ونحو ذلك.

وقد وقع فى هذا التقليد المحرم خلق كثير ممـن يدعى العلم والمعرفة بالعلوم ويصنف التصـانيف فى الحديـث والسنن ثم بعـد ذلك تجده جامـداً على أحد هذه المـذاهب يرى الخروج عنها من العظائم.

وفى كلام أحمد إشـارة إلى أن التقليد قبـل بلوغ الحجة لايذم، إنما المذمـوم المنكر الحرام الإقامـة على ذلك بعد بـلوغ الحجة، نعم ويـنكر الإعراض عن كتـاب الله وسنة رسوله ﷺ، والإقبال على تعلم الكتب المصنفة فى الفقه استغناء بها عن الكتاب والسنة، بل إن قرأوا شيئـاً من كتاب الله وسنة رسوله فإنمـا يقرأون تبركاً لاتعلمـاً وتفقهاً، أو لكون بـعض الموقفيـن وقف على من قـرأ البخارى مثلاً؛ فـيقرأونه لتـحصيل الوظـيفة لالتحصـيل الشريعة؛ فـهؤلاء من أحق الناس بـدخولهم فى قول الله تـعالى ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾(٣) وقوله تـعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾(٤) إلى قوله ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾(٥).

فإن قلت فماذا يجوز للإنسان من قراءة هذه الكتب المصنفة فى المذاهب؟

قيل: يجـوز من ذلك قراءتها على سـبيل الاستعانة بـها على فهم الكتـاب والسنة وتصوير المسائل، فتكون من نوع الكتب الآلية أما أن تكون هى المُقدمة على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، الحاكمة بـين الناس فيما اختلفوا فيه، المدعو إلـى التحاكم إليها دون

---

(١) سورة الأعراف: ٣ (٢) سورة النور :٥٤

(٣) سورة طه : ٩٩، ١٠٠، ١٠١ (٤) طه :١٢٤

(٥) طه :١٢٧

التحاكم إلى الله والرسول ﷺ؛ فلا ريب أن ذلك مناف للإيمان مضاد له قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١) فإن كان التحاكم عند المشاجرة إليها دون الله، ورسوله، ثم إذا قضى الله ورسوله أمراً وجدت الحرج فى نفسك، وإن قضى أهل الكتاب بأمر لم تجد حرجاً، ثم إذا قضى الرسول ﷺ، بأمر لم تسلم له، وإن قضوا بأمر سلمت له. فقد أقسم الله تعالى أنك لست بمؤمن والحالة هذه وبعد ذلك؛ فقد قال الله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾(٢) على أن الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم، قد نهوا عن تقليدهم مع ظهور السنة؛ فكلام أحمد الذى ذكره المصنف كاف عن تكثير النقل عنه.

وقال أبو حنيفة: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين؛ فنحن رجال وهم رجال.

وفى «روضة العلماء» سئل أبو حنيفة إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه قال: اتركوا قولى لكتاب الله، قيل: إذا كان قول الرسول يخالفه قال: اتركوا قولى لخبر الرسول ﷺ، قيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه قال: اتركوا قولى لقول الصحابة، فلم يقل: هذا الإمام مايدعيه جفاة المقلدين له أنه لا يقول قولاً يخالف كتاب الله، حتى أنزلوه بمنزلة المعصوم الذى لاينطق عن الهوى.

وروى البيهقى فى «السنن» عن الشافعى أنه قال: إذا قلت قولا وكان عن النبى ﷺ خلاف قولى فما يصح من حديث رسول الله ﷺ أولى فلا تقلدونى. وقال الربيع: سمعت الشافعى يقول: إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله، ودعوا ما قلت:

وتواتر عنه أنه قال: إذا صح الحديث - أى: بخلاف قولى - فاضربوا بقولى الحائط.

وقال مالك كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وكلام الأئمة مثل هذا كثير.

[قلت]: مثل ما سيأتى من نقل الإمام الشنقيطى أهـ ثم قال: فخالف المقلدون ذلك وجمدوا على ما وجدوه فى الكتب المذهبية، سواء كان صواباً أم خطأ مع أن كثيراً من هذه الأقوال المنسوبة إلى الأئمة ليست أقوالاً لهم منصوصاً عليها، وإنما هى تفريعات ووجوه واحتمالات وقياس على أقوالهم.

---

(١) النساء ٦٥

(٢) القيامة: ١٤، ١٥

ولسنا نقول: إن الأئمة على خطأ بل هم إن شاء الله على هدى من ربهم. وقد قاموا بما أوجب الله عليهم من الإيمان بالرسول ﷺ ومتابعته، ولكن العصمة منتفية عن غير الرسول، فهو الذى قال فيه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فما العذر فى اتباعهم وترك اتباع الذى لا ينطق عن الهوى؟!.

قال الشنقيطى[(1)]: إعلم أن الأئمة الأربعة رحمهم الله، متفقون على منع تقليدهم، التقليد الأعمى الذى يتعصب له من يدعون أنهم أتباعهم.

ولو كانوا أتباعهم حقا لما خالفوهم فى تقليدهم الذى منعوا ونهوا عنه.

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى جامعه:

أخبرنا عبدالله بن محمد بن عبد المؤمن، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد القاضى المالكى، قال حدثنا موسى بن إسحاق، قال حدثنا إبراهيم بن المنذر، قال حدثنا معن بن عيسى، قال سمعت مالك بن أنس يقول: إنما أنا بشر أخطىء وأصيب، فانظروا فى رأيى، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه. أ هـ. محل الغرض منه بلفظه.

فمالك - رحمه الله - مع علمه وجلالته وفضله يعترف بالخطأ وينهى عن القول بما خالف الوحى من رأيه.

فمن كان مالكياً فليمتثل قول مالك ولا يخالفه بلا مستند.

وقال أبو عمر بن عبدالبر- رحمه الله - فى «جامعه» أيضاً:

أخبرنى أحمد بن عبد الله بن محمد بن على حدثنى أبى حدثنا محمد بن عمر بن لبابة قال: حدثنا مالك بن على القرشى، قال أنبأنا عبدالله بن مسلمة القعنبى قال:

دخلت على مالك فوجدته باكياً فسلمت عليه فرد على ثم سكت عنى يبكى، فقلت له:

يا أبا عبدالله ما الذى يبكيك؟ فقال لى يا ابن قعنب إنا لله على مافرط منى، ليتنى جلدت بكل كلمة تكلمت بها فى هذا الأمر بسوط. ولم يكن فرط منى ما فرط من هذا الرأى، وهذه المسائل قد كانت لى سعة فيما سبقت إليه. أهـ محل الغرض منه بلفظه.

ومن المعلوم بالضرورة أن مالكاً - رحمه الله - لايسرُّه ولايرضيه تقديم رأيه هذا الذى

---

(1) أضواء البيان (٧/ ٣٥٦:٣٥٧)

يسترجع ويبكى ندماً عليه، ويتمنى لو ضرب بالسياط ولم يكن صدر منه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فليتق الله وليستحى من الله من يقدم مثل هذا الرأى على الكتاب والسنة زاعماً أنه متبع مالكاً فى ذلك.

وهو مخالف فيه لمالك، ومخالف فيه لله ورسوله، ولأصحابه ولكل من يعتد به من أهل العلم.

وقال ابن القيم - رحمه الله - فى «أعلام الموقعين».

وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة.

فقال الشافعى: مثل الذى يطلب العلم بلا حجة، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لايدرى، ذكره البيهقى.

وقال إسماعيل بن عيسى المزنى فى أول مختصره: اختصرت هذا من علم الشافعى، ومن معنى قوله لأقربه على من أراده مع إعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه، ويحاط فيه لنفسه إلى أن قال:

وقال أحمد بن حنبل: لاتقلدنى، ولاتقلد مالكاً، ولا الثورى ولا الأوزاعى، وخذ من حيث أخذوا.

وقال : من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال.

وقال بشر بن الوليد: قال أبو يوسف: لايحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا.

وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعى أنه يستتاب، فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله أهـ محله الغرض منه.

ومما لاشك فيه أن الأئمة الأربعة- رحمهم الله - نهوا عن تقليدهم فى كل ما خالف كتاباً أوسنة كما نقله عنهم أصحابهم.

كما هو مقرر فى كتب الحنفية عن أبى حنيفة.

وكتب الشافعية عن الشافعى القائل: إذا صح الحديث فهو مذهبى .

وكتب المالكية، والحنابلة عن مالك وأحمد رحمهم الله جميعاً.

وكذلك كان غيرهم من أفاضــل العلماء يمنعون من تقليدهم فيـما لم يوافق الكتاب والسنة وقد يتحفظون منه ولايرضون.

قال أبو عمر بن عبد البرـ رحمه الله ـ فى جامعه.

وذكر محمد بن حارث فى أخبار سحنون بــن سعيد عن سحنون، قال كان مالك بن أنس وعبد العزيز بن أبى سلمة ومحمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز، فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز أجابهما.

وإذا سأله محمد بن إبراهيم بن دينار وذووه لم يجبهما.

فقال له:

يسألك مالك وعبدالعزيز فتجيبهما، وأسألك أنا وذوى فلاتجيبنا؟

فقال:

أوقع ذلك يا ابن أخى فى قلبك؟

قال : نعم :فقال له:

إنى قد كبرت سنى ورق عظمى، وأنا أخاف أن يكــون خالطنى فى عقلى مثل الذى خالطنى فى بدنى.

ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان، إذا سمعا منى حقاً قبلاه، وإذا سمعا خطأ تركاه.

وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه.

قال محمد بن حارث : وهذا والله هو الدين الكامل، والعقل الراجح.

لاكمن يأتى بالهذيان، يريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن. أهـ. منه.

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: **[لعله]** أى : لعل الإنسان الذي تصح عنده سنة رسول الله ﷺ .

قوله : **[إذا رد بعض قوله]**أى قول النبى ﷺ.

قوله **[أن يقع فى قلبه شىء مــن الزيغ فيهلك]** هذا تنبيه على أن رد قول الرسول ﷺ سبب لـزيغ القلب الذى هـو سبب الهلاك فـى الدنيا والآخرة، فإذا كـانت إساءة الأدب معه فى الخطـاب سبباً لحبوط الأعمال كمـا قال تعالى **﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾**[2] ﷺ**﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾**[3] فما ظنك برد أحكامه وسنته لقول أحد من الناس كائناً من كان؟

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٢)

(٢) سورة الحجرات: ٢

(٣) الحجرات : ٢

قال شيخ الإسلام: فإذا كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من استخفاف بحق الآمر كما فعل إبليس لعنه الله. فإذا علمت أن المخالفة عن أمره ﷺ سبب للفتنة، التى هى الشرك والعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة علمت أن من رد قوله وخالف أمره لقول أبى حنيفة، أو مالك أو غيرهما: لهم النصيب الكامل، والحظ الوافر من هذه الآية، وهذا الوعيد على مخالفة أمره ﷺ، وقد استدل بهذه الآية كثير من العلماء على أن أصل الأمر للوجوب حتى يقوم دليل على استحبابه. أهـ. وتقدم ذكر ذلك من قول الشنقيطى.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ(١): فقول الإمام أحمد رحمه الله : «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته. .إلخ» إنكار منه لذلك. وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذى يكون به المرء كافراً.

وقد عمت البلوى بهذا المنكر، خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم، نصبوا الحبائل فى الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه، فمن ذلك قولهم: لايستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع . ويقول: هذا الذى قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التى غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ، الذى لاينطق عن الهوى، واالاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يخالفه ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذى معه بعض العلم لا كله.

فالواجب على كل مكلف، إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك: أن ينتهى إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى : **﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾**(٢) وقال تعالى **﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**(٣).

قلت ـ عبد ارحمن آل الشيخ ـ :ولاويخالف فى ذلك إلا جهال المقلدة، لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنهما، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة، فإنهم فى الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم، كما قدمنا من قول مالك والشافعى وأحمد أهـ

---

(١) فتح المجيد (٢/ ٥٣١ : ٥٣٣) مختصراً (٢) الأعراف: ٣ (٣) العنكبوت (٥١)

فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على مافى الكتاب والسنة. فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لابد أن يذكر دليله، والحق فى المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمنصف يجعل النظر فى كلامهم وتأمله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً، وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التى يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه.

والأدلة على هذا الأصل فى كتاب الله أكثر من أن تحصر، وفى السنة كذلك، كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ: «أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: كيف تقضى **إذا عرض لك قضاء**؟ قال: أقضى بكتاب الله تعالى، قال: **فإن لم تجد فى كتاب الله**؟ قال: فبسنة رسول رسول الله ﷺ. قال: فإن لم تجد فى سنة **رسول الله** ﷺ **ولافى كتاب الله**؟ قال: أجتهد رأيى ولا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: **الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله**». وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضى الله عنه: «أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن...» بمعناه(1).

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا فى البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير، كما لايخفى على من نظر فى أقوال العلماء. أ هـ.

● ولأهمية مسألة التقليد وعلاقتها بالتوحيد سنفرد لها فصلاً يحوى معناه لغة واصطلاحاً وحكمه والفرق بينه وبين الاتباع وشُبه من قال به مطلقاً ومن منعه مطلقاً والراجح فى هذا الأمر مع صور للتقليد المذموم إجمالاً وتنبيهات مهمة على هذا الأمر والله الموفق لارب سواه.

فصل فى التقليد

تعريف التقليد لغة:

قال الشوكانى(2): أما التقليد: فأصله فى اللغة مأخوذ من القلادة، التى يقلد غيره

---

(1)[ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (5/ 230)، وأبو داود (3593) عن معاذ به.

وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى فتح تخريج أحاديث الظلال» (858)

(2) إرشاد الفحول (1/ 345)

بها، ومنه تقليد الهدى فكأن المقلد جعل ذلك الحكم، الذى قلد فيه المجتهد كالقلادة فى عنق من قلده[1]. أهـ.

قال الشنقيطى[2]: تقليد الولاة هو جعل الولايات قلائد فى أعناقهم ومنه قول لقيط الأيادى:

وقلدوا أمركم لله دركم　　　رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا أهـ.

تعريف التقليد المذموم اصطلاحاً:

قال الشوكانى[3]: وفى الاصطلاح: هو العمل بقول الغير من غير حجة.

وقال ابن الهمام فى «التحرير» : التقليد العمل بقول من ليس قوله إحدى الحجج بلاحجة. وهذا الحد أحسن من الذى قبله.

وقال القفال : هو قبول قول القائل، وأنت لاتعلم من أين قاله.

وقال الشيخ أبو حامد، والأستاذ أبو منصور: هو قبول القول من غير حجة تظهر على قوله .

وقيل : هو قبول قول الغير دون حجته، أى حجة القول.

والأولى أن يقال : هو قبول رأى من لاتقوم به الحجة بلا حجة [4]. وفوائد هذه القيود معروفة بما تقدم[5].

وقال الشنقيطى[6]: هو الأخذ بمذهب الغير من غير معرفة دليله.

والمراد بالمذاهب: هو مايصح فيه الاجتهادخاصة، ولايصح الاجتهاد البته فى شيء يخالف نصاً من كتابه أو سنة ثابتة، سالماً من المعارض؛ لأن الكتاب والسنة حجة على كل أحد كائناً من كان، لاتسوغ مخالفتهما البتة لأحد كائناً من كان فيجب التفطن، لأن المذهب الذى فيه التقليد يختص بالأمور الاجتهادية ولايتناول ماجاء فيه نص صحيح من الوحى سالم من المعارض

---

(١) انظر: فى تعريف التقليد :(الحدود للباجى ص ٦٤، الإحكام لابن حزم ٣٧/١) ،المستصفى ٣٨٧/٢، البرهان ١٣٥٧/٢، تيسير التحرير ٢٤١/٤).

(٢) أضواء البيان (٣١٧/٧)

(٣) إرشاد الفحول (٣٤٥/١)

(٤) انظر تيسير التحرير (٢٤١/٤)

(٥) انظر: الإحكام للآمدى (٢٢١/٤)، مختصر ابن الحاجب مع شرح العضد (٣٠٥/٢)

(٦) أضواء البيان (٣١٧/٧، ٣١٨)

قال الشيخ الحطاب فى شرحه لقول خليل فـى مختصره: مختصراً على مذهب الإمام مالك بن أنس مانصه:

(والمذهب لغة الطريق ومكان الذهاب، ثم صار عند الـفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية) أهـ. محل الغرض منه بلفظه.

فقـوله : من الأحـكام الاجتـهادية تدل عـلى أن اسم المـذهب لم يـتناول مـواقع النصوص الشرعية السالمة من المعارض.

وذلك أمر لاخلاف فـيه لإجماع العلـماء على أن المجتهـد المطلق إذا أقام باجـتهاده دليلاً، مخالفاً لنص من كتاب أو سنة أو إجماع، أن دليله ذلك باطل بلا خلاف.

وأنه يرد بالقادح المسمى فى الأصول بفساد الاعتبار.

وفساد الاعتبار الذى هـو مخالفة الدليل لنص أو إجماع مـن القوادح التى لانزاع فى إبطال الدليل بها. وإليه الإشار بقول صاحب مراقى الصعود فى القوادح.

والخلف للنص أو إجماع دعا فسادا لاعتبار كل من وعى أهـ.

حكم التقليد

وبما ذكرنا تعلم أنه لا اجتهاد أصلاً ولاتقلـيد أصلاً فى شىء يخالف نصاً من كتاب أو سنة أو إجماع.

وإذا عرفت ذلك فـاعلم أن بعض النـاس من المتأخرين أجـاز التقليد، ولـو كان فيه مخالفة نصوص الوحى.

وعليه أكثر المقلدين للمذاهب فى هذا الزمان وأزمان قبله.

وبعض العـلماء **منع التقلـيد مطلقاً**،وممن ذهـب إلى ذلـك ابن خويـز منـداد من المالكية، والشوكانى فى القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد.

- **والتحقيق أن التقليد**

منه ماهو جائز.

ومنه ماليس بجائز.

ومنه مـاخالف فيه المـتأخرون المتقـدمين من الـصحابة وغيـرهم من القرون الـثلاثة المفضلة.

وسنذكر كل الأقسام هنا إن شاء الله مع بيان الأدلة.

النوع الأول :

أما التقليد الجائز: الذى لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين فهو تقليد العامى عالماً أهلاً للفتيا فى نازلة نزلت به، وهذا النوع من التقليد كان شائعاً فى زمن النبى ﷺ ولاخلاف فيه.

فقد كان العامى، يسأل من شاء من أصحاب رسول الله ﷺ، عن حكم النازلة تنزل به فيفتيه فيعمل بفتياه.

وإذا نزلت به نازلة أخرى لم يرتبط بالصحابى الذى أفتاه أولاً بل يسأل عنها من شاء من أصحاب رسول الله ثم يعمل بفتياه.

قال صاحب نشر البنود فى شرحه لقوله فى «مراقى الصعود».

رجوعه لغيره فى آخر يجوز للإجماع عند الأكثر

مانصه: يعنى أن العامى يجوز له عند الأكثر، الرجوع إلى قول غير المجتهد الذى استفتاه أولاً فى حكم آخر لإجماع الصحابة رضى الله عنهم، على أنه يسوغ للعامى السؤال لكل عالم، ولأن كل مسألة لها حكم نفسها.

فكما لم يتعين الأول للإتباع فى المسألة الأولى إلا بعد سؤاله، فكذلك فى المسألة الأخرى. قاله الحطاب شارح مختصر خليل.

قال القرافى : انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر.

وأجمع الصحابة على أن من استفتى أبا بكر وعمر وقلدهما فله أن يستفتى أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما، ويعمل بقولهم بغير نكير.

فمن أدعى رفع هذين الإجماعين فعليه الدليل أهـ. محل الغرض منه.

وما ذكره من انعقاد الإجماعين صحيح كما لايخفى، فالأقوال المخالفة لهما من متأخرى الأصوليين كلها مخالفة للإجماع.

وبعض العلماء يقول: إن تقليد العامى المذكور للعالم وعمله بفتياه من الاتباع لا من التقليد.

والصواب : أن ذلك تقليد مشروع مجمع على مشروعيته.

النوع الثانى: التقليد الذى لايجوز

أما ما ليس من التقليد بجائز لاخلاف فهو تقليد المجتهد الذى ظهر له الحكم باجتهاده، مجتهداً آخر يرى خلاف ماظهر له هو، للإجماع على أن المجتهد إذا ظهر له الحكم باجتهاده لايجوز له أن يقلد غيره المخالف لرأيه.

النوع الثالث:

وأما نوع التقليد الذى خالف فيه المتأخرون، الصحابة وغيرهم من القرون المشهود لهم بالخير، فهو تقليد رجل واحد معين دون غيره، من جميع العلماء.

فإن هذا النوع من التقليد، لم يرد به نص من كتاب ولاسنة، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا أحد من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير.

وهو مخالف لأقوال الأئمة- رحمهم الله- ، فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحد معين دون غيره، من جميع علماء المسلمين.

فتقليد العالم المعين من بدع القرن الرابع، ومن يدعى خلاف ذلك، فليعين لنا رجلاً واحداً من القرون الثلاثة الأول، التزم مذهب رجل واحد معين ولن يستطيع ذلك أبداً، لأنه لم يقع ألبتة. أهـ.

فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والإتباع.

قال ابن عبدالبر: قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد فى غير موضع من كتابه، فقال: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾(1).

وروى عن حذيفة وغيره قالوا : «لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم».

وقال عدى بن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ، وفى عنقى الصليب فقال لى: «**ياعدى: ألق هذا الوثن من عنقك**، فانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ قال قلت يا رسول الله: إنا لم نتخذهم أرباباً. قال بلى **أليس يحلون لكم ماحرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ماأحل الله لكم فتحرمونه**؟ فقلت بلى فقال :**تلك عبادتهم**».

---

(1) التوبة ٣١.

(٢) تقدم تخريجه

حدثنا عبدالوارث بن سفيان ثم ساق السند إلى أن قال عن أبى البخترى فى قوله عزوجل: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكنهم أمروهم، فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية(1).

قال وحدثنا ابن وضاح، ثم ساق السند إلى أن قال عن أبى البخترى قال: قيل لحذيفة فى قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ فقال لا، ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه(2).

وقال جل وعز: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾(3).

فمنعهم الإقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(4).

وفى هؤلاء ومثلهم قال الله عزوجل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾(5).

وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾(6).

وقال عزوجل عائباً لأهل الكفر وذاماً لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾(7).

وقال ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾(8).

ومثل هذا فى القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء.

وقد احتج العلماء بهذه الآيات، فى إبطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر.

---

(1) أخرجه ابن عبدالبر فى «جامع بيان العلم» (2/109)

(2) المصدر السابق

(3) الزخرف: 23، 24

(4) سبأ: 34

(5) الأنفال: 22

(6) البقرة: 166، 167

(7) الأنبياء: 52، 53

(8) الأحزاب: 67

وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغيرحجة للمقلد، كما لو قلد رجل فكفر وقلد آخر فأذنب وقلد آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجهها ، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة.

لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً، وإن اختلفت الآثام فيه.

وقال الله عزوجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.

وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في الباب هذا، وفي ثبوته إبطال التقليد أيضاً.

فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للأصول التي يجب التسليم لها، وهي الكتاب والسنة أو ماكان في معناهما بدليل جامع بين ذلك.

أخبرنا عبدالوارث ثم ساق السند إلى أن قال: حدثنا كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إني لأخاف على أمتي من بعدي من أعمال ثلاثة، قال وماهي يارسول الله ؟ قال : أخاف عليهم من زلة العالم ومن حكم جائر، ومن هوى متبع**»(١).

وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال :«**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ماتمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله**»(٢). هذا لفظ أبي عمر في «جامعه».

وكثير بن عبدالله المذكور في الإسناد ضعيف، وأبوه عبدالله مقبول.

ولكن المتنين المرويين بالإسناد المذكور كلاهما له شواهد كثيرة تدل على أن أصله صحيح.

ثم ذكر أبو عمر بن عبدالبر في «جامعه» بإسناده عن زياد بن حدير عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ثلاث يهدمن الدين : زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون(٣).

ثم ذكر بالإسناد المذكور عن ابن مهدي عن جعفر بن حبان، عن الحسن قال: قال أبو الدرداء: إن فيما أخشى عليكم زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، والقرآن حق وعلى القرآن منار كأعلام الطريق(٤).

ثم أخرج بإسناده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يقول في مجلسه كل يوم، قلما يخطئه أن يقول ذلك «الله حكم قسط هلك المرتابون إن وراءكم فتنا يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يقرأه المؤمن والمنافق، والمرأة والصبي والأسود والأحمر

---

(١) أخرجه ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (٢/ ١١٠)

(٢) المصدر السابق (٣) المصدر السابق (٣) المصدر السابق

فيوشك أحدهم أن يقول : قد قرأت القرآن، فما أظن أن يتبعونى حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم وزيغة الحكيم(١).

إلى آخر ماذكره ـ رحمه الله ـ من الآثار الدالة على نحو ماتقدم من أن زلة العالم من أخوف المخاوف على هذه الأمة.

وإنما كانت كذلك لأن من يقلد العالم تقليداً أعمى يقلده فيما زل فيه فيتقول على الله أن تلك الزلة التى قلد فيها العالم من دين الله، وأنها مما أمر الله بها ورسوله، وهذا كما ترى والتنبيه عليه هو مراد ابن عبدالبر ومرادنا أيضاً بإيراد الآثار المذكورة.»

ثم قال أبو عمر بن عبدالبر ـ رحمه الله ـ فى «جامعه» مانصه:

وشبه الحكماء زلة العالم بانكسار السفينة ، لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير.

وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطىء، لم يجز لأحد أن يفتى ويدين بقول لايعرف وجهه.

حدثنا عبدالرحمن بن يحيى ثم ساق السند إلى أن قال: عن ابن مسعود أنه كان يقول : «**اغد عالماً أومتعلماً ولاتغد إمعة فيما بين ذلك**»(٢).

ثم ساق الروايات فى تفسيرهم الإمعة.

ومعنى الإمعة معروف.

قال الجوهرى فى«صحاحه»: يقال الإمع والإمعة أيضاً للذى يكون لضعف رأيه مع كل أحد، ومنه قول ابن مسعود: لايكونن أحدكم إمعة. أهـ. منه.

ولقد أصاب من قال:

شمر وكن فى أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

وذكر ابن عبدالبر بإسناده عن ابن مسعود فى تفسير الإمعة أنه قال:

كنا ندعو الإمعة فى الجاهلية الذى يدعى إلى الطعام فيذهب معه بغيره، وهو فيكم اليوم المحقب دينه الرجال.

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال:

ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل كيف ذلك؟ قال :يقول العالم شيئاً برأيه ثم يجد من هو أعلم برسول الله ﷺ منه فيترك قوله ذلك ثم تمضى الأتباع(٣).

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل بن زياد النخعى، وهو حديث مشهور

(١) أخرجه ابن عبدالبر فى «جامع بيان العلم» (٢/ ١١١)
(٢) المصدر السابق (٢/ ١١٢)
(٣) المصدر السابق

عند أهل العلم، يستغنى عن الإسناد لشهرته عندهم: ياكميل إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة : فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، إلى آخر الحديث[1].

وفيه : أف لحامل حق لايصيره له، ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة، لا يدرى أين الحق، إن قال أخطأ، وإن أخطأ لم يدر، مشغوف بما لايدرى حقيقته، فهو فتنة لمن افتتن بـه، وإن من الخير كله من عرفه الله دينه،وكفى بالمرء جهلاً أن لايعرف دينه.

ولا شك أن المقلد غيره تقليداً أعمى يدخل فيما ذكره على رضى الله عنه فى هذا الحديث، ، لأنه لايدرى عن دين الله شيئاً إلا أن الإمام الفلانى عمل بهذا.

فعلمه محصور فى أن من يقلده من الأئمة ذهب إلى كذا ولايدرى أمصيب هو فيه أم مخطىء.

ومثل هذا لم يستضىء بنور العلم ولم يلجأ إلى ركن وثيق لجواز الخطأ على متبوعه، وعدم ميزه هو بين الخطأ والصواب.

ثم ذكر أبو عمر بن عبدالبر رحمه الله فى «جامعه» بإسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال:

ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة فى الشر.

وقال فى «جامعه» أيضاً رحمه الله : وثبت عن النبى ﷺ مما قد ذكرناه فى كتابنا هذا أنه قال: «**تذهب العلماء ثم تتخذ الناس رؤساء جهالاً يسألون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون**».

وهذا كله نفى للتقليد، وإبطال له لمن فهمه وهدى لرشده.

ثم ذكر رحمه الله آثاراً نحو ما تقدم ثم قال:

وقال : عبيد الله بن المعتمر: لافرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد.

وهذا كله لغير العامة، فإن العامة لابد لهامن تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها.

لأنها لاتتبين موقع الحجة ولاتصل لعدم الفهم إلى علم ذلك، لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها.

---

(١) المصدر السابق

وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة. والله أعلم.

ولاشك أن المقلد أعمى عما يفتي به لأن علمه به محصور فى أن فلاناً قاله مع علمه بأن فلاناً ليس بمعصوم من الخطأ والزلل.

ثم قال أبو عمر رحمه الله: وقال أهل العلم والنظر حد العلم التبيين وإدراك المعلوم على ماهو به، فمن بان له الشيء فقد علمه.

قالوا: والمقلد لا علم له. ولم يختلفوا في ذلك إلى أن قال رحمه الله، وقال أبو عبدالله بن خويز منداد البصرى المالكى.

التقليد: معناه فى الشرع الرجوع إلى قول لاحجة لقائله عليه.

وذلك ممنوع منه فى الشريعة.

والاتباع: ماثبت عليه حجة.

وقال فى موضع آخر من كتابه: كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قبوله لدليل يوجب عليك ذلك فأنت مقلده.

والتقليد فى دين الله غير صحيح.

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه.

والاتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع.

وقال أبو عمر فى آخر كلامه فى هذا الباب مانصه.

ولا خلاف بين أئمة الأمصار فى فساد التقليد فأغنى ذلك عن الإكثار.

قال الشنقيطي: إعلم أن مما لابد منه معرفة، الفرق بين الاتباع والتقليد وأن محل الاتباع لايجوز التقليد فيه بحال.

وإيضاح ذلك: أن كل حكم ظهر دليله من كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، أوإجماع المسلمين، لايجوز فيه التقليد بحال.

لأن كل اجتهاد يخالف النص، فهو اجتهاد باطل، ولاتقليد إلا فى محل الاجتهاد.

لأن نصوص الكتاب والسنة، حاكمة على كل المجتهدين، فليس لأحد منهم مخالفتها كائنا من كان.

ولايجوز التقليد فيما خالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً إذ لا أسوة فى غير الحق.

فليس فيما دلت عليه النصوص إلا الاتباع فقط.

ولا اجتهاد، ولاتقليد فيما دل عليه نص، من كتاب أو سنة، سالم من المعارض.

والفرق بين التقليد والاتباع أمر معروف عند أهل العلم، لايكاد ينازع فى صحة معناه أحد من أهل العلم.

كلام ابن خويز منداد الذى نقله عنه ابن البر فى «جامعه».

وهو قوله: التقليد معناه فى الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع منه فى الشريعة، والاتباع ما ثبت عليه حجة.

وقال فى موضع آخر من «كتابه»

كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده، والتقليد فى دين الله غير صحيح.

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه والاتباع فى الدين مسوغ والتقليد ممنوع. أهـ.

• الفرق بين التقليد والإتباع والأدلة على ذلك

وقال ابن القيم رحمه الله فى «اعلام الموقعين».

وقد فرق الإمام أحمد رحمه الله - بين التقليد والاتباع.

فقال أبو داود:

سمعته يقول: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبى ﷺ وعن أصحابه، ثم هو من بعد فى التابعين مخير. انتهى محل الغرض منه.

قال مقيده عفا الله عنه، وغفر له: أما كون العمل بالوحى اتباعاً لاتقليداً فهو أمر قطعى

والآيات الدالة على تسميته اتباعاً كثيرة جداً.

كقوله تعالى ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

---

(١) الأعراف: ٣ — (٢) الزمر: ٥٥ — (٣) الأعراف: ٢٠٣.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(٤).

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

فالعمل بالوحى، هو الاتباع كما دلت عليه الآيات.

ومن المعلوم الذى لاشك فيه، أن اتباع الوحى المأمور به فى الآيات لايصح اجتهاد يخالفه من الوجوه، ولايجوز التقليد فى شىء يخالفه.

فاتضح من هذا الفرق بين الاتباع والتقليد، وأن مواضع الاتباع ليست محلاً أصلاً للاجتهاد ولا للتقليد.

فنصوص الوحى الصحيحة الواضحة الدلالة السالمة من المعارض لا اجتهاد ولاتقليد معها ألبتة.

لأن اتباعها والإذعان لها فرض على كل أحد كائناً من كان كما لايخفى.

وبهذا تعلم أن شروط المجتهد التى يشترطها الأصوليون إنما تشترط فى الاجتهاد

وموضع الاتباع ليس محل اجتهاد.

فجعل شروط المجتهد فى المتبع مع تباين الاجتهاد والاتباع وتباين مواضعهما خلط وخبط، كما ترى.

والتحقيق أن اتباع الوحى لايشترط فيه إلا علمه بما يعمل به من ذلك الوحى الذى يتبعه.

وأنه يصح علم حديث والعمل به، وعلم آية والعمل بها.

---

(١) يونس: ١٥
(٢) الأنعام: ١٥٥
(٣) الأنعام: ١٠٦
(٤) الأحقاف: ٩

ولايتوقف ذلك على تحصيل جميع شروط الاجتهاد.

فيلزم المكلف أن يتعلم ما يحتاج إليه من الكتاب والسنة، ويعمل بكل ما علم من ذلك، كما كان عليه أول هذه الأمة، من القرون المشهود لها بالخير.

قبول قول الرسول صلى الله عليه وسلم والعمل به ليس تقليداً

قال الشوكانى [1]: وقد عرفت من حد المقلد، على جميع الحدود المذكورة أن قبول قول النبي ﷺ ، والعمل به ليس من التقليد فى شيء؛ لأن قوله صلى الله عليه وآله وسلم وفعله نفسه الحجة.

قال القاضى حسين فى «التعليق»: لاخلاف أن قبول قول غير النبى صلى الله عليه وآله وسلم، من الصحابة، والتابعين، يسمى تقليدا، وأما قبول قوله صلى الله عليه وآله وسلم، فهل يسمى تقليدا؟ فيه وجهان يبنيان على الخلاف فى حقيقة التقليد ماهو؟

وذكر الشيخ أبو حامد أن الذى نص عليه الشافعى أنه يسمى تقليدا، فإنه قال فى حق قول الصحابى لما ذهب إلى أنه لايجب الأخذ به، مانصه:«وأما أن يقلده، فلم يجعل الله ذلك لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2] انتهى.

ولايخفاك أن مراده بالتقليد ههنا غير ما وقع عليه الاصطلاح، ولهذا قال الروياني فى «البحر»: أطلق الشافعى على جعل القبول من النبى صلى الله عليه وآله وسلم تقليدا، ولم يرد حقيقة التقليد، وإنما أراد القبول من غير السؤال عن وجهه، وفى وقوع اسم التقليد عليه وجهان.

قال: والصحيح من المذهب أنه يتناول هذا الاسم.

قال الزركشى فى «البحر»: وفى هذا إشارة إلى رجوع الخلاف إلى اللفظ، وبه صرح إمام الحرمين فى«التلخيص» حيث قال: وهو اختلاف فى عبارة يهون موقعها عند ذوى التحقيق انتهى.

وبهذا تعرف أن التقليد بالمعنى المصطلح عليه لايشمل ذلك، وهو المطلوب.

قال ابن دقيق العيد: إن قلنا إن الأنبياء لايجتهدون؛ فقد علمنا أن سبب أقوالهم الوحى، فلا يكون تقليدا، وإن قلنا إنهم يجتهدون؛ فقد علمنا أن السبب أحد الأمرين:

---

(١) إرشاد الفحول (١/ ٣٤٦ـ٣٤٨)

(٢) انظر: البحر المحيط (٦/ ٢٧٠) المستصفى (٢/ ١٢٢)

إما الوحى، أو الاجتهاد، وعلى كل تقدير، فقد علمنا السبب، واجتهادهم اجتهاد معلوم العصمة انتهى.

وقد نقل القاضى فى «التقريب» الإجماع على أن الآخذ بقول النبى صلى عليه وآله وسلم والراجع إليه ليس بمقلد، بل هو صائر إلى دليل وعلم يقين انتهى(١).

تقليد العامة للعلماء

ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقول الله عزوجل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

وأجمعوا على أن الأعمى لابد له من تقليد غيرهم ممن يثق بميزه فى القبلة إذا أشكلت عليه.

فكذلك من لاعلم له ولابصر بمعنى مايدين به لابد من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لايجوز لها الفتيا.

وذلك والله أعلم لجهلها بالمعانى التى منها يجوز التحريم والتحليل، والقول فى العلم.

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: **من قال على مالم أقل فليتبوأ مقعده من النار، ومن استشار أخاه فأشار عليه بغير رشده فقد خانه، ومن أفتى بفتيا من غير ثبت فإنما إثمها على من أفتاه**»(٣)

ثم ذكر بسنده أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: من أفتى بفتيا وهو يعمى عنها كان إثمها عليه(٤) . أهـ

(١) انظر: البحر المحيط (٦/ ٢٧٠)

(٢) النحل :٤٣. والأنبياء : ٧

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٥٧)، وابن عبد البر فى «الجامع» (٢/ ١١٦)

(٤) أخرجه ابن عبد البر فى «الجامع» (٢/ ١١٦)

حجج المقلدين

قال الشنقيطي ملخصاً لكلام ابن القيم في «إعلام الموقعين».

واعلم أن حاصل جميع حجج المقلدين منحصر في قولهم.

(١) نحن معاشر المقلدين ممتثلون قول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾

فأمر سبحانه من لاعلم له أن يسأل من هو أعلم منه، وهذا نص قولنا.

(٢) وقد أرشد النبي ﷺ من لايعلم إلى سؤال من يعلم، فقال في حديث صاحب الشجة: «**ألا سألوا إذا لم يعلموا، إنما شفاء العيي السؤال**»[١].

(٣) وقال أبو العسيف الذي زني بامرأة مستأجرة: «وإني سألت أهل العلم فأخبروني أن ماعلى ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم فلم ينكر عليه تقليد من هو أعلم منه»[٢].

(٤) وهذا عالم الأرض عمر قد قلد أبا بكر.

فروى شعبة عن عاصم الأحول، عن الشعبي أن أبا بكر قال في الكلالة: أقضي فيها فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله منه بريء: هو ما دون الولد والوالد، فقال عمر بن الخطاب إنني لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر[٣].

(٥) وصح عنه أنه قال له:

رأينا لرأيك تبع.

(٦) وصح عن ابن مسعود أنه كان يأخذ بقول عمر.

(٧) وقال الشعبي عن مسروق: كان ستة من أصحاب رسول الله ﷺ يفتون الناس ابن مسعود وعمر بن الخطاب وعلي وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبو موسى.

وكان ثلاثة منهم يدعون قولهم لقول ثلاثة.

كان عبدالله يدع قوله لقول عمر، وكان أبو موسى يدع قول لقول علي، وكان زيد يدع قوله لقول أبي بن كعب.

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٦٩٥)، ومسلم في الحدود (١١/ ٢٠٥ ـ النووي) عن أبي هريرة به. وأنظر «منار السبيل» (بتخريجنا

(٣) أخرجه الدارمي في سننه ٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦)

وقال جندب : ماكنت أدع قول ابن مسعود لقول أحد من الناس.

(٨) وقد قال النبى ﷺ **«إن معاذاً قد سن لكم سنة فكذلك فافعلوا»** فى شأن الصلاة حيث أخر فصلى مافاته من الصلاة مع الإمام بعد الفراغ، وكانوا يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام.

وقال المقلدة أيضاً :

(٩) وقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر وهم العلماء أو العلماء والأمراء، وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به.

فإنه لولا التقليد لم يكن هناك طاعة تختص بهم

ثم نقل الشنقيطى عن ابن القيم بقية أدلتهم التى بلغت خمسا وخمسين دليلاً ثم قال :

مقدمة بين يدى الرد على حجج المقلدة:

قال فى «إعلام الموقعين» بعد ذكره حجج المقلدين التى ذكرناها آنفاً مانصه:

قال أصحاب الحجة:

عجباً لكم معاشر المقلدين، الشاهدين على أنفسهم مع شهادة أهل العلم بأنهم ليسوا من أهله، ولامعدودين فى زمرة أهله.

كيف أبطلتم مذهبكم، بنفس دليلكم، فما للمقلد وما للاستدلال؟

وأين منصب المقلد من منصب المستدل؟

وهل ماذكرتم من الأدلة إلا ثياباً استعرتموها، من صاحب الحجة فتجملتم بها، بين الناس، وكنتم فى ذلك متشبهن بما لم تعطوه، ناطقين من العلم بما شهدتم على أنفسكم أنكم لم تؤتوه، وذلك ثوب زور لبستموه، ومنصب لستم من أهله غصبتموه.

فأخبرونا، هل صرتم إلى التقليد لدليل قادكم إليه، وبرهان دلكم عليه، فنزلتم به من الاستدلال أقرب منزل، وكنتم به عن التقليد بمعزل، أم سلكتم سبيله اتفاقاً، وتخميناً من غير دليل.

وليس إلى خروجكم عن أحد هذين القسمين، سبيل، وأيهما كان فهو بفساد مذهب التقليد حاكم، والرجوع إلى مذهب الحجة منه لازم.

ونحن إن خاطبناكم بلسان الحجة، قلتم لسنا من أهل هذا السبيل، وإن خاطبناكم بحكم التقليد، فلامعنى لما أقمتموه من الدليل.

والعجب أن كل طائفة من الطوائف، وكل أمة من الأمم، تدعى أنها على حق، حاشا فرقة التقليد، فإنهم لايدعون ذلك، ولو ادعوه لكانوا مبطلين، فإنهم شاهدون على أنفسهم بأنهم لم يعتقدوا تلك الأقوال لدليل قادهم إليها، وبرهان دلهم عليها، وإنما سبيلهم محض التقليد.

والمقلد لايعرف الحق من الباطل، ولا الحالى من العاطل.

وأعجب من هذا أن أئمتهم نهوهم عن تقليدهم فعصوهم وخالفوهم، وقالوا نحن على مذاهبهم، وقد دانوا بخلافهم فى أصل المذهب الذى بنوا عليه.

فإنهم بنوا على الحجة ونهوا عن التقليد وأوصوهم إذا ظهر الدليل أن يتركوا أقوالهم ويتبعوه، فخالفوهم فى ذلك كله.

وقالوا نحن من أتباعهم، تلك أمانيهم، وما أتباعهم إلا من سلك سبيلهم، واقتفى اثارهم فى أصولهم وفروعهم.

وأعجب من هذا أنهم مصرحون فى كتبهم ببطلان التقليد، وتحريمه، وأنه لايحل القول به فى دين الله.

ولو أشترط الإمام على الحاكم أن يحكم بمذهب معين لم يصح شرطه ولاتوليته.

ومنهم من صحح التولية وأبطل الشرط.

وكذلك المفتى عليه الإفتاء بما لايعلم صحته باتفاق الناس.

والمقلد لا علم له بصحة القول وفساده إذ طريق ذلك مسدودة عليه.

ثم كل منهم يعرف من نفسه أنه مقلد لمتبوعه لايفارق قوله، ويترك له كل ماخالفه من كتاب أوسنة أو قول صاحب، أو قول من هو أعلم من متبوعه أونظيره.

وهذا من أعجب العجب.

وأيضاً فإنا نعلم بالضرورة، أنه لم يكن فى عصر الصحابة، رجل واحد اتخذ رجلاً منهم يقلده فى جميع أقواله، فلم يسقط منها شيئاً وأسقط أقوال غيره، فلم يأخذ منها شيئاً.

ونعلم بالضرورة، أن هذا لم يكن فى عصر التابعين، ولاتابعى التابعين.

فليكذبنا المقلدون برجل واحد، سلك سبيلهم الوخيمة، فى القرون الفضيلة على لسان رسول الله ﷺ.

وإنما حدثت هذه البدعة فى القرن الرابع المذموم على لسانه ﷺ.(*)

فالمقلدون لمتبوعهم فى جميع ما قالوه ، يبيحون به الفروج، والدماء والأموال، ويحرمونها، ولايدرون أذلك صواب أم خطأ على خطر عظيم، ولهم بين يدى الله موقف شديد يعلم فيه من قال على الله مالا يعلم أنه لم يكن على شىء أهـ. محل الغرض منه بلفظه.

وعلى كل حال فأنتم أيها المقلدون : تقولون إنه لايجوز العمل بالوحى إلابخصوص المجتهدين فلم سوغتم لأنفسكم الاستدلال على التقليد بآية: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(١) وآية ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾(٢).

هل رجعتم عن قولكم بأن الاستدلال بالوحى لايجوز لغير المجتهد، أو ارتكبتم ما تعتقدون أنه حرام من استدلالكم بالقرآن مع شدة بعدكم عن رتبة الاجتهاد؟

وفى هذا رد إجمالى لما استدللتم به على التقليد الذى أنتم عليه.

ثم يقال: أليست هذه الآيات التى استدللتم بها فى زعمكم، من ظواهر الكتاب، التى سن لكم الصاوى وأمثاله، أن العمل بها من أصول الكفر.

فإنه لم يستثن شيئاً من ظواهر القرآن يكون العمل به ليس من أصول الكفر.

فلم تجرأتم على شىء هو من أصول الكفر وسوغتم لأنفسكم الاستدلال بالقرآن، مع أنه لايجوز عندكم إلا للمجتهدين.

وسنذكر رد استدلال المقلدين تفصيلاً، بإيجاز إن شاء الله تعالى.

(١) أما استدلالهم بآية ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ فهو استدلال فى غير محله.

فإن الآية لاتدل على هذا النوع من التقليد الأعمى الذى هو عليه من التزم جميع أقوال رجل واحد وترك جميع ما سواها.

ولاشك أن المراد بأهل الذكر أهل الوحى الذين يعلمون ماجاء من عند الله كعلماء الكتاب والسنة .

فقد أمروا أن يسألوا أهل الذكر ليفتوهم بمقتضى ذلك الذكر الذى هو الوحى.

ومن سأل عن الوحى وأعلم به، وبين له كان عمله به اتباعاً للوحى لا تقليداً واتباع الوحى لانزاع فى صحته.

(*) تقدم ذلك فى حكم التقليد فى النوع الثالث (١) النحل :٤٣ (٢) التوبة :١٢٢.

وإن كانت الآية تدل على نوع تقليد فى الجملة، فهى لاتدل إلا على التقليد الذى قدمنا أنه لاخلاف فيه بين المسلمين، وهو تقليد العامى الذى تنزل به النازلة عالماً من العلماء، وعمله بما أفتاه به من غير التزام منه لجميع ما يقوله ذلك العالم، ولاتركه لجميع مايقوله غيره.

(٢) وأما استدلالهم بالحديث الوارد فى الرجل الى أصابته شجة فى رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه: هل يعلمون له رخصة فى التيمم؟

فقالوا : مانرى لك رخصة وأنت قادر على الماء، فاغتسل فمات.

فبلغ النبى ﷺ فقال «**قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العيى السؤال**»(١).

فهو استدلال أيضاً فى غير محله، وهو حجة أيضاً على المقلدين لا لهم.

قال فى إعلام الموقعين فى بيان وجه ذلك مانصه:

إن النبى ﷺ إنما أرشد المستفتين، كصاحب الشجة بالسؤال عن حكمه، وسنته فقال: .

«**قتلوه قتلهم الله**»، فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم.

وفى هذا تحريم الإفتاء بالتقليد.

فإنه ليس علماً باتفاق الناس.

فإنما دعا رسول الله ﷺ على فاعله، فهو حرام وذلك أحد أدلة التحريم .

فما احتج به المقلدون هو من أكبر الحجج عليهم.

(٣) وكذلك سؤال أبى العسيف الذى زنى بامرأة مستأجرة لأهل العلم (٢).

(٤) وأما استدلالهم بأن عمر قال فى الكلالة: إنى لأستحيى من الله أن أخالف أبا بكر(٣)،وأن ذلك تقليد منه له. فلا حجة لهم فيه أيضاً.

وخلاف عمر لأبى بكر رضى الله عنهما أشهر من أن يذكر .

كما خالفه فى سبى أهل الردة فسباهم أبو بكر، وخالفه عمر.

وبلغ خلافه إلى أن ردهن حرائر إلى أهلهن إلا لمن ولدت لسيدها منهن.

ونقص حكمه، ومن جملتهن خولة الحنفية أم محمد بن على .

---

(١) سبق تخريجه (٢) سبق تخريجه (٣) سبق تخريجه

وخالفه فى أرض العنوة فقسمها أبو بكر ووقفها عمر.

وخالفه فى المفاضلة فى العطاء، فرأى أبو بكر التسوية، ورأى عمر المفاضلة .

وخالفه فى الاستخلاف، فاستخلف أبوبكر عمر على المسلمين، ولم يستخلف عليهم عمر أحداً إيثاراً لفعل رسول الله ﷺ على فعل أبى بكر رضى الله عنهم(1).

وخالفه فى الجد والإخوة، مع أن خلاف أبى بكر الذى استحيى منه عمر هو خلافه فى قوله: إن يكون صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان، والله منه برىء، هو مادون الولد والوالد (2) فاستحيى عمر من مخالفة أبى بكر فى اعترافه بجواز الخطأ عليه، وأنه ليس كلامه كله صواباً مأموناً عليه الخطأ.

ويدل على ذلك أن عمربن الخطاب رضى الله عنه أقر عند موته أنه لم يقض فى الكلالة بشىء.

وقد اعترف أنه لم يفهمها(3)،قاله فى «إعلام الموقعين».

ومن العجب : استدلال المقلدين على تقليدهم، باستحياء عمر من مخالفة أبى بكر، مع أنهم لم يستحيوا من مخالفة أبى بكر وعمر،وجميع الصحابة، ومخالفة الكتاب والسنة إذا كان ذلك، لايوافق مذهب إمامهم، كما هو معلوم من عادتهم.

وكما أوضحه الصاوى فى الكلام على قوله تعالى **﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾**(4).

فقد قال: إن من خرج عن المذاهب الأربعةفهو ضال مضل، ولو وافق الصحابة، والحديث الصحيح والآية.

وربما أداه ذلك إلى الكفر، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر!

فمن هذا مذهبه ودينه، كيف يستدل باستحياء عمر من مخالفة أبى بكر(5)؟

بل كيف يستدل بنص من نصوص الوحي، أو قول أحد من أصحاب رسول الله ﷺ؟

مع أن أبا بكر خليفة راشد أمر النبى بالاقتداء به فى قوله: **«عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»** (6). الحديث.

---

(1) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الأحكام حديث (7218)، ومسلم فى الإمارة (6/444/11) عن ابن عمر به

(2) سبق تخريجه

(3)[صحيح] أخرجه مسلم فى الفرائض (6/63/9)

(4) الكهف : 23 ، 24 (5) سبق تخريجه (6) تقدم تخريجه

فليس الاقتداء بالخلفاء كالإقتداء بغيرهم.

(٥)وأما استدلالهم على تقليدهم بقول عمر لأبى بكر رضى الله عنهما: رأينا لرأيك تبع.

فيكفى فى رده ما قدمنا قريباً، من مخالفة عمر لأبى بكر، مع القصة التى قال له فيها رأينا لرأيك تبع، رد فيها على أبى بكر بعض ما قاله.

وأيد الصحابة ما قال عمر فى رده على أبى بكر رضى الله عنهما.

لأن الحديث المذكور فى وفد بزاخة من أسد وغطفان حين قدموا على أبى بكر يسألونه الصلح، فخيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية والسلم المخزية.

فقالوا هذه المجلية قد عرفناها فما المخزية؟

قال: تنزع منكم الحلقة والكراع، ونغنم ما أصبنا لكم وتردون لنا ما أصبتم منا؟ وتدون لنا قتلانا إلى آخر كلامه.

وفيه: فقام عمر بن الخطاب فقال: قد رأيت رأياً سنشير عليك.

أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية فنعم ماذكرت.

وما ذكرت من أن نغنم ما أصبنا منكم،وتردون ما أصبتم منا، فَنِعمَ ماذكرت.

وأما ما ذكرت من أن تدون قتلانا وتكون قتلاكم فى النار.

فإن قتلانا قد قاتلت فقتلت على ما أمر الله أجورها على الله، ليس لها ديات.

فتتابع القوم على ما قال عمر رضى الله عنه.

فهذه القصة الثابتة: هى التى فى بعض ألفاظها ورأينا لرأيك تبع.

وأنت ترى عمر رضى الله عنه لم يقلد فيها أبا بكر رضى الله عنه، إلا فيما يعتقد صوابه.

فإنما ظهر له أنه صواب قال له فيه: نعم ماذكرت.

وما ظهر له أنه ليس بصواب رده على أبى بكر، وهو قول أبى بكر بدفع ديات الشهداء.

لان عمر يعتقد أن الشهيد فى سبيل الله لادية له، لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١).

(١) التوبة: ١١١

وذلك يوضح ذلك أن الصحابة رضى الله عنهم لايعدلون عن الكتاب والسنة إلى قول أحد.

(٦) وأما احتجاجهم بتقليد ابن مسعود لعمر فهو ظاهر السقوط، ولو وافق عمر فى بعض المسائل فهو من قبيل موافقة بعض العلماء لبعض، لاتفاق رأيهم لالتقليد بعضهم لبعض.

وقد خالف ابن مسعود عمر رضى الله عنهما فى مسائل كثيرة جداً، كمخالفته له فى أم الولد، لأن ابن مسعود يقول فيها إنها تعتق من نصيب ولدها، ومن ذلك أن ابن مسعود كان يطبق فى ركوعه إلى أن مات، وعمر كان يضع يديه على ركبتيه.

وكان ابن مسعود يقول فى الحرام هى يمين وعمر يقول: إنه طلقة واحدة.

وكان ابن مسعود يحرم النكاح بين الزانيين وعمر يتوبهما، وينكح أحدهما الآخر.

وكان ابن مسعود يرى بيع الأمة طلاقها، وعمر يرى عدم ذلك وأمثال هذا كثيرة معلومة.

مع أن ابن مسعود يقول: إنه أعلم الصحابة بكتاب الله وأنه لو كان أحداً أعلم منه به لرحل إليه.

ولم ينكر عليه أحد من الصحابة .

وقد قدمنا عنه قوله: كن عالماً أومتعلماً ولا تكن إمعة.

فليس ابن مسعود من أهل التقليد، مع أن المقلدين المحتجين بتقليد ابن مسعود لعمر، لايقلدون ابن مسعود، ولاعمر ولاغيرهما من أصحاب رسول الله ﷺ.

ولايأخذون بقول الله ولا رسوله وإنما يفضلون على ذلك كله تقليد أحد الأئمة أصحاب المذاهب رحمهم الله.

(٧) وأما استدلالهم على التقليد بأن عبدالله كان يدع قوله لقول عمر.

وأبو موسى كان يدع قوله لقول على.

وزيد يدع قوله لقول أبى بن كعب فهو ظاهر السقوط أيضاً

لأنه من المعلوم أن الصحابة المذكورين رضى الله عنهم لايدعون سنة رسول الله ﷺ لقول أحد، وهذا لاشك فيه.

وكان ابن عمر يدع قول عمر، إذا ظهرت له السنة.

وكان ابن عباس يقول: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول : قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر(١).

قلت: وهذا الأثر هو الذى معنا فى هذا الباب من كتاب التوحيد

(٨) وأما استدلالهم على التقليد بأن معاذاً رضى الله عنه صلى مسبوقاً فصلى ماأدرك مع الإمام أولاً، ثم قضى ما فاته بعد سلام الإمام، وكانوا قبل ذلك يصلون مافاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام فى الباقى.

وأن النبى ﷺ قال فى ذلك «**إن معاذاً قد سن لكم سنة، فكذلك فافعلوا**» فهو ظاهر السقوط أيضاً، لأن ذلك لم يكن سنة إلا بأمر رسول الله ﷺ كما لايخفى.

فلاحجة قطعاً فى قول أحد كائناً من كان، ورسول الله ﷺ موجود

وإنما العبرة بقوله ﷺ وفعله وتقريره.

وهذا معلوم بالضرورة من الدين.

(٩) وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾(٢) .

قائلين إن المراد بأولى الأمر العلماء، وأن طاعتهم المأمور بها فى الآية هى تقليدهم، فهو ظاهر السقوط أيضاً.

لأنه لايجوز طاعة أولى الأمر إجماعاً فيما خالف كتاباً أوسنة، ولاطاعة لهم إلا فى المعروف كما جاءت به الأحاديث الصحيحة عنه ﷺ.

ولانزاع بين المسلمين فى أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

والتحقيق فى معنى الآية الكريمة أن المراد بأولى الأمر: ما يشمل الأمراء والعلماء.

لأن العلماء مبلغون عن الله وعن رسوله، والأمراء منفذون، ولاتجوز طاعة أحد منهم إلا فيما أذن الله فيه.

لأن ما أمر به أولو الأمر لايخلو من أحد أمرين.

أحدهما : أن يكون طاعة لله ولرسوله من غيرنزاع، وطاعة أولى الأمر فى مثل هذا من طاعة الله ورسوله

والثانى: أن يحصل فيه نزاع هل هو من طاعة الله ورسوله أو لا؟

---

(١) تقدم تخريجه

(١) النساء : ٥٩

وفى هذه الحالة لاتجوز الطاعة العمياء لأولى الأمر ولا التقليد الأعمى كما صرح الله تعالى بذلك فى نفس الآية.

لأنه تعالى لما قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ واتبع ذلك بقوله ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(١)

فالآية صريحة فى رد كل نزاع إلى الله ورسوله.

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله ﷺ، هو الرد إليه فى حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته ﷺ.

وبعض الأحاديث الصحيحة الدالة على أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق، كحديث ابن عمر أن النبى ﷺ قال «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولاطاعة»(٢).

وحديث على رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال فى السرية الذين أمرهم أميرهم أن يدخلوا فى النار «لو دخلوها ماخرجوا منها أبداً إنما الطاعة فى المعروف»(٣).

وفى الكتاب العزيز: ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

ولايخفى أن طاعة الله وطاعة رسوله المأمور بها فى الآية لا يتحقق وجودها إلا بمعرفة أمر الله ورسوله ونهى الله ورسوله.

والمقلدون مقرون على أنفسهم بأنهم لايعلمون أمر الله ولانهيه، ولا أمر رسوله ولا نهيه.

وغاية مايدعون علمه هو أن الإمام الذى قلدوه قال كذا، مع عجزهم عن التميز بين ما هوخطأ وماهو صواب، بل أكثرهم لايميزون بين قول الإمام وبين ما ألحقه أتباعه بعده مما قاسوه على أصول مذهبه.

ولاشك أن طاعة العلماء هى اقتفاء ما كانوا عليه من النظر فى كتاب الله وسنة رسوله وتقديمها على كل قول وعلى كل رأى كائناً ماكان.

فمن قلدهم التقليد الأعمى وترك الكتاب والسنة لأقوالهم، فهو المخالف لهم المتباعدعن طاعتهم كما تقدم.

---

(١) النساء : ٥٩ (٢) تقدم تخريجه (٣) تقدم تخريجه

ردود عقلية على المقلدين

وقال أبو عمر بن عبد البر ـ رحمه الله ـ ، في كلامه عن التقليد مانصه:

وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعدما تقدم.

فأحسن ما رأيت من ذلك قول المزني ـ رحمه الله ـ، وأنا أورده قال:

يقال لمن حكم بالتقليد هل لك من حجة فيما حكمت به؟

فإن قال: نعم، أبطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد.

وإن قال: حكمت به بغير حجة.

قيل له : فلم أرقت الدماء، وأبحت الفروج وأتلفت الأموال، وقد حرم الله ذلك إلا بحجة.

قال الله عزوجل ﴿**إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا**﴾ أى من حجة بهذا؟

فإن قال: أنا أعلم أنى قد أصبت وإن لم أعرف الحجة، لأنى قلدت كبيراً من العلماء وهو لايقول إلا بحجة خفيت على .

قيل له: إذا جاز تقليد معلمك لأنه لايقول إلابحجة خفيت عليك، فتقليد معلم معلمك أولى لأنه لايقول إلا بحجة خفيت على معلمك: كما لم يقل معلمك إلا بحجة خفيت عليك.

فإن قال : نعم ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه.

وكذلك من هو أعلا حتى ينتهى الأمر إلى أصحاب رسول الله ﷺ.

وإن أبى ذلك نقض قوله.

وقيل له: كيف تجوز تقليد من هو أصغر، وأقل علماً؟

ولاتجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علماً، وهذا تناقض؟

فإن قال: لأن معلمى وإن كان أصغر فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه، فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك.

قيل له : كذلك من تعلم من معلمك، فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه إلى علمه، فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك.

وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك. لأنك جمعت علم معلمك وعلم من هو فوقه إلى علمك.

فإن أعاد قوله جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء، أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه فى قياس قوله. و الأعلى للأدنى أبداً.

وكفى بقول يؤول إلى هذا تناقضاً وفساداً أهـ.

ثم قال أبو عمر رحمه الله بعد هذا ما نصه:

يقال لمن قال بالتقليد: لم قلت به، وخالفت السلف فى ذلك فإنهم لم يقلدوا؟

فإن قال: قلدت لأن كتاب الله لا علم لى بتأويله وسنة رسولهﷺ لم أحصها والذى قلدته قد علم ذلك فقلدت من هو أعلم منى.

قيل له: أما العلماء، إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب أو حكاية عن سنة رسوله ﷺ، أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لاشك فيه.

ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض.

فما حجتك فى تقليد بعضهم دون بعض.

وكلهم عالم، والعالم الذى رغبت عن قوله، أعلم من الذى ذهبت إلى مذهبه.

فإن قال: قلدته لأنى أعلم أنه صواب.

قيل له: علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو إجماع؟

فإن قال: نعم أبطل التقليد وطولب بما إدعاه من الدليل.

وإن قال: قلدته لأنه أعلم منى.

قيل له: فقلد كل من هو أعلم منك.

فإنك تجد من ذلك خلقاً كثيراً ولاتخص من قلدته إذ علتك فيه أنه أعلم منك.

فإن قال: قلدته لأنه أعلم الناس.

قيل له: فإنه إذاً أعلم من الصحابة وكفى بقول مثل هذا قبحاً.

فإن قال: أنا أقلد بعض الصحابة.

قيل له: فما حجتك فى ترك من لم تقلد منهم، ولعل من تركت قوله منهم أفضل ممن أخذت بقوله؟

على أن القول لايصح لفضل قائله، وإنما يصح بدلالة الدليل عليه.

وقد ذكر ابن مزين بن عيسى بن دينار، عن ابن القاسم عن مالك، قال ليس كل ما قال رجل قولاً وإن كان له فضل يتبع عليه لقول الله عزوجل: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ . فإن قال قصرى وقلة علمى يحملنى على التقليد.

قيل له: أما من قلد فيما ينزل؛ من أحكام شريعته عالماً يتفق له على علمه، فيصدر فى ذلك عما يخبره فمعذور، لأنه قد أدى ماعليه وأدى مالزمه فيما نزل به لجهله ولابد له من تقليد عالم، فيما جهله، لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخبره فى القبلة لأنه لايقدر على أكثر من ذلك.

ولكن من كانت هذه حاله هل تجوز له الفتيا فى شرائع دين الله؟ فيحمل غيره على إباحة الفروج وإراقة الدماء واسترقاق الرقاب وإزالة الأملاك ويصيرها إلى غير من كانت فى يديه بقول لايعرف صحته ولاقام له الدليل عليه؟

وإن كان متبع هل يجوز له أن يفتى أو يقول بما يترجح عنده؟

وهو مقر أن قائله يخطىء ويصيب، وأن مخالفه فى ذلك ربما كان المصيب، فيما خالفه فيه.

فإن أجاز الفتوى لمن جهل الأصل والمعنى لحفظه الفروع، لزمه أن يجيزه للعامة وكفى بهذا جهلاً، ورداً للقرآن قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(1). وقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(2).

وقد أجمع العلماء على أن مالم يتبين ويتيقن فليس بعلم، وإنما هو ظن، والظن لا يغنى من الحق شيئاً أهـ. كله من «جامع ابن عبدالبر» رحمه الله.

تنبيهات(*) مهمة تتعلق بمسألة التقليد

اعلم أن المقلدين، اغتروا بقضيتين ظنوهما صادقتين، وهما بعيدتان من الصدق. وظن صدقهما يدخل أولياً فى عموم قوله تعالى ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ وقوله ﷺ :«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»(3).

(1) الإسراء: ٣٦ (2) الأعرف: ٢٨

(*) ذكرها الشنقيطى فى «أضواء البيان» (٧/ ٣٥١:٣٩٢)

(3)[صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٢٠ ـ النووى) عن أبى هريرة به.
وأنظر «رياض الصالحين» (٢٣٧ ـ بتخريجنا)

فإنهم ظنوا أن بعض أسباب رد الشرع لقول الشيخ ممن يلـقده منهما فهى ظنهم، أن الإمام الذى قلدوه لابد أن يكون قد اطلع على جمـيع معانى كتاب الله، ولم يفته منها شيء.

ولذلك فإن كل آية وكـل حديث قد خالفا قوله فلاشك عنـدهم أن ذلك الإمام اطلع على تلك الآية وعلم معناها، وعلى ذلك الحديث وعلم معناه.

وأنه ماترك العمل بهما إلا لأنه أطلع على ماهو أقوى منهما وأرجح.

ولذلك يجب تقديم ذلك الأرجح الذى تخيـلوه شيء من الوحى الموجود بين أيديهم وهذا الظن كذب باطل بلا شـك والأئمة كلهم معترفون بأنه ما أحاطـوا بجميع نصوص الوحى كما تقدم إيضاحه

ومن أصرح ذلـك أن الإمام مالكاً رحـمه الله، إمام دار الهجـرة المجمع على عـلمه وفضله وجلالـته، لما أراد أبو جعفر المنصور أن يـحمل الناس على العمل بمـا جمعه فى موطئه لم يقبل ذلك من أبى جعفر ورده عليه.

وأخبره أن أصحاب رسول الله ﷺ تـفرقوا فى أقطار الدنيا، كلهم عـنده علم ليس عند الآخر.

ولم يجمع الحديث جمعاً تاماً بحيث أمكن جمع جميع السنة إلا بعد الأئمة الأربعة.

لأن أصحاب رسـول الله ﷺ الذين تفـرقوا فى أقطـار الدنيا روى عـنهم كثير من الأحاديث لم يكن عند غيرهم، ولم يتيسر الإطلاع عليه إلا بعد أزمان.

وكثرة علم العالم لاتستلزم إطلاعه على جميع النصوص.

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو عجز عـن أن يفهم معنى الكلالة حتى مات رضى الله عنه.

وقد سأل النبى ﷺ عنها كثيرا فبينها له ولم يفهم.

فقـد ثبت عـنه رضى الله عـنه أنه قال: مـا سألت رسـول الله ﷺ عن شيء أكـثر مماسألته عن الكلالة، حتى طـعن بإصبعه فى صدرى، وقال لى «**يكفيك آية الصيف فى آخر سورة النساء**»

فهذا من أوضح البيان، لأن مراد النبى ﷺ بآية الصيف ﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ**﴾(١). والآية تبين معنى الكلالة بياناً شـافيا، لأنها أوضحت أنها: مادون الولد والوالد.

---

(١) تقدم قريباً (٢) النساء: ١٧٦

فبينت نفى الولد بدلالة المطابقة فى قوله تعالى ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ وبينت نفى الوالد بدلالة الالتزام فى قوله تعالى ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾لأن ميراث الأخت يستلزم نفى الوالد.

ومع هذا البيان النبوى الواضح لهذه الآية الكريمة، فإن عمر رضى الله عنه لم يفهم .

وقد صح عنه أن الكلالة لم تزل مشكلة عليه.

وقد خفى معنى هذا أيضاً على أبى بكر الصديق رضي الله عنه فقال فى الكلالة: أقول فيها برأيى. فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان، هو مادون الولد والوالد.

فوافق رأيه معنى الآية.

والظاهر أنه لو كان فاهماً للآية لكفته عن الرأى.

كما قال النبى ﷺ لعمر رضى الله عنه. «تكفيك آية الصيف».

وهو تصريح منه ﷺ بأن فى الآية كفايةعن كل ماسواها فى الحكم المسؤول عنه.

ومما يوضح ذلك أن عمر طلب من النبى ﷺ بيان الآية.

وتأخير البيان عن وقت الحاجة لايجوز فى حقه ﷺ.

فماأحال عمر على الآية إلا لأن فيها من البيان مايشفى ويكفى.

وقد خفى على أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن النبى ﷺ «أعطى الجدة السدس حتى أخبره المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبى ﷺ أعطاها السدس»[1] فرجع إلى قولهما.

ولم يعلم عمر رضى الله عنه بأن النبى ﷺ: قضى فى دية الجنين بغرة عبد أو وليدة حتى أخبره المذكوران قبل.

ولم يعلم عمر رضى الله عنه بأن المرأة ترث من دية زوجها. حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن النبى ﷺ كتب إليه: أن يورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها.

ولم يعلم أيضاً بأخذ الجزية من المجوس حتى أخبره عبدالرحمن بن عوف . بأن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر.

ولم يعلم بحكم الاستئذان ثلاثاً حتى أخبره أبو موسى الأشعرى وأبو سعيد الخدرى رضى الله عنه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٩٤)، والترمذى (٢١٠٠)، والنسائى فى «الكبرى»(٦٣٣٩)، وابن ماجه (٢٧٢٤)

وأنظر «السلسبيل» (١٩٥١ بتخريجنا)

ولم يعلم عثمان رضى الله عنه بوجوب السكنى للمتوفى عنها حتى أخبرته فريعة بنت مالك أن النبى ﷺ ألزمها بالسكنى في المحل الذى مات عنها زوجها فيه حتى تنقضى عدتها.

وأمثال هذا أكثر من أن تحصر.

فهؤلاء الخلفاء الراشدون وهم هم، خفى عليهم كثير من قضايا رسول الله ﷺ وأحاديثه مع ملازمتهم له، وشدة حرصهم على الأخذ منه.

فتعلموه ممن هو دونهم في الفضل والعلم فما ظنك بغيرهم من الأئمة الذين نشأوا وتعلموا بعد تفرق الصحابة فى أقطار الدنيا؟

وروى عنه الأحاديث عدول من الأقطار التى ذهبوا إليها؟

والحاصل: أن ظن إحاطة الإمام بجميع نصوص الشرع ومعانيها ظن لايغنى من الحق شيئاً، وليس بصحيح قطعاً.

لأنه لاشك أنه يفوته بعض الأحاديث فلم يطلع عليها ويرويه بعض العدول عن الصحابة فيثبت عند غيره.

وهو معذور فى ترك العمل به، بعدم إطلاعه عليه مع أنه بذل المجهود فى البحث.

ولذا كان له أجر الاجتهاد والعذر فى الخطأ.

هل للمقلد عذر فى الخطأ كما للمجتهد؟

ظن المقلدون أن لهم مثل ماللإمام من العذر فى الخطأ.

وإيضاحه: أنهم يظنون أن الإمام لو أخطأ فى بعض الأحكام وقلدوه فى ذلك الخطأ يكون لهم من العذر فى الخطأ والأجر مثل ما لذلك الإمام الذى قلدوه

لأنهم متبعون له فيجرى عليهم ماجرى عليه.

وهذا ظن كاذب باطل بلاشك. لأن الإمام الذى قلدوه بذل جهده فى تعلم كتاب الله وسنة رسوله وأقوال أصحابه وفتاويهم.

فقد شمر وما قصر فيما يلزم من تعلم الوحى والعمل به وطاعة الله على ضوء الوحى المنزل.

ومن كان هذا شأنه فهو جدير بالعذر فى خطئه والأجر فى اجتهاده.

وأما مقلدوه فقد تركوا النظر فى كتاب الله وسنة رسوله وأعرضوا عن تعلمها إعراضاً

كلياً مع يسره وسهولته ونزلوا أقوال الرجال الذين يخطئون ويصيبون منزلة الوحى المنزل من الله.

فأين هؤلاء من الأئمة الذين قلدوهم؟

وهذا الفرق العظيم بينهم، وبينهم، يدل دلالة واضحة، على أنهم ليسوا مأجورين في الخطأ في تقليد أعمى إذ لااقتداء ولاأسوة في غير الحق.

وليسوا معذورين لأنهم تركوا ما يلزمهم تعلمه من أمر الله ونهيه على ضوء وحيه المنزل.

والذى يجب عليهم من تعلم ذلك، هو ماتدعوهم الحاجة للعمل به، كأحكام عباداتهم ومعاملاتهم.

وأغلب ذلك تدل عليه نصوص واضحة، سهلة التناول من الكتاب والسنة.

والحاصل: أن المعرض عن كتاب الله، وسنة رسوله المفرط فى تعلم دينه، مما أنزل الله، وما سنه رسوله، المقدم كلام الناس على كتاب الله، وسنة رسوله، ولايكون له ألبتة ما للإمام الذى لم يعرض عن كتاب الله وسنة رسوله، ولم يقدم عليهما شيئاً ولم يفرط فى تعلم الأمر والنهى من الكتاب والسنة.

فأين هذا من هذا؟

سارت مشرقة وسرت مغربا   شتان بين مشرق ومغرب

لايجوز للمقلد أن يفتى بما أفتاه به شيخه

اعلم أن المقلدين للأئمة هذا التقليد الأعمى قد دل كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع من يعتد به من أهل العلم، أنه لايجوز لأحد منهم أن يقول: هذا حلال وهذا حرام.

لأن الحلال ما أحله الله، على لسان رسوله ﷺ فى كتابه أو سنة رسوله، والحرام ما حرمه الله علي لسان رسوله ﷺ فى كتابه، أوسنة رسوله.

ولايجوز ألبتة للمقلد أن يزيد على قوله :هذا الحكم قاله الإمام الذى قلدته أو أفتى به.

أما دلالة القرآن على منع ذلك فقد قال تعالي ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾(١).

---

(١) يونس :٥٩.

وقال تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾(٢).

ومعلوم أن العبرة بعموم الألفاظ، لابخصوص الأسباب .

ومما يوضح هذا أن المقلد الذى يقول : هذا حلال وهذا حرام من غير علم بأن الله حرمه على لسان رسوله ﷺ، يقول على الله بغير علم قطعاً.

فهوداخل بلاشك فى عموم قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(٣).

فدخوله فى قوله ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ كما ترى

وهو داخل أيضاً فى عموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(٤).

وأما السنة، فقد أخرج مسلم بن الحجاج فى صحيحه عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أوسرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال. «**اغزوا باسم الله، فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله**»(٥) الحديث.

وفيه «**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لاتدرى، أتصيب حكم الله فيهم أم لا**»(٦).

هذا لفظ مسلم فى صحيحه

وفيه النهى الصريح من النبى ﷺ عن نسبة حكم إلى الله، حتي يعلم بأن هذا حكم الله الذى شرعه على لسان رسوله ﷺ.

---

(١) النحل ١١٦ (٢) الأنعام : ١٥٠

(٣) الأعراف : ٣٣ (٤) البقرة : ١٦٩.

(٥) سيأتى تخريجه فى باب ماجاء فى ذمه الله وذمه نبيه.

(٦) ما قبله

ولأجل هذا كان أهل العلم لايتجرؤون على القول بالتحريم والتحليل إلا بنص من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

قال أبو عمر بن عبد البر ـ رحمه الله ـ فى «جامعه».

قال الربيع بن خثيم:

إياكم أن يقول الرجل فى شىء: وإن الله حرم هذا أو نهى عنه فيقول الله: كذبت لم أحرمه ولم أنه عنه.

قال أو يقول :

إن الله أحل هذا وأمر به، فيقول : كذبت لم أحله ولم آمر به.

وذكر ابن وهب وعتيق بن يعقوب أنهما سمعا مالك بن أنس يقول : لم يكن من أمر الناس ولامن مضى من سلفنا ولا أدركت أحداً اقتدى به يقول فى شىء : هذا حلال وهذا حرام.

ماكانوا يجترئون على ذلك.

وإنما كانوا يقولون: نكره هذا.

ونرى هذا حسناً.

ونتقى هذا، ولانرى هذا .

وزاد عتيق بن يعقوب، ولايقولون حلال وحرام.

أما سمعت قول الله عزوجل ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾(١).

الحلال ماأحله الله ورسوله، والحرام ماحرمه الله ورسوله: قال أبو عمر : معنى قول مالك هذا إن ما أخذ من العلم رأياً واستحساناً لم نقل فيه حلال ولاحرام والله أعلم. أهـ. محل الغرض منه.

وقال أبو عبدالله القرطبى ـ رحمه الله ـ فى تفسيره، فى الكلام على قوله تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾(٢). الآية مانصه

---

(١) يونس : ٥٩ (٢) النحل : ١١٦

أسند الدارمى أبو محمد فى مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال: ما سمعت إبراهيم قط يقول: حلال ولاحرام ولكن كان يقول: كانوا يكرهون وكانوا يستحبون.

وقال ابن وهب: قال مالك : لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام.

ولكن يقولون: إياكم وكذا وكذا. ولم أكن لأصنع هذا.

ومعنى هذا أن التحليل والتحريم إنما هو لله عزوجل وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا فى عين من الأعيان، إلا أن يكون [البارىء تعالى بذلك عنه](*).

وما يؤدى إليه الاجتهاد فى أنه حرام يقول:

إنى أكره كذا.

وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى أهـ محل الغرض منه.

وإذا كان مالك وإبراهيم النخعى وغيرهما من أكابر أهل العلم لا يتجرؤون أن يقولوا فى شىء من مسائل الاجتهاد والرأى : هذا حلال أوحرام.

فما ظنك بغيرهم من المقلدين الذين لم يستضيئوا بشىء من نور الوحى؟

فتجرؤهم على التحريم والتحليل بلا مستند من الكتاب إنما نشأ لهم من الجهل بكتاب الله وسنة رسوله، وآثار السلف الصالح.

وآية يونس المتقدمة صريحة فيما ذكرنا صراحة تغنى عن كل ما سواها.

لأنه تعالى لما قال: **﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾** أتبع ذلك بقوله **﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾**(١).

ولم يجعل واسطة بين إذنه فى ذلك وبين الافتراء عليه.

فمن كان عنده إذن من الله بتحريم هذا أو تحليلا فليعتمد على إذن الله فى ذلك.

ومن لم يكن عنده إذن من الله فى ذلك فليحذر من الافتراء على الله.

إذ لاواسطة بين الأمرين.

ومعلوم أن العبرة بعموم لفظ الآية لابخصوص سببها.

---

(١) يونس :٥٩.

(*) كذا فى طبعة «أضواء البيان» والأظهر أن تكون [حكم بذلك فيه]

فالذين يقولون من الجهلة المقلدين: هذا حلال وهذا حرام، وهذا حكم الله، ظناً منهم أن أقوال الإمام الذى قلدوه تقوم مقام الكتاب والسنة وتغنى عنهما.

وإن ترك الكتاب والسنة والاكتفاء بأقوال من قلدوه أسلم لدينه أعمتهم ظلمات الجهل المتراكمة عن الحقائق حتى صاروا يقولون هذا.

فهم كما ترى، مع أن الإمام الذى قلدوه، ماكان يتجرأ على مثل الذى تجرؤوا عليه، لأن علمه يمنعه من ذلك.

والله جل وعلا يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾

شبهة للمقلدين والرد عليها

اعلم أنه لايخفى علينا أن المقلدين التقليد الأعمى المذكور يقولون:

هذا الذى تدعوننا إليه وتأمروننا به من العمل بالكتاب والسنة، وتقديمهما علي آراء الرجال من التكليف بما لايطاق.

لأنا لاقدرة لنا على معرفة الكتاب والسنة حتي نعمل بهما.

ولايمكننا معرفة شيء من الشرع إلا عن طريق الإمام الذى نقلده.

لأنا لم نتعلم نحن ولا آباؤنا شيئاً غير ذلك.

فإذا لم نقلد إمامنا بقينا فى حيرة لانعلم شيئاً من أحكام عباداتنا ولامعاملاتنا، وتعطلت بيننا الأحكام إذ لانعرف قضاء ولا فتوى ولاغير ذلك من الأحكام إلا عن طريق مذهب إمامنا.

لأن أحكامه مدونة عندنا وهى التى نتعلمها ونتدارسها دون غيرها من الكتاب أو السنة وأقوال الصحابة ومذاهب الأئمة الآخرين

ونحن نقول:

والله لقد ضيقتم واسعاً. وادعيتم العجز، وعدم القدرة فى أمر سهل.

ولاشك أن الأحوال الراهنة للمقلدين التقليد الأعمى، للمذاهب المدونة تقتضى صعوبة شديدة جداً فى طريق التحول من التقليد الأعمى إلى الاستضاءة بنور الوحى.

وذلك إنما نشأ من شدة التفريط فى تعلم الكتاب والسنة والإعراض عنهما إعراضاً كلياً يتوارثه الأبناء عن الآباء عن الأجداد.

فالداء المستحكم من مئات السنين لابد لعلاجه من زمن طويل.

ونحن لانقول: إن الجاهل بالكتاب والسنة يعمل بهما باجتهاده.

بل نعوذ بالله من أن نقول ذلك.

ولكنا نقول: إن الكتاب والسنة يجب تعلمهما، ولايجوز الإعراض عنهما وأن كل ما علمه المكلف منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح وجب عليه العمل به.

فالبلية العظمى إنما نشأت من توارث الإعراض عنهما إعراضاً كلياً اكتفاء عنهما بغيرهما.

وهذا من أعظم المنكر وأشنع الباطل.

فالذى ندعو إليه هو المبادرة بالرجوع إليهما بتعلمهما أولاً ثم العمل بهما والتوبة إلى الله من الإعراض عنهما.

ودعوى أن تعلمهما غير مقدور عليه، لايشك فى بطلانها عاقل، ونعيذ أنفسنا وإخواننا بالله أن يدعوا على أنفسهم أن على قلوبهم أكنة، وفى آذانهم وقرًا يمنعهم من فهم كتاب الله

لأن ذلك قول الكفار لا قول المسلمين قال الله تعالى **﴿حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾**(١).

فاحذر يا أخي وارحم نفسك أن تقول مثل قول هؤلاء الكفرة وكنت تسمع ربك يقول: **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾**(٢). ويقول: **﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾**(٣).

ويقول **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾**(٤).

فلاتخرج نفسك من عموم أولى الألباب الذين هم أصحاب العقول، لأنك إن فعلت ذلك اعترفت على نفسك أنك لست من جملة العقلاء.

---

(١) فصلت: ١-٥.
(٢) القمر: ١٧
(٣) الدخان: ٥٨
(٤) ص: ٢٩

وعلى كل حال فلا يخلو المقلدون، التقليد الأعمى، من أحد أمرين:

أحدهما: ألا يلتفتوا إلى نصح ناصح.

بل يستمرون على تقليدهم الأعمى، والإعراض عن نور الوحى عمداً.

وتقديم رأى الرجال عليه.

وهذا القسم منهم لانعلم له عذراً في كتاب الله ولاسنة رسوله.

ولافى قول أحد من الصحابة، ولا أحد من القرون المشهود لهم بالخير.

لأن حقيقة ماهم عليه، هو الإعراض عما أنزل الله عمداً مع سهولة تعلم القدر المحتاج إليه منه، والاستغناء عنه بأقوال الأئمة.

ومن كان هذا شأنه وهو تام العقل والفهم قادر على التعلم فعدم عذره كماترى.

الأمر الثانى: هو أن يندم المقلدون على ماكانوا عليه من التفريط فى تعلم الوحى، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ويبادروا إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ويشرعوا فى ذلك بجد. تائبين مما كانوا عليه من التفريط قبل ذلك، وهذا القسم على هدى من الله .

وهوالذى ندعو إخواننا إليه.

الضرورة عذر فى التقليد للمضطر

لاخلاف بين أهل العلم فى أن الضرورة لها أحوال خاصة تستوجب أحكاماً غير أحكام الاختيار.

فكل مسلم ألجأته الضرورة إلى شىء إلجاءً صحيحاً حقيقياً، فهو فى سعة من أمره فيه.

وقد استثنى الله جل وعلا، حالة الاضطرار فى خمس آيات من كتابه، ذكر فيها المحرمات الأربع التى هى من أغلظ المحرمات، تحريماً وهى الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به.

فإن الله تعالى كلما ذكر تحريمها استثنى منها حالة الضرورة، فأخرجها من حكم التحريم.

قال تعالى فى سورة الأنعام:

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وقال فى الأنعام أيضاً.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾(٢).

وقال تعالى فى النحل

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣).

وقال تعالى فى البقرة:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

وقال تعالى فى المائدة

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾(٥). إلى قوله﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٦).

وبهذا تعلم أن المضطر للتقليد الأعمى اضطراراً حقيقياً، بحيث يكون لاقدرة له ألبتة، على غيره مع عدم التفريط لكونه لاقدرة له أصلاً على الفهم.

أو له قدرة على الفهم وقد عاقته عوائق قاهرة عن التعلم.

أو هو فى أثناء التعلم ولكنه يتعلم تدريجاً لأنه لايقدر على تعلم كل ما يحتاجه فى وقت واحد.

أو لم يجد كفئاً يتعلم منه ونحو ذلك فهو معذور فى التقليد المذكور للضرورة.

---

(١) الأنعام: ١٤٥ (٢) الأنعام: ١١٩ (٣) النحل: ١١٥

(٤) البقرة: ١٧٣ (٥) (٦) المائدة: ٣

لأنه لا مندوحة له عنه.

أما القادر على التعلم المفرط فيه.

والمقدم آراء الرجال على ما علم من الوحى.

فهذا الذى ليس بمعذور

نحب الأئمة جميعاً وحبنا للحق أشد

إعلم أن موقفنا من الأئمة رحمهم الله من الأربعة وغيرهم. هو موقف سائر المسلمين المنصفين منهم.

وهو موالاتهم، ومحبتهم، وتعظيمهم، وإجلالهم، والثناء عليهم، بما هم عليه من العلم والتقوى، واتباعهم فى العمل بالكتاب والسنة وتقديمهما على رأيهم وتعلم أقوالهم للاستعانة بها على الحق، وترك ماخالف الكتاب والسنة منها.

وأما المسائل التى لانص فيها فالصواب النظر فى اجتهادهم فيها.

وقد يكون اتباع اجتهادهم أصوب من اجتهادنا لأنفسنا.

لأنهم أكثر علماً وتقوى منا.

ولكن علينا أن ننظر ونحتاط لأنفسنا فى أقرب الأقوال إلى رضى الله وأحوطها وأبعدها من الاشتباه.

كما قال ﷺ: **«دع ما يريبك إلى مالا يريبك»**(١).

وقال: **«فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»**(٢).

وحقيقة القول الفصل فى الأئمة رحمهم الله أنهم من خيار علماء المسلمين، وأنهم ليسوا معصومين من الخطأ، فكل ما أصابوا فيه فلهم فيه أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وما أخطأوا فيه فهم مأجورون فيه باجتهادهم معذورون فى خطئهم فهم مأجورون على كل حال، لايلحقهم ذم ولاعيب ولانقص فى ذلك.

ولكن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حاكمان عليهم وعلى أقوالهم كما لايخفى.

فلا تغل فى شىء من الأمر واقتصد   كلا طرفى قصد الأمور ذميم.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٢٠٠)، والترمذى (٢١٥٨) عن الحسن بن على به.
وأنظر «رياض الصالحين» (٥٦- بتخريجنا)

(٢) تقدم تخريجه

فلا تك ممن يـذمهم وينتقصـهم ولا ممن يعتقد أقوالـهم مغنية عن كـتاب الله وسنة رسوله أومقدمة عليهما

الأعذار لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن تيمية: وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبـولين عند الأمة قبولا عاما يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ فى شىء مـن سنته؛ دقيق ولا جليل؛ فإنهم متفقون إتـفاقا يقينياً على وجـوب اتباع الرسـول، وعلى أن كل أحـد من الناس يـؤخذ من قولـه ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له من عذر فى تركه.

وجميع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدهما: عدم اعتقاده أن النبى ﷺ قاله.

الثـانـى: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ. أهـ[1].

لابد لمن يرى التقليد أن يفرق بين كلام إمامه وبين ما ألحق بعده على قواعد مذهبه

اعلم أن كل مـن يرى أنه لابد له من تقليـد الإمام فى كل شىء بدعـوى أنه لايقدر على الاستدلال بكـتاب ولاسنة، ولا قول أحد من الصحابة ولا التـابعين، ولا أحد غير ذلك الإمام.

يجب عليه أن يتنبه تنبهاً تاماً لـلفرق بين أقوال ذلك الإمام التى قالها حقاً، وبين ما ألحق بعده علـى قواعد مذهبه، وما زاده المتـأخرون وقتاً بعد وقت من أنـواع الاستحسان التى لا أساس لها فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ﷺ.

ولو علم الإمام بإلحاقهم بمذهبه، لتبرأ منها، وأنـكر على ملحقها، فنسبة جميع ذلك للإمام من الباطل الواضح.

ويزيده بـطلانا نسبتـه إلى الله ورسوله، بدعوى أنـه شرع ذلك على لسـان رسوله. ونحو هذا كثير فى المختصرات فى المذاهب وكتب المتأخرين منهم.

---

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص٦).

الرد على من قال بإغلاق الاجتهاد

اعلم أن الدعوى التي اتفق عليها متأخرو الأصوليين التي تتضمن حكمهم على خالق السماوات والأرض جل وعلا لايجوز لمسلم يريد الحق والانصاف أن يعتقدها، ولا أن يصدقهم فيها لظهور عدم صحتها ومخالفتها للنص، والحكم فيها على الله بلا مستند، وهو جل وعلا الذي يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

وهذه الدعوى المذكورة هي المتركبة مما يأتي، وهو أن الاجتهاد قد انقرض في الدنيا وانسد بابه.

وأن الله تعالى محكوم عليه بأن لايخلق مجتهدا ولايعلم أحداً من خلقه علماً يمكن أن يكون به مجتهداً إلى ظهور المهدي المنتظر.

وأنه لايجوز لأحد أن يعمل بكتاب ولاسنة ولاأن يقلد أحداً كائناً من كان غير الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المدونة، كما نص على هذه الدعوى حاكياً إجماعهم عليها صاحب مراقي السعود في قوله.

والمجمع اليوم عليه الأربعة وقفو غيرها الجميع منعه
حتى يجيء الفاطم المجدد دين الهدى لأنه مجتهد.

ومراده بالفاطمي المهدي المنتظر لأنه شريف.

وقوله : حتى يجيء. حرف غاية، والمغيّا به، منع تقليد أحد غير الأربعة المذكور في قوله : وقفو غيرها الجميع منعه.

وهذا صريح في أنهم حاكمون على الله القدير العليم، بأنه لايخلق مجتهداً قبل وجود المهدي المنتظر،وهذا الذي قاله صاحب مراقي السعود هو المقرر في كتب المتأخرين من الأصوليين من أهل المذاهب المدونة.

وهذا الحكم على الله الذي كل يوم هوّ في شأن بأنه لايخلق مجتهداً قبل المهدي من مدة انقراض الاجتهاد المزعوم هو يا أخي كما ترى.

ولاشك أنك إن لم يعمك التعصب المذهبي تقطع أنه لامستند له، وهذا الذي ذكره صاحب مراقي السعود قد صرح بما يناقضه في قوله قبله:

والأرض لم عن قائم مجتهد تخلو إلى تزلزل القواعد

وهذا النقيض الأخير هو الصحيح الموافق للحق.

لأن النبى ﷺ قد ثبت عنه فى الصحيحين وغيرهما أنه قال: «**لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله**»[1] الحديث. وهو حديث مشهور متفق عليه لانزاع فى صحته.

ولا شك فى أن هذه الطائفة التى صرح النبى ﷺ : بأنها لا تزال ظاهرة على الحق حتى يأتى أمر الله أنها طائفة على كتاب الله، وسنة رسوله، وليست ألبتة من المقلدين التقليد الأعمى.

لأن الحق هو ماجاء به محمد ﷺ من الكتاب والسنة كما قال تعالى فى سورة النساء﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾[2] وقال فى الأنعام﴿**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ**﴾[3] . وقال فى النمل ﴿**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**﴾[4]. وقال فى يونس :﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾[5].

والآيات بمثل ذلك كثيرة.

فدعوى أن الأرض لم يبق فيها مجتهد ألبتة، وأن ذلك مستمر إلى ظهور المهدى المنتظر مناقضة لهذا الحديث الثابت ثبوتاً لامطعن فيه، عن النبىﷺ.

ومما لانزاع فيه أن كل ما يناقض الحق فهو ضلال، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**﴾[6]. والعلم عند الله تعالى .

خطورة الإعراض عن الكتاب والسنة بكتب الفروع

اعلم يا أخى أن هذا الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدونة الذى عم جل من فى المعمورة من المسلمين من أعظم المآسى والمصائب، والدواهى التى دهت المسلمين من مدة قرون عديدة.

ولاشك أن النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنة من جملتها ما عليه المسلمون فى واقعهم الآن من تحكيم القوانين الوضعية المنافى لأصل الإسلام.

(١)[**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٧٣١١) ،ومسلم فى الإمارة (٧/ ٧٤/ ١٧١) عن المغيرة به.
(٢) النساء: ١٧٠
(٣) الأنعام :٦٦ (٤) النمل :٧٩
(٥) يونس : ١٠٨
(٦) يونس :٣٢

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[1] .. فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. قَالَ: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟» فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ[2].

لأن الكفار إنما احتاجوهم بفصلهم عن دينهم بالغزو الفكرى عن طرق الثقافة وإدخال الشبه والشكوك فى دين الإسلام.

ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصناً منيعاً لهم من تأثير الغزو الفكرى فى عقائدهم ودينهم.

ولكن لما تركوا الوحى ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوا به أقوال الرجال لم تقم لهم أقوال الرجال ومذاهب الأئمة رحمهم الله مقام كلام الله والاعتصام بالقرآن، وكلام النبى ﷺ والتحصن بسنته.

ولذلك وجد الغزو الفكرى طريقاً إلى قلوب الناشئة من المسلمين.

ولوكان سلاحهم المضاد القرآن والسنة لم يجد إليهم سبيلا

ولاشك أن كل منصف يعلم أن كلام الناس، ولو بلغوا ما بلغوا من العلم والفضل، لايمكن أن يقوم مقام كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

وبالجملة فمما لاشك فيه أن هذا الغزو الفكرى الذى قضى على كيان المسلمين، ووحدتهم وفصلهم عن دينهم، لو صادفهم وهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله لرجع مدحوراً فى غاية الفشل لوضوح أدلة الكتاب والسنة، وكون الغزو الفكرى المذكور لم يستند إلا على الباطل والتمويه كماهو معلوم.

قوله : **[وعن عدى بن حاتم : أنه سمع النبى ﷺ يقرأ هذه الآية]**

قال سليمان آل الشيخ [3]: هذا الحديث قد روى عن طرق فرواه ابن سعد، وعبد ابن حميد، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبى حاتم، والطبرانى، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقى فى «السنن» وفيه قصة اختصرها المصنف.

---

(١) التوبة : ٣١

(٢) تقدم تخريجه

وقد حسنه شيخ الإسلام فى «الإيمان» (ص ٦٤).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٤١٥)

● مناسبة الحديث للباب وللتوحيد

قال عبدالرحمن آل الشيخ [1]: الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذى لايغفره الله؛ لقوله تعالى فى آخر الآية: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾ وهذا قد وقع فيه كثيرمن الناس مع من قلدوهم، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف اللمقلد، وهومن هذا الشرك، ومنهم من يغلو فى ذلك ويعتقد أن الاخذ بالدليل ـ والحالة هذه ـ يكره، أو يحرم، فعظمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد. وربما تَفَوَّهوا بذم من يعمل بالدليل، ولاريب أن هذا من غربة الإسلام كما قال شيخنا رحمه الله فى المسائل [2].

فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية. فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية، وعبادة الأحبار هى العلم والفقه. ثم تغيرت الحال إلى أن عُبِدَ من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين.

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله: فقد عمت بها البلوى قديما وحديثا فى أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جراً. وقد قال تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾.

وعن زياد بن حدير قال: قال لى عمر رضى الله عنه: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا. قال يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، وحكم الأئمة المضلين». رواه الدارمى [3].

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون. أهـ.

وقال عبدالله بن جار الله [4]:أنه أفاد أن طاعة الأحبار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله ومن الشرك الأكبر الذى لايغفره الله. أهـ.

---

(١) فتح المجيد (٢/ ٥٣٦، ٥٣٧)

(٢) مسائل الجاهلية بشرح محمود شكرى الألوسى ص (٢٠).

(٣) تقدم بنحوه

(٤) الجامع الفريد (١٥٢)

وقال قرعاوى[1]: حيث دل الحديث على شرك من أطاع العلماء فى تحريم ما أحل الله، وتحليل ماحرم الله .أهـ.

قوله [عدى بن حاتم]

قال ابن الأثير[2]: عدى بن حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس ابن عدى ابن أخزم بن أبى أخزم بن ربيعة بن جرول بن ثُعل بن عمرو بن الغوث بن طيى الطائى،وأبوه حاتم هو الجواد الموصوف بالجود، الذى يضرب به المثل، يكنى عدى أبا طريف. وقيل: أبو وهب، يختلف النسابون فى بعض الأسماء إلى طيء.

وفْدَ عِدىُّ علـى النبى ﷺ سنة تـسع فى شعبان، وقـيل :سنة عشر، فـأسلم وكان نصرانياً.

عن أبى عـبيدة بن حذيـفة قال: كنت أسأل عـن حديث عدى بن حـاتم، وهو إلى جنبى، فـقلت ألاآتيه فأسألـه؟ فأتيته فسـألته، فقال: بعث رسـول الله ﷺ حين بعث، فكرهـته أشد ماكرهت شـيئاً قط، فانـطلقت حتـى إذا كنت فى أقصى الأرض مما يلى الروم، فكرهت مكانى ذلك مثلما كرهته أو أشد، فقلت : لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذبا لم يخف عـلى، وإن كان صادقا اتبعته؟ فأقـبلت، فلما قدمت المدينـة استشرفنى الناس وقالـوا: عدى بن حاتم ! عدى بن حاتم! فـأتيته، فقال لى: يـاعدى بن حاتم، أسلم تسلم قلـت: إن لى دينا. قال : أنا أعلم بدينك منك. قلـت : أنت أعلم بدينى منى؟ قال: نعم، مرتين أو ثلاثاً، قال :ألـست ترأس قومك؟ قال، قلت: بلى . قال: ألست وكوسيا[3]؟ ألست تأكل [4] المرباع؟ قلـت : بلى . قال: فإن ذلك لايـحل فى دينك. قال: فنضنضت[5] لذلك، ثم قال :ياعدى، أسلـم تسلم. قال :قد أظن ـ أو : قد أرى، أو : كما قال رسـول الله ﷺ ـ أنه ما يمنعك أن تسلم إلا غضـاضة تراها ممن

---

(١) الجديد (٧٣٣)

(٢) أسد الغابة (٤/٨: ١٠)

(٣) الوكوسية : دين النصارى والصابئين.

(٤) المرباع: ربع الغنيمة، وكان رئيس القوم المطاع فيهم يأخذه دون أصحابه فى الجاهلية.

(٥) نضنضت: حركت لسانى فى فمي

حولى، وإنك ترى الناس علينا إلبا[1] واحد. قال : هل أتيت الحيرة؟ قلت: لم آتها، وقد علمت مكانها. قال : يوشك الظعينة[2] أن ترحل من الحيرة بغير جوار، حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنز كسرى بن هرمز! قال : كسرى بن هرمز، مرتين أو ثلاثاً، وليفيضن المال حتى يهم الرجل[3] من يقبل صدقته. قال عدى : قد رأيت اثنتين: الظعينة ترحل بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وقد كنت في أول خيل أغارت على كنوز كسرى بن هرمز، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة أنه قال رسول الله ﷺ[4].

وقيل : إنه لما بعث النبى ﷺ سرية إلى طىء أخذ عدى أهله، وانتقل إلى الجزيرة، وقيل : إلى الشام، وترك أخته سفَّانة بنت حاتم، فأخذها المسلمون، فأسلمت وعادت إليه فأخبرته، ودعته إلى رسول الله ﷺ، فحضر معها عنده، فأسلم وحسن إسلامه.

وروى عن النبى ﷺ أحاديث كثيرة، ولماتوفى رسول الله ﷺ قدم على أبى بكر الصديق فى وقت الردة بصدقة قومه، وثبت على الإسلام ولم يرتد، وثبت قومه معه. وكان جوادا شريفاً فى قومه، معظماً عندهم وعند غيرهم، حاضر الجواب؛ روى عنه أنه قال :«مادخل علـى وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها». وكان رسول الله ﷺ يكرمه إذا دخل عليه.

وعن عامر الشعبى قال: لما كان زمن عمر، رضى الله عنه، قدم عدى بن حاتم على عمر، فلما دخل عليه كأنه رأى منه شيئاً ـ يعنى جفاء ـ قال : يا أمير المؤمنين، أما تعرفنى؟ قال : بلى، والله أعرفك، أكرمك الله بأحسن المعرفة، أعرفك والله، وأسلمت إذ كفروا، وعرفت إذ أنكروا، ووفيت إذ غدروا» وأقبلت إذا أدبروا. فقال . حسبى يا أمير المؤمنين حسبى.

قال الشعبى: أرسل الأشعث بن قيس إلى عدى بن حاتم يستعير منه قدور حاتم، فملأها، وحملها الرجال إليه، فأرسل إليه الأشعث: إنما أردناها فارغة! فأرسل إليه عدى: إنا لانعيرها فارغة.

(١) أى : مجتمعين

(٢) الظعينة: المرأة مادامت فى الهودج

(٣) أى : يحزنه.

(٤) أخرج الإمام أحمد نحوه عن يزيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين عن أبى عبيدة عن رجل قال :قلت عدى بن حاتم... وذكره .المسند :٤/ ٢٥٧.

وكان عدى يفت الخبز للنمل ويقول : إنهن جارات، ولهن حق.

وكان عدى منحرفاً عن عثمـان، فلما قتل قال: «لايحبق[1] فى قتله عناق». فلماكان يوم الجمل فقئت عينه، وقتل ابنه محمد مع على، وقتل ابـنه الآخر مع الخوارج، فقيل له: يا أبا طريف، هل حَبَقَ فى قتل عثمان عناق؟! قال : إى والله، والتيس الأعظم.

وتوفى سنة سبع وستين، وقيل : سنة ثمان . وقيل : سنة تـسع وستين، وله مائة وعشرون سـنة : قيل : مـات بالكوفة أيـام المختار، وقيل : مـات بقرقيـسياء، والأول أصح.

النضنضة: تحريك الـلسان. والغضاضة: الذلة. والنقيصة وقـيل : إنما هى «خصاصة» بالخاء، وهى الفقر. أهـ.

قوله [أنه سـمع النبى ﷺ يقـرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾الآية.]

تقدمت أقوال المفسريـن فى تفسير الآية فى الباب الخامس / تفسـير التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله.

قوله: [فقلت : إنا لسنا نعبدهم]

قال سليمان آل الشيخ [2] ظن عدى أن العبادة، من السـجود والذبح والنذر ونحو ذلك فقال: إنا لسنا نعبدهم. أهـ.

وقال ابن عـثمين[3]: أى : لانعـبد الأحبار والـرهبان، ولانسـجد لهم ولانـركع ولانذبح ولا نـنذر لهم، وهذا صـحيح بالنسبة للأحبار والـرهبان بدليـل قوله: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ماحرم الله فتحلونه؟!**».

فإن هذا الوصـف لاينطبق علـى عيسى أبداً؛ لأنه رسـول الله، فما أحله؛ فقـد أحله الله، وماحرمه؛ فقد حرمه الله، وقد حاول بعض الناس أن يعل الحديث لهذا المعنى مع ضعف سنده، والحديث حسنه الترمذى والألبانى وآخرون وضعفه آخرون.

ويجاب عـن التعلـيل المذكور بـأن قول عدى: «لسنـا نعبدهـم» يعود علـى الأحبار والرهبان، أما عيسى ابن مريم؛ فالمعروف أنهم يعبدونه.

وبدأ بتحريم الحلال؛ لأنه أعظم من تحليل الحـرام، وكلاهما محرم؛ لقوله تعالى :

---

(1) لايحبق :لايضرط. (2) تيسير العزيز الحميد (٤١٥)

(3) القول المفيد (٢/ ٣١٩، ٣٢٠)

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾(١).

قوله : «فتلك عبادتهم».

ووجه كونها عبادة: أن من معنى العبادة: الطاعة، وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله، أما إذا كانت في طاعة الله؛ فهي عبادة لله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، كما لو أمرك أبوك بالصلاة فصليت؛ فلا تكون قد عبدت أبوك بطاعتك له، ولكن عبدت الله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله؛ ولأن أمر غير الله بطاعة الله وامتثال أمره هو امتثال لأمر الله. أهـ

قوله : [أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه....]

قال سليمان آل الشيخ(٢): صرح ﷺ في هذا الحديث بأن عبادة الأحبار والرهبان هي طاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام، وهو طاعتهم في خلاف حكم الله ورسوله.

قال شيخ الإسلام: وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ماحرم الله وعكسه يكونون على وجهين

أحدهما: أنهم يعلمون أنهم بدلوا دين الله؛ فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ماحرم الله، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر. وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم مايفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت.

في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الطاعة في معروف**»(٣) ثم نقول: اتباع هذا المحلل للحرام والمحرم للحلال إن كان مجتهداً قصده أتباع الرسول ﷺ، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لايؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه. ولكن من علم أن هذا الخطأ فيما جاء به رسول الله ﷺ، ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول ﷺ، فله نصيب من الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبعه في ذلك لهواه ونصره باللسان واليد مع علمه بأنه مخالف للرسول ﷺ ، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه.

---

(١) النحل: ١١٦ (٢) تيسير العزيز الحميد (٤١٤، ٤١٧). (٣) تقدم تخريجه

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لايجوز تقليد أحد في خلافه. وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد، فهذا لايؤاخذ أن أخطأ كما في القبلة. وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن الحق معه فهذا من أهل الجاهلية فإن كان متبرعه مصيبا لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار. انتهى ملخصاً. أ هـ

[قلت]: وتقدم تفصيل ذلك المبحث السابق في التقليد وأيضاً في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لاإله إلا الله.

وقال ابن عثيمين(١):

● ويستفاد من الحديث

١ـ أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة.

٢ـ أن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما في عبادة الله؛ فهي عبادة لله

٣ـ أن اتباع العلماء والعباد في مخالفة شرع الله من اتخاذهم أرباباً.

واعلم أن أتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ماحرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام.

الأول: أن يتابعهم في ذلك راضياً بقولهم، مقدماً له، ساخطاً لحكم الله؛ فهو كافر لأنه كره ما أنزل الله، فأحبط الله عمله، ولاتحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله؛ فهو كافر.

الثاني: أن يتابعهم في ذلك راضياً في حكم الله وعالماً بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد، ولكن لهوى في نفسه اختاره، كأن يريد مثلاً وظيفة ؛ فهذا لايكفر، ولكنه فاسق وله حكم غيره من العصاة.

الثالث: أن يتابعهم جاهلاً، فيظن أن ذلك حكم الله؛ فينقسم إلى قسمين:

(أ) أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه فهو مفرط أومقصر، فهو آثم؛ لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

(ب) أن لايكون عالماً ولايمكنه التعلم فيتابعهم تقليداً ويظن أن هذا هو الحق؛ فهذا

---

(١) القول المفيد (٢:٣٢٠:٣٢٨)

لاشىء عليه لأنه فعل ما أمر به وكـان معذوراً بذلك، لذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن «من أفتى بغير علم؛ فـإنما إثمه على من أفتاه»[١] لو قلنا: بإثمه بخطأ غيره؛ للزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه.

فإن قيل : لماذا لايكفر أهل القسم الثانى؟

أجيب: إننـا لو قلنا بكفـرهم لزم من ذلك تكفيـر كل صاحب معصيـة يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله أهـ.

وقد تقدم معنا فى الباب الخامس ما قاله وأن الكفر ينقسم إلى نوعين.

كما قال محمـد بن إبراهيم فى رسالته «تحكـيم القوانين»[٢] فانظر كـيف سجل الله تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسوق .ومن الممتنع أن يسمى الله ـ سبحانه ـ الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ولايكون كافراً، بل هو كافر مطلقاً؛ إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد،و ماجاء عن ابن عبـاس رضى الله عنهما فى تفسير هذه الآية من رواية طاووس وغيـره يدل أن الحاكم بغير ماأنـزل الله كافر؛ إما كفر اعتقـاد ناقل عن الملة، وإما كفر عمل لاينقل عن الملة.

أما الأول : وهو كفر الاعتقاد ـ، فهو أنواع

أحدها:أن يجحد الحاكم بـغيرما أنزل الله أحقيةحكم الله ورسـوله. .وهذامما لانزاع فيه بين أهـل العلم، فإن الأصول المتـقررة المتفق عليـها بينهم أن من جـحد أصلا من أصول الدين أو فرعـاً مجمعاً عليه، أو أنكـر حرفاً مما جاءبه الرسول ﷺ قطـيعاً؛ فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة.

الثانى: ألايجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حـكم الله ورسوله حقاً، لكن اعتقد أن حكم غير الـرسول ﷺ أحسن من حكمه وأتم وأشـمل لمايحتاجه النـاس من الحكم بينهم عند التنازع ؛ إما مطلقاً أو بالنسبة لما استجد من الحوادث.هذا لاريب أنه كفر.

الثالث: ألا يعتقد كـونه أحسن من حكم الله ورسولـه، لكنه اعتقد أنه مـثله؛ فهذا كالنوعين اللـذين قبله فى كونه كافراً الكفـر الناقل عن الملة لما يقتضيـه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

الرابع: ألايعتقد كون حـكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحـكم الله ورسوله لكن

---

(١) تقدم تخريجه

(١) ص (٥ ـ ٨)

اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله ؛ فهذا كالذى قبله لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه.

الخامس : وهو أعظمها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً وحكماً وإلزاما ومراجع ومستمدات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلهاإلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ فلهذه المحاكم مراجع هى القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة؛ كالقانون الفرنسى، والقانون الأمريكى، والقانون البريطانى وغيرها من القوانين.

فأى كفر فوق هذا الكفر، وأى مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ؟!

السادس : مايحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادى ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعادتهم التى يسمونها «سلومهم» يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به عند النزاع؛ إبقاءً على أحكام الجاهلية، وإعراضاً ورغبة عن حكم الله ورسوله.

وأما القسم الثانى من قسمى كفر الحاكم بغير ما أنزل الله، وهو الذى لايخرج من الملة؛ فقد تقدم أن تفسيرابن عباس رضى الله عنهما لقول الله- عز وجل - فيقوله رضى الله عنه «كفر دون كفر. . . .» وذلك بأن تحمله شهوته وهواه على الحكم فى القضية بغير ما أنزل الله، مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ، ومجانبة الهدى وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر ؛ كالزنا، وشرب الخمر، والسرقة، فإن معصية سماها الله كفراً أعظم من معصية لم يسمها كفراً» . أهـ.

● **فائدة:**

قال ابن عثيمين(١): وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف:

١- قال تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾

٢- قال تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾

٣- وقال تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾(٢).

واختلف أهل العلم فى ذلك:

---

(١) القول المفيد (٢/ ٣٣٠)

(٢) المائدة : ٤٧

فقيل : إن هذه الأوصاف لموصوف واحد؛ لأن الكافر ظالم؛ لقوله تعالى : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١) ،و فاسق؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾(٢)؛ أى : كفروا.

وقيل : إنها لموصوفين متعددين، وإنها على حسب الحكم، وهذا هو الراجح.

فيكون كافراً في ثلاثة أحوال.

أ ـ إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾(٣) ، فكل ماخالف حكم الله؛ فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعى على أنه لايجوز الحكم بغير ما أنزل الله فالمحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعى، وهذا كافر مرتد،وذلك كمن اعتقد حل الزنا أوالخمر أو تحريم الخبز أو اللبن.

ب ـ إذا اعتقد أن حكم غير الله مثل حكم الله.

ج ـ إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله.

بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٤)؛

فتضمنت الآية أن حكم الله أحسن الأحكام، بدليل قوله تعالى مقرراً ذلك: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾(٥)، فإذا كان الله أحسن الحاكمين أحكاماً وهو أحكم الحاكمين؛ فمن أدعى أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن فهو كافر لأنه مكذب للقرآن.

ويكون ظالما:

إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله أحسن الأحكام،وأنه أنفع للعباد والبلاد، وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله؛ فهو ظالم.

ويكون فاسقاً:

إذا كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوى فى نفسه مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق. لكن حكم بغيره لهوى فى نفسه؛ أى : محبة لما حكم به لا كراهة لحكم الله ولاليضر

(١) البقرة: ٢٥٤ (٢) السجدة : ٢٠ (٣) المائدة: ٥٠
(٤)المائدة : ٥٠ (٥) التين :٨

أحداً به، مثل : أن يحكم لشخص لرشوة رشى إياها، أو لكونه قريباً أوصديقاً، أو يطلب من ورائه حاجة، وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه؛ فهذا فاسق، وإن كان أيضاً ظالماً، لكن وصف الفسق فى حقه أولى من وصف الظلم(١).

أما بالنسبة لن وضع قوانين تشريعه مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله؛ فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين، فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله، وعندما نقول بأنه كافر؛ فنعنى بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر.

ولكن قد يكون الواضع له معذوراً، مثل أن يغرر به كأن يقال: إن هذا لايخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس.

فيوجد بعض العلماء وإن كانوا مخطئين يقولون: إن مسألة المعاملات لاتعلق لها بالشرع، بل ترجع إلى مايصلح الاقتصاد فى كل زمان بحسبه، فإذا اقتضى الحال أن نضع بنوكاً للربا أو ضرائب على الناس؛ فهذا لاشىء فيه.

وهذا لاشك فى خطئه؛ فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا؛ فهم على خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لاعلماء الملة.

ومما لاشك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التى بين الإنسان وربه والمعاملات التى بين الإنسان مع الخلق فى العقود والأنكحة والمواريث وغيرها؛ فالشرع كامل من جميع الوجوه، قال تعالى :﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(٢).

وكيف يقال : إن المعاملات لاتعلق لها بالشرع وأطول آية فى القرآن نزلت فى المعاملات، ولولا نظام الشرع فى المعاملات لفسد الناس؟!

وأنا لا أقول: نأخذ بكل ما قاله الفقهاء؛ لأنهم قد يصيبون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الأحوال. تقع بين

(١) قال القرطبى فى «تفسيره» : «إن حكم به ـ أى : بغير ما أنزل الله ـ هوى ومعصية ؛ فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة فى الغفران للمذنبين».

وقال شيخ الإسلام فى «منهاج السنة» (٥/ ١٣١) أمامن كان ملتزماً لحكم الله ورسوله باطناً وظاهراً، لكن عصى واتبع هواه؛ فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة»

(٢) المائدة : ٣

الناس إلا فى كتاب الله وسنة رسوله مايزيل إشكالها ويحلها، ولكن الخطأ إما من نقص العلم أو الفهم، وهذا قصور، أونقص التدبر، وهذا تقصير

أما إذا وفق الإنسان بالعلم والفهم وبذل الجهد فى الوصول إلى الحق؛ فلا بد أن يصل إليه حتى فى المعاملات، قال تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾(١) وقال تعالى : ﴿أفلم يدبروا القول﴾(٢) وقال تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾(٣) قال تعالى ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء﴾(٤) . فكل شيء يحتاجه الإنسان فى دينه أو دنياه؛ فإن القرآن بينه بياناً شافياً.

ومن سن قوانين تخالف الشريعة وأدعى أنها من المصالح المرسلة؛ فهو كاذب فى دعواه لأن المصالح المرسلة والمقيدة إن اعتبرها الشرع ودل عليها فهى حق ومن الشرع، وإن لم يعتبرها؛ فليست مصالح، ولا يمكن أن تكون كذلك، ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمى بالمصالح المرسلة، بل ما اعتبره الشرع؛ فهو مصلحة، ومانفاه؛ فليس بمصلحة، وما سكت عنه؛ فهو عفو.

والمصالح المرسلة توسع فيها كثير من الناس ؛ فأدخل فيها بعض المسائل المنكرة من البدع وغيرها؛ كعيد ميلاد الرسول، فزعموا أن فيه شحذا للهمم وتنشيطاً للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله ﷺ، وهذا باطل؛ لأن جميع المسلمين فى كل صلاة يشهدون أن محمداً عبده ورسوله ويصلون عليه، والذى لايحيى قلبه بهذا وهو يصلى بين يدى ربه كيف يحيى قلبه بساعة يؤتى فيها بالقصائد الباطلة التى فيها من الغلو ما ينكره رسول الله ﷺ؟! فهذه مفسدة وليست بمصلحة.

فالمصالح المرسلة وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار؛ فلا شك أن مرادهم نصر الله ورسوله، ولكن استخدمت هذه المصالح فى غير ما أراده أولئك العلماء وتُوُسع فيها، وعليه؛ فإنها تقاس بالمعيار الصحيح، فإن اعتبرها الشرع قبلت، وإلا ؛ فكما قال الإمام مالك: «كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»، وهناك قواعد كليات تطبق عليها الجزئيات.

وليعلم أنه يجب على الإنسان أن يتقى ربه فى جميع الأحكام؛ فلا يتسرع فى البت بهاخصوصاً فى التكفير الذى صار بعض أهل الغيرة والعاطفة يطلقونه بدون تفكير ولا

(١) النساء: ٨٢ (٢)المؤمنون: ٦٨
(٣) ص: ٢٩ (٤) النحل : ٨٩

روية، مع أن الإنسان إذا كفر شخصاً ولم يكن الشخص أهلاً له؛ عاد ذلك إلى قائله، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة؛ فيكون مباح الدم والمال، ويترتب عليه جميع أحكام الكفر، وكما لا يجوز أن نطلق الكفر على شخص معين حتى يتبين شروط التكفير فى حقه يجب أن لانجبن عن تكفيرَ من كفره الله ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المعين وغير المعين؛ فالمعين يحتاج الحكم بتكفيره إلى أمرين:

١ـ ثبوت أن هذه الخصلة التى قام بهاما يقتضى الكفر.

٢ـ انطباق شروط التكفير عليه، وأهمها العلم بأن هذا مكفر، فإن كان جاهلاً؛ فإنه لايكفر ،و لهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالماً بالتحريم، وهذاوهو إقامة حد وليس بكفر، والتحرز من التكفير أولى وأحرى.

قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(١)، وقال تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾(٣) ولابد مع توفر الشروط من عدم الموانع، فلو قام الشخص بما يقتضى الكفر إكراهاً أو ذهولاً لم يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾(٤)ولقول الرجل الذى وجد دابته فى مهلكه: «اللهم! أنت عبدى وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح»(٥)، فلم يؤاخذ بذلك أهـ.

خلاصة القول فى شبهة التسوية بين العلمانية وبين انحرافات التطبيق الجزئية

قال الدكتور صلاح الصاوى: اعلم أن توحيد الألوهية يقتضى إفراد الله بالطاعة والانقياد، وأن الإيمان المجمل هو التصديق والانقياد، و أن الكفر هو عدم الإيمان، سواء أكان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أوإعراض، وأن من لم يحصل فى قلبه التصديق والانقياد فهو كافر.

وعلى هذا يمكن تفصيل القول فى قضية الحكم بغير ما أنزل الله، ذلك أن تعبير الحكم بغير ما أنزل الله، قد يقصد به عمل القضاة والمنفذين، وقد يقصد به عمل

(١) النساء: ١٦٥ (٢) الإسراء: ١٥

(٣) التوبة: ١١٥

(٤) النحل: ١٠٦

(٥) [صحيح][متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣٠٩)، ومسلم فى التوبة (٩/٧٢/٧) عن أنس به

الأصوليين المشرعين، وعلى حسب الدقة فى تحديد المناط تكون الدقة فى سلامة الحكم وموافقته لمراد الشارع.

● فإن قصد به عمل القضاة والمنفذين نظر: فإن كان مرده إلى تكذيب الحكم الشرعى أو رده فهو كفر أكبر يخرج من الملة، وإن كان مرده إلى عارض من هوى أو شهوة أونحوه مع بقاء التحاكم ابتداء إلى الكتاب والسنة أو ماحمل عليهما بطريق الاجتهاد فهو من جنس الذنوب والمعاصى، وأصحابه فى مشيئة الله إن شاء الله عذبهم وإن شاء غفر لهم.

وهذه هى صورة الحكم بغير ما أنزل الله، التى عرفت فى تاريخ الإسلام، والتى قال فيها علماء الإسلام ما قالوا وفصلوا فيها من الأحكام ما فصلوا، إذ لم تعرف الدولة فى تاريخها الطويل نبذاً كاملا لأحكام الله واطراحاً مجملا لشريعة الله، وتحاكما من حيث المبدأ إلى كتاب غير القرآن وإلى دين غير الإسلام. اللهم إلا مرة واحدة فى أيام التتار ولقد جزم أهل العلم يومها بأن هذه الصورة المستحدثة لاتكييف لها إلا الكفر، وأن أصحابها كفار بلا خلاف وأنه يجب قتالهم حتى يرجعوا إلى حكم الله ورسوله.

قال ابن كثير رحمه الله عما كان يحكم به التتار من السياسات الملكية(فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه فى قليل ولاكثير) (١) .

ويقول فى البداية والنهاية:(فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه، من فعل فقد كفر بإجماع المسلمين)(٢).

● أما إن قصد به المعنى الأصولى التشريعى الذى هو خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين على سبيل الاقتضاء أو التخيير أو الوضع، وأريد به اصدار قواعد تشريعية عامة تبدل بها شرائع الإسلام وتكون لها السيادة فى الأمة بدلاً من سيادة الكتاب والسنة وتصبح هى المرجع فى الحكم عند التنازع ويقدم العمل بها على العمل بأحكام الشريعة المطهرة فلاجدال فى أن هذه الصورة مناطها واحد وتكييف واحد وهو الكفر الأكبر المخرج من الملة الذى لاتبقى معه من الإيمان حبة خردل، كما قال تعالى : **﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾**(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير(٢/ ٦٧)
(٢) البداية والنهاية (١٣/ ١١٩)
(٣) الشورى : ٢١

يقول ابن تيمية : (والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال المجمع عليه أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا باتفاق الفقهاء)[1].

وقد سبق قول ابن كثير : (فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء ﷺ وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلي الياسق وقدمها عليه؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين).

ولقد أدى اللبس فى هذه القضية وعدم تحديد مناطات الحكم فى صوره المختلفة إلى اضطراب كثير من أهل العلم من متنسبى الحركة الإسلامية وغيرهم فى تقريرها مما أتاح للمبطلين أن يجدوا من بين فرجات اختلافهم مدخلا لهم يلبسون به على العامة، ويسبغون به الشرعية على هذه العلمانية الغازية التى تقوم على رد شرائع الإسلام، واستباحة الحكم بغير ما أنزل الله، وإهدار سيادة الشريعة الإسلامية، وحمل الأمة كلها على تحكيم القوانين الوضعية وذلك بإشاعة القول بأن الكفر الوارد فى قوله تعالى : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ هو الكفر الأصغر الذى لاينقل عن الملة، ويسوقون فى ذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين فى بيان أنه كفر دون كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته، فتصبح بذلك أمام خلل جزئى أو انحراف فروعى لايبرر أنعدام الشرعية ولاسقوط واجب الطاعة.

ولقد نبه **محمود شاكر ـ رحمه الله ـ** فى تعليقه على الطبرى إلى هذا الخلل، وفصل القول فى مثل هذه الآثار عند تعليقه على ما أورده الطبرى فى تفسير قوله تعالى: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ من قول أبى مجلز وهو تابعى ثقة لمن سأله من الإباضية عن معنى هذه الآية وأرادوا أن يلزموه الحجة فى تكفير الأمراء لأنهم فى معسكر السلطان، ولأنهم ربما ارتكبوا بعض مانهاهم الله عن ارتكابه فأجابهم أبو مجلز بقوله : (إنهم يعملون بمايعملون ـ يعنى الأمراء ـ ويعلمون أنه ذنب ! قال : بينما أنزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى، قالوا : أما والله إنك لتعلم مثل ما نعلم، ولكنك تخشاهم ! قال : أنتم أحق بذلك منا، أما نحن فلا نعرف ما تعرفون ! قالوا: ولكنكم تعرفونه ولكن يمنعكم أن تمضوا أمركم من خشيتهم!)[2].

يقول الشيخ محمود شاكر ـ رحمه الله ـ: تعليقا على ذلك (فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء فى الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة

---

(١) مجموع فتاوى (ابن تيمية :(٣/ ٢٦٧)

(٢) تفسير الطبرى (٦/ ٢٥٢، ٢٥٣).

أهل الإسلام، ولا فى إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلي حكم غير حكم الله فى كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى،وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم فى تكفير القائل به والداعى إليه.

والذى نحن فيه اليوم هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء،وإيثار حكم غير حكمه فى كتابه وسنة نبيه، وتعطيل لكل ما فى شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفصيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وادعاء المحتجين بذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا،و لعلل وأسباب انقضت فسقطت الأحكام كلها بانقضائها.

فأين هذامما بيناه من حديث أبى مجلز، والنفر من الإباضية من بنى عمرو ابن سدوس !!»[1] .

ويقول فى موضع آخر:(ولو كان الأمر على ما ظنوا فى خبر أبى مجلز، أنهم أرادوا مخالفة السلطان فى حكم من أحكام الشريعة، فإنه لم يحدث فى تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكما وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها، هذه واحدة، وأخرى أن الحاكم الذى حكم فى قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة، وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية فهذا ذنب تناله التوبة وتلحقه المغفرة، وإما أن يكون حكم به متأولا حكما يخالفه به سائر العلماء فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب، وسنة رسول الله ﷺ وأما أن يكون فى زمن أبى مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء فى أمر، جاحدا لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثرا لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط فلا يمكن صرف كلام أبى مجلز والإباضيين إليه.

فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما فى غير بابهما، وصرفهما إلى غير معناهما رغبة فى نصرة سلطان، أو احتيالا على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده، وفحكمه فى الشريعة حكم الجاحد بحكم من أحكام الله: أن يستتاب، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله، ورضى بتبديل الأحكام فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين)[1].

---

(١) راجع تفسير الطبرى بتحقيق أحمد شاكر (١٠/٣٤٩)

(٢) تفسير الطبرى بتحقيق محمود شاكر (١٠/٣٥٨).

والذى نخلص إليه من ذلك كله أن قول بعض السلف كفر دون كفر فى تفسير هذه الآية لاينصرف مناطه إلى مناط العلمانية التى ترد مرجعية الشريعة، وتهدر سيادتها فى علاقة الدين بالدولة وتجعل من التحاكم إليها خروجا على الشرعية وسببا قاطعا من أسباب بطلان الحكم ونقضه!

شبهة وجوابها

ولكن تبقى بعد ذلك شبهة: وهى أن هذه النصوص السابقة إنما هى فى قوم رفضوا الدخول فى الإسلام من البداية، وأبوا أن يذعنوا له رغم معرفتهم بأنه حق من عند الله، أما هؤلاء الممتنعون عن التزام الشرائع أو الحكم بها فقد أعلنوا قبولهم للإسلام فى الجملة.

ويجاب عن هذا بأنه قدعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لافرق بين من يدفع جميع ما أنزل الله على عباده، ومن يدفع شيئاً واحداً من ذلك، كما لافرق بين من يكذب بالقرآن كله ومن يكذب بسورة واحدة من سوره أو حتى آية واحدة من آياته، ولابين من يجحد الإسلام من البداية ومن يجحد حكماً واحداً من أحكامه القطعية، فمن أعلن قبوله للإسلام والتزامه بشرائعه جملة، ثم رد شيئاً من أحكامه القطعية فقد خرق بذلك قاعدة الخضوع والتزام الطاعة، وهى التى تمثل إحدى دعامتى التوحيد كما سبق القول.

ولكن سؤالا يرد فى هذا المقام:

هل مجرد التحاكم إلى الشرائع الوضعية والتزامها يعد خلعاً للربقة وتحللا من الالتزام بشرائع الله؟

وفى الجواب على هذا تفصيل لاغنى عن ذكره.

أولا: لاشك أن الإقدام على نقض أحكام اللهوتبديل شرائعه، وإحلال أهواء البشر محلها طواعية واختيارا بلا عارض من تأويل أوإكراه، [أو غير ذلك منا الموانع الشرعية المعتبرة] وحمل الأمة على ذلك بقوة السلطان يعد شركا بالله العظيم وكفر بربوبيته وألوهيته.

ثانياً: أما من توارث ذلك عمن سبقه من الولاة، ولم يبتدىء جريمة التبديل والفصل بين الدين والدولة فلايخلو حاله من صورة من هذه الصور:

- أن يرضى بهذه العلمانية، ويعلن التزامه بها، ويسعى للتمكين لها، ويعقد ولاءه وبراءه عليها، فهذا لاشك فى كفره، لأن الرضا بالكفر والتزامه كفر بالاتفاق.

- أن يعلن الكفر بهاوالعزم على تغييرها، ويتخذ بهذا الصدد خطوات حقيقية تبين صدقه فى دعواه، فهذا قد برىء من الرضا والمتابعة،وذلك هو المسلم الذى له ذمة الله ورسوله،ويجب على الأمة عونه وتأييده، وقد يستغرق استكمال التغيير مددا تطول أو تقصر، ولكن هذا لايقدح فى صحه إسلامه ما صدّقت أفعاله أقواله.

- أن يروغ فى مواقفه، فلا يعلن صريح الرضا والمتابعة، ولاصريح الانخلاع والبراءة وإنما تتذبذب مواقفه بين الفريقين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهذا هو النفاق الذى مافتئت تواجهه الدعوات على مدار التاريخ، وعلى الأمة أن تتابع مواقفه، وأن تلجئه إلى التزام أحد المنهجين لتفوت عليه ما يريده من الخداع والتلبيس، فإذا ماأظهر نفاقه بيقين فقد زالت شرعيته وسقطت طاعته.

والحق أن هذا الموقف الأخير هو أخطر ما يواجه الدعوة إلى إقامة الدين فى هذا العصر؛ لأنه يجعل الناس فى هؤلاء المارقين فئتين:

- فئة تحسن الظن بأقوالهم، فتلقى إليهم السلم، وتشايعهم بالقول والعمل، وتتهم الآخرين بالغلو والشطط!

- وفئة أخرى حاكمت أقوالهم إلى أعمالهم، فتبين لهاكذب المقالات وزيف الشعارات، فلم تقم لها وزناً وحكمت عليهم بما أسفر عنه استقراء واقعهم، ورصد حقيقتهم.

وإن المعركة الحقيقية فى مثل هذه المواقع لابد أن تكون على محورين.

- **الأول:** بيان حقيقة التوحيد وتبليغها للكافة حتى يستفيض العلم بأنه لا حكم إلا لله، وأن العلمانية والإسلام نقيضان، وأن تحكيم القوانين الوضعية لايجتمع مع أصل الإيمان بحال من الأحوال.

- **الثانى** : بيان حقيقة الواقع ورصده بمنتهى الموضوعية والدقة،حتى يتبين للناس الحقيقة والدعوى فى هذه المزاعم والادعاءات.

ذلك أن من الناس من يجهل حقيقة التوحيد وعلاقته بتحكيم الشريعة ووجوب إفراد الله بالطاعة.

ومنهم من يجهل حقيقة الواقع تحت تأثير أبواق التضليل والدعاية وخبراء الخداع والتلبيس! وهؤلاء يمثلون فى الواقع نسبة عالية لايستهان بها،وفيهم الدعاة والهداة من حملة القرآن والسنة ممن يقرون بالقضية فى جانبها العلمى، وتعتبر عند كثير منهم من

البديهيات والمسلَّمات، ولكنهم فُتنوا بالشعارات والتصريحات التى تطلقها أبواق العلمانية فشوشت عليهم الرؤية وجعلتهم فى أمرمريج!

بقيت مسألة فى غاية الأهمية وهى أن موقف الدعوة من العلمانية موقف عقدى ثابت، فالعلمانية والإيمان نقيضان، وهى من الطواغيت التى تَعَبَّدَاللهُ عباده بالكفربها واجتنابها، ومهما تفاوتت اجتهادات الدعاة فى أشخاص القائمين عليها من طواغيت البشر فلا علاقة لذلك بالقضية الأصلية وهى رفض هذا المنهج وعدم مشايعة سدنته بقول أو عمل والله هو الهادى لسبيل الرشاد ولصالح القول والعمل أهـ.

من فتاوى أئمة المسلمين فى علمانية التشريع

الإمام أبو بكر الجصاص:

يقول فى أحكام القرآن فى تفسير قوله تعالى: **﴿فلاوربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾**(وفى هذه دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى أو أوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع عن التسليم وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة فى حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبى ﷺ قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان)[١].

قال ابن تيمية

(والإنسان متى أحل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أوبدل الشرع المجمع عليه كان كافراً مرتداً باتفاق الفقهاء)[٢].

وقال ابن تيمية، رحمه الله تعالى فى موضع آخر: حول معنى قوله تعالى **﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**، حيث قال: (ولاريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فإنه ما من أمة إلا وهى تُؤْمَر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل فى دينها ما رآه أكابرهم، بل كثيرمنهم من المنتسبين إلى الإسلام، يحكمون بعاداتهم التى لم ينزلها الله، كسواليف البادية. ويرون أن هذا هو الذى ينبغى الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر، فإن كثيرا من الناس

---

* نقلا من «أصول الإيمان» المقرر على طلبة كلية الدراسات الإسلامية بالجامعة الأمريكية المفتوحة (١/١٤٢:١٤٩)

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٨١)

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٢٦٧)

أسلموا، ولكن لايحكمون إلا بالعادات الجارية التى يأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لايجوز لـهم الحكم إلا بما أنزل الله، فـلم يلتزموا ذلـك، بل استحلوا أن يـحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار)[١].

وفى نفس الموضوع يقول شارح العقيدة الطحاوية: (وهنا أمريجب أن يتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنـزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة، وذلـك بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مـخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر)[٢].

ابن كثير :

قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾[٣].

(ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعـالى المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند مـن شريعة الله، كما كان أهل الجاهـلية يحكمون به مـن الجهالات والضلالات، وكما يحكم به التـتار من السياسات المأخوذة عن جنكيز خـان الذى وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتـاب أحكام قد اقتبسها من شـرائع شتى من اليهودية والنـصرانية والملة الإسلامية، وفيها كـثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فـصارت فى عينهم شرعاً يقدمونها علـى الحكم بالكتاب والسنة، فمن فعل ذلك فهو كـافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلايحكم بسواه فى قليل ولاكثير)[٤].

ويقول فـى البداية والنـهاية[٥]:(فمن ترك الـشرع المحكم المنزل على مـحمد بن عبدالله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه؟! من فعل فقد كفر بإجماع المسلمين).

ويقول أحمد شاكر[٦] تعليقا على كلام ابن كثير السابق: (أقول أفيجوز ـ مع هذا ـ فى شرع الله أن يحكم المسلمون فى بلادهم بتشريـع مقتبس عن تشريعات أوربا الوثنية الملحدة؟ بـل بتشريع تدخلـه الأهواء والاراء الباطلة، يغـيرونه ويبدلونه كـما يشاءون، لايبالى واضعه أوافق شريعة الإسلام أم خالفها؟

(١) منهاج السنة، ومجموعة التوحيد (١٩٣)
(٢) الطحاوية (٣٦٣)
(٣) المائدة : ٥٠
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٧)
(٥) البداية والنهاية (١٣/ ١١٩)
(٦) عمدة التفسير اخيار وتحقيق أحمد شاكر (جـ٤/ ١٧١، ١٧٢)

إن المسلمين لم يبلوا بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم - إلا فى ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التتار، ثم مزجهم، فأدخلهم فى شرعته، وزال أثر ماصنعوا، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم . وبما أن الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه، ولم يعلموه أبناءهم، فما أسرع ما زال أثره.

أفرأيتم هذا الوصف القوى من الحافظ ابن كثير - فى القرن الثامن - لذاك القانون الوضعى، الذى صنعه عدو الإسلام جنكيزخان؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين فى هذا العصر، فى القرن الرابع عشر؟ إلا فى فرق واحد، أشرنا إليه آنفا: أن ذلك كان فى طبقة خاصة من الحكام، أتى عليها الزمن سريعا، فاندمجت فى الأمة الإسلامية وزال أثر ماصنعت.

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا، وأشد ظلما وظلاما منهم، لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج فى هذه القوانين المخالفةللشريعة، والتى هى أشبه شىء بذاك (الياسق» الذى اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر . هذه القوانين التى يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقى هذ(الياسق العصرى) ويحقرون من يخالفهم فى ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم (رجعيا) و(جامدا) إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة.

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقى فى الحكم من التشريع الإسلامي، يريدون تحويله إلى (ياقسهم) الجديد بلهوينا واللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة، وبماملكت أيديهم من السلطات تارات، و يصرحون، ولايستحيون، بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين! أفيجوز إذن - مع هذا - لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد أعنى التشريع الجديد ؟. . .

أو يجوز لرجل مسلم أن يلى القضاء فى ظل هذا (الياسق العصرى) وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة؟ ما أظن أن رجلا مسلما يعرف دينه، ويؤمن به جملة وتفصيلا، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتابا محكما لايأتيه الباطل من بين يديه، ولامن خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذى جاء به واجبة قطعية الوجوب فى كل حال - ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولامتأول، بأن ولاية القضاء فى هذه الحال باطلة بطلانا أصليا، لايلحقه التصحيح ولا الإجازة؟

إن الأمر فى هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هى كفر بواح، لاخفاء فيه ولامداراة ، ولاعذر لاحد ممن ينتسب للإسلام - كائنامن كان - فى العمل بها، أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر كلٌ امرؤ لنفسه،وكلٌ امرىء حسيب نفسه)

٣- ويقول **أحمد شاكر** أيضاً فيمن ينكرون حد السرقة: (هذا حكم الله فى السارق والسارقة، قاطع صريح اللفظ والمعنى، لايحتمل أى شك فى الثبوت ولا فى الدلالة . وهذا حكم رسول الله تنفيذا لحكم الله وطاعة أمره، فى الرجال والنساء ،وقطع اليد، لاشك فيه، حتى ليقول ﷺ«لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

فانظروا إلى ما فعل بنا أعداؤنا المبشرون المستعمرون؟ لعبوا بديننا، وضربوا علينا قوانين وثنية ملعونة، نسخوا بها حكم الله وحكم رسوله، ثم ربوا فينا ناسا ينسبون إلينا، أشربوا فى قلوبهم بغض هذا الحكم، ووضعوا على ألسنتهم كلمة الكفر: إن هذا حكم قاس لايناسب هذا العصر الماجن، عصر المدنية المتهتكة. وجعلوا هذا الحكم موضوع سخريتهم وتندرهم فكان عن هذا أن امتلأت السجون - فى بلادنا وحدها - بمئات الألوف من اللصوص، بما وضعوا فى القوانين من عقوبات للسرقة، ليست برادعة، ولن تكون أبداً رادعة، ولن تكون أبداً علاجا لهذا الداء المستشرى.

ثم أدخلوا فى عقول الطبقة المثقفة، وخاصة القائمين على هذه القوانين الوثنية مايسمونه (علم النفس)، وهو ليس بعلم ولا شبيه به، بل هو أهواء متناقضة متباينة، لكل إمام من أئمة الكفر فى هذا العلم رأى ينقض رأى مخالفه، ثم جاءوا فى التطبيق يلتمسون الأعذار من علم النفس لكل لص بحبسه. ثم زاد الأمر شراً أن يكتب اللصوص أنفسهم كلاماً يلتمسون به الأعذار لجرمهم، وقام المدافعون عنهم المقامات التى توردهم النار: يعلمون أن الجريمة ثابتة، فلايحاولون إنكارها، بل يحاولون التهوين من شأنها بدراسة نفسية المجرم وظروفه!!

ولقد جادلت منهم رجالا كثيرا من أساطينهم، فليس عندهم إلا أن حكم القرآن فى هذا لايناسب العصر!! وأن المجرم إن هو إلا مريض يجب علاجه لاعقابه، ثم ينسون قول الله سبحانه فى هذا الحكم ﴿**جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ**﴾ هذه العقوبة للتنكيل بالسارقين، نصا قاطعا صريحا، فأين يذهب هؤلاء الناس؟

المسألة عندنا - نحن المسلمين - هى من صميم العقيدة، ومن صميم الإيمان، فهؤلاء

(١) المائدة: ٣٨.

* يعنى المنصورن.

المتنسبون إلى الإسلام ، المنكرون حد القطع أو الراغبون عنه، سنسألهم : أتؤمنون بالله، وبأنه خلق هذا الخلق؟ فسيقولون: نعم. أفتؤمنون بأنه يعلم ماكان و ما يكون، وبأنه أعلم بخلقه من أنفسهم، وبما يصلحهم وبما يضرهم؟ فسيقولون نعم. أفتؤمنون بأنه أرسل رسوله محمد بالهدى ودين الحق، وأنزل عليه هذا القرآن من لدنه هدى للناس وإصلاحا لهم في دينهم ودنياهم؟ فسيقولون: نعم أفتؤمون بأن هذه الآية بعينها﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾من القرآن؟ فسيقولون: نعم .إذن فأنى تصرفون؟ وعلى أى شرع تقومون؟ أما من أجاب ـ ممن يتنسب للإسلام ـ على أى سؤال من هذه السؤالات بأن : لا، فقد فرغنا منه وعرفنا مصيره. وقد أيقن كل مسلم من عالم أو جاهل، مثقف أو أمى، أن من يقول فى شىء من هذا : لا، فقد خرج من الإسلام وتردى فى حمأة الردة. وأما من عدا المسلمين، ومن عدا المنتسبين للإسلام، فلن نجادلهم فى هذا، ولن نسايرهم فى الحديث عنه، إذ لم يؤمنوا بمثل ما آمنا، ولن يرضوا عنا أبدا إلا أن نقول مثل قولهم وعياذا بالله من ذلك.

ولو عقل هؤلاء ـ الذين ينتسبون للإسلام ـ لعلموا أن بضعة أيد من أيدى السارقين، لو قطعت كل عام، لنجت البلاد من سبة اللصوص، ولما وقع كل عام إلا بضع سرقات، كالشىء النادر، ولخلت السجون من مئات الألوف التى تجعل السجون مدارس حقيقية للتفنن فى الجرائم. أو عقلوا لفعلوا . ولكنهم يصرون على باطلهم، ليرضى عنهم سادتهم ومعلموهم وهيهات) أهـ.

قال ابن القيم[١] : والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفر الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً ـ مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة ـ فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه مخير فيه ـ مع تيقنه أنه حكم الله ـ فهذا كفر أكبر،وإن جهله أو أخطأ، فهذا مخطىء له حكم المخطئين أهـ.

النسفى:

ويقول النسفى فى تفسير قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[٢] إن

(١) مدراج السالكين (١/ ٣٣٧)

(٢) الأحزاب : ٣٥.

كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق .

مصطفى صبرى «شيخ الإسلام فى الدولةالعثمانية

فصل الدين عن الدولة ارتداد عن الإسلام من الحكومة أولا ومن الأمة ثانياً، وإن لم يكن ارتداد الداخلين فى حوزة تلك الحكومة باعتبارهم أفراداً فباعتبارهم جماعة وهو أقصر طريق إلى الكفر من ارتداد الأفراد، بل إنه يتضمن ارتداد الأفراد أيضاً لقبولهم الطاعة لتلك الحكومة المرتدة.

محمد الأمين الشنقيطى:

ويقول الشنقيطى: وبهذه النصوص السماوية التى ذكرنا، يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التى شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله، أنه لايشك فى كفرهم وشركهم إلامن طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحى مثلهم)

ويقول فى موضع آخر: (وأما النظام الشرعى المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السماوات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى فى الميراث ليس بإنصاف بل يلزم استواؤهما فى الميراث، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوها أعمال وحشية لايسوغ فعلها بالإنسان ونحو ذلك.. فتحكيم هذا النوع من النظام فى أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كفر بخالق السماوات والأرض وتمرد على نظام السماء الذى وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علوا كبيرا﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾(١).

محمد بن إبراهيم آل الشيخ:

(إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين»

ثم أخذ يعدد أنواع الحكم بغير ما أنزل الله التى تخرج من الملة فقال:

(١) أضواء البيان.

(من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي، كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني، أو غير ذلك من مذاهب الكفار، وأي كفر فوق هذا الكفر وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة؟)[1].

قلت: تقدم هذا في موضع قريب، وكررناه هنا للمناسبة.

محمد حامد الفقي ذكر في تعليقه على كتاب فتح المجيد معقباً على كلام ابن كثير في قوله تعالى ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون...**﴾ الآية.

(ومثل هذا وشر منه من اتخذ كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله، ولاينفعه أي اسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها)[2].

قلت: وتقدم هذا في موضع قريب ، ووضعناه هنا للمناسبة.

أحمد شاكر:

(إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح لا خفاء فيه ولامداورة، ولاعذر لأحد ممن ينتسب إلى الإسلام كائناً من كان في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرىء حسيب نفسه)[3].

قلت: وتقدم هذا في موضع قريب، ووضعناه هنا للمناسبة

عبدالعزيز بن باز:

ويقول الشيخ عبدالعزيز بن باز في معرض نقده لدعوة القومية العربية: (إن الدعوة إليها والتكتل حول رايتها يفضي بالمجتمع ولابد إلى رفض حكم القرآن، لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاما وضعية تخالف حكم القرآن، حتى يستوي مجتمع القومية في تلك الأحكام، وقد صرح الكثير منهم بذلك كما سلف، وهذاهو الفساد العظيم والكفر المستبين والردة السافرة كما

---

(١) رسالة تحكيم القوانين : ١، ٧

(٢) فتح المجيد (٤٠٦)

(٣) عمده التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٤/ ١٧٤.

قال تعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ وقال تعالى: ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ وقال تعالى ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ وقال تعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾

وكل دولة لاتحكم بشرع الله، ولاتنصاع لحكم الله فهى دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها فى الله حتى تؤمن بالله وحده وتحكم شريعته كما قال عزوجل :﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده﴾(١).

ويقول فى موضع آخر: (وقد أجمع على أن من زعم أن حكم غير الله أحسن من حكم الله، أو أن غير هدى رسول الله ﷺ أحسن من هدى الرسول ﷺ فهو كافر، كما أجمعوا على أن من زعم أنه يجوز لأحد من الناس الخروج على شريعة محمد ﷺ أو تحكيم غيرها فهو كافر ضال، وبما ذكرناه من الأدلة القرآنية، وإجماع أهل العلم يعلم السائل وغيره، أن الذين يدعون إلى الاشتراكية أو إلى الشيوعية أو غيرها من المذاهب الهادمة المناقضة لحكم الإسلام، كفار ضلال أكفر من اليهود والنصارى، لأنهم ملاحدة لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ، ولايجوز أن يجعل أحد منهم خطيبا أو إماما فى مسجد من مساجد المسلمين ولاتصح الصلاة خلفهم، وكل من ساعدهم على ضلالهم، وحسن مايدعون إليه وذم دعاة الإسلام ولمزهم، فهو كافر ضال، حكمه حكم الطائفة الملحدة، التى سار فى ركابها وأيدها فى طلبها، وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين وساعدهم عليهم بأى نوع من أنواع المساعدة، فهو كافر مثلهم.

الكوثرى *

(وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن دين الإسلام جامع لمصلحتى الدنيا

---

(١) فكرة القومية العربية لصالح العبود (٢٦٨).

* والمقصود من إيراد مقالة الكوثرى فى هذا المقام رغم وجود بعض ا لاستدراكات الجوهرية على منهجه بيان أن الأمة كلها على اختلاف طوائفها ومدارسها الفكرية والعقدية تبرأ من نحلة العلمانية وتجمع على خروجها على محكمات الملة وقواطع الشريعة.

(١) مجموع الفتاوى ومقالات متنوعة (١/ ٢٧٤)

والآخرة ولأحكامهما دلالة واضحة لاارتياب فيها، فتكون محاولة فصل الدين عن الدولة كفراً صريحاً منابذاً لإعلاء كلمة الله، وعداءً موجهاً إلى الدين الإسلامى فى صميمه، ويكون هذا الطلب من الطالب إقراراً منه بالأنتباذ والانفصال، فنلزمه بإقراره فنعده عضوا مفصولا عن جماعة المسلمين وشخصاً منفصلاً عن عقيدة أهل الإسلام! فلا تصح مناكحته ولاتحل ذبيحته؛ لأنه ليس من المسلمين ولامن أهل الكتاب!)

محمد الخضر حسين شيخ الأزهر سابقاً.

(أما أن تفعل البلاد الإسلامية مافعلته الدولة الغربية من تجريد السياسة من الدين، فهو رأى لايصدر إلاممن يُكنّ فى صدره أن ليس للدين من سلطان على السياسة، وهذا ما يبثه فئة يريدون أن ينقضوا حقيقة الإسلام من أطرافها، حتى تكون بمقدار غيرها من الديانات الروحية التى فصلها أهلها عن السياسة، ثم يصبغوا هذا المقدار بأى صبغة أرادوا فيذهب الإسلام، فلا القرآن نزل ولا محمد ﷺ بعث! ولا الخلفاء الراشدون جاهدوا فى الله حق جهاده ! ولا الراسخون فى العلم سهروا فى تعرف الأصول من مواردها وانتزاع الأحكام من أصولها!)

يوسف القرضاوى:

(بل إن العلمانى الذى يرفض«مبدأ» تحكيم الشريعة من الأساس، ليس له من الإسلام إلا اسمه، وهو مرتد عن الإسلام بيقين، يجب أن يستتاب وتزاح عنه الشبهة وتقام عليه الحجة، وإلا حكم القضاء عليه بالردة، وجرد من انتمائه إلى الإسلام ، أو سحبت منه«الجنسية الإسلامية» وفرق بينه وبين زوجه وولده، وجرت عليه أحكام المرتدين المارقين فى الحياة وبعد الوفاة)(١).



(١) الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه للقرضاوى: ٧٣، ٧٤.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسيرُ آيَةِ (النُّورِ).

الثانية: تَفْسيرُ آيَةِ (بَراءةٌ).

الثالثة: التَّنْبيهُ عَلَى مَعْنَى العِبادَةِ الَّتى أَنْكَرَهَا عَدىٌّ.

الرابعة: تَمْثيلُ ابنِ عبَّاسٍ بأَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمْثيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ.

قال ابن عثيمين[1].

قوله: «فيه مسائل»

● **الأولى: تفسير اية النور.**

وهى قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾وسبق تفسيرها.

● **والثانية: تفسير آية براءة.**

وهى قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، وقد سبق ذلك.

● **الثالثة : التنبيه على معنى العبادة التى أنكرها عدى.**

لأن العبادة هى التعبد لهم بالطاعة، والتذلل لهم بالركوع والسجود والنذر وما أشبهه، لكن بين ﷺ المراد من عبادتهم بأنها طاعتهم فى تحليل الحرام وتحريم الحلال.

● **الرابعة : تمثيل ابن عباس بأبى بكر وعمر وتمثيل أحمد بسفيان.**

أى: إذا كان أبو بكر وعمر لايمكن أن يعارض قول النبى ﷺ بقولهما؛ فما بالك بمن عارض قول النبى ﷺ بقول من دونهما؟! فهو أشد وأقبح، وكذلك مثل الإمام أحمد بسفيان الثورى وأنكر على من أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله ﷺ واستدل بقوله تعالى﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾الآية.

---

(١) القول المفيد (٢/ ٣٣٠)

الخامسة: تَحَوُّلُ الأَحْوَالِ إلى هَذه الغَايَة، حتَّى صَارَ عِنْدَ الأكْثَرِ عِبَادَةُ الرُّهْبَانِ هِيَ أفْضَلُ الأعْمَالِ، وتُسَمَّى الوِلايَةُ، وَعِبَادةُ الأحْبَارِ هِيَ العِلْمُ وَالفِقْهُ، ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الأَحْوالُ إلى أنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ الله مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالحِينَ، وَعُبِدَ بِالمَعْنَى الثَّاني مَنْ هُوَ مِنَ الجَاهِلِينَ.

● **الخامسة:** تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة . . . إلخ.

قال سليمان آل الشيخ(١).

قوله: صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، يشير إلى ما يعتقده كثير من الناس فيمن ينتسب إلى الولاية من الضر والنفع، والعطاء والمنع، ويسمون ذلك الولايةوالسر ونحو ذلك وهو الشرك.

قوله: وعبادة الأحبار هي العلم والفقة أى: هى التى تسمى اليوم العلم والفقه المؤلف على مذاهب الأئمة ونحوهم، فيطيعونهم فى كل مايطيعوك سواء وافق حكم الله أم خالفه، بل لايعبأون بماخالف ذلك من كتاب وسنة، بل يردون كلام الله وكلام رسوله لأقوال من قلدوه، ويصرحون بأنه لايحل العمل بكتاب ولاسنّة، وأنه لايجوز تلقى العلم والهدى منهما، وإنما العلم والفقه والهدى عندهم هو ماوجدوه فى هذه الكتب. بل أعظم من ذلك وأطم رمى كثير منهم كلام الله وكلام رسوله بأنه لايفيد العلم ولا اليقين، فى باب معرفة أسماء الله وصفاته وتوحيده. ويسمونها ظواهر لفظية، ويسمون ما وضعه الفلاسفة المشركون القواطع العقلية، ثم يقدمونها فى باب الأسماء والصفات والتوحيد على ماجاء من عند الله، ثم يرمون من خرج عن عبادة الأحبار والرهبان إلى طاعة رب العالمين،وطاعة رسوله وتحكيم ماأنزل الله فى موارد النزاع بالبدعة أو الكفر.

وقوله: ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وذلك كاعتقادهم فى كثير ممن ينتسب إلى الولاية من الفساق والمجاذيب.

وقوله: وعبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين، وذلك كاعتقادهم العلم فى أناس من جهلة المقلدين فيحسنون لهم البدع والشرك فيطيعونهم، ويظنون أنهم أعلماء مصلحون: ﴿ **أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ** ﴾ اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٦ ـ٤١٧)

قال ابن عثيمين (١):يقول المؤلف رحمه الله تعالى : تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال.. وهذا لاشك أنه أشد من معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبى بكر وعمر، ثم قال:«ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين»؛أى :يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب،ويوصف بمالا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لايستحقون أن يكونوا بمنزلة أبى بكر وعمر.

ثم قال: «وعبد بالمعنى الثانى»: وهو الطاعة والاتباع من هو من الجاهلين؛ فأطيع الجاهل فى تحليل ماحرم الله وتحريم ما أحل الله، مـا يوجد فى بعض النظم والقوانين المخالفة للشريعة الإسلامية؛ فإن واضعيها جهال لايعرفون من الشريعة ولا الأديان شيئاً، فصاروا يعبدون بهذا المعنى ، فيطاعون فى تحليل ماحرم الله وتحريم ما أحل الله.

وهذا فى زمان المؤلف؛ فكيف بزماننا؟! وقد قال النبى ﷺ فيما رواه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى ﷺ؛ أنه قال :«**لايأتى زمان على الناس إلا وما بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم**»(٢)،وقال النبى ﷺ للصحابة:«**ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً**»(٣)، وعصرالصحابة أقرب إلى الهدى من عصر من بعدهم.

والناس لايحسون بالتغير؛ لأن الأمور تأتى رويداً رويداً، ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء؛ لوجد التغير الكثير المزعج ـ نسأل الله السلامة ـ ، فعلينا الحذر، أن نعلم أن شرع الله يجب أن يحمى وأن يصان، ولايطاع أحد فى تحليل ماحرم الله أو تحريم ما أحل الله أبداً مهما كانت منزلته، وأن الواجب أن نكون عباداً لله ـ عزوجل ـ تذللاً وتعبداً وطاعة.



---

(١) القول المفيد (٢/ ٣٣٢،٣٣٣)

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه من حديث العرباض بن سارية

٣٨ - بَابٌ

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴾[١].

● مناسبة الباب لما قبله:

قال السعدى[٢]: ووجه ما ذكره المصنف ظاهر، فإن الرب والإله هو الذى له الحكم القدرى، والحكم الشرعى، والحكم الجزائى، وهو الذى يؤله ويعبد وحده لا شريك له ويطاع طاعة مطلقة فلا يُعصى بحيث تكون الطاعات كلها تبعًا لطاعته.

فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء على هذا الوجه وجعل طاعتهم هى الأصل وطاعة الله ورسوله تبعاً لها فقد اتخذهم أرباباً من دون الله يتألههم ويتحاكم إليهم ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله، فهذا هو الكفر بعينه فإن الحكم كله لله كما أنّ العبادة كلها لله والواجب على كل أحد أن لا يتخذ غير الله حَكَمًا ، وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله وبذلك يكون دين العبد كله لله وتوحيده خالص لوجه الله.

وكل من حاكم إلى غير حكم الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب.

فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكم الله ورسوله فى أصول الدين وفروعه، وفى كل الحقوق كما ذكره المصنف فى الباب الآخر.

فمن حاكم إلى غير الله ورسوله فقد اتخذ ذلك ربًا وقد حاكم إلى طاغوت.. أ.هـ

قال ابن عثيمين[٣]: هذا الباب له صلة قوية بما قبله، لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء والأمراء فى تحليل ما حرم الله. أو تحريم ما أحل الله، وهذا فيه الإنكار على من أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله .اهـ

---

(١) النساء/ ٦٠.

(٢) القول السديد (١٠١: ١٠٤).

(٣) القول المفيد (٢/ ٣٣٤)

● **مناسبة الباب لكتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[1]: لما كان التـوحيد الذى هو معنـى شهادة أن لا إله الله مشتملاً على الإيمان بالرسول ﷺ، مستلزمًـا له، وذلك هو الشهادتان ، ولهذا جعلهما النبيﷺ ركنًا واحدًا فى قوله: «**بُنِيَ الإِسْـلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَـهَادَةُ أَنَّ لا إِلَهَ إلا الله، وأَنَّ مُحَمدًا رَسُولُ الله ، وإِقَامِ الصَّلاة، وإِيتَـاء الزَّكاة والحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»[1] نبه فى هذا الباب ما تضمنه التوحيد، واستلزمه من تحكيم الرسول ﷺ فى موارد النزاع، إذ هذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، ولازمها الذى لابـد منه لكل مؤمن، فإن من عرف أن لا إله إلا الله فلابد من الانقياد لحكم الله والتسليم لأمره، الذى جاء مـن عنده على يد رسوله محمد ﷺ فمن شهد أن لا إله إلا الله ، ثـم عدل إلى تحكيم غير الرسول ﷺ فى موارد النزاع فقد كذب فى شهادته.

وإن شئت قلت: لمـا كان التوحيد مبنيًا عـلى الشهادتين، إذ لا تنفـك إحداهما عن الأخرى لتلازمهما، وكان ما تقدم من هذا الكتاب فى معنى شهادة أن لا إله إلا الله التى تتضمن حق الله على عباده، نبه فى هذا الباب على معنى شهادة أن محمدًا رسول الله ، التى تتضمن حق الرسول ﷺ فإنها تتضمن أنه عبد لا يُعبد، ورسول صادق لا يكذب، بل يطاع ويتبع، لأنه المـبلغ عن الله تعالى، فله عليه الصلاة والـسلام منصب الرسالة والتبلـيغ عن الله والحكم بين الـناس فيما اختلـفوا فيه، إذ هو لا يحكـم إلا بحكم الله ومحبته على النفس ، والأهل والمال والوطن، وليس له من الإلهية شىء، بل هو عبدالله ورسوله كما قال تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا**﴾.

وقال ﷺ: «**إِنَّما أنا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ الله ورَسُولُهُ**»[3]ومن لوازم ذلك متابعته وتحكيمه فى موارد الـنزاع، وترك التـحاكم إلى غـيره كالمنـافقين، الـذين يدعون الإيـمان به، ويتحاكمون إلى غيره، وبهذا يتحقق العبد بكمال التوحيد وكمال المتابعة وذلك هو كمال سعادته، وهو معنى الشهادتين . اهـ.

قوله تعالى ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾ الآية

● **مناسبة الآية للباب:**

وقال القرعاوى[4]: حيث دلت الآيـة على تكذيب من ادعى الإيـمان بما أنزل الله ثم تحاكم إلى غيره اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٧).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) الجديد (٣٤٠).

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

قال القرعاوى[1]: حيث أنكرت الآية على من لم يقم بلازم شهادة أن لا إله إلا الله، وهو الإيمان بحكم رسول الله ﷺ المقتضى العمل بشرعيته .اهـ.

● **ماذا أراد المصنف بهذا الباب:**

قال حامد بن محمد[2]: باب في بيان أن من آمن بالله ورسوله وما أنزل إليه حقًا وصدقًا لم يتحاكم إلى الطاغوت، ومن تحاكم إليهم من الكهنة والسحرة وأشباههم مطمئنًا بهم مصدقًا قولهم فليس بمؤمن، ويدل على ذلك الآية، وذلك لزعمه أن حكم الطاغوت أصلح، ولا يعلم المطبع على قلبه أن غير الحق هو الإفساد ويدل عليه - الآية الثانية في الباب- وذلك لأنه رغب عن حكم الإسلام الذى ارتضاه الله في آخر الزمان، وبغى حكم الجاهلية ويدل عليه الآية الثالثة في الباب . . .اهـ.

وقال ابن باز[3]: أراد المؤلف بيان التحذير من التحاكم إلى غير الله، وأن الواجب التحاكم إلى شريعة الله في كل الأمور.

ثم قال: فهذه الآية تدل على وجوب التحاكم إلى شرع الله ، وأنه لا يجوز التحاكم إلى غيره كائنًا من كان، وهذا أصل مجمع عليه، اهـ.

تنبيه: قبل الشروع في التفسير نلفت النظر إلى اختلاف شراح التوحيد في إتمام الآيات أو الاقتصار٨ على آية معينة دون أخرى.

(أولاً): سليمان آل الشيخ: ذكر الآيات من (٦٠: ٦٥) من سورة النساء

(ثانياً): حامد بن محمد بن حسن: ذكر الآيتين (٥٩: ٦٠).

(ثالثاً): عبدالرحمن آل الشيخ: ذكر الآيتين رقم (٦٠: ٦١).

(رابعاً): ناصر السعدى: ذكر الآية رقم (٦٠) فقط، ثم قال: الآيات.

(خامساً): عبدالله بن جار الله: ذكر الآية رقم (٦٠) فقط.

(سادساً): عبدالعزيز بن باز: ذكر الآيتين (٦٠: ٦١).

(سابعا): ابن عثيمين: ذكر الايتين (٦٠: ٦١).

---

(١) الجديد (٣٤٠).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٩).

(٣) التعليق المفيد (١٩٩).

(ثامناً): محمد بن عبدالعزيز القرعاوى: ذكر الآية رقم (٦٠) فقط.

قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾

الإعراب[(١)]: كلام مستأنف مسوق لبيان مكـان التعجب من حال هؤلاء الذين ادعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا بين الإيمان بما أنزل عـلى رسول الله وهو القرآن وما أنزل على من قبله من الأنبياء فجاءوا بما يناقض هـذه الدعوى ويطيح بها من أساسها وهو إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت، فجمعوا بين النقيـضين وألّفوا بين الضدّين. والهمزة للاستفهام التعجبى (ولم) حرف نفى وقلب وجزم و(تر) فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف الـعلة والفـاعل ضمير مـستتر تقـديره أنت والمخاطـب هو رسول الله ﷺ (وإلى الذين) متعلقان بـتر، وقد علق فعل الرؤية إن كانت قبـلية وجملة (يزعمون) صلة الموصول (وأنهم): أن واسمها وجملة (آمنوا) خبرهـا وقد سدّت (أن) واسمها مسدّ مفعولى (يزعمون) (وبما) جار ومجرور متعلقان (بآمنوا) (وأنزل) فعل ماضى مبنى للمجهول والجملة صلة (وإليك) متعلقان (بأنزل). أ.هـ

● **علاقة الآية بالآية التى قبلها:**

- **قال الفخر الرازى**[(٢)]: اعلم أنه تعـالى لما أوجب فى الآية الأولى علـى جميع المكلفيـن أن يطيعوا الله، ويطيعوا الـرسول، ذكر فى هذه الآية أن المنافقـين والذين فى قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول، ولا يرضون بحكمه، وإنما يريدون حكم غيره.ا.هـ.

● **أسباب النزول:**

[**قلت**]: سيذكر المصنـف فى آخر الباب آثرين فى سبب نـزول الآية، وسوف نفصل فى شرحهما هناك فانظرهما. والله المستعان.

عن ابن عباس فى قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ الآية قال «نزلت فى رجل من المنافـقين يقال له بشر، خاصـم يهوديا فدعاه اليهودى إلـى النبى ﷺ، ودعاه المنافق إلى كـعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكـما إلى النبى ﷺ، فقضى للـيهودى فلم يرض المنافق. وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب. فقال اليهودى لعمر: قضى لنا رسول الله ﷺ فلم يـرض بقضائه. فقـال للمنافق: أكـذلك؟! قال: نعم. فقـال عمر: مكانكـما حتى أخرج إليكمـا. فدخل عمر فاشتمـل على سيفه، ثم خرج فـضرب عنق المنافق حتى برد ثم قال: هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله: فنزلت»[(٣)].

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (٢/ ٢٤٤). (٢) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٥٩).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٢٠) ونسبه الثعلبى وسيأتى.

قلت: وهذا الأثر ذكره المصنف فى المتن فى سبب نزول الآية وسيأتى بسط الكلام فيه فى موضعه.

عن ابن عباس قال: كان أبو برزة الأسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين. فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ إلى قوله ﴿إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾(١).

عن ابن عباس قال «كان الجلاس ابن الصامت قبل توبته، ومعتب بن قشير، ورافع بن زيد، وبشير، كانوا يدَّعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين فى خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ فدعوهم إلى الكهان حكام الجاهلية. فأنزل الله فيهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية(٢).

وذكر ابن جرير الطبرى فى سبب نزول الآيات عدة أحاديث بإسناده، من ذلك:

الشعبى فى هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ قال كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فكان المنافق يدعو إلى اليهود لانه يعلم أنهم يقبلون الرشوة وكان اليهودى يدعو إلى المسلمين لانه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جهينة فانزل الله فيه هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾(٣).

[قلت]: وهذا الأثر عن الشعبى ذكره المصنف فى متن الكتاب فى سبب نزول الآية، وسيأتى بسط شرحه فى موضعه إن شاء الله.

- وبسند آخر عنه فى هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فذكر نحوه وزاد فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

---

(١) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١١/ ٣٧٣/ ١٢٠٤٥) عن ابن عباس به.
قال الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ٦): رجاله رجال الصحيح.
وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣١٩) وزاد نسبته لابن أبى حاتم وقال: بسند صحيح.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣١٩) ونسبه لابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.
وانظر «الاتقان» للسيوطى (١٢٢٣ ـ بتخريجنا).

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٥/ ٩٦: ٩٨) وانظر «الدر» (٢/ ٢١٩).

يعنى المنافقين ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعنى اليهود يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت يقول إلى الكاهن ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أمر هذا فى كتابه وأمر هذا فى كتابه أن يكفر بالكاهن(١).

– وعنه قال كانت بين رجل ممن يزعم أنه مسلم وبين رجل من اليهود خصومة فقال اليهودى أحاكمك إلى أهل دينك أو قال إلى النبى لأنه قد علم أن رسول الله ﷺ لا يأخذ الرشوة فى الحكم فاختلفا فاتفقا على أن يأتيا كاهنا فى جهينة قال فنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعنى الذى من الانصار ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعنى اليهودى ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ إلى الكاهن ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ به يعنى أمر هذا فى كتابه وأمر هذا فى كتابه وتلا ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ و قرأ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٢).

– وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: زعم حضرمى أن رجلاً من اليهود كان قد أسلم فكانت بينه وبين رجل من اليهود مدارأة فى حق.

فقال اليهودى له: انطلق إلى نبى الله فعرف أنه سيقضى عليه، قال: فأبى، فانطلقا إلى رجل من الكهان فتحاكما إليه، قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾(٣).

– عن قتادة قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية حتى بلغ ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ذُكر لنا أن هذه الآية نزلت فى رجلين: رجل من الانصار يقال له: بشر. وفى رجل من اليهود، فى مدارأة كانت بينهما فى حق فتدارآ بينهما فيه فتنافرا إلى كاهن بالمدينة يحكم بينهما وتركا نبى الله ﷺ فعاب الله عز وجل ذلك.

وذكر لنا أن اليهودى كان يدعوه إلى النبى ﷺ ليحكم بينهما، وقد علم أن نبى الله ﷺ لن يجور عليه فجعل الأنصارى يأبى عليه وهو يزعم أنه مسلم ويدعوه إلى الكاهن فأنزل الله تبارك وتعالى ما تسمعون، فعاب ذلك على الذى يزعم أنه مسلم وعلى

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق. (٢) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/٣١٩) ونسبه لابن جرير.

اليهودى الذى هو من أهل الكتاب فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله ﴿صُدُودًا﴾.

وعن السدى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ قال: كان ناس من اليهود قد أسلموا، ونافق بعضهم. وكانت قريظة والنضير فى الجاهلية إذا قتل الرجل من بنى النضير قتلته بنوقريظة قتلوا به منهم، فاذا قتل الرجل من نبى قريظة قتلته النضير أعطوا ديته ستين وسقا من تمر فلما أسلم ناس من نبى قريظة والنضير، قتل رجل من بنى النضير رجلاً من بنى قريظة فتحاكموا إلى النبى ﷺ فقال النضيرى: يا رسول الله إنا كنا نعطيهم فى الجاهلية الدية فنحن نعطيهم اليوم ذلك. فقالت قريظة: لا ولكنا إخوانكم فى النسب والدين ودماؤنا مثل دمائكم ولكنكم كنتم تغلبوننا فى الجاهلية، فقد جاء الله بالاسلام فأنزل الله يعيرهم بما فعلوا فقال ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ فعيرهم ثم ذكر قول النضيرى كنا نعطيهم فى الجاهلية ستين وسقاً ونقتل منهم ولا يقتلوننا فقال ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وأخذ النضيرى فقتله بصاحبه فتفاخرت النضير وقريظة فقالت النضير: نحن أكرم منكم. وقالت قريظة: نحن أكرم منكم ودخلوا المدينة إلى أبى برزة الكاهن الاسلمى. فقال المنافق من قريظة والنضير: انطلقوا إلى أبى برزة ينفر بيننا. وقال المسلمون من قريظة والنضير: لابل النبى ﷺ ينفر بيننا، فتعالوا إليه، فأبى المنافقون.

وانطلقوا إلى أبى برزة فسألوه فقال: أعظموا اللقمة. يقول أعظموا الخطر فقالوا: لك عشرة أوساق. قال: لابل مائة وسق ديتى فإنى أخاف أن أنفر النضير تقتلنى قريظة، أو أنفر قريظة فتقتلنى النضير.

فأبوا أن يعطوه فوق عشرة أوساق، وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله عز وجل ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهو أبو برزة وقد أمروا ﴿أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ إلى قوله ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1].

– **وزاد الفخر الرازى**[2] فى أسباب النزول أثر الحسن:

إن رجلاً من المسلمين كان له على رجل من المنافقين حق، فدعاه المنافق إلى وثن كان أهل الجاهلية يتحاكمون إليه، ورجل قائم يترجم الأباطيل عن الوثن، فالمراد بالطاغوت هو ذلك الرجل.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وانظر «الدر» (٢/ ٣١٩).

(٢) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٥٩: ١٦١).

كانوا يتحاكمــون إلى الأوثان، وكان طريقهم أنهم يضربون الـقداح بحضرة الوثن، فما خرج على القداح عملوا به، وعلى هذا القول فالطاغوت هو الوثن.

● **خلاصة القول:**

قال الرازى[(١)]: واعلـم أن المفسريـن اتفقوا عـلى أن هذه الآيـة نزلت فى بـعض المنافقين، ثم قال أبو مسلم: ظاهر الآية يدل عـلى أنه كان منافقاً من أهل الكتاب، مثل زنه كان يهودياً فأظهر الإسلام على سبيل النفاق لأن قوله تعالى ﴿**يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**﴾ إنما يليق بمثل هذا المنافق. اهـ.

ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

- **قال الطبرى**[(٢)]: يعنى بذلك جل ثناؤه ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ يا محمد بقلـبك فتعلم ﴿**إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ**﴾ صدقـوا ﴿**بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾ من الكـتب و﴿**إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا**﴾ و﴿**أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**﴾من الكتب ﴿**يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا**﴾ فى خصومتهم ﴿**إِلَى الطَّاغُوتِ**﴾ يعنى إلى من يعظمونه ويصدرون عن قوله ويرضون بحكمه من دون حكم الله ﴿**وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ**﴾ يقول وقد أمرهم الله أن يكذبوا بما جاءهم بـه الطاغوت الذى يتحاكمون إليه فتـركوا أمر الله واتبعوا أمر الشيطان ﴿**وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا**﴾ يعنى أن الشيـطان يريد أن يصد هؤلاء المتحاكـمين إلى الطاغوت عن سبـيل الحق والهدى فيضلهـم عنها ضلالاً بعيداً يعنى فيجور بهم عنها جوراً شديداً. ا هـ.

وقال ابن الجوزى[(٣)]: والزَّعم والزُّعـم لغتان، وأكثر مـا يستعمل فـى قول ما لا تتحقق صحته وفى ﴿**الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**﴾ **قولان:**

أحدهما: أنه المنافق.

والثانى: إن الذى زعم أنه آمن بما أنزل إليه المنافق، والذى زعم أنه آمن بما أنزل من قبله اليهودى أهـ.

- **وقال الفخر الرازى**[(٤)]: قال الليث: أهل العربية يقولون «زعم فلان» إذا شكوا فيه فلم يـعرفوا أكذب أو صدق، فكذلك تفـسير قوله ﴿**هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ**﴾ أى بقولهم

(١) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٥٩).

(٢) تفسير الطبرى (٤/ ٥/ ٩٦).

(٣) زاد المسير (٢/ ٧٢).

(٤) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٥٩).

الكذب. قال الأصمعي: الزعوم من الغنم التي لا يعرفون أبها شحم أم لا، وقال ابن الأعربي: الزعم يستعمل في الحق، وأنشد لأمية بن الصلت:

وإني أدين لكم أنه   سينجزكم ربكم ما زعم

إذا عرفت هذا فنقول: الذي في هذه الآية المراد به الكذب، لأن الآية نزلت في المنافقين أهـ.

- **وقال القرطبي**(١) بنحوٍ مما تقدم.

- **وقال ابن كثير**(٢): هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله كما ذكر في سبب نزول الآية. أهـ.

- **وقال الشوكاني**:(٣) فيه تعجيب لرسول الله ﷺ من حال هؤلاء الذين ادعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا بين الإيمان بما أنزل على رسول الله وهو القرآن وما أنزل على من قبله من الأنبياء، فجاءوا بما ينقض عليهم هذه الدعوة ويبطلها من أصلها، ويوضح أنهم ليسوا على شيء من ذلك أصلاً وهو إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت، وقد أمروا فيما أنزل على رسول الله وعلى من قبله أن يكفروا به.

- **وقال السعدي**(٤): يُعجّب تعالى عباده من حالة المنافقين ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾

***

قوله [الطاغوت] تقدم الكلام عليه مستفيضاً في أول الكتاب

وقال ابن تيمية(٥):

الطاغوت: فعلوت من الطغيان. كما أن الملكوت فعلوت من الملك، والرحموت والرهبوت، والرغبوت.

والطغيان: مجاوزة الحد، وهو الظلم والبغي. فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارهاً لذلك: طاغوت؛ ولهذا سمى النبي ﷺ الأصنام طواغيت في الحديث الصحيح لما قال: «ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت»، والمطاع في معصية الله، والمطاع اتباع غير الهدى والدين الحق- سواء كان مقبولاً خبره المخالف لكتاب الله أو مطاعاً أمره المخالف لأمر الله- هو طاغوت، ولهذا سمى من تحوكم إليه- من حكم بغير كتاب

(١) تفسير القرطبي (٣/ ١٨٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٢).

(٣) فتح القدير (١/ ٥٧٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٤٨).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠١).

الله- طاغوت، وسمى الله فرعون وعاداً طغـاة وقال فى صيحة ثمود ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ أهـ.

قوله ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾.

قال مقاتل[1]: أن يتبرءوا من الكهنة

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الرازى[2]: مقصـود الكلام إن بعض النـاس أراد أن يتحاكم إلى بـعض أهل الطغيان ولم يرد التحاكم إلى محمد ﷺ.

قال القاضى: ويجب أن يكـون التحاكم إلى هذا الـطاغوت كالكفـر، وعدم الرضا بحكم محمد عليه الصلاة والسلام كفر، ويدل عليه وجوه:

الأول: إنه تعالى قال ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ فجعل التحاكم إلى الطاغوت يكون إيماناً به، ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفر بالله، كما أن الكفر بالطاغوت إيمان بالله.

الثاني: قوله تعالى ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ إلى قوله ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

وهذا نص فى تكفير من لم يرض بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام.

الثالث: **قوله تـعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** وهذا يدل على أن مخالفته معصية عظيمة.

وفى هذه الآيـات دلائل على أن مـن رد شيئاً من أوامـر الله أو أوامر الرسول عـليه الصلاة والسلام فهو خارج عن الإسلام، سواء رده مـن جهة الشك أو من جهة التمرد، وذلك يوجب صحة ما ذهبت الصحابة إليه من الحكم بارتداد مانعى الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم ا.هـ.

قال السعدى[3]: **« الطاغوت» وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت ا.هـ.**

قال الشنقيطى[4]:- وقد أوضح تـعالى هذا المفهـوم موبخاً للمـتحاكمين إلـى غير كتاب الله وسنه نبيه ﷺ مبيناً أن الشيطان أضلهم ضلالاً بعيداً عن الحق بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ

(١) زاد المسير ٢/ ٧٢.
(٢) التفسير الكبير ٥/ ١٠/ ١٦٠ و ١٦١.
(٣) تيسيرالكريم الرحمن ١/ ٣٤٨.
(٤) أضواء البيان ١/ ٣٦١.

إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾.

وأشار إلى أنه لا يؤمن أحد حتى يكفر بالطاغوت بقوله ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾(1).

ومفهوم الشرط أن من لم يكفر بالطاغوت لم يستمسك بالعروة الوثقى وهو كذلك ومن لم يستمسك بالعروة الوثقى فهو بمعزل عن الايمان لأن الإيمان بالله هو العروة الوثقى، والإيمان بالطاغوت يستحيل إجتماعه مع الإيمان بالله لأن الكفر بالطاغوت شرط فى الإيمان بالله أو ركن منه كما هو صريح قوله ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ الآية.

قال صاحب الظلال(2): وهذا الدرس يتولى بيان هذا النظام الأساسى، قائماً ومنبثقاً من التصور الإسلامى لشرط الإيمان وحدّ الإسلام!

إنه يتولى تحديد الجهة التى تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها؛ والطريقة التى تتلقى بها؛ والمنهج الذى تفهم به ما تتلقى، وترد إليه ما يجدّ من مشكلات وأقضية لم يرد فيها نص وتختلف الأفهام فيها؛ والسلطة التى تطيعها وعلة طاعتها ومصدر سلطانها.. ويقول: إن هذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام.

وعندئذ يلتقى «النظام الأساسى» لهذه الأمة؛ بالعقيدة التى تؤمن بها.. فى وحدة لا تتجزأ؛ ولا تفترق عناصرها..

وهذا هو الموضوع الخطير الذى يجلوه هذا الدرس جلاء دقيقاً كاملاً.. وهذه هى القضية التى تبدو، بعد مطالعة هذا الدرس، بديهية يعجب الإنسان كيف يجادل «مسلم» فيها!

إنه يقول للأمة المسلمة: إن الرسل أرسلت لتطاع- بإذن الله- لا لمجرد الإبلاغ والإقناع:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾..

ويقول لها: إن الناس لا يؤمنون- ابتداء- إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله؛ ممثلاً- فى حياة الرسول ﷺ- فى أحكام الرسول. وباقياً بعده فى مصدريه القرآن والسنة بالبداهة؛

(1) البقرة: ٢٥٦

(2) فى ظلال التفسير ٦٨٦/٢-٦٨٨، ٦٩٣.

ولا يكفى أن يتحاكموا إليه- ليحسبوا مؤمنين- بل لابد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين:

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.. فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام.

ويقول لها: إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت- أى إلى غير شريعة الله- لا يقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله. فهو زعم كاذب. يكذبه أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾.

ويقول لها: إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل الله والتحاكم إلى رسول الله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾.

ويقول لها: إن منهجها الإيمانى ونظامها الأساسى، أن تطيع الله- عز وجل- فى هذا القرآن- وأن تطيع رسول الله- ﷺ- فى سننه- وأولى الأمر من المؤمنين الداخلين فى شرط الإيمان وحد الإسلام معكم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾.

ويقول لها: إن المرجع، فيما تختلف فيه وجهات النظر فى المسائل الطارئة المتجددة. والأقضية التى لم ترد فيها أحكام نصية.. أن المرجع هو الله ورسوله.. أى شريعة الله وسنة رسوله:

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾..

وبهذا يبقى المنهج الربانى مهيمناً على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك، أبد الدهر، فى حياة الأمة المسلمة.. وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسى، الذى لا تكون مؤمنة إلا به، ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه.. إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك، ورد المسائل التى تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى الله ورسوله.. شرط الإيمان وحد الإسلام.. شرطاً واضحاً ونصاً صريحاً:

﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾..

ولا ننس ما سبق بيانه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.. من أن اليهود وصموا بالشرك بالله، لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم أرباباً من دون الله- لا لأنهم عبدوهم- ولكن لأنهم قبلوا منهم التحليل والتحريم؛ ومنحوهم حق الحاكمية والتشريع- ابتداء من عند أنفسهم- فجعلوا بذلك مشركين.. الشرك الذى يغفر الله كل ما عداه. حتى الكبائر.. «وإن زنى وإن سرق. وإن شرب الخمر».. فرد الأمر كله إلى إفراد الله- سبحانه- بالألوهية. ومن ثم إفراده بالحاكمية. فهى أخص خصائص الألوهية. وداخل هذا النطاق يبقى المسلم مسلماً ويبقى المؤمن مؤمناً. ويطمع أن يغفر له ذنوبه ومنها كبائره.. أما خارج هذا النطاق فهو الشرك الذى لا يغفره الله أبداً.. إذ هو شرط الإيمان وحد الإسلام. ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

هذا هو الموضوع الخطير الذى يتناوله هذا الدرس.

إن هذا التصوير لهذه المجموعة التى تصفها النصوص، يوحى بأن هذا كان فى أوائل العهد بالهجرة. يوم كان للنفاق صولة؛ وكان لليهود- الذين يتبادلون التعاون مع المنافقين- قوة..

وهؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله- إلى الطاغوت- قد يكونون جماعة من المنافقين- كما صرح بوصفهم فى الآية الثانية من هذه المجموعة- وقد يكونون جماعة من اليهود الذين كانوا يُدعَوْن- حين تجدّ لهم أقضية مع بعضهم البعض أو أهل المدينة- إلى التحاكم إلى كتاب الله فيها.. التوراة أحياناً، وإلى حكم الرسول أحياناً- كما وقع فى بعض الأقضية- فيرفضون ويتحاكمون إلى العرف الجاهلى الذى كان سائداً.. ولكننا نرجح الفرض الأول لقوله فيهم: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.. واليهود لم يكونوا يسلمون أو يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول. إنما كان المنافقون هم الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله كما هو مقتضى العقيدة الإسلامية من الإيمان بالرسل كلهم.

وهذا لم يكن يقع إلا فى السنوات الأولى للهجرة. قبل أن تخضد شوكة اليهود فى بنى قريظة وفى خيبر. وقبل أن يتضاءل شأن المنافقين بانتهاء شأن اليهود فى المدينة!!. هـ.

قوله ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾.

الإعراب[1] : الواو عاطفة ويريد الشيطان عطف على يريدون وأن يضلهم مصدر مؤول مفعول يريد وضلالاً مفعول مطلق وبعيداً صفة.

● التفسير بالقرآن

كما قال الله تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾

وقال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ والآيات كثيرة في عداوة الشيطان

● ما جاء في تفسير الآية من كلام السلف والمفسرين:

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: إنما سمى الشيطان؛ لأنه تشيطن[2]. أهـ.

قال ابن جرير: يعني أن الشيطان يريد أن يصد هؤلاء المتحاكمين إلى الطاغوت عن سبيل الحق فيضلهم ضلالاً بعيداً أ.هـ[3].

قال ابن الجوزي[4]: ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ الطويل أ.هـ.

- **وقال القرطبي**:[5] ﴿ضَلَالًا﴾ على المعنى، أي فيضلون ضلالاً، ومثله قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾.

وقال الشوكاني[6]: ﴿ضَلَالًا﴾ مصدر الفعل، أو مصدر لفعل محذوف دل عليه الفعل المذكور، والتقدير: ويريد الشيطان أن يضلهم فيضلون ضلالاً. أهـ.

قال ناصر السعدي[7] ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً عن الحق.

قال صاحب الظلال»[8]: فهذه هي العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت. وهذا هو الدافع الذي يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم

(١) إعراب القرآن ٢/ ٢٤٥.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٩٩٢)

(٣) تفسير الطبري (٥/ ١٠/ ٩٨).

(٤) زاد المسير/ ٧٢.

(٥) تفسير القرطبي (٣/ ١٨٣٤) .(٦) فتح القدير (١/ ٥٧٣)

(٧) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٤٨ . (٨) ٢/ ٩٦٤.

التحاكم إلى الطاغوت! هـذا هو الدافع يكشفه لهم. لعلهم يتنبهـون فيرجعوا. ويكشفه للجماعة المسلمة، لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك أ. هـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[1]: وقوله: ﴿**وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً**﴾

أى: لأن إرادة التحاكم إلى غير كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ من طاعة الشيطان، وهو إنما يدعو أحزابه ليكونوا من أصحاب السعير. وفى الآية دليل على أن ترك التحاكم إلى الطاغوت، الـذى هو ما سوى الكتاب والـسنَّة، من الفرائض وأن الـتحاكم[*] إليه غير مؤمن بل ولا مسلم ا.هـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: ﴿**وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ**﴾

جنس يشمل شياطين الإنس والجن.

قوله: ﴿**أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً**﴾

أى: يوقعهم فى الضـلال البعيد عن الحق، ولكن لا يلزم من ذلـك أن ينقلهم إلى الباطل مرة واحدة، ولكن بالتدرج.

فقوله: ﴿**بَعِيداً**﴾.

أى: ليس قريباً، لكن بالتدريج شيئاً فشيئاً حتى يوقعهم فى الضلال البعيد.

قوله ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً**﴾.

الإعراب[3]:- ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ**﴾

كلام مستأنف مسوق لتكملة مادة التـعجب من حالهم. والواو استئنافية و(**إذا**) ظرف مستقبـل متضمن معنى الـشرط متعلّق بالجواب وهـو رأيت وجملة (**قيل**) فى محـل جر بالإضافة و(**لهم**) متعلقان بقيل وجملة (**تعالوا**) مقول القول و(**إلى ما أنزل الله**) متعلقان بتعالوا وجملة(**أنزل الله**) صلة الموصول و(**إلى الرسول**) عطف على قوله: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**

(1) تيسير العزيز الحميد ٤١٩.

(*) لعل الأصح «المتحاكم» والله أعلم.

(2) القول المفيد ٢/ ٣٣٥، ٣٣٦.

(3) إعراب القرآن ٢/ ٢٤٦.

﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ (رأيت) فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم و(المنافقين) مفعول به وجملة يصدون حالية إن كانت الرؤية بصرية أو مفعول به تارة إن كانت الرؤية قلبية و(عنك) متعلقان بيصدون و(صدوداً) مفعول مطلق.

علاقة هذه الآية بما قبلها:

قال الرازي[1]: اعلم أن فى اتصال هذه الآية بما قبلها وجهين.

الأول: أن قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ كلام وقع فى البين، وما قبل هذه الآية متصل بما بعدها هكذا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ يعنى أنهم فى أول الأمر يصدون عنك أشد الصدود، ثم بعد ذلك يجيئونك ويحلفون بالله كذبًا على أنهم ما أرادوا بذلك الصد إلا الإحسان والتوفيق، وعلى هذا التقدير يكون النظم متصلاً، وتلك الآية وقعت فى البين كالكلام الأجنبى، وهذا يسمى اعتراضًا، وهو كقول الشاعر:

إن الثمانين وبلغتها   قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

فقوله: وبلغتها، كلام أجنبى وقع فى البين، إلا أن هذا الكلام الأجنبى شرطه أن يكون له من بعض الوجوه تعلق بذلك المقصود كما فى هذا البيت، فإن قوله: بلغتها دعاء للمخاطب وتلطف فى القول معه، والآية أيضًا كذلك، لأن أول الآية وآخرها فى شرح قبائح المنافقين وفضائحهم وأنواع كيدهم ومكرهم، فإن الآية أخبرت بأنه تعالى حكى عنهم فى أول الآية أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت مع أنهم أمروا بالكفر به، ويصدون عن الرسول مع أنهم أمروا بطاعته، فذكر بعد هذا ما يدل على شدة الأحوال عليهم بسبب هذه الأعمال السيئة فى الدنيا والآخرة فقال ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أى فكيف حال تلك الشدة، وحال تلك المصيبة، فهذا تقرير هذا القول، وهو قول الحسن البصرى، واختيار الواحدى من المتأخرين.

الوجه الثانى: أنه كلام متصل بما قبله، وتقريره أنه تعالى لما حكى عنهم فى الآية المتقدمة أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويفرون من الرسول عليه الصلاة والسلام أشد

(١) التفسير الكبير ٥/ ١٠/١٦٢، ١٦٣.

الفرار دل ذلك على شدة نفرتهم من الحضور عند الرسول والقرب منه، فلما ذكر ذلك قال ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى إذا كانت نفرتهم من الحضور عند الرسول فى أوقات السلامة هكذا، فكيف يكون حالهم فى شدة الغم والحسرة إذا أتوا بجناية خافوا بسببها منك، ثم جاؤك شاؤا أم أبوا ويحلفون بالله على سبيل الكذب: أنا ما أردنا بتلك الجناية إلا الخير والمصلحة، والغرض من هذا الكلام بيان أن ما فى قلبهم من النفرة عن الرسول لا غاية له، سواء غابوا أم حضروا، وسواء بعدوا أم قربوا، ثم أنه تعالى أكد هذا المعنى بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ والمعنى أن من أراد المبالغة فى شيء قال: هذا شيء لا يعلمه إلا الله يعنى أنه لكثرته وقوته لا يقدر أحد على معرفته إلا الله تعالى، ثم لما عرف الرسول عليه الصلاة والسلام شدة بغضهم ونهاية عداوتهم ونفرتهم أعلمه أنه كيف يعاملهم فقال ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ وهذا الكلام على ما قررناه منتظم حسن الاتساق لا حاجة فيه إلى شيء من الحذف والإضمار، ومن طالع كتب التفسير علم أن المتقدمين والمتأخرين كيف اضطربوا فيه والله أعلم.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام السلف

عن عطاء: فى قوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾ قال: الصدود الإعراض[(1)].

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير[(2)]: يعنى بذلك جل ثناؤه ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من المنافقين وإلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما ﴿أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من أهل الكتاب ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعنى بذلك وإذا قيل لهم تعالوا هلموا إلى حكم الله الذى أنزله فى كتابه ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ ليحكم بيننا ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ﴾ يعنى بذلك يمتنعون من المصير إليك لتحكم بينهم ويمنعون من المصير إليك كذلك غيرهم ﴿صُدُوداً﴾ وقال ابن

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٥٨٣) ونسبه لابن المنذر.
(٢) تفسير الطبرى (٥/ ٩٨/١٠، ٩٩).

جريج فى ذلك ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾، قال: دعا المسلم المنافق إلى رسول الله ﷺ ليحكم قال ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ﴾.

وأما على تأويل قول من جعل الداعى إلى النبى ﷺ اليهودى والمدعو إليه المنافق.

وقال البغوى[1]: يصدون عنك صدودًا: أى يعرضون عنك إعراضًا .اهـ.

وقال ابن الجوزى[2]: قال مجاهد: هذه الآية والتى قبلها نزلت فى خصومة اليهودى والمنافق والهاء والميم فى﴿لَهُمْ﴾ إشارة إلى الذين يزعمون، و﴿إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أحكام القرآن ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أى: إلى حكمه اهـ.

قال الرازى[3]: بين فى الآية الأولى رغبة المنافقين فى التحاكم إلى الطاغوت وبين بهذه الآية نفرتهم عن التحاكم إلى الرسول ﷺ. قال المفسرون: إنما صد المنافقون عن حكم الرسول عليه الصلاة والسلام لأنهم كانوا ظالمين وعلموا أنه لا يأخذ الرشا وإنه لا يحكم إلا بمر الحكم، وقيل: كان ذلك الصد لعداوتهم فى الدين.

﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ أى يعرضون عنك وذكر المصدر للتأكيد والمبالغة كأنه قيل: صدودًا أى صدود ا. هـ.

قال ابن كثير[4]: وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ .

أى يعرضون عنك إعراضًا كالمستكبرين عن ذلك كما قال تعالى عن المشركين﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

قال الشنقيطى[5]: ذكر فى هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﷺ يصدون عن ذلك صدودًا أى: يعرضون إعراضًا وذكر فى موضع آخر: أنهم إذا دعوا إلى الرسول ﷺ ليستغفر لهم لووا رؤوسهم وصدوا واستكبروا

---

(١) معالم التنزيل (٢/ ٩٨).

(٢) زاد المسير (٢/ ٦١/ ٩٢).

(٣) التفسير الكبير ٢/ ١٠/ ١٦١, ١٦٢.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٢.

(٥) أضواء البيان ١/ ٢٦٢

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ .

قال صاحب الظلال[1]: ويمضى السياق فى وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول وما أنزل من قبله .. ذلك الذى يزعمون أنهم آمنوا به:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾

يا سبحان الله ! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطرى... وإلا ما كان نفاقًا...

إن المقتضى الفطرى البديهى للإيمان، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به، وإلى من آمن به، فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه، ثم دعى إلى هذا الذى آمن به، ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه ، كانت التلبية الكاملة هى البديهية الفطرية، فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية، ويكشف عن النفاق، وينبئ عن كذب الزعم الذى زعمه من الإيمان!

وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله - سبحانه- أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله ، ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله، بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدودًا!

● **ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد وغيرهم:**

قال ابن تيمية[2]: والمؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر أيضًا

ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ ثم قال : ذم المدعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله كما يصيب ذلك كثير ممن يدعى الإسلام وينتحله فى تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة

(١) ٢/ ٦٩٤

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٣٩، ٣٤٠).

وغيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك وإذا قيل لهم: ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وسنة رسوله، أعرضوا عن ذلك إعراضًا. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[1]: أى إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا إعراضًا مستكبرين كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

قال ابن القيم: هذا دليل على أن من دعى إلى تحكيم كتاب الله والسنة فلم يقبل وأبى ذلك أنه من المنافقين ويصدون هنا لازم لا متعد هو بمعنى يعرضون لا بمعنى يمنعون غيرهم ولهذا أتى مصدره على صدود ومصدر التعدى صدًا فإذا كان المعرض عن ذلك قد حكم الله سبحانه بنفاقهم فكيف بمن ازداد إلى إعراضه منع الناس من تحكيم الكتاب والسنة والتحاكم إليهما بقوله وعمله وتصانيفه، ثم يزعم مع ذلك أنه إنما أراد الإحسان والتوفيق، الإحسان فى فعله ذلك ، والتوفيق بين الطاغوت الذى حكمه وبين الكتاب والسنة وهذا حال كثير ممن يدعى العلم والإيمان فى هذه الأزمان إذا قيل لهم تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتهم يصدون وهم مستكبرون ويعتذرون أنهم لا يعرفون ذلك ولا يعقلون، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون أ.هـ.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أى: قال لهم الناس: أقبلوا ﴿ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ نفسه فى حياته وسنته بعد وفاته، والمراد هنا الرسول ﷺ نفسه فى حياته.

قوله: ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

الرؤية هنا رؤية حال لا رؤية بصر، بدليل قوله: ﴿تَعَالَوْا﴾ فهى تدل على أنهم ليسوا حاضرين عنده.

والمعنى: كأنما تشاهدهم.

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

يعرضون عنك إعراضًا.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٩).

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٣٦، ٣٣٧.

وقوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾.

إظهار في موضع الإضمار لثلاث فوائد:

الأولى: أن هؤلاء الذين يزعمون الإيمان كانوا منافقين.

الثانية: أن هذا لا يصدر إلا من منافق، لأن المؤمن حقًا لابد أن ينقاد لأمر الله ورسوله بدون صدود.

الثالثة: التنبيه لأن الكلام إذا كان على نسق واحد قد يغفل الإنسان عنه، فإذا تغير، حصل له انتباه.

وقوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ جواب «إذا» وكلمة «صد» تستعمل لازمة، أى: يُوصف بها الشخص ولا يتعداه إلى غيره، ومصدرها صدود، كما فى هذه الآية، ومتعدية، أى: صد غيره، ومصدرها صد، كما فى قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. ا.هـ.

قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾(١)

الإعراب(٢): الفاء استئنافية و(**كيف**) اسم استفهام مبنى على الفتح فى محل نصب حال أى: كيف يصنعون، أو فكيف تراهم؟ ويجوز أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف أى: فكيف صنعهم أو حالهم؟ و(**إذا**) ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب المحذوف وجملة (**أصابتهم**) فى محل جر بالإضافة و(**مصيبة**) فاعل و(**بما**) متعلقان بأصابتهم ويجوز فى ما أن تكون مصدرية أو موصولة وجملة قدمت أيديهم لا محل لها، وأيديهم فاعل ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (**ثم جاءوك**) عطف على أصابتهم ولا أرى مساغًا لصنع بعضهم فى عطفها على جملة يصدون كما يرى البيضاوى وجملة (**يحلفون بالله**) حالية و(**إن**) نافية و(**أردنا**) فعل وفاعل و(**إلا**) أداة حصر، و(**إحسانًا**) مفعول به و(**توفيقًا**) عطف على إحسانًا.

قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾

---

(١) النساء: ٦٢.

(٢) إعراب القرآن ٢/٢٤٦ و٢٤٧.

الباء: هنا للسببية ، و﴿مَا﴾ اسم موصول، و﴿قَدَّمَتْ﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره بما قدمت أيديهم ، وفى اللغة العربية يطلق هذا التعبير باليد ويراد به نفس الفاعل، أى: بما قدموه من الأعمال السيئة.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن مجاهد: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ فى أنفسهم، وبين ذلك ما بينهما من القرآن، هذا من تقديم القرآن(١).

عن ابن جريج فى قوله: ﴿أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ يقول: بما قدمت أيديهم فى أنفسهم، وبين ذلك ما بين ذلك ﴿وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾(٢).

عن الحسن ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: عقوبة لهم بنفاقهم وكرههم حكم الله(٣).

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى(٤): يعنى بذلك جل ثناؤه ﴿فَكَيْفَ﴾ بهؤلاء الذين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهم ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ﴿إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ يعنى: إذا نزلت بهم نقمة من الله ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى بذنوبهم التى سلفت منهم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ يقول: ثم جاءوك يحلفون بالله كذبًا وزورًا ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يردعهم عن النفاق العبر والنقم وأنهم وإن تأتهم عقوبة من الله على تحاكهم إلى الطاغوت لم ينيبوا ولم يتوبوا ولكنهم يحلفون بالله كذبًا، وجرأة على الله: ما أردنا باحتكامنا إليه إلا الإحسان من بعضنا إلى بعض والصواب فيما احتكمنا فيه إليه. اهـ.

قال البغوى(٥): قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ هذا وعيد، أى فكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى عقوبة صدودهم، وقيل: هى

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٢١) ونسبه لابن المنذر.
(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا (٣/ ٩٩٢).
(٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير الطبرى (٤/ ٥/ ٩٩).
(٥) معالم التنزيل (٢/ ٩٨/ ٩٩).

كل مصيبة تصيب جمع المنافقين فى الدنيا والآخرة، وتم الكلام ههنا ثم عاد الكلام إلى ما سبق، يخبر عن فعلهم، فقال ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ يعنى يتحاكمون إلى الطاغوت ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ أى يجيئوك يحلفون وقيل: أراد بالمصيبة قتل عمر رضى الله عنه المنافق - ثم جاءوا يطلبون ديته قوله ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا﴾ ما أردنا بالعدول عنه فى المحاكمة أو بالترافع إلى عمر ﴿إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ قال الكلبى: إلا إحسانًا فى القول، وتوفيقًا صوابًا، وقال ابن كيسان: حقًا وعدلاً ، نظيره: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ وقيل: هو إحسان بعضهم إلى بعض وقيل: هو تقريب الأمر من الحق ، لا القضاء على مر الحكم، والتوفيق هو موافقة الحق، وقيل: هو التأليف والجمع بين الخصمين

وقريب من قول البغوى قال ابن الجوزى[1]: المراد بالمصيبة قولان:

(أحدهما): أنه تهديد ووعيد.

(والثانى): أنه قتل المنافق الذى قتله عمر.

وزاد الرازى فيه قولاً ثالثًا سيأتى إن شاء الله.

وفى الذى ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ثلاثة أقوال:

(أحدها): نفاقهم واستهزاؤهم.

(والثانى): ردهم حكم النبى ﷺ.

(والثالث): معاصيهم المتقدمة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ بمعنى: ما أردنا.

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه لما قتل عمر صاحبهم، جاؤوا يطلبون بدمه، ويحلفون ما أردنا بالمطالبة بدمه إلا إحسانًا إلينا، وما يوافق الحق فى أمرنا.

والثانى: ما أردنا بالترافع إلى عمر إلا إحسانًا وتوفيقًا.

والثالث: أنهم جاؤوا يعتذرون إلى النبى ﷺ من محاكمتهم إلى غيره ، ويقولون: ما أردنا فى عدولنا عنك إلا إحسانًا بالتقريب فى الحكم، وتوفيقًا بين الخصوم دون الحمل على مُرِّ الحق .اهـ.

---

(١) زاد المسير (٢/ ٧٢، ٧٣).

وقال الفخر الرازى[1] **بنحو ما تقدم، وزاد: قولاً ثالثًا فى معنى المصيبة:**

قال أبو على الجبائى، المراد من هذه المصيبة ما أمر الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام من أنه لا يستصحبهم فى الغزوات، وأنه يخصهم بمزيد الإذلال والطرد عن حضرته، وهو قوله تعالى: ﴿**لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً**﴾[2] وقوله: ﴿**قُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا**﴾[3].

وبالجملة: فأمثال هذه الآيات توجب لهم الذل العظيم، فكانت معدودة فى مصائبهم، وإنما يصيبهم ذلك لأجل نفاقهم.

وعنى بقوله: ﴿**ثُمَّ جَاءُوكَ**﴾ أى وقت المصيبة يحلفون ويعتذرون أنا ما أردنا بما كان منا من مداراة الكفار إلا الصلاح، وكانوا فى ذلك كاذبين، لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروه ولم يريدوا بذلك الإحسان الذى هو الصلاح .اهـ.

وقال الفخر الرازى أيضًا: قال أبو مسلم الأصفهانى: إنه تعالى لما أخبر عن المنافقين أنهم رغبوا فى حكم الطاغوت وكرهوا حكم الرسول، بشر الرسول ﷺ أنه ستصيبهم مصائب تلجئهم إليه وإلى أن يظهروا له الإيمان به، وإلى أن يحلفوا بأن مرادهم الإحسان والتوفيق.

قال: ومن عادة العرب عند التبشير والإنذار أن يقولوا: كيف أنت إذا كان كذا وكذا، ومثاله قوله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ**﴾[4]وقوله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ**﴾[5] ثم أمره تعالى إذا كان منهم ذلك أن يعرض عنهم ويعظهم.اهـ.

وقال القرطبى[6] **بنحو ما تقدم**

وقال ابن كثير[7]: ثم قال تعالى فى ذم المنافقين: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا**

(١) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٦٣، ١٦٤).

(٢) الأحزاب (٦٠، ٦١).

(٣) التوبة (٨٣).

(٤) النساء (٤١)

(٥) آل عمران (٣٥).

(٦) تفسير القرطبى (٣/ ١٨٣٥).

(٧) تفسير ابن كثير (٢/ ٥ ٣٠- دار الشعب).

﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك.

ثم قال: والتوفيق: أي المداراة والمصانعة، لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ﴾[1] إلى قوله: ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ اهـ.

وقال الشوكاني[2] بنحو ما تقدم وقال: المراد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ما فعلوه من المعاصي التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت .اهـ.

قال السعدي[3]: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ وهم كَذَبة في ذلك فإن الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ اهـ.

وقال في الظلال[4]:

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة - يومذاك- حيث يصبحون معرضين للنبذ والمقاطعة ، والازدراء في الوسط المسلم، فما يطيق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناسًا يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه، ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله، أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها . . . إنما يقبل مثل هذا في مجتمع لا إسلام له ولا إيمان، وكل ما له من إيمان زعم كزعم هؤلاء وكل ما له من الإسلام دعوى واسماء!

أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم، نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل، ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت في قضية من قضاياهم.

أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم، لعلهم يتفكرون ويهتدون.

وأيًا ما كان سبب المصيبة، فالنص القرآني، يسأل مستنكرًا : فكيف يكون الحال حينئذ، كيف يعودون إلى الرسول ﷺ.

---

(١) المائدة (٥٢).

(٢) فتح القدير(١/ ٥٧٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٤٨)

(٤) الظلال (٢/ ٦٩٤، ٦٩٥).

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ . .

إنها حال مخزية . . حين يعودون شاعرين بما فعلوا . . غير قادرين على مواجهة الرسول ﷺ بحقيقة دوافعهم وفي الوقت ذاته يحلفون كاذبين: أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت - وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية - إلا رغبة في الإحسان والتوفيق! وهي دائمًا دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى شريعة الله! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة . . . إنها حجة الذين يزعمون الإيمان - وهم غير مؤمنين - ،وحجة المنافقين الملتوين . . هي هي دائمًا في كل حين! ا. هـ.

● **ما جاء في الآية من أقوال أهل العلم وشراح كتاب التوحيد:**

قال ابن تيمية[1]: وإذا أصابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات، أو في أنفسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم قالوا: إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق ، ونوفق بين الدلائل الشرعية والقواطع العقلية ، التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات، أو «الذوقية» التي هي في الحقيقة أوهام وخيالات. اهـ.

وقال ابن القيم[2]: المصيبة فضيحتهم إذا أنزل القرآن بحالهم، ولا ريب أن هذا أعظم المصيبة والإضرار فالمصائب التي تصيبهم بما قدمت أيديهم في أبدانهم وقلوبهم وأديانهم بسبب مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام، أعظمها مصائب القلب والدين، فيرى المعروف منكرًا، والهدى ضلالاً ، والرشاد غيًا ، والحق باطلاً ، والصلاح فسادًا، وهذا من المصيبة التي أصيب بها في قلبه، وهو الطبع الذى أوجبه مخالفة الرسول ﷺ وتحكيم غيره قال سفيان الثوري في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ قال: هي أن تطبع على قلوبهم ا. هـ.

قال ابن عثيمين[3]: وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ الاستفهام هنا يراد به التعجب ، أي: كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة، والمصيبة هنا تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعدم تضاد المعنيين.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٤٠)

(٢) نقلا عن تيسير العزيز الحميد (٤٢٠).

(٣) القول المفيد ٢/ ٣٣٧، ٣٣٨

فالدنيوية مثل: الفقر، والجدب ، وما أشبه ذلك، فيأتون يشكون إلى النبى ﷺ ، فيقولون: أصابتنا هذه المصائب ونحن ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

والشرعية: إذا أظهر الله رسوله على أمرهم، خافوا وقالوا: يا رسول الله! ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾

﴿إِنْ﴾ بمعنى: «ما» أى: ما أردنا إلا إحسانًا بكوننا نسلم من الفضيحة والعار، وتوفيقًا بين المؤمنين والكافرين أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان، أى: نمشى معكم ونمشى مع الكفّار، وهذه حال المنافقين، فهم قالوا: أردنا أن نحسن المنهج والمسلك مع هؤلاء وهؤلاء ونوفق بين الطرفين.

قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾(١)

الإعراب(٢): ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة لزيادة التنبيه على نفاقهم، و﴿أُوْلَئِكَ﴾ مبتدأ و﴿الَّذِينَ﴾ خبر اسم الإشارة وجملة ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ صلة الموصول و﴿مَا﴾ إسم موصول مفعول به، و﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ متعلقان بمحذوف صلة الموصول ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ الفاء الفصيحة وهى التى أفصحت عن شرط مقدر أى: إذا كانت حالهم كذلك فأعرض عنهم ولا تقبل لهم عذرًا، و﴿أَعْرِضْ﴾ فعل أمر وفاعله أنت و﴿عَنْهُمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بأعرض والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط محذوف غير جازم و﴿عِظْهُمْ﴾ عطف على أعرض و﴿وَقُل لَّهُمْ﴾: عطف على أعرض ولهم متعلقان بقل، و﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فى متعلق هذا الجار والمجرور ثلاثة أوجه متساوية فى الصحة والجودة:

١- أنهما متعلقان ببليغًا لأن أمره بتهديدهم بلغ صميم قلوبهم وسياق التهديد فى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ يشهد له.

٢- أنهما متعلقان بقل، ومعناه: قل لهم فى معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المنطوية

---

(١) النساء : ٦٣.

(٢) إعراب القرآن ٢/٢٤٧، ٢٤٨

على الشر «قولا» بليغًا، ويلائمه من السياق قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من دواخل الغى ونوازع الضلال.

٣- إنهما متعلقان بمحذوف حال أى حالة كون المقول سرًا لا يتجاوز نفوسهم ولا يتعداها، وتشهد له سيرة النبى ﷺ ويتلائم مع حرص النبى على الستر والملاينة، رجاء أن يثوبوا إلى الرشد ويخلدوا إلى الصواب، و﴿قَوْلاً﴾ مفعول مطلق ﴿بَلِيغًا﴾ صفة أو حال كونًا خاليًا بهم، والنصيحة فى السر أنفع منها فى العلانية .اهـ.

● ما جاء فى الآية من الآثار:

عن مجاهد قال: تنازع رجل من المنافقين ورجل من اليهود فقال المنافق: اذهب بنا إلى كعب بن الأشرف، وقال اليهودى: اذهب بنا إلى النبى ﷺ فقال الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾[١].

عن ابن جريج ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وذلك لقوله ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾[٢].

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير[٣]: أخبر جل ثناؤه بقوله أولئك هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك يا محمد صفتهم يعلم الله ما فى قلوبهم فى احتكامهم إلى الطاغوت وتركهم الاحتكام إليك وصدودهم عنك من النفاق والزيغ وإن حلفوا بالله ما أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ يقول فدعهم فلا تعاقبهم فى أبدانهم وأجسامهم ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم، وعقوبته أن تنزل بدارهم، وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك فى أمر الله وأمر رسوله ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ يقول: مروهم باتقاء الله، والتصديق به، وبرسوله ووعده ووعيده. اهـ.

وقال البغوى[٤]: قوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق، أى علم أن ما فى قلوبهم خلاف ما فى ألسنتهم.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أى عن عقوبتهم.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٣/ ٩٩٣) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٢٠) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٥٨٣) ونسبه لابن المنذر.

(٣) تفسير الطبرى (٤/ ٥/ ٩٩).

(٤) معالم التنزيل (٥/ ٩٩، ١٠٠).

وقيل: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ عن قبول عذرهم.

﴿وَعِظْهُمْ﴾ باللسان.

﴿وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ قيل: هو التخويف بالله.

وقيل: أن يوعدهم بالقتل إن لم يتوبوا.

قال الحسن: القول البليغ أن يقول لهم: إن أظهرتم ما فى قلوبكم من النفاق قتلتم؛ لأنه يبلغ من نفوسكم كل مبلغ.

وقال الضحاك: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ فى الملأ ﴿وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ فى السر والخلاء وقيل: هو منسوخ بآية القتال .اهـ.

وقال ابن الجوزى[1]: قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أى من النفاق والزيغ.

وقال ابن عباس: إضمارهم خلاف ما يقولون ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تعاقبهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانك ﴿وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ أى: تقدّم إليهم: إن فعلتم الثانية عاقبتكم.

وقال الزجاج: يقال: بلَغ الرجل يبلُغُ بلاغة فهو بليغ: إذا كان يبلغ بعبارة لسانه كُنه ما فى قلبه .اهـ.

فائدة: وقد تكلم العلماء فى حدّ «البلاغة» فقال بعضهم : «البلاغة»: إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ.

وقيل: «البلاغة»: حسن العبارة مع صحة المعنى.

وقيل: البلاغة: الإيجاز مع الإفهام، والتصرف من غير إضجار.

قال خالد بن صفوان: أحسن الكلام ما قلّت ألفاظه، وكثُرتْ معانيه، وخير الكلام ما شوق أوّله إلى سماع آخره.

وقال غيره: إنما يستحق الكلام اسم البلاغة إذا سابق لفظه معناه، ومعناه لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك .اهـ.

---

(١) زاد المسير (٢/ ٧٣، ٧٤).

وقال الفخر الرازي[1]: قال تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ والمعنى أنه لا يعلم ما في قلوبهم من النفاق والغيظ والعداوة إلا الله.

ثم قال تعالى: ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**﴾ واعلم أنه تعالى أمر رسوله ﷺ أن يعاملهم بثلاثة أشياء:

الأول: قوله: ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**﴾ وهذا يفيد أمرين.

أحدهما: أن لا يقبل منهم ذلك العذر ولا يغتر به، فإن من لا يقبل عذر غيره ويستمر على سخطه قد يوصف بأنه معرض عنه غير ملتفت إليه.

والثاني: أن هذا يجري مجرى أن يقول له: اكتف بالإعراض عنهم ولا تهتك سترهم، ولا تظهر لهم أنك عالم بكنه ما في بواطنهم، فإن من هتك ستر عدوه وأظهر له كونه عالمًا بما في قلبه فربما يجرئه ذلك على أن لايبالي بإظهار العداوة فيزداد الشر، ولكن إذا تركه على حاله بقي في خوف ووجل فيقل الشر.

النوع الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَعِظْهُمْ**﴾ والمراد أن يزجرهم عن النفاق والمكر والكيد والحسد والكذب ويخوفهم بعقاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾.

النوع الثالث: قوله تعالى: ﴿**وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في قوله ﴿**فِي أَنفُسِهِمْ**﴾ وجوه:

الأول: أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا والتقدير: وقل لهم قولاً بليغًا في أنفسهم مؤثرًا في قلوبهم يغتمون به اغتمامًا ويستشعرون منه الخوف استشعارًا.

الثاني: أن يكون التقدير: وقل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغًا، وإن الله يعلم ما في قلوبكم فلا يغني عنكم إخفاؤه، فطهروا قلوبكم من النفاق وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك أو شرًا من ذلك وأغلظ.

الثالث: قل لهم في أنفسهم خاليًا بهم ليس غيرهم على سبيل السر، لأن النصيحةعلى الملأ تقريع وفي السر محض المنفعة.

---

(١) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٦٤، ١٦٥).

المسألة الثانية: فى الآية قولان:

أحدهما: أن المراد بالوعظ التخويف بعقاب الآخرة، والمراد بالقول البليغ التخويف بعقاب الدنيا ، وهو أن يقول لهم : إن ما فى قلوبكم من النفاق والكيد معلوم عند الله، ولا فرق بينكم وبين سائر الكفار، وإنما رفع الله السيف عنكم لأنكم أظهرتم الإيمان، فإن واظبتم على هذه الأفعال القبيحة ظهر للكل بقاؤكم على الكفر، وحينئذ يلزمكم السيف.

الثانى: أن القول البليغ صفة للوعظ، فأمر تعالى بالوعظ، ثم أمر أن يكون ذلك الوعظ بالقول البليغ، وهو أن يكون كلامًا بليغًا طويلاً حسن الألفاظ حسن المعانى مشتملاً على الترغيب والترهيب والإحذار، والإنذار والثواب والعقاب، فإن الكلام إذا كان هكذا عظم وقعه فى القلب، وإذا كان مختصرًا ركيك اللفظ قليل المعنى لم يؤثر البتة فى القلب. اهـ.

قال القرطبى(١): ابتدأ يُخبر عن فعلهم، وذلك أن عمر لما قَتَل صاحبَهم جاء قومُه يطلبون ديته ويحلفون ما نريد بطلب ديته إلا الإحسان وموافقة الحقّ.

وقيل: المعنى ما أردنا بالعدول عنك فى المحاكمة إلا التوفيق بين الخصوم، والإحسان بالتقريب فى الحكم.

وعن ابن كيسان: عدلاً وحقًا، نظيرها ﴿**وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ**﴾ فقال الله تعالى مكذبًا لهم: ﴿**أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ**﴾ قال الزجاج: معناه قد علم الله أنهم منافقون. والفائدة لنا: اعلموا أنهم منافقون. ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**﴾ قيل: عن عقابهم، وقيل: عن قبول اعتذارهم ﴿**وَعِظْهُمْ**﴾ أى خوفهم، قيل: فى الملأ . ﴿**وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا**﴾ أى ازجرهم بأبلغ الزّجر فى السرّ والخلاء وعن الحسن : قل لهم إن أظهرتم ما فى قلوبكم قتلتكم، وقد بَلُغَ القول بلاغة، ورجل بليغٌ يَبلغُ بلسانه كُنْهَ ما فى قلبه. والعرب تقول: أحْمَقُ بَلْغٌ وبِلغٌ، أى نهاية فى الحَماقَة ، وقيل: معناه يبلغ ما يريد وإن كان أحْمَق، ويقال: إن قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ نزل فى شأن الذين بَنَوْا مسجد الضِّرار، فلما أظهر الله نفاقهم، وأمرهم بهدم

(١) تفسير القرطبى ٣/ ١٨٣٤، ١٨٣٥.

المسجد حلفوا لرسول الله ﷺ دفاعًا عن أنفسهم، «ما أردنا ببناء المسجد إلا طاعة الله وموافقة الكتاب». اهـ.

قال ابن كثير(١): قال تعالى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون والله يعلم ما فى قلوبهم وسيجزيهم على ذلك فإنه لا تخفى عليه خافية فاكتف به يا محمد فيهم فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم، ولهذا قال له ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أى لا تعنفهم على ما فى قلوبهم.

﴿وَعِظْهُمْ﴾ أى وانههم عما فى قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ أى وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم.

● ما جاء فى الآية من كلام أهل العلم وشراح كتاب التوحيد:

قال ابن القيم(٢): أمر الله رسوله ﷺ فيهم بثلاثة أشياء:

أحدها: الإعراض عنهم إهانة لهم، وتحقيرًا لشأنهم وتصغيرًا لأمرهم، لا إعراض متاركة وإهمال ، وبهذا يعلم أنها غير منسوخة.

الثانى: قوله ﴿وَعِظْهُمْ﴾ وهو تخويفهم، عقوبة الله وبأسه ونقمته إن أصروا على التحاكم إلى غير الله ورسوله ﷺ وما أنزل عليه.

الثالث: قوله ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ أى يبلغ تأثيره إلى قلوبهم، ليس قولاً لينًا لا يتأثر به المقول له، وهذه المادة تدل على بلوغ المراد بالقول فهو قول يبلغ به مراد قائله من الزجر والتخويف ويبلغ تأثيره إلى نفس المقول له، ليس هو كالقول الذى يمر على الأذن صفحًا.

وهذا القول البليغ يتضمن ثلاثة أمور:

أحدها: عظم معناه، وتأثير النفوس به.

الثانى: فخامة ألفاظه وجزالتها.

الثالث: كيفية القائل فى إلقائه إلى المخاطب فإن القول كالسهم والقلب كالقوس الذى يدفعه، وكالسيف ، والقلب كالساعد الذى يضرب به.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٢، ٤٩٣) (٢) تيسير العزيز الحميد (٤٢٠، ٤٢١) نقله عن ابن القيم.

وفي متعلق قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ قولان: أحدهما بقوله: ﴿بَلِيغًا﴾ أي: قولاً بليغًا في أنفسهم، وهذا حسن من جهة المعنى، ضعيف من جهة الإعراب، لأن صفة الموصوف لا تعمل فيما قبلها .

والقول الثاني: أنه متعلق بقل وفي المعنى على هذا قولان:

أحدهما قل لهم في أنفسهم خاليًا بهم ليس معهم غيرهم بل مسرًا لهم النصيحة.

والثاني: أن معناه قل لهم في معنى أنفسهم كما يقال: قل لفلان في كيت وكيت، أي: في ذلك المعنى. اهـ.

قلت: يعني سليمان وهذا القول أحسن. اهـ.

وقال ابن عثيمين[1]: قوله ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾

توعدهم الله بأنه يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخداع، فالله علاَّم الغيوب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾، بل الله أعلم منك بما فيك، قال تعالى ﴿واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ وهذا من أعظم ما يكون من العلم والخبرة أن الله يحول بين المرء وقلبه، ولهذا قيل لأعرابي: «بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم» .

فالإنسان يعزم على الشيء ثم لا يدرى إلا وعزيمته منتقضة بدون سبب ظاهر.

قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ .

وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار.

قوله: ﴿وَعِظْهُمْ﴾.

أي: ذَكِّرهم وخَوِّفهم، لكن لا تجعلهم أكبر همك، فلا تخافهم، وقم بما يجب عليك من الموعظة لتقوم عليهم الحجة.

قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾

اختلف المفسرون فيها على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الجار والمجرور في أنفسهم متعلق ببليغ، أي: قل لهم قولاً بليغًا في أنفسهم، أي : يبلغ في أنفسهم مبلغًا مُؤثّرًا

الثاني: أن المعنى: انصحهم سرًا في أنفسهم.

الثالث: أن المعنى: قل لهم في أنفسهم (أي: في شأنهم وحالهم) قولاً بليغًا في

(١)القول المفيد (٢/٣٣٨، ٣٤٠).

قلوبهـم يؤثر عليها، والصـحيح أن الآية تشمل المعـانى الثلاثة، لأن اللفظ صـالح لها جميعًا ، ولا مـنافاة بينها، وهذه قـاعدة فى التفسير ينـبغى التنبه لهـا، وهى أن المعانى المحتملة للآية والتـى قال بها أهل العلم ، إذا كانت الآية تحتملها ولـيس بينها تعارض: فإنه يؤخذ بجميع المعانى.

وبلاغة القول تكون فى أمور:

الأول: هيئة المتكلم بأن يكون إلقاؤه على وجه مؤثر.

وكان النبـى ﷺ إذا خطب، احْمَرَّت عيناه، وعـلا صوته، واشتد غضبه حـتى كأنه منذر جيشًا ، يقول: «**صَبَّحكم ومَسَّاكم**»(١).

الثانى: أن تكون ألفاظه جَزْلَةَ مترابطة محددة الموضوع.

الثالث: أن يبلغ مـن الفصاحة غايـتها بحسب الإمـكان، بأن يكون كلامـه: سليم التركيب، موافقًا للغة العربية، مطابقًا لمقتضى الحال.

قال شيخ الإسلام ابـن تيمية: «إن هذه الآيات تـنطبق تمامًـا على أهل التـحريف والتأويل فى صفات الله، لأن هؤلاء يقولون: إنهـم يؤمنون بالله ورسوله، وإذا قيل لهم تعالوا إلـى ما أنزل الله وإلى الرسول ، يعـرضون، ويصدون ، ويقولـون: نذهب إلى فلان وفلان، وإذا اعترض عليهم، قالوا: نريـد الإحسان والتوفيق، وأن نجمع بين دلالة العقل ودلالة السمع» ذكره رحمه الله فى «الفتوى الحموية». اهـ.

قوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ كقوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ**﴾ . كذا قال ابن كثير.

● ماجاء فى تفسيرها بالمأثور

عن مجاهد، فى قوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ **قال** : واجب لهم أن يطيعهم من شاء الله لا يطيعهم أحد إلا بإذن الله(٢).اهـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير (٣)بعد قول مجاهد: وإنما هذا تعريض من الله تـعالى ذكره لهؤلاء

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٦/ ١٥٣ ـ النووى) عن جابر بن سمرة به.
وانظر «منار السبيل» (٦٦٥ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه ابـن جرير فى «تفسـيره» (٥/ ٩٩) وذكره السيـوطى فى «الدر» (٢/ ٣٢١) وزاد نسبـته لابن المنذر.

(٣) ابن جرير فى الموضع السابق.

المنافقين بأن تركهم طاعة الله وطاعة رسوله ، والرضا بحكمه إنما هو للسابق لهم من خذلانه وغلبة الشقاوة عليهم ولولا ذلك لكانوا ممن أذن له في الرضا بحكمه والمسارعة إلى طاعته اهـ.

وقال أيضًاقبل هذا: إنما هذا من الله توبيخ للمحتكمين من المنافقين الذين كانوا يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إلى النبي ﷺ فيما اختصموا فيه إلى الطاغوت صدودًا عن رسول الله ﷺ يقول لهم تعالى ذكره ما أرسلت رسولاً إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليه، فمحمد ﷺ من أولئك الرسل، فمن ترك طاعته والرضا بحكمه، واحتكم إلى الطاغوت فقد خالف أمري، وضيع فرضي، ثم أخبر جل ثناؤه أن من أطاع رسله فإنما يطيعهم بإذنه، يعني بتقديره ذلك وقضائه السابق في علمه ومشيئته .اهـ.

وقال البغوي:[(١)] قال الزجاج: ليطاع بإذن الله، لأن الله قد أذن فيه، وأمر به، وقيل: (**إلا ليطاع**) كلام تام كاف، (**بإذن الله**) أي بعلم الله وقضائه ، أي وقوع طاعته يكون بإذن الله.

وقال ابن الجوزي:[(٢)] قال الزجاج: (مِن) دخلت للتوكيد، ثم قال: وفي قوله ﴿**بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ قولان:

أحدهما: أنه بمعنى الأمر، قاله ابن عباس.

الثاني: إنه الإذن لنفسه، قاله مجاهد .اهـ.

وقال الفخر الرازي[(٣)] **بنحو ما سبق، وزاد:** قال أصحابنا: الآية دالة على أنه لا يوجد شيء من الخير والشر والكفر والإيمان والطاعة والعصيان إلا بإرادة الله تعالى.

ثم قال: الآية دالة على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون عن المعاصي والذنوب لأنها دلت على وجوب طاعتهم مطلقًا، فلو أتوا بمعصية لوجب علينا الاقتداء بهم في تلك المعصية . . . وإنه لمحال.

والآية دالة أنه لا رسول إلا ومعه شريعة ليكون مطاعًا في تلك الشريعة ومتبوعًا فيها. اهـ.

وقال صاحب «عصمة الأنبياء»[(٤)]:

والذي ترجح عندي في هذه المسألة بعد مراجعة كلام العلماء وأدلتهم النقلية والعقلية

(١) معالم التنزيل (٢/ ١٠٠). (٢) زاد المسير (٢/ ٧٤).
(٣) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٦٧).
(٤) «عصمة الأنبياء» لمحمد الخضر بن الناجي (٢٩٣ ـ ٢٩٤ ـ ٢٩٥).

هو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون قطعا بعد النبوة من التحريف فيما طريقه التبليغ ومن الكبائر، ومن صغائر الخسة، وأنهم يصدر منهم بعض مادون هذا كله، وأنهم معصومون من الأقرار على ذلك والدليل على هذا إستقراء القرآن الكريم أى الآيات التى مر ذكرها من سورة البقرة إلى سورة «ألم نشرح» وأدلهم فى ذلك أبونا آدم عليه السلام لما ذكر الله جل وعلا ما صدر منه ذكر أنه نبهه، وأنه تاب وأناب وغفر له، قال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

وقال فى نوح عليه السلام: ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ إلى قوله: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ الآية، وبعده إبراهيم عليه السلام، ولم يذكر عنه أنه صدر منه ذنب ولاعصيان. هذا فى القرآن، وأما السنة فقد ذكرت أنه لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات كلها فى الله، وأما يوسف عليه السلام، فليس هناك ذنب وإنما أوردت حوله بعض الشبه وقد أجيب عنها بما يكفى للمنصف رائد الحق.

وأما موسى عليه السلام فقد ذكر فى القرآن الكريم أنه قتل ذلك القبطى الكافر بدون وحى من ربه ولكنه تنبه لذلك، واستغفر ربه، وقد غفره الله جل وعلا له.

قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وكذلك الأمر داود عليه السلام قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ الآية.

وكذلك الحال فى سليمان عليه السلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

وكذلك محمد ﷺ لما أخذ الفداء من أسرى بدر، نبهه الله جلا وعلا على ما هو الأولى والأفضل، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيات، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ وكقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ الآيات.

وبهذا يرد على القائلين بأنه لو جاز صدور شيء منهم كلنا مأمورين باتباعهم فيه لأنه

لو قدر جواز ذلـك منهم لزم ألا يقروا عـليه، وإذا لم يقروا عـليه، وثبت توبتـهم منه وغفرانه لهم بطل اتباعهم نبه قطعا، والعلم عند الله تعالى. اهـ.

وقال القرطبى(1): (من) زائدة للتوكيد. **(إلا ليطاع)** فيما أمر به، ونهى عنه .اهـ.

وقال ابن كثير(2): نحو ما سبق.

وقال صاحب «الظلال»(3): إن الناس لا يؤمنون ابتداءً إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله ، ممثلاً فى حياة الرسـول ﷺ فى أحكام الرسول، وباقيًا بعده فى مـصدرية الكتاب والسنة بالبـداهة، ولا يكفى أن يتحاكموا إليـه ليحسبوا مؤمنين، بل لابـد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين اهـ.

● ماجاء فى الآية من أقوال شراح التوحيد:

قال سليمـان آل الشيخ(4): قال تعـالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

قال ابن كثير: أى إنما فرضت طاعته على من أرسلته إليهم. اهـ.

وقال ابن القيم: هذا تنبيه على جلالة منصب الـرسالة، وعظم شأنها، وأنه سبحانه لم يـرسل رسله عـليهم الـصلاة والسلام إلا لـيطاعوا بـإذنه، فتكـون الطاعة لـهم لا لغيرهم، لأن طاعتهم طاعة مرسلهـم، وفى ضمنه أن من كذب رسوله محمداً ﷺ، فقد كذب الرسل ، والمعـنى أنك واحد منهم تجب طاعـتك ، وتتعين عليهـم، كما وجبت طاعة من قبلك من المرسلين ، فإن كانوا قد أطاعوهم كما زعموا وآمنوا بهم فما لهم لا يطيـعونك، ويؤمنـون بك؟ والإذن ههنا هـو الإذن الأمرى لا الكونى، إذ لـو كان إذنًا كونيًا قدريًا لما تخلفت طاعتهم، وفى ذكره نكتة، وهى أنه بنفس إرساله تتعين طاعته، وإرسالـه نفسه إذن فـى طاعته، فـلا تتوقف عـلى نص آخر سـوى الإرسال بأمر فـيه بالطاعـة، بل متى تحققـت رسالته ، وجبت طاعـته، فرسالته نـفسها متضـمنة الآن فى الطاعة، ويصح أن يكون الإذن هـهنا إذنًا كونيًا قدرياً، ويكون المعنى لـيطاع بتوفيق الله وهدايته، فتضمـن الآية الأمرين الشرع والقدر، ويكون فيها دليـل على أن أحدًا لا يطيع رسله إلا بتوفيقه وإرشاده وهدايته، وهذا حسن جداً ، والمقصود أن الغاية من الرسل هى طاعتهم ومتابعتهم ، فإذا كانت الطاعة والمتابعة لغيرهم، لم تحصل الفائدة المقصودة من إرسالهم .اهـ.

تنبيه: قلت لم يتكلم فى تفسير الآية هذه أحـد من شراح كتاب التوحيد إلا سليمان آل الشيخ.

---

(1) تفسير القرطبى (3/ 1835)
(2) تفسير ابن كثير(2/ 306)
(3) الظلال (2/ 687)
(4) تيسير العزيز الحميد (421).

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

● **ماجاء فى تفسير الآية من آثار:**

عن مجاهد فى قوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الآية قال: هذا فى الرجل اليهودى والرجل المسلم اللذين تحاكما إلى كعب بن الأشرف[١].

عن سعيد بن جبير: الاستغفار على نحوين ، أحدهما فى القول والآخر فى العمل، فأما استغفار القول، فإن الله يقول ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾، وأما استغفار العمل فإن الله يقول ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فعنى بذلك أن يعملوا عمل الغفران، ولقد علمت أن أناسًا سيدخلون النار وهم يستغفرون الله بألستهم ممن لا يدعى بالإسلام ومن سائر الملل[٢]. أهـ

● **ماجاءفى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

وقال ابن جرير[٣] فى تفسير الآية: يعنى بذلك جل ثناؤه أن هؤلاء المنافقين الذين وصف صفتهم فى هاتين الآيتين الذين إذا دعوا إلى حكم الله وحكم رسوله صدوا صدودًا إذ ظلموا أنفسهم باكتسابهم إياها العظيم من الإثم فى احتكامهم إلى الطاغوت وصدودهم عن كتاب الله وسنة رسوله، إذ دعوا إليها، جاءوك يا محمد حين فعلوا ما فعلوا من مصيرهم إلى الطاغوت راضين بحكمه دون حكمك، جاءوك تائبين منيبين، فسألوا الله أن يصفح لهم عن عقوبة ذنبهم بتغطيته عليهم، وسأل لهم الله رسوله ﷺ مثل ذلك وذلك هو معنى قوله: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ وأما قوله: ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ فإنه يقول لو كانوا فعلوا ذلك فتابوا من ذنبهم ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا﴾ يقول راجعًا لهم مما يكرهون إلى ما يحبون ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم فى تركه عقوبتهم على ذنبهم الذى تابوا منه .اهـ.

وقال البغوى[٤]: بنحو ذلك مختصرًا.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٥/ ١٠٠)، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٣/ ٩٩٣) عن مجاهد به. وانظر «الدر» (٢/ ٣٢١).

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٣/ ٩٩٣) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٢١) وزاد نسبته لابن المنذر.

(٣) تفسير الطبرى (٤/ ٥/ ١٠٠).

(٤) معالم التنزيل (٢/ ١٠٠)

وقال ابن الجوزى[1]: قال ابن عباس: ظـلموا أنفسهم بسخطـهم قضاء رسول الله ﷺ ﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ من صنيعهم .اهـ.

وقال الفخر الرازى[2]: فى سبب النزول وجهان:

(الأول): المراد من تقدم ذكره من المنافقين.

(الثانى): قال أبو بكر بن الأصم: إن قومًا من المنافقـين اصطلحوا على كيد فى حق الرسول ﷺ ثم دخلوا عليه، لأجل ذلك الغرض، فأتـاه جبريل عليه السلام فأخبره به، فقال ﷺ: «إن قـومًا دخلوا يـريدون أمرًا لا ينـالونه، فليـقوموا وليـستغفـروا الله حتى أستغفر لهم، فلم يقوموا. فقال: ألا تقومون، فلم يفعلوا، فقال ﷺ، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى عد اثنى عشر رجلاً منهم، فقامـوا، وقالوا: كنا عزمنا على ما قلت، ونحن نتوب إلى الله من ظلمنا أنفسنا فاستـغفر لنا فقال: الآن اخرجوا أنا كنت فى بدء الأمر أقرب إلى الاستغفار، وكان الله أقرب إلى الإجابة، اخرجوا عنى .اهـ.

فائدة أولى [3]: لقائل أن يقول: أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح، لكانت توبتهم مقبولة، فما الفائدة فى ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم؟

الجواب: قال الرازى: الجواب عنه من وجوه:

(الأول) أن ذلك التحـاكم إلى الطاغوت كان مـخالفة لحكم الله، وكـان أيضًا إساءة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وإدخال للغـم فى قلبه، ومن كان كذلك وجب عليه عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره، فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم.

(الثانى) أن القوم لـما لم يرضوا بحكـم الرسول ظهر منـهم ذلك التمرد، فـإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد، وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول ﷺ ويطلبوا منه الاستغفار.

(الثالث): لعلهم إذا تابوا بالتوبة أتوا بها علـى وجه الخلل، فإذا انضم إليها استغفار الرسول، صارت مستحقة للقبول . والله أعلم.

فائدة ثانية[4]: إنما قـال: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ ولم يقل: (واستـغفرت لهم) إجلالاً للرسول ﷺ.

---

(1) زاد المسير (٢/ ٧٤)

(2) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٦٨)

(٣-٤) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٦٨).

[قلت] لاسيما فى هذا الموضع الذى تتكروا فيـه للرسالة والرسول ﷺ حتى تحاكموا إلى غيره.

فائدةثالثة[1]: الآية دالة على الجزم بأن الله تعالى يقبل توبة التائب، لأنه تعالى لما ذكر عنهم الاستغفار قال بعده ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وهذا الجواب إنما ينـطلق عن ذلك الكلام، إذا كان المراد من قوله ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ هو أن يقبل توبتهم ويرحم تضرعهم ولا يرد استغفارهم اهـ.

وقال القرطبى[2]: روى أبو صالح عن علـى قال: قدم علينا أعرابيًا بـعد ما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، فـرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ وحـثى على رأسه من ترابه فقال : قـلتَ يا رسول الله فسمعنـا قولك، ووعيت عن الله فوعيـنا عنك، وكان فيما أنـزل الله عليك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الآية، وقد ظلمت نـفسى وجئتك تستغفر لى، فنودى من القبر أنه قد غفر لك.

ومعنى ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أى قابلاً لتوبتهم، وهما مفعولان لا غير. اهـ.

[قلت]: ورواية أبى صالـح الكلبى هذه مـنكرة، وقد قال ابن كـثير[3]: وقد ذكر جماعة، منهم الشيخ أبو نصر الصباغ فى كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن العُتبى، فذكرها. اهـ.

وقال ناصر السعدى: وهذا المجىء إلى الرسول ﷺ مختـص بحياته، لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لايـكون إلا فى حياته وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شىء، بل ذلك شرك .اهـ[4].

[قلت]: سيـأتى رد سلـيمان آل الـشيخ علـى من أجاز إتـيان قبـر الرسول وطـلب الاستغفار منه، أو الاستشفاع به.

وقال ابن كثير: يرشد تعالى العصاة والمذنبيـن إذا وقع منهم الخطأ والعصيان، أن يأتوا للرسول ﷺ فـى حياته فيستغفروا الله عـنده، ويسألوه أن يستغفر لـهم، فإنهم إذا

(١) التفسير الكبير (٥/ ١٠/١٦٨).

(٢) تفسير القرطبى (٣/١٨٣٦)

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٣٠٦- الشعب).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٥٠)

فعلوا ذلك تاب الله عليهم ، ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ .اهـ.

وقال الشوكاني[1]: قوله ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ على طريقة الالتفات، لقصر التفخيم لشأن الرسول ﷺ.

● ماجاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

وقال سليمان آل الشيخ[2]: وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾

قال ابن القيم: لما علم سبحانه أن المرسل إليهم لا بد لهم من ظلم أنفسهم، واتباع لأهوائهم، ارشدهم إلى ما يدفع عنهم شر ذلك الظلم وموجبه ، وهو شيئان:

أحدها: منهم، وهو استغفارهم ربهم عزَّ وَجَل،

والثاني من غيرهم، وهو استغفار الرسول ﷺ لهم إذا جاءوه، وانقادوا له، واعترفوا بظلمهم، فمتى فعلوا ذلك وجدوا الله توابًا رحيماً يتوب عليهم فيمحوا أثر سيئاتهم، ويقيهم شرها، ويزيدهم مع ذلك رحمته وبره وإحسانه.

فإن قلت: فما حظ من ظلم نفسه بعد موت النبيﷺ، من هذه الآية؟ وهل كلام بعض الناس في دعوى المجيء إلى قبره ﷺ، والاستغفار عنده، والاستشفاع به، والاستدلال بهذه الآية على ذلك صحيح أم لا؟

الجواب: قيل: أما حظ من ظلم نفسه بعد موت النبي ﷺ من هذه الآية فالاستغفار، وأن يتوب إلى الله توبة نصوحًا في كل زمان ومكان، ولا يشترط في صحة التوبة المجئ إلى قبره، والاستغفار عنده بالإجماع، وأما المجيء إلى قبره، والاستغفار عنده ، والاستشفاع بهﷺ والاستدلال بالآية على ذلك ، فهو استدلال على ما لا تدل الآية عليه بوجه من وجوه الدلالات ، لأنه ليس في الآية إلا المجيء إليه ﷺ لا المجيء إلى قبره ، واستغفاره لهم، لاستشفاعهم به بعد موته، فعلم أن ذلك باطل، يوضح ذلك أن الصحابة الذين هم أعلم الناس بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ما فهموا هذا من الآية، فعلم أن ذلك بدعة ، وأكثر ما استدل به من أجاز ذلك رواية العتبي عن أعرابي مجهول على أن القصة لا نعلم لها إسنادًا ، ومثل هذا لو كان حديثًا أو أثرًا عن

---

(١) فتح القدير (١/ ٥٧٣)

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٢٢)

صحابى لم يجز الاحتجاج به، ولم يلزمنا حكمه، لعدم صحته، فكيف يجوز الاحتجاج فى هذا بقصة لا تصح عن بدوى لا يعرف اهـ.

وتقدم قول ناصر السعدى: أن هذا المجىء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته، لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا فى حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شىء، بل ذلك شرك اهـ.

قوله: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

سبب نزول الآية: عن الزهرى. أن عروة بن الزبير حدث عن الزبير بن العوام: أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ فى شراج من الحرة كانا يستقيان به كلاهما النخل. فقال الأنصارى: سرح الماء يمر. فأبى عليه، فقال رسول الله ﷺ «**اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك**». فغضب الأنصارى وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمتك ؟! فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «**اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر**» ثم ارسل الماء إلى جارك واسترعى رسول الله ﷺ للزبير حقه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه السعة له وللأنصارى، فلما أحفظ رسول الله ﷺ الأنصارى استرعى للزبير حقه فى صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك **﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ...﴾**(١) الآية.

عن أم سلمة قالت «خاصم الزبير رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فقضى للزبير، فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته؛ فأنزل الله **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾** الآية(٢).

عن سعيد بن المسيب فى قوله: **﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾** الآية.

قال: «أنزلت فى الزبير بن العوام وحاطب بن أبى بلتعة اختصما فى ماء، فقضى النبى ﷺ أن يسقى الأعلى ثم الأسفل»(٣).

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٢٣٥٩)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ١١٨/ ١٢٩) عن عبدالله بن الزبير به.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢٣/ ٢٩٤/ ٦٥٢) عن أم سلمة به. وذكره السيوطى فى «الدر» (/ ٣٢٢ ٢) وزاد نسبته للحميدى فى «مسنده»، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.

عن عكرمة في قوله: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ..﴾ قال: نزلت في اليهود(١).

عن مجاهد في قوله: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ ...﴾ الآية . قال: هذا في الرجل اليهودي والرجل المسلم اللذين تحاكما إلى كعب بن الأشرف(٢).

عن الشعبي ، مثله إلا أنه قال: إلى الكاهن(٣).

وعن ابن لهيعة عن أبي الأسود قال: «اختصم رجلان إلى رسول الله ﷺ فقضى بينهما فقال الذي قضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب، فقال رسول الله ﷺ : «نعم، انطلقا إلى عمر»، فلما أتيا عمر قال الرجل: يا ابن الخطاب قضى لي رسول الله ﷺ على هذا، فقال : ردنا إلى عمر، فردنا إليك، فقال: أكذلك؟! قال: نعم ، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضي بينكما ، فخرج إليهما مشتملاً على سيفه، فضرب الذي قال: ردنا إلى عمر فقتله، وأدبر الآخر فاراً إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قتل عمر - والله - صاحبي ولولا أني أعجزته لقتلني ، فقال رسول الله ﷺ «ما كنت أظن أن يجترئ عمر على قتل مؤمنين؟!» فأنزل الله ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ..﴾ الآية.. فهدر دم ذلك الرجل، وبرأ عمر من قتله، فكره الله أن يسن ذلك بعد فقال ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾(٤).

عن عتبة بن ضمرة عن أبيه «أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ، فقضى للمحق على المبطل، فقال المقضي عليه، لا أرضى، فقال صاحبه: فما تريد ؟ قال: أن تذهب إلى أبي بكر الصديق، فذهبا إليه فقال: أنتما على ما قضى به النبي ﷺ فأبى أن يرضى قال: نأتي عمر فأتياه فدخل عمر منزله وخرج والسيف في يده، فضرب به رأس الذي أبى أن يرضى فقتله، وأنزل الله ﴿ فَلا وَرَبِّكَ ..﴾ الآية(٥).

عن مكحول قال «كان بين رجل من المنافقين ورجل من المسلمين منازعة في شيء، فأتيا رسول الله ﷺ فقضى على المنافق ، فانطلقا إلى أبي بكر فقال: ما كنت لأقضي بين من يرغب عن قضاء رسول الله ﷺ فانطلقا إلى عمر، فقصا عليه فقال عمر: لا تعجلا حتى أخرج إليكما، فدخل فاشتمل على سيفه وخرج، فقتل المنافق ثم قال: هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء رسول الله ﷺ ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: إن عمر قد قتل الرجل وفرق الله بين الحق والباطل على لسان عمر، فسمي الفاروق»(٦).

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٣٢٢) ونسبه لابن أبي حاتم.
(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن المنذر.
(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن جرير.
(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن أبي حاتم، وابن مردويه.
(٥) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه للحافظ دحيم في «تفسيره».
(٦) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٣٢٣) ونسبه للحكيم الترمذي في «نوادر الأصول».

أقوال المفسرين فى أسباب النزول:

قال أبو جعفر[1]: والصواب استوعب وكان رسول الله ﷺ قبل ذلـك أشار على الزبير برأى أراد فيـه الشفقـة له وللأنـصارى فلمـا أحفظ رسول الله ﷺ الأنـصارى استوعب للزبير حقه في صريح الحكم قال فقال الزبير ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك فلا ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ الآية.

ثم قال أبو جعـفر وهذا القول أعنى قول مـن قال عني به المحتكمـان إلى الطاغوت اللذان وصف الله شأنهما فى قوله ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**﴾ أولى بالصواب لأن قوله فلا وربك لا يؤمنـون حتى يحكموك فيما شجر بينهم فى سياق قصة الذين أسدى الله الخبر عنهم بقوله ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾ ولا دلالة تدل على انقطاع قصتـهم فإلحاق بعض ذلك ببعض ما لم تـأت دلالة على انقـطاعه أولى فإن ظن ظـان أن فى الذى روى عن الزبـير وابن الزبير من قصتـه وقصة الأنصارى فى شراج الحرة وقول من قال فى خبـرهما فنزلت فلا وربك لا يؤمنون حتـى يحكموك فيما شجر بـينهم ما ينبىء عن انقـطاع حكم هذه الآية وقصتـها من قصـة الآيات قبلـها، فإنه غـير مستـحيل أن تكـون الآية نزلت فـى قصة المحتكمين إلى الطـاغوت ويكون فيها بيان ما احتكم فيه الـزبير وصاحبه الأنصارى إذ كانت الآية دالة عـلى ذلك وإذا كان ذلك غير مسـتحيل كان إلحاق معنـى بعض ذلك ببعض أولى ما دام الكلام متسقة معانيـه على سياق واحد إلا أن تأتى دلالة على انقطاع بعض ذلك من بعض فيعدل به عن معنى ما قبله.

وأما قوله ﴿**وَيُسَلِّمُوا**﴾ فإنه منـصوب عطفًا علـى قوله ﴿**ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ**﴾ وقوله ﴿**ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ**﴾ نصب عطفًـا على قوله ﴿**حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾.

قال القرطبى[2]: وقالت طائفة: نزلت فى الزبـير مع الأنصارى، وكانت الخصومة فى سقى بـستان، فقال عليـه السلام للـزبيـر: «**أسق أرضك ثـم أرسل المـاء إلى أرض جارك**» فقال الخصم : أراك تحابى ابن عمتك، فتلون وجه رسول الله ﷺ وقال للزبير: «**اسق ثم احبس الماء حتى يبلغ الجَدْر**» ونزل: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ الحديث ثابت

(١) تفسير الطبرى (٤/٥/ ١٠٠، ١٠١).

(٢) تفسير القرطبى (٣/ ١٨٣٦، ١٨٣٧)

صحيح رواه البخارى عن على بن عبد الله عن محمد بن جعفر عن معمر، ورواه مسلم عن قتيبة كلاهما عن الزهرى.

واختلف أهل هذا القول فى الرجل الأنصارى ، فقال بعضهم: هو رجل من الأنصار من أهل بدر.

وقال مكى والنحاس: هو حاطب بن أبى بلتعة.

وقال الثعلبى، والواحدى، والمهدوىّ: هو حاطب، وقيل: ثعلبة بن حاطب، وقيل غيره، والصحيح: القول الأول، لأنه غير معينٌ ولا مُسمّى ، وكذا فى البخارى ومسلم أنه رجل من الأنصار، واختار الطبرى أن يكون نزول الآية فى المنافق واليهودى، كما قال مجاهد، ثم تناول بعمومها قصة الزبير.

قال ابن العربى: وهو الصحيح، فكل من اتهم رسول الله ﷺ فى الحكم فهو كافر، لكن الأنصارى زَلّ زلّة فأعرض عنه النبى ﷺ وأقال عثرته لعلمه بصحة يقينه، وأنها كانت فَلْتَة وليست لأحد بعد النبى ﷺ وكل من يرض بحكم الحاكم وطعن فيه ورده فهى ردة يستتاب - أى صاحبها - وأمّا إن طعن فى الحاكم نفسه لا فى الحكم فله تعزيره وله أن يصفح عنه. اهـ.

● **ما جاء فى سبب نزول الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد وغيرهم:**

● **ذكر البخارى فى التفسير حديث الزبير فى سبب نزول الآية، ثم قال ابن حجر:**

قوله (فقال الزبير والله إنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك) ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ زاد فى رواية شعيب «إلى قوله: تسليما» ووقع فى رواية ابن جريج الآتيه «فقال الزبير: والله إن هذه الآية أنزلت فى ذلك» وفى رواية عبدالرحمن بن إسحاق «ونزلت فلا وربك الآية».

والراجح رواية الأكثر وأن الزبير كان لايجزم بذلك، لكن وقع فى رواية أم سلمة عند الطبرى والطبرانى الجزم بذلك وأنها نزلت فى قصة الزبير وخصمه، وكذا فى مرسل سعيد بن المسيب وجزم مجاهد والشعبى بأن الآية إنما نزلت فيمن نزلت فيه الآية التى قبلها وهى قوله ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ**﴾ الآية، فروى إسحاق بن راهويه فى تفسيره بإسناد صحيح عن الشعبى قال« كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة،

فدعا اليهودى المنافق إلى النبى ﷺ لأنه علم أنه لايقبل الرشوة، ودعا المنافق اليهودى إلى حكامهم لأنه علم أنهم يأخذونها، فأنزل الله هذه الآيات إلى قوله ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١) رواه الطبرى بإسناد صحيح عن ابن عباس «إن حاكم اليهود يومئذ كان أبابرزة الأسلمى قبل أن يسلم ويصحب»(٢)، وأيضا بإسناد صحيح إلى مجاهد «أنه كعب ابن الأشرف»(٣)، وروى الكلبى فى تفسيره عن أبى صالح عن ابن عباس قال«نزلت هذه الاية فى رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودى خصومة فقال اليهودى: انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل نأتى كعب بن الأشرف» فذكر القصة وفيه أن عمر قتل المنافق وأن ذلك سبب نزول هذه الآيات وتسمية عمر «الفاروق»(٤).

وهذا الإسناد وإن كان ضعيفا لكن تقوى بطريق مجاهد ولايضره الاختلاف لإمكان التعدد، وأفاد الواحدى بإسناد صحيح عن سعيد عن قتادة أن اسم الأنصارى المذكور قيس، ورجح الطبرى فى تفسيره وعزاه إلى أهل التأويل فى تهذيبه أن سبب نزولها. هذه القصة ليتسق نظام الآيات كلها فى سبب قال: ولم يعرض بينها ما يقتضى خلاف ذلك.

ثم قال: ولا مانع أن تكون قصة الزبير وخصمه وقعت فى أثناء ذلك فيتناولها عموم الآية . والله أعلم .أهـ.

قال سليمان آل الشيخ فى سبب نزول الآية: ورد فى «الصحيح» أن سبب نزولها قصة الزبير لما اختصم هو والأنصارى فى شراج الحرة، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فإذا كان سبب نزولها مخاصمة فى مسيل ماءقضى فيه رسول الله ﷺ بقضاء فلم يرضه الأنصارى فنفى تعالى عنه الإيمان بذلك ، فما ظنك بمن لم يرض بقضائه ﷺ وأحكامه فى أصول الدين وفروعه، بل إذا دعوا إلى ذلك تولوا وهم معرضون، ولم يكفهم ذلك حتى صدوا الناس عنه، ، ولم يكفهم ذلك حتى كفروا، أو بدعوا من اتبعه ﷺ، وحكمه فى أصول الدين وفروعه، ورضى بحكمه فى ذلك ، ولم يبغ عنه حولاً أ.هـ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

● **ما جاء فى تفسيرها من كلام المفسرين:**

قال ابن جرير[1]: يقول فى تأويل قوله **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** يعنى جل ثناؤه بقوله فلا فليس الأمركما **﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾** ويصدون عنك إذا دعـوا اليك يا محمد، واستـأنف القسم جل ذكره فقال **﴿وربك﴾** يامحمد **﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾** أى لايصدقون بى وبك وبما أنزل إليك **﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾** يقول حتى يجعلوك حكما بينهم فيما اختلط أنهم من أمورهم فـالتبس عليـهم حكمه يقـال شجر يشجر شـجورا وشجرا وتشاجـر القوم إذا اختلفوا فى الكلام والأمر مشاجرة وشجارا **﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾** يقول: لايجدوا فى أنفسهـم ضيقاً مما قضيت وإنما معناه ثم لاتحرج أنفسـهم مما قضيت أى لاتأثم بإنكارها ما قضيت وشكها فى طاعتك وأن الذى قضيت به بينهم حق لايجوز لهم خلاف. أ.هـ.

قال ابن الجوزى[2]: قوله تعالى **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾** أى: لايكونون مؤمنين حتى يحكموك، وقـيل «لا» رد لزعمهم أنهم مؤمنون، والمعـنى: فلا، أى: ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا، وهم يخالفـون حكمك. ثم استأنف، فقال: وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بيهم، أى: فيما اختلفوا فيه ا.هـ.

قال الفخر الرازى[3]: مسألة: «لا» فى قوله **﴿فَلا وَرَبِّكَ﴾** فيه قولان:

الأول: معناه فوربك، كقوله **﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** و«لا» مزيدة لتأكيد معنى القسم، كما زيدت فى **﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ﴾** لتأكيد وجوب العلم و**﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾** جواب القسم

والثانى: أنهامفيدة، وعلى هذا التقدير ذكر الواحدى فيه وجهين:

الأول: أنه يفيد نـفى أمر سبق والتقدير: لـيس الأمر كما يزعمون أنـهم آمنوا وهم يخالفون حكمك، ثم استأنف القسم بقوله **﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾**.

(١) تفسير الطبرى (٤/ ٥/ ١٠٠).

(٢) زاد المسير (٢/ ٧٤).

(٣) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٦٨).

(والثانى): أنها لتوكيد النفى الذى جاء فيما بعد، لأنه إذا ذكر في أول الكلام وفى آخره كان أوكد وأحسن.

مسألة: يقال شجر يشجر شجوراً وشجراً إذا اختلف واختلط، وشاجره إذا نازعه وذلك لتداخل كلام بعضهم فى بعض عند المنازعة، ومنه لخشبات الهودج شجار، لتداخل بعضها فى بعض.

قال أبومسلم الأصفهانى: وهو مأخوذ عندى من التفاف الشجر، فإن الشجر يتداخل بعض أغصانه فى بعض، وأما الحرج فهو الضيق.

قال الواحدى: يقال للشجر الملتف الذى لايكاد يوصل إليه: حرج، وجمعه حراج، وأما التسليم فهو تفعيل يقال: سلم فلان أى عوفى ولم ينشب به نائبة، وسلم هذا الشيء لفلان، أى خلص له من غير منازع، فإذا ثقلته بالتشديد فقلت: سلم له فمعناه أنه سلمه وخلصه له، هذا هو الأصل فى اللغة، وجميع استعمالات التسليم راجع إلى الأصل فقولهم: سلم عليه، أى دعا له بأن يسلم، وسلم إليه الوديعة، أى دفعها إليه بلا منازعة، وسلم إليه أى رضى بحكمه، وسلم إلى فلان فى كذا، أى ترك منازعته فيه ، وسلم إلى الله أمره أى فوض إليه حكم نفسه، على معنى أنه لم ير لنفسه فى أمره أثراً ولا شركة، وعلم أن المؤثر الصانع هو الله تعالى وحده لاشريك له.

مسألة: اعلم أن قوله تعالى ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ قسم من الله تعالى على أنه لايصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط:

أولها: قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول لايكون مؤمناً.

قلت: وستأتى باقى الشروط.

ثم قال: واعلم أن من يتمسك بهذه الآية فى بيان أنه لاسبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بارشاد النبى المعصوم قال: لأن قوله ﴿لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ تصريح بأنه لايحصل لهم الإيمان إلا بأن يستعينوا بحكم النبى عليه الصلاة والسلام فى كل ما اختلفوا فيه، ونرى أهل العلم مختلفين فى صفات الله تعالى، فمن معطل ومن مشبه ومن قدرى ومن جبرى، فلزم بحكم هذه الآية أن لايحصل الإيمان إلا بحكمه وإرشاده وهدايته، وحققوا ذلك بأن عقول أكثر الخلق ناقصة وغير وافية بإدراك هذه الحقائق، وعقل النبى المعصوم كامل مشرق، فإذا اتصل اشراق نوره بعقول الأمة قويت

عقولهم وانقلبت من النقص إلى الكمال، ومن الضعف إلى القوة، فقدروا عند ذلك على معرفة هذه الأسرار الإلهية. والذى يؤكد ذلك أن الذين كانوا فى زمان الرسول ﷺ كانوا جازمين متيقنين كاملى الإيمان والمعرفة، والذين بعدوا عنه اضطربوا واختلفوا، وهذه المذاهب ماتولدت إلا بعد زمان الصحابة والتابعين، فثبت أن الأمر كما ذكرنا، والتمسك بهذه الآية رأيته فى كتب محمد بن عبد الكريم الشهرستانى.

قلت: ثم رد الرازى على هذا الكلام بطريقة فى التفسير منها شيد، لذلك ضربنا عن هذا الرد صفحاً.

قال القرطبى(١): قال مجاهد وغيره: المراد بهذه الآية من تقدم ذكره ممن أراد التحاكم إلى الطاغوت وفيهم نزلت. وقال الطبرى: قوله «فلا» رد على ماتقدم ذكره، تقديره فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بماأنزل إليك، ثم استأنف القسم بقوله: ﴿وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾. وقال غيره: إنما قدم «لا» على القسم اهتماماً بالنفى وإظهارا لقوته، ثم كرره بعد القسم تأكيدا للتهمم بالنفى، وكان يصح إسقاط «لا» الثانية ويبقى أكثر الاهتمام بتقديم الأولى، وكان يصح إسقاط الأولى ويبقى معنى النفى ويذهب معنى الاهتمام. و﴿شَجَرَ﴾ معناه اختلف واختلط؛ ومنه الشجر لاختلاف أغصانه. ويقال لعصا الهودج: شجار؛ لتداخل بعضها فى بعض. قال الشاعر:

نفسى فداؤك والرماح شواجر والقوم ضنك للقاء قيام

وقال طرفة:

وهم الحكام أرباب الهدى وسعاة الناس فى الأمر الشجر ا.هـ

وتقدم شىء من ذلك فى كلام الفخر الرازى السابق.

وأما قوله ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

● ما جاء فى تفسير الآية عن الآثار:

عن مجاهد فى قوله ﴿حَرَجاً﴾ قال شكا(٢).

وعن الضحاك فى قوله ﴿حَرَجاً﴾ قال: إثما(٣).

(١) تفسير القرطبى (٣/١٨٣٦/١٨٣٧).

(٢) أخرجه انب جرير فى «تفسيره» (٥/ ١٠٠) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٢٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٢٣) وزاد نسبته لابن المنذر.

عن أبي سعيد الخدرى: أنه نازع الأنصار في الماء من الماء فقال لهم: أرأيت أني علمت أن ما تقولون كما تقولون واغتسل أنا؟ فقالوا له: لا والله حتى لايكون في صدرك حرج مما قضى به رسول الله ﷺ والله أعلم.اهـ.[1].

عن الضحاك في قوله: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ قال إثماً ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ يقول ويسلموا الفضائل وحكمك إذعانا منهم بالطاعة وإقراراً لك بالنبوة تسليما[2].

● **ما جاء في الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبري[3]: ﴿لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ يقول: لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً.. ا.هـ.

قال ابن الجوزى[4]. وفي «الحرج» قولان:

أحدهما: أنه الشك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى في آخرين.

والثاني: الضيق، قاله أبو عبيدة، والزجاج.

وفي قوله ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ قولان:

أحدهما: يسلموا لما أمرتهم به، فلا يعارضونك، هذا قول ابن عباس، والزجاج، والجمهور.

والثاني: يسلموا ما تنازعوا فيه لحكمك، ذكره الماوردى.

قال الرازى[5]:

الشرط الثاني: قوله ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ قال الزجاج: لا تضيق صدورهم من أقضيتك ا.هـ.

وتقدم في كلام ابن الجوزى ذلك.

واعلم أن الراضي بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام قد يكون راضياً به في الظاهر دون القلب فبين في هذه الآية أنه لابد من حصول الرضا به في القلب.

واعلم أن ميل القلب ونفرته شيء خارج عن وسع البشر، فليس المراد من الآية ذلك، بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذى يحكم به الرسول هو الحق والصدق.

---

(١) ذكره السيوطي الدر المنثور (٢/ ٣٢٢،٣٢٣). ونسبه لابن المنذر.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) تفسير الطبرى (٤/ ٥/ ١٠٠).

(٤) زاد المسير (٢/ ٧٥)

(٥) التفسير الكبير.

الشرط الثالث: قوله تعالى ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ واعلم أن من عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقاً وصدقاً قد يتمرد عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقف فى ذلك القبول. فبين تعالى أنه كما لابد فى الإيمان من حصول ذلك اليقين فى القلب. فلا بد أيضاً من التسليم معه فى الظاهر، فقوله ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ المراد به الانقياد فى الباطن، وقوله ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ المراد منه الانقياد فى الظاهر والله أعلم.

مسألة : من الفقهاء من تمسك بقوله تعالى ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ على أن ظاهر هذا الأمر للوجوب، و هو ضعيف لأن القضاء هو الإلزام، ولانزاع فى أنه للوجوب.

مسألة: ظاهر الآية يدل على أنه لايجوز تخصيص النص بالقياس، لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه على الإطلاق، وأنه لايجوز العدول عنه إلى غيره، ومثل هذه المبالغة المذكورة فى هذه الآية قلما يوجد فى شيء فى التكاليف، وذلك يوجب تقديم عموم القرآن والخبر على حكم القياس، وقوله ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ مشعر بذلك لأنه متى خطر بباله قياس يفضى إلى نقيض مدلول النص فهناك يحصل الحرج فى النفس، فبين تعالى أنه لايكمل إيمانه إلا بعد أن لايلتفت إلى ذلك الحرج، ويسلم النص تسليماً كلياً، وهذا الكلام قوى حسن لمن أنصف. اهـ.

وقال ابن كثير[1]: قوله : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة : أنه لايؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ فى جميع الأمور، فما حكَمَ به فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطنا وظاهرا. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، أى : إذاحكموك يطيعونك فى بواطنهم فلا يجدون فى أنفسهم حرجا مماحكمت به، وينقادون له فى الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولامدافعة ولامنازعة، كما ورد فى الحديث: «**والذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[2] اهـ.

قال السعدى[3]: ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة، أنهم لايؤمنون، حتى يحكموا رسوله ، فيما شجر بينهم أى : فى كل شيء يحصل فيه اختلاف.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٠٦ ـ الشعب).

(٢) تقدم (٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٥٠).

بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لاتكون إلا مستندة للكتاب والسنة.

ثم لايكفى هذا التحكيم، حتى ينتفى الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض.

ثم لايكفى هذا التحكيم، حتى يسلموا لحكمه تسليماً، بإنشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم فى مقام الإسلام، وانتفاء الحرج، فى مقام الإيمان، والتسليم فى مقام الإحسان.

فمن استكمل هذه المراتب، وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها.

ومن ترك هذا التحكيم المذكور، غير ملتزم له، فهو كافر.

ومن تركه ـ مع التزامه ـ فله حكم أمثاله من العاصين ا.هـ.

● **لم يذكر أحد من شراح كتاب التوحيد كلاماً فى هذه الآية غير سليمان آل الشيخ(1) حيث قال: قوله: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾.**

قال ابن القيم: أقسم سبحانه بأجل مقسم به، وهو نفسه عزوجل على أنه لايثبت لهم الإيمان، ولايكونون من أهله حتى يحكم لرسوله ﷺ فى جميع موارد النزاع، وفى جميع أبواب الدين فإن لفظة (ما) من صيغ العموم، ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه، بحيث لايجدون فى أنفسهم حرجاً، وهو الضيق والحصر من حكمه، بل يقبلون حكمه بالانشراح، ويقابلونه بالقبول، لا يأخذونه على إغماض، ويشربونه على قذى فإن هذا مناف للإيمان، بل لابد أن يكون أخذه بقبول ورضى، وانشراح صدر.

ومتى أراد العبد شاهداً فلينظر فى حاله، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار ومادونها﴿**بل الإنسان على نفسه بصيرة (14) ولو ألقى معاذيره**﴾ فسبحان الله! كم من حزازة فى نفوس كثير من النصوص، وبودهم أن لو لم ترد، وكم من حرارة فى أكبادهم منها، وكم من شجى فى حلوقهم من موردها، ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله ﴿ **ويسلموا تسليما**﴾ فذكر الفعل مؤكداً له بالمصدر القائم مقام ذكره مرتين، وهو الخضوع والانقياد

(1) تيسير العزيز الحميد (٤٢٢، ٤٢٣).

لماحكم به طوعاً ورضاً وتسليماً، لاقهراً أو مصابرة، كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذى هو أحب شيء إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه فى تسليماته. انتهى. أهـ.

وذكر سليمان آل الشيخ[1]: قوله تعالى **﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾**[2]. وقال:

المعنى والله أعلم أى: لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بنى إسرائيل من قتلهم أنفسهم، أوخروجهم من ديارهم حين استتيبوا من عبادة العجل **﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾**[3]، وهذا توبيخ لمن لم يحكم الرسول ﷺ فى موارد الشجار أى: نحن لم نكتب عليهم ذلك، بل إنما أوجبنا عليهم ما فى وسعهم، فما لهم لا يحكمونك، ولا يرضون بحكمك؟.

ثم قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾**[4].

قال ابن القيم: أخبر تعالى أنهم لو فعلوا ما يعظهم به، وهو أمره ونهيه المقرون بوعده ووعيده لكان فعل أمره، وترك نهيه خيراً لهم فى دينهم ودنياهم، وأشد تثبيتاً لهم على الحق، وتحقيقاً لإيمانهم، وقوة لعزائمهم وإرادتهم، وثباتاً لقلوبهم عند جيوش الباطل، وعند واردات الشبهات المضلة، والشهوات المردية. فطاعة الله تعالى، ورسوله ﷺ هى سبب ثبات القلب، وقوته وقوة عزائمه وإرادته، ونفاذ بصيرته، وهذا دليل على أن طاعة الرسول ﷺ تثمر الهداية، وثبات القلب عليها، ومخالفته تثمر زيغ القلب، واضطرابه، وعدم ثباته. ثم قال تعالى: **﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾**[5]، فهذه أربعة أنواع من الجزاء المرتب على طاعة الرسول ﷺ،

أحدها: حصول الخير المطلق بها.

الثانى: التثبت والقوة المتضمن للنصر والغلبة.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٢٤، ٤٢٥).

(٢) سورة النساء: ٦٦ (٣) النساء: ٦٦.

(٤) النساء، الآيات: ٦٦، ٦٧، ٦٨.

(٥) النساء، الآيات ٦٧ ـ ٦٨.

والثالث: حصول الأجر العظيم لهم فى الآخرة.

والرابع: هدايتهم الصراط المستقيم. وهذه الهداية هى هداية ثانية أوجبتها طاعة الرسول ﷺ فطاعته ثمرة الهداية السابقة عليها فهى محفوفة بهدايتين: هداية قبلها وهى سبب الطاعة، وهداية بعدها هى ثمرة لها، وهذا يدل على انتفاء هذه الأمور الأربعة عند انتفاء طاعة الرسول ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾(٢).

قال ابن القيم: فأخبر سبحانه أن طاعته، وطاعة رسوله ﷺ توجب مرافقة المنعم عليهم، وهم أهل السعادة الكاملة، وهم أربعة أصناف النبيون وهم أفضلهم ثم الصديقون وهم بعدهم فى الدرجة، ثم الشهداء، ثم الصالحون فهؤلاء المنعم عليهم النعمة التامة وهم السعداء الفائزون، ولا فلاح لأحد إلا بمرافقتهم، والكون معهم، ولاسبيل إلى مرافقتهم إلا بطاعة الرسول ﷺ، ولا سبيل إليها إلا بمعرفة سنته وماجاء به فدل على أن من عدم العلم بسنته وماجاء به؛ فليس له إلى مرافقة هؤلاء سبيل، بل هو ممن يعض على يديه يوم القيامة، ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾(٣).

قلت ـ أى سليمان ـ: (ما) لمن لم يحكم الرسول ﷺ فى موارد النزاع إلى مرافقة هؤلاء المنعم عليهم سبيل، وكيف يكون له سبيل إلى ذلك، وعنده أن من حكم الرسول ﷺ فى موارد النزاع فهو إما زنديق أو مبتدع، وأنى له بطاعة الله ورسوله، وهذا أصل اعتقاده الذى بنى عليه دينه، ومع ذلك يحسبون أنهم مهتدون إذا حكموا غير الرسول ﷺ، ونبذوا حكمه وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون.



قوله [﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾].

مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ:(٤): ومطابقة الآية للترجمة ظاهر؛ لأن من دعا إلى

---

(١) البقرة : ١١.
(٢) النساء: ٦٩.
(٣) الفرقان : ٢٧.
(٤) تيسير العزيز الحميد

التحاكم إلى غير ما أنزل الله فقد أتى بأعظم الفساد. أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ[1]: مناسبة الآية للترجمة أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين وهو من الفساد فى الأرض.

قال عبدالله بن جار الله:[2]: أن التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله من أعمال المنافقين ومن الإفساد فى الأرض ومن الحكم بالطاغوت ا.هـ.

وقال ابن عثيمين[3]: ومناسبة الآيةللباب ظاهرة، وذلك أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله من أكبر أسباب الفساد فى الأرض.

وقال القرعاوى[4]: بنحو ماتقدم.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى[5]: تضمنت الآية النهى عن التحاكم إلى غير ما أنزل الله؛ لأن ذلك منافى لشهادة لا إله إلا الله. اهـ.

قوله ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ**﴾

الإعراب[6]: (وإذا) الواو استئنافية والجملة بعدها مستأنفة لامحل لها ويجوز أن تكون الواو عاطفة والجملة بعدها معطوفة على جملة يكذبون فتكون فى موضع نصب عطفاً على خبر كان والمعطوف على الخبر خبر فهى بهذه المثابة جزء من السبب الذى استحقوا به العذاب الأليم وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه.

(قيل) فعل ماض مبنى للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر فيه تقديره يعود على الله تعالى وفى هذا التعبير بحث وجملة قيل فى محل جر بإضافة الظرف إليها.

(لهم) الجار والمجرور متعلقان بقيل.

(لاتفسدوا فى الأرض) (لا) الناهية الجازمة (تفسدوا) فعل مضارع مجزوم بلاوعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعل.

---

(١) فتح المجيد (٢/٦٥٩).

(٢) الجامع الفريد (١٥٦).

(٣) القول المفيد (٢/٣٤١).

(٤-٥) الجديد (٣٤٤).

(٦) إعراب القرآن الكريم وبيانه (١/٣٤).

قال القرطبي[1]: (إذا) في موضع نصب على الظرف والعامل فيها قالوا؛ وهي تؤذن بوقوع الفعل المنتظر. قال الجوهري: إذا اسم يدل على زمان مستقبل ولم تستعمل إلا مضافة إلى جملة، تقول: أجيئك إذا أحمر البسر وإذا قدم فلان؛ والذى يدل على أنها اسم وقوعها موقع قولك: آتيك يوم يقدم فلان؛ فهى ظرف وفيها معنى المجازاة. وجزاء الشرط ثلاثة: الفعل والفاء وإذا؛ فالفعل قولك: إن تأتنى آتك، والفاء إن تأتنى فأنا أحسن إليك؛ وإذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾. ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخطيم:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها * خطانا إلى أعدائنا فنضارب

فعطف فنضارب بالجزم على موضع كان لأنه مجزوم، ولو لم يكن مجزوما لقال فنضارب بالنصب. وقد تزاد على إذا، ما تأكيدا فيجزم بها أيضا؛ ومنه قول الفرزدق.

فقام أبو ليلى إليه ابن ظالم وكان إذا ما يسلل السيف يضرب

قال سيبويه: والجيد ما قال كعب بن زهير:

وإذا ما تشاء تبعث منها مغرب الشمس ناشطا مذعورا

يعنى أن الجيد ألا يجزم بإذا كما لم يجزم فى هذا البيت. وحكى عن المبرد: أنها فى قولك فى المفاجأة خرجت فإذا زيد ظرف مكان لأنها تضمنت جنة، وهذا مردود لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان؛ ومنه قوله: «اليوم خمر وغداً أمر» فمعناه وجود خمر ووقوع أمر. اهـ.

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[2]: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ اختلف أهل التأويل فى تأويل هذه الآية.

فروى عن سلمان الفارسى أنه كان يقول: لم يجىء هؤلا بعد[3].

وعن عباد بن عبدالله عن سلمان قال: ماجاء هؤلاء بعد، الذين﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[4].

(١) تفسيرالقرطبى (١/ ١٧٤، ١٧٥).
(٢) تفسير الطبرى ١ / ١ / ٩٧، ٩٨.
(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٦٨) وزاد نسبته لوكيع، وابن أبى حاتم.
(٤) ما قبله.

وعن زيد بن وهب وغيره عن سلمان: أنه قال فى هذه الآية **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾** قال: ماجاء هؤلاء بعد (١).

عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾** هم المنافقون أما لا تفسدوا فى الأرض فإن الفساد هو الفر والعمل بالمعصية(٢).

وعن الربيع: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾** يقول: لاتعصوا فى الأرض قال: فكان فسادهم على أنفسهم ذلك معصية الله جل ثناؤه؛ لأن من عصى الله فى الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد فى الأرض؛ لأن اصلاح الأرض والسماء بالطاعة (٣).

وأولى التأويلين بالآية: تأويل من قال: أن قول الله تبارك اسمه **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾** نزلت فى المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وإن كان معنيا بها كل من كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة.

وقد يحتمل قول سلمان عند تلاوة هذه الآية ماجاء هؤلاء بعد، أن يكون قاله بعد فناء الذين كانوا بهذه الصفة على عهد رسول الله ﷺ خبراً منه عمن جاء منهم بعدهم ولما يجىء بعد، لا أنه عنى أنه لم يمض ممن هذه صفته أحد.

وإنما قلنا أولى التأويلين بالآية ما ذكرنا لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك صفة من كان بين ظهرانى أصحاب رسول الله ﷺ على عهد رسول الله ﷺ من المنافقين، وأن هذه الآيات فيهم نزلت، والتأويل المجمع عليه أولى بتأويل القرآن من قول لا دلالة على صحته من أصل ولا نظير.

والافساد فى الأرض العمل فيها بما نهى الله جل ثناؤه عنه وتضيع ما أمر الله بحفظه فذلك جملة الافساد كما قال جل ثناؤه فى كتابه مخبراً عن قيل ملائكته **﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾** يعنون بذلك: أتجعل فى الأرض من يعصيك ويخالف أمرك فكذلك صفة أهل النفاق مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربهم

(١) نفس المصدر السابق وانظر «فتح القدير» (٢٦٦ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١/ ٩٧، ٩٨) وانظر «الدر» (١/ ٦٨) وانظر «فتح القدير» (٢٦٣ ـ بتخريجنا).

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

وركوبهم فيها مانــهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه وشكـهم فى دين الله الذى لايقبل من أحد عملاً الا بالـتصديق به والايقان بحقيـته، وكذبهم المؤمنين بدعـواهم غير ماهم عليه مقيمون الشك والريب وبمظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً فذلك إفساد المنافقـين فى أرض الله وهم يحسبون أنه بفعلهم ذلك مصلحون فيهـا، فلم يسقط الله جل ثناؤه عنهم عقوبته، ولاخـفف عنهم أليم ما أعد من عقابـه لأهل معصيته بحـسبانهم أنهم فيـما أتوا من معاصى الله مصـلحون بل أوجب لهم الـدرك الأسفل من ناره والأليم من عـذابه والعار العاجل بـسب الله إياهم وشمته لهم، فـقال تعالى ألا ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ وذلك من حكم الله جل ثناؤه فيهـم أدل الدليل على تكذيبه تعالى قول الـقائلين أن عقوبات الله لايستحقها إلا المعاند ربه فيما لزمه من حقوقه وفروضه بعد عمـله وثبوت الحجة عليه بمعرفته بلزوم ذلك إياه ا.هـ.

قال البغوى[1]: قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعنى المنافقين، وقيل لليهود، أى قال لهم المؤمنون.

قال الفخر الرازى[2]: فمنهم من قال : ذلك القائل هو الله تعالى.

ومنهم من قال: هو الرسول عليه السلام.

ومنهم من قال بعض المؤمنين.

وكل ذلك محتمل، ولايجوز أن يكون القائل بذلك من لايختص بالدين والنصيحة، وإن كان الأقرب هو أن القائل لهم ذلك من شافههم بذلك، فإما أن يكون الرسول عليه السلام بلغه عنهم النفاق ولم يقطع بذلك فـنـصحهم فأجابوا بما يحقق إيمانهم وأنهم فى الصلاح بمنزلة سائر المؤمنين، وإما أن يقال : إن بعض من كانوا يلقون إليه الفساد كان لايقبلـه منهم وكان ينقـلب واعظاً لهم قـائلاً لهم (لا تُفْسِدُوا) فإن قيل: أفـما كانوا يخبرون الرسول عليـه السلام بذلك؟ قلنا نعم، إلا أن المنافقيـن كانوا إذا عوتبوا عادوا إلى إظهار الإسلام والندم وكذبوا الناقلين عنهم وحـلفوا بالله عليه كما أخبر تعالى عنهم فى قوله ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾وقال ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾

قال ابن الجوزى[3]: وفى المراد بالفساد هاهنا خمسة أقوال:

أحدها: أنه الكفر، قاله ابن عباس.

---

(١) معالم التنزيل (١/ ٤٣).

(٢) التفسير الكبير (١/ ١/ ٧٤)

(٣) زاد المسير ١/ ٢٧.

والثانى : العمل بالمعاصى، قاله أبو العالية، ومقاتل.

والثالث: أنه الكفر والمعاصى، قاله السدى عن أشياخه.

والرابع: أنه ترك امتثال الأوامر، واجتناب النواهى، قاله مجاهد.

والخامس: أنه النفاق الذى صادفوا به الكفار، وأطلعوهم على أسرار المؤمنين، ذكره شيخنا على بن عبيد الله.

قال الرازى[1]: الفساد خروج الشىء عن كونه منتفعاً به، ونقيضه الصلاح فأما كونه فساداً فى الأرض فإنه يفيد أمراً زائداً، وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدى: أن المراد بالفساد فى الأرض إظهار معصية الله تعالى.

وتقريره ما ذكره القفال رحمه الله وهو أن إظهار معصية الله تعالى إنما كان إفساداً فى الأرض، لأن الشرائع سنن موضوعة بين العباد، فإذا تمسك الخلق بها زال العدوان ولزم كل أحد شأنه، فحقنت الدماء وسكنت الفتن، وكان فيه صلاح الأرض وصلاح أهلها، أما إذا تركوا التمسك بالشرائع وأقدم كل أحد على ما يهواه لزم الهرج والمرج والاضطراب، ولذلك قال تعالى ﴿**فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض**﴾ نبههم على أنهم إذا أعرضوا عن الطاعة لم يحصلوا إلا على الإفساد فى الأرض به.

وثانيها: أن يقال ذلك الفساد هو مداراة المنافقين للكافرين ومخالطتهم معهم، لأنهم لمامالوا إلى الكفر مع أنهم فى الظاهر مؤمنون أوهم ذلك ضعف الرسول ﷺ، وضعف أنصاره، فكان ذلك يجرىء الكفرة على إظهار عداوة الرسول ونصب الحرب له وطمعهم فى الغلبة، وفيه فساد عظيم فى الأرض.

وثالثها: قال الأصم: كانوا يدعون فى السر إلى تكذيبه، وجحد الإسلام، وإلقاء الشبه.

قال القرطبى[2]: لاتفسدوا قوله ﴿**لا تُفْسِدُوا**﴾ لانهى، والفساد ضد الصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها. فسد الشىء يفسد فسادا وفسودا وهو فاسد وفسيد. والمعنى فى الآية لاتفسدوا فى الأرض بالكفر وموالاة أهله، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن. وقيل : كانت الأرض قبل أن يبعث النبى ﷺ فيها الفساد، ويفعل فيهابالمعاصى؛ فلما بعث النبى ﷺ ارتفع الفساد وصلحت الأرض؛ فإذا

(١) التفسير الكبير ١/٢/٧٤ .

(٢) تفسير القرطبى ١/١٧٦.

عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها؛ كما قال فى آية أخرى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾(١)

● **ما جاء فى الآية من شراح كتاب التوحيد:**

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢): قال أبو العالية: يعنى: لاتعصوا فى الأرض ، لأن من عصى الله فى الأرض أو أمر بمعصية الله: فقد أفسد فى الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله(٣).

وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام، فى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ فدلت الآية على أن كل معصية فساد فى الأرض ا.هـ.

قال ابن باز(٤): صلاح الأرض باتباع الشرع وتحكيمه، وفسادها بمخالفة أمر الله، والتحاكم إلى غيره. ا.هـ.

قال ابن عثيمن(٥): الإفساد فى الأرض نوعان:

الأول: إفساد حسى مادى، وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثانى : إفساد معنوى، وذلك بالمعاصى؛ فهى من أكبر الفساد فى الأرض، قال تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٦)، وقال تعالى :﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾(٧)، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٨)، وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾(٩).

---

(١) الأعراف: ٥٦

(٢) فتح المجيد (٢/٦٥٢)

(٣) فتح المجيد ٢/٦٥٩.

(٤) التعليق المفيد (٢٠٠).

(٥) القول المفيد : ٢/ ٣٤٠، ٣٤١.

(٦) الروم : ٤١.

(٧) الشورى : ٣٠

(٨) الأعراف: ٩٦.

(٩) المائدة : ٦٥/ ٦٦.

قال القرعاوى[1]: حقيقة الإفساد ترك الاستقامة إلى ضدها والمراد هنا لا تفسدوا فى الأرض بالمعاصى. ا.هـ.

الإعراب:

قوله: ﴿فِى الأَرْضِ﴾ [2]: الجار والمجرور متعلقان بتفسدوا. اهـ.

قال القرطبى[3]: قوله: ﴿فِى الأَرْضِ﴾ الأرض مؤنثة وهى اسم جنس، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرضة، ولكنهم لم يقولوا، والجمع أرضات لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم: عرسات، ثم قالوا أرضون فجمعوا بالواو والنون، والمؤنث لايجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصاً كُثُبة وظبة، ولكنهم جعلوا الواو والنون، عوضا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سكنت، وقد تجمع على أروض؛ وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون: أرض وآراض، كما قالوا: أهل وآهال؛ والأراضى أيضاً على غير قياس كأنهم جمعوا أرضا؛ وكل ماسفل فهو أرض؛ وأرض أرضه أى زكية بينة الأراضة، وقد أرضت بالضم أى زكت. قال أبو عمر: نزلنا أرضا أريضة أى معجبة للعين؛ ويقال: لا أرض لك، كما يقال: لاأم لك. والأرض أسفل قوائم الدابة؛ قال حميد يصف فرسا:

ولم يقلب أرضها البيطار ❊ ولا لحبليه بها حبار

أى أثر؛ والأرض: النفضة والرعدة. روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبدالله بن الحارث قال: زلزلت الأرض بالبصرة، فقال ابن عباس: والله ما أدرى؟ أزلزلت الأرض بى أم بى أرض؟ أى أم رعدة؛ وقال ذو الرمة يصف صائدا:

إذا توجس ركزا من سنابكها ❊ أو كان صاحب أرض أو به الموم

والأرض: الزكام، وقد آرضه الله إيراضاً، أى أزكمه فهو مأروض؛ وفسيل مستأرض، وودية مستأرضة بكسر الراء وهو أن يكون له عرق فى الأرض؛ فأما إذا نبت على جذع النخل فهو الراكب.

والإراض بالكسر: بساط ضخم من صوف أو وبر، ورجل أريض، أى متواضع خلق للخير؛ قال الأصمعى يقال: هو آرضهم أن يفعل ذلك أى أخلقهم؛ وشيىء عريض أريض اتباع له؛ وبعضهم يفرده ويقول: جدى أريض أى سمين ا.هـ.

---

(1) الجديد (٣٤٢).

(2) إعراب القرآن ١/ ٣٥.

(3) تفسير القرطبى: ١/ ٩٨، ٩٩.

قوله: «قالوا إنما نحن مصلحون».

الإعراب:[1] **(إنما)** كافة ومكفوفة **(نحن)** مبتدأ **(مصلحون)** خبر نحن مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة فى محل نصب مقول القول ا.هـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

وروى الطبرى: عن ابن عباس قوله إنما نحن مصلحون أى قالوا إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب[2].

وخالفه فى ذلك غيره عن مجاهد وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قال إذا ركبوا معصية الله فقيل لهم لاتفعلوا كذا وكذا قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون[3].

قال أبو جعفر: وأى الأمرين كان منهم فى ذلك أعنى دعواهم أنهم مصلحون فهم لاشك أنهم كانوا يحسبون أنهم فيما أتوا من ذلك مصلحون فسواء بين اليهود والمسلمين كانت دعواهم الإصلاح أوفى أديانهم وفيما ركبوا من معصية الله وكذبهم المؤمنين فيما أظهروا لهم من القول وهم لغيرما أظهروا مستبطنون لأنهم كانوا فى جميع ذلك من أمرهم عند أنفسهم محسنين وهم عند الله مسيئون ولأمر الله مخالفون لأن الله جل ثناؤه قد كان فرض عليهم عداوة اليهود وحربهم مع المسلمين وألزمهم التصديق برسول الله ﷺ وبما جاء به من عند الله كالذى ألزم من ذلك المؤمنين فكان لقاءهم اليهود على وجه الولاية منهم لهم وشكهم فى نبوة رسول الله ﷺ وفيماجاء به أنه من عند الله أعظم الفساد وإن كان ذلك عندهم إصلاحا وهدى فى أديانهم أو فيما بين المؤمنين واليهود فقال جل ثناؤه فيهم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ دون الذين ينهونهم من المؤمنين عن الإفساد فى الأرض ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ .اهـ.

قال ابن الجوزى[4]: قوله تعالى ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فيه خمسة أقوال:

أحدها: أن معناه إنكار ما عرفوا به، وتقديره : مافعلنا شيئاً يوجب الفساد

والثانى: أن معناه: إنا نقصد الإصلاح بين المسلمين والكافرين، والقولان عن ابن عباس.

والثالث: أنهم أرادوا مصافاة الكفار صلاح، لا فساد، قاله مجاهد، وقتادة.

---

(1) إعراب القرآن ١/ ٣٥.

(2) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١/ ٩٨) وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٦٨) وزاد نسبته لابن إسحاق، وابن أبى حاتم.

وانظر «فتح القدير» (٢٦٤ ـ بتخريجنا).

(3) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وانظر «الدر» (١/ ٦٨).

(4) زاد المسير ١/ ٢٧/ ٢٨.

والرابع: أنهم أرادوا أن فعلنا هذا هو الصلاح، وتصديق محمد هو الفساد، قاله السدى.

والخامس : أنهم ظنوا أن مصافاة الكفار صلاح فى الدنيا لا فى الدين، لأنهم اعتقدوا أن الدولة إن كانت للنبى ﷺ فقد أمنوه بمبايعته وإن كانت للكفار فقد أمنوهم بمصافاتهم، ذكره شيخنا.

قال الرزاى (١): الذين قالوا إنما نحن مصلحون هم المنافقون، والأقرب فى مرادهم أن يكون نقيضاً لمانهوا عنه، فلما كان الذى نهوا عنه هو الإفساد فى الأرض كان قولهم﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون﴾ كالمقابل له، وعند ذلك يظهر احتمالان:

أحدهما: أنهم اعتقدوا فى دينهم أنه هو الصواب، وكان سعيهم لأجل تقوية ذلك الدين، لا جرم قالوا إنما نحن مصلحون، لأنهم فى اعتقادهم ما سعوا إلا لتطهير وجه الأرض عن الفساد.

وثانيهما: أنا إذا فسرنا ﴿لا تُفْسِدُوا﴾ بمداراة المنافقين للكفار فقولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون﴾ يعنى به أن هذه المداراة سعى فى الإصلاح بين المسلمين والكفار، ولذلك حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا ﴿إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ فقولهم﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون﴾أى نحن نصلح أمور أنفسنا.

قال القرطبى (٢): قوله تعالى مصلحون اسم فاعل من أصلح؛ والصلاح: ضد الفساد، وصلح الشىء بضم اللام وفتحها لغتان قاله ابن السكيت. والصلوح بضم الصاد مصدر صلح بضم اللام؛ قال الشاعر:

فكيف بإطرافى إذا ما شتمتى ... وما بعد شتم الوالدين صلوح

وصلاح من أسماء مكة؛ والصلح بكسر الصاد: نهر.

وإنما قالوا ذلك على ظنهم ، لأن إفسادهم عندهم إصلاح، أى إن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله ابن عباس وغيره.



قوله ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون﴾.

الإعراب (٣):

لا حرف تنبيه يستفتح بها الكلام﴿إنهم﴾ إن حرف مشبه بالفعل والهاء اسمها ﴿هم﴾ ضمير فصل أو عماد لامحل له من الإعراب ولك أن تعرب هم مبتدأ (المفسدون) خبره و الجملة الاسمية فى محل رفع خبر إن﴿ولَكِن﴾ الواو عاطفة ولكن مخففة من الثقيلة

---

(١) التفسير الكبير ١/ ٧٤،٧٥ . (٢) تفسير القرطبى ١/ ١٧٧ . (٣) إعراب القرآن ١/ ٣٥ .

لمجرد الاستدراك(لا) نافية (يشعرون) فعل مضارع مرفوع والواو فاعل الجملة معطوفةعلى ماتقدم.

● **ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى [1]: وهذا القول من الله جل ثناؤه تكذيب للمنافقين فى دعواهم إذا أمروا بطاعة الله فيماأمرهم الله به ونهوا عن معصية الله فيما نهاهم الله عنه قالوا إنما نحن مصلحون لامفسدون نحن على رشد وهدى فيما أنكرتموه علينا دونكم لاضالون فكذبهم الله عزوجل فى ذلك من قيلهم فقال ألا إنهم هم المفسدون المخالفون أمر الله عزوجل المتعدون حدوده الراكبون معصيته التاركون فروضه وهم لايشعرون ولا يدرون أنهم كذلك لا الذين يأمرونهم بالقسط من المؤمنين وينهونهم عن معاصى الله فى أرضه من المسلمين.

قال ابن الجوزى[2]: قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ قال الزجاج: (ألا): كلمة يبتدأ بها، ينبه بها المخاطب، تدل على صحة مابعدها. و«هم»: تأكيد للكلام.

وفى قوله تعالى: ﴿ولكن لايشعرون﴾ قولان:

أحدهما: لايشعرون أن الله يطلع نبيه على فسادهم.

والثانى: لايشعرون أن ما فعلوه فساد لا صلاح.

قال الرازى[3]: واعلم أن العلماء استدلوا بهذه الآية على أن من أظهر الإيمان وجب إجراء حكم المؤمنون عليه، وتجويز خلافه لايطعن فيه، وتوبة الزنديق مقبولة والله أعلم. وأما قوله ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فخارج على وجوه ثلاثة.

أحدها: أنهم مفسدون لأن الكفر فساد فى الأرض، إذ فيه كفران نعمة الله، وإقدام كل أحد على مايهواه، لأنه إذا كان لايعتقد وجود الإله ولايرجو ثواباً ولاعقاباً تهارج الناس، ومن هذا ثبت أن النفاق فساد؛ ولهذا قال﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض**﴾ على ماتقدم تقريره .

قال ابن كثير[4]: من الفساد فى الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال تعالى﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ ثم قال ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

---

(١) تفسيرالطبرى ١ / ٤ / ٩٩ -
(٢) زاد المسير ١/ ٢٨.
(٣) التفسير الكبير ١/١/ ٧٥
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٩

فالمنافق لما كان ظاهرة الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين فكان الفساد من جهة المنافق حاصل لأنه هوالذى غرّ المؤمنين بقوله الذى لاحقيقة له ووالي الكافرين على المؤمنين ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح ولهذا قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أى نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء كماقال محمد إبن إسحق عن محمد ابن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد ابن جبير عن ابن عباس﴿وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ أي إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب يقول الله ﴿ألا إِنَّهُم هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ يقول ألا إن هذا الذى يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لايشعرون بكونه فساداً.

● **ما جاء في الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[1]: قال ابن القيم : قال أكثر المفسرين: لاتفسدوا فيهابالمعاصى والدعاء إلى غيرطاعة الله بعد إصلاح الله إياهابعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله فإن عبادة غيرالله، والدعوة إلى غيره، والشرك به هو أعظم فساد فى الأرض، بل فساد الأرض فى الحقيقة إنماهوبالشرك به، ومخالفة أمره. فالشرك والدعوة إلى غير الله،وإقام معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ هوأعظم الفساد فى الأرض ، ولاصلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ. فاذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته؛ فلا سمع له ولا طاعة. من تدبر أحوال العالم، وجد كل صلاح فى الأرض فسببه توحيد الله وعبادته، وطاعة رسوله ﷺ ، وكل شر فى العالم ، وفتنة وبلاء ،وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة الرسول، والدعوةإلى غير الله ورسوله، انتهى وبهذا يتبين وجه مطابقة الآية للترجمة، لأن من يدعو إلى التحاكم إلى غير ما أنزل اللهوإلى الرسول ، فقد أتى بأعظم الفساد. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[2]: وفى الآية :التنبيه على عدم الاغترار (بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى وفيها: التحذير من الاغترار) بالرأى: مالم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذ جاءه، وهذا من الفساد فى الأرض، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة تخرج صاحبها من الحق وتدخله فى الباطل . نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٢٥،٤٢٦).
(٢) فتح المجيد (٢/ ٥٤٣).

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾(*).

فتدبر تجد ذلك في حال الأكثر: إلا من عصمه الله، ومَنَّ عليه بقوة داعي الإيمان، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات، وبصراً نافذًا عند ورود الشبهات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.



قوله: [وقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾].

مناسبة الآية للباب:

قال عبدالرحمن آل الشيخ [(١)]: ووجه مطابقه هذه الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله، وهو سبيل المؤمنين. كماقال تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله[(٢)]: أن التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أعظم ما يفسد في الأرض، وأنه لاصلاح لها إلا بتحكيم الكتاب والسنة وهو سبيل المؤمنين. اهـ.

قال ابن عثيمين [(٣)]: ومناسبة الآية للباب أن التحاكم إلى ما أنزل الله هو الإصلاح وأن التحاكم إلى غيره هو الإفساد. اهـ.

وقال القرعاوي[(٤)]: حيث نهت الآية عن الإفساد في الأرض ومن الإفساد التحاكم إلى غير الله ورسوله. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

وقال القرعاوي[(٥)]: حيث تضمنت الآية النهي عن التحاكم إلى غير الله ورسوله لأن ذلك منافي لشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. اهـ.

قوله : «ولاتفسدوا في الأرض بعد اصلاحها»

الإعراب[(٦)]:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ كلام مستأنف مسوق لتحذير البشرمن الفساد

(*) الأعراف : ٥٦.
(١) فتح المجيد ٢/ ٦٦١.
(٢) الجامع الفريد (١٥٦).
(٣) القول المفيد ٢/ ٣٤٢.
(٤ - ٥) الجديد ٣٤٢.
(٦) رعراب القرآن ٣٦٩.

فى الأرض. و(**لا**) ناهية، و(**تفسدوا**) فعـل مضارع مجـزوم بلا، و(**فى الأرض**) جار ومجرور متعلقان بتفسدوا، و(**بعد**) ظرف متعلق بتفسدوا أيضاً، و(**إصلاحها**) مضاف إليه.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن أبى صالـح فى قوله﴿**وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا**﴾قال: بعدما صلحها الأنبياء وأصحابهم[1].

عن أبى بكـر بن عياش أنه سئـل عن قوله « **وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا**» فقال: إن الله بعث محمداً إلى أهل الأرض وهم فى فساد فأصلحهم الله بمحمد ﷺ، فمن دعا إلى خلاف ماجاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين فى الأرض[2].

عن أبـى سنان فى قـوله: ﴿**وَلا تُفْسِدُوا...**﴾ قال : قـد أحلـلت حلالى وحرمت حرامى وحددت حدودى فلا تعتدوا[3].

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى[4]: يعنى تعالـى ذكره بقوله ﴿**وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا**﴾ لاتشركوا بالله فى الأرض، ولاتعـصوه فيها؛ وذلك هوالفساد فيهـاوقد ذكرنا الرواية فى ذلك فيما مضى، وبينا معناه بشواهده ﴿**بَعْدَ إِصْلاحِهَا**﴾ بقول بعد إصلاح الله إياها لأهل طاعته بابتعاثة فيهم الرسل دعاة إلى الحق وإيضاحه حجة لهم. اهـ.

قال البغوى[5]: قوله تعالى ﴿**وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا**﴾. أى لاتفسدوا فيها بالمـعاصى والدعاء إلى غير طاعـة الله بعد إصلاح الله إياها ببعـث الرسل. وبيان الشـريعة، والدعـاء إلى طاعـة الله، وهذا معنـى قول الحسـن، والسدى، والضـحاك، والكلبى.

وقال عطية: لاتعصوا فى الأرض فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم، فعلى هذا معنى قوله: ﴿**بَعْدَ إِصْلاحِهَا**﴾ أى بعد إصلاح الله إياها بالمطر والخصب.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٧٢) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) تفسير الطبرى ٥/٨ / ١٤٧.

(٥) معالم التنزيل / ٤٨٣

قال ابن الجوزى [1]: قوله تعالى: ﴿ **وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا**﴾ فيه ستة أقوال:

أحدها: لاتفسدوها بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان.

والثانى: لاتفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل.

الثالث: لاتفسدوها بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة.

والرابع: لاتعصوا، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم بعد أن أصلحها بالمطر والخصب.

الخامس: لاتفسدوها بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه.

والسادس: لاتفسدوها بتكذيب الرسل بعد إصلاحها بالوحى.

قال الرازى [2]:

قوله: ﴿**وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا**﴾ معناه ولاتفسدوا شيئاً فى الأرض فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل وبقطع الأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الحيل وإفساد الأديان بالكفر والبدعة، وإفساد الأنساب بسبب الأقدام على الزنا واللواطة وسبب القذف، وافساد العقول بسبب شرب المسكرات، وذلك لأن المصالح المعتبرة فى الدنيا هى هذه الخمسة: النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول.

فقوله ﴿**وَلا تُفْسِدُوا**﴾ منع عن إدخال ماهية الإفساد فى الوجود، والمنع من إدخال الماهية فى الوجود يقتضى المنع من جميع أنواعه وأصنافه، فيتناول المنع من الإفساد فى هذه الإقسام الخمسة.

وأما قوله ﴿**بَعْدَ إِصْلاحِهَا**﴾ فيحتمل أن يكون المراد بعد أن أصلح خلقتها على الوجه المطابق لمنافع الخلق والموافق لمصالح المكلفين.

ويحتمل أن يكون المراد بعد إصلاح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب كأنه تعالى قال: لما أصلحت مصالح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب وتفصيل الشرائع فكونوا منقادين لها، ولاتقدموا على تكذيب الرسل وإنكار الكتب والتمرد عن

---

(١) زاد المسير ٣/ ١٦٥.

(٢) التفسير الكبير ٤/ ٧/ ١٣٩، ١٤٠

قبول الشرائع، فإن ذلك يقتضى وقوع الهرج والمرج فى الأرض، فيحصل الإفساد بعد الإصلاح،وذلك مستكره فى بداهة العقول.

مسألة: هذه الآية تدل على أن الأصل فى المضار الحرمة والمنع على الإطلاق.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصا خاصاً دل على جواز الإقدام على بعض المضار قضينا به تقديما للخاص على العام وإلا بقى على التحريم الذى دل عليه هذا النص .

واعلم أنا كنا قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾** أن هذه الآية تدل على أن الأصل فى المنافع واللذات الإباحة والحل، ثم بينا أنه لما كان الأمركذلك دخل تحت تلك الآية جميع أحكام الله تعالى، فكذلك فى هذه الآية أنها تدل على أن الأصل فى المضار والآلام: الحرمة.

وإذا ثبت هذا كان جميع أحكام الله تعالى داخلاً تحت عموم هذه الآية، وجميع ماذكرناه من المباحث واللطائف فى تلك الآية فهى موجودة فى هذه الآية، فتلك الآية دالة على أن الأصل فى المنافع الحل، وهذه الآية دالة على أن الأصل فى جميع المضار الحرمة، وكل واحدة من هاتين الآيتين مطابقة للأخرى مؤكدة لمدلولها مقررة لمعناها، وتدل على أن أحكام جميع الوقائع داخلة تحت هذه العمومات.

وأيضاً هذه الآية دالة على أن كل عقد وقع التراضى عليه بين الخصمين فإنه انعقد وصح وثبت، لأن رفعه بعد ثبوته يكون إفساداً بعد الإصلاح، والنص يدل على أنه لايجوز.

إذا ثبت هذا فنقول: أن مدلول هذه الآية من هذا الوجه متأكد بعموم قوله: **﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾** وبعموم قوله تعالى: **﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾** وتحت سائر العمومات الواردة فى وجوب الوفاء بالعهود والعقود.

إذا ثبت هذا فنقول : إن وجدنا نصاً دالاً على أن بعض العقود التى وقع التراضى به من الجانبين غير صحيح، قضينا فيه بالبطلان تقديماً للخاص على العام، وإلا حكمنا فيه بالصحة رعاية لمدلول هذه العمومات.

وبهذا الطريق البين الواضح ثبت أن القرآن واف ببيان جميع أحكام الشريعة من أولها إلى آخرها. اهـ.

قال القرطبى[1]: قوله تعالى: ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ فيه مسألة واحدة ـ وهو أنه سبحانه نهى عن كل فساد قل أو كثر بعد صلاح قل أو كثر.

فهوعلى العموم على الصحيح من الأقوال.

وقال الضحاك: معناه لاتعوروا الماء المعين، ولاتقطعوا الشجر المثمر ضراراً.

وقد ورد: قطع الدنانير من الفساد فى الأرض.

وقد قيل، تجارة الحكام من الفساد فى الأرض.

وقال القشيرى: المراد ولاتشركوا ؛فهو نهى عن الشرك وسفك الدماء والهرج فى الأرض. وأمر بلزوم الشرائع بعد إصلاحها بعد أن أصلحها الله ببعثة الرسل وتقدير الشرائع ووضوح ملة محمد ﷺ.

قال ابن عطية: وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر.

قلت: وأما ما ذكره الضحاك فليس على عمومه، وإنما ذلك إذا كان فيه ضرر على المؤمن، وأما ما يعود ضرره على المشركين فذلك جائز؛ فإن النبى ﷺ قد عور ماء قليب بدر وقطع شجر الكافرين. اهـ.

قال الشوكانى[2]: قوله: ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ نهاهم الله سبحانه عن الفساد فى الأرض بوجه من الوجوه قليلاً كان أوكثيراًومنه: قتل الناس، وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم، وتغوير أنهارهم. ومن الفساد فى الأرض: الكفر بالله والوقوف فى معاصيه ومعنى ﴿ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾: بعد أن أصلحها الله بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وتقرير الشرائع. اهـ.

وقال السعدى[3]: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ﴾ بعمل الماضى ﴿بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ بالطاعات، فإن المعاصى، تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾ كما أن الطاعات، تصلح بها، الأخلاق، والأعمال والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة. اهـ.

قال صاحب «الظلال»[4]: وفى ظل مشهد التضرع فى الدعاء، وهيئة الخشوع والانكسار فيه لله. ينهى عن الاعتداء على سلطان الله، فيما يدعونه لأنفسهم فى الجاهلية ـ

(1) تفسير القرطبى ٤/ ٢٦٦٢، ٢٦٦٣

(2) فتح القدير ٢/ ٢٢٢

(3) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١١٨

(4) ٤/ ١٢٩٨

من الحاكمية التى لاتكون إلا لله. كما ينهى عن الفساد فى الأرض بالهوى، وقد أصلحها الله بالشريعة. . والنفس التى تتضرع وتخشع خفية للقريب المجيب، لاتعتدى كذلك ولاتفسد فى الأرض بعد إصلاحها. . فبين الانفعالين اتصال داخلى وثيق فى تكوين النفس والمشاعر. والمنهج القرآنى يتتبع خلجات القلوب وانفعالات النفوس. وهو منهج من خلق الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال سليمان آل الشيخ:

قال أبو بكر(١): قال أبو بكر بن عياش فى الآية: إن الله بعث محمداً ﷺ إلى أهل الأرض، وهم فى فساد فأصلحهم الله بمحمد ﷺ فمن دعا إلى خلاف ماجاء به محمد ﷺ فهومن المفسدين فى الأرض.

قال ابن عثيمين (٢): قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يشمل الفساد المادى والمعنوى كما سبق.

قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

من قبل المصلحين، ومن ذلك الوقوف ضد دعوة أهل العلم، والوقوف ضد دعوة السلف، وضد من ينادى بأن يكون الحكم بما فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ من باب تأكيد اللوم والتوبيخ إذ كيف يفسد الصالح وهذا غاية مايكون من الوقاحة والخبث والشر؟ فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضى الإنسان فى فساده قبل الإصلاح، وإن كان المطلوب هو الإصلاح بعد الفساد. اهـ.

فوائد:

قال القرعاوى(٣):

١ـ النهى عن الإفساد فى الأرض على أى وجه كان.

٢ـ كل صلاح فى الأرض فسببه طاعة الله ورسوله.

٣ـ الإعراض عن شرع الله سبب لجميع الشرور وواقع المسلمين يشهد لذلك .

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٢٥، ٤٢٦

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٤٢

(٣) الجديد (٣٤٢).

٤ـ يسير المسلم إلى الله بين الخوف والرجاء.

٥ـ إثبات صفة الرحمة لله على وجه يليق بمقامه.

قوله ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

الإعراب[(١)]: عطف على ماتقدم،و(**خوفاً وطمعاً**) منصوبان على الحال، أى : خائفين وطامعين، أو على أنهما صفة لمصدر محذوف أو على أنهما مفعولان لأجلهما.

● **ما جاء فى تفسيرها من آثار:**

عن ابن عباس فى قوله « **وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا** » قال :خوفاً منه، وطمعاً لماعنده **﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** يعنى من المؤمنين ومن لم يؤمن بالله فهومن المفسدين[(٢)].

عن مطر الوراق قال : تنجزوا موعود الله بطاعة الله، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين[(٣)]:

● **ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[(٤)]: (**ادعوه خوفاً وطمعاً**) يقول وأخلصوا له الدعاء والعمل ولاتشركوا فى عملكم له شيئاً غيره من الآلهة والأصنام وغير ذلك وليكن ما يكون منكم فى ذلك خوفاً من عقابه وطمعاً فى ثوابه وإن من كان دعاؤه إياه على غير ذلك فهو بالآخرة من المكذبين لأن من لايخف عقاب الله ولم يرج ثوابه لم يبال ماركب من أمر يسخطه الله ولايرضاه. اهـ.

قال البغوى[(٥)]: قوله تعالى **﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾**. أى خوفاً منه ومن عذابه وطعماً فيما عنده من مغفرته وثوابه، وقال ابن جريج: خوف العدل وطمع الفضل. اهـ.

قال ابن الجوزى[(٦)]: وفى قوله: **﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾** قولان:

أحدهما: خوفاً عن عقابه، وطمعاً فى ثوابه.

والثانى: خوفاً من الردّ وطمعاً فى الإجابة.

---

(١) الإعراب (٣٦٩).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٧٢) ونسبه لأبى الشيخ.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

(٤) تفسير الطبرى ١٤٧/٨/٥.

(٥) معالم التنزيل ٢/ ٤٨٣.

(٦) زاد المسير ٣/ ١٦٥.

قال الرازى[1]: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: قال فى أول الآية ﴿ ادْعُوا رَبَّكُم﴾ ثم قال ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ ثم قال ﴿وَادْعُوهُ ﴾ وهذا يقتضى عطف الشىء على نفسه وهو باطل.

والجواب: أن الذين قالوا فى تفسير قوله: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ أى اعبدوه، إنما قالوا ذلك خوفا من هذا الاشكال.

فإن قلنا بهذا التفسير فقد زال السؤال، وإن قلنا المراد من قوله: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ هو الدعاء كان الجواب أن قوله: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يدل على أن الدعاء لابد وأن يكون مقروناً بالتضرع وبالإخفاء، ثم بين فى قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أن فائدة الدعاء هو أحد هذين الأمرين، فكانت الآية الأولى فى بيان شرط صحة الدعاء، والآية الثانية فى بيان فائدة الدعاء ومنفعته.

المراد: وادعوه مع الخوف من وقوع التقصير، فى بعض الشرائط المعتبرة فى قبول ذلك الدعاء، ومع الطمع فى حصول تلك الشرائط بأسرها، وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل؟

سؤال: هل تدل هذه الآية على أن الداعى لا بد وأن يحصل فى قلبه هذا الخوف والطمع؟

الجواب قال الرازى: أن العبد لا يمكنه أن يقطع بكونه آتيا بجميع الشرائط المعتبرة فى قبول الدعاء ولأجل هذا المعنى يحصل الخوف، وأيضا لا يقطع بأن تلك الشرائط مفقودة فوجب كونه طامعا فى قبولها فلا جرم.

قلنا: بأن الداعى لايكون داعيا إلا إذا كان كذلك فقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أى أن تكونوا جامعين فى نفوسكم بين الخوف والرجاء فى كل أعمالكم، ولا تقطعوا أنكم وإن اجتهدتم فقد أديتم حق ربكم. ويتأكد هذا بقوله: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾. اهـ.

قال القرطبى[2]: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان فى حالة تقرب وتخوف وتأميل لله عز وجل، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه فى طريق استقامته. وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان. قال الله تعالى: ﴿ نَبِّئْ

(1) التفسير الكبير ٧/ ١٤/ ١٤٠ - ١٤١.   (2) تفسير القرطبى ٤ / ٢٦٦٣.

عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ فرجًى وخوًف. فيدعو الإنسان خوفا من عقابه وطمعا فى ثوابه؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾.

والخوف: الانزعاج لما لا يؤمَن من المضار.

والطمع: توقع المحبوب؛ قاله القشيرى.

وقال بعض أهل العلم: ينبغى أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء. قال النبى ﷺ: «لايموتنّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظن بالله»(*). صحيح أخرجه مسلم. اهـ.

قال الشوكانى[1]: قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فيه أنه يشرع للداعى أن يكون عند دعائه خائفا وجلاً طامعا فى إجابة الله لدعائه. فإنه إذا كان عند الدعاء جامعا بين الخوف والرجاء، ظفر بمطلوبه، والخوف: الانزعاج من المضارّ التى لا يؤمن من وقوعها. والطمع: توقع حصول الأمور المحبوبة.

قال السعدى[2]: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أى: خوفاً من عقابه، وطمعاً فى ثوابه. طمعاً فى قبولها، وخوفاً من ردها، لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاه.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده، لأن ذلك يتضمنه الخفية.

وإخفاؤه وإسراره، أن يكون القلب خائفاً طامعاً، لا غافلاً، ولا آمناً ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء فإن الإحسان فى كل عبادة، بذل الجهد فيها، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الإعراب[3]: الجملة تعليل لما ذكر، و(إن) واسمها، و(قريب) خبرها، و(من المحسنين) جار ومجرور متعلقان بقريب.

- **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[4]: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(*) تقدم تخريجه. (1) فتح القدير ٢/ ٢٢٢. (2) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١١٨.

(3) إعراب القرآن/ ٣٦٩. (4) تفسير الطبرى ٤/ ٧/ ١٤٧ و ١٤٨.

يقول تعالى ذكره أن ثواب الله الذى وعد المحسنين على إحسانهم فى الدنيا قريب منهم وذلك هو رحمته لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا الى ذلك من رحمته وما أعدلهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم ولذلك من المعنى ذَكَّر قوله قريب وهو من خبر الرحمة والرحمة مؤنثة لأنه أريد به القرب فى الوقت لافى النسب والأوقات بذلك المعنى إذا رفعت أخبار الاسماء أجرتها العرب مجرى الحال فوحدتها مع الواحد والاثنين والجميع وذكرتها مع المؤنث فقالوا كرامة الله بعيد من فلان وهى قريب من فلان كما يقولون هند قريب منا والهندان منا قريب والهندات منا قريب لأن معنى ذلك هى فى مكان قريب منا فاذا حذفوا المكان وجعلوا القريب خلفا منه ذكروه ووحدوه فى الجمع كما كان المكان مذكراً وموحداً فى الجمع وأما اذا أنثوه أخرجوه مثنى مع الاثنين ومجموعا مع الجميع فقالوا هى قريبا منا وهما منا قريبتان كما قال عروة بن الورد.

عشية لاعفراء منك قريبة فندنوا ولا عفراء منك بعيد

فأنث قريبة وذكر بعيدا على ما وصفت ولو كان القريب من القرابة فى النسب لم يكن مع المؤنث إلامؤنثاً ومع الجمع إلا مجموعاً، وكان بعض نحويى البصرة يقول ذكر قريب وهو صفة للرحمة؛ وذلك كقول العرب (ريح خريق) و(ساحفة حديد) و(شاة سديس) قال: وإن شئت قلت تفسير الرحمة ههنا المطر ونحوه فلذلك ذُكر كما قال: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا﴾ فذكر لأنه أراد الناس وإن شئت جعلته كبعض ما يذكرون من المؤنث كقول الشاعر:

* ولا أرض أبقل أبقالها *

وقد أنكر ذلك من قبله بعض أهل العربية، ورأى أنه يلزمه أن جاز أن يذكر قريباً توجيها منه للرحمة إلى معنى المطر أن يقول (هند قام) توجيها منه لهند وهى امرأة الى معنى إنسان ورأى أن مشابهة به قوله ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا﴾ غير مشبهة وذلك أن الطائفة فيما زعم مصدر بمعنى الطيف كما الصيحة والصياح بمعنى ولذلك قيل: ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾. اهـ.

قال البغوى[1]: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾. ولم يقل قريبة

(١) معالم التنزيل ٢/٤٨٣ و ٤٨٤.

قال سعيد بن جبير: الرحمة ههنا الثواب، فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ كقوله: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ ولم يقل منها، لأنه أراد الميراث والمال.

وقال الخليل بن أحمد: القريب والبعيد يستوى فيهما المذكر والمؤنث. والواحد والجمع.

قال أبو عمرو بن العلاء: القريب فى اللغة يكون بمعنى القرب وبمعنى المسافة، تقول العرب: هذه امرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة. وقريب منك إذا كانت بمعنى المسافة. اهـ.

قال ابن الجوزى[1]: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال الفراء: رأيت العرب تؤنث القريبة فى النسب لايختلفون فى ذلك فإذا قالوا دارك منا قريب أو فلانة منا قريب من القرب والبعد ذكروا وأنثوا وذلك أنهم جعلو القريب خلفا من المكان، كقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[3] ولو أنث ذلك لكان صواباً.

وقال الزجاج: إنما قيل: «قريب» لأن الرحمة والغفران والعفو بمعنى واحد وكذلك كل تأنيث ليس بحقيقى. اهـ.

وقال الاخفش: جائز أن تكون الرحمة هاهنا فى معنى المطر. اهـ.

قال الرازى: لقائل أن يقول مقتضى علم الإعراب أن يقال: إن رحمة الله قريبة من المحسنين فما السبب فى حذف علامة التأنيث؟.

ذكروا فى الجواب عنه وجوها.

الأول: أن الرحمة تأنيثها ليس بحقيقى وما كان كذلك فإنه يجوز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة.

الثانى: قال الزجاج: إنما قال (قريب) لأن الرحمة والغفران والعفو والإنعام بمعنى واحد فقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بمعنى إنعام الله قريب وثواب الله قريب فاجرى حكم أحد اللفظين على الآخر.

الثالث: قال النضر بن شميل: الرحمة مصدر ومن حق المصادر التذكير كقوله:

---

(١) زاد المسير ٣/ ١٦٥.　(٢) هود: ٨٣.　(٣) الاحزاب: ٦٣.

﴿فمن جاءهُ موْعِظَة﴾ فهذا راجع الى قول الزجاج لأن الموعظة أريد بها الوعظ، فلذلك ذكره قال الشاعر:

إن السماحة وبالمروءة ضمنا قبرا بمرو على الطريق الواضح

قيل: أراد بالسماحة السخاء وبالمروءة الكرم.

الرابع: أن يكون التأويل إن رحمة الله ذات مكان قريب من المحسنين كما قالوا: حائض ولابن وتامر أى ذات حيض ولبن وتمر.

قال الواحدى: أخبرنى العروضى عن الأزهرى عن المنذرى عن الحرانى عن ابن السكيت قال تقول العرب هو قريب منى وهما قريب منى وهم قريب منى وهى قريب منى، لأنه فى تأويل هو فى مكان قريب منى وقد يجوز أيضاً قريبة وبعيدة تنبيها على معنى قربت وبعدت بنفسها.

قال الرازى[٤]: قال تعالى: ﴿إنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا فى أن الرحمة عبارة عن إيصال الخير والنعمة أو عن إرادة إيصال الخير والنعمة، فعلى التقدير الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال، وعلى هذا التقدير الثانى تكون من صفات الذات.

المسألة الثانية: قال بعض أصحابنا: ليس لله فى حق الكافر رحمة ولا نعمة. واحتجوا بهذه الآية.

وبيانه: أن هذه الآية تدل على أن كل ما كان رحمة فهى قريبة من المحسنين، فيلزم أن يكون كل ما لا يكون قريبا من المحسنين، لا يكون رحمة، والذى حصل فى حق الكافر غير قريب من المحسنين، فوجب أن لا يكون رحمة من الله ولا نعمة منه.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: الآية تدل على أن رحمة الله قريب من المحسنين، فلما كان كل هذه الماهية حصل للمحسنين وجب أن لايحصل منها نصيب لغير المحسنين، فوجب أن لايحصل شىء من رحمة الله فى حق الكافرين، والعفو عن العذاب رحمة، والتخلص من النار بعد الدخول فيها رحمة، فوجب أن لايحصل ذلك لمن لم يكن من المحسنين، والعصاة وأصحاب الكبائر ليسوا محسنين، فوجب أن لا يحصل لهم العفو عن العقاب، وأن لايحصل لهم الخلاص من النار.

والجواب: أن من آمن بالله وأقر بالتوحيد والنبوة، فقد أحسن بدليل أن الصبى إذا بلغ وقت الضحوة، وآمن بالله ورسوله واليوم الآخر ومات قبل الوصول الى الظهر فقد

(١) التفسير الكبير ٧/ ١٤ / ١٤١ - ١٤٣.

أجمعت الأمة عى أنه دخـل تحت قوله (للذين أحسنو الحسنى) ومـعلوم أن هذا الشخص لم يأت بشيء من الطاعات سوى المعرفة والإقرار، لأنه لما بلغ بعد الصبح لم تجب عليه صلاة الصـبح، ولما مات قـبل الظهـر لم تجب علـيه صلاة الظـهر، وظاهره أن سـائر العبادات لم تجب عليه. فثبت أنه محـسن، وثبت أنه لم يصدر منه إلا المعرفة والإقرار، فوجب كون هذا القدر إحسانا، فيكون فاعله محسنا.

إذا ثبت هذا فنقول: كل من حصل له الإقرار والمعرفة كان من المحسنين، ودلت هذه الآية علـى أن رحمة الله قريـب من المحسنيـن، فوجب بحـكم هذه الآية أن تـصل إلى صاحب الكبيرة من أهل الصلاة رحمة الله، وحينئذ تنقلب هذه الآية حجة عليهم.

فإن قالوا: المحسنون هم الذين أتوا بجميع وجوه الإحسان.

فنقول: هذا باطل، لأن المحسن من صدر عنه مسـمى الإحسان وليس من شرط كونه محسناً أن يـكون آتيا بكل وجوه الاحسان كـما أن العالم هو الذى له العـلم وليس من شرطه أن يحصل جـميع أنواع العلم. فثبت أن السؤال الـذى ذكروه ساقط وأن الحق ما ذهبنا إليه.

المسألة الرابعة: تفسير هذا القرب هو أن الإنسان يزداد فى كل لحظة قرباً من الآخرة، وبعداً من الدنيا، فإن الدنيا كالماضى، والآخرة كالمستقبل، والإنسان فى كل ساعة ولحظة ولمحة يزداد بعداً عن الماضى، وقرباً من المستقبل. ولذلك قال الشاعر:

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ... ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

ولما ثبت أن الدنيـا تزداد بعداً فى كل ساعة، وأن الآخرة تزداد قـرباً فى كل ساعة، وثبت أن رحـمة الله إنما تحصل بـعد الموت، لاجرم ذكر الله تـعالى: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ بناء على هذا التأويل. اهـ.

قال القرطبى[1]: قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ ولم يقل قريبة. فيه سبعة أوجه:

أولها: أن الرَّحْمة والرُّحْم واحد، وهى بمعنى العـفو والغفران، قاله الزجاج واختاره النحاس.

وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر، وحق المصدر التذكير، كقوله: ﴿**فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ**﴾. وهذا قريب من قول الزجاج؛ لأن الموعظة بمعنى الوعظ.

---

(١) تفسير القرطبى: ٤/ ٢٦٦٣ و ٢٦٦٤.

وقيل: أراد بالرحمة الإحسان، ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقاً جاز تذكيره؛ ذكره الجوهرى.

وقيل: أراد بالرحمة هنا المطر؛ قاله الأخفش. ويجوز أن يذكر كما يذكر بعض المؤنث. وأنشد:

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها ... ولا أرْضَ أبقَلَ إبقالها

وقال أبو عبيدة: ذكّر «قريب» على تذكير المكان، أى مكاناً قريباً.

قال على بن سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان «قريب» منصوباً فى القرآن؛ كما تقول: إن زيداً قَرِيبٌ منك.

وقيل: ذكّر على النسب؛ كأنه قال: إن رحمة الله ذات قُرْب؛ كما تقول: امرأة طالق وحائض.

وقال الفَرّاء: إذا كان القريب فى معنى المسافة يذكر ويؤنّث، وإن كان فى معنى النسب يؤنث بلا اختلاف بينهم. تقول: هذه المرأة قريبتى، أى ذات قرابتى؛ ذكره الجوهرى.

وذكر غيره عن الفَرّاء: يقال فى النسب قريبة فلان، وفى غير النسب يجوز التذكير والتأنيث؛ يقال: دارُك منا قريب، وفلانة منا قريب؛ قال الله تعالى: ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**﴾. وقال من أحتج له: كذا كلام العرب كما قال امرؤ القيس:

له الوَيْلُ إنْ أمسى ولا أمُّ هاشم ... قريبٌ ولا البَسْبَاسَةُ ابنةُ يَشْكُرا

قال الزجاج: هذا خطأ؛ لأن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالها.

قال الشوكانى(1): قوله: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾: هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأى نوع من الأنواع كان إحسانهم. وفى هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم. فإن قرب هذه الرحمة التى يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عباد الله.

وقد اختلف أئمة اللغة والإعراب فى وجه تذكير خبر رحمة الله، حيث قال: ﴿قريب﴾ ولم يقل: قريبة، فقال الزجاج: إن الرحمة مؤولة بالرحم لكونها بمعنى: العفو والغفران. ورجح هذا التأويل النحاس. وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر بمعنى: الترحم. وحق المصدر التذكير. اهـ.

---

(1) فتح القدير ٢/ ٢٢٢.

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(١).

قال ناصر السعدى(٢): ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فى عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله.

فكلما كان العبد أكثر إحساناً، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريباً منه برحمته. وفى هذا الحث على الإحسان، ما لا يخفى. اهـ.

قال الشنقيطى(٣): ووجه تذكير وصف الرحمة مع أنها مؤنثة فى قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يقل قريبة، فيه للعلماء أقوال تزيد على العشرة: نذكر منها إن شاء الله بعضاً، ونترك ما يظهر لنا ضعفه أو بعده عن الظاهر.

ومنها: أن الرحمة مصدر بمعنى الرحم، فالتذكير باعتبار المعنى.

ومنها: أن من أساليب اللغة العربية أن القرابة إذا كانت قرابة نسب تعين التأنيث فيها فى الأنثى فتقول: هذا المرأة قريبتى أى فى النسب ولا تقول: قريب منى؛ وإن كانت قرابة مسافة جاز التذكر والتأنيث. فتقول: داره قريب وقريبة منى، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾(٤).

ومنها: أن وجه ذلك إضافة الرحمة إلى الله جل وعلا.

ومنها: أن قوله ﴿قريب﴾ صفة موصوف محذوف أى شىء قريب من المحسنين.

ومنها: أنها شبهت بفعيل بمعنى مفعول الذى يستوى فيه الذكر والأنثى.

ومنها: أن الأسماء التى على فعيل ربما شبهت بالمصدر الآتى على فعيل، فأفردت لذلك؛ قال بعضهم: ولذلك أفرد الصديق فى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾(٥)، وقوله الشاعر:

وهن صديق لمن لم يشب اهـ



قوله: «أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون».

● **تنبيه:** هذه الآيات من سورة المائدة قد قال ابن تيمية(٦) فى هذه السورة: سورة المائدة أجمع سورة فى القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم، والأمر والنهى؛

---

(١) المائدة آية / ٥٠

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١١٨.

(٣) أضواء البيان/ ٢٤١.

(٤) الشورى: ١٧.

(٥) النور: ٦١.

(٦) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٤٨).

ولهذا روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**هى آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها**»[1] ولهذا افتتحت بقوله: ﴿**أوفوا بالعقود**﴾، والعقود هى العهود، وذكر فيها من التحليل والتحريم، والإيجاب مالم يذكر فى غيرها. . . اهـ.

- مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ: فى الآية إشارة إلى أن من ابتغى غير حكم الله ورسوله فقد ابتغى حكم الجاهلية كائناً ما كان. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله[2]: أن من عدل عن الكتاب والسنة وفضل حكم الجاهلية عليها فقد حكم بالطاغوت. اهـ.

- مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى[3]: دل الحديث على تحريم التحاكم إلى غير ما جاء به رسول الله ﷺ لأن ذلك منافى للشهادتين المتلازمتين.

الإعراب[4]: قوله: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾ الكلام معطوف على ما تقدم، مسوق لبيان نمط من تعنّتهم، وجريهم على سبيل الباطل. والهمزة للاستفهام الإنكارى، والفاء عاطفة على مقدّر يقتضيه المقام، أى أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية؟ و(**حكم**) مفعول به مقدم لقوله: (**يبغون**)، و(**الجاهلية**) مضاف إليه، ويبغون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعة ثبوت النون، والواو فاعل.

● سبب النزول:

عن عروة قال: كانت تسمى الجاهلية العالمية حتى جاءت امرأة فقالت: يارسول الله، كان فى الجاهلية كذا وكذا. فانزل الله ذكر الجاهلية[5].

قال ابن الجوزى[6]: وسبب نزولها: أن النبى ﷺ لما حكم بالرّجم على اليهوديّين تعلّق بنو قريظة ببنى النضير، وقالوا: يا محمد هؤلاء إخواننا، أبونا واحد، وديننا واحد، إذا قتلوا منا قتيلاً أعطونا سبعين وسقاً من تمر، وإن قتلنا منهم واحداً أخذوا منا

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ١٨٨)، والنسائى فى «تفسيره» (١٥٨) عن عائشة به. وانظر «الاتقان» للسيوطى (٢٩٩ ـ بتخريجنا).

(٢) الجامع الفريد ١٥٧. (٣) الجديد ٣٤٦. (٤) إعراب القرآن / ٤٩٨.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٥١٤) ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٦) زاد المسير ٢/ ٢٢٢ - ٢٢٣.

أربعين ومائة وسْق، وإن قتلنا منهم رجلاً قتلوا به رجلين، وإن قتلنا امرأة قتلوا بها رجلاً، فاقض بيننا بالعدل، فقال رسول الله ﷺ: **«ليس لبنى النضير على بنى قريظة فضل فى عقل ولا دم»** فقال بنو النضير: والله لا نرضى بقضائك، ولا نطيع أمرك، ولنأخذن بأمرنا الأول، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن مجاهد: فى قول الله **(أفحكم الجاهلية يبغون)** قال أفحكم الجاهلية يبغون يهود(١).

عن قتادة فى قوله: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾** قال: هذا فى قتيل اليهود، أن أهل الجاهلية كان يأكل شديدهم ضعيفهم وعزيزهم ذليلهم. قال: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾**(٢).

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ **«أبغض الناس الى الله مبتغ فى الإسلام سنة جاهلية، وطالب امرىء بغير حق ليريق دمه»**(٣).

عن السدى قال: الحكم حكمان: حكم الله، وحكم الجاهلية، ثم تلا هذه الآية: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾**(٤).

قال ابن كثير: وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هلال بن فياض حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح، قال: كان طاوس إذا سأله رجل: أفضل بين ولدى فى النِّحل؟ قرأ **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾** الآية.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى(٥): يقول تعالى ذكره أيبغى هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك فلم يرضوا بحكمك وقد حكمت فيهم بالقسط حكم الجاهلية يعنى أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك وعندهم كتاب الله فيه بيان حقيقة الحكم الذى حكمت به فيهم وأنه الحق الذى لايجوز خلافه. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٦/ ١٧٧) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٥١٤)، وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٥١٤) ونسبه لعبد بن حميد.

(٣) أخرجه البخارى (٦٨٨٢) وانظر «الدر» (٢/ ٥١٤).

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٥١٤) ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) تفسير الطبرى ٥/ ٦/ ١٧٧.

قال الرازى[1]: وفى الآية وجهان:

الأول: قال مقاتل: كانت بين قريظة والنضير دماء قبل أن يبعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام، فلما بعث تحاكموا إليه، فقالت بنو قريظة: بنو النضير إخواننا، أبونا واحد، وديننا واحد، وكتابنا واحد ثم ذكره الأثر باللفظ المتقدم.

قال الرازى[2]: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يعنى حكمهم الأول. وقيل: إنهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفائهم ألزموهم إياه، وإذا وجب على أقويائهم لم يأخذوهم به، فمنعهم الله تعالى منه بهذه الآية.

الثانى: أن المراد بهذه الآية أن يكون تعييراً لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم مع أنهم يبغون حكم الجاهلية التى هى محض الجهل وصريح الهوى.

ثم قال[3]: قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ قرأ الجمهور «يبغون» بالياء، لأن قبله غيبة، وهى قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾. وقرأ ابن عامر «تبغون» بالتاء، على معنى: قل لهم.

قال القرطبى: قرأ ابن وثاب والنَّخَعى: «أَفَحُكْمُ» بالرفع على معنى يبغونه؛ فحذف الهاء كما حذفها أبو النجم فى قوله:

قد أصبحت أمُّ الخِيارِ تَدَّعى علىَّ ذنباً كلّه لم أَصْنَعِ

فيمن روى «كلّه» بالرفع. ويجوز أن يكون التقدير: أفحكْمُ الجاهلية حكْمٌ يبغونه، فحذف الموصوف.

وقرأ الحسن وقَتَادة والأعرج والأعمش «أَفَحَكَمَ» بنصب الحاء والكاف وفتح الميم؛ وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة إذ ليس المراد نفس الحكَم، وإنما المراد الحُكْم؛ فكأنه قال: أفحُكْم حكَم الجاهلية يبغون. وقد يكون الحكَم والحاكم فى اللغة واحداً وكأنهم يريدون الكاهن وما أشبهه من حكام الجاهلية؛ فيكون المراد بالحكم الشيوع والجنس، إذا لا يراد به حاكم بعينه؛ وجاز وقوع المضاف جنساً كما جاز فى قولهم: «منعت مِصْرُ إردبها» وشبهه.

وقرأ ابن عامر «تبغون» بالتاء، والباقون بالياء. اهـ.

قال الزجاج[4]: ومعنى الآية: أتطلب اليهود حكماً لم يأمر الله به، وهم أهل كتاب الله، كما تفعل الجاهلية؟!.

(١ - ٢) التفسير الكبير ٧/ ١٤/ ١٧.   (٣) زاد المسير ٢/ ٢٢٢.   (٤) زاد المسير ٢/ ٢٢٣.

قال القرطبى(١): قوله تعالى: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ «**أفحكم**» نصب بـ «**يبغون**» والمعنى أن الجاهلية كانوا يجعلون حكم الشريف خلاف حكم الوضيع وكانت اليهود تقيم الحد على الضعفاء الفقراء ولا يقيمونه على الأقوياء الأغنياء، فضارعوا الجاهلية فى هذا الفعل.

روى سفيان ابن عيينه عن ابن أبى نجيح عن طاوس قال كان إذا سألوه عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض يقرأ هذه الآية ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾ فكان طاوس يقول: ليس لأحد أن يفضل بعض ولده على بعض فإن فعل لم ينفذ وفسخ.

وبه قال أهل الظاهر.

وروى عن أحمد بن حنبل مثله، وكره الثورى وابن المبارك وإسحق فإن فعل ذلك أحد نفذ ولم يرد.

وأجاز ذلك مالك والليث والشافعى وأصحاب الرأى واستدل بفعل الصديق فى نحله عائشة دون سائر ولده وبقوله عليه السلام: «**فارجعه**» وقوله: «**فأشهد على هذا غيرى**».

وإحتج الاولون بقوله عليه السلام لبشير: **ألك ولد سوى هذا** قال: نعم فقال: «**أكلهم وهبت لهم مثل هذا، فقال لا**». قال: «**فلا تُشهدنى إذًا فإنى لا أشهد على جَوْر**» فى رواية «**وإنى لا أشهد إلا على حق**»(٢). قالوا: وما كان جَوْرا وغير حق فهو باطل لايجوز. وقوله: «أشهد على هذا غيرى» ليس إذناً فى الشهادة وإنما هو زجر عنها؛ لأنه عليه السلام قد سماه جَوْراً وامتنع من الشهادة فيه؛ فلا يمكن أن يشهد أحد من المسلمين فى ذلك بوجه. وأما فعل أبى بكر فلا يعارض به قول النبى ﷺ، ولعله قد كان نَحَل أولاده نُحْلاً يعادل ذلك.

فإن قيل: الأصل تصرف الإنسان فى ماله مطلقا، قيل له: الأصل الكلى والواقعة المعينة المخالفة لذلك(٢) لاأصل لا تَعَارض بينهما كالعموم والخصوص. وفى الأصول أن الصحيح بناء العام على الخاص؛ ثم إنه ينشأ عن ذلك العقوق الذى هو أكبر الكبائر، وذلك محرم، وما يؤدى إلى المحرم فهو ممنوع؛ ولذلك قال ﷺ: «**أتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم**». قال النعمان: فرجع أبى فرد تلك الصدقة، والصدقة لايعتصرها الأب بالإنفاق وقوله: «**فارجعه**» محمول على معنى «فاروده»، والرد ظاهر فى الفسخ كما قال

---

(١) تفسير القرطبى (٤/ ٢٢١١: ٢٢١٣).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى ٢٥٨٦)، وملم فى الهبات (١١/ ٦٥ ـ النووى) عن النعمان بن بشير به.

وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

عليه السلام «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ»[1] أى مردود مفسوخ. وهذا كله ظاهر قوىّ، وترجيح جلىّ فى المنع.

قال ابن كثير[2]: وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريع، الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذى وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها. وفيها كثير من الأحكم أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أى يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها فإنه تعالى هو العالم بكل شىء القادر على كل شىء العادل فى كل شىء اهـ.

قال الشوكانى[3]: قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر كما فى نظائره، والمعنى: أيعرضون عن حكمك بما أنزل الله عليك ويتولون عنه ويبتغون حكم الجاهلية. اهـ.

قال ناصر السعدى[4]: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أى: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك، حكم الجاهلية؟ وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله.

فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية.

فمن أعرض عن الأول، ابتلى بالثانى المبنى على الجهل، والظلم، والغى، ولهذا، أضافة الله للجاهلية.

وأما حكم الله تعالى، فمبنى على العلم، والعدل، والقسط، والنور، والهدى. اهـ.

قال صاحب الظلال[5]: ثم يقفهم على مفرق الطريق.. فإنه إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية. ولا وسط بين الطرفين ولابديل.. حكم الله يقوم فى الأرض، وشريعة

---

(1) تقدم تخريجه. (2) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦٥. (3) فتح القدير ٢ / ٥١.
(4) تيسير الكريم الرحمن ٢ / ٤٨١. (5) الظلال ٢/ ٩٠٤.

الله تنفذ فى حياة الناس، ومنهج الله يقود حياة البشر.. أو أنه حكم الجاهلية، وشريعة الهوى، ومنهج العبودية... فأيهما يريدون؟

ثم قال: إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص. فالجاهلية - كما يصفها الله ويحددها قرآنه - هى حكم البشر للبشر، لأنها هى عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله، والاعتراف فى مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله..

إن الجاهلية - فى ضوء هذا النص - ليست فترة من الزمان، ولكنها وضع من الأوضاع. هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غدًا، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للإسلام، والمناقضة للإسلام.

والناس - فى أى زمان وفى أى مكان - إما أنهم يحكمون بشريعة الله - دون فتنة عن بعض منها - ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً، فهم إذن فى دين الله. وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر - فى أى صورة من الصور - ويقبلونها فهم إذن فى جاهلية؛ وهم فى دين من يحكمون بشريعته، وليسوا بحال فى دين الله. والذى لايبتغى حكم الله يبتغى حكم الجاهلية؛ والذى يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش فى الجاهلية.

وهذا مفرق الطريق، يقف الله الناس عليه. وهم بعد ذلك بالخيار.

ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن باز(١): ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أى يريد هؤلاء المتحاكمين إلى اليهود وغيرهم من الطواغيت التحاكم إلى حكم الجاهلية، وهل هناك حكم أحسن من حكم الله، فهو أعلم بمصالح عباده، والعالم بما تنتهى إليه أمورهم وعواقبهم، فهو عالم بكل شيء .اهـ.

قال ابن عثيمين(٢): وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ ﴿حكم﴾: مفعول مقدم لـ «يبغون»، وقُدّم لإفادة الحصر، والمعنى: أفلا يبغون إلا حكم الجاهلية.

و﴿يبغون﴾: يطلبون، والإضافة فى قوله: ﴿حكم الجاهلية﴾ تحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى: أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يبغون، فيريدون أن يعيدوا هذه الأمة إلى طريق الجاهلية التى أحكامها معروفة، ومنها: البحائر، والسوائب، وقتل الأولاد.

ثانيها: أن يكون المعنى: أفحكم الجهل الذى لا يبنى على العلم يبغون، سواء كانت عليه الجاهلية السابقة أم لم تكن، وهذا أعم.

(١) التعليق المفيد (٢٠٠).

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٤٢ و ٣٤٣..

والإضافة للجاهلية تقتضى التقبيح والتنفير.

وكل حكم يخالف حكم الله؛ فهو جهل وجهالة.

فإن كان مع العلم بالشرع؛ فهو جهالة، وإن كان مع خفاء الشرع؛ فهو جهل، والجهالة هى العمل بالخطأ سفهاً لا جهلاً، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾، وأما من يعمل السوء بجهل فلا ذنب عليه عليه، لكن عليه أن يتعلم.

تنبيه (٢)

قال صاحب الإعراب: فى قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

فنّ طريف، وهو فن الإيغال، وفحواه أن يستكمل المتكلم كلامه قبل أن يأتى بمقطعه، فإذا أراد الإتيان بذلك أتى بما يفيد معنى زائداً على معنى ذلك الكلام. وهو ضربان:

(منها) إيغال تخيير: كما فى هذه الآية، فإن المعنى قد تمّ بقوله﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ ولما احتاج الكلام الى فاصلة تناسب ما قبلها وما بعدها، أتت تفيد معنى زائداً، لولاها لم يحصل. وذلك أنه لا يعلم أن حكم الله أحسن من كل حكم إلا من أيقن أنه واحد حكيم عادل ليبقى توحيده الشريك فى الحكم الذى انفرد به. ولم يكن له معارض فيه ولا مناقض له، ويحصل من حكمته وضع الشىء فى موضعه فيؤمَنُ منه وضع الحق فى غير موضعه، وينفى العدل عنه الجوار فى الحكم، ثم عدل عن قوله: «يعلمون» الى قوله: «يوقنون» ليكون علمهم بربهم علم قطع ويقين. اهـ.

الإعراب[١]: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. الواو استئنافية، و(من) اسم استفهام فى محل رفع مبتدأ، و(أحسن) خبره، و(من الله) متعلقان بأحسن، و(حكماً) تمييز، و(لقوم) متعلقان بمحذوف حال، وقال الجلال وغيره: اللام بمعنى عند، متعلقة بأحسن، أى: عند قوم (يوقنون)، وجملة يوقنون صفة لقوم.

ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى[٢]: قال تعالى ذكره موبخًا لهؤلاء الذين أبوا قبول حكم رسول الله ﷺ عليهم ولهم من اليهود ومستجهلاً فعلهم ذلك منهم، ومن هذا الذى هو أحسن

(١) إعراب القرآن / ٤٩٩.

(٢) تفسير الطبرى / ١٧٧.

حكماً أيها اليهود من الله تعالى ذكره عند من كان يوقن بوحدانية الله ويقرّ بربوبيته يقول تعالى ذكره: أيّ حكم أحسن من حكم الله إن كنتم موقنين أن لكم رباً وكنتم أهل توحيد وإقرار به. اهـ.

قال ابن الجوزي[1]: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ قال ابن عباس: ومن أعدل؟!.

وفي قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قولان:

أحدهما: يوقنون بالقرآن، قاله ابن عباس.

والثاني: يوقنون بالله، قاله مقاتل. وقال الزجاج: مَن أيقن تبّين عدلَ الله في حُكمه. اهـ

قال الرازي[2]: ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ اللام في قوله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ للبيان كاللام في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يعرفون أنه لا أحد أعدل من الله حكماً، ولا أحسن منه بياناً. اهـ.

قال القرطبي[3]: وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ هذا استفهام على جهة الإنكار بمعنى: لا أحد أحسن؛ فهذا ابتداء وخبر. و«حكماً» نصب على البيان. [لقوله] ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي عند قوم يوقنون. اهـ

قال الشوكاني[4]: الاستفهام في﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ للإنكار أيضاً، أي لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين، لا عند أهل الجهل والأهواء. اهـ

قال ناصر السعدي[5]: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فالموقن، هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز - بإيقانه - ما في حكم الله، من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه.

واليقين، هو العلم التام، الموجب للعمل.

---

(١) زاد المسير / ٢٢٣.
(٢) الفخر الرازي / ١٧.
(٣) تفسير القرطبي / ٢٢١٣.
(٤) فتح القدير / ٥١.
(٥) تيسير الكريم الرحمن / ٤٨١.

قال صاحب «الظلال»[٢]: يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم جاهلية وسؤال تقرير لافضلية حكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وأجل! فمن أحسن من الله حكماً؟

ومن ذا الذى يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس. ويحكم فيهم. خيراً مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدى هذا الادعاء العريض؟

أيستطيع أن يقول: إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟ أيستطيع أن يقول: إن الله - سبحانه - وهو يشرع شريعته الآخيرة، ويرسل رسوله الآخير؛ ويجعل رسوله خاتم النبيين، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات، ويجعل شريعته شريعة الأبد.. كان - سبحانه- يجهل أن أحوالاً ستطرأ، وأن حاجات ستستجد، وأن ملابسات ستقع، فلم يحسب حسابها فى شريعته لأنها كانت خافية عليه، حتى انكشفت للناس فى آخر الزمان؟!.

ما الذى يستطيع أن يقوله من ينحى شريعة الله عن حكم الحياة، ويستبدل بها شريعة الجاهلية، وحكم الجاهلية، ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب، أو هوى جيل من أجيال البشر، فوق حكم الله، وفوق شريعة الله؟

ما الذى يستطيع أن يقوله.. وبخاصة إذا كان يدعى أنه من المسلمين؟!

الظروف؟ الملابسات؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟.. ألم يكن هذا كله فى علم الله؛ وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته، وأن يسيروا على منهجه، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟

قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة، والأوضاع المتجددة، والأحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك فى علم الله؛ وهو يشدد هذا التشديد، ويحذر هذا التحذير؟

يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء.. ولكن المسلم.. أو من يدعون الإسلام.. ما الذى يقولونه من هذا كله. ثم يبقون على شىء من الإسلام؟

إنه مفرق الطريق. الذى لا معدى عنده من الاختيار؛ ولا فائدة فى المماحكة عنده ولا الجدال..

إما إسلام وإما جاهلية. إما إيمان وإما كفر. إما حكم الله وإما حكم الجاهلية.

(١) ٢/ ٩٠٤ و ٩٠٥.

والذين لايحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون. والذين لايقبلون حكم الله من المحكومين ما هم بمؤمنين.

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم؛ وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه؛ والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء!

وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية، فلن يستقيم له ميزان؛ ولن يتضح له منهج، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل، ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح.. وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجماهير من الناس؛ فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس من يريدون أن يكونوا «المسلمين» وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم. .اهـ

قال ابن عثيمين(١) : قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾.

﴿مَنْ﴾: اسم استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أحسن من الله حكماً، وهذا النفي مُشْرَب معنى التحدي؛ فهو أبلغ من قول: ﴿لا أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾؛ لأنه متضمن للنفي وزيادة.

قوله: ﴿حُكْمًا﴾.

تمييز؛ لأنه بعد اسم التفضيل، وهو مبهم؛ فبيَّن هذا التمييز المبهم وميزه.

والحكم هنا يشمل الكوني والشرعي.

فإن قيل: يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها؛ فأين الحُسْن في ذلك؟

أجيب: أن الغايات المحمودة في هذه الأمور تجعلها حسنةً، كما يضرب الإنسان ولده تربية له، فيعد هذا الضرب فعلاً حسناً؛ فكذلك الله يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم، قال تعالى في القرية التي قلب الله أهلها قردة خاسئين: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، وهذا الحسن في حكم الله ليس بيِّناً لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وكلما ازداد العبد يقيناً وإيماناً ازداد معرفة بحسن أحكام الله، وكلما نقص إيمانه ويقينه ازداد جهلاً بحسن أحكام الله، ولذلك تجد أهل

---

(١) القول المفيد ٢/٣٤٣ - ٣٤٥ . .

عَنْ أبى مُحَمَّد عَبْد الله بْن عَمْرو بن العـاص - رَضى اللهُ عَنْهُمـا- قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِـمَا جِئْتُ بِه»(١).

قال النووى: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَيْنَاهُ فِى كِتَابِ «الحجة» بإسْنَادٍ صَحِيحٍ».

العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات المتشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون فى ذلك تناقضاً، وعلى هذا؛ فإنه يتبين قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحسن أحكام الله الكونية الشرعية.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

خبر لا يدخله الكذب ولا النسخ إطلاقاً، ولذلك هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فجمعوا بين المتشابهات والمختلفات من النصوص، وقالوا: ﴿**كل من عند ربنا**﴾، وعرفوا حسن أحكام الله تعالى، وأنها أحسن الأحكام وأنفعها للعباد وأقومها لمصالح الخلق فى المعاش والمعاد؛ فلم يرضوا عنها بديلاً.

قوله: (وعن أبى محمد عبد الله بن عمرو) إلى قوله: قال النووى: حديث صحيح رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح.

قال ابن رجب(٢): يريد بصاحب كتاب الحجة الشيخ أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسى الشافعى الفقيه الزاهد نزيل دمشق، وكتابه هذا هو كتاب الحجة على تاركى سلوك طريق المحجة، يتضمن ذكر أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة. وقد خرج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم فى كتاب «الأربعين» وشرط فى أولها أن تكون من صحاح الأخبار وجياد الآثار مما أجمع الناقلون على عدالة ناقليه، وخرجته الأئمة فى مسانيدهم ثم خرجه عن الطبرانى. حدثنا الوزير عبد الرحمن بن حاتم المرادى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الوهاب الثقفى عن هشام بن حسان عن

---

(١) (ضعيف) أخرجه ابن أبى عاصم فى «السنة» (١/ ١٢/ ح١٥)، والبغوى فى «شرح السنة» (١/ ٢١٣).

- من حديث عبد الله بن عمرو. قلت: انظر كلام ابن رجب على الحديث. أعلاه وانظر «فتح ذى الجلال» (ح ٧٢٥) بتخريجنا. وانظر «فتح المجيد (٧٣٤) بتخريجنا.

تنبيه: قد ورد القرآن بمثل هذا فى غير موضع.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٦٨٦) بتخريجنا.

محمد بن سيرين عن عقبة بن أوس عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ولا يزيغ عنه»** ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني عن ابن واره عن نعيم بن حماد حدثنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا بعض مشايخنا هشام أو غيره عن ابن سيرين فذكره وليس عنده «ولا يزيغ عنه».

قال الحافظ أبو موسى المديني: هذا الحديث مختلف فيه على نعيم، وقيل فيه حدثنا بعض مشيختنا مثل هشام وغيره.

قلت- أي ابن رجب- تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه: منها أنه حديث ينفرد به نعيم بن حماد المروزي، ونعيم هذا وإن كان وثقه جماعة من الأئمة وخرج له البخاري فإن أئمة الحديث كانوا يحسنون به الظن لصلابته في السنة وتشدده في الرد على أهل الأهواء وكانوا ينسبونه إلى أنه يهم ويشبه عليه في بعض الأحاديث، فلما كثر عثورهم على مناكيره حكموا عليه بالضعف، فروى صالح بن محمد الحافظ عن ابن معين أنه سئل عنه فقال: ليس بشيء إنما هو صاحب سنة، قال صالح: وكان يحدث من حفظه، عنده مناكير كثيرة لا يتابع عليها. وقال أبو داود: عند نعيم نحو عشرين حديثاً عن النبي ﷺ ليس لها أصل. وقال النسائي: ضعيف وقال مرة: ليس ثقة. قال مرة: قد كثر تفرده عن الأئمة المعروفين في أحاديث كثيرة فصار في حد من لا يحتج به. وقال أبو زرعة الدمشقي: يصل أحاديث يقفها الناس: يعني أنه يرفع الموقوفات. وقال أبو عروبة الحواني: هو مظلم الأمر. وقال أبو سعيد بن يونس: روى أحاديث مناكير عن الثقات ونسبه آخرون إلى أنه كان يضع الحديث، أين كان أصحاب عبد الوهاب الثقفي وأصحاب ابن سيرين عن هذا الحديث حتى ينفرد به نعيم؟ ومنها أنه قد اختلف على نعيم في إسناده، فروى عنه الثقفي عن هشام وروى عنه الثقفي حدثنا بعض مشيختنا حدثنا هشام أو غيره، وعلى هذه الرواية يكون الشيخ الثقفي غير معروف عنه، وروى عن الثقفي حدثنا بعض مشيختنا حدثنا هشام أو غيره. وعلى هذه الرواية، فالثقفي رواه عن شيخ مجهول، وشيخه رواه عن غير معين فتزداد الجهالة في إسناده. ومنها أن في إسناده عقبة بن أوس السدوسي البصري، ويقال فيه يعقوب بن أوس أيضاً. وقد خرج له أبو داود والنسائي وابن ماجه حديثاً عن عبد الله بن عمرو ويقال عبد الله بن عمر، وقد اضطرب في إسناده، وقد وثقه العجلي وابن سعد وابن حبان. وقال ابن خزيمة: روى عنه ابن سيرين مع جلالته وقال ابن عبد البر: هو مجهول. وقال الغلابي في تاريخه: يزعمون أنه لم يسمع من عبد الله بن عمرو وإنما يقول: قال عبد الله بن عمرو، فعلى هذا تكون رواياته عن عبد الله بن عمرو منقطعة والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ[1]: ومعناه: صحيح قطعاً وإن لم يصح إسناده وأصله في القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾.

وقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وغير ذلك من الآيات، فلا يضر عدم صحة إسناده. اهـ.

قلت: أما قوله [**معناه صحيح قطعاً**] فهذا واضح صوابه، وأما قوله: [**فلا يضر عدم صحة إسناده**] بل يضر عدم صحة إسناده لقوله ﷺ.

«من حدث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابيين»[2]، و**«من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»**[3].

فإلصاق هذا القول بالنبي ﷺ - بعدما تبين ضعف الإسناد إليه - خطأ ينبغي العدول عنه. والله الموفق للصواب.

● **مناسبة الحديث للباب.**

قال سليمان[4]: ومطابقة الحديث للباب ظاهرة من جهة أن الرجل لا يؤمن حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، في كل شيء حتى في الحكم وغيره، فإذا حكم بحكم أو قضى بقضاء فهو الحق الذي لا محيد للمؤمن عنه، ولا اختيار له بعده. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[5]: بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم. اهـ.

- **وقال عبد الله بن جار الله**[6]: أنه أبان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقولهم وأفعالهم وإرادتهم والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٢٧).
(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في المقدمة (١/ ٩٥) عن المغيرة بن شعبة به.
(٣) [صحيح] أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم في المقدمة (١/ ١٠٠/ ٣) عن أبي هريرة به.
(٤) تيسير العزيز الحميد (٤٢٩).
(٥) فتح المجيد (٢/ ٦٦٧).
(٦) الجامع الفريد (١٥٧).

- **وقال القرعاوى**[1]: دل الحديث على تحريم التحاكم إلى غير ما جاء به رسول الله ﷺ لأن ذلك منافى للشهادتين المتلازمتين. اهـ

● **مناسبة الحديث للتوحيد.**

قال القرعاوى[1]: حيث دل الحديث على تحريم التحاكم إلى غير شرع الله.

● **شرح الحديث.**

قال ابن رجب[2]: وأما معنى الحديث: فهو أن الإنسان لا يكون مؤمنا كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهى وغيرها فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه. وقد ورد القرآن بمثل هذا فى غير موضع. قال تعالى: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[3] وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾[4] وذم سبحانه من كره ما أحبه الله وأحب ما كرهه الله، قال الله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾[5] وقال تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾[6] فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلا، وأن يكره ما كرهه الله تعالى كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيها كان ذلك فضلاً. وقد ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين**»[7] فلا يكون المؤمن مؤمناً حتى يقدم محبة الرسول على محبة جميع الخلق، ومحبة الرسول تابعة لمحبة مرسله، والمحبة الصحيحة تقتضى المتابعة والموافقة فى حب المحبوبات وبغض المكروهات، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**

---

(١) الجديد (٣٤٧).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٦٨٤: ٦٩٠) بتخريجنا.
(٣) النساء/ ٦٥.
(٤) الأحزاب / ٣٦.
(٥) محمد / ٩.
(٦) محمد / ٢٨.
(٧) سيأتى تخريجه فى باب قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا....﴾ الآية.

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾(1) وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾(2) قال الحسن: قال أصحاب النبى ﷺ: «يارسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً، فأحب الله أن يجعل لحبه علماً. فأنزل الله هذه الآية»(3). وفى الصحيحين عن النبى ﷺ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار**»(4) فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب له ذلك أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى ما يرضى الله ورسوله. ويسخط ما يسخط الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه دلّ ذلك على نقص محبته الواجبة فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة.

قال أبو يعقوب النهرجورى: كل من ادّعى محبة الله تعالى ولم يوافق الله فى أمره فدعواه باطلة، وكل محب ليس يخاف الله فهو مغرور.

وقال يحيى بن معاذ: ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده.

وسئل رويم عن المحبة فقال: الموافقة فى جميع الأحوال، وأنشد:

ولو قلت لى متْ متُّ سَمْعاً وطاعةً ... وقلتُ لداعى الموتِ أهلاً ومرحباً

ولبعضهم:

تعصى الإلَه وأنت تزعمُ حبَّه ... هذا لعمرى فى القياس شنيعُ

لو كان حبُّكَ صادقاً لأطعتَهُ ... إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

---

(1) التوبة / 24.

(2) آل عمران / 31.

(3) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (3/ 155). عن الحسن به.

وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (2/ 30). ونسبه لابن جرير وابن المنذر.

(4) سيأتى تخريجه فى الباب الذى أشرنا إليه من قبل.

* فجميع المعاصى إنما تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى فى مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾(1).

وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا يسمى أهلها أهل الأهواء.

وكذلك المعاصى إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ورسوله ومحبة ما يحبه. وكذلك حب الأشخاص الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ فيجب على المؤمن محبة الله ومحبة من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً، ولهذا كان من علامات وجوده حلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وتحريم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً، وبهذا يكون الدين كله لله.

ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه كان ذلك نقصاً فى إيمانه الواجب فيجب عليه التوبة من ذلك والرجوع إلى اتباع ما جاء به الرسول ﷺ من تقديم محبة الله ورسوله وما فيه رضا الله ورسوله على هوى النفس ومراداتها كلها.

قال وهيب بن الورد: بلغنا والله أعلم أن موسى عليه السلام قال: يارب أوصنى؟ قال: أوصيك بى، قالها ثلاثاً حتى قال فى الأخرى: أوصيك بى أن لايعرض لك أمر إلا آثرت فيه محبتى على ما سواها فمن لم يفعل ذلك لم أزكه ولم أرحمه.

تعريف الهوى: والمعروف فى استعمال الهوى عند الإطلاق أنه الميل إلى خلاف الحق كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾(2) وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾(3).

وقد يطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقاً، فيدخل فيه الميل إلى الحق وغيره.

وربما استعمل بمعنى محبة الحق خاصة والانقياد إليه. وسئل صفوان بن عسال هل سمعت النبىّ ﷺ يذكر الهوى؟ فقال: سأله أعرابى عن الرجل يحب القوم ولم يلحق

---

(1) القصص / ٥٠.

(2) ص/ ٢٦.

(3) النازعات / ٤١.

بهم قال: «المرء مع من أحب»[1] ولما نزل قوله تعالى: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾[2]. قالت عائشة للنبى ﷺ: «ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك»[3].

وقال عمر فى قصة المشاورة فى أسارى بدر: فهوى رسول الله ﷺ للذى قال أبو بكر ولم يهو ما قلتِ[4].

وهذا الحديث مما جاء فى استعمال الهوى بمعنى المحبة المحمودة.

وقد وقع مثل ذلك فى الآثار الإسرائيلية كثيراً وكلام مشايخ القوم وإشاراتهم نظماً ونثراً يكثر فى هذا الاستعمال، ومما يناسب معنى الحديث من ذلك قول بعضهم:

إن هـــواك الـذى بقلـبى	صيـرنى سامعـاً مطيـعاً
أخـذ قلـبى وغمـض عينـى	سلـبتنى النـوم والهجـوعا
فذر فـؤادى وخـذ رقـادى	فقال: لابل هما جميعا. اهـ

● كلام شراح كتاب التوحيد.

قوله: «لايؤمن أحدكم».

قال سليمان آل الشيخ[5]: أى لايحصل له الإيمان الواجب ولايكون من أهله. اهـ. وتقدم من كلام الحافظ ابن رجب.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[6]: قوله: «لايؤمن أحدكم».

أى لايكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذى وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار وقد يكون فى درجة أهل الإساءة والمعاصى من أهل الإسلام.

قال ابن باز[7]: أى لا يؤمن الإيمان الكامل الواجب حتى يكون هواه وإرادته

(١) أخرجه الترمذى (٤ /٢٣٨٧)، والنسائى (١١١٧٨)، وأحمد (٤/٢٣٩).
من حديث صفوان بن عسال.
وقال الترمذى: حسن صحيح.
وأنظر «فتح المجيد» بتخريجنا

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري(٤٧٨٨)، ومسلم فى الرضاع (٥/ ٣٠٥/٤٩) عن عائشة به.
وأنظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجهاد (٨٦/١٢) عن عمر به.
وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٥٢٠)

(٢) الأحزاب/ ٥١.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٢٧.

(٦) فتح المجيد ٢/٦٦٣.

(٧) التعليق المفيد: ٢٠٠.

وقصده وطلبه تبعاً لما جئت به وهكذا ينبغي أن تكون ميول المؤمن ونياته خاضعة لحكم الله.

قال ابن عثيمين(١): أي: إيماناً كاملاً إلا إذا كان لايهوى ما جاء به النبي ﷺ بالكلية؛ فإنه ينتفي عنه الإيمان بالكلية، لأنه إذا كره ما أنزل الله؛ فقد حبط عمله لكفره، قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾.

قوله: «حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

قال سليمان آل الشيخ: بنحو كلام ابن رجب المتقدم.

وقال ابن عثيمين(٢): الهوى بالقصر هو: الميل، وبالمد هو: الريح، والمراد الأول. وتقدم تعريف الهوى لابن رجب.

و«حتى»: للغاية، والذي جاء به النبي ﷺ هو القرآن والسنة.

وإذا كان هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ؛ لزم من ذلك أن يوافقه تصديقاً بالأخبار، وامتثالاً للأوامر، واجتناباً للنواهي.

واعلم أن أكثر ما يطلق الهوى على هوى الضلال لا على هوى الإيمان، قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ**﴾، وغيرها من الآيات الدالة على ذم من اتبع هواه، ولكن إذا كان الهوى تبعاً لما جاء به النبي ﷺ؛ كان محموداً، وهو من كمال الإيمان.

وقد سبق بيان أن من اعتقد أن حكم غير الله مساوٍ لحكم الله، أو أحسن، أو أنه يجوز التحاكم إلى غير الله؛ فهو كافر.

وأما من لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ، فإن كان كارهاً له؛ فهو كافر، وإن لم يكن كارهاً ولكن آثر محبة الدنيا على ذلك؛ فليس بكافر، لكن يكون ناقص الإيمان. أهـ

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٣): فإن كان الذي تُحبُّ وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به رسول الله ﷺ لايخرج عنه إلى ما يُخَالفه. فهذه صفة أهل الإيمان المطلق.

---

(١) القول المفيد ٢/٣٤٥.

(٢) القول المفيد ٢/٣٤٩.

(٣) فتح المجيد ٢/٦٦٣ - ٦٦٥.

وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب، كما في حديث أبي هريرة: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِن، وَلاَ يَسْرِق السَّارِق حِينَ يَسْرِق وَهُوَ مُؤْمِن»[1]. يعني أنه بالمعصية ينتفي عنه كمال الإيمان الواجب، وينزل عنه في درجة الإسلام، وينقص إيمانه، فلا يُطْلَق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية، أو الفُسوق، فيقال: مؤمن عاص، أو يقال: مُؤْمِنٌ بإيمانه فَاسِقٌ بمعصيته، فيكون معه مطلق الإيمان الذي لايَصِحُّ إسلامه إلاَّ به. كما قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[2].

والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها -: أن الإيمان قَوْلٌ وعَمَلٌ ونية، يزيد بالطَّاعة وينقص بالمعصية: من كتاب الله تعالى وسُنَّة الرسول ﷺ - أكثر من أن تُحْصَر.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[3] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول النَّبي ﷺ لوفد عبد القيس: «آمُرُكُم بالإيمان بالله وَحْدَهُ، أَتَدْرُونَ مَا الإِيمانُ بالله وَحْدَهُ؟ شَهَادَةُ أن لا إِلهَ إلاَّ الله»[4] الحديث. وهو في الصَّحيحين والسُّنَن.

والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾[5] وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[6] خلافاً لمن قال: إن الإيمان هو القول، وهم المرجئة، ومن قال: إن الإيمان هو التصديق كالأشاعرة.

ومن المعلوم عقلاً وشرعاً: أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق، وقول الحق تصديق. وليس مع أهل البدع ما يُنَافي قول أهل السُّنَّة والجماعة، ولله الحمد والمنة.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾[7] أي: فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة. وشاهده في كلام العرب قولهم: حملة صادقة.

وقد سمَّى الله تعالى: «الهَوَى» المُخَالف لما جاء به الرَّسول ﷺ إلهًا، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[8] قال بعض المفسرين: لا يَهْوَى شيئاً إلاَّ ركبه. اهـ

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم في الإيمان (١/ ٣١٧/ ١٠٠) عن أبي هريرة به.
(٢) النساء: ٩٢. (٣) البقرة: ١٤٣.
(٤)[صحيح] أخرجه البخاري(١٣٩٨)، ومسلم في الإيمان (١/ ٢١٢/ ٢٤)عن ابن عباس به.
(٥) المدثر: ٣١. (٦) التوبة: ١٢٤.
(٧) البقرة: ١٧٧. (٨) الفرقان: ٤٣.

وَقَالَ الشَّعْبِي: «كَانَ بَيْنَ رَجلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلى مُحَمَّدٍ؛ عَرفَ أَنَّهُ لاَ يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتحَاكَمُ إِلىَ اليَهُودِ؛ لعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقا أَنْ يَأْتِيا كَاهِنًافِي جُهَيْنَةَ، فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾[1].

قوله: وقال الشعبي «كان بين رجل...»إلخ

- **مناسبة الأثر للباب** [2]: دل الأثر على تحريم التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ.
- **مناسبة الأثر للتوحيد** [3]: حيث حرم الأثر التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ لأن ذلك مناف للشهادتين المتلازمتين. أهـ.

قلت: والأثر أخرجه ابن جرير وعزاه السيوطي في «الدر» لابن المنذر. وقد تقد الأثر في أسباب نزول آية هذا الباب وهنا نشرع في شرح الأثر، والله المستعان.

قوله (الشعبي): هو عامر بن شراحيل الكوفي عالم أهل زمانه، وكان حافظاً علامه ذا فنون . كان يقول ماكتبت سوداء في بيضـاء. وأدرك خلقاً من الصحابة،وعاش بضعاً وثمانين سنة قاله الذهبي[4].

وقوله **[قال الشعبي]** أي في تفسير الآية [5]

قوله : [كان بين رجل من المنافقين، ورجل من اليهود خصومة].

قال سليمان آل الشيخ: لم أقف على تسمية هـذين الرجلين، وقد روى ابن إسحاق وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: كـان بين الجلاس بين الصامت قبل توبته، ومعتب بن قشيـر، ورافع بن زيد وبشيـر، كانوا يدعون الإسلام ، فـدعاهم رجال من قومـهم من المسلـمين في خصومـة كانت بينـهم إلى رسول الله ﷺ ،فدعـوهم إلى الكهـان حكام الجاهلية فـأنزل الله فيهم: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾**الآية. فيحتمـل أن يكون المنافق المذكور في قصة الشـعبي أحد هؤلاء،بل روى الثعلبي عن ابن عـباس أن المنافق اسمه بشر.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره» (٥/ ٩٦ ـ٩٧)
من طريق داود عن عامر الشعبي به . وذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ٣١٩) وزاد نسبته لابن المنذر . .
(٢ - ٣) الجديد ٣٥١ (٤) فتح المجيد ٢/ ٦٦٨ (٥) القول المفيد ٢/ ٣٤٧

قال ابن باز [1]: يدل على أن المنافق أشر من اليهود لأنهم يلبسون على الناس أمرهم، ويحصل بهم الضلال فصاروا بذلك فى الدرك الأسفل من النار .

قال ابن عثيمين [2]: **قوله : «رجل من المنافقين»**

هو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وسمى منافقاً من النافقاء، وهى جحر اليربوع، واليربوع له جحر له باب وله نافقاء- أى يحفر إلى الأرض خندقاً حتى يصل منتهى جحره ثم يحفر إلى أعلى، فإذا بقى شىء قليل بحيث يتمكن من دفعه برأسه توقف - ، فإذا جُحر عليه من الباب خرج من النافقاء.

قوله «ورجل من اليهود»

اليهود هم المنتسبون إلى دين موسى عليه السلام، وسموا بذلك إما من قوله: **﴿إنا هدنا إليك﴾**؛ أى: رجعنا، أونسبة إلى أبيهم يهوذا، ولكن بعد التعريب صار بالدال.

قوله : [إلى محمد]:

قال ابن عثيمين [3]: أى : النبى ﷺ، ولم يذكره بوصف الرسالة؛ لأنهم لايؤمنون برسالته، ويزعمون أن النبى الموعود به سيأتى.

قوله : [عرف أنه لايأخذ الرشوة]:

قال سليمان آل الشيخ: هى بتثليث الراء [4].

قال أبو السعادات: وهو الوصلة إلى الحاجة بالمصانعة، وأصله من الرشاء الذى يتوصل به إلى الماء. والراشى من يعطى الذى يعينه على الباطل، والمرتشى الآخذ.

قلت - أى سليمان آل الشيخ- :فعلى هذا رشوة الحاكم هى مايعطاه ليحكم بالباطل، وسواء طلبها أم لا. وفيه دليل على شهادة أن محمداً رسول الله؛ لأن أعداءه يعلمون عدله فى الأحكام،ونزاهته عن قذر الرشوة ﷺ بخلاف حكام الباطل. اهـ.

قال ابن عثيمين [5]: قوله :«عرف أنه لايأخذ الرشوة».

تعليل لطلب التحاكم إلى النبى ﷺ .

---

(١) التعليق المفيد ٢٠١.

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٤٧.

(٣) القول المفيد ٢/ ٣٤٨.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٢٩ ، ٤٣٠.

(٥) القول المفيد ٢/ ٣٤٨.

والرشوة : مثلثة الراء؛ فيجوز الرُشوة، الرَّشوة،و الرِّشوة، وهى: المال المدفوع للتوصل إلى شىء.

قال أهل العلم: «لا تكون محرمة إلا إذا أراد الإنسان أن يتوصل بها إلى باطل أودفع حق، أما من بذلها ليتوصل بها إلى حق له منع منه أو ليدفع بها باطلاً عن نفسه؛ فليست حراماً على الباذل، أما على آخذها؛ فحرام».

قوله: [فاتفقا على أن يأتيا كاهناً فى جهينة].

قال سليمان آل الشيخ[١]: لم أقف على تسمية هذا الكاهن. وفى قصة رواها ابن جرير، وابن أبى حاتم، عن السدى فى سبب نزول الآيةقال :فتفاخرت النضير وقريظة فقالت النضير: نحن أكرم من قريظة وقالت قريظة : نحن أكرم منكم. فدخلوا المدينة إلى أبى برزة الكاهن الأسلمى، وفى بعض النسخ أبى بردة الأسلمى وذكر القصة[٢]. وأبو برزة هذا غير أبى برزة الصحابى. اهـ

قال ابن عثيمين [٣]: **قوله :«فاتفقا أن يأتيا كاهناً فى جهينة»**

كأنه صار بينهما خلاف، وأبى المنافق أن يتحاكما إلى النبى ﷺ.

والكاهن: من يدعى علم الغيب فى المستقبل،وكان للعرب كهان تنزل عليهم الشياطين بخبر السماء، فيقولون: سيحدث كذا وكذا، فربما أصابوا مرة من المرات، وربما أخطؤوا، فإذا أصابوا ادعوا علم الغيب، فكان العرب يتحاكمون إليهم؛ فنزل قوله تعالى **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾** الآية. اهـ.

وفى قصة عمر: بيان أن المنافق المغموض بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل، كما فى الصحيحين . وغيرهما : أن النبى ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس، فإنه قال: **«لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**[٤]

فصلوات الله وسلامه عليه.



(١) تيسير العزيز الحميد ٤٣٠.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) القول المفيد ٢/٣٤٨.

(٤) البخارى (٣٥١٨) ومسلم فى البر والصلة (٨/ /٦٣) عن جابر به

وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِى رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحدهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بنِ الأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَر لَهُ أَحدُهُمَا القِصَّةَ فَقَالَ لِلَّذِى لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ»(١).

قوله: [وقيل: نزلت فى رجلين اختصما...].

[قلت] وهذا الأثر تقدم معنا فى أول الباب فى عرض أسباب نزول الآية التى صدر بها المصنف الباب، وهنا فشرع فى شرح الأثر، والله المستعان.

وقال سليمان الشيخ(٢): هذه القصة قد رويت من طرق متعددة من أقربها لسياق المصنف، مارواه الثعلبى وذكره البغوى عن ابن عباس فى قوله **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾**(٣). الآية. قال: نزلت فى رجل من المنافقين يقال له بشر خاصم يهودياً فدعاه اليهودى إلى رسول الله ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ثم إنهما احتكما للنبى ﷺ، فقضى لليهودى فلم يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب. فقال اليهودى لعمر: قضى لنا رسول الله ﷺ، فلم يرض بقضائه. فقال للمنافق: كذلك؟ قال: نعم فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر فاشتمل على سيفه، ثم خرج فضرب عنق المنافق حتى برد، ثم قال: هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله، فنزلت(٤).

وروى الحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول» هذه القصة عن مكحول وقال فى آخرها: فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، فقال إن عمر قد قتل الرجل، وفرق الله بين الحق والباطل على لسان عمر، فسمى الفاروق، ورواه أبو إسحاق بن دحيم فى تفسيره على ما ذكره شيخ الإسلام وابن كثير، ورواه ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق ابن لهيعة، عن أبى الأسود وذكر القصة، وفيه قال رسول الله ﷺ: **«ما كنت أظن أن يجترأ عمر على قتل مؤمن»**، فأنزل الله **﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** فهدر دم ذلك الرجل وبرأ عمر من قتله، فكره الله أن يسن ذلك بعد، فقال **﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾** إلى قوله: **﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾**(٥).

وبالجملة: فهذه القصة مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولاً يغنى عن الإسناد، ولها طرق كثيرة ولا يضرها ضعف إسنادها. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٦): وفيما قاله الشعبى ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى. ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان، كما هوالواقع فى هذ الأزمنة وقبلها من إعانة العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان. اهـ.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٢٠) ونسبه للثعلبى عن ابن عباس وانظر «فتح المجيد» (ح٧٣٨)

(٢) تيسير العزيز الحميد: ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢.

(٣) تقدم تخريجه

(٤) النساء: ٦٠

(٥) فتح المجيد

من تدبر ما فـى التاريخ وما وقع منهم مـن الوقائع عرف أن هذا حال المنـافقين قديماً وحديثاً، وقد حـذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والـقرب منهم، وحضه علـى جهادهم فى مواضع من كتابه ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وفى قصة عـمر رضى الله عنـه وقتله المـنافق الذى طـلب التحـاكم إلى كعـب بن الأشرف اليهودى: دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق.

وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة لـلنبى ﷺ والأذى له،والإظهار لعداوته، فانتقـض به عهده. وحل به قتـله. وروى مسلم فى صحـيحه عن عمر: سمـعت جابراً يقول: قـال رسول الله ﷺ:«من لـكعب بن الأشـرف؟ فإنه قد آذى الله ورسـوله . قال محمد بن مسلمـة:يارسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال : نعم . قال : ائذن لـى فلأقل. قال: قل، فأتاه فـقال له، وذكر ما بـينهما وقـال : إن هذا الرجل قد أراد صـدقة وقد عنَّانا. فلما سمـعه قال: وأيضاً واللهلتملنه . قال : إنا قد اتبـعناه الآن، ونكره أن ندعه حتى ننـظر إلى أى شىء يصيـر أمره، قال: وقد أردت أن تسلـفنى سلفا . قـال : فما ترهـنـنى؟ قال :ماتريـد؟ قال: ترهننـى نساءكم؟ قال : أنـت أجمل العرب، أنـرهنك نساءنا؟ قال : ترهـنونى أولادكم؟ قال : يسب ابن أحدنا فيقـال : رهن فى وسقين من تمر. ولكن نرهنك اللأمة- يعنى السـلاح ـ قال :فنعم. وواعده أن يأتيه بالحارث وأبى عبس ابن جبر وعباد بن بشر: قال : فجاؤوا فـدعوه ليلاً فنزل إليهم، قال سفيان قال غيرعمرو: قالت له امرأته : إنى أسمع صـوتاً كأنه صوت دم، قال : إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة إن الكريم لو دعى إلى طعنة ليلاً لأجاب، قال محمد: إنى إذا جاء فسوف أمـد يدى إلى رأسه، فإذا استـمكنت منه فـدونكم، قال:فلمـا نزل ـ وهو متوشح ـ قالـوا:نجد منك ريح الطيب، قال :نـعم تحتى فلانة أعطر نـساء العرب، قال فتأذن لى أن أشـم منه؟ قال: نعم فشـم، فتناول فشم، ثم قـال : أتأذن لى أن أعود؟ قال: فاستمكن من رأسه . ثم قال :دونكم . قال فقتلوه»(١).

قال ابن عثـيمين (٢): وهذه القصـة والتى قبلهـا تدل على أن من لم يـرض بحكم رسول الله ﷺ كافراً يجب قتله، ولهذا قتله عمر رضى الله عنه.

فإن قيل: كيف يقتله عمر رضى الله عنه والأمر إلى الإمام وهو النبى ﷺ؟

أجيب:إن الظاهر أن عمر لم يملك نفسـه لقوة غيرته فقتله؛ لأنه عرف أن هذا ردة عن

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٠٣٧) ،ومسلم فى الجهاد (٦/ ٤٠١/ ١١٩) عن جابر به.

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٤٩، ٣٥٠.

فيه مسائل

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت .

الثانية: تفسير آية البقرة : ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾ .

الإسلام، وقد قال النبي ﷺ «من بدل دينه فاقتلوه»[١].

قال الشيخ حامد بن محمد[١]:

فيارب يسر صولة عمرية	لنا كي يمضي الوحي في الناس شائعا
ويردع من يبغي الجهالة حكمها	ولم يك للوحيين في الحكم سامعا
فكم من ترى في زي علم وهمة	يصد عن الوحيين في الدين بادعا
فلا لكتاب الله يصغي سماعه	ولا للذي قال الرسول مطاوعا
فيا رب عجل بالذي ينصر الهدى	بآياتك الفصحى سيوفاً قواطعا
كما كان في وقت الرسول محمد	عليه صلاة الله ما البدر لامعا

قوله : فيه مسائل:

● **الأولى** :تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.

قال ابن عثيمين[٢]: وهي قوله تعالي﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾.

وقوله «**وَمَا فِيهَا مِنَ الإِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الطَّاغُوتِ**».

أي : أن الطاغوت مشتق من الطغيان، وإذا كان كذلك؛ فيشتمل كل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أومعبود أومطاع؛ فالأصنام والأمراء والحكام الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال طواغيت.

● **الثانية**:تفسير آية البقرة: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾.

---

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٩٢٢) عن ابن عباس به. وأنظر «منار السبيل» (٢٦٦٢ ـ بتخريجنا)

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٣٨٢.

(٣) القول المفيد ٢/ ٣٥٠.

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ الأَعْرَافِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

الرابعة: تَفْسِيرُ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الخامسة: مَا قَالَهُ الشَّعْبِيُّ فِي سَبَبِ نُزُولِ الآيَةِ الأُولَى.

السادسة: تَفْسِيرُ الإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالكَاذِبِ.

السابعة: قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ الْمُنَافِقِ.

الثامنة: كَوْنُ الإِيمَانِ لَا يَحْصُلُ لأَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ.

ففيها دليل على أن النفاق فساد في الأرض؛ لأنها في سياق المنافقين، والفساد يشمل جميع المعاصي.

- **الثالثة: تفسير آية الأعراف ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.**

وقد سبق.

- **الرابعة: تفسير ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.**

وقد سبق ذلك، وقد بينا أن المراد بحكم الجاهلية كل ما خالف الشرع، وأضيف للجاهلية للتنفير منه وبيان قبحه، وأنه مبني على الجهل والضلال.

- **الخامسة: ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولى**

- **السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.**

فالإيمان الصادق يستلزم الإذعان التام والقبول والتسليم لحكم الله ورسوله، والإيمان الكاذب بخلاف ذلك.

- **السابعة: قصة عمر مع المنافق**

حيث جعل عدوله عن الترافع إلى النبي ﷺ مبيحاً لقتله لردته، وأقدم على قتله لقوة غيرته فلم يملك نفسه.

- **الثامنة: كون الإيمان لايحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لماجاء به الرسول ﷺ**

وهذا واضح من الحديث.



٣٩ باب
من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

مناسبة الباب لما قبله:

قال الفقير: هو أن الباب الماضى إنما عقد لمن زعم أنه آمن ثم حكَّم الطاغوت وكذلك الجاحد بأسماء الله وصفاته - ممن يزعم الإيمان وينتسب إلى الإسلام - بضرب من ضروب التأويل الغير مستساغة أو بغير تأويل أصلاً فهو من جنس المنافقين الذين ذكروا فى الآية ولهذا ناسب أن يأتى المصنف بهذا الباب بعد الباب الماضى.

قال ابن تيمية: فى الباب السابق لهذا فى قوله تعالى ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ** ﴾ إلى آخر الآيات، قال: إن هذه الآيات تنطبق تماماً على أهل التحريف والتأويل فى صفات الله، لأن هؤلاء يقولون إنهم يؤمنون بالله ورسوله، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول يعرضون ويصدون ويقولون نذهب إلى فلان وفلان، وإذا اعترض عليهم قالوا: نريد الإحسان والتوفيق، وأن نجمع بين دلالة العقل ودلالة السمع ذكره رحمه الله فى الفتوى الحموية. اهـ

وقال ابن كثير(*): مؤكداً على هذا المعنى الذى ذهبت إليه: وفعل المنافقين الذى ذكر الله عنهم فى هذه الآية - ألم تر إلى الذين يزعمون - هو بعينه الذى يفعله المحرفون للكَلِمَ عن مواضعه، الذين يقولون: إنما قصدت التوفيق بين القواطع العقلية بزعمهم التى هى الفلسفة والكلام، وبين الأدلة النقلية، ثم يجعلون الفلسفة التى هى سفاهة وضلالة الأصل، ويردون بها ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة؛ زعموا أن ذلك يخالف الفلسفة التى يسمونها القواطع فتطلبوا له وجوه التأويلات البعيدة، وحملوه على شواذ اللغة التى لاتكاد تُعْرف. اهـ.

مناسبة الباب للتوحيد

قال سليمان آل الشيخ (١): لما كان تحقيق التوحيد، بل التوحيد لايحصل إلا بالإيمان بالله، والإيمان بأسمائه وصفاته نبه المصنف على وجوب الإيمان بذلك، وأيضاً فالتوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد العبادة.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٣٢

(*) تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٢)

والأولان وسيلة إلى الثالث فهو العناية والحكمة المقصود بالخلق والأمر، وكلها متلازمة فتاسب التنبيه على الإيمان بتوحيد الصفات. اهـ.

قال ناصر السعدي[1]: أصل الإيمان وقاعدته التى ينبنى عليها هو الإيمان بالله وبأسمائه، وصفاته وكلما قوى علم العبد بذلك وإيمانه به، وتعبد لله بذلك، قوى توحيده، فإذا علم أن الله متوحد بصفات الكمال متفرد بالعظمة والجلال و الجمال ليس له فى كماله مثيل، أوجب له ذلك أن يعرف ويتحقق أنه هو الإله الحق، وأن الهية ما سواه باطلة، فمن جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه، وذلك من شعب الكفر. أهـ.

قال عبدالله بن جار الله[2]: مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هى أن من جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه وذلك من شعب الكفر. أهـ.

● **شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب**

قال حامد بن محمد[3]: باب ماجاء فى بيان أن من جحد شيئاً من الأسماء والصفات التى تثبت بالكتاب والسنة يكفر بالإتفاق إن كان غير مؤول وإن كان مؤولا ففيه الإختلاف: فالنوع الأول: قوله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾

قال سليمان آل الشيخ[4]: باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات أى من أسماء الله وصفاته والمراد ما حكمه هل هوناج أو هالك؟

قال ابن باز [5]: هذا الباب عقده المؤلف لبيان وجوب إثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى من غير تحريف لاتعطيل ولاتكييف ولاتمثيل وإن لايغتر بأقوال أهل الإعتزال وأهل الباطل بل يجب الأخذ بما قاله أهل السنة والجماعة من الصحابة ومن سلك سبيلهم وهو الذى جاءت به الرسل جاءوا بإثبات أسماء الله وصفاته وأحاديثها كما جاءت واثبتوا مادلت عليه من الأسماء والصفات عملاً بقوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى لاسمى له ولاكفؤ له سبحانه وتعالى وأنكرت الجهمية الأسماء والصفات وتأولوا الأسماء والصفات حتى صاروا معطلة ومقتضى قولهم نفى وجود الله بالكلية ولهذا حكم عليهم

(١) القول السديد (١٠٤، ١٠٥).
(٢) الجامع الفريد (١٥٨).
(٣) فتح الله الحميد المجيد ٣٨٥.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٣٢
(٥) التعليق المفيد ٢٠٣.

أهل السنة بالكفر والواجب قتلهم إن لم يتوبوا فيستتابوا لذلك لإنكارهم ماجاء فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة والإجماع وأطلق المؤلف الترجمة ولم يحكم على جاحد الأسماء والصفات,وحكمه الكفر. أهـ

قلت: لكن المصنف أطلق لأن فى المسألة تفصيل سيأتى من كلام ابن عثيمين

● حكم من جحد شيئاً من الاسماء والصفات.

قال ابن عثيمين (1):

الجحد: الإنكار، والإنكار نوعان:

الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحداً أنكر اسماً من أسماء الله أوصفة من صفاته الثابتة فى الكتاب والسنة، مثل أن يقول: ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه، أو ليس له عين؛ فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.

الثانى: إنكار تأويل، وهو أن لاينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها، وهذا نوعان:

١ـ أن يكون للتأويل مسوغ فى اللغة العربية؛ فهذا لايوجب الكفر.

٢ـ أن لايكون له مسوغ فى اللغة العربية؛ فهذا حكمه الكفر لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار فى الحقيقة تكذيباً، مثل أن يقول: المراد بقوله تعالى ﴿ **تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا**﴾ تجرى بأراضينا؛ فهذا كافر لأنه نفاها نفياً مطلقاً، فهو مكذب.

ولو قال فى قوله تعالى: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ المراد بيديه: السماوات والأرض؛ فهو كفر أيضاً لأنه لامسوغ له فى اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية؛ فهو منكر ومكذب، لكن إن قال: المراد باليد النعمة أو القوة؛ فلا يكفر لأن اليد فى اللغة تطلق بمعنى النعمة، قال الشاعر:

وكم لظلام الليل عندك من يد … تحدث أن المانوية تكذب

فقوله: «من يد»؛ أى: من نعمة؛ لأن المانوية يقولون: إن الظلمة لا تخلق الخير، وإنما تخلق الشر.

قوله: **«من الأسماء»**

جمع اسم، واختلف فى اشتقاقه؛ فقيل: من السمو، وهو الارتفاع، ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر.

---

(1) القول المفيد (٢/ ٣٥٣: ٣٦١).

وقيل: من السمة وهى العلامة، ووجهه: أنه عـلامة على مسماه، والراجح أنه مشتق من كليهما.

والمراد بـالأسماء هنـا أسماء لله ـ عزوجـل ـ وبالصـفات صفات الله ـ عـزوجل ـ، والفرق بين الاسم والصفة أن الاسم ما تسمى به الله والصفة ماتصف به

قال ابن عثيمين [1]:

البحث فى أسماء الله:

المبحث الأول:

أن أسماء الله أعلام وأوصاف، وليست أعلاماً محضـة؛ فهى من حيث دلالتها على ذات الله تعالى أعلام، ومن حيث دلالتها على الصفة التى يتضمنها هذا الاسم أوصاف، بخلاف أسمـائنا؛ فالإنسان يسمـى ابنه محمداً وعليـاً دون أن يلحظ معنى الصـفة، فقد يكون اسمه علياً وهو من أوضع الناس، أو عبد الله وهو من أكفر الناس، بخلاف أسماء الله ؛ لأنها متـضمنة للمعانـى؛ فالله هو العلى لعـلو ذاته وصفاته، والعزيـز يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا.

ودلالة الاسم على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: دلالة مطابقة، وهى دلالته على جميع معناه المحيط به.

الثانى: دلالة تضمن، وهى دلالته على جزء معناه.

الثالث: دلالة التزام، وهى دلالته على أمر خارج لازم.

مثال ذلك: الخالق يدل على ذات الله وحده، وعلى صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفـة الخلق فيه دلالة مطابقة، ويدل علـى العلم والقدرة دلالة التزام.

كما قال الله تعالى ﴿**اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا**﴾[2]؛ فعلمنا القدرة من كونه خلق السماوات والأرض، وعلمنا العلم من ذلك أيضاً؛ لأن الخلق لابد فيه من علم، فمن لايعلم لايخلق، وكيف يخلق شيئاً لا يعلمه؟!

المبحث الثانى:

أن أسماء الله مترادفة متباينة.

---

(١) القول المفيد ٢/ ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١

(٢) الطلاق: ١٢

المترادف: **ما اختلف لفظه واتفق معناه**، و المتباين: **ما اختلف لفظه ومعناه**؛ **فأسماء الله مترادفة** باعتبار دلالتها على ذات الله ـ عزوجل ـ ؛ **لأنها تدل على مسمى واحد**، فالسميع، البصير، العزيز، الحكيم؛ كلها تدل على شيء واحد هو الله، **ومتباينة باعتبار معانيها**؛ لأن معنى الحكيم غير معنى السميع وغير معنى البصير، وهكذا .

المبحث الثالث:

أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور: **«اللهم ! إنى عبدك، ابن عبدك، وابن أمتك...ـ إلى أن قال ـ أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك»**(١)، وما استأثر الله به فى علم الغيب لايمكن أن يعلم به، وما ليس بمعلوم ليس بمحصور.

وأما قوله ﷺ: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»**(٢)؛ فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقوله: «من أحصاها» تكميل للجملة الأولى، وليست استئنافية منفصلة، ونظير هذا قول القائل: عندى مئة فرس أعددتها للجهاد فى سبيل الله؛ فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المئة، بل معناه أن هذه المئة معدة لهذا الشيء.

المبحث الرابع:

الاسم من أسماء الله يدل على الذات وعلى المعنى كما سبق؛ فيجب علينا أن نؤمن به اسماً من الأسماء، ونؤمن بما تضمنه من الصفة، ونؤمن بما تدل عليه هذه الصفة من الأثر والحكم إن كان الاسم متعدياً؛ فمثلاً: السميع نؤمن بأن من أسمائه تعالى السميع، وأنه دال على صفة السمع، وأن لهذا السمع حكما وأثراً وهو أنه يسمع به؛ كما قال تعالى: **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾**(٣)، أما إن كان الاسم غيرمتعد؛ كالعظيم، والحى، والجليل، فنثبت الاسم والصفة، ولاحكم له يتعد إليه.

---

(١) سيأتى تخريجه.

أنظر «القواعد المثلى» بتخريجنا.

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) المجادلة: ١

المبحث الخامس:

هل أسماء الله تعالى غيره، أو أسماء الله هى الله؟

إن أريد بـالاسم اللفـظ الدال على المـسمى؛ فهـى غير الله ـ عزوجـل ـ، وإن أريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ؛ فهى المسمى.

فمثلاً: الذى خلق السماوات والأرض هو الله؛ فالاسم هنا هو المسمى، فليست «اللام ـ والهاء» هى التى خـلقت السماوات والأرض، وإذا قيل: اكتب باسم الله فـكتبت بسم الله؛ فالمراد به الاسم دون المـسمى، وإذا قيل: اضرب زيداً. فضربت زيـداً المكتوب فى الورقة لم تكـن ممتثلاً؛ لأن المقصود المسـمى، وإذا قيل: اكتب زيد قائـم. فالمراد الاسم الذى هو غير المسمى.

البحث فى صفات الله:

المبحث الأول:

تنقسم صفات الله إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ذاتية ويقال معنوية.

الثانى: فعلية.

الثالث: خبرية.

فالصفات الذاتيـة: هى الملازمة لذات الله، والتى لم يزل ولايزال متصـفاً بها، مثل: السمع والبصر وهى معنوية؛ لأن هذه الصفات معانى.

والفعلية: هى التى تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها، مثل: النزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العـرش، والكلام من حيث آحاده، والخلق من حيث آحاده، لا من حيث الأصل ؛ فأصل الكلام صفة ذاتية، وكذلك الخلق.

والخبرية: هى أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا، أما بـالنسبة لله؛ فلا يقال هكذا بل يقال: صفات خبريـة ثبت بها الخبر من الكتـاب و السنة، وهى ليست معنـى ولافعلا، مثل: الوجه، والعين، والساق، واليد.

المبحث الثانى:

الصفات أوسـع من الأسماء؛ لأن كل اسم متضـمن لصفة، وليس كل صـفة تكون اسماً، وهناك صـفات كثيرة تطلق علـى الله وليست من أسمائه؛ فيـوصف الله بالكلام والإرادة ،ولايسمى بالمتكلم أو المريد.

المبحث الثالث:

أن كل ما وصف الله به نفسه؛ فهو حق على حقيقته، لكن يتزه عن التمثيل والتكييف، أما التمثيل؛ فلقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾والتعبير بنفى التمثيل أحسن من التعبير بنفى التشبيه؛ لوجوه ثلاثة:

أحدهما: أن التمثيل هو الذى جاء به القرآن وهو منفى مطلقاً، بخلاف التشبيه؛ فلم يأت القرآن بنفيه.

الثانى: أن نفى التشبيه على الإطلاق لايصح؛ لأن كل موجودَيْن فلا بد أن يكون بينهما قدر مشترك يشتبهان فيه ويتميز كل واحد بما يختص به؛ فـ:«الحياة» مثلا وصف ثابت فى الخالق والمخلوق، فبينهما قدر مشترك، ولكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق تليق به.

الثالث: أن الناس اختلفوا فى مسمى التشبيه، حتى جعل بعضهم إثبات الصفات التى أثبتها الله لنفسه تشبيها، فإذا قلنا من غير تشبيه؛ فهم هذا البعض من هذا القول نفى الصفات التى أثبتها الله لنفسه.

وأما التكييف؛ فلا يجوز أن نكيف صفات الله، فمن كيف صفة من الصفات؛ فهو كاذب عاص، كاذب لأنه قال بما لاعلم عنده فيه، عاص لأنه واقع فيما نهى الله عنه وحرمه فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾بعد قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية (٢)، ولأنه لايمكن إدراك الكيفية؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾(٣)،وقوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾(٤).

وسواء كان التكييف باللسان تعبيراً أو بالجنان تقديراً أو بالبنان تحريراً، ولهذا قال مالك رحمه الله حين سُئل عن كيفية الاستواء:«الكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة»، وليس معنى هذا أن لانعتقد أن لها كيفية، بل لها كيفية، ولكنها ليست معلومة لنا؛ لأن ماليس له كيفية ليس بموجود؛ فالاستواء والنزول واليد والوجه والعين لها كيفية،

(١) الإسراء: ٣٦
(٢) الأعراف: ٣٣
(٣) طه: ١١٠
(٤) الأنعام: ١٠٣.

لكننا لا نعلمها؛ ففرق بين أن نثبت كيفية معينة ولو تقديراً وبين أن نؤمن بأن لها كيفية غير معلومة، وهذا هو الواجب؛ فنقول: لها كيفية، لكن غير معلومة.

فإن قيل: كيف يتصور أن نعتقد للشيء كيفية ونحن لانعلمها؟

أجيب: إنه متصور؛ فالواحد منا يعتقد أن لهذا القصر كيفية من داخله، ولكن لايعلم هذه الكيفية إلا إذا شاهدها، أو شاهد نظيرها، أو أخبره شخص صادق عنها. اهـ.

قلت: وهناك مباحث أخرى غير ذلك ستأتي من كلام الرازي والقرطبي وابن كثير في باب قوله الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية]

مناسبة الآية للترجمة والتوحيد

قال سليمان آل الشيخ[2]: ومطابقة الآية للترجمة ظاهرة، لأن الله تعالى سمى جحود اسم من أسمائه كفراً، فدل على أن جحود شيء من أسماء الله وصفاته كفر، فمن جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته من الفلاسفة، والجهمية والمعتزلة ونحوهم فله نصيب من الكفر بقدر ماجحد من الاسم أو الصفة. فإن الجهميةوالمعتزلة ونحوهم، وإن كان يقرون بجنس الأسماء والصفات فعند التحقيق لايقرون بشيء، لأن الأسماء عندهم أعلام محضة، لاتدل على صفات قائمة بالرب تبارك وتعالى وهذا نصف كفر الذين جحدوا اسم الرحمن. اهـ.

قال القرعاوي[3]: دلت الآية على أن إنكار شيء من أسماء الله وصفاته كفر وذلك ينافي توحيد الأسماء والصفات أهـ

---

(1) الرعد: ٣٠.

(*) تنبيه: هذه الآية اختلف شراح كتاب التوحيد في كتابتها كاملة أو الاقتصار على جزء منها، وموضع الشاهد منها ما أثبتناه في المتن.

(2) الجديد ٣٥٣.

(3) تيسير العزيز الحميد (٤٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

الإعراب[1]:

(وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) الواو للحال أى وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن والجار والمجرور متعلقان بيكفرون ولا مانع من جعلها استئنافية كما قال بعضهم. اهـ.

● ما جاء فى سبب نزول الآية من الأحاديث والآثار وأقوال المفسرين.

عن قتادة فى قوله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ - زمن الحديبية - حين صالح قريشا، كتب فى الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم. فقالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه، وكان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهم. فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم . قال: لا، ولكن اكتبوا كما يريدون»[2].

وعن ابن جريج فى الآية قال: هذا لما كاتب رسول الله ﷺ قريشا فى الحديبية، كتب «بسم الله الرحمن الرحيم». فقالوا: لا نكتب الرحمن وما ندرى ما الرحمن!... ومانكتب إلا باسمك اللهم» فأنزل الله تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الاية [3].

قال البغوى[4]: والمعروف أن الآية مكية، وسبب نزولها: أن أبا جهل سمع النبى ﷺ، وهو فى الحجر يدعو يا الله يا رحمن، فرجع إلى المشركين فقال: إن محمداً يدعو إلهين: يدعوالله، ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن. ولانعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾.

قال ابن الجوزى[5]: فى سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن النبى ﷺ لما قال لكفار قريش: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟ فنزلت هذه الآية، وقيل لهم: إن الرحمن الذى أنكرتم هو ربى، هذا قول الضحاك عن ابن عباس.

والثانى: أنهم لما أرادوا كتاب الصلح يوم الحديبية، كتب على - رضى الله عنه -

(١) إعراب القرآن / ١٢٢

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (ح/ ١١٦) ونسبه لابن جرير، و ابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن المنذر.

(٤) معالم التنزيل (٣/ ٣٥٦). (٥) زاد المسير ٤/ ٢٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: مانعرف الرحمن إلا مسيلمة، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة، وابن جريج، ومقاتل.

والثالث: أن رسول الله ﷺ كان يوماً فى الحجر يدعو، وأبو جهل يستمع إليه وهو يقول: يارحمن، فولى مدبراً إلى المشركين فقال: إن محمداً كان ينهانا عن عبادة آلهة وهو يدعو إلهين! فنزلت هذه الآية، ذكره على بن أحمد النيسابورى.

قال الفخر الرازى(١):

قيل: نزل قوله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ فى عبد الله بن أمية المخزومى، كان يقول أماالله فنعرفه، وأما الرحمن فلانعرفه، إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب، فقال تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

وكقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾.

وقيل إنه عليه السلام حين صالح قريشا من الحديبية كتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فقال المشركون: إن كنت رسول الله وقد قاتلناك فقد ظلمنا، ولكن اكتب، هذاما صالح عليه محمد بن عبدالله، فكتب كذلك، ولماكتب فى الكتاب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قالوا أما الرحمن فلانعرفه، وكانوا يكتبون باسمك اللهم، فقال ـ عليه السلام ـ اكتبوا كما تريدون.

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير(٢): ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ يقول وهم يجحدون وحدانية الله ويكذبون بها. اهـ.

قال الزمخشرى: وهم يكفرون وحال هؤلاء أنهم يكفرون (بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شىء ومابهم من نعمة فمنه فكفروا بنعمته فى إرسال مثلك إليهم وأنزل هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم (٣).

قال الرازى: واعلم أن قوله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ إذا حملناه على هاتين الروايتين كان معناه أنهم كفروا باطلاق هذا الاسم على الله تعالى، لا أنهم كفروا بالله تعالى.

وقال آخرون: بل كفروا بالله إما جحدا له وإما لإثباتهم الشركاء معه.

---

(١) التفسير الكبير (٥٨/١٩/١٠)

(٢) تفسير الطبرى (١٠١/١٣/٧).

(٣) الكشاف ٢/ ٢٨٨.

قال القاضي: وهذا القول أليق بالظاهر، لأن قول تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ يقتضي أنهم كفروا بالله، وهو المفهوم من الرحمن، وليس المفهوم منه الاسم كما لو قال قائل: كفروا بمحمد وكذبوا به لكان المفهوم هو، دون اسمه. اهـ.

قال ابن كثير (١): ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لايقرون به لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا ماندري ما الرحمن الرحيم، قاله قتادة والحديث في صحيح البخاري(*)، وقد قال الله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ **«أن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبدالله وعبد الرحمن»**(**). اهـ.

قال الشوكاني(٢):أي بالكثير الرحمة لعباده، ومن رحمته لهم إرسال الرسل إليهم، وأنزال الكتب عليهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. اهـ.

قال ناصر السعدي (٣):

أرسلنا فيهم رسلنا. فلست ببدع من الرسل، حتى يستنكروا رسالتك.

ولست تقول من تلقاء نفسك.

بل تتلوا عليهم آيات الله، التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب، وتزكى النفوس.

والحال أن قومك، يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه ـ التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولاً، وأنزلنا عليك كتاباً ـ بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد.

فلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم، من القرون المكذبة، كيف أخذهم الله بذنوبهم. اهـ.

قال صاحب الظلال (٤):

العجيب أنهم يكفرون بالرحمن، العظيم الرحمة، الذى تطمئن القلوب بذكره واستشعار رحمته الكبرى. وماعليك إلا أن تتلوا عليهم الذى أوحينا إليك فلهذا أرسلناك. اهـ.

(*) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٦٩٩)، ومسلم في الجهاد والسير (٦/ ٣٧٧/ ٩٣) عن أنس به.

(**)[صحيح] أخرجه مسلم في الآداب (٧/ ٣٦٥/ ٢) عن ابن عمر به وانظر «تحفة المودود» بتخريجنا.

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٩٧

(٢) فتح القدير: ٣/ ٨٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٤٤٨، ٤٤٩).

(٤) الظلال ٤/ ٢٠١٦.

ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد.

قال سليمان آل الشيخ [١]:

أى: يجحدون هـذا الاسم لا أنهم يجحدون الله فإنـهم يقرون به كما قـال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٢] والمراد بهذا كفار قريش أو طائـفة منهم فإنهم جحدوا هذا الاسم عناداً أوجهلاً.

ولهذا لما قال النبى ﷺ لعلى يوم الحديبيـة: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقالوا: لانعرف الرحمن ولا الرحيم» وفى بعض الروايـات لانعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. يعنـون مسيلمة الـكذاب، فإنه قبحـه الله كان قد تسمى بـهذا الاسم وأما كثيـر من أهل الجاهلية فيقرون بهذا الاسم كما قال بعضهم: [**ومايشأ الرحمن يعقد ويطلق**]. اهـ.

وقال حامد بن محمد[٣]:

حكايـة عن كفار قريـش أنهم أنكروا عـلى الرسول ﷺ صـفة الرحمن قـالوا: أما الرحمن فلانعرفه فقل مثل ماكنا نقول سبحانك اللهم: فالعالم العارف ينبغى أن يحدث الناس بما يدخل فى عـقولهم لئلا يكذبوا الله ورسوله ولا ينكروا شـيئاً مما ثبت عن الله ورسوله ﷺ لايأتى بما ينكروه إلا بعد مقدمات تبينه وتوضحه لهم. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ [٤]:

فإذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائـه تعالى، وهو من الأسماء التى دلت على كماله سبحانه وبـحمده: فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسـماء يكون كذلك. فإن جهم بن صفوان ومن تبعه: يزعمون أنها لاتدل على صفة قائمة بالله تعالى وتبعهم على ذلك طوائف من المعتـزلة والأشاعرة وغيرهم؛ فهذا كفرهم كثيـرون من أهل السنة؛ قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ

ولقد تقلد كفرهم خمسون فى ... عشر من العلماء فى البلدان

واللالكائى الإمـام حكاه عنـ ... ـهم بل حكاه قبله الطبرانى

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٣٢، ٤٣٣

(٢) الزخرف: ٨٧.

(٣) فتح الله الحميد ٣٨٥

(٤) فتح المجيد ٢/ ٦٧١ـ٦٧٤.

فإن هؤلاء الجـهمية، ومن وافـقهم على الـتعطيل: جـحدوا ما وصف الله به نـفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل أصل باطل أصلوه من عند أنفسهم، فقالو: هذه الصفات هى صفات الأجسام فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسما

هذا منـشأ ضلال عقولـهم، لم يفهـموا من صفات الله إلا مـافهموه من خـصائص صفات المخلـوقين. فشبهوا الله فـى ابتداء رأيهم الفاسد بـخلقه، ثم عطلـوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات .

فشبهوا أولاً ، وعـطلوا ثانياً، وشبهوا ثالـثاً بكل ناقص أومعدوم فتركـوا مادل عليه الكتاب والسنة، من إثـبات ما وصف اللهبه نفسه ووصفه به رسوله علـى ما يليق بجلاله وعظمته.

هذا هو الذى عليه سلف الأمة وأئمتها؛ فإنهم أثـبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته رسوله ﷺ، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطـيل ؛فإن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات يحتذى حـذوه فكما أن هؤلاء المعطلة يـثبتون لله ذاتاً لا تشبه الذوات فـأهل السنة يقولون ذلك، ويثبتون ما وصف الله به نفسـه،ووصفه رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، لاتشبه صفات خلقه.

فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولم يـتناقضوا. وأولئك المعطلة: كفروا بما فى الكتاب والسنة من ذلك، فتناقضوا.

فبطـل قول المعطـلين بالعـقل والنقـل ـ ولله الحمد والمنة ـ وإجـماع أهل السـنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين.

وقد صنف العـلماء ـ رحمهم الله ـ تعالى فى الـرد على الجهمية والمعطلـة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم، فى إبطال هذه البدع ومافيهـا من التناقض والتهافت: كالإمام أحمد رحمه الله تعالى فـى رده المشهور ، و(كتاب السنة) لابنه عـبدالله ، وصاحب (الحيدة)، عبدالعزيز الكنانى فى رده على بشر المريسى و(كتاب السنة)لأبى عبد الله المروزى ، ورد عثمان بن سعـيد على الكافر العنيـد وهو بشر المريسى، و(كتاب التـوحيد) لإمام الأئمة محمد بن خـزيمة الشافعى و (كتاب السـنة) لأبى بكر الخلال ،وأبى عثمـان الصابونى الشافعـى، وشيخ الإسلام الأنصارى،وأبـى عمر بن عبدالـبر، وخلق كثيـرمن أصحاب الأئمة الأربعة واتباعهم، أهل الحديث.ومن متـأخريهم: أبو محمد ، وعبدالله بن أحمد ابن قدامة وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأصحابه وغيرهم. فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها، مع تفرق الأهواء وتشعب الأراء، والله أعلم.

قال ابن باز(١): قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ بين الله تعالى أن الرحمن هو ربنا وإلهنا وأن كفر الكافرين بالرحمن كفر بالله فيجب على المؤمن أن يحذر من صفات هؤلاء الضالين وعليه أن يسلك مسلك أهل العلم والإيمان. وسمى إنكارهم الصفة كفر بالرحمن فدل على كفر من أنكر الصفات اهـ.

قال ابن عثيمين(٢): ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

المراد: أنهم يكفرون بهذا الاسم لابالمسمى، فهم يقرون به، قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وفى حديث سهيل بن عمرو «لما أراد النبى ﷺ أن يكتب الصلح فى غزوة الحديبية قال للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» قال سهيل: أما الرحمن؛ فوالله ماأدرى ماهى ولكن اكتب باسمك اللهم»(٣)، وهذه من الأمثلة التى يراد بها الاسم دون المسمى.

وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: بأى اسم من أسمائه تدعونه؛ فإن له الأسماءالحسنى، فكل أسمائه حسنى؛ فادعوا بماشئتم من الأسماء، ويراد بهذه الآية الإنكار على قريش.

وفى الآية دليل على أن من أنكر اسماً من أسمائه تعالى فإنه يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، ولأنه مكذب لله ولرسوله، وهذا كفر، وهذا وجه استشهاد المؤلف بهذه الآية.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾

الإعراب(٤):

(قل هو ربى لاإله إلاهو) (هو ربى مبتدأ وخبر والجملة الأسمية مقول القول. اهـ.

وقال ابن عثيمين(٥).

خبر «لا» النافية للجنس محذوف، والتقدير لاإله حق إلا هو، وأما الإله الباطل فكثير، قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾

(١) التعليق المفيد ٢٠٤.

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٦١، ٣٦٢.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) إعراب القرآن / ١٢٢

(٥) القول المفيد (٢/ ٣٦٢).

● **تفسير الآية بأقوال المفسرين والشراح.**

قال الطبرى(١): يقول أن كفرهؤلاء الذين أرسلناك إليهم يامحمد بالرحمن فقل أنت اللهربى لا إله إلاهو. اهـ.

قال الزمخشرى(٢):(قل هو ربى) الواحد المتعال عن شركاء.

قال البغوى(٣): قال الله تعالى ﴿قل﴾ لهم يامحمد. إن الرحمن الذى أنكرتم معرفته﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾. اهـ.

قال القرطبى(٤): ﴿قل﴾ لهم يا محمد: الذى أنكرتم ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ولامعبود سواه؛ هو واحد بذاته، وإن اختلفت أسماء صفاته. اهـ.

قال ابن كثير(٥): أى هذا الذى تكفرون به أنامؤمن به معترف مقر له بالربوبية والإهية هو ربى لا إله إلا هو. اهـ.

قال السعدى(٦): ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وهذا متضمن التوحيدين، توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

فهو ربى، الذى ربانى بنعمه، منذ أوجدنى. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ. (٧): أى: قل يامحمد راداً عليهم فى كفرهم بالرحمن تبارك وتعالى هوأى: الرحمن عزوجل ربى لا إله إلاهو أى: لا معبود سواه.

قوله: ﴿**عليه توكلت وإليه متاب**﴾.

الإعراب: (٨).

(عليه توكلت وإليه متاب)عليه متعلقان بتوكلت وإليه خبر مقدم ومتاب مبتدأ مؤخر اهـ.

● **الأثر فى تفسير الآية.**

عن مجاهد(٩) ـ رضى الله عنه ـ﴿**وإليه متاب**﴾ قال: توبتى.

---

(١) الطبرى ٧/١٣/١٠١
(٢) الكشاف: ٢/٢٨٨
(٣) معالم التنزيل ٣/٣٥٦
(٤) القرطبى: ٣٥٤٧
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٤٩٧
(٦) تيسير الكريم الرحمن /٤٤٩
(٧) تيسيرالعزيز الحميد ٤٣٣.
(٨) إعراب القرآن/ ١٢٢
(٩) الدر ٤/٦٥١ ونسبه لابن أبى حاتم.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى [1]: إليه مرجعى وأوبتى وهو مصدر من قول القائل تبت متابا وتوبة أهـ.

قال الزمخشرى [2]: نصرنى عليكم (وإليه متاب) فيثيبنى على مصابرتكم ومجاهدتكم. أهـ.

قال الشوكانى [3]: (إليه) لا إلى غيره ،(متاب) توبتى،وفيه تعريض بالكفار وحث لهم على الرجوع إلى الله والتوبة من الكفر والدخول فى الإسلام. اهـ.

قال صاحب الظلال[4]: فإن يكفروا فأعلن لهم أن اعتمادك على الله وحده وأنك تائب إليه وراجع ولاتتجه إلى أحد سواه أهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[5]:وفى الآية دليل على أن التوكل عبادة، وعلى أن التوبة عبادة، وإذا كان كذلك فالتوبة إلى غيره شرك.

ولما قال سارق، وقد قطعت يده، للنبيﷺ: اللهم إنى أتوب إليك ولاأتوب إلى محمد قال النبى ﷺ «عرف الحق لأهله»[6] رواه أحمد.

قال ابن عثيمين [7]: قوله تعالى: ﴿**عليه توكلت**﴾.

أى: عليه وحده؛ لأن تقديم المعمول يدل على الحصر، فإذا قلت مثلاً: «ضربت زيداً»؛ فإنه يد على أنك ضربته، ولكن لايدل على أنك لم تضرب غيره، وإذا قلت: «زيداً ضربت» دلت على أنك ضربت زيداً ولم تضرب غيره، وسبق معنى التوكل وأحكامه.

قوله ﴿**وإليه متاب**﴾.

أى: إلى الله، و﴿**متاب**﴾ أصلها متابى، فحذفت الياء تخفيفاً، والمتاب بمعنى التوبة؛ فهو مصدر ميمى؛ أى: وإليه توبتى.

والتوبة: هى الرجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة، ولها شروط خمسة.

١ـ الإخلاص لله تعالى بأن لايحمل الإنسان على التوبة مراعاة أحد أومحاباة أو شيء من الدنيا.

---

(١) تفسير الطبرى (٧/١٣/١٠١).

(٢) الكشاف ٢/٢٨٨

(٣) فتح القدير ٣/٨٣

(٤) الظلال ٤/٢١١٦

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٣٣

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) القول المفيد ٢/٤٦٣، ٣٦٤

وفى «صَحِيحِ البُخَارِى»: قَالَ عَلِىٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!»(١).

٢ـ أن تكون فى وقت قبول التوبة، وذلك قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت.

٣ـ الندم على ما مضى من فعله، وذلك بأن يشعر بالتحسر على ما سبق ويتمنى أنه لم يكن.

٤ـ الإقلاع عن الذنب وعلى هذا، فإذا كانت التوبة من مظالم الخلق؛ فلابد من رد المظالم إلى أهلها أو استحلالهم منها.

٥ـ العزم على عدم العودة، والتوبة التى لاتكون إلا لله هى توبة العبادة؛ كما فى الآية السابقة، وأما التوبة التى بمعنى الرجوع؛ فإنها تكون له ولغيره، ومنه قول عائشة حين جاء النبى ﷺ فوجد نمرقة فيها صور، فوقف بالباب ولم يدخل، وقالت: «أتوب إلى الله ورسوله، ماذا أذنبت؟»(٢) فليس المراد بالتوبة هنا توبة العبادة؛ لأن توبة العبادة لاتكون للرسول ﷺ ولا لغيره من الخلق بل لله وحده، ولكن هذه توبة رجوع، ومن ذلك أيضاً حين يضرب الإنسان ابنه لسوء أدبه؛ يقول الابن: أتوب. أهـ.



قوله: [وفى صحيح البخارى قال على: حدثوا الناس بما يعرفون...].

قال سليمان آل الشيخ(٣): هذا الأثر رواه البخارى مسنداً لامعلقاً لكنه فى بعض الروايات علقه أولاً ثم ذكر إسناده، وفى بعضها ساق إسناده أولاً فرواه عن عبيد الله ابن موسى عن معروف بن خربوذ عن أبى الطفيل عن على به ولفظه «أتحبون أن يكذب الله ورسوله». اهـ.

مناسبة الأثر للباب وللتوحيد

قال القرعاوى(٤): والأثر على منع تحديث الناس بما لاتدركه عقولهم ومن ذلك

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى العلم/باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لايفهموا (١/ ٢٧٢/ ١٢٧)

عن عبيد الله بن موسى، عن معروف بن خربوذ، وعن أبى الطفيل، عن على به.

وأنظر «فتح المجيد»(٧٤١) بتخريجنا

(٢) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٥٩٥٧)، ومسلم فى اللباس (٧/ ٣٣٧/ ٩٦) عن عائشة به.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٣٣ (٤) الجديد (٥-٤٠).

التفاصيل والتوسع فى أسماء الله وصفاته لأن ذلك قد يؤدى إلى إنكارها وهو كفر بها وذلك ينافى توحيد الأسماء والصفات.

قال ابن عثيمين(١):

● مناسبة هذا الأثر لباب الصفات.

مناسبته ظاهرة؛ لأن بعض الصفات لاتحتملها أفهام العامة فيمكن إذا حدثتهم بها كان لذلك أثر سيء عليهم؛ كحديث النزول إلى السماء الدنيا(٢) مع ثبوت العلو، فلو حدثت العامى بأنه نفسه ينزل إلى السماء الدنيا مع علوه على عرشه، فقد يفهم أنه إذ نزل؛ صارت السماوات فوقه وصار العرش خاليا منه، وحينئذ لابد فى هذا من حديث تبلغه عقولهم فتبين لهم أن الله ـ عزوجل ـ ينزل نزولاً لايماثل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، و أنه لكمال فضله ورحمته يقول: «**من يدعونى فأستجيب له...**» الحديث.

والعامى يكفيه أن يتصور مطلق المعنى، وأن المراد بذلك بيان فضل الله ـ عزوجل ـ فى هذه الساعة من الليل.

قوله (على).

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٣): على: هو أمير المؤمنين أبو الحسن، على بن أبى طالب، وأحد الخلفاء الراشدين. اهـ.

قلت: وتقدم بعض مناقبة فى باب الدعاء إلى شهادة لا إله إلا الله.

قوله(حدثوا الناس)

قال ابن عثيمين(٤): قوله فى أثر على رضى الله عنه: «حدثوا الناس» أى: كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ. أهـ

قوله (بما يعرفون).

قال ابن حجر(٥): والمراد بقوله «بما يعرفون» أى يفهمون. وزاد آدم بن أبى إياس

---

(١) القول المفيد ٣٦٥،٣٦٦

(٢) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٦٣٢١) ومسلم فى صلاة المسافرين عن أبى هريرة به.

(٣) فتح المجيد ٢/ ٦٧٤

(٤) القول المفيد ٢/ ٦٤٣.

(٥) الفتح ١/ ٢٧٢.

في كتاب العلم له عن عبدالله بن داود عن معروف في آخره«ودعوا ماينكرون» أي يشتبه عليهم فهمه. وكذا رواه أبو نعيم في المستخرج.

وفيه دليل على أن المتشابه لاينبغي أن يذكر عند العامة . مثله قول ابن مسعود «ما أنت محدثًا قوماً حديثاً لاتبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة» رواه مسلم.

وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة ونحوه عن حذيفة، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة إلى ماكان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوى البدعة وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب. والله أعلم أهـ.

قال سليمان آل الشيخ(١) وما ذكره - يعني الحافظ - عن مالك في أحاديث الصفات ما أظنه يثبت عن مالك، وهل في أحاديث الصفات أكثر من آيات الصفات التي في القرآن؟ فهل يقول مالك أو غيره من علماء الإسلام: إن آيات الصفات لاتتلى على العوام. ومازال العلماء قديمًا وحديثاً من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم يقرأون آيات الصفات، وأحاديثها بحضرة عوام المؤمنين وخواصهم، بل شرط الإيمان هو الإيمان بالله، وصفات كماله التي وصف بها نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله الله ﷺ، فكيف يكتم ذلك عن عوام المؤمنين؟! بل نقول: من لم يؤمن بذلك فليس من المؤمنين، ومن وجد في قلبه حرجاً من ذلك فهو من المنافقين. ولكن هذا من بدع الجهمية وأتباعهم الذين ينفون صفات الرب تبارك وتعالى، فلما رأوا أحاديث الصفات مبطلة لمذاهبهم، قامعة لبدعهم تواصوا بكتمانها عن عوام المؤمنين؛ لئلا يعلموا ضلالهم، وفساد اعتقادهم فاعلم ذلك. وفي الآثر دليل على أنه إذا خشي ضرر من تحديث الناس ببعض ما لا(*) يعرفون فلا ينبغي تحديثهم به. وليس ذلك على إطلاق، وإن كثيراً من الدين والسنن يجهله الناس، فإذا حدثوا به كذبوا بذلك وأعظموه، فلايترك العالم تحديثهم، بل يعلمهم برفق ويدعوهم بالتي هي أحسن. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢) : وسبب هذا القول - والله أعلم - ماحدث في خلافته يعني علي بن أبي طالب من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القصاص وأهل الوعظ، فيأتون في قصصهم بأحاديث لاتعرف من هذا القبيل. فربما استنكرها بعض الناس وردوها، وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح، فيقع بعض المفاسد

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٣٤.
(٢) فتح المجيد ٢/ ٦٧٤، ٦٧٥.

(*) (لا) ليست في الأصل وزدناه حتى يستقيم الكلام.

لذلك. فأرشدهم أميرُ المؤمنين رضى الله عنه إلى أنَّهم لايحدثون عامةالناس إلا بما هو معروف، ينفع الناس فى أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال والحرام الذى كلِّفوا به علما وعملا، دون ما يشغل عن ذلك، مما يؤدى إلى رد الحق وعدم قبوله، فيُفضى بهم إلى التكذيب، لاسيما مع اختلاف الناس فى وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كان شيخُنا ـ المصنف رحمه الله ـ لا يُحب أنْ يُقرأ على الناس إلا ما ينفعهم فى أصل دينهم وعبادتهم ومعاملاتهم الذى لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة فى مثل كتب ابن الجوزى: (كالمنعش)، و(المرعش)، و(التبصرة)، لما فى ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لاينبغى اعتقاده، والمعصومُ من عصمه الله.

وقد كان أميرُ المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ينهى القُصَّاص عن القَصَص؛ لما فى قصصهم من الغرائب والتساهل فى النقل وغير ذلك، ويقول: لايقص إلا أمير أو مأمور(*).

وكلُّ هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملاً ونية وقصداً، وترك كلٍّ ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله. اهـ.

قال ابن باز[1]: والمعنى: أنه يجب على الواعظ والمذكر أن يذكر الناس بالألفاظ التى يعرفونها والأساليب التى يعقلونها حتى يستفيدوا وينتفعوا. لأن كل قوم لهم أساليب لأنك إذا حدثت قوماً بما لايفهمون قد يصدقونك على غير ما أردت. وقد يفهمون غير ما قصدت. سواء فى أسماء الله وصفاته أو أحكامه سواء باللغة العربية أو الإنجليزية أو الأردية أو غيرها. والعرب أنفسهم يختلفون فى فهمهم فيحدث كل أناس بما يعرفون من العبارات التى اعتادوها حتى يفهموا ما قلت وحتى لايكذب الله ورسوله.

وهؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله فى لغات الصفات وقعوا فى خطر عظيم لأنهم تأولوا الصفات على غير تأويله وتكلموا فيها بغير ما ينبغى حتى عطلوا صفات الله.

وكثير منهم قد يكون فهم الأمر على غير ما هو عليه لعجمته كما قال بعض السلف لعمرو بن عبيد قال: إن العصاة مخلدون فى النار لأن الله أوعدهم بذلك.

فقالوا له: إن الله يخلف إيعاده ولا يخلف موعده. لأن إخلاف الإيعاد كرم وجود وأما إخلاف الموعد فلؤم ولهذا يتنزه الله عنه، وقال له: من عجمتك أوتيت أى ظننت إخلاف الإيعاد أمر مستقبح وليس كذلك كما قال الشاعر:

---

(١) التعليق المفيد ٢٠٤، ٢٠٥.

(*) انظر تخريجه فى كتابى «فقه الخطابة» مع خلاصة القول فى القصص.

وإنى وإن أوعـدتـه أو واعـدته   لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

فهذا مدح. اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: أى: بما يمـكن أن يعرفوه وتـبلغه عقولـهم حتى لا يُفْـتنوا، ولهذا جاء عن ابـن مسعود رضى الله عنه؛ قال: «إنـك لن تُحدِّث قوماً حديثـاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[2]، ولهذا كان من الحكمة فـى الدعوة ألا تباغت الناس بما لايمكنـهم إدراكه، بل تدعوهم رويداً رويداً حتـى تستقر عقولهم، ولـيس معنى «بما يعرفون»؛ أى: بما يعرفونه من قبل؛ لأن الذى يعرفونـه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل.

قوله: «أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!».

الاستفـهام للإنكـار؛ أى: أتريدون إذا حدثـتم الناس بمـا لايعرفون أن يـكذب الله ورسوله، لأنـك إذا قلت: قال الله وقال رسولـه كذا وكذا، قالوا: هذا كـذب إذا كانت عقولهم لا تبلغه، وهم لايكذبون الله ورسوله، ولـكن يكذبونك بحديث تنسبه إلى الله ورسوله؛ فيكونون مكذبين لله ورسوله، لا مباشرة ولكن بواسطة الناقل.

فإن قيل: هل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس وإن كانوا محتاجين لذلك؟

أجيب: لا ندعه، ولكن نحدثهم عن طريق تبـلغه عقولهم، وذلك بأن ننقلهم رويداً رويداً حتى يقبلوا هـذا الحديث ويطمئنوا إليه، ولا ندع ما لا تبلغـه عقولهم ونقول: هذا شىء مستنكر لا نتكلم به.

ومثل ذلك العمل بالسـنة التى لايعتادها الناس ويستنكرونها؛ فإنـنا نعمل بها ولكن بعد أن نخبرهم بها؛ حتى تقبلها نفوسهم ويطمئنوا إليها.

ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة فى الدعوة إلى الله ـ عزوجل ـ، وأنه يجب على الداعية أن ينظر فى عقول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته.

قلت: وقد تقدم حديث معاذ «**أتدرى ما حق الله عـلى العباد وما حق العـباد على الله**» الحديث وأن البخارى ذكـر فى كتاب العلم تحت باب من خص بالـعلم قوماً دون قوم، وأيضاً قال فى أخـره «فحدثت بها تأثمـا» وهو لايعارض هذا الاثر وقد تقـدمت الاجابة على ذلك فى موضعه فليرجع إليه.

(١) القول المفيد ٢/ ٣٦٤، ٣٦٥.

(٢) [صحيح]رواه مسلم. وتقدم فى كلام ابن حجر عزوه لمسلم.

وَرَوَى عَبْدُ الـرَّزَّاق عَنْ مَعْمَـرٍ عَنِ ابنِ طَاوسٍ عَنْ أَبِـيه عَنِ ابنِ عَـبَّاس: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً انْتَفَضَ لَـمَّا سَمعَ حَدِيثاً عَنِ الـنَّبِيِّ ﷺ فِى الصِّفَاتِ اسْتـنكَاراً لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَـا فَرَقُ هَؤلاَءِ؟ يَجِـدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُـحْكَمِه وَيَـهْلِكُونَ عِـنْدَ مُتَشَـابِهِه؟!» انتهى(*).

قلت: هذا الأثر رواه عبد الرزاق فى تفسيره

مناسبة الأثر للباب والتوحيد

قال القرعاوى(١): دل الأثر على وجوب الإيمان بجمـيع أسماء الله وصفاته وذلك تحقيقاً لتوحيد الأسماء والصفات. اهـ.

قوله: (وروى عبدالرزاق عن معمر).

قال عبدالرحـمن آل الشيخ(٢): عبـد الرازق: هو ابن همَّام الصـنعانى المحدِّث، محدث اليمـن صاحب التصانيف، أكثـر الرواية عن مَعْمر بن راشـد صاحب الزهرى. وهو شيخ عـبدالرزاق، يروى عنه كثـيراً روى عنه أحمد بـن حنبل ويحيى بـنِ معين، وخلق لا يحصون مات سنة إحدى عشرة ومائتين.

ومعمر - بفتح الميمين وسكون العين - أبو عروة بن أبى عمرو، راشد الأزدى الحرَّانى ثم اليمانى، أحدُ الأعـلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهرى، يروى عـنه كثيراً ثقة ثبت، مات سنة أربع وخمسين ومائة، وله ثمان وخمسون سنة. اهـ.

وذكر ذلك سليمان آل الشيخ مع شىء من الاختصار.

قوله: (عن ابن طاوس).

هو عبدالله بـن طاوس اليمانى. قـال معْمر: كان أعلـم الناس بالعربـية. وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله:(عن أبيه).

هو طاوس بـن كيْسَان الجـندى - بفتح الجـيم والنون - الإمام الـعَلَم، قيـل: اسمُه ذكْوان، ثقة فقيه فـاضل من جلة أصحاب ابن عباس وعلمائهـم، مات سنة ست ومائة. قاله ابن الجوزى.

(*) أخرجه عبدالرزاق فى «تفسيره»، (١١/ ٤٢٣/ ٢٠٨٩٥).
عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: سمعت رجلاً يحدث عن ابن عباس.. فذكره.
وأنظر «فتح المجيد» (ح٧٤٢) تخريجنا

(١) الجديد ٣٥٦.

(٢) فتح المجيد ٢/ ٦٧٥، ٦٧٦.

وهو من أئمة التفسير، ومن أوعية العلم. قال في (تهذيب الكمال): عن الوليد المُوقَّرى، عن الزهرى: قال: قدمتُ على عبدالملك بن مروان، فقال: من أين قدمت يازهرى؟ قال: قلتُ: من مكة، قال: من خلَّفت يسودها وأهلَها؟ قلتُ: عطاء بن أبى رباح، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قلتُ: من الموالى، قلت: فبِمَ سادهم؟ قال، قلتُ: بالديانة والرواية. قال: إنَّ أهل الديانة والرواية لينبغى أنْ يسودوا. قال: فمَن يسود أهلَ اليمن؟ قلتُ: طاوس بن كَيْسان، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قل: من الموالى؟ قال: فبم سادهم؟ قلتُ: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغى ذلك، قال: فمن يسود مصر؟ قلت: يزيد بن أبى حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالى، قلت من الموالى قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول، قال فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى عبدٌ نوبى أعتقته امرأةٌ من هُذيل، قال: فمن يسود أهلَ الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مِهْران، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قلتُ: من الموالى، قال: فمن يسود أهل خُراسان؟ قال: قلتُ: الضحاك بن مُزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى. قال: فمن يسود أهل البصرة؟

قال: قلتُ: الحسن البصرى، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلتُ: من الموالى، قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلتُ: إبراهيم النخعى، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من العرب، قال: ويلك يا زهرى، فرَّجت عنى، والله لتسودن الموالى على العرب فى هذا البلد، حتى يُخطب لها على المنابر والعرب تحتها، قال: قلتُ: يا أمير المؤمنين، إنمَّا هو دين. من حفظه سادَ ومن ضيَّعه سقط. اهـ.

قوله: (عن ابن عباس).

قال عبد الرحمن آل الشيخ(١): قد تقدَّم، وهو حَبرُ الأمة وتَرجمان القرآن، ودعا له النبيُّ ﷺ، وقال: **«اللهم فقّهه فى الدين، وعلّمه التأويل»**(*) وروى عنه أصحابهُ أئمةُ التفسير، كمجاهد، وسعيد ابن جُبير، وعطاء بن أبى رباح، وطاوس وغيرهم. اهـ.

قوله: (إنه رأى رجلاً).

---

(١) فتح المجيد ٥٦٠ و ٥٦١.

(*) أخرجه البخارى (١٤٣)، ومسلم فى الفضائل (١٦/ ٣٧ - النووى). بغير هذا اللفظ. وانظر «الاتقان للسيوطى» (٤٨٢- و«فتح المجيد» (ح ٧٤٣) بتخريجنا).

قال سليمان آل الشيخ[1]: لم يسم هذا الرجل. اهـ.

قوله: «انتفض».

قال سليمان آل الشيخ[2]: أي: ارتعد لما سمع حديثاً عن النبى ﷺ، فاستنكره، إما لأن عقله لا يحتمله، أو لكونه اعتقد عدم صحته فأنكره.

قال ابن عثيمين[3]: أي: اهتزّ جسمه، والرجل مُبْهَم، والصفة التى حُدِّث بها لم تبيَّن، وبيان ذلك ليس مهماً، وهذا الرجل انتفض استنكاراً لهذه الصفة لا تعظيماً لله، وهذا أمر عظيم صعب؛ لأن الواجب على المرء إذا صح عنده شيء عن الله ورسوله أن يقر به ويصدق ليكون طريقه طريق الراسخين فى العلم حتى وإن لم يسمعه من قبل أو يتصوره. اهـ.

قوله: (فقال).

قال سليمان آل الشيخ[4]: أى ابن عباس وهو عبدالله ـ رضى الله عنه ـ. اهـ.

قوله: (ما فرق هؤلاء).

قال سليمان آل الشيخ[5]: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون ما استفهامية إنكارية. وفرق بفتح الفاء والراء: هو الخوف والفزع أى: ما فزع هذا وأضرابه من أحاديث الصفات واستنكارهم لها؟ والمراد الانكار عليهم، فإن الواجب على العبد التسليم والإذعان والإيمان بما صح عن الله وعن رسوله ﷺ وإن لم يحط به علماً. ولهذا قال الشافعى: آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله، وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

والثانى: أن يكون بفتح الفاء وتشديد الراء، ويجوز تخفيفها. «وما» نافية أى: ما فَرّق هذا وأضرابه بين الحق الباطل، ولا عرفوا ذلك، فلهذا قال: يجدون رقة وهى ضد القسوة، أى: ليناً وقبولاً للمحكم، ويهلكون عند متشابه، أى ما يشتبه يشبه عليهم فهمه، لأن آيات الصفات هى المتشابة كما تقوله الجهمية ونحوهم. ولأن فى القرآن متشابهاً لايعرف معناه كالألفاظ الأعجمية، فإن لفظ التشابه والمتشابه يدل على بطلان ذلك، وإنما المراد بالمتشابه أى: ما يشتبه فهمه على بعض الناس دون بعض، فالمتشابه أمر نسبى إضافى؛ فقد يكون مشتبهاً بالنسبة إلى قوم بيناً جلياً بالنسبة إلى آخرين.

(١ ـ ٢) تيسير العزيز الحميد ٤٣٥.

(٣) القول المفيد ٢/٣٦٦، ٣٦٧.

(٤ ـ ٥) تيسير العزيز الحميد ٤٣٥و ٤٣٧.

ولهذا قال النبى ﷺ، خرج على قوم يتراجعون فى القرآن فغضب وقال: «**بِهَذَا ضَلَّتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ؛ بِاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**» وَضَرَبَ الكِتَابَ بَعْضَهُ بِبَعْض. «**وَإِن القُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِيُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضاً وَلَكِنْ لأن يُصَدِّقَ بَعْضُهُ بَعْضاً. فَمَا عَرَفْتُم مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ وَمَا تَشَابَهَ عَلَيْكُمْ فَآمِنُوا بِهِ**»(١) رواه ابن سعد، وابن الضريس وابن مردويه. وأما قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾(٢).

فقال ابن كثير: يخبر تعالى أن فى القرآن آيات محكمات أى: بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه فى الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم. فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، ،وحكم محكمه على متشابه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس. ولهذا قال: ﴿**هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ أى: أصله الذى يرجع إليه عند الاشتباه ﴿**وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ أى: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل أشياء أخرى من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد، ولهذا قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ**﴾ أى: ضلال، وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿**فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ**﴾ أى: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذى يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه. فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم، وحجة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿**ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ**﴾ أى: الاضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم. انتهى.

وقال ابن عباس: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ**﴾ يعنى أهل الشك؛ فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبسون، فلبس الله عليهم. ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ قال: تأويله يوم القيامة لايعلمه إلا الله. رواه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ تقدم كلام ابن عباس.

---

(١) رواه أحمد فى المسند(٦٧١٤ج٢) فى مسند عمرو بن شعيب والبخارى فى خلق أفعال العباد (ص٦١) وابن ماجه (٨٥).

(٢) آل عمران: ٧.

وقال مقاتل والسدى: يبتغون أن يعلموا ما يكون، وما عواقب الأشياء من القرآن. قلت - أى سليمان - فهذا التأويل الذى انفرد الله بعلمه هو العلم بحقائق الأشياء وما تؤول إليه وعواقبها. كالإخبار بما يكون، وما فى الجنة من النعيم، وما فى النار من العذاب؛ فإن هذه الأمور وإن علمناها لكن العلم بحقائقها مما لايعلمه إلا الله.

ولهذا قال ابن عباس: لَيْسَ فى الدُّنْيَا مِمَّا فى الجَنَّة إِلاَّ الأَسمَاء[1]. فعلى هذا يكون الوقف على الجلالة كما روى عن جماعة من السلف، وقيل: الوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أى: ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم. فأما أهل الزيغ فلا يعلمون تأويله، وعلى هذا فالمراد بتأويله هو تفسيره وفهم معناه، وهذا هو المروى عن ابن عباس وجماعة من السلف. قال ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال مجاهد: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يعرفون تأويله. ويقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾، وكذا قال الربيع بن أنس وغيره. فقد تبين ولله الحمد أنه ليس فى الآية حجة للمبطلين، فى جعلهم ما أخبر الله به من صفات كماله هو المتشابه، ويحتجون على باطلهم بهذه الآية، فيقال: وأين فى الآية ما يدل على مطلوبكم؟ وهل جاء نص عن الله أو عن رسوله ﷺ أنه جعل ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله متشابهاً؟! ولكن أصل ذلك أنهم ظنوا أن التأويل المراد فى الآية هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يحتمله اللفظ لدليل يقترن بذلك. وهذا هو اصطلاح كثير من المتأخرين، وهو اصطلاح حادث، فأرادوا حمل كلام الله على هذا الاصطلاح فضلوا ضلالاً بعيداً، وظنوا أن لنصوص الصفات تأويلاً يخالف ما دلت عليه، لايعلمه إلا الله كما يقول أهل التجهيل. أو يعلمه المتأولون كما يقوله أهل التأويل وفى الأثر المشروح دليل على ذكر آيات الصفات، وأحاديثها بحضرة عوام المؤمنين وخواصهم، وأن من رد شيئاً منها أو استنكره بعد صحته فهو ممن لم يفرق بين الحق والباطل، بل هو من الهالكين وأنه ينكر عليه استنكاره. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[2]: قوله: (ما فَرَقُ هؤلاء) يستفهم من أصحابه، يشير إلى أُناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه، حصل معهم فَرَق. أى: خوف، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا

---

(١) وقال المنذرى فى الترغيب (٤/ ٥٦٠) رواه البيهقى موقوفاً بإسناد جيد.

(٢) فتح المجيد ٢/ ٦٧٧و ٦٨٠.

كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذى أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين.

قال الذهبى: حدَّث وكيعُ - عن إسرائيل - بحديث: إذا جلس الربُّ على الكرسى. فاقشعر رجل عند وكيع. فغضب وكيع، وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يُحدِّثون بهذه الأحاديث ولا يُنكرونها. أخرجه عبدالله فى (كتاب الرَّد على الجهمية).

وربما حصل معهم من عدم تلقِّيه بالقبول تركُ ما وجب من الإيمان به، فتُشبه حالهُم حال من قال الله فيهم: **﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾**(1). فلا يَسلم من الكفر إلاَّ من عمل بما وجب عليه فى ذلك، من الإيمان بكتاب الله كله واليقين؛ كما قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾**.

فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس - رضى الله عنهما - تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن، وهو حقٌّ لايرتاب فيه مؤمن.

وبعضهُم يفهم منه غيرَ المراد من المعنى الذى أراد الله، فيحملُه على غير معناه؛ كما جرى لأهل البدع، كالخوارج والرافضة والقدرية، ونحوهم ممن يتأول بعضَ آيات القرآن على بدعته.

وقد وقع منهم ما وقع، من الإبتداع والخروج عن الصراط المُستقيم. فإنَّ الواقع من أهل البدع، وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس.

وسببُ هذه البدع جهلُ أهلها وقصورُهم فى الفهم، وعدمُ أخذ العلوم الشرعية على وجهها وتلقِّيها من أهلها العارفين لمعناها، الذين وفَّقهم الله تعالى: لمعرفة المُراد، والتوفيق بين النصوص، والقطع بأنَّ بعضها لايخالف بعضا، وردَّ المتشابه إلى المُحكَم. وهذه طريقةُ أهل السنة والجماعة فى كل زمان ومكان. فلله الحمدُ لا نُحصى ثناءً عليه. اهـ.

(1) البقرة: ٨٥.

قال ابن عثيمين[1]: قوله: «**ما فرق**».

فيها ثلاث روايات:

١ـ «**فَرَقُ**»؛ بفتح الراء، وضم القاف.

٢ـ «**فرَّقَ**»؛ بفتح الراء مشددة، وفتح القاف.

٣ـ «**فَرَقَ**»؛ بفتح الراء مخففة، وفتح القاف.

فعلى رواية «**فَرَقُ**»: تكون «ما» استفهامية مبتدأ، و«**فرق**»: خبر المبتدأ، أى: ما خوف هؤلاء من إثبات الصفة التى تُلِيَتْ عليهم وبلغتهم، لماذا لا يثبتونها لله ـ عزوجل ـ كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله؟ وهذا يَنْصَبُّ تماماً على أهل التعطيل والتحريف الذين ينكرون الصفات، فما الذى يُخَوِّفهم من إثباتها والله تعالى قد أثبتها لنفسه؟

وعلى راوية «**فرّق**» أو «**فَرَقَ**» تكون فعلاً ماضياً بمعنى ما فرّقهم؛ كقوله تعالى: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاه**﴾[2]؛ أى: فرقناه و«ما» يحتمل أن تكون نافية، والمعنى: ما فرق هؤلاء بين الحق والباطل، فجعلوا هذا من المتشابه وأنكروه ولم يحملوه على المحكم، ويحتمل أن تكون استفهامية والمعنى: أى شيء فرقهم فجعلهم يؤمنون بالمُحْكَم ويهلكون عند المتشابه؟. اهـ.

قوله: «**يجدون رقة عند محكمه**».

قال ابن باز[3]: «**ويجدون رقة**» أى أنهم إذا سمعوا الآيات المحكمات من القرآن والسنة يجدون رقة وخشوعاً وإذا سمعوا آيات الصفات اشتبهت عليهم وهلكوا عندها بالجزع والإنكار. وهذا يدل على أن هذا الشيء قديم وأنه وجد فى زمن الصحابة فيهلكون عند الآيات والأحاديث التى تشتبه عليهم بإنكارها والشك فيها والريب فدل على أن إنكار ما بيّنه الله لعباده أو الشك فيه هلاك.

والحق الإيمان بما أخبر الله به ورسوله فإن فهمته فالحمد لله وإلا فكله إلى عالمه وقل الله أعلم بمراده واسأل أهل العلم وإياك والإنكار والجزع فإنه طريق المنافقين والهالكين. أما أهل السنة والجماعة فيؤمنون بكل ما جاء فى الكتاب والسنة ويرقون له ويعملون به وإذا اشتبهت عليهم الآيات ردوها إلى المحكمات والبينات وفسروها بما اتضح من حكم

(١) القول المفيد ٢/ ٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) الإسراء: ١٠٦.

(٣) التعليق المفيد ٢٠٦/٢٠٥.

الله ولايضربون كتاب الله وسنة رسوله بعضها ببعض ولايشكون ويعلمون أن المتشابه لايخالف المحكم بل هو من جنس المحكم ويكلون ما جهلوا إلى العالم بالكيفية وهو الله سبحانه. وأما معانيها فمعلومة من طريق اللغة العربية التى خاطب الله بها الناس، ولذا قال مالك حين سئل كيف استوى؟ قال: الاستواء معلوم. والسؤال عنه بدعة. أى عن الكيفية.

فبين أن معنى الاستواء معلوم والكيفية مجهولة.

فائدة: من قال أن الجنة والنار تفنيان فهو كافر فقد قال الله ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ اهـ.

قلت: وهذا كما روى البخاري فى كتاب «خلق أفعال العباد» عن على بن الحسن: سمعت ابن مصعب يقول: كفرت الجهمية فى غير موضع فى كتاب الله قولهم: إن الجنة تفنى. وقال الله: ﴿إن هذا الرزقنا ماله من نفاد﴾ فمن قال: إنها تنفد فقد كفر(*).

قال الشيخ ابن عثيمين[1]: الرِّقة: اللين والقبول، و «محكمة»؛ أى: محكم القرآن.

قوله: «ويهلكون عند متشابهه».

أى: متشابه القرآن.

والمحكم الذى اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذى يخفى معناه، فلايعلمه الناس، وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا ذُكر المحكم مفرداً دون المتشابه؛ فمعناه المتقن الذى ليس فيه خلل: لا كذب فى أخباره، ولا جَوْر فى أحكامه، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، وقد ذكر الله الإحكام فى القرآن دون المتشابه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾.

وإذا ذُكر المتشابه دون المحكم صار المعنى أنه يشبه بعضه بعضاً فى جودته وكماله، ويُصَدِّق بعضه بعضاً ولا يتناقض، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾[2]، والتشابه نوعان: تشابه نسبى، وتشابه مطلق.

(*) خلق أفعال العباد ص ١٢.

(١) القول المفيد ٢/٣٦٨، ٣٦٩.

(٢) الزمر: ٢٣.

والفرق بينهما: أن المطلق يخفى على كل أحد، والنسبى يخفى على أحد دون أحد، وبناءً على هذا التقسيم ينبنى الوقف على قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾[1]؛ فعلى الوقف على ﴿**إِلاَّ اللَّهُ**﴾ يكون المراد بالمتشابه المتشابه المطلق، وعلى الوصل ﴿**إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ يكون المراد بالمتشابه المتشابه النسبى، وللسلف فى ذلك قولان:

القول الأول: الوقف على ﴿**إِلاَّ اللَّهُ**﴾، وعليه أكثر السلف، وعلى هذا؛ فالمراد بالمتشابه المتشابه المطلق الذى لايعلمه إلا الله، وذلك مثل كيفية وحقائق صفات الله، وحقائق ما أخبر الله به من نعيم الجنة وعذاب النار، قال الله تعالى فى نعيم الجنة: ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾[2]؛ أى: لاتعلم حقائق ذلك، ولذلك قال ابن عباس: «**ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء**»[3].

والقول الثانى: الوصل، فيقرأ: ﴿**إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾، وعلى هذا؛ فالمراد بالمتشابه المتشابه النسبى، وهذا يعلمه الراسخون فى العلم ويكون عن غيرهم متشابهاً، ولهذا يروى عن ابن عباس؛ أنه قال: «**أنا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله**»[4] ولم يقل هذا مدحاً لنفسه أو ثناء عليها، ولكن ليعلم الناس أنه ليس فى كتاب الله شىء لايعرف معناه؛ فالقرآن معانيه كلها بينة، لكن بعض القرآن يشتبه على ناس دون آخرين حتى العلماء الراسخون فى العلم يختلفون فى معنى القرآن، وهذا يدل على أنه خفى على بعضهم، والصواب بلاشك مع أحدهم إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد لاتنوع، أما إذا كانت الآية تحتمل المعنيين جميعاً بلا منافاة ولا مرجح لأحدهما؛ فإنها تحمل عليهما جميعاً.

وبعض أهل العلم يظنون أن فى القرآن مالايمكن الوصول إلى معناه؛ فيكون من المتشابه المطلق، ويحملون آيات الصفات على ذلك، وهذا من الخطأ العظيم؛ إذ ليس من المعقول أن يقول تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾، ثم تستثنى آيات الصفات وهى أعظم وأشرف موضوعاً وأكثر من آيات الأحكام، ولو قلنا بهذا القول؛

(١) آل عمران: ٧.

(٢) السجدة: ١٧.

(٣) و(٤) تقدم.

لكان مقتضاه أن أشرف ما في القرآن موضوعاً، يكون خفياً، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾؛ أي: آيات الأحكام فقط، وهذا غير معقول، بل جميع القرآن يفهم معناه؛ إذ لايمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله ﷺ إلى آخرها لاتفهم معنى القرآن، وعلى رأيهم يكون الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجميع الصحابة يقرؤون آيات الصفات وهم لايفهمون معناها، بل هي عندهم بمنزلة الحروف الهجائية أ، ب، ت.. والصواب أنه ليس في القرآن شيء متشابه على جميع الناس من حيث المعنى، ولكن الخطأ في الفهم.

فقد يقصر الفهم عن إدراك المعنى أو يفهمه على معنى خطأ، وأما بالنسبة للحقائق، فما أخبر الله به من أمر الغيب؛ فمتشابهة على جميع الناس. اهـ.

● **ذكر ما ورد عن علماء السلف في المتشابه:**

قال عبدالرحمن آل الشيخ(١): قال في (الدُّر المنثور): أخرج الحاكمُ ـ وصحّحه ـ عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «**كان الكتابُ الأوَّل ينزل من باب واحد على حرف واحد، فنزل القرآنُ من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فأحلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه، وافعلوا ما أُمرتم به، وانتهوا عما نُهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمُحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كلٌّ من عند ربنا**»(٢).

قال: وأخرج عبدُ بن حُميد، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، قال: طلب القومُ التأويل، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة، وطلبوا ما تشابه منه، فهلكوا بين ذلك(٣).

وأخرج عبد بن حُميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ قال: من هنا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾(٤) إلى ثلاث آيات، ومن هنا: ﴿وَقَضَى

---

(١) فتح المجيد.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ١١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٩٠) عن ابن مسعود به. وانظر «الاتقان» (٤٢٠ - «فتح المجيد» (ح٧٤٤) بتخريجنا)

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ١٣) ونسبه لعبد بن حميد. وأنظ «فتح المجيد» (ح٧٤٥) بتخريجنا

(٤) الأنعام: (١٥١/ ١٥٣)..

﴿رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾(١) إلى ثلاث آيات بعدها (٢).

وأخرج ابن جرير، من طريق أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مُرَّة، عن ابن مسعود وناس من الصحابة: المُحكَمات: الناسخاتُ التى يعمل بهن، والمتُشابهات: المنسوخات(٣).

وأخرج عبد بن حُميد، وابن جرير، وابن أبى حاتم، عن إسحاق بن سُويد: أنّ يحيى ابن يَعمُر، وأبا فاختة تراجعا هذه الآية: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فقال أبو فاختة: هن فواتح السور، منها يُستخرج القرآن ﴿الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ منها استُخرجت البقرة و ﴿الم ۝ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ منها استُخرجت آلُ عمران. وقال يحيى: هن اللاتى فيهن الفرائضُ، والأمر والنهى والحلال، والحدود وعمادُ الدين(٤).

وأخرج ابن جرير، عن محمد بن جعفر بن الزبير، قال: ﴿مُّحْكَمَاتٌ﴾ حُجة الرب وعصمةُ العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس فيها تصريفٌ ولا تحريف عما وضعت عليه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فى الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم فى الحلال والحرام، لايصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق(٥).

وأخرج ابن أبى حاتم، عن مقاتل بن حيَّان: إنما قال ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ لأنه ليس من أهل دين لايرضى بهن ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ يعنى فيما بلغنا ﴿الم﴾ و ﴿المص﴾ و ﴿المر﴾(٦).

قلتُ - أى عبد الرحمن - : وليس فى هذه الآثار ونحوها ما يُشعر بأنَّ أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه، وما قاله النفاةُ: من أنها من المتشابه، دعوى بلا برهان.



(١) الإسراء: (٣٢/ ٣٩).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٣/ ١١٤)، والحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٢٨٨) وانظر «الإتقان» (٩٢١ - «فتح المجيد» (ح٨٤٦) بتخريجنا).

(٣) ابن جرير الطبرى فى «التفسير» ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٧) ونسبه لابن جرير. وأنظر «فتح المجيد»(ح٨٤٧) بتخرجنا

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٣/ ١١٧) وانظر «الاتقان» (٩٢٠ - فتح المجيد»(ح٧٤٨) بتخريجنا).

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٧) ونسبه لابن جرير. وأنظر «فتح المجيد»(ح٧٤٩) بتخرجنا

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٧) ونسبه لابن أبى حاتم، وانظر «الاتقان» (٩٢٤ - . وأنظر «فتح المجيد»(ح٥٧٠) بتخريجنا).

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾(١)(٢).

قوله: «ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ..».

قال سليمان آل الشيخ(٣): هكذا ذكر المصنف هذا الأثر بالمعنى. اهـ.

مناسبة الأثر للباب وللتوحيد

قال القرعاوى(٤): دل الأثر على كفر من أنكر شيئاً من أسماء الله وصفاته لأن ذلك ينافي توحيد الأسماء والصفات. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٥): وقد روى ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى الآية، قال: هذا لما كاتب رسول الله ﷺ، قريشا فى الحديبية، كتب:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، فقالوا: لاتكتب الرحمن ولاندرى ما الرحمن، ولا نكتب إلا باسمك اللهم، فَأَنْزَلَ الله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾(٦) الآية.

وفيه دليل على أن من أنكر شيئاً من الصفات فهو من الهالكين، لأن الواجب على العبد الإيمان بذلك سواء فهمه أم لم يفهمه، وسواء قبله عقله أو أنكره. فهذا هو الواجب على العبد فى كل ما صح عن الله ورسوله ﷺ، وهو الذى ذكر الله تعالى عن الراسخين فى العلم أنهم ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾.

قال حامد بن محمد(٧): وقد ورد أن فى الحديث محكم ومتشابه كما فى القرآن محكم ومتشابه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا

---

(١) الرعد: ٣٠.

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٣/ ١٠١) عن مجاهد مرسلاً. وفيه عنعنة ابن جريج وهو مدلس.

وأنظر «فتح المجيد» بتخريجنا

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٣٧.

(٤) الجديد ٣٥٧.

(٥) تيسر العزيز الحميد ٤٣٧.

(٦) تقدم.

(٧) فتح الله الحميد المجيد ٣٨٥، ٣٨٦.

فيه مسائل

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

يذكر إلا أولوا الألباب﴾(١) فبين الله أن من الآيات محكمات هن أم الكتاب في اتخاذ الأمر والنهي منها والعمل بها وأخر متشابهات أنزلها الله لحكمة لايعلمها إلا هو، فأما الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله أي المتشابه إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا أي إنهم يؤمنون بالكل أنه منزل من الله لكن المحكم يعملون به والمتشابه يكلونه إلى الله فكذلك الحديث ما هو محكم يلزم العمل به وما هو متشابه نؤمن به ونكل معناه إلى الله.

قال ابن عثيمين(٢): قوله: «**ولما سمعت قريش رسول الله يذكر الرحمن**».

أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية، وأمر النبي ﷺ أن يكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال: «أما الرحمن؛ فلا والله ما أدري ما هي، وقالوا: إننا لانعرف رحماناً إلاَّ رحمن اليمامة. فأنكروا الاسم دون المسمى؛ فأنزل الله: ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**﴾؛ أي: بهذا الاسم من أسماء الله.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسماً من أسماء الله الثابتة في الكتاب أو السنة؛ فهو كافر لقوله تعالى: ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**﴾.

وقوله: «**ولما سمعت قريش**».

الظاهر ـ والله أعلم ـ أنه من باب العام الذي أريد به الخاص، وليس كل قريش تنكر ذلك، بل طائفة منهم، ولكن إذا أقرَّت الأمة الطائفة على ذلك ولم تنكر؛ صح أن ينسب لهم جميعاً، بل إن الله نسب إلى اليهود في زمن النبي ﷺ ما فعله أسلافهم في زمن موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ**﴾، وهذا لم يكن في عهد المُخَاطَبِين.

قلت: وقد تقدم ذكر سبب نزول الآية وما المقصود منها في أول الباب بما يغني عن إعادته هنا



قوله فيه مسائل:

- **الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.**

قال ابن عثيمين(٣):

---

(١) آل عمران: ٧. (٢) القول المفيد ٢/ ٣٧١، ٣٧٢. (٣) القول المفيد ٣/ ٣٧٢ و ٣٧٤.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الرَّعْدِ.

الثالثة: تَرْكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لاَ يَفْهَمُ السَّامِعُ.

الرابعة: ذِكْرُ العِلَّةِ؛ أَنَّهُ يُفْضِي إِلَى تَكْذِيبِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُنْكِرُ.

الخامسة: كَلاَمُ ابنِ عَبَّاسٍ لِمَنِ اسْتَنْكَرَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُ.

عدم بمعنى انتفاء؛ أى: انتفاء الإيمان بسبب جحد شىء من الأسماء والصفات، وسبق التفصيل فى ذلك.

● **الثانية: تفسير آية الرعد.**

وهى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

وسبق تفسيرها.

● **الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.**

وهذا ليس على إطلاقه، وقد سبق التفصيل فيه عند شرح الأثر.

● **الرابعة: ذكر العلة أنه يفضى إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر.**

وهى أن الذى لايبلغ عقله ما حدث به يفضى به التحديث إلى تكذيب الله ورسوله، فَيُكَذِّب ويقول: هذا غير ممكن، وهذا يوجد من بعض الناس فى أشياء كثيرة مما أخبر به النبى ﷺ مما يكون يوم القيامة؛ كما أخبر النبى ﷺ: «**إن الأرض يوم القيامة تكون خُبْزَة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يَتَكَفَّأ أحدكم خبزته**»، وما أشبه ذلك، وكما أن الصراط أَحَدّ من السيف وأدق من الشعرة وغير هذه الأمور، لو حدَّثْنَا بها إنساناً عامّياً لأوشك أن ينكر، لكن يجب أن تُبَيَّن له بالتدريج حتى يتمكن من عقلها مثل ما نُعلِّم الصبى شيئاً فشيئاً.

وقوله: «**ولو لم يتعمد المنكر**».

أى: ولو لم يقصد المُنْكِر تكذيب الله ورسوله، ولكن كَذَّب نسبة هذا الشىء إلى الله ورسوله، وهذا يعود بالتالى إلى رد خبر الله ورسوله.

● **الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه أهلكه.**

وذلك قوله: «ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة ـ أى ليناً ـ عند محكمه فيقبلونه، ويهلكون عند متشابهه فينكرونه؟» أهـ.



باب ٤٠

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾(١)

● **مناسبة الباب لما قبله:**

قال الفقير: لعل المصنف يرى أن من أنعم النعيم هو كلام الله المبين الشارح لأسمائه وصفاته كما ورد فى تفسير قوله تعالى: ﴿ثم لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قيل: القرآن، وقيل: محمد ﷺ المبلغ بسنته الشارحة لأسماء الله وصفاته كما قال الشافعى إن جميع ما فى القرءان والسنه شارح لأسماء الله الحسنى، فكأن من جحد شيئاً من الأسماء والصفات جحد أنعم النعم لذلك ناسب أن يأتى بباب ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ والله أعلم.

● **مناسبة هذا الباب للتوحيد:**

قال ناصر السعدى(٢):

الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولاً «واعترافًا» كما تقدم وبذلك يتم التوحيد فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر ليس معه من الدين شيء.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده، وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله، وإلى سعى غيره كما هو جار على السنة كثير من الناس، فهذا يجب على العبد أن يتوب منه وأن لا يضيف النعم إلا إلى موليها وإن يجاهد نفسه على ذلك ولا يتحقق الإيمان والتوحيد إلا بإضافة النعم إلى الله قولاً واعترافًا ، فإن الشكر الذى هو رأس الإيمان مبنى على ثلاثة أركان: اعتراف القلب بنعم الله كلهاعليه وعلى غيره، والتحدث بها والثناء على الله بها والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته، والله أعلم اهـ.

قل عبد الله بن جار الله(٣): أن إضافة نعم الله إلى غيره بالقلب واللسان كفر ينافى التوحيد، وأما إضافتها إلى غير الله باللسان مع اعتقاد أنها من عند الله فهو ينافى كمال

---

(١) النحل الآية ٨٣

(٢) القول السديد ١٠٥ ، ١٠٦

(٣) الجامع الفريد ١٤١

التوحيد لأن الواجب أن تضاف النعم إلى مسديها وهو الله وحده وبذلك يتم التوحيد. اهـ.

قال ابن عثيمين[(١)]: أن من أضاف نعمة الخالق إلى غيره، فقد جعل معه شريكًا في الربوبية، لأنه أضافها إلى السبب على أنه فاعل، هذا من وجه، ومن وجه آخر: أنه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات، وترك الشكر مناف للتوحيد، لأن الواجب أن يُشْكَر الخالق المنعم - سبحانه وتعالى - فصارت لها صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد العبادة، فمن حيث إضافتها إلى السبب على أنه فاعل هذا إخلال بتوحيد الربوبية، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية. اهـ.

● شرح الترجمة واذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال حامد بن محمد بن حسن [(٢)]:

باب ما جاء في بيان أن من نسب نعم الله إلى غيره فقد كفر كفر النعمة

قال سليمان آل الشيخ[(٣)]:

المراد بهذه الترجمة التأدب مع جناب الربوبية، عن الألفاظ الشركية الخفية بنسبة النعم إلى غير الله، فإن ذلك باب من أبواب الشرك الخفي، وضده باب من أبواب الشكر كما في الحديث الذي رواه ابن حبان في «صحيحه» عن جابر مرفوعًا «مَنْ أولى معروفًا فَلَمْ يَجِدْ لَهُ جزاءَ إلاَّ الثَّناءَ فَقَدْ شكرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ»[(٤)].

وفي رواية جيدة لأبي داود «مَنْ أَبْلَى فَذَكَرَهُ فَقَدْ شكَرَهُ، وإنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ»[(٥)] قال المنذري «من أبلى» أي: من أنعم عليه، الإبلاء الأنعام، فإذا كان ذكر المعروف الذي يقدره الله على يدي إنسان من شكره، فذكره معروف رب العالمين، وآلائه وإحسانه ونسبة ذلك إليه أولى بأن يكون شكرًا اهـ.

---

(١) القول المفيد ٢/ ٣٧٦.

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٣٨٨

(٣) تيسير العزيز ٣٤٨

(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥/ ١٧٥) عن جابر به.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨١٤) عن جابر به.

قَوْلُ الله تَعَالَى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[1].

قال ابن باز[2]:

أراد المؤلف الحث على الإعتراف بنعم الله وشكره سبحانه على ذلك لأن كثيراً من الناس قد يشغل عن هذا فيتمتع بنعم الله ولكنه لا يشكره بل ينسبها إلى أسبابه وقوته وأعماله، ونحو ذلك ويغفل عن المنعم سبحانه ولو شاء الله لسلبه الأسباب، وسلبه القوة فهو الذى أعطاه السمع والبصر والذكاء والحذق وغير ذلك. وهذا من خُلُق الكافرين أن يقول مثلاً هذا مالى ورثته من آبائى وما أشبه ذلك. اهـ.

قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا....﴾ الآية.

● **مناسبة الآية للباب:**

قال القرعاوى[3]: حيث دلت الآية على أنّ من نسب النعمة إلى غير الله فقد كفر بها. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى[4]: حيث كفَّرت الآية من نسب النعمة إلى غير الله لأنه جعله شريكًا مع الله فى الإنعام. اهـ.

قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

الإعراب:

قال محيى الدين درويش[5]: يعرفون نعمة الله يعرفون فعل مضارع والواو فاعل ونعمة الله مفعول به وثم حرف عطف للتراخى ينكرونها عطف على يعرفون وعطف بثم للدلالة على أنّ إنكارهم أمر مستبعد بعد توفر دلائل المعرفة.

قلت: وسيجيء الكلام على (ثم) من كلام المفسرين:

قال الشوكانى[6]: وجملة [يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها] استئناف لبيان توليهم أى هم يعرفون نعمة الله التى عددها، ويعترفون بأنها من عند الله سبحانه ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبأقوالهم الباطلة، حيث يقولون: هى من الله ولكنها بشفاعة الأصنام، وحيث يقولون: إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم، وأيضًا كونهم لا يستعملون هذه النعم فى مرضاة الرب سبحانه. اهـ.

(1) النحل(83)
(2) التعليق المفيد 207.
(3) الجديد 359
(4) الجديد 359.
(5) إعراب القرآن 5/351
(6) فتح القدير 3/189.

● التفسير بالقرآن.

قال القرطبي[1]: نظيرها: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾. اهـ.

قال الشنقيطي[2]: ذكر - جلّ وعلا- في هذه الآية الكريمة : أن الكفار يعرفون نعمة الله لأنهم يعلمون أنه هو الذي يرزقهم ويعافيهم، ويدبر شؤونهم، ثم ينكرون هذه النعمة، فيعبدون معه غيره، ويسوونه بما لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئًا.

وقد أوضح- جلّ وعلا- هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾.

فقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ دليل على معرفتهم نعمته.

وقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ دليل على إنكارهم لها والآيات بمثل هذا كثيرة جدًا. اهـ.

● ماء جاء في تفسير الآية من الأحاديث:

عن مجاهد أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ فسأله فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قال الأعرابي نعم، قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ قال الأعرابي : نعم ثم قرأ عليه كل ذلك يقول نعم، حتى بلغ ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فولى الأعرابي، فأنزل الله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾[3].

● التفسير بالمأثور من أقوال التابعين.

عن مجاهد في قوله : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال: هي المساكن والأنعام وما ترزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب، تعرف هذا كفار قريش، ثم تنكره بأن تقول هذا كان لآبائنا فورثونا إياه[4].

(١) تفسير القرطبي ٦/١٧٧٨.

(٢) أضواء البيان ٣/٢٤٦

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٦٢٠) وانظر «الدر» (٤/٢٣٨).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٦٢١) وذكره السيوطي في «الدر» (٤/٢٣٨) وزاد نسبته لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر. وأنظر «فتح المجيد » (ح٧٥٤)، (٧٥٦) بتخريجنا

عن عبد الله بن كثير فى الآية قال: يعلمون أن الله خلقهم وأعطاهم بعدما أعطاهم يكفرون فهو معرفهم نعمته، ثم إنكارهم إياها كفرهم بعد(١).

عن عون بن عبدالله فى قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال: إنكارهم إياها، أن يقول الرجل: لولا فلان أصابنى كذا وكذا، ولولا فلان لم أصب كذا وكذا(٢).

عن السدى فى قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال محمد ﷺ ولفظ ابن أبى حاتم قال: هذا فى حديث أبى جهل والأخنس حين سأل الأخنس أبا جهل عن محمد: فقال: هو نبى(٣).

● **أقوال أهل التفسير.**

قال الطبرى(٤): وأما قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا فى المعنى بالنعمة التى أخبر الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين أنهم ينكرونها مع معرفتهم بها فقال بعضهم هو النبى ﷺ عرفوا نبوته ثم جحدوها وكذبوه.

ثم قال: فقال آخرون بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره فى هذه السورة من النعم من عند الله وأن الله هو المنعم بذلك عليهم ولكنهم ينكرون ذلك فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

ثم قال: وقال آخرون معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم من رزقكم أقروا بأن الله هو الذى رزقهم ثم ينكرون ذلك بقولهم رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا.

ثم قال: وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب وأشبهها بتأويل الآية قول من قال عنى بالنعمة التى ذكرها الله فى قوله يعرفون نعمة الله النعمة عليهم بإرسال محمد ﷺ - إليهم داعيًا- إلى ما بعثه بدعائهم إليه وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاهما خبر عن رسول الله ﷺ وعما بعث به فأولى ما بينهما أن يكون فى معنى ما قبله وما بعده إذ لم يكن معنى يدل على انصرافه عما قبله وعما بعده فالذى قبل هذه الآية قوله فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وما بعده ويوم نبعث من كل أمة

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٦٢٢) وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبته لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن المنذر.

(٤) تفسير الطبرى ٧/ ١٤/ ١٠٥.

شهيداً وهو رسولها، فإذا كان ذلك كذلك فمعنى الآية يعرف هؤلاء المشركون بالله نعمة الله عليهم يا محمد بك ثم ينكرونك ويجحدون نبوتك وأكثرهم الكافرون يقول وأكثر قومك الجاحدو نبوتك لا المقرون بها اهـ.

ثم قال: وقد بين - جل وعلا- أن بعثة النبي ﷺ فيهم من منن الله عليهم - كما قال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية.

وبين في موضع آخر: أنهم قابلوا هذه النعمة بالكفران وذلك في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ وقيل: يعرفون نعمة الله في الشدة ثم ينكرونها في الرخاء، وقد تقدمت الآيات الدالة على ذلك. كقوله : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ونحوها من الآيات - إلى غير ذلك من الأقوال في الآية. اهـ.

قال الزمخشري[1]: يعرفون نعمة الله التي عددناها حيث يعترفون بها وأنها من الله ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا وقيل إنكارهم قولهم ورثناها من آبائنا وقيل قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سببًا في نيلها اهـ.

التفسير من قول شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين[2]: قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ﴾ أي: يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله.

قوله: [نعمة الله]:

واحدة والمراد بها الجميع، فهي ليست واحدة، بل هي لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ والقاعدة الأصولية، أن المفرد المضاف يعم - **قلت** يعني يفيد العموم كما ذكر ذلك ناصر السعدي في القواعد الحسان وفي أول تفسيره تيسير الكريم الرحمن - والنعمة تكون بجلب المحبوبات وتطلق أحيانًا على رفع المكروهات.

---

(1) الكشاف ٢/ ٣٤٠.

(2) القول المفيد ٢/ ٣٧٥.

قوله [ثم ينكرونها]:

أى : ينكرون إضافتها إلى الله لكونهم يضيفونها إلى السبب متناسين المُسَبِّب الذى هو الله سبحانه- وليس المعنى أنهم ينكرون هذه النعمة، مثل أن يقولوا: ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة، ولكن ينكرونها بإضافتها إلى غير الله، متناسين الذى خلق السبب فَوُجد به المُسَبَّب.

معنى ثم:

قال الزمخشرى[1]: فإن قلت ما معنى (ثم) قلت الدلالة على أنَّ - إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لأنَّ حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر اهـ. وقال الرازى نحو هذا[2].

قوله [وأكثرهم الكافرون]

الإعراب[3] : الواو للحال وأكثرهم مبتدأ والكافرون خبره أو بالعكس أى أنهم كانوا يعرفون وينحرفون اهـ.

تفسيرها بما جآء من أقوال المفسرين.

قال ابن الجوزى[4]: قوله تعالى: ﴿ **وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ**﴾. **قال الحسن**: وجميعهم كفار، فذكر الأكثر، والمراد به الجميع. اهـ.

قال الرازى[5]: فإن قيل: ما معنى قوله ﴿**وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ مع أنه كان كلهم كافرين؟

قلنا: الجواب من وجوه.

الأول: وإنما قال: ﴿ **وَأَكْثَرُهُم**﴾ لأنه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف، أو كان ناقص العقل معتوهًا فأراد بالأكثر البالغين الأصحاء.

الثانى: أن يكون المراد بالكافر: الجاحد المعاند، وحينئذ تقول إنما قال ﴿**وَأَكْثَرُهُمُ**﴾ لأنه كان فيهم من لم يكن معاندًا بل كان جاهلاً بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام وما ظهر له كونه نبيًا حق من عند الله.

الثالث: أنه ذكر الأكثر والمراد الجميع، لأنَّ أكثر الشيء يقوم مقام الكل، فذكر الأكثر كذكر الجميع، وهذا كقوله ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ والله أعلم اهـ.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٤٠

(٢) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ٩٨..

(٣) إعراب القران / ٣٢١و٣٥٢

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٦٥.

(٥) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ٩٨.

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي».

قال الشوكاني[1]: وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول ﷺ مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ اهـ.

قال السعدى[2]: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالى الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قصدهم، سيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم، متمرد على الله ، وعلى رسله اهـ.

تفسيرها بما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين[3]: الجملة الأولى أضافها إلى الكل، والثانية أضافها إلى الأكثر، وذلك لأنّ منهم من هو عامي لا يعرف ولا يفهم، ولكن أكثرهم يعرفون ثم يكفرون اهـ.

قوله: قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل..إلخ» الآية.

قال سليمان آل الشيخ[4] : هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبى حاتم، لفظه كما فى(الدر) قال: المساكن والأنعام وسرابيل الثياب، والحديث يعرفه كفار قريش ثم ينكرون بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم اهـ.

● **مناسبة الأثر للباب:**

قال القرعاوى[5]: حيث أفاد الأثر أنّ مجاهد يرى أنّ من نسب النعمة إلى غير الله فقد كفر بها. اهـ.

● **مناسبة الأثر للتوحيد:**

قال القرعاوى[6]: حيث مجاهد كفر من نسب النعمة إلى غير الله لأن ذلك شرك مع الله فى إنعامه. اهـ.

قوله [قال مجاهد]:

قال عبد الرحمن آل الشيخ[7]: هو شيخ التفسير الإمام الربانى، مجاهد بن جبر المكي مولى بنى مخزوم. قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهدًا يقول : عرضت

---

(١) فتح القدير ٣/١٨٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ١٣٠١/٤٨.
(٣) القول المفيد ٢/٣٧٦
(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٣٨.
(٥، ٦) الجديد ٣٥٩.
(٧) فتح المجيد ٢/٥٦٩.

المصحف على ابن عباس مرات، أوقفه عند كلِّ آية، وأسأله: فيم نزلت ؟ وكيف نزلت؟ وكيف معناها؟ توفى سنة اثنتين ومائة، وله ثلاث وثمانون سنة - رحمه الله(*). اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: وقال سفيان الثورى. إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به أى: كافيك، ومع هذا فليس معصومًا عن الخطأ. اهـ.

قوله [ما معناه]

قال ابن عثيمين[2]: أى: كلامًا معناه، وعلى هذا فـ [ما] : نكرة موصوفة، وفيه أنَّ الشيخ - رحمه الله لم ينقله بلفظه. اهـ.

قوله [هو قول الرّجُل]

قال ابن عثيمين[3]: هذا من باب التغليب والتشريف لأن الرجل أشرف من المرأة وأحق بتوجيه الخطاب إليه منها، وإلا، فالحكم واحد. اهـ.

قلت: لحديث أبى وادود: «**النساء شقائق الرجال**»[4] وفهم الخطابى ان ذلك فى الاوامر والنواهى. اهـ.

قوله [هذا مالى ورثته عن آبائى]

قال سليمان آل الشيخ[5]: قال ابن القيم ما معناه. لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها على غيره، فإنَّ الذى يقول هذا جاحد لنعمة الله عليه غير معترف بها، وهو كالأبرص، والأقرع الذين ذكرهما الملك بنعم الله عليها فأنكراها وقالا : إنما ورثنا هذا كابرًا عن كابر[6]، وكونها موروثة الآباء أبلغ فى إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آبائهم ثم ورثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمته. اهـ.

قال ابن عثيمين[7]: قوله [هذا مالى ورثته عن آبائى] ظاهر هذه الكلمة أنه لا شىء فيها، فلو قال لك واحد: من أين لك هذا البيت؟ قلت : ورثته عن آبائى، فليس فيه شىء لأنه خبر محض لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملُّكه للمال إلى السبب الذى

(*) ينظر ترجمته فى كتابى «النكت المتممه لمقدمه ابن تيميمة».

(1) القول المفيد ٢/ ٣٧٧ (٢) القول المفيد ٣٧٧.

(3) القول المفيد ٢/ ٣٧٧

(4) أخرجه أبو داود (٢٣٧)، والترمذى (١١٣) عن عائشة به.

(5) تيسير العزيز الحميد ٤٣٩

(6) وحديث الاقرع والابرص فى الصحيح وسيأتى.

(7) القول المفيد ٢/ ٣٧٧.

وَقَالَ عَوْنُ بنُ عَبْدِ اللهِ: «يَقولُونَ: لَوْلاَ فُلاَنٌ؛ لَمْ يَكُنْ كَذَا»(١).

هو الإرث متناسياً المسبب الذى هو الله؛ فبتقدير الله - عزوجل - أنعم على آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله - عزوجل - انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق الإرث؛ فكيف تتناسى المسبب للأسباب القدرية والشرعية فتضيف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم، فمن هنا صار هذاالقول نوعاً من كفر النعمة.

أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق: فلا شىء فى ذلك، ولهذا ثبت أن النبى ﷺ - قيل له يوم الفتح: «أتنزل فى دارك غداً، فقال: وهل ترك لناعقيل من دار أو رباع»(٢) فبين ﷺ أن هذه الدور انتقلت إلى عقيل بالإرث فتبين أن هناك فرقا بين إضافة الملك إلى الإنسان على سبيل الخبر، وبين إضافته إلى سببه متناسياً المسبِّب وهو الله - عزوجل - أهـ.

قلت: وهذا كما قال قارون فيما حكاه الله تعالى عنه: ﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾ أى علم عندى بصنعة الذهب أو لفضل علمى أو على علم عندى بوجوه المكاسب أو غير ذلك مما حكاه المفسرون وعلى أى قول من هذه الأقوال فهو نسب نعمة الله إلى مهارته وعلمه وليست إليه سبحانه.

قوله: وقال عون بن عبدالله: «يقولون: لولا فلان؛ لم يكن كذا».

مناسبة الأثر للباب:

قال القرعاوى(٢): حيث دل الأثر على أن عون بن عبدالله يرى أن تعليق وجود النعم بقدرة المخلوقين كفربها.

قال سليمان آل الشيخ(٣): هذا الأثر رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ولفظه كما فى(الدر) لولا فلان أصابنى كذا وكذا ولولا فلان لم أصب كذا وكذا.

وعون هذا هوابن عبدالله بن عتب ابن مسعود الهذلى ابو عبدالله الكوفى ثقة عابد مات قبل سنة عشرين ومائة.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١٠٦/١٤)

قال: حدثنا أبى وكيع قال: ثنا معاوية، عن عمرو، عن أبى إسحاق الفزارى عن ليث، عن عون بن عبدالله بن عتبة به. و ابن أبى حاتم فى تفسيره (٢٢٩٦/٧/ح١٢٦٢٢) فانظره بتخريجنا

وانظر «فتح المجيد»(ح٧٥٥) بتخريجنا

وذكره السيوطى فى«الدر» (٢٣٨/٤) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور وابن المنذر.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١٥٨٨).   (٣) الجديد ٣٦٠

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٣٩.

قوله (لولا فلان.... إلى آخر)

قال سليمان آل الشيخ: قال ابن القيم مامعناه : هذا يتضمن قطع إضافة النعمةعن من لولاه لم تكن، وإضافتها إلى من لم يملك لنفسه ضراً ولانفعاً فضلاً عن غيره، وغايته أن يكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله نعمته على يده. والسبب لايستقل بالإيجاد وجعله سبباً هو من نعم الله عليه. فهو المنعم بتلك النعمة وهو المنعم بماجعله من أسبابها، فالسبب والمسبب من إنعامه. وهو تعالى كماأنه قد ينعم بذلك السبب، فقد ينعم بدونه ولايكون له أثر وقد يسلبه سببيته، وقد يجعل لهامعارضا يقاومها، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه فهو وحده المنعم على الحقيقة.

قال ابن عثيمين[1]: قوله : «وقال عون بن عبدالله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا».

وهذا القول من قائلة فيه تفصيل إن أراد به الخبر وكان الخبر صدقاً مطابقاً للواقع؛ فهذا لابأس به، وإن أراد بها السبب؛ فلذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون سبباً خفياً لاتأثير له إطلاقاً، كأن يقول :لولا الولى الفلانى ماحصل كذا وكذا؛ فهذا شرك أكبر لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا الولى تصرفاً فى الكون مع أنه ميت، فهو تصرف سرى خفى.

الثانية : أن يضيفه إلى سبب صحيح ثابت شرعاً أوحساً؛ فهذا جائز بشرط أن لايعتقد أن السبب مؤثر بنفسه، وأن لايتناسى المنعم بذلك.

الثالثة : أن يضيفه إلى سبب ظاهر، لكن لم يثبت كونه سبباً لاشرعاً ولاحساً؛ فهذا نوع من الشرك الأصغر، وذلك مثل :التولة، والقلائد التى يقال : إنها تمنع العين،و ما أشبه ذلك ؛ لأنه أثبت سبباً لم يجعله اللهسبباً، فكان مشاركاً لله فى إثبات الأسباب.

ويدل لهذا التفصيل أنه ثبت إضافة (لولا) إلى السبب وحده بقول النبى ﷺ فى عمه أبى طالب :«**لولا أنا؛ لكان فى الدرك الأسفل من النار**»(*)، ولا شك أن النبى ﷺ أبعد الناس عن الشرك، وأخلص الناس توحيداً لله تعالى، فأضاف النبى ﷺ الشيء إلى سببه، لكنه شرعى حقيقى؛ فإنه أذن له بالشفاعة لعمه بأن يخفف عنه، فكان فى ضحضاح من النار، عليه نعلان يغلى منهما دماغه لايرى أن أحداً أشد منه عذاباً؛ لأنه لو يرى أن أحداً أشد منه عذاباً هان على ابالتسلى؛ كما قالت الخنساء فى رثاء أخيها صخر:

---

(١) القول المفيد ٢/ ٣٧٨، ٣٧٩.

(*) تقدم تخريجه.

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
ومايبكون مثل أخي ولكن ... أسَلِّي النَّفْسَ عنه بالتَّأسِّي

وابن القيم رحمه الله ـ وإن كان قول العالم ليس بحجة لكن يستأنس به ـ قال فى القصيدة الميمية يمدح الصحابة.

أولئك أتباع النبى وحزبه ... ولولا همو ما كان فى الأرض مسلم
ولولا همو كادت تميد بأهلها ... ولكن رواسيها وأوتادها هم
ولولا همو كانت ظلما بأهلها ... ولكن همو فيها بدور وأنجم

فأضاف (لولا) إلى سبب صحيح. اهـ.

قوله: وقال ابن قتيبة: [يقولون هذا...].

مناسبة الأثر للباب:

قال القرعاوى[1]:حيث دل الأثر على أن ابن قتيبة يرى أن إضافة النعمة إلى شفاعة الأصنام كفر. اهـ.

قوله (وقال ابن قتيبة)

قال سليمان آل الشيخ[2]: ابن قتيبة هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى الحافظ، صاحب التفسير والمعارف وغيرها. وثقة الخطيب وغيره، ومات سنة سبع وستين ومائتين، أو قبلها

قوله (يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا)

قال سليمان آل الشيخ[3]: قال ابن القيم : هذا يتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها؛ فالآلهة التى تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهى محضرة فى الهوان والعذاب مع عابديها وأقرب الخلق إلى الله، وأحبهم إليه لايشفع عنده إلاممن بعد إذنه لمن ارتضاه؛ فالشفاعة بإذنه من نعمه، فهو المنعم بالشفاعة، وهوالمنعم بقبولها،وهو المنعم بتأهيل المشفوع له. إذ ليس كل أحد أهلاً أن يشفع له. فمن المنعم على الحقيقة سواه ؟ قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾فالعبد لاخروج

(١) الجديد ٣٦٠ — (٢) (٣) تيسير العزيز الحميد

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثَ زَيْدِ بنِ خَالد الَّذى فيه: «أَنَّ اللهَ تَعَالى قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادى مُؤمِنٌ بى وكَافِرٌ....». الحديثَ[1]. وَقَدْ تَقَدَّمَ: «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلى غَيْرِهِ ويُشْرِكُ بِهِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِم كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، والمَلاَّحُ حَاذِقاً... وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَة».

له عن نعمة الله وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولهذا ذم سبحانه من آتاه شيئاً من نعمه فقال: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى﴾

قال ابن عثيمين [2]: هؤلاء أخبث ممن سبقهم، لأنهم مشركون يعبدون غير الله، ثم يقولون : إن هذه النعم حصلت بشفاعة آلهتهم. فالعزى مثلا شفعت عند الله أن ينزل المطر فهؤلاء أثبتوا سبباً من أبطل الأسباب لأن الله ـ عزوجل ـ لايقبل شفاعة آلهتهم، قال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾والله عزوجل ـ لايأذن لهذه الأصنام بالشفاعة، فهذا أبطل من الذى قبله لأن فيه محذورين.

١ـ الشرك بهذه الأصنام.

٢ـ إثبات سبب غير صحيح. أهـ.

قوله: وقال أبو العباس......

مناسبة الأثر للباب والتوحيد :

قال القروعاى [3]: حيث أفاد الأثر أن ابن تيمية يرى أن من نسب النعمة إلى غير الله فقد كفر بها أو أشرك مع الله غيره. اهـ.

هو شيخ الإسلام ابن تيمية. رحمه الله

قوله (وهذاكثير فى الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره...)

قال ابن عثيمين [4]: وذلك مثل الاستسقاء بالأنواء، وإنما كان هذا مذموماً؛ لأنه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٨٠.

(٣) الجديد ٣٦٢.

(٤) القول المفيد ٢/ ٣٨١.

لوأتى إليك عبد فلان بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد؛ كان هذا سوء أدب مع السيد وكفراناً لنعمته، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق ؛ لما يأتى:

١ـ الخالق لهذه الأسباب هو الله؛ فكان الواجب أن يشكر وتضاف النعمة إليه.

٢ـ أن السبب قد لايؤثر؛ كما ثبت فى«صحيح مسلم» أنه ﷺ قال: **«ليس السنة أن لاتمطروا، بل السنة أن تمطروا ثم لاتنبت الأرض»**(١).

٣ـ أن السبب قد يكون له مانع يمنع من تأثيره، وبهذا عرف ضعف إضافة الشىء إلى سببه دون الالتفات إلى المسبب جل وعلا.

قوله : «كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً»

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، الملاح هو سائس السفينة. والمعنى أن السفن إذا جرين بريح طيبة بأمر الله جرياً حسناً نسبوا ذلك إلى طيبة الريح، وحذق الملاح فى سياسة السفينة، ونسوا ربهم الذى أجرى لهم الفلك فى البحر رحمة بهم كما قال تعالى **﴿رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾**(٣). فيكون نسبة ذلك إلى طيب الريح، وحذق الملاح من جنس نسبة المطر إلى الأنواء. وإن كان المتكلم بذلك لم يقصد أن الريح والملاح هو الفاعل لذلك من دون خلق الله وأمره وإنما أراد أنه سبب. لكن لاينبغى أن يضيف ذلك إلى الله وحده؛ لأن غاية الأمر فى ذلك أن يكون الريح والملاح سبباً، أو جزء وسبب. ولو شاء الرب تبارك وتعالى لسلبه سببيته، فلم يكن سبباً أصلا. فلا يليق بالمنعم عليه المطلوب منه الشكر أن ينسى من بيده الخيركله وهوعلى كل شىء قدير، ويضيف النعم إلى غيره، بل يذكرها مضافة منسوبة إلى مولاها والمنعم بها، وهو المنعم على الإطلاق كما قال تعالى : **﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾**(٤). فهو المنعم بجميع النعم فى الدنيا والآخرة وحده لاشريك له. فإن ذلك من شكرها. وضده من إنكارها. ولاينافى ذلك الدعاء والإحسان إلى من كان سببا أوجزء سبب فى بعض مايصل إليك من النعم من الخلق. قال المصنف :وفيه اجتماع الضدين فى القلب. اهـ.

---

(١)[صحيح] أخرجه : مسلم فى الفتن (٩/ ٢٥٧/ ٤٤) عن أبى هريرة به.

(٢) تسيرالعزيز الحميد ٤٤٠

(٣) سورة الإسراء :٦٦

(٤) سورة النحل : ٥٣.

فيه مسائل

الأولى:تَفْسِيرُ مَعْرِفَةِ النِّعْمَةِ وإِنْكَارِهَا.

الثانية :مَعْرِفَةُ أَنَّ هذَا جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَة.

الثالثة : تَسْمِيَةُ هَذَا الكَلاَمِ إِنْكَاراً للنِّعْمَة.

الرابعة : اجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ فِي القلب.

قال ابن عثيمين [(١)]: هذا فى السفن الشراعية التى تجرى بالريح، قال تعالى: **﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾**، فكانوا إذا طاب سير السفينة قالوا: كانت الريح طيبة، وكان الملاح ـ هو قائد السفينة ـ حاذقاً ـ أى: مُجيداً للقيادة فيضيفون الشىء إلى سببه وينسون الخالق ـ جل وعلا ـ. اهـ.

قال ابن عثيمين [(٢)]:

فيه مسائل

- **الأولى**: تفسير معرفة النعمة وإنكارها. وسبق ذلك
- **الثانية** : معرفة أن هذا جار على ألسنة كثيرة.

وذلك مثل قول بعضهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، وماأشبه ذلك.

- **الثالثة** : تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة. يعنى : إنكاراً لتفضل الله تعالى بهاوليس إنكاراً لوجودها؛ لانهم يعرفونها يحسون بوجودها.
- **الرابعة** : اجتماع الضدين فى القلب.

وهذامن قوله **﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾**؛ فجمع بين المعرفة والإنكار،وهذا كما يجتمع فى الشخص الواحدخصلة إيمان وخصلة كفر، وخصلة فسوق وخصلة عدالة.

قلت: وسيأتى مزيد تفصيل ومن الفوائد غير ذلك فى باب قول الله تعالى: **﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء منه ليقولن هذا لى﴾**.



---

(١) القول المفيد ٢/ ٣٨١.

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٨٢،٣٨٣.

باب (٤١)

﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١]

● **مناسبة الباب لما قبله:**

قال الفقير: مناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة، حيث أن الباب الماضى فيه النهى عن اتخاذ الند والنظير مع الله: بنسبة النعم لهذه الأنداد ببعض الألفاظ الشركية الخفية والغير خفية فناسب أن يحذر المصنف فى هذا الباب من هذا الشرك فى الألفاظ وغيرها بقوله **﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**. أى نسبة النعم لغيره تعالى وفى غير ذلك مما يؤول إلى اشرك والله أعلم.

● **مناسبة الباب لكتاب التوحيد :ـ**

قال سليمان آل الشيخ[٢]: اعلم أن من تحقيق التوحيد الاحتراز من الشرك بالله فى الألفاظ، وإن لم يقصد المتكلم بها معنى لايجوز، بل ربما تجرى على لسانه من غير قصد، كمن يجرى على لسانه ألفاظ من أنواع الشرك الأصغر لايقصدها.

فإن قيل: الآية نزلت فى الأكبر.

قيل: السلف يحتجون بما نزل فى الأكبر. كما فسرها ابن عباس، وغيره فيما ذكره المصنف عنه بأنواع من الشرك الأصغر، وفسرها أيضاً بالشرك الأكبر. وفسرها غيره بشرك طاعة، وذلك لأن الكل شرك.

قال ابن القيم: فتأمل هذه، وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها، وظفر العقل بها بأول وهلة، وخلوصها من كل شبهة وريب وقادح إذا كان الله وحده هو الذى فعل هذه الأفعال. فكيف تجعلون له أنداداً وقد علمتم أنه لاند له يشاركه فى فعله؟! أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ[٣]: وهذه الآية دَالَّة على تَوْحيد الله تعالى بالعبادة وحده لاشريك له. وقد استدل بها كثير من المفَسِّرين على وجود الصَّانع، وهى دالة على ذلك بطريق الأولى. والآيات الدَّالة على هذا المقام فى القرآن كثيرة جداً.

---

(١) البقرة: ٢٢.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٤١).

(٣) فتح المجيد (٢/ ٥٧٤).

وسُئل أبو نواس عن ذلك؟ فأنشد:

تَـأمَّـل فـى نَـبَـاتِ الأرْضِ، وانْـظُـر — إلـى آثـارِ مـا صَـنَـع المَـلِـيـكُ
عُـيُـونٌ مـن لُـجَـيْـنٍ نَـاظِـرَاتٌ — بـأحْـدَاقٍ هـى الـذَّهـب الـسَّـبِـيـكُ
عَـلـى قُـضُـب الـزَّبَـرْجَـد شَـاهِـدَاتٌ — بِـأنَّ الله لَـيْـسَ لَـهُ شَـرِيـكُ

وقال ابن المعتز:

فَيَا عَجَباً، كيف يُعْصَى الإلـه، — أم كَيْفَ يَجْحَدُه الجَاحِدُ؟
وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَه آيَةٌ — تَدُلُّ عَلَى أنَّهُ وَاحِدُ[1]

وقال ناصر السعدى[2]: الترجمة السابقة على قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا** ﴾ يقصد بها الشرك الأكبر، بأن يجعل لله نداً فى العبادة والحب، والخوف والرجاء، وغيرها من العبادات.

وهذه الترجمة المراد بها الشرك الأصغر، والشرك فى الألفاظ كالحلف بغير الله، وكالتشريك بين الله وبين خلقه فى الألفاظ، كلولا الله وفلان، وهذا بالله وبك، وكإضافة الأشياء ووقوعها لغير الله، كلولا الحارث لأتانا اللصوص ولولا الدواء الفلانى لهلكت، ولولا حذق فلان فى المكسب الفلانى لما حصل. . . . فكل هذا ينافى التوحيد.

والواجب أن تضاف الأمور ووقوعها ونفع السبب إلى إرادة الله، وإلى الله ابتداء، ويذكر مع ذلك مرتبة السبب ونفعه، فيقول: لولا الله، ثم كذا. . . . ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره.

فلا يتم توحيد العبد حتى لايجعل لله نداً فى قلبه وقوله وفعله أهـ.

- **وقال عبدالله بن جارالله**[3] بنحو ما تقدم من كلام السعدى، حيث قال:

---

(1) الأبيات فى ديوان أبى العتاهية ص (122) مع أبيات أخر. وكذا نَسبَها لأبى العتاهية أبو الفرج فى أغانيه (4/ 35) وفى الديوان: أن أبا نواس لما رأى هذه الأبيات قال لمن هذا؟ فقيل له: لأبى العتاهية فقال: لو وددتها لى بجميع شعر.

ولذلك نسبها ابن خلكان فى وفيات الأعيان (7/ 138) إلى أبى نواس.

(2) القول السديد (107، 108).

(3) الجامع الفريد (162).

الغرض من هذا الباب النهى عن الشرك الأصغر كالحلف بغير الله والتشريك بين الله وبين خلقه فى الألفاظ كلولا الله وفلان وهذا بالله وبك وكإضافة الأشياء لغير الله كلولا الحارس لأتانا السارق ولولا الدواء الفلانى لهلكت ونحو ذلك فكل هذا فى معناه ينافى كمال التوحيد. لأن الواو تقتضى مساواة المعطوف للمعطوف عليه والواجب أن تضاف الأمور كلها إلى الله ابتداء ويؤتى بعد ذلك بمرتبة السبب فيقال لولا الله ثم كذا ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدرة. اهـ.

وقال القرعاوى(1): حيث دلت الآية على وجوب تجنب الشرك الظاهر والخفى، ومن الخفى قول القائل لولا الحارس لأتانا اللصوص أهـ.

ـ ماذا أراد المصنِّف بهذا الباب.

قال حامد بن حسن بن محسن(2): باب فى بيان أن لفظ الند يشمل الشرك الأكبر والأصغر والخفى والكل ظلم وذميم عند الله والكل يوجب السخط من الله والعقاب، والشرك من حيث هو هضم لجناب الربوبيةومساواته تعالى مع غيره فى الألوهية من أكبر الكبائر وأقبح القبائح وأشنع الشنائع وينبه على ذلك قول الله تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**.

قال ناصر السعدى: الترجمة السابقة يقصد بها الشرك الأكبر.. وهذه الترجمة يراد بها الشرك الأصغر أ.هـ.

وتقدم تمام كلامه بنصه فى مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد.

قال ابن باز(3): أراد المؤلف بهذا الباب تحذير الناس من اتخاذ الأنداد وهو جمع ند وهو المثل والنظير وسمى الله من اتخذ الهاً أنداداً لأنّهم عبدوه مع الله كالقبور والأشجار والكواكب وغيرها كلها تسمى أنداداً إذا دعاه أو استغاث به أو طلب منه شيئاً أو اعتقد نفعه أو ضره اهـ.

قوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

---

(1) الجديد (264).

(2) فتح الله الحميد المجيد 391.

(3) التعليق المفيد 209.

قال محى الدين درويش[١]: الفاء تعليلية ولا ناهية.

وقال ابن عثيمين[٢] شارحاً ومفصلاً لذلك بقوله: لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التى لم يفعلها غيره: ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فكل من أقرَّ بذلك لزمه أن لايعبد إلا المقرّ له، لأنه لايستحق العبادة من لا يفعل ذلك، ولا ينبغى أن يُعْبَد إلا من فعل ذلك ولذلك أتى بالفاء الدالة على التفريع والسبب، أى: فسبب ذلك لاتجعلوا لله أنداداً. ولا هذه ناهية، أى: فلا تجعلوا له أنداداً فى العبادة، كما أنكم لم تجعلوا له أنداداً فى الربوبية، وأيضاً لاتجعلوا له أنداداً فى أسمائه وصفاته؛ لأنهم قد يصفون غير الله بأوصاف الله - عزوجل - كإشتقاق العزى من العزيز، وتسميتهم رحمن اليمامة اهـ.

الإعراب[٣]: ﴿تَجْعَلُوا﴾ فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حرف النون والواو فاعل والجملة تعليلية لامحلَّ لها بمثابة الإستنافية والمعنى أن هذا النهى متسبب عن إيجاد هذه الآيات الباهرة ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف فى موضع المفعول الثانى لتجعلوا ﴿أَندَادًا﴾ معقول تجعلوا الأول.

- التفسير بالمأثور

أولاً: من المرفوع

عن عوف بن عبدالله قال خرج النبى ﷺ ذات يوم من المدينة فسمع منادياً ينادى للصلاة فقال: الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله ﷺ على الفطرة فقال: أشهد أن لا إله إلا الله فقال: «خلع الأنداد»[٤].

عن ابن عباس قال: قال رجل للنبى ﷺ ما شاء الله وشئت فقال: «جعلتنى لله نداً، ما شاء الله وحده»[٥].

- عن قتيلة بنت صيفى قالت: جاء حبر من الأحبار إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون قال: وكيف؟ قال: يقول أحدكم: لا والكعبة. فقال

(١) إعراب القرآن ١/ ٢٤. (٢) القول المفيد ٢/ ٣٨٤.

(٣) إعراب القرآن ١/ ٥٤.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٧٦) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٥) تقدم تخريجه وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحايث الظلال» (١٢).

النبيُّ ﷺ: أنه قد قال فمن حلف فليحلف برب ذاك؟! قال: يقول أحدكم ما شاء الله وشئت فقال النبيُّ ﷺ للحبر: «أنه قد قال فمن قال منكم فليقل ما شاء ثم شئت»(١).

عن حذيفة ابن اليمان عن النبيِّ ﷺ قال: «لاتقولوا ما شاء الله وشاء فلان». قولوا: «ما شاء الله ثم شاء فلان»(٢).

- عن طفيل بن سخبرة أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مر برهط من اليهود فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيراً ابن الله فقال: وأنتم نعم القول لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. ثم مرَّ رهط من النصارى فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله قالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبح أخبر النبيَّ ﷺ فخطب فقال: «إن طفيلاً رأى رؤيا، وأنكم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم، فلا تقولوها ولكن قولوا: ما شاء الله وحده لاشريك له»(٣).

ثانياً: من أقوال الصحابة

وعن ابن عباس قال [الأنداد] هو الشرك(٤).

وعن ابن عباس في قوله: [الأنداد] قال: أشباها(٥).

وعن ابن مسعود في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله(٦).

وعن ابن عباس. أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قول الله - عزوجل - ﴿أَندَادًا﴾ قال: الأشباه والأمثال قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول لبيد: أحمد الله فلا ندَّ له بيديه الخير ما شاء فعل(٧).

وعن قتادة في قوله ﴿أَندَادًا﴾ قال: شركاء(٨).

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (١/ ٧٦) ونسبه لابن سعد. وانظر «فتح القدير» (٣٢٦ - بتخريجنا) وفتح ذي الجلال.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٠٤)، وأبو داود (٤٩٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢١). وانظر «رياض الصالحين» (١٧٤٨ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٧٢)، وابن ماجه (٢١١٨) عن طفيل به.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (١/ ٧٦) ونسبه لابن أبي حاتم.

(٥) تقدم تخريجه. (٦) تقدم تخريجه.

(٧) تقدم تخريجه. (٨) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

ثالثاً: عن التابعين

وعن قتادة فى قوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أى عدلاء[1]. وعنه أيضاً: شركاء[*]

وعن مجاهد فى قوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أى عدلاء[2] اهـ.

● **تنبيه:**

تقدم - بأوسع من ذلك - معنى الأنداد، والراجح فيها، فى باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبرى[3]: قوله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال أبو جعفر والأنداد جمع ند والند العدل والمثل كما قال حسان بن ثابت:

أتهجوا ولست له بندٍ فشركما لخيركما الفداء.

يعنى بقوله ولست له بندٍ لست له بمثلٍ ولا عدل وكل شىء كان نظيراً لشىء وشبيها فهو له ند ا.هـ.

قال البغوى[4]: قوله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أى أمثالاً تعبدونهم كعبادة الله.

وقال أبو عبيدة: الند الضدّ. وهو من الأضداد والله تعالى برىء من المثل والضد اهـ.

قال ابن الجوزى[5]: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ يعنى: شركاء، أمثالاً يقال: هذا ند هذا، ونديده وفيما أريد بالأنداد هاهنا قولان:

أحدهما: الأصنام، قاله ابن زيد:

والثانى: رجال كانوا يطيعونهم فى معصية الله، قاله السدى اهـ.

قال الرازى[6]: بم تعلق قوله ﴿فَلا تَجْعَلُوا﴾؟

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٧٧) ونسبه لابن جرير.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تفسير الطبرى ١/ ١٢٦.

(٤) معالم التنزيل ١/ ٥٢.

(٥) زاد المسير ١/ ٤١.

(٦) التفسير الكبير ١/ ٢/ ١٢٣.

(*) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لعبد بن حميد

الجواب فيه ثلاثة أوجه.

أحدها: أن يتعلق بالأمر، أى اعبدوا فلا تجعلوا لله أنداداً فإنَّ أصل العبادة وأساسها التوحيد.

وثانيها: بلعلّ، والمعنى خلقكم لكى تتقوا وتخافوا عقابه فلا تثبتوا له نداً فإنه من أعظم موجبات العقاب.

وثالثها، بقوله: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أى هو الذى خلق لكم هذه الدلائل الباهرة فلا تتخذوا له شركاء اهـ.

ثم قال[1]: ما الند؟

الجواب: أنه المثل المنازع وناددت الرجل نافرته من ندّ ندوداً إذا نفر كأن كلٍّ واحد من الندين يناد صاحبه أى نافره ويعانده، فإن قيل إنهم لم يقولوا إن الأصنام تنازع الله. قلنا لما عبدوها وسموها ألهةً أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها ألهة قادرة على منازعته فقيل لهم ذلك على سبيل التهكم وكما تهكم بلفظ الند شنع عليهم بأنهم جعلوا أنداداً كثيرة لمن لايصلح أن يكون له ند قط، وقرأ محمد من السميفع فلا تجعلوا لله نداً اهـ.

قال ابن كثير[2]: أى لاتشركوا بالله غيره من الأنداد التى لاتنفع ولاتضر وأنتم تعلمون أنه لارب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذى لاشك فيه وهكذا قال قتادة اهـ.

قال ناصر السعدى[3]: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أى: أشباهاً ونظراء من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبونه، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مدبرون، لايملكون مثقال ذرةٍ فى الأرض ولا فى السماء، ولا ينفعونكم، ولايضرون ا.هـ.

قال صاحب الظلال[4]: والأنداد التى يشدد القرآن فى النهى عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة، قد لاتكون آلهةً تعبد مع الله على النحو الساذج الذى كان يزاوله المشركون. فقد تكون الأنداد فى صور أخرى خفية. قد تكون فى تعليق الرجاء بغير

---

(١) التفسير الكبير ١/٢/١٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٠.

(٤) الظلال ١/٤٨.

الله فى أى صورة، وفى الخوف من غير الله فى أى صورة. وفى الإعتقاد بنفع أو ضر فى غير الله فى أى صورة.

عن ابن عباس قال: «**الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل. وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتى.. ويقول: لولا كلبة هذا لأتانى اللصوص البارحة. ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت! وقول الرجل: لولا الله وفلان. هذا كله به شرك**»[1] وفى الحديث أن رجلا قال لرسول الله ﷺ ما شاء الله وشئت قال: «**أجعلتنى لله نداً**»[2]!

هكذا كان سلف هذه الأمة ينظر إلى الشرك الخفى والأنداد مع الله.. فلننظر نحن أين نحن من هذه الحساسية المرهفة، وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة!!! اهـ.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الإعراب[3]: **﴿وَأَنتُمْ﴾** الواو حالية وأنتم ضمير منفصل فى محل رفع مبتدأ **﴿تَعْلَمُونَ﴾** فعل مضارع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل والجملة الفعلية فى محل رفع خبر أنتم والجملة الإسمية فى موضع نصب على الحال اهـ.

قال ابن عثيمين[4]: قوله **﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** الجملة فى موضع نصب حال من فاعل **﴿تَجْعَلُوا﴾**، أى: والحال أنكم تعلمون اهـ.

فائدة لغوية: إذا تقدَّم النعت على المنعوت أُعرب حالاً وساغ لذلك أن يكون صاحب الحال نكرة مع أنه محكوم عليه أن يكون معرفة لأن الحكم على المجهول لا يفيد فى الغالب.

● التفسير بالمأثور

أولاً: من السنة

ففى مسند أحمد عن الحارث الأشعرى أن نبى الله ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السَّلام بخمس كلمات: أن يَعْمَل بهِنَّ، وأن يَأْمُر بَنى إسرائيل أن يَعْمَلُوا بهِنَّ، وأنَّه كاد أن يُبطِىء بها. فقال له عيسى عليه السَّلام: إنَّ الله أَشركَ بخمس كلماتٍ**

(١) انظر تخريجه فى هذا الباب، وكتابنا «فتح ذى الجلال».
(٢) تقدم تخريجه. (٣) إعراب القرآن ١/ ٥٤. (٤) القول المفيد ٢/ ٣٨٥.

أن تَعْمَلَ بِهذّه، وتأمُرَ بنى إسرائيل أن يعملوا بِهنّ فإما تُبَلِّغهُن، وإمَّا أن أبَلِّغهُن، فقال: يا أخِي إنِّى أَخْشَىٰ إن سَبقْتَنِى أنْ أُعذَّب أو يُخْسَفَ بـى. قال: فجمع يَحْيَىٰ بـن زكريا بَنِي إسرائيل فى بَيت المَقْـدس، حتى امتلأ المَسْجد وقُعد على الشّرف. فـحمد الله وأثْنَى عليه، ثم قال: إن الله أمَرَنِى بِخَمْسِ كَلِمَاتِ: أن أعْمَلَ بِهِنَّ، وآمُركم أن تَعْمَلُوا بِهِنَّ.

أولاهن: أن تَعْبُدوا الله ولا تُشْرِكُوا به شيئاً: فإنَّ مثل ذلك كَمَثَل رَجُلٍ اشْتَرَىٰ عَبْداً من خَالِص مَاله بِـذَهَبٍ أو وَرِق، فجعل يَعْمَل ويُؤَدِّى غَـلَّته إلى غير سيِّده، فـأيُّكم يَسُرُّه أن يكون عَبْده كذلك؟ وإنَّ الله خَلَقَكُم وَرَزَقكُم، فاعْبُدُوه ولا تُشْرِكُوا به شيئاً.

وآمُرُكـم بالصَّلاة: فـإن الله ينصب وَجْـهه لِوجه عَـبْده مالم يَـلْتَفت، فـإذا صَلَّيتـم فلا تَلْتَفِتُوا.

وآمُرُكُم بالصِّيام: فإنَّ مثل ذلك كمثل رَجُلٍ مَعه صُرَّة من مسك فى عصَابة كلهم يَجِدُ رِيح المِسْك. وإنَّ خلُوف فم الصَّائم أطْيبُ عند الله من ريح المِسْك.

وآمُرُكم بـالصَّدقة: فـإن مثل ذلك كـمثل رجل أسَـرَهُ العدو فَشَـدُّوا يديه إلى عـنقه، وقدَّموه لِيَضْرِبوا عُنُقه، فقال لهم: هل لكم أن أفْتَدِى نفسى منكم؟ فجعل يَفْتَدى بالقليل والكثير حتى فَكَّ نَفْسه.

وآمُرُكم بِذِكْرِ الله كَثِيـرا: فإنَّ مثل ذلك كمثل رَجُلٍ طَلَبه العَـدُو سِرَاعاً فى أثره، فأتى حِصْناً حَصِينا فَتَحصَّنَ فيه، وإن العبد أحْصَنُ ما يكون من الشَّيطان إذا كان فى ذِكْرِ الله.

قال: قـال رسول الله ﷺ: وأنا آمُرُكُم بخَـمْسٍ، الله أمرنى بِهِنَّ: الجَمَاعـة، والسَّمع، والطَّاعة، والهِـجْرة، والجِهادُ فى سَبِيل الله: فإنَّه مـن خرج من الجَمَاعة قِيْدَ شِبْـرٍ فقد خَلَع رِبْقة الإسْلام من عُنُقه إلا أن يراجع، ومن دَعَا بدعوى الجَاهلية فهو من جُثّى جَهَنَّم. قالوا: يَا رَسُولَ الله وإنْ صلَّى وَصَام فـقال: وإن صَلَّى وصَامَ، وَزَعَم أنَّه مُسْلِم، فادعـوا المسلمين بأسمائهم التى سَمَّاهم الله عزوجل: المُسْلمين المُؤْمنين، عِبادَ الله»(١).

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٣٠)، والترمذى (٢٨٦٣) عن الحارث به.
وانظر «فتح المجيد» (ح٧٦٣) بتخريجنا

وهذا حديث حَسَنٌ، والشَّاهد منه فى هذه الآية قوله: «إنَّ الله خلقكم ورزَقكُم فاعبُدوه ولا تُشْركُوا به شيئاً»[1] اهـ.

ثانياً: من أقوال الصحابة والتابعين

وروى الطبرى عن ابن عباس قال نزل ذلك فى الفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين.

وروى أيضاً عن مجاهد فلاتجعلوا الله أنداداً وأنتم تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل[2].

وعنه أيضاً وأنتم تعلمون يقول وأنتم تعلمون أنه لا ند له فى التوراة والإنجيل أ.هـ.

ثالثاً: أقوال أهل التفسير

قال الطبرى[3]: اختلف أهل التأويل فى الذين عنوا بهذه الآية فقال بعضهم عنى بها جميع المشركين من مشركى العرب وأهل الكتاب وقال بعضهم عنى بذلك أهل الكتابين التوراة والإنجيل.

ثم قال: وأحسب أن الذى دعا مجاهد إلى هذا التأويل وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لزهل التوراة والإنجيل دون غيرهم، الظن منه بالعرب أنها لم تكره تعلم أن الله خالقها ورازقها بجحودها وحدانية ربها وإشراكها معه فى العبادة غيره وإنَّ ذلك لقول ولكنَّ الله ـ جلّ ثناؤه ـ قد أخبر فى كتابه عنها أنها كانت تقرُّ بوحدانيته غير أنها كانت تشرك فى عبادته ما كانت تشرك فيها فقال ـ جلَّ ثناؤه ـ **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** وقال **﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾** فالذى هو أولى بتأويل قوله **وأنتم تعلمون** إذ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله وأنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم نظير الذى كان من ذلك عند أهل الكتابين ولم يكن فى الآية دلالة على أنَّ الله جلَّ ثناؤه ـ عنى بقوله **وأنتم تعلمون** أحد الحزبين بل خرج الخطاب بذلك عام للناس كافة لهم لأنه تحدى الناس كلهم بقوله **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾** أن يكون تأويله ما قاله ابن عباس وقتادة من أنه يعنى بذلك كلَّ مكلَّف عالم

---

(١) فتح المجيد (٢/ ٥٧٢ ـ ٥٧٤).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٧٧) ونسبه لوكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير.

(٣) تفسير الطبرى ١/ ١٢٧.

بوحدانية الله وأنه لا شريك لـه في خلقه يشرك معه في عبادته غيـره كائناً من كان من الناس عربيـاً كان أو أعجمياً كـاتباً أو أميّاً وإن كان الخـطاب لكفار أهل الكـتاب الذين كانوا حوالي دار هجرة رسـول الله ﷺ وأهل النفاق منهم وممن بين ظهـرانيهم ممن كان مشركاً فانتقل إلى النفاق بمقدم رسول الله ﷺ اهـ.

قال البغوي[1]: قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه واحد خالق هذه الأشياء ا.هـ.

قال ابن الجوزي[2]: قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه ستة أقوال:

أحدها: وأنتـم تعلمـون أنه خلـق السماء، وأنـزل الماء، وفعـل ما شرحه فـي هذه الآيات، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس وقتادة ومقاتل.

والثاني: وأنتم تـعلمون أنه لـيس ذلك في كتابـكم التوراة والإنجيـل، روى عن ابن عباس أيضاً، وهو يخرج على قول من قال: الخطاب لأهل الكتاب.

والثالث: وأنتم تعلمون أنه لاند له، قاله مجاهد.

والرابع: أن العلم هاهنا بمعنى العقل، قاله ابن قتيبة.

الخامس: وأنتم تعلمون أنه لايقدر على فعل ما ذكره أحد سواه. ذكره شيخنا على بن عبيدالله.

والسادس:وأنتم تعلمون أنها حجارة ، سمعته من الشيخ أبي محمد بن الخشاب أهـ.

قال الرازي[3]: معناه إنكم لكمال عقولكم تـعلمون أنَّ هذه الأشياء لايصح جعلها أنداداً لله تعالى، فلا تقولوا ذلك فإنَّ القول القبيح ممن علم قبحه يكون أقبح. اهـ.

قال ناصر السعدي[4]: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريـك، ولانظير، لافي الخلق، والرزق، والتدبير ولا في الألوهية والكمال.

فكيف تعبدون مـعه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعـجب العجب، وأسفه السفـه. وهذه الآية، جمعت بـين الأمر بعبادة الله وحـده، والنهي عن عبـادة ما سواه، وبيان الـدليل البـاهر على وجـوب عبادته، وبـطلان عبادة مـا سواه، وهو ذكر تـوحيد الربوبية، المتضمن انفراده بالخلق والرزق والـتدبير فإن كان كلٌ واحد، مقراً بأنه ليس له

(١) معالم التنزيل ١/ ٥٢.
(٢) زاد المسير ١/ ٤٢.
(٣) التفسير الكبير ١/ ٢/ ١٢٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٠.

شريك بذلك، فكذلك فليكن الإقرار بأنَّ الله ليس له شريك فى عبادته وهذا أوضح دليل عقلى، على وحدانية البارى تعالى، وبطلان، الشرك أهـ.

ـ إشكال وجوابه:

قال القرطبى(١): فإن قيل كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الختم والطبع والصمم والعمى؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: وأنتم تعلمون، يريد العلم الخاص بأنَّ الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبت الرزق، فيعلمون أنه المنعم عليهم دون الأنداد.

الثانى: أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم، والله أعلم. وفى هذا دليل على الأمر بإستعمال حجج العقول، وإبطال التقليد، وقال ابن فورَك: يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين؛ فالمعنى لاترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أنداداً بعد علمكم الذى هو نفى الجهل بأنَّ الله واحد أهـ.

ـ فائدة جليلة:

قال ناصر السعدى(٢): حذف المتعلَّق المعمول فيه: يفيد تعميم المعنى المناسب له.

وهذه قاعدة مفيدة جداً. متى اعتبرها الإنسان فى الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة. وذلك أن الفعل وما هو فى معناه متى قيد بشىء تقيد به. فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المتعلق كان القصد من ذلك التعميم. ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيراً من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعانى النافعةولذلك أمثلة كثيرة جداً:

منها: أنه قال فى عدة آيات:

﴿لَعَلَّكُمْ تعْقِلُونَ﴾(٣).

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٤).

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٥).

---

(١) تفسير القرطبى ١/١٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٥/٤٩٦.

(٣) النور: ٦١.

(٤) الأنعام: ١٥٢.

(٥) البقرة: ٢١.

وقَالَ ابْنُ عَبَّـاسٍ فِى الآيَةِ: «الأنْداد هُوَ الشِّرْكُ، أَخْـفَى مِنْ دَبِيبِ النَّـمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَـوْدَاءَ فِى ظُلْمَةِ الـلَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: والله، وحـياتك يَا فُلاَنُ، وَحَـيَاتِى، وَتَـقُولَ: لَـوْلاَ كُلَـيْبَـةُ هَذاَ؛ لأَتَـانَا الـلُّصُـوصُ، وَلوْلاَ الـبَطُّ فـى الدَّارِ، لأَتَـى

فيـدل ذلك علـى أن المراد لعلـكم تعـقلون عـن الله كلَّ ما أرشدكـم إليه وكـل ما علمكـموه، وكل ما أنزل عليـكم من الكتاب والحكمـة، ولعلكم تذكرون، فـلا تنسون ولاتغفلون، فـتكونون دائماً متيقظـين مرهفى الحواس، تحسون كل مـا تمرون به سنة الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية. ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه من الغفلة والجهل والـتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فـيه من جميع الذنوب والمعاصى، يدخل فى ذلـك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفـراد هذا المعنى العام ولهذا كان قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

يفيد كل ما قيل فى حكمة الصيام، أى لعلـكم تتقون المحارم عموماً، ولعلكم تتقون ما حرّم الله على الصائمين من قول الزور والعمل به، ومن كل الأحوال والصفات السيئة الخبيـثة، وتتقون وتـتجنبـون المفطرات والممـنوعات، ولعلـكم تتصـفون بصفة الـتقوى وتحصلون على كل ما يقيكم مما تكرهون، وتتـخلقون بأخلاقها. وهكذا سائر ما ذكر فيه هذه اللفظة مثل قوله: [هدى للمتقين]... ثم قال: وهذا شىء كثير لو ذهبنا نذكر الأمثلة عليه لطالت ولكن قد فتح لك الباب، فامشى على هذا السبيل المفضى إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم اهـ.

وبنحو من هـذه القاعدة قال سليمـان آل الشيخ[٢]: ومعنى الآيـة أن الله تبارك وتعالى نهىّ الناس أن يجعلوا لله أنداداً أى: أمثالاً فى العبادة والطاعة، وهم يعلمون أن الذى فعل تلك الأفعال فهو ربهم وخالقـهم. وخالق من قبلهم، وجاعل الأرض فراشاً، والسماء بنـاء، والذى أنزل من السماء ماء فـأخرج به من أنواع الثمرات رزقـاً لهم. فإذا كنتم تعلمون ذلك فلاتجعلوا لله أنداداً أهـ.

قوله: وقال ابن عبَّاس فى الآية: الأنداد هو الشرك..

● مناسبة الأثر للباب وللتوحيد:

---

(١) البقرة: ١٨٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٤١.

اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ : مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ : لَوْلاَ اللهُ وَفُلاَنٌ، لاَ تَجْعَلْ فِيهَا فُلاَنًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ».

رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ(١).

ـ **قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢)**: بيَّن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذا كله من الشركِ، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لايعرف التَّوْحيد ولاَ الشِّرك. فَتَنَبَّه لهذه الأمور. فإنَّها من المنكر العظيم الذى يَجِبُ النَّهى عنه والتَّغْليظ فيه، لكونه من أكبر الكبائر وهذا من ابن عباس رضى الله عنهما تَنْبِيهٌ بالأدنى من الشِّرك على الأعلى اهـ.

ـ **وقال القرعاوى(٣)**: حيث دل الأثر على أن ابن عباس يرى أن من الشرك الخفى القسم بغير الله، كقولك: وحياتك، وكذا تعليق نفع على فعل مخلوق كقولك: لولا الحارس لأتانا اللصوص، وكذلك تعليق نفع على فعل الله، ومعه غيره كقولك لولا الله وفلان لاحترق المنزل اهـ.

● **شرح الأثر:**

قوله: [عن ابن عباس فى الآية...] إلخ

أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» قال: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم الضحاك بن مخلد، حدثنى أبو عمر، حدثنى أبو عاصم، أبنأ شبيب بن بشر، ثنا عكرمة، عن ابن عباس عن الأثر وسبق أن تكلمنا على شبيب بن بشر هذا فى اثر ابن عباس فى ذكر الكبائر.

قوله [قال ابن عباس] تقدمت ترجمته.

قوله: [فى الأنداد] تقدم تفسير الأنداد من أقوال المفسرين.

قوله: [الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل].

ـ **قال سليمان آل الشيخ(٤)**: قوله: هو الشرك أخفى من دبيب النمل إلى آخره أى: إن هذه الأمور من الشرك خفية فى الناس، لايكاد يتفطن لها ولا يعرفها إلا القليل، وضرب المثل لخفائها بما هو أخفى شىء وهو أثر النمل، فإنه خفى. فكيف إذا

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١/ ٩٢/ ٢٢٩) بتخريجنا.

وأنظر «فتح المجيد» (ح٧٦٤) بتخريجنا

(٢) فتح المجيد (٢/ ٥٧٥).

(٣) الجديد (٣٦٥).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤٤٢).

كان على صفاة؟[1] فكيف إذا كانت سوداء، فيكف إذا كانت فى ظلمة الليل؟ وهذا يدل على شدة خفائه على من يدعى الإسلام، وعسر التخلص منه، ولهذا جاء فى حديث أبى موسى قال: خَطَبَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، فَقَالَ لَهُ ما شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دبيب النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا نَعْلَمُهُ» رواه أحمد والطبرانى[2].

وقال ابن عثيمين[3]: قوله: **«وقال ابن عباس فى الآية»**.

أى: فى تفسيرها.

قوله: **«هو الشرك»**.

هذا تفسير بالمراد؛ لأن التفسير تفسيران:

١ـ تفسير بالمراد، وهو المقصود بسياق الجملة بقطع النظر عن مفرادتها.

٢ـ تفسير بالمعنى، وهو الذى يسمى تفسير الكلمات، فعندنا الآن وجهان للتفسير.

أحدهما: التفسير اللفظى وهو تفسير الكلمات، وهذا يقال فيه: معناه كذا وكذا.

والثانى: التفسير بالمراد، فيقال: المراد بكذا وكذا، والأخير هنا هو المراد.

فإذا قلنا: الأنداد الأشباه والنظراء؛ فهو تفسير بالمعنى، وإذا قلنا: الأنداد الشركاء أو الشرك؛ فهو تفسير بالمراد، يقول رضى الله عنه: «الأنداد هو الشرك»، فإذاً الند الشريك المشارك لله ـ سبحانه وتعالى ـ فيما يختص به.

قوله: **«دبيب»**.

أى: أثر دبيب النمل، وليس فعل النمل.

قوله: **«على صفاة»**.

هى الصخرة الملساء.

قلت: الصلد الضخم لا يُنْبِت كما فى القاموس

قوله: **«سوداء»**.

وليس على بيضاء؛ إذ لو كان على بيضاء؛ لبان أثر السير أكثر.

(١) الصَّفَاة: الحَجَرُ الصَّلْدُ الضخم لا يُنْبِتُ. (القاموس).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) القول المفيد (٢/ ٣٨٥: ٣٨٧).

قوله: «في ظلمة الليل».

وهذا أبلغ ما يكون في الخفاء.

فإذا كان الشرك في قلوب بني آدم أخفى من هـذا؛ فنسأل الله أن يعين على التخلص منه، ولهذا قال بعض السلف: «ما عالجت نفسي معالجتها على الإخلاص»، ويروى عن النبي ﷺ أنه لما قال مثل هذا؛ قيل له: كيف نتخلص منه؟ قال: **«قولوا: اللهم! إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»**[1].

قوله: [وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان].

ـ **قال سليمان آل الشيخ**[2]: قوله: وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلانة. وحياتي أي: إن من الحلف بغير الله، الحلف بحياة المخلوق وسيأتي الكلام عليه اهـ.

ـ **وقال ابن عثيمين**[3]: قوله: **«والله وحياتك»**.

فيها نوعان من الشرك:

الأول: الحلف بغير الله.

الثاني: الإشراك مع الله بقوله: والله! وحياتك! فضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية فيها نوع من الشرك، والقسمُ بغير الله إن اعتقد الحالف أن المُقْسم به بمنزلة الله في العظمة؛ فهو شرك أكبر، وإلا؛ فهو شرك أصغر.

قوله: **«وحياتي»**.

فيه حلف بغير الله؛ فهو شرك اهـ.

قوله: [وتقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص].

قال سليمان آل الشيخ[4]: أي: السراق. والمعنى إن من الشرك نسبة عدم السرقة إلى الكلبة التي إذا رأت السراق نبحتهم، فاستيقظ أهلها وهرب السراق. وربما امتنعوا من إتيان المحل الذي هي فيه خوفاً من نباحها؛ فيعلم بهم أهلها كما روى بن أبي الدنيا «في الصمت» عن ابن عباس قال: إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه يقول: لولاه لسرقنا الليلة اهـ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٤٢).

(٣) القول المفيد (٢/٣٨٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤٤٢، ٤٤٣).

ـ **وقال ابن عثيمين**[1]: كليبة تصغير كلب، والكلب ينتفع به للصيد وحراسة الماشية والحرث.

وقوله: **«لولا كليبة هذا»** يكون فيه شرك إذا نظر إلى السبب دون المسبب، وهو الله ـ عزوجل ـ، أما الاعتماد على السبب الشرعى أو الحسى المعلوم؛ فقد تقدم أنه لابأس به، وأن النبى ﷺ قال: **«لولا أنا؛ لكان فى الدرك الأسفل من النار»**(*) لكن قد يقع فى قلب الإنسان إذا قال: لولا كذا لحصل كذا أو ما كان كذا، قد يقع فى قلبه من الشرك بالاعتماد على السبب بدون نظر إلى المُسَبِّب، وهو الله ـ عزوجل ـ اهـ.

قوله: [ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص].

قال سليمان آل الشيخ[2]: البط بفتح الموحدة طائر معروف يتخذ فى البيوت، وإذا دخلها غريب صاح واستنكره، وهو الأوز بكسر الهمزة وفتح الواو ومعناها كالذى قبله. والواجب نسبة ذلك إلى الله تعالى، فهو الذى يحفظ عباده ويكلؤهم بالليل والنهار كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ**﴾ اهـ. قلت: وكما قال تعالى أيضاً: والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين» اهـ

ـ **وقال ابن عثيمين**[3]: البَطُّ طائر معروف، وإذا دخل اللص البيت وفيه بط، فإنه يصرخ، فينتبه أهل البيت ثم يجتنبه اللصوص اهـ.

قوله: [وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت] سيأتى الكلام عليها إن شاء الله. فى باب مستقل بعد القادم.

وقال ابن عثيمين[4]: فيه شرك؛ لأنه شرك غير الله مع الله بالواو، فإن اعتقد أنه يساوى الله ـ عزوجل ـ فى التدبير والمشيئة؛ فهو شرك أكبر، وإن لم يعتقد ذلك واعتقد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فوق كل شيء؛ فهو شرك أصغر، وكذلك قوله: **«لولا الله وفلان»**. اهـ.

---

(١) القول المفيد (٢/٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٤٢، ٤٤٣).

(٣) القول المفيد (٢/٣٨٨، ٣٨٩).

(*) تقدم تخريجه.

(٤) القول المفيد (٢/٣٨٩).

وَعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رَضِىَ اللهُ عَنْـهُ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: مَنْ حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَدْ كَفر أَو أَشْرَكَ» رواهُ التِّرمِذِيُّ وَحَسَّنَه، وَصَحَّحَهُ الحَاكِم[1].

قوله: [وقول الرجل: لولا الله وفلان، لاتجعل فيها فلان].

قال سليمان آل الشيخ[2]: هكذا ثبت بخط المصنف بـلا تنوين، والمعنى: لاتجعل فيهـا أى فى هذه الكلـمة فلان فتـقول: لولا الله وفلان، بل قـل: لولا الله وحده، ولا تقل: لولا الله وفلان فهو نهى عن ذلك. اهـ.

قوله: «هذا كله شرك».

قال سليمان آل الشيخ[3]: قوله: هذا كله به. أى: بالله شرك، وأعاد الضمير على الله؛ لأنه قد تقدم ذكر اسمه عَزَّوجلَّ، فتبين أن هذه الأمور ونحوها من الألفاظ الشركية الخفية كما نص عليه ابن عباس رضى الله عنه. اهـ.

وقال ابن عثيمين[4]: (شرك) المشار إليه ما سبق، وهو شرْك أكبر أو أصغر حسب ما يكون فى قلب الشخص من نوع هذا التشريك. اهـ.

قوله: وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ. قال: من حلف.... الحديث.

قال سليمان آل الشيخ[5]: قوله: [عن عمر بن الخطـاب] هكذا وقع فى الكتاب، وصوابه عن ابن عمر كذلك أخرجه أحـمد، وأبو داود، والترمذى، والحاكم. وصححه ابن حبان. وقال الزين العراقى فى «أماليه» إسناده ثقات. اهـ.

قلت: قول العراقى: إسناده ثقات لايلزم منه صحه الحديث كما هو معروف عند أهل هذا الشأن وإليك التفصيل

---

(١) [ضعيف بهذا اللفظ] أخرجه أحمد فى «مسنـده» (٢/ ٣٤، ٦٩)، وأبو داود فى الأيمان والنذور / باب فى كراهيـة الحلف بالآباء (٣/٢١٩/ ٣٢٥١)، والترمذى فـى النذور والأيمان/ باب فى كراهيـة الحلف بغـير الله (٤/ ١١٠/ ١٥٣٥) والحـاكم فـى «المسـتدرك» (١/ ١٨)، (٤/ ٢٩٧)، والبـيهـقى فـى «الكـبرى» (١٠/ ٢٩).

من طريق سعد بن عبيدة أن عبد الله بن عمر - فذكره.

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

قال البيهقى: وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من ابن عمر.

وانظر الكلام عليه فى «منار السبيل» (٢٧٥٩ - بتخريجنا) الطبعة الأولى.

وانظر «فتح المجيد» (ح٧٦٥) بتخريجنا

(٢) (٣) تيسير العزيز الحميد (٤٤٣ : ٤٤٦).

(٤) القول المفيد (٢/ ٣٨٩)

(٥) تيسير العزيز الحميد (٤٤٣:٤٤٦)

لفظ الترمذى: حدثنا قتيبة، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن الحسن بن عبيد الله، عن سعد بن عبيدة أن ابن عمر سمع رجلاً يقول: لا والكعبة فقال ابن عمر: لايحُلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

قال البيهقى فى «سننه الكبرى»[1] بعد أن ذكر هذا الحديث: وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من ابن عمر. ثم أورد الحديث من طريق الإمام أحمد[2] قال: ثنا محمد ابن جعفر، ثنا شعبة، عن منصور، عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند عبد الله بن عمر - رضى الله عنها - فقمت وتركت رجلاً عنده من كندة فأتيت سعيد بن المسيب قال: فجاء الكندى فزعاً فقال: جاء ابن عمر رجل فقال: أحلف بالكعبة؟ قال: لا ولكن أحلف برب الكعبة فإن عمر كان يحلف بأبيه فقال رسول الله ﷺ: لاتحلف بأبيك فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك.

فهذا حجة البيهقى فى انقطاع الحديث حيث أن الذى حدث سعد بن عبيدة بهذا الحديث عن ابن عمر هو الرجل الذى كان جالساً عنده وهو رجل من كندة.

ووافق شعبة على هذه الرواية أيضاً شيبان بن عبد الرحمن التيمى.

فقد أخرجه أحمد فى «مسنده»[3] قال: ثنا حسين بن محمد، ثنا شيبان، عن منصور، عن سعد بن عبيدة قال: جلست أنا ومحمد الكندى إلى عبد الله بن عمر ثم قمت من عنده فجلست إلى سعيد بن المسيب قال: فجاء صاحبى وقد اصفر وجهه وتغير لونه فقال: قم إلىَّ قلت: ألم أكن جالساً معك الساعة فقال سعيد: قم إلى صاحبك. قال: فقمت إليه فقال: ألم تسمع إلى ما قال ابن عمر؟ قلت: وما قال. قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن أعلىّ جناح أن أحلف بالكعبة؟ قال: ولم تحلف بالكعبة إذا حلفت بالكعبة فاحلف برب الكعبة فإن عمر كان إذا حلف قال: كلا وأبى فحلف بها يوماً عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: لا تحلف بأبيك ولا بغير الله فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك». وفى هذه الرواية تسمية الرجل المبهم وهو: محمد الكندى.

فهذان ثقتان جليلان اتفقا على رواية الحديث بانقطاع بين سعد بن عبيدة، وابن عمر.

فشعبه علم غنى عن التعريف وشيبان بن عبد الرحمن التيمى قال عنه أحمد: شيبان صاحب كتاب صحيح وقال أيضاً: شيبان ثبت فى كل المشايخ وقال ابن معين: ثقة وهو

(١) (١٠/٢٩).

(٢) المسند (٢/١٢٥).

(٣) «المستدرك» (٢/٦٩).

صاحب كتاب[1] أما الحسن بن عبيد الله صاحب الرواية المتصلة فهو ثقة أيضاً فقد وثقة ابن معين، والعجلى، وأبو حاتم، والنسائى، وضعفه الدارقطنى بالنسبة للأعمش[2].

إلا أنه روى ابن أبى شيبة فى «مصنفه»[3]، وأحمد فى «مسنده»[4] كلاهما عن وكيع، ثنا الأعمش، عن سعد بن عبيدة قال: كنت مع ابن عمر فى حلقة فسمع رجلاً فى حلقة أخرى وهو يقول: لا وأبى فرماه ابن عمر بالحصى وقال: انها كانت يمين عمر فنهاه النبى ﷺ عنها وقال: «إنها شرك» واللفظ لأحمد. وفى رواية ابن أبى شيبة: قال ابن عمر: «إنها كانت يمينى فنهانى النبى ﷺ وقال: «إنها شرك».

فرواية الأعمش هنا متصلة ورواية منصور بن المعتمر السابقة فيها انقطاع عند الترجيح يقدم رواية منصور.

قال ابن أبى خيثمة: سمعت يحيى بن معين وأبى حاضر يقول: إذا اجتمع منصور والأعمش فقدم منصوراً.

وقال ابن أبى حاتم: سُئل أبى عن الأعمش ومنصور فقال: الأعمش حافظ يخلط ويدلس ومنصور آتقن لايخلط ولايُدلس[5].

وقال على بن المدينى: سمعت يحيى بن سعيد يقول: قال سفيان: كنت لا أحدث الأعمش عن أحد من أهل الكوفة إلا رده فإذا قلت: منصور، سكت[5].

فلعل الأعمش أخذه من الحسن بن عبيد الله صاحب الرواية الأولى ودلسه عنه أو عن غيره خاصة وأنه لم يصرح بالتحديث فعاد مدار الحديث على روايتين رواية الحسن بن عبيد الله ورواية منصور التى تابعه عليها شيبان بن عبد الرحمن التيمى.

ولايقول ان الاتصال فى رواية الحسن بن عبيد الله زيادة من ثقة وزيادة الثقة مقبولة لأن هذا القول ليس على إطلاقه فالحسن بن عبيد الله ليس فى الثقة والاتقان كمثل منصور وشيبان وكلاهما من الاتقان بمكان وقد اثنى الأئمة على شيبان وصحة كتابه وتثبته فى روايته عن شيوخة فقبول زيادة الحسن بن عبيد الله على ذلك فيها نظر والله أعلم وهذا باب كبير من علم علل الحديث قل من يفطن إليه فانتبه رحمنى الله وإياك.

أما الواسطة المذكورة فى حديث منصور وشيبان وهو محمد الكندى فقد نص أبو حاتم فى «الجمع والتعديل» لابنه بجهالته

قلت: وقد حسنه الألبانى ـ حفظه الله ـ بحديث رواه أحمد فى «مسنده» من طريق

---

(١) ترجمته فى «تهذيب الكمال» (١٢/ ٥٩٢).

(٢) انظر ترجمته فى «تهذيب الكمال». (٦/ ١٠٢).

(٣) (٣/ ٤٨٠). (٤) (٢/ ٨٥).

(٥) انظر ترجمته فى «تهذيب الكمال» (٢٨/ ٥٤٩ - ٥٥٤).

سالم، عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ من حلف بغير الله، فقال فيه قولاً شديداً.

قال الألباني: كأنه يشير إلى قوله: «فقد أشرك». والله أعلم.(١). اهـ

وهذا القول يحتمل أن يكون: «فقد أشرك» ويحتمل أن يكون سباً وهذا هو الأقرب لأنهم لايبهمون عن النبي ﷺ إلا مثل هذا وإن كان المقصود فقد أشرك» لصرح به الراوي كما صرح به في أحاديث أخرى وعلي أية حال فبالاحتمال يسقط الاستدلال، ويبقى أن الأصل النهي عن الحلف بغير الله وهو ثابت عن النبي ﷺ أما لفظ: «فقد أشرك» فلا يثبت من حيث اللفظ وإن كانت ثابتة من حيث المعنى لأثر ابن مسعود ولغيره على ما فصل الشراح لهذا الحديث وغيره والله أعلم.

قوله: [من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك].

قال سليمان آل الشيخ(٢): قال بعضهم ما معناه: رواه الترمذي بأو التي للشك، وفي ابن حبان والحاكم عدمها. وفي رواية للحاكم «**كل يمين يحلف بها دون الله شرك**». اهـ.

وقال ابن باز: على شك الراوي: والمعنى واحد أهـ.

مناسبة ورود الأثر:

قال ابن حجر(٣): أخرج الترمذي من وجه آخر «عن ابن **عمر أنه** سمع رجلاً يقول لا والكعبة، فقال: لاتحلف بغير الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك**» قال الترمذي حسن وصححه الحاكم، والتعبير بقوله فقد كفر أو أشرك للمبالغة في الزجر والتغليظ في ذلك، وقد تمسك به من قال بتحريم ذلك. اهـ.

● أنواع الأيمان، وحكم الحلف بغير الله

قال ابن تيمية(٤): أن اليمين تشتمل على جملتين: **جملة مقسم بها، وجملة مقسم عليها**، ومسائل الأيمان إما في حكم المحلوف به، وإما في حكم المحلوف عليه، فأما المحلوف به فالأيمان التي يحلف بها المسلمون مما قد يلزم بها حكم «**ستة أنواع**» ليس لها سابع.

أحدها: اليمين بالله، وما في معناها مما فيه التزام كفر على تقدير الخبر كقوله هو يهودي أو نصراني إن فعل كذا. على ما فيه من الخلاف بين الفقهاء.

---

(١) الإرواء (٨/ ١٩١)

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٤٧)

(٣) فتح الباري (١١/ ٥٤٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٩٠).

الثاني: اليمين بالنذر الذى يسمى «نذر اللجاج والغضب» كقوله على الحج لا أفعل كذا، أو إن فعلت كذا فعلى الحج، أو مالى صدقة إن فعلت كذا، ونحو ذلك.

الثالث: اليمين بالطلاق.

الرابع: اليمين بالعتاق.

الخامس: اليمين بالحرام، كقوله على الحرام لا أفعل كذا.

السادس: الظهار: كقوله: أنت على كظهر أمى إن فعلت كذا فهذا مجموع ما يحلف به المسلمون مما فيه حكم.

فأما «**الحلف بالمخلوقات**] كالحلف بالكعبة، أو قبر الشيخ، أو بنعمة السلطان. أو بالسيف. أو بجاه أحد من المخلوقين: فما أعلم بين العلماء خلافا أن هذه اليمين مكروهة منهى عنها، وأن الحلف بها لايوجب حنثا. ولا كفارة. وهل الحلف بها محرم. أو مكروه كراهة تنزيه؟ فيه قولان فى مذهب أحمد وغيره: أصحهما أنه محرم أهـ.

وقوله: [فقد كفر أو أشرك]

قال سليمان آل الشيخ(1): أخذ به طائفة من العلماء فقالوا: يكفر من حلف بغير الله كفر شرك، قالوا ولهذا أمره النبى ﷺ بتجديد إسلامه بقول: لا إله إلا الله. فلولا أنه كفر ينقل عن الملة لم يؤمر بذلك وقال الجمهور: لايكفر كفراً ينقله عن الملة، لكنه من الشرك الأصغر كما نص على ذلك ابن عباس وغيره. وأما كونه أمر من حلف باللات والعزى أن يقول: لا إله إلا الله؛ فلأن هذا كفارة له مع استغفاره.

- كما قال فى الحديث الصحيح: «**مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فى حَلفه: وَااللاَّت وَالعُزَّىٰ فَلْيَقُلْ: لاَ إِلَـهَ إِلا الله**»(2) **وفى رواية «فَلْيَسْتَغْفر»** فهذا كفارة له فى كونه تعاطى صورة تعظيم الصنم، حيث حلف به لا أنه لتجديد إسلامه ولو قدر ذلك فهو تجديد لإسلامه لنقصه بذلك لا لكفره لكن الذى يفعله عباد القبور إذا طلبت من أحدهم اليمين بالله، أعطاك ما شئت من الإيمان صادقاً أو كاذباً. فإذا طلبت منه اليمين بالشيخ أو تربته أو حياته. ونحو ذلك، لم يقدم على اليمين به إن كان كاذباً. فهذا شرك أكبر بلا ريب؛ لأن المحلوف به عنده أخوف وأجل وأعظم من الله. وهذا ما بلغ إليه شرك عباد الأصنام؛ لأن جهد اليمين عندهم هو الحلف بالله كما قال تعالى: ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت**﴾ فمن كان جهد يمينه الحلف بالشيخ أو بحياته، أو بتربته فهو أكبر شركاً منهم، فهذا هو تفصيل القول فى هذه المسألة، والحديث دليل على أنه لاتجب الكفارة بالحلف بغير الله مطلقاً؛ لأنه لم يذكر فيه كفارة للحلف بغير الله ولا فى غيره من الأحاديث، فليس فيه كفارة إلا النطق بكلمة التوحيد، والاستغفار. وقال بعض المتأخرين: تجب الكفارة بالحلف برسول الله ﷺ خاصة، وهذا قول باطل ما أنزل الله به من سلطان، فلا يلتفت إليه وجوابه المنع. اهـ.

(1) تيسير العزيز الحميد (٤٤٦، ٤٤٧).

(2) تقدم تخريجه.

وقال ابن عثيمين[1]: قوله فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما: «من حلف بغير الله».

«من»: شرطية؛ فتكون للعموم.

قوله: «أو أشرك».

شك من الراوى، والظاهر أن صواب الحديث «أشرك».

قوله: «بغير الله».

ليس المراد بغير هذا الاسم، بل المراد بغير المُسَمَّى بهذا الاسم، فإذا حلف بالله أو بالرحمن أو بالسميع؛ فهو حلف بالله.

والحلف: تأكيد الشىء بذكر مُعَظَّم بصيغة مخصوصة بالباء أو التاء أو الواو.

وحروف القسم ثلاثة: الباء، والتاء، والواو.

والباء: أعمها؛ لأنها تدخل على الظاهر والمُضْمَر وعلى اسم الله وغيره، ويذكر معها فعل القسم ويحذف، فيذكر معها فعل القسم؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾[2]، ويحذف مثل قولك: بالله لأفعلنَّ؛ وتدخل على المضمر مثل قولك: الله عظيم أحلف به لأفعلنَّ، وعلى الظاهر كما فى الآية وعلى غير لفظ الجلالة، مثل قولك: بالسميع لأفعلن، وأما الواو؛ فإنه لايذكر معها فعل القسم، ولا تدخل على الضمير، ويحلف بها مع كل اسم، وأما التاء؛ فإنه لايذكر معها فعل القسم وتختص بالله وربّ، قال ابن مالك: «والتاء لله وربّ».

والحلف بغير الله شرك أكبر إن اعتقد أن المحلوف به مساو لله تعالى فى التعظيم والعظمة، وإلا؛ فهو شرك أصغر.

وهل يغفر الله الشرك الأصغر؟

قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[2]؛ أى: الشرك الأكبر، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾؛ يعنى: الشرك الأصغر والكبائر.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: إن الشرك لايغفره الله ولو كان أصغر[3]؛ لأن قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ مصدر مؤوَّل؛ فهو نكرة فى سياق النفى، فيعم الأصغرا والأكبر، والتقدير: لا يغفر شركاً به أو إشراكاً به.

وقوله «من حلف بغير الله» يشمل كل محلوف به سوى الله، سواء بالكعبة أو الرسول ﷺ أو السماء أو غير ذلك، ولايشمل الحلف بصفات الله؛ لأن الصفة تابعة للموصوف، وعلى هذا؛ فيجوز أن تقول: وعزة الله؛ لأفعلن كذا.

---

(١) القول المفيد (٢/ ٣٩٠، ٣٩٢). (٢) الأنعام: ١٠٩. (٣) النساء: ١١٦.

(٣) انظر: «الرد على البكرى» تلخيص «كتاب الاستغاثة» (ص ١٤٦) وتقدم ذلك فى أكثر من موضع.

وَقَالَ ابـنُ مَسْـعُودٍ: «لأَنْ أَحْلِـفَ بِاللهِ كَاذِبـاً أَحَبُّ إِلَـيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِـفَ بِغَـيْرِهِ صَادِقاً»(١).

قال الفقير: والأدلة على جـواز الحلف بصفة من صـفات الله كثيرة منـها قوله ﷺ والذى نفسى بيده أو والذى نفس محمد بيده..... إلخ الحديث وعلى هذا يجوز الحلف بالمصحف لانه كلام الله وكلامه سبحانه صفة من صفاته ولأنه إذا جاز الاستعاذة بكلمات الله فيجوز الحلف بها لكان بشرطين.

الأول: أن يقـصد الحلف بـالصفـة لا بالمداد والورق الـذى كتب بـه القرآن لأنهـما مخلوقان ولا يجوز الحلف بها.

الثانى: أن لا يحلف بالصفة فقط غير منسوبه إلى الله بل يقول وكتاب الله وكلام الله لا بالكتاب فقط أو بالكلام فقط أو المصحف وفقط. والله أعلم.

قوله: **وقال ابـن مسـعود: «لأن أحـلف بـالله كاذباً أحـبُّ إليَّ مـن أن أحلـف بغـيره صادقاً».**

قال سليمان آل الشيخ: هكذا ذكر المصنف هذا الأثر عن ابن مسعود ولم يعزه، وقد ذكره ابن جرير غير مسند أيضًا، قـال: وقد جاء عن ابن عباس وابن عمر نحوه، ورواه الطبراني بإسناد موقوفًا هكذا، قال المنذرى: ورواته رواة الصحيح.

قلت: ورواه عبد الرزاق فى مصنفه وتقدم غير مرة فى الشرح. اهـ.

وقال «**احلف بالله صادقًا أو كاذبًا، ولا تحلف بغيره**» رواه ابن أبى الدنيا فى «الصمت» وأجمع العلماء عـلى أن اليمين لا تكون إلا بالله، أو بصفاته، وأجمـعوا على المنع من الحلف بغيره، قال ابن عبد البر: لا يجوز الحـلف بغير الله بالإجماع. انتهى. ولا اعتبار بمن قال من المتأخرين: إن ذلك على سبيل كـراهة التنزيه، فإن هذا قول باطل. وكيف يقال ذلك لما أطلق عليه الرسول ﷺ أنه كفر أو شرك، بل ذلك محرم.

ولهـذا اختار ابن مـسعود رضى الله عـنه أن يحلـف بالله كاذبًا، ولا يـحلف بغـيره صادقًا، فهذا يدل على أن الحلف بغير الله أكبر من الكذب، مع أن الكذب من المحرمات فى جميع الملل فدل ذلك أن الحلف بغير الله من أكبر المحرمات.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (٨/ ٤٦٩/ ١٥٩٢٩)، والطبرانى فى «الكبير» (٩/ ٢٠٥/ ٨٩٠٢). قال الهيثمى فى «المجمـع» (٤/ ١٧٧): رجاله رجال الصحيح وانظر تمام الكلام عليه فـى تخريجنا «الفتح المجيد (ح٧٦٦) وتقدم.

عنه الحلف بالله كاذبًا على الحلف بغيره صادقًا، لأن الحلف بالله توحيد والحلف بغيره شرك، وإن قدر الصدق فى الحلف بغير الله فحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك. ذكره شيخ الإسلام. وفيه دليل على أن الحلف بغير الله صادقًا أعظم من اليمين الغموس، وفيه دليل على أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، وفيه شاهد للقاعدة المشهورة وهى: ارتكاب أقل الشرين ضررًا إذا كان لابد من أحدهما. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[1]: ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من الكبائر، لكن الشِّرك أكبر من الكبائر، وإن كان أصغر، كما تقدم بيان ذلك، فإذا كان هذا حال الشِّرك الأصغر، فكيف بالشِّرك الأكبر الموجب للخلود فى النَّار؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرَّغبة إليه، وإنزال حوائجه به، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة فى هذه الأزمان وما قبلها: من تَعْظِيم القُبور، واتِّخاذها أوثانًا، والبناء عليها، واتِّخاذها مساجد، وبناء المَشَاهد باسم الميت لعبادة من بُنيت باسمه وتعظِيمه، والإقبال عليه بالقُلوب والأقْوال والأعمال.

وقد عَظُمت البَلوى بهذا الشِّرك الأكبر الَّذى لا يَغفِرُه الله، وتركوا ما دلَّ عليه القرآن العظيم من النَّهى عن هذا الشِّرك وما يُوصِّل إليه. قال الله تعالى: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ** ﴾[2] كفَّرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونه من دونه فى دار الدنيا.

وقد قال تعالى: ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا** ﴾[4].

وهؤلاء المشركون عَكَسُوا الأمر، فخالفوا ما بلغ به الأمة وأخبر به عن نفسه ﷺ، فَعَامَلُوه بما نهاهم عنه من الشِّرك بالله والتَّعلُّق على غير الله، حتى قال قائلهم:

(١) فتح المجيد ٥٧٦.
(٢) الأعراف / ٣٧
(٣) الجن/١٨.
(٤) الجن / ٢٠، ٢١.

يَـا أكْـرَمَ الخَلْـقِ مَـالـى من ألُـوذُ بـِهِ   سِـوَاكَ عِنْـدَ حُـلُولِ الحَـادثِ الـعَمَـمِ
إنْ لـم تَـكُـن فى مَـعَادِى آخذاً بِـيَدِى   فَـضْـلاً، وإلا فـقل: يَـا زَلَّـةَ الـقَـدَمِ
فـإنَّ مـن جُـودِكَ الـدُّنيـا وضُـرَّتـهـا   ومـن عِلـومك عِـلْـمُ الَّـلوْحِ والـقَلَـمِ

فانظر إلى هذا الجَهْل العظيم، حيث اعتقد أنه لا نَجَاة له إلا بِعيَاذِه ولِيَاذِه بغير الله، وانظر إلى هذا الإطراء العَظِيم الذى تَجَاوزَ الحد فى الإطراء، الذى نهى عنه ﷺ بقوله: **«لا تُطْرونى كما أطْرَتِ النَّصَارى ابن مريم، إنَّما أنا عبد، فَقُولوا عَبْدُ الله ورَسُوله»**(١) رواه مالك، وغيره، وقـد قال تعالى: **﴿ لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾**. فانظر إلى هذه المـعارضة العظيمة للكـتاب والسُّنة، والمحادة لله ورسوله، وهذا الذى يقولـه هذا الشاعر هو الذى فى نفوس كثيـر، خُصُوصًا ممن يدَّعون العلم والمعرفة، ورأوا قـراءة هذه المَنْظومة(٢) ونحوها لذلك وتعظيـمها من القُربات، فإنا لله وإنا إليه راجعون. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): قوله فى أثر ابن مسعود: **«لأن أحلف بالله كاذبًا»**.

اللام: لام الابتداء، و«أن» مصـدرية، فيكون قوله: «أن أحلف» مؤولاً بمـصدر مبتدأ تقديره لحلفى بالله.

قوله: «أحب إلىّ».

خبر المبتدأ، ونظير ذلك فى القرآن قوله تعالى: **﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾**(٤).

قوله: «كاذبًا».

حال من فاعل أحلف.

قوله: «أحب إلىَّ»

هذا من باب التفضيل الذى ليس فيـه شىء من الجانبين، وهذا نادر فى الكلام، لأن التفضيـل فى الأصل يكون فيه المعـنى ثابتًا فى المُفضَّـل وفى المفضل عليه، وأحـيانًا فى المفضل دون المفضل عليه، وأحيانًا لا يوجـد فى الجانبين، فابن مسعود رضى الله عنه لا يحب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذبًا أهون عليه من الحلف بغيره صادقًا.

قلت: ومن هذا الباب كان شعبه يقول: «لأن أزنى أحب إلى من أن أدلُس».

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) يقصد بردة البوصيرى.

(٣) القول المفيد (٢/ ٣٩٥: ٣٩٧).

(٤) البقرة / ١٨٤.

قال ابن عثيمين: فالحلف كاذبًا بالله مُحَرّم من وجهين:

١- أنه كذب، والكذب محرم لذاته.

٢- أن هذا الكذب قُرِن باليمين، واليمين تعظيم لله- عز وجل- فإذا كان على كذب صار فيه شيء من تَنَقصٍ لله - عز وجل - حيث جعل اسمه مُؤكِّدًا لأمر كذب، ولذلك كان الحلف بالله كاذبًا عند بعض أهل العلم من اليمين الغَمُوس التى تغمس صاحبها فى الإثم ثم فى النار.

وأما الحلف بغير الله صادقًا، فهو محرم من وجه واحد وهو الشرك لكن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذبًا، وأعظم من اليمين الغموس، إذا قلنا: أنَّ الحلف بالله كاذباً اليمن الغموس لأن الشرك لا يغفر، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ**﴾[1]، وما زرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشرك، فهو أعظم الذنوب، قال تعالى ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[2] وسئل النبى ﷺ أى الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[3] والشرك متضمن للكذب، فإن الذى جعل غير الله شريكًا لله كاذبًا، بل من أكذب الكاذبين، لأن الله لا شريك له. اهـ.

فائدة متعلقة بالأثر:

قال النووى[4]: من أقبح الألفاظ المذمومة ما يعتاده كثيرون من الناس إذا أراد أن يحلف على شيء فيتورع عن قوله والله كراهية الحنث أو إجلالاً لله تعالى وتصونًا عن الحلف، ثم يقول: الله يعلم ما كان كذا، أو لقد كان كذا ونحوه وهذه العبارة فيها خطر فإن كان صاحبها متيقنًا أن الأمر كما قال فلا بأس بها، وإن كان تشكك فى ذلك فهو أقبح القبائح لأنه تعرّض للكذب على الله، فإنه أخبر أن الله تعالى يعلم شيئًا لا يتيقن كيف هو، وفيه دقيقة أخرى أقبح من هذا وهو أنه تعرّض لوصف الله تعالى بأنه يعلم الأمر على خلاف ما هو، وذلك لو تحقق كان فينبغى للإنسان اجتناب هذه العبارة.اهـ.

قلت: ولا يبعد حينئذ ان يتنزل عليه قوله تعالى: «**ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام..**» الآيه.



---

(١) النساء :١١٦

(٢) لقمان: ١٣.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الأذكار (٢/ ٤٤٤) بتحقيقنا.

قلت: فالحلف بغير الله يشمل الحلف بالنبى والكعبة والأمانة. . إلخ فلذا أفردنا لهذه الأنوع فصولاً أولها.

● الحلف بالنبى ﷺ ●

قال ابن تيمية: تنازع الناس هل يحلف بالنبى ﷺ؟ مع اتفاقهم بأنه لايحلف بشىء من المخلوقات المعظمة كالعرش والكرسى والكعبة والملائكة. فذهب جمهور العلماء كمالك والشافعى وأبى حنيفة وأحمد فى أحد قوليه إلى أنه لايحلف بالنبى، ولاتنعقد اليمين، كمالا يحلف بشىء من المخلوقات. ولا تجب الكفارة على من حلف بشىء من ذلك وحنث، فإنه ﷺ قد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال: **«لاتحلفوا إلا بالله»**. وقال: **«من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»**(١). وفى السنن: **«من حلف بغير الله فقد أشرك»**(٢). وعن أحمد بن حنبل رواية أنه يحلف بالنبى ﷺ خاصة؛ لأنه يجب الإيمان به خصوصا. ويجب ذكره فى الشهادتين والأذان. فالإيمان به اختصاص لايشركه فيه غيره.

وقال ابن عقيل: بل هذا لكونه نبياً. وطرد ذلك فى سائر الأنبياء. مع أن الصواب الذى عليه عامة علماء المسلمين سلفهم وخلفهم أنه لا يحلف بمخلوق لانبى ولا غير نبى، ولا ملك من الملائكة. ولاملك من الملوك، ولا شيخ من الشيوخ.

والنهى عن ذلك نهى تحريم عند أكثرهم كمذهب أبى حنيفة وغيره وهو أحد القولين فى مذهب أحمد، كما تقدم حتى إن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما يقول أحدهم: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغير الله صادقاً(٣). وفى لفظ: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أضاهى. فالحلف بغير الله شرك، والشرك أعظم من الكذب. وغاية الكذب أن يشبه بالشرك، كما فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: **«عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله»** قالها مرتين أو ثلاثاً(٤). وقرأ قوله تعالى: **﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ**

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦٤٦)، ومسلم فى الأيمان (١١/ ١٠٥ - النووى) عن ابن عمر به. وانظر «منار السبيل» (٢٧٥٥ - بتخريجنا).

(٢) تقدم قريباً.

(٣) سيأتى فى أحاديث الباب.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٣٢١)، وأبو داود (٣٥٩٩)، والترمذى (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢٣٧٢) عن خريم بن فاتك به.

فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ وهذا المنهى عنه بل المحرم - الذى هو أعظم من اليمين الفاجرة عند الصحابة رضوان الله عليهم قد ظن طائفة من أهل العلم أنه مشروع غير منهى عنه. ولهذا نظائر كثيرة، لكن قال الله تعالى: **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾** وما أمر الله ورسوله به فهو حق.

وهو ﷺ نهى عن الحلف بغير الله، وعن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها(١). وعن اتخاذ القبور مساجد(٢) واتخاذ قبره عيداً(٣) ونهى عن السفر إلى غير المساجد الثلاثة(٤)، وأمثال ذلك لتحقيق إخلاص الدين لله، وعبادة الله وحده لاشريك له. فهذا كله محافظة على توحيد الله عزوجل، وأن يكون الدين كله لله، فلايعبد غيره ولايتوكل إلا عليه، ولايدعى إلا هو، ولايتقى إلا هو، ولايصلى ولايصام إلا له، ولاينذر إلا له، ولايحلف إلا به، ولايحج إلا إلى بيته اهـ(٥).

قال الصاوى(*): والصواب ما عليه عامة المسلمين سلفهم وخلفهم أنه لايحلف مخلوق بمخلوق، لا نبى ولا بغير نبى، ولا ملك من الملائكة، ولا ملك من الملوك، ولا شيخ من الشيوخ، وذلك لعموم الأدلة التى تنهى عن الحلف بغير الله. اهـ.

● ثانياً - الحلف بالآباء ●

بوب البخارى على من يحلف بغير الله باب لاتحلفوا بآبائكم ثم أخرج بسنده عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ أدرك عمرَ بن الخطاب - وهو يسيرُ فى ركب، يحلف بأبيه - فقال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»(٦).

وقال ابنُ عمرَ سمعت عمرَ يقول قال لى رسول الله ﷺ: **إنَّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**. قال عمر فوالله ما حلفتُ بها منذ سمعت النبىّ - ﷺ -، ذاكراً ولا آثراً»(٧). **﴿أو أثارة من علم﴾**.

---

(١) تقدم تخريجه. (٢ - ٤) تقدم تخريجه.

(٥) مجموع الفتاوى (٢٧/٣٤٩: ٣٥١).

(*) أصول الإيمان (١/١١٣). المقرر على طلبة كلية الدراسات الإسلامية بالجامعة الأمريكية.

(٦) [صحيح] البخارى (٦٦٤٦) وتقدم.

(٧) [صحيح] البخارى (٦٦٤٧).

وعن عبدالله بن دينار «قال سمعت عبدالله بـن عمر رضى الله عنهما يقول قال رسول الله ﷺ: «**لاتحلفوا بآبائكم**»[1].

وعن زهدَم بن الحارث قال «كان بين هذا الحـىِّ من جَرم وبين الأشعريينَ ودٌّ وإخاء، فكنا عند أبى مـوسى الأشعرىِّ، فقرّب إليه طعام فيه لحم دَجـاج، وعندَهُ رجُل من بنى تَيم الله أحمرُ كأنهُ منَ الموالى، فدعاهُ إلى الطعـام، فقال: إنى رأيتهُ يأكل شيئاً فقَذرته، فحلفتُ أن لا آكلـه. فقال: قُم فلأحدثنَّك عن ذاك، إنى أتـيتُ رسولَ الله ﷺ فى نفر من الأشعريين نَستَحملهُ، فقال: **والله لا أحملكم، وما عنـدى ما أحملُكم**. فأتَى رسولُ الله ﷺ بنَهـب إبل، فسأل عنـا فقال: **أينَ النَّفرُ الأشعريون؟** فأمرَ لنَا بـخَمس ذَود غُرِّ الذُّرَى. فلما انطلقنا قلنا: ما صنعنا؟ حلف رسولُ الله ﷺ لايحملنا وما عنده ما يحملنا، ثم حَملنا. تَـغفَلْنا رسول الله ﷺ يمينَه، والله لانُـفلح أبداً. فرجعنا إليه فـقلنا له: إنا أتيناكَ لتحملنَا فحلَفت أن لا تحملنَا وما عندَك ما تحملنا. فقال: **إنى لست أنا حَملتكُم، ولكن الله حَملـكم، والله لا أحلف على يمين فـأرى غيرها خيرا منهـا إلا أتيتُ الذى هو خير، وتحللتها**»[2].

قال ابن حـجر: أخرج النـسائى وأبو داود فى رواية ابـن داسة عنه من حـديث أبى هريرة مـثله بزيادة ولـفظه «**لاتحلـفوا بآبائـكم ولا بأمـهاتكـم ولا بالأنداد ولاتحلـفوا إلا بالله**»[3] الحديث.

قوله: (يحلـف بأبيه) فى رواية سفـيان بن عيينة عـن ابن شهاب «**أن رسـول الله ﷺ سمع عمر وهـو يحلف بأبيه وهو يـقول وأبى وأبى**» وفى رواية إسماعيـل بن جعفر عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر من الزيادة «**وكانت قريش تحلف بآبائها**».

قوله: (فقـال ألا إن الله ينهاكـم أن تحلفوا بـآبائكم) فى رواية الليث عـن نافع «**فناداهم رسول الله ﷺ**» ووقع فى مصنف ابن أبى شيبة من طريق عكرمة قال «قال عمر: حدثت قوماً حديثا فقلت: لا وأبى، فقال رجل من خلفى: **لاتحلفوا بآبائكم**، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ يقول: لو أن أحدكم حلف بالمسيح هلك والمسيح خير من آبائكم» وهذا مرسل يتقوى بشواهده.

قوله: (مـن كان حالفاً فلـيحلف بالله أو ليـصمت) قال العلماء: **السر فى الـنهى عن**

(١) البخارى (٦٦٤٨).

(٢) [صحيح] البخارى (٦٦٤٩).

(٣) [صحيح] أخرجه أبو داود (٣٢٤٨)، والنسائى (٧/ ٥ - السيوطى) عن أبى هريرة به.

الحلف بغير الله أنَّ الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده، وظاهر الحديث تخصيص الحلف بالله خاصة، لكن قد أتفق الفقهاء على أن اليمين تنعقد بالله وذاته وصفاته العلية، واختلفوا في انعقادها ببعض الصفات، وكأن المراد بقوله «بالله» الذات لاخصوص لفظ الله، وأما اليمين بغير ذلك فقد ثبت المنع فيها، وهل المنع للتحريم؟ قولان عند المالكية، كذا قال ابن دقيق العيد، والمشهور عندهم الكراهة، والخلاف أيضاً عند الحنابلة لكن المشهور عندهم التحريم، وبه جزم الظاهرية.

وقال ابن عبدالبر: لايجوز الحلف بغير الله بالإجماع.

ومراده بنفي الجواز الكراهة أعم من التحريم والتنزيه، فإنه قال في موضع آخر: أجمع العلماء على أن اليمين بغير الله مكروهة منهى عنها لايجوز لأحد الحلف بها، والخلاف موجود عند الشافعية من أجل قول الشافعي: أخشى أن يكون الحلف بغير الله معصية، فأشعر بالتردد، وجمهور أصحابه على أنه للتنزيه.

وقال إمام الحرمين: المذهب القطع بالكراهة، وجزم غيره بالتفصيل، فإن اعتقد في المحلوف فيه من التعظيم ما يعتقده في الله حرم الحلف به وكان بذلك الاعتقاد كافراً، وعليه يتنزل الحديث المذكور.

وأما إذا حلف بغير الله لاعتقاده تعظيم المحلوف به على ما يليق به من التعظيم فلا يكفر بذلك ولا تنعقد يمينه.

قال الماوردي: لايجوز لأحد أن يحلف أحداً بغير الله لا بطلاق ولا عتاق ولا نذر، وإذا حلَّف الحاكمُ أحداً بشيء من ذلك وجب عزله لجهله.

قوله: (ذاكراً) أي عامداً.

قوله: (ولا آثراً) بالمد وكسر المثلثة أي حاكياً عن الغير، أي ما حلفت بها ولا حكيت ذلك عن غيري، ويدل عليه ما وقع في رواية عقيل عن ابن شهاب عند مسلم «ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عنها، ولا تكلمت بها» وقد استشكل هذا التفسير لتصدير الكلام بحلفت والحاكي عن غيره لايسمى حالفاً، وأجيب باحتمال أن يكون العامل فيه محذوفاً أي ولا ذكرتها اثراً عن غيري، أو يكون ضمن حلفت معنى تكلمت ويقويه روايه عقيل: وجوز شيخنا في شرح الترمذي لقوله آثرا معنى آخر أي مختاراً، يقال آثر الشيء إذا اختاره، فكأنه قال ولا حلفت بها مؤثرا لها على غيرها، قال شيخنا: ويحتمل أن يرجع قوله آثرا إلى معنى التفاخر بالآباء في الإكرام لهم، ومنه قولهم مأثرة ومآثر وهو ما يروى من المفاخر فكأنه قال: ما حلفت بآبائي ذاكراً لمآثرهم. وجوز في

قوله «ذاكراً» أن يكون من الذكر بضم المعجمة كأنه احترز عن أن يكون ينطق بهم ناسياً، وهو يناسب تفسير آثراً بالاختيار كأنه قال لا عامدا ولا مختاراً. وجزم ابن التين في شرحه بأنه من الذكر بالكسر لا بالضم، قال: وإنما هو لم أقله من قبل نفسي ولا حدثت به عن غيري أنه حلف به، قال وقال الداودي: يريد ما حلفت بها ولا ذكرت حلف غيري بها كقوله إن فلاناً قال وحق أبي مثلا. واستشكل أيضاً أن كلام عمر المذكور يقتضي أنه تورع عن النطق بذلك مطلقاً فكيف نطق به في هذه القصة؟ وأجيب بأنه اغتفر ذلك لضرورة التبليغ.

فوائد الحديث:

قال ابن حجر(١):

وفي هذا الحديث من الفوائد.

الزجر عن الحلف بغير الله، وإنما خص في حديث عمر بالآباء لوروده على سببه المذكور، أو خص لكونه كان غالباً عليه لقوله في الرواية الأخرى **«وكانت قريش تحلف بآبائها»** ويدل على التعميم قوله **«من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله»**.

● إشكالات والرد عليها.

● الأول: ما أقسم الله به في القرءان من مخلوقاته ●

قال ابن حجر(٢): وأما ما ورد في القرآن من القسم بغير الله ففيه جوابان:

أحدهما: أن فيه حذفاً والتقدير ورب الشمس ونحوه.

والثاني: أن ذلك يختص بالله فإذا أراد تعظيم شيء من مخلوقاته أقسم به وليس لغيره ذلك. اهـ.

وبنحو هذا قال ابن عثيمين(٣): فالجواب عنه وجهين:

الأول: أن هذا من فعل الله و﴿الله لا يُسْأَل عما يفعل﴾، وله أن يقسم سبحانه بما شاء من خلقه، وهو سائل غير مسؤول وحاكم غير محكوم عليه.

الثاني: أن قَسَمَ الله بهذه الآيات دليل على عظمته وكمال قدرته وحكمته؛ فيكون القسم بها الدال على تعظيمها ورفع شأنها متضمناً للثناء على الله - عزوجل - بما تقتضيه من الدلالة على عظمته.

وأما نحن؛ فلا نقسم بغير الله أو صفاته؛ لأننا منهيون عن ذلك.

(١) فتح البارى (١١/ ٤٢٢٥٤، ٥٤٣٢٥). (٢) فتح البارى (١١/ ٤٢٢٥٤، ٥٤٣٢٥).
(٣) القول المفيد (٢/ ٣٩٢)

• الثاني: نهيه ﷺ عن الحلف بغير الله، وقوله ﷺ «أفلح وأبيه إن صدق»؟! •

والجواب:

قال ابن حجر[1]: وأما ما وقع مما يخالف ذلك كقوله ﷺ للأعرابى **«أفلح وأبيه إن صدق»**[2] فقد ذكرت فى «باب الزكاة من الإسلام» فى كتاب الأيمان الجواب عن ذلك وأن فيهم من طعن فى صحة هذه اللفظة.

قال ابن عبد البر: هذه اللفظة غير محفوظة وقد جاءت عن راويها وهو إسماعيل عن جعفر بلفظ **«أفلح والله إن صدق»** قال: وهذا أولى من رواية من روى عنه بلفظ: «أفلح وأبيه لأنها لفظة منكرة تردها الآثار الصحاح، ولم تقع فى رواية مالك أصلاً.

وزعم بعضهم أن بعض الرواة عنه صحف قوله «وأبيه» من قوله «والله» وهو محتمل ولكن مثل ذلك لا يثبت بالاحتمال، وقد ثبت مثل ذلك من لفظ أبى بكر الصديق فى قصة السارق الذى سرق حلى ابنته فقال فى حقه **«وأبيك ما ليلك بليل سارق»**[3] أخرجه فى الموطأ وغيره قال السهيلى: وقد ورد نحوه فى حديث آخر مرفوع قال للذى سأل أى الصدقة أفضل فقال **«وأبيك لتنبأن»**[4] أخرجه مسلم.

قال ابن عثيمين: معلقاً على هذا القول: أن هذا القول ضعيف لأن الحديث ثابت، وما دام يمكن حمله على وجه صحيح، فإنه لايجوز إنكارة.

قال ابن حجر: فإذا ثبت ذلك فيجاب بأجوبة.

(الأول): أن هذا اللفظ كان يجرى على ألسنتهم من غير أن يقصدوا به القسم، والنهى إنما ورد فى حق من قصد حقيقة الحلف، وإلى هذا جنح البيهقى، وقال النووى: إنه الجواب المرضى.

قال سليمان آل الشيخ[5]: هذا جواب فاسد، بل أحاديث النهى عامة مطلقة ليس فيها تفريق بين من قصد القسم وبين من لم يقصد، ويؤيد ذلك أن سعد ابن أبى وقاص

---

(١) فتح البارى (١١/٥٤٢، ٥٤٣) وكلامه الآتى من نفس المصدر

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/١٩٩/٩).

(٣) [صحيح] أخرجه مالك وفى «الموطأ» (٢/ ٦٣٧/ ٣٠).

(٤) أخرجه مسلم فى الزكاة (٤/ ١٣٣/ ٩٣) عن أبى هريرة به.

(٥) تيسير العزيز الحميد (٤٤٥ : ٤٤٦) وكلامه الآتى من نفس المصدر.

رضى الله عنه حلف مرة باللات والعزى، فقال النبى ﷺ: **«قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم انفث عن يسارك ثلاثًا، ثم تعوذ، ولا تعد»**(١).

ويبعد أن يكون أراد حقيقة الحلف بهما، ولكنه جرى على لسانه من غير قصد على ما كانوا يعتادونه قبل ذلك، ومع هذا نهاه النبى ﷺ، غاية ما يقال: أن من جرى ذلك على لسانه من غير قصد معفو عنه، أما أن يكون أمرًا جائزًا للمسلم أن يعتاده فكلا، وأيضًا فهذا يحتاج إلى نقل أن ذلك كان يجرى على ألسنتهم من غير قصد للقسم، وأن النهى إنما ورد فى حق من قصد حقيقة الحلف وأنى يوجد ذلك.

قال ابن عثيمين عن هذا الوجه من الجمع(٢): فغير صحيح لأن النهى وارد مع أنه كان يجرى على ألسنتهم كما جرى على لسان سعد فنهاه النبى ﷺ ولو صحّ هذا، لصح أن يقال لمن فعل شركًا اعتاده لا ينهى، لأن هذا من عادته، وهذا باطل.

قال ابن حجر: (الثانى): أنه كان يقع فى كلامهم على وجهين:

أحدهما: للتعظيم والآخر للتأكيد، والنهى إنما وقع عن الأول فمن أمثلة ما وقع فى كلامهم للتأكيد لا للتعظيم قول الشاعر «لعمر أبى الواشين أنى أحبها» وقول الآخر.

فإن تك ليلى استودعتنى أمانة ... فلا وأبى أعدائها لا أذيعها

فلا يظن أن قائل ذلك قصد تعظيم والد أعدائها كما لم يقصد الآخر تعظيم والد من وشى به، فدل على أن القصد بذلك تأكيد الكلام لا التعظيم، وقال البيضاوى: هذا اللفظ من جملة ما يزاد فى الكلام لمجرد التقرير والتأكيد ولا يراد به القسم، كما تزاد صيغة النداء لمجرد الاختصاص دون القصد إلى النداء، وقد تعقب الجوابُ بأن ظاهر سياق حديث عمر يدل على أنه كان يحلفه لأن فى بعض طرقه أنه كان يقول لا وأبى لا وأبى فقيل له لا تحلفوا، فلولا أنه أتى بصيغة الحلف ما صادف النهى محلاً.

قال سليمان آل الشيخ: وهذا أفسد من الذى قبله، وكأن من قال ذلك لم يتصور ما قال فهل يراد بالحلف إلا تأكيد المحلوف عليه بذكر من يعظمه الحالف والمحلوف له؟ فتأكيد المحلوف عليه بذكر المحلوف به مستلزم لتعظيمه. وأيضًا فالأحاديث مطلقة ليس

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ١٨٣)، والنسائى (٧/٧ - السيوطى)، وابن ماجه (٢٠٩٧) عن سعد به.

(٢) القول المفيد (٢/ ٣٩٢: ٣٩٥) وكلامه الآتى من نفس المصدر.

فيهـا تفريق، وأيـضًا فهذا يـحتاج إلى نقـل ذلك جائز لـلتأكيـد دون التعظـيم وذلك معدوم. اهـ.

قلت: والإستدلال بشعر العرب لا يصح فى الأحكام.

قال ابن حجر: ومن ثم بعضهم وهو (الجواب الثالث): إن هذا كان جائزًا ثم نسخ قالـه الماوردى وحكاه الـبيهقـى، وقال السبـكى : أكثـر الشراح علـيه، حتى قـال ابن العربى: وروى أنـه ﷺ كان يحلف بأبيه حـتى نهى عن ذلك، قال: وتـرجمة أبى داود تدل علـى ذلك، يعنى قولـه: «باب الحلف بالآبـاء» ثم أورد الحديث المرفوع الـذى فيه «أفلح وأبيه إن صدق» قال السهيلـى ولا يصح لأنه لا يظن بالنبى ﷺ أنـه كان يحلف بغير الله ولا يقسم بكافر، تالله إن ذلك لبعـيد من شيمته، وقال المنذرى: دعوى النسخ ضعيفة لإمكان الجمع ولعدم تحقق التاريخ.

قال سليمان آل الشـيخ عن النسخ: وهذا الجواب هو الحق، يـؤيده أن ذلك كان مستعملاً شائعًا، حتى ورد النهى عن ذلك كما فى :

حديث ابن عـمر أنَّ النبى ﷺ أدْرك عمـر بن الخطاب يسيـر فى ركب يحلف بـأبيه فناداهم رسول الله ﷺ : فقال: **«ألا إن الله عز وجل ينْهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»** (١)رواه البخارى، ومسلم.

وعنه أيضًـا قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كان حالفًا فـلا يحلف إلا بالله»** وكانت قريش تحلف بآبائها فقال: **«لا تحلفوا بآبائكم»**(٢) رواه مسلم.

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: حلفت مرة باللات والعزى فقال النبى ﷺ **«قل لا إله إلا الله وحده لا شريـك له، ثم انْفث عن يسارك ثلاثـاً وتعوذ ولا تعد»**(٣) رواه النسائى، وابن ماجة، وهذا لفظه، وفى هذا المعنى أحاديث، فما ورد فيه ذكر الحلف بغير الله فـهو جار على العـادة قبل النهى، لأن ذلـك هو الأصل حتى ورد النـهى عن ذلك. اهـ.

قال ابن عثيمين: أقربها ـ هـذا الوجه ـ أنه منسـوخ، ولا نجزم بذلك لعدم الـعلم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم.

(٣) تقدم تخريجه.

بالتاريخ، ولهذا قلنا أقربها والله أعلم، وإن كان النووى ـ رحمه الله ـ ارتضى أن هذا مما يجرى على اللسان بدون قصد، لكن هذا ضعيف لا يمكن القول به، ثم رأيت بعضهم جزم بشذوذها لانفراد مسلم بها عن البخارى مع مخالفة راويها للثقات، فالله أعلم.

ولو قال قائل: نحن نقلب عليكم الأمر، ونقول: إن المنسوخ هو النهى، لأنهم لما كانوا حديثى عهد بشرك نهوا أن يشركوا به كما نهى الناس حين كانوا حديثى عهد بشرك عن زيارة القبور ثم أذن لهم فيها؟

فالجواب عنه: إن هذا اليمين كان جاريًا على ألسنتهم، فتركوا حتى استقر الإيمان فى نفوسهم ثم نهوا عنه، ونظيره إقرارهم على شرب الخمر أولاً ثم أمروا باجتنابه. اهـ.

قلت: ويؤيده قول من يقول فى مثل هذا الأمر أن الأصل الإباحة فأحاديث النهى ناقلة عن الأصل فهى الناسخة.

قال ابن حجر: (والجواب الرابع) أن فى الجواب حذفًا تقديره أفلح ورب أبيه قاله البيهقى وقد تقدم. اهـ.

وقال ابن عثيمين عن هذا الجواب: ضعيف لأن الأصل عدم الحذف، ولأن الحذف هنا يستلزم فهمًا باطلاً، ولا يمكن أن يتكلم الرسول ﷺ بما يستلزم ذلك بدون بيان المراد، وعلى هذا فيكون أقربها أنه منسوخ. اهـ.

قال ابن حجر: (الخامس) أنه للتعجب قاله السهيلى: قال: ويدل عليه أنه لم يرد بلفظ «أبى» وإنما ورد بلفظ «وأبيه» أو«وأبيك» بالإضافة إلى ضمير المخاطب حاضرًا أو غائبًا. اهـ.

(السادس) أن ذلك خاص بالشارع دون غيره من أمته، وتعقب بأن الخصائص لا تثبت بالاحتمال. اهـ.

وقال ابن عثيمين: دعوى التخصيص تحتاج إلى دليل، وإلا فالأصل التأسى به.

وزاد ابن عثيمين قولاً آخر ـ وهو الجواب السابع ـ فقال: أن بعض العلماء أنكر هذه اللفظة، وقال: إنها لم تثبت فى الحديث، لأنها مناقضة للتوحيد، وماكان كذلك، فلا تصح نسبته إلى رسول الله ﷺ فيكون باطلاً.

والجواب: أن هذا القول ضعيف لأن الحديث ثابت، وما دام يمكن حمله على وجه صحيح، فإنه لا يجوز إنكاره.

• الحلف بالكعبة •

تقدم أن ابن تيمية قال باتفاقهم - أى أهل العلم - بأنه لا يحلف بشيء من المخلوقات المعظمة كالعرش والكرسي والكعبة والملائكة . . . اهـ.

(قلت): وتقدم عن قُتيلة بنت صيفى الجهنية قالت: أتى حبر من الأحبار رسول الله ﷺ فقال : يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون! قال سبحان الله ! وما ذاك؟ قال : تقولون إذا حلفتم: والكعبة قالت فأمهل رسول الله ﷺ شيئًا ثم قال: إنه قد قال فمن حلف فليحلف برب الكعبة . . .» الحديث(1)، وسيأتى فى باب ما شاء الله وشئت. ففيه دليل لإجماع أهل العلم واتفاقهم على المنع من الحلف بالكعبة، والله المستعان.

هل ينعقد يمين من حلف بالكعبة؟ وهل عليه كفارة؟

وقال ابن حجر: قال الطبرى: أن اليمين لا تنعقد إلا بالله، وأن من حلف بالكعبة أو آدم أو جبريل، ونحو ذلك لم تنعقد يمينه ولزمه الاستغفار، لإقدامه على ما نهى عنه، ولا كفارة فى ذلك. اهـ.

وقال ابن حجر(2): من فوائد حديث عمر «**لا تحلفوا بآبائكم من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**».

قال: فيه أن من حلف بغير الله مطلقًا لم تنعقد يمينه سواء كان المحلوف به يستحق التعظيم . . . كالكعبة . . أو لا يستحق التعظيم . . . اهـ.

وسيأتى فى آخر هذا الفصل الجواب عن انعقاد اليمين بغير الله وفى أضعافه ما تقدم فى الحلف بالكعبه.

• الحلف بالأمانة •

عن بريدة قال قال رسول الله ﷺ: «**من حلف بالأمانة فليس منا**»(3).

(1) تقدم وسيأتى ان شاء الله. (2) فتح البارى (11/ 542، 543).

(3) أخرجه أحمد فى «مسنده» (5/ 355)، وأبو داود (3258)، والنسائى فى «الكبرى» (4713)، وابن ماجه (2100).

وانظر «رياض الصالحين» (1712 - بتخريجنا)

وأبوداود (3253) واللفظ له. وابن حبان (1318) والحاكم (4/298) وصححه. قال فى «المجمع»: رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح خلا الوليد بن ثعلبة وهو ثقة».

قال القاضي: أي من ذوي أسوتنا، بل هو من المتشبهين بغيرنا، فإنه من ديدن أهل الكتاب ولعله أراد به الوعيد عليه. قاله القاري.

وقال في النهاية: يشبه أن تكون الكراهة فيه لأجل أنه أمر أن يحلف بأسماء الله وصفاته والأمانة أمر من أموره فنهوا عنها من أجل التسوية بينها وبين أسماء الله تعالى كما نهوا أن يحلفوا بآبائهم.

وإذا قال الحالف: وأمانة الله كانت يميناً عند أبي حنيفة، والشافعي لايعدها يميناً والأمانة تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والنقد والأمانة، وقد جاء في كل منها حديث. اهـ[1].

الحلف بتربة فلان، أو حياة والدي فلان، أو حرمة شيخك

ـ قال ابن تيمية[2] فيمن يتوسل إلى غيره بوسيلة فيطلب من تلك الوسيلة الشفاعة له عند ذلك:ـ

مثل أن يقسم عليه، كما يقول: بحياة ولدك فلان، وبتربة أبيك فلان، وبحرمة شيخك فلان، ونحو ذلك.

والإقسام على الله تعالى بالمخلوقين لايجوز، ولايجوز الإقسام على مخلوق بمخلوق. اهـ.

[قلت]: وقد جرى على السنة كثير من عامة الناس الحلف برحمة أبيك، وغلاوة أبيك أو أبنك أو، ورأس أبويا أو غير ذلك، ورحمة النبي،و.......، وهذا وغيره من الحلف بغير الله عزوجل لايجوز، لقوله ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله». ولنهيه عن الحلف بالكعبة والآباء والأمانة.....، والله نسأل أن يخلص المسلمين من هذه المعصية وشؤمها، وأن يصرف عنا الشرك ما صغر منه وما كبر.

● رابعاً الحلف بغير ملة الإسلام ●

وبوب البخاري: باب من حلف بملة سوى ملة الإسلام.

وقال النبي ﷺ: من حلفَ بالاتِ والعزَّى فليقل لا إله إلا الله[3]. ولم يَنْسُبْه إلى الكفر.

---

(١) عون المعبود (٩/ ٨٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٨).

(٣) تقدم تخريجه.

وأسند عن ثابت بن الضحاك قال قال النبيُّ ﷺ: **«من حلَف بغير ملة الإسلام فهو كما قال. ومن قَتلَ نفسه بشيء عُذِّبَ به في نار جهنم، ولعنُ المؤمن كقتله، ومن رمَى مؤمنًا بكفر فهو كقَتله»**(١).

قال ابن حجر (٢): (قوله: **باب من حلف بملة سوى الإسلام**) الملة بكسر الميم وتشديد اللام والدين والشريعة، وهي نكرة في سياق الشرط فتعم جميع الملل من أهل الكتاب كاليهودية والنصرانية، ومن لحق بهم من المجوسية والصابئة وأهل الأوثان والدهرية والمعطلة وعبدة الشياطين والملائكة وغيرهم.

ولم يجزم البخاري بالحكم هل يكفر الحالف بذلك، أو لا، لكن تصرفه يقتضي أن لا يكفر بذلك لأنه علق حديث **«من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله»**(٣) ولم ينسبه إلى الكفر وتمام الاحتجاج أن يقول لكونه اقتصر على الأمر بقول لا إله إلا الله، ولو كان ذلك يقتضي الكفر لأمره بتمام الشهادتين، وقد وصل البخاري الحديث المذكور في الباب الذي قبله وأورده في كتاب الأدب في «باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً».

قال ابن المنذر: اختلف فيمن قال أكفر بالله ونحو ذلك إن فعلت ثم فعل فقال ابن عباس وأبو هريرة وعطاء وقتادة وجمهور فقهاء الأمصار: لا كفارة عليه ولا يكون كافراً إلا إن أضمر ذلك بقلبه.

وقال الأوزاعي والثوري والحنفية وأحمد وإسحاق هو يمين، وعليه الكفارة.

قال ابن المنذر: والأول أصح لقوله: **«من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله»** ولم يذكر كفارة، زاد غيره: ولذا قال: **«من حلف بملة غير الإسلام فهو كما قال»** فأراد التغليظ في ذلك حتى لا يجترئ أحد عليه، ونقل أبو الحسن بن القصار من المالكية عن الحنفية أنهم احتجوا لإيجاب الكفارة بأن في اليمين الامتناع من الفعل وتضمن كلامه بما ذكر تعظيمًا للإسلام، وتعقب ذلك بأنهم قالوا فيمن قال وحق الإسلام إذا حنث لا تجب عليه كفارة فأسقطوا الكفارة إذا صرح بتعظيم الإسلام وأثبتوها إذا لم يصرح.

وأما قوله: **«ومن حلف بغير ملة الإسلام»** فوقع في رواية علي بن المبارك **«من حلف**

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم في الإيمان (٢/ ١١٨ - النووي).
وانظر «رياض الصالحين» (١٥٥٤ - بتخريجنا).

(٢) فتح الباري (١١/ ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨).

(٣) تقدم.

على ملة غير الإسلام» وفى رواية مسلم من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبًا متعمدًا فهو كما قال.

قال ابن دقيق العيد: الحلف بالشىء حقيقة هو القسم به وإدخال بعض حروف القسم عليه كقوله والله والرحمن، وقد يطلق على التعليق بالشىء يمين كقولهم من حلف بالطلاق فالمراد تعليق الطلاق وأطلق عليه الحلف لمشابهته باليمين فى اقتضاء الحث والمنع.

وإذا تقرر ذلك فيحتمل أن يكون المراد المعنى الثانى لقوله «كاذبًا متعمدًا» والكذب يدخل القضية الإخبارية التى يقع مقتضاها تارة ولا يقع أخرى، وهذا بخلاف قولنا والله وما أشبهه فليس الإخبار بها عن أمر خارجى بل هى لإنشاء القسم فتكون صورة الحلف هنا على وجهين:

(أحدهما) أن يتعلق بالمستقبل كقوله إن فعل كذا فهو يهودى.

(والثانى): يتعلق بالماضى كقوله إن كان فعل كذا فهو يهودى، وقد يتعلق بهذا من لم ير فيه الكفارة لكونه لم يذكر فيه كفارة بل جعل المرتب على كذبه قوله «**فهو كما قال**».

قال ابن دقيق العيد: ولا يكفر فى صورة الماضى إلا إن قصد التعظيم، وفيه خلاف عند الحنفية لكونه يتخير معنى فصار كما لو قال هو يهودى، ومنهم من قال: إن كان لا يعلم أنه يمين لم يكفر وإن كان يعلم أنه يكفر بالحنث به كفر لكونه رضى بالكفر حين أقدم على الفعل.

وقال بعض الشافعية: ظاهر الحديث أنه يحكم عليه بالكفر إذا كان كاذبًا، والتحقيق التفصيل فإن اعتقد تعظيم ما ذكر كفر وإن قصد حقيقة التعليق فينظر فإن كان أراد أن يكون متصفًا بذلك كفر لأن إرادة الكفر كفر وإن أراد البعد عن ذلك لم يكفر، لكن هل يحرم عليه ذلك أو يكره تنزيهًا؟

(الثانى) هو المشهور.

وقوله: «كاذبًا متعمدًا» قال عياض: تفرد بزيادتها سفيان الثورى وهى زيادة حسنة يستفاد منها أن الحالف المتعمد إن كان مطمئن القلب بالإيمان وهو كاذب فى تعظيم ما لا يعتقد تعظيمه لم يكفر، وإن قاله معتقدًا لليمين بتلك الملة لكونها حقًا كفر، وإن قالها لمجرد التعظيم لها احتمل.

قلت: ـ يعنى ابن حجر ـ وينقدح بأن يقال إن أراد تعظيمها باعتبار ما كانت قبل النسخ لم يكفر أيضًا.

ودعواه أن سفيان تفرد بها إن أراد بالنسبة لرواية مسلم فعسى فإنه أخرجه من طريق شعبة عن أيوب وسفيان عن خالد الحذاء جميعًا عن أبى قلابة وبين أن لفظ «متعمدًا» لسفيان، ولم ينفرد بها سفيان ففى صحيح البخارى فى كتاب الجنائز من طريق يزيد بن ذريع عن خالد، وكذا أخرجها النسائى من طريق محمد بن أبى عدى عن خالد، ولهذه الخصلة فى حديث ثابت بن الضحاك شاهد من حديث بريدة أخرجه النسائى وصححه من طريق الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رفعه **«من قال إنى برئ من الإسلام فإن كان كاذبًا فهو كما قال وإن كان صادقًا لم يعد إلى الإسلام سالمًا»**(١) يعنى إذا حلف بذلك، وهو يؤيد التفصيل الماضى، ويخصص بهذا عموم الحديث الماضي، ويحتمل أن يكون المراد بهذا الكلام التهديد والمبالغة فى الوعيد لا الحكم وكأنه قال فهو مستحق مثل عذاب من اعتقد ما قال، ونظيره **«من ترك الصلاة فقد كفر»**(٢) أى استوجب عقوبة من كفر، وقال ابن المنذر : قوله «فهو كما قال » ليس على إطلاقه فى نسبته إلى الكفر بل المراد أنه كاذب ككذب المعظم لتلك الجهة. اهـ.

● خامساً الحلف باللات والعزى ●

بوب البخارى فى الحلف بغير الله: (باب لا يُحلفُ باللاتِ والعُزّى، ولا بالطواغيت):

وأسند عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«مَن حلف فقال فى حلفه باللاتِ والعُزّى فليَقل لا إلهَ إلا الله، ومن قال لصاحبه تعال أقامِرك فليتصدّق»**(٣).

قال ابن حجر(٤): قوله: [**باب لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت**» أما الطواغيت فوقع فى حديث أخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه من طريق هشام بن حسان عن الحسن البصرى عن عبد الرحمن بن سمرة مرفوعًا **«لا تحلفوا بالطواغيت ولا بآبائكم»**(٥).

وفى رواية مسلم وابن ماجه **«بالطواغى»**(٦) وهو جمع طاغية والمراد الصنم.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٥٢)، وأبو داود (٣٢٥٣) عن بريدة به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٧١٣ - بتخريجنا).

(٢)،(٣) تقدم تخريجه.

(٤) فتح البارى (١١/ ٥٤٥).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأضاحى (١١/١٠٨ - النووى) عن عبد الرحمن بن سمرة به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٧١١ - بتخريجنا).

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فيما سبق، وابن ماجه (٢٠٩٥).

ومنه الحديث الآخر «طاغية دوس» أى صنمهم، سمى باسم المصدر لطغيان الكفار بعبادته لكونه السبب فى طغيانهم، وكل من جاوز الحد فى تعظيم أو غيره فقد طغى، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾.

وأما الطواغيت فهو جمع طاغوت وقد تقدم بيانه.

ويجوز أن يكون الطواغى مرخمًا من الطواغيت بدون حرف النداء على أحد الآراء، ويدل عليه مجىء أحد اللفظين موضع الآخر فى حديث واحد، ولذلك اقتصر المصنف على لفظ الطواغيت لكونه الأصل وعطفه على اللات والعزى لاشتراك الكل فى المعنى، وإنما أمر الحالف بذلك بقول لا إله إلا الله لكونه تعاطى صورة تعظيم الصنم حيث حلف به.

قلت: وتقدم ذلك فى أول الكتاب فصل «من سمى من عبد من دون الله من الأولياء وغيرهم طواغيت.

هل من حلف باللات أو غيرها علية كفارة؟!

قال جمهور العلماء: من حلف باللات والعزى أو غيرهما من الأصنام أو قال إن فعلت كذا فأنا يهودى أو نصرانى أو برئ من الإسلام أو من النبى ﷺ لم تنعقد يمينه وعليه أن يستغفر الله ولا كفارة عليه ويستحب أن يقول لا إله إلا الله.

وعن الحنفية تجب الكفارة إلا فى مثل قوله أنا مبتدع أو برئ من النبى ﷺ، واحتج بإيجاب الكفارة على المظاهر مع أن الظهار منكر من القول وزور كما قال الله تعالى والحلف بهذه الأشياء منكر.

وتعقب بهذا الخبر لأنه لم يذكر فيه إلا الأمر بلا إله إلا الله ولم يذكر فيه كفارة والأصل عدمها حتى يقام الدليل.

وأما القياس على الظهار فلا يصح لأنهم لم يوجبوا فيه كفارة الظهار واستثنوا أشياء لم يوجبوا فيها كفارة أصلاً مع أنه منكر من القول.

وقال النووى فى «الأذكار»: الحلف بما ذكر حرام تجب التوبة منه، وسبقه إلى ذلك الماوردى وغيره ولم يتعرضوا لوجوب قول لا إله إلا الله وهو ظاهر الخبر وبه جزم ابن درباس فى «شرح المهذب».

وقال البغوى فى «شرح السنة» **تبعًا للخطابى**: فى هذا الحديث دليل على ان الاكفار على من حلف بغير الإسلام وان أثم به لكن يلزمه التوبة لأنه ﷺ أمره بكلمة التوحيد فأشار إلى أن عقوبته تختص بذنبه ولم يوجب عليه فى ماله شيئًا، وإنما أمره بالتوحيد لأن الحلف باللات والعزى يضاهى الكفار فأمره أن يتدارك بالتوحيد.

هل ينعقد يمين من حلف بالأباء؟ وهل عليه كفارة؟

قال ابن حجر(*): وفيه أن من حلف بغير الله مطلقًا لم تنعقد يمينه سواءكان المحلوف به يستحق التعظيم لمعنى غير العبادة كالأنبياء والملائكة والعلماءوالصلحاءوالملوك والآباء والكعبة، أو كان لا يستحق التعظيم كالآحاد، أو يستحق التحقير والإذلال كالشياطين والأصنام وسائر من عبد من دون الله، واستثنى بعض الحنابلة من ذلك الحلف بنبينا محمد ﷺ فقال: تنعقد باليمين وتجب الكفارة بالحنث، فاعتل بكونه أحد ركني الشهادة، التى لا تتم إلا به. اهـ.

وتقدم كلام ابن تيمية فى الحلف بالنبى، ورد من قال بجواز ذلك. ونقله ابن حجر دون غرو إليه. والله أعلم.

وأطلق ابن العربى نسبته لمذهب أحمد وتعقبه بأن الأيمان عند أحمد لا تتم إلا بفعل الصلاة فيلزمه أن من حلف بالصلاة أن تنعقد يمينه ويلزمه الكفارة إذا حنث، ويمكن الجواب عن إيراده والانفصال عما ألزمهم به.

وفيه الرد على من قال إن فعلت كذا فهو يهودى أو نصرانى أو كافر أنه ينعقد يمينًا ومتى فعل تجب عليه الكفارة،وقد نقل ذلك عن الحنفية والحنابلة، ووجه الدلالة من الخبر أنه لم يحلف بالله ولا بما يقوم مقام ذلك.

وفيه أن من قال أقسمت لأفعلن كذا لا يكون يمينًا، وعند الحنفية يكون يميناً وكذا قال مالك وأحمد لكن بشرط أن ينوى بذلك الحلف بالله وهو متجه، وقد قال بعض الشافعية : إن قال على أمانة الله لأفعلن كذا وأراد اليمين أنه يمين وإلا فلا .

وقال ابن المنذر: اختلف أهل العلم فى معنى النهى عن الحلف بغير الله، فقالت طائفة هو خاص بالأيمان التى كان أهل الجاهلية يحلفون بها تعظيمًا لغير الله تعالى كاللات والعزى والآباء، فهذه يأثم الحالف بها ولا كفارة فيها، وأما ما كان يؤول إلى تعظيم الله كقوله وحق النبى والإسلام والحج والعمرة والهدى والصدق والعتق ونحوها مما او به تعظيم الله والقرب إليه فليس داخلاً فى النهى، وممن قال بذلك أبو عبيد وطائفة ممن لقيناه، واحتجوا بما جاء عن الصحابة من إيجابهم على الحالف بالعتق والهدى والصدقة، ما أوجبوه مع كونهم رأوا النهى المذكور، فدل على أن ذلك عندهم ليس على عمومه، إذ لو كان عاماً لنهوا عن ذلك ولم يوجبوا فيه شيئًا انتهى.

وتعقبه ابن عبد البر بأن ذكر هذه الأشياء وإن كانت بصورة الحلف فليست يمينًا فى الحقيقة وإنما خرج عن الاتساع، ولا يمين فى الحقيقة إلا بالله، وقال المهلب: كانت

(*) فتح البارى (١١/ ٥٤٣).

العرب تحلف بآبائها وآلهتها فأراد الله نسخ ذلك من قلوبهم لينسيهم ذكر كل شيءسواه، ويبقى ذكره، لأنه الحق المعبود فلا يكون اليمين إلا به، والحلف بالمخلوقات في حكم الحلف بالآباء، **وقال الطبري**: في حديث عمر - يعني حديث الباب- أن اليمين لا تنعقد إلا بالله وأن من حلف بالكعبة أو آدم أو جبريل ونحو ذلك لم تنعقد يمينه ولزمه الاستغفار لإقدامه على ما نهى عنه ولا كفارة في ذلك، وأما ما وقع في القرآن من القسم بشيء من المخلوقات **فقال الشعبي**: فالخالق يقسم بما شاء من خلقه والمخلوق لا يقسم إلا بالخالق.

قال: ولأن أقسم بالله فأحنث أحب إلي من أن أقسم بغيره فأبر.

وجاء مثله عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر. ثم أسند عن مطرف عن عبد الله أنه قال: إنما أقسم الله بهذه الأشياء ليعجب بها المخلوقين ويعرفهم قدرته لعظم شأنها عندهم ولدلالتها على خالقها.

وقد أجمع العلماء على من وجبت له يمين على آخر في حق عليه أنه لا يحلف له إلا بالله، فلو حلف بغيره وقال نويت رب المحلوف به لم يكن ذلك يمينًا **وقال ابن هبيرة في كتاب «الإجماع»**: أجمعوا على أن اليمين منعقدة بالله وبجميع أسمائه الحسنى وبجميع صفات ذاته كعزته وجلاله وعلمه وقوته وقدرته، واستثنى أبو حنيفة علم الله فلم يره يمينًا وكذا حق الله، واتفقوا على أنه لا يحلف بمعظم غير الله كالنبي، وانفرد أحمد في رواية فقال تنعقد.

وقال عياض: لا خلاف بين فقهاء الأمصار أن الحلف بأسماء الله وصفاته لازم إلا ما جاء عن الشافعي، من إشتراط فيه اليمين من الحلف بالصفات وإلا فلا كفارة وتعقب إطلاقه ذلك عن الشافعي وإنما يحتاج إلى النية عنده ما يصح إطلاقه عليه سبحانه وتعالى على غيره، وأما ما لا يطلق في معرض التعظيم شرعًا إلا عليه تنعقد اليمين به وتجب الكفارة إذا حنث كمقلب القلوب وخالق الخلق ورازق كل حي ورب العالمين وفالق الحب وبارئ النسمة، وهذا في حكم الصريح كقوله والله ، وفي وجه لبعض الشافعية أن الصريح الله فقط، ويظهر أثر الخلاف فيما لو قال قصدت غير الله هل ينفعه في عدم الحنث، والمشهور عن المالكية التعميم، وعن أشهب التفصيل في مثل وعزة الله إن أراد التي جعلها بين عباده فليست بيمين، وقياسه أن يطرد في كل ما يصح إطلاقه عليه وعلى غيره، وقال به ابن سحنون منهم في عزة الله، وفي «العتبية» أن من حلف بالمصحف لا تنعقد، واستنكره بعضهم ثم أولها على أن المراد إذا أراد جسم المصحف، والتعميم عند الحنابلة حتى لو أراد بالعلم والقدرة المعلوم والمقدور انعقدت والله أعلم. اهـ.

وَعَنْ حُذَيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لاَ تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وشَاءَ فُلاَنَ وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلاَنَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[1].

الحكمة من ذكر انغمار بعد الحلف باللات

وقال الطيبي: الحكمة في ذكر القمار بعد الحلف باللات أن من حلف باللات وافق الكفار في حلفهم فأمر بالتوحيد، ومن دعا إلى المقامرة وافقهم في لعبهم فأمر بكفارة ذلك بالتصدق.

وقال النووي: فيه أن من عزم على المعصية حتى استقر ذلك في قلبه أو تكلم بلسانه أنه تكتبه عليه الحفظة، كذا قال، وفي أخذ هذا الحكم من هذا الدليل وقفة.



قوله: وعن حذيفة - رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لاتقولوا ما شاء الله وشاء فلان... الحديث.

قال سليمان آل الشيخ[2]: هذا الحديث رواه أبو داود، كما قال المصنف، ورواه أحمد وابن أبي شيبة، والنسائي، وابن ماجة، والبيهقي وله علة وله شواهد، وهو صحيح المعنى بلا ريب، وسيأتي الكلام على معناه في باب ما شاء الله وشئت إن شاء الله. اهـ.

قوله: «لاتقولوا ما شاء الله وشاء فلان..

وقال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: وذلك لأنَّ المعطوف بالواو يكون مَساويًا للمعطوف عليه، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع، فلا تَقْتَضي ترتيبًا، ولا تعقيبًا، وتَسْوية المخلوق بالخالق شِرْكٌ، إن كان في الأصغر - مثل هذا - فهو أصغر-، وإن كان في الأكبر، فهو أكبر. كما قال الله تعالى عنهم في الدار الآخرة: ﴿**تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[4] بخلاف المعطوف بـ «ثم» فإنَّ المعطوف بها يكون مُتَرَاخيًا عن المعطوف عليه بمهلة. فلا مَحْذُور لكونه صار تابعًا. اهـ.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣٠٤)، وأبو داود في الأدب/ باب لايقال: خبث نفسي (٤/ ٢٩٧/ ٤٩٨٠)، والنسائي في «الكبرى» في اليوم والليلة (٦/ ٢٤٥/ ١٠٨٢١)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ٢١٦). من طريق شعبة، عن منصور، عن عبد الله بن يسار، عن حذيفة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٤٨ - بتخريجنا) وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٦٨) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٤٨). (٣) فتح المجيد (٢/ ٥٧٨).

(٤) الشعراء: ٩٧ - ٩٨.

قال ابن عثيمين[1]: قوله فى حديث حذيفة رضى الله عنه: «**لاتقولوا**».

«**لا**»: ناهية، ولهذا جُزِم الفعل بعدها بحذف النون.

قوله: «**ما شاء الله وشاء فلان**».

والعلة فى ذلك أن الواو تقتضى تسوية المعطوف بالمعطوف عليه؛ **فيكون القائل**: ما شاء الله وشئت مُسَوِّياً مشيئة الله بمشيئة المخلوق، وهذا شرك، ثم إن اعتقد أن المخلوق أعظم من الخالق، أو أنه مساو له، فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه أقل؛ فهو شرك أصغر.

قوله: «ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان».

لَمَّا نهى عن اللفظ المحرم بيَّن لفظ المباح؛ لأن «**ثم**» للترتيب والتراخى، فتفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه.

أما بالنسبة لقوله: «**ما شاء الله فشاء فلان**»؛ فالحكم فيها أنها مرْتبة بين مرْتبة (الواو) ومَرْتبة (ثم)؛ فهى تختلف عن (ثم) بأن (ثم) للتراخى والفاء للتعقيب، وتوافق (ثم) بأنها للترتيب؛ فالظاهر أنها جائزة، ولكن التعبير بـ (ثم) أولى؛ لأنه اللفظ الذى أرشد إليه النبى ﷺ، ولأنه أَبْيَن فى إظهار الفرق بين الخالق والمخلوق.

● **ويستفاد من هذا الحديث:**

١ـ إثبات المشيئة للعبد؛ لقوله: «**ثم شاء فلان**»، فيكون فيه رد على الجبرية حيث قالوا: إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار.

٢ـ أنه ينبغى لمن سَدَّ على الناس باباً مُحَرّماً أن يفتح لهم الباب المباح؛ لقوله: «**ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**»، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا**﴾، لَمَّا نهاهم عن قول راعنا؛ قال: ﴿**وَقُولُوا انظُرْنَا**﴾، وكذلك النبى ﷺ لما جىء له بتمر جيد وأخبره الآتى به أنه أخذ الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة؛ قال: «**لاتفعل، ولكن بِعْ الجمع بالدراهم، ثم اشتر بالدراهم جَنِيباً**»[2]؛ أى: تمراً جيداً، فأرشده إلى الطريق المباح حين نهاه عن الطريق المحرم.

---

(١) القول المفيد (٢/ ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩).

(٢) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٢٢٠١)، ومسلم فى المساقاة (٤/ ١١/ ٢١) وانظر كتابنا فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال (١٢٥).

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ «أَنَّهُ يَكْرَهُ: أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللهِ ثُمَّ بِكَ»، قَالَ «وَيَقُولُ لَوْلاَ اللهُ ثُمَّ فُلاَنٌ، ولاَ تَقُولُوا لَوْلاَ اللهُ وَفُلاَنٌ»(*).

قلت: وكقوله من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله ومن قال لأخيه تعالى اقامرك فليتصدق وتقدم وغيره.

وتقدم أن هذا لايلزم على إطلاقه بل محله إذا كان هناك بديل مباح كما يفهم من كلام الشيخ هنا حفظه الله وإلا سيقع بل وقع مالا يحمد عقبه. اهـ.

قال ابن عثيمين: وفي هذا فائدتان عظيمتان:

الأولى: بيان كمال الشريعة وشمولها، حيث لم تَسُدَّ على الناس باباً إلا فتحت لهم ما هو خير منه.

والثانية: التسهيل على الناس ورفع الحرج عنهم؛ فعامل الناس بهذا ما استطعت، كلما سددت عليهم باباً ممنوعاً؛ فافتح لهم من المباح ما يغني عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً حتى لايقعوا في الحرج أهـ.

قوله: «وجاء عن ابراهيم النخعي أنه يكره.... الأثر.

قال سليمان آل الشيخ[1]: هذا الأثر رواه المصنف غير معزو، وقد رواه عبدالرزاق، وابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت» عن مغيرة قال: كان إبراهيم يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويرخص أن يقول: أعوذ بالله ثم بك. ويكره أن يقول: لولا الله وفلان، ويرخص أن يقول: لولا الله ثم فلان. لفظ ابن أبي الدنيا، وذلك ـ والله أعلم ـ لأن الواو تقتضي مطلق الجمع؛ فمنع منها للجمع لئلا توهم الجمع بين الله وبين غيره. كما منع من جمع اسم الله، واسم رسوله في ضمير واحد. وثم إنما تقتضي الترتيب فقط، فجاز ذلك لعدم المانع، ومطابقة الحديثين والأثرين لترجمة ظاهرة على ما فسر به ابن عباس رضي الله عنه الآية.

قال ابن عثيمين[2]: قوله: **«عن إبراهيم النخعي»**.

(*) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/ ٢٧/ ١٩٨١١) عن معمر، عن مغيرة، عن إبراهيم فذكره. وأنظر «فتح المجيد» ٧٦٨ بتخريجنا.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٤٨).

(٢) القول المفيد (٢/ ٣٣٩).

من فقهاء التابعين، لكنه قليل البضاعة فى الحديث؛ كما ذكر ذلك حماد بن زيد.

قلت: وقال الشعبى: ما ترك أحداً أعلم منه.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(١): وقد تقدَّم الفرق بين ما يَجُوز من ذلك. وهذا إنَّما هو فى الحى الحاضر الذى له قدرة وسَبَبٌ فى الشَّىء. وهو الذى يجرى فى حقِّه مثل ذلك. وأما فى حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم، ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر. فلا يُقال فى حَقهم شيء من ذلك. فلا يَجُوز التُّعلق عليه بشىء ما، بوجه من الوجوه. والقرآن يُبيِّنُ ذلك ويُنَادى بأنه يجعلهم آلهة إذا سُئلوا شيئاً من ذلك، أو رغب إليهم أحد بقوله، أو عمله الباطن أو الظاهر. فمن تدبَّر القرآن وَرُزِقَ فَهْمهُ صَار على بَصِيرة من دينه. وبالله التَّوفيق.

والعلم لا يؤخذ قَسْراً، وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم فى قوله:

أخِى، لَنْ تَنَالَ العِلْمِ إلاَّ بِستَّةٍ ... سَأُنْبِيكَ عَن تَفْصِيلها بِبَيَانِ

ذَكَاءٍ، وحِرْصٍ، واجْتِهَادٍ، وبُلْغَةَ ... وَإرْشَادِ أستاذ، وطول زمان

وأعظم من هذه السِّتة: من رزقه الله تعالى الفَهم والحفظ، وأتْعَب نفسه فى تَحْصيله، فهو الموفق لمن شاء من عباده، كما قال تعالى: **﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾**(٢).

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمة الله تعالى حيث قال:

والجَهْلُ دَاءٌ قاتل وشفاؤه ... أمْرَانِ فى التَّرْكِيب مُتَّفِقَانِ

نَصٌ مِنَ القُرآنِ، أَوْ مِن سُنَّةٍ ... وَطَبِيب ذَاكَ العَالِم الربَّانِى

والعِلْمُ أقْسَامٌ ثَلاثٌ، مَالَهَا ... مِن رَابعٍ، والحَقُّ ذُو تِبْيَانِ

عِلْمًا بِأَوْصَافِ الإلهِ وفِعْلِه ... وَكَذَلك الأَسْمَاءُ لِلرَّحمَنِ

---

(١) فتح المجيد (٢/ ٥٧٩، ٥٨٠).

(٢) النساء: ١١٣.

والأمر والنَّهى الَّذى هو دِينُه ... وَجَزاؤُه يوم المَعادِ الثَّانِى
والكل فى القرآن والسنن التى ... جَاءَت عن المَبْعُوث بالقُرآنِ
والله ما قَالَ امْرُؤٌ مُتَحَذْلِقٌ ... بِسِواهُمَا إلاَّ مِن الهَذَيَانِ[1]

قال ابن عثيمين[2]: قوله: «يكره أعوذ بالله وبك».

العِيَاذ: الاعتصام بالمستعاذ به عن المكروه، واللِّياذ بالشخص: هو اللجوء إليه لطلب المحبوب، قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أأمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لايجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وهذان البيتان يخاطب بهما رجلاً، لكن كما قال بعضهم: هذا القول لاينبغى أن يكون إلا لله.

قلت: وتقدم بأبسط من ذلك فى باب الاستعاذه بغير الله.

وقوله: **«أعوذ بالله وبك».**

هذا مُحَرَّم؛ لأنه جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضى التسوية وهو الواو.

ويجوز بالله ثم بك؛ لأن «ثم» تدل على الترتيب والتراخى، فإن قيل: سبق أن من الشرك الاستعاذة بغير الله، وعلى هذا يكون قوله: أعوذ بالله ثم بك محرماً.

أجيب: أن الاستعاذة بمن يقدر على أن يعيذك جائزة؛ لقوله ﷺ فى «صحيح مسلم» وغيره: «من وجد ملجأ، فَلْيَعُذْ به»، لكن لو قال: أعوذ بالله ثم بفلان. وهو ميت؛ فهذا شرك أكبر لأنه لايقدر على أن يعيذك، وأما استدلال الإمام أحمد

---

(١) الكافية الشافية (٢/ ٢٤٠) بشرح هراس.

(٢) القول المفيد (٢/ ٤٠٠، ٤٠١).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأُولى: تَفْسِيرُ آيَةِ البَقَرةِ في الأَنْدَاد.

الثانية: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يُفَسِّرُونَ الآيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشِّرْكِ الأَكْبَرِ أَنَّهَا تَعُمُّ الأَصْغَرَ.

على أن القرآن غير مخلوق بقوله ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق**»[1]، ثم قال رحمه الله: والاستعاذة لاتكون بمخلوق، فيحمل كلامه على أن الاستعاذة بكلام لاتكون بكلام مخلوق بل بكلام غير مخلوق، وهو كلام الله، والكلام تابع للمتكلم به، إن كان مخلوقاً، فهو مخلوق، وإن كان غير مخلوق؛ فهو غير مخلوق. اهـ.

قلت: وتقدم في باب الاستعاذه ذلك بتفصيله وتدليله فراجعه إن شئت.

قال ابن عثيمين[2]:

قوله: فيه مسائل:

● **الأولى**: **تفسير آية البقرة في الأنداد.**

وقد سبق.

قلت: وهي قوله تعالى: ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ وليس كما ظن البعض أنها قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا**﴾ كما تقدم.

● **الثانية**: **أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.**

لأن قوله تعالى: ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ نازلة في الأكبر؛ لأن المُخَاطَبَ بها هم المشركون، وابن عباس فسرها بما يقتضي الشرك الأصغر؛ لأن الند يشمل النظير المساوي على سبيل الإطلاق أو في بعض الأمور.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد (٢/٤٠١، ٤٠٢).

الثالثة: أَنَّ الحَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ.

الرابعة : أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ صَادِقاً فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ اليَمِينِ الغَمُوسِ.

الخامسة: الفَرْقُ بَيْنَ الواوِ و(ثُمَّ) فِي اللَّفْظِ.

قلت: أو لأن الشرك الأكبر يشمل الأصغر كما تقدم.

- **الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.**

لحديث ابن عمر رضي الله عنهما.

- **الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً؛ فهو أكبر من اليمين الغموس.**

واليمين الغموس عند الحنابلة أن يحلف بالله كاذباً، وقال بعض العلماء ـ وهو الصحيح ـ: أن يحلف بالله كاذباً ليقتطع بها مال امرىء مسلم.

- **الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ.**

لأن الواو تقتضي المساواة؛ فتكون شركاً، وثم تقتضي الترتيب والتراخي؛ فلا تكون شركاً. اهـ.



٤٢ بابٌ
ما جاءَ فيمن لم يقنع بالحلف بالله

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال الفقير: هى أن الباب الماضى إنما عقده المصنف لـلحض على تعظيم الله بالحلف به والنهى عن الحـلف بغيره، فإذا امتثل العـبد لذلك فحلف بالله معظـمًا له، فلابد من الاقتناع به، وبحلفه على هذا الوجه، ذلـك لأن عدم الاقتناع به والحال هذه، عدم تعظيم لله ولحكمه، فلهذا نـاسب أن يذكر المصنف هذا الباب بعد الـباب الماضى، أو لعله أراد أن يؤكد على النهـى عن الحلف بغير الله ويرغب فى الحلف بـالله بأنه أدعى أن يصدق فلا تحلف إلا به، والله أعلم. . .

● **مناسبة الباب للتوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[1]: ما جاء فيمن لم يقنـع بالحلف بالله ، أى من الوعيد، لأن ذلك يدل علـى قلة تعظيـمه لجناب الربوبـية، إذ القلب المـمتلئ بمعرفة عـظمة الله وجلاله وعزته وكبريائه لا يفعل ذلك. اهـ.

وقال عبـد الله بن جار الله[2]. هى أن عدم القـناعة بالحلف بالله وعـدم الرضا به ينافى كمال التوحيد، لأن ذلك استخفافًا بالله وتنقص له ا. هـ.

قال ابن عثيمين[3]: إن الاقتناع بالحلف بالله من تـعظيم الله، لأن الحالف أكد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين، وهو تعظيم المحلوف به، فيكون من تعظيم المحلوف به أن يُصدِّق ذلك الحالف وعلى هذا يكون عدم الاقتنـاع بالحلف فيه شيء نقص تعظيم الله، وهذا ينافى كما التوحيد. اهـ

● **شرح الترجمة، وماذا أراد المصنف بها:**

قال سليمان آل الشيخ[4]: (ماجاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله)أى: من الوعيد . اهـ.

وقال حامد بن محمد[5]: ما قدر الله حق قدره، واستوجب الوعيد الشديد. اهـ.

وقال السعدى[6]: ويراد بهـذا إذا توجهت الـيمين علـى خصمك وهـو معروف بالصدق أو ظاهره الخير والعـدالة، فإنه يتعين عليك الرضا والقناعـة بيمينه، لأنه ليس

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٤٩) .

(٢) الجامع الفريد (١٦٥)

(٣) القول المفيد (٢/٣٠٤).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤٤٩)

(٥) فتح الله الحميد المجيد (٣٩٤)

(٦) القول السديد (١٠٨، ١٠٩).

عندك يقين يعارض صدقه، وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم، وإجلاله يوجب عليك أن ترضى بالحلف بالله، وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرض إلا الحلف، بالطلاق، أو دعاء الخصم على نفسه بالعقوبات، فهو داخل الوعيد، لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله ، واستدراك على حكم الله ورسوله.

وأما من عُرف منه الفجور، والكذب فإذا حلف على ما تيقن كذبه فيه فإنه لا يدخل تكذيبه فى الوعيد للعلم بكذبه، وأنه ليس فى قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلى يمينه فتعين إخراج هذا النوع من الوعيد، لأن حالته متيقنة. والله أعلم. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله[1]: بنحو ما تقدم:

وقال ابن باز[2]: أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان وجوب القنع باليمين ، وإن كان فى نفسه شيء من صدق الحالف، أو علم كذبه، أو تهمته بذلك، ومع ذلك فعليه أن يقنع بالحكم الشرعى ويرضى به، لأنه ليس للناس، إلا ما ظهر، وكذلك ليس للقاضى إلا ما ظهر بشهادة العدول أو يمين الخصم عند عدم البينة. اهـ.

وقال ابن عثيمين[3]: بنحو قول السعدى، حيث قال: والاقتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية، فإنه يجب الرضا بالحلف بالله فيما إذا توجهت اليمين على المدعى عليه فحلف، فيجب الرضا بهذا اليمين بمقتضى الحكم الشرعى.

الثانى: أن يكون ذلك من الناحية الحسية، فإن كان الحالف موضع صدق وثقة، فإنك ترضى بيمنيه، وإن كان غير ذلك، فلك أن ترفض الرضا بيمينه، ولهذا لما قال النبى ﷺ لحُويِّصة ومُحيِّصة: «**تبرئكم يهود بخمسين يمينًا**» قالوا: كيف نرضى يا رسول الله بأيمان يهود ؟!»[4] فأقرهم النبى ﷺ على ذلك . اهـ.

---

(١) الجامع الفريد (١٦٥)

(٢) التعليق المفيد (٢١٣).

(٣) القول المفيد (٢/٤٠٣)

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٤٢)، ومسلم فى القسامة (٦/١٥٨/١) عن رافع بن خديج، وسهل بن أبى حثمة.

عَن ابنِ عُمَرَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِالله، فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِالله، فَلْيَرضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ، فَلَيْسَ مِنَ الله) رَوَاهُ ابنُ مَاجَه بِسَنَدٍ حَسَنٍ(١).

قوله: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم....» الحديث.

قال ابن حجر فى الفتح (٢): وسنده حسن. اهـ.

قلت: ولعل المصنف حسنه تبعًا له

وقال سليمان آل الشيخ(٣): هذا الحديث رواه ابن ماجه فى «سننه» وترجم عليه من «حلف له بالله فليرض» حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة، ثنا أسباط بن محمد بن عجلان، عن نافع عن ابن عمر، قال: سمع النبى ﷺ رجلاً يحلف بأبيه فقال: «**لا تحلفوا بآبائكم**»(٤) الحديث، وهذا إسناد جيد على شرط مسلم عند الحاكم وغيره، فإنه متصل ورواته ثقات.

بل قد روى مسلم عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر أن النبى ﷺ كان يأتى قباء راكبًا وماشيًا، وأصل هذا الحديث فى «الصحيحين» عن ابن عمر بلفظ «**لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»(٥) وليس فيه هذه الزيادة. اهـ.

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال عبد الله بن جار الله(٦): والشاهد من الحديث للباب قوله: «**ومن لم يرض فليس من الله**» اهـ.

وقال القرعاوى(٧): حيث دل الحديث على وجوب رضا من حلف له بالله. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الكفارات / باب: من حلف بالله فليرض (١/ ٦٧٩/ ح١٠١) عن ابن عمر، وقال فى «الزوائد»: رجال إسناده ثقات.

وانظر «فتح المجيد» (٧٦٩) بتخريجنا.

(٢) فتح البارى (١١/ ٥٤٤)

(٣) تيسير الله العزيز الحميد (٣٧١)

(٤) تقدم تخريجه

(٥) تقدم تخرجه

(٦) الجامع الفريد (١٦٥، ١٦٦).

(٧) الجديد (٣٧١)

● **مناسبة الحديث للتوحيد:**

قال القرعاوى(١): حيث دل الحديث على وجوب رضـا من حُلف له بالله لأن ذلك تعظيم لله وذلك من كمال التوحيد ا.هـ.

● **شرح الحديث:**

قوله: [عن ابن عمر] تقدمت ترجمته.

قوله: «لا تحلفوا بآبائكم»

قال سليمان آل الشيخ(٢): تقدم ما يتعلق به فى الباب قبله.اهـ.

قال ابن باز(٣): نهى عن الحلف بالآباء والأمهات وغيـرهم وكانوا يحلفون بهم فى أول الإسلام وفى أول الهجرة إلى المدينة ثم نهى عنه. اهـ

قال ابن عثيمين(٤): قوله فى الحديث: «**لا تحلفوا**».

«**لا**» : ناهية، ولهذا جُزم الفعل بعدها بحذف النون، و«آباءكم»: جمع أب، ويشمل الأب والجد، وإن علا فلا يجوز الحلف بهم، لأنه شرك، وقد سبق بيانه.اهـ.

قوله: «من حلف بالله فَليصْدُق».

قال سليمان آل الشيخ(٥): أى وجوبًا، لأن الصدق واجب، ولـو لم يحلف بالله فكيف إذا حلف به؟ وأيـضًا فالكذب حرام لو لم يؤكد الخبر بـاسم الله فكيف، إذا أكده باسم الله؟

قال حامد بن محمد(٦): لأنه حلف بالله العظيم الجبار الـقهار الذى ليس كمثله شىء فكيف يجترئ على الكذب به ا.هـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٧): هذا مما أوجبه الله على عبـاده وحضهم عليه فى كتابه، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾.

---

(١) الجديد (٣٧١)

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٤٩.

(٣) التعليق المفيد٣/ ٢

(٤) القول المفيد ٢/ ٤٠٤

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٤٩ .

(٦) فتح الله الحميد المجيد (١٣٩٤).

(٧) فتح المجيد ٢/

وقال: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ وقال: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وهو حال أهل البر، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله(١): يفيد الحديث - الصدق في اليمين، ووجوب الرضا على المحلوف له بالله. اهـ.

قال ابن باز(٢): أي يجب على من حلف بالله أن يصدق ويتحراه ويحذر الكذب، ولهذا قال النبي ﷺ **«من حلف على يمين وهو كاذب لقى الله تعالى وهو عليه غضبان»**(٣) فيجب الحذر من الحلف بالله كاذبًا خاصة في الخصومات.

واقتطاع حق المسلم باليمين الكاذبة، ولهذا ورد في الحديث الآخر: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله عليه النار وحرم عليه الجنة**»(٤) قالوا: وإن كان شيئًا يسيرًا، قال: «**وإن كان قدر النواة**» رواه مسلم.

فالواجب الحذر من ذلك، وأن لا يأخذ حق أخيه المسلم إلا ببينة شرعية ووجه شرعي، وإذا طلب اليمين فليحذر الكذب. اهـ.

قال ابن عثيمين(٥): قوله: «**من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض**».

هنا أمران:

الأمر الأول: للحالف، فقد أُمِرَ أن يكون صادقًا، والصدق: هو الإخبار بما يطابق الواقع، وضده الكذب، وهو: الإخبار بما يخالف الواقع، فقوله: «**من حلف بالله فليصدق**» أي: فليكن صادقًا في يمينه، وهل يشترط أن يكون مطابقًا للواقع أو يكفي الظن؟

الجواب: يكفي الظن، فله أن يحلف على ما يغلب على ظنه، كقول الرجل للنبي ﷺ: والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني، فأقرَّه النبي ﷺ (٦).

(١) الجامع الفريد (١٦٥) (٢) التعليق المفيد ٢١٣.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٠/١٩١)، والنسائي في «الكبير» (٥٩٩٦).

(٤) [متفق عليه] أخرجه مسلم في الأيمان (٢/١٥٧- النووي) عن إياس بن ثعلبة به وانظر «رياض الصالحين» (٢١٦- بتخريجنا).

(٥) القول المفيد (٢/٤٠٤،٤٠٥).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٩٣٦)، مسلم في الصيام (٤/٢٤٠/٨١) عن أبي هريرة به.

الثاني: للمحلوف له، فقد أمر أن يرضى بيمين الحالف له.

فإذا قرنت هذين الأمرين بعضهما ببعض، فإن الأمر الثاني يُنَزَّل على ما إذا كان الحالف صادقًا، لأن الحديث جمع أمرين: أمرًا مُوجَّهًا للحالف، وأمرًا مُوَجَّهًا للمحلوف له، فإذا كان الحالف صادقًا، وجب على المحلوف له الرضا.

فإن قيل: إن كان صادقًا فإننا نصدقه، وإن لم يحلف؟

أجيب: أن اليمين تزيده توكيدًا. اهـ.

قوله: [ومن حلف له بالله فليرض]

قال سليمان آل الشيخ(١): أى: وجوبًا كما يدل عليه قوله: **«ومن لم يرض فليس من الله»** ولفظ ابن ماجة **«ومن لم يرض بالله فليس من الله»** وهذا وعيد كقوله تعالى: ﴿**فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ**﴾.

قال ابن كثير: أى: فقد برئ من الله، وهذا عام فى الدعاوى وغيرها، ما لم يفض إلى إلغاء حكم شرعى، كما تشهد عليه البينة الشرعية، فيحلف على تكذيبها فلا يقبل حلفه.

ولهذا لما رأى عيسى عليه السلام رجلاً يسرق فقال له: **«سَرَقْتَ؟** قال: كَلاَّ واللهِ الَّذِى لا إلهَ إلا هُوَ فَقَالَ عِيسَى: **آمَنْتُ بالله، وَكَذَّبْتُ عَيْنَى»** رواه البخارى(٢).

قال ابن حجر(٣): فى شرح حديث أبى هريرة فى الصحيح عن النبى ﷺ قال: **«رأى عيسى بن مريم رجلاً يَسرق، فقال له: أسَرَقتَ؟ قال كلا والله الذى لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذّبت عينى»** ووقع فى رواية مسلم **«وكذبت نفسى»** وفى رواية ابن طهمان **«وكذبت بصرى»** قال ابن التين: قال عيسى ذلك على المبالغة فى تصديق الحالف.

وأما قوله **«وكذبت عينى»** فلم يرد حقيقة التكذيب، وإنما أراد كذبت عينى فى غير هذا: قال ابن الجوزى وفيه بُعد.

وقيل: أراد بالتصديق والتكذيب ظاهر الحكم لا باطن الأمر، وإلا فالمشاهدة أعلى اليقين فكيف يكذب عينه ويصدق قول المدعى؟ ويحتمل أن يكون رآه مد يده إلى الشيء فظن أنه تناوله، فلما حلف له رجع عن ظنه.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٥٠). (٢) فتح البارى (٦/ ٥٦٤، ٥٦٥).

(٣) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٣٤٤٤)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ١٣٢/ ١٤٩) عن أبى هريرة به.

وقال القرطبي: ظاهر قول عيسى للرجل «سرقت» أنه خبر جازم عما فعل الرجل من السرقة لكونه رآه أخذ مالاً من حرز في خفية وقول الرجل «كلا» نفى لذلك ثم أكده باليمين وقول عيسى «**آمنت بالله وكذبت عينى**» أي صدقت من حلف بالله. وكذبت ما ظهر لي من كون الأخذ المذكور سرقة فإنه يحتمل أن يكون الرجل أخذ ما له فيه حق، أو ما أذن له صاحبه في أخذه، أو أخذه ليقلبه وينظر فيه ولم يقصد الغصب والاستيلاء.

قال: ويحتمل أن يكون عيسى كان غير جازم بذلك، وإنما أراد استفهامه بقوله: **سرقت**؟ وتكون أداة الاستفهام محذوفة وهو سائغ كثير انتهى.

واحتمال الاستفهام بعيد مع جزمه ﷺ بأن عيسى رأى رجلاً يسرق، واحتمال كونه يحل له الأخذ بعيد أيضًا بهذا الجزم بعينه، والأول مأخوذ من كلام القاضي عياض.

وقد تعقبه ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان» فقال: هذا تأويل متكلف، والحق أن الله كان في قلبه أجل من أن يحلف به أحد كاذبًا ، فدار الأمر بين تهمة الحالف وتهمة بصره فرد التهمة إلى بصره ، كما ظن آدم صدق إبليس لما حلف له أنه له ناصح.

قلت يعني ابن حجر: وليس بدون تأويل القاضي في التكلف، والتشبيه غير مطابق والله أعلم.

واستدل به على درء الحد بالشبهة، وعلى منع القضاء بالعلم.

والراجح عند المالكية والحنابلة منعه مطلقًا، وعند الشافعية جوازه إلا في الحدود وهذه الصورة من ذلك اهـ.

وقال سليمان[1] آل الشيخ بعد عرض كلام ابن القيم الذي نقله ابن حجر: هذا القول أحسن من الأول وهو الصواب إن شاء الله تعالى، وحدثت عن المصنف أنه حمل حديث الباب على اليمين في الدعاوى، كمن يتحاكم عند الحاكم فيحلف على خصمه باليمين، فيحلف فيجب عليه أن يرضى .اهـ.

قلت: وفي الحديث معنى قوله ﷺ «**المؤمن غرٌّ كريم**»[2].

قال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه

(1) تيسير العزيز الحميد (٤٥٠) (3) فتح المجيد ٢/ ٥٨٢.

(2) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠/ ٢٩٤) عن أبي هريرة به.

إلا اليمين فأحلفه، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا، وأما إذا كان فيما يجرى بين الناس مما قد يقع فى الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك، فهذا من حق المسلم على المسلم أن يقبل منه إذا حلف له معتذرًا أو متبرئًا من تهمه، ومن حقه عليه: أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه، كما فى الأثر عن عمر رضى الله عنه: «ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شرًا وأنت تجد لها فى الخير محملاً»

قال ابن باز(1): هذا هو الشاهد أى ليرضى وليقنع وليس له إلا هذا لأنه هو الذى فرط ولم يشهد ولم يكتب ولم يجعل بينه فعليه أن يلوم نفسه وليس له إلا الحكم الشرعى باليمين لتفريطه وسوف يعطيه الله حقه يوم القيامة. اهـ

قوله: «ومن لم يرض، فليس من الله».

تقدم قول سليمان آل الشيخ أن هذا كقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ وقول ابن كثير أى برئ من الله.

قال ابن باز(2): وعيد شديد على من لم يرض بحكم الله ولم يطمئن إليه. اهـ

قال ابن عثيمين(3): أى: من لم يرض بالحلف بالله إذا حلف له، فليس من الله، وهذا تبرؤ منه يدل على أن عدم الرضا من كبائر الذنوب، ولكن لابد من ملاحظة ما سبق، وقد أشرنا أن فى حديث القِسَامة دليلاً على أنه إذا كان الحالف غير ثقة، فلك أن ترفض الرضا به، لأنه غير ثقة، فلو أن أحدًا حلف لك، وقال: والله، أن هذه الحقيبة من خشب، وهى من جلد، فيجوز أن لا ترضى به لأنك قاطع بكذبه، والشرع لا يأمر بشىء يخالف الحس والواقع، بل لا يأمر إلا بشىء يستحسنه العقل ويشهد له بالصحة والحسن، وإن كان العقل لا يدرك أحيانًا مدى حسن هذا الشىء الذى أمر به الشرع، ولكن ليعلم علم اليقين أن الشرع لا يأمر إلا بما هو حسن، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فإذا اشتبه عليك حُسْن شىء من أحكام الشرع، فاتهم نفسك بالقصور أو بالتقصير، أما أن تتهم الشرع، فهذا لا يمكن، وما صح عن الله ورسوله، فهو حق وهو أحسن الأحكام.

ما يستفاد من الحديث

قال عبدالرحمن آل الشيخ: فيه: من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التى يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم، وذلك من أسباب اجتماع القلوب

(1 2) التعليق المفيد ٢١٣

(3) القول المفيد ٢/ ٤٠٥.

فيه مسائل

الأولى: النَّهْىُ عَنِ الحَلِفِ بالآبَاءِ.

الثانية: الأمْرُ للمَحْلُوفِ لَهُ باللهِ أنْ يَرْضَى.

الثالثة: وَعِيدُ مَنْ لَمْ يَرْضَ.

على طاعة الله، ثم إنه يدخل فى حُسن الخلق الذى هو أثقل ما يوضع فى ميزان العبد كما فى الحديث، وهو من مكارم الأخلاق.

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى: من القيام بحقوقه وحقوق عباده، فإدخال السرور على المسلمين وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم، فإن فيه من الضرر مالا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال ، وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور فى كتب الأدب وغيرها: فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغى العمل به منه، وترك ما يجب تركه من ذلك :. دل على وفور دينه وكمال عقله والله الموفق، والمعين لعبده الضعيف المسكين، والله أعلم. اهـ.

قال ابن باز[1]: كفارة من حلف كاذبًا أن يتوب ويرد الحق لأصحابه.

قوله: فيه مسائل:

قال ابن عثيمين[2]:

الأولى: النهى عن الحلف بالآباء.

لقوله: **«لا تحلفوا بآبائكم»** والنهى للتحريم.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

لقوله: **«ومن حلف له بالله فليرض»** وسبق التفصيل فى ذلك.

الثالثة: وعيد من لم يرض.

لقوله: **«ومن لم يرض، فليس من الله»**.

الرابعة: ولم يذكرها المؤلف : أمر الحالف أن يَصْدُق لأن الصدق واجب فى غير اليمين- فكيف باليمين؟!

وقد سبق أن من حلف على يمين كاذبة أنه آثم، وقال بعض العلماء: إنهما اليمين الغموس.

وأما بالنسبة للمحلوف له، فهل يلزمه أن يُصَدِّق أم لا؟

المسألة لا تخلو من أحوال خمس:

---

(١) التعليق المفيد ٢١٤.

(٢) القول المفيد ٢/ ٤٠٦، ٤٠٧..

الأولى: أن يعلم كذبه، فلا أحد يقول: إنه يلزم تصديقه.

الثانية: أن يترجح كذبه، فكذلك لا يلزم تصديقه.

الثالثة: أن يتساوى الأمران، فهذا يجب تصديقه.

الرابعة: أن يترجح صدقه، فيجب أن يصدق.

الخامسة: أن يعلم صدقه، فيجب أن يصدقه.

وهذا فى الأمور الحسية، أما الأمور الشرعية فى باب التحاكم، فيجب أن يرضى باليمين ويلتزم بمقتضاها، لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعى، وهو واجب. اهـ



باب (٤٣)

قول: ما شاء الله وشئت

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال ناصر السعدي(١): هذه الترجمة داخله فى الترجمة السابقة ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا**﴾. اهـ.

قلت:

ويظهر ذلك من قول النبى ﷺ «أجعلتنى لله ندًا» وسيأتى مراده بالسابقة أى قبل السابقة أو على اعتبار السابقة والتى قبلها فى موضوع واحد.

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد

قال ابن عثيمين (٢): أن قول (ماشاء الله وشئت)(٢) من الشرك الأكبرأو الأصغر؛ لأنه إن اعتقد أن المعطوف مساوٍ لله؛ فهوشرك أكبر، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به فى اللفظ؛ فهو أصغر، وقد ذكر بعض أهل العلم: أن من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله(٣):

مناسبة هذا الباب للتوحيد هى أن التشريك بين الله وبين خلقه فى المشيئة من الشرك الأصغر المنافى لكمال التوحيد. اهـ.

قلت: أو من الأكبر المنافى لأصله كما تقدم من قول ابن عثيمين.

ماذا أراد المصنف بالباب ؟

قال سليمان آل الشيخ (٤).

أى ماحكم التكلم بذلك، هل يجوز أم لا وإذا قلنا : لايجوز فهل هومن الشرك أم لا؟! أ.هـ.

قال ابن باز (٥): أراد المؤلف بيان حكم قول ما شاء الله وشاء فلان وما أشبه ذلك وأنه يجب أن يقول ثم فلان وهذا هو مقتضى التوحيد والإخلاص وفيه كمال التوحيد

---

(١) القول السديد ١٠٩

(٢) القول المفيد ٢/٤٠٨.

(٣) الجامع الفريد ١٦٧.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٥٠.

(٥) التعليق المفيد ٢١٥

عَنْ قُتَيْلَةَ: (أَنَّ يهُودِياً أَتى النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُم تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتُ، وَتَقُولُون. وَالكَعْبَةِ. فَأَمَرهُمُ النَّبيُّ ﷺ إِذَا أَرادوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وأَنْ يَقُولُوا: (مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتُ). رَوَاهُ النَّسَائى وَصَحَحهُ(١).

والبعد عن الشرك دقيقه وجليله فحكم هذا أنه لايجوز. فقول المؤلف باب كذا أى حكم كذا.

فالأكمل ماشاء الله وحده، وماشاء الله ثم شاء فلان وهذا جائز وماشاء الله وشاء فلان لايجوز وهو من الشرك الأصغر ومنقص للتوحيد وهكذا أمثاله. اهـ



قوله: عن قُتَيْلَةَ « أن يهوديًا أتى النبيﷺ فقال : ....».

قال سليمان الشيخ (٢): هذا الحديث رواة النسائى فى«السنن» و«اليوم والليلة» وهذا لفظه فى اليوم والليلة» أخبرنا يوسف بن عيسى قال : ثنا الفضل بن موسى قال : أنا مسعر عن معبد بن خالد، عن عبد الله بن يسار، عن قتيله امرأة من جهينة أن يهودياً أتى النبى ﷺ فقال: إنكم تنددون وتشركون تقولون : ما شاء الله وشئت وتقولون : والكعبة فأمرهم النبى عليه السلام إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا «**ورب الكعبة، ويقول أحدكم : ماشاء الله ثم شئت**» رواة عن أحمد بن حفص حدثنى أبى، حدثنى إبراهيم بن طهمان، عن مغيرة عن معبد بن خالد عن قتيله امرأة من جهينه قالت: دخلت يهوديه على عائشة فقالت : إنكم تشركون وساق الحديث ولم يذكر عبدالله بن يسار والمشهور ذكره وقد رواه ابن سعد، والطبرانى وابن منده وأشار ابن سعد إلى أنها ليس لها غيره. اهـ

● مناسبة هذا الحديث للباب وكتاب التوحيد:

قال القرعاوى(٣): دل الباب على أن قول ما شاء الله وشئت شرك أصغر.

---

(١) أخرجه النسائى فى الأيمان والنذور / باب الحلف بالكعبة (٦/٧ ـ السيوطى) .

من طريق يوسف بن عيسى، قال : ثنا الفضل بن موسى،قال ثنامسعر، عن معبد بن خالد، عن عبدالله بن يسار، عن قتيلة امرأ من جهينة ......فذكره.

وانظر كتابنا«فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال(١١) وانظر «فتح المجيد» (ح٧٧٢) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٥١ .

(٣) الجديد ٣٧٣.

قوله «عن قتيلة»

قال سليمان آل الشيخ: [1] هو بضم القاف وفتح التاء بعدها مثناة تحتية مصغراً . بنت صيفى الجهنية أو الأنصارية صحابية. اهـ.

قوله : أن يهودياً»

قال ابن عثيمين [2]: اليهودى: هو المنتسب إلى شريعة موسى عليه السلام، وسموا بذلك من قوله تعالى ﴿إِنَّا هدنا إليك﴾؛ أى : رجعنا، أو لأن جدهم اسمه يهوذا بن يعقوب؛ فتكون النسبة من أجل النسب،ومن الأول تكون النسبة من أجل العمل، ولايبعد أن تكون من الاثنين جميعاً. اهـ.

قوله :«إنكم تشركون بالله، تقولون : ماشاء الله وشئت»

وعلى هذا بوب البخارى فى الأيمان والنذور باب : ما شاء الله وشئت، وهل يقول: أنا بالله ثم بك؟

وأخرج بسنده: عن أبى هريرة أنه سمع النبى ﷺ يقول : «**إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أراد الله أن يبتليهم، فبعث ملكاً فأتى الأبرص فقال: تقطعت بى الجبال فلا بلاغ لى إلا بالله ثم بك**»[3].

● **سبب الترجمة للبخارى**

قال ابن حجر[4]: كأنه أشار بالصورة الأولى إلى ما أخرجه النسائى فى كتاب الأيمان والنذور وصححه من طريق عبدالله بن يسار بتحتانية ومهملة عن قتيلة بقاف ومثناة فوقانية والتصغير امرأة من جهينة«أن يهودياً أتى النبى ﷺ فقال: إنكم تشركون تقولون ماشاء الله وشئت، وتقولون والكعبة، **فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة وأن يقولوا ماشاء الله ثم شئت**».

وأخرج النسائى وابن ماجة أيضاً وأحمد من رواية يزيد بن الأصم عن ابن عباس رفعه «**إذا حلف أحدكم فلا يقل ماشاء الله وشئت،ولكن ليقل ماشاء الله ثم شئت**»(٥).

وفى أول حديث النسائى قصة وهى عند أحمد ولفظه «أن رجلا قال للنبى ﷺ ماشاء الله وشئت، فقال له: «**اجعلتنى والله عدلاً، لابل ماشاء الله وحده**».

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٥١

(٢) القول المفيد ٢/٤٠٩ .

(٣) سيأتى تخريجه .

(٤) فتح البارى (١١/٥٤٨،٥٤٩)

(٥) تقدم تخريجه.

وأخرج أحمد والنسائى وابن ماجه أيضاً عن حذيفة «أن رجلا من المسلمين رأى رجلا من أهل الكتاب فى المنام فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون تقولون ماشاء الله وشاء محمد، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: «قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد»(١).

وفى رواية النسائى أن الراوى لذلك هو حذيفة الراوى، هذه رواية ابن عيينة عن عبدالملك بن عمير عن ربعى عن حذيفة، وقال أبو عوانة عن عبدالملك عن ربعى عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة بنحوه أخرجه ابن ماجة أيضاً.

قلت وسيأتى نقل سليمان آل الشيخ لكلام ابن حجر فى الفتح عند الكلام مع سند الحديث الأتى فى المتن.

وهكذا قال حماد بن سلمة عند أحمد وشعبة وعبد الله بن إدريس عن عبدالملك، وهو الذى رجحه الحفاظ وقالوا: إن ابن عيينة وهم فى قوله عن حذيفة والله أعلم.

● **إشكال وجوابه.**

قال ابن حجر: حكى ابن التين عن أبى جعفر الداودى قال: ليس فى الحديث الذى ذكره نهى عن القول المذكور فى الترجمة، وقد قال الله تعالى ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ**﴾وقال تعالى ﴿**وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ**﴾وغير ذلك.

● **الجواب:**

وتعقبه بأن الذى قاله أبوجعفر ليس بظاهر لأن قوله «ما شاء الله وشئت» تشريك فى مشيئة الله تعالى.

وأما الآية فإنما أخبر الله تعالى أنه أغناهم وأن رسوله أغناهم وهو من الله حقيقة لأنه الذى قدر ذلك ومن الرسول حقيقة باعتبار تعاطى الفعل،وكذا الإنعام أنعم الله على زيد بالإسلام وأنعم عليه النبى ﷺ بالعتق، وهذا بخلاف المشاركة فى المشيئة فإنها منصرفة لله تعالى فى الحقيقة وإذا نسبت لغيره فبطريق المجاز.

وقال المهلب: إنما أراد البخارى أن قوله «**ما شاء الله ثم شئت**» جائز مستدلاً بقوله «**أنا بالله ثم بك**» وقد جاء هذا المعنى عن النبى ﷺ، وإنما جاز بدخول «ثم» لأن مشيئة الله سابقة على مشيئة خلقه، ولما لم يكن الحديث المذكور على شرطه استنبط من الحديث الصحيح الذى على شرطه ما يوافقه.

(١) تقدم تخريجه

وأخرج عبدالرزاق عـن إبراهيم النخعى أنه كان لا يـرى بأساً أن يقول **«ما شاء الله ثم شئت»** وكان يكره «أعوذ بالله وبك ويجيز «أعوذ بالله ثم بك» وهومطابق لحديث ابن عباس وغيره مما أشرت إليه. ا.هـ.

قلت: وقد تقدم فى الباب قبل الماضى ومعه شرحه

وقال سليمان آل الشيخ(١) بنحو كلام الحافظ وزاد عليه، فقال:

وهذا نص فى أن هذا اللفظ من الشرك؛ لأن النبى ﷺ **أقر اليهودى على تسمية هذا** اللفظ تنديداً أو شركاً ونهى النبى ﷺ عن ذلـك، وأرشد إلى استعمال اللفظ البعيد من الشرك وقول: **«ما شاء الله ثم شئت»** وإن كان الأولى قول : «ما شاء الله وحده كما يدل عليه حديث ابن عباس وغيره ، وعلى النهى عن قول ماشاء الله وشئت جمهور العلماء، إلا أنه حكى عن ابى جعـفر الداودى ما يقتضى جواز ذلك احتجاجـاً بقوله تعالى **﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِه﴾** وقوله تعالى : **﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾** ونحو ذلك . والصواب القول الأول فإن الـنبى ﷺ أنكر ذلك وقال لمن قال له ذلك: «أجعلتنى لله نداً» وأقرن من أسمائه تـنديداً وشركاً على تسميته ومن المحال أن يكون هذا أمراً جائزاً وأما ما احتج من القرآن فقد ذكروا عن ذلك جوابين.

أحدهما: أن ذلك لله وحـده، لاشريك له. كـما أنه تـعالى يـقسم بما شـاء من مخلوقاته فكذلك هذا.

الثانى : أن قوله :ماشاء الله وشئـت. تشريك فى مشيئة الله، وأما الآيـة فإنما أخبر بها عن فـعلين متغايـرين، فأخبر تعالى أنـه أغناهم وأن رسوله أغنـاهم. وهو من الله حقيقـة، لأنه الذى قدر ذلك، ومن الـرسول ﷺ حقيقة باعـتبار تعاطى الـفعل، وكذا الإنعام أنـعم الله على زيـد بالإسلام. والنـبى ﷺ أنعم عـليه بالـعتق، وهذا بـخلاف المشاركة فى الفعـل الواحد؛ فالكلام إنماهو فيه،و المنع إنما هو مـنه. فإن قلت : قد ذكر النحاة أن ثم تـقتضى اشتراك المعطوف والمعـطوف عليه فى الحكم كالـواو فلم جاز ذلك بثم؟ ومنع الواو. وغاية مـا يقال : إن ثم تقتضى الترتيب بخلاف الـواو؛ فإنها تقتضى مطلق الجمع، وهذا لايغير صورة الاشتراك قـبل النهى عن ذلك؛ إنما هو إذا أتى بصورة التشريـك جميعاً. وهذا لايحـصل إلا بالواو بخلاف ثـم؛ فإنها لاتقتضـى الجمع، إنما تقتضى الـترتيب. فإذا أتى بها زالت صورة الـتشريك والجمع فى اللفـظ .و أما المعنى

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٥١،٤٥٢)

فلله تعالى ما يختص به من المشيئة، وللمخلوق مايختص به، فلو أتى بثم وأراد أنه شريك لله تعالى فى المشيئة كلولا الله ثم فلان، مثلاً لم يوجد ذلك فالنهى باق بحاله، بل يكون فى هذه الصورة أشد ممن أتى بالواو مع عدم هذا الاعتقاد ويشبه ذلك الجمع بين اسم الله واسم غيره في ضمير واحد .و لهذا أنكره النبى ﷺ على الخطيب (لما) قال: ومن يعصهما فقد غوى فقال له: «بئس الخطيب أنت (قل : ومن يعص الله ورسوله» (1) ا.هـ.

وقال ابن عثيمين (2): قوله إنكم تشركون تقولون : ماشاء الله وشئت».

أى : تقعون فى الشرك أيها المسلمون.

قوله «ماشاء الله وشئت».

الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساوياً للمعطوف عليه، وهو الله ـ عزوجل ـ ، حيث كان العطف بالواو المفيدة للتسوية ا.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (3): وهذا يبين أن النهى عن الشرك بالله عام، لايصلح منه شيء لاللملك مقرب ولا لنبى مرسل، ولا للكعبة التي هى بيت الله فى أرضه.

وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم، من الحلف بالكعبة وسؤالها مالايقدر عليه إلا الله. ومن المعلوم أن الكعبة لاتضر ولاتنفع،وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها،وجعلها للأمة قبلة. فالطواف بها مشروع، والحلف بها ودعاؤها ممنوع.

فَمَيِّز أيها المكلف بين مايشرع وما يمنع، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

قوله: ﴿إنكم تشركون ؛ تقولون : ماشاء الله وشئت﴾، والعبد وإن كان له مشيئة فمشيته تابعة لمشيئة الله، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه، كما قال تعالى ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)**﴾(4) وقوله تعالى ﴿**إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً**﴾(5) .

(1) [صحيح] أخرجه مسلم (٨٧٠) وتقدم.
(2) القول المفيد (٢/٤٠٩).
(3) فتح المجيد ٢/٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١
(4) التكوير ٢٨-٢٩
(5) الإنسان : ٢٩ ـ ٣٠.

وفى هذه الآيات والحديث : الرد على القدرية والمعتزلة نفاة القدر، الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراد الله تعالى من العبد وشاءه.

وسيأتى مايبطل قولهم ـ فى باب ماجاء فى منكرى القدر ـ إن شاء الله، وأنهم مجوس هذه الأمة.

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة فى هذا الباب وغيره، واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله فى كل شىء، ممايوافق ماشرعه اللهومـا يخالفه: من أفعال العباد وأقوالهم. فالكل بمشيئته وإرادته، فما وافق شرعه رضيه وأحبه،وما خالفه كرهه من العبد ؛ كما قال تعالى : ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾(١) .

وفيه : بيان أن الحلف بالكعبة شرك؛ فإن النبى ﷺ أقر اليهودى على قوله : إنكم تشركون ا.هـ.

قال ابن باز (٢): وهذا القول «ماشاء اللهوفلان» من الشرك الأصغر وقد يكون من الأكبر إذا أراد أن له أشياء مستقلة يتصرف فيها أ.هـ.

قوله «والكعبة»:

قال ابن عثيمين (٣): والشرك هنا أنه حلف بغير الله

قوله «فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا :ورب الكعبة».

قال ابن عثيمين (٤): ولم ينكر النبى ﷺ ما قال اليهودى،بل أمر بتصحيح هذا الكلام ؛ فأمرهم إذا حلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة؛ فيكون القسم بالله.

وأمرهم أن يقولوا: ماشاء الله، ثم شئت؛ فيكون الترتيب بثم بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق،وبذلك يكون الترتيب صحيحاً، أما الأول؛ فلأن الحلف صار بالله،وأما الثانى؛ فلأنه جعل بلفظ يتبين به تأخر مشيئة العبد عن مشيئة الله، وأنه لامساواة بينهما.

● فوائد الحديث

قال سليمان آل الشيخ(٥): معرفة اليهود بالشرك الأصغر، وكثير ممن يدعى

(١) الزمر :٧

(٢) التعليق المفيد ٢١٦.

(٣) القول المفيد ٢/ ٤٠٩.

(٤) المصدر السابق ٤٠٩

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٥٢،٤٥١.

الإسلام لا يعرف الشرك الأكبر، بل يصرف خالص العبادات من الدعاء والذبح، والنذر لغير الله ويظن أن ذلك من دين الإسلام، فعلمت أن اليهود **في ذلك الوقت** أحسن حالاومعرفة منهم.

وفيه فهم الإنسان إذا كان له هوى كما نبه عليه المصنف وسيأتي شرحه من كلام ابن باز.

وأن المعرفة بالحق لاتستلزم الإيمان ولا العمل وقبول الحق ممن جاء به، وإن كان عدواً مخالفاً في الدين.

وإن الحلف بغير الله من الشرك.

وأن الشرك الأصغر لايمرق به الإنسان من الإسلام أ.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[1]: وفيه قبول الحق ممن جاء به كائناً من كان.

وسيأتي من كلام حامد بن محمد وفيه يبان النهي عن الحلف بالكعبة مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة.

قال ابن باز[2]: وفيه أن الناس من أهل الباطل قد يفهمون أشياء ومسائل إذا كان عندهم هوى وإن كانوا هم واقعون في ذنب وفسق وكفر أعظم من ذلك ولهذا عاب اليهود على المسلمين لما في قلوبهم من الغيظ والحقد على الرسول ﷺ وقد أصابوا في قولهم ولهذا أمرهم النبي ﷺ أن يقولوا ماشاء الله ثم شئت وأن يقولوا ورب الكعبة.ا.هـ.

قال حامد بن محمد[3]: وفي هذا إغراء على أخذ الحق من أي شخص كان وبأي وجهٍ كان، إذ هو حال المنصفين المتواضعين لله تعالى لأن قائدهم الحق أينما دار داروا وأينما توجه توجهوا كما قال ﷺ **«الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها لقطها»**[4] بخلاف المتكبرين فإنه يغمط الناس ويبطر الحق انظر إلى ماجاء اليهودي وقال الحق أخذه النبي ﷺ وهو المرسل من الله إلى الخلق أ.هـ.

ومن الفوائد أيضاً:

قال ابن عثيمين[5]: النبي ﷺ لم ينكر على اليهودي مع أن ظاهر قصده الذم واللوم للنبي ﷺ وأصحابه؛ لأن ما قاله حق.

---

(1) فتح المجيد (٢/ ٧٠١).
(2) التعليق المفيد ٢١٥، ٢١٦.
(3) فتح الله الحميد المجيد ٣٩٧.
(4) أخرجه الترمذي (٣٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩) وضعفه الترمذي. وانظر المقاصد الحسنة (٤١٥).
(5) القول المفيد ٢/ ٤٠٩ ـ ٤١٠.

وَلَهُ أَيْضاً عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَاشَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدّاً؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(١).

١ـ مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان من نَبَّه عليه ليس من أهل الحق.

٢ـ أنه ينبغى أن يُغَيِّر الشىء إلى شىء قريب منه؛ لأن النبى ﷺ أمرهم أن يقولوا: «ورب الكعبة»، ولم يقل: احلفوا بالله، وأمرهم أن يقولوا: «ما شاء الله، ثم شئت».

قلت: وفيه حجه لمن قال إن النهى عن تصديق اليهود من قوله ﷺ: «ولا تصدقوا ولا تكذبوا»(٢) ليس على إطلاقه بل إن قالوا ما يوافق الحق الذى معنا نصدقه وإن قالوا ما يخالفه يكذبه والله أعلم.

وفيه أيضاً خبث اليهود حيث قدموا المدح بين أيدى القدح

● إشكال وجوابه:

وهو أن يقال: كيف لم يُنَبَّه على هذا العمل إلا هذا اليهودى؟

وجوابه: أنه يمكن أن الرسول ﷺ لم يسمعه ولم يعلم به.

ولكن يقال: بأن الله يعلم؛ فكيف يقرهم؟

فيبقى الإشكال، لكن يجاب: إن هذا من الشرك الأصغر دون الأكبر؛ فتكون الحكمة هى ابتلاء هؤلاء اليهود الذين انتقدوا المسلمين بهذه اللفظة مع أنهم يشركون شركاً أكبر ولا يرون عيبهم.

قلت: فقيه معنى ما جاء عن الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ : لا تبصر القذاة فى عين أخيك وتنسى الجذع أو الجذل فى عينك.

وكذلك اليهود فى هذا الأثر بل وفى كل عصر ومصر.



قوله: وله أيضاً عن ابن عبَّاس، أن رجلاً قال للنبى ﷺ ما شاء الله.. الحديث.

قال سليمان آل الشيخ(٣): هذا الحديث رواه النسائى، كما قال المصنف لكن فى «اليوم والليلة» وهذا لفظه. أخبرنا على بن خشرم عن عيسى، عن الأجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبى ﷺ، فكلمه فى بعض الأمر فقال: ما شاء الله

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/١٣٦)، وأبو داود (٣٦٤٤) عن ابن أبى نملة به.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٥٣.

وشئت فقال النبى ﷺ: **«أجعلتنى لله عدلاً؟ قل: ما شاء الله وحده»**. ورواه ابن ماجة فى الكفارات من «السنن» عن هشام بن عمار، عن عيسى نحوه. ولفظه **«إذا حلف أحدكم فلا يقل: ما شاء الله وشئت»** الحديث. وقد تابع عيسى على هذا الحديث سفيان الثورى، وعبدالرحمن المجازلى، وجعفر بن عون عن الأجلح وكلهم ثقات. وخالفهم القاسم بن مالك وهو ثقة فرواه عن الأجلح، عن أبى الزبير عن جابر، والأول أرجح. ويحتمل أن يكون عند الأجلح عنهما جميعاً أ. هـ.

● **مناسبة الحديث للباب وللتوحيد:**

قال القرعاوى (١): حيث دل الحديث على أن قول ما شاء الله وشئت شرك أصغر.

قوله: [أن رجلاً قال للنبى ﷺ].

قال ابن عثيمين(٢): الظاهر أنه قاله للنبى ﷺ تعظيماً، وأنه جعل الأمر مُفَوضاً لمشيئة الله ومشيئة رسوله ا. هـ.

قوله: «أجعلتنى لله نداً».

قال سليمان آل الشيخ(٣): قوله: **«أجعلتنى لله نداً»** هذه رواية ابن مردويه، والرواية عند النسائى وابن ماجة **«أجعلتنى لله عدلاً»** والمعنى واحد.

قال ابن القيم: ومن ذلك أى: من الشرك بالله فى الألفاظ قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئت، كما ثبت عن النبى ﷺ، أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت، وذكر الحديث المشروح. ثم قال هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة. لقوله: ﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ** ﴾ فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا فى حسب الله وحسبك، ومالى إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض. والله وحياة فلان أو يقول: نذراً لله ولفلان، وأنا تائب لله ولفلان، وأرجو الله وفلاناً. فوازن بين هذه الألفاظ، وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش. يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبى ﷺ القائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعله نداً بها، فهذا قد جعل من

---

(١) الجديد ٣٧٤.

(٢) القول المفيد ٢/ ٤١٠و ٤١١.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٥٣، ٤٥٤.

لا يداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء، بل لعله أن يكون من أعدائه نداً لرب العالمين. فالسجود، والعبادة، والتوكل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والتوبة، والنذر، والحلف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً، والطواف بالبيت والدعاء. كل ذلك محض حق الله الذى لايصلح ولا ينبغى لسواه، من ملك مقرب ولا نبى مرسل. وفى «مسند الإمام أحمد» أَنَّ رَجُلاً أَتِىَ إلى النَّبِىِّ ﷺ، قَدْ أَذْنَبَ فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: اللَّهُمَّ إنى أَتُوبُ إِلَيكَ وَلاَ أَتُوبُ إِلى محمد فَقَالَ: «عَرَفَ الحَقَّ لأَهلِه»(١).

قلت يعنى سليمان آل الشيخ: إذا كان هذا كلامه ﷺ، لمن قال له: ما شاء الله وشئت فكيف بمن يقول فيه؟!.

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ويقول فى همزيته:

هــذه علتى وأنــت طبيبــى ... ليس يخفى عليك فى القلب داء

وأشباه هذا من الكفر الصريح ا.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢): هذا يقرر ما تقدم: من أن هذا شرك لوجود التسوية فى العطف بالواو. وقوله: [أجعلتنى لله نداً] فيه بيان أن من سوَّى العبد بالله ولو فى الشرك الأصغر فقد جعله نداً لله، شاء أم أبى. خلافاً لما يقوله الجاهلون بما يختص بالله تعالى من عبادته، وما يجب النهى عنه من الشرك بنوعيه. ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ا.هـ.

قال ابن عثيمين(٣): قوله: «**أجعلتنى لله نداً؟!**».

الاستفهام للإنكار، وقد ضُمِّن معنى التعجب، ومن جعل للخالق نداً؛ فقد أتى شيئاً عجاباً.

والنِّد: هو النظير والمساوى؛ أى: أجعلتنى لله مساوياً فى هذا الأمر؟!

قوله: «بل ما شاء الله وحده».

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٣٥) عن الأسود بن سريع.
(٢) فتح المجيد ٢/ ٧٠١.
(٣) القول المفيد ٢/ ٤١١و ٤١٢.

أرشده النبي ﷺ إلى ما يقطع عنه الشرك، ولم يرشده إلى أن يقول ما شاء الله ثم شئت حتى يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بَعُدَت.

● **يستفاد من الحديث:**

١ـ أن تعظيم النبي ﷺ بلفظ يقتضي مساواته للخالق شرك، فإن كان يعتقد المساواة؛ فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك؛ فهو أصغر، وإذا كان هذا شركاً؛ فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ؟!

هذا أعظم؛ لأنه ﷺ ليس له شيء من خصائص الربوبية، بل يلبس الدرع، ويحمل السلاح، ويجوع، ويتألم، ويمرض، ويعطش كبقية الناس، ولكن الله فَضَّلَه على البشر بما أَوْحى إليه من هذا الشرع العظيم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، فهو بشر، وأكَّد هذه البشرية بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾، ثم جاء التمييز بينه وبين بقية البشر بقوله تعالى: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، ولا شك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضلة التي بها الكمالات من كل وجه: أعطاه من الصبر العظيم، وأعطاه من الكرم ومن الجود، لكنها كلها في حدود البشرية، أما أن تصل إلى خصائص الربوبية؛ فهذا أمر لايمكن، ومن ادعى ذلك؛ فقد كفر بمحمد ﷺ وكفر بمن أرسله.

فالمهم أننا لا نغلو في الرسول عليه الصلاة والسلام فننزله في منزلة هو ينكرها، ولانهضم حقه الذي يجب علينا فنعطيه ما يجب له، ونسأل الله أن يعيننا على القيام بحقه، ولكننا لاننزله منزلة الرب ـ عزوجل ـ.

٢ـ إنكار المنكر وإن كان في أمر يتعلق بالمنكر؛ لقوله ﷺ: «**أجعلتني لله نداً؟!**»، مع أنه فعل ذلك تعظيماً للنبي ﷺ، وعلى هذا إذا انحنى لك شخص عند السلام؛ فالواجب عليك الإنكار.

٣ـ أن من حسن الدعوة إلى الله ـ عزوجل ـ أن تذكر ما يباح إذا ذكرت ما يحرم؛ لأنه ﷺ لما منعه من قول: «**ما شاء الله وشئت**» أرشده إلى الجائز، وهو قوله: «**بل ما شاء الله وحده**».

قلت: وتقدم غير مرة التحذير من أن يفهم هذا الكلام بعيداً عن قيوده التي تفهم من كلام الشيخ بل صرح بها هنا منها الإباحة للبديل فلا يكون بدعة منكرة.

● ● ●

ولابن ماجه عن الطُّفَيل أخي عائشة لأمِّها؛ قال: رأيتُ كأنِّي أتيتُ على نفرٍ من اليهود؛ قلت: إنَّكم لأنتم القومُ لولا أنكم تقولون: عُزيرٌ ابنُ الله. قالوا: وأنتم لأنتم القومُ لولا أنَّكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمَّدٌ. ثُمَّ مررتُ بنفرٍ من النَّصارى فقلتُ: إنَّكم لأنتم القومُ لولا أنَّكم تقولون: المسيحُ ابنُ الله. قالُوا: وإنَّكم لأنتم القومُ لولا أنَّكم تقولون: ما شاءَ الله وشاءَ محمَّدٌ. فلمَّا أصبحْتُ؛ أخبرتُ بها من أخبرتُ، ثُمَّ أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فأخبرْتُه؛ قال: «هلْ أخبرت بها أحداً؟» قُلتُ: نعمْ. قال: فحمدَ اللهَ وأثنى عليه، ثُمْ قالَ: «أمَّا بعدُ؛ فإنَّ طُفَيلاً رأى رُؤيا أخبرَ بها منْ أخبرَ منكُم. وإنَّكم قُلتُم كلمةً يمنعُني كذا وكذا أنْ أنهاكُم عنها؛ فلا تقولُوا ما شاءَ اللهَ وشاءَ مُحمَّدٌ، ولكن قولُوا ما شاءَ الله وحْدَهُ»(١).

قوله: ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لامها.

ـ **قال سليمان آل الشيخ**(٢): هذا الحديث لم يروه ابن ماجة بهذا اللفظ عن الطفيل. إنما رواه عن حذيفة ولفظه: **حدثنا** هشام بن عمار ثنا سفيان بن عيينة عن عبدالملك بن عمير، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة بن اليمان أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون: ما شاء **الله** وشاء محمد، وذكر ذلك النبي ﷺ، فقال: «**أما والله إن كنت لأعرفها لكم قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد**».

ورواه أحمد والنسائي بنحوه. وفي رواية للنسائي أن الراوي لذلك هو حذيفة نفسه. هذه رواية ابن عيينة، ثم ذكر ابن ماجة حديث الطفيل هذا فساق إسناده ولم يذكر اللفظ. فقال: حدثنا ابن أبي الشوارب، ثنا ابن عوانة عن عبدالملك، عن ربعي بن حراش، عن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها، عن النبي ﷺ، بنحوه، هذا لفظ ابن ماجة. وهكذا رواه حماد بن سلمة وشعبة وابن إدريس عن عبدالملك، فقالوا: عن

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الكفارات/ باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت (١/ ٦٨٥/ ٢١١٨).

قال: حدثنا محمد بن عبدالملك بن أبي الشوارب، ثنا أبو عوانة، عن عبدالملك، عن ربعي بن حراش، عن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة... الحديث.

قال في الزوائد: رجال الإسناد ثقات على شرط البخاري وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٧٤) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥.

الطفيل وهو الذى رجحه الحفاظ، وقالوا ابن عيينة وهم فى قوله: عن حذيفة فقد تبين أن هذا الحديث المذكور لم يروه ابن ماجة بهذا اللفظ، لكن رواه أحمد والطبرانى بنحو مما ذكره المصنف ا.هـ.

ـ مناسبة الحديث للباب وللتوحيد:

قال القرعاوى[١]: دل الحديث على تحريم عطف مشيئة المخلوق على مشيئة الله بالواو لأنَّ الواو تقتضى التشريك بين المتعاطفين وذلك يؤدى إلى الشرك بالله ا.هـ.

قوله: «عن الطفيل».

قال سليمان آل الشيخ[٢]: **قوله: «عن الطفيل»** هو ابن سخبرة وفى حديثه هذا أنه أخو عائشة لأمها، وكذا قال الحربى. وقال: الذى عندى أن الحارث بن سخبرة قدم مكة، فحالف أبا بكر فمات فخلف أبو بكر على أم رومان فولدت له عبدالرحمن وعائشة، وكان لها من الحارث الطفيل بن الحارث، فهو أخو عائشة لأمها. وقيل غير ذلك. وهو صحابى ليس له إلا هذا الحديث قال البغوى لا أعلم له غيره ا.هـ[٣].

قوله: «رأيت كأنى أتيت على نفر من اليهود».

قال سليمان آل الشيخ[٤]: **قوله: «رأيت فيما يرى النائم»**. كما روى أحمد، والطبرانى. قلت/ وتقدم التخريج من كلام ابن حجر فى الفتح

قال ابن عثيمين[٥]: أى رؤيا فى المنام.

قوله: «كأن».

قال ابن عثيمين[٦]: إسمها «الياء» وجملة «أتيت» خبرها.

قوله: «على نفر من اليهود».

قال سليمان آل الشيخ[٧]: **قوله: «على نفر من اليهود»** وفى رواية أحمد، والطبرانى، كأنى مررت برهط من اليهود فقلت: من أنتم فقالوا: نحن اليهود، والنفر

---

(١) الجديد ٣٧٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥.

(٣) ذكره ابن الأثير فى «أسد الغابة» (٣/ ٧٧، ٧٨) والحافظ فى الإصابة (٢/ ٢١٦) وقال الحافظ: وكان عبدالله بن الحارث بن سخبرة قدم مكة فحالف أبا بكر، فمات، فخلفه أبو بكر بعده على أم رومان. فيكون الطفيل أكبر من عائشة ومن أخيها عبدالرحمن.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥.

(٥) القول المفيد ٢/ ٤١٢

(٦) القول المفيد ٢/ ٤١٣.

(٧) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥.

رهط الإنسان وعشيرته. وهو اسم جمع يقع علـى جماعة من الرجال خاصة، ما بين الثلاثة إلى العشرة. ولا واحد له من لفظه قاله أبو السعادات ا.هـ.

قال سليمان آل الشيخ[1]: وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها فنهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله وحدة ا.هـ.

قوله: «فقلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله».

قال سليمان آل الشيخ[2]: أى نعم القوم أنتم لولا ما أنتم عليه من الشرك، والمسبة لله بنسبة الولد إليه وهذا لفظ الطبرانى، ولفظ أحمد قال: أنتم القوم .

قال ابن عثيمين[3]: قوله: **«لأنتم القوم»**.

كلمة مدح؛ كقولك: هؤلاء هم الرجال.

وقوله: **«عزير»**.

هو رجل صالح ادَّعى اليهود أنه ابن الله، وهذا من كذبهم، وهو كفر صريح، واليهود لهم مثالب كثيرة، لكن خصّت هذه؛ لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم أ.هـ.

قوله: «قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد».

قال سليمان آل الشيخ[4]: عارضوه بذكر شىء مما فى المسلمين **من الشرك الأصغر فقالوا له**: هذا الكلام أى: نعم القوم أنتم لولا ما فيكم من الشرك، وكذلك جرى له مع النصارى ا.هـ.

قال ابن عثيمين[5]: قوله: **«ما شاء الله وشاء محمد»**.

هذا شرك أصغر؛ لأن الصحابة الذين قالوا هذا ولا شك أنهم لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله، فانتقدوا عليهم تسوية مشيئة الرسول ﷺ بمشيئة الله ـ عزوجل ـ باللفظ مع عظم ما قاله هؤلاء اليهود فى حق الله ـ جل وعلا ـ.

قوله: تقولون: المسيح ابن الله».

قال: ابن عثيمين: هو عيسى بن مريم، وسُمِّى مسيحاً بمعنى ماسح؛ فهو فعيل بمعنى فاعل؛ لأنه كان لايمسح ذا عاهة إلا برىء بإذن الله؛ كالأكمة والأبرص.

(١) فتح المجيد ٢/٧٠٢.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥و ٤٥٦
(٣) القول المفيد ٤١٤.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥ و ٤٥٦
(٥) القول المفيد ٢/ ٤١٤و ٤١٥.

قلت: وقد تقدَّم معناه بالتفصيل في شرح قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾. (في باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب).

قال ابن عثيمين: والشيطان لعب بالنصارى، فقالوا: هو ابن الله؛ لأنه أتى بدون أب، ولاسيما إذا كان في الإنجيل؛ كما في القرآن: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[1]، قالوا: هو جزء من الله؛ لأن الله أضافه إليه، والجزء هو الابن.

والروح على الراجح عند أهل السنة: ذات لطيفة تدخل الجسم وتحل فيه كما يحل الماء في الطين اليابس، ولهذا يقبضها المَلَكُ عند الموت وتُكَفَّن ويصعد بها ويراها الإنسان عند موته؛ فالصحيح أنها ذات وإن كان بعض الناس يقول: إنها صفة، ولكنه ليس كذلك، والحياة صحيح أنها صفة لكن الروح ذات، إذاً نقول لهؤلاء النصارى: إن الله أضاف روح عيسى إليه كما أضاف البيت والمساجد والناقة إليه وما أشبه ذلك على سبيل التشريف والتعظيم، ولاشك أن المضاف إلى الله يكتسب شرفا وعظمة، حتى إن بعض الشعراء يقول في معشوقته:

لا تَدْعُني إلا بيَا عَبْدِها ... فإنَّه أَشْرَفُ أَسْمَائِي

قلت: وتقدم الرد عليهم في باب فضل التوحيد

قال عبدالرحمن آل الشيخ[2]: وهذا الحديث والذي قبله أمرهم فيه أن يقولوا ما شاء الله وحدة ولاريب أن هذا أكمل في الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا: ثم شاء فلان لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتنديد من كل وجه. فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص أ. هـ.

قوله: «فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت».

قال سليمان آل الشيخ[3]: وفي رواية أحمد فلما أصبح أخبر بها من أخبر، وفي الطبراني فلما أصبحت أخبرت بها أناساً.

قوله: «هل أخبرت بها أحداً».

قال ابن عثيمين[4]: سأل النبي ﷺ هذا السؤال؛ لأنه لو قال: لم أخبر أحداً؛ فالمتوقع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيقول له: لاتخبر أحداً ، هذا هو الظاهر، ثم يبين له الحكم عليه الصلاة والسلام، لكن لما قال: إنه أخبر بها ؛ صار لابد من بيانها للناس عموماً؛ لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه، بخلاف إذا كان خاصاً؛ فهذا يخبر به من وصله الخبر ا.هـ.

---

(1) الأنبياء: ٩١.
(2) فتح المجيد ٢/ ٧٠٢.
(3) تيسير العزيز الحميد.
(4) القول المفيد ٢/ ٤١٥/ ٤١٦.

قوله: «ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته».

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله ثم أتيت النبي ﷺ، فأخبرته. فيه حسن خلقه ﷺ، وعدم احتجابه عن الناس كالملوك بحيث إذا أراد أحد الوصول إليه أمكنه ذلك بلا كلفة ولا مشقة، بل يصلون إليه ويقضي حاجتهم ويخبرونه بما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم. ويقصون عليه ما يرونه في المنام، بل كان ﷺ يعتني بالرؤيا لأنها من أقسام الوحي. وكان إذا صلى الصبح كثيراً ما يقول: «**هَلْ رأى أحدٌ مِنكُم رُؤيا؟**»[2].

قوله: «فحمد الله وأثنى عليه».

قال سليمان آل الشيخ[3]: قوله: فحمد الله وأثنى عليه. وفي رواية أحمد فلما أصبحوا خطبهم فحمد الله وأثنى عليه. وفي رواية الطبراني فلما صلى الظهر قام خطيباً.

ففيه مشروعية حمد الله والثناء عليه في الخطب، وفيه الخطبة في الأمور المهمة. وأما معن الحمد فقد تقدم في باب قول الله تعالى: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا**﴾[4].

وأما الثناء فقال ابن القيم: هو تكرار المحامد.

قوله: ثم قال: «أما بعد» في رواية أحمد، والطبراني. ثم قال: «**إن طفيلاً رأى رؤيا**» ولم يذكر أما بعد. وفي رواية للطبراني فقام نبي الله على المنبر فقال: «**إن أخاكم رأى رؤيا قد حدثكم بما رأى**» فيه مشروعية: أما بعد في الخطب في هذا الحديث، وإلا فلا يضر، فإنها ثابتة في خطبه عليه السلام، وفي غيره أ.هـ.

قلت: وراجع في ذلك كتابي فقه الخطابة باب من قال في الخطبة بعد الثناء.. أما بعد فقد ذكرت المواضع التي ذكرت فيها وإعرابها ومعناها وأنها فصل ما بعدها عما قبلها وأنها فصل الخطاب الذي آتاه الله لداود.

قوله: «وإنكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها».

قال سليمان آل الشيخ[5]: قوله: «وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها» وفي رواية أحمد، والطبراني «وإنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٥٦)..

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٠٤٧)، ومسلم في الرؤيا (٨/ ٣٧/ ٢٣) عن سمرة به

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٥٦

(٤) الأعراف: ١٩١.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٥٦و ٤٥٧.

منكم أن أنهاكم عنها». وهذا الحياء منهم ليس على سبيل الحياء من الإنكار عليهم، بل كان ﷺ، يكرهها ويستحيى أن يذكرها؛ لأنه لم يأمر بإنكارها، فلما جاء الأمر الإلهى بالرؤيا الصالحة أنكرها، ولم يستحى فى ذلك وفيه دليل على أنها من الشرك الأصغر؛ إذ لو كانت من الأكبر لأنكرها من أول مرة قالوها. وفيه ما كان عليه النبى ﷺ، من الحياء وأنه من الأخلاق المحمودة أ.هـ.

وقال بنحوه عبدالرحمن آل الشيخ وسيأتى

قلت: وبهذا قد يتأيد القول بأن قوله ـ ﷺ ـ أفلح وأبيه إن صدق ـ منسوخ وقد تقدم الكلام على ذلك فى باب ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾

قال عبدالرحمن آل الشيخ(١): وقوله: «كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها».
وفى بعض الطرق أنه كان يمنعه الحياء منهم. وبعد هذا الحديث الذى حدثه به الطفيل عن رؤياه خطبهم ﷺ فنهى عن ذلك نهياً بليغاً فما زال ﷺ يبلغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة، وبلغ البلاغ المبين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبة أجمعين ا.هـ.

قال ابن عثيمين(٢): قوله: «يمنعنى كذا وكذا».

أى: يمنعه الحياء كما فى رواية أخرى، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره الله بذلك، هذا الذى يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة إن كانت محفوظة: أن الحياء الذى يمنعه ليس الحياء من الإنكار؛ لأن الرسول ﷺ لايستحى من الحق، ولكن الحياء من أن ينكر شيئاً قد درج على الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار، مثل الخمر بقى الناس يشربونها حتى حُرِّمت فى سورة المائدة؛ فالرسول ﷺ لما لم يؤمر بالنهى عنها سكت، ولما حصل التنبيه على ذلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارى رأى ﷺ أنه لابد من إنكارها لدخول اللَّوم على المسلمين بالنطق بها ا.هـ.

قوله: «فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله وحده».

قال سليمان آل الشيخ(٣): هذا على سبيل الاستحباب وإلا فيجوز أن يقول: ما

(١) فتح المجيد ٢/٧٠٢و ٧٠٣.
(٢) القول المفيد ٢/٤١٦و ٤١٧.
(٣) تيسير العزيز الحميد.

شاء الله ثم شاء فلان كما تقدم. وفيه أن الرؤيا قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام كما في الحديث، وحديث الأذان، وحديث الذكر بعد الصلوات ا.هـ.

قال ابن عثيمين[1]: نهاهم عن الممنوع وبين لهم الجائز ا.هـ.

فوائد[2]:

١ـ فضل الطفيل رضى الله عنه.

٢ـ إثبات المشيئة لله.

٣ـ تحريم عطف مشيئة المخلوق على مشيئة الله بالواو حمل على الشرك الأصغر.

٤ـ أن الرؤيا قد تكون سببا لتشريع بعض الأحكام فى عهد رسول الله ﷺ وسيأتى فى آخر مسئله من الباب.

قلت: لكن هذا محله زمن الوحى أما بعد إنقطاعه وإكمال الدين وإتمام النعمة فلا يلتفت إلى ذلك.

قلت: وتقدم ما فيه.

٥ـ فيه حسن خُلُقه ﷺ حيث لم يحتجب عن الناس وقد تقدم من كلام سليمان آل الشيخ.

٦ـ مشروعية ابتداء الخطيب بحمد الله والثناء عليه.

٧ـ مشروعية الخطبة فى الأمور الهامة.

٨ـ مشروعية أما بعد فى الخطبة.

٩ـ مشروعية التثبت وعدم التسرع فى الأمور.

١٠ـ الأمر بإفراد الله بالمشيئة ا.هـ.

ـ **فائدة: وفيه** معنى قوه ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[3].

---

(١) القول المفيد ٢/٤١٧.

(٢) الجديد ٣٧٧.

(٣) تقدم تخريجه.

فيه مسَائِلُ

الأولى: معرفة اليَهُودِ بِالشِّرْكِ الأَصْغَرِ.

الثانية : فَهْمُ الإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوىً.

قال عبد الرحـمن آل الشيخ: وإن كان رؤيا مـنام فهى وحى يـثبت بها مـا ثبت بالوحى أمراً ونهياً والله أعلم.



فيه مسائل:

قال ابن عثيمين(١).

● **الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.**

لقوله: «إنكم لتشركون».

● **الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.**

أى: إذا كان له هوى فهم شيئاً، وإن كان هو يرتكب مثله أو أشد منه؛ فاليهود ـ مثلاً ـ أنكروا على المسلمين قولهـم: «ما شاء الله وشئت»، وهم يقولون أعظم من هذا، يقولون: عزير ابن الله، ويصفون الله تعالى بالنقائص والعيوب.

ومن ذلك بعض المقلدين يفهم النصوص على ما يوافق هواه؛ فتجده يحمل النصوص من الدلالات مالا تحتـمل كذلك أيضاً بعض العصـريين يحملون النصوص مـالا تحتمله حتى توافق ما اكتـشفه العلم الحديث فى الطب والفلك وغـير ذلك، كل هذا من الأمور التى لايحمد الإنـسان عليها؛ فالإنسان يجـب أن يفهم النصوص على ما هـى عليه، ثم يكون فهـمه تابعاً لها، لا أن يُخـضع النصوص لفهـمه أو لما يعتقده، ولهـذا يقولون: استدل ثم اعـتقد، ولا تعتقد ثـم تستدل؛ لأنك إذا اعتقـدت ثم استدللت ربما يـحملك اعتقادك على أن تُحرِّف النصوص إلى ما تعتـقده كما هو ظاهر فى جميع الملل والمذاهب المخالفة لما جاء به الرسول عليه الصلاة والـسلام، تجدهم يحرفون هذه النصوص لتوافق ما هم عليه، والحاصـل أن الإنسان إذا كان له هوى؛ فإنه يحمل النـصوص ما لا تحتمله من أجل أن توافق هواه ا.هـ.

---

(١) القول المفيد ٢/٤١٧و ٤٢١.

الثالثة: قَوْلُهُ ﷺ :«أجَعَلْتَني لله نداًّ؟!» فَكَيْفُ بِمَنْ قَالَ: يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ...» والبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ؟

الرابعة : أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الأَكْبَرِ، لِقَوْلِهِ «يَمنَعُنِي كَذَا وكَذَا».

الخامسة: أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الوَحْيِ.

● **الثالثة: قوله ﷺ: «أجعلتني لله نداً؟!».**

فكيف بمن قال:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك

والبيتين بعده؟!

قوله: «أجعلتني لله نداً».

هو قوله: «ما شاء الله وشئت».

وقوله: «فكيف من قال: يا أكرم الخلق...» يشير رحمه الله إلى بيتين للبوصيري في البردة ـ القصيدة المشهورة ـ، يقول:

يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ ما لي مَنْ أَلُوذُ بِهِ ... سِواكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمِمِ

إنْ لَمْ تَكُنْ آخِذاً يومَ المَعادِ يَدِي ... عَفْواً وإلا فَقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ

فَإنَّ مِن جُودِكَ الدُّنْيا وضَرَّتَها ... ومِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ والقَلَمِ

وهذا غاية الكفر والغلو؛ فلم يجعل لله شيئاً، والنبي ﷺ شرفه بكونه عبد الله ورسوله، لا لمجرد كونه محمد بن عبدالله.

● **الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر.**

لقوله: «يمنعني كذا وكذا»؛ لأنه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شيء من إنكاره.

● **الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.**

تؤخذ من حديث الطفيل، ولقوله ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**»، لأن أول الوحي كان بالرؤيا الصالحة من ربيع الأول إلى رمضان، وهذا ستة أشهر، فإذا نسبت هذا إلى بقية زمن الوحي؛ كان جزءاً من ستة وأربعين جزءاً؛ لأن الوحي كان ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر مقدمة للوحي الأتم.

والرؤيا الصالحة: هى التى تتضمن الصلاح، وتأتى منظمة وليست بأضغاث أحلام.

أما أضغاث الأحلام؛ فـإنها مشوشة غير منـظمة، وذلك مثل التى قصَّـها رجل على النبى ﷺ قال: إنى رأيت رأسـى قد قُطع، وإنى جعلت أشتد وراءه سعيـاً. فقال النبى ﷺ: «لا تُحدِّث الـناس بتلاعـب الشيطـان بك فى منـامك»(١)، والغالـب أن المَرَائى المكروهة من الشيـطان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٢)، ولذلك أرشد النبى ﷺ لمن رأى ما يكره أن يتفل عن يساره، أو ينفث ثلاث مرات، وأن يقول: «أعوذ بـالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت وأن يَتَحـوَّل إلى الجانب الآخر، وأن لا يخـبر أحداً»(٣)، وفى روايـة: «أمره أن يتوضأ وأن يصلى»(٤).

● **السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.**

من ذلك رؤيا إبراهيم عـليه الصلاة والسلام أنه يذبح ابنه، وهـذا الحديث، وكذلك أثبت النبى ﷺ رؤيا عـبدالله بن زيد فى الأذان، وقال النبـى ﷺ: «إنها رؤيا حق»(٥)، وأبو بكر رضى الله عـنه أثبـت رؤيا من رأى ثـابت بن قـيس بن شـماس؛ فقـال للذى رآه: إنـكم ستجدون درعى تحت بُرْمَة، وعندها فرس يَسْتَـن. فلما أصبح الرجل ذهب إلى خالد بن الوليد وأخـبره، فذهبوا إلى المكـان ورأوا الدرع تحت البرمة عنـدها الفرس(٦)، فَنَفَّذ أبو بكـر وصيته؛ لـوجود القـرائن التى تـدل على صـدقها، لكـن لو دلَّت عـلى ما يخـالف الشريعة؛ فلا عبرة بها، ولا يلتفت إليها؛ لأنها ليست رؤيا صالحة ا.هـ.



(١) [صحيح] أخرجه: مسلم فى الرؤيا (٨/ ٣١/ ١٤) عن جابر به.

(٢) المجادلة: ١٠.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الرؤيا (١٥/ ٢٠ ـ النووى) عن جابر به.
وانظر «رياض الصالحين» (٨٤٤ ـ بتخريجنا).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٠١٧)، ومسلم فى الرؤيا (٨/ ٢٢/ ٦) عن أبى هريرة به.

(٥) حسن أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣)، وأبو داود (٤٩٩)، والترمذى (١٨٩)، وابن ماجه (٧٠٦) وانظر «السلسبيل» (٢٦٧ ـ بتخريجنا).

(٦) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٩/ ٣٢١)، وقال: «رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح».

باب (٤٤)

مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ

مناسبة هذا الباب لما قبله

قال الفقير: مناسبة هذا الباب للذى قبله تظهر فى أمور منها.

١ ـ انهما يدخلان فى قوله تعالى ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا**﴾ وهو الباب قبلهما.

٢ ـ أنهما تضمنا جملة من الألفاظ المنهى عنها لمخالفتها للتوحيد فناسب أن يأتى بها المصنف على نسق واحد وترتيب واحد.

- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ(١): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة؛ لأن سب الدهر يتضمن الشرك كما سيأتى بيانه أ.هـ.

- شرح الترجمة: -

قال سليمان آل الشيخ(٢): ولفظ الأذَى فى اللغة هو لما خف أمره، وضعف أثره من الشرك والمكروه. ذكره الخطابى.

قال شيخ الإسلام: وهو كما قال. وهذا بخلاف الضرر. فقد أخبر سبحانه أن العباد لا يضرونه كما قال تعالى: ﴿**وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا**﴾ فبين سبحانه أن الخلق لايضرونه، لكن يؤذونه إذا سبوا مقلب الأمور أ.هـ.

قال ابن عثيمين(٣): السَّب: الشتم، والتقبيح، والذم، وما أشبه ذلك.

الدَّهْر: هو الزمان والوقت.

وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللَّوم؛ فهذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده، وما أشبه ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات، ومثل هذا اللفظ صالح

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٥٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٥٧.

(٣) القول المفيد ٢/ ٤٢٢ و ٤٢٣.

لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

قلت/ وكقوله تعالى ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبِّه الدهر أن الدهر هو الذى يُقلِّب الأمور إلى الخير والشر؛ فهذا شرك أكبر لأنه اعتقد أن مع الله خالقاً؛ لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكل من اعتقد أن مع الله خالقاً؛ فهو كافر، كما أن من اعتقد أن مع الله إلهاً يستحق أن يعبد؛ فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاده أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبه لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده؛ فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السَّفَه فى العقل والضلال فى الدين؛ لأن حقيقة سَبِّه تعود إلى الله - سبحانه؛ لأن الله تعالى هو الذى يصرف الدهر ويكون فيه ما أراد من خير أو شر، فليس الدهر فاعلاً، وليس هذا السب يُكفِّر؛ لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة.

قوله: «فقد آذى الله».

لايلزم من الأذية الضرر؛ فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذلك، ولهذا أثبت الله الأذية فى القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(١)، وفى الحديث القدسى: «**يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**(٢)»، ونفى عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾(٣)، وفى الحديث القدسى: «**يا عبادى! إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى**»(٤). رواه مسلم أ.هـ.

- ماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال ابن باز(٥): أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان أن سب الدهر وغيره من المعاصى من جملة الأشياء التى تناقض التوحيد وتضعفه وتنافى كماله، فالواجب الحذر من

(١) الأحزاب: ٥٧. (٢) يأتى: تخريجه.

(٣) آل عمران: ١٧٦.

(٤) [صحيح] أخرجه: مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٣٢ ـ النووى) عن أبى ذر به. وانظر «رياض الصالحين» (١١٢ ـ بتخريجنا).

(٥) التعليق المفيد ٢١٩.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾(١).

الأسباب التي تضعف الإيمان من المعاصي وسب الدهر وسب الريح وسب ما لا يستحق السب وما يغضب الله، لأن الدهر مخلوق مُدبَّر ليس في يده تصرف فهو مدبر من الله تعالى وهو الليل والنهار فسبه إيذاء لله والله لا يضره شيء ولكن المعاصي تؤذي الله لأنها تغضبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ا.هـ.

قال ناصر السعدي(٢): وهذا واقع كثيراً في الجاهلية، وتبعهم على هذا كثير من الفساق والمجان والحمقى اذا جرت تصاريف الدهر على خلاف مرادهم جعلوا يسبون الدهر والوقت، وربما لعنوه. وهذا ناشيء من ضعف الدين ومن الحمق والجهل العظيم، فان الدهر ليس عنده من الامر شيء، فانه مدبر مصرف والتصاريف الواقعة فيه تدبير العزيز الحكيم، ففي الحقيقة يقع العيب والسب على مدبره.

وكما أنه نقص في الدين فهو نقص في العقل فيه تزداد المصائب ويعظم وقعها ويغلق باب الصبر الواجب، وهذا مناف للتوحيد.

أما المؤمن فإنه يعلم أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته، فلا يتعرض لعيب ما لم يعبه الله ولا رسوله، بل يرضى بتدبير الله ويسلم لامره وبذلك يتم توحيده وطمأنينته أ.هـ.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الاية.

- مطابقة الآية للترجمة:

قال سليمان آل الشيخ(٣): فإن قلت: فأين مطابقة الآية للترجمة إذا كانت خبراً عن الدهرية المشركين؟.

قيل: المطابقة ظاهرة؛ لأن من سب الدهر فقد شاركهم في سبه، وإن لم يشاركهم في الاعتقاد أ.هـ.

وقال ابن عثيمين(٤):

---

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) القول السديد ١١١.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٥٨.

(٤) القول المفيد ٢/ ٤٢٦.

مناسبة الآية للباب:

إن فى الآية نسبة الحوادث إلى الدهر، ومن نسبها إلى الدهر؛ فسوف يَسُبُّ الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه أ.هـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى[1]: حيث ذمت الآية من نسب الحوادث إلى الدهر لأنه قد جعل الدهر شريكاً مع الله بفعله أ.هـ.

قوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾.

الإعراب[2]: الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتفنيد مزاعمهم إذ كانوا يزعمون أن هلاك الأنفس منوط بمرور الأيام والليالى، وسيرد المزيد من هذا البحث فى باب الفوائد، وما نافية وهى مبتدأ وإلا أداة حصر وحياتنا مبتدأ والدنيا خبر وجملة نموت مستأنفة مسوقة لإيراد المزيد من عقائدهم الفاسدة وجملة نحيا عطف عليها والواو حالية وما نافية ويهلكنا فعل مضارع ومفعول به مقدم وإلا أداة حصر والدهر فاعل يهلكنا أ.هـ.

● التفسير بالقرآن:

قال الشنقيطى[3]: **قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾**

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من إنكار الكفار للبعث بعد الموت، جاء موضحاً فى آيات كثيرة كقوله تعالى: **﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾** وقوله **﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾**[4] وقوله تعالى عنهم **﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾**[5] وقوله تعالى عنهم: **﴿أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾**[6] وقوله تعالى: **﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾**[7] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

(١) الحديد: ٣٨٠.
(٢) إعراب القرآن/ ١٥٥.
(٣) أضواء البيان / ٢٣٤.
(٤) المؤمنون: ٣٥ - ٣٧.
(٥) ق: ٣.
(٦) النازعات: ١٠ - ١٢.
(٧) يس: ٧٨.

وقد قدمنا البراهين القاطعة القرآنية، على تكذيبهم فى إنكارهم البعث، وبينا دلالتها على أن البعث واقع لامحالة، فى سورة البقرة، وسورة النحل وسورة الحج، وأول سورة الجاثية.

وبينا فى سورة الفرقان الايات الموضحة أن إنكار البعث كفر بالله، والآيات التى فيها وعيد منكرى البعث بالنار فى الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾(١). ا.هـ.

● التفسير بالمأثور

أولاً: من السنة

روى الطبرى باسناده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال كان أهل الجاهلية يقولون انما يهلكنا الليل والنهار وهو الذى يهلكنا ويميتنا ويحيينا فقال الله فى كتابه وقالوا ما هى ﴿إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ قال فيسبون الدهر فقال الله تبارك وتعالى «يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر أقلب الليل والنهار»(٢).

قلت: وروى أيضاً عن ابن عيينة وسيأتى فى شرح الحديث بعد الأية من كلام ابن حجر.

وعنه سمعت رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدى الليل والنهار»(٣).

وعنه أن النبى ﷺ قال: «يقول الله استقرضت عبدى فلم يعطنى وسبنى عبدى يقول وادهراه وأنا الدهر»(٤).

وعنه عن النبى ﷺ أن الله قال لا يقولن أحدكم ياخيبة الدهر فانى أنا الدهر أقلب ليله ونهاره واذا شئت قبضتهما(٥).

---

(١) الفرقان: ١١.

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١١/ ٩٢) وسيأتى وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٧٨) بتخريجنا).

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٤١٨) وصححه وانظر «الدر» (٥/ ٧٥٩).

(٥) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق.

ثانياً: من قول الصحابة

وعنه قال لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر ومـا لهم بذلك من علم ان هم إلا يظنون يقول تعالى ذكره وما لهـؤلاء المشركين القائلين ماهى إلا حياتنا الـدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الـدهر بما يقولون من ذلك من علـم يعنى من يقين علم لأنـهم يقولون ذلك تخرّصا بغير خبـرأتاهم من الله ولا برهان عندهم بحقيقتـه إن هم إلا يظنون يقول جل ثناؤه ماهم إلا فى ظن من ذلك وشك يخبر عنهم أنهم فى حيرة من اعتقادهم حقيقة ما ينطقون من ذلك بألسنتهم(١).

ثالثاً: من قول التابعين

عن قتادة وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا أى لعمرى هذا قول مشركى العرب(٢).

عن مجاهد وما يهلكنا إلا الدهر قال الزمان(٣).

عن قتادة فى قوله وما يهلكنا إلا الدهر قـال ذلك مشركوا قريش ما يهلكنا إلا الدهر إلا العمر(٤).

● التفسير بأقوال المفسرين

قال الطبرى(٥): يقول تعالى ذكره وقال هؤلاء المشركـون الذين تقدم خبره عنهم ما حياة إلا حياتنا الدنيا التى نحن فيها لاحياة سواها تكذيباً منهم بالبعث بعد الممات.

وقوله: نموت ونحيا نموت نحن وتحـيا أبناؤنا بعدنا فجعلوا حياة أبنـائهم بعدهم حياة لهم لأنهم مـنهم وبعضهم فكـأنهم بحياتهم أحـياء وذلك نظير قول النـاس مامات من خلف ابناً مثل فلان لأنـه بحياة ذكره به كأنه حىّ غير ميت وقد يـحتمل وجها آخر وهو أن يكون معنـاه نحيا ونموت على وجه تقديـم الحياة قبل الممات كما يقـال قمت وقعدت بمعنى قعدت وقمت والعرب تفعل ذلك فى الواو خاصة اذا أرادوا الخبر عن شيئين أنهما كانا أو يكونان ولم تقـصد الخبر عن كون أحدهما قبل الآخر تقدّم المتـأخر حدوثا على المتقدّم حدوثه منهما أحيانا فهذا من ذلك لأنه لم يقصد فيه الى الخبر عن كون الحياة قبل

---

(١) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق

(٣) أخرجه ابن جـرير فى الموضع السـابق «ذكره السيوطى فـى «الدر» (٥/٧٥٨) وزاد نسبته لـعبد بن جميد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السـابق.

(٥) تفسير الطبرى ١١/٩١.

الممات فقدّم ذكر الممات قبل ذكر الحياة إذ كان القصد الى الخبر عن أنهم يكونون مرة أحياء وأخرى أمواتا وقوله وما يهلكنا إلا الدهر يقول تعالى ذكره مخبرا عن هؤلاء المشركين أنهم قالوا وما يهلكنا فيفنينا إلا مرّ الليالى والايام وطول العمر انكارا منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم وقدذ كرأنها فى قراءة عبد الله وما يهلكنا إلا دهر يمر ا.هـ. وذكر بنحو ذلك الرازى وسيأتى.

قال ابن الجوزى[1]: قوله: «**ما يهلكنا إلا الدهر**» أى أختلاف الليل والنهار ا.هـ.

قال الرازى[2]: واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبهتهم فى إنكار القيامة وفى إنكار الإلة القادر، أما شبهتهم فى إنكار القيامة فهى قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾ فإن قالوا الحياة مقدمة على الموت فى الدنيا فمنكروا القيامة كان يجب أن يقولوا نحيا ونموت، فما السبب فى تقديم ذكر الموت على الحياة؟ قلنا فيه وجوه.

الأول: المراد بقوله (**نموت**) حال كونهم نطفاً فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، وبقوله (**نحيا**) ما حصل بعد ذلك فى الدنيا.

الثانى: نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا.

الثالث: يموت بعض ويحيا بعض.

الرابع: وهو الذى خطر بالبال عند كتابة هذا الموضع أنه تعالى قدم ذكر الحياة فقال (**ماهى إلا حياتنا الدنيا**) ثم قال بعده (**نموت ونحيا**) يعنى أن تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك فى حق الذين ماتوا، ومنها مالم يطرأ الموت عليها، وذلك فى حق الأحياء الذين لم يموتوا بعد. وأما شبهتهم فى إنكار الإله الفاعل المختار، فهو قولهم وما يهلكنا إلا الدهر يعنى تولد الأشخاص إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع. وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة، وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك، ولا حاجة فى هذا الباب إلى إثبات الفاعل المختار، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة ا.هـ.

---

(١) زاد المسير ٧/ ١٦٥.

(٢) التفسير الكبير/ ٢٧١.

قال ابن كثير[1]: يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾ أى ما ثم إلا هذه الدار يموت قوم ويعيش آخرون وما ثم معاد ولا قيامه وهذا يقوله مشركوا العرب المنكرون المعاد وتقوله الفلاسفه الإلهيون منهم وهم ينكرون البداءة والرجعة وتقوله الفلاسفة الدهرية الدريه المنكرون للصانع المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شىء إلى ماكان عليه وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى فكابروا العقول وكذبوا المنقول ولهذا قالوا: ﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾. وقال بنحو ذلك أهل التفسير غيرهم أ.هـ.

قال ناصر السعدى[2]: ﴿**وَقَالُوا**﴾ أى منكرو البعث ﴿**مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾ إن هى إلا عادات وجرى على رسوم الليل والنهار، يموت أناس ويحيا أناس ومن مات، فليس براجع إلى الله ولا مجازى بعمله أ.هـ.

وقال نحو ذلك أهل التفسير غيرهم.

● التفسير بأقوال شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين:[3] قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾.

المراد بذلك المشركون الموافقون للدّهرية - بضم الدال على الصحيح عند النسبة؛ لأنه مما تغير فيه الحركة -، والمعنى وما الحياة والوجود إلا هذا؛ فليس هناك آخرة، بل يموت بعض ويحيا آخرون، هذا يموت فيدفن وهذا يولد فيحيا، ويقولون: إنها أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شىء سوى هذا.

قوله: ﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾.

أى: ليس هلاكنا بأمر الله وقدره، بل بطول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته؛ فالمهلك لهم هو الدهر.

قال ابن باز[4]: وسب الدهر هو سب الزمان وهو الليل والنهار كأن يقول قاتل الله هذه الساعة ولعن الله هذه الساعه وهذا اليوم ولا بارك الله فى هذا اليوم وما أشبه ذلك

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٤٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١١ و ١٢)

(٣) القول المفيد ٢/ ٤٢٤.

(٤) التعليق ٢١٩.

فسب الدهر هو شتمه أو لعنه أو الدعاء عليه أما وصفه بالشدة فليس من السب كأن يقول: هذا يوم شديد وعسر ونحس أو بارد أو حار.

ولم يذكر باقى الشراح مزيداً على ما تقدم فيما نعلم.

قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾.

الإعراب(١): وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون الواو للحال وما نافية ولهم خبر مقدم وبذلك متعلقان بعلم ومن حرف جر زائد وعلم مجرور لفظاً مرفوع محلاً على أنه مبتدأ مؤخر وإن نافية وهم مبتدأ وإلا أداة حصر وجملة يظنون خبرهم. ا.هـ.

● التفسير بأقوال المفسرين

قال ابن الجوزى(٢): ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: ما قالوه عن علم، إنما قالوه شاكين فيه ومن أجل هذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «**لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**» أى: هو الذى يهلككم لا ماتتوهمونه من مرور الزمان وما بعد هذا ظاهر أ.هـ.

قال الرازى(٣): ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ والمعنى أن قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات بأسرها قائمه، فالذى قالوه يحتمل وضده أيضاً يحتمل، وذلك هو أن يكون القول بالبعث والقيامة حقاً، وأن يكون القول بوجود الإله الحيكم حقاً، فإنهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية فى أن هذا الاحتمال الثانى باطل، ولكنه خطر ببالهم ذلك الاحتمال الأول فجزموا به وأصروا عليه من غير حجة ولا بينة، فثبت أنه ليس علم ولا جزم ولا يقين فى صحة القول الذى اختاروه بسبب الظن والحسبان وميل القلب إليه من غير موجب، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى أ.هـ.

قال القرطبى(٤): ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى علم. و«من» زائدة؛ أى قالوا ما قالوا شاكين ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ أى ما هم إلا يتكلمون بالظن. وكان المشركون أصنافا، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك فى البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث فى الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا

---

(١) إعراب القرآن / ١٥٥.

(٢) زاد المسير ٧/ ١٦٥.

(٣) التفسير الكبير / ٢٧١.

(٤) تفسير القرطبى / ٥٩٩٢.

من المسلمين؛ فيتأولون ويرون القيامة موت البدن، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للارواح بزعمهم ـ كما قلت زعم ذلك ابن محمود فى العصر الحديث ـ فشر هؤلاء أضرّ من شر جميع الكفار؛ لأن هؤلاء يلُبسون على الحق، ويغْتر بتلبيسهم الظاهر. والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم. وقيل: نموت وتحيا آثارنا؛ فهذه حياة الذكر. وقيل أشاروا إلى التناسخ؛ أى يموت الرجل فتجعل روحه فى موات فتحيا به أ.هـ.

قال السعدى[1]: قولهم هذا صادر عن غير علم ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ**﴾ فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم ولابرهان. إن هى إلا ظنون وإستعادات خاليه عن الحقيقة أ.هـ.

قال ابن عثيمين[2]: الظن هنا بمعنى الوهم؛ فليس ظنهم مبنياً على دليل يجعل الشيء مظنوناً، بل هو مجرد وهم لا حقيقة له؛ فلا حجة لهم إطلاقاً، وفى هذا الدليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوهم، وأيضاً يستعمل بمعنى العلم واليقين؛ كقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ**﴾[3].

والرد على قولهم بما يلى:

أولاً: قولهم: ﴿**مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا**﴾.

وهذا يرده المنقول والمعقول:

أما المنقول؛ فالكتاب والسنة تدل على ثبوت الآخرة ووجوب الإيمان باليوم الآخر، وأن للعباد حياة أخرى سوى هذه الحياة الدنيا، والكتب السماوية الأخرى تقرر ذلك وتؤكده.

قلت: وتنتهى الأدلة النقلية إلى خمسة أصول.

الأول: ـ أن البعث خبر عن الله ـ عز وجل ومن أصدق من الله حديثا، قال تعالى ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾.

الثانى: ـ الإستدلال بالنشئة الأولى على الثانية، قال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾.

---

(١) تيسير الكريم ٥/ ١١، ١١٢.

(٢) القول المفيد ٢/ ٤٢٤ و ٤٢٥ و ٤٢٦.

(٣) البقرة.

والثالث: ـ قدرة الله على خلق السموات والأرض قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الرابع: ـ إحياء الأرض بالنبات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الخامس: ـ لابد من البعث للحساب وإلا كان خلق الخلق عبثاً، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾. ا.هـ ثم قال ابن عثيمين

وأما المعقول: فإن الله فرض على الناس الإسلام والدعوة إليه والجهاد لإعلاء كلمة الله، مع ما في ذلك من استباحة الدماء والأموال والنساء والذرية، فمن غير المعقول أن يكون الناس بعد ذلك تراباً لا بعث ولا حياة ولا ثواب ولا عقاب، وحكمة الله تأبى هذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]، أي: الذي أنزل عليك القرآن وفرض العمل به والدعوة إليه لابد أن يردك إلى معاد تجازى عليه ويجازى عليه كل من بلغته الدعوة.

ثانياً: قوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾؛ أي: إلا مرور الزمن وهذا يرده المنقول والمحسوس.

فأما المنقول؛ فالكتاب والسنة تدل على أن الإحياء والإماتة بيد الله - عز وجل -، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]، وقال عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وأما المحسوس؛ فإننا نعلم من يبقى سنين طويلة على قيد الحياة؛ كنوح عليه السلام وغيره ولم يهلكه الدهر، ونشاهد أطفالاً يموتون في الشهر الأول من ولادتهم، وشباباً يموتون في قوة شبابهم، فليس الدهر هو الذي يميتهم ا.هـ.

(١) القصص: ٨٥.

(٢) يونس/٥٦

وَفِى الصَّحِيحِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: « قَالَ اللهُ تَعَالَى يُؤْذِينِى ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وَأَنَا الدهرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» وَفِى رِوَايَةٍ «لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»[1].

قوله: وفى الصحيح عن: أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال: قال الله تعالى (يؤذينى ابن آدم. . .).

أخرج البخارى هذا الحديث فى ثلاثة مواضع.

الأول[2]: فى كتاب التفسير باب سورة الجاثية ولفظه ما ذكره المصنِّف.

الثانى[3]: فى كتاب الأدب فى باب لاتسبوا الدهر وأسند عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ قال الله: يَسُبُّ بنو آدم الدهر، وأنا الدهرُ، بيدى الليل والنهار».

الثالث[4]: فى كتاب التوحيد فى باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله) إنه لقول فصل.

وستأتى ألفاظ أخرى للحديث عند الشرح من كلام ابن حجر فى الفتح.

- مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جار الله[5]: وأسند «عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: **قال الله تعالى يؤذينى ابن آدم يسبب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار**» أن من أضاف إلى الدهر فعلاً من الأفعال أو أمراً من الأمور فقد آذى الله تعالى: ولايضر الله شيئاً. والله سبحانه وتعالى أعلم أ.هـ.

قال القرعاوى[6]: دل الحديث على أن سب الدهر يؤذى الله عز وجل أ.هـ.

- مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى[6]: أخبر البارى عز وجل أن سب الدهر يؤذيه وذلك لأن الذين يسبون الدهر يعتقدون أنه فاعل مع الله وذلك شرك فى الربوبية. ا.هـ.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه مالك فى «الموطأ» (٢/ ٩٨٤/ ٣)، والبخارى فى التفسير / باب سورة الجاثية (٨/ ٤٣٧/ ٤٨٢٦)، (١١٨١، ٧٤٩١)، ومسلم فى الألفاظ من الأداب/ باب ما ينهى عن سب الدهر (١٥/ ٢)، وأحمد فى «مسنده» (٢/ ٢٥٩، ٢٧٢، ٣٩١، ٣٩٤، ٤٩٦، ٤٩٩)، وأبو داود فى الأدب / باب فى الرجل سب الدهر (٤/ ٣٧١/ ٥٢٧٤).

عن أبى هريرة به .

وانظر «القواعد المثلى» (ص: ١٣ - بتخريجنا) و«فتح المجيد» (ح ٧٧٦ ـ ٧٧٧) بتخريجنا.

(٢) ٨/ ٤٨٢٦ ـ الفتح.

(٣) ح ٦١٨١ ، ب (١٠) الفتح

(٤) ح ٧٤٩١. ك ٣٥ ج ١٣ الفتح

(٥) الجامع الفريد / ١٧١ .

(٦) الجديد / ٣٨٨.

قوله: [وفى الصحيح].

[قلت]: القول مُشْعِر أن الحديث فى أحدهما دون الآخر وإنما هو عندهما فى «صحيحيهما» بنفس اللفظ والرواية الأخرى لمسلم.

قوله: «قال الله تعالى»:

قال ابن حجر(١): قال ابن بطال: أراد أن كلام الله تعالى صفة قائمة به وأنه لم يزل متكلماً ولايزال، والذى يظهر أن غرضه أن كلام الله لايختص بالقرآن فإنه ليس نوعاً واحداً كما تقدم نقله عمن قاله وأنه وإن كان غير مخلوق وهو صفة قائمة به فإنه يلقيه على من يشاء من عبادة بحسب حاجتهم فى الأحكام الشرعية وغيرها من مصالحهم وأحاديث الباب كالمصرحة بهذا المراد ا.هـ.

قال ابن عثيمين(٢):

قوله: «قال الله تعالى» تعالى من العلو وجاءت بهذه الصيغة للدلالة على ترفعه - جل وعلا - عن كل نقص وسفل؛ فهو متعال بذاته وصفاته، وهى أبلغ من كلمة علا؛ لأنها تحمل معنى التَّرفُّع والتَّنزُّه عما يقوله المعتدون علواً كبيراً. ا.هـ.

قوله: «يؤذينى ابن آدم يسب الدهر».

قلت: وهذا من الأحاديث القدسية وتقدم الكلام عليها فى غير باب

قال ابن حجر(٣): قوله: «يؤذينى ابن آدم» كذا أورده مختصرا، وقد أخرجه الطبرى عن أبى كريب عن ابن عيينة بهذا الإسناد عن النبى ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار، هو الذى يميتنا ويحيينا، فقال الله فى كتابه ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الآية، قال فيسبون الدهر، قال الله تبارك وتعالى: «يؤذينى ابن آدم» فذكره أ.هـ.

قال القرطبى: معناه يخاطبنى من القول بما يتأذى من يجوز فى حقه التأذى، والله منزه عن أن يصل إليه الأذى، وإنما هذا من التوسع فى الكلام، والمراد أن من وقع ذلك منه تعرض لسخط الله أ.هـ.

قلت: وفى كلام القرطبى تأويل يجاب عليه بما سيأتى من قول ابن عثيمين ان الأذية

(١) الفتح ١٣/ د٤٧٥.
(٢) القول المفيد ٢/ ٤٢٧.
(٣) الفتح ٨/ ٤٣٨.

لله ثابته ويجب علينا إثباتها لأن الله أثبتهـا لنفسه فلسنا أعلم من الله بالله ولكنها ليست كأذية المخلوق بدليل قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أ.هـ

قوله: «وأنا الدهر» قال الخطابي: معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر، فـمن سب الدهر من أجل أنه فـاعل هذه الأمور عاد سبه الـى ربه الذى هو فاعلها، وإنما الدهـر زمان جعل ظرفا لمواقع الأمور. وكانت عادتـهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا: بؤسا للدهر، وتبا للدهر.

وقال الـنووى: قوله: **«أنا الدهر»** بالرفـع فى ضبط الأكثـرين والمحققيـن، ويقال بالنـصب على الظرف أى أنـا باق أبدا، والموافق لـقوله **«إن الله هو الـدهر»** الرفع وهو مجاز، وذلك أن العرب كانوا يسبون الدهر عنـد الحوادث فقال: لا تسبوه فإن فاعلها هو الله، فكأنه قـال: لاتسبوا الفاعـل فإنكم إذا سببتـموه سببتـمونى. أو الدهر هنـا بمعنى الداهر، فقـد حكى الراغب أن الدهـر فى قوله **«إن الله هو الـدهر»** غير الدهـر فى قوله **«يسب الدهر»** قال: والدهر الأول الزمان والثانى المدبر المصرف لما يحدث، ثم استضعف هذا القول لعـدم الدليل عليه. ثم قال: لـو كان كذلك لعد الدهر من أسـماء الله تعالى انتهى.

وكذا قال محمد بن داود محتجا لما ذهب إلـيه من أنه بفتح الراء فكان يقول: لو كان بضمها لـكان الدهر من أسماء الله تعالـى. وتعقب بأن ذلك ليس بـلازم، ولاسيما مع روايته **«فإن الله هو الدهر»**.

قال ابن الجوزى: يصوب ضم الراء من أوجه:

أحدها أن المضبوط عند المحدثين بالضم.

ثانيها لو كان بالنصب يصير التقدير فأنا الـدهر أقلبه، فلا تكون علة النهى عن سبه مذكورة لأنه تعالى يقلب الخير والشر فلا يستلزم ذلك منع الذم.

ثالثها: الرواية التى فيها **«فإن الله هو الدهر»** انتهى. وهذه الأخيرة لا تعين الرفع لأن للمخالف أن يقول: التقدير فإن الله هو الدهر يقلب، فترجع للرواية الأخرى، وكذا ترك ذكر علة النهى لا يعين الرفع لأنها تعرف من السياق، أى لا ذنب له فلا تسبوه ا.هـ.

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «يؤذينى ابـن آدم يسب الدهر» فيه أن سب الدهر

(١) تيسير العزيز الحميد / ٤٥٨ - ٤٦٠.

يؤذى الله تبارك وتعالى. قال الشافعى فى تـأويله والله أعلم: إن العرب كان من شأنها أن تذم الدهر وتسبه عند المصائب التى تنزل بهم، من موت، أو هرم، أو تلف، أو غير ذلك. فيقولون: إنما يهلكنا الدهر وهو الليـل والنهار. ويقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فيجعلون الليل والنهار يفعلان الأشياء. فيذمون الدهر بأنه الذى يفنيهم، ويفعـل بهم. فقـال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الدهر**». على أنه الذى يفـنيكم والذى يفعـل بكم هذه الأشـياء، فانكم إذا سـببتم فـاعل هذه الأشياء فـإنما تسبـون الله تبارك وتعالى، فإنه فاعل هذه الأشياء.

ثم قال: والظاهر أن المشركين نوعان.

أحدهما: من يعتقد أن الدهر هو الفاعل؛ فيسبه لذلك. فهؤلاء هم الدهرية.

الثانى: من يعتقد أن المدبر للأمور هو الله وحده لاشـريك له، ولكن يسبون الدهر لما يجرى علـيهم فيه من المـصائب والحوادث، فـيضيفـون ذلك إليه مـن إضافة الشـىء إلى محله، لا لأنه عندهـم فاعل لذلك. والحديث صريح فى النهى عن سـب الدهر مطلقاً، سواء اعتقد أنه فاعل أو لم يعتقد ذلك، كما يقع كثيراً ممن يعتقد الإسلام.

كقول ابن المعتز:

يا دهر ويحك ما أبقيت لى أحـداً ... وأنت والد سـوء تأكـل الولـدا

وقول أبى الطيب:

قبحـاً لوجهك يا زمان كأنـه ... وجـه له مـن كل قبـح برقـع

وقول الطرفى:

إن تبتلى بلئام الناس يـرفعهـم ... عليك دهر لأهل الفضل قد خانـا

وقول الحريرى:

ولا تأمن من الدهر الخؤون ومكره ... فكـم خامل أخنى عليه ونابه

ونحو ذلك كثير. وكل هذا داخل فى الحديث.

قال ابن القيم: وفى هذا ثلاث مفاسد عظيمة.

أحدها: سبه من ليس أهلاً للسب. فإن الدهر خَلْقٌ مسخر من خلق الله منقاد لأمره، متذلل لتسخيره فسابه أولى بالذم والسب منه.

والثانية: أن سبه متضمن للشرك، فإنه إنما سبـه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه مع ذلك

ظالم قد ضر من لايستحق العطاء، ورفع من لايستحق الرفعة، وحرم من لايستحق الحرمان. وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة فى سبه كثيرة جداً. وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه.

الثالثة: أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال، التى لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإذا وافقت أهواءهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه، وفى حقيقة الأمر، فرب الدهر هو المعطى المانع الخافض الرافع المعز المذل، والدهر ليس له من الأمر شىء، فمسبتهم الدهر مسبة لله عَزَّ وجلَّ، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى، فساب الدهر دائر بين أمرين لابد له من أحدهما. إما مسبة الله أو الشرك به فإنه إن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذى فعل ذلك، وهو يسب من فعله فهو يسب الله تعالى. انتهى. وأشار ابن أبى حمزة إلى أن النهى عن سب الدهر تنبيه بالأعلى على الأدنى، وأنه فيه إشارة إلى ترك سب كل شىء مطلق، إلا ما أذن الشرع فيه؛ لأن العلة واحدة(١) أ.هـ.

قال ابن عثيمين(٢): قوله: «يؤذينى ابن ادم».

أى: يلحق بى الأذى؛ فالأذية لله ثابتة ويجب علينا إثباتها؛ لأن الله أثبتها لنفسه، فلسنا أعلم من الله بالله، ولكنها ليست كأذية المخلوق؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾(٣) وقُدم النفى فى هذه الآية على الإثبات، لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لايماثل فى صفاته كما لا يماثل فى ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه؛ فليس فيه احتمال للتمثيل؛ إذ لو كان احتمال التمثيل جائزاً فى كلامه سبحانه وكلام رسوله فيما وصف به نفسه؛ لكان احتمال الكفر جائزاً فى كلامه سبحانه وكلام رسوله.

قوله: «ابن آدم».

شامل للذكور والإناث، وآدم هو أبو البشر، خلقه الله تعالى من طين وسواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وعَلَّمه الأسماء كلها.

واعلم أنه من المؤسف أنه يوجد فكرة مضلة كافرة، وهى أن الآدميين نشؤوا من قرد لا من طين، ثم تطور الأمر بهم حتى صاروا على هذا الوصف، ويمكن على مر السنين

(١) تيسير العزيز الحميد / ٤٥٨ - ٤٦٠.

(٢) القول المفيد / ٤٢٧ - ٤٢٩.

(٣) الشورى: ١١.

أن يتطوروا حتى يصيروا ملائكة، وهذا القول لاشك أنه كفر وتكذيب صريح للقرآن؛ فيجب علينا أن ننكره إنكاراً بالغاً، وأن لا نقره فى كتب المدارس، فمن زعم هذه الفكرة يقال له: بل أنت قرد فى صورة إنسان، ومثلك كما قال الشاعر:

إذا ما ذكرنا آدمــاً وفعــالــه ... وتزويجه بنتيه بابنيه فــى الخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فــاجر ... وأن جميع الناس من عنصر الزنا

وأجابه بعض العلماء بجواب؛ فقال: أنت الآن أقررت أنك ولد زنا، وإقرارك على نفسك مقبول وعلى غيرك غير مقبول، ومثلك كما قال الشاعر:

كـذلك إقــرارُ الفتَى لازمٌ لَهُ ... وفى غَيْرِه لَغْوٌ كما جَاءَ شَرْعُنا

ولكن أنا فى الحقيقة يؤلمنى أن يوجد هذا بين أيدى شبابنا؛ فبعض الناس أخذوا به على أنه أمر محتمل، والواقع أنه لا يحتمل سوى البطلان والكذب والدس على المسلمين بالتشكيك بما أخبرهم الله به عن خلق آدم وبنيه.

وأيضاً مما يحذر عنه كلمة (فكر إسلامى)؛ إذ معنى هذا أننا جعلنا الإسلام عبارة عن أفكار قابلة للأخذ والرد، وهذا خطر عظيم أدخله علينا أعداء الإسلام من حيث لانشعر، والإسلام شرع من عند الله وليس فكراً لمخلوق.

قوله: «يسب الدهر».

الجملة تعليل للأذية أو تفسير لها؛ أى: بكونه يسب الدهر؛ أى: يشتمه ويُقبِّحُه ويلومه وربما يلعنه - والعياذ بالله - يؤذى الله، والدهر: هو الزمن والوقت، وقد سبق بيان أقسام سب الدهر أ.هـ.

وجاء فى بعض روايات الصحيح صفة هذا السب بلفظ: «لا تقولوا خيبة الدهر..» الحديث.

قال ابن حجر[1] **قوله: «ولا تقولوا خيبة الدهر)** كذا للأكثر، وللنسفى **«ياخيبة الدهر»** وفى غير البخارى **«واخيبة الدهر»** الخيبة بفتح الخاء المعجمة وإسكان التحتانية بعدها موحدة الحرمان، وهى بالنصب على الندبة، كأنه فقد الدهر لما يصدر عنه مما يكرهه فندبه متوجعاً عليه أو متوجعًا منه.

وقال الداودى: هو دعاء على الدهر بالخيبة وهو كقولهم قحط الله نوءها يدعون على

(١) الفتح ١٢/ ٥٨١ و ٥٨٢.

الأرض بالقحط وهى كلمة هذا أصلها ثم صارت تقال لكل مذموم ووقع فى رواية العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة عند مسلم بلفظ «وادهره وادهره»(١) ومعنى النهى من سب الدهر أن من اعتقد أنه الفاعل للمكروه فسبه أخطأ فإن الله هو الفاعل، فإذا سببتم من أنزل ذلك بكم رجع السب إلى الله. وقد تقدم شرح الحديث فى تفسير سورة الجاثية. ومحصل ما قيل فى تأويله ثلاثة أوجه: **أحدها** أن المراد بقوله «**إن الله هو الدهر**» أى المدبر للأمور.

ثانيها أنه على حذف مضاف أى صاحب الدهر.

ثالثها التقدير مقلب الدهر، ولذلك عقبه بقوله «**بيدى الليل والنهار**» ووقع فى رواية زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة بلفظ «**بيدى الليل والنهار أجدده وأبليه وأذهب بالملوك**» أخرجه أحمد.

وقال المحققون: من نسب شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقة كفر، ومن جرى هذا اللفظ على لسانه غير معتقد لذلك فليس بكافر، لكنه يكره له ذلك لشبهة بأهل الكفر فى الإطلاق، وهو نحو التفصيل الماضى فى قولهم: مطرنا بكذا.

الرد على من زعم ـ من هذا الحديث ـ أن من أسماء الله الحسنى الدهر.

قال عياض: زعم بعض من لا تحقيق له أن الدهر من أسماء الله، وهو غلط فإن الدهر مدة زمان الدنيا، وعرفه بعضهم بأنه أحد مفعولات الله فى الدنيا أو فعله لما قبل الموت، وقد تمسك الجهلة من الدهرية والمعطلة بظاهر هذا الحديث واحتجوا به على من لارسوخ له فى العلم، لأن الدهر عندهم حركات الفلك وأمد العالم ولا شىء عندهم ولا صانع سواه وكفى فى الرد عليهم قوله فى بقية الحديث «أنا الدهر أقلب ليله ونهاره» فكيف يقلب الشىء نفسه؟ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

قال القرطبى(٢): وقد استدل بهذا الحديث من قال: إن الدهر من أسماء الله. وقال: من لم يجعله من العلماء اسما إنما خرج ردا على العرب فى جاهليتها؛ فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم فى هذه الآية؛ فكانوا إذا أصابهم ضر أوضَيْم أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقيل لهم على ذلك لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر؛ أى إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التى تضيفونها إلى الدهر فيرجع السب

(١) تقدم.

(٢) تفسير القرطبى / ٥٩٩١ - ٥٩٩٢.

إليه سبحانه، فنهوا عن ذلك. ودل على صحة هذا ما ذكرناه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى يؤذينى ابن آدم...» الحديث. ولقد أحسن من قال، وهو أبو على الثقفى:

يا عاتب الدهر إذا نابَهُ ... لا تَلُمِ الدهرَ على غَدْرِه
الدهرُ مأمورٌ، له آمرٌ ... وينتهى الدهرُ إلى أمره
كم كافرٍ أموالُه جَمَّةٌ ... تزداد أضعافاً على كفره
ومؤمنٍ ليس له درهمٌ ... يزداد إيماناً على فقْرِه

وروى أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيرا ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال: إياك يابنى وذكر الدهر ! وأنشد:

فما الدهر بالجانى لشىء لِحَيْنه ... ولا جالبَ البَلْوَى فلا تشتم الدّهْرَا
ولكن متى ما يبعث الله باعثاً ... على معشر تجْعَل مياسيرهم عُسْرَاً

وقال أبو عبيد: ناظرت بعض الملاحدة فقال: ألا تراه يقول «فإن الله هو الدهر» فقلت: وهل كان أحد يسب الله فى آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى:

إن محلا وإنْ مُرْتَحلا ... وإنّ فى السَّفْر إذ مَضَوْا مَهَلاَ
استأثر الله بالوفاء وبالعدْ ... ل وولّى الملامةَ الرّجُلاَ

قال أبو عبيد: ومن شأن العرب أن يذمّوا الدهر عند المصائب والنوائب؛ حتى ذكروه فى أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه. قال عمرو بن قَمِيئة.

رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرْمَى وليس برام
فلو أنها نَبْل إذًا لاتّقيتها ... ولكننى أرْمَى بغير سهام
على الراحتين مرّة وعلى العصا ... أنُوءُ ثلاثاً بعدهن قيامى

ومثلة كثير فى الشعر. ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونهْ إليه، والله سبحانه الفاعل لارب سواه أ.هـ.

قال ابن كثير(١): قال الشافعى وأبو عبيدة: وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله ﷺ **«لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»** كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو

---
(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٤٦.

بلاء أو نكبة قالوا ياخيبة الدهر فيسندون تلك الافعال إلى الدهر ويسبونه وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الإعتبار لأن الله تعالى هو الدهر الذى يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل فى تفسيرة وهو المراد والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عدهم الدهر من الاسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث أ.هـ.

قال ابن حجر: ـ وقال الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة: لا يخفى أن من سب الصنعة فقد سب صانعها، فمن سب نفس الليل والنهار أقدم على أمر عظيم بغير معنى، ومن سب ما يجرى فيهما من الحوادث، وذلك هو أغلب ما يقع من الناس، وهو الذى يعطيه سياق الحديث حيث نفى عنهما التأثير، فكأنه قال: لا ذنب لها فى ذلك، وأما الحوادث فمنها ما يجرى بوساطة العاقل المكلف فهذا يضاف شرعاً ولغة إلى الذى جرى على يديه ويضاف إلى الله تعالى لكونه بتقديره، فأفعال العباد من أكسابهم، ولهذا ترتبت عليها الأحكام، وهى فى الابتداء خلق الله. ومنها ما يجرى بغير وساطة فهو منسوب إلى قدرة القادر، وليس الليل والنهار فعل ولا تأثير لا لغة ولا عقلاً ولا شرعاً، وهو المعنى فى هذا الحديث.

قلت: وسيأتى مزيد من الرد لابن عثيمين. ا.هـ.

● ما يلتحق بالدهر فى النهى عن سبه

وقال ابن حجر عن ابن أبى جمره: ويلتحق بذلك ما يجرى من الحيوان غير العاقل. ثم أشار بأن النهى عن سب الدهر تنبيه بالأعلى على الأدنى، وأن فيه إشارة إلى ترك سب كل شىء مطلقاً إلا ما أذن الشرع فيه، لأن العلة واحدة، والله أعلم انتهى ملخصاً. واستنبط منه أيضاً منع الحيلة فى البيوع كالعينة لأنه نهى عن سب الدهر لما يئول إليه من حيث المعنى وجعله سباً لخالقه أ.هـ.

قوله: «وأنا الدهر».

قال ابن حجر(١)**: قوله: و«أنا الدهر»** قال الخطابى: معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التى ينسبونها إلى الدهر، فمن سبب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها، وإنما الدهر زمان جعل ظرفا لمواقع الأمور. وكانت عاداتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا: بؤسا للدهر، وتبا للدهر.

(١) الفتح ١٣/٤٣٨.

وقال النووي: قوله «أنا الدهر» بالرفع في ضبط الأكثرين والمحققين، ويقال بالنصب على الظرف أي أنا باق أبدا، والموافق لقوله «**إن الله هو الدهر**» الرفع وهو مجاز، وذلك أن العرب كانوا يسبون الدهر عند الحوادث فقال: لاتسبوه فإن فاعلها هو الله، فكأنه قال: لاتسبوا الفاعل فإنكم إذا سببتموه سببتموني. أو الدهر هنا بمعنى الداهر، فقد حكى الراغب أن الدهر في قوله «**إن الله هو الدهر**» غير الدهر في قوله «يسب الدهر» قال: والدهرِ الأول الزمان والثاني المدبر المصرف لما يحدث، ثم استضعف هذا القول لعدم الدليل عليه. ثم قال: لو كان كذلك لعد الدهر من أسماء الله تعالى انتهى. وكذا قال محمد بن داود محتجا لما ذهب إليه من أنه بفتح الراء فكان يقول: لو كان بضمها لكان الدهر من أسماء الله تعالى. وتعقب بأن ذلك ليس بلازم، ولاسيما مع روايته «**فإن الله هو الدهر**».

قال ابن عثيمين(١): قوله: «وأنا الدهر».

أي: مُدَبِّر الدهر ومُصَرِّفه، قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾(٢)، ولقوله في الحديث: «**أقلب الليل والنهار**»، والليل والنهار هما الدهر.

ولا يقال بأن الله هو الدهر، ومن قال ذلك؛ فقد جعل الخالق مخلوقاً، والمقلب بفتح اللام مقلَّباً بكسر اللام.

فإن قيل: أليس المجاز ممنوعاً في كلام الله وكلام رسوله وفي اللغة؟

أجيب: إن الكلمة حقيقة في معناها الذي دل عليه السياق والقرائن، وهنا في الكلام محذوف تقديره: وأنا مقلب الدهر؛ لأنه فسره بقوله: «**أقلب الليل والنهار**»، والليل والنهار هما الدهر، ولأن العقل لايمكن أن يجعل الخالق الفاعل هو المخلوق المفعول، المقلب هو المقلب، وبهذا عرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله، كابن حزم - رحمه الله - ؛ فإنه قال: «إن الدهر من أسماء الله»، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث، وغفلة عن الأصل في الأسماء، فأما مدلول الحديث؛ فإن القائلين بذلك لم يريدوا أن الذي يهلكهم هو الله، وإنما أرادوا مرور الزمن؛ فالدهر هو الزمن في مرادهم، وأما الأصل في الأسماء؛ فالأصل في أسماء الله أن تكون حسنى؛ أي: بالغة في الحسن

---

(١) القول المفيد ٢/٤٢٩و ٤٣٠.

(٢) آل عمران: ١٤٠.

أكمله، فلابد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعانى فى دلالة هذه الكلمة، ولهذا لاتجد فى أسماء الله تعالى اسماً جامداً أبداً؛ لأن الاسم الجامد ليس فيه معن أحسن أو غير أحسن، لكن أسماء الله كلها حسنى؛ فيلزم من ذلك بأن تكون دالة على معانٍ، والدهر اسم من أسماء الزمن ليس فيه معنى إلا أنه اسم زمن، وعلى هذا؛ فينتفى أن يكون اسماً لله تعالى لوجهين:

الأول: أن سياق الحديث يأباه غاية الإباء.

الثانى: أن أسماء الله حسنى، والدهر اسم جامد لايحمل معنى إلا أنه اسم لأوقات.

فلا يحمل المعنى الذى يوصف بأنه أحسن، وحينئذ فليس من أسماء الله تعالى، بل إنه الزمن، ولكن مقلب الزمن هو الله، ولهذا قال: «**أقلب الليل والنهار**» أ.هـ.

قلت: وتقدم فى فصل مستقل الرد على من قال أن الدهر من أسماء الله الحسنى من كلام القاضى ومحمد ابن أبى جمرة والقرطبى وابن كثير.

قوله: «بيدى الأمر أقلب الليل والنهار».

قال سليمان آل الشيخ(١): وفى رواية لأحمد: «**بيدى الليل والنهار أجدده وأبليه وأذهب بالملوك**». أ.هـ.

قال ابن عثيمين(٢): **قوله: «أقلب الليل والنهار»**.

أى: ذواتهما وما يحدث فيهما؛ فالليل والنهار يُقَلَّبان من طول إلى قصر إلى تساو، والحوادث تتقلب فيه فى الساعة وفى اليوم وفى الأسبوع وفى الشهر وفى السنة، قال تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾(٣)، وهذا أمر ظاهر، وهذا التقليب له حكمة قد تظهر لنا وقد لاتظهر؛ لأن حكمة الله أعظم من أن تحيط بها عقولنا، ومجرد ظهور سلطان الله ـ عزوجل ـ وتمام قدرته هو من حكمة الله لأجل أن يخشى الإنسان صاحب هذا السلطان والقدرة، فيتضرع ويلجأ إليه أ. هـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٦.

(٢) القول المفيد ٢/ ٤٣٠ و ٤٣١.

(٣) آل عمران: ٢٦.

قوله: «وفى رواية لاتسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر».

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: وفى رواية: هذه الرواية رواها مسلم وغيره.

قال المصنِّف: وفيه أنه قد يكون سباً ولو لم يقصد بقلبه أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[2]: ومعنى هذه الرواية: هو ما صرَّح به فى الحديث، من قوله: **«وأنا الدهر، أُقلبُ الليل والنهار»** يعنى: أنَّ ما يجرى فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره بعلمٍ منه تعالى وحكمة، لايشاركه فى ذلك غيره، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. فالواجبُ عند ذلك حمدُه فى الحالتين، وحُسنُ الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة؛ كما قال تعالى: **﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**[3]، وقال: **﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾**[4]. ونسبةُ الفعل إلى الدهر، ومسبته كثيرا فى أشعار المولَّدين، كابن المُعتز، والمتنبى، وغيرهما.

وليس منه وصفُ السنين بالشدة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: **﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾**[5] قال بعضُ الشعراء:

إنَّ الليالى من الزمان مهولةٌ ... تُطوى وتُنشر بينها الأعمارُ
فقصارهُن مع الهموم ... وطوالهن مع السرور قصار

وقولُ أبى تمام:

أعوامُ وصلٍ كاد يُنسى طيبها ... ذكرُ النوى، فكأنها أيامُ
ثم انبرت أيام هجر أعقبت ... نحوى أسىً، فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلُها ... فكأنها وكأنهم أحلام

قال ابن عثيمين[6]: قوله: «وفى رواية: لاتسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر».

وفائدة هذه الرواية أن فيها التصريح فى النهى عن سب الدهر.

قوله: **«فإن الدهر هو الله»**؛ والصواب: **«فإن الله هو الدهر»**.

(1) تيسير العزيز الحميد ٦٠٤.
(2) فتح المجيد ٢/ ٧٠٨ و ٧٠٩.
(3) الأعراف: ١٦٨.
(4) الأنبياء: ٣٥
(5) يوسف ٤٨.
(6) القول المفيد ٢/ ٤٣١.

فيه مسائل

الأولى: النَّهيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ.

الثانية : تَسْمِيَتُهُ أَذَى الله.

الثالثة : التَّأَمْلِ فِي قَوْلِه:«فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

الرابعة : أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًا ، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِه.

وقوله: «فإن الله هو الدهر»؛ أى: فإن الله هو مدبر الدهر ومصرفه، وهذا تعليل للنهى، ومن بلاغة كلام الله ورسوله قرن الحكم بالعلة لبيان الحكمة وزيادة الطمأنينة، ولأجل أن تتعدى العلة إلى غيرها فيما إذا كان المُعَلَّل حكماً؛ فهذه ثلاث فوائد فى قَرْن العلة بالحكم.



قال ابن عثيمين[1]: فيه مسائل

- **الأولى: النهى عن سب الدهر.**

لقوله: «لاتسبوا الدهر».

- **الثانية: تسميته أذى لله.**

تؤخذ من قوله: «يؤذينى ابن آدم».

- **الثالثة: التأمل فى قوله: «فإن الله هو الدهر».**

فإذا تأملنا فيه وجدنا أن معناه أن الله مُقَلِّب الدهر ومُصَرِّفه وليس معناه أن الله هو الدهر، وقد سبق بيان ذلك.

- **الرابعة: أنه قد يكون سابًا ولو لم يقصده بقلبه.**

تؤخذ من قوله: «يؤذينى ابن آدم، يسب الدهر»، ولم يذكر قصداً ولو عَبَّر الشيخ بقوله: أنه قد يكون مؤذياً لله وإن لم يقصده؛ لكان أوضح وأصح؛ لأن الله صرح بقوله: «يسب الدهر»، والفعل لايضاف إلا لمن قصده.

وقد فات على الشيخ ـ رحمه الله ـ بعض المسائل، منها: تفسير آية الجاثية، وقد سبق ذلك.



---

(١) القول المفيد ٢/ ٤٣٢و ٤٣٣.

٤٥ بابُ
التسمي بقاضي القضاة ونحوه

مناسبة هذا الباب لما قبله.

قال الفقير: ومناسبة هذا الباب للذى قبله تظهر فى أمور، منها:ـ

١ ـ أن هذا الباب وبابين قبله يدخلون فى قوله تعالى **﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**.

٢ ـ أن هذه الأبوب تضمنت جملة من الألفاظ المنهى عنها لمخالفتها للتوحيد فناسب أن يأتى بها المصنف على نسق واحد وترتيب واحد.

● **مناسبة الباب لكتاب التوحيد:**

قال ناصر السعدى[١]:وكل هذا حفظ للتوحيد ولأسماء الله وصفاته .ودفع لوسائل الشرك حتى فى الألفاظ التى يخشى أن يتدرج منها إلى أن يظن مشاركة أحد لله فى شيء من خصائصه وحقوقه.

قال ابن عثيمين: إن من تسمى بهذا الاسم؛ فقد جعل نفسه شريكاً مع الله فيما لايستحقه إلا الله؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضى القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فالله هو القاضى فوق كل قاضٍ، وهو الذى له الحكم، ويرجع إليه الأمر كله كما ذكر الله ذلك فى القرآن.

وقد تقدم أن قضاء الله ينقسم إلى قسمين:

١ـ قضاء كونى.

٢ـ قضاء شرعى.

والقضاء الكونى لابد من وقوعه، ويكون فيما أحب الله وفيما كرهه، قال تعالى **﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾**[٢]؛ فهذا قضاء كونى متعلق بما يكرهه الله؛ لأن الفساد فى الأرض لايحبه الله، والله لايحب المفسدين، وهذا القضاء الكونى لابد أن يقع ولامعارض له إطلاقاً.

---

(١) القول السديد ١١٣

(٢) الإسراء: ٤

أما النوع الثانى من القضاء، وهو القضاء الشرعى؛ فمثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(١)، والقضاء الشرعى لا يلزم منه وقوع المقضى، فقد يقع وقد لايقع، ولكنه يتعلق فيمايحبه الله، وقد سبق الكلام على ذلك.

فإن قلت: إذا أضفنا القضاة وحصرناها بطائفة معينة، أو ببلد معين، أو بزمان معين، مثل أن يقال: قاضى القضاة فى الفقه، أو قاضى قضاة المملكة العربية السعودية، أوقاضى قضاة مصر أو الشام، أو ما أشبه ذلك؛ فهل يجوز هذا؟

فالجواب: أن هذا جائز؛ لأنه مقيد، ومعلوم أن قضاء الله لايتقيد، فحينئذ لايكون فيه مشاركة لله- عزوجل -، على أنه لاينبغى أيضاً أن يتسمى الإنسان بذلك أو يسمى به وإن كان جائزا؛ لأن النفس قد تصعب السيطرة عليها فيما إذا شعر الإنسان بأنه موصوف بقاضى قضاة الناحية الفلانية، فقد يأخذه الإعجاب بالنفس والغرور حتى لايقبل الحق إذا خالف قوله، وهذه مسألة عظيمة لها خطرها إذا وصلت بالإنسان إلى الإعجاب بالرأى بحيث يرى أن رأيه مفروض على من سواه؛ فإن هذا خطر عظيم، فمع القول بأن ذلك جائز لاينبغى أن يقبله اسماً لنفسه أو وصفاً له، ولا أن يتسمى به.

إذا قيد بزمان أومكان ونحوهما؛ قلنا: إنه جائز، ولكن الأفضل ألا يفعل، لكن إن قُيد بفن من الفنون؛ هل يكون جائزاً؟

مقتضى التقييد أن يكون جائزاً، لكن إن قيد بالفقه بأن قيل: (عالم العلماء فى الفقه)، وقلنا: إن الفقه يشمل أصول الدين وفروعه على حد قول الرسول ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين**»(٢)؛ صار فيه عموم واسع، ومعنى هذا أن مرجع الناس كلهم فى الشرع إليه؛ فهذا فى نفسى منه شيء، والأولى التنزه عنه.

وأما إن قيد بقبيلة؛ فهو جائز، لكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف أن لايغتر ويعجب بنفسه، ولهذا قال النبى ﷺ للمادح: «**قطعت عنق صاحبك**»(٣).

وأما التسمى بـ (شيخ الإسلام)؛ مثل أن يقال: شيخ الإسلام ابن تيمية، أو شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، أى أنه الشيخ المطلق الذى يرجع إليه الإسلام؛ فهذا

---

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) [صحيح] أخرجه: البخارى (٧١) ومسلم فى الزكاة (٧/ ١٢٨ ـ النووى) عن معاوية به وانظر «رياض الصالحين» (١٣٧٩ ـ بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٠٦١) ومسلم فى الزهد (١٨/ ١٢٦ ـ النووى) وانظر «رياض الصالحين» (١٧٩٢ ـ بتخريجنا).

لايصح؛ إذ إن أبا بكر رضى الله عنه أحق بهذا الوصف؛ لأنه أفضل الخلق بعد النبيين، ولكن إذا قصد بهذا الوصف أنه جدد فى الإسلام وحصل له أثر طيب فى الدفاع عنه؛ فلا بأس بإطلاقه[1].

وأما بالنسبة للتسمى بـ (الإمام) ؛ فهو أهون بكثير من التسمى بـ (شيخ الإسلام) ؛ لأن النبى ﷺ سمى إمام المسجد إماماً ولو لم يكن عنده إلا اثنان.

لكن ينبغى أنه ينبه أنه لايتسامح فى إطلاق كلمة إمام إلا على من كان قدوة وله أتباع؛ كالإمام أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم ممن له أثر فى الإسلام؛ لأن وصف الإنسان بما لايستحق هضم للأمة؛ لأن الإنسان إذا تصور أن هذا إمام وهذا الإمام هان الإمام الحق فى عينه، قال الشاعر: .

ألم تر أن السيف ينقص قدره　　إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ومن ذلك أيضاً: (آية الله، حجة الله، حجة الإسلام)؛ فإنها ألقاب حادثة لاتنبغى لأنه لاحجة لله على عباده إلا الرسل.

وأما آية الله، فإن أريد به المعنى الأعم؛ فلا مدح فيه لأن كل شىء آية لله، كما قيل

وفى كل شىء له آية　　تدل على أنه واحد

وإن أريد المعنى الأخص؛ أى : أن هذا الرجل آية خارقة؛ فهذا فى الغالب يكون مبالغاً فيه، والعبارة السليمة أن يقال: عالم، مفتٍ، قاضٍ، حاكم، إمام لمن كان مستحقاً لذلك.

قال بكر بن عبدالله أبو زيد: الأصل التاسع (فى الأسماء المكروهة ـ فذكر احدى عشر عنصر فى الأسماء المكروهة، منها :

«وتكره التسمية بكل اسم أو مصدر أو صفة مشبهة مضاف إلى لفظ«الدين»، أو لفظ «الإسلام»؛ مثل: نور الدين، ضياء الدين، نور الإسلام،وذلك لعظيم منزلة هذين اللفظين: «الدين» و«الإسلام»؛ فالإضافة إليهما على وجه لتسمية فيها دعوى فجة تطل على الكذب، ولهذانص بعض العلماء على التحريم، والأكثر على الكراهة؛لأن منها مايوهم معانى غيرصحيحة مما لايجوز إطلاقه، وكانت فى أول حدوثها ألقاباً زائدة على الاسم، ثم استعملت أسماء، وقد يكون الاسم منهياً عنه من جهتين ، مثل: شهاب الدين، فإن الشهاب: الشعلة من النار، ثم إضافة ذلك إلى الدين، وكان النووى

---

(١) انظر رسالته «تسمية المولود» (ص ٥١ : ٥٨).

رحمه الله يكره تلقيبه بمحيى الدين، وشيخ الإسلام ابن تيمية يكره تلقيبه بتقى الدين، ويقول : لكن أهلى لقبونى بذلك فاشتهر».

شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بها.

قال سليمان آل الشيخ [1]: كاقضى القضاة، وحاكم الحكام، أوسيد الناس ونحو ذلك. أى: ماحكم التسمى بذلك هل يجوز أم لا؟ ا.هـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ[2]: ذكر المصنف رحمه الله هذه الترجمة إشارة إلى النهى عن التسمى بقاضى القضاة قياساً على مافى حديث الباب لكونه يشبه فى المعنى فينهى عنه أ.هـ.

قال ابن باز[3]: أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان النهى عن الأسماء التى يكون لها تعلق بمشابهة أسماء الله تعالى لأنه سبحانه له أسماء يختص بها ليس لأحد أن يتسمى بها مثل الرحمن ومالك الملك والخلاق ورب العالمين وحاكم الحكام وسلطان السلاطين ونحوها. لأن كمال التوحيد وتمام التوحيد عدم التسمى بهذه الأسماء والتسمى بها ينقض التوحيد والإيمان ودخول فيما لاينبغى.

قال ابن عثيمين [4]: قوله «**باب التسمى بقاضى القضاة**»

أى: وضع الشخص لنفسه هذا الاسم، أورضاه به من غيره.

قوله: «**قاضى القضاة**»

قاضى: بمعنى حاكم، والقضاة؛ أى : الحكام، و«أل» للعموم.

والمعنى: التسمى بحاكم الحكام ونحوه، مثل ملك الأملاك، وسلطان السلاطين، وما أشبه ذلك، مما يدل على النفوذ والسلطان؛ لأن القاضى جمع بين الإلزام والإفتاء، بخلاف المفتى؛ فهولا يلزم، ولهذا قالوا: القاضى جمع بين الشهادة والإلزام والإفتاء؛ فهو يشهد أن هذا الحكم حكم الله، وأن الحق للمحكوم له على المحكوم عليه، ويفتى ؛ أى: يخبر عن حكم الله وشرعه، ويلزم الخصمين بما حكم به ا.هـ



(١) تيسير العزيز الحميد ٤٦١.
(٢) فتح المجيد ٢/ ٧١١.
(٣) التعليق المفيد ٢٢١.
(٤) القول المفيد ٣/ ٥ ٢٩.

فِى الصَّحِيحِ عَنْ أَبِى هُرَيرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ، لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللهَ»(١).

قوله: فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله».

قال: الفقير: بوب عليه الإمام البخارى فى كتاب الأدب باب (أبغض الأسماء إلى الله)(٢).

ومسلم فى الأدب باب تحريم التسمى ملك الأملك وملك الملوك ا.هـ.

مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى(٣): حيث دل الحديث على تحريم التسمى بملك الأملاك ا.هـ.

مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوى(٤):حيث منع الحديث التسمى بملك الأملاك ونحوه لأن ذلك شرك مع الله فى ربوبيته ا.هـ.

قوله : أخنع فى رواية (أخنى)

قال ابن حجر(٥): كذا فى رواية شعيب بن أبى حمزة للأكثر من الخنا بفتح المعجمة وتخفيف النون مقصور وهو الفحش فى القول، ويحتمل أن يكون من قولهم أخنى عليه الدهر أى أهلكه «وأخنع» بعين مهملة هو المشهور فى رواية سفيان بن عيينة وهو من الخنوع وهو الذل، وقد فسره بذلك الحميدى شيخ البخارى عقب روايته له عن سفيان قال: «أخنع: أذل» وأخرج مسلم عن أحمد بن حنبل قال: سألت أبا عمرو الشيبانى يعنى إسحق اللغوى عن أخنع فقال: أوضع، قال عياض: معناه أنه أشد الأسماء صغاراً. وبنحو ذلك فسره أبو عبيد، والخانع الذليل وخنع الرجل ذل، قال ابن بطال:

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى «الأدب» باب : أبغض الأسماء إلى الله(١٠/ ٦٠٤/ ٦٢٠٦) ومسلم فى «الأدب» / باب : تحريم التسمى بملك الأملاك أوبملك الملوك (٥/ ١٤/ ١٢١) وأحمد فى«مسنده» (٢/ ٢٤٤) وأبو داود فى«الأدب»/ باب : فى تغيير الاسم القبيح (٤/ ٢٩٢/ ٤٩٦١) والترمذى فى« الأدب» / باب : ما يكره من الأسماء (٥/ ١٣٤/ ٣٨٣٧) والبيهقى (٩/ ٥١٦/ ١٩٣١٢)

من طريق :سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج ، عن أبى هريرة.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٧٢٧) بتخريجنا. وانظر فتح المجيد (٧٨٤) بتخريجنا.

(٢) الفتح ١٠/ باب رقم ٧١١. (٣) الجديد (٣٨٤).

(٤) الجديد ٣٨٤. (٥) فتح البارى ٦٠٥.

وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلاً، وقد فسر الخليل أخنع بأفجر فقال: الخنع الفجور، يقال أخنع الرجل إلى المرأة إذا دعاها للفجور. قلت: - يعنى بن حجر - وهو قريب من معنى الخنا وهو الفحش. ووقع عند الترمذى فى آخر الحديث **«أخنع أقبح»** وذكر أبو عبيد أنه ورد بلفظ **«أنخع»** بتقديم النون على المعجمة وهو بمعنى أهلك لأن النخع الذبح والقتل الشديد، وتقدم أن فى رواية همام **«أغيظ»** بغين وظاء معجمتين، ويؤيده **«اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك»**(١) أخرجه الطبرانى. ووقع فى شرح شيخنا ابن الملقن أن فى بعض الروايات **«أفحش الأسماء»** ولم أرها، وإنما ذكر ذلك بعض الشراح فى تفسير أخنى وقوله **«أخنع اسم عند الله، وقال سفيان غير مرة أخنع الأسماء»** أى قال ذلك أكثر من مرة، وهذا اللفظ يستعمل كثيراً فى إرادة الكثرة وسأذكر توجيه الروايتين ا.هـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: **«إن أخنع»** ذكر المصنف أن معناه: أوضع . وهذا التفسير رواه مسلم عن الإمام أحمد، عن أبى عمرو الشيبانى،

وفى رواية **«اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك»**. رواه الطبرانى(٣).

قال ابن عثيمين(٤): **قوله : «إن أخنع اسم»**

أى : أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى، فأوضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك؛ لأنه جعل نفسه فى مرتبة عليا، فالملوك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة؛ فجعل مرتبته فوق مرتبتهم، وهذا لايكون إلا الله - عزوجل، ولهذا عوقب بنقيض قصده؛ فصار أوضع اسم عند الله إذ قصده أن يتعاظم حتى على الملوك، فأهين، ولهذا كان أحب اسم عند الله مادل على التذلل والخضوع، مثل عبدالله وعبدالرحمن، وأبغض اسم عند الله ما دل على الجبروت والسلطة والتعظيم ا.هـ.

قلت: وقد عامل الله شاهان شاه الإيرانى بنقيض قصده شرعاً وقدراً فصار أذل وأوضع الناس بعد ذهاب ملكه.

قوله «عندالله»

قال ابن حجر(٥): زاد أبو داود والترمذى فى روايتهما **«يوم القيامة»** وهذه الزيادة ثابتة ا.هـ.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٤٩٢)، والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٢٧٥) وصححه.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦١.

(٣) تقدم.

(٤) القول المفيد ٣/ ١٠،٩

(٥) الفتح / ٦٠٥، ٦٠٦

قوله «تسمى»

قال ابن حجر[1]: قوله «تسمى» أى سمى نفسه أو سمى بـذلك فرضى به واستمر عليه.

قوله «**بملك الأملاك**» بكسر اللام من مـلك، والأملاك جمع ملك بالكسـر وبالفتح وجمع مليك. ا.هـ.

قوله: «**لا مالك إلا الله**».

قال سليمـان آل الشيخ[2]: ثم أكد النـبى ﷺ التشديد فـى تحريم التسمـى بذلك بقوله: «**لامالك إلا الله**» فالذى تسمـى بهذا الاسم قد كذب وفجر وارتقى إلـى ماليس له بأهل، بل هو حقيق برب العالمين، فإنه المـلك فى الحقيقة، فلهذا كان أذل الناس عند الله يوم القيامة والفرق بين الملك والمالك أن المـالك هوالمتصرف بفعله وأمره، ذكره ابن القيم . فالـذى تسمى ملك الأملاك، أوملك المـلوك قد بلغ الغاية فى الـكفر والكذب. ولقد كان بعض السـلاطين المساكين يفتخر بهذا الاسم فأذله الله ا.هـ.

قال ابن عثيمين[3]: **قوله : «لامالك إلا الله».**

أى لامالك على الحقيقة الملك المطلق إلا الله تعالى.

وأيضاً لاملك إلا الله ـ عزوجل ـ، ولهذا جاءت آية الفاتحة بقراءتين:

﴿**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾و﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾[4]، لكى يجمع بين المـلك وتمام السلطان؛ فهو ـ سبحانه ـ ملـك مالك، ملك ذو سلطة وعظمة وقول نافذ، ومـالك متصرف مدبر لجميع مملكته.

فالله له الخلق والملك والتدبير؛ فلا خالق إلا الله ولامدبر إلا الله، ولامالك إلا الله، قال تعالى : ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾[5]؛ فالاستفهام بمعنى النفى، وقد أشرب معنى التحـدى، أى إن وجدتموه فهاتوه، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ**﴾[6]، فيها تـوكيد وحصر، وهذا دليـل انفراده بالخلق، وقـال تعالى ﴿**إِنَّ**

(١) الفتح / ٦٠٦.

(٢) تيسيرالعزيز الحميد ٤٦٢.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٠، ١١.

(٤) الفاتحة : ٤

(٥) فاطر: ٣ (٦) الحجر : ٨٦

قال سُفيانُ: «مثلُ شاهَانُ شَاهْ».

وفى رواية: «أغيَظُ رجل على الله يومَ القيامةِ وأخبثُهُ».

قولُهُ: «أخنَعُ» يعنى: أوْضَعُ.

﴿الَّذين تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقوا ذُبابًا ولَوِ اجْتمعُوا لهُ﴾(١)؛ فـ ﴿الَّذين﴾: اسم موصـول يشمل كـل من يدعـى من دون الله ﴿لن يَخْلُقوا ذُبابًا﴾، وهذا على سـبيل المبالغة؛ وما كان على سبيل المبالغة؛ فلا مفهوم له كثرة أوقلة.

وقال تعـالى: ﴿تبارَكَ الَّذى بيَدِهِ الْمُلْكُ﴾(٢)، وقال تـعالـى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالكَ الْمُلْك﴾(٣)، وهذا دليل انفراده بالملك، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يرزُقُكُم مِّنَ السَّماءِ والأَرْضِ أَمَّن يمْلكُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحيَّ مِنَ الْميِّتِ ويُخْرِجُ الْميِّتَ منَ الْحيِّ ومن يُدبِّرُ الأَمْرَ فَسيَقُولُونَ اللَّهُ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بيَدِهِ ملَكُوتُ كُلِّ شيْءٍ وهُوَ يُجيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تعْلَمُونَ * سيَقُولُونَ للَّه﴾(٥). ا.هـ.

قوله: «قال سفيان» «مثل شاهان شاه..... إلخ».

● تحريم التسمى بملك الملوك وما أدى معناه بأى لسان كان

وفى زيادة فى حديث أبى هريرة: قال سفيان: يقول غيرهُ تفسيره: شاهان شاه

قوله: «تفسيره شاهان شاه».

قال ابن حجر(٦): قوله «تـفسيره شـاهان شاه» هكذا ثبـت لفظ تفسيـره فى رواية الكشميهنى، ووقع عند أحمد عن سفيان قال سفيان «مثل شاهان شاه» فلعل سفيان قاله مرة نقلاً ومرة من قبل نفسه، وقد أخرجه الإسمـاعيلى من رواية محمد بن الصباح عن سفيان مثله وزاد مثل ذلك الصين، وشاهـان شاه بسكون النون وبهاء فى آخره وقد تنون وليست هاء تأنيث فلا يقال بالمثناة أصلاً. وقـد تعجب بعض الشراح من تفسير سفيان ابن عيينة اللفظة العربية باللفظة الـعجمية وأنكر ذلك آخرون، وهو غفلة منهم عن مراده وذلك أن لفظ شاهان شاه كان قـد كثر التسمية به فى ذلك العصر فـنبه سفيان على أن الاسم الذى ورد الخبر بذمـه لاينحصرفى ملك الأملاك بل كل ما أدى مـعناه بأى لسان كان فهو مراد بالذم، ويؤيد ذلك أنه وقع عند الترمذى «مثل شاهان شاه» وقوله شاهان

---

(١) الحج: ٧٣ (٢) الملك: ١ (٣) آل عمران: ٢٦.

(٤) يونس: ٣١ (٥) المؤمنون: ٨٨ (٦) الفتح ١٠/ ٦٠٦، ٦٠٧.

شاه هو المشهور فى روايات هذا الحديث، وحكى عياض عن بعض الروايات **«شاه شاه»** بالتنوين بغير إشباع فى الأولى والأصل هو الأولى، وهذه الرواية تخفيف منها، وزعم بعضهم أن الصواب شاه شاهان وليس كذلك لأن قاعدة العجم تقديم المضاف إليه على المضاف، فإذا أرادوا قاضى القضاة بلسانهم قالوا موبذان موبذ، فموبذ هوالقاضى وموبذان جمعه فكذا شاه هو الملك وشاهان هو الملوك، قال عياض: استدل به بعضهم على أن الاسم غير المسمى، ولا حجة فيه بل المراد من الاسم صاحب الاسم، ويدل عليه رواية همام **«أغيظ رجل»** فكأنه من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ويؤيده قوله **«تسمى»** فالتقدير أن أخنع اسم اسم رجل تسمى بدليل الرواية الأخرى **«وأن أخنع الأسماء»**.

● تحريم التسمى بملك الملوك وما فى معناه مثل أحكم الحاكمين

قال ابن حجر: واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمى بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد، ويلتحق به مافى معناه مثل خالق الخلق وأحكم الحاكمين وسلطان السلاطين وأمير الأمراء، وقيل يلتحق به أيضاً من تسمى بشىء من أسماء الله الخاصة به كالرحمن والقدوس والجبار. وهل يلتحق به من تسمى قاضى القضاة أو حاكم الحكام؟ اختلف العلماء فى ذلك فقال الزمخشرى فى قوله تعالى ﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾: أى أعدل الحكام وأعلمهم، إذ لافضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، قال: ورب غريق فى الجهل والجور من مقلدى زماننا فى لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر، وتعقبه ابن المنير بحديث «أقضاكم على»[1] قال: فيستفاد منه أن لاحرج على من أطلق على قاض يكون أعدل القضاة أعدل القضاة أو أعلمهم فى زمانه أقضى القضاة، أو يريد أقيلمه أو بلده. ثم تكلم فى الفرق بين قاضى القضاة وأقضى القضاة، وفى اصطلاحهم على أن الأول فوق الثانى وليس من غرضنا هنا. وقد تعقب كلام ابن المنير علم الدين العراقى فصوب ماذكره الزمخشرى من المنع ورد ما احتج به من قضية على بأن التفضيل فى ذلك وقع فى حق من خوطب به من يلتحق بهم فليس مساوياً لإطلاق التفضيل بالألف واللام، قال ولايخفى ما فى إطلاق ذلك من الجراءة وسوء الأدب، ولاعبرة بقول من ولى القضاء فنعت بذلك فلذ فى سمعه فاحتال فى الجواز فإن الحق أحق أن يتبع، انتهى كلامه.

(١) [مرسل] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٢٨١)، والترمذى (٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٤) عن أنس به واللفظ لابن ماجه.

وهو فى البخارى (٤٤٨١) من قول عمر: «أقضانا على» وانظر «بلوغ المرام» (٩٠٣ - بتخريجنا).

● نوادر سلفية ومواقف مع من تسمى بهذا الاسم

قال ابن حجر: ومن النوادر أن القاضى عز الدين بن جماعة قال أنه رأى أباه فى المنام فسأله عن حاله فقال: ماكان على أضر من هذا الاسم، فأمر الموقعين أن لايكتبوا له فى السجلات قاضى القضاة بل قاضى المسلمين، وفهم من قول أبيه أنه أشار إلى هذه التسمية مع احتمال أنه أشار إلى الوظيفة، بل هو الذى يترجح عندى، فإن التسمية بقاضى القضاة وجدت فى العصر القديم من عهد أبى يوسف صاحب أبى حنيفة، وقد منع الماوردى من جواز تلقيب الملك الذى كان فى عصره بملك الملوك مع أن الماوردى كان يقال له أقضى القضاة، وكأن وجه التفرقة بينها الوقوف مع الخبر وظهور إرادة العهد الزمانى فى القضاة، وقال الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة: يلتحق بملك الأملاك قاضى القضاة وإن كان اشتهر فى بلاد الشرق من قديم الزمان إطلاق ذلك على كبير القضاة، وقد سلم أهل المغرب من ذلك فاسم كبير القضاة عندهم قاضى الجماعة، قال: وفى الحديث مشروعية الأدب فى كل شيء، لأن الزجر عن ملك الأملاك والوعيد عليه يقتضى المنع منه مطلقاً، سواء أراد من تسمى بذلك أنه ملك على ملوك الأرض أم على بعضها، سواء كان محقاً فى ذلك أم مبطلاً، مع أنه لايخفى الفرق بين من قصد ذلك وكان فيه صادقاً ومن قصده وكان فيه كاذباً ا.هـ.

قال سليمان آل الشيخ(١): قوله: مثل شاهان شاه ـ هو بكسر النون والهاء فى آخره، وقد تنون وليست هاء تأنيث فلا يقال: بالمثناة أصلاً.

والحديث صريح فى تحريم التسمى بملك الأملاك ونحوه، كملك الملوك وسلطان السلاطين.

قال ابن القيم: لما كان الملك الحق لله وحده ولا ملك على الحقيقة سواه، كان أخنع اسم وأوضعه عند الله، وأبغضه له اسم «**شاهان شاه**» أى: ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غيرالله. فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل، والله لايحب الباطل وقد ألحق أهل العلم بهذا «**قاضى القضاة**» وقالوا: ليس قاضى القضاة إلامن يقضى الحق وهوخير الفاصلين، الذى إذا أقضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون. ويلى هذا الاسم فى القبح والكراهة والكذب سيد الناس وسيد الكل، وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ.

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٦٢، ٤٦٣.

خاصة كما قال: «أنا سيد ولد آدم»[1] فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره: هو سيد الناس. كما لايجوز له أن يقول: أنا سيد ولد آدم ا.هـ[2].

ثم أورد سليمان آل الشيخ ما نقله ابن حجر مما يخالف ما تقدم عن ابن القيم ا.هـ.

فقال: وقد زعم بعض المتأخرين أن التسمي بقاضي القضاة ونحوها جائز.

واستدل له بحديث «أقضاكم علي»[3]. قال: فيستفاد منه أن لاحرج على من أطلق على قاض أن يكون أعدل القضاة، وأعلمهم في زمان أقضى القضاة، أو يريد إقليمه، أو بلده. وتعقبه العالم العراقي فصوب المنع، ورد ما احتج به بأن التفضيل في ذلك وقع في حق من خوطب به، ومن يلتحق بهم، فليس مساوياً لإطلاق التفضيل بالألف واللام. قال: ولايخفى ما في ذلك من الجرأة وسوء الأدب. ولا عبرة بقول من ولي القضاة، فنعت بذلك، فلذ في سمعه واحتال في الجواز، فإن الحق أحق أن يتبع.

قال ابن عثيمين: «شاهان شاه».

وهذا باللغة الفارسية؛ فشاهان: جمع بمعنى أملاك، وشاه مفرد بمعنى ملك، والتقدير أملاك ملك؛ أي: ملك الأملاك، لكنهم في اللغة الفارسية يقدمون المضاف إليه على المضاف.

قوله: وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيام وأخبثه»

أغيظ: من الغيظ وهو الغضب؛ أي ان أغضب شيء عند الله ـ عزوجل ـ وأخبثه هو هذا الاسم، وإذا كان سبباً لغضب الله وخبيثاً؛ فإنه من الكبائر.

قوله: ﴿أغيظ﴾

فيه إثبات الغيظ لله ـ عزوجل ـ، فهي صفة تليق بالله ـ عزوجل ـ كغيرها من الصفات، والظاهر أنها أشد من الغضب.

مايستفاد من الحديث

قال ابن عثيمين[4]: ويستفاد من الحديث أيضاً:

---

(١) تقدم تخريجه في باب الشفاعة.

(٢) زاد المعاد (٢/ ٣٤٠) وانظر «تحفة المودود» ص٨١.

(٣) تقدم قريباً.

(٤) القول المفيد (٣/ ١٠، ١١).

فيهِ مَسَائِلَ

الأولى: النَّهْيُ عَنِ التَّسَمِّي بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ.

الثانية : أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلَهُ. كَمَا قَالَ سُفْيَانُ.

١ـ إثبات صفة الغيظ لله ـ عزوجل ـ، وأنه يتفاضل لقوله: «أغيظ»، وهواسم تفضيل.

٢ـ حكمة الرسول ﷺ في التعليم؛ لأنه لمابين أن هذا أخنع اسم وأغيظه أشار إلى العلة، وهو: «لامالك إلا الله»، وهذا من أحسن التعليم والتعبير، ولهذا ينبغي لكل إنسان يعلم الناس أن يقرن الأحكام بما تطمئن إليه النفوس من أدلة شرعية أو علل مرعية، قال ابن القيم:

العلم معرفة الهدى بدليله ... ماذاك والتقليد يستويان

فالعلم أن تربط الأحكام بأدلتها الأثرية أو النظرية؛ فالأثرية ماكان من كتاب وسنة أوإجماع، والنظرية: العقلية؛ أى : العلل المرعية التى يعتبرها الشرع ا.هـ.

قال القرعاوى(١): وفيه وجوب التأدب بترك الألفاظ المحتملة معناً مذموماً ا.هـ.

قوله : فيه مسائل

قال ابن عثيمين(٢)**:فيه مسائل :**

● **الأولى: النهى عن التسمى بملك الأملاك.**

وتؤخذ من قول الرسول ﷺ: **«إن أخنع اسم عند الله ـ عز وجل ـ رجل تسمى ملك الأملاك»**، والمؤلف يقول: النهى عن التسمى... والنهى شرعاً لايستفاد من الصيغة المعينة المعروفة فحسب، بل إذا ورد الذم عليه، أو سب فاعله، أوما أشبه ذلك؛ فإنه يفيد النهى، وصيغة النهى هو المضارع المقرون بـ «لا» الناهية، مثل : لاتفعل،ولكن إذا كان هناك ذم أووعيد أو ماأشبه ذلك؛ فهو متضمن للنهى وزيادة.

قلت: وقد تقدم من كلام الخضرى الأساليب الذى يستفاد منها الكف فى باب ما جاء فى النشرة.

● **الثانية: أن مافى معناه مثله. كما قال سفيان.**

---

(١) الجديد ٣٨٤.

(٢) القول المفيد ٣/ ١١ ـ١٤

الثالثة: التَّفَـطُّنَ للتَّغْـلِيظِ فِى هَذَا وَنَحْـوِهِ. مَعَ القَطْعِ بِـأَنَّ القَلْبَ لَمْ يَـقْصِدْ مَعْنَاه.

الرابعة: التَّفَطُّنَ أَنَّ هَذَا لأَجْلِ الله سُبْحَانَهُ.

والذى فى معناه: قاضى القضاة، وحاكم الحكام، وشاهان شاه فى الفارسية.

قلت: وسلطان السلاطين.

● **الثالثة: التفطن للتغليظ فى هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.**

أى: لم يقصد أنه ملك الأملاك أو قاضى القضاة؛ لـعلمه أن هناك من هو أبلغ ملكاً وأحكم قضاءً.

وإذا سمينا شـخصاً بقاضى القضــاة أو حاكم الحكام وهو ليس كـذلك، بل هو من أجهل القضاة ومن أضعف الحكام؛ جمعنا بين أمرين: بين الكذب، والوقوع فى اللفظ المنهى عنه، وأما إذا كـان أعلم أهل زمانه، أو أعلم أهل مكانه، ويـرجع القضاة إليه؛ فهذا وإن كان القول مطابقاً للواقع لكنه منهى عنه، مع أن القلب لم يقصد معناه.

● **الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله ـ سبحانه ـ.**

يؤخذ من قوله «لامالك إلا الله»؛ فالرسول ﷺ أشار إلى العلة، وهى: **«لامالك إلا الله»**؛ فكيف تقول: ملك الأملاك وهو لامالك إلا الله ـ عزوجل ـ.

● **الفرق بين ملك ومالك.**

ليس كل ملك مالكاً، ليس كل مالك ملكاً؛ فقد يكون الإنسان ملكاً، ولكنه لايكون بيده التـدبير، وقد يكون الإنـسان مالكاً ويتصـرف فيما يملـكه فقط؛ فالملـك من ملك السلطة المطلـقة، لكن قد يملك التصرف فيـكون ملكاً مالكاً، وقد لايملك فـيكون ملكاً وليس بمالك، وأما المالك؛ فهو الذى له التصـرف بشىء معين؛ كمالك البيت، ومالك السيارة وما أشـبه ذلك؛ فهذا ليس بملك؛ يعـنى: ليس له سلطةعامـة. أ.هـ وقد تقدم نحو ذلك أيضاً من كلام ابن حجر.



باب (٤٦)

احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك

● **مناسبة هذا الباب لما قبله.**

قال الفقير: ـ القول فى هذه المناسبة ما قيل فـى سوابقها، أن هذه الأبواب تضمنت الألفاظ المنافية للتوحيد فلذا بوّبها المصنِّـف على هذا الترتيب إمعاناً منه فى حماية جناب التوحيـد وعدم الوقوع فى النـهى المذكور فى قولـه تعالى ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ ويزاد أن هذا الباب إنما هو لمن تسمى بالفعل ملك الملوك وما شابه ذلك فينبغى عليه لله وتعظـيمه أن يغير هذا الاسم لذلك نـاسب أن يأتى بالبابين على هـذا الترتيب والله أعلم.

● **مناسبة الباب للتوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ(١): أي: لأجل احترامها وهو تعظـيمها، وذلك من تحقيق التوحيد، ويـستفاد منه المنع من التـسمى بهذا ابتداء من باب الأولى، لـكن فى الأسماء المختصة بالله تعالى.

● **ماذا أراد المصنِّف بهذا الباب.**

قال ابن باز(٢): أراد المؤلف بيان وجوب احترام أسمـاء الله والحذر من امتهانها أو احتقارهـا أو تسمية غير الله بـها من الأسماء التى اختـص بها ولهذا شرع تغـيير الاسم لأجل احترامها وتعظيمها. أهـ

● **تمهيد**

قال ابن القيم رحمه الله فى «بدائع الفوائد»(٣) ما ملخصه:

«ما يجرى صفة أو خبرًا عن الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كشيء، وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية، كالسميع، والعليم، والقدير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله، كالخالق، والرزاق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولابد من تـضمنه ثبوتًا، إذ لا كمال فى العدم المحض كالقدوس، السلام.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٦٣

(٢) التعليق المفيد ٢٢٣

(٣) (١/١٥٩).

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة، كالمجيد، العظيم، الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة.

السادس: صفة تحصل من أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغنى الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد...

فإن الغنى صفة الكمال والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر».

ثم قال ابن القيم: «ويجب أن يعلم هنا أمور:

أحدها: أن ما يدخل فى باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل فى باب أسمائه وصفاته، كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإنه يخبر عنه ولا يدخل فى أسمائه الحسنى وصفاته العليا. قلت: وكذلك المنعم أهـ

الثاني: أن الصفة إذا انقسمت إلى كمال ونقص، فلا تدخل بمطلقها فى أسمائه، وصفاته كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإنه يخبر عنه ولا يدخل بمطلقها فى أسمائه، كالصانع، والفاعل، والمريد، فلذا لم يطلق على نفسه من هذا إلا أكمله فعلاً وخبرًا، كقوله تعالي: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بفعل مقيد أن يشتق له منه اسم مطلق ولذا غلط من سماه بالمضل والماكر والفاتن.

الرابع: أن أسماءه الحسنى أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافى العلمية بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافى علميتهم.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات:

دلالة على الذات والصفة بالمطابقة. ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران:

اعتبار من حيث الذات.

واعتبار من حيث الصفات.

فهى بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثانى متباينة.

السابع: أن ما يطلق عليه فى باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفًا، كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه.

الثامن: أن الاسم إذا أطلق جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلاً ومصدرًا ، نحو: السميع، البصير، القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدر، ويخبر عنه بالأفعال نحو: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ هذا إن كان الفعل متعديًا ، فإن كان لازمًا يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل كالحى .

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته ، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب تبارك وتعالى فعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله . . . ، فالرب لم يزل كاملاً، فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم.

الحادى عشر: أسماؤه كلها حسنى ، وأفعاله صادرة عنها، فالشر ليس إليه فعلاً ولا وصفًا، وإنما يدخل فى مفعولاته البائنة عنه دون فعله الذى هو وصفه.

الثانى عشر: إحصاء أسماء الله تعالى له مراتب، وقد سبق أن بينها الشارح حفظه الله.

الثالث عشر: أسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا عد.

الرابع عشر: من أسمائه ما يطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره، وهو غالبها ، كالسميع، والبصير ونحوهما، فيسوغ أن يدعا به ويثنى عليه ويخبر عنه مفردًا ومقترنًا بغيره، فتقول يا عزيز ! يا حليم! ومنها: ما لا يطلق إلا مقرونًا بغيره ، لكون الكمال لا يحصل إلا به، كالضار، والمنتقم، والمانع، فلا تطلق إلا مقرونة بمقابلها، كالضار النافع، والمنتقم العفو، والمانع المعطي، إذ كمال التصرف لا يحصل إلا به.

قال شيخنا فى كتابه «المنتقى»(١) : «قلت: لكن لو أطلق عليه من ذلك اسم المدح لم يمتنع، فيسوغ أن يقال: العفو من دون المنتقم كما ورد فى القرآن الكريم، ومثله النافع والمعطي، فإن هذه الأسماء تستلزم الثناء والمدح المطلق، على أن شيخ الإسلام رحمه الله ينكر تسمية الله المنتقم ويقول: إن هذا لم يرد إلا مقيدًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ .

الخامس عشر: اختلف النظار فى الأسماء التى تطلق على الله وعلى العباد، كالحي، والسميع، ونحوهما، فقالت طائفة: هى حقيقة فى العبد مجاز فى الرب ، وهذا قول غلاة الجهمية، وهو أخبث الأقوال.

---

(١) (ص: ١٥).

الثاني: أنها حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول أبي العباس الناشي.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول أهل السنة، وهو الصواب، وللرب تعالى ما يليق به، وللعبد ما يليق به ، واختلاف الحقيقتين لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما.

السادس عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات:

اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا للرب مختصًا به.

الاعتبار الثالث: اعتباره مضافًا إلى العبد مقيدًا به.

السابع عشر: الصفات أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي واحدًا منهما، وصفات تقتضيهما باعتبارين، والرب تعالى منزه عن هذه الثلاثة موصوف بالأول، وهكذا أسماؤه أسماء كمال، فلا يقوم بغيرها، وإذا عرفت هذا، فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله، فله من صفة الإدراكات : العليم الخبير دون العاقل الفقيه ، والسميع البصير دون السامع والباصر، والناظر ، ومن صفات الإحسان : البر الرحيم دون الرفيق الشفوق، وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف.

الثامن عشر: الإلحاد في أسمائه أنواع:

الأول: أن يسمى به غيره من الأصنام.

الثاني: أن يسمى بما لا يليق بجلاله كتسميته أبًا أو علة فاعله .

الثالث: وصفه بما ينزه عنه، كقول أخبث اليهود: إنه فقير.

الرابع: تعطيلها عن معانيها وجحد حقائقها، كقول الجهمية: أنها ألفاظ مجردة لا تدل على أوصاف، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر.

الخامس: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول الملحدون علوًا كبيرًا ا.هـ.

● شرح الترجمة:

قال ابن عثيمين(١): أسماء الله - عز وجل - هي: التي سمى بها نفسه أو سمَّاه بها رسوله ﷺ.

وقد سبق لنا الكلام فيها في مباحث كثيرة منها.

وقلنا: باعتبار دلالتها على الذات مترادفة، لأنها تدل على ذات واحدة، وهو الله -

(١) القول المفيد ٣/ ١٥-٢٢.

عزّ وجل- وباعتبار دلالتها على المعنى والصفة الـتى تحملها متباينة، وإن كان بعضها قد يدل على ما تَضمَّنه الآخر من باب دلالة اللزوم، فمثلاً: (الخَلاَّق) يتـضمن الدلالة على العلم المستفاد من اسم العليم ، لكنه بـالالتزام، وعلى القدرة المستفادة من اسم القدير، لكن بالالتزام.

الثاني: هل أسماء الله مـشتقة أو جامدة(يعـني: هل المراد بها الدلالـة على الذات فقط، أو على الذات والصفة)؟

الجواب: على الذات والصفة، أما أسماؤنا نحـن، فيراد بها الدلالة على الذات فقط، فقد يُسمـى محمداً وهو من أشد الناس ذمـا، وقد يسمى عبدَ الله وهو مـن أفجر عباد الله.

أما أسمـاء الله - عز وجل- وأسماء الرسـول ﷺ، وأسماء القرآن، وأسمـاء اليوم الآخر ، وما أشبه ذلك ، فإنها أسماء متضمنة للأوصاف.

الثالث: أسماء الله بعضها مـعلوم لنا وبعضها غير معلوم بـدليل قول الرسول ، فى الحديث الصحيح فى دعاء الكرب: «**أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو عـلَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى عـلم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي...**»(١) ومعلوم أن ما استأثر الله بعلمه لا يعلمه أحد.

الرابع: أسماء الله ، هل هى محصورة بعدد معين؟

والجواب: غير محصورة، وقد سبق الـكلام على ذلك، والجواب عن قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة**»(٢).

الخامس: أن هذه التسعة والـتسعين غير معينة، بـل موكولة لنا لنبحث حـتى نحصل على التسعة والتسعين، وهذا من حكمة إبهامها لأجل البحث حتى نصل إلى هذه الغاية، ولهذا نظائر، منها: أن الله أخفى ليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، وساعة الإجابة فى الليل، ليجتهد الناس فى الطلب.

السادس: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين التى يترتب عليه دخول الجنة ليس معنى ذلك أن تكتب فى رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

أولاً: الإحاطة بها لفظًا.

---

(١) أخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم والليـلة (٣٤١) عن أبى موسى به وانظر «الأذكار للنووى (٣٢٦ ـ بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه

ثانياً: فهمها معنىً

ثالثً: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها، لقوله تعالي: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾(1) بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور! وليس من المناسب أن تقول يا شديد العقاب! اغفر لى ، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرنى من عقابك.

الوجه الثاني: أن تتعرض فى عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء، فمقتضى الرحيم الرحمة ، فاعمل العمل الصالح الذى يكون جالبًا لرحمة الله ومقتضى الغفور المغفرة ، إذًا افعل ما يكون سببًا فى مغفرة ذنوبك ، هذا هو معنى إحصائها، فإذا كان كذلك، فهو جدير لأن يكون ثمنًا لدخول الجنة، وهذا الثمن ليس على وجه المقابلة ، ولكن على وجه السبب، لأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة وليست بدلاً، ولهذا ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ قوله: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته**»(2).

فلا تغتر يا أخى بعملك، ولا تعجب فتقول: أنا عملت بكذا وكذا وسوف أدخل الجنة، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾(3) هذا باعتبار ما نراه نحن نحو أعمالنا، فيجب أن نرى لله المنّة والفضل علينا، لكن باعتبار الجزاء، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾(4) فنؤمن بأن الله تعالى يجزى الإحسان بالإحسان.

السابع: أسماء الله- عز وجل- ودلالتها على الذات والصفة جميعًا دلالة مطابقة ، ودلالتها على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تَضَمّن، دلالتها على أمر خارج دلالة التزام.

مثال ذلك: (الخلاّق) دَلّ على الذات، وهو الرب - عز وجل- وعلى الصفة وهى الخلق جميعًا دلالة مطابقة ، ودل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تَضَمّن، ودَلّ على القدرة والعلم دلالة التزام.

الثامن: أسماء الله - عز وجل- لا يتم الإيمان بها إلا بثلاثة أمور إذا كان الاسم مُتَعَدّيًا: الإيمان بالاسم اسمًا لله، والإيمان بما تضمنه من صفة، وما تضمنه من أثر وحكم، فالعليم مثلاً، لا يتم الإيمان به حتى نؤمن بأن العليم من أسماء الله، ونؤمن بما

---

(1) الأعراف : 180.

(2) [صحيح] أخرجه البخارى (5673) ، ومسلم (9/ 174/ 171) عن أبى هريرة به.

(3) الحجرات :17.

(4) الرحمن : 60

عَنْ أَبِى شُرَيْحٍ؛ أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الحَكَم، فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ وَإِلَيْه الحُكْمُ». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِى إِذَا اخْتَلَفُوا فِى شَىْء، أَتونى، فَحكَمْتُ بَيْنَهُم، فَرَضِيَ كِلاَ الفَرِيقَيْنِ. فقال: مَا أَحْسَنَ هذَا ، فَمَالكَ مِنَ الوَلَد» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وعَبْدُ الله. قَالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُم؟ قلت: شُرَيْحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ(١).

تضمنه من صفة العلم، ونؤمن بالحكم المرتب على ذلك، وهو أنه يعلم كل شيء، وإذا كان الاسم غير متعد، فنؤمن بأنه من أسماء الله وبما يتضمنه من صفة .

التاسع: أن من أسماء الله ما يختص به، مثل الله ، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك، ومنها ما لا يختص به، مثل: الرحيم، السميع، العليم، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(٢) وقال تعالى عن النبى ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

قوله: «باب احترام أسماء الله»

أي: وجوب احترام أسماء الله ، لأن احترامها احترام لله - عز وجل- ومن تعظيم الله - عز وجل - فلا يسمى أحد باسم مختص بالله، وأسماء الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما لا يصح إلا لله، فهذا لا يُسمى به غيره، وإن سُمِّي وجب تغييره، مثل: الله ، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

الثاني: ما يصح أن يوصف به غير الله ، مثل: الرحيم، والسميع، والبصير، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي به، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به على أنه علم محض.



قوله: عن أبى شريح؛أنه كان يكنى أبا الحكم فقال له النبى ﷺ «إن الله هو الحكم وإليه الحكم»... الحديث

---

(١) أخرجه أبو داود فى «الأدب» / باب. فى تغيير الاسم القبيح (٤/ ٢٩٠/ ح٤٩٥٥) والنسائى فى «المجتبي» (٨/ ٢٢٧- السيوطي) وابن حبان فى «صحيحه (١/ ٣٦١/ ح٥٠٤- الإحسان) والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٢٤)، والبيهقى فى «الكبرى» (١٠/ ١٤٥).
جميعًا من طريق يزيد بن مقدام بن شريح عن أبيه عن جده شريح عن أبيه هانئ . . . فذكره.
وأنظر «فتح المجيد» (٧٨٩) بتخريجنا)

(٢) الإنسان: ٢.
(٣) التوبة: ١٢٨.

قال سليمان آل الشيخ[1]: هذا الحديث رواه أبو داود كما قال المصنف، ورواه النسائي ولفظ أبي داود من طريق يزيد بن المقدام بن شريح عن أبيه عن جده عن أبيه هانئ، وهو أبو شريح أنه لما وفد على رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «**إن الله هو الحكم، وإليه الحكم فلم تكنى أبا الحكم؟ فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء**» الحديث، قال ابن مفلح وإسناده جيد، ورواه الحاكم وزاد: «**فدعا له ولوالده**» ا.هـ.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي[2]: حيث دل الحديث على وجوب تغيير الاسم إذا كان يوهم مشابهة أسماء الله وصفاته ا.هـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوي[3]: حيث أنكر الحديث التشبه بأسماء الله لأن ذلك شرك مع الله في أسمائه وصفاته ا.هـ.

قوله «عن أبي شريح»

قال سليمان آل الشيخ[4]: عن أبي شريح بضم المعجمة، وفتح الراء وآخره مهملة مصغر، واسمه هانئ بن يزيد الكندي.

قال الحافظ: وقيل: الحارثي الضبابي قاله المزي. وقيل: المذحجي وقيل: غير ذلك، صحابي نزل الكوفة، ولا عبرة بقول من قال: إنه الخزاعي، ولا من ظن أنه النخعي والد شريح القاضي فإن ذلك خطأ فاحش ا.هـ.

قوله: «إنه كان يكنى أبا الحكم»

قال سليمان آل الشيخ[5]: قال بعضهم: الكنية قد تكون بالأوصاف كأبي الفضائل، وأبي المعالي ، وأبي الخير، وأبي الحكم، وقد تكون بالنسبة إلى الأولاد كأبي سلمة، وأبي شريح إلى ما يلابسه كأبي هريرة فإنه عليه السلام رآه ومعه هرة فكناه بأبي هريرة، وقد تكون للعلمية الصرفة كأبي بكر ا.هـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٦٤).

(٢) الجديد ٣٨٧.

(٣) الجديد ٣٨٧.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٦٤.

(٥) المصدر السابق ٤٦٤.

قال ابن عثيمين(١): والكنية: ماصدر بـأب أو أم، وقال بعضهم: أوأخ أو عم أو خال، وقد تـكون للمـدح كما فى الحـديث وقد تكـون للذم، كأبـى جهل وقد تـكون لمصاحبته الشىء مـثل أبى هريرة ، وقد تكون مجرد علم كأبى بـكر، وأبى العباس ابن تيمية إذ ليس له ولد ا.هـ.

قوله «إن الله هو الحكم وإليه الحكم»

قال سليمان آل الشيخ(٢): أما الحكم فهو من أسماء الله تبارك وتعالى كما فى هذا الحديث، وقد ورد عده فى الأسماء الحسنى مقرونًـا بالعدل، فسبحان الله ما أحسن اقتران هذين الإسمين.

قال فى «شرح السنة» الحكم هو الحاكم الذى إذا حكم لا يرد حكمه، وهذه الصفة لا تليق بغير الله تعالى كما قال تعالى: **﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه﴾**.

وقال بعضهم: عـرف الخبر فى الجملة الأولى ـ أى بقولـه إن الله هو الحكم ـ وأتى بضمير الـفصل ـ هو ـ فدل على الحصـر، وإن هذا الوصف مختص به لا يـتجاوز إلى غيره ، وأما قوله: **«وإليه الحكم»** أي: إليه الفصل بين العبـاد فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالي: **﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** ، وقال: **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾** وفيه الدليـل على المنع من التسـمى بأسماء الله المختصة بـه، والمنع مما يوهم عدم الاحترام لها كالتكنى بأبى الحكم ونحوه أ.هـ وقد تقدم .

قال ابن عثيمين(٣): **قوله: «إن الله هو الحكم وإليه الحكم»**

«هو الحكم» أى : المستحـق أن يكون حاكمًا على عـباده، حاكمًا بالفـعل، يدل له قوله: **«وإليه الحكم»**.

الخبر فيه جـار ومجرور مقدم، وتقديم الخبـر يفيد الحصر، وعلى هـذا يكون الحكم راجعًا إلى الله وحده. وقد تقدم من كلام سليمان آل الشيخ.

وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: كوني، وهذا لا راد له، فـلا يستطيع أحد أن يرده، ومنه قـوله تعالى: **﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾**(٤).

---

(١) القول المفيد (٣/ ٢٥)

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦٤

(٣) القول المفيد ٣/ ٢٣-٢٥.

(٤) يوسف : ٨٠

الثاني: شرعي، وينقسم الناس فيه إلى قسمين مؤمن وكافر، فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرض به ولم يحكم به فهو كافر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾(١).

وأما قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٣) فهو يشمل الكونى والشرعي، وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي، لأنه فى سياق الحكم الشرعي، والشرعى يكون تابعًا للمحبة والرضا والكراهة والسخط، والكونى عام فى كل شيء.

وفى الحديث دليل على أن من أسمائه تعالى: «الحكم»

وأما بالنسبة للعدل، فقد ورد عن بعض الصحابة أنه قال: «إن الله حَكَمٌ عدل» ولا أعرف فيه حديثًا مرفوعًا، ولكن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ لا شك أنه متضمن للعدل وزيادة ا.هـ.

قلت: أخرج البيهقى بسند فيه ضعف عن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ «أيها الناس إنما الدنيا عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر، والأخرة وعدٌ صادق يحكم فيها ملك عادل بحقٍ فيها الحق ويبطل الباطل» وعنه أيضاً «وإن الآخرة وعد صادق يقضى فيها ملك قادر»(*).

قوله: فقال: «إن قومى إذا اختلفوا فى شيء أتوني»

قال سليمان آل الشيخ(٤): أي: أنا لم أكنّ نفسى بهذه الكنية، وإنما كنت أحكم بين قومى فكنونى بها.

وفيه جواز التحاكم إلى من يصلح للقضاء، وإن لم يكن قاضيًا، وأنه يلزم حكمه، ولهذا قال النبى ﷺ: **«ما أحسن هذا»** قال الخلخالي: للتعجب أي: الحكم بين الناس حسن، ولكن هذه الكنية غير حسنة، وقال غيره: أي: الذى ذكرته من الحكم بالعدل. وقيل: ما أحسن هذا، أي: ما ذكرت من وجه الكنية، قال بعضهم: وهو الأولى. قلت - يعنى سليمان آل الشيخ: فعلى هذا يكون حكمه لقومه قبل إسلامه إذ يبعد أن

(١) الشورى: ١٠

(٢) التين: ٨

(٣) المائدة: ٥٠.

(*) أخرجه البيهقى فى «الكبرى» (٣/ ٢١٦) عن شداد بن أوس به.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٦٥.

يكون قاضيًا لهـم قبل أن يلقى رسول الله ﷺ ويتعلم منه، لأن هذه الـقصة كانت بعد إسلامه بقـليل، لأنه كان مع وفد قـومه حين أسلموا، وقدمـوا على رسول الله ﷺ، ولا يظن أن رسول الله ﷺ يحسن أمر حكام الجاهلية. ا.هـ.

قال ابن عثيمين[(١)]: قوله: «فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني»

هذا جواب عن سؤال الـرسول ، له، لأن الرسول ﷺ سأله : لماذا يُكَـنُّونك بهذه الكنية؟

قوله: «ما أحسن هذا»

الإشارة تعود إلى إصلاحه بين قومه لا إلى تسـميته بهذا الاسم، لأن النبي ﷺ غيَّره اهـ.

قوله: «قال شريح ومسلم وعبد الله»

قال سليمان آل الشيخ[(٢)]: صريح في أن الواو لا تقتضي الـترتيب وإنما تقتضي مطلق الجمع، فـلذا سأله رسول الله ﷺ ، عن الأكبر، إذ لو كانت دالة عـلى الترتيب لم يحتج إلى سؤال عن أكبرهم ا.هـ.

قال ابن عثيمين: قوله «شريح ومـسلم وعبد الله» الظاهر: أنه ليس له إلا الثلاثة، لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذَّكَر والأنثي، فلو كان عنده بنات لعدهن ا.هـ.

قال سليمان آل الشيخ[(٣)]:

قوله : «فأنت أبو شريح» أي رعاية للأكبر منافي التكريم والإجلال، فإنَّ الكبير أولى بذلك، قال في «شرح السنة» فيه أن يكن الرجل بأكـبر بنيه، فإن لم يكن له ابن فبأكبر بناته. وكذلك المرأة تكنى فـبأكبر بنيها فبأكبر بناتها. انتهـى. وفيه تقديمًا لأكبر . وفيه أن استعمال اللفظ الشريف الحسن مكروه في حق من ليس كذلك ومنه أن يقول المملوك لسيده وغيره. «ربي» نبه عليه ابن القيم أ.هـ.

قال ابن عثيمين[(٤)]: ـ قوله : **«فأنت أبو شريح»** غيّره النبي ، لأمرين:

الأول: أن الحكم هو الله ، فإذا قيل: يا أبا الحكم! كأنه قيل : **يا أبا الله!**

الثاني: إن هذا الاسم الـذي جعل كنية لـهذا الرجل لوحظ فـيه معنى الصـفة وهي

(١) القول المفيد ٣/ ٢٥

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦٥

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٦٥

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٥-٢٩

الحكم، فصار بذلك مطابقًا لاسم الله، وليس لمجرد العَلَميّة المحضة، بل للعلمية المتضمنة للمعنى، وبهذا يكون مشاركًا لله - سبحانه وتعالى - فى ذلك، ولهذا كَنَّاه النبى ﷺ بما ينبغى أن يُكَنَّى به ا.هـ.

● **فوائد الحديث:**

قال ابن باز[1]: ينبغى احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك ولهذا غيّر اسمه من أبى الحكم إلى - أبى - شريح، وفيه أن الأفضل أن يكنى الإنسان بأكبر أولاده.

وفيه شرعية الإصلاح بين الناس وأنه شيء مطلوب وأنه ينبغى لكبراء الناس أن يتوسطوا فى حل الخصومات: حتى لا تبقى الشحناء والعداوة.

والإصلاح بينهم أفضل من الحكم لأن الحكم يحصل به حزازات ، لكن إذا اصطلحوا عن طيب نفس كان أفضل لزوال ما فى النفوس، وتحل المحبة والمودة ا.هـ.

قال ابن عثيمين[2]:

١- أنه ينبغى لأهل الوعظ والإرشاد والنصح إذا أغلقوا بابًا محرمًا أن يبينوا للناس المباح، وقد سبق تقرير ذلك .

٢- أن الحكم لله، لقوله ﷺ: «**وإليه الحكم**» أما الكوني، فلا نزاع فيه بين أحد من الخلق ولا يعارض الله أحد فى أحكامه الكونية.

وأما الشرعي، فهو محك الفتنة والامتحان والاختبار، فمن شرّع للناس شرعًا سوى شرع الله ورأى أنه أحسن من شرع الله وأنفع للعباد ، أو أنه مساوٍ لشرع الله، أو أنه يجوز ترك شرع الله إليه، فإنه كافر لأنه جعل نفسه ندًا لله - عز وجل- سواء فى العبادات أو المعاملات، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾[3] فدلت الآية على أنه لا أحد أحسن من حكم الله ولا مساوٍ لحكم الله، لأن أحسن اسم تفضيل: معناه لا يوجد شيء فى درجته، ومن زعم ذلك، فقد كَذَّب الله - عز وجل - وقال تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾[4] وهذا دليل على أنه لا يجوز العدول عن شرع الله إلى غيره، وأنه كفر.

(١) التعليق المفيد ٣٢٣، ٢٣٤.

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٧-٢٩.

(٣) المائدة : ٥٠

(٤) المائدة: ٤٤

فإن قيل: قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(1).

قلنا: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾(2) وهذا دليل على كفرهم، لأنه قال: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾وهذا إنكار لإيمانهم، فظاهر الآية أنهم يزعمون بلا صدق ولا حق.

فقوله ﷺ: «وإليه الحكم» يدل على أن من جعل الحكم لغير الله، فقد أشرك ا.هـ.

تنبيه:

قال ابن عثيمين(3): يجب على طالب العلم أن يعرف الفرق بين التشريع الذى يجعل نظامًا يمشى عليه ويستبدل به القرآن، وبين أن يحكم فى قضية معينة بغير ما أنزل الله، فهذا قد يكون كفرًا أو فسقًا أو ظلمًا.

فيكون كفرًا إذا اعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مماثل له.

ويكون فسقًا إذا كان لهوى فى نفس الحاكم.

ويكون ظلمًا إذا أراد مضرة المحكوم عليه، وظهور الظلم فى هذه أبين من ظهوره فى الثانية، وظهور الفسق فى الثانية أَبْيَن من ظهوره فى الثالثة.

٣- تغيير الاسم إلى ما هو أحسن إذا تَضَمَّن أمراً لا ينبغي، كما غَيَّر النبى ﷺ بعض الأسماء المباحة، ولا يحتاج ذلك إلى إعادة العقيقة كما يتوهمه بعض العامة أهـ.

قال القرعاوى(4):

١- إن الإسلام يمحوا ما قبله.

٢- يعذر الجاهل بجهله.

قلت: وقد تقدم الكلام عن مسئلة العذر عند الكلام على حديث طارق بن شهاب.

٣- وجوب إنكار المنكر.

٤- إثبات اسم من أسماء الله هو الحكم

قلت: وقد تقدم أيضاً

٥- جواز التحاكم إلى من يصلح للقضاء وإن لم يكن قاضيًا معينًا ويلزم حكمه ما

---

(1) المائدة: ٤٧

(2) النساء: ٦٠/ ٦١

(3) القول المفيد (٣/ ٢٩).

(4) الجديد ٣٨٦.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى :احْتِرَامَ أَسْمَاء الله وَصِفَاته. وَلَوَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الثانية: تَغْيِيرُ الأَسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ .

الثالثة : اخْتِيَارُ أَكْبَرُ الأَبنَاء للكُنْيَة.

لم ينسحب أحد الطرفين قبل الحكم وقد تقدم. قلت: ومحله إذا كان هذا المصلح عالماً بالشرع كما لا يخفى أهـ.

٦- استحباب قبول الاعتذار من المسلم إذا كان وجيهًا.

وقد تقدم في باب من لم يقنع بالحلف بالله.

٧- جواز التكني بالبنت لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى.

٨- مشروعية التكني بأكبر الأبناء.



قال ابن عثيمين[(١)]: فيه مسائل

- **الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه.**

قوله: «ولو لم يقصد معناه» هذا في النفس منه شيء، لأنه إذا لم يقصد معناه، فهو جائز ، إلا إذا سُمِّي بما لا يصح إلا لله مثل: الله الرحمن، رب العالمين، وما أشبهه، فهذه لا تطلق إلا على الله مهما كان، وأما ما لا يختص بالله، فإنه يُسمَّى به غير الله إذا لم يلاحظ معنى الصفة، بل كان المقصود مجرد العلمية فقط ، لأنه لا يكون مطابقًا لاسم الله، ولذلك كان في الصحابة من اسمه «الحكم» ولم يغيره النبي ﷺ لأنه لم يقصد إلا العلمية، وفي الصحابة من اسمه «حكيم» وأقره النبي ﷺ.

فالذي يحترم من أسمائه تعالى: ما يختص به، أو ما يقصد به ملاحظة الصفة.

- **الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك:** وقد سبق الكلام عليه.
- **الثالثة: اختيـار أكبر الأبناء للكنية:** تؤخذ من سؤال النبيﷺ : «**فمن أكبرهم ؟ قال: شريح ، قال: فأنت أبو شريح**» .

ولا يؤخذ من الحديث استحباب التكني، لأن النبي ﷺ أراد أن يغير كنيته إلى كنية مباحة ولم يأمره النبي ﷺ أن يُكنَّى ابتداءً.

قلت: ـ ولو أمره النبي ـ ﷺ ـ بالتكني ابتداءً لكان واجباً ولكن إقراره على التكني وفعله ـ ﷺ مع نفسه ومع أصحابه يدل على استحباب ذلك. والله أعلم.



---

(١) القول المفيد.

باب ٤٧
مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ القُرآنِ أَوِ الرَّسُولِ

● **مناسبة هذا الباب لما قبله.**

قال الفقير: أن المسمى بما لايليق إلا بالله ـ كقاضى القضاة ونحوه أو من سبَّ الدهر ـ فيه عدم تعظيم لله بل فيه استهزاء بالله وقد يكون استهزاء بحكمه أو كتابه أو رسوله أو هؤلاء جميعاً فناسب أن يأتى المصنف بهذا الباب المبين لحكم من هزل بشىء من هؤلاء والله أعلم.

أو لأن إحترام أسماء الله تعالى لا تكون إلا بترك الإستهزاء بشىءٍ فيه ذكره فلهذا ناسب أن يأتى بهذا الباب بعد الأبواب المتقدمة.

شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد.

قال الفقير: أراد أن يبين حكم من هزل بهؤلاء.

● **حكمه من أقوال أهل العلم.**

قال الرازى: قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يدل على أحكام:

الأول: أن الاستهزاء بالدين كان كفر بالله، وذلك لأن الاستهزاء يدل على الإستخفاف والعمدة الكبرى فى الإيمان تعظيم الله تعالى بأقصى الإمكان والجمع بينهما محال.

قال ابن تيمية فى الصارم(*): إن سب الله أو سب رسوله كفر ظاهراً وباطناً سواء كان السابُّ يعتقد أن ذلك محرم، أو كان مستحلاً له، أو كان ذاهلاً عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل.

وقد قال الإمام أبويعقوب المعروف بابن راهوية ـ وهو أحد الأئمة، يعدل بالشافعى وأحمد:ـ قد أجمع المسلمون أن من سب الله أو سب رسوله عليه الصلاة والسلام أو دفع شيئاً مما أنزل الله أو قتل نبياً من أنبياء الله أنه كافر بذلك وإن كان مقراً بما أنزل الله وكذلك قال محمد بن سحنون ـ وهو أحد الأئمة من أصحاب مالك أجمع العلماء أن شاتم النبى عليه الصلاة والسلام المتنقص له كافر.

(*) (ص: ٥١٢).

وقد نص على مثل هذا غير واحد من الأئمة وكذلك نقل عن الشافعي أنه سئل عمن هزل بشيء من آيات الله تعالى أنه قال: وهو كافر، واستدل بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ اهـ.

وقال القاضي أبو يعلى في (المسند). من سب الله ورسوله فإنه يكفر، سواء استحل سبه أو لم يستحله، فإن قال: لم أستحل ذلك لم يقبل منه في ظاهر الحكم، رواية واحدة. وكان مرتداً، لأن الظاهرخلاف ما أخبر. اهـ.

● **حكمه من كلام شراح كتاب التوحيد**

قال سليمان آل الشيخ[١]: أي: إنه يكفر بذلك لاستخفافه بجناب الربوبية والرسالة، وذلك مناف للتوحيد. ولهذا أجمع العلماء على كفر من فعل شيئاً من ذلك فمن استهزأ بالله، أو بكتابه أو برسوله، أو بدينه كفر ولو هازلاً لم يقصد حقيقة الاستهزاء اجماعاً. اهـ.

وذكر القاضي عياض في «الشفا» في معرض بيان لحد السب والاستهزاء والتنقيص قال: «كل من سبه أو عابه أو ألحق به نقصاً في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عَرَّض به أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزراء عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه والعيب له، وكذلك من لعنه أو دعى عليه أو تمنّى مضرة له، أو نَسَبَ إليه مالا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عبث في جهته العزيزة بسُخْف من الكلام أو غَيَّره بشيءٍ مما جرى عليه من البلاء أو المحنة عليه أو غمّصه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه. وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هلم جرا». ا.هـ[*].

قال عبدالرحمن آل الشيخ[٢]: أي فقد كفر.

قال حامد بن محمد[٣]: باب ما جاء في بيان أن من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول يكفر ولو كان مؤمناً قبل ولا ينفعه إيمانه، ولا أعماله الصالحة التي فعلها قبل ذلك والدليل على ذلك قول الله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٦٥.

(*) انظر «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (٢/ ٢٨٥ - ٢٨٧) طبعة «دار التراث».

(٢) فتح المجيد ٢/ (٣) فتح الله الحميد المجيد.

وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. اهـ.

قال ناصر السعدي[1]:- أي فإن هذا مناف للإيمان بالكلية. ومخرج من الدين. لأن أصل الدين الإيمان بالله وكتبه ورسله. ومن الإيمان تعظيم ذلك. ومن المعلوم أن الاستهزاء والهزل بشيء من هذه أشد من الكفر المجرد. لأن هذا كفر وزيادة احتقار وازدراء.

فإن الكفار نوعان: معرضون ومعارضون.

فالمعارض المحارب لله ورسوله، القادح بالله وبدينه ورسوله أغلظ كفراً وأعظم فساداً.

والهازل بشيء منها من هذا النوع. ا.هـ. وسيأتي تفصيل ذلك من كلام ابن عثيمين.

قال ابن باز[2]: هذا الباب لبيان حكم المستهزئين بالله وبالقرآن وبالرسول- ﷺ وأن حكمهم أنهم مرتدون إذا كانوا مسلمين وأن الإستهزاء رده وكفر. وجواب الشرط فقد كفر وهو معلوم لقوله تعالى ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ**﴾ الآية.ا.هـ.

قال ابن عثيمين[3]: هذه الترجمة فيها شيء من الغموض، والظاهر أن المراد من هزل بشيء فيه ذكر الله مثل الأحكام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسول ﷺ؛ فيكون معطوفاً على قوله بشيء.

والمراد بالرسول هنا: اسم الجنس، فيشمل جميع الرسل، وليس المراد محمداً ﷺ؛ فـ (أل) للجنس وليست للعهد.

قوله: «من هزل»

سخر واستهزأ ورآه لعباً ليس جداً.

ومن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله؛ فهو كافر؛ لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة.

كيف يسخر ويستهزئ بأمر يؤمن به؟! فالمؤمن بالشيء لابد أن يعظمه وأن يكون في قلبه من تعظيمه ما يليق به.

---

(١) القول السديد ١١٣ و ١١٤.

(٢) التعليق ٢٢٥.

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٠ ـ ٣٣.

والكفر كفران: كفــر إعراض، وكفر معارضة، والمستهزىء كافر كـفر معارضة؛ فهو أعظم ممن يسـجد لصنم فقط، وهذه المسألـة خطيرة جداً، ورب كلمة أوقعت بـصاحبها البلاء بل والهلاك وهو لا يشعر؛ فقد يتكلم الإنسان بالكلمة من سخط الله - عز وجل - لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى النار.

فمن استـهزأ بالصلاة - ولـو نافلة -، أو بالـزكاة، أو الصوم، أو الحج؛ فهـو كافر بإجماع المسلمـين، كذلك من استهزأ بالآيات الكونية بـأن قال مثلاً: إن وجود الحر فى أيام الشتاء سـفه، أو قال: إن وجود البرد فى أيام الـصيف سفه؛ فهذا كفـر مخرج عن الملة؛ لأن الرب - عز وجل - كل أفعاله مبنية علـى الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها بل لا نستطيع بلوغها.

● **هل تقبل توبة من سب الله أو الرسول أو الدين؟**

قال ابن تيمية:[1] فى الرد على من قال «**إنما وجب قتله لأجـل الأمرين - أى الكفر والسب - فسقط بزوال أحداهما» قال: فتقول:**

«إنه اجتمع فى الساب سببان كل منهما يـوجب نوعاً من القتل مخالف للنوع الآخر، وإن كان أحـدهما يسـتلزم الآخـر؛ فالكـفر يوجب الـقتل لـلكفـر الأصلى أو الكـفر الارتدادى، وله أحكـام معروفة، والسب يـوجب القتل لخصـوصه حتى يندرج فـيه قتل الكفـر وقتل الردة، وهـذا هو المغلـب فى حق مثـل هذا...» إلى أن قال: «إذا سـقط موجب الكفر والردة؛ لم يسقط موجب السب».

وقال: «فعوده إلـى الإسلام يسقط موجب الـردة المحضة، ويبقى خـصوص السب، ولابد من إقامة حده، كما أن توبة القاطع قبل القـدرة عليه تسقط تحتم القتل ويبقى حق أولياء المقتول».

وقال: «إن الذى عصـم دم ابن أبى السرح عفـو النبى ﷺ، وأنه بالإسـلام والتوبة انمحى عنه الإثم، وبعفو النبى ﷺ احتقن الدم، وليس للأمة أن يعفوا عن حقه».

وقال: «أن قتل السباب لا يسقط عن مسلم ولا معاهد بالتوبة».

التصريح بأنه حد. ا.هـ.

قال ابن عثيمين: وأعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سبَّ الله أو رسوله أو كتابه: هل تقبل توبته؟ على قولين:

(١) «الصارم المسلول» (٤٤٠، ٣٦١، ٣٣٧، ٤١٥، ٣٩٥).

القول الأول: أنها لا تقبل، وهو المشهور عند الحنابلة، بل يقتل كافراً، ولا يُصلى عليه، ولا يُدعى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين، ولو قال: إنه تاب أو إنه أخطأ؛ لأنهم يقولون: إن هذا الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيها التوبة.

وقال بعض أهل العلم: إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة؛ كقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾، ومن الكفار من يسبون الله، ومع ذلك تقبل توبتهم.

وهذا هو الصحيح، **إلا أن سابَّ الرسول ﷺ تقبل توبته ويجب قتله**، بخلاف من سب الله؛ فإنها تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسول ﷺ، بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه بأنه يغفر الذنوب جميعاً، أما سابّ الرسول ﷺ؛ فإنه يتعلق به أمران:

الأول: أمر شرعي لكونه رسول الله ﷺ، ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب.

الثاني: أمر شخصي لكونه من المرسلين، ومن هذا الوجه يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته على أنه مسلم، فإذا قتل؛ غسَّلناه وكفَّناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد ألَّف كتاباً في ذلك اسمه: «الصارم المسلول في حكم قتل ساب الرسول»، أو: «الصارم المسلول على شاتم الرسول»، وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ، وكذا لو قذفه؛ فإنه يقتل ولا يجلد.

فإن قيل: أليس قد ثبت أن من الناس من سب الرسول ﷺ وقَبِل منه وأطلقه؟

أجيب: بلى، هذا صحيح، لكن هذا في حياته ﷺ، وقد أسقط حقه، أما بعد موته؛ فلا ندري، فننفذ ما نراه واجباً في حق من سبه ﷺ.

فإن قيل: احتمال كونه يعفو عنه أو لا يعفو موجب للتوقف؟

أجيب: إنه لا يوجب التوقف؛ لأن المفسدة حصلت بالسب، وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم، والأصل بقاؤه.

فإن قيل: أليس الغالب أن الرسول ﷺ عفا عمَّن سبه؟

أجيب: بلى، وربما كان فى حياة الرسول ﷺ إذا عفا قد تحصل المصلحة ويكون فى ذلك تأليف، كما أنه ﷺ يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم؛ لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لكن الآن لو علمنا أحداً بعينه من المنافقين لقتلناه، قال ابن القيم: إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو فى حياة الرسول ﷺ فقط.



قوله تعالى: ﴿لَئِن سَأَلْتَهُمْ ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب.....﴾ الآية

- مناسبة الآية للباب:-

قال القرعاوى[٢]:- حيث دلّت الآية على كفر من استهزأ بالله أو بآياته أو برسوله. اهـ.

الإعراب[٣] ﴿ولئن سألتهم ليقولنَّ إنَّما كُنَّا نخوضُ ونلعبُ﴾ مقول القول وجملة نخوض خبر كنا قل: أبالله وآياته ورسوله كنتم. وهو فى محل جزم فعل الشرط وليقولن اللام واقعة فى جواب القسم ويقولن فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعة ثبوت النون المحذوفة لتوالى الامثال والواو فاعل والنون المشدده للتوكيد وجملة إنما كنا نخوض ونلعب مقول القول وجملة نخوض خبر كنا. ﴿قُلْ أبالله وآياته ورسوله كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ الهمزة للأستفهام الإنكارى التوبيخى وبالله متعلقان بيستهزئون وآياته ورسوله عطف على الله وكنتم تستهزئون كان واسمها والجملة الفعلية خبرها. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم لاناهية وتعتذروا مضارع مجزوم بلا الناهية وقد حرف تحقيق وكفرتم فعل وفاعل وبعد متعلق بكفرتم وإيمانكم مضاف إليه). اهـ.

● التفسير بالمأثور.

أولاً من السنة

عن شريح بن عبيد رضى الله عنه. أن رجلا قال لأبى الدرداء رضى الله عنه: يا معشر القراء ما بالكم أجبن منا وأبخل إذا سئلتم، وأعظم لقما إذا أكلتم؟ فاعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه شيئاً، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فانطلق

(١) التوبة ٦٥ و ٦٦.

(٢) الجديد ٣٨٩.

(٣) إعراب القرآن ٤/ ١٢٧

عمر الى الرجل الذى قال ذلك. فقاله بثوبه وخنقه وقاده الى النبى ﷺ فقال الرجل: إنما كنا نخوض ونلعب. فأوحى الله تعالى الى نبيه ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾(١).

وعن عبد الله بن عمر قال: «قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس يوما: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا، ولا أكذب السنة، ولا أجبن عند اللقاء.! فقال رجل فى المجلس: كذبت، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقا يحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكيه وهو يقول: يارسول الله انما كنا نخوض ونلعب. والنبى ﷺ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟»(٢).

وعن ابن عمر قال: «رأيت عبد الله بن أبى وهو يشتد قدام النبى ﷺ والاحجار تنكيه، وهو يقول: يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب، والنبى ﷺ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟»(٣).

وعن سعيد بن جبير قال «بينما النبى ﷺ فى مسيره واناس من المنافقين يسيرون أمامه، فقالوا: إن كان ما يقول محمد حقا فلنحن أشر من الحمير. فأنزل الله تعالى ما قالوا، فارسل اليهم. ما كنتم تقولون؟ فقالوا: انما كنا نخوض ونلعب»(٤).

عن كعب بن مالك قال: «قال مخشى بن حمير: لوددت انى أقاضى على أن يضرب كل رجل منكم مائة على أن ينجو من أن ينزل فينا قرآن. فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر «أدرك القوم فانهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا، فان هم أنكروا وكتموا فقل بلى قد قلتم كذا وكذا، فادركهم فقال لهم. فجاءوا يعتذرون، فأنزل الله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ الآية. فكان الذى عفا الله عنه محشى بن

(١) ذكره السيوطى فى«الدر» (٣/ ٤٥٥) ونسبه لأبى نعيم فى «الحلية».

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٤٧) وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن جرير، وأبى الشيخ، وابن مردويه. وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٤٠١) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٤٥٦) وزاد نسبته لابن المنذر، والعقيلى فى «الضعفاء»، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والخطيب فى «رواة مالك».

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للفريابى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن مردويه.

حمير، فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله. فقتل باليمامة لا يعلم مقتله، ولا من قتله، ولا يرى له أثر ولا عين»[1].

وعن مجاهد في قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال: قال رجل من المنافقين يحدثنا محمد: أن ناقة فلان بوادى كذا وكذا في يوم كذا وكذا، وما يدريه بالغيب؟[2].

وعن قتادة في الآية قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته الى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات...! فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فقال نبي الله ﷺ «احبسوا علىَّ هؤلاء الركب. فأتاهم فقال: قلتم كذا قلتم كذا. قالوا: يانبى الله انما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون»[3].

ورتَّب هذه الآثار ابن الجوزى مختصراً فقال:[4]

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ في سبب نزولها ستة أقوال:

أحدها: أن جَدَّ بن قيس، ووديعة بن خذام، والجُهَير بن خُمَيِّر، كانوا يسيرون بين يدى رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، فجعل رجلان منهم يستهزءان برسول الله ﷺ، والثالث يضحك مما يقولان ولا يتكلم بشيء، فنزل جبريل فأخبره بما يستهزئون به ويضحكون؛ فقال لعمار بن ياسر «**اذهب فسلهم عما كانوا يضحكون منه، وقل لهم: أحرقكم الله**» فلما سألهم، وقال: أحرقكم الله؛ علموا أنه قد نزل فيهم قرآن، فأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، وقال الجُهَير والله ما تكلَّمت بشيء، وإنما ضحكت تعجباً من قولهم؛ فنزل قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ يعني جَدَّ بن قيس، ووديعة ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٤٢) وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٤٥٦) وزاد نسبته لابن إسحاق، وابن المنذر.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٤٨) وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٤٥٦) وزاد نسبته لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٤٩) وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٤٥٦) وزاد نسبته لابن المنذر، وأبي شيخ.

(٤) زاد المسير / ٣٥٠ و ٣٥١..

مِّنكُمْ﴾ يعنى الجهير ﴿نعذب طائفة﴾ يعنى الجدّ ووديعة، هـذا قول أبى صالح عن ابن عباس[1].

والثانى: أن رجلاً من المنافقـين قال: ما رأيت مثل قرائنا هـؤلاء، ولا أرغبَ بطوناً، ولا أكذبَ، ولا أجبنَ عنـد اللقاء؛ يعنـى رسول الله ﷺ وأصحابه؛ فقـال له عوف بن مالك: كذبت، لكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ؛ فذهب ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه؛ فجاء ذلـك الرجل، فقال: يارسول الله، إنما كنا نخوض ونـلعب، هذا قول ابن عمر[2]، وزيد بن أسلم، والقرظى.

والثالث: أن قوماً من المنافقين كانوا يـسيرون مع رسول الله ﷺ، فقالوا: إن كان ما يقول هذا حقاً، لنحن شرٌ من الحمير؛ فأعلم الله نبيه ما قالوا، ونزلت ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾، قاله سعيد بن جبير[3].

والرابع: أن رجلاً من المنافقين قال: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادى كذا وكذا، وما يُدريه ما الغيب؟ فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد[4].

والخامس: أن ناسـاً من المنافـقين قالـوا: يرجو هـذا الرجل أن يفـتح قصور الـشام وحصونـها، هيهـات؛ فأطلع الله نـبيه علـى ذلك، فقال نـبى الله ﷺ: «**احبسوا على الركّب**»، فأتاهم، فقال: «**قلتم كذا وكذا**»، فقالوا: إنما كنا نخـوض ونلعب؛ فنزلت هذه الآية، قاله قتادة[5].

والسادس: أن عبد الله بن أبى، ورهـطاً معه، كانوا يقولون فـى رسول الله وأصحابه ما لا ينبغى، فإذا بـلغ رسول الله ﷺ قالوا: إنما كنا نخوض ونلعـب، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، قاله الضحـاك. فقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ أى؛ عما كانوا فيه من الاستهزاء ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أى: نلهو بالحديث. وقوله: ﴿قد كفرتم﴾ أى: قد ظهر كفركم بعـد إظهاركم الإيمان؛ وهذا يدل على أن الجدّ واللعب فى إظهار كلمة الكفر سواء. اهـ.

● **أقوال أهل التفسير**:

قال الطبرى[6]: يقول تعالى - جـلّ ثناؤه - لنبية محمد - ﷺ - ولـئن سالت يا

(1) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٤٥٦) ونسبه لابن مردويه عن ابن عباس بنحوه.
(2) تقدم تخريجه.
(3) تقدم تخريجه.
(4) تقدم تخريجه.
(5) تقدم تخريجه.
(6) تفسير الطبرى ٤/٦/ ١١٨ - ١١٩.

محمد هؤلاء المنافقيـن عما قالوا من الباطل والكذب ليقولن لك انما قـلنا ذلك لعبا وكنا نخوض فـي حديث لعبا وهـزوا يقول الله لمحمد ﷺ قل يـا محمد أبا الله وآيات كـتابه ورسوله كنتم تستهزون». اهـ.

قال الرازي[1]: قال الواحدي: أصل الخوض الدخول في مائع من الماء والطين، ثم كثر حتى صار اسما لكل دخول فيه تلـويث وأذى، والمعنى: أنا كنا نخوض ونلعب في الباطل من الكلام كـما يخوض الركب لقطع الطريق، فأجابـهم الرسول بقوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فرق بين قولك اتستهزىء بالله، وبـين قولك أبالله تستهزىء، فالأول يقتضي الانكار علـى عمل الاستهزاء، والثاني: يقتضي الانكار عـلى إيقاع الاستهزاء في الله، كأنـه يقول هب أنـك قد تقـدم على الاستـهزاء ولكـن كيف أقـدمت على إيـقاع الاستهزاء في الله ونظيره قوله تعالى: ﴿لا فيها غول﴾ والمقصود: ليس نفي الغول، بل نفي أن يكون خمر الجنة محلالا للغول.

المسألة الثانية: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستهزئون بالله وآياته ورسوله، ومعلوم أن الاستهزاء بالله محال.

قلت: شرعاً أما قدراً فقد يقع كما حدث.

فلابد له من تأويل.

قلت: لانذهب إلى تأويل نص شرعي إلا إذا خالف نص شرعي أخر - وفيه وجوه:

الأول: المراد بالاستهزاء بالله هو الاستهزاء بتكاليف الله تعالى - والأستهزاء بتكاليف الله هو إستهزاء به على الحقيقة كما تقدم في الباب السابق.

الثاني: يحتمل أن يكون المراد الاستهزاء بذكر الله، فان أسماء الله قد يستهزى الكافر بها كما أن المؤمن يعظمها ويمجدها. قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ فأمر المؤمن بتعظـيم اسم الله. وقال ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ فلا يمتنع أن يـقال (أبالله) ويراد: أبذكـر الله.

قلت: وظاهر كلامه أنه يقول بأنَّ الإسم غير المسمى وهو مذهب يخالف ما ذهب إليه أهل السنة وقد تقـدم أن الاسم هو المسمى، وأيضاً الكلام يحمل عـلى الحقيقة ولا داعي للتأويل بدون دليل ونقول أن المراد بالله ذكره.

(١) التفسير الكبير / / ١٢٥ - ١٢٧.

ثم قال: **الثالث**: لعل المنافقين لما قالوا: كيف يقـدر محمد على أخذ حصون الشام وقصورها. قـال بعض المسلمين: الله يـعينه علـى ذلك وينصره عليهـم، ثم إن بعض الجهال من المـنافقين ذكر كلاما مـشعرا بالقـدح فــى قـدرة الله كمـا هــو عادات الجهال والملاحدة، فكان المراد ذلك.

قلت: لو حدث ذلك لنُقـل ـ وأما قوله ﴿وآياته﴾ فالمراد بها الـقرآن، وسائر ما يدل على الدين. وقوله (ورسوله) معلوم، وذلـك يدل على أن القوم إنما ذكروا ما ذكروه على سبيل الاستهزاء.

قال تعالى: ﴿**لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: نقل الواحدى عن أهل اللغة فى لفظ الاعتذار قولين:

القول الأول: أنه عبارة عن محو الذنب من قولهم: اعتذرت المنازل إذا درست.

يقال: مـررت بمنزل معتـذر، والاعتذار هو الدرس وأخـذ الأعتذار منه. لأن المـعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه.

والقول الثانى: حكى ابن الأعرابى أن الاعتذار هو القطع، ومنه يقال للقلفة عذرة لأنها تقطـع، وعذرة الجارية سـميت عذرة. لأنهـا تعذر أى تقطـع، ويقال اعتـذرت المياه إذا انقطعت، فالعذر لما كان سببا لقطع اللوم سمى عذرا، قال الواحدى: والقولان متقاربان، لأن محو أثر الذنب وقطع اللوم يتقاربان.

المسألة الثانية: أنه تعالى بين أن ذلك الاستهزاء كان كفرا، والعقل يقتضى أن الاقدام على الكفـر لأجل اللعب غير جائز، فثبت أن قولهم إنما كنا نخوض ونـلعب، ما كان عذرا حقيقيا فى الاقدام على ذلك الاستهزاء، فلما لم يكن ذلك عذرا فى نفسه نهاهم الله عن أن يعتذروا به لان المـنع عن الكلام الباطل واجب. فقـال (لاتعتذروا) أى لا تذكروا هذا العذر فى دفع هذا الجرم.

المسألة الثالثة: قوله ﴿ **قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ يدل على أحكام.

الحكم الأول

أن الاستهـزاء بالدين كان كـفر بالله، وذلك لأن الاستهـزاء يدل على الاسـتخفاف والعمدة الكبرى فى الإيمان تعظيم الله تعالى بأقصى الإمكان والجمع بينهما محال.

قلت:/ وكان فى كلام الرازى هنـا لاتدل على أنه نُسخ ذلك ولكن هـى دليل على الاستمرار فالاستهزاء بالدين كفر ولايزال وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾.

الحكم الثانى

أنه يدل على بطلان قول من يقول، الكفر لا يدخل إلا فى أفعال القلوب.

قلت:/ يقصد الرازى ـ رحمه الله ـ أن الآية ترد على من جعل الكفر هو الجحود فقط أو أنه منحصر فى عمل القلب أى الكفر الاعتقادى بل من الكفر العملى أيضاً ما يخرج من الملة.

الحكم الثالث

يدل على أن قولهم الذى صدر منهم كفر فى الحقيقة، وإن كانوا منافقين من قبل وأن الكفر يمكن أن يتجدد من الكافر حالا فحالا.

قلت: ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾.

الحكم الرابع

يدل على أن الكفر إنما حدث بعد أن كانوا مؤمنين.

ولقائل أن يقول: القوم لما كانوا منافقين فكيف يصح وصفهم بذلك؟

قلنا: قال الحسن المراد كفرتم بعد إيمانكم الذى أظهرتموه، وقال آخرون: ظهر كفركم للمؤمنين بعد أن كنتم عندهم مسلمين، والقولان متقاربان. اهـ.

قال الشوكانى(١): قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أى ولئن سألتهم عما قالوه من الطعن فى الدين وثلب المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك ويطلعك الله عليه ليقولن: إنما كنا نخوض ونلعب، ولم نكن فى شىء من أمرك ولا أمر المؤمنين. ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ والاستفهام: للتقريع والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعبأ بإنكارهم، لأنهم كانوا كاذبين فى الإنكار، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به، والباء لحرف(*) النفى، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته، ثم قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ نهيا لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطنة(**)، فإن ذلك غير مقبول منهم. وقد نقل الواحدى عن أئمة اللغة: أن معنى الاعتذار: محو أثر الذنب وقطعه، من قولهم: اعتذر المنزل: إذا درس، واعتذرت المياه: إذا انقطعت ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ أى أظهرتم

---

(١) فتح القدير / ٣٩٦.

(*) هكذا فى المطبوع ولعلها (حرف).

(**) هكذا فى المطبوع ولعلها (الباطلة).

الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي بعد إظهاركم الإيمان مع كونكم تبطنون الكفر.

قال ناصر السعدي[1]: فإن الاستهزاء بالله ورسوله، كفر مخرج عن الدين.

لأن أصل الدين، مبنى على تعظيم الله، وتعظيم دينه ورسله.

والاستهزاء بشيء من ذلك، مناف لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة.

ولهذا لما جاءوا إلى الرسول، يعتذرون بهذه المقالة، والرسول لايزيدهم على قوله: **﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾**.

وقوله: **﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾** لتوبتهم واستغفارهم وندمهم.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد.**

قال سليمان آل الشيخ[2]: قال شيخ الإسلام: فقد أمره أن يقول: كفرتم بعد إيمانكم. وقول من يقول: إنهم قد كفروا بعد إيمانهم بلسانهم، مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر. فلا يقال: **﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾** فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر. وإن أريد إنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا ذلك إلا لخوضهم. وهم مع خوضهم ما زالوا هكذا، بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل عليهم سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق وتكلموا بالاستهزاء أي: صاروا كافرين بعد إيمانهم. ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين إلى أن قال تعالى: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾** فاعترفوا ولهذا قيل: **﴿لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾** فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر. فتبين أن الاستهزاء بآيات الله ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم. ولكن لم يظنوه كفراً وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه. وقوله: **﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾** قال ابن كثير: أي: لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم بأنهم كانوا مجرمين بهذه المقالة الفاجرة. قيل: إن الطائفة مخشي بن حمير عفا الله عنه وتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم مقتله، فقتل يوم اليمامة ولم

(١) تيسير الكريم الرحمن / ٢٥٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦٦ و ٤٦٧.

يعلم مقتلـه ولا من قتله ولا يدرى له عين ولا أثر. وقيل: إن الطـائفة زيد بن وديعة. والأول أشهر، ويحتـمل أن الله عفا عنهما جـميعاً. وفى الآية دليل عـلى أن الرجل إذا فعل الكفـر ولم يعلم أنه كفر لا يعذر بـذلك، بل يكفر وعلى أن الساب كـافر بطريق الأولى نبه عليه شيخ الإسلام.اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: ويستفاد من الآيتين:

١ - بيان علم الله - عز وجل - بما سيكون؛ لقوله: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ**﴾، وهذا مستقبـل؛ فالله عالم ما كان وما سيكـون؛ قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ**﴾.

٢ - أن الرسـول ﷺ يحـكم بمـا أنزل الله إلـيه حـيث أمـره أن يقـول: ﴿**أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ...**﴾.

٣ - أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله من أعظم الكفر؛ بدليل الاستفهام والتوبيخ.

٤ - أن الاستـهزاء بالله وآيـاته ورسـوله أعظـم استهـزاء وقبـحاً؛ لقـوله: ﴿**أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ...**﴾، وتقديم المتعلق يدل على الحصر كـأنه ما بقى إلا أن تستهزؤا بهؤلاء الذين ليسوا محلاً للاستهزاء؛ بل أحق الحق هؤلاء الثلاثة.

٥ - أن المستهزىء بالله يكفر؛ لقوله: ﴿**لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾.

٦ - استعمال الغلظة فى محلها، وإلا؛ فـالأصل أن من جاء يعتذر يرحم، لكنه هنا ليس أهلاً للرحمة.

٧ - قبول توبة المستـهزىء بالله؛ لقوله: ﴿**إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ ...**﴾، وهذا أمر قد وقع، فإن مـن هؤلاء من عفى عـنه وهُدىَ للإسلام وتـاب وتاب الله عليه، وهـذا دليل للقول الراجح أن المستهزىء بالله تقبل توبته، لكن لابد من دليل بيّن على صدق توبته؛ لأن كفره من أشد الكفر أو هو أشد الكفر، فليس مثل كفر الإعراض أو الجحد.

وهؤلاء الذيـن حضروا السب مثـل الذين سبوا، قال تـعالى: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ**﴾ وهم يسـتطيعـون المفارقة، والـنبى ﷺ امتثل أمر الله

(١) القول المفيد ٢/٣٦ - ٣٨.

عَن ابن عُمَرَ وَمُحَمَّد بن كَعْب وزَيْد بـن أسْلَمَ وقَتَادَةَ؛ دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَـعْضٍ: «أنَّهُ قَالَ رَجُـلٌ فِي غَزْوَة تَـبُوكَ: مَا رأَيْنَا مثْلَ قُـرَّائنا هَـؤلاء؛ أَرْغَبَ بُطُونـاً، ولاَ أكْذَبَ ألْسناً، ولاَ أَجْبَنَ عنْدَ اللِّقَـاء. يَعْني: رَسُولَ الله ﷺ وأَصْـحَابَهُ القُرَّاءَ. فقَـالَ لهُ عَوْفُ ابنُ مَالك : كَذَبْـتَ، ولَكنَّكَ مُنَافـقٌ؛ لأخْبرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ فَذَهَبَ عَوْفٌ إلـى رَسُولَ الله ﷺ ليُخْبرَهُ فوَجَـدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَـهُ، فَجاءَ ذَلكَ الرَّجُلُ إلى رَسُول الله ﷺ وَقَـدْ ارْتحَلَ ورَكبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يا رَسُـولَ الله إنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ وَنَتَحَدَّثُ حَديثَ الرَّكْبِ نَـقْطَعُ به عَنَاءَ الطَّرِيق قَالَ ابنِ عُمَرَ : كأنِّي أنْظُرُ إلَيْه مُتَعلقاً بنسْعَـة نَاقَة رَسُول الله ﷺ وإنَّ الحجَارَةَ لَتَنْكُبُ رجْلَيْه، وَهُوَ يَقُولُ : إنَّـمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَـلْعَبُ فَيَقُـولُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ مَا يَلْتَفتُ إلَيْه ومَا يَزيدُهُ عَلَيْه»(١) .

بتبليغهم، حتى إن الرجـل الذى جاء يعتذر صار يقول له: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، ولا يزيد على هذا أبداً مع إمكان أن يزيده توبيخاً وتقريعاً. اهـ.



قوله: [عن ابن عمر ومحمد بن كعب...].

قال سليمـان الشيخ(٢): هذا الأثـر ذكره المصنـف مجموعـاً من رواية ابن عـمر،

---

(١) [ضعيف] أما أثر ابن عمر أخرجه ابن جرير فى «تـفسيره» (١٠/١١٩) من طريق هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر به.

أما أثر محمد بن كعب فقد أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق قال: حدثنا الحارث قال ثنا عبد العزيز قال ثنا أبو معضر عن محمد بن كعب . . فذكره.

أما أثر زيد بن أسلم أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٠/١١٩).

قال: حدثنا على بن داود قال ثنا عبد الله بن صالح قال ثـنا الليث قال ثنى هشام بن مسعد عن زيد بن أسلم. . . فذكره.

أما أثر قتادة أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٠/١١٩).

قال: حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال ثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة . . فذكره.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (ح٥٥٠). «وفتح المجيد» (ح ٧٨٠) بتخريجنا

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤١٧.

ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة، وقد ذكره قبله كذلك شيخ الإسلام. فأما أثر ابن عمر فرواه ابن جرير، وابن أبى حاتم، وغيرهما بنحو مما ذكره المصنف. وأما أثر محمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة فهى معروفة لكن بغير هذا اللفظ. اهـ.

- مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى(1): حيث دلّ الحديث المتضمن الآية على كفر من استهزأ بالله أو كتابه أو رسوله. اهـ.

قوله: «عن ابن عمر.... إلخ».

قال سليمان آل الشيخ(2): قوله: «عن ابن عمر» هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، ومحمد بن كعب هو محمد بن كعب بن سليم أبو حمزة القرظى المدنى. قال البخارى: إن أباه كان ممن لم ينبت من بنى قريظة، وهو ثقة عالم مات سنة عشرين ومئة وزيد بن أسلم هو مولى عمر بن الخطاب، والد عبد الرحمن وإخوته، يكنى أبا عبد الله، ثقة مشهور مات سنة ست وثلاثين ومئة وقتادة هو ابن دعامة وتقدم اهـ.

قوله: «دخل حديث بعضهم فى بعض».

قال سليمان آل الشيخ(3): أى: إن الحديث مجموع من رواياتهم فلذلك دخل بعضه فى بعض. اهـ.

قال ابن عثيمين(4): إن هذا الحديث مجموع من كلامهم، وهذا يفعله بعض أئمة الرواة كالزهرى وغيره، فيحدثه جماعة بشأن قصة من القصص كحديث الإفك مثلاً، فيجمعون هذا ويجعلونه فى حديث واحد، ويشيرون إلى هذا، فيقولون - مثلاً: دخل حديث بعضهم فى بعض، أو يقول: حدثنى بعضهم بكذا وبعضهم بكذا، وما أشبه ذلك.

[قلت]: ويؤيده قول النووى(5): «**هذا الذى ذكره الزهرى من جمعه الحديث - أى**

---

(1) الجديد ٣٩٢.

(2) تيسير العزيز الحميد ٤٦٧.

(3) تيسير العزيز المجيد ٤٦٨.

(4) القول المفيد ٢/ ٣٩.

(5) [صحيح] شرح مسلم (٩/ ١٢٣).

حديث الأفك ـ عنهم جائز، لامنع منه ولا كراهة فيه... إلخ. ونقل ابن رجب فى شرح العلل عن أبى يعلى الخليلى فى كتابه الارشاد أى الرجل إذا جمع بين حديث جماعة وساق الحديث سياقة واحدة فالظاهر أن لفظهم لم يتفق فلا يقبل هذا الجمع إلا من حافظ متقن لحديثه يعرف شيوخه واختلافهم كما كان الزهرى يجمع بين شيوخ له فى حديث الإفك وغيره. أ.هـ[1].

قلت: وهذا الصنيع حجة للشيخ الألبانى ـ رحمه الله ـ فى جمعه لحديث جابر فى «حجة النبى» ﷺ على حديث واحد وكذلك خطبة الحاجة وغيرهما ولهذا جمعت حديث، حذيفة فى الصحيح فى باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة فى الفتن فى كتابى «كيف الأمر» على حديث واحد والله الموفق لارب سواه ثم وجدت أن ابن حجر نقل عن عياض: أنهم انتقضوا على الزهرى ماصنعه من روايته لهذا الحديث ملفقة عن هؤلاء الأربعة، وقالوا: كان ينبغى له أن يفرد حديث كل واحد منهم عن الآخر. ا.هـ.

قال ابن حجر: وقد تتبعت طرقه فوجدته من رواية عروة على إفراده،ومن رواية علقمة بن وقاص ومن سياق كل منهما مخالفات ونقص وبعض زيادة لما فى سياق الزهرى عن الأربعة. ثم سألت شيخنا (محمد عمرو عبداللطيف) فكان من جملة جوابه أن صنيع الزهرى خلاف الأولى،وأن أدق كلام هو كلام الحافظ ابن حجر،وأن مذهب الشيخ الألبانى ـ رحمه الله ـ فى الجمع على النحو المتقدم فى النفس منه شىء. والله أعلم.

قوله: «أنه قال رجل فى غزوة تبوك».

قال سليمان آل الشيخ[2]: قوله: «إنه قال رجل فى غزوة تبوك» لم أقف على تسمية القائل لذلك أبهم اسمه فى جميع الروايات التى وقفت عليها. ولكن قد ورد تسمية جماعة ممن نزلت فيهم الآية مع اختلاف الرواية فيما قالوه من الكلام. ففى بعض الروايات أنهم قالوا ما ذكره المصنف. ا.هـ.

قال ابن عثيمين[3]: قوله: «فى غزوة تبوك».

تبوك فى أطراف الشام، وكانت هذه الغزوة فى رجب حين طابت الثمار، وكان مع الرسول ﷺ فى هذه الغزوة نحو ثلاثين ألفاً، ولما خرجوا رجع عبد الله بن أُبَىّ بنحو

(١) شرح العلل لابن رجب (٣٥٩).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦٨.

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٩ - ٤٣.

نصف المعسكر، حتى قيل: إنه لا يدرى أى الجيشين أكثر: الذين رجعوا، أو الذين ذهبوا؟ مما يدل على وفرة النفاق فى تلك السنة، وكانت فى السنة التاسعة، وسببها أنه قيل للنبى ﷺ: إن قوماً من الروم ومن متنصرة العرب يجمعون له، فأراد أن يغزوهم ﷺ إظهاراً للقوة وإيماناً بنصر الله - عز وجل -.اهـ.

قوله: «ما رأينا».

قال ابن عثيمين[1]: تحتمل أن تكون بصرية، وتحتمل أن تكون علمية قلبية.

قوله: «مثل قرائنا»: المفعول الأول، والمراد بهم الرسول ﷺ وأصحابه.

قوله: «أرغب بطونا» المفعول الثانى؛ أى: أوسع، وإنما كانت الرغبة هنا بمعنى السعة؛ لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان فى الأكل.

قوله: «ولا أكذب ألسناً» الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع، والألسن: جمع لسان، والمراد: ولا أكذب قولاً، واللسان يطلق على القول كثيراً فى اللغة العربية؛ كما فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾؛ أى: بلغتهم.

قوله: «ولا أجبن عند اللقاء».

الجُبْن: هو خَوَر فى النفس يمنع المرء من الإقدام على ما يكره؛ فهو خلق نفسى دميم، ولهذا كان النبى ﷺ يستعيذ منه لما يحصل فيه من الإحجام عما ينبغى الإقدام إليه؛ فلهذا كان صفة ذميمة، وهذه الأوصاف تنطبق على المنافقين لا على المؤمنين، فالمؤمن يأكل بمعى واحد: ثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لنفسه، والكافر يأكل بسبعة أمعاء، والمؤمن أصدق الناس لساناً ولاسيما النبى ﷺ وأصحابه؛ فإن الله وصفهم بالصدق فى قوله: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾. والمنافقون أكذب الناس؛ كما قال الله فيه: ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ وجعل النبى ﷺ الكذب من علامات النفاق[*]، والمنافقون من أجبن الناس، قال تعالى: ﴿**يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ**﴾ فلو سمعوا أحداً ينشد ضالته؛ لفعلوا عدو، عدو، وهم أحب الناس للدنيا؛ إذ أصل نفاقهم من أجل الدنيا ومن أجل أن نحمى دماؤهم وأموالهم وأعراضهم.

---

(١) القول المفيد (٢/ ١١٣).

(*) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٣)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٤٦ ـ النووى) عن أبى هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (٢٠١ ـ بتخريجنا).

قوله: «كذبت».

أى: أخبرت بخلاف الواقع، وفى ذلك دليل علـى تكذيب الكذب مهما كان الأمر، وأن السكوت عليه لايجوز.

قوله: «ولكنك منافق».

لأنه لايطلق هـذه الأوصاف على رسول الله ﷺ وأصحابه رجل تـسمى بالإسلام إلا منافق، وبهذا يـعرف أن من يسب أصحاب رسول الله ﷺ أنه كافر؛ لأن الـطعن فيهم طعن فى الله ورسوله وشريعته.

فيكون طعناً فى الله: لأنه طعن فى حكمته، حيث اختار لأفضل خلقه أسوأ خلقه.

وطعناً فى الـرسول ﷺ: لأنهم أصحابه، والمرء عـلى دين خليله، والإنسـان يُستدل على صلاحه أو فساده أو سوء أخلاقه أو صلاحها بالقرين.

وطعناً فى الـشريعة: لأنهم الواسطة بـينا وبين الرسول ﷺ فى نقـل الشريعة، وإذا كانوا بهذه المثابة؛ فلا يوثق بهذه الشريعة[١].

قوله: «فوجد القرآن قد سبقه».

أى: بالوحى من الله تـعالى، والله عليم بما يفـعلون وبما يريدون وبما يبـيتون، قال تعالى: **﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾**[٢].

قوله: «وقد ارتحل وركب ناقته».

الظاهر أن هذا من باب عطف التفسير؛ لأن ركوب الناقة هو الارتحال[٣].

قوله: «كأنى أنظر إليه».

كأن إذا دخلت علـى مشتق؛ فهى للتوقع، وإذا دخـلت على جامد؛ فهى للـتشبيه، وهنا دخلت على جامد، والمعنى: كأنه الآن أمامى من شدة يقينى به[٤].

قوله: «بنسعة».

هى الحزام الذى يربط به الرحل[٥].

قوله: «والحجارة تنكب رجليه».

(١ - ٥) القول المفيد (٤١، ٤٢، ٤٣).

أى: يمشى والحجارة تضرب رجليه وكأنه - والله أعلم - يمشى بسرعة، ولكنه لا يحس فى تلك الحال؛ لأنه يريد أن يعتذر[1].

قوله: «وما يزيده عليه».

أى: لا يزيده على ما ذكر من توبيخ امتثالاً لأمر الله - عز وجل -، وكفى بالقول الذى أرشد الله إليه نكايةً وتوبيخاً[2].

- مسألة فى سب الصحابة رضى الله عنهم.

قال ابن تيمية[3]: «وأما سبهم سباً لايقدح فى عدالتهم ولا فى دينهم، مثل وصف بعضهم بالبخل، أو الجبن، أو قلة العلم، أو عدم الزهد ونحو ذلك؛ فهو الذى يستحق التأديب والتعزير، ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك، وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من العلماء».

وذكر أبو يعلى من الأمثلة على ذلك اتهامهم بقلة المعرفة بالسياسة.

قال الهيتمى[4]: «ثم الكلام - أى الخلاف - إنما هو فى سب بعضهم، أما سب جميعهم؛ فلا شك فى أنه كفر».

قال الذهبى فى «الكبائر»[*] فيمن سب الصحابة: فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدم الدين، ومرق من ملة الإسلام، لأن الطعن فيهم لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم وإضمار الحقد فيهم، وإنكار ماذكره الله تعالى فى كتابه من ثنائه عليهم وما لرسول ﷺ من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم، ولأنهم أرضى الوسائل من المأثور، والوسائط من المنقول، والطعن فى الوسائط طعن فى الأصل، والازدرا، بالناقل ازدراء بالمنقول؛ وهذا ظاهر لمن تدبره، وسلم من النفاق، ومن الزندقة والإلحاد فى عقيدته... ا.هـ.

قال محمد بن عبد الوهاب[5]: «ومن خص بعضهم بالسب، فإن كان ممن تواتر النقل فى فضله وكماله كالخلفاء، فإن اعتقد حقية سبه أو إباحته؛ فقد كفر لتكذيبه ما ثبت قطعاً عن رسول الله ﷺ، ومكذبه كافر، وإن سبه من غير اعتقاد حقية سبه أو إباحته؛ فقد فسق لأن سباب المسلم فسوق، وقد حكم البعض فيمن سب الشيخين بالكفر مطلقاً».

(١ - ٢) القول المفيد.

(٣) الصارم المسلول ٥٨٦ - ٥٨٧ كما فى و«الصارم المسلول» (ص ٥٧١).

(٤) الصواعق المحرقة ٣٧٩.

(*) «الكبائر» (ص٢٦١) الكبيرة السبعون»

(٥) الرد على الرافضة ١٩٠.

وقال أيضاً: «وإن كان ممن لم يتواتر النقل فى فضله وكماله؛ فالظاهر أن سابه فاسق، إلا أن يسبه من حيث صحبته لرسول الله ﷺ؛ فإنه يكفر». اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: «وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفراً قليلاً لا يبلغون بضعة عشرة نفساً، أو أنهم فسقوا عامتهم؛ فهذا لاريب أيضاً فى كفره؛ لأنه مكذب لما نصه القرآن فى غير موضع من الرضا عنهم والثناء عليهم، بل من يشك فى كفر هذا؛ فإن كفره متعين...» إلى أن قال: «وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام». اهـ.

قال ابن كثير[2]: «وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها - أى: عائشة - بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذى ذكر فى الآية؛ فإنه كافر لأنه معاند للقرآن.

وانظر القول بتكفير من قذف عائشة رضى الله عنها فى: «الشفا»[3]، «الصارم المسلول»[4]، و«تفسير ابن جرير»[5]، و«تفسير القرطبى»[6]، و«المحلى»[7].

وإليك بعض هذه النقولات عن الأئمة الأعلام:ـ

قال ابن جرير فى تفسير قوله تعالى **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**: يقول تعالى ذكره **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾** بالفاحشة **﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾** يعنى العفيفات **﴿الْغَافِلاتِ﴾** عن الفواحش **﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾** بالله ورسوله، وما جاء به من عند الله **﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾** يقول أبعدوا من رحمة الله فى الدنيا والآخرة، **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** وذلك عذاب جهنم اختلف أهل التأويل فى المحصنات اللاتى هذا حكمهن، فقال بعضهم: إنما ذلك لعائشة خاصة وحكم من الله فيها وفيمن رماها دون سائر أمه نبينا ﷺ. أ.هـ ثم قال أن هذا هو أولى الأقوال بالصواب، ـ أى أنها نزلت فى عائشة ـ والحكم بها عام فى كل من كان بالصفة التى وصفها الله بها فيها. أ.هـ.

وقال ابن حزم: قال مالك فى قوله تعالى **﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾**: فمن رماها فقد خالف القرآن ومن خالف القرآن قتل. قال أبو محمد: قول مالك ههنا

(1) القول المفيد (٣/ ٤٣)

(2) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٦.

(3) (٢/ ١٠٩ - ١١٠).

(4) (ص: ٥٦٥).

(5) (١٨/ ٨٣).

(6) (٧/ ٤٦٠١، ٤٦٠٢).

(7) (١١/ ٤١٥).

صحيح، وهى ردة تـامة وتكذيب لله تعالى فى قـطعه ببرإتها، وكذلك الـقول فى سائر أمهات المـؤمنين ولا فرق؛ لأن الله تعالـى يقول ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ فكلهن مبراءات من قول إفك، والحمد لله رب العالمين.

وقال ابن تيمـية فى «الصارم»: «فأما من سب أزواج النبـى ﷺ فقال القاضى أبو يعلى: من قذف عائـشة مما برأها الله منه كفر بلا خلاف، وقد حـكى الإجماع على هذا غير واحد، وصرح به غير واحد من الأئمة بهذا الحكم.

ثم قال: وأما من سب غير عائشة من أزواجه ﷺ ففيه قولان:

أحدهما: أنه كسبٍّ غيرهن من الصحابة.

الثانى: وهو الأصح أنه من قذف واحدة من أمهات المؤمـنين فهو كقذف عائشة رضى الله عنها ـ أ.هـ.

قلت: والقول الأول والثانى الراجح قتل من فعل هـذا، كما بين ابن تيمية بعد ذلك الموضع. والله أعلم.

وقال القرطبى: قال قوم: هى فى عـائشة وسائر ازواج النبى ﷺ. قـاله ابن عباس والضحاك وغيرهمـا ولا تنفع التوبة، ومن قذف غيرهن من المحصـنات فقد جعل الله له توبة. ا.هـ. وذكر باقى الأقوال.

وقال فى «حاشية الـقول المفيد»: وأما قذف بقية أمهات المؤمـنين؛ فالأكثرون على كفر فاعل ذلـك لأن المقذوف زوجة رسول الله ﷺ، والله تعـالى إنما غضب لهـا لأنها زوجته؛ فهى وغيرها منهن سواء، وفيه نقص وأذى لرسول الله ﷺ.

انظر: «الشفاء»(١) و«البداية والنهاية»(٢)، و«الصواعق المحرقة»(٣) و«المحلى»(٤).اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٥): وفى هذا الحديث من الفوائد:

أن الإنسان قد يـكفر بكلمـة يتكلم بها أو عـمل يعمل به، وأشـدها، خطراً إرادات القلوب فهى كالبحر الذى لاساحل له.

ويفيد الخوف من النفاق الأكبر، فإن الله تعالـى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبى مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، نسأل الله السلامة والعفو والعافية فى الدنيا والآخرة. اهـ.

(١) (٢/ ١١٣).
(٢) (٨/ ٩٥).
(٣) (ص: ٣٨٧).
(٤) (٨/ ٩٥).
(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٦٩.

فيه مسائل

الأولى: وَهِيَ العَظِيمَةُ؛ أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذَا إنه كَافِرٌ.

الثانية: أَنَّ هَذَا تَفْسِيرُ الآيَةِ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كائنًا مَنْ كَانَ.

الثالثة: الفَرْقُ بَيْنَ النَّمِيمَةِ والنَّصِيحَةِ لله ولِرَسُولِه.

الرابعة: الفَرْقُ بَيْنَ العَفْوِ الَّذِي يُحِبهُ اللهُ وَبَيْنَ الغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ الله.

قال ابن عثيمين:

قوله فيه مسائل:

- **الأولى - وهى العظيمة -: أن من هزل بهذا كافر.**

المشار إليه: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ ﴾.

- **الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.**

أى: سواء كان منافقاً أو غير منافق ثم استهزأ؛ فإنه يكفر كائناً من كان.

- **الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله.**

النميمة: من نَمَّ الحديث؛ أى: نقله ونسبه إلى غيره، وهى نقل كلام الغير للغير بقصد الإفساد، وهى من أكبر الذنوب، قال ﷺ: **«لايدخل الجنة نمام»**[(١)]، وأخبر عن رجل يعذب فى قبره؛ لأنه كان يمشى بالنميمة[(٢)]، وأما النصيحة لله ورسوله؛ فلا يقصد بها ذلك، وإنما يقصد بها احترام شعائر الله - عز وجل - وإقامة حدوده وحفظ شريعته، وعوف بن مالك نقل كلام هذا الرجل لأجل أن يقام عليه الحد أو ما يجب أن يقام عليه وليس قصده مجرد النميمة.

ومن ذلك لو أن رجلاً اعتمد على شخص ووثق به، وهذا الشخص يكشف سره ويستهزىء به فى المجالس، فإنك إذا أخبرت هذا الرجل بذلك؛ فليس هذا من النميمة، بل من النصيحة.

- **الرابعة: الفرق بين العفو الذى يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.**

العفو الذى يحبه الله: هو الذى فيه إصلاح؛ لأن الله اشترط ذلك فى العفو فقال:

---

(١) [صحيح] أخرجه: البخارى (٦٠٥٦)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ١١٢ ـ النووى) عن حذيفة به. وانظر «رياض الصالحين» (١٥٣٩ ـ بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أى: كأن عفوه مشتملاً على الإصلاح، وقال بعضهم: أى أصلح الود بينه وبين من أساء إليه، وهذا تفسير قاصر، والصواب أن المراد به أصلح فى عفوه؛ أى: كان فى عفوه إصلاح.

فمن كان عفوه إفساداً لا إصلاحاً؛ فإنه آثم بهذا العفو، ووجه ذلك من الآية ظاهر؛ لأن الله قال: ﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، ولأن العفو إحسان والفساد إساءة، ودفع الإساءة أولى، بل العفو حينئذ محرم.

والنبى ﷺ غَلَّظ على هذا الرجل لكونه ﷺ لم يلتفت إليه، ولا يزيد على هذا الكلام الذى أمره الله به مع أن الحجارة تَنْكُب رجل الرجل، ولم يرحمه النبى ﷺ ولم يرق له، ولكل مقام مقال؛ فينبغى أن يكون الإنسان شديداً فى موضع الشدة، قال تعالى فى وصف الرسول ﷺ وأصحابه: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، ذكرها الله فى سورتين من القرآن مما يدل على أنها من أهم ما يكون، لكن استعمال اللين أحياناً للدعوة والتأليف قد يكون مستحسناً.

● **الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغى أن يقبل.**

فالأصل فى الاعتذار أن يقبل لا سيما إذا كان المعتذر محسناً، لكن حصلت منه هفوة، فإن علم أنه اعتذار باطل؛ فإنه لايقبل.

قلت: جاء الاعتذار على انحاء منها:

(١) نهى الإنسان عن ما يوجب الاعتذار قال ﷺ: «... وإياك وما يعتذر منه».

(٢) فإذا فعل ما يوجب العذر مع إحسانه يقبل عذره ويُوبخ من لم يقبل عذره لما ثبت فى الصحيح بين أبى بكر وعمر وإسراع أبى بكر فيه بكلمة وعدم قبول عمر لاعتذار أبى بكر فوبخ النبى عمر[(١)] ولقوله ﷺ: **«اقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم»**[(٢)] لحديث المرأة المخزومية التى سرقت[(٣)] وللحديث المتقدم **«اقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا فى الحدود»** ولما كان ما وقع فيه المنافقون من استهزاء حد من الحدود ولم يقبل عذرهم والله تعالى أعلم.



(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦٦١) عن أبى الدرداء به.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ١٨١)، وأبو داود، والنسائى فى «الكبرى» (٧٢٩٣) عن عائشة به.

(٣) تقدم تخريجه.

٤٨ باب قول الله تعالى

﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي﴾(١)

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وأَنَا مَحْقُوقٌ بِه(٢).

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ «يرِيدُ: مِنْ عِنْدِي»

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾(٣).

قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِب».

وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ الله أَنِّي لَهُ أَهلٌ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَف».

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال الفقير: مناسبة هذا الباب لما قبله أن كلاهما قدح فى الربوبية وإنكار لنعم الله.

● **ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد.**

قال حامد بن محمد(٤): باب ماجاء فى بيان أن من أنواع كفر النعمة نسبة ما أنعم الله عليه إلى نفسه. اهـ.

قال السعدى(٥): مقصود هذه الترجمة أن كل من زعم أنما أوتيه من النعم والرزق فهو بكده وحذقه وفطنته، أوأنه مستحق لذلك لما يظن له على الله من الحق، فإن هذامناف للتوحيد لأن المؤمن حقاً من يعرف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويثنى على الله بها، ويضيفها إلى فضله وإحسانه، ويستعين بها على طاعته، ولا يرى له حقاً على الله، وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه، فبهذا يتحقق الإيمان والتوحيد، وبضده يتحقق كفران النعم. والعجب بالنفس والإدلال الذى هومن أعظم العيوب. اهـ.

---

(١) فصلت: ٥٠.

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٥/ ٣) قال: حدثنى محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم قال: ثنا عيسى. وحدثنى الحرث قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء. جميعاً عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد. فذكره. وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٩٧) بتخريجنا.

(٣) القصص: ٧٨.

(٤) فتح الله الحميد المجيد ٤١٢

(٥) القول السديد ١١٥، ١١٦.

قال ابن باز (١): هذا الباب عده المؤلف لبيان ما غلب على النفوس من إنكارها النعم وجحدها وكفرانها وعدم الإعتراف بها لمعطيها سبحانه وتعالى.اهـ.

قال ابن عثيمين (٢): مناسبة الباب لـ «كتاب التوحيد»: أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه؛ ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلى الله لكنه زعم أنه مستحق لذلك وأن ما أعطاه الله ليس محض تفضل، لكن لأنه أهل؛ ففيه نوع من التعلي والترفع في جانب العبودية. وقد ذكر الشيخ فيه آيتين.

[قوله: ﴿ ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾] الآية.

● **مناسبة الآية لكتاب التوحيد:**

قال عبدالله بن جار الله(٣): مناسبة الآية لكتاب التوحيد أن تقييد نعم الله بشكره والثناء عليه بها من كمال التوحيد وأن إنكار النعم وجحودها من الكفر الذي ينافي كمال التوحيد. ا.هـ.

● **مناسبة الآية للباب:**

قال القرعاوي(٤): حيث دلت الآية على أن نسبة النعم إلى غير الله كفر بها وأن ذلك إشراك في الربوبية. ا.هـ.

قوله: ﴿ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

● **الإعراب** (٥): **﴿ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾** الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية وأذقناه فعل ماضي وفاعل ومفعول به والجملة في محل جزم فعل الشرط ورحمة مفعول به ثاني ومن بعد نعت لرحمة أومتعلقان بأذقناه وضراء مضاف إليه وجر بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف لألف التأنيث الممدودة واللام جواب القسم وجواب الشرط محذوف لسد جواب القسم مسده على القاعدة المشهورة وهذا مبتدأ ولي خبر واللام للاستحقاق أي أستحقه بعملي.اهـ.

● **التفسير بالقرآن:**

وكما قال تعالى مخبراً عن قارون: **﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**

(١) التعليق المفيد ٢٢٩.
(٢) القول المفيد ٣/ ٤٨
(٣) الجامع الفريد ١٧٨
(٤) الجديد ٣٩٤.
(٥) إعراب القرآن ٩/ ٦.

عندى أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

● **التفسير بالمأثور:**

روى ابن جرير بسنده عن مجاهد « لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي » : أى بعملى وأنا محقوق بهذا[1].

وذكر بن الجوزى عن ابن عباس: يريد من عندى.

● **أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[2]: يقول تعالى ذكره ولئن نحن كشفنا عن هذا الكافر ما أصابه من سقم فى نفسه وضر وشدة فى معيشته وجهد (رحمة منا) فوهبنا له العافية فى نفسه بعد السقم ورزقناه مالا فوسعنا عليه فى معيشته من بعد الجهد والضر ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ عند الله لأن الله راض عنى برضاه عملى وما أنا عليه مقيم. ا.هـ.

قال الرازى[3]: بين تعالى أن هذا الذى صار آيساً قانطاً لو عاودته النعمة والدولة، وهو المراد من قوله ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ فإن هذا الرجل يأتى بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة والمذاهب الباطلة الموجبة للكفر والبعد عن الله تعالى «فأولها» أنه لابد وأن يقول هذا لى وفيه وجهان:

«الأول» معناه أن هذا حقى وصل إلى، لأنى استوجبته بما حصل عندى من أنواع الفضائل وأعمال البر والقربة من الله ولايعلم المسكين أن أحداً لايستحق على الله شيئاً. وذلك لأنه إن كان ذلك الشخص عارياً عن الفضائل فهذا الكلام ظاهر الفساد وإن كان موصوفاً بشىء من الفضائل والصفات الحميدة، فهى بأسرها إنما حصلت له بفضل الله وإحسانه، وإذا تفضل الله بشىء على بعض عبيده، امتنع أن يصير تفضله عليك بتلك العطية سبباً لأن يستحق على الله شيئاً آخر. فثبت بهذا فساد قوله إنما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاقى.

«والوجه الثانى» أن هذا لى أى لايزول عنى ويبقى على وعلى أولادى وذريتى. اهـ.

قال القرطبى[4]: قوله تعالى :﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ عافية ورخاء وغنى من بعد

(1) تقدم تخريجه.
(2) تفسير الطبرى ١١/ ٢٥/ ٣
(3) التفسير الكبير ١٤/ ٢٧/ ١٣٨.
(4) تفسير القرطبى ٨/ ٥٨١٧

ضراء مستة أى ضر وسقم وشدة وفقر. ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أى هذا شىء أستحقه على الله لرضاه بعملى؛ فيرى النعمة حتما واجباً على الله - تعالى . .و لم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة. ليتبين شكره وصبره. اهـ.

قال ابن كثير(١): رحمه الله فى معنى قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ يخبر أن الإنسان فى حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه، ثم إذاخوله نعمة منه تعالى طغى وبغى وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى لما يعلم من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله حظيظ لما خولنى هذا . قال تعالى : ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى ليس الأمر كما زعمتم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة، لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك. ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى اختبار ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون مايدعون ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى فما صح قولهم،ولانفعهم جمعهم وماكانوا يكسبون، كما قال تعالى مخبراً عن قارون ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾وقال تعالى﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. اهـ.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين(٢)**: قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾.**

الضمير يعود على الإنسان، والمراد به الجنس. وقيل : المراد به الكافر.

والظاهر أن المراد به الجنس؛ إلا أنه يمنع من هذه الحال الإيمان، فلا يقول ذلك المؤمن، قال تعالى فى أول الاية: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ١٠١.

(٢) القول المفيد ٣/٤٨، ٤٩

وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾، هذه حال الإنسان من حيث هو إنسان، لكن الإيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة.

قوله: ﴿مِنَّا﴾.

أضافه الله إليه؛ لوضوح كونها من الله، ولتمام منته بها.

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾.

أى: أنه لم يذق الرحمة من أول أمره، بل أصيب بضراء؛ كالفقر وفقد الأولاد وغير ذلك، ثم أذاقه بعد ذلك الرحمة حتى يحس بها وتكون لذتها والسرور بها أعظم مثل الذائق للطعام بعد الجوع.

قوله: ﴿مَسَّتْهُ﴾

أى: أصابته وأثرت فيه.

قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

هذا كفر بنعمة الله وإعجاب بالنفس، واللام فى قوله ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ واقعة فى جواب القسم المقدر قبل اللام فى قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾. اهـ.

ولم يزد باقى الشراح على أقوال المفسرين إلا بنحوهم.

قوله ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

الإعراب(١): الواو عاطفة ومانافيه وأظن فعل مضارع والفاعل مستتر والساعة مفعول واظن الأول وقائمة مفعولها الثانى والواو عاطفه واللام موطنه للقسم وإن شرطيه ورجعت فى محل جزم فعل الشرط وإلى ربى متعلقان برجعت وإن وما فى حيزها جواب القسم ولى خبر إن وعنده حال واللام المزحلقه والحسنى إن وجملة إن لى عنده للحسنى لامحل لها لأنها جواب القسم لسبقه الشرط ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ الفاء الفصيحه لأنها جواب لقول الكافر ولئن رجعت واللام موطئه للقسم ونبئن فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والذين

(١) إعراب القرآن ٩/٦.

مفعول به وجملة كفروا صلة وبما فى محل نصب مفعول ثان لننبئن و«ما» يحتمل أن تكون موصولة أومصدرية ولنذيقنهم عطف على فلننبئن ومن عذاب فى موضع المفعول الثانى وغليظ نعت.

● **التفسير من القرآن:**

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الرازى(١): **والنوع الثانى**: من كلماتهم الفاسدة أن يقول ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ يعنى أن يكون شديد الرغبة فى الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة فإذا آل الأمر إلى أحوال الدنيا يقول (إنها لى) وإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾.

النوع الثالث: من كلماتهم الفاسدة أن يقول ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يعنى أن الغالب على الظن أن القول بالبعث والقيامة باطل، وبتقدير أن يكون حقاً، فإن لى عنده للحسنى، وهذه الكلمة تدل على جزمهم بوصولهم إلى الثواب من وجوه:

(الأول) أن كلمة إن تفيد التوكيد.

(الثانى) أن تقدير كلمه لى تدل على هذا التأكيد.

(الثالث) قوله (عنده) يدل على أن تلك الخيرات حاضرة مهيئة عنده كما تقول لى عند فلان كذا من الدنانير، فإن هذا يفيد كونها حاضرة عنده، فلو قلت إن لى عند فلان كذا من الدنانير لا يفيد ذلك.

(والرابع) اللام فى قوله (للحسنى) تفيد التأكيد.

(الخامس) للحسنى يفيد الكمال فى الحسن.

قال القرطبى(٢): ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أى الجنة واللام للتأكيد. يتمنى الأمانى بلا عمل.. قال الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب: للكافر أمنيتان أما فى الدنيا فيقول ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ

(١) التفسير الكبير ١٤/٢٧/١٣٨، ١٣٩. (٢) تفسير القرطبى ٨/٥٨١٧

﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ وأما فى الآخرة فيقول : ﴿ يا ليتنا نُردُّ ولا نُكذِّبَ بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين﴾و﴿يا ليتني كنت ترابا﴾﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذين كفروا بما عملوا﴾ أى لنجزينهم. قسم أقسم الله عليه. ﴿ولَنُذيقَنَّهُم مِّنْ عذاب غليظ﴾ شديد.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين[1]: قوله ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾.

بعد أن انغمس فى الدنيا نسى الآخرة، بخلاف المؤمن إذا أصابته الضراء لجأ إلى الله، ثم كشفها ، ثم وجد بعد ذلك لذة وسروراً يشكر الله على ذلك، أما هذا فقد نسى الآخرة وكفر بها.

قوله : ﴿ولَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّى إِنَّ لِى عندهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾

(إن) : شرطية وتأتى فيما يمكن وقوعه وفيما لايمكن وقوعه؛ كقوله تعالى : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، والمعنى : على فرض أن أرجع إلى الله إن لى عنده للحسنى.

والحسنى : اسم تفضيل؛ أى : الذى هو أحسن من هذا، واللام للتوكيد.اهـ.

ولم يزد شراح كتاب التوحيد إلا بنحو ما تقدم.

قوله :﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذين كفروا بما عملوا ولَنُذيقَنَّهُم مِّنْ عذاب غليظ﴾.

● **أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[2]: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذين كفروا بما عملوا﴾ يقول تعالى ذكره فلنخبر هؤلاء الكفار بالله المتمنين عليه الأباطيل يوم يرجعون إليه بماعملوا فى الدنيا من المعاصى واجترحوا من السيئات ثم لنجازين جميعهم على ذلك جزاءهم ولنذيقنهم من عذاب غليظ. وذلك العذاب تخليدهم فى نار جهنم لايموتون فيها ولايحيون.

وذكر المفسرون وشراح الكتاب بنحو هذا.

قوله :﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾

قال ابن عثيمين [3]: فى القرآن آيتان : آية قال الله فيها: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ

(١) القول المفيد ٣/ ٤٩، ٥٠.
(٢) تفسير الطبرى ١١/ ٢٥
(٣) القول المفيد ٣/ ٥٠ ـ ٥٢.

هي فتنةٌ ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمونَ﴾، والثانية : ﴿إنَّما أُوتيتُه علَىٰ علْمٍ عندي﴾، والظاهر من تفسير المؤلف أنه يريد الآية الثانية .

قوله ﴿علَىٰ علْمٍ﴾.

في معناه أقوال:

الأول: قال قتادة :على علم مني بوجوه المكاسب، فيكون العلم عائداً على الإنسان؛ أي : إنني عالم بوجوه المكاسب ولافضل لأحد على فيما أوتيته،وإنما الفضل لي، وعليه يكون هذا كفراً بنعمة الله وإعجاباً بالنفس.

الثاني: قال آخرون : على علم من الله أني له أهل؛ فيكون بذلك مدلاً على الله، وأنه أهل ومستحق لأن ينعم الله عليه، والعلم هنا عائد على الله؛

أي : أوتيت هذا الشيء على علم من الله أني مستحق له وأهل له.

الثالث: قول مجاهد :«أوتيته على شرف»، وهو من معنى القول الثاني، فصارمعنى الآية يدور على وجهين:

الوجه الأول : أن هذا إنكار أن يكون ما أصابه من النعمة من فضل الله، بل زعم أنها من كسب يده وعلمه ومهارته.

الوجه الثاني: أنه أنكر أن يكون لله الفضل عليه، وكأنه هو الذي له الفضل على الله؛ لأن الله أعطاه ذلك لكونه أهلا لهذه النعمة.

فيكون على كلا الأمرين غير شاكر لله ـ عزوجل ـ والحقيقة أن كل ما نؤتاه من النعم فهو من الله؛ فهو الذي يسرها حتى حصلنا عليها، بل كل مانحصل عليه من علم أو قدرة أو إرادة فمن الله؛ فالواجب علينا أن نضيف هذه النعم إلى الله سبحانه، قال تعالى : ﴿ومَا بكُم مّن نّعْمةٍ فمنَ اللّه﴾، حتى ولوحصلت لك هذه النعمة بعلمك أومهارتك؛ فالذي أعطاك هذا العلم أوالمهارة هو الله ـ عزوجل ـ، ثم إن المهارة أو العلم قد لايكون سبباً لحصول الرزق؛ فكم من إنسان عالم أوماهر حاذق ومع ذلك لايوفق بل يكون عاطلاً؟!

وشكر النعمة له ثلاثة أركان:

١ـ الاعتراف بها في القلب.

٢ـ الثناء على الله باللسان.

٣ـ العمل بالجوارح بما يرضى المنعم.

فمن كان عنده شعور في داخل نفسه أنه هو السبب لمهارته وجودته وحذقه؛ فهذا لم

وعَنْ أَبِى هُـرَيرَةَ أَنَّه سَمـعَ رَسُولُ الله ﷺ يقَول: «إنَّ ثَلاثَـةً منْ بَنى إسْـرائيلَ: أَبْرَصَ وأَقْرَعَ وأَعْـمَى، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلـيَهُمْ،فَبَعَثَ إلـيهم مَلَكاً : فَـأَتَى الأبْرَصَ فَقَالَ: أَىُّ شَىء أَحَـبُّ إلَيْكَ؟ قَالَ : لَونٌ حَسَـنٌ وَجلْدٌ حَسَنٌ ويَذْهَـبُ عَنِّى الَّذِى قَدْ قَذِرَنى النَّاسُ به». قَالَ «فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَـنَهُ قَذَرُهُ، فَأَعْطِى لَوْناً حَسَناً وَجلداً حَسَناً. قَالَ : فأَىُّ المَال أَحَبُّ إلَيكَ؟ قَالَ : الإبِـلُ أَو البَقَرُ (شَكَّ إسْحَاقُ). فأَعْطَى نَاقَةً عشْرَاءَ، وقَالَ : بَارَكَ اللهُ لَكَ فيهَا ». قَالَ :«فأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَىُّ شَىْء أَحَبُّ إلَيـكَ؟ قَالَ شَعَـر حَسَنٌ، ويَـذْهَـبُ عَنِّى الـذى قَد قَذِرَنـى النَّاسُ بـه. فَمَسَـحَه فَذَهَبَ عَنْهُ، وأَعطَى شَعْراً حَسَناً. فَقَال أَىُّ المَال أَحَبُّ إلَيكَ ؟ قَالَ البَقَرُ أَو الإبلُ. فَأُعطَى بقَرَةً حَاملاً، قَالَ ؛ بَارَكَ اللهُ لَكَ فيهَا.

فأَتى الأَعْمَـى، فقَالَ : أَىُّ شَىْء أَحَبُّ إلَيـكَ؟ قَالَ: يَرُدُّ اللهُ إلَىَّ بَصرى فَـأُبْصر به النَّاسَ. فَمَسَـحهُ فَرَدَّ اللهُ إلَيْه بَصَرَهُ. قَالَ فَأَىُّ المَال أَحَبُّ إلَـيكَ؟ قَالَ : الغَنَمُ. فَأُعْطَى شَاةً وَالداً. فأُنْتجَ هَذَان وَوَلَّدَ هَـذاَ ، فَكَانَ لهَذَا وَادٍ منَ البَقَرِ، وَلهَذَا وَادٍ منَ الغَنَم».

قَالَ : «ثُمَّ إنَّـهُ أَتَى الأبرَصَ فى صُـورَته وَهَيْئَته، فقَالَ : رَجُـلٌ مسْكيـنٌ وَابنُ سَبِيل قَد انـقَطَعَت بى الحبَالُ فـى سَفَرِى؛ فَـلا بَلاغَ لىَ الـيَومَ إلاَّ باللهِ ثُـمَّ بكَ، أَسأَلُـكَ بالذى أَعطَـاكَ اللَّونَ الحَسَـنَ وَالجلْدَ الحَسَـنَ وَالمَالَ؛ بَعيـراً أَتَبلَّغُ بـه فِى

يشكر النـعمة، وكذلك لو أضاف النعمـة بلسانه إلى غير الله أو عمل بمـعصية الله فى جوارحه، فليس بشاكر لله تعالى.

وتقدم كلام الرازى.



قولـه [وعن أبـى هريـرة أنه مـسمع رسـول الله ﷺ يقـول: «إى ثلاثـة من بـنى إسرائيل. . الحديث]

مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جار الله[1]:أن فيه وعيد لمن أنكر نعم الله وإضافها إلى غيره. اهـ.

(١) الجامع الفريد ١٧٩

سَفَرِى. فَـقَالَ : الحُقُوقُ كَثِيـرَةٌ فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّـى أعرفُكَ! أَلَم تَكُن أَبْـرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقيراً، فـأَعْطَاكَ اللهُ عزَّ وَجلَّ المَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّما وَرِثْـتُ هَذَا المَالَ كَابراً عَنْ كَابرٍ . فَقَالَ : إن كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّـرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ». قَالَ : «ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَقْرَعَ فِى صُورَتِه، فَقَـالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَـلَيه مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيـه هَذَا، فَقَالَ : إِنْ كُنتَ كَاذِباً ؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كَنتَ» قَالَ : «وأَتَى الأَعْمى فـى صُورَتِه فَقَالَ : رَجُلٌ مسكينٌ وابْنُ سَـبيلٍ قَد انقَطَعَتْ بىَ الحِبَالُ فِى سَـفَرِى؛ فَلاَ بَلاَ غَ لِى اليَومَ إلا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسأَلُكَ بِالذى رَدَّ عَلَيكَ بَصَـرَكَ؛ شَاةٌ »أَتبَلَّغُ بِهَا فِى سَفَرِى. قَالَ : كُنْتُ أَعْـمًى فَرَدَّ اللهُ إِلَىَّ بَصَـرِى، فَخُذْ مَا شِئْـتَ. فَوَاللهِ؛ لاَ أَجْهدُكَ اليَـومَ بِشَىء أَخَذْتَهُ لله. فَقَالَ : أَمْسكْ مَالَكَ ؛ فَإِنَّما ابْتُلِيتُم؛ فَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيكَ»(١). أَخْرَجَاهُ.

قال القرعاوى(٢):حيث دل الحديث على أن نسبة النعم إلى غير الله كفر بها اهـ.

● **مناسبة الحديث للتوحيد:**

قال القروعاى(٣):حيث حرّم الحديث نسبة الـنعم إلى غير الله لأن ذلك إشراك مع الله فى الربوبية ا. هـ.

قوله : «وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن ثلاثة من بنى إسرائيل».

قال ابن عثيمين(٤):جميع القصص الواردة فى القرآن وصـحيح السنة ليس المقصود منهـا مجرد الخبـر، بل يقصد مـنها العـبرة والعظـة مع ما تكسـب النفس مـن الراحة والسرور، قال الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ** ﴾ .

قوله : «من بنى إسرائيل» .

فى محل نـصب نعت لـ «ثلاثـة»، وبنوا إسرائيل هـم ذرية يعقوب بن إسـحاق بن إبراهيم .

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فـى أحاديث الأنبياء. باب أبرص وأقرع فى بـنى إسرائيل (٦/ ٥٧٨) ح ٣٤٦٤ ـ الفتح ومسلم فى «الزهد» (٦/ ١٨/ ٩٧ ـالنووى) والبيهقى فى «الشعب» (٣/ ٢٢٨/ح ٣٤٠٢) جميعاً من طريق : إسحاق بن عبدالله عن عبدالرحمن عن أبى عمرة عن ابى هريرة .
وانظر رياض الصالحين «.(ح٦٦) بتخريجنا . وانظر «فتح المجيد» (ح٧٩٨) بتخريجنا .
(٢-٣) الجديد ٣٩٨. (٤) القول المفيد ٣/ ٥٣ .

قوله: «أبرص»

قال ابن عثيمين[1]: أي: في جلده برص، والبرص داء معروف، وهو من الأمراض المستعصية التى لايمكن علاجها بالكلية، وربما توصلوا أخيراً إلى عدم انتشارها وتوسعها في الجلد، لكن رفعها لايمكن، ولهذا جعلها الله آية لعيسى، قال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾

قوله: «أقرع».

من ليس على رأسه شعر.

قوله: «أعمى»

من فقد البصر. اهـ.

قوله: «فأراد الله»

قال ابن عثيمين[2]: **قوله: «فأراد الله» وفى بعض النسخ: «أراد الله».**

فعلى إثبات الفاء يكون خبر (إن) محذوفاً دل عليه السياق تقديره: إن ثلاثة من بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أنعم الله عليهم فأراد الله أن يبتليهم.

ولا يمكن أن يكون «أبرص وأقرع وأعمى» خبراً؛ لأنها بدل. وعلى حذف الفاء يكون الخبر جملة: «أراد الله»، والإرادة هنا كونية.

قلت: فلا بد أن تقع ولايحول بينها وبين الوقوع حائل.

قلت: وفى رواية البخارى بلفظ «بدا لله»

قال ابن حجر[3]: **قوله «بدا لله»**

بتخفيف الدال المهملة بغير همز أى سبق فى علم الله فأراد إظهاره، وليس المراد أنه ظهر له بعد أن كان خافياً لأن ذلك محال فى حق الله تعالى، وقد أخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ عن همام بهذا الإسناد بلفظ **«أراد الله أن يبتليهم»** فلعل التغيير فيه من الرواة، مع أن فى الرواية أيضاً نظراً لأنه لم يزل مريداً والمعنى أظهر الله ذلك فيهم. وقيل: معنى أراد قضى. وقال صاحب (المطالع) اضبطناه على متقنى شيوخنا بالهمز أى ابتدأ الله أن يبتليهم، قال: رواه كثيرمن الشيوخ بغير همز وهو خطأ انتهى. وسبق إلى

---

(1) القول المفيد ٣/ ٥٣.

(2) القول المفيد ٣/ ٥٣، ٥٤.

(3) الفتح ٦/ ٥٧٩

التخطئة أيضاً الخطابى، وليس كما قال لأنه موجه كما ترى، وأولى ما يحمل عليه أن المراد قضى الله أن يبتليهم، وأما البدء الذى يراد به تغير الأمر عما كان عليه فلا. اهـ.

قوله:« أن يبتليهم».

قال ابن عثيمين[1]:قوله : «يبتليهم».

أى يختبرهم؛ كما قال الله تعالى﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾ وقال تعالى: ﴿ **هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾.

قوله: «فبعث إليهم ملكاً»

قال ابن عثيمين[2]:قوله «ملكاً»

أحد الملائكة: هم عالم غيبى خلقهم الله من نور وجعلهم قائمين بطاعة الله، لا يأكلون، ولايشربون، يسبحون الليل والنهار لايفترون، لهم أشكال وأعمال ووظائف مذكورة فى الكتاب والسنة، ويجب الإيمان بهم، وهو أحد أركان الإيمان الستة.

قال أهل اللغة: وأصل الـ(ملك)مأخوذ من الألوكة، وهى الرسالة، وعلى هذا يكون أصله مألك؛فصار فيه إعلال قلبى، فصار ملأك، ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام الساكنة وحذفت الهمزة تخفيفاً، فصار ملك، ولهذا فى الجمع تأتى الهمزة: ملائكة. اهـ.

قوله:«فأتى الأبرص . فقال : أى شىء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عنى الذى قذرنى الناس به».

قال ابن عثيمين[3]:قوله:«ويذهب»

يجوز فيه الرفع والنصب، والرفع أولى. اهـ.

قال ابن حجر[4]: قوله :«قذرنى الناس».

بفتح القاف والذال المعجمة المكسورة أى : إشمأزوا من رؤيتى. وفى رواية حكاها الكرمانى «**قذرونى الناس**» وهى على لغة أكلونى البراغيث. اهـ.

قال ابن عثيمين[4]:قوله: «قذرنى»

(١) القول المفيد ٣/ ٥٤.

(٢) القول المفيد ٣/ ٥٤

(٣) القول المفيد ٣/ ٥٤/ ٥٥

(٤)الفتح ٦/ ٥٧٩.

(٥) القول المفيد ٣/ ٥٥

أي : استقذرني وكرهوا مخالطتي من أجله.

وقوله :«به».

الباء للسببية؛ أي : بسببه.

قوله: «قال : فمسحه»

قال ابن حجر(١): قوله « فمسحه» أي مسح على جسمه.اهـ.

قال ابن عثيمين(٢):قوله« فمسحه».

ليتبين أن لكل شيء سبباً، وبرىء بإذن الله ـ عزوجل.اهـ.

قوله :«فذهب عنه قذره».

قال ابن عثيمين(٣): بدأ بذهاب القذر قبل اللون الحسن والجلد الحسن؛ لأنه يبدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب، كما يقال: التخلية قبل التحلية.

قوله: «فأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً. قال : فأيُّ المال أحبُّ إليك».اهـ.

قال ابن حجر(٤):قوله : «فقال وأى المال» فى رواية الكشمهينى بحذف الواو.اهـ.

قوله :«قال: الإبل أو البقر (شك إسحاق)» .

قال ابن حجر(٥):وقع عند مسلم عن شيبان بن فروخ عن همام التصريح بأن الذى شك فى ذلك هو إسحاق بن عبدالله بن أبى طلحة راوى الحديث.اهـ.

قوله : «فأعطى ناقة عشراء»

قال ابن حجر(٦): أى الذى تمنى الإبل، والعشراء بضم العين المهملة وفتح الشين المعجمة هى الحامل التى أتى عليها فى حملها عشرة أشهر من يوم طرقها الفحل، وقيل يقال لها ذلك إلى أن تلد وبعدما تضع، وهى من أنفس المال.اهـ.

قال ابن عثيمين(٧): ولعلها كانت قريبة من الملك فأعطاه إياها.اهـ.

قوله:«وقال : بارك الله لك فيها»

وفى رواية للبخارى **«يبارك لك فيها»**.

قال ابن حجر(٦): قوله «يبارك لك فيها» كذا وقع يبارك بضم أوله. وفى رواية شيبان **«بارك الله»** بلفظ الفعل الماضى وإبراز الفاعل .

(١) الفتح ٦/ ٥٧٩.
(٢) القول المفيد ٣/ ٥٥.
(٣) القول المفيد ٣/ ٥٥.
(٤) الفتح ٦/ ٥٧٩.
(٥) الفتح ٦/ ٥٨٠.
(٦) الفتح ٦/ ٥٨٠.
(٧) القول المفيد ٣/ ٥٥/ ٥٦.
(٨) الفتح ٦/ ٥٨٠.

قال ابن عثيمين [(١)]: يحتمل أن لفظه لفظ الخبر ومعناه الدعاء، وهو الأقرب؛ لأنه أسلم من التقدير، ويحتمل أنه خبر محض، كأنه قال: هذه ناقة عشراء مبارك لك فيها ويكون المعنى على تقدير (قد)؛ أي : قد بارك الله لك فيها . اهـ.

قوله : قال : فأتى الأقرع».

وهو الرجل الثاني في الحديث [(٢)]:

قوله : «فقال : أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن».

ولم يكتف بمجرد الشعر، بل طلب شعراً حسناً[(٣)] اهـ.

قوله :«فمسحه، فذهب عنه قذره، وأعطى شعراًحسناً، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال البقر أو الإبل . فأعطى بقرة حاملاً؛ قال : بارك الله لك فيها».

قال ابن عثيمين[(٤)]:**قوله : «فذهب عنه قذره».**

يقال في تقديم ذهاب القذر ماسبق، وهذه نعمة من الله عزوجل أن يستجاب للإنسان. اهـ.

قوله: «فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يُرد الله إلى بصرى».

هذا هو الرجل الثالث في هذه القصة[(٥)]. اهـ.

قلت: لم يطلب ذلك من الملك ولا من غيره كما يفهم من سياق كلام صاحبيه ولكن طلب ذلك من الله وهذا يدلك على النتيجة من بداية الاختبار.

قوله : «فأبصر به الناس».

قال ابن عثيمين[(٦)]: لم يطلب بصراً حسناً كما طلبه صاحباه،وإنما طلب بصراً يبصر به الناس فقط مما يدل على قناعته بالكفاية. اهـ.

قوله :«فمسحه».

قال ابن حجر [(٧)]: أي على عينية. اهـ.

قوله :«فرد الله إليه بصره».

قال ابن عثمين[(٨)]: الظاهر أن بصره الذى كان معه من قبل هو ما يبصر به الناس فقط . اهـ.

---

(١) القول المفيد ٣/ ٥٦.
(٢) القو ل المفيد ٣/ ٥٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٥٦/ ٥٧.
(٥) القول المفيد ٣/ ٧٥.
(٦) القول المفيد ٣/ ٥٧.
(٧) الفتح ٦/ ٥٨٠.
(٨) القول المفيد ٣/ ٥٧

قوله «قال : فأى المال أحب إليك؟ قال : الغنم»

قال ابن عثيمين (1):قوله : قال: الغنم»

هذا يدل على زهده كما يدل على أنه صاحب سكينة وتواضع؛ لأن السكينة فى أصحاب الغنم. اهـ.

قلت: ولأن النبى ﷺ بين أنها بركة وأذن فى الصلاة فى مرابضها بخلاف الإبل قال إن له أوابد كأوابد الشياطين ولم ياذن فى الصلاة فى معاطنها وأمر بالوضوء من لحمها(*).

قوله: (فأعطى شاة والداً)

قال ابن حجر(2): أى ذات ولد ويقال حامل.

قال ابن عثيمين(3):قوله «شاة والداً».

قيل : إن المعنى قريبة الولادة، ويؤيده أن صاحبيه أعطيا أنثى حاملاً، ولما يأتى من قوله : «**فأنتج هذان وولد هذا**»، والشىء قد يسمى بالاسم القريب؛ فقد يعبر عن الشىء حاصلاً وهو لم يحصل، لكنه قريب الحصول. اهـ.

قوله : «فانتج هذان»

قال ابن حجر(4):أى صاحب الإبل والبقر. . وأنتج فى مثل هذا شاذ والمشهور فى اللغة نتجت الناقة بضم النون ونتج الرجل الناقة أى حمل عليها الفعل، وقد سمع أنتجت الفرس إذا ولدت فهى نتوج. اهـ.

قوله:«وولد هذا»

قال ابن حجر(5):أى صاحب الشاه. اهـ.

قال ابن عثيمين(6):قوله :«وولد هذا».

أى : صار لشاته أولاد، قالوا : والمنتج من أنتج، والناتج من نتج، والمولد من

---

(1) القول المفيد ٣/ ٥٧.

(*) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٩٧)، وأبو داود (١٨٤)، والترمذى (٨١)، وابن ماجه (٤٩٤) عن البراء بن عازب به.

وانظر «السلسبيل» (١٤٥ ـ بتخريجنا).

(2) الفتح ٦/ ٥٨٠.

(3) القول المفيد ٣/ ٥٧، ٥٨.

(4) الفتح ٦/ ٥٨٠.

(5) الفتح ٦/ ٥٨٠.

(6) القول المفيد ٣/ ٥٨.

ولد، ومن تولى توليد النساء يقال له : القابلة، ومن تولى توليد غير النساء يقال له: منتج أوناتج أو مولد. اهـ.

قوله: «فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم»

قال ابن عثيمين [١]: قوله : فكان لهذا وادٍ من الإبل»

مقتضى السياق أن يقول : فكان لذلك؛ لأنه أبعد المذكورين، لكنه استعمل الإشارة للقريب في مكان البعيد، وهذا جائز، وكذا العكس. اهـ.

قوله : «قال : ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته»

قال ابن حجر [٢]: أي في الصورة التي كان عليها لما اجتمع به وهو أبرص ليكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة عليه. اهـ.

قال ابن عثيمين [٣]: الصورة في الجسم والهيئة في الشكل واللباس،و هذا هو الفرق بينهما.

قوله «رجلٌ مسكين».

قال ابن عثيمين [٤]:قوله «رجل مسكين»

خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أنا رجل مسكين، والمسكين: الفقير، وسمى الفقير مسكيناً؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، والغنى في الغالب يكون عنده قوة وحركة. اهـ.

قوله «وابن سبيل»

قال ابن حجر [٥]: أنها زيادة من شيبان. اهـ.

قال ابن عثيمين [٦]: قوله : «وابن السبيل»

أي : مسافر سمى بذلك لملازمته للطريق، ولهذا سمى طير الماء: إبن الماء لملازمته له غالباً، فكل شيء يلازم شيئاً؛ فإنه يصح أن يضاف إليه بلفظ البنوة. اهـ.

قوله:«قد انقطعت به الحبال في سفري»

وفي رواية للبخاري **«تقطعت به الحبال في سفرة»**. اهـ.

---

(١) القول المفيد ٣/ ٥٨.
(٢) الفتح ٩/ ٥٨٠.
(٣) القول المفيد ٣/ ٥٩.
(٤) القول المفيد ٣/ ٥٨،٥٩.
(٥) الفتح ٦/ ٥٨٠.
(٦) القول المفيد ٣/ ٩.

قال ابن حجر(١):والحبال بكسر المهملة بعدها موحدة خفيفة جمع حبل أى الاسباب التى يقطعها فى طلب الرزق، وقيل العقبات، وقيل الحبل هو المستطيل من الرمل ولبعض رواه مسلم «الجبال» بالمهملة والتحتانية جمع حيلة. أى لم يبق لى حيله ولبعض رواة البخارى «الجبال» وبالجيم الموحدة وهو تصحيف قال ابن التين قول الملك له «**رجل مسكين إلخ**» أراد أنك كنت هكذا، وهو من المعاريض والمراد به ضرب المثل ليتيقظ المخاطب. اهـ.

قوله «فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك»

قال ابن عثيمين(٢): «لا» نافية للجنس، والبلاغ بمعنى الوصول، ومنه تبليغ الرسالة؛ أى : إيصالها إلى المرسل إليه، والمعنى: لاشىء يوصلنى إلى أهلى إلا بالله ثم بك؛ فالمسألة فيها ضرورة.

قلت: وتقدم فى باب ما شاء وشئت جواز قول ما شاء الله ثم شئت من هذا الحديث وذكرنا هناك أن البخارى بوب عليها باب لا يقول ما شاء الله وشئت، وهل يقول أنا بالله ثم بك.

قوله «أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال».

قال ابن عثيمين (٣): السؤال هنا ليس سؤال استخبار بل سؤال استجداء؛ لأن «سأل» تأتى بمعنى استجدى وبمعنى استخبر، تقول: سألته عن فلان؛ أى : استخبرته، وسألته مالا؛ أى : استجديته واستعطيته، وإنما قال: «**أسألك بالذى أعطاك**»، ولم يقل: أسألك بالله؛ لأجل أن يذكره بنعمة الله عليه؛ ففيه إغراء له على الإعانة لهذا المسكين؛ لأنه جمع بين أمرين: كونه مسكيناً، وكونه ابن السبيل؛ ففيه سببان يقتضيان الإعطاء. اهـ.

قوله «بعيراً أتبلغ به فى سفرى» وفى رواية البخارى: «أتبلغ عليه». اهـ.

قال ابن عثيمين(٤):وقوله :«**بعيراً**»

يدل على أن الأبرص أعطى الإبل، وتعبير إسحاق «الإبل أو البقر» من باب ورعه. اهـ.

قال ابن حجر(٥):وأتبلغ بالغين المعجمة من البلغة وهى الكفاية والمعنى أتوصل به إلى مرادى. اهـ.

(١) الفتح ٦/ ٥٨.
(٢) القول المفيد ٣/ ٦٠.
(٣) القول المفيد ٣/ ٦٠.
(٤) القول المفيد ٣/ ٦٠.
(٥) الفتح ٦/ ٥٨٠.

قال ابن عثيمين[1]: **قوله «أتبلغ به في سفري»** أي: ليس أطيب الإبل وإنما يوصلني إلى أهلي فقط. اهـ.

قوله «فقال: الحقوق كثيرة»

قال ابن عثيمين [2]: أي: هذا المال الذي عندي متعلق به حقوق كثيرة، ليس حقك أنت فقط، وتناسى - والعياذ بالله - أن الله هوالذي من عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال. اهـ.

قوله «فقال له: كأني أعرفك».

قال ابن عثيمين[3]: **قوله « كأني أعرفك»**

كأن هنا للتحقيق لا للتشبيه؛ لأنها إذا دخلت على جامد فهي للتشبيه، وإذا دخلت على مشتق؛ فهي للتحقيق أو للظن والحسبان، والمعنى أني أعرفك معرفة تامة. اهـ.

قوله «ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً، فأعطاك الله - عزوجل - المال».

قال ابن عثيمين[4]: ذكره الملك بنعمة الله عليه، وعرفه بما فيه من العيب السابق حتى يعرف قدر النعمة، والاستفهام للتقرير لدخوله على«لم»؛ كقوله تعالى **﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾**. اهـ.

قوله «فقال: إنما ورثتُ هذا المال كابراً عن كابر».

وفي رواية للبخاري: «لقد ورثت لكابر عن كابر».

قال ابن حجر[5]: وفي رواية الكشميهني **«كابراً عن كابر»** وفي رواية شيبان **«إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر»** أي كبير عن كبيرفي العز والشرف. اهـ.

قال ابن عثيمين[6]:أنكر أن المال من الله، لكنه لم يستطع أن ينكر البرص.

و«كابراً» منصوبة على نزع الخافض؛ أي: من كابراً؛ أي: ممن يكبرني وهو الأب،

---

(١) القول المفيد ٣/ ٦٠.

(٢) القول المفيد ٣/ ٦٠/ ٦١.

(٣) القول المفيد ٣/ ٦١.

(٤) القول المفيد ٣/ ٦١.

(٥) الفتح ٦/ ٥٨٠.

(٦) القول المفيد ٣/ ٦١.

عن كابر له وهو الجد، وقيل : المراد الكبر المعنوي؛ أي : إننا شرفاء وسادة وفي نعمة من الأصل، وليس هذا المال مماتجدد، واللفظ يحتمل المعنيين جميعاً. اهـ.

قلت: وهذا متضمن أيضاً لمعنى ما نهى عنه الرسول ﷺ من الفخر بالأحساب. اهـ.

قوله: «فقال: إن كنت كاذباً؛ فصيرك الله إلى ماكنت».

قال ابن حجر[1]: قوله «فقال إن كنت كاذباً فصيرك الله» أورد بلفظ الفعل الماضي لأنه أراد المبالغة في الدعاء عليه. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]:قوله «إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ماكنت».

«إن» شرطية ولها مقابل، يعني: وإن كنت صادقاً فأبقى الله عليك النعمة.

فإن قيل : كيف يأتي بـ«إن» الشرطية الدالة على الاحتمال مع أنه يعرف أنه كاذب؟

أجيب: إن هذا من باب التنزل مع الخصم، والمعنى: إن كنت كما ذكرت عن نفسك؛ فأبقى الله عليك هذه النعمة، وإن كنت كاذباً وأنك لم ترثه كابراً عن كابر؛ فصيرك الله إلى ماكنت من البرص والفقر، ولم يقل : «إلى ما أقول»؛ لأنه كان على ذلك بلا شك.

والتنزل مع الخصم يرد كثيراً في الأمور المتيقنة؛ كقوله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ومعلوم أنه لانسبة، وأن الله خير مما يشركون، ولكن هذا من باب محاجة الخصم لإدحاض حجته. اهـ.

قوله :«قال :وأتى الأقرع في صورته»

قال ابن عثيمين [3]:قوله :«وأتى الأقرع في صورته»

الفاعل الملك، وهنا قال: «في صورته» فقط وفي الأول قال: «في صورته وهيئته»؛ فالظاهر أنه تصرف من الرواة، وإلا ؛ فالغالب أن الصورة قريبة من الهيئة، وإن كانت الصورة تكون خلقة، والهيئة تكون تصنعاً في اللباس ونحوه، وقد جاء في رواية البخاري «في صورته وهيئته». اهـ.

قوله «فقال له مثل ما قال لهذا»

المشار إليه الأبرص[4].

---

(1) الفتح ٦/ ٥٨٠.

(2) القول المفيد ٣/ ٦١، ٦٢.

(3) القول المفيد ٣/ ٦٢.

(4)القول المفيد ٣/ ٦٢.

قوله « فرد عليه» أى الأقرع[1]. اهـ.

قوله «مثل ما رد عليه هذا» أى الأبرص[2]:

قال ابن عثيمين[3]: فكلا الرجلين ـ والعياذ بالله ـ غير شاكر لنعمة الله ولامعترف بها ولا راحم لهذا المسكين الذى انقطع به السفر. اهـ.

قوله« فقال إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ماكنت»

قال ابن حجر[4]:أورد بلفظ الفعل الماضى لأنه أراد المبالغة فى الدعاء عليه. اهـ.

قوله :«قال : وأتى الأعمى فى صورته، فقال : رجل مسكين وابن سبيلٍ. قد انقطعت به الحبال فى سفرى. فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى ردَّ عليك بصرك؛ شاة أتبلَّغ بها فى سفرى. قال: كنت أعمى فردَّ الله علىَّ بصرى».

قال ابن عثيمين[5]: **قوله :«فرد الله إلى بصرى».**

اعترف بنعمة الله، وهذا أحد أركان الشكر، والركن الثانى: العمل بالجوارح فى طاعة المنعم، والركن الثالث: الاعتراف بالنعمة فى القلب، قال الشاعر:

أفادتكم النعماءُ منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

قلت: قنع الأعمى بهذه الذكرى ولم يماطل مماطلة الأخرين حتى يكرر الملك عليه ما كرره عليهما فلم يقل له: «كأنى أعرفك... إلخ» بل اعترف فور الذكرى بنعمة الله وبادر إلى شكرها والله أعلم.

قوله: فخذ ماشئت»

قال ابن حجر[6]:زاد الشيبانى **«ودع ماشئت»** . اهـ.

قال ابن عثيمين[7]:هذا من باب الشكر بالجوارح؛ فيكون هذا الأعمى قد أتم أركان الشكر.

قوله :«فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله» فى البخارى: **«لا أحمدك...»**.

قال ابن حجر[8] : **قوله «لا أحمدك اليوم بشىء أخذته لله»**. :كذا فى البخارى بالمهملة والميم كذا قال عياض إن رواة البخارى لم تختلف فى ذلك، وليس كما قال، والمعنى لا أحمدك على ترك شىء تحتاج إليه من مالى، كما قال الشاعر:

(١-٢) المصدر السابق .
(٣) الفتح ٦/ ٥٨٠ .
(٤) المصدر السابق.
(٥) القول المفيد ٣/ ٦٣، ٦٤ .
(٦) الفتح ٦/ ٥٨٠ .
(٧) القول المفيد ٣/ ٦٤
(٨) الفتح ٦/ ٥٨٠، ٥٨١

وليس على طول الحياة تندم.

أى فوت طول الحيـاة ، وفى رواية كريمة وأكثر رواية مسلم **«لاأجهدك»** بالجيم والهاء أى لا أشق عليك فى رد شىء تطلبه مـنى أو تأخذه، قال عياض: لم يتضح هذا المعنى لـبعض الناس فقـال : لعله **«لا أحدّك»** بمهملـة،وتشديد الدال بغـير ميم أى لا أمنعك، قال : وهذا تكلف انتهى ويحتمل أن يكون قوله **«أحمدك»** بتشديد الميم أى لا أطلب مـنك الحمد، ومن قـولهم فلان يتـحمد علـى فلان أى يمتن علـيه، أى لاأمتن عليك. اهـ.

قوله «فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم»

قال ابن حجر[1]:أى امتحنتم. اهـ.

قال ابن عثـيمين[2]:والذى ابـتلاهم هـو الله تعالى، ظـاهر الحديـث أن قصتـهم مشهورة معلومـة بين الناس؛ لأن قوله:**«إنما ابتليتم»** يدل علـى أن عنده علمـاً بما جرى لصاحبيه وغالباً أن مثل هذه القصة تكون مشهورة بين الناس. اهـ.

قوله:«فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك».

قال ابن حجر[3]:بضم أوله على البناء للمجهول فى رضى وسخط. اهـ.

قال ابن عثيمين [4]:**قوله«فقد رضى الله عنك»**

يعنى: لأنك شكرت نعمة الله بالقلب واللسان والجوارح

قوله: «وسخط على صاحبيك»

لأنهما كفرا نعمة الله ـ سبحانه ـ، وأنكرا أن يكون الله منَّ عليهما بالشفاء والمال.

قال ابن حـجر[5]: قال الكـرمانى «مامـحصله كـان مزاج الأعمى أصـح من مزاج رفيقيه، لأن البرص مرض يحصل من فساد المزاج وخلل الطبيعة وكذلك القرع، بخلاف العمـى فإنه لايستلـزم ذلك بل قد يكـون من أمر خارج، فلـهذا حسنت طبـاع الأعمى وساءت طباع الآخرين. وفى الحـديث جواز ذكر ما اتفق لمن مضى ليتـعظ به من سمعه ولايكون ذلك غيبة فيهم، ولـعل هذا هو السر فى ترك تسميتهم، ولـم يفصح بما اتفق لهم بعد ذلك، والذى يظهر أن الأمر فيهم وقع كما قال الملك.

---

(١) الفتح ٦/ ٥٨١.

(٢) القول المفيد ٣/ ٦٤.

(٣) الفتح ٦/ ٥٨١.

(٤) القول المفيد ٣/ ٩٥،٦٤.

(٥) الفتح ٦/ ٥٨١

وفيه التحذير من كفران النعم والترغيب فى شكرهم والاعتراف بها وحمد الله عليها وفيه فضل الصدقة والحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم وتبليغ مآربهم، وفيه الزجر عن البخل، لأنه حمل صاحبه على الكذب وعلى جحد نعمة الله تعالى. اهـ.

قلت: ففيه معنى قوله ﷺ: **إياكم والبخل فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم... الحديث».**

قال ابن عثيمين(١)**:**وفى هذا الحديث من العبر شىء كثير، منها.

١ـ أن الرسول ﷺ يقص علينا أنباء بنى إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ بماجرى، وهو أحد الأدلة لمن قال: إن شرع من قبلنا شرع لناما لم يرد شرعنا بخلافه، ولاشك أن هذه قاعدة صحيحة.

٢ـ بيان قدرة الله ـ عزوجل ـ بإبراء الأبرص والأقرع والأعمى من هذه العيوب التى فيهم بمجرد مسح الملك لهم.

٣ـ أن الملائكة يتشكلون حتى يكونوا على صورة البشر؛لقوله :«فأتى الأبرص فى صورته»، وكذلك الأقرع والأعمى، لكن هذا ـ والله أعلم ـ ليس إليهم وإنما يتشكلون بأمر الله تعالى.

قلت: ويشهد لذلك ما جاء فى الصحيح أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فى صورة دحية الكلبى.

٤ـ أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحاً أو معانى أو قوى فقط.

٥ـ حرص الرواة على نقل الحديث بلفظه.

٦ـ أن الإنسان لا يلزمه الرضاء بقضاء الله ـ أى بالمقضى ؛ لأن هؤلاء الذين أصيبوا قالوا: أحب إلينا كذا وكذا، وهذا يدل على عدم الرضا.

وللإنسان عند المصائب أربع مقامات.

ـ جزع، وهو محرم.

ـ صبر، وهو واجب.

ـ رضا، وهو مستحب.

ـ شكر، وهو أحسن وأطيب.

وهنا إشكال، وهو كيف يشكر الإنسان ربه على المصيبة وهى لا تلائمه؟

أجيب: أن الإنسان إذا آمن بما يترتب على هذه المصيبة من الأجر العظيم عرف أنها تكون بذلك نعمة، والنعمة تشكر.

---

(١) القول المفيد ٣/ ٦٥ـ٧٠.

وأما قوله ﷺ: «فمن رضى ؛ فله الرضا، ومن سخط؛فعليه السخط»(١)؛ فالمراد بالرضا هنا الصبر، أو الرضا بأصل القضاء الذى هو فعل الله؛ فهذا يجب الرضا به لأن الله ـ عزوجل ـ حكيم، ففرق بين فعل الله والمقضى.

والمقضى ينقسم إلى : مصائب لايلزم الرضا بها، وإلى أحكام شرعية يجب الرضا بها.

٧ـ جواز الدعاء المعلق؛ لقوله :«إن كنت كاذباً؛ فصيرك الله إلى ما كنت»، وفى القرآن الكريم قال الله تعالى :﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(٢)، ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٣)، وفى دعاء الاستخارة:«اللهم! إن كنت تعلم. .إلخ».

٨ـ جواز التنزل مع الخصم فيما لايقربه الخصم المتنزل لأجل إفحام الخصم؛ لأن الملك يعلم أنه كاذب، ولكن بناء على قوله: إن هذا ما حصل، وإن المال ورثه كابرا عن كابر، وقد سبق بيان وروده فى القرآن، ومنه أيضاً قوله تعالى ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٤)، ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه على هدى وأولئك على ضلال، ولكن هذا من باب التنزل معهم من باب العدل.

٩ـ أن بركة الله لانهاية لها، ولهذا كان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر،ولهذا واد من الغنم.

١٠ـ هل يستفاد منه أن دعاء الملائكة مستجاب أو أن هذه قضية عين؟

الظاهر أنه قضية عين، وإلا؛ لكان الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب، وقال الملك: آمين ولك بمثله، علمنا أن الدعاء قد استجيب.

١١ـ بيان أن شكر كل نعمة بحسبها؛ فشكر نعمة المال أن يبذل فى سبيل الله، وشكر نعمة العلم أن يبذل لمن سأله بلسان الحال أو المقال، والشكر الأعم أن يقوم بطاعة المنعم فى كل شىء.

ونظير هذاما مر أن التوبة من كل ذنب بحسبه، لكن لايستحق الإنسان وصف التوبة المطلق إلا إذا تاب من جميع الذنوب.

١٢ـ جواز التمثيل، وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها فى الحقيقة، مثل أن

---

(١) سبق تخريجه
(٢) النور ٧.
(١) النور ٩
(٤) سبأ ٢٤

يأتي بصورة مسكين وهو غني وما أشبه ذلك إذا كان فيه مصلحة وأراد أن يختبر إنساناً بمثل هذا ؛ فله ذلك.

قلت: لكن هذا محله إذا لم يكن في ذلك تهكم بأحد أو تنقص منه وغيبه له أو همز أو لمز أو استخفاف واستهزاء.. إلخ ما فهمه العلماء من قوله ﷺ لعائشة حينما حاكت إنساناً فقال: ما يحب أن يكون لي كذا وكذا[1] وهو عند أبي داود وغيره وأن لايشمل أي معصية أخرى أو لم يكن فيه تمثيل للصحابة وغيرهم من أعلام الدين كما قررت ذلك رابطة العالم الإسلامي والقول الذي هو القول أنه لو توافرت هذه وقال أحد بالمنع سداً للذريعة لئلا يحتج الجاهليون على تمثيلهم بهذا التمثيل لكان محقاً والله أعلم.

١٣ـ أن الابتلاء قد يكون عاماً وظاهراً يؤخذ من قوله. «فإنما ابتليتم»، وقصتهم مشهورة كما سبق.

١٤ـ فضيلة الورع والزهد، وأنه قد يجر صاحبه إلى ما تحمد عقباه؛ لأن الأعمى كان زاهدا في الدنيا؛ فكان شاكراً لنعمة الله.

١٥ـ ثبوت الإرث في الأمم السابقة؛ لقوله: «ورثته كابراً عن كابر».

١٦ـ أن من صفات الله ـ عزوجل ـ الرضا والسخط والإرادة ، وأهل السنة والجماعة يثبتونها على المعنى اللائق بالله على أنها حقيقة.

وإرادة الله نوعان: كونية ، وشرعية.

والفرق بينهما أن الكونية يلزم فيها وقوع المراد ولايلزم أن يكون محبوباً لله، فإذا أراد الله شيئاً قال له كن فيكون.

وأما الشرعية بمعنى المحبة والكونية بمعنى المشيئة، فإن قيل : هل الله يريد الخير والشر كوناً أو شرعاً؟

أجيب: إن الخير إذا وقع؛ فهو مراد لله كوناً وشرعاً، وإذا لم يقع؛ فهو مراد لله شرعاً فقط، وأما الشر فإذا وقع؛ فهو مراد لله كوناً شرعاً وإذا لم يقع؛ فهو غير مراد كوناً ولاشرعاً، وأعلم أن الشر لاينسب إلى فعل الله ـ سبحانه ـ، ولكن إلى مخلوقات الله؛ فكل فعل الله تعالى خير؛ لأنه صادر عن حكمة ورحمة، ولهذا قال النبي ﷺ «الخير بيديك والشر ليس إليك»، وأما مخلوقات الله؛ ففيها خير وشر

وإثبات صفة الرضا لله ـ سبحانه ـ لايقتضي انتفاء صفة الحكمة. بخلاف رضا

(١) حرجه بوداود (٤٨٧٥) عن عائشة به

المخلوق؛ فقد تنتفى معه الحكمة، فإن الإنسان إذا رضى عن شخص مثلا فإن عاطفته قد تحمله على أن يرضى عنه فى كل شىء ولايضبط نفسه فى معاملته لشدة رضاه عنه، قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

لكن رضا الله مقرون بالحكمة، كما أن غضب الخالق ليس كغضب المخلوق؛ فلا تنتفى الحكمة مع غضب الخالق، بخلاف غضب المخلوق؛ فقد يخرجه عن الحكمة فيتصرف بما لايليق لشدة غضبه.

ومن فسر الرضاب بالثواب أو إرداته؛ فتفسيره مردود عليه، فإنه إذا قيل: إن معنى «رضى»؛ أى: أراد أن يثيب، فمقتضاه أنه لايرضى، ولو قالوا: لا يرضى لكفروا؛ لأنهم نفوها نفى جحود، لكن أولوها تأويلاً يستلزم جواز نفى الرضا؛ لأن المجاز معناه نفى الحقيقة، وهذا أمر خطير جداً.

ولهذا بين شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم: أنه لامجاز فى القرآن ولا فى اللغة، خلافاً لمن قال: كل شىء فى اللغة مجاز.

١٧ـ أن الصحبة تطلق على المشاكلة فى شىء من الأشياء ولايلزم منها المقارنة؛ لقوله «وسخط على صاحيك»؛ فالصاحب هنا: من يشبه حاله فى أن الله أنعم عليه بعد البؤس.

١٨ـ اختبار الله ـ عزوجل ـ بما أنعم عليهم به.

١٩ـ أن التذكير قد يكون بالأقوال أو الأفعال أوالهيئات.

٢٠ـ أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئاً لم يكن من أجل الاختبار؛ لقول الملك: إنه فقير وابن سبيل.

قلت: ولعل هذا حجة لأهل العلم الذين قلبوا أسانيد ومتون بعض الأحاديث من أجل اختار بعض العلماء مثل ما حصل من يحى بن معين وأحمد ابن حنبل مع أبى نعيم ولما روى من اختار البخارى ـ رحمه الله ـ بهذه الطريقة أيضا والله أعلم.

٢١ـ أن هذه القصة كانت معروفة مشهورة؛ لقوله: «فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك».

قلت: وفيها معنى قوله ﷺ: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل

فيه مسائل

الأولى: تَفْسيرُ الآيَة.

الثانية : مَا مَعْنَى: (لَيَقُولَنَّ . هَذَا لِى)

الثالثة : مَا مَعْنَى قَوْله: (أُوتِيتُهُ عَلَى عِلمٍ عِندى).

الرابعة : مَا فِى هَذِه القَصَّة العَجيبة مِنَ العِبَرِ العَظِيمَة.

من حوائج المسلمين إليه فيتبرَّم فقد عَرَّضَ تلك النعمة للزوال»(١) وأيضاً قوله ﷺ الثابت فى سنن الترمذى من حديث أسماء بنت أبى بكر قالت: قلت يا رسول الله! إنه ليس لى من شىء إلا ما أدخل علىَّ الزبير أفأعطى؟ قال: «**نعم لاتوكى فيوكى عليك**»(٢) قال أبو عيسى: يقول لاتحصى فيحصى عليك.

قال ابن عثيمين(٣)**: قوله فيه مسائل:**

● الأولى : تفسير الآية.

وهى قوله تعالى : ﴿**ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى**﴾ وقد سبق أن الضمير فى قوله: ﴿**أذقناه**﴾ يعود على الإنسان باعتبار الجنس.

● **الثانية: مامعنى : ﴿ليقولن هذا لى﴾**

اللام للاستحقاق، والمعنى : إنى حقيق به وجدير به.

● **الثالثة: مامعنى قوله : ﴿إنما أوتيته على علم﴾.**

قلت: سبق أنه على علم منى بوجوه والمكاسب وغير ذلك.

● **الرابعة: ما فى هذه القصة العجيبة من العبرالعظيمة**

وقد سبق ذكر عبر كثيرة منها، وهذا ليس استيعاباً،ومن ذلك الفرق بين الأبرص والأقرع والأعمى؛ فإن الأبرص والأقرع جحدا نعمة الله ـ عزوجل ـ، والأعمى اعترف بنعمة الله عندما طلب الملك من الأعمى المساعدة؛ قال: «خذ ماشئت؛ فدل هذا على جوده وإخلاصه؛ لأنه قال: «**فوالله؛ لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله ـ عزوجل**»، بخلاف الأبرص والأقرع حيث كانواأشحاء بخلاء منكرين نعمة ـ الله عزوجل ـ. اهـ.



---

(١) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط»، وإسناده جيد، «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩٢) انظر كتابى «فقه الخطابة»

(٢) سيأتى تخريجه وهو فى الصحيح

(٣) القول المفيد ٣/ ٧٠٠٧

باب (٤٩)

قول الله تعالى ﴿فلمَّا آتاهُمَا صَالِحًا جعَلا لهُ شُركَاءَ فيمَا آتاهُمَا﴾(١).

● **مناسبة هذا الباب لما قبله.**

قال الفقير: ـ لما كان الباب الماضى فى عدم شكر الله على نعمه بنسبتها إلى غيره وكان ذلك كفران للنعم متلف للتوحيد وكان من أنعم الله عليهم بالاولاد وكمل لهم هذه النعمة بأن جعلهم صالحين فى أبدانهم فعبدوا أولادهم لغير الله أو أضافوا النعم لغير الله فأصبحوا بذلك كافرين بنعم الله متلفين للتوحيد ناسب أن يذكر المصنف هذا الباب بعد الباب الماضى للقاسم المشترك بينهما أولاً فى كفر النعم ثانيا فى إتلاف التوحيد.

ـ ماذا أراد المصنِّف بهذا الباب؟! ومناسبته لكتاب التوحيد.

قال حامد بن حسن بن محسن(٢): باب ما جاء فى بيان أن من نسب العبودية إلى غير الله نية أو قولاً أو فعلاً حقيقة أو مجازًا فقد دخل فى عمومية الشرك، أما النية قوله تعالى: ﴿عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وأما القول فقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٣).

وأما الفعل فقوله تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ وأما الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ .

وأما المجاز فقوله تعالى ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . اهـ.

قال ناصر السعدى(٤): مقصود الترجمة أن من أنعم الله عليهم بالأولاد وكمل الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين فى أبدانهم وتمام ذلك أن يصلحوا فى دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على أنعامه، وأن لا يعبدوا أولادهم لغير الله أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم متلف للتوحيد اهـ.

---

(١) الأعراف: ١٩٠.

(٢) فتح الله الحميد المجيد. (٤١٥).

(٣) طه/ ١١١.

(٤) القول السديد ١١٧و ١١٨.

قال ابن باز[1]: أراد المؤلف بيان تحريم التعبيدلغير الله وأنه لا يجوز أن يُعبد أحد لغير الله فلا يقال عبد النبى أو عبد الكعبة أو عبد الحسين وما أشبه ذلك بل يكون التعبيد لله وحده كعبد الرحمن وعبد الله ... إلخ لأن الله ذم من فعل ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ .. وهذا ذم وعيب لمن فعله .اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا...﴾ الآية.

● **مناسبة الآية للباب والتوحيد:**

قال الرازى[2]: اعلم أنه تعالى رجع فى هذه الآية إلى تقرير أمر التوحيد وإبطال الشرك .اهـ.

قال القرعاوى[3]: مناسبة الآية للباب وللتوحيد حيث دلّت الآية على تفسير ابن عبّاس أنَّ التعبيد لغير الله فى الأسماء شرك.اهـ.

● **شرح الآية:**

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ الضمير يعود على ما سبق، ولهذا ينبغى أن يكون الشرح من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾.

قوله: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾

الإعراب [4]: هو الذى خلقكم من نفس واحدة كلام مستأنف لخطاب أهل مكة، وهو مبتدأ، والذى خبره، وجملة خلقكم صلة، ومن نفس جار ومجرور متعلقان بخلقكم وواحدة صفة.اهـ.

قال الشوكانى[5]: قوله: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نعم الله على عباده، وعدم مكافأتهم لها، مما يجب من الشكر، والاعتراف بالعبودية، وأنه المنفرد بالألهية اهـ.

● **التفسير بالمأثور:**

روى الطبرنى عن مجاهد خلقكم من نفس واحدة قال آدم عليه السلام[6]. ورواه أيضًا عن قتادة[7].

---

(1) التعليق المفيد ٢٣٣.
(2) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ٩٠
(3) الجديد.
(4) إعراب القرآن ٣/ ٥٥٨.
(5) فتح القدير ٢/ ٢٨٩.
(6) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ٩٧).
(7) المصدر السبق.

● أقوال المفسرين:

قال الطبرى[1]: يعنى بالنفس الواحدة آدم، وقاله البغوى(٢).

قال الزمخشرى[3]: من نفس واحدة هى نفس آدم عليه السلام أهـ.

وقاله الرازى أيضًا[4].

قال القرطبى[5]: قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة . آدم.

قال السعدى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون فى الأرض على كثرتكم وتفرقكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو :آدم أبو البشر ﷺ اهـ.

قال صاحب الظلال: فهى نفس واحدة فى طبيعة تكوينها، وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى.اهـ.

قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾

الإعراب: جعل بمعنى خلق معطوف على خلقكم ، وفاعله ضمير مستتر، ومنها جار ومجرور متعلقان، بجعل، وزوجها مفعول به.اهـ.

قال ابن عثيمين[6]: من للتبعيض، لأن حواء خلقت من ضلع آدم.اهـ.

● التفسير بالقرآن:

قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**. وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾**.

● التفسير بالمأثور:

روى الطبرى[7]: عن قتادة وجعل منها زوجها حواء فجعلت من ضلع من أضلاعه.

● أقوال المفسرين:

قال الطبرى[7]: ويعنى بقوله وجعل منها زوجها وجعل من النفس الواحدة وهى آدم زوجها حواء.اهـ.

(١) تفسير الطبرانى ٦/٩/٩٧.
(٢) معالم التنزيل ٢/ ٥٨١.
(٣) الكشاف ٢/ ١٠٨
(٤) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ٩٠.
(٥) تفسير القرطبى ٣/ ٢٧٧٣.
(٦) القول المفيد٣/ ٧٢.
(٧) تفسيرالطبرى ٦/ ٩/ ٩٧.

قلت: وبهذا قال البغوى:

قال الزمخشرى[1]: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ وهى حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه أو من جنسها كقوله ﴿**جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا**﴾. اهـ.

قال الرازى[2]: وقوله: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ المراد حواء، قالوا ومعنى كونها مخلوقة من نفس آدم، أنه تعالى خلقها من ضلع من أضلاع آدم. قالوا: والحكمة فيه أن الجنس من الجنس أميل، والجنسية علة الضم، وأقول هذا الكلام مشكل لأنه تعالى.

لما كان قادرًا على أن يخلق آدم ابتداء فما الذى حملنا على أن نقول أنه تعالى خلق حواء من جزء من أجزاء آدم؟، ولم لا نقول: إنه تعالى خلق حواء أيضًا ابتداء؟ وأيضًا الذى يقدر على خلق إنسان من عظم واحد فلم لا يقدر على خلقه ابتداء، وأيضًا الذى يقال: إن عدد أضلاع الجانب الأيسر أنقص من عدد أضلاع الجانب الأيمن فيه مؤاخذة تنبنى عن خلاف الحس والتشريح، بقى أن يقال: إذا لم تقل بذلك، فما المراد من كلمة (من) فى قوله ﴿**وجعل منها زوجها**﴾ فنقول: قد ذكرنا أن الإشارة إلى الشىء تارة تكون بحسب شخصه؛ وأخرى بحسب نوعه قال عليه الصلاة والسلام «**هذا وضوءلا يقبل الله الصلاة إلا به**»[3] وليس المراد ذلك الفرد المعين بل المراد ذلك النوع. وقال عليه الصلاة والسلام فى يوم عاشوراء هذا هواليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون.

والمراد أنه خلق من النوع الإنسانى زوجة آدم، والمقصود التنبيه على أنه تعالى جعل زوج آدم إنسانًا مثله. اهـ.

قلت/ لقد جاء التصريح بأن المرأة خلقت من ضلع أعوج فى قول النبى ﷺ(*) ونفى الرازى لهذا خطأ فاحش أما قوله بأن حواء جعلها الله إنساناً مثل آدم فهو صحيح وفى كلام ابن كثير القادم رد عليه أيضا وتأمل كذلك قول ابن عثيمين.

قال ابن كثير[4]: ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما. كما قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم**

(١) الكشاف ٢/ ١٠٨. (٢) التفسير الكبير. /٨/ ١٥/ ٩٣.

(٣) [ضعيف] أخرجه ابن ماجه (٤١٩) عن ابن عمر به
وانظر «منار السبيل» (١٠٠ ـ بتخريجنا).

(*) [صحيح] أخرجه مسلم فى الرضاع (٥/ ٣١٣/ ٦٢) عن أبى هريرة به.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٤.

مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الآية أهـ.

قال الشوكانى[1]: وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معطوف على ﴿خَلَقَكُم﴾ أى هو الذى خلقكم من نفس آدم، وجعل من هذه النفس زوجها وهى حواء، خلقها من ضلع من أضلاعه. وقيل المعنى ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ علة للجعل، أى جعله منها لأجله ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. أهـ.

قال السعدى[2]: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى: خلق من آدم زوجته حواء أهـ.

التفسير بكلام شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين(٣): فيها قولان:

الأول: أن المراد بالنفس الواحدة: العين الواحدة؛ أى: من شخص مُعَيَّنٍ وهو آدم عليه السلام.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (من) للتبعيض، لأن حواء خُلقت من ضلع آدم.

الثانى: أن المراد بالنفس الجنس، وجعل من هذا الجنس زوجة ولم يجعل زوجه من جنس البقر أو الضأن مثلاً، والنفس قد يراد بها الجنس؛ كما فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[4] أى: من جنسهم أهـ.

قلت: وكلا القولين صحيح ولايلزم من كونها خلقت من جنسها ونوعها أنها لم تخلق من ضلع منه ولا يلزم من أنها خلقت من ضلع منه أن الله غير قادر على أن يخلقها من العدم فهو الخلاق العليم ففى ذلك رد على كلام الرازى المتقدم والله أعلم.

قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

الإعراب[5]: واللام للتعليل ويسكن فعل مضارع منصوب وفاعله هو . وإليها جار ومجرور متعلقان بيسكن والمراد بالنفس آدم،وتأنيث الضمير بإعتبار لفظ النفس أهـ.

(١) فتح القدير ٢/ ٢٨٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥.
(٣) القول المفيد ٣/ ٧٢و ٧٣.
(٤) آل عمران: ١٦٤.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٥٠٨.

● **التفسير بالقرآن:**

قال ابن كثير(١): ﴿**لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ أي: ليألفهـا ويسكن بها كقولـه تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾ فلا ألفه بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه أهـ.

قال الشنقيطي(٢): ذكر في هذه الآية الكريمة أنه خلـق حواء من آدم ليسكن إليها، أي: ليألفهـا ويطمئن بها، وبيّـن في موضع آخر أنه جعل أزواج ذريـته كذلك، وهو قوله: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾(٣). أهـ..

● **أقوال المفسرين:**

قال الطبري(٤): يعني بقوله ﴿**لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ ليأوي إليها لقضاء الحاجة ولذاته أهـ.

قال البغوي(٥): قوله تعالى: ﴿**لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾. ليأنس بها، ويأوي إليها أهـ. وهو نفس ما قاله ابن الجوزي.

قال الز مخشري(٦): ﴿**لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبـه محبة نفسه لكـونه بضعة منه وقال لـيسكن فذكّر بعدمـا أنّث في قولة واحدة منه زوجـها ذهاباً إلى معـر النفس ليبـين أن المراد بها آدم ولأنّ الذكـر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى أهـ.

قال القرطبي(٧): ﴿**لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ ليأنس إليها ويطمـئن، وكان هذا كله في الجنة. ثم ابتدأ بحالة أخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما فقال ﴿**فَلَمَّا تَغَشَّاهَا**﴾... أهـ.

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٤.
(٢) أضواء البيان ٢/ ٢٥٤.
(٣) الروم: ٢١.
(٤) تفسير الطبري ٦/٩/٩٧.
(٥) معالم التنزيل ٢/ ٥٨١.
(٦) الكشاف ٢/١٠٨.
(٧) تفسير القرطبي ٤/ ٢٧٧٣.

قال الشوكانى[1]: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ علة للجعل، أى جعله منها لأجل ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ يأنس إليها، ويطمئن بها، فإنَّ الجنس بجنسه أسكن، وإليه آنس، وكان هذا فى الجنة، كما وردت بذلك الأخبار. ثم ابتدأ سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما فى الدنيا بعد هبوطهما. فقال ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾.. أهـ.

قال السعدى[2]: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ لأنها إذا كانت منه، حصل بينهما من المناسبة والموافقة، ما يقتضى سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كلٌ منها إلى صاحبه، بزمام الشهوة أهـ.

قال صاحب «الظلال»[3]: وهذه هى نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان. ووظيفة الزوجية فى تكوينه. وهى نظرة كاملة وصادقة جاء بها هذا الدين منذ أربعة عشر قرناً. يوم أن كانت الديانات المحرفة تعد المرأة أصل البلاء الإنسانى، وتعتبرها لعنة ونجساً وفخاً للغواية تحذر منه تحذيراً شديداً، ويوم أن كانت الوثنيات ـ ولاتزال ـ تعدها من سقط المتاع أو على الأكثر خادماً أدنى مرتبة من الرجل ولا حساب له فى ذاته على الإطلاق والأصل فى التقاء الزوجية هو السكن والاطمئنان والأنس والإستقرار. ليظلل السكون والأمن جوٌ المحضن الذى تنمو فيه الفراخ الزغب. وينتج فيه المحصول البشرى الثمين، ويؤهل فيه الجيل الناشىء لحمل تراث التمدن البشرى والإضافة إليه. ولم يجعل هذا الإلتقاء لمجرد اللذة العابرة والنزوة العارضة. كما أنه لم يجعله شقاقاً ونزاعاً، وتعارضاً بين الإختصاصات والوظائف، أو تكراراً للاختصاصات والوظائف كما تخبط الجاهليات فى القديم والحديث سواء! أهـ.

كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين[4]: سكون الرجل إلى زوجته ظاهر من أمرين:

أولاً: لأنَّ بينهما من المودة والرحمة ما يقتضى الأنس والإطمئنان والإستقرار.

ثانياً: سكون من حيث الشهوة، وهذا سكون خاص لا يوجد له نظير حتى بين الأم وابنها.

---

(١) فتح القدير ٢/٢٨٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/١٧٥.

(٣) الظلال ٣/١٤١١.

(٤) القول المفيد ٣/٧٣.

قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾.

الإعراب [1]: الفاء عاطفة، ولما رابطة أو حينية أهـ.

● **التفسير بالقرآن:**

قال الفقير: وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ وكقوله: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ وكقوله تعالى: ﴿اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ إلخ.

● **التفسير بالمأثور:**

جاء عن ابن عباس أنه عبر عن الجماع بالغشيان والإفضاء والمسيس والإتيان أو كما قال[*].

● **التفسير بكلام المفسرين:**

قال الطبرى[2]: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ فلما تدثرها قضاء حاجته منها فقضى حاجته منها، حملت حملاً خفيفاً وفى الكلام محذوف ترك ذكره استغناء بما ظهر عما حذف وذلك قوله فلما تغشاها حملت وإنما الكلام فلما تغشاها فقضى حاجته منها حملت أهـ.

قال البغوى[3]: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أى: واقعها وجامعها أهـ.

قال الزمخشرى[4]: والتغشى كناية عن الجماع وكذلك الغشيان والإتيان أهـ.

قال ابن الجوزى[5]: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أى: جامعها، قال الزجاج وهذا أحسن كناية عن الجماع أهـ.

قال الرازى[6]: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أى: جامعها، والغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشاها وتغشاها إذا علاها، وذلك لأنه إذا علاها فقد صار كالغاشية لها. ومثله يجللها، وهو يشبه التغطى واللبس قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أهـ.

قال القرطبى[7]: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ كناية عن الوقاع أهـ.

---

(١) إعراب القرآن ٣/٥٠٨.

(*) وانظر فى ذلك كتابنا «الاتحاف بأحكام وحقوق العاقد قبل الزفاف».

(٢) تفسير الطبرى ٦/٩/٩٧.

(٣) معالم التنزيل ٢/٥٨١.

(٤) الكشاف ٢/١٠٨.

(٥) زاد المسير ٣/ ٢٣٠.

(٦) التفسير الكبير ٨/١٥/٩٣.

(٧) تفسير القرطبى ٤/٢٧٧٣.

قال ابن كثير[1]: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أى وطئها أهـ.

قال الشوكانى[2]: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ والتغشى كناية عن الوقاع، أى فلما جامعها أهـ.

قال السعدى[3]: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أى: تجللها مجامعـاً لها قدَّر البارى أن وجد من تلك الشهوة، وذلك الجماع، النسل، وحينئذ حملت حملاً خفيفاً أهـ.

قال صاحب الظلال[4]: والتعبير القرآنى يلطف ويـدق ويشف عند تصوير العلاقة الأولية بيـن الزوجين.. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾.. تنسـيقاً لصورة المـباشرة مع جو الـسكن؛ وترقيقاً لحاشية الفعل حـتى ليبدوا امتـزاج طائفين لا إلتـقاء جسدين، إيحـاء للإنسان بالصورة الإنسانية فى المباشرة، وافتراقها عن الـصورة الحيوانية الغليظة!.. كذلك تصوير الحمل فى أول أمره.. خفيفاً.. تمر به الأم بلا ثقلة كأنها لا تحسه أهـ.

شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين[5]: قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾. أى: جامعها، وعبـارة القرآن والسنة التكنية عن الجماع، قال تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[6]، وقال: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[7] وقال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[8]، كأن الإستحياء من ذكره بصريح اسمه أمر فطرى، ولأن الطباع الـسليمة تكره أن تذكر هذا الشىء بـاسمه إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فإنه قد يُصرَّح به، كما فى قوله ﷺ لما عز وقد أقرَّ عنده بالزنى، **(أنكتها لا يكَنِّى)**[9]؛ لأن الحاجة هنا داعيـة للتصريح حتى يتبيَّن، الأمـر جلياً، ولأن الحدود تدرأ بالشبهات.

وتشبيه عـلو الرجل المرأة بالغشيان أمـر ظاهر، كما أن الليل يسـتر الأرض بظلامه، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾[10] وعبَّر بقوله: ﴿تَغَشَّاهَا﴾ ولم يقل، غـشيها؛ لأنَّ

---

(1) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٤.

(2) فتح القدير ٢/ ٢٨٨.

(3) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥.

(4) ٣/ ١٤١٢.

(5) القول المفيد ٣/ ٧٣و ٧٤.

(6) النساء: ٤٣.

(7) النساء: ٢٣.

(8) النساء: ٢١.

(9) **[صحيح]** أخرجه البخارى (٦٨٢٤) عن ابن عباس به.
وانظر «منار السبيل» (٢٥٠٥ ـ بتخريجنا).

(10) الليل: ١.

تَغَشَّى أبلغ، وفيه شيء من المعالجة، ولهذا جاء في الحديث: «**إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها**»[1].

الجلوس بين شعبها الأربع هذا غشيان جهدها هذا تَغَشّى أهـ.

قوله: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾.

الإعراب[2]: وجملة حملت لامحلّ لها، وحملاً إن كانت مصدراً فهي مفعول مطلق، وإن كانت بمعنى الجنين فهي مفعول به، وخفيفاً نعت أتى به للإشعار بعدم التأذي به كما يصيب الحوامل عادة من آلام الحمل، أو إشارة إلى ابتدائه وكونه نطفة لاتثقل البطن أهـ.

● **التفسير بالمأثور:**

روى الطبرى عن السدى[3]: قوله: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ قال هي النطفة أهـ.

● **أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[3]: وقوله: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ يعني بخفة الحمل الماء الذي حملته حواء في رحمها من آدم أنه كان حملاً خفيفاً وكذلك هو حمل المرأة ماء الرجل خفيف عليها أهـ.

قال البغوى[4]: قول تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ وهو أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفاً أهـ.

قال الزمخشرى[5]: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ خفّ عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى ولم تستثقله كما يستثقلنه وقد تسمع بعضهن تقول في ولدها ما كان أخفه على كبدي حين حملته أهـ.

قال ابن الجوزى[6]: والحمل، بفتح الحاء، ما كان في بطن، أو أخرجته شجرة. والحمل، بكسر الحاء: ما يُحمل المراد بالحمل الخفيف الماء أهـ.

قال الرازى[7]: وقوله: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ قالوا يريد النطفة والمني والحمل

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٩١)، ومسلم فى الحيض (٢/ ٢٧٤/ ٨٧) عن أبى هريرة به.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٥٠٨.
(٣) تفسير الطبرى ٦/ ٩/ ٩٧.
(٤) معالم التنزيل ٢/ ٥٨١.
(٥) الكشاف ٢/ ١٠٨و ١٠٩.
(٦) زاد المسير ٣/ ٢٣٠.
(٧) التفسير الكبير /٨/ ١٥/ ٩٤ .

بالفتح ما كان فى البطن أو على رأس الشجر، والحمل بكسر الحاء ما حمل على ظهر أو على الدابة أهـ.

قال القرطبى[1]: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ كل ما كان فى بطن أو على رأس شجرة فهو حَمل بالفتح، وإذا كان على ظهر أو على رأس فهو حِمل بالكسر. وقد حكى يعقوب فى حمل النخلة الكسر، وقال أبو سعيد السيرافى: يقال فى حمل المرأة حَمْل وحِمْل، يُشبه مسّره لاستبطانه بحمل المرأة، ومسّرة لبروزه وظهوره بحمل الدابة. والحَمْل أيضاً مصدر حَمَل عليه يحمل حَمْلاً إذا مال أهـ.

قال ابن كثير[2]: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ وذلك أول الحمل لاتجد المرأة له ألماً إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة أهـ.

قال الشوكانى[3]: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ علقت به بعد الجماع، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقة، وعند كونه علقة أخف منه عند كونه مضغة وعند كونه نطفةأخف مما بعده. وقيل: إنه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه، ولم تجد منه ثقلاً كما تجد الحوامل من النساء لقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أى استمرت بذلك الحمل تقوم وتقعد وتمضى فى حوائجها لاتجد به ثقلاً، والوجه الأول أولى لقوله: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ فإن معناه: فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها أهـ.

قال السعدى[4]: ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ وذلك فى ابتداء الحمل، لاتحس به الأنثى، ولا يثقلها أهـ.

قال صاحب الظلال[5]: ﴿خَفِيفًا﴾. تمر به الأم بلا ثقلة كأنها لاتحسه اهـ.

قال ابن عثيمين[6]: الحمل فى أوله خفيف: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة.

قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾.

---

(١) تفسير القرطبى ٤/ ٢٧٧٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٤.

(٣) فتح القدير ٢/ ٢٨٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥.

(٥) ٣/ ١٤١٢.

(٦) القول المفيد ٣/ ٧٤.

الإعراب[1]: والفاء عاطفة، ومرت عطف على حـملت، وبه جارا متعلقان بمرت، أي: ترددت في إنجاز مها مًّها وإظهارها من غير مشقة ولا إعنات أهـ.

● **التفسير بالمأثور:**

روى الطبري: عن أبي أيوب قال سألـت الحسن عن قوله: ﴿**حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا**﴾ فمرت به قال لو كنت امرأ عربياً لعرفت ما هي إنما هي فاستمرت به[2].

وروى عن ابن عباس في قوله: ﴿**فَمَرَّتْ بِهِ**﴾ قال فشكت أحملت أم لا[3].

وروى أيضاً عن قتادة[2] ﴿**فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا**﴾ فمرت به استبان حملها.

وروى أيضاً عن مجاهد ﴿**فَمَرَّتْ بِهِ**﴾ قال استمر حملها[4].

وروى عن السدي وقوله: ﴿**فَمَرَّتْ بِهِ**﴾ يقول استمرت به[5].

●أقوال المفسرين.

قال البغوي[6]: أي استمرت به. وقامت وقعدت به. ولم يثقلها أهـ.

قال ابن الجوزي[7]: قوله تعالى: ﴿**فَمَرَّتْ بِهِ**﴾ أي: استمَّرت به، قـعدت وقامت ولم يُـثقلـها. وقـرأ سعد بـن أبي وقاص، وابـن مسعـود وابن عـباس، والضـحاك: (فاستمرَّت به) وقرأ أُبيٌّ بن كعب، والجوني: ﴿**استمارَّت به**﴾ بزيادة ألف، وقرأ عبدالله بن عمرو، والجـحدري: (فمارَّت به) بألف وتـشديد الراء. وقرأ أبو العـالية، وأيوب، ويحيى بن يعمر: ﴿**فَمَرَتْ بِهِ**﴾ خفيفة الراء، أي: شكّت وتمارت أحلت، أم لا؟ أهـ.

وذكر نحو ذلك الرازي[8].

---

(1) إعراب القرآن ٣/ ٥٠٨.

(2) أخرجه ابن جـرير في «تفسيره» (٩/ ٩٧)، وذكره الـسيوطي في «الدر» (٣/ ٢٧٨) وزاد نسبته لأبي الشيخ.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(3) أخرجه ابن جرير في المـوضع السابق وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٢٧٨). وزاد نـسبته لابن أبي حاتم، فانظر بتخريجنا.

(4) أخرجه ابـن جرير في المـوضع السابـق وذكره الـسيـوطي في «الدر» وزاد نـسبته لابـن أبي حاتم، وعبدبن حميد، وأبي الشيخ.

(5) أخرجه ابن جـرير في الموضع الـسابق وذكره الـسيوطـي في «الدر» (٣/ ٢٧٨) وزاد نسبتـه لابن أبي حاتم.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(6) إعراب القرآن ٣/ ٥٠٨.

(7) زاد المسير ٣/ ٢٣٠.

(8) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ٩٤.

قال القرطبى[(١)]: وقيل: المعنى فـاستمرّ بها الحمل، فهو من المقـلوب؛ كما تقول: أدحلت القَلَـنسوة فى رأسى وقرأ عبدالله بن عـمر (فمارت به) بألف والتخـفيف من مار يمور إذا ذهب وجاء وتصرّف. وقرأ ابن عباس ويحيى بن يَعْمر ﴿فَمَرَتْ بِهِ﴾ خفيفة من المِرْيَة، أى شكّت فيما أصابها هـل هو حمل أو مرض، أو نحو ذلك أهـ. وبنحو هذا ذكر جميع المفسرين.

قوله: ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾.

الإعراب[(٢)]: الفاء عاطفة، ولما رابطة أو حينيه أهـ.

● **التفسير بالمأثور:**

وروى الطبرى: عن السدى فلما أثقلت كبر الولد فى بطنها[(٣)].

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبرى[(٤)]: يعنى بقوله: ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ فلما صار ما فى بطنها من الحمل الذى كان خفيفاً ثقيـلاً ودنت ولادتها يقال منه أثقلت فلانه إذا صارت ذات ثقـل بحملها كما يقال أثْمر فلان إذا صار ذا تمر أهـ.

قال البغوى[(٥)]: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ أى: كبر الولد فى بـطنها، وصارت ذات ثقل بحملها ودنت ولادتها أهـ.

قال الزمخشرى[(٦)]: ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ حان وقت ثقل حملهـا كقولك أقربت وقرىء أُثقلت على البناء للمفعول أى أثقلها الحمل أهـ.

فال ابـن الجوزى[(٧)]: ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ أى: صار حـملاً ثقـيلاً: وقال الأخـفش: صارت ذا ثقل. يقال أثمرنا، أى: صدنا ذوى ثمر أهـ.

قال القرطبى[(٨)]: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ صارت ذات ثِقل، كما تقول: أثمر النخل. وقيل: دخلت فى الثّقل، كما تقول: أصبح وأمسى أهـ.

قال الشوكانى: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ فإن معـناه: فلما صارت ذات ثـقل لكبر الـولد فى بطنها.

(١) تفسير القرطبى ٤/ ٢٧٧٣.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٥٠٨.
(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ٩٨).
(٤) المصدر السابق.
(٥) معالم التنزيل ٢/ ٥٨١.
(٦) الكشاف ٢/ ١٠٩.
(٧) زاد المسير ٣/ ٢٣٠.
(٨) تفسير القرطبى ٢/ ٢٧٧٤.

قال السعدى[1]: ﴿فَلَمَّا﴾ استمرت، و ﴿أَثْقَلَت﴾ به حين كبر فى بطـنها، فحينئذ صار فى قلـوبهما الشفقة عـلى الولد، وعلى خروجـه حياً، صحيحاً، سالمـاً لا آفة فيه. لذلك ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ الآية أهـ.

قال صاحب الظلال[2]: لقد تبين الحمل، وتعلَّـقت به قلوب الزوجين، وجاء دور الطمع فى أن يكون المولود سليماً صحيـحاً صبوحاً. . إلى آخر ما يطمع الآباء والأمهات أن تكون علـيه ذريتهم، وهى أجـنة فى ظلام البطـون وظلام الغيوب. . . وعنـد الطمع تستيقظ الفطـرة، فتتوجه إلى الله، تعترف له بالربوبية وحده، وتـطمع فى فضله وحده، لإحساسها اللدنى بمصدر القوة والنعـمة والإفضال الوحيد فى هذا الوجود. لذلك ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. . أهـ.

قوله: ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾.

قال الإعراب [3]: الفاء عاطفة، ولما رابطة أو حيـنية، ودعوا الله فعل ماض وفاعل ومفعول به وربهما بدل أهـ.

● **أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[4]: ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يقول نادى آدم وحواء ربهمـاوقالا يا ربنا لئن أتيتنا. . الآية أهـ.

قال البغوى[5]: ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يعنى آدم وحواء أهـ.

قال الزمخشرى[6]: ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا آدم وحواء ربهما ومـالك أمرهما الذى هو الحقيقى بأن يُدعى ويلتجأ إليه أهـ.

قال ابن الجوزى[7]: يعنى آدم وحواء أهـ.

قال الرازى[8]: يعنى آدم وحواء أهـ.

---

(1) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥.
(2) ٣/ ١٤١٢.
(3) إعراب القرآن ٣/ ٥٠٨.
(4) تفسير الطبرى ٦/ ٩/ ٩٨.
(5) معالم التنزيل ٢/ ٥٨١.
(6) الكشاف ٢/ ١٠٩.
(7) زاد المسير ٣/ ٢٣٠.
(8) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ٩٤.

قال الشوكانى[1]: قوله: ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ جواب لما، أى دعا آدم وحـواء ربهما ومالك أمرهما أهـ.

● **شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين[2]: قوله: ﴿دَّعَوَا اللَّهَ﴾، ولم يقل: دعيا؛ لأنَّ الفعل واوى؛ فعاد إلى أصله.

قوله: ﴿اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أى بالألوهية والربوبية؛ لأنَّ الدعاء يتعلق به جانبان:

الأول: جانب الألوهية من جهة العبد أنه داع، والدعاء عبادة.

الثانى: جانب الربوبية؛ لأن فى الدعاء تحصيلاً للـمطلوب، وهذا يكون متعلقا بالله من حيث الربوبـية. والظاهر أنهما قالا: اللـهم ربنا، ويحتمل أن يكون بـصيغة أخرى أهـ.

قوله: ﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

الإعراب[3]: اللام موطئة للقسم، وجملة القسم مستأنفة لتدل على الجملة القسمية، وإن شرطية، وآتيتنا فعل وفاعل وهو فعل الـشرط، ونا مفعول به، وصالحاً صفة لمفعول محذوف نابت عنه، أى: ولـداً صالحاً، واللام واقعة فى جواب القسم لتـقدمه، ونكونن فعل مـضارع ناقص، مـبنى علـى الفتح، واسمـها ضميـر مستتـر تقديره نـحن، ومن الشاكرين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها، وجملة، لئن أتيتنا تفسيرية لجملة دعوا الله، كأنه قـيل: فما كـان دعاؤهما؟ ما قـالاه، ولك أن تجعلهـا مقولاً لقـول محذوف تقديره: فقالا: لئن أتيتنا، وجملة لنكونون جواب القسم، وجواب الشرط محذوف على ما تقرر أهـ.

● **التفسير بالمأثور:**

روى الطبرى عن الحسن فى قوله: ﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ قال غلاما[4].

وروى عن ابن عباس قال: شفقا أن يكون بهيمة[5].

(١) فتح القدير ٢/ ٢٨٩. (٢) القول المفيد ٢/ ٧٤

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٥٠٨.

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ٩٨) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٧٨). ونسبه لعبدالرزاق، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

وروى **أيضاً** عن أبى البخترى: قال أشفقا أن يكون شيئاً دون الإنسان(١).

وعنه أيضاً أشفقا أن لايكون إنساناً(٢).

قلت: وسيأتى المصنف فى آخر الباب بنفس الأثر عن مجاهد، وقال: وذكر معناه عن الحسن وسعيد. وغيرهما - وسيأتى مزيد لشرحه هناك.

وروى **أيضاً عن أبى صالح** قال: لما حملت امرأة آدم فأثقلت كانا يشفقان أن يكون جهمية فدعوا ربهما لئن آتيتنا صالحاً الآية(٣).

وروى **عن سعيد بن جبير** لما هبط آدم وحواء ألقيت الشهوة فى نفسه فأصابها فليس إلا أن أصابها حملت فليس إلا أن حملت تحرك فى بطنها ولدها قالت ما هذا فجاءها إبليس فقال أترين فى الأرض إلا ناقة أو بقرة أو ضائنة أو ماعزة هو بعض ذلك قالت والله ما منى شىء إلا وهو يضيق عن ذلك قال فأطيعينى وسميه عبدالحرث تلدى شبهكما مثلكما قال فذكرت ذلك لآدم عليه السلام فقال هو صاحبنا الذى قد أخرجنا من الجنة فمات ثم حملت بآخر فجاءها فقال أطيعينى وسميه عبدالحرث وكان اسمه فى الملائكة الحرث وإلا ولدت ناقة أو بقرة أو ضائنة أو ماعزة أو قتلته فإنى أنا قتلت الأول قال فذكرت ذلك لآدم فكأنه لم يكرهه فسمته عبدالحرث فذلك قوله لئن آتيتنا صالحاً يقول شبهنا مثلنا فلما آتاهما صالحاً قال شبههما مثلهما(٤).

وروى **أيضاً** عن السدى فلما أثقلت كبر الولد فى بطنها جاءها إبليس فخوّفها وقال لها ما يدريك ما فى بطنك لعله كلب أو خنزير أو حمار وما يدريك من أين يخرج أمن دبرك فيقتلك أو من قلبك أو ينشق بطنك فيقتلك فذلك حين دعوا الله ربهما لئن أتيتنا صالحاً يقول مثلنا لنكونن من الشاكرين(٥).

● **أقوال المفسرين:**

قال الطبرى(٦): واختلف أهل التأويل فى معنى الصلاح الذى أقسم آدم وحواء عليهما السلام أنه أن آتاهما صالحاً فى حمل خواء لنكونن من الشاكرين فقال بعضهم ذلك هو أن يكون الحمل غلاماً، ثم روى ذلك عن الحسن.

ثم قال: وقال آخرون بل هو أن يكون المولود بشراً سوياً مثلهما ولايكون بهيمة.

ثم روى ذلك عن أبى البخترى وأبى صالح وابن عباس وسعيد ابن جبير والسدى.

ثم قال: والصواب من القول فى ذلك أن يقال إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما

(١، ٢) المصادر السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٣/ ٢٧٧) وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٢٧٧) ونسبه لابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٦) تفسير الطبرى ٦/٩/٩٨

دعوا الله ربهما بحمل حواء وأقسما لإن أعطاهما ما فى بطن حواء صالحاً ليكونان لله من الشاكرين والصلاح قد يشمل معانى كثيرة منها الصلاح فى استواء الخلق ومنها الصلاح فى الدين والصلاح فى العقل والتدبير وإذا كان ذلك كذلك ولا خبر عن الرسول ﷺ يوجب الحجة بأنّ ذلك على بعض معانى الصلاح دون بعض ولا فيه من العقل دليل وجب أن يعم كما عمه الله فيقال أنهما قالا لئن أتينا صالحاً بجميع معانى الصلاح أهـ.

قال الزمخشرى[1]: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا﴾ لئن وهبت لنا ﴿صَالِحًا﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنه وبرىء وقيل ولداً ذكراً لأن الذكورة من الصلاح والجودة والضمير فى أتيتنا ولنكونن لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما أهـ.

قال ابن كثير[2]: ﴿... لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ أى بشراً سوياً وبنحو ذلك ذكر الشوكانى.

قال السعدى[3]: ﴿صَالِحًا﴾ أى: صالح الخلقة تامها، لانقص فيه أهـ.

● **شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين[4]: وقوله: ﴿صَالِحًا﴾، هل المراد صلاح البدن أو المراد صلاح الدين، أى لئن أتيتنا بشراً سوياً ليس فيه عاهة ولا نقص، أو صالحاً بالدين؛ فيكون تقيًا قائماً بالواجبات؟.

الجواب: يشمل الأمرين جميعاً، وكثير من المفسرين لم يذكر إلا الأمر الأول، وهو الصلاح الدينى، لكن لا مانع من أن يكون شاملاً للأمرين جميعاً أهـ.

قلت: وهو ما رجحه الطبرى ولعل من لم يقل بتعميم الصلاح يشمل الدين أيضا قوله تعالى: ﴿ **جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا** ﴾ فلو كان الصلاح دينى أيضاً لما وقع المولود فى هذه الشراكة لكن قد يجاب عن ذلك أن الآية بينت أن هذا كان من جهة الأبوين لا من جهة الولد لاسيما وقد سماه الله صالحا والله أعلم.

قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

الإعراب:

قال ابن عثيمين[5]: قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: من القائمين بشكرك على

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥.

(٤) القول المفيد ٣/ ٧٥.

(٥) القول المفيد ٣/ ٧٥.

هذا الولد الصالح. والجملة هنا جواب قسم وشرط. قسم متقدم وشرط متأخر، والجواب فيه للقسم ولهذا جاء مقروناً باللام. لنكونن أهـ.

● أقوال المفسرين:

قال الطبري[1]: وأما معنى قوله: ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فإنه لنكونن ممن يشكرك على ما وهبت له من الولد الصالح أهـ.

قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾.

● أقوال المفسرين:

قال الزمخشري[2]: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ ما طلباه من الولد الصالح السوى أهـ.

قال الرازي[3]: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ الله أهـ.

قال الشوكاني[4]: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ ما طلباه من الولدالصالح، وأجاب دعاءهما أهـ.

قال السعدي[5]: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه أهـ.

قال ابن عثيمين[6]: قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ هنا حصل المطلوب، لكن النتيجة بالعكس؛ فلم يحصل الشكر الذى وعدا الله به، بل جعلا له شركاء فيما آتاهما أهـ.

قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قال الزمخشري:[7]: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ أى جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامة وكذلك ﴿ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أى آتى أولادهما وقد دلَّ على ذلك بقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريئان من الشرك أهـ.

قال صاحب الإعراب[1]: شركاء مفعول جعلاً، وله جار ومجرور متعلقان

---

(١) تفسير الطبرى ٦/٩/٩٩.
(٢) الكشاف ٢/١٠٩.
(٣) التفسير الكبير ٨/١٥/٩٤.
(٤) فتح القدير ٢/٢٨٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ٢/١٧٢.
(٦) القول المفيد ٣/٧٦.
(٧) الكشاف ٢/١٠٩.
(٨) إعراب القرآن ٣/٥٠٩.

بمحذوف حال، لأنَّه كان فى الأصـل صفة لشركاء وتقدَّم، وفيما جار ومـجرور متعلقان بمحذوف صفة لشركاء، وجملة أتاهما صلة، والمعنى: أتى أولادهما، وقد دل على ذلك قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضميـر، وآدم وحواء بريئان من الشرك والفاء حرف عطف، وجملة تعالى الله عطف علـى خقلكم، وما بينهما اعتراض. ويجوز أن تكون الفـاء استئنافية، والجمـلة مستأنفة، والله فاعـله، وعما جار ومجرور متـعلقان بتعالى، وجملة يشركون لامحل لها لأنها صلة الموصول أهـ.

● **وجوه القراءات فى قوله تعالى: ﴿شُرَكَاءَ﴾.**

قال الطبرى [(١)]: واختلـف القراء فى قـراءة قوله شركاء فـقرأ ذلك عامـة قراء أهل المدينة وبعض المكيين والكوفيين جعلا له شركا بكسر الشين بمعن الشركة.

وقرأه بعض المكـيين وعامة قراء الكوفييـن وبعض البصريين جعلا لـه شركاء بضم الشين بمعنى جمع شريك.

وهذه القراءة أولى القراءتين بالصواب لأن القـراءة لو صحت بكسر الشين لوجب أن يكون الكلام فلما أتاها صالحا جعلا لغيره فيه شركا لأن آدم وحواء لم يدينا بأن ولدهما من عطية إبليس ثم يجعلا لله فيه شركا لتسميتهما إياه بعبد الله وإنما كانا يدينان لاشك بأن ولدهما من رزق الله وعطيـته ثم سمياه عبدالحرث فجعلا لإبليـس فيه شركا بالاسم فلو كانت قـراءة من قرأ شركا صحيحه وجب مـا قلنا أن يكون الكلام جعلا لـغيره فيه شركا.

فذلك قوله ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ قرأ ابن كثيـر، وابن عامر، وأبو عمرو وحـمزة، والكسـائى، وحفص عن عـاصم: (شركاء) بضـم الشين والمـدّ، جمع شريك. وقرأ نافع. وأبو بكر عن عاصم. (شِركاً) مكسورة الشين على المصدر، لا على الجمع. قال أبـو على: من قرأ (شركـاً) حذف المضاف، كأنه أراد: جـعلا له ذا شِرك، وذوى شريك؛ فيكون المعنى: جعلا لغيـره شِركاً، لأنه إذا كان التقدير: جعَلا له ذوى شرك فالمعنى: جعلا لغيره شركاً؛ وهذه القراءة فى المعنى كقراءة من قرأ (شركاء). وقال غيره: معنى (شركاء) وشريكاً. فأوقع الجمع موقع الواحد كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾[(٢)]. والمراد بالشريك إبيليس، لأنهما أطاعاه فى الاسم، فكان الشرك فى الطاعة، لا فـى العبادة؟ ولم يقصدا أن الحارث ربُّهما. لـكن قصدا أنه سبب نجاة ولدهما؛ وقد يُطلَق العبد على من ليس بمملوك. قال الشاعر.

(١) الطبرى ٦/٩/١٠١.

(٢) العمران ١٧٣.

وإنى لعبدُ الضيف ما دام ثاوياً　　وما فىّ إلا تلك من شيمةِ العبد

● **التفسير بالمأثور:**

أولاً من السنة

- **روى الطبرى** عن الحسن عن سمرة بن جندب عن النبى ﷺ قال كانت حواء لايعيش ولدها فنذرت لئن عاش لها ولد لتسمينه عبدالحرث فعاش لها ولد فسمته عبدالحرث وإنما كان ذلك من وحى الشيطان(١).

ثانياً من قول الصحابة والتابعين عن ابن عباس قال كانت حواء تلد لآدم فتعبدهم لله وتسميه عبدالله وعبيدالله ونحو ذلك فيصيبهم الموت فأتاها إبليس وآدم فقال إنكما لو تسميانه بغير الذى تسميانه لعاش فولدت له رجلاً فسماه عبدالحرث ففيه أنزل الله تبارك وتعالى هو الذى خلقكم من نفس واحدة إلى قوله ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ إلى آخر الآية(٢).

قلت: وسيأتى أثر ابن عباس من كلام المصنف فى آخر الباب..

وعن ابن عباس قوله فى آدم هو الذى خلقكم من نفس واحدة إلى قوله فمرت به فشكت أحبلت أم لا فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن أتيتنا صالحا الآية فأتاهما الشيطان فقال هل تدريان ما يولدكما أم هل تدريان ما يكون أبهيمة تكون أم لا وزين لهما الباطل أنه غوى مبين وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان أنكما أن لم تسمياه بى لم يخرج سويا ومات كما مات الاولان فسميا ولدهما عبدالحرث فذلك قوله: ﴿فلمّا آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ الاية(٣).

وقال ابن عباس لما ولد له أول ولد أتاه إبليس فقال إنى سأنصح لك فى شأن ولدك هذا تسميه عبدالحرث فقال آدم أعوذ بالله من طاعتك إنى أطعتك فى أكل الشجرة فأخرجتنى من الجنة فلن أطيعك فمات ولده ثم ولد له بعد ذلك ولداً آخر فقال أطعنى وإلا مات كما مات الأول فعصاه فمات فقال لا أزال أقتلهم حتى تسميه عبدالحرث فلم يزل به حتى سماه عبدالحرث فذلك قوله جعلا له شركاء فيما آتاهما أشركه فى طاعته فى غير عبادة ولم يشرك بالله ولكن أطاعه(٤).

وعن سعيد بن جبير قوله ﴿أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

---

(١) **ضعيف جدا** أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ١١)، والترمذى (٣٠٧٧)، وابن جرير (٩/ ٩٩). وانظر «الاتقان» للسيوطى (٦٤ - بتخريجنا). وسيأتى فى الشرح تعليل ابن كثير وغيره له.

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق، وانظر «الدر» (٣/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ٩٩).

يُشْرِكُونَ﴾ قال: لما حملت حواء فى أوّل ولد ولدته حين أثقلت أتاها إبليس قبل أن تلد فقال يا حواء ما هذا الذى فى بطنك فقالت ما أدرى فقال من أين يخرج من أنفك أو من عينك أو من أذنك قالت لا أدرى قال أرأيت أن خرج سليما أتطيعينى أنت فيما آمرك به قالت نعم قال سميه عبدالحرث وقد كان يسمى إبليس الحرث فقالت نعم ثم قالت بعد ذلك لآدم أتانى آت فى النوم فقال لى كذا وكذا فقال أن ذلك الشيطان فاحذريه فإنه عدونا الذى أخرجنا من الجنة ثم أتاها إبليس فأعاد عليها فقالت نعم فلما وضعته أخرجه الله سليما فسمته عبدالحرث فهو قوله ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١).

وعن عكرمة قال ما أشرك آدم ولا حواء وكان لايعيش لهما ولد فأتاهما الشيطان فقال إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبدالحرث فهو قوله﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾(٢).

وعن قتادة﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ قال: كان آدم عليه السلام لا يولد له ولد إلا مات فجاءه الشيطان فقال: إن سرك أن يعيش ولدك هذا فسمه عبدالحارث ففعل قال فأشركا فى الاسم ولم يشركا فى العبادة(٣).

وعن قتادة ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ ذكر لنا أنه كان لايعيش لهما ولد فأتاهما الشيطان فقال لهما سمياه عبدالحارث وكان من وحى الشيطان وأمره وكان شركا فى طاعته ولم يكن شركا فى عبادته(٤).

عن مجاهد ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال كان لايعيش لآدم وامرأته ولد فقال لهما الشيطان إذا ولد لكما ولد فسمياه عبدالحارث ففعلا وأطاعاه فذلك قول الله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ الآية(٥).

وعن سعيد بن جبير قال قيل له أشرك آدم قال أعوذ بالله أن أزعم أن آدم أشرك ولكن حوّاء لما أثقلت أتاها إبليس فقال لها من أين يخرج هذا من أنفك أو من عينك أو من فيك فقنطها ثم قال أرأيت أن خرج سويا لم يضرك ولم يقتلك أتطيعنى قالت نعم قال فسميه عبدالحرث ففعلت فإنما كان شركة فى الاسم(٦).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ١٠٠، ١٠١).

(٤) المصدر السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٦) المصدر السابق.

عن أُبي بن كعب قال: لما حملت حواء وكان لايعيش لها ولد آتاها الشيطان، فقال: سمياه عبدالحارث يعيش لكما، فسمياه عبدالحارث فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره(١).

عن أُبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان، فقال: أتطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سميه عبدالحارث فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك: فلم تفعل، ثم حملت الثالث فجاءها فقال لها: أن تطيعيني سلم لك، وإلا فإنه يكون بهيمة، فهى بها، فأطاعته(٢).

وعن السدى قال فولدت غلاما يعنى حواء فأتاهما إبليس فقال سموه عبدى وإلا قتلته قال له آدم عليه السلام قد أطعتك وأخرجتنى من الجنة فأبى أن يطيعه فسماه عبدالرحمن فسلط الله عليه إبليس فقتله فحملت بآخر فلما ولدته قال لها سميه عبدى وإلا قتلته قال له آدم قد أطعتك فأخرجتنى من الجنة فأبى فسماه صالحا فقتله فلما أن كان الثالث قال لهما فإذ غلبتم فسموه عبدالحارث وكان اسم إبليس وإنما سمى إبليس حين أبلس فلوا فذلك حين يقول الله ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ يعنى فى التسمية(٣).

وروى عن الحسن ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم(٤).

وقال الحسن عنى بهذا ذرية آدم من أشرك منهم بعده يعنى بقوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾(٥).

وعن قتادة قال كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاد فهوّدوا ونصروا(٦).

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٧٧) ونسبه لعبد بن حميد، وأبى الشيخ.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ. وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ١٠٠، ١٠١).

(٤) المصدر السابق وذكره السيوطى فى «آلدر» (٣/ ٢٧٨) وزاد نسبته لأبى الشيخ.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وانظر «الدر» (٣/ ٢٧٩).

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٧٩) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبرى[1]: اختلف أهل التأويل فى الشركاء التى جعلاها فيما أوتيا من المولود فقال بعضهم جعلا له شركاء فى الاسم ثم قال وقال آخرون بل المعنى بذلك رجل وامرأة من أهل الكفر من بنى آدم جعلا لله شركاء من الآلهة والأوثان حين رزقهما ما رزقهما من الولد وقالوا معنى الكلام هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها أى هذا الرجل الكافر حملت حملا خفيفا فلما أثقلت دعوا الله ربهما قالوا وهذا مما ابتدىء به الكلام على وجه الخطاب ثم رد إلى الخبر عن الغائب كما قيل هو الذى يسيركم فى البر والبحرحتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وقد بينا نظائر ذلك بشواهد فيما مضى قبل.

ثم قال أولى القولين بالصواب قول من قال عني بقوله فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فى الاسم لا فى العبادة وأن المعنى بذلك آدم وحواء لاجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك.

فإن قال قائل فما أنت قائل إذ كان الأمر على ما وصفت فى تأويل هذه الآية وأن المعنى بها آدم وحوّاء فى قوله فتعالى الله عما يشركون أهو استنكاف من الله أن يكون له فى الأسماء شريك أو فى العبادة فإن قلت فى الأسماء دل على فساده قوله أيشركون مالايخلق شيئاً وهم يخلقون وإن قلت فى العبادة قيل لك أفكان آدم أشرك فى عبادة الله غيره.

قيل له أن القول فى تأويل قوله فتعالى الله عما يشركون ليس بالذى ظننت وإنما القول فيه فتعالى الله عما يشرك به مشركو العرب ومن عبدة الأوثان فأما الخبر عن آدم وحواء فقد انقضى عند قوله جعلا له شركاء فيما آتاهما ثم استؤنف قوله فتعالى الله.

ثم أسند عن السدى قوله فتعالى الله عما يشركون يقول هذه فصل من آية آدم خاصة فى ألهة العرب.

وفى نزول وحى الله بقوله جعلا له ما يوضح عن أن الصحيح من القراءة شركاء بضم الشين على ما بينت قبل.

فإن قال قائل فإن آدم وحواء إنما سميا أبنهما عبدالحارث والحارث واحد وقوله شركاء جماعة فكيف وصفهما جل ثناؤه بأنهما جعلا له شركاء وإنما أشركا واحدا.

---

(١) الطبرى ٦/٩/١٠١.

قيل قد دللنا فيما مضى على أن العرب تخرج الخبر عن الواحد مخرج الخبر عن الجماعة إذا لم تقصد واحدا بعينه ولم تسمه كقوله الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم وإنما كان القائل ذلك واحدا فأخرج الخبر مخرج الخبر عن الجماعة إذا لم يقصد قصده وذلك مستفيض في كلام العرب وأشعارها أهـ.

قلت: ولقد أيّد ذلك البغوى.

فقال(١): قوله تعالى: ﴿جعلا له شُركَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قرأ أهل المدينة وأبو بكر شركا بكسر الشين والتنوين. أى شركة.

قال أبو عبيدة: أى حظاً ونصيباً.

وقرأ الآخرون: شركاء بضم الشين ممدوداً على جمع شريك، يعنى إبليس؛ أخبر عن الواحد بلفظ الجمع، أى جعلا له شريكاً إذ سمياه عبدالحارث، ولم يكن هذا إشراكاً فى العبادة. ولا أن الحارث ربهما، فإن آدم كان نبياً معصوماً من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه، وقد يطلق اسم العبد على من لايراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمى نفسه عبدالضيف على وجه الخضوع لا على وجه أن الضيف ربه، ويقول للغير: أنا عبدك، وقال يوسف لعزيز مصر (إنه ربى) ولم يرد به أنه معبوده، كذلك هذا. اهـ.

ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبدمناة وعبد شمس وما أشبه ذلك مكان عبدالله وعبدالرحمن وعبدالرحيم ووجه آخر وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا فى عهد رسول الله - ﷺ - وهم آل قصى ألا ترى إلى قوله فى قصة أم معبد:

فيا لقصى ما زوى الله عنكم ... به من فخار لايبارى وسودد

ويراد هو الذى خلقكم من نفس قصى وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها فلما أتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوى جعلا له شركاء فيما أتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبدالعزى وعبد قصى وعبدالدار وجعل الضمير فى يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما فى الشرك وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه. وقرىء شركاً أى ذوى شرك وهم الشركاء أو أحدنا لله شركا فى الولد أهـ.

قال ابن الجوزى(٢): شرح السبب فى دعائها.

---

(١) معالم التنزيل ٢/ ٥٨٢.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٣٠و ٢٣٢.

ذكر أهل التفسير أن إبليس جاء حواء، فقال: ما يدريك ما فى بطنك، لعله كلب أو خنزير أو حمار، وما يدريك من أين يخرج، أيشق بطنك، أو يخرج من فيك، أو من فخذيك، فأحزنها ذلك، فدعوا الله حينئذ، فجاء إبليس فقال: كيف تجدينك؟ قالت: ما أستطيع القيام إذا قعدت، فقال: أفرأيت إن دعوتُ الله، فجعله إنساناً مثلك ومثل آدم؛ أتسمينه بإسمى؟ قالت: نعم. فلما ولدته سوياً، جاءها إبليس فقال: لم لا تُسَمّينه بى كما وعدتنى؟ فقالت: وما اسمك؟

قال الحارث، وكان اسم إبليس فى الملائكة الحارث، فسمته: عبدالحارث، وقيل: عبدشمس برضى آدم.

وقال مجاهد: كان لا يعيش لآدم ولد: فقال الشيطان: إذا وُلد لكما ولد فسمياه عبدالحارث فأطاعاه فى الاسم. فذلك قوله: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾. هذا قول الجمهور. وفيه قول كان. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال «ما أشرك آدم» إن أول الآية لشكر: وأخرها مثل ضربه الله لمن بعده[1] فى قوله: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ وروى عن قتادة عن الحسن. فقال: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهودوهم ونصَّروهم[2]. وروى عن الحسن. وقتادة قالا: الضمير فى قوله: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ عائد إلى النفس وزوجه من ولد آدم. لا إلى آدم وحواء: وقيل: الضمير راجع إلى الولد الصالح. وهو السليم الخلْق، فالمعنى: جعل له ذلك الولدُ شركاء.

وإنما قيل: ﴿جَعَلا﴾ لأن حواء كانت تلد فى كل بطن ذكراً وأنثى. قال ابن الأنبارى: الذين جعلوا له شركاء اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين هم أولاد آدم وحواء.

فتأويل الآية: فلما آتاهما صالحاً، جعل أولادهما له شركاء فحذف الأولاد وأقامها مقامهم كما قال ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[3] وذهب السدى إلى أن قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فى مشركى العرب خاصة وأنها مفصولة عن قصة آدم وحواء. أهـ.

قال الرازى[4]:- المروى عن ابن عباس ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهى

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٧٩) ونسبه لابن المنذر، وابن أبى حاتم.
(٢) تقدم تخريجه. (٣) يوسف: ٨٢.
(٤) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ٩٠.

نفس آدم ﴿وجعل منها زوجها﴾ أى حواء خلقهـا الله من ضلع آدم عليه السـلام من غير أذى ﴿فلمَّا تغشَّاها﴾ آدم ﴿حملتْ حملاً خفيفًا فمرَّتْ به فلمَّا أثْقَلت﴾ أى ثقل الولد فى بطنها أتـاها إبليس فى صورة رجل وقـال: ما هذا يا حواء أنى اخاف أن يكـون كلباً أو بهيمة أو ما يدريك من أين يخرج؟ أمن دبرك فيـقتلك أو ينشق بطنك؟ فخافت حواء، وذكرت ذلك لآدم عليه السـلام، فلم يزالا فى هم من ذلك، ثم أتـاها وقال: إن سألت الله أن يجعله صـالحاً سوياً مثلك ويسهل خـروجه من بطنك تسميـه عبدالحارث، وكان اسم ابليـس فى الملائكة الحارث فـذلك قوله ﴿فلمَّا آتاهُما صالحا جعلا لهُ شُركاء فيما آتاهُما﴾ أى لما أتاهمـا الله ولداً سوياً صالحاً جـعلا له شريكاً أى جـعل لآدم وحواء له شريكاً، والمراد به الحارث هذا تمام القصة.

ثم قال:

واعلم ان هذا التأويل فاسد ويدل عليه وجوه.

الأول: أنه تعالى قال ﴿فتعالى اللهُ عمَّا يُشْرِكُون﴾ وذلك يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة.

الثانى: أنه تعالى قال بعده ﴿أيُشْرِكُون ما لا يخْلُقُ شيْئًا وهُمْ يُخْلقُون﴾ وهذا يدل على أن المقصـود من هذه الآية الـرد على من جـعل الأصنام شـركاء لله تعالـى، وما جرى لأبليس اللعين فى هذه الآية ذكر.

الثالث: لو كان المراد إبليس لقال: أيشركون من لا يخلق شيئا، ولم يقل مالا يخلق شيئا، لأن العاقل إنما يذكر بصيغة «من» لا بصيغة «ما».

الرابع: أن آدم عليه السلام كان أشد الناس معرفة بابليس، وكان عالما بجميع الاسماء كما قال تعالى ﴿وعلَّمَ آدم الأسْماء كُلَّها﴾ فكان لابد وأن يكون قد عـلم أن اسم ابليس هو الحارث فمع العداوة الشديدة التى بينه وبين آدم ومع علمه بان اسمه هو الحارث كيف سمى ولد نفسه بـعبد الحارث؟ وكيف ضاقت عليه الاسماء حتـى أنه لم يجد سوى هذا الاسم؟

الخامس: أن الواحد منـا لو حصل له ولد يرجـو منه الخير والصلاح، فـجاءه إنسان ودعاه إلى ان يسميه يمثل هذه الاسماء لزجـره وأنكر عليه أشد الانكار فآدم عليه الملام مع نبوته وعلمه الكثير الذى حصل من قوله ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ وتجاربه الكثيرة

التى حصلت له بسبب الزلة التى وقع فيها لأجل وسوسة ابليس، كيف لم يتنبه لهذا القدر وكيف لم يعرف أن ذلك من الأفعال المنكرة التى وجب على العاقل الاحتراز منها.

السادس: ان بتقدير آدم عليه السلام، سماه بعبد الحارث، فلا يخلو إما ان يقال انه جعل هذا اللفظ اسم علم له، أو جعله صفة له، بمعنى انه أخبر بهذا اللفظ أنه عبدالحارث ومخلوق من قبله. فان كان الأول لم يكن هذا شركا بالله لأن اسماء الأعلام والألقاب لا تفيد فى المسميات فائدة، فلم يلزم من التسمية بهذا اللفظ حصول الاشراك، وإن كان الثانى كان هذا قولا بان آدم عليه السلام اعتقد ان لله شريكا فى الخلق والإيجاد والتكوين وذلك يوجب الجزم بتكفير آدم، وذلك لا يقوله عاقل. فثبت بهذه الوجوه ان هذا القول فاسد ويجب على العاقل المسلم أن لا يلتفت اليه.

إذا عرفت هذا فنقول: فى تأويل الآية وجوه صحيحة سليمة خالية عن هذه المفاسد.

التأويل الأول: ما ذكره القفال فقال: إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان ان هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين فى جهلهم. وقولهم بالشرك وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذى خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنسانا يساويه فى الانسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك. فلما آتاهما الله ولدا صالحا سويا جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الاصنام والاوثان كما هو قول عبدة الاصنام.

ثم قال تعالى: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ أى تنزه الله عن ذلك الشرك، وهذا جواب فى غاية الصحة والسداد.

التأويل الثانى: بأن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا فى عهد رسول الله ﷺ وهم آل قصى.

والمراد من قوله ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ**﴾ قصى ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا**﴾ جنسها ﴿**زَوْجَهَا**﴾ عربية قريشية ليسكن اليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوى جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبدالعزى، وعبدقصى، وعبداللات، وجعل الضمير فى (يشركون) لهما ولاعقابهما الذين اقتدوا بهما فى الشرك

التأويل الثالث: أن نسلم أن هذه الآية وردت فى شرح قصة آدم عليه السلام وعلى هذا التقدير ففى دفع هذا الاشكال وجوه.

الأول: أن المشركين كانوا يقولون إن آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام، ويرجع فى طلب الخير ودفع الشرإليها، فذكر تعالى قصة آدم وحواء عليهما السلام، وحكى عنهما أنهما قالا ﴿**لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ أى ذكر أنه تعالى لو آتاهما ولدا سويا صالحا لاشتغلو بشكر تلك النعمة، ثم قال ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ**﴾ فقوله ﴿**جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ**﴾ ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الانكار والتبعيد.

والتقرير: فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آهما؟ ثم قال ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ أى تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه إلى آدم عليه السلام، ونظيره أن ينعم رجل على رجل بوجوه كثيرة من الأنعام، ثم يقال لذلك المنعم: ان ذلك المنعم عليه يقصد ذمك وإيصال الشراليك، فيقول ذلك المنعم: فعلت فى حق فلان كذا وأحسنت إليه بكذا وكذا، ثم إنه يقابلنى بالشر والإساءة والبغى؟ على التبعيد فكذا ههنا.

الوجه الثانى: فى الجواب أن نقول: أن هذه القصة من أولها إلى آخرها فى حق آدم وحواء ولا أشكال فى شىء من ألفاظها إلا قوله ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ فنقول: التقدير: فلما آتاهما ولدا صالحا سويا جعلا له شركاء أى جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه، وكذا فيما آتاهما، أى فيما آتى اولادهما ونظيره قوله ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ أى واسأل أهل القرية.

فان قيل: فعلى هذا التأويل ما الفائدة فى التثنية فى قوله ﴿**جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ**﴾

قلنا: لأن ولده قسمان ذكر وانثى فقوله ﴿**جَعَلَا**﴾ المراد منه الذكر والأنثى مرة عبر عنهما بلفظ التثنية لكونهما صنفين ونوعين، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع وهو قوله ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾

الوجه الثالث: فى الجواب سلمنا أن الضمير فى قوله ﴿**جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ عائد إلى آدم وحواء عليهما السلام، إلا أنه قيل: إنه تعالى لما آتاهما الولد الصالح عزما على أن يجعلاه وقفا على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الاطلاق. ثم بدا لهم فى ذلك، فتارة كانوا ينتفعون به فى مصالح الدنيا ومنافعها، وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله

وطاعته، وهذا العمل وإن كان منا قربة وطاعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فلهذا قال تعالى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمراد من هذه الآية ما نقل عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال حاكيا عن الله سبحانه «**أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملا وأشرك فيه غيرى تركته وشركه**»(١) وعلى هذا التقدير: فالإشكال زائل.

الوجه الرابع: فى التأويل أن نقول: سلمنا صحة تلك القصة المذكورة، إلا أنا نقول: إنهم سموا بعبد الحارث لأجل أنهم اعتقدوا أنه إنما سلم من الآفة والمرض بسبب دعاء ذلك الشخص السمى بالحارث. وقد يسمى المنعم عليه عبدا للمنعم، يقال فى المثل: انا عبد من تعلمت منه حرفا، ورأيت بعض الأفاضل كتب على عنوان: كتابة عبد وده فلان. قال الشاعر:

وإنى لعبد الضسيف مادام ثاويا ... ولاشيمة لى بعدها تشبه العبدا

فآدم وحواء عليهما السلام سميا ذلك الولد بعبد الحارث تنبيها على أنه إنما سلم من الآفات ببركة دعائه، وهذا لا يقدح فى كونه عبدالله من جهة أنه مملوكه ومخلوقه، إلا أنا قد ذكرنا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فلما حصل الاشتراك فى لفظ العبد لا جرم صار آدم عليه السلام معاتبا فى هذا العمل بسبب الاشتراك الحاصل فى مجرد لفظ العبد، فهذا جملة ما نقوله فى تأويل هذه الآية. أ.هـ.

قال القرطبى(٢): قال المفسرون: كان شركاً فى التسمية والصفة، لا فى العبودية والربوبية. وقال أهل المعانى: إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبدالحارث، لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد فسمياه به كما يسمى الرجل نفسه عبد طيفه على وجة الخضوع له، لا على أن الضيف ربُّه؛ كما قال حاتم:

وإنّى لعبد الضيف ما دام ثاوياً ... وما فى إلا تيك من سيمه العبد

وقال قوم: إن هذا راجع إلى جنس الآدميين والتبين عن حال المشركين من ذرية آدم عليه السلام، وهو الذى يُعَوَّل عليه. فقوله ﴿جَعَلَا لَهُ﴾ يعنى الذكر والأنثى الكافرين، ويعنى به الجنسين. ودلّ على هذا ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولم يقل يُشركان هذا قول

(١) تقدم مراراً.

(٢) فى قوله ﷺ: «الشهداء سبعة سوى القتل فى سبيل الله المطعون شهيد والغرق شهيد وصاحب ذات الجنب شهيد والمبطون شهيد والحرِق شهيد والذى يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بُجمْع شهيد» أى تموت وفى بطنها ولد.

حسن وقيل: المعنى ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ من هيئة واحدة وشكل واحد ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى من جنسها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ يعنى الجنسين. وعلى هذا القول لا يكون لآدم وحواء ذكر فى الآية؛ فإذا آتاهما الولد صالحا سليما سويًا كما أراده صرفاه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين. قال ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة- فى رواية الملة- أبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه**»(١). قال عكرمة لم يخص بها آدم، ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعد آدم.

وقال الحسين بن الفضل هذا أعجب إلى أهل النظر؛ لما فى القول الأول من المضاف من العظائم ببنى الله آدم وقرأ أهل المدينة وعاصم «شركًا» على التوحيد. وأبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع على مثل فعلا جميع شريك.

وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى، وهى صحيحة على حذف المضاف أى جعلا له وأشرك؛ مثلُ ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ فيرجع المعنى على أنهم جعلوا له شركه.

ودلّت الآية على أن الحمل مرض من الأمراض روى ابن القاسم ويحيى عن مالك قال: أوّل الحمل بشر وسرور، وأخره مرض من الأمراض وهذا الذى قاله مالك «إنه مرض من الأمراض» يعطيه ظاهر قوله ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ هذه الحالة مشاهدة فى الحُمّال، ولأجل عظم الأمر وشدّة الخطب جعل موتها شهادة. كما ورد فى الحديث. وإذا ثبت هذا من ظاهر الآية فحال الحامل حال المريض فى أفعاله. ولا خلاف بين علماء الأمصار أن فعل المريض فيما يَهَب ويُحابى فى ثلثه.

وقال أبو حنيفة والشافعى (٢): إنما يكون ذلك فى الحامل بحال الطَّلْق، فأما قبل ذلك فلا. واحتجّوا بأن الحمل عادةٌ والغالب فيه السلامة.

قلنا: كذلك أكثر الأمراض غالبه السلامة، وقد يموت من لم يمرَض أ.هـ.

قال ابن كثير(٣): ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ يذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سمرة عن النبى ﷺ قال «**لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبدالحارث فانه يعيش فسمته عبدالحارث فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره**»(٤).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القرطبى ٤/ ٢٧٧٦، ٢٧٧٧.

(٣) ابن كثير ٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٦.

(٤) تقدم تخريجه.

هكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بندار عن عبدالصمد بن عبدالوارث به ورواه الترمذى فى تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبدالصمد به. وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبدالصمد به. وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلامن حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبدالصمد ولم يرفعه، ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبدالصمد مرفوعاً، ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره عن أبى زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً، وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن إبراهيم مرفوعاً: قلت وشاذ هو هلال وشاذ لقبه.

والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه.

(أحدها) أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى وقد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازى لا يحتج به، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً فالله أعلم.

(الثانى) أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبدالأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر بن عبدالله بن سليمان التيمى عن أبى العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال: سمى آدم ابنه عبدالحارث.

(الثالث) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن ﴿**جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ قال كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم[١].

وحدثنا محمد بن عبدالأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال: قال الحسن عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعد يعنى ﴿**جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾[٢] وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا[٣].

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.

وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتى بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم.

فأما الآثار فقال محمد بن إسحق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله ويسميهم عبدالله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال إنكما لو سميتماه بغير الذى تسميانه به لعاش، قال فولدت له رجلاً فسماه عبدالحارث ففيه أنزل الله يقول ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ إلى آخر الآية(١).

وقال العوفى عن ابن عباس قوله فى آدم ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ شكت حملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فأتاهما الشيطان فقال هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل إنه غوى مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان إنكما إن لم تسمياه بى لم يخرج سويا ومات كما مات الأول فسميا ولدهما عبدالحارث فذلك قول الله تعالى ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ الآية(٢).

وقال عبدالله بن المبارك عن شرك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال: قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ﴾ اتاهما إبليس لعنه الله فقال إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتطيعانى أو

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم.

لأجعلن له قرنى أيل(*) فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما فسمياه عبدالحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت يعنى الثانى فأتاهما أيضاً فقال أنا صاحبكما الذى فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن- يخوفهما- فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبدالحارث فذلك قوله تعالى ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ رواه ابن أبى حاتم(١).

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدى وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة **وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب** فإن ابن عباس رواه عن أبى بن كعب كما رواه ابن أبى حاتم، حدثنا أبى حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد يعنى ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها أتطيعينى ويسلم لك ولدك: سميه عبدالحارث، فلم تفعل فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال إن تطيعينى يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة فهيبهما فأطاعا(٢).

وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال **«إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم»**(٣) ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام.

فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله.

ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً.

ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون فى روايته بقوله عليه السلام **«حدثوا عن بنى إسرائيل ولاحرج»**(٤) وهو الذى لا يصدق ولا يكذب لقوله ﴿فلا تصدقوهم ولا

(*) أثبتنا أنها أيل بالياء وليست إبل بالباء لأن الإبل ليس لها قرون أما القرون فهى للأيائل ولهذا لزم التنويه والله أعلم بالصواب.

(١) سيأتى تخريجه. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٣٦)، وأبو داود (٣٦٤٤) عن أبى نملة الأنصارى به.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٦١) وانظر «النكت المتممة لمقدمة ابن تمية» (٩٣ ـ للمؤلف).

تكذبوهم﴾، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله فى هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثم قال فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ الآية، ومعلوم أن المصابيح وهى النجوم التى زينت بها السماء ليست هى التى يرمى بها وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ولهذا نظائر فى القرآن والله أعلم. أهـ.

قال السعدى[1] ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أى: جعلا لله شركاء فى ذلك الولد، الذى انفرد الله بإيجاده، والنعمة به، وأقرَّ به أعين والديه، فعبَّداه لغير الله

إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ «عبدالحارث» و «عبدالعزى» و «عبدالكعبة» ونحو ذلك.

أو يشركا فى الله فى العبادة، بعد ما منَّ الله عليهما بما منَّ به، من النعم التى لا يحصيها أحد من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام، فى آدم وحواء.

ثم انتقل الكلام فى الجنس.

ولا شك أن هذا موجود فى الذرية كثيراً، فلذلك قررهم الله على بطلان الشرك، وأنهم فى ذلك، ظالمون، أشد الظلم، سواء كان الشرك فى الأقوال، أم فى الأفعال فإن الله، هو الخالق لهم، من نفس واحدة، الذى خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة، ما يسكن بعضهم إلى بعض، ويألفه، ويلتذ به.

ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة، والأولاد، والنسل.

ثم أوجد الذرية فى بطون الأمهات، وقتاً موقوتاً، تتشوف إليه نفوسهم ويدعون الله أن يخرجه سوياً صحيحاً، فأتم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم.

أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا فى عبادته أحداً، ويخلصوا له الدين. أهـ.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥، ١٧٦.

قال الشنقيطى[1]: فى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، والقرآن يشهد لأحدهما.

الأول: أن حواء كانت لا يعيش لها ولد فحملت: فجاءها الشيطان، فقال لها سمى هذا الولد عبدالحارث فإنه يعيش، والحارث من أسماء الشيطان، فسمته عبدالحارث فقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا**﴾ أى ولداً إنساناً ذكراً جعلا له شركاء بتسميته عبدالحارث، وقد جاء بنحو هذا حديث مرفوع وهو معلول كما أوضحه ابن كثير فى تفسيره.

الوجه الثانى: أن معنى الآية أنه لما أتى آدم وحواء صالحاً أشرك ذريتها بعد ذلك كثير منهم، وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء، لأنهما أصل لذريتهما كما قال: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ**﴾ أى بتصويرنا لأبيكم آسدم لأنه أصلهم بدليل قوله بعده ﴿**ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ**﴾ ويدل لهذا الوجه الأخير أنه تعالى قال بعده. ﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾ وهذا نص قرآنى فى صريح فى أن المراد المشركون من بنى آدم.

لا آدم وحواء- واختار هذا الوجه غير واحد لدلالة القرآن عليه، وممن ذهب إليه الحسن البصرى.

واختاره ابن كثير ـ والعلم عند الله تعالى. أ.هـ.

قال صاحب الظلال[2]: إن بعض الروايات فى التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء.. إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين. فجاء إليهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمى ما فى بطنها «عبدالحارث».. والحارث اسم لإبليس. ليولد صحيحاً ويعيش؛ ففعلت وأغرت آدم معها! وظاهر ما فى هذه الرواية من طابع إسرائيلى ذلك أن التصور الإسرائيلى المسيحى كما حرفوا ديانتهم ـ هو الذى يلقى عبء الغواية على حواء، وهو مخالف تماماً للتصور الإسلامى الصحيح.

ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات لتفسير هذا النص القرآنى.. فهو يصور مدارج الانحراف فى النفس البشرية.. ولقد كان المشركون على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ وقبله، ينذرونه بعض أبنائهم للآلهة، أو لخدمة معابد الآلهة! تقرباً وزلفى إلى الله ! ومع

---

(١) أضواء البيان ٢/ ٢٥٤ و ٢٥٥.

(٢) «الظلال» (٣/ ١٤١٢)..

توجههم فـى أول الأمر لله، فإنهم بعد دحرجة مـن قمة التوحيد إلى درك الوثـنية كانوا ينذرون لهذه الآلهة أبناءهم لتعيش وتصح وتوقى المخاطر! كما يجعل الناس اليوم نصيباً فى أبدان أبنائـهم للأولياء والقديسين. كـأن يستبقوا شعر الغـلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريـح ولى أو قديس. أو أن يستبقـوه بلا ختان حتى يختن هـناك. مع أن هؤلاء الناس اليوم يـعترفون بالله الواحد. ثم يتـبعون هذا الإعتراف بهذه الإتجـاهات المشركة. والناس هم الناس!

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

وتنزه عن الشـرك الذى يعتقدوهن ويزاولونـه! على أننا نرى فى زماننـا هذا صنوفاً وألواناً من الشرك، ممن يـزعمون أنهم يوحدون الله ويسلمون له، تـرسم لنا صورة من مدارج الشرك التى ترسمها هذه النصوص.

إن الناس يقـيمون لهم اليوم آلهـة يسمونها (القوم) ويـسمونها (الوطن). ويسـمونها (الشعب). إلى أخـر ما يسمون. وهى لاتعدو أن تـكون أصناماً غير مجـسدة كالأصنام الساذجة التى كان يقيمها الوثنيون.

ولا تعدو أن تكون ألهة تشارك الله- سبحانه- فى خلقه، وينذر لها الأبناء كما كانوا ينذرون للآلهة القديمـة أو يضحون لها كالذبائح التى كانت تقدم فـى المعابد على نطاق واسع!

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين[1] قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾.

الذين يُرجّحون أن المراد بالصلاح صلاح البدن يقولون إنه قال: **﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾**.

والجواب متعقـب للشرط وهذا يدل على أن الـشرك منهما حصل حـين الإتيان وهو صغير، ومثل هذا لا يعـرف أيصلح فى دينه فى المستقبل أم لا يصـلح؟ ولهذا كان أكثر المفسرين على أن المراد بالصلاح الصلاح البدنى.

فمعاهدة الإنسـان ربه أن يفعل العبادة مقابـل تفضل الله عليه بالنعـمة الغالب أنه لا يفى بها؛ ففى سورة التوبة قال تعالى: **﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ**

(١) القول المفيد ٣/ ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩و ٨٠.

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وفى هذه الآية قال تعالى: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ﴾؛ فكانا من المشركين لا من الشاكرين، وبهذا نعرف الحكمة من نهى النبى ﷺ عن النذر؛ لأن النذر معاهدة مع الله ـ عز وجل ـ، ولهذا نهى النبى ﷺ عن النذر وقال: «إنه لا يأتى بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»(١)، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى تحريم النذر، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يميل إلى تحريم النذر؛ لأن رسول الله ﷺ نهى عنه ونفى أنه يأتى بخير.

إذاً ما الذى نستفيد من أمرٍ نهى عنه الرسول ﷺ وقال إنه لا يأتى بخير؟

الجواب: لا نستفيد إلا المشقة على أنفسنا وإلزام أنفسنا بما نحن منه فى عافية، ولهذا؛ فالقول بتحريم النذر قول قوى جداً، ولا يعرف مقدار وزن هذا القول إلا من عرف أسئلة الناس وكثرتها ورأى أنهم يذهبون إلى كل عالم لعلهم يجدون خلاصاً مما نذروا.

قوله: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾.

هذا الولد الذى آتاهما الله ـ عز وجل ـ كان واحداً؛ فكيف جعلا فى هذا الولد الواحد شِرْكاً بل شركاء؟

نقول هذا على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يعتقدا أن الذى أتى بهذا الولد هو الولى الفلانى أو الصالح الفلانى؛ فهذا شرك أكبر لأنهما أضافا الخلق إلى غير الله.

ومن هذا أيضاً ما يوجد عند بعض الأمم الإسلامية الآن؛ فتجد المرأة التى لا يأتيها الولد تأتى إلى قبر الولى الفلانى، كما يزعمون أنه ولى الله ـ والله أعلم بولايته ـ، فتقول: يا سيدى فلان! أعطنى الولد.

الوجه الثانى: أن يضيف سلامة المولود ووقايته إلى الأطباء وإرشاداتهم وإلى القوابل وما أشبه ذلك، فيقولون مثلاً: سَلِمَ هذا الولد من الطلق؛ لأن القابلة امرأة متقنة جيدة؛

(١) تقدم تخريجه.

فهنا أضاف النعمة إلى غير الله، وهذا نوع من الشرك ولا يصل إلى حد الشرك الأكبر؛ لأنه أضاف النعمة إلى السبب ونسى المسبب وهو الله- عز وجل.

الوجه الثالث: أن لا يشرك من ناحية الربوبية، بل يؤمن أن هذا الولد خرج سالماً بفضل الله ورحمته، ولكن يشرك من ناحية العبودية؛ فيقدم محبته على محبة الله ورسوله ويلهيه عن طاعة الله ورسوله، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾(١)؛ فكيف تجعل هذا الولد نداً لله فى المحبة وربما قدمت محبته على محبة الله، والله هو المتفضل عليك به؟!

قلت: وهناك وجه رابع أن يجعل شركاء فى تربيته فلايربى الولد على منهج الله ورسوله ولكن على مناهج اليهود والنصارى والمجوس وفى هذا وغيره قال ﷺ «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(٢) الحديث اهـ.

ولهذا قال: ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا**﴾؛ ففيه نقد لاذع أن يجعل فى هذا الولد شريكا مع الله، مع أن الله هو المتفضل به، ثم قال: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾؛ أى: ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

فالآية صريحة وواضحة دالة على أن قوله: ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾؛ أى: من جنس واحد، وليس فيها تعرُّض لآدم وحواء بوجه من الوجوه، ويكون السياق فيها جارياً على الأسلوب العربى الفصيح الذى له نظير فى القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾(٣)؛ أى: من جنسهم، وبهذا التفسير الواضح البيِّن يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة.

أما على القول الثانى بأن المراد بقوله تعالى: ﴿**مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾؛ أى: آدم. ﴿**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾(٤)؛ أى: حواء؛ فيكون معنى الآية خلقكم من آدم وحواء.

فلما جامع آدم حواء حملت حملاً خفيفاً، فَمرَّت به، فلما أثقلت دعوا - أى آدم

---

(١) التغابن: ١٥.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) آل عمران: ١٦٤.

(٤) الأعراف:

وحواء - الله ربهما: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، فأشرك آدم وحواء بالله، لكن يقولون: إشراك طاعة لا إشراك عبادة، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهذا التفسير منطبق على المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما، وسنبين - إن شاء الله تعالى - **وجه ضعفه وبطلانه**. **قلت**: أى فى آخر الباب.

وهناك قول ثالث: أن المراد بقوله تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ أى: آدم وحواء، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ انتقل من العين إلى النوع؛ أى: من آدم إلى النوع الذى هو جنس بنى آدم، أى: فلما تَغَشَّى الإنسان الذى تسلسل من آدم وحواء زوجته... إلى آخره، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالجمع ولم يقل عما يشركان، ونظير ذلك فى القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾، أى: جعلنا الشهب الخارجة منها رجوماً للشياطين وليست المصابيح نفسها، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ أى جعلناه بالنوع فأول الآية فى آدم وحواء، ثم صار الكلام من العين إلى النوع.

وهذا التفسير له وجه. وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شىء من الركاكة لتشتت الضمائر.

وأما قوله تعالى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ فجمع لأن المراد بالمثنى اثنان من هذا الجنس، فصح أن يعود الضمير إليهما مجموعاً؛ كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ ولم يقل: اقتتلتا، لأن الطائفتين جماعة. أهـ.

قلت: خلاصة القول هو ما قاله ابن كثير من ضعف رواية ابن جندب مرفوعاً وفيها إغراء وإغواء إبليس بتسمية آدم وحواء ولدهما عبدالحارث، أما الموقوف، فعلى فرض صحته عن ابن عباس فهو مما أخذه عن أهل الكتاب وقد نهينا أن نأخذ عنهم إلا ما وافق الحق الذى معنا ولولا أنى شرطت أن أفسر الآية بما جاء فيها من آثار ولو لا أن المصنف نفسه أوردها كما سيأتى ما سودت كتابى بذكر هذه الآثار لأن تسويد الورق من تسويد الصحف والقلوب، نسأل الله أن يبيض وجوهنا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

قال ابن حزم: «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسم مُعبَّد لِغَيْرِ الله؛ كَعَبْدِ عَمْرٍ، وَعَبْدِ الكَعْبَةِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ المُطَّلِبِ».

قلت: وقول ابن حزم هذا في كتابه «مراتب الإجماع» ونقله عنه ابن القيم في كتابه «تحفة المودود»(١).

قوله : «قال ابن حزم».

قال سليمان آل الشيخ(٢): هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري المشهور صاحب كتاب (الإجماع) (الإيصال» و(المحلى) وغيرهما من المصنفات أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٣): هو عالم الأندلس صاحب التصانيف. أهـ.

قوله «اتفقوا».

قال سليمان آل الشيخ (٤): الظاهر أن المراد أجمعوا، فمقصوده حكاية الإجماع لاحكاية الاتفاق على طريقة المتأخرين.

قال ابن عثيمين(٥): أي أجمعوا والإجماع أحد الأدلة الشرعية التي تثبت بها الأحكام، والأدلة هي الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

قوله: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد عمر، وعبدالكعبة».

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٦): حكى ـ رحمه الله ـ اتفاق العلماء على تحريم كل ماعبد لغير الله؛ لأنه شرك في الربوبية والإلهية؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له. استعبدهم لعبادته وحده، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته، فمنهم من عبدالله ووحدَّه في ربوبيته وإلهيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقرَّ له بربوبيته وأسمائه وصفاته، و أحكامه القدرية جارية عليهم ولابد كما قال تعالى **﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾** فهذه هي العبودية العامة. وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة، كما قال تعالى **﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾** ونحوها. أهـ

قوله : «وما أشبه ذلك»

---

(١) تحفة المودود (ص٨).
(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٧٥.
(٣) فتح المجميد ٦١٦.
(٤) تيسرالعزيز الحميد ٤٧٥.
(٥) القول المفيد ٣/ ٨٠.
(٦) فتح المجيد ٦١٧.

قال ابن عثيمين(١): مثل : عبد الحسين، وعبدالرسول، وعبدالمسيح، وعبد على
وأما قوله ﷺ«**تعس عبدالدينار، وتعس عبدالدرهم...**»(٢).الحديث ؛ فهذا وصف وليس علماً، فشبه المنهمك بمحبة هذه الأشياء المقدم لها على مايرضى الله بالعابد لها، و كقولك عابد الدينار؛ فهو وصف، فلا يعارض الإجماع أهـ.

قوله «حاشا عبدالمطلب».

قال سليمان آل الشيخ(٣):قوله : حاشا عبدالمطلب

قال ابن القيم : لاتحل التسمية بعبد على، وعبدالحسين، ولاعبدالكعبة.

وقد روى ابن أبى شيبة عن هانىء بن شريح قال: وفد على النبى ﷺ قوم فسمعهم يسمون رجلا عبدالحجر فقال له:«ماسمك» قال : عبد الحجر. فقال له رسول الله ﷺ : «إنما أنت عبد الله»(٤).

فقيل: كيف يتفقون على تحريم الاسم المعبد لغير الله؟

وقد صح عنه ﷺ«**تعس عبدالدينار**» الحديث (٥).

وصح عنه أنه قال: «أنا النبى لاكذب أنا ابن عبدالمطلب»(٦).

فالجواب: أما قوله «**تعس عبدالدينار**» فلم يرد الاسم، وإنما أراد به الوصف والدعاء على من يعبد قلبه للدينار والدرهم؛ فرضى بعبوديتهما عن عبودية الله تبارك وتعالى.

وأما قوله :«**أنا ابن عبدالمطلب**» فهذا ليس من باب إنشاء التسمية بذلك، وإنما هو من باب الإخبار بالإسم الذى عرف به المسمى دون غيره. والإخبار بمثل ذلك على وجه تعريف المسمى لايحرم .ولاوجه لتخصيص أبى محمد ابن حزم ذلك بعبد المطلب خاصة، فقد كان أصحابه يسمون بعبد شمس، وبنى عبدالدر بأسمائهم، ولاينكر عليهم النبىﷺ ذلك. فباب الأخبار أوسع من الإنشاء فيجوز فيه ما لايجوز فى الإنشاء. انتهى ملخصاً،وهو حسن، ولكن بقى إشكال وهو أن فى الصحابة من اسمه المطلب بن ربيعة ابن الحارث بن عبدالمطلب.

(١) القول المفيد ٣/ ٨١

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تيسير العزيز ٤٧٥

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٦/ ١٥٩/ ٩).

(٥) تقدم

(٦) تقدم تخريجه.

فالجواب: أما من اسمه عبد شمس فغيره النبى ﷺ إلى عبد الله كما ذكروا ذلك فى تراجمهم، وأما المطلب بن ربيعة فذكر ابن عبدالبر أن اسمه عبدالمطلب وقال : كان على عهد رسول الله ﷺ يغير اسمه فيما علمت.

وقال ابن حجر: وفيما قاله نظر، فإن الزبير أعلم من غيره بنسب قريش، ولم يذكر أن اسمه إلا المطلب، وقد ذكرالعسكرى أن أهل النسب إنمايسمونه المطلب.

وأما أهل الحديث فمنهم من يقول :المطلب، ومنهم من يقول : عبدالمطلب .و أما عبد يزيد أبو ركانة فذكره الذهبى فى«التجريد» وقال أبوركانة: طلق امرأته وهذا لايصح. والمعروف أن صاحب القصة ركانة.

وروى حديثه أبو داود، فى «السنن» عن ابن عباس قال: طلّق عبد يزيد أبو ركانة وإخوته أم ركانة وذكر الحديث (١)، ثم قال : وحديث نافع بن عجير، وعبدالله بن على بن يزيد بن ركانة عن أبيه عن جده أن ركانة طلق امرأته البتة، فجعلها النبى ﷺ، واحدة أصح؛ لأنهم ولد الرجل وأهله، وهم أعلم به. فقد تبين أنه ليس فى الصحابة من أولاء، من تصح له صحبته. فعلى هذا لاتجوز التسمية بعبد المطلب ولا غيره، مما عبد لغير الله، وكيف تجوز التسمية وقد أجمع العلماء على تحريم التسمية بـ: عبد النبى، وعبدالرسول،وعبدالمسيح، وعبد على، وعبد الحسين، وعبد الكعبة؟ وكل هذه أولى بالجواز من عبدالمطلب لوجاز التسمية به. وأيضاً فقد نص النبىﷺ على أن التسمية بعبد الحارث من وحى الشيطان، وأمره بعبد المطلب كعبد الحارث، لافرق بينهما. إلا أن أصدق الأسماء الحارث وهمام، فلعله أولى بالجواز. لايقال : إن الحارث اسم للشيطان؛ لأنه وإن كان اسماً له فلا فرق فى ذلك بين جميع من اسمه الحارث . فلا يجوز التسمية به وإن نوى عبدالحارث بن هشام أو غيره.

فإن قلت : إذا كان ابن حزم قد حكى الإجماع على جواز التسمية بعبد المطلب فكيف يجوز خلافه؟

قلت ـ سليمان آل الشيخ: كلام ابن حزم ليس صريحاً فى حكاية الإجماع على جواز ذلك بعبد المطلب؛ فإن لفظة اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغيرالله، كعبد العزى وعبد هبل، وعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك حاشاً عبدالمطلب. واتفقوا على إباحة كل اسم بعد ما ذكرنا مالم يكن اسم نبى، واسم ملك إلى آخركلامه. فيحتمل

(١) [مضطرب] أخرجه أبوداود (١١٧٧)، والترمذى (١١٧٧)، وابن ماجه (٢٠٥١).
وانظر «السلسبيل» (٢١٦٧ ـ بتخريجنا).

أن مراده حكاية الخلاف فيه، ويكون التقدير : اتفقوا عـلى تحريم كل اسم معبدلغير الله حاشا عبـد المطلب، أى: فإنهم لـم يتفقوا على تحريـمه، بل اختلفوا، ويـؤيده أنه قال بعده: واتفقوا على إباحة كل اسم بعدماذكرنا إلى آخره. ويكون المراد حاشا عبدالمطلب، فلا أحفظ ماقالوا فـيه، ويكون سكوتا منه عن حكاية إجمـاعاً، أو خلاف فيه ، وعلى تقدير أن مراده حكايـة الإجماع من جواز ذلك، فليس كل من حكى إجـماعاً يسلم له، ولاكل إجماع يكون حجة أيضاً، فكيف والخلاف موجود، والسنة فاصلة بين المتنازعين؟ وغاية حجـة من أجازه قوله علـيه السلام: **«أنا ابن عبـدالمطلب»** ونحوه، أو أن بـعض الصحابة اسمه عـبدالمطلب. وقد تقدم الجواب عن ذلك، وأيضـاً فلو كان قوله: **«أنا ابن عبدالمطلب»**. حجة على جواز التـسمية به لكان قوله: إنما بنو هاشـم، وبنو عبد مناف شيء واحد حجة علـى جواز التسمية بعبد مـناف، ولكن فرق بين إنشاء التـسمية وبين الأخبار بذلك عمن هو اسمه . أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[1]: قوله :«حاشا عبدالمطلب».

هذا استثـناء من العموم المـستفاد من «كل» وذلك أن تـسميته بهـذا الإسم لا محذور فيها، لأن أصله من عبودية السرق، وذلك أن المـطلب أخو هاشم قدم المدينة،و كان ابن أخيه «شيـبة» هذا قد نشأ فـى أخواله بنى النجـار من الخزرج، لأن هاشماً تـزوج فيهم امرأة، فجاءت منه بهذا الابن. فلما شب فى أخواله، وبلغ سن التمييز سافر به عمه عبد المطلب إلى مكة بلـد أبيه وعشيرته، فقدم به مكة وهو رديفه، فـرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر، فحسبوه عبداً للمطلب، فقالوا: هذا عبدالمطلب، فعلق به هذا الإسم وركبه، فصار لايذكر ولايدعى إلا به، فلم يبق للأصل معنى مقصود.

وقد قال النى ﷺ ، **«أناابن عبدالمطلب»**[2]. وقد صارمعظمـاً فى قريش والعرب، فهم سيد قـريش وأشرفهم فى جاهليـته، وهو الذى حفر زمزم وصارت له الـسّقاية وفى ذريته من بعده. أهـ.

قال ابن عثيمين [3]:قوله «حاشا عبد المطلب»

حاشا الاستثنائية إذا دخلت عليها (مـا) وجب نصب مابعدها، وإلا جاز فيه النصب والجر.

وبالنسبة لعبد المطلب مستثنى من الإجماع على تحريمه؛ فهو مختلف فيه، فقال بعض أهل العلم: لايمكن أن نقول بالتحريم والرسول ﷺ قال:

---

(١) فتح المجيد ٦١٧/٦١٨..

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد ٣/ ٨١،٨٢.

وعَن ابنِ عبَّاس فى الآيـة؛ قال: «لَمَّا تَـغشَّاها آدمُ؛ حَـملَتْ، فَأتَـاهُمَا إبْلـيسُ، فَقَالَ: إنِّى صَـاحِبُكُمَا الَّذى أَخْرجَـكُمَا منَ الجَنَّة، لَتُطِـيعَانِّني أو لأَجْعَلَـنَّ لَهُ قَرنَى إيَّل، فَـيَخرُجَ مِـنْ بَطنـكَ، فَيَشُـقه، ولأَفْعَلَـنَّ ولأفعلَـن؛ يُخَوِّفُـهمَا، سَـمِّيَاه عَـبدَ الحَارث، فَأبَيَا أَنْ يُطِـيعَاهُ فَخرَجَ مَيتاً. ثُمَّ حَمـلَت فَأتَاهُمَا، فَذَكَر لَهُمَـا، فَأدرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَد، فَسَمَّيَاهُ عَبدَ الحَارث؛ فَذَلكَ قَولُهُ: ﴿جعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾. رَوَاهُ ابْنُ أَبِى حَاتِم(١).

«أنا النبى لاكذب   أنا ابن عبدالمطلب»(٢).

فالنبى ﷺ لايفعل حراماً؛ فيجوز أن يعبد للمطلب إلا إذا وجد ناسخ، وهذا تقرير ابن حزم ـ رحمـه الله ـ، ولكن الصواب تحريـم التعبيد لـلمطلب؛ فلا يـجوز لأحد أن يسمى ابنه عبدالمطلب، وأما قوله ﷺ: «أنا ابن عبدالمطلب»؛ فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، فالنـبى ﷺ أخبر أن له جداً اسمه عبدالمطلـب، ولم يرد عنه ﷺ أنه سمـى عبدالمطـلب، أوأنه أمر أحـد صحابتـه بذلك، ولا أنـه أقر أحداً علـى تسميـته عبدالمطلب، والكلام فى الحكم لافى الإخبـار، وفرق بين الأخبار وبين الإنشاء والإقرار، ولهذا قال الـنبى ﷺ: «إنما بنو هـاشم وبنو وعبد مـناف شىء واحد» ولايجوز التسمى بعبد مناف.

وقد قال العلماء: إن حاكى الكفر ليس بكافر؛ فالرسول ﷺ يتكلم عن شىء قد وقع وانتهى ومضى؛ فالصواب أنه لايجوز أن يعبد لـغير الله مطلقاً لابعبد المطلب ولاغيره، وعليه؛ فيكون التعبيد لغير الله من الشرك. أهـ.

قوله: [وعن ابن عباس فى الآية؛ قال: لما تغشاها آدم؛ حملت....].

[قلت]: تقـدم أثر ابن عبـاس فى تفسـير الآية من عـند ابن جريـر وغيره بألـفاظ متقاربة، ويروى بأكثر من إسناد.

قلت: أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وسعيد بن منصور، وابن المنذر.

قال القرعاوى(٣): حيث دل الأثر على أن التعبد لغير الله فى الأسماء شرك. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٥/ ١٦٣٤/ ٨٦٥٤).
من طريـق عبدالله بن المبارك، عن شريك، عـن خصيف، عـن سعيد بن جـبير، عن ابـن عباس ..... فذكره.
وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٧٧) ونسبه لسعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس.
وانظر فتح القدير» (ح ٥٤١٢ ـ بتخريجنا). و«فتح المجيد» (٦ ٨٠) بتخريجنا.
(٢) تقدم تخريجه.   (٣) الجديد ٤٠٢

قال ابن عثيمين[1]: قوله: [وعن ابن عباس في الآية قال: لما تغشاها. . . .] إلخ.

مناسبة الأثر للباب وللتوحيد:

قوله: «في الآية» أي: المترجم لها.

قوله: ﴿تغشاها﴾ أي: حواء، أي: وطئها عليهما السلام.

قوله: «فأتاهما أبليس»

على وزن إفعيل، فقيل: من أبلس إذا يئس؛ لأنه يئس من رحمة الله.

قوله: «فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني».

جملة قسمية؛ أي: والله لتطيعاني. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]:

قوله: «أو لأجعلن له» أي: لولد كما.

قوله: «قرني أيل». هو بالتثنية أو الإضافة، وأيل بفتح الهمزة وكسر المثناة التحتية المشددة ذكر الأوعال، والمعنى: انه يخوفهما بكونه يجعل للولد قرني وعل؛ فيخر من بطنها فيشقه كما قال: فيخرج من بطنك فيشقه.

قوله «ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما» بغير ما ذكر، ويزعم أنه يفعل بهما غير ذلك.

قوله: «سمياه عبدالحارث» قال سعيد بن جبير: كان اسمه في الملائكة الحارث، وكان مراده أن سمياه بذلك، ليكون قد وجد له صورة الاشراك به، فإن هذا من باب كيد إبليس، إذا عجز عن الآدمي أن يوقعه في المعصية الكبيرة، قنع منه بالصغيرة، و أيضاً فإنه يحصل له منهما طاعته كما أطاعاه أول مرة كما روى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: **«خدعها مرتين»** قال: زيد خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض[4].

«فابيا أن يطيعاه فخرج ميتاً» ..الخ

قال سليمان آل الشيخ[3]: هذا والله أعلم من الامتحان فإن الإنسان لاعزم له، وإن عاين ماذا عساه أن يعاين من الآيات إلا بتوفيق الله تعالى. فإن الطبيعة البشرية تغلب عليه كما غلبت على الأبوين مرتين، مع ما وقع لهماقبل من التحذير والإنذار عن كيد

---

(1) القول المفيد ٣/ ٨٣.

(٢-٣) تيسير العزيز الحميد ٤٧٧، ٤٧٨.

(4) ذكره السيوطي في«الدر» (٣/ ٢٧٧) ونسبه لابن أبي حاتم، فانظره بتخريجنا.

إبليس وعداوته لهما، ومع ذلك أدركهما حب الولد فسمياه عبدالحارث، وكان ذلك شركاً فى التسمية وإن لم يقصدا العبادة للشيطان، بل قصدا به فيما ظنا، إما دفع شره عن حواء وإما الخوف على الولد من الموت.

كما روى عبد بن حميد، وابن أبى حاتم، عن أُبى بن كعب قال: لماحملت حواء أتاها الشيطان فقال: أتطيعيني ويسلم ولدك؟ سميه عبدالحارث فلم تفعل فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل. ثم حملت الثالثة فقال: أتطيعينى يسلم لك ولدك وإلا فإنه يكون بهيمة فهيبها فأطاعاه. رواه ابن ابى حاتم[١].

قلت ـ يعنى سليمان ال الشيخ ـ: وإسناده: صحيح. ورواه سعيد بن منصور وابن المنذر.

وعن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم أولاداً فتعبدهم لله، وتسميه عبدالله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس وآدم فقال :إنكما لو تسميانه بغير ماتسميانه لعاش، فولدت له رجلاً فسمياه عبدالحارث ففيه انزل :﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية. رواه ابن مردويه[٢].



قوله: [وله بسند صحيح عن قتادة، قال: «شركاء فى طاعته، ولم يكن فى عبادته»[٣].

مناسبة الأثر للباب وللتوحيد

قال القرعاوى[٤]: حيث أفاد الأثر أن التعبد لغير الله فى التسمية شرك.

قوله : «شركاء فى طاعته»

قال سليمان آل الشيخ[٥]: قوله: شركاء فى طاعته ولم يكن فى عبادته أى: لكونهما أطاعاه فى التسمية بعبدا لحارث، لا أنهما عبداه فهو دليل على الفرق بين شرك الطاعة وبين شرك العبادة.

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره السيوطى فى«الدر» (٣/٢٧٩) وعزاه بعبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنه. أنظر «فتح القدير» (ح ٥٤٢٣ «وفتح المجيد» (ح٨٠٧) ـ بتخريجنا)

(٤) الجديد ٤٠٢. (٥) تسير العزيز ٤٧٩.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَـنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً﴾؛ قال: أَشْفَقَا أَنْ لاَ يَكُونَ إِنْسَاناً(١).

وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الحَسَنِ(٢) وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا(٣).

قال بعضهم : تفسير قتادة فى هذه الآية بالطاعة، لأن المراد بها على كلام كثير من المفسرين آدم وحواء عليهما السلام، فناسب تفسيرها بالطاعة؛ لأنهما أطاعا الشيطان فى تسمية الولد بعبدالحارث. وقد استشكله بعض المعاصرين بما حاصله أنهم قد فسروا العبادة بالطاعة، فيلزم على قول قتادة أن يكون الشرك فى العبادة.

والجواب: أن تفسيرالعبادة بالطاعة من التفسير اللازم؛ فإنه لازم العبادة أن يكون العابد مطيعاً لمن عبده بها، فلذا فسرت بالطاعة . أو يقال : هومن التفسير بالملزوم وإرادة اللازم أى لما كانت الطاعة ملزوماً للعبادة لازمة لها، فلا تحصل إلا بالطاعة؛ جاز تفسيرها بذلك وهو أصح وبالجملة فلا إشكال فى ذلك بحمد الله.

فإن قلت: قد سمى النبى ﷺ طاعه الأحبار والرهبان فى معصية الله عبادة.

قلت: راجع الكلام على حديث عدى يتضح الجواب. اهـ.

قال ابن عثيمين(٤):أى: أطاعاه فيما أمرهما به، لافى العبادة لكن عبدا الولد لغير الله، وفرق بين الطاعة والعبادة، فلو أن أحداً أطاع شخصاً فى معصية لله لم يجعله شريكاً مع الله فى العبادة، لكن أطاعه فى معصية الله. اهـ.



قوله «أشفقا أن لايكون إنساناً»

قال سليمان آل الشيخ(٥): قوله: «أشفقا» أى: خافا أى : آدم وحواء أن لايكون إنساناً.

قال أبو صالح :أشفقا أن يكون بهيمة فقال: لئن آتيتنا بشراً سوياً. رواه ابن أبى

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٨٦٤٨) عن مجاهد به. .
وذكره السيوطى فى«الدر» (٣/ ٢٧٨) وانظر «فتح القدير» (ح٥٤٢١ «وفتح المجيد (٨٠٨)ـ بتخريجنا).
(٢) أخرجه عبدالرزاق فى «تفسيره» (٩٨٣) وابن جرير (٩/ ٩٨)وابن أبى حاتم فى تفسيره».
وانظر فتح القدير» (ح٥٤٢٢ «وفتح المجيد» (٨٠٩، ٨١٠) بتخريجنا).
(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٨٦٥١)
(٤) القول المفيد ٣/ ٨٤.
(٥) تيسير العزيز ٤٧٩ .

حاتم. وفى هذا أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم ذكره المصنف، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعلها غير سوية، وأن يجعلها من غير الجنس. فلاينبغى للرجل أن يسخط مما وهبه الله له كما يفعل أهل الجاهلية، بل يحمد الله الذى جعلها بشرية سوية. ولهذا كانت عائشة رضى الله عنها إذابشرت بمولود لم تسأل إلا عن صورته لا عن ذكوريته وأنوثيته. اهـ.

قلت: وتقدم معنا فى تفسير الآية رواية هذا عمن ذكره المصنف، وعن أبى البخترى أيضاً.

قال ابن عثيمين(١): أى: خاف آدم وحواء أن يكون حيواناً أو جنياً أو غير ذلك.

قوله :« وذكر معناه عن الحسن»

قال سليمان آل الشيخ(٢): **قوله:** وذكر أى : ذكر ابن أبى حاتم فإنه روى ذلك عمن ذكر المصنف معناه عن الحسن: هو البصرى.

قوله : وسعيد أى ابن جبير وغيره كالسدى. وغيره.

قال ابن عثيمين(٣): لكن الصحيح أن الحسن رحمه الله قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بنى آدم كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله فى «تفسيره» وقال :«أمانحن؛ فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله فى هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته»اهـ.

وهذه القصة باطلة من وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس فى ذلك خبر صحيح عن النبى ﷺ، وهذا من الأخبار التى لاتتلقى إلا بالوحى، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة.

الوجه الثانى: أنه لو كانت هذه القصة فى آدم وحواء ؛ لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه؛ كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة:

إذا ما ذكرنا آدما وفعاله ... وتزويجه بنتيه بابنيه بالخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر ... وأن جميع الناس من عنصر الزنا

فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كانا تابا من الشرك؛ فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولايذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الأمتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها كما فى قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه وتابا من ذلك.

(١-٣) القول المفيد ٨٤.

(٢) تسيرالعزيز الحميد ٤٧٩

الوجه الثالث: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة [1] وهومعصية، لو وقع منه الشرك؛ لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى.

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليها وقال: «أنا صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة»،وهذا لايقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: «أنا صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة»، فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفاً ولاعدلاً.

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة:«لأجعل له قرني إيل»: إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه؛ فهذا شرك في الربوبية لأنه لايقدر على ذلك إلا الله، أو لا يصدق فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع: قوله تعالى﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء؛ لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لايجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزَّهون عن الشرك مبرؤون منه باتفاق أهل العلم،وعلى هذا؛ فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا شركاً حقيقياً، فإن منهم مشركاً ومنهم موحداً اهـ.

قال ابن عثيمين [2]:

فيه مسائل:

● **الأولى : تحريم كل اسم معبد لغير الله.**

تؤخذ من الإجماع على ذلك، والإجماع الأصل الثالث من الأصول التي يعتمد عليها

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٣/ ٢٥٠) ومسلم (١/ ١٨٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) القول المفيد ٣/ ٨٧

الثانية: تَفْسِيرُ الآيَةِ.

الثالثة : أَنَّ هَذَا الشِرْكَ فِي مُجَرِدِ تَسْمِيةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُها .

فى الدين، والصحيح أنه ممكن وأنـه حجة إذاحصل؛ لقوله تعالى : ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ**﴾[1]،و ﴿**إن**﴾ هذه شرطية لاتدل على وقوع التنازع، بل إن فرض ووقع؛فالمراد إلى الله ورسوله، فعلم منه أننا إذا أجمعنا فهو حجة.

لكن ادعاء الإجمـاع يحتاج إلى بينة، ولـهذا قال شيخ الإسلام ابن تيـمية: الإجماع الذى ينضبط ماكان عليه السلف الصـالح؛ إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة، ولما قيل لـلإمام أحمد: إن فلاناً يـقول : أجمعوا علـى كذا؛ أنكر ذلك وقال : ومـا يدريه لعلهم أختلفوا، فمن ادعى الإجماع؛ فهو كاذب.

ولعل الإمام أحمد قال ذلـك؛ لأن المعتزلة وأهل التعطيل كانـوا يتذرعون إلى إثبات تعطيلهم وشبههم بالإجماع، فيقولون : هذا إجماع المحققين، وما أشبه ذلك.

وقد سبق أن الصحيح أنه لايجوز التعبيد للمطلب، وأن قول الرسول ﷺ: «**أنا ابن عبد المطلب**»[2] أنه من قبيل الإخبار وليس إقرارا ولا إنشاءً، والإنسان له أن ينتسب إلى أبيه وإن كان معبداً لغير الله، وقد قـال النبى ﷺ: «يابنى عبد مناف»[3]، وهذا تعبيد لغير الله لكنه من باب الإخبار.

● **الثانية: تفسير الآية:**

يعنى قوله تعالى ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا**﴾ الآية، سبق تفسيرها.

● **الثالثة : أن هذا الشرك فى مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.**

وهذا بناء على ماذكر عن ابن عباس رضى الله عـنهما فى تفسير الآية،والصواب: أن هذا الشـرك حق حقيقـة، وأنه شرك من إشـراك بنى آدم لامن آدم وحواء، ولـهذا قال تعالى فى الآية نفسها: ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾؛فهذا الشرك الحقيقى الواقع من بنى آدم.

---

(١) النساء : ٥٩.

(٢) سبق.

(٣) تقدم تخريجه.

الرابعة : أَنَّ هِبَةَ اللهِ للرَّجُلِ البِنْتَ السَّوِيَّةَ مِنْ النعَمْ.

الخامسة: ذِكْرُ السَّلَفِ الفَرْقَ بَيْنَ الشرْكِ فِي الطَّاعَةِ والشِّرْكِ فِي العِبَادَةِ.

● **الرابعة : أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.**

هذا بناء على ثبوت القصة، وأن المراد بقوله : ﴿صَالِحًا﴾؛ أى : بشراً سوياً، وأتى المؤلف بالبنت دون الولد؛ لأن بعض الناس يرون أن هـبة البنت من النقم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[(١)]، وإلا؛ فهبة الولد الذكر السوى مـن باب النعم أيضاً، بل هوأكـبر نعمة من هبة الأنثـى، وإن كانت هبة البنت بها أجر عظيم فبمن[(٢)] كفلها ورباها وقام عليها.

قلت: ويؤيد ذلك قولـه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ فسمى ولادة البنت وبدأ بها قبل الذكر وصح عن النبى ﷺ أحاديث كثيرة فى فضل عال جاريتين أو ثلاثة وأحسن صحبتهن وصبـر على لأوائهن وكانت عائشة إذا ولد لهم ولد لم يقال ذكر أم أنثى إذا ولد سالماً من العيب معـافى وانخطر ذلك كله فى كتابى «تربية البنات».

● **الخامسة : ذكر السلف الفرق بين الشرك فى الطاعة والشرك فى العبادة.**

وقبل ذلك نبين الفـرق بين الطاعة وبين العبادة؛ فالطاعـة إذا كانت منسوبة لله؛ فلا فرق بينها وبين العبادة، فإن عبادة الله طاعته.

وأما الطـاعة المنسوبـة لغير الله؛ فإنـها غير الـعبادة، فنحـن نطيع الرسـول ، لكن لانعبده، والإنسان قد يطيع ملكاً من ملوك الدنيا وهو يكرهه.

فالشرك بالطاعة: أننى أطعته لاحباً وتعظيماً وذلا كما أحب الله وأتذلل له وأعظمه، ولكن طاعته اتباع لأمره فقط، هذا هو الفرق.

وبناء على القصة؛ فإن آدم وحواء أطاعا الشيـطان ولم يعبداه عبادة، وهذا مبنى على صحة القصة. اهـ.



---

(١) النحل :٥٨-٥٩.

(٢) هكذا فى المطبوع ولعلها (لمن).

٥٠ بابُ قولِ اللهِ تعالى

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾(١).

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال الفقير: الأولى بالمصنف ـ رحمه الله ـ أن يأتى بباب «احترام أسماء الله تعالى» ثم «التسمى بقاضى القضاة» ثم «من جحد شيئاً من الأسماء والصفات» وباب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأولى أن يأتى بهذه الأبواب هكذا بهذا الترتيب أو قريباً منه فتظهر المناسبة بينها والارتباط، لكن ليس هناك مناسبة ظاهرة لى بين هذا الباب والذى قبله والله أعلم.

- مناسبة الباب لكتاب التوحيد.

قال ناصر السعدى(٢): أصل التوحيد أثبات ما أثبته الله لنفسه. أو أثبته له رسوله من الاسماء الحسنى. ومعرفة ما احتوت عليه من المعانى الجليلة. والمعارف الجميلة. والتعبد لله بها ودعاؤه بها.

فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه. فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنى. فمن دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق. ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة. وذلك باستحضار معانى الأسماء الحسنى وتحصيلها فى القلوب حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها. وتمتلىء بأجل المعارف.

فمثلا أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلوب تعظيما لله وإجلالا له.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله وشوقاً وحمداً له وشكراً.

وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله فى الحركات والسكنات وحراسة للخواطر عن الافكار الردية والإرادات الفاسدة.

---

(١) الأعراف: ١٨.

(٢) القول السديد.

وأسماء الغنى واللطف تملأ القلب افتقارا واضطرارا إليه، والتفاتا اليه كل وقت، فى كل حال.

فهذه المعارف التى تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبده بها الله لايحصل العبد فى الدنيا أجل ولا أفضل ولاأكمل منها، وهى أفضل العطايا من الله لعبده، وهى روح التوحيد وروحه.

ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخاص، والإيمان الكامل الذى لايحصل إلا للكمل من الموحدين.

وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلى.

وأما الإلحاد فى أسماء الله وصفاته فإنه ينافى هذا المقصد العظيم أعظم منافاة.

والإلحاد أنواع.

إما أن ينفى الملحد معانيها كما تفعله الجهمية ومن تبعهم.

وإما بتشبيهها بصفات المخلوقين كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم.

وإما بتسمية المخلوقين بها كما يفعله المشركون حيث سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فاشتقوا لها من أسماء الله الحسنى، فشبهوها بالله ثم جعلوا لها من حقوق العبادة ما هو من حقوق الله الخاصة.

فحقيقة الإلحاد فى أسماء الله هو الميل بها عن مقصودها لفظا أو معنى، تصريحا، أو تأويلا، أو تحريفا. وكل ذلك مناف للتوحيد والإيمان. اهـ.

قال ابن عثيمين(١): هذا الباب يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن هذا الكتاب جامع لأنواع التوحيد الثلاثة: توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد **الأسماء والصفات** هو إفراد الله ـ عزوجل ـ بما ثبت له من صفات الكمال على وجه الحقيقة، بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل.

لأنك إذا عطلت لم تثبت، وإن مَثَّلْتَ لم توحِّد، والتوحيد مركب من إثبات ونفى؛ أى: إثبات الحكم للمُوحَّد ونفيه عما عداه. فمثلاً إذا قلت: زيد قائم؛ لم توحده بالقيام؛ وإذا قلت: زيد غير قائم؛ لم تثبت له القيام، وإذا قلت: لا قائم إلا زيد؛ وحدته بالقيام.

(١) القول المفيد ٢/ ٩٠.

وإذا قلت: لا إله إلا الله؛ وَحَّدتَه بالألوهية، وإذا أثبت لله الأسماء والصفات دون أن يماثله أحد؛ فهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وإن نفيتها عنه؛ فهذا تعطيل، وإن مثلت؛ فهذا إشراك. أهـ.

- ماذا أراد المصنِّف بهذا الباب؟

قال حامد بن محمد(١): باب ماجاء في بيان أن الله تعالى له الاسماء الحسنى. اهـ.

قال عبدالله بن جار الله(٢): مقصوده الرد على من يتوسل بالاموات وأن المشروع هو التوسل باسماء الله وصفاته والأعمال الصالحة. اهـ.

قوله: **﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾**.

مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى(٣): دلت الآية على تحريم الإلحاد فى أسماء الله وصفاته. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال عبدالله بن جارالله(٤): أن الإلحاد فى أسماد الله ونفيها وتعطيلها ينافى التوحيد والإيمان. اهـ.

قال محمد القرعاوى(٥): حرمت الآية الإلحاد فى أسماء الله وصفاته، ومن الإلحاد تسمية المخلوق بأسماء الله وتسمية الله بأسماء المخلوقين وهذا شرك فى أسماء الله وصفاته. اهـ.

تنبيه: سنلاحظ تكراراً بعض الشىء فى كلام أهل العلم فى تفسيرهم لهذه الآية وأتيت به دون حذف أو إختصار بقدر المستطاع إلا ما دعت إليه الحاجة وذلك حتى يترسخ فى ذهن القارىء منهج السلف الصالح فى توحيد الأسماء والصفات وأنهم جميعاً على طريق واحد فمن شذ عن طريقهم فهو الضال.

سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزى(٦): قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ سبب نزولها أن رجلاً

(١) فتح الله الحميد المجيد: ٤٢٠.
(٢) الجامع الفريد ١٨٥.
(٣) الجديد ٤٠٥.
(٤) الجامع الفريد ١٨٥.
(٥) الجديد ٤٠٥.
(٦) زاد المسير ٣/ ٢٢٤.

دعا الله فى صلاته، ودعا الرحمن، فقال أبو جهل: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله هذه الآية، قال مقاتل.

فأما الحسنى، فهى تأنيث الأحسن.

ومعنى الآية أن أسماء الله حسنى، وليس المراد أن فيها ما ليس بحسن. وذكر الماوردى أن المراد بذلك ما مالت إليه النفوس من ذكره بالعفو والرحمة دون السخط والنقمة.

وقوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أى: نادوه بها، كقولك: يا ألله، يا رحمن. اهـ.

الإعراب[1]: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الواو استئنافية، ﴿وَلِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، و﴿الأَسْمَاءُ﴾ مبتدأ مؤخر، و ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ صفة، ﴿فَادْعُوهُ﴾ الفاء الفصيحة، و (وادعوه) فعل وفاعل ومفعول به، و﴿بِهَا﴾ جار ومجرور متعلقان (بادعوه). اهـ.

اللغة[2]: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾: مؤنث الأحسن، كالكبرى والصغرى، وقيل: الحسنى: مصدر وصف به كالرُّجْعَى، وأفرده كما أفرد وصف مالايعقل فى قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، ولو طوبق به لكان التركيب الحسن كقوله: ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

● **تفسير القرآن بالقرآن:**

قال الرازى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ مذكورة فى سور أربعة: أولها هذه السورة وثانيها فى آخر سورة بنى إسرائيل فى قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وثالثها: فى أول طه وهى قوله: ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ ورابعها فى آخر الحشر وهو قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

● **التفسير بالمأثور:**

أولاً: من السنة

عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال إن الله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها كلها دخل الجنة[3].

(١ ـ ٢) إعراب القرآن ٣/ ١٠٥.

(٣) تقدم تخريجه.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لله مائة اسم غير اسم، من دعاء بها استجاب الله له دعاءه»(١).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «قال: قال الله عز وجل: لى تسعة وتسعون اسماء من أحصاها دخل الجنة»(٢).

وعن ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله ﷺ «ان لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد، من أحصاها دخل الجنة»(٣).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ان لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، انه وتر يحب الوتر، هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولى، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحى، المميت، الحى، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الاول، الآخر، الظاهر، الباطن، البر، التوّاب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك، الملك، ذو الجلال، والاكرام، الوالى، المتعال، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقى، الوارث، الرشيد، الصبور»(٤).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ان لله تسعة وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة، اسأل الله الرحمن، الرحيم، الاله، الرب، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصوّر، الحليم، العليم، السميع، البصير، الحى، القيوم، الواسع، اللطيف، الخبير، الحنان، المنان، البديع، الغفور، الودود، الشكور، المجيد، المبدئ، المعيد، النور، البادئ، وفى لفظ: القائم، الاول، الآخر الظاهر، الباطن، العفوّ، الغفّار، الوهّاب، الفرد، وفى لفظ: القاهر، الأحد، الصمد، الوكيل، الكافى،

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٦٩) ونسبه لأبى نعيم، وابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للدارقطنى فى «الغرائب».

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٧٠) ونسبه لابن مردويه، وأبى نعيم.

(٤) أخرجه الترمذى (٣٥٠٦) عن أبي هريرة به، وانظر «فتح المجيد» (ح٨١٤) بتخريجنا. وانظر الكلام عليه فى «القواعد المثلى» (٢٠ - بتخريجنا).

الباقى، المغيث، الدائم، المتعالى، ذا الجلال، وفى لفظ: المجيب، المحيى، المميت، الحميد. وفى لفظ: الجميل، الصادق، الحفيظ، المحيط، الكبير، القريب، الرقيب، الفتّاح، التوّاب، القديم، الوتر، الفاطر، الرزاق، العلاّم، العلى، العظيم، الغنى، المليك، المقتدر، الاكرم، الرؤوف، المدبر، المالك، القاهر، الهادى، الشاكر، الكريم، الرفيع، الشهيد، الواحد، ذا الطول، ذا المعارج، ذا الفضل، الكفيل، الجليل»[١].

وعن ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله ﷺ: «لله تسعة وتسعون اسما، من أحصاها دخل الجنة وهى فى القرآن»[٢].

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابه هم أو حزن فليقل: اللهم انى عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى فى يدك، ماضٍ فىّ حكمك، عدل فىّ قضاؤك، أسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور بصرى، وذهاب همى، وجلاء حزنى، قال رسول الله ﷺ: ما قالهن مهموم قط إلا أذهب الله همه وأبدله بهمه فرجا. قالوا: يارسول الله افلا نتعلم هذه الكلمات؟ قال: بلى، فتعلموهن وعلموهن»[٣].

وعن عائشة. انها قالت: يارسول الله علمنى اسم الله الذى إذا دعى به أجاب. قال لها: «قومى فتوضئى وادخلى المسجد فصلى ركعتين، ثم أدعى حتى أسمع. ففعلت، فلما جلست للدعاء قال النبى ﷺ: اللهم وفقها. فقالت: اللهم إنى أسالك بجميع أسمائك الحسنى كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، واسألك باسمك العظيم الاعظم الكبير الاكبر الذى من دعاك به أجبته، ومن سألك به أعطيته. قال النبى ﷺ: أصبته أصبته»[٤].

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٦١٤ ـ ٦١٥) ونسبه لابن أبى الدنيا فى «الدعا»، والطبرانى، وأبى الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، وأبى نعيم، والبيهقى.

وانظر «القواعد المثلى» (٢٠ ـ بتخريجنا).

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى نعيم.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٧١٢ ـ شاكر)، والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٥٠٩)، وابن حبان فى «صحيحه» (٩٦٨).

وانظر «القولا المثلى» (١٩ ـ بتخريجنا) «وفتح المجيد» (ح٨١٥) بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه للبيهقى.

● **من أقوال الصحابه:**

عن ابن عباس ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ومن أسمائه العزيز الجبار وكل أسماء الله حسن[1].

عن محمد بن جعفر قال: سألت أبى جعفر بن محمد الصادق عن الاسماء التسعة والتسعين التى من أحصاها دخل الجنة؟ فقال: هى فى القرآن، ففى الفاتحة خمسة أسماء: **ياالله، يارب، يارحمن، يارحيم، يامالك**. وفى البقرة ثلاثة وثلاثون اسما: **يا محيط، ياقدير، يا عليم، يا حكيم، يا على، يا عظيم، ياتواب، يابصير، ياولى، يا واسع، ياكافى، يارؤف، يا بديع، يا شاكر، يا واحد، ياسميع، يا قابض، يا باسط، يا حى، ياقيوم، يا غنى، يا حميد، ياغفور، ياحليم، يا إله، يا قريب، يا مجيب، ياعزيز، يا نصير، يا قوى، يا شديد، يا سريع، يا خبير**.

وفى آل عمران: **ياوهَّاب، يا قائم، ياصادق، يا باعث، يا منعم، يا ماتفضل**.

وفى الانعام: **يا فاطر، يا قاهر، يا لطيف، يابرهان**. وفى الأعراف: **يامحيى، يا مميت**.

وفى الانفال: **يا نعم المولى، يا نعم النصير**. وفى هود: **ياحفيظ، يا مجيد، يا ودود، يا فعال لما يريد**.

وفى الرعد: **يا كبير، يا متعال**.

وفى ابراهيم: **يا منَّان، يا وارث**.

وفى الحجر: **يا خلاق**.

وفى مريم: **يافرد**.

وفى طه: **ياغفّار**.

وفى قد أفلح: **يا كريم**.

وفى النور: **يا حق، يامبين**.

وفى الفرقان: **ياهادى**.

وفى سبأ: **يافتَّاح**.

وفى الزمر: **ياعالم**.

وفى غافر: **يا قابل التوبة، يا ذا الطول، يا رفيع**.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ٩١).

وفى الذاريات: **يارزاق، يا ذا القوة، يا متين.**

وفى الطور: **يابر.**

وفى اقتربت: **يا مليك: يا مقتدر.**

وفى الرحمن: **يا ذا الجلال والاكرام، يارب المشرقين، يارب المغربين، يا باقى.**

وفى الحديد: **يا أول، يا آخر،، ياظاهر، يا باطن.**

وفى الحشر: **يامـلك، يا قـدوس، ياسلام، يـا مؤمن، يـامهيـمن، ياعـزيز، ياجـبار، يامتكبر، ياخالق، ياباريْ، يا مصوّر.**

وفى البروج: **يامبدئ، يامعيد.**

وفى الفجر: **ياوتر.**

وفى الأخلاص: **يا أحد، ياصمد**(١).

● **التفسير بأقوال المفسرين:**

قال الزمخشري(٢): التى هى أحسن الأسماء لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك «فادعوه بها» فسموه بتلك الأسماء. اهـ.

قال الرازى(٣): اعلم أنـه تعالى لمـا وصف المخلوقـين لجهـنم بقوله اولـئك هم الغافلون) امر بعده بذكر الله تـعالى فقال: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ وهذا كالتنبيه على أن الموجب لدخـول جهنم هو الغـفله عن ذكر الله، والمخلـص عن عذاب جهنـم هو ذكر الله تعـالى وأصحاب الـذوق والمشاهده يـجدون من أرواحهـم أن الامر كذلك فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله وأقبل على الدنيا وشهواتها وقع فى باب الحرص وزمهرير الحرمان، ولا يزال ينتقل من رغبه الـى رغبه ومن طلب الى طلب، ومن ظلمة الى ظلمة، فإذا انفتح على قلبه بـاب ذكر الله ومعرفة الله تخلص عن نيران الآفات وعن حسرات الخسارات، واستشعر بمعرفة رب الأرض والسموات وفى الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ مذكور فى سور أربعة:

أولها: هذه السورة.

---

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق لأبى نعيم.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٥.

(٣) الفخر الرازى ٨/ ١٥/٦٩ - ٧٥.

وثانيها: فى آخر سورة بنى اسرائيل فى قوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾.

وثالثها: فى أول طه وهو قوله ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾.

ورابعها: فى آخر الحشر وهو قوله: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾.

إذا عرفت هذا فنقول (الأسماء) ألفاظ دالة على المعانى فهى إنما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن فى حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال، وهى محصورة فى نوعين: عدم افتقاره الى غيره، وثبوت افتقار غيره اليه.

واعلم ان لنا فى تفسير أسماء الله كتاباً كبيراً كثير الدقائق شريف الحقائق سميناه «بلوامع البينات فى تفسير الأسماء والصفات»، من أراد الاستقصاء فيه فليرجع إليه، ونحن نذكر ههنا لمعاً ونكتاً منها.

قلت: يحذر من الكتاب ومن أشعرية صاحبه كما سيأتى. اهـ.

فنقول: إن أسماء الله يمكن تقسيمها من وجوه كثيرة.

الوجه الأول: أن نقول: الأسم إما أن يكون اسما للذات، أو لجزء من أجزاء الذات، أو لصفة خارجة عن الذات قائمة بها. أما اسم الذات فهو المسمى بالاسم الأعظم، وفى كشف الغطاء عما فيه من المباحثات أسرار.

وأما اسم جزء الذات فهو فى حق الله تعالى محال، لأن هذا إنما يفعل فى الذات المركبة من الاجزاء، وكل ما كان كذلك فهو ممكن، فواجب الوجود يمتنع أن يكون له جزء.

وأما اسم الصفة فنقول: الصفة إما أن تكون حقيقة أو إضافية أو سلبية، أو ما يتركب عن هذه الثلاثة، وهى أربعة، لأنه إما أن يكون صفة حقيقية مع إضافة أو مع سلب أو صفة سلبية مع إضافة أو مجموع صفة حقيقية وإضافة وسلبية.

أما الصفة الحقيقة العارية عن الاضافة فكقولنا موجود عند من يقول: الوجود صفة، أو قولنا واحد، عند من يقول: الوحدة صفة ثانية، وكقولنا حى، فان الحياة صفة حقيقية عارية عن النسب والاضافات، وأما الصفة الاضافية المحضة، فكقولنا: مذكور ومعلوم، وأما الصفة السلبية، فكقولنا: القدوس السلام. وأما الصفة الحقيقة مع الأضافة، فكقولنا: عالم وقادر، فان العلم صفة حقيقية، وله تعلق بالمعلوم والقادر، فإن القدرة

صفة حقيقية، ولها تعلق بالمقدور، وأما الصفة الحقيقية مع السلبية. فكقولنا: قديم أزلي، لأنه عبارة عن موجود لا أول له. وأما الصفة الاضافية مع السلبية، فكقولنا: أول. فانه هو الذى سبق غيره وما سبقه غيره، وأما الصفة الحقيقية مع الإضافة والسلب، فكقولنا: حكيم، فانه هو الذى يعلم حقائق الأشياء، ولا يفعل ما لايجوز فعله فصفة العلم صفة حقيقية، وكون هذه الصفة متعلقة بالمعلومات، نسب وإضافات، وكونه غير فاعل لما لاينبغي سلب.

إذا عرفت هذا فنقول: السلوب، غير متناهية، والاضافات أيضاً غير متناهية، فكونه خالقا للمخلوقات صفة إضافية، وكونه محييا ومميتا إضافات مخصوصة، وكونه رازقا أيضا إضافة أخرى مخصوصة. فيحصل بسبب هذين النوعين من الاعتبارات أسماء لا نهاية لها لله تعالى، لأن مقدوراته غير متناهية، ولما كان لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته، وإنما السبيل إلى معرفته بمعرفة أفعاله فكل من كان وقوفه على أسرار حكمته فى مخلوقاته أكثر كان علمه بأسماء الله أكثر. ولما كان هذا بحرا لا ساحل له ولا نهايةله، فكذلك لانهاية لمعرفة أسماء الله الحسنى.

النوع الثانى: فى تقسيم أسماء الله ما قاله المتكلمون: وهو أن صفات الله تعالى ثلاثة أنواع: ما يجب، ويجوز، ويستحيل على الله تعالى، ولله تعالى بحسب كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة أسماء مخصوصة.

والنوع الرابع: فى تقسيم أسماء الله تعالى إما أن يجوز إطلاقها على غير الله تعالى أو لايجوز.

أما القسم الأول؛ فهو كقولنا: الكريم الرحيم العزيز اللطيف الكبير الخالق فإن هذه الألفاظ يجوز إطلاقها على العباد، وإن كان معناها فى حق الله تعالى مغايرا لمعناها فى حق العباد.

وأما القسم الثانى: فهو كقولنا: الله الرحمن.

أما القسم الأول: فانها إذا قيدت بقيود مخصوصة صارت بحيث لا يمكن إطلاقها إلا فى حق الله تعالى كقولنا: يا أرحم الراحمين، ويا أكرم الأكرميين، ويا خالق السموات والأرضين.

النوع الخامس: فى تقسيم أسماء الله أن يقال: من أسماء الله ما يمكن ذكره وحده كقولنا: يا ألله يا رحمن يا حى يا حكيم. ومنها ما لا يكون كذلك، كقولنا: مميت وضار فانه لايجوز إفراده بالذكر، بل يجب أن يقال: يا محيى يا مميت ياضار يا نافع.

النوع السادس: فى تقسيم أسماء الله تعالى أن يقال: أول ما يعلم من صفات الله

تعالى كونه محدثا للأشياء مرجحا لوجودها على عدمها، وذلك لأنا إنما نعلم وجوده سبحانه بواسطة الاستدلال بوجود الممكنات عليه، فإذا دل الدليل على أن هذا العالم المحسوس ممكن الوجود والعدم لذاته، قضى العقل بافتقاره الى مرجح يرجح وجوده على عدمه، وذلك المرجح ليس إلا الله سبحانه، فثبت أن أول ما يعلم منه تعالى هو كونه مرجحا ومؤثرا، ثم نقول ذلك المرجح إما أن يرجح على سبيل الوجوب أو على سبيل الصحة، والأول باطل، وإلا لدام العالم بدوامه، وذلك باطل. فبقي أنه إنما رجح على سبيل الصحة وكونه مرجحا على سبيل الصحة ليس إلا كونه تعالى قادرا، فثبت أن المعلوم منه بعد العلم بكونه مرجحا، هو كونه قادرا. ثم إنا بعد هذا نستدل بكون أفعاله محكمة متقنة على كونه عالماً، ثم إنا إذا علمنا كونه تعالى قادراً عالماً، وعلمنا أن العالم القادر يمتنع أن يكون إلاحياً، علمنا من كونه قادرا عالما، كونه حيا. فظهر بهذا أنه ليس العلم بصفاته تعالى وبأسمائه واقع فى درجة واحدة، بل العلم بها علوم مترتبة يستفاد بعضها من بعض.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ يفيد الحصر، ومعناه أن الاسماء الحسنى ليست إلا لله تعالى، والبرهان العقلى قد يدل على صحة هذا المعنى، وذلك لأن الموجود إما واجب الوجود لذاته، وإما ممكن لذاته، والواجب لذاته ليس إلا الواحد وهو الله سبحانه، وأما ما سوى ذلك الواحد، فهو ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته، فهو محتاج فى ماهيته وفى وجوده وفى جميع صفاته الحقيقية والاضافية والسلبية الى تكوين الواجب لذاته، ولولاه لبقى على العدم المحض والسلب الصرف، فالله سبحانه كامل لذاته، وكمال كل ما سواه فهو حاصل بجوده وإحسانه، فكل كمال وجلال وشرف، فهو له سبحانه بذاته ولذاته وفى ذاته، ولغيره على سبيل العارية، والذى لغيره من ذاته، فهو الفقر والحاجة والنقصان والعدم، فثبت بهذا البرهان البين أن الأسماء الحسنى ليست إلا لله، والصفات الحسنى ليست إلا لله، وأن كل ما سواه، فهو غرق فى بحر الفناء والنقصان.

المسألة الثالثة: دلت هذه الآية على أن أسماء الله ليست إلا لله، والصفات الحسنى ليست إلا لله، فيجب كونها موصوفة بالحسن والكمال فهذا يفيد أن كل اسم لايفيد فى المسمى صفة كمال وجلال فإنه لايجوز إطلاقه على الله سبحانه.

قلت/ وهذه المقدمة صحيحة تتفق وكلام ابن القيم وابن عثيمين المتقدم فى باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات وباب احترام أسماء الله تعالى، إلا أنه بنى عليها ما خالف فيه أهل السنة وأتبع فيه قول جهم من عدم إطلاق اسم الشىء على الله سبحانه وتعالى وأتى بشبه جهم التى ضربنا عن ذكرها صفحاً ويكفينا فى الرد عليه ما بوب به

البخارى فى كتاب التوحيد من صحيحه باب قل أى شىء أكبر شهادة قل الله، فسمى الله تعالى نفسه شيئاً وسمى النبى ﷺ القرآن شيئاً وهو صفة من صفات الله، وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ ثم أسند عن سهل بن سعد قال النبى ﷺ: لرجل أمعك من القرآن شىء قال نعم[1].

قال ابن حجر[2]: قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ الإستدلال بهذه الآية للمطلوب ينبنى على أن الإستثناء فيها متصل فإنه يقتضى إندراج المستثنى فى المستثنى منه وهو الراجح وعلى أن لفظ شىء يطلق على الله تعالى وهو الراجح أيضاً.

وسيأتى عن ابن عثيمين أن الله لايسمى بالشىء لكن يخبر بذلك عنه.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ يدل على أنه تعالى حصلت له أسماء حسنة، وأنه يجب على الإنسان ان يدعو الله بها، وهذا يدل على أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية. ومما يؤكد هذا أنه يجوز أن يقال: ياجواد، ولايجوز أن يقال: ياسخى، ولا أن يقال يا عاقل يا طبيب يا فقيه، وذلك يدل على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا إصطلاحية.

المسألة الخامسة: دلت الآية على أن الاسم غير المسمى لأنها تدل على أن أسماء الله كثيرة لأن لفظ الأسماء لفظ الجمع، وهى تفيد الثلاثة فما فوقها، فثبت أن أسماء الله كثيرة ولا شك أن الله واحد، فلزم القطع بأن الاسم غير المسمى وأيضاً قوله: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ يقتضى إضافة الاسماء الى الله، وإضافة الشىء الى نفسه محال. وأيضا فلو قيل: ولله الذوات لكان باطلا. ولما قال ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ﴾ كان حقا وذلك يدل على أن الاسم غير المسمى.

قلت/ وقد تقدم أن الاسم هو المسمى وهو مذهب أهل السنة لكن إن قصد أنها مترادفه ومتباينة أى من حيث دلالتها على ذات واحدة فهى مترادفه ومن حيث ان اسم السلام يخالف معنى المؤمن فهى متغايرة فهذا كلام ابن تيمية وابن عثيمين.

المسألة السادسة: قوله: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ يدل على أن الإنسان لا يدعو ربه إلا بتلك الأسماء الحسنى، وهذه الدعوة لاتتأتى إلا إذا عرف معانى تلك الأسماء، وعرف بالدليل أن له إلهاً ورباً خالقاً موصوفاً بتلك الصفات الشريفة المقدسة، فإذا عرف بالدليل ذلك فحينئذ يحسن أن يدعو ربه بتلك الأسماء والصفات.

---

(١) [صحيح] البخارى (٧٤١٧).

(٢) الفتح ١٣/ ٤١٣و ٤١٤.

قلت: لم يعرف عن أحد من السلف أنه اشترط للدعاء بهذه الاستماء أن يعرفها بدليلها حتى من تعرض منهم كشرح قوله ﷺ: من أحصاها دخل الجنة بل هذا الذى ذكره الرازى من جنس كلام المعتزلة الذين شرطوا لإسلام العبد أن يعرف ربه بالدليل وقد تقدم الرد عليهم. اهـ.

ثم إن لتلك الدعوة شرائط كثيرة مذكورة بالاستقصاء فى كتاب المنهاج لأبى عبدالله الحليمى، وأحسن ما فيه أن يكون مستحضر لأمرين.

أحدهما: عزة الربوبية.

الثانية: ذلة العبودية. فهناك يحسن ذلك الدعاء ويعظم موقع ذلك الذكر. فأما إذا لم يكن كذلك كان قليل الفائدة، وأنا أذكر لهذا المعنى مثالا، وهو أن من أراد أن يقول فى تحريمة صلاته الله أكبر، فانه يجب ان يستحضر فى النية جميع ما أمكنه من معرفة آثار حكمة الله تعالى فى تخليق نفسه وبدنه وقواه العقلية والحسية أو الحركية، ثم يتعدى من نفسه الى استحضار آثار حكمة الله فى تخليق جميع الناس، وجميع الحيوانات، وجميع أصناف النبات والمعادن، والآثار العلوية من الرعد والبرق والصواعق التى توجد فى كل أطراف العالم، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى فى تخليق طبقات العناصر السفلية والعلو به ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى فى تخليق الأرضين والجبال والبحار والمفاوز، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى فى تخليق أطباق السموات على سعتها وعظمها، وفى تخليق أجرام النيرات من الثوابت والسيارات، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى فى تخليق الكرسى وسدرة المنتهى، ثم يستحضر آثار قدرته فى تخليق العرش العظيم المحيط بكل هذه الموجودات، ثم يستحضر آثار قدرته فى تخليق الملائكة من حملة العرش والكرسى وجنود عالم الروحانيات، فلا يزال يستحضر من هذه الدرجات والمراتب أقصى ما يصل اليه فهمه وعقله وذكره وخاطره وخياله، ثم عند استحضار جميع هذه الروحانيات والجسمانيات على تفاوت درجاتها وتباين منازلها ومراتبها، ويقول الله أكبر، ويشير بقوله - الله - الى الموجود الذى خلق هذه الأشياء وأخرجها من العدم الى الوجود، ورتبها بما لها من الصفات والنعوت، وبقوله - أكبر - أى أنه لايشبه لكبريائة وجبروته وعزه وعلوه وصمديته هذه الأشياء بل هو أكبر من أن يقال: إنه أكبر من هذه الأشياء. فاذا عرفت هذا المثال الواحد فقس الذكر الحاصل مع العرفان والشعور، وعند هذا ينفتح على عقلك نسمة من الأسرار المودعة تحت قوله ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾. اهـ.

قلت/ وهناك قواعد أخرى ذكرها ابن عثيمين وتقدمت فى باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات وفى باب احترام أسماء الله تعالى.

قال القرطبى[١]: قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ أمر بإخلاص العبادة لله، ومجانبة المشركين والمُلْحِدين. قال مقاتل وغيره من المفسرين: نزلت الآية فى رجل من المسلمين، كان يقول فى صلاته: يارحمن يارحيم. فقال رجل من مشركى مكة: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رَبّا واحدا، فما بأل هذا يدعُو ربَّين اثنين! فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾.

الثانية: جاء فى كتاب الترمذى وسنن ابن ماجه وغيرهما حديثٌ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نصّ فيه (أن لله) تسعة وتسعين اسما؛ فى أحدهما ماليس فى الآخر، وقد بينا ذلك فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى). قال ابن عطية - وذكر حديث الترمذى[٢] - : وذلك الحديث ليس بالمتواتر، وإن كان قد قال فيه أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث. وإنما المتواتر منه قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين أسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة**». ومعنى «أحصاها» عدّها وحَفِظها. وقيل غير هذا مما قد بيناه فى كتابنا. وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذى، وذكرنا من الأسماء ما اجتُمع عليه وما اختلف فيه مما وقفنا عليه فى كتب أئمتنا ما يُنَيِّف على مائتى اسم. وذكرنا قبل تعيينها فى مقدمة الكتاب اثنين وثلاثين فصلا فيما يتعلق بأحكامها، فمن أراده وقف عليه هناك وفى غيره من الكتب الموضوعة فى هذا الباب. والله الموفق، لا رَبَّ سِواه.

قلت: ومن تتبع كتابه وتفسيره هذا علم أنه مؤول أشعرى العقيدة وهو يعتمد فى نقله فى باب الأسماء والصفات على أئمة الأشاعرة كالجوينى والباقلانى والرازى وابن عطية وغيرهم فلزم التنبيه.

الثالثة - واختلف العلماء من هذا الباب فى الاسم والمسُمَىَّ، وقد ذكرنا ما للعلماء من ذلك فى (الكتاب الأسنى). قال ابن الحَصَّار: وفى هذه الآية وقوعُ الأسم علـى المُسمَّى ووقوعه على التسمية. فقوله: «ولله» وقع علـى المُسَمَّى، وقوله «الأسماء» وهو جمع اسم واقعٌ على التسميات، يدلّ على صحة ما قلناه قوله «فادعوه بها»، والهاء فى قوله «فادعوه» تعود على المسمَّى سبحانه وتعالى، فهو المدعو. والهاء فى قوله «بها» تعود على الأسماء وهى التَسمِيات التى يُدْعَى بها لا بغيرها. هذا الذى يقتضيه لسان العرب. ومثل ذلك

(١) القرطبى ٤/ ٢٧٦١.

(٢) تقدم تخريجه.

قول رسول الله ﷺ: «لى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد»[1] الحديث. والذى يذهب إليه أهل الحق أن الاسم هو المُسَمّى، أو صفة له تتعلق به، وأنه غير التسمية. قال ابن العربىّ عند كلامه على قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: فيه ثلاثة أقوال. قال بعض علمائنا: فى ذلك دليل على أن الاسم المسمى؛ لأنه لو كان غيره لوجب أن تكون الأسماء لغير الله تعالى.

الثانى - قال آخرون: المراد به التسميات؛ لأنه سبحانه واحد والأسماء جمع.

قلت: - يعنى القرطبى- ذكر ابن عطية فى تفسيره أن الأسماء فى الآية بمعنى التّسميات إجماعا من المتأولين لايجوز غيره، وقال القاضى أبو بكر فى كتاب التمهيد: وتأويل قول النبىّ ﷺ: «لله تسعة وتسعون أسماء من أحصاها دخل الجنة» أى أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف، وهى عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتّى، منها ما يستحقه لنفسه ومنها ما يستحقه لصفة تتعلّق به، وأسماؤه العائدة إلى نفسه هى هو، وما تعلّق بصفة له فهى أسماء له. ومنها صفات لذاته، ومنها صفات أفعال. وهذا هو تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أى التسميات الحسنى.

الثالث - قال آخرون منهم: ولله الصفات.

قلت/ أما القول الأول فهو قول أهل الحق كما قال القرطبى أن الاسم هو المسمى والثانى هو ما ذهب إليه إجماع المؤلين كما نقل ذلك القرطبى عن ابن عطية والثالث هو صحيح كالأول لأن الأسماء كلها بالنسبة للفظ الجلاله (الله) صفات لأن القاعدة أن أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف وسيأتى الدليل على ذلك إن شاء الله تعالى.

الرابعة - سَمّى الله سبحانه أسماءه بالحُسْنَىَ لأنها حسنة فى الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله. والْحُسْنَى مصدرٌ وُصف به. ويجوز أن يقدّر «الحسنى» فُعْلَى، مؤنّث الأحسن؛ كالكبرى تأنيث الأكبر، والجمع الكُبَر والحُسَن. وعلى الأوّل أفرد كما أفرد وصف مالا يعقل؛ كما قال تعالى: ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ و ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾.

الخامسة- قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أى أطلبوا منه بأسمائه؛ فيُطْلَب بكل اسم ما يليق به، تقول: يا رحيم ارحمنى، يا حكيم أحكم لى، يارازق ارزقنى، يا هادى

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٣٢)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ١١٥/ ١٢٤) عن جبير بن مطعم به.

اهدنى، يا فتاح افتح لى، ياتواب تُبْ علىّ؛ هكذا. فإن دعوت بإسم عامٍّ قلت: يا مالك ارحمنى، يا عزيز أحكم لى، يا لطيف أرزقنى. وإن دعوت بالأعمْ الأعظم فقلت: يا الله؛ فهو تضمن لكل اسم. ولا تقول: يارزاق اهدنى؛ إلا أن تريد يارزاق ارزقنى الخير.

قال ابن العربىّ: وهكذا، رتّب دعاءك تكن من المخلصين.

السادسة - أدخل القاضى أبو بكر بن العربىْ عدةً من الأسماء فى أسمائه سبحانه، مثلُ متّمِ نوره، وخير الوارثين، وخير الماكرين، ورابع ثلاثة، وسادس خمسة، والطيب، والمعلم؛ وأمثال ذلك. قال ابن الحصار: واقتَدى فى ذلك بابن بَرْجان، إذ ذكر فى الأسماء «النظيف» وغير ذلك مما لم يرد فى كتاب ولاسنة.

قلت - يعنى القرطبى -: أمّا ما ذكر من قوله «مما لم يرد فى كتاب ولا سُنّة» فقد جاء فى صحيح مسلم «الطيب»(1). وخرج الترمذىّ «النظيف» بلفظ «إن الله نظيف يحب النظافة»(2) وخرج عن ابن عباس أن النبىّ ﷺ كان يقول فى دعائه: «**ربِّ أعِنّى ولا تُعِن علىّ وانصرنى ولا تنصر علىّ وآمكُرْ لى ولا تَمْكُر علىّ**»(3).

الحديث. وقال فيه: حديث حسن صحيح. فعلى هذا جائز أن يقال: يا خير الماكرين امكُر لى ولا تمكر على. والله أعلم.

قلت/ ولايلزم من جواز القول بهذا أن يكون هذا من أسماء الله سبحانه وتعالى فإنَّ الدعاءيكون بالثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله. والله أعلم. ثم قال القرطبى: وقد ذكرنا «الطيب، والنظيف» فى كتابنا وغيره مما جاء ذكره فى الأخبار، وعن السلف الأخيار، وما يجوز أن يُسَمَّى به ويدعى، وما يجوز أن يُسَمَّى به ولا يُدْعَى، ومالا يجوز أن يسمًّى به ولا يُدْعَى. حسب ما ذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرىّ. وهناك يتبين لك ذلك إن شاء الله تعالى. اهـ.

قال ابن كثير(4) ثم يعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة فى تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة

---

(1) [صحيح] أخرجه مسلم فى الزكاة (7/ 100 - النووى) عن أبى هريرة به.
وانظر «القواعد المثلى» (33 - بتخريجنا).

(2) أخرجه الترمذى (2799) وصفعه.

(3) [صحيح] أخرجه أبوداود (1510)، والترمذي (3551)، وابن ماجه (3830).
وانظر «الأذكار للنووى» (1041 - بتخريجنا).

(4) ابن كثير 2/ 259.

الجهني عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال **«ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن، فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىّ حكمك عدل فىّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً» فقيل يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال «بلى ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها»**(١) وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستى فى صحيحه بمثله، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه الأحوذى فى شرح الترمذى أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم فالله أعلم. اهـ. وقد تقدم.

قلت/ وقد تقدَّم كلام ابن عثيمين مختصراً لذلك ومهذباً له.

قال الشوكانى(٢) ـ رحمه الله هذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل.

والحسنى تأنيث الأحسن، أى التى هى أحسن الأسماء، لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة، فإنه إذا دعى بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة، وقد ثبت فى الصحيح: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»

قال ابن حزم: جاءت فى إحصائها، يعنى الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصح منها شىء أصلاً، وقد أخرجها بهذا العدد الذى أخرجه الترمذى وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله ﷺ.... فذكره(٣).

قال السعدى(٤) ـ رحمه الله هذا بيان، لعظيم جلاله، وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، أى: له كل اسم حسن.

وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى.

(١) ابن كثير ٢/٢٥٩.
(٢) تقدم تخريجه قريباً.
(٣) فتح القدير ٢/ ٢٨٢.
(٤) السعدى ٢/ ١٧٠ ـ ١٧١.

فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً، لم تكن حسنى.

وكذلك لو دلت على صفة، ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى.

فكل اسم من أسمائه، دال على جميع الصفة، التى اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو «العليم» الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء.

فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

و«الرحيم» الدال على أنه له رحمة عظيمة، واسعة لكل شيء.

و«القدير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة.

فيدعى فى كل مطلوب، بما يناسب ذلك المطلوب.

فيقول الداعى مثلاً: اللهم اغفر لى وارحمنى، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عَلَيَّ ياتواب، وارزقنى يارزاق، والطف بى يا لطيف ونحو ذلك. اهـ. وقد تقدم من كلام الرازى وغيره.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[1]: ويخبر تعالى أن له اسماء وصفها بكونها حسنى أى: حسان. وقد بلغت الغاية فى الحسن فلا أحسن منها، كما يدل عليه من صفات الكمال، ونعوت الجلال، فأسماءه الدالة على صفاته هى أحسن الأسماء وأكملها، فليس فى الأسماء أحسن منها، ولايقوم غيرها مقامها. وتفسير الإسم منها بغيره ليس تفسيراً بمراد محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهم، فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده، وأنزهه عن شائبة نقص، فله من صفة الإدراكات العليم الخبير دون العالم الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر، ومن صفات الإحسان البر الرحيم الودود، دون الرفيق والشقيق والمشوق. وكذلك العلى العظيم، دون الرفيع الشريف، وكذلك الكريم، دون السخى. والخالق البارىء المصور، دون الصانع الفاعل

(١) التيسير ٤٨٠.

المشكل، والعفو والغفور، دون الصفوح الساتر. وكذلك سائر أسماء الله تعالى يجرى على نفسه أكملها وأحسنها، ولايقوم غيره مقامه فأسماءه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا نعدل عما سمى به نفسه إلى غيره، كما لايتجاوز ماوصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ إلى ما وصفه به المبطلون. ومن هنا يتبين لك خطأ من أطلق عليه اسم الصانع والفاعل والمربى ونحوها؛ لأن اللفظ الذى أطلقه سبحانه على نفسه، وأخبر به عنها أتم من هذا، و أكمل وأجل شأناً، فإنه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها. فيوصف من الإرادة بأكملها، وهو الحكمةوحصول كل ما يريد بارادته. كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد﴾(١) وبارادة اليسر لا العسر. كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(٢) وبإرادة الإحسان وتمام النعمة على عبادة كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾(٣) فإرادة التوبة له وإرادة الميل المبتغى الشهوات.

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾(٤) وكذلك العليم الخبير أكمل من الفقيه العارف، والكريم الجواد أكمل من السخى، والرحيم أكمل من الشفيق، والخالق البارىء المصور أكمل من الفاعل الصانع؛ ولهذا لم تجيء هذه فى أسمائه الحسنى، فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات، والوقوف معها وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه، ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته. وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقته لها دون اللفظ، ولا سيما إذا كان مجملاً، أو منقسماً، أو ما يمدح به وغيره، فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيداً، وهذا كلفظ الفاعل والصانع، فإنه لا يطلق عليه فى أسمائه الحسنى، إلا إطلاقاً مقيداً كما أطلقه عى نفسه كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد﴾، ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء﴾(٥) وقوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٦) فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه

---

(١) البرج: ١٦.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) النساء: ٢٧.

(٤) المائدة: ٦

(٥) إبراهيم: ٢٧.

(٦) النمل: ٨٨.

ويذم؛ فلهذا المعنى والله أعلم لم يجيء فى الأسماء الحسنى المريد، كما جاء فيها السميع البصير، ولا المتكلم الآمر الناهى؛ لانقسام مسمى هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكمالاتها، وشرف أنواعها. ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين، وزلقه الفاحش فى اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً، وأدخله فى أسمائه الحسنى، فاشتق منها اسم الماكر، والمخادع، والفاتن، والمضل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. انتهى ملخصاً من كلام الإمام ابن القيم. اهـ.

قال ابن عثيمين(1). قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

طريق التوحيد هنا تقديم الخبر لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ ففى الآية توحيد الأسماء لله.

وقوله: ﴿الْحُسْنَى﴾.

مؤنث أحسن؛ فهى اسم تفضيل، ومعنى الحسنى؛ أى: البالغة فى الحسن أكمله؛ لأن اسم التفضيل يدل على هذا، والتفضيل هنا مطلق؛ لأن اسم التفضيل قد يكون مطلقاً مثل: زيد الأفضل، وقد يكون مقيداً مثل: زيد أفضل من عمرو.

وهنا التفضيل مطلق؛ لأنه قال: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

فأسماء الله تعالى بالغة فى الحسن أكمله من كل وجه، ليس فيها نقص لافرضاً ولا احتمالاً.

وما يُخبَر به عن الله أوسع مما يُسمّى به الله؛ لأن الله يُخبر عنه بالشىء ويخبر عنه بالمتكلم والمريد، مع أن الشىء لا يتضمن مدحاً والمتكلم والمريد يتضمنان مدحاً من وجه وغير مدح من وجه، ولا يسمى الله بذلك؛ فلا يسمى بالشىء ولا بالمتكلم ولا بالمريد، لكن يخبر بذلك عنه.

قوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

الدعاء هو السؤال، والدعاء قد يكون بلسان المقال، مثل: اللهم! اغفر لى يا غفور وهكذا، أو بلسان الحال وذلك بالتعبد له، ولهذا قال العلماء: إن الدعاء دعاء مسألة ودعاء عبادة؛ لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله ويخاف عقابه.

---

(1) القول المفيد ٣/ ٩١.

والأمر بدعاء الله بها يتضمن الأمر بمعرفتها؛ لأنه لا يمكن دعاء الله بها إلا بعد معرفتها.

وهذا خلافاً لما قاله بعض المداهنين في وقتنا الحاضر: إن البحث في الأسماء والصفات لا فائدة فيه ولا حاجة إليه.

أيريدون أن يعبدوا شيئاً لا أسماء له ولا صفات؟!

أم يريدون أن يداهنوا هؤلاء المُحَرِّفين حتى لا يحصل جدل ولا مناظرة معهم؟!.

وهذا مبدأ خطير أن يقال للناس لا تبحثوا في الأسماء والصفات، مع أن الله أمرنا بدعائه بها.

والأمر للوجوب، ويقتضي وجوب علمنا بأسماء الله، ومعلوم أيضاً أننا لا نعلمها أسماء مجردة عن المعاني، بل لابد أن لها معاني فلابد أن تبحث فيها؛ لأن علمها ألفاظاً مجردة لا فائدة فيه، وإن قُدِّر أن فيه فائدة بالتعبد باللفظ؛ فإنه لا يحصل به كمال الفائدة.

مسألة فصل الخطاب في أسماء الله الحسنى، هل هي توقيفية أم لا؟

قال سليمان آل الشيخ ـ رحمه الله[1] وحاصله أن ما يطلق عليه من باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق من باب الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً، كالقديم والشيء الموجود، والقائم بنفسه، والصانع، ونحو ذلك. فادعوه بها أي اسألوه، وتوسلوا إليه بها كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم. فإن ذلك من أقرب الوسائل وأحبها إليه. كما في «المسند» والترمذي **«ألظوا بياذا الجلال والإكرام»**[2] والحديث الآخر:

سمع النبي ﷺ رجلاً يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إني اسْأَلُكَ بِأَني أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ الله الذي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحدْ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ الله بِاسْمِهِ الأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[3] رواه الترمذي وغيره.

(١) التيسير ٤٨١.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) عن أنس به.

وانظر «الأذكار للنووي» (١٠٤٠ ـ بتخريجنا).

(٣) [حسن] أخرجه أبوداود (١٤٩٣) والترمذي (٣٤٧٥) وابن ماجة (٣٨٥٧) وانظر «الأذكار للنووي» (١٠٢٢ ـ بتخريجنا).

وقوله عـليه السـلام: «اللَهُمَّ أعُوذُ بِـرِضَاكَ مِنْ سَخَـطِكَ، وَبِمُعَافَـاتِكَ مِنْ عُقُـوبَتِكَ، وَأعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْـتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١). حديث صحيح رواه مسلم، وغيره.

ومنه «اللَّـهُمَّ إنِي أسْـألُكَ بِـأنَّ لَكَ الحَمْـدُ، لاَ إلَهَ إلا أنْتَ، المَنَّانُ، بَـدِيعُ السَّـمَوَاتِ وَالأرْضِ، يَاذَا الجَلاَلِ وَ الإكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيومُ»(٢) رواه الترمذي بنحوه، واللفظ لغيره.

قال ابن القـيم: فهذا سؤال له، وتوسل إلـيه بحمده وأنه لا إله إلا هو المـنان. فهو توسل إليه بـأسمائه، وصفاته، وما أحق ذلـك بالإجابة، وأعظمه موقعـاً عند السؤال.

واعلم أن الدعاء بها أحد مراتب إحصائها الذي:

قال فيه الـنبي ﷺ «إنَّ لله تِسْـعَةً وَتِسْعِـينَ اسْمـاً مائة إلاَّ وَاحِـداً مَنْ أحْصَاهَـا دَخَلَ الجَنَّةَ»(٣) رواه البخاري، وغيره.

مسألة ما هي مراتب الإحصاء؟

قال سليمان آل الشيخ (٤)وهي ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: إحصاء الفاظها واسمائها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما في الآية وهي نوعان:

دعاء ثناء وعبادة، ودعاء طلب ومسألة، فلا يثنـى عليه إلا بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وكـذا لا يسأل إلا بها. فلا يقـال: يا موجود ويا شيء ويا ذات اغـفر لي، بل يسأل في كل مطـلوب باسم يكون مقتضياً لـذلك المطلوب. فيكون السائـل متوسلاً إليه بذلك الاسم. ومن تأمل أدعـية الرسل، لا سيما خاتمهم عليه وعلـيهم السلام، وجدها مطابقة لهذا كـما تقول: رب اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفـور الرحيم. ولا يحسن: إنك أنت السميع العلـيم البصير، ولكن أسماءُه تعالى منها ما يـطلق عليه مفرداً. وهو غالب الأسماء: كالقدير، والسميع، والبصير، والحكيم. فهذا يسوغ أن يدعى به مفرداً، ومقترناً بغـيره. فتقول: يا عزيز، يا حكـيم، يا قدير، يا سميع، يا بـصير، وإن انفرد

---

(١) [صحيح] رواه مسلم في الصلاة (٢/ ٤٤٠/ ٢٢٢) عن عائشة رضي الله عنه.

(٢) [اسناده ضعيف] أخرجه أبوداود (١٤٩٥)، والنسائي (٣/ ٥٢ ـ السيوطي) عن أنس به. وانظر «الأذكار للنووي» (١٠٢٣ ـ بتخريجنا).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) التيسير ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

كل اسم. وكذلك فى الثناء عليه، والخبر عـنه. وبه يسوغ لك الإفراد والجمع. ومنها ما يطلق عليه مفرداً، بل مقروناً بمقابـله. كالمانع، والضار، والمنتقم، والمذل، فلا يجوز أن يفرد هذا عـن مقابله، فإنه مـقرون بالمعطى، والنافـع، والعفو، والعزيز والمـعز. فهو: المعطى المانع، الضار الـنافع، المنتقم العفو، المعز المذل؛ لأن الكـمال فى اقتران كل اسم من هذا بمقابله، لأنه يراد به أنه المتفرد بالربـوبية، وتدبير الخلق، والتصرف فيهم إعطاء ومنعاً، ونفـعاً وضراً، وانتقاماً، وإعزازاً وإذلالاً. فأمـا الثناء عليه بمجرد المـنع والانتقام والاضرار، فـلا يسوغ، فهـذه الاسماء المـمزوجة يجـرى الاسمان مـنها مجـرى الاسم الواحد، الذى يمتنع فصل بعض حروفه مـن بعض. ولذلك لم تجىء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة. فلو قلت: يا ضار يا مانـع، يا مذل، لم تكن مثنياً عليه، ولا حامداً له حتى تذكر مقابلتها. انتهى ملخصاً من كلام ابن القيم. وفيه بعض زيادة.

وبه يظهر الجواب عما قد يرد على ما سـبق ذكر الأسماء الحسنى التى ورد عددها فى الحديث. لما كان إحصاء الأسماء الحسنى والعمل بـها أصلاً للعلم بكل معلوم، وكانت سعادة الدنـيا والآخرة مرتبة علـيها فما حصل من آثـارها للعباد. هو الـذى أوجب لهم دخول الجنة، ولـهذا جاء الحديث الصـحيح المتفق عـليه أن «**مَنْ أَحْصَاهَـا دَخَلَ الجَنَّةَ**». وذكرنا مراتب الاحصاء، لأن العبد محتاج، بـل مضطر إلى معرفتها فوق كل ضرورة. وقد قيل: إن الله ذكرها كلـها فى القرآن. ولا ريب أن الله تعالى ذكر أكثرهـا بلفظها، ولم يذكره بلفظه، ففى القرآن ما يدل علـيه. قال شعيب بن أبى حمزة: عن أبى الزناد عن الأعـرج عن أبـى هريرة رضـى الله عنـه قال: قـال رسول الله ﷺ: «**إن لله تسْعَةً وَتسعينَ اسْماً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ هوَ الله الَّذى لا إِلَهَ إلا هُوَ. الرَّحْمَنُ. الرَّحِيمُ. المَلِكُ. القُدُّوسُ. السَّلاَمُ. المُؤْمنُ. المُهَيْمنُ. العَزِيـزُ. الجَبَّارُ. المُتَكَبِّرُ. الخَالقُ. البَـارِىءُ. المُصَوِّرُ. الغَفَّـارُ. القَهَّارُ. الوَهَّـابُ. الرَّزَّاقُ. الفَتَّاحُ. العَـلِيمُ. القَابِـضُ. البَاسِطُ. الخَافِـضُ. الرَّافِعُ. المُعزُّ. المُذلُّ. السَّمِيعُ. البَـصِيرُ. الحَكَمُ. العَدْلُ. اللَّطِيفُ. الخَبِيرُ. الحَلِيـمُ. العَظِيمُ. الغَفُورُ. الشَّكُورُ. الـعَلِىُّ. الكَبِيرُ. الحَفِـيظُ. المُقِيتُ. الحَسِيبُ. الجَـلِيلُ. الكَرِيمُ. الرَّقِيـبُ. المُجِيبُ. الوَاسِعُ. الحَكِيمُ. الوَدُودُ. المَـجِيدُ. البَاعِثُ. الشَّهِيدُ. الحَقُّ. الوَكِيلُ. الـقَوِىُّ. المَتِينُ. الوَلِىُّ. الحَمِيدُ. المُحصى. المُبْدِىءُ. المُعِيدُ. المُحْيِى. المُمِيتُ. الحَىُّ. القَيُّومُ. الوَاجِدُ. المَاجِدُ. الوَاحِدُ. الأَحَدُ. الصَّـمَدُ. القَادِرُ. المُقْتَـدِرُ. المُقَدِّمُ. المُؤَخِّرُ. الأَوَّلُ. الآخِـرُ. الظَّاهِرُ. البَاطِـنُ. الوَلِى. المُتَعَالِ. البَرُّ. التَّوَّابُ. المُنْتَقِمُ. [المنـعم]. العَفُوُّ. الرَّؤُوفُ. مَالكُ المُلْكِ. ذُو الجَلاَلِ والإِكْرَامِ.**

المُقْسِطُ. الجَامِعُ. الغَنِىُّ. المُغنى. المَانِعُ. الضَّارُّ. النَّافِعُ. النُّورُ. الهادى. البَدِيعُ. البَاقى. الوَارِثُ. الرَّشِيدُ. الصَّبُورُ»[1].

هذا حديث غريب جداً حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث.

وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ لا نعلم فى كبير شىء من الروايات ذكر الأسماء الحسنى فى هذا الحديث، وقد روى آدم عن أبى إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ وذكر فيه الأسماء، وليس له إسناد صحيح. قلت: ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ يشير إلى عدد الأسماء سرداً، وإلا فصدر الحديث متفق عليه. وقد خرجه بالعدد المذكور ابن المنذر، وابن خزيمة فى «صحيحه» وابن حبان والطبرانى، والحاكم فى «المستدرك» وغيرهم به، ولم يذكروا فيه «**المعطى**» وإسناده صحيح، ولكن المغترب منه ذكر العدد. ورواه ابن ماجة، من طريق عبدالملك بن الصنعانى عن زهير بن محمد التميمى عن موسى بن عقبة عن الأعرج، وساق الأسماء، وخالف سياق الترمذى والترتيب والزيادة والنقص، فأما الزيادة فهى «**البارىء الراشد البرهان الشديد الواقى القائم الحافظ الناظر السامع المعطى الأبد المنير التام القديم الوتر**» وعبدالملك لين الحديث، وزهير مختلف فيه، وحديث الوليد أصح إسناداً وأحسن سياقا وأجدر أن يكون مرفوعاً ولهذا قال النووى هو حديث حسن. قال بعضهم: والعلة فى كونهما لم يخرجاه بذكر الأسامى تفرد الوليد بن مسلم عالم الشاميين ثقة. وقد قيل: إن العدد المذكور مدرج. قال فى «الإرشاد» ما معناه: ذكر جماعة من الحفاظ المحققين المتقنين أن سرد الأسماء فى حديث أبى هريرة مدرج فيه، وأن جماعة من أهل العلم جمعوها من القرآن، كما روى ذلك عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينه، وأبى زيد اللغوى، وقال البيهقى: يحتمل أن يكون التفسير للأسماء وقع من بعض الرواة، ولهذا الاحتمال ترك الشيخان إخراج حديث الوليد فى «الصحيح» قال فى «البدر»: والدليل على ذلك وجهان أحدهما أن أصحاب الحديث لم يذكروها، والثانى أن فيها تغييراً بزيادة ونقصان، وذلك لا يليق بالمرتبة العليا النبوية، كذا قال، وفيه نظر، فإن الزيادة والنقصان قد تكون من الرواة، وإن كان الحديث صحيحاً كما فى غير ذلك من الأحاديث. وقد رواه الطبرانى فى الدعاء، والحاكم وغيرهما، فزادوا «**الرب الإله الحنان المنان البارىء**» وفى لفظ «**القائم الفرد**» وفى لفظ «**القادر**» بدل الفرد و«**المغيث**

(١) تقدم تخريجه.

الدائم الحميد» وفى لفظ «الجميل الصادق المولى النصير القديم الوتر الفاطر العلام المليك الأكرم المدبر المالك الشاكر الرفيع ذو الطول المعارج ذو الفضل الخلاق» ولا أظنه يثبت، وإن كان بعض العدد صحيحاً. وعد جعفر بن محمد منها «المنعم المتفضل السريع».

وقال ابن حزم: جاءت فى إحصائها أحاديث مضطربة، لا يصح منها شىء أصلاً، ونقل عنه أنه قال: صح عندى قريباً من ثمانين اسماً، اشتمل عليها الكتاب، والصحاح من الأخبار، فليطلب الباقى بطريق الاجتهاد.

وقال القرطبى فى «شرح الأسماء الحسنى» العجب من ابن حزم، ذكر من الأسماء الحسنى نيفاً وثمانين فقط، والله يقول: **﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾** ثم ساق ما ذكره ابن حزم.

وفيه من الزيادة على ما تقدم **«الرب الإله الأعلى الأكبر الأعز السيد السبوح الوتر المحسن الجميل الرفيق الدهر»**. وقد عدها الحافظ فزاد **«الخفى السريع الغالب العالم الحافظ المستعان»**. وفى هذا نظر يفهم مما تقدم، وإن كان قد ذكر بعضها فيما لا يثبت من الحديث، فهذه خمسة وستون ومائة اسم، أقربها من جهة الإسناد سياق الترمذى، وما عدا ذلك ففيه أسماء صحيحة ثابتة، وفى بعضها توقف، وبعضها خطأ محض، كالأبد والناظر والسامع والقائم والسريع، فهذه وإن ورد عددها فى بعض الأحاديث؛ فلا يصح ذلك أصلاً. وكذلك الدهر والفعال والفالق والمخرج والعالم، مع أن هذه لم ترد فى شىء من الأحاديث إلا حديث.

«لاَتَسبُّوا الدَّهرَ فَإِنَّ الله هُوَ الدَّهْرُ»(1) وقد مضى معناه، وبينا خطأ ابن حزم فى عده من الأسماء الحسنى هناك.

واعلم أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر، ولا تحد بعدد فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها فى علم الغيب عنده، ولا يعلمها ملك مقرب، ولا نبى مرسل.

كما فى الحديث الصحيح **«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فى كِتَابِكَ، أَوْ عَلمتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثرتَ بِهِ فى عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ»**(2) رواه أحمد وابن حبان فى «صحيحه» وغيرهما.

قال ابن القيم: فجعل أسمائه ثلاثة أقسام: قسم سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من

---

(1) تقدم.　　　　(2) تقدم تخريجه.

ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه، وقسم أنزل به كتابه، وتعرف به إلى عباده، وقسم استأثر به فى علم غيبه، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، ولهذا قال: «**استأثرت به**» أى: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالمسمى به، لأن هذا الانفراد ثابت فى الأسماء التى أنزل بها كتابه.

ومن هذا قوله عليه السلام فى حديث الشفاعة «**فَيَفْتَحُ عَلَىَّ مِنْ مَحَامِدِهِ بِمَا لاَ أُحْسِنُهُ الآن**»[١]. وتلك المحامد هى بأسمائه وصفاته ومنه:

قوله ﷺ: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْت كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[٢].

وأما قوله ﷺ: «إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسماً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[٣] فالكلام جملة واحدة، وقوله: «**من أحصاها دخل الجنة**» صفة لا خبر مستقبل، والمعنى: له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة، وهذا كقولك: لفلان ألف شاة أعدها للأضياف فلا يدل على أنه لا يملك غيرها. وهذا لا خلاف بين العلماء فيه.اهـ.

فصل

فيما جاء فى اسم الله الأعظم

قال حامد بن محمد بن حسن[٤] تنبيه: اعلم أن أسماء الله كلها عظيمة لا يجوز تفضيل بعضها على بعض ذهب إلى ذلك قوم منهم أبو جعفر الطبرى، وأبو الحسن الأشعرى، وأبو حاتم ابن حبان، وأبو بكر الباقلانى، ونحوه قول مالك وغيره، كما لا يجوز تفضيل بعض القرآن على بعض، وحمل هؤلاء ما ورد فى ذكر الاسم الأعظم على أن المراد به العظيم.

وعبارة الطبرى: «اختلفت الآثار فى تبيين الاسم الأعظم والذى عندى أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد فى خبر منها أنه الاسم الأعظم ولا شىء أعظم منه، فكأنه يقول: كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم».

وقال ابن حبان: الأعظمية الواردة فى الأخبار المراد بها مزيد ثواب الداعى بذلك كما أطلق ذلك فى القرآن، والمراد به مزيد ثواب القارىء.

والقول الثانى: أنه مما استأثر الله بعلمه، ولَمْ يُطْلع عليه أحداً من خلقه كما قيل بذلك فى ليلة القدر، وفى ساعة الإجابة، وفى الصلاة الوسطى.

القول الثالث: أنه (هو) نقله الإمام الفخر الرازى عن بعض أهل العلم واحتج له بأن

---

(١) تقدم فى الشفاعة.
(٢) تقدم.
(٣) تقدم.
(٤) فتح الله الحميد المجيد ٤٢١ ـ ٤٢٨.

من أراد أن يعبر عن كلام معظم بحضرته لم يقل: أنت قلت كذا وكذا وإنما يقول: «هو» يقول تأدبا معه،

القول الرابع: أنه «الله» لأنه اسم لا يطلق على غيره ولأنه الأصل فى الأسماء الحسنى ومن ثم أضيفت إليه.

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره: ثنا الحسن بن محمد بن الصباح ثنا إسماعيل بن علية عن أبى رجاء حدثنى رجل عن جابر بن زيد أنه قال: اسم الله الأعظم هو الله، ألم تسمع أنه يقول: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.
وقال ابن أبى الدنيا فى كتاب الدعاء: ثنا إسحاق بن إسماعيل عن سفيان بن عيينة عن مسعر قال الشعبى: اسم الله الأعظم يا الله.

القول الخامس: الله الرحمن الرحيم.

قال ابن حجر فى شرح البخارى(*): «ولعل مستنده ما أخرجه ابن ماجه عن عائشة أنها سألت النبى ﷺ أن يعلمها الاسم الأعظم فلم يفعل فصلت ودعت: اللهم إنى أدعوك الله وأدعوك الرحمن وأدعوك الرحيم وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم الحديث، وفيه أنه ﷺ قال لها: **«إنه لفى الأسماء التى دعوت بها»**[1]. وقال سنده ضعيف. وفى الاستدلال به نظر». انتهى.

قلت ـ يعنى حامد بن محمد ـ أقوى منه فى الاستدلال ما أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال: **«هو اسم من أسماء الله تعالى وما بينه وبين الاسم إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب»**[2]. وفى مسند الفردوس للديلمى من حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ مرفوعاً: «اسم الله الأعظم فى ست آيات من آخر سورة الحشر»[3].

القول السادس: الرحمن الرحيم والحى القيوم؛ لحديث الترمذى وغيره عن أسماء بنت يزيد أن النبى ﷺ قال: «اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وفاتحة سورة آل عمران ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[4].

(*) ولقد أتى به حامد بن حسن بن محسن مختصراً ومهذباً ومزيلاً ولم يأت بنصه كاملاً.

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٩).

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (١/ ٥٥٢) وصححه. وانظر «فتح القدير» ـ بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٣٠٠) ونسبه للديلمى.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/ ٤٦١)، وأبوداود (١٤٩٦)، والترمذى (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥) عن أسماء به.

القول السابع: الحى القيوم؛ لحديث ابن ماجه والحاكم عن أبى أمامة، وفيه الاسم الأعظم فى ثلاث سور: البقرة، وآل عمران، وطه[1]. قال القاسم الراوى عن أبى أمامة: التمسته فيها فعرفت أنه الحى القيوم، قواه الفخر الرازى واحتج أنهما يدلان من صفات العظمة بالربوبية ما لا يدل على ذلك غيرهما لدلالتهما.

القول الثامن: الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام لحديث أحمد وأبى داود وابن حبان والحاكم عن أنس أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً فأتى برجل ثم دعا: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام يا حى يا قيوم، فقال ﷺ: «**لقد دعا الله تعالى باسمه الأعظم الذى إذا دُعى به أجاب، وإذا سُئل به أعطى**»[2].

القول التاسع: بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام، أخرج أبو يعلى من طريق السرى بن يحيى عن رجل من طى وأثنى عليه خيراً قال: كنت أسأل الله أن يرينى الاسم الأعظم فرأيت مكتوباً فى الكواكب فى السماء يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام.

القول العاشر: ذو الجلال والإكرام؛ لحديث الترمذى عن معاذ سمع النبى ﷺ رجلاً يقول: يا ذا الجلال والإكرام فقال: «قد استجيب لك فاسأل[3]. وأخرج ابن جرير فى تفسير سورة النمل عن مجاهد قال: الاسم الذى إذا دعى به أجاب: يا ذا الجلال والإكرام.

واحتج له الفخر بأنه يشمل جميع الصفات المعتبرة فى الإلهية، لأن فى الجلال إشارة إلى جميع السلوب وفى الإكرام إشارة إلى جميع الصفات.

القول الحادى عشر: الله لا إلا إلا هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد لحديث أبى داود والترمذى وابن حبان والحاكم عن بريدة أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحداً، فقال: **لقد سألت الله**

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦) عن أبى أمامة به.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٣١)، والترمذى (٣٥٢٧) عن معاذ به.

بالاسم الذى إذا سئل به أعطى، وإذا دُعى به أجاب، وفى لفظ عند أبى داود: **لقد سأل الله باسمه الأعظم**(١).

قال الحافظ ابن حجر: وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد فى ذلك.

القول الثانى عشر: رب رب.

أخرج الحاكم عن أبى الدرداء وابن عباس قالا: **اسم الله الأكبر رب رب**(٢).

وأخرج ابن أبى الدنيا عن عائشة مرفوعاً وموقوفاً: **إذا قال العبد يا رب يا رب قال الله تعالى لبيك عبدى سل تعط**.

القول الثالث عشر: ولم أر من ذكره مالك الملك.

أخرج الطبرانى فى «الكبير» بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى هذه الآية من آل عمران: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾(٣).

القول الرابع عشر: دعوة ذى النون فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لم يدع به مسلم قط إلا استجاب الله له. ذكره النسائى والحاكم عن فضالة بن عبيد رفعه(٤).

القول الخامس عشر: كلمة التوحيد، نقله عياض.

القول السادس عشر: هو الله الذى لا إله إلا هو رب العرش الكريم، نقله الرازى عن زين العابدين.

القول السابع عشر: وهو مخفى فى الأسماء الحسنى وهو الأصوب.

القول الثامن عشر: كل اسم إذا دعى العبد به ربه بحيث لا يكون فى فكره غير الله، قال جعفر الصادق والجنيد وغيرهما: أخرج أبو نعيم فى الحلية عن أبى يزيد البسطامى أنه سأل رجلاً عن الاسم الأعظم فقال: ليس له حد محدود إنما هو فراغ قلبك بوحدانيته فإذا كنت كذلك فادفع إلى أى اسم شئت فإنك تحصل مقصودك.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرك» (١/ ٥٠٥) عنهما وسكت عليه.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١٢/ ١٧١/ ١٢٧٩٢) بإسناد ضعيف.

(٤) أخرجه الترمذى (٣٥٠٥) والنسائى فى «الكبرى» (١٠٤٩١) والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٥٠٥) عن سعيد بن أبى وقاص به.

وأخرج أبو نـعيم عن أبى سلـيمان الدارانى قال: سـألت بعض المشايـخ عن الاسم الأعظم فقال: تعرف قلبك؟ قلت: نعـم، قال: فإذا رأيته قد أقبل ورق فاسأل الله تعالى حاجتك فذاك اسم الله الأعظم، فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم أطع الله يطعك.

القول التاسع عشر: اللهم.

قال الحسن البصرى: اللهم مجمع الدعاء، وقال النضر بن شميل: من قال اللهم فقد دعى الله بجميع أسمائه.

القول العشرون: آلم.

أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: آلم اسم الله الأعظم(1).

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: آلم اسم من أسماء الله الأعظم(2) انتهى.

الحاصل أن المشروع المرضى المأمور به أن يدعو الله بأسـمائه الحسنى كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾. أو تدعوه بالأعمال الصالحة كما سأل الله أصحاب الغار بأعمالهم الصالحة ففرج الله عنهم.

فإن قلت: الأنبياء لـهم جاه وإنى أسأل الله بجاههم، قلت: بلـى لهم جاه كما قال تعالى عـن موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾(3). وقال عن عـيسى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾(4). ولكن جاههم وقربهم عند الله مَـنٌّ مِنَ الله عليهم باتباعهم أمر الله واجتنابهم نهيه وذا نفعه لهم خاصة بما عملوا فضلاً من الله ورحمة ولا لنا منفعة من ذلك الجاه والقرب تعـود علينا فبأى شىء نتوسل إلى الله بـه؟ بلى إن توسلت إلى الله بإيمانك بهم وبما جاؤا به وبحبك لهم فيكون، لأن ذلك كله من الأعمال الصالحة.

قال أبو العباس ابن تيمية: «ولا ريب أن لهم جاهاً كما قال فى موسى ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾، وقال فى المسيح: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ لكن ما لهم عند الله من المنازل والدرجات ما يعود إلينا نفعه إلا اتباعنا لهم ومحبتنا لهم فإذا توسلت إلى الله بإيمانك بنبيه ﷺ مثلاً ومحبته وموالاته واتباع سنته فـهذا من أعظم الوسائل، وأما التـوسل بنفـس ذاته مع عدم التـوسل بالإيمـان به وطاعته فـلا يجوز، فالمتوسل

---

(1) ذكره السيوطى فى «الدر» (1/ 54) ونسبه لابن جرير وانظر «الاتقان» للسيوطى بتخريجنا.

(2) ذكره السيـوطى فى الموضع السـابق ونسبه لابن جـرير، وابن أبى حاتم وانظـر «الاتقان» بتخريـجنا أيضاً.

(3) الأحزاب: 69.

(4) آل عمران: 45.

بالمخلوق [إذا لم يتوسل لا بما من المتوسل به مثل دعائه ولا بما منه](*) مثل الإيمان به وموالاته واتباع سنته إن كان نبيّا مرسلاً إليه وإلى قومه فبأى شيء يتوسل؟ والإنسان إذا توسل إلى غيره بوسيلة فإما أن يطلب من الوسيلة الشفاعة عند ذلك مثل أن يقال لأبى الرجل وصديقه أو من يكرم عليه: اشفع لى عند فلان وهو حى وهذا جائز، وإما أن تقسم والإقسام على الله بالمخلوق لا يجوز بل ولا يجوز الإقسام على مخلوق بمخلوق والدعاء بالنبى أو الصالح إما أن يكون إقساماً به وإما تسبباً به، فإن كان إقساماً به فلا يقسم على الله إلا به، وإن كان تسبباً فهو تسبب بما جعله سبحانه سبباً وهو دعاء الله وعبادته، وإذا قال القائل: أسألك بحق الملائكة أو بحق الأنبياء أو الصالحين. فإن كان يقسم بذلك على مخلوق فهو لا يجوز له فإذا كان لم يجز له أن يحلف به أو يقسم به على مخلوق فكيف يقسم على الخالق به؟ بل إنما يقسم بالله بأسمائه وصفاته كما ذكر عن الرسول ﷺ أنه يقول: «**أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم**»(١)، «وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»(٢). وإن كان لا يقسم به وإنما يتسبب به فليس فى مجرد ذواتهم سبب يوجب تحصيل مقصوده لكن لابد من سبب منه كالإيمان بهم أو منهم كدعائهم، فمن قال: أسألك بإيمانى بك وبرسولك ونحو ذلك أو بإيمانى برسولك ومحبتى له ونحو ذلك فقد أحسن كما قال تعالى فى دعاء المؤمنين الذين يقولون: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾(٣). وقال تعالى عن الحواريين: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾(٤). وكان ابن مسعود يقول: اللهم أمرتنى فأطعتك ودعوتنى فأجبتك وهذا سَحَرٌ فاغفر لى، ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر فأووا إلى الغار وانطبقت عليهم الصخرة ثم دعوا الله بأعمالهم الصالحة ففرج عنهم(٥). وقد مضت السنة أن الحى يطلب منه الدعاء كما يطلب منه سائر ما يقدر عليه. وأما المخلوق الغائب والميت فلا يطلب منه شىء، قال الشيخ أبو الحسن القدورى: المسألة بخلقه لا تجوز لأنه لا حق للمخلوق على الخالق فلا تجوز أعنى وفاقاً. وروى فى كتاب «الحلية» لأبى نعيم أن داود عليه السلام قال: يارب بحق آبائى عليك إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فأوحى الله إليه يا داود، أى حق لآبائك على. هذا

(*) كذا فى المطبوع ولكنه غير مستقيم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) آل عمران: ١٦.

(٤) آل عمران: ٥٣.

(٥) أخرجه البخارى (٣٤٦٥) عن ابن عمر به.

وإن لم يكن من الأدلة الشرعية فالإسرائيليات يعتضد بها ولا يعتمد عليها، انتهى كلامه رحمه الله تعالى. محصول الحاصل أن المأمور في الدعاء أن تدعو الله بأسمائه الحسنى وأعمالك الصالحة كما مضى.

قال ابن عثيمين[1] واعلم أن دعاء الله بأسمائه له معنيان:

الأول: دعاء العبادة، وذلك بأن تتعبد لله بما تقتضيه تلك الأسماء، ويطلق على الدعاء عبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾[2]، ولم يقل: عن دعائي؛ فدل على أن الدعاء عبادة.

فمثلاً: الرحيم يدل على الرحمة، وحينئذ تتطلع إلى أسباب الرحمة وتفعلها.

والغفور يدل على المغفرة، وحينئذ تتعرض لمغفرة الله - عز وجل - بكثرة التوبة والاستغفار كذلك وما أشبه ذلك.

والقريب: يقتضي أن تتعرض إلى القرب منه بالصلاة وغيرها، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

والسميع: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى السمع، بحيث لا تسمع الله قولاً يغضبه ولا يرضاه منك.

والبصير: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى ذلك البصر بحيث لا يرى منك فعلاً يكرهه منك.

الثاني: دعاء المسألة، وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلاً بها إلى الله تعالى.

مثلا: يا حي! يا قيوم! اغفر لي وارحمني، وقال ﷺ: **«فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»**[3]، والإنسان إذا دعا وعلل؛ فقد أثنى على ربه بهذا الاسم طالبا أن يكون سببا للإجابة، والتوسل بصفة المدعو المحبوبة له سبب للإجابة؛ فالثناء على الله بأسمائه من أسباب الاجابة.

قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾

قال صاحب الإعراب: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الواو عاطفة، وذروا فعل أمر وفاعل، والذين اسم موصول مفعول به، وجملة يلحدون صلة الموصول، وفي

---

(1) القول المفيد ٣/٩٣ - ٩٥.

(2) غافر: ٦٠.

(3) [متفق عليه] أخرجه: البخاري (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٢٧ - النووي) عن أبي بكر.

أسمائه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، والمعنى واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيه.

ثم قال (١) ﴿يُلْحِدُونَ﴾: مضارع آلحد بمعنى مال وانحرف.

وأصل الالحاد في اللغة: الميل ومنه اللحد في القبر، ومعنى الحادهم في اسمائه هو كاشتقاقهم اسم اللات من اسم الله واسم العزى من اسم العزيز واسم مناة من المنان ونحو ذلك والعرب تقول لحد وألحد بمعنى واحد، وعليهما القراءتان يلحدون بفتح الياء والحاء من الأول، وبضمها وكسر الحاء من الثاني. اهـ.

● **التفسير بالقرآن:**

قال الشنقيطي (٢) حدد تعالى في هذه الآية الذين يلحدون في أسمائه بتهديدين

الأول: في صيغة الأمر بقوله: ﴿وَذَرُوا﴾ فانها للتهديد.

والثاني: في قوله ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهدد الذين يحدون في آياته في سورة حم (السجدة) بانهم لا يخفون عليه في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ ثم اتبع ذلك بقوله: ﴿افمن يلقى في النار﴾ الآية اهـ.

● **التفسير بالمأثور:**

روى الطبري: عن ابن عباس ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال الحاد الملحدين أن دعوتا اللات في أسماء الله (٣):

وعن مجاهد وذروا الذين يلحدون في أسمائه قال اشتقوا العزى من العزيز واشتقوا اللات من الله (٤).

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله يلحدون فقال بعضهم يكذبون ذلك فعن ابن عباس قوله ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال الإلحاد التكذيب (٥).

---

(١) الإعراب ٣/ ٥٠١.   (٢) الأضواء ٢/ ٢٥٣.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩/ ٩١ ـ ٩٢) وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٢٧١) ونسبه لابن أبي حاتم فانظره بتخريجنا.

(٤) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٢٧١) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وانظر الأخير بتخريجنا.

قال آخرون معنى ذلك يشركون فعن عن قتادة ﴿يُلْحِدُونَ﴾ قال يشركون[1].

وعن عطاء فى الاية قال: الالحاد المضاهاة[2].

عن الأعمش أنه قرأ ﴿يَلْحَدُون﴾ بنصب الياء والحاء من اللحد، وقال تفسيرها يدخلون فيها ما ليس منها[3].

عن قتادة ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: يكذبون فى اسمائه[4].

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبرى[5] وأما قوله وذروا الذين يلحدون فى أسمائه فانه يعنى به المشركين وكان الحادهم فى أسماء الله أنهم عدلوا بها عما هى عليه فسموا بها آلهتهم وأوثانهم وزادوا فيها ونقصوا منها فسموا بعضها اللات اشتقاقا منهم لها من اسم الله الذى هو الله وسموا بعضها العزى اشتقاقا لها من اسم الله الذى هو العزيز وبنحو الذى قلنا فى ذلك. قال أهل التأويل:

وأصل الإلحاد فى كلام العرب العدول عن القصد والجور عنه والإعراض ثم يستعمل فى كل معوج غير مستقيم ولذلك قيل للحد القبر لحد لانه فى ناحية منه وليس فى وسطه يقال منه ألحد فلان يلحد الحادا ولحد يلحد لحدا ولحودا وقد ذكر عن الكسائى أنه كان يفرق بين الإلحاد واللحد فيقول فى الإلحاد انه العدول عن القصد وفى اللحد انه الركون إلى الشىء وكان يقرأ جميع ما فى القرآن يلحدون بضم الياء وكسر الحاء إلا التى فى النحل فإنه كان يقرؤها يلحدون بفتح الياء والحاء ويزعم أنه بمعنى الركون وأما سائر أهل المعرفة بكلام العرب فيرون أن معناهما واحد و أنهما لغتان جاءتا فى حرف واحد بمعنى واحد.

واختلفت القراء فى قراءة ذلك فقرأته عامة قراء أهل المدينة وبعض البصريين والكوفيين يلحدون بضم الياء وكسر الحاء من ألحد يلحد فى جميع القرآن وقرأ ذلك عامة قراء أهل الكوفة يلحدون بفتح الياء والحاء من لحد يلحد والصواب من القول فى

---

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «آلدر» (٣/ ٢٧٢) وزاد نسبته لعبدالرزاق، وعبد بن حميد.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٧٢) ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وأبى الشيخ.

(٥) الطبرى ٦/ ٩/ ٩١ ـ ٩٢.

ذلك أنهما لغتان بمعنى واحد فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب الصواب فى ذلك غير أنى أختار القراءة بضم الياء على لغة من قال ألحد لانها أشهر اللغتين وأفصحهما وكان ابن زيد يقول فى قوله وذروا الذين يلحدون فى أسمائه أنه منسوخ قال ابن زيد فى قوله وذروا الذين يلحدون فى أسمائه قال هؤلاء أهل الكفر وقد نسخ نسخة القتال ولا معنى لما قال ابن زيد فى ذلك من أنه منسوخ لان قوله ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ليس بأمر من الله لنبيه ﷺ بترك المشركين أن يقولوا ذلك حتى يأذن له فى قتالهم وانما هو تهديد من الله للملحدين فى أسمائه ووعيد منه لهم كما قال فى موضع آخر ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل الآية وكقوله ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون وهو كلام خرج مخرج الأمر بمعنى الوعيد والتهديد ومعناه أن تمهل الذين يلحدون يا محمد فى أسمائه الله إلى أجل هم بالغوه فسوف يجزون إذا جاءهم أجل الله الذى أجله اليهم جزاء أعمالهم التى كانوا يعملونها قبل ذلك من الكفر بالله والالحاد فى أسمائه وتكذيب رسوله[1]. اهـ.

قال البغوى[2]: قوله تعالى ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾. قرأ حمزة يلحدون بفتح الياء والحاء حيث كان، وافقه الكسائى فى النحل، والباقون بضم الياء وكسر الحاء ومعنى الإلحاد هو الميل عن القصد، يقال: ألحد يلحد إلحاداً، والحد يلحد لحداً ولحودا إذا مال قال يعقوب بن السكيت: الإلحاد هو العدول عن الحق وإدخال ماليس منه فيه. يقال: ألحد فى الدين، ولحد، وبه قرأ حمزة وقال أهل المعانى: الإلحاد فى أسماء الله تسميته بما لم يتسم به، ولم ينطق به كتاب الله ولا سنّة رسول الله ﷺ، وجملته: أن أسماء الله تعالى على التوقيف، فإنه يسمى جواداً ولا يسمى سخياً، وإن كان فى معنى الجواد، ويسمى رحيماً ولا يسمى رفيقاً، ويسمى عالماً ولا يسمى عاقلاً. وقال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ وقال عز من قائل ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ ولا يقال فى الدعاء يا مخادع، يا مكار، بل يدعى بأسمائه التى ورد بها التوقيف على وجه التعظيم فيقال: يا الله، يا رحمن. يا رحيم، يا عزيز، يا كريم، ونحو ذلك. اهـ.

قال الزمخشرى[3] ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه

(١) الطبرى ٦/ ٩/ ٩١ ـ ٩٢.

(٢) البغوى ٣/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦.

(٣) الكشاف ٢/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا نخى أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى نحو أن يقولوا يا الله ولا يقولوا يارحمن وقد قال الله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ويجوز أن يراد ولله الأوصاف الحسنى وهى الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق فصفوه بها وذروا الذين يلحدون فى أوصافه فيصفونه بمشيئة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل فى التشبيه كالرؤية ونحوها. اهـ.

قلت: وصف الله بالمشيئة لكل شىء ليس إلحاداً قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فلله مشيئة وللعبد مشيئة ومشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب كما تقدم مراراً من كلام أهل العلم وخلق الله لكل شىء ووصفه بذلك ليس إلحاداً قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلا أنه لا يخلق الشر لذاته ولا المنكر لذاته بل لحكمة تجعل من خلق القبيح مليحاً كما خلق المرض للكفاره ورفع الدرجات والفتن للتمحيض كما تقدم ذلك مراراً ورؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة لاتقتضى تشبيهاً وهى ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة كما استدل الشافعى بقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ واستدلوا بقوله تعالى فى أولياءه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ لكن الإلحاد ما ذهب إليه الزمخشرى ومن شابهه من المعتزلة.

قال ابن الجوزى[(١)] **قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾** قال الزجاج: ولا ينبغى لأحد أن يدعوه بما لم يسّم به نفسه، فيقول: يا جواد، ولا يقول: يا سخى؛ ويقول: يا قوى، ولا يقول: يا جلْد، ويقول: يا رحيم، ولا يقول: يا رفيق، لأنه لم يصف نفسه بذلك. قال أبو سليمان الخطابى: ودليل هذه الآية أن الغلط فى أسمائه والزيغ عنها إلحادٌ، ومما يُسمع على ألسنة العامة قولهم: يا سبحانُ، يا برهانُ، وهذا مهجور مستهجن لا قدوة فيه، وربما قال بعضهم: يارب طه ويس. وقد أنكر ابن عباس على رجل قال: يارب القرآن. عن ابن عباس أن إلحادهم فى أسمائه أنهم سمَّوا بها أوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فاشتقوا اللات من الله والعزّى من العزيز، ومناة من المنان(*).

فصل: والجمهور على أن هذه الآية محكمة. لأنها خارجة مخرج التهديد، كقوله:

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(*) تقدم تخريجه.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[1] وقد ذهب بعضهم إلى أنها منسوخة بآية القتال، لأن قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يقتضى الإعراض عن الكفار، وهذا قول ابن زيد. اهـ.

قال الرازى[2] أما قوله تعالى ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو عمرو من أهل اللغة: الإلحاد: العدول عن الاستقامة والانحراف عنها. ومنه اللحد الذى يحفر فى جانب القبر.

قال الواحدى رحمه الله: والأجود قراءة العامة لقوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ والإلحاد أكثر فى كلامهم لقولهم: ملحد، ولاتكاد تسمع العرب يقولون لاحد.

المسألة الثانية: قال المحققون: الإلحاد فى أسماء الله يقع على ثلاثة أوجه:

الأول: إطلاق أسماء الله المقدسة الطاهرة على غير الله. مثل أن الكفار كانوا يسمون الأوثان بآلهة، ومن ذلك أنهم سموا أصناما لهم باللات والعزى والمناة، واشتقاق اللات من الإله، والعزى من العزيز، واشتقاق مناة من المنان مسيلمة الكذاب لقب نفسه بالرحمن.

والثانى: أن يسموا الله بما لا يجوز تسميته به، مثل تسمية من سماه - أبا - للمسيح. وقول جمهور النصارى: أب، وابن وروح القدس، ومثل أن الكرامية يطلقون لفظ الجسم على الله سبحانه ويسمونه به، ومثل ان المعتزلة قد يقولون فى أثناء كلامهم، لو فعل تعالى كذا وكذا لكان سفيها مستحقا للذم، وهذه الألفاظ مشعرة بسوء الأدب.

قال أصحابنا: وليس كل ما صح معناه جاز إطلاقه باللفظ فى حق الله، فانه ثبت بالدليل أنه سبحانه هو الخالق لجميع الأجسام، ثم لايجوز أن يقال: يا خالق الديدان والقرود والقردان، بل الواجب تنزيه الله عن مثل هذه الأذكار، وأن يقال: يا خالق الأرض والسموات يا مقيل العثرات يا راحم العبرات الى غيرها من الأذكار الجميلة الشريفة.

والثالث: أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه ولايتصور مسماه، فانه ربما كان مسماه أمراً غير لائق بجلال الله فهذه الأقسام الثلاثة هى الإلحاد فى الأسماء.

فإن قال قائل: هل يلزم من ورود الأول فى اطلاق لفظه على الله تعالى أن يطلق عليه سائر الألفاظ المشتقة منه على الاطلاق؟

قلنا: الحق عندى أن ذلك غير لازم لا فى حق الله تعالى، ولا فى حق الملائكة

---

(١) المدثر: ١١

(٢) الفخر ٨/ ١٥/ ٧٥ ـ ٧٦.

والأنبياء وتقريره: أن لفظ «علم» ورد في حق الله تعالى في آيات منها قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ ثم لايجوز أن يقال في حق الله تعالى يا معلم، وأيضاً ورد قوله ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ثم لايجوز عندي أن يقال يا محب. وأما في حق الأنبياء فقد ورد في حق آدم عليه السلام ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ثم لايجوز أين يقال إن آدم كان عاصيا غاويا، وورد في حق موسى عليه السلام ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ ثم لايجوز أن يقال إنه عليه السلام كان أجيرا، والضابط أن هذه الألفاظ الموهمة يجب الاقتصار فيها على الوارد، فأما التوسع باطلاق الألفاظ المشتقة منها فهي عندي ممنوعة غير جائزة.

ثم قال تعالى: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فهو تهديد ووعيد لمن ألحد في أسماء الله. اهـ. وسيأتي أنواع أخرى من الإلحاد من كلام ابن القيم.

قال القرطبي[1]: قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾... والإلحاد يكون بثلاثة أوجه:

أحدها بالتغيير فيها كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه فسَمَّوْا بها أوثانهم؛ فاشتقوا اللَّات من الله، والعُزَّى من العزيز، ومنَاة من المَنَّان؛ قاله ابن عباس وقتادة.

الثاني - بالزيادة فيها.

الثالث - بالنقصان منها؛ كما يفعله الجُهَّال الذين يخترعون أدعيةً يسمّون فيها الله تعالى بغير أسمائه، ويذكرونه بغير ما يذكر من أفعاله؛ إلى غير ذلك مما لا يليق به؛ قال ابن العربي «فحذارِ منها، ولا يدعُوَنّ أحدكم إلا بما في كتاب الله والكتب الخمسة؛ وهي البخاريّ ومسلم والترمذيّ وأبو داود والنَّسائيّ. فهذه الكتب التي يدور الإسلام عليها، وقد دخل فيها ما في المُوَطَّا الذي هو أصل التصانيف، وذروا ما سواها، ولا يقولَنّ أحدكم أختار دعاء كذا وكذا؛ فإن الله قد اختار له، وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله ﷺ».

الثانية: - معنى الزيادة في الأسماء التشبيه، والنقصان التعطيل. فإن المشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه، والمعطِّلة سلبوه ما اتصف به؛ ولذلك قال أهل الحق: إن ديننا طريق

(١) القرطبي ٤/ ٢٧٦٤ - ٢٧٦٥.

بين طريقين، لا بتشبيه ولا بتعطيل. وسئل الشيخ أبو الحسن البُوشَنْجِيّ عن التوحيد فقال: إثبات ذات غيرِ مشبَّهة بالذوات، ولا معطَّلة من الصفات. وقد قيل فى قوله تعالى «وذَرُوا الذين يُلحِدون»: معناه اتركوهم ولا تحاجّوهم ولا تَعَرَّضوا لهم. فالآية على هذا منسوخةٌ بالقتال؛ قاله ابن زيد. وقيل: معناه الوعيد؛ كقوله تعالى: ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ وقوله ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾. وهو الظاهر من الآية؛ لقوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. والله أعلم. اهـ. وقد تقدم تأييد ذلك من كلام ابن الجوزى.

قال السعدى[1]: وحقيقة الإلحاد، الميل بها، عما جعلت له.

إما بأن يسمى بها، من لايستحقها، كتسمية المشركين بها لآلهتهم.

وإما بنفى معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله.

وإما أن يشبه بها غيرها.

فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها.

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ: **«أن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة»**[2].اهـ.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[3]: وقوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ﴾ أى: اتركوهم، وأعرضوا عن مجادلتهم.

قال ابن القيم: والإلحاد فى أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادة اللحد، ومنه اللحد وهو الشق فى جانب القبر الذى قد مال عن الوسط، ومنه اللحد فى الدين المائل عن الحق إلى الباطل.

إذا عرف هذا فالإلحاد فى أسمائه.

أحدها: أن يسمى الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإله، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهاً، وهذا إلحاد حقيقة، فهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

---

(١) السعدى: ٢/ ١٧١.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) التيسير: ٤٨٧ - ٤٨٨.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته، أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يد الله مغلولة، وأمثال ذلك مما هو إلحاد فى أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة، لاتتضمن صفات، ولا معانى، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحى والرحيم والمتكلم، ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين. فإن أولئك أعطوا من أسمائه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوا كماله، وجحدوها وعطلوها، وكلاهما ألحد فى أسمائه، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون فى هذا الإلحاد، فمنهم الغالى والمتوسط والمتلوث، وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسول ﷺ فقد ألحد فى ذلك فليقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً، فهذا الإلحاد فى مقابله إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله، وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه، وتنزيههم خالياً من التعطيل، لا كمن شبه كأنه يعبد صنماً، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدماً، وأهل السنَّة وسط فى النِّحَل، كما ان أهل الإسلام وسط فى الملل توقد مصابيح معارفهم من **﴿شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾**(١) **﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**(٢) وعيد وتهديد. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٣): والذى عليه أهل السُّنة والجماعة قاطبة - متقدمهم

(١) النور: ٣٥.	(٢) الأعراف: ١٨٠.
(٣) فتح المجيد ٢/ ٦٢٥: ٦٢٦.

ومتأخرهم -: إثباتُ الصفات التى وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١).

وأنَّ الكلام فى الصفات فرعٌ عن الكلام فى الذات، يحتذى حذوه ومثاله. وكما أنه يجب العلمُ بأن لله ذاتاً حقيقة لا تُشبه شيئاً من ذوات المخلوقين.

فله صفاتٌ حقيقة لا تشبه شيئاً من صفاتِ المخلوقين، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، أو تأوَّله على غير ما ظهر من معناه: فهو جهميٌّ، قد اتبع غير سبيل المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(٢).

وقال العلاَّمة أيضًا:

فائدةٌ جليلة: ما يجرى صفةً أو خبراً على الرب تبارك وتعالى، أقسام:

أحدُها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود.

الثانى: ما يرجع إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق، والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولا بدَّ من تضمُّنه ثبوتاً؛ إذ لا كمال فى العدم المحض، كالقدوس، والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس-: وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لاتختص بصفة معينة، بل دالٌّ على معان، نحو المجيد، العظيم، الصمد؛ فإنَّ المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدلُّ على هذا. فإنَّه موضوعٌ للسعة والكثرة والزيادة. فمنه: استَمْجدَ المَرْخُ والعَفارُ، وأمجد الناقة: علفها، ومنه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾(٣) صفة للعرش، لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمَّل كيف جاء بهذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله، كما علَّمناه ﷺ: بأنه فى مقام طلب المزيد والتعرُّض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه. فأتى فى هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لى وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم، فهو

(١) الشورى: ١١.
(٢) النساء: ١١٥.
(٣) البروج: ١٥.

راجعٌ إلى التوسُل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبِّها إليه، ومنه الحديثُ الذى فى (المسند) والترمذى «**أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام**»(١)، ومنه «**اللهم إنى أسألُك بأنَّ لك الحمد، لا إله إلا أنت المنانُ، بديعُ السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام**»(٢).

فهذا سؤالٌ له وتوسل إليه بحمده، وأنه: لا إله إلا هو المنان. فهو توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته، وما أحقَّ ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعاً عند المسؤول. وهذا بابٌ عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفةٌ تحصل من اقتران أحد الإسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدْرٌ زائد على مفرديهما، نحو: الغنى الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد. وهكذا عامةُ الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة فى القرآن؛ فإنَّ الغنى صفةُ كمال، والحمد كذلك، واجتماعُ الغنى مع الحمد كمال آخر. فله ثناءٌ من غناه، وثناءٌ من حمده، وثناءٌ من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم. فتأمله، فإنه من أشرف المعارف. اهـ.

قال ابن باز(٣): والإلحاد قسمان:

الأول: إلحاد أكبر: وهو ما يقع من الكفرة.

الثانى: إلحاد ناقص: وهو ما يقع من بعض المسلمين فى عدم انقيادهم للحق على التمام والكمال فيكون لهم نوع إلحاد وميل عن الحق فيفوتهم من الإيمان والإسلام بقدر ذلك. اهـ.

قال ابن عثيمين(٤): قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾.

﴿وَذَرُوا﴾: اتركوا، ﴿الَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة يلحدون صلة الموصول.

ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهو الإلحاد؛ أى: سيجزون جزاءه المطابق للعمل تماماً، ولهذا يعبر الله تعالى بالعمل عن الجزاء إشارة للعدل، وأنه لايجزى الإنسان إلا بقدر عمله.

(١) تقدم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) التعليق: ٢٣٧.

(٤) القول المفيد ٣/ ٩٥ - ٩٧.

والمعنى: ذروهم؛ أى: لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم: فإنهم على ضلال وعدوان، وليس المعنى عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم؛ إذ لا يترك الظالم على ظلمه، ويحتمل أن المراد بقوله ﴿وَذَرُوا﴾ تهديداً للملحدين.

والإلحاد: مأخوذ من اللحد، وهو الميل، لحد وألحد بمعنى مال، ومنه سُمّى الحفر بالقبر لحداً؛ لأنه مائل إلى جهة القبلة.

والإلحاد فى أسماء الله: الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئاً من الأسماء أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكام، ووجه كونه إلحاداً أنه مال بها عما يجب لها؛ إذ الواجب إثباتها وإثبات ما تتضمنه من الصفات والأحكام.

الثانى: أن يثبت لله أسماء لم يسم الله بها نفسه؛ كقول الفلاسفة فى الله: إنه علة فاعلة فى هذا الكون تفعل، وهذا الكون معلول لها، وليس هناك إله.

وبعضهم يسميه العقل الفَعَّال؛ فالذى يدير هذا الكون هو العقل الفعال، وكذلك النصارى يسمون الله أباً وهذا إلحاد.

الثالث: أن يجعلها دالة على التشبيه، فيقول: الله سميع بصير قدير، والإنسان سميع بصير قدير، اتفقت هذه الأسماء؛ فيلزم أن تتفق المسميات، ويكون الله - سبحانه وتعالى - مماثلاً للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلى التوافق بالصفات.

ووجه الإلحاد: أن أسماءه دالة على معان لائقة بالله لا يمكن أن تكون مشابهة لما تدل عليه من المعانى فى المخلوق.

الرابع: أن يشتق من هذه الأسماء أسماء للأصنام؛ كتسمية اللات من الإله أو من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المَنَّان حتى يلقوا عليها شيئاً من الألوهية ليبرروا ما هم عليه.

واعلم أن التعبير بنفى التمثيل أحسن من التعبير بنفى التشبيه؛ لوجوه ثلاثة:

١ - أنه هو الذى نفاه الله فى القرآن؛ فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

٢ - أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه، واشتراكا فى المعنى من بعض الوجوه.

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ : ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ : «يُشْرِكُونَ»(١).

فمثلاً: الخالق والمخلوق اشتركا فى معنى الوجود، لكن وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه، وكذلك العلم والسمع والبصر ونحوها اشترك فيها الخالق والمخلوق فى أصل المعنى، ويتميز كل واحد منهما بما يختص به.

٣ - أن الناس اختلفوا فى معنى التشبيه حتى جعل بعضهم إثبات الصفات تشبيهاً؛ فيكون معنى بلا تشبيه؛ أى: بلا إثبات صفات على اصطلاحهم.

قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لم يقل سيجزون العقاب إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، وهذا وعيد، وهو كقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾(٢)؛ وليس المعنى أن الله - عز وجل - مشغول الآن وسيخلفه الفراغ فيما بعد.

قوله: ﴿ يَعْمَلُونَ﴾.

العمل يطلق على القول والفعل؛ قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾، وهذا يكون فى الأفعال والأقوال. اهـ.



قوله: [ذكر ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يشركون].

مناسبة الأثر للباب وللتوحيد.

قال القرعاوى(٣): أفاد الأثرأن رأى ابن عباس أن الالحاد فى أسماء الله شرك.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٩/ ٩١) وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٥/ ١٦٢٣/ ح٨٥٨٣).
من طريق المثنى قال ثنا عبد الله قال ثنى معاوية عن على عن ابن عباس.
وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٣/ ٢٧١) وزاد نسبته لابن المنذر عن ابن عباس رضى الله عنه بلفظ آخر.
وانظر فتح القدير: (ح ٥٣٧٨ - بتخريجنا).
وبلفظ الباب أخرجه عبد الرزاق فى «تفسيره» (١/ ٢٢٨/ ح٩٦١) وابن جرير (٩/ ٩١)، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٥/ ١٦٢٣/ ح ٨٥٨٦).
كلاهما من طريق معمر عن قتادة به.
وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٧٢). وزاد نسبته لعبد بن حميد.
وانظر «فتح القدير» (ح ٥٣٨٢ - «وفتح المجيد» (ح٨١١) بتخريجنا).
(٢) الرحمن: ٣١.
(٣) القول المفيد ٣/ ٩٥.

وعنه «سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهَ، والعزَّى مِنَ العَزِيزِ».

قوله:[1] «ذكر ابن أبى حاتم عن ابن عباس».

قال سليمان آل الشيخ[2]: وهذا الاثر لم يروه ابن أبى حاتم عن ابن عباس، إنما رواه عن قتاده، فاعلم ذلك. اهـ.

قوله: «يلحدون فى أسمائه: «يشركون». اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[3]: قوله تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يشركون، أى: يشركون غيره فى أسمائه كتسميتهم الصنم إلهاً، ويحتمل أن المراد الشرك فى العبادة، لأن أسماءه تعالى تدل على التوحيد، فالإشراك بغيره إلحاد فى معانى أسمائه سبحانه وتعالى لا سيما مع الإقرار بها، كما كانوا يقرون بالله ويعبدون غيره، فهذا الاسم وحده أعظم الأدلة على التوحيد، فمن عبد غيره، فقد ألحد فى هذا الاسم، وعلى هذا بقية الأسماء. اهـ. س

قال ابن عثيمين[4]: تفسير للإلحاد، ويتضمن الإشراك بها من جهتين:

١ - أن يجعلوها دالة على المماثلة.

٢ - أو يشتقوا منها أسماء للأصنام؛ كما فى الرواية الثانية عن ابن عباس التى ذكرها المؤلف، فمن جعلها دالة على المماثلة؛ فقد أشرك لأنه جعل لله مثيلاً، ومن أخذ منها أسماء لأصنامه؛ فقد أشرك لأنه جعل مسميات هذه الأسماء مشاركة لله - عز وجل -. اهـ.

قوله: «سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز».

مناسبة الاثر للباب وللتوحيد:

قال محمد القرعاوى[5]: افاد الاثر أن ابن عباس يرى أن تسمية الأصنام بأسماء الله إلحاد فى اسماء الله وقد ثبت أن الالحاد فى أسماء الله شرك. اهـ.

قوله: «وعنه».

---

(١) الجديد ٤٨.

(٢ - ٣) التيسير: ٤٨٨.

(٤) القول المفيد ٣/٩٨.

(٥) الجديد: ٤٠٧.

وَعَنِ الأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْها».(١)

قال سليمان آل الشيخ(٢): هذا الاثر معطوف على سابقه أى رواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): أى: ابن عباس. اهـ.

قال ابن باز(٤): فهذا نوع من الإلحاد وكذلك الوقوع فى المعاصى نوع من الإلحاد ولكنه أصغر ومن جحد الله أو أشرك معه فهو إلحاد أكبر. اهـ.

قال ابن عثيمين(٥): وهذا أحد نوعى الإشراك بها أن يشتق منها أسماء للأصنام. اهـ.

● **تنبيه:**

فيه كلمة تقولها النساء عندنا وهى: (وعِزَّالى)؛ فما هو المقصود بها؟

الجواب: المقصود أنها من التعزية؛ أى: أنها تطلب الصبر والتقوية وليست تندب العزى التى هى الصنم؛ لأنها قد لاتعرف أن هناك صنماً اسمه العزى ولا يخطر ببالها هذا، وبعض الناس قال: يجب إنكارها؛ لأن ظاهر اللفظ أنها تندب العزى، وهذا شرك، ولكن نقول: لو كان هذا هو المقصود لوجب الإنكار، لكنّا نعلم علم اليقين أن هذا غير مقصود، بل يقصد بهذا اللفظ التَّقوِّى والصبر والثبات على هذه المصيبة.

قوله: وعن الأعمش «يدخلون فيها ماليس منها».

مناسبة الاثر للباب وللتوحيد.

قال محمد القرعاوى(٦): حيث أفاد الأثر أن الاعمش يرى أن تسميه الله بما لم يسم به نفسه إلحاد فى الاسماء وقد ثبت أن الالحاد فى أسماء الله شرك. اهـ.

---

(١) وأخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٥/ ١٦٢٣/ ح ٧٥٨٧).

من طريق مبشر بن عبيد القرشى قال: قال الأعمش.... فذكره.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٧٢) وعزاه لابن أبى حاتم عن الأعمش.

وانظر «فتح القدير» (٦/ ٥٣٨١ - «وفتح المجيد» (ح٨١٢) بتخريجنا).

(٢) التيسير: ٤٨٨.

(٣) القول المفيد ٣/ ٩٨.

(٤) التعليق ٢٣٨.

(٥) القول المفيد ٣/ ٩٨ - ٩٩.

(٦) الجديد / ٤٠٧.

قوله: «وعن الأعمش».

قال سليمان آل الشيخ[1]: معطوف على سابقه أي: رواه ابن أبي حاتم عنه. والأعمش اسمه سليمان بن مهران أبو محمد الكوفي الفقيه ثقة حافظ ورع مات سنة ١٤٧ وكان مولده أول سنة ٦١. اهـ.

قوله: «يدخلون فيها ماليس منها».

قال سليمان آل الشيخ[2]: قوله: يدخلون فيها ماليس منها أي: كتسمية النصارى له أباً ونحوه كما سبق. اهـ.

قال ابن باز[3]: هذا نوع من الإلحاد أن يسمى الله بأسماء ما أنزل بها من سلطان فهي نوع من الإلحاد. أي نوع من الباطل. اهـ.

قال ابن عثيمين[4]: قوله: «عن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها».

هذا أحد أنواع الإلحاد، وهو أن يُسمّى الله بما لم يسم به نفسه، ومن زاد فيها فقد ألحد؛ لأن الواجب فيها الوقوف على ما جاء به السمع.

● **تتمة:**

جاءت النصوص بالوعيد على الإلحاد في آيات الله تعالى كما في قوله تعالى: **﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾**؛ فقوله: **﴿لا يخفون علينا﴾** فيها تهديد؛ لأن المعنى سنعاقبهم، والجملة مُؤَكَّدة بإنَّ.

● **وآيات الله تنقسم إلى قسمين:**

١ - **آيات كونية:** وهي كل المخلوقات من السماوات والأرض والنجوم والجبال والشجر والدواب وغير ذلك، قال الشاعر:

فَواعَجباً كيف يُعصى الإلهُ ... أَمْ كَيفَ يَجْحَدُه الجَاحِدُ
وفي كُلِّ شَيء لَـهُ آيَـةٌ ... تَدلُّ علـى أنَّـهُ واحِـدُ

والإلحاد في الآيات الكونية ثلاثة أنواع:

١ - اعتقاد أن أحداً سوى الله منفرد بها أو ببعضها.

٢ - اعتقاد أن أحداً مشارك لله فيها.

(١ - ٢) التيسير ٤٨٨. (٣) التعليق: ٢٣٨.

(٤) القول المفيد ٣/ ٩٩ - ١٠١.

فيه مسائل

الأول: إثْبَاتُ الأَسْمَاءِ.

---

٣ - اعتقاد أن لله فيها مُعيناً فى إيجادها وخلقها وتدبيرها.

والدليل قوله تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ** ﴾، ظهير؛ أى: معين.

وكل ما يُخلّ بتوحيد الربوبية؛ فإنه داخل فى الإلحاد فى الآيات الكونية.

٢ - **آيات شرعية**: وهو ما جاءت به الرسل من الوحي كالقرآن، قال تعالى: ﴿ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾.

والإلحاد فى الآيات الشرعية ثلاثة أنواع:

١ - تكذيبها فيما يتعلق بالأخبار.

٢ - مخالفتها فيما يتعلق بالأحكام.

٣ - التحريف فى الأخبار والأحكام.

والإلحاد فى الآيات الكونية والشرعية حرام.

ومنه ما يكون كفراً؛ كتكذيبها، فمن كَذَّب شيئاً مع اعتقاده أن الله ورسوله أَخْبَرَا به؛ فهو كافر.

ومنه ما يكون معصية من الكبائر؛ كقتل النفس والزنا.

ومنه ما يكون معصية من الصغائر؛ كالنظر لأجنبية لشهوة.

قال الله تعالى فى الحَرَم: ﴿**ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**﴾، فَسمّى الله المعاصى والظلم إلحاداً؛ لأنها ميل عما يجب أن يكون عليه الإنسان؛ إذ الواجب عليه السير على صراط الله تعالى، ومن خالف؛ فقد ألحد. اهـ.

قوله: فيه مسائل:

قال ابن عثيمين[1]**:**

- **الأولى: إثبات الأسماء.**

---

(١) القول المفيد ٣/ ١٠١ - ١٠٢.

الثانية: كَوْنُهَا حُسْنَى.

الثالثة: الأَمْرُ بِدعَائه بِهَا.

الرابعة : تَرْكُ مَنْ عَارَضَ مِنَ الجَاهِلِينَ المُلْحِدِينَ.

الخامسة: * تَفْسِيرُ الإِلحَاد فِيهَا.

السادسة : وَعِيدُ مَنْ الْحَدَ.

يعنى لله تعالى، وتؤخذ من قوله: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ﴾، وهذا خبر متضمن لمدلوله من ثبوت الأسماء لله، وفى الجملة حَصْرٌ لتقديم الخبر، والحصر باعتبار كونها حسنى لا باعتبار الأسماء.

وأنكر الجهميةُ وغلاةُ المعتزلة ثبوت الأسماء لله تعالى.

- **الثانية: كونها حسنى.**

أى: بلغت فى الحسن أكمله؛ لأن «حسنى» مؤنث أحسن، وهى اسم تفضيل.

- **الثالثة: الأمر بدعائه بها.**

والدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، وكلاهما مأمور فيه أن يُدْعى الله بهذه الأسماء الحسنى، وسبق تفصيل ذلك.

- **الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.**

أى: ترك سبيلهم، وليس المعنى أن لا ندعوهم ولا نُبيِّن لهم، والآية تتضمن أيضاً التهديد.

- **الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.**

وقد سبق بيان أنواعه.

- **السادسة: وعيد من ألحد.**

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قلت: ومن أول الآية: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِه﴾ كما فى قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ وقد تقدم ذلك كله والله الموفق لارب سواه.



باب (٥١)
لا يقال: السلام على الله

مناسبة الباب لما قبله:

قال ابن عثيمين[(١)]: ومناسبة هـذا الباب لما قبله ظاهرة؛ لأن مـوضوع الباب الذى قبله إثبات الأسماء الحسنى لله المتضمنة لصفاته، وموضوع هذا الـباب سلامة صفاته من كل نقص، وهذا يتضمـن كمالها؛ إذ لايتم الكمال إلا بإثبات صفـات الكمال ونفى ما يضادهـا، فإنك لو قلـت: زيد فاضل أثبـت له الفضـل، وجاز أن يلحقـه نقص، وإذا قلت: زيد فاضل ولم يسـلك شيئاً من طرق السفول، فالآن أثبت له الـفضل المطلق فى هذه الصفة.

والرب سبحانه وتعالى يتصف بصفات الـكمال، ولكنه إذا ذكر ما يضاد تلك الصفة صار ذلك أكمل، ولهذا أعقب المؤلف ـ رحمـه الله ـ الباب السابق بهذا الباب إشارة إلى أن الأسماء الحسنى والصفات العلى لايلحقها نقص أهـ.

قلت: أو لأن قولهم: السلام على الله نوع إلحاد لأنه يـوهم أن الله يلحقه نقص على ما تقدم شرحه فناسب أن يأت به بعد الباب الماضى والله أعلم.

مناسبة الباب للتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ[(٢)]: لما كان حقيقة لفـظ الإسلام السلامة والبراءة والخلاص والنجاة مـن الشر والعيوب، فـإذا قال المسلم: السـلام عليكم فهـو دعاء للمسلّـم عليه، وطلب له أن يسلم مـن الشر كله، والله هو المطلوب منه لا المطـلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، وهو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض، استحال أن يسلم عليه سبحانه وتعالى، بل هـو المسلم على عباده كمـا قال تعالى: ﴿**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ**﴾[(٣)] وقـال: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**﴾[(٤)] وقـال: ﴿**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ**﴾[(٥)] فهو السلام ومنه السلام لا إله غيره ولا رب سـواه أهـ.

---

(١) القول المفيد (٣/ ١٠٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٨٨، ٤٨٩).

(٣) النمل: ٥٩. (٤) الصافات: ١٨١.

(٥) الأحزاب: ٤٤.

وقال عبدالله بن جار الله[1]: مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هى أن اسم السلام لايصلح إلا لله، فمن سمى به غير الله فقد أتى بما يناقض التوحيد أهـ.

وقال ابن عثيمين[2]: ومناسبة الباب لتوحيد الصفات ظاهرة؛ لأن صفاته عليا كاملة كما أن أسماءه حسنى، والدليل على أن صفاته عليا قوله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[4].

والمثل الأعلى: الوصف الأكمل، فإذا قلنا: السلام على الله أوهم ذلك أن الله ـ سبحانه ـ قد يلحقه النقص، وهذا ينافى كمال صفاته أهـ.

● شرح الترجمة:

ـ **قال حامد بن محمد**[5]: باب ما جاء في بيان أنه لايقال السلام على الله؛ لأنه تعالى هو السلام ومنه السلام، فإذا سلمت على أحد فأنت طالب من الله أن يسلمه الله تعالى من الآفات والشرور، ويرحمه، ويبارك عليه، وهذا المعنى لايتصور فى جانب الله تعالى؛ لأنه هو السلام ومنه السلام لغيره أهـ.

ـ **وقال ناصر السعدى**[6]: وقد بين ﷺ هذا المعنى بقوله: «**فإن الله هو السلام**»[7] فهو تعالى السلام، السالم من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من خلقه له. وهو المسلم لعبادة من الآفات والبليات، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه فى جميع أحوالهم، وهو الغنى الحميد أهـ.

ـ **وقال ابن باز**[8]: السلام له معنيان:ـ

(الأول): أى السالم من كل نقص وعيب، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

---

(١) الجامع الفريد (١٨٩).

(٢) القول المفيد (٣/ ١٠٣).

(٣) النحل: ٦٠.

(٤) الروم: ٢٧.

(٥) فتح الله الحميد المجيد (٣/ ٤٣١).

(٦) القول السديد (١٢١).

(٧) سيأتى تخريجه.

(٨) التعليق المفيد (٢٣٩).

(الثاني): المسلم لعباده أى الذى يعطى السلام، فلا يقال السلام على الله؛ لأن هذا دعاء، والله غنى عن أحد، وليس بحاجة إلى دعاء الناس وإنما المشروع هو تعظيمه وتقديسه، والإيمان بأنه موصوف بصفات الكمال، وأنه المحسن والضار.

ويقال للمخلوق: السلام عليك؛ لأنه محتاج إلى العافية والدعاء.

لو قال: لولا الرسول ما اهتدينا. وأراد دعوة الرسول لا بأس، والأفضل أن يقول لولا الله ثم دعوة الرسول أهـ.

وقال ابن عثيمين[1]: هذه الترجمة أتى بها المؤلف بصيغة النفى، وهو محتمل للكراهة والتحريم، لكن استدلاله بالحديث يقتضى أنه للتحريم وهو كذلك.

والسلام له عدة معان.

١ـ التحية؛ كما يقال: سلم على فلان؛ أى: حَيَّاه بالسلام.

٢ـ السلامة من النقص والآفات؛ كقولنا: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته».

٣ـ السلام: اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ**﴾.

قوله: «لايقال السلام على الله».

أى: لاتقل: السلام عليك يا رب؛ لما يلى:

أـ أن مثل هذا الدعاء يوهم النقص فى حقه، فتدعو الله أن يُسلِّم نفسه من ذلك؛ إذ لا يُدعى لشىء بالسلام من شىء إلا إذا كان قابلاً أن يتصف به، والله ـ سبحانه ـ مُنزَّه عن صفات النقص.

ب ـ إذا دعوت الله أن يسلم نفسه؛ فقد خالفت الحقيقة؛ لأن الله يُدعى ولا يدعى له، فهو غنى عنا، لكن يثنى عليه بصفات الكمال مثل غفور، سميع، عليم.

والسلام اسم ثبوتى سلبى.

فسلبى؛ أى أنه يراد به نفى كل نقص أو عيب يتصوره الذهن أو يتخيله العقل، فلا يلحقه نقص فى ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

وثبوتى: أى يراد به ثبوت هذا الاسم له، والصفة التى تضمنها وهى السلامة أهـ.

---

(١) القول المفيد (٣/١٠٣، ١٠٤).

فِى «الصَّحِيحِ» عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ " قَالَ: كُنَّا إذَا كُنَّا مَعَ النَّبِىِّ ﷺ فِى الصَّلاَةِ؛ قُلْنَا: السَّلاَمُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلاَمُ عَلَى فُلاَنٍ وَفُلاَنٍ. فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ «لاَ تَقُولُوا: السَّلاَمُ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلاَمُ»(١).

قوله: فى الصحيح عن ابن مسعود - رضى الله عنه قال كنا إذا كنا مع النبى ﷺ ... الحديث.

قلت: هذا رواية مسلم ولفظه(٢) عن عبدالله: «قال كنا نقول فى الصلاة خلف رسول الله ﷺ السلام على الله. السلام على فلان، فقال لنا رسول الله ﷺ ذات يوم **إن الله هو السلام. فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل: التحيات لله والصلوات والطيبات. السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإذا قالها أصابت كل عبد صالح، فى السماء والأرض. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله ثم يتخير من المسأله ما شاء».**

قوله: «فى الصحيح» قال سليمان آل الشيخ أى فى الصحيحين(*). قلت:

ـ وطرقه عند البخارى فى «صحيحه».

عن شقيق عن ابن مسعود(٣) فى كتاب «الاستئذان» فى باب: السلام اسم من أسماء الله تعالى (عن عبدالله قال: كنا إذا صلينا مع النبى ﷺ قلنا السلام على الله قبل عباده، السلام غلى جبريل، السلام على ميكائيل، السلام على فلان وفلان. فلما انصرف النبى ﷺ أقبل علينا بوجهه فقال: **إن الله هو السلام، فإذا جلس أحدكم فى الصلاة فليقل (التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ـ فإنه إذا قال ذلك أصاب كل عبد صالح فى السماء والأرض ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله. ثم تخير من الكلام ما شاء).**

---

(١) «صحيح» أخرجه البخارى «الأذان»/ باب: التشهد ى الآخرة (٢/ ٣٦٣/ ح٨٣١ واطرافه ٨٣٥، ١٢٠٧، ٦٢٣٠، ٦٢٦٥، ٦٣٢٨، ٧٣٨١) ومسلم فى «الصلاة»/ باب: التشهد فى الصلاة (٤/ ١١٥/ ح ٤٠٢) وأبوداود فى «الصلاة»/ باب: التشهد (١/ ٥٢/ ح٩٦٨) والترمذى فى «الصلاة» / باب: ما جاء فى التشهد (٢/ ٨/ ح٢٨٩) والنسائى فى «الأفتتاح»/ باب: كيف التشهد الأول (٢/ ٢٣٧: ٢٤١).

من حديث ابن مسعود. وانظر تمام تخريجه فى «تيسير العلام» ـ بتخريجنا). «وفتح المجيد» (ح٨٢٢) بتخريجنا.

(٢) [صحيح] مسلم ٢/ ٤٠٢. (٣) [صحيح] البخارى ١١/ ٦٢٣٠.

(*) تيسير الفريد الحميد.

ورواه البخاري[1] عن عبد الله بن سخبره أبو معمر في كتاب «الاستئذان» في باب الأخذ باليد. قال «سمعت ابن مسعود يقول: علمني رسول الله - ﷺ - وكفي بين كفيّة - التشهد كما يعلمني السورة من القرآن: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد إن محمد عبده ورسوله - وهو بين ظهرانينا، فلما قُبض قلنا السلام. يعني على النبي - ﷺ -.

ورواه البخاري عن أبي وائل[2] عن عبد الله رضي الله عنه في كتاب «الدعوات» باب الدعاء في الصلاة - قال: كنا نقول في الصلاة: السلام على الله والسلام على فلان. فقال لنا النبي - ﷺ - ذات يوم: **إن الله هو السلام، فإذا قعد احدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله - الى قوله - الصالحين. فإذا قالها أصاب كل عبد لله في السماء والأرض صالح. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهدُ ان محمداً عبد ورسوله، ثم يتخبر من الثناء ما شاء.**

ورواه البخاري ايضاً عن شقيق بن مسلمه[3] في كتاب «التوحيد» باب قوله الله تعالى السلام المؤمن. قال (قال عبدُ الله: كنا نصلى خلف النبي ﷺ فنقول: السلام على الله، فقال النبي - ﷺ -: **إن الله هو السلام ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطبيات والسلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد ان محمد عبده ورسوله.**

ورواه البخاري عن شقيق عن عبد الله[4] في كتاب «الاذان» باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب قال «كنا إذا كنا مع النبي - ﷺ - في الصلاة قلنا: السلامُ على الله من عباده، السلام على فلان وفلان فقال النبي ﷺ: **لاتقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك ايها النبي ورحمه الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد في السماء أو بين السماء والارض - أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله. ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو».**

ورواه البخاري بسنده عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -[5] في

(1) [صحيح] البخاري (١١/٦٥/٦٢٦٥).
(2) [صحيح] البخاري ١١/٦٣٢٨.
(3) [صحيح] البخاري ١٣/٧٣٨١.
(4) [صحيح] البخاري ٢/٨٣٥.
(5) [صحيح] البخاري ٣/١٢٠٢.

كتاب «العمل فى الصلاة» باب من سَمَّى قوماً أو سلَّمَ فى الصلاة على غيره مواجهة وهولاء يعلَمُ. كنا نقول: التحية فى الصلاة ونسمى ويسلم بعضنا على بعض، فسمعه رسول الله - ﷺ - فقال: **قولو التحيات لله والصلاة والطيبات، السلام عليك ايها النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله. فإنكم إن فعلتم ذلك فقد سلمتم على كل عبد صالح فى السماء والارض.**

مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى[1]: دل الحديث على تحريم قول السلام على الله. اهـ.

- مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوى[2]: أفاد الحديث أن السلام على الله نافى للتوحيد وذلك أن السلام دعاء بالسلامة من العيوب والنقائص والله منزه عن ذلك. اهـ.

قوله: «فى الصحيح».

قال ابن عثيمين[3]: هذا أعم من أن يكون ثابتاً فى «الصحيحين»، أو أحدهما، أو غيرهما، وهذا الحديث المذكور فى «الصحيحين». اهـ.

قوله: «كنا إذا كنا مع النبى ﷺ فى الصلاة قلنا».

قال ابن حجر[4]: ولأبى داود «إذا جلسنا» ومثله للإسماعيلى.

وللبخارى فى الصلاة: «كنا إذا صلينا خلف النبى ﷺ قلنا» وفى العمل فى الصلاة «كنا نقول التحية فى الصلاة ونُسمى ويسلم بعضنا على بعض، فسمعه رسول الله ﷺ فقال...» الحديث.

وقال ابن عثيمين[5]: الغالب أن المعية مع النبى ﷺ فى الصلاة لاتكون إلا فى الفرائض؛ لأنها هى التى يشرع لها صلاة الجماعة، ومشروعية صلاة الجماعة فى غير الفرائض قليلة؛ كالاستسقاء. اهـ.

(١ - ٢) الجديد (٤٠٩).

(٣) القول المفيد (٣/١٠٦).

(٤) فتح البارى (٢/٣٦٣).

(٥) القول المفيد (٣/١٠٦).

قلت: ولأن لفظ ابن مسعود يفيد الاستمرار والتكرار وهذا لايكون فى الغالب إلا فى الفرائض.

قوله: «قلنا: السلام على الله من عباده».

قال ابن حجر[1]: وقال أهل العلم: معنى السلام فى حقه سبحانه وتعالى الذى سلم المؤمنون من عقوبته وكذا فى تفسير المؤمن الذى أمن المؤمنون من عقوبته وقيل السلام من سلم من كل نقص وبرئ من كل آفة وعيب فهى صفة سلبيه وقيل: المسلم على عباده لقوله: «**سلام قولاً من رب رحيم**» فهى صفه كلامية وقيل: الذى سلم الخلق من ظلمه وقيل: منه السلامة لعباده فهى صفه فعليه. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: قوله: قلنا: السلام على الله أى: يقولون ذلك فى التشهد الأخير كما هو مصرح به فى بعض ألفاظ الحديث كنا نقول قبل أن يفرض التشهد: السلام لى الله، فقال النبى ﷺ: «**إن الله هو السلام، ولكن قولوا التحيات الله**».

قال ابن عثيمين[3]: أى: يطلبون السلامة لله من الآفات، يسألون الله أن يسلم نفسه من الآفات، أو أن اسم السلام على الله من عباده؛ لأن قول الإنسان السلام عليكم خبر بمعنى الدعاء، وله معنيان:

١ - اسم السلام عليك؛ أى: عليك بركاته باسمه.

٢ - السلامة من الله عليك؛ فهو سلام بمعنى تسليم، ككلام بمعنى تكليم. اهـ.

قال عبد الله ابن جار الله[4]: كان الصحابه - رضى الله عنهم - فى أول الاسلام يقولون فى الصلاة قبل ان يفرض عليهم التشهد السلام على الله من عباده السلام على جبريل وميكائيل فنهاهم النبى - ﷺ - عن ذلك لأن السلام دعاء بالسلام والله تعالى هو المدعو هو السلام أى السالم من كل عيب ونقص وعن مماثلة أحد من خلقه، وهو المسلِّم لعبادة من الآفات والبليات فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه بل هم الفقراء إليه المحتاجون إليه فى جميع أحوالهم وهو الغنى الحميد. اهـ.

---

(١) الفتح ١٣/ ص٣٧٨.

(٢) التيسير ٤٨٩.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٠٦.

(٤) الجامع ١٨٩.

قوله: «السلام على فلان وفلان».

قال ابن حجر(١): فى روايه عبد الله ابـن نمير عن الاعمش عند ابن مـاجه: يعنون الملائكة، وللاسماعيـلى من روايه على بن مسهر (فنعد الملائكة) ومـثله للسراج من رواية محمد بن فضيل عن الأعمش بلفظ (فنعد من الملائكة ما شاء الله). اهـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): **قوله**: السلام على فلان وفلان: اختلف العلماء فى معنى السلام المطلوب عند التحية على قولين:

أحدهما: أن المعنى اسم السلام عليكم، والسلام هنا هو الله عز وجل. ومعنى الكلام نزلت بركة اسم السلام علـيكم، وحملت عليكم فاختير فى هذا المـعنى من أسمائه اسم السلام دون غيره، ويدل عليه قوله فى آخر الحديث.

ما رواه أبو داود: عن ابـن عمر أن رجلاً سلم على الـنبى ﷺ، فلم يرد علـيه حتى استقبل الجدار، ثم تيمم ورد عليه وقال: «**إنِّى كَرِهْتُ أَنْ أَذْكُرَ الله إلاَّ عَلَى طُهْرٍ**»(٣) ففى هذا بيان أن السلام ذكر لله وإنما يكون ذكراً إذا تضمنت إسماً من أسمائه.

الثانى: أن السـلام مصدر بمـعنى السلامة، وهو المطـلوب المدعو بة عند التـحية؛ لأنه ينكر بلا ألف ولام. فيـجوز أن يقول المسلم: سلام عليكم، ولو كـان اسماً من أسمائه تعالـى لم يستعمـل كذلك، بل كان يطـلق عليه مـعرفاً كما يطـلق على سائر أسـمائه الحسنى. فيقال: السلام، المؤمن، المهيمن، فإن التنكير لايصرف اللفظ إلى معين، فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده. بخلاف المعرف فإنه ينصرف إليه تعييناً إذا ذكرت أسماؤه الحسنى. ويدل على ذلك عطف الرحمة والبركـة عليه فى قوله: سلام عليكم ورحمة الله وبركاتـه، ولأنه لو كان اسمـاً من أسمائه تعـالى لم يستـقم الكلام بالإضـمار، وذلك خلاف الأصل ولا دليل عليه، ولأنه ليس المقصـود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء.

قال ابن القيم: والصواب فى مجموعهما أى: القولين، وذلك أن من دعا الله بأسمائه الحسنى يسأل فى كل مطـلوب ويتوسل إليـه بالاسم المقتضـى لذلك المطلوب المـناسب لحصوله؛ حتـى كأن الداعى مستشفـع إليه، متوسل به. فإذا قـال: رب اغفر لى، وتب

---

(١) الفتح ٢/٣٦٣.

(٢) التيسير ٤٨٩.

(٣) رواه أبو داود (٣٣٠) عن عبد الله بن عمر بنحوه.

على إنك أنت التواب الرحيم الغفور. فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه، مقتضيين لحصول مطلوبه وهذا كثير جداً، وإذا ثبت هذا المقام لما كان طلب السلامة التى هى أهم ما عند الرجل أتى بلفظها بصيغة اسم من أسمائه تعالى، وهو السلام الذى تطلب منه السلامة. فتضمن لفظ السلام معنيين.

أحدهما: ذكر الله تعالى كما فى حديث ابن عمر.

والثانى: طلب السلامة وهو المقصود من المسلم. فقد تضمن «سلام عليكم» اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه. انتهى ملخصاً. اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: أى: جبريل وميكائيل، وكلمة فلان يُكَنّى بها عن الشخص، وهى مصروفة؛ لأنها ليست علماً ولا صفة؛ كصفوان فى قوله تعالى: ﴿ **كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ** ﴾[2].

وقد جاء فى لفظ آخر: «**السلام على جبريل وميكال**»[3] كانوا يقولون هكذا فى السلام. اهـ.

قوله: «لاتقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام».

قال ابن حجر[4]: فالسلام ثبت فى القرآن، وفى الحديث الصحيح أنه من أسماء الله تعالى، وقد أطلق على التحية الواقعة بين المؤمنين.

وقال أهل العلم: معنى السلام فى حقه سبحانه وتعالى الذى سلم المؤمنون من عقوبته.

(وقيل): السلام من سلم من كل نقص، وبرئ من كل آفة وعيب.

(وقيل): المسلم على عبادة، لقوله ﴿ **سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ (وقيل): الذى سلم الخلق من ظلمه.

(وقيل): منه السلامة لعباده. اهـ

فى موضع آخر: قال ابن حجر[5]: قال البيضاوى ما حاصله: أنه ﷺ - أنكر التسليم على الله وبين أن ذلك عكس ما يجب أن يقال، فإن كل سلام ورحمه له ومنه

(١) القول المفيد (٣/١٠٦).
(٢) البقرة: ٢٦٤.
(٣) [صحيح] أخرجه البخارى فيما تقدم.
(٤) فتح البارى (١٣/٣٧٨).
(٥) فتح البارى (٢/ ٣٦٤).

وهو ما لكها ومعطيها وقال التوربشتي: وجه النهى عن السلام على الله لأنه المرجوع إليه بالمسائل، المتعالى عن المعانى المذكورة فكيف يدع له وهو المدعو على الحالات.

وقال الخطابي: المراد أن الله هو ذو السلام فلا تقولوا السلام على الله فإن السلام منه بدأ واليه يعود ومرجع الامر فى إضافته اليه أنه ذو السلام من كل آفه وعيب ويحتمل ان يكون مرجعها إلى حظ العبد فيما يطلبه من السلامه من الآفات والمهالك.

وقال النووى: معناه أن السلام اسم من أسماء الله تعالى، يعنى السالم من النقائض، ويقال: المسلم أولياؤه وقيل: المسلم عليهم، قال ابن الانبارى أو هم ان يصرفوه إلى الخلق لحاجتهم الى السلامه وعناه سبحانه وتعالى عنها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «**فإن الله هو السلام**». أنكر عليه السلام التسليم على الله، وأخبر أن ذلك عكس ما يجب له سبحانه، فإن كل سلام ورحمة له ومنه فهو مالكها ومعطيها، وهو السلام، وقال غيره: وهذا كله حماية منه ﷺ لجناب التوحيد حتى يعرف الله تعالى ما يستحقه من الأسماء والصفات وأنواع العبادات.

وقال ايضًا: فهذا صريح فى كون السلام اسماً من أسمائه، فإذا قال المسلم: السلام عليكم؛ كان معناه اسم السلام عليكم، يدل عليه. اه.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[2]: ومعنى قوله: «**إن الله هو السلام**» إن الله سالم من كل نقص، ومن كل تمثيل. فهو الموصوف بكل كمال - المنزه عن كل عيب ونقص.

قال العلامة ابن القيم فى «بدائع الفوائد»: والسلام اسم مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء، يتضمن الإنشاء والإخبار، فجهة الخبرية فيه لاتناقض الجهة الإنشائية.

وهو معنى السلام المطلوب عند التحية وفيه قولان مشهوران.

الأول: أن السلام هنا هو الله عز وجل، ومعنى الكلام: نزلت بركته عليكم ونحو ذلك. فاختير فى هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء.

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية. ومن حجة أصحاب هذا القول أنه يأتى منكرًا، فيقول المسلم: «سلام عليك» ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك.

ومن حجتهم: أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه: الإيذان بالسلامة خبراً ودعاءً»

---

(١) التيسير ٤٨٩.

(٢) فتح المجيد (٦٢٩ - ٦٣١).

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله -: وفصل الخطاب أن يقال: الحق فى مجموع القولين، فكل منهما بعض الحق، والصواب فى مجموعهما، وإنما يتبين ذلك بقاعدة وهى: أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل فى كل مطلوب، ويتوسل بالاسم المقتضى لذلك المطلوب، المناسب لحصوله حتى إن الداعى متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه، فإذا قال: رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور. فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه.

وقال ﷺ لأبى بكر - رضى الله عنه - وقد سأله ما يدعو به «**قل: اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً، ولايغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم**»(١).

فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التى هى أهم عند الرجل، أتى فى طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو: «السلام» الذى تطلب منه السلامة.

فتضمن لفظ السلام معنيين:

أحدهما: ذكر الله.

والثانى: طلب السلامة وهو مقصود المسلم.

فقد تضمن «سلام عليكم» اسما من أسماء الله، وطلب السلامة منه. فتأمل هذه الفائدة.

وحقيقته: البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب. وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذلك قولهم: سلمك الله.

ومنه دعاء المؤمنين على الصراط «رب سلم سلم» ومنه: سلم الشيء لفلان، أى خلص له وحده. قال تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ**﴾ أى: خالصاً له وحده لايملكه معه غيره. ومنه السلم: ضد الحرب، لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا بنى فيه على المفاعلة، فقيل المسالمة مثل المشاركة، ومنه: القلب السليم وهو النقى من الدغل والعيب، وحقيقته الذى قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب، والمخالفات، فهو مستقيم على صدق حبه، وحسن معاملته، وهذا هو الذى ضمن له النجاة من عذاب الله

---

(١) تقدم تخريجه.

والفوز بكرامته، ومنه أخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة لأنه الإستسلام والإنقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذى سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه، وللمشرك به. اهـ.

قال ابن عثيمين[(١)]: وهذا نهى تحريم، والسلام لا يحتاج إلى سلام، هو نفسه - عز وجل - سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب.

وفيه دليل على جواز السلام على الملائكة؛ لأن النبى ﷺ لم ينه عنه، ولأنه عليه الصلاة والسلام لما أخبر عائشة أن جبريل يسلم عليها قالت: «**عليه السلام**»[(٢)]. اهـ.

● **فائدة.**

فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: «أتى جبريل» النبىَّ - ﷺ - فقال: يارسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب، لاصخب فيه ولا نصب»[(٣)].

قال ابن حجر[(٤)]: قوله: «**فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى**»، زاد الطبرانى فى الرواية المذكورة. فقالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام، وللنسائى من حديث أنس قال: «قال جبريل للنبى - ﷺ -: **إنَّ الله يقرئ خديجة السلام**» يعنى فأخبرها «**فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام وعليك يارسول الله السلام ورحمة الله وبركاته**»[(٥)] زاد ابن السنى من وجه آخر «**وعلى من سمع السلام، إلا الشيطان**»[(٦)] قال العلماء: فى هذه القصة دليل على وفور فقهها، لأنها لم تقل «وعليه السلام» كما وقع لبعض الصحابة حيث كانوا يقولون فى التشهد «**السلام على الله**»[(٧)]

(١) القول المفيد ٣/ ١٠٧.

(٢) أخرجه: البخارى (٣٢١٧)، ومسلم فى فضائل الصحابة (١٥/ ٢١٢ - النووى) وأنظر «رياض الصالحين» (٨٥٣ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه البخارى (٣٨٢٠)، وسلم فى الفضائل (٨/ ٢١٣/ ٧١). -

(٤) «الفتح» (٧/ ١٧٢، ١٧٣).

(٥) أخرجه النسائى فى «الكبرى» (٨٣٥٨).

(٦) أخرجه ابن السنى فى عمل «اليوم والقبله» (٢٤٠) عن عمر وبن وهب مرسلاً

(٧) تقدم تخريجه.

فيه مسائل

الأولى: تفسير السلام.

فنهاهم النبي - ﷺ - وقال «إن الله هو السلام، فقولوا التحيات لله»[(١)] فعرفت خديجة لصحة فهمها أن الله لايرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين، لأن السلام اسم من اسماء الله، وهو أيضاً دعاء بالسلامة، وكلاهما لايصلح أن يرد به على الله فكأنها قالت: كيف أقول عليه السلام والسلام اسمه، ومنه يطلب، ومنه يحصل، فيستفاد منه أنه لايليق بالله إلا الثناء عليه فجعلت مكان رد السلام عليه الثناء عليه، ثم غايرت بين ما يليق بالله وما يليق بغيره فقالت وعلى جبريل السلام» ثم قالت «وعليك السلام».

ويستفاد منه رد السلام على من أرسل السلام وعلى من بلغه. والذى يظهر أن جبريل كان حاضرًا عند جوابها فردت عليه وعلى النبي - ﷺ - مرتين؛ مرة بالتخصيص ومرة بالتعميم، ثم أخرجت الشيطان ممن سمع لأنه لايستحق الدعاء بذلك. اهـ.

● **فائدة أخرى**

ذكر الشراح من أدله إثبات اسم السلام من قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ....﴾.

وأيضاً مما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ﴾ فعن قتادة فى قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ﴾ قال: الجنة[(٢)].

وعن جابر بن زيد قال: السلام: هو الله[(٣)].

وعن السدى ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ﴾ قال: الله هو السلام، وداره الجنة[(٤)].

قوله: فيه مسائل:

قال ابن عثيمين[(٥)]:

● **الأولى: تفسير السلام.**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٨٤) ونسبه لعبد الرزاق، وابن أبى حاتم.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) القول المفيد ٣/ ١٠٧ - ١٠٨.

الثانية : أَنَّهُ تَحِيةٌ.

الثالثة : أَنَّهَا لاَ تُصْلُحُ لله.

الرابعة : العِلَّةُ فِى ذَلكَ.

الخامسة: تَعْلِيمهُمُ التَّحِيَّةَ التَّى تَصْلُحُ لله.

فبالنسبة لكونه اسماً من أسماء الله معناه السالم من كل نقص وعيب، وبالنسبة لكونه تحية له معنيان:

الأول: تقدير مضاف؛ أى؛ اسم السلام عليك؛ أي اسم الله الذى هو السلام عليك.

الثانى: أن السلام بمعنى التسليم اسم مصدر كالكلام بمعنى التكليم؛ أى: تخبر خبراً يراد به الدعاء؛ أى: أسأل الله أن يُسَلِّمك تسليماً.

● **الثانية: أنه تحية.**

وسبق ذلك.

● **الثالثة: أنها لا تصلح لله.**

وإذا كانت لاتصلح له كانت حراماً.

قلت: لأنها كما تقدم توهم النقص لله ولاتثبت الكمال.

● **الرابعة: العلة فى ذلك.**

وهى أن الله هو السلام، وقد سبق بيانها.

● **الخامسة: تعليمهم التحية التى تصلح لله.**

وتؤخذ من تكملة الحديث: «**فإذا صلى أحدكم؛ فليقل: التحيات لله..**»، وفيه حسن تعليم الرسول ﷺ من وجهين:

الأول: أنه حينما نهاهم علل النهى.

وفى ذلك فوائد:

١ - طمأنينة الإنسان إلى الحكم إذا قرن بالعلة.

٢ - بيان سمو الشريعة الإسلامية وأن أوامرها ونواهيها مقرونة بالحكمة؛ لأن العلة حكمة.

٣ - القياس على ما شارك الحكم المُعلَّل بتلك العلة.

الثانى: أنه حين نهاهم عن ذلك بيّن لهم ما يباح لهم؛ فيؤخذ منه أن المتكلم إذا ذكر ما ينهى عنه فليذكر ما يقوم مقامه مما هو مباح، ولهذا شواهد كثيرة من القرآن والسنة سبق شيء منها.

ويستفاد من الحديث: أنه لا يجوز الإقرار على المحرم؛ لقوله: **«لا تقولوا: السلام على الله»**، وهذا واجب على كل مسلم، ويجب على العلماء بيان الأمور الشرعية لئلا يستمر الناس فيما لا يجوز ويرون أنه جائز، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ** ﴾(١). اهـ.

قلت: وفى الحديث:

(١) أن النبىَّ - ﷺ - قد لا يعلم لفترة ما قد وقع فيه بعض الصحابة من مخالفات وفى ذلك الرد على أدعياء الغيب من الصوفية وغيرهم،.

(٢) أن العبد إذا ارتكب محرماً بجهل يلام على ذلك لأنَّ النبىَّ - ﷺ - نهاهم وبين لهم وجه الصواب ولم يلمهم وإن كان الخطأ متعلق بأسماء الله وصفاته.

(٣) عدم جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة لأنه بين لهم فور سماعة لمخالفتهم كما جاء فى بعض الروايات.



(١) آل عمران: ١٨٧.

باب (٥٢)
قول: اللهم اغفر لي إن شئت

● **مناسبة الباب لما قبله:**

قال الفقير: مناسبة هذا الباب لما قبله **من وجهين الأول:** أن موضوع الباب الماضي سلامة صفاته من كل نقص وهذا يتضمن كمالها وكذلك هذا الباب عقده المؤلف لماتضمنته أدلته من كمال سلطان الله وكمال جوده وفضله وذلك من صفات الكمال فلذلك ناسب أن يأتى به بعد الباب الماضى.

الثانى: أن البابين تضمنا التحذير من أقوال تخالف توحيد الاسماء والصفات.

● **مناسبة الباب للتوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ(١): لما كان العبد لاغناء له عن رحمة الله ومغفرته طرفة عين، بل فقير بالذات إلى الغنى بالذات كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ نهى عن قول ذلك؛ لما فيه من إيهام الاستغناء عن مغفرة الله ورحمته كما سيأتى، وذلك مضاد للتوحيد أهـ.

قال عبد الله بن جار الله(٢): ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هى أن تعليق الدعاء بالمشيئة مما ينافى كمال التوحيد؛ لأنه سوء أدب مع الله حيث أنه يوهم دعوى الاستغناء عن مغفرة الله .أهـ.

وقال ابن عثيمين(٣): عقد المؤلف هذا الباب لما تضمنه هذا الحديث من كمال سلطان الله وكمال جوده وفضله، وذلك من صفات الكمال.

ثم قال (٤): مناسبة الباب للتوحيد من وجهين:

١ـ من جهة الربوبية، فإن من أتى بما يشعر بأن الله له مكره لم يقم بتمام ربوبيته تعالى؛ لأن تمام الربوبية أنه لامكره له، بل إنه لا يسأل عما يفعل ؛ كما قال تعالى : ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ .

وكذلك فيه نقص من ناحية الربوبية من جهة أخرى، وهوأن الله يتعاظم الأشياء التى يعطيها؛ فكان فيه قدح فى جوده وكرمه.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩١)

(٢) الجامع الفريد (١٩٠)

(٣) القول المفيد (٣/ ١١٠)

(٤) القول المفيد (٣/ ١١٤،١١٥)

٢ـ من ناحية العبد؛ فإنه يشعر باستغنائه عن ربه، وهذا نقص فى توحيد الإنسان، سواء من جهة الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصفات، ولهذا ذكره المصنف فى الباب الذى يتعلق بالأسماء والصفات .أهـ.

قلت: وهذه من الألفاظ التى تجرى على ألسنة العامة بسبب تخلفهم عن التوحيد، وتجرعهم الشرك بطريقة أو بأخرى.

● شرح الترجمة، و ماذا أراد المصنف بهذا الباب.

قال حامد بن محمد[١]:باب ماجاء فى بيان أن (قوله : اللهم اغفر لى إن شئت) [منهى][*]؛ لأن الله تعالى ماخلق عباده إلا لدعائه دعاء المسألة ودعاء العبادة، قال تعالى ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعَاؤُكُمْ**﴾ فى الحديث «**والدعاء مخ العبادة**»[٢]. وأنه تعالى أمرهم أن يدعوه فيما ينوبهم ووعدهم بالإجابة وأوعد من ترك دعاءه بجهنم قال تعالى : ﴿**ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ فإذا علمت أن أكرم الأكرمين دعاك إلى فضله وإحسانه وأوعدك على ترك ذلك العقوبة العظيمة فكيف يتصور قولك: اللهم اغفر لى إن شئت لأنه إن لم يشأ ما أمرك بالدعاء ولا أوعدك بجهنم إذا تركته . أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ [٣]: «**باب: قول : اللهم اغفر لى إن شئت**» : يعنى أن ذلك لايجوز لورود النهى عنه فى حديث الباب: أهـ.

قال السعدى [٤]: الأمور كلها وإن كانت بمشيئة الله وإرادته؛ فالمطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة على الدين كسؤال العافية والرزق وتوابع ذلك، قد أُمر العبد أن يسألها من ربه طالباً ملحاً جازماً، وهذا الطلب عين العبودية ومخها، ولايتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذى ليس فيه تعليق بالمشيئة؛ لأنه مأمور به،وهو خير محض لاضرر فيه، والله تعالى لايتعاظمه شيء.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعينة التى لايتحقق مصلحتها ومنفعتها،ولايجزم أن حصولها خير للعبد؛فالعبد يسأل ربه ويعلقه على اختيار ربه له

---

(١) فتح الله الحميد المجيد (٤٣٣).

(*) هكذا فى الأصل ولعلها (منهى عنه).

(٢) تقدم تخريجه. (٣) فتح المجيد (٢/ ٦٣٢).

(٤) القول السديد (١٢١، ١٢٢).

أصلح الأمرين؛ كالدعاء المأثور: **«اللهم ! أحيني ...»**[1] وكدعاء الاستخارة[2].

فافهم هذا الفرق اللطيف البديع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها، وأن الداعي يجزم بطلبها ولايعلقها، وبين طلب الأمور التي لا يدرى العبد عن عواقبها، و لارجحان نفعهما على ضررها، فالداعي يعلقها على اختيار ربه، الذى أحاط بكل شيء علماً وقدرة ورحمة ولطفاً. أهـ. وسيأتي بنحو هذا كلام ابن عثيمين.

وقال ابن باز [3]: أراد المؤلف بهذا أن يبين أن من كمال الإيمان وكمال التوحيد: العزم على المسألة وعدم التردد وأن المؤمن إذا دعا ربه فليعزم ولايتردد فإن جود الله عظيم وهو الغنى الحميد فلا يليق بالمؤمن أن يستثنى فى سؤاله وإنما يستثنى فى سؤال المخلوق لأنه قد يعجز أو يمتنع، أما الرب فهو الغنى القادر. أهـ.

وقال ابن عثيمين[4]: قوله «اللهم!»

معناه: يا الله! لكن لكثرة الاستعمال حذفت يا النداء وعوض عنها الميم، وجعل العوض فى الآخر تيمنا بالابتداء بذكر الله. اهـ.

قوله :«اغفر لى»

المغفرة: ستر الذنب مع التجاوز عنه؛ لأنها مشتقة من المغفر، وهو ما يستر به الرأس للوقاية من السهام، وهذا لايكون إلا بشيء ساتر واقٍ، ويدل له قول الله ـ عزوجل ـ للعبد المؤمن حينما يخلو به ويقرره بذنوبه يوم القيامة:

«قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[5].

قوله: «إن شئت».

أى : إن شئت أن تغفر لى فاغفر، وإن شئت فلا تغفر. أهـ.

ثم قال[6]: فإن قلت: ما الجواب عما ورد فى دعاء الاستخارة: **«اللهم ! إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا**

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٣٥١)، ومسلم فى الذكر والدعاء (٧/١٧ - النووى) عن أنس به.
وانظر «رياض الصالحين» (٤١ - بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١١٦٦) عن جابر به.
وانظر «رياض الصالحين» (٧١٩ - بتخريجنا).

(٣) التعليق المفيد ـ(٢٤١)

(٤) القول المفيد (٣/ ١١٠)

(٥) [إسناده ضعيف] أخرجه الترمذى (٢٢٧١)وإسناده ضعيف

(٦) القول المفيد (٣/ ١١٦).

فِى الصَّحِيحِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ أغْفِرْ لِى إِنْ شِئْتَ . اللَّهُمَّ أَرْحَمْنِى إِنْ شِئْتَ. لِيَعْزِمَ المَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لاَ مكره له»[(١)].

أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم ! إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى؛ فاقدره لى وييسره لى ثم يارك لى فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم أرضنى به»[(٢)]، وكذا ما ورد فى الحديث المشهور: «اللهم! أحينى ماكانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى»[(٣)]؟

فالجواب: إننى لم أعلق هذا بالمشيئة، ما قلت: فاقدره لى إن شئت، لكن لاأعلم أن هذا خير لى أو شر والله يعلم؛ فأقول: إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فاقدره لى؛ فالتعليق فيه لأمر مجهول عندى لا أعلم هل هو خير لى أولا؟ وكذا بالنسبة للحديث الآخر؛ لأن الإنسان لايعلم هل طول حياته خير أو شر؟ ولهذا كره أهل العلم أن تقول للشخص: أطال الله بقاءك؛ لأن طول البقاء لايعلم؛ فقد يكون خيراً، وقد يكون شراً، ولكن يقال : الله أطال بقاءك على طاعته وما أشبه ذلك حتى يكون الدعاء خيراً بكل حال، وعلى هذا؛ فلا يكون فى حديث الباب معارضة لحديث الاستخارة[(٤)] ولا حديث: «اللهم ! أحينى ماكنت الحياة خيراً لى»[(٥)]؛ لأن الدعاء مجزوم به وليس معلقاً بالمشيئة، والنهى إنما هو عما كان معلقاً بالمشيئة .

لكن لو قال: اللهم! اغفر لى إن أردت وليس إن شئت؛ فالحكم واحد لأن الإرادة هنا كونية، فهى بمعنى المشيئة؛ فالخلاف باللفظ لايعتبر مؤثراً بالحكم أهـ.

قوله: فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لايقل أحدكم اللهم أغفر لى إن شئت...» الحديث

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال قرعاوى [(٦)]: حيث دل الحديث على تحريم تعلق الدعاء بالمشيئة. أهـ.

● **مناسبة الحديث للتوحيد :**

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣٣٩، ٧٤٧٧) ومسلم (٦/ ١٧) وانظر «الأذكار» للنووى بتخريجنا (٩٦٣)، «وفتح المجيد» (ح٨٢٧) بتخريجنا.

(٢ - ٥) تقدم تخريجه. (٦) الجديد : (٤١١)

قال قرعاوى: حيث دل الحديث على تحريم تعلق الدعاء بالمشيئة؛ لأن ذلك يشعر بضعف الافتقار إلى الله، وذلك مناف للتوحيد أهـ.

● شرح الحديث:

قوله «فى الصحيح»

قال سليمان آل الشيخ(١): أى الصحيحين .أهـ.

قلت:

● وقد ذكره البخارى فى موضعين:

(الأول) فى كتاب الدعوات/ باب : ليعزم المسألة، فإنه لامكره له.

(الثانى) فى كتاب التوحيد/ باب : فى المشيئة والإرادة.

قوله : **(لايقولن: أحدكم).**

[قلت]: وهذا اللفظ (يقولن) لم يذكره من شُراح كتاب التوحيد إلا سليمان آل الشيخ. والباقون بلفظ (لايقل). وكلا اللفظين فى صحيح البخارى .

قال ابن عثيمين(٢): لاناهية بدليل جزم الفعل بعدها.أهـ.

قوله (اللهم اغفر لى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت)

قلت: وفى كتاب التوحيد فى«الصحيح» باب المشيئة والإرادة بلفظ: **«اللهم اغفر إن شئت، ارحمنى إن شئت، ارزقنى إن شئت»**(٣).أهـ.

قال ابن حجر(٤): وهذه كلها أمثلة، ورواية العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة عند مسلم تتناول جميع ما يدعى به .أهـ.

(قلت): رواية مسلم **«ولايقل اللهم إن شئت فاعطنى»** من حديث أنس، وأما رواية العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة بلفظ **«اللهم اغفرلى إن شئت»**. فقط،

وقال فى عون المعبود(٥): قيل منع عن قوله (إن شئت)؛ لأنه شك فى القبول، والله تعالى كريم، لابخل عنده، فليستيقن بالقبول.أهـ.

(قلت) وهذا النهى المذكور فى الحديث لأن فى هذه الصيغة المذكورة إعتداء.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩١)

(٢) القول المفيد (٣/١١١)

(٣) [صحيح] البخارى (١٣/٤٥٦/ح٧٤٧٧)

(٤) فتح البارى (١١/١٤٤)

(٥) عون المعبود (٤/٣٥٦)

ولهذا قال **ابن تيمية**[1]: و«نوع من الدعاء» ينهى عنه: كالاعتداء مثل أن يسأل الرجل مالا يصلح من خصائص الأنبياء وليس هو بنبى، وربما هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى، مثل: أن يسأل لنفسه الوسيلة التى لاتصلح إلا لعبد من عبادة. أو يسأل الله تعالى أن يجعله بكل شىء عليماً أو: على كل شىء قدير. وأن يرفع عنه كل حجاب يمنعه من مطالعة الغيوب.

وأمثال ذلك، أو: مثل من يدعوه ظاناً أنه محتاج إلى عباده، وأنهم يبلغون ضره ونفعه، فيطلب منه ذلك الفعل. و يذكر أنه إذا لم يفعله حصل له من الخلق ضير. وهذا ونحوه جهل بالله واعتداء فى الدعاء. وإن وقع فى ذلك طائفة من الشيوخ ومثل أن يقولون: «**اللهم اغفر لى إن شئت**» فيظن أن الله قد يفعل الشيء مكرهاً وقد يفعل مختاراً. كالملوك فيقول: «**اغفر لى إن شئت**». وقد نهى النبى ﷺ عن ذلك فقال: «**لايقل أحدكم: اللهم أغفرلى إن شئت اللهم أرحمنى إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لامكره له**»، ومثل: أن يقصد السجع فى الدعاء ويتشهق ويتشدق، وأمثال ذلك. فهذه الأدعية ونحوها منهى عنها أهـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: **قوله**«**اللهم اغفر لى إن شئت**» قال القرطبى: إنما نهى الرسول ﷺ عن هذا القول؛ لأنه يدل على فتور الرغبة، وقلة الاهتمام بالمطلوب. وكأن هذا القول يتضمن أن هذا المطلوب إن حصل وإلا استغنى عنه، ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حاله الافتقار والاضطرار، الذى هو روح عبادة الدعاء، وكان ذلك دليلاً على قلة معرفته بذنوبه، وبرحمة ربه. وأيضاً فإنه لايكون موقناً بالإجابة. وقد قال عليه السلام: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل**»[3].

وقال عبدالرحمن آل الشيخ[4]:بخلاف العبد، فإنه قد يعطى السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهوكاره. فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول حاجته على مشيئة المسؤول، مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رب العالمين، فإنه تعالى لايليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلهم فقير إليه، ومحتاج لا يستغنى عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام».

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧١٣، ٧١٤). (٢) تيسير العزيز الحميد: ٤٩١

(٣) [ضعيف] رواه الترمذى (٣٤٧٩) واستغربه وانظر «الأذكار للنووى» (٤٩ ١٠ - بتخريجنا).

(٤) فتح المجيد ٢/ ٦٣٢

وفى الحديث «**يمين الله ملأى، لايغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار؛ أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم تغض ما فى يمينه، وفى يده الأخرى القسط يخفضه ويرفعه**»[1]:يعطى تعالى لحكمة، ويمنع لحكمة، وهوالحكيم الخبير. اهـ.

وقال ابن عثيمين[2]: ففى الجملة الأولى: «اغفر لى» النجاة من المكروه،

وفى الثانية: «ارحمنى» الوصول إلى المطلوب؛ فيكون هذا الدعاء شاملاً لكل ما فيه حصول المطلوب وزوال المكروه. اهـ.

قلت: لكن تقدم أن فى بعض الالفاظ: «**ارزقنى**» لذا قال ابن حجر: ارحمنى هذا للتمثيل وليس هذا كل ما يدعى الله به.

قوله: «**ليعزم المسألة**».

قال ابن حجر[3]: ولمسلم من طريق عطاء بن ميناء عن أبى هريرة «**ليعزم فى الدعاء**» وله من رواية العلاء «**ليعزم وليعظم الرغبة**» ومعنى قوله ليعظم الرغبة أى يبالغ فى ذلك بتكرار الدعاء والإلحاح فيه،ويحتمل أن يراد به الأمر بطلب الشىء العظيم الكثير ويؤيده ما فى آخر هذه الرواية «**فإن الله لايتعاظمه شىء**».

المراد بالمسألة الدعاء، والضمير أن لله تعالى، أو الأول ضمير الشأن والثانى لله تعالى جزماً.

قال الداودى: معنى قوله «ليعزم المسألة» **أن يجتهد ويلح ولايقل إن شئت كالمستثنى، ولكن دعاء البائس الفقير**.

قلت: ـ أى ابن حجر ـ وكأنه أشار بقوله كالمستثنى إلى أنه **إذا قالها على سبيل التبرك لايكره وهو جيد**.

فى رواية أنس قال: (فليعزم المسألة) فى رواية أحمد عن إسماعيل المذكور «الدعاء» ومعنى الأمر بالعزم الجد فيه، **وأن يجزم بوقوع مطلوبه ولا يعلق ذلك بمشيئة الله تعالى**،وإن كان مأموراً فى جميع مايريد فعله أن يعلقه بمشيئة الله تعالى. وقيل: معنى العزم أن يحسن الظن بالله فى الإجابة.

قال سليمان آل الشيخ[4]: **قوله**: «**ليعزم المسألة**» قال القرطبى أى: ليجزم فى

---

(١) [**متفق عليه**] البخارى (٥٣٥٢) ومسلم فى الزكاة (٤/ ٨٦/ ٣٦) عن أبى هريرة به.

(٢) القول المفيد ٣/ ١١١.

(٣) الفتح ٦٣٣٨، ٧٤٦٤.

(٤) تيسير العزيز ٤٩٢.

طلبته، ويحقق رغبته، ويتيقن الإجابة، فإنه إذا فعل ذلك دل على علمه بعظيم مايطلب من المغفرة والرحمة، وعلى أنه مفتقر إلى مايطلب مضطر إليه، وقد وعد الله المضطر بالإجابة بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين[١]: اللام لام أمر، ومعنى عزم المسألة: أن لايكون في تردد بل يعزم بدون تردد ولاتعليق.

و«**المسألة**» السؤال ؛ أي: ليعزم في سؤاله فلا يكون متردداً بقوله: إن شئت. اهـ.

قوله «فإن الله لامكره له».

قال ابن تيمية[٢]: فبين أن الرب سبحانه يفعل مايشاء لايكرهه أحد على ما اختارة، كما قد يكرة الشافع المشفوع إليه. وكما يكره السائل المسؤل إذا ألح عليه وآذاه بالمسألة فالرغبة يجب أن تكون إليه. . . والرهبة تكون من الله. اهـ.

قال ابن حجر[٣]: ومكره بضم أوله وكسر ثالثه وفي رواية (فإنه لامستكره له)

وهما بمعنى، والمراد أن الذى يحتاج إلى التعليق بالمشيئة ما إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشيء فيخفف الأمر عليه ويعلم بأنه لايطلب منه ذلك الشيء إلا برضاه، وأما الله سبحانه فهو منزه عن ذلك فليس للتعليق فائدة. وقيل: المعنى أن فيه صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه، والأول أولى. وقد وقع في رواية عطاءبن ميناء «فإن الله صانع ماشاء» وفي رواية العلاء «فإن الله لايتعاظمه شيءأعطاه.

قال ابن عبدالبر: لايجوز لأحد أن يقول اللهم أعطني إن شئت وغير ذلك من أمور الدين والدنيا لأنه كلام مستحيل لاوجه له لأنه لايفعل إلا ماشاءه، وظاهره أنه حمل النهي على التحريم، وهوالظاهر، وحمل النووي النهي في ذلك على كراهة التنزيه وهو أولى، ويؤيده حديث الاستخارة.

قال ابن بطال: في الحديث أنه ينبغي للداعي أن يجتهد في الدعاء ويكون على رجاء الإجابة، ولا يقنط من الرحمة فإنه يدعو كريما. وقد قال ابن عيينة: لايمنعن أحداً الدعاء ما يعلم في نفسه ـ يعني من التقصير ـ فإن الله قد أجاب دعاء شر خلقه وهو إبليس حين قال ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٤]. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[٥]: قوله: فإنه لامكره له. أي: فإن الله لامكره له هذا

(١) القول المفيد ٣/ ١١١

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٧٣)

(٣) الفتح ١١/ ١٤٤، ١٤٥

(٤) ص: ٧٩

(٥) تيسير العزيز ٤٩٢

لفظ البخاري في الدعوات، ولفظ مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «**لايقولن أحدكم اللهم اغفرلي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم على المسألة في الدعاء، فإن الله صانع ما شاء، لامكره له**».

قال القرطبي: هذا إظهار لعدم فائدة تقبل الاستغفار والرحمة بالمشيئة. كأن الله تعالى لايضطره إلى فعل شيء دعاء ولا غيره، بل يفعل ما يريد ويحكم مايشاء. ولذلك قيد الله تعالى الإجابة بالمسألة في قوله: ﴿ **فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ** ﴾(١) فلا معنى لاشتراط المشيئة بقيله. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٢): فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإنه لايعطي عبده شيئاً عن كراهة، ولاعن عظم مسألة.

وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه:

ويعظم في عين الصغير صغارها ويصغر في عين العظيم العظائم

وهذا بالنسبة إلى ما في نفوس أرباب الدنيا، وإلا فإن العبد يعطي تارة، ويمنع أكثر، ويعطي كرها؛ والبخل عليه أغلب. وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم. وأما مايعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر، يجود بالنوال قبل السؤال، من حين وضعت النطفة في الرحم. فنعمه على الجنين في بطن أمه داره، يربيه أحسن تربية، فإذا وضعته أمه عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشده، يتقلب في نعم الله مدة حياته، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ماكان عليه في الدنيا من النعم التي لا يقدر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين.

وكل مايناله العبد في الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق، فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها، فهو الذي شاءها وقدرها، وأجراها عن كرمه وجوده وفضله. فله النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن. قال تعالى: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** ﴾ وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر، أوليعطيه أكثر. فتبارك الله رب العالمين أهـ.

قال ابن عثيمين (٣): **قوله: (فإنه لامكره له).**

---

(١) الأنعام : ٤١. (٢) فتح المجيد ٢/ ٦٣٤.

(٣) القول المفيد (٣/ ١١٢ : ١١٤)

تعليل للنهى عن قول : **«اللهم ! اغفر لى إن شئت، اللهم ! ارحمنى إن شئت»**؛ أى: لا أحد يكرهه على ما يريد فيمنعه منه، أومالا يريد فيلزمه بفعله؛ لأن الأمر كله لله وحده.

والمحظور فى هذا التعليق من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه يشعر بأن الله له مكره على الشيء، وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه، فكأن الداعى بهذه الكيفية يقول: أنا لا أكرهك، إن شئت فاغفر وإن شئت فلا تغفر.

الثانى: أن قول القائل: «إن شئت» كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله فقد لايشاؤه لكونه عظيماً عنده، ونظير ذلك أن تقول لشخص من الناس ـ والمثال للصورة بالصورة لا للحقيقة بالحقيقة ـ: أعطنى مليون ريال إن شئت، فإنك إذا قلت له ذلك؛ ربما يكون الشيء عظيماً يتثاقله، فقولك: إن شئت؛ لأجل أن تهون عليه المسألة؛ فالله ـ عزوجل ـ لايحتاج أن تقول له: إن شئت؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ لايتعاظمه شيء أعطاه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: **«وليعظم الرغبة؛ فإن الله لايتعاظمه شيء أعطاه»**.

«وليعظم الرغبة» ؛ أى: ليسأل ماشاء من قليل وكثير ولايقل: هذاكثيرلا أسأل الله إياه ،ولهذا قال: **«فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»**؛ أى: لا يكون الشيء عظيماً عنده حتى يمنعه ويبخل به ـ سبحانه وتعالى ـ كل شيء يعطيه، فإنه ليس عظيماً عنده؛ فالله ـ عزوجل ـ يبعث الخلق بكلمة واحدة، وهذا أمر عظيم، لكنه يسير عليه ، قال تعالى: **﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾**(١) : وليس بعظيم؛ فكل مايعطيه الله ـ عزوجل ـ لأحد من خلقه فليس بعظيم يتعاظمه؛ أى: لايكون الشيء عظيماً عنده حتى لايعطيه، بل كل شيء عنده هين.

الثالث: أنه يشعر بأن الطالب مستغن عن الله، كأنه يقول: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل فأنا لايهمنى، ولهذا قال: **«وليعظم الرغبة»**؛ أى: يسأل برغبة عظيمة، والتعليق ينافى ذلك؛ لأن المعلق للشيء المطلوب يشعر تعليقه بأنه تعليق مستغن عنه، والإنسان ينبغى أن يدعو الله تعالى وهو يشعر أنه مفتقر إليه غاية الافتقار، وأن الله قادر على أن يعطيه ما سأل، وأن الله ليس يعظم عليه شيء، بل هو هين عليه، إذا من آداب الدعاء أن لا يدعو بهذه الصيغة، بل يجزم فيقول: اللهم! اغفرلى، اللهم! ارحمنى، اللهم وفقنى! وما أشبه ذلك.

---

(١) التغابن :٧.

وَلِمُسْلِمٍ «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَتَعَاظَمُهُ شَيءٌ أَعْطَاهُ»(*).

وهل يجزم بالإجابة؟

الجواب: إذا كان الأمر عائداً إلى قدرة الله ؛ فهذا يجب أن تجزم بأن الله قادر على ذلك، قال الله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(١).

أما من حيث دعائك أنت باعتبار ماعندك من الموانع، أوعدم توافرالاسباب؛ فإنك قد تتردد في الإجابة، ومع ذلك ينبغي أن تحسن الظن بالله؛ لأن الله ـ عزوجل ـ قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ؛فالذى وفقك لدعائه أولاً سيمن عليك بالإجابة آخراً، لاسيما إذا أتى الإنسان بأسباب الإجابة وتجنب الموانع، ومن الموانع الاعتداء في الدعاء، كأن يدعو بإثم أوقطيعة رحم.

ومنها أن يدعو بما لايمكن شرعاً أو قدراً:

فشرعاًكأن يقول: اللهم! اجعلني نبياً.

وقدراً بأن يدعو الله تعالى بأن يجمع بين النقيضين، وهذا أمر لا يمكن؛ فالاعتداء بالدعاء مانع من إجابته، وهو محرم، لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وهوأشبه مايكون بالاستهزاء بالله ـ سبحانه ـ أهـ.

قوله ولمسلم: «وليعظم الرغبة، فإن إليه لا يتعاظمه شيء أعطاه».

قال النووى فى «شرح مسلم»(٢): ومعنى الحديث: استحباب الجزم فى الطلب،وكراهة التعليق على المشيئة، قال العلماء: سبب كراهته أنه لايتحقق استعمال المشيئة إلا فى حق من يتوجه عليه الإكراه، والله تعالى منزه عن ذلك،وهو معنى قوله ﷺ فى آخر الحديث «فإنه لا مستكره له» وقيل: سبب الكراهة أن فى هذا اللفظ صورة الاستعفاء على المطلوب والمطلوب منه. أهـ.

وقال أيضاً: قال العلماء: عزم المسألة الشدة فى طلبها، والجزم من غير ضعف فى الطلب، ولاتعليق على مشيئة ونحوها، وقيل: هو حسن الظن بالله تعالى فى الإجابة. أهـ.

---

(١) غافر : ٦٠.

(٢) مسلم بشرح النووى (٩/ ١٠).

(*) تقدم تخريجه.

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «وليعظم الرغبة» هو بالتشديد، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه يقال: تعاظم زيد هذا الأمر أي: كبر عليه وعسر. قال: والرغبة يعني الطلبة والحاجة التي يريد.

وقيل: السؤال والطلب تعظيم على هذا بالإلحاح. والأول أظهر أي: لسعة جوده وكرمه، لايعظم عليه إعطاء شيء، بل جميع الموجودات في أمره يسير، وهوأكبر من ذلك. وهذا هو غاية المطالب، فالاقتصار على الذاتي في المسألة إساءة ظن بجوده وكرمه. اهـ.

قال حامد بن محمد[2]: فكيف والدنيا كلها ماتسوى عند الله جناح بعوضة كما ورد في الحديث: «لو تسوى الدنيا عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً شربة ماء» أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[3]: قوله: «ولمسلم: وليعظم الرغبة» أي: في سؤاله ربه حاجته، فإنه يعطي العظائم كرماً وجوداً وإحساناً. فالله تعالى لايتعاظمه شيء أعطاه، أي ليس شيء عنده بعظيم، وإن عظم في نفس المخلوق؛ لأن سائل المخلوق لايسأله إلا ما يهون عليه بذله، بخلاف رب العالمين، فإن عطاءه كلام: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ فسبحان من لايقدر الخلق قدره، لا إله غيره، ولارب سواه. أهـ.

قال ابن باز: بل هو الله تعالى العظيم الشأن الغني الحميد وكل شيء يعطيه عباده فهي عنده قليلة يسيره وإن أعطاهم شيئاً عظيماً سبحانه وتعالى.

فعلى المؤمن أن يكون شديد الرغبة فيما عندالله شديد التعلق بالله شديد اللجوء إليه والإنكسار وأن يسأله سؤال الراغب المضطر ولايستثني وكذلك إذادعا لإخوانه لايقول غفر الله لك إن شاء أو رحمك إن شاء الله. بل يجزم ولايقول إن شاء الله ولو تبركاً فلا يستثني أبداً. ولايقول اللهم اغفر لي ماشئت. أهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩٢)

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٤٣٣).

(٣) فتح المجيد (٢/ ٦٣٣، ٦٣٤).

مَسَائل

الأولى : النَّهيُ عَنِ الإستثناء فِي الدُّعَاءِ.

الثانية: : بَيَانُ العلَةَ فِي ذَلِكَ .

الثالثة : قَوْلُهُ «لِيعْزِم المَسْأَلَةَ».

الرابعة : إعْظَامُ الرَّغْبَةِ.

قال ابن عثيمين:

قوله وفيه مسائل:

- **فيه مسائل:**
- **الأولى: النهى عن الاستثناء فى الدعاء.**

والمراد بالاستثناء هنا الشرط، فإن الشرط يسمى استثناء بدليل قوله ﷺ لضباعة بنت الزبير: «**حجى واشترطى؛ فإن لك على ربك ما استثنيت**»(١)، ووجهه أنك إذا قلت: أكرم زيداً إن أكرمك؛ فهو كقولك: أكرم زيداً إلا ألا يكرمك؛ فهو بمعنى الاستثناء فى الحقيقة.

- **الثانية: بيان العلة فى ذلك**

وقد سبق أنها ثلاث علل:

١ـ أنها تشعر بأن الله له مكره، والأمر ليس كذلك .

٢ـ أنها تشعر بأن هذا أمر عظيم على الله قد يثقل عليه ويعجز عنه، والأمر ليس كذلك.

٣ـ أنها تشعر باستغناء الإنسان عن الله، وهذا غير لائق وليس من الأدب.

قلت: ولأن ذلك من الدعاء كما تُقدم.

- **الثالثة: قوله «ليعزم المسألة».**

تفيد أنك إذاسألت فاعزم ولاتترد.

- **الرابعة: إعظام الرغبة .**

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩/ ٥٠)، ومسلم فى الحج (٨/ ١٣١ - النووى) وانظر «السلسبيل» (١٤٠٨ - بتخريجنا).

- لقوله، «وليعظم الرغبة»؛ أي: ليسأل مابدا له فلا شيء عزيز أو ممتنع على الله.

قلت: اللهم أجعلنى من العلماء العاملين وما ذلك على الله بعزيز ذلك لأن من إعظام الرغبة طلب الفردوس الأعلى كما جآء فى الآثر إذا سئلتم الله فسئلوه الفردوس[*] الأعلى» ولأن ابن حجر قال فى شرح الحديث وفيه إشارة إلى أن درجة المعاهد قد ينالها غير المعاهد إما بالنية الخالصة أو بما يوازيه من الأعمال الصالحة لأنه - ﷺ - أمر الجميع بالدعاء بالفردوس بعد أن علمهم أنه أعد للمجاهدين، وقيل فيه جواز الدعاء بما لا يحصل للداعى لما ذكرته والأول أولى والله أعلم. اهـ.

● **الخامسة: التعليل لهذا الأمر.**

يستفاد من قوله: «**فإن الله لايتعاظمه شيء، أولا مكره له**» وقوله «**وليعظم الرغبة**»، وفى هذا حسن تعليم الرسول ﷺ إذا ذكر شيئاً قرنه بعلته.

وفى ذكر علة الحكم فوائد:

الأولى: بيان سمو هذه الشريعة، وأنه مامن شيء تحكم به إلا وله علة وحكمة.

الثانية: زيادة طمأنينة الإنسان؛ لأنه إذا فهم العلة مع الحكم اطمأن، ولهذا لماسئل ﷺ عن بيع الرطب بالتمر لم يقل حلال أوحرام، بل قال: «**أينقص إذا جف؟**» قالوا: نعم فنهى عنه (١):

«والرجل الذى قال: إن امرأتى ولدت غلاماً أسود ـ لم يقل الولد لك ـ ، بل قال: **هل لك من إبل؟** قال: نعم . قال: **ما ألوانها؟** قال: حمر قال: **هل فيها من أورق** ـ الأورق: الأشهب الذى بين البياض و السواد ـ؟ قال: نعم. قال: **من أين ؟** قال: لعله نزعة عرق، قال: **لعل ابنك نزعه عرق**»(٢)، فاطمأن، وعرف الحكم، وأن هذا هو الواقع؛ فقرن الحكم بالعلة يوجب الطمأنينة ومحبة الشريعة والرغبة فيها.

الثالثة: القياس إذا كانت المسألة فى حكم من الأحكام؛ فيلحق بها ما شاركها فى العلة. اهـ.



(*) **[صحيح]** الحديث أخرجه البخارى (٢٧٩٠).

(١) **[ضعيف]** أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٦٧٥)، وأبو داود (٣٣٥٩)، والنسائى (٦٠٣٤)، والترمذى (٣٣٥٩)، وابن ماجه (٢٢٦٤) عن سعد بن أبى وقاص به.

وأنظر «السلسيل» (١٥٩٦ - بتخريجنا).

(٢) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى(٥٣٠٥)، ومسلم فى اللعان (١٠/ ١٣٣ - النووى) عن أبى هريرة به. أنظر «تيسير العلام» بتخريجنا.

باب ٥٣
لا يقول: عبدي وأمتي

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال الفقير: ـ ان كلا البابين تضمن من الأدلة ما ينفى النقص عن الله بضرب الأمثال له أو بما يوهم ذلك وهذا إثبات للكمال فى الربوبية وفى ذاته وأسماءه وصفاته ولأنها جميعاً تنهى عن كل لفظ يقدح فى ربوبيته أو أولوهيته أو أسماءه أو صفاته فناسب أن يذكرها المصنف رحمة الله على نسق واحد وترتيب واحد.

● **مناسبة الباب لكتاب التوحيد:**

ـ **قال سليمان آل الشيخ**[١]: لما فى ذلك من الإيهام من المشاركة فى الربوبية، فنهى عن ذلك أدباً مع جناب الربوبية، وحماية لجناب التوحيد. أ. هـ

ـ **وقال عبدالرحمن آل الشيخ**[٢]: هذه الألفاظ المَنْهى عنها. وإن كانت تُطْلق لغة، فالنَّبى ﷺ نهى عنها تحقيقا للتَّوحيد، وسداً لِذَرَائع الشِّرك، لما فيها من التَّشريك فى اللفظ؛ لأنَّ الله تعالى هو رب العباد جميعهم. فإذا أطلق على غيره شاركه فى الاسم. فينهى عنه لذلك. وإن لم يقصد بذلك التشريك فى الرُّبوبية التى هى وصف الله تعالى. وإنَّما المعنى أن هذا مالك له، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار. فالنهى عنه حسماً لمادة التَّشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقاً للتوحيد، وبعداً عن الشِّرك حتَّى فى اللفظ.

وهذا من أحسن مقاصد الشريعة، لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعد عن مشابهة المخلوقين. أ. هـ

ـ **وقال عبدالله بن جار الله بنحو ما تقدم حيث قال**[٣]: هى أن إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله مما ينافى كمال التوحيد؛ لما فيهما من التشريك فى اللفظ بين الخالق والمخلوق. اهـ.

ـ **وقال ابن باز بنحو مما تقدم فقال**[٤]:- هذا الباب مما ينافى كمال التوحيد. أى عندما يخاطب الرجل غلامه أو جاريته فلا يقول عبدى وأمتى تأدباً مع الله تعالى بل

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩٢).
(٢) فتح المجيد (٢/ ٦٣٥، ٦٣٦).
(٣) الجامع الفريد (١٦٤).
(٤) التعليق المفيد (٢٤٣).

قال فى الصَّحيح عَنْ أبى هُرَيْرَةَ؛ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : «لاَ يَقُل أَحَدُكُم: أَطْعِم ربَّكَ، وَضَّىء ربَّك. وَليَقُل: سيِّدِى وَمَولاَىَ. ولاَ يَقُل أَحَدُكُم: عَبدِى وَأَمَتِى . وَليَقُل فتَاىَ وَفَتَاتِى وَغُلاَمِى»[1].

يقول فتاى وفتاتى وغلامى وخادمى ونحو ذلك لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله. فهذا من باب الكمال والتأدب مع الله عز وجل والاعتراف له سبحانه بأنه المالك لكل شىء والمتصرف فى كل شىء.

أما إذا قيل عبد فلان أو إماء فلان فهذا من باب الإخبار وهو أسهل وليس من باب الإضافة إلى النفس. أهـ

قال ابن عثيمين: والعلة فى النهى أن فيه إشعاراً بالعبودية، وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتى فى اللفظ. اهـ.

● شرح الترجمة:

وقال السعدى[2]: وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول عبدى وأمتى إلى فتاى وفتاتى، تحفظا عن اللفظ الذى فيه أيهام ومحذور ولو على وجه بعيد وليس حراما وإنما الأدب كمال التحفظ بالالفاظ الطيبة التى لا توهم محذورا بوجه. فإن الأدب فى الالفاظ دليل على كمال الإخلاص خصوصاً هذه الالفاظ التى هى أمس بهذا المقام. أ.هـ

قال ابن عثيمين: هذه الترجمة تحتمل كراهة هذا القول وتحريمه، وقد اختلف العلماء فى ذلك، وسيأتى التفصيل فيه. اهـ.

وسيأتى تفصيل ذلك من كلام النووى، وابن حجر وشراح كتاب التوحيد.

قوله: قال فى الصحيح عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: لا يقل أحدُكم: أطعم ربَّك....

● مناسبة الحديث للباب:

قال قرعاوى[3]: حيث نهى الحديث عن تسمية المملوك عبداً، والمملوكة أمة. أ.هـ

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى فى العتق/ باب: كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدى أو أمتى (٥/ ٢١٠/ ح٢٥٥٢ ـ الفتح) ومسلم فى «الألفاظ من الأدب وغيرها»/ باب: حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد (٥/ ١٥/ ٧٢٦ ـ النووى)

وأنظر «الأذكار» للنووى (ح ٩٥٤) وانظر «فتح المجيد» (ح٨٣٠) بتخريجنا

(٢) القول السديد (١٢٢، ١٢٣).   (٣) الجديد (٤١٣).

● مناسبة الحديث للتوحيد:

وقال عبدالرحمن آل الشيخ[1]: وهذا من باب حماية المُصْطَفى ﷺ جناب التَّوحيد، فقد بلغ ﷺ أمته كل ما فيه لهم نفع، ونهاهم عن كل ما فيه نَقْصٌ في الدِّين. فلا خير إلا دلَّهم عليه، خُصُوصاً في تحقيق التَّوحيد، ولا شر إلا حذرهم منه، خُصُوصاً ما يقرب من الشِّرك لفظاً، وإن لم يقصد به. وبالله التوفيق. اهـ.

قال قرعاوي[2]: حيث نهى الحديث عن تسمية المملوك عبداً، والمملوكة أمة؛ لأن ذلك إشراك مع الله في الربوبية. أ.هـ.

شرح الحديث:

قوله: قال في الصحيح: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ..] إلخ.

قلت: أي في الصحيحين

بوب البخاري عليه باب[3] (كراهية التطاول على الرقيق، وقوله عبدي أو أمتي) وقوله الله تعالى: ﴿**وَالصَّالحين من عبَادكُمْ وَإمَائكُم**﴾ وقال: ﴿**عَبْدًا مَّمْلُوكًا**﴾ وقال: ﴿**وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَاب**﴾ وقال: ﴿**مِّن فَتَيَاتكُمُ الْمُؤْمنَات**﴾ وقال النبي ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم**»[4] وقال تعالى: ﴿**اذْكُرْني عند رَبّك**﴾: سيدك و «مَنْ سيدكم»).

ومسلم في الجهاد

- **قوله [وفي الصحيح]:**

قال سليمان آل الشيخ[5]: أي في الصحيحين. أ.هـ

وقال ابن عثيمين[6]: سبق التنبيه على مثل هذه العبارة في كلام المؤلف، وهذا الحديث في الصحيحين؛ فيكون المراد بقوله «في «الصحيح»»؛ أي: في الحديث الصحيح، ولعله أراد «صحيح البخاري»؛ لأن هذا لفظه، أما لفظ مسلم؛ فيختلف عنه. أ.هـ.

قوله «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُم: أَطْعِم رَبَّك»

---

(١) فتح المجيد (٢/ ٦٣٦).
(٢) الجديد (٤١٣).
(٣) فتح الباري (٥/ ٢١٠).
(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٤١٢٢)، ومسلم في الجهاد (٦/ ٣٣٥/ ٦٤) عن أبي سعيد به.
(٥) تيسير العزيز الحميد (٤٩٣).
(٦) القول المفيد (٣/ ١٢٠).

قلت: فى مسلم بلفظ: «**لايقولن أحدكم عبدى وأمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى**».

قال النووى(١): قوله ﷺ: «**لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى**» وفى رواية «**ولا يقل العبد: ربى ولكن ليقل: سيدى**» وفى رواية: «**ولا يقل العبد لسيده: مولاى، فإن مولاكم الله**» وفى رواية: «**لا يقولن أحدكم: اسق ربك أو أطعم ربك أو وضىء ربك، ولا يقل أحدكم: ربى، وليقل: سيدى ومولاى، ولا يقل أحدكم: عبدى أمتى، وليقل: فتاى فتاتى، غلامى**».

قلت: وهو لفظ الباب.

● **سبب النهى وعلاقته بالتوحيد:**

ـ **وقال ابن حجر**(٢) **فى سبب النهى**: والسبب فى النهى أن حقيقة الربوبية لله تعالى، لأن الرب هو المالك والقائم بالشىء فلا توجد حقيقة ذلك إلا لله تعالى.

قال الخطابى: سبب المنع أن الإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد لله وترك الإشراك معه، فكره له المضاهاة فى الاسم لئلا يدخل فى معنى الشرك، ولا فرق فى ذلك بين الحر والعبد، فأما مالا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات فلا يكره إطلاق ذلك عليه عند الإضافة كقوله رب الدار ورب الثوب.

قال النووى: قال العلماء: مقصود الأحاديث شيئان:

أحدهما: نهى المملوك أن يقول لسيده (ربى)؛ لأن الربوبية إنما حقيقتها لله تعالى؛ الأن الرب هو المالك، أو القائم بالشىء، ولا يوجد حقيقة هذا إلا فى الله تعالى.

● **ما جاء فى حكم.**

قول الرجل (عبدى، وأمتى وسيدى...):

قال النووى: **فإن قيل**: فقد قال النبى ﷺ فى أشراط الساعة: «**أن تلد الأمة ربتها، أو ربها**»(٣)؟

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (٨/ ٩/ ١٠- دار الحديث) وبنحو هذا قال فى «الأذكار».

(٢) فتح البارى (٥/ ٢١٣).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ١٥٧ - النووى) عن عمر رضى الله عنه وهو فى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه. وأنظر «جامع العلوم والحكم (٢ - بتخريجنا).

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الحديث الثانى لبيان الجواز، وأن النهى فى الأول للأدب، وكراهة التنزية لا التحريم.

الثانى: أن المراد النهى عن الإكثار من استعمال هذه اللفظة، واتخاذها عادة شائعة، ولم ينه عن إطلاقها فى نادر من الأحوال، وأختار القاضى هذا الجواب

ولانهى فى قول المملوك: (سيدى)؛ لقوله ﷺ: «**ليقل سيدى**» لأن لفظة السيد غير مختصة بالله تعالى اختصاص الرب، ولا مستعملة فيه كاستعمالها، حتى نقل القاضى عن مالك أنه كره الدعاء بسيدى، ولم يأت تسمية الله بالسيد فى القرآن، ولا فى حديث متواتر، وقد قال النبى ﷺ: «**إن ابنى هذا سيد**»(1) و «**قوموا لسيدكم**»(2) يعنى سعد بن معاذ. وفى الحديث الآخر: «**اسمعوا ما يقول سيدكم**»(3) يعنى سعد بن عبادة، فليس فى قول العبد سيدى إشكال ولا لبس؛ لأنه يستعمله غير العبد والأمة.

ولابأس أيضا بقول العبد لسيده: (مولاى)، فإن المولى وقع على ستة عشر معنى، منها: الناصر، والمالك.

قال القاضى: وأما قوله فى كتاب مسلم فى رواية وكيع وأبى معاوية، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة رفعه: «ولا يقل العبد لسيده: مولاى» فقد اختلف الرواة عن الأعمش فى ذكر هذه اللفظة، فلم يذكرها عنه آخرون، وحذفها أصح، والله أعلم.

والثانى: يكره للسيد أن يقول لمملوكه: عبدى وأمتى، بل يقول: غلامى وجاريتى وفتاى، وفتاتى؛ لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى، ولأن فيها تعظيماً بما لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه، وقد بين النبى ﷺ العلة فى ذلك: «**كلكلم عبيد الله**» فنهى عن التطاول فى اللفظ كما نهى عن التطاول فى الأفعال، وفى إسبال الإزار وغيره.

وأما غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى، فليس دالة على الملك كدلالة عبدى، مع أنها تطلق على الحر والمملوك، وإنما هى للاختصاص، قال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ**﴾ ﴿**وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ**﴾ ﴿**قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ**﴾.

---

(1) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٧٠٤) عن أبى بكرة به.

(2) تقدم تخريجه.

(3) [صحيح] أخرجه مسلم فى اللعان (٥/ ٣٨٣/ ١٤) عن أبى هريرة به.

وأما استعماله الجارية في الحرة الصغيرة فمشهور معروف في الجاهلية والإسلام.

والظاهر أن المراد بالنهي من استعماله على جهة التعاظم والارتفاع، لا للوصف والتعريف. أ. هـ.

قال ابن حجر: وقال ابن بطال: لا يجوز أن يقال لأحد غير الله رب، كما لا يجوز أن يقال له إله. اهـ.

والذي يختص بالله تعالى إطلاق الرب بلا إضافة، أما مع الإضافة فيجوز إطلاقه كما في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾. وقوله ﴿**ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ**﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام في أشراط الساعة «**أن تلد الأمة ربها**»[1]. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: فإن قلت: قد قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾[2].

وقال النبي ﷺ في اشتراط الساعة: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها»[3] فهذا يدل على الجواز.

قيل: فأما الآية ففيها جوابان.

أحدهما وهو الأظهر: أن هذا جائز في شرع من قبلنا، وقد ورد شرعنا بخلافه.

والثاني: أنه ورد لبيان الجواز، والنهي للأدب والتنزيه، دون التحريم. وأما الحديث فليس من هذا الباب للتأنيث، والنهي عنه أن يقول ذلك للذكر لما فيه من ايهام المشاركة، وهو معدوم في الأنثى. أو يقال بحمله على الكراهة في الأنثى أيضاً لورود الحديث بذلك دون الذكر، لأنه لم يرد فيه إلا النهي، ويقال وهو أظهر: إن هذا ليس فيه إلا وصفها بذلك لا دعاؤها به، وتسميتها به. وفرق بين الدعاء والتسمية، وبين الوصف، كما تقول: زيد فاضل؛ فتصفه بذلك ولا تسميه به ولا تدعوه به.

وقال ابن حجر[4]: قوله «**عبدي أو أمتي**» أي: كراهية ذلك من غير تحريم، ولذلك استشهد ـ البخاري ـ للجواز بقوله تعالى ﴿**وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ**﴾ وبغيرها من الآيات والأحاديث الدالة على الجواز، ثم أردفها بالحديث الوارد في النهي

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

(٣) تقدم.

(٤) فتح الباري (٥/ ٢١٣).

عن ذلك، واتفق العلماء على أن النهى الوارد فى ذلك للتنزيه، حتى أهل الظاهر، إلا ما سنذكره عن ابن بطال فى لفظ الرب. اهـ.

وقال أيضاً: فدل على أن النهى فى ذلك محمول على الإطلاق.

ويحتمل أن يكون النهى للتنزيه، وما ورد من ذلك فلبيان الجواز.

وقيل هو مخصوص بغير النبى ﷺ ولا يرد ما فى القرآن.

أو المراد النهى عن الإكثار من ذلك واتخاذ استعمال هذه اللفظة عادة. وليس المراد النهى عن ذكرها فى الجملة أ.هـ. قلت:

وتقدم أن هذا إختيار القاضى.

وقال ابن عثيمين[1]: أى: لا يقل أحدكم لعبد غيره، ويحتمل أن يشمل قول السيد لعبده حيث يضع الظاهر موضع المُضْمَر تعاظماً.

واعلم أن إضافة الرب إلى غير الله تعالى تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن تكون الإضافة إلى ضمير المُخاطَب؛ مثل: أطعم ربك، وَضّىء ربك؛ فيكره ذلك للنهى عنه؛ لأن فيه محذورين:

١- من جهة الصيغة؛ لأنه يوهم معنى فاسداً بالنسبة لكلمة رب؛ لأن الرب من أسمائه سبحانه، وهو سبحانه يُطعِم ولا يُطعَم، وإن كان بلا شك أن الرب هنا غير رب العالمين الذى يطعم ولا يطعم، ولكن من باب الأدب فى اللفظ.

٢- من جهة المعنى أنه يشعر العبد أو الأمة بالذل؛ لأنه إذا كان السيد ربّاً كان العبد أو الأمة مربوبا.

القسم الثانى: أن تكون الإضافة إلى ضمير الغائب؛ فهذا لا بأس به: كقوله ﷺ فى حديث أشراط الساعة: «**أن تلد الأمة ربها**»[2]، وأما لفظ: «**ربتها**»؛ فلا إشكال فيه لوجود تاء التأنيث، فلا اشتراك مع الله فى اللفظ؛ لأن الله لا يقال له إلاّ رب، وفى حديث الضالة ـ وهو متفق عليه ـ: «**حتى يجدها ربها**»[3]، وقال بعض أهل العلم: إن حديث الضالة فى بهيمة لا تتعبد ولا تتذلل؛ فليست كالإنسان، والصحيح عدم الفارق؛ لأن البهيمة تعبد الله عبادة خاصة، قال تعالى: ﴿**اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن**

---

(١) القول المفيد (٣/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٣٧٢) ومسلم فى اللقطة (١١/ ٢٠ - النووى) عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه. به

في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب﴾، وقال في الناس: ﴿وكثير من الناس﴾ ليس جميعهم: ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾[1]، وعلى هذا؛ فيجوز أن تقول: أطعم الرقيق ربه، ونحوه..

القسم الثالث: أن تكون الإضافة إلى ضمير المتكلم، بأن يقول العبد: هذا ربي؛ فهل يجوز هذا؟

قد يقول قائل: إن هذا جائز لأن هذا من العبد لسيده، وقد قال تعالى عن صاحب يوسف: ﴿ربي أحسن مثواي﴾[2]؛ أي: سيدي، ولأن المحذور من قول: ﴿ربي﴾ هو إذلال العبد، وهذا منتف؛ لأنه هو بنفسه يقول: هذا ربي.

القسم الرابع: أن يضاف إلى الاسم الظاهر، فيقال: هذا رب الغلام؛ فظاهر الحديث الجواز، وهو كذلك ما لم يوجد محذور فيمنع، كما لو ظن السامع أن السيد رب حقيقي خالق ونحو ذلك.

قوله: «وضيء ربك».

ـ قال سليمان آل الشيخ[3]: أمر من الوضوء وفيهما في هذا الحديث زيادة «اسق ربك». وكأن المؤلف اقتصرها.

ـ وذكر كلام الخطابي المتقدم ـ قال الخطابي: وسبب المنع أن الإنسان مربوب معبد بإخلاص التوحيد لله تعالى، وترك الإشراك به، فترك المضاهاة بالاسم لئلا يدخل في معنى الشرك، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد. وأما من لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات، فلا يكره أن يطلق ذلك عليه عند الإضافة كقوله: رب الدار والثوب.

قال ابن مفلح في «الفروع»: وظاهر النهي التحريم، وقد يحتمل أنه للكراهية. وجزم به غير واحد من العلماء. اهـ، وتقدم تفضيل المسألة سابقاً.

ـ وقال حامد بن محمد[4]: تأدباً ولو أنه جائز إطلاق لفظ الرب على صاحب المال كما قال عبدالمطلب لأبرهة: أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه. اهـ.

---

(١) الحج: ١٨.
(٢) القول المفيد (٣/ ١٢٢، ١٢٣).
(٣) تيسير العزيز ٤٩٤.
(٤) فتح الله الحميد المجيد (٤٣٥).

قوله: «وليقل: سيدى ومولاى».

قال ابن حجر[1]:

قوله **(وليقل سيدى مولاى)** فيه جواز إطلاق العبد على مالكه سيدى.

قال القرطبى وغيره: إنما فرق بين الرب والسيد لأن الرب من أسماء الله تعالى اتفاقاً، واختلف فى السيد، ولم يرد فى القرآن أنه من أسماء الله تعالى. فإن قلنا إنه ليس من أسماء الله تعالى فالفرق واضح إذ لا التباس وإن قلنا إنه من أسمائه فليس فى الشهرة والاستعمال كلفظ الرب فيحصل الفرق بذلك أيضاً، وقد روى أبو داود والنسائى وأحمد والبخارى فى «الأدب المفرد» من حديث عبدالله بن الشخير عن النبى ﷺ قال **«السيد الله»**[2] وقال الخطابى: إنما أطلقه لأن مرجع السيادة إلى معنى الرياسة على من تحت يده والسياسة له وحسن التدبير لأمره، ولذلك سمى الزوج سيداً، قال: وأما المولى فكثير التصرف فى الوجوه المختلفة من ولى وناصر وغير ذلك، ولكن لا يقال السيد ولا المولى على الإطلاق من غير إضافة إلا فى صفة الله تعالى أنتهى.

وفى الحديث جواز إطلاق مولاى أيضا، وأما ما أخرجه مسلم والنسائى من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة فى هذا الحديث نحوه وزاد **«ولا يقل أحدكم مولاى فإن مولاكم الله، ولكن ليقل سيدى»**[3] فقد بين مسلم الاختلاف فى ذلك على الأعمش وأن منهم من ذكر هذه الزيادة ومنهم من حذفها، وقال عياض حذفها أصح.

وقال القرطبى، المشهور حذفها قال: وإنما صرنا إلى الترجيح للتعارض مع تعذر الجمع وعدم العلم بالتاريخ. انتهى.

ومقتضى ظاهر هذه الزيادة أن إطلاق السيد أسهل من إطلاق المولى، وهو خلاف المتعارف، فإن المولى يطلق على أوجه متعددة منها الأسفل والأعلى، والسيد لا يطلق إلا على الأعلى، فكان إطلاق المولى أسهل وأقرب إلى عدم الكراهة والله أعلم. وقد رواه محمد بن سيرين عن أبى هريرة فلم يتعرض للفظ المولى إثباتاً ولا نفياً، أخرجه أبو داود والنسائى والبخارى فى «الأدب المفرد» بلفظ **«لا يقولن أحدكم عبدى ولا أمتى ولا**

---

(١) الفتح ٥/ ٢١٣.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١١٥)، وأبو داود (٤٨٠٦)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٠٧٤) عن عبدالله بن الشخير به.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الألفاظ من الأدب (٨/ ٩).

يقل المملوك ربى وربتى، ولكن ليقل المالك فتاى وفتاتى والمملوك سيدى وسيدتى، فإنكم المملوكون والرب الله تعالى»[1] ويحتمل أن يكون المراد النهى عن الإطلاق كما تقدم من كلام الخطابى، ويؤيد كلامه حديث ابن الشخير المذكور والله أعلم، وعن مالك تخصيص الكراهة بالنداء فيكره أن يقول يا سيدى ولا يكره فى غير النداء. اهـ.

قلت: وتقدم تفصيل المسألة من كلام النواوى وابن حجر سابقاً.

قال سليمان آل الشيخ[2]: بعد أن ذكر شرح ابن حجر المتقدم.

وحديث ابن الشخير لا ينفى إطلاق لفظ السيد على غير الله، بل المراد أن الله هو الأحق بهذا الاسم بأنواع العبارات، كما أن غيره لا يسمى به. ومولاى. قال النووى: المولى يطلق على ستة عشر معنى، منها النظار والمولى والمالك، وحينئذ فلا بأس أن يقول: مولاى. اهـ.

قال عبدالرحمن ال الشيخ[3]. وهذا من أحسن مَقَاصد الشرِّيعة، لما فيه من تَعْظيم الرَّب تعالى، وبعده عن مُشَابهة المخلوقين. فأرشدهم إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ. وهو قوله: «سَيِّدى ومَوْلاَى» اهـ.

قال ابن عثيمين[4] المتوقع أن يقول: وليقل سيدك ومولاك؛ لأن مقتضى الحال أن يرشد إلى ما يكون بدلاً عن اللفظ المنهى عنه بما يطابقه، وهنا ورد النهى بلفظ الخطاب، والإرشاد بلفظ التكلم، وليقل: «سيدى ومولاى»؛ ففهم المؤلف رحمه الله- كما سيأتى فى المسائل - أن فيه إشارة إلى أنه إذا كان الغير قد نهى أن يقول للعبد: أطعم ربك؛ فالعبد من باب أولى أن ينهى عن قول: أطعمت ربى، وَضَّأْتُ ربى، بل يقول: سيدى ومولاى.

وأما إذا قلنا بأن أطعم ربك خاص بمن يخاطب العبد لما فيه من إذلال العبد بخلاف ما إذا قال هو بنفسه: أطعمت ربى، فإنه ينتفى الإذلال؛ فإنه يقال: إن الرسول ﷺ لما وجه الخطاب لمن يخاطب العبد وجّه الخطاب إلى العبد نفسه، فقال: «**وليقل: سيدى ومولاى**»، أى بدلاً عن قوله: أطعمت ربى، وضأت ربى.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٤٢٣)، وأبو داود (٤٩٧٥)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٠٧٢) عن أبى هريرة به.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٩٤.

(٣) فتح المجيد ٢/ ٦٣٦.

(٤) القول المفيد ٣/ ١٢٥.

وقوله: «سيدى».

السيادة فى الأصل علو المنزلة؛ لأنها من السُّؤْدَد والشرف والجاه وما أشبه ذلك.

والسيد يطلق على معان، منها: المالك، والزوج، والشريف المطاع.

وسيدى هنا مضافة إلى ياء المتكلم وليست على وجه الإطلاق.

فالسيد على وجه الإطلاق لا يقال إلا لله ـ عز وجل ـ، قال ﷺ: **«السيد الله»**(١).

وأما السيد مضافة فإنها تكون لغير الله، قال تعالى: **﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾**(٢). وقال ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»**(٣)، والفقهاء يقولون: إذا قال السيد لعبده؛ أى: سيد العبد لعبده.

● **تنبيه(٤):**

اشتهر عند بعض الناس إطلاق السيدة على المرأة، فيقولون مثلاً: هذا خاص بالرجال، وهذا خاص بالسيدات، وهذا قلب للحقائق؛ لأن السادة هم الرجال، قال تعالى: **﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾**، وقال: **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾**(٥)، وقال ﷺ: **«إن النساء عوان عندكم»**(٦)؛ أى: بمنزلة الأسير، وقال فى الرجل: **«راع فى أهله ومسؤول عن رعيته»**(٧)؛ فالصواب أن يقال للواحدة امرأة وللجماعة منهن نساء.

قوله: «ومولاى».

أى: وليقل مولاى، والولاية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ولاية مطلقة، وهذه لله ـ عز وجل ـ لا تصلح لغيره؛ كالسيادة المطلقة.

وولاية الله نوعان:

النوع الأول: عامة، وهى الشاملة لكل أحد، قال الله تعالى: **﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ**

(١) تقدم تخريجه (٢) يوسف: ٢٥.
(٣) تقدم تخريجه فى الشفاعة.
(٤) القول المفيد ٣/١٢٦.
(٥) النساء: ٣٤.
(٦) أخرجه: أحمد (٥/٧٢)، والترمذى (١١٦٣)، والنسائى فى «الكبرى» (٩١٦٩)، وابن ماجه (١٨٥١) عن عمرو بن الأحوص به. وانظر «رياض الصالحين» (٢٧٨ - بتخريجنا).
(٧) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٨٩٣)، ومسلم فى الإمارة (١٢/٢١٣ - النووى) عن ابن عمر به.

﴿مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1]؛ فجعل له ولاية على هؤلاء المفترين، وهذه ولاية عامة.

النوع الثاني: خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[2]، وهذه ولاية خاصة، ومقتضى السياق أن يقال: وليس مولى الكافرين، لكن قال: ﴿لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾؛ أى: لا هو مولى للكافرين ولا أولياؤهم الذين يتخذونهم آلهة من دون الله موالى لهم لأنهم يوم القيامة يتبرؤون منهم.

القسم الثانى: ولاية مقيدة مضافة؛ فهذه تكون لغير الله، ولها فى اللغة معان كثيرة، منها: الناصر، والمتولى للأمور، والسيد، والعتيق.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، قال ﷺ فيما يروى عنه: «من كنت مولاه؛ فعلىٌّ مولاه»[4]، وقال ﷺ: «إنما الولاء لمن أعتق»[5].

ويقال للسلطان ولى الأمر، وللعتيق مولى فلان لمن أعتقه، وعليه يعرف أنه لا وجه لاستنكار بعض الناس لمن خاطب مَلِكاً بقوله: مولاى؛ لأن المراد بمولاى أى متولى أمرى، ولا شك أن رئيس الدولة يتولى أمورها؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[6]. اهـ.

قوله ﷺ: **«ولايقل أحدكم عبدى وأمتى»**.

قال ابن عثيمين[7]: قوله (لايقل) الجملة نهى

(قوله عبدى) أى: للغلام.

قوله (أمتى) أى: للجارية والأمة: الأنثى من المملوكات وتسمى الجارية.

---

(1) يونس: ٣٠

(2) محمد: ١١.

(3) التحريم: ٤.

(4) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٧٢) عن زيد بن أنعم به.

(5) [متفق عليه] أخرجه: البخارى ومسلم فى العتق (١٠/ ١٤٠- النووى) عن عائشة رضى الله عنها -.

(6) النساء: ٥٩.

(7) القول المفيد (٣/ ١٢٠).

قال ابن حجر[1] **قوله (ولا يقل أحدكم عبدى أمتى)** زاد البخارى فى «الأدب المفرد» ومسلم من طريق العلاء ابن عبدالرحمن عن أبيه عن أبى هريرة «كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله» ونحو ما قدمته من رواية ابن سيرين، فأرشد ﷺ إلى العلة فى ذلك لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى، ولأن فيها تعظيما لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه.

قال الخطابى: المعنى فى ذلك كله راجع إلى البراءة من الكبر والتزام الذل والخضوع لله عز وجل، وهو الذى يليق بالمربوب.

وقال ابن حجر[2]: واتفق العلماء على أن النهى الوارد فى ذلك للتنزيه حتى أهل الظاهر. أهـ وتقدم شىء من هذا.

قال سليمان آل الشيخ[3]:- قوله: «ولا يقل أحدكم عبدى وأمتى»؛ لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى، ولأن فيها تعظيماً لايليق بالمخلوق، وقد بيَّن النبى ﷺ العلة فى ذلك.

كما رواه أبو داود باسناد صحيح عن أبى هريرة مرفوعاً: «**لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم: عَبْدِى وَأَمَتِى، وَلاَ يَقُولَنَّ المَمْلُوكُ: رَبِّى وَرَبَّتِى، وَلْيَقُلِ المَالِكُ: فَتَاىَ وَفَتَاتِى، وَلْيَقُلِ المَمْلُوكُ: سَيِّدِى وَسَيِّدَتِى، فَإِنَّكُم المَمْلُوكُونَ، والرَّبُ الله تَعَالَى**»[4] ورواه أيضاً بإسناد صحيح موقوفاً، فهذه علة له. وفى رواية لمسلم «**لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُم: عَبْدِى فَكُلُّكُم عَبِيدُ الله**» قال فى «مصابيح الجامع» النهى إنما جاء متوجهاً إلى السيد إذ هو فى مظنه الاستطالة، وأما قول الغير: هذا عبدزيد، وهذه أمة خالد فجائز؛ لأنه يقول: إخبار أو تعريفاً، وليس فى مظنة الاستطالة.

قلت: ـ سليمان آل الشيخ ـ وهو حسن، وقد رويت أحاديث تدل على ذلك، وقال أبو جعفر النحاس: لا نعلم بين العلماء خلافاً أنه لا ينبغى لأحد أن يقول لأحد من المخلوقين: مولاى، ولا يقول: عبدك وعبدى، وإن كان مملوكاً، وقد حظر رسول الله ﷺ على المملوكين، فكيف للأحرار؟. اهـ.

---

(١) الفتح ٥/٢١٢..

(٢) الفتح (٥/٢١١).

(٣) تيسير العزيز ٤٩٥.

(٤) تقدم تخريجه.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[1]:- وكذا قوله: «**وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُم: عَبْدِي وَأَمَتِي**» لأن العبيد عبيد الله. والإماء إماء الله. قال الله تعالى: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾[2] ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تَشْرِيكٌ في اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيماً لله تعالى، وأدباً وبعداً عن الشِّرك، وتحقيقاً للتَّوحيد.

قال ابن عثيمين[3]: هذا خطاب للسيد أن لا يقول: عبدى وأمتى لمملوكه ومملوكته؛ لأننا جميعاً عباد الله، ونساؤنا إماء لله، قال النبي ﷺ: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»[4].

فالسيد منهى أن يقول ذلك؛ لأنه إذا قال: عبدى وأمتى؛ فقد تَشَبَّه بالله - عز وجل - ولو من حيث ظاهر اللفظ؛ لأن الله - عز وجل - يخاطب عباده بقوله: عبدى؛ كما في الحديث: «**عبدى استطعمتك فلم تطعمني...**»[5] وما أشبه ذلك.

و«أمتى»؛ أى: للجارية.

والحكم في ذلك ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يضيفه إلى غيره، مثل أن يقول: عبدفلان أو أمة فلان؛ فهذا جائز، قال تعالى: ﴿**وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ**﴾، وقال النبي ﷺ: «**ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة**»[6].

الثاني: أن يضيفه إلى نفسه، وله صورتان:

الأولى: أن يكون بصيغة الخبر، مثل: أطعمت عبدى، كسوت عبدى، أعتقت عبدى، فإن قاله في غيبة العبد أو الأمة؛ فلا بأس به، وإن قاله في حضرة العبد أو الأمة؛ فإن تَرَتَّب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منع، وإلا؛ فلا لأن قائل ذلك لا يقصد العبودية التي هي الذل، وإنما يقصد أنه مملوك.

---

(١) فتح المجيد ٦٣٦.

(٢) مريم: ٩٦.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٢٨، ١٢٩.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (٢/ ٣٩٧/ ١٣٦) عن ابن عمر به.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٦٣)، ومسلم في الزكاة (٧/ ٥٥ - النووى) عن أبي هريرة به. وأنظر «السلسبيل» (١٠١٧ - بتخريجنا).

الثانية: أن يكون بصيغة النداء، فيقول السيد: يا عبدى! هات كذا؛ فهذا منهى عنه، وقد اختلف العلماء فى النهى: هل هو للكراهة أو التحريم؟ والراجح التفصيل فى ذلك، وأقل أحواله الكراهة.

وإن كان السيد يريد بقوله: «عبدى»؛ أى: مملوكى؛فالنهى من باب التَّنَزُّه عن اللفظ الذى يوهم الإِشراك، وقد سبق بيان حكم ذلك.

وقوله: «وأمتى»

الأمة: الأنثى من المملوكات، وتسمى الجارية.

والعلة من النهى: أن فيه إشعاراً بالعبودية، وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتى فى اللفظ، ولهذا ذهب بعض أهل العلم ومنهم شيخنا عبدالرحمن السعدى رحمه الله إلى أن النهى فى الحديث ليس على سبيل التحريم، وأنه على سبيل الأدب والأفضل والأكمل، وقد سبق بيان حكم ذلك مفصلاً. اهـ.

قوله: «وليقل: فتاى وفتاتى».

قال ابن حجر[1]: **قوله (وليقل فتاى وفتاتى وغلامى)** زاد مسلم فى الرواية المذكورة «وجاريتى» فأرشد ﷺ إلى ما يؤدى المعنى مع السلامة من التعاظم، لأن لفظ الفتى والغلام ليس دالا على محض الملك كدلالة العبد، فقد كثر استعمال الفتى فى الحر وكذلك الغلام والجارية، قال النووى ـ وقدمنا كلامه كاملاً فى أول شرح الحديث ـ: المراد بالنهى من استعمله على جهة التعاظم لا من أراد التعريف انتهى. ومحله ما إذا لم يحصل التعريف بدون ذلك استعمالا للأدب فى اللفظ كما دل عليه الحديث. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: قوله: وليقل: فتاى وفتاتى، وغلامى أى: لأنها ليست دالة على الملك كدلالة عبدى وأمتى، فأرشد عليه السلام، إلى ما يؤدى المعنى من السلامة من الإيهام والتعاظم، مع أنها تطلق على الحر والمملوك، لكن إضافته تدل على الإخلاص.

قال ابن عثيمين[2] مثله جاريتى وغلامى؛ فلا بأس به.

وفى هذا الحديث من الفوائد:

---

(١) الفتح ٥/ ٢١٤.

(٢) تسير العزيز ٤٩٦.

(٣) القول ٣/ ١٢٩).

فيه مسائل

الأولى: النهى عن قول: عبدى وأمتى.

الثانية: لا يقول العبد: ربى، ولا يقال له: أطعم ربك.

١- حسن تعليم الرسول ﷺ، حيث إنه إذا نهى عن شىء فتح للناس ما يباح لهم، فقال: «**لا يقل: عبدى وأمتى، وليقل: فتاى وفتاتى**»، وهذه كما هى طريقة النبى ﷺ؛ فهى طريقة القرآن أيضاً، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا**﴾(١)، وهكذا ينبغى أيضاً لأهل العلم وأهل الدعوة إذا سدوا على الناس باباً محرماً أن يفتحوا لهم الباب المباح حتى لا يضيقوا على الناس ويسدوا الطرق أمامهم؛ لأن فى ذلك فائدتين عظيمتين:

الأولى: تسهيل ترك المحرم على هؤلاء؛ لأنهم إذا عرفوا أن هناك بدلاً عنه هان عليهم تركه.

الثانية: بيان أن الدين الإسلامى فيه سعة، وأن كل ما يحتاج إليه الناس؛ فإن الدين الإسلامى يسعه، فلا يحكم على الناس أن لا يتكلموا بشىء أو لا يفعلوا شيئاً إلا وفتح لهم ما يغنى عنه، وهذا من كمال الشريعة الإسلامية.

٢- أن الأمر يأتى للإباحة؛ لقوله: «وليقل: سيدى ومولاى»، وقد قال العلماء: إن الأمر إذا أتى فى مقابلة شىء ممنوع صار للإباحة، وهنا جاء الأمر فى مقابلة شىء ممنوع، ومثله قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا**﴾(٢).

فيه مسائل:

- **الأولى: النهى عن قول: عبدى وأمتى.**

قال ابن عثيمين

تؤخذ من قوله: «ولا يقل أحدكم عبدى وأمتى»، وقد سبق بيان ذلك.

- **الثانية: لا يقول العبد: ربى، ولا يقال له: أطعم ربك.**

تؤخذ من الحديث، وقد سبق بيان ذلك،

---

(١) البقرة: ١٠٤.

(٢) المائدة: ٢.

الثالثة: تَعْلِيمُ الأَوَّل قَوْلَ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغلاَمِي.

الرابعة : تَعْلِيمُ الثَّانِي قَوْلَ : سَيِّدِي وَمَوْلاَيَ.

الخامسة:التَّنْبِيهُ للمُرَادِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدُ حَتَّى فى الأَلْفَاظِ.

- الثالثة: تعليم الأول (وهو السيد) قول: فتاى وفتاتى وغلامى.
- الرابعة: تعليم الثانى (وهو العبد) قول: سيدى ومولاى.
- الخامس: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى فى الألفاظ.

وقد سبق ذلك.

وفى الباب مسائل أخرى لكن هذه المسائل هى المقصوده.



باب ٥٤

لا يُردُّ من سأل بالله

● **مناسبة الباب لما قبله.**

قال الفقير:ـ أن ما قبله لتعظيم الله بإثبات الكماله له ونفى النقص عنه وكذلك لما كان من تعظيمه وإجلاله تعالى وكمال توحيده عدم رد من سئل به ناسب أن يأتى المصنف بهذا الباب المنعقد لذلك بعد الأبواب الماضية والله أعلم.

● **مناسبة الباب للتوحيد**

قال ابن باز[١]: ذكر المؤلف هذا الباب لما فيه من تعظيم الله وإجلاله فى إعطاء من سأله. اهـ.

قال عبد الله جار الله[٢]: هى أن رد من سأل الله مما ينافى كمال التوحيد لأن رده دليل على عدم إعظام الله تعالى. اهـ.

● **شرح الترجمة:**

قال سليمان آل الشيخ[٣]: أي: إعظامًا وإجلالاً لله تعالى أن يسأل به فى شىء، ولا يجاب السائل إلى سؤاله ومطلوبه، ولهذا أمر النبى ﷺ بإبرار القسم وتنازعوا هل هو أمر استحباب، أو إيجاب.

وظاهر كلام شيخ الإسلام التفريق بين أن يقصد إلزامه بالقسم فتجب إجابته، أو يقصد إكرامه فلا تجب عليه.

ولهذا أوجب على المقسم فى الأولى الكفارة، إذا لم يفعل المحلوف عليه، دون الثانية، لأنه كالأمر، ولا يجب إذا كان للإكرام لأمر النبىﷺ أبا بكر بوقوفه فى الصف ولم يقف، ولأن أبا بكر أقسم على النبى ﷺ ليخبرنه بالصواب والخطأ لما فسر الرؤيا فقال النبى ﷺ : **«لا تُقْسِمْ»**[٤] كما فى «الصحيحين» قال: لأنه علم أنه لم يقصد الإقسام عليه مع المصلحة المقتضية للكتم اهـ.

---

(١) التعليق المفيد (٢٤٥)

(٢) الجامع الفريد (١٦٥)

(٣) تيسير العزيز الحميد (٤٩٧)

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٠٤٦) ومسلم فى الرؤيا (٨/ ٣٢/ ١٧) عن ابن عباس به.

وقال حامد بن محمد[1]: **(باب)** ما جاء فى بيان أنه **(لا يرد من سأل بالله)** **لأنه أكبر من كل كبير كما قيل:**

رأيت الله أكبر كل شيء ... محاولة وأكثرهم جنوداً

وهو قيم السموات والأرض ومن فيهن ومالك السموات والأرض ومن فيهن ونور السموات والأرض ومن فيهن كما فى الحديث الصحيح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول إذا قام إلى الصلاة: **«اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن»**[2] الحديث.

وأنه تعالى أعظم من كل عظيم لقد عظم السبع الطباق وما حوت ولله خلاق الخليقة أعظم مليك على الأكوان عال على الورى له الأمر فيها وهو بالخلق قيم:

ولو لم يكن نور الذى خالق الورى ... لكان نهار الدهر كالليل أظلم

فسبحانه سبحانه جل قدره ... فعنه لسان العقل والفهم أبكم

تقاصرت الأفهام عن كنه ذاته ... ولكن رب الخلق بالخلق أعلم

قال أبو موسى: قام فينا رسول الله بخمس كلمات فقال: **«إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه، ما انتهى إليه بصره من خلقه»** ثم قرأ: **﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾**[3] فاستنار ذلك بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى بصره، فمن هذا قدره وعظمته وجلاله، فرض أن يعظم حق العظمة ولا يرد من سأل بالله وقارًا وعظمة له[4]. اهـ.

قال ابن عثيمين[5]**:**

قوله: «باب لا يرد».

«لا»: نافية بدليل رفع المضارع بعدها، والنفى يحتمل أن يكون للكراهة، وأن يكون للتحريم . اهـ.

---

(1) فتح الله الحميد المجيد (٤٣٧)

(2) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (١١٢٠) ومسلم فى صلاة المسافرين (٦/ ٥٤ - النووى) عن ابن عباس به،

وانظر «الأذكار» النووى (٦٤ - بتخريجنا).

(3) النمل:٨

(4) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/١٦/ ٢٩٣) عن أبى موسى به.

(5) القول المفيد (٢/ ١٣٢، ١٣٣)

قال ابن قاسم(١):

«لأن منع من سأل بالله أو بوجه الله من عدم إعظام الله وإجلاله، وقد جاء الوعيد على ذلك، لحديث أبي موسى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**ملعون من سأل بوجه الله وملعون من سُئل بوجه الله ثم منع سائله مالم يسأل هجراً**»(٢).

وقوله: «من سأل بالله»

قال ابن عثيمين(٣):

أى: من سأل غيره بالله.

والسؤال بالله ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: السؤال بالله بالصيغ، مثل أن يقول: أسألك بالله كما تقدم فى حديث الثلاثة حيث قال الملك: «**أسألك بالذى أعطاك الجلد الحسن واللون الحسن بعيراً**»(٤).

الثانى: السؤال بشرع الله - عز وجل- أى: يسأل سؤالاً يبيحه الشرع، كسؤال الفقير من الصدقة، والسؤال عن مسألة من العلم، وما شابه ذلك.

وحكم من رد من سأل بالله الكراهة أو التحريم حسب حال المسؤول والسائل. اهـ.

فعلى هذا التبويب عدة مسائل:

المسألة الأولى: هل يجوز للإنسان أن يسأل بالله أم لا؟

قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى «مدارج السالكين» والمسألة فى الأصل حرام، وإنما أبيحت للحاجة والضرورة، لأنها ظلم فى حق الربوبية، وظلم فى حق المسئول، وظلم فى حق السائل.

قلت: واستدل على ذلك بأدلة منها ماسيأتى من كلام ابن عثيمين.

قال ابن عثيمين(٥): وهذه المسألة لم يتطرق إليها المؤلف ـ رحمه الله ـ، فنقول أولاً: السؤال من حيث هو: مكروه، ولا ينبغى للإنسان أن يسأل أحداً شيئًا إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولهذا كان مما بايع النبىﷺ أصحابه (أن لا يسألوا الناس شيئًا

(١) القول المفيد (٣٤٧)

(٢) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٣/ ١٠٣) ونسبه للطبرانى فى «الكبير» قال: وإسناده حسن، على ضعف فى بعضه مع توثيق.

(٣) [صحيح] القول المفيد (٢/ ١٣٢، ١٣٣).

(٤) تقدم تخريجه فى حديث الأبرصُ والأعمى

(٥) القول المفيد ٣٠/ ١٣٣: ١٣٥)

حتى إنَّ عصا أحدهم ليسقط منه وهو علـى راحلته، فلا يقول لأحد: ناولينه، بل ينزل ويأخذه.

والمعنى يقتضيـه ، لأنك إذا أعززت نفسك ولم تذلها لسؤال الناس بـقيت محترمًا عند الناس، وصار لك منعة من أن تـذل وجهك لأحد، لأن من أذل وجهه لأحد، فإنه ربما يحتاجه ذلك الأحد لأمر يكره أن يعطيه إياه، ولكنه إذا سأله اضطر إلى أن يجيبه، ولهذا روى عن النـبى ﷺ أنه قال: «ازهد فيما عند الـناس يحبك الناس»[1] فالسؤال أصلا مكروه أو محرم إلا لحاجة أو ضرورة .

فسؤال المـال محرم: فلا يـجوز أن يسـأل من أحد مـالاً إلا إذا دعت الضـرورة إلى ذلك، وقال الـفقهاء رحمهـم الله فى باب الزكاة: «إن مـن أبيح له أخذ شىء أبـيح له سؤال» ولكن فيما قالوه، نظـر فإن الرسول ﷺ حذر من السؤال، وقال: «**إن الإنسان لا يزال يسـأل الناس حتـى يأتى يوم الـقيامة ومـا فى وجهه مـزعة لحم**»[2] وهذا يدل عـلى التحريم إلا للضرورة.

وأما سؤال المعونة بالجـاه أو المعونة بالبدن، فهذه مكروهـة، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وأما إجابة السائل، فهو موضوع بابنا هذا، ولا يخلو السائل من أحد أمرين:

الأول: أن يسأل سؤالاً مجردًا، كأن يقول مثـلاً : يا فلان! اعطنى هذا وكذا فإن كان مما أباحه الشارع له، فإنك تعطيه، كالفقير يسأل شيئًا من الزكاة.

الثانى: أن يسأل بالله، فهذا تجيبه وإن لم يكن مستـحقًا، لأنه سأل بعظيم، فإجابته من تعظيم هذا العظيم، لكن لو سأل إثمًا أو كان فى إجابته ضرر على المسؤول، فإنه لا يجاب.

مثال الأول: أن يسألك بالله نقوداً ليشترى بها محرمًا كالخمر.

ومثـال الثـانى: أن يسـألك بالله أن تخبـره عمـا فـى سِرّك ومـا تفعـله مـع أهلـك، فهـذا لا يـجـاب لأن فـى الأول إعانة عـلى الإثم، وإجـابته فـى الثـانى ضـرر على المسؤول. اهـ.

---

(١) [ضعيف] أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) بإسناد ضعيف وانظر «جـامع العلوم والحكـم» بتخريجنا وفق الخطابه.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٧٤) ومسلم فى الزكاة (٤/ ١٤٠/ ١٠٣)

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِاللهِ؛ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللهِ؛ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ؛ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيكُمْ مَعْرُوفاً؛ فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَم تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوا أَنَّكُم قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِي بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[1].

قوله: عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ من سأل بالله، فأعطوه.. حديث.

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال القرعاوى[2]: حيث دل الحديث على وجوب إعطاء من سأل بالله. اهـ.

● **مناسبة الحديث للتوحيد:**

قال القرعاوى[3]: حيث دل الحديث على تحريم رد من سأل بالله لأن ذلك مناف لتعظيم الله وذلك مناف للتوحيد. اهـ.

قوله: «عن ابن عمر رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: من سأل بالله..» إلخ.

قلت: أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» وأبو داود، والنسائى، وصححه ابن حبان، والحاكم فى المستدرك ورواه البيهقى أيضاً فى «سننه الكبرى».

قوله: «من استعاذ»

قال شمس الحق[4]: أى من سأل منكم الإعاذة مستغيثًا اهـ.

قوله «بالله فأعيذوه»

قال شمس الحق[5]:

قال الطيبى: أى استعاذ بكم وطلب منكم دفع شركم أو شر غيركم قائلاً: بالله عليك أن تدفع عنى شرك فأجيبوه، وادفعوا عنه الشر تعظيمًا لاسم الله تعالى، فالتقدير

---

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى الأدب المفرد» (٢١٦)، وأبو داود فى الزكاة / باب عطية من سأل بالله (٢/ ١٣١/ ١٦٧٢)، والنسائى فى «الكبرى» فى الزكاة / باب من سأل بالله (٢/ ٤٣/ ٢٣٣٤٨)، وابن حبان فى «صحيحه» (٥/ ١٧٧ – الإحسان)، والحاكم فى «المستدرك» (١/ ٤١٢)، والبيهقى فى «الكبرى» (١/ ١٩٩) من طريق الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عمر به.

وانظر «فتح المجيد» (٨٣٢ – بتخريجنا).

(٢ ، ٣) الجديد ٤١٦، ٤١٧.

(٤ ، ٥) عون المعبود (٣/ ٥/ ٦١)

من استعاذ منكم متوسلاً بالله مستعطفًا به، ويحتمل أن يكون الباء صلة استعاذ ، أى من استعاذ بالله فلا تتعرضوا له بل أعيذوه، وادفعوا عنه الشر فوضع أعيذوا موضع ادفعوا، ولا تتعرضوا مبالغة اهـ.

وبنحو هذا قال سليمان آل الشيخ[1]، وزاد:

ولهذا قالت الجونية للنبيﷺ : أعوذ بالله منك قال لها: «لقد عذت بعظيم»[2] الحقى بأهلك» ولفظ أبى داود، «من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم بوجه الله فأعطوه»[3].

وقال ابن باز[4]: فمن استعاذ بالله شرع أن يعاذ ، إذا لم يكن حقًا عليه، فإن استعاذ بالله ، فى إسقاط حق عليه، فلا يعاذ، لأن الله أمر بأداد الحقوق، كما إذا قال: أعوذ بالله من أن تلزمونى بالصلاة أو الزكاة أو الدين أو الكفارات، ونحو ذلك.

فإن استعاذ من تولية القضاء مع وجود من يقوم مقامه، أو الإمارة ونحو ذلك مما فيه خطر، شرع إعاذته، كما يروى عن ابن عمر لما أمره عثمان بالقضاء ، استعاذ بالله أن يولى القضاء، فأعاذه عثمان .

وهذا إن صح فهو محمول على أن هناك من يقوم مقامه، وكان الصالحون فى عهد عثمان لذلك كثيرون .اهـ.

وقال ابن عثيمين[5]: لكن يستثنى من ذلك لو استعاذ من أمر واجب عليه، فلا تعذه، مثل أن تلزمه بصلاة الجماعة، فقال: أعوذ بالله منك.

وكذلك لو ألزمته بالإقلاع عن أمر محرم، فاستعاذ بالله منك، فلا تعذه لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان، ولأن الله لا يعيذ عاصيًا ، بل العاصى يستحق العقوبة، لا الانتصار له وإعاذته.

وكذلك من استعاذ بملجأ صحيح يقتضى الشرع أن يعيذه - وإن لم يقل استعيذ بالله - فإنه يجب عليك أن تعيذه كما قال أهل العلم: لو جنى أحد جناية ثم لجأ إلى الحرم، فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص فى الحرم، ولكنه يُضيَّق عليه، فلا يبايع ، ولا يشترى منه، ولا يؤجر حتى يخرج .

بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجناية فى نفس الحرم، فإن الحرم لا يعيذه لأنه انتهك حرمة الحرم .اهـ.

قلت: ولما تقدم عند مسلم مرفوعاً من حديث على: «لعن الله من آوى محدثاً»(*) وهذا يشمل ما إذا آواه ابتداء أو طلب المحدث منه ذلك ثم فصل.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩٧). (٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٢٥٤) عن عائشة به.
(٣) تقدم تخريجه. (٤) التعليق المفيد (٢٤٥) (٥) القول المفيد ٣٠/١٣٦، ١٣٧).
(*) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأضاحى (٧/١٥٥/٤٣) وتقدم.

وقال السندى[1] فى حاشية «سنن النسائى» حاصله من توسل بالله فى شىء، ينبغى أن لا يُحرم ما أمكن .اهـ.

[قلت]: تقدم معنا فى بـاب (من الشرك الاستعاذة بغير الله) تـعريف الاستعاذة من كلام ابن القيم وغيره حيث قال هى الالتجاء، والاعـتصام، والتحرز، وحقيقتها: الهرب من الشئ تـخافه إلى من يعصـمك منه ولهذا يمسـى المستعاذ به معـاذاً وملجأ ووزراً. . . إلخ، وقدمـنا أقسام الاستـعاذة وحكم كل قـسم منها، وذكـرنا أن من أقسام الاسـتعاذة الاستعاذة المشروعة الـثابتة من حديث جابر أن امرأة من بني مخـزوم سرقت، فأتى بها إلى النبىﷺ فعاذت بـأم سلمة زوج النبى ﷺ فقال النبى ﷺ: واللـه لو سرقت فاطمة لقطعت يدها. فقطعت.

وعن أبى مـسعود أنه كـان يضرب غلامـه فجعل يـقول: أعوذ بالـله قال: فجعـل يضربه، فقال: أعوذ برسول الله فتركه، فقال رسول الله ﷺ: والله لله أقدر عليك منك عليه. فأعتقه. كلاهما فى «صحيح مسلم» وانظر تمام الكلام هناك. والله المستعان.

قوله (ومن سأل بالله فأعطوه)

قال سليمـان آل الشيخ[2]: وفى حديـث ابن عباس عند أحـمد وأبى داود «**ومن سألكم بوجه الله فأعطوه**»[3] ومعناه ظاهر، وهو يقـول أسألك بالله أو بوجه الله ونحو ذلك، أن تفعـل أو تعطينى كـذا، ويدخل فى ذلك القـسم عليه بالله أن يـفعل كذا، وظاهر الحديـث، وجوب إعطائه ما سأل ما لـم يسأل إثمًا، أو قطيعـة رحم، وقد جاء الوعيد على ذلك فى عدة أحاديث، منها:

حديث أبى موسى مرفوعًا: «**ملعون من سئل بوجه الله، وملـعون من يسأل بوجهه ثم منع سائله ما لم يسأل هجرًا**»[4] رواه الطبرانى، قال فى «تنبيه الغافلين» ورجال إسناده رجال الصحيح ، إلا شيخه يحيى بن عثمـان بن صالح، والأكثر على توثيقه، فإن بلغ هذا الإسناد أو إسناد غيره مبلغًا يحتج به كان ذلك من الكبائر.

وعن أبى عبيدة مولى رفـاعة بن رافع مرفوعًا «**ملعون من سأل بـوجه الله وملعون من سُئل بوجه الله فمنع سائله**»[5] رواه الطبرانى أيضًا.

---

(١) «حاشية المجتبى» (٢/ ٨٢). (٢) تيسير العزيز الحميد (٤٦٧، ٤٩٨).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٢٤٩)، وأبو داود (٥١٠٨) عن ابـن عباس به. وانظر «فتح المجيد» (ح٨٣٥) بتخريجنا.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) [ضعيف] أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢٢/ ٣٧٧/ ٩٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ١٠٣): وفيه من لم أعرفه.

وعن ابن عباس مرفوعًا: «ألا أخبركم بِشَرِّ النَّاسِ؟ رجل يُسأل بالله ولا يُعطى»[1] رواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في «صحيحه».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشر البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «الذي يُسأل بالله ولا يُعطي» رواه أحمد[2].

إذا تبين هذا فهذه الأحاديث دالة على إجابة من سأل بالله أو أقسم به، ولكن قال شيخ الإسلام: إنما تجب على معين، فلا تجب على سائل يقسم على الناس، وظاهر كلام الفقهاء أن ذلك مستحب كإبرار القسم، والأول أصح.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأل بالله، لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ما ورد في الكتاب والسنة، فيجب إذا سأل السَّائل ما له فيه حق كبيت المال أن يُجَاب، فيعطى منه على قد حَاجَته وما يستحقه وجوبًا، وكذلك إذا سأل المحتاج من في ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته، خصوصًا إذا سأل من لا فضل عنده، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسؤول ما لا يضره ولا يضر عائلته، وإن كان مضطرًا وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته.

ومقام الإنفاق من أشرف مقام الدين، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجود وضدهما من البخل والشح.

فالأول محمودٌ في الكتاب والسنة.

والثاني: مذموم فيهما.

وقد حث الله تعالى عباده على الإنفاق، لعظم نفعه وتعديه، وكثرة ثوابه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[5] وذلك الإنفاق في

---

(١) [إسناده صحيح] أخرجه أحمد (٢١١٦، ٢٩٣٠، ٢٩٣١ شاكر) والترمذي (١٦٥٢) والنسائي (٥/ ٨٣). قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) [ضعيف] أخرجه أحمد (٩١٥٣) وقال في المجمع (٥/ ٢٧٩) فيه أبو معشر نجيح: ضعيف.

(٣) فتح المجيد ٢/ ٧٥٨/ ٧٥٩

(٤) البقرة : ٢٦٧/ ٢٦٨.

(٥) الحديد : ٧.

خصال البر المذكورة في قوله: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾.

فذكره بعد ذكر أصول الإيمان، وقبل ذكر الصلاة، وذلك والله أعلم لتعدى نفعه، وذكره تعالى فى الأعمال التى أمر بها عباده، وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾.

وكان النبى ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء، نصحًا للأمة وحثًا لهم على ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً.

وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضى الله عنهم بالإيثار، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١]. والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما تُفيده هذه الآية الكريمة، وقد قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾[٢].

والآيات والأحاديث فى فضل الصدقة كثيرة جدًا، ومن كان سعيُه للدار الآخرة رغب فى هذا ورغَّب وبالله التوفيق.

وقال ابن عثيمين[٣]: (من سأل بالله) (من) شرطية للعموم:

وقوله: «فأعطوه».

---

(١) الحشر: ٩ (٢) الإنسان: ٨: ٩.

(٣) القول المفيد (٣/ ١٣٥: ١٣٦).

الأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثمًا أو ضررًا على المسؤول، لأن فى إعطائه إجابةً لحاجته وتعظيمًا لله - عز وجل - الذى سأل به.

ولا يشترط أن يكون سؤاله. بلفظ الجلالة بل بكل اسم يختص بالله، كما قال الملك الذى جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى: **«أسألك بالذى أعطاك كذا وكذا»**[1]. اهـ.

قوله [ومن دعاكم فأجيبوه]

[قلت]: بوب البخارى فى صحيحه: (باب/ حق إجابة الوليمة والدعوة) ثم أسند عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا دعى أحدكم إلى الوليمة فليأتها»**[2].

وبسنده أيضًا عن أبى موسى عن النبى ﷺ: **«فكوا العانى، وأجيبوا الداعى، وعودوا المريض»**[3].

وبسنده عن البراء بن عازب: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع»[4].

وفيها «إجابة الداعى». أى مما أمر به الرسول ﷺ.

● **حكم إجابة الدعوة**

قال ابن حجر[5]: قول البخارى «حق إجابة» فيشير إلى وجوب الإجابة. اهـ.

ومسلم فى صحيحه فى **[باب: الأمر بإجابة الداعى إلى الدعوة]**

قال النووى[6]: هل أمر الرسول ﷺ **«فليأتها»** إيجاب أو ندب؟

فيه خلاف الأصح فى مذهبنا أنه فرض عين على كل من دعى، لكن يسقط بأعذار سنذكرها إن شاء الله تعالى.

والثانى: أنه فرض كفاية.

والثالث: مندوب. هذا مذهبنا فى وليمة العرس، وأما غيرها ففيها وجهان لأصحابنا:

أحدهما: أنها كوليمة العرس.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥١٧٣)، ومسلم فى النكاح (٥/٢٤٩/٩٦).

(٣) [صحيح] البخارى (٥١٧٤).

(٤) [صحيح] البخارى (٥١٧٥).

(٥) «الفتح» (٩/١٤٩)

(٦) مسلم بشرح النووى (٦/٣٥٣).

والثاني: أن الإجابة إليها ندب وإن كان فى العرس واجبة.

ونقل القاضى اتفاق العلماء على وجوب الإجابة فى وليمة العرس.

قال: واختلفوا فيما سواها، فقال مالك والجمهور: لا تجب الإجابة إليها وقال أهل الظاهر: تجب الإجابة إلى كل دعوة من عرس وغيره، وبه قال بعض السلف.

وقال ابن حجر[1]: وقد نقل ابن عبد البر ثم عياض ثم النووى الاتفاق على القول بوجوب الإجابة لوليمة العرس وفيه نظر، نعم المشهور من أقوال العلماء الوجوب، وصرح جمهور الشافعية والحنابلة بأنها فرض عين ونص عليه مالك، وعن بعض الشافعية والحنابلة أنها مستحبة، وذكر اللخمى من المالكية أنه المذهب، وكلام صاحب الهداية يقتضى الوجوب مع تصريحه بأنها سنة، فكأنه أراد أنها وجبت بالسنة وليست فرضًا كما عرف من قاعدتهم، وعن بعض الشافعية والحنابلة هى فرض كفاية.

الأعذار التى يسقط بها وجوب إجابة الدعوة أو ندبها.

قال النووى: وأما الأعذار التى كسقط بها وجوب إجابة الدعوة أو ندبها.

فمنها: أن يكون فى الطعام شبهة، أو يخص بها الأغنياء، أو يكون هناك من يتأذى بحضوره معه، أو لا تليق به مجالسته، أو يدعوه لخوف شره أو لطمع فى جاهه، أو ليعاونه على باطل، وأن لا يكون هناك منكر من خمر أو لهو أو فرش حرير أو صورة حيوان غير مفروشة أو آنية ذهب أو فضة، فكل هذه أعذار فى ترك الإجابة.

ومن الأعذار أن يعتذر إلى الداعى فيتركه، ولو دعاه ذمى لم تجب إجابته على الأصح. ولو كانت الدعوة ثلاثة أيام فالأول: تجب الإجابة فيه، والثانى: تستحب، والثالث: تكره.

وحكى ابن دقيق العيد فى «شرح الإلمام» أن محل ذلك ـ أى فرض الكفاية ـ إذا عمت الدعوة أما لو خص كل واحد بالدعوة فإن الإجابة تتعين، وشرط وجوبها أن يكون الداعى مكلفًا حرًا رشيدًا، أو أن لا يخص الأغنياء دون الفقراء، وأن لا يظهر قصد التودد لشخص بعينه لرغبة فيه أو رهبة منه، وأن يكون الداعى مسلمًا على الأصح وأن يختص باليوم الأول على المشهور، وأن لا يسبق فمن سبق تعينت الإجابة له دون الثانى، وإن جاءا معًا قدم الأقرب رحما على الأقرب جوارًا على الأصح، فإن استويا أقرع، وأن لا يكون هناك من يتأذى بحضوره من منكر وغيره.

---

(١) فتح البارى (٩/ ١٥٠، ١٥١)

وأن لا يكون له عذر وضبطه الماوردى بما يرخص به فى ترك الجماعة.

● حكم إجابة الدعوة فى غير العرس

قال النووى: قوله ﷺ : «**إذا دعى أحدكم إلى وليمة عرس فليجب**» قد يحتج به من يخص وجوب الإجابة بوليمة العرس، ويتعلق الآخرون بالروايات المطلقة.

ولقوله ﷺ فى رواية أخرى: «**إذا دعى أحدكم أخاه فليجب عرسًا كان أو نحوه**»[(١)] ويحملون هذا على الغالب أو نحوه من التأويل .اهـ.

وبوب البخارى[(٢)] عليها باب إجابة الداعى فى العرس وغيره.

وأخرج بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول : قال رسول الله ﷺ «**أجيبوا هذه الدعوة إذا دُعيتم لها**» قال: كان عبد الله يأتى الدعوة فى العرس وغير العرس وهو صائم[(٣)].

قال ابن حجر: قوله: (باب إجابة الداعى فى العرس وغيره) ذكر فيه حديث ابن عمر «**أجيبوا هذه الدعوة**» وهذه اللام يحتمل أن تكون للعهد، والمراد وليمة العرس ويؤيده رواية ابن عمر الأخرى «**إذا دعى أحدكم إلى الوليمة فليأتها**» وقد تقرر أن الحديث الواحد إذا تعددت ألفاظه وأمكن حمل بعضها على بعض تعين ذلك، ويحتمل أن تكون اللام للعموم وهو الذى فهمه راوى الحديث فكان يأتى الدعوة للعرس ولغيره.

وقد أخرج مسلم عن نافع بلفظ **إذا دعى أحدكم إلى وليمة عرس فليجب**» وأخرجه مسلم وأبو داود من طريق أيوب عن نافع بلفظ «**إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسًا كان أو نحوه**» ولمسلم من طريق الزبيدى عن نافع بلفظ «**من دعى إلى عرس أو نحوه فليجب**».

وهذا يؤيد ما فهمه ابن عمر وأن الأمر بالإجابة لا يختص بطعام العرس.

وقد أخذ بظاهر الحديث بعض الشافعية فقال بوجوب الإجابة إلى الدعوة مطلقًا عرس كان أو غيره بشرطه.

ونقله ابن عبد البر عن عبيد الله بن الحسن العنبرى قاضى البصرة وزعم ابن حزم أنه قول جمهور الصحابة والتابعين. ويعكر عليه ما نقلناه عن عثمان بن أبى العاص وهو

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى النكاح (٥/ ٢٥٠/ ١٠٠) عن ابن عمر به.

(٢) فتح البارى (٩/ ١٥٥).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥١٧٩)، ومسلم فى النكاح (٥/ ٢٥٠/ ١٠٣) عن ابن عمر به.

من مشاهير الصحابة أنه قال فى وليمة الختان، لم يكن يدعى لها، لكن يمكن الانفصال عنه بأن ذلك لا يمنع القول بالوجوب لو دعوا، وعند عبد الرزاق بإسناد صحيح عن ابن عمر أنه دعا بالطعام فقال رجل من القوم: اعفنى، فقال ابن عمر: إنه لا عافية لك من هذا. فقم[1]، وأخرج الشافعى وعبد الرزاق بسند صحيح عن ابن عباس أن ابن صفوان دعاه فقال: إنى مشغول، وإن لم تعفنى جئته، وجزم بعدم الوجوب فى غير وليمة النكاح المالكية والحنفية والحنابلة وجمهور الشافعية، وبالغ السرخسى منهم فنقل فيه الإجماع، ولفظ الشافعى: إتيان دعوة الوليمة حق، والوليمة التى تعرف وليمة العرس ، وكل دعوة دعى إليها رجل وليمة فلا أرخص لأحد فى تركها، ولو تركها لم يتبين لى أنه عاص فى تركها كما تبين لى فى وليمة العرس.

ومن قال بالوجوب استدل بوقوع الوعيد عليه وإطلاق لفظ العاصى عليه، ولذلك بوب البخارى فى صحيحه: (**باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله**) وذكر بسنده : عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول «**شر الطعام طعام الوليمة، يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله ﷺ**»[2].

قال ابن حجر[3]: قوله: (**فقد عصى الله ورسوله**) هذا دليل وجوب الإجابة ، لأن العصيان لا يطلق إلا على ترك الواجب ووقع فى رواية لابن عمر عند أبى عوانة «**من دعى إلى وليمة فلم يأتها فقد عصى الله ورسوله**» اهـ.

مسألة وهل تجب إجابة الدعوة على الصائم؟

ففى حديث ابن عمر أنه كان يأتى الدعوة فى العرس وغير العرس وهو صائم.

قال النووى[4]: قوله ﷺ: «**إذا دعى أحدكم إلى طعام فإن شاء طعم وإن شاء ترك**»[5] وفى الرواية الأخرى : «**فليجب فإن كان صائمًا فليصل وإن كان مفطرًا فليطعم**»[6] اختلفوا فى معنى (**فليصل**) قال الجمهور: معناه: فليدع لأهل الطعام

(١) أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (١٩٦٦٣).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥١٧٧)، ومسلم فى النكاح (٩/ ٢٣٧) وانظر «رياض الصالحين» (٢٦٨ - بتخريجنا).

(٣) فتح البارى (٩/ ١٥٣، ١٥٤)

(٤) مسلم بشرح النووى (٦/ ٢٥٤).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى النكاح (٥/ ٢٥١/ ١٠٥) عن جابر به.

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى النكاح (٥/ ٢٥١/ ١٠٦) عن أبى هريرة به.

بالمغفرة والبركة، ونحو ذلك، وأصل الصلاة في اللغة الدعاء ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ وقيل: المراد الصلاة الشرعية بالركوع والسجود، أى: يشتغل بالصلاة ليحصل له فضلها ، ولتبرك أهل المكان والحاضرين، وأما المفطر فى الرواية الثانية أمره بالأكل، وفى الأولى مخير واختلف العلماء فى ذلك، والأصح فى مذهبنا أنه لا يجب الأكل فى وليمة العرس، ولا فى غيرها، فمن أوجبه اعتمد الرواية الثانية ، وتأول الأولى على من كان صائمًا، ومن لم يوجبه اعتمد التصريح بالتخيير فى الرواية الأولى، وحمل الأمر فى الثانية على الندب ، وإذا قيل بوجوب الأكل فأقله لقمة، ولا تلزمه الزيادة، لأنه يسمى أكلاً ، ولهذا لو حلف لا يأكل حنث بلقمة، ولأنه قد يتخيل صاحب الطعام أن امتناعه لشبهة يعتقدها فى الطعام، فإذا أكل لقمة زال ذلك التخيل ، هكذا صرح باللقمة جماعة من أصحابنا، وأما الصائم فلا خلاف أنه لا يجب عليه الأكل، لكن إن كان صومه فرضًا لم يجز له الأكل، لأن الفرض لا يجوز الخروج منه، وإن كان نفلاً جاز الفطر وتركه، فإن كان يشق على صاحب الطعام صومه فالأفضل الفطر وإلا فإتمام الصوم. والله أعلم.

قوله: (قبل هذا وكان عبد الله - يعنى ابن عمر - يأتى الدعوة فى العرس وغير العرس ويأتيها وهو صائم) فيه: أن الصوم ليس بعذر فى الإجابة، وكذا قاله أصحابنا ، قالوا: إذا دعى وهو صائم لزمه الإجابة ، كما يلزم المفطر ويحصل المقصود بحضوره، وإن لم يأكل فقد يتبرك به أهل الطعام والحاضرون ، وقد يتجملون به، وقد ينتفعون بدعائه أو بإشارته أو ينصانون عما لا ينصانون عنه فى غيبته. والله أعلم.

وقال ابن حجر[1] شارحًا لكلام النووى ومفسراً له:

ولمسلم من حديث أبى هريرة «**فإن كان صائمًا فليصل**» ووقع فى رواية هشام بن حسان فى آخره «**والصلاة الدعاء**» وهو من تفسير هشام راويه، ويؤيده الرواية الأخرى، وحمله بعض الشراح على ظاهره فقال: إن كان صائمًا فليشتغل بالصلاة ليحصل له فضلها ، ويحصل لأهل المنزل والحاضرين بركتها، وفيه نظر لعموم قوله: «**لا صلاة بحضرة طعام**»[2] لكن يمكن تخصيصه بغير الصائم ، أبى بن كعب أنه لما حضر الوليمة وهو صائم أثنى ودعا، وعند أبى عوانة من طريق عمر بن محمد عن نافع : كان

(١) فتح البارى (٦/ ١٥٧).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساجد (٥/٤٦/ ٥٦٠) عن عائشة به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٧٥٦ - بتخريجنا).

ابن عمر إذا دعى أجاب ، فإن كان مفطرًا أكل ، وإن كان صائمًا دعا لهم وبرك ثم انصرف.

وفى الحضور فوائد أخرى كالتبرك بالمدعو والتجمل به والانتفاع بإشارته، والصيانة عما لا يحصل له الصيانة لو لم يحضر، وفى الإخلال بالإجابة تفويت ذلك، ولا يخفى ما يقع للداعى من ذلك من التشويش، وعرف من قوله **«فليدع لهم»** حصول المقصود من الإجابة بذلك وأن المدعو لايجب عليه الأكل.

وهل يستحب له أن يفطر إن كان صومه تطوعًا؟

قال أكثر الشافعية وبعض الحنابلة: إن كان يشق على صاحب الدعوة صومه فالأفضل الفطر وإلا فالصوم، وأطلق الرويانى وابن الفراء استحباب الفطر. وهذا على رأى من يجوز الخروج من صوم النفل، وأما من يوجبه فلا يجوز عنده الفطر كما فى صوم الفرض ، ويبعد إطلاق استحباب الفطر مع وجود الخلاف ولا سيما الإفطار فقد قرب، ويؤخذ من فعل ابن عمر أن الصوم ليس عذرًا فى ترك الإجابة ولا سيما مع ورود الأمر للصائم بالحضور والدعاء، نعم لو اعتذر به المدعو فقبل الداعى عذره لكونه يشق عليه أن لا يأكل إذا حضر أو لغير ذلك كان ذلك عذرًا له فى التأخر ، ووقع فى حديث جابر عند مسلم **«إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب[1] فإن شاء طعم وإن شاء ترك»** فيؤخذ منه أن المفطر ولو حضر لا يجب عليه الأكل، وهو أصح الوجهين عند الشافعية.

وقال ابن الحاجب فى مختصره: ووجوب أكل المفطر محتمل، وصرح الحنابلة بعدم الوجوب، واختار النووى الوجوب، وبه قال أهل الظاهر، والحجة لهم قوله فى إحدى روايات ابن عمر عند مسلم **«فإن كان مفطرًا فليطعم»[2]** قال النووى : وتحمل رواية جابر على من كان صائمًا، ويؤيده رواية ابن ماجه فيه بلفظ **«من دعى إلى طعام وهو صائم فليجب فإن شاء طعم وإن شاء ترك»[3]** ويتعين حمله على من كان صائمًا نفلاً، ويكون فيه حجة لمن استحب له أن يخرج من صيامه لذلك ويؤيده ما أخرجه الطيالسى والطبرانى فى «الأوسط» عن أبى سعيد قال «دعا رجل إلى طعام، فقال رجل : إنى صائم، فقال النبى ﷺ: **دعاكم أخاكم وتكلف لكم، أفطر وصم يوما مكانه إن شئت»[4]** فى إسناده راو ضعيف لكنه توبع، والله أعلم اهـ.

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم تخريجه عن أبى هريرة به.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٧٥١) عن جابر به.

(٤) أخرجه البيهقى فى «الكبرى» (٢٧٩/٤) عن أبى سعيد به.

وانظر «السلسبيل» (٤٠١٢ ـ بتخريجنا).

وقال شمس الحق[1]: «**ومن دعاكم**» أى إلى دعوة «**فأجيبوه**» أى إن لم يكن مانع شرعى. اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ[2] **مختصرًا لكلام النووى وابن حجر.**

قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه» أى: من دعاكم إلى طعام فأجيبوه فإن كانت وليمة عرس وتوفرت الشروط المبينة فى كتب الفقه وجبت الإجابة، وإن كان لغيرها استحب إجابتها، وتجب مطلقًا وهو الصحيح لظاهر الأحاديث، وهى لم تفرق بين وليمة العرس وغيرها، وإن كانت وليمة العرس آكد وأوجب اهـ.

قلت: وتقدم تفصيل ذلك من كلام النووى وابن حجر.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض إجابة دعوة المسلم، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين. اهـ.

قال ابن باز[4]: شرعت الإجابة سواء كان لعرس أو غيره وأهمها العرس وفى الحديث «**من لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله**» رواه مسلم .

فالواجب أن تجاب إلا:

أن يكون له ما يمنعه كأن يكون مرضًا أو بعيدًا أو يشق عليه الإتيان إن كان فيها مانع: بأن يكون فيها منكر كالملاهى والأغانى والخمر فإن كانت الدعوة سليمة وجب أن يجيب أو تأكد على الأقل لهذا الحديث ولا تجب الدعوة إلا إذا خصه بها. اهـ.

قال ابن عثيمين[5]: قوله: «**ومن دعاكم فأجيبوه**»

«**من**» شرطية للعموم، والظاهر: أن المراد بالدعوة هنا الدعوة للإكرام، وليس المقصود بالدعوة هنا النداء.

وظاهر الحديث وجوب إجابة الدعوة فى كل دعوة، وهو مذهب الظاهرية.

وجمهور أهل العلم: أنها مستحبة إلا دعوة العرس، فإنها واجبة لقوله ﷺ فيها: «**شر الطعام طعام الوليمة، يُدعى إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها، ومن لم يجب، فقد عصى الله ورسوله**»[6].

وسواء قيل بالوجوب أو الاستحباب، فإنه يشترط لذلك شروط :

[قلت]: وهذه الشروط ذكر النووى بعضها، وكذلك ابن حجر، وزاد ابن عثيمين شرحًا لذلك فقال:

---

(١) عون المعبود ٣/ ٥/ ٤٦١.
(٢) تيسير العزيز ٤٩٨.
(٣) فتح المجيد ٢/ ٧٥٩.
(٤) التعليق المفيد ٢٤٦.
(٥) القول المفيد ٣/ ١٣٧- ١٤٠.
(٦) تقدم تخريجه.

١- أن يكون الداعى ممن لا يجب هجره أو يسن .

٢ ألا يكون هناك منكر فى مكان الدعوة ، فإن كان هناك منكر، فإن أمكنه إزالته، وجب عليه الحضور لسببين:

- إجابة الدعوة .

- وتغيير المنكر.

وإن كان لا يمكنه إزالته حرم عليه الحضور، لأن حضوره يستلزم إثمه، وما استلزم الإثم، فهو إثم.

٣- أن يكون الداعى مسلمًا، وإلا لم تجب الإجابة، لقوله ﷺ **«حق المسلم على المسلم ست...»** وذكر منها : **«إذا دعاك فأجبه»**[(١)] قالوا: وهذا مقيد للعموم الوارد.

٤- أن لا يكون كسبه حرامًا، لأن إجابته تستلزم أن تأكل طعامًا حرامًا، وهذا لا يجوز ، وبه قال بعض أهل العلم.

وقال آخرون: ما كان محرمًا لكسبه، فإنما إثمه على الكاسب لا على من أخذه بطريق مباح من الكاسب، بخلاف ما كان محرمًا لعينه، كالخمر والمغصوب ونحوهما، وهذا القول وجيه قوى، بدليل أن الرسول ﷺ اشترى من يهودى طعامًا لأهله[(٢)] ، وأكل من الشاة التى أهدتها له اليهودية بخيبر[(٣)] وأجاب دعوة اليهودى[(٤)]، ومن المعلوم أن اليهود معظمهم يأخذون الربا ويأكلون السحت، وربما يقوى هذا القول قوله ﷺ فى اللحم الذى تصدق به على بريرة : **«هو لها صدقة ولنا منها هدية»**[(٥)].

وعلى القول الأول: فإن الكراهة تقوى وتضعف حسب كثرة المال الحرام وقلته، فكلما كان الحرام أكثر كانت الكراهة أشد، وكلما قل كانت الكراهة أقل.

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (١٢٤٠)، ومسلم فى السلام (١٤/ ١٤٣ ـ النووى) عن أبى هريرة به واللفظ لمسلم.

وانظر «رياض الصالحين» (٢٤٠ ـ بتخريجنا).

(٢) **[متفق عليه]** أخرجه : البخارى (٢٠٦٨) ، ومسلم فى المساقاة (١١/ ٣٩ ـ النووى) عن عائشة رضى الله عنها به وانظر «السلسبيل» (١٦٤٢ ـ بتخريجنا).

(٣) **[متفق عليه]** أخرجه: البخارى (٢٦١٧) ، ومسلم فى السلام (٧/ ٤٣٣/ ٤٥) عن أنس رضى الله عنه.

(٤) **[متفق عليه]** أخرجه أحمد فى «المسند» (٣/ ٢١٠، ٢١١، ٢٧٠) عن أنس به. وانظر «منار السبيل» (٤١ ـ بتخريجنا). .

(٥) **[صحيح]** أخرجه : البخارى (١٤٩٣) فى الزكاة (٤/ ١٩٤/ ١٧١) عن عائشة به.

٥- أن لا تتضمن الإجابـة إسقاط واجب أو ما هو أوجب منها، فـإن تضمنت ذلك حرمت الإجابة.

٦- أن لا تتضـمن ضرراً على المجيب، مثل أن تحتـاج إجابة الدعوة إلـى سفر أو مفارقة أهله المحتاجين إلى وجوده بينهم.

مسألة:

هل إجابة الدعوة حق لله أو للآدمي؟

الجواب: حق للآدمي، ولهذا لو طلبت من الداعي أن يقيلك فقبل، فلا إثم عليك، لكنها واجبة بـأمر الله - عز وجل- ولهذا ينبغي أن تلاحظ أن إجـابتك طاعة لله وقيام بحق أخيـك، لكن لصاحبـها أن يسقطهـا كما أن له أن لا يدعوك أيـضًا، ولكن إذا أقالك حياء منك وخجلاً من غير اقتناع، فإنه لا ينبغي أن تدع الإجابة.

مسألة:

هل بطاقات الدعوة : التي توزع كالدعوة بالمشافهة؟اهـ.

الجواب: البطاقات ترسل إلى الناس ولا يُدرى لمـن ذهبت إليه، فيمكن أن نقول: إنها تـشبه دعوة الجَـفَلى فلا تجب الإجـابة، أما إذا علم أو غـلب على الـظن أن الذى أرسلت إليه مقصود بعينه، فإنه لها حكم الدعوة بالمشافهة.

قوله: [من صنع إليكم معروفًا فكافئوه].

بوب النووى فى الأذكار[1] باب: (دعاء الإنسان لمن صنـع معروفًا إليه أو إلى الناس كلهم أو بعضهم، والثناء عليه، وتحريضه على ذلك)

واستدل بما رواه الشيخان عن ابن عباس مـنها، قال: «أتى النبى ﷺ الخلاء فوضعت له وضوءًا، فلما خرج قال: من وضع هذا ؟ فأخبر، قال : «**اللهم فقهه**»[2].

[قلت]: وكان ﷺ لا يترك أحدًا له يدا عنده إلا كافأه عليها، لما رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضـى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدًا يكافئه الله به يوم القيامة ...**»[3].

(١) الأذكار بتخريجنا (٢/٣٦٦).

(٢) [متفق عـليه] البخـارى (١٤٣)، ومسلم (١٦/١٤٣) عن ابن عـباس به. وانظر «الأذكار لـلنووى» (٨٠٩ ـ بتخريجنا).

(٣) الترمذى (٣٦٦١) وابن ماجه (٩٤) واللفظ له عن أبى هريرة به.

بل وجعل شكر الناس على المعروف مكافأة له هو من شكر الله، لما روى الترمذى وصححه عن أبى هريرة مرفوعًا : «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**»(١) وعنده أيضًا عن أبى سعيد مرفوعًا «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»(٢) وعنده عن أسامة بن زيد «**من صنع إليه معروفًا فقال لفاعله جزاك الله خيرًا فقد أبلغ فى الثناء**»(٣). اهـ.

قال شمس الحق(٤) : أى أحسن إليكم إحسانًا قوليًا أو فعلياً (**فكافئوه**) من المكافأة أى أحسنوا إليه مثل ما أحسن إليكم لقوله تعالى: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾ ﴿**وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ .

وقال سليمان آل الشيخ(٥): «**فكافئوه**» أى على إحسانه بمثله أو خير منه، وقد أشار شيخ الإسلام إلى مشروعية المكافأة لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، فهو إذا أحسن إليه ولم يكافئه يبقى فى قلبه نوع تألهه لمن أحسن إليه، فشرع قطع ذلك بالمكافأة ، فهذا معنى كلامه، وقال غيره إنما أمر بالمكافأة ليخلص القلب من إحسان الخلق ويتعلق بالحق، ولفظ أبى داود: «**من أتى إليكم معروفًا**» اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٦): ندبهم ﷺ على المكافأة على المعروف، فإنَّ المكافأة على المعروف من المروءة التى يحبها الله تعالى ورسوله ، كما دلَّ عليه هذا الحديث، ولا يُهمل المكافأة على المعروف إلا اللئيم من الناس، وبعض اللئام يكافئ على الإحسان بالإساءة ، كما يقع ذلك كثيرًا من بعضهم نسأل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة.

بخلاف حال أهل التقوى والإيمان، فإنَّهم يدفعون بالحسنة السيئة ، طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه، كما قال تعالى: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**﴾ وقال تعالى : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ**

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٢٥٨)، وأبوداود (٤٨١١)، والترمذى (١٩٥٤) ولقدم.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٣٢)، والترمذى (١٩٥٥) عن أبى سعيد وفيه عطية العوفى وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الترمذى (٢٠٣٥)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٠٠٨) عن أسامة بن زيد به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٤٩٩ ـ بتخريجنا) وانظر «فقه الخطابه وزاد الخطيب» خطبة «حسن العهد».

(٤) عون المعبود (٥/ ٦١). (٥) تيسير العزيز الحميد ٤٩٨٠.

(٦) فتح المجيد ٢/ ٧٦٠.

حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة. اهـ.

قال ابن عثيمين[1]: فمن أحسن إليك بهدية أو غيرها، فكافئه، فإذا أحسن إليك بإنجاز معاملة وكان عمله زائداً عن الواجب عليه، فكافئه، وهكذا لكن إذا كان كبير الشأن ولم تجر العادة بمكافأته، فلا يمكن أن تكافئه، كالملك والرئيس... مثلاً إذا أعطاك هدية، فمثل هذا يدعى له، لأنك لو كافأته لرأى أن في ذلك غضاً من حقه فتكون مسيئًا له، والنبى ﷺ أراد أن تكافئه لإحسانه.

وللمكافأة فائدتان:

١- تشجيع ذوى المعروف على فعل المعروف:

٢- أن الإنسان يكسر بها الذل الذى حصل له بصنع المعروف إليه لأن من صنع إليك معروفًا فلابد أن يكون فى نفسك رقة له، فإذا رددت إليه معروفه زال عنك ذلك، ولهذا قال النبى ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»[2] واليد العليا هى يد المعطى، وهذه فائدة عظيمة لمن صنع له معروف، لئلا يرى لأحد عليه منة إلا الله - عز وجل -.

قوله: «فإن لم تجدوا ما تكافئوه»

قال شمس الحق[3]: «**فإن لم تجدوا ما تكافئوا به**» أى بالمال والأصل تكافئون فسقط النون بلا ناصب وجازم إما تخفيفًا أو سهوًا من الناسخين كذا ذكره الطيبى والمعتمد الأول لأن الحديث على الحفظ معول ونظيره «**كما تكونوا يولَّ عليكم**»[4] على ما رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى بكرة.

قال سليمان آل الشيخ: هكذا ثبت بحذف النون فى خط المصنف، وهكذا هو فى غيره من أصول الحديث.

قال الطيبى: سقطت من غير ناصب ولا جازم، إما تخفيفًا أو سهوًا من الناسخ. اهـ.

قال شمس الحق[5]: «**فادعوا له**»: أى للمحسن يعنى فكافئوه بالدعاء له. اهـ.

---

(١) القول المفيد ٣/ ١٤١.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١٤٢٧) عن أبى هريرة به وانظر «رياض الصالحين» (٢٩٨ - بتخريجنا).

(٤) [ضعيف] ذكره السخاوى فى «المقاصد» (٨٣٥) ونسبه للحاكم والديلمى. وللبيهقى فى «شعب الإيمان» (ح ٧٣٩١) وقال الحافظ فى إسناده مجاهيل وانظر «فقه الخطابة» خطبة: «كيفما تكونوا يولى عليكم» (٢/ ٤٤٥).

(٥) عون المعبود الحميد ٣/ ٥/ ٦٢.

وقال سليمان آل الشيخ[1]: **قوله: «فادعوا له إلى ... إلخ»** يعنى من أحسن إليكم أى إحسان فكافئوه بمثله، فإن لم تقدروا فبالغوا فى الدعاء له جهدكم حتى تحصل المسألة، ووجه المبالغة أنه رأى فى نفسه تقصيراً فى المجازاة لعدم القدرة عليها، فأحالها إلى الله، ونعم المجازى هو، وهذا الحديث رواه أيضًا أحمد بإسناد صحيح، وابن حبان، والحاكم، وصححه النووى.

وقد روى الترمذى وصححه النسائى وابن حبان عن أسامة بن زيد مرفوعًا: **«ومن صنع إليكم معروفًا فقال الفاعل: جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء»**[2] اهـ. وقد تقدم.

قال ابن عثيمين: لكن بعض الناس يكون كريمًا جدًا، فإذا كافأته بدل هديته أعطاك أكثر مما أعطيته، فهذا لا يريد مكافأة، ولكن يدعى له، لقوله ﷺ: **«فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له»** وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغنى، فإنه يدعو له.

ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرة، لأن من باب المسارعة إلى أمر الرسول ﷺ، ولأن به سرور صانع المعروف. اهـ.

قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه»

قال شمس الحق: **«حتى تروا»** بضم التاء أى تظنوا وبفتحها أى تعلموا أو تحسبوا **«أنكم قد كافأتموه»** أى كرروا الدعاء حتى تظنوا أن قد أديتم حقه، وقد جاء من حديث أسامة مرفوعًا: **«من صنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء»**(*) رواه النسائى والترمذى وابن حبان، فدل هذا الحديث على أن من قال لأحد جزاك الله خيراً مرة واحدة فقد أدى العوض وإن كان حقه كثيراً. قال المنذرى: وأخرجه النسائى. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: **قوله: «فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له»** أرشدهم ﷺ إلى أن الدعاء فى حق من لم يجد المكافأة مكافأة للمعروف، فيدعوا له بحسب معروفه.

قوله: «حتى تروا» بضم التاء، أى: تظنوا - **أنكم قد كافأتموه»** ويحتمل أنها

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٩٨.

(٢) تقدم تخريجه.

(*) تقدم تخريجه.

(٣) فتح المجيد ٢/ ٧٦٠.

فيه مسائل

الأولى: إعَاذَة مَنِ اسْتَعَاذَ بالله.

مفتوحة بمعنى: تعلموا، ويؤيده ما في «سنن أبي داود» في حديث ابن عمر «حتى تعلموا» فتعين الثاني للتصريح به.

وفيه: «ومن سألكم بالله فأجيبوه» أي: إلى ما سأل، فيكون بمعنى: أعطوه! وعند أبي داود- في رواية أبي نهيك- عن ابن عباس «من سألكم بوجه الله فأعطوه»[١] وفي رواية عبيد الله القواريري لهذا الحديث «ومن سألكم بالله» كما في حديث ابن عمر. اهـ.

قال ابن باز[٢]: لا ينبغي دعاء صفات الله فلا يقال يا وجه الله أو يا علم الله افعل كذا، وإنما يدعى الله بأسمائه وصفاته فيقال يا رحمن، فالصفات يتوسل بها ولا تدعى وأقر شيخ الإسلام. الإجماع على هذا. اهـ.

قال ابن عثيمين [٣]: «تروا» بفتح التاء بمعنى تعلموا، وتجوز بالضم بمعنى تظنوا، أي: حتى تعلموا أو يغلب على ظنكم أنكم قد كافأتموه، ثم أمسكوا. اهـ.

قال حامد بن محمد[٤]: وفي هذا تنبيه على الترقي من الأدنى إلى الأعلى بطريق الأولوية، وذلك إذا كان عبد مثلك إذا صنع إليك معروفًا يلزمك مكافأته فكيف بربك الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم خلق العظام والمفاصل وكسا العظام لحمًا ثم صورك أحسن الصور ثم رزقك من الطيبات فمكافأته عليه أولى وألزم بشكر نعمه وطاعته ومعصية عدوه إبليس.

قال ابن عثيمين:

قوله فيه مسائل:

- **الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.**

وسبق أن من استعاذ بالله وجبت إعاذته، إلا أن يستعيذ عن شيء واجب، فعلاً أو تركًا، فإنه لا يعاذ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) التعليق ٢٤٦.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٤٢.

(٤) فتح الله ٤٣٨.

الثانية: إِعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ.

الثالثة : إِجَابَةَ الدَّعْوَةِ.

الرابعة: المُكَافَأَةُ عَلَى الصَّنِيعَةِ.

الخامسة :أَنَّ الدُّعَاءَ مُكَافَأَةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ إِلاَّ عَلَيهِ.

السادسة: قَوْلُهُ: حَتَى تَرَوُا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ».

● **الثانية: إعطاء من سأل بالله**

وسبق التفصيل فيه.

● **الثالثة: إجابة الدعوة.**

وسبق كذلك التفصيل فيها.

● **الرابعة: المكافأة على الصنيعة .**

أى: على صنيعة من صنع إليك معروفًا ، وسبق التفصيل فى ذلك .

● **الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لا يقدر إلا عليه.**

وسبق أنه مكافأة فى ذلك وفيما إذا كان الصانع لايكافأ مثله عادة.

● **السادسة : قوله «حتى تروا أنكم قد كافأتموه».**

أى : أنه لا يقصر فى الدعاء، بل يدعو له حتى يعلم أو يغلب على ظنه أنه قد كافأه.

وفيه مسائل أخرى، لكن ما ذكره المؤلف هو المقصود. اهـ.



باب (٥٥)
لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال ناصر السعدى(١): الباب الأول خطاب للمسئول وأنه إذا أدلى على الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل. وهو السؤال بالله أن يجيبه احتراماً وتعظيماً لحق الله. وأداء لحق أخيه حيث أدلى بهذا السبب الأعظم خطاب للسائل. وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته وأن لايسأل شيئاً من المطالب الدنيويه بوجه الله. بل لايسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهى الجنة بما فيها من النعيم المقيم. ورضا الرب والنظر الى وجهه الكريم والتلذذ بخطابه، فهذا المطلب الأسنى هو الذى يُسأل بوجه الله وأما المطالب الدنيوية والأمور الدنيئة وإن كان العبد لايسألها إلا من ربه فإنه لايسألها بوجهه. اهـ. وقال نحوه ابن باز.

● **مناسبة الباب للتوحيد.**

قال ابن قاسم: أى لايجوز ذلك إجلالاً لله وإكراماً وإعظاماً له أن يسأل بوجهه العظيم ما هو حقير لديه من حوائج الدنيا مالم يرد به غاية المطالب، وهى الجنة، أو الإعانة على أعمال الآخرة الموصلة إلى الجنة، وأما سؤال المخلوق بوجه الله؛ فتقدم النهى عنه فى الباب قبله. اهـ(٢).

قال ابن باز(٣): وهذا من كمال التوحيد والإيمان أن لايسأل بوجه الله إلا الجنه أو ما يقرب اليها كالعمل الصالح والاستقامة والعافية من مضلات الفتن. اهـ.

قال ابن عثيمين(٤): أن فيه تعظيمَ وجه الله - عز وجل -، بحيث لايُسأل به إلا الجنة. اهـ.

قال عبدالله بن جار الله(٥): هى أن السؤال بوجه الله غير الجنة معصية ينافى كمال التوحيد حيث نهى عنه ولعن فاعله. اهـ.

---

(١) القول السديد (١٢٤).

(٢) حاشية على كتاب التوحيد.

(٣) التعليق المفيد: (٢٤٧).

(٢) القول المفيد (٣/ ١٤٤).

(٥) الجامع الفريد (١٩٣).

عن جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «لاَ يُسْأَلُ بِوَجْهِ الله إِلاَّ الجَنَّةُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(1).

● شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بها:

قال سليمان آل الشيخ(2): أى إعظاماً وإجلالاً وإكراماً لوجه الله أن لايسأل به إلا غاية المطالب، وهذا من معانى قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾(3). اهـ.

قال حامد بن محمد(4): لأنه غاية مطلوب العارفين وعبادته ومحبته نهاية منازل السائرين فكما أنه الغاية فى الطلب فلا يسأل بوجهه من المخلوقات إلا ماهو الغاية فى الفضل والإحسان وهو رضا الله والجنه. اهـ.



قوله: [عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ لايسأل بوجه الله.....] الحديث.

قال ابن باز(*): (**لايسأل يوجه الله إلا الجنة**) وذلك لأن هى أعلى المطالب وفيها النظر إلى وجه الله سبحانه وفيها النعيم المقيم، ووجه الله له شرفه العظيم، فلا يسأل به إلا الجنة، وكذلك ما يقرب إليها، كأن يسأل الإخلاص والتوفيق للخير والاستقامة على الطاعة فما يقرب إلى الجنة هو من طلب الجنة. اهـ.

قال ابن باز(5): واسناد الحديث فيه لين وضعف لكنه ينجبر بما جاء فى الروايات الاخرى من النهى عن السؤال بوجه الله فيكون هذا خاصاً بالسؤال بوجه الله الكريم أو ما يقرب اليها وما يدعو إليها. اهـ.

[قلت]: أخرجه أبو داود فى الزكاة وقال: باب كراهية المسألة بوجه الله عزوجل. حدثنا أبو العباس القلوري أخبرنا يعقوب بن إسحاق الحضرمى عن سليمان بن معاذ التيمى أخبرنا ابن المنكدر عن جابر. . . الحديث.

---

(1) [ضعيف] أخرجه أبو داود فى الزكاة/ باب كراهية المسألة بوجه الله تعالى (٢/ ١١٣١/ ١٦٧١) من طريق ابن المنكدر عن جابر. . . الحديث. وأظر فتح المجيد (٨٣٧ - بتخريجنا).

(2) تيسير العزيز الحميد (٤٩٩).

(3) الرحمن/ ٢٧.

(4) فتح الله الحميد المجيد (٤٤٠).

(*)(5) التعليق ٧٢٤.

قال المنذرى: فى إسناده سليمان بن معاذ، قال الدارقطني: هو: سليمان بن معاذ هو سليمان بن قرم. وذكر أبو أحمد بن عدى هذا الحديث فى ترجمة سليمان بن قرم وقال: هذا الحديث لا أعرفه عن محمد بن المنكدر إلا من رواية سليمان بن قرم، وعن سليمان يعقوب بن إسحاق الحضرمى، وعن يعقوب أحمد بن عمرو العصفرى اهـ.

قال صاحب «عون المعبود» وهذا الإسناد هو الذى أخرجه أبوداود فى سننه وأحمد بن عمرو العصفرى هو أبو العباس القلورى الذى روى عنه أبوداود هذا الحديث وسليمان بن قرم تكلم فيه غير واحد انتهى[1].

● **مناسبة الحديث للباب.**

قال القرعاوى[2]: دل الحديث على تحريم سؤال غير الجنة بوجه الله. اهـ.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى[3]: دل الحديث على تحريم سؤال غير الجنة بوجه الله لأن ذلك منافٍ لتعظيم الله وذلك منافٍ للتوحيد. اهـ.

قوله: «عن جابر».

قال سليمان آل الشيخ[4]: هو جابر بن عبد الله. اهـ.

قوله: «لايسأل بوجه الله».

قال: سليمان آل الشيخ[5]: روى بالنفى والنهى، وروى بالبناء للمجهول، وهو الذى فى الأصل، وروى بالخطاب للمفرد، وفيه إثبات الوجه خلافاً للجهمية ونحوهم، فإنهم أولوا الوجه بالذات، وهو باطل، إذ لا يسمى ذات الشىء وحقيقته وجهاً، فلا يسمى الإنسان وجهاً، ولا تسمى يده وجهاً، ولا تسمى رجله وجهاً، والقول فى الوجه عند أهل السنة كالقول فى بقية الصفات، فيثبتونه لله على ما يليق بجلاله وكبريائه من غير كيف ولا تحديد، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل. اهـ.

قال ابن عثيمين[6]: اختلف فى المراد بذلك على قولين:

القول الأول: أن المراد: لاتسألوا أحداً من المخلوقين بوجه الله، فإذا أردت أن تسأل أحداً من المخلوقين؛ فلا تسأله بوجه الله؛ لأنه لايسأل بوجه الله إلا الجنة، والخلق لا

(١) «عون المعبود» (٣/ ٦٠، ٦١).

(٢ - ٣) الجديد ٤١٨.

(٤ - ٥) تيسير العزيز الحميد ٤٩٩.

(٦) القول المفيد ٣/ ١٤٥.

يقدرون على إعطاء الجنة، فإذاً لايسألون بوجه الله مطلقاً، ويظهر أن المؤلف يرى هذا الرأى فى شرح الحديث، ولذلك أعقبه بقوله: «**باب لايرد من سأل بالله**».

قلت/ كذا قال الشيخ ولعلها (ولذلك أعقبه بعد قوله).

القول الثانى: أنك إذا سألت الله، فإن سألت الجنة وما يستلزم دخولها؛ فلا حرج أن تسأل بوجه الله، وإن سألت شيئاً من أمور الدنيا؛ فلا تسأله بوجه الله؛ لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشيء من أمور الدنيا.

فأمور الآخرة تسأل بوجه الله؛ كقولك مثلاً: أسألك بوجهك أن تنجينى من النار، والنبى ﷺ استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ**﴾؛ قال: أعوذ بوجهك؛ ﴿**أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ**﴾؛ قال: أعوذ بوجهك، ﴿**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**﴾[1]؛ قال: هذه أهون أو أيسر»[2].

ولو قيل: إنه يشمل المعنيين جميعاً؛ لكان له وجه.

قوله: «بوجه الله».

فيه إثبات الوجه لله - عز وجل -، وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السلف؛ فالقرآن فى قوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾[4]، والآيات كثيرة.

والسنة كما فى الحديث السابق: «**أعوذ بوجهك**»[5].

واختلف فى هذا الوجه الذى أضافه الله إلى نفسه: هل هو وجه حقيقى، أو أنه وجه يعبر به عن الذات وليس لله وجه بل له ذات، أو أنه يعبر به عن الشيء الذى يراد به وجهه وليس هو الوجه الحقيقى، أو أنه يعبر به عن الجهة، أو أنه يُعبَّر به عن الثواب؟

فيه خلاف، لكن هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فقالوا: إنه وجه حقيقى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾[6]، ولما أراد

(١) الأنعام: ٦٥.
(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٦٢٨) عن جابر به.
وانظر «جزء سعدان» (ح٤) بتخريجنا.
(٣) القصص: ٨٨.　　(٤) الرعد: ٢٢.
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) الرحمن: ٢٧.

غير ذاتـه؛ قال: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾[1]؛ فـ ﴿ذِي﴾ صفة لرب وليست صفة لاسم، و ﴿ذُو﴾ صفة لوجه وليست صفـة لرب، فإذا كان الوجه موصوفاً بالجلال والإكرام؛ فلا يـمكن أن يراد به الثواب أو الجهة أو الـذات وحدها؛ لأن الوجه غير الذات.

وقال أهل التـعطيل: إن الوجه عـبارة عن الذات أو الجـهة أو الثواب، قـالوا: ولو أثبتنا لله وجهاً حقـيقاً للزم أن يكون جسماً، والأجسام متماثـلة، ويلزم من ذلك إثبات المِثْـل لله - عز وجـل -، والله تعـالى يـقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2]؛ وإثبات المـثل تكذيب للقرآن، وأنتم يا أهـل السنة تقولون: إن من اعتقد أن لله مثيلاً فـيما يختص به فهو كافر؛ فنقول لهم:

أولاً: ما تعنون بالجسم الذى فررتم منه؛ أتـعنون به المُرَكَّب من عظام وأعصاب ولحم ودم بحيث يفتقر كل جزء منه إلـى الآخر؟ إن أردتم ذلك؛ فنحن نوافقكم أن الله ليس على هذا الوجه ولا يمـكن أن يكون كذلك، وإن أردتم بالجسم الذات الحقيـقية المتصفة بصفات الكـمال؛ فلا محذور فى ذلك، والله تعـالى وصف نفسه بأنه أحـد صمد، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[3]، قال ابن عباس رضى الله عنهما: الصَّمَد: الذى لا جوف له[4].

ثانياً: قولكم: إن الأجسام متـماثلة قضية من أكذب القضايا؛ فـهل جسم الدُّب مثل جسم النملة؟ فبينهما تباين عظيم فى الحجم والرقة واللين وغير ذلك.

فإذا بطلت هذه الحجة بطلت النتيجة وهى استلزام مماثلة الله لخلقه.

ونحن نشاهد البشر لا يتفقون فى الوجوه؛ فـلا تجد اثنين متماثلين من كل وجه ولو كانا توأمين، بل قالوا: إن عروق الرجل واليد غير متماثلة من شخص إلى آخر.

ويلاحظ أن التعبـير بنفى المماثلة أولى من الـتعبير بنفى المشابهـة؛ لأنه اللفظ الذى جاء به القرآن، ولأنه ما من شيئين مَوْجُودَيْـن إلا ويشتبهان من وجه ويفترقان من وجه آخر؛ فنفى مطلق المشابهة لايصح، وقد تقدم.

---

(1) الرحمن: ٧٨.

(2) الشورى: ١١.

(3) الإخلاص: ١ - ٢.

(4) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٧٠٥) ونسبه للطبرانى فى «السنة» عن الضحاك.

وأما حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«إن الله خلق آدم على صورته»**(١)، ووجه الله لا يماثل أوجه المخلوقين؛ فيجاب عنه.

أولاً: أنه لا يراد به صورة تماثل صورة الرب - عز وجل - بإجماع المسلمين والعقلاء؛ لأن الله - عز وجل - وسع كرسيه السماوات والأرض، والسماوات والأرضون كلها بالنسبة للكرسى - موضع القدمين - كحلْقة ألقيت فى فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على هذه الحلقة؛ فما ظنك برب العالمين؟ فلا أحد يحيط به وصفاً ولا تخييلاً، ومَنْ هذا وصفه لا يمكن أن يكون على صورة آدم ستون ذراعاً، وإنما يراد به أحد معنيين:

الأول: أن الله خلق آدم على صورة اختارها وجعلها أحسن صورة فى الوجه، وعلى هذا؛ فلا ينبغى أن يقبح أو يضرب لأنه لما أضافه إلى نفسه اقتضى من الإكرام مالا ينبغى معه أن يقبح أو أن يضرب.

الثانى: أن الله خلق آدم على صورة الله - عزوجل - ولايلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله ﷺ: **«إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أضوأ كوكب فى السماء»**(٢)، ولايلزم أن يكون على صورة نفس القمر؛ لأن القمرأكبر من أهل الجنة، وأهل الجنة يدخلونها طول أحدهم ستون ذراعاً، وعرضه سبعة أذرع كما فى بعض الأحاديث.

وقال بعض أهل العلم: **على صورته**؛ أى: صورة آدم؛ أى: أن الله خلق آدم أول أمْرِه على هذه الصورة، وليس كبنيه يتدرج فى الإنشاء نطفة ثم علقة ثم مضغة.

قلت: وقال ابن خزيمة: على صورة المضروب أى إذا ضربت تنجنب الوجه فإن خلق آدم على صورته أى المضروب(*). اهـ.

لكن الإمام أحمد رحمه الله أنكر هذا التأويل، وقال: هذا تأويل الجهمية، ولأنه يُفقِد الحديث معناه، وأيضاً يعارضه اللفظ الآخر المُفَسِّر للضمير وهو بلفظ: **«على صورة الرحمن»**.

(١) [متفق عليه] أخرجه: البخارى: (٦٢٢٧)، ومسلم فى الجنة (٩/ ١٩٤/ ٢١) عن أبى هريرة به.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٢٤٥)، ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (١٧/ ١٧٣ ـ النووى) عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٨٨٥ ـ بتخريجنا).

(*) التوحيد لابن خزيمة ص ٣٦ وبعدها.

قوله: «إلا الجنة».

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «إلا الجنة» كأن يقول: اللهم إنى أسألك بوجهك الكريم أن تدخلنى الجنة وقيل: المراد لا تسألوا من الناس شيئاً بوجه الله، كأن يقول: أعطنى شيئاً بوجه الله، فإن الله أعظم من أن يُسأل به شىء من الحطام.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ والظاهر أن كلا المعنيين صحيح، قال الحافظ العراقى: وذكر الجنة إنما هو للتنبيه به على الأمور العظام لا للتخصيص، فلا يسأل بوجه فى الأمور الدنيئة، بخلاف الأمور العظام تحصيلاً أو دفعاً، كما يشير إليه استعاذة النبى ﷺ به.

قلت ـ يعنى سليمان آل الشيخ ـ والظاهر أن المراد لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، أو ما هو وسيلة إليها كالاستعاذة بوجه الله ومن غضبه ومن النار ونحو ذلك مما هو وارد فى أدعيته ﷺ وتعوذاته ولما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[2] قَالَ النَّبى ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[3] فقال النبى ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» رواه البخارى[4]. وهذا الحديث رواه أيضاً فى «المختارة» أيضاً ولكن فى إسناده سليمان بن معاذ. قال ابن معين: ليس بشىء، وضعفه عبد الحق وابن القطان. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[5]: وحديث الباب: من جملة الأدلة المتواترة فى الكتاب والسُّنة على إثبات الوجه لله تعالى؛ فإنَّه صفةُ كمال، وسلبُه غايةُ النقص والتَّشبيه بالناقصات، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها. فوقعوا فى أعظم مما فرُّوا منه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وطريقةُ أهل السُّنة والجماعة سلفاً وخلفاً: الإِيمانُ بما وصف الله به نفسه فى كتابه، ووصفه به رسول الله ﷺ فى سُنَّته، على ما يليق بجلال الله وعظمته، فيثبتون ما أثبته لنفسه فى كتابه وأثبته له رسوله ﷺ، وينفون عنه مشابهة المخلوق؛ فكما أنَّ ذات الرب تعالى لا تُشبه الذوات، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات، فمن نفاها فقد سلبه الكمال.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٥٠٠).

(٢ - ٣) الأنعام: ٦٥.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) فتح المجيد (٢/ ٧٩١).

مسأله[1]: وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند مُنصرفه من الطائف، حين كذَّبه أهلُ الطائف ومن في الطائف من أهل مكة، فدعا ﷺ بالدعاء المأثور «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس. أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكلُني؟ إلى بعيد يتجهمُني، أو إلى عدو ملَّكته أمري؟ إنْ لم يك بك غضبٌ عليَّ فلا أُبالي، غير أنَّ عافيتك هي أوسعُ لي**» وفي آخره «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلماتُ، وصلُح عليه أمرُ الدنيا والآخرة: أن يَحُلَّ عليَّ غضبُك، أو ينزل بي سخطك. لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله**»[2]، والحديث المروي في الأذكار «**اللهم أنت أحقُّ من ذُكر، وأحق من عُبد - وفي آخره - أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض**»[3].

وفي حديث آخر «**أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة، من شر السَّامة واللاَّمة، ومن شر ما خلقت أي ربٍّ، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده ومن شر الدنيا والآخرة**»[4] وأمثال ذلك في الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[5]: فالجواب: أنَّ ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يُقرِّب إلى الجنة، أو ما يمنعه من الأعمال التي تمنعه من الجنة، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يُقرِّبُ إلى الجنة؛ كما في الحديث الصحيح «**اللهم إني أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول أو عمل**»[6].

بخلاف ما يختصُّ بالدنيا، كسؤال المال والرزق والسعة في المعيشة رغبةً في الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة. فلا ريب أنَّ الحديث يدلُّ على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله.

وعلى هذا: فلا تعارض بين الأحاديث، كما لايخفى، والله أعلم.

---

(١) فتح المجيد ٢/ ٧٦١ - ٧٦٣.

(٢) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٥) ونسبه للطبراني قال: وفيه ابن إسحاق وهو ثقة وبقية رجاله ثقات.

وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال في تخريج أحاديث الظلال».

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/ ٣١٦/ ٨٠٢٧) عن أبي أمامة به وضعفه الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١١٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٥٢)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٣٢) عن علي بالشطر الأول منه.

(٥) فتح المجيد ٢/ ٧٦١ - ٧٦٣.

(٦) أخرجه ابن ماجه.

فيه مسَائِلُ

الأولى : النَّهْيُ عَنْ أَنْ يُسْأَلَ بِوَجْهِ الله إلاَّ غَايَةُ المَطَالِبِ.

الثانية : إِثْبَاتُ صِفَةِ الوَجْهِ.

قوله فيه مسائل:

قال ابن عثيمين(١):

● **الأولى: النهى عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.**

تؤخذ من حديث الباب، وهذا الحديث ضَعَّفه بعض أهل العلم، لكن على تقدير صحته؛ فإنه من الأدب أن لا تسأل بوجه الله إلا ما كان من أمر الآخرة: الفوز بالجنة، أو النجاة من النار.

● **الثانية: إثبات صفة الوجه. اهـ.**



---

(١) القول المفيد ٣/ ١٠.

باب (٥٦)
ماجـــاء فـــى اللـــو

● مناسبة هذا الباب للذى قبله :

قال الفقير: مناسبة هذا الباب للذى قبلـه أن هذا الباب عقد أيضاً لـلنهى عن الألفاظ التى قد تقع فى الربوبية أو الأسماء والصفات وإن كان هذا الباب يتميز عما قبله بالكلام فى القدر.

● مناسبة الباب للتوحيد

قال سليمـان آل الشيخ[١]: اعلم أن من كمـال التوحيد الاستسلام للقضاء والقدر (كالمصائب إذا جرى بها القدر رضا بالله رباً فإن هذا من جنس المصائب)، والعبد مأمور عند المصائب بالصبر والإرجاع والتوبة. وقول : لو، لايجدى عليه إلا الحزن والتحسر مع مايخالف توحيده من نوع المعاندة للقدر الذى لايكاد يسلم منها من وقع منه هذا إلاماشاء الله، فهذا وجه إيراده هذا الباب فى التوحيد.

قال عبدالله بن جار الله[٢]: هى أن من قال لو معارضاً بها أقدار الرب تعالى كالبلايا والمصائب إذا جرى بها القدر فإن هذا مما ينافى كمال التوحيد.

قال ابن عثيمين[٣]:أن من جملة أقسام (لو) الاعتراض على القدر،ومن اعترض على القدر؛ فإنه لم يرض بالله رباً،ومن لم يرض بالله رباً؛ فإنه لم يحقق توحيد الربوبية.

والواجب أن ترضى بالله رباً، ولايمكن أن تستريح إلا إذا رضيت بالله رباً تمام الرضا، وكأن لك أجنحة تميل بها حيث مال القدر،و لهذا قال ﷺ : **«عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيراً له»**[٤]، ومهما كان؛ فالأمر سيكون على ماكان، فلو خرجت مثلاً فى سفر ثم أصبت فى حادث؛ فلا تقل: لو أنى ماخرجت فى السفر ماأصبت؛ لأن هذا مقدر لا بد منه. اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد: ٥٠٠
(٢) الجامع الفريد ١٦٨.
(٣) القول المفيد ٣/ ١٥٦.
(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الزهد (١٨/ ١٢٥ ـ النووى) عن صهيب به وانظر «رياض الصالحين» (٢٨ ـ بتخريجنا).

● **شرح الترجمة والتبويب وماذا أراد المصنِّف بها.**

قال حامد بن محمد بن حسن(١): باب ماجاء فى بيان أن المسلم ما ينبغى له إذا أصابه شىء من المصائب أن يقول (لو) فعلت كذا لكان كذا، لأن المقدر كائن لامحالة ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك فإن صبرت فأنت مأجور، والمقدر كائن وإن ماصبرت فأنت مأزور والمقدر كائن فلا يزيد المتردد فى ذكر لو إلا الحسرة والندامة والأسف. أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢): أى : من النهى عنه عند الأمور المكروهة، كالمصائب إذا جرى بها القدر؛ لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على مافات، مما لايمكن استدراكه.

فالواجب التسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة، وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره. والإيمان بالقدر، أصل من أصول الإيمان الستة.

وأدخل المصنف رحمه الله أداة التعريف على (لو) وهذه فى هذا المقام لاتفيد تعريفاً كنظائرها ـ لأن المراد هذا اللفظ، كما قال الشاعر:

رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً   شديداً بأعباء الخلافة كاهله

قال ابن باز(٣): أى فى حكم هذه الكلمة وهل تجوز أو لاتجوز، والمقصود أنه لاينبغى استعمالها لمعارضة القدر بل يجب التسليم والصبر وعدم المعارضة للقدر بكلمة لو، عند موت قريب أومرض أو مصيبة.

قال ابن عثيمين(٤): **قوله: «فى اللو».**

دخلت «أل» على «لو» وهى لاتدخل إلا على الأسماء، قال ابن مالك:

بالجر والتنوين والندا وأل   ومسند للاسم تمييز حصل

لأن المقصود بها اللفظ؛ أى : باب ماجاء فى هذا اللفظ.

والمؤلف رحمه الله جعل الترجمة مفتوحة ولم يجزم بشىء؛ لأن «لو» تستعمل على عدة أوجه:

---

(١) فتح الله الحميد ٤٤٢

(٢) فتح المجيد ٢/ ٦٤٤

(٣) التعليق المفيد ٢٤٩

(٤) القول المفيد ٣/ ١٥١-١٥٣

الوجه الأول: أن تستعمل فى الاعتراض على الشرع، وهذا محرم، قال الله تعالى ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ فى غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبدالله بن أبى فى نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلا اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ، وقالوا : لوأطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا، فَرَأْيُنا خيرمن شرع محمد، وهذا محرم وقد يصل إلى الكفر.

الثانى: أن تستعمل فى الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضاً، قال الله تعالى ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾(١)؛ أى لو أنهم بقوا ما قتلوا؛ فهم يعترضون على قدر الله.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضاً؛ لأن كل شىء يفتح الندم عليك فإنه منهى عنه؛ لأن الندم يكسب النفس حزناً وانقباضاً، والله يريد منا أن نكون فى انشراح وانبساط، قال ﷺ« **احرص على ماينفعك واستعن بالله ولاتعجز، وإن أصابك شىء؛فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(٢).

مثال ذلك : رجل حرص أن يشترى شيئاً يظن أن فيه ربحاً فخسر، فقال: لوأنى ما اشتريته ماحصل لى خسارة؛فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيراً، وقد نهى عنه.

الرابع:أن تستعمل فى الاحتجاج بالقدر على المعصية؛ كقول المشركين ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا**﴾(٣)، وهذا باطل.

الخامس: أن تستعمل فى التمنى، وحكمه حسب المتمنى: إن كان خيراً فخير،وإن كان شراً فشر، وفى «الصحيح» عن النبى ﷺ فى قصة النفر الأربعة قال أحدهم :«**لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان**»؛ فهذا تمنى خيراً، وقال الثانى:«**لوأن لى مالا لعملت بعمل فلان**»؛ فهذا تمنى شراً. فقال النبى ﷺ فى الأول :«**فهو بنيته، فأجرهما سواء**» وقال فى الثانى :«**فهو بنيته، فوزرهما سواء**» (٤).

(١) آل عمران : ١٥٦

(٢) يأتى تخريجه.

(٣) الأنعام : ١٤٨

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١)والترمذى (٢٣٥) وابن ماجه (٤٢٢٨)؛ عن أبى كبشة الأنمارى به. وانظر «رياض الصالحين» (٥٥٨ ـ بتخريجنا).

السادس: أن تستعمل فى الخير المحض.

وهذا جائز، مثل : لوحضرت الدرس لاستفدت، ومنه قوله ﷺ :«**لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى ولأحللت معكم**»(١)، فأخبر النبى ﷺ أنه لوعلم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ماساق الهدى ولأحل، وهذا هو الظاهر لى.

وبعضهم قال : إنه من باب التمنى، كأنه قال : ليتنى استقبلت من أمرى ما استدبرت حتى لا أسوق الهدى.

لكن الظاهر: أنه خبرلما رأى من أصحابه، والنبى ﷺ لايتمنى شيئاً قدر الله خلافه اهـ.

قلت: ومن ذلك حديث عائشة رضى الله عنها قالت: «رجع إلىَّ رسول الله ﷺ من جنازة بالبقيع، وأنا أجد صداعاً فى رأسى، وأقول : وارأساه، فقال: بل أنا وارأساه ما ضرك لومت قبلى فغسلتك وكفنتك، ثم صليت عليك ودفنتك»(٢).

وعنها رضى الله عنها قالت «لو كنت استقبلت من أمرى ما استدبرت ما غسل النبى ﷺ إلا نساؤه»(٣).

حكم استعمال كلمة لو

قال ناصر السعدى (٤): اعلم أن استعمال العبد للفظة «لو» تقع على قسمين: مذموم ومحمود.

أما المذموم: فإن يقع منه أوعليه أمر لايحبه فيقول: لو أنى فعلت كذا لكان كذا. فهذا من عمل الشيطان. لان فيه محذورين.

أحدهما: أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذى ينبغى له إغلاقه وليس فيها نفع.

الثانى: أن فى ذلك سوء أدب مع الله وعلى قدره فإن الأموركلها والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره. وما وقع من الأمور فلا بد من وقوعه. ولايمكن رده. فكان فى قوله: لو كان كذا أو لوفعلت كذا كان كذا. نوع اعتراض ونوع ضعف إيمان بقضاء الله وقدره.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٢٣٠)، ومسلم فى الحج (١٥٨/٨ ـ النووى) عن جابر به.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

(٣) أخرجه أحمد وابن ماجه والدارمى ـ وانظر هذا والذى قبله «أحكام الجنائز» للألبانى.

(٤) القول السديد ١٢٤ ـ ١٢٦.

ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين لايتم للعبد إيمان ولاتوحيد إلا بتركهما.

وأما المحمود من ذلك فإن يقولها العبد تمنيا للخير.

كقوله ﷺ: **«لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماسقت الهدى ولأهللت بالعمرة»**(٢).

وقوله فى الرجل المتمنى للخير **«لو أن لى مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان»**(٣).

و **«لوصبر أخي موسى لقص الله علينامن نبأهما»** أى فى قصته مع الخضر(٤).

وكما أن (لو) تكون بحسب الحال الحامل عليها.

أن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر أو تمنى الشر كان مذموماً.

وأن حمل عليها الرغبة فى الخير والإرشاد والتعليم كان محموداً ولهذا جعل المصنف الترجمة محتملة للأمرين.

قلت: وقد تقدم من كلام ابن عثيمين أن لو تستعمل على ستة أوجه أربعة منها محرمة وهى الاستعمال فى الاعتراض على الشرع والقدر والندم والتحسر والإحتجاج بالقدر وواحدة جائزة وهى أن تستعمل فى الخير المحض وواحدة مترددة بين الحظر والإباحة وهى التمنى بحسب المتنى.



قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾

● **مناسبة الآية للباب:**

قال سليمان آل الشيخ: لأن قول «لو» فى الأمور المقدرة من كلام المنافقين، ولهذا رد الله عليهم ذلك بأن هذا قدر، فمن كتب عليه شيء فلا بد أن يناله، فماذا يغنى عنكم قول «لو» و«ليت» إلاالحسرة والندامة؟! فالواجب عليكم فى هذه الحالة الإيمان بالله

(١) آل عمران: ١٥٤ (٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) أخرج القصة البخارى (٣٤٠١)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ١٤٨/ ١٧٠) عن أبى بن كعب به.

والتعزى بقدره مع ماترجون من حسن ثوابه، وفى ذلك عين الفلاح لكم فى الدنيا والآخرة، بل يصل الأمر إلى أن تنقلب المخاوف أماناً والأحزان سروراً وفرحاً كما قال عمر بن عبدالعزيز: أصبحت ومالى سرور إلافى مواقع القضاء والقدر. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله : أن الله ذم فيهما ـ أى الآيتين ـ المنافقين على معارضة القدر بلو . اهـ.

قال القرعاوى(١) دلت على تحريم الاعتراض على القدر. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد

قال القرعاوى: (٢)

حيث دلت الآية على وجوب الاستسلام للقضاء والقدر لأن ذلك من كمال التوحيد أهـ.

الإعراب(٣): يقولون لوكان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا» جملة (يقولون) مستأنفة مسوقة لبيان ما قبله، ولتكون بمثابة شروع فى الحديث عنهم مجدداً تطرية لنشاط السامع واسترعاء لاتنباهه. (ولو) شرطية وكان فعل ماض ناقص (ولنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم ومن الأمر جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وشىء اسم كان المؤخر وما نافية وقتلنا فعل ماض مبنى للمجهول ونائب فاعل (وجملة ماقتلنا لامحل لها لأنها جواب شرط غير جازم،وها هنا الهاء للتنبيه (وهنا) اسم اشارة فى محل نصب ظرف مكان متعلق بقتلنا قل لو كنتم فى بيوتكم) (الجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن الاجال مكتوبة وأنهم لو أقاموا فى المدينة لحدثت لهم أسباب يخرجون فيها لملاقاة حتوفهم وأنهم إذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون . ولو شرطية وكنتم كان واسمها، وفى بيوتكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر والجملة فى محل نصب مقول القول. اهـ.

قال ابن عثيمين(٤):

قوله:«يقولون»

الضمير للمنافقين.

قوله:«ماقتلنا»

أى: ما قتل بعضنا؛ لأنهم لم يقتلوا كلهم، ولأن المقتول لا يقول.

(١ ـ ٢) الجديد ٤٢١

(٣) الإعراب ٢/ ٧٨ .

(٤) القول المفيد ٣/ ١٥٤، ١٥٥

قوله: «لو كان لنا من الأمر»

(لو) : شرطية، وفعل الشرط: (كان)، وجوابه: (ما قتلنا)، ولم يقترن الجواب باللام؛ لأن الأفصح إذا كان الجواب منفياً عدم الاقتران، فقولك: لوجاء زيد ماجاء عمرو أفصح من قولك: لو جاء زيد لما جاء عمرو، وقد ورد قليلاً اقترانها مع النفي؛ كقول الشاعر:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ... ولكن لاخيار مع الليالي

● **ما جاء في سبب نزول الآية :**

قال ابن إسحاق : حدثني يحيى بن عبادة بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن عبدالله بن الزبير قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا ارسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلا ذقنه في صدره فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله عزوجل ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ لقول معتب(*) رواه ابن أبي حاتم».

عن السدي: أن المشركين انصرفوا يوم أحد بعد الذي كان من أمرهم وأمر المسلمين فواعدوا النبي ﷺ بدراً من قابل، فقال لهم: نعم، فتخوف المسلمون أن ينزلوا المدينة، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فقال: انظر، فإن رأيتهم قد قعدوا على أثقالهم، وجنبوا خيط لهم؛ فإن القوم ذاهبون، وإن رأيتهم قد قعدوا على خيولهم، وجنبوا على أثقالهم، فإن القوم ينزلون المدينة، فاتقوا الله واصبروا، ووطنهم على القتال، فلما أبصرهم الرسول قعدوا على الأثقال سراعاً عجالاً؛ نادى بأعلى صوته بذهابهم، فلما رأى المؤمنون ذلك صدقوا نبي الله ﷺ فناموا وبقي أناس من المنافقين يظنون أن القوم يأتونهم، فقال الله يذكر حين أخبرهم النبي ﷺ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ الآية(1).

وفي رواية أخرى عن أنس عن أبي طلحة قال: «والطائفة الأخرى: المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم، وأرعبه، وأخذله للحق، يظنون بالله غير الحق ظن

(*) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ١٥٦) ونسبه لابن إسحاق، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل».
وانظر «فتح المجيد» (ح٨٤٤) بتخريجنا.

(1) أخرجه ابن جرير (٣/ ٤/ ٩٤).

الجاهلية، كذبهم إنما هم أهل شك وريبة في الله»[1].

عن ابن عباس قال معتب: الذى قال يوم «لوكان لنا من الأمر شيء ما قلنا ههنا» .فانزل الله فى ذلك من قولهم «طائفة قد أهمتهم أنفسم يظنون بالله» إلى آخر القصة[2]:

وروى ابن جرير: عن الزبير قال والله إنى لأسمع قول مُعتِّب بن قُشير أخى بنى عمر وبن عوف والنعاس يغشانى ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [3].

عن الربيع فى قوله : ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ﴾ كان مما اخفوا فى أنفسهم أن قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [4].

عن الحسن أنه سئل عن هذه الآية فقال: لما قتل من قتل من أصحاب محمد أتوا عبدالله بن أبى فقالوا له : ماترى؟ فقال: أنا - والله - من ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [5].

● **ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين :**

قال الطبرى : أظهر الله نبيه على ما كانوا يخفونه بينهم من نفاقهم والحسرة على حضورهم مع المسلمين مشهدهم بأحد فقال مخبراً عن قيلهم الكفر وإعلانهم النفاق بينهم يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا يعنى بذلك أن هؤلاء المنافقين يقولون لو كان الخروج إلى حرب ما خرجنا لحربه من المشركين إلينا ما خرجنا إليهم ولاقتل منا أحد فى الموضع الذى قتلوا فيه بأحد وذكر أن ممن قال هذا القول معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف .

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخارى والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان وأبو الشيخ والطبرانى وابن مودويه وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى «الدلائل» كذا فى «الدر المنثور» (٢/٣٥٣). وأنظر «فتح المجيد» (ح٨٤٥) بتخريجنا)

(2) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/١٥٦) ونسبه لابن إسحاق، وابن أبى حاتم عن ابن عباس به. وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(3) أخرجه ابن جرير فى«تفسيره» ٣/٤٣/٩٤.

(4) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/١٥٦) ونسبه لابن إسحاق، وابن أبى حاتم عن ابن عباس به. وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(5) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم. وأنظر «فتح القدير» بتخريجنا.

قال البغوى [1]: وذلك أن المنافقين قال بعضهم لبعض : لوكان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة. ولم يقتل رؤساؤنا. وقيل : لو كنا على الحق ما قتلنا هاهنا قال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما: ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾، يعنى التكذيب بالقدر وهو قولهم: ﴿لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا﴾ .

قال ابن الجوزى[2]: قوله تعالى: ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون﴾ فى الذى أخفوه ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه قولهم: لو كنا فى بيوتنا ما قتلنا هاهنا.

والثانى : أنه إسرارهم بالكفر، والشك فى أمر الله.

والثالث : الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد . اهـ.

قال الفخر الرازى[3]: وصف الله تعالى هذه الطائفة - أى المنافقين - بأنواع من الصفات :

[الصفة الأولى] : ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ أنهم كانوا يقولون فى أنفسهم لو كان محمد محقاً فى دعواه لما سلط الكفار عليه، وهذا ظن فاسد.

وقيل: أن ذلك الظن هو أنهم كانوا ينكرون إله العالم بكل المعلومات، القادر على كل المقدورات وينكرون النبوة، والبعث.

[الصفة الثانية] : ﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله﴾ والمعنى: هل لنا من أمر يطاع، وهو استفهام على سبيل الإنكار، والتقدير: أنطمع أن تكون لنا الغلبة عليه هؤلاء. والغرض منه تصبير المسلمين فى التشديد فى الجهاد والحرب مع الكفار، ثم إن الله سبحانه أجاب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿قل إن الأمر كله لله﴾.

[الصفة الثالثة]: ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا﴾ وهو ما كان يقوله عبد الله بن أُبى من أن محمداً لو أطاعنى وما خرج من المدينة ما قتلناهنا.

---

(1) البغوى ١/٥٦٨

(2) زاد المسير (٢/٣٨٦ - ٣٨٧).

(3) التفسير الكبير (٥/٩/٤٩، ٥٠).

قال الفخر الرازى[1]: واعلم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من ثلاثة أوجه.

الوجه الأول من الجواب : قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾

قال الرازى [2]: والمعنى أن الحذر لايدفع القدر، والتدبير لايقاوم التقدير، فالذين قدر الله عليهم القتل لابد وأن يقتلوا على جميع التقديرات، لأن الله تعالى لما أخبر أنه يقتل، فلو لم يقتل لانقلب علمه جهلاً، وقد بينا أيضاً أن ممكن فلا بد من انتهائه إلى إيجاد الله تعالى، فلو لم يوجد لانقلبت قدرته عجزاً، وكل ذلك محال، ومما يدل على تحقيق الوجوب كما قررنا قوله : ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ وهذه الكلمة تفيد وجوب الفعل، وهاهنا لايمكن حملها على وجوب الفعل، فوجب حملها عل وجوب الوجود وهذا كلام فى غاية الظهور لمن أيده الله بالتوفيق، ثم نقول للمفسرين: فيه قولان : الأول: لو جلستم فى بيوتكم لخرج منكم من كتب الله عليهم القتل إلى مضاجعهم ومصارعهم حتى يوجد ما علم الله أنه يوجد..

والثانى: كأنه قيل للمنافقين لوجلستم فى بيوتكم وتخلفتم عن الجهاد لخرج المؤمنون الذين كتب عليهم قتال الكفار إلى مضاجعهم، ولم يتخلفوا عن هذه الطاعة بسبب تخلفكم.

الوجه الثانى فى الجواب عن تلك الشبة: قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وذلك لأن القوم زعموا أن الخروج إلى تلك المقاتلة كان مفسدة، ولو كان الأمر إليهم لماخرجوا إليها، فقال تعالى: بل هذه المقاتلة مشتملة على نوعين من المصلحة:

أن يتميز الموافق من المنافق، وفى المثل المشهور: لاتكرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين.

فإن قيل: لم ذكر الابتلاء وقد سبق ذكره فى قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

قلنا: لما طال الكلام أعاد ذكره، وقيل الابتلاء الأول هزيمة المؤمنين، والثانى سائر الأحوال.

الوجه الثالث فى الجواب: قوله :﴿لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وفيه وجهان.

(١) الفخر ٥/٩/٥٢.
(٢) الفخر ٥/٩/٥٢.

أحدهما: أن هذه الواقعة تمحص قلوبكم عن الوساوس والشبهات.

الثانى : أنها تصير كفارة لذنوبكم فتمحصكم عن تبعات المعاصى والسيئات، وذكر فى الابتلاء: الصدور، وفى التمحيص: القلوب، وفيه بحث ثم قال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

واعلم أن ذات الصدور هى الأشياء الموجودة فى الصدور، وهى الأسرار والضمائر، وهى ذات الصدور، لأنها حالة فيها مصاحبة لها، وصاحب الشيء ذوه وصاحبته ذاته، وإنما ذكر ذلك ليدل به على أن ابتلاءه لم يكن لأنه يخفى عليه مافى الصدور، أو غير ذلك، لأنه عالم بجميع المعلومات وإنما ابتلاهم أما لمحض الألهية، أو للإستصلاح.

قال القرطبى (١): فرد الله عليهم فقال ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ﴾ أى خارج ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾ أى فرض. ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ يعنى فى اللوح المحفوظ. ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى مصارعهم . وقيل: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ أى فرض عليهم القتال؛ فعبر عنه بالقتل لأنه قد يؤول إليه. وقرأ أبو حيوة «لبرز» بضم الياء وشد الراء،بمعنى يجعل يخرج. وقيل : لو تخلفتم أيها المنافقين لبرزتم إلى موطن آخر غيره تصرعون فيه حتى يبتلى الله مافى الصدور ويظهره للمؤمنين. و الواو فى قوله «وليبتلى» مقحمة كقوله: ﴿وليكون من الموقنين﴾ أى ليكون،وحذف الفعل الذى مع لام كى. والتقدير ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فرض الله عليكم القتال والحرب ولم ينصركم يوم أحد ليختبر صبركم وليمحص عنكم سيئاتكم إن تبتم وأخلصتم. وقيل : معنى «ليتبلى» ليعاملكم صبركم معاملة المختبر. وقيل : ليقع منكم مشاهدة ما علمه غيباً. وقيل : هو على حذف مضاف، والتقدير ليبتلى أولياء الله تعالى . وقد تقدم معنى التمحيص. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى مافيها من خير وشر. وقيل : ذات الصدور هى الصدور؛ لأن ذات الشيء نفسه.

قال ابن كثير (٢): بعد أن ذكر أثر أنس عن أبى طلحة المتقدم عند الطبرى وفيه: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أى: إنما هم أهل شك وريب فى الله عز وجل. هكذا رواه البيهقى بهذه الزيادة، وكأنها من كلام قتادة ـ أحد رواة الحديث ـ وهو كما

(١)تفسير القرطبى ٣/ ١٤٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٥).

قال، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾، يعنى أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق وهم جازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعنى لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كما قال فى الآية الأخرى ﴿لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ إلى آخر الآية، وهكذا اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد آباد وأهله.

وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة. اهـ.

قال الشوكانى (١) ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ استئناف كأنه قيل: ما هو الأمر الذى يخفون فى أنفسهم ؟ فقيل: يقولون فيما بينهم أوفى أنفسهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أى ما قتل من قتل منا فى هذه المعركة.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد :

قال سليمان (٢): قال وقول الله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾الآية. ش: قال ابن كثير : فسر ما أخفوه فى أنفسهم بقوله : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أى يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى : هذا قدر مقدر من الله عزوجل، وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولامناص منه.

قلت: سليمان آل الشيخ : فتبين وجه إيراد المصنف الآية على الترجمة.

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٣): قوله: وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ قاله بعض المنافقين يوم أحد، لخوفهم وجزعهم، وخورهم اهـ.

---

(١) فتح القدير ١/ ٤٧٤

(٢) تيسير العزيز ٤٤٩

(٣) فتح المجيد (٢/ ٦٤٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾(١).

قال عبد اللـه بن جار الله (٢): قاله ـ أي: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية ـ بعض المنافقين يوم غزوة أحد لجزعهم وخوفهم من ذلك اليوم . اهـ.

قال ابن باز (٣): هذا ذم لهم وعيب . اهـ.

قال ابن عثيمين(٤) قوله:«هاهنا»

أي: في أحد.

هذا من الاعتراض على الشرع؛ لأنهم عتبوا على الرسول ﷺ حيث خرج بدون موافقتهم، ويمكن أن يكون اعتراضاً على القدر أيضاً؛ أي: لو كان لنا من حسن التدبير والرأي شيء ما خرجنا فنقتل. اهـ.

قال القرعاوي(٥) يكشف ـ الله ـ نفاقهم مخبراً أنهم لم يثقوا بوعد الله ورسوله مستدلين على ذلك بقتلهم في غزوة أحد، لكن الله سبحانه وتعالى يؤكد أن كل ما جرى حاصل بقضائه وقدره، فذلك امتحاناً لإخلاصهم، وإظهاراً لحقيقتهم.

الفوائد : ١ أن الخير والشر مقدر من الله عز وجل.

٢ ـ أن الشدائد تظهر الحقائق.

٣ ـ الأعتراض على القدر من علامات النفاق الإعتقادي.

٤ الأسباب لا تمنع الأقدار. اهـ.



قوله: وقوله﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾

● **مناسبة الآية للباب:**

قال عبد اللـه بن جار الله(٦) أن الله ذم فيهما ـ الآيتين ـ المنافقين على معارضة القدر . اهـ .

---

(١) آل عمران: ١٦٨

(٢) الجامع الفريد (١٩٧).

(٣) التعليق المفيد (٢٤٩).

(٤) القول المفيد ٣/ ١٥٤،١٥٥

(٥) الجديد (٤٢١). .

(٦) الجامع الفريد (١٩٦)

قال القرعاوى[1] دلت الآية على تحريم الإعتراض على القدر للتوحيد .اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد [2]: حيث دلت الآية على وجوب الاستسلام للقضاء والقدر لأن ذلك من كمال التوحيد . اهـ.

الإعراب: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا ﴾.

قال الرازى : محل ﴿ الَّذِينَ ﴾. وجوه.

أحدها: النصب على البدل من ﴿ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾.

ثانيها: الرفع من البدل من الضمير فى ﴿يَكْتُمُونَ﴾.

وثالثها: الرفع على خبر الابتداء بتقدير: هم الذين.

ورابعها: أن يكون نصباً على الذم. اهـ.

قال الرازى: الذين اسم موصول لـك فى إعرابه وجوه متساوية منـها أن تعربه بدلا من اسم الموصول فى الآية المتقدمة أى الذين نافقوا أو من الواو فى نافقوا أو تنصبه على الذم بفعل محذوف تقديره أذم وهو شائع فى كلامهم ويدل على تجسيد وتصوير ولك أن ترفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف فتكون الجملة مستأنفة وجمـلة قالوا صلة ولاخوانهم جا ر ومجرور متـعلقان بقالوا والواو يجوز فـيها أن تكون حالية أو عاطفـة والجملة أما حالية من الواو فى قالوا وقد مقدرة وأما معطوفة على جملة قالوا. اهـ.

● **أسباب نزول الآية :**

عن قتادة قوله:﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الآية ذكر لنا أنها نزلت فى عدو الله عبد الله بن أبى[2] .

وعن السدى قال: هم عبدالله بن أبى وأصحابه[3] .

عن ابن جريـج قال هو عبدالله بن أبى الـذى قعد وقال لاخوانه الذيـن خرجوا مع النبى ﷺ يوم أحد ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[4] الآية.

(١، ٢) الجديد (٤٢٣). . .

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٦٧) وزاد نسبته لابن المنذر.

(٣) أخرجه ابن جرير فى المصدر.

(٤) أخرجه ابن جـرير فى الموضع السـابق وذكره السيوطـى فى «الدر» (٢/ ١٦٧) وزاد نسبتـه لابن أبى حاتم فانظر بتخريجنا.

قال ابن جريج عن مجاهد قال قال جابر : هو عبد الله بن أبى ابن سلول[١] .

وعن الربيع قـوله الذين ﴿ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا ﴾ الآية قال نزلـت فى عدو الله عبدالله بن أبى[٢].

عن السدى قال : خرج رسول الله ﷺ يوم أحد فى ألف رجل وقد وعدهم الفتح إن صبروا فلماخرجوا رجع عداالله بن أبى فى ثلاث مائة فتبعهم أبو جابر السلمى يدعوهم، فلما غلبوه وقالوا لـه: مانعلم قتالاً ولئن أطعنا لترجعن معـنا. فذكر الله. قولهم: ولئن أطعتنا لترجعن ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾[٣].

وعن ابن عباس: نزلت فى عبد الله بن أبى.

عن ابن شهاب قال: إن الله أنزل على نبيه فى القدرية ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[٤].

● **ما جاء فى تفسير الآية من آثار :**

روى عن ابن إسـحاق ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ الذى أصيبوا معكـم من عشائرهم وقومهم ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الآية أى لا بد من المـوت فإن استطعتم أن تـدفعوه عن أنفسكم فافعلوا وذلك أنهم إنما نافقوا وتركوا الجهاد فى سبيل الله حرصا على البقاء فى الدنيا وقرارات من الموت ذكر من قال ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ هذا القول هم الذين قال الله فيهم ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾[٥]

عن الحسن فى الآية قال: هم الكـفار يقولون لإخوانهم ﴿ لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا قُتِلُوا﴾، يحسبون أن حضورهم للقتال هو يقدمهم إلى الأجل[٦].

● **ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين :**

قال الطبرى[٧]: يعنـى تعالى ذكـره بذلك وليعـلم الله الذين نـافقوا الذيـن قالوا

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وانظر «الدرن» (٢/ ١٦٧).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٦٧) ونسبه لابن جرير.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٦٨) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤/ ١١٢) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٦٧) وزاد نسبته لابن أبى حاتم.

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٦٨) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٧) الطبرى ٣/ ٤/ ١١٢ .

لإخوانهم وقعدوا فموضع الذين نصب علـى الإبدال من الذين نافقوا وقد يجوز أن يكون رفعاً على التـرجمة عما فى قوله يكتمـون من ذكر الذين نافقوا فمعنـى الآية وليعلم الله الذين قالـوا لإخوانهم الذين أصيبـوا مع المسلمين فـى حربهم المشركين بـأحد يوم أحد فقتلوا هنالك من عـشائرهم وقومهم وقعدوا يعنى وقعد هؤلاء المنافـقون القائلون ما قالوا مما أخبر الله عز وجل عنهم من قبلهم عن الجـهاد مع إخوانهم وعشائرهم فى سبيل الله لو أطاعونا يعنى لو أطاعـنا من قتل بأحد من إخواننا وعشائرنا ما قتلـوا يعنى ما قتتلوا هنالك. قال الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ: قل يا مـحمد لهؤلاء القائلين هذه المقالة من المنافقين فادرؤا يعنى فادفعوا من قول القائل درأت عن فلان القتل بمعنى دفعت عنه أدرؤه درأ ومنه قول الشاعر

تقول وقد درأت لها وضنى أهذا دينه زبدا ودينى

يقول تعالى ذكره قل لهم فادفعوا إن كنتم أيها المنافقون صادقين فى قبلكم لو أطاعنا إخواننا فـى ترك الجهاد فى سبيـل الله مع محمد ﷺ وقتـالهم أبا سفيان ومـن معه من قريش ما قتلـواهنالك بالسيف ولكانوا أحيـاد بقعودهم معكم وتخلفـهم عن محمد ﷺ وشهود جهاد أعداء الله معه الموت فانكم قد قعدتم عـن حربهم وقد تخلفتم عن جهادهم وأنتم لا محالة ميتون.

قال البغوى[1]: قوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾، يعنى قعد هؤلاء القائلون عن الجهاد.

قوله : ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ وانصرفوا عن محمد ﷺ وقعدوا فى بيوتهم. اهـ.

قال ابن الجوزى[2]: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ فى إخوانهم قولان:

أحدهما: أنهم فى النفاق، قاله ابن عباس.

الثانى: إخوانهم فى النسب، قاله مقاتل.

فعلى الأولى يكون المعنى: قالوا لإخوانهم المنافقين. لو أطاعنا الذين قتلوا مع محمد ما قتلوا.

وعلى الثانى يكون المعنى: قالوا عن إخوانـهم الذين استشهدوا بأحد لو أطاعونا ما قتلوا.

---

(١) معالم التنزيل (١/٥٧٨، ٥٧٩).

(٢) زاد المسير ١/٣٩٨.

قال الرازى[1]: اعلم أن الذين حكى الله عنهم أنهم ﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ وصفهم الله تعالى بأنهم كما قعدوا واحتجوا لقعودهم، فكذلك ثبطوا غيرهم واحتجوا لذلك، فحكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا لإخوانهم إن الخارجين لو أطاعونا ماقتلوا، فخوفوا من مراده موافقة الرسول ﷺ، فى محاربة الكفار بالقتل لما عرفوا ماجرى يوم أحد من الكفار على المسلمين من القتل، لأن المعلوم من الطباع محبةالحياة فكان وقوع هذه الشبهة فى القلوب يجرى مجرى مايورده الشيطان من الوسواس، وفى الآية مسائل.

المسألة الأولى : قال المفسرون: المراد ﴿بـ الَّذِينَ قَالُوا﴾ عبدالله بن أبى وأصحابه، وقال الأصم : هذا لايجوز لأن عبد الله بن أبى خرج مع النبى ﷺ فى الجهاد يوم أحد، وهذا القول فهو واقع فيمن قد تخلف لأنه قال ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أى فى القعود ما قتلوا فهو كلام متأخر عن الجهاد، قاله لمن خرج إلى الجهاد ولمن هو قوى النية فى ذلك ليجعله شبهة فيمابعده صارفاً لهم عن الجهاد.

المسألة الثانية: ﴿ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ ﴾ : أى قالوا لأجل إخوانهم، وقد سبق بيان ا لمراد من هذه الأخوة، الأخوة فى النسب، أو الأخوة بسبب المشاركة فى الدار، أو فى عداوة الرسول ﷺ، أوفى عبادة الأوثان؟ والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال الواحدى : الواو فى قوله : ﴿ لإِخْوَانِهِمْ ﴾ للحال ومعنى هذا القعود القعود عن الجهاد يعنى من قتل بأحد لو قعدوا كما قعدنا وفعلوا كما فعلنا لسلموا ولم يقتلوا، ثم أجاب الله عن ذلك بقوله :﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال ناصر السعدى[2]: وفى هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصله كفر، وخصله إيمان وقد يكون إحداهما أقرب من الآخر.

هذه الآيات الكريمات فيها فضل الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه.

وفى ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم، وتعزيتهم، وتنشيطهم للجهاد فى سبيل الله والتعرض للشهادة . فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾

(١) «التفسير الكبير» (٥/٩/ ٩٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٧٦ .

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد :

قال سليمان آل الشيخ[1]: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ إخوانهم هم المسلمون المجاهدون، وسموا إخوانهم لموافقتهم فى الظاهر. وقيل : إخوانهم فى النسب لافى الدين ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

قال ابن كثير : لوسمعوا مشورتنا عليهم فى القعود،وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل.

قال ابن عثيمين [2]:

قوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾ .

الواو إما أن تكون عاطفة والجملة معطوفة على ﴿قَالُوا﴾، ويكون وصف هؤلاء بأمرين:

- بالاعتراض على القدر بقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

- وبالجبن عن تنفيذ الشرع«الجهاد» بقولهم ﴿وَقَعَدُوا﴾، أو تكون الواو للحال والجملة حالية على تقدير «قد»؛ أى :والحال أنهم قد قعدوا؛ ففيه توبيخ لهم حيث قالوا: قعودهم، ولو كان فيهم خير لخرجوا مع الناس، لكن فيهم الاعتراض على المؤمنين وعلى قضاء الله وقدره.

قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾

قيل: فى النسب لا فى الدين، وقيل : فى الدين ظاهراً؛ لأن المنافقين يتظاهرون بالإسلام، ولو قيل: إنه شامل للأمرين؛ لكان صحيحاً.

قوله :﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

الإعراب[3]: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ ﴿لَوْ﴾ شرطية ﴿و أَطَاعُونَا﴾ فعل ماض وفاعل ومفعول به ﴿وَمَا﴾ نافية ﴿وقُتِلُوا﴾ فعل ماض مبنى للمجهول والواو نائب فاعل

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٩٩.
(٢) القول المفيد ٣/ ١٥٥ .
(٣) إعراب القرآن ٢/ ١٠٥.

وجملة ﴿ مَا قُتِلُوا﴾ لامحل لها لإنها جواب شـرط غير جازم وجملة ﴿لَوْ أَطَاعُونَا ﴾ فى محل نصب مقول القول. اهـ.

○ ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين :

قال الرزاى(١): فإن قيل : ما وجه الاستدلال بذلك مع أن الفرق ظاهر فإن التحرز عن القتل ممكن أما التحرز عن الموت فهو غير ممكن البتة.

والجواب : هذا الدليل الذى ذكره الله تعالى لايتمشى إلا إذا اعترفنا بالقضاء والقدر، وذلك لأنا إذا قلنا لايدخل الشىء فى الوجـود إلا بقضاء الله وقدره، اعترفنا بأن الكافر لا يقتل المسلم إلا بقضاء الله،وحينئذ لايبقى بين القتل وبين الموت فرق، فيصح الاستدلال أما إذا قلنا بأن فعل العبد ليس بتقدير الله وقضائه، كان الفرق بين الموت والقتل ظاهراً من الوجه الذى ذكرتم، فتفضى إلى فساد الدليل الذى ذكره الله تعالى، ومعلوم أن المفضى إلى ذلك يكون باطلاً، فثبت أن هذه الآية دالة على أن الكل بقضاء الله.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد :

قال سليمان آل الشيخ(٢):

قال الله تعالى ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى : إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغى أنكم لاتموتون، والموت لابد آت إليكم ولو كنتم فى بروج مشيدة. فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

قال مجاهد: عن جابر عبدالله نزلت هذه الاية فى عبدالله بن أبى.(٣)

قلت ـ سليمان: وكان أشار على رسول الله ﷺ، يوم أحد بعدم الخروج، فلما قدر الله الأمر قال ذلك تصويباً لرأيه، ورفعاً لشأنه فرد الله عليه وعلى أمثاله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فلا تعذرون عن ذلك. فعلم أن ذلك بقضاء الله

(١) الفخر الرازى ٩١/٩/٥.

(٢) تيسير العزيز ٥٠٠.

(٣) تقدم تخريجه.

وقدره أى: يستوى الذى فى وسط الصفوف والذى فى البروج المشيدة فى القتل والموت. بل ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ فلا ينجى حذر عن قدر. وفى ضمن ذلك قول (لو) ونحوه فى مثل هذا المقام؛ لأن ذلك لايجدى شيئاً، إذ المقدر قد وقع فلا سبيل إلى دفعه أبداً ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾

ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وإن كنتم قاعدين؛ فلا تستطيعون أيضاً أن تدرؤوا عن أنفسكم الموت.

فهذه الآية والتى قبلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون محكوماً بشرع الله.

قال عبد الرحمن آل الشيخ :(١):

قال شيخ الإسلام(٢) ـ رحمه الله ـ لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أُبى فى غزوة أُحد، قال: فلما انخذل يوم أحد وقال: يدع رأيى ورأيه، ويأخذ برأى الصبيان؟ ـ أو كما قال ـ انخذل معه خلق كثير، كان كثير منهم لما ينافق قبل ذلك، فأولئك كانوا مسلمين، وكان معهم إيمان هو الضوء الذى ضرب الله به المثل، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الإسلام الذى يثابون عليه، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة.

وهذا حال كثير من المسلمين فى زماننا أو أكثرهم، إذا ابتلوا بالمحنة التى يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيراً، وينافق كثير منهم، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً، وقد رأينا ـ ورأى غيرنا ـ من هذا ما فيه عبرة، وإذا كانت العافية، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسل باطناً وظاهراً، لكنه إيمان لا يثبت على المحنة، ولهذا يكثر فى هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا، فقيل لهم ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: الإيمان المطلق الذى أهله هم المؤمنون حقاً، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق فى كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتاب والسنة..... فلم يحصل لهم ريب عند المحن التى تقلقل الإيمان فى القلوب انتهى.

---

(١) فتح المجيد (٢/ ٦٤٦، ٦٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٠، ٢٨١).

[قلت] ـ أى عبد الرحمن آل الشيخ ـ : قوله: (وقد رأينا ـ ورأى غيرنا ـ من هذا ما فيه عبرة) ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعانتهم العدو على المسلمين، والطعن فى الدين، وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجهد فى إطفاء نور الإسلام، وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره. والله المستعان . اهـ.

قلت: ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو والجاهلية من إعانة الجاهلين علي المسلمين وكشف عوارتهم عندهم والتقرب إليهم بسبهم أو الطعن عليهم أو على منهجهم وإظهار العداوة بالقول والفعل وإظهارك الشماته. . .إلخ

قال عبد الله بن جار الله(١): يقول تعالى مخبراً عن المنافقين الذين قالوا لإخوانهم ممن قتلوا فى غزوة أحد مع رسول الله ﷺ لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج للجهاد ما قتلوا مع من قتل . اهـ.

قال ابن باز(٢): ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ فدل هذا على أنه لا يجوز استعمالها عند معارضة القدر فى مرض أو هزيمة أو نحو ذلك، وإن هذا من شأن المنافقين لأن قدر الله ماض وشأنه نافذ، وإنما شرع الأسباب لحكمة بالغة، فعلى المسلم أن يتعاطى الأسباب، فإذا نزل القضاء فليس له أن يعترض بعد ذلك . اهـ.

قال ابن عيثمين(٣): قوله ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ هذا غير صحيح، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإن كنتم قاعدين، فلا تستطيعون أيضاً أن تدرؤوا عن أنفسكم الموت.

فهذه الآية والتى قبلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون محكوماً بشرع الله . اهـ.

قال القرعاوى(٤): يخبرنا الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية عما جرى من المحاورة بين المؤمنين والمنافقين حينما جبنوا وقعدوا عن الجهاد وشمتوا بالمؤمنين الذين قتلوا فى أحد فى الهزيمة التى سببها مخالفة أمر رسول الله ﷺ وزعموا أن المؤمنين لو أخذوا

(١) الجامع الفريد (١٩٧).
(٢) التعليق المفيد (٢٤٩).
(٣) القول المفيد (٣/ ١٥٥، ١٥٦).
(٤) الجديد (٤٢٢، ٤٢٣).

فِى الصَّحِيحِ عَنْ أبى هُـرَيْرَةَ رضى الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَال : «احرص عَلَى مَا يَـنفَعُكَ، واسْتَعِن بالله ولاَ تَـعْجِزَنَّ، وَإِن أَصَابَكَ شَىء؛ فَلاَ تَـقُل: لَو أَنِّى فَعَلتُ كَـذَا؛ لَكَانَ كَذَا وكَذا، ولَكِن قُـل: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَل؛ فَإِنَّ (لَـوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ»(١).

بمشورتهم وجلسوا فى المدينة لسلموا ثم تحداهم الله سبحانه وتعالى بأن ينجوا أنفسهم من الموت إذا حل بهم إن كانوا صادقين أن الحذر ينجى من القدر.

الفوائد : (١) مشروعية الجهاد فى سبيل الله.

(٢) حظر المنافقين على المسلمين.

(٣) الحذر لا ينجى من القدر. اهـ.

● **مناسبة الحديث للباب :**

قال القرعاوى : حيث دل الحديث على تحريم الاعتراض على القدر. اهـ.

● **مناسبة الحديث للتوحيد :**

قال القرعاوى : حيث دل الحديث على وجوب الاستسلام للقضاء والقدر لأن ذلك من تمام التوحيد. اهـ.

قوله: فى الصحيح

قال سليمان آل الشيخ(٢) أى: (صحيح مسلم) . اهـ.

والحديث بتمامه: فِى الصَّحِيحِ عَنْ أبى هُـرَيْرَة، قَالَ: قَالَ رَسُولَ الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْـرٌ وَأَحبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِـنِ الضَّعِيف. وَفِى كُلٍّ خَيْـرٌ. احْرِصْ عَلَى مَايَـنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِالله. وَلاَ تَعْجَزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله. وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «القدر»/ باب. الإيمان بالقدر والإيمان (٦/ ١٦/ ٢١٥ ـ النووى)، وابن ماجه فى الزهد باب: التوكل من اليقين (٢/ ١٣٩٥/ ح ٤١٦٨) وابن حبان فى «صحيحه» (٧/ ٤٩٠/ح ٥٦٩٢ ـ الإحسان).

من طريق الأعرج وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٠١) بتخريجنا.

(٢) التيسير ٥٠٠.

قوله: (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).

قال النووى[1] والمراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة فى أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو فى الجهاد، وأسرع خروجاً إليه، وذهاباً فى طلبه، وأشد عزيمة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على الأذى فى كل ذلك، واحتمال المشاق فى ذات الله تعالى، وأرغب فى الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلباً لها، ومحافظة عليها، ونحو ذلك.

قال سليمان آل الشيخ[2] فيه أن الله سبحانه موصوف بالمحبة، وأنه يحب على الحقيقة كما قال: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ وفيه أنه سبحانه يحب مقتضى أسمائه وصفاته، وما يوافقها فهو القوى، ويحب المؤمن القوى، وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ومحسن يحب المحسنين، وصبور يحب الصابرين، وشكور يحب الشاكرين.

قلت ـ أى سليمان ـ: الظاهر أن المراد القوة فى أمر الله وتنفيذه، والمسابقة بالخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على ما يصيب فى ذات الله ونحو ذلك، لاقوة البدن. ولهذا مدح الله الأنبياء بذلك فى قوله: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ**﴾ فالأيدى القوة، والعزائم فى تنفيذ أمر الله وقوله: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: **قوله: «القوى».**

أى: فى إيمانه وما يقتضيه إيمانه، ففى إيمانه؛ يعنى: ما يحل فى قلبه من اليقين الصادق الذى لا يعتريه شك، وفيما يقتضيه؛ يعنى: العمل الصالح من الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والحزم فى العبادات وما أشبه ذلك.

وهل يدخل فى ذلك قوة البدن؟

الجواب: لا يدخل فى ذلك قوة البدن إلا إذا كان فى قوة بدنه ما يزيد إيمانه أو يزيد ما يقتضيه؛ لأن «القوى» وصف عائد على موصوف وهو المؤمن؛ فالمراد: القوى فى إيمانه أو ما يقتضيه، ولا شك أن قوة البدن نعمة، إن استعملت فى الخير فخير، وإن استعملت فى الشر فشر.

---

(١) شرح مسلم في الموضع قبل السابق.
(٢) تيسير العزيز الحميد (٥٠٣).
(٣) القول المفيد ٣/ ١٥٧ ـ ١٥٨.

قلت: ويؤيد الدخول على التفصيل المتقدم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ الآية وقوله ﷺ «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»

قوله: «خير وأحب إلى الله».

قال ابن عثيمين: خير فى تأثيره وآثاره؛ فهو ينفع ويُقتدى به، وأحب إلى الله باعتبار الثواب.

قوله: **«من المؤمن الضعيف».**

وذلك فى الإيمان أو فيما يقتضيه لا فى قوة البدن.

قوله: «وفى كل خير».

قال النووى(١): وأما قوله ﷺ: **«وفى كل خير»** فمعناه: فى كل من القوى والضعيف خير؛ لاشتراكهما فى الإيمان مع ما يأتى به الضعيف من العبادات.

قال سليمان آل الشيخ(٢): أى: كل من المؤمن القوى والمؤمن الضعيف على خير وعافية، لاشتراكهما في الإيمان والعمل الصالح. ولكن القوى فى إيمانه ودينه أحب إلى الله. وفيه أن محبة المؤمنين تتفاضل فيحب بعضهم أكثر من بعض.

قال ابن عثيمين(٣): أى: فى كل من القوى والضعيف خير، وهذا النوع من التذييل يسمى عند البلاغيين بالاحتراس حتى لا يظن أنه لا خير فى الضعيف.

فإن قيل: إن الخيرية معلومة فى قوله: «خير وأحب»؛ لأن الأصل فى اسم التفضيل اتفاق المفضل والمفضل عليه فى أصل الوصف؟

فالجواب: أنه قد يخرج عن الأصل؛ كما فى قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ مع أن أهل النار لا خير فى مستقرهم.

كذلك الإنسان إذا سمع هذه الجملة: «خير وأحب» صار فى نفسه انتقاص للمؤمن المفضل عليه، فإذا قيل: «وفى كل خير» رفع من شأنه، ونظيره قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

(١) شرح مسلم للنووى/ ٤٩٧.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٠٣.
(٣) القول المفيد ٣/ ١٥٨ ـ ١٥٩.

قلت: وفيه تفاضل أهل الإيمان بزيادة الإيمان ونقصه وفي الرد على الخوارج الذين يقولون إن الآيمان يزيد ولاينقص

قوله: «احرص على ما ينفعك».

قال النووى[1] – رحمه الله بكسر الراء.

قال سليمان آل الشيخ[2]: وقوله: **«احرص على ما ينفعك»** هو بفتح الراء وكسرها.

قال ابن القيم: سعادة الإنسان فى حرصه على ما ينفعه فى معاشه ومعاده ، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودًا ، وكماله كله فى مجموعَ هذين الأمرين أن يكون حريصًا، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على مالا ينفعه أو فعل ما ينفعه بغير حرص فإنه من الكمال بحسب ما فاته من ذلك ، فالخير كله فى الحرص على ما ينفع . اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: أى : فى معاشك ومعادك. والمراد: الحرصُ على فعل الأسباب التى تنفع العبد فى دُنياه وأُخراه، مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة، ويكون العبدُ فى حال فعله السبب مُستعينًا بالله وحده دون كل ما سواه، ليتم له سببه وينفعه، فيكون اعتمادُه على الله تعالى فى ذلك، لأنه تعالى هو الذى خلق السبب والمسبب، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به، فيكون اعتماده فى فعل السبب على الله تعالى، ففعل السبب سنة والتوكل عل الله توحيد فإذا جمع بينهما : تم له مرادُه . اهـ.

قال ابن عثيمين[4]:

قوله: «احرص على ما ينفعك»

الحرص: بذل الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا.

وأفعال العباد بحسب السبّر والتقسيم لا تخلو من أربع حالات .

١- نافعة، وهذه مأمور بها .

٢- ضارة، وهذه محذر منها.

٣- فيها نفع وضرر.

---

(١) شرح مسلم. ٤٦٧.

(٢) فتح المجيد ٢/٧٦٩.

(٣) فتح المجيد ٢/٧٦٩.

(٤) القول المفيد ٣/١٥٩.

٤- لا نفع فيها ولا ضرر، وهذه لا يتعلق بها أمر ولا نهى، لكن الغالب أن لا تقع إلا وسيلة إلى ما فيه أمر أو نهى، فتأخذ حكم الغاية، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

فالأمر لا يخلو من نفع أو ضرر، إما لذاته أو لغيره ، فحديثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر، لكن قد يتكلم الإنسان ويتحدث لأجل إدخال السرور على غيره فيكون نفعًا ، ولا يمكن أن تجد شيئًا من الأمور والحوادث ليس فيها نفع ولا ضرر، إما ذاتى، أو عارض إنما ذكرناه لأجل تمام السبر والتقسيم.

والعاقل يشح بوقته أن يصرفه فيما لا نفع فيه ولا ضرر ، قال النبى ﷺ : **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت»**(١).

واتصال هذه الجملة بما قبلها ظاهرًا جدًا، لأن من القوة الحرص على ما ينفع.

«وما» : اسم موصول بفعل (ينفع) والاسم الموصول يحول بصلته إلى اسم فاعل، كأنه قال: احرص على النافع، وإنما قلت ذلك لأجل أن أقول: إن النبى ﷺ أمرنا بالحرص على النافع ، ومعناه أن نقدم الأنفع على النافع، لأن الأنفع مشتمل على أصل النفع وعلى الزيادة ، وهذه الزيادة لابد أن نحرص عليها، لأن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب ما يشتمل عليه تأكد لك الوصف، فإن قلت: أنا أكره الفاسقين كان كل من كان أشد فى الفسق إليك أكره، فنقدم الأنفع على النافع لوجهين:

١- أنه مشتمل على النفع وزيادة.

٢- أن الحكم إذا عُلق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب تأكد ذلك الوصف وقوته.

ويؤخذ من الحديث وجوب الابتعاد عن الضار، لأن الابتعاد عنه انتفاع وسلامة.

قلت: وفيه أنه إذا حص على النافع ما استطاع بما أتاه الله من قوة فهذا أدعى لعدم الندم والرضى إذا فاته مقصوده ولم يوفق له.

قوله (استعن بالله).

---

(١)[متفق عليه] أخرجه : البخارى (١١)، ومسلم (فى الإيمان (٢/ ١٢ ـ النووى) ، عن أبى هريرة رضى الله عنه.
وانظر «رياض الصالحين» (١٥١٥ ـ بتخريجنا).

[قلت]:

تقدم معنا فى باب (من الشرك الاستعاذة بغير الله) والباب الذى بعده **(من الشرك أن يستغيث بغير الله)** الفرق بين الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة، ومن اعتبرها مرادفات، كان صرف شيء من ذلك شرك، فالتوحيد أن يستعيذ ويستغيث ويستعين بالله، لذا قال ﷺ: مرشداً لهذا النوع من التوحيد (استعن بالله) لأن التوحيد فيه القوة، العجز يؤدى للشرك، فالإستعانة بالله فى جميع الأمور تنفع العبد وتقوى إيمانه. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ[1]:

قال ابن القيم: لما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته، وتوفيقه، أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن حرصه على ما ينفعه عبادة الله، ولا تتم إلا بمعونته: فأمره بأن يعبده ويستعين به، وقال غيره: «استعن بالله» أى: اطلب الإعانة فى جميع أمورك من الله لا من غيره، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2] فإن العبد عاجز لا يقدر على شيء إن لم يعنه الله عليه، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه، إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول.

وقد كان النبى ﷺ يقول فى خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا: **إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه**»[3].

[قلت] ومن دعاء القنوت «اللَّهم إنا نستعينك»[4].

وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع فى دبر كل صلاة أن يقول: **«اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**[5] وكان ذلك من دعائه ﷺ

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٠٣

(٢) الفاتحة: ٥

(٣)[صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٣/ ٤١٩/ ٤٦) عن ابن عباس بدون «ونستهديه» فقد ذكر الشيخ الألبانى ـ رحمه الله ـ انها لا أصل لها فى مقدمة الصحيحة الجزء الخامس.

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٧/ ١١٥)، والبيهقى فى «الكبرى» (٢/ ٢١٠ ـ ٢١١) عن عمر به وانظر «الإتقان» (٥٣٨ ـ بتخريجنا).

(٥) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائى (٣/ ٥٣ ـ السيوطى) عن معاذ به.

وانظر «رياض الصالحين» (٣٨٥ ـ بتخريجنا).

ومنه أيضًا : «رب أعنى ولا تعن على» [1] وإذا حقق العبد مقام الاستعانة وعمل به، كان مستعينًا بالله عز وجل متوكلاً عليه، راغبًا وراهباً إليه، فيستحق له مقام التوحيد إن شاء الله تعالى. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: الواو تقتضى الجمع فتكون الاستعانة مقرونة بالحرص، والحرص سابق على الفعل ، فلابد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل من أوله.

والاستعانة: طلب العون بلسان المقال، كقولك: «اللهم أعنى، أو: لا حول ولا قوة إلا بالله» عند شروعك بالفعل .

أو بلسان الحال، وهى أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى ربك - عز وجل - أن يعينك على هذا الفعل ، وأنه إن وكلك إلى نفسك وكلك إلى ضعف وعجز وعورة.

أو طلب العون بهما جميعًا ، والغالب أن من استعان بلسان المقال، فقد استعان بلسان الحال.

ولو احتاج الإنسان إلى الاستعانة بالمخلوق كحمل صندوق مثلاً ، فهذا جائز ولكن لا تشعر نفسك أنها كاستعانتك بالخالق، وإنما عليك أن تشعر أنها كمعونة بعض أعضائك لبعض، كما لو عجزت عن حمل شىء بيد واحدة، فإنك تستعين على حمله باليد الأخرى، وعلى هذا، فالاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه كالاستعانة ببعض أعضائك ، فلا تنافى قوله ﷺ: «استعن بالله».اهـ.

قوله: (ولا تعجزن).

[قلت] : كذا وجدناها بإثبات النون، وفى صحيح مسلم بحذفها.

قال النووى[3]: بكسر الجيم: وحكى فتحهما جميعًا ومعناه: ولاتعجز ولا تكسل على طلب الطاعة ، ولا عن طلب الإعانة.

قال سليمان آل الشيخ[4]: قوله: «ولا تعجزن» وهو بكسر الجيم وفتحها، استعمل الحرص والاجتهاد، وفى تحصيل ما ينفعك من أمر دينك ودنياك التى تستعين بها على صيانة دينك، وصيانة عيالك، ومكارم أخلاقك، ولا تفرط فى طلب ذلك ولا

---

(1) أخرجه أبو داود (١٥١٠)، والترمذى (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٥) عن ابن عباس به.
وانظر «الأذكار للنووى» (١٠٤١ ـ بتخريجنا).

(2) القول المفيد (٣/ ١٦١).

(3) شرح مسلم ٤٦٧

(4) تيسير العزيز الحميد ٥٠٤

تتعاجز عنه متكلاً على القدر ، أو متهاونًا بالأمـر فتنسب للتقصير وتلام على التفريط شرعًا وعقلاً ، مع إنهاء الاجتهاد نهايتـه ، وبلاغ الحرص غايته ، فلابد من الاستعانة بالله والتوكل عليه والالـتجاء فى كل الأمور إليه ، فمن ملك هذين الـطريقين حصل على خير الدارين.

وقال ابـن القـيم: العجز يـنافى حرصه علـى ما ينفعه، ويـنافى استعانـته بالله، فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظـم أسباب حصوله ، وهو الحريـص عليه مع الاستعانـة بمن أزمة الأمور بيده، ومصدرها منه ومردها إليه. اهـ.

قال عبد الرحـمن آل الشيخ[1]: (قوله: «**ولا تعجزن**» النون نونُ التأكيد الخفيفة، نهاه ﷺ عن العجز وذمه والعجز مذمومٌ شرعاً وعقلاً.

وفى الحديث «**الكيـس من دان نفسـه وعمل لما بعـد الموت، والعاجـز من اتبع نـفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى**»[2].اهـ.

قلت: **لذلك كان ﷺ يستعيذ بالله من العجز كما فى الصحيح من حديث أنس:«كان** رسول الله ﷺ **يقول اللهم إنى أعوز بك من العجز والكسل**»[3].

قال ابن عثيمين[4]: قوله: «**ولا تعجزن**» فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيـد الخفيفة، و«لا» : ناهيـة، والمعنى: لا تفعل فـعل العاجز من التـكاسل وعدم الحزم والعزيمة وليس المـعنى: لا يصيبك عجز، لأن العجز عن الشـىء غير التعاجز، فالعجز بغير اختيار الإنسان، لأن ذلك لا طاقـة له به، فلا يتوجه عليه نهى، ولهذا قال النبى ﷺ : «**صل قائمًا، فإن لم تستطيع، فقاعـدًا ، فإن لم تستطع، فعلى جنب**»[5].

فإذا اجتمع الحـرص وعدم التكاسل، اجتمـع فى هذا صدق النية بالحـرص والعزيمة بعدم التكاسل.

---

(١) فتح المجيد ٢/ ٧٦٩

(٢) أخرجه أحـمد فى «مسـنده» (٤/ ١٢٤) ، والترمـذى(٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) عـن شداد بن أوس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٦٧ ـ بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخـارى (٦٣٦٧)، ومسلم(٦/ ١٧/ ٢٩)

وأنـظر تخـريجنا «رياض الصالحين» (ح١٤٧٧)

(٤) القول المفيد ٣/ ١٦١– ١٦٢.

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (١١١٧) عن عمران بن حصين به.

وانظر «السلسبيل» (٤٣٩ ـ بتخريجنا).

لأن بعض الناس يحرص على ما ينفعه ويشرع فيه، ثم يتعاجز ويتكاسل ويدعيه، وهذا خلاف ما أمر به الرسولﷺ فما دمت عرفت أن هذا نافع، فلا تدعه، لأنك إذا عجزت نفسك خسرت العمل الذى عملت ثم عودت نفسك التكاسل والتدنى من حال النشاط والقوة إلى حال العجز والكسل، وكم من إنسان بدأ العمل ـ ولا سيما النافع ـ ثم أتاه الشيطان فثبطه؟!

لكن إذا ظهر فى أثناء العمل أنه ضار" فيجب عليه الرجوع عنه؛ لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل.

وذُكر فى ترجمة الكِسائى أنه بدأ فى طلب علم النحو ثم صعب عليه، فوجد نملة تحمل طعاماً تريد أن تصعد به حائطاً، كلما صعدت قليلاً سقطت، وهكذا حتى صعدت؛ فأخذ درساً من ذلك، فكابد حتى صار إماماً فى النحو. اهـ.

قوله: «وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا»

قال النووى[1]: قال القاضى عياض : قال العلماء: هذا النهى إنما هو لمن قاله معتقدًا ذلك حتمًا ، وأنه لو فعل ذلك لم تصبه قطعًا ، فأما من رد ذلك إلى مشيئة الله تعالى بأنه لن يصيبه إلا ما شاء الله فليس من هذا ، واستدل بقول أبى بكر الصديق- رضى الله عنه- فى الغار **(لو أن أحدهم رفع رأسه لرآنا)**[2]. قال القاضى: وهذا لا حجة فيه، لأنه إنما أخبر عن مستقبل وليس فيه دعوى لرد قدر بعد وقوعه، قال: وكذا جميع ما ذكره البخارى فى باب (ما يجوز من اللو) كحديث **(لولا حدثان عهد قومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم)**[3] **(ولو كنت راجما بغير بينة لرجمت هذه)**[4] **(ولولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك)**[5] وشبه ذلك، فكله مستقبل لا اعتراض فيه على قدر فلا كراهة فيه لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان

---

(١) شرح مسلم /٤٩٧

(٢)[متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٦٥٣)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٨/ ١٦٠/ ١) عن أبى بكر به.

(٣)[متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٢٤٣)، ومسلم فى الحج (٥/٩٩/ ٤٠٠) عن عائشة به.

(٤)[متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٢٣٨)، ومسلم فى اللعان (٥/ ٣٨٣/ ١٣) عن ابن شداد به.

(٥)[متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٢٤٠)، ومسلم فى الطهارة (٢/ ١٤٣/ ٤٢)عن أبى هريرة به.

يفعل لولا المانع، وعما هو فى قدرته، فأما ما ذهب فليس فى قدره، قال القاضى فالذى عندى فى معنى الحديث، أن النهى على ظاهره وعمومه، لكنه نهى تنزيه ويدل عليه قوله ﷺ: (فإن لو تفتح عمل الشيطان).اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: «فإن أصابك شيء» إلى آخره، العبد إذا فاته ما لم يقدر له فله حالتان: حالة عجز وهى مفتاح عمل الشيطان فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة فى «لو» ههنا، بل هى مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح ، وأمره بالحالة الثانية، وهى النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر له لم يفته ، ولم يغلبه عليه أحد فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر، ومشيئة الرب النافذة التى توجب وجود المقدور وإذا انتفت امتنع وجوده، فلهذا قال: «**وإن أصابك شيء**» أى: غلبك الأمر ولم يحصل المقصود بعد بذل جهده والاستعانة بالله فلا تقل: «**لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل**» فأرشده إلى ما ينفعه فى الحالتين. حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغنى عنه العبد أبداً ، بل هو أشد شيء إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب، والاختيار، والقيام بالعبودية باطنًا وظاهرًا فى حالتى حصول المطلوب وعدمه، هذا معنى كلام ابن القيم، وقال القاضى ـكما تقدم من نقل النووى عنه ـ: قال بعض العلماء : هذا النهى إنما هو لمن قاله معتقداً ذلك حتما، وأنه لو فعل ذلك لم يصبه قطعًا ذلك فأما من رد ذلك إلى مشيئة الله تعالى، وأنه لن يصيبه إلا ما شاء الله فليس من هذا، واستدل بقوة أبى بكر الصديق فى الغار: لو أن أحدهم رفع رأسه لرآنا، قال القاضى: وهذا ما لا حجة فيه، لأنه أخبر عن مستقبل، وليس فيه دعوى لرد القدر بعد وقوعه. قال: وكذا جميع ما ذكره البخارى فيما يجوز من اللو.

وكله مستقبل لا اعتراض فيه على قدر ولاكراهة فيه، لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا المانع وعما هو فى قدرته فأما ما ذهب فليس فى قدرته. فإن قيل : ما تصنعون .

(١) تيسير العزيز الحميد (٥٠٤).

بقوله ﷺ: (**لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لم أسق الهدى وجعلتها عمرة**)[1] قيل: هذا كقوله: «**لولا حدثان قومك بالكفر**»[2] ونحوه مما هو خبر عن مستقبل لا اعتراض فيه على قدر، بل هو اخبار لهم أن لو استقبل الإحرام بالحج؛ ماساق الهدى ولا أحرم بالعمرة يقوله لهم لما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة حثاً لهم وتطييباً لقلوبهم لما رآهم توقفوا في أمره، فليس من المنهى عنه، بل هوإخبار لهم عما كان يفعل في المستقبل لوحصل، ولاخلاف في جواز ذلك، وإنما ذلك في معارضة القدر مع اعتقاد أن ذلك المانع لو يقع لوقع خلاف المقدور. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[3]: فأرشده ﷺ في هذا الحديث إذاأصابه مايكره، فلا يقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن يقول: قدر الله وماشاء فعل، أي: هذا قدر الله، والواجب التسليم للقدر، والرضى به، واحتساب الثواب عليه.

قال ابن عثيمين[4]: **قوله: «إن أصابك شيء فلاتقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا».**

هذه هي المرتبة الرابعة مما ذكر في هذا الحديث العظيم إذاحصل خلاف المقصود.

فالمرتبة الأولى: الحرص على ماينفع.

والمرتبة الثانية: الاستعانة بالله.

والمرتبة الثالثة: المضي في الأمر والاستمرار فيه وعدم التعاجز.

وهذه المراتب إليك.

المراتب الرابعة: إذا حصل خلاف المقصود؛ فهذه ليست إليك، وإنما هي بقدر الله، ولهذا قال: «وإن أصابك...»؛ ففوض الأمر إلى الله تعالى.

قوله: «وإن أصابك شيء».

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) فتح المجيد ٢/٧٦٩.

(٤) القول المفيد ٣/١٦٣ ـ ١٦٤

أى: مما لاتحبه ولاتـريده وممايعوقك عن الوصـول إلى مرامك فيما شرعـت فيه من نفع.

فمن خالفه القدر ولم يأت على مطلوبه لايخلو من حالين:

الأولى: أن يقول : لو لم أفعل ماحصل كذا.

الثانى: أن يقول لو فعلت كذا لأمر لم يفعله لكان كذا.

مثال الأول قول القائل: لو لم أسافر مافاتنى الربح.

ومثال الثانى أن يقول : لوسافرت لربحت.

وذكر النبى ﷺ الثانى دون الأول؛ لأن هذا الإنسان عامل فاعل؛ فهو يقول: لو أنى فعلت الفعل الفـلانى دون هذا الفعل لحصلت مطلوبى، بخـلاف الإنسان الذى لم يفعل وكان موقفه سلبياً من الأعمال.

قوله«كذا)».

كناية عن مبهم،وهى مفعول لفعلت.

قوله:«لكان كذا».

فاعل كان، والجملة جواب لو.

قوله «قدر الله».

خبر لمبتدأ محذوف؛ أى : هذا قدر الله.

وقدر بمعنى مقدور؛ لأن قدر الله يطلق على الـتقدير الذى هو فعل الله، ويطلق على المقدور الذى وقع بتقدير الله، وهو المراد هنا؛ لأن القائل يتحدث عن شىء وقع عليه، فقدر الله أى مقدوره، ولامقدر إلا بتقدير؛ لأن المفعول نتيجة الفعل.

والمعنى: إن هذا الذى وقع قدر الله وليس إلى، أمـا الذى إلى فقد بذلت ماأراه نافعاً كما أمرت،وهذا فيه الـتسليم التام لقضاء الله ـ عزوجل ـ وأن الإنـسان إذا فعل ماأمر به على الوجه الشرعى؛ فإنه لايلام على شىء، ويفوض الأمر إلى الله.اهـ.

قوله: «قدر الله وماشاء فعل».

قال ابن عثيمين[1]: قوله «وماشاء فعل».

(١) القول المفيد ٣/ ١٦٤ ـ١٦٥

جملة مصدرة بـ «ما» الشرطية، و«شاء»: فعل الشرط، وجوابه «فعل»؛ أي: ماشاء الله أن يفعله فعله؛ لأن الله لاراد لقضائه ولامعقب لحكمه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(1) وقد سبق ذكر قاعدة، وهى أن كل فعل لله تعالى معلق بالمشيئة؛ فإنه مقرون بالحكمة، وليس شيء من فعله معلقاً بالمشيئة المجردة؛ لأن الله لايشرع ولا يفعل إلا لحكمة، وبهذا التقرير نفهم أن المشيئة يلزم منها وقوع المشاء، ولهذا كان المسلمون يقولون: ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن.

وأما الإرادة ووقوع المراد؛ ففيه تفصيل:

فالإرادة الشرعية لايلزم منها وقوع المراد، وهى التى بمعنى المحبة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾(2) بمعنى يحب، ولو كانت بمعنى يشاء لتاب الله على جميع الناس.

والإرادة الكونية يلزم منها وقوع المراد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(3).

قوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان»

قال النووى (4): أى: يلقى فى القلب معارضة القدر، ويوسوس به الشيطان، هذا كلام القاضى.

قال سليمان آل الشيخ(5): قوله: **«فإن لو تفتح عمل الشيطان»** أى: من الجزع والعجز واللوم والسخط من القضاء والقدر ونحو ذلك، ولهذا من قالها على وجه النهى عنه، فإن سلم من التكذيب بالقضاء والقدر لم يسلم من المعاندة له واعتقاد أنه لوفعل ما زعم لم يقع المقدور ونحو ذلك، وهذا من عمل الشيطان. فإن قيل: ليس فى هذا رد للقدر ولاتكذيب به، إذ تلك الأسباب التى تمناها من القدر، فهو يقول: لوأنى وقفت لهذا لاندفع القدر المكروه فأما إذا ما وقع فلا سبيل إلى دفعه، وإن كان له سبب إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قول: لو كنت فعلت. بل وحقيقته فى هذه الحال أن يستقبل فعله الذى يدفع به المكروه ولايتمنى مالامطمع فى وقوعه، فإنه عجز

(1) الرعد: 41

(2) النساء: 27

(3) البقرة: 253.

(4) شرح مسلم / 468

(5) تيسير العزيز الحميد (505)

محض والله يلوم على العجز ويحب الكيس ويأمر به والكيس مباشرة الأسباب التى ربط الله بها بمسبباتها النافعة للعبد فى معاشه ومعاده. انتهى ملخصاً من كلام ابن القيم.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(١): قوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان» أى: لما فيها من التأسف على مافات والتحسر ولوم القدر، وذلك ينافى الصبر والرضى. والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض؛ قال تعالى **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾**(٢).

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

وقال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً من القرآن.

قال شيخ الإسلام ـ وذكر حديث الباب بتمامه ـ ثم قال فى معناه: لاتعجز عن مأمور، ولاتجزع من مقدور. ومن الناس من يجمع كلا الشرين، فأمر النبى ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله.

والأمر يقتضى الوجوب، وإلا فالاستحباب. ونهى عن العجز، وقال: **«إن الله يلوم على العجز»** والعاجز ضد الذين هم ينتصرون فالأمر بالصبر والنهى عن الجزع مأمور به فى مواضع كثيرة؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمر أُمر بفعله فعليه أن يفعله ويحرص عليه، ويستعين الله ولايعجز. وأمر أصيب به من غير فعله، فعليه أن يصبر عليه ولايجزع منه.

ولهذا قال بعض العقلاء ـ ابن المقفع أو غيره ـ الأمور أمران: أمر فيه حيله فلا تعجز عنه، وأمر لاحيلة فيه فلا تجزع منه.

وهذا فى جميع الأمور، لكن عند المؤمن: الذى فيه حيلة هو ما أمر الله به وأحبه له؛ فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها وقد أمره بكل خير له فيه حيلة. وما لاحيلة فيه هو ما أصيب به من غير فعله واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين:

(١) فتح المجيد ٢/ ٧٧٠

(٢) الحديد: ٢٢، ٢٣

فالأفعال : مثل قوله تعالى ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾(١).

ومثل قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (٢) .

ومثل قوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾(٣).

ومثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾(٤).

إلى آيات كثيرة من هذا الجنس:

والقسم الثانى، مايجرى على العبد بغير فعله من النعم والمصائب؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾(٥) . ، والآية قبلها. فالحسنة فى هاتين الآيتين: النعم . والسيئة : المصائب وهذا هو الثانى من القسمين.

وأظن شيخ الإسلام ذكره فى هذا الموضع ، ولعل النار أسقطه ، والله أعلم ثم قال رحمه الله تعالى : فإن الإنسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال ، ولكن عندما يجرى عليه من المصائب التى لاحيلة له فى دفعها فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه ، وأرض وسلم؛ قال تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾(٦) ولهذا قال آدم لموسى : أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ فحج آدم لأن موسى قال له : «**لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة**»(٦) فلامه على المصيبة التى حصلت بسبب فعله ، لا لأجل كونها ذنباً.

أما كونه لأجل الذنب ـ كما يظنه طوائف من الناس ـ فليس مراداً بالحديث؛ فأما آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب ، والتائب من الذنب كمن لاذنب له ، ولايجوز لوم التائب باتفاق الناس. انتهى .

(١) الأنعام : ١٦٠

(٢) الإسراء :٧

(٣) الشورى: ٤٠

(٤) البقرة:٨١

(٥) النساء : ٧٩

(٦) التغابن: ١١

(٧) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦١٤)، ومسلم فى القدر (٨/ ٤٥٠/ ١٣) عن أبى هريرة به.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: فتضمن هذا الحديث الشريف، أصولاً عظيمة من أصول الإيمان.

أحدها: أن الله سبحانه موصوف بالمحبة، وأنه يحب حقيقة.

الثاني: أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوى ويحب المؤمن القوى وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

ومنها: أن محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحب بعضهم أكثر من بعض.

ومنها: أن سعادة الإنسان فى حرصه على ماينفعه فى معاشه ومعاده، والحرص: هو بذل الجهد واستفراغ الوسع. فإذا صادف ماينتفع به الحريص كان حرصه محموداً، وكماله كله فى مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ماينتفع به. فإن حرص على مالا ينفعه، أو فعل ماينفعه بغير حرص: فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله فى الحرص على ماينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه: أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن حرصه على ماينفعه عبادة الله تعالى، ولايتم إلا بمعونته، فأمره أن يعبده وأن يستعين به. فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله، ضد العاجز . فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده، ومصدرها منه، وموردها إليه.

فإن فاته مالم يقدر له ، فله حالتان: عجز، وهو مفتاح عمل الشيطان؛ فيلقيه العجز إلى لو . ولافائدة فى لو ها هنا، بل هى مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان . فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهى : النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر، لم يفته ولم يغلبه عليه أحد . فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر، ومشيئة الرب النافذة التى توجب وجود المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده؛ ولهذا قال : **«فإن غلبك أمر فلا تقل: لو أنى فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وماشاء فعل»** فأرشده إلى ماينفعه فى الحالتين: حاله حصول مطلوبه وحاله فواته. فلهذا كان هذا الحديث ممالا يستغنى عنه

العبد أبداً بل هو أشد ضرورة إليه، وهو يتضمن إثبات القدر، والكسب والإختيار، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً فى حاله حصوله المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق. انتهى.

قال ابن باز(١): فإذا أصابك شيء فقل قَدَرَ الله وما شاء فعل، وبعضهم ضبطها بـ قَدَّر الله وماشاء فعل أى قدر هذا الشيء الواقع والمعنى الأول أظهر أى أن هذا الواقع هو قدر الله أى مقدور الله وماشاء الله فعل.

«لو تفتح عمل الشيطان» أى تفتح على العبد عمل الشيطان أى وساوسه وتشكيكه فينبغى للمؤمن أن يتجنبها حتى لايقع فى حبائل الشيطان واملائه مالا ينبغى لأن هذه أمور لله هو الذى قدرها. ولهذا قال تعالى: **﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾**(٢) وقال ﷺ **«مامن عبد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها إلا آجره الله من مصيبته وأخلفه خيراً منها»**(٣) فمثلاً إذا عالج مريض عند طبيب ثم مات لايقولوا لو ذهبت به إلى طبيب آخر أو الخارج.. إلخ بل يقول قدر الله وماشاء فعل إنا لله وإنا إليه راجعون ولايعترض بلو.

أما إذا كانت لو لبيان ما ينبغى كقوله ﷺ: **«لو استقبلت من أمرى ما استدبرت...»**(٤) فهذا ليس اعتراضاً بل هو لبيان الأفضل كقولك لو علمت أن هذا واقع لفعلت كذا وكذا مما يبين للناس أنه الأفضل وكقول: لو علمت فلاناً مريضاً لزرته.

وما أشبه ذلك مما يخبر به عن أسفه على مافات وليس على سبيل الاعتراض فهذا ليس داخلاً فى الباب وإنما الممنوع الاعتراض على القدر.

قال ابن عثيمين(٥): «لو» اسم ان قصد لفظها؛ أى فإن هذا اللفظ يفتح عمل الشيطان وعمله: ما يلقيه فى قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن فإن الشيطان يحب ذلك، قال تعالى **﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** حتى فى المنام يربه أحلاماً مخيفة ليعكر عليه صفوه ويشوش فكره، وحينئذ

(١) التعليق المفيد ٢٤٥

(٢) البقرة: ١٥٧

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٦/ ٢٢١ ـ النووى) عن أم سلمة به. وانظر «رياض الصالحين» (٩٢٣ ـ بتخريجنا).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) القول المفيد ١٦٥ ـ ١٦٦

لايتفرغ للعبادة على ما ينبغي، ولهذا نهى النبي ﷺ عن الصلاة حال تشوش الفكر؛ فقال ﷺ: **«لا صلاة بحضرة طعام، ولاوهو يدافعه الأخبثان»**(١)، فإذا رضى الإنسان بالله ربا، وقال: هذا قضاء الله وقدره، وأنه لابد أن يقع؛ اطمأنت نفسه وانشرح صدره.

مايستفاد من الحديث

قال ابن عثيمين(٢):

١ـ إثبات المحبة لله ـ عزوجل ـ؛ لقوله «خير وأحب».

٢ـ اختلاف الناس فى قوة الإيمان وضعفه؛ لقوله: **«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»**.

٣ـ زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأن القوة زيادة والضعف نقص، وهذا هو القول الصحيح الذى عليه عامة أهل السنة.

وقال بعض أهل السنة: يزيد ولاينقص؛ لأن النقص لم يرد فى القرآن، قال تعالى: **﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾**(٣)وقال تعالى: **﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾**(٤).

والراجح القول الأول؛ لأنه من لازم ثبوت الزيادة ثبوت النقص عن الزائد، وعلى هذا يكون القرآن دالاً على ثبوت نقص الإيمان بطريق اللزوم، كما أن السنة جاءت به صريحةفى قوله ﷺ: **«مارأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل من إحداكن»**(٥)؛ يعنى: النساء.

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية؛ فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كاليقين زيادة كيفية، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: **﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾**(٦).

والإنسان إذاأخبره ثقة بخبر، ثم جاء آخر فأخبره نفس الخبر؛ زاد يقينه، ولهذا قال أهل العلم: إن المتواتر يفيد العلم اليقينى، وهذا دليل على تفاوت القلوب بالتصديق، وأما الأعمال؛ فظاهر، فمن صلى أربع ركعات أزيد ممن صلى ركعتين.

---

(١) تقدم تخريجه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ به.

(٢) القول المفيد (٣/ ١٦٦ ـ ١٧٠)

(٣) المدثر: ٣١

(٤) الفتح: ٤.

(٥) [صحيح] أخرجه: مسلم فى الإيمان (١/ ٢٤٣/ ١٣٢) عن ابن عمر رضى الله عنه. وانظر «رياض الصالحين» (١٨٨٢ ـ بتخريجنا).

(٦) البقرة: ٢٦٠.

٤ـ أن المؤمن وإن ضعف إيمانه فيه خير؛ لقوله: «وفى كل خير».

٥ـ أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها؛ لقوله : **«احرص على ما ينفعك»**، فإذا امتثل المؤمن أمر الرسول ﷺ ؛ فهو عبادة وإن كان ذلك النافع أمراً دنيوياً.

٦ـ أنه لاينبغى للعاقل أن يمضى جهده فيما لاينفع؛ لقوله: **«إحرص على ما ينفعك»**.

٧ـ أنه ينبغى للإنسان الصبر والمصابرة؛ لقوله: «ولاتعجزن».

٨ـ أن مالا قدرة للإنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر؛ لقوله: **«ولكن قل : قدر الله وماشاء فعل»**، وأما الذى يمكنك؛ فليس لك أن تحتج بالقدر.

وأمامحاجة آدم وموسى حيث لام موسى آدم عليهما الصلاة والسلام، وقال له: **«لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال: أتلومنى على شىء قد كتبه الله على»**(١)؛فهذا احتجاج بالقدر.

فالقدرية الذين ينكرون القدر يكذبون هذا الحديث؛ لأن من عادة أهل البدع أن ماخالف بدعتهم إن أمكن تكذيبه كذبوه، وإلا حرفوه، ولكن هذا الحديث ثابت فى «الصحيحين» وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لاعلى المعائب؛ فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التى هى سبب الخروج ، بل احتج بالخروج نفسه.

معناه : أن فعلك صار سببا لخروجنا، وإلا؛ فإن موسى عليه الصلاة والسلام أبعد من أن يلوم أباه على ذنب تاب منه واجتباه ربه وهداه،وهذا ينطبق على الحديث.

وذهب ابن القيم رحمه الله إلى وجه آخر فى تخريج هذا الحديث، وهو أن آدم احتج بالقدر بعد أن مضى وتاب من فعله، وليس كحال الذين يحتجون على أن يبقوا فى المعصية ويستمروا عليها؛ فالمشركون لما قالوا: **«لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا»**(٢) كذبهم الله؛ لأنهم لايحتجون على شىء مضى ويقولون: تبنا إلى الله؛ ولكن يحتجون على البقاء فى الشرك.

٩ـ أن للشيطان تأثيراً على بنى آدم؛ لقوله : **«فإن لو تفتح عمل الشيطان»** ، وهذا لاشك فيه، ولهذا قال النبى ﷺ **«إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»**(٣).

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) الأنعام: ١٤٨.

(٣) تقدم تخريجه

فيه مسائل

الأولى: تَفسيرُ الآيتَين في آل عِمْرَان.

فقال بعض أهل العلم: إن هذا يعنى الوساوس التى يلقيها فى القلب فتجرى فى العروق.

وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وهذا ليس ببعيد على قدرة الله ـ عزوجل ـ، كما أن الروح تجرى مجرى الدم، وهى جسم، إذا قبضت تكفن وتحنط وتصعد بها الملائكة إلى السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يضاده، وهى لمة الملك ؛ فإن الشيطان فى قلب ابن آدم لمة وللملك لمة، ومن وفق غلبت عنده لمة الملك لمة الشيطان، فهما دائماً يتصارعان نفس مطمئنة ونفس أمارة ونفس لوامة، وهذه وصف للنفسين جميعاً.

١٠ـ حسن تعليم النبى ﷺ حين قرن النهى عن قول«لو» ببيان علته؛ لتتبين حكمة الشريعة، ويزداد المؤمن إيماناً وامتثالاً.



قال ابن عثيمين[١]: قوله : (فيه مسائل).

● **الأولى: تفسير الآيتين فى آل عمران.**

وهما:

الأولى: ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُو** ﴾

الثانية: ﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا**﴾أى : ما أخرجنا وما قتلنا ، ولكن الله تعالى أبطل ذلك بقوله : ﴿ **قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ**﴾ ، والآيه الأخرى : ﴿**لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا**﴾ ،فأبطل الله دعواهم هذه بقوله :إن كنتم صادقين فى البقاء وأن عدم الخروج مانع من القتل ، فادرؤوا عن أنفسكم الموت ، فإنهم لن يسلموا من الموت ،بل لابد أن يموتو ، ولكن لو أطاعوهم وتركوا الجهاد، لكانوا على ضلال مبين .

---

(١) القول المفيد (٣/ ١٧٠ ـ ١٧٣).

الثانية: النَّهيُ الصَّرِيحُ عَنْ قَوْلِ :«لَوْ» إِذَا أَصَّابكَ شيء.

الثالثة: تَعْلِيلُ المَسْأَلَةِ بِأَنَ ذَلِكَ يفْتَحُ عَمَل الشَّيْطَانِ.

الرابعة: الإِرْشَادُ إِلىَ الكَلَامُ الحَسَنِ.

الخامسة: الأَمْرُ بِالْحِرصِ علَى مَا يَنْفَعُ مَعَ الإِسْتِعَانَةِ باللهِ.

السادسة: النَّهْيُ عَنْ ضِدِ ذَلِكَ. وَهُوَ العَجْزُ.

● الثانية : النهى الصريح عن قول «لو»إذا أصابك شىء.

لقول الرسول فعلت كذا لكان كذا».

● الثالثة : تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

فالنهى عن قول«لو»علتها أنها تفتح عمل الشيطان وهوالوسوسة، فيتحسر الإنسان بذلك ويندم ويحزن.

● الرابعة : الإرشاد إلى الكلام الحسن.

لقوله :«ولكن قل: قدر الله وماشاء فعل».

● الخامسة : الأمربالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

لقوله ﷺ:«احرص علىماينفعك واستعن بالله».

● السادسة: النهى عن ضد ذلك،و هوالعجز

لقوله :«ولاتعجزن» باختيار الإنسان، فالإنسان قد يصاب بمرض فيعجز؛ فكيف نهى النبى ﷺعن أمر لا قدرة للإنسان عليه

أجيب :بأن المقصود هنا التهاون والكسل عن فعل الشىء؛ لأنه هو الذى فى مقدور الإنسان. أهـ.



٥٧ باب
النهى عن سب الريح

● **مناسبة الباب لما قبله من الأبواب:**

قال ناصر السعدى(١) : «وهذا نظير ما سبق فى سب الدهر إلا أن ذلك الباب عام فى سب جميع حوادث الدهر، وهذا خاص بالريح ، ومع تحريمه، فإنه حمق وضعف فى العقل والرأى، فإن الريح مصرفة مدبرة بتدبير الله وتسخيره، فالساب لها يقع سبه على من صرفها، ولولا أن المتكلم بسب الريح لا يخطر هذا المعنى فى قلبه غالبًا ، لكان الأمر أفظع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم». اهـ.

قلت: لما عقد الباب الماضى فيما جاء فى اللو اعتراض على القدر وعدم الرضى به ناسب أن يأتى بباب النهى عن سب الريح لأن فيه عدم رضى بالقدر.

● **مناسبة الباب للتوحيد:**

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٢): ففى هذا عبودية لله وطاعة له ولرسوله واستدفاع للشرور به وتعرض لفضله ونعمته وهذه حال أهل التوحيد والإيمان خلافًا لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حرموا ذوق طعم التوحيد الذى هو حقيقة الإيمان. اهـ.

قال ابن باز(٣): لما كان سب الريح وغيرها من المخلوقات نقصًا فى الإيمان وقدحًا فى التوحيد نبه المؤلف على ذلك ليعلم المؤمن أن سائر المعاصى تنقص التوحيد وتنقص الإيمان وتضعفه والإيمان يزيد وينقص والتوحيد يزيد وينقص وسب الريح ينقص الإيمان لأن الريح مخلوق مدبر يرسل بالخير والشر فلا يسب الريح بل يعمل المؤمن بما أمره به الرسول ﷺ. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله(٤):

هى أن الريح فى تدبير مدبر وهو الله تعالى فسبها اعتراض عليه فهو قادح فى التوحيد. اهـ.

---

(١) القول السديد ١٢٦

(٢) فتح المجيد ٢/ ٦٥٤

(٣) التعليق المفيد ٢٥٣.

(٤) الجامع الفريد : ٧٠.

● **شرح الترجمة والتبويب.**

قال حامد بن محمد[1]: (باب) ما جاء فى بيان أن الله جنود السموات والأرض والريح من جنوده مأمورة منهية فلا ينبغى لمسلم أن يسب الريح إذا جاءته بما يكره ولذا ورد (النهى عن سب الريح). اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[2]: أى لأنها مأمورة ولا تأثير لها فى شىء إلا بأمر الله فسبها كسب الدهر، وقد تقدم النهى عنه، فكذلك الريح. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: لأنها - أى الريح - إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمره، لأنه هو الذى أوجدها وأمرها، فمسبتها مسبة للفاعل، وهو الله سبحانه، كما تقدم فى النهى عن سب الدهر، وهذا يشبهه ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه بما شرعه لعباده. اهـ.

قال ابن عثيمين[4]: المؤلف رحمه الله أطلق النهى ولم يفصح: هل المراد به التحريم أو الكراهة، سيتبين إن شاء الله من الحديث.

قوله: «الريح».

الهواء الذى يُصرفه الله - عز وجل- وجمعه رياح.

وأصولها أربعة: الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب، وما بينهما يسمى النكباء، لأنها ناكبة عن الاستقامة فى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب.

وتصريفها من آيات الله- عز وجل -فأحيانًا تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانًا تكون هادئة ، وأحيانًا تكون باردة، وأحيانًا حارة، وأحيانًا عالية، وأحيانًا نازلة ، كل هذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التى جعلها الله عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولو اجتمعت جميع المكائن العالمية النَّفاثة لتوجد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، ولكن الله - عز وجل- بقدرته يُصرِّفها كيف يشاء وعلى ما يريد.

فهل يحق للمسلم أن يسب هذه الريح؟

(١) فتح الله الحميد المجيد. ٤٤٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد/ ٥٨.

(٣) فتح المجيد ٢/ ٦٥٣.

(٤) القول المفيد ٣/ ١٧٣، ١٧٤.

عَنْ أُبَيِّ بن كَعْب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَتَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُم مَا تَكْرَهُونَ؛ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هذه الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فيهَا. وَخيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ» صَحَّحَهُ التِرْمذِيُّ[1].

الجواب: لا، لأن هذه الريح مُسَخَّرة مدبرة، وكما أن الشمس أحيانًا تضر بإحراقها بعض الأشجار، ومع ذلك لا يجوز لأحد أن يسبها، فكذلك الريح، ولهذا قال: «**لا تسبوا الريح**». اهـ.



● قوله [عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَتَسُبُّوا الرِّيحَ] الحديث.

قال الفقير: الحديث بوب عليه الترمذي باب ما جاء في النهي عن سب الرياح.

وقال في الباب عن عائشة وأبي هريرة وعثمان بن أبي العاص وأنس وابن عباس وجابر وقال: هذا حديث حسن صحيح.

هذا الحديث أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه وأحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم في المستدرك وابن السني في عمل اليوم والليل جميعاً من طريق الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن أبي بن كعب.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي[2]: حيث دل الحديث على تحريم سب الريح. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوي[4]: حيث نهى الحديث عن سب الريح لأن سبها لمدبرها وذلك ينافي التوحيد. اهـ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٣١) والترمذي في «الفتن» / باب: ما جاء في النهي عن سب الرياح (٤/ ١١٥/ ح٢٢٥٢) وأحمد (٥/ ١٢٣) والبخاري في الأدب المفرد (ح ٧٤٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٢) وابن السني في «عمل اليوم والليلة (ح٢٩٩).

من طريق: الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن أبي بن كعب به.

ورواه الحاكم: بواسطة بين حبيب، وسعيد وهو ذر، قال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

وانظر «رياض الصالحين» (ح: ١٧٣٠) بتخريجنا.

(٢، ٣) الجديد ٤٢٧

قوله: (عن أبي بن كعب).

قال سليمان آل الشيخ[1]: أى ابن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصارى الخزرجي أبو المنذر: صحابى بدرى جليل وكان من قراء الصحابة وقضاتهم وعلمائهم وله مناقب مشهورة اختلف فى سنة موته، فقال الهيثم ابن عدي: مات سنة تسعة عشر وقال خليفة بن خياط سنة اثنين وثلاثين: يقال فيها مات أبى بن كعب، ويقال: بل مات فى خلافة عمر. قلت يعنى سليمان آل الشيخ: وقيل غير ذلك. اهـ.

قوله: «لا تسبوا الريح»

قال : المباركفورى[2]: فإن المأمور معذور وفى حديث ابن عباس الذى أشار إليه الترمذى: لاتلعنوا الريح فإنها مأمورة وإنه من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه[3]. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ[4]:

قوله: «لا تسبوا الريح» أى لا تشتموها ولا تلعنوها للحوق ضرر فيها فإنها مأمورة مقهورة فلا يجوز سبها بل تجب التوبة عند التضرر بها وهو تأديب من الله تعالى لعباده، وتأديبه رحمة للعباد، فلهذا جاء فى:

حديث أبى هريرة مرفوعًا «الريح من روح الله» قال سلمة: فَروح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها»[5] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة وكونها قد تأتى بالعذاب لا ينافى كونها من رحمة الله.

وعن ابن عباس أن رجلاً لعن الريح عند النبى ﷺ فقال : **«لا تلعنوا الريح، فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت اللعنة إليه»[6]** رواه الترمذى، وقال غريب.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٠٧.

(٢) تحفة الأحوذى ٦/٤٣٥.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٠٨)، والترمذى (١٩٧٨) عن ابن عباس به.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٥٠٧.

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/٢٦٨)، وأبو داود (٥٠٩٧)، والنسائى (١٠٧٦٧) وابن ماجه (٣٧٢٧) عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٣١ - بتخريجنا).

(٦) تقدم قريباً.

قال الشافعي : لا ينبغي شتم الريح فإنها خلق مطيع لله ،وجند من جنوده، يجعلها الله رحمة إذا شاء، ونقمة إذا شاء.

ثم روى بإسناده حديث منقطع أنَّ رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ الفقر فقال له : «لعلك تسب الريح»[1] وقال مطرف: لو حبست الريح عن الناس لأنتن ما بين السماء والأرض. اهـ.

وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً «**الريح روح من الله - عز وجل - تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فلا تسبوها واسألوا الله خيرها وتعوذوا من شرها**».

قال عبد الرحمن آل الشيخ[2]: نهى النبي ﷺ أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: «لا» ناهية، والفعل مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، والريح مفعول به.

والسَّب: الشتم، والعيب والقدح، واللعن، وما أشبه ذلك، وإنما نهى عن سبها، لأن سب المخلوق سب لخالقه، فلو وجدت قصراً مبنيًا وفيه عيب، فسببته، فهذا السب ينصب على من بناه، وكذلك سب الريح، لأنها مدبرة مسخرة على ما تقتضيه حكمة الله - عز وجل .

قوله: «فإذا رأيتم ما تكرهون».

قال سليمان آل الشيخ[4]: أي: الريح إما شدة حرها، أوبردها، أو قوتها. اهـ.

قال المباركفوري[5]: أي ريحًا تكرهونها لشدة حرارتها أو برودتها أو تأذيتم لشدة هبوبها. اهـ.

قال ابن عثيمين[6]: إذا كانت الريح مزعجة، فقد أرشد النبي ﷺ إلى ما يقال حينئذ. اهـ.

---

(١) أخرجه الشافعي في «الأم» (١/ ٢٢٤) معضلاً.

وانظر الأذكار، للنووي (٤٧٢ - بتخريجنا).

(٢) فتح المجيد ٢/ ٦٥٤.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٧٥ .

(٤) تيسير العزيز الحميد ٥٠٨.

(٥) تحفة الأحوزي ٦/ ٤٣٥ .

(٦) القول المفيد ٣/ ١٧٥ .

قوله: فقولوا: «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح».

قال المباركفورى(١): اى راجعين إلى خالقها وآمرها.

واللهم إنا . . .» إلخ أى خير ذاتها ا. هـ.

قال سليمان آل الشيخ(٢): أمر ﷺ بالرجوع إلى خالقها، وآمرها الذى أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها عن قضائه، فما استجلبت نعمة بمثل طاعته وشكره، ولا استدفعت نقمة بمثل الالتجاء إليه والتعوذ به، والاضطرار إليه والاستكانة له ودعائه، والتوبة إليه والاستغفار من الذنوب قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به قالت: إذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا مطرت سرى عنه، فعرفت ذلك في وجهه قالت عائشة فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾(٣) رواه البخارى ومسلم فهذا ما أمر به ﷺ وفعله عند الريح وغيرها من الشدائد المكروهات، فأين هذا ممن يستغيث بغير الله من الطواغيت والأموات، فيقولون: يا فلان ألزمها أو أزلها ؟: فالله المستعان. اهـ.

قوله: «من خير هذه الريح»

قال ابن عثيمين(٤): الريح نفسها فيها خير وشر، فقد تكون عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار وتفيض البحار والأنهار، وقد تكون هادئة تبرد الجو وتكسب النشاط. اهـ.

قوله: «وخير ما فيها»

قال المباركفورى(٥): أى من منافعها كلها. ا. هـ

قال ابن عثيمين(٦): أى: ما تحمله، لأنها قد تحمل خيرًا، كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم، وقد تحمل شرًا، كإزالة لقاح الثمار، وأمراض تضر الإنسان، والبهائم

---

(١) تحفة الأحوزى ٦/ ٤٣٥. (٢) تيسير العزيز الحميد ٥٠٨.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الاستسقاء (٣/ ٤٦٤/ ١٥) عن عائشة وأصله عند البخارى (٤٨٢٩). وانظر الأذكار للنووى (٤٦٥ - بتخريجنا).

(٤) القول المفيد ٣/ ١٧٥.

(٥) تحفة الأحوزى ٦/ ٤٣٥.

(٦) القول المفيد ٣/ ١٧٥.

قوله: «وخير ما أمرت به».

قال المباركفوري[١]: أى بخصوصها فى وقتها وهو بصيغة المفعول. قال الطيبي: يحتمل الفتح على الخطاب. ا. هـ.

قال ابن عثيمين[٢]: مثل إثارة السحاب وسوقه إلى حيث شاء الله. ا. هـ.

قلت: ومن خيرها النصر قال رسول الله ﷺ ـ نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور[*].

قوله: «ونعوذ بك».

أى: نعتصم ونلجأ.

قوله: «من شر هذه الريح»

أى: شرها بنفسها، كقلع الأشجار ، ودفن الزروع، وهدم البيوت.

قوله: «وشر ما فيها».

أى: ما تحمله من الأشياء الضارة، كالأنتان ، والقاذورات، والأوبئة، وغيرها.

قوله: «وشر ما أمرت به».

قال المباركفوري[٣]: على بناء المفعول ليكون من قبيل **﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾** وقوله ﷺ **«الخير كله بيدك والشر ليس إليك»**.

قال ابن عثيمين[٤]: كالإهلاك والتدمير، قال تعالى فى ريح عاد: **﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾** وتيبيس الأرض من الأمطار، ودفن الزروع، وطمس الآثار والطرق، فقد تؤمر بشرٍ لحكمة بالغة قد نعجز عن إدراكها.

وقوله: «ما أمرت به».

هذا الأمر حقيقى، أى: يأمرها الله أن تهب ويأمرها أن تتوقف، وكل شيء من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلى أمر الله ، قال الله تعالى للأرض والسماء: **﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾**[٥] وقال للقلم: **«اكتب، قال : ربى وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة».**

---

(١) تحفة الأحوزى ٦/٤٣٦................(٢) القول المفيد ٣/ ١٧٥.

(٣) تحفة الأحوزى ٦/٤٣٦. (٤) القول المفيد.

(*) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠٣٥)، ومسلم فى الاستسقاء (٣/٤٦٦/١٧) عن ابن عباس به.

(٥) فصلت : ١١.

فصل

ما ينبغي قوله وفعله عند هبوب الريح غير ما تقدم

أولاً: الدعاء:

وقد تقدم أن النبي ﷺ كان يدعو: «**اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها**»(١).

ثانياً: التعوذ بها بالمعوذتين وبغيرهما:

ويستدل بهذا من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بين الأبواء والجحفة إذ غشيتنا ريح وظلمة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ، «**أعوذ برب الفلق، وأعوذ برب الناس**، ويقول: «**يا عقبة تعوذ بهما، فما تعوذ متعوذ بمثلها ثم** سمعته يؤم بها فى الصلاة(٢).

وفيه عن ابن عائشة مرفوعاً: يا ابن عائشة ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون فقلت: بلى، فقال: **كل أعوذ برب الفلق والناس**(٣).

ثالثاً: التكبير.

فعن ابن عمر رضى الله عنهما، كان إذا عصفت الريح يقول: شدوا التكبير، فإنه يذهب الروع (٤).

وأخرجه ابن السنى عن أنس وجابر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ، قال: إذا وقعت كبيرة أو هاجت ريح عظيمة، فعليكم بالتكبير فإنه يجلو العجاج الأسود(٥).

رابعاً: الفزع إلى المساجد:

فعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا كانت ليلة ريح كان مفزعه إلى المسجد، حتى تسكن الريح، فإذا حدث من السماء حدث من كسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى تنجلى»(٦).

---

(١) انظر الترمذى (الجزء ٤/ص ٥٢١/ ح ٢٢٩٢). (٢) الدعاء للطبرانى (ص ٣٠٣).

(٣) الطبرانى فى الدعاء (ص ٣٠٣، ٣٠٤). (٤) كتاب العظمة (ص ٣٤٧).

(٥) [ضعيف جداً] أخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم والليله» (ح ٢٨٥) من طريق الوليد بن مسلم، عن عنبسة بن عبدالرحمن، عن محمد بن زاذان عن أنس بن مالك مرفوعاً به.

وفيه الوليد بن مسلم وهو مدلس وقد عنعنه وفيه أيضاً محمد بن زاذان وهو ضعيف منكر الحديث لا يكتب حديثه لم يرو عنه غير عنبسة بن عبدالرحمن.

وقال أبو حاتم: محمد بن زاذان، عن أنس متروك.

قلت: وعنبسة بن عبدالرحمن واهى الحديث، قال البخارى فيه: تركوه وفى رواية: ذاهب الحديث وقال أبو حاتم: كان يضع الحديث.

قال الحافظ: هذا حديث غريب وسنده ضعيف جداً.

وانظر الأذكار للنووي (ح ٤٧٠ بتخريجنا).

(٦) كتاب العظمة (ص ٣٤٦) وإسناده ضعيف.

فيه مسائل

الأولى : النَّهْيُ عَنْ سَبِ الرِيحِ.

الثانية: الإرْشَادُ إلىَ الكَلاَمِ النَّافِعِ إِذَا رأَى الإنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.

الثالثة: الإرْشَادُ إلىَ أنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

الرابعة: أنَّهَا قَدْ تُؤْمَرُ بخَيرٍ وَقَدْ تُؤْمَرُ بِشَرٍ.

خامساً: الاستعداء والمراقبة واللجوء إلى الله عند حصول ما يخاف منه:

قال ابن حجر[(١)] عند شرح حديث كان ﷺ **إذا هبت الريح عرف ذلك فى وجه..**

قال ـ أى ابن حجر ـ وفيه الاستعداد بالمراقبة لله والالتجاء إليه عند اختلاف الأحوال، وحدوث ما يخاف بسببه.

فيه مسائل:

- **الأولى: النهى عن سب الريح.**

قال ابن عثيمين[(٢)]: وهذا النهى للتحريم، لأن سبها سب لمن خلقها وأرسلها.

- **الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.**

أى: منها، وهو أن يقول: **«اللهم إنى أسألك من خيرها..»** الحديث، مع فعل الأسباب الحسية أيضًا، كالاتقاء من شرها بالجدران أو الجبال ونحوها.

- **الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.**

لقوله: **«ما أمرت به»**.

- **الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر.**

لقوله: «خير ما أمرت به وشر ما أمرت به».

والحاصل: أنه يجب على الإنسان أن لا يعترض على قضاء الله وقدره وأن لا يسبه وأن يكون مستسلمًا لأمره الكونى كما يجب أن يكون مستسلمًا لأمره الشرعى، لأن هذه المخلوقات لا تملك أن تفعل شيئًا إلا بأمر الله سبحانه وتعالى. اهـ.



---

(١) الفتح (٢/ ٦٠٤).

(٢) القول المفيد.

٥٨ باب قول الله تعالى:

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾(١).

● **مناسبة هذا الباب لما قبله**

لما كان سب الريح ينم عن عدم رضى بقدر الله وإعتراض عليه (كالباب) الذى قبله ناسب أن يأتى المصنف بعدهما بهذا الباب الذى عقده لبيان أن كثيراً من الناس لايسلم لحكمة الله ولالقدره السابق حتى أساؤا الظن به ـ سبحانه ـ من وجوه كثيرة والله أعلم.

● **ماذا أراد المصنِّف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد:؟ـ**

قال سليمان آل الشيخ:(٢) أراد المصنف بهذه الترجمة التنبيه على وجوب حسن الظن بالله، لأن ذلك من واجبات التوحيد، ولذلك ذم الله من أسآء الظن به، لأن مبنى حسن الظن على العلم برحمة الله وعزته وإحسانه وقدرته وعلمه وحسن اختياره وقوة المتوكل عليه، فإذا تم العلم بذلك أثمر له حسن الظن بالله وقد ينشأ حسن الظن من مشاهدة بعض هذه الصفات وبالجملة فمن قام بقلبه حقائق معانى أسماء الله وصفاته؛ قام به من حسن الظن ما يناسب كل اسم وصفة، لأن كل صفة لها عبودية خاصة، وحسن ظن خاص. وقد جاء الحديث القدسى، قال الله تعالى: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِى**» رواه البخارى ومسلم(٣). وعَنْ جَابِر رضى الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِىَّ ﷺ، قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ يقول: «**لايَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ بِالله الظَّنَّ**»(٤) رواه مسلم وأبوداود. وفى حديث عند أبى داود وابن حبان «**حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ العِبَادَةِ**» رواه الترمذى والحاكم، ولفظهما: «حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ مِنْ حُسْنِ العِبَادَةِ (٥). ،

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن (٦).

---

(١) آل عمران: ١٥٤.　　　(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٠٨.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٥٣٧)، ومسلم فى الذكر من الدعاء (٩/ ٥/ ٢) عن أبى هريرة به وانظر «رياض الصالحين» (٤٤١ ـ بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنة (١٧/ ٢٠٩ ـ النووى) عن جابر به وانظر «رياض الصالحين» (٤٤٢ ـ بتخريجنا).

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٢٩٧)، وأبو داود (٤٩٩٣)، والترمذى (٣٦٠٤). عن أبى هريرة به.

(٦) فتح الله الحميد المجيد ٤٤٧.

باب ما جاء في بيان أن **﴿الظانين بالله ظن السوء عليهم دائره السوء وغضب الله عليهم ولعنهم ولهم عذاب أليم﴾**، لأن الله تعالى كامل من كل الوجوه ذاتاً وأسماءً وصفاتٍ وأفعالاً وأقوالاً ذاته منزهة عن جميع العيوب والنقائص وأسماؤه حسنى فصفاته عليا وأفعاله حسنة جميلة وأقواله صدق وعدل وكلماته تامة فلا يعزى اليه سوء ولا شر ولا نقص ولا عيب ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. اهـ.

قال ابن قاسم: (١) أراد ـ رحمه الله ـ بهذه الترجمة التنبيه على وجوب حسن الظن بالله وأنه من واجبات التوحيد أ هـ.

قال ناصر السعدي: (٢) وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه، وصفاته، وكماله وتصديقه بكل ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله. وتصديقه بكل ما أخبر به، وأنه بفعله، وما وعد به من نصر الدين. وإحقاق الحق، وإبطال الباطل فاعتقاد هذا من الإيمان وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافيه للتوحيد لأنها سوء ظن بالله، ونفى لكماله وتكذيب لخبره وشك في وعده. والله أعلم.

أراد المؤلف بهذا الباب:

قال عبدالله بن جار الله:(٣) التنبيه على وجوب حسن الظن بالله تعالى لأن ذلك من واجبات التوحيد وذلك أنه لايتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به وأنه يفعله، وماوعد به من نصر الدين وإحقاق الحق وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان، وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد لأنها سوء ظن بالله ونفى لكماله وتكذيب لخبره وشك في وعده والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ.

قال ابن باز: (٤) المقصود من هذا الباب أن كثيراً من الناس لا يسلم لحكمة الله ولا يسلم لله قدره السابق ولايسلم له سبحانه ما أراده من تنبيه العباد على أغلاطهم وأخطائهم حتى يستعدوا وينتبهوا. بل أساؤا الظن بالله من وجوه كثيرة.

- فمنهم من يظن أن الأشياء التي تقع مما تخالف هواه لم تكن بحكمته ولم تكن بقدر سابق.
- ومنهم من يظن أنه بمجرد المشيئة لا عن حكمة تقع.

(١) نقلاً عن حاشية القول المفيد ٣/ ١٧٩.
(٢) «القول السديد» ١٢٧ ـ ١٢٩.
(٣) الجامع الفريد ٢٠١.
(٤) «التعليق المفيد» ٢٥٥.

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١).

● ومنهم من يظن أن الله جار على العباد وظلمهم حتى فعل كذا وكذا وظلم فلان وهزم فلان فلماذا هذا كله؟!.

فهذه ظنون الناس وهي كثيرة أهـ.

● مناسبة الباب لتوحيد:

قال ابن عثيمين(٢): ومناسبة الباب للتوحيد: أن ظن السوء ينافي كمال التوحيد، وينافي الإيمان بالأسماء والصفات، لأن الله قال في الأسماء: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فإذا ظن بالله ظن السوء، لم تكن الأسماء الحسنى، وقال في الصفات: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾ وإذا ظن بالله ظن السوء لم يكن له المثل الأعلى ا.هـ.



قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...﴾.

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوي (٣): حيث دلت الآية على تحريم سوء الظن بالله أهـ.

ـ مناسبة الآية للتوحيد.

قال القرعاوي(٣): حيث دلت الآية على وجوب حسن الظن بالله لأن ذلك من واجبات التوحيد. اهـ.

● سبب النزول:

وأخرج (٤) ابن اسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال معتب الذي قال يوم أحد ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ﴾ إلى آخر القصة.

قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

---

(١) آل العمران ١٥٤.

(٢) «القول المفيد» (٢/١٩٦، ١٩٧).

(٣) الجديد ٤٢٨.

(٤) الدر ٢/٣٥٤..

الإعراب:[1] ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ جملة يظنون حالية من الهاء فى (اهمتهم)، ويجوز جعل «قد أهمتهم أنفسهم» صفة وجملة (يظنون) هى الخبر، وبالله جار ومجرور متعلقان (بيظنون) (وغير الحق) صفة لمفعول مطلق محذوف والمعنى (يظنون بالله غير الظن الحق الذى يجب أن يساور النفوس، (وظن الجاهلية) بدل من «غير الحق» أو منصوب على المصدرية التشبيهية، أى ظناً مثل ظن الجاهلية أو منصوب بنزع الخافض، وعلى هذا لم يذكر ليظنون مفعولين وتكون الباء ظرفية كما تقول: ظننت بزيد، وإذا كان ذلك كذلك لم تتعد «ظننت» إلى مفعولين، وقد نص النحاة على ذلك وعليه قول الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج ... سراتهم فى السابرى المسردّ أهـ

قال ابن عثيمين:[2] قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ﴾ الضمير يعود على المنافقين، والأصل فى الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين؛ كما فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾[3]؛ أى: يتيقنون، وضد الراجح المرجوح، ويسمى وَهماً.

قوله: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

عطف بيان لقوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾.

﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: الحال الجاهلية، والمعنى: يظنون بالله ظن المِلّة الجاهلية التى لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبنى على الجهل أهـ.

● **التفسير بالقرآن:**

قال ابن كثير:[4] ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كما قال فى الآية الآخرى ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ إلى آخر الآية وهكذا هؤلاء إعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الإسلام قد باد وأهله وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة أهـ.

قول: «يظنون».

● **التفسير بالمأثور من أقوال التابعين:**

(1) إعراب القرآن ٢/ ٧٧.
(2) القول المفيد ٣/ ١٧٩، ١٨١.
(3) البقرة: ٤٦.
(4) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٩٥.

أخرج ابن جرير: عن قتادة قال والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم الا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق يظنون بالله غير الحق ظنونا كاذبة إنما هم أهل شك وريبة فى أمر الله يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم).

عن الربيع قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم همة الا أنفسهم ﴿**يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هنا**﴾ قال الله عزوجل: ﴿**قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ**﴾ الآية.[1]

وعن ابن اسحق وطائفة قد أهمتهم أنفسهم قال أهل النفاق قد أهمتهم أنفسهم تخوف القتل وذلك أنهم لا يرجون عاقبة اهـ[2].

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبرى[3]: يعنى ذلك الطائفة المنافقة التى قد أهمتهم أنفسهم يقولون ليس لنا من الأمر من شيء قل إن الامر كله لله ولو كان لنا من الامر شى ماخرجنا لقتال من قاتلنا فقتلونا. اهـ.

قال الرازى [4]:

فى هذا الظن احتمالان:

أحدهما: وهو الأظهر: هو أن ذلك الظن أنهم كانوا يقولون فى أنفسهم لو كان محمد محقاً فى دعواه لما سلط الكفار عليه وهذا ظن فاسد، أما على قول أهل السنة والجماعة، فلأنه سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد عليه، فإن النبوة من الله سبحانه يشرف عبده بها وليس يجب فى العقل أن المولى إذا شرف عبده بخلعة أن يشرفه بخلعة أخرى، بل له الأمر والنهى كيف شاء بحكم الالهية، وأما على قول من يعتبر المصالح فى أفعال الله وأحكامه، فلا يبعد أن يكون لله تعالى فى التخلية بين الكافر والمسلم، بحيث يقهر الكافر المسلم، حكم خفية وألطاف مرعية، فان الدنيا دار الامتحان والابتلاء، ووجوه المصالح مستورة عن العقول، فربما كانت المصلحة فى التخلية بين الكافر والمؤمن حتى يقهر الكافر المؤمن، وربما كانت المصلحة فى تسليط الفقر والزمانة على المؤمنين.

قال القفال: لو كان كون المؤمن محقاً يوجب زوال هذه المعانى لوجب أن يضطر

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤/ ٩٣).
(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.
(٣) الطبرى ٤/ ٩٤.
(٤) التفسير الكبير ٥/ ٩/ ٤٩

لناس إلى معرفة المحق بالجبر، وذلك ينافى التكليف واستحقاق الثواب والعقاب، بل الإنسان إنما يعرف كونه محقاً بما معه من الدلائل والبينات، فأما القهر فقد يكون من المبطل للمحق، ومن المحق للمبطل، وهذه جملة كافية فى بيان أنه لا يجوز الاستدلال بالدولة والشوكة ووفور القوة على أن صاحبها على الحق.

الثانى: أن ذلك الظن هو أنهم كانوا ينكرون إله العالم بكل المعلومات، القادر على كل المقدورات، وينكرون النبوة والبعث، فلا جرم ما وثقوا بقول النبى ﷺ فى أن الله يقويهم وينصرهم. ا.هـ.

قوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾.

قال ابن الجوزى (1) فيه أربعة أقوال

أحدهما: أنهم ظنوا أن الله لاينتصر محمداً وأصحابه رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثانى: أنهم ظنوا أن محمداً قد قتل. قاله مقاتل

والثالث: أنهم كذبوا بالقدر، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والرابع: ظنوا أن أمر النبى ﷺ مضمحل، قاله الزجاج.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد**

● **أنواع الظن بالله:**

قال ابن عثيمين: والظن بالله ـ عزوجل ـ على نوعين:

الأول: أن يظن بالله خيراً.

الثانى: أن يظن بالله شراً.

والأول له متعلقان:

1ـ متعلق بالنسبة لما يفعله فى هذا الكون؛ فهذا يجب عليك أن تحسن الظن بالله ـ عزوجل ـ فيما يفعله ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذا الكون، وأن تعتقد أن ما فعله إنما هو لحكمة بالغة قد تصل العقول إليها وقد لا تصل، وبهذا يتبين عظمة الله وحكمته فى تقديره؛ فلا يظن أن الله إذا فعل شيئاً فى الكون فعله لإرادة سيئة، حتى الحوداث والنكبات لم يحدثها الله لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير؛ فهذا واقع؛ كما قال تعالى: **﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾**(1).

---

(1) زاد المسير 1/286.
(2) الأحزاب: 17.

٢ـ متعلق بالنسبة لما يفعله بك؛ فهـذا يجب أن تظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لـديك السبـب الذى يوجب الـظن الحسن، وهـو أن تعبد الله عـلى مقتـضى شريعته مع الإخلاص، فـإذا فعلت ذلك؛ فعليك أن تظن أن الله يـقبل منك ولا تسىء الظن بالله بأن تعـتقد أنه لن يقبل منك، وكذلك إذا تاب الإنسـان من الذنب؛ فيحسن الظن بالله أنه يقبل منه، ولا يسىء الظن بالله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه.

وأما إن كان الإنسان مُفرَّطـاً فى الواجبات فاعلاً للمحرمات، وظن بالـله ظنّاً حسناً؛ فهذا هو ظن المتهـاون المتهالك فى الأمانى الباطلة، بل هو مـن سوء الظن بالله؛ إذ إن حكمة الله تأبى مثل ذلك.

النوع الثانى: وهو أن يظن بالله سوءً، مثل أن يظن فـى فعله سفهاً أو ظلماً أو نحو ذلك؛ فإنه من أعـظم المحرمات وأقبح الذنوب، كـما ظن هؤلاء المنافقون وغـيرهم ممن يظن بالله غير الحق أهـ.

قوله ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

● **التفسير بما أثر عن التابعين**

أخرج ابن جرير بسنده عن قتاده فى قوله ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ قال ظن أهل الشرك [١].

وعن الربيع قوله ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ قال ظن أهل الشرك [٢].

● **أقوال المفسرين**

قال البغوى[٣]: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾أى كظن أهل الجاهليه والشرك أهـ.

وذكره ابن الجوزى عن ابن عباس وذكره القرطبى[٤] أيضا فقال ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أى ظن أهل الجاهلية. اهـ.

قال الرازى[٥]: ـ فى قوله ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ قولان:

أحدهما: أنه كـقولك: حـاتم الجود، وعـمر العـدل، يريد الـظن المخـتص بالمـلة الجاهلية.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤/ ٩٤) وانظر «الدر» (٢/ ١٥٦)

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣)معالم التزيل ١/ ٥٦٩.   (٤) القرطبى ٣/ ١٤٨٤.

(٥) التفسير الكبير ٥/٩/ ٤٩.

والثانى: المراد ظن أهل الجاهلية.

فائدة: ـ

قال الرازى (١): ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ فى حكم المصدر، ومعناه: يظنون بالله غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به و﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل منه، والفائدة فى هذا الترتيب أن غير الحق: أديان كثيرة، وأقبحها مقالات أهل الجاهلية، فذكر أولاً أنهم يظنون بالله غير الظن الحق، ثم بين أنهم اختاروا من أقسام الأديان التى غير حقة أركها وأكثرها بطلانا، وهو ظن أهل الجاهلية، كما يقال فلان دينه ليس بحق، دينه دين الملاحدة أهـ.

[قلت]: وسيأتى كلام ابن القيم فى نهاية هذا الباب فى معنى ظن الجاهلية وسوء الظن بالله، فانظره.

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾.

الإعراب: (٢)

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ جملة (يقولون) بدل من جملة (يظنون) (وهل) حرف استفهام إنكارى معناه النفى أى: ليس لنا، (ولنا) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم و(من الأمر) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه كان فى الاصل صفة لـ﴿شَيْءٍ﴾ ثم تقدمت الصفة على الموصوف فأعربت حالا، (ومن) حرف جر زائد (وشئ) مجرور بمن لفظاً فى محل رفع مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول أهـ.

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبرى(٣): يعنى بذلك الطائفة المنافقة التى قد أهمتهم أنفسهم يقولون ليس لنا من الأمر من شىء قل إن الامر كله لله ولو كان لنا من الأمر شىء ما خرجنا لقتال من قاتلنا فقتلونا» أهـ.

قال ابن الجوزى(٤): قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ لفظه لفظ الإستفهام ومعناه: إلى حد، تقديرة: مالنا من الأمر من شىء قال الحسن: قالوا: لو كان

---

(١) المصدر السابق.

(٢) إعراب القرآن ٥/٩/٧٧.

(٣) زاد المسير ١/٣٨٦.

(٤) تفسير الطبرى ٣/٤/٩٤.

الأمر إلينا ما خرجنا وإنما خرجنا كرهاً. وقال غيره: المراد بالأمر: النصر والظفر، قالوا: إنما النصر للمشركين.

قال الرازى[1]: من الصفات التى ذكرها الله تعالى لهؤلاء المنافقين قوله تعالى **﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾**.

واعلم أن قوله **﴿ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾** حكاية للشبهة التى تمسك أهل النفاق بها، وهو يحتمل وجوها:

الأول: أن عبدالله بن أبى لما شاوره النبى ﷺ فى هذه الواقعة أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة، ثم إن الصحابة ألحوا على النبى ﷺ فى أن يخرج إليهم، فغضب عبدالله بن أبى من ذلك، فقال عصانى وأطاع الولدان، ثم لما كثر القتل فى بنى الخزرج ورجع عبدالله بن أبى قيل له: قتل بنو الخزرج، فقال هل لنا من الأمر من شىء، يعنى أن محمداً لم يقبل قولى حين أمرته بأن يسكن فى المدينة ولا يخرج منها، ونظيره ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا **﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾** والمعنى: هل لنا من أمر يطاع وهو استفهام على سبيل الإنكار.

الوجه الثانى فى التأويل: أن من عادة العرب إذا كانت الدولة لعدوه قالوا عليه الأمر، فقوله **﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾** أى هل لنا من الشىء الذى كان يعدنا به محمد، وهو النصرة والقوة شىء وهذا استفهام على سبيل الإنكار، وكان غرضهم منه الاستدلال بذلك على أن محمداً ﷺ كان كاذباً فى ادعاء النصرة أو العصمة من الله تعالى لأمته، وهذا استفهام على سبيل الإنكار.

الثالث: أن يكون التقدير: أنطمع أن تكون لنا الغلبة على هؤلاء، والغرض منه تصبير المسلمين فى التشديد فى الجهاد والحرب مع الكفار، ثم إن الله سبحانه أجاب عن هذه الشبهة بقوله **﴿إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾**.

قال القرطبى[2]:ـ**﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾** لفظة استفهام ومعناه الجحد أى مالنا شئ من الأمر أى من أمر الخروج وإنما خرجنا كرهاً. يدل عليه قوله تعالى إخباراً عنهم: **﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾** «قال الزبير: أرسل علينا النوم ذلك اليوم، وإنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى: **﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ**

---

(١) التفسير الكبير ٥/٩/ ٥٠.

(٢) تفسير القرطبى ٣/ ١٤٨٤.

﴿شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾[1]. وقيل: المعنى يقولون ليس لنـا من الظَّفر الذى وعدنا به محمد شيء والله أعلم. اهـ.

قال الشوكاني[2]: أى يقولون لرسول الله ﷺ ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾؟ أى هل لنا من أمر الله نصيب وهذا الاستفهـام معناه: الجحد أى ما لناشئ؟ أى هل لنا من أمر اللـه نصيب وهذا الإسـتفام معنـاة: الجحد أى ما لنـا شئ من الأمر. وهو الـنصر والإستظهار على العدو.

وقيل: هو الخروج أى إنما خرجنا مكرهين» أهـ.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين [3]:

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾.

مرادهم بذلك أمران:

الأول: رفع اللوم عن أنفسهم.

الثاني: الاعتراض على القدر.

وقوله: ﴿لنا﴾: خبر مقدم.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المـقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر أهـ.

ـ فائدة.

قال محيى الدين درويش [4]: فى كلمة «شـىء» من قوله: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ التى احتوت عـلى ما تضيق عنه الصحـف كالنصر والظهور علـى العدو بعد أن اشتدت وطأته وضراوته. اهـ.

قوله:﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

ـ الاعراب[5]:

﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الجملة معترضة (وأن) واسمهـا، (وكله) تأكيد لـ «الأمر» لأنه يتجزأ ولله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة فى محل نصب مقول القول.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) فتح القدير ١/ ٤٧٤.
(٣) القول المفيد ٣/ ١٨١.
(٤) إعراب القرآن ٢/ ٧٧.
(٥) إعراب القرآن ٢/ ٨٠

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبرى[1] :- وهذا أمر مبتدأ من الله عزوجل يقول لنبيه محمد ﷺ (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (إن الامر كله لله) يصرفه كيف يشاء ويدبره كيف يحب أهـ.

قال ابن الجوزى[2]:- ﴿**قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾ أى: النصر والظفر والقضاء والقدر (لله) والأكثرون قرؤوا (إن الأمر كله لله) بنصب اللام وقرأ عمرو برفعها، قال أبو على: حجة من نصب أن «كله» بمنزلة (أجمعين) فى الإحاطة والعموم: فلو قال إن الامر أجمع لم يكن إلا النصب «وكله» بمنزلة «أجمعين» ومن رفع، فلأنه قد ابتدأ به، كما ابتدأ بقوله تعالى: ﴿**وكلهم آتيه**﴾.

قال الرازى[3] : الوجه فى تقرير هذا الجواب ما بينا: **أنا قلنا** بمذهب أهل السنة لم يكن على الله اعتراض فى شىء من أفعاله فى الإماتة والإحياء والفقر والإغناء والسراء والضراء، وإن قلنا بمذهب القائلين برعاية المصالح، فوجوه المصالح مخفية لا يعلمها إلا الله تعالى، فربما كانت المصلحة فى إيصال السرور واللذة، وربما كانت فى تسليط الأحزان والآلام، فقد اندفعت شبهة المنافقين من هذا الوجه.

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن جميع المحدثات بقضاء الله وقدره، وذلك لأن المنافقين قالوا أن محمداً لو قبل منا رأينا ونصحنا، لما وقع فى هذه المحنة، فأجاب الله عنه بأن الأمر كله لله، وهذا الجواب: إنما ينتظم لو كانت أفعال العباد بقضاء الله وقدره ومشيئته إذ لو كانت خارجة عن مشيئته لم يكن هذا الجواب دافعا لشبهة المنافقين: فثبت أن هذه الآية دالة على ما ذكرنا. وأيضاً فظاهر هذه الآية مطابق للبرهان العقلى، وذلك لأن الموجود، إما واجب لذاته أو ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه إلا عند الانتهاء إلى الواجب لذاته، فثبت أن كل ما سوى الله تعالى مستند إلى إيجاده وتكوينه، وهذه القاعدة لا اختصاص لها بمحدث دون محدث، أو ممكن دون ممكن، فتدخل فيه أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم، وذلك هو المراد بقوله ﴿**قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾ وهذا كلام فى غاية الظهور لمن وفقه الله للإنصاف. ا.هـ.

[قلت]: وكلامه رحمه الله فيه تكلف على عادة أهل الكلام ولو اقتصر على قوله (احتج أصحابنا... وقدره) لكان أفضل، والله أعلم.

---

(١) تفسير الطبرى ٣/ ٤/ ٩٤.

(٢) زاد المسير ١/ ٣٨٦.

(٣) التفسير الكبير ٥/ ٩/ ٥٠.

ـ قوله: ﴿كُلَّهُ﴾.

قال الطبرى(1): واختلفت القراء فى قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ﴾ بنصب الكل على وجه النعت للأمر والصفة له وقرأه بعض قراء أهل البصرة ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ برفع الكل على توجيه الكل إلى أنه اسم وقوله لله خبره كقول القائل إن الامر بعضه لعبد الله وقد يجوز أن يكون الكل فى قراءة من قرأ بالنصب منصوباً على البدل والقراءة التى هى القراءة عندنا النصب فى الكل لإجماع أكثر القراء عليه من غير أن تكون القراءة الأخرى خطأ فى معنى أو غريبة ولو كانت القراءة بالرفع فى ذلك مستفيضه فى القراء لكانت سواء عندى القراءة بأى ذلك قرئ لاتفاق معانى ذلك بأى وجسه قرئ وذكر ذلك القرطبى وغيره.

قال الشوكانى (2): فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وليس لكم ولا لعدوكم منه شئ فالنصر بيده والظفر منه.اهـ.

قال ابن عثيمين: (3) ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أى: فإذا كان كذلك؛ فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره، فالله ـ عزوجل ـ يفعل ما يشاء من النصر والخذلان.

وقوله: ﴿إِنَّ الأَمْرَ﴾ واحد الأمور لا واحد الأوامر؛ أى: الشأن كل الشأن الذى يتعلق بأفعال الله وأفعال المخلوقين كله لله ـ سبحانه ـ؛ فهو الذى يقدر الذل والعز والخير والشر، لكن الشر فى مفعولاته لا فى فعله.

قولة: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ﴾.

ـ الإعراب: (4) ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ﴾ جملة (يخفون) حال من ضمير (يقولون)، أى: يقولون فيما بينهم متسارين، (وفى أنفسهم) جار ومجرور متعلقان (بيخفون) (وما) اسم موصول مفعول به (ولا نافية وجملة (يبدون) لا محل لها لأنها صلة ما (ولك) جار ومجرور متعلقان بيبدون.

● **التفسير بما أثر عن التابعين:**

(1) تفسير الطبرى ٣/ ٤/ ٩٤.
(2) فتح القدير ١/ ٤٧٤.
(3) القول المفيد ٣/ ١٨٢.
(4) إعراب القران ٢/ ٧٧ و٧٨.

عن الربيع فى قوله: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ﴾ كان مما أخفوا فى أنفسهم أن قالوا ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾[1]. اهـ.

قال الطبرى[2]: ثم عاد إلى الخبر عن ذكر نفاق المنافقين فقال يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك يقول يخفى يا محمد هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك صفتهم فى أنفسهم من الكفر والشك فى الله مالا يبدون لك.

قال ابن الجوزى:[3] قوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم﴾ فى الذى أنفسهم ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه قولهم «لو كنا فى بيوتنا ماقتلنا هاهنا».

والثانى: أنه إسرارهم الكفر والشك فى أمر الله.

والثالث: الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد. اهـ.

قال الرازى [4]: واعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: هل لنا من الأمر من شئ، وهذا الكلام محتمل فلعل قائله كان من المؤمنين المحقين، وكان غرضه منه إظهار الشفقة، وأنه متى يكون الفرج؟ ومن أين تحصل النصرة؟ ولعله كان من المنافقين، وإنما قاله طعنا فى نبوة محمد ﷺ وفى الإسلام فبين تعالى فى هذه الآية أن غرض هؤلاء من هذا الكلام هذا القسم الثانى، والفائدة فى هذا التنبيه أن يكون النبى ﷺ متحرزاً عن مكرهم وكيدهم.

قال الشوكانى[5]:ـ وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم﴾. أى يضمرون فى أنفسهم النفاق ولايبدون لك ذلك بل يسألونك سؤال المسترشدين.

قال ابن عثمين[6]: قوله: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾. أى: ما لا يظهرون لك، فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق؛ فيخفى فى نفسه مالا يبديه لغيره؛ لأنه يرى من جبنه وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه، فهو يخفى الكفر والفسوق والعصيان. اهـ.

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/١٥٦) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٢) تفسير الطبرى: ٣/٤/٩٤.

(٣) زاد المسير ١/ ٣٨٦.

(٤) التفسير الكبير ٥/٩/ ٥١.

(٥) فتح القدير ١/ ٤٧٤.

(٦) القول المفيد ٣/ ١٨٢.

قوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾.

ـ **الإعراب**[1]: جملة ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما قبله، ولتكون بمثابة شروع في الحديث عنهم مجدداً تطرية لنشاط السامع واسترعاء لانتباهه. و﴿لَوْ﴾ شرطية و﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص و﴿لَنَا﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم و﴿مِنَ الأَمْرِ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وشيء اسم كان المؤخر و﴿مَّا﴾ نافية و﴿قُتِلْنَا﴾ فعل ماض مبني للمجهول ونا نائب فاعل وجملة ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم، و﴿هَا هُنَا﴾ الهاء للتنبيه وهنا اسم اشارة في محل نصب ظرف مكان متعلق بقتلنا. اهـ.

● **التفسير بما أثر عن الصحابة والتابعين:**

عن عبدالله من الزبير عن الزبير قال والله إني لأسمع قول معتب بن قشير أخي بن عمرو بن عوف والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم حين قال لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا»[2].

عن الحسن أنه سأله عن هذة الآية فقال: لما قتل من قتل من أصحاب محمد أتو عبدالله بن أبيّ فقالوا له: ما ترى؟ فقال أنا ـ والله ـ ما نؤامر «لو كان لنا من الأمر شيء ما قلتنا هناهنا[3].

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبري[4]: ثم أظهر نبيه ﷺ على ما كانوا يخفونه بينهم من نفاقهم والحسرة التي أصابتهم على حضورهم مع المسلمين مشهدهم بأحد فقال مخبراً عن قيلهم الكفر وإعلانهم النفاق بينهم (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا) يعني بذلك أن هؤلاء المنافقين يقولون لو كان الخروج إلى حرب من خرجنا لحربه من المشركين إلينا ما خرجنا إليهم ولا قتل منا أحد في الموضع الذى قتلوا فيه بأحد وذكر أن ممن قال هذا القول معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف. اهـ.

(١) إعراب القرآن ٢/ ٧٨.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/ ١٥٦) ونسبه لابن أبي حاتم.

«فتح القدير» بتخريجنا.

(٤) «تفسير الطبري» (٣/ ٤/ ٩٣).

قال الرازى[1]: من الأشياء التى حكى الله عن المنافقين، قولهم: ﴿ **لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا**﴾، وفيه إشكال، وهو أن لقائل أن يقول: ما الفرق بين هذا الكلام وبين ما تقدم من قوله: ﴿ **هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ**﴾ ويمكن أن يجاب عنه من وجهين:

الأول: أنه تعالى لما حكى عنهم قولهم: ﴿ **هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ**﴾ فأجاب عنه بقوله: ﴿**الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾ واحتج المنافقون على الطعن فى هذا الجواب بقولهم: (لو كان لنا من الأمر شىء) لما أخرجنا من المدينة و(ما قتلنا ههنا)، فهذا يدل على أنه ليس الأمر كما قلتم من أن الأمر كله لله ، وهذا هو بعينه المناظرة الدائرة بين أهل السنة وأهل الاعتزال فإن السنى يقول: الأمر كله فى الطاعة والمعصية والإيمان والكفر بيد الله، فيقول المعتزلى : ليس الأمر كذلك، فإن الإنسان مختار مستقل بالفعل، إن شاء آمن، وإن شاء كفر، فعلى هذا الوجه لا يكون هذا الكلام شبهة مستقلة بنفسها، بل يكون الغرض منه الطعن فيما جعله الله تعالى جوابًا عن الشبهة الأولى.

الوجه الثانى: أن يكون المراد من قوله ﴿ **هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ**﴾ هو أنه هل لنا من النصرة التى وعدنا بها محمد شىء، ويكون المراد من قوله﴿ **لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا** ﴾ وهو ما كان يقوله عبد الله بن أبى من أن محمدًا لو أطاعنى، وما خرج من المدينة؛ ما قتلنا ههنا. اهـ.

واعلم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من ثلاثة أوجه.

الوجه الأول من الجواب: قوله: ﴿ **قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ**﴾. وسيأتى الوجه الثانى والثالث.

قوله: ﴿**قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ**﴾

الإعراب[2]:

﴿**قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ**﴾ الجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن الآجال مكتوبة وأنهم لو أقاموا فى المدينة لحدثت لهم أسباب يخرجون فيها لملاقاة حتوفهم وأنهم إذا جاء أجلهم

(١) التفسير الكبير ٥/ ٩/ ٥١، ٥٢.

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٧٨.

لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، و﴿لَوْ﴾ و﴿كُنتُمْ﴾ كان واسمها ، ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر والجملة فى محل نصب مقول القول.

﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ اللام واقعة فى الجواب وبرز الذين فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾صلة الذين ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ جار ومجرور متعلقان ببرز أى إلى مصارعهم.اهـ.

● **أقوال المفسرين:**

قال الطبرى(١): يعنى بذلك جل ثناؤه (قل) يا محمد للذين وصفت لك صفتهم من المنافقين (لو كنتم فى بيوتكم) لم تشهدوا مع المؤمنين مشهدهم ولم تحضروا معهم حرب أعدائهم من المشركين فيظهر للمؤمنين ما كنتم تخفونه من نفاقكم وتكتمونه من شرككم فى دينكم﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ يقول لظهر للموضع الذى كتب عليه مصرعه فيه من قد كتب عليه القتل منهم ويخرج من بيته إليه حتى يصرع فى الموضع الذى كتب عليه أن يصرع فيه.اهـ.

قال الرازى(٢): والمعنى أن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير، فالذين قدر الله عليهم القتل لابد وأن يقتلوا على جميع التقديرات، لأن الله تعالى لما أخبر أنه يقتل، فلو لم يقتل لانقلب علمه جهلاً ، وقد بينا أيضًا أنه ممكن فلابد من انتهائه إلى إيجاد الله تعالى، فلو لم يوجد لانقلبت قدرته عجزًا ، وكل ذلك محال، ومما يدل على تحقيق الوجوب كما قررنا قوله ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ وهذه الكلمة تفيد الوجوب، فإن هذه الكلمة فى قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ تفيد وجوب الفعل، وها هنا لا يمكن حملها على وجوب الفعل، فوجب حملها على وجوب الوجود وهذا كلام فى غاية الظهور لمن أيده الله بالتوفيق، ثم نقول للمفسرين : فيه قولان:

الأول: لو جلستم فى بيوتكم لخرج منكم من كتب الله عليهم القتل إلى مضاجعهم ومصارعهم حتى يوجد ما علم الله أنه يوجد .

والثانى: كأنه قيل للمنافقين لو جلستم فى بيوتكم وتخلفتم عن الجهاد لخرج المؤمنون الذين كتب عليهم قتال الكفار إلى مضاجعهم ، ولم يتخلفوا عن هذه الطاعة بسبب تخلفكم.اهـ.

قلت: وسيأتى شرح ابن عثيمين لمعنى الكتابة فى الآية قريباً.

---

(١) تفسير الطبرى ٣/ ٤/٩٤، ٩٥. (٢) التفسير الكبير ٥/ ٩/ ٥٢

قال السعدى[1]: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شىء﴾ أى : لو كان لنا فى هذه الواقعة رأى ومشورة ﴿ما قتلنا ها هنا﴾.

وهذا إنكار منهم، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأى رسول الله ﷺ ، ورأى أصحابه، وتزكية منهم، لأنفسهم فرد الله عليهم بقوله:

﴿قل لو كنتم فى بيوتكم﴾ التى هى أبعد شىء عن مظان القتل.

﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ فالأسباب - وإن عظمت - إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء.

فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئًا، بل لابد أن يمضى الله ما كتب فى اللوح المحفوظ، من الموت والحياة. اهـ.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين[2]: قوله: ﴿قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ .

هذا رد لقولهم: ﴿لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا﴾.

وهذا الاحتجاج لا حقيقة له، لأنه إذا كتب القتل على أحد، لم ينفعه تحصنه فى بيته، بل لابد أن يخرج إلى مكان موته، والكتابة قسمان:

١- **كتابة شرعية:** وهذا لا يلزم منها وقوع المكتوب ، مثل قوله تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾[3] ، وقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾[4].

٢- **كتابة كونية:** وهذه يلزم منها وقوع المكتوب كما فى هذه الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[5] وقوله: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى﴾[6] .

فائدة:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٦٧، ٢٦٨.
(٢) القول المفيد ٣/ ١٨٢.
(٣) النساء: ١٠٣.
(٤) البقرة: ١٨٣.
(٥) الأنبياء ١٠٥.
(٦) المجادلة : ٢١.

قال محيى الدين درويش[1]: فى الآية كنى الله بالمضاجع عن المصارع حيث لاقوا حتفهم وصافحوا مناياهم.

المخالفة فى جواب لو، فقد جاء مرة بغير لام وجاء مرة مقترنًا بها وفى هذا سر عجيب فقد قال: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ ثم قال: ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ والقاعدة المعروفة هى أن جواب لو إذا كان منفيًا بما فالأكثر عدم اللام وفى الإيجاب بالعكس لأن الإيجاب أحوج إلى التثبيت والترسيخ وهذا من الأسرار التى تميز كتاب الله بها ليكون المعجزة أبد الدهر.اهـ.

قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾

الإعراب[2]:

الواو عاطفة على محذوف تقديره: وفعل ما فعله فى أحد لمصالح جمة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾، اللام للتعليل ﴿وَيَبْتَلِيَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل المحذوف أى فعل ذلك لمصالح تجهلونها وليبتلى ما فى الصدور و﴿مَا﴾ اسم موصول مفعول به و﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة الموصول.اهـ.

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبرى[3]: **﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾**

وأما فى قوله: ﴿لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ فإنه يعنى به وليبتلى الله ما فى صدوركم أيها المنافقون كنتم تبرزون من بيوتكم إلى مضاجعكم ويعنى بقوله ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وليختبر الله الذى فى صدوركم من الشك فيميزكم بما يظهره للمؤمنين من نفاقكم من المؤمنين، وقد دللنا فيما مضى على أن معانى نظائر قوله ليبتلى الله وليعلم الله وما أشبه ذلك وإن كان فى ظاهر الكلام مضاف إلى الله الوصف به فمراد به أوليائه وأهل طاعته وأن معنى ذلك وليختبر أولياء الله وأهل طاعته الذى فى صدوركم من الشك والمرض فيعرفوكم من أهل الإخلاص واليقين.اهـ.

---

(١) إعراب القرآن ٢/ ٨٠.
(٢) إعراب القرآن ٢/ ٧٨
(٣) تفسير الطبرى ٣/ ٤/ ٩٥.

قال الرازى[1]: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾

الوجه الثانى فى الجواب عن تلك الشبهة ـ أى ما قاله المنافقون لو كان لنا من الأمر شىء ـ قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وذلك لأن القوم زعموا أن الخروج إلى تلك المقاتلة كان مفسدة، ولو كان الأمر إليهم لما خرجوا إليها، فقال تعالى: بل هذه المقاتلة مشتملة على نوعين من المصلحة: أن يتميز الموافق من المنافق، وفى المثل المشهور: لا تكرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين، ومعنى الابتلاء فى حق الله تعالى قد مر تفسيره. **فإن قيل:** لم ذكر الابتلاء وقد سبق ذكره فى قوله ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾

قلنا: لما طال الكلام أعاد ذكره، وقال الابتلاء الأول هزيمة المؤمنين، والثانى سائر الأحوال. اهـ.

قال السعدى[2]: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أى يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان. اهـ. وبنحو ما تقدم ذكر أهل التفسير بما يغنى عن تكراره.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال ابن عثيمين[3]: قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أى: يختبر ما فى صدوركم من الإيمان بقضاء الله وقدره والإيمان بحكمته، فيختبر ما فى قلب العبد بما يُقدّره عليه من الأمور المكروهة، حتى يتبين من استسلم لقضاءالله وقدره وحكمته ممن لم يكن كذلك. اهـ.

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾

الإعراب[4]:

عطف على ﴿لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾. اهـ.

● **التفسير بما أثر عن التابعين:**

قال ابن الجوزى[5]: قال قتادة: أراد ليظهرها من الشك والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه من الأمنة وإظهار سرائر المنافقين وهذا التمحيص خاص بالمؤمنين .

---

(١) التفسير الكبير ٥/ ٩/ ٥٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٦٨.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٨٣.

(٤) إعراب القرآن ٢/ ٧٩.

(٥) زاد المسير ١/ ٣٨٧.

وقال غيره: أراد بالتمحيص إبانة ما فى القلوب من الاعتقاد لله ولرسوله وللمؤمنين فهو خطاب للمنافقين.

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبرى[1]: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يقول وليتبينوا ما فى قلوبكم من الاعتقاد لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين من العداوة أو الولاية. اهـ.

قال الرازى[2]: قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وفيه وجهان:

أحدهما: أن هذه الواقعة تمحص قلوبكم عن الوساوس والشبهات .

والثانى: أنها تصير كفارة لذنوبكم فتمحصكم عن تبعات المعاصى والسيئات، وذكر فى الابتلاء الصدور وفى التمحيص القلوب وفيه بحث. اهـ.

قال السعدى[3]: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من وساوس الشيطان، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة. اهـ.

● **أقوال شراح كتاب التوحيد:**

قال سليمان آل الشيخ[4]: قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ هذه حكمة أخرى، وهى تمحيص ما فى قلوب المؤمنين وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه ، فإن القلوب يخالطها تغليب الطباع وميل النفوس، وحكم العادة وتزيين الشيطان، واستيلاء الغفلة مما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة ، لم تتخلص من هذه المخاطر ولم تتمحص منه، فاقتضت حكمة العزيز الرحيم أن قيض لها من المحن والبلايا ما يكون، كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيب بإزالته وتنقيته ممن هو فى جسده وإلا خيف عليه من الفساد والهلاك فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكثرة والهزيمة، وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصره، وتأييدهم وظفرهم بقدرتهم، فله عليهم النعمة التامة فى هذا وهذا. اهـ.

قال ابن عثيمين[5]: قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾

أى: إذا حصل الابتلاء فقوبل بالصبر، صار فى ذلك تمحيص لما فى القلب، أى: تطهير له وإزالة لما يكون قد علق به من بعض الأمور التى لا تنبغى.

---

(١) تفسير الطبرى ٤/ ٩٥.
(٢) التفسير الكبير ٥/ ٩/ ٥٢، ٥٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٦٨.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٥١٠.
(٥) القول المفيد ٣/ ١٨٣، ١٨٤.

وقد حصل الابتلاء والتمحيص فى غزوة أحد بدليل أن الصحابة لما ندبهم الرسول ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[1] خرجوا إلى حمراء الأسد ولم يجدوا غزواً فرجعوا، ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[2]. اهـ.

قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

الإعراب[3]:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الواو استئنافية والجملة مستأنفة لتأكيد علمه تعالى بالسرائر والكوامن، و﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ و﴿عَلِيمٌ﴾ خبر و ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ جار ومجرور متعلقان بعليم. اهـ.

● **التفسير بالقرآن:**

قال ابن عثيمين[4]: قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

جملة خبرية فيها أن الله عليم بذات الصدور، أى: بصاحبة الصدور، والمراد بها القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ فالله لايخفى عليه شىء فيعلم ما فى قلب العبد وما ليس فى قلبه متى يكون وكيف يكون. اهـ.

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبرى[5]: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قل : والله ذو علم بالذى فى صدور خلقه من خير وشر وإيمان وكفر ولا يخفى عليه شىء من أمورهم سرائرها وعلانيتها وهو لجميع ذلك حافظ حتى يجازى جميعهم جزائهم على قدر استحقاقهم. اهـ.

قال ابن الجوزى[6]: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى بما فيها، وقال ابن الأنبارى : معناه: عليم بحقيقة ما فى الصدور من المضمرات فتأنيث ذات بمعنى الحقيقة، كما تقول العرب لقيته ذات يوم: فيؤنثون لأن مقصدهم: لقيته مرة فى يوم. اهـ.

---

(١) آل عمران : ١٧٢.
(٢) آل عمران: ١٧٤.
(٣) إعراب القرآن ٢/ ٧٩.
(٤) القول المفيد ٣/ ١٨٤.
(٥) تفسير الطبرى ٣/ ٤/ ٩٥.
(٦) زاد المسير ١/ ٣٨٧

وَقَوْلُه: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾(١).

قال الرازى(٢): واعلم أن ذات الصدور هى الأشياء الموجودة فى الصدور، وهى الأسرار والضمائر ، وهى ذات الصدور، لأنها حالة فيها مصاحبة لها، وصاحب الشىء ذوه وصاحبته ذاته، وإنما ذكر ذلك ليدل به على أن ابتلاءه لم يكن لأنه يخفى عليه ما فى الصدور، أو غير ذلك، لأنه عالم بجميع المعلومات وإنما ابتلاهم إما لمحض الألهية، أو للاستصلاح. اهـ.

قال السعدى(٣) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : بما فيها، وما أكنته.

فاقتضى علمه وحكمته، أن قدر من الأسباب، ما به يظهر مخبئات الصدور وسرائر الأمور. اهـ.

● **فائدة: فى تقديم المنافقين على المشركين فى الذكر.**

قال الرازى(٤): واعلم أنه قدم المنافقين على المشركين فى الذكر فى كثير من المواضع لأمور:

(أحدها): أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وهو كان يفشى أسراره، وإلى هذا أشار النبى ﷺ بقوله: «**أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك**» والمنافق على صورة الشيطان فإنه لا يأتى الإنسان على أنه عدوك، وإنما يأتيه على أنه صديقك ، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه، ولأن المنافق كان يظن أنه يتخلص للمخادعة، والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه، فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق. اهـ.



قوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

● **مناسبة الآية للباب:**

قال القرعاوى(٥): حيث دلت الآية على تحريم سوء الظن بالله. اهـ.

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

---

(١) الفتح : ٦.

(٢) التفسير الكبير ٥/ ٩ / ٥٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن /٢٦٨.

(٤) التفسير الكبير ٥/ ٩ / ٨٤، ٨٥.

(٥) الجديد / ٤٣٠.

قال القرعاوى[1]: حيث دلت الآية على وجوب حسن الظن بالله لأنه من واجبات التوحيد. اهـ.

قوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

الإعراب[2]:

﴿الظَّانِّينَ﴾ نعت للمنافقين والمشركين و**﴿بِاللَّهِ﴾** متعلقان بالظانين و**﴿ظَنَّ السَّوْءِ﴾** مفعول مطلق و**﴿السَّوْءِ﴾** بفتح السين ومعناه الذم وبضمها معناه العذاب والهزيمة والشر وقيل هما لغتان غير أن المفتوح غلب فى أن يضاف إليه ما يراد ذمه والمضموم جرى مجرى الشر وكلاهما فى الأصل مصدر والإضافة ليست من قبيل إضافة الموصوف إلى صفته فإنها غير جائزة عند البصريين لأن الصفة والموصوف عبارة عن شىء واحد فإضافة أحدهما إلى الآخر إضافة الشىء إلى نفسه بل السوء صفة لموصوف محذوف أى ظن الأمر السوء فحذف المضاف إليه وأقيمت صفة مقامه . و**﴿عَلَيْهِمْ﴾** خبر مقدم **﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾** مبتدأ مؤخر والجملة دعائية لا محل لها والدائرة فى الأصل عبارة عن الخطر المحيط بالمركز ثم استعملت فى الحادثة المحيطة بمن وقعت عليه إلا أن الغالب فى استعمالها للمكروه وإضافة الدائرة إلى السوء من إضافة العام إلى الخاص فهى للبيان كخاتم فضة والمراد الإحاطة والشمول بحيث لا يتخطاهم السوء ولا يتجاوزهم. اهـ.

● **أقوال أهل التفسير:**

[قلت]: وسيأتى فى نهاية هذا الباب كلام ابن القيم فى سوء الظن بالله، بطريقة بديعة جامعة لما ذكره المفسدون وزيادة.

قال الطبرى[3] : يقول تعالى: ذكره لنبيه محمد ﷺ **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾** (وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ويعذب المنافقين والمنافقات) بفتح الله لك يا محمد ما فتح لك من نصرك على مشركى قريش فيكبتوا لذلك ويحزنوا ويخيب رجاؤهم الذى كانوا يرجون من رؤيتهم فى أهل الإيمان بك من الضعف والوهن والتولى عنك فى عاجل الدنيا وصلى النار والخلود فيها فى آجل الآخرة

---

(١) الجديد ٤٣٠.

(٢) إعراب القرآن ٩/ ٢٣٢، ٢٣٣

(٣) تفسير الطبرى ٤/ ٤٩.

﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ يقول وليعذب كذلك أيضًا المشركين والمشركات (الظانين بالله) أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك ولن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به وذلك كان (السوء) من ظنونهم التى ذكرها الله فى هذا الموضع، يقول تعالى ذكره على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن (دائرة السوء) يعنى دائرة العذاب تدور عليهم به واختلف القُرَّاء فى قراءة ذلك فقرأته عامة قراءة الكوفة ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ بفتح السين وقرأ بعض قراء البصرة (دائرة السُّوء) بضم السين، وكان الفراء يقول الفتح أفشى فى السين، قال: وقلما تقول العرب (دائرة السوء) بضم السين والفتح فى السين أعجب إلىَّ من الضم؛ لأن العرب تقول: هو رجل سوء بفتح السين، ولا تقول: هو رجل سوء، وقوله (وغضب الله عليهم) يقول ونالهم الله بغضب منه، (ولعنهم) يقول وأبعدهم فأقصاهم من رحمته، (وأعدلهم جهنم) يقول وأعدلهم جهنم يصلونها يوم القيامة (وساءت مصيرًا) يقول وساءت جهنم منزلاً لا يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات. اهـ.

[قلت]: وسيأتى قريباً فى نهاية كلام القرطبى وجه الجمع بين القراءتين

قال ابن الجوزى[1]: قوله تعالى ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ فيه خمسة أقوال:

أحدها: أنهم ظنوا أن لله شريكًا.

والثانى: أن الله لا ينصر محمدًا وأصحابه.

والثالث: أنهم ظنوا به حين خرج إلى الحديبية أنه سيقتل أو يهزم ولا يعود ظافرًا.

والرابع: أنهم ظنوا أنهم ورسول الله ﷺ بمنزلة واحدة عند الله.

والخامس: ظنوا أن الله لا يبعث الموتى.

قال الرازى[2]: **قول** ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ هذا الظن يحتمل وجوهًا.

أحدهما: هو الظن الذى ذكره الله بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ .

ثانيهاً: ظن المشركين بالله فى الإشراك كما قال تعالى ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ﴾.

(١) زاد المسير ٧/ ٢٠٣.

(٢) التفسير الكبير ١٤/ ٢٨/ ٨٥.

ثانيها: ظن المشركين بالله فى الإشراك كما قال تعالى: ﴿**إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ**﴾. إلى أن قال ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾.

ثالثها: ظنهم أن الله لا يرى ولايعلم كما قال ﴿**وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾.

والأول: أصح أن نقول المراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذى ظنوا أن الله لا يحيى الموتى، وأن العالم خلقه باطل، كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ ويؤيد هذا الوجه الألف واللام الذى فى السوء وفيه وجوه.

أحدها: ما اختاره المحققون من الأدباء .. وهو أن السوء صار عبارة عن الفساد، والصدق عبارة عن الصلاح يقال مررت برجل سوء أى فاسد، وسئلت عن رجل صدق أى صالح فإذا كان مجموع قولنا رجل سوء يؤدى معنى قولنا فاسد، فالسوء وحده يكون بمعنى الفساد، وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخشرى، وتحقيق هذا أن السوء فى المعانى كالفساد فى الأجساد، يقال ساء مزاجه، وساء خلقه، وساء ظنه، كما يقال فسد اللحم، وفسد الهواء، بل كل ما ساء فقد فسد وكل ما فقد فسد ساء غير أن أحدهما كثير الاستعمال فى المعانى والآخر فى الإجرام قال الله تعالى ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ وقال ﴿**سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ هذا ما يظهر لى من تحقيق كلامهم.

قوله تعالى: ﴿**عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ**﴾ أى دائرة الفساد وحاق بهم الفساد بحيث لا خروج لهم منه.

قال القرطبى[1]: ﴿**الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ**﴾ يعنى ظنهم أن النبى ﷺ لا يرجع إلى المدينة، ولا أحد من أصحابة حين خرج إلى الحديبية، وأن المشركين يستأصلونهم، كما قال: ﴿**بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا**﴾ وقال الخليل وسيبويه: ﴿**السَّوْءِ**﴾ هنا الفساد.

﴿**عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ**﴾ فى الدنيا بالقتل والسَّبْي والأسر، وفى الآخرة بجهنم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿**دَائِرَةُ السَّوْءِ**﴾ بالضم، وفتح الباقون، قال الجوهرى:

---

(١) تفسير القرطبى ٩/ ٦٠٨٥.

ساءه يسوءه سَوءًا (بالفتح) ومساءة ومساية، نقيض سره، والاسم السُّوء (بالضم)، وقرئ ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ يعنى الهزيمة والشر، ومن فتح فهو من المساءة. اهـ.

قال ابن كثير(١): ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أى يتهمون الله تعالى فى حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أى أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾. اهـ.

قال الشوكانى(٢): ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وهو ظنهم أن النبى ﷺ يغلب وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام، ومما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً﴾ ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أى ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم حائق بهم، والمعنى: أن العذاب والهلاك الذى يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم، قال الخليل وسيبويه: السوء هنا: الفساد، قرأ الجمهور: ﴿السَّوْءِ﴾ بفتح السين، وقرأ ابن كثير وأبو عمر بضمها ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾، لما بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم فى الدنيا، بين ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعنة وعذاب جهنم. اهـ.

قال صاحب الظلال(٣): وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هى (**ظن السوء بالله**) فالقلب المؤمن حسن الظن بربه، يتوقع منه الخير دائمًا، يتوقع منه الخير فى السراء والضراء، ويؤمن بأن الله يريد به الخير فى الحالين وسر ذلك أن قلبه موصول بالله. وفيض الخير من الله لا ينقطع أبدًا، فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة، وأحسها إحساس مباشرة وتذوق، فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعوا الصلة بالله، ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها، فيسوء ظنهم بالله، وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، ويبنون عليها أحكامهم، ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين، كلما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا، على غير ثقة بقدر الله وقدرته وتدبيره الخفى اللطيف.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/١٧٩.

(٢) فتح القدير ٥/٤٧.

(٣) ٣٣١٩.

وقد جمع الله فى الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع، وبين حالهم عنده، وما أعده لهم فى النهاية ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾

قال ابن عثيمين: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أى: أن السوء محيط بهم جميعًا من كل جانب كما تحيط الدائرة بما فى جوفها، وكذلك تدور عليهم دوائر السوء، فهم وإن ظنوا أنه تعالى تخلى عن رسوله وأن أمره سيضمحل، فإن الواقع خلاف ظنهم، ودائرة السوء راجعة عليهم.

قوله: **﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾**

الغضب من صفات الله الفعلية التى تتعلق بمشيئته ويترتب عليه الانتقام، وأهل التعطيل قالوا: إن الله لا يغضب حقيقة

فمنهم من قال : المراد بغضبه الانتقام.

قلت: ولقد تقدم معناه.

ومنهم من قال : المراد إرادة الانتقام. قالوا : لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، ولهذا قال النبى ﷺ : **«إنه جمرة يلقيها الشيطان فى قلب ابن آدم»**.

فيجاب عن ذلك: بأن هذا هو غضب الإنسان، ولايلزم من التوافق فى اللفظ التوافق فى المثلية والكيفية، قال تعالى : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**(١)، ويدل على أن الغضب ليس هو الانتقام قوله تعالى : **﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾**(٢).

فـ**﴿آسَفُونَا﴾** : بمعنى أغضبونا **﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾** ؛فجعل الانتقام مرتباً على الغضب ، فدل على أنه غيره.

وقوله : ﴿ولعنهم﴾.

اللعن : الطرد والإبعاد عن رحمة الله. ولقد تقدم.

---

(١) الشورى : ١١

(٢) الزخرف : ٥٥

قَالَ ابنُ القَيِّمِ فِي الآيَـةِ الأولى: فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَـهُ لاَ يَنْصرُ رَسُولَهُ، وأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ الله وَحِكْمَتِهِ.

فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ وإِنْكَارِ القَدَرِ وإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَ أَمرَ رَسُولِهِ ﷺ . وأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدينِ كُلِّهِ.

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ. الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ وَالمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتْحِ.

قوله: ﴿وأعد لهم جهنم﴾.

أى : هيأها لهم وجعلها سكناً لهم ومستقراً.

قوله: ﴿وساءت مصيراً﴾.

أى: مرجعاً يصار إليه.

و«مصيراً» تمييزا، والفاعل مستتر؛ أى . سائت النار مصيراً يصيرون إليه

فوائد(١):

١ـ المنافقون أشد خطراً على المسلمين من الكفار.

٢ـ تحريم سوء الظن بالله.

٣ـ من أسلوب القرآن الكريم تقديم الرجل على المرأة فى الخطاب.

٤ـ سوء الظن بالله من علامات النفاق الإعتقادى.

٥ـ إثبات صفه الغضب لله عزوجل على وجه يليق بجلاله.

٦ـ جواز لعن الكفار على سبيل العموم.

٧ـ إثبات أن النار موجودة الآن. اهـ.

قوله : قال ابن القيم(١):

هو محمد ابن قيم الجوزية، أحد تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الكبار الملازمين له رحمهما الله، وقد ذكره فى «زاد المعاد» عقيب غزوة أحد تحت بحث الحكم والغايات المحمودة التى كانت فيها.

---

(١) الجديد ٤٢٩.

(٢) القول المفيد ٣/ ١٨٧

وإنَّمَا كَانَ هَذَا ظَـنَّ السَّوءِ لأَنَّهُ ظَنٌّ غيرِ مَا يَلِيـقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَمَا يَلِيقُ بِـحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ.

أو أَنْكَرَ أَنْ يَـكُونَ مَا جَرى بِقَـضَائِه وَقَدرِه، أو أَنْكَـر أَنْ يَكُونَ قَدرُهُ لِحِـكْمَهِ بَالِغَةٍ يَسْتَحِـقُّ عَلَيهَا الحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِـيئَةٍ مُجردَةٍ ؛فـ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

وأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيرِهِمْ وَلاَ يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ وأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ. مُوْجَبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا ، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ تعالى، وَلْيَسْتَغْفِرهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ؛ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَـعَنُّتاً عَلَـى القَدَرِ وَمَلاَمَةً لَـهُ. وأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا؛ فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَـإِنْ تَنْجُ مِـنهَا تَـنْجُ مِـنْ ذِي عَظِـيمَـةٍ وَإِلاَّ فَإِنِّـي لاَ إِخَالُـكَ نَاجِـيا

قوله: «في الآية الأولى»

قال ابن عثيمين (١): يعني قوله : ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾

قوله:«فسّر هذا الظن بأن سبحانه لاينصر رسوله».

قال سليمان الشيخ (٢): هذا تفسير غير واحد من المفسرين وهو مأخوذ [وهو تفسير](*) قتادة والسدي، وذكر ذلك عنهما ابن جرير وغيره بالمعنى.اهـ.

قوله : «وإن أمره سيضمحل».

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٨٧٧ .

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥١٢، ٥١٣ .

(*) هكذا في الأصل ولعلها (من تفسير).

قال سليمـان آل الشيخ: أى سيذهب جمـلة حتى لايبقى له أثـر. والاضمحلال. ذهاب الشىء جملة. اهـ.

قوله: «وفسر أن ماأصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته»

قال سليمان آل الشيخ: قال القرطبى: وقال جويبر عـن الضحاك عن ابن عباس فى قوله: تعالى» ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ : يعنى التكذيـب بالقدر وذلك أنهم تكلموا فيه، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ يعنى : القدر خيره وشره من الله. اهـ.

قوله: «فسر بإنكار حكمته وإنكاراً لقدرته».

قال سليمان آل الشيخ: وأما تفسيره بإنكار الحكمة؛ فلم أقف عليه من السلف، فهو تفسير صحيح فمن أنكر أن ذلك لم يكن لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر؛ فقد ظن بالله ظن السوء، وقد أشار تعالى إلى بعض الحكم والغايات المحمودة فى ذلك، فى سورة «آل عمران» فذكـر شيئاً كثيراً منها فـى الآية المفسرة ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهذا بـعض الحكمة فى ذلـك فمن أنكره فقد ظن ظن السوء بالله وحكمته وعلمه ورحمته لكمال علمه وقدرته ورحمته ولأن من أسمائه الحق وذلك هو موجب لهيبته وربوبيته. اهـ.

قال ابن عثيمين(1): فسر بـأن الله لا ينصر رسولـه، وأن أمره سيضـمحل؛ أى : يزول وفسر بأن ماأصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، يؤخذ هذا التفسير من قولهم : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾؛ ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهره الله على الدين كله.

ففسر بمـا يكون طعناً فى الربـوبية وطعناً فى الأسـماء والصفات؛ فالطعـن فى القدر طعن فى ربوبية الله عزوجل؛ لأن من تمام ربوبيـته - عزوجل - أن نؤمن بأن كل ماجرى فى الكون فإنه بقضاء الله وقدره، والطعن فى الأسماء والصفات تضمنه الطعن فى أفعاله وحكمته، حيث ظـننا أن الله تعالى لاينصر رسوله وسوف يـضمحل أمره؛ لأنه إذا ظن الإنسان هـذا الظن بالله؛ فـمعنى ذلك أن إرسـال الرسول عليـه الصلاة والسـلام عبث وسفه؛ فـما الفائدة من أن يـرسل رسول ويؤمر بـالقتال وإتلاف الأموال والأنـفس، ثم تكون النتيجة أن يضمحل أمره وينسى؟ فهذا بعيد.

(1) القول المفيد ٣/ ١٨٧، ١٨٨.

ولاسيما رسول الله ﷺ الذى هو خاتم النبيين؛ فإن الله تعالى قد أذن بأن شريعته سوف تبقى إلى يوم القيامة. اهـ.

قوله: «لأنه ظن غير مايليق به سبحانه ومايليق بحكمته وحمده».

قال سليمان آل الشيخ(١): **قوله**: لأنه ظن غير مايليق به سبحانه أى: لأن الذى يليق به سبحانه أنه يظهر الحق على الباطل وينصره، فلا يجوز فى عقل ولاشرع أن يظهر الباطل على الحق قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. اهـ.

قوله: ولايليق بحكمته وحمده، أى: أن الذى يليق بحكمته وحمده أن لايكون فى السموات ولا فى الأرض حركة ولاسكون إلا وله فى ذلك الحكمة البالغة والحمد الكامل التام عليها، فكيف بمثل هذا الأمر العظيم الذى وقع على سيد المرسلين ﷺ، وعلى سادات الأولياء، رضى الله عنهم، فله سبحانه وتعالى فى ذلك الحكمة، وله عليه الحمد، بل والشكر، ومن تأمل ما فى سورة «آل عمران» فى سياق القصة؛ رأى من ذلك العجب، فمن ظن بالله تعالى أنه لايفعل ذلك بقدرة وحكمة يستحق عليها الحمد والشكر؛ فقد ظن به ظن السوء. اهـ.

قوله: «ووعده الصادق».

قال سليمان آل الشيخ(٢): **قوله**: ووعده الصادق، لأن الله تعالى وعد رسوله ﷺ، أن يظهر أمره ودينه على الدين كله ولو كره المشركون، فمن ظن به تعالى أن دين نبيه ﷺ سيضمحل ويبطل، ولايظهر على الدين كله، فقد ظن به ظن السوء، لأنه ظن أنه يخلف الميعاد والله تعالى لايخلف الميعاد. اهـ.

قوله«فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالةمستقرة يضمحل معها الحق».

قال سليمان آل الشيخ(٣): فهذا ظن السوء، لأنه نسبه - أى سبحانه - إلى مالايليق بجلاله وكماله ونعوته وصفاته، فإن حمده وحكمته وعزته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين المعاندين له، فمن ظن به ذلك، فما عرفه ولاعرف أسماءه وصفاته وكماله.

(١) تيسير العزيز الحميد ٥١٣.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٥١٤.
(٣) المصدر السابق ٥١٣.

قوله« وأنكر أن يكون ماجرى بقضائه وقدره»

قال سليمان آل الشيخ[1]: قوله: أى: فذلك ظن السوء، لأنه نسبة له إلى مالايليق بربوبيته وملكه وعظمته.اهـ.

قوله: «وأنكر أن يكون قدَّره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

قال ابن القيم[2]:وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق عليها الحمد، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هوأحب إلى من قوتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لايخرج تقديرها عن الحكمة لانضمامها إلى مايحب، وإن كانت مكروهة له فما قدرها سدى ولا شاءها عبثاً ولاخلقها باطلاً **﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾**[3]:

قوله: قال ابن القيم رحمه الله«وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون فى سورة الفتح»

قال ابن عثيمين[4]:وخلاصة ما ذكر ابن القيم فى تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:

الأول: أن يظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق؛ فهذا هو ظن المشركين والمنافقين فى سورة الفتح قال تعالى: **﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾**.

الثانى: أن ينكر أن يكون ماجرى بقضاء الله وقدره؛ لأنه يتضمن أن يكون فى ملكه سبحانه مالايريد، مع أن كل مايكون فى ملكه فهو بإرادته.

الثالث : أن ينكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليه الحمد؛ لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعباً وسفهاً، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يقدر شيئاً أو يشرعه إلالحكمة، قد تكون معلومة لنا وقد تقصر عقولنا عن إدراكها، ولهذا يختلف الناس فى علل الأحكام الشرعية اختلافاً كبيراً بحسب ماعندهم من معرفة حكمة الله ـ سبحانه وتعالى . ـ

(١) تيسير العزيز الحميد ٥١٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥١٣،٥١٤.

(٣) ص: ٢٧.

(٤)

ورأى الجهمية والجبرية أن الله يقدر الأشياء لمجرد المشيئة لا لحكمة، قالوا: لأنه لايسأل عما يفعل، وهذامن أعظم سوء الظن بالله ؛ لأن المخلوق إذا تصرف لغير حكمة سمى سفيهاً؛ فما بالك بالخالق الحكيم؟! .

قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ؛ فالظن بأنها خلقت باطلاً لالحكمة عظيمة ظن الذين كفروا،وقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ الذى هو ضد الباطل، وهؤلاء قالوا: إن الله تعالى خلقهما باطلاً لغير حكمة، قال الله : ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أى : الذين يظنون أن الله خلقهما باطلاً وعبثاً سفهاً ولعباً.

والمعتزلة على العكس من ذلك، يقولون : لايقدر إلا لحكمة، ويفرضون على الله مايشاؤون، وقد ذكر صاحب «مختصر التحرير الفتوحى» رحمه الله: أن فى المسألة قولين فى المذهب.

ولكن الصواب بلا ريب أنه لا يفعل شيئاً ولا يُقدِّره على عبده ولا يشرع شيئاً إلا لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر. اهـ.

قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ، وساغ الابتداء بالنكرة: للتعظيم، وخبر المبتدأ: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والجار والمجرور ﴿مِنَ النَّارِ﴾ بيان لويل، وفى هذا دليل على أن كلمة ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة وعيد وليست كما قيل: وادٍ فى جهنم، ولهذا نقول: ويل لك من البرد، ويل لك من فلان، ويقول المتوجع: ويلاه، وإن كان قد يوجد واد فى جهنم اسمه ويل، لكن ويل فى مثل هذه الآية كلمة وعيد. اهـ.

قولهّ: «وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء، فيما يختص بهم، وفيما يفعله غيرهم».

[قلت]: تقدم من أقوال المفسرين ما جاء فى معنى سوء الظن بالله، وهذا الموضع زيادة بيان وتفسير لكلامهم، وفيه فوائد زائدة عن كلامهم، فنسأل الله العافية من سوء الظن به، وأن يرزقنا حسن الظن به إنه جواد كريم.

قال ابن عثيمين: قوله: «وأكثر الناس».

أى: من بنى آدم لا من المؤمنين يظنون بالله ظن السوء؛ أى: العيب فيما يختص بهم، كما إذا دعوا الله على الوجه المشروع يظنون أن الله لا يجيبهم، أو إذا تعبدوا الله بمقتضى شريعته يظنون أن الله لا يقبل منهم، وهذا ظن السوء فيما يختص بهم.

قوله: «فيما يفعله بغيرهم».

كما إذا رأوا أن الكفار انتصروا على المسلمين بمعركة من المعارك ظنوا أن الله يديل هؤلاء الكفار على المسلمين دائماً؛ فالواجب على المسلم أن يحسن الظن بالله مع وجود الأسباب التى تقتضى ذلك.

قال سليمان آل الشيخ[1]: قال ابن القيم: فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن جوز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوى بينهم وبين أعدائه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهى، ولا يرسل إليهم رسله، ولا ينزل إليهم كتبه؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه لن يجمعهم بعد موتهم للثواب والعقاب فى دار يجازى فيها المحسن بإحسانه، والمسىء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه، وصدق رسله، وأن أولياءه كانوا هم الصادقين؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذى عمله خالصاً لوجهه على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه على فعله سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التى يؤيد بها أنبياءه ورسله، وأنه يحسن منه كل شىء حتى يعذب من أفنى عمره فى طاعته، أى: كمحمد ﷺ، فيخلده فى الجحيم، أو فى أسفل سافلين، ومن استنفد عمره فى عداوته، وعداوة رسله ودينه، كأبى جهل فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين فى الحسن سواء عنده، ولا يعرف امتناع أحدهما، ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لايقضى بقبح أحدهما، وحسن الآخر؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل ، وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به، وإنما رمز إليهم رموزاً بعيدة،وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل،وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم فى تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، وإعانتهم فى معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لاعلى كتابه مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذى ينبغى التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التى توقعهم فى اعتقاد الباطل؛ فقد ظن به ظن السوء.

---

(١)تيسير العزيز الحميد ٥١٤

ومن ظن به أن يكون له في ملكه مالايشاء ولايقدر على إيجاده وتكوينه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لاسمع له، ولابصر، ولاعلم، ولاإرادة، ولا كلام يقوم به، وأنه لم يكلم أحداً من الخلق، ولايتكلم أبداً؛ فقد ظن به ظن السوء ، ومن ظن أنه ليس فوق سمواته على عرشه بائناً من خلقه، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين، وأنه أسفل كما أنه أعلى، وأن من قال. سبحان ربي الأسفل كمن قال: سبحان ربي الأعلى؛ فقد ظن به أقبح الظن.

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان والفساد، ولايحب الإيمان والبر والطاعة والصلاح؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لايحب، ولايرضى، ولايغضب، ولايوالى، ولايعادى، ولايقرب من أحد من خلقه، ولايقرب عنده أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب منه، كذوات الملائكة المقربين فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يسوى بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين في كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلده في الجحيم لتلك الكبيرة، كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفد عمره في مساخطه، ومعاداة رسله ودينه؛ فقد ظن به ظن السوء.

وبالجملة: فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفه به رسله ؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أن له ولداً أو شريكاً، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أوأن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه، يتقربون بهم إليه؛ ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم، فيدعونهم، ويخافونهم ،ويرجونهم ؛ فقد ظن به أقبح الظن وأسوءه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته ، كما ينال بطاعته،والتقرب إليه، هو من ظن السوء.

ومن ظن أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يعوضه خيراً منه، أومن فعل شيئاً لأجله، لم يعطه أفضل منه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يغضب على عبده، ويعاقبه بغير جرم، ولاسبب من العبد إلابمجرد المشيئة؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه إذا صدق فى الرغبة والرهبة، وتضرع إليه وسأل واستعان به، وتوكل عليه أنه يخيبه فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه، كما يثيبه إذا أطاعه، وسأله ذلك فى دعائه؛ فقد ظن به خلاف ما هو أهله، ومالا يفعله.

ومن ظن أنه إذا أغضبه وأسخطه ووقع فى معاصيه، ثم اتخذ من دونه أولياء، ودعا من دونه ملكاً، أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء،ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد ﷺ أعداءه تسليطاً مستقراً دائماً فى حياته ومماته، وابتلاه بهم لا يفارقونه، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيه، وأهل بيته. وسلبوهم حقهم، وأذلوهم من غير جرم، ولاذنب لأوليائه، وأهل الحق، وهو يرى ذلك، ويقدر على نصرة أوليائه وحزبه، ولاينصرهم، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه فى حفرته تسلم أمته عليه وعليهم كل وقت، كما تظنه الرافضة فقد ظن به أقبح الظن. انتهى اختصاراً.

هو ينبهك على إحسان الظن بالله فى كل شيء، فليعتن اللبيب.

اللب العقل. واللبيب العاقل. اهـ.

قوله: ولايسلم من ذلك

قال ابن عثيمين(١): أى: من الظن السوء.

قوله : **«إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده»**.

صدق رحمه الله، لايسلم من ظن السوء إلا من عرف الله - عزوجل - وماله من الحكم والأسرار فيما يقدره ويشرعه، وكذلك عرف أسماءه وصفاته معرفة حقة لامعرفة تحريف وتأويل.

ولهذا حُجب المحرفون والمؤوّلون عن معرفة أسماء الله وصفاته؛ فتجد قلوبهم مظلمة غالباً، تحاول أن تورد الإشكالات والتشكيك والجدل، أمامن أبقى أسماء الله وصفاته على مادلت عليه وسلك فى ذلك مذهب السلف؛ فإن قلبه لا يرد عليه مثل هذه الإعتراضات التى ترد على قلوب أولئك المحرفين؛ لأن المحرفين إنما أُوتوا من جهة ظنهم بالله ظن السوء، حيث ظنوا أن الكتاب والسنة دل ظاهرهما على التمثيل والتشبيه،

(١) القول المفيد ٣/ ١٩١-١٩٤.

فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه وينكرون ما أثبت الله لنفسه، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن كل معطل ممثل، وكل ممثل معطل.

أما كون كل معطل ممثلاً ؛ فلأنه إنما عطل لكونه ظن أن دلالة الكتاب والسنة تقتضى التمثيل، فلما ظن هذا الظن السيىء بنصوص الكتاب والسنة أخذ يحرفها ويصرفها عن ظاهرها؛ فمثل أولاً، وعطل ثانياً، ثم إنه إذا عطل صفات الله تعالى خوفاً من تشبيهه بالموجود،؛ فقد شبهه بالمعدوم.

وأما كون كل ممثل معطلاً؛ فلأن الممثل عطل الله تعالى من كماله الواجب حيث مثله بالمخلوق الناقص؛ وعطل كل نص يدل على نفى مماثلة الخالق للمخلوق.

وعلى هذا؛ فالذى عرف أسماء الله وصفاته معرفة على ماجرى عليه سلف هذه الأمة وأئمتها، وعرف موجب حكمة الله ؛ أى: مقتضى حكمة الله؛ لايمكن أن يظن بالله ظن السوء.

وقوله: «موجب».

موجب ؛ بالفتح : هو المسبب الناتج عن السبب بمعنى المقتضى، وبالكسر: السبب الذى يقتضى الشىء بمعنى المقتضى، والمراد هنا الأول.

فالذى يعرف موجب حكمة الله وما تقتضيه الحكمة؛ فإنه لايمكن أن يظن بالله ظن السوء أبداً، ولاحظ الحكمة التى حصلت للمسلمين فى هزيمتهم فى حنين وفى هزيمتهم فى أحد؛ فإن فى ذلك حكماً عظيمة ذكرها الله فى سورة آل عمران والتوبة؛ فهذه الحكم إذا عرفها الإنسان لايمكن أن يظن بالله ظن السوء،وأنه أراد أن يخذل رسوله وحزبه، بل كل مايجريه الله فى الكون؛ كمنع الإنبات والفقر؛ فهو لحكمة بالغة قد لانعلمها،ولايمكن أن يظن أن الله بخل على عباده؛ لأنه ـ عزوجل ـ أكرم الأكرمين، وعلى هذا فقس.

قوله : (اللبيب الناصح لنفسه وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء).

قال ابن عثيمين(١):قوله :«اللبيب».

على وزن فعيل، ومعناه: ذو اللب، وهو العقل.

قوله «بهذا».

(١) القول المفيد (٣/ ١٩٤).

المشار إليه هو الظن بالله ـ عزوجل ـ، ؛ ليعتنى بهذا حتى يظن بالله ظن الحق، لاظن السوء وظن الجاهلية.

قوله«وليتب إلى الله».

أى : يرجع إليه؛ لأن التوبة الرجوع من المعصية إلى الطاعة.

قوله : «وليستغفره».

أى: يطلب منه المغفرة، واللام فى قوله: «فليتب» وقوله: «وليستغفره». للأمر.

قوله «ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر، وملامة له، وأنه كان ينبغى أن يكون كذا وكذا».

قال سليمان آل الشيخ(١): بل يبوحون بذلك، ويصرحون به جهاراً فى أشعارهم وكلامهم.

قال ابن عقيل فى «الفنون» : الواحد من العوام إذا رأى مراكب مقلدة بالذهب والفضة،وداراً مشيدة مملوءة بالخدم والزينة؛ قال: انظر إلى إعطائهم مع سوء أفعالهم، ولايزال يلعنهم،و يذم معطيهم حتى يقول: فلان يصلى الجماعات والجمع، ولايؤذى الذر،ولايأخذ ماليس له، ويؤدى الزكاة إذا كان له مال، ويحج ويجاهد،ولاينال خلة بقلبه،ويظهر الإعجاب كأنه ينطق إنه لوكانت الشرائع حقاً لكان الأمر بخلاف ماترى، وكان الصالح غنياً، والفاسق فقيراً.

قال أبو الفرج ابن الجوزى: وهذه حالة قد شملت خلقاً كثيراً من العلماء والجهال أولهم إبليس فإنه نظر بعقله، فقال: كيف يفضل الطين على جوهر النار؟! وفى ضمن اعتراضه : إن حكمتك قاصرة وأنا أجود.. واتبع إبليس فى تفضيله واعتراضه خلق كثير ، مثل الراوندى والمعرى،ومن قوله.

إذا كان لايحظى برزقك عاقل ... وترزق مجنوناً وترزق أحمقاً
ولاذنب يارب السماء على امرىء ... رأى منك مالاينتهى فتزندقا

وأمثال ذلك كثير فى أولئك الذين ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وانطلقوا إلى أهوائهم، واعتمدوا على عقولهم القاصرة التى جعلتهم يعترضون على الله جل وعلا.

وكان أبو طالب المكى يقول: ليس على المخلوق أضر من الخالق.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٥١٦، ٥١٧.

قال ابن الجوزى: ودخلت على صدقة بن الحسين الحداد، وكان فقيهاً غير أنه كان كثير الاعتراض،وكان عليه جرب، فقال: هذا ينبغى أن يكون على حمد لاعلى.

وكان يتفقد بعض الأكابر أكول، فيقول: بعث لى هذا على الكبر وقت لا أقدر على أكله.

وكان رجل يصحبنى قد قارب ثمانين سنة، كثير الصلاة والصوم، فمرض واشتد به المرض، فقال: إن كان يريد أن أموت فليميتنى، وأما هذا التعذيب، فما له معنى، والله لو أعطانى الفردوس كان مكفوراً.

ورأيت آخر تزيا بالعلم إذا ضاق عليه رزقه يقول: إيش هذا التدبير؟

وعلى هذا كثير من العوام إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا، وربما قالوا : مايريد يصلى.

إذا رأوا رجلاً صالحاً موذياً(*) قالوا: ما يستحق، قدحاً فى القدر ، وكان قد جرى فى زماننا تسلط من الظلمة، وقال بعض من تزيا بالدين: هذ حكم بارد. ومافهم ذلك الأحمق، فإن لله على الظالم أن يسلط عليه أظلم منه.

وفى الحمقى من يقول: أى فائدة فى خلق الحيات والعقارب، وماعلم أن ذلك أنموذج لعقوبة المخالف،وهذا أمر قد شاع،و لهذا مددت لنفس فيه.واعلم أن المعترض قد ارتفع أن يكون شريكاً وعلا الخالق بالحكم عليه، وهؤلاء كلهم كفرة، لأنهم رأوا حكمة الخالق قاصرة،وإذا كان قد توقف القلب عن الرضى بحكم الرسول ﷺ، يخرج عن الإيمان قال: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم**﴾ فكيف يصح الإيمان مع الاعتراض على الله.

وكان فى زمن ابن عقيل رجل رأى بهيمة على غاية من السقم، فقال:وراحمتى لك،واقلة حيلتى فى إقامة التأويل لمعذبك. فقال له ابن عقيل: إن لم تقلد على حمل هذا الامر لأجل رقبتك الحيوانية ومناسبتك الجنسية، فعندك عقل تعرف به حكم الصانع وحكمته يوجب عليك التأويل، فإن لم تجد استطرحت الفاطر العقل ، حيث خانك العقل عن معرفة الحكمة فى ذلك . انتهى.

قال ابن عثيمين(1): قوله: «تعنتاً على القدر وملامة له».

أى: إذا قدر الله شيئاً لايلائمه تجده يقول: ينبغى أن ننتصر، ينبغى أن يأتى المطر، ينبغى أن لانصاب بالجوائح، وأن يوسع لنا فى هذا الرزق وهكذا.اهـ.

(*) هكذا فى الأصل ولعلها (مؤذاً).

(1) القول المفيد ٣/ ١٩٤.

قوله: فمستقل ومستكر».

قال ابن عثيمين[1]: قوله :«فمستقل ومستكثر».

«مستقل» : مبتدأ، وخبره محذوف

و**«مستكثر»**: مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: فمن الناس مستقل ومنه مستكثر، ونظير ذلك قوله تعالى: **﴿فمنهم شقي وسعيد﴾**؛ فـ **﴿سعيد﴾** مبتدأ خبره محذوف تقديره: ومنهم سعيد، ولايقال بأن **﴿سعيد﴾** معطوف على شقي؛ لكونه يلزم أن يكون الوصفان لموصوف واحد.

قوله : وفتش نفسك : هل أنت سالم

قال سليمان آل الشيخ: قوله: «وفتش نفسك هل أنت سالم».

قال ابن القيم: أكثر الخلق إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق، وظن السوء، فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمنى ربى، ومنعنى ما أستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولايتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل فى معرفة دفائنها وطواياها، ورأى ذلك فيها كامناً كمون النار فى الزناد، فاقرع زناد من شئت ينبئك شرارها عما فى زناده، فليعقلن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع،وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء،و ليظن السوء بنفسه التى هى مأوى كل سوء وصنيع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهو أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغنى الحميد الذى له الغنى التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء فى ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه،وصفاته كذلك وأفعاله كلهاحكمة ومصلحة ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تظن بربك ظن السوء ... فإن الله أولى بالجميل
ولاتظنن بنفسك قط خيراً ... فكيف بظالم جان جهول
وظن بنفسك السوأى تجدها ... كذاك وخيرهاكالمستحيل
وما بك من تقى فيهاوخير ... فتلك مواهب الرب الجليل
وليس لها ولامنها ولكن ... من الرحمن فاشكر للدليل اهـ.

ولقد ذكره صاحب فتح المجيد دون اختصاصه.

(١) القول المفيد ٣/ ١٩٤.

فيه مسائل

الأولى: تفسير آية آل عمران

قال ابن عثيمين [1]: قوله «وفتش نفسك، هل أنت سالم»

وهذا ينبغى أن يكون فى جميع المسائل مما أوجبه الله، فتش عن نفسك: هل أنت سالم من التقصير فيه ؟ ومما حرمه الله عليك: هل أنت سالم من الوقوع فيه؟اهـ.

قوله « فإن تنج منها».

قال سليمان آل الشيخ[2]: أى من هذه الخصلة العظيمة . اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: «تنج» الأول فعل الشرط مجزوم بحذف الواو، «تنج» الثانية جوابه مجزوم بحذف الواو . اهـ.

قوله «من ذى عظيم».

قال سليمان آل الشيخ[4]: أى: تنج من شر عظيم.

قال ابن عثيمين[5]: أى من أى بلية عظيمة.

قوله : وإلا فإن لاأخالك ناجيا

قال سليمان آل الشيخ[6]: قوله : وإنى لا إخالك. هوبكسر الهمزة. أى : أظنك والله أعلم . اهـ.

قال ان عثيمين[7]: قوله :«وإلا ؛ فإنى لاإخالك ناجياً».

التقدير؛ أى : وإلا تنج من هذه البلية؛ فإنى لاإخالك ناجياً. ومعنى إخالك: أظنك، وهى تنصب مفعولين: الأول هنا الكاف والثانى ناجياً . اهـ.



قال ابن عثيمين[8]:

قوله: فيه مسائل:

● **الأولى**: تفسير آية آل عمران.

---

(1) القول المفيد ٣/ ١٩٤ .
(2) تيسير العزيز الحميد ٥١٨ .
(3) القول المفيد ٣/ ١٩٥ .
(4) تيسير العزيز الحميد ٥١٨ .
(5) القول المفيد ٣/ ١٩٥ .
(6) تيسير العزيز الحميد ٥١٨ .
(7) القول المفيد ٣/ ١٩٥ .
(8) القول المفيد ١٩٦ و١٩٧ .

الثانية: تَفسيرُ آيَةِ الفَتحِ.

الثالثة: الإِخْبارُ بِأَنَّ ذَلكَ أَنواعٌ لاَ تُحْصَرُ.

الرابعة: أَنَّهُ لاَ يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَ الأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ وَعَرَفَ نَفْسَهُ.

وهى قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ...﴾(١) وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

● **الثانية:** تفسير آية الفتح.

وهى قوله تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ...﴾(٢)، وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

● **الثالثة:** الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

أى: ظن السوء، والذى أخبر بذلك ابن القيم رحمه الله، وضابط هذه الأنواع أن يظن بالله ما لا يليق به.

● **الرابعة:** أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

أى: لا يسلم من ظن السوء بالله إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده وعرف نفسه ففتش عنها، والحقيقة أن الإنسان هو محل النقص والسوء، وأما الرب؛ فهو محل الكمال المطلق الذى لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

ولا تَظُنَّنَّ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ ... فَإِنَّ اللهَ أَوْلَى بِالجَمِيلِ



---

(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) الفتح: ٦.

باب ٥٩
ما جاء في منكري القدر

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال الفقير: لما كان من الظن السيء بالله التكذيب بالقدر وإنكاره كما مر من كلام أهل العلم فى الباب الماضى وشرحه ناسب أن يعقب المصنف ذلك بجزاء هذا المنكر أو المعترض بالنظر لما قبل الباب الماضى من أبواب فأتى بباب ما جاء فى منكرى القدر وحكمهم وجزاءهم والله أعلم.

● **مناسبة هذا الباب للتوحيد:**

قلت وهى واضحه جداً لما سيأتى من كلام أهل العلم.

قال سليمان آل الشيخ: ـ (١)ذكر المصنف ماجاء فى الوعيد فيمن أنكره تنبيهاً على وجوب الإيمان، ولهذا عده النبى ـ ﷺ من أركان الإيمان. كما ثبت فى حديث جبريل عليه السلام لما سئل عن الإيمان، فقال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخرة وتؤمن بالقدر خيره وشره»** قال: صدقة (٢).

ـ وعن عبدالله بن عمرو بن العاص. قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء»**(٣).

ـ وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال (٤): قال رسول الله ـ ﷺ: **كل شىء بقدر حتى العجز والكيس»** رواهما مسلم فى صحيحه.

ـ وعن ابن عمر رضى الله عنه قال: (٥) قال رسول الله ـ ﷺ: **«لا يؤمن عبد حتى يؤمن باربع: يشهد أن لا اله الا الله، وأنى رسول الله بعثنى بالحق، ويؤمن بالموت، والبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر»** رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم فى صحيحه. الأحاديث فى ذلك كثيرة جداً، قد أفردها العلماء بالتصنيف.

قال البغوى فى (شرح السنة) الإيمان بالقدر فرض لازم. وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد خيرها وشرها كتبها عليهم فى اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم. قال الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ فالإيمان والكفر والطاعة وعد عليها الثواب، ولا

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٥١٨ و ٥١٩. (٢) [صحيح] تقدم تخريجه وهو نفس حديث الباب.
(٣) أخرجه مسلم فى القدر (٨/ ٤٥٢/١٦). (٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى القدر (٨/ ٤٥٥/١٨).
(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٩٧)، والترمذى (٢١٤٥)، وابن ماجة (٨١) عن على به.

يرضى الكفر والمعصية ووعد عليهما العقاب قال الله تعالى: ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

قال ابن باز: ـ (١) لما كان الإيمان بالقدر من أصول الإيمان وضع المؤلف هذه الباب لأن هذا مما يحصل ـ به التوحيد وينتفى به الكفر. اهـ.

شرح الترجمة وماذا أراد المصنِّف

ـ تعريف القضاء والقدر:

اختلفت عبارات العلماء فى تعريف القضاء والقدر، فمنهم من جعلها شيئاً واحداً ومنهم من عرف القضاء تعريفاً مغايراً للقدر، فقال:

القدر: علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات فى المستقبل.

والقضاء: إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته.

قلت/ وهذا هو الراجح لقوله تعالى: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ...﴾ وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ وقد عكس بعضهم، فجعل تعريف القضاء السابق للقدر، وتعريف القدر للقضاء، والأمر محتمل.

ومن عرفها تعريفاً واحداً قال: هو النظام المحكم الذى وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة، والسنن التى ربط بها الأسباب بمسبباتها.

وهذا المعنى هو ما وردت به آيات القرآن التى ذكرت القدر، مثل قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾.

وما أجمل جواب الإمام أحمد عندما سئل عن القدر فقال: القدر قدرة الرحمن يقول ابن القيم فى قصيدته الكافية الشافية:

فحقيقة القدر الذى حار الورى ... فى شأنه هو قدره الرحمن

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد ... لما حكاه عن الرضى الربانى

قلت/ فالقدر لغة: القضاء والحكمة ومبلغ الأمر وقال تعالى: ﴿يفعل ما يشاء إنه على كل شىء قدير﴾.

---

(١) التعليق المفيد ٢٥٩.

واصطلاحاً: ما سبق به العلم.

قال ابن حجر: المراد أن الله علم مقادير الأشياء قبل إيجادها.

القضاء لغة: الفصل والحكم والقطع.

اصطلاحاً: إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته وسيأتى.

● **درجات الإيمان بالقدر:**

قال ابن تيمية: الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون، بعلمه القديم الذى هو موصوف به أزلاً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والأرزاق والآجال. ثم كتب الله فى اللوح المحفوظ مقادير الخلق، فأول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب قال ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف، كما قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾**وقال: **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾**.

وأما الدرجة الثانية: فهى الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن، وأنه ما فى السموات وما فى الأرض من حركة ولاسكون إلا بمشيئة الله - سبحانه - لايكون فى ملكه إلا ما يريد، وأنه سبحانه؛على كلِّ شئ قدير من الموجودات والمعدومات، فما من مخلوق فى الأرض ولا فى السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره، ولارب سواه ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا، وعملوا الصالحات ولايحب الكافرين، ولايرضى عن القوم الفاسقين، ولايأمر بالفحشاء ولايرضى لعبادة الكفر، ولا يحب الفساد، والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر، والمصلى والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالق قدرتهم وإرادتهم.

فيحصل من كلام ابن تيمية - رحمه الله - أن الإيمان بالقدر يشتمل على أربع مراتب هى:

الأولى: الإيمان بعلم الله القديم وأنه علم أعمال العباد قبل أن يعملوها.

الثانية: كتابه ذلك فى اللوح المحفوظ.

قلت:

ويدل لذلك ما تقدم مرفوعا «أن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

قلت: يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الثالثة: مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة.

قلت/ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

الرابعة: إيجاد الله لكل المخلوقات، وأنه الخالق وكل ما سواه مخلوق.

قلت/ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾(*). وستأتى هذه المراتب الأربعة من كلام ابن عثيمين.

قال سليمان آل الشيخ[1]: (باب) ما جاء فى منكرى القدر أى من الوعيد. والقدر بالفتح السكون، ما يقدره الله من القضاء ولما كان توحيد الربوبية لايتم إلا باثبات القدر **قال القرطبى**: القدر: مصدر قدرت الشيء بتخفيف الدال أقدره وأقدره قدراً إذا حصلت بمقداره. ويقال فيه: قدرت أقدر تقدير مشدد الدال، فاذا قلنا: إن الله تعالى قدَّر الأشياء، فمعناه: إنه تعالى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ثم أوجد منها ما سبق فى علمه أنه يوجده على نحو ما سبق فى علمه فلا محدث فى العالم العلوى والسفلى إلا هو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته هذا هو المعلوم من دين السلف الماضين الذى دلت عليه البراهين. اهـ.

قال حامد بن محمد[2]: باب ما جاء فى بيان أنَّ منكرى القدر خالفوا الكتاب والسنة واتبعوا أهوائهم وأنهم فى ضلال مبين ومالهم على الله إلا مجرد دعوة الشيطان كما قال تعالى عنه لعنه الله أنه يقول يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾[3] فقد بين الله تعالى أنه يخاطبهم بأنهم تبعوه بلا سلطان بل أنه دعاهم الى الباطل فاستجابوا له إما بمخالفتهم الكتاب فقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾[4] أى نخلقها، وقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[5] قال البغوى: أى فى اللوح المحفوظ. وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾[6] وقوله

---

(1) تيسير العزيز الحميد ٥١٨.
(2) فتح الله الحميد المجيد ٤٥١.
(3) إبراهيم: ٢٢.
(4) الحديد: ٢٢.
(5) الأنعام: ٣٨.
(6) القمر: ٥٣.
(*) «الإيمان» لمحمد نعيم ياسين (ص ١١٠).

تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾(١) روى عن عمرأنه كان يطوف ويبكى ويقول: اللهم إن كنت قد كتبتنى من أهل السعاده فاثبتنى فيها، وإن كنت كتبتنى فى أهل الشقاوة فامحنى واثبتنى فى أهل السعاده، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، ومعلوم بالضروره أن المحو لم يكن إلا بعد الكتابة والقرينة عليه قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فانه ورد فى الحديث الثابت عنه - ﷺ - قال: «**إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب، قال وماذا اكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شىء. فجرى القلم بما هو كائن الى يوم الدين**»(٢). اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): قوله: «منكرى» أصله منكرين - جمع مذكر سالم-؛ فحذفت النون للإضافة كما يحذف التنوين أيضاً، قال الشاعر:

كَأَنِّى تَنْوِينٌ وأَنْتَ إِضَافَةٌ　　فَأَيْنَ تَرانى لا تَحِلُّ جِوَارِى

وقيل: «مكانى» بدل «جوارى».

قوله: «القدر».

هو تقدير الله - عز وجل - للكائنات، وهو سر مكتوم لايعلمه إلا الله أو من شاء من خلقه.

قال بعض أهل العلم: القدر سر الله - عز وجل - فى خلقه، ولا نعلمه إلا بعد وقوعه، سواء كان خيراً أو شراً.

والقدر يطلق على معنيين:

الأول: التقدير؛ أى: إرادة الله الشىء - عز وجل -.

الثانى: المُقَدَّر؛ أى: ما قَدَّره الله - عز وجل -.

والتقدير يكون مصاحباً للفعل وسابقاً له؛ فالمصاحب للفعل هو الذى يكون به الفعل، والسابق هو الذى قدره الله - عز وجل - فى الأزل، مثال ذلك:

خلق الجنين فى بطن الأم فيه تقدير سابق علمى قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وفيه تقدير مقارن للخلق والتكوين، وهذا الذى يكون به الفعل؛ أى: تقدير الله لهذا الشىء عند خلقه.

والإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصاً، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنه من صفات الكمال لله - عز وجل -.

() الرعد: ٣٩.　　(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٩٨.

والناس في القدر ثلاثة طوائف:

الأولى: الجبرية الجهمية، أثبتوا قدر الله تعالى وغلوا في إثباته حتى سلبوا العبد اختياره وقدرته، وقالوا: ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه؛ فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منه ولا قدرة، ولا فرق بين أن ينزل من السطح عبر الدرج مختاراً وبين أن يُلقى من السطح مكرهاً.

الطائفة الثانية: القدرية المعتزلة، أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة في عمله وغلوا في ذلك حتى نفوا أن يكون لله تعالى في عمل العبد مشيئة أو خلق، ونفى غلاتهم علم الله به قبل وقوعه؛ فأكل العبد وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها واقعة باختياره التام وقدرته التامة وليس لله تعالى في ذلك مشيئة ولا خلق، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاتهم.

استدل الأولون الجبرية:

بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، والعبد وفعله من الأشياء.

وبقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

وبقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[3]؛ فنفى الله الرمي عن نَبِيِّه حين رَمَى وأثبته لنفسه.

وبقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[4].

ولهم شُبَه أخرى تركناها خوف الإطالة.

والرد على شبهاتهم بما يلي:

أما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فاستدلالهم بها مُعارَض بالنصوص الكثيرة التي فيها إثبات إرادة العبد وإضافة عمله إليه وإثابته عليه كرامة أو إهانة، وكلها من عند الله، ولو كان مُجبَراً عليها ما كان لإضافة عمله إليه وإثابته عليه فائدة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ فهو حجة عليهم؛ لأنه أضافة العمل إليهم، وأما كون الله تعالى خالقه؛ فلأن عمل العبد حاصل بإرادته الجازمة وقدرته التامة، والإرادة والقدرة مخلوقان لله – عز وجل –؛ فكان الحاصل بهما مخلوقاً لله.

---

(١) الزمر: ٦٢. (٢) الصافات: ٩٦.

(٣) الأنفال: ١٧. (٤) الأنعام: ١٤٨.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ فهو حجة عليهم؛ لأن الله تعالى أضاف الرمى إلى نبيه ﷺ، لكن الرمى فى الآية له معنيان:

أحدهما: حذف المَرْمِى، وهو فِعْل النبى ﷺ الذى أضافه الله إليه.

والثانى: إيصال المَرْمِى إلى أعين الكفار الذين رماهم النبى ﷺ بالتراب يوم بدر فأصاب عين كل واحد منهم، وهذا من فعل الله؛ إذ ليس بمقدور النبى ﷺ أن يوصل التراب إلى عين كل واحد منهم.

وأما قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾؛ فَلَعَمْرُ الله؛ إنه لحجة على هؤلاء الجبرية، فقد أبطل الله تعالى حجة هؤلاء المشركين الذين احتجوا بالقدر على شركهم حين قال فى الآية نفسها" ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾؛ وما كان الله ليذيقهم بأسه وهم على حق فيما احْتَجُّوا به.

ثم نقول: القول بالجبر باطل بالكتاب والسنة والعقل والحس وإجماع السلف، ولايقول به من قَدَّر الله حق قَدْره وعرف مقتضى حكمته ورحمته.

فمن أدلة الكتاب:

قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾(١)؛ فأثبت للعبد إرادة.

وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾(٢).

وقال: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٣).

وقال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٤).

فأثبت للعبد إرادة وقولاً وفعلاً وعملاً.

ومن أدلة السنة قول النبى ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، وقوله: «ما نهيتكم عنه؛ فاجتنبوه، وما أمرتكم به؛ فأتوا منه ما استطعتم»(٥).

ولهذا إذا أُكره المرء على قول أو فعل وقلبه مطمئن بخلاف ما أكره عليه؛ لم يكن لقوله أو فعله الذى أكره عليه حكم فاعله اختياراً.

---

(١) آل عمران: ١٥٢.
(٢) آل عمران: ١٦٧.
(٣) النمل: ٨٨.
(٤) المنافقون: ١١.
(٥) تقدم تخريجه.

وأما إجماع السلف على بطلان القول بالجبر؛ فلم ينقل عن أحد منهم أنه قال به، بل رد من أدرك منهم بدعته موروث معلوم.

وأما دلالة العقل على بطلانه؛ فلأنه لو كان العبد مُجْبَراً على عمله؛ لكانت عقوبة العاصي ظلماً ومثوبة الطائع عبثاً، والله تعالى مُنَزَّه عن هذا وهذا، ولأنه لو كان العبد مجبراً على عمله لم تقم الحجة بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق مع إرسال الرسل، وما كان الله ليقيم على العباد حجة مع انتفاء كونها حجة.

وأما دلالة الحس على بطلانه؛ فإن الإنسان يدرك الفرق بين ما فعله باختياره؛ كأكله وشربه وقيامه وقعوده، وبين ما فعله بغير اختياره؛ كارتعاشه من البرد والخوف ونحو ذلك.

واستدلت الطائفة الثانية (القدرية) بقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَ﴾(١)، فأثبت للعبد إرادة، وبقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾(٢)، ونحوها من النصوص القرآنية والنبوية الدالة على أن للعبد إرادة، وأنه هو العامل الكاسب الراكع الساجد ونحو ذلك.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن الآيات والأحاديث التي استدلوا بها نوعان:

نوع مقيد لإرادة العبد وعمله بأنه بمشيئة الله؛ كقوله تعالى ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣)، وقوله: ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(٤)، وكقوله تعالى في العمل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٥).

والنوع الثاني: مطلق؛ كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾(٦)، وقوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٧)، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ

---

(١) آل عمران: ١٥٢.
(٢) فصلت: ٤٦.
(٣) التكوير: ٢٨ ـ ٢٩.
(٤) الإنسان: ٢٩ ـ ٣٠.
(٥) البقرة: ٢٥٣.
(٦) البقرة: ٢٢٣.
(٧) الكهف: ٢٩.

لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾إلى قوله ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾(١).

وهذا النوع المطلق يحمل على المُقَيَّد كما هو معلوم عند أهل العلم.

الثاني: أن إثبات استقلال العبد بعمله مع كونه مملوكاً لله تعالى يقتضى إثبات شىء فى مُلْك الله لا يريده الله، وهذا نوع إشراك به، ولهذا سَمَّى النبى ﷺ القدرية مجوس هذه الأمة.

الثالث: أن نقول لهم: هل تُقرُّون بأن الله تعالى عالم بما سيقع من أفعال العباد؟ فسيقول غير الغلاة منهم: نعم، نقر بذلك، فنقول: هل وقع فعله على وفق علم الله أو على خلافه؟ فإن قالوا: على وفقه؛ قلنا: إذن قد أراده، وإن قالوا: على خلافه؛ فقد أنكروا علمه، وقد قال الأئمة - رحمهم الله - فى القدرية: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به؛ خُصِموا، وإن أنكروه؛ كفروا.

وهاتان الطائفتان - الجبرية والقدرية - ضالتان طريق الحق؛ لأنهما بين مفرط غال ومفرط مقصر؛ فالجبرية غلوا فى إثبات القدر وقَصَّروا فى إرادة العبد وقدرته، والقدرية غلوا فى إثبات إرادة العبد وقدرته وقصروا فى القدر.

ولهذا كان الأسعد بالدليل والأوفق للحكمة والتعليل هم:

الطائفة الثالثة: أهل السنة والجماعة، الطائفة الوسط، الذين جمعوا بين الأدلة وسلكوا فى طريقهم خير ملة؛ فآمنوا بقضاء الله وقدره، وبأن للعبد اختياراً وقدرة؛ فكل ما كان فى الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم؛ فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشيئته، وكل ما كان فى الكون فمخلوق لله تعالى، لا خالق إلا الله ولا مدبر للخلق إلا الله - عزوجل -، وآمنوا بأن للعبد مشيئة وقدرة، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فإذا شاء العبد شيئاً وفعله؛ علمنا أن مشيئة الله تعالى قد سبقت تلك المشيئة.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين الدليل المنقول والمعقول؛ فأدلتهم على إثبات القدر هى أدلة المثبتين له من الجبرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التى استدل بها نفاة القدر.

(١) الإسراء: ١٨ - ١٩.

وأدلتهم على إثبات مشيئة العبد وقدرته هى أدلة المثبتين لذلك من القدرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التى استدل بها نفاة مشيئة العبد وقدرته.

وبهذا نعرف أن كلاً من الجبرية والقدرية نظروا إلى النصوص بعين الأعور الذى لا يبصر إلا من جانب واحد؛ فهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

حكاية: مما يحكى أن القاضى عبدالجبار الهمذانى المعتزلى دخل على الصاحب ابن عباد وكان معتزلياً أيضاً، وكان عنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، فقال عبدالجبار على الفور سبحان من تنزّه عن الفحشاء! فقال أبو إسحاق فوراً: سبحان من لم يقع فى ملكه إلا ما يشاء! فقال عبدالجبار وفهم أنه قد عرف مراده: أيريد ربنا أن يُعصى؟ فقال أبو إسحاق: أيعصي ربنا قهراً؟ فقال له عبدالجبار: أرأيت إن منعنى الهدى وقضى عليَّ بالردى؛ أحسن إليَّ أم أساء؟ فقال له أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك فقد أساء وإن كان منعك ما هو له؛ فيختص برحمته من يشاء فانصرف الحاضرون وهم يقولون: والله؛ ليس عن هذا جواب. اهـ.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن أهل السنة والجماعة وسط بين فرق المبتدعة فى خمس أصول ذكرها فى العقيدة الوسطية فلتراجع هناك.

● **مراتب القدر:**

وهى أربع يجب الإيمان بها كلها.

المرتبة الأولى: العلم، وذلك بأن تؤمن بأن الله تعالى علم كل شىء جملة وتفصيلاً، فعلم ما كان وما يكون؛ فكل شىء معلوم لله، سواء كان دقيقاً أم جليلاً من أفعاله أو أفعال خلقه.

ودليل ذلك فى الكتاب كثير منها قوله تعالى: **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** فالأوراق التى تتساقط منه أى ورقة كانت صغيرة أو كبيرة فى بر أو بحر؛ فإن الله تعالى يعلمها، والورقة التى تخلق يعلمها من باب أولى.

ولاحظ سعة علم الله ـ عزوجل ـ وإحاطته، فلو فرض أنه فى ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحاب متراكم ممطر وحبة فى قاع البحر المائج العميق، فهذه ظلمات متعددة ظلمة الطبقة الأرضية، وظلمة البحر وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الأمواج،

وظلمة الليل، فكل هـذا داخل في قوله تعالى: ﴿ وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ﴾ ثم جاء العموم المطلق ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ولا كتابة إلا بعد علم.

ففي هذه الآية إثبات العلم وإثبات الكتابة.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ففي الآية أيضاً إبات العلم وإثبات الكتابة.

المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دلت عليها الآيتان السابقتان.

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي عامة، ما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته؛ فلا يكون في ملكه ما لا يريد أبداً، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (١)، وقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٣) الآية.

المرتبة الرابعة: الخلق؛ فما من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا الله خالقُه ومالكه ومدبره وذو سلطانه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٤)، وهذا العموم لا مُخصَّص له، حتى فعل المخلوق مخلوق لله؛ لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو وصفاته مخلوقان، ولأن فعله ناتج عن أمرين:

١ـ إرادة جازمة.

٢ـ قدرة تامة.

والله هو الذي خلق في الإنسان الإرادة الجازمة والقدرة التامة، ولهذا قيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم.

والعبد يتعلق بفعله شيئان:

١ـ خلق، وهذا يتعلق بالله.

٢ـ مباشرة، وهذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قال تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا

(١) يس: ٨٢. (٢) الأنعام: ١١٢.
(٣) البقرة: ٢٥٣. (٤) الزمر: ٦٢.

﴿يَعْمَلُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢)، ولولا نسبة الفعل إلى العبد ما كان للثناء على المؤمن المطيع وإثابته فائدة، وكذلك عقوبة العاصى وتوبيخه.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بجميع هذه المراتب الأربع، وقد جمعت فى بيت:

علمٌ كتابةُ مولانا مشيئتُهُ ... وخَلْقُه وهْو إيجادٌ وتكوينُ

وهناك تقديرات أخرى نسبية:

قال ابن القيم رحمه الله فى «شفاء العليل»(٣) فى الباب الرابع فى ذكر التقدير الثالث والجنين فى بطن أمه وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله وسائر ما يلقاه، وذكر الجمع بين الأحاديث الواردة فى ذلك: «فاجتمعت هذه الأحاديث والآثار على تقدير رزق العبد وأجله وشقاوته وسعادته وهو فى بطن أمه، واختلفت فى وقت هذا التقدير... ففى حديث ابن مسعود أن هذا التقدير يقع بعد مئة وعشرين يوماً من حصول النطقة في الرحم، وحديث أنس غير مؤقت، أما حديث حذيفة بن أسيد؛ فقد وقت فيه التقدير **بأربعين يوماً**، وفى لفظ: **بأربعين ليلة**، وفى لفظ: **ثنتين وأربعين ليلة**، وفى لفظ: **بثلاث وأربعين ليلة**، وهو حديث تفرد به مسلم ولم يروه البخارى».

وكثير من الناس يظن التعارض بين الحديثين، ولا تعارض بينهما بحمد الله ثم جمع رحمه الله بين هذه الآثار بأن هناك تقديرين:

الأول: قبل نفخ الروح، وذلك أن الملك الموكل بالنطفة يكتب ما قدره الله - سبحانه - على رأس الأربعين الأولى حين يأخذ فى الطور الثانى، وهو العلقة.

الثانى: حين نفخ الروح؛ فيؤمر الملك الذى ينفخ فيه الروح، عند نفخ الروح فيه يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقاوته، وسعادته.

قال ابن القيم رحمه الله فى «شفاء العليل»(٤): «الباب الأول فى تقدير المقادير قبل خلق السماوات والأرض: عن عبدالله بن عمرو بن العاص؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء**». رواه مسلم، وفيه دليل على أن خلق العرش سابق على خلق القلم».

وقال(٥): «الباب الثانى فى تقدير الرب تبارك وتعالى: شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثانٍ بعد التقدير الأول، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه؛ قال: «كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد، فقعد وقعدنا

---

(١) الواقعة: ٢٤.   (٢) النحل: ٣٢.

(٣) (٤) (٥) انظر شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص٤٣، ١٣، ١٧).

حوله. . . ثم قال: **ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة**. قال: فقال رجل: يا رسول الله! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة؛ فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة؛ فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة. ثم قرأ: **﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ...﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾**. رواه: البخاري، ومسلم.

ثم ذكر ابن القيم أحاديث، منها: ما رواه هشام بن حكيم بن حزام: أن رجلاً قال: يا رسول الله! أتبتدأ الأعمال؟ أم قد مضى القضاء؟ فقال: «إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بكفيه، فقال: هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار». رواه أحمد، وحسنه في «المجمع»_(١).

وقال(٢): «الباب الرابع: في ذكر التقدير الثالث والجنين في بطن أمه، وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله وسائر ما يلقاه... عن عبدالله بن مسعود؛ قال: حدثنا رسول اله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد». متفق عليه.

وقال(٣): «الباب الخامس: في ذكر التقدير الرابع ليلة القدر، قال تعالى: **﴿حم ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾**، وهذه ليلة القدر قطعاً؛ لقوله تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾**، عن ابن عباس؛ قال: «يكتب من أم الكتاب ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج، يقال: حج فلان ويحج فلان».

وقال (٤): «الباب السادس: في التقدير الخامس اليومي، قال تعالى: **﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ...﴾**.

وقال مجاهد والكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: من شأنه أن يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر ويعز ويذل، ويفك عانياً، ويشف مريضاً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويتوب على قوم، ويكشف كرباً، ويغفر ذنباً، ويضع قوماً، ويضيع اخرين، دخل كلام بعضهم في بعض». اهـ. نقلاً عن حاشيةالقول المفيد.

قال ابن عثيمين: منها: تقدير عمري: حين يبلغ الجنين في بطن أمه أربعة أشهر يرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد(٥).

---

(١) (٢) (٣) (٤) انظر المصدر السابق.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم في القدر (١٦/ ١٩٠ ـ النووي) عن ابن مسعود به.

ومنها: التقدير الحَوْلي، وهو الذى يكون فى ليلة القدر، يكتب فيها ما يكون فى السنة، قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[1].

ومنها التقدير اليومى: كما ذكره بعض أهل العلم[2] واستدل له بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[3]؛ فهو كل يوم يغنى فقيراً، ويفقر غنيّاً، ويوجد معدوماً، ويعدم موجوداً، ويبسط الرزق ويَقْدِرُهُ، وينشئ السحاب والمطر، وغير ذلك.

فإن قيل: هل الإيمان بالقدر ينافى ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشىء باختياره؟

الجواب: لا ينافيه؛ لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله؛ كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أقبل على الشام، وقالوا له: إن فى الشام طاعوناً يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم، فقال بعضهم: نرجع. فعزم على الرجوع، فجاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، فقال: يا أمير المؤمنين! أفراراً من قدر الله؟ فأجاب عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله[4].

يعنى: إن مضينا فى السفر بقدر الله ورجوعنا بقدر الله، ثم ضرب له مثلاً، قال: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له شعبتان إحداهما خِصبة والأخرى جدبة؛ أليس إن رعيت الخصبة فبقدر الله، وإن رعيت الجدبة فبقدر الله؟

وقال أيضاً: أرأيت لو رعى الجدبة وترك الخصبة؛ أكنت معجِّزه؟ قال: نعم. قال: فَسِرْ إذن. ومعنى معجزه: ناسباً إياه إلى العجز.

فالإنسان وإن كان يفعل؛ فإنما يفعل بقدر الله.

فإن قيل: إذا تقرر ذلك؛ لزم أن يكون العاصى معذوراً بمعصيته؛ لأنه عصى بقدر الله؟

أجيب: إن احتجاج العاصى بالقدر باطل بالشرع والنظر.

أما بطلانه بالشرع: فقد قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[5]؛ فهم قالوا هذا على سبيل الاحتجاج بالقدر على معصية الله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، ولو

وانظر «جامع العلوم والحكم» (٤ ـ بتخريجنا).

(١) الدخان: ٤.　　(٢)

(٣) الرحمن: ٢٩.　　(٤) تقدم تخريجه.　　(٥) الأنعام: ١٤٨.

كانت حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ ولو كان حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾(١)، وهذا دليل واضح على بطلان احتجاجهم بالقدر على معصية الله، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٢)؛ فأبطل الله الحجة على الناس بإرسال الرسل، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق حتى مع إرسال الرسل، وهذا يدل على بطلان احتجاج العاصي على معصيته بقدر الله.

وأما بطلانه بالنظر؛ فنقول: لو فرض أنه نشر في جريدة ما عن وظيفة مرتبها كذا وكذا، ووظيفة أخرى أقل منها؛ فإنك سوف تطلب الأعلى، فإن لم يكن؛ طلبت الأخرى، فإذا لم يحصل له شيء منها؛ فإنه يلوم نفسه على تفريطه بعدم المسارعة إليها مع أول الناس.

وعندنا وظائف دينية الصلوات الخمس كفارة لما بينها، وهي كنهر على باب أحدنا يغتسل منه في كل يوم خمس مرات، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة؛ فلماذا تترك هذه الوظائف وتحتج بالقدر وتذهب إلى الوظائف الدنيوية الرفيعة؛ فكيف لا تحتج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا وتحتج به فيما يتعلق بأمور الآخرة؟!

مثال آخر: رجل قال: عسى ربي أن يرزقني بولد صالح عالم عابد، وهو لم يتزوج؛ فنقول: تزوج حتى يأتيك. فقال: لا؛ فلا يمكن أن يأتيه الولد، لكن إذا تزوج؛ فإن الله بمشيئته قد يرزقه الولد المطلوب.

وكذلك من يسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، ولا يعمل لذلك؛ فلا يمكن أن ينجو من النار ويفوز بالجنة لأنه لم يعمل لذلك.

فبطل الاحتجاج بالقدر على معاصي الله بالأثر والنظر، ولهذا قال النبي ﷺ كلمة جامعة مانعة نافعة: **«ما منكم من أحد إلا وقد كُتبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار». قالوا: يا رسول الله! أفلا ندع العمل ونتكل؟ قالَ: «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»**(٣)؛ فالنبي ﷺ أعطانا كلمة واحدة، فقال: **«اعملوا...»**، وهذا فعل أمر، **«فكل ميسر لما خلق له»**.

(١) الأنعام: ١٤٨ (٢) النساء: ١٦٥.
(٣) [متفق عليه] أخرجه: البخاري (١٣٦٢)، ومسلم في القدر (١٦/ ١٩٥ ـ النووي).
وانظر «رياض الصالحين» (٩٤٧ ـ بتخريجنا).

وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابنِ عُمَرَ بِيَدِه، لو كَانَ لأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ» ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «الإِيمَانُ أَنْ تُؤمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وتُؤمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

وللإيمان بالقدر فوائد عظيمة، منها:

١ـ أنه من تمام توحيد الربوبية.

٢ـ أنه يوجب صدق الاعتماد على الله ـ عزوجل ـ؛ لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله.

٣ـ أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ اطمأننت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة.

٤ـ منع إعجاب المرء بعمله إذا عمل عملاً يشكر عليه؛ لأن الله هو الذى منَّ عليه وقدَّره له، قال تعالى: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾؛ أى: فرح بطر وإعجاب بالنفس.

٥ـ عدم حزنه على ما أصابه؛ لأنه من ربه، فهو صادر عن رحمة وحكمة.

٦ـ أن الإنسان يفعل الأسباب؛ لأنه يؤمن بحكمة الله ـ عزوجل ـ، وأنه لا يقدر الأشياء إلا مربوطةً بأسبابها.

قوله: [وقال ابن عمر: والذى نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه فى سبيل الله ما قبله الله منه،...]إلخ.

قال الفقير: وهذا جزء من حديث طويل رواه مسلم فى كتاب الإيمان فى باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

---

(١) (صحيح) أخرجه مسلم فى «الإيمان/ باب: تعريف الإسلام والإيمان (١/ ٥٧ ـ النووى) وأبو داود فى السنة/ باب: فى القدر (٤/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣/ح ٤٦٩٥)، والترمذى فى الإيمان/ باب ماجاء فى وصف جبريل للنبى ﷺ (٥/ ٧/ح ٢٦١٠) والنسائى فى الإيمان/ باب نعت الإسلام (٦/ ٥٢٨/ح ١١٧٢١ الكبرى) وابن ماجة فى المقدمة/ باب الإيمان (١/ ٢٤/ح ٦٣) وأحمد فى «مسنده» (١/ ٢٧، ٢٨، ٥١ ـ ٥٢، ٥٣) وابن حبان فى صحيحة (١/ ١٩٥ ـ ١٩٦ ـ الإحسان).

من حديث عمر بن الخطاب.

وانظر «جامع العلوم والحكم» (٢ ـ بتخريجنا).

قال سليمـان آل الشيخ: وهذا قطعة مـن حديث جبريل عليه الـسلام، وقد أخرجه مسلم بطوله أول كتاب الإيمان فى «صحيحـه» من حديث يحى بن معمر عن ابن عمر، ولفظه: عـن يحيى بن يعمـر قال: كان أول من قال فى القـدر بالبصرة معبـد الجهنى، فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمن الحميرى حـاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هـؤلاء فى القدر، فَوُفِّقَ لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فأكتنفته أنا وصاحبى، أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبى سيكل الكلام، إلى فقلت: يـا أبا عبدالرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرأون القرآن وَيَتَفَقَّرون العلم، وذكر من شأنهم وأنهم يزعـمون أن لا قدر، وأن الأمر أُنُفٌ. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم، وأنهم براء منى، والذى يحلف به عبدالله بن عـمر «لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فـأنفقه، ما قبله الله منـه حتى يؤمن بالقدر ثم قال: حدثـنى أبى عمر بن الخطاب قال: بينمـا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع عـلينا رجل شديـد بياض الثياب، شديـد سواد الشعر، لا يرى عـليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، فقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام، وذكر الحديث.

ـ مناسبة الأثر للباب: ـ

قال القرعاوى: [1]حيث دل الأثر على كفر منكرى القدر. اهـ.

ـ مناسبة الأثر للتوحيد: ـ

قال القرعاوى: [2]حيث دل الأثر عـلى كفر من أنكر القدر وذلـك لأن إنكار القدر شرك مع الله فى الربوبية. اهـ.

قوله: وقال ابن عمر هو عبدالله بن عمر بن الخطاب.

قوله: ـ «والذى نفس ابن عمر بيده»

قال ابن عثيمين:[3]ـ (الصيغة هنـا قسم، جوابه: جملة «لو كان لأحـدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه فى سبيل الله؛ ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر»). اهـ.

قال النووى: [4] **قوله:** ـ «لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنـفقه فى سبيل الله ما قبلة الله منه حتى يؤمن بالقدر».

(١ ـ ٢) الجديد ٤٣٣ (٣) القول المفيد ٣/ ٢١٥.

(٤) مسلم شرح النووى ١/ ١٩٢.

هذا الذى قاله ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ ظاهر فى تكفيره القدرية، قال القاضى عياض ـ رحمه الله ـ: هذا فى القدرية الأول الذين نفوا تقدم علم الله تعالى بالكائنات، قال: والقائل بهذا كافر بلا خلاف، وهؤلاء الذين ينكرون القدر هم الفلاسفة فى الحقيقة، قال غيره: ويجوز أنه لم يرد بهذا الكلام التكفير المخرج من الملة فيكون من قبيل كفران النعم، إلا أن قوله: ما قبله الله منه، ظاهر فى التكفير؛ فإن إحباط الأعمال إنما يكون بالكفر إلا أنه يجوز أن يقال فى المسلم لا يقبل عمله لمعصيته وإن كان صحيحًا، كما أن الصلاة فى الدار المغصوبة صحيحة: غير محوجة إلى القضاء عند جماهير العلماء؛ بل بإجماع السلف، وهى غير مقبولة فلا ثواب فيها على المختار عند أصحابنا والله أعلم.

قوله: وتقدم هذا الكلام فى شرح حديث مسلم من أتنى كاهناً أو عرافاً لم تقبل صلاة أربعين يوماً، فى باب ما جاء فى الكهان ونحوهم.

وقوله: فأنفقه، يعنى فى سبيل الله تعالى، أى: طاعته كما جاء فى رواية أخرى، قال نفطويه: سمى الذهب ذهبا لأنه يذهب ولا يبقى. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: (١) قوله: لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه فى سبيل الله ما قبله الله منه الخ. هذا قول ابن عمر لغلاة القدرية الذين أنكروا أن يكون الله تعالى عالم بشىء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم، وإنما يعلمها بعد كونها منهم كما تقدم عنهم.

قال القرطبى: ولا شك فى تكفير من يذهب إلى ذلك، فإنه جحد معلوم من الشرع بالضرورة، لذلك تبرأ منهم ابن عمر، وأفتى بأنهم لا تقبل منهم أعمالهم ولا نفقاتهم، وأنهم كمن قال الله فيهم: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ وهذا المذهب قد تُرِكَ اليوم، فلا يعرف من ينسب إليه من المتأخرين من أهل البدع المشهورين. فقال شيخ الإسلام لما ذكر كلام ابن عمر هذا، وكذلك كلام ابن عباس، وجابر بن عبدالله، وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسائر أئمة المسلمين: فيهم كثير، حتى قال فيهم الأئمة، كمالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل وغيرهم: إن المنكرين لعلم الله المتقدم يتكرون القدر.

(١) التيسير ٥٢١ ـ ٥٢٢.

وقوله: ثم استدل بقول النبي ﷺ [عندما سأله جبريل عليه السلام عن] الإيمان. قال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر تؤمن بالقدر خيره وشره»**.

فجعل النبي ﷺ في هذا الحديث كأنه لما سئل عن الإسلام، ذكر أركان الإسلام الخمسة لأنها أصل الإسلام، ولما سئل عن الإيمان أجاب بقوله: «أن تؤمن بالله» إلى آخره، فيكون المراد حينئذ بالإيمان جنس تصديق القلب، وبالإسلام جنس العمل، والقرآن والسنة مملوءان بإطلاق الإيمان على الأعمال، كما هما ملوءان باطلاق الإسلام على الإيمان الباطن، مع ظهور دلالتهما أيضاً على الفرق بينهما، ولكن حيث أفرد أحد الاسمين دخل فيه الآخر، وإنما يفرق بينهما حيث فرق بين الاسمين، ومن أراد تحقيق ما أشرنا إليه فليراجع كتاب «الإيمان» الكبير لشيخ الإسلام. إذا تبين هذا، فوجه استدلال ابن عمر بالحديث من جهة أن النبي ﷺ عد الإيمان بالقدر من أركان الإيمان، فمن أنكره فلم يكن مؤمناً، إذ الكافر بالبعض كافر بالكل، فلا يكون مؤمناً متقياً، والله لا يقبل إلا من المتقين.

قال ابن عثيمين:[1] قول: «أن تومن بالله».

والإيمان بالله ـ عزوجل ـ يتضمن أربعة أمور:

١ـ الإيمان بوجوده.

٢ـ وبربوبيته.

٣ـ وبألوهيته.

٤ـ وبأسمائه وصفاته.

فمن أنكر وجود الله؛ فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شيء، لكنه أنكر أسماءه وصفاته، أو أنكر أن يكون مختصاً بها؛ فهو غير مؤمن بالله.

قوله: «وملائكته».

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

١ـ الإيمان بوجودهم.

٢ـ الإيمان باسم من عَلِمْنا اسمه منهم.

٣ـ الإيمان بأفعالهم.

٤ـ الإيمان بصفاتهم.

(١) القول المفيد ٣/ ٢١٧، ٢٢٧.

فممّن علمنا صفاته جبريل عليه السلام، علمناه على خلقته التى خُلِقَ عليها له ست مئة جناح، قد سد الأفق؛ كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ، وهذا يدل على عظمته، وأنه كبير جداً؛ فهو فوق ما نتصور، ومع ذلك يأتى أحياناً بصورة بشر؛ فأتى مرة بصورة دِحيةَ الكلبى، وأتى مرة بصورة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب لا يرى عليه أثر سفر ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجلس إلى النبى ﷺ جلسة المتعلم المتأدب (١).

قوله: «وكتبه».

أى: الكتب التى أنزلها على رسله.

والإِيمان بالكتب يتضمن ما يلى:

١ـ الإِيمان بأنها حق من عند الله.

٢ـ تصديق أخبارها.

٣ـ التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا؛ فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة؛ لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن.

وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ فى القرآن؛ لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

٤ـ الإِيمان بما علمناه مُعَيَّناً منها؛ مثل: التوارة، والإِنجيل، والقرآن، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى.

٥ـ الإِيمان بأن كل رسول أرسله الله معه كتاب؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ (٢)، وقال عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾، وقال عن يحيى كذلك (٣).

● **تنبيه:**

الكتب التى بأيدى اليهود والنصارى اليوم قد دخلها التحريف والكتمان؛ فلا يوثق بها، والمراد بما سبق الإِيمان بأصل الكتب.

---

(١) تقدم فى حديث الباب. (٢) مريم: ٣٠.

(٣) كما فى قوله تعالى ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

قوله: «ورسله».

هم الذين أوحى الله إليهم وأرسلهم إلى الخلق لِيُبلِّغوا شريعة الله.

والإيمان بالرسل يتضمن ما يلى:

١ـ أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدقون.

٢ـ أن نؤمن بما صح عنهم من الأخبار، وبما ثبت عنهم من الأحكام؛ ما لم تنسخ.

٣ـ أن نؤمن بأعيان من علمنا أعيانهم، وما لم نعلمه؛ فنؤمن بهم على سبيل الإجمال، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أرسل لكل أمة رسولاً تقوم به الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: **﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾** (١).

والبشر إذا لم يأتهم رسول يبين لهم فهم معذورون؛ لأنهم يقولون: يا ربنا! ما أرسلت إلينا رسولاً؛ كما قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾**(٢)؛ فلابد من رسول يهدى به الله الخلق.

فإن قيل: قوله تعالى: **﴿على فترة من الرسل﴾** (٣) يدل على أنه فيه فترة ليس فيها رسول؛ فهل قامت عليهم الحجة؟

الجواب: أن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام طويلة، وقد قامت عليهم الحجة؛ لأن فيها بقايا؛ كما جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى «صحيحه»: **«إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم؛ إلا بقايا من أهل الكتاب»** (٤)، وكما قال تعالى: **﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾**(٥).

قوله: «واليوم الآخر»

أى: اليوم النهائى الأبدى الذى لا يوم بعده، وهو يوم القيامة الكبرى. قال شيخ

(١) آل عمران: ١٦٥. (٢) طه: ١٣٤.

(٣) المائدة: ١١٩.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنة (٩/ ٢١٤/ ٦٣) عن عياض بن حمار به.

(٥) هود: ١١٦.

الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يدخل فى الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبى ﷺ مما يكون بعد الموت، ذكر هذا فى «العقيدة الواسطية»، وهو كتاب مختصر؛ لكنه مبارك من أفيد ما كتب فى بابه.

وعلى هذا؛ فالإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه من الإيمان باليوم الآخر.

والإيمان بالنفخ فى الصور وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غُرْلاً بُهْماً من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالموازين والصحف والصراط والحوض والشفاعة والجنة وما فيها من النعيم والنار وما فيها من العذاب الأليم؛ كل هذا من الإيمان باليوم الآخر.

ومنه ما هو معلوم بالقرآن، ومنه ما هو معلوم بالسنة بالتواتر وبالآحاد فكل ما صحت به الأخبار عن رسوله الله ﷺ من أمر اليوم الآخر، فإنه يجب علينا أن نؤمن به.

قوله: «وتؤمن بالقدر خيره وشره».

هنا أعاد الفعل ولم يكتف بواو العطف؛ لأن الإيمان بالقدر مهم، فكأنه مستقل برأسه.

والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله ـ عزوجل ـ للأشياء كلها، سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله ـ عزوجل ـ قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم؛ فالعلم سابق على الكتابة، ثم إنه ليس كل معلوم الله ـ سبحانه وتعالى ـ مكتوباً؛ الذى كُتب إلى يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة أكثر مما فى الدنيا هى معلومة عند الله ـ عزوجل ـ، ولكنه لم يرد فى الكتاب والسنة أنها مكتوبة.

وهذا القدر، قال بعض العلماء: إنه سر من أسرار الله، وهو كذلك لم يُطلع الله عليه أحداً؛ لا مَلَكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً؛ إلا ما أوحاه الله ـ عز وجل ـ إلى رسله أو وقع فعلم به الناس، وإلا؛ فإنه سر مكتوم، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾(1)، وإذا قلنا: إنه سر مكتوم؛ فإن هذا القول يقطع احتجاج العاصى بالقدر على معصيته؛ لأننا نقول لهذاالذى عصى الله ـ عزوجل ـ وقال: هذا مُقدّر علىّ: ما الذى أعلمك أنه مقدر عليك حتى أقدمت؛ أفلا كان الأجدر بك أن تُقدّر أن الله تعالى قد كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك؟

(1) لقمان: ٣٤.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(١)؛ فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس، وينشرح له الصدر، وتنقطع به حجة البطالين.

وقوله: «خيره وشره».

قال سليمان آل الشيخ: وقوله: خيره وشره، أي: خير القدر وشره، أي: أنه تعالى قدر الخير والشر قبل خلق الخلق، وإن جميع الكائنات بقضائه وقدره وإرادته، لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(٢) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤) وغير ذلك.

فإن قلت: كيف قال: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»! وقد قال في الحديث: «والشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(٥).

قيل: إثباب الشر في القضاء والقدر، إنما هو بالإضافة إلى العبد، والمفعول إن كان مقدراً عليه، فهو بسبب جهله وظلمه وذنوبه، لا إلى الخالق، فله في ذلك من الحكم ما تقصر عنه أفهام البشر، لأن الشر إنما هو بالذنوب وعقوباتها في الدنيا والآخرة، فهو شر بالإضافة إلى العبد، أما بالإضافة إلى الرب سبحانه وتعالى، فكله خير وحكمة، فإنه صادر عن حكمه وعلمه، وما كان كذلك فهو خير محض بالنسبة إلى الرب سبحانه وتعالى، إذ هو موجب أسمائه وصفاته، ولهذا قال: «والشر ليس إليك» أي: تمتنع إضافته إليك بوجه من الوجوه، فلا يضاف الشر إلى ذاته وصفاته، ولا أسمائه ولا أفعاله فإن ذاته منزهة عن كل شر وصفاته كذلك إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسماءُه كلها حسن ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وأفعاله حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل. لا تخرج عن ذلك البتة، وهو المحمود على ذلك كله، فتستحيل إضافة الشر إليه، فإنه ليس شر في الوجود إلا الذنوب وعقوبتها، وكونها ذنوباً تأتي من نفس العبد، فإن سبب الذنب الظلم والجهل، وهما في نفس العبد. فانه ذات مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له

(١) الصف: ٥.

(٢) الفرقان ٢.

(٣) الصافات ٩٦.

(٤) القمر ٤٩.

(٥) تقدم تخريجه.

بفضل الله عليه، وهـو أمر خارج عن نفسه، فمن أراد الله به خيراً أعـطاه الفضل فصدر منه الإحسان والـبر والطاعة، ومن أراد به شراً أمـسكه عنه وَخَلاَّهُ وَدواعى نفـسه وطبعه وموجبها، فـصدر عنه موجب الجهل والظلـم من كل شر وقبيح، وليس مـنعه من ذلك شراً، ولله فى ذلك الحكمة الـتامة، والحجة البالغة، فهذا عدله، وذلك فـضله يوتيه من يشاء والله ذو الـفضل العظـيم، وهو العلى الحـكيم، هذا معـنى كلام ابن القـيم، وهو الحق.

وحاصله أن الشر راجع إلى مفعولاته، لا إلى ذاته وصفاته، ويتبين ذلك بمثال: ولله المثل الأعلى، لو أن ملكاً من ملوك العدل كان معروفاً بقمع المخالفين وأهلالفساد، مقيماً للحدود والتعزيرات الشرعية على أرباب أصحابها، لعدوا ذلك خيراً يحمده عليه الملوك، ويمدحه الـناس ويشكرونه عـلى ذلك، فهو خيـر بالنسبة إلـى الملوك، يمدح ويثـنى به ويشكر عليه وإن كان شراً بالنسبة إلى من أقيم عليه، فرب العالمين أولى بذلك، لأن له الكمال المطلق مـن جمع الوجوه والاعتبارات. وأيضاً فلولا الشـر هل كان يعرف الخير، فان الضد لا يعرف إلا بضده، فان لم تحط به خبراً فاذكر كلام ابن عقيل فى الباب الذى قبل هذا، أسلم تسلم، والله أعلم.

قلت: ولقد لخص هـذا صاحب فتح المجيـد وأتيت بتمام الـكلام من تيسيـر العزيز الحميد للإفادة.

ولقد شرح ابن عثيمين هذا فقال:

الخير: ما يلائم العبد، والشر: ما لا يلائمه.

ومعلـوم أن المقدورات خير وشر؛ فـالطاعات خير، والمـعاصي شر، والغِنـى خير، والفقر شر، والصحة خير، والمرض شر، وهكذا.

وإذا كان القدر من الله؛ فكيف يقال: الإيمان بالقدر خيره وشره والشر لا ينسب إلى الله.

فالجواب أن الشر لا ينسب إلى الله، قـال النبى ﷺ: «والشر ليس إليك» (1)؛ فلا ينسب إليه الشر لا فعلاً ولا تقديراً ولا حكمـاً، بل الشر فى مفعولات الله لا فى فعله، ففعله كله خير وحكـمة، فتقدير الله لهذه الشرور له حكمة عظيـمة، وتأمل قوله تعالى: **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**(2)؛ تجد أن هذا الفساد الذى ظهر فى البر والبـحر كان لما يرجى به من العاقبة

---

(1) [صحيح] أخرجه: مسلم برقم (771).

(2) الروم: 41.

الحميدة، وهى الرجوع إلى الله ـ عزوجل ـ، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول فى المثال التالى:

ولدك حينما يشتكى ويحتاج إلى كَىّ تكويه بالنار؛ فالكى شر، لكن الفعل خير؛ لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شراً محضاً، بل فى محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أَخْذ عزيز مقتدر؛ صار ذلك شراً بالنسبة له، وقد يكون خيراً له من وجه آخر، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله به؛ فيكون خيراً، قال تعالى فى القرية التى اعتَدَت فى السبت: **﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾**(١).

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تكَسِرُ من حدة نفسه؛ فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله.

وكم من إنسان أذنب ذنباً ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيراً منه قبلها؛ لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحَدّ من عليائها؛ فهذا آدم عليه الصلاة والسلام لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهداية إلا بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم، وقال: **﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**(٢)؛ فقال تعالى: **﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾**(٣).

والثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فَخُلِّفوا ماذا كانت حالهم بعد المعصية وبعد المصيبة التى أصابتهم؛ حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم ـ صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبى منه ـ، ومن شدة ما فى نفسه تَنَكَّرت نفسه عليه؛ فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبداً، وصارت حالهم أيضا بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل، وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذُكروا بأعيانهم، قال تعالى: **﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** (٤)؛ فهذه آيات عظيمة تتلى فى

---

(١) البقرة: ٦٥.
(٢) الأعراف: ٢٣.
(٣) طه: ١٢٢.
(٤) التوبة: ١١٨ والحديث تقدم تخريجه.

محاريب المسلمين ومنابرهم إلى يوم القيامة ويتقرب العبد إلى ربه بقراءة خبرهم واستماعه. وهذا شيء عظيم.

وسواء كان ذلك في الأمور الشرعية أو فى الأمور الكونية، ولكن ها هنا أمر يجب معرفته، وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله - سبحانه وتعالى - ؛ فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو فى الواقع خير، وإنما الشر فى المقضى، أما قضاء الله نفسه؛ فهو خير، والدليل قول النبى ﷺ **«الخير بيديك، والشر ليس إليك»** (١)، ولم يقل: والشر بيديك؛ فلا ينسب الشر إلى الله أبداً، فضلاً عن أن يكون بيديه، فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء؛ فالله لا يريد بقضاء الشر شراً، لكن الشر يكون فى المقضى، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية؛ فهذا فى المقضى، ومع ذلك؛ فهو وإن كان شراً فى محله فهو خير فى محل آخر، ولا يمكن أن يكون شراً محضاً، حتى المقضى وإن كان شراً ليس شراً محضاً، بل هو شر من وجه خيرٌ من وجه، أو شر فى محل خيرٌ فى محل آخر.

ولنضرب لذلك مثلاً: الجَدْب والفقر شر، لكنهما خير باعتبار ما ينتج عنهما، قال تعالى: **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**(٢)، والرجوع إلى الله ـ عز وجل ـ من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير وينتج خيراً كثيراً؛ فألم الفقر وألم الجدب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح، ولهذا قال: **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**، وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله ـ عزوجل ـ واشتغلوا بالمال، فإذا أصيبوا بفقر؛ رجعوا إلى الله، وعرفوا أنهم ضالّون؛ فهذا الشر صار خيراً باعتبار آخر.

كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه، لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره، أما بالنسبة له؛ فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة فى الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضاً خير فى غير السارق؛ فإن فيه ردعاً لمن أراد أن يسرق، وفيه أيضاً حفظ للأموال؛ لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده؛ امتنع من السرقة، فصار فى ذلك حفظ لأموال الناس، ولهذا قال بعض الزنادقة:

يد بخمس مئين عسجداً وديت ... ما بالها قطعت فى ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له ... ونستجير بمولانا من النار

---

(١) تقدم تخريجه من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ.
(٢) الروم: ٤١.

وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَامت؛ أَنَّه. قَالَ لابْنه: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجدَ طَعْمَ الإيمَان حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَكَ، سَمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ ـ تعالى ـ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، يَابُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: مَن مَاتَ عَلَى غَيرِ هَذَا فلَيْسَ مِنِّي»(١).

لكنه أجيب فى الرد عليه رداً مفحماً؛ فقيل فيه:

قل للمعرى عار أيما عارى ... جهل الفتى وهو من ثوب التقى عارى
يد بخمس مئين عسجداً وديت ... لكنها قطعت فى ربع دينار
حماية النفس أغلاها وأرخصها ... حماية المال فافهم حكمة البارى اهـ



قوله: وعن عبادة بن الصامت؛ أنَّه قال لابنة: يابُنَيَّ

وقد بيض المصنف آخر هذا الحديث ليعزوه، وقد رواه أبو داود وهذا لفظه، ورواه أحمد والترمذى وغيرهما.

قال الفقير: هذا الحديث رواه أحمد فى مسنده وأبوداود فى السنة باب فى القدر والترمذى فى القدر وفى التفسير باب من سورة [ن] وابن أبى عاصم فى السنة.

جميعاً من حديث عبادة بن الصامت وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الترمذى فى صفة القيام.

● مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى(٢): حيث دل الحديث على كفر من أنكر القدر. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوى (٣): حيث دل الحديث على كفر من أنكر القدر لأن ذلك شرك مع الله فى ربوبيته. اهـ.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣١٧)، وأبو داود فى «السنة»/ باب: فى القدر (٤/ ٢٢٥/ ح ٤٧٠٠)، والترمذى فى «القدر»/ باب رقم ١٧ (٤/ ٤٥٧/ ح ١٥٥)، وفى «التفسير»/ باب: من سورة ن (٥/ ٤٢٤/ ح ٣٣١٩) وابن أبى عاصم فى «لسنه» (ح ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥).

جميعاً من حديث عبادة بن الصامت.

وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الترمذى فى «صفه القيامة»/ باب: بدون ترجمة (٤/ ٦٦٧/ ح ٢٥١٦) وأحمد فى «مسنده» (١/ ٢٩٣. ٣٠٣) وانظر تمام تخريجه فى «رياض الصالحين (ح ٦٣ ـ بتخريجنا).

(٢ ـ ٣) الجديد ٤٣٦.

قول فى حديث عباده «أنه قال لابنه: يابُنىَّ .. إلخ

قال سليمان آل الشيخ[1]: ابنه هذا هوالـوليد بن عبادة كما صرح بـه الترمذى فى روايته. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: أفاد حديث عبادة بن الصامت رضى الـله عنه أنه ينبغى للأب أن يسدى النصائح لأبنائه ولأهله، وأن يختار العـبارات الرقيقة التى تلين القلب، حيث قال: «يا بنى!» وفى هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر. اهـ.

قوله : «إنك لن تجد طعم الإيمان»

قال سليمـان آل الشيخ:[3] وفيه أن لـلإيمان طعمـا. وهو كذلك، فـإن له حلاوة وطعماً، من ذاته تسلى به عن الدنيا وما عليها. اهـ.

وقد قال النبى ﷺ: «**ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَان...**»[4] الحديث وإنما يكون العبـد كذلك إذا كان مؤمناً بالقـدر، إذ يمتنع أن توجد الثلاث فـيه وهو لا يؤمن بالقدر بل يـكذب به ويرد على الله كلامه وعلـى الرسول ﷺ مقالته، فإن المحـبة التامة تقـتضى المتابـعة التامـة، فمن لم يـؤمن بالقـدر، لم يكن الله ورسـوله أحب إليـه مما سواهما، فلا يجد حلاوة الإيمان ولا طعمه، بل إن كان مـنكراً للعلم القديم، فهو كافر كما تقدم، ولـهذا روى عن بعض الأئمة القدريـة الكبار بإسناد صحيـح أنه قال لما ذكر حديث ابن مسعود رضى الله عنـه «حدثنى الصادق المصدوق»[5] الحديث: ولو سمعت الأعمش يقول هـذا لكذبته، ولو سمعت زيـد بن وهب يقول هذا لأجبتـه، ولو سمعت عبدالله بن مـسعود يقول هذا مـا قبلته، ولو سـمعت رسول الله ﷺ يقول هـذا لرددته، وذكر كلمة بعدها، فهذا كفر صريح، نعـوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه. وقد بين فى الحديث كيفية الإيمان بالقدر: أن يعـلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ـ وهذا كما قال النبى ﷺ فى حديث جابر رضى الله عنه: «**لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنُ**

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٢.

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٢٧

(٣) تيسير العزيز الميد ٥٢٤ و٢٥٢.

(٤) [صحيح] البخارى وقد تقدم.

(٥) تقدم تخريجه.

بالقدر خيره وشره حتى أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»[1] رواه الترمذى، والمعنى: أن العبد لا يؤمن حتى يعلم أن ما يصيبه إنما أصابه فى القدر، أى: قدر عليه من الخير والشر، لم يكن ليخطئه، أى: يجاوزه فلا يصيبه، وإنما أخطأه من الخير والشر فى القدر، أى: لم يقدر عليه، مالم يكن ليصيبه، كما قال تعالى: **﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾**[2] وقال تعالى: **﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾**[3].

قال ابن عثيمين[4]: **قوله: «لن تجد طعم الإيمان»** هذا يفيد أن للإيمان طعماً كما جاءت به السنة، وطعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة؛ فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتى بعدها طعام آخر أزالها، لكن طعم الإيمان يبقى مدة طويلة، حتى إن الإنسان أحياناً يفعل عبادة فى صفاء وحضور قلب وخشوع لله ـ عزوجل ـ، فتجده يتعطم بتلك العبادة مدة طويلة؛ فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم.

قوله: «حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك»

قال ابن عثيمين: [5] قد تقول: ما أصابنى لم يكن ليخطئنى، هذا تحصيل حاصل؛ لأن الذى أصاب الإنسان أصابه، فلابد أن نعرف معنى هذه العبارة؛ فتحمل هذه العبارة على أحد معنيين أو عليهما جميعاً:

الأول: أن المعنى «ما أصابك»؛ أى: ما قدر الله أن يصيبك، فَعَبَّر عن التقدير بالإصابة؛ لأن ما قدر الله سوف يقع، فما قدر الله أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

الثانى: ما أصابك؛ فلا تفكر أن يكون مخطئاً لك، فلا تقل: لو أننى فعلت كذا ما حصل كذا؛لأن الذى أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك؛ فكل التقديرات التى تقدرها

---

(١) أخرجه الترمذى (٢١٤٤) قال الترمذى: وعبدالله بن ميمون منكر الحديث.

(٢) الحديد: ٢٢.

(٣) التوبة: ٥١.

(٤) القول المفيد ٣/٢٢٨.

(٥) القول المفيد ٣/٢٢٨ و ٢٢٩ و٢٠٣.

وتقول: لو أنى فعلت كذا ما حصل كذا هى تـقديرات يائسة، لا تؤثر شيئاً، وأياً كان؛ فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره الـله أن يصيب العبد فلابد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيباً للإنسان؛ فإنـه لن يمنعه شيء، فإذا آمنت هذا الإيمان ذقت طعم الإيمان؛ لأنك تطـمئن وتعلم أن الأمر لابد أن يقع على ما وقـع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبداً.

مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للنزهة، فَدَبَّ بعض الأولاد إلى بركة عميقة، فسقط، فغرق، فمات؛ فلا يقول: لو أننى مـا خرجت لما مات الولد، بل لابد أن تجرى الأمور على ما جرت عليه، ولا يمكن أن تتغير؛ فما أصابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضى، ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقـديرات والتخيلات التى تقع فى ذهنه كلـها من الشـيطان؛ فلا تـقل: لو أنى فـعلت كذا لـكان كذا، فإن «لـو» تفتح عـمل الشيطان، وحينئذ يرضى ويسلم، وقد أشار الله إلى هذا المعنى فى قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾(١).

فأنت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك؛ ذقت حلاوة الإيمان، وأطمأننت، واستقر قلبك، وعرفت أن الأمر جار عـلى ما هو عليه لا يمكن أن يتغير، ولـهذا كثيراً ما يجد الإنسان أن الأمور سارت ليصل إلى هذه المصيبة؛ فتجده يعمل أعمالاً لم يكن من عادته أن يعملهـا حتى يصل إلى ما أراد اللـه ـ عزوجل ـ مما يدل على أن الأمور بـقضاء الله وقدره.

قوله: و«ما أخطأك لم يكن ليصيبك».

قال ابن عثيمين: (٢) نقول فيه مثل الأول؛يعنى: ما قَـدّر أن يخطئك فلن يصيبك، فلو أن أحداً سمع بموسـم تجارة فى بلد ما وسافر بأمواله لهذا المـوسم، فلما وصل وجد أن الموسم قـد فات؛ نقول لـه: ما أخطأك من هـذا الربح الذى كنـت تُعدّ له لـم يكن ليصـيبك مهما كـان ومهما عمـلت، أو نقول: لم يـكن ليصيـبك؛ لأن الأمر لابد أن يجرى عـلى ما قضاه اللـه وقدره، وأنت جرّب نفسـك تجد أنك إذا حصلت عـلى هذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان. ثم استدل لما يقول.

بقوله سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أول ما خلق الله القلم**»

---

(١) الحديد : ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٣٠.

قال سليمان آل الشيخ[1]: **قال شيخ الإسلام**: قد ذكرنا أن للسلف في العرش والقلم أيهما خلق قبل الآخر قولين، كما ذلك ذكر الحافظ أبو العلى الهمدانى وغيره:

أحدهما: أن القلم أولاً، كما أطلق ذلك غير واحد، وهذا هو الذى يفهم فى ظاهر كتب المصنف فى «الأوائل» للحافظ أبي عروبة الحرانى ولد القاسم الطبرانى، للحديث الذى رواه أبو داود فى «سننه» عن عبادة بن الصامت، وذكر الحديث المشروح.

والثانى: أن العرش خلق أولاً. قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمى فى تصنيفه فى «الرد على الجهمية»: حدثنا محمد بن كثير العبدى، أنبأنا سفيان الثورى، ثنا أبو هاشم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: «**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى عَرْشِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئاً، فَكَانَ أَوَلَ مَا خلق الله القَلَمَ،فَأَمَرَهُ أَنْ يكتب مَا هُوَ كَائِنٌ، وَأَنَ مَا يَجْرِى عَلَى النَّاسِ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ**»[2] وكذلك ذكر الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب «الأسماء والصفات» لما ذكر بدء الخلق، ثم ذكر حديث الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾[3] عَلَى أى شَيْءٍ؟ قَالَ: عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ[4].

وروى حديث القاسم بن مرة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللهُ القَلَم، وأَمَرَهُ فَكَتَبَ كُلَّ شَيْءٍ يَكُون**» [5] قال البيهقى: وإنما أراد ـ والله أعلم ـ أول شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش، وذلك فى: حديث عمران بن حصين الذى أشار إليه، وهو ما رواه البخارى من غير وجه مرفوعاً عنه: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمرَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِى الذِكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**»[6] رواه البيهقى كما رواه محمد هارون الرويانى

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٢٥ ـ ٥٢٧.

(٢) الأجرى فى الشريعة (١٧٩).

(٣) هود: ٧.

(٤) أخرجه ابن جرير (١٢/ ٤) والحاكم فى «المستدرك» (٢/ ٣٤١) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٢) وزاد نسبته لعبدالرزاق فى «المصنف»، والفريابى، وابن المنذر، وأبى الشيخ، والبيهقى فى «الأسماء والصفات».

(٥) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (٨/ ١٨١).

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٤١٨) عن عمران بن حصين به.

في «مسنده» وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهما، من حديث الثقات المتفق على ثقتهم، عن أبي إسحاق، عن الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران ابن حصين، عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، ثم كتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات» وذكر أحاديث وآثاراً، ثم قال ما معناه: فثبت في النصوص الصحيحة أن العرش خلق أولاً. وقال ابن كثير: قال قائلون: خلق القلم أولاً، وهذا اختيار ابن جرير وابن الجوزي وغيرهما. قال ابن جرير: وبعد القلم السحاب الرقيق، وبعده العرش، واحتجوا بحديث عبادة.

والذي عليه الجمهور أن العرش مخلوق قبل ذلك، كما دل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه» يعني حديث عبدالله بن عمرو بن العاص الذي تقدم. قالوا:

وهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير، وقد دل الحديث أن ذلك بعد خلق العرش، فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير. ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم. انتهى بمعناه.

قال ابن عثيمين: (1) القلم بالرفع، وروى بالنصب.

فعلى رواية الرفع يكون المعنى: أن أولَ ما خلقَ الله هو القلم، لكن ليس من كل المخلوقات، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وأما على رواية النصب؛ فيكون المعنى: أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه له؛ يعني: خَلَقه ثم أمره أن يكتب، وعلى هذا المعنى لا إشكال فيه، لكن على المعنى الأول الذي هو الرفع: **هل المراد أن أول المخلوقات كلها هو القلم؟**

الجواب: لا؛ لأننا لو قلنا: إن القلم أول المخلوقات، وإنه أمر بالكتابة عندما خلق، لكنا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم أن الله ـ عز وجل ـ خلق أشياء قبل هذه المدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله ـ عزوجل ـ؛ لأن الله ـ عزوجل ـ لم يزل ولا يزال خالقاً، وعلى هذا؛ فيكون: إن أول ما خلق الله القلمُ يحتاج إلى تأويل ليطابق ما علم بالضرورة من أن الله تعالى له مخلوقات قبل هذا الزمن.

قال أهل العلم: وتأويله: إن المعنى: أن أول ما خلق الله القلم بالنسبة لما نشاهده

(1) القول المفيد ٣/ ٢٣٠و٢٣١.

فقط من المخلوقات؛ كالسموات والأرض... فهى أولّية نِسبيّة، وقد قال ابن القيم فى نونيّته:

والناسُ مختلفون فى القلم الذى ... كُتِبَ القضاءُ به من الديّان
هل كان قبلَ العرش أو هو بعدَه ... قولان عند أبى العلا الهمذانى
والحق أن العرش قبل لأنه ... قبل الكتابة كان ذا أركان

قوله: «فقال له: اكتب».

قال ابن عثيمين[1]: القائل هو الله ـ عزوجل ـ يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله مُدرِك وعاقل ومريد، والدليل على هذا قوله تعالى فى سورة فصلت: **﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾**؛ أى: لابد أن تنقادا لأمر الله طوعاً أو كرهاً؛ فكان الجواب: **﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾**[2]؛ فقد خاطب الله السماوات والأرض وأجابتا ودل قوله: **﴿طَائِعِينَ﴾** على أن لها إرادة وأنها تطيع؛ فكل شىء أمام الله؛ فهو مدرك مريد ويجيب ويمتثل.

قوله: «فقال: ربِّى وماذا أكتب؟»

قال ابن عثيمين: [3] قوله: «ماذا»: اسم استفهام مفعول مقدم، و«اكتب»: فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة، هذا إذا ألغيت «ذا»، أما إذا لم تلغ؛ فنقول: «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«ذا»: خبره؛ أى: ما الذى أكتب؟ والعائد على الموصول محذوف تقديره: ما الذى أكتبه؟

وفى هذا دليل على أن الأمر المجمل لا حرج على المأمور فى طلب استبانته، وعلى هذا؛ فإننا نقول: إذا كان الأمر مجملاً؛ فإن طلب استبانته لا يكون معصية؛ فالقلم لا شك أنه ممتثل لأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ومع ذلك قال: **«رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة»** حتي يعظم اليهو

فإن قيل: هل القلم يعلم الغيب؟

(١) القول المفيد ٣/ ٢٣١ و٢٣٢. (٢) فصلت: ١٠، ١١.
(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٣٢و٢٣٣.

فالجواب: لا، لكن الله أمره، ولابد أن يمتثل لأمر الله، **فكتب هذا القلم الذى يعتبر جماداً بالنسبة لمفهومنا، كتب كل شيء أمره الله أن يكتبه؛ لأن الله إذا أراد شيئاً قال له: كن؛ فيكون على حسب مراد الله.**

قوله: «قال: اكتب مقادير كل شيءٍ حتى تقوم الساعة»

قال سليمان آل الشيخ[1]:- قال شيخ الإسلام: وكذلك فى حديث ابن عباس وغيره، وهذا يبين أنه إنما أمره حينئذ أن يكتب مقدار هذا الخلق إلى قيام الساعة، لم يكن حينئذ ما يكون بعد ذلك.

قال ابن عثيمين:[2] و«كل»: من صيغ العموم؛ فتعم كل شيء مما يتعلق بفعل الله أو بفعل المخلوقين.

وقوله: «حتى تقوم الساعة».

الساعة هى القيامة، وأطلق عليها لفظ الساعة؛ لأن كل شيء عظيم من الدواهى له ساعة؛ يعنى: الساعة المعهودة التى تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم، وذلك عند النفخ فى الصور.

قوله: «يا بنى إنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من مات على غير هذا فليس منى».

قال ابن عثيمين:[3] أى: الإيمان بأنَّ الله كتب مقادير كلِّ شئ، قوله: فليس منى». تبرأ منه الرسول - ﷺ - لأنه كافر. والرسول ﷺ برىء من كل كافر.

قال سليمان آل الشيخ[4]: قوله: **«من مات على غير هذا لم يكن منى» أى: لأنه** إذا كان جاحداً للعلم القديم فهو كافر، كما قال كثير من أئمة السلف: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوا كفروا، يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقى وسعيد. وكتب ذلك عنده فى كتاب حفيظ، فقد كذب القرآن، فيكفر بذلك، كما نص عليه الشافعى وأحمد وغيرهما، وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد، وشاءها وأرادها بينهم إرادة كونية قدرية، فقد خصموا، لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه، وفى تكفير هؤلاء نزاع مشهور.

وبالجملة: فهم أهل بدعة شنيعة، والرسول ﷺ برىء منهم، كما هو برىء من الأولين أهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٢٧.
(٢) القول المفيد ٣/ ٢٣٣.
(٣) القول المفيد ٣/ ٢٣٣.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٥٢٧.

وفي رِوَايَةٍ لأحْمَدَ: «إنَّ أوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالى القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائنٌ إلَى يَوْمِ القِيامَةِ»(١).

● **فوائد الحديث**

قال ابن عثيمين (٢): ويستفاد من هذا الحديث:

١ـ ملاطفة الأبناء بالموعظة، وتؤخذ من قوله: «يا بنى!». وقد تقدم.

٢ـ أنه ينبغى أن يُلَقَّن الأبناء الأحكام بأدلتها، وذلك أنه لم يقل: إن الله كتب... وسكت، ولكنه أسند إلى الرسول ﷺ؛ فمثلاً: إذا أردت أن تقول لابنك: سَمِّ الله على الأكل، واحمد الله إذا فرغت؛ فإنك إذا قلت ذلك يحصل به المقصود، لكن إذا قلت: سم الله على الأكل، وأحمد الله إذا فرغت؛ لأن النبى ﷺ أمر بالتسمية عند الأكل(٣)، وقال: **«إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة ويحمده عليها، ويشرب الشربة ويحمده عليها»**(٤)، وإذا فعلت ذلك استفدت فائدتين:

الأولى: أن تعوِّد ابنك على اتباع الأدلة.

الثانية: أن تربيه على محبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الرسول ﷺ هو الإمام المتبع الذى يجب الأخذ بتوجيهاته، وهذه فى الحقيقة كثيراً ما يغفل عنها؛ فأكثر الناس يوجه ابنه إلى الأحكام فقط، لكنه لا يربط هذه التوجيهات بالمصدر الذى هو الكتاب والسنة.



قوله: وفى رواية لأحمد: «إن أوّل ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب،...» الحديث.

قال ابن عثيمين (٥): ظاهره أن هذا فى حديث عبادة، وابن وهب أحد حفاظ الحديث.

قال ابن عثمين:(٦) هذه الرواية تفيد أمراً زائداً على ما سبق، وهو قوله: **«فجرى فى تلك الساعة»**؛ فإنه صريح فى أن القلم امتثل، والحديث الأول ليس فيه أنه كتب إلا

---

(١) تقدم قبله.

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٣٣ و٢٣٤.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٣٧٦)، ومسلم فى الأشربة (١٣/ ١٩٢ ـ النووى) عن عمر بن سلمة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٣٠١ ـ بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء «(٩/ ٥٩/ ٨٩) عن أنس به.

(٥) القول المفيد ٣/ ٢٣٦. (٦) القول المفيد ٣/ ٢٣٤ و٢٣٥.

وفي رِوَايَةَ لابن وَهْب: قَالَ: قال رَسُولُ الله ﷺ : «فَمَنْ لَم يُؤمِنْ بِالقَدرِ خَيرِه وَشَرِّه أَحْرَقَهُ اللهُ بِالنَّار».

عن طريق اللزوم بأنه سيكتب امتثالاً لأمر الله تعالى؛ فيستفاد منه ما سبق من كتابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ كل شيء إلى قيام الساعة، وهذا مذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾(١)؛ وقال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا**﴾(٢) أي: من قبل أن نبرأ الخليقة، ﴿ **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾.

قوله: «إلى يوم القيامة».

هو يوم البعث، وسمي يوم القيامة؛ لقيام أمور ثلاثة فيه:

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين؛ كما قال تعالى: ﴿ **لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(٣).

الثاني: قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسل وعلى الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾(٤).

الثالث: قيام العدل؛ لقوله تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾(٥).



قوله: «وفي رواية لابن وهب قال: قال رسول الله ﷺ «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار».

قال سليمان آل الشيخ:ـ(٦) وهو الإمام الحافظ عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم المصري الفقيه، ثقة إمام مشهور عابد، له مصنفات، منها «الجامع» وغيره، مات سنة سبع وتسعين ومائة وله اثنان وسبعون سنة.

قوله: «قال: قال رسول الله ﷺ «فمن لم يومن القدر خيره وشره أحرقه الله بالنار».

اهـ.

---

(١) الحج: ٧٠.
(٢) المطففين: ٥
(٣) غافر: ٥١.
(٤) الأنبياء: ٤٧.
(٥) الحديد: ٢٢ـ٢٣
(٦) تيسير العزيز الحميد ٥٢٧.

قال ابن عثيمين [١] : فى هذا دليل على أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به؛ فإنه يحرق بالنار. اهـ.

قوله: «**أحرقه الله بالنار**».

قال سليمان آل الشيخ[٢] : أى: لكفره أو بدعته إن كان ممن يقر بالعلم السابق وينكر خلق أفعال العباد، فإن صاحب البدعة متعرض للوعيد كأصحاب الكبائر، بل أعظم. اهـ.

قال ابن عثيمين[٣]: وقوله: «**أحرقه الله بالنار**» بعد قوله: «فمن لم يؤمن» يدل على أن من أنكر أَوْشَكّ فإنه يحرق بالنار؛ لأن لدينا ثلاث مقامات:

الأول: الإيمان والجزم بالقدر بمراتبه الأربع.

الثانى: إنكار ذلك.

وهذان واضحان؛ لأن الأول إيمان والثانى كفر.

الثالث: الشك والتردد.

فهذا يلحق بالكفر، ولهذا قال: «فمن لم يؤمن»، ودخل فى هذا النفى: من أنكر ومن شك.

وفى قوله: «**أحرقه الله بالنار**» دليل على أن عذاب النار محرق، وأن أهلها ليس كما زعم بعض أهل البدع يتكيفون لها حتى لا يحسون لها بألم، بل هم يحسون بألم وتحرق أجسامهم، وقد ثبت فى حديث الشفاعة أن الله يخرج من النار من كان من المؤمنين حتى صاروا حُمَماً[٤]؛ يعنى: فحماً أسود، وقد دل عليه القرآن فى قوله تعالى: **﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾** [٥]، وفى قول تعالى: **﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾**[٦] .

(١) القول المفيد ٣/ ٢٣٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٢٧.

(٣) القول المفيد ٣/ ٢٣٦و٢٣٧و٢٣٨.

(٤) تقدم تخريجه فى باب الشفاعة.

(٥) الحج: ٢٢.

(٦) النساء: ٦٥.

وفى «المُسْنَد والسُّنَن» عَنِ أبى الدَّيْلَمِىِّ؛ قَالَ: «أَتَيتُ أُبَىَّ بنَ كَعْب، فَقُلْتُ له ومع فى نَفْسى شَىْء مِنَ القَدَر؛ فَحَدِّثْنى بشَىْء، لَعَلَ الله يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبى. فقَال: لَوْ أَنفَقتَ مثل أُحُد ذَهباً، ما قَبِلَهُ اللهُ منْكَ حَتَى تُؤْمِنَ بالقَدر، وتَعْلَم أَنْ ما أَصابكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطئَكَ، وما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنَ لِيُصيبَكَ، ولَوْ متَ عَلى غير هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّار، قَالَ: ثم أَتَيتَ عَبْدَ الله بن مَسْعُود. وَحُذَيْفَةَ بن اليَمَان وزَيْد بن ثَابت؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنى بِمِثْل ذَلكَ عَنِ النَّبىِّ ﷺ حَديثٌ صَحِيحٌ رواهُ الحَاكم فى «صَحِيحه»(١).

قوله: «وفى المسند والسنن» عن أبى الديلمى قال: «أتيت أبىَّ بن كعب فقلت فى نفسى شىء من القدر، فحدثنى بشىءٍ لعلَّ الله يذهبه من قلبى، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهباً...الحديث.

قال سليمان آل الشيخ(٢): قوله: وفي «المسند» أى: «مسند الإمام أحمد» «والسنن» أى «سنن أبى داود» وابن ماجة فقط، بمعنى ما ذكر المصنف، وفيه زيادة اختصرها المصنف، ولفظ ابن ماجة: حدثنا على بن محمد، حدثنا إسحاق بن سليمان، قال: سمعت أبا سنان عن وهب بن خالد الحمصى عن أبى الديلمى قال: وقع فى نفسى شىء من هذا القدر خشيت أن يفسد على دينى وأمرى، فأتيت أبى بن كعب فقلت: يا أبا المنذر إنه قد وقع فى قلبى شىء من هذا القدر: فخشيت على دينى وأمرى، فحدثنى من ذلك بشىء لعل الله أن ينفعنى. فقال: لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل أحد ذهباً أو مثل جبل أحد تنفقة فى سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن

---

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى مسنده» (٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩)، وأبو داود فى «السنة / باب فى السنة/ (٤/ ٢٢٤/ ح٤٦٩٩)، وابن ماجة فى المقدمة / باب: القدر (١/ ٢٩/ ح ٧٧)، وابن أبى عاصم فى السنة (ح٣٤٥)، وابن حبان فى صحيحه» (٢/ ٥٥/ح ٥٢٥ - الإحسان)، والطبرانى فى «الكبير» (٥/ ١٦/ ح ٤٩٤٠).

جمعياً من طريق أبى سنان عن وهب بن خالد الحميرى عن ابن الديلى .. فذكره.

وقال الألبانى إسناده صحيح.

وأخرجه الطبرانى فى الكبير (١/ ٢٨٥/ ح ١٠٥٦٤).

من حديث عمران بن حصين وابن مسعود وأبى بن كعب.

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ١٩٨ - ١٩٩) وقال: رواه الطبرانى بإسنادين رجال هذه الطريق ثقات.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٢٨/ ٢٩.

بالقدر فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإنك إن مت على غير هذا دخلت النار، ولا عليك أن تأتي يا أخي عبد الله بن مسعود فتسأل، فأتيت عبد الله فسألته، فذكر مثل ما قال أبي، وقال لي: لا عليك أن تأتي حذيفة، فأتيت حذيفة فسألته، فقال مثل ما قال: ائت زيد بن ثابت فاسأله، فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان مثل أحد أو مثل جبل أحد ذهباً تنفقه في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر كله فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإنك إن مت على غير هذا دخلت النار**» هذا حديث ابن ماجة. ولفظ أبي داود كما ذكره المصنف إلا أنه قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ بمثل ذلك. اهـ.

قوله: «عن أبي الديلمي».

قال سليمان آل لشيخ(١): هو عبد الله بن فيروز الديلمي. وفيروز قاتل الأسود العنسي الكذاب. وعبد الله هذا ثقة من كبار التابعين، بل ذكره بعضهم في الصحابة. والديلمي نسبة إلى جبل الديلم، وهو من أبناء الفرس الذين بعثهم كسرى إلى اليمن. اهـ.

قوله: «أتيتُ أُبيَّ بن كعب فقلت له وقع في نفسي شيء من القدر».

قال سليمان آل لشيخ(٢): قوله: وقع في نفسي شيء من القدر أي: شك أو اضطراب يؤدي إلى شك فيه أو جحد له. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): **قوله: «في نفسي شيء من القدر».**

لم يفصح عن هذا الشيء، لكن لعله لما حدثت بدعة القدر، وهي أول البدع حدوثاً صار الناس يتشككون فيها ويتكلمون فيها، وإلا؛ فإن الناس قبل حدوث هذه البدعة كانوا على الحق، ولا سيما أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم وهم يتكلمون في القدر، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام من ذلك، وأمرهم بأن لا يتنازعوا وأن لا يختلفوا، فكف الناس عن هذا(٤)؛ حتى قامت بدعة القدرية وحصل ما حصل من الشُّبه، فلهذا يقول ابن الديلمي: «**في نفسي شيء من القدر...**». اهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٢٩.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٢٩.
(٣) القول المفيد ٣/ ٢٣٨.
(٤) حسن أخرجه. ابن ماجه (١/ ٨٥) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده.

قوله: «فحدثني بشيء لعلَّ الله تعالى أن يذهبه من قلبي».

قال ابن عثيمين[1]: أي: يذهب هذه الشيء، وهكذا يجب على الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلى أطباء ذلك المرض، وأطباء مرض القلوب هم العلماء، ولا سيما مثل الصحابة رضي الله عنهم؛ كأبيِّ بن كعب؛ فلكل داء طبيب.

قوله: «ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر. وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك».

قال سليمان آل الشيخ[2]: **قوله:** هذا تمثيل على سبيل الفرض لا تحديد، إذا لو فرض إنفاق ملء السموات والأرض كان ذلك.

قوله: «حتى تؤمن بالقدر». أي: بأن جميع الأمور الكائنة خيرها وشرها، وحلوها ومرها، ونفعها وضرها، وقليلها وكثيرها، وكبيرها وصغيرها بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وأمره، كما ذكر عن علي رضي الله عنه. اهـ.

قوله: «لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر».

هذا يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الذي لا تقبل منه النفقات هم الكفار، وسبق نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله: «ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار».

قال ابن عثيمين[3]: جزم أبي بن كعب رضي الله عنه بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار، لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها.

وهل هذا الدواء يفيد؟

الجواب: نعم يفيد، وكل مؤمن بالله إذا علم أن منتهى من لم يؤمن بالقدر هو هذا؛ فلابد أن يرتدع، ولا بد أن يؤمن بالقدر على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. اهـ.

قوله: قال: ثم أتيتُ عبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبيِّ - ﷺ -.

(1) القول المفيد ٣/ ٢٣٨.
(2) تيسير العزيز الحميد ٥٢٩.
(3) القول المفيد ٣/ ٢٣٩ و ٢٤٠.

قال ابن عثيمين[(١)]: وقوله: «فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت؛ فكلهم حدثنى بمثل ذلك».

المشار إليه الإيمان بالقدر، وأن يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهؤلاء العلماء الأجلاء كلهم من أهل القرآن.

فأبى بن كعب من أهل القرآن ومن كَتَبَةِ القرآن، حتى إن الرسول ﷺ دعاه ذات يوم وقرأ عليه سورة: ﴿**لم يكن....**﴾ البيّنة، وقال: «**إن الله أمرنى أن أقرأها عليك**»، فقال: يارسول الله! سمانى الله لك. قال: «**نعم**»[(٢)]. فبكى رضى الله عنه بكاء فرح أن الله - عز وجل - سَمّاه باسمه لِنَبِيِّه، وأمر نبيه أن يقرأ عليه هذه السورة.

وأما عبد الله بن مسعود؛ فقد قال النبى ﷺ: «**من سره أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل؛ فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**»[(٣)].

وأما زيد بن ثابت، فهو أحد كُتّاب القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه[(٤)].

وحذيفة بن اليمان صاحب السر الذى أَسَرَّ إليه النبى ﷺ بأسماء المنافقين[(٥)].

والحاصل أن هذا الباب يدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر بمراتبه الأربع.

مسألة: الإيمان بالقدر هل هو متعلق بتوحيد الربوبية، أو بالألوهية، أو بالأسماء والصفات؟

الجواب: تعلقه بالربوبية أكثر من تعلقه بالألوهية والأسماء والصفات، ثم تعلقه بالأسماء والصفات أكثر من تعلقه بالألوهية، وتعلقه بالألوهية أيضاً ظاهر؛ لأن الألوهية بالنسبة لله يسمى توحيد الألوهية، وبالنسبة للعبد يسمى توحيد العبادة، والعبادة فعل العبد؛ فلها تعلق بالقدر، فالإيمان بالقدر له مساس بأقسام التوحيد الثلاثة.

مسألة: هل اختلف الناس فى القدر.

---

(١) القول المفيد ٣/ ٢٤٠ - ٢٤٢.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٩٦٠)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ٢٥٧/ ١٢٢) عن أنس به.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٤٤٥) عن ابن مسعود به.

وانظر «الإتقان» للسيوطى بتخريجنا.

(٤) أخرجه: البخارى (٤٩٨٩).

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٧٤٢).

فيه مسائل

الأولى : بيانُ فرْضِ الإيمَانِ بالقَدرَ.

الثانية : بيَانُ كيْفيّةِ الإيمَانِ به.

الثالثة : إحْبَاطُ عَمَلِ مَنْ لَمْ يُؤمنْ بِهِ

الجواب: نعم، اختلفوا فيه على ثلاث فرق، وقد سبق. اهـ.

قال ابن عثيمين[1]:

قوله: فيه مسائل:

● **الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر:**

دليله قوله: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

● **الثانية: بيان كيفية الإيمان.**

أى: بالقدر، وهو أن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ولم يتكلم المؤلف عن مراتب القدر؛ لأنه لم يذكرها، ونحن ذكرناها وأنها أربع مراتب جُمعت اختصاراً فى بيت واحد، وهو قوله:

عِلْم كَتابةُ مَوْلانَا مَشِيئَتُهُ ... وخَلْقُهُ وهْوَ إِيجَادٌ وتَكْوِين

والإيمان بهذه المراتب داخل فى كيفية الإيمان بالقدر.

● **الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.**

تؤخذ من قول ابن عمر: «**لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه فى سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر**».

ويتفرع منه ما ذكرناه سابقاً بأنه يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الكافر هو الذى لا يقبل منه العمل.

---

(١) القول المفيد ٣/ ٢٤٢ - ٢٤٧.

الرابعة : الإِخْبَارُ أَنَّ أَحَداً لاَ يَجِدُ طَعْمَ الإِيمَانِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِهِ.

الخامسة : ذِكْرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللهُ.

السادسة: أَنَّهُ جَرَى بِالمَقَادِيرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

السابعة : بَرَاءَتُهُ ﷺ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ.

● **الرابعة: الإِخبار أن أحداً لا يجد طعم الإِيمان حتى يؤمن به.**

أى: بالقدر، وهو كذلك؛ لقول عبادة بن الصامت لابنه: يا بنى! إنك لن تجد طعم الإيمان.. إلخ.

وقد سبق أن الإِيمان بالقدر يوجب طمأنينة الإِنسان بما قضاه الله - عز وجل - ويستريح؛ لأنه علم أن هذا أمر لا بد أن يقع على حسب المقدور، لا يتخلف أبداً، و«**لا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا؛ لأن لو تفتح عمل الشيطان**»، ولا ترفع شيئاً وقع مهما قلت.

● **الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.**

ظاهر كلام المؤلف: الميل إلى أن القلم أول مخلوقات الله، ولكن الصحيح خلافه، وأن القلم ليس أول مخلوقات الله؛ لأنه ثبت فى «صحيح البخارى»: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب فى الذكر مقادير كل شيء**»(١)، وهذا واضح فى الترتيب، ولهذا كان الصواب بلا شك أن خلق القلم بعد خلق العرش، وسبق لنا تخريج الروايتين، وأنه على الرواية التى ظاهرها أن القلم أول ما خلق تحمل على أنه أول ما خلق بالنسبة لما يتعلق بهذا العالم المشاهد؛ فهو قبل خلق السماوات والأرض، فتكون أوّليّته نسبية.

● **السادسة: أنه جرى بالمقادير فى تلك الساعة إلى يوم قيام الساعة.**

لقوله فى الحديث: «**فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**».

وفيه أيضاً من الفوائد: توجيه خطاب الله إلى الجماد، وأنه يعقل أمر الله؛ لأن الله وَجَّه الخطاب إلى القلم ففهم واستجاب، لكنه سأل فى الأول وقال: «**ماذا أكتب؟**».

● **السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.**

---

(١) تقدم.

الثامنة: عَادَةُ السَلَف فِي إزَلَة الشُبْهَة بِسُؤَال العُلَمَاء.

التاسعة: أنَّ العُلَمَاء أجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ شُبْهَتَهُ، وَذَلكَ أَنَّهُم نَسَبُوا الكلاَمَ إلى رَسُول الله فَقَطْ.

لقوله: «**من مات على غير هذا؛ فليس منى**»، وهذه البراءة مطلقة؛ لأن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفراً مخرجاً من الملة.

● **الثامنة: عادة السلف فى إزالة الشبهة بسؤال العلماء.**

لأن ابن الديلمى يقول: «**فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت**» بعد أن أتى أبى بن كعب؛ فدل هذا على أن عن عادة السلف السؤال عما يشتبه عليهم.

وفيه أيضاً مسألة ثانية، وهى جواز سؤال أكثر من عالم للتثبت؛ لأن ابن الديلمى سأل عدة علماء، أما سؤال أكثر من عالم لتتبع الرخص؛ فهذا لا يجوز كما نص على ذلك أهل العلم، وهذا من شأن اليهود؛ فاليهود لما كان فى التوراة أن الزانى يرجم إذا كان محصناً وكثر الزنا فى أشرافهم؛ غَيّروا هذا الحد، ولما قدم النبى ﷺ المدينة، وزنا منهم رجل بامرأة قالوا: اذهبوا إلى هذا الرجل لعلكم تجدون عنده شيئاً آخر؛ لأجل أن يتتبعوا الرخص.

● **التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.**

لقول ابن الديلمى: «**كلهم حدثنى بمثل ذلك عن النبى ﷺ**»، وهذا مزيل للشبهة، فإذا نسب الأمر إلى الله ورسوله؛ زالت الشبهة تماماً، لكن تزول عن المؤمن؛ أما غيرا المؤمن فلا تنفعه؛ فالله - عز وجل - يقول: ﴿**وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**﴾[1]، وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾[2]، لكن المؤمن هو الذى تزول شبهته هو الذى تزول شبهته بما جاء عن الله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾[3]، ولهذا لما قالت عائشة للمرأة: «**كان يصيبنا ذلك** -

---

(١) يونس: ١٠١. (٢) يونس: ٩٦، ٩٧.

(٣) الأحزاب: ٣٦.

تعنى الحيض-؛ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة»(١) لم تذهب تعلل، ولكن لا حرج على الإنسان أن يذكر الحكم بعلته لمن لم يؤمن لعله يؤمن، ولهذا يذكر الله - عز وجل - إحياء الموتى ويذكر الأدلة العقلية والحسية على ذلك؛ فقال فى أدلة العقل: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾**(٢)؛ فهذه دلالة عقلية؛ فالعقل يؤمن إيماناً كاملاً بأن من قدر على الابتداء فهو قادر على الإعادة من باب أولى.

وذكر أدلة حسية، منها قوله تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾**(٣).

فإذاً لا مانع أن تأتى بالأدلة العقلية أو الحسية من أجل أن تقنع الخصم وتُطَمْئِن الموافق.

وفيه دليل رابع، وهو دليل الفطرة؛ فلا ما نع أيضاً أن تأتى به للاستدلال على ما تقول من الحق لِتُلْزم الخصم به وتطمئن الموافق، وما زال العلماء يسلكون هذا المسلك، وقد مر علينا قصة أبى المعالى الجوينى مع الهمدانى حيث إن أبا المعالى الجوينى - غفر الله لنا وله - كان يقرر نفى استواء الله على عرشه، فقال له الهمدانى: «دعنا من ذكر العرش؛ فما تقول فى هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا: ما قال عارف قط: يا الله! إلا وجد من قلبه ضرورة يطلب العلو». فصرخ أبو المعالى ولطم على رأسه، وقال: حيرنى الهمدانى، حيرنى الهمدانى.

فإذا الأدلة سمعية وعقلية وفطرية وحسية.

وأشدها إقناعاً للمؤمن هو الدليل السمعى؛ لأنه يقف عنده ويعلم أن كل ما خالف دلالة السمع فهو باطل، وإنْ ظنه صاحبه حقّاً. اهـ.

قلت: وفى الباب من الفوائد غير ما تقدم:

(١) تواضع علماء الصحابة وذلة بعضهم لبعض وهذا حال علماء الآخرة.

(٢) فيه جواز سؤال أكثر من عالم فى المسألة الواحدة.

(٣) وأن العالم لايغضب من ذلك بل يرشد السائل إليه.

(٤) إجماع السلف على مسألة الإيمان بالقدر ونبذ المخالف.



(١) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٣٢١)، ومسلم فى الحيض (٢/ ٦٨/٢٦٢) عن عائشة به.

(٢) الروم: ٢٧. (٣) فصلت: ٣٩.

باب (٦٠)

ماجاء في المصورين

● **تمهيد:**

تقدم معنا في الباب التاسع عشر (ماجاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!) حديث عائشة عن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة بأرض الحبشة، وها فيها من الصور، فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله» قال المصنف: فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور، وفتنة التماثيل.اهـ. قدمنا هناك كلام شيخ الإسلام وابن رجب وابن حجر، وشراح التوحيد. فيما يختص بهذه التصاوير، وهنا في هذا الباب مزيد تفصيل عن التصاوير ماجاء فيها، فبالجمع بين الموضع السابق وهذا الباب تظاهر الفوائد، والله المستعان.

● **مناسبة هذا الباب لما قبله من أبواب:**

قال ناصر السعدي[1]: وهذا من فروع الباب السابق أنه لايحل أن يجعل لله ندا في النيات، والأقوال، والأفعال. والند المشابه ولو بوجه بعيد فاتخاذ الصور الحيوانية تشبه بخلق الله، وكذب على الخلقة الإلهية، وتمويه وتزوير، فلذلك زجر الشارع عنه أهـ.

قلت: ولأن المصور فيه نوع معانده للقدر الذى هو قدرة الرحمن على الخلق فلهذا ناسب أن يأتى به المصنف بعد باب إنكار القدر.

● **شرح الترجمة وماذا أراد المصنِّف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد:**

● **تنبيه:**

قلت: ولو قال المصنف باب ماجاء فى المصورين وقول الله تعالى ﴿ **هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ**﴾ لكان أظهر لعلاقة الباب بالتوحيد.

أو وقول الله تعالى ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ العلاقة الآية بالقدر، ولأن هذا تبويب البخارى كما سيأتى.

---

(١) القول السديد ١٣١: ١٣٢.

عَنْ أَبِي هُـرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَـالَ: قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ اللهُ تَعَـالَى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّـنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَـلْقِي؛ فَلْيَخْـلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُـقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْـلُقُوا شَعِيرَةً». أَخْرَجَاهُ[1].

قال حامد بن محمد بن حسن[2] باب ما جاء في بيان ما عند الله من الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمصورين الذين يضاهئون بخلق الله تصور الصور جثثا مجازية لاحقيقة لها أ.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[3]: **قوله: باب ما جاء في المصورين.**

أي: من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه. وقد ذكر النبي ﷺ العلة: وهي المضاهاة بخلق الله؛ لأن الله تعالي له الخلق والأمر، فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء، وهو الذي صور جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة، كما قال تعالي: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑧ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالي من إنسان وبهيمة صار مضاهياً لخلق الله. فصار ما صور عذاباً له يوم القيامة، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ. فكان أشد الناس عذاباً؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالي من الحيوان. فكيف بحال من سوي المخلوق برب العالمين، وشبهه بخلقه، وصرف له شيئاً من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لايستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه؟ فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكاً له فيما اختص به تعالي وتقدس؛ هو أعظم ذنب عُصِيَ الله تعالي به. ولهذا أرسل رسله، وأنزل كتبه، لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري في «اللباس» / باب نقض الصور (١٠/٣٩٨، ح٥٩٥٣) ومسلم في «اللباس والزينة»/ باب: تحريم تصور صورة الحيوان (٥/١٤/٩٣، ٩٤) وأحمد في «مسنده» (٢/٣٩١).
وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٦٨٦) «فتح المجيد» (ح٨٦٦) بتخريجنا).

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٤٥٨.

(٣) فتح المجيد ٥٣١ ـ ٥٣٢.

تعالي. فنجي الله تعــالي رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التـوحيد، واستمر علي الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾.

قال ابـن باز[1]: يريد المؤلـف من هذا الباب أن التصويـر من جملة الكبـائر التي تقدح في التوحيد وتعرض فاعله لغضب الله والنار وتنقص أيمانهم وتضعفه، والمصورون هم الذن يضاهئون بخلق الله في تصوير الحيوانات سواء باليد أو بأي آلة كان المصور من ذوي الأرواح.

قال ابن عثيمين[2]: ومناسبـة هذا الباب للتوحيـد: أن في التصوير خلـقاً وإبداعاً «يكون به المصور مشاركاً» لله في ذلك الخلق والإبداع.



قولـه: عن أبي هـريرة ـ رضى الله عنـه ـ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ قـال الله تعالـى: «ومن أظلم ممَّن ذهب يخلق كخلقى...» الحديث.

ولفظه في البخاري قال[3]: **حَدَّثَنَا** موسي حدَّثنا عبدُ الواحد حدَّثنا عُمارةُ حدَّثنا أبو زُرعة قال «دخـلـتُ مع أبي هـريرة داراً بالمديـنةِ، فرأى في أعـلاها مُصوراً يُـصوِّر قال: سمعتُ رسـولَ الله ﷺ يقول: **ومَن أظلمُ ممن ذهبَ يَـخْلُق كخلقي، فليَخـلُقوا حبَّة، وليخلقوا ذَرَّة**. ثمَّ دعا بتَـور من ماء فَغَسَل يـديه حتى بلغَ إبـطَه. **فقلتُ**: يا أبـا هريرة أشيء سمعتهُ من رسول الله ﷺ؟ قال: مُنتهي الحلية».

وبوب عليه باب نـقض الصور، وذكره في كتاب التو حـيد ولفظه[4] عن أبي زرعة سمع أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال «سمعت النبي ﷺ ـ يقول: **قال الله عزوجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذره أو ليخلقوا حبة أو شعيرة**».

وبوّب عليه باب قوله الله تعالي: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾.

(١) التعليق ٢٦٣.

(٢) القول المفيد ٣/٢٤٨.

(٣) ح ٥٩٥٣.

(٤) ح ٧٥٥٩.

● مناسبة الحديث للباب[1]:

قال القرعاوي: حيث دل علي تحريم التصوير. اهـ

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال محمد القرعاوي[2]: حيث حرم الحديث التصوير لأن فيه مشابهة لخلق الله وذلك شرك مع الله في ربوبيته. اهـ

قوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**».

قال ابن حجر[3]: هكذا في البخاري، وقد وقع نحو ذلك في حديث آخر لأبي هريرة وفيه حذف بينه ما وقع في رواية جرير المذكورة «أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالي: «**ومن أظلم**» إلخ، ونحوه في رواية ابن فضيل، وقوله «**ذهب**» أي قصد وقوله «**كخلقي**» التشبيه في فعل الصورة وحدها لا من كل الوجوه، قال ابن بطال : فهم أبو هريرة أن التصوير يتناول ما له ظل وما ليس له ظل، فلهذا أنكر ما ينقش في الحيطان. قلت ـ يعنى ـ ابن حجر ـ: هو ظاهر من عموم اللفظ، ويحتمل أن يقصر علي ماله ظل من جهة قوله «**كخلقي**» فإن خلقه الذى اخترعه ليس صورة في حائط بل هو خلق تام، لكن بقية الحديث تقتضي تعميم الزجر عن تصوير كل شيء وهي قوله «**فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة**» ويجاب عن ذلك بأن المراد إيجاد حبة علي الحقيقة لا تصويرها.

قال ابن عثيمين[4]: قوله: «ومن أظلم».

«**من**»: اسم استفهام والمراد به النفي: أي: لا أحد أظلم، وإذا جاء النفي بصيغة الاستفهام كان أبلغ من النفي المحض؛ لأنه يكون مشرباً معنى التحدي والتعجيز.

فإن قيل: كيف يجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالي: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ**﴾ وقوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾ وغير ذلك من النصوص؟

فالجواب من وجهين؟

الأول: أن المعني أنها مشتركة في الأظلمية، أي أنها في مستوي واحد في كونها في قمة الظلم.

(١ـ٢) الجديد ٤٤١.

(٣) الفتح ١٠ /٣٩٩.

(٤) القول المفيد ٣/٢٤٩ ـ ٢٥٠.

الثانية: أن الأَظْلَمِيّة نسبية، أي أنه لا أحد أظلم من هذا في نوع هذا العمل لا في كل شيء، فيقال مثلاً: من أظلم في مشابهة أحد في صنعه ممن ذهب يخلق كخلق الله، ومن أظلم في منع حق ممن منع مساجد الله، ومن أظلم في افتراء الكذب ممن افتري علي الله كذباً.

قوله: «يخلق».

حال من فاعل ذهب؛ أي: ممن ذهب خالقًا.

والخلق في اللغة: التقدير، قال الشاعر:

ولأَنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبعضُ الناسِ يَخْلُق ثُم لا يَفْرِي

تفري؛ أي: تفعل، ما خلقت؛ أي: ما قدرت.

ويطلق الخلق علي الفعل بعد التقدير، وهذا هو الغالب، والخلق بالنسبة للإنسان يكون بعد تأمل ونظر وتقدير، وأما بالنسبة للخالق؛ فإنه لا يحتاج إلي تأمل ونظر لكمال علمه، فالخلق بالنسبة للمصور يكون بمعني الصنع بعد النظر والتأمل.

قوله: «يخلق كخلقي».

فيه جواز إطلاق الخلق علي غير الله، وقد سبق الكلام علي هذا والجواب عنه في أول الكتاب اهـ.

قال ابن باز(١): **قوله: «يخلق كخلقي»** أي: يصور كتصويري. فإن كانت عندهم قوة، فليخلقوا ذرة يكون لها صفات الذرة من العقل والمشي وغيرها وهي مع صغرها فهي حيوان عجيب . أو ليخلقوا حبة لها صفات من الأنبات والنفع للناس فإن كانوا يعجزون في الجماد والنبات فكيف في الحيوان أ.هـ.

قوله: «فليخلقوا ذرة».

قال ابن حجر(٢): وهي بفتح المعجمة وتشديد الراء.. والمراد بالذرة النملة اهـ.

قلت: وبوب أبو داود فى «سننه»(**). باب فى قتل الذر، وذكر فيه حديث أبى هريرة مرفوعاً «إن نملة قرصت نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحقت فأوحى الله إليه: فى أن قرصتك نملة أهلكت أمه من الأمم تسبح»

---

(١) التعليق المفيد ٢٦٣. (٢) الفتح / ٣٩٩.

(**) [صحيح] سنن أبى داود (٥٢٦٦) وهوفى «صحيح البخارى»

قال ابن عثيمين[1]**: قوله: «فليخلقوا ذرة».** اللام للأمر، والمراد به التحدي والتعجيز، وهذا من باب التحدي في الأمور الكونية، وقوله تعالى: ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ**﴾ من باب التحدي في الأمور الشرعية.

والذَّرة: واحدة الذر، وهي النمل الصغار، وأما من قال: بأن الذرة هي ما تتكون منها القنبلة الذرية فقد أخطأ؛ لأن النبي ﷺ يخاطب الصحابة بلغة العرب وهم لايعرفون القنبلة الذرية، وذكر الله الذرة لأن فيها روحاً، وهي من أصغر الحيوانات أهـ.

قوله: «أو ليخلقوا حبَّة» أ.هـ.

قال ابن حجر[2]: المراد إيجاد حبة علي الحقيقة لا تصويرها. ووقع لابن الفضيل من الزيادة **«وليخلقوا شعره»**[*] والمراد بالحبة حبة القمح بقرينة ذكر الشعير، أو الحبة أعم.

قال ابن عثيمين[3]**: قوله: «أو ليخلقوا حبة».**

«أو» للتنويع؛ أي: انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلى خلق الحبة التي هي أصل الزرع من الشعير وغيره وليس لها روح أ.هـ.

قوله: «أوليخلقوا شعيرة».

قال ابن عثيمين[4]: قوله: **«أو ليخلقوا شعيره»** يحتمل أن المراد شجرة الشعير، فيكون في الأول ذكر التحدي بأصل الزرع وهي الحبة، ويحتمل أن المراد الحبة من الشعير ويكون هذا من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لأن حبة الشعير أخص من الحب.

أو تكون «أو» شكاً من الراوي.

فالله تَحدَّى الخلق إلى يوم القيامة أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا حبة أو شعيرة.

فإن قيل: يوجد رز أمريكي مصنوع.

أُجيب: إن هذا المصنوع لاينبت كالطبيعي، ولعل هذا هو السر في قوله: **«أو ليخلقوا حبة»**، ثم قال: **«أو ليخلقوا شعيرة»**؛ لأن الحبة إذا غرست في الأرض فلقها الله، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ**﴾، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ**﴾؛ أي: اجتمعوا لخلقه متعاونين عليه وقد هيؤوا

---

(١) القول المفيد ٣/ ٢٥٠.

(٢) الفتح / ٣٩٩.و ٤٠٠.

(*) هكذا نقلته من الفتح ولعلها شعيرة.

(٣) القول المفيد ٢٥٠و ٢٥١.

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٥١و ٢٥٢.

كل ما عندهم، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

قال العلماء: لو أن الذباب وقع علي هذه الأصنام فامتص شيئاً من طيبها ما استطاعوا أن يستنقذوه منه، فيكون الذباب غالباً لها، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾؛ أي: العابد والمعبود.

﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾؛ أي: الذباب أ.هـ.

قال ابن حجر[1]: والغرض تعجيزهم تارة بتكليفهم خلق حيوان وهو أشد وأخري بتكليفهم خلق جماد وهو أهون، ومع ذلك لاقدرة لهم علي ذلك أ.هـ.

قال ابن عثيمين[2]: ويستفاد من هذا الحديث، وهو ما ساقه المؤلف من أجله: تحريم التصوير؛ لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مضاهياً لله في صنعه، والتصوير له أحوال:

الحالة الأولي:

أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون: أي: ما له جسم علي هيكل إنسان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها؛ فهذا أجمع العلماء فيما أعلم علي تحريمه،

فإن قلت: إذا صور الإنسان لا مضاهاةً لخلق الله، ولكن صَوَّر عبثاً؛ يعني: صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئاً على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهي خلق الله، بل قصده العبث أو وضعه لصبي لِيُهَدِّئه به؛ فهل يدخل في الحديث؟

فالجواب: نعم، يدخل في الحديث؛ لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لايشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة، فمتي حصلت المضاهاة ثبت حكمها، ولهذا لو أن إنساناً لبس لبساً يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبه بهم؛ نقول: التشبه منك بهم حاصل أردته أم لم ترده، وكذلك لو أن أحدًا تَشَبَّه بامرأة في لباسها أو في شعرها أو ما أشبه ذلك وقال: ما أردت التشبه؛ قلنا له: قد حصل التشبه؛ قلنا له: قد حصل التشبه، سواء أردته أم لم ترده.

الحال الثانية:

أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط؛ فهذا مُحرَّم لعموم الحديث، ويدل عليه حديث النُّمْرُقَة حيث أقبل النبي ﷺ إلى بيته، فلما أراد أن يدخل رأى نمرقة

(١) الفتح ١٠ / ٣٩٩و ٤٠٠.

(٢) القول المفيد ٣/٢٥٢و٢٥٦.

فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعرفت الكراهة في وجهه، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما أذنبت يا رسول الله؟ فقال: «**إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»(١)؛ فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم، وقوله في «صحيح البخاري»: «**إلا رقماً في ثوب**»(٢)، إن صحت الرواية هذه؛ فالمراد بالاستثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها.

الحالة الثالثة:

أن تلتقط الصور التقاطاً بأشعة معينة بدون أي تعديل أو تحسين من الملتقط؛ فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

فالقول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك؛ فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويراً؛ إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة علي هذه الورقة، ونحن متفقون علي أن هذه صورة؛ فحركته تعتبر تصويراً، فيكون داخلاً في العموم.

القول الثاني: أنها ليست بتصوير؛ لأن التصوير فعل المُصَوِّر، وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله.

ويوضح ذلك لو أدخلت كتاباً في آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة؛ فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخص أمي لايعرف الكتابة إطلاقاً أو أعمى في ظلمة، وهذا القول أقرب؛ لأن المصور بهذه الطريقة لايعتبر مُبْدِعاً ولا مُخَطِّطاً، ولكن يبقى النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حراماً، وإذا كان لغرض مباح صار مباحاً، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلي هذا؛ فلو أن شخصاً صور إنساناً لما يسمونه للذكرى، سواء كانت هذه الذكري للتمتع بالنظر إليه أو التلذذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه؛ فإن ذلك محرم ولايجوز لما فيه من اقتناء الصور؛ لأنه لاشك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك.

وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعية والرخصة والجواز وما أشبهه؛ فهذه يكون مباحاً، فإذا ذهب الإنسان الذي يحتاج إلي رخصة إلي هذا المصور الذي تخرج منه الصورة فورية بدون عمل لا تحميض ولا غيره، وقال: صورني، فصوره؛ فإن هذا المصور

---

(١) [صحيح] أخرجه: مسلم في الباس (٧/٣٣٧/٩٦) عن عائشة به.

(٢) [متفق عليه] أخرجه: البخاري (٥٩٥٨) ومسلم في اللباس (٥٩٥٨)

لانقول: إنه دخل في الحديث؛ أي: حديث الوعيد على التصوير، أما إذا قال: صورني لغرض آخر غير مباح؛ صار من باب الإعانة علي الإثم والعدوان.

الحالة الرابعة:

أن يكون التصوير لما لا روح فيه، وهذا علي نوعين:

النوع الأول: أن يكون مما يصنعه الآدمي؛ فهذا لا بأس به بالاتفاق؛ لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة؛ مثل أن يصور الإنسان سيارته؛ فهذا يجوز؛ لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التي هي فرع من باب أولي.

النوع الثاني: ما لا يصنعه الآدمي وإنما يخلقه الله؛ فهذا نوعان: نوع نامي، ونوع غير نامي، فغير النامي؛ كالجبال، والأودية، والبحار، والأنهار؛ فهذه لابأس بتصويرها بالاتفاق، أما النوع الذي ينمو؛ فاختلف في ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم علي جواز تصويره لما سيأتي في الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلي منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله ـ عزوجل ـ، والحديث عام: **«ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»**؛ ولأن الله ـ عزو جل ـ تحدي هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة، والحبة أو الشعيرة ليس فيها روح، لكن لاشك أنها نامية، وعلي هذا؛ فيكون تصويرها حراماً، وقد ذهب إلى هذا مجاهد رحمه الله ـ أعلم التابعين بالتفسير ـ ، وقال: إنه يحرم علي الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم علي الجواز، وهذا الحديث هل يؤيد رأي الجمهور أو يؤيد رأي مجاهد ومَنْ قال بقوله؟

الجواب: يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله أمران:

أولاً: العموم في قوله: **«ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»**.

ثانياً: قوله: **«أوليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»** وهذه ليست ذات روح، فظاهر الحديث هذا مع مجاهد ومن يري رأيه، ولكن الجمهور أجابوا عنه بالأحاديث التالية، وهي قوله: **«أحيوا ما خلقتم»** وقوله: **«كلف أن ينفخ فيها الروح»** يدل علي أن المراد تصوير ما فيه روح، وأما قوله: **«أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»**، فذكر علي سبيل التحدي، أي: إن أولئك المصورين عاجزون حتي عن خلق مالا روح فيه.

قال الألباني(١): حذرنا ـ ﷺ ـ بن اتباع سنتهم ـ يعنى اليهود ـ فقال: «لا تركبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»(٢)، وإسناده جيد ما قال ابن تيمية

(١) آداب الزفاف (١٩١ـ ١٩٥).

(٢) رواه ابن بطة فى «جزء ابطال الحيل» ـ ص: ٢٤) ـ آداب الزفاف للألبانى)

وابن كثير، ولكن ذلك كله كما أغنى شيئاً بعض هؤلاء المتشبهين بهم، لهوى في نفوسهم، أعاذنا الله منه، وانظر «الغاية»[1].

وقريب من هذا تفريق بعضهم بين الرسم باليد، وبين التصوير الشمسى، بزعم أنه ليس من عمل الإنسان! وليس من عمله فيه إلا إمساك الظل فقط! كذا زعموا، أما ذلك الجهد الجبار الذى صرفه المخترع لهذه الآلة حتى استطاع أن يصور فى لحظة ما لا يستطيعه دونها فى ساعات، فليس من عمل الإنسان عند هؤلاء! وكذلك توجيه المصور للآلة وتسديدها نحو الهدف المراد تصويره، وقبيل ذلك تركيب ما يسمونه بالفلم، ثم بعد ذلك تحميضه، وغير ذلك مما لا أعرفه، فهذا أيضاً ليس من عمل الإنسان عند أولئك أيضاً! وقد تولى بيان كيف يتم التصوير الشمسى الأستاذ أبو الوفاء درويش فى رده على فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتى الديار السعودية[2] وخلاصته أنه لابد للمصور من أن يأتى بأحد عشر نوعاً من الأفعال حتى تخلق الصورة ومع هذا كله فالأستاذ المذكور العليم بهذه الأنواع يقول دون أى تردد:

«إن هذه الصورة ليست من عمل الإنسان»!!

وثمرة هذا التفريق عندهم أنه يجوز تعليق صورة رجل مثلاً فى البيت إذا كانت مصورة بالتصوير الشمسى، ولا يجوز ذلك إذا كانت مصورة باليد! ولو أن مصوراً صور هذه الصورة اليدوية بالآلة جاز تعليقها أيضاً عندهم، فهل رأيت أيها القارىء جموداً على ظواهر النصوص مثل هذا الجمود؟ أما أنا فلم أر له مثلاً إلا جمود بعض أهل الظاهر قديماً، مثل قول أحدهم فى حديث: «نهى رسول الله ﷺ عن البول فى الماء الراكد»[3]. قال:

فالمنهى عنه هو البول فى الماء مباشرة، أما لو بال فى إناءٍ ثم أراقه فى الماء، فهذا ليس منهياً عنه! يقول هذا مع أن تلويث الماء حاصل بالطريقين، ولكن جموده على النص منعه من فهم الغاية من النص.

وكذلك هؤلاء المبيحون للتصوير الشمسى؛ جمدوا على طريقة التصوير التى كانت معروفة فى عهد النهى عنه، ولم يلحقوا بها هذه الطريقة الجديدة من التصوير الشمسى، مع أنها تصوير لغة وشرعاً وأثراً وضرراً كما يتبين ذلك بالتأمل فى ثمرة التفريق المذكور آنفاً.

---

(١) (١١)　　　(٢) (ص ٤٣ ـ ٤٥)

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الطهارة (٢/ ١٩٠/ ٩٤) عن جابر به

لقد قلت لأحدهم منذ سنين: يلزمكم على هذا أن تبيحوا الأصنام التى لا تنحت نحتاً، وإنما بالضغط على الزر الكهربائى الموصول بآلة خاصة تصدر عشرات الأصنام فى دقائق كما هو معروف بالنسبة للعب الأطفال ونحوها من تماثيل الحيوانات، فما تقول فى هذا؟ فبهت.

ومن الغريب أن هؤلاء الظاهريين المحدثين فى غفلة من ظاهريتهم إلى درجة أن بعضهم وصفهم بقوله: «وأولئك هم الذين فهموا النص على حقيقته»! وقد آن للقارىء اللبيب أن يتبين من هم أولئك؟ فاعتبروا يا أولى الأبصار.

وقبل أن أنهى هذه الكلمة، لا يفوتنى أن ألفت النظر إلى أننا وإن كنا نذهب إلى تحريم التصوير بنوعيه جازمين بذلك، فإننا لا نرى مانعاً من تصوير ما فيه فائدة متحققة، دون أن يقترن بها ضرر ما، ولا تتيسر هذه الفائدة بطريقة أصله مباح، مثل التصوير الذى يحتاج إليه فى الطب، وفى الجغرافيا، وفى الاستعانة على اصطياد المجرمين، والتحذير منهم، ونحو ذلك؛ فإنه جائز، بل قد يكون بعضه واجباً فى بعض الأحيان، والدليل على ذلك حديثان:

الأول: عن عائشة أنها كانت تلعب بالبنات، فكان النبى ﷺ يأتى لى بصواحبى يلعبن معى(١).

وفى رواية عنها أنه كان لها بنات ـ تعنى اللعب ـ فكان إذا دخل النبى ﷺ استتر بثوبه منها. قال أبو عوانة: لكى لا تمتنع(٢).

وفى حديث آخر لها فى اتخاذها «فرساً له جناحان من رقاع». قال الحافظ:

«واستُدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللعُب من أجل لَعب البنات بهن، وخص ذلك من عموم النهى عن اتخاذ الصور، وبه جزم عياض، ونقله عن الجمهور، وأنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريبهن من صغرهن على أمر بيوتهن وأولادهن».

والثانى: عن الربيع بنت معوذ قالت:

أرسل النبى ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأمصار التى حول المدنية، من أصبح مفطرا

(١) أخرجه البخارى، ومسلم فى فضائل الصحابة (٨/ ٢١/ ٨١) عن عائشة به.

(٢) أخرجه ابن سعد (٨/ ٦٥) وسنده صحيح ـ آداب الزفاف للالباني.

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنـهـا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَومَ الْقِيامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ»(١).

بقية يومه، ومن أصبح صائماً فليصم، قالت: فكنا نصوم بعد، ونصوِّم صبياننا [الصغار منهم إن شاء الله ونذهب إلى المسجد]، ونجعل لهم اللعبة من العهن، [فنذهب به معنا]، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار، (وفي رواية: فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتموا صومهم)(٢).

والزيادات مع الرواية الأخرى له.

فقد دل هذان الحديثان على جواز التصوير واقتنائه إذا ترتبت من وراء ذلك مصلحة تربوية تعين على تهذيب النفس وتثقيفها وتعليمها، فيلحق بذلك كل ما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين من التصوير والصور، ويبقى ما سوى ذلك على الأصل - وهو التحريم - مثل صور المشايخ والعظماء والأصدقاء ونحوها، مما لا فائدة فيه، بل فيه التشبه بالكفار عبدة الأصنام. والله أعلم.



قوله: ولهما عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله - ﷺ - قال: أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»

قال الفقير: هذا الحديث رواه البخاري في ثلاثة مواضع

فذكره في كتاب المظالم في باب: هل تكسر الدِّنان التي فيها خمر، أو تُخرَّق الزِّقاق؟

ولفظه: عن عائشة رضي الله عنها «أنها كانت اتخذت علي سهوة لها ستراً فيه تماثيل فهتكه النبي ﷺ فاتخذت منه نُمرقتين. فكانتا في البيت يجلس عليهما».

وذكره في كتاب اللباس في باب ما وُطيء من التصاوير ولفظه **«أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»**. قالت: فجعلناه وسادة، أو وسادتين.

وذكره في نفس الباب بلفظ «قدم النبيُّ ﷺ من سفر وعلقت درنوكاً فيه تماثيل،

---

(١) [صحيح] أخرجه البخاري في اللباس/ باب: ما وطيء من التصاوير (١٠/ ٤٠٠/ ٥٩٥٤) ومسلم في «اللباس والزينة/ باب: تخريج تصوير صور الحيوان (٥/ ١٤/ ٨٨، ٨٩).

وانظر «رياض الصالحين» (ح١٦٨٢) «وفتح المجيد» (ح٨٦٧) بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١٩٦٠)، ومسلم فى الصيام (٤/ ٢٦٨/ ١٣٦) عن الربيع به

فأمرني أن أنزِعه، فنزعته.

وذكره في كتاب الأدب في باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله تعالي، ولفظه: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ وفي البيت قرام فيه صور، فتلّون وجهه، ثم تناول الستر فهتكه. وقالت: قال النبي ﷺ **من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يصوِّرون هذه الصور**.

وذكره مسلم بهذه الألفاظ وبغيرها في باب تحرم تصوير صور الحيوان من كتاب اللباس والزينة.

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال القرعاوي(١): حيث دل الحديث علي تحريم التصوير أ.هـ.

● **مناسبة الحديث للتوحيد:**

قال القرعاوي(٢): حيث حرم الحديث التصوير لأنه مشابهة لخلق الله وذلك شرك مع الله في ربوبيته أ.هـ.

● **شرح الحديث:**

قوله: «أشد».

قال ابن عثيمين(٣): كلمة أشد اسم تفضيل بمعنى أعظم وأقوى.

قوله: «الناس».

قال ابن عثيمين(٤): للعموم، والمراد الذين يعذبون.

قوله: «عذاباً».

قال ابن عثيمين(٥): تمييز مُبيِّن للمراد بالأشد؛ لأن التمييز كما قال ابن مالك:

اسمٌ بمعنى مِنْ مُبِينٌ نكرة ... يُنصَبُ تمييزاً بما قد فَسَّرَهْ

والعذاب يطلق علي العقاب ويطلق علي ما يؤلم ويؤذي وإن لم يكن عقاباً؛ فمن الأول قوله تعالي: ﴿**أُدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾؛ أي: العقوبة والنكال؛ لأنه يدخل النار والعياذ بالله؛ كما قال الله تعالي: ﴿**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ**﴾،

(١ ـ ٢) الجديد ٤٤٢.

(٣) القول المفيد ٣/ ٢٥٦.

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٥٦

(٥) القول المفيد ٣/ ٢٥٧.

ومن الثانــي قول النبي عليه الـصلاة والسلام: «**السفر قطـعة من العذاب**»(١)، وقوله: «**الميت يعذب بالنياحة عليه**»(٢).

قوله: «يوم القيامة».

هو اليوم الذي يبعث فيه الناس، وسبق وجه تسميته بذلك.

وقوله: «**أشد**» مبتدأ، و «**الذين يضاهئون**» خبره، ومعنى يضاهئون؛ أي: يشابهون.

قال ابن حجر: أي يشبهون ما يصنعون بما يصنعه الله(٣).

● إشكال وجوابه:

قال ابن حجر (٤): وقد استشكـل كون المصور أشد الناس عذاباً مع قـوله تعالي: ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ فإنـه يقتضـي أن يكون المـصور أشد عذابـا من آل فرعون.

وأجاب الطبري: بأن المراد هـنا من يصـور ما يعبـد من دون الله وهو عارف بـذلك قاصداً له فإنه يكفر بذلك، فلا يبعـد أن يدخل مدخل آل فرعون وأما من لايقصد ذلك فإنه يكون عاصياً بـتصويره فقط. وأجاب غيره بأن الرواية بإثبات «مـن» ثابتة وبحذفها محمولة عليها، وإذا كان من يفعل التصوير من أشد الناس عذاباً كان مشتركاً مع غيره، وليس في الآية ما يقتضي اختصاص آل فـرعون بأشد العذاب بل هم في العذاب الأشد، فكذلك غيرهم يجوز أن يكون في الـعذاب الأشد، وقوي الطحاوي ذلك بما أخرجه من وجه آخر عن ابن مـسعود رفعه «**إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبـياً أو قتله نبي، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين**»(٥) وكذا أخرجه أحمد. وقد رفع بعض هذه الزيادة في رواية ابن أبي عمر التي أشرت إليها فاقتصر علي المصور وعلي من قتله نبي، وأخرج الطحاوي أيضاً من حديث عائشة مرفوعاً «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل هجا رجلا فهجا القبيلة بأسرها**» قال الطحاوي: ما حاصله: أن الوعيد بهذه الصيغة إن ورد في حق

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (١٨٠٤)، ومسلم فى الإمارة (١٣/ ٧٠ ـ النووى) عن أبى هريرة به وانظر «رياض الصالحين» (٩٨٦ ـ بتخريجنا).

(٢) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (١٢٩٢)، ومسلم فى الجنائز (٦/ ٢٢٩ ـ النووى) عن عمر به.

(٣) الفتح ١٠/ ٤١.

(٤) الفتح ١٠/ ٣٩٦و ٣٩٧.

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٤٠٧)

كافر فلا إشكال فيه لأنه يكون مشتركاً في ذلك مع آل فرعون ويكون فيه دلالة علي عظيم كفر المذكور، وإن ورد في حق عاص فيكون أشد عذابا من غيره من العصاة ويكون ذلك دالاً علي عظم المعصية المذكورة. وأجاب القرطبي في «المفهم» بأن الناس الذين أضيف إليهم «أشد» لايراد بهم كل الناس بل بعضهم وهم من يشارك في المعني المتوعد عليه بالعذاب، ففرعون أشد الناس الذين ادعوا الإلهية عذاباً، ومن يقتدي به في ضلالة كفره أشد عذاباً ممن يقتدي به في ضلالة فسقه، ومن صور صورة ذات روح للعبادة أشد عذاباً ممن يصورها لا للعبادة. واستشكل بالناس من ينسب إلي آدم، وأما في ابن آدم فأجيب بأن الثابت في حقه أن عليه مثل أوزار من يقتل ظلماً، ولايمتنع أن يشاركه في مثل تعذيبه من ابتدأ الزنا مثلاً فإن عليه مثل أوزار من يزني بعده لأنه أول من سن ذلك، ولعل عدد الزناة أكثر من القاتلين.

قال ابن عثيمين : قوله: **«أشد الناس عذاباً»**.

فيه إشكال؛ لأن فيهم من هو أشد من المصورين ذنباً؛ كالمشركين والكفار، فيلزم أن يكونوا أشد عذاباً، وقد أجيب عن ذلك بوجوه:

الأول: أن الحديث على تقدير «منْ»؛ أي: من أشد الناس عذاباً بدليل أنه قد جاء ما يؤيده بلفظ: **«إن من أشد الناس عذاباً»**.

الثاني: أن الأَشَدِّيَة لا تعني أن غيرهم لا يشاركهم، بل يشاركهم غيرهم، قال تعالى: **﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾**، ولكن يشكل على هذا أن المصور فاعل كبيرة فقط؛ فكيف يُسَوَّى مع من هو خارج عن الإسلام ومستكبر؟!

الثالث: أن الأَشَدِّية نسبية، يعني أن الذين يصنعون الأشياء ويبدعونها أشدهم عذاباً الذين يضاهئون بخلق الله، وهذا أقرب.

الرابع: أن هذا من باب الوعيد الذي يطلق لتنفير النفوس عنه، ولم أر من قال بهذا، ولو قيل بهذا؛ لسلمنا من هذه الإيرادات، وعلى كل حال ليس لنا أن نقول إلا كما قال النبي ﷺ: **«أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله» أ.هـ**.

قوله: «الذين يضاهئون بخلق الله».

قال ابن حجر[1]: **قال النووى قال العلماء**: تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد، وسواء صنعه لما يمتهن أم

(١) الفتح ١٠/٣٩٧ و ٣٩٨.

لغيره فصنعه حرام بكل حال، وسواء كان في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها، فأما تصوير ما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام.

قلت: - يعني ابن حجر - ويؤيد التعميم فيما له ظل وفيما لا ظل له ما أخرجه أحمد من حديث علي «أن النبي ﷺ قال: **«أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثناً إلا كسره ولا صورة إلا لطخها أي طمسها»** الحديث؛ وفيه **«من عاد إلى صنعة شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد»**(1)

وقال الخطابي: إنما عظمت عقوبة المصور لأن الصور كانت تعبد من دون الله، ولأن النظر إليها يفتن، وبعض النفوس إليها تميل.

قال: والمراد بالصور هنا التماثيل التي لها روح وقيل يفرق بين العذاب والعقاب، فالعذاب يطلق على ما يؤلم من قول أو فعل كالعتب والإنكار، والعقاب يختص بالفعل فلا يلزم من كون المصور أشد الناس عذاباً أن يكون أشد الناس عقوبة. هكذا ذكره الشريف المرتضى في «الغرر» وتعقب بالآية المشار إليها وعليها انبنى الإشكال، ولم يكن هو عرج عليها، فلهذا ارتضى التفرقة، والله أعلم.

واستدل به أبو علي الفارسي في «التذكرة» على تكفير المشبهة فحمل الحديث عليهم وأنهم المراد بقوله المصورون أي الذين يعتقدون أن لله صورة، وتعقب بالحديث الذي بعده في الباب بلفظ **«إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون»** وبحديث عائشة بلفظ **«إن أصحاب هذه الصور يعذبون»** وغير ذلك، ولو سلم له استدلاله لم يرد عليه الإشكال المقدم ذكره. وخص بعضهم الوعيد الشديد بمن صور قاصداً أن يضاهي، فإنه يصير بذلك القصد كافراً.

وعند البخاري بلفظ **(اشد الناس عذاباً الذين يضاهون بخلق الله تعالى» وأما من عداه** فيحرم عليه ويأثم لكن إثمه دون إثم المضاهي.

قلت - يعني ابن حجر -: وأشد منه من يصور ما يعبد من دون الله كما تقدم وذكر القرطبي أن أهل الجاهلية كانوا يعملون الأصنام من كل شيء حتى إن بعضهم عمل صنمه من عجوة ثم جاع فأكله. اهـ

قال ابن عثيمين(2): **«بخلق الله»**؛ أي: بمخلوقات الله - سبحانه وتعالى.

والذين يضاهئون بخلق الله هم المصورون؛ فهم يضاهئون بخلق الله سواء كانت هذه المضاهاة جسمية أو وصفية؛ فالجسمية أن يصنع صورة بجسمها، والوصفية أن يصنع

(1) القول المفيد ١٠/٢٥٧و ٢٥٩

(2) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٨٧، ١١٠) عن علي به

صورة ملونــة؛ لأن التلوين والتخـطيط باليد وصــف للخلق، وإن كان الإنسـان ما خلق الورقة ولا صنعها لكن وضع فيها هذا التلوين الذي يكون وصفاً لخلق الله ـ عزوجل ـ.

هذا الحديث يدل علـي أن المصورين يعذبون، وأنهم أشد النـاس عذاباً، وأن الحكمة من ذلك مضاهاتهم خلق الله ـ وليست الحكمة كما يدعيه كثير من الناس أنهم يصنعونها لتُعبد من دون الله؛ فذلك شيء آخر، فمن صنع شيئاً ليعبد من دون الله؛ فإنه حتي ولو لم يصور كـما لو أتي بخشبـة وقال: اعبدوها؛ فقد دخـل في التحريم؛ لقولـه تعالي: ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾؛ لأنه أعان علي الإثم والعدوان. وقوله: «يضاهئون» .

هل الفعل يشعر بالنية بمعني أنه لابد أن يقصد المضاهاة، أو نقول: المضاهاة حاصلة سواء كانت بنية أو بغير نية؟

الجواب: الثاني؛ لأن المضاهاة حصلت سواء نوي أم لم ينو؛ لأن العلة هي المُشَابَهَة، وليست العلة قصد المشابهة، فـلو جاء رجل وقال: أنا لا أريد أن أضاهي خلق الله، أنا أصور هذا للذكري مثـلاً وما أشبه ذلك؛ نقول: هذا حرام؛ لأنه متى حـصلت المشابهة ثبت الحكم؛ لأن الحكـم يدور مع علته كما قلنـا فيمن لبس لباساً خاصـاً بالكفار: إنه يحرم عليه هذا اللـباس، ولو قال: إنه لم يقصد المشابهة؛ نقول: لـكن حصل التشبه؛ فالحكم المُقْرُون بعلة لا يشترط فيه القصد، فمتى وجدت العلة ثبت الحكم. اهـ

قال ابن عثيمين[1]:

فيستفاد من الحديث:

١- تحريم التصوير، وأنه مــن الكبائر؛ لثبوت الوعيد عليـه، وأن الحكمة من تحريمه المضاهاة بخلق الله- عز وجل.

٢- وجوب احترام جانب الربوبية، وأن لا يطـمع أحد في أن يخلق كخلق الله- عز وجل-؛ لقوله: «يضاهئون بـخلق الله»، ومن أجل هـذا حرم الكبـر؛ لأن فيه منـازعة للرب- عز وجل-، وحرم التعاظم على الخلق؛ لأن فيه منازعة للرب- سبحانه وتعالى ـ ، وكذلك هذا الذي يـصنع ما يصنع فيـضاهي خلق الله فيه منـازعة لله- عز وجل- في ربوبيته في أفعاله ومخلوقاته ومصنوعـاته؛ فيستفاد من هذا الحديث وجوب احترام جانب الربوبية. اهـ



(١) القول المفيد ٣/ ٢٥٩ و ٢٦٠.

وَلَهُمَا عَنْ ابنِ عَبَّاسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّم»[1].

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعاً: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنيا؟ كلفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيس بِنَافِخٍ»[2].

قوله: ولهما عن ابن عباس سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: كل مُصَوِّرٍ فى النار يُجعلُ له بَحلْ صورة صوّرها نفس يُعذّبُ بها فى جهنمٍ».

قال ابن عثيمين: الحديث فى مسلم وليس فى الصحيحين.

قلت: وأخرجه مسلم فى كتاب اللباس والزينة فى باب تحريم تصوير صورة الحيوان بلفظ «جاء رجل إلى ابن عباس. فقال: إنى رجلٌ أصوِّرُ هذه الصُوَرَ. فأفتنى فيها فقال له: ادنُ مِنِّيَ. فدنا منه. ثمَّ قال: ادن منِّى فدنا. حتى وَضَعَ يَدَهُ على رأسه. قال: أُنَبِّئُكَ بماسمعت من رسول الله- ﷺ- سمعت رسول الله ﷺ- يقول: «**كل مصور فى النار: يجعلُ له، بكلِّ صورة صورّها، نفساً فَتُعَذِّبُهُ فى جهنَّم**». وقال: «إن كنت لا بد فاعلاً، فاصنع الشجر وما لأنفس له.

وهذا اللفظ الذى اختاره المصنِّف مختصراً.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى[3]: حيث دل الحديث على تحريم التصوير لذوات الأرواحأ.هـ.

---

(١)[**متفق عليه**] أخرجه البخارى فى «البيوع»/ باب: بيع التصاوير (٤/ ٤٨٥/ ح ٢٢٢٥) ومسلم فى «اللباس والزينة»/ باب: تحريم تصوير صورة الحيوان (٥/ ١٤/ح ٩٣) وأحمد فى «مسنده» (١/ ٣٠٨).

جميعاً من طريق: سعيد قال: سمعت النضر بن أنس بن مالك يحدث عن قتادة قال: كنت عند ابن عباس.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٦٨٣) «وفتح المجيد» (ح٨٦٩) بتخريجنا.

(٢) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى فى اللباس/ باب من لعن المصور (١٠/ ٤٠٧/ ٥٩٦٣) ومسلم فى «اللباس والزينة/ باب: تخريج تصوير صور الحيوان (٥/ ١٤/ ٩٣- النووى) والترمذى فى «اللباس»/ باب: ما جاء فى المصورين (٤/ ٢٣١/ ح ١٧٥١) والنسائى فى «الزينة»/ باب: التصاوير (٥/ ٥٠٢/ ٩٧٨٣) والبيهقى (٧/ ٤٣٩/ ح١٤٥٧٢).

ومطولا من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

وانظر «رياض الصالحين. (ح ١٦٨٤) «وفتح المجيد» (ح ٨٦٩) بتخريجنا.

(٣) الجديد ٤٤٤ . .

● **مناسبة الحديث للتوحيد:-**

قال القرعاوى[1]: حيث حرم الحديث التصويـر لأن ذلك مشابهة لخلق الله وذلك شرك مع الله فى ربوبيته أ.هـ.

قوله: «كل مصور في النار».

قال ابن عثيمين[2]:

«كل»: من أعظم ألفاظ العموم، وأصلها من الإِكـليل، وهو ما يحيط بالشيء، ومنه الكلالة في الميراث للحواشي التي تحيط بالإِنسان.

فيشمل مـن صَوَّر الإِنسان أو الحيوان أو الأشجار أو البحـار، لكن قوله: **«يجعل له بكل صورة صورهـا نفساً»** يدل عـلى أن المراد صورة ذوات الـنفوس؛ أي: ما فـيه روح أهـ.

قوله: «يجعل له بكلٍّ صورة صوّرها نفس»

قال النووى[3]: (يجعل لـه) فهو بفتح الياء مـن (يجعل) والفاعل هـو الله تعالي، أضمر للعـلم به. قال القاضى: في رواية ابـن عباس تحتمل أن معناهـا أن الصورة التى صورها هى تعذبه بـعد أن يجعل فيها الروح ، وتكون الباء فى بـكل بمعنى (فى) قال: ويحتمل أن يـجعل له بعدد كل صورة ومكانـها شخص يعذبه، وتكون الـباء بمعنى لام السبب .اهـ.

قال ابن عثيمين[4]: «**يجعل**» بالبناء للـفاعل، وعلى هذا تكون «نفسـاً» بالنصب، وتمامه: فتعذبه في جهنم.

قوله: «يعذب بها».

كيفية التعذيـب ستأتي في الحديث الذي بعده أنه يكلف أن ينـفخ فيها الروح وليس بنافخ.

وقوله: «كل مصور في النار».

---

(١) الجديد ٤٤٤

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٦٠ و ٢٦١.

(٣) شرح مسلم (٧/ ٢٤٥ـ دار الحديث)

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٦١ و ٢٦٢.

أي: كائن في النار

وهذه الكينونة عند المعتزلة والخوارج كينونة خلود؛ لأن فاعل الكبيرة عندهم مخلد في النار، وعند المرجئة أن المراد بالمصور الكافر؛ لأن المؤمن عندهم لا يدخل النار أبداً، وعند أهل السنة والجماعة أنه مستحق لدخول النار وقد يدخلها وقد لا يدخلها، وإن دخلها لم يخلد فيها اهـ.

قلت: وسيأتى كلام ابن حجر فى هذه المسألة فى شرح الحديث الآتى بعده



قوله: ولهما عنه مرفوعاً: «من صور صورة فى الدنيا؟ كلف أن ينفخ فيها الروح وليس نافخ».

قلت: هذا الحديث ذكره البخارى فى ثلاثة مواضع، أذكر منها اثنين فقط لأنّ الثالث فى كتاب التعبير وليس له علاقة بهذا الباب بل ذكره هناك من أجل أمر آخر متصل بالأحلام.

فذكره فى كتاب اللباس فى باب من لعن المصوِّر قال حدثنا عياش بن الوليد حدثنا عبد الأعلى حدثنا سعيد قال سمعت النضر بن أنس بن مالك يحدث قتاده قال: كنت عند ابن عبّاس وهم يسألونه ولا يذكر النبىَّ ﷺ حتى سُئل فقال: سمعتُ محمداً ﷺ- يقول: **«من صوّر صورةً فى الدنيا كُلِف يوم القيامة أن يُنفُخُ فيها الروح، وليس بنافخ»**.

وذكره فى كتاب البيوع فى باب بَيْع التصاوير التى ليس فيها روح، وما يكره من ذلك وأسند عن ابن أبى الحسن قال «كنت عند ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إذا أتاه رجلٌ فقال: يا أبن عبّاس إننى إنسان إنما معيشتى من صنعة يدى، وإنى أصنعُ هذه التصاوير. فقال ابن عبّاس: لا أحدِّثُك إلا ما سمعتُ من رسول الله ـ ﷺ ـ سمعته يقول: من صَوَّر صُورَةً فإنَّ الله مُعَذِّبُهُ حتى يَنفُخَ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبداً. فَرَبَا الرَّجُلُ رَبْوَةً شديدةً واصفر وجْهُهُ. فقال: ويحك إن أبيت إلا أن تصنَع فعليك بهذا الشَّجَرِ كُلِّ شىء ليس فيه روح».

قوله: «من صور صورة فى الدنيا»

قال ابن حجر[1]: قوله (من صور صورة فى الدنيا) كذا أطلق وظاهره التعميم فيتناول صورة مالا روح فيه، لكن الذى فهم ابن عباس من بقية الحديث التخصيص بصورة ذوات الأرواح من قوله «كلف أن ينفخ فيها الروح» فاستثنى مالا روح فيه كالشجر.

قوله: «كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ».

قال ابن حجر[2]: قوله (كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ) فى رواية سعد بن أبى الحسن **«فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً»** واستعمال «حتى» هنا نظير استعمالها فى قوله تعالى **﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾** وكذا قولهم: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب،

قال الكرمانى: ظاهره أنه من تكليف مالا يطاق، وليس كذلك وإنما القصد طول تعذيبه وإظهار عجزه عما كان تعاطاه ومبالغة فى توبيخه وبيان قبح فعله.

قال ابن عثيمين: قوله (كلف) أى ألزم، والمكلف له هو الله عزوجل أهـ.

وقوله «ليس بنافخ»

أى لا يمكنه ذلك فيكون معذباً دائماً، وعند البخارى فى «باب عذاب المصورين» من حديث ابن عمر أنه يقال للمصورين أحيوا ما خلقتم وأنه أمر تعجيز.

● إشكال وجوابه:

قال ابن حجر: وقد استشكل هذا الوعيد فى حق المسلم، فإن وعيد القاتل عمداً ينقطع عند أهل السنة مع ورود تخليده بحمل التخليد على مدة مديدة، وهذا الوعيد أشد منه لأنه مغيا بما لا يمكن وهو نفخ الروح، فلا يصح أن يحمل على أن المراد أنه يعذب زماناً طويلا ثم يتخلص والجواب أنه يتعين تأويل الحديث على أن المراد به الزجر الشديد بالوعيد بعقاب الكافر ليكون أبلغ فى الارتداع وظاهره غير مراد، وهذا فى حق العاصى بذلك، وأما من فعله مستحلا فلا إشكال فيه.

قال ابن عثيمين: قوله (وليس بنافخ) أى: كلف بأمر لايتمكن منه زيادة فى تعذيبه، عذاب بهذا العذاب ليذوق جزاء ما عمل، وبهذا تزداد حسرته وأسفه، حيث إنه عذب بما كان فى الدنيا يراه راحة له، إما باكتساب أو بإرضاء صاحب أو إبداع صنعة. اهـ.

---

(1) الفتح ١٠/ ٤٠٨.

(2) الفتح ٤٠٨/١٠ و ٤٠٩.

● فوائد أخرى من الحديث:

قال ابن حجر: واستدل به على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى للحوق الوعيد بمن تشبه بالخالق، فدل على أن غير الله ليس بخالق حقيقة. وقد أجاب بعضهم - أي عن الإشكال السابق - بأن الوعيد وقع على خلق الجواهر، ورد بأن الوعيد لاحق باعتبار الشكل والهيئة، وليس ذلك بجوهر، وأما استثناء غير ذي الروح فورد مورد الرخصة كما قررته.

[٢] - وفي قوله «**كلف يوم القيامة**» رد على من زعم أن الآخرة ليست بدار تكليف، وأجيب بأن المراد بالنفي أنها ليست بدار تكليف بعمل يترتب عليه ثواب أو عقاب، وأما مثل هذا التكليف فليس بممتنع لأنه نفسه عذاب، وهو نظير الحديث الآخر «**من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها نفسه يوم القيامة**»[١] وأيضاً فالتكليف بالعمل في الدنيا حسن على مصطلح أهل علم الكلام، بخلاف هذا التكليف الذي هو عذاب.

[٣]- واستدل به على جواز التكليف بما لا يطاق، والجواب ما تقدم. وأيضا فنفخ الروح في الجماد قد ورد معجزة للنبي ﷺ، فهو يمكن وإن كان في وقوعه خرق عادة. والحق أنه خطاب تعجيز لا تكليف كما تقدم، والله أعلم.

[٤] - وفي زيادة سعيد بن أبي الحسن في روايته أن ابن عباس قال للرجل «ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر» الحديث، مع ضبط لفظه وإعرابه. واستدل به على جواز تصوير ما لا روح له من شجر أو شمس أو قمر، ونقل **الشيخ أبو محمد الجويني** وجها بالمنع لأن من الكفار من عبدها. **قلت - يعني ابن حجر -**: ولا يلزم من تعذيب من يصور ما فيه روح بما ذكر تجويز تصوير مالا روح فيه فإن عموم قوله «**الذين يضاهون بخلق الله**» وقوله: «**ومن أظلم من ذهب يخلق كخلقي**» يتناول ما فيه روح وما لا روح فيه، فإن خص ما فيه روح بالمعنى من جهة أنه مما لم تجر عادة الآدميين بصنعته وجرت عادتهم بغرس الأشجار مثلا امتنع ذلك في مثل تصوير الشمس والقمر، ويتأكد المنع بما عبد من دون الله فإنه يضاهي صورة الأصنام التي هي الأصل في منع التصوير،

وقد قيد مجاهد صاحب ابن عباس جواز تصوير الشجر بما لا يثمر وأما ما يثمر فألحقه بما له روح، قال عياض: لم يقله أحد غير مجاهد، **ورده الطحاوي** بأن الصورة لما أبيحت بعد قطع رأسها التي لو قطعت من ذي الروح لما عاش دل ذلك على إباحة مالا

(١)[**متفق عليه**] أخرجه البخاري (٢٠٤٣)، ومسلم في الإيمان (١/ ٣٩٥/ ١٧٥) عن أبي هريرة به.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ؛ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ لا تَدَعَ صُورَةً إِلاَّ طَمَسْتَهَا، وَلاَ قَبْراً مُشْرِفًا؛ إِلا سَوَّيْتَهُ».

وفي رواية: وَلاَ صُورَةً إلا طمستَهَا[1].

قلت ـ ابن حجر ـ: وقضيته أن تجويز تصوير ماله روح بجميع أعضائه إلا الرأس فيه نظر لا يخفى، وأظن مجاهدا سمع حديث أبى هريرة الماضى ففيه «فليخلقوا ذرة، وليخلقوا شعيرة» فإن فى ذكر الذرة إشارة إلى ماله روح وفى ذكر الشعيرة إشارة إلى ما ينبت مما يؤكد، وأما ما لا روح فيه ولا يثمر فلا تقع الإشارة إليه. ويقابل هذا التشديد ما حكاه أبو محمد الجوينى أن نسج الصورة فى الثوب لا يمتنع، لأنه قد يلبس، وطرده المتولى فى التصوير على الأرض ونحوها، وصحح النووى تحريم جميع ذلك قال النووى: ويستثنى من جواز تصوير ماله ظل ومن اتخاذه لعب البنات لما ورد من الرخصة فى ذلك. اهـ.

وقوله: «بكل صورة صورها».

يقتضي أنه لو صور في اليوم عشر صور ولو من نسخة واحدة؛ فإنه يجعل له في النار عشر صور يقال له: انفخ فيها الروح، وظاهر الحديث أنه يَبْقى في النار مُعَذَّباً حتى تنتهي هذه الصور.



قلت: هذا الحديث أخرجه مسلم وأبو داود فى كتاب الجنائز فى باب الأمر بتسوية القبر.

- **مناسبة الحديث للباب.**

قال القرعاوى[2] حيث دل الحديث على تحريم التصوير واتخاذ الصور. اهـ.

- **مناسبة الحديث للتوحيد**

قال القرعاوى[3] حيث حرم الحديث التصوير لأنه مشابهة لخلق الله وذلك شرك مع الله فى ربوبيته. اهـ.

---

(١)[صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز/ باب الأمر تسوية القبر (٤/ ٤١/ ح ٩٣). وأبو داود فى «الجنائز/ باب فى تسوية القبر (٣/ ٢١٢/ ح ٣٢١٨) من حديث أبى هياج الأسدى.«وفتح المجيد» (ح ٨٧٠) بتخريجنا

(٢-٣) الجديد ٤٤٨.

● شرح الحديث

قوله: «عن أبى الهياج»

قال النووى:[(١)]- قوله: [عن أبى الهياج] هو بفتح الهاء وتشديد الياء واسمه حيان ابن حصين.

قوله:- «قال: قال لى على»: هو أمير المؤمنين علـى بن أبى طالب - رضى الله عنه. وقد تقدمت ترجمته.

قوله:- «ألا أَبعَثُكَ على ما بعثنى عليه رسول الله ـ ﷺ»

قال عبدالرحمن آل الشيخ[(٢)]:- فيـه تصـريح بـأنَّ النبـيَّ ـ ﷺ بعـث علـياً لذلك. اهـ.

قال ابن عثيمين[(٣)]:

قال: «ألا أبعثك».

البعث: الإرسال بأمر مهم؛ كـالدعوة إلى الله، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾**.

قوله: «على ما بعثني».

يحتمل أن تكون «عـلى» على ظاهرها للاستعلاء؛ لأن المبعوث يمـشي على ما بُعث عليه، كأنه طريـق له، وهذا هو الأَوْلَى؛ لأن ما وافق ظاهر اللفظ مـن المعاني فهو أولى بالاعتبار، ويحتمل أن «على» بمعنى الباء؛ أي: بما بعثني عليه.

قد بعث النبي ﷺ علياً إلى اليمن بعد قـسمة غنائم حنين، وقدم على النبي ﷺ وهو في مكة فى حجة الوداع.

قوله: «أن لاتدع»

قال ابن عثيمين[(٤)]: قوله: [أن لا تدع]

قوله: «أن لا تدع».

«أن»: مصدرية، «لا»: نافية، «تدع»: منصوب بأن المصدرية وهي بدل بعض من كل

(١) النووى شرح مسلم ٤/ ٤٢.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٣٢.
(٣) القول المفيد ٣/ ٢٦٣.
(٤) القول المفيد ٣/ ٢٦٣.

من «ما» في قوله: «**على ما بعثني**»؛ لأن النبي ﷺ بعث علي بـن أبي طالب بأكثر من ذلك، لكن هذا مما بعثه النبي ﷺ.

قوله «صورة»

قال سليمان آل الشيخ[1]: أما الصور: فلمضاهاتها لخلق الله وأما تسوية القبور: فلما في تعليتـها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو مـن ذرائع الشرك ووسائله، فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومـقاصده وواجباته، ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور، وعـظمت الفتنـة بأرباب القبور، وصـارت محطًا لرجال الـعابدين المعظمين لها، فصرفوا لها جل العبادة، من الدعاء والاستعانة والاستغاثة، والتضرع لها، والذبح لها، والنذور، وغير ذلك من كل شرك محظور.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: ومن جمع بين سنة رسـول الله ﷺ في القبور وما أمر به، ونـهى عنه ، وما كـان عليه أصحـابه، وبين ما علـيه أكثر النـاس اليوم، رأى أحدهما مضادًا للآخر، مناقضًا له بحيث لا يجتمعان أبدًا، فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلون عندها وإلـيها، ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عـليها المساجـد ويسمونها مـشاهد، مضاهاة لـبيوت الله، ونهى عن إيـقاد السرج عليهـا، وهؤلاء يوقفون الوقوف علـى إيقاد القناديل عـليها، ونهى عن أن تـتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيـادًا ، ومناسك، ويتجمعون لها كاجتماعهـم للعيد أو أكثر. وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهياج الأسدي ـ فذكر حديث الباب ـ وحديث ثمامة بن شفي.

وهو عند مـسلم أيضاً قال: «كـنا مع فضالة بـن عبيد بأرض الروم بـرودس، **فتوفي** صاحـب لنـا، فأمر فـضالـة بقبـره فسـوي، ثم قال: سـمعـت رسول الله ﷺ **يأمر بتسويتها**»[2] وهولاء يبالغون في مخالفة هذين الحـديثين، يرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب. ونهي عن تجصيص القبر والبناء عليه.

كما روى مسلم في «صحيـحه» عن جابرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: «**نَهي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ القَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْه، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ**»[3] **ونهى عن الكتابة عليها**.

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٣٢ ـ ٥٣٨.

(٢) [صحيح]أخرجه مسلم في الجنائز (٤/ ٤١/ ٩٢) عن ثمامة بن شفي به.

وانظر «فتح المجيد»(ح٨٧٦)

(٣) تقدم تخريجه.

كما روى أبو داود في «سننه» عن جابر أن رسول الله ﷺ **«نَهَى عن تجصيص القبور، وأن يكتب عليها»**[1] قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها.

كما روى أبو داود عن جابر أيضاً: أن رسول الله ﷺ **«نهى عن أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه»**[2] وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار. قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجر على قبورهم.

والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور، المتخذيها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ، محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها وهو من الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام. قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر.

ولأن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**[3] يحذر ما صنعوا متفق عليه. ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها. انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً، ووضعوا لها مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً سماه: «مناسك حج المشاهد»، مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه.

● المفاسد المترتبة على اتخاذ المساجد على القبور (*):

قال سليمان آل الشيخ: ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره.

فمنها: تعظيم الموقع في الافتتان بها.

---

(١) تقدم تخريجه (٢) تقدم تخريجه (٣) تقدم تخريجه.

(*) وقد تقدم شيء من ذلك في باب ماجاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح.

ومنها: اتخاذها أعياداً.

ومنها: السفر إليها.

ومنها: مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها، وتعليق الستور عليها، وعبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لِقَيِّمِهَا ليلة يطفىء القنديل المعلق عليها.

ومنها: النذر لها ولسدنتها.

ومنها: اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء، وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك.

ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله، باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها.

ومنها: الشرك الأكبر الذي يفعل عندها.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى عند قبره، وكذلك غيره من الأنبياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرأون منهم، كما قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾**. قال الله تعالى للمشركين: **﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾**

وقال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾** الآية.

وقال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾**.

ومنها: إماتة السنن وإحياء البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله. فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام، والخشوع ورقة القلب، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له؛ فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت، فقلب هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزل البركة منه، ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت.

وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور(١) سداً للذريعة. فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زياتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هجراً، ومن أعظم الهجر: الشرك عندها قولاً وفعلاً.

وفي «صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**فَزُورُوا الْقُبُورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مَرَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِقُبُورِ الْمَدِينَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ. فَقَالَ: **السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ، يَغْفِرِ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ، أَنْتُمْ سَلَفُنَا وَنَحْنُ بِالأَثَرِ**»(٣) رواه أحمد والترمذي وحسنه.

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلمهم إياها. هل تجد فيها شيئاً مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم، ونقص إيمانهم أعرضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا. ونص على ذلك الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء، وحتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة.

وفي الترمذي وغيره: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةَ**»(٤) فجرد السلف العبادة لله، ولم يفعلوا عند

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) أخرجه الترمذي (١٠٥٣) عن ابن عباس به.
وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٥ ـ بتخريجنا).
(٤) تقدم تخريجه..

القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم.

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَلاَ تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»[1] وإسناده جيد، ورواته ثقات مشاهير.

وقوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً» أي: لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري النافلة في البيوت، ونهى عن تحرى النافلة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إن في تعظيم القبور، واتخاذها أعياداً، من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله وغيرة على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن ما لجرح بميت إيلام.

فمن المفاسد: اتخاذها أعياداً والصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الدين، وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات، التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم. فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً، وقد نزلوا عن الأكواز والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبلوا الأرض، وكفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبدىء ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ما لم يحرزه من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر ركعاً سجداً، يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسراناً.

فلغير الله ـ بل للشيطان ـ ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة ذوي العاهات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدى للعاملين، ثم أخذوا في التقبيل والإستلام. أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عفروا لديه تلك

---

(١) القول المفيد ٣/ ٢٦٣: ٢٦٦.

الجباه والخدود، التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود. ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنيء بعضهم بعضاً ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام. فيقول: لا ولا بحجك كل عام.

هذا، ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، ويدور في الخيال، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد الذريعة إلى المحظور، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته، انتهى كلامه. اهـ

قال ابن عثيمين[1]: قوله: «صورة».

نكرة في سياق النفي فتعم.

وجمهور أهل العلم: أن المحرم هو صور الحيوان فقط؛ لما ورد في «السنن» من حديث جبريل أن النبي ﷺ قال: **«فمر برأس التمثال يقطع، فيصير كهيئة الشجرة»**[1]، وسبق بيان ذلك قريباً.

قوله: «إلا طمستها».

إن كانت ملونة فَطَمْسُها بوضع لون آخر يزيل معالمها، وإن كانت تمثالاً فإنه يقطع رأسه؛ كما في حديث جبريل السابق، وإن كانت محفورة فيحفر على وجهه حتى لا تتبين معالمه؛ فالطمس يختلف، وظاهر الحديث سواء كانت تُعبد من دون الله أولا.

قول: «ولا قبراً مشرفاً».

أي: عالياً.

قوله: «إلا سويته».

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/٣٠٥)، وأبو داود (٤١٥٨)، والترمذي (٢٨٠٦) عن أبي هريرة به.

(٢) تقدم تخريجه.

له معنيان:

الأول: أي سويته بما حوله من القبور.

الثاني: جعلته حسنًا على ما تقتضيه الشريعة، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾، أي: سوّى خلقه أحسن ما يكون، وهذا أحسن، والمعنيان متقاربان.

والإشراف له وجوه:

الأول: أن يكون مشرفًا بكبر الأعلام التي توضع عليه، وتسمى عند الناس (نصائل) أو (نصائب)، ونصائب أصح لغة من نصائل.

الثاني: أن يبنى عليه، وهذا من كبائر الذنوب، لأن النبي ﷺ: «لعن المتخذين عليها المساجد والسرج»[(١)].

الثالث: أن تُشرف بالتلوين، وذلك بأن يوضع على أعلامها ألوان مزخرفة.

الرابع: أن يرفع تراب القبر عمّا حوله فيكون بيِّنًا ظاهرًا.

فكل شيء مشرف، أي: ظاهر على غيره متميز عن غيره يجب أن يسوى بغيره، لئلا يؤدي ذلك إلى الغلو في القبور والشرك.

مناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور:

أنَّ كلاً منهما قد يتخذ وسيلة إلى الشرك، فإن أصل الشرك في قوم نوح أنهم صوروا صور رجال صالحين، فلما طال عليهم الأمد عبدوها، وكذلك القبور المشرفة قد يزداد فيها الغلو حتى تجعل أوثانًا تعبد من دون الله، وهذا ما وقع في بعض البلاد الإسلامية، وقد أطال الشارح رحمه الله في هذا الباب في البناء على القبور، وذلك لأن فتنتها في البلاد الإسلامية قديمة وباقية، ما عدا بلادنا ولله الحمد، فإنها سالمة من ذلك، نسأل الله أن يديمها عليها وأن يحمي بلاد المسلمين من شرها. اهـ.

عقوبة المصوِّر.

قال ابن عثيمين[(٢)]: عقوبة المصور ما يلي:

١- أنه أشد الناس عذاباً أو من أشدهم عذاباً.

٢- أن الله يجعل له في كل صورة نفساً يُعذب بها في نار جهنم.

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) القول المفيد ٣/٢٦٦/٢٦٨.

٣- أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

٤- أنه في النار.

٥- أنه ملعون؛ كما في حديث أبي جُحَيفة في «البخاري» وغيره.

● **فائدتان:**

الأولى: «كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ» يقتضي أن المراد التصوير تصوير الجسم كاملاً، وعلى هذا؛ فلو صور الرأس وحده بلا جسم أو الجسم وحده بلا رأس؛ فالظاهر الجواز، ويؤيده ما سبق في الحديث: «**مُرْ برأس التمثال فليقطع**»، ولم يقل: فليكسر، لكن تصوير الرأس وحده عندي فيه تردد، أما بقية الجسم بلا رأس؛ فهو كالشجرة لا تردد فيه عندي.

الثاني: يؤخذ من حديث علي رضي الله عنه، وهو قوله: «**أن لا تدع صورة إلا طمستها**» أنه لا يجوز اقتناء الصور، وهذا محل تفصيل؛ فإن اقتناء الصور على أقسام:

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المصوَّر؛ لكونه ذا سلطان أو جاه أو علم أو عبادة أو أُبُوَّة أو نحو ذلك؛ فهذا حرام بلا شك، ولا تدخل الملائكة بيتاً فيه هذه الصورة؛ لأن تعظيم ذوي السلطة باقتناء صورهم ثَلْم في جانب الربوبية، وتعظيم ذوي العبادة باقتناء صورهم ثلم في جانب الألوهية.

القسم الثاني: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها؛ فهذا حرام أيضاً؛ لما فيه من الفتنة المؤدية إلى سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكرى حناناً أو تلطفاً، كالذين يصورون صغار أولادهم لتذكرهم حال الكبر؛ فهذا أيضاً حرام للحوق الوعيد به في قوله ﷺ: «**إن الملائكة لاتدخل بيتاً فيه صورة**»(١).

القسم الرابع: أن يقتني الصور لا لرغبة فيها إطلاقاً، ولكنها تأتي تبعاً لغيرها؛ كالتي تكون في المجلات والصحف ولا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في هذه المجلات والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك؛ فالظاهر أن هذا لا بأس به؛ لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة؛ فهو أولى.

القسم الخامس: أن يقتني الصور على وجه تكون فيه مُهانةً ملقاة في الزبل، أو

---

(١)**[متفق عليه]** أخرجه: البخاري في (٣٢٢٥)، ومسلم في اللباس والزينة (١٤/ ٨٤ ـ النووي)؛ عن أبي طلحة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٦٨٧ ـ بتخريجنا.

فيه مسائل

الأولى: التَّغْلِيظُ الشَّدِيدُ فِي الْمُصوِّرِينَ.

الثانية: التَّنْبِيهُ عَلَى العِلَّةِ، وهي ترك الأدبِ مَعَ الله؛ لِقَوْلِهِ: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي.

مفترشة، أو موطوءة؛ فهذا لا بأس به عند جمهور العلماء، وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة لأن في ذلك امتهاناً للصورة ولا سيما إن كانت الملابس داخلية؟

الجواب: نقول: لا يلحق بذلك، بل لباس ما فيه الصور محرم على الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحوه؛ لظهور الفرق بينهما، وقد صرح الفقهاء رحمهم الله بتحريم لباس ما فيه صورة، سواء كان قميصاً أو سراويل أم عمامة أم غيرها.

وقد ظهر أخيراً ما يسمى بالحفائظ؛ وهي خرقة تلف على الفرجين للأطفال والحائض لئلا يتسرب النجس إلى الجسم أو الملابس؛ فهل تلحق بما يلبس أو بما يمتهن؟

هي إلى الثاني أقرب، لكن لما كان امتهاناً خفياً وليس كالمفترش والموطوء صار استحباب التحرز منها أولى.

القسم السادس: أن يلجأ إلى اقتنائها إلجاء؛ كالصور التي تكون في بطاقة إثبات الشخصية والشهادات والدراهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه، وقد قال الله تعالى: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**.

قال ابن عثيمين: فيه مسائل:

- **الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.**

قال ابن عيثمين[1]

تؤخذ من قوله: «**أشد الناس عذاباً...**» الحديث.

- **الثانية**: التنبيه على العلة، وهي ترك الأدب مع الله، تؤخذ من قوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**».

فمن ذهب يخلق كخلق الله؛ فهو مسيء للأدب مع الله ـ عز وجل ـ لمحاولته أن يخلق مثل خلق الله تعالى، كما أن من ضاده في شرعه فقد أساء الأدب معه.

---

(١) القول المفيد ٣/ ٢٦٩ ـ ٢٧١.

الثالثة: التَّنبيهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَجْزِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: «فليخلقوا ذرة أو شعيرة».

الرابعة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً.

الخامسة: أَنَّ الله يَخْلق بِعَدَدِ كُلِّ صُورَةٍ نَفْساً يُعَذَّبُ بِهَا الْمُصَوِّرَ فِي جَهَنَّمَ.

السادسة: أَنَّهُ يُكَلَّفُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ.

السابعة: الأَمْرُ بِطَمْسِهَا إِذَا وُجِدَتْ.

● الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم؛ لقوله: ﴿فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أو شَعِيرَةً﴾.

لأن الله خلق أكبر من ذلك وهم عجزوا عن خلق الذرة أو الشعيرة.

● الرابعة: التصريح بأنهم أشد عذاباً.

لقوله: «أشد الناس عذاباً...» الحديث.

● الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يُعذّب بها المصور في جهنم.

لقوله: «يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم».

● السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

لقوله: «كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»، وهذا نوع من التعذيب من أشق العقوبات.

● السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

لقوله: «أن لا تدع صورة إلا طمستها».

ويؤخذ من حديث الباب أيضاً: الجمع بين فتنة التماثيل وفتنة القبور؛ لقوله: «أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلى سويته»: لأن في كل منهما وسيلةً إلى الشرك.

ويؤخذ منه أيضاً: إثبات العذاب يوم القيامة، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لأنه يُجعل له بكل صورة صورها نفساً فَتُعَذِّبُه في جهنم.

ويؤخذ منه: وقوع التكليف في الآخرة بما لا يطاق على وجه العقوبة. اهـ.

قلت: وتقدم ذلك من كلام ابن حجر.



(٦١) باب
ما جاء في كثرة الحلف

● **مناسبة هذا الباب لما قبله.**

قال الفقير: القاسم المشترك بين المصور ومن كثر حلفه بالله أن كليهما مستخف بجناب الله غير معظم له فلهذا ناسب أن يذكرهما المصنف على نسق وترتيب واحد.

● **شرح الترجمة:**

قال ابن عثيمين:(١) الحَلِفُ هو اليمين والقسم، وهو تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم، وهي: الباء، والواو، والتاء. اهـ.

● **ماذا أراد المصنِّف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد:**

قال حامد بن محمد(٢): باب ماجاء في بيان إثم كثرة الحلف وعقوبتها وما يؤول اليمين.

قال ناصر السعدي:(٣) أصل اليمين انما شرعت تأكيداً للامر المخلوف عليه وتعظيما للخالق، ولهذا وجب أن لايحلف إلا بالله وكان الحلف بغيره من الشرك ومن تمام هذا التعظيم أن لايحلف بالله إلا صادقاً ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثره الحلف، فالكذب وكثره الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد. اهـ.

قال ابن باز (٤): أراد المؤلف بهذا الباب بيان أن كثرة الحلف نقص في الإيمان ونقص في التوحيد لأن كثره الحلف تفضي إلى:

- التساهل في ذلك وعدم المبالاة.
- الكذب
- ظن الكذب به. فإن من كثرت أيمانه وقع في الكذب فينبغي التقلل من ذلك وعدم الإكثار من الأيمان ولهذا قال سبحانه وتعالى :﴿**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾.

---

(١) القول المفيد ٣/ ٢٧٢.

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٤٦٢.

(٣) القول السديد ١٣٢و١٣٣.

(٤) التعليق المفيد ٢٦٧.

وَقَوْلُ الله تَعالى ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾(١).

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين (٢): أن كثرة الحلف بالله يدل على أنه ليس فى قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضى هيبة الحلف بالله، وتعظيم الله تعالى من تمام التوحيد. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله مستفيداً من كلام ناصر السعدى المتقدم(٣): ـ مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: هى أن كثرة الحلف ينافى كمال التوحيد، لأن اليمين إنما شرعت للأمر المخلوف عليه وتعظيماً للخالق ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله، وكان الحلف بغيره من الشرك ومن تمام هذا التعظيم ألا يحلف بالله إلا صادقاً ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثره الحلف فالكذب وكثره الحلف تنافى التعظيم الذى هو روح التوحيد. اهـ.

قوله: وقول الله ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.



● **مناسبة الآية للباب وللتوحيد:**

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٤): والمصنف أراد من الآية المعنى الذى ذكره ابن عباس؛ فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرةالحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما ينافى كمال التوحيد الواجب أو عدمه.

قال القرعاوى(٥): دلت الآية على تحريم الإكثار من الحلف لغير سبب.

ومناسبة الآية للتوحيد: حيث دلت الآية على تحريم الإكثار من الحلف لأن ذلك تنقص لتعظيم الله وذلك مناف للتوحيد.

● **الإعراب:**(٦) ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: الواو عاطفة، ﴿وَاحْفَظُوا﴾ فعل أمر وفاعل، ﴿أَيْمَانَكُمْ﴾ مفعول به. اهـ.

● **التفسير بالمأثور عن النبى ﷺ والصحابة والتابعين**

أولاً عن ما جاء عن النبى ﷺ

عن عبدالرحمن بن سمرة قال: قال النبى ﷺ: **«يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل**

(١) القول المفيد ٣/ ٢٧٢. (٢) المائدة: ٨٩.

(٣) الجامع الفريد ١/ ٢.

(٤) فتح المجيد ٢/ ٩٨٤.

(٥) الجديد ٤٥١.

(٦) إعراب القرآن / ١١.

الإمارة فانك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذى هو خير»[1].

ثانياً عن الصحابة

عن عائشة قالت: كان أبو بكر إذا حلف لم يحنث، حتى نزلت آية الكفارة، فكان بعد ذلك يقول: لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها الا أتيت الذى هو خير وقبلت رخصة الله[3].

عن ابن عباس قال: من حلف على ملك يمين ليضربه فكفارته تركه، ومع الكفارة حسنة[4].

جبير بن مطعم. أنه افتدى يمينه بعشرة آلاف درهم، وقال: ورب هذه القبلة لو حلفت لحلفت صادقًا، وإنما هو شيء افتديت به يمينى[5].

ثالثاً عن التابعين

عن سعيد بن جبير ﴿**ذلك**﴾ يعنى الذى ذكر من الكفارة ﴿**كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ**﴾ يعنى اليمين العمد ﴿**واحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾ يعنى لا تعمدوا الإيمان الكاذبة ﴿**كَذَلِكَ**﴾ يعنى هكذا ﴿**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ**﴾ يعنى ما ذكر من الكفارة ﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ فمن صام من كفارة اليمين يوماً أو يومين ثم وجد ما يطعم فليطعم، ويجعل صومه تطوّعا[2]

عن أبى نجيح. أن ناسا من أهل البيت حلفوا عند البيت خمسين رجلا قسامة، فكأنهم حلفوا على باطل، ثم خرجوا حتى اذا كانوا فى بعض الطريق قالوا تحت صخرة، فبينما هم قائلون تحتها إذا انقلبت الصخرة عليهم، فخرجوا يشتدون من تحتها، فانفلقت خمسين فلقة، فقتلت كل فلقة رجلا [6].

● أقوال المفسرين

قال الطبرى [7]: يعنى تعالى ذكره بقوله ذلك هذا الذى ذكرت لكم أنه كفارة

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٦٦٢٢)، ومسلم فى الأيمان (١١/ ١١٦ ـ النووى). وانظر «رياض الصالحين» (٦٧٥ ـ بتخريجنا).

(٢)ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٥٥٦) ونسبه لابن أبى حاتم، وأبى الشيخ. وانظر «تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا».

(٣) **[صحيح]** أخرجه البخارى (٤٦١٤) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٥٥٦) وزاد نسبته لعبد الرزاق، وابن أبى شيبة، وابن مردويه.

(٤)ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٥)ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٦) نفس المصدر السابق. (٧) تفسير الطبرى / ٢١.

أيمانكم من طعام العشرة المساكين أو كسوتهم أو تحرير الرقبة وصيام الثلاثة الأيام إذا لم تجدوا من ذلك شيئاً كفارة أيمانكم التى عقدتموها إذا حلفتم ﴿وَاحْفَظُوا﴾ أيها الذين آمنوا أيمانكم أن تحنثوا فيها ثم تصنعوا الكفارة فيها بما وصفته لكم ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ كما بين لكم كفارة أيمانكم كذلك يبين الله لكم جميع آياته يعنى أعلام دينه فيوضحها لكم لئلا يقول المضيع المفرط فيما ألزمه الله لم أعلم حكم الله فى ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول لتشكروا الله على هدايته إياكم وتوفيقه لكم. اهـ.

قال البغوى [(١)]: ـ قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾. قيل أراد به ترك الحلف، أى لا تحلفوا. وقيل، هو الأصح، أراد به إذا حلفتم فلا تحنثوا، فالمراد منه حفظ اليمين عن الحنث، هذا إذا لم يكن يمينه على ترك مندوب، أو فعل مكروه، فإن حلف على فعل مكروه، أو ترك مندوب، فالأفضل أن يحنث نفسه ويُكفِّر. اهـ.

قال الجصاص [(٢)]: ـ ومما يدل على نفى الكفارة فى اليمين على الماضى قوله تعالى فى نسق التلاوة: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ وحِفْظُها مراعاتها لأداء كفارتها عند الحنث فيها، ومعلومٌ امتناع حفظ اليمين على الماضى لوقوعها على وجه واحد لا يصح فيها المراعاة والحفظ.

فإن قال قائل: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ يقتضى عمومُه إيجابَ الكفّارة فى سائر الأيمان إلاّ ما خصّه الدليل. قيل له: ليس كذلك؛ لأن معلوم أنه قد أراد به اليمين المعقودة على المستقبل، فلا محالة أن فيه ضميراً يتعلق به وجوب الكفارة وهو حنث؛ وإذا ثبت أن فى الآية ضميراً سقط الاحتجاجُ بظاهرها لأنه لا خلاف أن اليمين المعقودة لا تجب بها كفارةٌ قبل الحنث، فثبت أن فى الآية ضميراً فلم يجز اعتبار عمومها إذ كان حكمها متعلقاً بضمير غير مذكور فيها. وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ يقتضى أن يكون جميع ما تجب فيه الكفارة من الأيمان هى التى ألزمنا حفظها، وذلك إنما هو فى اليمين المعقودة التى تمكن مراعاتها وحفظها لأداء كفارتها، واليمين على الماضى لا يقع فيها حِنْثٌ فينتظمها اللفظ، ألا ترى أنه لا يصح دخول الاستثناء عليها فتقول: «كان أمس الجمعة إن شاء الله» و«والله لقد كان أمس الجمعة» إذا كان الحِنْثُ وجود معنى بعد اليمين بخلاف ما عقد عليه. ويدل على أن الكفارة إنما

---

(١) معالم التنزيل/ ٢٩٧.

(٢) أحكام القرآن / ٦٣٨.

تتعلق بالحنث فى اليمين بعد العقد أنه لو قال: «والله» ذلك قَسَماً ولم تلزمه كفارة بوجود هذا القول، لأنه لم يتعلق به حِنْثٌ. اهـ.

قال ابن الجوزى [(١)]:ـ وفى قوله ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ ثلاثة أقوال.

ـ **أحدها:** أقلوا منها ويشهد له قوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾ وأنشدوا

قليل الأ لا ياحافظ ليمينه.

ـ **والثانى:** احفظوا أنفسكم من الحنث فيها.

وذكر القولين الرازى [(٢)] ثم قال: واللفظ محتمل للوجهين، إلا أن على هذا التقدير يكون مخصوصاً بقوله عليه السلام «**من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير ثم ليكفر عن يمينه**». اهـ.

قال الرازى:

الثالث: راعوها لكى تؤدى الكفارة عند الحث فيها اهـ.

قال القرطبى: [(٣)] ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أى بالبِدَار إلى ما لزمكم من الكفّارة إذا حَنِثتم. اهـ.

قال السعدى:[(٤)] ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ عن الحلف بالله كاذباً، وعن كثره الإيمان واحفظوا إذا حلفتهم عن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيراً، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير ولايكون يمينه عرضه لذلك الخير. اهـ.

● أقوال شرَّاح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين [(٥)]: هذه الآية ذكرها الله فى سياق كفارة اليمين، وكل يمين لها ابتداء وانتهاء ووسط؛ فالابتداء الحلف، والانتهاء الكفارة، والوسط الحنث، وهو أن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله، وعلى هذا كل يمين على شيء ماض فلا حنث فيه، وما لا حنث فيه فلا كفارة فيه، لكن إن كان صادقاً؛ فقد بر، وإلا؛ فهو آثم؛ لأن الكفارة لا تكون إلا على شيء مُسْتقْبَل.

وهل يجوز أن يحلف على ما فى ظنه؟

(١) زاد المسير ٢ / ٢٥٠

(٢) التفسير الكبير ٦/ ١٢/ ٨٣.

(٣) تفسير القرطبى ٤/ ٢٢٨٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٥١.

(٥) القول المفيد ١/ ٢٧٢ و٢٧٥.

الجواب: نعم، ولذلك أدلـة كثيرة، منها قول المُـجَامع فى نهار رمضان لـرسول الله ﷺ: والله؛ ما بين لابَتَيْهَا أهل بيت أفقر منى.

لكن إن حلفت على مستقبل بناء على غلبة الظن ولم يحصل؛ فقيل: تلزمك كفارة، وقيل: لا تلزمك، وهو الصحيح، كما لو حلفت على ماض.

مثاله: فلو قلت: والله؛ ليقدمن زيد غداً. بـناء على ظنك، فلم يقدم؛ فالصحيح أنه لا كفارة عليك؛ لأنك حـلفت على ما فى قلبك وهو حاصـل، كأنك تقول: والله؛ إن هذا هو ظنى، لكم هل يجوز لك أن تحلف على ما فى ظنك؟ سبق ذلك قريباً.

إذن قوله: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بعد أن ذكـر اليمين والـكفارة والحنث؛ فـما المراد بحفظ اليمين: هل هو الابتداء أو الانـتهاء أو الوسط؟ أى: هل المراد: لا تكثروا الحلف بالله؟ أو المراد: إذا حلفتم فلا تحنثوا؟ أو المراد: إذا حلفتم فحنثتم فلا تتركوا الكفارة؟

الجواب: المراد كلها؛ فـتشمل أحوال اليميـن الثلاثة، ولهذا جاء المؤلـف بها فى هذا الباب؛ لأن من معنى حفظ اليمين عدم كـثرة الحلف، وإليك قاعدة مهمة فى هذا، وهى أن النص من قرآن أو سنة إذا كان يحتمل عدة معـانى لا ينافى بعضها بعضاً ولا مرجح لأحدها؛ وجب حمله على المعانى كلها.

والمراد بعدم كثـرة الحلف: ما كان معقوداً ومـقصوداً، أما ما يجرى علـى اللسان بلا قصد، مثل: لا والله؛ وبـلى والله؛ فى عرض الحديث، فلا مؤاخذة فيـه؛ لقول تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

وكذلك مِنْ حفظ اليمين عدم الحنث فيها، وهذا فيه تفصيل؛ لأن النبى ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «**إذا حلفت على يمـين، فرأيت غيرها خيراً منها؛ فكـفر عن يمينك، وائت الذى هو خير**»(1)، فحفظ اليمين فى الحنث أن لا يحنث إلا إذا كان خيراً، وإلا؛ فالأحسن حفظ اليمين وعدم الحنث.

مثال ذلك: رجل قال: والله؛ لا أكلم فلاناً. وهو من المؤمنين الذين يحرم هجرهم؛ فهذا يجب أن يحنث فى يمينه ويكلمه وعليه الكفارة.

مثال آخر: رجل قال: والله؛ لأُعِينَنَّ فلاناً على شىء محرم. فهـذا يجب الحنث فيه والكفارة ولا يعينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (2).

وإذا كان الأمر متساوياً والحنث وعدمه سواء فى الإثم؛ فالأفضل حفظ اليمين.

كذلك من حفظ اليمين إخراج الكفارة بعد الحنث، والكفارة واجبة فوراً؛ لأن الأصل فى الواجبات هو الفورية، وهو قيام بما تقتضيه اليمين.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) المائدة: 2

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ ؛ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :«الحَلفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ ، مَمْحَقَةٌ لِلكَسْبِ» أَخْرجَاهُ(١).

والكفارة: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وهذا على سبيل التخيير، فمن لم يجد؛ فصيام ثلاثة أيام، وفى قراءة ابن مسعود متتابعة (٢).

فحفظ اليمين له ثلاثة معان:

١ـ حفظها ابتداء، وذلك بعدم كثرة الحلف، وليعلم أن كثرة الحلف تضعف الثقة بالشخص وتوجب الشك فى أخباره.

٢ - حفظها وسطاً، وذلك بعدم الحنث فيها، إلا ما استثنى كما سبق.

٣ـ حفظها انتهاء فى إخراج الكفارة بعد الحنث.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك معنى رابع، وهو أن لا يحلف بغير الله؛ لأن الرسول ﷺ سَمّى القسم بغير الله حلفاً. اهـ

فوائد الحديث (٣): ـ

١ـ بيان سماحة الإسلام.

٢ـ لا إثم ولا كفارة فى لغو اليمين.

٣ـ تحريم الحنث فى اليمين المقصودة لغير مصلحة.

٤- وجوب الكفارة فى اليمين التى حنث فيها وهى كما فصلها الله فى الآية.

٥- سبق الإسلام إلى تحريم العبيد وحث على ذلك.

٦- تحريم الإكثار من الحلف.

٧- وجوب حفظ اليمين عن الكذب.



قوله: عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ : قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب» أخرجاه.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «البيوع» / باب «يمحق الله الربا ويربى الصدقات» (٤/٣٦٩/ح٢٠٨٧) ومسلم فى المساقاة/ باب: النهى عن الحلف فى البيع (٤/١١/ح٤٤ النووى) والنسائى وفى الكبرى كتاب «البيوع/باب: المنفق سلعته بالحلف الكاذب (٤/٦/ح٦٠٥٢) والبيهقى فى الشعب/ب (٤/٢١٩/ح٤٨٤٧) فى السنن الكبرى (٥/ ٢٦٥/ح١٠٤٦).

جميعاً عن طريق ابن المسيب عن أبى هريرة.

وانظر رياض الصالحين (ح١٧٢٣) بتخريجنا.

(٢) أخرجه: ابن جرير، (٥/٧/ ٢١)، وعبدالرزاق (١٦١٠٢)، والبيهقى (١٠ـ ٦٠).

(٣) الجديد (٤٥٠).

قال الفقير: «قوله أخرجاه» أى البخارى ومسلم

هذا الحديث أخرجه البخارى فى البيوع وبوّب عليه باب «يمحق الله الربا يربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم» وأسند بنفس هذا اللفظ. ومسلم فى المساقاه باب النهى عن الحلف فى البيع والنسائى فى الكبرى باب المنفق سلعته بالحلف الكاذب والبيهقى فى الشعب باب حفظ اللسان جميعاً عن طريق ابن المسيب عن أبى هريرة.

مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى(١):

دل الحديث على تحريم الإكثار من الحلف لغير سبب.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى(٢):

حرم الحديث الإكثار من الحلف لأن ذلك تنقص لتعظيم الله وذلك ينافى التوحيد. اهـ.

قوله: «الحلف»

قال ابن حجر(٣): بفتح المهملة وكسر اللام أى اليمين الكاذبة. اهـ.

قال ابن عثيمين(٤): المراد به الحلف الكاذب، كما بينته رواية أحمد: «اليمين الكاذبة» أما الصادقة، فليس فيها عقوبة، لكن لا يكثر منها كما سبق. اهـ.

قوله: «منفقة للسلعة».

قال ابن حجر(٥): (منفقة) بفتح الميم والفاء بينهما نون ساكنة مفعلة من النفاق بفتح النون وهو الرواج ضد الكساد، والسلعة بكسر السين المتاع، وقوله ممحقة بالمهملة والقاف وزن الأول وحكى عياض ضم أوله وكسر الحاء، والمحق النقص والإبطال.

وقال القرطبى: المحدثون يشددونها، والأول أصوب والهاء للمبالغة ولذلك صح خبرًا عن الحلف، وفى مسلم اليمين، ولأحمد اليمين الكاذبة، وهى أوضح، وهما فى الأصل مصدران مزيدان محدودان بمعنى النفاق والمحق. اهـ.

(١، ٢) الجديد ٤٥٢، ٤٥٣.

(٣) الفتح ٤/ ٣٦٩.

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٧٦.

(٥) الفتح ٤/ ٣٦٩.

وَعَنْ سَلْمَانَ؛ أَنَّ رَسُولَ الله قَالَ: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُم اللهُ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ؛ لاَ يَشْتَرِي

قال عبد الرحمن آل الشيخ[(١)]: والمعنى: أنه إذا حلف على سلعة أنه أعطى فيها كذا وكذا، أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشترى صادقًا فيما حلف عليه، فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب، وحلف طمعًا فى الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التى دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأسًا، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وإن تزخرفت الدنيا للعاصى فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب. اهـ.

قل ابن عثيمين[(٢)]: **قوله: «منفقة للسلعة»**.

أى: ترويج للسلعة مأخوذ من النفاق وهو مضى الشىء ونفاذه، والحلف على السلعة، قد يكون حلفًا على ذاتها أو نوعها أو وصفها أو قيمتها.

الذات: كأن يحلف أنها من المصنع الفلانى المشهور بالجودة وليست منه.

النوع: كأن يحلف أنها من الحديد، وهى من الخشب.

الصفة: كأن يحلف أنها طيبة، وهى رديئة.

القيمة: كأن يحلفها أن قيمتها بعشرة، وهى بثمانية. اهـ.

قوله: «ممحقة للكسب».

قال ابن عثيمين[(٣)]: أى: متلفة له، والإتلاف الحسى بأن يسلط الله على ماله شيئًا يتلفه من حريق أو نهب أو مرض يلحق صاحب المال فيتلفه فى العلاج، والإتلاف المعنوى بأن ينزع الله البركة من ماله، فلا ينتفع به لا دينًا ولا دنيا، وكم من إنسان عنده مال قليل، لكن نفعه الله به ونفع غيره ومن وراءه، وكم من إنسان عنده أموال لكن لم ينتفع به صار- والعياذ بالله - بخيلاً يعيش عيشة الفقراء وهو غنى، لأن البركة قد محقت. اهـ.



قوله: وعن سلمان: أن رسول الله قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم...» الحديث

---

(١) فتح المجيد / ٣٦٩.

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٧٦.

(٣) القول المفيد ٣/ ٢٧٦.

إلاَّ بِيَمِينِهِ، ولاَ يَبِيعُ إلاَّ بِيَمِينِهِ». رَوَاهُ الطَّبرانِي بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[1].

قال الفقير: هذا الحديث أخرجه الطبراني في «الكبير» وفي «الأوسط» من طريق عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي عن سلمان. اهـ.

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال ابن عثيمين: أن من جعل الله بضاعته، فإن الغالب أنه بغير الحلف بالله- عز وجل. اهـ.

قال القرعاوي[2]: حيث دلّ الحديث على تحريم الإكثار من الحلف بغير سبب.

● **مناسبة الحديث للتوحيد:**

قال القرعاوي[3]: حرم الحديث الإكثار من الحلف لأنه استخفاف بالله وذلك ينافي التوحيد. اهـ

قوله: «وعن سلمان» :

قال سليمان آل الشيخ[4]: لعله سلمان الفارسي، أبو عبد الله ، أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة وشهد الخندق، روى عنه أبو عثمان النهدي، وشرحبيل بن السمط وغيرهما ، قال النبي ﷺ: «**سَلْمَان منا أهل البيت،[5] إن الله يحب من أصحابي أربعة: عليّاً، وأبا ذر، وسلمان، والمقداد**»[6] أخرجه الترمذي وابن ماجة.

قال الحسن : كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفًا يخطب بهم في عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها، توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه.

قال أبو عبيدة: سنة ستة وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة. ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي. اهـ.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/ ٢٤٦/ ح٦١١). وفي «الأوسط» (٥/ ٣٦٧/ ح٥٥٧٧).
من طريق عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي عن سلمان .... فذكره.
وذكره الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٧٨) وقال: رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح.

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٨٣.

(٣) الجديد ٤٥٥.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٥٤٠.

(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٩٨)، والطبراني في «الكبير»(٦/ ٢١٢/ ٦٠٤٠)..

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده»(٥/ ٣٥١)، والترمذي (٣٧١٨) وابن ماجه (١٤٩) عن بريدة به.

قوله: «ثلاثة»:

قال ابن عثيمين[1]: مبتدأ وسوغ الابتداء بها أنها أفادت التقسيم.

قوله: «لا يكلمهم الله».

قال النووى: قيل: أى لا يكلمهم تكليم أهل الخيرات، وبإظهار الرضى، بل بكلام أهل السخط والغضب. وقيل: المراد الإعراض عنهم.

وقال جمهور المفسرين: لا يكلمهم كلاماً ينفعهم ويسرهم، وقيل: لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[2]: نفى كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه، وأن الكلام صفة من صفات كماله، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه، وهذا هو الذى عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئًا فشيئًا ولم يزل متصفًا به، فهو حادث الآحاد قديم النوع، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي، وأحمد وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[3] فأتى بالحروف الدالة على الحال والاستقبال أيضًا، وذلك فى القرآن كثير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإذا قالوا لنا- يعنى النفاة: فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به؟ ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل، ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأعراض والنقائص والله تعالى منزه عن ذلك- ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دل عليه الكتاب والسنة.

والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة. اهـ.

قلت: ـ يعنى عبدالرحمن آل الشيخ ـ ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها، وإيجاده لها بمشيئته وأمره. والله أعلم.

قال ابن عثيمين[4]: التكليم: هو إسماع القول، وأما ما يقدره الإنسان فى نفسه، فلا يسمى كلاماً على سبيل الإطلاق وإن كان يسمى قولاً بالتقييد بالنفس، كقوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ**﴾[5] وقال عمر رضى الله عنه - فى قصة السقيفة-: «**زورت فى نفسى كلامًا**» أى: قَدَّرته.

---

(١) القول المفيد (٣/ ٢٧٧) (٢) فتح المجيد (٢/ ٦٨٦) وانظر تيسير العزيز الحميد ٥٣٩و ٥٤٠.

(٣) يس: ٨٢. (٤) القول المفيد ٣/ ٢٧٧- ٢٧٩.

(٥) المجادلة: ٨. (*) شرح مسلم (١/ ٢٩٣)

فالكلام عند الإطلاق لا يكون إلا بحرف وصوت مسموع.

واختلف الناس فى كلام الله إلى ثمانية أقوال كما ذكره ابن القيم فى «الصواعق المرسلة».

لكن إذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأخذنا منهما عقيدتنا صافية، وقطعنا النظر عن هذه المجادلات لأنه ما أوتى الجدل قوم إلا ضلوا، علمنا أن كلام الله حقيقى يسمع، ولكن الصوت ليس كأصوات المخلوقين، أما ما يسمع من كلام الله، فلا شك أنه بحرف يفهمها المُخاطب، إذ لو كان يتكلم بحروف لا تشبه الحروف التى يتكلم بها المخاطب لم يفهم كلامه أبدآ، فالحروف التى تسمع هى حروف اللغة التى يخاطب الله بها من يخاطبه، والله - عز وجل - يخاطب كل أحد بلغته.

ونفى الكلام هنا دليل على إثبات أصله، لأنه لما نفاه عن قوم دل على ثبوته لغيرهم.

وبهذه الطريقة استدل بها أهل العلم على إثبات رؤية الله يوم القيامة للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(1) فما حجب الفجار عن رؤيته، إلا ورآه الأبرار، إذ لو امتنعت الرؤية مطلقًا لكان الفجار والأبرار سواء فيها، كذلك هنا لو انتفى كلام الله - عز وجل- عن كل أحد، فلا وجه للتخصيص بنفى الكلام عن هؤلاء.

ولا يلزم من كلامه - سبحانه- أن يكون له آلة كالآدمى، كاللسان والأسنان، والحلق، وما أشبه ذلك، كما لا يلزم من سماع الله أن يكون له أذن، فالأرض مثلاً تسمع وتحدث وليس لها لسان ولا آذان، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾(2)، وكذا الجلد ينطق يوم القيامة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (3) وكذا الأيدى والأرجل، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(4) فالأيدى والأرجل والألسن والجلود والسمع والأبصار ليس لها لسان ولا شفتان، هذا هو المعلوم لنا.

فإن قيل: إن الله يكلم من هو أعظم منهم جرمًا وهم أهل النار؟

---

(1) المطففين: ١٥.

(2) الزلزلة: ٤/ ٥.

(3) فصلت: ٢٠.

(4) النور: ٢٤.

فالجواب: إن المراد بنفى الكلام هنا كلام الرضا، أما كلام الغضب والتوبيخ، فإن هذا الحديث لا يدل على نفيه.

قوله: ﴿وَلا يُزَكِّيهِم﴾

قال النووى: لايطهرهم من دنس ذنوبهم، وقال الزجاج وغيره: معناه لايثنى عليهم. أهـ

قال ابن عثيمين(١)

التزكية: بمعنى التوثيق والتعديل، فيوم القيامة لا يوثقهم، ولا يعدلهم، ولا يشهد عليهم بالإيمان، لما فعلوه من هذه الأفعال الخبيثة.

قوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قال النووى: أى مؤلم، قال الواحدى: هو العذاب الذى يخلص إلى قلوبهم وجعه. قال: والعذاب كل مايعيى الإنسان ويشق عليه، قال: وأصل العذاب فى كلام العرب من العذب، وهو المنع، يقال: عذبته عذباً إذا منعته، وعذب عذوباً. أى امتنع، وسمى الماء عذباً لأنه يمنع العطش، فسمى العذاب عذاباً؛ لأنه يمنع المعاقب من معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره من مثل فعله، والله أعلم أهـ (*).

قال سليمان آل الشيخ(٢)

لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التى هى أعظم العقوبات.

﴿عَذَابٌ﴾

قال ابن عثيمين(٣): عقوبة، و﴿أَلِيمٌ﴾، أى: شديد موجع مؤلم.

قوله: «أشيمط».

قال عبد الرحمن آل الشيخ:(٤) «**قوله: أشيمط زان**» صغره تحقيراً له، وذلك لأن داعى المعصية ضعف فى حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا: محبة المعصية والفجور، وعدم خوفه من الله، وضعف الداعى إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه، بخلاف الشاب، فإن قوة داعى الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية، فينتهى ويرجع. أهـ.

(١) القول المفيد ٣/ ٢٧٩.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٤٠.
(٣) القول المفيد ٣/ ٢٧٩.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٥٤١.
(*) شرح مسلم -(١/ ٣٩٣)

قال ابن عثيمين:

هو الذى اختلط سواده ببياضه لكبر سنه، وكبير السن قد بردت شهوته، وليس فيه ما يدعوه إلى الزنا، ولكنه زنا مما دل على خبث فى إرادته، ولأنه عادة قد بلغ أشده واستوى وعرف الحكمة، وملكه عقله أكثر من هواه، فالزنا منه غريب ، إذ ليس عن شهوة ملحة، ولكن عن سوء نية وقصد وضعف إيمان بالله، فصار السبب المقتضى لزناه ضعيفًا، والحكمة التى نالها ببلوغ الأشد كبيرة، وكأنه تقادم سنه يستلزم أن يغلب جانب العقل، ولكنه خالف مقتضى ذلك، ولهذا صغره تحقيراً لشأنه، فقال: «أشيمط» تصغير أشمط.

قوله: «زانٍ».

صفة لأشيمط ، وهو مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة ، والحركة التى على النون ليست حركة إعراب.

والزنا: فعل الفاحشة فى قبل أو دبر، وقد نهى الله عنه وبيّن أنه فاحشة ، فقال: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[1].

قوله: «عائل مستكبر».

قال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعو إلى الكبر، لأن الداعى إلى الكبر فى الغالب كثرة المال والنعم والرياسة، و«العائل» الفقير لا داعى له إلى أن يستكبر ، فاستكباره مع عدم الداعى إليه يدل على أن الكبر طبيعة له، كامن فى قلبه، فعظمت عقوبته، لعدم الداعى إلى هذا الخلق الذميم، الذى هو من أكبر المعاصى. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]**:**

أى: فقير، قال تعالى ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ فالمقابلة هنا فى قوله: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بينت أن معنى عائلاً: فقيرًا.

والاستكبار: الترفع والتعاظم، وهو نوعان:

- استكبار عن الحق بأن يرده أو يترفع عن القيام به.

(١) الإسراء: ٣٢.

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٨٠.

(٣) فتح المجيد تيسير العزيز الحميد ٥٤١.

- واستكبار على الخلق باحتقارهم واستذلالهم، كما قال النبى ﷺ: **«الكبر بطر الحق وغمط الناس»**(١) .

فالفقير داعى الاستكبار عنده ضعيف ، فيكون استكباره دليلاً على ضعف إيمانه وخبث طويته، ولذلك كانت عقوبته أشد. اهـ.

قوله: «ورجل جعل الله بضاعته لا يشترى إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه»

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٢) : **قوله: «ورجل جعل الله بضاعته»** بنصب الاسم الشريف، أى: الحلف به، جعله بضاعته، لملازمته له وغلبته عليه.

وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحدًا فتوحيده ضعيف ، وأعماله ضعيفة، بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصى العظيمة على قلة الداعي إليها، نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣) : أى: جعل الحلف بالله بضاعة له، وإنما ساغ التأويل هنا، لأن النبى ﷺ هو الذى فَسَّره بذلك، حيث قال: **«لا يشترى إلا بيمينه...»** وإذا كان المتكلم هو الذى أخرج كلامه عن ظاهره ، فهو أعلم بمراده ، وهذا كما فى الحديث القدسى: **«عبدى! استطعمتك فلم تطعمنى، استسقيتك فلم تسقنى»**(٤) فبينه الله - عز وجل- بقوله: «عبدى فلان جاع فلم تطعمه، استسقاك فلم تسقه».

فقوله: **«لا يشترى إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»** استئنافية تفسيرية، لقوله: **«جعل الله بضاعته»** ومعناها: أنه كلما اشترى حلف، وكلما باع حلف طلبًا للكسب، واستحق هذه العقوبة، لأنه إن كان صادقًا فكثرة إيمانه تشعر باستخفافه واستهانته باليمين ومخالفته قوله تعالى: **﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾** .

وإن كان كاذبًا جمع بين أربعة أمور محذورة:

١- استهانته باليمين ومخالفته أمر الله بحفظ اليمين.

٢- كذبه.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٨٩ ـ النووى) عن ابن مسعود به.
وانظر «رياض الصالحين» (٦١٣ ـ بتخريجنا).

(٢) فتح المجيد و تيسير العزيز الحميد ٥٤١.

(٣) القول المفيد ٣/ ٢٨١، ٢٨٢.

(٤) تقدم تخريجه.

٣- أكله المال بالباطل.

٤- أن يمينه يمين غموس، وقد ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال: **«من حلف على يمين هو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»**[(١)].

وكل ما في هذا الحديث يجب الحذر منه والبعد عنه، لأن هذا ما يريده النبي ﷺ من الإخبار به، وإلا، فما الفائدة من سماعنا له إذا لم تظهر مقتضيات النصوص على معتقداتنا وأقوالنا وأفعالنا؟ فنحن والجاهل سواء، بل نحن أعظم، ولذلك لا ينبغي أن تمر علينا بلا فائدة فنعرف معناها فقط، بل يجب أن نعرف معناها ونعمل بمقتضاها، ثم يجب علينا أيضًا بوصفنا ممن أتاهم الله العلم أن نُحذر الناس منها لنكون وارثين للرسول ﷺ فالنبي ﷺ كان عالمًا عاملاً داعيًا، أما طالب العلم، فإنه ليس وارثًا للرسول عليه الصلاة والسلام حتى يقوم بما قام به من العمل والدعوة، فعلينا أن نُحذّر إخواننا المسلمين من هذا العمل الكثير بين الناس، وهو جعْل الله بضاعة لهم، لا يبيعون إلا بأيمانهم، ولا يشترون إلا بأيمانهم. اهـ.

فوائد الحديث [(٢)]:

١- إثبات الكلام لله عز وجل - على وجه يليق بجلاله.

٢- إثبات أن الله يكلم أهل الطاعة.

٣- تحريم الزنا والإكثار من اليمين. اهـ.

قلت: وفي الباب أيضاً حديث أبي هريرة في الصحيحين بلفظ« ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة، ولاينظر إليهم ، ولايزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر فحلف بالله لأخذها بكذا وكذبه فصدقه، وهو على غير ذلك، ورجل بايع إماماً لايبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفى ، وإن لم يعطه منها لم يوف» وفي رواية لمسلم من حديث أبي ذر، قال أبو ذر«خابوا وخسروا. من هم يارسول الله؟ قال :المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» وله« بالحلف الفاجر» ولمسلم أيضاً من حديث أبي هريرة بزيادة «شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»، فنسأل الله العفو والعافية.



(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٣٦٥) ومسلم في الأيمان(١/ ٢/ ١٥٨) عن ابن مسعود به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٧١٥ ـ بتخريجنا).

(٢) الجديد ٤٥٤.

وَفِى «الصَّحِيحِ» عَنْ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْن رَضِىَ اللهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِى قَرْنِى، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم (قَالَ عِمْرَانُ: فَلاَ أَدْرِى أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً؟)، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُم قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِم السِّمَنُ»[1].

قوله: ـ وفى الصحيح عن عمران بن حصين ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتى قرنى ...» الحديث.

قوله: «وفى الصحيح» أى الصحيحين. وغيرهما.

قال الفقير: هذا الحديث أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة باب فضائل أصحاب النبى ﷺ، ومسلم فى فضائل الصحابة باب فضل الصحابة وأبو داود فى السنة باب فضل أصحاب رسول الله ﷺ والترمذى باب ما جاء فى القرآن من حديث عمران بن حصين.

وذكره البخارى فى أربع مواضع من صحيحه.

قال: باب لا يشهد على شهادة زور إذا أشهد ولفظه[2]: «عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ **«خيركم قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»** قال عمران: لا أدرى أذكر النبى ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة - قال النبى ﷺ: **«إن بعدكم قومًا يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»**.

وذكره فى باب فضائل أصحاب النبى ﷺ ولفظه[3]: **«خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران: فلا أدرى** أذكَر بعد قرنه قرنين أو ثلاثًا **ثم إن**

---

(1) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى فى: فضائل الصحابة/ باب: فضائل أصحاب النبى ﷺ (٧/ ٥/ ح٣٦٥٠)، (٢٦٥١) ومسلم فى «فضائل الصحابة: /باب: فضل الصحابة (٨/ ٣٢٦/ ح٢١٤) وأبو داود فى السنة: /باب: فضل أصحاب رسول الله ﷺ (٤/ ٢١٣/ ح٤٦٥٧)، والترمذى فى «الفتن» /باب: ما جاء فى القرن الثانى (٤/ ٥٠٠/ ح/ ٢٢٢٢).

من حديث عمران بن حصين.

(2) ح ٢٦٥١.

(3) ح/ ٣٦٥٠.

بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن.

وذكره فى باب ما يحذر من زهرة الدنيا، والتنافس فيها ولفظه[1]: « عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجىء من بعدهم قوم تسبق شهادتهم أيمانهم وأيمانهم شهادتهم**»، وسيأتى.

وذكره فى باب: إثم من لا يفى بالنذر.

ولفظه: عن عمران بن حصين يحدِّث عن النبى ﷺ قال: «**خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**، قل عمران: لا أدرى ذكر اثنين أو ثلاثًا بعد قرنه **ثم يجىء قوم ينذرون ولا يوفون، ويخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون، ويظهر فيهم السمن**.

وفى لفظ عند مسلم[2]: (**خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم**) زاد فى حديث أبو عوانة قال: والله أعلم أذكر الثالث أم لا، بمثل حديث زهدم عن عمران، وزاد فى حديث هشام عن قتادة (**أو يحلفون ولا يحلفون**).

[قوله عن عمران بن حصين] تقدمت ترجمته.

قوله: «خير أمتى قرنى» قال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: لفضيلة أهل ذلك القرن فى العلم والإيمان، والأعمال الصالحة التى يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون، فغلب فيها وكثر أهله، وقل الشر فيها وأهله، واعتز فيها الإسلام والإيمان، وكثر فيها العلم والعلماء : «**ثم الذين يلونهم**» فضلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم، وكثرة الداعى إليه، والراغب فيه والقائم به، وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزيل، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت، فأهلها فى غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب. اهـ.

وبهذا يظهر أنَّ المصنف جمع بين بعض ألفاظ الحديث.

قوله: «خير أمتى قرنى»

---

(1) سيأتى تخريجه.

(2) [صحيح] مسلم (٨/٣٢٦/ ٢١٤).

(3) تيسير العزيز الحميد ٥٤٢.

قال ابن عثيمين [(١)]: (خير): مبتدأ و(قرني) خبر.

قال ابن حجر[(٢)]: أي أهل قرني.

والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا فى أمر من الأمور المقصودة ، ويقال إن ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا فى زمن نبى أو رئيس يجمعهم على ملة أو مذهب أو عمل، ويطلق القرن على مدة من الزمان.

واختلفوا فى تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين لكن لم أر من صرح بالسبعين ولا بمائة وعشرة، وما عدا ذلك فقد قال به قائل.

وذكر الجوهرى بين الثلاثين والثمانين، وقد وقع فى حديث عبد الله بن بسر عند مسلم ما يدل على أن القرن مائة وهو المشهور.

وقال صاحب المطالع، القرن أمة هلكت فلم يبق منهم أحد، وثبت المائة فى حديث عبد الله بن بسر وهى ما عند أكثر أهل العراق، ولم يذكر صاحب «المحكم» الخمسين وذكر من عشر إلى سبعين ثم قال، هذا هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن، وهذا أعدل الأقوال وبه صرح ابن الأعرابى وقال: إنه مأخوذ من الأقران ، ويمكن أن يحمل عليه المختلف من الأقوال المتقدمة ممن قال إن القرن أربعون فصاعداً، أما من قال إنه دون ذلك فلا يلتئم على هذا القول والله أعلم.

والمراد بقرن النبى ﷺ فى هذا الحديث الصحابة وفى الحديث : «وبعث فى خير قرون بنى آدم» وفى رواية بريدة عند أحمد «خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم»[(٣)] وقد ظهر أن الذى بين البعثة وآخر من مات من الصحابة مائة سنة وعشرون سنة أو دونها أو فوقها بقليل على الاختلاف فى وفاة أبى الطفيل، وإن اعتبر ذلك من بعد وفاته ﷺ فيكون مائة سنة أو تسعين أو سبعًا وتسعين.

وأما قرن التابعين فإن اعتبر من سنة مائة كان نحو سبعين أو ثمانين ، وأما الذين بعدهم فإن اعتبر منها كان نحواً من خمسين ، فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان والله أعلم.

واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين، وفى هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشيًا ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤسها ، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن، وتغيرت الأحوال تغيراً شديدًا، ولم يزل الأمر فى نقص إلى الآن، وظهر قوله ﷺ : «ثم يفشو الكذب» ظهوراً بينًا حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات والله المستعان.

---

(١) القول المفيد (٣/ ٢٨٣) (٢) الفتح ٧/ ٨.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٥٠) عن بريدة به.

قال ابن عثيمين[1]: **قوله: «خير أمتى قرنى» وفى لفظ لهما: «خيركم قرنى»** وفى حديث ابن مسعود عند البخارى: «خير الناس قرنى»[2] وهذا هو المراد إذ المراد بالخيرية هنا الخيرية المضافة إلى الناس عمومًا وليس للأمة فقط، ولهذا ثبت عنه ﷺ أنه قال: **«بعثت من خير قرون بنى آدم»**[3].

وعليه: فالخيرية فى القرن الأول خيرية عامة على جميع الناس وليس على هذه الأمة فقط.

وأما قوله: «خير أمتى».

فإنه يقال: إن الخيرية إذا كانت مضافة إلى عموم الناس دخل فيها هذه الأمة، لكن إذا خصصناها بهذه الأمة خرج بقية الناس، والأخذ بالعموم الداخل فيه الخاص أولى، وقد يقال: إن معنى اللفظين واحد، فإن هذه الأمة خير الأمم، فإذا كان الصحابة خير قرونها لزم أن يكونوا خير الناس.

والقرن مأخوذ من الاقتران، والمراد: الطائفة المقترنون بشىء من الأشياء كالملة، أو السن، أو ما أشبه ذلك.

فمن العلماء عَرَّفه: بالطائفة كما سبق، ومنهم من عَرَّفه بالزمن، وهؤلاء اختلفوا فيه على أقوال:

فمنهم من حده بأربعين، ومنهم من حده بثمانين، ومنهم من حده بمائة، ومنهم حده بمائة وعشرين سنة.

فعلى الأول يكون معنى «خير أمتى قرنى»: خير أمتى الصحابة، سواء بلغوا مائة سنة أم لا، والمعروف أن آخر من مات من الصحابة مات سنة مائة وعشرة أو مائة وعشرين ، فإذا قلنا مائة وعشرين، فهذه المدة زائدة على المائة ، وإذا اعتبرناها من البعثة تكون مائة وثلاثًا وثلاثين سنة، لأن التقويم مبتدأ من الهجرة، والهجرة كانت بعد البعثة بثلاث عشرة سنة، وهذا القرن الأول، أما التابعون، فإن آخرهم مات سنة مائة وثمانين ، فيكون بينهم وبين الصحابة ستون سنة، وأما تابعو التابعين، فإن آخرهم مات سنة مائتين وعشرين، وهذا منتهى القرن الثالث.

(1) القول المفيد ٣/٢٨٣- ٢٨٥.

(2) سيأتى تخريجه.

(3) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٥٧) عن أبى هريرة به.

فقرن الصحابة إن ابتدأته من البعثة صار ثلاثًا وثلاثين ومائة سنة، وإن ابدأته من الهجرة صار عشرين ومائة سنة .

وقرن التابعين ستون سنة.

وقرن تابع التابعين أربعون سنة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن القرن معتبر بمعظم الناس، فإن كان معظم الناس التابعين فالقرن قرنهم، وهكذا.

قوله: «أمتى».

المراد أمة إجابة، لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم خير. اهـ.

قوله: «ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»

قال ابن حجر(١): «قوله : «ثم الذين يلونهم» .

قوله: «ثم الذين يلونهم » أى القرن الذى بعدهم وهم التابعين.

(ثم الذين يلونهم) وهم أتباع التابعين، واقتضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين والتابعون أفضل من أتباع التابعين،

لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد؟

محل بحث، وإلى الثانى نحا الجمهور، والأول قول ابن عبد البر، والذى يظهر أن من قاتل مع النبى ﷺ أو فى زمانه بأمره أو أنفق شيئًا من ماله بسببه لا يعدله فى الفضل أحد بعده كائنًا من كان، وأما من لم يقع له ذلك فهو محل البحث، والأصل فى ذلك قوله تعالى: ﴿ **لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا** ﴾ الآية واحتج ابن عبد البر بحديث: «مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره» وهو حديث حسن له طرق قد يرتقى بها إلى الصحة، وأغرب النووى فعزاه فى فتاويه إلى مسند أبى يعلى من حديث أنس بإسناد ضعيف، مع أنه عند الترمذى بإسناد أقوى منه من حديث أنس، وصححه ابن حبان من

(١) الفتح ٧/ ٨.

حديث عمار[1] وأجاب عنه النووى بما فى حاصله، أن المراد من يشتبه عليه الحال فى ذلك من أهل الزمان الذين يدركون عيسى بن مريم عليه السلام ويرون فى زمانه من الخير والبركة وانتظام كلمة الإسلام ودحض كلمة الكفر، فيشتبه الحال على من شاهد ذلك أى الزمانين خير، وهذا الاشتباه مندفع بصريح قوله ﷺ: **«خير القرون قرني»** والله أعلم. وقد روى ابن أبى شيبة من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير أحد التابعين بإسناد حسن قال، قال رسول الله ﷺ: **«ليدركن المسيح أقوامًا إنهم لمثلكم أو خير - ثلاثا - ولن يخزى الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها»**[2].

وروى أبو داود والترمذى من حديث أبى ثعلبة رفعه: **«تأتى أيام للعامل فيهن أجر خمسين**، قيل: منهم أو منا يارسول الله قال: **«بل منكم»**[3] وهو شاهد لحديث **«مثل أمتى مثل المطر»** واحتج ابن عبد البر أيضًا بحديث عمر رفعه **«أفضل الخلق إيمانًا قوم فى أصلاب الرجال يؤمنون بى ولم يروني»**[4] الحديث أخرجه الطيالسى وغيره لكن إسناده ضعيف فلا حجة فيه، وروى أحمد والدارمى والطبرانى من حديث أبى جمعة قال: «قال أبو عبيدة: يا رسول الله أحد خير منا؟ أسلمنا معك، وجاهدنا معك. قال: **«قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بى ولم يروني»**[5] وإسناده حسن وقد صححه الحاكم، واحتج أيضًا بأن السبب فى كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء فى إيمانهم لكثرة الكفار حينئذ وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم، قال: فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصى والفتن كانوا أيضًا عند ذلك غرباء، وزكت أعمالهم فى ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك، ويشهد له ما رواه مسلم عن أبى هريرة رفعه **«بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء»**[6] وقد تعقب كلام ابن عبد البر بأن مقتضى كلامه أن يكون فيمن يأتى بعد

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ١٣٠)، والترمذى (٢٨٦٩) عن أنس به وقال الترمذي: حسن غريب.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/٣١٩)، وابن حبان فى «صحيحه» (٩/١٧٦ ـ الإحسان) عن عمار بن ياسر به.

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٤/ ٥٦٧/ ٤٢) عن عبد الرحمن بن جبير مرسلاً. ولطائف المعارف(١/ ٢١٧) وانظر «كتابى فقه الخطابة (١/ ٢٧٥)

(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذى (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤) عن أبى ثعلبة به.
وانظر «الإتقان» للسيوطى بتخريجنا.

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/١٠٦)، الطبرانى فى «الدرن» (٤/ ٢٢/ ٣٥٣٧)، والحاكم فى «المستدرك» (٤/ ٨٥.
عن أبى جمعة به.
وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٦) [صحيح]أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٤٥٣/ ٢٣٢) عن أبى هريرة به.

الصحابة من يكون أفضل من بعض الصحابة، وبذلك صرح القرطبى ، لكن كلام ابن عبد البر ليس على الإطلاق في حق جميع الصحابة، فإنه صرح فى كلامه باستثناء أهل بدر والحديبية، نعم والذى ذهب إليه الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يعد لها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ ، وأما من اتفق له الذب عنه والسبق إليه بالهجرة أو النصرة وضبط الشرع المتلقى عنه وتبليغه لمن بعده فإنه لا يعد له أحد ممن يأتى بعده لأنه ما من خصلة من الخصال المذكورة إلا والذى سبق بها مثل أجر من عمل بها من بعده، فظهر فضلهم ، ومحصل النزاع يتمحض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة كما تقدم، فإن جمع بين مختلف الأحاديث المذكورة كان متجهًا ، على أن حديث «**للعامل منهم أجر خمسين منكم**»[(١)] لا يدل على أفضلية غير الصحابة على الصحابة، لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضًا فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله فى ذلك العمل فأما ما فاز به من شاهد النبى ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد، فبهذه الطريق يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة ، وأما حديث أبى جمعة[(٢)]، فلم تتفق الرواة على لفظ فقد رواه بعضهم بلفظ الخيرية كما تقدم ، ورواه بعضهم بلفظ «قلنا يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرًا؟» الحديث أخرجه الطبرانى وإسناد هذه الرواية أقوى من إسناد الرواية المتقدمة، وهى توافق حديث أبى ثعلبة[(٣)]، وقد تقدم الجواب عنه والله أعلم. اهـ.

قوله: «قال عمران : فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا؟»

قال ابن حجر[(٤)]: «**قوله: فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة**» وقع مثل هذا الشك فى حديث ابن مسعود وأبى هريرة عند مسلم[(٥)]، وفى حديث بريدة عند أحمد[(٦)]، وجاء فى أكثر الطرق بغير شك، منها عن النعمان بن بشير عند أحمد[(٧)]، وعن مالك عند مسلم عن عائشة «قال رجل: يا رسول الله أى الناس خير؟ قال : «**القرن الذى أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث**»[(٨)] ، ووقع فى رواية الطبرانى وسمويه ما يفسر به هذا السؤال، وهو ما أخرجاه من طريق بلال بن سعد بن تميم عن أبيه» قال قلت: يا رسول

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم أيضاً.
(٤) الفتح ٧/ ٩، ١٠.
(٥) تقدم تخريجهما.
(٦) تقدم تخريجه.
(٧) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٢٦٧) عن النعمان به.
(٨)[صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/ ٣٢٧/ ٢١٦) عن عائشة به.

الله أي الناس خير؟ فقال: «**أنا وقرني**»[1] فذكر مثله، وللطيالسي من حديث عمر رفعه «**خير أمتي القرن الذي أنا منهم، ثم الثاني، ثم الثالث**» ووقع في حديث جعدة بن هبيرة عند أبي شيبة والطبراني إثبات القرن الرابع ولفظه «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الآخرون أردأ**»[2] ورجاله ثقات، إلا أن جعدة مختلف في صحبته والله أعلم.اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[3]: **قوله**: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثًا ؟ هذا شك من راوي الحديث عمران بن حصين رضي الله عنه. والمشهور في الروايات: أن القرون المفضلة ثلاثة الثالث دون الأولين في الفضل، لكثرة البدع فيه، لكن العلماء متوافرون، والإسلام فيه ظاهر، والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين وكثرة الأهواء .اهـ.

قال ابن عثيمين[4]: وإذا كان عمران لا يدري، فالأصل أنه ذكر مرتين، فتكون القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو المشهور.اهـ.

قوله: «ثم إن بعدهم قوم»

قال ابن عثيمين[5]: **«قوله «ثم إن بعدكم قومًا»**

وفي رواية البخاري: «**ثم إن بعدكم قومًا**» بنصب «**قومًا**»، وهذا لا إشكال فيه، لكن في هذه الرواية برفع «**قوم**» فيه إشكال، لأن «**قوم**» اسم إن، وقد اختلف العلماء في هذا:

فقيل على لغة ربيعة: الذين لا يقفون على المنصوب بالألف، فلم يثبت الكاتب الألف، فصارت «**قوم**».

وهذا جواب ليس بسديد، لأن الرواية ليست مكتوبة فقط، بل تكتب وتقرأ باللفظ عند أخذ التلاميذ الرواية من المشايخ، ولأن هذا ليس محل وقف.

وقيل: إن «**إن**» اسمها ضمير الشأن محذوف، إلحاقًا لها بإن المخففة، لأن «إن» المخففة تعمل بضمير الشأن، قال الشاعر:

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/ ٤٤/ ٥٤٦٠) قال الهيثمي في «المجمع. (١٠/ ١٩): رجاله ثقات.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٢٨٥/ ٢١٨٧) عن جعدة به.

وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٠): رجاله رجال الصحيح إلا أن إدريس بن يزيد الأودي لم يسمع والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٩١)من جعدة والله أعلم.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٥٤٢ .

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٨٥ .

(٥) القول المفيد ٣/ ٢٨٥و٢٨٦ .

* وإن مالك كانت كرام المعادن *

فإن المشددة هنا حملت على إن المخففة ، فاسمها ضمير الشأن محذوف وعليه يكون «**بعدكم**» : خبر مقدم، و«قوم» مبتدأ مؤخر، والجملة خبر «إن».

وقيل: إن هنا بمعنى نعم ، فيكون المعنى: ثم نعم بعدكم قوم، وهذا فيه تكلف.

والظاهر: القول الثانى إن صَحَّت الرواية.اهـ.

قال ابن حجر(١): «قوله«ثم إن بعدهم قومًا».

واستدل بهذا الحديث على تعديل أهل القرون الثلاثة وإن تفاوتت منازلهم فى الفضل ، وهذا محمول على الغالب والأكثرية، فقد وجد فيمن بعد الصحابة من القرنين من وجدت فيه الصفات المذكورة المذمومة لكن بقلة، بخلاف من بعد القرون الثلاثة فإن ذلك كثر فيهم واشتهر، وفيه بيان من ترد شهادتهم وهم من اتصف بالصفات المذكورة، وإلى ذلك الإشارة بقوله «**ثم يفشوا الكذب**» أى يكثر، واستدل به على جواز المفاضلة بين الصحابة قاله المازري.

قال ابن حجر(٢): قوله: (ويشهدون ولا يستشهدون) يحتمل أن يكون المراد التحمل بدون التحميل أو الأداء بدون طلب، والثانى أقرب.

ويعارضه ما رواه مسلم من حديث زيد بن خالد مرفوعًا «**ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذى يأتى بالشهادة قبل أن يسألها**»(٣).

واختلف العلماء فى ترجيحهما، فجنح ابن عبد البر إلى ترجيح حديث زيد بن خالد لكونه من رواية أهل المدينة فقدمه على رواية أهل العراق، وبالغ فزعم أن حديث عمران هذا لا أصل له.

وجنح غيره إلى ترجيح حديث عمران لإتفاق صاحبى الصحيح عليه، وانفراد مسلم بإخراج حديث زيد بن خالد.

وذهب آخرون إلى الجمع بينهما فأجابوا بأجوبة:

أحدها: أن المراد بحديث زيد من عنده شهادة لإنسان بحق لا يعلم بها صاحبها فيأتى إليه فيخبره بها، أو يموت صاحبها العالم بها ويخلف ورثة فيأتى الشاهد إليهم أو

(١) الفتح /٧ /١٠.
(٢) الفتح /٧ /٣٠٧ ـ ٣٠٨.
(٣) [صحيح]أخرجه مسلم فى الأقضية (٦/٢٥٨/١٩) عن زيد بن خالد به.

إلى من يتحدث عنهم فيعلمهم بذلك، وهذا أحسن الأجوبة، وبهذا أجاب يحيى بن سعيد شيخ مالك ومالك وغيرهما.

ثانيهما : أن المراد به شهادة الحسبة ، وهى ما لا يتعلق بحقوق الآدميين المختصة بهم محضاً ويدخل فى الحسبة مما يتعلق بحق الله أو فيه شائبة منه العتاق والوقف والوصية العامة والعدة والطلاق والحدود ونحو ذلك.

وحاصله: أن المراد بحديث ابن مسعود الشهادة فى حقوق الآدميين ، والمراد بحديث زيد بن خالد الشهادة فى حقوق الله.

ثالثها : أنه محمول على المبالغة فى الإجابة إلى الأداء ، فيكون لشدة استعداده لها كالى أداها قبل أن يسألها، كما يقال فى وصف الجواد: إنه ليعطى قبل الطلب، أى يعطى سريعًا عقب السؤال من غير توقف.

وهذه الأجوبة مبنية على أن الأصل فى أداء الشهادة عند الحاكم أن لا يكون إلا بعد الطلب من صاحب الحق، فيخص ذم من يشهد بمن ذكر ممن يخبر بشهادة عنده لا يعلم صاحبها بها أو شهادة الحسبة.

وذهب بعضهم إلى جواز أداء الشهادة قبل السؤال على ظاهر عموم حديث زيد بن خالد ، وتألوا حديث عمران بتأيلات:

أحدها : أنه محمول على شهادة الزور، أى يؤدون شهادة لم يسبق لها تحملها، وهذا حكاه الترمذى عن بعض أهل العلم.

ثانيها: المراد بها الشهادة فى الحلف، يدل عليه قول إبراهيم فى آخر حديث ابن مسعود «**كانوا يضربوننا على الشهادة**» (*) أى قول الرجل أشهد بالله ما كان إلا كذا على معنى الحلف، فكره ذلك كما كره الإكثار من الحلف ، واليمين قد تسمى شهادة كما قال تعالى: ﴿**فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ**﴾ وهذا جواب الطحاوي.

ثالثها: «**المراد بها الشهادة**» على المغيب من أمر الناس، فيشهد على قوم أنهم فى النار وعلى قوم أنهم فى الجنة بغير دليل، كما يصنع ذلك أهل الأهواء، حكاه الخطابى.

رابعها : المراد به من ينتصب شاهداً وليس من أهل الشهادة.

خامسها: المراد به التسارع إلى الشهادة وصاحبها بها عالم من قبل أن يسأله. والله أعلم.

(*) [صحيح]أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/ ٣٢٤/ ٢١١) بنحوه من قول إبراهيم.

وقوله : «يشهدون ولايستشهدون» استدل به على أن من سمع رجلا يقول: لفلان عندى كذا فلا يسوغ له أن يشهد عليه بذلك إلا إن استشهده. وهذا بخلاف من رأى رجلا يقتل رجلا أويغصبه ماله فإنه يجوز له أن يشهد بذلك وإن لم يستشهده الجاني. اهـ.

قال ابن عثيمين [1]: **قوله (يشهدون)** أي : يخبرون عما علموه مما شاهدوه أوسمعوه أو لمسوه أو شموه؛ لأن الشهادة إخبار الإنسان بما يعلم، قال تعالي: ﴿**إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[2]. ولايشترط أن تكون بلفظ أشهد على الصحيح، وقد قيل للإمام أحمد: إن فلاناً يقول: «إن العشرة فى الجنة ولا أشهد» . فقال: إن قاله ؛ فقد شهد. اهـ.

ثم ذكر بنحو ما تقدم من كلام ابن حجر.

قوله : «ويخونون ولايؤتمنون».

قال ابن حجر[3]: **قوله : «ولايؤمنون»** إى إنها خيانة بحيث لايأمنهم أحد بعد ذلك.

قال ابن بطال ماملخصه: سوى بين من يخون أمانته ومن لايفى بنذره، والخيانة مذمومة فيكون ترك الوفاء بالنذر مذموماً، وبهذا تظهر المناسبة للترجمة، وقال الباجى: ساق ماوصفهم به مساق العيب، والجائز لايعاد فدل على أنه غير جائر.

قال ابن عثيمين: قوله «يخونون ولا يؤتمنون» [4]:

هذا هو الوصف الثانى لهم ؛ أي: أنهم أهل خيانة وليسوا أهل أمانة، فلا يأتمنهم الناس، وليس المعنى أنه تقع منهم الخيانة بعد الائتمان حتى يقال :لماذا لم يقل : يؤتمنون ويخونون؟ فكأن الخيانة طبيعة لهم ؛ فلخيانتهم لايؤتمنون.

الخيانة: الغدر والخداع فى موضع الائتمان، وهى من الصفات المذمومة بكل حال.

وأما المكر والخديعة؛ فهى مذمومة فى حال دون حال، فقد تكون محمودة إذا كانت فى مقاتلة عدو ماكر خادع لدلالتها على القوة والإيقاع بالعدو من حيث لايشعر، ولهذا يوصف الله ـ سبحانه وتعالي ـ بالمكر والخداع فى الحال التى يكون فيها مدحاً، قال

(١) القول المفيد ٣/ ٢٨٦،٢٨٨.
(٢) الزخرف ٨٦.
(٣) الفتح (١١/ ٥٨٩).
(٤) القول المفيد ٣/ ٢٨٨،٢٨٩).

تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾وقال تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾.

وأما الخيـانةفلا يوصف الله بهـا أبدا؛ لأنها ذم بكـل حال، ولهذا كان قول الـعامة :خان الله من خان حراماً؛ لأنهم وصفوا الله بما لايصح أن يوصف به، قال الله تعالي: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾، ولم يقل : فخانهم.

قوله: «ولايؤتمنون»

أى : ليسوا أهلاً للأمانة؛ فلا يـؤتمنون على الدماء، ولا الأموال، ولا الأعراض،ولا أى شيء، والظـاهر أن هذا فى الـقرن الرابع؛ فمـابالك بالـقرن الخامش عـشر؟! وفى حديث آخر: **«ويفشو بينهم الكذب»**[1].

قوله :«وينذرون ولايوفون».

وفى لفظ **«يفون»** وهما لغتان قاله الحافظ.

وقوله **«ينذرون»** بفتح أوله وبكسر الذال المعجمة وبضمها.

قاله ابن حجر أيضاً :

قال ابن عثيمين[2]: النذر: إلزام الإنسان نفسه بـالشيء، وقد يكون للآدمي، وهذا بمعنى الـعهد الذى يوقعه الإنـسان بينه وبين غيـره، وقد يكون لله؛ كنذر العـبادة يجب الوفاء به.

قال ابن عثيمين(٣): قوله: «وينذرون ولايوفون».

أى لايؤدون ماوجب عليهم، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم، وعدم إيمانهم.

قال ابن عثيمين[4]: **قوله «وينذرون ولايوفون».**

هذا هو الوصف الثالث لهم.

فهـم ينذرون لله ولايوفـون له،ويعاهـدون المخلوق ولايوفـون له، وهذا من صـفات النفاق. اهـ.

قوله :«ويظهر فيهم السمن».

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ١٨)، والترمذى (٢٣٠٣)، وابن ماجه (٢٣٦٣) عن عمر به.

(٢،٣) تيسير القرآن الحميد ٥٢٤.

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٨٩، ٢٩٠.

قال ابن حجر(١): قوله (ويظهر فيهم السمن) بكسر المهملة وفتح الميم بعدها نون أى يحبون التوسع فى المآكل والمشارب، وهى أسباب السمن بالتشديد.

قال ابن التين: المراد ذم محبته وتعاطيه لامن تخلق بذلك، وقيل :المراد يظهر فيهم كثرة المال.

وقيل المراد أنهم يتسمنون أى يتكثرون بما ليس فيهم ويدعون ما ليس لهم من الشرف، ويحتمل أن يكون جميع ذلك مراداً. وقد رواه الترمذى من طريق هلال بن يساف عن عمران بن حصين بلفظ **«ثم يجيء قوم يتسمنون ويحبون السمن»**(٢)،وهو ظاهر فى تعاطى السمن على حقيقته. فهوأولى ماحمل عليه خبر الباب، وإنما كان مذموما لأن السمين غالباً بليد الفهم ثقيل عن العبادة كما هو مشهور.اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٣): قوله : «ويظهر فيهم السمن»

لرغبتهم فى الدنيا،ونيل شهواتهم والتنعم بها، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها. وفى حديث أنس : **«لايأتى عليكم زمان إلا والذى بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم»** قال أنس : سمعته من نبيكم ﷺ(٤)، فما زال الشر يزيد فى الأمة، حتى ظهر الشرك والبدع فى كثير منهم، حتى فيمن ينتسب إلى العلم، ويتصدر للتعليم والتصنيف.

قلت - يعنى عبد الرحمن آل الشيخ -: بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع، وصنفوا فى ذلك نظماً ونثراً، فنعوذ بالله من موجبات غضبه.اهـ.

قال ابن عثيمين(٥): هذا هو الوصف الرابع لهم.

«السمن» : كثرة الشحم واللحم، وهذا الحديث مشكل؛ لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان؛ فكيف يكون صفة ذم؟!

قال أهل العلم: المراد أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب والترف، فيكون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها.

أما السمن الذى لا اختيار للإنسان فيه؛فلا يذم عليه، كما لايذم الإنسان على كونه طويلاً أو قصيراً أو أسود أو أبيض، لكن يذم على شيء يكون هو السبب فيه.

---

(١) الفتح /٣٠٨.
(٢) أخرجه الترمذى (٢٢٢١).
(٣) تيسير العزيز الحميد ٥٤٢،٥٤٣.
(٤) [صحيح]أخرجه البخارى (٧٠٦٨) عن أنس به.
(٥) القول المفيد ٣/ ٢٩٠.

وَفِيهِ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ يَجِيءُ قَومٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحدِهِم يَمِينَهُ، ويَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

وقَالَ إِبْرَاهِيمُ: كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ والعَهْدِ ونَحْنُ صِغَارٌ[1].

فوائد [2]:

١ـ تفضيل القرون الأربعة الأولي.

٢ـ تحريم الخيانة.

٣ـ وجوب الوفاء بالنذر.

٤ـ تحريم الاشتغال بالدنيا وملذاتها عن الآخرة



قوله: وفيه عن ابن مسعود، أن النبى ـ ﷺ ـ قال: «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ... » الحديث

قال الفقير : أخرجه البخارى فى الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، ومسلم فى فضائل الصحابة باب فضل الصحابة من حديث ابن مسعود.

ذكره البخارى فى ثلاثة مواضع

قال باب فضائل الصحابة ولفظه[3] ما ذكره المصنف.

وبوب عليه باب «مايحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها. ولفظه[4] **(خيرالناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء من بعدهم قوم تسبق شهادتهم إيمانهم وإيمانهم شهادتهم)**.

وبوب عليه باب إذا قال : **أشهد بالله**، وأشهدت بالله.

ولفظه [5]: عن عبدالله قال : سئل النبى ﷺ أى الناس خير؟ قال؟ قال : «قرنى

---

(١)[صحيح] أخرجه البخارى فى الشهادات /باب :لايشهد على شهادة جور إذا أشهد (٥/٣٠٦/ح٢٦٥٢،٦٤٢٩،٦٦٥٨)ومسلم فى فضائل الصحابة/باب فضل الصحابة (٨/ ٣٢٤/ح٢١١) من حديث ابن مسعود به.

(٢) الجديد ٤٥٦

(٣) ح ٣٦٥١

(٤) ح (٦٤٢٩)

(٥) ح ٦٦٥٨

ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» قال إبراهيم :(كان اصحابنا ينهونا ـ ونحن غلمان ـ أن نحلف بالشهادة والعهد»

ولفظ مسلم[1] : **خير أمتى القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة احدهم يمينه، ويمينه شهادته** يذكر هناد القرن فى حديثه . وقال قتيبة (**ثم يجيء أقواماً**).

● مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى [2]: دل الحديث على تحريم المسارعة فى الحلف. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوي[3]: حيث حرم الحديث المسارعة فى الحلف لأن ذلك استخفاف بالله وتنقص لتعظيمه وذلك مناف للتوحيد. اهـ.

قوله:«خير الناس»:

قال ابن عثيمين[4]:

دليل على أن قرنه خير الناس؛ فصحابته ﷺ أفضل من الحواريين الذين هم أنصار عيسي، وأفضل من النقباء السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ.

وقد تقدم شرحه.

قوله : ثم يجيء قوم».

قال ابن عثيمين[5]:

أى: بعد القرون الثلاثة.

قوله:«تسبق شهادة أحدهم يمينُه ويمينَه شهادته».

قال ابن حجر[6]:

قال الطحاوي: أى يكثرون الإيمان فى كل شيء حتى يصير لهم عادة فيحلف أحدهم حيث لايراد منه اليمين ومن قبل أن يستحلف وقال غيره : المراد يحلف على تصديق شهادته قبل أدائها أو بعده وهذا إذا صدر من الشاهد قبل الحكم سقطت شهادته. وقيل المراد التسرع إلى الشهادة واليمين والحرص على ذلك حتى لايدرى بأيهما يبدأ لقلة مبالاته. اهـ.

---

(١)[صحيح] أخرجه مسلم ح (٢٥٣٣)

(٢ ـ ٣) الجديد ٤٥٨

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٩١

(٥) القول المفيد ٣/ ٢٩١.

(٦) الفتح ١١/ ٥٥٢

قال ابن عثيمين[1]: **قوله:«تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»**.

يحتمل ذلك وجهين:

الأول: أنه لقلة الثقة بهم لايشهدون إلا بيمين؛ فتارة تسبق الشهادة، وتارة تسبق اليمين.

الثاني: أنه كناية عن كون هؤلاء لايبالون بالشهادة ولاباليمين؛ حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنهما متسابقتان.

والمعنيان لايتنافيان؛ فيحمل عليهما الحديث جميعاً.

وقوله : «ثم يجيء قوم» يدل على أنه ليس كل أصحاب القرن على هذا الوصف؛ لأنه لم يقل:ثم يكون الناس، والفرق واضح.

وهذه الأفضلية أفضلية من حيث العموم والجنس، لامن حيث الأفراد؛ فلايعنى أنه لايوجد في تابعى التابعين من هو أفضل من التابعين، أولايوجد في التابعين من هو أعلم من بعض الصحابة، أما فضل الصحبة؛ فلا يناله أحد غي الصحابة ولا أحد يسبقهم فيه، وأما العلم والعبادة ؛ فقد يكون فيمن بعد الصحابة من هو أكثر من بعضهم علماً وعبادة

● **تنبيه:**

ساق المؤلف رحمه الله الحديث بتكرار قوله: **«ثم الذين يلونهم»** ثلاث مرات،وهو في«الصحيحين» تكرارها مرتين. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[2]: وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا، ونسي المعاد، فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداء؛ لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك وهذا هو الغالب على الأكثر، والله المستعان. فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف، فكن من الناس على حذر .اهـ

قوله قال ابراهيم.

قال ابن حجر[3]: هوالنخعي، وهو موصول بالسند المتقدم. اهـ.

قال ابن عثيمين[4]: هو إبراهيم النخعي، من التابعين ومن فقهائهم. اهـ.

(١) القول المفيد ٣/ ٢٩١،٢٩٢
(٢) الفتح ١/ ٥٥٣
(٣) التيسير ٥٤٣
(٤) القول المفيد ٣/ ٢٩٢

قوله : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار

قال عبد الرحمن (١): وذلك لكثرة علم التابعين وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأنه من أفضل الجهاد، ولايقوم الدين إلا به، وفى هذا الرغبة فى تمرين الصغار على طاعة ربهم، ونهيهم عما يضرهم: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ . اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): فى نسخة : «**على الشهادة والعهد**»، والظاهر أن الذى يضربهم ولى أمرهم .

وقوله :«على الشهادة»

أى: يضربوننا عليها إن شهدنا زوراً، أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها، ويحتمل أن المراد بذلك ضربهم عن المبادرة باليمين والعهد، وبه فسره ابن عبدالبر.

قال ابن عثيمين:(٤) **قوله : «والعهد»:**

أى: إذا تعاهدوا يضربونهم على الوفاء بالعهد.

قوله:«ونحن صغار»

الجملة حالية، إنما يضربونهم وهم صغار للتأديب.

ويستفاد من كلام إبراهيم أن الصبى تقبل منه الشهادة؛ لأن قوله: «ونحن صغار» ؛ أى: لم يبلغوا، وهذامحل خلاف بين أهل العلم.

فقال بعضهم: يشترط لأداء الشهادة أن يكون بالغاً، فإذا تحمل وهو صغير؛ لم تقبل منه حتى يبلغ.

وقال بعضهم :شهادة لصغار بعضهم على بعض مقبولة تحملاً وأداءً؛ لأن لبلغ يندر أن يوجد بين الصغار.

وقال بعضهم: تقبل شهادة الصغار بعضهم على بعض إن شهدوا فى الحال؛ لأنه بعد التفرق يحتمل النسيان أو التلقين،ولايسع العمل إلا بهذا، وإلا ؛ لضاعت حقوق كثيرة بين الصبيان.

ويستفاد من هذا الأثر جواز ضرب الصبى على الأخلاق إذا لم يتأدب إلا بالضرب.

(١-٢) القول المفيد ٣/ ٢٩٢

(٣) التيسير ٥٤٣

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٩٣.

فيه مسائل

الأولى: الوَصيةُ بحفْظِ الأَيْمان.

الثانية: الإخْبارُ بأنَ الحلِفَ منَفقَةٌ للسِّلعَة، مَمْحقَةٌ للبرَكة.

الثالثة: الوَعيدُ الشَّديدُ فيمنْ لاَ يَبيعُ إلا بيَمينه ولاَ يشْتَرى إلا بيَمينه .

الرابعة: التَّنْبيهُ علَى أنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ مَعَ قِلَّةَ الدَّاعِي.

الخامسة: ذَمُّ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ ولا يُسْتَحْلَفُونَ.

قال ابن عثيمين(١):

قوله «فيه مسائل».

● **الأولى: الوصية بحفظ الإيمان.**

تؤخذ من قوله تعالى ﴿واحفظوا أيمانكم﴾، والأمر وصية.

● **الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة.**

تؤخذ من قوله ﷺ : «**الحلف منفقة للسلعة ...**»إلخ.

● **الثالثة : الوعيد الشديد لمن لايبيع ولايشترى إلا بيمينه.**

تؤخذ من قوله ﷺ : «**ورجل جعل الله بضاعته؛ لايشترى إلا بيمينه...**» إلخ فى ضمن الثلاثة الذين لايكلمهم الله ولا يزكيهم.

● **الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي**

تؤخذ من حديث سلمان، حيث ذكر الأشيمط الزانى والعائل المستكبر، وغلظ فى عقوبتهم؛ لأن الداعى إلى فعل المعصية المذكورة ضعيف عندهما.

● **الخامسة: ذم الذين يحلفون ولايستحلفون.**

لقوله ﷺ : «**ورجل جعل الله بضاعته؛ لايشترى إلا بيمينه...**».

ولكن هذا ليس على إطلاقه، بل النبى ﷺ حلف ولم يستحلف فى

---

(١) القول المفيد ٣/ ٢٩٤ ـ٢٩٧

السادسة: ثَنَاؤُهُ ﷺ عَلَى القُرُونِ الثَّلاثَةِ أَوِ الأَرْبَعَةِ ، وَذِكْرُ مَا يَحْدُثُ بَعْدَهُمْ.

السابعة: ذَمُّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ وَلا يَسْتَشْهَدُونَ .

الثامنة: كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصِّغَارَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ.

مواضع عديدة، بل أمره الله ـ سبحانه ـ أن يحلف فى ثلاثة مواضع من القرآن بدون أن يستحلف:

فى قوله : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّي﴾[1].

وفى قوله : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾[2].

وفى قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[3].

وعليه؛ فإن الحلف إذا دعت الحاجة إليه أو اقتضته المصلحة؛ فإنه جائز بل قد يكون مندوباً إليه؛ كحلف النبى ﷺ فى قصة المخزومية، حيث قال: «**وايم الله؛ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[4] فقد وقع موقعاً عظيماً من هؤلاء القوم الذين أهمهم شأن المخزومية وممن يأتى بعدهم.

● **السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر مايحدث.**

تؤخذ من قوله : «**خير الناس قرنى ...**»، وقوله : «**أو الأربعة**» بناء على ثبوت ذكر الرابع، وأكثر الروايات وأثبتها على حذفه.

● **السابعة: ذم الذين يشهدون ولايستشهدون .**

تؤخذ من حديث عمران، وكذا ذم الذين يخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولايوفون، والذين يتعاطون أسباب السمن ويغفلون عن سمن القلب بالإيمان والعلم.

● **الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.**

---

(١) يونس : ٥٣

(٢) التغابن : ٧

(٣) سبأ : ٣

(٤) تقدم تخريجه .

تؤخذ من قول إبراهيم النخعي: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد»؛ فيؤخذ منه تعظيم شأن العهد والشهادة وضرب الصغار على ذلك، ويؤخذ منه أيضاً عناية السلف بتربية أولادهم، وأن من منهجهم الضرب على تحقيق ذلك استناداً إلى إرشاد نبيهم ﷺ، حيث أمر بضرب من بلغ عشر سنين على الصلاة، لكن يشترط لجواز الضرب:

الأول: أن يكون الصغير قابلاً للتأديب؛ فلا يضرب من لايعرف المراد بالضرب.

الثاني: أن يكون التأديب ممن له ولاية عليه.

الثالث : أن لايسرف في ذلك كمية أو كيفية أو نوعاً أوموضعاً أوغير ذلك.

الرابع : أن يقع من الصغير مايستحق التأديب عليه.

الخامس: أن يقصد تأديبه لا الانتقام لنفسه، فإن قصد الانتقام؛ لم يكن مؤدباً، بل منتصر. أهـ



باب (٦٢)
ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال الفقير : لما كان الحلف والأيمان مع العهود والمواثيق متشابهان من جهة أن الأول للتأكيد، والثانى كذلك مع الإلتزام، أى التأكيد على ما التزم به فى العهد ناسب لذلك أن يذكر المصنف ما جاء فى ذمة الله وذمة نبيه بعد باب ما جاء فى كثرة الحلف، ولأنه فى الباب الأول أمر بحفظ الأيمان، وفى الثانى نهى عن نقضها، فناسب أن يتابعان أيضاً ولأن كثرة الحلف بالله لا يدل على تعظيمه وكذلك العهد بالله وعدم الوفاء بعهده فناسب أن يتعاقبان والله أعلم.

● **ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد؟**

قال حامد بن محمد[1]: **باب ماجاء فى** بيان أجر من حفظ ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وكبر إثم من خفر ذمة الله وذمة رسوله ﷺمن الكتاب والسنة.

أما الكتاب فذلك قوله تعالى : **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾**[2]، فأمر الله تعالى بحفظ العهد والوفاء به، ونهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها وذكر تعالى مآل الغدر ونقض الأيمان فى قوله تعالى **﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾**[3]. وقد علم بالضرورة العقلية والنقلية وتجارب الأمم أن الغدر ، ونقص الأيمان، وخفر الذمة مايورث إلا شراً.

إياك والغدر كم من غادر وقع ... فى شر ماكان قبل الغدر متخذل(*)
يقول ياليت لم أغدر وليس له ... فك من الشر والخسران والخذل
أيضاً ولاتنقضوا الأيمان مدخلاً ... تزل أقدام ناس بعد ذا الدخل
كن ناصحاً وصدوقاً موفياً فطناً ... الصدق يعلو نقض القول فى السفل

(١) فتح الله الحميد المجيد ٤٦٦
(٢) النحل : ٩١
(٣) النحل : ٩٤
(*) هكذا فى الكتاب ولعلها (منخذل)

فكم محنة نزلت بالمسلمين بسبب شيء من ذلك رأيناه عياناً وسماعاً ولكن أين أولوا الألباب والأبصار ليعتبروا ولم يخذل المسلمون قديماً وحديثاً وسلط عليهم العدو وتشتتوا واختلوا إلا به وأمثاله من المعاصي ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله، وأرجو أن الله يتوب على المسلمين ويوفقهم لما يحب ويرضى ويظهرهم على أعداء الدين فى مشارق الأرض ومغاربها إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جديراً. هـ.

قال ابن قاسم(١) : فى «حاشيته على كتاب التوحيد»: «أى: من الدليل على وجوب حفظها والوفاء بها، والمراد التى تدخل فى العهود، وأن عدم الوفاء عدم تعظيم له؛ فهو قدح فى التوحيد» أ. هـ.

قال ناصر السعدى(٢): المقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التى يخشى منها نقض العهود والإخلال بها بعد مايجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله فإنه متى وقع النقض فى هذه الحال كان انتهاكاً من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه وتركاً لتعظيم الله، وارتكاباً لأكبر المفسدتين كما نبه عليه ﷺ وفى ذلك أيضاً تهوين للدين والإسلام وتزهيد الكفار به، فإن الوفاء بالعهود خصوصاً المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلى تفضيله واتباعه أ. هـ.

قال ابن باز(٣): أى باب ماجاء فيه من تعظيمهما والتحذير من إخفارهما والتحذير أيضاً من جعلهما للناس لأن هذا وسيلة إلى إخفارهما فالواجب على ولاة الأمور أن لايجعلوا للناس ذمة الله وذمة نبيه وإنما يجعلون لهم ذمة الرئيس والملك وأصحابه.

وهذا من باب تعظيم ذمة الله وذمة رسوله وهو من باب إكمال التوحيد والإيمان وإخفارهما نقص فى التوحيد ووسيلة إلى التلاعب.

قال ابن عثيمين (٤): مناسبة الباب للتوحيد: أن عدم الوفاء بعهد الله تنقص له، وهذا مخل بالتوحيد.

قال عبدالله بن جار الله(٥): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هى أن نقض العهد دليل على عدم تعظيم الله تعالى فهو قادح فى التوحيد.

(١) نقلاً عن حاشية كتاب القول المفيد ٣/ ٢٩٨.
(٢) القول السديد ١٣٣.
(٣) التعليق المفيد ٢٧١.
(٤) القول المفيد٣/ ٣٠٠.
(٥) الجامع الفريد (٢١٧)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية (١).

ثم نقل كلام السعدى المتقدم بنصه(٢)

● شرح الترجمة:

قال ابن عثيمين (٣): الذِّمة: العهد، وسُمِّى بذلك ؛ لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدَّين بدَيْنه فى ذمته.

والله له عهد على عباده: أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً.

وللعباد عهد على الله، وهو : أن لايعذب من لايشرك به شيئاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ ؛ فهذا عهد الله عليهم، ثم قال: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾(٤)، وهذا عهدهم على الله .

وقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾(٥)، وللنبى ﷺ عهد على الأمة، وهو أن يتبعوه فى شريعته ولايبتدعوا فيها، وللأمة عليه عهد وهو أن يبلغهم ولايكتمهم شيئاً.

وقد أخبر النبى ﷺ أنه ما من نبى إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما هو خير

والمراد بالعهد هنا: مايكون بين المتعاقدين فى العهود كما كان بين النبى ﷺ وأهل مكة فى صلح الحديبية اهـ.



قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾

● مناسبة الآية للترجمة:

---

(١) النحل : ٩١
(٢) الجامع الفريد ٢١٧
(٣) القول المفيد ٣/ ٢٩٨، ٢٩٩
(٤) المائدة: ١٢
(٥) البقرة : ٤٠

قال عبد الله بن جار الله[1]: مناسبة الآية للباب أنها دلت على وجوب الوفاءبالعهود وتحريم نقضها أ.هـ.

قال ابن عثيمين[2]ومناسبة الآية للترجمة واضحة جداً؛ لأن الله قال: **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾**، وقال: **﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾**.

قال القرعاوى[3]: دلت الآية الكريمة على وجوب الوفاء بالعهد أ.هـ.

● **مناسبة الآية للتوحيد:**

قال القرعاوى[4]: حيث دلت الآية على تحريم نقض العهد لأن نقض العهد دليل على عدم تعظيم الله وذلك منافى للتوحيد قادح به أ.هـ.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾.

الإعراب[5]: **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾**الواو عاطفة وأوفوا فعل أمر وفاعل وبعهد الله جار مجرور متعلقان بأوفوا وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة عاهدتم مضاف إليها الظرف.

قال ابن عثيمين[6]: **قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا﴾.**

أمر من الرباعى من أوفى يوفى.

● **سبب نزول هذه الآية وفيمن نزلت:**

القول الأول فى سبب النزول:

عن بريدة بن جابر فى قوله **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾** قال: نزلت هذه الآية فى بيعة النبى ﷺ كان من أسلم بايع على الإسلام، فقال **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾** فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام[7].

(١) الجامع الفريد ٢١٧.

(٢) القول المفيد (٢/ ٢٩٩).

(٣ ـ ٤) الجديد ٤٦١.

(٥) الإعراب/ ٣٥٨.

(٦) القول المفيد ٣/ ٢٩٩ـ ٣٠٠.

(٧) تفسير ابن أبى حاتم (٧/ ٢٢٩٩) وابن جرير الطبرى (٧/ ١٤/ ١١٠).

[القول الثاني]:

عن مجاهد: ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ قال: تغليظها في الحلف.

وقال قتادة: يقول بعد تشديدها وتغليظها.

وقال ابن زيد: هؤلاء كانوا حلفاء لقوم تحالفوا، وأعطى بعضهم العهد فجاءهم قوم، فقالوا: نحن أكثر وأعز وأمنع فانقضوا عهد هؤلاء، وارجعوا إلينا، ففعلوا، فذلك قول الله تعالى **﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾** هي أربى: أكثر، من أجل أن كانوا هؤلاء أكثر من أولئك نقضتم العهد فيما بينكم وبين هؤلاء فكان هذا في هذا. أ.هـ.

قال الطبري[1]: والصواب من القول في ذلك أن يقال الله تعالى أمر في هذه الآية عباده بالوفاء بعهوده التي يجعلونها على أنفسهم ونهاهم عن نقض الأيمان بعد توكيدها على أنفسهم لآخرين بعقود تكون بينهم بحق مما لايكرهه الله وجائز أن تكون نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ بنهيهم عن نقض بيعتهم حذراً من قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين وأن تكون نزلت في الذين أرادوا الانتقال بحلفهم عن حلفائهم لقلة عددهم في آخرين لكثرة عددهم وجائز أن تكون في غير ذلك ولاخبر تثبت به الحجة أنها نزلت في شيء من ذلك دون شيء ولا دلالة في كتاب ولاحجة عقل أي ذلك عني بها ولاقول في ذلك أولى بالحق مما قلنا لدلالة ظاهرة عليه وإن الآية كانت قد نزلت لسبب من الأسباب ويكون الحكم بها عاما في كل ماكان بمعنى السبب الذي نزلت فيه أ.هـ.

وقال البغوي: قيل نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ، أمرهم الله بالوفاء بها، وقال مجاهد وقتادة: نزلت في حلف أهل الجاهلية. أ.هـ.

قال ابن الجوزي[2]: اختلفوا فيمن نزلت على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في حلف أهل الجاهلية، قاله مجاهد، وقتادة.

الثاني: أنها نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ أ.هـ.

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٤/ ١١٠).

(٢) زاد المسير ٤/ ٣٦٩.

وفصَّل الطبرى[1] من قبله القول فقال:

على اختلاف بينهم فـمن عنى بهذه الآية وفيما أنزلت فقال بعضـهم عنى بها الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام وفيهم أنزلت فعن بريدة قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ قال أنزلت هذه الآية فى بيعة النبى ﷺ فذكر الحديث السابق.

وقال آخرون: نزلت فى الحلف الذى كان أهل الشرك تحالفوا فى الجاهلية فأمرهم الله عزوجل فى الإسلام أن يوفوا به ولاينقضوه .

● تفسير الآية بما جاء عن التابعين.

فعن مجاهد[2] فى قول الله تعالى: **﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾** قال تغليظها فى الحلف[3].

عن قتادة قوله: **﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾** يقول بعد تشديدها وتغليظها[4].

قال ابن زيد هؤلاء قـوم كانوا حلفاء لقوم تحالـفوا وأعطى بعضهم العـهد فجاءه قوم فقالوا نحن أكثر وأعـز وأمنع فانقضوا عهد هؤلاء وارجعوا إليـنـا ففعلوا فذلك قول الله تعالى **﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾** وقد جعلتم الله عليكم **﴿كَفِيلًا﴾** أن تكون أمة هى أربى من أمة هى أربى أكـثر من أجل أن كان هؤلاء أكثر من أولئك نقـضتم العهد فيما بينكم وبين هؤلاء فكان هذا فى هذا[5].

وعن نافع ابن يزيد قال سألت يحيى بن سعيد عن قول الله **﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾** قال العهود [6].

---

(١) تفسير الطبرى (٧/ ١٤/ ١١٠/ ١١١).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٤/ ١١٠، ١١١)، وابـن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٦٣٨) وانظر «الدر» (٤/ ٢٤٢).

(٣) أخرجه ابن جرير فى المـوضع السابق، وابن أبى حاتم فى «تفسيـره» (٢٦٣٩) وذكره السيوطى فى «الدر» (٤, ٢٤٢) وزاد نسبته لابن المنذر وانظر تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا.

(٤) أخرجه ابن جـرير فى الموضع السـابق وذكره السيوطى فـى «الدر» (٤/ ٢٤٢) وزاد نسبته لـعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق

(٦) نفس المصدر السابق.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

وبين فى مواضع أخر: أن نقض الميثاق يستوجب اللعن، وذلك فى قوله ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾(*).

قال الشنقيطى[1]: قوله تعالى أمر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة عباده أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا . وظاهر الآية أنه شامل لجميع العهود فيما بين العبد وربه وفيما بينه وبين الناس، وكرر هذا فى مواضع وقوله فى (الإسراء)﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[2]: وبين في مواضع أخر: أن من نقض العهد إنما يضر بذلك نفسه، وأن من أوفى به يؤتيه الله الأجر العظيم على ذلك وذلك فى قوله :﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

قوله:﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾

● أقوال المفسرين:

قال البغوى: قوله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ والعهد ههنا هو اليمين.
قال الشعبى: العهد يمين، وكفارته كفارة اليمين. أ.هـ.

قال الزمخشرى: سيأتى فى كلام الرازى أ.هـ.

قال ابن الجوزى[3]: قال المفسرون: العهد الذى يجب الوفاء به، هو الذى يحسن فعله، فإذا عاهد العبد عليه، وجب الوفاء به، والوعد من العهد.

﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أى: بعد تغليظها وتشديدها بالعزم والعقد على اليمين، بخلاف لغو اليمين، ووكدت الشىء توكيداً، لغة أهل الحجاز. فأما أهل نجد، فيقولون : أكدته تأكيداً.

وقال الزجاج: يقال: وكدت الأمر، وأكدت لغتان جيدتان، والأصل الواو، والهمزة بدل منها.

قال الرازى[4]: ذكروا فى تفسير قوله ﴿بعهد الله﴾ وجوها.

(*) المائدة: ١٣.

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٦٢

(٢) الإسراء: ٣٤٠

(٣) زاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٤) التفسير الكبير ١٠/ ٥/ ١٠٩ـ١١٠.

الأول: قال صاحب «الكشاف»: عهد الله هى البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى ولاتنقضوا أيمان البيعة بعد توكيدها، أى بعد توثيقها باسم الله.

الثانى: أن المراد منه كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره، قال ابن عباس: والوعد من العهد، وقال ميمون بن مهران: من عاهدته أوف بعهده مسلماً كان أوكافرا فإنما العهد لله تعالى.

الثالث: قال الأصم: المراد منه الجهاد وما فرض الله فى الأموال من حق.

الرابع: عهد الله هو اليمين بالله.

وقال هذا القائل: إنما يجب الوفاء باليمين إذا لم يكن الصلاح فى خلافه، لأنه عليه السلام قال«**من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير ثم ليكفر**»(١).

الخامس: قال القاضى العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه،ومعلوم أن أدلة العقل والسمع أوكد فى لزوم الوفاء بما لايدلان على وجوبه من اليمين. ولذلك لايصح فى هذين الدليلين التغير والاختلاف، ويصح ذلك فى اليمين وربما ندب فيه خلاف الوفاء.

ولقائل أن يقول: إنه تعالى قال ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ فهذا يجب أن يكون مختصا بالعهود التى يلتزمها الإنسان باختيار نفسه لأن قوله ﴿إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ يدل على هذا المعنى وحينئذ لايبقى المعنى الذى ذكره القاضى معتبراً. ولأنه تعالى قال فى آخر الآية ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ وهذا يدل على أن الآية واردة فيمن آمن بالله والرسول، وأيضاً يجب أن لا يحمل هذا العهد على اليمين لأنا لو حملناه عليه لكان قوله بعد ذلك ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تكراراً لأن الوفاء بالعهد والمنع من النقض متقاربان، لأن الأمر بالفعل يستلزم النهى عن الترك ألا إذا قيل إن الوفاء بالعهد عام فدخل تحته اليمين، ثم إنه تعالى خص اليمين بالذكر تنبيها على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية، وعند هذا نقول الأولى أن يحمل هذا العهد على ما يلزمه الإنسان

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٦٦٢١)، ومسلم فى الأيمان (١١/ ١١٦ ـ النووى) عن عبدالرحمن بن سمرة به وانظر «رياض الصالحين» (١٧١٨ ـ بتخريجنا)

باختياره ويدخل فيه المبايعة على الإيمان بالله وبرسوله ويدخل فيه عهد الجهاد، وعهد الوفاء بالملتزمات من المنذورات أ.هـ.

قال القرطبي [(١)]: قوله ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ**﴾ لفظ عام لجميع مايعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أوصلة أو مواثقة فى أمر موافق للديانة. وهذه الآية مضمن قوله ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ لأن المعنى فيها: افعلوا كذا، وانتهوا عن كذا؛ فعطف على ذلك التقدير. وقد قيل: إنها نزلت فى بيعة النبى ﷺ على الإسلام. وقيل: نزلت فى التزام الحلف الذى كان فى الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به؛ قاله قتادة ومجاهد وابن زيد. وروى الصحيح عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله ﷺ، «**لاحلف فى الإسلام وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شده**»[(٢)] يعنى فى نصرة الحق والقيام به والمواساة. وهذا كنحو حلف الفضول الذى ذكره ابن إسحاق قال: اجتمعت قبائل من قريش فى دار عبد الله بن جدعان لشرفه ونسبه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى ترد عليه مظلمته؛ فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول[(٣)]، أى حلف الفضائل. والفضول هناجمع فضل للكثرة كفلس وفلوس. روى ابن إسحاق عن ابن شهاب قال قال رسول الله ﷺ «**لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم لو أدعى به فى الإسلام لأجبت**»[(٤)]. وقال ابن إسحاق: تحامل الوليد بن عتبة على حسين بن على فى مال له، لسلطان الوليد فإنه كان أميرا على المدينة؛ فقال له حسين بن على: أحلف بالله لتنصفنى من حقى أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول. قال عبدالله بن الزبير: وأنا أحلف والله لئن دعانا لآخذن سيفى ثم لأقومن معه حتى ينتصف من حقه أونموت جميعاً. وبلغت المسور بن مخرمة فقال مثل ذلك. وبلغت عبدالرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى فقال مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه[(٥)].

---

(١) تفسير القرطبى ٦/ ٣٧٨٥،٣٧٨٦.

(٢) [**صحيح**] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/ ٣٢٢/ ٦ ٣٠) عن جبير بن مطعم به وانظر رسالتى «**كيف الامر إذا لم تكن جماعة**» فصل لاحلف فى الإسلام فهناك. نقول وتوجيهات لأهل العلم قل أن تجدها مجموعة إلا فى هذا الموضع.

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة (١/ ١٤٥).

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق

قال العلماء: فهذا الحلف الذى كان فى الجاهلية هو الذى شده الإسلام وخصه النبى عليه الصلاة والسلام من عموم قوله **«لاحلف فى الإسلام»**(*) ؟. والحكمة فى ذلك بأصل الشريعة إيجابا عاما على من قدر من المكلفين، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى : **﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**. وفى الصحيح: **«أنصر أخاك ظالما أو مظلوما»** قالوا : يارسول الله، هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالماً؟ قال : **«تأخذ على يديه - فى رواية تمنعه من الظلم - فإن ذلك نصره»**(١) وقد تقدم قوله عليه السلام: **«إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»**(٢).

وإنما قال: **«بعد توكيدها»** فرقا بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك: التوكيد هوحلف الإنسان فى الشىء الواحد مرارا، يردد فيه الأيمان ثلاثا أو أكثر من ذلك؛ كقوله: والله لاأنقصه من كذا، والله لاأنقصه من كذا، والله لاأنقصه من كذا. قال : فكفارة ذلك واحدة مثل كفارة اليمين . وقال يحيى ابن سعيد: هى العهود، والعهد يمين، ولكن الفرق بينهما أن العهد لايكفر. قال النبى ﷺ **«ينصب لكل غادرلواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته يقال هذه غدرة فلان»**(٣) وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة، وحل ما نعقدت عليه اليمين. وقال ابن عمر: التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه. وقد تقدم فى المائدة أ.هـ.

قال ابن كثير(٤): هذا مما يأمر الله تعالى به الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة ولهذا قال **﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾** أ.هـ .

(*) تقدم تخريجه.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٩٥٢) عن أنس به.
وانظر «رياض الصالحين» (٢٣٩ ـ بتخريجنا).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) عن أبى بكر بهذا اللفظ.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجهاد والسير (١٢/ ٤٤ ـ النووى) عن أبى سعيد به وانظر «رياض الصالحين» (١٥٨٩ ـ بتخريجنا).

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٦٥، ٥٦٦.

قال السعدى[1]: **قوله ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾.**

وهذا يشمل جميع ماعاهد العبد عليه ربه، من العبادات والنذور، والأيمان التى عقدها إذاكان بها براً ويشتمل أيضاً، ماتعاقد عليه هو غيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذى يعده العبد لغيره، ويؤكده على نفسه.

قال صاحب «الظلال» [2] لقد جاء هذا الكتاب لينشىء أمة وينظم مجتمعاً، ثم لينشىء عالماً ويقيم نظاماً. جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أوجنس؛ إنما العقيدة وحدها هى الآصرة والرابطة والقومية والعصبية.

ومن ثم جاء بالمبادىء التى تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود.

والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول ﷺ ويشمل كل عهد على معروف يأمر به الله. والوفاء بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة فى التعامل بين الناس، وبدون هذه الثقة لايقوم مجتمع، ولا تقوم إنسانية. والنص يخجل المتعاهدين أن ينقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلوا الله كفيلاً عليهم، وأشهدوه عهدهم، وجعلوه كافلاً للوفاء بها. ثم يهددهم تهديداً خفياً «إن الله يعلم ماتفعلون».

وقد تشدد الإسلام فى مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبداً، لأنها قاعدة الثقة التى ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم أ.هـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن باز: قوله تعالى **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾** فمن عاهد بذمة الله أو ذمة رسوله فعليه أن يوفى، وإن كان قد أخطأ فى الهد بذمة الله ورسوله، لكن عليه أن يوفى بذلك، وعليه أن لا يخفر بذلك أ.هـ.

والإيفاء إعطاء الشىء تاماً، ومنه إيفاء المكيال والميزان.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٥١، ٥٢

(٢) بتصرف ٤/ ٢١٩٠، ٢١٩١

قوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾.

قال ابن عثيمين[1]: يصلح أن يكون من باب إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله؛ أى: بعهدكم الله، أو بعهد الله إياكم؛ لأن الفعل إذا كان على وزن فاعل اقتضى المشاركة من الجانبين غالباً، مثل: قاتل ودافع.

قوله: ﴿إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾.

فائدتها التوكيد والتنبيه على وجوب الوفاء؛ أى: إذا صدر منكم العهد؛ فإنه لايليق منكم أن تدعوا الوفاء.

قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾

الإعراب[2]: ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها الواو عاطفة ولا ناهية وتنقضوا مضارع مجزوم بلا والواو فاعل والأيمان مفعول به وبعد ظرف متعلق بتنقضوا وتوكيدها مضاف إليه والواو حالية والجملة حال من فاعل تنقضوا أ.هـ.

اللغة:

قال ابن عثيمين[3]: نقض الشيء هو حل إحكامه، وشبه العهد بالعقدة؛ لأنه عقد المتعاهدين أ.هـ.

قال محيى الدين درويش[4]: توكيدها: توثيقها والتوكيد مصدر وكد يوكد بالواو وفيه لغة أخرى أكد يؤكد بالهمز ومعناه التقوية وهذا كقولهم ورخت الكتاب وأرخته وليست الهمزة بدلاً من واو كما زعم بعضهم لأن الاستعمالين فى المادتين متساويان فليس ادعاء كون أحدهما أصلا أولى من الآخر أ.هـ.

● **التفسير بالمأثور:**

قال ابن كثير[5]:

ولاتنقضوا الأيمان. لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام.

---

(١) القول المفيد ٣/ ٢٩٩ـ٣٠٠

(٢) إعراب القرآن ٥/ ٣٥٨،٣٥٩

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٠٠

(٤) إعراب القرآن ٥/ ٣٥٧.

(٥) تفسير ابن كثير (٥٦٦)

وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا صخر بن جويرية عن نافع قال لماخلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابـن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال: أما بعـد فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسولـه وإنى سمعت رسول الله يقول: «**إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فـلان، وإن من أعظم الغدر ـ إلا أن يكون الإشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته، فلا يخـلعن أحد منكم يداً ولا يسـرفن أحـد منـكم فى هـذا الأمر فـيكـون فصل بيـنى وبيـنه**»[1] المـرفوع مـنه فـى الصحيحين»[2].

وقال الإمام أحمد حدثـنـا يزيد حدثنا حجاج عن عبدالرحمن بـن عابس عن أبيه عن حذيفة قال سمـعت رسول الله ﷺ يقول : «**من شرط لأخيه شرطاً لايـريد أن يفى له به فهو كالمدلى جاره إلى غير منفعة**»[3].

● **التفسير بأقوال السلف:**

عن سعـيد بن جبير فـى قوله: ﴿**وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ يعنـى، بعد تغليظها وتشديدها[4].

● **أقوال المفسرين**

قال الطبرى[5]: لاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها يقول ولاتخالفوا الأمر الذى تعاقدتم فيه الأيمان يعـنى بعدما شددتم الأيمان على أنفسـكم فتحنثوا فى أيمانكم وتـكذبوا فيها وتنقضوها بعد إبرامها يقال منه وكد فلان يـمينه يوكدها توكيدا إذا شددها وهى لغة أهل الحجاز وأما أهل نجد فإنهم يقولون أكدتها أو كدها تأكيد. أ.هـ.

قال البغوى[6]: ﴿**بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ تشديدها، فتحنثوا فيها. أ.هـ.

قال الزمخشرى[7]: ﴿**وَلَا تَنقُضُوا**﴾ أيمان البيعة ﴿**بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ أى توثيـقها باسم الله، وأكد ووكد، لغتان فصيحتان والأصل الواو، والهمزة بدل أ.هـ.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٤٨).

(٢) أخرجه البخارى (٦١٧٧) ، ومسلم فى الجهاد (٦/ ٢٨٥/ ٩) عن ابن عمر به.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٤٠٤) عن حذيفة به.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٦٤٠) وانظر «الدر» (٤/ ٢٤٢).

(٥) تفسير الطبرى ٧/ ١٤/ ١١٠

(٦) معالم التنزيل (٣/ ٤٤٦). (٧) الكشاف (٢/ ٣٤٢).

قال ابن الجوزى(١): ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها أى: بعد تغليظها وتشديدها بالعزم والعقد على اليمين، بخلاف لغو اليمين.

قال الرازى(٢): قال أصحاب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ يمين اللغو هى يمين الغموس، والدليل عليه أنه تعالى قال: **﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾** فنهى فى هذه الآية عن نقض الأيمان، فوجب أن يكون كل يمين قابلا للبر والحنث، ويمين الغموس غير قابلة للبروالحنث فوجب أن لاتكون من الأيمان. واحتج الواحدى بهذه الآية على أن يمين اللغو هى قول العرب: لاوالله، وبلى والله. قال إنما قال تعالى **﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾** للفرق بين الأيمان المؤكدة بالعزم وبالعقد وبين لغو اليمين.

قوله ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ عام دخله التخصيص، لأنا بينا أن الخبر دل على أنه متى كان الصلاح فى نقض الأيمان جاز نقضها أ.هـ.

قال القرطبى(٣): يقول بعد تشديدها، وتغليظها، يقال: توكيد، وتأكيد ووكد وأكد، لغتان أ.هـ.

ولاتعارض بين هذا وبين قوله **﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾ الآية** وبين **قوله** تعالى **﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾** أى لاتتركوها بلا كفارة وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه فى الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال: **«إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها ـ وفى رواية ـ وكفرت عن يمينى»**(٤) لاتعارض بين هذا كله ولابين الآية المذكورة هنا وهى قوله **﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾** لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة فى العهود والمواثيق لا الأيمان التى هى واردة على حث أو منع ولهذا قال مجاهد فى قوله : **﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعنى الحلف أى حلف** الجاهلية(٥)، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسوله الله ﷺ**«لا حلف فى الإسلام وأيما حلف كان فى الجاهلية فإنه لايزيده الإسلام إلا شدة»**(٦). وكذا رواه مسلم عن ابن أبى شيبة به. ومعناه أن الإسلام لايحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه

(١) زاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٢) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١١٠،١١١.

(٣) تفسير القرطبى (٦/ ٣٧٨٦).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦٧٩)، ومسلم فى الأيمان (١١/ ١٠٨ ـ النووى) عن أبى موسى به. وانظر «رياض الصالحين» (١٧٢٠ ـ بتخريجنا).

(٥) تقدم تخريجه (٦) تقدم تخريجه.

فإن فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانـوا فيه. وأما ماورد فى الصحيحن عن عاصم الأحوال عـن أنس رضـى الله عنه أنـه قال: حـالف رسـول الله ﷺ بين المـهاجـرين والأنصار فى دورنا(١). فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك والله أعلم أ.هـ.

قال الشوكانى(٢): ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أى بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها. وليس المراد اختصاص النهى عن النقض بالأيمان المؤكدة لا بغيرها مما لا تأكيد فيه، فإن تحريم النقـض يتناول الجميع، ولكن فى نقض اليمـين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذى فى نقض ما لم يوكد منها.

- ثم ذكر مخصـصات هذا العموم ومنها: قـوله تعالى ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لإخراج أيمان اللغو أ.هـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن باز(٣): ﴿وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أى: لا تنقضوا الـعهود بعد أن أكد تموها بالأيمان الشديدة والمعاهدة بل أوفوا كما قال سبحانه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ وقال ﷺ: «يرفع لكل غادر يوم القيامة لـواء عند إسته ينادى عليه: هذه غدرة فلان بن فلان» وهذا فيه وعيد عظيم، ويدل على وجوب الوفاء بالعهد أ.هـ.

قوله: «وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً»

الإعراب (٤): وقد حرف تحـقيق وجعـلتم الله فعـل وفاعل ومفـعول به وعلـيكم متعلقان بكفيلاً وكفيلاً مفعول به ثان لجعلتم أ.هـ.

قال ابن عثيمين: الجملة حالية فائدتها قوة التوبيخ على نقض العهد واليمين أ.هـ.

● التفسير بما أثر عن الصحابة والتابعين.

عن سعيد بـن جبير.. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ يعنى فى العـهد شهيداً،(٥) والله أعلم بالصواب.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٢٩٤)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٣٢١٨/ ٤ ٢٠٤) عن أنس به.

(٢) فتح القدير ٣٠/ ١٩٤).

(٣) التعليق المفيد (٢٧١).

(٤) إعراب القرآن د/ ٣٥٩.

(٥) تقدم تخريجه.

عن مجاهد وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً قال وكيلا[1].

● **أقوال المفسرين:**

قال الطبرى[2]: وقوله ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾.

وقوله قد جعلتم الله عليكم كفيلا يقول وقـد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه على أنفسكم راعيا يرعى الموفى منكم بعهد الله الذى عاهد على الوفاء به والناقض أ.هـ.

قال ابن الجوزى[3]: قوله تعالى : «وقدجعلتم».

أى : بالوفاء، وذلك أن من حلف بالله، فكأنه اكفل الله بالوفاء بماحلف عليه أ.هـ.

قال الرازى [4]: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾.

ثم قال جعلتم الله عليكم كفيلاً هذه واو الحال، أى لاتنقضوها قد جعلتم الله كفيلا عليكم بالوفاء، وذلك أن من حلف بالله تعالى فـكأنه قد جعل الله كفيلاً بالوفاء بسبب ذلك الحلف أ.هـ.

قال ابن الجوزى[5]: وللمفسرين فى معنى «كفيلا» ثلاثة أقوال:

أحدها: شهيداً، قاله سعيد بن جبير.

الثانى: وكيلاً، قاله مجاهد.

الثالث: حفيظاً مراعياً لعقدكم، قاله أبو سليمان الدمشقى أ.هـ.

قال السعدى[6]: وقد جعلـتم الله عليكم أيها المـتعاقدون كفيلاً فلايـحل لكم أن لاتحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلاً، فيكون فى ذلك ترك تعظيم الله، وإستهانة به وقد رضى الآخر منك باليميـن، وللتوكيد الذى جعلت الله فيه كفيلاً فكـما إئتمنك وأحسن ظنه فيك، فلْتَفِ له بما قلته وأكدته أ.هـ.

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) تفسير الطبرى ٧/١٤/١١١.

(3) زاد المسير ٤/٣٦٩.

(4) التفسير الكبير ١٠/٢٠/١١١

(5) زاد المسير (٤/٣٦٩)

(6) السعدى ٣/١/٥٢٠٥

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوى اللهِ . وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً.

فَقَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اغْزُوا، وَلاَ تَغُلُّوا،

● أقوال شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين[1]: ووجه جعل الله كفيلاً: أن الإنسان إذا عاهد غيره قال: اعاهدك بالله، أى أنه جعل الله عليه كفيلاً أ.هـ.

قوله «إن الله يعلم ماتفعلون».

● **أقوال المفسرين وشرَّاح التوحيد:**

قال الطبرى[2]: يقول تعالى ذكره إن الله أيها الناس يعلم ماتفعلون فى العهود الذى تعاهدون الله من الوفاء بها والأحلاف والأيمان التى تؤكدنها على أنفسكم أتبرون فيها أم تنقضونها وغير ذلك من أفعالكم محص ذلك كله عليكم وهو مسائلكم عنها وعما عملتم فيها يقول فاحذروا. أن تلقوه وقد خالفتم فيها أمره ونهيه فتستوجبوا بتلك منه مالا قبل لكم به من أليم عقابه أ.هـ.

قال الرازى[3]: فيه ترغيب وترهيب، والمراد فيجازيكم على ما تفعلون إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ثم إنه تعالى أكد وجوب الوفاء،وتحريم النقض وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾.

قال ابن عثيمين[4]: ختم الله الآية بالعلم تهديداً عن نقض العهد؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله يعلم كل مايفعل؛ فإنه لاينقض العهد أ.هـ.



قوله عن بريده قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أمرأ ميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله. . » الحديث

---

(١) القول المفيد ٣/ ٣٠٠

(٢) تفسير الطبرى ٧/ ١٤/ ١١١.

(٣) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١١٠،١١١.

(٤) المقول المفيد ٣/ ٣٠٠.

وَلاَ تَغدرُوا، وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُم إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ (أَوْ: خِلاَلٍ)، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُم، وَكُفَّ عَنْهُم: ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَل مِنْهُم، ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُم إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى المهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرهُم أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيهِم حُكمُ الله تَعَالَى. وَلا يَكُونُ لَهُم فِى الغَنِيمَةِ وَالفَىءِ شَىءٌ، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ، فَإِنْ هُم أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُم، وَكُفَّ عَنْهُم، فَإِنْ هُمْ أَبَوا، فَاسْتَعِن بِالله وَقَاتِلْهُم.

● مناسبة الحديث للباب.

قال القرعاوى (١): دل الحديث على وجوب حفظ ذمة الله وذمة نبيه عن النقض

● مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوى(٢): دل الحديث على وجوب حفظ ذمة الله وذمة رسوله عن النقض، لأن نقض ذمة الله إستخفاف به وذلك منافى للتوحيد أ.هـ.

قوله (عن بريدة) قال عبدالرحمن آل الشيخ:ـ (٣): هو ابن الحصيب الأسلمى .

وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه. قاله فى «المفهم».

قلت والحديث أخرجه مسلم فى الجهاد وبور عليه الشراح باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث.

قوله «قال :كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً»

أى جعله أميراً، والأمير فى صدر الإسلام يتولى التنفيذ والحكم والفتوى والإمامة(٤).

وفيه من الفقه : تأمير الأمراء، ووصيتهم.

(١ ـ ٢) ا لجديد ٤٦٥

(٣) فتح المجيد (٢/ ٦٩٤) و تيسير العزيز الحميد ٥٤٦

(٤) النووى شرح مسلم ٦/ ٢٨١

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّه، فَلا تَجْعَلْ لَهُم ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّه، وَلَكِن اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُم أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُم أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّه، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُم عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلا تُنْزِلْهُم عَلَى حُكْمِ اللهِ وَلَكِن أَنْزِلْهُم عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِم حُكْمَ اللهِ أَم لا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

قوله: (على جيش أوسرية)

قال النووى:

السرية: هى قطعة من الجيش تخرج منه تغير وترجع إليه، قال إبراهيم الحربى: هى الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها، قالوا: سميت سرية لأنها تسرى فى الليل، ويخفى ذهابها، وهى فعيلة بمعنى فاعلة، يقال: سرى وأسرى، إذا ذهب ليلاً.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢): قال الحربى السرية الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها. والجيش: ماكان أكثر من ذلك.

وقال الشوكانى فى «النيل»(٣): هى القطعة من الجيش تنفصل عنه ثم تعود إليه، وقيل: هى قطعة من الخيل زهاء أربعمائه كذا قال إبراهيم الحربى - وتقدم -.

قال ابن عثيمين(٤): قوله «أوسرية».

هذه ليست للشك، بل للتنويع؛ فإن الجيش مازاد على أربع مئة رجل والسرية مادون ذلك.

والسرايا ثلاثة أقسام:

أ - قسم ينفذ من البلد، وهذا ظاهر، ويقسم ماغنمه قسمة ماغنم الجيش

ب - قسم يُنفذ فى ابتداء سفر الجهاد، وذلك بأن يخرج الجيش بكامله ثم يبعث سرية تكون أمامهم.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجهاد . باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث (١٢/ ٢٣٨/ ١٧٣١). من طريق سليمان بن بريدة عن أبيه به.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» ح (٧٢).

(٢) فتح المجيد (٢/ ٦٩٥) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٦

(٣) نيل الأوطار (٧/ ٢٧٢).

(٤) القول المفيد ٣/ ٣٠١، ٣٠٢

ج - قسم ينفذ فى الرجعة، وذلك بعد رجوع الجيش.

وقد فرق العلماء بينهما من حيث الغنيمة؛ فلسرية الابتداء الربع بعد الخمس؛ لأن الجيش وراءها، فهو رده لها وسيلحق بها، ولسرية الرجعة الثلث بعد الخمس؛ لأن الجيش قد ذهب عنها؛ فالخطر عليها أشد.

وهذا الذى تعطاه السريتان راجع إلى اجتهاد الإمام إن شاء أعطى وإن شاء منع حسبما تقتضيه المصلحة.

قوله «أوصاه».

الوصية: العهد بالشىء إلى غيره على وجه الاهتمام به أ.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ[1]: قال الحربى

قوله (بتقوى الله) وتقوى الله التحرز بطاعته من عقوبته.

قلت: أى عبدالرحمن آل الشيخ: وذلك بالعمل بما أمر الله به والإنتهاء عما نهى عنه أ.هـ.

قال ابن عثيمين[2]: التقوى: هى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه على علم وبصيرة، وهى مأخوذة من الوقاية، وهى اتخاذ وقاية من عذاب الله، وذلك لايكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهى، وقال بعضهم.

التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور الله ترجو ثواب الله، وأن تترك مانهى عنه الله على نور من الله تخشى عقاب الله.

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماش فوق أرض الشوك يحذر مايرى
لاتحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

قلت: وينسب إلى على بن أبى طالب فى تعريف التقوى: إنها الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل أ.هـ.

وهذه التعريفات كلها تؤدى معنى واحداً.

وكانت الوصية بالتقوى لأمير الجيش؛ لأن الغالب أن الأمير يكون معه ترفع يخشى منه أن يجانب الصواب من أجله، ولأن تقواه سبب لتقوى من تحت ولايته. اهـ.

(١) فتح المجيد (٢/ ٦٩٦) و تيسير العزيز الحميد ٥٤٦
(٢) القول المفيد ٣/ ٣٠٢

قوله (ومن معه من المسلمين خيراً).

قال عبدالرحمن آل الشيخ[1]: أى ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً؛ من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاظم عليهم. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: أى: أوصاه أن يعمل بمن معه من المسلمين خيراً فى أمور الدنيا والآخرة؛ فيسلك بهم الأسهل، ويطلب لهم الأخصب إذا كانوا على إبل أو خيل، ويمنع عنهم الظلم، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وغير ذلك مما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة.

ويستفاد من هذا الحديث: أنه يجب على من تولى أمراً من أموز المسلمين أن يسلك بهم الأخْير، بخلاف عمل الإنسان بنفسه؛ فإنه لايلزم إلا بالواجب. اهـ.

قوله : فقال : اغزوا باسم الله

قال عبدالرحمن آل الشيخ[3]: أى أشرعوا فى فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له، فتكون الباء فى «بسم الله» هنا للإستعانة، والتوكل على الله. اهـ.

قال ابن عثيمين[4]: يحتمل أنه أراد أن يعلمهم أن يكونوا دائما مستعينين بالله، ويحتمل أنه أراد أن يفتتح الغزو باسم الله.

والأول أظهر، والثانى أيضاً محتمل ؛ لأن بعث الجيوش من الأمور ذات البال، وكل أمر لايبدأ فيه باسم الله؛ فهو أبتر. اهـ.

قلت: وتقدم فى أول الكتاب أن هذا الحديث مضطرب فيترجح الأول والله أعلم.

قوله : (فى سبيل الله).

قال ابن عثيمين[4]: متعلق بـ «اغزوا»،وهو تنبيه من الرسول ﷺ على حسن النية والقصد؛ لأن الغزاة لهم أغراض،ولكن الغزو النافع الذى تحصل به إحدى الحسنيين ماكان خالصاً لله، وذلك بأن يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا لا لحمية أو شجاعة أو ليرى مكانه أو لطلب دنيا.

فإن قاتل لأجل الوطن : فمن قاتل لأنه وطن إسلامى تجب حمايته وحماية المسلمين

---

(١) فتح المجيد (٢/٦٩٦) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٦

(٢) القول المفيد ٣/٣٠٢،٣٠٣

(٣) فتح المجيد (٢/٦٩٦) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٦

(٤) القول المفيد ٣/٣٠٣،٣٠٤

فيه، فهذه نية إسلامية صحيحة، وإن كان للقومية أو الوطنية فقط؛ فهو حمية وليس في سبيل الله.

وقوله: «في سبيل الله»

تشمل النية والعمل؛ فالنية سبقت.

والعمل: أن يكون الغزو في إطار دينه وشريعته، فيكون حسبما رسمه الشارع. اهـ.

قوله (قاتلوا من كفر بالله).

قال عبدالرحمن آل الشيخ [1]: هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم، وقد خصص منهم من له عهد، والرهبان والنسوان ومن لم يبلغ الحلم، وقد قال متصلاً به ولا تقتلوا وليداً وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان، لأنه لايكون منها قتال غالباً، و إن كان منهم قتال أو تدبر قتلوا، وكذلك الذراري والأولاد. اهـ.

قال ابن عثيمين : «قوله قاتلوا» [2]:

«قاتلوا» فعل أمر وهو للوجوب؛ أي : يجب علينا أن نقاتل من كفر بالله، قال تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** وقال تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾**، فإذا قاتلنا الذين يلوننا، فأسلموا؛ نقاتل من وراءهم، وهكذا إلى أن نتخلص إلى مشارق الأرض ومغاربها.

و«من»: اسم موصول، وصلته «كفر»، واسم الموصول وصلته يفيد العلية؛ أي: لكفره، فنحن لانقاتل الناس عصبية أو قومية أو وطنية، نقاتلهم لكفرهم لمصلحتهم وهي إنقاذهم من النار.

والكفر مداره على أمرين: الجحود، والإستكبار.

أي: الإستكبار عن طاعته، أو الجحود لما يجب قبوله وتصديقه.

وقوله: اغزوا

قال ابن عثيمين [3]: تأكيد، وأتى بها ثانية كأنه يقول: لاتحقروا الغزو واغزوا بجد.

قوله: «ولاتغلوا»

(١) فتح المجيد (٢/٦٩٦) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٦.

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٠٤.

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٠٥-٣٠٨.

قال الشوكانى فى «النيل»[1]: «لاتغلوا» بضم الغيـن. أى لاتخونـوا إذا غنمتم شيئاً. اهـ.

قال ابن عثيمين: الغلول: أن يكتم شيئاً من الغنيمة فيختص به، وهو من كبائر الذنوب، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾؛ أى: معذبا به؛ فهو يعذب بما غل يوم القيامة فى الدنيا، قال أهل العلم: يعزر الغال بإحراق رحله كله؛ إلا المصحف لحرمته، والسلاح لفائدته، ومافيه روح؛ لأنه لا يجوز تعذيبه بالنار.

قلت: امتنع الرسول ﷺ من الصلاة على الغال كما فى حديث زيد بن خالد الجهنى «أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ توفى يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «صلوا على صاحبكم» فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: «**إن صاحبكم غل فى سبيل الله» ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز اليهود لايساوى درهمين**»[2].

قوله «ولاتغدروا».

قال الشوكانى[3]: بكسر الدال وضمها، وهو ضد الوفاء. اهـ.

قال ابن عثيمين: الغدر: الخيانة، وهذا هو الشاهد من الحديث، وهذا إذا عاهدنا؛ فإنه يحرم الغدر، أما الغدر بلا عهد؛ فلنا ذلك لأن الحرب خدعة، وقد ذكر أن على بن أبى طالب رضى الله عنه خرج إليه رجل من المشركين ليبارزه، فلما أقبل الرجل على على صاح به على: ماخرجت لأبارز رجلين. فالتفت المشرك يظن أنه جاء أحد من أصحابه ليساعده، فقتله على رضى الله عنه.

وليعلم أن لنا مع المشركين ثلاث حالات.

الحال الأولى: أن لايكون بيننا وبينهم عهد؛ فيجب قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائهم عنه وعن بذل الجزية، بشرط قدرتنا على ذلك.

الحال الثانية: أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه؛ فهنا يجب الوفاء لهم بعهدهم؛ لقوله تعالى ﴿**فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾[4].

وقوله: ﴿ **فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ**﴾[5].

الحال الثالثة: أن يكون بيننا وبينهم عهد نخاف خيانتهم فيه؛ فهنا يجب أن ننبذ إليهم العهد ونخبرهم أنه لاعهد بيننا وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾[6].

---

(١) «نيل الأوطار» (٧/ ٢٧٢).

(٢) [صحيح] أخرجه مالك فى «موطئه»، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، والحاكم وأحمد، بإسناد صحيح. انظر «أحكام الجنائز» للشيخ الألبانى.

(٣) «نيل الأوطار» (٧/ ٢٧٢). (٤) التوبة : ٧. (٥) التوبة: ٢ (٦) الأنفال: ٥٨

قوله: «ولاتمثلوا».

التمثيل: التشويه بقطع بعض الأعضاء؛ كالأنف واللسان وغيرهما، وذلك عند أسرهم؛ لأنه لاحاجة إليه؛ لأنه انتقام في غير محله، واختلف العلماء فيما لوكانوا يفعلون بنا ذلك.

فقيل: لايمثل بهم للعموم، والنبى ﷺ لم يستثن شيئاً، ولأننا إذا مثلنا بواحد منهم؛ فقد يكون لايرضى بما فعل قومه؛ فكيف نمثل به؟!

وقيل: نمثل بهم كما مثلوا بنا؛ لأن هذا العموم مقابل بعموم آخر، وهو قوله تعالى: **﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾**(1).

وإذا لم نمثل بهم مع أنهم يمثلون بنا؛ فقد يفسر هذا بأنه ضعف، وإذا مثلنا بهم فى هذه الحال؛ عرفوا أن عندنا قوة ولم يعودوا للتمثيل بنا ثانية.

والظاهر القول الثانى.

فإن قيل: قد نمثل بواحد لم يمثل بنا ولايرضى بالتمثيل؟

فيقال: إن الأمة الواحدة فعل الواحد منها كفعل الجميع، ولهذا كان الله ـ عزوجل ـ يخاطب اليهود فى عهدالرسول ﷺ بأمور جرت فى عهد موسى، قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾**(2)، وقال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾**(3)، وما أشبه ذلك.

قوله:« ولاتقتلوا وليداً».

قال الشوكانى(4): هو الصبى. اهـ.

أى: لاتقتلوا صغيراً؛ لأنه لايقاتل، ولأنه ربما يسلم.

وورد فى أحاديث أخرى: أنه لايقتل راهب ولاشيخ فان ولا امرأة إلا أن يقاتلوا، أويحرضوا على القتال، أو يكون لهم رأى فى الحرب، كما قتل دريد بن الصمة فى غزوة ثقيف مع كبره وعماه.

واستدل بهذا الحديث أن القتال ليس لأجل أن يسلموا، ولكنه لحماية الإسلام، بدليل أننا لانقتل هؤلاء، ولو كان من أجل ذلك لقتلناهم إذا لم يسلموا، ورجح شيخ الإسلام هذا القول، وله رسالة فى ذلك اسمها «قتال الكفار». اهـ.

---

(1) البقرة: ١٩٤.
(2) البقرة: ٧٢.
(3) البقرة: ٩٣.
(4) «نيل الأوطار» (٧/ ٢٧٢)

قال النووى[1]: وفى هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها، وهى : تحريم الغدر، وتحريم الغلول، وتحريم قتل الصبيان إذا لم يقاتلوا، وكراهة المثلة، واستحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى والرفق باتباعهم وتعريفهم ما يحتاجون فى غزوهم وما يجب عليهم، ومايحل لهم، ما يحرم عليهم. وما يكره وما يستحب. اهـ.

قوله« وإذا لقيت عدوك».

قال ابن عثيمين [2]: أى: قابلته أو وجدته، وبدأ بذكر العداوة تهييجاً لقتالهم؛ لأنك إذا علمت أنهم أعداء لك؛ فإن ذلك يدعوك إلى قتالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، وهذا أبلغ وأعم من قوله فى آية أخرى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾، لكن خُص فى هذه الآية باليهود والنصارى؛ لأن المقام يقتضيه.

والعدو ضد الولى، والولى من يتولى أمورك ويعتنى بك بالنصر والدفاع وغير ذلك، والعدو يخذلك ويبتعد عنك ويعتدى عليك ما أمكنه.

قوله : «من المشركين».

يدخل فيه كل الكفار، حتى اليهود والنصارى.

قوله: [ثم ادعهم إلى الإسلام].

قال الشوكانى فى «النيل»[*]: وقع فى نسخ مسلم (ثم ادعهم) قال عياض: الصواب: إسقاط «ثم»، وقد أسقطها أبو عبيد فى كتابه، وأبو داود فى «سننه»، وغيرها؛ بأن تفسير للخصال الثلاث.

وقال المازرى: إن «ثم» دخلت لاستفتاح الكلام.

وفى هذا دليل على أنه يشرع للإمام إذا أرسل قومه إلى قتال الكفار ونحوهم أن يوصيهم بتقوى الله، وينههم عن المعاصى المتعلقة بالقتال، كالغلول والغدر والمثلة وقتل الصبيان.

وفيه دليل على وجوب تقديم دعاء الكفار إلى الإسلام قبل المقاتلة.

---

(١) النووى شرح مسلم ٦/ ٢٨١.

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٠٨ـ٣٠٩.

(*) نيل الأوطار (٧/ ٢٧٢).

وفى المسألة ثلاثة مذاهب: ـ

الأول: أنه يجب تقديم الدعاء للكفار إلى الإسلام من غير فرق بين من بلغته الدعوة منهم ومن لم تبلغه، وبه قال مالك والهادوية وغيرهم، وظاهر الحديث معهم.

والمذهب الثانى: أنه لايجب مطلقاً.

والمذهب الثالث: أنه يجب لمن لم تبلغهم الدعوة، ولا يجب إن بلغتهم، لكن يستجب.

قال ابن المنذر: وهو قول جمهور أهل العلم، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على معناه. وبه يجمع بين ما ظاهره الاختلاف من الأحاديث.

وقد زعم الإمام المهدى أن وجوب تقديم دعوة من لم تبلغه الدعوة مجمع عليه، ويرد ذلك ما ذكرنا من المذاهب الثلاثة. وقد حكاه كذلك المازرى وأبو بكر بن العربى. اهـ.

قوله: «خصال أو خلال».

بمعنى واحد، وعليه ؛ فـ «أو» للشك فى اللفظ، والمعنى لايتغير.

قوله : «فأيتهن ما أجابوك».

«أيتهن» : اسم شرط مبتدأ، «ما»: زائدة، وهى تزاد بالشرط تأكيداً للعموم؛ كقوله تعالى ﴿**أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾، والكاف مفعول به، والعائد إلى اسم الشرط محذوف، والتقدير، فأيتهن ما أجابوك إليه؛ فاقبل منهم وكف عنهم، فلا تقاتلهم. اهـ.

قوله: (فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم».

قال سليمان آل الشيخ[٣]: قيدناه عما يوثق بعلمه وتقييده بنصب «أيتهن» على أن يعمل فيها«أجابو» لا على إسقاط حرف الجر. و«ما» زائدة. ويكون تقدير الكلام : فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم. كما تقول : جئتك إلى كذا وفى كذا. فيعدى إلى الثانى بحرف الجر.

قلت :ـ يعنى سليمان آل الشيخ فيكون فى ناصب «أيتهن» وجهان: ذكرهما الشارح. الأول: منصوب على الاشتغال. والثانى: على نزع الخافض. اهـ.

---

(١) فتح المجيد (٢/٦٩٦) وتيسيرالعزيز الحميد ٥٤٦، ٥٤٧.

قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فأقبل منهم».

قال النووى[1]: هكذا هو فى جميع نسخ صحيح مسلم (ثم أدعهم) قال القاضى عياض - رضى الله تعالى عنه-: صواب الرواية (ادعهم) بإسقاط (ثم) وقد جاء بإسقاطها على الصواب فى كتاب أبى عبيد، وفى سنن أبى دواد وغيرهما؛ لأنه تفسير للخصال الثلاثة، وليست غيرها.

وقال المازرى: ليست (ثم) هنا زائدة، بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ - وقدمنا ذكر ذلك. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: «ثم»: زائدة؛ كما فى رواية أبى داود، ولأنه ليس لها معنى، ويمكن أن يقال: إنها ليست من كلام الرسول ﷺ، بل من كلام الراوى على تقدير ثم قال ادعهم.

وقوله: «إلى الإسلام».

أى: المتضمن للإيمان؛ لأنه إذا أفرد شمل الإيمان، وإذا اجتمعا؛ افترقا، كما فرق النبى ﷺ بينهما فى حديث جبريل(*).

والإيمان عند أهل السنة تدخل فيه الأعمال، قال ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[3]، فإن أجابوا للإسلام؛ فهذا ما يريده المسلمون، فلا يحل لنا أن نقاتلهم، ولهذا قال النبى ﷺ: **«فاقبل منهم»**. اهـ.

قوله: «ثم ادعهم إلى التحول].

قال الشوكانى: فيه ترغيب الكفار بعد إجابتهم وإسلامهم إلى الهجرة إلى ديار المسلمين لأن الوقوف بالبادية ربما كان سبباً لعدم معرفة الشريعة لقلة من فيها من أهل العلم. اهـ(**).

قوله: «ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا

(١) النووى شرح مسلم ٦/ ٢٨١.
(٢) القول المفيد/ ٣/ ٣١٠.
(*) تقدم تخريجه.
(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٣ - النووى) عن أبى هريرة به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٢٧ - بتخريجنا).
(**) نيل الأوطار (٧/ ٢٧٣).

ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين».

قال النووى[1]: معنى هذا الحديث: أنهم إذا أسلموا استحب لهم أن يهاجروا إلى المدينة، فإن فعلوا ذلك كانوا كالمهاجرين قبلهم فى استحقاق الفىء والغنيمة وغير ذلك، وإلا فهم أعراب كسائر أعراب المسلمين الساكنين فى البادية من غير هجرة ولا غزو، فتجرى عليهم أحكام الإسلام، ولا حق لهم فى الغنيمة والفىء، وإنما يكون لهم نصيب من الزكاة إن كانوا بصفة استحقاقها.

قال الشافعى: الصدقات للمساكين ونحوهم ممن لاحق له فى الفىء.

قال: ولا يعطى أهل الفىء من الصدقات، ولا أهل الصدقات من الفىء، واحتج بهذا الحديث.

وقال مالك وأبو حنيفة: المالان سواء ويجوز صرف كل واحد منهما إلى النوعين، وقال أبو عبيد: هذا الحديث منسوخ، قال: وإنما كان هذا الحكم فى أول الإسلام لمن لم يهاجر ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**﴾ وهذا الذى ادعاه أبو عبيد لا يسلم له. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]:

«ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين».

هذه الجملة تشير إلى أن الذين قوتلوا أهل بادية، فإذا أسلموا؛ طلب منهم أن يتحولوا إلى ديار المهاجرين ليتعلموا دين الله؛ لأن الإنسان فى باديته بعيد عن العلم؛ كما قال تعالى: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ**﴾، وهذا أصل فى توطين البوادى.

وقوله: «فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين».

يحتمل أن المراد بها العين؛ أى: المدينة النبوية، ويحتمل أن المراد بها الجنس؛ أى: الدار التى تصلح أن يُهَاجَرَ إليها لكونها بلد إسلام، سواء كانت المدينة أو غيرها.

---

(1) النووى شرح مسلم ٦/ ٢٨١ و ٢٨٢.

(٢) القول المفيد ٣/ ٣١٠ ـ ٣١٢.

ويقوى الاحتمال الثانى ـ وهو أن المراد بها الجنس ـ: أنه لو كان المراد المدينة؛ لكان الرسول ﷺ يعبر عنها باسمها ولا يأتى بالوصف العام، ويقوى الاحتمال الأول: أن دار المهاجرين الأولى هى المدينة، والظاهر الاحتمال الثانى.

قوله: «فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين».

وهذا تمام العدل، ولا يقال: إن الحق لصاحب البلد الأصلى؛ فلهم ما للمهاجرين من الغنيمة والفىء، وعليهم ما عليهم من الجهاد والنصرة.

قوله: «ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين».

يعنى: إذا لم يتحولوا إلى دار المهاجرين فليس لهم فى الغنيمة والفىء شىء.

والغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار بقتال أو ما ألحق به.

والفىء: ما يصرف لبيت المال؛ كخمس خمس الغنيمة، والجزية والخراج، وغيرها.

وقوله: «إلا أن يجاهدوا مع المسلمين».

يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة ما يستحقه غيرهم.

وأما الفىء؛ فاختلف أهل العلم فى ذلك.

فعند الإمام أحمد: لهم حق فى الفىء مطلقاً، ولهم حق فى الغنيمة إن جاهدوا.

وقيل: لا حق لهم فى الفىء، إنما الفىء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء، فهو عائد على الغنيمة؛ إذ ليس مَنْ فى البلد مستعداً للجهاد ويتعلم الدين وينشره كأعرابى عند إبله.

فإذا أسلموا فلهم ثلاث مراتب: -

١- التحول إلى دار المهاجرين، وحينئذ يكون لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين.

٢- البقاء فى أماكنهم مع الجهاد؛ فلهم ما للمجاهدين من الغنيمة، وفى الفىء الخلاف.

٣- البقاء فى أماكنهم مع ترك الجهاد؛ فليس لهم من الغنيمة والفىء شىء. اهـ.

قوله «فان هم أبو»

قال ابن عثيمين[1]: «هم» عند البصريين: توكيد للفاعل المحذوف مع فعل الشرط، والتقدير: فإن أبوا هم، وعند الكوفيين: مبتدأ خبره الجملة بعده.

(١) القول المفيد ٣/ ٣١٢ و ٣١٣ و ٣١٤.

والقاعـدة عندنا إذا اختـلف النحويون فـى مسألة: أن نتـبع الأسهل، والأسهـل هنا إعراب الكوفيين.

قوله: «**فاسألهم الجزية**».

قوله ﷺ: (فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم).

قال النووى(١): هذا مما يستدل به مالك والأوزاعى وموافقوهما فى جواز أخذ الجزية من كل كافر عربيًا كان أو عجميًا كتابيًا أو مجوسيًا أو غيرهما.

وقال أبو حنيفة ـ رضى الله تعالى عنه ـ: تؤخـذ الجزية من جميع الكفار إلا مشركى العرب ومجوسهم.

وقال الشافعى: لا يقبل إلا من أهل الكتـاب والمجوس عربًا كانوا أو عجمًا، ويحتج بمفهوم آية الجزية، وبحديث: «سنوا بهم سـنة أهل الكتاب» ويتأول هذا الحديث على أن المراد بأخذ الجزية أهل الكتاب؛ لأن اسم المشرك يطلق على أهل الكتاب وغيرهم، وكان تخصيصهم معلوماً عند الصحابة.

واختلفوا فى قدر الجزية.

فقال الشافعى: أقلها دينار على الغنى وديـنار على الفقير أيضاً فى كل سنة، وأكثرها ما يقع به التراضى.

وقال مالك: هى أربعة دنـانير على أهل الذهب، وأربعون درهمًا عـلى أهل الفضة. وقال أبو حنيفة ـ رضـى الله تعالى عنه ـ وغيره من الكوفييـن وأحمد ـ رضى الله تعالى عنه: على الغنى ثمانية وأربعون درهماً، والمتوسط أربعة وعشرون، والفقير اثنا عشر.

قال الشوكانى: ظاهره عدم الفرق بين الكافر والعجمى والعربى وغير الكتابى، وإلى ذلك ذهب مالك والأوزاعى، وجماعة من أهل العلـم، وخالفهم الشافعى. وتقدم كلام النووى فى ذلك.

قوله [فإن هم أبو فاستعن بالله وقاتلهم]

قال ابن عثيمين(٢): بدأ النبى بطلب العون مـن الله؛ لأنه إذا لم يعنك فى جهاد أعدائه فانك مخذول والجملة جواب الشرط. اهـ.

---

(١) النووى شرح مسلم ٦/ ٢٨٢.

(١) القول المفيد ٣/ ٣١٤.

قال عبدالرحمن[1]: **قوله**: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية» **فيه** حجة لمالك وأصحابه، والأوزاعى فى أخذ الجزية من كل كافر، عربياً كان أو غيره، كتابياً كان أو غيره.

وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع، إلا من مشركى العرب ومجوسهم.

وقال الشافعى: لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب، عرباً كانوا أو عجماً. وهو قول الإمام أحمد فى ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس.

قلت: ـ **يعنى عبد الرحمن آل الشيخ** ـ لأن النبى ﷺ أخذها، وقال «**سُنُّوا بِهِمْ سنة أَهْلِ الكِتَاب**»[2].

وقد اختلفوا فى القدر المفروض من الجزية. اهـ وتقدم ذكر ذلك من كلام النووى المتقدم.

قال عبدالرحمن آل الشيخ: قال يحيى بن يوسف الصرصرى الحنبلى رحمه الله:

وقاتل يهوداً والنصارى وعصبة الـ ... مجوس، فإن هم سلموا الجزية اصدد
على الأدون اثنى عشر درهماً افرضن ... وأربعة من بعد عشرين زد
لأوسطهم حالاً، ومن كان موسراً ... ثمانية مع أربعين لتنقد
وتسقط عن صبيانهم ونسائهم ... وشيخ لهم فان وأعمى ومقعد
وذى الفقر والمجنون أو عبد مسلم ... ومن وجبت منهم عليه فيهتدى

وعند مالك وكافة العلماء؛ على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين، لا ممن نأى بداره ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم. اهـ.

قال بن باز[2]: «فإن أبوا فاسألهم الجزية» (أى أبو الدخول فى الإسلام والهجرة

(١) فتح المجيد (٢/٦٩٧) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٧ و ٥٤٨.

(٢) **[ضعيف]** أخرجه مالك فى «الموطأ» (١/ ٢٣٣/ ٤)، والشافعى فى «مسنده» (٢٠٩).

وانظر «منار السبيل» (١٣٤٤ - بتخريجنا).

(١) التعليق المفيد ٢٧٢ و ٢٧٣.

فاسئلهم الجزية وأقبل منهم وهذا فى اليهود والنصارى والمجوس كما قال تعالى ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ فالسنة أطلقت من يؤخذ منهم الجزية والقرآن قيد بأهل الكتاب وألحقت السُّنة بأهل الكتاب المجوس فى أخذ الجزية لا فى حل الطعام والنساء وغيره.

فاستعن بالله وقاتلهم فيه وجوب الإستعانة بالله وأن المؤمن يستعين بالله فى قتال أعدائه ولا يعتمد على قوته فقط.

قوله ﷺ: **(وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ﷺ)**(١).

قال النووى: قال العلماء: الذمة هنا: العهد، **(تُخفروا)**: بضم التاء، يقال: أخفرت الرجل إذا نقضت عهده، وخفرته أمنته وحميته، قالوا: وهذا نهى تنزيه أى: لا تجعل لهم ذمة الله فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها، وينتهك حرمتها بعض الأعراب وسواد الجيش. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(١): تبعاً للنووى قوله: «**وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه**» الحديث.

الذمة: العهد، وتخفر: تنقض، ومعناه: أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء للعهد، كجملة الأعراب، فكأنه يقول: إن وقع نقض من متعد معتد، كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى. والله أعلم.

قوله: «وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال» ذكر فيه: أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث فى الدعوة قبل القتال. قال: وهو أن مالكاً قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يُدعَوْا، ولا تلتمس غرتهم إلا يكونوا قد بلغتهم الدعوة، فيجوز أن تلتمس غرتهم. وهذا الذى صار إليه مالك هو الصحيح؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك

(١) النووى شرح مسلم ٦/ ٢٨٢.

(٢) فتح المجيد (٢/ ٦٩٧) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٨ و ٥٤٩.

سبباً مميلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين. فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزيدون عتواً وبغضاً. والله أعلم.

قال ابن عثيمين: سؤال عطاء لا سؤال استفهام، والفرق بين سؤال الاستفهام وسؤال العطاء: أن سؤال الاستفهام يتعدى إلى المفعول الثاني بـ «عن»، قال الله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا**﴾.

وقد يكون المفعول الثاني جملة استفهامية؛ كقوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ**﴾.

وأما سؤال الإعطاء؛ فيتعدى إليه بنفسه؛ كقولك: سألت زيداً كتاباً.

والجزية: فعْلة من جزى يجزى، وظاهر فيها أنها مكافأة على شيء، وهي عبارة عن مال مدفوع من غير المسلم عوضاً عن حمايته وإقامته بدارنا.

والذمي معصوم ماله ودمه وذريته مقابل الجزية، قال تعالى: ﴿**حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾؛ أي: يسلموها بأيديهم، لا يقبل أن يرسل بها خادمه أو ابنه، بل لابد أن يأتي بهاهو.

وقيل: ﴿**عَن يَدٍ**﴾: عن قوة منكم، والصحيح أنها شاملة للمعنيين.

وقيل: ﴿**عَن يَدٍ**﴾: أن يعطيك إياها فتأخذها بقوة بأن تجر يده حتى يتبين له قوتك، وهذا لا حاجة إليه.

وقوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

أي: يجب أن يتصفوا بالذل والهوان عند إعطائها، فلا يعطوها بأبهة وترفع مع خدم وموكب ونحو ذلك، وجعل بعض العلماء من صغارهم أن يطال وقوفهم عند تسلمها منهم.

قال ابن عثيمين[1]: قوله «وإذا حاصرت»

الحصر: التضييق؛ أي: طوقتهم وضيقت عليهم بحيث لا يخرجون من حصنهم ولا يدخل عليهم أحد.

قلت: الحصر التضييق من قوله تعالى: ﴿**حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ**﴾ أي ضاقت. اهـ.

(١) القول المفيد ٣/ ٣١٤ - ٣١٧.

والحصن: كل ما يُتَحصَّنُ به من قصور أو أحواش وغيرها.

قلت: ومنه قوله تعالى: **﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾**.

قوله: «أرادوك».

أي: طلبوك، وضمَّن الإِرادة معنى الطلب، وإلا؛ فإن الأصل أن تتعدى بـ «مِنْ»؛ فيقال: أرادوا منك.

قوله: **«فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه».**

الذمة: العهد، فإذا قال أهل الحصن المحاصرون: نريد أن ننزل على عهد الله ورسوله؛ فإنه لا يجوز أن ينزلهم على عهد الله ورسوله، وعَلَّل النبي ﷺ ذلك بقوله: **«فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون...».**

قوله: **«أن تخفروا».**

«أن»؛ بفتح الهمزة بدليل رفع «أهون» على أنها خبر، وأن وما دخلت عليه محلها من الإِعراب النصب على أنها بدل اشتمال من اسم «إن»، والتقدير: فإن خفركم ذممكم، والبدل يصح أن يحل محل المُبْدَل منه، ولهذا قَدّرتها بما سبق.

قوله: **«أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه».**

لأن الغدر بذمة الله وذمة نبيه أعظم، وقوله: **«أهون»** من باب اسم التفضيل الذى ليس فى المُفَضَّل ولا فى المُفَضَّل عليه شيء من هذا المعنى؛ لأن قوله: **«أهون»** يقتضى اشتراك المفضل والمفضل عليه بالهون، والأمر ليس كذلك؛ لأن إخفار الذمم سواء كان لذمة الله وذمة رسوله أو ذمة المجاهدين؛ كله ليس بهيِّن، بل هو صعب، لكن الهون هنا نسبي وليس على حقيقته فهنا أرادوا أن ينزلوا على العهد بدون أن يحكم عليهم بشيء، بل يعاهدون على حماية أموالهم وأنفسهم ونسائهم وذريتهم فنعطيهم ذلك.

قوله: **«وإذا حاصرت».**

أي: ضربت حصاراً يمنعهم من الخروج من مكانهم.

«أهل حصن»: أهل بلد أو مكان يَتَحَصَّنون به.

«فأرادوك»: طلبوا منك.

«حكم الله»؛ أي: شرع الله.

قوله: **«ولكن أنزلهم على حكمك».**

قوله «فلاتنزلهم على حكم الله».

قال الشوكاني (*): هذا النهى محمول على التنزيه والاحتياط، وكذلك الذى قبله ولذلك قال ﷺ: «فإنك لاتدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا». وفيه دليل لمن قال أن الحق مع واحد، وأن ليس كل مجتهد مصيباً، والخلاف فى المسألة مبسوط فى موضعه.

والحق: أن كل مجتهد مصيب من الصواب، لا من الإصابة.

وقد قيل أن هذا الحديث لاينتهض للاستدلال به على أن ليس كل مجتهد مصيباً، لأن ذلك كان فى زمان النبى. والأحكام الشرعية إذ ذاك لاتزال تنزل وينسخ بعضها بعضاً ويخصص بعضها بعضاً، فلا يؤمن من أن ينزل على النبى ﷺ حكم خلاف الحكم الذى قد عرفه الناس. اهـ وسيأتى ذلك من كلام ابن عثيمين.

قال حامد بن محمد بن حسن[1]: وفى هذا دليل على جواز الاجتهاد لمن له قوة على ذلك، وأيضاً فيه دليل على أن المجتهد يخطىء ويصيب، والخطأ إذا كان باجتهاد وعلم مغفور بل له على ذلك أجر إذا كانت النية صالحة ناصحة لله تعالى ولدينه ولرسوله.

قال ابن حجر: إن المصير إلى الرأى إنما يكون عند فقد النص وإلى هذا يومىء قول الشافعى فيما أخرجه البيهقى بسند صحيح إلى أحمد بن حنبل، سمعت الشافعى يقول: القياس عند الضرورة. ومع ذلك فليس القائل برأيه على ثقة من أنه وقع على المراد من الحكم فى نفس الأمر وإنما عليه بذل الوسع فى الاجتهاد ليؤجر، فمتى قصر المجتهد فى اجتهاده أثم وفاقاً لتركه الواجب عليه من بذل وسعه فيه.

قلت يعنى حامد بن محمد بن حسن بن محسن: القياس بيانه وتفسيره على ما فسره البخارى قال: باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبين.

قلت ـ يعنى حامد بن محمد بن حسن بن محسن: وذلك كما قال النبى ﷺ للمرأة لما أخبرته أن أباها لم يحج: «**أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت تقضيه؟ قالت: نعم، قال: فالله أحق بالقضاء**»[2]. فهذا هو عين القياس بطريق الأولوية.

قال فى فتح البارى: إنما سكت النبى ﷺ فى أشياء مفصلة ليس لها أصل فى

(*) نيل الأوطار (٧/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(١) فتح الحميد المجيد ٤٦٧ و ٤٦٨ و ٤٦٩.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٦٩٩) عن ابن عباس. وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

الشريعة فلابد فيها من الاطلاع إلى الوحى، وإلا فقد شرع ﷺ لأمته القياس وأعلمهم كيفية الاستنباط فى مسائل لها أصول ومعان، فيريهم كيف يصنعون فيما لا نص فيه، والقياس هو تشبيه ما لا حكم فيه بما فيه حكم فى المعنى، وقد شبه ﷺ الحمر بالخيل فقال: «ما أنزل الله شيئاً إلا هذه الآية الجامعة، **﴿فمن يعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾**[1] وقال للمرأة التى أخبرته أن أباها لم يحج: «**لو كان على أبيك دين أكنت قاضيته فالله أحق بالقضاء**»[2]. انتهى كلامه فى البخارى. عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**» [3]. انتهى.

قلت - يعنى حامد بن محمد بن حسن بن محسن: الأصول أربعة: الكتاب، والسنة، والقياس عند فقد النص على ما مضى أى بطريق الأولوية، والإجماع.

قال ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى: الإجماع اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ على أمر من الأمور الدينية بشرط أن يكون بعد وفاته ﷺ فخرج بالمجتهدين العوام فإنه لا عبرة باتفاقهم. اهـ.

قال ابن باز[4]: فالواجب على المسلمين ألاّ ينقضوا العهد والميثاق ويخفروا وليس لهم أن يجعلوا ذمة الله وذمة رسوله لأنه إذا وقعوا فى الإخفار صار أسهل فى حقهم من الإخفار فى ذمة الله وذمة نبيه مع أن كلاهما لا يجوز لكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الكبائر أشد من بعض.

وكذلك إذا طلبوا منهم أن ينزلهم على حكم الله فإنه لا يقبل بل يقول: أنزلكم على حكم أصحابى. ولا بأس أن يقول: سوف أجتهد فى إنزالكم على موافقة الشرع ولكن لا أستطيع أن أنزلكم على حكم الله لأنى قد أخطىء فيعرض عليهم إجتهادة حسب ما يوافق الشرع لأنه إذا أخطأ يكون قد كذب على الله فهذا من باب الحيطة. ومن باب الأداب الشرعية فى أعطاء العهود والمواثيق وأنزال العدو إلى حكم يرضاه الله تعالى. اهـ.

---

(١) الزلزلة: ٧. أخرجه البخارى (٤٩٦٣)، ومسلم فى الزكاة (٤/ ٧١/ ٢٤) عن أبى هريرة به.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٣٥٢) ومسلم فى الأقضية (١٢/ ١٣ - النووى) عن عمرو بن العاص به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٨٥٩ - بتخريجنا)

(٤) التعليق المفيد ٢٧٣.

قال ابن عثيمين: فإذا أرادوا أن ينـزلوا على حكم الله؛ فـإنهم لا يجابـون؛ فإنا لا ندرى أنصيب فيهم حكم الله أم لا؟

ولهذا قال: «**أنزلهم على حكمك**»، ولم يقل: وحكم أصحابك كما قال فى الذمة؛ لأن الحكم فى الجيش أو السرية للأمير، وأما الذمـة والعهد؛ فهى من الجميع، فلا يحل لواحد من الجيش أن ينقض العهد.

وقوله: «لاتدرى».

أى: لا تعلم «**أتصيب فيهم حكم الله أم لا**»، وذلك لأن الإِنسان قد يخطىء حكم الله تعالى.

وهذه المسألة اختلف فيها العلماء:

فقيل إن أهل الحصن لا يُنزلون على حكم الله؛ لأن قائد الجيش وإن اجتهد؛ فإنه لا يدرى أيصيب فيهم حكم الله أم لا؟ فليس كل مجتهد مصيباً.

وقيل: بل يُنزلون على حكم الله، والنهـى عن ذلك خاص فى عهد النبى ﷺ فقط؛ لأنه العهد الذى يمكن أن يتغير فيه الحكم؛ إذ من الجائز بعد مضى هذا الجيش أن يُغيِّر الله هذا الحكـم، وإذا كان كذلك فلا تـنزلهم علـى حكم الله؛ لأنك لاتدرى أتـصيب الحكم الجديد أو لا تصيبه؟

أما بعد انقطاع الوحى؛ فَيُنْزَلون على حكم الله، واجتهادنا فى إصابة حكم الله يعتبر صواباً إذا لم يتبين خطؤه؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد قال تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾، وهذا أصح؛ لأنه يحكـم للمجتهد بإصابته الحـكم ظاهراً شرعاً وإن كان قد يخـطىء، وإن حصل الاحتراز بـأن يقول: ننزلك عـلى ما نفهم مـن حكم الله ورسوله؛ فهو أولى؛ لأنـك إذا قلت على ما نفهم صار الأمـر واضحاً أن هذا حكم الله بحسب فهمنا، لا بحسب الواقع فيما لو اتضح خلافه.

واخترنا هـذه العبارة؛ لأنه قد يـتغير الاجتهـاد، ويأتى أمير آخر فـيحارب هؤلاء أو غيرهم ثم يتغير الحكم؛ فيقول الكفار: إن أحكام المسلمين متناقضه.

● **فوائد الحديث:**

قال ابن عثيمين[1]: ويستفاد من هذا الحديث ما يلى:

١- تحريم التمثيل، والغلول، والغدر، وقتل الوليد، وقد سبق الكلام عليه.

(١) القول المفيد ٣/٣١٨- ٣٢٢.

٢- يشرع للإمام بعث الجيوش والسرايا.

٣- لا يجوز القتال قبل الدعوة؛ لأنه جعل القتال آخر مرحلة.

وأما ما ورد في «الصحيح» أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غَارُّون[1]؛ فقد أجيب: أن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة، ودعوة من بلغتهم الدعوة سنة لا واجبة، ويرجع فيه للمصلحة.

قلت: تقدم كلام الشوكاني في ذلك.

٤- جواز أخذ الجزية من غير اليهود والنصارى والمجوس؛ لأن أهل الكتاب نص القرآن على أخذها منهم، والمجوس وردت به السنة، وأما ما عدا هؤلاء؛ فاختلف أهل العلم:

فقيل: لا تأخذ من غير هؤلاء، وقيل: لا تؤخذ من مشركي العرب؛ لأن فيها إذلالا.

والصحيح أنها تؤخذ من جميع الكفار؛ لعموم قوله ﷺ: «من كفر بالله»، ولم يقل: اليهود والنصارى. ـ وتقدم ذكر ذلك من كلان النووي والشوكاني، وسليمان آل الشيخ.

٥- الإشارة إلى أن القتال ليس لإكراه الناس على أن يدخلوا في الإسلام، ولو كان كذلك ما شرعت الجزية؛ لأنه على هذا التقدير يجب أن يدخلوا في الدين أو يقاتلوا، وهذا هو الراجح الذي يؤيده القرآن والسنة، وأما قوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس...»**[2] الحديث؛ فهو عام مخصوص بأدلة الجزية.

٦- عظم العهود، ولا سيما إذا كانت عهداً لله ورسوله.

٧- جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش.

٨- أنه لا يجوز أن ينزلهم على حكم الله؛ إما في عهد الرسول ﷺ، أو مطلقاً حسب الخلاف السابق.

٩- أن المجتهد قد يصيب وقد يخطىء؛ لقوله: **«فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟»**، وقال النبي ﷺ: **«إذا حكم الحاكم، فاجتهد، فأصاب؛ فله أجران، وإن**

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخاري (٢٥٤١) ومسلم في الجهاد (٦/ ٢٧٨/ ١) عن ابن عمر به.

(٢) تقدم تخريجه.

أخطأ؛ فله أجر واحد»[1]، وعليه؛ فهل نقول: إن المجتهد مصيب ولو أخطأ؟

الجواب: قيل: كل مجتهد مصيب.

وقيل: ليس كل مجتهد مصيباً.

وقيل: كل مجتهد مصيب فى الفروع دون الأصول؛ تحذراً من أن نُصَوِّب أهل البدع فى باب الأصل.

والصحيح أن كل مجتهد مصيب من حيث اجتهاده، أما من حيث موافقته للحق؛ فإنه يخطىء ويصيب، ويدل له قوله ﷺ: **«فاجتهد فأصاب، واجتهد فأخطأ»**(*)؛ فهذا واضح فى تقسيم المجتهدين إلى مخطىء ومصيب، وظاهر الحديث والنصوص أنه شامل للفروع والأصول، حيث دلت تلك النصوص على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، لكن الخطأ المخالف لإجماع السلف خطأ ولو كان من المجتهدين؛ لأنه لا يمكن أن يكون مصيباً والسلف غير مصيبين، سواء فى علم الأصول والفروع.

على أن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أنكرا تقسيم الدين إلى أصول وفروع، وقالا: إن هذا التقسيم محدث بعد عصر الصحابة، ولهذا نجد القائلين بهذا التقسيم يلحقون شيئاً من أكبر أصول الدين بالفروع، مثل الصلاة، وهى ركن من أركان الإسلام، ويخرجون أشياء فى العقيدة اختلف فيها السلف، يقولون: إنها من الفروع؛ لأنها ليست من العقيدة، ولكن فرع من فروعها، ونحن نقول: إن أردتم بالأصول ما كان عقيدة؛ فكل الدين أصول؛ لأن العبادات المالية أو البدنية لا يمكن أن تتعبد لله بها إلا أن تعتقد أنها مشروعة؛ فهذه عقيدة سابقة على العمل، ولو لم تعتقد ذلك لم يصح تعبدك لله بها.

والصحيح أن باب الاجتهاد مفتوح فيما سمى بالأصول أو الفروع، لكن ما خرج عن منهج السلف؛ فليس بمقبول مطلقاً.

١٠- أن باب الاجتهاد باق؛ لقوله: **«لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟»**، وبهذا يتبين ضعف قول من قال: إن باب الاجتهاد قد انسد، والواجب التقليد للأئمة، وهذا يترتب عليه الإعراض عن الكتاب والسنة إلى آراء الرجال، وهذا خطأ، بل الواجب على من تمكن من أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن يأخذه منهما، لكن لكثرة السنن وتفرقها

---

(١) تقدم قريباً.

(*) يرجع فى ذلك إلى «حاشيتى على الورقات» ط نزار الباز.

فيه مسائل

الأولى: الفَرْقُ بينَ ذِمَّةِ الله وذِمَّةِ نَبِيِّه، وَذِمَّةِ المُسْلمينَ.

لا ينبغى للإنسان أن يحكم بشىء بمجرد أن يسمع حديثاً فى هذا الحكم حتى يتثبت؛ لأن هذا الحكم قد يكون منسوخاً أو مقيداً أو عاماً وأنت تظنه بخلاف ذلك.

وأما أن نقول: لا تنظر فى القرآن والسنة لأنك لست أهلاً للاجتهاد؛ فهذا غير صحيح، ثم إنه على قولنا: إن باب الاجتهاد مفتوح؛ لا يجوز أبداً أن تحتقر آراء العلماء السابقين، أو أن تنزل من قدرهم؛ لأن أولئك تعبوا واجتهدوا وليسوا بمعصومين، فكونك تقدح فيهم أو تأخذ المسائل التى يلقونها على أنها نكت تعرضها أمام الناس ليسخروا بهم؛ فهذا أيضاً لا يجوز، وإذا كانت غيبة الإنسان العادى محرمة؛ فكيف بغيبة أهل العلم الذين أفنوا أعمارهم فى استخراج المسائل من أدلتها، ثم يأتى فى آخر الزمان من يقول: إن هؤلاء لا يعرفون، وهؤلاء يفرضون المحال ويقولون: كذا وكذا، مع أن أهل العلم فيما يفرضونه من المسائل النادرة قد لا يقصدون الوقوع، ولكن يقصدون تمرين الطالب على تطبيق المسائل على قواعدها وأصولها؟!

١١- فيه إثبات الحكم لله- عز وجل-، وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

أ- حكم كونى، وهو ما يتعلق بالكون، ولا يمكن لأحد أن يخالفه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾(١).

ب- حكم شرعى، وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة، وهذا من الناس من يأخذ به ومنهم من لا يأخذ به، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾(٢). اهـ.

قلت: وقد سبق ذلك مراراً عن الشيخ حفظه الله.

قال ابن عثيمين(٣):

قوله: «فيه مسائل».

● الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين.

لو قال: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وبين ذمة المسلمين؛ لكان أوضح؛ لأنك عندما

---

(١) يوسف ٨٠.

(٢) الممتحنة: ١٠.

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٢٢- ٣٢٥.

الثانية: الإِرْشَادُ إلى أَقلِّ الأَمْرَيْنِ خَطَرًا.

الثالثة: :قَوْلُهُ: «اغزَوا بِسمِ الله فِي سَبِيلِ اللهِ».

الرابعة: قَوْلُهُ: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ».

تقرأ كلامه تظن أن الفروق بين الثلاثة كلها، وليس كذلك؛ فإن ذمة الله وذمة نبيه واحدة، وإنما الفرق بينهما وبين ذمة المسلمين.

والفرق أن جعل ذمة الله وذمة نبيه للمحاصَرين محرمة، وجعل ذمة المحاصِرين ذمة- بكسر الصاد- جائزة.

● **الثانية: الإِرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.**

لقوله: **«ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك...»** الخ، وهذه قاعدة مهمة، وتقال على وجه آخر وهو: ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما إذا كان لابد من ارتكاب إحداهما، وقد دل عليها الشرع، قال تعالى: **﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾**؛ فسب آلهة المشركين مطلوب، لكن إذا تضمن سب الله- عز وجل- صار منهياً عنه؛ لأن مفسدة سب الله أعظم من مفسدة السكوت عن سب آلهتهم، وإن كان في هذا السكوت شيء من المفسدة، ولكن نسكت لئلا نقع في مفسدة أعظم، وأيضاً العقل دل عليها.

وفيه قاعدة مقابلة، وهي: ترك أولى المصلحتين لنيل أعلاهما، إذا كان لابد من ترك إحداهما، فإذا اجتمعت مصلحتان لا يمكن الأخذ بهما جميعاً؛ فخذ بأعلاهما، وإذا اجتمعت مفسدتان لا يمكن تركهما؛ فخذ بأدناهما.

● **الثالثة: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».**

يستفاد منها وجوب الغزو مع الاستعانة بالله والإِخلاص والتمشي على شرعه.

● **الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر».**

يستفاد منها وجوب قتال الكفار، وأن علة قتالهم الكفر، وليس المعنى أنه لا يقاتل إلا من كفر، بل الكفر سبب للقتال؛ فمن منع الزكاة يقاتل، وإذا ترك أهل بلد صلاة العيد قوتلوا، وكذا الأذان والإِقامة، مع أنهم لا يكفرون بذلك.

وإذا اقتتلت طائفتان وأبت إحداهما أن تفيء إلى أمر الله؛ قوتلت، فالقتال له أسباب متعددة غير الكفر.

الخامسة: قَوْلُهُ: «اسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُم».

السادسة: الفَرْقُ بَيْنَ حُكْمِ اللهِ وَحُكْمِ العُلَمَاءِ.

السابعة: فِي كَوْنِ الصَّحَابِيِّ يَحْكُم وعِنْدَ الحَاجَةِ بِحُكْمٍ لاَ يَدْرِي أيوافِقُ حُكْمَ اللهِ أَمْ لاَ.؟

● **الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».**

يفيد وجوب الاستعانة بالله، وأن لا يعتمد الإنسان على حوله وقُوَّته.

● **السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.**

وفيه فرقان:

١- أن حكم الله مصيب بلا شك، وحكم العلماء قد يصيب وقد لا يصيب.

٢- تنزيل أهل الحصن على حكم الله ممنوع؛ إما في عهد الرسول ﷺ فقط أو مطلقاً، وأما على حكم العلماء ونحوه؛ فهو جائز.

فائدة:

لا ينبغي أن يقال لمفت: ما حكم الإسلام في كذا، أو ما رأى الإسلام في كذا؛ فإنه قد يخطىء فلا يصيب حكم الإسلام، ولا يقول مفت: حكم الإسلام كذا؛ لأنه قد يخطىء، ولكن يُقَيِّد؛ فيقول: حكم الإسلام فيما أرى كذا وكذا إلا فيما هو نص واضح صريح؛ فلا بأس.

مثل أن يقال: ما حكم الإسلام في أكل الميتة؟

فيقول: حكم الإسلام في أكل الميتة أنه حرام.

● **السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟**

وهذا ليس خاصاً بالصحابة، بل حتى مَنْ بعدهم؛ فإن له أن يحكم بما يرى أنه حكم عند الحاجة.



٦٣ بابٌ
ما جاءَ في الإقسامِ على اللهِ

● **مناسبة الباب لما قبلـه:**

قال الفقير: المناسبة ظاهرة حيث أن ما قبله فـى ذمة الله وعهده والذى قبله كان فيما جاء فى الحلف، فناسب أن يأتى بالحلف علـى الله بعده؛ لتشابه الموضوعات الثلاثة ولو قدم هذا الباب على الذى قبله لكان أنسق لأنه به أليق، والله الموفق.

● **مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد:**

قال ناصر السعدى(١): أما الإقسـام على الله فهـو فى الغالـب من باب العُـجْب بالنفس والدلال على الله، وسوء الأدب معه، ولا يتم الإيمان حتى يسلم من ذلك كله. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله: الإقسام على الله هو الحلف أن يـفعل كذا أولا يفعل كذا، حكمه التحريم إذا كان على جهة الحجر علـى الله والقطع بحصول المقسم على حصلوه، وهذا النوع مناف لـلتوحيد؛ لأنه سوء أدب مع الله، وأما إذا كان على جـهة حسن الظن بالله فهو جائز لقَولِه ﷺ: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**».

قال ابن باز: لما كان الإقسام على الله جرأة على الله ونـقص فى التوحيد وضعف فى الإيمان ذكره المصنف هنا. اهـ.

قال ابن عثيمين(٢): أن من تَألَّـى على الله - عز وجـل -؛ فقد أساء الأدب مـعه وتحجر فضله وأساء الظن به، وكلٍ هذا ينافى كمال التوحيد، وربما ينافى أصل التوحيد؛ فالتألى على من هو عظيم يعتبر تَنَقُّصاً فى حقه. اهـ.

● **شرح الترجمة وماذا أراد المصنِّف بهذا الباب:**

قال حامد بن محمد (٣): (باب ما جاء) فى بيان (الإقسام على الله) وإثمة وعقوبته.

أما بـيانه: فـعن جـندب بن عـبد الله قال: قـال رسول الله - ﷺ - «قـال رجل: والله..» الحديث(٤). فذكره.

---

(١) القول السديد ١٣٦.

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٢٩.

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٧١.

(٤) سيأتى تخريجه.

وأما إثمه وعقوبته قوله: «**وأحبطت عملك**» كفى به إثماً وعقوبـة، فالمؤمن ما يفعل فعلاً ولا يقول قولاً إلا وينظر هل هو شرعى أم لا، وإن لم ينظر فلابد أن يغفل ويقع فى هذا الخطر وأمثـاله كما قال - ﷺ - «**إن الرجل يتكلَّم بكـلمة من سخط الله ما كان يظـن أن تبـلغ مـا بلـغت يـكتب الله بـها سـخطـه إلى يـوم يلـقاه**»[1] رواه التـرمذى. وصححه. اهـ.

قال ابن باز[2]: أى (باب ما جاء) فيه من الوعيد فـإنه لما كان الإقسام على الله جرأة على الله ونقص فى التوحيد وضعف فى الإيمان ذكره المؤلف هنا. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: الإِقسام: مصدر أَقْسم يُقسِم إذا حلف.

والحلف له عدة أسماء، هى: يمين، وأَلْيَة، وحلف، وقَسَم، وكلها بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**﴾[4].

وقال: ﴿**لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ**﴾[5]؛ أى: يحلفون.

وقال: ﴿**لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ**﴾[6].

وقال تعالى: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ**﴾[7].

وقال تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**﴾[8].

واختلف أهل العلم فى ﴿**لا**﴾ فى قوله: ﴿**لا أقسم**﴾؛ فقيل:

إنها نافية على الأصل، وإن معنى الكـلام: لا أقسم بهذا الشىءعلى المُقْسَم به؛ لأن الأمر أوضـح من أن يحتـاج إلى قسم، وهـذا فيه تكـلف؛ لأن من قرأ الآيـة عرف أن مدلولها الإِثبات لا النفى.

---

(١) أخرجه أحـمد فى «مسـنده» (٣/ ٤٦٩)، والترمـذى (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩) عـن بلال بن الحارث به. وانظر «رياض الصالحين» (١٥١٩ - بتخريجنا).

(٢) التعليق المفيد ٢٧٥.

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٣٦ - ٣٢٩.

(٤) الواقعة: ٧٥.

(٥) البقرة: ٢٢٦.

(٦) البقرة: ٢٢٥

(٧) التوبة: ٦٢.

(٨) النور: ٥٣.

وقيل: إن ﴿لا﴾ زائدة، والتقدير أقسم.

وقيل: إن ﴿لا﴾ للتنبيه، وهذا بمعنى الثانى؛ لأنها من حيث الإعراب زائدة.

وقيل: إنها نافية لشيء مُقَدَّر؛ أى: لا صحة لما تزعمون من انتفاء البعث، وهذا فى قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1] فيه شيء من التكلف، والصواب أنها زائدة للتنبيه.

والإقسام على الله: أن تحلف على الله أن يفعل، أو تحلف عليه أن لايفعل، مثل: والله؛ ليفعلن الله كذا، أو والله؛ لايفعلَ الله كذا.

والقسم على الله ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يقسم على ما أخبر الله به ورسوله من نفى أو إثبات؛ فهذا لابأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله، مثل: والله؛ليشفّعن الله نبيه فى الخلق يوم القيامة، ومثل: والله؛ لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثانى: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه؛ فهذا جائز لإقرار النبى ﷺ ذلك فى قصة الرُّبيع بنت النضر عمة أنس بن مالك رضى الله عنهما، «حينما كَسَرت ثَنِيَّةَ جارية من الأنصار، فاحتكموا إلى النبى ﷺ، فأمر النبى ﷺ بالقصاص، فعرضوا عليهم الصلح، فأبوا، فقام أنس بن النضر، فقال: أتُكسر ثَنِيَّةُ الربيّع؟ والله يارسول الله لاتكسر ثنية الربيع. وهو لا يريد به رد الحكم الشرعى؛ فقال الرسول ﷺ: «**يا أنس! كتاب الله القصاص**»؛ يعنى: السن بالسن. قال: والله؛ لاتكسر ثنية الربيع»؛ وغرضه بذلك أنه لقوة ما عنده من التصميم على أن لاتكسر ولو بذل كل غال ورخيص أقسم على ذلك.

قلت: كذا قال الشيخ ـ حفظه الله.

وقال ابن حجر: فى رواية الأنصارى - أى فى الصحيح «فرضى القوم وعفوا» وظاهره أنهم تركوا القصاص والأرش مطلقاً، فأشار البخارى إلى الجمع بينهما ـ أى بين رواية الأنصارى ورواية الفزارى ـ بأن قوله عفو محمول على أنهم عفوا عن القصاص على قبول الأرش جمعاً بين الروايتين.

---

(١) القيامة: ١

ثم قال ابن حجر فى موضع آخر: وفى رواية الإسماعيلى «**فرضى أهل المرأة بأرش أخذوه فعفوا**» فعرف أن قوله «**فعفوا**» أى على الدية. اهـ[*].

ثم قال ابن عثيمين: فلما عرفوا أنه مصمم ألقى الله فى قلوب الأنصار العفو فعفوا؛ فقال النبى ﷺ: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**»[1]، فهو لقوة رجائه بالله وحسن ظنه أقسم على الله أن لا تكسر ثنية الربيع؛ فألقى الله العفو فى قلوب هؤلاء الذين صمموا أمام الرسول ﷺ على القصاص، فعفوا وأخذوا الأرش.

قال ابن حجر: وزاد معتمر «فعجب النبى ﷺ وقال: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**» أى لأبر قسمه، وعند ابن أبى عاصم «**كم من رجل لو أقسم على الله لأبره**».

ووجه تعجبه أن أنس بن النضر أقسم على نفى فعل غيره مع إصرار ذلك الغير على إيقاع ذلك الفعل فكان قضية ذلك فى العادة أن يحنث فى يمنيه، فألهم الله الغير العفو، فبر قسم أنس.

وأشار بقوله «**إن من عباد الله**» إلى أن هذا الاتفاق إنما وقع إكراماً من الله لأنس ليبر يمنيه، وأنه من جملة عباد الله الذين يجب دعاءهم ويعطيهم أربهم. اهـ.

قال ابن عثيمين: فثناء الرسول ﷺ عليه شهادة بأن الرجل من عباد الله، وأن الله أبر قسمه ولَيَّن له هذه القلوب، وكيف لا وهو الذى قال: بأنه يجد ريح الجنة دون أحد، ولما استشهد وجد به بضعٌ وثمانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، ولم يعرفه إلا أخته ببنانه[2]، وهى الربيّع هذه، رضى الله عن الجميع وعنا معهم.

ويدل أيضاً لهذا القسم قوله ﷺ: «**رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**»[3].

(*) فتح البارى (٥/ ٣٦٠، ٣٦١) (١٢/ ٢٣٤).

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخارى (٢/ ٢٧٠٣)، ومسلم فى الحدود (١١/ ١٦٢ - النووى) ؛ عن أنس به، وأنظر «منار السبيل» (٢٤١٧ - بتخريجنا).

(٢) **[صحيح]** أخرجه: مسلم فى الإمارة (٧/ ٥٣/ ١٤٨) عن أنس به.

(٣) **[صحيح]** أخرجه: مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٧٤ - النووى) عن أبى هريرة به.
وانظر «رياض الصالحين» (٢٥٩ - بتخريجنا).

عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللهِ ـ رَضِيَ اللهُ عَـنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ ـ لاَ يَغْفِرُ اللهُ لِفُـلاَنٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّـى عَلَىَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ؟ إِنِّى قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

القسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحَجُّر فضل الله - عز وجل - وسوء الظن به تعالى؛ فهذا محرم، وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المقسم وهذا القسم هو الذى ساق المؤلف الحديث من أجله.



● **مناسبة الحديث للباب:**

قال القرعاوى(٢): دل الحديث على تحريم الإقسام على الله. اهـ.

● **مناسبة الحديث للتوحيد:**

قال القرعاوى(٣): دل الحديث على تحريم الإقسام على الله لأن فى ذلك هضم لحقوق الربوبية والإلهية وذلك منافٍ للتوحيد. اهـ.

قوله: [قال رجل].

قال ابن عثيمين(٤): يحتمل أن يكون الرجل الذى ذُكر فى حديث أبى هريرة الآتى أو غيره.

قوله: «والله لايغفر الله لفلان».

قال ابن عثيمين(٥): هذا يدلُّ على اليأس من روح الله، واحتقار عباد الله عند هذا القائل.

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة/ باب النهى عن تقنيط الإنسان من رحمة الله (١٦/ ١٧٤)، وابن حبان فى «صحيحه» (٧/ ٤٨٦/ ٥٦٨١)، والطبرانى فى «الكبير» (٢/ ١٦٥/ ١٦٧٩)، والبيهقى فى «الشعب» (٦٦٨٨).

من طريق عكرمة بن عمار، عن ضمضم بن جوس، عن أبى عمران الجونى عن جندب ... الحديث.

وانظر «فتح المجيد» (٨٩٩ - بتخريجنا).

(٢ -٣) الجديد ٤٦٧.

(٤ - ٥) القول المفيد ٣/ ٣٢٩، ٣٣٠.

والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر الذى يُغَطَّى به الرأس عند الحرب، وفيه وقاية وستر. اهـ.

قوله: «فقال الله عزّ وجل - من ذا الذى يتألَّى علىّ».

قال عبد الرحمن آل الشيخ[1]: يتألى: أى يحلف، والألية بالتشديد: الحلف. وصح من حديث أبى هريرة قال: البغوى فى شرح السنة» بسنده وساقه ـ وسيأتى ـ.

قال ابن باز[2]: التألى: هو الحلف، والألية اليمين، والحديث فيه التحذير من المتألى على الله والإقسام عليه بأنه لا يفعل كذا ولا يفعل كذا والله لا يغفر الله لفلان ونحوها، فكل هذا ظلم وجور لأنه ليس للإنسان علم من الله ولا عندك حق عليه ولو كان هذا الرجل فاعل كبيرة أو صاحب معصية بل عليك أن تدعو له بالهداية لأن الله قد يغفر له وأنت لاتدرى وهذا فيه خطورة اللسان فيجب حفظه والحذر منه وهو نقص فى التوحيد والإيمان. اهـ.

قال ابن عثيمين[3]: «من»: اسم استفهام مبتدأ، «ذا»: ملغاة، «الذى»: اسم موصل خبر مبتدأ.

معنى يتألى يحلف والألية اليمين[4].

«يتألى»: يحلف؛ أى: من ذا الذى يتحجر فضلى ونعمتى أن لا أغفر لمن أساء من عبادى، والاستفهام للإنكار.

والحديث ورد مبسوطاً فى حديث أبى هريرة أن هذا الرجل كان عابداً وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية، فيقول: أقصر فوجده يوماً على ذنب، فقال: أقصر. فقال: خلنى وربى؛ أبُعثت علىَّ رقيباً؟ فقال: والله؛ لا يغفر الله لك[5].

وهذا يدل على أن المسرف عنده حسن ظن بالله ورجاء له، ولعله كان يفعل الذنب ويتوب فيما بينه وبين ربه؛ لأنه قال: خلنى وربى، والإنسان إذا فعل الذنب ثم تاب توبة نصوحاً ثم غلبته عليه نفسه مرة أخرى؛ فإن توبته الأولى صحيحة، فإذا تاب ثانية

---

(١) فتح المجيد (٢/٧٠٣، ٧٠٤).

(٢) التعليق المفيد (٢٧٥).

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٣٠ - ٣٣٢.

(٤) النووى شرح مسلم.

(٥) سيأتى تخريجه.

فتوبته صحيحة؛ لأن من شروط التوبة أن يعزم أن لايعود، وليس من شروط التوبة أن لا يعود.

وهذا الرجل الذى قد غفر الله له؛ إما أن يكون قد وجدت منه أسباب المغفرة بالتوبة، أو أن ذنبه هذا كان دون الشرك فَتَفَضَّل الله عليه فغفر له، أما لو كان شركاً ومات بدون توبة؛ فإنه لا يغفر له؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾.

قوله: «وأحبطت عملك».

قال ابن عثيمين: ظاهر الإضافة فى الحديث: أن الله أحبط عمله كله؛ لأن المفرد المضاف الأصل فيه أن يكون عاماً.

ووجه إحباط الله عمله على سبيل العموم- حسب فهمنا والعلم عند الله: أن هذا الرجل كان يتعبد لله وفى نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل على الله كأنه يمُنّ على الله بعمله، وحينئذ يفتقد ركنًا عظيمًا من أركان العبادة، لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع، فلابد أن تكون عبدًا لله- عز وجل - بما تعبدك به وبما بَلَغَك من كلامه، وكثير من الذين يتعبدون لله بما تعبدهم به قد لا يتعبدون بوحيه، قد يصعب عليهم أن يرجعوا عن رأيهم إذا تبيَّن لهم الخطأ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويُحَرِّفون النصوص من أجله، والواجب أن تكون لله عبدًا فيما بلغك من وحيه، بحيث تخضع له خضوعًا كاملاً حتى تحقق العبودية.

ويحتمل معنى «**أحبطت عملك**» أى: عملك الذى كنت تفتخر به على هذا الرجل، وهذا أهون، لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غيره، لكن ظاهر حديث أبى هريرة يمنع هذا الاحتمال، حيث جاء فيه أن الله تعالى قال: اذهبوا به إلى النار.

ونظير هذا مما يحتمل العموم والخصوص قوله ﷺ فى حديث بهز بن حكيم عن جده فيمن منع الزكاة: «**فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا**»(١).

فقوله: «**وشطر ماله**»، هل المراد جميع ماله، أو ماله الذى منع زكاته؟ يحتمل الأمرين، فمثلاً: إذا كان عنده عشرون من الإبل، فزكاتها أربع شياه، فمنع الزكاة، فهل نأخذ عشراً من الإبل فقط مع الزكاة، أو إذا كان عنده أموال أخرى من بقر وغنم ونقود نأخذ نصف جميع ذلك مع الزكاة؟

---

(١) تقدم تخريجه.

اختلف فى ذلك:

فقيل: نأخذ نصف ماله الذى وقعت فيه المخالفة.

وقيل: نأخذ نصف جميع المال.

والراجح أنه راجع إلى رأى الإمام حسب المصلحة ، فإذا كان أخْذُ نصف ماله كله أبلغ فى الردع، أخَذَ نصف المال كله، وإلا، أخذ نصف المال الذى حصلت فيه المخالفة.

وذكر نحو هذا الشرح الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ وذكرت شرح الشيخ ابن عثيمين لوضوحه وسهولته.

من فوائد الحديث:

قال النووى: وفيه دلالة لمذهب أهل السنة فى غفران الذنوب بلا توبة إذا شاء الله غفرها واحتجت المعتزلة به فى إحباط الأعمال بالمعاصى الكبائر ومذهب أهل السنة أنها لا تحبط إلا بالكفر ويتأول حبوط عمل هذا على أنه أسقطت حسناته فى مقابل سيئاته وسمى إحباطًا مجازًا ، ويحتمل أنه جرى منه أمر آخر أوجب الكفر، ويحتمل أن هذا كان فى شرع من قبلنا، وكان هذا حكمهم(١).



قوله: وفى حديث أبى هريرة أن القائل رجل عابد...» إلخ.

قلت: أخرجه أبو داود فى «سننه فى الأدب فى باب النهى عن البغى بلفظ: حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان، أخبرنا على بن ثابت عن عكرمة بن عمار، قال: حدثنى ضمضم بن جوس، قال: قال أبو هريرة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كان رجلان فى بنى إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد فى العبادة، فكان لايزل المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يوماً على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلنى وربى أبعثت على رقيباً؟ فقال: والله لايغفر الله لك، أولا يدخلك الله الجنة فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: كنت بى عالماً، أو كنت على ما فى يدى قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتى، وقال للآخر، اذهبوا به إلى النار**». قال أبو هريرة: والذى نفسى بيده لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته. اهـ.

---

(١) «النووى شرح مسلم» (٨/ ٤٢٢).

وَفِى حَدِيثِ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وآخِرَتَهُ»(١).

مناسبة الحديث للباب والتوحيد تقدمت فى الحديث السابق .

قوله: «وفى حديث أبى هريرة أن القائل رجل عابد»

قال عبد الرحمن آل الشيخ(٢): يشير إلى قوله فى هذا الحديث: «أحدهما مجتهد فى العبادة» وفى هذه الأحاديث بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرز فى الكلام كما فى حديث معاذ.

قلت: يارسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: **ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو قال على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم.**

قوله: «وفى حديث أبى هريرة أن القائل رجل عابد».

قال ابن باز(٣): أى أن الذى حمله على هذا غيرته وعبارته التى يتعبدها على أن قال هذا الكلام السيء وفى هذا أن الإنسان قد يغار غيرة خاطئة خاسرة، فيجترىء بها على الله، وقد يكون غيوراً فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر على غير بصيرة، وقد ينكر منكراً على غير بصيرة، ولذلك يجب التقيد بالقيود والشرعية فى إنكار المنكر والنظر إلى الحدود التى حدها الله.

«أوبقت دينا وآخرته» أى أهلكتها، لأنها كلمة خطيرة، وفى الحديث «**إن العبد ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**» رواه مسلم وفى لفظ «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يتبين فيها يكتب الله بها سخطه إلى يوم يلقاه**» أى لايتثبت فيها. اهـ.

قوله: [تكلم بكلمة].

قال ابن عثيمين(٤): يعنى قوله: والله لا يغفر الله لك.

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب/ باب فى النهى عن البغى (٤/ ٢٧٧/ ٤٩٠١).

قال: حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان، أخبرنا على بن ثابت، عن عكرمة بن عمار قال: حدثنى ضمضم بن جوس، قال: قال أبو هريرة.. الحديث وفيه قصة. وانظر فتح المجيد (٩٠٠- بتخريجنا).

(٢) فتح المجيد و تيسير العزيز الحميد (٥٥٠/ ٥٥١).

(٣) التعليق المفيد (٢٧٥، ٢٧٦). (٤) القول المفيد ٣/ ٣٣٣- ٣٣٧.

قوله: (أوبقت).

أى: أهلكت، ومنه حديث: «اجتنبوا السبع الموبقات» أى: المهلكات.

قوله: «دنياه وآخرته».

لأن من حبط عمله، فقد خسر الدنيا والآخرة.

أما كونها أوبقت آخرته، فالأمر ظاهر، لأنه من أهل النار والعياذ بالله، وأما كونها أوبقت دنياه، فلأن دنيا الإنسان حقيقة هي ما اكتسب فيها عملاً صالحًا، وإلا، فهى خسارة، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1] وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[2]. فمن لم يوفق للإيمان والعمل الصالح، فقد خسر دنياه حقيقة، لأن مآلها للفناء، وكل شىء فانٍ فكأنه لم يوجد، واعتبر هذا بما حصل لك مما سبق من عمرك تجده مَرَّ عليك وكأنه لم يكن، وهذا من حكمة الله - عز وجل- لئلا يركن إلى الدنيا. اهـ.

وقوله: «قال أبو هريرة».

قال ابن عثيمين: يعني في الحديث الذى أشار إليه المؤلف رحمه الله.

ما يستفاد من الحديث:

قال القرعاوى[3]:

١- تحريم الحلف على الله .

٢- تحريم التألى على الله.

٣- إثبات صفة القول لله على وجه يليق بجلاله .

٤- وجوب التأدب مع الله فى الأقوال والأحوال.

٥- بيان سعة فضل الله ورحمته.

٦- الأعمال بالخواتيم.

٧- قد يغفر للشخص بسبب غيره.

٨- قد يحبط العمل من أجل كلمة.

٩- تحريم تحجر فضل الله ورحمته.

---

(١) العصر: ١:٣. (٢) الزمر: ١٥. (٣) الجديد/ ٤٦٧.

فيه مسائل

الأولى: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّأَلِّي عَلَى اللهِ.

الثانية: كَوْنُ النَّارِ أَقْرَبَ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِه.

الثالثة: أَنَّ الجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ.

الرابعة: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِه: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ ...» إِلَى آخِرِه.

فيه مسائل:

- **الأولى: التحذير من التألي على الله.**

قال ابن عثيمين[1]:

لقوله: «**من ذا الذى يتألى على أن لا أغفر لفلان**». وكونه أحبط عمله بذلك.

- **الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.**
- **الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.**

هاتان المسألتان اللتان ذكرهما المؤلف تؤخذان من حبوط عمل المُتألى والمغفرة للمسرف على نفسه، ثم أشار إلى حديث رواه البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه: أن النبى ﷺ قال: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**»[2]، ويقصد بهما تقريب الجنة أو النار، والشراك: سير النعل الذى يكون فيه الإبهام والأصابع.

- **الرابعة: فيه شاهد لقوله: « إن الرجل ليتكلم بالكلمة...» إلى آخره.**

يشير المؤلف إلى حديث: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يرى أن تبلغ حيث بلغت يهوى بها فى النار سبعين خريفًا**»[3] أو «**أبعد مما بين المشرق والمغرب**»[4] وهذا فيه

---

(١) القول المفيد (٣/ ٣٣٤/ ٣٣١).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٤٨٨) عن ابن مسعود به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٠٦ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه: أحمد فى «مسنده» (٢/ ٣٥٥)، وابن ماجه (٣٩٧٠) عن أبى هريرة به.

(٤) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٦٤٧٧) ومسلم فى الزهد (٨/ ٣٤٣/ ٤٩).

الحذر من مزلة اللسان ، فقد يسبب الهلاك، ولهذا قال النبى ﷺ: **«ومن يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»**(١) وقال لمعاذ: **«كف عليك هذا - يعنى لسانه»** قلت: يا رسول الله ! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال : **«ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟!»**(٢)

ولا سيما إذا كانت هذه الزلة ممن يقتدى به، كما يحدث من دعاة الضلال والعياذ بالله فإن عليه وزره ووزر من تبعه إلى يوم القيامة.

● **الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.**

فإنه قد غفر له بسبب هذا التأنيب، وهذه لم تظهر لى من الحديث ولعلها تؤخذ من قوله: « قد غفرت له».

ولا شك أن الإنسان قد يغفر له شيء هو من أكره الأمور إليه، مثل الجهاد فى سبيل الله ، قال تعالى: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾**(٣). اهـ.

وزاد عبد الرحمن آل الشيخ(٤): وفى هذه الأحاديث: بيان خطر اللسان وذلك يفيد التحرز من الكلام، كما فى حديث معاذ.

وزاد عبد الله بن جار الله(٥) **على فوائد الباب:**

(١) تحريم العجب بالنفس ووجوب التأدب مع الله فى الأقوال والأفعال.

(٢) بيان خطر اللسان والتحرز من الكلام كما قال ﷺ: **«وهل يكب الناس فى النار**

---

(١) [صحيح] أخرجه: البخارى (٦٤٧٤) عن سهل بن سعد به.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٣١)، والترمذى (٢٦١٦)، والنسائى فى «الكبرى» (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣) عن معاذ به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٢٥ - بتخريجنا).

(٣) البقرة/ ٢١٦.

(٤) فتح المجيد (٢/ ٧٠٣) و تيسير العزيز الحميد.

(٥) الجامع الفريد (٢٢١، ٢٢٢).

على وجوهم أو قال على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم»[1]. . وقال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها ـ أى: ما يفكر فيها ـ يزل بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»[2] ـ متفق عليه. اهـ.

وقال القرعاوى[3]:

(١) تحريم الحلف على الله

(٢) تحريم التألى على الله.

(٣) إثبات صفة القول لله على وجه يليق بجلاله.

(٤) وجوب التأدب مع الله فى الأقوال والأحوال.

(٥) بيان سعة فضل الله ورحمته.

(٦) الأعمال بالخواتيم.

(٧) قد يغفر للشخص بسبب غيره.

(٨) قد يحبط العمل من أجل كلمة.

(٩) تحريم حجر فضل الله ورحمته. اهـ.

قلت:

- وفيه عبادة الله بالخوف والرجاء.

- وفيه حبوط عمل المنان الذى يمن على الله بعمله، لأن هذا الرجل كان يمن على الله بالطاعة وماهى إلا من فضل الله عليه، ولذا قال الله لنبيه ﴿**ولا تمنن تستكثر**﴾.

- وفيه فضيلة العالم على العابد، حيث أن القائل «**والله لايغفر الله لفلان**» كان رجلا عابداً ولو كان عالماً ما تجرأ على هذا.

- وفيه عظمة الله فى أنه لا يُحلف عليه، إلا على سبيل الرجاء وحسن الظن بالله كما تقدم.

- وفيه أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر إن لم يكن على بصيرة، فإنه يضر أكثر مما ينفع. وربما أضر بنفسه.



(١) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٢٦١٦) انظر تمام تخريجنا عليه «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/ ٤٧١) من حديث معاذ.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٤٧٧) ومسلم (٦/ ١٨/ ١١٧). .

(٣) الجديد (٤٦٧).

٦٤ بابٌ
لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ علَى خَلْقِهِ

● **مناسبة الباب لما قبله.**

قال الفقير: ولما كان الذى أقسم على الله لم يعظمه حيث تَدَخَّلَ فى سلطانه بِحجْرِ رحمته ومغفرته عن بعض عبيده وكان من استشفع بالله على خلقه أيضاً غير معظم له لأنه عكس الآية وجعل الخلق فى منزلة فوق الخالق؛ لما كان الأمر كذلك ناسب أن يعقب بهذا الباب بعده والله أعلم.

● **مناسبة الباب لكتاب التوحيد:**

قال حامد بن محمد(١): ومن يستشفع بالله على خلقه فإنه ما عظم الله، وما درى ما شأن الله تعالى بل جهل عظمته، وكبرياءه، وجلال قدره.

ومعلوم بالضرورة العقلية والنقلية لو أن لَمَعَ له لَمْعَةٌ من ذلك لما استشفع بالله الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، الكامل من كل الوجوه، المنزه عن النقائص والعيوب المتصلة والمنفصلة، الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ـ على أحد من خلقه المقهور المدبر. اهـ.

قال السعدى(٢): الاستشفاع بالله على خلقه فهو تعالى أعظم شأناً من أن يتوسل إلى خلقه، لأن رتبة المتوسل به غالباً دون رتبة المتوسل إليه. وذلك من سوء الأدب مع الله، فيتعين تركه، فإن الشفعاء لايشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه فكيف يعكس الأمر فيُجعل هو الشافع، وهو الكبير العظيم الذى خضعت له الرقاب وذلت له الكائنات بأسرها. اهـ.

قال عبدالله بن جار الله(٣): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هى أن الاستشفاع بالله على خلقه مناف للتوحيد لأن فيه تنقص لرب العالمين. اهـ.

قال ابن باز(٤): ذكر المؤلف هذا الباب لأنه من كمال التوحيد والإيمان ولأن هذا

---

(١) فتح الله الحميد المجيد ٤٧٣.

(٢) القول السديد ١٣٦و ١٣٧.

(٣) الجامع الفريد ٢٢٣.

(٤) التعليق المفيد ٢٧٧.

من وسائل الشرك وهو الاستشفاع بالله على خلقه، فشأن الله أعظم من ذلك فلا يُستشفع بالله على خلقه بأن يقول لأحد: أنى استشفع بالله عليك، فهذا لا بأس به أما على الله فلاتجوز لأن شأن الله أعظم من ذلك ومن شأن المشفوع به أن المشفوع إليه يكون أعظم وهذا لايليق بالله لأن الله فوق الجميع بل يسأل الله بأسمائه وصفاته. اهـ.

قال ابن عثيمين(١): أن الاستشفاع بالله على خلقه تنقص لله - عزوجل -؛ لأنه جعل مرتبة الله أدنى من مرتبة المشفوع إليه؛ إذ لو كان أعلى مرتبة ما احتاج أن يشفع عنده، بل يأمره أمراً والله - عزوجل - لايشفع لأحد من خلقه إلى أحد؛ لأنه أجَلَ وأعظم من أن يكون شافعاً، ولهذا أنكر النبى ﷺ ذلك على الأعرابى، وهذا وجه وضع هذا الباب فى كتاب التوحيد. اهـ.

● شرح الترجمة:

قال حامد بن محمد(٢): باب ما جاء فى بيان أنه لايستشفع بالله على أحدٍ من خلقه. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله(*): الاستشفاع هو طلب الشفاعة، والاستشفاع بالله على خلقه حرام، لأنه تعالى أعظم شأناً من أن يتوسل به إلى خلقه، لأن رتبة المتوسل به غالباً دون رتبة المتوسل إليه، وذلك سوء أدب مع الله فيتعين تركه، فإن الشفعاء لايشفعون عنده إلا بإذنه وكلهم يخافونه، فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع، وهو الكبير العظيم الذى خضعت له الرقاب وذلت له الكائنات جميعها. اهـ.

قال ابن عثيمين(٣): استشفع بالشىء؛ أى: جعله شافعاً له، والشفاعة فى الأصل: جعل الفرد شفعاً، وهى التوسط للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه. اهـ.

قلت: وتقدم معنا تفصيل الشفاعة ومسائلها فى الباب السادس عشر، فانظره ان شئت.



(١) القول المفيد ٣/٣٣٨.

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٤٧٣.

(*) الجامع الفريد (٢٢٣).

(٣) القول المفيد ٣/٣٣٨.

عَنْ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ! نُهِكت الأَنْفُسُ وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ! سُبْحَانَ اللهِ!» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ. ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لاَ يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ..» وَذَكَرَ الحَدِيثَ . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

قوله: «عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله ...] الحديث.

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٢): وسياق أبي داود في «سننه» أتم مما ذكره المصنف ـ رحمه الله ـ ولفظه: عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: «أَتَى رَسُولَ الله ﷺ أعرابي فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، جُهِدَتِ الأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ العِيَالُ، وَنُهِكَتِ الأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الأنعام، فَاسْتَسْقِ الله لَنا، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى الله، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسولِ الله ﷺ: **«وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟** وَسَبَّح رَسُولُ الله ﷺ فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: **وَيْحَكَ، إِنَّهُ لاَ يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ، أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمواتِهِ لَهَكَذَا وقال بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ القُبَّةِ عَلَيْهِ ـ وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ».**

قال عبد الرحمن آل الشيخ: قال ابن بشار: في حديثه: «إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته».

---

(١) [ضعيف] أخرجه أبوداود في «السنة»/ باب: في الجهمية (٤/ ٢٣١/ ح٤٧٢٦) وابن خزيمة في «التوحيد» (ص١٠٣، ١٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (ح ٥٧٥، ٥٧٦)، والطبراني في «الكبير» (/٢/ ١٢٨ح ١٥٤٧).

جميعاً من طريق محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده. . . . فذكره.

قال الألباني: إسناده ضعيف.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٥١ و ٥٥٢، و«فتح المجيد» (٢/ ٧٠٥).

قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في «الرد على الجهمية» من حديث محمد بن إسحاق بن يسار. اهـ.

قال صاحب عون المعبود[1]: وقال البيهقي في «كتاب الأسماء والصفات»: هذا حديث ينفرد به محمد بن إسحاق بن يسار عن يعقوب بن عتبة...

وأحمد بن حنبل يقول: يكتب عنه هذه الأحاديث يعني المغازي ونحوها فإذا جاء الحلال والحرام أردنا قوماً هكذا يريد أقوى منه فإذا كان لايحتج به في الحلال والحرام فأولى أن لايحتج به في صفات الله سبحانه وتعالى. اهـ.

● **مناسبة الحديث للباب:**

قال عبد الله بن جارالله[2]: مناسبة الحديث للباب أن النبي ﷺ أنكر فيه الاستشفاع بالله على خلقه واستعظمه ونهى عنه. اهـ.

قال القرعاوي[3]: حيث دل الحديث على تحريم الاستشفاع بالله على أحد من خلقه. اهـ.

● **مناسبة الحديث للتوحيد:**

قال القرعاوي[4]: حيث دل الحديث على تحريم الاستشفاع بالله على أحد من خلقه لأن الاستشفاع به تنقص لجلاله وعظمته وحط من مكانته وذلك مناف للتوحيد. اهـ.

قوله: [جبير بن مطعم] قدم على النبي ﷺ في فداء أسارى بدر، ثم أسلم بعد ذلك عام خيبر، وقيل يوم الفتح، وتوفي سنة (٥٩هـ).

وحكى ابن عبدالبر أنه أول من لبس الطيلسان بالمدينة، وقال العسكري: كان أحد من يتحاكم إليه، وقد تحاكم إليه عثمان وطلحة في قضية أهـ[5].

قوله: [جاء أعرابي إلى النبي ﷺ]

[قلت]: وفي صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رجلاً

(١) نقلاً عن «عون المعبود» (٧/١٣/ ١٤، ١٥).

(٢) الجامع الفريد ٢٢٤.

(٣ ـ ٤) الجديد ٤٧٠.

(٥) تهذيب التهذيب (٢/ ٣١).

دخل يوم الجمعة»[1] ففى حديث جبير بن مطعم (الأعرابى) مبهم، وكذلك فى حديث أنس (رجلاً).

ـ **وقال ابن حجر**[2]: لم أقف على تسميته. أهـ وذكر الحافظ الرد على من قال أنه كعب بن مرة، ومن قال أنه: خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى، ومن قال أبو سفيان.

ثم بيَّن أن هذه الواقعة تكررت.

وفى رواية لحديث أنس «أتى رجل أعرابى من البدو» أهـ.

وقال ابن عثيمين[3]: (الأعرابى) واحد الأعراب، وهم سكان البادية، والغالب على الأعراب الجفاء؛ لأنهم أحرى أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله أهـ.

قوله: «نهكت الأنفس».

قال صاحب عون المعبود: بصيغة المبنى للمجهول، أى نقصت[4]. أهـ.

وقال ابن عثيمين[5]: أى ضعفت أهـ.

قوله: [وجع العيال، وهلكت الأموال].

وفى رواية البخارى عن أنس «**هلكت المواشى، وانقطعت السبل**»[6] وفى لفظ له «**هلك الكُراع**» ـ أى الخيل ـ، وله أيضا : «**هلكت الماشية، هلك العيال، هلك الكراع**». وهو من ذكر العام بعد الخاص، والمراد بهلاكهم عدم وجود مايعيشون به من الأقوات المفقودة بحبس المطر أهـ[7].

وقال ابن عثيمين[8]: و«**جاع العيال، وهلكت الأموال**»؛ أى: من قلة المطر والخصب، فَضَعْفُ الأنفس بسبب ضعف القوة النفسية والمعنوية التى تحصل فيما إذا لم

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (١٠١٣)، ومسلم فى الاستسقاء (٣/ ٤٥٩/ ٨) عن أنس بلفظ آخر.

(٢) فتح البارى (٢/ ٥٨٢، ٥٨٣).

(٣) القول المفيد (٣/ ٣٣٨).

(٤) عون المعبود (٧/ ١٣/ ٨).

(٥) القول المفيد (٣/ ٣٣٨).

(٦) تقدم قريباً.

(٧) فتح البارى (٢/ ٥٨٣).

(٨) القول المفيد (٣/ ٣٣٨).

يكن هناك خصب، وجاع العيال لقلة العيش، وهلكت الأموال؛ لأنها لم تجد ما ترعاه أهـ.

قوله: [فاستسق لنا ربك] ولفظ أبي داود **(فاستسق الله لنا)**.

وفي رواية البخاري في حديث أنس قال الأعرابي: **«فادع الله يُغيثنا»** والإغاثة إذا كانت بالضم، والغيث إذا كانت بالفتح، ويرجح الأول.

وللبخاري في الأدب **«فاستسق ربك»** والمعروف في كلام العرب **(غثنا)** لأنه من الغوث، وقال ابن القطاع: غاث الله عباده غيثاً وغياثاً، سقاهم المطر، وأغاثهم أجاب دعائهم[1]. اهـ.

وقال صاحب عون المعبود[2]: اطلب لنا السقيا من الله تعالى أهـ.

وقال ابن عثيمين[3]: أي اطلب من الله أن يسقينا، وهذا لابأس به، لأن طلب الدعاء ممن ترجى إجابته من وسائل إجابة الدعاء أهـ.

قوله: [فإنا نستشفع بالله عليك].

قال صاحب عون المعبود[4]: فإنا نستشفع أي نطلب الشفاعة (بك) أي بوجودك وحرمتك وبعظمتك.

قال ابن عثيمين[5]: أي: نجعله واسطة بيننا وبينك لتدعو الله لنا، وهذا يقتضي أنه جعل مرتبة الله في مرتبة أدنى من مرتبة الرسول ﷺ.

قوله: [ونستشفع بك على الله].

قال ابن عثيمين[6]: أي: نطلب منك أن تكون شافعاً لنا عند الله، فتدعو الله لنا، وهذا صحيح.

قوله: [فقال النبي ﷺ سبحان الله! سبحان الله!].

قال عبد الرحمن آل الشيخ[7]: قوله: «وسبح كثيراً وعظمه» لأن هذا القول لايليق بالخالق سبحانه وبحمده وإن شأن الله أعظم من ذلك. اهـ.

---

(١) فتح الباري (٢/ ٥٨٤).

(٢) عون المعبود (٧/ ١٣/ ٨).

(٣) القول المفيد (٣/ ٣٣٨)..

(٤) عون المعبود (٧/ ١٣/ ٨).

(٥) القول المفيد ٣/ ٣٤٠.

(٦) القول المفيد ٣/ ٣٤٠و ٣٤١.

(٧) فتح المجيد (٢/ ٧٠٦) تيسير العزيز الحميد (٥٥٢).

وقال ابن باز[1]: قال النبي ﷺ «سبحانه الله» هذا يقوله ﷺ في الأمور العظيمة المحبوب فيها، والمكروه في الأشياء التي تعظم أو يتعجب منها أو ينكرها.

ولها أمثلة كثيرة كحديث الأنواط، وحديث أن الأمة شطر الجنة وغيرها. اهـ.

قال ابن عثيمين[2]: **قوله: «سبحان الله! سبحان الله!»**. قال ﷺ استعظاماً لهذا القول، وإنكاراً له، وتنزيهاً لله عزوجل عما لايليق به من جعله شافعاً بين الخلق وبين الرسول ﷺ.

و**«سبحان»**: اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق من سبح يسبح تسبيحاً، وإذا جاءت الكلمة بمعنى المصدر وليس فيها حروفه؛ فهي اسم مصدر، مثل: كلام اسم مصدر كَلّم والمصدر تكليم، ومثل: سلام اسم مصدر سَلّم والمصدر تسليم.

و**«سبحان»**: مفعول مطلق، وهو لازم النصب وحذف العامل أيضاً، فلا يأتي مع الفعل، فلاتقول: سبحت الله سبحاناً إلا نادراً في الشعر ونحوه.

والتسبيح: تنزيه الله عما لايليق به من نقص، أو عيب، أو مماثلة للمخلوق، أو ما أشبه ذلك.

وإن شئت أدْخِل مماثلة المخلوق مع النقص والعيب؛ لأن مماثلة الناقص نقص، بل مقارنة الكامل بالناقص تجعله ناقصاً؛ كما قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ ... إذا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العَصَا

قوله: «فما زال».

إذا دخلت «ما» على زال الذي مضارعها يزال؛ صار النفي إثباتاً مفيداً للاستمرار؛ كقوله تعالى: ﴿ **فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ** ﴾[3] الآية، وكقوله تعالى في المضارع: ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ** ﴾[4].

وجملة **«يسبح»**: خبر زال.

---

(1) التعليق المفيد (٢٧٧).

(2) القول المفيد ٣/ ٣٤٠و ٣٤١.

(3) الأنبياء: ١٥.

(4) هود: ١١٨/ ١١٩.

قوله: «حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه».

أي: عرف أثره في وجوه أصحابه، وأنهم تأثروا بذلك؛ لأنهم عرفوا أنه ﷺ لايسبح في مثل هذا الموضع ولايكرره إلا لأمر عظيم، ووجه التسبيح هنا أن الرجل ذكر جملة فيها شيء من التَّنقُّص لله تعالى؛ فَسَبَّح النبي ﷺ ربه تنزيهاً له عما تُوهِمْه هذه الكلمة، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه في السفر إذا هبطوا وادياً سبحوا؛ تنزيهاً لله تعالى عن السفول الذى كان من صفاتهم، وإذا علوا نَشَزاً كبروا؛ تعظيماً لله عزوجل[1]، وأن الله تعالى هو الذى له الكبرياء في السموات والأرض.

قوله: [ثم قال: ويحك].

قال صاحب عون المعبود[2]: «ويحك» بمعنى ويلك إلا أنَّ الأول فيه معنى الشفقة عن المزلَّة والمزلقة والثانى دعاء عليه بالهلكة والعقوبة قاله القارى.

قال ابن عثيمين[3]: قوله: «ويحك». ويح: منصوب بعامل محذوف، تقديره: ألزمك الله ويحك.

وتارة تضاف؛ فيقال: ويحك، وتارة تقطع عن الإضافة؛ فيقال: ويحاً لك، وتارة ترفع على أنها مبتدأ؛ فيقال: ويحه أو ويحٌ له.

وهى وويل وويس كلها متقاربة فى المعنى.

ولكن بعض علماء اللغة قال: إن ويح كلمة ترحم، وويل كلمة وعيد.

فمعنى ويحك: إنى أترحم لك وأحن عليك.

ومنهم من قال: كل هذه الكلمات تدل على التحذير.

فعلى معنى أن ويح بمعنى الترحم يكون قوله ﷺ لهذا الرجل تَرَحُّماً لهذا الرجل الذى تكلم بهذا الكلام، كأنه لم يعرف قدر الله.

قوله: [أتدرى ما الله].

---

(١) [صحيح] أخرجه: البخارى (٢٩٩٣) عن جابر بن عبدالله به.

(٢) عون المعبود ٧/ ١٣/ ٩.

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٤٢.

قال الخطابى[1]: فمعنى قوله أتدرى ما الله معناه: أتدرى ما عظمة الله وجلاله، وأشار إلى أن ظاهر الحديث فيه نوع من الكيفية والكيفية عن الله وعن صفاته منفية وإنما هو كلام تقريب أريد به تقريب عظمة الله وجلاله سبحانه.

وقال البغوى فى شرح السنة[2]: معناه أتدرى ما عظمة الله وجلاله.

قال ابن عثيمين[3]: قوله: «أتدرى ما الله». المراد بالاستفهام التعظيم؛ أى: شأن الله عظيم، ويحتمل أن المعنى: لاتدرى ما الله، بل أنت جاهل؛ به فيكون المراد بالاستفهام النفى.

وقوله: «ما الله».

جملة استفهامية معلقة لـ«تدرى» عن العمل؛ لأن درى تنصب مفعولين، لكنها تعلق بالاستفهام عن العمل وتكون الجملة فى محل نصب سَدَّت مفعولى تدرى.

قوله: [إنَّ شأن الله أعظم من ذلك].

قال صاحب عون المعبود [4]: «شأن الله أعظم من ذلك» أى: من أن يستشفع به على أحد.

قال الطيبى: استشفعت بفلان على فلان ليشفع لى إليه فشفعه أجاب شفاعته ولما قيل إن الشفاعة هى الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه إلى ذى سلطان عظيم منع ﷺ أن يستشفع بالله على أحد.

وقوله ذلك إشارة إلى أثر هيبة أو خوف استشعر من قوله سبحان الله تنزيهاً عما نسب إلى الله تعالى من الاستشفاع به على أحد وتكراره مرارا. اهـ.

قال ابن عثيمين[5]: «إن شأن الله أعظم من ذلك» أى إنَّ أمر الله وعظمته أعظم مما تصوّرت حيث جئت بهذا اللفظ.

قوله: [إنه لايستشفع بالله على أحد].

---

(١) نقلاً عن عون المعبود ٧/ ١٣/ ١٤و ١٥.

(٢) شرح السنة ١/ ١٧٦.

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٤٢.

(٤) عون المعبود (٧/ ١٣/ ٩، ١٠).

(٥) القول المفيد (٣/ ٣٤٣).

قال ابن تيمية[1]: فأقره النبى ﷺ على قوله «إنا نستشفع بك على الله وأنكر عليه نستشفع بالله عليك، لأن الشافع يسأل المشفوع إليه، والعبد يسأل ربه ويستشفع إليه، والرب سبحانه وتعالى لايسأل العبد ولايستشفع به أهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ[*]: قوله **«ويحك إنه لايستشفع بالله على أحد من خلقه»** فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه، والخير كله بيده، لامانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، ولا راد لما قضى، وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، والخلق وما فى أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، وهو الذى يشفِّع الشافع إليه، ولهذا أنكر على الأعرابى. اهـ.

وقال ابن عثيمين[2]: أى: لايطلب منه أن يكون شفيعاً إلى أحد، وذلك لكمال عظمته وكبريائه وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، وأنه لايجوز لأحد أن يقول: نسشتفع بالله عليك.

فإن قيل: أليس قد قال النبى ﷺ: **«من سألكم بالله فأعطوه»**[3]، وهذا دليل على جواز السؤال بالله؛ إذ لو لم يكن السؤال بالله جائزاً لن يكن إعطاء السائل واجباً؟

والجواب أن يقال: إن السؤال بالله لايقتضى أن تكون مرتبة المسؤول به أدنى من مرتبة المسؤول بخلاف الاستشفاع، بل يدل على أن مرتبة المسؤول به عظيمة، بحيث إذا سئل به أعطى.

على أن بعض العلماء قال: **«من سألكم بالله»**؛ أى: من سألكم سؤالاً بمقتضى شريعة الله فأعطوه، وليس المعنى من قال: أسألك بالله.

والمعنى الأول أصح، وقد ورد مثله فى قوله الملك: **«أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن»**[4].

قال البغوى[5]: وعلى العبد أن يعتقد أن الله سبحانه وتعالى عظيم له عظمة، كبير له كبرياء، عزيز له عزة، حيٌ له حياةٌ، باقٍ له بقاءٌ، عالمٌ وله علمٌ، ومتكلمٌ وله كلامٌ، قوىٌ له قوةٌ، وقادرٌ وله قُدرةٌ، وسميعٌ وله سمعٌ، بصيرٌ له بصرٌ.

---

(1) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٧٠).

(2) القول المفيد (٣/ ٣٤٣).

(3) تقدم تخريجه.

(4) تقدم فى حديث الأبرص والأقرع.

(5) شرح السنة ١/ ١٧٧و ١٨٠.

(*) فتح المجيد ٢/ ٧٠٦.

قال الله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾(١).

وقال الله عزوجل: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٣).

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(٤).

وقال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾(٥).

وقال النبى ﷺ عن الله عزوجل: «وعِزّتى وَجلالِي وكبريائى وعظمتى لأخرجَنَّ منها من قال: لا إله إلا الله»(٦).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾(٧)، ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾(٨).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾(٩).

وقال الله عزوجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(١٠).

وقال الله عزوجل: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾(١١).

وقال عزَّوجَلَّ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(١٢).

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾(١٣).

وقال عزوجل: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾(١٤).

وقال عزوجل: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾(١٥).

---

(١) الواقعة: ٧٤.
(٢) الحج: ٦٢.
(٣) الجاثية: ٣٧.
(٤) الفتح: ٧.
(٥) فاطر: ١٠
(٦) تقدم فى باب الشفاعة
(٧) غافر: ٦٥.
(٨) طه: ١١١.
(٩) الرحمن: ٢٧.
(١٠) القصص: ٨٨.
(١١) سبأ: ٣..
(١٢) النساء: ١٧.
(١٣) النساء: ١٦٦.
(١٤) فاطر: ١١.
(١٥) البقرة: ٢٥٥.

وقال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[1].

وقال عزوجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾[2].

وقال جلَّ ذكرُه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[3].

وقال عزوجل: ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾[4].

وقال عزَّوجلَّ: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾[5].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[6].

وقال عزوجل: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[7].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[8].

وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[9].

وقال عزوجل: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[10].

وقال النبي ﷺ: «**حِجابه النُّورُ لو كشفها لأحرقَتْ سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُ من خلقه**»[11].

ويجبَ أن يعتقد أن الله عزّ اسمُه قديم بجميع أسمائه وصفاته، لايجوز له اسمٌ حادثٌ، ولا صفة حادثة، كان الله خالقاً ولا مخلوق، وربّاً ولا مَربوب، ومالكاً ولامملوك، كما هو الآخرُ قبل فناء العالَم، والوارثُ قبل فناء الخلق، والباعثُ قبل مجيء البعث، ومالكُ يوم الدِّين قبل مجيء يوم القيامة.

وأسماء الله تعالى لا تُشْبِه أسماء العباد، لأن أفعال الله تعالى مشتقة من أسمائه، وأسماء العباد مشتقة من أفعالهم، قال النبي ﷺ: «**يقول الله سبحانه وتعالى: أنا الرَّحمن خلقت الرَّحِمَ وشققتُ لها من اسمي**»[12].

---

(1) النساء: ١٦٤. (2) الفتح: ١٥.
(3) الحج: ٤٠. (4) الذاريات: ٥٨.
(5) الأنعام: ٦٥. (6) البقرة: ٢٠.
(7) القمر: ٥٥. (8) النساء: ١٣٤.
(9) المجادلة: ١. (10) طه: ٤٦.
(11) سبق تخريجه بلفظ «إن الله لاينام».
(12) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ١٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٥٧).

فبيَّـن أن أفعاله مـشتقة مـن أسمائه، فلايـجوز أن يُحدَثَ لـه اسمٌ بحدوث فـعله، ولايُعتقَد في صفات الله تعالى أنها هو ولا غيرهُ، بل هي صفاتٌ له أزليةٌ، لم يزَلْ جلَّ ذِكْرُهُ، ولايزالُ موصوفاً بما وصـف به نفسَه، ولا يبلغ الواصفون كنُـهَ عظمته، هو الأوَّلُ والآخِرُ، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم. اهـ.

قال عبد الرحـمن آل الشيخ[1]: وفي هذا الحديـث: إثبات علو الله علـى خلقه، وأن عرشه فوق سـمواته. وفيه: تفسيـر الإستواء بالعلو كـما فسره الصحابة والـتابعون والأئمة، خلافاً للـمعطلة والجهمية والمعـتزلة ومن أخذ عنهم، كالأشاعـرة ونحوهم ممن ألحد في أسـماء الله وصفاته، وصرفـها عن المعنى الـذي وضعت له ودلت علـيه، من إثبات صـفات الله تعالى التـي دلت على كمالـه جَلَّ وَعَلاَ، كما عـليه السلف الـصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمـسك بالسنة، فإنهم أثبتوا ما أثبته الله لنـفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله، على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل.

قال العلامة ابن القيـم رحمه الله تعالى في «مفتاح دار السعادة» ـ بعـد كلام سبق فيما يعرف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته ـ قال بعد ذلك.

والثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة، فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها ومـلكوتها وبين ملائـكتها، ثم يفتح له بـاب بعد باب حتى ينتـهي به سير القلب إلى عرش الرحمـن، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجـده ورفعته ويرى السموات السبع والأرضين السبع بـالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة، ويـرى الملائكة حافين من حول العرش لهم زجل بالتـسبيح والتحميد، والتقديس والتكبـير، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنـود التي لايعلمها إلا ربها ومليكها، فيـنزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإنشاء ملك وسلـب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتبيانها وكثرتها؛ من جبر كسير؛ وإغناء فقير، وشفاء مـريض؛ وتفريج كرب، ومـغفرة ذنب، وكشـف ضر، ونصر مظلـوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورد آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف وإغاثة لملهوف؛ وإعانة لعاجز،وانتقام من ظالـم، وكف لعدوان، فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة، تنفذ في أقطار الـعوالم، لايشغله سمع شيء منها عن سمع

(١) فتح المجيد ٢/٧٠٦ وتيسير العزيز الحميد ٥٥٢ و ٥٥٤.

غيره، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتبيانها واتحاد وقتها، ولايتبرم بإلحاح الملحين، ولاتنقص ذرة من خزائنه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. فحينئذ يقوم القلب بين يدى الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عالياً لعزته، فيسجد بين يدى الملك الحق المبين، سجدة لايرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سفر القلب وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته، سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة، وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذى هو قطعة من العذاب ا هـ. كلامه رحمه الله.

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ فى حياته فالمراد به، استجلاب دعائه وليس خاصاً به ﷺ، بل كل حى صالح يرجى أن يستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أنه يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة.

كما قَالَ النَّبىُّ ﷺ لِعُمَرَ أَرَادَ أَنْ يَعْتَمِرَ مِنَ المَدِينَةِ" «**لاَ تَنْسَنَا يَا أَخِى مِنْ صَالِحَ دُعَائِكَ**»[1] وأما الميت: فإنما يشرع فى حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفى غير ذلك. وهذا هو يشرع فى حق الميت. وأما دعاؤه: فلم يشرع، بل قد دل الكتاب والسنة على النهى عنه والوعيد عليه، كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**﴾ فبين الله تعالى أن دعاء من لايسمع ولايستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة: أى ينكره ويعادى من فعله، كما فى آية الأحقاف: ﴿**وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾ فكل ميت أو غائب لايسمع ولايستجيب ولاينفع ولايضر. والصحابة رضى الله عنهم، لاسيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم: أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبى ﷺ بعد وفاته، حتى فى أوقات الجدب.

كما وقع لعمر رضى الله عنه لما خرج ليستسقى بالناس خرج بالعباس عم النبى ﷺ، فأمره أن يستسقى[2] لأنه حى حاضر يدعو ربه، فلو جاز أن يستسقى بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر رضى الله عنه والسابقون الأولون بالنبى ﷺ.

---

(١) [ضعيف] أخرجه أبو داود (١٤٩٨)، والترمذى (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤) عن عمر به، والحديث فيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف.

وأنظر «رياض الصالحين» (٣٧٤ - بتخريجنا) وتقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

فيه مسائل

الأولى: إِنكَارُهُ عَلَى مَنْ قَالَ: «نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ».

وبهذا يظهر الفرق بين الحى والميت؛ لأن المقصود من الحى دعاؤه إذا كان حاضراً، فإنهم فى الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع إليه، وهم كذلك يدعون ربهم، فمن تعدى المشروع إلا مالا يشرع ضل وأضل. ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص، وبهم أليق، وبحقه أعلم وأقوم. فمن تمسك بكتاب الله نجا، ومن تركه واعتمد على عقله هلك. وبالله التوفيق. اهـ.

المستفاد من الحديث:

قال ابن عثيمين(١): ومن فوائد الحديث:

١ـ أنه ينبغى أن يقدم الإنسان عند الطلب الأوصاف التى تستلزم العطف عليه؛ لقوله: **«نهكت الأنفس»**.

٢ـ الترحم على المذنب إذا قلنا: إن «ويح» للترحم.

قال القرعاوى(٢):

١ـ جواز طلب الدعاء من الأحياء.

٢ـ تحريم طلب السقيا من غير الله.

٣ـ مشروعية الدعاء وإثبات نفعه.

٤ـ بيان مضار الجهل.

٥ـ وجوب إنكار المنكر.

٦ـ وجوب تنزيه الله عما لا يليق بجلاله.

٧ـ تحريم الاستشفاع بالله على أحد من خلقه.



قوله: (فيه مسائل):

● **الأولى: إنكاره على من قال: «نستشفع بالله عليك».**

---

(١) القول المفيد ٣/ ٣٤٦.

(٢) الجديد ٤٧٠.

الثانية: تَغَيُّرُهُ تَغَيُّراً عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ.

الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: «نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ».

الرابعة: التَّنْبِيهُ عَلَى تَفْسِيرِ « سُبْحَانَ اللهِ! ».

الخامسة: أَنَّ المُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ ﷺ الاسْتِسْقَاءَ.

قال ابن عثيمين(١): تؤخذ من قوله: «**سبحان الله! أتدرى ما الله**»، وقوله: «**إنه لايستشفع بالله على أحد من خلقه**».

● **الثانية: تغيره تغيراً عرف فى وجوه أصحابه من هذه الكلمة.**

تؤخذ من قوله: «**فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه**»، وكونه يكرر سبحان الله هذا يدل على أنه تغير حتى عرف فى وجوه أصحابه من هذه الكلمة، وهذا دليل على أن هذه الكلمة كلمة عظيمة منكرة.

● **الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».**

لأنه قال: لايستشفع بالله على أحد؛ فأنكر عليه ذلك، وسكت عن قوله: «**نستشفع بك على الله**»، وهذا يدل على جواز ذلك، وهنا قاعدة وهى: إذا جاء فى النصوص ذكر أشياء، فَأُنكِر بعضها وسُكِت عن بعض؛ دل على أن ما لم ينكر فهو حق، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾؛ فأنكر قولهم: ﴿**وَاللَّهُ أَمَرَنَا**﴾، وسكت عن قولهم: ﴿**وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا**﴾؛ فدل على أنها حق، ومثلها عدد أصحاب الكهف، حيث قال عن قولهم: ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ**﴾، وسكت عن قول: ﴿**سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾.

● **الرابعة : التنبيه على تفسير «سبحان الله!».**

لأن قوله: «**إن شأن الله أعظم**» دليل على أنه مُنَزَّه عما ينافى تلك العظمة.

● **الخامسة : أن المسلمين يسألونه الاستسقاء.**

وهذا فى حال حياته، أما بعد وفاته فلم يكونوا يفعلونه؛ لأنه ﷺ انقطع عمله بنفسه

---

(١) القول المفيد ٣/ ٣٤٤و ٣٤٦.

وعبادتـه، ولهذا لما حـصل الجَدْبُ فى عـهد عمر بـن الخطاب رضى الله عـنه استسـقى بالعباس، فـقال: «اللهم! إنا كنا نتـوسل إليك بنبينا فـتسقينا، وإنا نتوسـل إليك بعم نبينـا فاسقنا». وتوسـلهم بالنبى ﷺ كـان بطلبهم الـدعاء منه، ولهذا جـاء فى بعض الروايات: أن عمر كان يأمر العباس فيقوم فيدعو(١).

وبهذا نعـرف أن القصة المروية عن الـرجل العتبى الذى كـان جالساً عند قبـر النبى ﷺ، فجاء أعرابى، فقال: السلام علـيكم يا رسول الله! سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وإنى قد جئت مستغفراً لذنبى مستشفعاً بك إلى ربى، ثم أنشأ يقول:

يـا خيـر مـن دفنـت بـالقـاع أعـظمـه ... فـطـاب من طـيـبهـن القـاع والأكـمُ
نـفـسى الـفـداء لـقبـر أنت سـاكـنـه ... فـيـه الـعـفاف وفـيـه الجـود والـكـرم

ثم انصـرف، قال العتبي: فـغلبتنى عـينى، فرأيت الـنبى ﷺ فى النوم، فـقال: يا عتبى! بشر الأعرابى أن الله قد غفر له.

فهذه الـرواية باطلة لا صـحة لها؛ لأن صاحـبها مجـهول، وكذلك من رواهـا عنه مجهولون، ولايمكن أن تصح؛ لأن الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا﴾ ولم يقل: إذا ظلموا، و«إذ» لما مضى بخلاف «إذا»، والصحابة رضى الله عنـهم لما لحقهم الجدب فى زمن عمر لم يستسقـوا بالرسول ﷺ، وإنما استسقوا بالـعباس بن عبدالمطلب بدعـائه وهو حاضر فيهم. اهـ.

قلت: وتقدم ما جاء فى «هذا الحديث من كلام شرح كتاب التوحيد، وغيرهم.

قال سليمان آل الشيخ: فما حظ من ظلم نفسه بعد موت النبى ﷺ، من هذه الآية؟ وهل كلام بعض الناس فى دعوى المجئ إلى قبرة ﷺ، والإستغفار عنده، والاستشفاع به والاستدلال بهذه الآية على ذلك صحيح أم لا؟

الجواب: أما حظ من ظلم نفسه بعد مـوت النبى ﷺ من هذه الآية فالاستغفار، وأن بتوب إلى الله توبة نصوحاً فى كل زمان ومكـان، ولايشترط فى صحة التوبة المجئ إلى قبره، والاستغفار عنده بالإجماع، وأما المجئ إلـى قبره، والاستغفار عنده والاستشفاع به

(١) تقدم تخريجه.

ﷺ والاستدلال بالآية على ذلك، فهو إستدلال على مالا تدل الآية عليه بوجه من وجوه الدلالات، لأنه ليس فى الآية إلا المجئ إليه ﷺ لا المجئ إلى قبره وإستغفاره لهم لاستشفاعهم به بعد موت، فعلم أن ذلك باطل يوضح ذلك أن الصحابة الذين هم أعلم الناس بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ما فهموا هذا من الآية فعلم أن ذلك بدعة، وأكثر ما استدل به من أجاز ذلك رواية العتبى عن أعرابى مجهول على أن القصة لا نعلم لها إسناداً، ومثل هذا لو كان حديثاً أو أثراً عن صحابى لم يجز الاحتجاج به، ولم يلزمنا حكمه، لعدم صحته، فكيف يجوز الاحتجاج فى هذا بقصة لاتصح عن بدوى لايعرف. اهـ.

قال ناصر السعدى(١): أن هذا المجئ إلى الرسول ﷺ مختص بحياته، لأن السياق يدل على «ذلك لكون الأستغفار من الرسول لايكون إلا فى حياته، وأما بعد موته فإنه لايطلب منه شئ، بل ذلك شرك. اهـ.

وقال الشيخ مقبل فى تعليقه على تفسير ابن كثير(٢): قصة العتبى منكرة لاتثبت.

قال الحافظ ابن عبد الهادى: فى «الصارم المنكى»(٣) بعد ذكره ما فى سندها من الإختلاف وأنه مظلم مختلف أيضاً. ولو كانت ثابته لم يكن فيها حجة على مطلوب المعترض - يعنى السبكى - ولا يصلح الاحتجاج بمثل هذه الحكاية ولا الأعتماد على مثلها عند أهل العلم. بالله التوفيق(*).



(*) انظر كتابنا «إيضاح الإيضاح بكلام الحنابلة الملاح» (٢/ ١١٧٠).

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٦)

(٣) (٢١٢).

٦٥ بابٌ

ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

● **مناسبة هذا الباب لما قبله:**

قال ابن عثيمين(١): لما تكلم المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما مضى من كتابه على إثبات التوحيد، وعلى ذكر ما ينافيه أو ينافى كماله؛ ذكر ما يحمى هذا التوحيد، وأن الواجب سد طرق الشرك.

● **علاقة هذا الباب بالباب الحادى والعشرين: حماية المصطفى جناب التوحيد (وعنوانهما متشابهان):-**

قال ناصر السعدى(٢): تقدَّم نظير هذه الترجمة وأعادها المصنف اهتماماً بالمقام، فإن التوحيد لايتم ولا يحفظ ويحصن إلا باجتناب جميع الطرق المفضية إلى الشرك والفرق بين البابين أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال. اهـ.

قال ابن باز(٣): هنا تكلم على حماية التوحيد من جهة الأقوال، وقد تقدم (طرق)(*) وباب حماية التوحيد من جهة الأفعال وجناب التوحيد، والجناب هو الجزء منه، وهذا الباب فى حمى التوحيد والحمى غير الذات، وخارج عن الذات فهذه الترجمة أبلغ فيما يتعلق بالتوحيد وفيما يتعلق بالأقوال.

فالرسول ﷺ حمى جناب التوحيد وحمى حماه من جهة القول والعمل حتى لايقرب الناس من الشرك ويقعوا فيه وحذر من وسائله وذرائعه الموصلة إليه وهذا من كمال البلاغ. اهـ.

● **تنبيه:**

[قلت]: تقدم فى باب حماية المصطفى جناب التوحيد أنه عبر هناك بالمصطفى لمناسبة

---

(١) القول المفيد ٣/ ٣٤٧.

(٢) القول السديد ١٣٧ و ١٣٨.

(٣) التعليق المفيد (٢٧٩).

(*) كذا فى المطبوع.

الآية الكريمة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ولأن الحماية فى باب الأفعال أشق منها فى باب الأقوال فناسب التبويب هناك بالمصطفى وهنا بالنبى، والله أعلم.

● **مناسبة الباب للتوحيد:-**

قال ناصر(١): فكل قول يفضي إلى الغلو الذى يخشى منه الوقوع فى الشرك فإنه يتعين اجتنابه ولا يتم التوحيد إلا بتركه.

والحاصل أن تمام التوحيد بالقيام بشروطه، وأركانه، ومكملاته ومحققاته وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهراً وباطناً، قولاً وفعلاً وإرادة وإعتقاداً. اهـ.

قال ابن عثيمين :(٢) أن التوحيد يجب أن يحمى من كل وجه حتى فى الألفاظ؛ ليكون خالصاً من كل شائبة ا.هـ.

● **شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب:**

قال عبدالرحمن آل الشيخ(٣): حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التى يضمحل معها التوحيد أو ينقص، وهذا كثير فى السنة الثابتة عنه ﷺ.

كقوله: **«لاَ تُطْرُونى كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرَسُوله»**(٤).

وتقدم قوله: **«إِنَّهُ لاَ يُسْتَغَاثُ بِى، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِالله عَزَّ وَجَلَّ»**(٥) ونحو ذلك.

ونهى عن التمادح وشدد القول فيه، كقوله لمن مدح إنساناً **«ويلك قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»**(٦) الحديث.

أخرجه أبو داود عن عبدالرحمن بن أبى بكرة عن أبيه أن رجلاً أثنى على رجل عند النبى ﷺ فقال له: **«قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ ثَلاثاً»**(٧).

---

(١) القول السديد ١٣٨.

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٥٧.

(٣) فتح المجيد ٢/ ٧١٠، ٧١١.

(٤ - ٥) تقدم تخريجه.

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى ومسلم فى الزهد (١٨/ ١٢٦ - النووى) عن أبى بكرة به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٧٩٢ - بتخريجنا).

(٧) تقدم قبله.

وقال «**إِذَا لَقِيتم المَدَّاحِينَ فَاحثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ**»[1] أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة عن المقدار بن الأسود. اهـ.

قال حامد بن حسن[2]: باب ما جاء في بيان حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد.

وكشفه غمائم الشبه عن أفق أذهان أهل التجريد (وسده) كل طريق يوصل إلى (الشرك) وكل ما يؤول إليه امتثالاً لأمر ربه القادر المقتدر ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾[3]. فهو ﷺ شأنه وطريقته الدعوة إلى الله بالجد والجهد وما كان يبالي بما يأتيه من الأذى ممتثلاً لقول ربه تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾[4].

ثم ذكر أمثلة على ذلك لكن في الأقوال والأفعال بخلاف ما قصده المصنف في هذا الباب فقال[5]: ومن حمايته ﷺ حمى التوحيد قوله لجويرية لما قالت: [**وفينا رسول الله يعلم ما في غد**] قال ﷺ: «**دعي هذا وقولي ما كنت تقولين**»[6]. أي لا تقولي لي ما لست له بأهل، فإن علم الغيب حق الله لا يعلمه إلا هو كما قال: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾[7].

وقوله: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾[8].

وقوله ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾[9].

ومنها: ما ثبت في المسند وغيره عن معاذ بن جبل لما رجع من الشام سجد للنبي ﷺ فقال: «**ما هذه يا معاذ**»؟، **فقال: يا رسول الله رأيتهم يسجدون لأساقفتهم ويذكر ذلك**

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (١٨/ ١٢٨) عن المقداد به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٧٩٣ - بتخريجنا).

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٤٧٥.

(٣) المدثر: ١- ٥.

(٤) الأحقاف: ٣٥.

(٥) فتح الله الحميد المجيد ٤٧٦.

(٦) [صحيح] أخرجه البخاري (٥١٤٧) عن الرُبيع بنت معوذ به.

(٧) الأنعام: ٥٩.

(٨) النمل: ٦٥.

(٩) الأعراف: ١٨٨.

عن أنبيائهم فقال ﷺ: «**كذبوا يا معاذ ولو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، يا معاذ أرأيت إن مررت بقبرى أكنت تسجد؟**» قال: لا، قال: «**فلا تفعل**»(١).

ومنها: ما ثبت فى الصحيح من حديث جابر أن رسول الله ﷺ صلى بأصحابه قاعداً لمرض كان به، فصلوا قياماً فأمرهم بالجلوس وقال: «**لا تعظمونى كما تعظم النصارى بعضهم بعضاً**»(٢).

وقال «**من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار**»(٣).

ومنها: ما ثبت فى الصحيح عن زيد بن خالد قال: صلى بنا رسول الله صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء من الليل فقال: «**أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: قال تعالى: **أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ومن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب**»(٤).

ومنها: ما ورد فى السنن أن أعرابيًا قال للنبى ﷺ: جهدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال فادع لنا فإنا نستشفع بك على الله وبالله عليك، فسبح رسول الله حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه فقال ﷺ: «**ويحك أتدرى ما الله، إن شأن الله أعظم من ذلك إنه لا يستشفع بالله على أحد**»(٥). رواه أبو داود.

ومنها: ما خرج البخارى فى صحيحه أن النبى ﷺ قال: «**لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله**»(٦).

ومنها: قوله ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد من دون الله، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٧).

ومنها: فى صحيح مسلم عن جندب بن عبدالله البجلى قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل فإن الله قد**

---

(١) أخرجه وأحمد فى «مسنده» (٤/ ٣٨١) ابن ماجه (١٨٥٣) عن عبدالله بن أوفى به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصلاة (٢/ ٣٦٨/ ٨٤) بنحوه.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٩) وأبو داود (٥٢٢٩) والترمذى (٢٧٥٥) عن معاوية بن أبى سفيان به.

(٤ - ٧) تقدم تخريجه.

اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً منكم خليلاً لا تخذت أبا بكر خليلاً إلا وإن من كان قبلكم يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»[1].

ومنها: ما ثبت عن عائشة وعبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهم ـ قالا: لما نزل برسول الله طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها فقال وهو كذلك: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما صنعوا[2]. متفق عليه.

ومنها: ما روى الإمام أحمد في مسنده بإسناد جيد عن عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد**»[3].

ومنها: ما ثبت عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: لعن رسول الله ﷺ **زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج**[4]. رواه أحمد وأهل السنن.

ومنها: ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها**»[5].

ومنها: ما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ، **ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته**[6].

ومنها: ما روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ **عن تجصيص القبور وأن يقعد عليه أو يبنى عليه بناء**[7].

ومنها: ما روى أبو داود في سننه عن جابر أن رسول الله ﷺ **نهى أن تجصص القبور وأن يكتب عليها، قال الترمذي**[8]: حديث حسن صحيح.

وفي سنن أبي داود من حديث جابر أن رسول الله ﷺ **نهى أن تجصص القبور أو يزاد عليها**[9].

هذا حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد، وقد آل الأمر حتى جصصوا القبور، وبنوا عليها، وجعلوا لها سدنة، فينذرون لها ويذبحون عندها، ويستشفون، ويخضعون، ويركعون، ويسجدون عندها، ثم آل الأمر بهؤلاء المشركين أن شرعوا للقبور حجًا،

(١ - ٩) تقدم تخريجه.

ووضعوا مناسك حتى صَنَّفَ بعضهم من غلاتهم فى ذلك كتاباً وسماه (مناسك حج المشاهد) مضاهاة منه بالقبور لبيت الله الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام ودخول فى دين عباد الأصنام.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن العبادة مبناها على الاتباع لا على الابتداع فليس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله ألا ترى أنه ليس لأحد أن يصلى إلى قبر الرسول ﷺ ويقول: هو أحق بالصلاة إليه من الكعبة وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال: «**لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها**»(1). مع أن طائفة من غلاة العباد يصلون إلى قبور شيوخهم بل يستدبرون القبلة ويصلون إلى قبر الشيخ ويقولون هذه قبلة الخاصة والكعبة قبلة العامة، وآخرون أمثل من هؤلاء يرون الصلاة عند قبور شيوخهم أفضل من الصلاة فى المساجد حتى المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وكثير من الناس يرى أن الدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين أفضل من الدعاء فى المساجد ويرى الصلاة فى المساجد المبنية على القبور أفضل من الصلاة فى المساجد التى لا قبور فيها، وهذا كله مما علم جميع أهل العلم بدين الإسلام أنه مناف لشريعة الإسلام، وأنه لم ينقله أحد من علماء الأمة بل هم متفقون على أنه لا فضيلة للصلاة عند القبور، ولا فى المساجد التى على القبور التى تسمى المشهد بل ذلك مخالف لله ولرسوله ولشرعه كما مضى فى الأحاديث المتقدمة مع أن طائفة من الغالية من الشيعة ومن المنتسبين إلى السنة يرون السفر إلى القبور حجًا، وقد صنف ابن النعمان المفيد شيخ الرافضة كتاباً سماه «مناسك حج المشاهد» وجعلوا فيها من العبادات ما هو أعظم من العبادات المشروعة فى المسجد الحرام، ومن هؤلاء من يقول: إن الحج إلى القبور أفضل ويعظمها أعظم من حج البيت العتيق إلى أمثال هذه الأمور التى ابتدعها أهل الضلال وكثير من وقع فيها من الرجال، وقد صنف طائفة من المتفلسفة فى هذا، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه الرسول ﷺ وبين ما شرعه هؤلاء المقتدون بالمشركين والمتمسكون بهدى الشياطين وقصدوه من اتخاذ القبور مساجد وبناء المساجد عليها، وإيقافهم الوقوف على إيقاد السرج والقناديل عليها، وجعلهم القبور عيداً وتجصيص القبور والبناء عليها من الأحجار والآجر والجص والكتابة عليها وغير ذلك مما نشاهد عياناً وسماعاً، هذا فعل هؤلاء، والذى ثبت عنه ﷺ فى زيارة القبور ما ذكره مسلم فى صحيحه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن جبريل

(1) تقدم تخريجه.

أتى رسول الله ﷺ فقال: **إن ربك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم،** قالت: قلت: كيف أمرك يا رسول الله؟ قال: «**قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»[1]. وفى الصحيح أيضاً عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «**السلام على أهل الديار**، وفى لفظ: **السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية**»[2].

اهـ.

قال عبدالله بن جار الله[3]: المقصود بحمايته- ﷺ حمى التوحيد.

صونه عما يشوبه من الاقوال والافعال التى يضمحل معها التوحيد أو ينقص.

● **مناسبة الحديث للباب والتوحيد.**

قال عبدالرحمن الشيخ[4]: أخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه ـ ولو بما هو فيه ـ من عمل الشيطان لما تفضى محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح فى نفسه، وذلك ينافى كما التوحيد. اهـ.

قال ابن باز[5]: هذا من باب سد الذرائع التى توصل الناس إلى التساهل إلى الشرك فإنهم إن قالوا له ياسيدنا وغير ذلك من الألفاظ التى يأتى بها الناس الآن من الغلو فقد يجرهم إلى أن يعدوه من دون الله ويدعوه ويستغيثوا به ويزعموا أنه يعلم الغيب وغير ذلك. اهـ.

قال القرعاوى[6]: حيث دل الحديث على تحريم الغلو فى النبى ـ ﷺ ـ وغيره، لان ذلك طريق موصل إلى الشرك.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٧/ ٤٥ - النووى) عن بريدة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٤ - بتخريجنا).

(٣) جامع الفريد ٢٢٥.

(٤) وانظر فتح المجيد (٢/ ٧١٢).

(٥) التعليق المفيد (٢٧٩).

(٦) الجديد ٤٧٣.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنَ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا. فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَولِكُمْ، أَو بَعْضِ قَولِكُمْ، وَلاَ يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ(١).

قوله: (عبدالله بن الشخير ـ رضى الله عنه)(٢).

قال ابن الأثير: هو عبدالله بن الشخير بن عوف بن كعب بن وقدان بن الحريش ـ واسمه معاوية بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ثم الكعبى، ثم من بنى الحريش ـ وهو بطن من بنى عامر بن صعصعة. له صحبة، سكن البصرة.

قوله «**انطلقت فى وفد بنى عامر إلى رسول الله ـ ﷺ**».

قال ابن عثيمين(٣): الظاهر أن هذا الوفد قدم على النبى ﷺ فى العام التاسع؛ لأن الوفود كثرت فى ذلك العام، ولذلك يُسمّى عام الوفود. اهـ.

قوله: (أنت سيدنا).

قال عبدالرحمن الشيخ: قال ابن عباس ﴿قل أغير الله أبغى ربا﴾ أى: إلهاً وسيداً، وقال فى ﴿الله الصمد﴾ السيد الذى كمل فى جميع أنواع السؤدد. وقال أبو وائل: هو السيد الذى انتهى فى سؤدده. اهـ. وسيأتى ذكر ذلك فى مسألة تسمية العبد سيده ومولاه بالسيد.

قال ابن عثيمين(٤): السيد: ذو السُّؤْدَد والشرف، والسؤدد معناه: العظمة والفخر وما أشبهه

وسيد: صفة مشبهة على وزن فَيْعِل؛ لأن الياء الأولى زائدة.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٢٤، ٢٥) وأبو داود فى «الأدب/ باب: فى كراهية التمادح (٤/ ٢٥٥/ح ٤٨٠٦) والنسائى فى «الكبرى» فى «عمل اليوم والليلة/ باب: النهى عن أن يقال للمنافق سيدنا (٦/ ٧٠/ح ١٠٠٧٥، ١٠٠٧٦) جميعاً من حديث مطرف بن عبدالله بن الشخير رضى الله عنه- فذكره.

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا.

(٢) أسد الغابه (٣/ ٣٤٧).

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٤٧.

(٤) المصدر السابق.

قوله (السيد الله).

قال صاحب عون المعبود(١): أى هو الحقيق بهذا الأسم.

قال القاري: أى الذى يملك نواصى الخلق ويتولاهـم هو الله سبحانه وهذا لا ينافى سيادته المجازية الإضافية المخصوصـة بالأفراد الإنسانية حيث قال: **«أنا سيـد ولد آدم ولا فخر»**(٢) أى لا أقول افتخاراً بـل تحدثاً بنعمة الله وإلا فقد روى البـخارى عن جابر أن عمر كان يقول: أبـو بكر سيدنا وأعتق سيدنـا يعنى بلالاً»(٣) انتهى وهو بالـنسبة إلى بلال تواضع. انتهى كلام القاري.

قال السيوطى(٤) **قال الخطابى**: قوله ﷺ: «السيد الله» أى السـؤدد كله حقيقة لله عز وجل وأن الخلق كلهم عبيد الله وإنما منعهم أن يدعوه سيداً مع قوله أنا سيد ولد آدم لأنهم قوم حديث عهد بالإسلام، وكانوا يحسبون أن السيادة بالنبوة كهى بأسباب الدنيا. وكان لهم رؤساء يعظمـونهم وينقادون لأمرهم وقوله قولوا بقولـكم أى قولوا بقول أهل دينكم وملتكم وادعـونى نبياً ورسولاً كما سمانى الله تعالى فى كتـابه ولا تسمونى سيداً كما تسـمون رؤساءكم وعظمائـكم، ولا تجعلونى مثلـهم فإنى لست كأحـدهم إذ كانوا ليسودونكم فى أسباب الدنيا وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة فسمَونى نبياً ورسولاً. اهـ.

قال ابن باز(٥): قوله **«السيد الله»** هذا من باب التواضع خوفاً عـليهم من الغلو وإلا فإنه سيد ولـد آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقـال ذلك تواضعاً، ولئلا يقعـوا فى الغلو، فهو دليل أنه إذا قيل لـلإنسان أنت سيدنا، ينبغى أن يقول السـيد الله، حتى لايقع فى قلبه شىء من التعاظم. اهـ.

قال ابن عثيمين(٦): **قوله «السيد الله»**

لم يقل ﷺ: سيدكم كما هو المتوقع، حيث إنه رد على قولهم سيدنا لوجهين:

الوجه الأول: إرادة العموم المستفاد من (أل)؛ لأن (أل) للعموم، والمعنى: أن الذى له

(١) عون المعبود ٧/١٣/١١٢.

(٢) تقدم تخريجه فى باب الشفاعة.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٧٥٤) عن جابر به.

(٤) المصدر السابق ٧/١٣/١١٢.

(٥) التعليق المفيد (٢٧٩).

(٦) القول المفيد ٣/٣٤٨ و ٣٤٩.

السيادة المطلقة هو الله ـ عز وجل ـ، ولكن السيد المضاف يكون سيداً باعتبار المضاف إليه، مثل: سيد بنى فلان، سيد البشر، وما أشبه ذلك.

الوجه الثاني: لئلا يتوهم أنه من جنس المضاف إليه؛ لأن سيد كل شيء من جنسه.

والسيد من أسماء الله تعالى، وهي من معاني الصمد؛ كما فسر ابن عباس الصمد بأنه الكامل في علمه وحلمه وسؤدده[1] ـ وتقدم من كلام عبدالرحمن ـ وما أشبه ذلك.

ولم ينههم ﷺ عن قولهم: **«أنت سيدنا»**، بل أذن لهم بذلك؛ فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان فيترقوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة؛ لأن سيدنا سيادة خاصة مضافة، «والسيد» سيادة عامة مطلقة غير مضافة.

قوله: (تبارك)

قال ابن عثيمين[2]: **قال العلماء**: معنى تبارك؛ أي: كثرت بركاته وخيراته، ولهذا يقولون: إن هذا الفعل لا يوصف به إلا الله؛ فلا يقال: تبارك فلان؛ لأن هذا الوصف خاص بالله.

قلت: وتقدم في باب من تبرك بشجر أو حجر بأوسع من ذلك من كلام ابن القيم في جلاء الأفهام.

ثم قال ابن عثيمين: وقول العامة: (أنت تباركت علينا) لا يريدون بهذا ما يريدونه بالنسبة إلى الله ـ عز وجل، وإنما يريدون أصابنا بركة من مجيئك، والبركة يصح إضافتها إلى الإنسان إذا كان أهلاً لذلك، قال أسيد بن حضير حين نزلت آية التيمم بسبب عِقْد عائشة الذى ضاع منها: **«ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر»**[3]. ا.هـ.

قوله (قلنا وأفضلنا فضلاً)[4] قال صاحب «عون المعبود»: أى مزيَّة ومرتبة ونصبه على التمييز.

---

(١) أخرجه: ابن جرير (٣٠/ ٧٤٤).

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٤٩.

(٣) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٣٣٤)، ومسلم في التيمم(٢/ ٢٩٢/ ١٠٨) عن عائشة وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

(٤) عون المعبود ٧/ ١٣/ ١١١.

قال ابن عثيمين[1]: أي فضلك أفضل من فضلنا أهـ

قوله (وأعظمنا طولاً) قال صاحب عون المعبود: أي عطاء للأحباء وعلواً على الأعداء.

قال عبدالله بن جار الله: أي أعظمنا شرفاً وفضلاً وجوداً. والطول هو الغني والقدرة والإنعام الواسع أهـ.

قال ابن عثيمين[2]: أي: أعظمنا شرفاً وغنى، والطَّوْل: الغنى، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ ويكون بمعنى العظمة، قال تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ أي: ذي العظمة والغنى. أهـ

قلت: والطول كثرة الإنفاق، وهو الكرم ففي الحديث: «**أنه قال لأزواجه أولُكُنَّ لحوقاً بي أطْولكن يداً فاجتمعْن يتطاولن، فطالتهن سودة فماتت زينب أولهن**». أراد أمدكن يداً بالعطاء من الطول فظَنَنَّه من الطول وكانت زينب تعمل بيدها وتتصدق به كذا قال ابن الأثير. أهـ.[*].

قوله (فقال: قولوا بقولكم، أو بعض قولكم)

قال صاحب «عون المعبود»[3]: **(فقال قولوا بقولكم)** أي مجموع ما قلتم أو هذا القول ونحوه **(أو بعض قولكم)** أي اقتصروا على إحدى الكلمتين من غير حاجة إلى المبالغة بهما. ويمكن أن تكون أو بمعنى بل أي بل قولوا بعض ما قلتم مبالغة في التواضع، وقيل «**قولوا قولكم**» الذي جئتم لأجله ودعوا غيركم مما لا يعنيكم.

ثم قال[4]: وقوله أو بعض قولكم فيه حذف واختصار، ومعناه دعوا بعض قولكم واتركوه واقتصدوا فيه بلا إفراط أو دعوا سيداً وقولوا نبياً ورسولاً.

قال ابن عثيمين[5]: **قوله: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم».**

الأمر للإباحة والإذن كما سبق.

---

(١) القول المفيد ٣/ ٣٤٩.

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

(*) النهاية لابن الأثير (٣/ ١٤٥).

(٣) عون المعبود ٧/ ١٣/ ١١١.

(٤) عون المعبود ٧/ ١٣/ ١١٢.

(٥) القول المفيد ٣/ ٣٥٠.

وقوله: «**قولوا قولكم**»: يعنى: قولهم: أنت سيدنا أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك.

وقوله: «أو بعض قولكم».

يحتمل أن يكون شكاً من الراوى، وأن يكـون من لفظ الحديث؛ أى: اقتصروا على بعضه.

قوله «ولا يستجرينكم الشيطان»

قال صـاحب عون المعـبود[1]: اى لا يتخـذنكم جرياً بـفتح الجيم وكـسر الراء وتشديد التحتية أى كثير الجرى فى طريقه ومتابعة خطواته. وقيل هو من الجراءة بالهمزة أى لا يجعلنكم ذوى شجاعة على التكلم بما لا يجوز.

وفي «النهاية»: أي لايغلبنكم فيتخذكم جرياً، أى رسولاً ووكيلاً، وذلك أنهم كانوا مدحوه فكره له المبالغة في المدح فنهاهم عنه وسيأتي في شرح ابن عثيمين.

والمعني: تكلموا بمـا يحضركم من القول، ولاتتكلفوه كأنكـم وكلاء الشيطان ورسله تنطقون علي لسانه كذا في «المرقاة» ا.هـ.

وقال السيوطي : وقوله: (**لا يستجرينكم الشيطان**) والجرى الوكيل، ويقال الأجير انتهى كلام السيوطى. أهـ

وقال السندي: أى لا يستعمـلنكم الشيطان فيما يريد من التعظـيم للمخلوق بمقدار لا يجوز انتهى.

● **مسألة في حكم المدح**[2]:

قال النووي: أعلم أن مدح الإنسان عليه بجميـل صفاته قد يكون في وجه الممدوح، وقد يكون بغير حضوره.

فأما الـذي في غير حـضوره فلا منـع منه إلا أن يجـازف المادح ويدخل فـي الكذب فيحرم عليه بسبب الكذب، لالكونه مدحاً.

ويستحب هذا المدح الـذي لاكذب فيه إذا ترتبت عليه مصلحة ولـم يجر إلي مفسدة، بأن يبلغ الممدوح فيفتتن به أو غير ذلك.

---

(١) عون المعبود ٧/١٣/١١١.

(٢) «الأذكار» للنووي بتخريجنا (١/٣١٨)

وأما المدح في وجه الممدوح فقد جاءت فيه أحاديث تقتضي إباحته أو استحبابه، وأحاديث تقتضي المنع منه.

قال العلماء: وطريق الجمع بين الأحاديث أن يقال: إن كان الممدوح عنده كمال إيمان وحسن يقين ورياضة نفس ومعرفة تامة بحيث لايفتتن ولايغتر بذلك ولاتلعب به نفسه فليس بحرام ولامكروه، وإن خيف عليه شيء من هذه الأمور كره مدحه كراهة شديدة. أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ(١): كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضى بهم إلى الغلو، وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه - ولو بما هو فيه - من عمل الشيطان؛ لما تقضى محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح فى نفسه، وذلك ينافى كمال التوحيد؛ فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذى لا تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل فى غاية المحبة، وكمال الذل يقتضى الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأن لا يرى نفسه إلا فى مقام الذم لها، والمعاتبة لها فى حق ربه، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه، والمادح يغره من نفسه فيكون آثماً، فمقام العبودية يقتضى كراهة المدح رأساً، والنهى عنه صيانة لهذا المقام، فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له؛ خلصت أعماله وصحت، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب؛ دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد، وإذا أداه المدح إلى التعاظم فى نفسه والإعجاب بها؛ وقع فى أمر عظيم ينافى العبودية الخاصة.

كما فى الحديث «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»(٢).

وفى الحديث: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»(٣) وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسلماً إليها، والعُجْبُ يأكل الحسنات كما تأكل النار

(١) و«فتح المجيد» (٢/ ٧١٣، ٧١٤)

(٢) [صحيح] اخرجه مسلم فى البر والصلة (٨/ ٤٢١/ ٣٦) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما به.

وانظر «رياض الصالحين» (٦١٩ - بتخريجنا)

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (٢/ ٨٩ـ النوري) عن ابن مسعود به

وأنظر «رياض الصالحين» (٦١٣ - بتخريجنا)

الحطب، وأما المادح فقد يفضى به المدح إلى أن ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها، كما يوجد كثيراً فى أشعارهم من الغلو الذى نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك فى الربوبية والإلهية والملك، كما تقدمت الإشارة إلى شىء من ذلك. والنبى ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح، صيانة لهذا المقام، وأرشد إلى ترك ذلك نصحاً لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده أو يضعفه، من الشرك ووسائله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ ورأوا أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربة من أفضل القربات، وحسنة من أعظم الحسنات.

قال ابن عثيمين(١): قوله: «**ولا يستجرينكم الشيطان**».

استجراه بمعنى: جذبه وجعله يجرى معه؛ أى: لا يستميلنكم الشيطان ويَجْذِبَنَّكم إلى أن تقولوا قولاً منكراً؛ فأرشدهم ﷺ إلى ما ينبغى أن يفعل، ونهاهم عن الأمر الذى لا ينبغى أن يفعل؛ حمايةً للتوحيد من النقص أو النقض.

وقال فى النهاية: «لا يستجرينكم الشيطان»؛ أى: لا يستغلبنكم فيتخذكم جرياً؛ أى: رسولاً ووكيلاً.

وعلى التفسيرين؛ فمراد النبى ﷺ حماية التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، والحماية من المنكر تعظم كلما كان المنكر أعظم وأكبر أو كان الداعى إليه فى النفوس أشد.

ولهذا تجد أن باب الشرك حماه النبى عليه الصلاة والسلام حماية بالغة حتى سد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه؛ لأنه أعظم الذنوب، وأيضاً باب الزنا حمى حماية عظيمة، حتى منعت المرأة من التبرج وكشف الوجه وخلوتها بالرجل بلا محرم وما أشبه ذلك؛ لئلا يكون ذلك ذريعة إلى الزنا؛ لأن النفوس تطلبه، وفى باب الربا أيضاً حمى الربا بحماية عظيمة، حتى إن الرجل ليعطى الرجل صاعاً طَيِّباً من البر بصاعين قيمتهما واحدة، ويكون ذلك رباً محرماً، مع أنه ليس فيه ظلم.

فالشرك قد يكون من الأمور التى لا تدعو إليه النفوس كثيراً لكنه أعظم الظلم؛ فالشيطان يحرص على أن يوصل ابن آدم إلى الشرك بكل وسيلة؛ فحماه النبى ﷺ

(١) القول المفيد ٣/ ٣٥٠ و ٣٥١.

حماية تامة محكمة حتى لا يدخل الإنسان فيه من حيث لا يشعر، وهذا هو معنى الباب الذي ذكره المؤلف.

● **إشكال وجوابه:**

قال عبدالرحمن آل الشيخ[1]: وأما تسمية العبد بالسيد: فاختلف العلماء في ذلك.

قال العلامة ابن القيم في «بدائع الفوائد»: اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر. فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له: يا سيدنا قال **«السيد الله تبارك وتعالى»** وجوزه قوم.

واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار «قُومُوا إلى سَيِّدِكُم»[2] وهذا أصح من الحديث الأول. قال هؤلاء: السيد أحد ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمي: سيد كندة، ولا يقال: الملك سيد البشر. قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم. وفي هذا نظر، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة المالك، والمولى، والرب، لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق. انتهى.

● **طريقة الجمع بين النهي عن قول «السيد» وبين حديث: «قوموا إلى سيدكم».**

قلت: ومن طريق علقمة بن وقاص عنها في أثناء حديث طويل قال أبو سعيد: فلما طلع يعني سعد بن معاذ ـ قال النبي ﷺ: **«قوموا إلى سيدكم فأنزلوه»** فقال عمر: السيد هو الله» قال ابن القيم في تحفة المودود : ولاينافي هذا قوله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم»** فإن هذا إخبار منه عما أعطاه الله من سيادة النوع الإنساني وفضله وشرفه عليهم، وأما وصف الرب تعالي بأنه السيد، فذلك وصف لربه علي الإطلاق، فإنه سيد الخلق هو مالك أمرهم الذي إليه يرجعون، وبأمره يعملون، وعن قوله يصدرن فإذا كانت الملائكة والإنس والجن، خلقاً وكل حوائجهم إليه، كان هو سبحانه وتعالي السيد علي الحقيقة. . .أهـ. وما قاله ابن القيم. قاله ابن تيمية في الرسالة الأكملية .أهـ.

قال ابن حجر: ويمكن الجمع بأن يحمل النهي عن ذلك على إطلاقه على غير

(١) فتح المجيد (٢/ ٧١٣، ٧١٤)

(٢) تقدم تخريجه.

المالك، والإذن بإطلاقه على المالك وقد كان بعض أكابر العلماء يأخذ بهذا ويكره أن يخاطب أحداً بلفظه أو كتابته بالسيد، ويتأكد هذا إذا كان المخاطب غير تقى فعند أبى داود والبخاري فى «الأدب» من حديث بريدة مرفوعاً: «لا تقولوا للمنافق سيداً»(١) الحديث ونحوه عند الحاكم.

قال ابن عثيمين(٢):

جري شُراح هذا الحديث على أن النبى ﷺ نهاهم عن قول سيدنا. فحاولوا الجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم»**(٣)، وقوله: **«قوموا إلى سيدكم»**(٤)، وقوله فى الرقيق: **«وليقل سيدى ومولاى»**(٥) **بواحد من ثلاثة أوجه:**

الأول: أن النهى على سبيل الكراهة والأدب، والإباحة على سبيل الجواز.

الثاني: أن النهى حيث يخشى منه المفسدة، وهى التدرج إلى الغلو والإباحة إذا لم يكن هناك محذور.

الثالث: أن النهى بالخطاب؛ أى: أن تخاطب الغير بقولك: أنت سيدى أو سيدنا، بخلاف الغائب؛ لأن المُخاطَب ربما يكون فى نفسه عجب وغلو وترفع، ثم إن فيه شيئاً آخر، وهو خضوع هذا المُتَسيِّد له وإذلال نفسه له بخلاف ما إذا جاء من الغير، مثل: **«قوموا إلى سيدكم»**، أو على سبيل الغيبة؛ كقول العبد: قال سيدى ونحو ذلك، لكن هذا يرد عليه إباحته ﷺ للرقيق أن يقول لمالكه: سيدى.

والذى يظهر لى أن لا تعارض أصلاً؛ لأن النبى ﷺ أذن لهم أن يقولوا بقولهم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان بالغلو مثل (السيد)؛ لأن السيد المطلق هو الله تعالى، وعلى هذا؛ فيجوز أن يقال: سيدنا وسيد بنى فلان ونحوه، ولكن بشرط أن يكون

---

(١) القول المفيد ٣/ ٣٥١ ـ ٣٥٣.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٣٤٦)، وأبو داود (٤٩٧٧)، والنسائى فى «الكبري» (١٠٠٧٣) عن بريدة به.

وانظر «ورياض الصالحين» (١٧٢٨ ـبتخريجنا)

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه

المُوَجَّه إليه السيادة أهلاً لذلك، أما إذا لم يكن أهلاً كما لو كان فاسقاً أو زنديقاً؛ فلا يقال له ذلك حتى ولو فرض أنه أعلى منه مرتبة أو جاهاً، وقد جاء في الحديث: «**ولا تقولوا للمنافق سيد؛ فإنكم إذا قلتم ذلك أغضبتم الله**»(١) فإذا كان أهلاً لذلك وليس هناك محذور؛ فلا بأس به، وأما إن خشي المحذور أو كان غير أهل ؛ فلايجوز.

والمحذور: هو الخشية من الغلو فيه.

قلت: وينبغي أن يضاف إلي هذه القيود قيد آخر وهو أن يقال : لابد من مصلحة شرعية راجحة كما كانت في قوله لسعد «**قوموا إلي سيدكم**» لأنه جاء ليصلح ويحكم في اليهود فلابد أن يعظم في هذه الحالة عندنا حتي يعظم اليهود حكمه فلهذه المصلحة قال النبي ﷺ «**قوموا إلي سيدكم**» أما قوله «وليقل سيدي ومولاي» فتحمل علي الإخبار لا الإنشاء والله أعلم.

فوائد الحديث:

قال عبد الله بن جار الله(*):

(١) تحذير الناس من الغلو.

(٢) كراهة المدح والتحذير منه.

(٣) شفقته ﷺ علي أمته ورأفته ورحمته بهم.

(٤) ما ينبغي أن يقول من قيل له أنت سيدنا. اهـ.

قال القرعاوى(٢):

١- عظم قدر النبي - ﷺ في نفوس أصحابه وإحترامهم له.

٢- جواز إطلاق لفظ السيد على الله.

٣- الغلو مطية الشيطان.



(١) تقدم تخريجه.

(*) الجامع الفريد ٢٢٧.

(٢) الجديد ٤٧٣.

وَعَنْ أَنَس رَضِيَ الله عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَـا رَسُولَ الله ! يَا خَيْرَنَا وابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّـدَنَا وَابنَ سَيِّـدِنَا! فَقَـالَ: «يَا أَيُّهَـا النَّاسُ! قُولُـوا بقَوْلـكُم، ولاَ يَسْـتَهْوِيَنَّـكُمُ الشَّيْـطَانُ، أَنَا مُحَمَّـدٌ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، مَـا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِـى فَوْقَ مَنْزِلَتِـى الَّتِى أَنْزَلَنِى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ[1].

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال القرعاوى[2]: حيث دل الحديث على تحريم رفع النبى - ﷺ - فوق منزلته لأن ذلك علو يؤدى إلى الشرك

قوله: «**قالوا: يا رسول الله!**».

قال ابن عثيمين[3]: هذا النداء موافق لقوله تعالى: ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾؛ أى لا تنادوه كمـا ينادى بعضهم بـعضاً؛ فتقولوا: يـا محمد! ولكن قولوا: يارسول الله! أو: يا نبى الله!

وفى الآية معنى آخر: أى إذا دعاكم الرسول؛ فلا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضاً إن شئتم أجبتم وإن شئـتم أبيتم؛ فهم كقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾، وعلى المعنى الأول تكون «دعاء» مضافة إلى المفعول، وعلى الثانى تكون مضافة إلى الفاعل.

قوله: «**ياخيرنا**».

هذا صحيح؛ فهو خيرهم نسباً ومقاماً وحالاً.

قوله: «**وابن خيرنا**».

أى: فى النسب لا فى المقام والحال.

---

(١) أخرجه أحمد فى «مسنـده» (٣/ ١٥٣). والنسائى فى «الكبرى» فى عمل اليوم والـليلة/ باب النهي عن الـقول لـلمـنافق سيدنـا ـ(٦/ ٧١/ ح ١٠٠٧٨)، وابن حبـان فى «صـحيـحه» (٨/ ٤٦/ ح ٦٢٠٧ ـ الإحسان)، وأبو نعيم فى «الحليه» (٦/ ٢٥٢).

جميعاً من طريق حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس. . فذكره.

(٢) الجديد ٤٧٥.

(٣) القول المفيد ٣٥٣- ٣٥٧.

وكذلك يقال فى قوله: «وابن سيدنا».

قوله: «قولوا بقولكم».

سبق القول فيه.

قوله: «ولا يستهوينكم الشيطان».

أى: لا يَسْتَميلَـنَّكم الشيطان فَتَهْوَوْه وتتبـعوا طرقه حتى تبلغوا الغلـو، ونظيره قوله تعالى: ﴿كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾.

قوله: «أنا محمد عبدالله ورسوله».

محمد اسمه العلم، وعبدالله ورسوله وصفان له.

وهذان الوصـفان أحسن وأبلـغ وصف يتصـف به الرسول ﷺ، ولذلـك وصفه الله تعالى بالعبودية فى أعظم المقامات؛ فوصفـه بها فى مقام إنزال القرآن عليه، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، ووصفه بـها فى مقـام الإسراء، قال تعـالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾، ووصفه بها فى مقـام المعراج، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، ووصفه فى مقام الدفاع عنه والتحدى، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

وكذلك بالنـسبة للأنبياء؛ كقـوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، وهذه العبودية خاصة، وهى أعلى أنواع الخاصة.

والعبودية لله من أجل أوصاف الإنسان؛ وهى أعلى أنواع الخاصة.

والعبودية لله مـن أجل أوصاف الإنسان؛ لأن الإنسان إما أن يعبـد الله أو الشيطان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، قال ابن القيم:

هربوا من الرق الذى خُلقوا له ... فبُلُوا برق النفس والشيطان

وقال الشاعر:

لا تَـدْعُنى إلا بيـا عبـدهـا ... فـإنه أشـرف أسمـائـى

«ورسوله»

أي: المُرْسَل من عنده إلى جميع الناس؛ كما قال تعالى: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾**.

ورسول الله ﷺ في قمة الطبقات الصالحة، قال تعالى **﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾**، والنبيون فيهم الرسول ﷺ، بل هو أفضلهم، ومن عبارة المؤلف: رحمه الله في الرسول ﷺ: «عبد لا يُعبد، ورسول لا يُكذَّب».

وقد تَطَرَّف في الرسول ﷺ طائفتان:

- طائفة غلت فيه حتى عبدته، وأعدته للسراء والضراء، وصارت تعبده وتدعوه من دون الله.

- وطائفة كذبته، وزعمت أنه كذاب، ساحر، شاعر، مجنون، كاهن، ونحو ذلك.

وفي قوله: **«عبد الله ورسوله»** رد على الطائفتين.

قوله: **«ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي»**.

«ما»: نافية، و«أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول أحب؛ أي: ما أحب رِفْعَتكم إياي فوق منزلتي؛ لا في الألفاظ، ولا في الألقاب، ولا في الأحوال.

قوله: **«التي أنزلني الله»**.

يستفاد منه أن الله تعالى هو الذي يجعل الفضل في عباده، وينزلهم منازلهم.

قال ابن باز(١): والمقصود من هذا سد الذرائع التي توصل الناس إلى التساهل إلى الشرك فإنهم إن قالوا له يا سيدنا وغير ذلك من الالفاظ التي يأتي بها الناس الأن من الغلو فقد يجرهم إلى أن يعبدوه من دون الله ويدعوه ويستغيثوا به ويزعموا أنه يعلم الغيب وغير ذلك. وقد فعلوا كما قال صاحب البردة يا أكرم الخلق مالي... فوقع في الغلو حتى قال عن النبى أنه ينج يوم القيامة وأن من لا ينجيه النبي - ﷺ - فإنه لا ينجو وهذا من أعظم الغلو وقال أن عنده علم اللوح والقلم، وأنه مطلع على كل شيء،

(١) التعليق المفيد ٢٨٠.

فيه مَسَائِلُ

الأولى: تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الغُلُوِّ.

الثانية: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: «أَنْتَ سَيِّدُنَا».

الثالثة: قَوْلُهُ: «لا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ» مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلاَّ الحَقَّ.

فالواجب على المسلم ان يحفظ لسانه وأن يقتصد فى قوله سواء مع الرسول ﷺ ـ أو مع غيره وعليه التأدب بـالآداب الشرعية فى أقواله وأعماله مع الرسل، والـصالحين والعلماء حتى لا يقع فى الغلو الذى وقع فيه اليهـود والنصارى وأوصلهم إلى أن عبدوا أوليائهم واستغاثـوا بأنبيائهم وصلـحائهم وعلمائـهم ووقعوا فى الشرك الأكبـر والذنب الذى لا يغفر.

قوله (فيه مسائل)

قال ابن عثيمين: فيه مسائل:

● **الأولى**: تحذير الناس من الغلو.

تؤخذ من قوله: «ولايستجرينكم الشيطان» ووجهه: أن الـرسول ﷺ جعل هذا من استجراء الشيطان، والإنسان يجب عليه أن يحذر كل ماكان من طرق الشيطان

الثانية: قوله **«لايستجرينكم...»**

تؤخذ من قوله: **«السيد الله»؛ فينبغى أن يقول من قيل له ذلك: «السيد الله»**.

قال ابن عثيمين[1]:

الثالثة: قوله: «لا يستجرينكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

ظاهر كلام المؤلف أن هذا من اسـتجراء الشيطان؛ فهذه الكلمة يحـتمل أن معناها أن **ما قلتم من استجراء الشيطان**.

ويحتمل أن المعنى: قولوا بهذا القول، ولـكن إياكم أن تغلوا، فإن هذا من استجراء الشيطان، وهذا ظاهر الحديث كما سبق.

---

(١) القول المفيد ٣/٣٥٨ و ٣٥٩.

الرابعة: قَوْلُهُ: «مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِى فَوْقَ مَنْزِلَتِى».

الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى».

أى: إنى أكره أن ترفعـونى فوق منزلتى، وهى العـبودية والرسالة؛ ففيـها تواضعه ﷺ. أهـ

قلت: وفيه حفظ اللسان وصونه عن الألفاظ الغير شرعية.

قال ابن باز[1]: فالواجب علي المسلم أن يحفظ لسانه،وأن يقتصد في قوله سواء مع الرسول ﷺ أو مع غيره، وعلـيه التأدب بالآداب الشرعية في أقواله وأعـماله مع الرسل والصالحين والعلماء حتي لايقع في الغلـو الذي وقع فيه اليهود والنصاري وأوصلهم إلي أن عبدوا أولياءهم، استغـاثوا بأنبيائهم وصلحائهم وعلماءهـم ووقعوا في الشرك الأكبر والذنب الذي لايغفر .أهـ.



(١) التعليق المفيد (١٢٨٠)

باب (٦٦)

ما جاء في قول الله تعالى

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1]. الآية.

- **مناسبة هذا الباب لما قبله من أبواب ومناسبته لكتاب التوحيد ووجه ختام المصنّف به.**

قال عبد الرحمن آل الشيخ[2]: وقد ابتدأ المصنف رحمه الله تعالى هذا المصنف العظيم ببيان توحيد الإلهية، لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جعلوا هذا هو التوحيد، وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد، فقام الشيخ ببيان التوحيد الذى دعت إليه الرسل، ونهاهم عما كانوا عليه من الشرك المنافى لهذا التوحيد فالدعوة إلى ذلك هى أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه. وأعطاه القدرة على الدعوة إليه، والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله فى عبادته، فقرر هذا التوحيد كما ترى فى هذه الأبواب، ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات لأن أكثر العامة ليس لهم التفات إلى هذا العلم الذى خاض فيه من لم ينتسب إلى العلم.

وأما من ينتسب إلى العلم فهم أخذوا عمن خاض فى هذه العلوم، وأحسنوا الظن بأهل الكلام، وظنوا أنهم على شيء، فقبلوا ما وجدوه عنهم، فقرروا مذهب الجهمية وألحدوا فى توحيد الأسماء والصفات، وخالفوا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين. ومازال أهل السنة متمسكين بذلك لكنهم قلوا. فهدى الله هذا الإمام إلى معرفة أنواع التوحيد فقررها بأدلتها. فلله الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق حين اشتدت غربة الإسلام، فضل عنه من ضل من أهل القرى والأمصار وغيرهم وبالله التوفيق.

فقد اجتمع فى هذا المصنف أنواع التوحيد الثلاثة التى أشار إليها العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - بقوله:

والعلم أقسام ثلاث، مالها	من رابع، والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله	وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهى الذى هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثانى أهـ

---

(١) الزمر: ٦٧.

(٢) قرة عيون الموحدين (٢٦٣ - ط الأسدى).

قال ناصر السعدى[1]: ختم المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ كتابه بهذه الترجمة وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه ومجده وجلاله وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه، لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده. المحمود وحده الذى يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم، وغاية الحب والتأله وأنه الحق وما سواه باطل، وهذه حقيقة التوحيد ولبه وروحه سر الإخلاص فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه إنه جواد كريم.

قلت: لما كان الكتاب جامعاً لكل أنواع الشرك والمشركين والرد عليهم كان من أبلغ ما يرد به على جميع هؤلاء قوله تعالى «ما قدروا الله حق قدره» الآية فهذا حال كل مشرك ومبتدع لذلك ناسب أن يختم المصنف به هذا السفر النفيس والله أعلم.

قال ابن باز[2]: هذا الباب الأخير فى الكتاب جمع أنواع التوحيد الثلاثة.

● **شرح التبويب وماذا أراد المصنِّف بهذا الباب.**

قال حامد بن محمد [3]: باب ما جاء فى بيان أن الناس مِنْ ظُـلْمِهِم وجَهْلِهِم ما قدروا الله حق قدره.

الذى هو أهله ويستحقه بل إنهم فعلوا به تعالى بنقيض ما هو لازم عليهم، عقلاً، ونقلاً، أصلاً، وفرعاً، كما فى الحديث الإلهى: «**أنا والثقلين فى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى، أرزق ويشكر غيرى، خيرى إليهم نازل وشرهم إلىّ صاعد**»[4]. الحديث.

فمن ظلمهم وجهلهم تفرقوا واختلفوا وفرقوا دينهم وكانوا شيعاً على غير هدى كل حزب بما لديهم فرحون، ولم يلتفتوا إلى ما هو أولى وألزم عليهم من اتباع أمر سيدهم وعدم مخالفته ومشاقته، بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمنهم من أذعن بالصانع الخلاق بالجنان وجحده باللسان ظلماً وعلواً كفرعون ونمرود، قال تعالى: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾**.

(١) القول السديد ١٣٨و ١٤١

(٢) التعليق المفيد ٢٨١.

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٨٧ــ ٤٩٠.

(٤) تقدم تخريجه

ومنهم من أذعن بالجنان وأقر بـاللسان وشهد بالربوبية وأشرك فـى الألوهية كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

ومنهم من يجعل الله خالق الخير ويجعل خالق الشر أهْرَمَنْ يعنى الشيطان منزهاً الله عن الشـر بزعمهم، ووقعـوا فى شر من ذلك وهـو جعل خالقـين فى الكون سبـحانه وتعالى، فهم كانوا كالمستجير من الرمضاء إلى النار كالمجوس وأشباههم.

ومنهم من أنكروا قضاء الله وقدره كالقدرية الذين يقولون لا دخل لقدرة الله فى أفعال العباد وتبعهم الجهمية على ذلك.

ومنهم من نسب الطاعة والمـعصية والكفر والتوحيد والإيمان والـنفاق إلى الله تعالى وتقدس، وقال: إن الإنسان مجبور على أفعاله ولا قدرة للعبد أصلاً كالجبرية.

ومنهم من وصفه بـالنقص والعيب وقـال: إنه الوجود المطلق مـجرداً عن الأوصاف جميعها لايعلـم ولا يسمع ولا يبصر ولا يختار ولا يشاء وهو ابن سـينا ومن نسب إلى أرسطوا اليونانى ووافقـتهم الجهمية على ذلك إلا أن الجهمية يـصفونه بأنه الذات المجردة عن الصفات.

ومنهم من يسـتخفى مـن الناس ولا يستـخفى من الله فكـأن الله تعالى عـنده أهون الناظرين كالمنافقـين كما قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾(١).

ومنهم من ظن أن الله لايعلم كثيـراً مما يعمل كما قال تعالى: ﴿ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢).

ومنهم من ظن بـالله ظن السوء أن الله لايـنصر رسولـه ولا يظهر ديـنه على سـائر الأديان، وأن ما جرى ليس بقـضائه وقدره، وأن قدره ليس لحكمة بالغة يسـتحق عليها الحمد.

ومنهم من يحب غير الله كحب الله الذى خلقه ورزقه ولايستغنى عنه طرفة عين، قال

(١) النساء : ١٠٨

(٢) فصلت: ٢٢، ٢٣

تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾. ويخشون غير الله كخشية الله الذى بيده ملكوت كل شىء وهو القاهر فوق عباده وله الملك وله الحمد والأمر قال تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾(١).

ومنهم من أنكر البعث ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٢).

ومنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يطيعونهم فيما يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله. قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾(٣).

ومنهم من يبارز الله بالمحاربة يعادى أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون الشرك والمعاصى كما فى الحديث الإلهى: «من عاد لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة»(٤).

ومنهم من يوالى أعداءه بطاعته للشيطان قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾(٥).

ومنهم من يعدل بربه غيره فى العبادة قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(٦).

ومنهم من يرضى الناس بسخط الله.

ومنهم من يتقدم بين يدى الله ورسوله فى القول والحكم.

ومنهم من يجعل الله أهون الناظرين إليه.

ومنهم من يجاهر بالمعاصى ولم يرتدع.

ومنهم من يصر على المعاصى ولم يتب.

ومنهم من يأمن مكر الله. قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٧).

---

(١) النساء: ٧٧ — (٢) التغابن: ٧

(٣) التوبة: ٣١

(٤) تقدم تخريجه — (٥) الكهف: ٥٠

(٦) الأنعام: ١ — (٧) الأعراف: ٩٩

ومنهم من يقنط من رحمة الله قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾[1].

ومنهم ومنهم والكل ما قدر الله حق قدره كما يدل قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ـ مناسبة الآية لكتاب التوحيد:

قال عبد الله بن جار الله[3]: دلت على أن عبادة غير الله شرك ينافي توحيده وتعظيمه والإيمان به.

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

ـ الإعراب[4]:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ كلام مستأنف مسوق لتصوير قدرته تعالى و(ما) نافية وقدروا الله فعل وفاعل ومفعول به أي ما علموا كنهه وما عرفوه حق معرفته، و(حق قدره) نصب على المفعولية المطلقة. اهـ.

● ماجاء في تفسير الآية بالقرآن:

كقوله في الأنعام ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾وكقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

● ماجاء في تفسير الآية من آثار:

عن ابن عباس قوله (وما قدروا حق قدره) قال هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره[5].

---

(1) الحجر: ٥٦ (2) الزمر: ٦٧

(3) الجامع الفريد ٢٢٨. (4) إعراب القرآن ٨/٤٤٥.

(5) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/١٧) وذكره السيوطي في «الدر» (٣/٥٣) وزاد نسبته لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا»

وعن السدى وما قدروا الله حق قدره ما عظموا الله حق عظمته(١).

● **ماجاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:**

قال الطبرى(٢): يقول تعالى ذكره وما عظم الله حقَّ قدره ويقول تعالى ذكره وما عظم الله حق عظمته هؤلاء المشركون بالله الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان.

قال ابن الجوزى(٣): وفى معنى ما قدروا الله حق قدرة ثلاثة أقوال:

أحدها: ما عظموا الله حق عظمته. ذكره الرازى وغيره.

قاله ابن عباس والحسن والفراء وثعلب والزجاج.

والثانى: ما وصفوه حق وصفه قاله أبو العالية، واختاره الخليل.

والثالث: ما عرفوه حق معرفته، قاله أبوعبيدة.

قال الرازى(٤): وهذه الآية مذكورة فى سور ثلاث، فى سورة الأنعام(٥) وفى سورة الحج(٦) وفى هذه السورة (٧)... قال القفال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كقول القائل وما قدرنى حق قدرى وأنا الذى فعلت كذا وكذا، أى لما عرفت أن حالى وصفتى هذا الذى ذكرت، فوجب أن لاتحطنى عن قدرى ومنزلتى، ونظيره قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أى كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال هلكه فكذا ههنا، وبالمعنى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إذ زعموا أن له شركاء وأنه لايقدر على إحياء الموتى مع أن الأرض والسموات فى قبضته وقدرته.

قال الرازى(٨): واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين أنهم أمروا الرسول بعبادة الأصنام. ثم إنه تعالى أقام لدلائل على فساد قولهم وأمر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيئاً آخر سواه، بين أنهم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاكلة له المعبودية، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

قال القرطبى(٩): قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

قال المبرد: قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما عظموه حقَّ عظمته من قولك فلان عظيم القدر: قال النحاس: والمعنى على هذا وما عظموه حقَّ عظمته إذ عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.
(٢) المصدر السابق
(٣) زاد المسير ٣/ ٦٤.
(٤) التفسير الكبير ١٤/ ٢٧/ ١٥
(٥) ٩١
(٦) ٧٤
(٧) ٦٧.
(٨) التفسير الكبير ١٤/ ٢٧/ ١٥
(٩) تفسير القرطبى ٨/ ٥٧٢١.

قال ابن كثير(١): يقول تبارك وتعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى ما قدَّر المشركون الله حقَّ قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذى لا أعظم منه القادر على كلِّ شىء المالك لكل شىء وكل شىء تحت قهره وقدرته. اهـ.

قال الشنقيطى(٢): قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى: ما عظموه حق عظمته حين عبدوا معه من لايقدر على خلق ذباب وهو عاجز أن يسترد من الذباب ما سلبه الذباب منه كالطيب الذى يجعلونه على أصنامهم إن سلبها الذباب منه شيئاً لاتقدر على استنقاذه منه، وكونهم لم يعظموا الله حق عظمته، ولم يعرفوه حق معرفته، حيث عبدوا معه من لايقدر على جلب نفع ولا دفع ضر ذكره تعالى فى غير هذا الموضع

قال صاحب الظلال(٣): يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذى خلق كل شىء، المالك المتصرف فى كل شىء. فتبدو دعوة المشركين للنبى ﷺ إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه! تبدو هذه الدعوة مستغربة، والله خالق كل شىء، وهو المتصرف فى ملكوت السماوات والأرض بلا شريك. فأنى يعبد معه غيره، وله وحده مقاليد السموات والأرض؟!

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وهم يشركون به وهو وحده المعبود القاهر ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ نعم: ما قدروا الله حق قدره، وهم يشركون به بعض خلقه، وهم لايعبدونه حق عبادته. وهم لايدركون وحدانيته وعظمته. وهم لايستشعرون جلاله وقوته.

قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

الإعراب(٤): ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ الواو للحال و(**الأرض**) مبتدأ و(**جميعاً**) حال و(**قبضته**) خبره والجملة حال من الله و(**يوم القيامة**) ظرف متعلق بمحذوف حال من قبضته أو هى متعلقة بها على تضمينها معنى مقبوضة و(**السموات**) مبتدأ و(**مطويات**) خبر و(**بيمينه**) متعلقان بمطويات وعبارة أبى البقاء: «والأرض مبتدأ وقبضته الخبر وجميعاً حال من الأرض والتقدير إذا كانت مجتمعة قبضته أى مقبوضة فالعامل فى إذا المصدر لأنه بمعنى المفعول، وقد ذكر أبو على فى الحجة: التقدير ذات قبضته وقد رد عليه ذلك وأن المضاف إليه لايعمل فيما قبله وهذا

---

(١)تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠.

(٢) أضواء البيان ٥/ ٥١١.

(٣) / ٣٠٦٠و ٣٠٦١.

(٤) إعراب القرآن ٨/ ٤٤٥و ٤٤٦.

لايصح لأنه الآن غير مضاف إليه وبعد حذف المضاف لايبقى حكمه ويقرأ قبضته بالنصب على معنى فى قبضته وهو ضعيف لأن هذا الظرف محدود فهو كقولك زيد الدار، والسموات مطويات مبتدأ وخبر وبيمينه متعلقان بالخبر ويجوز أن يكون حالاً من الضمير فى الخبر وأن يكون خبراً ثانياً وقرىء مطويات بالكسر على الحال وبيمينه الخبر وقيل الخبر محذوف أى والسموات قبضته».

● **ما جاء فى تفسير الآية من أحاديث وآثار.**

● **أولاً: التفسير بالمرفوع.**

عن ابن عمر أنه رأى رسول الله ﷺ على المنبر يخطب الناس فمر بهذه الآية ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ فقال رسول الله ﷺ **يأخذ السموات والأرضين السبع فيجعلها فى كفة ثم يقول بهما كما يقول الغلام بالكرة أنا الله الواحد أنا الله العزيز حتى لقد رأينا المنبر وأنه ليكاد أن يسقط**[١] به.

وعن عبدالله قال جاء يهودى إلى النبى ﷺ فقال يامحمد إن الله يمسك السموات على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والخلائق على أصبع ثم يقول: أنا الملك. قال فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: وما قدروا الله حق قدره[٢].

وعن عبدالله قال فضحك النبى ﷺ تعجباً وتصديقاً[٣].

وعن عبدالله بن مسعود قال كنا عند رسول الله ﷺ حين جاءه حبر من أحبار اليهود فجلس إليه فقال له النبى ﷺ حدثنا قال إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة جعل السموات على أصبع والأرضين عى أصبع والجبال على أصبع والماء والشجر على أصبع وجميع الخلائق على أصبع ثم يهزهن ثم يقول أنا الملك قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لما قال، ثم قرأ هذه الآية ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ الآية[٤].

عن ابن عباس قال مر يهودى بالنبى ﷺ وهو جالس فقال: يا يهودى حدثنا فقال كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السماء على ذه والأرض على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه فأنزل الله ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ الآية[٥].

---

(١) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٧٤١٢)، ومسلم فى صفة القيامة (٩/ ١٤٤/ ٢٤) عن ابن عمر به واللفظ لابن جرير فى «تفسيره» (٢٤/ ١٧، ١٨).

وأنظر «تفسير ابن أبى حاتم «بتخريجنا».

(٢) [**متفق عليه**] أخرجه البخارى (٤٨١١)، ومسلم فى صفة القيامة (٩/ ١٤٢/ ١٩)، وابن جرير فى «تفسيره عن ابن مسعود وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٣) انظر ما قبله. (٤، ٥) المصدر السابق.

عن عبدالله قال أتى النبى ﷺ رجل من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم أبلغك أن الله يحمل الخلائق على أصبع والسموات على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والثرى على أصبع قال فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه فأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ إلى آخر الآية[1].

● **ثانياً: التفسير بالموقوف.**

وعن ابن عباس قوله ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ يقول قد قبض الأرضين والسموات جميعاً بيمينه ألم تسمع أنه قال مطويات بيمينه يعنى الأرض والسموات بيمينه جميعاً قال ابن عباس: وإنما يستعين بشماله لمشغولة يمينه[2].

وعنه قال: ما السموات السبع والأرضون السبع فى يد الله الا كخردلة فى يد أحدكم[3].

● **ثالثاً: التفسير بأقوال التابعين ومن بعدهم.**

وعن ربيعة الجرشى قال: والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه قال: ويده الأخرى خلو ليس فيها شيء[4].

وعن الحسن فى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال كأنها **جوزة بقضها** وقضيضها[6].

وعن الضحاك كان يقول فى قوله ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقول السموات والأرض مطويات بيمينه جميعاً وكان ابن عباس يقول: إنما يستعين بشماله لمشغولة يمينه وإنما الأرض والسموات كلها بيمينه وليس فى شماله شيء[6].

● **ما جاء فى الآية من كلام المفسرين:**

قال الطبرى فيها قولان:

الأول: الأرض كلها قبضته فى يوم القيامة، والسموات كلها مطويات بمنه فالخبر عن الأرض متناه عند قوله (يوم القيامة) والأرض مرفوعة بقوله قضته، ثم استأنف الخبر عن السموات فقال: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وهى مرفوعة بمطويات. اهـ. ثم ذكر من

---

(١) المصدر السابق. (٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٧/٢٤).

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وانظر السيوطى فى «الدر» (٥/٦٢٩).

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق. (٥) نفس المصدر السابق.

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/٦٢٩) وزاد نسبته لعبد بن حميد بنحوه.

قال بهذا كما قد مناه من الآثار عن ابن عباس وربيعة الجرشى والحسن والضحاك وغيرهم.

القول الثانى:

● أولاً: المرفوع من التفسير:

قال ابن جرير [(١)]: وقال آخرون: بل السماوات فى يمينه والأرضون فى شماله. اهـ. ثم ذكر من قال بذلك.

فعن عبدالله بن مقسم أنه سمع عبدالله بن عمر يقول رأيت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: **يأخذ الجبار سمواته وأرضه بيديه وقبض رسول الله ﷺ يديه وجعل يقبضهما ويبسطهما قال ثم يقول: أنا الرحمن، أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟** وتمايل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شىء منه حتى إنى لأقول أساقط هو برسول الله ﷺ؟ [(٢)].

عن أبى هريرة أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يقبض الله عزوجل الأرض يوم القيامة ويطوى السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟**»[(٣)].

عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **إن الله يقبض الأرض يوم القيامة بيده ويطوى السموات بيمينه ويقول أنا الملك**»[(٤)].

عن أبى أيوب الأنصارى قال: أتى رسول الله ﷺ حبر من اليهود، قال: أرأيت إذ يقول الله فى كتابه ﴿**وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ فأين الخلق عند ذلك قال: «**هم فيها كرقم الكتاب**»[(٥)].

عن سالم عن أبيه أنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «**يطوى الله السموات فيأخذهن بيمينه ويطوى الأرض فيأخذها بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟**»[(٦)].

قال ابن جرير[(٧)]: وقيل إن هذه الآية نزلت من أجل يهودى سأل رسول الله ﷺ عن صفة الرب.

(١) تفسير الطبرى ١١/ ٢٤/ ١٧.

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وقد تقدم.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٣٨٢)، ومسلم فى صفة القيامة (٩/ ١٤٤/ ٢٣) عن أبى هريرة به.

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٤/ ١٨، ١٩) وتقدم.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وانظر «الدر» (٥/ ٦٢٩).

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وتقدم.

(٧) ابن جرير فى الموضع الأخير.

عن سعيد قال أتى رهط من اليهود نبى الله ﷺ فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه فغضب النبى ﷺ حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربه فجاءه جبريل فسكنه، وقال «اخفض عليك جناحك يا محمد» وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ فلما تلاها عليهم النبى ﷺ قالوا صف لنا ربك؟ كيف خلقه؟ وكيف عضده؟ وكيف ذراعه؟ فغضب رسول الله ﷺ أشدّ من غضبه الأول، ثم ساورهم فأتاه جبريل، قال: مثل مقالته وأتاه بجواب ما سألوه عنه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرى ما الكرسى؟» قلت: لا. قال: ما فى السموات وما فى الارض وما فيهن فى الكرسى الا كحلقة ألقاها ملق فى الأرض، وما الكرسى فى العرش إلا كحلقة ألقاها ملق فى الأرض وما الماء فى الريح إلا كحلقة ألقاها ملق فى أرض.. فلاة، وما جميع ذلك فى قبضة الله عز وجل إلا كحبة وأصغر من الحبة فى كف أحدكم. وذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[2].

ثانياً: ما جاء فى تفسير الآية من أقوال السلف.

عن سعيد قال: تكلمت اليهود فى صفة الرب فقالوا: ما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ثم بين للناس عظمته فقال ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فجعل صفتهم التى وصفوا الله بها شركاً[3].

وعن شيبان النحوى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: لم يفسرها قتادة[4].

---

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ فى «العظمة».

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٦٢٧) وزاد نسبته لابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ فى «العظمة». وانظر تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/ ٦٢٩) ونسبه للبيهقى فى «الأسماء والصفات».

وعن سفيان بن عيينة قال: كل ما وصف الله من نفسه فى كتابه. فتفسيره تلاوته والسكوت عليه[1].

قال ابن عباس[2]: والسماوات كلها بمينة.

وقال سعيد بن جبير[3]: السماوات قبضة والأرضون قبضة.

● **ما جاء فى الآية من كلام المفسرين:**

قال الطبرى[4]: يقول تعالى ذكره والأرض كلها قبضته فى يوم القيامة والسموات كلها مطويات بيمنه، فالخبر عن الأرض متناً(*) عند قوله يوم القيامة والأرض مرفوعة بقوله قبضته، ثم استأنف الخبر عن السموات، فقال: والسموات مطويات بيمينه وهى مرفوعة بمطويات. اهـ.

قال الرازى[5]: فى تفسير ألفاظ الآية قوله **(والأرض)** المراد منه الأرضون السبع ويدل عليه وجوه

(الأول) قوله **(جميعاً)** فإن هذا التأكيد لايحسن إدخاله إلا على الجمع ونظيره قوله **﴿كل الطعام﴾**.

وقوله تعالى **﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** فإن هذه الألفاظ الملحة باللفظ المفرد تدل على أن المراد منه الجمع فكذا ههنا.

(الثانى): أنه قال بعده **﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾** فوجب أن يكون المراد بالأرض الأرضون.

(الثالث) أن الموضع موضع تعظيم وتفخيم فهذا مقتضى المبالغة.

● **شبهة والرد عليها:**

أولاً الشبهة:

قال الرازى[6]: قال صاحب «الكشاف» الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو

---

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للبيهقى

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير (٧/ ٦٣).

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير الطبرى ١١/ ٢٤/ ١٧.

(*) هكذا فى الأصل وأظن أن الصواب: متنه.

(٥) التفسير الكبير ١٤/ ٢٧/ ١٧.

(٦) التفسير الكبير (١٤/ ٢٧/ ١٥، ١٦، ١٧).

بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز، وكذلك ماروى أن يهودياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك! فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال.

قال صاحب «الكشاف» وإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء. من ذلك، ولكن فهمه وقع أول كل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام ولاتكتنهها الأذهان هينة عليه. قال ولا نرى باباً فى علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب. فيقال له هل تسلم أن الأصل فى الكلام حمله على الحقيقة، وأنه إنما يعدل عن الحقيقة إلى المجاز عند قيام الدلالة على أن حمله على حقيقته ممتنع، فحينئذ يجب حمله على المجاز، فإن أنكر هذا الأصل فحينئذ يخرج القرآن بالكلية عن أن يكون حجة، فإن لكل أحد أن يقول المقصود من الآية الفلانية كذا وكذا فأنا أحمل الآية على ذلك المقصود، ولا ألتفت إلى الظواهر، مثاله من تمسك بالآيات الواردة فى ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار، قال المقصود بيان سعادات المطيعين وشقاوة المذنبين، وأنا أحمل هذه الآيات على هذا المقصود ولا أثبت الأكل والشرب ولا سائر الأحوال الجسمانية، ومن تمسك بالآيات الواردة فى إثبات وجوب الصلاة فقال المقصود منه إيجاب تنوير القلب بذكر الله، فأنا أكتفى بهذا القدر ولا أوجب هذه الأعمال المخصوصة، وإذا عرفت الكلام فى هذين المثالين فقس عليه سائر المسائل الأصولية والفروعية وذلك باطل قطعاً، وأما إن سلم أن الأصل فى علم القرآن أن يعتقد أن الأصل فى الكلام حمله على حقيقته، فإن قام دليل منفصل على أنه يتعذر حمله على حقيقته، فحينئذ يتعين صرفه إلى مجازه فإن حصلت هناك مجازات لم يتعين صرفه إلى مجاز معين إلا إذا كان الدليل يوجب ذلك التعيين، فنقول ههنا لفظ القبضة ولفظ اليمين حقيقة فى الجارحة المخصوصة، ولا يمكن أن تصرف ظاهر الكلام عن هذا المعنى إلا إذا أقمت الدلالة على أن حمل هذه الألفاظ على ظواهرها ممتنع فحينئذ يجب حملها على المجازات، ثم تبين بالدليل أن المعنى الفلانى يصح جعله مجازاً عن تلك الحقيقة، ثم تبين بالدليل أن هذا المجاز أولى من غيره، وإذا ثبتت هذه المقدمات وترتيبها

على هذا الوجه فهذا هو الطريق الصحيح الذى عليه تعويل أهل التحقيق فأنت ما أتيت فى هذا الباب بطريقة جديدة وكلام غريب، بل هو عين ما ذكره أهل التحقيق، فثبت أن الفرح الذى أظهره من أنه اهتدى إلى الطريق الذى لم يعرفه غيره طريق فاسد، دال على قلة وقوفه على المعانى، ولنرجع إلى الطريق الحقيقى.

فنقول لاشك أن لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الأعضاء والجوارح، إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح لله تعالى فوجب حمل هذه الأعضاء على وجوه المجاز، فنقول إنه يقال فلان فى قبضة فلان إذا كان تحت تدبيره وتسخيره. قال تعالى: ﴿ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ والمراد منه كونه مملوكاً له، ويقال هذه الدار فى يد فلان، وفلان صاحب اليد، والمراد من الكل القدرة، والفقهاء يقولون فى الشروط وقبض فلان كذا وصار فى قبضته، ولا يريدون إلا خلوص ملكه، وإذا ثبت تعذر حمل هذه الألفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صوناً لهذه النصوص عن التعطيل، فهذا هو الكلام الحقيقى فى هذا الباب، ولنا كتاب مفرد فى إثبات تنزيه الله تعالى عن الجسمية والمكان، سميناه «بتأسيس التقديس». من أراد الإطناب فى هذا الباب فليرجع إليه. اهـ.

● **الرد على الشبهة:**

رد الطبرى وغيره على مذهب من انتحل مثل مذهب الزمخشرى والرازى وغيرهما فقال[1]: وقال بعض أهل العربية من أهل البصرة ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ يقول: فى قدرته نحو قوله ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أى وما كانت لكم عليه قدرة وليس الملك لليمين دون سائر الجسد قال وقوله قبضته نحو قولك للرجل هذا فى يدك وفى قبضتك والأخبار التى ذكرناها عن رسول الله وعن أصحابه وغيرهم يشهد على بطول هذه القول. اهـ.

قال ابن كثير[2]: وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

---

(١) الطبرى ١١/ ٢٤/ ١٧.

(٢) ابن كثير ٦٠ - ٦١.

قال ابن عثيمين(1): والقبضة

والقبضة: هى ما يقبض باليد، وليس المراد بها الملك كما قيل، نعم، لو قال: والأرض فى قبضته؛ لكان تفسيرها بالملك محتملاً.

قوله : «جميعاً».

حال من الأرض؛ فيشمل بحارها وأنهارها وأشجارها وكل ما فيها، الأرض كلها جميعاً قبضته يوم القيامة، والسماوات على عظمها وسعتها مطويات بيمينه، قال الله ـ عزو وجل ـ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾. اهـ.

قلت: وسيأتى أيضاً رد شراح كتاب التوحيد، على منتحلى هذا المذهب المنحرف، فى حديث الباب الآتى.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد.

قال عبد الرحمن آل الشيخ(2): وهذه الأحاديث وما فى معناها تدل على عظمة الله، وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته، وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته، وعجائب مخلوقاته، كلها تدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده، لاشريك له فى ربوبيته وإلهيته، وتدل على إثبات الصفات له على مايليق بجلال الله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل، وهذا هو الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتهاومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل مافى هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبى ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التى تدل على عظمته، وتأمل مافيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه، ولم يقل النبى ﷺ فى شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، وإنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه، فلوكان هذا حقاً بلغه أمينه أمته، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين. وتلقى الصحابة رضى الله عنهم عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله، فآمنوا به، وآمنوا بكتاب الله وماتضمنه من صفات ربهم جل وعلا، كما قال

(1) القول المفيد ٣/ ٣٦١.

(2) فتح المجيد ٥٦٤ ـ ٥٦٩.

تعالى ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، ولم يجحدوا شيئاً من الصفات، ولاقال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد، ولاإنه يلزم من إثباتها التشبيه، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار، فصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذاكتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسول الله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أوظاهر أن الله تعالى فوق كل شيء وأنه فوق العرش فوق السموات مستوٍ على عرشه مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾.

وقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ الآية. فذكر التوحيد في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ تنزيلاً ممّن خلق الأرض والسموات العُلى * الرّحمن على العرش استوى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وتوكّل على الحيّ الّذى لا يموت وسبّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً الّذي خلق السّموات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش الرّحمن فاسئل به خبيرا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ اللّه الّذى خلق السّموات والأرض وما بينهما فى ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش ما لكم مّن دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكّرون * يدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض ثمّ يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون﴾.

وقوله تعالى: ﴿هو الّذى خلق السّموات والأرض فى ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السّماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم واللّه بما تعملون بصير﴾ فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته.

وقوله تعالى: ﴿ أأمنتم مّن فى السّماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم مّن فى السّماء أن يرسل عليكم حاصبًا فستعلمون كيف نذير﴾.

وقوله تعالى ﴿ تنزيل مّن حكيم حميد﴾ وقوله تعالى: ﴿تنزيل الكتاب من اللّه العزيز الحكيم﴾ وقوله تعالى: ﴿ أسباب السّموات فأطّلع إلى إله موسى وإنّى لأظنّه كاذبًا﴾ انتهى كلامه رحمه الله.

قلت ـ أى عبد الرحمن آل الشيخ ـ وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيماصنفوه فى الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة الأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين فمن ذلك.

ماروواه **الحافظ الذهبى فى كتاب «العلو»** وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبى ﷺ: أنها قالت فى قوله تعالى: ﴿الرّحمن على العرش استوى﴾ قالت الاستواء

غيرمجهول ،والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر. رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح.

قال: وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: أنه قال لماسئل ربيعة بن أبي عبدالرحمن: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول، الكيف غيرمعقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق. وقال ابن وهب: كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرحضاء. وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كما وصف نفسه، ولايقال: كيف؟ و- كيف - عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة. أخرجوه. رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً . ولفظه قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لايحتاج لفظه إلى تفسير،ونفوا عنه الكيفية.

قال البخاري في «صحيحه»: قال مجاهد: ﴿ اسْتَوَىٰ﴾ علا على العرش.

وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ أي: ارتفع . وقال محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ أي: علا وارتفع.

وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم . فمن ذلك.

قول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه.

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ملائكة الإله مسومينا

وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناده إلى علي بن الحسين بن شقيق قال: سمعت عبدالله بن المبارك يقول: نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته على العرش استوى، بائن من خلقه، ولانقول كما قالت الجهمية.

قال الدارمي: حدثنا حسن بن الصباح البزار حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن

المبارك: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه.

وقد تقدم قول الأوزاعى: كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: إن الله تعالى ذكره، بائن عن خلقه، ونؤمن بماوردت به السنة.

وقال أبو عمر الطلمنكى فى كتاب «الأصول»: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على العرش بذاته. وقال فى هذا الكتاب أيضاً: أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لاعلى المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله فى السماء وعلمه فى كل مكان.

ثم قال فى هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾ ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه وأن الله فوق السموات بذاته مستوٍ على عرشه كيف شاء وهذا لفظه فى كتابه.

وهذا كثير فى كلام الصحابة والتابعين والأئمة، أثبتو ماأثبته الله فى كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على مايليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثلوا ولم يكيفوا كما ذكرنا ذلك عنهم فى هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبى: وأول من أنكر أن الله فوق عرشه: هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، وقتله خالد بن عبدالله القسرى وقصته مشهورة، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لهابالشبهات وكان ذلك فى آخر عصرالتابعين، فأنكرمقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعى، وأبى حنيفة ومالك، والليث بن سعد، والثورى، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدى.

فقال الأوزاعى إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة: ماأخبرنا عبد الواسع الأبهرى بسنده إلى أبى بكر البيهقى: أنبأنا أبو عبدالله الحافظ أخبرنى محمد بن على الجوهرى ـ ببغداد ـ حدثنا إبراهيم بن الهيثم حدثنا محمد بن كثير المصيصى سمعت الأوزاعى يقول: كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: أن الله فوق عرشه ونؤمن بماوردت به السنة من صفاته. أخرجه البيهقى فى «الصفات» ورواته أئمة ثقات.

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: لله أسماء وصفات لايسع أحداً ردها؛ ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل ،ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أهـ. من «فتح الباري».

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الإعراب[1]: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سبحانه مفعول مطلق لفعل محذوف وتعالى فعل ماض وفاعله مستتر يعود على الله تعالى وعما متعلقان بتعالى وجملة يشركون صلة ما.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين والشرَّاح:

قال الطبري[2]: يقول تعالى ذكره تنزيهاً وتبرئة لله وعلواً وارتفاعا عمايشرك به هؤلاء المشركون من قومك يامحمد القائلون لك اعبد الأوثان من دون اللهواسجد لآلهتنا.

قال الرازي[3]: واعلم أنه تعالى لما بين عظمته من الوجه الذى تقدم قال ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يعنى أن هذا القادر القاهر العظيم الذى حارت العقول والألباب فى وصف عظمته تنزه وتقدس عن أن تجعل الأصنام شركاء له فى المعبودية. اهـ.

قال ابن عثيمين[4]: قوله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

هذا تنزيه له عن كل نقص وعيب، ومما ينزه عنه هذه الأنداد، ولهذا قال: ﴿وَتَعَالَىٰ﴾؛ أى: ترفع.

﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

أى: عن كل شرك يشركونه به، سواء جعلوا الخالق كالمخلوق أو العكس.



(١) إعراب القرآن ٨/ ٤٤٦

(٢) تفسير الطبرى ١١/ ٢٤/ ١٩

(٣) التفسير الكبير ١٢٤/ ٢٧/ ١٨

(٤) القول المفيد ٣/ ٣٦١

عَن ابن مَسْعُود رَضِىَ الله عَنْهُ، قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَار إِلَى رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إنَّا نَجِدُ أنَّ الله يَجْعَلُ السَّموات عَلَى إِصْبَع، والأَرْضِين عَلَى إِصْبَعٍ، والشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْق عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقًا لقول الحَبْر، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. الآية».

وَفِى رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالجِبَالُ وَالشَّجرُ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللهُ».

وَفِى رِوَايَةٍ لِلبُخَارِى: «يَجْعَلُ السَّمٰوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ» أَخْرَجَاهُ(١).

وقوله: «أخرجاه»: تقدم مراراً أنه البخارى ومسلم

فقد ذكره البخارى فى أربع مواضع

الأول فى: باب «ماقدروا الله حق قدره»

وأسند عن عبدالله (٢) قال «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يامحمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

والثانى فى: باب قول الله تعالى ﴿لماخلقت بيدى﴾

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى التفسير / باب: «وما قدروا الله حق قدره». (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٤٥١٣) ومسلم فى«صفة القيامةوالجنة والنار/ باب :منه (٩/ ١٤٢/ح١٩)

من حديث ابن مسعود رضى الله عنه، وانظر «فتح المجيد بتخريجنا».

(٢) البخارى ح ٤٨١١

ولفظه[1]: أن يهوديا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يامحمد إن الله يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ - حتى بدت نواجذه ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. قال يحيى بن سعيد وزاد فيه فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبدالله فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً له.

قلت: وفى هذه اللفظة الأخيرة دليل على أن ضحك الرسول كان تصديقاً له وليس تصديقاً من بعض الرواة بل هو فهم الصحابى، وهوأعلم بمراد النبى ﷺ.

ثم ذكره بإسناد آخر فى نفس الباب ولفظه[2].

«جاء رجل إلى النبى ﷺ من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم إن الله يمسك السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر والثرى على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك أنا الملك فرأيت النبى ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه . ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

والثالث: ذكره فى باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾.

ولفظه[3]: «جاء حبر إلى رسول الله ﷺ - فقال يامحمد إن الله يضع السماء على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر والأنهار على إصبع ثم يقول بيده أنا الملك . فضحك رسول الله ﷺ وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

والرابع: ذكره فى باب كلام الرب - عزوجل - يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم.

ولفظه[4]: وجاء حبرة من اليهود فقال: إنه إذا كان يوم القيامة جعل الله السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والماء والثرى على إصبع والخلائق على إصبع ثم يهزهن ثم يقول: أنا الملك أنا الملك، فلقد رأيت النبى ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه تعجباً وتصديقاً لقوله ثم قال النبى ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى قوله ﴿يُشْرِكُونَ﴾.

(١) ح ٧٤١٤.
(٢)ح ٧٤١٥.
(٣) ح ٧٤٥١.
(٤) ح٧٥.

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد (١):

قال القرعاوى[٢]: حيث دل الحديث على وجوب تعظيم الله وتعظيمه هو توحيده وتنزيهه. اهـ.

قوله «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله فقال»:

قال ابن عثيمين: قوله: «حبر»[٣].

الحبر: هو العالم الكثير العلم، والحبر يشابه البحر فى اشتقاق الحروف، ولهذا كان العالم أحياناً يسمى بالحبر وأحياناً بالبحر.

قوله: «إنا نجد»

أى فى التوراة

قوله: «أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع».

قال ابن حجر [٣]: **قوله «والخلائق»** أى من لم يتقدم له ذكر وفى رواية «وسائر الخلق» وزاد ابن خزيمة عن محمد بن خلاد عن يحيى بن سعيد القطان عن الأعمش فذكر الحديث، قال محمد عدها علينا يحيى بإصبعه وكذا أخرجه أحمد بن حنبل فى «كتاب السنة» عن يحيى بن سعيد وقال: وجعل يحيى يشير بإصبعه يضع إصبعاً على إصبع حتى أتى على آخرها، ورواه أبو بكر الخلال فى «كتاب السنة» عن أبى بكر المروزى عن أحمد، وقال رأيت أبا عبدالله يشير بإصبع إصبع، ووقع فى حديث ابن عباس عند الترمذى «مر يهودى بالنبى ﷺ فقال يا يهودى حدثنافقال كيف تقول: يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه والأرضين على ذه والمال على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه» وأشار «أبوجعفر» يعنى أحد رواته بخنصر أولاً ثم تابع حتى بلغ الإبهام[٤]، قال الترمذى حديث حسن غريب صحيح ووقع فى مرسل مسروق عند الهروى مرفوعاً نحو هذه الزيادة.

---

(١) الجديد ٤٧٨..

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٦١.

(٣) الفتح ١٣/ ٤٠٩.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ٢٥١)، والترمذى (٣٢٤٠) عن ابن عباس به.

قال ابن عثيمين[١]: قوله «أصبع»

واحدة الأصابع، وهى مثلثة الأول والثالث؛ ففيها تسع لغات، والعاشر أُصْبُوع، وفى هذا يقول الناظم:

وهَمْزُ أَنْمُلَة ثَلِّثْ وثَالِثَهَ   التِّسْعِ فى أُصْبُع واخْتُم بِأَصْبُوع

قوله: [فيقول: أنا الملك]

قال ابن حجر [٢]: كررها علقمة فى رواتيه وزاد فضيل فى روايته «قبلها ثم يهزهنّ»

قال ابن عثيمين[٣]: قوله «أنا الملك» هذه جملة تفيد الحصرة لأنها اسمية معرّفة الجزئين؛ ففى ذلك اليوم لا ملك لأحد، قال تعالى: **﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾**، وكل الناس الملوك منهم والمملوكون على حد سواء يحشرون حفاة عراة غرلاً، وبهذا يظهر ملكوت الله ـ عز وجل ـ فى ذلك اليوم ظهوراً بيِّناً؛ لأنه ـ سبحانه ـ ينادى: لمن الملك اليوم؛ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: **﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾**.

وقوله: «المَلِك».

أى: ذو السلطان، وليس مجرد المتصرف، بل هو المتصرف فيما يملك على وجه السلطة والعلو، وأما «المالك» فدون ذلك، ولهذا يمتدح نفسه تعالى بأنه الملك، وقوله **تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيها قراءتان: «ملك، ومالك»؛ ليتبين بذلك أنه ملك مالك.**

فَمُلْك الله تعالى متضمن لكمال السلطان والتدبير والملك، بخلاف غيره؛ فإن من ملوك الدنيا من يكون ملكاً لا يملك التصرف، ومنهم المالك وليس بملك.

قوله: [فضحك النبىُّ ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه].

قال ابن حجر[٤]: فى رواية علقمة «فرأيت النبى ـ ﷺ ـ ضحك ومثله فى رواية جرير ولفظه «ولقد رأيت».

قوله [حتى بدت نواجذه]

---

(١) القول المفيد ٣/ ٣٦٣.

(٢) الفتح ١٣/ ٤٠٩.

(٣) القول المفيد/ ٣٦٤.

(٤) الفتح ١٣/٤٠٩.

تنبيه: عرض ابن حجر والقرطبى كلاماً ونقولات لأهل التأويل فى صفة (الإصبع) لصرفها عن حقيقتها، سيأتى رد ابن عثيمين عليها رداً شافياً كافياً فلا يلتفت لكلام المؤولين بعده.

قال ابن حجر:(١): جمع ناجذ بنون وجيم مكسورة ثم ذال معجَمة وهو ما يظهر عند الضحك من الأسنان وقيل هى الأنياب وقيل الأضراس وقيل الدواخل من الأضراس التى فى أقصى الحلق، زاد شيبان بن عبد الرحمن «تصديقاً لقول الحبر» وفى رواية فضيل المذكورة هنا «تعجباً وتصديقاً له».

وعند مسلم «تعجباً مما قال الحبر تصديقاً له».

وفى رواية جرير عنده «وتصديقاً له» بزيادة واو.

وأخرجه ابن خزيمة من رواية إسرائيل عن منصور «حتى بدت نواجذه تصديقاً لقوله».

وقال ابن بطال: لا يحمل ذكر الإصبع على الجارحة بل يحمل على أنه صفة من صفات الذات لا تكيف ولا تحدد «وهذا ينسب للأشعرى».

وعن ابن فورك يجوز أن يكون الإصبع خلقاً يخلقه الله فيحمله الله ما يحمل الإصبع، ويحتمل أن يراد به القدرة والسلطان، كقول القائل َما فلان إلا بين إصبعي إذا أراد الإخبار عن قدرته عليه، وأيد ابن التين الأول بأنه قال على إصبع ولم يقل على إصبعيه.

قال ابن بطال: وحاصل الخبر أنه ذكر المخلوقات وأخبر عن قدرة الله على جميعها فضحك النبى ﷺ تصديقاً له وتعجباً من كونه يستعظم ذلك في قدرة الله تعالى، وأن ذلك ليس فى جنب ما يقدر عليه بعظيم، ولذلك قرأ قوله تعالى ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ الآية أى ليس قدره فى القدرة على ما يخلق على الحد الذى ينتهى إليه الوهم، ويحيط به الحصر لأنه تعالى يقدر على إمساك مخلوقاته على غير شيء كما هي اليوم، قال تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولَا**﴾ وقال ﴿**رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾.

وقال الخطابي لم يقع ذكر الإصبع فى القرآن ولا فى حديث مقطوع به، وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة حتى توهم من ثبوتها ثبوت الأصابع بل هو توقيف أطلقه الشارع فلا

---

(١) الفتح ٤٠٩/١٣ و ٤١٠.

يكيف ولا يشبه، ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودى، فإن اليهود مشبهة وفيما يدعونه من التوراة ألفاظ تدخل فى باب التشبيه ولا تدخل فى مذاهب المسلمين، وأما ضحكه صلى الله عليه وسلم من قول الحبر فيحتمل الرضا والإنكار.

وأما قول الراوى «تصديقاً» له فظن منه وحسبان، وقد جاء الحديث من عدة طرق ليس فيها هذه الزيادة، وعلى تقدير صحتها فقد يستدل بحمرة الوجه على الخجل، وبصفرته على الوجل، ويكون الأمر بخلاف ذلك، فقد تكون الحمرة لأمر حدث فى البدن كثوران الدم، والصفرة لثوران خلط من مرار وغيره، وعلى تقدير أن يكون ذلك محفوظاً فهو محمول على تأويل قوله تعالى ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أى قدرته على طيها، وسهولة الأمر عليه فى جمعها بمنزلة من جمع شيئاً فى كفه واستقل بحمله من غير أن يجمع كفه عليه بل يقله ببعض أصابعه، وقد جرى فى أمثالهم فلان يقل ـ كذا ـ بإصبعه ويعمله بخنصره انتهى ملخصاً.

وقد تعقب بعضهم إنكار ورود الأصابع لوروده فى عدة أحاديث كالحديث الذى أخرجه مسلم «**إن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن**»(١) ولا يرد عليه لأنه إنما نفى القطع.

وقال القرطبى فى «المفهم» قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ﴾ إلى آخر الحديث، هذا كله قول اليهودى وهم يعتقدون التجسيم وأن الله شخص ذو جوارح كما يعتقده غلاة المشبهة من هذه الأمة، وضحك النبى ﷺ إنما هو للتعجب من جهل اليهودى، ولهذا قرأ عند ذلك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى ما عرفوه حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه فهذه الرواية هى الصحيحة المحققة. وأما من زاد «وتصديقاً له» فليست بشىء فإنها من قول الراوى وهى باطلة لأن النبى ﷺ لا يصدق المحال وهذه الأوصاف فى حق الله محال؛ إذ لو كان ذا يد وأصابع وجوارح كان كواحد منا فكان يجب له من الافتقار والحدوث والنقص والعجز ما يجب لنا، ولو كان كذلك لاستحال أن يكون إلها إذ لو جازت الإلهية لمن هذه صفته لصحت للدجال وهو محال، فالمفضى إليه كذب فقول اليهودى كذب ومحال، ولذلك أنزل الله فى الرد عليه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وإنما تعجب النبى ﷺ من جهله فظن الرواى أن ذلك التعجب تصديق وليس كذلك، فإن قيل قد صح حديث «إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن».

(١) تقدم تخريجه.

فالجواب: أنه إذا جاءنا مثل هذا فى الكلام الصادق تأولناه أو توقفنا فيه إلى أن يتبين وجهه مع القطع باستحالة ظاهره لضرورة صدق من دلت المعجزة على صدقه، وأما إذا جاء على لسان من يجوز عليه الكذب بل على لسان من أخبر الصادق عن نوعه بالكذب والتحريف كذبناه وقبحناه، ثم لو سلمنا أن النبى ﷺ صرح بتصديقه لم يكن ذلك تصديقاً له فى المعنى بل فى اللفظ الذى نقله من كتابه عن نبيه، ونقطع بأن ظاهره غير مراد انتهى ملخصاً. وهذا الذى نحا إليه أخيراً أولى مما ابتدأ به لما فيه من الطعن على ثقات الرواة ورد الأخبار الثابتة، ولو كان الأمر على خلاف ما فهمه الرواى بالظن للزم منه تقرير النبى ﷺ على الباطل وسكوته على الإنكار وحاشا لله من ذلك، وقد اشتد إنكار ابن خزيمة على من ادعى أن الضحك المذكور كان على سبيل الإنكار، فقال بعد أن أورد هذا الحديث فى «كتاب التوحيد» من صحيحه بطريقه، قد أجل الله تعالى نبيه ﷺ عن أن يوصف ربه بحضرته بما ليس هو من صفاته فيجعل بدل الإنكار والغضب على الواصف ضحكاً، بل لا يوصف النبى ﷺ بهذا الوصف مَن يؤمن بنبوته، وقد وقع الحديث فى الرقاق عن أبى سعيد ـ رفعه **«تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته»** الحديث، وفيه أن يهودياً دخل فأخبر بمثل ذلك فنظر النبى ﷺ إلى أصحابه ثم ضحك. اهـ.

● **الراجح فى تعليل ضحك النبى ﷺ من كلام اليهودى.**

قال ابن عثيمين[1]: قوله: **«فضحك النبى ﷺ»**.

ولولا ما بعدها لاحتملت أن تكون إنكاراً؛ لأن من حَدَّثك بحديث لا تطمئن إليه ضحكت منه، لكنه قال: «تصديقاً لقول الحبر»؛ فكانت إقراراً لا غير، ويدل لذلك قوله: ثم قرأ: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ....﴾** الآية؛ فهذا يدل على أنه ﷺ أقره واستشهد لقوله بآية من كتاب الله، فضحكه واستشهاده تقرير لقول الحبر، وسبب الضحك هو سروره، حيث جاء فى القرآن ما يُصدِّق ما وجده هذا الحبر فى كتبه؛ لأنه لا شك أنه إذا جاء ما يصدق القرآن؛ فإن الرسول ﷺ سوف يُسرّ به، وإن كان الرسول يعلم علم اليقين أن القرآن من عند الله، لكن تضافر البينات مما يُقوِّى الشىء، أرأيت أسامة بن زيد وأبوه زيد بن حارثة؟ هل كان عند النبى ﷺ شك فى أن أسامة ابنٌ لزيد؟

---

(١) القول المفيد ٣/ ٣٦٢ و ٣٦٣.

الجواب: ليس عنده فى ذلك شك، ولما مرّ بهما مُجَزّز المُدْلجى ـ وهو من أهل القيافة ـ وقد تغطيا بقطيفة لم يبد منهما إلا أقدامهما، فنظر إلى أقدامها، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فَسُر النبى ﷺ سروراً عظيماً حتى دخل على عائشة مسروراً تبرق أسارير وجهه، وقال: «ألم تري إلى مجزز المدلجي نظر إلى أسامة بن زيد وإلى زيد فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض»[1]؛ فالمهم أن الرسول ﷺ دخل تبرق أسارير وجهه؛ لأن فى ذلك تأيداً للحق، وكان المشركون يقدحون فى أسامة بن زيد وأبيه لاختلاف ألوانهما، فكان أسامة أسود شديد السواد وأبوه زيد أبيض من القطن، لكن الأمر ليس كما قالوا، بل هم كاذبون فى ذلك، واختلاف اللون لا يجوب شبهة إلا لذى هوى؛ فلعل المخالف فى اللون نزعه عرق.

ثم قال[2]: قوله «حتى بدت نواجذه»

أى: ظهرت، ونواجذ: جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس.

وهذا الضحك من النبى ﷺ تقرير لقول الحبر، ولهذا قال ابن مسعود: «تصديقاً لقول الحبر»، ولو كان منكراً ما ضحك الرسول ﷺ ولا استشهد بالآية، ولقال له: كذبت كما كذب الذين ادعوا أن الذى يزنى لا يرجم، ولكنه ضحك تصديقاً لقول الحبر وسروراً بأن ما ذكره موافقٌ لما جاء به القرآن الذى أوحى إلى محمد ﷺ.

● شبهات المؤولين وأجوبة شافية عليها:

قوله [ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾].

قال ابن عثيمين[3]: هذا معنى الآية التى لا تحتمل غيره، وأن السماوات مطويات كطى السجل للكتب بيمينه؛ أى: يده تبارك وتعالى؛ لأن ذلك تفسيره ﷺ، وتفسيره فى الدرجة الثانية من حيث الترتيب، لكنه كالقرآن فى الدرجة الأولى من حيث القبول والحجة.

وأما تفسير أهل التحريف؛ فيقول بعضهم: ﴿قَبْضَتُهُ﴾؛ أى: فى قبضته وملكه وتصرفه، وهوخطأ؛ لأن الملك والتصرف كائن يوم القيامة وقبله.

---

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٧٧)، ومسلم فى الرضاع (١٠/ ٤٠ - النووى) عن عائشة به.

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٦٤ و ٣٦٥.

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٦٥ ـ ٣٧٢.

وقول بعضهم: ﴿وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾؛ أي: تالفة وهالكة؛ كما تقول: انطوى ذكر فلان؛ أي: زال ذكره.

﴿بِيَمِينِهِ﴾؛ أي: بقسمه؛ لأنه قال تعالى: **﴿كل من عليها فإن * ويبقى وجه ربك﴾**؛ فجعلوا المراد باليمين القسم... إلى غير ذلك من الخرافات التي يلجأ إليها أهل التحريف، وهذا لظنهم الفاسد بالله، حيث زعموا أن إثبات مثل هذه الصفات يستلزم التمثيل، فصاروا ينكرون ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته رسوله وسلف الأمة بشبهات يدعونها حججاً.

فيقال لهم: هل أنتم أعلم بالله من الله؟

إن قالوا: نعم؛ كفروا، وإن قالوا: لا؛ قلنا: هل أنتم أفصح في التعبير عن المعاني من الله؟

إن قالوا: نعم؛ كفروا، وإن قالوا: لا؛ خُصِمُوا، وقلنا لهم: إن الله بَيَّن ذلك أبلغ بيان بأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والرسول ﷺ أقر الحبر على ما ذكر فيما يطابق الآية، وهل أنتم أنصح من الرسول ﷺ لعباد الله؟ فسيقولون: لا.

فإذا كان كلامه تعالى أفصح الكلام، وأصدقه، وأَبْيَنَه، وأعلم بما يقول؛ لزم علينا أن نقول مثل ما قال عن نفسه، ولسنا بمذنبين، بل الذنب على من صرف كلامه عن حقيقته التي أراده الله بها.

ومن فوائد الحديث:

إثبات الأصابع لله ـ عز وجل ـ لإقراره ﷺ هذا الحبر على ما قال.

والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله ـ عز وجل ـ؛ كاليد، وليس المراد بقوله: **«على إصبع»** سهولة التصرف في السماوات والأرض؛ كما يقوله أهل التحريف، بل هذا خطأ مخالف لظاهر اللفظ والتقسيم، ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره، ولقوله ﷺ، **«إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»**[1].

وقوله: **«بين أصبعين»** لا يلزم من البَيْنِيَّة المُمَاسّة، ألا ترى قوله تعالى: **﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾**، والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما، وتقول: عنيزة بين الزلفي والرس، ولا يلزم أن تكون متصلة بهما، وتقول: شعبان بين ذي القعدة وجمادى، ولا يلزم أن يكون موالياً له؛ فتَبَيّن أن البينية لا تستلزم الاتصال

---

(١) تقدم تخريجه.

فى الزمان أو المكان، وكما ثبت عنه ﷺ: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يكون قِبَلَ وجه المصلى[(١)]، ولا يلزم من المقابلة أن يكون بينه وبين الجدار أو السترة التى يصلى إليها؛ فهو قبل وجهه وإن كان على عرشه، ومثال ذلك: الشمس حين تكون فى الأفق عند الشروق أو الغروب؛ فإن من الممكن أن تكون قبل وجهك وهى فى العلو.

فتبين بهذا أن هؤلاء المحرفين على ضلال، وأن من قال: إن طريقتهم أعلم وأحكم؛ فقد ضل.

● **شبهة [طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم] والجواب عليها:**

قلت: تقدم الرد على من زعم ذلك من كلام ابن حجر فى الباب الرابع: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال ابن عثيمين: ومن المشهور عندهم قولهم: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهذا القول على ما فيه من التناقض قد يوصل إلى الكفر؛ فهو:

أولاً: فيه تناقض؛ لأنهم قالوا: طريقة السلف أسلم، ولا يعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم وأحكم؛ لأن الأسلم يستلزم أن يكون أعلم وأحكم؛ فلا سلامة إلا بعلم بأسباب السلامة وحكمة فى سلوك هذه الأسباب.

ثانيا: أين العلم والحكمة من التحريف والتعطيل؟

ثالثاً: يلزم منه أن يكون هؤلاء الخالفون أعلم بالله من رسوله ﷺ وأصحابه؛ لأن طريقة السلف هى طريقة النبى ﷺ وأصحابه.

رابعاً: أنها قد تصل إلى الكفر؛ لأنها تستلزم تجهيل النبى ﷺ وتسفيهه؛ فتجهيله ضد العلم، وتسفيهه ضد الحكمة، وهذا خطر عظيم.

فهذه العبارة باطلة حتى وإن أرادوا بها معنى صحيحاً؛ لأن هؤلاء بحثوا وتعمقوا وخاضوا فى أشياء كان السلف لم يتكلموا فيها؛ فإن خوضهم فى هذه الأشياء هو الذى ضرهم وأوصلهم إلى الحَيْرة والشك، وصدق النبى ﷺ حين قال: «**هلك المتنطعون**»[(٢)]، فلو أنهم بقوا على ما كان عليه السلف الصالح ولم يتنطعوا؛ لما وصلوا إلى هذا الشك والحيرة والتحريف، حتى إن بعض أئمة أهل الكلام كان يتمنى أن يموت على عقيدة عجائز نيسابور.

---

(١) **[صحيح]** تقدم تخريجه.

(٢) **[صحيح]** أخرجه: مسلم فى العلم (١٦/ ٢٢٠ - النووى) عن ابن مسعود به.
وانظر «رياض الصالحين» (١٤٦ - بتخريجنا) وتقدم.

وهذا من شدة ما وجدوا من الشك والقلق والحيرة، ولا تظن أن العقيدة الفاسدة يمكن أن يعيش الإنسان عليها أبداً، لا يمكن أن يعيش الإنسان إلا على عقيدة سليمة، وإلا ابتلى بالشك والقلق والحيرة، وقد قال بعضهم: أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام، ومابالك والعياذ بالله بالشك عند الموت، يختم للإنسان بضد الإيمان.

● **نصيحة للمتأولين وغيرهم:**

قال ابن عثيمين: لكن لو أخذنا العقيدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بسهولة وبما جرى عليه السلف، ونقول كما قال الرازى وهو من علمائهم ورؤسائهم: رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: أقرأ فى الإثبات: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ**﴾؛ يعنى: فأثبت، وأقرأ فى النفى: ﴿**ليس كمثله شىء**﴾ ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾، ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى؛ لأنه أقر قبل هذا الكلام، فقال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تروى غليلاً ولا تشفى عليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن.

والحاصل: أن هؤلاء المنكرين لما جاء فى الكتاب والسنة من صفات الله ـ عز وجل ـ اعتماداً على هذا الظن الفاسد أنها تقتضى التمثيل قد ضلوا ضلالاً مبيناً؛ فالصحابة رضى الله عنهم هل ناقشوا الرسول ﷺ فى هذا؟ والذى نكاد نشهد به إن لم نشهد به أنه حين يمر عليهم مثل هذا الحديث يقبلونه على حقيقته، لكن يعلمون أن الله لا مثل له؛ فيجمعون بين الإثبات وبين النفى.

إذاً موقفنا من هذا الحديث الذى فيه إثبات الأصابع لله ـ عز وجل ـ أن نقر به ونقبله، وأن لا نقتصر على مجرد إمراره بدون معنى فنكون بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، بل نقرؤه ونقول: المراد به أصبع حقيقى يجعل الله عليه هذه الأشياء الكبيرة، ولكن لا يجوز أبداً أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بألسنتنا: إنه مثل أصابعنا، بل نقول: الله أعلم بكيفية هذه الأصابع؛ فكما أننا لا نعلم ذاته المقدسة؛ فكذلك لا نعلم كيفية صفاته، بل نكل علمها إلى الله ـ سبحانه وتعالى.

● **شبهات وردود عليها:**

قوله: ﴿ثم يهزهن﴾.

قال ابن ابن عثيمين: أى: هزاً خفيفاً؛ ليبين للعباد فى ذلك الموقف العظيم عظمته وقدرته وكان الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية ويقبض يده ويبسطها يقول: «يهزهن» فصار المنبر يتحرك ويهتز لأنه ﷺ كان يتكلم بهذا الكلام وقلبه مملوء بتعظيم الله تعالى.

● **هل يجوز أن نهز أيدينا كما فعل ﷺ:**

فإن قلت: هل نهز أيدينا كما فعل النبى ﷺ ؟

فالجواب: إن هذا يختلف بحسب ما يترتب عليه، فليس كل من شاهد ، أو سمع يتقبل ذهنه ذلك بغير أن يشعر بالتمثيل، فينبغى أن نكف لأن هذا ليس بواجب حتى نقول: يجب علينا أن نبلغ كما بلغ الرسول ﷺ بالقول والفعل أما إذا كنا نتكلم مع طلبة علم أو مع إنسان مكابر ينفى هذا ويريد أن يحول المعنى إلى غير الحقيقة، فحينئذ نفعل كما فعل الرسول ﷺ.

فلو قال قائل: إن الله سميع بصير، لكن قال: سميع بلا سمع وبصير بلا بصر، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام حين قرأ قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾** وضع إبهامه على أذنه والتى تليها على عينه وأبو هريرة حين حدث به كذلك(١)، فهذا الإنسان الذى يقول: إن الله سميع بصير بلا سمع بلا بصر نقول له هكذا.

وكذلك الذى ينكر حقيقة اليد ويقول: إن الله لا يقبض السموات بيمينه، وأن معنى قبضته، أى: فى تصرفه، فهذا نقول له كما فعل الرسول ﷺ.

فالمقام ليس بالأمر السهل، بل هو أمر صعب ودقيق للغاية، فإنه يخشى من أن يقع أحد فى محذور كان بإمكانك أن تمسك عنه، وهذا هو فعل الرسول ،فى جميع تصرفاته إذا تأملتها، حتى الأمور العملية قد يؤجلها إذا خاف من فتنة أو من شىء أشد ضرراً ، كما أخَّر بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفًا من أن يكون فتنة لقريش الذين أسلموا حديثًا(٢).

قوله: «والماء والثرى على إصبع»

هذا ينافى قوله: «الأرضين على إصبع» ، لأنه يقال: «الماء والثرى على إصبع» ، أى: الأرض كلها على إصبع، ويراد بالإصبع الجنس،وإلا لتناقض مع معنى الحديث الذى قبله: «الشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع»، إذ النكرة إذا كررت بلفظ النكرة، فالثانى غير الأول غالبًا ، وإذا كررت بلفظ المعرفة، فالثانى هو الأول غالبًا، فيقال: الماء والثرى كناية عن الأرض كلها، أو إن الماء والثرى على إصبع وسكت عن الباقى، إما اختصاراً أو اقتصاراً.



(١) أخرجه (أبو داود) (٤٧٢٨) عن أبى هريرة به.
(٢) البخارى تقدم تخريجه.

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: (يَطْوِى اللهُ السَّموات يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِى الأَرْضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟)[١].

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال القرعاوى[٢]: حيث دل الحديث على وجوب تعظيم الله - عز وجل- وتعظيمه هو توحيده وتنزيهه عن الشرك.

قوله: «ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا: يطوى الله السموات....».

قال ابن عثيمين[٣]: سبق معنى هذا الحديث وأن المراد بالطى الطى الحقيقى.

قوله: (ثم يقول: أنا الملك)[٤]

يقول ذلك ثناء على نفسه - سبحانه- وتنبيهًا على عظمته الكاملة وعلى ملكه الكامل، وهو السلطان، فهو مالك ذو سلطان، وهذه الجملة كلا جزأيها معرفة، وإذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فإن ذلك من طرق الحصر، أى: أنا الذى لى الملكية المطلقة والسلطان التام لا ينازعنى فيهما أحد.

قوله: «أين الجبارون؟»

الاستفهام للتحدى، فيقول: أين الملوك الذين كانوا فى الدنيا لهم السلطة والتجبر والتكبر على عباد الله؟ وفى ذلك الوقت يحشرون أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم.

قوله: «يطوى الأرضين السبع».

قال النووى[**]: قال القاضى وفى هذا الحديث ثلاثة ألفاظ: يقبض، ويطوى، ويأخذ، كله بمعنى الجمع؛ لأن السموات مبسوطة والأرض مدحوة وممدودة ا.هـ وتقدم الرد على المأولين.

أشار الله فى القرآن إلى أن الأرضين سبع، ولم يَردَ العددصريحًا فى القرآن، قال تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾** والمماثلة هنا لا تصح إلا فى

---

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى صفة القيامة (٩/ ١٤٤/ ٢٤) عن ابن عمر به.
وانظر فتح المجيد (٩٣٨- بتخريجنا).
(٢) الجديد ٤٨٠. (٣) القول المفيد ٣/ ٣٧٣.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٦. (**) شرح مسلم (٩/ ١٤٦)

العدد، لأن الكيفية تتعذر المماثلة فيها، وأما السُّنة، فقد صَرَحت بعدة أحاديث بأنها سبع.

قوله: «ثم يأخذهن بشماله».

تقدم أن المسألة فيها قولان ذكرهما الطبرى فى الآية، (الأول): الأرض كلها قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمنه.

(والثانى) السموات فى يمينه والأرضون فى شماله.

وتقدم مسلك أهل السنة فى المنهج الصحيح فى الأسماء والصفات.

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١٧/٢٤) وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠/٣٢٥٦/ح١٨٤١٠ بتخريجنا).

من حديث ابن عباس، وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا.

(٢) قال ابن حجر قال البيهقى فى «الأسماء والصفات».

«ذكر الشمال فيه تفرد به عمر بن حمزة عن سالم، وقد روى هذا الحديث نافع وعبيد الله بن مقسم عن ابن عمر، ولم يذكرا فيه الشمال، ورواه أبو هريرة رضى الله عنه وغيره عن النبى ﷺ، فلم يذكر أحد منهم الشمال، ورُوي ذكر الشمال فى حديث اخر غير هذه القصة إلا أنه ضعيف بمرة، تفرد بأحدهما جعفر بن الزبير، وبالآخر يزيد الرقاشي، وهما متروكان، وكيف يصح ذلك وصحّ عن النبى ﷺ أنه سمى كلتا يديه يمين؟! وكأن من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له، أو على عادة العرب فى ذكر الشمال فى مقابلة اليمين»(*).

كلمة (شمال) اختلف فيها الرواة، فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكموا على من أثبتها بالشذوذ، لأنه خالف ثقتين فى روايتها عن ابن عمر.

ومنهم من قال: إن ناقلها ثقة، ولكنه قالها من تصرفه[1].

وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت فى «صحيح مسلم»: أن الرسول ﷺ قال: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين»[2] وهذا يقتضى أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال.

ولكن إذا كانت لفظة «شمال» محفوظة، فهى عندى لا تنافى «كلتا يديه يمين»، لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنى،

(*) وانظر أيضًا: «التذكرة» للقرطبى (ص٢١٦)، «فتح البارى» (١٣/٤٠٨)، «الأنوار البهية».

(١)

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة (٦/٤٥١/١٨) عن عبد الله بن عمرو به.

وَرُوِىَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا السَّمَوات السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ فِى كَفِّ الرَّحْمنِ إلا كَخَرْدَلَةٍ فِى يَدِ أَحَدِكُمْ(١).

فقال: «كلتا يديه يمين» ، أى: ليس فيها نقص ، ويؤيد هذا قوله فى حديث آدم: **«اخترت يمين ربى وكلتا يديه يمين مباركة»**، فلما كان الوهم يذهب إلى أن إثبات الشمال، يعنى: النقص فى هذه اليد دون الأخرى، قال: **«كلتا يديه يمين»** ويؤيده أيضًا قوله: **«المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن»** فإن المقصود بيان فضلهم ومرتبتهم،وأنهم على يمين الرحمن - سبحانه .

وعلى كل فإن يديه - سبحانه- اثنتان بلا شك، وكل واحدة غير الأخرى ، وإذا وصفنا اليد الأخرى بالشمال، فليس المراد أنها أقل قوة من اليد اليمنى، بل كلتا يديه يمين.

والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله ﷺ فنحن نؤمن بها، ولا منافاة بينها وبين قوله: **«كلتا يديه يمين»** كما سبق، وإن لم تثبت، فلن نقول بها.



قوله: [وروى عن ابن عباس قال: بالسموات السبع والأرضون السبع فى كفَّ الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم].

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد(٢):

حيث دلَّ على وجوب تعظيم الله وتعظيمه هو توحيده وتنزيهه عن الشرك.

قوله: «فى كف الرحمن»(٣).

فيه إثبات الكف لله تعالى.

قوله: «إلا كخردلة».

قال فى «اللسان»: خردل، الواحدة خردلة، وفى التنزيل العزيز: **﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾** وقال: **﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾**

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١٧/٢٤) وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٣٢٥٦/١٠/ ح ١٨٤١٠) بتخريجنا).

من حديث ابن عباس، وانظر «فتح المجيد بتخريجنا.

(٢) الجديد ٤٨٢. (٣) القول المفيد ٣٧٦/٣.

وَقَالَ ابـنُ جَرير : «حَـدَّثَنى يُـونُسُ، أَخْبَـرنَا ابنُ وَهْـب، قَالَ: قَالَ ابـنُ زَيد : حَدَّثَنى أَبى، قَالَ:قَالَ رَسُولَ ﷺ : «مَا السَّمـوات السَّبْعُ فِىَ الكُرْسِى إلا كَدَرَاهِمَ سَبَعَةٌ أُلْقيتْ فِى تِرس»(١).

قال أبـو ذر رضى الله عنـه: سمـعت رسـول الله ﷺ يـقـول: «ما الـكرسـي فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرى فلاة من الأرض»(٢).

قال ابن عثيمين: هى حبة نبات صغيرة جدًا، يضرب بها المثل فى الصغر والقلة ، وهذا يدل على عظمته- سبحانه - وأنه - سـبحانه- لايحيط به شىء، والأمر أعظم من هذا التمثيل التقريبى ، لأنه تعالى لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفهام.



● **قوله [وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب.]**

مناسبة الحديث للباب والتوحيد(٣):

حيث دل كل من الحديثين على وجوب تعظيم الله وتعظيمه هو توحيده وتنزيهه عن الشرك.

قوله: قال ابن جرير:

قال ابن عثيمين(٤): هو المفسر المشهور رحمه الله، وله تفـسير أثرى يعتمد فيه على الآثار لكن آفته أنه لم يمحص هذه الآثار، وأتى بـالصحيح والضعيف وما دون الضعيف أيضًا ، وكأنه رحمه الله أراد أن يـقيد هذا وجعل الحكم بالصحة والـضعف موكولاً إلى القارىء، وربما كان يريد أن يرجع إليه مرة ثانية ويمحصه، ولكن لم يتيسر ذلك.

قوله [قال أبو رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما الكرسى فى العرش..]

قوله: «ما الكرسى فى العرش».

أى: بالنسبـة إليه ، والعرش هو المخلوق الـعظيم الذى استوى علـيه الرحمن، ولا

---

(١) أخرجه ابـن جرير فى «تـفسيره» ٣٠/٨٢٧) ، وأبـو الشيخ فـى «العظمـة» (١/ ١١٢/ ح٢٢٢) من حديث زيد بن أسلم عن أبيه .. فذكره.

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا.

(٢) أخرجه أبو الشيخ فى «العظمة» (٢٥٤) عن أبى ذر به.

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا.

(٣) الجديد / ٤٨٢. (٤) القول المفيد ٣/ ٣٧٧، ٣٧٨.

وَعَنِ ابنُ مَسْعُود، قَالَ: (بَينَ السَّمَاء الدُّنْيَا والَّتى تَليَا خَمْسمائَة عَام، وبَيْنَ كُلِّ سَمَاء وَسَمَاء خَمْسُمَائَة عَامٍ، وبَيَنَ السَّمَاء السَّابعَة وَالكُّرسى خَمْسُمَائَة عَام، وبَيْنَ الكُرْسىِّ وَالْمَاء خَمْسُمَائة عَام،والعَرْشُ فَوْقَ المَاء، والله فَوقَ العَرْش، لا يَخْفَى عَلَيْه شَىءٌ منْ أَعْمَالكُمْ) أَخْرَجَهُ ابنُ مَهْدىٍّ عَنْ حَمَّاد بن سَلَمَة عَنْ عَاصم عَن زرٍّ عَنْ عَبْد الله وَرَوَاهُ بنَحْوه المَسْعُودىُّ عَنْ عَاصم عن أَبى وَائل عَن عَبْد الله ، قَالَهُ الحَافظُ الذَّهَبى رَحمَهُ الله تَعَالَى: قَالَ: (وَلَهُ طُرقٌ)(١).

يقدر قدره إلا الله - عز وجل - والمراد بالحلقة حلقة الدرع، وهى صغيرة وليست بشىء بالنسبة إلى فلاة الأرض.

وهذا الحديث يدل على عظمته عز وجل، فيكون مناسبًا لتفسير الآية التى جعلها المؤلف ترجمة للباب.



قوله: «وعن ابن مسعود».

قال ابن باز(٢): حديث ابن مسعود حديث صحيح جيد. ا.هـ.

قال ابن عثيمين(٣): هذا الحديث موقوف على ابن مسعود، لكنه من الأشياء التى لا مجال للرأى فيها ، فيكون له حكم الرفع، لأن ابن مسعود رضى الله عنه لم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات.

مناسبة الحديث للباب والتوحيد(٤):

حيث دل الحديث على وجوب تعظيم الله وتعظيمه هو توحيده وتنزيهه عن الشرك.

قوله: «بين السماء الدنيا والتى تليها خمس مائة عام».

وعلى هذا تكون المسافة بين السماء الدنيا والماء أربعة آلاف سنة، وفى حديث آخر: «إن كثف كل سماء خمسمائة عام» وعلى هذا يكون بين السماء الدنيا والماء سبعة آلاف وخمسمائة ، وإن صح الحديث، فمعناه أن علو الله - عز وجل - بعيد جداً.

فإن قيل: يرد على هذا ما ذكره المعاصرون اليوم من أن بيننا وبين بعض النجوم والمجرات مسافات عظيمة ؟

---

(١) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٧/ ٢٢٨/ ح٨٩٨٧).
من طريق حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن ابن مسعود .. فذكره .
وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١/ ٨٦) وقال رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.
(٢) التعليق المفيد (٢٨٤). (٣) القول المفيد ٣٧٩- ٣٨٣. (٤) الجديد ٤٨٣.

يقال في الجواب: إنه إذا صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، فإنا نضرب بما عارضها عرض الحائط، لكن إذا قُدر أننا رأينا الشيء بأعيننا ، وأدركنا بأبصارنا وحواسنا، ففى هذه الحال يجب أن نسلك أحد أمرين:

الأول: محاولة الجمع بين النص والواقع إن أمكن الجمع بينهما بأى طريق عن طرق الجمع.

الثانى: إن لم يمكن الجمع تبيَّن ضعف الحديث ، لأنه لا يمكن للأحاديث الصحيحة أن تخالف شيئًا حسيًا واقعًا أبدًا ، كما قال شيخ الإسلام فى كتابه «العقل والنقل»: «لا يمكن للدليلين القطعيين أن يتعارضا أبدًا ، لأن تعارضهما يقتضى إما رفع النقيضين أو جمع النقيضين ، وهذا مستحيل ، فإن ظُنَّ التعارضُ بينهما، فإما أن لا يكون تعارض ويكون الخطأ من الفهم ، وإما أن يكون أحدهما ظنيًا والآخر قطعيًا».

فإن جاء الأمر الواقع الذى لا إشكال فيه مخالفًا لظاهر شيء من الكتاب أو السنة، فإن ظاهر الكتاب يُؤوَّل حتى يكون مطابقًا للواقع، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أى: فى السموات.

والآية الثانية أشد إشكالاً من الآية الأولى ، لأن الآية الأولى يمكن أن نقول: المراد بالسماء العلو، ولكن الآية الثانية هى المشكلة جدًا، والمعلوم بالحس المشاهد أن القمر ليس فى السماء نفسها، بل هو فى فلك بين السماء والأرض.

والجواب أن يقال: إن كان القرآن يدل على أن القمر مُرَصَّع فى السماء كما يرصع المسمار فى الخشبة دلالة قطعية ، فإن قولهم: إننا وصلنا القمر ليس صحيحًا، بل وصلوا جُرْمًا فى الجو ظنّوه القمر.

لكن القرآن ليس صريحًا فى ذلك، وليست دلالته قطعية فى أن القمر مرصع فى السماء ، فآية الفرقان قال الله فيها: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾، فيمكن أن يكون المراد بالسماء العلو، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والماء ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا التأويل للآية قريب.

وأما قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ فيمكن فيها التأويل أيضًا بأن يقال: المراد لقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ فى جهتهن، وجهة السماوات العلو، وحينئذ يمكن الجمع بين الآيات والواقع.

وَعَنْ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ؟» قُلْنَا : الله وَرَسولُهُ أعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسيرَةُ خَمسْمِائةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُل سَمَاءٍ إلى سَمَاءٍ ، مَسيرَةُ خَمْسُمَائَةَ سَنَةٍ، وكِثَفُ كُلّ

قوله: «والله فوق العرش»:

هذا نص صريح بإثبات علو الله تعالى علواً ذاتيا، وعلو الله ينقسم إلى قسمين:

أ- علو الصفة، وهذا لا ينكره أحد ينتسب للإسلام ، والمراد به كمال صفات الله، كما قال تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾.

ب- علو الذات، وهذا أنكره بعض المتسبين للإسلام ، فيقولون: كل العلو الوارد المضاف إلى الله المراد به علو الصفة ، فيقولون فى قوله ﷺ: «**والله فوق العرش**» أى: فى القوة والسيطرة والسلطان، وليس فوقه بذاته.

ولا شك أن هذا تحريف فى النصوص وتعطيل فى الصفات.

والذين أنكروا علو الله بذاته انقسموا إلى قسمين:

أ- من قال: إن الله بذاته فى كل مكان، وهذا لا شك ضلال مقتض للكفر.

ب- من قال: إنه لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متصل بالخلق ولا منفصل عن الخلق ، وهذا إنكار محض لوجود الله والعياذ بالله ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا: صِفُوا العدم، ما وجدنا أبلغ من هذا الوصف.

ففروا من شيء دلت عليه النصوص والعقول والفطر إلى شيء تنكره النصوص والعقول والفطر.

قوله: «لا يخفى عليه شيء من أعمالكم».

يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح المرئى منها والمسموع وذلك لعموم علمه وسعته، وإنما أتى بذلك بعد ذكر علوه ليبين أن علوه لا يمنع علمه بأعمالنا، وهو إشارة واضحة إلى علو ذاته تبارك وتعالى.



قوله [وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: هل تدرون كم بين السماء والأرض. . .].

مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال القرعاوى[1]: حيث دل الحديث على وجوب تعظيم الله وتعظيمه هو توحيده وتنزيهه عن الشرك به ا.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ: والذى فى سنن أبى داود عن العباس عبدالمطلب قال: كنت فى البطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال: «**ما تسمون هذه؟**» قالوا: السحاب. قال «**والمزن؟**» قالوا: والمزن قال: «**والعنان؟**» قالوا: والعنان.

قال أبو داود: لم أتقن العنان جيداً.

قال: «**هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟**» قالوا: لا ندرى. قال: «**إن بُعد** ما بينهما إما واحدة أو ثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عدَّ سبع سموات «**ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك**».

قال الحافظ الذهبى: رواه أبو داود بإسناد حسن، وروى الترمذى نحوه من حديث أبى هريرة، وفيه: «**بعد ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام**» قال ولا منافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائه عام هو على سير القافلة مثلاً، ونيف وسبعون سنة على سير البريد.

قلت: (**أى عبدالرحمن**): وهذا الحديث له شواهد فى الصحيحين وغيرهما مع ما يدل عليه صريح القرآن، فلا عبرة بقول من ضعفه. ا.هـ.

[قلت]: بل حديث العباس ضعيف له أكثر من علة كتفرد سماك وكان يقبل التلقين، وعدم سماع عبدالله بن عميرة من الأحنف مع جهالة حاله، مع نكارة ذكر الأوعال وتشبيه الملائكة بذلك وإن كان المصنف ـ محمد بن عبدالوهاب ـ حذفها من متن الحديث إلا أن سنده لا يقوم للاحتجاج به. وأيضاً قال الترمذى: وروى عن سماك نحوه موقوفاً.

ولهذا وغيره لا ينتهض الإسناد بالحديث، ولا المتن للاحتجاج، وهذا فيه رد على من تصحححه كالإمام ابن القيم، أو حسنه كالذهبى والله أعلم وانظر كلام الألبانى وغيره فى تخريجنا لفتح المجيد» و«القواعد المثلى».

(١) الجديد ٤٨٥.

سَمَاء مَسِيرَةَ خَمْسُمَائَةِ سَنَة، وبَيْنَ السَّمَاء السَّابعَة وَالعَرْش بَحْر بَيْنَ أَسْفَلَه وَأعْلاَهُ كمَا بين السَّمَاء والأرْضِ، والله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى فَوْقَ ذَلك، ولَيْس يَخْفَى عَلَيْه شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ) أَخرجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ[1].

قال ابن باز[2]: حديث العباس وإن كان في سنده انقطاع لكنه ينجبر، وله روايات أخرى أن بين السماء الدنيا مسيرة احدى وسبعين أو اثنتان وسبعون سنة أو ثلاث وسبعون سنة ا.هـ وسيأتي الجمع بينها.

قوله: «العباس»[3]:

يقال: العباس، وعباس، و«أل» هنا لا تفيد التعريف، لأن عباس معرفة لكونه علمًا، لكنها لِلَمح الأصل، كما يقال: الفضل لفضله ، والعباس لعبوسه على الأعداء، قال ابن مالك:

وبعض الأعلام عليه دخلاً للمح ما قد كان عنه نُقلا

---

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢٠٦، ٢٠٧)، وأبو داود في «السنة» /باب: في الجهمية (٤/ ٢٣١/ ح٤٧٢٣) والترمذي في «التفسير» /باب : ومن سورة الحاقة (٥/ ٤٢٤/ ح٣٣٢٠)، وابن ماجه في «المقدمة» (ح١٩٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (ح٥٧٧)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٨٨). وأبو الشيخ في العظمة (ح ٢٠٦).

من حديث العباس بن عبد المطلب.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

قال الحاكم: صحيح.

[قلت]: جميعاً من طريق (عمرو بن أبي قيس ـ شعيب بن خالد ـ الوليد بن أبي ثور ـ عمرو بن أبي قيس) ثني سماك بن حرب، عن عبدالله بن عميرة، عن الأحنف، عن العباس.

وعبدالله بن عميرة: مجهول. وقال البخاري: لا يعرف له سماع من الأحنف. وانظر تخريجنا «فتح المجيد» بتفصيل القول على الحديث. والله أعلم.

وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٧٠) والترمذي في «التفسير» /باب : ومن سورة الحديد (٥/ ٤٠٣/ ح٣٢٩٨) وابن أبي عاصم في «السنة» (ح٥٧٨) .

من حديث أبي هريرة.

قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٢)

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٨٣- ٣٩٥.

قوله: «هل تدرون».

«هل»: استفهامية يراد بها أمران:

أ- التشويق لما سيذكر.

ب- التنبيه على ما سيلقيه عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**﴾ هذا تنبيه وتشويق إلى شيء من آيات الله الكونية.

وقوله تعالى: ﴿**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ هذا تنبيه وتشويق على شيء من آيات الله الشرعيةوهو الإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً**﴾ تنبيه وتحذير.

وقوله: ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ**﴾ تنبيه وتحذير.

واختلاف هذه المعانى بحسب القرائن والسياق، وإلا، فالأصل فى الاستفهام أنه طلب العلم بالشىء.

قوله: «كم».

استفهامية.

قوله: «قلنا : الله ورسوله أعلم».

جاء العطف بالواو، لأن علم الرسول من علم الله، فهو الذى يُعلمه بما لا يدركه البشر.

وكذلك فى المسائل الشرعية يقال: الله ورسوله أعلم، لأنه ﷺ أعلم الخلق بشرع الله، وعلمه به من علم الله، وما قاله ﷺ فى الشرع فهو كقول الله، وليس هذا كقوله: «ما شاء الله وشئت» لأن هذا فى باب القدر والمشيئة، ولا يمكن أن يجعل الرسول، مشاركًا لله فى ذلك، بل يقال: ما شاء الله، ثم يعطف بـ (ثم) والضابط فى ذلك أن الأمور الشرعية، يصح فيها العطف بالواو، وأما الكونية، فلا.

ومن هنا نعرف خطأ وجهل من يكتب على بعض الأعمال: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ بعد موت الرسول ﷺ وتعذر رؤيته فالله يرى، ولكن رسوله لا يرى، فلا تجوز كتابته لأنه كذب عليه ﷺ. ا.هـ.

قوله: «خمسمائة سنة».

قال ابن باز[1]: وله روايات أخرى أن بين السماء الدنيا مسيرة احدى وسبعين سنة، أو اثنتان وسبعون سنة، أو ثلاث وسبعون سنة، وجمع بعض أهل العلم بينهم بأن السير يختلف، وأن خمسمائة عام بالنظر إلى سير الأحمال وسير الأقدام والسير العادى وثلاث وسبعون سنة بالنظر إلى السير الخفيف القوى، فإن مقداره يكون بمقدار السدس بالنسبة إلى سير الأحمسال المثقلة ونحو ذلك. أ.هـ.

الميم الثانية فى خمس مائة مكسورة والألف لا ينطق بها.

قوله: «وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض».

وذلك خمسمائة سنة.

قوله: «والله تعالى فوق ذلك».

هذا دليل على العلو العظيم لله - عز وجل- وأنه - سبحانه- فوق كل شيءولا يحيط به شيء من مخلوقاته، لا السماوات ولا غيرها، وعليه، فإنه - سبحانه - لا يوصف بأنه فى جهة تحيط به، لأن ما فوق السموات والعرش عدم، ليس هناك شيءحتى يقال لـ إن الله أحاط به شيء من مخلوقاته.

ولهذا جاء فى بعض كتب أهل الكلام يقولون: لا يجوز أن يوصف الله بأنه فى جهة مطلقة ، وينكرون العلو ظنًا منهم أن إثبات الجهة يستلزم الحصر وليس كذلك، لأننا نعلم أن ما فوق العرش عدم لا مخلوقات فيه، ما ثم إلا الله ولا يحيط به شيء من مخلوقاته أبدًا.

فالجهة إثباتها لله فية تفصيل ، أما إطلاق لفظها نفيًا وإثباتًا فلا نقول به، لأنه لم يرد أن الله فى جهة، ولا أنه ليس فى جهة، ولكن نفصل، فنقول: إن الله فى جهة العلو، لأن الرسول ﷺ قال للجارية: **«أين الله؟»**.

وأين يُستفهم بها عن المكان، فقالت: فى السماء.

فأثبتت ذلك، فأقرها النبى ﷺ عليه، وقال: **«أعتقها فإنها مؤمنة»**[2].

وأهل التحريف يقولونك «أين»بمعنى «من» أى: من الله؟ قالت: فى السماء، أى: هو من فى السماء، وينكرون العلو.

---

(1) التعليق المفيد (٢٨٤).

(2) تقدم تخريجه.

وقد رد عليهم ابن القيم رحمه الله فى كتبه ومنها «النونية» وقال لهم: اللغة العربية لا تأتى فيها «أين» بمعنى «من» وفرق بين «أين» و«من».

فالجهة لله ليست جهة سفل، وذلك لوجوب العلو له فطرة وعقلاً وسمعًا، وليست جهة علو تحيط به، لأنه تعالى وسع كرسيه السماوات والأرض وهو موضع قدميه فكيف يحيط به تعالى شىء من مخلوقاته؟!

فهو فى جهة علو لا تحيط به، ولا يمكن أن يقال: إن شيئًا يحيط به، لأننا نقول: إننا ما فوق العرش عدم ليس ثم إلا الله - سبحانه- ولهذا قال: «والله تعالى فوق ذلك».

قوله: «وليس يخفى عليه شىء من أعمال بنى آدم».

قال ابن باز(١): وعلى كل تقدير فهذا يبين عظمة الله وعلوه وأنه لا يخفى عليه شىء من أعمال بنى آدم. ا.هـ.

قال ابن عثيمين: وقوله: «أعمال» إن قرنت بالأقوال صار المراد بها: أعمال الجوارح، والأقوال للسان، وإن أفردت شملت أعمال الجوارح وأقوال اللسان وأعمال القلوب، وهى هنا مفردة، فتشمل كل ما يتعلق باللسان أو القلب أو الجوارح، بل أبلغ من ذلك أنه لا يخفى عليه شىء من أعمال بنى آدم فى المستقبل.

فهو يعلم ما يكون فضلاً عما كان، قال تعالى: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ أى: ما يستقبلونهم وما مضى عليهم، ولما قال فرعون لموسى: ﴿**فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ**﴾ أى: ما شأنها ؟ قال: ﴿**عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ**﴾ أى: محفوظة، ﴿**لَّا يَضِلُّ رَبِّي**﴾ لا يجهل، ﴿**وَلَا يَنسَى**﴾: لا يذهل عما مضى - سبحانه وتعالى.

والنبى ﷺ صدر هذا الأمر بهل الدالة على التشويق والتنبيه من أجل أن يثبت عقيدة عظيمة، وهو أنه تعالى فوق كل شىء بذاته، وأنه محيط بكل شىء علمًا، لقوله: «وليس يخفى عليه شىء من أعمال بنى آدم» فإذا علمنا ذلك، أوجب لنا تعظيمه والحذر من مخالفته، لأنه فوقنا، فهو عالٍ علينا، وأمره محيط بنا.

وفى الحديث صفتان لله: ثبوتية، وهى العلو المستفاد من قوله: والله فوق ذلك .

وسلبية المستفادة من قوله: «ليس يخفى عليه شىء من أعمال بنى آدم»، ولا يوجد فى

---

(١) التعليق المفيد (٢٨٥).

صفات الله ـ عز وجل- صفة سلبـية محضة، بل صفاته السلبية التى هـى النفى متضمنة لثبوت ضدهـا على وجه الكمال، فيـنفى عنه الخفاء لكـمال علمه، وينفى عـنه اللغوب لكمال قوته، وينفى عنه العجز لكمال قدرته، وما أشبه ذلك .

فإذا نفى عن نفسه شـيئًا من الصفات، فالمراد انتفاء تلك الصفـة عنه لكمال ضدها، كما قال تعالى ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ السنة النعاس، والنوم: الإغفاء العميق ، وذلك لكمال حياته وقيوميته،إذ لو كان ناقـص الحياة لاحتاج إلى النوم ، ولو نام ما كان قيومًا على خلـقه، لأنه حين ينام لا يـكون هناك من يقـوم عليهم، ولهذا كـان أهل الجنة لا ينامون لكمال حياتهم، ولأن النوم فـى الجنة يذهب عليهم وقت بلا فرح ولا سرور ولا لذة لأن السرور فيها دائم ، ولأن النوم هو الوفاة الصغرى، والجنة لا موت فيها.

وليس فى صفات الله نفى محض ، لأن النـفى المحض عدم لا ثناء فيه ولا كمال ، بل هو لا شىء ، ولأن النفى أحيانًا يرد لكـون المحل غير قابل له، مثل قولك: الجدار لا يظلم.

قد يكون نفى الذم ذمًا ، كما فى قول:

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فنفى الغدر والظلم ليس مدحًا، بل هو ذم ينبئ عن عجزهم وضعفهم.

وقال آخر:

لـكن قـومى وإن كـانـوا ذوى حسـب ليـسوا مـن الشـر فى شىء وإن هانـا
يجـزون من ظـلم أهل الـظلـم مغـفرة ومـن إسـاءة أهـل الـسوء إحـسـانًـا

●فوائد الحديث:

قال عبدالله بن جار الله[1]: ١- أن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام.

٢ ـ أن ما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام.

٣ ـ أن كثف (سمك) كل سماء خمسمائة عام.

٤ـ أن بين السماء السابعة والكرسى خمسمائة عام

(١) الجامع الفريد (٢٣٠).

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الثانية: أَنَّ هَذِهِ العُلُومَ وَأَمْثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِنْدَ اليَهُودِ الَّذِينَ فِي زَمَنِهِ ﷺ وَلَمْ يُنْكِرُوهَا وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهَا.

---

٥ ـ أن بين الكرسى والماء خمسمائة عام.

٦ ـ أن البحر الذى فوق السموات بين أسفله وأعلاه خمسمائة عام.

٧ ـ أن العرش فوق الماء.

٨ ـ أن الله تعالى فوق العرش.

٩ ـ أنه تعالى مطلع على عباده، يعلم ما هم عاملون ولا يخفى عليه شىء من ذلك. ا.هـ.

قال ابن باز[٢]: فيه الدلالة على ارتفاع هذه المخلوقات وسعة ما بينها من المسافات العظيمة، وربك الخلاق جلا وعلا فهو أعظم منها وأكبر ـ سبحانه وتعالى ـ ا.هـ.

قال القرعاوى[٣]: ١- إثبات المسافة المذكورة فى الحديث.

٢ ـ أن السموات منفصل بعضها عن بعض.

٣ ـ إثبات أن السموات أجرام لها سمك.

٤ ـ بيان مكان الماء.

٥ ـ إثبات مكان الماء.

٦ ـ إثبات صفة العلو لله سبحانه وتعالى.

٧ ـ إحاطة علم الله بكل شىء. ا.هـ.

قوله[٣]: فيه مسائل

● **الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**

قال ابن عثيمين:

وقد تقدمت من حديث ابن مسعود ، حيث أقر النبى ﷺ الحبر على أن الله يجعل السموات على إصبع . . . إلخ.

● **الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين فى زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها.**

---

(١) التعليق المفيد (٢٨٥). (٢) الجديد (٤٨٤، ٤٨٥). (٣) القول المفيد (٣/ ٣٩٠ ـ ٣٩٥).

الثالثة: أَنَّ الحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَدَّقَهُ، وَنَزَلَ القُرْآن بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ.

الرابعة: وُقُوعُ الضَّحِكِ مِنْهُ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ الحَبْرُ هَذَا العِلمَ العَظِيمَ.

الخامسة: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ اليَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمواتِ فِي اليَدِ اليُمْنَى وَالأَرْضِينَ فِي اليَدِ الأُخْرَى.

السادسة: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَتِهَا الشِّمَالَ.

السابعة: ذِكْرُ الجَبَّارِينَ وَالمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ.

كأنه يقول: إن اليهود خير من أولئك المحرفين لها، لأنهم لم يُكذبوها ولم يتأولوها، وجاء قوم من هذه الأمة ، فقالوا: ليس لله أصابع، وإن المراد بها القدرة، فكأنه يقول: اليهود خير منهم فى هذا وأعرف بالله.

● **الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبى ﷺ صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.**

ظاهر كلام المؤلف بقوله: «ونزل القرآن» أنه بعد كلام الحبر، وليس كذلك، لأنه فى حديث ابن مسعود قال: ثم قرأ قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وهذا يدل على أن الاية نزلت من قبل، لكن مراد المؤلف أن القرآن قد نزل بتقرير ذلك.

● **الرابعة: وقوع الضحك من الرسول ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.**

ففيه دليل على جواز الضحك فى تقرير الأشياء، لأن الضحك يدل على الرضا وعدم الكراهية.

● **الخامسة: التصريح بذكر اليدين ، وأن السموات فى اليد اليمنى والأرضين فى الأخرى.**

وقد ثبتت اليدان لله تعالى بالكتاب والسنة وإجماع السلف.

وقوله: «فى الأخرى» لا يعنى أنه ينفى ذكر الشمال لما ذكره فى المسألة التالية وهى:

● **السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.**

وقد سبق الكلام على ذلك.

● **السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.**

ووجه ذكرهم أنه إذا كان لهم تجبر وتكبر الآن، فليقوموا بذلك.

الثامنة: قَوْلُهُ «كَخَرْدَلَة فِى كَفِّ أَحَدِكُمْ».

التاسعة: عِظَمُ الكُرْسِى بِالنِسْبَة إِلَى السَمَوات.

العاشرة: عِظَمُ العَرْشِ بِالنِّسْبَة للكُرْسِىِّ.

الحادية عشرة: أَنَّ العَرْشَ غَيْرُ الكُرْسِىِّ، وَالمَاءِ.

الثانية عشرة: كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إلى سَمَاء.

الثالثة عشرة: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَة وَالكُرْسِىِّ.

● **الثامنة: قوله: «كخردلة فى كف أحدكم».**

يعنى بذلك قوله: ﴿**ما السماوات السبع والأرضين السبع كف الرحمن إلا كخردلة فى كف أحدكم**﴾ وفيه صحة إطلاق الكف على يد الله عز وجل - وبيان صغر المخلوقات بالنسبة للخالق.

● **التاسعة: عظم الكرسى بالنسبة إلى السماء.**

حيث ذكر أنها بالنسبة للكرسى كدراهم سبعة ألقيت فى ترس.

● **العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسى.**

لأنه جعل الكرسى كحلقة ألقيت فى فلاة من الأرض بالنسبة للعرش.

● **الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسى والماء.**

ولم أر من قال: إن العرش هو الماء، لكن هناك من قال: إن العرش هو الكرسى، لحديث: «**إن الله يضع كرسيه يوم القيامة**» وظنوا أن هذا الكرسى هو العرش.

وكذلك زعم بعض الناس أن الكرسى هو العلم، فقالوا فى قوله تعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ أى: علمه.

والصواب: أن الكرسى موضع القدمين، والعرش هو الذى استوى عليه الرحمن -سبحانه - والعلم صفة فى العالم يدرك بها المعلوم.

● **الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء.**

وهو خمسمائة عام.

● **الثالثة عشرة : كم بين السماء السابعة والكرسى.**

وهو خمسمائة عام.

الرابعة عشرة: كَمْ بَيْنَ الكُرْسيِّ وَالمَاء.

الخامسة عشرة: أَنَّ العَرْشَ فَوْقَ المَاء.

السادسة عشرة: أنَّ الله فَوْقَ العَرْشِ.

السابعة عشرة: كَمْ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ.

الثامنة عشرة: كثفُ كُلِّ سَماء خَمْسُمَائة سَنَة.

التاسعة عشرة: أَنَّ البَحْرَ الَّذى فَـوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَعْلاهُ وَأَسْفَـله مَسِيرَة خَمْسُمَائَة سنَة، والله سبْحَانَهُ وتَعالَى أَعْلَمْ.

● **الرابعة عشرة: كم بين الكرسى والماء.**

وهو خمسمائة عام.

● **الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.**

وهى ظاهرة.

● **السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.**

وهى ظاهرة.

● **السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.**

وهو خمسمائة عام.

● **الثامنة عشرة : كثف كل سماء خمسمائة سنة.**

● **التاسعة عشرة: أن البحر الذى فوق السماوات بين أسفله وأعلاه خمسمائة سنة.**

وقد سبق الكلام على جميع هذه المسائل بأدلتها، ويستفاد من أحاديث الباب :

١- أن الله لا يخفى عليه شىء من أعمال بنى آدم.

٢- التحذير من مخالفة الله - عز وجل.

والله أعلـم، والحمد لله رب العـالمين ، وصـلى الله وسلم عـلى نبـينا محـمد، وأسأل الله أن يختم لنا ولكم بالتوحيد، آمين. اهـ.



خاتمـة

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم فاغفر لى، سبحانك اللهم ربنا، وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، من كل ما وقع منى فى هذا العمل من ذلل، صغيراً كان أو جلل، فإن غفرت وسترت فذلك الأمل، وأن ألقاك غداً ربنا وأجده عندك قد قبل، فتسكنى به الظُلل ، وتلبسنى به الحلل، سبحانك فهذا فضلك تصيب به من تشاء من عبادك ، ممن صاروا إليك بين خوف ورجاء، وإن كانت الأخرى فبعدلك، فاستغفرك وأتوب إليك مما قدمت وأخرت وأسررت وأعلنت، ومما أنت أعلم به منى ، فأنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوء بنعمتك على، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

سبحانك ربنا رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

عبد المنعم إبراهيم

القاهرة / فى ربيع الأول ١٤٢٠هـ

١٩٩٩/٧/٨م

جريدة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: كتب التفسير

تفسير ابن أبى حاتم ـ المكتبة التجارية والعصرية ـ ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩م.

تفسير الطبرى ـ دار المعرفة والمطبعة الكبرى ببولاق ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

أحكام القرآن للجصاص ـ المكتبة التجارية بدون تاريخ.

معالم التنزيل للبغوى ـ دار الفكر ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

الكشاف للزمخشرى ـ دار المعرفة بدون تاريخ.

زاد المسير لابن الجوزى ـ دار الكتب العلمية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

تفسير الفخر الرازى ـ المكتبة التجارية ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

تفسير القرطبى ـ الريان بدون تاريخ.

تفسير ابن كثير ـ الشعب ـ الإيمان ـ وغيرهما بدون تاريخ.

الدر المنثور للسيوطى ـ دار الكتب العلمية ـ دار الفكر ١٩٩٣م/ ١٤١٤هـ.

فتح القدير للشوكانى ـ دار الوفاء ـ ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

تيسير الكريم الرحمن للسعدى ـ نزار الباز.

فى ظلال القرآن لسيد قطب ـ دار الشروق ١٩٨٧م ـ ١٤٠٧هـ.

أضواء البيان للشنقيطى ـ دار الكتب العلمية.

إعراب القرآن لمحيى الدين درويش.

تفسير عبدالرزاق ـ دار المعرفة ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

تفسير النسائى ـ مكتبة السنة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

ـ «النكت» المتممة على مقدمة التفسير لابن تيمية للمؤلف.

ـ «علوم القرآن»/ محمد سالم وصلاح الصاوى ـ الجامعة الأمريكية المفتوحة.

- «الإتقان» للسيوطي - بتخريجنا - طبعة نزار الباز ١٤١٧هـ

- «البرهان» للزركشي - طبعة دار التراث بدون تاريخ.

- «عمدة التفسير» لمحمود شاكر.

- حاشية محمد العليان الشافعي على الكشاف.

ثالثاً: كتب الحديث وشروحها

- الموطأ لمالك بن أنس - دار الحديث ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

- مسند الحميدي - دار الكتب العلمية ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.

- مسند أحمد بن حنبل - دار الفكر بدون تاريخ.

- مسند ابن حميد - مكتبة ابن حجر مكة المكرمة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- سنن الدارمي - دار الكتب العلمية بدون تاريخ.

- صحيح البخاري مع الفتح - الريان ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

- الأدب المفرد للبخاري - دار الصديق ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

- خلق أفعال العباد للبخاري - مكتبة التراث الإسلامي بدون تاريخ.

- صحيح مسلم بالنووي - الحديث ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، وطبعة الريان.

- سنن أبي داود مع عون المعبود - دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ ١٩٩٠م دار الفكر ١٣٣٨هـ ١٩٦٨م.

- سنن الترمذي مع تحفة الأحوزي - دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

- الشمائل للترمذي - مؤسسة الكتب الثقافية ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

- الزوائد لعبدالله بن أحمد بن حنبل - دار الفكر بدون تاريخ.

- سنن النسائي - دار الكتب العلمية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

- صحيح ابن خزيمة - المكتب الإسلامي ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

- دلائل النبوة للبيهقي - دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- شرح السنة للبغوي - المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- الترغيب والترهيب للمنذري - دار الريان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- المستدرك للحاكم - دار الكتب العلمية ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- مجمع الزوائد للهيثمي - دار الكتاب العربي ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- المعجم الكبير للطبراني والأوسط - دار الحرمين ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- الموضوعات لابن الجوزي - دار الفكر ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي - دار ابن الجوزي ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر - دار الفتح بدون تاريخ.
- صحيح ابن حبان - مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- مسند أبي يعلى - دار القبلة للثقافة - مؤسسة علوم القرآن ١٤٠٨هـ ١٩٨٨.
- شعب الإيمان للبيهقي - دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- مصنف عبدالرزاق - المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- الحلية لأبي نعيم - دار الكتب العلمية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- ضعيف الجامع الصغير للالباني - المكتب الإسلامي ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- مصنف ابن أبي شيبة - دار الفكر ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- المطالب العالية - لابن حجر - طبعة دار المعرفة.
- معالم السنن/ للخطابي - طبعة دار الكتب العلمية (١٤١١هـ).
- «شرح معاني الآثار» للطحاوي - طبعة دار الكتب العلمية (١٤٠٧هـ).
- نزهة النظر. لابن حجر - طبعة دار ابن الجوزي، وبتخريجنا أيضاً.
- عمل اليوم والليلة - لابن السني - دار البيان (١٤٠٧هـ).
- «المنتقى» لابن الجارود - طبعة دار القلم (١٤٠٧هـ).
- «الهداية شرح الغاية» للسخاوي - مخطوطة، يسر الله طبعه بتخريجنا.
-«سنن الدارقطني» - طبعة السيد عبدالله هاشم ١٣٨٦هـ.
- «شرح العلل» لابن رجب - عالم الكتب (١٤٠٥هـ).
- «أخلاق النبي» لأبي الشيخ - الدار المصرية اللبنانية ١٤١١هـ.
- «السنة» لابن أبي عاصم - طبعة المكتب الإسلامي ١٤٠٠هـ.

- «المقاصد الحسنة» للسخاوى ـ طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ.
- «تلخيص الجبير» لابن حجر ـ طبعة السيد عبدالله هاشم. ١٣٨٤هـ
- «السلسلة الصحيحة» ـ للألبانى. طبعة المكتب الإسلامى ـ والمعارف.
- «السلسلة الضعيفة» ـ للألبانى طبعة المكتب الإسلامى ـ والمعارف ١٤٠٨هـ.
- «قواعد التحديث» للقاسمى ـ طبعة دار الكتب العلمية بدون تاريخ.
- «شرح البيقونية» ـ بتحقيقنا ـ طبعة نزار الباز.
- «فردوس الأخبار» للديلمى ـ طبعة الريان.
- «التأصيل لأصول التخريج لبكر أبى زيد.

رابعاً: كتب العقيدة

- تيسير العزيز الحميد سليمان آل الشيخ ـ دارالفكر ١٤١٢هـ.
- فتح المجيد عبدالرحمن آل الشيخ ـ مؤسسة قرطبة ١٤١٢هـ وطبعات أخرى.
- فتح الله الحميد المجيد حامد بن حسن ـ الرسالة ١٤١٧هـ.
- قرة عيون الموحدين ـ عبدالرحمن آل الشيخ ـ الأسدى بدون تاريخ.
- القول السديد ـ ناصر السعدى ـ الجامعة الإسلامية.
- القول المفيد ـ ابن عثيمين ـ دار ابن الجوزى ١٤١٨.
- فضل الغنى الحميد ـ ياسر برهامى ـ دار الإيمان.
- الجامع الفريد ـ عبدالله بن جار الله ـ مؤسسة قرطبة ١٤٠٨هـ.
- الجديد ـ القرعاوى ـ السوادى ١٤١٧هـ.
- كتاب التوحيد ـ محمد بن عبدالوهاب
- كتاب التوحيد لابن خزيمة
- الصارم المسلول ـ ابن تيمية ـ طبعة محى الدين عبدالحميد ١٤٠٠هـ.
- أصول الإيمان ـ صلاح الصاوى الجامعة الأمريكية.
- شرح العقيدة الطحاوية ـ ابن أبى العز الحنفى ط الرسالة ١٤١٨هـ.
- العقيدة الواسطية ـ ابن تيمية.

ـ مجموع الفتاوى ـ ابن عثيمين ـ دار الثريا ـ ١٤١٤هـ.
ـ القواعد المثلى ـ ابن عثيمين نزار الباز بتحقيقنا.
ـ الإيمان ـ ابن تيمية ـ مكتبة النهضة الإسلامية بتحقيق هراس.
ـ معارج القبول ـ حافظ حكمى ـ دار الكتب العلمية بدون تاريخ.
ـ شفاء العليل ـ ابن القيم
ـ التعليق المفيد ـ ابن باز ـ مكتبةالتراث الإسلامى.
ـ الدعوة إلى الله ـ ابن باز ـ وقف لله تعالي.
ـ التمائم والرقى ـ على بن نفيع العليانى طبعة أنصار السنة.
ـ التبرك المشروع والتبرك الممنوع ـ على بن نقيع العليانى طبعة أنصار السنة.
ـ الشفاعة ـ محمد بن مقبل الوادعى ـ الحرمين.
ـ التوسل والوسيلة ـ الألبانى ـ المكتب الإسلامى.
ـ تحذير الساجد ـ للألبانى ـ المكتب الإسلامى الطبعة الرابعة ـ ١٤٠٣هـ.
ـ مجموعة التوحيد ـ لمحمد بن عبدالوهاب.
ـ اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية.
ـ تطهير الاعتقاد/ للصنعانى.
ـ كشف الشبهات ـ بتخريجنا.
ـ تهذيب مدارج السالكين.
ـ الولاء والبراء.

خامساً: كتب الفقه، وأصوله

ـ «موطأ مالك» ـ دار الحديث ١٤١٣هـ.
ـ «الأم» للشافعى ـ طبعة الشعب بدون تاريخ.
ـ «المغنى» لابن قدامة ـ طبعة دار الفكر بدون تاريخ.
ـ «إيضاح الإيضاح بكلام الحنابلة الملاح»/ للمؤلف ـ طبعة نزار الباز ١٤١٩هـ.
ـ «المحلى» لابن حزم ـ طبعة دار التراث بدون تاريخ.

- «نيل الأوطار» للشوكاني ـ دار الحديث ١٤١٣هـ.

- «المبدع» لابن مفلح ـ طبعة المكتب الإسلامى ١٤٠٠هـ.

- «العمدة» لابن قدامة ـ ط مكتبة الإيمان ١٤٠٨هـ.

- «منار السبيل» بتخريجنا ـ طبعة نزار الباز المكتبة التجارية ١٤١٦هـ.

- «السلسبيل» بتخريجنا ـ طبعة نزار الباز المكتبة التجارية ١٤١٧هـ.

- «قفو الأثر شرح بلوغ المرام» لابن حجر، تأليفنا نزار الباز المكتبة التجارية ١٤٢٠هـ.

- «تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد» للعراقى، بتخريجنا نزار الباز المكتبة التجارية ١٤١٩هـ.

- «زاد المعاد» جمعيةإحياء التراث الإسلامى ـ بدون تاريخ.

- «الشرح الممتع» لابن عثيمين/ طبعة مؤسسة آسام ١٤١٦هـ.

- «إرشاد الفحول» للشوكاني/ طبعة دار الكتب ١٤١٢هـ.

- «الإحكام للآمدى بتخريجنا ـ ولابن حزم أيضاً ـ دار الحديث بدون تاريخ.

- «المستصفى» للغزالى ـ طبعة دار التاريخ العربي الطبقة الثالثة ١٤١٤هـ.

- «حاشية على شرح الورقات» للمؤلف ـ طبعة نزار الباز (المكتبة التجارية) ١٤١٧هـ.

سادساً: كتب التراجم والرجال

- «تهذيب الكمال» للمزى ـ طبعة الرسالة (١٤١٣هـ).

- «تهذيب التهذيب» لابن حجر ـ طبعة دار الفكر (١٤١٥هـ).

- «الكامل» لابن عدى ـ طبعة دار الفكر (١٤٠٩هـ).

- «الإصابة» لابن حجر ـ طبعة دار الكتاب العربى بدون تاريخ.

- «أسد الغابة» لابن الأثير ـ طبعة الشعب بدون تاريخ.

- «الجرح والتعديل» لابن أبى حاتم ـ طبعة دار إحياء التراث العربى.

- «الميزان» للذهبى ـ طبعة المعرفة بدون تاريخ.

- «الضعفاء الكبير» للعقيلى ـ طبعة دار الكتب العلمية.

- «التاريخ الكبير» للبخارى - طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ.

- «تاريخ دمشق» لابن عساكر - طبعة دار الفكر ١٤٠٥هـ.

سابعاً: كتب متنوعة

- فقه الخطابة وزاد الخطيب - مكتبة الإيمان.

- جلاء الأفهام - المتنبى بدون تاريخ.

- النظر الفسيح عند مضايق الأنظار فى الجامع الصحيح للطاهر عاشور نقلاً عن التأصيل لبكر أبى زيد.

- النهاية في غريب الحديث - لابن الأثير - دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ.

- حجبة السنة للحسين شواط - ط الجامعة الأمريكية المفتوحة.

- مفاهيم ينبغى أن تصحح - الشروق.

- الثوابت والمتغيرات.

مفتاح دار السعادة ابن القيم مكتبة حميدو - الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ.

- الطب النبوى للذهبى بتحقيقنا - نزار الباز ١٤١٧هـ.

- إحياء علوم الدين الغزالى ط المكتبة التجارية - الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى/ عياض - دار التراث المطبعة القديمة.

- الكبائر - رياض الحديث - ١٢٩١هـ.

- لطائف المعارف - نزار الباز بتحقيقنا ١٤١٨هـ.

- إغاثة اللهفان لابن القيم.

- الزهد لابن المبارك ط دار ابن خلدون.

- السيرة لابن هشام - دار التراث بدون تاريخ.

- الوصية الكبرى لابن تيمية.

- فتاوى ابن باز.

- مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢٥ عام ١٤٠٩هـ ص ٤٠.

- الجواب الكافى لابن القيم.

- أصول الدعوة لعبدالكريم زيدان.

- الأذكار للنووى - مكتبة نزار الباز بتحقيقنا ١٤١٧هـ.

- عصمة الأنبياء لمحمد الخضر بن الناجى.

- جامع العلوم والحكم لابن رجب/ نزار الباز بتحقيقنا ١٤١٨هـ

- إعلام الموقعين - لابن القيم ط دار الفكر ١٣٧٣هـ.

- مدارج السالكين - ابن القيم - دار الحديث بدون تاريخ.

- رسالة تحكيم القوانين - محمد بن إبراهيم.

- تيسير التحرير

- مختصر ابن الحاجب مع شر العضد.

- رفع الملام عن الأئمة الأعلام - لابن تيمية مكتبة التراث ١٩٨٨هـ.

- مسائل الجاهلية بشرح محمود شكرى الألوسى.

- منهاج السنة لابن تيمية.

فهرس
المجلد الأول
من كتاب مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

فهرس
المجلد الثانى
من كتاب مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
	- ذكر الاختلاف فى قوله لايسترقون والراجح من ذلك	٤٧٠
	- كيف نجمع بين دليل حصين «لارقية إلا من عين» وبين قول النبى ﷺ «لايسترقون»	٤٧٥
	- متى لايتنافى الاسترقاء مع كمال التوكل	٤٧٦
	- قوله: «لا يكتوون»	٤٧٦
	- علاقة الكى والرقى بالطيرة	٤٨٣
	- قوله: «ولايتطيرون»	٤٨٤
	- قوله: «وعلى ربهم يتوكلون»	٤٨٨
	- درجات التوكل	٤٨٨
	- فائدة فى ذكر التوكل بعد الصفات المتقدمة	٤٩٢
	- إشكال وجوابه	٤٩٣
	- قوله: «سبعون ألف» هل هذه بشارة أم نذارة	٤٩٣
	- مسألة: لماذا لم يذكر الرسول ﷺ هذه الزيادة ابتداءً، وذكر هذه البشارة بعد هذا التدرج وهذه المرحلية؟	٤٩٦
	- شبهات تشتبه بالتوكل	٤٩٩
	- الحكمة فى قوله ﷺ سبقك بها عكاشة	٥٠٤
	■ المسائل	٥٠٥
٣	■ **باب: الخوف من الشرك**	٥١٣
	- مناسبة هذا الباب للبابين قبله	٥١٣
	- لماذا أتى المصنف بهذا الباب بعد الأبواب السابقة؟	٥١٣
	- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد	٥١٤
	- شرح الترجمة	٥١٦
	■ الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك﴾	٥١٧
	- مناسبة الآية للباب	٥١٧
	- الإعراب	٥١٨
	- تفسير الآية بالقرآن	٥١٨

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب | الموضوع | رقم الصفحة

فهرس
المجلد الثالث
من كتاب مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

فهرس
المجلد الرابع
من كتاب مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
	■ **الآية الأولى**: وقول الله ـ عزوجل ـ ﴿**يا أهل الكتاب لاتغلو في دينكم..**﴾	١٤٨١
	ـ مناسبة الآية للباب وللتوحيد	١٤٨١
	ـ الإعراب	١٤٨١
	ـ ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب التوحيد	١٤٨٣
	■ **الحديث الأول**: وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿**وقالوا لاتذرن آلهتكم..**﴾ قال: «**هذه أسماء رجال صالحين...**»	١٥٠٥
	ـ مناسبة الآية للباب وللتوحيد	١٥٠٥
	■ **الحديث الثاني**: قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والغلو فإنما هلك من كان...**»	١٥١٣
	ـ أقسام الناس في العبادة	١٥١٧
	■ **الحديث الثالث**: ولمسلم عن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «**هلك المتنطعون...**»	١٥١٩
	■ **المسائل**	١٥٢١
١٩	■ ■ **باب: ما جاء في التغليظ فيمن عبدالله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟**	١٥٣٣
	ـ مناسبة هذا الباب للذي قبله، وللتوحيد	١٥٣٣
	ـ شرح الترجمة	١٥٣٤
	■ **الحديث الأول**: وفي الصحيح عن عائشة، أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «**أولائك إذا مات...**»	١٥٣٦
	ـ مناسبة الحديث للباب وللتوحيد	١٥٣٧
	ـ شرح الحديث	١٥٣٧
	■ **الحديث الثاني**: ولهما عنها، قالت: «**لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة...**»	١٥٤٥
	ـ إشكالات والرد عليها	١٥٤٨
	ـ معنى اتخاذ القبور مساجد	١٥٤٩

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

فهرس
المجلد الخامس
من كتاب مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
	ـ مناسبة الحديث للتوحيد	١٨٣٤
	ـ شرح الحديث	١٨٣٤
	■ **الحديث الثاني**: عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من اقتبس شعبة من النجوم...»**	١٨٤٣
	ـ مناسبة الحديث للباب	١٨٤٣
	ـ وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف	١٨٤٣
	ـ مناسبة الحديث للتوحيد	١٨٤٣
	ـ علم النجوم ينقسم إلى قسمين	١٨٤٦
	ـ مسألة فى حكم صناعة التنجيم، والأجرة عليها. . ؟	١٨٤٧
	■ **الحديث الثالث**: وللنسائى من حديث أبى هريرة: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر. . .»	١٨٤٩
	ـ مناسبة الحديث للباب	١٨٤٩
	ـ مناسبة الحديث لكتاب التوحيد	١٨٤٩
	ـ شرح الحديث	١٨٤٩
	■ **الحديث الرابع**: قال: وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا هل أنبئكم ما العضه؟...»**	١٨٥٢
	ـ مناسبة الحديث للباب	١٨٥٢
	ـ شرح الحديث	١٨٥٣
	■ **الحديث الخامس**: ولهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من البيان لسحراً»**	١٨٥٥
	ـ مناسبة الحديث للباب	١٨٥٥
	ـ شرح الحديث	١٨٥٥
	■ **المسائل**	١٨٥٨
	■ ■ **باب: ما جاء فى الكهان ونحوهم**	١٨٦٠
٢٥	ـ مناسبة هذا الباب لما قبله	١٨٦٠
	ـ مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد	١٨٦٠
	ـ تعريف الكهانة، والكهان، والكاهن	١٨٦١
	ـ مسألة هل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس؟	١٨٦٢

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
	ـ قال البغوى العراف: الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات. . . »	١٨٨٨
	■ **الأثر الثالث:** وقال ابن عباس فى قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون فى النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق	١٨٩٤
	ـ فصل ما جاء فى أجر الكاهن والرمال والعراف والمنجم والضارب بالحصى	١٨٩٨
	■ **المسائل**	١٨٩٨
٢٦	■ ■ **باب: ما جاء في النشرة**	١٩٠٠
	– مناسبة هذا الباب لما قبله	١٩٠٠
	– مناسبة الباب لكتاب التوحيد	١٩٠٠
	– شرح الترجمة والتبويب	١٩٠١
	– تعريف النشرة	١٩٠١
	■ **الحديث الأول:** عن جابر ، أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة ، فقال: **(هي من عمل الشيطان)**	١٩٠٢
	– مناسبة الحديث للباب	١٩٠٣
	– مناسبة الحديث للتوحيد	١٩٠٣
	– شرح الحديث	١٩٠٣
	– إشكال: إذا كان الإمام أحمد هو راوي الحديث نفسه أن النشرة من عمل الشيطان ، فكيف لم يكن عنده دليل؟	١٩٠٧
	■ **الأثر الأول:** وفي «البخاري» عن قتادة: «قلت لابن المسيب رجل به طب»	١٩٠٨
	– مناسبة الأثر للباب	١٩٠٩
	– شرح الأثر	١٩٠٩
	– صفة النشرة	١٩١٣
	■ **الأثر الثانى:** وروى عن الحسن أنه قال: «لا يحل السحر إلا ساحر»	١٩١٥

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

فهرس
المجلد السادس
من كتاب مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
	-شرح الحديث	٢١٢٢
	- من فوائد الحديث	٢١٢٦
	- ما يستفاد من الحديث	٢١٢٧
	■ **الحديث الثاني**: ولهما عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»**	٢١٢٩
	- مناسبة الحديث للباب	٢١٣٠
	- مناسبة الحديث للتوحيد	٢١٣٠
	- شرح الحديث	٢١٣٠
	- معنى حلاوة الإيمان	٢١٣١
	- فائدة	٢١٣٣
	- إشكال وجوابه	٢١٣٤
	- فوائد الحديث	٢١٣٩
	■ **الأثر الأول**: وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «من أحب فى الله وأبغض فى الله»	٢١٤٠
	- مناسبة هذا الأثر للباب وللتوحيد	٢١٤٠
	- شرح الأثر	٢١٤٠
	- فوائد الأثر	٢١٤٦
	■ **الأثر الثانى**: وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿**وتقطعت بهم الأسباب**﴾ قال المودة	٢١٤٧
	■ مناسبة تفسير ابن عباس للباب وللتوحيد	٢١٤٧
	- شرح الأثر	٢١٤٨
	■ **المسائل**	٢١٤٩
٣١	■ ■ **باب قول الله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾**	٢١٥٣
	- مناسبة الباب لما قبله	٢١٥٣
	- مناسبة الباب للتوحيد	٢١٥٣
	- ماذا أراد المصنف بهذا الباب	٢١٥٣
	- بيان منزلة الخوف وأنه من أعظم مقامات الدين	٢١٥٤
	- أقسام الخوف ودرجاته	٢١٥٥

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب | الموضوع | رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

فهرس
المجلد السابع
من كتاب مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
	- شرح الأثر	٢٦٠٤
	■ **الأثر الثاني**: وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: «أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ.......»	٢٦٠٨
	- مناسبة الأثر للباب وللتوحيد	٢٦٠٨
	- شرح الأثر	٢٦٠٨
	- ذكر ما ورد عن علماء السلف في المتشابه	٢٦١٧
	■ **الأثر الثالث**: ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ ذكر الرحمة أنكروا ذلك»	٢٦١٩
	- مناسبة الأثر للباب وللتوحيد	٢٦١٩
	■ **المسائل**	٢٦٢٠
٤٠	■ **باب: قوله تعالى ﴿يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها﴾**	٢٦٢٢
	- مناسبة الباب لما قبله	٢٦٢٢
	- مناسبة هذا الباب للتوحيد	٢٦٢٢
	- شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب	٢٦٢٣
	■ **الآية الأولى**: قوله ﴿**يعرفون نعمت الله**﴾	٢٦٢٣
	- مناسبة الآية للباب	٢٦٢٤
	- مناسبة الآية للتوحيد	٢٦٢٤
	- الإعراب	٢٦٢٤
	- ماجاء في الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب التوحيد	٢٦٢٦
	■ **الأثر الأول**: قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل: هذا مالي»	٢٦٢٩
	- مناسبة الأثر للباب	٢٦٢٩
	- مناسبة الأثر للتوحيد	٢٦٢٩
	- شرح الأثر	٢٦٢٩
	■ **الأثر الثاني**: وقال عون بن عبد الله «يقولون: لولا فلان، لم يكن كذا»	٢٦٣١
	- مناسبة الأثر للباب	٢٦٣١

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
	- شرح الأثر	٢٦٣٢
	■ **الأثر الثالث**: وقال ابن قتيبة: «يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا»	٢٦٣٣
	- مناسبة الأثر للباب	٢٦٣٣
	- شرح الأثر	٢٦٣٣
	■ **الأثر الرابع: قوله: وقال أبو العباسى**	٢٦٣٤
	- مناسبة الأثر للباب والتوحيد	٢٦٣٤
	- شرح الأثر	٢٦٣٤
	■ المسائل	٢٦٣٦
٤١	■ **باب: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾**	٢٦٣٧
	- مناسبة الباب لما قبله	٢٦٣٧
	- مناسبة الباب لكتاب التوحيد	٢٦٣٧
	- ماذا أراد المصنف بهذا الباب	٢٦٣٩
	- الإعراب	٢٦٤٠
	- ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب التوحيد	٢٦٤٢
	- فائدة لغوية	٢٦٤٤
	- إشكال وجوابه	٢٦٤٨
	- فائدة جليلة	٢٦٤٨
	■ **الأثر الأول**: وقال ابن عباس فى الآية «الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل....»	٢٦٤٩
	- مناسبة الأثر للباب وللتوحيد	٢٦٤٩
	- شرح الأثر	٢٦٥٠
	■ **الحديث الأول**: عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك..**»	٢٦٥٤
	- مناسبة ورود الحديث	٢٦٥٧
	- أنواع الأيمان، وحكم الحلف بغير الله	٢٦٥٧
	- شرح الحديث	٢٦٥٨

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
	- مناسبة الحديث للتوحيد	٢٧٤٨
	- شرح الحديث	٢٧٤٨
	■ الأثر الأول: قال سفيان: «مثل شاهان شاه»	٢٧٥١
	- تحريم التسمي بملك الملوك وما أدى معناه بأي لسان كان	٢٧٥١
	- شرح الأثر	٢٧٥١
	- تحريم التسمي بملك الملوك ومافي معناه مثل أحكم الحاكمين	٢٧٥٢
	- نوادر سلفية ومواقف مع من تسمى بهذا الاسم	٢٧٥٣
	■ المسائل	٢٧٥٥
٤٦	■ ■ باب احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك	٢٧٥٧
	- مناسبة هذا الباب لما قبله	٢٧٥٧
	- مناسبة الباب للتوحيد	٢٧٥٧
	- ماذا أراد المصنف بهذا الباب	٢٧٥٧
	- تمهيد	٢٧٥٧
	- شرح الترجمة	٢٧٦٠
	■ الحديث الأول: عن أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم فقال له النبي ﷺ «إن الله هو الحكم...»	٢٧٦٣
	- مناسبة الحديث للباب	٢٧٦٤
	- مناسبة الحديث للتوحيد	٢٧٦٤
	- شرح الحديث	٢٧٦٤
	- فوائد الحديث	٢٧٦٨
	- تنبيه	٢٧٦٩
	■ المسائل	٢٧٧٠
٤٧	■ ■ باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول	٢٧٧١
	- مناسبة هذا الباب لما قبله	٢٧٧١
	- شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد	٢٧٧١

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

فهرس
المجلد الثامن
من كتاب مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الباب

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة